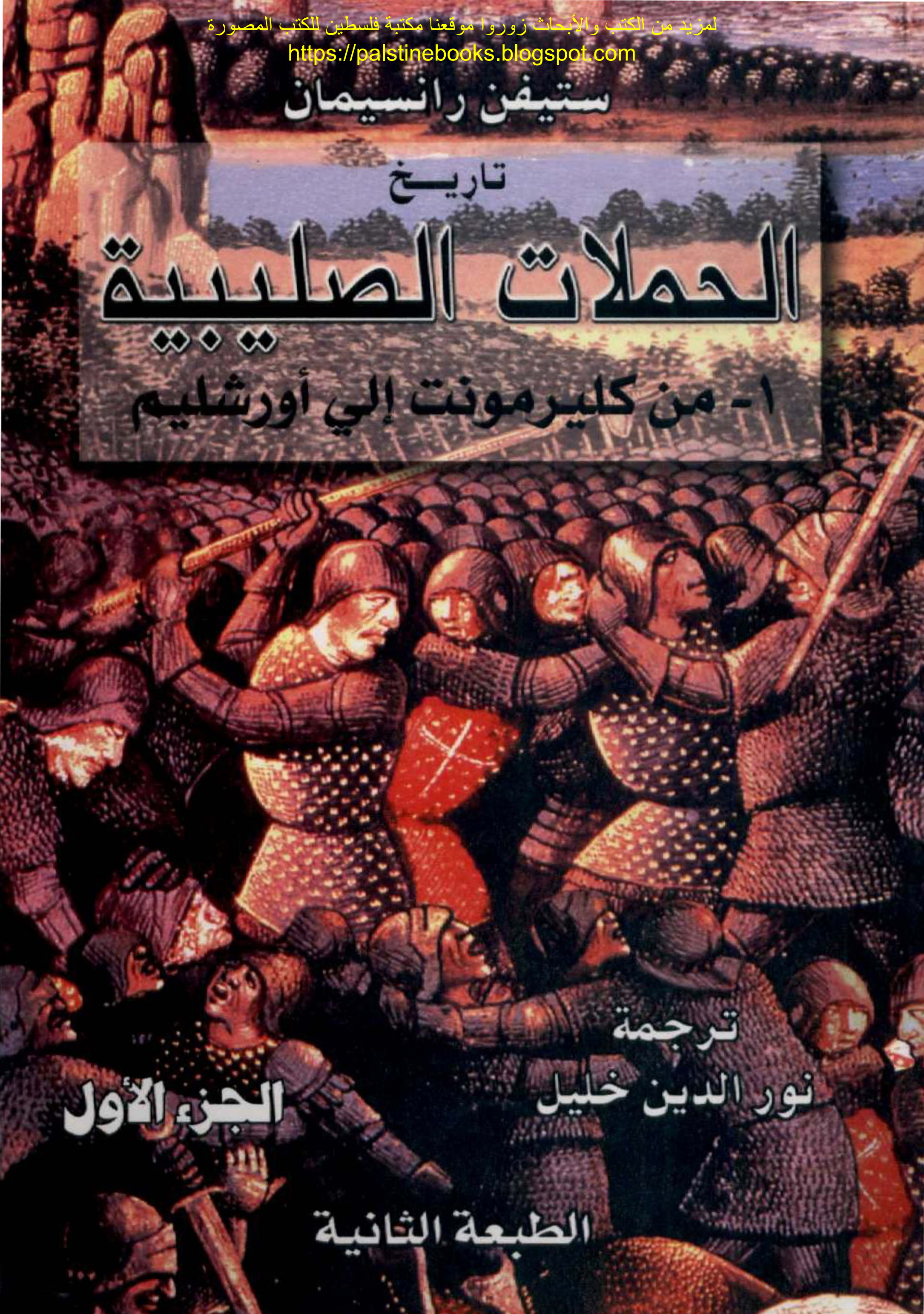

ستيفن رانسيمان
تاريخ
الحملات الصليبية
١ - من كليرمونت إلي أورشليم
ترجمة
نور الدين خليل
الجزء الأول
الطبعة الثانية

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى أورشليم

ترجمة

نور الدين خليل

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى: ١٩٩٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى أورشليم

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الباب الثاني: التبشير بالحرب الصليبية

الباب الثالث: الرحلة إلى الحرب

ثبت الخرائط

مقدمة الطبعة الثانية

تحية وتقدير ..

أولا : للمؤلف " ستيفن رانسيمان " وهو نموذج فريد في عصره ...

كان جزاء كلمة الحق لوم اللائمين من بني جلدته أصحاب الحضارة المدعين !

وقد أشار هو نفسه إلي ذلك في تقديمه للجزء الثالث ...

وثانيا : لرفيق الحياة والدراسة أخي الأستاذ محمود آدم

الذي صاحبني في هذه الرحلة الصليبية من ألفها إلي يائها ...

وكان له من سديد الرأي ، وثاقب النظرة ، وعمق البصيرة ، ما أعان علي هذه الترجمة ومراجعتها والتقديم لها ...

وصدق أحمد فارس الشيدياق حين قال :

ومن فاته التعريب لم يدر ما العنا ولم يصل نار الحرب إلا المحارب

وثالثاً : لأهلنا في العراق ...

وهم يواجهون الصليبيين الجدد ، أصحاب الحضارة المدعين !!!

في أحدث وأشرس الحملات الصليبية ..." **الحملة الصليبية الأمريكية** " ... !!!

ورابعا : لرجال لم يوجدوا في عالمنا بعد ...

لكنهم قادمون ... والله سوف يجيئون !! ......

يسيرون علي درب أسلافهم ... نور الدين زنكي ، وشيركوه ، وصلاح الدين ...

وإن طال الزمان ... سيأتون !!

والله سبحانه وتعالي من وراء القصد وهو ولي التوفيق !!!

الإسكندرية في ١٠ رمضان ١٤١٩ هـ — المترجم

٢٩ ديسمبر ١٩٩٨ م

مقدمة الطبعة الأولى

التاريخ والتأريخ

يقصد بالتأريخ على الإجمال تلك الفروع التي تتناول منـــاهج كتابــة التـــاريخ وطرائق البحث التاريخي التي تنتهي بنا إلى ما يتعارف على تسميته بـــ"التاريخ".

وللتاريخ تراث تطور عبر ثقافات متنوعة تسبق عالمنا الحديث. ففي اليونان وروما كانت كتابة التاريخ تعتبر فرعا من فروع الأدب، وكان تقييم الأعمال التاريخية يعتمد على أسس تولي مزاياها الدرامية والأسلوبية أهمية لا تقل عما توليه للدقة التي يفـــترض أن تتميز بها تلك الأعمال. وفي العصور الوسطى اهتم التأريخ المســـيحي في أوروبـــا بإضفاء قيمة خاصة على "التأثير الإلهـــي" في شـــؤون البشر. وتميـــز عصر النهضـــة

بشغفه بالعصور القديمة ووثنيتها، وأدى ذلك فيما بعد إلى تطور الدراسات (التاريخية القديمة والقائمة على فقه اللغة، وإلى محاولة التركيز على الأسلوب؛ ثم بدأ الوعي يتجه تدريجياً إلى عملية التغير التاريخي. وعند بداية القرن التاسع عشر ظهر التأريخ كفرع مستقل يتناوله الأكاديميون المحترفون.

على أن من يتطلع لما يدور حوله في عالمنا المعاصر يتيسر له أن يستخلص أن التاريخ لا يمكن بأية حال أن يكون سهل المتناول. فعالمنا الحديث، وإن غدا عالماً صغيراً يسهل فيه الاتصال، على نحو لم يكن متحققاً فيما مضى، يحار المرء فيه حيال ما يتناهى إلى أسماعه من هنا ومن هناك، ولا يكاد يستطيع أن يفرق بين غث وسمين برغم ما يتاح الآن من أداة علمية لا شك في كونها قادرة. وإن شئنا أن نمثل لذلك فإننا نشير إلى المدرستين اللتين تولتا التأريخ للحرب العالمية الثانية. فالمدرسة الشرقية، ونعني بها المدرسة الروسية، تنحو نحواً؛ والمدرسة الغربية، ونعني بها الاتجاهين السائدين في غرب أوروبا والولايات المتحدة، تنحو نحواً آخر يغاير الاتجاه الشرقي، وذلك برغم أن الشرق والغرب اللذين نشير إليهما كانا حليفين في الحرب يستجمعان قواهما ضد قوة ثالثة تمثلت في دول المحور التي هُزمت في نهاية المطاف ولم يُقدّر لها أن تؤرخ لنفسها ومن ثم غابت مدرسة ثالثة كان يمكن أن تعطينا تاريخاً يغاير اتجاهه الاتجاهات التي اتخذتها مدرستا الشرق والغرب. ويُستخلص من ذلك أن اتفاق الهدف بين الشرق والغرب في القضاء على هتلر لم يكن ليؤثر في اختلاف المصالح من ناحية، وفي تباين الانتماء الأيديولوجي من ناحية أخرى.

وليس ثمة شك في أن الشرق والغرب كانا يستهدفان أن يقضي كل منهما على الآخر بأن يحقق أيهما نصراً سياسياً يؤدي إلى تسيّد الأيديولوجية التي ينادي بها. ولعلنا نرى الغرب في هذا العقد الأخير من القرن العشرين وقد أوشك أن يحقق نجاحاً

في إزاغة المذهب الشيوعي الذي ظل أصحابه لما يناهز سبعين عاماً يدّعون أنهم أصحاب عقيدة لابد لها من أن تسيطر على أرجاء العالم كله في نهاية الأمر . و لم نكن النظر فيما سجلته من تاريخ عبر السنوات السبعين التي خلت. ومن ثم يجد المرء نفسه محيّراً إزاء "تواريخ" يكتبها الناسُ عن الناس أو يكتبها الناسُ عن أنفسهم.

وهذا يعني أن عالماً شبّت أداة بحثه عن طوقها، وبلغت قدرته رشدها، يجاوز في محاولته التأريخ الرشدَ إلى غّي لم يكن ينبغي له إذا التزم الإنسان الأمانة والحيدة وحاول أن ينصف نفسه وينتصف لغيره، ذلك إذا أردنا التعميم. وإن شئنا أن نضيّق النظرة فأحلْناها فيما يدور في العالم الثالث، أو ما يعن للغرب أن يسميه عالماً ثالثاً، فإننا نرى أن تعاقب أنظمة الحكم في بعض تلك الدول يتيح لنا أن نقرأ تواريخ متباينة تختلف من نظام إلى نظام في الدولة الواحدة.

والغريب في ذلك أن أبناء تلك الدولة يعيشون تاريخها في ظل نظام، وتمتد بهم الأيام ليعيشوا تاريخها في ظل نظام آخر فإذاه يعرض عليهم وعلى عقول أبنائهم تاريخاً يختلف أو يكاد يختلف تماماً عما سبق أن رأوه أو عايشوه.

وخلاصة القول في هذه المسألة أن التاريخ الحقيقي على عمومه يكاد يكون مغيَّباً ولابد للباحثين، معاصرين كانوا أو لاحقين، من أن يضربوا في تلك المتاهات محاولين أن يخرجوا منها بما يقارب اليقين. وهذا بدوره قريب من المستحيل، فالإنسان هو الإنسان، لا يستطيع في أية حال أن يبلغ كمالا وإن حاول. فبغرض اكتمال قدرته واستقامة أداته تبقى حَيدته أمراً صعب المنال، فهو ابن حضارته يلتزم بعقيدته ولا يكاد يستطيع أن يغفل انتماءه بالوعي حينا وباللاوعي حينا آخر.

على أننا لا نبلغ في ذلك مبلغ اليأس كله، فالإنسانية عبر تاريخها أنجبت قلة من أولئك الأفذاذ الذين ألجأتهم عبقريتهم إلى التزام مقتضيات العقل والمنطق وما ينبغي أن يكون فيما يحاولونه من عطاء في شتى أوجه المعرفة. وهناك من المؤرخين الذين اجتهدوا

جهدهم من يصدق عليهم ذلك؛ وإن كان هذا الجانب المشرق الذي تتحقق فيه غاية الرحمن من خلق الإنسان ما يشوبه من مآخذ تفرضها غلبة الكثرة الضالة على القِلة المميِّزة. ولعلنا نذكر في هذا الصدد واحداً من أعظم المؤرخين، وهو ادوارد جيبون، الذي أرّخ للإمبراطورية الرومانية فأعطى للبشرية صورة رائعة لما يمكن أن يبلغه جهد الباحث المدقق، في حيدة وأمانة، من انجاز لا يستطيع أصحاب الهوى التصدي له مهما أوتوا من قدرة. ويكفي أن نشير إلى أنه أنفق ثلاثة وعشرين عاماً مذ بدأ يفكر في كتابة تاريخه الشهير "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" وإلى أن انتهى منه، وأن نشير إلى أن هذا "التاريخ" الذي لم يكتب جيبون سواه أقام الدنيا وأثار ثورتها ووضعته الكنيسة الكاثوليكية على رأس قائمة الكتب المحظورة، وما يزال باحثوا الغرب حتى يومنا هذا يحاولون النيل من هذا العمل دون طائل.

الحاجة الماسة إلى مدرسة تأريخ عربية

إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية في تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه في سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن يؤرخوا لأنفسهم، وألاّ يتركوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية في قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً يجنح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وآذنت بانقضائه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغي أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفي كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع

الأيام عن الجادّة التي أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، فآل أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أداهم وضاقت آفاقهم فأصبحوا يعوّلون على من لا يبغون إلاّ مضرهم وإذلالهم. ولكم تستشعر العقلية العربية والإسلامية القادرة في يومنا هذا الخزي كل الخزي وهي ترى أن علماءنا قد حيل بينهم وبين ينابيع الثقافة الإسلامية الأصيلة، وهي ثرّة وفيرة، فاتخذوا في غالب الأمر دروباً غربية إلى معرفة توشك أن توردهم موارد التهلكة. وربما يبحث المرء عن مرجع عصري في التاريخ الإسلامي على عمومه فلا يكاد يجده متكاملا، وإن وجده فهو مبتسر يعوِّل في الغالب على مراجع غربية فينقل عنها نقلا مباشراً رديئاً يخلو من إعمال العقل ومن أية قدرة نقدية. وتتواتر بذلك في مراجعنا العربية التي يقدّر لأبنائنا أن يدرسوها تلك الأخطاء التي تعمدها الغربيون في غيِّهم أو اقترفوها في جهلهم. وينبغي لنا، وتلك هي الحال، أن نعيد تقييم وتقويم الأمر كله، فنصحح النظرة، ونَلْقَن العبرة، ونحاول العود إلى الطريق القويم، والعود إن شاء الله أحمد.

هذه الترجمة

إن إجالة النظر فيما كتبه الغربيون ويكتبونه في تناولهم لحضارتنا وحضارتهم تظهر أن أداهم البحثية، من الناحية الفنية، متكاملة ومقتدرة، وهم يسخروها في غالب الأمر في حرب عوان ضدنا. ولكم تحولنا بأنظارنا وجهدنا إلى مراجعنا المعاصرة فلم نجد ما يشفي غُلّة أو يهدي إلى سواء سبيل. ويصدق ذلك على التاريخ الإسلامي بعامة والتواريخ العربية بخاصة، مما دعانا في نهاية المطاف إلى أن نحاول أن ننتقي من بين ما كتب الغربيون في ذلك ما هو أقرب إلى ما ينبغي أن يكون لننقله إلى لغتنا حتى يفيد أبناؤنا من شهادة حتى تجيء من نطاق الغلبة فيه لغير المنصفين من الدارسين.

وليس ثمة شك في أن الحملات الصليبية، بكل ما تبينه من جوانب، لها بالغ الأثر في مسيرة الصراع بين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات تنتهي إلى ما يسمى بالحضارة الغربية الحديثة في نطاق ما يسميه ارنولد توينبي "التحدي والاستجابة"؛ومن ثم كان ينبغي أن تتوفر عنها في اللغة العربية مراجع توفيها ما هي خليقة به من اكتمال الصورة والشمول. بيد أن ذلك لم يتحقق . وبيْنا نحن نجول في الساحة الغربية وقعنا على مرجع شامل يتناول تلك الحملات مذ بدأت وإلى أن انتهت، ويجاوز ذلك إلى تناول دقيق لما سبق تلك الحملات من ظروف ومقدمات. وما كنا لنقف طويلا إزاء هذا المرجع إن اقتصر أمره على ذلك، فالشمول والاكتمال يستطيع الباحث أن نتهي إليهما من مراجع متعددة أو حتى من شذرات متفرقة، وإن استحال ذلك على القارئ العام. غير أن أبين ما يمتاز به هذا المرجع، وهو "الحملات الصليبية" الذي كتبه ستيفن رانسيمان، يتمثل في قدرة فريدة على إضفاء "نبض الحياة" على السرد التاريخي الذي يحيل الصفحات المكتوبة إلى واقع يكاد يكون معاشا بما فيه من تفصيل يبين اتجاهه ويظهر مغازيه. ويضاف إلى ذلك أننا نجد أنفسنا إزاء عقلية قادرة محققة ومتحققة تلتزم جانب الإنصاف والحيدة التي لا تتأتى إلا لتلك القلة من الأفذاذ الذين يتميزون رحابة الأفق وعمق النظرة ونفاذ البصيرة، فضلا عن حس إنساني يتعاطف مع الإنسان، ويرجو له أن يتأثر القيمة العليا، على اختلاف المكان والزمان.

ولتنظر معنا أيها القارئ إلى ما يقوله رانسيمان وهو يصف دخول الصليبيين بيت المقدس في شهر يولية ١٠٩٩ ميلادية: "...إن الصليبيين وقد جنوا بما أحرزوه من نصر كبير بعد المعاناة، اندفعوا عبر الطرقات والمنازل والمساجد يقتلون كل من صادفهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طيلة عصر ذلك اليوم وتلك الليلة . ولم تسبغ راية تانكريد أية حماية على أولئك الذين لاذوا بالمسجد الأقصى، ففي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اقتحمت عصبة من الصليبيين المسجد وقتلت كل من فيه. وعندما طاف ريموند أوف أجيليه بالمنطقة التي يقع فيها

المسجد كان عليه أن ينقل الخطى ليجد طريقا بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه". ويقــول في موضع آخر: "..وكان الجيش في معرة النعمان يعاني الجوع بعد أن نفدت المؤن التي استولى عليها من الجوار، ولم يكن له من سبيل سوى أن يأكل لحوم البشر".

ويظهر رانسيمان ذلك المدى البشع الذي وصل إليه الصليبيون في تقتيلــهم المســلمين المسالمين في المسجــد الأقصى من ناحية، ويبين من ناحية أخرى حقيقة كــان لابــد لمؤرخ مسيحي أن يواريها، وهي أكلهم لحوم البشر، وهذا دَرْك لا ينحدر إليه الحيوان، ويواصل رانسيمان سرده ليظهر كيف أن صليبياً واحداً، من الذين صــاحبوا الحملــة وأرخوا لها، هو الذي أنكر على المسيحيين ذلك بعد أن لاحظ كيف ارتاع الأتـــراك المسلمون من مشاهد أكل لحوم البشر.

وهذان الاستشهادان، على ما فيهما من بشاعة لا يكاد يجلوها بيان، لا يعطيــان إلاّ صورة محدودة للغاية لما نرمي إليه. وتتجلى حيدة رانسيمان في أنه لا يكــاد يجــد مأخــذاً واحداً على خاصة المسلمين أو عامتهم؛ بل يتجاوز ذلــك إلى القــول وهــو يوضح واحداً من مواقف الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس: "...وكان ألكسيوس علــى حق في أن يرى أن رعاياه المسيحيين الأرثوذوكس سيكونون أحســن حــالا في ظــل الحكم الفاطمي المتسامح الذي يتيح لهم ما لم يتحه حكم الفرنجة الذين أظهروا في واقع الحال عداوة واضحة للمسيحية السائدة في أنطاكيــة". ويقــول في موضــع آخــر: "...ووجدت كنائس الهراطقة أن الغزو اللاتيني يؤذن بفترة أفول لها بعد أن كانت تنعم بالتسامــح في ظل الحكم الإسلامي". وتتواتر أمثال هذه الصورة في الأجزاء الثلاثــة التي أرخ فيها للحملات الصليبية، ونقدم في هذا المجلد جزءها الأول، والتي بين فيــها البواعث الحقيقية لتلك الحملات، وتظهر دون مراء أن الصليبيين لم يكونوا أصحــاب دين يحركهم بقدر ما كانوا طلاب دنيا تجعلهم يذهبون كل مذهب مدفوعين بأهوائهم ومطامعهم؛ ويجلوا ذلك ما يورده رانسيمان في مختلف المواضع من تفاصيل لا يكــاد يقف عندها غيره ممن أرخوا لأبناء دينهم وعشيرتهم، مثــل قوله: "... إن الصليبيــين

وهم يحاصرون أنطاكية تركوا المسلمين يتسللون في الليل من المدينة المحاصَرة ليدفنوا في المقابر المجاورة موتاهم الذين قتلوا في معركة ذلك اليوم، ولكن الصليبيين نبشوا القبور في صباح اليوم التالي وأخرجوا جثث الموتى لينتزعوا منها حلى الذهب والفضة". ولنتأمل معاً قول رانسيمان: "...من المؤلم أن يتضح أن الأمراء الصليبيين لم يكونوا على استعداد للتعاون من أجل صالح العالم المسيحي عندما تسنح لهم فرصة الاستحواذ على غنائم شخصية؛ وسرعان ما أدرك المسيحيون من أهل البلاد أن مخلصيهم الفرنجة لم تكن تحدوهم عاطفة إيثار حقيقي، وعرفوا أن أحسن ما يمكن أن يستفيدوا به من أولئك الأمراء الصليبيين يتمثل في السعي بالوقيعة بينهم، وتلك لعبة يسيرة".

وأمثال تلك الوقائع عديدة عند رانسيمان، ويسترعي النظر فيها أنها تحكم الصلة بين الأحداث التاريخية، حلقة إثر حلقة، وتنتهي إلى بلوغ غاية تجلو اتجاها عاما يميز الحملات الصليبية ويضعها في منظور عام متكامل يبين حركة التاريخ وسماته عبر القرون التي وقعت فيها تلك الحملات.

ولعله لا يفوت عيني القارئ وخياله لمسات يضفيها رانسيمان بريشة فنان بارع إلى اللوحة التي يصور فيها جوانب في الحملات الصليبية تضفي على واقعها ألوانا تجلو منظورها وتعين المتلقي على استيعابها واستخلاص مراميها، وإن كانت اللمسات رقيقة رفيقة فهي تنبئ وتعلق دون أن تفصح وتقرر؛ فليس من قبيل خفة الظل، على سبيل المثال، أن يقول رانسيمان في تقديمه للدور البارز الذي قام به بطرس الناسك في التهيئة والإعداد لحملة الشعب: "كان بطرس الناسك رجلا قصير القامة، قاتم اللون، ذا وجه طويل نحيل يشبه في صورة مفزعة حماره الذي لا يفارقه والذي كان الناس يولونه من التبجيل ما يقارب تبجيلهم لراكبه". ولا شك أن مثل هذه اللمسة البارعة، التي ربما يظن أن لا موضع لها عند مؤرخ حاد كرانسيمان، توحي بتقييم

يكاد يكون شاملا يعكس ما اصطبغت به تلك الحملات الصليبية من قتامة وجهالـــة. ولسوف يجد القارئ من أمثال هذه اللمسة الشيئ الكثير في رحلته مع رانسيمان مـــن الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة.

ويرتب رانسيمان تاريخه ترتيبا عاما يتسق مع ما تهتم به المدرسة الغربية من إيجاد صلة بين الحدث والهدف . فنراه بعد أن استفاض في التقديم للحملات الصليبية يأخذ بما جرى عليه الغربيون من تقسيم للحملات الصليبية فيجعل حملة أمراء الصليبيين الـــتي استطاعت أن تبلغ بيت المقدس الحملة الصليبية الأولى في حين أن تلك الحملة ســبقتها حملتـــان: الأولى هي حملة الشعب التي بدأت في أعقاب الخطاب الذي ألقـــاه البابـــا إيربـــان الثاني في مدينة كليرمونت الفرنسية في يوم الثلاثاء السابع والعشريـــن مـــن نوفمبر ١٠٩٥ ميلادية، والثانية هي الحملة الصليبية الألمانيـــة، ولم يقـــدر لكلتيـــهما الوصول إلى فلسطين.

ويلاحظ أن المؤرخين العرب، وهم يتأثرون خطى المؤرخين الغربيين، يتجاهلون أول حملة صليبية، وهي التي تعرف بحملة الشعب بقيادة بطرس الناسك التي احتشد فيهـــا الكثيرون من أبنـــاء الدول الأوروبية على اختلافها نتيجة لمساعي البابا إيربان والجـــولة الواسعة التي قام بها في أرجـــاء فرنسا وإيطاليا سنة ١٠٩٥ ميلادية . وتمثل أحـــداث تلك الحملــــة أشكال الفوضى العارمة والوحشية المروعة التي سادت بين المشتركـــين فيها من المسيحيين على نحو لم يسبـــق إليه البرابرة، والتي تظهر أن العقيدة الدينيـــة وحـــدها لم تكن هي الدافع وراء تلك الحملة التي جمعت شذاذ الآفاق والقتلة والمجرمين إلى أبناء الأسر الأوروبية النبيلة الذين كانوا يسعون إلى تعويض ما فاتهم نتيجة تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر وحده في الميراث على حساب المسلمين في الشرق . وليس ثمة شك في أن الهزيمة الماحقة التي ألحقها السلاجقة بصليبيي تلك الحملة والفشل الذي انتهت إليه الحملـــة الصليبية الألمانيـــة كانا العامل الهام الذي أدى إلى الحملة الصليبية الثالثـــة والتي يصنفها المؤرخون على أنها الحملة الأولى، في حين أنه لولا حملة الشعب

والحملـــة الصليبية الألمانية لما كانت هناك حملات أخرى، إذ من الواضح أن الجهود الهائلة التي بذلتها الكنيسة في سبيل القيام بهاتين الحملتين لم تكن لتؤدي إلى شيئ مالم يجد الصليبيون في الهزيمة النكراء التي راح ضحيتها عشرات الألوف من الصليبيين تعلّة قوية تؤازرهم في دعواهم إلى الحملة التالية التي يقول مؤرخوا الغرب والمؤرخون العرب إنها الأولى ونقـــول نحن إنها الثالثة . ويستطيع كل من يرجع إلى المنصفين من مؤرخي الغرب أمثال رانسيمان أن يتبين في جلاء لا تشوبه أدنى ريبة حقيقـــة ذلـــك. ومـــن الطريف أن الغربيين ينظرون إلـــى هرقل الذي حارب الفرس سنة ٦٢٢ ميلادية علـــى أنه أول صليبي برغم أن حربه مع الفرس بدأت قبل الحملات الصليبية بخمسة قـــرون، ولا يفوت مؤرخهم وليم الصوري ذكر ذلك في كتابه عن الحملات الصليبية الـــذي سماه"كتاب هرقل".

وإذ أحمد العلي القدير على ما وفقني إليه، أرجو أن يفيد من هذا العمل القارئ العام الذي ينبغي له أن يلم بحلقات بالغة الأهمية من تاريخ حضارته، والباحث الذي لا يجد سبيلا ميسورا إلى ما يكتب في هذا المجال في لغة غير لغته، والله الموفق.

جنيف ١٩٩٣ | نور الدين خليل

مقدمة المؤلف

هذا هو المجلد الأول من ثلاثة مجلدات تستهدف تغطية تاريخ الحركة التي نطلق عليها الحروب الصليبية - من بدايتها في القرن الحادي عشر إلى نهايتها في القرن الرابع عشر - وتاريخ الدول التي أوجدتها تلك الحروب في الأراضي المقدسة والبلدان المجاورة. وأرجو أن أعطي في المجلد الثاني تاريخ ووصف مملكة القدس وعلاقتها بشعوب الشرق الأدنى وبالحروب الصليبية في القرن الثاني عشر؛ ثم أعطي في المجلد الثالث تاريخ مملكة عكا والحروب الصليبية وما تلاها.

وإذا كان لنا أن ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها أكثر المغامرات المسيحية جسامة ورومانسية ، أو على أنها آخر الغزوات البربرية ، فإنها تشكل حقيقة مركزية في

تاريخ القرون الوسطى. فقبل ابتدائها كان مركز حضارتنا يتخذ مكانه في بيزنطة وأراضي الخلافة العربية، وقبل انقضائها انتقلت الهيمنة على الحضارة إلى أوروبا الغربية، ومن خلال هذا التحول وُلد التاريخ الحديث. غير أنه لا ينبغي لنا، كي نفهم هذا التاريخ، أن نقف عند الظروف التي كانت سائدة في أوروبا الغربية والتي أدت إلى الاندفاع الصليبي، بل علينا أن نجاوز ذلك، على نحو ربما يتطلب مزيدًا من الإفاضة، إلى ظروف الشرق التي أتاحت للصليبيين فرصتهم وترتب عليها تقدمهم ثم انسحابهم. ولابد لنا من أن نُنقّل النظرة من الأطلنتي إلى منغوليا. فمغزى القصة يضيع إذا رويت من وجهة نظر الفرنجة وحدهم، أو من وجهة نظر العرب وحدهم، أو كما يراها ضحاياها الرئيسيون ـــــ مسيحيو الشرق ذلك أن هذه القصة، كما يرى جيبون، مناظرة عالمية.

وقصة الحروب الصليبية لم ترو في غالب الأمر على إجمالها في اللغة الإنجليزية، ولا توجد في هذا البلد مدرسة فعّالة تُعنى بالتأريخ الصليبي. والفصول التي كتبها جيبون في كتابه إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ـــ برغم تحامله والتاريخ الذي كان يكتب فيه ـــ جديرة بالدراسة. ثم يأتينا بعد جيبون ذلك الموجز الحاذق الذي كتبه سير ارنست باركر عن الحركة الصليبية ونشر في البداية في دائرة المعارف البريطانية، ونضيف إليه تاريخ الممالك الصليبية الذي يثير الإعجاب على ما فيه من اقتضاب والذي كتبهى. ب. ستيفنسون. بيد أنّ الإسهام البريطاني في هذا المجال يتشكل في غالبه من مقالات كتبها العلماء، ومن النقل عن المصادر الشرقية ومن عدد قليل من التواريخ التي كتبها غير المتخصصين. أما فرنسا وألمانيا فلهما في ذلك تراث يجاوز ما لبريطانيا من حيث الكم والمدى. وتبدأ التواريخ الألمانية العظيمة المتعلقة بالحروب الصليبية بالتاريخ الذي كتبه ويلكين ونشره في مطلع القرن التاسع عشر، ولا يزال تاريخ فون سيبيل الذي نشر أول مره سنة ١٨١٤ يحظى بأهمية بالغة؛ ويعقب ذلك في نفس القرن ما قام به اثنان من الدارسين المبرزين ـــ هما روهريشت، هاجنماير ـــ من

عمل بالغ القيمة لا يقتصر على جمع المادة التاريخية من مصادرها ونقدها وحسب، وإنما يجاوز ذلك إلى قيامهما بكتابة تواريخ شاملة. ويتواصل التراث الألماني في السنوات الأخيرة عبر ما قام به اردمان في دراسته الجامعة للحركات الدينية في الغرب التي أدت إلى الحروب الصليبية. وفي فرنسا التي جاء منها في البداية أكبر عدد من الصليبيين، يظهر اهتمام الدارسين بنشر أهم المصادر الغربية والإغريقية والشرقية في العمل الفرنسي الضخم مجموعة تواريخ الحملات الصليبية في منتصف القرن التاسع عشر. وكان تاريخ ميشو المستفيض قد ظهر بالفعل في السنوات التي تلت سنة ١٨١٧؛ وفي أواخر ذلك القرن أخرج ريانت وأعوانه في جمعية الشرق اللاتيني كثيرًا من الأعمال القيمة. وفي القرن الحالي اهتم اثنان من الدارسين المتميزين في الدراسات البيزنطية هما شالاندون، وبريهير بالحروب الصليبية؛ وقبل الحرب العالمية بقليل أخرج م. جروسيت تاريخه عن الحروب الصليبية في ثلاثة مجلدات، وهو تاريخ يجمع في التراث الفرنسي ما بين العلم الواسع وحسن الكتابة ولمسة من الوطنية الغالّية. على أن أكثر مدارس مؤرخي الحروب الصليبية نشاطًا توجد في الولايات المتحدة، وهى مدرسة بدأها د. س. مونرو الذي كان لإنتاجه الأدبي المقل على نحو مؤسف أثره السلبي على أهميته كمعلم. ولايزال المؤرخون الأمريكيون يركزون حتى الآن على الجوانب التفصيلية، ولم يحاول أيهم بعد أن يضطلع بتقديم تاريخ شامل كامل؛ وإن كانوا قد وعدوا بتقديم عمل جامع يشترك في القيام به بعض الدارسين الأجانب كي يغطوا مجال التاريخ الصليبي بأكمله؛ ويؤسفني أن هذا العمل لم يصدر في وقت يسمح لي بالإفادة منه في كتابة هذا المجلد.

وربما يبدو أن إقدام "قلم" بريطاني واحد على منافسة "أكداس الآلات الكاتبة الأمريكية" عمل لا يتسم بالحكمة، وواقع الحال أنّ الأمر لا ينطوي على منافسة. ذلك أنه لا يتأتى لكاتب واحد أن يتحدث بمثل ما لجماعة من الخبراء من سلطان كبير، وإن كان يستطيع أن يضفي على عمله صفات تكاملية وملحمية لا يتأتى بلوغها لمجلد

يشترك عديدون في وضعه. فهوميروس شأنه في ذلك شأن هيرودوت، كان أبا التاريخ، وهذا أمر وعاه جيبون أعظم مؤرخينا؛ وإنــه لمن الصعــب، وإن رغــم النقــاد، أن نعتقد أن هوميروس لم يكن كاتبًا واحدًا وإنما مجموعة من الكتاب. وكتابة التــاريخ في أيامنا هذه عادت بنا إلى عصر الإسكندرية الذي تفوق فيه النقد على الإبداع. والمؤرخ الحديث ــ الذي تواجهه أكداس هائلة من دقائق المعرفة والذي يرهبه تشدد زملائــه الذين يترصدون له ــ غالبًا ما يلوذ بكتابة المقــالات العلميــة أو الأبحــاث ضيقــة التخصص، وهي قلاع صغيرة يسهل الدفاع عنها عند مهاجمتها. ويمكن لعمــل هــذا المؤرخ أن يتسم بأعلى قيمة، بيد أنه لا يشكل الغاية المرجوة في حد ذاته. وأحسب أن أسمى واجب للمؤرخ هو أن يتصدى لكتابة التاريخ، أيّ أن يحاول أن يسجل في تتابع متلاحق كبريات الأحداث والحركات التي وجهت أقدار الإنسان. والكاتب الذي تبلغ به المجازفة محاولة ذلك لا ينبغي أن ينتقد لطموحــه، وإن استحق كثيرًا مــن اللــوم لقصور أداته أو خواء نتائجه.

وأورد في حواشي الصفحات المراجع التي اعتمدت عليها فيما خلصت إليه، كما أورد في مسرد مراجعي قائمة بالأعمال التي رجعت إليها. وأنا مدين لكثير منها بفضل كبير، حتى وإن لم أكن قد استشهدت بها في الحواشي. والأصدقــاء الذيــن أعــانوني بنقدهم ونصحهم عديدون بحيث لا يتأتى ذكرهم.

ولايفوتني أن أبدي ملاحظة عن كيفية نقل الأسماء من لغة إلى أخرى. فحيــث ترد أسماء مسيحية لها شكل إنجليزي مقبول مثل ــ جون أو جودفــري أو ريمونــد ــ فإنني آخذ به اجتنابا للحذلقة؛ ولقد حاولت دائما أن استخدم الشكل الشــائع الــذي يلقى قبول القارئ الإنجليزي العادي. واستخدمت الحروف اللاتينية في نقــل حــروف الكلمات الإغريقية وهو النهج المتبع الوحيد الذي يلائم ذلك. وتتمثــل في الحــروف العربية صعوبة أكبر فالنقط وعلامات نطق الحروف الحلقية التي يوصي بها المتخصصون تجعل القــراءة صعبة. ومن ثم حذفتها، وإن كنت آمل أن يكون النسق الذي اتبعتــه

واضحا. وفي الأرمينية حيث يصح أن تحل K محل G و B محل P بحسب المكان أو الفترة الذي أو التي استخدمت فيه الكلمات، فإنني التزمت بما استعمل في القديم منها. وتشكل الأداة الفرنسية de مشكلة دائمة، وقد ترجمتها في جميع الحالات التي لم تكن فيها جزءًا من كنية محددة.

وأود في النهاية أن أشكر مسئولي وأمين مطبعة جامعة كمبريدج لفضلهم وعونهم الدائبين.

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٠

البــــاب الأول :

أماكن العالم المسيحي المقدسة

الفصل الأول :

رجســــة الخــراب

رجسة الخراب

"فَمَتَى نَظَرْتُم رِجْسَةَ الْخَرَابِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيآلُ النَّبِيُّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ."

(إِنْجِيلُ مَتَّى ٢٤ ــ ١٥)

دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس في أحد أيام فبراير (شباط) سنة ٦٣٨ ميلادية على ناقة بيضاء، مرتديًا ثيابًا رثة بالية، والجيش من خلفه أشعث أغبر وإن كان نظامه في ذروة الكمال. وكان بجانبه البطريق سوفرونيوس كبير القضاة في المدينة المستسلمة ، ومضى عمر مباشرة إلى معبد سليمان الذي عرج منه النبي محمد إلى

السماء، وتمتم البطريق وعبراته تفيض ـــ وهو يرى عمرا واقفا هناك ـــ مرددا: "أنظروا رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي".

وأبدى الخليفة رغبته في مشاهدة مزارات المسيحيين فصحبه البطريق إلى كنيسة القبر المقدس وأراه كل ما كان هنالك. وعندما حانت ساعة الصلاة استفسر الخليفة عن الموضع الذي يمكن أن يبسط فيه سجادة الصلاة، فرجاه سوفرونيوس أن يبقى حيث هو، لكن عمر خرج إلى رواق الاستشهاد خشية أن يدعي أتباعه الغير حقا للإسلام فيه، كما حدث بعد ذلك إذ استولى المسلمون على الرواق وبقيت الكنيسة كما كانت أقدس حرمات العالم المسيحي. (١)

وتم ذلك طبقا لشروط استسلام المدينة؛ فبينما قضى النبي نفسه بتخيير عباد الأوثان بين الدخول في الإسلام أو الموت، سمح لأهل الكتاب أي المسيحيين واليهود (الذين ألحق بهم الزرادشتيين تلطفا) (٢) بالاحتفاظ بدور عباداتهم يمارسون فيها شعائرهم دون قيد، ولم يكن لهم أن يزيدوا من عددها أو يحملوا سلاحا أو يعتلوا جوادا وعليهم أن يدفعوا نوعا من ضريبة الرأس تعرف بالجزية. (٣) ولم يكن سوفرونيوس ليرجو شروطا أفضل من تلك وهو يخرج راكبا حماره ـــ بعد أن منح الأمان ـــ ليقابل الخليفة على جبل الزيتون، إذ رفض أن يسلم المدينة لأي شخص دون الخليفة منزلة. ومضى على حصار القدس مدة تجاوز العام، فلم يكن

---

(١) Theophanes, ad ann. 6127, p. 333 ; Eutychius, *Annals,* col. 1099; Michael the Syrian,vol. ii, pp. 425-6; Nisibin,p.64. An excellent summary of the sources is given in Vincent and Abel, *Jérusalem* Elias of *.Nouvelle,* vol.ii,pp.930-2

(٢) (المترجم) : ليس هذا صحيحا وإنما يرجع ذلك إلى أباطيل المؤرخين والمستشرقين الذين خلطوا بين أهل الكتاب وغيرهم.

(٣) See the article " Djizya " by Becker in the *Encyclopaedia of Islam,* and Brown, *The Eclipse of .Christianity in Asia,* p.29-31

العرب على خبرة بحروب الحصار و لم يكونوا مجهزين لها كما ينبغي، فوقفوا عـــاجزين أمام التحصينات التي حددت مؤخرا. وأخذت المؤن تتناقص داخل المدينـــة وتبـــددت الآمـــال في إنهاء الحصار، فالبلاد كلها في قبضة العرب وقد تـــوالى ســـقوط المـــدن الســـورية والفلسطينية واحدة تلو الأخرى، وكان أقرب جيش مسيحي إليـــهم هـــو الذي في مصر، باستثناء حامية صامدة في قيسارية على الســـاحل تحميـــها البحريـــة الإمبراطورية. وكل ما استطاع أن يحصل عليه سوفرونيوس من الفاتحين بالإضافـــة إلى الشروط المعتادة هو السماح لمسئولي الإمبراطورية في المدينة بأن ينسحبوا إلى ســـاحل قيسارية في أمان ومعهم عائلاتهم ومايمكن أن يحملوه من متاع.

وكان هذا آخر إنجاز عام قام به البطريق. وتلك نهاية مأسوية لحياة طويلة قضاها في دأب كي يستقيم العالم المسيحي ويتحد؛ فمنذ أيام شبابه التي أمضاها في تطـــواف بأديرة الشرق مع صديقه جون موسكاس، يجمعان غذاءهما الروحي من أقوال القديسين وأقاصيصهم، وإلى آخر أيامه، وبعد أن عينه الإمبراطور بطريقا لأسقفية القدس الكبرى برغم معارضته لسياسته، وهو يكافح في صلابة الهرطقات والقومية الوليدة التي كـــان يرى أنها ستقطع أوصال الإمبراطورية. بيد أن ما دعا إليه وقام به هذا البطريق الـــذي عرف "بالمدافع عن الدين معسول اللسان" ذهب سدى. فالفتح العربي برهـــن علـــى فشله، ومات كسير القلب بعد وقوعه بأسابيع قليلة. (١)

---

(١) أنظر : . Mansi, *Concilia Nova Collectio*, vol. X, col. 607

ومن المؤكد الآن أن سوفرونيوس البطريق هو نفسه سوفرونيوس صديق Moschus.

أنظر : . Usener, *Der Heilige Tychon*, pp. 85-104

بقاء الإمبراطورية في الشرق

ولم يكن بوسع بشر، في واقع الحال، أن يوقف حركات التمزق في المقاطعات الشرقية لروما، فعبر تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان الصراع كامنا بين الشرق والغرب. وإن كان الغرب قد انتصر في أكتيوم فإن الشرق تغلب على غزاته؛ ومصر وسوريا كانتا أغنى أقاليم الإمبراطورية وأكثرها سكانا وفيهما أهم مراكز الصناعة في الإمبراطورية، وتسيطر سفنهما وقوافلهما على تجارة الشرق، وتفوق ثقافتهما الروحية والمادية ثقافة الغرب بكثير، ولا تقتصر علة ذلك التفوق على تراثيهما العريقين وحسب وإنما تنصرف كذلك إلى قربهما من مملكة الساسانيين الفارسية التي كانت تمثل حافزا لهما والتي كانت الند الحضاري الوحيد لروما، ومن ثم لم يكن هناك مناص من أن يتعاظم نفوذ الشرق، وظل الأمر كذلك إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين العظيم في نهاية الأمر دينا شرقيا ونقل عاصمته إلى الشرق في بيزنطة على البسفور. وعندما ضعفت الإمبراطورية، في القرن الثاني، لما أصابها من تآكل في الداخل، كان عليها أن تواجه هجمة البرابرة، فهلك الغرب وبقي الشرق، بفضل سياسة قسطنطين في غالب الأمر. وبينما أخذت الممالك البربرية تنشأ في الغال وإسبانيا وأفريقيا وبريطانيا النائية وأخيرا في إيطاليا، كان الإمبراطور الروماني يحكم المقاطعات الشرقية من القسطنطينية. ونادرا ما كانت حكومة روما تحظى بشعبية في مصر وسوريا، وسرعان ما أثارت حكومة القسطنطينية تبرما مريرا أخذ في التزايد، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ظروف خارجية. فالفقر الذي حل بالغرب كان يعني ضياع أسواق للتاجر السوري والصانع المصري، كما أن الحروب المتصلة مع فارس عرقلت طريق التجارة الذي كان يمضي خلال الصحراء إلى أنطاكية والمدن اللبنانية. وبعد فترة وجيزة سقطت إمبراطورية الحبشة وتفشى الاضطراب في الجزيرة العربية، وأغلق نتيجة لذلك طريق تجارة البحر الأحمر الذي كان يسيطر عليه بحارو مصر وأصحاب القوافل في البتراء والأردن جنوب فلسطين . وأصبحت القسطنطينية السوق الرئيسية للإمبراطورية، وكانت تجارة

الشرق الأقصى، التي شجعتها دبلوماسية الإمبراطور تبحث لها عن طريق مباشر يتجه إلى الشمال عبر سهول أواسط آسيا، فتولدت المرارة بين أبناء الإسكندرية وأنطاكيـة، وتملكتهم الغيرة من تلك المدينة حديثة النعمة التي كانت تنذر بالسيطرة عليهم. وزادت مرارة السوريين والمصريين من مركزية الحكومة الجديدة، ومن تقلص الحقوق المحليـة وحقوق الأقليات على نحو مطرد؛ وكان جابي الضرائب أكثر صرامة وإلحاحا منـه في أيام روما القديمة، فتفشى السخط وأضاف قوة جديدة إلى قومية الشرق التي لا يغلبها النعاس أبدا لوقت طويل.

النساطرة والوحديطبعيون (١)

وتفجر الصراع حول القضايا الدينية علانية. ولا شك في أن الأباطرة الوثنيـين كانوا متسامحين حيال العبادات المحلية، إذ يمكن للآلهة المحلية أن تجد في يسر مكانا لهـا بين الآلهة الرومان، وأما المعاندون من الوحديطبعيين، كالمسيحيين واليهود، فكانوا هم الفئة الوحيدة التي عانت من نوبات اضطهاد بين الحين والآخر. ولم يستطع الأبـاطرة المسيحيون أن يتحلوا بمثل ذلك التسامح، فالمسيحية لا تقبل آلهـة آخريـن، وأرادوا استغلالها كقوة موحدة لربط كل رعاياهم بالحكومة. وكان قسطنطين، الذي التبست عليه أمور اللاهـوت بعض الشيء، قـد سعى من قبل إلى توحيد الكنيسة التي مزقها

---

(١) (المترجم) : علينا أن نلاحظ الفارق بين Monophysite التى تعنى الوحد يطبعى فى العقيدة المسيحية أى القائـل بالطبيعـة الواحـدة للرب ولا يرى أنه ذو طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى بشرية ، وبين Monotheist أى التوحيدى والتى تعنى القائل بالتوحيد أى الذى يؤمن بأن الله واحد لا شريك لـه وليس له ثلاثة أقانيم .

الجدل الأريوسي (١) . وبعد مضى نصف قرن جعل ثيودسيوس العظيم الامتثال لأعراف الكنيسة أمرًا ينبغي أن يأخذ به الأباطرة. بيد أن ذلك الامتثال لم يكن سهل المنال . فالشرق كان قد أقبل على المسيحية في تلهف، وتناول اليونانيون مشكلاتها بما يستهويهم من الجدل الحاذق الذي أضاف إليه أهل الشرق المتأثرون بالاتجاه اليوناني حدة عاطفية جائحة سرعان ما ولدت تعصبًا وكراهية. وكان الموضوع الرئيسي الذي اختلفوا حوله هو طبيعة المسيح التي تتمثل فيها المشكلة المحورية بالغة الصعوبة في اللاهوت المسيحي كله. ولإن كان هذا الجدل لاهوتيًا، فإنه كان يستهوي في تلك الأيام رجل الشارع الذي نظر إليه على أنه ضرب من ضروب التسرية التي لا يفوقها متعة سوى ألعاب السيرك. بيد أن الأمر لم يقتصر على ذلك، فالسوريون والمصريون بعامة كانوا يريدون طقوسا أبسط من تلك التي تمارسها الكنيسة الأرثوذكسية بما فيها من أبهة يؤذيهم بذخها وهم يعانون من فقر متزايد وينظرون إلى أحبار الكنيسة وقساوستها على أنهم عملاء لحكومة القسطنطينية؛ وانتهى ذلك بكبار رجال الكنيسة إلى معداة مماثلة للسوريين والمصريين. وكان بطارقة الكراسي الأسقفية القديمة في الإسكندرية وأنطاكية يتميزون غيظا من إخوانهم حديثي النعمة في القسطنطينية الذين يجاوزونهم في الأسبقية، فليس ثمة بد إذن من أن تظهر الهرطقة وتتخذ شكل حركة قومية انشقاقية.

وسرعان ماخبت جذوة الأريوسية في الشرق، باستثناء الحبشة، بينما بقيت هرطقات القرن الخامس عشر بعد ذلك. ففي بداية القرن أعلن نسطور — بطريق القسطنطينية السوري المولد — عن مذهب يركز تركيزا مفرطا على بشرية المسيح، وجذب ذلك الاتجاه قلوب لاهوتيي المدرسة الأنطاكية، وتبع نسطور أشياع كثيرون في

---

(١) الأريوسية : مذهب ينسب إلى الكاهن أريوس السكندرى المتوفى عام ٣٣٦ ميلادية ، قال أن المسيح الابن يختلف فى الجوهر عن الإله الأب .

شمال سوريا، بيد أن المجلس المسكوني الذي عُقد في أفسوس سنة ٤٣١ ميلادية أنكر مذهبه هذا وأعلن أنه هرطقة، فانشقت مجامع سورية عديدة، وطُرد النساطرة من الإمبراطورية، وأقاموا في المنطقة التابعة لملك فارس في أرض ما بين النهرين، وسرعان ما تحول انتباههم إلى التبشير في أقصى الشرق، في الهند وتركستان بل والصين، إلا أنهم في القرنين السادس والسابع كانوا ما يزالون يحتفظون بكنائس لهم في سوريا ومصر يرتادها في الغالب تجار الشرق الأقصى.

و لم يتوقف الجدل النسطوري عند هذا الحد وإنّما أثار جدلاً آخر أشد مرارة، ذلك أن لاهوتيّي الإسكندرية، الفرحين بفوزهم المزدوج على المبادئ الأنطاكية وعلى بطريق القسطنطينية، تخطوا حدود الأرثوذوكسية في اتجاه مضاد ووضعوا مذهبًا يبدوا أنه يتضمن إنكارا لبشرية المسيح، ويطلق على هذه الهرطقة أحيانًا (إيوتيكيانية) نسبة إلى قسيس مغمور يدعى إيوتيكيوس كان أول من طرحها، وتشيع تسميتها على نطاق أوسع الوَحْديْطَبَعيّة، لكن المجلس المسكوني الرابع المنعقد في سنة ٤٥١ ميلادية في خلقدونية أنكر تلك الهرطقة، فاغتاظ الوَحْديْطَبَعيّون وانشقوا على الهيئة الرئيسية للعالم المسيحي آخذين معهم أغلب مسيحيي مصر وعددا من المجامع السورية..على أن وفد الكنيسة الأرمينية وصل إلى خلقدونية متأخرا و لم يشهد الحوار ورفض قبول ما توصل إليه المجلس وانضمت الكنيسة الأرمينية إلى الوحديطبعيين. وسعى الأباطرة المتأخرون سعيا حثيثا كي يوجدوا صيغة توفيقية ترأب الصدع ويقرها المجلس المسكوني ويمكن أن تقبل على أنها أقرب إلى العقيدة الصحيحة، غير أن تلك المساعي عاقها عاملان ذلك أن الهراطقة لم يكونوا ليعودوا إلى الحظيرة إلا بشروطهم غير المقبولة، فضلا عن أن موقف روما والكنيسة الغربية كان معاديا لأي حل وسط عداء لا هوادة فيه فالبابا ليو الأول استقر على رأى مؤداه أن خليفة القديس بطرس، وليس أي مجمع كنسي، هو صاحب الحق في تحديد المذهب، وكان يضيق ذرعا بخفايا الجدل التي لا يفهمها، وأصدر بيانا يحدد فيه الرأي الصحيح في المسألة، ويجيء ذكر ذلك البيان في

التاريخ باسم (توماس أوف بوب ليو) ورغم أن ذلك البيان تجاهل دقائق الجدل فقد قبلته سلطات مجلس خلقدونية وأضافت صيغته إلى ما توصل إليه المجلس من نتائج. وكانت صيغة بيان البابا ليو الأول محددة ومباشرة لا تقبل تمويها ولا تعديلا، وكان أي حل وسط يسترضي الهراطقة يعتبر إنكارا للبيان ومن ثم يعد صدعا في العلاقة مع روما وهذا ما لم يجرؤ على الإقدام عليه أي إمبراطور له مصالح أو مطامع في إيطاليا والغرب. وهكذا وجدت الحكومة الإمبراطورية نفسها واقعة في هذا المأزق فلم تحاول مطلقا الأخذ بسياسة ثابتة وإنما تذبذبت بين اضطهاد الهراطقة وتهدئتهم، وفي نفس الوقت ازدادت قوه الهراطقة في المقاطعات الشرقية، تشد من أزرهم قومية الشرق التي كانت تنفض عن نفسها غبار سباتها. (١)

وبخلاف الوحديطبعيين والنساطرة كانت هناك طائفة في المقاطعات الشرقية تعارض الحكومة الإمبراطورية دائما، هي طائفة اليهود، التي كانت تستقر بأعداد كبيرة في مدن الشرق الكبرى كلها، وتخضع لأوجه من عدم الأهلية القانونية في النواحي المدنية، وتتعرض هي وممتلكاتها بين الحين والآخر للضرر الذي يترتب على ما يثور من شغب، وإزاء ذلك كانت تنتهز كل فرصة لإيذاء المسيحيين، وجعلت منها مواردها المالية واتصالاتها الواسعة خطرا كامنا يتهدد الحكومة. (٢)

---

(١) أحسن ما كتب عن التاريخ المبكر لكنائس النساطرة والوحد يطبعيين يرد في :

Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique,* articles on "Nestorians" , by Amann, and "Monophysitisme" , by Jugie, and in the chapters by Bardy in vol. iv, and by Bréhier in vols. iv and v, of the *Histoire de l'Eglise,* ed. by Fliche and Martin .

(٢) For the arbitrary but not very oppressive imperial legislation against the Jews, see Bury, Later Roman Empire (A.D.395-565), vol.ii,p. 366, and Krauss, *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichten,* pp. 1-36 .

تصدع في سوريا

وساءت الأمور في القرن السادس عشر، إذ استمرت حروب جستينيان في الغرب وأنفق فيها أموالا كثيرة وزاد الضرائب على رعاياه الشرقيين دون أن يمنحهم مزايا تعوضهم، وغدت سياسته في وضع حرج. وعانت سوريا أسوأ معاناة، فبخلاف عبء الضرائب ابتليت بسيل من غارات الجيوش الفارسية، وسلسلة من الزلازل المدمرة. ولم يزدهر سوى الهراطقة؛ إذ قام يعقوب الأورفي (١) بتنظيم الوحديطبعيين في سوريا وجعل منهم قوة لها شأنها يدفعه في ذلك عطف الإمبراطورة ثيودورا، ومنذ ذلك الحين أصبحت كنيستهم تعرف عادة (بالكنيسة اليعقوبية). وأما الوحديطبعيون في مصر، ويسمون الآن الأقباط، فكانوا يشملون كل أبناء مصر تقريبا، وأما النساطرة الآمنون المتحصنون عبر الحدود الفارسية فقد توسعوا توسعا سريعا باتجاه الشرق وعززوا موقفهم مع الإمبراطورية ، وأما الأرثوذوكس الذين كانوا يمثلون أقلية في غير مدن فلسطين فقد أطلق عليهم اسم "الملكيين" (٢) من قبيل الازدراء ، وهي تسمية

---

(١) (المترجم) : نسبة إلي مدينة أورفا – وتسمى أيضا الرها – في أقصى الجنوب الشرقي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الملكيون Melchites أو Melkites : تسمية تطلق علي من أخذوا من ميسحيي سوريا ومصر بما انتهي إليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ميلادية من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية واصطلح علي إطلاق هذه التسمية عليهم من قبيل الازدراء لأنهم أخذو في ذلك بالموقف اللاهوتي الذي كان يدين به الإمبراطور البيزنطي ومن ثم أصبحوا ملكيين ، أو رجال الإمبراطور اشتقاقا من اللفظة السريانية Malka التي تعني ملك وأطلق عليهم هذه التسمية أولئك الذين رفضوا تعريف مجمع خلقدونية والذين يؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة وأطلقت هذه التسمية في بادئ الأمر علي من أخذ من المصريين برأي مجمع خلقدونية ثم انصرفت بعد ذلك إلي كل من أخذ بذلك الرأي في الشرق الأوسط وأصبحت في النهاية تدل علي كل من أخذ بمذهب الطبيعتين في بطريركيات الإسكندرية والقدس وأنطاكية --

لها ما يبررها فبقاؤهم يتوقف على قوة الإدارة الإمبراطورية وهيبتها. (١)

وفي سنة ٦٠٢ ميلادية اغتصب فوكاس قائد المئة (٢) العرش الإمبراطوري، وكان حكمه وحشيًا عاجزًا. وبينما كانت القسطنطينية تعاني من حكم الإرهاب تفشت في المقاطعات أعمال الشغب والحرب الأهلية بين المتحزبين من رواد السيرك المتحيزين ومن يتصدون لهم من الطوائف الدينية؛ وفي أنطاكية عقد البطارقة اليعقوبيون

--وانحصرت طائفة الملكيين في المستوطنين اليونانيين والمستعربين من مسيحيي مصر وسوريا الذين اتخذوا الشعائر البيزنطية واتبعوا ميخائيل سيريولاريوس بطريق القسطنطينية في انشقاقه عن روما سنة ١٠٥٤ ميلادية . وحاول بطارقة أنطاكية في القرون التالية أن يعودوا إلي الاتحاد مع روما وظهرت أعداد قليلة من الملكيين الكاثوليك و لم يتم ذلك الاتحاد إلا في سنة ١٧٢٤ ميلادية عندما انتخب سيرل السادس الكاثوليكى بطريقا لأنطاكية وتبعه بضعة أساقفة وثلث الملكيين وانتخب الأرثوذوكس الذين عارضوا الاتحاد سلفستر بطريقا لهم وحصلوا علي اعتراف قانوني بهم من الحكومة العثمانية وبذلك تأكد استقلالهم الذاتي وبعد انقضاء مائة عام من الاضطهاد والصراعات الدينية بين اليسوعيين (Jesuits) والمارونيين اللبنانيين وبين الكاثوليكيين منح الأتراك العثمانيون أولئك الكاثوليكيين استقلالا ذاتيا أتاح لهم حرية ممارسة نشاطهم وتزايد عددهم .

(١) See Bréhier,cit. iv, pp. 489-93; Devreesse,*Le Patriarchat d'Antioche*, pp.77-99

(٢) (المترجم) : المئة : جماعة تتألف من مئة مقاتل حسب تقسيم الجيش الروماني .

والنساطرة مجلسًا مشتركًا علنيًا لمناقشة اتخاذ إجراء ضد الأرثوذوكس، فعاقبهم فوكاس بأن أرسل إليهم جيشًا قتل أعدادًا غفيرة من الهراطقة بمساعدة اليهود الذين سرهم ذلك، وبعد ذلك بعامين ثار اليهود أنفسهم وعذبوا بطريق المدينة الأرثوذوكسي وقتلوه. (١)

الحرب الفارسية

وفي سنة ٦١٠ ميلادية عزل فوكاس شاب نبيل ينحدر من أصل أرميني هو هرقل ابن حاكم أفريقيا. وفي نفس العام أتم كسرى الثاني استعداده لغزو الإمبراطورية وتمزيق أوصالها، ودامت الحرب الفارسية تسعة عشر عاما، اتخذت الإمبراطورية في اثني عشر منها موقف الدفاع، واحتل الجيش الفارسي هضبة الأناضول وسوريا، وسقطت أنطاكية سنة ٦١١ ميلادية ودمشق سنة ٦١٣ ميلادية، وفي ربيع ٦١٤ ميلادية غزا القائد شهربراز فلسطين وراح ينهب البلاد ويحرق الكنائس في طريقه و لم تسلم سوى كنيسة الميلاد في بيت لحم بسبب الفسيفساء التي تصور حكماء الشرق يرتدون ملابس فارسية، وحاصر القدس في الخامس عشر من أبريل (نيسان) وكان البطريق زخارياس مستعدا لتسليم المدينة حقنا للدماء، ولكن سكانها من المسيحيين رفضوا أن يسلموا في خنوع، فاقتحمها الفرس في الخامس من مايو (أيار) بعون اليهود الذين كانوا في داخلها، وتبعت ذلك مشاهد من الهلع البالغ؛ فبينما كانت النيران تلتهم كنائس ومنازل المسيحيين قتل جنود الفرس بعضهم وقتل اليهود أكثرهم دون تمييز ويقال إن

---

(١) Theophanes, ad ann.6101, p.296; John of Nikiu, p.166; Sebeos, pp.113-14; Eutychius, *Annales,* col. 1084 (telling of riots in Tyre); *Chronicon Paschale,* p. 699 (attributing the murder of the Patriarch to rioting soldiers); Kulakovsky, "Criticism of evidence in Theophanes "(in Russian), *Vizantiiski Vremennik,* vol. xxi, pp. 1-14, and *History of Byzantium,* vol.iii (in Russian), pp. 12-15, who collates the evidence and fixes the date .

ستين ألفا أبيدوا وإن خمسا وثلاثين ألفا آخرين بيعوا عبيدا في أسـواق الرقيـق، وإن "المخلفات المقدسة" بالمدينة وهى "الصليب المقدس" و"أدوات الآلام" (١) قد اكتشفت بعد إخفائها وأرسلت مع البطريق شرقا هدية لملكة فارس المسيحية، مريم النسطورية. وبلغ تخريب المدينة وما حولها ذروته بحيث لم تعد البلاد إلى حالتها الأولى حتى يومنـا هذا. (٢) وبعد ثلاث سنوات تقدم الفرس إلى مصر وسيطروا عليها في غضـون عـام واحد، وصلت الجيوش الفارسية إلى البسفور شمالا.

وكان سقوط القدس صدمة مروعة للعالم المسيحي. ولم يكن الدور الذي لعبـه اليهود في ذلك لينسى أو يغتفر في أية حال. وأخذت الحرب ضد الفرس طبيعة الحرب المقدسة. وعندما استطاع هرقل أخيرا أن يبادر إلى الهجوم سنة ٦٢٢ ميلادية كـرس نفسه وجيشه للرب في خشوع، وانطلق كمحارب مسيحي يتصدى لقوى الظـلام، وصورته الأجيال اللاحقة على أنه أول الصليبيين. فبعد ذلك بخمسة قرون أورد المؤرخ وليم الصوري قصة الحرب الفارسية ضمن تاريخه عن الحملات الصليبيـة، وتعـرف الترجمة القديمة لكتابه باسم "كتاب هرقل".

وكانت تلك الحرب الصليبية حربا ناجحة. فبعد كثير من التقلبات ولحظات من القلق واليأس هزم هرقل الفرس في نينف في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٢٧ ميلادية، وفي بداية العام التالي ٦٢٨ ميلادية اغتيل الملك كسرى، وفاوض خليفته على السـلام الذي لم يقر إلا سنة ٦٢٩ ميلادية، واستعادت الإمبراطورية ما فقدته من مقاطعـات، وفي أغسطس (آب) احتفل هرقل بانتصاره في القسطنطينية، وفي الربيع التالي رحل مرة

---

(١) (المترجم) : يقصد بالالام ، في العقيدة المسيحية ، معاناة وموت السيد المسيح علي لصليب .

(٢) Antiochus the stratege, pp. 9 - 15; Sebeos, pp. 130 - 1; *Anon. Guidi*, p .3 ; *Chronicon Paschale*, pp. 704 - 5; Theophanes, ad ann. 6106, pp. 300-1 . The incident of the mosaics at Bthlehem is given in the letter of the eastern Patriarch to Theophilus, in Migne, Patrologia Graeco-Latina, vol. xcv, cols. 380-1.

أخرى جنوبا ليستعيد "الصليب المقدس" ويحمله إلى القدس في موكب فخم. وكان ذلك المشهد مثيرا للعواطف.

على أن مسيحيي الشرق لم يكونوا على أية حال سيئة في ظل الحكم الفارسي، فمحاباة كسرى لليهود لم يدم وانتهى به الأمر إلى طردهم من القدس. وبينما كان البلاط الفارسي يحابي النساطرة، كان كسرى يظهر رسميا مشاعر العطف على الوحديطبعيين والأرثوذوكس بنفس القدر، فاستعادوا كنائسهم وأعادوا بناء ما تهدم منها وانعقد في العاصمة كتسيفون (١) مجلس برعاية كسرى لمناقشة إعادة توحيد الطوائف. على أنه تبين بعد عودة الإدارة الإمبراطورية، وبعد أن خبا ما صاحب ذلك من حماس، أنها تفيد الأرثوذوكس دون غيرهم؛ ذلك أن هرقل الذي ورث خزانة خاوية لم يتمكن من تمويل حروبه إلا بقرض ضخم من الكنيسة، ولم تكف الأسلاب التي أخذها من فارس لسداد الدين، ومرة أخرى وجد السوريون والمصريون أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، وإذا هم يرون أموالهم تضخم خزائن رجال الكنيسة الأرثوذوكسية.

وأخفقت سياسة هرقل الدينية في إصلاح الأمور. ذلك أنه بدأ باتخاذ بعض الإجراءات ضد اليهود، وإن لم يكن يضمر لهم عداء من قبل، ولكن الذي حدث هو أنه التقى بيهودي أكرم وفادته في طبرية وهو في طريقه إلى القدس وأحاطه علما بالتفاصيل الكاملة للدور الذي قام به اليهود إبان الغزوات الفارسية. وربما تأثر بنبوءة مبهمة مفادها أن جنسا مختونا سيدمر الإمبراطورية، فأمر بتعميد كل اليهود في الإمبراطورية تعميدا قسريا وكتب إلى ملوك الغرب يحثهم على أن يحذوا حذوه. واستحال تنفيذ أمره، على أن الحادثة أتاحت للمسيحيين المتعصبين فرصة نادرة لتقتيل

---

(١) (المترجم) : كتسيفون : أو المدائن، تقع حاليا بالقرب من بغداد جنوبا .

ذلك الجنس البغيض، وهكذا ازداد استياء اليهود من الحكم الإمبراطوري. وخاض الإمبراطور في أمواه اللاهوت المسيحي الخطرة؛ ذلك أنّ سرجيوس بطريق القسطنطينية وهو سوري وَحْدِيطَبَعِيّ بالمولد تدرج في تطوير عقيدة ظن أنها تحقق المصالحة بين الوَحْدِيطَبَعِيّين وبين الأرثوذوكس، ووافق هرقل على تلك العقيدة المعروفة تاريخيًا باسم المونوإنرجية (١) ، وبانتهاء الحروب الفارسية انتشرت العقيدة الجديدة. وبرغم أن الإمبراطور والبطريق تبنياها، وأن الحبر الروماني هونوريوس وافق عليها موافقة مشوبة بالحذر، فإنها لم تلق شعبية تذكر، وأجمع رجال الكنيسة من الوَحْدِيطَبَعِيّين على رفضها من فورهم كما رفضتها أغلبية الأرثوذوكس التي يتزعمها في القسطنطينية الصوفي الكبير مكسيموس المعترف، وفي الشرق البطريق سوفرونيوس. وحاول هرقل جاهدا أن يفرضها على رعاياه تدفعه الحماسة أكثر مما تدفعه الفطنة، لكنه لم يجد أحدا يؤيده سوى حاشيته وعدد ضئيل من الأرمن واللبنانيين الذين عرفوا فيما بعد بالموارنة. ثم عدل هرقل هذه العقيدة فيما بعد ونشر سنة ٦٣٨ ميلادية عقيدته المسماة اكثيسيس(٢) التي يدافع فيها عن المونوثيليتية (٣) ، لكنه أخفق بنفس القدر. ولم يستقر على رأى في هذه المسألة برمتها، وبقيت الحال على ذلك حتى بعد انعقاد المجلس المسكوني

---

(١) (المترجم) : Monoenergism يقصد بهذه اللفظة الوحد يطاقية إذ ذهب سيرجيوس بطريق القسطنطينية (٦١٠-٦٣٨) في محاولته التوفيق بين الوحد يطبعين وبين القائلين بأن للمسيح طبيعتين إلي التأكيد علي أن للمسيح منبع إلهي واحد للفعل الحيوي Monoenergism وأنه يختص بإرادة واحدة Monothelitism وقد حاول سيرجيوس بذلك تحقيق الوحدة العقائدية في العالم المسيحي الشرقي، وإن كانت هذه العقيدة قد رفضت بعد ذلك علي أنها غير أرثوذوكسية .

(٢) (المترجم) : اكثيسيس Ekthesis لفظة يونانية تعني : يعرض أو يطرح ، استخدمها أرسطو في علم المنطق ليدلل بها علي صحة فرض أو قياس منطقي معين .

(٣) (المترجم) : المونوثيليتية Monotheletism معتقد لاهوتي يري أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين .

السادس سنة ٦٨٠ ميلادية. مما زاد من المرارة والاضطراب الذين كانا يلحقان الخراب بمسيحي الشرق.

الجزيرة العربية قبل الإسلام

كان هرقل يستقبل في القسطنطينية في سنة ٦٢٩ ميلاديـــة السـفراء المـهنئين القادمين من بلاد بيعدة كفرنسا والهند. ويقال أنه في تلك الأثناء جائته رسالة يوجهها إليه سيد عربي يقدم نفسه على أنه نبي الله ويدعوه إلى الدخول في دينه، وتلقى ملكـا فارس والحبشة وحاكم مصر رسائل مماثلة. وربما تكون تلك القصة مكذوبة، فمن غير المحتمل ألا يكون هرقل قد علم آنذاك بالأحداث العظام التي كانت آخـذة في تغيير الجزيرة العربية تغييرا شاملا. ففي بداية القرن السابع كانت تقيم في شبه الجزيرة بعض القبائل المستقلة التي يصعب قيادها، تقوم حياة بعضها على الرعي والبعض الآخر على الزراعة واستقرت قلة منها في مدن تجارية تقع على امتداد طريق القوافل. وكان شبـه الجزيرة وثنيًا ولكل منطقة فيه أوثانها. وكانت الكعبة أقدس المقدسات وتقع في مكـة وهى المدينة التجارية الرئيسية. على أنّ عبادة الأثان كانت تتضاءل بسبب ماكان يقوم به المبشرون من اليهود والمسيحيين والزرادشتيين (١) . ولم تحقق الزرادشتية نجاحًا إلا في

---

(١) (المترجم) : الزرادشتيون : نسبة إلي زرادشت (Zoroaster أو Zarathustra) الذي ولد في فـارس حوالي سنة ٦٢٨ ق.م وتوفي حوالي سنة ٥٥١ ق.م ، وهو مصلح ديني لا يعرف عن حياته معرفة يقينيـة إلا القليل . ويقال أنه تلقي رؤيا من أهورا مازدا الرب الحكيم الذي كلفه بالدعوة إلي الحقيقة ولم يتصد زرادشت للقضاء علي وثنية الديانة الفارسية وإنما جعل أهورا مازدا علي رأس ملكوت يقوم علي العدل ويعد بـالخلود والنعيم فأهورا مازدا هو صاحب المكانة العالية بين الألهة والجدير بأن يعبد ولا يستطيع الدارسون المحدثون أن يثبتوا علي سبيل اليقين ما يرد إلي زاردشت وما يرد إلي اتباعه مما جاء في الزرادشتية من توحيدية وإثنينيـة (أي عبادة إلهين) ومما يتعلق بالأخرويات (كالموت والبعث والحساب والخلود) والممارسات الشعائرية . للزراشتيـة أتباع قلائل منعزلون في إيران ولها أتباع كثيرون في الهند من أحلاف الزرادشتيين الأول الذين هاجروا إلي هناك

المناطق الشمالية الشرقية الخاضعة للنفوذ السياسي الفارسي وفيما بعد في الجنوب. وكان اليهود مجتمعون في كثير من المدن العربية، خاصة في "المدينة"، وتمكنوا من تحويل عدد قليل من العرب إلى دينهم. وأما المسيحيون فكانوا يحققون نجاحا أكبر وأصبح للأرثوذكس أتباع في سيناء والبتراء، ووجد النساطرة حيثما توفرت الحماية الفارسية شأنهم في ذلك شأن الزرادشتيين،وكان للوحديطبعيين تجمعات عبر طرق القوافل الممتدة إلى اليمن وحضرموت ، كما كانت هناك قبائل هامة كثيرة تدين كذلك بالوحديطبعية كالغساسنة والتغالبة . وأتيحت للتجار العرب الذين كانوا يترددون على مدن سوريا وفلسطين والعراق فرص أكثر للإلمام بأديان العالم المتحضر، بينما كان هناك في شبه الجزيرة ذاتها تراث الحنفاء (١) القديم الذي يأخذ بالتوحيد. وفي الوقت نفسه كانت شبه الجزيرة في حاجة إلى التوسع نظرا لمواردها الشحيحة التي كانت تتناقص على نحو مطرد منذ تدمير منشآت الري الخاصة بالحميريين ولم تعد تكفي السكان المتزايدين، فعلى مدى التاريخ المسجل كان سكان الصحراء يتدفقون دائما على الأراضي المزروعة من حولهم، وزادت الحاجة الآن إلحاحا.

ويستطيع مؤرخو الأديان الغربيون أن يقفوا في وضوح علي أوجه الصلات أو العلاقات بين العقائد الزرادشتية و العقائد اليهودية و المسيحية، ومن ثم نراهم يحاولون أفتعال علاقة مزعومة بين الزرادشتية و الإسلام. ذلك أنهم يرون في أباطيلهم أن ثمة علاقة بين الإسلام و اليهودية و المسيحية، وبالتالي لابد من أن تكون هناك علاقة بين الإسلام و الزرادشتية. على أنَ بطلان هذا الزعم لا يحتاج إلي تدليل عند المنصفين من دارسي خصائص الأديان الذين يعرفون أن الإسلام وحدة هو الدين الذى يقوم على التوحيد الخالص الذى ينزه الله تنزيها مطلقاً عن الشرك أو شبهة الشرك به وعن إيثاره لقوم معين دون سائر خلقه .

(١) (المترجم) : الحنفاء : جمع حنيف وهو المخلص الذي أسلم لأمر الله فلم يلتو في شيء من دينه وقد جاء هذا اللفظ في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قول الحق عز وجل في سورة البقرة الآية ١٣٥ ، " قل بل ملة ابراهيم حنيفا " وفي سورة الحج الآية ٣١ ، " حنفاء لله غير مشركين به " ولفظ حنيف مشتق من الفعل : حنف يحنف حنفا أي : مال ويقصد بالميل في هذا السياق : الميل إلي الحق والحنفاء علي وجه العموم هم أولئك السابقون علي الإسلام الذين اهتدوا إلي التوحيد ومن ثم أنكروا اليهودية والمسيحية وعبادة الأوثان .

وجاءت عبقرية محمد العظيمة والمتفردة لتلائم تماما تلك الظروف. فقد نشأ في مدينة مكة المكرمة واحدا من فقراء قبيلتها العظيمة قريش، وارتحل وشاهد العالم ودرس أديانه (١) ، واجتذبته الوحديطبعية بوجه خاص، على أن عقيدة التثليث بدت له متناقضة مع اتجاه التوحيد الخالص الذي أعجب به في تراث الحنفاء. والعقيدة التي جاء بها، وإن لم تكن ترفض المسيحية رفضا مطلقا، إن هي إلا شكل من الدين يقوم المفاهيم ويبسطها بحيث تسوغ لقومه في يسر. ويرجع نجاحه كداعية ديني إلى فهمه العميق للعرب، ذلك أنه كان أقدرهم وكان يشاركهم مشاعرهم وميولهم مشاركة أصيلة، فضلا عن أنه كان يتميز بمهارة سياسية فائقة. وائتلفت هذه الصفات فيه لتعينه على أن يقيم من لا شيء في سنوات عشر إمبراطورية تتأهب لفتح العالم. ففي سنة ٦٢٢ ميلادية، وهو عام الهجرة، انحصر أتباعه في آل بيته وجماعة صغيرة من أصدقائه، وعندما مات سنة ٦٣٢ ميلادية كان سيد شبه الجزيرة العربية كلها وكانت جيوشه تجاوز حدودها. وإذا كان من يقدمون على التغيير في الشرق كثيرا ما يتولون زمام الأمور على حين غرة، فإنهم سرعان ما يفقدون سلطانهم فجأة بعد ذلك. بيد أن محمدا ترك من بعده نظاما باقيا يضمن القرآن دوامه، ذلك الكتاب العظيم الذي جاء به النبي

---

(١) (المترجم) : نحسب أن رانسيمان مؤلف هذا الكتاب يأخذ فيما يذهب إليه هنا ومتاح في الغرب مما يردده المستشرقون وواقع الحال أن النبي صلي الله عليه وسلم لم يتح له أن يجوب بقاع العالم علي سعته وأن يدرس أديانه علي تنوعها ومن البدهي أن وسائل الاتصال وسبل انتشار المعرفة لم تكن لتتيح مهما أوتي من قدرة الإلمام بما كان متوزعا هنا وهناك من معتقدات .

والدراسة المقارنة والمتعمقة والتي تتميز بالحيدة الموضوعية لتواريخ الأديان السماوى منها والوضعي ، تبين دون شك أن المفاهيم الأساسية والتي تتمثل في مفهومي الألوهية والنبوة من ناحية بالإضافة إلي شرائعه ، والتي تستهدف تنظيم حياة الإنسان تختلف في الدين الإسلامي اختلافا بيناً وأصيلا عما عداها في سائر الأديان والعقائد الأخري . والصلة التي حاول المستشرقون ويحاولون حتي يومنا هذا إيجادها بين الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد تتسم بافتعال وتعمل لا يصمدان للمناقشة المنطقية والحيدة الموضوعية .

وتتمثل فيه كلمة الله، والذي لا ترد فيه جوامع الكلم والقصص وحسب، وإنما يضم كذلك القواعد التي تقوم عليها الحياة وأسس الحكم وشريعة كاملة. و لم يكن القرآن مستغلقا على البسطاء من العرب معاصري النبي، كما أنه يتميز بالشمول الذي يفي باحتياجات الملك العظيم الذي قدر لخلفائه أن يقيموه من بعده. ولا غرو، فإن قوة الإسلام تنبثق من بساطته. ففوق الخلق إله واحد، وعلى الأرض يحكم المؤمنين أمير واحد، بمقتضى شريعة لا ينبغي له أن يحكم بسواها ألا وهى القرآن. وعلى خلاف الحال في المسيحية التي تدعو إلى سلام لم تستطع أبدا تحقيقه، جاء الإسلام بسيف لا يستشعر الحرج في مجاهة الباطل (١) .

---

(١) (المترجم) : اقتضت الأمانة العلمية أن ننقل إلي العربية بكل دقة ما جاء به رانسيمان في هذا الجزء متأثرا بما ورد في المراجع الغربية من تصور ساذج ينبيء عن الجهل حينا وعن سوء القصد أحيانا ويتمثل في أن النبي محمدا لم يكن يصدر فيما جاء به عن وحي أنزل عليه من السماء وإنما كان مدفوعا ببواعث مصلح اجتماعي وسياسي توفرت له أسباب القدرة المتفوقة والعبقرية المتفردة وهو في رأيهم إنما جاء بما يناسب بساطة قومه الذين عاش حياقم وسبر أغوارهم . وكأن هؤلاء الكتاب الغربيين لم يحاولوا أن يسائلوا عقولهم المتحيزة عن علة واقع لا يجهلونه يعلمهم أن الإسلام - كعقيدة وشريعة ونظام سياسي اجتماعي - جاوز حدود شبه الجزيرة وبلغ في عقود قليلة أقصى أرجاء العالم المعروف من الصين شرقا إلي الأندلس غربا ودانت به شعوب وأقوام تختلف في كل مقوماقا أيما اختلاف عن بعضها البعض وعما كان عليه العرب الذين بدأ الإسلام مسيرته عندهم.

وثمة حقيقة أخري أسرف خصوم الإسلام في تجاهلها وعمدوا إلى افتعال ما يناقضها تتمثل في أن الإسلام لم يقم في نشر دعوته علي إعمال السيف ، وحسبنا في الرد علي من يزعمون أن للسيف مجالا في نشر الدعوة الإسلامية أن نورد آيتين من القرآن الكريم تقرر أولاهما أن " لا إكراه في الدين " (البقرة ٢٥٦) ، وتأمر ثانيتهما المسلمين ألا يلجأوا إلي القتال إلا دفاعا عن أنفسهم : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... " (الحج ٣٩) ولا يفوتنا هنا أن نلفت نظر القارىء إلي أن الفعل " يقاتلون " مبني للمجهول وذلك يعني أن المسلمين لم يؤذن لهم بقتال إلا بعد أن بودروا به وأنهم لم يبدأوه . والذي حدا بنا إلي الإشارة إلي ذلك أن مترجمي القرآن الكريم من غير المسلمين عمدوا في ترجماقم إلي نقل الفعل " يقاتلون " مبنيا للمعلوم كي يوحوا بأن المسلمين هم الذين كانوا يبادرون بالقتال . ولا يتسع هذا المجال الضيق لأن نورد ما يجاوز ذلك في دحض أباطيل

الغ[illegible] أو هامهم --

الغزو العربي الأول

واتخذ السيف سبيله إلى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية والنبي بعد علـــى قيـــد الحياة، وتمثل ذلك في سرايا صغيرة ذهبت إلى فلسطين و لم تحقق الكثير مـــن النجـــاح. واتسع انتهاج سبيل الفتح في عهد أبي بكر، خليفة محمد، الذي استكمل فتـــح شبـــه الجزيرة بطرد الفرس من مستعمرتهم في البحرين، وفي نفس الوقت زحف جيش عـــربي عبر البتراء على طريق التجارة المؤدي إلى ساحل فلسطين الجنوبي وهزم الحاكم المحلـــي سرجيوس في مكان ما بالقرب من البحر الميت، ثم تقدم إلى غزة واستولى عليها بعـــد حصار قصير ولقي سكانها معاملة طيبة منه، وأصبح جنود الحامية أول من استشهد من المسيحيين على أيدي المسلمين.

وفي سنة ٦٣٤ ميلادية خلف عمر أبابكر وورث عنه عزمه على أن يزيد من قوة المسلمين. وفي تلك الأثناء أيقن هرقل، الذي كان ما يزال في شمال سوريا، أنه لا مفر من أخذ الغزو العربي مأخذا جادا، لكنه كان يعاني من نقص الرجال لخسائره الفادحة في الحرب الفارسية خاصة وأنه سرح كتائب كثيرة بعد انتهاء تلك الحرب لأســـباب اقتصادية، وتبدد حماس الالتحاق بالجيش، وخيم في أنحاء مملكتـــه شعـــور الـــتراخي والتشاؤم الذي غالبا ما يحل بالمنتصرين بنفس القدر الذي يحل به على المنهزمين بعـــد حرب طويلة مريرة. ورغم ذلك، أرسل هرقل أخاه ثيودور على رأس جنود المقاطعـــة السورية لحفظ النظام في فلسطين. والتقى ثيودور بالجيشين العربيين الرئيسيين معـــا في جباثا أو أجنادين جنوب غرب القدس وهزم هزيمة ماحقة. وبـــات العـــرب آمنين في

-- بيد أنه لا بد لنا من أن نستميح للمؤرخ رانسيمان عذرا فيما يستغلق عليه بالعقيدة والشريعة الإســـلاميتين فمراجعه فيهما غربية وتبعة التقصير في نقل إسلامنا علي وجهه الصحيح إلي الغرب تقع ولا شـــك علينـــا ، وحسبنا من رانسيمان أنه استطاع أن يبذل جهده ويعمل فكره ويجيء بمعالجة واقعية لما كانت عليه الحمـــلات الصليبية في حيدة علمية لا نكاد نجد مثلها عند غيره .

جنوب فلسطين، فتقدموا على طريق التجارة الذي يمضي شرقي الأردن إلى دمشق ووادي الأرند (نهر العاصي)، وسقطت في أيديهم مدن طبرية وبعلبك وحمص دون مقاومة، واستسلمت دمشق في أغسطس (آب) سنة ٦٣٥ ميلادية بعد حصار قصير.

الفتح العربي لسوريا

وهنا شعر هرقل بالخطر الحقيقي فأرسل بشيء من الجهد جيشين جنوبا: الأول يقوده أمير أرميني يدعى فاهان ويتألف من مجندين أرمينيين وعدد كبير من العرب المسيحيين يرأسهم شيخ من بني غسان، والجيش الثاني يقوده ثيودور تريتيريوس يتألف من أخلاط من الجنود. وحين علم المسلمون بأنباء اقترابهما انسحبوا من وادي الأرند ودمشق ناحية الأردن، واشتبك معهم تريتيريوس عند جابيا في الحوران لكنهم هزموه. ورغم ذلك، تمكن من الاحتفاظ بموقع على نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من الجليل حتى يلحق به فاهان، حيث نشبت المعركة في ٢٠ أغسطس (آب) سنة ٦٣٦ ميلادية في عاصفة رملية تعمي الأبصار، وكان جيش المسيحيين يفوق جيش المسلمين عددا ولكن المسلمين ناوروهم وهزموهم، ففي خضم القتال انضم الأمير الغساني إلى الأعداء ومعه اثنا عشر ألفا من العرب المسيحيين من الوحديطبعيين الذين كانوا يكرهون هرقل وتأخرت رواتبهم لشهور عديدة، ومن ثم سهلت عليهم خيانته بحيث حسمت الموقعة، وبذا اكتمل النصر الإسلامي. وهلك تريتريوس وفاهان وجميع رجالهما تقريبا، وأصبحت فلسطين وسوريا مهيأتين للفتح.

وعلم هرقل بالهزيمة وهو في أنطاكية فأخذ منه اليأس كل مأخذ. إنها يد الرب تمتد إليه لتعاقبه على زواجه الآثم من ابنة أخته مارتينا، وليس لديه رجال ولا أموال للدفاع عن المقاطعة أكثر من ذلك. فأقام صلاة شفاعة خاشعة في كاتدرائية أنطاكية، واتجه إلى الشاطىء وركب سفينة إلى القسطنطينية. وأثناء تحرك السفينة

مبتعدة عن الشاطىء صاح في صوت مرير من بين عبراته: "وداعا... وداعا طويلاً لسوريا".(١)

واكتسح العرب البلاد، واستسلم لهم الهراطقة المسيحيون دون اعتراض وقدم لهم اليهود عونًا فعالاً إذ عملوا كمرشدين لهم. و لم يجد العرب مقاومة منظمة إلا في أكبر مدينتين فلسطينيتين: قيسارية والقدس، وفي قلعتي بيلا ودارا على التخوم الفارسية. أما في القدس، فما أن سمع سوفرونيوس بأخبار اليرموك إلا وحصّن دفاعات المدينة، وفور سماعه بوصول الأعداء إلى أريحا جمع آثار المسيح المقدسة وأرسلها إلى الساحل بليل لتوصيلها إلى القسطنطينية، فلا ينبغي أن تقع تلك الآثار المقدسة في أيدي الكفرة مرة أخرى. وصمدت القدس للحصار لما يزيد على عام؛ وصمدت قيسارية ودارا حتى سنة ٦٣٩ ميلادية ، لكنهما كانتا نقطتي حراسة معزولتين، وكانت حاضرة الشرق أنطاكية قد سقطت في العام المنصرم، وهكذا أمست البلاد كلها من برزخ السويس وحتى جبال الأناضول في قبضة المسلمين. (٢)

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الأحداث دمر العرب الإمبراطورية الفارسية ند روما القديم. إذ استولوا على العراق بانتصارهم في القادسية سنة ٦٣٧

---

(١) يذكر ميخائيل السوري Micael the Syrian, vol. ii, pp.424 قصة صلاة الشفاعة التي أداها هرقل ووداعه ، ويتهمه خطأ بأنه نهب ثروات المدن السورية قبل رحيله . ويتكرر ذكر هزيمته في *Agapius Kitab al-Unvan*, p. 471، حيث يقال إنه رفض أن يحارب ضد إرادة الرب . وبحسب ما ذكره Nicephorus, p.23، فإن Theodore يعزو الكوارث التي نزلت بالإمبراطور إلي زواجه الباطل بابنة أخته .

(٢) أنظر Ceatani, *op. cit.* vol. iii, pp. 1119 ff. and de Goeje, *Mémoire sur la Conquête de la Syrie, Passim;* Prince, *op. cit.* pp. 267-89; Kulakovsky, *op. cit.* vol. iii, pp. 152-6 ويتأكد الدور الذي لعبه اليهود في جميع المصادر الأصلية ، خاصة Sebeos, pp. 173-4, وفي *Doctrina Jacobi*, pp. 89-8 الذي كتبه أحد يهود القسطنطينية الذي وجد نفسه آنذاك في قرطاجة .

ميلادية،وعلى الهضبة الإيرانية بانتصارهم في نهاوند في العام التـــالي. وقبـــع يزدجـــرد الثالث، آخر الساسانيين، في خراسان متحفزا حتى سنة ٦٥١ ميلادية، وكان العـــرب قد وصلوا آنذاك إلى حدوده الشرقية على التلال الأفغانية وتلال أكسوس.(١)

فتـــح مصـــر

وتقدم القائد المسلم عمرو في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٣٩ ميلادية بأربعـــة آلاف رجل لغزو مصر التي كانت إدارتها الرومانية في فوضى عارمة منذ نهاية الاحتلال الفارسي. فكان حاكم مصر، سيروس بطريق الإسكندرية، فاسدا تعوزه الحكمة، فقد تحول عن النسطورية وتزعم مناصري الإمبراطور في تعاليمه المونوثيليتية وعقد العـــزم على فرضها على الأقباط الرافضين لها، فكانوا يمقتون حكمه مقتا شديدا، وهكـــذا لم يجد عمرو مشقة في العثور على حلفاء له من بين رعاياه. وفي بداية سنة ٦٤٠ ميلادية دخل عمرو قلعة الفرما العظيمة على الحدود بعد حصار دام شهرين، وهناك جاءتـــه تعزيزات من الخليفة. وتقدم إلى بلبيس (القاهرة القديمـــة) حيـــث تتمركـــز الحاميـــة الإمبراطورية، وأسفرت المعركة التي نشبت في هليوبوليس في أغســـطس (آب) ســـنة ٦٤٠ ميلادية عن تقهقر الرومان إلى حصن بابليون الذي صمد حتى إبريل (نيســـان) سنة ٦٤١ ميلادية. واستولى العرب على مصر العليا، وبعد سقوط بابليون سار عمرو من الفيوم إلى الإسكندرية وأمامه حاكمها وحاميتها يلوذون بالفرار. وثارت شكـــوك لها ما يبررها حول دخول سيروس في تحالف خائن مع عمرو، فاستدعته القسطنطينية، لكن هرقل مات في فبراير (شباط)، وتنظر أرملته الإمبراطورة الوصية مارتينا فلا تأمن على نفسهـــا في القسطنطينية ، فماذا تفعل للدفاع عن مصر؟ لذا أعادت سيروس إلى

---

(١) Caetani, *op. cit.* vol. iii, pp. 629 ff.; Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, pp. 494-503.

مصر ليصل إلى ما يستطيع الوصول إليه من شروط. فذهب إلى عمرو في نوفمبر (تشرين الثاني) ووقّع معه معاهدة تسليم الإسكندرية. وفي تلك الأثناء سقطت مارتينا، وأنكرت الحكومة الجديدة سيروس ومعاهدته، لأن عمروا أخل بما اتفق عليه وغزا مدن منطقة البنتابولس بفلسطين ومنطقة طرابلس بليبيا (١). وبدا، مع ذلك، أنه من المستحيل الاحتفاظ بالإسكندرية بينما مصر كلها في قبضة العرب فاستسلمت المدينة في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ٦٤٢ ميلادية. لكن الأمل لم يتبدد كله بعد، إذ استدعى عمرو إلى "المدينة" في سنة ٦٤٤ ميلادية، وأرسل إلى الإسكندرية جيش جديد عن طريق البحر من القسطنطينية ليحتلها مرة أخرى في أوائل سنة ٦٤٥ ميلادية، وتقدم إلى الفسطاط وهي العاصمة التي شيدها عمرو بالقرب من بابليون. ولكن عمروا عاد إلى مصر وهزم القوات الإمبراطورية هزيمة نكراء على مقربة من الفسطاط، وانسحب قائدها مانويل الأرميني عائدا إلى الإسكندرية وقد أذهله ما أبداه المسيحيون من لا مبالاة مطلقة عند محاولته إعادة البلاد إلى المسيحية، فلم يبذل جهدا للدفاع عن المدينة، ورجع إلى القسطنطينية، وأعاد البطريق القبطي بنيامين الإسكندرية إلى عمرو.(٢)

وضاعت مصر إلى الأبد. وفي سنة ٧٠٠ ميلادية أصبحت أفريقيا الرومانية في قبضة العرب. الذين فتحوا إسبانيا بعد أحد عشر عاما. وفي سنة ٧١٧ ميلادية امتدت إمبراطوريتهم من جبال البرانس إلى أواسط الهند، بينما محاربوهم يدقون أسوار القسطنطينية.

---

(١) (المترجم) : بنتابوليس Pentapolis : أي المدن الخمس وتضم : غزة وعسقلان وأشدود وجت وعقرون وكلمة طرابلس مأخوذة عن الأصل تريبوليس Tripolis الذي يعني : المدن الثلاث .

(٢) Bréhier, *op. Cit.* pp. 134-8, 152-5; Amélineau, La Conquête de l'Egzpte par les Arabes in the *Revue Historique*, vol. cxix,pp. 275-301 . والرواية الكاملة الواردة في Butler's *The Arab Conquest of Egypt* ما تزال ذات فائدة رغم أن أسماء الأماكن قديمة.

الفصل الثاني :

حكم مناهض المسيح

حكم مناهض المسيح

"أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ كَلَّتْ أَعْيُنُنَا مِنَ النَّظَرِ إِلَى عَوْنِنَا البَاطِلِ. فِي بُرجِنَا انتَظَرنَا أُمَّةً لا تُخلِّص".

(مراثيا أرميا: ٤ — ٧)

وارتضى مسيحيو الشرق عن طيب خاطر حكم سادتهم الكفرة، ولم يكن بوسعهم غير ذلك. وتضاءل الآن احتمال قيام بيزنطة مرة أخرى لإنقاذ الأماكن المقدسة كما فعلت مع الفرس، وسرعان ما بنى العرب، وهم في ذلك أحكم من الفرس، أسطولا لهم في الإسكندرية، وانتزعوا من بيزنطة أغلى ما لديها من قوة، ألا وهي السيطرة على البحار. واحتفظوا على اليابسة بزمام الهجوم لما يقرب من ثلاثة قرون، وهكذا تبدد الأمل في أن يقوم أمراء العالم المسيحي بذلك الإنقاذ.

ولم يكن مثل هذا الإنقاذ ليلقى ترحيبا من طوائف الهراطقة، فتغيير الحكام يريحهم ويسرهم. وبعد تلك الأحداث بخمسة قرون كتب بطريق أنطاكية اليعقوبي، ميخائيل السوري، أيام الممالك اللاتينية، معربا عن تقاليد شعبه القديمة قائلا: "إن رب الانتقام القدير ... هو الذي بعث بني اسماعيل من الجنوب ليخلصنا بهم من أيدي الرومان"،

وأضاف أن هذا الخلاص "ليس شيئا هينا لنا" (١) . وردد النساطرة هذة المشاعر، فكتب مؤرخ مجهول من مؤرخيهم "لقد طَرِبت قلوب المسيحيين لحكم العرب لهم ــ أعزهم الله ووفقهم" (٢) . وأما قبط مصر، فكان لديهم ما يثير بعض الانتقاد، بيد أنّ عداوتهم كانت تتجه إلى عمروالفاتح القاسي المخادع وما يفرضه عليهم وليس إلى قومه أو دينه(٣) . و لم يظهر الأرثوذوكس كثيرا من الميل إلى مناقشة مصيرهم بعد أن وجدوا أنفسهم آمنين من الاضطهاد الذي كانوا يخشونه فيما مضى، وأنهم يدفعون ضرائب تقل بكثير ــ برغم الجزية التي فرضت عليهم كمسيحيين ــ عما كان يفرضه عليهم البيزنطيون أيام حكمهم. و لم يكن هناك من يقاوم الحكام الجدد سوى قبائل قليلة تعيش في الجبال، مثل قبائل الماردين في لبنان وجبال طوروس، لكنها كانت تقاوم من منطلق الفوضى والكبرياء لا من منطلق العقيدة. (٤)

الذميون

وترتب على الفتح العربي أن بقيت كنائس الشرق كما كانت دون مساس بها. فعلى حين كانت الإمبراطورية المسيحية تتوخى مثلا أعلى يتمثل في أن تفرض على جميع مواطنيها وحدة دينية حال دون بلوغها تعذر تحويل اليهود عن دينهم أو طردهم، كان العرب، كالفرس من قبلهم، مهيأين لقبول الأقليات الدينية على أن تكون من أهل الكتاب. وأصبح المسيحيون ومعهم الزرادشتيون واليهود ذميين، أي طوائف تحظى

---

(١) Michael the Syrian , vol. ii, pp. 412-13 (Syriac text, p. 412) .

(٢) *Chronicle of Seert,* pt. ii, xciv, in *Patrologia Orientalis,* vol . xiii, p. 582.

(٣) John of Nikiu, pp. 195, 200-1 .

(٤) أحداث خروج الجراجمة على القانون في زمن الخليفة الأموي معاوية يصفها . Theophanes, ad ann 6169, p. 355 وانظر أيضا : Sathas, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi,* vol. ii, pp. 45 ff.

بالحماية،تكفل لهم الجزية حرية العبادة وتعفيهم من الخدمة العسكرية، وألحق بالجزية الخراج وهو ضريبة الأرض. وكانت كل طائفة تعامل على أنها ملة أو جماعة تتمتع بحكم شبه ذاتي في نطاق الدولة، يرأس كلا منها زعيم ديني يعتبر مسئولا عن حسن سلوك أفرادها أمام حكومة الخليفة. ويحق لكل منها أن تحتفظ بدور عبادتها التي كانت تمتلكها قبل الفتح، وكان هذا الترتيب يلائم الأرثوذوكس أكثر مما كان يلائم هراطقة المسيحيين الذين أعطاهم هرقل بآخرة كثيرا من الكنائس ليقيموا فيها شعائرهم. ولم يراع الإجراء الأخير مراعاة صارمة، واستولى المسلمون على كنائس مسيحية معينة مثل كاتدرائية القديس حون الكبيرة في دمشق، وأزالوا بين الحين والآخر عددا من الكنائس، ولم يتوقف في نفس الوقت إقامة العديد من الكنائس والمعابد اليهودية. ولقد أباح فقهاء المسلمين المتأخرون للذميين أن يقيموا أبنيتهم دون أن تجاوز في ارتفاعها أبنية المسلمين وبحيث لا تبلغ أصوات أجراسها أو الشعائر التي تقام بداخلها آذان المسلمين. بيد أنه لم يكن هناك ثمة تراخ في الالتزام بالقاعدة التي تقضي بأن يرتدي الذميون ملابس مميزة، وألا يحاولوا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، وألا يتزوجوا نساء المسلمين، وألا يستخفوا بالإسلام; وينبغي لهم أن يظلوا على ولاء للدولة. (١)

الأرثوذوكس تحت الحكم الإسلامي

ورسخ النسق المِلّي مفهوما يختلف بعض الشيء عما كان يفهم من الانتماء القومي. ولم تكن القومية في الشرق تقوم لقرون عديدة خلت على العنصر، فيما عدا حالة اليهود الذين حافظ انغلاقهم الديني على نقاء دمهم نسبيًا ، وإنما كانت تقوم على

---

(١) *Encyclopaedia of Islam,* articles " Djizya" by Becker and " Kharadj " by Juynboll; Browne, *op. cit.* ch. v; Tritton, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects,* ch. xv; Vincent and Abel, *op. cit.* vol. ii, pp.935-44

التراث الثقافي والموضع الجغرافي والصالح الاقتصادي. والآن أصبح الولاء لدين ما بديلا للولاء الوطني. فالمصري، على سبيل المثال لايعتبر نفسه مواطنا مصريا، وإنما مسلما أو قبطيا أو أرثوذوكسيا بحسب حالته. وكان الدين، أوالملة، هو الذي يوجه ولاء الفرد، الأمر الذي أعطى للأرثوذوكس امتيازا على طوائف الهراطقة، إذ كانوا ما يزالون يعرفون بالملكيين ويعتبرون أنفسهم ـــ كما تعني هذه اللفظة ـــ رجال الإمبراطور. وربما تضعهم الضرورة القاسية تحت سيطرة الكافر الذي يجبرهم على إطاعة قوانينه; أما الإمبراطور فهو خليفة الرب على الأرض وسيدهم بلا منازع. والقديس جون الدمشقي، الذي كان يعمل في بلاط الخليفة، كان يخاطب الامبراطور دائما على أنه مولاه وسيده برغم أنه كان يختلف معه في مسائل اللاهوت، بينما كان يخاطب مخدومه ـــ أي الخليفة ـــ على أنه "الأمير" وحسب. والبطارقة الشرقيون، الذين كانوا يكتبون في القرن التاسع إلي الإمبراطور ثيوفيلوس معترضين على سياسته الدينية، كانوا يخاطبونه بألفاظ مماثلة. وكان الأباطرة يقبلون تلك المسئولية، ففي جميع حروبهم ومعاملاتهم الدبلوماسية مع الخلفاء، كانوا يضعون في حسبانهم صالح الأرثوذوكس الذين يوجدون فيما وراء حدودهم. ذلك أن إدارة شؤون هؤلاء الأرثوذوكس لم تكن في متناول حكومة الإمبراطور، فالأباطرة لم يكن بوسعهم التدخل في الحكم اليومي في الأراضي الإسلامية، كما لم تكن لبطريق القسطنطينية أية ولاية على زملائه من البطارقة الشرقيين. ولم تكن مراعاة الأباطرة لصالح الأرثوذوكس إلا تعبيرا، يتسم بعاطفة قوية، عن بقاء فكرة أن العالم المسيحي واحد ولا يقبل التجزئة، وأن الإمبراطور رمز وحدة ذلك العالم. (١)

ولم يكن لكنائس الهراطقة من يسبغ عليها حماية كتلك التي كانت تسبغ على

---

(١) أنظر Runciman, 'The Byzantine " Protectorate " in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. xviii, pp. 207-15.

الأرثوذوكس، فلم يكن بوسعهم إلا أن يعتمدوا اعتمادا مطلقا على حسن نية الخليفة، ومن ثم تقلص نفوذهم وتناقصت هيبتهم. زد على ذلك أن هرطقاتهم تعزى أصولها الأولى إلى حد كبير لرغبة أبناء الشرق في تبسيط العقائد والممارسات المسيحية. وكان الإسلام — الذي كان يقارب المسيحية على نحو جعل الكثيرين يعتبرونه شكلا متقدما منها والذي كان يتمتع في ذلك الحين بميزة اجتماعية كبرى تتمثل في كونه دين الطبقة الحاكمة الجديدة — يسهل قبوله لدى الكثيرين منهم (١). وليس ثمة سبيل إلى معرفة عدد الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام؛ بيد أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الهراطقة وليسوا من الأرثوذوكس. ففي غضون قرن واحد من الفتح أصبحت سوريا بلدا يسود فيه الإسلام، بعد أن كان سواد سكانها من الهراطقة المسيحيين، بينما نقصت أعداد الأرثودوكس بشكل ضئيل. وفي مصر، فقدت المسيحية مكانتها بشيئ من البطء، ويرجع ذلك إلى ثراء الأقباط الذين كانوا يحاربون معركة خاسرة. ومن ناحية أخرى، ضمن النسق الملي دوام بقاء الهراطقة وعزز وضعهم على نحو يحول دون إعادة توحيد الكنائس.

---

(١) (المترجم) لابد لنا من أن نقف مع رانسيمان في هذا السياق فهو - رغم الحيدة الموضوعية التي تتميز بها كتاباته - لا يستطيع أن يخلص مما يشيع عند الكتاب الغربيين من أن الإسلام شكل متقدم أو متطور من أشكال المسيحية بالرغم من أن زيف هذا الرأي أجلي من أن يحتمل لُبْساً . فالمفهوم الإ لاهي في الدينيين الإسلام والمسيحية يختلف اختلافا بينا يغلق كل أبواب التماثل أو التشابه ويحول دون أي شكل من أشكال التوفيق أو التلفيق وهذه حقيقة راسخة تجلوها المقارنة الموضوعية بين المفهومين وليس ثمة شك في أن المفهوم الإلهى هو المفهوم الأساسي الذي لاينهض دين إلا به . وليس ثمة شك في أن مفهومي النبوة والوحي في الدينين يتسمان بالاختلاف الجذري ناهيك عن أن مفهوم الخلاص الذي تقوم عليه المسيحية يجري علي منطق يرفضه الإسلام رفضا مطلقا. وإذا انتقلنا إلي ما يستهدفه الدين من تنظيم للمجتمع نجد أن سبل هذا التنظيم وما تنطوي عليه من تشريع تختلف في الإسلام عنها في المسيحية . وإذا كانت هذه الحاشية لا تتيح مزيدا من التوسع فإننا نترك معالجة الأمر كله إلي صفحات كتاب نرجو أن يعين الله علي إصداره .

ولم ترجع قوة الإسلام في سوريا وفلسطين إلى تدفق العرب المفاجئ من الصحراء، فلم تكن جيوش الفاتحين من الضخامة بمكان، ولم تكن لتشكل سوى طبقة عسكرية تهيمن على السكان الموجودين في البلاد الذين لم يكد يتغير تكوينهم العرقي. وسرعان ما اتخذ أبناء المدن والقرى، من أسلم منهم ومن بقى على مسيحيته، اللغة العربية بدلا من لغتهم في شتى مناحي حياتهم، وفي وقتنا الحاضر نسمي خلفهم، في بساطة، عربا. بيد أنهم كانوا يتألفون من خليط من أجناس كثيرة، ومن قبائل كانت تقيم في تلك الأرض قبل خروج بني إسرائيل من مصر، من الأمالكيين أو الجيبوسيين أو المؤابيين أو الفينيقيين، ومن قبائل أخرى كالفلسطينيين الذين تقادم بهم العهد هناك كغيرهم، ومن الآراميين الذين انتشروا عبر التاريخ المسجل في بطء وخفية في الأراضي الزراعية، ومن أولئك اليهود الذين انضموا إلى كنيسة المسيح، كما فعل الرسل الأولون. ولم يبق دون تخلط سوى اليهود المتدينين، الذين لم يتأثر نقاؤهم العرقي إلا في القليل. وفي مصر كانت سلالة حام أقل تخلطا، بيد أنها زادت نتيجة للتزاوج مع المهاجرين من سوريا والصحاري والنيل الأعلى وشواطئ حوض البحر المتوسط كله.

وكان لابد للهجرة العربية من أن تبلغ أقصى مداها في المناطق المتاخمة للصحراء وفي المدن الواقعة على طريق القوافل الممتدة بطول حوافها. وتدهور التجارة البحرية في البحر المتوسط، الذي حدث على إثر الفتح، أضفى على هذه المدن التي تقطنها أغلبية من المسلمين، أهمية تفوق أهمية المدن الهيلينستية (١) القريبة من الساحل. وكانت الإسكندرية هي الميناء الوحيد الكبير الذي احتفظ به العرب على البحر المتوسط. وبقي فيها، وفي مدن سوريا الهيلينستية كثير من السكان المسيحيين الذين ربما جاوزوا في العدد السكان المسلمين. وفي الريف السوري كان هناك نفس الاختلاف تقريبا، فأصبحت السهول الداخلية والوديان إسلامية بشكل آخذ في التزايد بينما سادت

---

(١) (المترجم) : هيلينستي : كل ما يتعلق بالثقافة الإغريقية في عصر ما بعد الإسكندر الأكبر .

الطوائف المسيحية المتنوعة المنطقة الواقعة بين لبنان والبحر. وفي مصر كان الفارق بين الحضر والريف أكبر إذ تحول الفلاحون إلى الإسلام شيئا فشيئا بينما كانت المسيحية تغلب على أهل المدن. وفي فلسطين كان توزع المسلمين والمسيحيين مغايرا، فبينما أسلم السكان في مناطق كثيرة من الريف، تمسكت قرى كثيرة بدينها القديم، وأما المدن ذات الأهمية الخاصة عند المسيحيين ــ مثل الناصرة وبيت لحم ــ فكانت المسيحية منتشرة فيها تماما. وفي القدس نفسها، وبرغم تبجيل المسلمين لها، ظل المسيحيون هم الأغلبية، وكان الفلسطينيون المسيحيون كلهم تقريبا من الملة الأرثوذكسية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مستعمرات يهودية هامة في القدس وفي العديد من المدن الأصغر كصفد وطبرية. وكانت المدينة الإسلامية الرئيسية هي العاصمة الإدارية الجديدة في الرملة. وعلى مدى القرون الأربعة التالية ظل سكان سوريا وفلسطين ومصر في تلك المجموعات النمطية التقريبية.(١)

الخلافة الأموية

وكان الخليفة الأموي الخامس، معاوية، حاكما لسوريا قبل توليه الخلافة، وبعد توليه خلافة المسلمين سنة ٦٦٠ ميلادية نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق، وحكم خلفاؤه هناك زهاء قرن من الزمان ازدهرت فيه سوريا وفلسطين. وكان الخلفاء الأمويون يتمتعون ــ عدا القليل منهم ــ بمزايا غير عادية من الاقتدار والتسامح وسعة الأفق. وكان وجود بلاطهم في تلك المقاطعة بمثابة ضمان للإدارة الحسنة والنشاط التجاري المتجدد; ولقد شجعوا الثقافة التي وجدوها هناك، وهي ثقافة هيلينستية مسيحية تأثرت

(١) للإطلاع علي هيكل تكوين المجتمع في فلسطين وسوريا في ظل الخلفاء أنظر :

Le Strange, *Palestine under the Moslems, passim;* Gaudefroy-Demombynes and Platonov, *Le Monde Musulman,* pp. 233-47; Browne, *op. cit.* ch. v; O'Leary, *How Greek Science passed to the Arabs,* pp. 135-9.

بأذواق وأفكار ننعتها نحن بالبيرنطية. والتحق المسيحيون من المتحدثين باليونانية بالوظائف الحكومية؛ وكانت حسابات الدولة تقيد باليونانية لعشرات السنين، كما كان الفنانون والصناع المسيحيون من ذوي المهارات يعملون لدى الخليفة، وستبقى قبة الصخرة في القدس، التي أتم بناءها الخليفة عبد الملك سنة ٦٩١ ميلادية، مثالا رفيعا لنمط البناء الدائري في العمارة البيزنطية، وستبقى فسيفساؤها ـ وأعمال الفسيفساء الأكثر جمالا التي أقامها ابنه الوليد الأول في فناء جامع دمشق الكبير ـ من أرفع مستويات الفن البيزنطي. فإلى أي مدى تعتبر تلك الأعمال من صنع الحرفيين من أبناء البلاد، وما مدى العون الذي قدمه لهم الفنيون والمواد التي لابد وأن يكون الوليد قد أحضرها من بيزنطة؟ هذه أمور ماتزال مثار خلاف. ولقد روعي في أعمال الفسيفساء هذه ما ارتآه النبي من اجتناب تصوير الكائنات الحية. ولم يتقيد الأمويون بذلك في قصورهم الريفية المتوارية عن أنظار رجال الدين المتشددين، ومثال ذلك اللوحات المرسومة على جدران استراحة الصيد بقصر الأمراء في السهوب الواقعة وراء نهر الأردن والتي تصور شكل الإنسان وجسده. وواقع الحال أن حكم الأمويين لم يؤد إلى انقطاع تطور الثقافة الهيلينستية في الشرق الأدنى والتي كانت قد بلغت في ذلك الوقت ذروة الازدهار الذي لم تبلغها بعد ذلك. (١)

ومن ثم، لم يكن هناك من سبب يؤدي بالمسيحيين إلى الحسرة لما حققه الإسلام من انتصار. فبرغم ما تعرضوا له من اضطهاد لا يذكر، وبرغم القليل من التدابير المهينة، فإنهم كانوا أحسن حالا مما كانوا عليه أيام الأباطرة المسيحيين، فالمحافظة على

---

(١) عن الحضارة الأموية أنظر :

Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 a` 1081*, pp. 335-44, and Lammens, *Etudes sur le Siécle des Ommayades*. For its art, see Creswell, *Early Muslim Architecture*, especially ch. V, on mosaics, by M. van Berchem. For individual buildings, see Richmond, *The Dome of the Rock*, and the two volumes *Kuseir Amra*, published by the Kaiserliche Akademie der Wissenschaften of Vienna.

النظام كانت أفضل، وتحسنت أحوال التجارة وخفضت الضرائب إلى حد كبير عما كانت عليه. وفضلا عن ذلك، كان الأباطرةالمسيحيون هراطقة في الشطر الأكبر من القرن الثامن يحطمون الأيقونات ويضطهدون كل من يبجل الصور المقدسة من الأرثوذوكس. وكان المسيحيون المتدينون أسعد حالا في ظل الكافر.

الخلافة العباسية

على أن هذه الفترة السعيدة لم تدم. ذلك أن تدهور حكم الأمويين، واستقرار الخلفاء العباسيين في بغداد سنة ٧٥٠ ميلادية نتيجة للحروب الأهلية، جلبا الفوضى إلى سوريا وفلسطين. فجمع بعض الحكام المحليين ممن لا ضمير لهم ولا ضابط لأفعالهم المال عن طريق مصادرة بعض الكنائس المسيحية التي كان على المسيحيين في ذلك الوقت أن يسترجعوها بأموالهم. وعاود التعصب والاضطهاد والإكراه الديني الظهور بين الحين والحين (١) . وأعاد انتصار العباسيين استقرار النظام، مع وجود فارق يتمثل في أن بغداد كانت نائية فقلت الرقابة على الحكم في الأقاليم. وكانت حركة التجارة ماتزال نشيطة على طريق القوافل، وإن كانت تفتقد الأسواق الكبرى التي تنهض بها داخل البلاد. وكان العباسيون أكثر تشدداً من الأمويين، فلم يتوسعوا في إفساح المجال للمسيحيين، ذلك أنهم كانوا يعتمدون ـــ شأنهم في ذلك شأن الأمويين ـــ على ثقافة أقدم من الهيلينستية ألا وهي الفارسية. وكانت بغداد تقع في نطاق مملكة الساسانيين القديمة. وشغل الفرس مواقع رئيسية في الحكومة، واتبع العباسيون مُثل الفن الفارسي والعادات الفارسية في الحياة اليومية. واستعانوا ـــ كالأمويين ـــ بموظفين مسيحيين، بيد أن هؤلاء المسيحيين كانوا ـــ مع بعض الاستثناء ـــ نساطرة ممن يتوجهون إلى الشرق

---

(١) Diehl and Marçais, *op. cit.* pp. 345-8; Gaudefroy-Demombynes and Platonov, *op. cit.* pp.260-8

وليس إلى الغرب. وكان اهتمام البلاط العباسي بأمور الثقافة يجاوز اهتمام الأمويين على وجه العموم واستعين بالنساطرة في ترجمة الأعمال الفنية والفلسفية عن اليونانية القديمة، وشجع العلماء والرياضيون على المجيئ من بيزنطة وغيرها للتدريس في مدارس بغداد. لكن هذا الاهتمام كان سطحيا، ذلك أن الحضارة العباسية لم تتأثر في أساسها بالفكر الإغريقي وإنما اتجهت إلى اتباع التراث المتوارث من ممالك ما بين النهرين وإيران، و لم يبق أثر للحياة الهيلينستية في العالم الإسلامي إلا في إسبانيا التي لاذ بها الأمويون.

على أن حظ المسيحيين في ظل الحكم العباسي لم يكن تعسا. وربما تصدى الكتاب المسلمون، من أمثال الجاحظ في القرن التاسع، للهجوم عليهم، ومرجع ذلك أهم كانوا يتمادون في غطرستهم لفرط ثرائهم ولأهم لم يعبأوا بالتدابير التي كانت تتخذ من أجلهم (١) . وفي ذلك الوقت تقريبا كتب بطريق القدس لزميله بطريق القسطنطينية يحدثه عن السلطات الإسلامية الحاكمة قائلا: "إنها عادلة لا تظلمنا شيئا ولا تظهر نحونا أي شكل من أشكال العنف." (٢) فعدل تلك السلطات واعتدالها كانا في غالب الأحوال متميزين. وفي القرن العاشر، عندما كانت أحوال العرب تسوء في حروبهم مع بيزنطة، ويتألب الغاضبون من المتجمهرين على المسيحيين لتعاطفهم المعروف مع أعداء الإسلام، كان الخليفة في كل حال يعوض أولئك المسيحيين عما قد يصيبهم . وربما كان دافعه إلى ذلك خشيته من القوة الوليدة للإمبراطور الذي كان

---

(١) Al-Jahiz, *Three Essays*, ed. by Finkel, p. 18. Labourt, *De Timotheo I*, *Nestorianorum Patriarcha*, pp. 33-4 ، يوضح Labourt ، ما كان يتمتع به النساطرة من نفوذ في بلاط الخليفة .

(٢) رسالة Theodosius of Jerusalem إلى Ignatius of Constantinople الواردة في Mansi, *Concilia*, vol. xvi, pp. 26-7.

يعيش في أراضيه مسلمون بوسعه أن يضطهدهم من قبيل الانتقام (١). وحظيت الكنائس الأرثوذوكسية، والقوى الأجنبية تؤازرها، بوضع طيب في كل حال. وفي أوائل القرن العاشر، وأثناء خلاف وقع بين ابراهام الثالث ـ كاثوليكوس النسطوري ـ وبين بطريق أنطاكية الأرثوذوكسي، قال الأول للوزير الأكبر " نحن معشر النساطرة أصدقاء للعرب ونبتهل من أجل انتصارهم ..... وأنأى بك أن تساوي في نظرتك بين النساطرة، الذين ليس لهم ملك سوى العرب، وبين اليونانيين الذين لا يتوقف ملوكهم مطلقا عن قتال العرب" (٢) . غير أن منطقه لم يبلغه مأربه في نهاية المطاف وإنما حققت غايته الهدية التي قدمها وقدرها ألفا قطعة من العملة الذهبية. وكانت الجماعة المسيحية الوحيدة التي استمرت العداوة تجاهها هي جماعة المسيحيين المنحدرة من أصل عربي خالص، مثل قبائل بني غسان أوبني تنوخ، التي اضطر أبناؤها إلى عبور الحدود لياذا ببيزنطة بعد رفضهم أن يجبروا على التحول عن دينهم. (٣)

شارلمان وفلسطين

واستمرت هجرة المسيحيين إلى أراضي الإمبراطور، ولم يتخذ المسلمون أية خطوات حيال تلك الهجرة. ويبدو أنه لم تكن هناك محاولة في كل حال للحيلولة دون قيام علاقات وثيقة بين المسيحيين داخل الخلافة وخارجها، حتى في أزمنة الحرب.

---

(١) في عامي ٩٢٣ و ٩٢٤ قام بعض المتظاهرين المسلمين بمهاجمة كنائس مسيحية أرثوذوكسية في الرملة وعسقلان وقيسارية ودمشق ، وعلي الأثر ساعد الخليفة المقتدر المسيحيين علي إعادة بناء تلك الكنائس (Eutychius, co. 1151)

(٢) . Bar Hebraeus, quoted in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol . ii, pp. 4401

(٣) البلاذري ، النص العربي ص ١٤٢ ترجمة Hitti and Murgotten, pp. 208-9. أنظر :
Nau, *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie* , pp. 106-11.

وخلال الجزء الأكبر من فترة الخلافة العباسية لم يكن الإمبراطور البيزنطي من القوة بحيث يستطيع أن يقدم الكثير لأبناء دينه. وكان فشل العرب في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٧١٨ ميلادية بمثابة ضمان لاستمرار الإمبراطورية، ولكن بيزنطة لم تتمكن من المبادرة إلى الهجوم على العرب على نحو فعال إلا بعد انقضاء قرنين من الزمان. وفي تلك الأثناء كان مسيحيو الشرق الأرثوذوكس قد اكتشفوا صديقا أجنبيا جديدا; فاتساع إمبراطورية شارلمان الكارولنجية في القرن الثامن لم يمر دون أن تلحظه أنظار الشرق. وفي نهاية القرن أظهر شارلمان العظيم، الذي كان على وشك أن يتوج إمبراطورا في روما، اهتماما خاصا بإصلاح حال الأماكن المقدسة، ولقيت اهتماماته ترحيبا كبيرا; إذ أن الخليفة هارون الرشيد، الذي سره أن يجد حليفا ضد بيزنطة، شجعه على إقامة مؤسسات في القدس وإرسال العطايا لكنائسها. ولفترة من الزمان حل شارلمان محل الإمبراطور البيزنطي وكان العاهل الذي تحمي قوته الأرثوذوكس في فلسطين، ولقد ردوا على إحسانه بأن بعثوا إليه ما يدل على تبجيلهم له. بيد أن انهيار إمبراطوريته في عهد من خلفوه وبعث بيزنطة مرة أخرى جعلا تدخل الفرنجة قصير الأجل ولا يكاد يذكر، لولا تلك النزل التي أنشأها شارلمان، والصلوات اللاتينية التي كانت تقام في كنيسة القديسة ماري الخاصة باللاتينيين، والراهبات اللاتينيات اللاتي كن يخدمن في كنيسة القبر المقدس. لكن الغرب لم ينس أبدا تلك القصة التي بالغت الأساطير والمأثورات في روايتها، وسرعان ما ظن أن شارلمان قد أضفى على الأماكن المقدسة حمايته القانونية، وقيل أنه قام بالحج إلى هناك. وأعلنت أجيال الفرنجة المتأخرة حقها في أن تحكم القدس، وقوبل هذا الإعلان بالتأييد. (١)

---

(١) أنظر Runciman. " charlemagne and palestine ". in *English Historical Review*. vol. I. pp. 606 ff.

وكان المسيحيون الشرقيون أكثر اهتماما ببعث قوة بيزنطة. ففي أوائل القرن التاسع كانت الإمبراطورية ماتزال في موقف الدفاع، واستولى المسلمون على جزيرتي صقلية وكريت، ولم يكد يمضي عام دون أن يشن العرب غارة كبرى في قلب آسيا الصغرى. وفي منتصف القرن أعيد تنظيم البحرية البيزنطية وتجهيزها، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى الاقتصاديات الرشيدة للإمبراطورة الوصية على العرش، ثيودورا. وبفضل قوة بيزنطة تأكدت سيادتها على جنوب إيطاليا ودالماتيا (١). وفي بداية القرن العاشر، بدأت الخلافة العباسية تضمحل بسرعة، إذ ظهرت ممالك محلية أهمها مملكة الحمدانيين في الموصل وحلب ومملكة الإخشيد في مصر .وكان الحمدانيون مسلمين غُيُر وذوي براعة كبيرة في القتال وأقاموا خطا دفاعيا لصد العدوان البيزنطي، لكنهم لم يستطيعوا وقف إضمحلال القوة الإسلامية، بل زادوها إضمحلالابتشجيعهم الحروب الأهلية. وسيطر الإخشيديون إبان تلك الحروب على فلسطين وجنوب سوريا، وسارع البيزنطيون إلى الاستفادة من ذلك الموقف. وكان هجومهم حذرا في بادئ الأمر. ولكن في سنة ٩٤٥ ميلادية استولى القائد البيزنطي جون كركوس ــ برغم شجاعة وإقدام الأمير سيف الدولة الحمداني ــ على مدن ومناطق في أعالي أرض مابين النهرين، لم تكن قد شاهدت جيشا مسيحيا منذ ثلاثة قرون (٢)، وضمها للإمبراطورية. وتزايدت سرعة الأحداث بعد سنة ٩٦٠ ميلادية، على إثر تسلم الجندي العظيم نيسفوراس فوكاس قيادة الجيش الإمبراطوري، وفي سنة ٩٦١ ميلادية استعاد نيسفوراس جزيرة

---

(١) (المترجم) : دالماتيا : حاليا إقليم في جمهورية كرواتيا الصربية في يوغوسلافيا علي الساحل الأدرياتيكي .

(٢) Vasiliev, *Byzantium and the Arabs* (in Russian), vol. ii, pp. 229 -37; Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 135-50

كريت، وفي سنة ٩٦٢ ميلادية جرد حملة على حدود كيليكيا (١) واستولى على أنزاريوس وماراش (جرمانيشيا) وبذلك عزل كيليكيا المسلمة. وفي سنة ٩٦٣ ميلادية كان نيسفوراس مشغولا في وطنه يخطط للانقلاب الذي جاء به إلى العرش بمساعدة الجيش والإمبراطورة الوصية. وفي سنة ٩٦٤ ميلادية عاد إلى الشرق، وفي سنة ٩٦٥ ميلادية أكمل غزو كيليكيا، وأرسل حملة إلى قبرص أعادت السيطرة البيزنطية الكاملة على الجزيرة، وفي سنة ٩٦٦ ميلادية أغار على أواسط الفرات ليقطع خطوط المواصلات بين حلب والموصل (٢) . فنهض الشرق المسيحي كله وظن أن الخلاص وشيك، وكتب إليه جون بطريق القدس يحثه على الإسراع إلى فلسطين، بيد أن تلك الخيانة جاوز وقعها قدرة المسلمين على الصبر، فألقت الجماهير الغاضبة القبض على جون وأحرقته. (٣)

لقد كانت آمال جون سابقة لأوانها. ففي عامي ٩٦٧ و٩٦٨ كان نيسفوراس مشغولا بحدوده الشمالية، لكنه في سنة ٩٦٩ ميلادية قاد جيشه جنوبا مرة أخرى إلى قلب سوريا مباشرة، وتقدم إلى وادي الأرند (العاصي) ليستولي على مدن شيزار وحماة وحمص وينهبها الواحدة تلو الأخرى، ثم سار على الساحل إلى ضواحي طرابلس; وعاد إلى الشمال تاركا وراءه طرطوس وجبلة واللاذقية تلتهمها النيران، بينما حاصر ضباطه أنطاكية وحلب. واستولى على أنطاكية في أكتوبر (تشرين الأول)، واستسلمت حلب في نهاية السنة. وذابت أنطاكية، التي ربما كان عدد مسيحييها يفوق عدد مسلميها، في

---

(١) (المترجم) : كيليكيا : الجزء الجنوبي الشرقي من الأناضول (تركيا) المطل علي البحر المتوسط .

(٢) .Schlumberger, *Un Empereur Byzantin, Nicéphore phocas,* chs. viii and x

(٣) Yachya of Antioch, in P.O. vol. xviii,pp. 799-802. The date is discussed in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar slayer* (in Russian), p. 351

الإمبراطورية، ويبدو أن المسلمين قد أجبروا على الهجرة منها. وأصبحت حلب التي كان المسلمون أغلبية غالبة فيها، ولاية تابعة. ووقع حاكمها معاهدة تحدد بدقة الحدود التي تفصل بين المقاطعة الإمبراطورية الجديدة وبين المدن التابعة. وبمقتضى تلك المعاهدة يقوم الإمبراطور بتعيين حاكم حلب، وفرضت ضرائب باهظة على هذه الولاية التابعة على أن يعفى المسيحيون منها، وتدفع مباشرة إلى الخزانة الإمبراطورية، كما تقضي المعاهدة بمنح تجار الإمبراطورية وقوافلها امتيازات وحماية خاصة. وهكذا آذنت تلك الشروط المهينة بانتهاء قوة المسلمين في سوريا.

الإمبراطور جون تسيميسس

وقبل سقوط حلب اغتيل الإمبراطور في القسطنطينية، قتلته الإمبراطورة وعشيقها ابن عم الإمبراطور جون تسيميسس، وكان نيسفورس رجلا صارما لا يُحَب، وبرغم انتصاراته كان مكروها في القسطنطينية لاغتصابه الأموال وفساده وخلافه المرير مع الكنيسة. واعتلى جون، الذي كان معروفا كقائد بارع، العرش دون صعوبة وسالم الكنيسة بأن تخلى عن خليلته الإمبراطورة، بيد أن الحرب مع بلغاريا أبقته مشغولا في أوروبا طوال السنوات الأربع التالية. وفي تلك الأثناء كان الإسلام ينهض من جديد في ظل الفاطميين الذين عززوا مكانتهم في مصر وجنوب سوريا، وحاولوا استعادة أنطاكية سنة ٩٧١ ميلادية. واستطاع جون أن يلتفت إلى الشرق سنة ٩٧٤ ميلادية، فاتجه في خريف ذلك العام إلى شرق ما بين النهرين واستولى على نصيبين وحول الموصل إلى ولاية تابعة، وفكر في زحف مفاجئ على بغداد، بيد أنه تحقق من أن الفاطميين أعداء يخشى بأسهم أكثر مما يخشى بأس منافسيهم العباسيين، فتقدم في الربيع التالي إلى سوريا واتخذ نفس الطريق الذي اتخذه نيسفوراس قبل ذلك بستة أعوام،

---

(١) Schlumberger, *op. cit.* ch. xiv.

واكتسح وادي الأرند (العاصي) متجاوزا حمص التي استسلمت دون أدنى مقاومة، وبعلبك التي أخذها عنوة، ثم انتهى إلى دمشق التي وعدت بدفع إتاوة وعقدت معه تحالفا مهينا. ومن هناك انطلق إلى الجليل، واستولى على طبرية والناصرة، ثم اتجه جنوبا إلى قيسارية على الساحل. وجاءته الوفود من القدس متوسلة إليه أن يخف لنجدتها، لكنه شعر بعدم استطاعته التقدم إلى المدينة المقدسة ذاتها دون الاستيلاء على مدن الشاطئ الفينيقي من ورائه والتي لم يكن قد استولى عليها، فعاد أدراجه شمالا وقهرها الواحدة تلو الأخرى فيما عدا ميناء طرابلس الحصين. وكان الشتاء على الأبواب، فاضطر الإمبراطور إلى تأجيل جهوده إلى فصل آخر .وفي طريق عودته إلى أنطاكية استولى على القلعتين الكبيرتين، قلعة بارزويا وقلعة صهيون، الواقعتين في جبال النصيري وترك فيهما حاميتين من رجاله وعاد إلى القسطنطينية، بيد أن حملته لم تستأنف بعد ذلك على الإطلاق، إذ مات على حين غرة في يناير (كانون الثاني) سنة ٩٧٦ ميلادية. (١)

ولقد جعلت هذه الحروب من الإمبراطورية المسيحية القوة العظمى في الشرق مرة أخرى. وبينما كان مسيحيو الشرق ينتظرون مخلصيهم كانت تلك الحروب تتخذ سمة دينية، وفي ذلك الحين، كانت الحروب ضد المسلمين تشن بانتظام دفاعا عن الإمبراطورية، وكانت من المسلمات في الحياة اليومية ــــ إذا جاز هذا التعبير. وبرغم أنه ربما كان يعن لأحد المنتصرين المسلمين المتشددين أن يخير أحيانا الأسرى المسيحيين بين الارتداد عن دينهم أو الموت، فإن ذكرى هؤلاء المسيحيين كان يحتفى بها على أنهم شهداء، بيد أن مثل هذه الحالات كانت نادرة الحدوث. ولم يكن هناك فارق كبير عند الرأي العام البيزنطي بين أن يموت المرء في المعركة لحماية الإمبراطورية من عربي كافر أو بلغاري مسيحي، ولم تكن الكنيسة تفرق بين هاتين الحالتين كذلك. غير أن

---

(١) Schlumberger, *L'Epopée Byzantine*, vol.i, ch. iv.

نيسفوراس وجون أعلنا أن الصراع حين ذاك كان من أجل مجد العالم المسيحي وإنقاذ الأماكن المقدسة والقضاء على الإسلام. وعندما كان أحد الأباطرة يحتفل بانتصار أحرزه على العرب كان المنشدون في الكنائس يتغنون: "المجد للرب، الذي هزم العرب"(١) . وكان نسفوراس يؤكد أن حروبه حروب مسيحية، وربما كان من دوافعه إلى ذلك، محاولة موازنة علاقاته السيئة مع الكنيسة، لكنه فشل في أن يحفز البطريق لإصدار مرسوم كنسي بأن الجنود الصرعى على الجبهة الشرقية ماتوا كشهداء، فالكنيسة الشرقية كانت ترى أن ضرورات الحرب لا تبرر القتل في كل حال (٢) . لكنه عندما أرسل بيانه المهين إلى الخليفة قبل أن يبدأ حملته سنة ٩٦٤ ميلادية، صور نفسه على أنه البطل المسيحي، وجاوز ذلك إلى التهديد بالزحف إلى مكة لإقامة عرش المسيح هناك (٣) . واستخدم جون تسيميسس نفس اللغة، إذ جاء بخطابه إلى ملك أرمينيا الذي يصف فيه حملته سنة ٩٧٤ ميلادية: "كانت رغبتنا هي تحرير بيت المقدس من انتهاكات المسلمين" وأخبره أنه أنقذ مدن الجليل من النهب، لدورها في تاريخ العقيدة المسيحية، وأضاف أنه لولا امتناع مدينة طرابلس عليه لذهب إلى مدينة القدس وأقام الصلوات في أماكنها المقدسة. (٤)

وكان العرب فيما مضى يميلون دائما إلى النظر إلى الحرب على أنها مسألة دينية ثم قل هذا الميل عندهم، وحاولوا بعد ذلك أن يستعيدوا حُمَيَّاهُم وقد استشعروا الخوف

---

(١) Constantine Porphyrogennetus, *De Ceremoniis* (Bonn ed.) vol. i, pp. 332-3, ed by Vogt, vol. ii,pp. 135-6 ويحتمل أن تكون الهتافات أولا لإنتصار ميخائيل الثالث علي العرب سنة ٨٦٣. أنظر :
Bury, " The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos", in *E.H.R* vol. xxii, pp. 434.

(٢) Zonaras, vol. iii, p. 506

(٣) Schlumberger, *Un Empereur Byzantin,* pp.427-30 الذي يقتبس من مخطوطة عربية في فينا.

(٤) .Matthew of Edessa, pp. 13-20

من المسيحيين. ففي سنة ٩٧٤ ميلادية حدثت أعمال شغب في بغداد أجبرت الخليفة على إعلان الحرب المقدسة، أي الجهاد، رغم أنه لم يأسف لهزيمة الفاطميين. (١)

السلام بين بيزنطة ومصر

وبدا أن الأراضي المقدسة ستعود أخيرا إلى الحكم المسيحي، لكن الأرثوذوكس في فلسطين انتظروا دون طائل، وبرغم أن بازل الثاني، وهو وريث جون الشرعي، أصبح محاربا عظيما فإن الفرصة لم تتح له أبدا ليواصل التقدم نحو الجنوب. فالحروب الأهلية التي أعقبتها حرب طويلة ضد البلغاريين استغرقت كل اهتمامه. ولم يستطع زيارة سوريا سوى مرتين: مرة لتأكيد السيادة البيزنطية على حلب سنة ٩٩٥ ميلادية، ومرة أخرى عندما زحف على الساحل حتى بلغ طرابلس سنة ٩٩٩ ميلادية، وقرر في سنة ١٠٠١ ميلادية أن من العبث مواصلة الغزو. وهكذا عقدت هدنة لعشر سنوات مع الخليفة الفاطمي، فكانت فاتحة سلام دام أكثر من نصف قرن دون إخلال خطير بها. وثبتت الحدود بين الإمبراطوريتين وامتدت بين بانياس وطرطوس إلى الأرند جنوب شيزار، وبقيت حلب رسميا تحت النفوذ البيزنطي. لكن الأسرة الحاكمة المرداسية التي حكمت حلب سنة ١٠٢٣ ميلادية سرعان ما حصلت على استقلال حقيقي، ففي سنة ١٠٣٠ ميلادية هزم أميرها جيشا بيزنطيا هزيمة نكراء. على أن الإمبراطورية البيزنطية عوضت خسارة حلب بضم الرها في العام التالي. (٢)

---

(١) Miskawaihi, *The Experiences of the Nations*, in Amedroz and Margoliouth. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vol. ii, pp. 303-5 (Arabic text) and vol. v, pp. 326-8 (English text)

(٢) يرد وصف أنشطة بازل في سوريا من مصادر عربية(كمال الدين وابن الأثير وأبو المحاسن)وهي واردة في Rosen, *op. cit.* pp. 239-66, 309-11وفي ٩٨٧-٨ أرسل بازل سفراء إلي القاهرة قدموا الأموال اللازمة لصيانة كنيسة القبر المقدس في القدسpp.202-5 . *ibid* ،يقتبس نصا من مخطوطة أبي المحاسن--

وكان السلام ملائما للإمبراطورية وللفاطميين في آن، فقد كان من المقلق أن يعيد بعث الخلافة في بغداد مغامرون أتراك من أواسط آسيا. ولم يكن بوسع العاهل الفاطمي، الذي كان المسلمون الشيعة يقبلونه على أنه الخليفة الحقيقي، أن يتيح للعباسيين أية فرصة لتعزيز مطالبهم، بينما كانت بيزنطة ترى أن حدودها الشرقية أضعف من حدودها الجنوبية. وبدافع الخوف من الأتراك، اضطر بازل الثاني إلى ضم مقاطعات أرمينيا الأقرب إلى الإمبراطورية، ثم استولى بعد ذلك على المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي للبلاد، وهى إمارة فاسبوراكان. واستمر خلفاؤه في سياسته، ففي سنة ١٠٤٥ ميلادية، قام ملك آني، وهو الحاكم الرئيسي في أرمينيا، بتسليم أراضي مملكته إلى الإمبراطور، وفي سنة ١٠٤٦ ميلادية ذابت إمارة كارس في الأراضي الإمبراطورية وقد كانت آخر ولاية مستقلة في أرمينيا. (١)

وأملت الاعتبارات العسكرية ضم أرمينيا إلى الإمبراطورية، وبينت التجارب أن أمراء الأرمن ليسوا أهلا للاعتماد عليهم. وبرغم أنهم كانوا مسيحيين لا يستفيدون شيئا من الفتح الإسلامي، فإنهم كانوا هراطقة، تجاوز كراهيتهم للأرثوذكس كرههم لأي مسلم ظالم لهم. وبرغم استمرار التجارة والعلاقات الثقافية، وبرغم هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى الإمبراطورية وشغلهم لأعلى المناصب هناك، لم تنطفئ جذوة العداوة عندهم. ونظرا لسهولة التغلغل في قلب آسيا الصغرى عبر الوديان الأرمينية — كما أظهرت حروب الحدود فيما مضى — رأت السلطات العسكرية أن من الحماقة

--وفيما يتعلق بالحدود أنظر المناقشات الواردة في *Honigmann, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches*, pp. 106-8, 134 ff., also his article " Shaizar " in the *Encyclopaedia of Islam* وكانت شيزر ما تزال تخضع لإدارة أسقف باسم الإمبراطور حتى سنة ١٠٨١ (Michael the Syrian, vol. ii, p. 178)

(١) يرد موجز كامل بالمراجع عن التاريخ الأرميني في هذه الفترة في *Grousset, Histoire de l'Arménie*, pp. 531 أنظر أدناه ص ١١٩.

ترك تلك المنطقة الخطرة خارج نطاق سيطرتها. وكان ضم أرمينيا ــ من الناحية السياسية ــ خطوة تفتقر إلى الحصافة، إذ كان الأرمن يمقتون الحكم البيزنطي، وبرغم أن الحاميات البيزنطية تحرس الحدود فإن أعدادا كبيرة من الأرمن الساخطين توجد وراءها، وليس هناك من شك في أن غيبة الولاء تعد خطرا كامنا، لا سيما وأنهم الآن لا يدينون بالولاء لأمير محلي وراحوا ينشرون الفوضى في أنحاء الإمبراطورية. على أن الأمر لو ترك لرجال الدولة المتمرسين، الذين لا تشغلهم وجهة النظر العسكرية كما تشغل أباطرة بيزنطة العسكريين، لترددوا في خلق تلك المشكلة الأرمينية التي تقضي على تجانس الإمبراطورية وتدخل أقلية متنافرة في زمرة رعاياها.

الحاكم بأمر الله

وانتقل شمال سوريا إلى الحكم المسيحي، ووجد المسيحيون في جنوب سوريا وفلسطين أن حكم الفاطميين يسهل احتماله. ولم يعانوا من أي اضطهاد إلا لفترة وجيزة وذلك عندما انقلب الخليفة الحاكم على حين غرة وتصرف على نحو يغاير ما ربي عليه، فهو إبن لأم مسيحية وأسهم المسيحيون في تنشئته إلى حد كبير. فلسنوات عشر من ١٠٠٤ إلى ١٠١٤ ميلادية، وبرغم احتجاجات الإمبراطور، أصدر مراسيم ضد المسيحيين، وبدأ بمصادرة ممتلكات الكنيسة، ثم بحرق الصلبان والأمر ببناء مساجد صغيرة على أسطح الكنائس وأخيرا بحرق الكنائس ذاتها. وفي سنة ١٠٠٩ ميلادية أمر بهدم كنيسة القبر المقدس على أساس أن معجزة النار المقدسة التي تحدث في كل سنة، والتي يحتفل بها عشية عيد الفصح، زيف فاجر دون مراء. وبحلول سنة ١٠١٤ ميلادية أحرق أو نهب ما يقارب ثلاثين ألف كنيسة، واعتنق كثيرون من المسيحيين الإسلام في الظاهر لإنقاذ أرواحهم. واتخذت إجراءات مماثلة ضد اليهود. بيد أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن المسلمين كانوا معرضين لنفس القدر من الاضطهاد المتعسف من حاكمهم الذي دأب على تعيين وزراء من المسيحيين. وفي سنة ١٠١٣ ميلادية، وكتنازل

للإمبراطور، سمح للمسيحيين بالهجرة إلى الأراضي البيزنطية. و لم يتوقف الاضطهاد إلا عندما انتهى الحاكم إلى الاقتناع بأنه هو نفسه إله. وفي سنة ١٠١٦ ميلاديـــة أعلـــن صديقه درازي على الملأ هذه الألوهية. وأدى سلوك الحاكم علـــى هـــذا النحـــو إلى إحساس عميق بالصدمة في نفوس أقرانه من المسلمين يجاوز ما كان يمكن أن يحس بـــه غيرهم، فبدأ الحاكم يحابي المسيحيين واليهود وعاقب المسلمين بأن منعهم من الصوم في رمضان ومن الحج إلى مكة. وفي سنة ١٠١٧ ميلادية منح المسيحيون واليهود كـــامل الحرية الدينية وسرعان ما عاد حوالي ستة آلاف ممن ارتدوا حديثا إلى حظيرة المسيحية. وفي سنة ١٠٢٠ ميلادية أعيدت للكنائس ممتلكاتها المصادرة بما في ذلك ما أخذ مـــن مبانيها التي هدمت، بينما ألغي القرار الذي يقضي بارتداء ملابـــس مميزة. بيـــد أن المسلمين استثير غضبهم حين ذاك على الخليفة الذي أمر بأن يستبدل اسم الله باسمه في الصلوات في المساجد، وفر درازي إلى لبنان وأنشأ هناك الطائفة التي سميت باسمه وهى طائفة الدروز. وفي سنة ١٠٢١ ميلادية اختفى الحاكم نفسه، وربمـــا قتلتـــه أختـــه الطموحة ست الملك، لكن مصيره ظل غامضا حتى الآن. ويعتقد الدروز أنه ســـيعود مرة أخرى في الوقت الملائم. (١)

المسيحيون في رخاء

وبعد موته، استولى أمير حلب صالح بن مرداس على فلسطين لفترة من الزمـــن، لكن الفاطميين استعادوها كاملة سنة ١٠٢٩ ميلادية. وكانت هناك معـــاهدة موقعـــة بالفعل سنة ١٠٢٧ ميلادية تسمح للإمبراطور قسطنطين الثامن بالاضطلاع بإعادة بناء كنيسة القبر المقدس وتسمح بعودة المرتدين الباقين إلى المسيحية دون عقاب، وتجددت

---

(١) See the article " Hakim " by Graefe in the *Encyclopaedia of Islam*, also browne, *op. Cit*. pp.60-2.

هذه المعاهدة سنة ١٠٣٦ ميلادية، بيد أن إعادة بناء الكنيسة بدأ بالفعل بعد ذلك بحوالي عشر سنوات وقام بتنفيذه الإمبراطور قسطنطين التاسع. وللإشراف على العمل كان مسئولو الإمبراطورية يرتحلون بحرية إلى القدس حيث بدا أن المسيحيين يسيطرون على كل شيء سيطرة كاملة الأمر الذي أثار استياء المسلمين المقيمين والمرتحلين(١). وكان كثيرون من البيزنطيين يشاهدون في طرقات القدس فأشيع بين المسلمين أن الإمبراطور نفسه قدم إليها (٢). وكان للتجار الأمالفيين (٣) مستعمرة مزدهرة يحميها الخليفة، بيد أنهم كانوا يعترضون على تبعية مدينتهم الإيطالية للإمبراطور، مما كان يتيح له مشاركتهم فيما ينالونه من امتيازات (٤). وكانت الخشية من القوة البيزنطية توفر الأمان للمسيحيين. ويذكر الرحالة الفارسي ناصري خوسرو، الذي زار طرابلس سنة ١٠٤٧ ميلادية، عدد السفن التجارية اليونانية التي تشاهد في الميناء، ويصف خوف

---

(١) William of Tyre, vol. i , pt. I, pp. 391-3; Schlumberger, *L'Epopèe Byzantine,* vol. iii, pp. 23,131,203-4 ; Riant , *Donation de Hugues, Marquis de Toscane ,* p. 157; Mukaddasi, *Description of Syria,* by Le Strange, p. 37.

ويخبرنا المقدسي أن الكتاب والأطباء في فلسطين كانوا كلهم تقريبا من المسيحيين بينما كان الدباغون والصباغون والصيارفة من اليهود .

(٢) Nasir-i -Khusrau, *Diary of a Journey through Syria and palestine,* trans . by Le Strange, p. 59.

(٣) (المترجم) : الأمالفيين : نسبة إلي مدينة أمالفي الحالية وتقع إلي الجنوب الشرقي من نابولي في إيطاليا . وهي من أهم الجمهوريات البحرية الإيطالية في القرن التاسع الميلادي وكانت تضاهي بيزا وجنوا وفينيسيا وحايتا كقوة بحرية في التجارة مع الشرق .

(٤) William of Tyre, vol. 1, 2, pp. 822-6; Aimè, *Chronicon*, p. 320 .

السكان من هجوم قد تشنه البحرية البيزنطية. (١)

في منتصف القرن الحادي عشر كان من النادر أن يحظى المسيحيون بمثل هذا القدر من الرضا، فأصحاب السلطة من المسلمين كانوا ليني الجانب، وكان الإمبراطور يرعى مصالحهم، وكانت التجارة مع البلدان المسيحية في الخارج تزدهر وتتزايد، ولم يحدث من قبل أن حظيت القدس في أية حال بمثل هذا القدر من التعاطف ومن الثروة التي كان الحجاج يجلبونها إليها من الغرب.

(١) Nasir-i-Khusrau, *op.cit.* pp. 6-7; Mukaddasi. *op. Cit.* pp. 3-4. ويقول المقدسي الذي كان يكتب في حوالي عام ٩٨٣ ، أن الناس في سوريا " يعيشون في رعب دائم من البيزنطيين ... إذ أن مناطق حدودهم كانت تنتهب علي الدوام ، وكانت غاباتهم تدمر المرة بعد المرة ".

الفصل الثالث :

حجــاج المسيـــح

حجاج المسيح

"تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكِ يَا أُورُشَلِيمُ"

(المَزَامِير: ١٢٢ — ٢)

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية. فوقوف المرء في نفس الموقع الذي وقف فيه من يجلّهم ذات مرة، ومشاهدة نفس الأماكن التي ولدوا وكافحوا وماتوا فيها، يبعث في المرء شعورا بالاتصال الروحي بهم، وفي ذلك تعبير عملي عما يشعر به نحوهم من تبجيل. وإذا كان لعظماء رجال العالم مزاراتهم التي يفد إليها المعجبون بهم من بعيد، فإن جماعات الناس تُقبل في تلهف أكبر إلى تلك الأماكن التي يعتقدون أن الرب أكسب الأرض قداسة فيها.

وكان الحج نادرا في أيام المسيحية الأولى. وكان الفكر المسيحي يتجه إلى تأكيد ألوهية المسيح وعموميته أكثر مما يؤكد بشريته، وكانت السلطات الرومانية لا تشجع الارتحال إلى فلسطين. ولم تكن القدس سوى أطلال بعد أن دمرها تيتوس، وبقيت كذلك إلى أن أعاد هادريان بناءها وأصبحت مدينة إيليا الرومانية. غير أن المسيحيين كانوا يتذكرون المكان الذي وقعت فيه أحداث حياة المسيح وبلغ احترامهم لموقع

كالفاري(١) حدا جعل هادريان يعمد إلى إقامة معبد لـــفينوس كابيتولينا(٢) هنـــاك. وعـــرف مسيحيو القرن الثالث الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيـــت لحـــم معرفـــة جيدة، وراح المسيحيون يرتحلون إلى هناك وإلى جبل الزيتـــون وحديقـــة جثمـــان (٣) ومكان صعود المسيح إلى السماء. وأصبحت زيارة هـــذه البقـــع المقدســـة للصـــلاة ولاكتساب الفضائل الروحية جزءا مما يزاوله المسيحيون. (٤)

---

(١) (المترجم) : كالفاري : اسم المكان الذي صلب فيه المسيح ، بالقرب من القدس .

(٢) (المترجم) : كابيتولينا : اسم تل من تلال روما السبعة علي الضفة الشرقية التيبر ، وهي التلال الـــتي بنيت روما في الأصل عليها أو من حولها.

(٣) (المترجم) : جثمان Gethsemane: هو اسم حديقة كانت تقع عبر وادى كـــدرون Kidronفي جبل الزيتون وهى المكان الذى صلي فيه السيد المسيح عشية صلبه ، والاسم جثمان مأخوذ عن العبرية جـــات شيمانيم أي معصرة الزيت وهذا الاسم يوحي بأن تلك الحديقة كانت دغلا من أشجار الزيتون توجـــد بـــة معصرة للزيت. وبرغم أنة لا يمكن تحديد موقع حديقة جثمان على سبيل اليقين فإن الكنائس الأرمينية واليونانية واللاتينية والروسية تقبل دغلا من أشجار الزيتون يقع على المنحدر الغربي من جبل الزيتون على أنـــة الموقـــع الفعلي الذي أخذت به الإمبراطورة هيلينا ، أم الإمبراطور قسطنطين أول الأباطرة المسيحيين في أوائـــل القـــرن الرابع الميلادي. غير أن رواية أخرى من روايات التراث تصور أن صلاة السيد المسيح وخيانته في جثمان وقعتا في مكان يعرف الان بمغارة العذاب بالقرب من قنطرة تعبر وادي كدرون. ويمكن أن تكون حديقة جثمان في موقع اخر إلى الجنوب من هذا المكان في حديقة تضم أشجار زيتون قديمة ، حيث توجد كنيسة لاتينية أقامـــها الرهبان الفرنسسكان على أنقاض كنيسة كانت موجودة في القرن الرابع.

(٤) يشير جيروم Jerome, *Epistolae xlvi, 9, M.P.L.*, vol. xxii, col. 489 إلى رحلات الحج المبكـــرة إلـــى فلسطـــين وكـــان أول مـــن نعـــرف إسمـــه مـــن الحجـــاج أحـــد أساقفـــة قيصـــرية فـــي اسـيا الصغـــرى فـــي وقـــت مبكـــر مـــن القـــرن الثالـــث ، وهـــو المدعـــو Fermilian (Jerome, *De Viris Illustribus, M.P.L.* vol. xxiii, cols. 665-6).وفي وقت لاحق من القرن الثالث قـــام Alexander، وهـــو أحـــد أســـاقفة قبادوقيـــا ، بزيـــارة فلســـطين (Eusebius, *Historia Ecclesiastica*,pp.185-6). أما المؤرخ Origen فيتحدث في (*In Joannem vi, 29, M.P.G* vol. xiv, col.269) عن " عة المسيحيين في اقتفاء خطوات المسيح

واتسع نطاق هذه المزاولات بانتشار المسيحية. وكان يسر الإمبراطور قسطنطين أن يضفي قوة على الدين الذي اختاره، وانطلقت أمه الإمبراطورة هيلينا، وهي من أنجح علماء الآثار العظام في العالم وأرفعهم شأنا، إلى فلسطين لتكتشف كالفاري ولتبحث عما تبقى من أدوات صلب المسيح، ودعم الإمبراطور اكتشافها ببناء كنيسة القبر المقدس هناك، وهى الكنيسة التي ظلت الهيكل الرئيسي للعالم المسيحي عبر كل تقلباته. (١)

وبدأ على الفور تيار من الحجاج يتدفق إلى المكان الذي بذلت فيه هيلينا جهودها. ولا نستطيع أن نعرف أعداد هؤلاء الحجاج لأنهم لم يدونوا في الغالب شيئا عن رحلاتهم، غير أنه في سنة ٣٣٣ ميلادية، وقبل انتهاء حفائر هيلينا، جاء أحد المسافرين من ميناء بوردو الفرنسي إلى فلسطين ودون شيئا عن رحلته (٢). ونجد بعد ذلك وصفا لرحلة قامت بها سيدة دءوب تسمى أحيانا اثيريا وأحيانا أخرى القديسة سيلفيا قديسة إقليم أكتيان الفرنسي (٣) . وعند اقتراب نهاية القرن استقر في فلسطين واحد من عظماء آباء العالم المسيحي اللاتيني، وهو القديس جيروم، وجذب إليه جماعة من نساء الطبقة الراقية ذوات الثراء اللائي كن يتلقين العلم عنه في إيطاليا. وكان يستقبل في صومعته ببيت لحم موكبا لا ينقطع من الزوار الذين كانوا يفدون إليه

---

(١) .Eusebius *Vita Constantini*, chs. xxv-xi, given in *Palestine Pilgrims' Text Society*, vol. 1

(٢) .The *Itinerary of the Bordeaux Pilgrim* is published in the *P.P.T.S.* vol. 1, in a trans.by A.Stewart

(٣) The pilgrimage of Aetheria is published in an English trans.by J.H.Bernard in the *P.P.T.S.* vol. 1, under the name of *The Pligrimage of Saint Silvia of Aquitaine*, with whom the editor identifies her, almost certainly incorrectly

معبرين عن احترامهم له بعد مشاهدة الأماكن المقدسة (١). وكان القديس أوجستين، وهو أشد الأباء الغربيين روحانية، يرى أن القيام بالحج لا محل له وفيه مخاطرة وكان الآباء اليونانيون يميلون إلى الاتفاق معه في هذا الرأي (٢). غير أن القديس جيروم، الذي لم يكن يري أن للإقامة الفعلية في القدس أية قيمة روحية، أكد أن الصلاة في المكان الذي رطأته أقدام المسيح عمل من أعمال الإيمان (٣)، وكان رأيه أكثر انتشارا من رأي أوجستين. وتضاعفت رحلات الحج بتشجيع من السلطات ويقال إنه في مطلع القرن الثالي بلغ عدد الأديرة والأنزال التي شيدت في القدس أو حولها لاستقبال الحجاج مائتين، تخضع كلها تقريبا لرعاية الإمبراطور. (٤)

---

(١) يرد خطاب Paula and Eustochion إلى Macella ، وفيه وصف الحياة في فلسطين في مجتمع القديس جيروم منشوراً ضمن خطابات القديس جيروم تحت الرقم xlvi (cols. 483 ff. in *M.P.L.*vol.xxii) ويوصي جيروم نفسه في الخطاب الذى يحمل رقم xlvii *(ibid.* col.493) صديقه Desiderius بزيارة الأماكن المقدسة؛ ويشرح هو نفسه أن زيارته لفلسطين مكنته من أن يفهم الأسفار المقدسة على نحو أفضل *(Liber Paralipumenon,* preface, in *M.P.L.*, vol. xxviii, cols. 1325-6). غير أنه في لحظات ضجره، كما يتضح من خطابه الذى يحمل رقم lviii,2, إلى Paulinus of Nola (*ibid.* vol.xxii,col. 580) يعرب عن اعتقاده بأنه لا يفتقد شيئا في حالة عدم زيارة القدس .

(٢) خطاب القديس أوغسطين lxxviii, 3, in *M.P.L.* vol. xxxiii, cols. 268-9 *Contra Faustum* xx, 21, *ibid.* vol. xlii, cols. 384-5 ويعارض Saint Gregory of Nyssa الحج بشدة (letter no ii,in *M.P.G.* vol. xlvi, col. 1009) . كما يعارض بنفس القدر تقريبا Saint John Chrysostom في *(Ad Populum Antiochenum* v,2, in *M.P.G.* vol.xlix, col. 69) غير أنه يعرب في أماكن أخري عن رغبته في أن تسمح له واجباته بأن يكون حاجا (*In Ephsianos* viii,2 (*ibid.* vol. lxii, col. 57

(٣) أنظر ما سبق ص ٨٤ حاشية ٤ .

(٤) Couret, *La Palestine sous les Empereurs grecs,* p. 212

الحجـــاج الأوائـــل

وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الإقبال المبكر على القدس. واســـتقرت هناك الإمبراطورة ايودوسيا، وهى ابنة فيلسوف وثني أثيني، بعد حياة تعسة في البلاط، وجاء في ركابها كثيرون من الأرسطقراطيين البيزنطيين الورعين. وفي الوقت الذي أخذ الناس فيه يكتبون الترانيم كانت ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار الدينية، الــتي بــدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية بأن أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العــذراء الــتي رسمها القديس لوقا. (١)

وحذا حذوها حجاج من الغرب، ومن القسطنطينية، وبدأ بذلك انتقال بدائــع التحف الدينية من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت متطلبات الترف المادي في العــالم هي التي تأتي من الشرق منذ أقدم العصور. وكانت المسيحية بادئ الأمر دينا شرقيــا، وأغلب القديسين والشهداء المسيحيين الأوائل كانوا شرقيين. وكان هناك ميل مــتزايد لتبجيل القديسين، وكان الثقاة من أمثال برودينيتوس واينوديوس يقولــون إن العــون الإلاهي يمكن أن يستمد من قبورهم وإن أجسادهم قادرة على أن تأتي بالمعجزات(٢).

وبدأ الرجال والنساء في قطع مسافات طويلة ليروا أثرا مقدسا، وجــاوزوا ذلــك إلى

---

(١) أنظر . Bury, *Later Roman Empire* (A.D. 395-565) , vol. 1, pp. 225-31. وفيمــا يتصل بما قــام بــه Eudocia مــن صيــد الآثــار ، أنظــر Nicephorus Callistus, *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. cxlvi, col. 1061.

(٢) udentius, Peristephanon vi, pp. 132; Ennodius, Libellum pro Synodo, p. 315 وكان القديس أمبروز يؤمن إيمانا راخسا بما للآثار من أفضال ، وقد جاءه هو نفسه إلهام ليكتشف بعض الآثار ، وذلك كما جاء في الرسالة (letter xxii in *M.P.L.* vol. xvi, cols. 1019 ff).ويؤكــد القديــس Victricius أن للآثار فضــل ونعمــة وذلــك فيمــا كتبــه *Liber de Laude Sanctorum* فى (*M.P.L.*vol. xx, cols. 453-4) ومن الناحية الأخري فإن Saint Basil أحب أن يكون متيقنا تمامــا من أصالتها . أنظر خطابه إلي القديس Ambrose حول جسد أحد أساقفة ميلانو ، الخطاب الذي يحمــل رقم cxcvii في *M.P.G.* vol. xxxii, cols . 109-13.

محاولة الحصول على واحد من تلك الآثار وينقلوه إلى موطنهم ويضعوه في كنيستهم. على أن الآثار الرئيسية بقيت في الشرق، فظلت آثار المسيح في القدس حتى نقلت إلى القسطنطينية، وبقيت أغلب آثار القديسين في أماكنها الأصلية. ورغم ذلك بدأت الآثار الأقل شأنا تتسرب إلى الغرب مع حاج محظوظ أو تاجر مغامر، أو ترسل كهدايا إلى بعض ذوي الشأن، وسرعان ما لحقت بها أجزاء صغيرة من الآثار الرئيسية التي نقلت بكاملها بعد ذلك. وساعد كل ذلك في جذب انتباه الغرب إلى الشرق. فمواطنو لانجر الذين كانوا يفخرون بحيازتهم لأصبع من أصابع القديس ماماس كان لابد لهم من أن يستشعروا الرغبة في زيارة قيصرية في كابادوكيا(١) حيث عاش هذا القديس (٢)، وراهبات شاماليير اللائي كن يحتفظن بعظام ثكلا في كنيستهن، كن يستشعرن اهتماما شخصيا بمسقط رأس تلك القديسة في المنطقة الايزورية في سيلوشيا(٣). وعندما (٤) عادت إحدى سيدات مورين من رحلاتها ومعها إبهام القديس يوحنا المغتسل دفع ذلك جميع معارفها إلى أن يرتحلوا إلى السامرة ليروا جسده وإلى دمشق ليروا رأسه (٥). وكانت البعثات ترسل على أمل الحصول على شيء من هذه الكنوز ربما يتمثل في قنينة من الدم المقدس أو قطعة من الصليب الحقيقي نفسه. وأقيمت الكنائس في الغرب

---

(١) (المترجم) : كابادوكيا : مملكة قديمة وفيما بعد إقليم روماني (شرقي آسيا الصغرى) .

(٢) *Historia Translationum Sancti Mamantis vel Mammetis,* in *Acta Sanctorum*, 17 August, vol. iii, pp. 441-3.

(٣) (المترجم) : سيلوشيا : إسم مدينة من عدة مدن قديمة جنوب غرب آسيا شيدها " سيلوسيوس الأول " لاسيما المدينة الرئيسية للإمبراطورية السيلوسية على نهر دجلة .

(٤) Mabillon, *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, vol. 1, p. 481.

(٥) Gregory of Tours, *De Gloria Martyrum*, in M.P.L. vol. lxxi, cols. 719-20. See Delehaye, *Les Origines du Culte des Martyres*, p. 99

وأطلقت عليها أسماء القديسين الشرقيين أوالقبر المقدس، وغالبا ما كان يخصص جزء من عوائدها لإرساله إلى الأماكن المقدسة التي أخذت عنها أسماؤها.

وساعدت التجارة، التي كانت ما تزال قائمة على شواطئ البحر المتوسط، على الترابط بين الشرق والغرب، وإن كانت قد أخذت في الاضمحلال نتيجة للفقر الذي بدأ يتزايد في الغرب، وكانت تنقطع بين الحين والآخر كما هي الحال عندما أحال القراصنة الواندال (١) البحار، في منتصف القرن الخامس، إلى مناطق غير آمنة لا يستطيع أن يجوبها التجار غير المسلحين. كما أسهمت الهرطقة والتذمر في الشرق في إضافة مزيد من الصعوبات. على أن هناك مدونات كتبها حجاج غربيون ارتحلوا شرقا في القرن السادس في سفن تجارية سورية أويونانية. وكان التجار ينقلون الأخبار والقصص الديني عند نقلهم المسافرين والبضائع. وبفضل المسافرين والتجار، أصبح المؤرخ جريجوري التوري (٢) على دراية جيدة بالشئون الشرقية. ويوجد سجل لمحادثة دارت بين القديس سيميون ستايلايتس وتاجر سوري رآه على عموده (٣) بالقرب من

---

(١) (المترجم) : حاليا الضفة الغربية لنهر الأردن .

(٢) (المترجم) : التوري : نسبة إلي مدينة تور التي تقع غربي وسط فرنسا علي نهر اللوار .

(٣) (المترجم) : يعني اسم القديس Symen Stylites : سيميوي العمودي ، من لفظة Stylos اليونانية أي العمود التي أخذت عنها اللغة الإنجليزية لفظة Stylite بمعني الناسك أو الزاهد الذي يعيش علي قمة عمود . والقديس سيميون العمودي (حوالي ٣٩١-٤٥٩) هو أول ناسك يبتدع فكرة العيش فوق عمود ، وقضى عشرين عاما من شبابه المبكر متنقلا بين الصوامع والأديرة في شمال سوريا ثم بدأ سنة ٤٢٣ ميلادية في العيش فوق عمود منخفض ، تزايد ارتفاعه علي مر السنين حتى بلغ حوالي ستين قدما، وكانت تعلوه منصة تبلغ مساحتها حوالي اثني عشر قدما مربعا . وقضي فوق ذلك العمود ستة وثلاثين عاما هي بقية عمره ويعلل اتخاذ سيميون هذه الطريقة الغريبة في العيش برغبته في اجتناب

حلب، وسأله القديس سيميون خلالها عن أخبار القديسة جنيفييف الباريسية وأرسل لها رسالة شخصية (١) . وبرغم الخلافات الدينية والسياسية بين السلطات الأعلى ظلت العلاقات بين المسيحين الشرقيين والغربيين ودية ووثيقة للغاية.

وانتهى هذا العصر بمقدم الفتوحات العربية. فلم يعد التجار السوريون يأتون إلى الشواطئ الفرنسية والإيطالية ومعهم البضائع والأخبار، وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط، وكان الحكام المسلمون يرتابون في المسافرين المسيحيين القادمين من الخارج. وكانت الرحلة شاقة وباهظة التكلفة بعد أن تضاءلت الثروة في الغرب المسيحي، بيد أن الصلة لم تنقطع تماما. فكان المسيحيون الغربيون ما يزالون يفكرون في الأماكن المقدسة في الشرق بتعاطف وحنين، وعندما اتهم البابا مارتين الأول سنة ٦٨٢ ميلادية بالتعامل الودي مع المسلمين، علل ذلك بأنه كان مدفوعا برغبته في الحصول على إذن بإرسال الهبات إلى القدس (٢) . وفي سنة ٦٧٠ ميلادية شرع الأسقف الفرنجي أركولف في رحلته إلى الشرق وتمكن من أن يتم جولة شملت مصر وسوريا وفلسطين وأن يعود عن طريق القسطنطينية، ولكن تلك الرحلة استغرقت عدة سنوات قابل خلالها صعوبات كثيرة (٢). ونحن نعرف أسماء حجاج آخرين ينتمون إلى ذلك العصر مثل فالدي أوف روو من بيكاردي أوبيركير أوف مونتييه ـــ ان ـــ

-- أولئك الذين كانوا يفدون إليه ليصلي من أجلهم ليسدي النصح لهم وحدث عكس ما كان يتوقع ، إذا زاد عدد الوافدين إليه ، وجاءه الكثيرون من الناس إما حاجين إليه أو متفرجين عليه وتجاوزت شهرته سوريا ، وكثر مقلدوه في الشرق .

(١) *Vita Genovefae Virginis Parisiensis, p. 226*.

(٢) Martin I, letter to Theodore, in M.P.L. vol. lxxxvii, cols. 199-200.

(٣) Arculf's narrative, written by Adamnan, is given in the *P.P.T.S.* vol . iii, trans. By J.R. Macpherson.

دير من برجندي وصديقه وايمار (١) . غير أن أقاصيصهم تبـــين أن المغـــامرين وغـــير المرفهين من الناس هم وحدهم الذين كان يحدوهم الأمل في بلوغ القدس، وأن النساء فيما يبدو لم يكن يجازفن بالحج.

حجاج القرنين الثامن والتاسع

وزاد عدد الحجاج خلال القرن الثامن. وجاء بعضهم مـــن إنجلـــترا، أشـــهرهم ويليبالد الذي مات سنة ٧٨١ ميلادية وهو أسقف إيشستاد في بافاريا وكان قد ذهب إلى فلسطين في شبابه بادئا رحلته من روما سنة ٧٢٢ ميلادية و لم يرجع إليـــها إلا في سنة ٧٢٩ ميلادية (٢) بعد كثير من المغامرات الكريهة. ويبدو أنه كانت هناك محاولة عند نهاية القرن لتنظيم الحج تحت رعاية شارل العظيم، الذي استعاد النظـــام وبعـــض الرخاء إلى الغرب وأقام علاقات حسنة مع الخليفة هارون الرشيد. وتُظهر الأنزال التي شُيدت بمساعدته في الأراضي المقدسة أنه لابد وأن يكون عدد كبير من الحجاج قـــد وصل إلى القدس في عهده ومن بينهم بعض النساء. وأرسلت راهبات مـــن إســـبانيا المسيحية للخدمة في القبر المقدس (٣) لكن هذا النشاط لم يدم طويـــلاً، إذ تدهـــورت الإمبراطورية الكارولنجية، وعاد قراصنة من المسلمين إلى الظـــهور في شـــرق البحـــر المتوسط، وجاء القراصنة النرويجيون من الغرب. وعندما قام برنارد الحكيم، مـــن

---

(١) *De Samctp Wlphlagio,* in *As. Ss.* 7 June, June, vol. ii, pp. 30-1

(٢) .Willibald's *Hodoeporicon,* trans. By Brownlow, is given in the *P.P.T.S.* vol. iii

(٣) ‘ Commemoratioriumde Cases Dei vel Monasteriis’ , in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana* vol. 1, 303

بريتاني (١) ، بزيارة فلسطين سنة ٨٧٠ ميلادية وجد أن المنشآت التي أنشأها شارل ما تزال في حالة تسمح لها بالعمل غير أنها خاوية وآخذة في الانهيار. ولم يستطع برنارد القيام بالرحلة إلا بعد أن حصل على جواز مرور من السلطات الإسلامية التي كانت آنذاك تحكم باري في جنوب إيطاليا وإن لم يمكّنه ذلك من النزول في الإسكندرية. (٢)

عصر عظيم للحج

وبدأ العصر العظيم للحج مع القرن العاشر. ففي خلال ذلك القرن فقد العرب آخر أوكار القراصنة في إيطاليا وجنوب فرنسا، وأُخذت منهم كريت سنة ٩٦١ ميلادية، وكانت البحرية البيزنطية قبل ذلك ببعض الوقت تسيطر على البحار بالفعل على نحو يكفل اكتمال انتعاش التجارة البحرية في البحر المتوسط؛ فأبحرت السفن التجارية اليونانية والإيطالية دونما عائق بين موانئ إيطاليا وموانئ الإمبراطورية، وبدأت في فتح مجال التجارة مع سوريا ومصر برضا السلطات الإسلامية. وكان من اليسير على الحاج أن يجد طريقا مباشرا للحج من فينيسيا أو من باري في جنوب إيطاليا إلى طرابلس أو الإسكندرية، رغم أن أغلب المسافرين كانوا يفضلون أن يزوروا القسطنطينية ليروا مجموعات الآثار العظيمة الموجودة فيها، ثم يواصلون الرحلة بعد ذلك بالبحر أو بالطريق البري الذي أصبح آنذاك آمنا بفضل النجاح العسكري البيزنطي. وفي فلسطين نفسها، نادرا ما أثارت السلطات الإسلامية، سواء أكانت عباسية أم إخشيدية أم فاطمية أية صعوبات، وإنما كانت تتجه إلى الترحيب بالمرتحلين لما يجلبونه من ثروة إلى المنطقة.

---

(١) (المترجم) : شبه جزيرة ومقاطعة قديمة تقع في الشمال الغربي من فرنسا بين القناة الإنجليزية (المانش) وخليج بسكاي.

(٢) The *Itinerary of Bernard the Wise*, trans. By J. H. Bernard, is given in the *P.P.T.S.* vol. iii.

وكان لتحسن ظروف الحج آثاره على الفكر الديني الغربي. ولسنا نعرف على وجه اليقين التاريخ الذي قضى فيه القانون الكنسي لأول مرة بجعل الحج كفارة. ففي مطلع العصور الوسطى أوصت البنيتنشياليا (١) بالحج، دون تحديد هدف له في واقع الحال. بيد أن الناس أخذوا يعتقدون أن لبعض الأماكن المقدسة فضيلة روحية معينة تؤثر في زائريها ويمكن أن تهيئ لهم اغتفار خطاياهم. ومن ثم عرف الحاج أنه لم يكن بوسعه أن يبجل ما تركه الرب والقديسون على الأرض والبيئة التي عاشوا فيها بحيث يتصل بهم اتصالا وجدانيا وحسب، بل ربما جاوز ذلك وحظي بعفو الرب عما أتاه من شرور. وساد الاعتقاد منذ القرن العاشر بأن أربعة مزارات بعينها تتميز بهذه الخاصية: مزار القديس جيمس في كومبوستيللا بإسبانيا، ومزار القديس ميكائيل في مونت جارجانو بإيطاليا، والمزارات المقدسة الكثيرة في روما، وفوق ذلك الأماكن المقدسة في فلسطين. وأصبح بلوغ تلك الأماكن أيسر بكثير عن ذي قبل بسبب ابتعاد المسلمين عنها أو سماحهم بزيارتها، بيد أن الرحلة الطويلة إليها كانت ما تزال يعتورها من المشقة ما يجعلها لا تسوغ في فكر إنسان العصر الوسيط أو تستثير شعوره الديني. وكان من الحكمة إبعاد من يقترف جرما عن المكان الذي ارتكب فيه جريمته لفترة عام أو أكثر بتكليفه بالحج. ذلك أن ما كان يتجشمه من مشقة وتكلفة في تلك الرحلة كان بمثابة عقوبة له فضلا عن أن قيامه بالحج على هذا النحو وما يحيط بذلك من جو عاطفي يؤدي به إلى إحساس بالطهر والقوة الروحية فيعود وهو إنسان أفضل عن ذي قبل. (٢)

---

(١) (المترجم) : بنيتنشياليا (من اللاتينية Poenitentialia) : قائمة أوكتاب بالقواعد التي تحكم الكفارة الدينية ، أي العقوبة التي ينزلها الاثم بنفسه تعبيرا عن توبته وخاصة بتوجيه من الكاهن .

(٢) See de Rozière, *Recueil gènèral des Formules usitèes dans l'Empire des Francs*, vol. ii, pp. 939-41 وهناك فرنجي يدعي Fromond ذهب مع إخوته إلي فلسطين--

وهناك إشارات عارضة في السجلات التاريخية عن رحلات متعددة للحـــج، وإن كانت أسماء الحجاج التي في حوزتنـــا الآن لا تعـــدو بـــالضرورة أن تكـــون أسمـــاء الشخصيات المرموقة دون غيرها. فمن بين كبار النبلاء والنبيلات في الغرب الذين ورد ذكرهم كحجاج نجد هيلدا، كونتيسة سوابيا (١) التي ماتت سنة ٩٦٩ ميلادية أثنـــاء رحلتها، وجوديت دوقة بافاريا(٢)، شقيقة زوجة الإمبراطور أوتو الأول، التي قـــامت برحلتها سنة ٩٧٠ ميلادية، ودوق أرديش، ودوق فيينا، ودوق فردون، ودوق آركي، ودوق أهالت، ودوق جوريزا، وكان كبار رجال الدين أكثر مثابرة: إذ قام القديـــس كونراد أسقف كونستانس بثلاث رحلات منفصلة إلى القدس، وقام القديس جـــون أسقف بارما بما لا يقل عن ست رحلات، وقام أسقف أوليفولا بـــالحج ســـنة ٩٢٠ ميلادية، ومن بين رؤساء الأديرة الذين قاموا بالحج، رئيـــس ديـــر ســـانت ســـيبار، وفلافيني، وأريلاك، وسانت أوبين دي آنجر، ومونتيير ـــ إن ـــ در. واصطَحبت تلـــك الشخصيات البارزة معها مجموعات من الرجال والنساء غير ذوي الشأن الذين لم تكن لأسمائهم أهمية عند كتاب ذلك العصر.

ويرجع هذا النشاط في الأساس إلى الجهد الخاص. على أنه كانت هنـــاك قـــوة جديدة آخذة في الظهور في السياسة الأوروبية وتولت هذه القوة، فيما تولت، البدء في

--للتكفير عن جريمة وذلك في منتصف القرن التاسع ، وهـــو أول تائب يعرف إسمه . ويرد The *Peregrinatio Frotmundi* في *Aa. Ss.* 24 October, Oct., vol.x, pp. 847 ff.

أنظر أيضاً : van Cauwenbergh, *Les Pèlerinages expiatoires et judiciares, passim,* and Villezy, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Thèorie juridique,* pp. 141 ff.

(١) (المترجم) : إقليم يقع جنوب غرب ألمانيا .

(٢) (المترجم) : ولاية تقع جنوب ألمانيا عاصمتها ميونخ كانت دوقية ، فمملكة ، فجمهورية .

تنظيم نقل الحجاج. وفي سنة ٩١٠ ميلادية أسس الكونت وليم الأول أوف أكتيان الدير المسمى دير كَلاني .وفي نهاية القرن أصبحت مدينة كَلاني، التي تعاقب في حكمها عدد من رؤساء الأديرة المرموقين، مركزًا لحلقة كنسية واسعة، جيدة التنظيم ومحكمة الترابط وعلى صلة وثيقة بالبابوية. وكان أبناء مدينة كَلاني يرون أنهم يتولون الحفاظ على ضمير العالم المسيحي الغربي. وأخذ مذهبهم بالحج، ورغبوا في أن يهيئوا السبل العملية لأدائه، وبحلول القرن التالي كانت بعثات الحج إلى المزارات الإسبانية العظيمة تحت سيطرتهم الكاملة، أو تكاد. وأخذوا في نفس الوقت يرتبون رحلات إلى القدس ويعملون على انتشارها. واستجابة لإقناعهم ارتحل رئيس دير ستافيليون إلى الارض المقدسة سنة ٩٩٠ ميلادية، وكونت فيردون سنة ٩٩٧ ميلادية. ويتبين تأثيرهم، في القرن الحادي عشر، من الزيادة الكبيرة في عدد حجاج فرنسا واللورين والمناطق القريبة من كَلاني والأديرة التابعة لها. وبرغم أن الحجاج الألمان كانوا كثيرين بين حجاج القرن الحادي عشر، وكان بينهم رئيس أساقفة ترير وميتز وأسقف بامبرج، وكثيرون من الحجاج الإنجليز، فإن أعداد حجاج فرنسا واللورين فاقت أعداد الحجاج الألمان والإنجليز إلى حد كبير. وكانت الأسرتان الحاكمتان الكبيرتان في شمال فرنسا، من أشراف أنجو ونورماندي على ما بينهما من تنافس، صديقتين حميمتين لمدينة كَلاني، وترعيان رحلة الحج إلى الشرق. وذهب فولك نيرا أوف أنجو المرعب إلى القدس سنة ١٠٠٢ميلادية ثم عاد إليها مرتين فيما بعد. وأرسل الدوق ريتشارد الثالث أوف نورماندي الصدقات إليها، وقاد الدوق روبرت جمعًا غفيرًا ذهب به إلى هناك سنة ١٠٣٥ ميلادية، وسجل المؤرخ الكَلاني الراهب جلابر بأمانة جميع تلك الرحلات إلى

(١) See Brèhier, *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age*, pp. 32-3, and Ebersolt, *Orient et Occident*, vol. 1, pp. 72-3, who gives references for these journeys .

الحج. (١)

الحجاج الاسكندنافيون

وحذا النورمانديون حذو دوقهم، وكانوا يبجلون القديس ميكائيل تبجيلا خاصا، وقامت أعداد كبيرة منهم بالرحلة إلى مونت جرجانو ومن هناك كان المقدام منهم يذهب إلى فلسطين. وفي منتصف القرن، بلغت نسبتهم، بين الحجاج الذاهبين إلى فلسطين، من الكبر والتحمس حدا جعل حكومة القسطنطينية، التي كانت غاضبة من

إغارة النورمانديين على إيطاليا البيزنطية، تبدي شيئا من عرقلة مرورهم إلى الأراضي المقدسة (٢) . وأظهر أبناء عمومتهم من اسكندنافيا حماسا يكاد يبلغ حماسهم، وكان الاسكندنافيون قد اعتادوا زيارة القسطنطينية منذ أمد بعيد وتأثروا بثروتها وعجائبها إلى حد كبير. وكانوا يتحدثون عند عودتهم إلى منازلهم في الشمال عن الحديقة الكبيرة، وذلك هو الاسم الذي أطلقوه على المدينة العظيمة القسطنطينية والتي كانوا يعرفونها

---

(١) Radulph Glaber in Bouquet, *R.H.F.* vol. x, pp. 20, 32, 25, 74, 106, 108 .
See Brèhier, *op. Cit.* pp. 42-5; Ebersolt, *op. Cit.* pp. 75-81

(٢) يفترض Brèhier, أن " انشقاق Michael Cerularius " قد أوجد سوء النية بين البيزنطيين والحجاج . وأما Riantفي مؤلفه *Expèditions et Pèlerinages des Scandinaves,* p. 125 فيمضي شأوا بعيدا بحيث يقول إن السلطات البيزنطية تعمدت إغلاق الطريق إلي فلسطين . ومن الواضح أن ذلك يقوم علي أساس تفسيره لتجربة Lietbert of Cambrai(أنظر ص ٧٨ والحاشية رقم ١) ، والظروف التي كانت سائدة في سوريا هي التي تفسر ذلك في واقع الأمر . علي أن خطاب البابا فيكتور Victor (أنظر ص ٧٨ والحاشية ٣) يوحي بأن مسؤولي الإمبراطورية لم يكونوا ودودين دائما في معامليهم للحجاج . إن سبب البرود كان كراهية النور ماندين وليس أي انشقاق .

أحيانا بـآسجارد أي بيت الآلهة. وفي سنة ٩٣٠ ميلادية كان جيش الإمبراطور يضم بالفعل جنودًا اسكندنافيين، وفي مطلع القرن الحادي عشر زادت أعدادهم زيادة كبيرة بحيث شكلت منهم فرقة اسكندنافية خاصة اشتهرت باسم الحرس الفارنجي (الاسكندنافي). وسرعان ما اعتاد الفارنجيون أن يقضوا عطلة في رحلة إلى القدس، وأول من جاء ذكرهم من بين هؤلاء شخص يدعى كوليسكسجر كان في فلسطين سنة ٩٩٢ ميلادية، وذهب هارولد هاردرادا، وهو أشهر الفارنجيين، إلى فلسطين سنة ١٠٣٤ ميلادية. وخلال القرن الحادي عشر كان هناك الكثير من النرويجيين والأيسلنديين والدانمركيين ممن قضوا خمس سنوات أو أكثر في الخدمة الإمبراطورية ثم قاموا بالحج قبل أن يعودوا إلى أوطانهم في الشمال ومعهم مدخراتهم بعد أن أثْروا. وكانت أقاصيصهم التي يروونها لأصدقائهم تستحث هؤلاء الأصدقاء فيرتحلون جنوبًا بقصد الحج. وذهب المصلح الأيسلندي ثورفالد كوردرانزسون فيدفورلي إلى القدس سنة ٩٩٠ ميلادية تقريبًا. وزعم حجاج نرويجيون كثيرون أنهم شاهدوا أولاف ترِيفاس هناك، وهو أول ملك مسيحي نرويجي، بعد اختفائه الغامض سنة ١٠٠٠ ميلادية. ولقد انتوى أولاف الثاني أن يحذو حذوه، بيد أن رحلته لم تتم مطلقًا إلا في الأساطير. وكان هؤلاء الأمراء الشماليون رجالاً يتصفون بالعنف وكثيرًا ما يقترفون إثم القتل، وينتابهم شعور دائم بالحاجة إلى التكفير عن آثامهم. فنجد أن سوين جودوينسون، وهو نصف دانماركي، خرج سنة ١٠٥١ ميلادية مع مجموعة من الإنجليز للتكفير عن جريمة قتل ارتكبها، لكنه مات لتعرضه لسوء الأحوال الجوية في جبال الأناضول في الخريف التالي، وكان يرتحل حافي القدمين تكفيرًا عن آثامه. ولوجمان جودرودسون، وهو ملك مان النرويجي الذي قتل أخاه، التمس غفرانًا من الرب بنفس الطريقة. ومعظم الحجاج الاسكندنافيين كانوا يفضلون المجيء إلى بيت المقدس عن طريق البحر عبر مضيق جبل طارق ثم يعودون عن طريق البر عبر

روسيا. (١)

وكان حجاج القرن العاشر القادمون من الغرب يضطرون قبل ذلك إلى السفر عن طريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية أو إلى سوريا، على أن تكاليف السفر كانت عالية، ولم يكن من اليسير الحصول على أماكن. وفي سنة ٩٧٥ ميلادية تحول حكام المجر إلى المسيحية، وافتتح طريق بري يتجاوز الدانوب ويعبر البلقان إلى القسطنطينية. وبقى ذلك الطريق محفوفا بالأخطار إلى أن أحكمت بيزنطة سيطرتها على شبه جزيرة البلقان كلها في سنة ١٠١٩ ميلادية.

السفر عبر الحدود

ومنذ ذلك التاريخ، كان باستطاعة الحاج أن يسافر مارا بالمجر بأقل قدر من المخاطرة، ويعبر الحدود البيزنطية عند بلجراد ثم يمضي عبر صوفيا وأدريانوبل إلى العاصمة. وكان بوسعه عندئذ أن يسلك طريقا آخر، فيذهب إلى إيطاليا البيزنطية ويقوم برحلة بحرية قصيرة يعبر فيها البحر من باري في جنوب إيطاليا إلى درهاكيوم ثم يسلك الطريق الروماني القديم إلى ثيسالونيكا ثم البسفور. وكانت هناك ثلاثة طرق رئيسية جيدة يمكنه استخدامها لعبور آسيا الصغرى إلى أنطاكيه حيث يمضي جنوبا بمحاذاة الشاطئ إلى اللاذقية ثم ينحرف داخل الأراضي الفاطمية بالقرب من طرطوس وكانت هذه هي الحدود الوحيدة التي كان عليه أن يعبرها بعد وصوله إلى بلجراد أو إلى تيرومولي في إيطاليا، وكان باستطاعته بعدئذ أن يمضي إلى القدس دون عوائق أخرى. وهكذا كان السفر بالطريق البري رغم البطء أقل تكلفة بكثير وأيسر من السفر بحرا، ويناسب الجماعات الكبيرة إلى حد كبير.

---

(١) يورد Riant, *op. cit.*, pp. 97-129 رواية كاملة عن الحجاج الإسكندنافيين .

وكان الحجاج يلاقون من مزارعي الإمبراطورية معاملة مضيافة إذا التزموا بالنظام. وكان الجزء الأول من رحلة الحج يتم في يسر لأن أهل كلاني كانوا يقيمون آنذاك عديدا من الأنزال على ذلك الجزء من الطريق، وكان هناك عدد من الأنزال في إيطاليا يقتصر استخدام بعضها على النرويجيين، كما كان هناك نزل ضخم في مدينة ميلك في النمسا (١)، وخصص نزل سامسون في القسطنطينية للحجاج الغربيين، واحتفظ أهل كلاني بمؤسسة في ضواحي رودوستو (٢) . وفي القدس نفسها كان بوسع الحجاج أن يقيموا في مضيفة القديس جون التي أسسها تجار أمالفي (٣) . ولم يكن ثمة اعتراض على أن يصطحب سادة الغرب العظام حاشية مسلحة على أن تلتزم بالانضباط، وكان معظم الحجاج يحاولون أن يذهبوا في معية أولئك السادة. على أن ارتحال الرجال فرادى أوفي مجموعات من رجلين أو ثلاثة رجال لم يكن من غير الشائع أو بالغ الخطورة .وربما حدثت صعاب أحيانا، ولم تكن الإقامة الطويلة في فلسطين مريحة للحجاج إبان اضطهاد الحاكم، بيد أن تدفق الحجاج لم ينقطع كلية في أية حال.

وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان عبور الحدود إلى أراضي المسلمين أمرا خطرا. ولم يوافق حاكم اللاذقية على أن يأذن بالرحيل لأسقف كامباري يتبرت، فأضطر إلى الذهاب إلى قبرص (٤) . وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية منع المسلمون الغربيين من دخول القبر المقدس

---

(١) .Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica iii,* 4, vol. ii, p. 64

(٢) .See Riant, *op. cit.* p. 60

(٣) . William of Tyre, xviii, 4-5, 1, pp. 822-6; Aimé, *Chronicon,* p. 320

(٤) ‘ Vita Lietberti',in d'Achéry, *Spicilegium,* vo. Ix, pp. 706-12 وقد وحدت رحلة الحج الألمانية الكبيرة في الفترة ١٠٦٤-١٠٦٥م ، والتي كانت تضم ٧٠٠٠ حاج ، ظروفا غير مريحة للغاية جنوب الحدود البيزنطية . وترد الرواية في *Annales Altahenses Majores,* p. 815. See Joranson, "The Great German Pilgrimage of 1064-5

وأخرجوا حوالي ثلاثمائة منهم من القدس وربما تغاضى الإمبراطور عن ذلك (١) . وقد أساء كل من بازل الثاني وإبنة أخيه الإمبراطورة ثيودورا عندما أمرا ضباط جماركهما يفرض ضريبة على الحجاج وخيلهم؛ فكتب البابا فيكتور الثاني إلى الإمبراطورة في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٥٦ ميلادية راجيا إلغاء ذلك الأمر، ويوحي خطابه بأن موظفي الإمبراطورة كانوا يوجدون آنذاك في القدس نفسها. (٢)

على أن هذه المتاعب كانت نادرة. فطوال القرن الحادي عشر وحتى آخر عقدين فيه كان تيار المسافرين إلى الشرق لا ينقطع، وكانوا يرتحلون في جماعات تبلغ الآلاف من الرجال والنساء، من كل الأعمار ومن كل الطبقات، وقد تهيئوا في عصر يتميز بالفراغ لقضاء عام أو أكثر في تلك الرحلة. وكانوا يتوقفون في القسطنطينية إعجابا بتلك المدينة الهائلة التي كانت تجاوز في ضخامتها عشر أمثال أية مدينة أخرى يعرفونها في الغرب، وليبجلوا المخلفات المقدسة الموجودة فيها. فكان بإمكانهم مشاهدة تاج الأشواك والرداء غير المخيط وكل المخلفات الرئيسية التي خلفتها آلام المسيح، وكان هناك نسيج من مدينة الرها طبع المسيح وجهه عليه، ولوحة العذراء التي رسمها القديس لوقا بنفسه، وشعر رأس يوحنا المغتسل، ودثار إيليا، وجثث لا حصر لها للقديسين والأنبياء والشهداء، وقدر هائل من أقدس الأشياء في العالم المسيحي. ومن هناك كانوا يذهبون إلى فلسطين ، والناصرة وجبل

---

(١) Miracula Sancti " Wolframni Senonensis ", in *Acto sanctorum Ordinis Sancti Benedicti,* saeculum iii, pars l, pp. 381-2.

وقد قابل Lietbert مسافرين آخرجوا من فلسطين ('Vita Lietbertti ', *loc. cit.*)

(٢) خطاب فيكتور الثاني Victor II, in *M.P.L.* vol. cxlix, cols. 961-2 يعزي خطأ إلى فيكتور الثالث Riant *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades,* pp. 50-3

طابور (١) والأردن وبيت لحم وكل مزارات القدس. وكانوا يحملقون في ذلك كله، ويصلّون أمام ذلك كله، ثم يشرعون في رحلة العودة الطويلة إلى الوطن وقد تهذبوا وتطهروا، فيستقبلهم أبناء وطنهم ويحتفون بهم على أنهم حجاج المسيح الذين قاموا بأقدس رحلة.

وكان نجاح الحج يتوقف على شرطين: أولهما، أن تكون الحياة في فلسطين من الانتظام بحيث يستطيع المسافر الذي لا حول له ولا قوة أن يتحرك ويمارس عبادته في أمان. وثانيهما، أن يظل الطريق مفتوحًا وقليل التكاليف. وكان الشرط الأول يقتضي أن يسود السلام وحسن الإدارة الحكومية في العالم الإسلامي، ويستلزم الشرط الثاني أن تكون بيزنطة مزدهرة وخيّرة.

---

(١) (المترجم) : جبل طابور ، في شمال فلسطين في الجليل الأسفل . وبرغم أنه لم يرد ذكر هذا الجبل في العهد الجديد، فهو الموقع الذي يري التراث الكنسي أن المسيح تجلي فيه .

(٢) Elbersolt, *Les Sanctuaires de Byzance*, pp. 105 ff.

الفصل الرابع :

صـــوب الكارثـــــة

صوب الكارثة

"فِي سَاعَةِ سَلاَمٍ يَأْتِيهِ الْمُخَرِّبُ"

(أيوب : ١٥ ــ ٢١)

بدا من المؤكد في منتصف القرن الحادي عشر أن الهدوء سوف يسود منطقة شرق البحر المتوسط لسنوات كثيرة قادمة. ذلك أنّ القوتين العظيمتين فيها: مصر الفاطمية وبيزنطة كانتا على وفاق فلم تعتد أيهما على الأخرى وكانتا ترغبان في كبح جماح الدول الإسلامية الواقعة إلى الشرق منهما حيث كان المغامرون الأتراك يثيرون المتاعب دون أن يعكروا صفو حكومتي القسطنطينية أو القاهرة على نحو خطير. وكان الفاطميون على ودّ مع المسيحيين الذين لم ينلهم اضطهاد منذ موت الخليفة الحاكم.

وكان الفاطميون يفتحون موانيهم للتجار القادمين من بيزنطة ومن إيطاليا، ومن ثم استفاد التجار والحجاج على حد سواء من حسن معاملتهم.

وكانت قوة بيزنطة تكفل هذه المعاملة الحسنة. ويرجع الفضل في امتداد الإمبراطورية آنذاك — من لبنان إلى الدانوب ومن نابولي إلى بحر قزوين — إلى مجموعة من الأباطرة المحاربين العظماء، الذين أديرت الإمبراطورية في ظلهم على نحو يفضل غيرها من الممالك المعاصرة، برغم ما قد يعرض لها من فساد أو شغب. ولم يسبق للقسطنطينية أن حظيت بمثل هذا الثراء من قبل، ذلك أنها أصبحت عاصمة العالم التي لا تبارى في شؤون التجارة والمال. وكان التجار يتوافدون عليها من كل حدب وصوب، من إيطاليا وألمانيا، ومن روسيا، ومن مصر والشرق، ليبتاعوا ما تنتجه مصانعها من أشياء نفيسة وليبادلوا بضائعهم الأقل جودة. وكانت تلك المدينة الشاسعة، التي تفوق القاهرة وبغداد في سعتها وازدحامها وصخب الحياة فيها، تدهش زائرها بمينائها المزدحم وأسواقها الحافلة وضواحيها الممتدة وكنائسها وقصورها الهائلة. وكان البلاط الإمبراطوري يبدو للزائر وكأنه مركز الكون كله، وإنْ سيطرت عليه آنذاك أميرتان متقدمتان في العمر جامحتا الطبع.

وإذا كان الفن مرآة الحضارة، فإن الحضارة البيزنطية بلغت مكانة رفيعة فيه. ذلك أنّ فنانيها، في القرن الحادي عشر، أظهروا ما كان يتصف به أسلافهم الكلاسيكيون من اعتدال واتزان; وأضافوا إلى ذلك ميزتين رائعتين من التراث الشرقي وهما الشكلية الزخرفية الثرية عند الإيرانيين، والتركيز الوجداني في الشرق القديم. والأعمال الباقية من ذلك العصر — كقطع العاج الصغيرة أو لوحات الفسيفساء الكبيرة أو الكنائس المحلية ككنيسة دافني أو كنيسة القديس لوقا في اليونان — تُظهر في اقتدار الجمع بين عناصر التراث التي تأتلف في كُلٍّ متكامل. وبالرغم من أنّ أدب ذلك العصر يتوارى وراء ما تعطيه لنا العصور الكلاسيكية السابقة عليه من منجزات، فإنه يعطينا مجموعة متنوعة من الأعمال التي يتصف مستواها جميعًا بالامتياز. فلدينا التاريخ الرائق لجون

دياكوناس، والشعر الغنائي الرقيق لـكرستوفر الميثيليني، وملحمة ديجينيس أكريتـاس ذات الشعبية المكتسحة، والأقوال المأثورة السائرة للجندي سيكاومينوس، ومذكـرات البلاط التي تتسم بالانتقاد والفطنة لـميخائيل بسيلوس. ويكاد يتسم الجو العـام في بيزنطة آنذاك بالرضا عن النفس الذي كان سائدًا في القرن الثامن عشر لولا شيئ مـن الانشغال بالأمور الأُخروية وشيئ من التشاؤم اللذين لم يخلص منهما البيزنطيون في آية حال.

وللإغريقي شخصية تتسم بخفاء وتعقيد لا نلمسهما في الصورة التي يرسمـها في الوقت الحاضر دارسو القرن الخامس السابق على الميلاد. وزادت هذه الشخصية تعقيدًا عند البيزنطي بما داخلها من صفات يتسم بها الدم الشرقي الذي خالطها وجعلها تتميز بالتناقض التام. فعلى حين كان البيزنطي عمليًا إلى حدٍّ بعيد وذا قابلية للعمل وتواقًا إلى أن يحظى بالأمجاد الدنيوية، فإنه كان على استعداد لأن يهجر الدنيا ويخلـو إلى حيـاة التأمل والرهبنة. وكان يؤمن إيمانًا حارًا بالرسالة الإلهية للإمبراطورية وبالسلطة الإلهيـة للإمبراطور، بيد أنه اتسم بالترعة الفردية وبالتمرد على أية حكومـة لا ترضيـه دون إبطاء. وكان يفزع من الهرطقة، على أنّ دينه، وهو أشد أشكال المسـيحية المسـتقرة جنوحًا إلى الباطنية، أتاح له ـــ سواء أكان رجل دين أو دنيا ـــ رحابة فلسفية كبيرة. واحتقر جيرانه على أنهم برابرة وإن سهل عليه تبني عاداتهم وأفكارهم. وهو متقلـب الطبع برغم درايته بشؤُون الدنيا وما له من كبرياء. وتزعزعت ثقته نتيجة لما احتـاح بيزنطة من كوارث أوشكت أن تودي بها، فالأزمة المباغتة تروعه وتجعلـه يجنـح إلى ضَرْبٍ من الوحشية يستنكره، هو نفسه، عندما تعاوده لحظات الهدوء. ولربمـا كـان حاضره واعدًا متألقًا، ولكن نبوءات عديدة تنذره بأن مدينته سوف تهلك ذات يـوم، ويحسب أنّ هذه النبوءات صادقة. فالسعادة والدَّعة لا محل لهما في هذا العـالم العـابر المعتم وإنّما يوجدان في ملكوت السماء وحده.

انهيار الاقتصاد البيزنطي

وكان لمخاوفه ما يبررها. فلم تكن دعائم القوة البيزنطية وطيدة بالقدر الكافي، فتنظيم الإمبراطورية العظيمة قائم على الدفاع، والمسئولون العسكريون يحكمون المقاطعات ويَخضعون هم أنفسهم للإدارة المدنية في القسطنطينية. وهيأ هذا النظام رَديفًا محليًا قادرًا من الجند يمكنه أن يدافع عن منطقتة في أوقات الغزو وأن يعزز الجيش الإمبراطوري الرئيسي في حملاته الكبيرة. وأن يضفي مزيدًا من القوة على حاكم الإقليم عند انتهاء الغزو، خاصة إذا كان هذا الحاكم من الثراء بحيث يستطيع أن يتجاهل من يتولى الإنفاق في العاصمة. فضلاً عن أنّ الرخاء كان مفسدة لنظام الزراعة في آسيا الصغرى. وكان العمود الفقري لبيزنطة يتمثل في مجتمعات المزارعين الأحرار الذين يحصلون على أراضيهم من الدولة مباشرة في مقابل أداء خدمات عسكرية في أغلب الأمر. على أنّ الحال هناك لم تكن تختلف عنها في أي مكان آخر في العصور الوسطى، فالأرض هي الاستثمار الوحيد الآمن للثروة، وكان كل غني يسعى للحصول عليها، وحرضت الكنيسة من يتحمسون لها على أن يورثوها الأرض، وكانت الأرض هي الجائزة المعتادة التي تُمنح للقادة العسكريين الأكفاء أو للمستحقين من الوزراء. وبدت الأمور على ما يرام، فالإمبراطورية ماتزال تستعيد الأراضي التي استولى عليها العدو، أو تعيد إعمار المناطق التي أخلتها الحروب أو خربتها؛ بيد أنّ النجاح في ذلك في حد ذاته أدى إلى احتدام شهوة تملك الأرض، ولم يكن بوسع الأعيان والقائمين على الأديرة إلا أن يزيدوا من ضياعهم بشراء الأرض من الفلاحين الذين كانوا في حاجة إلى المال أو بالاستيلاء على قرى بأكملها إمّا بأخذها على سبيل الهديّة من الدولة أو بتوليهم مسئولية سداد الضرائب المستحقة عليها. وسعى الحكماء من الأباطرة إلى أن يحولوا دون ذلك، لأن المالك الجديد لم يكن ليقاوم الرغبة في تحويل أرضه إلى مزرعة للأغنام إلا فيما ندر، ولأن نقل الحيازات من الفلاحين الذين يؤدون خدمات عسكرية كان يهيّئ للمالك ــ وذلك هو الأهم ــ القدرة على أن يجمع جيشًا خاصًّا مما يضعف

جيش الدولة. بيد أن ما وضعه أولئك الأباطرة من تشريعات لم يحقق نجاحا في هذا السبيل، ففي خلال القرن العاشر نشأت في بيزنطة أرستقراطية وراثية تملك الأرض بلغت من الغنى والقوة ما يكفي لتحدي الحكومة المركزية واستطاع الإمبراطور بازل الثاني، أعظم أباطرة العائلة المقدونية، أن يخمد بمشقة تمردا قام به أولئك الأرستقراطيون في مستهل حكمه. وبانتصار الإمبراطور بازل الثاني ظلت هيبته باقية إلى أن انتهى حكم أسرته في سنة ١٠٥٦ ميلادية بوفاة ابنة أخيه ثيودورا. ولو أن السلالة المقدونية أنجبت ورثة للعرش من الذكور لترسخ مبدأ وراثة العرش الإمبراطوري، ولتوفرت لبيزنطة قوة خليقة بكبح جماح الأرستقراطية. ولكن الولاء للأسرة الحاكمة مكن الأميرة زو وأزواجها المتعاقبين من الاستمرار في حكم يتسم بالفجور والتفريط لما يقرب من ثلاثين عاما، كما مكن الأميرة العجوز ثيودورا من الحكم بمفردها، وكانت القوى الهدامة تنمو طوال الوقت. وعندما ماتت ثيودورا كانت في بيزنطة قوتان تواجه كل منهما الأخرى في معارضة مريرة، وهما زمرة البلاط التي تسيطر على الإدارة المركزية، وعائلات النبلاء التي تسيطر على الجيش. بينما حاولت الكنيسة - التي كان لها موطئا في كل من المعسكرين - أن تحافظ على التوازن. (١)

---

(١) عن الحضارة البيزنطية في هذه الفترة أنظر :

Iorga, *Histoire de la Vie Byzantine*, vol. ii, pp. 230-49 ; Vasiliev, *Histoire de L'Empire Byzantin*, vol. i, pp. 476-92

وعن مشكلة الزراعة في بيزنطة أنظر :

Ostrogorsky , 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire ', in *The Cambridge Economic History of Europe*, vol. 1, pp. 204 ff .

وعن التاريخ السياسي أنظر :

Bury, 'Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenos', in *Selected Essays*,pp. 126-214; Ostrogorsky , *Geschichte des byzantinischen Staates*, pp. 224-40.

كومنينوس ودوكاس

و لم تكد الأميرة ــ التي بلغت العقد السابع وهي ما تزال تؤمن بنبوءة تقول أنها ستحكم لسنوات عديدة ــ تروح في غيبوبتها الأخيرة حتى دفع البلاط إلى العرش بمسئول مدني متقدم في السن هو ميخائيل ستراتيكوس. ورفض الجيش أن يقبل الإمبراطور الجديد، فزحف على القسطنطينية عاقدا العزم على تنصيب قائده، فتنحى ميخائيل دون مقاومة وأصبح الجنرال اسحق كومنينوس إمبراطورا، وهكذا كسبت الأرستقراطية العسكرية الجولة الأولى.

وكان اسحق كومنينوس أرستقراطيا من الجيل الثاني وحسب، شأنه في ذلك شأن الكثير من أقرانه نبلاء بيزنطة. فأبوه جندي من تراكيا (١) ، أو ربما فلاشي (٢) ، استحوز على رضاء الإمبراطور بازل الثاني فأعطاه بعض الأراضي في بافلاجونيا (٣) ، حيث شيد حصنا عظيما عرف باسم (كاسترا كومنينون) وما يزال يعرف في أيامنا باسم (كاستاموني). وورث اسحق وأخوه جون أراضي والدهما وجرأته العسكرية. وانتسب كلاهما إلى الأرستقراطية البيزنطية بالزواج، فزوجة اسحق أميرة من أميرات البيت الملكي السابق في بلغاريا، وزوجة جون وريثة عائلة دالاسيني العظيمة. على أن سوء طويّة الإدارة المدنية أدى باستمرار إلى إفشال حكم اسحق برغم ثروته وسيطرته وتأييد الجيش له، فكَفّ عن الصراع بعد عامين وانزوى في أحد الأديرة. ولّما لم يكن له ولد، رشح كونسطنطين دوكاس خلفًا له، و لم تغفر له زوجة أخيه آنّا دالاسينا ذلك.

وكان كونسطنطين دوكاس رأس أسرة ربما كانت من أعرق أسر الأرستقراطيّة

---

(١) (المترجم) : تراكيا : حاليا الجزء الأوربي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الفلاشي : أحد أبناء جنوب شرق أوروبا المتحدثين بالرومانية .

(٣) (المترجم) : بافلاجونيا : مقاطعة في الأناضول تطل علي البحر الأسود .

البيزنطية وأكثرها ثراء، على أنه هيأ لنفسه مكانًا في البلاط، ومن ثم كان اسحق يأمل في أن يقبله الجانبان; ولكنه سرعان ما أظهر أن ميوله تنأى عن طبقته. وكانت خزانته خاوية والجيش بالغ القوة والخطر، فكان الحل الذي ارتآه تمثل في تخفيض القوات المسلحة، وكان من الممكن الدفاع عن هذا التخفيض كإجراء تقتضيه السياسة الداخلية، ولكن لم يحدث في أيّ وقت في التاريخ البيزنطي أن كان إضعاف القوة الدفاعية للإمبراطورية أمرًا مأمونًا، وكان الإقدام على ذلك في تلك الآونة وخيم العاقبة، إذ كانت سحب العاصفة تتجمع في الشرق بعد أن هبت عاصفة من الغرب بالفعل. (١)

أبناء تانكريد دي هوتفيل

فلبضعة عقود خلت كانت دولة جنوب إيطاليا مسرحا للشغب والاضطراب. وكانت الحدود الرسمية للإمبراطورية البيزنطية تمتد من تيراسيناعلى الساحل التيراني إلى ترمولي على البحر الأدرياتيكي، غير أنه، في نطاق تلك الحدود، لم يخضع لحكم بيزنطة المباشر سوى مقاطعتي أبوليا وكلابريا اللتين كان أغلب سكانهما من اليونانيين، وعلى الشاطئ الغربي تقع ثلاث من دول المدينة التجارية (٢) ، هم جايتا ونابولي وأمالفي،

---

(١) .Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 238-42; Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 a` 1081*, pp. 523-31

(٢) يعود مصطلح دولة المدينة أو city-state أو polis في الأصل على المدن الإغريقية القديمة التي كانت تتمثل في أي منها دولة صغيرة . ويرجع ظهور هذه المدن إلي طبيعة بلاد اليونان الجغرافية ، وانقسامها إلي أجزاء تفصل بينها الجبال والبحر من ناحية ، وإلي أسباب قبلية وعرقية ودينية من ناحية أخري . وكانت توجد في القدم بضع مئات من دول المدينة التي لا يكاد يعرف تاريخ معظمها إلا--

التي كانت تتبع الإمبراطور اسميا. ووجد أهل أمالفي، الذين كانت لهم آنـذاك تجـارة ضخمة مع الشرق المسلم، أن نية الإمبراطور الحسنة تفيدهم في تفاوضهم مع السلطات الفاطمية، وكان للأمالفيينقنصل دائم في القسطنطينية. أما أهل نابولي وجايتا، وبرغـم استعدادهم للتجارة مع الكفار، كانوا أقل كياسة تجاه الإمبراطور. وسيطر على داخل البلاد أمراء بنيفنتو وساليرنو اللومبارديون، الذين اعترفوا بسيادة كل من الإمـبراطور الشرقي والغربي في آن وإن لم يحترموا أيا منهما، وكانت جزيرة صقلية مـا تـزال في أيدي المسلمين برغم تعدد محاولات بيزنطة لاستعادتها، وتسببت الغارات التي يشنـها المسلمون من صقلية ومن أفريقيا على طول الشواطئ الإيطالية في زيـادة اضطـراب البلاد.

وجاءت إلى هذه المناطق أعداد غفيرة من المغامرين النورمانديين القـادمين مـن شمال فرنسا، في طريقهم إلى بيت المقدس ليحجوا أو ليزوروا ضريح القديس ميكائيـل ـــ على جبل جارجانو ـــ الذي كانوا يفضلون زيارته، وكثير منهـم جنود مرتزقـة

--لماما . ومن ثم يروي معظم تاريخ اليونان القديـمة من خلال تواريخ أثينا واسبرطه وقليل من دول المدينة الأخري .

وكانت دولة المدينة تتمركز في مدينة واحدة يضمها سـور في العـادة ، وإن كانت المناطق المحيطة بها تتبعها . وتضم المدينة قلعـة علـى أرض مرتفعة acropolis وسوقـا agora . وكانت حكومة دولة المدينة تتمركز في داخلهـا ، بينمـا يعيش مواطنوها في نطاق المدينة وعلى الأراضي التابعة لها . ويشترك المواطنون في الحكم بدرجات مختلفة تتفق وشكـل الحكم الـذي كان إمـا أرستقراطيـا أو أوليجاركيـا (أي حكم قله) أو ديموقراطيـا . ولما كانت درجـات المواطنة في كثير من تلك المدن تتنوع اشتد الصراع وطال من أجل المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين عامة المواطنين على اختلاف أوضاعهم وبين الخاصة من ذوي المكانة المتميزة .

بقوا في تلك المناطق ليعملوا في خدمة الأمراء اللومباديين. ذلك أن الرغبة في تملك الأرض كانت جارفة في نورماندي، التي ضاقت ضياعها بسكانها و لم يعد فيها متسع لصغار أبنائها ذوي الطموح الذين يساورهم القلق أو للفرسان الذين لا يملكون أرضا. وهذا الدافع إلى التوسع ـ الذي أوشك أن يدفعهم إلى غزو إنجلترا ـ حول أنظارهم إلى الشرق وكل ثرواته; ونظروا إلى جنوب إيطاليا على أنه مفتاح إمبراطورية البحر المتوسط، وأتاح لهم الاضطراب الذي كان سائدا فيه الفرصة التي انتظروها.

في سنة ١٠٤٠ ميلادية استولى ستة أخوه ـ أبوهم فارس نورماندي مغمور هو تانكريد دي هوتفيل ـ على مدينة ميلفي في تلال أبوليا وأسسوا إمارة هناك. و لم تعبأ بهم السلطات البيزنطية المحلية; ولكن النورمانديين وجدوا مساندة من الإمبراطور الغربي هنري الثالث الذي كان تواقا للسيطرة على مقاطعة تصارعت عليها الإمبراطوريتان منذ وقت طويل; ومن البابا الألماني الذي عينه ذلك الإمبراطور والذي كان مستاء من أن يرأس بطريق القسطنطينية أي دائرة اختصاص كنسية إيطالية. وخلال اثني عشر عاما تسيد أبناء تانكريد على الإمارات اللومباردية ودفعوا بالبيزنطيين إلى أقصى نقطة في كلابريا وإلى شاطئ أبوليا، واتجهوا إلى الشمال عبر كامبانيا وأوشكوا أن يبلغوا روما، فشعرت الحكومة البيزنطية بالخطر فاستدعت ماريانوس أرجيروس حاكم أبوليا للوقوف على حقيقة الأمر وأعادته مزودا بسلطات أوسع ليعالج الموقف. على أنه لم يحقق شيئا من الناحية العسكرية إذ صد النورمانديون جيشه الصغير، وإن حقق شيئا من النجاح من الناحية الدبلوماسية لأن البابا ليوالتاسع، وهو من اللورين، كان متوترا مثله. فنجاح النورمانديين كان أعظم مما توقعه البابا وهنري الثالث الذي كان مشغولا بحملة هنغارية، لكنها لم تحل دون إرساله عونا للبابا الذي اتجه إلى الجنوب في صيف ١٠٥٣ ميلادية مع جيش من الألمان والإيطاليين معلنا أن تلك الحرب حرب مقدسة، وكان على قوة بيزنطية أن تلحق به ، وبينما كان ينتظرها خارج مدينة سيفيتات

الصغيرة الواقعة في أبوليا هاجمه النورمانديون وقضوا على جيشه وأخذوه أسيرا. وافتدى نفسه بأن تخلى عن سياسته كلها.

وكانت هذه آخر محاولة جادة لكبح جماح أبناء تانكريد. ومات هنري الثالث سنة ١٠٥٦ ميلادية وخلفه الطفل هنري الرابع، وكان الوصي على العرش أجنس أوف بويتو مشغولا للغاية في ألمانيا فلم يستطع أن يولي الجنوب اهتماما. وقررت البابوية أن تنحى منحى واقعيا، ففي سنة ١٠٥٩ ميلادية اعترف البابا نيكولاس الثاني في مجلس ميلفي بروبرت جيسكارد (روبرت الماكر) أكبر أبناء تانكريد الباقين على قيد الحياة باعتباره "دوق أبوليا وكلابريا، وبفضل الرب والقديس بطرس، وبعونهما، دوق صقلية." وهذا الاعتراف الذي كان يقتضي، في رأي روما وليس في رأي روبرت، التبعية لوريث القديس بطرس، أيّ للبابا، مكّن النورمانديين من إتمام غزوهم في يسر، وسرعان ما خضعت لهم الجمهوريات البحرية; وبحلول سنة ١٠٦٠ ميلادية كان كل ما تبقي للبيزنطيين في إيطاليا هو عاصمتهم، قلعة باري الساحلية. وفي أثناء ذلك بدأ روجر شقيق روبرت الأصغر يحقق نجاحًا بطيئًا في الاستيلاء على صقلية من العرب. (١)

وصمدت باري إلى حين، واستطاع البيزنطيون بذلك أن يَحُولوا إلى حد ما دون أن يتوسع النورمانديون في اتجاه الشرق، غير أنه كان من المحتم أن تؤدي القلاقل السياسية في إيطاليا إلى قلاقل دينية; وأدى وجود الغزاة اللاتينيين في جنوب إيطاليا إلى إثارة مسألة الكنيسة اليونانية الموجودة في تلك المنطقة والخلاف القدم بين القسطنطينية

---

(١) إن أفضل ما كتب عن التغلغل النور ماندي في جنوبي إيطاليا وغزو البلد يرد في :
Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile,* vol 1, chs. ii -vii, and Gay, *L'Italie Mèridionale et l'Empire Byzantin,* bk . v, chs. ii-v

وروما حول ولائها الكنسي. وترتب على الإصلاحات التي أجريت في روما أن عزمت البابوية على ألا تسمح بأنصاف الحلول فيما لها من مطالب. وكان يشغل كرسي البطرياركية في القسطنطينية آنذاك ميكائيل سريولاريوس، وهو من أكثر ساسة الكنيسة اليونانية طموحًا وأشدهم عدوانية. إن القصة التعسة للزيارة التي قام بها البابا ليو التاسع إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية ينبغي أن تسرد مع ما ترتب عليها من علاقات بين الكنيستين الغربية والشرقية؛ فإنها انتهت بمشاهد من "العزل الكنسي" المتبادل، على الرغم من محاولة الإمبراطور إيجاد نوع من المصالحة؛ كما أنها جعلت أيّ تعاون صادق بين روما والقسطنطينية بشأن حاجات إيطاليا العاجلة، أمرا مستحيلا. لكنها لم تتسبب في الانقسام النهائي الذي يعزوه المؤرخون المتأخرون إلى هذه الزيارة. وساءت العلاقات السياسية بين البلاطين الإمبراطوريين، لكنها لم تنقطع. وسرعان ما فقد سريولاريوس نفوذه. بعد أن ازدرته الإمبراطورة ثيودورا التي حاول أن يقصيها عما آل إليها، وخلعه الإمبراطور اسحق، فمات منفيا لا حول له ولا قوة. ولكنه انتصر في نهاية الأمر، ذلك أن أجيال بيزنطة اللاحقة رأت فيه بطل استقلالها؛ وعندما عاود الإمبراطور والبابا رسائل الود، استطاعت الإمبراطورة أيودوسيا ماكرمبوليتسا إضافة اسمه إلى قائمة القديسين. (١)

ومن وجهة نظر مؤرخي بيزنطة الذين عاصروا تلك الأحداث، فإن حكام الإمبراطورية لم يكادوا يلاحظون ذلك الخلاف، إذ كانت المشاكل التي تحدث في الشرق تحجب عن عيونهم متاعب الغرب.

إن اضمحلال الخلافة العباسية لم ينطو على نفع كامل لبيزنطة. ذلك أن ما كان يعتور العراق من فقر بدأ يؤدي إلى تغيير طرق التجارة في العالم ، فلم يعد تجار الشرق

---

(١) انظر ما يلي الصفحات ١٧١ - ١٧٣ .

الأقصى يأتون إلى أسواق بغداد ببضائعهم التي كان الكثير منها ينقل إلى الإمبراطورية كي يعاد شحنه من موانى آسيا الصغرى أو من القسطنطينية نفسها إلى الغرب; وأصبحوا يفضلون آنذاك أن يتخذوا طريق البحر الأحمر إلى مصر، ومن مصر كانت تنتقل بضائعهم إلى أوروبا على السفن التجارية الإيطالية، ومن ثم لم تعد بيزنطة تقع على طريق التجارة، وأدت غيبة القانون في أطراف الإمبراطورية العباسية إلى إغلاق طريق القوافل القديم من الصين والذي كان يمتد عبر تركستان وشمال فارس إلى أرمينيا والبحر عند طربزون (١) ، ولم يبق الطريق البديل الممتد إلى شمال بحر قزوين آمنا لفترة طويلة. وبالنسبة لمنطقة البحر المتوسط لم تعد القوة العباسية، كما كانت من قبل، عاملا من عوامل الدفاع الخارجي ضد برابرة أواسط آسيا من الناحيتين السياسية والعسكرية على السواء.

الأتراك يتحركون غربا

إن سبل الدفاع انهارت; وتمكنت آسيا الوسطى مرة أخرى من أن تتعدى نطاقها إلى أراضي الحضارة القديمة. ولقد لعب الأتراك دورا هاما في التاريخ لفترة طويلة، فالإمبراطورية التركية في القرن السادس كانت، على قصر عمرها، قوة استقرار وإشعاع حضاري في آسيا. والشعوب التركية البعيدة ــ مثل شعوب الخزر (٢) اليهودية علي

---

(١) طربزون : مدينة في الشمال الشرقي من تركيا ، تقع علي خليج في الجنوب الشرقي للبحر الأسود وخلفها سلسلة جبال مرتفعة تفصلها عن هضبة الأناضول .

(٢) الخزر : شعب يتألف من اتحاد قبائل تركية إيرانية ، أنشأ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي إمبراطورية تجارية رئيسية في القسم الجنوبي الشرقي لروسيا الأوروبية حاليا .

ضفاف الفولجا (١) أو الاوجور النساطرة المسيحية، التي استقرت فيما بعد على حدود الصين ــ أظهرت قدرتها على التكيف والتقدم الحضاري، على أنه لم يكن هنــــاك أي تقدم في تركستان نفسها منذ القرن السابع. ونشأ قليل من المدن على طرق القوافـــل، ومع ذلك بقى التركمانيون في غالب الأمر رعاة وأشباه بدو، وأدى تزايد عددهم إلى رغبة ملحة في الترحال إلى ما وراء حدودهم. وفي القرن العاشر حكم تركستان أبنــاء الأسرة السامانية الفارسية (٢) الذين تمثل دورهم في التاريخ في تحويل أتــراك أواســط آسيا إلى الإسلام. ومنذ ذلك الوقت تحولت أنظار الترك إلى أراضي جنوب غربي آسيا وشرق المتوسط.

واستولى محمود الغزنوي (٣) ــ وهو أول عظماء المسلمين الأتراك ــ على الحكم من السامانيين. وفي العقود الأولى من القرن الحادي عشر أقــام إمبراطوريــة عظيمــة امتدت من أصفهان إلى بُخَارى ولاهور . وفي تلك الأثناء كان المرتزقة الترك يتوغلون في العالم الإسلامي كِله، بنفس القــدر الذي كان يتوغــل به النورمانديون في أوروبا

---

(١) نهر الفولجا : أو نهر أوروبا : أطول نهر في القارة الأوروبية والمجرى المائي الرئيسي في الاتحاد السوفياتي ينبع من تلال فالداي شمال غرب موسكو ويجري إلي الجنوب الشرقي ليصب في بحر قزوين .

(٢) الأسرة الحاكمة السامانية (٨١٩-٩٩٩م) : أول أسرة حاكمة وطنية في إيران بعد الفتح الإسلامي . أسسها سامان خودا ، وحصل أحفاده الأربعة من الخليفة العباسي المأمون في مقابل خدماتهم المخلصة علي مقاطعات سمرقند وفرغانة وشاه وحرات .

(٣) الأسرة الحاكمة الغزنوية (٩٧٧-١١٨٦م) : حكمت خراسان شمال إيران وأفغانستان وشمال الهند . وبلغت القوة الغزنوية ذروتها أثناء حكم محمود الذي أقام إمبراطورية امتدت من نهر جيحون (أموداريا حاليا) إلي وادي أندوس والمحيط الهندي وشرق إيران ، وانتقل بالأسرة من الأصــل الوثني إلي العقيدة الإسلامية ووسع الرقعة التي ساد فيها الإسلام .

المسيحية. وكان للخليفة في بغداد، ولكثيرين من الحكام المسلمين، كتائب تركية؛ وكان من بين رعايا الغزنويين عشيرة الغز، وهم أتراك من سهول الآرال الفسيحة، أطلق عليهم السلاجقة، نسبة إلى اسم جدهم شبه الأسطوري. وكان أمراء السلاجقة مجموعة من المغامرين الذين يغارون من بعضهم البعض وإن كانوا يتحدون حفاظا على صالح العائلة، ولا يكادون يختلفون في ذلك عن أبناء تانكريد دي هوتفيل، وإن كانوا أوفر حظا من النورمانديين من حيث عدد أشياعهم، ذلك أنه كان بوسعهم أن يعولوا على عون حشود التركمان الهائلة التي لا تكاد تقر في مكان. وبعد موت محمود سنة ١٠٣٠ ميلادية، ثار السلاجقة على الغزنويين؛ وبحلول سنة ١٠٤٠ ميلادية كانوا قد طردوهم واضطروهم إلى أن يلوذوا بمقاطعاتهم الهندية. وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية، دخل طغرلبك (١) ، وهو أكبر أمراء البيت السلجوقي، أصفهان وجعلها عاصمة دولة تضم فارس وخراسان، بينما استقر إخوته وأبناء عمومته على حدوده الشمالية في تحالف مفكك يعترف بسلطته العليا، وراحوا يغيرون على البلدان المجاورة كما يحلو لهم. وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان الخليفة العباسي في حالة من الرعب بسبب المؤامرات التي كان يدبرها وزيره البساسيري مع الفاطميين، فاستنجد بطغرلبك الذي دخل بغداد كبطل سني ومنح لقب ملك الشرق والغرب، وصار صاحب السلطة العليا الدنيوية على كل الأراضي التي تدين للخليفة بالولاء الروحي. (٢)

---

(١) (المترجم) : طغر لبك : مؤسس الأسرة السلجوقية التي حكمت إيران والعراق وسوريا والأناضول خلال القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر .

(٢) أفضل موجز للتاريخ التركي المبكر يرد في مادة "Turks" التي كتبها **Barthold** في *Encyclopaedia of Islam* أنظر أيضا مادة " **Seljuks** " الى كتبها **Houtsma** في *Encyclopaedia Britannica*, Iith ed. وعن محمد الغزنوي ، أنظر : *Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 18 ff

نهاية أرمينيا

وكانت هناك غارات تركية داخل أرمينيا ترجع إلى عهد بازل الثاني في الوقت الذي كان فيه السلاجقة ما يزالون تحت الحكم الغزنوي. ولكي يحمي بازل إمبراطوريته من الأتراك، شرع في سياسته ضم أرمينيا قطعة قطعة، وبعد غزو السلاجقة لفارس تكررت الغارات التركية على أرمينيا، واشترك طُغْرُلبك بنفسه مرة واحدة سنة ١٠٥٤ ميلادية وخرّب البلاد حول بحيرة فان، ولكنه فشل في الاستيلاء على متريكيرت الحصينة. وكان إبنا عمه، حسن وإبراهيم إينال، يتوليان في العادة قيادة الجيوش المغيرة التي هزمها البيزنطيون سنة ١٠٤٧ ميلادية أمام مدينة أرزروم، وخلال الأعوام التالية تركزت جهودهما على مهاجمة حلفاء الإمبراطورية في جورجيا (١)، ففي سنة ١٠٥٢ ميلادية اجتاحا مدينة قرس، وعادا في سنتي ١٠٥٦ و١٠٥٧ ميلادية إلى أرمينيا مرة أخرى، وفي سنة ١٠٥٧ ميلادية نُهبت مدينة ملطية، وفي سنة ١٠٥٩ ميلادية تقدم الجنود الأتراك للمرة الأولى إلى مدينة سيفاس الواقعة في قلب الأراضي الإمبراطورية. (٢)

ومات طُغْرُلبك سنة ١٠٦٣ ميلادية، ولم يكن يولى اهتمامًا كبيرًا بحدوده الشمالية الغربية. لكن خليفته وإبن أخيه ألب أرسلان سعي إلى حماية نفسه من البيزنطيين، إذ كان في حالة من التوتر من إمكان تحالف البيزنطيين والفاطميين، فقرر غزو أرمينيا قبل المضي في هدفه الرئيسي ضد الفاطميين. وكُثفت الغارات على الإمبراطورية; ففي سنة ١٠٦٤ ميلادية دُمرت العاصمة القديمة لأرمينيا (مدينة آني)،

---

(١) (المترجم) : جورجيا : مدينة إلي اتلشرق من القسطنطينية .

(٢) Laurent, *Byzance et les Turcs Seldjoucides,* pp. 16-24; Cahen, 'La permiére Pénétration turque Asie Mineure',. .pp. 5-21, in *Byzantion,* vol. xviii. See also Mukrimin Halil, *Türkize Tarihi,* vol. 1, *Anadolum Fethi, passim* .

وأما أمير مدينة قرس الذي كان آخر حكام أرمينيا المستقلين فقد سره أن يسلم أراضيه للإمبراطورية في مقابل بعض الضياع في جبال طوروس ورافقته أعداد كبيرة من الأرمن إلى موطنه الجديد. ومنذ سنة ١٠٦٥ ميلادية راح الأتراك يهاجمون قلعة إيديا العظيمة على الحدود كل عام، لكنهم كانوا غير متمرسين في أعمال الحصار الحربي. وفي العام التالي ١٠٦٦ ميلادية احتلوا ممرات جبال أمانوس، وفي الربيع التالي خربوا مدينة قيصرية التي كانت حاضرة كابادوكيا، وفي الشتاء التالي هزموا الجيوش البيزنطية في ملطية وسيفاس. ومكنتهم هذه الانتصارات من السيطرة على أرمينيا سيطرة كاملة. وخلال السنوات التالية أغاروا على أعماق الإمبراطورية: قيصرية الجديدة وعمورية سنة ١٠٦٨ ميلادية، وقونية سنة ١٠٦٩ ميلادية، وخونيا سنة ١٠٧٠ ميلادية، القريبة من شواطئ بحر إيجة. (١)

واضطرت الحكومة الإمبراطورية إلى التصرف. وفي سنة ١٠٦٧ ميلادية مات الإمبراطور كونسطنطين العاشر، وكانت سياسته في خفض القوات المسلحة مسئولة بدرجة كبيرة عن هذا الموقف الخطير، وترك ابنه الصغير ميكائيل السابع تحت وصاية أمه الإمبراطورة أيوديسيا التي تزوجت في العام التالي من رومانوس ديوجينوس القائد العام ورفعته إلى العرش. وكان رومانوس جنديا بارزا ووطنيا مخلصا، غير أن المهمة التي كانت تنتظره تتطلب رجلا ذا عبقرية. ولقد ارتأى أن سلامة الإمبراطورية تستلزم إعادة غزو أرمينيا، لكن الجيش البيزنطي لم تعد له القوة الهائلة التي كان عليها قبل خمسين سنة مضت، ولم تكن قوات المقاطعات تكفي لحماية أراضيها من المغيرين، وإذن لا يمكنها توفير جنود لحماية الإمبراطورية، والعائلات النبيلة القادرة على تجنيد الرجال من ضياعها ساورتها الشكوك فكفت أيديها ، وفصائل الفرسان وعددها ستون ألف فارس تفرقت الآن وهي التي كانت دورياتها تجوب الحدود السورية حتى

---

(١) Laurent, *op. cit.* pp. 4-6; Cahen, *op. cit.* pp. 21-30.

منتصف القرن، والحرس الإمبراطوري المكون من نوعيات منتقاة من الأناضول والمدرب تدريبًا عاليًا أقل بكثير مما كانت عليه قوته في الأيام الغابرة. وأصبح سواد الجيش يتكون من مرتزقة أجانب: نُرويجيّين من الحرس الفارنجي، ونورمانديين وفرنجة من غرب أوروبا، وسُلافيين من الشمال، وأتراك من سهول روسيا الجنوبية، وبتشنج، وكومان، وغُزّ، وانتقى رومانوس من هذه العناصر قوة تقرب من مائة ألف رجل، ربما كان نصفها من مواليد بيزنطة، لكن الجنود المحترفين منهم كانوا قِلّة ضئيلة ولم يكن أحد منهم مجهزًا تجهيزًا جيدًا، وكانت أكبر فصيلة من المرتزقة تتكوّن من الكومان والأتراك يقودها جوزيف تاركانيوت التركي المولد، وكانت الكتيبة الرئيسية تضم أبرز الفرسان النورمانديين بقيادة روسيل أوف بيلويل النورماندي، وكان لهذه الكتيبة من قبل قائدان من الفرنج هما هيرفي وكرسبين، اللذان خُلِعا واحدًا بعد الآخر لخيانتهما البيّنة، ولم يكن الرجال يعملون إلاّ تحت إمرة رجل وطني، أمّا كبير القادة البيزنطيين التابع للإمبراطور مباشرة ــ وهو أندرونيكوس دوكاس، إبن أخي الإمبراطور المتوفى ــ فكان كباقي أفراد عائلته عدوًا لدودًا لرومانوس الذي لم يجرؤ على تركه في القسطنطينية. وخرج رومانوس في ربيع ١٠٧١ ميلادية على رأس هذا الجيش، الذي لا يعوَّل عليه وإن كان كبيرًا، لاستعادة أرمينيا. وبينما هو يغادر العاصمة جاءت الأنباء من إيطاليا بأن باري، وهي آخر ما يملكه البيزنطيون في شبه الجزيرة الإيطالية، سقطت في أيدي النورمانديين.

معركة مانزكيرت

ويتناول مؤرخو ذلك العصر بتفصيل مأسوي مسيرة الإمبراطور شرقًا بطول الطريق العسكري الضخم. وكان ينوي الاستيلاء على القلاع الأرمينية ويضع فيها حامياته قبل وصول الجيش التركي من الجنوب. وكان ألب أرسلان في سوريّا بالقرب

من حلب حينما سمع بالتقدم البيزنطي، وتحقق من مدى خطورة التحدي، فأسرع شمالاً لمقابلة الإمبراطور. ودخل رومانوس أرمينيا عن طريق الفرع الجنوبي للفرات الأعلى، وقسّم قواته بالقرب من مانزكيرت التي ذهب إليها هو نفسه بينما أرسل قواته من الفرنجة والكومان لاحتلال قلعة الأخلاط على شاطئ بحيرة فان. وفي مانزكيرت جاءته الأنباء باقتراب ألب أرسلان، فانحدر إلى الجنوب الغربي لكي يعيد توحيد الجيش قبل أن ينقضّ عليه الأتراك، لكنه أهمل إرسال المستكشفين ناسيًا بذلك أول مبادئ التكتيكات البيزنطية. وفي يوم الجمعة ١٩ أغسطس (آب)، وبينما كان في أحد الأودية على طريق الأخلاط في انتظار أتباعه من المرتزقة، انقض عليه ألب أرسلان ولم يأت المرتزقة لنجدته، وفي الليلة السابقة على المعركة، تذكر الكومان أنهم أتراك وأن رواتبهم قد تأخر دفعها، فتوجهوا جميعا إلى الأعداء وانضموا إليهم، وقرر روسيل والفرنجة عدم الاشتراك في المعركة، وهكذا لم يطل التنبؤ بنتيجتها. ولقد حارب رومانوس نفسه بشجاعة، وأما أندرونيكوس دوكاس فقد تحقق من الهزيمة ورأى بثاقب نظره أن القسطنطينية ستشهد الفصل الثاني من المسرحية، فسحب القوات الاحتياطية التي كانت تحت إمرته من ساحة القتال وسار بها غربا تاركا الإمبراطور لمصيره. وما أن حل المساء حتى كان الجيش البيزنطي قد دمر وجرح رومانس واقتيد في الأسر. (١)

---

(1) يورد Cahen أكمل الروايات وأفضلها تزويدا بالمراجع في
'La Campagne de Mantzikert d'aprés les Sources Mussulmanes', in *Byzantion*, vol. ix, pp. 613-42. See also Laurent, *op. cit.* p. 43 and n. 10.
ويرد وصف جيد لإستراتيجية المعركة وتكتيكاتها في Oman, *History of the Art of War*, pp.217-19
أما Delbrück في *Geschichte der krigskunst*, vol. iii, p. 206 و Lot في *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, vol. 1, pp. 71'2 من Oman لقبوله الأعداد الغفيرة التي أوردها المؤرخون الشرقيون للدلالة علي قوة جيش رومانوس الرابع - بدءا من مائه ألف رجل وأكثر-علي أن الجيش كان بلا شك ضخما بصورة غير عادية سوى أنه ، كما يؤكد Lautrent, *op. Cit.* pp. 45-59 نظرا لإقتصاديات قسطنطين العاشر بشأن الجيش ، لم تكن تجهيزاته كافية وكانت نسبة الجنود المدربين ضئيلة جدا.

الفصل الخامس :

اضطـــراب في الشـــــرق

إضطراب في الشرق

" إِنِّي وإِنْ كَانُوا يَسْتَأْجِرُونَ بَينَ الأُمَمِ
الْآنَ أَجْمَعُهُم فَيَنْفكُونَ قَلِيلاً مِن ثِقَلِ
مَلِكِ الُرؤَسَاءِ"

(هُوشَع : ٨ ــ ١٠)

كانت معركة مترُكرت أشد الكوارث الحاسمة في التاريخ البيزنطي، ولم يخالط البيزنطيين أنفسهم أية أوهام في ذلك، وما فتئ مورخوهم يذكرون ذلك اليوم الرهيب. وبدا للصليبيين المتأخرين أن البيزنطيين خسروا في ساحة القتال لقبهم كحماة للعالم المسيحي، ومن ثم كان لتدخل الغرب بعد مترُكرت ما يبرره (١) .

---

(١) يعتبر المؤرخ وليم الصوري (William of Tyre) أن تلك الكارثة كانت مبرراً للتحرك الصليبي مادامت بيزنطة لم تستطع حماية العالم المسيحي الشرقي أكثر من ذلك . وأما المؤرخ الألماني (ديلبروك) .. فيعتبر أن أهمية المعركة مبالغ فيها على أنه يتضح من الشواهد أن المعركة أسفرت عن عجز الإمبراطورية عن أن تدفع بجيش هجومي إلي الميدان لسنوات كثيرة بعد ذلك .

و لم يستفد الأتراك استفادة عاجلة كبيرة إثر ذلك النصر. وحقق ألب أرسلان ما كان يهدف إليه، وتوفرت الحماية لجناحه، وأزال خطر التحالف البيزنطي الفاطمي. و لم يطلب من الإمبراطور الأسير سوى إخلاء أرمينيا وفدية كبيرة نظير إطلاق ســـراحه، ثم سار في حملة إلى بلاد ما وراء النهر حيث مات سنة ١٠٧٢ ميلادية، و لم يدخـــل ابنـــه وخليفته ملكشاه ـــ الذي كان لإمبراطوريته أن تمتد من البحر المتوسط إلى تخوم الصين ـــ آسيا الصغرى مطلقًا. لكن أتباعه التركمان اعتادوا على التنقل، و لم يكن يرغب في توطينهم في الأراضي القديمة للخلافة، بيد أنّ سهول الأناضول الوسطى التي أخلاهـــا وجهاء بيزنطة أنفسهم وحولوها إلى مزارع أغنام كانت تناسبهم تمامًا، فعهد إلى ابـــن عمه سليمان بن قتلمش أمر إخضاع تلك البلاد للشعب التركي. (١)

ويسر البيزنطيون أنفسهم الغزو على الأتراك، إذ انقضت السنوات العشرون التالية من تاريخهم في مُضْطَرَبَ التمرد والتآمر . فعندما وصلت إلى القسطنطينية أنباء الكارثة وأسر الإمبراطور أعلن ميكائيل دوكاس ـــ ابن زوجته ـــ أنه بلغ سن الرشد واســـتولى على الحكم، وعزز موقفَه وصولُ ابن عمه اندرونيكوس ومعه بقايا الجيـــــش. وكـــان ميكائيل السابع شابًا مثقفًا ذكيًا، وحريًـــا به أن يكون حاكمًا مقتدرًا في زمن أهـــدأ ،

---

(١) Article ' Suleiman ben Qutulmush ' by Zettersteen in *Encyclopaedia of Islam* ; Laurent , *op . cit* . pp . 9 - 11 ; Cahen, 'La paremiére Pénétration turque', in *Byzantion,* vol. xviii,pp. 31-2 See also Wittek, 'Deux Chapitres de l'Histoire des Ramsay, 'Intermixture of Turcs de Roum', in *Byzantion,* vol. xi, pp. 285-319; Races in Asia Minor', in *proc . Brit . Acad* . vol. vii, pp . 23 - 30 , and Yakubovsky, ' Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian) , in *poc. Acad. Sci. U.S.S.R.* 1936.

غير أن المشاكل التي واجهته كانت تتطلب رجلاً أعظم منه بكثير. وعـــاد رومـــانوس ديوجينيس من أسره ليجد نفسه مخلوعًا، فحاول أن يحارب دفاعًا عن عرشه الســـليب لكنه هُزم بسهولة واقتيد سجينًا إلى القسطنطينية حيث اقتلعت عيناه في وحشيـــة أدت إلى موته بعد ذلك بأيام قليلة. و لم يكن بوسع ميكائيل أن يتركه على قيد الحياة، لكن النهاية الوحشية التي انتهت بها حياته صدمت أقاربه الأقوياء وأصدقاءه الذين أســـرتهم شهامته وأخذت منهم النقمة كل مأخذ، وسُرعان ما وجـــد اســـتياؤهم متنفسًـــا في الخيانة.(١)

دخول الأتراك آسيا الصغرى

وبدأت الغزوات التركية لآسيا الصغرى بصورة جدية سنة ١٠٧٣ ميلاديـــة دون تناسق أو وحدة. ورغب سليمان في إقامة سلطنة منظمة يحكمها تحت سيادة ملكشاه، ولكن بعض الأمراء الأتراك الأقل شأنا، مثل دنمشند و شاكـــا و منجشـــك، كـــانوا يستهدفون الاستيلاء على بعض المدن الصغيرة أو القلاع التي تمكنهم من الإغارة علـــى السكان أيا كانوا وتولى أمرهم، وآزرهم في ذلك، البدو التركمان الذين كانوا يرتحلون على ظهور خيولهم بما خف من السلاح ومعهم خيامهم وعائلاتهم وهم يتقدمـــون في البراري. وولى المسيحيون الأدبار تاركين الغزاة من ورائهم يحرقون قراهم ويجمعـــون أسراهم وقطعانهم. وكان التركمان يتجنبون المدن الكبيرة، ولكن وجودهم وما أحدثوه من دمار قطع الاتصالات في أنحاء البلاد مما فرض العزلة على حكام المقاطعات، وتمكن

---

(١) إن المصدر الرئيسي الأصلي لهذه الفترة المعقدة من التاريخ البيزنطي هو Nicephorus Bryennius الذي يغطيها تفصيلا .Modern résumés in Diehl and Marçais, *op.cit.* pp. 554 ff.
And Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 243-7

زعماء الأتراك من تحقيق رغباتهم، ومن ثم شكلوا عاملا يحول دون أن يعاود البيزنطيون محاولة الغزو.

وحاول الإمبراطور ميكائيل أن يعترض التقدم التركي. وكان لما دبره روسيل أوف بيلويل من خيانة أثره في تمكين الكتيبة الفرنجية النورماندية من الإفلات من كارثة متزكرت، وبرغم ما تبين من أن روسيل لا يعتمد عليه اضطر ميكائيل إلى الاستفادة به، فعهد إليه بجيش محلي صغير يقوده اسحق كومنينوس، وهو ابن أخي الإمبراطور السابق. وكان اختيارا حكيما، ذلك أنه وأخوه ألكسيوس الذي صحبه ينتميان إلى أسرة تكره عشيرة دوكاس كراهية مريرة، غير أنهما، وبرغم إلحاح أمهما ظلا مخلصين لميكائيل ولعهده وأثبتا جدارتهما في القيادة. ولكن غدر روسيل لم يدع مجالا لإخلاص اسحق، فقبل أن يقابل الجيش البيزنطي الأتراك، تخلى روسيل وقواته عن ولائهم. وتعرض اسحق لهجوم الأتراك والفرنجة الذين جاوزت أعدادهم عدد جنوده إلى حد يدفع إلى اليأس، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في أسر السلاجقة.

روسيل أوف بيلويل

واتضحت عندئذ نوايا روسيل الذي التهب خياله بما فعله بنو جلدته في جنوب إيطاليا، فوطد نفسه على إرساء دعائم دولة نورماندية له في الأناضول، ولم يكن معه سوى ثلاثة آلاف رجل لكنهم يدينون له بالولاء وكان تسليحهم جيدا، وكذلك تدريبهم، وبإمكان أي منهم أن يغلب أي تركي أو بيزنطي إذا واجهه على حدة. وتحقق الإمبراطور من أن روسيل أصبح آنذاك أشد خطورة من الأتراك، فتدارس مع عمه القيصر جون دوكاس ما يمكن جمعه من الجنود وأرسلهم في نهاية الأمر تحت إمرة عمه بنفسه، وقابلهم روسيل بالقرب من عمورية حيث اجتث شأفتهم بسهولة وأسر القيصر. ولكي يضفي على ملكه مبررا شرعيا أعلن تتويج القيصر الأسير إمبراطورا رغما عنه وسار إلى القسطنطينية ووصل إلى الشاطئ الآسيوي لمضيق البسفور دون

عائق وأحرق ضاحية كريسوبوليس (سكوتاري) وعسكر بين أطلالهـــا. ولجـأ ميكائيل اليائس إلى القوة الوحيدة القادرة على مساعدته فأرسل وفـــدًا إلى السلطان السلجوقي سليمان الذي وعد بالمساعدة ـ بموافقة سيده ملكشاه ـ في مقابل التنازل عن المقاطعات الشرقية للأناضول التي كانت محتلة بالفعل. واستدار روسيل ليواجهـه لكن الأتراك أحاطوا بجنوده على جبل سوفون في كابادوكيا، وتمكن روسيل من الهرب مع قلة من رجاله وتحصن في مدينة أماسيا الواقعة في الاتجاه الشمالي الشرقي. وأرسـل ميكائيل إليهاألكسيوس كومنينوس الذي نجح في المزايدة لدى الزعيم التركي الرئيسي في المنطقة وفاز بعونه، وأدى ذلك إلى استسلام روسيل. وكانت حكومة روسـيل مـن الكفاءة والشهرة بحيث بذل مواطنو أماسيا جهدهم لإنقاذه و لم يكفوا عن ذلـك إلا عندما علموا أنّ عينية قد فقئتا. وحقيقة الأمر أنّ ألكيسوس لم يكن ليضع نفسـه في موضع التمثيل بـروسيل، وفي ذلك سر جاذبيته التي جعلت الإمبراطور يسـعد بـأن يسمع أنّ ألكسيوس لم يتدن إلى السماح بمثل هذا الانحطاط. (١)

ويختفي روسيل من التاريخ. ولكن الأحداث تترك أثرها على البيزنطيين وتعلمهم أنّ النورمانديين ليسو أهل ثقة، وأن طموحهم لا تحده شواطئ إيطاليا الجنوبية، وإنّمـا يرغبون في إقامة إمارات في الشرق. ويمضي أثر هذه الأحداث فيفسّر السياسة البيزنطية بعد ذلك بعشرين عامًا. وفي ذات الوقت تثبط همّة النورمانديين عن الانخراط في الخدمة الإمبراطورية، ومن ثم يصبح أبناء عمومتهم الاسكندنافيون موضع شك. ومنذئذ يصبح اختيـار الحرس الفارنجي من الذيـن عانـوا من النومانـديين، وهم الأنجلوسكسون

---

(١) Roussel's career is told by Bryennius, pp. 73-96, And Attaliates, pp. 183 ff See Schlumberger, Deux Chefs normands', in Revue Historique, vol. xvi

البريطانيون. (١)

وتسبب الخوف من النوماندين والحاجة الدائمة إلى مرتزقة أجانب في أن يسرع ميكائيل إلى اتباع سياسة استرضاء الغرب. و لم يكن هناك من سبيل لاسترجاع جنوب إيطاليا و لم يكن بوسعه أن يستمر في الحرب هناك، فأرسل جون إيتالوس، الفيلسوف الإيطالي المولد، إلى النورمانديين سفيرا للاتفاق على السلام معهم رغم أن الكثير من البيزنطيين يعتبرونه خائنا لمصالح الإمبراطورية، ولكن ميكائيل لم يعبأ بذلك وكان على دراية برغبة آل هوتفيل الذين يتطلعون إلى عقد أحلاف كبيرة عن طريق الزواج، فاقترح عليهم إرسال هيلين إبنة جيسكار لتكون عروسا لإبنه القاصر قسطنطين، وفي الوقت نفسه سعي إلى التقرب من البابا العظيم جريجوري السابع ونال صداقته الحميمة. وهكذا تحقق السلام على حدوده الغربية بفضل سياسته. (٢)

على أن الاضطراب ازداد سوءا في الأناضول، وفقدت الحكومة الإمبراطورية السيطرة على مجريات الأمور هناك. برغم وجود قليل من القادة المخلصين الذين حافظوا على استبقاء سلطة الإمبراطور، مثل اسحق كومنينوس حاكم أنطاكية آنذاك، فإن انقطاع سبل الاتصال أدى إلى افتقار تنسيق السياسة. وفي نهاية الأمر، تمرد نسفورس بوتنياتس في سنة ١٠٧٨ ميلادية الذي كان محافظا لإحدى المقاطعات الكبرى للأناضول في الجزء الأوسط الجنوبي لآسيا الصغرى، مدفوعا من ناحية بطموح

---

(١) For the English in the Varangian Guard, see Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 355-77; Vasiliev,'Opening Stages of the Ango- Saxon Immigration to Byzantium', in *Seminarium Kondakovianum* , vol. 39-70 .

(٢) .Chalandon, *op. cit.* vol. 1, pp. 264-5; Gay, *Les Papes du XIe Siècle*, pp. 311-12 .

شخصي، ومن ناحية أخرى بضيق متأصل من ضعف حكم ميكائيل، لكنه كان قائدا بلا جيش، ولذا جند أعدادا كبيرة من الأتراك، واستخدمهم كحاميات للمدن التي كان يستولي عليها وهو في طريقه إلى العاصمة، مثل مدن سيزيكوس، ونيقيه، ونيكوميديا، وخلقدونية، وكريسوبوليس. وهكذا وجدت الحشود التركية نفسها لأول مرة داخل المدن العظيمة غربي الأناضول، وربما أصبحت مرتزقة للإمبراطور الجديد، وإن صعب عليه بعد ذلك اقتلاعهم. وعندما دخل نيسفورس العاصمة لم يظهر ميكائيل أي مقاومة، وإنما دخل أحد الأديرة حيث وجد فيه سبيله الحقيقي. وكان أسعد حظا من أغلب الأباطرة المخلوعين: ففي غضون سنوات قليلة اعتلى كرسي رئيس الأساقفة بفضل مزاياه وحدها. وأما زوجته التي هجرها، وهي ماريا القوقازية من ألانيا، والتي كانت أجمل أميرات عصرها، كانت من التعقل بحيث مدت يدها للمغتصب.

ووجد نيسفورس أن حياة المتمرد أسهل من حياة الحاكم. وحذا قادة آخرون حذوه؛ ففي غرب البلقان أعلن نيسفورس برينيوس، حاكم ديرهاكيوم، نفسه إمبراطورا، واجتذب جنود المقاطعات الأوروبية إلى لوائه، فأرسل الإمبراطور نيسفورس إليه ألكيسوس كومنينوس على رأس قوة صغيرة تتكون من جنود يونانيين غير مدربين وقليل من الفرنج الذين تخلوا عن مهمتهم كعادتهم .ولم يتأت له هزيمة نيسفورس برينيوس إلا بوصول المرتزقة الأتراك في اللحظة الملائمة. وما أن انتهت هذه الحملة حتى اضطر ألكسيوس إلى الذهاب إلى ثيسالي ليسحق مغتصبا آخر هو بازيلاكيوس، وفي نفس الوقت تمردت الحامية التركية في نيقية. وعندما سمع البابا جريجوري بأنباء سقوط حليفه ميكائيل أصدر قرارا بطرد الإمبراطور الجديد من الكنيسة، أما روبرت جيسكار فقد خطط لعبور البحر الأدرياتيكي، مدفوعا بتشجيع من البابوية وبحنقه لفسخ خطوبة إبنته، فنزل إلى البر في شهر مايو (أيار) في مدينة أفلونا بكامل قواته وسار إلى ديرهاكيوم. وتمرد أبرز القادة في آسيا، نيسفورس ميليسينيوس هو الآخر في أوائل فصل الربيع نفسه، وتحالف مع السلطان التركي سليمان الذي استطاع بفضل هذا التحالف

أن يتقدم دون مرد إلى بيثينيا حيث رحبت به الحامية التركية التي تركها بوتينياتس، ولما فشل ميليسينيوس في الاستيلاء على القسطنطينية رفض سليمان إعادة المدن التي احتلها، وبدلا من ذلك نصب نفسه في مدينة نيقية التي كانت أكثر المدن قداسة في العالم المسيحي. وهكذا أصبحت مدينة نيقية، التي تبعد عن القسطنطينية بأقل من مائة ميل، عاصمة للسلطنة التركية.

وفي القسطنطينية أضاع الإمبراطور نيسفورس فرصته الوحيدة في البقاء بتشاجره مع عائلة كومنيكوس بعد أن خدمه اسحق وأليكسيوس كومنينوس بإخلاص، وكانا يأملان في الاحتفاظ بمودته؛ فبينهما وبين الإمبراطورة صداقة وثيقة، لاسيما وأن اسحق تزوج ابنة خالتها، وأنه كان يظن أن أليكسيوس عشيقها. غير أنها لم تستطع شيئا حيال دسائس البلاط التي دفعت نيسفورس إلى أن ينقلب عليهما. وأضطر الشقيقان إلى التمرد لتأمين نفسيهما، وأعلن أليكسيوس نفسه إمبراطورا مستندا إلى اعتراف الأسرة به على أنه أقدر الاثنين. وهكذا سقط نيسفورس بنفس القدر من السهولة التي خلع بها سابقه، وأخذ بنصيحة البطريق فتقاعد منهوكا مهانا لينهي أيامه في الرهبنة.(١)

ألكسيوس كومنينوس يعتلي العرش

وقدر لـألكسيوس كومنينوس أن يحكم سبعة وثلاثين عاما، وأن يثبت أنه أعظم رجل دولة في عصره، على الرغم مما بدا سنة ١٠٨١ ميلادية من أنه سيعجز عن البقاء هو وإمبراطوريته؛ وربما كان شابا لم يجاوز الثلاثين من عمره على أنه خبر الحياة لسنوات عدة كقائد عسكري يفتقد القوات الكافية في غالب الأحيان ويتوقف نجاحه

---

(١) يورد Chalandon أفضل موجز لحكم Boteniates في *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 35-50.

على فطنته ودبلوماسيته، وكان لوجوده وقع خاص، ولم يكن طويل القامة، وإنما قوي البنية في مهابة. وكان كيس الطبع بسيطا بادي القدرة على ضبط النفس، بيد أنه كان يجمع إلى لطف المعشر والاستعداد اليقظ لأن يلجأ إلى الخديعة والإرهاب إذا اقتضت مصلحة البلاد ذلك، ولا تكاد تجاوز مزاياه صفاته الشخصية وحب جنده له. ولا شك أن أسرته ذات الصلات المتشعبة في الأرستقراطية البيزنطية أعانته على الوصول إلى السلطة، وعزز مركزه بأن تزوج من سيدة من آل دوكاس وزاد من مشاكله دسائس أقاربه وغيرهم، وخاصة الكراهية التي كانت أمه المسيطرة تكنها لزوجته وكل عشيرتها. وكان البلاط يزخر بأفراد عائلات إمبراطورية سابقة، أو عائلات تفكر في اغتصاب العرش، فعمل أليكسيوس على ربطها به بأواصر الزواج، فهناك الإمبراطورة ماريا التي كانت تنهشها الغيرة من الإمبراطورة الجديدة إيرين، وكذلك ابن ماريا قنسطنطين دوكاس الذي قربه أليكسيوس واتخذه رفيقا يصغره وعجل خطبته لابنته الكبرى أنا، وهناك أبناء رومانوس ديوجينيس الذي زوج أحدهم من أخته ثيودورا، وهناك ابن نيسفورس برينيوس الذي تزوج بالفعل أنا كومنينا بعد أن مات زوجها قنسطنطين دوكاس في سن مبكرة، وهناك نيسفورس ميليسينوس الذي تزوج من أخته ايودوشيا التي جعلته يتخلى لأخيها عن مطالبته بالإمبراطورية في مقابل لقب قيصر. فكان لزاما على أليكسيوس أن يداوم مراقبتهم جميعا بعين يقظة، يهدئ خلافاتهم ويحبط خياناتهم، وابتدع نظام ألقاب وافيا لإرضاء أهوائهم. ولم تكن طبقة النبلاء يعتمد عليها، وكذلك كبار موظفي الدولة على السواء، فكان يكتشف مؤامرات لا تنتهي ضد حكومته، ويتهدده دائما خطر الاغتيال، لكنه كان رفيقا في عقابه من منطلق السياسة ومنطلق نزوعه الشخصي معا(١). وهذا الحلم الذي اتصف به، وبصيرته البعيدة في كل أفعاله،

---

(١) أوردت المؤرخة أنا كومنينا وصفا للمظهر الشخصي لأبيها بألفاظ الإطراء والمديح في تاريخها *Alexiad*, 7-III, ii, 5, vol. 1, pp. 106 وأورد Chalandon, *op. cit.* pp. موجزا --

كانا الميزتين الملحوظتين البارزتين بالنظر إلى الظروف غير المأمونة المحيطة بحياته كلها.

الإمبراطور أليكسيوس

وكانت حالة الإمبراطورية في سنة ١٠٨١ ميلادية هي الحالة التي لا يمكن أن يضطلع بحكومتها سوى رجل فائق الشجاعة أو رجل شديد الغباء. فالخزانة خاوية، وكان الأباطرة الذين سبقوه مسرفين متلافين، وتسببت خسارة الأناضول وحالات التمرد التي حدثت في أوروبا في تقليص عوائد الإمبراطورية على نحو يثير الأسى، وانهار نظام جمع الضرائب القديم. ولم يكن أليكسيوس خبيرًا ماليًا، لكن رجل الاقتصاد العصري يقف مشدوهًا أمام الطرق التي اتبعها؛ إذ أنه بطريقة أو بأخرى فرض على رعاياه أقصى حد من الضرائب تتسع له مواردهم، وأجبر الأعيان والكنيسة على منحه قروضًا وصادر ممتلكاتهم، واستبدل عقوبة السجن بعقوبة الغرامة المالية، وباع الامتيازات، وطَوّر تقاليد القصور وعاداتها، وتمكن بذلك من تحمل تكاليف تنظيم إداري ضخم، وإعادة بناء الجيش والبحرية، وتمكن في ذات الوقت من الاحتفاظ بفخامة البلاط الإمبراطوري، واستطاع أن يخلع الهدايا على رعاياه المخلصين والمبعوثين الزائرين والأمراء، فقد تحقق من أن الهيبة في الشرق تتوقف على العظمة والجلال، وأما الشح فهو الرذيلة التي لا تغتفر. على أن أليكسيوس ارتكب خطأين كبيرين: فقد منح التجار الأجانب امتيازات تجارية في مقابل معونات عاجلة مما أضرّ برعاياه؛ كما أنه خفّض قيمة العملة الإمبراطورية في إحدى اللحظات الحرجة، وهي العملة التي ظلت وحدها طوال سبعة قرون مستقرة في عالم من الفوضى.

-- لشخصيته . أما التاريخ " المختصر Synopsis Chronico " الذي وضعه مؤرخ يوناني مجهول ، والذي يتخذ موقفا وديا منه ، فيصفه بأنه " عظيم الإرادة والقدرة في العمل " .

وأما في الشؤون الخارجية فكان الوضع باعثا على اليأس بصورة أكبر ـــ هذا إذا كانت كلمة "خارجية" لا تزال وصفا قابلا للتطبيق آنذاك، إذ أن الأعداء توغلوا في داخل الإمبراطورية من كل جانب، ففي أوروبا كانت قبضة الإمبراطورية على شبه جزيرة البلقان محفوفة بالمخاطر، وكان السلافيون في صربيا ودالماتيا في حالة تمرد، وكثيرا ما كانت قبيلة البتشنج التركية المتجولة وراء الدانوب تعبر النهر للإغارة، وفي الغرب احتل روبرت جيسكار والنورمانديون مدينة أفلونا وحاصروا ديرهاكيوم، وأما في آسيا فلم يبق لبيزنطة سوى شواطئ البحر الأسود، والقليل من المدن المعزولة على الشاطئ الجنوبي، وحاضرة أنطاكية العظيمة المحصنة، لكن الاتصالات مع هذه المدن البعيدة كانت نادرة وغير مضمونة، كما بقيت عدة مدن في الداخل في أيدي المسيحيين، لكن الصلة بين حكامها وبين الحكومة المركزية كانت مقطوعة تماما. وكان سواد البلاد في قبضة السلطان السلجوقي سليمان الذي حكم من نيقية دولة تمتد من البوسفور إلي الحدود السورية، برغم عدم توفر الإدارة المنظمة لدولته، التي لم تكن لها حدود ثابتة، وكانت هناك مدن أخرى في قبضة أمراء أتراك أقل شأنا، اعترف بعضهم بسيادة سليمان بينما لم يعترف أغلبهم بسيد آخر غير ملكشاه. وكان أكثرهم أهمية آل دانشمند الذين كانوا يمتلكون قيصرية وسافوس وأماسيا، فكان منجشك حاكما على أرزنكان وكولونيا، وكان أخطرهم جميعا هو المغامر شاكا الذي استولى على أزمير وساحل بحر إيجة. واستتب الأمر لزعماء الأتراك على نحو أو آخر حول مدهم الرئيسية، بينما بقي سائر البلاد نهبا لجحافل التركمان الرحل وتسببت جماعات اللاجئين اليونانيين والأرمن في زيادة اضطراب الأمور. ودخلت أعداد غفيرة من المسيحيين في الإسلام وذابت شيئا فشيئا في الجنس التركي، وبقيت جماعات يونانية ضئيلة العدد في مناطق الجبال، أما المسيحيون الأتراك الذين استقروا حول قيصرية في كابادوكيا قبل ذلك ببضعة قرون فقد احتفظوا بهويتهم ودينهم حتى العصور الحديثة، إلا أن أغلب

السكان اليونانيين شقوا طريقهم بقدر الاستطاعة إلى شواطئ البحر الأسود وبحر إيجة. (١)

الأرمن في طوروس

وكانت هجرة الأرمن مدروسة ومنظمة بشكل أكبر. ذلك أن الأمـــراء الأرمـــن الذين جردهم البيزنطيون من ممتلكاتهم حصلوا على ضياع في كابادوكيا، وخاصـــة في الجنوب ناحية جبال طوروس، وصاحبهم الكثير من أتباعهم. وعندما اتخذت غـــزوات السلاجقة شكلاً جدياً تركت أعداد كبيرة من الأرمن منازلها لتلحق بهذه المستعمرات الجديدة وأصبح نصف سكان أرمينيا في طريقهم إلى الجنوب الغربي. ودفعهم التغلغـــل التركي إلى مزيد من التقدم داخل جبال طوروس وجبال طوروس المقابلة، ثم انتشـــروا في وادي الفرات الأوسط إذ لم يكن الترك قد وصلوا إليه بعد. وسرعان ما امتـــلأت المقاطعات التي هجروها بالترك وغيرهم من الأكراد المسلمين القادمين من تلال آشور

---

(١) عـــن البتشنـــج أنظـــر : .Vasilievsky , *Works* (in Russian) , vol . 1 , pp . 38 ff.
و عن سليمـــان أنظر : .*art. cit.* in the *Encyclopaedia of Islam* , and the articl
e 'Izniq",*ibid.*by Honigmann
و عـــن الدانشمند أنظر : article ‘ Danishmend ’ by Mukrimin Halil in the Turkish *Islam Ansiklopedisi,* and Cahen, ‘La premiére Pénétration turque ’, *op. cit.* pp . 46 -7, 58-60
عن منجوشيك أنظر : .article ‘Menguchek’ by Houtsma in the *Encyclopaedia of Islam* و عن شاكا الذى لا نعرفه إلا من أنا كومنينا فيرد فى *Alexiad,* VII, viii, 1-8, vol.ii, pp.110-16؛ و عن سيرة حياته المبكرة انظر: article 'Izmir' by Mordtmann, vol.1,pt. 1,: *passim,* and Köprülu,*Les Origines de l'Empire Ottoman*,pp. 48 ff

وشمال غرب إيران. وكان آخر أمير أرميني ينتمي إلى الأسرة البجراتية (١) ـــ وهـــي الأسرة التي كانت تفخر بادعائها أنها من سلالة داوود وبتشبع (٢) ـــ قد قتـــل سـنة ١٠٧٩ ميلادية بناء على أوامر بيزنطية بعد أن ارتكب جريمته البشعة الشاذة وهي قتل رئيس أساقفة قيصرية. وترتب على مقتل ذلك الأمير أن تمرد أحد أقربائه (روبين) على الإمبراطورية ونصب نفسه في التلال الواقعة شمال غرب كيليكيا. وفي نفـــس الوقـــت تقريبا أنشأ أوشين ـــ وهو ابن هيثوم ـــ إمارة مشابهة تبعد قليلا ناحية الغرب، وكان لكل من الأسرتين الحاكمتين الروبينية والهيثومية دور تلعبه في التاريخ اللاحق، لولا أن أدى تألق فاهران الأرميني ـــ الذي يسميه اليونانيون فلاريتـــوس ـــ إلى حجبـــهما في الظل.

وكان فلاريتوس يعمل في خدمة بيزنطة، وقد عينه رومانوس ديوجينيس حاكمـــا لمدينة كهرمان ماراس (٣) . وعندما سقط رومانوس رفـــض الاعـــتراف بـــميكائيـــل

---

(١) (المترجم) : الأسرة الحاكمة البجراتية : هي الأسرة التي أسستها عائلة بجراتوني في أرمينيا وجورجيا في القرن التاسع وحافظ ملوكها علي بقاء أرمينيا مستقلة عن كل من الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية. ونتيجة لغزوات الأتراك السلاجقة والبيزنطيين في القرن الحادي عشـــر قضـــي علي ما تبقي من البجراتيين والمملكة الأرمينية .

(٢) (المترجم) : بتشبع : (أنظر العهد القديم : سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١ و ١٢) : زوجة أوريا الحثي - ابنة أليعام تزوجها داوود بعد أن قتل زوجها وأنجبت له سليمان .

(٣) (المترجم) : كهرمان ماراس : مدينة جنوب تركيا علي حافة سهل خصب جنوب جبال أهير داغي إلي الشمال الشرقي من أدنا .والمدينة قريبة من ثلاثة ممرات هامة في جبال طوروس وهي جوكسن، البستان، ملطية . وتعرف المدينة تاريخيا أيضا باسم جرمانيشيا أو كاركاسي ، ويطلق عليها أيضا مرعش .

دوكاس وأعلن استقلاله عنه; وأثناء الفوضى التي سادت حكم ميكائيل استولى على المدن الرئيسية في كيليكيا وهي طرسوس ومامسترا وعين زربة (١). وفي سنة ١٠٧٧ ميلادية استولى أحد قادته على أورفا من البيزنطيين بعد حصار دام ستة أشهر، وفي العام التالي ١٠٨٧ ميلادية توسل إليه أهل أنطاكية أن يستولي على المدينة إنقاذاً لها من الأتراك لاسيّما وأنها بلا حاكم، إذ قُتل حديثًا حاكمها وكان خليفة اسحق كومنينوس. وكانت سيطرة فيلاريتوس آنذاك تمتد من طرسوس إلى ما وراء الفرات وأمسى كل من روبين وأوشين من أتباعه. لكنه كان يشعر بعدم الأمان، إذ كان أرثوذوكسيا على خلاف أغلب معاصريه ولم يرغب في الانفصال تماما عن الإمبراطورية. وبعد أن اعتزل ميكائيل أعلن ولاءه لنيسفورس بوتينياتس الذي تركه حاكما على ما استولى عليه من أراض. ومن الواضح أنه اعترف بألكسيوس كذلك، غير أنه اتخذ جانب الحيطة بتقديمه نوعا من التكريم لعظام الشخصيات العربية في حلب.(٢)

وكان لزاما على أليكسيوس، بعد توليه السلطة، أن يحدد العدو الذي يجب أن يبدأه بالحرب. وبعد دراسة مستفيضة وجد أنه لا يستطيع أن يرد الأتراك إلا بجهود طويلة متصلة لم يكن قد استعد لها بعد ، وفي نفس الوقت كان الأقرب إلى التصور أن

---

(١) (المترجم) : عين زربة : مدينة في كيليكيا في الأناضول تقع في منطقة مقاطعة أدنا . ولا يزال يوجد في موقعها حتي الأن قلعة بيزنطية أرمينية علي أطلال الموقع ، وكذلك بقايا كنائس بيزنطية وقوس نصر ومسرح وملعب ومدرج . وتعرف تاريخيا باسم أنازاريوس .

(٢) Laurent, *op. cit.* pp. 81 ff.; *idem*, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 368-403; Grousset, *Histoire des Croisades*, pp. xl-xliv.

أما سيرة حياة Philareus فنعرفها من الرواية المعادية التي يرويها متي الأور في الذى كان يكرهه لأنه مسحي أرثوذكسي.(ii,cvi,ff.pp.173ff.) Mattew of Edessa

يتشاحنوا فيما بينهم، ولذلك اعتبر أن التصدي للهجوم النورماندي هو الأكثر إلحاحا. لكن الأمر استغرق أكثر مما كان يقدر; ففي صيف سنة ١٠٨١ ميلادية ضرب روبرت جيسكار حصارا حول ديرهاكيوم، وكان بصحبته زوجته المحاربة سيجيلجاتيا أوف ساليرنو وابنه الأكبر بوهيموند، وفي أكتوبر (تشرين أول (خف أليكسيوس لنجده القلعة ومعه جيش تتكون قوته الأساسية من الحرس الفارانجي الأنجلوساكسوني، لكن حدث هناك ما حدث في هاستنجز قبل ذلك بخمسة عشر عاما ـــ فلم يكن الأنجلوساكسون في كفاءة النورمانديين، وهزم أليكسيوس هزيمة حاسمة، وصمدت ديرهاكيوم طوال الشتاء، لكنها سقطت في فبراير (شباط) سنة ١٠٨٢ ميلادية، وهكذا تمكن روبرت من التقدم في الربيع عبر الطريق الرئيسي الكبير فياأجناتيا في طريقه إلى القسطنطينية، ولكن سرعان ما اضطره ما يحدث في إيطاليا إلى العودة إلى موطنه تاركا جيشه تحت إمرة ابنه بوهيموند لتأمين مقدونيا واليونان. وهزم بوهيموند أليكسيوس مرتين فاضطره إلى الاستعانة برجال من الأتراك وسفن من فينيسيا لقطع خطوط مواصلات النورمانديين. ومكن الأتراك الإمبراطور من أن يخلص ثيسالي. وفي سنة ١٠٨٣ ميلادية تراجع بوهيموند إلى إيطاليا، لكنه عاد مع أبيه في العام التالي ودمرا أسطول فينيسيا على مقربة من ميناء كورفو. ولم تنته الحرب إلا بموت روبرت في سيفالونيا سنة ١٠٨٥ ميلادية، وتناحر أبنائه على الميراث.(١)

الغزو السلجوقي لسوريا

واستقرت سلطة الإمبراطور أخيرا على المقاطعات الأوروبية، لكنه فقد المقاطعات الشرقية أثناء تلك السنوات الأربع. وتورط فيلاريتوس في دسائس تركية مهلكة; ففي أوائل سنة ١٠٨٥ ميلادية غدر به ابنه وسلم أنطاكية ومدن كيليكيا إلى السلطان

---

(١) For the Norman War, see Chalandon, *op. cit.* pp. 58-94.

سليمان. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية سقطت أورفا في قبضة بوزان الزعيم التركي، ولكن ثوروس الأرميني، الذي كان من أتباع ملكشاه والذي كانت تكبح جماحه حامية تركية في القلعة بادئ الأمر، استعاد المدينة سنة ١٠٩٤ ميلادية. وفي تلك الأثناء احتل أرميني آخر هو جابرييل حمو ثوروس مدينة ملطية، وكان ينتمي إلى عقيدة أرثوذوكسية، شأنه شأن ثوروس، وتسببت الخلافات بين الكنائس الأرثوذوكسية واليعقوبية والأرمينية في زيادة الفوضى التي سادت سائر أنحاء سوريا الشمالية. وكان اضمحلال القوة البيزنطية أمرا سارا للكنيسة الأرمينية التي كانت تفضل الحكم التركي.(١)

واكتملت حينئذ السيادة السلجوقية على جنوب سوريّا، فمنذ أن دخل طغرُلبك بغداد سنة ١٠٥٥ ميلادية باتت ممتلكات الفاطميين في سوريّا مهددة، ونتج عن تزايد الخطر والترقب هناك أن تفشت الفوضى، كما حدثت حالات تمرد صغيرة. وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية رفض موظفو الحدود البيزنطية في اللاذقيّة السماح لأسقف كمباري وهو في طريقه للحج بالتقدم جنوبًا، ولم يكن السبب ـــ كما تشكك الغربيون ـــ هو مجرد مضايقة أحد اللاتينيين (رغم احتمال وجود حظر على الحجاج النورمانديين)، وإنّما أُخطروا بأن سوريّا غير مأمونة للمسافرين المسيحيين. وأكدت حادثة الأساقفة الألمان، الذين أصرّوا ـــ بعد ذلك بثماني سنوات ـــ على عبور الحدود برغم النصيحة المحلية، أنّ المسئولين البيزنطيين كانوا على صواب.(٢)

وفي سنة ١٠٧١ ميلادية، وهو عام مانزكرت وسقوط باري، قام المغامر التركي عزيز بن أبق، التابع لألب أرسلان اسمًا، بالاستيلاء على القدس دون صراع،

---

(١) Laurent, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 403-10, (references); also article 'Malatya' by Honigmann in the *Encyclopaedia of Islam*

(٢) أنظر ما سبق ص ٩٩ الحاشية ٤ و ص ١٠٠ حاشية ١ .

وسرعان ما احتل فلسطين كلها حتى قلعة عسقلان على الحدود الجنوبيـــة، وفي ســـنة ١٠٧٥ ميلادية استولى على دمشق بمن فيـــها. وفي ســـنة ١٠٧٦ ميلاديـــة اســـتعاد الفاطميون القدس، ثم أخرجهم عزيز منها مرة أخرى بعد حصار دام عدة أشهر وبعد مذبحة للسكان المسلمين و لم ينج سوى المسيحيين الذين ظلوا آمنين وراء أسوار حيهم. ومع ذلك، استطاع الفاطميون مهاجمة عزيز في دمشق مما اضطره إلى طلب مســـاعدة الأمير السلجوقي تتش شقيق ملكشاه الذي كان يحاول أن يقيم لنفسه سلطنة في سوريا بموافقة أخيه. وفي سنة ١٠٧٩ ميلادية دبر تتش مقتل عزيز وأصبح الحـــاكم الوحيـــد لدولة تمتد من حلب إلى حدود مصر التي ظلت تحت حكم أسرتها الحاكمـــة العربيـــة. ويبدو أن تتش وضابطه أرتق حاكم القدس أقاما حكومة منظمة، فلم تكن هناك عداوة ضد المسيحيين خاصة، برغم أن بطريق القدس الأرثوذوكسي ربما أمضى كثيرا من وقته في القسطنطينية التي بدأ الإقامة فيها آنذاك قرينة بطريق أنطاكية.(١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية حول الإمبراطور أليكسيوس انتباهه إلى المشكلة التركيـــة بعد أن تحرر من الخطر النورماندي. وحتى ذلك الحين لم يستطع صدهم إلا بالدســـائس

---

(١) أنظـــر مــــــادتي 'Tutush' by Houtasma و 'Ortoqids' by Honigmann في Encyclopaedia of Islam. ويقـــارن التاريـــــخ القبطـــي History of the Patriarchs of Alexandria الحكم التركي بصورة محابية جدا للحكم الفرنجي الذي تلى فـــي فلسطين (pp.181,207). والسهم الشهير الذي أطلقه أرتق علي سطح كنيسة القبر المقدس لم يكن المقصود منه الإهانة ، وإنما كعلامـــة علي السيادة . أنظر . Cahen, La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. cxxxiv, pp. 167-73 وكان بطريق القدس Euthymius في القسطنطينية في نهاية سنة ١٠٨٢ ، عندما ذهب إلي ثيسالونيكا في سفارة إلي بوهيموند وكان خليفته Symeon في مجمع ســـنة ١٠٨٦ الـــذي لعـــن Leo of Chalcedon (وللاطلاع علي مجمع الكنيسة في ذلك العام انظر Dölger, *Rgesten*, no. 1087, vol. ii, p. 30 and Montfaucon, *Bibliotheca Coisliniana*, pp. 102 ff.)

غير أنه عاد إلي القدس سنة ٨٩ ، كان بطريق أنطاكية موجودا في هذا المجمع أنظر ما يلي ص١٨٠ الحاشية ١

المستمرة، وبضرب أمير تركي بآخر. أما الآن فقد جمع بين الدبلوماسية واستعراض القوة، واستطاع التوصل إلى معاهدة تقضي باحتفاظ الإمبراطورية بنيكوميديا وسواحل الأناضول الواقعة على بحر مرمرة. وفي العام التالي ظل يجني ثمار صبره؛ ذلك أن سليمان بن قلتمش الذي استولى على أنطاكية سار إلى حلب، فأرسل حاكمها العربي إلى تتش مستنجدا :ودارت معركة خارج المدينة انتصر فيها تتش وقتل سليمان.

الدانشمند وشاكا

تسبب موت سليمان في تفشي الفوضى بين أتراك الأناضول. وأما أليكسيوس، الذي كان في أفضل ظروفه، فكان ما يفتأ يلعب على أحقادهم المتبادلة ويعرض على كل منهم الرشوة ويلمح لهم بالمصاهرة من أجل التحالف. وكان المتمرد التركي أبو القاسم، قد استولى على نيقية لستة أعوام خلت، لكن ملكشاه استطاع في سنة ١٠٩٢ ميلادية أن يستبدله بابن سليمان ـــ قلج أرسلان الأول. وفي تلك الأثناء استطاع أليكسيوس تعزيز مركزه، ولم يكن ذلك يسيرا؛ فالأراضي الوحيدة التي تمكن من استردادها هي مدينة سيزيكوس، ولم يستطع منع الدانشمند من التوسع غربا والاستيلاء على كستمون وهي موطن عائلته في بافلاجونيا، وكانت دسائس القصر تعوقه. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية كان عليه أن يجابه غزوا خطرا من أعلى الدانوب قاده البتشنج بمساعدة هنغارية، ولم يتحرر نهائيا من تهديد غارات برابرة الشمال إلا في سنة ١٠٩١ ميلادية بفضل دبلوماسيته التي عززها انتصار رائع عليهم.

وظل شاكا، أمير أزمير التركي، يمثل إنذارا أكبر بالخطر، ذلك أنه كان أكثر طموحا من أغلب أبناء جلدته، ولذا كان يسعى إلى الاستيلاء على الإمبراطورية، ولاحتياجه إلى القوة البحرية استخدم اليونانيين بدلا من الأتراك، على أنه حاول في نفس الوقت تنظيم الأتراك في تحالف، فزوج ابنته من قلج أرسلان الصغير، وفيما بين عامي ١٠٨٠ و١٠٩٠ ميلادية جعل نفسه سيدا على ساحل بحر إيجة، وجزر لسبوس،

وكايوس، وساموس، ورودس. ولكن أليكسيوس استطاع أخيرا ــ وكان من أولويات اهتمامه إعادة بناء الأسطول البيزنطي ــ أن يلحق به الهزيمة بحرا عند مدخل بحر مرمرة. على أن الخطر بقي جاثما حتى سنة ١٠٩٢ ميلادية عندما قتل شاكا بوساطة زوج ابنته قلج أرسلان في وليمة أولمت له في نيقية. وقد تم القتل بناء على نصيحة الإمبراطور للسلطان الذي كان يخشى أن يرى تركيا آخر يعلو نجمه فوقه.(١)

وبموت سليمان وشاكا غدا بإمكان أليكسيوس أن يفكر في سياسة أكثر عدوانية؛ إذ صار هو نفسه آمنا الآن في القسطنطينية، وقد هدأت المقاطعات الأوروبية، وأصبح أسطوله ذا كفاءة، وخزانته قد امتلأت مؤقتا، لكن جيشه كان ضئيلا جدا، وجنوده من المواطنين الذين يمكنه الاعتماد عليهم قليلو العدد بعد أن فقد الأناضول. فكان في حاجة إلى المرتزقة الأجانب المدربين.

وفي حوالي سنة ١٠٩٥ ميلادية بدا مؤكدا أن القوة السلجوقية تنهار أخيرا؛ فقد مات ملكشاه سنة ١٠٩٢ ميلادية، وهو الذي كان مسيطرا على الإمبراطورية التركية كلها، وبعد موته شبت حرب أهلية بين أبنائه الصغار. وطوال السنوات العشر التالية تحول جل اهتمام الأتراك نحو هذا الصراع بعد أن استطاعوا الاتفاق على تقسيم ميراثهم. وفي ذات الوقت برز زعماء العرب والأكراد في العراق. وعندما مات تتش سنة ١٠٩٥ ميلادية، لم يستطع ولداه رضوان ودقاق في كل من حلب ودمشق إثبات القدرة على حفظ النظام في سوريا، وانتقلت القدس إلى أبناء أرتق، وكانت حكومتهم ظالمة غير فعّالة، وعاد البطريق الأرثوذكسي سيمون وكبار قساوسته إلى قبرص، وفي

---

(١) يرد وصف موت شاكا في تاريخ Anna Comnena, IX, iii, 3, vol. II, pp. 165-6 لكن هناك "شاكا" جديد يظهر في تاريخها (IX,v. 3, vol. III, pp. 24 -5). وربما كان ابن شاكا الأول وعرف باسم ابن شاكا وقد بسطته أنا كومنينا علي أنه شاكا . وبالمثل يطلق الكتاب الغربيون علي قلج أرسلان إسم "سليمان" لأنهم اعتادوا علي معرفته باسم "ابن سليمان" وترد حرب شاكا مع ألكسيوس في Chalandon, *op. cit.* pp. 126 ff.

طرابلس أقامت عشيرة بني عمّار الشيعية إمارة خاصة بها، وبدأ الفاطميون يستعيدون جنوب فلسطين، وفي الشمال بدأ كربوقا، القائد التركي وأتابج الموصل التابع للخليفة العباسي، في التعدي شيئًا فشيئًا على أراضي رضوان في حلب. وبدا للمرتحلين آنذاك أنّ لكل مدينة سيدًا مختلفًا.(١)

مصاعب الحجاج

ويلاحظ أن المرتحلين لم يكونوا من المسلمين وحسب، بل كان هناك حجاج مسيحيون قادمون من الغرب، ولم يحدث مطلقا أن توقفت حركة مرور الحجاج، لكن الرحلة كانت بالغة الصعوبة. ويبدو أن حياة المسيحيين في القدس، وحتى موت أرتق، لم تتأثر إلا في القليل النادر، وكانت فلسطين هادئة دائما باستثناء الفترة التي شهدت الحرب بين الأتراك والمصريين هناك، في حين أن عبور الأناضول كان عسيرا، وكان على المسافر أن يصطحب معه حرسا مسلحا، وحتى مع الحرس المسلح كان الطريق محفوفا بالأخطار، وكانت الحروب، أو السلطات المعادية، دائما ما تجبره على التوقف. وكانت سوريا أفضل بقليل، وكان قطاع الطرق في كل مكان، وفي كل مدينة صغيرة كان حاكمها يحاول فرض ضريبة على المارين. والحجاج الذين نجحوا في التغلب على كل هذه الصعاب رجعوا إلى الغرب متعبين معدمين ليقصوا أقاصيص رهيبة.

---

(١) أنظر مادة 'Sukman ibn Ortok' by Zettersteen in the *Encyclopaedia of Islam* ويصف وليم الصوري William of Tyre, 1, 8, vol. 1, pp. 25-6 انطباعات الحجاج في ذلك الوقت. وقد تقاعد Symeon of Jerusalem في قبرص قبل وقت طويل من بداية الحملات الصليبية ، بيد أن التاريخ الفعلي غير معروف .

البــــاب الثاني :

التبشير بالحرب الصليبية

الفصل الأول :

السلام المقدس والحرب المقدسة

السلام المقدس والحرب المقدسة

" انتظرنا السلام ولم يكن خير"

(إرميا ٨ ــ ١٥)

إن المواطن المسيحي يواجه مشكلة أساسية هي: هل يحق له أن يحارب من أجل بلده؟ ودينه دين سلام وليست الحرب إلا القتل والدمار. ولم تكن الشكوك تساور الآباء المسيحيين الأول في عدم مشروعية الحرب، فهي في نظرهم قتل بالجملة. غير أنه بعد انتصار الصليب، أي بعد أن أصبحت الإمبراطورية عالما مسيحيا، ألا ينبغي لمواطنيها أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحمل السلاح من أجل رفاهتها ؟

لم تكن الكنيسة الشرقية ترى ذلك، فبينما اعترف كبير قساوستها ــ القديس بازل ــ بأن على الجندي إطاعة الأوامر فإنه يؤكد، مع ذلك، أنه يجب على مرتكب

إثم القتل في الحرب أن يمتنع عن التناول (١) الذي هو علامة التوبة مدة ثلاث سنوات(٢). وهذا الرأي صارم للغاية; فلم يكن الجندي البيزنطي في الواقع يعامل كقاتل، وإن لم تضف عليه مهنته جاذبية خاصة، فليس الموت في ساحة القتال شيئا مجيدا، كما أن الموت في معركة مع الكفار ليس استشهادا، وإنما الشهيد هو من مات وهو مسلح بإيمانه وحسب. وكانت محاربة الكفار شيئا يبعث على الأسى رغم عدم إمكان تجنبها أحيانا، وأما محاربة الرفاق المسيحيين فكان شرا مضاعفا. وحقيقة الأمر أن التاريخ البيزنطي كان خلوا من الحروب العدوانية بصورة ملحوظة. فقد انطلقت حملات جستينيان لتحرير الرومان من الحكام البرابرة الهراطقة (٣)، واستهدفت حملات بازل الثاني ضد البلغار استعادة المقاطعات الإمبراطورية وإزالة خطر يتهدد القسطنطينية. وغالبا ما كانت الطرق السلمية هي المفضلة حتى وإن كانت تشتمل على دبلوماسية ملتوية أو دفع أموال. ويرى المؤرخون الغربيون ممن اعتادوا الإعجاب بالشجاعة العسكرية أن المسالك التي كان يسلكها رجال الدولة البيزنطيون تتصف بالجبن أو الخبث، غير أن الدافع كان الرغبة الأصيلة في تجنب سفك الدماء. وتوضح الأميرة أنا كومنينا ــ وهي واحدة من أكثر النماذج المعبرة عن الشخصية البيزنطية ــ في تاريخها أنه بقدر عمق اهتمامها بالمسائل العسكرية، وبقدر تقديرها البالغ لانتصارات والدها في المعارك الحربية، فإنها تعتبر الحرب شيئًا مشينًا، وملاذًا أخيرًا عندما تعجز باقي السبل

---

(١) (المترجم) : التناول أو العشاء الرباني (communion or Eucharist): طقس كنسي يمارس فيه سر من الأسرار الكنسية السبعة ، ويتم فيه تناول الخبز والنبيذ إحياء لذكري العشاء الرباني وتعبيرا عن التوبة .

(٢) Saint Basil, letter no. 188, in *M.P.G.* vol. xxxii, col. 681.

(٣) (المترجم) : الهرطقة Herecy : هي مخالفة ، أو الخروج عن ، القواعد الدينية الأساسية التي تلتزم بها كنيسة معينة .

الأخرى، وأنها ــ أي الحرب ــ في حد ذاتها اعتراف بالفشل في حقيقة الأمر. (١)

كانت وجهة النظر الغربية أقل استنارة، إذ اعترف القديس أوجاستين نفسه بإمكان شن الحروب بأمر من الرب (٢)، ولم يجد المجتمع العسكري الذي ظهر في الغرب نتيجة للغزوات البربرية بدا من أن يبحث عن مبرر لما اعتاد عليه من تزجية فراغه. وأضفت مبادئ الفروسية المتنامية، والتي عززتها الملاحم الشعبية، هيبة على البطل العسكري، وأما المنادي بالسلام فقد نالته سمعة سيئة لم يبرأ منها مطلقا. ولم تستطع الكنيسة شيئا حيال تلك العاطفة، وإنما سعت إلى توجيه تلك الطاقة ذات النزعة القتالية إلى دروب تفضي إلى المنفعة الخاصة بها؛ فأصبحت الحرب المقدسة ــ أي الحرب التي تحارب لمصلحة الكنيسة ــ مسموحا بها، بل ومرغوبا فيها، وأعلن البابا ليو الرابع في منتصف القرن التاسع أن من يقتل في معركة دفاعا عن الكنيسة سينال ثوابه من السماء (٣) ، وبعد ذلك بسنوات قليلة رفع البابا جون الثامن ضحايا الحرب المقدسة إلى مصاف الشهداء، وإذا ماتوا بسلاحهم في المعركة تغفر لهم خطاياهم، بيد أنه ينبغي للجندي أن يكون نقي القلب (٤) . وأعلن نيكولاس الأول أنه لا ينبغي لمن تدينه الكنيسة بسبب خطاياه أن يحمل السلاح إلا لمحاربة الكفار. (٥)

---

(١) عن موقف أنا كومننا أنظر Buckler, *Anna Comnena*, pp. 97-9.

(٢) Saint Augustine, *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. xii, col. 35.

(٣) Mansi, *Concilia*, vol. xiv, p. 888.

(٤) John VIII, letters, in *M.P.L.* vol. cxxvi, cols. 696, 717, 816; Mansi, *Concilia*, vol. xvii, p.104.

(٥) خطاب Nicholas في *Monumneta Germania Historica, Epistolae*, vol. vi, p. 658 وقد أرفق هذا الخطاب في مجموعة القوانين الكنسية التي جمعها Burchard and Gratian.

حركات من أجل السلام

بيد أنه برغم أنّ أعلى السلطات الكنسية لم تعلن إدانتها للقتال على هذا النحو، فإن بعض مفكري الغرب صُدِموا لذلك؛ إذ أنّ برونو أوف كويرفورت الألماني، الذي قتله البروسيون الوثنيون شهيداً سنة ١٠٠٩ ميلادية، شعر بمهانة عظيمة من جرّاء الحروب التي شنها أباطرة عصره ضدّ الرفاق المسيحيين: حرب أوتو الثاني ضد الملك الفرنسي، وحرب هنري الثاني ضد البولنديين (١). وبدأت في فرنسا حركة من أجل السلام؛ فأثناء انعقاد مجلس شارو سنة ٩٨٩ ميلادية، حيث اجتمع أساقفة أكيتان لحماية الحصانة الممنوحة لرجال الدين، اقترح المجلس أن تضمن الكنيسة للفقراء حياة سلام (٢)، وفي العام التالي — أثناء انعقاد مجلس لوبوي — أُعيد تأكيد الاقتراح بصرامة أشد، وأعلن أُسقف لوبوي، وهو جي أوف أنجو، أنه لن يتأتّى لأحد أن يرى الرب بدون تحقيق السلام، ولذلك حثّ جميع الرجال على أن يصبحوا أبناء السلام (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة مضى وليم العظيم دوق جوين بالفكرة قُدُمًا، ذلك أنه في مجلس بُواتييه، الذي دعى إلى انعقاده سنة ١٠٠٠ ميلادية، تقرر الكفّ عن حل الخلافات عن طريق الحرب واللجوء بدلاً من ذلك إلى العدالة، وأن يُطرد من الكنيسة كل من يرفض الإذعان لهذه القاعدة، وتعهد الدوق ونبلاؤه بالالتزام بها، وحذا حذوه روبرت الورع، ملك فرنسا، بالأخذ بقاعدة مماثلة في مملكته (٤). وظلت الكنيسة

---

(١) أنظر Erdmann. *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, p. 97 n. 35 الذي يورد مراجع للنصوص ذات الصلة.

(٢) Mansi. *Concilia*, vol. xix. p. 89-90.

(٣) *Cartulaire de Saint-Chaffre*, p. 152.

(٤) Mansi. *Concilia*, vol. xix. pp. 267-8; Fulbert of Chartres. letter in Bouquet. *Historiens de la France*, vol. x. p. 463.

مهتمة أساسا بهذه الحركة لكي تحافظ على ممتلكاتها من خراب الحرب ومتطلباتها، وعقدت سلسلة من المجالس لتحقيق هذه الغاية. ففي سنة ١٠١٦ ميلادية صدرت في (فيردون سير لو دوب) صيغة أقسم النبلاء بمقتضاها ألا يكرهوا رجال الدين والفلاحين على الانضمام إلى قوائمهم وألا يغيروا على محاصيلهم وألا يصادروا ماشيتهم. وشاع القسم في أرجاء فرنسا بينما كان المجمع والقساوسة والمؤتمرون يصيحون: "السلام، السلام، السلام." (١)

ودفع هذا النجاح بعض الأساقفة المتحمسين إلى المضي أبعد من ذلك. ففي سنة ١٠٣٨ ميلادية أمر أيمون رئيس أساقفة بورج كل مسيحي يزيد عمره على خمس عشرة سنة أن يعلن عداءه لكل من يعتدي على السلام وأن يكون على استعداد لحمل السلاح لمحاربتهم إذا اقتضى الأمر. ونظمت هيئات للسلام كانت فعالة أول الأمر، غير أن الشق الثاني من أمر رئيس الأساقفة كان أشد جاذبية من الشق الأول، فتزعم رجال الدين جنودا من الفلاحين المسلحين وحطموا قلاعا للنبلاء المعاندين، وسرعان ما أصبحت هذه الميليشيات المعدمة تتصرف بلا مسئولية وبلغت أعمال التخريب التي اقترفتها الحد الذي اضطر السلطات إلى قمعها. وقامت جماعة السلام الكبرى بحرق قرية بينيس، وطبقا للمعلومات التي نعرفها فإن ما لا يقل عن سبعمائة من رجال الدين لقوا حتفهم في المعركة. (٢)

---

(١) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* vol. iv, pt. 2, p. 1409; Radulph Glaber, in Bouquet, *R.H.F.*, vol. x, pp. 27-8. See Pfister, *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux,* p. lx; Huberti, *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden,* p. 165

(٢) *Miracles de Saint-Benoît,* ed. By de Certain, p. 192

الهدنة في الأيام المقدسة

وفي ذات الوقت كانت هناك محاولة أكثر فعالية للتقليل من أعمال الحرب. ففـي سنة ١٠٢٧ ميلادية عقد أوليبا أسقف فيش مجمعا كنسيا في تولـوج، في روزيلـون، أسفر عن فرض حظر على أعمال الحرب في أيام السبت (١) . وبتشجيع من رئيس دير رهبان مدينة كلاني العظيم أوديلو قام أساقفة بروفانس ـ الذين ادعوا أنهم يتحدثـون باسم كنائس الغال كلها ـ بإرسال خطاب في سنة ١٠٤١ ميلادية إلى كنيسة إيطاليا طالبين أن تمتد هدنة الرب لتشمل الجمعـة الحزينـة (٢) وسـبت النـور (٣) وعيـد الصعود(٤). وهكذا كبرت هذه الفكرة، أي فكرة هدنة تشمل الأيام المقدسة، وحذت كنيسة أكتيان بالفعل حذو كنيسة بروفانس الرائدة، إلا أن دوقية بورجاندي مضـت إلى أبعد من ذلك بأن خصصت الهدنة لكامل الأسبوع من مساء الأربعاء إلى صبـاح الاثنين وأضافت الفترة من عيد المجيئ (٥) إلى يوم الأحـد الأول بعـد عيد الغطـاس

---

(١) .Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 483-8

(٢) (المترجم) الجمعة الحزينة : السابقة علي عيد الفصح وتحيى فيه الكنائس ذكري صلب المسيح .

(٣) *Ibid.* pp. 593-6 (المترجم) سبت النور : السابق علي عيد الفصح .

(٤) (المترجم) عيد الصعود : خميس الصعود الذي يعقب عيد الفصح بأربعين يوما والذي تحيا فيه ذكري صعود المسيح إلي السماء .

(٥) (المترجم) عيد المجيء : هي الفترة التي تسبق عيد ميلاد المسيح بأربعة أيام أحـد وتعتبرهـا بعـض الكنائس فترة صلاة وصوم . وتعني كلمة "المجيء" كذلك : مجيء المسيح متجسدا أي ظهـور علي هيئة بشر وتعني كذلك : " المجيء الثاني " ويقصد به مجيء المسيح يوم القيامة .

(أو الظهور) (١) وكذا فترة الصوم الكبير (٢) وأسبوع الآلام واليوم الثامن بعد عيد الفصح (٣). وفي سنة ١٠٤١ ميلادية، عندما كان وليم الغازي يشرّع لنورماندي، أدرج كذلك الفترة من أيام الابتهال (٤) إلى اليوم الثامن من عيد الخمسين (أو العنصرة) (٥). وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية أوصى مجلس عُقد في تولوج بضم عيد الأيام الثلاثة الخاص بالعذراء وأيام القديسين الرئيسيين (٦). وفي منتصف القرن بدت فكرة الهدنة الإلهية وقد ترسخت، وحاول مجمع ناربون الكبير المعقود سنة ١٠٥٤ ميلادية التنسيق بينها وبين فكرة سلام الرب لحماية بضائع الكنيسة والفقراء من ويلات الحرب، وكان من الضروري مراعاة احترام كلٍّ من الهدنة الإلهية وسلام الرب خوفًا

---

(١) الغطاس أو الظهور : أي ظهور المسيح الطفل لمجوس المشرق الذين أتوا إلي القدس .(أنظر إنجيل متى : ٢ - ١) .

(٢) الصوم الكبير : فترة صوم مقدارها أربعون يوماً ، تقع بين أربعاء الرماد (ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلي العادة القديمة التي كانت تقضي بنثر الرماد فوق رءوس التائبين) وعشية عيد الفصح ، مخصصة للصيام والتوبة تخليدا لذكري صيام المسيح في البرية (يستبعد منها أيام الأحد في الكنيسة الغربية السبت والأحد في الكنيسة الشرقية) .

(٣) *M.G.H., Constitutiones et Acta Publica Imperatorum et Regum*, vol. 1, p. 599. See Huberti, *op. cit.* pp. 296, 303 (المترجم) : عيد الفصح : يحتفل فيه بذكري قيام المسيح ، ويختلف موعده بحسب اختلاف التقاويم .

(٤) (المترجم) : أيام الإبتهال : الأيام الثلاثة السابقة علي عيد الصعود .

(٥) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 597- 600.(المترجم) : عيد الخمسين أو العنصرة : يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تخليدا الهبوط الروح القدس (أنظر العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل الإصحاح الثاني) .

(٦) *Ibid* . p. 1042

من عقوبة الطرد من الكنيسة، وفضلاً عن ذلك، أعلن أنه لا ينبغي للمسيحي أن يقتل مسيحيًّا آخر، باعتبار أنّ "من يقتل مسيحيًّا يسفك دم المسيح." (١)

ويندر أن تكون حركات السلام مؤثرة في عالم الواقع كما هي في عالم النظرية، ولم تشذ حركات السلام في القرن الحادي عشر عن هذه القاعدة، ذلك أنّ أكثر الأمراء المناصرين لهدنة الرب لم يلتزموا بنصوصها، ففي يوم السبت حارب وليم الغازي رفيقه المسيحي هارولد في هاستنز، كما ذكرت آنًا كومنينا وهي فزعة أنه في الوقت الذي حاولت فيه كنيستها أن تتوخى الأمانة في اجتناب أعمال الحرب في الأيام المقدسة هاجم فرسان الغرب القسطنطينية في أسبوع الآلام وقد احتشد في جيوشهم القساوسة المسلحون المحاربون (٢) . وعرف البابوات أنفسهم من التجربة أن ممتلكات الكنيسة لم تسلم من هجمات العامة، ولم يكن من اليسير في الغرب إخماد التروع إلى القتال واستمراءها المجد العسكري؛ وكان من الأصوب العودة إلى السياسة القديمة والانتفاع بهذه الطاقة بتحويلها إلى محاربة الوثنيين.

وبالنسبة إلى الغرب، كان الخطر الإسلامي أكثر تهديدًا بكثير عمّا عليه بالنسبة للبيزنطيين إلى وقت الغزوات التركية، وانزعج البيزنطيون من الأتراك على أنهم برابرة وليسو كفّارًا. ومنذ أن فشل العرب أمام القسطنطينية في بداية القرن الثامن باتت الحرب داء متوطنًا على الحدود الشرقية للعالم المسيحي، بيد أنها لم تكن من الخطورة بحيث تهدد وحدة الإمبراطورية، ولم يحدث مطلقًا أن انقطع التبادل التجاري والفكري لأمد طويل، فكان العربي وريثًا للحضارة اليونانية الرومانية بنفس القدر تقريبًا كالبيزنطي، كما لم تكن طريقة حياته تختلف اختلافًا كبيرًا. وعندما يزور البيزنطي

---

(١) *Ibid.* pp. 827-32.

(٢) Anna Comnena, *Alexiad,* x. viii. 8, vol. ii. pp. 218-19; x.ix5-6, vol. ii, p. 222.

القاهرة أو بغداد كان يشعر بأنه في وطنه على نحو يجاوز كثيرًا شعوره وهو في باريس أو جوسلار (١) أو حتى روما. وباستثناء بعض الأزمات النادرة وبعض حالات الثأر، اتفقت السلطات في كل من الإمبراطورية والخلافة على عدم الإكراه في الدين والسماح بحرية العبادة للدين الآخر. وربما كان بعض الخلفاء المفاخرين يتحدثون باستخفاف عن الأباطرة المسيحيين، وربما فرضوا عليهم الإتاوات أحيانًا، ولكن باقتراب القرن العاشر من نهايته غدت بيزنطة عدوًا مخيفًا حسن التنظيم.

و لم يستطع المسيحي في الغرب مشاركة البيزنطي في التسامح والشعور بالأمان، إذ يفخر الأول بمسيحيته ويظن أنه وريث روما، بيد أنه كان يعي على مضض أن الحضارة الإسلامية تسمو على حضارته في معظم الجوانب. ولقد هيمنت القوة الإسلامية على غرب البحر المتوسط من قطالونيا (٢) إلى تونس، وهاجم قراصنة من المسلمين سفنه، ونهبوا روما، وحصنوا أنفسهم في إيطاليا وبروفانس، وبدا أنهم يستطيعون أن يخرجوا من معاقلهم في إسبانيا ويعبروا الحدود ويتدفقوا على فرنسا عبر جبال البرانس، و لم يكن للعالم المسيحي تنظيم يمكّنه من التصدي لمثل ذلك الهجوم، وإنما كان آحاد الأبطال يصدون غارات العرب منذ أيام تشارل مارتل (٣) وما بعدها، كما كانت الإمبراطورية الكارولنجية (٤) لبعض الوقت بمثابة الحائط الواقي من هذه الغارات. وفي سنة ٩١٥ ميلادية تعاون البابا جون العاشر مع بلاط القسطنطينية في

---

(١) (المترجم): جوسلار : مدينة تقع حاليا شمال ألمانيا .

(٢) (المترجم): قطالونيا : إقليم شمال شرق إسبانيا يطل علي البحر المتوسط .

(٣) (المترجم): تشارل مارتل : جد شارلمان ، حكم ما يعرف الآن بشمال شرق فرنسا وبلجيكا وألمانيا .

(٤) (المترجم): الإمبراطورية الكارولينجية : أسسها سنة ٧٥١ ميلادية " بيبين " إبن تشارل مارتل .

تكوين تحالف من الأمراء المسيحيين لطرد المسلمين من معقلهم في كاريليانو (١). وفي سنة ٩٤١ ميلادية اشترك البيزنطيون مع هيو أوف بروفانس في الهجوم على قلعتهم في فريجوس، لكن الهجوم فشل بسبب ارتداد هيو في آخر لحظة، غير أنه في سنة ٩٧٢ ميلادية نجح تحالف من البروفنسال والإيطاليين في إتمام المهمة (٢)، وكانت هذه التحالفات محلية متفرقة سريعة الزوال، وكان من الضروري وجود تنسيق أكبر وجهد أكثر تركيزا. ولم تتحقق تلك الضرورة على نحو أفضل مما تحققت في روما التي لا يغيب عن إدراكها مطلقا تخريب كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ميلادية.

المنصور

وكان مسلمو إسبانيا في القرن العاشر يهددون العالم المسيحي تهديدا حقيقيا بالغا، إذ أن المسيحيين كانوا قد فقدوا الأراضي التي حصلوا عليها من قبل، وفي منتصف القرن كان الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث سيد شبه جزيرة أيبريا بلا منازع، وصاحب موته سنة ٩٦١ ميلادية بعض الشعور بالراحة، إذ كان خليفته الحكم الثاني مسالما وشغلته الحروب مع الفاطميين والأدارسة في مراكش، ولكن بعد موت الحكم سنة ٩٧٦ ميلادية سيطر على مسرح الأحداث الوزير المحارب محمد بن أبي أمير الملقب بالمنصور والذي يعرفه الأسبان بالمنظور. وكانت مملكة ليون هي القوة المسيحية الرئيسية في إسبانيا، وهي التي تحملت صدمة هجمات المنصور، وفي سنة ٩٨١ ميلادية استولى على زامورا في جنوب المملكة; وفي سنة ٩٩٦ ميلادية دمر ليون نفسها وحرق

---

(١) Liudprand, *Antapodosis*, pp. 61-2; Leo of Ostia, pp. 50ff. See Gay, *L'Italie Méridionale el l'Empire Byzantin*, .p. 161, who establishes the date 915; Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 184-5

(٢) .Liudprand, *op. cit.* pp. 135, 139; Poupardin, *Le Royaume di Bourgogne*, pp. 94 ff.

في العام التالي مدينة القديس جيمس في كومبوستيلا التي يأتي ترتيبها ثالث أماكن الحج بعد القدس وروما، ومع ذلك كان حريصًا على احترام المزار نفسه. وكان قد استولى بالفعل على برشلونه سنة ٩٨٦ ميلادية، وبدا أنه سرعان ما سيعبر البرانس لكنه مات سنة ١٠٠٢ ميلادية (١). وبموته بدأت قوة الإسلام في الاضمحلال، واستطاع القراصنة القادمون من أفريقيا أن ينهبوا أنتيب سنة ١٠٠٣ ميلادية، وبيزا سنة ١٠٠٥ ميلادية، ومرة أخرى سنة ١٠١٦ ميلادية، وناربون سنة ١٠٢٠ ميلادية، في حين أنّ الهجوم الإسلامي المنظم كان قد انتهى آنذاك وحان الوقت لهجوم مضاد. (٢)

وخطط سانكو الثالث، ملك نافار، الملقب بالعظيم للهجوم المضاد؛ ففي سنة ١٠١٤ ميلادية حاول تنظيم تحالف من الأمراء المسيحيين لمحاربة "الكفرة"، وكان رفاقه في ليون وكاستيل على استعداد للمعاونة، ووجد في سانكو وليم، دوق جاسكوني، حليفًا متلهفًا، ولكن روبير ملك فرنسا لم يرد على ندائه. ولم يتحقق شيئ ملموس، بيد أنه في نفس الوقت اجتذب سانكو اهتمام حليف له قيمته البالغة، ألا وهو منظمة كَلاني الهائلة التي حكمها راهبان كبيران امتد حكمهما لمدة ١١٥ عامًا وهما: أوديلّو الذي تولى الحكم سنة ٩٩٤ ميلادية ومات سنة ١٠٤٨ ميلادية، وهيو الذي خلفه وعاش حتى سنة ١١٠٩ ميلادية، وبدأت هذه المنظمة تُولي انتباهًا خاصًا للشُؤُون الإسبانية، فكانت كَلاني دائمة الاهتمام برفاهية الحجاج، وبسعدها أن يكون لها رأي في تدبير طريق الحجاج الذاهبين إلى كومبوستللا وأن تساعد في حماية العالم المسيحي الإسباني كله. فحينما هدد المسلمون الكونتيسة إيرسلند أوف بارشلونه سنة ١٠١٨ميلادية، كان نفوذ كَلاني هو الذي جعل روبير أوف توسني يأتي من نورماندي

---

(١) .For Almanzor see Dozy, *Histoire des Musulmanes en Espagne,* rev. vol. ii, pp. 235 ff.

(٢) .Ballesteros, *Histroria de Espana,* vol. ii, pp. 389 ff.

مدفوعًا بروح المغامرة النورماندية التي ربما حفّزته أيضًا على المجيء. وقويـــت قبضــة كَلاني على الكنيسة الإسبانية أثناء حكم سانكو وخلفائه مما جعلها تتصـــدر الحركــة الإصلاحية، ومن أجل ذلك لم يفت البابويّة أن توافق على أيّة محاولة لتوسيع حـــدود العالم المسيحي في إسبانيا. وعندما اشترك سانكو وليم أوف جاسكوني مـــع ســـانكو أوف نافارو في الهجوم على أمير سرقوسة صاحبتهما بركات البابويّة وبركات كَـــلاني التي شجعت كذلك ريموند برنجار الأول في برشلونه على دفع المسلمين إلى الجنوب.(١)

الحرب المقدسة في إسبانيا

وهكذا اكتسبت محاربة الكفرة في إسبانيا شكل الحرب المقدسة، وسرعان ما كان للبابوات أنفسهم يد في توجيهها. وفي سنة ١٠٦٣ ميلادية قَتَل أحد المسلمين رامـــيرو الأول ملك آراجون في بداية هجوم كبير على المسلمين في جرادوس، وألهـــب مقتلـــه خيال أوروبا كلها، وفي الحال وعد البابا الكسندر الثاني باغتفار خطايا كل من يحارب من أجل الصليب في إسبانيا وشرع في جمع جيش لاستكمال ما بدأه راميرو، وقام وليم أوف مونتروى وهو من الجنود النورمانديين العاملين في خدمته بتجنيد الجنود في شمال إيطاليا، وفي شمال فرنسا قام الكونت إيبل أوف روسي ــ وهو شقيق الملكة فيليســـيا

---

(١) Boissonnade, *Du nouveau sur la Chanson de Roland,* pp. 6-22. أما Fliche في مؤلفه *L'Europe Occidentale de 888 a`1125,* pp. 551'3 فإنه يعتبر أن Boissonnade و Hatem يبالغان في دور Cluny في تنظيم حرب مقدسة في أسبانيا حسبما جـــاء في مؤلفـــهما *Les Poèmes Epiques de Croisades,* pp. 43-63 وقام Halphen في سلسلة محـــاضرات ألقاهـــا في مدرسة الدراسات العليا وباريس (Ecole des Hautes Etudes et Paris) لم تنشـــر بعـــــد - بمناقشة كاملة للمسألة ويعتبر أن دور Cluny كان دوراً هاما لكنها لم تنظم حملة عسكرية في الواقـــع أنظـــر أيضاً Rousset, *Les Origines et les Caractéres de la premiére Croisade,* pp. 31-5

الأراجونية ــ بجمع جيش، أما أكبر فرقة جمعها جوي ــ جيوفري كونــت أكيتــان الذي تم تعيينه آمرا للحملة. ورغم كل ذلك لم يتحقق سوى القليل، فقد تم الاستيلاء على مدينة بارباسترو مع الكثير من الغنائم ولكن سرعان ما ضاعت مرة أخــرى(١). وتدفق الفرسان الفرنسيون منذ ذلك الوقت على جبال البرانس لمواصلة تلك المهمــة، وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية نظم آيبل أوف روسي حملة جديدة دعى البابــا جريجــوري السابع أمراء العالم المسيحي للانضمام إليها، وبينما كان يذكر العالم بأن مملكة إسبانيا هي من توابع الكرسي الرسولي للقديس بطرس أعلن أن للفرسان المسيحيين الحــق في التمتع بالأراضي التي ينتزعونها من "الكفرة" (٢) . وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية قاد هيــو الأول، دوق برجاندي، جيشًا لمساعدة صهره ألفونسو السادس أوف كاستيل(٣)، وفي سنة ١٠٨٠ ميلادية منح جريجوري السابع تشجيعه الشخصي للحملة التي قادها جوي ــ جيوفري. وسارت الأمور على ما يرام في الأعوام التالية; فاستولى الكاستلليون على توليدو سنة ١٠٨٥ ميلادية (٤)، واستتبع ذلك بعث إسلاميّ بقيــادة المرابطــين (٥) المتعصبين. ومنذ سنة ١٠٨٧ ميلادية بدأت الدعــوة لاستدعاء الفرسان المســيحيين بشكل ملح لمقاومتهم، وشجع البابا إيربان الثاني ذلك بحماس، بل طلب ممن كانــوا ينوون الحج إلى فلسطين أن ينفقوا أموالهم بشكل أكثر نفعًا في إعــادة بنــاء المــدن

---

(١) Boissonnade, *op. cit.* pp. 22-8; Fliche, *op. cit.* pp. 551-2.

(٢) Gregory VII, *Registrum,* I, 7, pp. 11-12 See also Villey, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie juridique,* p. 71

(٣) Boissonnade, *op. cit.* pp. 29-31.

(٤) *Ibid.* pp. 31-2.

(٥) (المترجم) : دولة المرابطين : تأسست في شمال غرب أفريقيا والأندلس واستمرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

الإسبانية التي انتزعت من المسلمين بعد أن نهبوها (١). وحتى نهاية القرن استمرت الحملات الإسبانية تجذب المغامرين من فرسان المسيحيين في الشمال إلى أن وصلت سلسلة الحملات إلى زروتها بالاستيلاء على هوسكا سنة ١٠٩٦ وبارباستيرو سنة ١١٠١ ميلادية.

وهكذا، وبانتهاء القرن الحادي عشر، تحولت فكرة الحرب المقدسة إلى ممارسة عملية. وحثت سلطات الكنيسة الفرسان والجنود على أن ينبذوا خلافاتهم التافهة ويرتحلوا إلى حدود العالم المسيحي لمحاربة الكفرة، ولتشجيعهم على أداء خدماتهم سمحت لهم بأن يتملكوا الأراضي التي ينتزعونها، كما منحتهم مزايا روحانية، ولكن طبيعة هذه المزايا الروحانية لم تكن معروفة بشكل يقيني. ويبدو أنّ الكسندر الثاني منح غفرانًا للمشتركين في حملات سنة ١٠٦٤ ميلادية (٢) ، ولكن جريجوري السابع لم يمنح سوى تبرئة كنسيّة لكل من مات في القتال من أجل الصليب (٣) ، كما أعطى تبرئة كنسيّة مماثلة لجنود رودلف أوف سوابيا في الحرب ضد هنري الرابع الجرماني (٤) المطرود من الكنيسة. وأصبحت البابويّة تتولى توجيه الحروب المقدسة، فغالبًا ما كانت تشنها وغالبًا ما كانت تعين قادتها، وكان يتعين أن تكون جميع الأراضي المنتزعة تحت السيادة البابويّة المطلقة.

ورغم أن كبار الأمراء كانوا يميلون إلى أن يتنحوا جانبًا، لبّى فرسان الغرب طوعًا نداء الحرب المقدسة، وكانت دوافعهم تصطبغ من ناحية بصبغة دينية، إذ أنهم كانوا يستشعرون الخذي لاستمرار القتال فيما بينهم، وأرادوا أن يقاتلوا من أجل

---

(١) Riant, *Inventaire critique*, pp. 68-9.

(٢) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 4530, vol. I, p. 573.

(٣) Gregory VII, *loc. Cit*.

(٤) *Ibid*. vii. 14B, pp. 480 ff.

الصليب، فضلا عن أنه كان لديهم حافزًا آخر ألا وهو التلهف علـــى امتـــلاك الأرض وخاصة في شمال فرنسا، حيث ترسخ حق الابن الأكبر وحده في المـــيراث؛ ذلـــك أنّ مالك الأرض لم يكن على استعداد لتقسيم أملاكه ومتعلقاتها التي تتمركز حول قلعتـــة الشامخة، فكان على باقي أبنائه أن يبحثوا عن الثروة في مكان آخر. وشاع بين طبقـــة الفرسان الفرنسيين نوع من القلق والميل إلى المغامرة الذي يلاحَظ أكثر ما يلاحَظ بـــين النورمانديين، وهم الذين تركوا منذ عدة أجيال حياة السلب والترحال. وبدت فرصـــة الجمع بين الواجب المسيحي واقتناء الأرض في مناخ جنوبي فرصة جذابة للغاية، وكـــان للكنيسة أسباب تدفعها إلى الابتهاج باستمرار لتلك الحركة: أفليس من الممكن القيـــام بمثل هذه الحركة عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي ؟

الفصل الثاني :

صخـــرة القديس بطـــرس

صخرة القديس بطرس

"بِي تَمْلِكُ الْمُلُـوكُ وَتَقْضِي الْعُظَمَاءُ عَدْلًا".

(أَمْثَال: ٨ ــ ١٥)

إن انحسار المد الإسلامي في إسبانيا جعل البابا لا يجد صعوبة تذكـــر في بســط سلطانه على كنيسة الأراضي المستعادة. وكانت (منحة قسطنطين) (١)، التي قبلها العالم المسيحي الغربي قبولاً واسع الانتشار ــ وإن كان قبولاً خاطئًا ــ على أنها شيئ أصيل،

(١) (المترجم) : منحة قسطنطين : وثيقة تناقش منحة السيادة الروحية التي يفترض أن "قسطنطين العظيم" منحها للبابا "سلفستر الأول " (٣١٤ - ٣٣٥م) وخلفائه ذوي المكانة الروحية العالية علي البطارقة العظام الآخرين ، وعلي جميع مسائل العقيدة والعبادة ، فضلا عن السيطرة الدنيويـة علـي رومـا والإمبراطورية الغربية برمتها . ويزعم أن قسطنطين كان مدفوعا بما يفترض فيه مـن عرفـان للبابا " سلفستر "لمعجزته في علاج الإمبراطور من مرض الجزام وتحويله إلي المسيحية .والآن يعترف الجميع بأنها مزورة .

قد ساعدته على بسط سيادته الدنيوية على بلدان كثيرة، أضيفت إليها شبه جزيرة أيبريا في غفلة من الزمن، كما لم يكن في إسبانيا أيّة سلطة كنسية يمكنها أن تتحداه. أما العالم المسيحي الشرقي فكان تنظيمه مختلفًا; إذ أنّ بطريارقيّة الإسكندرية التي أسسها القديس مارك، وبطريارقيّة أنطاكية التي أسسها القديس بطرس، كانتا قديمتين قدم كرسي روما الأسقفي. وكان لبطريارقيّة القدس، وهي كنيسة القديس جيمس، هيبة خليقة بأكثر مدن العالم المسيحي قدسية وإن كانت أصغر من سابقتيها. وكانت بطريارقيّة القسطنطينية فكانت أعظم ند مهيب لتلك الكنائس جميعًا، وإن لم يكن لها من القدم ما يضفي عليها سلطان الزمن برغم ما يُزعم من أن القديس أندرو هو الذي أنشأها. غير أن القسطنطينية أزاغت العاصمة القديمة وأصبحت هي روما الجديدة ومقرًا لسلسلة متصلة من الأباطرة المسيحيين، فهي أعظم مدن العالم المسيحي، وربما حق لبطريقها أن يري أنه يمثل العالم المسيحي كله وأنه أعظم قاض كنسي في العالم المتحضر. وربما كانت المعارضة الدينية في بيزنطة تلجأ أحيانًا إلى سلطة روما القديمة كقوة توازن قوة الإمبراطور، بيد أنه لم يكن في الشرق من يأخذ على محمل الجد أنّ أسقف المدينة الغربية التي تقلّص نفوذها ـــ والتي تخضع دائمًا لسيطرة صغار النبلاء المشاغبين أو زعماء البرابرة الشماليين ـــ له أية ولاية على الكنائس الشرقية ذات التقاليد الباقية المستقرة على مدى الزمان، ومع ذلك بقى لروما احترامها الخاص. وبرغم تجاهل ادّعائها السيادة، كانت لها أولوية تكاد تكون عامة بين الكراسي الأسقفية للعالم المسيحي، حتى من قِبل البطريق الذي يمثل العالم المسيحي كله. وليس هناك من كان على استعداد لتحدي الاعتقاد بأنّ العالم المسيحي شيئ واحد وينبغي أن يكون كذلك.

روما والقسطنطينية

وبعد الفتح العربي فقدت بطريارقيّات الجنوب الشرقي كثيرًا من قوتها، وبرزت

القسطنطينية كأولى الكنائس الشرقية، وثارت مجادلات وخلافات كثيرة بين الكنيستين في روما والقسطنطينية حول الشؤون الكنسية وإن لم تشكل أي منها خطورة أو تستغرق وقتا طويلا على خلاف ما يعتقده الجدليون المتأخرون (١)، وإنما ظلت وحدة العالم المسيحي مقبولة على العموم. غير أنه أجري في القرن الحادي عشر فحص دقيق لنظام الكنيسة الرومانية، وترتبت اقتراحات الإصلاح إلى حد كبير على نفوذ رهبان كلاني واللورين، ونفذتها في بادئ الأمر السلطات العلمانية المتسيدة على روما آنذاك، وكان الإمبراطورهنري الثالث نشطا بوجه خاص ومنح تلك الإصلاحات قوة دافعة أتاحت للكنيسة أن تستمر فيها وتطورها بعد موته مستقلة عن الحكومة العلمانية ومضادة لها في نهاية الأمر. وتولد عن الحركة نظريات برزت وأصرت على السيادة الروحانية الشاملة لروما وتسيدها في النهاية على الأمراء الدنيويين، وأثارت هذه النظريات بدورها جدلا جديدا مع الشرق.

وتكمن المسألة الرئيسية في إعادة تأكيد مزاعم روما في السيادة، ولكن الخلافات بدأت حول تفصيلات المعتقد وتفصيلات الأعراف، وانساقت البابوية وراء رغبتها في ترسيخ سلطانها، فسعت إلى توحيد أعراف الكنيسة. ولم تتوقف رغبتها عند إلغاء زواج رجال الدين الدنيويين لأسباب سياسية وكذلك روحانية، بل بذلت مساعيها في محاولة وضع معايير للطقوس والشعائر الدينية، وهي إصلاحات ممكنة الحدوث في الغرب، لكن أعراف الكنائس الشرقية شيئ آخر، لا سيما وأن هناك كنائس يونانية تقع في النطاق الروماني كلية كما كانت هناك كنائس لاتينية في نطاق القسطنطينية، وكانت الحدود بين النطاقين في جنوب إيطاليا مثار نقاش لوقت طويل. وفي نفس

---

(١) أفضل ما كتب عموما عن العلاقات بين روما والقسطنطينية يوجد لدي Every في مؤلفه *The Bayzantine Patriarchate, Passim*

الوقت° أدى النفوذ الألماني في روما إلى إدخال كلمة (فيليوك) (١) بشأن انبعـــاث الروح القدس، وكان البابوات المهتمون بالإصلاح أقل استعدادا من أسلافهم لقبـــول الحلول الوسطى، أو للصمت في لباقة، ومن ثم لم يكن من الصدام بد.

وأورد البابا سيرجيوس الرابع كلمة (فيليوك) في خطابه بإعلان الإيمـــان الـــذي يرسل عادة من البابا أو البطريق إلى زملائه بمناسبة توليه البابوية، وعلى الأثـــر رفـــض بطريق القسطنطينية سرجيوس الثاني تخليد اسمه على اللوح التذكاري المزدوج للكنائس البطرياقية في القسطنطينية، وفهم البيزنطيون ذلك كدلالة على أن البابا نفسه لم يتبـــع سواء السبيل حول نقطة في المعتقد، وإن لم يكن ذلك طعنا في استقامة الكنيسة الغربية بكاملها. بيد أن ذلك في نظر البابا ـــ فضلا عن الكنائس الغربية الـــتي تعتـــبر البابـــا مصدرا لاستقامة المعتقد ـــ كان إهانة عامة وبعيدة الأثر وواســـعة النطـــاق. وأدرك البطريق أن وضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج يتيح له فرصة للمساومة. (٢)

وفي سنة ١٠٢٤ ميلادية تلقى البابا جون التاسع عشر اقتراحًا من القســـطنطينية بإمكان تسوية نقاط الخلاف بين الكنائس يقضي بقبول صيغة وُضعت ببراعة تمنح روما سيادة اسمية، وتترك للقسطنطينية استقلالية شاملة فعلية، وأعلنت هذه الصيغة أنه:

---

(١) (المترجم) :فيليوك : المعنى الحرفي باللاتينية : " ومن الابن " ، وهي عبارة أضافتها الكنيسة اللاتينية إلى قانـــون الإيمان المسيحي في العصور الوسيطة ، وتعتبر أحد الأسباب الرئيسية التي سببت الصدع بين الكنائس الشرقية والغربية .

(٢) عن هذه الواقعة أنظر، Michel *Humbert und Kerularios* pp. 20-40، vol. i. وهناك ما يدل على أن كلمـــــة (فيليوك *filioque*) أدخلت على إعلان الإيمان في رومـــا في وقـــت هنري الثاني هناك في سنة ١٠١٤م .

Berno *Libellus de Officio Missae* in *M.P.L.* vol. cxlii col. 1061-2

"بموافقة الحبر الروماني تعتبر كنيسة القسطنطينية كنيسة عالمية في نطاقها، كما كانت كنيسة روما في العالم". وكان البابا جون نفسه على استعداد للموافقة، لولا أن أسرع الراهب الكلاني، راهب سانت بنجنوس في ديجون (١) بالكتابة إليه مذكرا إياه في صرامة بأن سلطة الإلزام والإطلاق في السماء وعلى الأرض إنما يختص بها القديس بطرس وخلفاؤه دون غيرهم، وحثه على إظهار المزيد من البأس في إدارة الكنيسة العالمية. وكان على بيزنطة أن تعلم أن البابوية بعد إصلاحها لا تسمح بمثل ذلك الحل الوسط. (٢)

وفي منتصف القرن أسفر الغزو النورماندي لجنوب إيطاليا عن رغبة في تحالف سياسي بين البابا والإمبراطور الشرقي، ولكن البابوية بعد إصلاحها التزمت بسياسة وضع المعايير، ورغبت في إبطال أعراف معينة سائدة في الكنائس اليونانية في جنوب إيطاليا قلدتها كنائس إيطالية كثيرة إلى الشمال حتى ميلانو. وفي سنة ١٠٤٣ ميلادية تولى ميكائيل سيريولاريوس بطريارقية القسطنطينية، وكان رجلا طموحا متكبرا، وتواقا بنفس القدر إلى وضع معايير للأعراف داخل حدود نطاقه، وكان دافعه الرئيسي هو أن يستوعب بشكل أيسر كنائس المقاطعات الأرمينية المحتلة حديثا، والتي كانت تمارس أعرافا مختلفة، كاستخدام الخبز غير المخمر. على أن سياسته أثرت أيضا في الكنائس اللاتينية الواقعة في إيطاليا البيزنطية والكنائس اللاتينية في القسطنطينية نفسها، وانتفع بها التجار والحجاج وجنود الحرس الفارانجي. وعندما رفضت تلك الكنائس الأخيرة أن تمتثل لذلك أمر البطريق بإغلاقها، وبدأ مجلسه في إصدار كتيبات دينية تنكر أعراف اللاتينيين.

---

(١) (المترجم) : ديجون : مدينة في وسط فرنسا ناحية الشرق .

(٢) Radulph Glaber in Bouquet *R.H.F.* vol. x pp. 44-5. ليست هناك مصادر يونانية تذكر هذه المفاوضات غير أنه ليس هناك من سبب يدعو للشك في حدوثها .

صــدع سنة ١٠٥٤ ميلادية

ويبدو أنّ سيريولاريوس لم يكن مهتمًا بالمسألة اللاهوتية، وكان على استعداد لأن يضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج في مقابل أن تكون المعاملة مع روما على قدم المساواة. وتركز الخلاف حول أعراف الكنيسة، وبذا أُثـيرت مشكلـة الحـدود الكنسية في إيطاليا، وزادت حدة المشكلة بالغزو الذي قام بـه النورمـانديون، وهـم أنفسهم من أتباع الكنيسة اللاتينية. وتولى حاكم إيطاليا البيزنطية المفاوضات ــ وهـو أرجيرس النورماندي الذي كان من أتباع بيزنطة ويدين بالشعيرة اللاتينية ــ وقد فـاز بثقة الإمبراطور لكنه كان من المحتم أن يرتاب فيه سيريولاريوس الذي خدمته الظروف: ففي سنة ١٠٥٣ ميلادية، وقبل تعيين السفراء الرسوليين للذهـاب مـن رومـا إلى القسطنطينية، اعتقل النورمانديون البابا ليو التاسـع، وعندمـا وصـل سـفراؤه إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية وعلى رأسهم الكاردينـال هومـبرت أوف سـيلفا كانديرا، استقبلهم الإمبراطور بمظاهر التشريف، ولكن سيريولاريوس تساءل هل عيّنهم البابا حقًا، وهل بمقدوره وهو رهينة تنفيذ الوعود التي يقطعونها على أنفسهم؟ وقبل أن تتسع المناقشات مات ليـو فجأة في إبريل (نيسان)، وهكذا فقد السفراء كل صفة أو مؤازرة رسمية مُنحت لهم. وانقضى عام بكامله قبل انتخاب البابا التالي، و لم يكن أحد يعلم السياسة التي سيتبعها، ورفض سيريولاريوس الاستمرار في المفاوضـات، وعلـى الرغم من رغبة الإمبراطور في التوصل إلى اتفاق، حميت المشاعر وانتهى الأمر بأن رحل السفراء الرسوليون وهم مغضبون وقد تركوا على مذبح القديسة صوفيا أمـرًا بابويًـا رسميًّا مختومًا بالرصاص بطرد البطريق ومستشاريه من الكنيسة ويعترف في نفس الوقت باستقامة الكنيسة البيزنطية. وحيال ذلك، عقد البطريق مجمعًا مقدسًا لعن فيه ذلـك الأمر البابوي على أنه من عمل ثلاثة أشخاص غير مسئُولين، وأعرب عن أسفه لإضافة (فيليوك) إلى المذهب، وأدان زواج رحل الديـن، لكنه لم يذكر الكنيسة الرومانيـة

على عمومها ولا الأعراف الأخرى المختلف عليها. وفي واقع الأمر، لم يكن هناك تغيير مطلقا سوى أن المرارة أطلت برأسها.

ولم تشترك كنائس الإسكندرية والقدس في هذه الحادثة، وأيقن بطريق أنطاكية بطرس الثالث أن سيريولاريوس رحل صعب المراس دون داع، واستمرت كنيسته في تخليد اسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج الموجود لديها، إذ لم يجد سببا يدعوه إلى التخلي عن تلك الممارسة، وربما كان يخشى أن تكون لدى سيريولاريوس ـ الذي حامت الشكوك حول طموحاته ـ مخططات ضد استقلالية كرسيه الأسقفي، وربما كان متعاطفا مع سياسة الإمبراطور. وفضلا عن ذلك، لم يكن بوسعه أن يؤيد وضع معايير للطقوس والأعراف الكنسية؛ فكانت أبرشيته تضم كنائس تمارس فيها الطقوس السيريانية، والكثير من تلك الكنائس وراء الحدود السياسية للإمبراطورية، فلا يستطيع فرض أعراف موحدة حتى وإن رغب في ذلك؛ فانتحى بنفسه بعيدا عن الشجار. (١)

مخطط جريجوري السابع لحرب صليبية

وتحسنت العلاقات خلال العقد التالي تحسنا طفيفا؛ إذ خلع ميكائيل سيريولاريوس سنة ١٠٥٩ ميلادية، وباختفائه عادت الكنائس اللاتينية في

---

(١) فيما يتعلق بما يسمى " انشقاق" سيريولاريوس أنظر Michel, *op. cit. passim,* especially vol. 1, pp. 43-65; Jugie, *Le Schisme Byzantin,* especially pp. 187 ff .; Leib , *Rome, Kiev et Byzance,* pp. 27 ff.; Every, *op. cit.* pp. 153-72.
ويستنتج Jugie, op.cit. 188 أن البطريق كان راغبا في الإبقاء علي إسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج وذلك من خطاب ليوالتاسع إلى سيريولاريوس في *M.P.L.* vol. cxliii, cols. 773-4 ومن خطاب سيريولاريوس إلي بطرس الأنطاكي في *M.P.G.* vol. cxx, col. 784 ولابد أن يبقي الدافع لدي بطري الأنطاكي تخمينيا ، بيد أن موقفه واضح من مراسلاته مع سيريولاريوس . أنظر خطاباتهم في *M.P.G.* vol. cxx, cols. 756-820.

القسطنطينية تفتح أبوابها مرة أخرى. وفي جنوب إيطاليا كان النورمانديون يحققـــون تقدما متزايدا، وهم الحلفاء المخلصون للبابوية منذ ســـنة ١٠٥٩ ميلاديـــة، ولذلـــك وجدت بيزنطة أن ممارسة الضغوط من أجل مطالبها الكنسية هناك أمر غير عملي. وفي سنة ١٠٦١ ميلادية أبحر روجر النورماندي لغزو صقلية وانتزاعها من العـــرب، فقـــد شجع البابا الحرب المقدسة. وكان على بيزنطة أيضا أن تواجه انعدام السيطرة علــــى المجامع المسيحية هناك. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية قرر الإمبراطور ميكائيل السابع ضرورة التوصل إلى تفاهم ودي مع روما ;ذلك أن الإمبراطور ـــ بعد الغزو النورماندي لباري في جنوب إيطاليا سنة ١٠٧١ ميلادية ـــ أصبح يخشى المزيد من العدوان، فربما يمنعــــه البابا بنفوذه. وبدأ غزو التركمان لآسيا الصغرى، وكان ميكائيل في مسيس الحاجة إلى الجنود، فإذا ما أصبحت العلاقة بالبابوية علاقة ودية، ففي الإمكان تجنيد الجنود مـــــن الغرب بسهولة. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية تم انتخاب الكاردينال هيلد برانـــد ليشغـــل منصب البابا تحت اسم جريجوري السابع الذي كان ذائع الصيت بالفعل لما يتصف به من بأس واستقامة، وكان مقتنعا بسيادة كرسيه البابوي ولذا لم يرسل خطاب إعــلان الإيمان لأي من بطارقة الشرق، على أن الإمبراطور ميكائيل رأى من الحصافة أن يبادر بإشارة ودية; فأرسل إليه خطاب تهنئة ألح فيه إلى رغبته في توثيق الصلة بينهما; فمــــا كان من جريجوري الذي أسعدته تلك المبادرة إلا أن أرسل بطريق فينيسيا دومينيكس في سفارة بابوية إلى القسطنطينية ليستطلع الأحوال هناك. (١)

ومن المعلومات التي أدلى بها البطريق دومينيكس، توصـــل البابـــا جريجـــوري إلى

---

(١) See Gregory VII's letters in his *Registra*, I, 49, ii, 37 ,vol.1, pp. 70 , 75, 173 وترد زيارة Dominicus إلي القسطنطينية في نفس المرجع *ibid.* I, 18, pp. 31-2. ومن المرجح أن جريجوري فشل في إرســـال خطـــاب إلي البطارقة الشرقيين بعد توليه . أنظر Dvornik, *The Photian Schism*, pp. 327-8

إقناع نفسه بأن الإمبراطور ميكائيل رجل مخلص، كما علم بالموقف في آسيا الصغرى الذي كان يشكّل خطورة على طريق الحج. و لم تكن فلسطين نفسها قد أُغلقت بعد أمام الحجاج، لكن سرعان ما ستصبح الرحلة عبر الأناضول مستحيلة ما لم تتوقف غزوات التركمان. وبحنكة سياسية خيالية خطط جريجوري سياسة جديدة؛ فالحرب المقدسة التي كانت تحقق نجاحًا في إسبانيا ينبغي أن تمتد حتى آسيا، لاسيّما وأنّ أصدقاءه في بيزنطة يفتقرون إلى المساعدة العسكرية، وسوف يحارب جيشه ويدحر الكفار من آسيا الصغرى، وسوف يعقد حينئذ مجلسًا في القسطنطينية حيث يكفّ مسيحيو الشرق عن خلافاتهم وينهونها وهم صاغرون شاكرون، وسوف يعترفون بسيادة روما. (١)

ولا نعرف ما إذا كان الإمبراطور ميكائيل على علم بنوايا البابا وما إذا كان سيرحب بها. إذ لم يستطع جريجوري مطلقًا أن يضع خططه موضع التنفيذ؛ وقادته استقامة سياسته التي لا تلين إلى متاعب أكثر فأكثر في الغرب مما اضطره إلى أن يتخلّي عن طموحاته في الشرق وإن لم ينسها أو يفقد اهتمامه بما يجري هناك.

وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية خُلع الإمبراطور ميكائيل السابع. وما أن سمع جريجوري بالنبأ حتى حكم على الغاصب نيسفوراس بوتينياتس بالطرد من الكنيسة. وبعد ذلك بفترة قصيرة ظهر أحد المغامرين في إيطاليا وأعلن أنه هو الإمبراطور المخلوع، وادّعى النورمانديون أنهم يصدقونه لفترة من الزمن، ومدّ له جريجوري يد العون. وجاء الدور على المغتصب نيسفوراس، فأطاح به ألكسيوس كومنينوس سنة ١٠٨١ ميلادية، وامتد قرار الطرد من الكنيسة ليشمل الإمبراطور الجديد. وفي يونيه (حزيران) كتب ألكسيوس إلى البابا في محاولة لاستعادة ودّه وطلب مساعدته في كفّ عدوان روبرت

---

(١) Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, I, 46, 49, ii, 3, 37, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. ii, pp. 64-5, 69-70, 111 112, 150-1

جيسكار، ولكن دون جدوى، ووجد في هنري الرابع الألماني حليفًا يبشر بالخير، وفي ذات الوقت أغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية. وبدا واضحًا للبيزنطيين أنّ البابا كان متحالفًا مع النورمانديين الغادرين الملحدين، وراحوا يتناقلون الحكايات الخيالية حول تكَبّره وافتقاره إلى المحبة المسيحية. وعندما سقط ميتًا في شبكة الكوارث التي نسجتها سياسته تلقوا النبأ بترحاب واعتبروا ذلك حكمًا نزل عليه من السماء. (١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية، وهو العام الذي مات فيه جريجوري، كانت العلاقات بين العالم المسيحي الشرقي والغربي باردة بصورة لم تحدث أبدًا من قبل; فالبابا طرد الإمبراطور من الكنيسة، وكان يشجع المغامرين منعدمي الضمير علانية على مهاجمة رفاقهم المسيحيين، بينما كان العدو الرئيسي للبابا، وهو ملك ألمانيا، يتلقى الإعانات من البيزنطيين، فتزايدت مشاعر الاستياء والمرارة بين الجانبين، ولكن لم يكن هناك صدع حقيقي بينهما حتى ذلك الحين، وربما كانت الحنكة السياسية لا تزال تحفظ وحدة العالم المسيحي; ففي الشرق رجل دولة يمتاز بالمرونة والحكمة الكافيتين وهو الإمبراطور ألكسيوس، وتصادف أن ظهر في الغرب حينئذ رجل دولة له نفس الوزن.

تنصيب البابا إيربان الثاني

ولد أودودي لاجيري لعائلة نبيلة في شاتيلو ـــ سير ـــ مارن حوالي سنة ١٠٤٢ ميلادية، والتحق بمدرسة الكاتدرائية في ريم لتلقي العلم، وكان ناظر مدرسته القديس

---

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, iii, x, 1-8, vol. I, pp. 132-6; Malaterra, *Historia Sicula*, in *M.P.L.* vol. cxlix, 1192 وتورد أنا كومنين op. cit. 1, xiii, 1-10, vol. 1,pp.47-51. وصفا عدوانيا تشهيريا للخلاف بين جريجوري وهنري الرابع .

برونو الذي أصبح فيما بعد مؤسس النظام الكارثوزي (١)، وبقي في ريم ليصبح كاهنا ثم رئيسا لشمامسة الكاتدرائية، لكن ذلك لم يرضه، وفجأة قرر الاعتزال والانضمام لجماعة كلاني. وفي سنة ١٠٧٠ ميلادية تم تثبيت إيمانه على يد الراهب هيو الذي تحقق من قدراته، وبعد فترة قام فيها بأعمال رئيس الدير نقل إلى روما التي سرعان ما أصبح فيها متميزا، وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية عينه البابا جريجوري السابع (أسقفا ـ كاردينالا) في أوستيا، وفي الفترة من ١٠٨٢ إلى ١٠٨٥ ميلادية كان قاصدا رسوليا في فرنسا وألمانيا، ثم عاد ليبقى إلى جوار جريجوري أثناء السنوات الأخيرة التعيسة من فترة بابويته. وعلى أثر موت جريجوري، في المنفى ووجود البابا الزائف جيبرت يحكم في روما، انتخب الكرادلة المخلصون للكرسي البابوي راهب مونت كاسينو الضعيف الذي كان عازفا عن المنصب والذي اتخذ لنفسه اسم فيكتور الثالث. و لم يوافق كاردينال أوستيا على هذا الانتخاب وأظهر عدم موافقته، ولكن فيكتور لم يضمر له شرا، بل أنه وهو على فراش الموت في سبتمبر (أيلول) ١٠٨٧ ميلادية أوصى به لدى الكرادلة كخليفة له، كما كان معروفا أن جريجوري السابع قد رغب هو الآخر في استخلافه، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث حتى مارس (آذار) ١٠٨٨ ميلادية عندما أمكن عقد مجمع مقدس في تيراسينا لانتخابه تحت اسم إيربان الثاني. (٢)

كان إيربان مناسبا لمهمته; فكان يترك انطباعا مؤثرا في غيره، طويل القامة مليح الوجه واللحية، دمث الخلق، مقنع في حديثه. وإذا كان يفتقد ما كان يتميز به

---

(١) (المترجم) : نظام ديني للرهبان ، لعب دورا هاما في حركة إصلاح الرهبنة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يجمع بين حياة الناسك في عزلته والحياة العامة داخل أسوار الدير وهو الشكل الوحيد ، لحياة دينية ذات صبغة احتماعية بسيطة ، و لم يتطلب أي إصلاح مطلقا .

(٢) عن سيرة حياة إيربان المبكرة أنظر Leib, *op. cit.* pp. 1-4, and Gay, *Les Popes du Xie siècle*, pp. 356-8

جريجوري من حماس ووضوح الهدف، فقد فاقه في سعة النظرة والقدرة على معاملة الرجال، ولم يكن بنفس تكبّر جريجوري وعناده، لكنه لم يكن ضعيفًا. ولقد عانى السَّجن في ألمانيا عندما سجنه هنري الرابع لإخلاصه للبابا ولمعتقداته، وكان بوسعه أن يكون صارمًا قاسيًا، لكنه فضّل أن يكون لطيفًا وأن يتجنب الجدل الذي قد يثير المرارة والصراع.

وقد آلت إليه تركة ثقيلة; فهو لا يستطيع أن يعيش آمنًا إلاّ في الأراضي النورماندية دون غيرها، لكن النورمانديين حلفاء أنانيون لا يعتمد عليهم، وروما في قبضة البابا الزائف جيبرت، فكان بوسع إيربان أن يتغلغل في الضواحي لكنه لا يستطيع أن يجاوزها دون إراقة الدماء، وهذا ما رفض إثارته. وفي الشمال ساندته ماتيلدا أوف توسكاني مساندة مخلصة في سائر أنحاء أراضيها المترامية، وفي سنة ١٠٨٩ ميلادية عززت مركزها بزواج عابث من الأمير الألماني ويلف أوف بافاريا، وهو صبي يصغرها بأكثر من نصف عمرها. على أنه في عام ١٠٩١ ميلادية هزم هنري الألماني جيشها هزيمة منكرة في موقعة تريزونتاي، وكان هنري في أوج قوته بعد أن توّجه البابا الزائف إمبراطوراً في سنة ١٠٨٤ ميلادية، فصار الآن سيد ألمانيا والظافر في شمال إيطاليا. ولم يكن في مأمول البابا إيربان أن يأمر فيطاع في تلك الأراضي الشاسعة وهو في ذلك الوضع غير المأمون.

على أنّ إيربان واصل العمل بثبات ولباقة إلى أن تغير كل شيء سنة ١٠٩٣ ميلادية; إذ تمكّن بالمال وليس بالسلاح أن يقضي عيد الميلاد من ذلك العام في روما، وفي الربيع التالي اتخذ لاتيران (١) مقرًا لإقامته. وضعف الإمبراطور هنري من جرّاء تمرد ابنه كونراد الذي كان إيربان يشجع سخطه تشجيعًا هادئًا، وأما نجاحه في موطنه

---

(١) (المترجم) : لاتيران : كنيسة القديس "جون لاتيران" وكتدرائية البابا باعتباره أسقف روما وملحق بها القصر الذي أصبح الآن متحفا .

فرنسا فيرجع إلى ملكاته التنظيمية في جمع الهيكل الكنسي كله تحت سيطرته، وبلغ نفوذه في إسبانيا ذروته، وشيئًا فشيئًا توالى اعتراف بلاد الغرب البعيدة بسلطانه الروحاني. ونبذ الإصرار على المطالبة بالسيادة السياسية التي نادى بها جريجوري السابع من قبل، وأظهر للأمراء الدنيويين المنتشرين في كل مكان، باستثناء من جاهروه بالعداء، حلما بالغ المدى. وفي سنة ١٠٩٥ ميلادية أصبح السيد الروحاني للعالم المسيحي الغربي. (١)

وفي تلك الأثناء حوّل انتباهه إلى العالم المسيحي الشرقي. وبعد أن مات روبرت جيسكار برز أخوه روجر الصقليّ معلنًا أنه القوة الرئيسية للنورمانديين، ولم يكن يرغب في الإساءة إلى بيزنطة أكثر من ذلك. واستغل إيربان انعقاد مؤتمر ملفي في سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٨٩ ميلادية — وحضور سفراء الإمبراطور — فرفع إعلان الطرد من الكنيسة الصادر ضد الإمبراطور ألكسيوس. واستجاب ألكسيوس لهذه اللفتة بأن عقد في نفس الشهر مجمعًا في القسطنطينية انتهى إلى أنّ اسم البابا حُذف من اللوح التذكاري المزدوج "دون صدور قرار كنسي وإنّما، كما قيل، نتيجة الإهمال"، واقترح في هذا المجمع إعادة وضع الاسم بمجرد استلام خطاب إعلان الإيمان من البابا. واعتبر المجمع أنه ليس ثمة سبب حقيقي لأي خلاف بين الكنائس، وأوصى باستشارة بطريارقي الإسكندرية والقدس، وأما بطريق أنطاكية فكان حاضرًا بنفسه. وكتب بطريق القسطنطينية نيكولاس الثالث إلى إيربان يخبره بتلك القرارات ويرجوه إرسال خطاب إعلان الإيمان في غضون ثمانية عشر شهرًا، وأكد له حرية الكنائس اللاتينية في القسطنطينية في ممارسة أعرافها، ولم يذكر له أية خلافات لاهوتية. ولم يلق ذلك قبولاً حسنًا من سفراء الإمبراطور في إيطاليا وهم: بازل مطران ترايي، وورمانوس رئيس أساقفة روسانو، ورجال الدين اليونانيين الذين شعروا بالخطر من التعدي البابوي داخل

---

(١) Gay, *op. cit.* pp. 358-63

أراضيهم، وقد صدمتهم ادعاءات البابا بأن أسقفيته ــ ببعض المـــبررات التاريخيــة ــ يجب أن تشمل في الواقع ثيسالونيكا، وكانوا يفضلون لو أن أليكسيوس ســاند البابــا الزائف. لكن أليكسيوس استقر رأيه على تفضيل أحد الرجلين، وكان مـــن الواقعيــة بحيث قبل ضياع الجزء البيزنطي في إيطاليا، بينما أسرع جيبرت ــ البابــا الزائــف ــ بالإساءة إلى أصدقائه اليونانيين بأن عقد مجلسا في روما أدان فيه زواج رجل الدين. (١)

وفي واقع الأمر أن إيربان لم يرسل خطاب إعلان الإيمان في أيه حال، وربما كان مرجع ذلك إلى عزوفه عن إثارة أية مسائل لاهوتية; كما لم يرد اسمه مطلقًا في اللـــوح التذكاري المزدوج في القسطنطينية. ولكن العلاقات الحسنة بقيت. وفي ســـنة ١٠٩٠ ميلادية أرسل ألكسيوس سفارة إلى إيربان تحمل رسالة صداقة وديّة. وتنعكس وجهة نظر بيزنطة الرسمية في مقال كتبه ثيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا، رجا فيه القراء ألاّ يبالغوا في أهمية توحيد الأعراف الكنسية، وتأسى على إضافة كلمة فيليوك إلى قـــانون الإيمان المسيحي، لكنه فسّر أن الفقر الذي تعانيه اللغـــة اللاتينيـــة في المصطلحـــات اللاهوتية خليق بأن يسبب سوء الفهم، و لم يتناول بشكل حدي الادعاء البابوي بفرض السلطة على الكنائس الشرقية (٢). و لم يكن هناك في حقيقة الأمر أي سبب يدعو إلى

---

(١) يرد تقرير المجمع مع الرسائل ذات الصلة في :
Holtzmann, ‘ Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089 ’, in *Byzantinische Zeitshrift,* vol. xxviii, pp. 60-7.
والصياغة المتصلة بما توصل إيه المجمع المقتبسة أعلاه لا بد أن تعني أن البطريق Sergius II تصرف سنة ١٠٠٩م دون إحالـــة الموضـــوع إلـــي المجمـــع أو اســـتشارة رفـــاقة البطارقـــة . وعن مجلس Loewenfeld, Guibert *Regesta,* vol.- Jaffé 1.p. 652

(٢) عـــن تقريـــر سفـــارة أليكســـيرس إلـــس إيربان أنظر- in Holtzmann,*op.cit.* pp.64
phylact's treatise is published M.P.G. vol. cxxvi, cols. 222-50

أن يتطور الصدع، واستمر لاهوتيون شرقيون آخرون في مناقشة الفروق بين الأعراف بنبرة هادئة. ومن بين هؤلاء الكتاب بطريق القدس سيميون الثاني الذي أدان الاستخدام اللاتيني للخبز غير المخمر في تناول العشاء الرباني، ولكن بألفاظ لا تشوبها الحدة بأي حال. (١)

المجلس الكنسي في بياتشنزا

وفي أوائل سنة ١٠٩٥ ميلادية ارتحل البابا إيربان الثاني من روما باتجاه الشمال، واستدعى ممثلي جميع الكنائس الغربية لمقابلته في المحفل العظيم الأول لبابويته الذي قرر عقده في مارس آذار في بياتشنزا. وفي المحفل أصدر رجال الدين المؤتمرون قرارات تدين السيمونية (٢)، وزواج الكاهن، وتعارض الصدع داخل الكنيسة، كما ناقشوا ما اقترفه ملك فرنسا من الزنا ولكن تقرر عدم اتخاذ أي إجراء حتى يتمكن إيربان من زيارة فرنسا بنفسه. وجاء رسل من كونراد ــ إبن الإمبراطور هنري ــ لترتيب لقائه مع البابا في كريمونا، وجاءت الإمبراطورة زوجة هنري بنفسها ــ براكسيديس الروسية ومن بيت اسكندنافي حكم في كييف ــ لتشكو المهانات التي عانتها من زوجها. وكان المحفل بمثابة المحكمة العليا للعالم المسيحي الغربي والبابا بمثابة رئيس للقضاة.

---

(١) Symeon's treatise is published by Leib, *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*, pp. 85-107 ويرتاب Leib في أصالة رسالة Symeon إذ يبدوا أن هذا الرسالة تقابل رسالة أخري كتبها Bruno of Segni حوالي سنة ١١٠٨م . غير أين Michel, *Amalfi und Jersalem im griechischen Kirchenstreit* ويظهر أن الرسالة تقابل رسالة أخري كتبها من يدعي Laycus ينتحلها برونو .

(٢) (المترجم) السيمونية : بيع المناصب الكهنوتية أو شراؤها .

وكان من بين الحضور في المجلس مبعوثو الإمبراطور ألكسيوس الذي كانت حروبه مع الأتراك تحقق نجاحًا بالنظر إلى التدهور الواضح في القوة السلجوقيّة، وما هي إلاّ حملات قليلة محكمة التوقيت وينهزم السلاجقة إلى الأبد. ولكن إمبراطوريته تفتقر إلى الجنود، ولم تكن أماكن تجنيد الجنود في الأناضول منتظمة كما كانت من قبل وقد ضاع الكثير منها؛ ولذا كان أليكسيوس يعتمد بدرجة كبيرة على المرتزقة الأجانب وعلى فصائل تتألف من البتشنج، وقبائل أخرى من السهول استخدمها أساسًا كحرس للحدود وكشرطة عسكرية، والحرس الفارنجي الذي يتألف أساسًا من الأنجلوساكسون الهاربين من إنجلترا النورماندية، وجماعات من مغامري الغرب الذين التحقوا بالخدمة في جيشه بشكل مؤقت، وكان أبرز هؤلاء جميعًا هو الكونت روبرت الأول من فلاندرز الذي حارب من أجله سنة ١٠٩٠ ميلادية. وبرغم قدرة الإمبراطور على تجنيد الجنود من مواطنيه، كانت احتياجاته لا تزال تطلب المزيد؛ إذ كان عليه أن يحرس حدود الدانوب الطويلة من هجمات برابرة الشمال، وفي الشمال الغربي كان الصربيون متململين. ونادرًا ما يهدأ رعاياه البلغاريون لفترة طويلة، ودائمًا ما كان خطر العدوان النورماندي يتهدده من إيطاليا. وأما في آسيا الصغرى فإن الدفاع عن الحدود غير المحددة بدقة، وعن ثغورها، والحفاظ على النظام العام، والمواصلات، استنفد ما تبقى له من موارد. فإذا كان له أن يأخذ زمام المُبادأة فليس هناك بد من تجنيد المزيد من الجنود. ولسوف تثمر سياسته تجاه البابويّة إذا تمكن من استخدام النفوذ البابوي لكي يجد له هؤلاء الجنود. وكان إيربان متعاطفًا؛ وكان البرنامج البابوي يشمل تحريض فرسان الغرب المشاكسين على استخدام فصائل جنودهم في قضية بعيدة وأكثر قداسة. ودُعي السفراء البيزنطيون لمخاطبة المؤتمر.

وليس لدينا ما ألقوه من خطب. ولكن يبدو أنهم لكي يقنعوا سامعيهم بأنّ الخدمة مع الإمبراطور جديرة بالتقدير ركّزوا تركيزًا خاصًّا على الصعاب التي يعانيها مسيحيّو الشرق إلى أن يتم طرد الكفرة. وإذا كان على الكنيسة أن تقوم بتشجيع

تجنيد الجنود، فإن عرضها للأجور العالية وحدها لم يكن كافيا، وكان عليها أن تلجأ إلى الحجة الأقوى التي تتمثل في استثارة الواجب الديني. ولم تكن تلك اللحظة هي التي يمكن فيها تقييم منجزات بيزنطة تقييما دقيقا، وإنما كان لابد من أن يرجع الأساقفة إلى أوطانهم وقد أدخل في روعهم أن سلامة العالم المسيحي ما تزال مهددة، ومن ثم يكونون تواقين إلى إرسال أفراد من رعاياهم إلى الشرق لينضموا إلى الجيش المسيحي.

وتأثر الأساقفة، وكذلك البابا. فعندما كان في طريقه إلى كريمونا ليلقى تبجيل كونراد الصغير، وبينما هو يعبر ممرات جبال الألب إلى فرنسا، راح يقلب في ذهنه مخططا أوسع وأمجد، متخيلا حربا مقدسة. (١)

(١) Bernold of Constance, ad ann. 1095, p. 161; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* vol. v, pt. 1, pp. 394-5 . See also Munrio in *American Historical Review,* vol. xxvii, pp. 731-3

الفصل الثالث :

الدعـــــوة

الدعـــوة

"اسمَعُوا لِي يَا أَشِدَّاءَ القُلوبِ البَعِيدِينَ عَنِ البرِّ".

(إشعياء: ٤٦ ــ ١٢)

وصل البابا إيربان إلى فرنسا في أواخر صيف ١٠٩٥ ميلادية، وفي الخامس مـــن أغسطس (آب) كان في فالينس، وفي الحادي عشر وصل إلى لوبوى، ومن هناك أرسل رسائل إلى أساقفة فرنسا والأراضي المجاورة طالبا منهم مقابلته في كليرمونت في نوفمبر (تشرين الثاني) . وفي تلك الأثناء اتجه جنوبا لقضاء سبتمبر (أيلول) في إقليم بروفانس، في أفينون وسانت جيل، وفي أوائل أكتوبر (تشرين أول) كان في ليون، ومن هنـــاك

واصل رحلته إلى برجاندي. وفي ٢٥ من نفس الشهر كان في كَلاني حيث أضفى القداسة على مذبح الكاتدرائية الكبيرة التي كان الراهب هيو قد بدأ بناءها، ومن كَلاني ذهب إلى سوفيني بالقرب من مولان لتبجيل مقبرة القديس مايولويس أقدس رهبان كَلاني، وهناك لحق به أسقف كليرمونت لمرافقته إلى مدينته الأسقفية استعدادًا للمؤتمر. (١)

وكان إيربان أثناء ترحاله منشغلاً بشؤون الكنيسة في فرنسا، ينظم ويصحح، ويمدح ويؤنب، بحسب ما تقضي به الأحوال، ولكن ترحاله مكّنه أيضًا من متابعة مخططه. ولا نعرف ما إذا كان قد قابل وهو في الجنوب ريموند أوف سانت جيل، كونت تولوز، ومركيز إقليم بروفانس، الذي ذاعت شهرته لقيادته الحرب المقدسة في إسبانيا، لكنه كان على اتصال به ولابد أنه سمع بخبراته. وكان أهل كَلاني من المهتمين بطريق الحج إلى كومبوستيللا أو إلى القدس على السواء، وأخبروه بالصعاب القاهرة التي يعانيها الحجاج الآن مع تفسخ السلطة التركيّة هناك، وعلم أنّ الطرق عبر آسيا الصغرى ليست مغلقة وحسب، بل أنّ الأراضي المقدسة هي الأخرى موصدة بالفعل.

مؤتمر كليرمونت

وانعقد مؤتمر كليرمونت من ١٨ إلى ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٠٩٥ ميلادية، وحضر حوالي ثلاثمائة من رجال الدين، وشملت أعمال المؤتمر نطاقًا واسعًا؛ وبوجه عام تكررت المراسيم التي تحظر الاحتفالات بتقليد المناصب الدنيوية، والتي تدين السيمونية

(١) عن تحركات إيربان، أنظر Gay, *op. cit.* pp. 369-72; Chalandon, *Histoire de la première Croisade*, pp. 19-22

وزواج رجال الدين، وناصر المؤتمرون هدنة الرب (١)؛ وبوجه خاص، طـرد الملـك فيليب من الكنيسة بسبب الزنا وأسقف كامبراي بسبب السيمونية، وتأسست سـيادة كرسي ليون الأسقفي على الكراسي الأسقفية في سيـن وريـم (٢) . على أنّ البابـا كان يرغب في استغلال تلك المناسبة لهدف أخطر؛ فأعلن عن عقد اجتماع عام في يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ليذيع إعلانًا هامًا؛ فكانت الحشود من رجال الدين والعوام التي تجمعت من الضخامة بحيث لم تسعها الكاتدرائية التي انعقد فيها المؤتمر، لذا وُضع العرش البابويّ على منصة في الخلاء خارج البوابة الشرقية للمدينة، وهناك، وبعد أن تجمعت الحشود، نهض إيربان على قدميه لمخاطبتها.

ولقد دون لنا كلمات البابا أربعة مؤرخين معاصرين له. ويزعم أحدهم، وهـو روبرت الراهب أنه شهد الاجتماع، وجاءت رواية كل من بودري أوف دول وفولشر أوف تشارتر كما لو كانا حاضرين الاجتماع، وأما الرابع جيـبرت أوف نوجنـت فيحتمل أن يكون قد نقل روايته عن غيره، لكن لم يدّع أحد منهم بأنه يسرد سـردًا لفظيًا دقيقًا، وكتب كل منهم تاريخه بعد ذلك بسنوات قلائل، ولوّن روايته على ضوء الأحداث التي تلت، وليس بوسعنا أن نعرف حقيقة ما قاله إيربـان إلاّ علـى وجـه التقريب. ويبدو أنه قد بدأ خطبته بأن أخبر سامعيه بضرورة مسـاعدة إخوانهـم في الشرق، فالعالم المسيحي الشرقي يستغيث من أجل المساعدة، والأتراك يتقدمـون إلى قلب الأراضي المسيحية، ويُسيئون إلى السكان، ويستبيحون مزاراتهم المقدسة. ولكـن حديثه لم يكن منصبًا على بيزنطة وحسب، وإنّما ركّز على القداسة الخاصة للقدس،

---

(١) (المترجم) هدنة الرب ، أو الهدنة الإلهية : وقف الحرب أو العداوات الخاصة في أيام معينة تحتفل بها الكنيسة .

(٢) Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v, pt. 1, pp. 399-403; Mansi, *Concilia,* vol. xx, pp. 695-6, 815 ff.

ووصف ألوان المعاناة التي يعانيها الحجاج في سفرهم إلى هناك. وبعد أن رسم تلك اللوحة الكئيبة أعلن مناشدته العظمى: "فليهب العالم المسيحي الغربي لإنقاذ الشرق، يجب أن يذهب الغني والفقير على السواء، وينبغي لهم أن يكفّوا عن ذبح بعضهم البعض، وأن يحاربوا بدلاً من ذلك حربًا مقدسة فيكونوا بذلك فاعلين عمل الرب، وسوف يقودهم الرب، ومن يمت في المعركة يفزْ بالغفران ومحو الذنوب، وما الحياة على الأرض إلاّ حياة البؤس والشر، يُرهق الناس أنفسهم فيحصدوا دمار أبدانهم وأرواحهم، هنا الناس فقراء تعساء، وهناك متمتعون مزدهرون، وأصدقاء الرب بحق، ولا ينبغي أن يكون هناك تأخير، فليكونوا على أهبة الاستعداد للانطلاق عندما يحل الصيف، وسيكون الرب مرشدهم." (١)

وتحدث إيربان بحمية وبكل فنون الخطيب البارع، وكانت الاستجابة فورية وهائلة; فكم من مرة يقاطع الناس الخطبة بصرخات: "الرب يشاؤها!". وقبل أن ينهي

---

(١) أورد خطبة إيربان خمسة من المؤرخين :

Fulcher of Chartres, 1, iii, pp. 130-8; Robert the Monk, 1, i-ii, pp. 727-9; Budri, Historia Jezosolimitanan, 1, iv, pp. 12-15; Guibert of Nogent, II, iv, pp. 137- 40; and William of Malmesbury, *Gesta Regum,* vol. II, pp. 393-8.

وكان وليم قد كتب بعد ذلك بحوالي ثلاثين سنة ؛ أما الأربعة الباقون فقد كتبوا كما لو كانوا حاضري الخطبة ، ويدعي Baudri في الواقع أنه كان هناك قطعا . لكن كلا من Baudri و Guibert يعترف بأن النص الخاص به ربما لم يكن صحيحا تماما . وتختلف النصوص الأربعة اختلافا كبيرا . ويحلل Munro في مؤلفه " خطبة البابا إيربان الثاني في كلير مونت " The Speech of Pope Urban II at Clermont الوارد في *American Historical Review,* Vol. xi, pp. 231 ff. الإختلافات بين النصوص ويأمل أن يجد النص الفعلي عن طريق تجميع النقاط التي يتفق عليها هؤلاء المؤرخون.غير أنه من الواضح أن كل مؤرخ كتب الخطبة التي ظن أن البابا لابد وأن ألقاها وأضاف إليها أفانينه البلاغية التي يفضلها.

البابا كلماته أو يكاد، نهض أسقف لوبوي من مقعده، وركع أمام العرش متوسلا السماح له بالانضمام إلى الحملة المقدسة، وتزاحم المئات ليحذوا حذوه، ثم ركع الكاردينال جريجوري وردد بصوت مرتفع صلاة الاعتراف، ورددها وراءه الحشود المحتشدة، وعندما انتهت الصلاة نهض إيربان مرة أخرى ونطق بالغفران الكنسي، وطلب من الحاضرين الانصراف. (١)

وفاق الحماس كل توقعات إيربان. و لم تكن خططه لتوجيه ذلك الحماس قد اكتملت بعد، و لم يكن أحد من كبار القوم حاضرا في كليرمونت، إذ كان الحاضرون كلهم من بسطاء الناس، ومن الضروري ضمان مساندة دنيوية أكثر صلابة. وفي الوقت نفسه جمع إيربان أساقفته مرة أخرى لإجراء مزيد من المشاورات. وأصدر المؤتمر بالفعل مرسوما عاما، ربما بناء على طلبه، بالعفو عن الجزاءات الدنيوية لكل من تتوفر لديه النوايا الورعة للاشتراك في الحرب المقدسة. وأضيف إلى ذلك وضع المتعلقات الدنيوية للمشتركين تحت حماية الكنيسة أثناء غيبتهم في الحرب، فيكون الأسقف المحلي مسئولا عن حفظها وإعادتها سليمة إلى المحارب حال عودته إلى الوطن. وينبغي لكل من يشترك في الحملة أن يضع علامة الصليب كرمز لتفانيه، على أن يكون الصليب من مادة حمراء تحاك على كتف معطفه، وينبغي لكل من يأخذ الصليب أن يقسم على الذهاب إلى القدس، فإذا ما تعجل العودة، أو فشل في القيام بالرحلة، يكون مصيره الطرد من الكنيسة. وأما رجال الدين والرهبان فلا يأخذون الصليب دون إذن من أسقفهم أو راهبهم الذي يرأسهم، ويتعين تثبيط همة كبار السن والضعفاء عن الانضمام إلى الحملة، ولا يجب أن يذهب أحد مطلقا دون الرجوع إلى مستشاره الروحاني. ولن تكون الحرب مقصورة على الغزو; ففي كل المدن التي يتم الاستيلاء عليها من الكفرة يتعين استعادة حقوق الكنائس الشرقية وممتلكاتها، وينبغي لكل

---

(١) .Robert the Monk. I ii-iii, pp. 15-16; Baudri, I, v, p. 15

مشترك أن يتأهب لمغادرة منزله بحلول عيد الصعود (١٥ أغسطس/آب) من العام التالي بعد جمع الحصاد، ويجب أن تتجمع الجيوش في القسطنطينية. (١)

تنظيم الحملة الصليبية

وكانت الخطوات التالية هي ضرورة تعيين قائد للحملة، وأراد إيربان أن يوضح أنّ الحملة تحت سيطرة الكنيسة، ويجب أن يكون رئيسها كنسيًّا ـ قاصده الرسولي ـ وعيّن أسقف لوبوي رئيسًا للحملة بإجماع المجلس.

وينتمي أسقف لوبوي، وهو أديمار دي مونتي إلى أسرة كونتات فالنتنوا، وهو رجل متوسط العمر، سبق له الحج إلى القدس قبل ذلك بتسع سنين، وقد فاز بقيادة الحملة لأنه كان أول من لبّى نداء إيربان، على أنه نظرًا إلى استضافته لإيربان من قبل في لوبوي في أغسطس (آب)، فلابد وأن يكون قد حادثه هناك عن الشؤون الشرقية، وعلى ذلك من الممكن ألاّ تكون حركة المبادرة لتلبية نداء إيربان تلقائية تمامًا. ولقد كان تعيينه قائدًا للحملة تعيينًا حكيمًا؛ إذ أثبتت الأحداث التي تلت أنه واعظ بارع، ودبلوماسي لبق، وواسع الأفق وهادئ وشفوق، ورجل يحترمه الجميع، يسعى إلى الإقناع بدلاً من إصدار الأوامر. وقد استعمل نفوذه بشكل لا يعرف الكلل في كبح الأهواء وبث الحماس، على أنّ نفوذه هذا لم يكن دائمًا من الثبات بحيث يؤثّر في

---

(١) القرارات الكنسية لمجمع كلير مونت يوردها Lambert of Arras في Mansi, *Concilia*, vol. xx, pp. 815-20 ولا يتعلق بالحملة الصليبية بصورة مباشرة سوى القرار الأخير الثالث والثلاثين ، وعلي الرغم من أن Gratian ينسبه إلي المجمع فهو غير موجود في قرارات مجمع Rouen الذي استنسخ قرارات مجمع كلير مونت . أنظر: Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v. p. 339. ويحلل Chalandon, *op. cit.* pp. 44-6 ترتيبات البابا من شتى المصادر التي تعتبر مشوشة نوعاً ما .

وجهاء القوم الذين كانوا يتبعونه من الناحية الاسمّية فقط. (١)

وكان أول الوجهاء الذين طلبوا الاشتراك في الحملة هو الكونـــت ريمونـــد أوف تولوز، ففي أول ديسمبر (كانون الأول)، وأثناء وجود إيربان في كليرمونت، جاءتـــه الرسل تخبره بأن الكونت وكثيرا من نبلائه تواقون لأخذ الصليب، ولم يكـــن ريمونـــد الذي كان في تولوز، قد سمع بأنباء الخطاب العظيم في كليرمونت، فلابد وأن يكون قد علم به قبل وصول الرسل، ولأنه كان أول من علم بالمشروع، وأول من أقسم القسم، فقد رأي ضرورة توليه القيادة الدنيوية على اللوردات العظام الآخرين، فأراد أن يكون هو موسى وأديمار هو هارون. ولم يكن إيربان ليقبل ذلك الادعاء، لكـــن ريمونـــد لم يتخل عنه البتة، وفي ذات الوقت خطط للتعاون المخلص مع أديمار.

وفي الثاني من ديسمبر (كانون الأول) غادر إيربان كليرمونت. وبعد زيارته لشتى بيوت كلاني أمضى عيد الميلاد في ليموج حيث قام بالتبشـــير بـــالحرب الصليبيـــة في الكاتدرائية، ثم مضى شمالا خلال بواتييه إلى وادي اللوار، وفي مارس (آذار) وصل إلى تور حيث عقد مجلسا، وفي يوم من أيام الأحد دعا إلى عقد مجمع لمقابلته في ناحية من الأراضي الخضراء على ضفاف النهر، ومن فوق منصة متواضعة ألقى موعظة طويلـــة وقورة حاضا مستمعيه على التوبة والذهاب إلى الحرب الصليبية، ومن تور تحول جنوبا مرة أخرى خلال أكيتان مارا بمدينتي سينت وبوردو إلى تولوز التي كانت مقر رئاسته في مايو (أيار) ويونيه (حزيران)، وأُتيحت له مناسبات عديدة لمناقشة الحرب الصليبية مع مضيِّفه الكونت ريموند، وفي وقت متأخر من يونيه (حزيـــران) ، انتقـــل إلـــى

---

(١) Robert the Monk, I, iv, p. 731; Guibert, II, v, p. 140 وعـــن تـــاريخ Adhemar السابق أنظر النصوص المجمعة في Chevalier, *Cartulaire de Saint-Chaffre*, pp. 13-14, 139, 161-3

بروفانس، ورافقه ريموند في رحلته إلى نيم.

إيربان يعود إلى إيطاليا

وفي شهر أغسطس (آب) عبر البابا جبال الألب مرة أخرى إلى لومبـــاردي، و لم تكن رحلته لقضاء عطلة; إذ أمضى الوقت كله في مقابلات مع رجال الكنيســـة، وفي كتابة الرسائل، ساعيا لإتمام تنظيم الكنيسة في فرنسا، وفوق كل ذلك واصل خططه من أجل الحملة الصليبية، وأرسل إلى كل أساقفة الغرب رسائل مجمعية بالقرارات الـــتي تم اتخاذها في كليرمونت. وفي بعض الحالات عقدت مجالس إقليمية لاستلام تلك الرسائل والنظر فيما يمكن عمله على المستوى المحلي، ومن المحتمل أن تكون القـــوى الدنيويـــة الرئيسية قد أخطرت هي الأخرى برغبات البابا (١). وفي نهاية ســـنة ١٠٩٥ ميلاديـــة كتب إيربان من ليموج إلى جميع المخلصين في فلاندرز مشـــيرًا إلى قـــرارات مؤتمـــر كليرمونت، وطالبًا مؤازرتهم،(٢) وكانت الاستجابة التي أتته من فلاندرز والأراضـــي المجاورة باعثة على الرضا الكامل. وفي يوليه (تموز) سنة ١٠٩٦ ميلادية تلقى وهـــو في نيم رسالة من الملك فيليب يعلن فيها خضوعه التام في مسألة الزنـــا الـــذي اقترفـــه ،

---

(١) Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, IX, 3, vol. III, p. 470;, *Inventaire*, p. 109 ويقتبس Riant, op. cit. p. 113 نصا كتب في القرن السادس عشر ، يرتكز على مستند ما ضائع فيما يبدو ، يخبر فيه البابا عوام اللوردات برغباته . وترد تحركاته بالتفصيل لدي Crozet في مؤلفه Le Voyage d'Urbain II' , in *Revue Historique*, vol. CLXXIX, pp. 271-310 ' .

(٢) يرد الخطاب في Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 136-7 وفـــي هـــذا الخطاب يحدد إيربان الخامس عشر من أغسطس تاريخا لرحيل الحملة الصليبية .

وربما أخبره كذلك بانضمام أخيه هيو أوف فرماندوا للحملة الصليبية.(١) وفي نفس الشهر برهن ريموند أوف تولوز على صدق نواياه بتنازله عن الكثير من ممتلكاته لدير سانت جيل.(٢) وربما بناء على نصيحة ريموند قرر إيربان الاستعانة بقوة بحرية للمحافظة على إمدادات الحملة; فذهب قاصدان رسوليان برسائل إلى جمهورية جنوا طلبا لتعاونها، ووافقت الجمهورية على تقديم اثني عشر قادسا(٣)، وكذا تقديم تسهيلات النقل، لكنها توخت الحذر وأرسلتها متأخرة إلى أن تيقنت من مدى جدية حركة الحرب الصليبية، ولم يبحر ذلك الأسطول من جنوا إلا في سنة ١٠٩٧ ميلادية، وفي نفس الوقت انضم كثيرون من أهل جنوا وأخذوا الصليب.(٤)

وعند عودة إيربان إلى إيطاليا تأكد من نجاح مخططه; فقد قوبلت نداءاته بطاعة وحماس، وأسرع الرجال من كل مكان بعيد كبعد إسكتلندا والدانمرك وإسبانيا إلى أخذ العهد، ورهن البعض ممتلكاتهم وأراضيهم للحصول على المال اللازم للرحلة، ووهب البعض كل ممتلكاتهم للكنيسة لتوقعهم عدم العودة مطلقا، وانضم عدد كبير من عظام النبلاء إلى الحملة الصليبية ليوفروا لها مساندة عسكرية هائلة; فبالإضافة إلى ريموند أوف تولوز، وهيو أوف فيرماندوا، كان روبرت الثاني) أوف فلاندرز)، وروبرت دوق نورماندي، وستيفن زوج أخته، وكونت بلوا، يعدون العدة للانطلاق، والملفت للنظر على نحو أكبر انضمام رجال يدينون بالولاء للإمبراطور هنري الرابع . وكانت الشخصية الرئيسية من بين هؤلاء هي جودفري أوف بويلون دوق

---

(١) Jaffé-Loewenfeld, *Regesta*, vol. 1, p. 688 لم يفي Philip بوعده بالتوبة .

(٢) Document given in d'Achéry, *Spicilegium*, 2nd ed. Vol. 1, p. 630 , and *Mansi*, *Concilia*, vol.xx, p.938.

(٣) *Caffaro*, *De Liberatione*, pp. 49-50

(٤) (المترجم) ، القادس : نوع من السفن القديمة التي تبحر بالشراع والمجاديف

اللورين الأسفل الذي أخذ الصليب مع أخويـــه إيوســـتاس ـــ كونـــت بولونيـــا ـــ وبالدوين. والتف حول هؤلاء القادة كثير من النبلاء الأقل مترلة، والقليل من رجـــال الكنيسة البارزين مثل أسقف بايو.(١)

ووجد إيربان في إيطاليا تحمسًا مماثلاً. ففي سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٩٦ ميلاديـــة كتب إلى مدينة بولونيا شاكرًا مواطنيها على حماسهم، وحذرهـــم مـــن الارتحـــال إلى الشرق دون الحصول على إذن من قساوستهم، كما لا ينبغي للمـــتزوجين حديثًـــا أن يرحلوا دون موافقة زوجاتهم. وفي تلك الأثناء وصلت أخبار الحملة إلى جنوب إيطاليا، فرحب بها كثير من النورمانديين ترحيبًا حارًا، فقد كانوا دائمًا متأهبين ليبدءوا مغامرة جديدة. وفي أول الأمر تمهّل الأمراء، ولكن بوهيموند إبن جيسكار وأمير تـــارانتو ـــ وقد أحبط أخوه روجر بورصا وعمّه روجر الصقليّ طموحاته في إيطاليا ـــ سرعان ما تحقق من الإمكانيات التي ستفتحها له الحرب الصليبية، فأخذ الصليب مع كثيرين من عائلته وأصدقائه، وجلب اشتراكهم في الحركة العديد من أكثر الجنود تمرسا وإقداما في أوروبا. وعندما عاد إيربان إلى روما في احتفالات أعياد الميلاد سنة ١٠٩٦ ميلاديـــة كان يشعر شعور اليقين بأن الحرب الصليبية قد شنت بالفعل. (٢)

وحقيقة الأمر أن إيربان أطلق العنان لحركة أضخم مما كان يتصور. وربما كـــان من الأفضل لو استجاب لندائه عدد أقل من عظماء اللوردات; فبرغم أن الحمية الدينية الأصلية كانت هي الدافع الأقوى بالنسبة لهم جميعا فيما عدا بوهيموند، فإن مشاريعهم الدنيويـــة، والخلافـــات الـــتي سادت بينهم سرعان ما خلقت صعابا تجاوزت سيطرة

---

(١) للإطلاع علي قوائم كاملة للصليبيين ، أنظر ما يلي ، الجزء الثالث ، الفصل الأول .

(٢) Urban II, *Letter to the Bolognese,* in Hagenmeyer, op. cit. pp. 137-8.

وعن النور مانديين أنظر ما سبق الصفحات ١١٠-١١٣ .

القاصد الرسولي البابوي تجاوزا بعيدا، كما كان أكثر عجزا أمام الصعوبات التي خلقها العوام البسطاء الذين أتوا من سائر أنحاء فرنسا وفلاندرز وأراضي نهر الراين الألمانية.

بطرس الناسك

وطلب البابا من أساقفته أن يبشروا بالحرب الصليبية. على أنّ التبشير الأبلغ أثرًا كان تبشير الرجال الأكثر فقرًا؛ فقد بشّر بالحرب الصليبية أتباع الكنيسة الإنجيلية مثل روبرت أوف آربرسيل، مؤسس دير رهبان وراهبات فونتيفرولت، بل كان الأكثر نجاحًا في التبشير راهب متجوّل يدعى بطرس. وكان بطرس رجلاً متقدمًا في السن، وُلد في ناحية ما قريبة من آميان، ويُحتمل أنه حاول الحج إلى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة، لكن الأتراك عاملوه معاملة سيئة وأجبروه على العودة. ويعرفه معاصروه على أنه بطرس الصغير (شتو) أو (كيوكيو) في لهجة بيكار، بيد أنه فيما بعد اشتُهر بكُنية "الناسك"، بسبب غطاء الرأس الذي اعتاد أن يرتديه، وهي الكنية التي اشتهر بها تاريخيًا. وكان رجلاً قصير القامة، أسمر اللون، له وجه طويل نحيل شديد الشبه ـــ على نحو يثير الذعر ـــ بالحمار الذي يركبه دائمًا، والذي يكاد أن يلقي نفس التبجيل الذي يلقاه راكبه، يمشي حافي القدمين، قذر الثياب، وقد حرّم على نفسه أكل الخبز واللحم، لكنه كان يأكل السمك ويشرب النبيذ. وبرغم مظهره الوضيع كانت له قوة تحرك الرجال، وكان هناك جوّ غريب من السلطان يحيط به، ويخبرنا جيبرت أوف نوجنت، الذي كان يعرفه معرفة شخصية: "ما من شيئ يقوله أو يفعله إلاّ ويبدو شيئًا شبه إلهي."!! (١)

---

(١) Guibert, I, vii, p. 142 وترد أكثر المناقشات اكتمالا عن أصل بطرس وسيرة حياته المبكرة في :

Hagenmeyer, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite*, trans. By Furcy Raynaud, pp. 17-63. Guibert describes him in II, viii, p. 142; Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, p. 477 ويحدد العدد بأنه ١٥٠٠٠ من التابعين الذين تبعوه

والأرجح أن بطرس لم يساعد في مؤتمر كليرمونت، لكنه كان يبشر بالفعل بالحرب الصليبية قبل انتهاء سنة ١٠٩٥ ميلادية. وبدأ جولته في بري، ثم تجول أثناء شهري فبراير (شباط) ومارس (آذار) في أنحاء أورليانز وتشامباني إلى اللورين، ومن هناك مر بمدينتي ميوس وآشين إلى كولونيا حيث أمضى عيد الفصح. وجمع حوله مجموعة من التلامذة وأرسلهم إلى المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، وكان من بينهم الفرنسيون: والتر سان - أفوار وريناك أوف بريز وجيوفري بوريل ،والتر أوف بريتول، وكذلك الألمانيان: أوريل وجوتشوك. وحيثما ذهب هو أو نوابه، ترك الرجال والنساء منازلهم وتبعوه، وعندما وصل إلى كولونيا كانت حاشيته تقدر بحوالي ١٥٠٠٠ شخص، وانضم إليه آخرون كثيرون في ألمانيا. (١)

ويعزى نجاحه غير العادي في التبشير إلى أسباب عديدة. إذ كانت حياة الفلاح في شمال غرب أوروبا حياة قاسية غير آمنة. وأثناء الغزوات البربرية وغارات أهل الشمال، لم تعد أراض كثيرة صالحة للزراعة، فقد تهدمت السدود وطغى البحر والأنهار على الحقول. ودائما ما كان اللوردات يعارضون قطع أشجار الغابات لأنهم يمارسون فيها رياضة الصيد، وكانت القرية التي لا تحميها قلعة أحد اللوردات هدفا لأن يسرقها أو يحرقها الخارجون على القانون أو الجنود المشتركون في الحرب الأهلية المحدودة. وسعت الكنيسة إلى حماية فقراء الفلاحين وإلى انشاء المدن المسورة bourgs(2) في الأراض يالخالية، إلاّ أنّ مساعيها لم تكن منتظمة وغير مجدية. وربما كان

---

(١) Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 127-51; Chalandon, *op. cit.* pp. 57-9.

(٢) (المترجم) ، البورج Bourg : واحدة من المدن المسورة التي نشأت في القرون الوسطي وضمت أصحاب الحرف المختلفة من غير الفلاحين . وقد أدي تطور هذه المدن فيما بعد إلي ظهور طبقة أصحاب الأعمال الذين عرفوا بـ (البرجوازيين) نسبة إلي (بورج) ؛ وقد آذن نمو هذه المدن بانهيار النظام الإقطاعي .

عظام للوردات يشجعون نمو المدن، وإن كان صغار البارونات يعارضونه. كما كـــان تملك الأرض في انهيار و لم يكن هناك نظام آخر يحل محله. وعلى الرغم من الاختفـــاء الفعلي لطبقة عبيد الأرض، كان الناس مرتبطين بالأرض بالتزامات لا سبيل إلى الهرب منها بسهولة، بينما عدد السكان يتزايد، وليس من الممكن تجزئة الحيازات في القرية إلا في حدود معينـــة. واستنادا لرواية روبرت الراهب، قال إيربان في كلـــيرمونت: "في هذه الأرض تستطيعـــون بالكاد إطعام السكان، وهذا هو السبب في أنكم تستنفدون نتاجها ثم تثيرون حروبا لا نهاية لها وتقتلون بعضكم البعض." وكانت السنوات الأخيرة تتصـــف بصعوبة خاصة; إذ شهد عام ١٠٩٤ ميلادية فيضانـــات وأوبئـــة، أعقبـــها جفـــاف ومجاعة، فكانت لحظة بدت فيها الهجرة شيئا جذابـــا للغايـــة، وفي إبريـــل (نيسان) سنة ١٠٩٥ ميلادية سقطت نيازك كثيرة، واعتبر ذلك نذيرا بحدوث تحركات كبيرة للشعوب. (١)

حماس "الرؤيا"

وإلى جانب الدوافع الاقتصادية، أضيفت التعاليم الرؤيوية، فقد كان العصـــر عصـــر الرؤى، وظن الناس أن بطرس شخص كثير الرؤى. وكان رجل العصـــور الوســـطى مقتنعا بأن المجيء الثاني للمسيح وشيك الوقوع، فينبغي له أن يتوب وفي الوقت متسع، كما ينبغي له أن يرحل ليفعل الخير، لاســـيما وأن الكنيســـة قـــد علمتـــه أن الحـــج يمحوالخطيئة، وأعلنت النبوءات ضرورة استعادة الأراضي المقدسة إلى حظـــيرة الإيمـــان قبل عودة المسيح مرة أخرى. وفضلا عن ذلك، لم يكن التفريق بين القدس و"القـــدس

---

(١) Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1094, p. 207; Sigebert of Gembloux, *Chronicon*, ad ann. 1095, p. 367; Robert the Monk, I, I, p. 728 وقـــد فســـر الأسقف Gislebert of Lisieux النيازك الكثيرة علي أنها تنبـــيء بتحركات ضخمـــة نحو الأماكن المقدسة ، وقد أورد ذلك Orderic Vitalis, ix, 4, vo. iii, pp. 461-2 .

الجديدة"(١) محددا تحديدا واضحا في أذهان الجهلاء، وقد اعتقد الكثير من سامعي بطرس أنه يعدهم بإخراجهم من تعاساتهم الحالية إلى الأرض التي تفيض لبنا وعسلا التي تحدثت عنها الأسفار المقدسة. إن الرحلة شاقة، وهناك الحشود المناهضة للمسيح التي ينبغي التغلب عليها أولا، لكن الهدف هو "القدس الذهبية." (٢)

ولا يعلم أحد الآن رأي البابا إيربان في بطرس ومدى نجاح تبشيره. ويوحي خطاب البابا إلى أهل بولونيا بأنه كان عصبيا بعض الشيء بسبب حماسهم غير المنضبط، لكنه لم يمنعه، من الانتشار في إيطاليا، أو لم يستطع منعه. وطوال صيف ١٠٩٦ ميلادية بدأ سيل مستمر من الحجاج يتدفق إلى الشرق دون قيادة أو أي شكل من أشكال التنظيم، ولا شك في أنه كان يأمل في وصول الحجاج وأتباع بطرس إلى القسطنطينية بسلام وأن ينتظروا هناك مجيء قاصده الرسولي والقادة العسكريين لتنظيم صفوفهم وتكوين الجيش المسيحي الكبير.

وأصر البابا إيربان على أن تجتمع الحملة في القسطنطينية، وهذا يظهر مدى ثقته البالغة في ترحيب الإمبراطور أليكسيوس بها; فقد طلبت بيزنطة جنودا من الغرب، وها هم الآن يلبون النداء، لا كمرتزقة من أفراد قلائل، وإنما كجيوش قوية كاملة. ولكن ثقته لم تتسم بالحنكة، فالحكومات ترحب في العادة بأن يكون لها حلفاء; ولكن حينما يرسل هؤلاء الحلفاء جيوشا كبيرة لا يمكن السيطرة عليها لتستقر في أراضي تلك

---

(١) (المترجم) ، القدس الجديدة : المدينة المقدسة في السماء : " وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها " (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢١:٢) .

(٢) الرؤيا الإنجيلية لـ Robert of Arbrissel (الذي يورد Baudri سيرة حياته في *Aa. Ss.* 23 February, vol. iii) تعتبر مطابقة لروح ذلك العصر .
كما أن Robert كان يبشر بالحملة الصليبية بناء علي طلب إيربان (*ibid*.p.695) .

الحكومات مع ما يتطلبه ذلك من إطعام وإيواء وتوفير كل أسباب الراحة، فـإن هـذا يشكك في جدوى تحالف من ذلك النوع. ومن ثم، ثارت مشاعر القلـق والتوجس عندما بلغت القسطنطينية أنباء التحرك الصليبي.

استعدادات الإمبراطور

في سنة ١٠٩٦ ميلادية أمضت بيزنطة، لبضعة أشهر نادرة من الراحة; فقد صد الإمبراطور لتوه غزوا قرميا في البلقان وكانت الهزيمة حاسمة بحيث لم يكن من المحتمل أن تفكر أية قبيلة من برابرة السهول في محاولة عبور الحدود. وفي آسيا الصغرى كـانت الإمبراطورية السلجوقية في بداية تفككها بسبب الحروب الأهلية الـتي نفثت فيـها الدبلوماسية البيزنطية. وكان أليكسيوس يأمل في سرعة المبادرة بالهجوم، لكنه شاء أن يختار الوقت الملائم له، وكان ما يزال في حاجة إلى متنفس يستطيع مـن خلالـه أن يصلح موارده المستنفدة. وكانت مشكلة نقص الجنود تؤرقه، فرغب في الحصول على مرتزقة من الغرب، ولا شك في أنه كان يعلق الآمال على نجاح سفرائه في إيطاليـا في تجنيد الجنود، والآن علم أنه بدلا من آحاد الفرسان أو المجموعات الصغيرة التي يريـد إلحاقها بجيشه، ها هي جيوش فرنجيه بكاملها تتحرك، فلم يسعده ذلك لعلمه من واقع التجربة أن الفرنج جنس مزعزع ذو شراهه للمال ولا ضمير له في حفظ العهد. ورغم تميزهم بجسارة الهجوم في الحرب إلا أنها ميزة تحيط بها الريب في مثل هذه الأحـوال، وجاء فيما كتبته الأميرة أنا كومنينا أن البلاط الإمبراطوري عرف بشيء من الخوف أن "الغرب كله وجميع القبائل البربرية من وراء البحر الأدرياتيكي وحتى عمودي هرقل(١) كانوا يتحركون في كيان واحد عبر أوروبا باتجاه آسيا مصطحبين معهـم عائـلات

---

(١) (المترجم) : عمودا هرقل : لسانان علي جانبي مضيق جبل طارق : أحدهما عند جبل طارق ، والثاني عند جبل موسي علي الشاطيء الإفريقي .

بكاملها". و لم يكن الإمبراطور وحده الذي ساوره القلق، إنما شعرت رعيته بـــالقلق كذلك. وحدث أن اكتسح الإمبراطورية أعداد غفيرة من الجراد التـــهمت الكـــروم وتركت الحبوب، فكان ذلك نذير شؤم وتحذير، وكانت السلطات البيزنطية حريصـــة على ألا يشيع اليأس بين الناس، فاستلهم المنجمون الشعبيون تلميحا من الســــلطات، وفسروا هجوم الجراد بأن الفرنجة لن يلحقوا أذى بالمسيحيين الطيبين الذين يرمز لهـــم بالحبوب التي هي مصدر خبز الحياة، لكنهم سيدمرون العرب وهم أناس لهم رغبـــات حسية يناسبها تماما رمز النبيذ، وكانت الأميرة أنا كومنينا متشككة بعض الشـــيء في هذا التفسير، لكن من المؤكد أن تشبيه الفرنجة بالجراد كان واضحا. (١)

وشرع الإمبراطور أليكسيوس في عمل ترتيباته بهدوء، فلابد من إطعـــام جيـــوش الفرنجة أثناء عبورها الإمبراطورية، ويتعين اتخاذ الاحتياطات اللازمة حـــتى لا ينـــهبوا الريف ويسلبوا المواطنين، فكدست المؤن في مخازن في كل مركز رئيسي من المراكز التي سيمرون بها، وخصصت قوة شرطيه لمقابلة كل فرقة حال وصولها داخل الإمبراطورية واصطحابها إلى القسطنطينية. وكان هناك طريقان كبيران يعبران شبه جزيرة البلقـــان: الطريق الشمالي الذي يعبر الحدود عند بلجراد ثم ينحرف إلى الجنوب الشرقي ليمـــر بمدن نيش، وصوفيا، وفليبوبوليس، وأدريانوبل، والطريق الآخر وهو طريق فياأجناتيـــا من ديرهاكيوم الذي يعبر أوكريدا، وايديســـافودينا إلى ثيســـالونيكا ويمتـــد ليعـــبر موسينوبوليس وسيليمبريا إلى العاصمة. ومنذ وقت الحج الألماني الكبير ســـنة ١٠٦٤ ميلاديـــة، نـــادرا ما كان مسافرو الغرب يستخدمون الطريق الأول; إذ تقلص عـــدد الحجاج، ومن حاول الرحلة كان يفضل الطريق البديل . وفضلا عـــن ذلـــك، كان

---

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, v, 4-7, vol. II, pp. 206-8 تمتدح أنا كومنينـــا بطرس لاستطاعته تنظيم الحملـــة الصليبية ، وربما كان ذلك لأن أول اتصال لها بالصليبيين كـــان مـــع غوغائيي بطرس الذي كانوا يمتدحونه هم أنفسهم .

أليكسيوس قد تلقى المعلومات المتعلقة بالصليبيين من إيطاليا، ولذا توقع أن تعبر جيوش الفرنجة البحر الأدرياتيكي وأن تستخدم طريق فياأجناتيا، فأرسل المؤن إلى ديرهاكيوم والمدن الداخلية على الطريق، وصدرت التعليمات إلى حاكم ديرهاكيوم - وهو جون - بأن يُظهر الود في ترحيبه بقادة الفرنجة، وأن يتوخى أن يكونوا هم وجيوشهم تحت مراقبة الشرطة العسكرية كومنينوس إبن أخي الإمبراطور طوال الوقت، وسيصل من القسطنطينية مبعوثون على مستوى عال لتحية كل قائد بدوره، وفي نفس الوقت أخذ أمير البحار نيكولاس مافروتاكالون أسطولاً صغيرًا إلى مياه الأدرياتيكي ليراقب السواحل ويعطي إشارة الإنذار باقتراب ناقلات الفرنجة.

وبقى الإمبراطور في القسطنطينية منتظرًا ما تأتي به الأخبار، ولّما كان يعلم أنّ البابا قد حدد يوم ١٥ أغسطس (آب) لمبارحة الحملة فإنه لم يتعجل ترتيباته. ولكن حضر رسول فجأة في نهاية مايو (أيار) سنة ١٠٩٦ ميلادية من الشمال حاملاً البريد بوصول أول جيش من جيوش الفرنجة من هنجاريا ودخوله الإمبراطورية عند بلجراد.

الباب الثالث :

الرحلة إلى الحرب

الفصل الأول:

حملة الشعب

حملـــة الشعـــب

"الرَّبّ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْأَرْضَ
الَّتِي كَلَّمَهُمْ عَنْهَا "

(سفر التَّثْنِيَة ٩ ــ ٢٨)

وصل بطرس الناسك مع أتباعه إلى كولونيا الألمانية يوم سبت النور ١٢ إبريـــــل (نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية (١) وهناك بدأت تتضح له الصعاب التي تزعج قائد حملة

---

(١) الرواية الوحيدة التفصيلية المتصلة برحلة بطرس وولتر المفلس هي التي أوردها Aibert of Aix وما يتصف به تأكيد صحة الأحداث كان ولا يزال موضـــع مساءلة شديدة (أنظر ما يلي المرفق الأول ص ٣٣٢) ؛ غير أنه يبدو واضحا تماما أنه استقي معلوماته من شاهد عيان ربما كان يدون ملاحظاتـــه أثنـــــاء الأحـــداث . وبعض أرقامه غير مقنعة ، وتظهر تصرفات بطرس التناقض في بعض الأحيان ؛ لكن المؤلف ربـــما كان يريد أن يظهره دائماً بمظهر الحسن بغض النظر عن تناقض التصرفات . ويقدم تاريخ *Chronicle of Zimmern* بعض المعلومات الإضافية ، وإن بـــدا أنه يخلط بين الحملات الصليبية في سنة ١٠٩٦ وسنة ١١٠١ وهناك إشارة عابرة في تاريخ باري *Chronicle of Bari* p 147 ، .وقد أورد . *Hagenmeyer op. cit.* pp. 151-241 دراسة تفصيلية للقصة كلها . وأنا أقبل بصورة أساسية ما توصل إليه .

تتألف من عوام الناس، فكان ذلك النسيج الكبير من المتحمسين يتألف من رجال من مناطق كثيرة ومن أنواع أكثر، أحضر البعض نساءهم، بل أحضر بعضهم حتى الأطفال. وكان أغلبهم من الفلاحين، كما كان من بينهم أبناء المدن، ومن بينهم شباب ينتمون إلى عائلات الفرسان، ومنهم قطاع طرق سابقون ومجرمون. وكانت الصلة الوحيدة التي تربطهم بعضهم ببعض هي حميّة معتقدهم، وقد تخلّوا جميعًا عن كل شيْء ليتبعوا بطرس، وأخذ منهم الشوق للاستمرار في طريقهم كل مأخذ. وفضلاً عن ذلك، كان لابد لهم أن يستمروا في الحركة كيّ يتوفر لهم الطعام; ففي أوروبا في العصور الوسطى كان هناك عدد ضئيل من المقاطعات ذات الفائض الغذائي الذي يكفي احتياجات مثل هذا الجمع الغفير لمدة طويلة، لكن كولونيا تقع في بقعة غنية ذات مواصلات نهرية جيدة، فأراد بطرس استغلال هذه التسهيلات ليتوقف فترة من الزمن يمارس فيها التبشير بين الألمان، وربما كان تواقا لاجتذاب بعض النبلاء المحليين إلى حملته الصليبية، وكان الفرسان في فرنسا وفلاندرز يفضلون الانضمام إلى جماعة تضم عظماء اللوردات، و لم يكن هناك لورد ألماني كبير ذاهب إلى الحرب الصليبية. ولقد نجح تبشيره; فمن بين الألمان الذين لبوا دعوته عديد من النبلاء الأقل شأنا بقيادة الكونت هيو أوف توبنغن والكونت هنري أوف شوارزنبورغ ووالتر أوف تيك، وأبناء كونت زيمرين الثلاثة.(١)

والتر (المفلس)

وكان الفرنسيون متعجلين، وقرر والتر (المفلس) ألا ينتظر في كولونيا وغادر مع آلاف قليلة من الرفاق عقب انتهاء عيد الفصح، وربما في ثلاثاء الفصح، وانطلق في

---

(١) عن اللوردات الألمان الذين رافقوا بطرس ، أنظر Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-60 خاصة ص١٦٠ الحاشية ٢،وصفحة ١٦٦ الحاشية ١ ويقول Ekkehard, *Hierosolymita*, pp.18-19 إن الحملة الصليبية لم يحدث لها تبشير رسمي باللغة الألمانية بسبب الصدع .

طريق هنجاريا وسار أعلى نهري الراين ونيكار ثم أسفل الدانوب فوصل إلى الحدود الهنجارية يوم ٨ مارس (آذار)، وهناك أرسل إلى الملك كولومان طالبا الإذن في عبور المملكة وراجيا الحصول على المساعدة في تزويد رجاله بالمؤن. وأجابه الملك كولومان بترحاب ودود. وعبر الجيش هنجاريا دون حادثة سيئة. وفي منتصف الشهر وصل مدينة سيملين على الحدود المقابلة، وعبر نهر ساف، ودخل الأراضي البيزنطية عند بلجراد.

وبوغت القائد العسكري في بلجراد، فلم تكن لديه أية تعليمات عن كيفية التعامل مع مثل هذا الغزو، فأرسل بريدا عاجلا إلى نيش حيث يقيم حاكم المقاطعة البلجارية نيتاس يخبره بوصول والتر، وكان هذا الحاكم رجلا حي الضمير، وليست له ميزة أخرى، كما لم تكن لديه تعليمات هو الآخر، فأرسل بدوره رسولا على وجه السرعة إلى القسطنطينية. وفي تلك الأثناء طلب والتر وهو في بلجراد طعاما لأتباعه، لكن الحصاد لم يكن قد جمع بعد، وليس لدى الحامية فائض تعطيه، فراح والتر وأتباعه ينهبون الريف، وقد وقعت حادثة سيئة في سيملين أشعلت ثورة غضبه، ذلك أن ستة عشر رجلا من رجاله لم يعبروا النهر مع رفاقهم وحاولوا أن ينهبوا السوق، فألقى الهنجاريون القبض عليهم وجردوهم من أسلحتهم، وعلقوا ملابسهم على أسوار مدينة سيملين من قبيل التحذير، وأرسلوهم عرايا إلى بلجراد. وعندما بدأ السلب والنهب حول بلجراد لجأ الحاكم إلى السلاح، وقتل العديد من رجال والتر، وحرق آخرون وهم أحياء في إحدى الكنائس.

واستطاع والتر ورفاقه أن يصلوا أخيرا إلى نيش حيث استقبله نيستاس استقبالا حسنا، وقدم لهم الطعام، واستبقاهم إلى أن يتلقى رد القسطنطينية. واضطر الإمبراطور إلى أن يسرع في ترتيباته بعد أن كان يظن أن الحملة الصليبية لن تبرح الغرب قبل عيد الصعود، وطلب من نيستاس أن يرسلهم مع الحرس، فواصل والتر وجيشه رحلتهم في

سلام، وفي وقت مبكر من يوليه (تموز) وصلوا إلى فيليبوبوليس، حيث مات عم والتر (والتر أوف بويسي) ، وفي حوالي منتصف الشهر وصلوا إلى القسطنطينية. (١)

ولابد أن نيستاس علم من والتر أن بطرس كان وراءه على مسافة غير بعيدة ومعه صحبة أكبر بكثير، فذهب إلى بلجراد لمقابلته، وأجرى اتصالا مع حاكم سيملين الهنجاري.

وغادر بطرس كولونيا في ٢٠ إبريل (نيسان)، وسحر الألمان من تبشيره بادئ الأمر، ولكن آلافًا كثيرة التحقت به بعد ذلك، وربما قارب عدد أتباعه عشرين ألفًا من الرجال والنساء. وأشعلت حميته حماس ألمان آخرين، فخططوا للحاق به فيما بعد تحت قيادة جوتشوك والكونت إميش أوف ليزنغن. واتخذ بطرس الطريق المعتاد أعلى نهري الراين ونيكار إلى الدانوب. وهناك قرر بعض أتباعه مواصلة الرحلة بالقوارب أسفل النهر، ولكن بطرس وجُلّ أتباعه ساروا في الطريق الذي يمضي جنوب بحيرة فيرتو ودخلوا هنجاريا عند أويدنبرج. وكان بطرس على ظهر حماره، والفرسان الألمان على خيولهم، بينما كانت المؤن التي معهم وصندوق النقود التي جمعها من أجل الرحلة على عربات مكتظه بالناس، على أن الكثرة الغالبة كانت ترتحل سيرا على الأقدام، وكانوا يقطعون خمسة وعشرين ميلا في اليوم إذا كانت الطرق جيدة.

واستقبل الملك كولومان رسل بطرس بنفس القدر من الترحاب الذي أظهره لوالتر، وحذرهم بأن العقاب سيترل بكل من يحاول السلب والنهب، وعبر الجيش هنجاريا بسلام في أواخر مايو (أيار) وأوائل يونيه (حزيران). وفي مكان ما، ربما بالقرب من كارلوفسي ، انضمت إليه الفصائل التي كانت مرتحلة بالنهر، ووصل

---

(١) ترد رحلة Walter في تاريخ Albert of Aix, I, 6, pp. 274-6 وبصورة أكثر إيجازا في Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, pp. 478-9

الجيش إلى سيملين في ٢٠ يونيه (حزيران).(١)

وهناك بدأت المتاعب. وما حدث في حقيقة الأمر يشوبه الغموض; فيبدو أن حاكم سيملين، وهو من أصل تركي غزي، شعر بالخطر من حجم الجيش، فاجتمع بنظيره عبر الحدود وحاولا تشديد لوائح الشرطة، مما أثار شكوك جيش بطرس، لاسيما وأنهم قد سمعوا شائعات عن معاناة رجال والتر، وخشوا أن يكون الحاكمان قد تآمرا ضدهم، وصدمتهم رؤية ملابس رجال والتر اللئام الستة عشر التي كانت معلقة على أسوار المدينة. وكان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرام لولا أن خلافا على بيع زوج من الأحذية أدى إلى شغب، انتهى بدوره إلى معركة تم الإعداد لها سلفا، ربما ضد رغبة بطرس، فقام رجال من أتباع بطرس يقودهم جيوفري بوريل بمهاجمة المدينة ونجحوا في اقتحام القلعة، وقتل في تلك المعركة أربعة آلاف من الهنجاريين وتم الاستيلاء على كم هائل من مخزونات المؤن. ثم انتابهم الذعر من انتقام الملك الهنجاري، فهرعوا على جناح السرعة ليعبروا نهر ساف.

وأخذوا كل الأخشاب التي استطاعوا جمعها من المنازل ليبنوا لأنفسهم أطوافا يعبرون عليها النهر، وحاول نيستاس الذي كان يراقب الأحداث بقلق من بلجراد أن يتحكم في عبور النهر ليجبرهم على استخدام مخاضة واحدة فقط، وكان جنوده يتألفون أساسا من المرتزقة البتشنج الذين يثق في طاعتهم العمياء لأوامره، فأرسلهم على نقالات مائية لمنع أي عبور إلا من المكان المناسب، لكنه تحقق من عدم كفاية جنوده للتعامل مع مثل هذا الحشد الهائل، فانسحب إلى نيش حيث موقع القيادة العليا

---

(١) Alebert of Aix, I, 7, p.276. Malavilla is certainly to be identified with Semlin (Hagenmeyer, op. *cit.* p. 169 n.1) Guibert, II, viii, pp. 142-3

يقول إن بطرس لقي مصاعب عند عبورة هنجاريا ويبدو أنه يخلط بينه وبين إيمش . Emich

العسكرية للمقاطعة، وعلى أثر رحيله هجر مواطنو بلجراد المدينة ولاذوا بالجبال.(١)

بطرس يدخل الإمبراطورية

وفي يوم ٢٦ يونيه (حزيران) شق جيش بطرس طريقه بصعوبة عبر نهر ساف. وحينما حاول لبتشنج تقييد عبورهم من معبر واحد هاجموهم، وغرقت عدة قوارب، وأُلقي القبض على راكبيها من الجنود وقتلوا. ودخل الجيش بلجراد وراح ينهبها بالجملة وأشعل فيها النيران، ثم سار سبعة أيام عبر الغابات ووصل إلى نيش في ٣ يوليه (تموز)، حيث أرسل بطرس على الفور إلى نيستاس طالبًا منه إمدادات الطعام.(٢)

وكان نيستاس قد أخبر القسطنطينية باقتراب بطرس، وكان ينتظر حضور المسئولين والحرس العسكري لمرافقة الغربيين إلى العاصمة، وكانت هناك حامية كبيرة

---

(١) Albert of Aix, I,7, 8, pp. 276-8 يجعل المؤرخ ألبرت من بطرس - الذي تظهر شخصيته في التواريخ الأخري بصورة مسالمة - شخصية متعطشة للإنتقام ،ربما لأن من أخبره - أي المؤرخ - كان يظن أن الشراسة تضفى علي بطرس مزيدا من الفضائل The recurrent number 7 , in connection with the Petcheneg frontier guards, is equally not to be taken literally ويخلط ألبرت بين نهري مورافا وساف .

(٢) Alebert of Aix,1, 9, 9.278. وأنا أتابع التواريخ التي أوردها Hagenmeyer .(*Achronology*, p. 30-1)

في نيش، زاد من قوتها بأن استجلب لهـــا عـــددًا إضافيًّـــا مـــن البتشنــج والمرتزقـــة الهنجاريين،(١) وربما لم يستطع توفير رحال لمصاحبة بطرس إلـــى أن يـــأتي الجنـــــود القادمـــون مـــن القسطنطينيـــة، ومـــن الناحيـــة الأخرى كان السماح لمثـــل هـــذا الحشد الغفير بالتريث طويلاً في نيش أمرًا غير عملي وخطيرًا في الوقت نفسه؛ ولذلـــك طلب نيستاس من بطرس أن يقدم رهائن إلى أن يتم جمع الطعـــام لرحالـــه علـــى أن يواصلوا المسيرة بعد ذلك بأسرع ما يمكن. وسار كل شيئ على ما يُرام في أول الأمر ،

---

(١) الحرس المرسل من القسطنطينية لمقابلة بطرس انضم إليه في صوفيا يوم ٩ أو ١٠ يوليو قاطعا مسافة تزيد كثيرا علي ٤٠٠ ميل وربما كان من الحرس الخيالة ومن ثم كان سفره أسرع ، فلا بد وأنه قد غادر العاصمة قبل أن يتمكن أي مبعوث-مرسل من نيش بعد وصول بطرس إليها يوم ٣ يوليو - من الوصول إلي البلاط الإمبراطوري واستناد لما أورده Jirecek في مؤلفـــه *Die Heerstrasse von Belgrad nach Cnostantinopel*, p. 9 كان التتار الذين يحملون البريـــد الإمـــبراطوري النمساوي في أوائل القرن التاسع عشر يستغرقون في المرحلة خمسة أيام ، منطلقين بأقصي سرعة علي ظهور الخيل وباستخدام الجياد البديلة . (المسافة تزيد في الواقع علي ٦٥٠ ميلا) وكانـــت الطـــرق فـــي العصر البيزنطي أفضل حالا منها في العصر العثماني وإن لم يكن تبديل الجياد منظما تنظيما جيدا ؛ وفي ذلك الوقت ربما كان المبعوث الخاص يستطيع أن يستغرق خمسة أوستة أيام ليقطع المسافة من نيش إلي القسطنطينية في ذلك الوقت . وترتيبا علي ذلك ، لا بد وأن Nicetas قد أرسل مبعوثا لإخطار العاصمة بمجيء بطرس قبـــل أن يعبـــر الحدود . ونحن نعرف Nicetas - الذي تطلق عليه المصادر الغربيـــة Nichita - من إحدي الوثائق المسجلة في Schlumberger, *Sigillographie de l'Empire Byzantin*, p. 239 ولا ينبغي الخلط بينه وبين Leo ، وهو دوق Paristrium ، الذي يذكره شالاندون خطأ فـــي Chalando, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, p. 167 n. 4

وتم تسليم جيوفري بوريل وولتر أوف بريتول كرهائن، وسمح السكان المحليون للصليبيين بالحصول على الإمدادات وكل ما يحتاجون إليه، ليس هذا وحسب، وإنما تبرع الكثير منهم بصدقات للحجاج الفقراء، بل طلب البعض الاشتراك في الحج.

وفي الصباح التالي شرع الصليبيون في مسيرتهم على الطريق الذاهب إلى صوفيا، وبينما كانوا يغادرون المدينة أشعل بعض الألمان العابثين النيران في بعض الطواحين على جانب النهر، وكانوا قد تشاجروا مع أحد المواطنين في الليلة البارحة، وما أن سمع نيستاس بذلك حتى وأرسل جنودا ليهاجموا حرس المؤخرة، ويأسروا بعضهم، وكان بطرس على حماره في المقدمة على مسافة ميل تقريبا و لم يعلم بشيء من كل هذا إلى أن أسرع رجل يدعى لامبرت من المؤخرة وأخبره بما حدث، فكر راجعا لمقابلة نيستاس ولترتيب فدية الرهائن، بيد أنه حدث أثناء محادثتهما أن انتشرت بين صفوف الجيش شائعات عن القتال والخيانة، فاستدارت جماعة من المتهورين وأغارت على حصون المدينة، فدفعتهم الحامية وشنت عليهم هجوما مضادا، وعندما ذهب بطرس لكبح جماح رجاله ومحاولة إعادة الاتصال بنيستاس، أصرت جماعة أخرى على تجديد الهجوم، مما اضطر نيستاس إلى إطلاق قواته كلها على الصليبيين، فهزمهم هزيمة نكراء وشتت شملهم. وقتل كثيرون، وأسر آخرون من الرجال والنساء والأطفال، وأنفقوا بقية أيامهم في الأسر في المناطق المجاورة. وفقد بطرس ضمن ما فقد خزانة أمواله، وهرب بطرس نفسه مع رينالد أوف بري ووالتر أوف بريتول وحوالي خمسمائة من رجاله بجانب أحد الجبال وقد ظنوا أنهم هم فقط الباقون على قيد الحياة، ولكن لحق بهم سبعة آلاف آخرون في الصباح التالي وأكملوا مسيرتهم على الطريق. ونفد منهم الطعام، فتوقفوا في مدينة بيلابالانكا المهجورة لجمع المحصول المحلي وهناك لحق بهم مشردون كثيرون آخرون، ولما عاودوا مسيرتهم اكتشفوا أنهم فقدوا ربع عددهم (١).

---

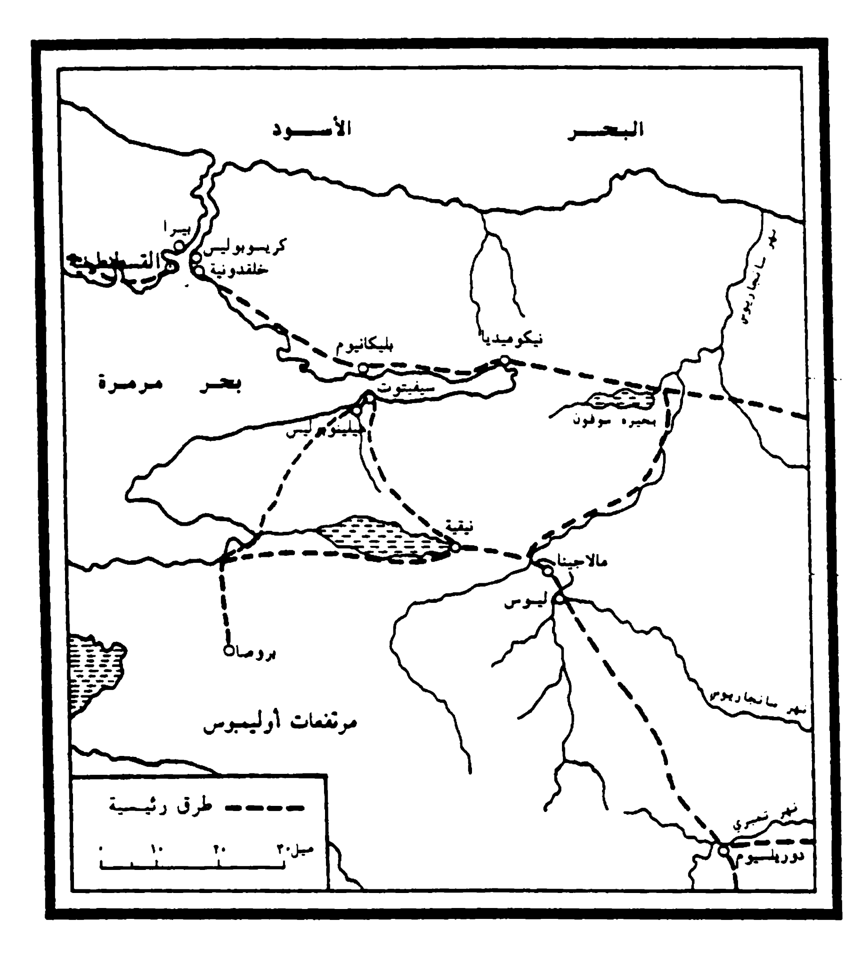
(١) . يذكر Albert of Aix, I, 9-12, pp. 278 أن الباقين كانوا ثلاثين ألفا من أصل أربعين ألفا .

وصول بطرس إلى القسطنطينية

وفي ١٢ يوليه (تموز) وصلوا إلى صوفيا حيث قابلوا المبعوثين والحرس القادمين من القسطنطينية لمرافقتهم، ومعهم تعليمات من الإمبراطور بتزويدهم بكامل ما يلزمهم والعمل على ألا يتأخروا مطلقا لأكثر من ثلاثة أيام في مكان واحد، ومنذ ذلك الحين ورحلتهم تسير سيرا يسيرا. وكان أبناء البلاد المحليون يستقبلونهم بمظاهر الود، وفي مدينة فيليبوبوليس تأثرت مشاعر اليونانيين تأثرا عميقا بأقاصيص معاناتهم حتى أنهم تبرعوا لهم بالمال والخيول والبغال. وقبل وصولهم إلى مدينة أدريانوبل بمسيرة يومين قابلهم مبعوثون آخرون حيوا بطرس برسالة كريمة من الإمبراطور، وتقرر أن يغفر للحملة ما ارتكبته من جرائم، إذ أنها عوقبت بالفعل بما فيه الكفاية، فبكى بطرس فرحا لذلك المعروف الذي أنعم به عليهم عاهل عظيم كهذا. (١)

---

(٢) *Ibid.* I, 13-15, pp. 282-3; Anna Comnena, *Alexiad,* x, v-vi, vol. II, p. 210



خريطة رقم (١) : ضواحي القسطنطينة ونيقية في وقت الحملة الصليبية الأولى

ولم يتوقف الاهتمام الطيب الذي يكنه الإمبراطور عند وصـــول الصليبيـــين إلى القسطنطينية في أول أغسطس (آب). وتملكه الفضول لرؤية قائد الحملـــة، فاســـتدعى بطرس لمقابلة حيث منح المال والنصح. وأدرك ألكسيوس بعينه الخبيرة، أن الحملـــة لم تكن بذات وزن، بل كان يخشى إن عبرت إلى آسيا أن يدمرها الترك على الفور، على أن الفوضى الضاربة بين أفراد الحملة دفعته إلى أن يعجل بمغادرتها القسطنطينية; فقـــد ارتكب الغربيون سرقات لا حصر لها، واقتحموا القصور والدور في الضواحي، بل أنهم سرقوا الرصاص من أسطح الكنائس. وبرغم أن دخولهم القســـطنطينية ذاتهـــا ســـاده الانضبـــاط الصارم، وعلى الرغم من السمـــــاح لمجموعـــة صغيـــرة فقـــط بعبـــور البوابـــات لمشاهدة المدينة، كان من المستحيل على الشرطة أن تحرس الضواحي كلها.

وبينما كان والتر المفلس ورحاله في القسطنطينية وصلت إلى هناك جماعات شتى من الحجاج الإيطاليين، وانضموا إلى حملة بطرس، وفي ٦ أغسطس (آب) نقلت قواته كلها عبر مضيق البوسفور. وساروا على الشاطئ الآسيوي ينهبون المنازل والكنـــائس دون أن يكبح شيء جماحهم بطول بحر مرمرة وحتى مدينة نيكوميديا الـــتي كـــانت مهجورة منذ أن هاجمها الأتراك قبل خمسة عشر عاما. وهناك نشب شجار بين الألمان والإيطاليين من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى; فقد شق الأولون عصا الطاعة على قيادة بطرس وانتخبوا قائدا لهم لوردا إيطاليا يدعى رينالد. ومن مدينة نيكوميديـــاتحول الجزءان المكونان للجيش باتجاه الغرب وبطول الساحل الجنوبي لخليج نيكوميديا إلى أن وصلا إلى معسكر حصين يطلق عليه اليونـــانيون ســـيبوتوس ويســـميه الصليبيـــون سيفيتـــوت ، وكـــان ألكسيـــوس قد جهزه لمرتزقته من الإنجليز الموجودين في جوار

هيلينوبوليس، وكان المكان ملائما لإقامة معسكر لخصب المنطقة ولإمكان إحضار الإمدادات من القسطنطينية بسهولة عن طريق البحر.(١)

غارات الصليبيين

وكان ألكسيوس قد حث بطرس على الانتظار وعدم محاولة الهجوم على الكفرة إلى أن تأتي الجيوش الصليبية الرئيسية، وتأثر بطرس بهذه النصيحة، لكن سلطته كانت تتضاءل، وبدلا من أن يستجمع الصليبيون قوتهم في هدوء، انقسموا إلى الألمان والإيطاليين برئاسة رينالد من جهة، وأبناء جلدته الفرنسيين، ويبدو أن جيوفري بوريل أصبح صاحب السيطرة الفعلية عليهم من جهة أخرى وراح الفريقان يتنافسان في الإغارة على المناطق الريفية، وبادروا بنهب المنطقة المجاورة مباشرة، ثم توغلوا بحذر في الأراضي التابعة للأتراك، يغيرون على القرى وينهبون القرويين الذين كانوا كلهم مسيحيين يونانيين. وفي منتصف سبتمبر (أيلول) تجاسر عدة آلاف من الفرنسيين بالتوغل حتى بوابات مدينة نيقية وهي عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان إبن سليمان، وخربوا القرى الواقعة في الجوار وحاصروا قطعان وأسراب الماشية واستولوا عليها، وعذبوا وقتلوا المواطنين المسيحيين في وحشية مفزعة، وقيل إنهم كانوا يشوون الأطفال على السفود، وأرسلت فصيلة تركية من المدينة لكنها انسحبت بعد قتال مرير.

---

(١) Albert of Aix , I, 15, pp. 283-4 ؛ ويرد في *Gesta Francorum, 1*,2,p.6 ذكر تصرفات الجيش الصاخبة ؛ Anna Comnena. *loc. cit.* Orderic Vitalis. ix. 5. vol. III, pp. 490-1 ويذكر المؤرخ " أوردريش فيتاليس " أن ألكسيوس أعد سيفيتوت Civetot لجنوده الإنجليز . أنظر Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 363-4 وعن التواريخ أنظر Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 32

ثم عاد الصليبيون إلى سيفيتوت حيث باعوا الأسلاب لرفاقهم وللبحارة اليونانيين الذين كانوا بجوار المعسكر. وثارت نوازع الغيرة لدى الألمان من تلك الغارة الفرنسية الغانمة، فانطلقت في أواخر سبتمبر (أيلول) حملة بقيادة رينالد قوامها ستة آلاف رجل تضم قساوسة بل وأساقفة، وحاوزوا نيقية ناهبين مخربين أينما ذهبوا، لكنهم كانوا أكثر شفقة من الفرنسيين فأبقوا على المسيحيين، إلى أن وصلوا إلى قلعة كسيريجوردون، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، ووجدوها مكدسة بالإمدادات من كل نوع، فقرروا أن يتخذوها قاعدة يغيرون منها على داخل البلاد. وما أن سمع السلطان بما اقترفه الصليبيون من فساد حتى أرسل قائدا عسكريا على مستوى عال على رأس قوة كبيرة لاستعادة القلعة التي كانت تقع على تل، وتحصل على إمدادات المياه من بئر خارج الأسوار مباشرة بالإضافة إلى ينبوع أسفل الوادي. وظهر الجيش التركي أمام القلعة في ٢٩ سبتمبر (أيلول)، وهو يوم عيد القديس ميخائيل، وهزم كمينا بقيادة رينالد واستولى على الينبوع وبئر الماء، وبذا أحكم الحصار على الألمان داخل القلعة، وسرعان ما أدى العطش إلى أن يدب اليأس في نفوسهم، وحاولوا امتصاص الرطوبة من الأرض، وقطعوا شرايين وأوردة خيولهم وحميرهم ليشربوا دماءها، بل وشربوا بول بعضهم البعض، وحاول قساوستهم عبثا تهدئتهم وتشجيعهم. وبعد ثمانية أيام من المعناة قرر رينالد الاستسلام، وفتح البوابات للأعداء بعد أن حصل على وعد بالإبقاء على حياته إذا ما تخلى عن المسيحية، وقتل كل من بقي على دينه. أما رينالد ومن ارتد معه فأرسلوا في الأسر إلى أنطاكية وحلب وبعيدا داخل خراسان.

كارثة في سيفيتوت

وفي أوائل أكتوبر (تشرين الأول) وصلت أنباء استيلاء الألمان على كسيريجوردون إلى المعسكر في سيفيتوت، وأعقبتها شائعة أطلقها اثنان من الجواسيس الأتراك بأنهم

استولوا على نيقية نفسها، وغاصوا في الأسلاب يغترفونها. وكما توقع الأتراك تسببت تلك الشائعة في نشوة صاخبة في المعسكر، وتصايح الجنود مطالبين السماح لهم بالإسراع في السير إلى نيقية، في طرق أعد فيها السلطان المكامن بعناية، ولقي قادتهم مشقة كبيرة في كبح جماحهم، إلى أن اكتشفت الحقيقة فجأة حول مصير حملة رينالد، فتحولت النشوة الصاخبة إلى ذعر، واجتمع رؤساء الجيش للتشاور فيما يمكن عمله بعد ذلك. وكان بطرس قد ذهب إلى القسطنطينية بعد أن انتهت سلطته على الجيش، وكان يأمل في إحيائها بالحصول على بعض المعونات العينية الهامة من الإمبراطور.

وتحرك البعض في الجيش مطالبين بالخروج للثأر من فاجعة كسيريجوردون، لكن والتر المفلس أقنع رفاقه بالتريث حتى عودة بطرس التي يحين موعدها في غضون ثمانية أيام. ومع ذلك لم يرجع بطرس، وفي تلك الأثناء جاءت الأنباء باقتراب قوة من الأتراك باتجاه سيفيتوت، فاجتمع مجلس الجيش مرة أخرى، وظل قادته من ذوي المسئولية الأكبر ـــ وهم والتر المفلس، ورينالد أوف بري، ووالتر أوف بريتول، وفولك أوف أورليانز، ومن الألمان هيو أوف توبنغن، ووالتر أوف تيك ـــ يقنعون الباقين بألا يفعلوا شيئا إلى أن يعود بطرس، لكن جيوفري بوريل ومن ورائه الرأي العام في الجيش، أصر على أنه من الجبن والحماقة عدم التقدم لملاقاة الأعداء، وتم له ما أراد. وفي فجر الحادي والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) انطلق جيش الصليبيين كله وقد تجاوز عدده عشرين ألف رجل، تاركا وراءه في سيفيتوت المسنين والنساء والأطفال والمرضى.

وعلى بعد ثلاثة أميال تقريبا من المعسكر، حيث يدخل طريق نيقية واديا ضيقا مليئا بالأشجار، وبالقرب من قرية دراكون، كان الأتراك يتربصون في مكامنهم. وسار الصليبيون بلا مبالاة يسبقهم صخبهم وقد تقدمهم الفرسان على ظهور خيولهم. وفجأة انهمر سيل السهام من الأشجار وقتل الخيول أو أعجزها، فراحت تكبو مضطربة وهي تقذف راكبيها من فوق ظهورها، وهنا هاجم الأتراك، وتعقبوا الفرسان الذين تقهقروا إلى صفوف المشاة. وحارب فرسان كثيرون بشجاعة، لكنهم لم يستطيعوا إيقاف الذعر

الذي أخذ من الجيش كل مأخذ، وفي دقائق قليلة كان الحشد كله يولـــي الأدبــار في فوضى عارمة إلى سيفيتوت. وفي المعسكر كانت الأعمال اليومية قد بدأت لتوها، فكان البعض من المسنين ما يزالون نائمين في الفراش، وهنا وهناك كان القساوسة يتـــهيأون لإقامة قداس مبكر، واندفعت إلى المعسكر جموع الفارين المذعورين والعدو في أعقابهم. ولم تكن هناك مقاومة حقيقية؛ إذ قتل الجنود والنساء والقساوسة قبل أن يجدوا وقتـــا ليتحركوا، وهرب البعض في الغابات المحيطة والبعض الآخر في البحر، ولكن القليـــل منهم هرب لفترة طويلة، ودافع البعض عن أنفسهم للحظات بإشعال النـــيران الـــتي دفعتها الرياح إلى أوجه الترك، ولم يبق الأتراك على أحد سوى الصبية والبنات حسني المظهر، مع قليل من الأسرى الذين أسروا بعد أن خبت جذوة القتـــال الأولى، وقـــد سيقوا كلهم إلى الرق. وكان هناك نحو ثلاثة آلاف أسعد حظا ممن سواهم تمكنوا من الوصول إلى قلعة قديمة مهجورة على البحر، وقد تفككت أبوابها ونوافذهـــا، وعلـــى عجل تولدت لديهم طاقة دفعها اليأس، فأقاموا تحصينـــات مـــن الأخشـــاب الملقـــاة ودعموها بالعظام واستطاعوا أن يصدوا هجمات الأعداء.

فشل حملة الشعب

وصمدت القلعة، على أنه في منتصف النهار كان كل شيء في الميدان قد انتـــهى فكانت الجثث تغطي الأرض من ممر دراكون إلى البحر، وكان من بين القتلـــى والـــتر المفلس، ورينالد أوف بري، وفولك أوف أورليانز، وهيو أوف توبنغن، ووالـــتر أوف تيك، وكونراد أوف زيمرن، وكثيرون من الفرسان الألمان. وكان القـــادة الوحيـــدون الذين بقوا على قيد الحياة جيوفري بوريل ـــ الذي كان تهوره ســـببا في الكارثـــة ـــ ووالتر أوف بريتول، ووليم أوف بويزي، وهنري أوف شوارزنبرج، وفريدريك أوف زيمرن، ورودولف أوف برانديس، وقد أصيبوا جميعا تقريبا بجروح خطيرة.

وحينما حلّ الظلام، تمكن يونانيّ كان مع الجيش من العثور على قارب أبحـــر بـــه إلى القسطنطينية لينقل أخبار المعركة إلى بطرس والإمبراطور. وليس لدينا شيْء مكتـــوب يصور مشاعر بطرس، لكن أليكسيوس أمر في الحال أن تبحر بعض السفن الحربية إلى سيفيتوت ومعها قوات قويّة. وعندما شاهد الأتراك الأسطول البيزنطي الصغير رفعـــوا الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل، ونُقـــل الأحيـــاء إلى الســـفن وأُعيـــدوا إلى القسطنطينية وخُصص لهم مكان إقامة في الضواحي، لكنهم جُردوا من أسلحتهم.(١)

وانتهت حملة الشعب التي راح ضحيتها ألوف كثيرة واستنفدت صبر الإمبراطور ورعيته، وبينت أنّ الإيمان وحده بلا حكمة ولا نظام لا يفتح الطريق إلى القدس.

---

(١) يورد Alert of Aix, 1, 16-22, pp. 284-9, and *Gesta Francorum*, I, 2, pp. 6-12 كلا التاريخين روايات عن الهجمـــات والكارثة النهائية لجيش بطرس ويقول صاحب تاريخ Gesta -الذي لابد وأن استقي روايته التاريخية من أحـــــد الباقين عـــلي قيد الحياة قابله في القسطنطينية - في كـــل مكان من روايته إن ألكسيوس كان عدائيا إزاء بطرس وأنه ابتهج للمذبحة التي حدثـــت لـــــرجاله ، رغم أنه يعود ويعترف بأنهـــم أساءوا التصرفوا وأحرقوا الكنائس أما رواية Albert فتظهر الإمتنـــــاع للإمبراطور لكرمه ولنصيحته الطيبـــة ولمبادرته بإنقاذ من بقوا علي قيد الحيـــاة وتورد المؤرخـــة Anna Comnena, X, vi, 1-6 رواية أقصر تشكو فيها من تصرفات الفرنج وتقول إن بطرس - الذي تفترض خطأ أنه كان مـــع الجيش - ألقي باللوم علي التصرفات الشريرة التي أتاها مـــن كانوا في الجيش ممن لم يطيعونه . ويورد تاريخ *Chronicle of Zimmern* قائمة بالألمان الذي قتلوا في سيفيتوت (p. 29).

الفصل الثانى:

الحملة الصليبية الألمانية

الحملـــة الصليبيـــة الألمانيـــة

"آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ, هَلْ أَنْتَ مُهْلِكٌ بَقِيَّةَ
إِسْرَائِيلَ كُلَّهَا"

(حِزْقِيَال ٩ ــ ٨)

لم يتوقف الحماس الصليبي في ألمانيا برحيل بطرس الناسك إلى الشرق; إذ تـــرك وراءه حواريه جوتشوك ليجمع جيشًا آخر, وبدأ مبشرون وقـــادة آخـــرون كثـــيرون يتأهبون ليحذوا حذوه, على أنه برغم أنّ الألمان لبّوا النداء بالألوف فقد كـــانوا أقـــل تلهفًا من الفرنسيين في الإسراع إلى الأرض المقدسة, فهناك ما يتعيّن إنجازه في الوطن.

كانت المستعمرات اليهودية قد أُنشئت لقرون مضت بطول الطرق التجارية في أوروبا الغربية, وكان قاطنوها من اليهود السفرديم (١) الذين انتشر أسلافهم من حوض البحر المتوسط على مدى العصور المظلمة, وحافظوا على الروابط مع أقرانهم في الدين في بيزنطة والأراضي العربية, الأمر الذي مكّنهم من أن يلعبوا دورًا كبيرًا في التجارة الدولية, لاسيّما التجارة بين البلدان الإسلامية والمسيحية. وأفسح لهم حظر الربا في البلدان المسيحية الغربية, ومراقبته مراقبة صارمة في بيزنطة, المجال لإنشاء بيوت لإقراض النقود في سائر أنحاء العالم المسيحي, كما مكّنتهم مهاراتهم الفنية وتقاليدهم المستقرة من أن يحتلوا مكان الصدارة في ممارسة الطب. ولم يعانوا مطلقًا من أيّ اضطهاد حقيقي في الغرب إلاّ في إسبانيا القوطية(٢) الغربية منذ أمد بعيد. ولم تكن لهم حقوق مدنية, ولكن السلطات ــ الدنيوية والدينية على السواء ــ كان يسرها أن تضفي حماية خاصة على من وراءه نفع من أمثالهم, ودائمًا ما كان ملوك فرنسا وألمانيا يصادقونهم, كما كان رؤساء الأساقفة في المدن الكبيرة في أراضي الراين يحابونهم محاباة خاصة, على عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت حاجتهم إلى المال بعد أن حلّ الاقتصاد النقدي محل اقتصاد الخدمات, فغرقوا في الديون أكثر فأكثر, وزاد استياؤهم من اليهود أكثر فأكثر, بينما رفع اليهود أسعار الفائدة عوضا عما يفتقدونه من الأمن القانوني , وكانوا كلما ساندهم الحكام المحليون يحققون أرباحًا فاحشة.

---

(١) (المترجم) يهود السفرديم : أو يهود الفرع الغربي الأوروبي الذين استوطنوا إسبانيا والبرتغال ، ثم اليونان وشرق البحر المتوسط وإنجلترا وهولندا والأمريكتين .

(٢) (المترجم) القوط Goth : شعب جرماني اجتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولي للميلاد . والقوط الغربيون Visigoth : فرع القوط الذي استقر في إسبانيا وفرنسا من القرن الخامس إلي القرن الثامن الميلادي .

الاستياء من اليهود

وطوال القرن الحادي عشر, وبازدياد طبقات المجتمع التي شرعت في الاقتراض من اليهود, تزايد مقت الشعب لهم. وزادهم بدايات الحركة الصليبية مقتًا على مقت; إذ كان استعداد الفارس للذهاب إلى الحرب الصليبية وتجهيز نفسه أمرًا يتطلب أموالاً كثيرة, فإن لم يكن لديه أراض أو ممتلكات, فلا مفر له من الاقتراض من اليهود. ولكن أمن الصواب, كي يخرج هذا الفارس ليحارب من أجل العالم المسيحي, أن يقع في براثن أبناء الجنس الذي صلب المسيح؟ إن الصليبي الفقير كان دائمًا مدينًا لليهود, فهل من الصواب أن يُعاق واجبه المسيحي بالتزامات نحو واحد من الجنس الذي يفتقر إلى التقوى؟ إن التبشير الإنجيلي بالحرب الصليبية يركز على القدس التي شهدت الصلب, وكان لابد من أن يجذب ذلك التبشير الانتباه إلى من عانى المسيح على أيديهم. والمسلمون هم العدو الآن لأنهم يضطهدون أتباع المسيح, ولكن المؤكد أنّ اليهود هم الأسوأ لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه.(١)

وقد سبق أن كان لدى الجيوش المسيحية إبّان الحروب الإسبانية بعض الميل إلى إساءة معاملة اليهود; ففي زمن الحملة إلى باباسترو كتب البابا ألكسندر الثاني إلى أساقفة إسبانيا يذكرهم بالفرق الشاسع بين المسلمين واليهود, فالمسلمون أعداء للمسيحيين لا يمكن التصالح معهم, بينما اليهود على استعداد للعمل من أجل المسيحيين. على أنّ اليهود في إسبانيا كانوا يحظون بما أضفاه عليهم المسلمون من معروف بحيث لا يستطيع الغزاة المسيحيون أن يولوهم ثقتهم.(٢)

في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٩٥ ميلادية راسلت الجماعات اليهودية في شمال فرنسا يهود ألمانيا يحذرونهم من أنّ الحركة الصليبية ربما تسبب المتاعب

---

(١) عن وضع اليهود في هذه الفترة أنظر Graetz, *Geschichte der Juden*, vol vi, pp, pp. 89 ff.

(٢) Letter in *M.P.L.* vol. clxvi, col. 1387.

لجنسهم.(١) ونقلت روايات عن مذبحة لليهود في روين(٢)، ويستبعد أن تكون هـــذه المذبحة قد حدثت في الواقع. بيد أن اليهود بلغوا من التوجس حدا يتيـــح لــــبطرس الناسك أن يحقق مأربا منهم، وألمح لهم، دون شك، أنه إذا سارت الأمور على غير ما يرجو فقد يجد صعوبة في السيطرة على أتباعه. وبذا حصل من اليهود الفرنسيين علـــى خطابات تقديم موجهة إلى المجتمعات اليهودية في سائر أنحـــاء أوروبـــا تدعوهـــم إلى الترحيب به، وتقديم كل الإمدادات التي قد يطلبها هو وجيشه.(٣)

وفي تلك الأثناء تقريبا بدأ دوق اللورين الأسفل جودفري أوف بويلون ترتيباتـــه للخروج في الحملة الصليبية. وسرت شائعة في أرجاء المقاطعة بأنه أقسم قبل رحيله أن يثأر لموت المسيح بدم اليهود؛ فقام اليهود الفزعين في أراضي الراين بحـــث حاخامـــهم الأكبر كالونيموس كي يكتب إلى الإمبراطور هنري الرابع ـــــ وهو السيد الإقطاعي الذي يتبعه جودفري، والذي دائما ما كان يظهر الود لجنسهم، ليدعوه إلى منع ذلـــك الاضطهاد. وفي ذات الوقت، ولكي تكون الجماعات اليهودية في ميـــتز وكولونيـــا في جانب الأمان، قدمت كل منها إلى الدوق مبلغ خمسمائة قطعة فضية . وكتب هنـــري إلى أتباعه الرئيسيين، من الدنيويين والكنسيين، يأمرهم بأن يضمنوا سلامة جميع اليهود في أراضيهم. ولما رأى جودفري أنه نجح بالفعل في ابتزازهم أجاب بأنـــه لم يفكـــر في الاضطهاد على الإطلاق، وأعطى الضمان المطلوب عن طيب خاطر. (٤)

---

(١) Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 11; Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. ii, p. 169

(٢) (المترجم) روين : مدينة وميناء شمال شرق فرنسا علي نهر السين .

(٣) Salomon bar Simeon, *Relation*, in Neubauer and Stern, *op. cit.* pp. 25, 131
The *Notitiae Duae Lemovicenses de praedicatione Crucis in Aquitania*, p.351
وفي هذا التاريخ الأخير إلماع بعبارات غامضة إلي مذابح حدثت في مختلف المدن الفرنسية .

(٤) .Salomon bar Simeon, p. 87; Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1098, p. 208

وإذا كان في مأمول اليهود إنقاذ أنفسهم من تهديدات الحمية المسيحية بمثل هذا الثمن البخس فسرعان ما يكتشفون أنهم قد خدعوا; ذلك أنه في نهاية إبريل (نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية انطلق المدعو فولكمار, الذي لا نعرف شيئا عن أصله, من أراضي الراين وبصحبته ما يزيد على عشرة آلاف رجل ليلحقوا ببطرس في الشرق. وسلك الطريق الذاهب إلى المجر عبر بوهيميا(١), وبعد ذلك بأيام قليلة رحل تلميذ بطرس القديم جوتشوك مع مجموعة أكبر قليلا عبر الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس أعلى نهر الراين وعبر بافاريا.(٢) وفي نفس الوقت قام لورد صغير في أراضي الراين هو الكونت إيمش أوف ليزنجن بجمع جيش ثالث, وكان قد اكتسب شهرة معينة تتصف بالفوضى وقطع الطرق. على أنه زعم أن الصليب قد طبع على لحمه بمعجزة. وفي ذات الوقت استطاع, وهو الجندي المعروف بحنكته, أن يجتذب إلى لوائه نوعية ضخمة وهائلة من المجندين ويتحكم فيها بشكل يفوق ما يستطيعه الواعظان فولكمار وجوتشوك, وانضم إليه حشد من الحجاج المتحمسين البسطاء, تتبع البعض منهم "أوزة" زعموا أن الوحي هبط عليها من الرب. لكن جيشه كان يضم كذلك بعضا من النبلاء الفرنسيين والألمان مثل لوردات زويبروكن, وسالم, وفيرننبرجر, وهاريمان أوف ديلينجن, ودوجو أوف نيسل, وكلارامبالد أوف فيندويل, وتوماس أوف لافير, ووليم فايكونت أوف ميلون الذي اكتسب لقب النجار بسبب قوته البدنية الهائلة.(٣)

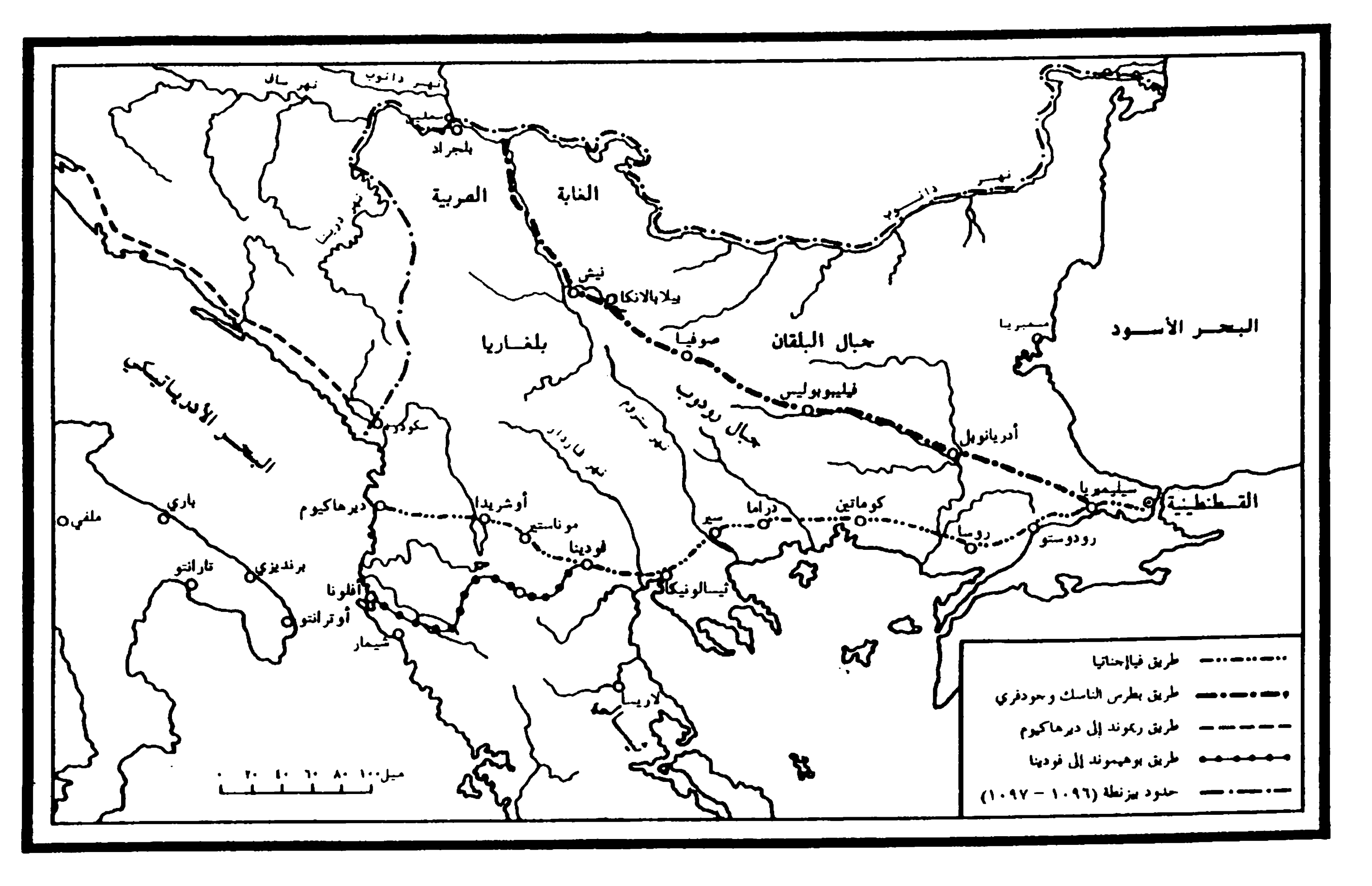
---

(١) Ekkehard, *Hierosolymita,* p. 20; Cosmas of Prague, *Chronicon,* III, 4, p. 103

(المترجم) : بوهيميا : تشيكوسلوفاكيا الحالية .

(٢) Albert of Aix, 1, 23, pp. 289-90; Ekkehard, *op. cit.* p. 20

(٣) Albert of Aix, 1, 27, 28, pp. 292-4, 30, p. 295, 31, p. 299; Ekkehard, *op. cit.* p. 20-1



خريطة رقم (٢) : شبه جزيرة البلقان في وقت الحملة الصليبية الأولى

المذابح الأولى

وربما كان صنيع بطرس والدوق جودفري هو الذي أوحى إلى إيميش بمدى سهولة استغلال الحميّة الدينية لتحقيق مصلحته الذاتية ومصلحة رفاقه, فتجاهل الأوامر الخاصة التي أصدرها الإمبراطور هنري, وحثّ اتباعه على الشروع في حملتهم الصليبية في الثالث من مايو (آيار) بهجوم على الأقلية اليهودية في ناحية سباير القريبة من مترله. ولم يكن هجومه مؤثرًا, فقد أسبغ أسقف سباير حمايته على اليهود الذين استأثروا بتعاطفه معهم بعد أن قدموا إليه هدية قيمة. ولم يقع في أسر الصليبيين سوى اثني عشر يهوديًا ذبحوا بعد رفضهم اعتناق المسيحية. وانتحرت واحدةٌ من اليهوديات لتحافظ على عفتها, وأنقذ الأسقف الباقين, بل واستطاع القبض على عدد من القتلة وقُطعت أيديهم جزاء ما فعلوا.(١)

وبرغم ضآلة مذبحة سباير إلاّ أنها فتحت الشهية; فقد وصل إيميش وجنوده إلى ورمز في الثامن عشر من مايو (أيار), وسرعان ما انتشرت شائعة بأن اليهود خطفوا مسيحيًا وأغرقوه واستخدموا الماء الذي حفظوا فيه جثته في تسميم آبار المدينة. ولم يكن اليهود محبوبين في ورمز ولا في المناطق الريفية المحيطة, وترتب على الشائعة أن انضم أبناء المدينة والفلاحون إلى رجال إيميش في هجومهم على حيّ اليهود, وقُتل كل من أُلقي القبض علية من اليهود. وكما حدث في سباير, تدخل الأسقف وفتح قصره ليلوذ به اليهود, على أنّ إيميش والجموع الغاضبة اقتحمت البوابات واندفعت إلى

---

(١) Salomon bar Simeon, Eliezerbar Nathan and Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Ncubauer and Stern, *op. cit.* vol. ii, pp. 84, 154-6, 171; Bernold, *Chronicon*, p. 465

الكنيسة حيث قتلوا ــ رغم اعتراضات الأسقف ــ كل ضيوفه البالغ عددهم نحو خمسمائة. (١)

مذابح في ميتز وكولونيا

وقعت مذبحة ورمز في العشرين من مايو (أيار), وفي الخامس والعشرين وصل إيميش أمام مدينة ميتز العظيمة, ووجد بواباتها مغلقة دونه بأوامر من رئيس الأساقفة روثارد, إلاّ أنّ أخبار مجيئة أثارت أعمال الشغب المناهضة لليهود داخل المدينة وقُتل أثناءها أحد المسيحيين. وهكذا فتح أصدقاء إيميش بوابات المدينة من الداخل في السادس والعشرين من مايو (أيار), وأرسل اليهود المتجمعين في معبدهم هدايا عبارة عن مائتي مارك فضي لرئيس الأساقفة ورئيس المدينة اللورد الدنيوي متوسلين أخذهم إلى قصريهما. وفي نفس الوقت ذهب مبعوث يهودي إلى إيميش وابتاع منه وعدًا بالإبقاء على حياتهم في مقابل سبعة جنيهات ذهبية. لكن النقود ذهبت هباء; فقد هاجم في اليوم التالي قصر رئس الأساقفة روثارد الذي أسرع بالفرار مع مساعديه كلهم بعد أن استشعر الخطر من حماس المهاجمين الذين اقتحموا المبنى فور رحيله, وحاول اليهود المقاومة لكنهم سرعان ما غلبوا وقتلوا. وربما كان حاميهم الدنيوي الذي اندثر اسمه أكثر شجاعة, ولكن إيميش نجح في إشعال النيران في قصره وأجبر نزلاءه على إخلائه, وأنقذ العديد من اليهود أرواحهم بالارتداد عن دينهم وقتل الباقون. واستمرت المذبحة ليومين آخرين, بينما كان يجري جمع الهاربين. وندم بعض المرتدين على ضعفهم فانتحروا, وقام أحدهم قبل أن يقتل نفسه وعائلته بحرق المعبد اليهودي ليدرأ عنه المزيد من التخريب, وهرب الحاخام الأكبر كالونيموس من المدينة ومعه نحو خمسين يهوديًا

---

(٢) Salmon bar Simeon, p. 84; Eliezer bar Nathan, pp. 155-6; Anonymous of Mainz-Darmstdt,p. 172

إلى مدينة روديشيم, وتوسلوا إلى رئيس الأساقفة ـ الذي كان في القصر الريفي الخاص به ـ أن يحميهم, ولمّا رأى رئيس الأساقفة الفزع باديًّا على زائريه بدا له أنّ اللحظة مواتية ليراودهم عن دينهم, وكان ذلك فوق ما يتحمله كالونيموس, فاختطف سكينًا وانقض على مضيِّفه, غير أنه حيل بينه وبين ذلك. ودفع هو ورفاقه أرواحهم ثمنًا للتهور. وبلغ عدد الذين قتلوا في ميتز نحو ألف من اليهود.(١)

وتقدم إيمش بعد ذلك باتجاه كولونيا التي حدثت فيها بالفعل أعمال شغب مناهضة لليهود في شهر إبريل (نيسان). وأصيب اليهود بالهلع لدى سماع أنباء ميتز, فتبعثروا في القرى المجاورة وفي منازل أصدقائهم من المسيحيين الذين أخفوهم يوم عيد العنصرة, أول يونية (حزيران), واليوم التالي له, أثناء وجود إيميش في الجوار. وقد أحرق المعبد اليهودي وقتل يهودي ويهودية رفضا الارتداد, ولكن نفوذ رئيس الأساقفة حال دون التمادي في الاضطهاد.(٢)

وفي كولونيا قرر إيميش أن مهمته في أراضي الراين قد اكتملت, فانطلق في أوائل يونية (حزيران) مع سواد قواته أعلى نهر مين إلى المجر. ولكن جماعة من أتباعه رأت أن وادي نهر موسيل ينبغي تطهيره هو الآخر من اليهود, وانفصلوا عن جيشه في مدينة ميتز وواصلوا السير إلى ترابر في أول يونيه (حزيران), حيث كان أغلب اليهود آمنين لائذين بقصر رئيس الأساقفة. وما أن اقترب الصليبيون حتى أصيب بعض اليهود بالذعر فشرعوا يتقاتلون فيما بينهم , بينما ألقى آخرون بأنفسهم في نهر موسيل

---

(١) Salomon bar Simeon, pp. 87-91; Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 178-80; Albert of Aix,1, 27, pp. 292-3 يحدد المؤرخ ألبرت أوف آيكس مذبحة ميتز بعد مذبحة كولونيا .

(٢) Salomon bar Simeon, pp. 116-17; *Martyrology of Nuremburg*, p. 109; Albert of Aix, 1, 26, p. 292

وغرقوا. ثم تحرك مضطهدوهم إلى ميتز حيث قضوا على اثنين وعشرين يهوديًا. ورجعوا إلى كولونيا في حوالي منتصف يونية (حزيران) آملين الانضمام إلى إيميش مرة أخرى, ولمّا وجدوه قد رحل تقدموا أسفل نهر الراين وراحوا يقتّلون اليهود في نيوس , ووفيلنجوفن, وإللار, وكسانتين في الفترة من الرابع والعشرين إلى السابع والعشرين من يونية (حزيران), ثم تفرقوا فرجع البعض إلى بيوتهم, وربما التحق آخرون بجيش جودفري أوف بويلون.(١)

ووصلت أنباء أعمال القتل المجيدة التي حققها إيميش إلى الجماعات التي كانت قد رحلت بالفعل من ألمانيا إلى الشرق. ووصل فولكمار وأتباعه إلى براغ في نهاية مايو (أيار). وفي الثلاثين من يونية (حزيران) بدأوا في تقتيل اليهود في المدينة, ولم تكن السلطات الدنيوية قادرة على السيطرة عليهم, كما لم يكن لاعتراضات الأسقف كوسماس العنيفة أيّ صدى. وسار فولكمار من براغ إلى داخل المجر, ويبدو أنه حاول في مدينة نيترا, وهي أول مدينة كبيرة عبر الحدود, أن يسير على نفس الدرب, لكن المجريين لم يسمحوا بمثل هذه التصرفات, ولمّا وجدوا الصليبيين على هذا النحو من المشاكسة التي تستعصي على الإصلاح هاجموهم وشتتوا شملهم, فقتل كثيرون ووقع آخرون في الأسر, ولم يُعرف مصير فولكمار والباقين على قيد الحياة.(٢)

وأما جوتشوك ورجاله, الذين اتخذوا الطريق الذي يمضي خلال بافاريا, فقد توقفوا في راتيسبوند ليذبحوا اليهود هناك. وبعد ذلك بأيام قليلة دخلوا المجر عند فيسلبورج (موسون) , وأصدر الملك كولومان أوامره بمنحهم تسهيلات لإعادة تموينهم طالما كانوا ملتزمين بالنظام. لكنهم كانوا قد بدءوا نهب البلاد منذ البداية, وراحوا

---

(١) salomon bar Simeon, pp. 117-37; Eliezer bar Nathan, pp. 160-3

(٢) Cosmas of Prague, *loc. cit.*

يسرقون النبيذ والغلال والأغنام والثيران, وقاوم الفلاحون المجريون هذا النهب. وحدث قتال وسقطت أعداد كثيرة, وقتل الصليبيون صبيًا مجريًا صغيرًا بالخازوق, فأرسل كولومان جنودًا للسيطرة عليهم, وأحاطوا بهم في قرية ستولفيزنبرج الواقعة إلى الشرق قليلاً, وأرغموهم على تسليم أسلحتهم والأمتعة التي سرقوها كلها. ولكن المتاعب استمرت, فربما حاولوا المقاومة, وربما سمع كولومان آنذاك بأحداث نيترا, ومن ثمّ لم يمكنه أن يثق بهم حتى وإن ألقوا سلاحهم. وانقض عليهم الجيش المجري وهم تحت رحمته وكان جوتشوك أول الهاربين ولكنه سرعان ما وقع في قبضتهم وقُتل وتم القضاء على جميع رجاله في المذبحة.(١)

نهاية حملة إيميش

وبعد تلك الأحداث بأسابيع قليلة, اقترب جيش إيميش من الحدود المجرية, وكان أعظم من جيش جوتشوك وأكثر هولاً, واستشعر الملك كولومان الخطر الجسيم بعد تجاربه تلك بالأمس القريب, ولذا رفض السماح بعبور إيميش خلال مملكته حينما طلب الإذن بذلك, وأرسل جنودًا لحماية الجسر الموصل إلى فيسيلبرج فوق رافد لنهر الدانوب. ولم يكن إيميش بالرجل الذي يحيد عن قصده وحارب المجريين على مدى ستة أسابيع في سلسلة من المناوشات الصغيرة أمام الجسر بينما كان يبني جسرًا بديلاً آخرًا, وفي نفس الوقت كان رجال إيميش ينهبون البلاد في ضفة النهر التي في حوزتهم. وأخيرًا تمكن الصليبيون من شق طريقهم عبر الجسر الذي بنوه, وحاصروا قلعة فيسيبرج ذاتها, وكان جيشهم جيد التجهيز, ولديهم من أسلحة الحصار القوية ما جعل سقوط المدينة يبدو وشيكًا. غير أنه يحتمل أن شائعة انتشرت بأن الملك قادم بكامل قواته,

---

(١) Ekkehard, *op. cit.* pp. 20-1; Albert of Aix, 1, 23-4, pp. 289-91

فأصاب الصليبيين ذعر مفاجئ تركهم في فوضى عارمة, وعلى الأثر خرجت الحامية وانقضت على معسكرهم, ولم يستطع إيميش أن يعيد تنظيم رجاله, ودارت معركة قصيرة اجتثت فيها شأفتهم تماما, وسقط أغلبهم في الميدان, واستطاع إيميش نفسه وقليل من الفرسان الهرب على خيلهم السريعة. وأخيرا عاد إيميش ورفاقه إلى بيوتهم.
أما الفرسان الفرنسيون كلارامبالد أوف فيندويل, وتوماس أوف لافير, ووليم النجار فقد التحقوا بحملات أخرى متجهة إلى فلسطين.(١)

وكان لانهيار حملة إيميش الصليبية, في أعقاب انهيار حملتي فولكمار وجوتشوك, اثر عميق في العالم المسيحي الغربي. وبدا الأمر للمسيحيين الطيبين على أنه عقاب نزل عليهم من السماء جزاء قتلهم اليهود. وأما الآخرون الذين كانوا يرون أن الحركة الصليبية كلها حمق وخطأ, فقد رأوا في هذه الكوارث استنكارا صريحا من الرب للحركة الصليبية كلها. ولم يحدث بعد أي شيء يبرر الصيحة التي ترددت أصداؤها في كليرمونت "الرب يشاؤها".(٢)

---

(١) Ekkehard, *op. cit. loc. cit.*; Albert of Aix, 1, 28-9, pp. 293-5

(٢) Albert of Aix, 1, 29, p. 259 ويقول Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 21 إن أناسا كثيرين ظنوا أن فكرة الحملة الصليبية فكرة حمقاء لا طائل من ورائها .

الفصل الثالث:

الأمـــراء والإمبراطـــور

الأمـــــراء والإمبراطـــور

"أَيكْثِــرُ التَّضَرُّعَاتِ إِلَيْكَ أَمْ يَتَكلَّمُ
مَعَــكَ باللِّــينِ، هَلْ يَقْطَعُ مَعْكَ
عَهْــداً"

(سفر أيوب: إصحاح ٤١، ٣ ــ ٤)

كان الأمراء الغربيون الذين أخذوا الصليب أكثر صبرًا من بطـــرس وأصدقائـــه. وكانوا على استعداد للالتزام بالجدول الزمني الذي وضعه البابا؛ إذ كان يجـــب تجميـــع جنـــودهم وتجهيزهـــم ، وينبغي جمع الأموال لهذا الغرض، وعليهم أن يضعوا الترتيبات

لإدارة الحكم في أراضيهم أثناء غيبتهم التي قد تطول لسنوات، ولم يكن أحد منهم على استعداد للرحيل قبل نهاية شهر أغسطس (آب).

وكان أول من غادر موطنه هو هيو، كونت فيرماندوا، المعروف باسم الأصغر. وهو الابن الأصغر للملك هنري الأول الفرنسي، وإبن الأميرة آن أوف كييف ذات الأصل الإسكندنافي، وقد جاوز عمره آنذاك الأربعين بقليل. ويتميز بالمنزلة الرفيعة أكثر مما يتميز بالثروة، وقد حصل على مقاطعته الصغيرة بزواجه من وريثتها، ولم يكن لـه أيّ دور بارز في السياسة الفرنسية، وكان فخوراً بنسبه، ولم يكن من ذوي القدرة على العمل الفعال. ولا نستطيع أن نستشف دوافعه للانضمام إلى الحملة الصليبية، ولا شكّ في أنه ورث قلق أسلافه الإسكندنافيين، وربما شعر أنّ باستطاعته في الشرق الحصول على القوة والثراء الخليقين بمنبته الرفيع. وربما شجعه أخوه الملك فيليب على اتخاذ قراره هذا لتفوز الأسرة بالحظوة لدي البابويّة. ولقد ترك أراضيه في رعاية الكونتيسة، وانطلق في أواخر أغسطس (آب) إلى إيطاليا على رأس جيش صغير من أتباعه وبعض الفرسان التابعين لأخيه. وقبل رحيله أرسل رسولاً خاصًّا يسبقه إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور أن يتهيأ لاستقباله بمظاهر الحفاوة التي تليق بأمير تجري في عروقه دماء ملكية. وفي طريقه إلى الجنوب انضمّ إليه دروجو أوف نيسل، وكلارامبالد أوف فندويل، ووليم النجار وغيرهم من الفرسان الفرنسيين العائدين من كارثة حملة إيميش.(١)

ومرّ هيو وصحبته بروما ، ووصلوا باري في أوائل أكتوبر (تشرين الأول) ، وفي

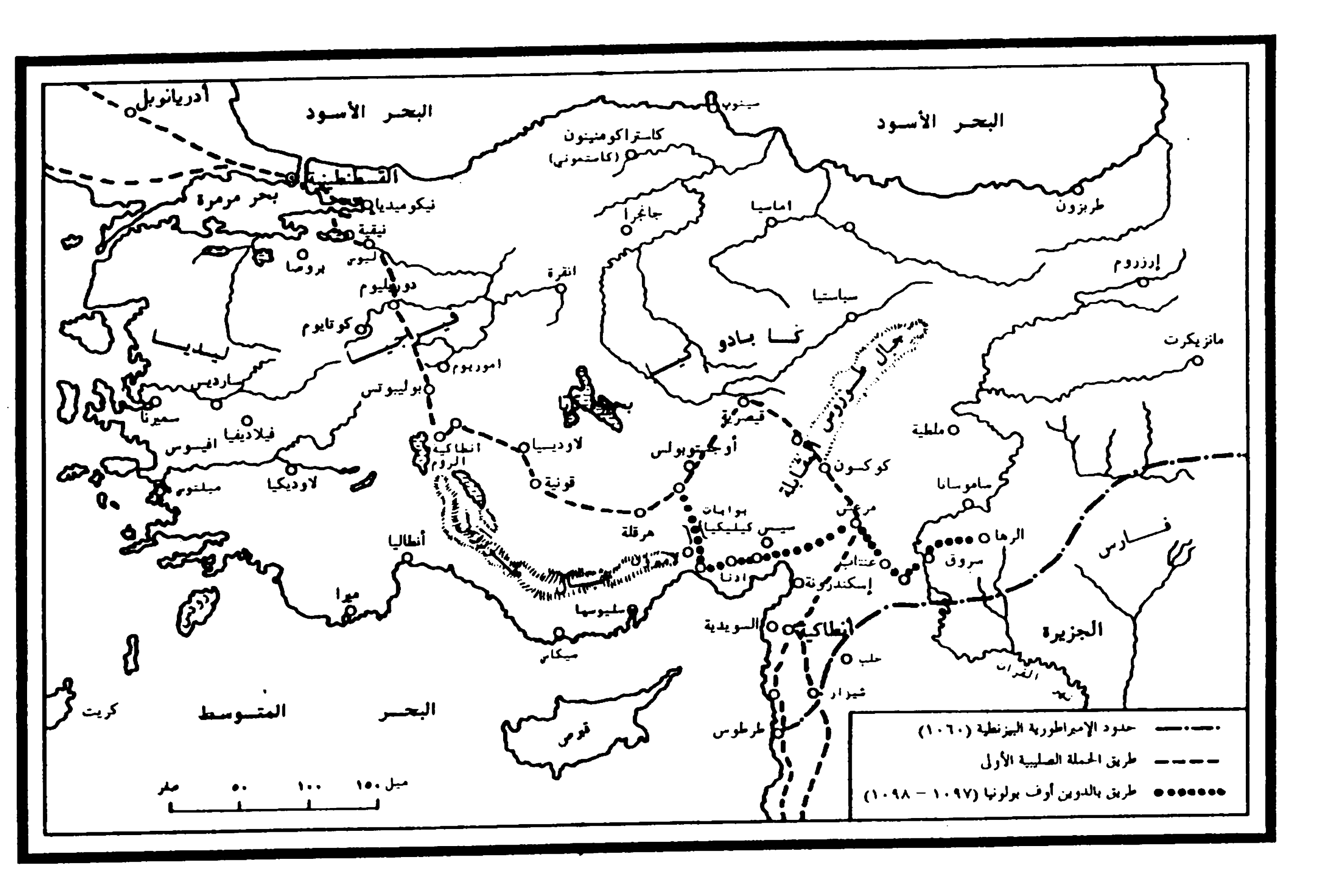
---

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, vii, II, p.213; *Gesta Francorum*, p.14; Fulcher of Chartres, p. 144-5 وتخبرنا أنا كومنينا أن كونتا يونانيا صاحب الحملة (x, vii, 3, p. 213) ، ويقـول ألبرت أوف آيكس إن Drogo and Carambald كانا معـه . وتطلق أنا كومنينا علي هيو Hugh إسم " أوفوس Uvos "

جنـــوب إيطاليا وحدوا الأمراء النورمانديين يستعدون للحرب الصليبية. وقرر وليم ــ إبن أخت بوهيموند ــ ألا ينتظر أقاربه وأن يعبر البحر مع هيو. ومن باري أرســـل هيو سفارة من أربعة وعشرين فارسا بقيادة وليم النجـــار إلي ديرهـــاكيوم لإخطـــار حاكمها بأنه على وشك الوصول، وأعاد طلبه بإعداد استقبال يليـــق بـــه، وهكـــذا استطاع الحاكم جون كومنينوس إخطار الإمبراطور بقدومـــه، واســـتعد هـــو نفســـه لاستقباله. بيد أن وصول هيو لم يحظ بالتكريم الذي منى نفسه به; إذ هبت عاصفـــة حطمت أسطوله الصغير الذي استأجره للعبور وغرقت بعض سفنه بجميـــع ركابهـــا، ولفظ اليم هيو على الشاطئ عند كاب بالي إلى الشمال من ديرهاكيوم بأميال قليلـــة حيث وجده مبعوثو الحاكم ذاهلا غطاه الوحل، ورافقوه إلى سيدهم الذي أعاد تجهيزه على الفور وأولم له وأحاطه بكامل الرعاية، لكنه وضعه تحت مراقبة دقيقة. واغتبـــط هيو لما وجده من رعاية وتملق، وإن بدا لبعض أتباعه وكأنه سجين. وبقـــى هيـــو في ديرهاكيوم إلى أن جاء من قبل الإمبراطور مسئول على مستوى عال هو أمير البحـــار متنويل بوتوماتيس لمصاحبته إلى القسطنطينية. وكانت رحلته مريحة رغم أنه اضطر إلى أن يسلك طريقا دائريا حول فيليبوبوليس; إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالحجاج الإيطاليين المتزاحمين على طريق فياإجناتيا. وفي رحلته مريحة رغم أنـــه اضطـــر إلى أن يسلك طريقا دائريا حول فيليبوبوليس; إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالحجـــاج الإيطاليين المتزاحمين على طريق فياإجناتيا. وفي القسطنطينية حياة ألكســـيوس بحـــرارة وأغرقه بالهدايا ، لكنه استمر في تقييد حريته . (١)

---

(١) Anna Comnena, x, vii, 2-5, vol. II, pp. 213-15 ، التي تعترف بأن جون كومنينوس لم يترك هيو في كامل حريته وقصتها كاملة ومقنعة . أما المصادر الغربية - *Gesta Francorum* و Fulcher و Albert - فتعلن أنه احتجز سجينـــا سجنا مطلقا لا حول له ولا قوة . ولا تـــدل تصرفاته اللاحقة علي ذلك .



خريطة رقم (٣) : آسيا الصغرى في وقت الحملة الصليبية الأولى

وعند وصول هيو اضطر ألكسيوس إلى الإعلان عن سياسته تجاه الأمراء الغربيين. فقد اقتنع من المعلومات التي توفرت لديه، وتذكره لمصير روسيل أوف بيلويل، أنه مهما تكن الأسباب الرسمية المعلنة للحرب الصليبية، فإنّ الهدف الحقيقي للفرنج هو أن يحصلوا على إمارات في الشرق. ولم يكن ليعترض على ذلك. ومادامت الإمبراطوريّة قد استردت جميع الأراضي التي كانت في حوزتها قبل الغزوات التركية، فهناك تفكير آنذاك في أن تكون تلك الدويلات مستقلة. ذلك أنّ ألكسيوس أراد التأكد من أنه سيكون من الواضح أنه السيد الأعلى لأيّة دويلة قد تنشأ. ولعلمه أنّ الولاء في الغرب يؤخذ بقسم غليظ، فقد قرر أن يطلب من جميع القادة الغربيين أن يقسموا هذا القسم كيّ يساندهم في غزواتهم المقبلة. ولكيّ يضمن التزامهم بالقسم كان على استعداد لأن يغمرهم بعطاياه وإعاناته مما يؤكد ثراءه ومجده فلا يشعرون انتقاصًا لكرامتهم إذا ما أصبحوا رجال الإمبراطور. وانبهر هيو بعظمة الإمبراطور وكرمه، فوافق على خططه عن طيب خاطر. على أنه لم يكن من اليسير إقناع من جاء بعده من الغرب بذلك.

جودفري أوف لورين

وأمّا جودفري أوف بويلون، دوق اللورين الأسفل، فيظهر في الأساطير المتأخرة على أنه الفارس المسيحي المثالي والبطل الفذّ في الملحمة الصليبية بكاملها. بيد أن الدراسة المدققة للتاريخ لابدّ لها من أن تعدّل هذا الحكم. وُلد جودفري سنة ١٠٦٠ ميلادية تقريبًا وهو الابن الثاني للكونت إيوستاس الثاني أوف بولونيا وإيدا، ابنه جودفري الثاني دوق اللورين الأسفل الذي ينحدر من ناحية أمه من شارلمان. واختير وريثًا لممتلكات عائلة أمه، ولكن بعد موت والدها صادر الإمبراطور هنري الرابع الدوقيّة، ولم يترك لـجودفري سوى كونتيه أنتويرب ولورديه بويلون في آردن(١).

---

(١) (المترجم) آردن (Ardennes): هضبة مشجرة شمال شرق فرنسا وجنوب بلجيكا ولوكسمبورج .

ومع ذلك كان جودفري مخلصا للإمبراطور في حملته الألمانية والإيطالية سنة ١٠٨٢ ميلادية ، حتى خلع عليه الإمبراطور الدوقيه ولكن كمنصب وليس كإقطاعية موروثة . وكانت اللورين غارقة في النفوذ الكلاني، ومن الجائز أن تكون التعاليم الكلونية بما فيها من تعاطف بابوي قوي، بدأت تسبب الاضطراب في ضمير جودفري، برغم إخلاصه للإمبراطور. و لم تكن إدارته للورين إدارة تتصف بالكفاءة، ويبدو أنه كانت هناك بعض الشكوك فيما إذا كان الإمبراطور هنري الرابع سوف يستمر في استخدامه. وهكذا، فإن تلبيته لنداء الحرب الصليبية تنبع من يأسه من مستقبله في اللورين من ناحية، ومن مشاعر القلق المتعلقة بإخلاصه الديني من ناحية أخرى، ومن حماسه الأصيل من ناحية ثالثة. وأعد ترتيباته إعدادا شاملا; فبعد أن جمع الأموال ابتزازا من اليهود باع ضياعه في روزاي وستيناي الواقعة على نهر ميوز(١)، ورهن قلعته في بويلون لدى أسقف ليج. وبذا تمكن من تجهيز جيش ضخم، فكان ذلك بالإضافة إلى منصبه الرفيع السابق يسبغان عليه هيبة زاد منها طبعه اللطيف ومظهره الوسيم، إذ كان طويل القامة، قوي البنية، أشقر اللون، أصفر شعر اللحية والرأس، أي الصورة المثالية للفارس الشمالي. ولكنه كان جنديا غير مكترث، وأما شخصيته فقد توارت في ظل شخصية أخيه الأصغر بالدوين.

وأخذ أخوه الصليب أيضًا. فأما الأكبر إيوستاس الثالث كونت بولونيا، فكان صليبيًّا غير متحمّس، في شوق دائم إلى العودة إلى أراضيه الخصبة على جانبي القنال الإنجليزي، وكان عدد الجنود الذين قدمهم يقل بكثير عما أسهم به جودفري، واكتفى بأن يتطلع إلى جودفري على أنه القائد. ربما ارتحل بمفرده عبر إيطاليا. وأمّا الأخ الأصغر بالدوين الذي صاحب جودفري، فكان من نمط مختلف; إذ كان مُقدرًا له من قبل أن يصبح قسيسًا، ولذا لم يخصص له أيّ شيْء من ممتلكات الأسرة. وعلى الرغم

---

(١) (المترجم) ميوز Meuse: نهر يتدفق من شمال شرق فرنسا عبر بلجيكا وهولندا إلي بحر الشمال .

من أن تدريبه في المدرسة الكبرى في ريم أكسبه تذوقا للثقافة، فلم تكن طباعه طباع رجل الكنيسة. فعاد إلى الحياة الدنيوية ومن الواضح أنه التحق بالخدمة مع أخيه جودفري في اللورين. وكان الأخوان يشكلان تناقضا مذهلا; فكان بالدوين أطول من جودفري، وكان شعره داكنا بقدر ما كان شعر أخيه أشقرا، ولكن جلده أبيض شديد البياض، وبينما نجد جودفري كريم الطبع كان بالدوين متعاليا باردا، وكانت ميول جودفري تتصف بالبساطة على عكس بالدوين الذي يحب الأبهة والترف برغم إمكانه تحمل المشاق الهائلة. وكانت حياة جودفري الخاصة هي حياة العفة، أما بالدوين فكان يطلق لنفسه العنان لتنغمس في الملذات الجنسية. ورحب بالدوين بالحرب الصليبية باغتباط; فلم يكن له مستقبل في وطنه، أما في الشرق فربما يجد لنفسه مملكة. وعندما شرع في الرحلة إلى الشرق اصطحب معه زوجته النورماندية جودفير أوف توسني وأطفاله الصغار، فلم يكن ينوي العودة.

وانضم إلى جودفري وأخويه الكثير من الفرسان البارزين من أراضي والون ولوثارنج(١): فانضم إبن خالتهم بالدوين أوف ريثيل لورد لوبورج، وبالدوين الثاني كونت هينولت، ورينالد كونت تول، ووارنر أوف جراي، ودودو أوف كونز -

(١) (المترجم): والون ولو ثارنج : جنوب وجنوب شرق بلجيكا بالقرب من فرنسا .

ساربورج وبالدوين أوف ستافيلوت، وبطـــرس أوف ســـتيناي، والأخـــوان هـــنري وجيوفري أوف إيش.(١)

جودفري في المجـــر

و لم يشأ جودفري أن يسلك طريق إيطاليا الـــذي يســـلكه القـــادة الصليبيـــون الآخرون. ربما لأنه شعر ببعض الحرج من البابوية لما له من مواقف مساندة للإمبراطور، وبدلا من طريق إيطاليا قرر الذهاب عن طريق المجر، بحيث يسلك الطريق الذي سلكته "حملة الشعب"، ليس ذلك وحسب، وإنما أيضا ـــ وطبقا للأسطورة التي كانت تنتشر آنذاك في الغرب كله ـــ الطريق الذي سلكه جده شارلمان نفسه في طريق حجـــه إلى القدس. وغادر اللورين في نهاية أغسطس (آب)، وبعد مسيرة أسابيع قليلة أعلى نهـــر الراين وأسفل نهر الدانوب، وصل في بداية أكتوبر (تشرين الأول) إلى الحدود المجريـــة على نهر ليثا. ومن هناك أرسل سفارة يرأسها جودفري أوف إيش، الذي كانت لـــه تجارب سابقة في البلاط المجري، إلى الملك كولومان بطلب الإذن لعبور أراضيه.

---

(١) عن سيرة حياة Godfrey of Lorraine المبكرة ، أنظر : Breysig, 'Gottfried von Boullion vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift fur Geschichte* vol. xvii, pp. 169 ff. ويورد Albert of Aix, II, I, p. 229 قائمـــة برفاقه . ويـــرد وصـــف مظهـــره لـــدي William of Tyre (IX, 5, p. 371) and Baldwin's *ibid.* (X,2,pp. 401-2) وطبقا لما أورده المؤرخ Albert (ii, 21, p. 314) خرج Eustace of Boulogne مرتحلا مع جيش فرنسي شمالي ؛ لكن Fulcher، الذي ارتحل مـــع ذلك الجيش ولديـــه معلومـــات كاملة عنه لا يذكر حضوره . وربما كان أحد الفرسان الذين وصلوا بحرا إلي القسطنطينية بعد جودفري مباشرة .

لكن كولومان عانى مؤخرًا أشدّ المعاناة من الصليبيين بحيث لم يكن بوسعه الترحيب بغزو جديد، فاحتجز السفارة ثمانية أيام، ثم أعلن أنه سيلتقي مع جودفري في أويدنبرج. وجاء جودفري مع بعض فرسانه، ودعاه الملك لقضاء بضعة أيام في البلاط المجري. وتولد لدى كولومان من هذه الزيارة انطباع بالموافقة على مرور جيش جودفري عبر المجر شريطة أن يبقى بالدوين وزوجته وأولاده عنده كرهائن، بعد أن استنتج بفراسته أنه أخطرهم. وعندما عاد جودفري إلى جيشه رفض بالدوين أولاً تسليم نفسه، لكنه رضخ آخر الأمر. ودخل جودفري وجنوده المملكة عند أويدنبرج، ووعد كولومان أن يمدهم بالمؤن بأسعار معتدلة بينما أرسل جودفري المنادين في أنحاء جيشه معلنًا أنّ الموت سيكون جزاء من يقترف عملا من أعمال العنف. وبهذه الاحتياطات الأمنية سار الصليبيون بسلام خلال المجر وهم تحت المراقبة الدقيقة من الملك وجيشه طوال الطريق، وتخلفوا في مانجيلوز بالقرب من الحدود البيزنطية لإعادة تموينهم بالمؤن. وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) وصل جودفري إلي سيميلين، واقتاد جنده بنظام عبر نهر ساف إلى بلجراد، وما أن عبروا الحدود عاد الرهائن.

وكانت السلطات الإمبراطورية مهيأة للترحيب بالجيش، وربما علمت سلفًا بوصوله من المجريين. وكانت بلجراد ذاتها مهجورة منذ أن انتهبها بطرس قبل ذلك بخمسة أشهر. وأسرع البعض من حرس الحدود إلى نيش حيث يقيم الحاكم نيستاس ومعه الحرس في انتظار جودفري، وانطلق الحرس في الحال وقابلوه في الغابة الصربية الواقعة في منتصف الطريق بين نيش وبلجراد. وكانت الترتيبات قد اتخذت بالفعل لتموين الجيش. وهكذا تقدم الصليبيون عبر شبه جزيرة البلقان بلا مشاكل. وفي فيليبوبوليس علم الصليبيون بأنباء وصول هيو أوف فيرمندوا إلى القسطنطينية، وعن الهدايا الرائعة التي تَلقّاها هو ورفاقه. وكان لتلك الأنباء أعمق الأثر لدى بالدوين أوف هينولت وهنري أوف إيش حتى أنهما قررا الإسراع ليسبقا الجيش إلى العاصمة ليضمنا

نصيبهما من الهدايا قبل وصول رفاقهم، ولكن ترددت شائعة ـــ لا تخلو تماماً من الصحة ـــ بأن هيو محتجز كسجين مما سبب بعض القلق لجودفري.(١)

وصول جودفري إلى القسطنطينية

وفي الثاني عشر من ديسمبر (كانون الأول) توقف جيش جودفري في سيليمبريا على بحر مرمرة. وهناك انفرط عقد نظامه فجأة بعد أن ظل منضبطا تماما حتى تلك اللحظة. ولثمانية أيام أخذ الجنود يعيثون في الأرض فسادا، وأما سبب هذه الفوضى فليس معروفا رغم أن جودفري حاول تبريرها كعمل من أعمال الثأر لسجن هيو. وعلى الفور أرسل الإمبراطور ألكسيوس اثنين من الفرنسيين كانا في خدمته هما رادولف بيلدلو وروجر إبن داجوبرت للاحتجاج لدى جودفري وحثه على الاستمرار في مسيرته بسلام. ونجحا في مهمتهما ووصل جيش جودفري إلى القسطنطينية في الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون الأول)، وبناء على طلب الإمبراطور عسكر الجيش خارج المدينة أعلى مياه القرن الذهبي (٢).

واعتبرت الحكومة الإمبراطورية أن وصول جودفري على رأس جيش كبير جيد التجهيز يشكل معضلة عسيرة. فسياسة الإمبراطور تقضي بالتأكد من ولاء جودفري وإخراجه على وجه السرعة من العاصمة درءا للمخاطر، ومن المشكوك فيه ما إذا كان ألكسيوس قد ارتاب حقا في أن يكون لدى جودفري مطامع في القسطنطينية ، لكن

---

(١) يرد وصف رحلة جودفري وصفا كاملا في تاريخ Albert of Aix, II, 1-9, pp. 299-305 ويرد وصف قصير في تاريخ زيمرن The *Chronicle of Zimmern*, pp. 21-2 ولا ترد الرحلة الفعلية في أية مصادر يونانية .

(٢) (المترجم) : القرن الذهبي : جزء من اسطنبول يعتبر " اسطنبول الحديثة " ولا يزال يعتبر " حي الأجانب " كما كان منذ القرن العاشر .

ضواحي المدينة سبق وأن عانت الأمرين من أتباع بطرس الناسك المفسدين، ومن الخطورة أن تتعرض تلك الضواحي لجيش لا يقلّ فوضوية عن سابقه ويفوقه تسليحًا.

وكان على الإمبراطور أن يحصل أولاً على يمين الولاء من جودفري الذي ما أن استقر في معسكره حتى أرسل إليه الإمبراطور هيو أوف فرمندوا يدعوه لمقابلة الإمبراطور، وقد قبل هيو القيام بهذه المهمة وهو أبعد ما يكون عن الاستياء من معاملة الإمبراطور له.

ورفض جودفري دعوة الإمبراطور. لقد استعصت الأمور عليه. إذ شعر بالحيرة من موقف هيو، واتصل جنوده ببقايا قوات بطرس، الذين عزا أغلبهم الكارثة التي لحقت بهم مؤخرًا إلى الخيانة الإمبراطورية مما كان له أثر عليه. وقد سبق أن أقسم جودفري قسم ولاء شخصي للإمبراطور هنري الرابع باعتباره دوقًا للورين الأسفل، وربما ظنّ أنّ ذلك يحول دون القسم بالولاء للإمبراطور الشرقي الغريم، وفضلاً عن ذلك، فإنه لم يرغب في اتخاذ أية خطوة هامة قبل استشارة القادة الصليبيين الآخرين وهو يعلم أنهم على وشك الوصول، فرجع هيو إلى القصر دون أن يحمل معه ردًا لألكسيوس.

وغضب ألكسيوس. وبحركة تخلو من الحكمة أوقف الإمدادات التي سبق أن وعد جودفري بها حتى يمتثل. وبينما تردد جودفري في الإغارة على الضواحي شرع بالدوين على الفور في ذلك إلى أن وعد ألكسيوس برفع الحظر عن الإمدادات، ووافق جودفري على نقل معسكره إلى جنوب الرأس الذهبي عند بيرا حيث المأوى من رياح الشتاء أفضل وحيث تتمكن الشرطة الإمبراطورية من مراقبته عن كثب بشكل أكبر. ولبعض الوقت لم يتخذ أيّ من الجانبين أيّ إجراء آخر، وسمح الإمبراطور بتموين جنود الغرب بما يكفيهم من المؤن، وتمكن جودفري من جانبه من أن يحفظ النظام. وفي نهاية يناير (كانون الثاني) أعاد ألكسيوس دعوة جودفري، لكنه كان ما يزال غير راغب في الالتزام قبل أن يشترك معه قادة آخرون من الصليبيين ، فأرسل إبن عمه بالدوين أوف

لوبورج ومعه كونون أوف مونتيجو وكذلك جيوفري أوف إش إلى القصر ليسمعوا مقترحات الإمبراطور، ولكنه بعد عودتهم لم يرسل أيّ رد إلى الإمبراطور. ولم يكن ألكسيوس راغبًا في استثارة جودفري حتى لا يعاود تخريب الضواحي. وبعد أن استيقن من عزلة أهل اللورين عن العالم الخارجي انتظر آملا أن يفرغ صبر جودفري ويتفق معه.

معركة الأسبوع المقدس

وفي نهاية مارس (آذار) علم ألكسيوس باقتراب وصول جيوش صليبية أخرى إلى القسطنطينية، فلم يجد مَنْدُوحَة من تصعيد الموقف، وأمر بتقليل الإمدادات المرسلة إلى معسكر الصليبيين فبدأ بمنع إرسال الأعلاف لخيولهم، وباقتراب أسبوع الآلام منَع الأسماك، وأخيرًا منَع الخبز. ورد الصليبيون بشن غارات يومية على القرى المجاورة، واشتبكوا في نهاية الأمر مع جنود البتشنج الذين كانوا يقومون بدور رجال الشرطة في المنطقة. وانتقم بالدوين بأن نصب كمينًا للشرطة أسر فيه ستين رجلا وأعدم الكثير منهم، وأما جودفري فقد شجعه ذلك النجاح الضئيل وأحس بأنه ملتزم بالقتال فقرر أن ينقل معسكره وأن يهاجم المدينة نفسها. وبعد أن نهب بيوت بيرا، التي كان يقيم فيها رجاله، نهبًا كاملاً وأحرقها، قاد قواته عبر جسر يعلو القرن الذهبي وانتهى بهم إلى أسوار المدينة وبدأ يهاجم الحي الذي يقع فيه قصر بلاتشرني. ومن المشكوك فيه أنه كان يستهدف ما يجاوز الضغط على الإمبراطور، ولكن اليونانيين ظنوا أنه كان يهدف إلى الاستيلاء على الإمبراطورية.

وكان يوم الخميس من أسبوع الآلام الموافق للثاني من إبريل (نيسان)، ولم تكن القسطنطينية مهيأة لمثل هذا الهجوم، وقد بدت مظاهر الذعر في المدينة ولم يلطّف من حدتها سوى وجود الإمبراطور الذي كانت تصرفاته تدل على أنه غير عابئ بذلك

الهجوم. وإنّما صدم ألكسيوس صدمة عميقة لاضطراره إلى القتال في مثل هذا اليوم المقدس، فأمر جنوده بالقيام باستعراض عسكري خارج البوابات دون أن يشتبكوا مع العدو بينما أصدر تعليماته إلى الرماة على الأسوار بأن يرموا سهامهم فوق رءوس الصليبيين. و لم يشدد الصليبيون هجومهم وسرعان ما تراجعوا و لم يقتلوا سوى سبعة من البيزنطيين. وفي اليوم التالي خرج هيو أوف فرمندوا مرة أخرى ليعاتب جودفري الذي رد عليه بأن عيره بالعبودية التي اتسم بها قبوله أن يكون تابعًا للإمبراطور. وأرسل ألكسيوس بعد ذلك مبعوثين إلى المعسكر يقترحون أن تمضي قوات جودفري في طريقها إلى آسيا، حتى قبل أن يقسم جودفري القسم. لكن الصليبيين تقدموا لمهاجمة المبعوثين دون تريث وقبل أن ينصتوا لما جاءوا به. وعلى ذلك قرر ألكسيوس إنهاء الأمر، واندفع بقوات أكبر للتصدي للهجوم، و لم يكن الصليبيون أندادًا لجنود الإمبراطورية المتمرسين، فبعد قتال قصير استداروا مولين الأدبار، وتحقق جودفري من ضعفه بعد هزيمته، فرضخ للطلبين: قسم الولاء، ونتقال جيشه عبر البوسفور.

احتفال التكريم

وبعد ذلك بيومين على الأرجح، أيّ في يوم أحد الفصح، أُقيمت احتفالات حَلف اليمين، فأقسم جودفري وبالدوين ولورداهم الرئيسيون على الاعتراف بالإمبراطور سيدًا أعلى في جميع غزواهم، وعلى أن يسلموا إلى مسئولي الإمبراطور جميع الأراضي المستردة التي كانت تابعة للإمبراطور فيما سبق، ثم تسلموا هدايا وفيرة من الأموال، وبعد ذلك أولم لهم الإمبراطور وليمة أظهر فيها ضروب الحفاوة، وفور انتهاء الاحتفالات انتقل جودفري وجنوده في السفن إلى خلقدونية وواصلوا سيرهم إلى

مضرب خيام في بيليكانوم على الطريق إلى نيكوميديا.(١)

ولم يكن لدى ألكسيوس وقت يضيّعه، فقد وصل بالفعل إلى ضواحي المدينة جيش مخلّط يتكون على الأرجح من مختلف أتباع جودفري الذين فضلوا الارتحال عن طريق إيطاليا والأغلب أنهم كانوا تحت إمرة كونت تول، ووصلوا إلى بحر مرمرة بالقرب من سوثينيوم. وأظهروا نفس الشراسة التي أظهرها جنود جودفري، ورغبوا في انتظار بوهيموند والنورمانديين الآتين وراءهم، وفي ذات الوقت قرر الإمبراطور منعهم من اللحاق بجودفري، لكنه لم يستطع ضبط تحركاتهم إلاّ بعد شيْء من القتال. وبعدما عبر جودفري البوسفور بسلام نقلهم الإمبراطور بحرًا إلى العاصمة حيث انضموا إلى جماعات أخرى من الصليبيين كانت قد هامت على وجهها عبر البلقان. وكان على

---

(١) هناك روايتان عن سلوك جودفري في القسطنطينية تعتبران الأكثر اكتمالا وهما الواردتان في تاريخين: Anna Comnena, *Alexiad,* x, ix, 1 - 11, vol. II, pp. 220-6 and Aibert of Aix, II, 16, pp. 305-11. وكما أشار Chalandon, في تاريخه *Histoire de la première Croisade,* pp. 119-29 فإن رواية أنا كومنينا أكثر إقناعا بكثير من راوية ألبرت، وفي الإمكان قبولها على أنها رواية حقيقية، بخلاف مبالغتها في قوة جيش جودفري. وترى رواية أقصر يشوبها الكثير من التحامل في *Gesta Francorum,* 1,3, pp. 14-18 وموقع بيليكانوم Pelecanum الدقيق غير يقيني.ويحدده Leib في طبعته لأنا كومنينا (vol. II, p. 226 n. 2) بأنه Herek على بعد حوالي ستة عشر ميلا غرب نيكوميديا. ويقول Ramsay ضمنا في *Historical Geography of Asia Minor,* p. 185 إنه كان أقرب إلى Chalcedon ويتضح من أنا كومنينا (أنظر ما يلي ص ٢٢٦) أن الموقع كان قريبا من مكان العبور إلى سيفيتوت وأنه مصمم في ذلك المكان بصورة ملائمة لدوام الإتصال بالقسطنطينية. والمؤرخ الآخر الوحيد الذي ذكره John Contacuzenus يحدد مكانه شرقي داسيبيزا Dacibyza وهي جيبز الحديثة (vol. 1, pp. 342 ff)--

الإمبراطور أن يستعمل كل ما أوتى من لباقة إلى جانب الهدايا الكثيرة لإقناع قـــادهم بأن يقسموا قسم الولاء. وعندما رضخوا في نهاية الأمر زاد ألكسيوس من أهمية المناسبة بـــأن أحضر جودفري وبالدوين ليشهدا الاحتفال. واللوردات الغربيون أهـــل غـــل وتمرد، إذ جلس أحدهم على عرش الإمبراطور، فانتهره بالدوين بحدة وذكره بأنه أصبح لتوه من أتبـــاع الإمبراطور ، وطلب منه أن يراعي تقاليد البلاد، فتمتم الغربي حانقـــا أنه من الجلافة أن يجلس الإمبراطور بينما يقف الكثير من الضبـــاط المغـــاوير. وسمـــع ألكسيوس تلك الملاحظة، وبعد أن أمر بترجمتها طلب محادثة الفارس، وعندما بدأ ذلك

Gebze وتغـــادرالعبـــــارة Aegiali الواقعة في منتصف الطريق بين Gebze و Herek علي بعد حوالي ستة أميال من كل منهما . وبحسب رواية أنا كومنينا (XI, iii, 1, vol. III, p. 16) استقبـــل ألكسيوس الصليبيـــن في بيليكانوم بعد سقوط نيقيـــة ؛ غـــير أن ستيفـــن (أوف بلـــوا) يقـــول (Hagenmeyer, Die *Kreuzzugsbriefe*, p. 140) إن ألكسيوس كان علي جزيرة عندما قابله في تلك المناسبة . ويتضـــح أن Pelecanum ، أيا ما كان موقعها ، لم تكن جزيرة ، ولا يمكن أن تكون هي شبه جزيرة أجيالـــي egiali التي تعطيها أنا كومنينا إسمها الصحيح . ويعتبر الدليل الـــذي ساقه ستيفن فـــي هـــذه النقـــطة دليلا يعتمد عليه . ولذلك ، يرجح أن Pelecanum نفسهـــا كانـــت قريـــة مـــن Aegiali ، وأن ألكسيوس قد انتقل عائدا إلي إحدي الجزر المقابلة للساحل ، إما الجزيرة المواجهة لـــ تـــوزلا Tuzla (علي بعد اثني عشر ميلا غرب Aegiali) ، حيث لاتزال توجد بقايـــا كثيرة يرجـــع تاريخهـــا إلي العصر البيزنطي ، أو جزيرة القديسين بطرس وبولس المواجهة لـــ Pendik التي كانت منتجعـــا بيزنطيا شهيرا .

الفارس يفاخر ببسالته التي لا تقهر في المبارزة الفردية، نصحه ألكسيوس بلطف أن يبحث عن تكتيكات أخرى عندما يقاتل الأتراك.(١)

وتمثل هذه الحادثة نمط العلاقة بين الإمبراطور والفرنجة. و لم يكن ثمة بد من أن يتأثر الفرسان الأحلاف القادمون من الغرب بأبهة القصر ومراسمه التي تؤدى في عناية وسلاسة، وسجايا رجال البلاط المهذبة والهادئة، لكنهم تبرموا من ذلك كله، ودفعهم كبرياؤهم الجريح إلى الصخب والغلظة كالأطفال الأشقياء.

وبعدما أقسم الفرسان قسم الولاء نُقِلوا مع رحالهم عبر المضيق ليلحقوا بجيش جودفري على شاطئ آسيا. وهكذا تصرف الإمبراطور في الوقت المناسب تمامًا، إذ وصل بوهيموند أوف تارانتو إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان).

---

(١) Anna Comnena, x,x, 1-7, vol. II, pp. 226-30 وهي تطلق على قائد هذه المجموعة " الكونت راؤل Count Raoul " وهويته غير معروفة إذ لم يذكر في أي مكان آخر . ومن الحقيقة التي مفادها أن الإمبراطور ظن أنه من الأحدي أن يساعده جودفري في حفل أخذ القسم من هذه المجموعة ، أعتقد أنها كانت تتألف من رجال من أجزاء من اللورين وليس من فرنسا ، لتوليد الإنطباع لديهم بأن حضور هيو كان مناسبا بصورة أفضل . ونحن نعلم أن رينالد (أوف تول) جاء إلي الحملة الصليبية تحت رعاية جودفري . ويذكره ألبرت أوف آيكس علي أنه واحد من جماعة جودفري منذ البداية ؛ غير أنه ليس من الضروري أن يؤخذ دليله بحذافيره . و لم تكن أنا كومنينا متمرسة في معرفة الأسماء الفرنجية ، وكما في حالة ريموند الذي تطلق عليه "إيزانجيليس Isangeles" فإنها أحيانا تذكر الكونتات بألقابهم . علي أنها ذات خبرة سابقة بالإسم " راؤل Raoul " من سفير جيسكار الذي يدعي راؤل كذلك . ولذلك ، ربما التقطت عدسة ذاكرتها " Rainald de Toul " وأحالته إلي شكل مألوف لديها .

ولم يكن النورمانديون في جنوب إيطاليا قد أولوا بادئ الأمر اهتمامًا كبيرًا لتبشير إيربان بالحرب الصليبية. إذ تواصلت حروب أهلية متقطعة هناك منذ أن مات روبرت جيسكارد الذي كان قد طلق زوجته الأولى، أم بوهيموند، وترك دوقية أبوليا لابنه من زوجته الثانية سيجلجايتا وهو روجر بورصا. فثار بوهيموند على أخيه وتمكن من الاحتفاظ بدوقتي تارانتو وتيرا-دي-أوترانتو الواقعتين في كعب شبه الجزيرة الإيطالية قبل أن يتمكن عمهما روجر الصقلي من عقد هدنة مزعزعة بينهما، ولم يقبل بوهيموند بأية حال تلك الهدنة على أنها نهائية، واستمر خفية في مناوشة أخيه روجر بورصا. على أنه في صيف ١٠٩٦ ميلادية تكاتفت الأسرة كلها لمعاقبة مدينة أمالفي المتمردة، وكانت القرارات البابويّة المتعلقة بالحرب الصليبية قد أُعلنت بالفعل. كما كانت جماعات صغيرة من الإيطاليين الجنوبيين قد عبرت البحر إلى الشرق، ولكن بوهيموند لم يتحقق من أهمية الحركة إلاّ عندما وصلت إلى إيطاليا جيوش الصليبيين المتحمسين من فرنسا. وحينئذ أدرك أن بوسعه استغلال الحركة الصليبية لمصلحته، لاسيّما وأنّ عمه روجر الصقلي لم يكن ليسمح له البتة بضم دوقية أبوليا كلها. ولسوف يجني ثمارًا أفضل إذا ما وجد لنفسه مملكة في المشرق. وكان لحماس الصليبيين الفرنسيين أثره في الجنود النورمانديين أمام مدينة أمالفي. وشجعهم بوهيموند بأن أعلن أنه سيأخذ الصليب هو الآخر ودعا جميع المسيحيين الطيبين إلى الانضمام إليه. وأمام جيشه المحتشد خلع رداءه القرمزي ومزقه قطعًا صنع منها صلبانًا لضباطه، وأسرع أمراؤه التابعون له فحذوا حذوه ومعهم الكثير من أمراء أخيه وأمراء عمه الصقلي الذي تركوه شاكيًا من أن هذه الحركة قد سلبته جيشه.(١)

---

(١) *Gesta Francorum,* I, 4, pp. 18-20. See Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie*, vol. II, p. 302

مسيرة بوهيموند عبر البيندوس

وفي الحال انطلق وليم، إبن أخت بوهيموند، مع الصليبيين الفرنسيين ولكن بوهيموند نفسه كان في حاجة إلى بعض الوقت لتجهيز قواته. فترك أراضيه بضمانات في رعاية أخيه وجمع ما يكفي من أموال للإنفاق على كل من صحبه، وأبحرت الحملة من باري في أكتوبر (تشرين الأول). وكان مع بوهيموند تانكريد ابن أخته إما والمركيز أودو وهو الأخ الأكبر لوليم، وأبناء خؤلته ريتشارد (١) ورينولف أوف ساليرنو وابنه ريتشارد، وجيوفري كونت روسينيولو وإخوته، ومن بين نورمانديّي صقلية: روبرت أوف أنسا وهمفري أوف مونت سكابيروزو وألبريد أوف كاينانو والأسقف جيرارد أوف أريانو، بينما كان روبرت أوف سيردفال وبويل أوف تشارترز من بين النورمانديين القادمين من فرنسا الملتحقين بجيش بوهيموند، وكان جيشه أصغر من جيش جودفري لكنه كان جيد التجهيز والتدريب.(٢)

ونزلت الحملة على الشاطئ في إيبرس على نقاط متفرقة بطول الساحل بين ديرهاكيوم وألونا، ثم تجمعت مرة أخرى في قرية دروبولي الواقعة أعلى وادي نهر فيوسا. ولا شك في أن ترتيبات الترول إلى الشاطئ قد أجريت بعد التشاور مع السلطات البيزنطية في ديرهاكيوم والتي لم ترغب في إجهاد ما تعتمد عليه المدن الواقعة على طول طريق فياإجناتيا من موارد غذائية أكثر من ذلك. بيد أن الطريق الذي سلكه الجيش كان من اختيار بوهيموند على الأرجح؛ إذ أن حملاته التي قام بها قبل ذلك بخمسة عشر عاما أكسبته بعض الدراية بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من الطريق الرئيسي، وربما كان يأمل في تجنب مراقبة البيزنطيين حينما اتخذ طريقا أقل استخداما . ولم

---

(١) .Kown as Richard of the Principate

(٢) .Gesta Francorum, I, 4, p. 20

يكن بوسع جون كومنينوس الاستغناء عن أي من جنوده، ومن ثم بدأ بوهيموند في رحلته دون مصاحبة الشرطة البيزنطية. ويبدو أنه لم تكن هناك مشاعر سلبية، فقد تلقى النورمانديون إمدادات وفيرة في الوقت الذي شدد بوهيموند على جميع رجاله الامتناع عن النهب والفوضى لأنهم سيعبرون أراض مسيحية.

وبارتحال الجيش فوق ممرات البيندوس مباشرة وصل إلى كاستوريا الواقعة غرب مقدونيا قبل عيد الميلاد بزمن وجيز. وليس في الإمكان تتبع الطريق الذي سلكه، وبالقطع لم يكن طريقا سهلا، ولابد أن يكون أدى به إلى مرتفعات تزيد على أربعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. وفي كاستوريا سعى إلى توفير المؤن، لكن السكان كانوا عازفين عن الاستغناء عن أي شيء من مخازنهم الصغيرة لهؤلاء الزائرين الذين هبطوا عليهم فجأة، وقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا أعداءهم الألداء منذ بضع سنوات. وبالنظر إلى أن الكثير من دواب الحمل هلك فوق ممرات البيندوس، فقد استولى الجيش على حاجته من الماشية والخيل والحمير. وأمضى الجيش أعياد الميلاد في كاستوريا، ثم قاد بوهيموند رجاله شرقًا باتجاه نهر فاردار، وأثناء مسيرتهم توقفوا قليلاً وهاجموا قرية الهراطقة البوليين (١) القريبة من الطريق، وأشعلوا النار في المنازل وقاطنيها، وأخيرًا وصلوا إلى النهر في منتصف فبراير (شباط). وهكذا أمضوا سبعة

---

(١) الهراطقة البوليون : طائفة مسيحية تؤمن بالثنوية ، نشأت في أرمينيا في القرن السابع ، وأسمها مشتق من أسم بول أو بولس الذي مازال هناك خلاف علي شخصيته . ويقوم معتقدها علي وجود إله للشر وإله للخير : الأول خلق هذا العالم ويحكمه ، والثاني للحياة الآخرة . ومن ثم استنتجوا أن عيسى ليس إبن مريم حقيقة لأن إله الخير لا يمكن أن يصبح بشرا . وهم يبجلون إنجيل لوقا ورسائل القديس بولس وينكرون العهد القديم ورسائل القديس بطرس كما ينكرون الكنيسة القائمة بأسرارها وعباداتها وهرميتها .

أسابيع تقريبًا ليقطعوا مسافة تزيد قليلا على مائة ميل.(١)

وصول بوهيموند إلى القسطنطينية

وربما أدى الطريق الذي سلكه بوهيموند عبر إيديسا (فودينا) إلى فيا إحناتيا. ومن هذه النقطة صحبه حرس من جنود البتشنج ومعهم أوامر الإمبراطور المعتادة بمنع الإغارة والانتشار والعمل على ألاّ يبقى الصليبيون في مكان واحد لأكثر من ثلاثة أيام. وعبر القسم الرئيسي من الجيش نهر فاردار دون إبطاء، لكن كونت روزينيولو وإخوته تخلفوا على ضفة النهر الغربية ومعهم جماعة صغيرة. لذا هاجمهم البتشنج ليستحثوهم على المضي، وعندما سمع تانكريد بالمعركة عبر النهر راجعًا لإنقاذهم. وطارد البتشنج وأسر بعضهم وأحضرهم أمام بوهيموند الذي استجوبهم، وعندما عرف أنهم كانوا ينفذون الأوامر الإمبراطورية أطلق سراحهم على الفور؛ إذ كانت سياسته أن يحسن التصرف تجاه الإمبراطور.(٢)

ورغبة منه في أن تكون تصرفاته سليمة أرسل، عندما نزل إلى الشاطئ في إيبروس أول الأمر، سفراء سبقوه إلى الإمبراطور. وعندما كان جيشه مارًّا بأسوار ثيسالونيكا وهو في طريقه إلى سيريس قابله هؤلاء السفراء في طريق عودتهم من القسطنطينية، ومعهم مسئول إمبراطوري على مستوى عال سرعان ما أصبحت علاقته ببوهيموند علاقة ودودة . وقُدم الطعام للجيش بوفرة ، وإزاء ذلك وعد بوهيموند

---

(١) *Gesta Francorum*, I, 4, pp. 20-2 وربما اتخذ بوهيمند الطريق الذي يخترق الحدود الألبانية الحالية ، من خلال Premeti and Koritsa ثم اتبع منحنى شماليا قبل أن يعبر الحدود ثم هبط باتجاه الجنوب الشرقي إلى Castoria

(٢) *Ibid.* pp. 22-4

بعدم محاولة دخول آيّة مدينة في طريقه، ليس هذا وحسب وإنّما وافق على إعادة كل الدواب التي استولى عليها رجاله أثناء رحلتهم، وفي أكثر من مرة أظهر أتباعه الرغبة في الإغارة على البلاد لكنه منعهم منعًا صارمًا.

وفي أول إبريل (نيسان) وصل الجيش إلى روسا (وهي كيشان الحديثة) في ثريس. وهنا قرر بوهيموند أن يسرع الخطى إلى القسطنطينية ليعرف ما الذي يتفاوض عليه الإمبراطور مع القادة الغربيين الذين وصلوا إلى هناك بالفعل، فترك رجاله تحت إمرة تانكريد الذي أخذهم إلى وادٍ خصيب يبعد عن الطريق الرئيسي حيث أمضوا نهاية أسبوع الفصح. ووصل بوهيموند إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان) حيث نزل خارج الأسوار في دير القديسين كوسماس وداميان، وفي اليوم التالي سُمح له بالمثول بين يدي الإمبراطور.(١)

وبدا لألكسيوس أنّ بوهيموند هو أخطر الصليبيين جميعًا. فقد تعلم البيزنطيون من التجارب السابقة أنّ النورمانديين أعداء أشداء، طموحون، ماكرون، منعدمو الضمير. وقد سبق أن ظهر بوهيموند في حملات سابقة كقائد ذي كفاءة، وكان جنوده منظمين تنظيمًا جيدًا، ومجهزين تجهيزًا حسنًا، وملتزمين في تصرفاتهم، وقد استحوذ على ثقتهم الكاملة. وربما كان صاحب إستراتيجيّة، مفرط الثقة بنفسه، وإن لم يتصف بالحكمة دائمًا، على أنه كان دبلوماسيًّا حاذقًا قوي الحُجة وسياسيًّا بعيد النظر، ذا شخصية قوية التأثير؛ ذلك أنّ المؤرخة آنّا كومنينا(٢) التي عرفته وكرهته كراهية مريرة لم تملك إلاّ أن تعترف بجاذبيته، وكتبت بحرارة عن مظهره الخلاب ، إذ

---

(١) *Gesta Francorum*, II, 5, pp. 24-8 ويتأكد تاريخ وصول بوهيمند إلى القسطنطينية في تاريخ *Hagenmeyer, Chronologie de la Première Croisade*, p. 64

(٢) أنا كومنينا : مؤرخة بيزنطية عاصرت تلك الفترة ، وهي إبنه الإمبراطور " ألكسيوس كومنينوس" .

كان فاره الطول له هيئة الشباب رغم تخطيه الأربعين، عريض المنكبين، نحيل الخصر، ذا بشرة رائقة، وضّاح الوجنتين في تورد، وكان شعره أصفر وأقصر مما اعتاده فرسان الغرب، حليق اللحية. واحدودب في طفولته على نحو طفيف دون أن يفقد مسحة الصحة والقوة، وتقول أنّا كومنينا إنّ هناك شيئًا جافًّا في ملامحه وبعض الشرّ في ابتسامته، ولأنها ـــ كشأن اليونانيين منذ القدم ـــ تتأثر بالجمال البشريّ، لم تستطع أن تواري إعجابها به.(١)

واتخذ ألكسيوس الترتيبات لمقابلة بوهيموند بمفرده أولاً ليتسنى له اكتشاف موقفه. فلما وجده بالغ الود والاستعداد للمساعدة استقبل جودفري وبالدوين، اللذين كانا ما يزالان في القصر، ليشتركا في المناقشة. وكان السلوك االحسن لذي أبداه بوهيموند مفتعلاً؛ إذ كان يعرف أكثر من غيره من الصليبيين الآخرين أنّ بيزنطة لاتزال قوية جدًا وأنه لن يتحقق شيْء بغير مساعدتها، ولن تؤدي مناطحتها إلاّ إلى كارثة، ولكن حسن استغلالها كحليف يؤدي إلى تحقيق صالحه. وكان يود قيادة الحملة، ولكن البابا لم يخوله ذلك، ويبقى عليه أن يتصدى لمنافسة الأقطاب الصليبيين الآخرين، وإن استطاع الحصول على تكليف رسمي من الإمبراطور يصبح في وضع يمكّنه من إدارة العمليات، ويتأتى له أن يتحكم في تعامل الصليبيين مع الإمبراطور فيما بعد، وأن يكون المسئول الذي يتعين على الصليبيين تسليمه الأراضي المستردة للإمبراطورية، ويغدو المحور الذي يدور حوله التحالف المسيحي كله، ومن ثمّ أقسم قسم الولاء للإمبراطور بلا تردد، واقترح تعيينه في منصب الحاكم المحلي الشرقي، أيّ القائد العام لجميع القوات الإمبراطورية في آسيا.

وشعر ألكسيوس بالحرج من هذا الطلب، وارتاب في بوهيموند وخشي جانبه،

---

(١) أنظر Anna Comnena, *Alexiad*, XIII, x, 4-5, vol. III, pp. 122-4 للإطلاع على صورة شكل بوهيمند .

غير أنه كان حريصا على الاحتفاظ بحسن نواياه ، وقد سبق أن أولاه كرمه وتشريفه واستمر في إغوائه بالمال. بيد أنه راوغه في مطلبه قائلا إن اللحظة ليست مواتية بعد لمثل هذا التعيين. ولكن لا شك في أن بوهيموند سيناله بجهده وإخلاصه، وكان على بوهيموند أن يرضى بهذا الوعد المبهم الذي شجعه على الاستمرار في سياسة التعاون التي رسمها. وفي ذات الوقت وعد ألكسيوس بإرسال جنوده لمصاحبة الجيوش الصليبية لتسديد ما تتكبده من نفقات، ولتأمين إعادة تموينها واتصالاتها.(١)

واستدعي جيش بوهيموند بعد ذلك إلى القسطنطينية ونقل عبر البوسفور في السادس والعشرين من إبريل (نيسان) ليلحق بجيش جودفري الرابض في بيليكانوم. وأما تانكريد، الذي لم يستسغ سياسة خاله ولم يفهمها، فقد احتاز المدينة ليلا مع إبن خاله ريشارد أوف ساليرنو كي لا يضطر إلى أن يقسم قسم الولاء (٢)، وفي نفس اليوم وصل الكونت ريموند أوف تولوز إلى القسطنطينية واستقبله الإمبراطور.

---

(١) *Ibid.* xi, 1-7, vol. II, pp. 230-4 وكالمعتاد يورد تاريخ *Gesta Francorum*, II, 6, pp. 28-32 رواية معادية حداً للإمبراطور . والفقرة التي تذكر معاهدة سرية بين الإمبراطور وبوهيمند حول أنطاكية (autem ...preteriret p.30, II. 14-20, Fortissimo) عبارة عن حشر لاحق في النص ، تم بناء علي أوامر بوهيمند . أنظر Krey, A Neglected Passage in the *Gesta*, pp. 57-78 ، ويقول ألبرت أوف آيكس II, 18, p. 312 إن بوهيمند أقسم القسم علي مضض ويبدو أن ذلك غير صحيح .

(٢) *Gesta Francorum*, II, 7, pp. 32-4; Albert of Aix, II, 19, p. 313

ريموند أوف تولوز

كان ريموند الرابع ـــ كونت تولوز ـــ الذي يفضل كونتية سان جيل على غيرها من ممتلكاته، ولذلك كان يسمى عادة (كونت أوف سان جيل)، قد بلغ بالفعل سن النضج وربما كان يقارب عامه الستين. وكانت مقاطعته التي ورثها عن أسلافه واحدة من أغني المقاطعات الفرنسية، وقد ورث مؤخرًا ماركيزيته في إقليم بروفانس الفرنسي والتي لا تقل ثراء عن مقاطعته. وبزواجه من الأميرة ألفيرا أوف أراجون انتسب إلى البيوتات الملكية الإسبانية؛ كما اشترك في عدة حروب مقدسة ضد مسلمي إسبانيا. وكان هو الوحيد من بين النبلاء العظام الذي ناقشه البابا إيربان شخصيًّا في مخططه عن الحرب الصليبية، وكان أول من أعلن انضمامه لها، ومن ثمّ فلديه ما يبرر أهليته لقيادتها غير الدينية. ولكن البابا ـــ الذي كان حريصًا على أن تظل الحركة تحت السيطرة الروحانية ـــ لم يعترف أبدًا بمطلبه هذا، وربما كان ريموند يأمل في أن تتضح الحاجة إلى قائد دنيوي، هذا في الوقت الذي تدبر فيه أَمرَه كيّ يخرج إلى الشرق بصحبة الرئيس الروحاني أسقف لوبوي.

وأخذ ريموند الصليب في وقت انعقاد مؤتمر كليرمونت، في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٠٥٩ ميلادية، لكنه لم يتمكن من الانتهاء من استعداداته لمغادرة أراضيه إلاّ في أكتوبر (تشرين الأول) من العام التالي. وأخذ على نفسه عهدًا بأن يقضي بقية أيامه في الأراضي المقدسة، ويمكن أن يكون قد أخذ ذلك العهد مع تحفظ؛ فبينما ترك أراضيه الفرنسية لابنه غير الشرعي برتراند لإدارتها، كان حريصًا على ألاّ يتنازل عن حقوقه، وصحبته زوجته ووريثه الشرعي ألفونسو، وباع بعض أراضيه أو رهنها لتوفير المال اللازم لحملته، ولكن يبدو أنه اقتصد في تجهيزها على نحو ما. ومن الصعب تقييم شخصيته؛ ففي أفعاله ما يدل على الغرور والعناد وبعض الجشع، على أنّ سجاياه المهذبة أحدثت أثرها في البيزنطيين الذين وجدوه أكثر تحضرًا من زملائه، كما أذهلهم أن يجدوه شخصًا يُعتمد عليه ويتصف بالأمانة. وامتدحت آنّا كومنينا سمو طبيعته

وطهارة حياته كما تبين مما تلى من أحداث. واعتبره أديمار أوف لوبوي، الذي كان على خُلق رفيع صديقًا جديرًا بالصداقة.

وانضم إلى حملة ريموند الصليبية العديد من نبلاء جنوب فرنسا، من بينهم: رامبالد كونت أوف أورانج، وجاستون أوف بيارن، وجيرارد أوف روسيلون، ووليم ـ هيو أوف مونتيل وكل رجاله، وكانت الشخصية الكنسية الرئيسية بعد أديمار هي وليم أسقف أورانج.(١)

رحلة ريموند

وعبرت الحملة جبال الألب عن طريق كول دي جنيفر وارتحلت عبر شمال إيطاليا إلى رأس البحر الأدرياتيكي. وقرر ريموند عدم السفر بحرا وإنما سار بمحاذاة شاطئه الشرقي عبر إيستريا ودالماتيا وربما كان مدفوعا في ذلك بدوافع اقتصادية. ولم يكن ذلك بالقرار الحكيم؛ إذ كانت طرق دالماتيا غاية في السوء وسكانها غلاظ يفتقرون إلى الكياسة. وعبرت الحملة إيستريا دون وقوع حادثة، وتلى ذلك أربعون يوما من أيام الشتاء كافح فيها الجيش في دروب الماتيا الصخرية وهو في مناوشات مستمرة مع القبائل السلافية التي تعلقت بمؤخرته. وبقى ريموند نفسه مع حرس المؤخرة لحمايتها، وفي إحدى المرات لم يستطع إنقاذ رجاله إلا بإقامة حاجز على الطريق من

---

(١) عن سيرة حياة Raymond المبكرة ، أنظر Vaissète, *Histore de Languedoc*, vol. III, pp. 466-77 and Manteyer , *La Provence du Ier au XIIe Siècle*, pp. 303 ff . وترد أسماء أهم اللوردات الفرنسيين الجنوبيين الذين رافقوا الحملة الصليبية في قائمة مشوشة نوعا ما في تاريخ Albert of Aix, II, 22-3, pp. 315-16 وعن Adhemar وأسرته أنظر المراجع المذكورة فيما سبق في الصفحتين ١٩٢ و ١٩٣ .

الأسرى السلافيين الذين أسرهم ثم مزق أوصالهم في قسوة شنعاء. وقد بدأ الرحلة وهو مزود بالطعام الوفير، و لم يهلك أحد من رجاله في الرحلة بسبب الجـوع أو القتـال. وعندما وصلوا أخيرًا إلى سكودورا بدأ تموينهم يتناقص، وتمكن مـن مقابلـة الأمـير الصربي المحلي بودين الذي وافق، بعد أن حصل على هدايـا ثمينـة، علـى السـماح للصليبيين بحرية الشراء من أسواق المدينة، على أنه لم يكن هناك طعام متاح، فـاضطر الجيش إلى مواصلة مسيرته وهو في حالة من الجوع والبؤس تتزايد يومًا بعد يوم حـتى وصل إلى الحدود الإمبراطورية شمال ديرهاكيوم في وقت مبكر من شهر فبراير (شباط). وعند ئذ ودّ ريموند وأدبمار أن تكون متاعبهما قد وصلت إلى نهايتها.

ورحب جون كومنينوس بالصليبيين في ديرهاكيوم حيث كان مبعوثو الإمبراطور وحرس البتشنج في انتظارهم لمصاحبتهم عبر طريق فياإجناتيا، وأرسل ريمونـد سـفارة سبقته إلى القسطنطينية للإعلان عن وصوله. وبعد أيام قليلة من الراحة في ديرهاكيوم انطلق الجيش مرة أخرى، وتخلف شقيق أدبمار ـــ لورد أوف بيران إلى أن يشفى من مرض أصيب به نتيجة لمشاق الرحلة. وكان رجال ريموند مطبوعين على التمرد وعدم الالتزام. وقد شعروا بالاستياء من شرطة البتشنج التي تحيط بهم من كل جانب. وأدى ميلهم العنيد للنهب إلى صدام تكرر مع حراسهم، وقبل انقضاء فترة طويلة قتل إثنـان من بارونات بروفانس في إحدى هذه المناوشات. وبعد ذلك مباشرة ضـل أسـقف لوبوي نفسه الطريق وجرح وأسره البتشنج قبل أن يعرفوا هويته وأعيد على الفور إلى الجيش، ويبدو أنه لم يشعر بالاستياء من الحادثة، غير أن الجنود صدموا صدمة عميقـة الأثر. وزادت شراستهم عندما هوجم ريموند نفسه في ظروف مشابهة بـالقرب مـن إيديسا.

وفي ثيسالونكا تخلف أسقف لوبوي عن الجيش كي يجد عناية أفضـل بجراحـه، وبقى هناك إلى أن تمكن أخوه من اللحاق به من ديرهاكيوم. وفي غيبة الأسقف ومـا يتمتع به من قدرة على كبح جماح الجنود، تدهور النظام في الجيـش وازداد سـوءً،

ولكن لم تقع حوادث خطيرة إلى أن وصل إلى روسا في ثريس. وسبق لرجال بوهيموند أن ابتهجوا للحفاوة التي استقبلتهم بها المدينة قبل ذلك بأسبوعين، أما الآن فربما لم يكن لدى أهل المدينة مؤن يبيعونها، لذا استاء رجال ريموند، وصاحوا "تولـــوز... تولـــوز" وهاجموا الأسوار واقتحموا المدينة ونهبوا البيوت كلها. وبعد ذلك بأيام قليلة قابلـــــهم مبعوثو ريموند في رودوستو في طريق عودتهم من القسطنطينية مع مندوب الإمــــبراطور ومعه رسائل ودية يستحث فيها ريموند علـــى الإســـراع إلى العاصمـــة، مضيفًـــا أنّ بوهيموند وجودفري في شوق للقياه. وربما كان الجزء الأخير من الرســـالة، وخشيـــة الغياب أثناء اتخاذ قرارات هامة، هما اللذان دفعا ريموند إلى قبول الدعوة، فترك جيشــه وأسرع إلى القسطنطينية التي وصلها في الحادي والعشرين من إبريل (نيسان).

وبرحيله لم يبق أحد لحفظ النظام في الجيش الذي بدأ على الفور في الإغارة على الريف. على أنّ الأحوال تغيرت الآن وأصبح هناك ما يكفي مـــــن شرطـــة البتشنـــج للتصدي له وتحركت فصائل من الجيش البيزنطي كانت متمركزة في الجـــوار لمهاجمـــة المغيرين. وأسفرت المعركة عن هزيمة رجال ريموند هزيمة نكراء فولوا الأدبار تـــــاركين أسلحتهم وأمتعتهم للبيزنطيين، ولم يعلم ريموند بالكارثة إلاّ في اللحظـــة الـــتي كـــان يتأهب فيها لمقابلة الإمبراطور.(١)

ريموند والإمبراطور

وقد اُستقبل ريموند في القسطنطينية استقبالاً حسنًا ونزل في قصر خارج الأسوار مباشرة وجاءه من يرجوه الذهاب إلى القصر الإمبراطوري بأسرع ما يمكن ليقسم قسم

---

(١) يورد Raymond of Aguilers, I-II, pp. 235-8 رحلة Raymond إلى القسطنطينية بإسهاب في ملحوظة تقطر مرارة من البيزنطيين .

الولاء. بيد أنّ ما صادفه في الرحلة والأنباء التي تلقاها لساعته جعلته في حالة مزاجية سيئة، وانتابته الحيرة والامتعاض من ذلك الوضع الذي وجده في قصر الإمبراطور؛ إذ أنّ الهدف الذي لا يبارح خياله هو الاعتراف به قائدًا عسكريًا للحملة الصليبية كلها. على أن سلطته تنبثق من البابا على النحو الذي حدث، ومن علاقته بالمندوب البابويّ أسقف لوبوي، وبغياب الأسقف وجد ريموند نفسه يفتقد العون والمشورة، ولم يكن ريموند راغبًا في أن يلزم نفسه في غيابه، زد على ذلك أنه لو أقسم قسم الولاء كما فعل غيره من الصليبيين فإن ذلك يعني تخليه عن علاقته الخاصة بالبابويّة، والهبوط إلى مستوى الآخرين. وهناك خطر آخر، فقد كان ريموند من الذكاء بحيث أدرك في الحال أنّ بوهيموند هو أخطر غريم له، وبدا أنّ بوهيموند يحظى بود الإمبراطور. وسرت شائعة أنه سيعين في منصب في القيادة الإمبراطورية العليا، فإذا ما أقسم قسم الولاء فإن ذلك لا يعني أن يفقد أولويته وحسب، وإنّما سيكون كذلك تحت ولاية بوهيموند باعتباره ممثلاً للإمبراطور. فأعلن أنه إنّما جاء إلى الشرق لينفذ عمل الرب، وأنّ الرب الآن هو سيده الأعلى الوحيد، ملمحًا بذلك أنه المندوب الدنيوي للبابا. على أنه أضاف أنه في حالة ما إذا كان الإمبراطور نفسه سيقود القوات المسيحية المتحدة فإنه يقبل العمل تحت إمرته، وأظهر بهذا التنازل استياءه من بوهيموند وليس الإمبراطور. ولم يسع الإمبراطور إلاّ أن يجيب بأن حالة الإمبراطورية لا تسمح له ــ لسوء الحظ ــ بتركها. وخشى القادة الغربيون الآخرون من أن يتعرض نجاح الحملة كلها للخطر، فتوسلوا إلى ريموند كيّ يغير رأيه، ولكن دون جدوى. وأما بوهيموند الذي كان يأمل في القيادة الإمبراطورية والذي كان تواقًا إلى إرضاء الإمبراطور، فقد ذهب إلى حد القول بأنه سوف يؤازر الإمبراطور إذا ما دخل معه ريموند في صراع علني. في حين أشار جودفري إلى الضرر الذي سيلحق بالقضية المسيحية نتيجة لموقفه هذا. وابتعد ألكسيوس عن تلك المناقشات ومنع عن ريموند الهدايا التي سبق أن أهداها للأمراء الآخرين. وأخيرًا، وفي اليوم السادس والعشرين من إبريل (نيسان) وافق ريموند على أن

يقسم قسمًا معدلاً وعد فيه بأن يحترم حياة الإمبراطور وشرفه، وأن يراعي هو ورجاله عدم الإضرار به. ولم يكن من غير العادي أن يقسم الأتباع بهذا النوع من القسم لساداتهم في جنوب فرنسا، وقد ارتضاه ألكسيوس.

وبعد انتهاء المفاوضات عبر بوهيموند وجيشه إلى آسيا. وفي تلك الأثناء تجمّع جيش ريموند مرة أخرى في رودوستو وقد أمسى مهيض الجناح، وانتظر وصول أسقف لوبوي الذي كان من المقرر أن يقوده إلى القسطنطينية. ولا ندري شيئًا عن نشاط الأسقف أديمار في القسطنطينية، والمفترض أنه قابل رؤساء الكنائس اليونانية ومن المؤكد أنه قابل الإمبراطور. وكانت هذه المقابلات ودية للغاية وربما أسهم في المصالحة بين ريموند وألكسيوس؛ إذ سرعان ما تحسنت العلاقة بينهما والأغلب أنّ ترحيل بوهيموند أسهم إسهامًا كبيرًا في ذلك، واستطاع الإمبراطور أن يقابل ريموند على انفراد وأن يشرح له أنه هو الآخر لا يحب النورمانديين، وأن بوهيموند لن يحصل أبدًا على أية قيادة إمبراطورية في واقع الأمر. وعَبَر ريموند بجيشه مضيق البوسفور بعد يومين من أدائه القسم، لكنه عاد لقضاء أسبوعين في البلاط، ورحل وهو على صلة حميمة بالإمبراطور الذي وجد فيه حليفًا قويًّا ضد بوهيموند. وتغير موقفه من الإمبراطور.(١)

---

(١) ترد مفاوضات Raymond مع الإمبراطور عند Raymond of Aguilers, II, p. 238 and *Gesta Francorum*, II, 6, p. 52 وتتفق الروايتان علي أن ريموند كان تواقا لأن ينتقم لنفسه من هزيمة جيشه في رود وستو ، وأن الأمراء الآخرين أقنعوه بصعوبة بأن يقسم قسما ما . كما تتفق الروايتان علي بنود القسم الذي أقسمه . والمؤرخ ريموند أوف أجيلير فقط الذي يذكر المعلومات الهامة التي تفيد بأن الكونت كان علي استعداد لأن يعمل في خدمة الأمبراطور شخصيا .وأعتقد أن التفسير اليسير لذلك الدافع هو غيرته من بوهيمند . أما أنا كومنينا ، التي دفعتها الأحداث اللاحقة إلي التحامل لصالح ريموند ، فلا تذكر شيئاً قط حول تلك المفاوضات وإنما تقول فقط إن والدها--

روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا

وأما الجيش الكبير الرابع الذاهب إلى الحرب الصليبية فقد رحل من شمال فرنسا في أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٠٩٦ ميلادية بعد رحيل ريموند بفترة وجيزة، تحت القيادة المشتركة لروبرت دوق نورماندي ــ زوج أخت ستيفن كونت أوف بلوا ــ وابن خاله روبرت الثاني كونت أوف فلاندرز. وروبرت أوف نورماندي هو الابن الأكبر لوليم الغازي، وهو رجل في الأربعين من عمره، ذو طباع هادئة، تعوزه الفعالية بعض الشيْء، إلاّ أنه لا يفتقر إلى الشجاعة والجاذبية. ومنذ أن مات أبوه وهو منشغل في حروب بين الحين والآخر مع أخيه وليم روفوس في إنجلترا الذي كان يعاود غزو دوقيته مرة بعد مرة. وكان لتبشير إيربان بالحرب الصليبية أثر عميق في نفسه، وسرعان ما أعلن انضمامه لها، وفي مقابل ذلك رتب البابا ــ بينما كان ما يزال في شمال فرنسا ــ مُصالَحة بينه وبين أخيه. على أنّ الإعداد للرحلة إلى الحرب الصليبية استغرق من روبرت عدة أشهر، ولكي يحصل على المال اللازم لها لم يكن بوسعه إلاّ أن يرهن دوقيته لدى أخيه وليم في مقابل عشرة آلاف مارك فضي، وتم توقيع الوثيقة التي

--كان يعرب عن مشاعر الحب والإحترام لـ 'Isangeles' - أي the Count of Saint-Gilles لدمائته وأمانته . وتضيف أن ألكسيوس أجري مناقشات مطولة مع الكونت ، وتقتبس خطبة هذا الأخير يحذر فيها الأمبراطور من بوهيمند ويعد بأن يعمل مع البيزنطيين .(*Alexiad*, x, xi, 9, vol. II, pp. 234-5) وليس هناك ما يدعوني لأن أفترض أنها قد خلطت هذه الزيارة مع الزيارة التي قام بها ريموند لأكسيوس سنة ١١٠٠؛ ويوافق ألبرت أوف آيكس - الذي حصل علي معلوماته من أحد جنود Godfrey - علي أن ريموند غادر القسطنطينية وهو علي أتم حالات الود مع ألكسيوس بعد أن تخلف أسبوعين (II, 20, p. 314). وهناك حالات من استخدام قسم عدم الإنحياز في Languedoc ترد لدي Vaissète, *Histoire de Languedoc*, vols. V, pp. 372, 381, and VII, pp. 134 ff.

تعتمد الرهن في سبتمبر (أيلول) ١٠٩٦ ميلادية. وبعد أيام قليلة خرج روبرت بجيشه إلى بونتارلييه حيث انضم إليه ستيفن أوف بلوا وروبرت أوف فلاندرز، وكان معه أودو أسقف بايو، وولتر كونت أوف سانت فاليري، وورثة كونت مونتجمري وكونت مورتاني وجيرارد أوف جورني، وهيو أوف سانت بول، وأبناء هيو أوف جرانت ميسنيل، وعدد من الفرسان والمشاة، من نورماندي ومن إنجلترا واسكتلندا وبريتاني كذلك; رغم أن النبيل الإنجليزي الوحيد الذي كان مقررا أن يصاحب الحملة الصليبية وهو رالف جودير ـ إيرل أوف نورفوك ـ كان آنذاك منفيا يعيش في ممتلكات والدته في بريتاني.(١)

وكان ستيفن أوف بلوا عازفا عن الانضمام إلى الحرب الصليبية، لكن زوجته أديلا إبنة وليم الغازي كانت هي صاحبة القرار في بيتها، وأرادته أن يذهب فذهب. وكان معه من أتباعه الرئيسيين: إفيرارد أوف لوبولوا، وجويران جويرونات، وكارو آسيني، وجيوفري جيرن، وواعظ كنيسته ألكسندر. وكان من بين المجموعة القسيس فولشر أوف تشارتر الذي أصبح مؤرخا فيما بعد. ولقد تمكن ستيفن من جمع المال اللازم للرحلة دون صعوبة كبيرة، إذ كان واحدا من أغنى الأثرياء في فرنسا. وقد ترك أراضيه لزوجته لتديرها بما لها من اقتدار.(٢)

بالدوين أوف ألوست

وكان كونت أوف فلاندرز شابا في مقتبل الشباب نوعا ما، وكان ذا شخصية

---

(١) عن Robert of Normandy أنظر David, *Robert Curthose, passim*. In Appendix D, pp. 221-9, he gives a full list of Robert's companions

(٢) عن Stephen of Blois أنظر Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 48-56

مرهوبة على نحو أكبر. وحج أبوه روبرت الأول إلى القدس سنة ١٠٨٦ ميلادية، والتحق في طريق عودته بخدمة الإمبراطور ألكسيوس لفترة من الوقت، وداوم الإمبراطور الاتصال به إلى أن وافته المنية سنة ١٠٩٣ ميلادية، ولذا كان من الطبيعي أن يرغب روبرت الثاني في مواصلة العمل ضد "الكفرة". وكان جيشه أقل حجمًا من جيش ريموند أو جيش جودفري وإن كان من نوعية تفوقهما، وصحبه جنود من برابانت تحت إمرة بالدوين أوف ألوست كونت جينت، وتقرر أن تقوم زوجته الكونتيسة كليميتيا أوف برجاندي بإدارة أراضيه أثناء غيابه.(١)

وتحرك الجيش المتحد من بونتارلييه جنوبًا عبر جبال الألب إلى إيطاليا، وأثناء مروره بمدينة لوكا في نوفمبر (تشرين الثاني) قابل البابا إيربان الذي كان يقضي هناك أيامًا قليلة وهو في طريقه من كريمونا إلى روما. واستقبل البابا القادة في اجتماع منحهم فيه بركاته الخاصة. وسار الجيش جنوبًا إلى روما لزيارة قبر القديس بطرس، غير أنه رفض التدخل في الصراع القائم بين أتباع البابا إيربان وأتباع البابا الزائف جيبرت، الذين كانوا يسببون الاضطراب في المدينة بسبب ذلك الصراع. ومن روما مرّ الجيش بمدينة مونت كاسينو إلى الدوقية النورماندية في الجنوب حيث لقى استقبالاً حسنًا من روجر بورصا، دوق أبوليا الذي كانت زوجته أديلا ــ ملكة الدانمارك الأرملة ــ وأخت كونت أوف فلاندرز، وقد اعترف بورصا بدوق نورماندي زعيمًا لبني جلدته. وقدم روجر بورصا هدايا ثمينة لأخي زوجته، الذي لم يقبل سوى هدية واحدة وهي

---

(١) عن Robert and Clmentia of Flanders أنظر *ibid.* pp. 247-9. وترد أسماء الفرسان الفرنسيين الجنوبيين المشتركين في الجيش الصليبي في قائمة Albert of Aix (II,22-3, pp. 315-16).

البقايا المقدسة: شعر العذراء، وعظام القديس ماثيو والقديس نيكولاس، وأرسلها إلى زوجته لتضعها في دير واتين.(١)

وقرر روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا قضاء الشتاء في كلابريا للاستجمام، ولكن روبرت أوف فلاندرز تحرك مع رجاله على الفور قاصدا باري حيث عبر البحر إلى إيبيروس في وقت مبكر من ديسمبر (كانون الأول)، ووصل القسطنطينية في نفس الوقت الذي وصل فيه بوهيموند تقريبا دون وقوع حادثة سيئة. أما كونت أوف ألوست الذي حاول النزول بالقرب من شيمارا الأبعد إلى الجنوب عن الموانئ المعدة لاستقبال سفن الصليبيين، فقد وجد طريقه مسدودا بأسطول بيزنطي صغير، ونشبت معركة بحرية خفيفة ذكرتها أنا كومنينا بإسهاب في تاريخها؛ إذ أن بطل تلك المعركة ماريانوس مافروكاتالكون ـــ إبن الأدميرال البيزنطي ـــ كان صديقا لها. وصدم البيزنطيون صدمة شديدة لدى رؤيتهم قسيسا لاتينيا محاربا من الصليبيين لا يولي اعتبارا لائقا لملابسه الدينية، وعلى الرغم من شجاعته وإقدامه تمكن البيزنطيون من الاستيلاء على السفينة الصليبية بربانسون، وأنزلوا الكونت

(١) Fulcher of Chartres, I, vii, pp. 163-8; charter of Clementia, Countess of Flanders, in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 142-3

ورجاله في ديرهاكيوم.(١) و لم يكن لدى جماعة الفلمنكيين فيما يبدو آيَّـة صعوبـة في أداء قسم الولاء للإمبراطور، وكان الكونت روبرت من بين الأمراء الذين حثّوا ريموند على الاستجابة . (٢)

وتمهل روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا في جنوب إيطاليا إلى أن جاء الربيع، وانتقل فتُور حماسهما إلى أتباعهما الذين أخذ كثير منهم يعودون هـائمين إلى أوطانهم. وأخيرًا، تحرك الجيش إلى برنديزي في شهر مارس (آذار) وفي الخـامس مـن إبريل (نيسان) أخذ يعد العدة لركوب البحر، ولسوء الحـظ انقلبـت أول سـفينة وغاصت في القاع وخسر الجيش نحو أربعمائة راكب بخيلهم وبغالهم وكثير من خزائن الأموال. وجرفت الأمواج الجثث إلى الشاطئ. وببراعة اكتشفوا معجزة ظهور علامـة الصليـب على عظام الكتف في كل جثة . إذ رفع ذلك الاكتشاف البارع معنويـات

---

(١) Fulcher of Chartres, *loc.* cit. p. 168; Anna Comnena, *Alexiad,* x, viii, 2-10, vol. II, pp. 215-20 وبصورة مرضية فإن المؤرخ Maricq, في مقالته "Un Comte de Barabant et des "Brabançons" dans deux textes byzantins المنشـورة في the *Bulletin de la Classe des Lettres* للأكاديمية الملكية لبلجيكا ، vol. xxxiv, pp. 463 ff يحدد ذلك الذي ذكرته أنا كومنينا على أنه بلدوين الثاني كونت ألوست ، وبذا يبطل افتـراض Grégoir السابق بأنه كان Notes sur Anne Comnene, in *Byzantion,* vol. III, pp. 312-13) Richard of the Principate التي تتضمن كذلك مناقشة مثيرة حول الكلمة التي ذكرتها أنا) ونظرية Ducange أن الكلمة هي Reymond of Toulouse الذي كان أيضا arquis of Provence والتي تأخـذ بها Mrs Buckler, *Anna Comnena*, p. 465 إنما هي نظرية مستحيلة إذ دأبت أنا كومنيـنا علـي تسمية Raymond باسم 'Isangeles' وتحركاته معروفة تماما لنا .

(٢) Raymond of Aguilers, II, p. 238

سواد الجيش ركب السفن بأمان، وبعد أربعة أيام عصيبة في البحر نزل إلى البر في ديرهاكيوم، واستقبلتهم السلطات البيزنطية استقبالاً حسنًا وأمدهم بحرس لمصاحبتهم عبر طريق فياإجناتيا إلى القسطنطينية. وكانت رحلة طيبة لولا حادثة سيئة حدثت حينما كان الجيش يعبر ممرًا مائيًا في البيندوس وحدث فيضان مفاجئ اكتسح العديد من الحجاج. وبعد تأخير استغرق أربعة أيام أمام أسوار ثيسالونيكا وصل الجيش إلى القسطنطينية في وقت مبكر من مايو (أيار)، وخيّم خارج الأسوار مباشرة، وسُمح لمجموعات من خمسة أو ستة أشخاص في المرة الواحدة بالدخول يوميًا لمشاهدة معالمها والتعبّد في مزاراتها. وكانت الجيوش الصليبية السابقة في الحضور قد نقلت كلها عبر البوسفور، ولذا لم يكن هناك ساخطون يفسدون العلاقة بين الوافدين الجدد وبين البيزنطيين. ولقد ذهلوا إعجابًا بجمال المدينة وروعتها، وتمتعوا بما قدمته لهم من راحة ومتعة، وشعروا بالامتنان للإمبراطور على ما منحهم من عملات نقدية وملابس حريرية وأطعمة وخيول، وعلى الفور أقسم قادتهم قسم الولاء للإمبراطور الذي كافأهم بهدايا رائعة. وفي الشهر التالي كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته، وقد كان يراعي واجبه في مراسلتها، يعرب عن نشوته لاستقبال الإمبراطور له; إذ بقى في القصر عشرة أيام عاملَه الإمبراطور فيها كما لو كان ابنه، وبذل له من النصح المفيد الشيْء الكثير، ووهبه من الهدايا النفيسة العدد الوفير، وعرض عليه أن يعلم ابنه الأصغر. وتأثر ستيفن بوجه خاص بما أظهره الإمبراطور من كرم نحو جميع جنود الجيش الصليبي، وبما أبداه من كفاءة في تنظيم عمليات إمداد الجنود في الميدان بالمؤن الوفيرة، فكتب مشيرًا إلى حمية وليم الغازي: "إنّ أباك، يا حبيبتي، أغدق الكثير من الهدايا العظيمة، لكنه لا يكاد يُذكر بمقارنته بهذا الرجل".

نجاح تنظيم الإمبراطور

وانقضى أسبوعان قبل أن يُنقل الجيش إلى آسيا. وأدخل عبور البوسفور البهجة على ستيفن الذي كان قد سمع أنّ المضيق خطر، لكنه لم يجده أكثر خطورة من نهر السين أو نهر المارن. وساروا بمحاذاة خليج نيكوميديا، مرورًا بنيكوميديا ذاتها، ليلحقوا بالجيوش الصليبية الرئيسية التي بدأت بالفعل حصارها لمدينة نيقية.(١)

وتنفس ألكسيوس الصعداء. كان يرغب في مرتزقة من الغرب، ولكن بدلاً من ذلك جاءته جيوش جرارة بقادتها. وواقع الحال أن أيّة حكومة لا ترغب في وجود أعداد من قوات مستقلة متحالفة معها تغزو أراضيها، لاسيّما إذا كانت تلك القوات في مستوى حضاري دون مستواها، إذ يتعين توفير الطعام لها، ومنعها من السلب والنهب. وليس في الإمكان معرفة الحجم الحقيقي للجيوش الصليبية إلاّ تخمينًا؛ وتقديرات العصور الوسطى مبالغ فيها دائمًا، على أنّ غوغاء بطرس ـــ بما فيها الكثير من غير المقاتلين ـــ ربما كان عددها يقارب عشرين ألفًا. وأمّا الجيوش الصليبية الرئيسية، وهي جيوش كل من ريموند، وجودفري، والفرنسيين الشماليين، فقد زاد عدد كل منها كثيرًا على عشرة آلاف بما فيهم غير المقاتلين، وكان جيش بوهيموند أصغر قليلاً، كما كانت هناك جماعات أخرى أقل. وجملة من دخلوا الإمبراطورية بين صيف ١٠٩٦ ميلادية وربيع ١٠٩٧ ميلادية لابد وأنه يتراوح بين ستين ومائة ألف شخص.(٢) وإجمالا، كانت ترتيبات الإمبراطور للتعامل معهم ناجحة، فلم يعان أيّ من

---

(١) Fulcher of Charetres, II, viii, pp. 168-76 خطاب ستيفن أوف بلوا لزوجته المذكور عند Hagenmeryer, *op. cit.* pp. 138-40 وقد كتب هذا الخطاب من نيكوميديا . ولسوء الطالع ضاع خطاب سابق كتبه من القسطنطينية يصف الرحلة فيها ويشير فيه ستيفن إليها .

(٢) أنظر Appendix II .

الصليبيين من نقص الطعام أثناء عبور البلقان، والغارات الوحيدة التي حدثت من أجل الطعام كانت تلك الغارات التي قام بها والتر المفلس في بلجراد، وبطرس في بيلابالانكا، وقد حدث ذلك في ظروف استثنائية، وغارة بوهيموند في كاستوريا أثناء رحلته عبر طريق غير ملائم في منتصف الشتاء. ولم يكن في الإمكان منع غارات صغيرة على المدن وهجوم عابث أو اثنين عليها؛ فلم يكن لدى ألكسيوس العدد الكافي من الجنود، على أنّ فصائله من البتشنج، بطاعتهم العمياء الصارمة للأوامر، والتي أثارت سخط الصليبيين، أثبتت كفاءتها كقوة شرطة، بينما كان مبعوثوه الخصوصيون يعاملون الغربيين معاملة تتصف باللباقة. وليس أدلّ على نجاح الأساليب التي اتبعها الإمبراطور من عبور الجيوش الأخيرة عبوراً سلساً، وهي المؤلفة من الفرنسيين الشماليين المفتقرين إلى النظام، وهم تحت إمرة قادتهم الضعفاء العاجزين.

مصالح الإمبراطور

ولقد حصل ألكسيوس في القسطنطينية على قسم الولاء من جميع الأمراء فيما عدا ريموند الذي توصل معه إلى تفاهم خاص؛ ولم ينخدع في قيمة القسم من الناحية العملية، أو في مصداقية الرجال الذين أقسموه وإن كان ذلك القسم قد أعطاه على الأقل شرعية ربما تثبت أهميتها. ولم يكن من اليسير بلوغ الغاية المقصودة بذلك القسم؛ فعلى الرغم من أنّ القادة الأكثر حكمة مثل وهيموند، والمراقبين الأذكياء من أمثال فولشر أوف تشارترز كانوا يدركون ضرورة التعاون مع بيزنطة، فإنّ الفرسان الأقل شأنًا وعوام الجنود رأوا في القسم إهانة وخيانة للأمانة،(١) وقد تحاملوا على البيزنطيين لما لقوه من أبناء البلاد من استقبال يتصف بالبرود، بينما كان الصليبيون يظنون

---

(١) Fulcher of Chartres, 1, viii, 9, pp. 175-9 1, ix, 3, p. 179 .

أنهم جاءوا ليخلصوهم. والقسطنطينية مدينة شاسعة رائعة، ثروتها وفيرة، وسكانها من تاجر وصانع في حركة دائبة، ونبلاؤها يتحلون بدماثة الخلق، ويزدانون بأردية المدنّية والملابس الفاخرة، والسيدات الفضليات قد تزينّ وتجمّلن، وفي ركاب كل واحدة منهن حاشيتها من الخصيّ والعبيد؛ كل ذلك أثار في نفوس الصليبيين احتقارًا يخالطه إحساس مقلق بالنقص، وما كان بمقدورهم أن يفهموا لغة البلاد ولا عاداتها، كما كانت الطقوس الكنسية غريبة عليهم.

وبادلهم البيزنطيون نفورًا بنفور. فكان مواطنو العاصمة يعتبرون هؤلاء الجامحين الغلاظ الذين طالت عسكرتهم في الضواحي مصدر إزعاج شديد. بينما ينعكس موقف إبناء البلاد حيالهم في خطاب كتبه ثيوفيلاكت، كبير أساقفة بلغاريا من مقره في أوركريدا على طريق فياإجناتيا، الذي لا يَخفي على أحد سعة أفقه تجاه الغرب، عن المتاعب التي سببها مرور الصليبيين في أراضى أسقفيته، ويضيف أنه ورعيته كانوا يتعلمون كيف يحتملون الصبر.(١) إنّ افتتاح الحرب الصليبية لم يكن بشيرًا بعلاقات حسنة بين الشرق والغرب.

ومع ذلك، ربما كان ألكسيوس راضيًا؛ فقد زال الخطر عن القسطنطينية، وانطلق الجيش الصليبي الكبير ليحارب الأتراك، وتوفرت لديه النية الصادقة في التعاون مع الصليبيين، ولكن بشرط واحد: إنه لن يضحي بمصالح الإمبراطورية من أجل مصالح الفرسان الغربيين؛ فواجبه الأول هو واجبه نحو شعبه. وفضلاً عن ذلك، كان يؤمن — كشأن البيزنطيين جميعًا — بأن رفاهية العالم المسيحي تتوقف على رفاهية الإمبراطورية المسيحية التاريخية. وكان اعتقاده صحيحًا.

---

(١) Letter of Theophylact of Bulgaria, in *M.P.G.* vol. cxxvi, cols. 324-5 .

الباب الرابع :

الحرب ضد الأتراك

الفصل الأول :

الحملة فى اسيا الصغـرى

الحملة في آسيا الصغرى

"وَتَأْتِي مِنْ مَوْضِعِكَ مِنْ أَقَاصِي الشِّمَالِ
أَنْتَ وَشُعُوبٌ كَثِيرُونَ مَعَكَ كُلُّهُمْ
رَاكِبُونَ خَيْلاً جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ وَجَيْشٌ
كَثِيرٌ."

(سفر حزقيال، ٣٨ ـــ ١٥)

أيًا ما يكون حجم الخلاف بين الإمبراطور وأمراء الصليبيين علي الحقوق النهائية وتوزيع ما سوف يتم الاستيلاء عليه من أراض، فلم يكن هناك خلاف حول المراحل الأولى للحملة ضد الكفرة؛ فإذا أرادت الحملة الصليبية الوصول إلى القدس فينبغي تطهير الطرق التي تمر عبر آسيا الصغرى ومن الناحية الأخرى كان الهدف الرئيسي

للسياسة البيزنطية هو دحر الأتراك خارج آسيا الصغرى، وإذن فهناك اتفاق تام على الإستراتيجية. وحتى ذلك الحين كان الصليبيون على استعداد للإذعان للقادة المحنكين في الجيش البيزنطي القريب منهم في مسائل التكتيك.

وكان الهدف الأول هو العاصمة السلجوقية نيقية الواقعة على شواطئ بحيرة أسكانيا على مسافة غير بعيدة من بحر مرمرة، والتي يمر خلالها الطريق البيزنطي العسكري القديم، برغم وجود طريق بديل يقع إلى الشرق قليلا. ولا شك في أن بقاء هذه القلعة العظيمة في أيدي الأعداء يعرض جميع الاتصالات عبر البلاد للخطر. وكان ألكسيوس متلهفا على رحيل الصليبيين بأسرع وقت ممكن خاصة وأن الصيف على الأبواب، والصليبيون أنفسهم قد نفد صبرهم؛ فصدرت الأوامر في الأيام الأخيرة من إبريل (نيسان) — وقبل وصول جيش الفرنسيين الشماليين إلى القسطنطينية — بالاستعداد لهدم معسكر بيليكانوم والتقدم إلى نيقية (١).

اختيرت اللحظة اختيارا موفقا؛ إذ كان السلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول بعيدا على حدوده الشرقية يناضل أمراء الدانشمند من أجل السيادة على ملطية التي كان حاكمها الأرميني جابرييل مشغولا بالإفساد بين الأمراء الحكام في المنطقة. ولم يأخذ قلج أرسلان هذا التهديد الجديد القادم من الغرب مأخذا جادا؛ إذ سبق وهزم غوغاء بطرس الناسك بغاية اليسر، فتعلم أن يحتقر الصليبيين، وربما أراد جواسيسه في القسطنطينية أن يدخلوا السرور عليه فبالغوا في تصوير الخلافات بين الإمبراطور

---

(١) من الصعب اقتفاء أثر الأمراء ؛ فقد كان جيش جودفري في بيليكانوم منذ أوائل إبريل (نيسان) ، ولحق به جيش بوهيمدند هناك وربما تحرك الجيشان : جيش جودفري قبل جيش بوهيموند بثلاثة أيام ، وقبل وصول جيش ريموند إلى هناك ، يوم ٢٩ أو ٣٠ من إبريل (نيسان) لا حتناب شدة ازدحام المعسكر، وبقي جيش ريموند في بيليكانوم ينتظره أثناء عودته إلى القسطنطينية لزيارة الإمبراطور .

والأمراء الغربيين. واستبعد قلج أرسلان أن يتوغل الصليبيون إلى نيقية استبعادا تامـــا، فترك زوجته وأولاده وجميع أمواله داخل الأسوار، ولم يحرك ساكنا إلا عندما جاءتـــه الأنباء بتمركز الأعداء في بيليكانوم، فأعاد جزءا من جيشه بسرعة إلى الغرب، على أن يتبعه بنفسه حالما يتمكن من تدبير شؤونه في الشرق، ولكن جنوده وصلوا متــأخرين بحيث لم يتمكنوا من التدخل في مسيرة الصليبيين إلى نيقية.(١)

تجمع الصليبيين أمام نيقية

وتحرك جيش جودفري أوف لورين من بيليكانوم في السادس والعشريـــن مـــن إبريل (نيسان) تقريبا، وسار إلى نيكوميديا حيث انتظر ثلاثة أيام لحق به بعدها جيـــش بوهيموند بقيادة تانكريد، وكذلك بطرس الناسك وبقايا غوغائه. وكان بوهيموند قد تخلف في القسطنطينية لأيام قلائل ليرتب مع الإمبراطور تموين الجيـــش بـــالإمدادات. وصاحبت الجيش فصيلة بيزنطية صغيرة من المهندسين ومعها آلات الحصـــار بقيـــادة مانويل بوتوميتيس، وقاد جودفري الجيش من نيكوميديا إلى سيفيتوت، ثم تحول جنوبا عبر المضيق الذي هلك فيه رجال بطرس، وكانت عظامهم ما تزال تغطي مدخل الممر. وتحرك جودفري بحذر، وقد استعاد في ذهنه مصير رجال بطرس ونصيحة الإمبراطور، فأرسل الكشافين والمهندسين في المقدمة لتطهير الطريق وتوسيعه، ثم وضعت فيه سلسلة من الصلبان الخشبية لإرشاد حجاج المستقبل. وفي السادس من مايو (أيار) وصـــل إلى مدينة نيقية، المحصنة تحصينا قويا منذ القرن الرابع؛ إذ كان البيزنطيون دائبين على صيانة أسوارها التي يبلغ طولها حوالي أربعة أميال بأبراجها البالغ عددها مائتين وأربعين برجا.

---

(١) Matthew of Edessa, II, cxlix-cl, pp. 211-12 ، يصف هجوم قلج أرسلان علي ملطيـــة ويقوم إنه كان مشغولاً هناك عندما هاجم الفرنج نيقية .

وتقع المدينة على الطرف الشرقي لبحيرة أسكانيا وتبرز أسوارها الغربية من الميـــاه الضحلـــة مباشرة، وكان شكلها خماسيا غير منتظم.وعسكر جودفري أمام السور الشمالي، وتانكريد أمام السور الشرقي، وأما السور الجنوبي فقد تركوه لجيش ريموند.

وكانت الحامية التركية كبيرة ولكن في حاجة إلى تعزيـــزات، فأُرســـلت الرســـل إلى السلطان تستحثه على أن يدفع بالجنود إلى داخل المدينة من البوابات الجنوبية قبل إتمام الإحاطة بها، وأمسك الصليبيون واحدًا من هؤلاء الرسل. وعلى أن الجيش التركيّ كان ما يزال بعيدًا للغاية، وقبل أن تتمكن طلائعه من الاقتراب وصل ريموند في الســـــادس عشر من مايو (أيار) وانتشر جيشه أمام السور الجنوبي، وكان بوهيموند قد لحق بجيشه قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وحتى ذلك الوقت كانت الإمدادات القليلة غير الكافية قد أضعفت الصليبيين، ولكن بفضل ترتيبات بوهيموند مع ألكسيوس بدأت الإمـــدادات تتدفق على المحاصِرين برًّا وبحرًا. وبوصول روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلـــوا بقواهما في الثالث من يونية (حزيران)، يكون الجيش الصليبي كله قد تجمـــع. وأخـــذ يعمل كوحدة واحدة برغم عدم وجود قائد أعلى له، وكانت القرارات تصـــدر مـــن الأمراء أثناء اجتماعهم، وحتى ذلك الحين لم يقع خلاف جديّ فيما بينهم، كما انتقل الإمبراطور إلى بيليكانوم حيث يتمكن من الاتصال بكل من عاصمته ونيقية.(١)

---

(١) يـــرد فـــي *Gesta Francorum*, II, 7, p. 34 وصف مسيرة جودفـــري إلـــي نيقيـــة . وتقـــول Anna Comnena, XI, I, I, vol.III, p.7 إن جزءا من الجيش ذهـــب مباشـــرة بحـــرا من بيليكانوم إلي سيفيتوت. ويقول ألبرت أوف آيكس إن جودفري وصـــل " روفينيل Rufinel " فـــي الليلـــة التـــي تـــرك فيهـــا المعسكـــر (في بيليكانوم) وتوقـــف هناك لتسلم رسالـــة من ريموند في القسطنطينية ولكي ينضم إليه بطـــرس الناسك (Albert, II, 20, pp. 313-14) . وبكلمـــــة " Rufinel " فلا بد وأنه يقصـــد نيكوميدمـــا التـــي تبعـــد عـــن بيليكانـــوم بمسافـــة يوم . ويـــــرد وصـــول ريموـــد يـــوم ١٦ مايـــو في *Gesta Francorum*, II, 8, p.36 كما يرد وصـــول فرنسيي الشمال في P.38 . *ibod* وكذلـــك يرد في تاريخ Fulcher of Chartres, 1, x, 3, p. 182. الذي يذكر التاريخ .

ووصلت أول قوة إغاثة تركية إلى نيقية بعد وصول ريموند مباشرة لتجد المدينة وقد حوصرت تماما من البر. وبعد مناوشة قصيرة غير ناجحة مع جنود ريموند انسحبت لتنتظر الجيش التركي الرئيسي الذي كان يقترب وعلى رأسه السلطان نفسه. وكان ألكسيوس قد أصدر تعليماته لبوتوميتيس بإجراء اتصال مع الحامية المحاصرة، وعندما رأت الحامية أن قوة الإغاثة تنسحب وجه قادتها الدعوة إلى بوتوميتيس ليدخل المدينة آمنا لمناقشة شروط التسليم، وبعد أن قبل جاءت الأنباء في الحال بأن السلطان ليس ببعيد فانهارت المفاضات.

المعركة خارج نيقية

وفي حوالي الحادي والعشرين من مايو (أيار) وصل السلطان وجيشه من الجنوب وهاجم الصليبيين على الفور في محاولة لاقتحام المدينة. وتحمل ريموند — الذي كان جناحه الأيمن بقيادة أسقف لوبوى — وطأة الهجوم. إذ لم يكن بوسع أي من جودفري أو بوهيموند المجازفة بترك الجزء الذي يتولاه من الأسوار دون حراسة، على أن روبرت أوف فلاندرز خف مع جنوده لنجدة ريموند، واتقدت المعركة بشراسة طوال اليوم دون أن يحرز الأتراك تقدما. وعندما حل الظلام قرر السلطان الانسحاب؛ إذ كان الجيش الصليبي أقوى مما يظن وعند مواجهة المقاتلين بعضهم البعض في الميدان أمام المدينة لم يكن رجاله أندادًا للغربيين حسني التسليح. فالإستراتيجيّة الأفضل، إذن، هي الانسحاب إلى الجبال وترك المدينة لمصيرها.(١)

---

(1) توضح أناكومنينا XI, I, 3-4, vol.III,pp. 8-9 أن الأتراك أرسلوا قوتين منفصلتين لإنقاذ نيقية . ويذكر ألبرت أوف آيكس II,25-6,pp. 318-19 القبض علي جواسيس أتراك قبل الهجوم التركي مباشرة . ويرد وصف المعركة في *Gesta Francorum* II,8,pp. 36-8 وفي التاريخ Raymond of Aguilers, III, p. 239 وفي تاريخ ألبرت أوف آيكس II, 27, pp. 319-20

وكانت خسائر الصليبيين فادحة، إذ قتل كثيرون من بينهم بـــالدوين كونـــت أوف جينت وجرح الناجون من المعركة كلهم تقريبًا. غير أنّ النصر ملأهم زهـــوًا وتيـــهًا، وأبهجهم أن وجدوا بين موتى الأتراك حبالاً لتقييد الأسرى الذين كان السلطان يـــأمل في أسرهم، ولكي يثبّطوا من عزيمة الحامية المحاصَرة قطعوا رؤوس الكثير مــــن جثــث الأتراك وألقوا بها من فوق الأسوار أو ثبتوها في حــراب ومشــوا بهــا في اســتعراض عسكري أمام البوابات.(١) ثم أنهم بعد أن زال ما يخشون من خطر خارجي ركزوا على الحصار، ولكن التحصينات كانت هائلة، وعبثًا حاول ريموند وأديمـــار نســف أحــد الأبراج الجنوبية بإرسال متسللين للحفر تحت البرج وإشعال نيران كبيرة تحته. فكـــانت الحامية تصلح الأضرار الصغيرة الناجمة أثناء الليل. وإلى جانب ذلك اتضح أنّ الحصـــار لم يكن محكمًا؛ إذ كانت الإمدادات تصل باستمرار إلى المدينة عبر البحيرة.(١) واضطر الصليبيون إلى أن يطلبوا من الإمبراطور الحضور لمساعدتهم وإمدادهم بقـــوارب كـــيّ يعترضوا الطريق المائي. وربما كان ألكسيوس مدركًا للموقف إدراكًا تامًا، لكنـــه أراد أن يكتشف الأمراء الغربيون مدى أهمية تعاونه بالنسبة لهم. وأجابهم إلى طلبـــهم بـــأن أمدهم بأسطول صغير في البحيرة تحت قيادة بوتوميتيس.(٣)

---

(١) *Gesta Francorum,loc. cit.;* Albert of Aix, II, 28, pp. 320-1. وقد أبلغ ستيفن آوف بلوا عن موت Baldwin of Ghent، كما يرد في Hagenmeyer, *op. cit.* p. 139

(٢) *Gesta Francorum, loc. Cit.;* Albert of Aix, II, 31,pp. 322-3; Anna Comnena, XI, I, 6-7, vol. III, pp. 9-10

(٣) *Gesta Francorum, ibid.* p.40; Albert of Aix, II, 32, pp. 323-4 . وتشير أنا كومنينا إلي دوافع والدها في إرسالة سفن إلي البحيرة في نهاية الأمـــر، XI, ii, 3-4, vol.III, pp. 11-12 وتقول إنه أرسل في ذات الوقت الجنود تحت إمرة تاتيسيوس وتزيتاس لمساعدة الصليبيين علي الأرض

الاستيلاء على نيقية

وكان السلطان قد أخبر الحامية قبل انسحابه بأن تفعل ما تظنه الأفضل، إذ ليس بمقدوره تقديم المزيد من العون. فعندما رأت الحامية السفن البيزنطية في البحيرة أدركت أنّ الإمبراطور يعاون الصليبيين معاونة كاملة وقررت التسليم. وكان ذلك هو ما يأمل فيه ألكسيوس، فلم يكن يرغب في أن يضيف إلى الأراضي الخاضعة لسلطانه مدينة شبة مهدمة، ولا أن يعاني رعاياه الجدد أهوال السلب، لاسيّما وأن أغلب المواطنين كانوا مسيحيين، فالأتراك في المدينة لا يجاوزون الجنود وطبقة صغيرة من نبلاء البلاط. وعادت الاتصالات بين الحامية وبوتوميتيس ونوقشت شروط التسليم. ولكن الأتراك ظلوا مترددين وربما كانوا يأملون في عودة السلطان، ولم يستسلموا إلاّ عندما جاءتهم الأنباء بأنّ الصليبيين يُعدّون العدة لهجوم عام.

وكانت الأوامر قد صدرت بأن يكون الهجوم في التاسع عشر من يونية (حزيران)، ولكن عند انبلاج الصباح شاهد الصليبيون رايات الإمبراطور ترفرف على أبراج المدينة; لقد استسلم الأتراك أثناء الليل ودخل جنود الإمبراطور ــ وهم أساسًا من البتشنج ــ من البوابات الواقعة في جانب البحيرة. ومن غير المحتمل ألاّ يكون القادة الصليبيون على علم بالمفاوضات، أو عارضوها، إذ كانوا يعلمون أنّ لا مغزى من إضاعة الوقت والرجال في الهجوم على مدينة لن تكون لهم، ولكن ألكسيوس تعمد إخفاء المراحل الأخيرة، وأما باقي الجنود فقد اعتبروا أنهم خدعوا وحيل بينهم وبين فريستهم. إذ كانوا يأملون في نهب ثروات نيقية. وبدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم وقد سُمح لهم بمجرد دخول المدينة في جماعات صغيرة وهم تحت المراقبة الشديدة من شرطة الإمبراطور، وكانوا يأملون في احتجاز نبلاء الأتراك للحصول على فدية، وبدلاً من ذلك شاهدوهم وهم يُنقلون تحت الحراسة مع منقولاتهم إلى القسطنطينية أو إلى

الإمبراطور في بيليكانوم. فازدادت مرارة استيائهم من الإمبراطور.(١)

وقد خفف كرم الإمبراطور من حدة هذه المرارة إلى حد ما; إذ أمر ألكسيوس على الفور بمنح كل جندي صليبي هدية طعام، بينما استدعى القادة إلى بيليكانوم لإهدائهم ذهبا وجواهر من خزانة السلطان. وأذهل ستيفن أوف بلوا وهو في حضرة الإمبراطور مع ريموند أوف تولوز جبل الذهب الذي كان من نصيبه، وكان يعارض رأي رفاقه من الصليبيين الذين يقولون أنه كان ينبغي للإمبراطور أن يجيء إلى نيقية بنفسه; لأنه يعرف أن استقبال المدينة المحررة لسيدها ربما أدى إلى إحراجه. وفي مقابل الهدايا طلب ألكسيوس من الفرسان الذين لم يقسموا له قسم الولاء بعد أن يقسموه الآن، واستجاب الكثير من اللوردات الأقل شأنا الذين لم يعبأ ألكسيوس بهم أثناء عبورهم القسطنطينية. ويبدو أنه لم يطلب من ريموند شيئا غير ما حدث من قبل، على أن حالة تانكريد اتخذت شكلا أكثر خطورة; إذ كان تانكريد بادئ الأمر مشاكسا، فقد أعلن أنه ما لم يأخذ خيمة الإمبراطور الكبيرة مملوءة ذهبا إلى حافتها، فضلا عن مقدار آخر من الذهب يساوي كل الذهب الذي أخذه الأمراء الآخرون، فإنه لن يقسم على شيء. وعندما اعترض زوج أخت الإمبراطور جورج باليولوجوس على فظاظته

---

(١) تورد أناكومنينا XI, ii, 4-6, vol. III, pp.12-13 رواية كاملة عن استسلام المدينة ، وتعترف صراحة بأن البيزنطيين خدعوا الصليبيين . ولا تزيد المصادر الغربية علي أن نيقية استسلمت للإمبراطور.

تحول إليه في خشونة وأمسك بتلابيبه، ونهض الإمبراطور ليتدخل، وراح بوهيموند يوبخ إبن أخته توبيخًا شديدًا، وفي النهاية خضع تانكريد على مضض.(١)

وصدم الصليبيون لمعاملة الإمبراطور لأسراه من الأتراك. إذ سمح لمسئولي البلاط والقادة بأن يشتروا حريتهم، أما السلطانة ــ وهي إبنة الأمير شاكا ــ فقد استقبلت بالتشريفات الملكية في القسطنطينية حيث تقرر أن تبقى هناك إلى أن يرسل زوجها رسالة بالمكان الذي يرغب أن تلحق فيه به، وعندئذ سوف ترسل إليه هي وأولادها

---

(١) يقول Raymond of Aguilers, III, pp. 239-40 إن الإمبراطور كان قد وعد الأمراء بكافة الأسلاب المأخوذة من نيقية وتعهد بإنشاء دير لاتيني ونزل هناك ؛ وتسبب عدم تحقيق وعده في الشعور بمرارة بالغة . غير أن هناك من تحدث عن كرمه العظيم في تواريخ Fulcher of Chartres,1,x,10, و pp. 188-9 وAnselm of Ribemont, وهاجنماير op. cit. 145 وستيفن أوف بلوا في هاجنماير op. cit.p. 140 ويقول هذا الأخير إن الإمبراطور قد وزع في الواقع أجود الأسلاب (Gesta Francorum, III, 9, p. 42) وتذكر أناكومنينا (XI, III, 1-2, vol.III, p.16-17) واقعة القسم للمرة الثانية . ويفترض جروسيت في : Histoire des Croisades, vol.1,p.31 وبدون سبب واضح لإفتراضه هذا أن تانكريد كان ما يزال رافضا لأخذ القسم بل أن Chalandon يستبعد ذلك لأن ألكسيوس لم يتهمه فيما بعد قط بأنه حنث بقسم ما . علي أن قصة أنا كومنينا واضحة ومقنعة . ومن الناحية الأخري تتضح صحة تخيل Radulph of Caen عن الحكاية (XVIII-XIX,pp.619-20) وتقدم القصة علي أن تانكريد أحب أن يتخيل ذلك . أنظر Nicholson, *Tancred,* p. 32 n. 5 ويعترف Anselm, *loc.cit.* بأن بعض الأمراء كانوا مستائين من الإمبراطور . ويورد ألبرت أوف آيكس II,28, p. 321 توزيع ألكسيوس للهدايا أثناء الحصار . أنظر ما سبق صفحة ٢٠٢ الحاشية ١ ، فيما يتعلق بمكان الإحتمال .

دون فدية. لقد كان ألكسيوس رجلا شفوقا، وكان يعي جيدا قيمة التلطف مع عدو مهزوم، بيد أن موقفه هذا بدا للأمراء الغربيين موقف المنافق الخئون.(١)

ومع ذلك، وبرغم خيبة الأمل التي شعر بها الصليبيون لعدم استيلائهم هم أنفسهم على المدينة، وحرمانهم من ثروتها، فإن تحرير نيقية ملأهم بهجة وأملا في المستقبل. وأرسل البريد إلى الغرب معلنا أن هذا المكان المبجل أصبح مسيحيا مرة أخرى. واستقبل الغرب تلك الأنباء بحماس، فقد أثبتت الحرب الصليبية نجاحها، وزاد استجلاب الجنود، وبدأت المدن الإيطالية، التي كانت تتوخى الحذر وترجئ مساعدتها الموعودة، تأخذ الحركة الصليبية مأخذا جادا. وفي معسكر الصليبيين كان الفرسان متلهفين على مواصلة الرحلة، وكان ستيفن أوف بلوا في غاية التفاؤل، وكتب لزوجته: "سنكون في القدس في مدى خمسة أسابيع"، وأضاف في تنبؤ يجاوز معرفته: "ما لم يعوقنا عائق في أنطاكية".(٢)

الطرق خلال آسيا الصغرى

ومن نيقية انطلق الصليبيون في الطريق البيزنطي القديم عبر آسيا الصغرى، وكان الطريق القادم من خلقدونية، ونيكوميديا يلتقي بالطريق القادم من هيلينوبوليس ونيقية على ضفاف نهر سنجاريوس. وسرعان ما يترك النهر ليصعد واديًا آخر لرافد يقع إلى الجنوب، تاركًا وراءه مدينة بيليجيك الحديثة، ثم يلتف فوق أحد الممرات إلى دريليوم

---

(١) يعلن كاتب تاريخ *Gesta Francorum* (II, 8, pp.40-2) أن الإمبراطور عامل الأسري معاملة كريمة، ببساطة لكي يجعلهم يضايقون الصليبيين فيما بعد.وعن تحركات السلطان اللاحقة أنظر ص٢٤١.

(٢) Stephen of Blois, *loc. cit.* سمح للصليبيين زيارة نيقية في مجموعات من عشرة أشخاص (XI,ii, Anna Comnena, 10, vol. III, p. 16)

بالقرب من إسكيشهر الحديثة، وهناك يتفرع إلى ثلاثة طرق: فيمضي الطريق البيزنطي العسكري الكبير باتجاه الشرق، وربما كان يمر بالقرب من أنقرة إلى الجنوب مرة أخرى بعد عبوره نهر هاليس، فيستمر فرع منه عابرًا سباستيا (سيفاس) مباشرة إلى داخل أرمينيا، ويلتف الآخر باتجاه قيصرية مازاكا. ومن هناك كانت عدة طرق تمضي عبر ممرات منطقة جبال طوروس المقابلة إلى داخل وادي الفرات، بينما يلتف طريق آخر مرتين عائدًا إلى الجنوب الغربي خلال تيانا إلى بوابات كيليكيا. ويمضي الطريق الثاني من دوريليوم مباشرة عبر صحراء الملح الكبرى في وسط آسيا الصغرى، جنوب بحيرة تاتا ومن أموريوم إلى بوابات كيليكيا. ولم يكن هناك من يستخدم ذلك الطريق سوى الجماعات التي تتحرك بسرعة لأنه كان يمر عبر منطقة مقفرة تخلو من الماء تمامًا. وكان الطريق الثالث يمر بأطراف صحراء الملح الجنوبية ممتدًا من فيلوميليوم، وهي إكسيشهر الحديثة، إلى إيكونيوم وهرقلة وبوابات كيليكيا. وكان هناك طريق فرعي يجري بادئًا على مقربة من فيلوميليوم إلى البحر المتوسط عند أنطاليا، وآخر من مكان عبر إيكونيوم إلى البحر المتوسط عند سيليوشيا.(١)

وأيًا ما يكون الطريق الذي كان على القوات الصليبية أن تتخذه، فلابد لها من الوصول أولاً إلي دوريليوم. وفي السادس والعشرين من يونية (حزيران)، أيّ بعد أسبوع من سقوط نيقية، بدأت الطلائع تتحرك وتبعتها في اليومين التاليين فرق الجيش المختلفة ليتجمع الجيش مرة أخرى عند جسر عبر النهر الأزرق حيث يترك الطريق وادي سنجاريوس ليصعد إلى الهضبة. وصاحبت الصليبيين فصيلة بيزنطية صغيرة بقيادة الجنرال المحنك تاتيسيوس، وتخلف عدد من الصليبيين أغلبهم من المصابين في نيقية ،

---

(١) عن الطرق في آسيا الصغري أنظر Ramsay, *Historical Geography of Asia Minor,* pp.74-82

والتحقوا بخدمة الإمبراطور ووضعوا تحت إمرة بوتوميتس لإصلاح ما تهدم من نيقية والالتحاق بحاميتها.(١)

وعند الجسر، وفي قرية تدعى ليوس، احتمع الأمراء للتشاور وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين يلحق أحدهما بالآخر بعد مسيرة يوم واحد لتسهيل مشكلة الإمدادات. يتكون الجيش الأول من النورمانديين القادمين من جنوب إيطاليا وشمال فرنسا مع جنود كونت أوف فلاندرز وكونت أوف بلوا بالإضافة إلى البيزنطيين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين. ويضم الجيش الثاني الفرنسيين الجنوبيين وأبناء اللورين مع جنود كونت أوف فيرماندوا. وتولى بوهيموند قيادة المجموعة الأولى، وريموند أوف تولوز المجموعة الثانية، ولما تم التقسيم انطلق حيش بوهيموند على الطريق إلى دوريليوم.(٢)

وكان السلطان قلج أرسلان، بعد أن فشل في إنقاذ نيقية، قد انسحب شرقا ليجمع قواته ويحقق السلام والتحالف مع أمير الدانشمند ضد هذا التهديد الجديد. فكانت خسارة نيقية إنذارا له، كما كانت خسارته لخزانته خسارة فادحة، ولكن الأتراك كانوا ما يزالون بدوا رحلا بالغريزة. وكانت عاصمة السلطان الحقيقية هي خيمته . وفي أواخر يونية (حزيران) عاد باتجاه الغرب ومعه جميع قواته والأمير حسن

---

(١) انطلق حيش بوهيمند يوم ٢٦ يونية (*Gesta Francorum,* III, 9, p.44) وانطلق حيش ريموند يوم ٢٨ يونية (Raymond of Aguilers, III, p. 240; Anselm of Ribemont, *loc.cit.*)، وانطلق الجيش الفرنسي الشمالي يوم ٢٩ يونية (Fulcher of Chartres, 1, xi, 1,p. 190) وتذكر Anna Comnena, XI, iii, 3, vol. III,pp. 16-17 أن بعض الفرنج بقوا مع بوتوميتس Butumites.

(٢) Anna Comnena, XI, iii, 4, vol. III, p. 18; *Gesta Francorum,* III, 9, p. 44; Albert of Aix, II, 38, pp. 328-9

التابع له وهو أمير أتراك كبادوكيا، وجيش الدانشمند وعلى رأسه أميره. وفي الثلاثين من يونية (حزيران) كان ينتظر في أحد الأودية على مقربة من دوريليوم وقد أعدّ عدته لمهاجمة الصليبيين أثناء هبوطهم من الممر.

معركة دوريليوم

وفي ذلك المساء عسكر الجيش الصليبي الأول في سهل غير بعيد عن دوريليوم. وعند شروق الشمس انقضّ الأتراك هابطين جانب التل وهم يصيحون صيحات الحرب. ولم يكن بوهيموند غير مستعد؛ إذ تجمّع غير المحاربين من الحجاج بسرعة في وسط المعسكر حيث ينابيع المياه، وعُهد إلى النساء بمهمة حمل الماء إلى الخط الأمامي، وهُيئت الخيام بسرعة، وطُلب من الفرسان الترجّل من على صهوات خيولهم، وفي نفس الوقت أرسل بوهيموند رسولاً على جناح السرعة إلى الجيش الثاني يستحثه على الإسراع، بينما طلب من قادته أن يستعدوا لمعركة عسيرة وأن يلزموا جانب الدفاع بادئ الأمر. وعصى أوامره واحد منهم فقط هو نفس الفارس الذي تجرأ وجلس على عرش الإمبراطور في القسطنطينية، إذ هاجم العدو في أربعين من رجاله، لينتحروا راجعين يجرون أذيال الخزي تغطيهم الجراح، وسرعان ما أحاط الأتراك بالمعسكر وقد بدت أعدادهم في أعين المسيحيين وكأنها لا نهاية لها. واستخدم الأتراك تكتيكهم المفضّل بأن يدفعوا بالرماة إلى الخط الأول لإطلاق سهامهم، وفي الحال يفسحون المجال لرماة آخرين.

وبارتفاع شمس يوليه (تموز) الحارة بدأ الصليبيون يتشككون في قدرتهم على الصمود أمام سيل القذائف الذي لا يتوقف، ولا سبيل إلى الهرب وهم هكذا محاطون، كما أنّ الاستسلام يعني تحولهم إلى رهائن وعبيد، فعزموا أمرهم على تحمل الاستشهاد مجتمعين إذا اقتضى الأمر. وأخيرًا، وعند منتصف النهار، شاهدوا رفاق الجيش الثاني

مقبلين، جودفري وهيو في المقدمة مع رجالهما، وريموند برجاله على مقربة خلفهم، و لم يكن الأتراك قد تحققوا من أنهم لم يوقعوا بالقوة الصليبية كلها، ولدى رؤيتهم القادمين الجدد خارت عزيمتهم و لم يتمكنوا من الحيلولة دون اتصال الجيشين. وشدد ذلك من عزم الصليبيين وبدأوا يأخذون زمام الهجوم، وأقاموا جبهة طويلة على ميسرتها بوهيموند وروبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا، وعلى ميمنتها جودفري وهيو، وفي القلب ريموند وروبرت أوف فلاندرز، وبدءوا الهجوم وهم يذكرون بعضهم البعض بالثروات التي سيفوزون بها إذا انتصروا. و لم يكن الأتراك مهيأين لمواجهة الهجوم، والأغلب أنّ ذخيرتهم كانت تتناقص، وفجأة ظهر أسقف لوبوي على التلال الواقعة خلفهم ومعه فصيلة من الفرنسيين الجنوبيين، فتحول ترددهم إلى حالة من الذعر. وكان أديمار قد خطط بنفسه هذا التحول عن الطريق، ووجد مرشدين يدلونه عبر ممرات الجبل، وأدى تدخله إلى تأكيد انتصار الصليبيين. وانهارت خطوط الأتراك، وسرعان ما ولوا الأدبار شرقًا تاركين في عجلتهم مضرب خيامهم دون مساس، فوقعت خيمة السلطان وخيام الأمراء بكل ما فيها من كنوز في أيدي المسيحيين.(١)

---

(١) تذكر *Anna Comnena, loc. cit.* واقعة الفارس الفرنسي *Gesta francorum,* III, 9, pp.44-8 ويصف Raymond of Aguilers, IV, pp. 240-1 دور Albert of Aix, 42,pp.- II, 39 Fulcher of Chartres, 1, xi, 3-10, pp. 189-98 Adhemar 329-32؛ وخطاب من بعض الأمراء إلي إيربان الثاني ، مذكور لدي *Hagenmeyer, Dei Kreuzzugsbriefe,* p.161

وتقع دور يليوم – وعادة تسمي المعركة بأسمها – علي مسافة حوالي ميلين شمالي إسكيشهر الحديثة .

ومكان ميدان القتال الدقيق الذي شهد المعركة محل خلاف ؛ إذ تطلق عليه أنا كومنينا "سهل دور يليوم" ويطلق عليه الأمراء في خطابهم إلي البابا " وادي Dorotilla " ولا بد أن الاسم يعني دور يليوم ؛ ويطلق عليه المؤرخ Raymond of Aguilers إسم " Campus Floridus " وألبرت أوف آيكس–

الفرنج والأتراك

وكان نصرا كبيرا، راحت فيه أرواح الكثير من المسيحيين، من بينهم وليم أخو تانكريد، وهمفري أوف مونت سكابيوزو، وروبرت أوف باريس. وتعلم الفرنج كيف يحترمون الأتراك الاحترام اللائق بهم كجنود. وربما أرادوا أن يرفعوا من شأن إنجازهم فأعربوا طواعية عن إعجابهم بالأتراك، ذلك الإعجاب الذي أنكروه علي البيزنطيين الذين كان لهم من أساليب الحرب العلمية المتقدمة ما يعتبرها الفرنج أساليب بالية، كما أنهم لم يعترفوا بإسهام البيزنطيين في المعركة. ويعتبر المؤرخ النورماندي المجهول مؤلف "جيستا" أن الأتراك خليقون بأن يكونوا أحسن الأجناس البشرية لو أنهم كانوا مسيحيين. واسترجع الأسطورة التي جعلت الفرنج والأتراك ذوي قربى باعتبار أن

== Ozellis called the valley of Degorganhi which is now ويعتبر Hagenmeyer, Chronologie de la Première Croisade, pp. 86-7 أن الصليبيين لم يتمكنوا من الوصول إلي دوريليوم نفسها في ليلة ٣٠ يونية ، إذ أنها تبعد عن Leuce مسيرة ٢٢ ساعة وهو يحدد مكان المعركة بالقرب من Bozuzuk (وهو يقصد Bosoyuk) أو إينونو Inönü غير أن الطريق البيزنطي المباشر كان يتجنب تلك الأماكن ويمضي خلال Sögüt ، ويدخل السهل الواقع علي مسافة حوالي ثمانية أميال شمال غرب دوريليوم . ولما قام الأتراك بهجوم مفاجيء فلا بد أنهم كانوا - من ثم - مختبئين وراء التلال ؛ بينما استخدم Ahemar هو الآخر بعض التلال لمهاجمة مؤخرة الأتراك . وقبل أن يدخل الطرق إلي السهل فإن الجبال تستوي الجبال بحيث تسمح بهذه المناورات . علي أن سهل Sari - su, الذي يسمى باليونانية Bathys والذي ينتهي إليه الطريق ، تقسمه سلسلة من التلال المنخفضة عند Parsuk أو يسمى باليونانية Tembris وهي تلال يسهل عبورها وتمتد حتي التقاء المجاري المائية فوق دوريليوم مباشرة . فإذا كان الصليبيون قد عسكروا في وادي ---

الفريقين من نسل أهل طروادة، وهي أسطورة تقوم على أســـاس عدائـــهم المشـــترك لليونانـــيين وليس على أساس ديني.(١) بيد أنه مهما كان الإعجاب بالعسكرية التركية فإنّ هزيمتهم ضمنت مروراً آمنًا للصليبيين عبر آسيا الصغرى. وأمّا الســـلطان، الـــذي استُلب أولاً من عاصمته، والآن من خيمته الملكية والقَدْر الأكبر من كنزه، فقد قرر أنه لا طائل من محاولة اعتراض الصليبيين. وقابل أثناء هروبه جماعة من السوريين الأتـــراك كانوا متأخرين و لم يشتركوا في المعركة، فشرح لهم أنّ أعداد الفرنجة وقوتهم أكبر ممـــا كان يتوقع، وأنه لا يستطيع الوقوف أمامهم، ثم لجأ هو ومواطنوه إلى الجبال بعـــد أن هجروا المدن التي كانوا قد استولوا عليها ونهبوها وخربوا داخل البلاد حتى يســـتحيل على الصليبيين أن يطعموا أنفسهم أثناء تقدمهم.(٢)

-- Porsukبينما تستطيع نقطة للمراقبة علي مرتفعات Karadjashehir الواقعة جنوب Porsuk مباشرة أن تمكنهم من مراقبة تحركات الصليبيين . كما أنه من المرجح أن يكون Adhemar قد عبر إلي وادي Porsuk لمهاجمة الأتراك من خلفهم . ونتيجة لما قمت به شخصياً من تدقيق لتلك المنطقة فإنني أحدد مكان المعركة في سهل Sari-su حيث يدخله الطريق المباشر الآتي من Leuce . وللوصـــول إلي هذا المكان ، كان علي الطليعة أن تقطع حوالي ٨٥ ميلا في أربعة أيام ، إذ غادرت نيقية صباح ٢٦ يونية ، وربما توقفت ليوم كامل في Leuce . وقد غادرت المؤخرة نيقيا بعد ذلك بيومين ولكن مـــن الواضح أنها لم تتوقف في Leuce . وبعد غذت السير تمكنت من اللحاق بقوات الطليعة بعد الظهر من يـــوم المعركـــة . ولما كان قادة قوات المؤخرة علي صهوات جيادهم ، فالراجح أنهم وصلوا Leuce لمناقشة رفاقهم قبل وصول قوات المشاة .

(٢) *Gesta Francorum*, III, 9, pp. 50-2

(٣) *Ibid.* IV, 10, pp. 52-4

وأمضى الصليبيون يومين في دوريليوم للراحة ولاستعادة نشاطهم بعد المعركة وللتخطيط للمراحل التالية من مسيرهم. و لم يكن من الصعب اختيار الطريق؛ فالطريق العسكري المتجه شرقًا يمضي بعيدًا داخل بلاد يسيطر عليها الدانشمند وأمراء لم تكسر شوكتهم، وكان الجيش من الضخامة وثقل الحركة بحيث يتعذر عليه عبور صحراء الملح مباشرة؛ فكان عليه أن يتبع الطريق الأبطأ على جانب الجبال الواقعة جنوب الصحراء. ولا شكّ في أنّ هذا الاختيار كان بناء على نصيحة تاتيسيوس والمرشدين الذين أحضرهم، إلاّ أنّ الطريق، برغم ذلك، لم يكن مأمونًا؛ فبعد غزوات التركمان وعشرين عامًا من الحروب تهدمت القرى، وبقيت الحقول دون زراعة، وتلوثت الآبار أو تُركت لتجف، وسقطت الجسور أو دُمّرت. وليس من الممكن دائمًا الحصول على معلومات من سكان مشتتين مرعوبين. وبالإضافة إلى ذلك، وإذا ما حدث أيّ خطأ، سرعان ما يرتاب الفرنج في المرشدين اليونانيين، بينما كان المرشدون يشعرون بالمرارة من فوضوية الفرنجة وجحودهم، ووجد تاتيسيوس أنّ دوره يزداد كآبة وصعوبة.(١)

عبر صحراء الأناضول

وفي الثالث من يولية (تموز) تحرك الجيش في كتلة واحدة متصلة ليتجنب المخاطر التي حدثت في دوريليوم، وراح يشق طريقه الصعب باتجاه الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول، إذ لم يستطع الاستمرار على الطريق الرئيسي القديم. وبعد عبوره بوليبوتوس تحول إلى أنطاكية الروم التي أفلتت من تخريب الأتراك على الأرجح، ومن ثمّ يمكن

(١) لم تحدث شكاوي من تاتيسيوس والبيزنطيين إلي أن وصل الجيش إلي أنطاكية ، علي أنه بحلول ذلك الوقت أصبح عدائيا " inimicus " (*Gesta Francorum*, VI, 16, p. 78).أنظر ما يلي صفحة ٢٧٧ ، الحاشية ١. ولابد أن الاستياء منه كان يتزايد بحيث نحت دعاية بوهيمند من فورها .

الحصـــول على إمدادات منها . ومن هناك عبر الصليبيون ممرات السلطان داغ المقفرة ليعودوا إلى الطريق الرئيسي الذاهب إلى فيلوميليوم، ومنها امتد الطريق خـــلال بـــلاد مقفرة بين الجبال والصحراء. وفي حمّارة قيظ الصيف الذي لا يرحم عـــانى الفرســـان بأسلحتهم الثقيلة وخيولهم ومُشاتهم أسوأ معاناة. فليس هناك في الأفق من ماء ســـوى غياض الصحراء المالحة، ولا خضرة إلاّ أحراش الشوك التي مضغوا فروعها في محاولـــة يائسة لامتصاص نداوتها، وكانوا يشاهدون صهاريج المياه البيزنطيـــة علـــى جوانـــب الطريق وقد دمرها الأتراك كلها; فكانت الخيل أول من هلك، واضطر الكثـــير مـــن الفرسان إلى مواصلة السير راجلين، وامتطى آخرون الثيران، بينما استخدموا الخـــراف والماعز والكلاب لجر الأمتعة، على أنّ معنويات الجيش بقيت مرتفعة، وكان فولشـــر أوف تشارتر يرى أنّ تزامل الجنود الآتين من شتى البقاع والمتحدثين مختلف اللغـــات، يبدو وكأنه إلهام من الرب.(١)

وفي منتصف أغسطس (آب) وصل الصليبيون إلى مدينة إيكونيوم. وهي مدينـــة قونية الحديثة، وقد ظلت في أيدي الأتراك لثلاث عشرة سنة، وأوشك قلـــج أرســـلان على اختيارها عاصمة جديدة له. وكانت في ذلك الوقت مدينة مـــهجورة إذ هـــرب الأتراك إلى الجبال بكل منقولاتهم. ولكنهم لم يستطيعوا تدمير قنوات المياه والبساتين في وادي ميرام البهيج الواقع خلف المدينة. ولقد فتنت خصوبتـــه المســـيحيين المتعبـــين، فاستراحوا هناك ليستردوا قواهم، إذ كانوا جميعًا في حاجة إلى الراحة، وكـــان القـــادة منهم منهكين، وقد جرح جودفري قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كان يصيد دبًّا، ووقـــع ريموند أوف تولوز فريسة مرض خطير وشاع الظنّ بأنه يحتضـــر، ومســـحه أســـقف أورانـــج مسحة الموتى ، غير أنّ الإقامة في قونية أنقذته، واستطاع بعد ذلك أن يســـير

---

(١) *Gesta Francorum*, IV, 10, p. 55; Fulcher of Chartres, 1,Xiii, 1-5 pp. 199-203; Albert of Aix, III, 1-3, pp. 339-41

بالجيش حينما تحرك. وامتثل الصليبيون لنصيحة السكان الأرمن القلائل الذين كانوا يعيشون بالقرب من المدينة. فأخذوا معهم من الماء ما يكفيهم للوصول إلى وادي هرقلة الخصيب.(١)

وفي هرقلة وجدوا جيشا تركيا بقيادة الأمير حسن والأمير الدانشمندي، اللذين كانا يشعران بالقلق على أملاكهما في كبادوكيا، فكانا يأملان في أن يتسبب وجودهما في إجبار الصليبيين على محاولة عبور جبال طوروس إلى الساحل; ولكن الصليبيين هاجموا الأتراك فور رؤيتهم، وكان قائدهم بوهيموند يجد في طلب الأمير الدانشمندي نفسه، و لم يكن الأتراك يرغبون في خوض معركة كبيرة، فانسحبوا انسحابا خاطفا إلى الشمال تاركين المدن للمسيحيين، وتلألأ مذنب في السماء ليتألق النصر.(٢)

وأصبح من الضروري الآن إعادة مناقشة الطريق الواجب اتخاذه. فإلى الشرق من هرقلة كان الطريق الرئيسي يمضي عبر جبال طوروس خلال ممر كيليكيا الرائع إلى داخل كيليكيا ذاتها، وكان ذلك هو الطريق المباشر إلى أنطاكية، وإن كانت له بعض المساوئ. فلم يكن من اليسير عبور بوابات كيليكيا حيث يصبح الطريق أحيانا شديد الانحدار وضيقا للغاية بحيث يتسنى لجماعة صغيرة معادية على المرتفعات أن تدمر جيشا بطيء الحركة تدميرا سريعا. وكانت كيليكيا في حوزة الأتراك، وأفاد المرشدون

---

(١) *Gesta Francorum , ibid.* p. 56; Fulcher of Chartres , *ibid.* p. 200. ويذكر Raymond of Aguilers, IV, p. 241 مرض ريموند الذي لابد وأن يكون قد وقع له في هذا التاريخ ، ويذكر Albert of Aix, III, 4, pp.341-2 حادثة جودفري .

(٢) *Gesta Francorum, loc. cit.;* Anna Comnena, XI, iii, 5, vol. III, pp. 18-19 . وتذكر أنا كومنينا شجاعة بوهيمند في هذه المعركة . ولابد أن يكون تاتيسيوس هو الذي ويذكر Fulcher of Chartres, 1, xiv, pp. 203-5 المذنّب .

البيزنطيون بأن مناخها يكون في سبتمبر (أيلول) في أسوأ أحواله. وفضلا عن ذلك، لابد لجيش ذاهب من كيليكيا إلى أنطاكية أن يعبر منطقة جبال أمانوس في الممر الوعر المعروف بالبوابات السورية. ومن ناحية أخرى تسببت هزيمة الأتراك في فتح الطريق إلى قيصرية مازاكا، ومن هناك تؤدي مواصلة السير في الطريق العسكري البيزنطي الكبير إلى عبور جبال طوروس المقابلة إلى مرعش (جيرمانيشيا)، ثم ينحدر فوق ممر بوابات أمانوس العريض والمنخفض إلى داخل سهول أنطاكية وكان هذا هو الطريق الذي يتخذه المرتحلون من أنطاكية إلى القسطنطينية في الغالب في السنوات التي سبقت الغزو التركي. وله الآن ميزة المرور عبر بلاد يسيطر عليها المسيحيون وصغار الأمراء الأرمن، وأغلبهم أتباع معينون من قبل الإمبراطور، وربما يكون موقفهم وديا. وأغلب الظن أن اختيار الطريق الأخير كان بتوصية من تاتيسيوس والبيزنطيين، غير أن هذه التوصية لاقت معارضة من الأمراء المعادين للإمبراطور وعلى رأسهم تانكريد. وقررت الأغلبية المضي خلال قيصرية، ولكن تانكريد ومعه مجموعة من جنوب إيطاليا وبالدوين (أخو جودفري) وبعض الفنلنديين وأبناء اللورين، قرروا الانفصال عن الجيش الرئيسي ليتخذوا الطريق الذي يعبر كيليكيا.

على حدود الأناضول

وفي العاشر من سبتمبر (أيلول) تقريبا انطلق تانكريد وبالدوين إلى ممرات جبال طوروس (١) في طريقين منفصلين. وتحرك الجيش الرئيسي باتجاه الشمال الشرقي يريد قيصرية ، وعند قرية أوجوستوبوليس أدرك الجيش جنود الأمير حسن وألحق بهم هزيمة أخرى . لكنه لم يحاول الاستيلاء على إحدى قلاع الأمير التي كانت تقع غير بعيد

---

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٤-٣١٥ .

من الطريق، وذلك تجنبًا للتأخير برغم احتلال العديد من القرى الصغيرة وتحويل إدارتها إلى اللورد الأرميني المحلي سيميون الذي طلب ذلك على أن يكون تابعًا للإمبراطور. وفي نهاية الشهر وصل الصليبيون إلى قيصرية التي هجرها الأتراك، ولم يتوقفوا فيها وإنما واصلوا سيرهم إلى كومانا (بلاسنتيا)، وهي مدينة مزدهرة يسكنها الأرمن، وكان الأتراك الدانشمند يحاصرونها آنذاك، لكنهم اختفوا لدى اقتراب الصليبيين، وانطلق بوهيموند في أثرهم ولكنه لم يلحق بهم. ورحب المواطنون المبتهجون بمخلصيهم، وطلبوا من تاتيسيوس تعيين حاكم للمدينة باسم الإمبراطور، فاختار بطرس أوف أولبس وهو فارس من بروفانس الفرنسية كان قد جاء في بداية الأمر إلى الشرق مع جيسكار، ثم التحق بخدمة الإمبراطور. وكان اختيارًا حكيمًا؛ فقد أظهرت هذه الحادثة أن الفرنج والبيزنطيين كانوا ما يزالون قادرين على التعاون وعلى أن يشتركا معًا في تنفيذ المعاهدة المعقودة بين الأمراء والإمبراطور.(١)

وتقدم الجيش من كومانا باتجاه الجنوب الشرقي إلى كوكسون (جوكسون الحديثة) وكانت مدينة مزدهرة مليئة بالأرمن تقع في الوادي الخصيب جنوب منطقة جبال طوروس المقابلة. وبقي الجيش هناك ثلاثة أيام تمتع خلالها بحفاوة السكان الذين أمدوه بالإمدادات الوفيرة استعدادًا للمرحلة التالية من مسيرته عبر الجبال. والآن وصلت إلى الجيش شائعة بأنّ الأتراك هجروا أنطاكية، وكان بوهيموند ما يزال غائبًا يطارد الدانشمند؛ ولذا قام ريموند أوف تولوز في الحال، ودون استشارة أحد سوى قواده، بإرسال خمسمائة فارس بقيادة بطرس أوف كاستيلون للإسراع أمام الجيش واحتلال المدينة. وانطلق الفرسان بأقصى سرعتهم، لكنهم عندما وصلوا إلى قلعة يشغلها الهراطقة البوليون غير بعيدة عن وادي الأُرند، علموا أنها شائعة زائفة وأنه

---

(١) *Gesta Francorum,* IV, II, pp.60-2; Stephen of Blois, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.150; Baudri, VII, pp.38-9; Anna Comnena, XI, iii, 6, vol. III, p. 19

على العكس تتدفق تعزيزات الأتراك على المدينـــة. ومـــن الواضـــح أنّ بطـــرس أوف كاستيلون اتخذ طريق العودة لينضم إلى الجيش، غير أنّ واحدًا من فرسانه (بطرس أوف رويكس) انسلّ مع قِلّة من رفاقه، وبعد مناوشة مع الأتراك المحليين استولى على بعـــض القلاع والقرى في وادي روسيا تجاه حلب بمعاونة الأرمن المحليين الفرحين. وربمـــا لم يكن ريموند يقصد بمناورته تلك أن ينال لنفسه السيادة على أنطاكية، وإنّما لمجرد المجد والغنيمة التي تهبط على أول القادمين. ولكن حينما عاد بوهيموند إلى الجيش ســاورته الريبة من تلك الحادثة التي أظهرت الانشقاق المتزايد فيما بين الأمراء.(١)

وكانت الرحلة من كوكسون هي أصعب المراحل التي كـــان علـــى الصليبيـــين مواجهتها. فالوقت الآن وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وقد بـــدأت أمطـــار الخريف، وكان الطريق فوق جبال طوروس المقابلة في حالة بالغة من التـــهدم، ولعـــدة أميال لم يكن هناك سوى ممر صاعد موحل، به الكثير من المنعطفات المنحدرة وتحيط به هاوية من جانبيه. وانزلقت الخيول الواحد تُلو الآخر وسقطت من فالق، كما سقطت إلى الهاوية طوابير بأكملها من الحيوانات حاملة الأمتعة وهي مشـــدودة إلى بعضـــها البعض. ولم يجرؤ أحد على الركوب، وكان الفرسان الراجلون يناضلون تحت لباسهم العسكري الثقيل، يتلهفون على بيعه لمن كان أخفّ منهم حملاً، أو يلقون به يائسين. وبدت الجبال ملعونة؛ فقد أهلكت أرواحًا أكثر مما أهلك الأتراك. وأخيرًا عمّت البهجة عندما برز الجيش في الوادي المحيط بمدينة مرعش.

ومرة أخرى وجدوا في مرعش مظاهر الود من الأرمن، فلبثوا هناك لأيام قليلـــة. وكان حاكم المدينة أميرًا أرمينيًا يدعى ثاتول وكان فيما سبق مسئولاً بيزنطيًا فثبت في

---

(١) *Gesta Francorum*, IV, II, p. 62

منصبه. وهناك عاد إليهم بوهيموند بعد مطاردته العقيمة للأتراك، كما جاء بـــالدوين مسرعا من كيليكيا ليرى زوجته جودفير التي كانت تحتضر. وبعد موتها رحـــل مـــرة أخرى ولكن إلى الشرق.(١) وفي الخامس عشر من أكتوبر (تشرين الأول) تحرك الجيش الرئيسي بعد أن قوى وانتعش مغادرا مرعش إلى سهل أنطاكية جنوبا. وفي العشريـــن من نفس الشهر وصل إلى الجسر الحديدي الذي يبعد عـــن المدينـــة بمســـيرة ثـــلاث ساعات.(٢)

الصليبيون ومرشدوهم اليونانيون

ومضت أربعة أشهر منذ أن انطلق الصليبيون يريدون نيقية. وبالنسبة لجيش كبير تتبعه أعداد غفيرة من غير المقاتلين، ويرتحل في قيظ الصيف عبر بلاد جرداء في أغلبها، يتعرض دائما لهجوم عدو رهيب سريع الحركة، فإن ما حققه ذلك الجيش يعد إنجـــازا غير عادي. فقد ساعد الصليبيين إيمانهم ورغبتهم المشتعلة في الوصـــول إلى الأراضـــي المقدسة، كما حفزهم الأمل في اغتنام الغنائم، وربما إمارة. على أن بعض الفضل لا بد وأن يعزى أيضا للبيزنطيين الذين صاحبوا الحملة ومكنتهم خبرتهم في محاربة الأتراك من إبداء الرأي السديد، ولأنه من المستحيل المضي عبر آسيا الصغـــرى دون نصائحـــهم. وربما ارتكب المرشدون بعض الأخطاء كما حدث عند اختيار الطريق من كوكســـون إلى مرعش، إلا أنه بعد عشرين عاما من إهمال الطرق وتعمد تدميرها بين الحين والآخر

---

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٥-٣١٦

(٢) يرد وصف الرحلة من كوكسون إلي أنطاكية في *Gesta Francorum*, IV, II, p.64 الذي يركز علي أهوال الطرق الجبلية ، وكذلك Albert of Aix, III, 27-9, pp. 358-9 ويرد ذكر تنصيب ثاتول كحاكم لمرعش في تاريخ Matthew of Edessa, II, clxvi, pp. 229-30 .

كان من المستحيل معرفة الحالة التي كان عليها أيّ طريق. وكان الدور الذي لعبه تاتيسيوس دوراً صعبًا، غير أنّ علاقته بالأمراء الغربيين ظلت ودودة إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية. وربما كان الجنود الصليبيون البسطاء يرتابون في اليونانيين، ولكن، وفيما يتعلق باتجاه الحركة الصليبية ذاتها، سار كل شيء سيرا سلسا. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور ألكسيوس يعزز الوضع المسيحي في مؤخرة الصليبيين، وهو المسئُول عن الحفاظ على المواصلات عبر آسيا الصغرى. ولقد أدى نجاح الفرنج إلى التصالح بين السلاجقة والدانشمند. ومن ثمّ، وبعد زوال صدمة الهزيمة الأولى، أمكن أن تبرز قوة تركية شديدة البأس في وسط وشرق شبه الجزيرة، ولذا كانت سياسة الإمبراطور هي استرجاع غرب شبه الجزيرة حتى يتمكن بمساعدة قوته البحرية المتزايدة من أن يفتح طريقًا إلى الساحل الجنوبي يمكن أن يظل تحت سيطرته الدائمة. وبعد إعادة تحصين نيقية، والاستيلاء على القلاع التي تتحكم في الطريق إلى دوريليوم، أرسل زوج أخته القيصر جون دوكاس، يعززه أسطول صغير بقيادة أمير البحر كاسباكس، لاستعادة أيونيا وفريجيا. وكان الهدف الرئيسي هو مدينة سميرنا حيث كان إبن شاكا ما يزال يحكم إمارة ضمت أغلب الخط الساحلي الأيوني وجزر ليسبوس وكايوس وساموس. بينما كان هناك أمراء تابعون لإبن شاكا يحكمون إفيسوس ومدن أخرى بالقرب من الساحل. وكانت فريجيا تحت حكم أعيان سلاجقة، قُطع الاتصال بينهم وبين السلطان الآن. وأراد جون دوكاس أن يترك أثرًا عميقًا لدى الأتراك، فأخذ معه السلطانة إبنة شاكا التي لم تكن الترتيبات قد تمت بعد لكي تلحق بزوجها. وكان الهجوم المشترك البري والبحري يفوق طاقة أمير سميرنا الذي سلم الولايات التابعة له على الفور في مقابل السماح له بالانسحاب في أمان إلى الشرق. ويبدو أنه أخذ معه أخته إلى بلاط السلطان حيث اختفى من التاريخ. ثم سقطت إفيسوس بعد سميرنا دون قتال يذكر، وبينما استولى كاسباكس وأسطوله على الساحل والجزر، تقدم جون دوكاس في البر مستوليًا على المدن الرئيسية في ليديا وهي: سارديس وفيلادلفيا ولاوديسيا الواحدة تُلو

الأخرى. وفي نهاية خريف ١٠٩٧ ميلادية كانت المقاطعة في حوزته، وأصبح على أهبة الاستعداد بعد انتهاء الشتاء للتقدم داخل فيريجيا حتى الطريق الرئيسي الـــذي ســلكه الصليبيون. وربما كان هدفه هو إعادة السيطرة البيزنطية على الطريـــق الموصـــل مـــن بوليبوتس وفيلوميليوم جنوبًا إلى أنطاليا، ومن هناك شرقًا بطول الساحل الجنوبي حيث يمكن للقوة البحرية أن توفر الحماية، وحيث يسهل الاتصال بالأمراء الأرمـــن الذيـــن استقروا الآن في جبال طوروس. وهكذا يصبح في الإمكان تـــأمين طريـــق لوصـــول الإمدادات إلى الصليبيين المحاربين في سوريا، كما يصبح من الميسور استمرار الجـــهود المتحدة للعالم المسيحي.(١)

(١) Anna Comnena XI. V 1-6. vol. III. pp. 23-7

الفصل الثاني :

الفاصـــل الأرمينـــى

الفاصـــــل الأرمينــــــي

"لا تأتمنوا صاحباً لا تثقوا بصديقٍ."

(سفر ميخا: إصحاح ٧ : ٥)

بدأت الهجرة الأرمينية إلى الجنوب الغربي بسبب الغزوات السلجوقية التي جعلت الحياة غير آمنة في وادي أراكسيس وحول بحيرة فان. وتواصلت على مدى السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر. وعندما وصل الصليبيون إلى شرق آسيا الصغرى، كانت هناك سلسلة من الإمارات الأرمينية الصغيرة الممتدة من وراء أواسط الفرات إلى قلب جبال طوروس. وكان فيلاريتوس الأرميني قد أسس دولة قصيرة الأجل سرعان ما تفتت قبل وفاته سنة ١٠٩٠ ميلادية ، لكن ثوروس كان ما يزال يحتفظ بإمارة الرها حيث تمكن قبل ذلك بقليل من طرد الحامية التركية من الحصن ، وكان زوج أمه

جابرييل ما يزال يحتفظ بملطية.(١) وفي مرعش اعترفت السلطات البيزنطية بـالمواطن المسيحي البارز ثاتول حاكمًا للمدينة، وقد أبقى الصليبيون له على المدينة.(٢) وأمّا في رعبان وقيسون، الواقعتين بين مرعش والفرات، أنشأ أرميني يدعى كوغ فازيل، وهو المعروف باسم فازيل اللص، إمارة صغيرة،(٣) وكان ثوروس وجابرييل وربما ثـاتول أيضًا، ضباطًا لدى فيلاريتوس، بدَءُوا حياتهم العامة ـ شأنهم شأن فيلاريتوس نفسه ـ في الخدمة الإدارية البيزنطية. وكانوا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسيّة وليسوا من أتباع الكنيسة الأرمينية المنفصلة، ليس هذا فحسب، وإنّما ظلوا يستخدمون الألقاب الـتي خلعها عليهم الإمبراطور منذ زمن بعيد، وكلما سنحت لهم الفرصة أعادوا العلاقـات مع بلاط القسطنطينية لتأكيد ولائهم، وقد خلع ألكسيوس في الواقع على ثوروس لقب الرفيع (كوروباليت). ونتيجة لهذه الصلة الإمبراطورية اكتسب حكمهم نوعًـا مـن الشرعية، لكن الأساس الأقوى الذي كان حكمهم يرتكز عليه هو استعدادهم لقبـول سيادة الزعماء الأتراك في الجوار. وسعى ثوروس بالوقيعة بين هؤلاء الذيـن يمكـن أن يصبحوا من ذوي الشأن في براعة تبعث على الدهشة ، بينما أرسل جابرييل زوجته إلى

---

(١) عن ثوروس ، أنظر Laurent, Des Grecs aux Croises, pp. 405-10 وعن جابرييل أنظـر ibid. p. 410 وكذلك مادة Malatya by Honigmann in the *Encyclopaedia of* أنظر ما سبق الصفحتين ١٤٠ و ٢٨٥ .

(٢) أنظر ما سبق الصفحتين ٣٠٢ و ٣٠٤ .

(٣) عن كوغ فازيل ، أنظر Chalandon, *Les Comnènes*, pp. 99 ff. . ولأن رئيس أمراء الأرمن ينتمي إلى الكنيسة الأرمينية فقد وفر الملاذ لبطريق الأرمـن "كـاثوليكوس" جريجـوري فـاهرام of Edessa, II, clxxxviii, p.258) وكان هناك بطريق غريم ، أو "كاثوليكوس ند" ، وهو بازل الذي كان موجوداً الآن في آني (ibid. II, cxxxiv, pp. 201-2) .

بغداد في بعثة للحصول على اعتراف من أعلى السلطات الإسلامية، بيـــد أن هـــؤلاء الأمـــراء جميعا كانوا في موقف مزعزع; إذ كان اختلاف الدين يفصلهـــم جميعـــا ـــ باستثناء كوغ فازيل ـــ عن أغلب أبناء جلدتهم، ويكرههم المسيحيون السوريون الذين يعيشون في أراضيهم بأعداد كبيرة. ولم يكن هؤلاء جميعا محل ثقة لدى الأتراك الذيـــن ساعدت فرقتهم وحدها على بقاء الأرمن.

وكان الأرمن المقيمون في منطقة جبال طوروس أقل تعرضًا للخطر; إذ كان مـــن الصعب الوصول إلى الأراضي التي استوطنوا فيها، كما كان الدفاع عنـــها ميســـورًا. وسيطر أوشين بن هيثوم على الجبال الواقعة غرب بوابات كيليكيـــا، واتخـــذ حصـــن لامبورن المنيع القائم أعلى الجبل والذي يطل على طرطوس وســـهل كيليكيـــا مقـــرًا لقيادته، وتمكن من الحفاظ على علاقة مقبولة مع القسطنطينية، ومنحه الإمبراطور لقب ستراتوبيدارك أوف كيليكيا. ويبدو أنه كان في خدمة ألكسيوس فيما مضى رغم أنه لم يكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسيّة، والأرجح أنه حصل، بموافقة الإمبراطور، على لامبورن من الحامية البيزنطية التي لا تقهر، وقام بغارات متكررة في سهل كيليكيا. وفي سنة ١٠٩٧ ميلادية انتهز انشغال الأتراك بتقدم الصليبيين واستولى على جزء من مدينة أدنا. (١) وكانت الجبال الواقعة إلى الشرق من بوابات كيليكيا تحت سيطرة قسطنطين إبن روبين الذي اتخذ مقر رئاسته قلعة بارتزربرت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس. ومنذ أن مات والده، مد سلطانه شرقا باتجاه جبال طوروس المقابلة واستولى على قلعة فاكا العظيمـــة على نهر جوسكو من حاميتها البيزنطية المعزولة. وكان مـــن الأتبـــاع

---

(١) ترد سيرة حياة أوشين عند Matthew of Edessa, II, cli, p. 216. أنظـــر Laurent, "Les Arméniens de Cilicie" في Mélanges Schlumberger, vol. 1, pp. 159-68 واستنادا إلي ما أورده Mathew كان أخو أوشين - Pazouni - لا يزال علي قيد الحياة . وفي Radulph of Caen, XI, pp. 634-5 فإن أوشين يدعي أورسينوس Ursinus .

الغيُورين للكنيسة الأرمينية المنفصلة، وسيرًا على درب أبيه، وكوريث للأسرة المالكة الباجراتية، لم ينس عداء أسرته لبيزنطة، وكان يأمل هو الآخر في أن ينتهز ما وقع فيه الأتراك من حرج ليقيم لنفسه سلطانًا في سهل كيليكيا حيث أغلب السكان من الأرمن بالفعل.(١)

بالدوين وتانكريد يغزوان كيليكيا

وكان بالدوين أوف بولونيا مهتمًا في وقت مضى بالمسألة الأرمينية، وفي نيقية أقام صداقة وثيقة مع أرميني كان من قبل في خدمة الإمبراطور، وهو باجرات أخي كوغ فازيل، الذي انضم إلى رجاله. وربما كان باجرات يأمل في الحصول على مساعدة بالدوين من أجل الإمارات الأرمينية القريبة من الفرات والتي له فيها صلات عائلية.(٢) غير أنه حينما أعلن تانكريد في هرقلة عن نيته في ترك الجيش الرئيسي ليجرب حظه في كيليكيا، رأى بالدوين أنه ليس من الحكمة السماح لأيّ أمير غربي آخر بأن يكون أول من يبدأ مغامرة أرمينية لأنه أراد أن يجني ثمار كونه الصديق البارز لهذا الجنس من الناس. ومن المستبعد أن يكون هو وتانكريد قد توصلا إلى أيّ تفاهم، فكلاهما عضو صغير في عائلة من الأمراء وليس لأيّ منهما أيّ مستقبل في الوطن، كما أفصح كلاهما عن رغبته في تأسيس لوردية في الشرق. بينما عقد بالدوين العزم بالفعل على أن يقيم دولة أرمينية ، كان تانكريد على استعداد لأن يَقرّ في أيّ مكان يتيح له أكبر قدر من الراحة ، وعارض اتخاذ الطريق الدائري إلى قيصرية لأن ذلك كان

---

(١) عن قسطنطين أنظر Matthew of Edessa, *loc. cit.;* Sembat, *Chronicle,* p. 610.

(٢) يذكر Albert of Aix, III, 17, pp. 350-1 سيرة حياة باجرات المبكرة وعلاقته ببالدوين . ويرد ذكر علاقته بكوغ فازيل لدي William of Tyre, VII, 5, vol. 1, pp. 383-4.

اقتراحا بيزنطيا يعود بالفائدة على البيزنطيين. وأتاح له وجود سكان مسيحيين ودودين على مقربة منه فرصة يغتنمها وفي حوالي الخامس عشر من سبتمبر (أيلول) غادر تانكريد معسكر الصليبيين في هرقلة ومعه جماعة صغيرة من مئة فارس ومئتين من المشاة، وتوجه مباشرة إلى بوابات كيليكيا. وانطلق بالدوين بعده على الفور ومعه ابن عمه بالدوين أوف لوبورج ورينالد أوف تول وبطرس أوف ستيناى وخمسمائة فارس وألفين من المشاة. ولم تثقل أي من الحملتين نفسها باصطحاب غير المقاتلين، وبقيت جوديفيير زوجة بالدوين وأولادها مع الجيش الرئيسي. ويبدو أن تانكريد اتخذ الطريق المباشر إلى الممر وهو حتى اليوم نفس طريق السكك الحديدية عبر أولوكيشلا، ولكن بالدوين ومعه جيشه الثقيل فضل الطريق الرئيسي القديم الذي كان يمضي جنوبا إلى بوداندوس على رأس الممر من تيانا والواقع إلى الشرق قليلا. ولذلك كان خلف تانكريد بمسيرة ثلاثة أيام في المضي خلال المضيق.

وعندما هبط تانكريد إلى السهل واصل سيره إلى مدينة طرطوس التي كانت ما تزال المدينة الرئيسية في كيليكيا. وفي نفس الوقت أرسل إلى الجيش الرئيسي طالبا التعزيزات. وكانت هناك حامية تركية تسيطر على طرطوس خرجت على الفور لطرد الغزاة، لكنها ردت على أعقابها، واتصل سكان المدينة المسيحيون من الأرمن واليونانيين بتانكريد متوسلين إليه أن يحتلها ولكن الأتراك صمدوا ثلاثة أيام إلى أن ظهر في الأفق بالدوين وجيشه. فلما وجدوا أن عدوهم يفوقهم عددا انتظروا هبوط الليل وهربوا تحت جنح الظلام، وفي الصباح التالي فتح المسيحيون البوابات لتانكريد، ووصل بالدوين ليجد رايات تانكريد ترفرف على الأبراج. ولم يكن في صحبة تانكريد أي مسئول بيزنطي. ويقينا لم تتوفر لديه النية في تسليم الإمبراطور أية أراض يغزوها، غير أنه اكتشف أن بالدوين منافس أكثر خطورة لا يعبأ، مثله تماما، بالاتفاقية المعقودة في القسطنطينية . وطلب بالدوين أن يكون له السلطان على

طرطوس، وامتلأ تانكريد حنقًا، ولكنه وجد نفسه ضعيفًا أمام غريم يفوقه قوة، فاضطر إلى الموافقة وسحب جنوده وسار شرقًا باتجاه أدنا.

جونيمير أوف بولونيا

ولم يكد بالدوين يستولي على طرطوس حتى وصل ثلاثمائة من النورمانديين أمام المدينة مرسلين من الجيش الرئيسي كمدد لـتانكريد، ورفض بالدوين السماح لهم بالدخول إلى المدينة برغم توسلهم. وبينما كانوا معسكرين خارج المدينة هاجمتهم الحامية التركية السابقة أثناء الليل التي كانت تجوب المنطقة وقتلتهم عن آخرهم. وصدمت الحادثة الصليبيين، وأُلقى اللوم على بالدوين لما لاقوه من مصير ولم يعفه حتى جنوده وأوشك موقفه أن يتضعضع تمامًا لولا أن وصلت أنباء عن ظهور أسطول مسيحي غير متوقع في خليج ميرسن عند مصب نهر سيدنوس أسفل المدينة تمامًا بقيادة جوينمير أوف بولونيا.

وكان جوينمير قرصانًا محترفًا، ومن الفطنة بحيث أدرك أنّ الحرب الصليبية ستكون في حاجة إلى مساعدة بحرية، فجمع رفاقًا له من القراصنة الدانمركيين والفريزين(١) والبلجيكيين، وأبحر من هولندا في وقت متأخر من الربيع، وحينما وصل إلى بحار الشرق أخذ يسعى في إجراء اتصال بالصليبيين. وكان يحمل عاطفة إخلاص لمدينته، ولذلك سره أن يجد جيشًا قريبًا منه يقوده أخو كونت مدينته، فأبحر أعلى النهر إلى طرطوس، وقدم احترامه لـبالدوين. وردًا على ذلك أخذ منه بالدوين ثلاثمائة من رجاله ليكونوا حامية المدينة، وربما جعل جوينيمير نائبًا عنه في المدينة بينما أعد العدة

---

(١) (المترجم) : سكان فريزلاند ، وهي مجموعة من الجزر بالقرب من ساحل بحر الشمال ، ومقسمة بين الدانمرك وألمانيا وهولندا .

لمواصلة السير إلى الشرق.

وفي تلك الأثناء وجد تانكريد مدينة أدنا في حالة من الاضطراب. إذ أن أوشين أوف لامبرن أغار عليها مؤخرا وترك هناك قوة تنازع الأتراك عليها. بينما كان هناك فارس بورجندي يدعى ويلف، ربما بدأ الرحلة مع جيش بالدوين ثم انشق عليه ليرى ماذا يمكنه أن يجني لنفسه واشترك هو الآخر في الصراع على أدنا، واستطاع أن يشق طريقه إليها ويحتل القلعة. وعند وصول تانكريد انسحب الأتراك، ورحب ويلف بجنود تانكريد في القلعة وتعززت سيطرته على المدينة، وأغلب الظن أن أوشين لم يكن مهتما سوى بإخراج رجاله من مغامرة لا تخلو من خطورة، وشعر بالامتنان لتدخل تانكريد، لكنه استحثه على مواصلة المسير إلى ماميسترا (موبسويستا القديمة)، حيث يتلهف السكان الأرمن كلهم إلى الخلاص من الأتراك. وكان تواقا لرؤية الفرنجة ينتقلون إلى مجال النفوذ الذي يطمع فيه غريمه قسطنطين الروبيني.

ووصل تانكريد إلى ماميسترا في وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وكما حدث في أدنا هرب الأتراك فور ظهوره ورحب به المسيحيون وأدخلوه المدينة. وأثناء وجوده أتى بالدوين وجيشه، ويبدو أن بالدوين قرر بالفعل أن إمارته التي يريدها لن تكون في كيليكيا; ومن الجائز أن صرفه مناخ سبتمبر (أيلول) بما فيه من أبخرة وملاريا، وربما شعر أنها على مقربة من قوة الإمبراطور المتزايدة. واستحثه مستشاره باجرات على المضي شرقا حيث أن الأرمن يطلبون عونه. ومهما يكن الأمر فقد قضي على الفرصة التي أتيحت لتانكريد لتأسيس دولة كيليكية قوية. واتخذ طريق العودة إلى الجيش الرئيسي ليتبادل المشورة مع أخيه وأصحابه قبل الشروع في حملة جديدة. على أن الريبة داخلته، ولذا لم يدع بالدوين يدخل ماميسترا، وأجبره على أن يضرب معسكره على الجانب البعيد من نهر جيهان. وكان على استعداد، مع ذلك، لأن يسمح بإرسال الأطعمة من المدينة إلى المعسكر . ولكن الكثيرين من النورمانديين ، وعلى

رأسهم ريتشارد أوف برينسيبات زوج أخت تانكريد، لم يحتملوا أن يفلت بـــالدوين دون عقاب على جريمته في طرطوس. فحرضوا تانكريد على الاشتراك معهم في هجوم مفاجئ على معسكره. وكانت خطوة تخلو من الحكمة; فجنوده بلغوا من العدد والقوة ما لا قبل لهم به وسرعان ما ردهم على أعقابهم في فوضى عبر النهر. وأدى الصـــراع الذي لا طائل منه إلى ردة فعل، فأفسح بالدوين وتانكريد المجال للصلح فيما بينـــهما.

ولكن الضرر وقع. إن من دواعي الألم أن يصبح جليا أن الأمراء الصليبيين ليسوا على استعداد للتعاون من أجل خير العالم المسيحي حينما تلوح فرصـــة اغتنـــام ممتلكـــات خاصة، وسرعان ما تحقق المسيحيون ــ من أبناء البلاد ــ من أن تحـــرك مخلصيـــهم الفرنجة من منطلق مشاعر الإيثار إن هو إلا تحرك مصطنع، وتعلموا أن خـــير وأيســـر وسيلة للاستفادة من الفرنجة هي الإيقاع بينهم.(١)

بالدوين وتانكريد يغادران كيليكيا

وبعد التصالح الذي حدث في ماميسترا أسرع بالدوين إلى الجيـــش الرئيســـي في مرعش عند مجيئ الأنباء بأن زوجته تحتضر. ويبدو أنّ أولاده كانوا مرضـــى كذلـــك، ولن يطول بقاؤهم على قيد الحياة، ولبث بالدوين أيامًا قليلة مع إخوته وغـــيرهم مـــن قادة الجيش. وعندما شرعت القوة الرئيسية للجيش في الارتحال جنوبًا إلـــى أنطاكيـــة

---

(١) ترد قصة الحملة علي كيليكيا مفصلة عند Albert of Aix, III, 5-17, pp. 342-50 ، وكذلـــك Radulph of Caen, XXXIII .XLVII. pp. 629-41 وهناك رواية أقصر تتعاطف مع تانكريد ترد في *Gesta Francorum*, IV, 10, pp. 55-60 ويقول Radulph (p. 634) إن أورسينوس (أوشين) احتفظ بأدنا بعد ذلك ، لكن Albert (p. 346) يقول إنها كانت من إملاك ويلف Welf ويذكر Albert (pp. 348-9) وصول Guynemer .

تركـــه وذهـــب إلى الشرق ليجرب حظه في وادي الفرات والأراضي الواقعة ورائـــه. وارتحلت معه جماعة أصغر بكثير من تلك التي صحبته في حملة كيليكيا. ربمـــا لأنـــه لم يسترد شعبيته كقائد بسبب أحداث طرطوس، وربما لأن إخوته لم يتمكنوا من التخلي عن الجنود لتلهفهم على احتلال أنطاكية، فصحبه مائة فارس فقط. على أن مســـتشاره الأرميني باجرات كان ما يزال معه، وقد أضاف إلى أتباعه قسيسا جديدا هو المـــؤرخ فولشر أوف تشارترز.(١)

و لم يمكث تانكريد طويلا في ماميسترا بعد رحيل بالدوين. وبعد أن ترك فيـــها حامية صغيرة تحول جنوبا حول رأس خليج إيسوس إلى الإسكندرونة. وأرســـل أثنـــاء الرحلة مبعوثين إلى جوينمير طالبا تعاونه، وأغلب الظن أن مقر رئاسة جوينمير كان ما يزال في طرطوس. واستجاب جوينمير في سعادة وجاء مع أسطوله ليلحق تانكريد أمام الإسكندرونة. وأسفر الهجوم المشترك عن استيلاء تانكريد على المدينة. فـــترك فيـــها حامية ثم مضى فوق سلسلة جبال الأمانوس عبر البوابات السورية ليلحـــق بـــالجيش المسيحي أمام أنطاكية.(٢)

و لم يكن لمغامرة كيليكيا سوى القليل من النفع لـــبالدوين أو تانكريد. إذ وجـــد كل منهما أن الأمر لا يستحق تأسيس دولة هناك، فلن تتمكـــن الحاميـــات الفرنجيـــة الصغيرة في المدن الثلاث : حامية جوينمير في طرطوس ، أو حامية ويلف في أدنـــا ، أو

---

(١) طبقا لما ذكره Matthew of Edessa, II, cliv, p. 219 كان مع بالدوين ١٠٠٠ خيـــال عندمـــا استولى علي تل بشير و٦٠ عندما واصل مسيرته إلي الرها . ويقول فولشر أوف تشارترز الذي كـــان برفقته (1,xiv, 2, p.206, 15,p. 215) إنه كان معه القليل من الجنود "milites paucos" عندما انطلق (1, xiv, 4, p.208) وثمانين عندما عبر نهر الفرات (1, xiv, 7, p. 210).

(٢) William of Tyre, III, 25, 1, p. 149 يقول إن البحارة بقوا مع تانكريد .

حامية تانكريد في ماميسترا، من أن تتحمل هجوما جادا. ومع ذلك، كان لتبعثر الحاميات التركية بعض النفع للحرب الصليبية عموما، فذلك يحـــول دون اســـتخدام كيليكيا كقاعدة يستطيع الأتراك أن يشنوا منها هجوما جانبيا علـــى الفرنجـــة أثنـــاء عملياتهم الحربية في أنطاكية، بينما أتاح الاستيلاء على الإسكندرونة ميناء نافعا للفرنجة تستطيع الإمدادات أن تمر من خلاله. على أن المنتفعين الرئيسيين من هذا الأمـــر هـــم الأمراء الأرمن في التلال. إذ أن انهيار القوة التركية في السهل مكنهم مـــن التوغـــل في القرى والمدن شيئا فشيئا، ومن ترسيخ دعائم مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا.

وكان الجيش الرئيسي على وشك الانطلاق من مرعش جنوبا إلى أنطاكية عندما تركه بالدوين الذي اتخذ في بداية الأمر طريقا موازيا على بعد أميال قليلة إلى الشـــرق حتى يمكن حماية الميسرة. وربما حصل بالدوين على الإذن بالانفصـــال عـــن الجيـــش الرئيسي للقيام بتلك المهمة. وفي واقع الأمر كان بإمكانه تبرير حملته كلها على أنهـــا توفر الحماية للحرب الصليبية؛ فأسهل طريق لوصول الإمـــدادات مـــن خراســـان إلى الأتراك في أنطاكية يخترق المناطق التي ينوي غزوها، وفضلا عن ذلك فهي مناطق غنيـــة يمكن أن تزود الحرب الصليبية بما تتطلبه من إمدادات الطعام.

بالدوين يتقدم إلى الفرات

وفي عنتاب تحول بالدوين إلى الشرق. ومن المشكوك فيه ما إذا كانت لديه أيـــة خطة عمل مدروسة بخلاف تصميمه عموما على تأسيس إمارة في الفرات تكـــون ذات نفع له وللحركة الصليبية كلها. وكانت الظروف مواتية؛ فلن يكون لزامـــا عليـــه أن ينتزع البلاد من الكفرة، فهي بالفعل في حوزة الأصدقاء الأرمن، وهو علـــى اتصـــال بأمرائها منهم. فمن خلال باجرات لابد وأن يكون قد أقام علاقات مع أخيـــه كـــوغ فازيل الذي كانت لورديته تقع إلى الشرق من مرعش . وربما كان جابرييل في ملطيـــة

متلهفا على مساعدة الفرنجة وأمامه الخطر الدائم من الأتراك الدانشمند، بينما من المؤكد أن ثوروس في الرها على اتصال بالصليبيين. وقيل إن قرار بالدوين بالرحيل عن كيليكيا كان بسبب رسالة تلقاها هو أو باجرات من ثوروس يدعوه فيها إلى الرها بصفة عاجلة، وكان الأرمن منذ زمن طويل يأملون في أن يغيثهم الغرب. فقبل ذلك بعشرين عاما، حينما عرف أن البابا جريجوري السابع يفكر في إرسال حملة لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي، سافر أحد الأساقفة الأرمن إلى روما ليحظى باهتمامه.(١) وكان الخلفاء الغربيون يحظون بجاذبية عند الأرمن ـــ بمن فيهم الأمراء الذين يحملون ألقابا بيزنطية ـــ تفوق أي شيء يزيد من اعتمادهم على الإمبراطورية البيزنطية المقيتة. ووجود جيش من الفرنجة يحرز انتصارات للعالم المسيحي على حدودهم ذاتها أتاح لهم فرصة كانوا يبتهلون من أجلها كي يحققوا استقلالهم النهائي عن السيطرة التركية والبيزنطية على السواء؛ فرحبوا ببالدوين ورجاله بشدة على أنهم محرروهم.

ونحن على علم في الوقت الحاضر بألا نثق في لفظة التحرير التي توحي بالأمل، وهذا درس تعلمه الأرمن من قبلنا. وعندما تحرك بالدوين نحو الفرات هب السكان الأرمن لتحيته، وفرت بعض الحاميات التركية التي كانت في المنطقة وقضى المسيحيون على بعضها الآخر. وحاول الأمير التركي الوحيد ذو الأهمية في المنطقة، بلدق أمير سميساط، الذي يسيطر على الطريق المؤدية من الرها إلى ملطية أن يتدبر أمر المقاومة ولكنه لم يستطع اتخاذ أي إجراء هجومي. وانضم إلى بالدوين اثنان من النبلاء الأرمن المحليين مع قواتهما الصغيرة، وكان اللاتينيون يطلقون عليهما فير ونيكوسوس. وفي وقت مبكر من شتاء ١٠٩٧ ميلادية استكمل بالدوين غزوه للأراضي الممتدة حتى الفرات ، واستولى على القلعتين الرئيسيتين رفندل وتيربسيل ، وهذان الاسمان

---

(١) Letter of Gregory in Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, VIII, I, *Bibliotheca Rermanicarum*, vol. II, pp. 423-4

حورهما اللاتينيون عن الأسماء العربية رواندان وتل بشير، وعيّن مستشاره الأرميني باجرات حاكمًا على رواندان التي كانت تتحكم في طريق مواصلاته مع أنطاكية، بينما عيّن الأرميني فير حاكمًا على تل بشير. وهي قلعة هامة لأنها تقع بالقرب من المخاضة ذات الأهمية التاريخية التي تعبر نهر الفرات عند كارشيميش.(١)

وعندما كان بالدوين في تل بشير في أول السنة الجديدة، وصلته سفارة من الرها؛ إذ نفد صبر ثوروس لتأخر وصول الفرنجة الذين يراهم متباطئين على الضفة الغربية لنهر الفرات، وكان موقفه مزعزعًا، واشتد شعوره بالخطر حينما علم أنّ كربوقا، أمير الموصل التركي المرعب، يحشد جيشًا هائلاً لنجدة أنطاكية وبإمكانه أن يكتسح في طريقه دون مشقة الرها وغيرها من الدويلات الأرمينية. بيد أنّ بالدوين لم يكن ليذهب إلى الرها إلاّ بشروط تناسبه، وكان ثوروس يتوقع أن يستغل بالدوين كمرتزق يكافئه بالمال والعطايا، ولكن أصبح جليًا الآن أنّ بالدوين يريد أكثر من ذلك. فخوّلت سفارة الرها في تل بشير بأن تعرض المزيد الذي يتمثل في أن ثوروس سوف يتخذ بالدوين ابنًا ووريثًا، وفي أنه سوف يشركه من فوره في حكم أراضيه. ولما كان ثوروس لم يعقب ولدًا وأخذ يطعن في السن بدا له ذلك على أنه الحل الوحيد. ولو وسعه الاختيار لما اختار، بيد أنه كان يفتقد الشعبية في وطنه، ويتهدده جيرانه.(٢) وبخلاف غالبية الأرمن قصيري النظر استشعرت القِلّة الباقية منهم القلق من جرّاء ذلك؛ فليس من أجل ذلك سعى باجرات إلى تطويع بالدوين في الشُؤون الأرمينية، فكان باجرات نفسه أول من أظهر عدم موافقته على ذلك. وعندما كان الفرنجة في تل بشير قال فير ـــ الذي كان بلا شكّ يرغب في أن يخلف باجرات في استحواذه على ثقة

---

(١) Albert of Aix, III, 17-18, pp. 35-1

(٢) Albert of Aix, III, 19, p. 352; Fulcher of Chartres, 1, xiv, 5-6, pp. 209-10; Matthew of Edessa, II, cliv, pp. 218-21 Laurent, *op. cit.* pp. 418-23

بالدوين ــ إن باجرات يحيك الدسائس مع الأتراك، والأرجح أن دسائسه تلك لم تكن سوى مشاوراته المتبادلة مع أخيه كوغ فازيل حول ذلك التهديد الجديد للحرية الأرمينية. وربما كان يأمل كذلك في أن يجعل نفسه أميرا على رواندان. ولم يتردد بالدوين فدفع بالجنود إلى رواندان وألقوا القبض على باجرات وأحضروه للمثول أمامه، وعذبوه ليعترف بما اقترفه. ولم يكن لديه ما يعترف به، وسرعان ما هرب متخذا من الجبال ملاذا تحت حماية أخيه كوغ فازيل إلى أن اضطر هو الآخر أن يلحق به في البرية.(١)

الحملة على سميساط

وفي بداية فبراير (شباط) سنة ١٠٩٨ ميلادية غادر بالدوين تل بشير إلى الرها، ولم يكن معه سوى ثمانين فارسا. وأعد له أتراك سميساط كمينا في المكان الذي كانوا يتوقعون أن يعبر فيه نهر الفرات، والأغلب أنه في برجيك، غير أنه خدعهم وانحرف إلى مخاضة أخرى أبعد إلى الشمال. ووصل إلى الرها في السادس من فبراير (شباط) حيث استقبله ثوروس والسكان المسيحيون كلهم ببالغ الحماس، وتبناه ثوروس رسميا من فوره. وكان الاحتفال تبعا للطقوس الأرمينية المعتادة ــ في ذلك الوقت ــ يلائم تبني الطفل الصغير وليس الرجل اليافع، فقد جرد بالدوين من ملابسه إلى الوسط، بينما ارتدى ثوروس قميصا فضفاضا يتسع لشخصين، ثم قام بتمرير القميص من فوق رأس بالدوين بحيث يمكن للأب والابن الجديدين أن يحكا صدريهما العاريين المتقابلين. ثم أعاد بالدوين هذا المشهد مع الأميرة زوجة ثوروس.(٢)

---

(١) Albert of Aix, III, 18, p. 351

(٢) Albert of Aix,III,19-21,pp.352-4; Fulcher of Chartres, 1,xiv,7-12,pp.210-13

كما أن Guibert, xiv, p. 165 يصف احتفال التبني .

وبعد تنصيب بالدوين وريثا وشريكا في الوصاية على الملك في الرها، رأى أن أول ما ينبغي عمله هو تدبير الإمارة التركية في سميساط، إذ أنها تستطيع بغاية اليسر أن تعترض اتصاله مع الغرب. وشجع أبناء الرها في غبطة خطته لتجريد حملة، لاسيما وأن الأمير بلدق كان أقرب أعدائهم وأكثرهم عنادا، وكان دائم الإغارة على قطعان دوابهم وحقولهم وأحيانا يجبي الجزية من المدينة ذاتها. وخرجت ميليشيات الرها تصاحب بالدوين وفرسانه إلى سميساط، ولم تنجح الحملة التي تمت فيما بين الرابع عشر والعشرين من فبراير (شباط)؛ إذ كان أهل الرها ضعفاء من الناحية العسكرية. وفاجأهم الأتراك وقتلوا منهم ألفا مما اضطر الجيش إلى الانسحاب. غير أن بالدوين استولى على قرية سان جون الواقعة بالقرب من عاصمة الأمير، وحصنها وأبقى فيها الجزء الأكبر من فرسانه لمراقبة تحركات الأتراك؛ ونتيجة لذلك تناقص عدد الغارات التركية مما حدا بالأرمن إلى إرجاع الفضل في ذلك إلى بالدوين.(١)

بالدوين وثوروس

وبعد عودة بالدوين إلى الرها بوقت قصير سرعان ما تولدت في المدينة مؤامرة ضد ثوروس بتشجيع من قسطنطين أوف جارجار. ولا نعرف إلى أي مدى كان بالدوين متورطا في تلك المؤامرة؛ إذ أنكرها أصدقاؤه، ولكن طبقا لشهادة الكاتب الأرميني ماثيو فإن المتآمرين أخبروا بالدوين بنيتهم في خلع ثوروس عن العرش لصالحه. ولم يكن أهل الرها يكنون حبا لثوروس، أو امتنانا لكل ما بذله من أجل المحافظة على استقلال مدينتهم ، وقد كرهوه لتبعيته للكنيسة الأرثوذكسية ولكونه مسئولا ذا

---

(١) Albert of Aix, III,21,pp.353-4 ويقول Matthew of Edessa, II,cliv,pp.218-21 إن الحملة كانت كارثة .

لقب في الإمبراطورية . وكان عاجزًا عن حماية محاصيلهم وبضائعهم من المغيرين، وكان ينتزع منهم ضرائب باهظة، غير أنه لم يكن بوسعهم الاستغناء عنه إلى أن ظهر بالدوين الذي رأوا فيه حاميًا أكثر اقتدارًا. ولذلك لم يكن الفرنجة في حاجة إلى التحريض على مؤامرة، على أنه من الصعب الاعتقاد بأنّ المتآمرين لم يكونوا ليذهبوا إلى هذا الحد دون أن يحصلوا على موافقة الفرنجة. وفي يوم الأحد السابع من مارس (آذار) ضرب المتآمرون ضربتهم، فحركوا الدهماء لمهاجمة منازل المسئولين التابعين لثوروس، ثم ساروا إلى قصر الأمير في القلعة. ونظر ثوروس فوجد أنّ جنوده قد هجروه، ولم يخفّ ابنه الذي تبناه لنجدته وإنما قدم له نصيحة بالاستسلام، فوافق ولم يطلب سوى السماح له ولزوجته بالذهاب إلى أبيها في ملطية. وبرغم أن بالدوين ضمن حياته في الظاهر فإنه لم يسمح له بالرحيل، وهكذا وجد نفسه سجينا في قصره، فحاول الفرار من النافذة يوم الثلاثاء، ولكن الجماهير أمسكت به وقطعته إربا. ولا يعرف مصير الأميرة أم بالدوين بالتبني، وفي يوم الأربعاء العاشر من مارس (آذار) وجه أهل الرها الدعوة إلى بالدوين ليتولى الحكومة.

ولقد حقق بالدوين ما كان يطمع فيه من الحصول على إمارة. وليست الرها في واقع الأمر في الأراضي المقدسة، ولكن وجود دولة فرنجية في وسط الفرات قد يكون عاملا ذا قيمة من عوامل الدفاع عن أية دولة تقام في فلسطين. واستطاع بالدوين أن يبرر مسلكه في إطار مقتضيات السياسة العامة للحملة الصليبية، ولكنه لا يستطيع أن يبرر مسلكه تبريرا شرعيا أمام العالم المسيحي كله. إذ أن الرها كانت تابعة للإمبراطور قبل الغزوات التركية وينسحب عليها قسم الولاء الذي أقسمه في القسطنطينية. وفضلا عن ذلك، فإنه قد حصل عليها بعزل حاكمها والإغضاء عن قتله، وقد كان من الناحية الرسمية على الأقل خادما للإمبراطورية معترفا به من قبلها. غير أن بالدوين أظهر بالفعل في كيليكيا أن القسم الذي أقسمه لا يعني شيئا بالنسبة له، بينما في الرها كان ثوروس نفسه على استعداد لأن يتخلى عن حقوقه دون الرجوع إلى سيده البعيد. ومع ذلك،

فإنّ الأمر لم يفت على ألكسيوس الذي احتفظ بحقوقه إلى أن يصبح في وضع يمكنه من فرضها بالقوة.

وعندما أصبح من الواضح أنّ سيطرة الفرنجة تسببت في الدمار الشامل للأرمن المقيمين في الفرات، أدان المؤرخون الأرمن المتأخرون بالدوين إدانة قاسية، ولكنهم لم يتوخّوا العدالة; لاقتصارهم على هذا السبب دون غيره. فليس ثمة مبرر أخلاقي لصنيع بالدوين بثوروس على نحو ما يظهره المؤرخون اللاتينيون الذين يستشعرون الحرج. وتصرف ثوروس بطريقة مماثلة مع الفيلاق التركي عندما دعاه قبل ثلاث أو أربع سنوات ثم تسبب في قتله، ولكن تصرفه ذاك كان لإنقاذ مدينته وشعبه من طغيان الكفرة. و لم يكن لفيلاق أباه بالتبني، ومن الحق أنّ التبني في الأعراف الأرمينية يقل خطورة عنه في القانون الغربي، وليس ذلك بالمبرر الذي يخفف مما اقترفه بالدوين من إثم أخلاقي. على أنه لا ينبغي للأرمن أن يلقوا عليه باللائمة; ذلك أن مقتل ثوروس تم في واقع الأمر بأيدي الأرمن أنفسهم الذين دعوا بالدوين ليحل محله بموافقة توشك أن تكون إجماعية من الجنس الأرميني كله. وأما الأمراء الأرمن الذين لم يثقوا في جدوى المساعدة الصليبية، والذين أبعدهم الصليبيون، فكانوا في خدمة الإمبراطور في الأيام الخوالي، وكانوا مكروهين من أبناء جلدتهم بسبب ولائهم للإمبراطور، بل والأكثر من ذلك لأنهم من أتباع الكنيسة الأرثوذوكسية. و لم يكن هناك من يتوفر لديه القدر الكافي من خبرة الحكم للحفاظ على بقاء الاستقلال الأرميني في الفرات سوى المسئولين البيزنطيين السابقين من أمثال ثوروس وجابرييل. ولكن رعاياهم الجاحدين، بما يحملونه من كراهية لبيزنطة، وباستعدادهم لأن يغفروا للاتيني ما لا يستطيعون

اغتفاره لليوناني من أخطاء هرطقية تسمه بالإدانة الأبدية، لا يلومون إلا أنفسهم عندما يغويهم أصدقاؤهم الفرنجة ويجرونهم إلى الكارثة.(١)

وتوردت الحياة في عيني بالدوين الذي اتخذ لنفسه لقب كونت الرها. وبات واضحا أنه ينوي أن يحكم بمفرده. ولكن جنوده من الفرنجة كانوا قليلي العدد ولابد له من الاعتماد على الأرمن ليعملوا في خدمته. ووجد البعض ممن يضع فيهم ثقته. وأصبح الأمر أيسر بعد اكتشاف مخزن مليئ بالكنوز في القلعة يرجع تاريخ الكثير منها إلى أيام البيزنطيين، وكان ثوروس قد زاد من ضخامتها بما فرضه من ضرائب. ومكنت هذه الثروة الجديدة بالدوين من شراء المؤيدين، ليس هذا وحسب، وإنما مكنته كذلك من تحقيق ضربة دبلوماسية كبيرة; إذ أن الأمير بلدق، أمير سميساط، تملكه الخوف من أنباء تولي بالدوين الحكم. وعندما رأى الترتيبات تجرى على قدم وساق لشن هجوم جديد على عاصمته أسرع بإرسال مبعوثيه إلى الرها عارضا بيع إمارته بمبلغ عشرة آلاف بيزنتة(٢)، فقبل بالدوين ودخل سميساط دخول الفاتحين. ووجد في قلعتها الكثير من الرهائن الذين أخذهم بلدق من الرها، فأعادهم إلى عائلاتهم من فوره. وكان لهذا التصرف، فضلا عن القضاء على التهديد التركي لسميساط، أن أضاف إلى شعبيته إضافة هائلة. ووجه الدعوة إلى بلدق وحرسه الخاص للإقامة في الرها كمرتزقة للكونت.(٣)

---

(١) يؤكد Matthew of Edessa, *loc. cit.* خيانة بالدوين ؛ Fulcher of Chartres, 1,xiv,13-14,pp. 213-15 الذي تتصف روايته بأنها قصيرة وبالأحري محرجة ؛ Albert of Aix,III,22-3,pp. 354-5 أنظر Laurent, *op. cit.* pp . 428-3 وهو يري علي نحو مقنع أن ماثيو كان حاضرا في الرها في ذلك الوقت .

(٢) (المترجم) : بيزنته Bezant : عملة ذهبية أو فضية واسمها مشتق من بيزنطة .

(٣) Albert of Aix, III, pp. 355-6

زواج بالدوين

وذاعت أنباء نجاح بالدوين في الآفاق. وتحول بعض فرسان الغرب عن طريقهم لتعزيز الجيش الصليبي في أنطاكية ليشاركوا بالدوين مغنمه. بينما ترك فرسان آخرون حصار أنطاكية الكئيب ليلحقوا به، وكان من بينهم دروجو أوف نيسل وريتالد أوف تول وجاستون أوف بيارن تابع ريموند، وكافأهم بالدوين بهدايا لائقة من خزانته. ولكي يساعدهم على الاستقرار شجعهم على الزواج من الأرمينيات الوارثات ذوات الثروات وضرب هو بنفسه المثل، فهو الآن أرمل لا ولد له. وكانت زوجته الجديدة هي إبنة أحد الأعيان الذي يعرفه المؤرخون اللاتينيون باسم تافنوز أو تافروك، وكان أميرًا ثريًا يمتلك الأراضي في الجوار. ومن الواضح أنه كانت له علاقة بقسطنطين أوف جارجار، كما كانت له علاقات بالقسطنطينية التي لجأ إليها في نهاية الأمر، وربما كان هو نفسه ثاتول حاكم مرعش. ولا شكّ في أن التحالف معه سيكون ذا قيمة كبيرة لبالدوين، الذي منح ابنته مهرًا قدره ستين ألف بيزنتة ووعدًا مبهمًا بأنها سترث أراضيه، غير أنّ الزواج لم يسعدها، كما لم يثمر ذريّة.(١)

---

(١) ليس في الإمكان تحديد شخصية حمي بالدوين في الواقع ؛ فيطلق عليه Albert of Aix, III, 31,p.361 تفنوز Taphnuz ويقول إنه كان أخا قسطنطين . ويطلق عليه William of Tyre, x, I, 1,p. 402 تفروك Tafrocويفترض Dulaurier,p.431n. 2 في نشرته لماثيو الأورفي ، أنه لابد وأن يكون أخا لقسطنطين الروبيني الذي يدعي ثوروس Thoros ؛ لكنه يعترف بأن قسطنطين لم يكن يعرف له أخ بذلك الاسم . ويقبل Hagenmeyer,p.421n 7 في نشرته لفولشر أوف تشارترز ، هذا الوضع . علي أنه من الواضح أن قسطنطين الذي كان يعنيه ألبرت هو قسطنطين الجارجاري Constantine) Gargar) ويوحي مقال Honigmann المعنون " مرعش Marash " في دائرة المعارف الإسلامية *Encylopaedia of Islan* إن تفنوز Taphnuz هو في الواقع ثاتول Thatoul ويؤيد ذلك أننا نعرف أن ثاتول تقاعد في القسطنطينية سنة ١١٠٤م (Matthew of Edessa, III,clxxxvi,p.257)=

وهكذا وضع بالدوين المبادئ الأساسية التي أرساها فيما بعد لمملكة القدس. وتقضي هذه المبادئ بأن يظل زمام الحكومة في يد الأمير الفرنجي وأتباعه من الفرنج، على أن يدعى الشرقيون من المسيحيين والمسلمين لكي يقوموا بدورهم في دولة تنصهر فيها أجناس شتى انصهارا شاملا بحيث تمتزج في النهاية في كيان واحد متكامل. كانت تلك سياسة رجل دولة ذي بصيرة ثاقبة. على أنه بالنسبة للفرسان القادمين حديثا من الذين تعهدوا بأن يهبوا أنفسهم للصليب ويجتثوا شأفة الكفرة؛ فقد رأوا أن هذا الأمر يوشك أن يكون خيانة للعهد عند الصليبي. على أن البابا إيربان لم يكن ليستنهض المؤمنين في كليرمونت كي يقيم ملكا لـبالدوين وأمثاله في ممالك شبه شرقية.

وفي بادئ الأمر، لم تكن تلك بالسياسة التي يسهل اتباعها. إذ نظر المسلمون إلى بالدوين على أنه مغامر عابر قد يُستفاد به. وكانت مدينة سروج المسلمة تقع جنوب غرب الرها باتجاه الفرات، وكانت مدينة تابعة للأمير الأرتقي بلق إبن بهرام ولكنها تمردت عليه مؤخرًا، فكتب بلق إلى بالدوين طالبًا استئجار خدماته لإخضاعها. ووافق بالدوين على إنجاز تلك المهمة وقد ابتهج لتلك الفرصة التي أتيحت له على هذا النحو. وأرسل مواطنو سروج إلى بلدق سرًا لكي يأتي لإنقاذهم، فخرج بلدق من الرها متسللاً واستقبله أبناء سروج. ولكن بالدوين تبعه مصطحبًا معه عددًا من آلات الحصار، فأصيب بلدق ورجال سروج بالهلع؛ وعرضوا على الفور تسليم مدينتهم إليه

-- وأن زوجة بالدوين طلبت الإذن بالانضمام إلى والديها في القسطنطينية فور أن نبذها سنة ١١٠٤م (William of Tyre,XI, I, 1, pp. 451-2) وليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن كان لها اسم أردا Arda الذي يطلق عليها أحياناً . أنظر Hagenmyer's edition of Fulcher, *loc. cit.* ويذكر Albert of Aix, v, 15,pp. 441-2 أسماء الفرسان الذين انضموا إلي بالدوين .

ودفع إتاوة. وخرج بلدق لمقابلته معلنا أنه إنما أسرع أمامه ليستولي له على المدينة. ولم ينخدع بالدوين، وإنما قبل اعتذار بلدق وأظهر له الود، ولكنه طلب بعد أيام قلائل تسليم زوجته وأولاده كرهائن، وعندما اعترض بلدق اعتقله وأطاح برأسه. وفي تلك الأثناء وضعت حامية فرنجية في سروج بقيادة فولك أوف تشارترز، وهو شخص آخر غير فولشر المؤرخ. وقد تعلم بالدوين من تلك الحادثة أنه لا يسعه أن يثق في المسلمين، وعمل منذ ذلك الحين على ألا يسكن القادة منهم في أراضيه وسمح لهم بحرية العبادة. ولا يسعه أن يفعل غير ذلك في حالة استيلائه على مدينة مثل سروج يتألف سكانها كلهم تقريبا من العرب والمسلمين، على أن تسامحه هذا صدم الرأي العام الغربي.(١)

وتعززت كونتية بالدوين بعد الاستيلاء على سروج، ثم الاستيلاء بعد ذلك بأشهر قليلة على برجيك بمخاضتها على نهر الفرات، ثم بتطهير الطرق بين الرها وقلعتي تل بشير وروانداان، مما أدى إلى تأمين خطوط مواصلاته مع الحملة الصليبية الرئيسية. وفي ذات الوقت تعلم المسلمون أن كونت الرها قوة لا يستهان بها وركزوا على تدميره. وتبينت قيمة تصميمهم، وما يمكن أن يكون لسيطرة الفرنجة على الرها من أثر في الحروب الصليبية، عندما توقف كربوقا في مايو (أيار) ــ وهو في طريقه إلى انقاذ أنطاكية ــ ليقضي على بالدوين. ذلك أنه قضى ثلاثة أسابيع يقاتل دون جدوى أمام أسوار الرها ثم تخلى عن هجومه عليها. فزاد فشله من هيبة بالدوين؛ وأدى ضياع الوقت في حصاره للرها إلى إنقاذ الحملة الصليبية.(٢)

المؤامرة ضد بالدوين

واستاءوا من تدفق الفرسان الفرنجة على أراضيهم ومما كان يتفضل به بالدوين

---

(١) Albert of Aix, III, 25, pp. 356-7.

(٢) *Idem,* IV, 10-12, pp. 396-7; Fulcher of Chartres, 1, xix, pp. 242-3; Matthew of Edessa, II, clv, p. 221.

عليهم. و لم يكن الفرسان الفرنجة يتلطفون مع الأرمن وإنّما كانوا يعاملوهم بـالازدراء حينًا وبالعنف أحيانًا. ووجد وجهاء الرها أنفسهم مبعدين من مجلس الكونت الذي كان يضم الفرنجة فقط، ووجدوا أنّ الضرائب لا تقل عما كانوا يدفعونه أيام ثوروس، وفضلاً عن ذلك كانت الضياع الأرمينية داخل البلاد تُمنح للقادمين الجدد، والمزارعون مجبرون على العمل فيها كما تقضي الأعراف الإقطاعية الغربية المتشددة. وفي وقت متأخر من سنة ١٠٩٨ ميلادية كشف أحد الأرمن لبالدوين عن مؤامرة تستهدف حياته، وقيل إن اثني عشر مواطنًا من مواطني المدينة البارزين كانوا على اتصال بأمراء الأتراك في منطقة ديار بكر. وكان تافنوز صهر بالدوين في الرها آنذاك و لم يكن قد مضى على زفاف إبنته سوى فترة وجيزة، وتردد أنّ المتآمرين كانوا يريدون تنصيبه في مكان بالدوين أو على الأقل إجبار بالدوين على إشراكه في الحكم. وما أن سمع بالدوين بتلك المؤامرة حتى ضرب ضربته في الحال؛ فتم القبض على زعيمي المتآمرين وفُقئت أعينهما، وأمّا شركاؤهما الرئيسيون فقطعت أنوفهم أو أقدامهم، وألقي بعدد كبير من الأرمن الذين حامت حولهم الشكوك في غياهب السجون وصودرت أملاكهم، لكنهم حريًا على ما طبع عليه الشرقيون من المتصفين بالحكمة كانوا قد أخفوا أموالهم بعناية تسبب الحيرة لمفتشي بالدوين. لذا كان بالدوين كريمًا معهم فسمح لهم بشراء حريتهم بمبالغ تتراوح بين عشرين ألف إلى ستين ألف بيزنتة للفرد. وعلى الرغم من عدم إثبات اشتراك تافنوز في المؤامرة فقد رأي أنه من الحكمة أن يسرع عائدا إلى الجبال بعيدا عن زوج ابنته المرعب، وأخذ معه الجزء الأعظم من مهر الكونتيسة الذي لم يسبق أن دفع منه سوى سبعمائة بيزنتة.(١)

وهكذا سحق بالدوين المؤامرة بشراسة فوضع حدا لمخاطر رعيته الأرمن، واستمر مع ذلك في الاستعانة بالقليل منهم في المناصب العليا مثل أبي الغريب الذي جعله

---

(١) Albert of Aix, v, 16-18, pp. 442-3٠

حاكمًا على برحيك. على أنه بانضمام المزيد من الفرنجة الذين حذبتهم شهرته إليه كان بوسعه تجاهل الشرقيين، وها هي شهرته الآن، بعد أقل من سنة من مجيئه إلى الرها، قد غدت هائلة بالفعل. وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي الرئيسي يشـــق طريقــه الصعب نحو القدس، كان بالدوين قد أرسى دعائم دولة غنية قوية في عمق آسيا ممـــا حعل العالم الشرقي كله ينظر إليه برهبة واحترام. وذلك بعد أن كان أصغر الأبنـــاء، عندما خرج مع الحملة الصليبية، وهو مفلس يعتمد على تصدق اخوته ولا يكاد يذكر بجانب كبار النبلاء من أمثال ريموند أوف تولوز أو هيو أوف فيرمندوا أو المغـــامرين المتمرسين من أمثال بوهيموند، وها هو الآن عاهل يفوق أيّهم عظمة، وفيه تســـتطيع الحرب الصليبية أن تجد أقدر ساستها وأكثرهم دهاء.

الفصل الثالث :

أمـــام أســـوار أنطاكيـــة

أمام أسوار أنطاكية

"وَأَمَّا الشَّجَرُ الذي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ شَجَرًا
يُؤْكَلُ مِنْهُ فَإِيَّاه تُتْلِفُ وَتَقْطَعُ وَتَبْنِي
حِصْنًا عَلَى الْمَدِينَةِ التي تَعْمَلُ مَعَكَ
حَرْبًا حَتَّى تَسْقُطَ"

(التَّثْنِيَةُ: ٢٠ ـــ ٢٠)

تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصي وتبعد عن البحر اثني عشر ميلاً تقريبًا. وكان سلوقون الأول السوري قد أسسها سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وسميت باسم أبيه، وسرعان ما برز شأنها لتصبح المدينة الرئيسية في آسيا. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية كانت هي المدينة الثالثة في العالم. وكانت في نظر المسيحيين مدينة مقدسة على نحو خاص، ففيها أطلق عليهم اسم "المسيحيين" لأول مرة، وفيها أسس القديس بطرس أول أسقفية له.

وفي القرن السادس الميلادي تناقص بهاء المدينة بسبب الزلازل وما ألحقه الفرس بها من خراب. وبعد الفتح العربي تدهورت لصالح مدينة حلب الداخلية المنافسة لها، وبعد أن استعادتها بيزنطة في القرن العاشر عادت إليها بعض عظمتها، وغدت الملتقى الرئيسي للتجارة اليونانية والإسلامية وأكثر القلاع ضخامة على الحدود السورية. وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية استولى عليها سليمان بن قتلمش، ثم انتقلت إثر وفاته إلى السلطان ملكشاه الذي نصب عليها حاكمها التركماني ياغي سيان. وظل ياغي سيان يحكم المدينة لعشر سنوات. ومنذ أن مات ملكشاه أصبح الوالي الأسمى لياغي سيان هو الأمير رضوان الحلبي. على أن ياغي سيان لم يكن تابعًا مخلصًا لواليه وحافظ عمليًّا على استقلاله عن طريق الوقيعة بين رضوان الحلبي وأنداده دقاق الدمشقي وكربوقا الموصلي. وفي سنة ١٠٩٦ ميلادية بلغ الأمر بياغي سيان حد خيانة رضوان أثناء حربه ضد دقاق الدمشقي، وحوّل تبعيته من رضوان الحلبي إلى دقاق الدمشقي، ولكن مساعدته تلك لم تفلح في تمكين دقاق من الاستيلاء على حلب. ولم يغفر له أميرها رضوان فعلته هذه أبدًا.

وشعر ياغي سيان بالخطر من أنباء تقدم المسيحيين لاسيما وأن أنطاكية هي الهدف المعلن للصليبيين. وفي واقع الأمر لم يكن لهم من أمل في مواصلة السير جنوبا باتجاه فلسطين ما لم تقع القلعة العظيمة في أيديهم. وكان أغلب سكانها من المسيحيين اليونانيين والأرمن والسوريين، ونظرا إلى أن المسيحيين السوريين يكرهون اليونانيين والأرمن على السواء، فربما يظلون على ولائهم لياغي سيان، لكنه لم يسعه أن يثق في الآخرين. ويبدو أنه كان حتى ذلك الوقت متسامحا مع المسيحيين، فقد سمح للبطريق الأرثوذكسي جون الأوكسيتي بالإقامة في المدينة وفيها كنائس ضخمة لم تتحول إلى مساجد. على أنه باقتراب الحملة الصليبية بدأ في وضع تدابير تقييدية، فألقى بالبطريق في السجن رغم أنه كان رئيسا لأهم جالية في أنطاكية، وطرد الكثير من المسيحيين البارزين من المدينة وهرب آخرون. وانتهكت كاتدرائية القديس بطرس وصارت

إسطبلا لخيول الأمير، وحدثت بعض حالات اضطهاد في القرى الواقعة خارج المدينة، وما أن اقترب الصليبيون حتى ذبح القرويون على الفور الحاميات التركية.(١)

ياغي سيان يبحث عن حلفاء

وأخذ ياغي سيان يبحث عن حلفاء. ورفض رضوان الحلبي مساعدته، من قبيل الانتقام منه لخيانته في العام الماضي وإن كان انتقاما قصير النظر. بيد أن دقاق الدمشقي جرد حملة لنجدته بعد أن أرسل إليه ياغي سيان ابنه شمس الدولة يستغيثه، كما عرض المساعدة كل من أتابج دقاق (طغتكين التركماني) والأمير جناح الدولة الحمصي. ورحل مبعوث آخر إلى بلاط كربوقا هو أتابج الموصل الذي كان آنذاك أبرز الأمراء في أعالي العراق والجزيرة وكان من الحكمة بحيث أدرك أن الحملة الصليبية تهدد العالم الإسلامي كله. وكانت عينه على حلب منذ زمن طويل. فإذا استطاع الحصول على أنطاكية يصبح رضوان محاطا وتحت سلطانه، فجهز هو الآخر جيشا لنجدة المدينة ومن خلفه وعود بالمساعدة من سلاطين بغداد وفارس. وفي تلك الأثناء جمع ياغي سيان قواته الكبيرة داخل القلعة وبدأ في إمدادها بالمؤن تحسبا لحصار طويل.(٢)

ودخل الصليبيون أراضي ياغي سيان عند مدينة مراتا الصغيرة التي هربت منها حاميتها التركية عند اقترابهم. ومن مراتا انطلقت فصيلة من الجند بقيادة روبرت أوف فلاندرز باتجاه الجنوب الغربي لتحرير مدينة أرطا التي ذبح سكانها المسيحيون حاميتها. وفي تلك الأثناء، وفي العشرين من أكتوبر (تشرين الأول)، وصل الجيش الرئيسي إلى

---

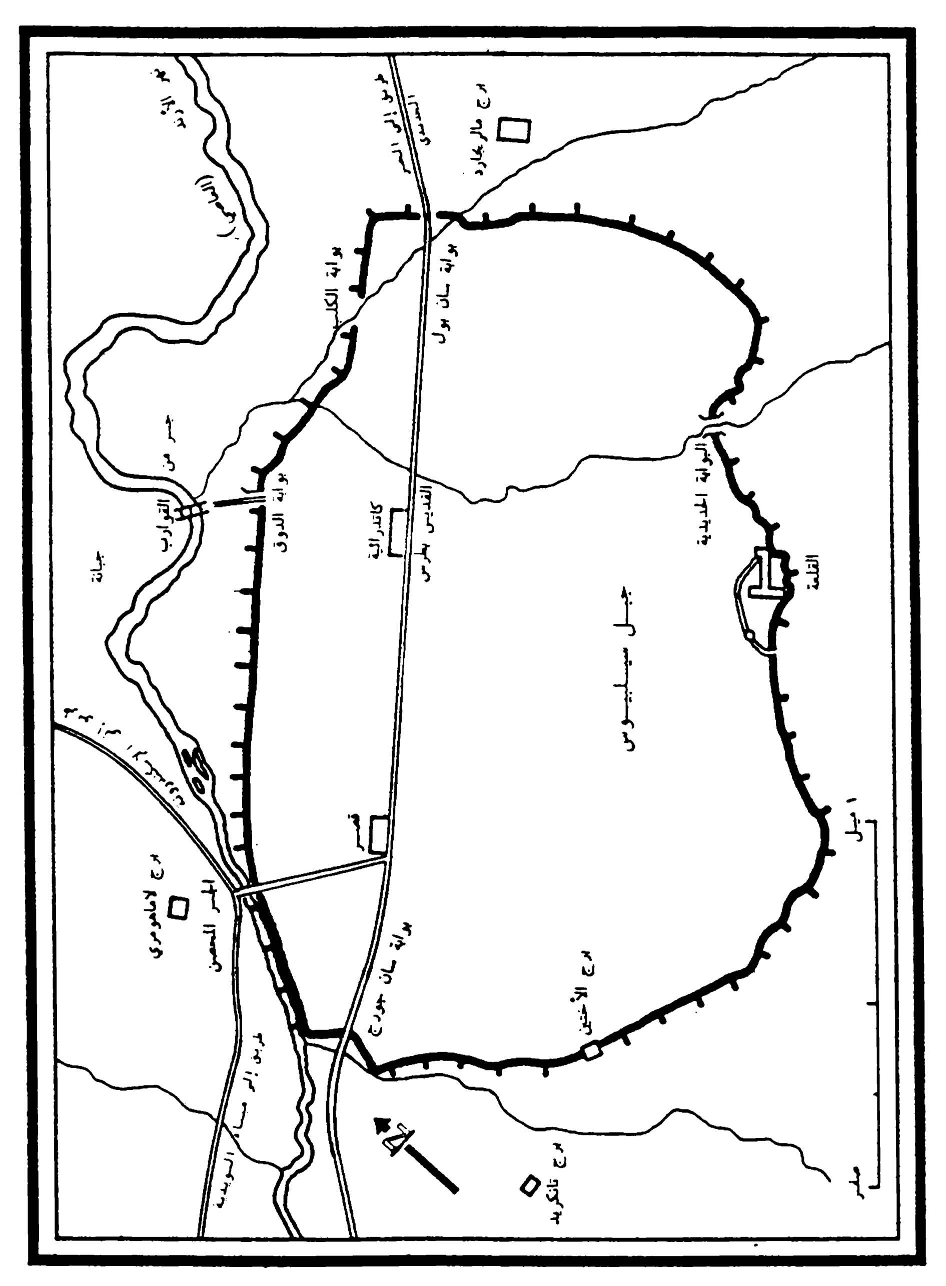
(١) Abu'l Feda, *Annales*, p. 3; Ibn al-Athir, *Kamil at-Tawarikh*, p. 192; Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 578-9

(٢) Kemal ad-Din, *loc. cit.*

نهـــر العاصي عند الجسر الحديدي حيث تلتقي الطرق القادمة من مرعش وحلب لتعبر النهر، وكان الجسر محصنا تحصينا قويا وله برجان على جانبي مدخله. ولكن الصليبيين هاجموه من فورهم وعلى رأسهم أسقف لوبوي يدير العمليات الحربية، وتمكنوا بعـــد قتال شديد من أن يشقوا طريقهم عبره. ومكنهم النصر من الاستيلاء على قدر هـــائل من الماشية والأغنام والغلال في طريقه لتموين جيش ياغي سيان. والآن أصبح الطريق إلى أنطاكية مفتوحا وباستطاعة الصليبيين مشاهدة قلعتها على مرمى البصر، وفي اليوم التالي وصل بوهيموند على رأس طليعة الجيش أمام أسوار المدينة ومن ورائـــه الجيـــش كله.(١)

وامتلأ الصليبيون رهبة من تلك المدينة العظيمة. إذ كـــانت منـــازل أنطاكيـــة وأسواقها تشغل سهلا طوله حوالي ثلاثة أميال وبعمق ميل واحد بين العاصي وجبـــل سلبيوس. وتناثرت قصور الأغنياء ومنازلهم على جانب التل. وحول كل ذلك ظهرت التحصينات الهائلة التي شيدها جستنيان وأصلحها البيزنطيون منذ قرن واحد فقط بآخر ما توصلوا إليه من إبداع مهاراتهم الفنية، ففي الشمـــال بـــرزت الأســـوار واعتلـــت منحدرات الجبال، وفي الجنوب امتدت الأسوار بطول القمة عند الحافة لتعبر في جسارة شقا يندفع منه سيل يعرف باسم أنوبنكل ليشق طريقه داخل السهل، ثم تمتد الأســـوار لتعبر مدخلا خلفيا يطلق عليه البوابة الحديدية، ثم تبلغ الأسوار ذروة ارتفاعـــها عنـــد القلعة الرائعة التي ترتفع لألف قدم فوق المدينة. ومن هذه الأسوار شمخ أربعمائة بـــرج بينها مسافات تسمح بجعل كل ياردة في مرمى السهام. وفي الركن الشمالي الشرقـــي كانت بوابة القديس بول تستقبل الطريق القادم من الجســـر الحديـــدي وحلـــب. وفي الركن الشمالي الغربي كانت بوابة القديس جورج تستقبل الطريق القادم من اللاذقيـــة

(١) Albert of Aix, III, 28-35, pp. 358-64; *Gesta Francorum,* V, 12, pp. 66-7 .



خريطة أنطاكية ١٠٩٨ ميلادية

سيميون، وهو حاليا ميناء السويدية، فكان هناك بوابات أصغر، مثل بوابـــة الـــدوق وبوابة الكلب، تؤدي إلى النهر وتقع إلى الشرق. وكانت المياه داخل الأسوار وفـــيرة بالإضافة إلى حدائق الخضر والفاكهة ومراعي لقطعان الماشية. وتستطيع هذه المدينة أن تأوي جيشا بأكمله وتمده بالمؤن فيصمد لحصار طويل، من المحال تطويق المدينة تطويقا كاملا لتعذر وضع الجنود في مراكز على البقعة الجنوبية الموحشة شديدة الانحدار.(١)

ولم يستطع الأتراك الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٠٨٥ ميلاديـــة إلا بالخيانـــة. والخيانة هي الخطر الوحيد الذي كان على ياغي سيان أن يواجهه، لكنه كان عصبيا. ولئن كان الصليبيون عاجزين عن تطويق المدينة، فكان هو الآخر غير قادر على وضع الجنود على جميع الأسوار لعدم كفاية عددهم. ولم يكن بوسعه أن يخاطر بـــأي مـــن رجاله إلى أن يصل المدد؛ فلم يقدم على أية محاولة لمهاجمة الصليبيين أثنـــاء تحركـــاتهم لأخذ مواقعهم، وتركهم هكذا أربعة عشر يوما دون أن يتحرش بهم.

المعسكرات أمام أنطاكية

واتخذ الصليبيون مواقعهم عند وصولهم خارج الركن الشمالي الشرقي من الأسوار، فشغل بوهيموند القطاع المقابـــل لبوابة القديس بول، وريموند القطاع المقابل لبوابـــة

---

(١) Fulcher (1,xv, 2-4, pp .217-18) and Raymond of Aguilers (v, pp. 241-2) وكلاهما يورد وصفا موجزا الأنطاكية ويصفها William of Tyre (iv,9-10,1,pp.165-9) بصورة أكثر اكتمالا . ونهر العاصي أو الأرند Orontes يطلق عليه المؤرخون الغربيون Ferrins أو يطلقـــون عليـــه (Fulchrt of Chartres, 1, xv. 1, p. 216- 'Orontes of Ferrins) The Far William of Tyre, iv, 8, 1, p. 164) ويسميه غلطة بذيئة) أو Farfar (*Gesta* *Francorum,* x, 34, p. 180) أو Pharpar (Albert of Aix, *loc. cit.*)

الكلب وعلى يمينه جودفري أمام بوابة الدوق. وانتظـــرت الجيــوش الباقيــة خلــف بوهيموند على استعداد للتحرك وقتما يتطلب الموقف. وأما بوابة الجسر وبوابة القديس جورج فتركتا دون تغطية. وفي الحال بدأ العمل في بناء جسر من القوارب ليعبر النهر من معسكر جودفري إلى قرية تالنكي حيث تقع مقابر المسلمين، وساعد هذا الجســـر على تمكين الجيش من الوصول إلى الطرق الذاهبـــة إلى الإســـكندرونة والســـويدية، وسرعان ما أقام الجيش معسكرا شمالي النهر.(١)

وتوقع ياغي سيان هجوما عاجلا على المدينة. ولكن لم يكن بين قادة الصليبيـــين من نصح بمحاولة اقتحام الأسوار سوى ريموند الذي قال إن الرب الذي شملهم بحمايته حتى الآن لخليق بنصرهم.(٢) و لم يشاركه القادة الآخرون إيمانه هذا لأن التحصينـــات أرهبتهم ولأن جنودهم مرهقون وليس بوسعهم تحمل خسائر جسيمة الآن. فضلا عن أن التعزيزات ستلحق بهم إذا انتظروا، فـــــتانكريد علـــى وشـــك الوصـــول مـــن الإسكندرونة، وربما يحضر الإمبراطور ومعه آلات الحصار العجيبة، وقـــد يوفـــر لهـــم أسطول جوينمير المزيد من الرجال. وكانت هناك شائعة بوجود أسطول من جنـــوا في عرض البحر. أما بوهيموند الذي كان لنصيحته الأثر الأكبر بينـــهم، فلديـــه أســـبابه الخاصة به التي تجعله يعارض اقتراح ريموند; إذ تركزت طموحاته الآن علـــى الانفـــراد بامتلاك أنطاكية لنفسه، فكان يفضل الإبقاء عليها حتى لا ينهبها جيش يتوق إلى نهـــب مدينـــة غنية. ليس هذا وحسب، وإنما الأخطر بالنسبة له أنه كان يخشـــى استحالـــة

---

(١) يورد Albert of Aix,III, 38-9, pp. 365-6 وصـــف الجنـــود . ويصـــف تـــاريخ *Gesta Francorum*, v, 12,pp. 66-8 تراخي الحامية ، ويصف Raymond of Aguilers بناء الجسر وضرب معسكر ريموند .

(٢) Raymond of Aguilers, iv, p. 241

المطالبة بها لنفسه دون غيره إذا ما تم الاستيلاء عليها بالجهد الصليبي الموحد، وكان قد وعى الدرس الذي لقنه إياه ألكسيوس في نيقية، فإذا ما استطاع تدبير استسلام المدينة له فسيكون من أصعب الأمور التنازع على حقه فيها. ولسوف يتمكن من تدبير ذلك في وقت قصير، فلديه بعض المعرفة عن طرق الشرقيين في الخيانة. وهكذا استخدم نفوذه لإهمال نصيحة ريموند الذي تعاظمت كراهيته له. وضاعت الفرصة الوحيدة للاستيلاء على أنطاكية بسرعة; فلو أن الهجوم الأول صادف أي نجاح لضعفت مقاومة ياغي سيان الذي كان مضطربا، ومن ثم أدى ذلك التأخير إلى أن يستعيد ثقته بنفسه.

ولم يجد بوهيموند وأصدقاؤه صعوبة في العثور على وسطاء يستطيعون من خلالهم الاتصال بالأعداء. فكان اللاجئون المسيحيون ومعهم المبعدون عن المدينة على اتصال وثيق بأقاربهم الموجودين داخل الأسوار بسبب الثغرات في كل من الحصار والدفاع. فتوفرت لدى الصليبيين معلومات عن كل ما كان يحدث داخل أنطاكية. ولقد سارت هذه العملية في الاتجاهين معا، ذلك أن الكثير من المسيحيين المحليين، لاسيما السوريين، راودتهم الشكوك فيما إذا كان الحكم البيزنطي أو الفرنجي يفضل الحكم التركي. وكانوا على استعداد لأن ينالوا الحظوة لدى ياغي سيان بأن يقدموا له هو الآخر المعلومات الوفيرة عما كان يحدث في معسكر الصليبيين، فعلم منهم بعدم رغبة الصليبيين في الهجوم. فبدأ ينظم خروج جماعات لمهاجمتهم بحيث يتسلل رجاله من البوابة الغربية لمهاجمة أية جماعة فرنجية صغيرة، للقضاء عليها وهي تبحث عن الأعلاف بعيدا عن الجيش. وأقام اتصالات مع حاميته في حارم عبر الجسر الحديدي على الطريق إلى حلب وحثها على مناوشة الفرنج في مؤخرتهم، وفي ذات الوقت علم بنجاح سفارة ابنه في دمشق وأن هناك جيشا آتيا لنجدته.(١)

---

(١) *Gesta Francorum,* v, 12, p. 68; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 577.

ولقد ابتهج الصليبيون، في غفلة من أمرهم، باسترخاء ياغي سيان بادئ الأمر. وعندما أعقب الشتاء الخريف بدَءوا يشعرون بالخوف على الرغم من أنهم حققوا بعض النجاح الضئيل; ففي منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) تمكنت حملة بقيــادة بوهيمونــد مــن استدراج حامية حارم من حصنها وأبادتها تمامًا،(١) وفي نفس اليوم تقريبًا ظهر أسطول صغير من جنوا قوامه ثلاث عشرة سفينة في ميناء السويديّة، مما ساعد الصليبيين علــى احتلاله. وقد جاء هذا الأسطول بتعزيزات من الرجال والسلاح استجابة متأخرة للغاية لنداء البابا إيربان لمدينة جنوا قبل ذلك بحوالي عامين. وشعــر الصليبيــون بالارتيــاح لمعرفتهم أنهم بوسعهم الآن الاتصال بأوطانهم بطريق البحر. على أنّ مشكلــة توفــير الطعام للجيش غطت هذا النجاح كله. وعندما دخل الصليبيون سهل أنطاكية بــادئ الأمر وجدوه مليئًا بالمؤن، فالأغنام والماشية كثيرة، وصوامع القرى ما تزال مليئة بمعظم حصاد العام، فطُعموا جيدًا وأهملوا تخزين الإمدادات لشهور الشتاء، ولم يجد الجنــود مفرًّا من التجوال في الأنحاء بحثًا عن الطعام في دائرة من الأرض تتسع شيئًا فشيئًا. ممــا جعلهم أكثر تعرضًا للقتل من جانب الأتراك الهابطين من الجبال. وسرعان ما اكتشف الصليبيون تسلل المغيرين عبر مضيق أنوبنكل وانتظارهم فوق التل المشرف على معسكر بوهيموند لمهاجمة الصليبيين المنتشرين العائدين إلى معسكرهم متأخرين. وللتصدي لهذا الخطر قرر القادة بناء برج محصّن فوق التل واتفقوا فيما بينهم على أن يضع فيه كــل منهم حامية من عنده بالتناوب، وسرعان ما شُيِّد البرج وأطلق علية بــرج ماليجــارد Malregard. (٢)

---

(١) *Gesta Francorum, ibid.* pp. 68-70.

(٢) *Ibid.* v, 13,p.70; Raymond of Aguilers, v,p. 242; Caffaro, *De Liberatione*, p.50

نفاذ إمدادات الغذاء

وأوشك مخزون الجيش من الطعام أن ينفد بحلول عيد الميلاد سنة ١٠٩٧ ميلادية. ولم يعد هناك في الريف المجاور ما يمكن الحصول عليه، فعقد الأمراء مجلسا تقرر فيه إرسال قسم من الجيش بقيادة بوهيموند وروبرت أوف فلاندرز أعلى وادي نهر العاصي باتجاه ماه للإغارة على القرى وانتزاع كل ما تصل إليه أيديهم من مؤن. وفي ذات الوقت عهدوا بأمر الحصار إلى ريموند وأسقف لوبوي، إذ كان جودفري آنذاك تحت وطأة المرض الشديد. وفي الثامن والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) انطلق بوهيموند وروبرت ومعهما حوالي عشرين ألف رجل، وفي الحال علم ياغي سيان برحيلهم، فانتظر إلى أن ابتعدوا تماما. وفي ليلة التاسع والعشرين خرج في هجمة قوية عبر الجسر وانقض على الصليبيين المعسكرين شمالي النهر، وربما كان جنود ريموند هم الذين انتقلوا من مكانهم الأول بسبب أمطار الشتاء التي جعلت المنطقة الواقعة بين النهر والأسوار غير صالحة للإقامة، وبوغتوا بالهجوم، ولكن يقظة ريموند أنقذت الموقف، فقد جمع بسرعة عدد من الفرسان وهاجم الأتراك في الظلام فارتدوا عائدين عبر الجسر وهو يطاردهم بكل ما أوتي من حمية حتى أن رجاله تمكنوا من أن يتخذوا لأنفسهم في لحظة وجيزة موطئ قدم عبر الجسر قبل إغلاق البوابات. وبدا أن ريموند على وشك تحقيق ظنه في إمكان اقتحام المدينة، ولكن حصانا ألقى بالفارس من على ظهره وجمح مرتدا تجاه الفرسان المحتشدين على الجسر فأحدث بينهم الاضطراب، وكان الليل حالك الظلمة بحيث يتعذر معرفة ما كان يحدث، فانتشر الذعر بين الصليبيين فهربوا بدورهم وطاردهم الأتراك إلى المدينة. وسقط قتلى كثيرون من الجانبين خاصة فرسان الفرنج الذين سقط منهم ما لا يستطيع الصليبيون تعويضه، ومن بينهم حامل راية أديمار أسقف لوبوي.(١)

---

(١) Raymond of Aguilers, v, pp. 243-4; *Gesta Francorum*, vi, 14, pp. 74-6.

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند متجها إلى الجنوب مع روبرت أوف فلاندرز وهو يجهل تماما أن أنطاكية كانت على وشك السقوط في يد غريمه ريموند، كما كان يجهل وجود نجدة إسلامية كبيرة تتحرك شمالا باتجاهه. فقد غادر دقاق عاصمته دمشق ومعه أتابجة طوغتكين وشمس الدولة إبن ياغي سيان في جيش كبير، حوالي منتصف الشهر. وفي حماه انضم إليهم أميرها مع قواته، وفي الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) وصلوا شيزار حيث علموا أن هناك جيشا صليبيا على مقربة منهم، فواصلوا السير من فورهم وانقضوا عليه في الصباح التالي في قرية البرة. وأخذوا الصليبيين على حين غفلة وطوقوا روبرت الذي كان جيشه يتقدم جيش بوهيموند بمسافة قصيرة، ولكن بوهيموند الذي كان يشاهد ما يحدث حجز السواد الأعظم من جنوده كقوات احتياطية يلقي بها في هجومه على المسلمين في اللحظة التي يظنون فيها أنهم انتصروا، وأدى تدخله إلى إنقاذ روبرت، وخسر الدمشقيون خسائر جسيمة فارتدوا إلى حماه. وبرغم أن الصليبيين انتصروا وحالوا ـ بلا شك ـ دون إغاثة أنطاكية فإنهم كانوا متعبين إلى حد بعيد وتعذر عليهم المضي في البحث عن الطعام فنهبوا قريتين وأحرقوا مسجدا وعادوا إلى المعسكر أمام أنطاكية بخفي حنين.(١)

المجاعة

ووجدوا رفاقهم في غم عظيم. وفي التاسع والعشرين وهو اليوم التالي للمعركة المشئومة حدث زلزال بلغ من الشدة أن شعر به أهل الرها. وفي الليلة التالية أضاء الشفق القطبي الشمالي السماء، وخلال الأسابيع التالية هطلت السيول دون توقف وازدادت البرودة شيئا فشيئا، ولم يفهم ستيفن أوف بلوا لماذا يشكو المرء من شمس

---

(١) *Gesta Francorum,* v, 13,pp. 70-2; Albert of Aix, III, 50-1, pp. 373-4; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 580

سوريا دائمة الإشراق. وكان من الواضح أن الرب غير راض عن محاربيه لكبريائهم ورفاهيتهم ولصوصيتهم، فأمر أديمار أسقف لوبوي بصوم خشوع لثلاثة أيام، ولكن مع اقتراب المجاعة وحلولها لم يحدث الصوم فرقا يذكر. والآن بعد أن فشلت حملة استجلاب الطعام لم يكن بد من أن يموت الكثيرون جوعا، فكان رجل من كل سبعة رجال يسقط ميتا من الجوع. فرحل المبعوثون للبحث عن الطعام إلى مسافات بعيدة وبلغوا جبال طوروس التي ارتضى أمراؤها الروبيون تقديم ما يقدرون عليه، وجاءت بعض الإمدادات من الرهبان الأرمن المستوطنين في جبال الأمانوس. بينما جمع المسيحيون الأرمن والسوريون كل ما يؤكل وأحضروه إلى المعسكر، يدفعهم إلى ذلك حب المال وليس حب البشر. فكان ثمن حمل حمار من المؤن ثماني قطع من البيزنتة، ولا يقدر على دفع تلك الأسعار سوى الأثرياء من الجنود، وكانت معاناة الخيول أعظم من معناة الرجال حتى أن ما تبقى مع الجيش منها كان حوالي سبعمائة حصان فقط.(١)

ووجد الصليبيون في جزيرة قبرص معينا أكثر كرما. ذلك أن أديمار أسقف لوبوي ــ الذي كان يتصرف بناء على تعليمات البابا إيربان ــ ثابر على إقامة علاقات طيبة مع الرؤساء الدينيين الأرثوذوكس في الشرق وأظهر لهم احتراما يدحض النظرية القائلة بأن البابا فكر في الحرب الصليبية كوسيلة لإخضاعهم لسيطرته . أما بطريق أنطاكية السجين داخل المدينة فلم يجد فائدة من تلك الصداقة، وكان الأتراك يضعونه في

---

(١) Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe,* p. 157 (especially mentioning the horses); Stephen of Blois, *ibid.* p. 150 (يذكر الطقس الردىء)؛ Fulcher of Chartres, 1, xv, 2-xvi, 6, pp. 221-8 (يورد نصا بلاغيا يلوم فيه الصليبيين على آثامهم)؛ Raymond of Aguilers, vi, p. 245 (يذكر الشفق القطبي وصوم الخشوع)؛ *Gesta Francorum,* vi, 14, p. 76 (يذكر الأسعار التي كان يتقاضاها المضاربون المحليون)؛ Matthew of Edessa, II, cli, p. 217 (يذكر كرم الأمراء الأرمن والرهبان) .

قفص من حين لآخر ويعلقونه على الأسوار. أما سيميون بطريق القدس فكان آنذاك في قبرص وقد تخلى عن كرسيه الأسقفي بعد أن أصبحت الحياة في القدس غير آمنة مطلقا إثر موت أرتق. لكنه كان يكره الأعراف اللاتينية التي نشر بحثا ضدها يتسم بالصرامة والاعتدال. على أنه أقبل على التعاون مع الكنيسة الغربية بسرور من أجل صالح العالم المسيحي، وكان قد اشترك مع أديمار في أكتوبر (تشرين الأول) في إرسال تقرير عن الحرب الصليبية إلى مسيحيي الغرب. والآن وقد أعيدت الاتصالات بقبرص واتصل به أديمار وسمع بورطة الجيش، بدأ في إرسال كل الطعام والنبيذ الفائض عن حاجة الجزيرة تباعا بطريق البحر.(١)

بطرس الناسك يحاول الهرب

وعلى الرغم من وفرة مقادير الطعام المرسلة من البطريق إلا أنها لم تخفف من وطأة البؤس السائد; فبدأ الرجال الذين يشرفون على الموت في الهرب من المعسكر لياذا بمناطق أغنى أو في محاولة لقطع طريق العودة الطويل إلى أوطانهم، وكان الفارون بادئ الأمر جنودا مغمورين. على أنه تبين في صباح أحد أيام يناير (كانون الثاني) أن بطرس الناسك نفسه هرب ومعه وليم النجار الذي كان مغامرا ولم يعد يرغب في إضاعة وقته في حرب صليبية ميئوس منها وسبق له أن هرب من حملة في إسبانيا ، بيد أنه من

---

(١) Albert of Aix, VI, 39, p. 489. وأرسل Symeon إلى الصليبيين هدايا الرمان " تفاح شجر الأرز اللبناني" ، ولحم الخنزير المجفف والنبيذ . وتاريخ الرسالة شهر أكتوبر ، وأرسلت من أنطاكية إلى الكنيسة الغربية بشأن تقدم الحملة الصليبية ، مرسلة باسم سيميون وأديمار "وبصورة رئيسية هذا الأخير الذي عهد إليه البابا إيربان بمسؤلية الجيش المسيحى" Hagenmeyer , *op. cit.* pp. 141-2 وعن Symeon أنظر ما سبق الصفحات ١٤٤ و ١٨٠ .

العسير علينا أن نفهم لماذا أصاب الخوّر بطرس الناسك. وطـارد تـانكريد الفـارين وأعادهم والخزي باد عليهم. ورؤي أنه من الصواب الإبقاء على سمعة بطرس الناسك، ومن ثم أعفوا عن ذنبه في صمت. وأمّا وليم النجار فقد أجبر على الوقوف طوال الليل في خيمة بوهيموند الذي وبّخه في الصباح توبيخًا ملؤه الحدة والوعيد، فأقسم ألاّ يترك الجيش مرة أخرى مطلقًا حتى يصل إلى القدس، ولكنه نكث بقسمه فيمـا بعـد. و لم يكن بد من أن تتأثر هيبة بطرس الناسك، لكنه سرعان ما منح الفرصة لاستعادتها.(١)

ونظر أديمار فإذا الجيش يتقلص يومًا بعد يوم بسبب المجاعة وفرار الجنود، فـرأى من الضروري توجيه نداء قوي إلى الغرب لإرسال التعزيزات. ولكي يضفي على ندائه أعلى سلطة صاغه باسم بطريق القدس، ويفترض أنه قد استأذنه في ذلـك. ولصياغـة ذلك النداء أهميتها الخاصة لما تلقيه من ضوء على سياسة أديمار الكنسـية; فـالبطريق يوجه الخطاب إلى كل المؤمنين في الغرب باعتباره الآن قائدًا لأساقفة الشرق اليونـانيين واللاتينيين على السواء، ويلقب نفسه بلقب (الرسولي)، ويأخذ على عاتقه أن يطرد من الكنيسة أيّ صليبي يحنث بعهوده المسيحية; وهذه لغة لا يصوغها إلاّ حـبر لا يخضـع لأحد. ومن غير المعقول بأية حال أن يورد أديمار مثل هذه اللغة على لسان من تتجـه النية إلى إخضاعه للبابا في روما. وأيًا كانت الغاية التي يستهدفها البابا إيربـان مـن مخططاته إزاء حكم الكنائس الشرقية فإن مبعوثه ـ أديمار ـ لم يكن يبشر بالسـيادة البابويّة عليها، ولا ندري رد الفعل الذي أثاره خطاب البطريق في الغرب (٢).

---

(١) *Gesta Francorum*, VI, pp. 76-8.

(٢) (المترجم)يتبين من سرد الكاتب "ستيفن رانسيمان" أن الكنيسة اللاتينية الغربية ، وهي تحاول أن تطرق مختلـف السبل من أجل إكمال المسيرة الصليبية في الشرق ، تجاوزت كل الحدود المعقولـة والمقبولـة وتنازلت عن مطلـب رئيسي ، أو عن المطلب الرئيسي ، ها والذي يتمـثل فـي بسـط سلطانهـا علي الكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية التيتعتبر في نظر الكنيسة اللاتينية الغربية منشقة في قوانينها أعرافها عمـا يتبـع فـي الكنيسـة الغربيـة مـن قوانين وأعرف علي نحو يدخلها في زمرة الهراطقة . --

وبينما كان الصليبيون يظهرون الاحترام اللائق لهرمية الأرثوذكسية الشرقية، تدهورت علاقاتهم بزعيمها الدنيوي. ففي وقت مبكر من فبراير (شباط) رحل تاتيسيوس مثـــل الإمبراطور فجأة تاركا الجيش بعد أن صاحب الحملة الصليبية من نيقية ومعه مجموعـــة صغيرة من موظفيه وفريق مكون من المرشدين والمهندسين. وكان تاتيسيوس على علاقة طيبة فيما يبدو بزعماء الصليبيين، ففي كومونا وكوكسون التزموا بتسليمه المناطق التي استردوها، وقد أشاد بكفاءاتهم القتالية في تقاريره. وهناك تفسيرات عديـــدة لرحيلـــه المفاجئ آنذاك، ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى رفض القصة التي رواها في القسطنطينية لدى عودته؛ فاستنادا إلى روايته حدث في أحد الأيام عندما أصبح معروفا أن الأتـــراك على وشك القيام بمحاولة أخرى لنجدة أنطاكية أن استدعاه بوهيموند وأخبره في ثقة قاطعة أن الأمراء الآخرين يعتقدون أن الإمبراطور مسئول عن تشجيع الأتراك وأنهـــم يأتمرون لاغتياله انتقاما لأنفسهم، وتظاهر تاتيسوس بالاقتناع. وواقع الأمر أن المـــزاج العام للجيش وقتئذ يجعل من المرغوب جدا وجود كبش فداء، وفضلا عن ذلك كـــان تاتيسوس يعتقد أن الصليبيين قد أضعفهم الجوع وثبط من همتهم، وليس لهم الآن مـــن

=ويبدي الكاتب في أسلوب سرده غايـــة دهشتـــه واستعصـــاء فهمه لمسلك الكنيسة اللاتينية الغربية على هذا النحو ، ذلك أن الصـــدع بين هاتين الكنيستين قديم قدم ظهور المسيحية وباق حتى يومنا هذا . ولا يكاد المؤلف يتصـــور أن قدر القيمة الدينيـــة العليا في سبيل مصلحة يظهر المؤلف عبر كتابه كله أنها لا تكـــاد تمت إلى الدين بصلة وإنما ترتبط أيما ارتباط بـــأوجه النفع الشخصي الذي يتفاوت حجمه تفاوتا يبـــدأ مـــن البابـــا نفسه - الذي كان يسعى إلـــي بسط سيطرته الدينية في الغرب والشرق بما يستتبعه ذلك من سلطان على الملوك والأمراء - وينتهي إلى صغـــار المغامرين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية مدفوعـــين بنتـــائج الأوضاع التي كانت سائدة في أوروبا فـــي ظل النظام الإقطاعي قبل أن يكونوا مدفوعين بهمـــوم الخـــلاص المسيحي . Letter Hagenmeyer. *op. cit.* pp. 146-9.

أمل في الاستيلاء على القلعة العظيمة. وكانوا قد تجاهلوا نصيحة بقطع الطعام عنـــــها حتى تستسلم وذلك باحتلال الحصون المتحكمة في مداخلها البعيدة. ولذا أعلن ضرورة عودته إلى الأراضي الإمبراطورية ليتسنى له ترتيب مخطط أفضل للإمـــــداد، وأبحـــر في سفينة من ميناء السويدية إلى قبرص ، ولكي يظهر لهم نيته في العودة ترك أغلب أعوانه مع الجيش. ولكن ما أن رحل حتى انطلقت أبواق دعاية بوهيموند تؤكد أنه إنما هرب جبنا من مواجهة الهجوم التركي القادم، إن لم يكن بدافع الخيانة الحقيقيـــــة، وعندمـــا يتصرف ممثل الإمبراطور على هذا النحو غير المشرف تصبح الحملة الصليبية في حل من أي التزام تجاه الإمبراطورية، أي أنه لا داعي لإعادة أنطاكية إليها.(١)

بوهيموند يهدد بالانسحاب

وكانت الخطوة التالية أن أشاع بوهيموند أنه يفكر هو نفسه في الرحيـــــل عـــن الجيش لعدم استطاعته تجاهل التزاماته في الوطن أكثر من ذلك. وحتى ذلك الحين لعب دورا قيـــاديا في كل العمليات العسكرية التي قامت بها الحملة الصليبية . وفي تقديره أن

---

(١) يقول Raymond of Aguilers, v, pp. 254-6 إن تاتيسيوس اقترح حصارا أكثر قربا . ولم يؤخذ باقتراحه ؛ ثم سرعان ما فر ذلك الفرار الخائن بعد أن عهد إلى بوهيمند بمدن المصيصة وطرسوس وأدنـــا ولابــد أن بوهيمنـــد قـــد اخترع هذه الهدية المستبعدة للغاية ونشرها بين جنود الجيش . ويقول تاريخ *Gesta Francorum,* VI, 16, pp.78-80 إنه هرب من منطلق الجبن الخالص . ويقول ألبرت أوف آيكس إنه ضرب خيمته علي حافة المعسكر لأنه كان ينتوي الفرار دائما . وعندما هرب وعـــد وعـــدا كــــاذبا بأنه سيعود (III, 38, p. 366, IV, 38, p. 416). وتعتبر القصة التي أوردها أناكومنينا - ولابد أنها تقوم علي أساس ما أبلغها به تاتيسيوس - أكثر الروايات إقناعا وأنا أقبلها هنا (XI,iv,3,vol. II, p. 20).

الفزع سوف يتملك الجيش إذا توقع رحيله عنه في تلك المرحلة الشائكة، ولذلك سمح بأن يكون مفهوما أنه لو منح لوردية أنطاكية فسيكون ذلك عوضا له عن أية خسائر يخسرها نتيجة تغيبه عن إيطاليا. و لم ينخدع رفاقه الأمراء بتلك المناورات غير أنه حظى بتعاطف كبير بين صفوف عامة الجند.(١)

وفي تلك الأثناء كان الأتراك يتجمعون مرة أخرى في حشود غفيرة لنجدة أنطاكية. وبعدما أخفق دقاق في المساعدة التي وعد بها تحول ياغي سيان مرة أخرى إلى سيده الأول رضوان الحلبي الذي تأسى حينئذ على تراخيه، مما أدى إلى توغل الفرنج إلى أنطاكية، وعندما أعاد ياغي سيان اعترافه بسيادته أعد العدة للحضور لنجدته ومعه إبن عمه سقمان الأرتقي من ديار بكر وحموه أمير حماه. وفي أوائل فبراير (شباط) أعاد الحلفاء احتلال حارم حيث تجمعوا توطئة لهجومهم على معسكر الصليبيين. وما أن سمع أمراء الصليبيين بتلك الأخبار حتى عقدوا مجلسا في خيمة أديمار حيث أخذوا بنصيحة بوهيموند بأن تبقى قوات المشاة في المعسكر لصد أي هجوم يخرج من المدينة بينما ينطلق الفرسان ــ وقد تقلص عدد اللائقين منهم للحرب الآن إلى سبعمائة فارس وحسب ــ في هجوم مفاجئ على الجيش المهاجم. وفي الثامن من فبراير (شباط) تسلل فرسان الفرنج أثناء الليل عبر جسر القوارب واتخذوا موقعهم بين النهر وبحيرة أنطاكية بحيث ينقضون من هذا الموقع على الأتراك أثناء تقدمهم لعبور الجسر الحديدي، وعند انبلاج الصبح ظهر الجيش التركي، فهاجم الصف الأول من الصليبيين على الفور قبل أن يتمكن رماة الأتراك من أن يصطفوا. و لم يستطع الهجوم أن يشتت حشود الأتراك وانسحب الفرسان مستدرجين العدو إلى أرض المعركة التي اختاروها حيث وجد الأتراك البحيرة عن يمينهم والنهر عن يسارهم فعجزت جموعهم الهائلة عن مهاجمة جناحي الصليبيين . وفي هذه الساحة الضيقة عاود الفرسان الهجوم على نحو شامل

(١) Raymond of Aguilers, *loc. cit.*

هذه المرة، وأمام ثقل هجومهم تحطم جنود الأتراك الأخف تسليحًا وولـــوا الأدبـــار ناشرين الفوضى في الصفوف المحتشدة خلفهم. وسرعان ما انسحب جيش رضوان كله في فوضى عائدًا إلى حلب، وعند مرورهم بحارب انضمت حاميتها إلى الفارين تاركـــة المدينة للمسيحيين المحليين الذين سلموها إلى الصليبيين.

وبينما كان الفرسان يفوزون بهذا النصر الكبير كانت المشاة تحـــارب معركـــة أصعب; إذ خرج ياغي سيان في هجوم شامل على المعسكر الذي كان المدافعون عنـــه يفقدون مواقعهم شيئًا فشيئًا إلى أن شاهدوا الفرسان المنتصرين يقتربون بعد الظـــهر. وباقترابهم أدرك ياغي سيان أنّ الجيش المغيث قد انهزم فأمر بعودة رجالـــه إلى داخـــل الأسوار.(١)

وارتفعت معنويات الصليبيين بهزيمة الجيش الثاني الذي جاء لنجدة أنطاكية، ومع ذلك لم يتحسن موقفهم وقتها. فالطعام ما يزال نادرًا رغم أنّ الإمدادات بدأت تصـــل إلى ميناء السويديّة وأغلبها من قبرص حيث جمع البطريق سيميون ـــ وربما تاتســـيوس أيضاً الذي جُحِد فضله ـــ كل ما كان متاحًا. وتسللت من المدينة جماعـــات تغـــير إغارات متكررة على الطريق الجنوبي الذاهب إلى البحر وتنصـــب الأكمنـــة للقوافـــل الأصغر، بينما كانت المدينة تحصل على تموينها من بوابة القديس جورج التي كانت ما تزال بلا حصار عبر الجسر المحصن. ولكي يتحكم الصليبيون في هذا الجسر، فيصبـــح الطريق إلى ميناء السويدية آمنا، اقترح ريموند بناء برج على الضفة الشمالية بـــالقرب منه، ولكن المشروع لم يتم لافتقاد المواد والبنائين. وفي الرابع من مارس (آذار) وصـــل إلى ميناء السويدية أسطول كل من عليه من الإنجليز بقيادة إدجار أثلنج المطالب المنفي بالعـــرش . وكان الأسطول يحمل حجاجا من إيطاليا وتوقف في القسطنطينية حيـــث

---

(١) *Gesta Francorum*, VI, 17, pp. 80-6;Raymond of Aguilers, VII, pp. 246-8 .

التحق به إدجار الذي كان قد وضع نفسه تحت أوامر الإمبراطور. وفي القسطنطينية تم شحن الأسطول بمواد وآلات الحصار، وهكذا وصل الأسطول في الوقت المناسب تماما. وتعمد الصليبيون إخفاء حقيقة أن الإمبراطور هو الذي أرسل تلك الإمدادات.

معركة على طريق السويدية

وعندما بلغت الصليبيين أنباء وصول الأسطول، انطلق ريموند وبوهيموند معا، لافتقاد كل منهما الثقة في الآخر، ليجندا أكبر عدد ممكن من بين الركاب وليصحبا العمال والمواد إلى المعسكر. وفي السادس من مارس (آذار)، وفي طريق عودتهما محملين من ميناء السويدية، وقعا في كمين نصبته فصيلة من حامية المدينة، وقد أجفل جنودهما من المفاجأة فولوا الأدبار مذعورين تاركين الأحمال في أيدي الأعداء، واندفع بعض الشاردين إلى داخل المعسكر وأشاعوا مقتل كل من ريموند وبوهيموند، وعلى الأثر أعد جودفري العدة للخروج لنجدة الجيش المهزوم. لكن الأتراك خرجوا فجأة من المدينة لتغطية الفصيلة المثقلة بالأحمال حتى أوصلوها إلى البوابات. وتمكن رجال جودفري، الذين كانوا مستعدين بسلاحهم للخروج إلى البحر، من صد الهجوم التركي المفاجئ وظهر ريموند وبوهيموند دون توقع ومعهما بقايا قواتهما. وبرغم حالة الضعف البادية عليهما مكنا جودفري من رد الأتراك إلى داخل المدينة. ثم اتحد الأمراء ليعترضوا الفصيلة أثناء عودتها. ونجحت تكتيكاتهم نجاحا تاما، وتغلبوا بمناوراتهم على الفصيلة التي عاقتها أحمالها فانهزمت وقتل أفرادها أثناء كفاحهم للوصول إلى الجسر. واستعاد الصليبيون مواد البناء الثمينة. وقيل إن ألفا وخمسمائة تركي لقوا حتفهم، غرق الكثير منهم أثناء محاولتهم عبور النهر، وكان من بين القتلى تسعة أمراء. وفي تلك الليلة تسلل أفراد من حامية المدينة لدفن القتلى في مقابر المسلمين على ضفاف

النهر الشمالية، وقد شاهدهم الصليبون وتركوهم في أمان، لكنهم في الصباح التـــالي نبشـــوا القبور وانهكوا جثث الموتى من أجل الذهب والفضة التي كان الموتى يتقلدونها.(١)

وترتب على انتصار الصليبين استكمال تطويق أنطاكية. وتم بناء البرج المطلوب إثـــر توفر العمال والمواد، وأصبح يتحكم في مدخل الجسر المحصن. وقد شيد بالقرب من مسجد في المقابر الإسلامية وسمي رسميا بقلعة ماهومري، وهي تسمية مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة بمعنى "مسجد". ولكن الأمراء تنازعوا حول من يكون مسئولا عن هذا البرج، فطـــالب بـــه ريموند لأنه من بنات أفكاره، وعادة ما كان يعرف بـــحصن ريموند.

واكتمل البناء فـــي التاسـع عشـــر مـــن مـــارس (آذار) ، وســرعان ما أثبــت

---

(١) *Gesta Francorum,* VII, 18, pp. 88 - 96 ; Raymond of Aguilers, VII - VIII , pp. 248 - 9; Albert of Aix, III, 53 - 5, pp. 383 - 6; letter of Stephen of Blois in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 151 - 2; letter of Anselm of Ribemont in Hagenm - eyer, *op. cit.* pp.158 - 9; letter of the clergy of Lucca in Hagenmeyer, *op. cit* pp. 165-7, حيث يذكر أن مواطنا من Lucca يدعى Bruno وصل ميناء السويديـــة في تلـــك اللحظة وكان مسافرا مع أسطول انجليزي . David, *Robert Curthose,* pp. 236-7 يعـــرب عن الشك فيما إذا كان Edgar Atheling مع هذا الأسطول الذي كان ما يزال في استكتلندا في خريف سنة١٠٩٧م ولابد أنه غادر انجلترا قبل ذلك التاريخ بيد أن الأسطول كان مكونا بصورة شبه يقينية من الحرس " الفارانجي " الإنجليزي الذي غادر انجلترا منذ فترة طويلة وكان يبحر في مياه البحر الأبيض المتوسط بأوامر من الإمبراطور ، ونجدهم فيما بعد يعملون للإمبراطور . (أنظـــر ما يلي ص ٣٠٨) . واستطاع إدجار سرعة الرحيل إلي القسطنطينية ليستأجره الإمبراطور مؤقتا ، والإنضمام إلي الأسطول هناك . ويقول Orderic Vitalis (x, II, vol. IV, pp. 70-2) إنه علي يقين مـــن أنه كان مع الأسطول واستولي علي اللاذقية أيـــام الحصـــار ، علـــي الرغـــم مـــن أن William of Malmesbury (II,p.310) يحدد استيلاءه علي اللاذقية في تاريخ أبكر قليلا . أنظر ما يلي *loc. cit.*

فائدته في منع الاقتراب من بوابة الجسر، غير أن بوابة القديس جورج كانت ما تـــزال مفتوحة. ولجعلها هي الأخرى تحت المراقبة استقر الرأي على بناء حصن في مكان ديـــر قديم على تل مواجه للبوابة، واكتمل تشييد الحصن في إبريل (نيسان) وعـــهد بـــه إلى تانكريـــد الذي تقاضى ثلاثمائة مارك نظير الإنفاق عليه. ومنذ ذلك الوقت لم تتمكـــن

قوافل الطعام من الوصول إلى المدينة، كما لم يستطع مواطنوها أن يرسلوا قطعانهم لترعى خارج الأسوار كما اعتادوا، وكان باستطاعة أفراد من المغيرين تسلق الأســـوار على جبل سيلبيوس أو من خلال البوابة الحديدية الضيقة، ولكن أصبح من غير الممكن خروج هجمات منظمة. وبينما بدأت الحامية تعاني الجوع تيســـرت مشكلـــة إطعـــام الصليبيين; فقد تحسن الجو بحلول الربيع، وأصبح في الإمكان التجول لجلب الطعام دون خطر الهجمات التركية المفاجئة، وتحول التجار الذين كانوا يبيعون بضائعهم للحاميـــة بأسعار مرتفعة إلى التعامل مع معسكر الصليبيين. كل ذلك أتاح المزيد من الإمدادات للفرنج ورفع معنوياتهم. وسرعان ما استولى تانكريد بعد بناء حصنه على شحنة طعام هائلة كانت في طريقها إلى ياغي سيان تولى نقلها تجار مسيحيون سوريون وأرمنيون. وبعد كل هذا النجاح راود الصليبيين الأمل في أن تستسلم أنطاكية تحت وطأة الجوع، ويجب أن يكون الاستسلام سريعا، إذ أن كربوقا الموصلي المرعب كان يعبئ قواته.(١)

مفاوضات مع الفاطميين

وكان الإمبراطور ألكسيوس قد نصح الصليبيين أثناء وجودهم في القسطنطينيـــة

---

(١) *Gesta Francorum*, VII, 18, VIII, 19, pp. 88, 96 - 8; Raymond of Aguilers, VIII pp. 249-50; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-9 ; letter of the clergy of Lucca, *ibid.* p. 166 .

بالتوصل إلى نوع من التفاهم مع الفاطميين في مصر لأنهم أعداء ألداء للأتراك ومـــن سماتهم التسامح مع المسيحيين من رعاياهم. وعلى استعداد دائما للتعامل مع القوى المسيحية. وربما لم يأخذ الصليبيون بهذه النصيحة، غير أنه في بداية الربيع وصلت سفارة مصريـــة إلى المعسكر الصليبي أمام أنطاكية أرسلها رجل مصر القوي الأفضل وزير الخليفة الصـــبي المستعلي. ويبدو أنه اقترح تقسيم الإمبراطورية السلجوقية فيأخذ الفرنج شمال ســـوريا وتأخذ مصر فلسطين. ولا شك في أن الأفضل كان يعتبر الصليبيين مجرد مرتزقة عنـــد الإمبراطور، ولذلك افترض أن هذا التقسيم، القائم على أساس الوضع السائد قبل الغزو التركي، سيكون مقبولا على الوجه الأكمل. واستقبل الأمـــراء الغربيـــون الســـفراء استقبالا وديا و لم يلزموا أنفسهم بأية ترتيبات محددة. وبقي المصريون في المعسكر بضعة أسابيع ثم عادوا إلى مصر تصحبهم سفارة فرنجية صغيرة محملة بالهدايا المأخوذة أصـــلا من الأسلاب التي استولوا عليها في معركة السادس من مارس (آذار). وتعلم الصليبيون من المفاوضات قيمة ما يمكن أن يخرجوا به من مزايا نتيجة للدس بين القوى الإسلامية، فنحوا جانبا تحاملاتهم الدينية وأرسلوا إلى دقاق الدمشقي، على أثر أنباء استعدادات كربوقـــا، طالبين منه الحياد ومعلنين أنه ليست لهم أطماع في أراضيه، ولكن دقاق الذي كان يعتبر أخاه رضوان الحلبي عدوة الرئيسي، لم يوافق على طلبهم لأنه رأى أخاه يعود إلى حياده السابق.(١)

---

(١) استنادا إلى *the Historia Belli Sacri (Tudebodus Imitatus)* p. 181 كان الصليبيون قـــد أرسلوا فعلا سفارة إلي مصر من نيقية بناء علي نصيحة ألكسيوس . وقائمة السفراء مثار شك ؛ وربمـــا شكلوا سفارة أرسلت من أنطاكية . علي أنه من الممكن أن يكونوا قد تذكروا نصيحة الإمبراطور . وقد جـــاء ذكـــر السفارة المصرية إلي أنطاكية عند Raymond of Aguilers, VII, p. 247 وبواسطة Anselm of Ribemont وبواسطة Hagenmeyer, *op. cit.* p. 151 عند Stephen of Blois وعند تاريخ *Gesta Francorum.* VI, 17,p. 86, VII, 19, p.96 ويذكر ابن الأثير مفاوضـــات الصليبيين مع الدقاق (*op. cit.* 193).

وفي أوائل مايو (أيار) أصبح من المعروف أن كربوقا بدأ مسيرته، وكان معه إلى جانب جنوده رجال أرسلهم سلاطين بغداد وفارس وأمراء الأرتق في شمال العراق، وكان دقاق في انتظاره في دمشق كي ينضم إليه، وكان ياغي سيان ما يزال صامدا في أنطاكية برغم الضغوط الشديدة الواقعة عليه. وازداد التوتر بين صفوف الصليبيين، إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا على المدينة أولا فإنهم سوف يسحقون بين الحامية وجيش الغوث الهائل. وفي ذلك الوقت كان الإمبراطور ألكسيوس يجرد حملة في آسيا الصغرى. فأرسل إليه الصليبيون نداء يائسا للإسراع لنجدتهم. أما بوهيموند الذي عقد العزم على الفوز بأنطاكية لنفسه فكان لديه ما يثير قلقه بصفة خاصة؛ فإذا وصل الإمبراطور قبل سقوط أنطاكية، أو إذا تعذرت هزيمة كربوقا إلا بمساعدة الإمبراطور، فسيصبح من المحال ألا تعاد أنطاكية إلى الإمبراطورية، وكان أغلب الأمراء على استعداد لإعطاء المدينة لبوهيموند فيما عدا ريموند أوف تولوز الذي رفض بموازرة — فيما يبدو — من أديمار أسقف لوبوي، وغالبا ما كان الأمراء الصليبيين يناقشون دوافع ريموند لأنه — دون غيره من الأمراء — لم يكن مرتبطا بقسم صريح مع الإمبراطور ولأنه غادر القسطنطينية وهو على وفاق معه؛ ولكنه يكره بوهيموند ويرتاب فيه، ويرى فيه غريمه الرئيسي في القيادة العسكرية للحملة الصليبية، وربما كان هو والمندوب البابوي يعتبران أنه إذا كان القسم باطلا فينبغي أن تكون الكنيسة التي يمثلها أديمار هي وحدها التي يحق لها أن تخصص الأراضي لمن تشاء. وبعد مناقشات ودسائس تم التوصل إلى حل وسط: فإذا كان بوهيموند هو الأمير الذي يدخل جنوده المدينة قبل غيرهم، وإذا لم يحضر الإمبراطور، فإنها تؤول إليه. ومع ذلك اعترض ريموند، ولكن كان لدى بوهيموند من الأسباب ما يجعله راضيا. (١)

---

(١) *Gesta Francorum,* VIII, 19, pp. 100-2, corroborated by Anna Comnena , XI, iv, 4, vol. III, p. 21 ويرد تسجيل اعتراض بوهيمند في رواية William of Tyre (v, 17, 1, pp. 220-1).

تسبب سوء التقدير الذي وقع فيه كربوقا في منح الصليبيين فرصة لالتقاط الأنفــاس. فلم يشأ أن يتقدم إلى أنطاكية تاركًا في الرها جيشًا فرنجيًا يهدد جناحــه الأيمــن، ولم يدرك أنّ بالدوين كان بالغ الضعف بحيث لا يقدر على الهجوم، وأنه كان بالغ القــوة في قلعته العظيمة بحيث يتعذر تنحيته، وهكذا توقف كربوقا أمام الرها طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من مايو (أيار) وهو يهاجم أسوارها دون جدوى، ثم قــرر أنّ الجــهد والوقت قد ضاعا بلا طائل.(١)

مؤامرة للاستيلاء على أنطاكية

وفي تلك الأسابيع الثلاثة الثمينة كان بوهيموند يعمل بهمة كبيرة. ففي وقت مــا أقام اتصالا بأحد الضباط داخل مدينة أنطاكية يدعى فيروز وهــو أرميــني تحــول إلى الإسلام ورفعه ياغي سيان إلى منصب عال في حكومته. وعلى الرغم مـــن إخلاصــه الظاهري كان يحمل مشاعر الغيرة من سيده، خاصة وأنه عاقبه مؤخرا بالغرامة لتخزينه الحبوب. وكان على اتصال بأبناء دينه السابق، وعن طريقهم توصل إلى تفــاهم مــع بوهيموند ووافق على أن يبيعه المدينة. وظل سر هذه الصفقة في طــي الكتمــان، ولم يأمن بوهيموند أحدا على هذا السر، وراح يركز علانية على الأخطار الداهمة ليضفــي المزيد من القيمة على نصره المرتقب.(٢)

---

(١) أنظر ما سبق ص ٣٣٠ ، والمراجع المذكورة *ibid.* n. 2.

(٢) *Gesta Francorum,* VIII, 20, p. 100 ويطلق عليه صاحب هذا التاريخ "Pirrus" ويقول إنــه كان تركيا . وتطلق عليه Anna Comnena, XI, iv,2,vol.II, p.19 أرميني معين "a certain Armenian" ويطلــق عليــه Radulph of Caen,LXII, pp.651-2 ثــري أرميــني "arich Armenian" ويطلق عليه Matthew of Edessa "واحد من زعماء المدينة" دون أن يحدد جنســه (II,civ,p. 222) 'one of the chief men of the city' ؛ ويطلــق عليــه Raymond of Aguilers, VIII,p.251--

ولقد أفلحت دعايته للغاية. ففي أواخر مايو (أيار) تخلى كربوقا عن حصاره العقيم للرها وواصل تقدمه. فدب الذعر في معسكر الصليبيين، وبدأ الهاربون يتسللون من المعسكر بأعداد كبيرة لا تجدي معها محاولات منعهم، إلى أن هرب أخيرا في الثاني من يونيه (حزيران) حشد غفير من الفرنسيين الشماليين واتخذوا طريق الإسكندرونة يقودهم ستيفن أوف بلوا الذي كتب لزوجته من المعسكر وهو مفعم بالبهجة قبل ذلك بشهرين ليخبرها بأهوال الحصار ويصف لها كذلك الانتصار في معركة السادس من مارس (آذار) مركزا على أهميته الشخصية في الجيش. أما الآن، والمدينة ما تزال صامدة، وحشود كربوقا على مقربة منها، بدا له أن انتظار مذبحة أكيدة إن هو إلا محض حماقة، فهو لم يكن محاربا عظيما أبدا، وربما يعيش ليحارب في يوم آخر. وينفرد ستيفن من بين جميع الأمراء بحماسه الشديد في إعجابه بالإمبراطور، ولا بد أن بوهيموند ابتسم عندما رآه يرحل، غير أنه لم يكن ليتنبأ بمدى الفائدة التي سيضيفها رحيله على قضيته.(١)

-- عبارة 'quidam de Turcatis' وربما يعني بهذه العبارة مسيحي مرتد. أما المصادر العربية : كمال الدين (op.cit.pp. 581-2) وابن الأثير (op. cit. p. 192) فلا تحدد جنسه ، ويطلق عليه الأخير : فيروز . أما الأول فيقول إنه كان صانع أسلحة يعرف باسم "زراد" صانع الزرد أو الدروع ، كان ياغي سيان قد عاقبه لأنه كان يخزن المؤن . ويقول William of Tyre,v,II,1,pp. 212-13 – وهو يستند إلي المصادر العربية فيما يتضح – إنه كان ينتمي إلي طائفة "بني زرة" الحرفية (ترجمة مصطلح باللاتينية (quod in lingua latina interpretature *filii loricatoris* . وكان من عائلة لا بأس بها . وتضيف ترجمة وليم الفرنسية القديمة أنه كان 'Hermin' أي أرمينيا .

(١) يقول Fulcher of Chartres, 1,xvi,7,p. 228 إن رحيل ستيفن حدث في اليوم السابق علي سقوط أنطاكية ، أي يوم ٢ يونية . وهو يقول ذلك بمشاعر الأسف ، لكنه لا يعزو رحيله إلي الجبن . ويقول=

ولو أن ستيفن تأخر في رحيله لسويعات قليلة لتخلى عن قراره بالرحيل. ففي نفس ذلك اليوم أرسل فيروز ابنه إلى بوهيموند ليخبره بأنه مهيأ لتنفيذ المهمة التي تنطوي على الخيانة، وقد أشيع فيما بعد أنه كان مترددا طوال الوقت وحتى الليلة السابقة حينما اكتشف أن زوجته على علاقة مشينة مع واحد من رفاقه الأتراك. وهو الآن قائد برج الأختين والقسم الملاصق له من سور المدينة المواجه لحصن تانكريد، ولذلك استحث بوهيموند على أن يجمع الجيش الصليبي بعد ظهر ذلك اليوم وأن يقوده خارجا باتجاه الشرق كما لو كان ذاهبا ليعترض طريق كربوقا، وبعد أن يهبط الظلام يزحف الجنود عائدين إلى سور المدينة الغربي ومعهم السلالم ليتسلقوا البرج وسيكون هو في انتظارهم مراقبا لما يجري، فإذا ما وافق بوهيموند على ذلك فسوف يعيد إليه ابنه في المساء ليحتفظ به رهينة كعلامة على أنه على أهبة الاستعداد للتنفيذ.

--- تاريخ *Gesta Francorum*, ix,27, p.140 إنه هرب بسبب المرض . ويعزو Raymond of Aguilers, xi, p. 258 هروبه إلى الجبن الذي يبدو أنه كان الانطباع العام . ويعرب Guibert of Nogent, xxv, pp.199-200 عن شعوره بضرورة أن يعزي الهرب إلى مبررات . وكان ستيفن قد انتخب في منصب في الجيش ورد كما يلي :

'ductor' of the army (*Gesta Francorum, loc. cit.)* ; or

'dictator' (Raymond of Aguilers, *loc. cit.)* ; or

'dominus atque omnium actuum provisor atque gubernator' (Stephen of Blois, letter in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 149) .

ويقينا لا يمكن أن يعني ذلك أنه عين قائدا عاما للجيش أو زعيما سياسيا للحملة الصليبية ، إذ أنه لم يقم بالقيادة قط في أية عملية عسكرية ، بينما كان أديمار هو الشخص الوحيد المعترف به على أن له السلطة السياسية على الأمراء الآخرين . والأرجح أن ستيفن قد عهد إليه بمسؤولية الجانب الإداري للجيش وكان مسؤولا عن تنظيم الإمدادات .

عشيّــة الهجــوم

وأخذ بوهيموند بنصيحته. فعندما اقترب اليوم من نهايته أرسل واحدًا من مشاته يُدعى مال كورون يجوب المعسكر آمرًا الجنود بالاستعداد للانطــلاق عنــد غــروب الشمس في غارة على أرض العدو. ثم أرسل إلى الأمراء الرئيسيين يدعوهــم لمقابلتــه وهم: أديمار أسقف لوبوي، وريموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز، وأخــبرهم لأول مرة بمؤامرته قائلاً: "الليلة، إن كان الرب ناصرنا، ستصبح أنطاكية في أيدينــا". ولم يفصح ريموند عما انتابه من شتى مشاعر الغيرة، وأيّد هو ورفاقه المخطــط تــأييدًا صادقًا.

وعند غروب الشمس شرع الجيش في المسير شرقا، والفرسان على ظهور جيادهم ميممين شطر أعلى الوادي أمام المدينة بينما جنود المشاة يكدحون على ممرات التــلال من خلفهم، وشاهدهم الأتراك من داخل المدينة وهم ذاهبون فاسترخوا متوقعين قضــاء ليلة هادئة. على أنه عند انتصاف الليل صدرت الأوامر في سائر أنحاء الجيش بــالعودة إلى الأسوار الغربية والغربية الشمالية، وقبيل الفجر مباشرة وصل جنود بوهيموند أمام برج الأختين، ووضعوا سلما على البرج تسلقه ستون فارسا الواحد تلو الآخر يقودهم فولك أوف تشارترز، ودخلوا من نافذة عالية على الحائط إلى غرفة حيث كان فيروز ينتظر وهو في حالة من التوتر. وظن أول الأمر أن عددهــم غــير كــاف، وصــاح باليونانية: "إن ما لدينا من الفرنج قليل للغاية، أين بوهيموند؟"، ولم يكن هنــاك مــا يدعوه للقلق؛ فمن برج الأختين استولى الفرسان على البرجين الآخرين اللذين كانــا تحت إمرته ليمكنوا رفاقهم من وضع السلالم على الأسوار الممتدة بين الأبراج، بينمــا ذهب أحد المشاة الإيطاليين ليخبر بوهيموند أن الوقت قد حان ليتسلق الأسوار ويدخل المدينة، فتسلق السور وتحطم السلم من خلفه. وبينما كان بعض الجنود يهرعون بطول الأسوار مباغتين الحاميات في أبراجها، هبط آخرون داخل المدينة وأيقظــوا الســكان المسيحيين ليساعدوهم على فتح بوابة القديــس جــورج، وفــتحوها على مصراعيها

وكذلك بوابة الجسر الضخمة حيث كان سواد الجيش ينتظر. وتدفق الصليبيون عبر البوابتين ولم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن في قتل كل تركي يشاهدونه من الرجال والنساء على السواء". واستيقظ ياغي سيان على ضوضاء الهرج والصخب، فأدرك أنه فقد كل شيء. فهرب مع حرسه الخاص على ظهور الخيل عبر المضيق المؤدي إلى البوابة الحديدية ثم إلى جانب التل. إلا أن ابنه شمس الدولة احتفظ برباطة جأشه وجمع ما استطاع من الرجال وشق طريقه إلى القلعة قبل أن يلحق به الفرنج، وتبعه بوهيموند لكنه فشل في اقتحام القلعة، ولذا رفع رايته الأرجوانية على أعلى نقطة استطاع الوصول إليها، وكانت رؤيتها وهي ترفرف في أشعة الشمس الآخذة في الإشراق تبعث البهجة في نفوس الصليبيين البعيدين أسفلها وهم يدخلون المدينة.

الاستيلاء على المدينة

وجمع بوهيموند ما يكفي من الرجال وحاول أن يشدد الهجوم على القلعة، لكنه عاد مدحورا وجرح هو نفسه. وقتل أثناء ذلك شقيق فيروز وهلك كثيرون من المسيحيين. وكان رجاله يفضلون أن يسلبوا المدينة وينهبوا متاجرها، بينما تعزى هو برأس ياغي سيان التي سلمها له أحد الفلاحين الأرمن. وكان ياغي سيان قد سقط من على ظهر جواده أثناء فراره في الممر الجبلي، فتخلى عنه حارسه، فرقد هناك وقد أخذ منه الإرهاق وبدا في حالة من الذهول، وعندئذ رآه بعض الأرمن وعرفوه فقتلوه في الحال. ونال الذي جاء برأسه إلى بوهيموند جائزة ثمينة، وباع الباقون حزامه وغمد سيفه بستين بيزنتة للقطعة.

وبهبوط ليل الثالث من يونية (حزيران) لم يبق تركي واحد على قيد الحياة في أنطاكية، بل إن السكان الأتراك في القرى المجاورة التي لم يدخلها الفرنج بعد أن هربوا

مستنجدين بـــكربوقا. وراح الفرنج ينهبون منازل مواطني أنطاكية، المسيحيين منـــهم والمسلمين على السواء، وبعثرت الكنوز والأسلحة التي عثروا عليها أو دمرت على نحو عابث. ولم يكن بوسع المرء أن يسير في شوارع المدينة دون أن يطأ الجثث التي تعفنت سريعا بفعل حرارة الصيف. لكن أنطاكية عادت مسيحية مرة أخرى.(١)

(١) ترد الرواية الأكثر نبضا بالحياة عن الإستيلاء علي أنطاكية في تاريخ *Gesta Francorum*, VIII, 20, pp. 100-10 علي الرغم من أن هذا التاريخ يخلو من ذكر فشل بوهيمند في الاستيلاء علـــي الحصـــن ويورد Raymond of Aguiler هذه المعلومات في روايته ، ويقر إن أول صليبي دخل المدينة كان هو Fulk of Chartres(IX, pp. 251-3) ويطلق عليه Radulph of Caen (LXVI,p. 654) اســـم 'Gouel of Chartres' ويورد فولشر أوف تشارترز رواية أكثر إيجازا . أمـــا روايـــة William of Tyre (v, 18-23, vol. 1, pp. 222-3)فهي رواية طويلة لكنها مليئة بتفصيلات لا يعتمد عليها وهو يورد القصة المتصلة بحادثة زوجته فيروز . ويذكر ابن الأثير فرار ياغي سيان وموته (*op.cit.* p. 193).

- ٣٦٥ -

الفصل الرابع :

الإستيلاء على أنطاكية

الاستيلاء على أنطاكية

"أَلْقَى يَدَيْهِ عَلَى مُسَالِمِيه، نَقَضَ عَهْدَهُ."

(سفر المَزَامِير: المَزْمُور ٥٥ ـــ ٢٠)

كان الاستيلاء على أنطاكية إنجازًا أبهج قلوب المسيحيين. لكنهم بعدمـا خبـت جذوة انتصارهم المسعور، وقيّموا أوضاعهم، وجدوا أن موقفهم إنّما تحسـن تحسـنًا طفيفًا عن ذي قبل. لقد فازوا بمزايا عظيمة; فلديهم تحصينات المدينة التي لم تهـدم في المعركة تحميهم من حشود كربوقا، ووجدوا المأوى الذي يـأوي أتباعـهم المدنيـين والكثيرين برغم المرض وبرغم الفرار فلم يعودوا يشكلون عائقًا كما كانوا في المعسكر، وقضوا تقريبًا على الجيش التركي في المدينة وانتهى بذلك تهديده المتواصل لهم. على أنّ الدفاع عن الأسوار الطويلة يستلزم رجالاً أكثر مما لديهم الآن، والقلعة ما تزال صامدة

وينبغي تطويقها، وبرغم أنّ حاميتها كانت بالغة الضعف بحيث لا تقـــدر علـــى الهجوم إلاّ أنها تستطيع أن ترصد من قمتها كل حركة في المدينة، وقد استحال منعـــها من الاتصال بـــكربوقا. و لم يجد الصليبيون في المدينة ما كانوا يأملون فيه مـــن مخـازن طعام، بل إنهم قد دمروا هم أنفسهم أغلب ثرواتها في نشوة انتصارهم. وبـــالرغم مـــن ذبحهم المسلمين فلم يكن المسيحيون محل ثقة وخاصة السوريون منـــهم الذيـــن ثبـــت غدرهم من قبل وكانوا لا يتعاطفون مع اللاتينيين إلاّ بقدر ضئيل. لقد كـــان الغـــدر السوري أخطر بكثير على جيش داخل المدينة من خطورته على جيش يعسكر خارجها.

وفضلاً عن ذلك، أبرز الانتصار سؤالاً سبق أن أظهر بالفعل بوادر الانشقاق في الحملة الصليبية: "لمن تؤول المدينة؟".

اقتراب كربوقا

لم يكن هناك بادئ الأمر وقت يتسع لمناقشة مستقبل المدينة؛ إذ أن كربوقا يتقدم ولابد من حماية المدينة من هجومة الماثل. وأيا ما كانت الخطـــط الـــتي يفكـــر فيـــها بوهيموند فليس لديه ما يكفي من الجنود لحراسة الأسوار بـــدون مســـاعدة زملائـــه، فينبغي للجميع المشاركة في الدفاع، ولذا تولى كل أمير مسئولية حراســـة قســـم مـــن التحصينات. وكانت المهمة الملحة التي يتعين على الجيش القيام بها هي تطـــهير المدينـــة ودفن الموتى بغاية السرعة قبل أن يتسبب تحلل الجثث في انتشار الأوبئة. وبينما كـــان الجنود منهمكين في تلك المهمة اتخذ أديمار أسقف لوبوي التدابير لتنظيـــف كاتدرائيـــة القديس بطرس والكنائس الأخرى ــ التي دنسها الأتراك ــ وإعادة اقامـــة الشعـــائر المسيحية فيها. وأطلق سراح جون من سجنه وأعيد إلى كرسيه البطريركي. وكان جون يونانيا يمقت الشعائر اللاتينية، فهو البطريق الشرعي وإن كان كرسيه الكنسي ما يزال وثيق العلاقة بروما. و لم يكن أديمار ليسيء إلى الشرعية أو إلى العاطفة الســـائدة بـــين الناس بأن يتجاهل حقوق جون . كما لم يكن هناك من الصليبيين المدركين لآلام جون

من أجل العقيدة من يستاء من عودته، فيما عدا بوهيموند الذي تنبأ بأن ذلك ربما لا يتفق ومصالحه.(١)

وما أن استقر الصليبيون في المدينة حتى أقبل كربوقا الذي وصل في الخامس من يونية (حزيران) إلى نهر العاصي عند الجسر الحديدي. ثم ضرب معسكره بعد يومين أمام الأسوار في نفس الأماكن التي كان الفرنج يحتلونها مؤخرا، وعلى الفور أرسل شمس الدولة مبعوثين من القلعة يطلبون مساعدته، لكن كربوقا أصر على تسليم القلعة لجنوده، وتوسل إليه شمس كي يسمح له بالاحتفاظ بالقيادة حتى يتم استرداد المدينة ولكن دون جدوى، فلم يجد مفرا من تسليم القلعة ومخازنها كلها إلى الضابط الحائز على ثقة كربوقا ـــ أحمد بن مروان.(٢)

وأول خطة اختطها كربوقا هي التوغل داخل المدينة من القلعة. وتوقع بوهيموند وريموند تلك الخطة الخطرة فشيدا سورا حول القلعة للفصل بينها وبين تحصينات المدينة. ولأن هذا السور هو أضعف قطاعات الدفاع فقد تناوب الأمراء حراسته برجالهم. وبعد أن قام أحمد بن مروان ببعض عمليات الاستطلاع شن هجوما على هذا القطاع ربما في باكورة التاسع من يونية (حزيران). وكان يتولى الدفاع عن هذا القطاع يومئذ هيو أوف فيرمندوا وكونت أوف فلاندرز، ودوق نورماندي، وكاد إبن مروان أن يتغلب عليهم لكنهم ردوه في نهاية الأمر بعد أن أنزلوا به خسائر جسيمة. ثم قرر كربوقا إحكام تطويق الفرنج على مسافة أقرب وإرجاء مهاجمتهم إلى أن يضعفهم الجوع، وبذا تكون خسائره أقل ما يمكن، فقام في العاشر من يونية (حزيران) بتغيير مواقع قواته لتطويق المدينة بالكامل، وحاول الصليبيون إعاقته فخرجوا في هجمة شرسة

---

(١) Albert of Aix, IV, 3, p. 433. He calls John 'virum Christianissimum'.

(٢) Kemal ad-Din, *op. cit.* pp. 582-3; *Gesta Francorum,* IX, 21, p. 112.

ولكنهم سرعان ما اضطروا إلى التقهقر مـــرة أخـــرى إلى حيـــث الســـلامة داخـــل الأسوار.(١)

وأدى بهم فشلهم إلى حالة من الغم الشديد. ذلك أنهم حينما استولوا على المدينة منذ أسبوع ارتفعت روحهم المعنوية لفترة وجيزة، ثم تدنت الآن إلى الحضيض. فها هو الطعام يتناقص مرة أخرى حتى بلغ سعر الرغيف الصغير بيزنتـــة واحـــدة، والبيضـــة بيزنتين، والدجاجة خمس عشرة بيزنتة، واضطر كثيرون إلى العيش على أوراق الشجـــر أو الجلود المجففة. وحاول أديمار أسقف لوبوي عبثا أن يدبر الأمـــر للتخفيـــف عـــن الحجاج الفقراء، وظن الكثير من الفرسان أن ستيفن أوف بلوا قد اختار بفراره المسار الأكثر حكمة. وأثناء ليل العاشر من يونية (حزيران) تمكنت جماعة يرأســـها ثلاثـــة: وليم، وأوبري أوف جرانت ـــ ميسينيل، ولامبرت كونت أوف كليرمونت من المرور خلال خطوط الأعداء والإسراع إلى ميناء السويدية حيث كانت السفن الفرنجية راسية في الميناء. وربما كانت بعض سفن جنوا والسفن الأخرى تابعة لأســـطول جوينيمـــير. وأعلن الهاربون أن الجيش الصليبي هالك لا محالة، فأسرعت الســـفن الراســـية برفـــع مراسيها وأبحرت بحثا عن ميناء آخر أكثر أمانا ومعها الهاربون إلى أن وصلـــوا مينـــاء طرسوس حيث التحقوا بقوات ستيفن أوف بلوا الذي كان يخطط للعودة إلى أنطاكية لدى سماعه بأنباء استيلاء الصليبيين عليها، لكنه ارتدع بعد أن رأى جيش كربوقا من بعيد. وكان وليم أوف جرانت ـــ مينسيل هو زوج أخت بوهيموند مابيلا، ولا شك

---

(١) Kemal ad-Din, *loc. cit.; Gesta Francorum,* XI, 21,p. 114; letter of princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.162; William of Tyre, VI,4,1,p.240

في أن فرار أحد الأقرباء القريبين بهذه الدرجة من رئيس النورمانديين يؤثر أيما تأثـــير على الجيش كله.(١)

ألكسيوس في طريقه إلى أنطاكية

وبدا للمحاصرين داخل أنطاكية أن فرصة الخـــلاص الوحيـــدة هـــي وصـــول الإمبراطور وقواته. وكان معروفا أنه انطلق بالفعل من القسطنطينية، وفي الربيع تقـــدم جون دوكاس من ليديا إلى داخل فريجيا حتى بلغ الطريق الرئيسي الذي سبق أن سلكه الصليبيون الذين أعادوا في بعض الأحيان فتـــح الطريـــق إلى أنطاليـــا. ولذلـــك رأى ألكسيوس أنه من الأسلم أن يأخذ جيشه الرئيسي إلى قلب آسيا الصغرى حـــتى يوفـــر المساعدة للحملة الصليبية رغم أن كثيرين من مستشاريه لم يحبذوا حملة تأخذه إلى هذه المسافة البعيدة عن عاصمته في بلاد لم يتم تطهيرها بعد من الأعداء. وفي منتصف يونية (حزيران) وصل ألكسيوس إلى فيلوميليوم، وبينما كان يعد العدة لمواصلة مسيرته ظهر ستيفن ووليم في المعسكر، وكانا قد أبحرا معا من طرسوس وسمعا أثناء رحلتهما، ربمـــا في أنطاليا، بمكان وجود الإمبراطور، فتركا رحالهما لمواصلة الرحلة بحرا وأسرعا شمالا إلى فيلوميليوم ليؤكدا للإمبراطور أن الأتراك في أنطاكية الآن، وأن الجيش الصليبي على وشك الإبادة. وفي نفس الوقت تقريبا لحق به بطرس أوف أولبس الذي ترك موقعه في كومانا شرقي قيصرية ليبلغه بأن هناك جيشا تركيا يتقدم ليضرب ألكسيوس قبـــل أن

---

(١) Raymond of Aguilers, XI, pp. 256-8; *Gesta Francorum*, IX, 23, pp. 126-8; letter of clergy of Lucca, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 166, Where William of Grant-Mesnil is called 'cognatus Boemundi' أما Ducange في ملاحظاتـــه علـــي أنا كومنينا في *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Grecs,* vol. ii, p.27 فيورد مراجع حول زوجته Mabilla رغم أنه يفترض أن زواجها قد تم في تاريخ حديث. ويخبرنـــا Orderic Vitalis, VIII, 28, vol. ii, p. 455. أنهما قد تزوجا في أبوليا قبل الحملة الصليبية.

يتمكن من الوصول إلى أنطاكية. و لم يكن لدى ألكسيوس ما يدعوه إلى الشـــك في تلـك الروايات; إذ كان ستيفن صديقا يمكن الاعتماد عليه ، فضلا عن أن هذه الكارثة لـــم تكـــن بعيدة الاحتمال بأي حال من الأحوال. واضطرته تلك الأنباء إلى إعادة النظر في خططه، فإذا كان الأتراك قد استولوا على أنطاكية وقضوا على الفرنج فسوف يواصلون هجومهم لا محالة، وسوف يحاول السلاجقة بلا شك استرداد ما فقدوه ومن ورائهم العالم التركي المنتصر كلــه، وفي مثل هذه الظروف يصبح استمرار الحملة ضربا من الجنون. وكانت مسيرة جيشه معرضة بحكم وضعها للهجمات التركية الخطرة، ولا مجال لأن يفكر في إطالة خطوط مواصلاتـــه في هذا المنعطف من أجل قضية خاسرة بالفعل. وحتى وإن كان مغامرًا كأمراء الحملة الصليبيـــة فإنّ المخاطرة ليست جديرة بالمحاولة، وإنّما هو مسئول عن رعاية إمبراطوريـــة كبـــيرة معرضة للهجوم، وواجبه الأول ينبغي أن يكون موجهًا نحو رعيته، فاستدعى مجلســـه وأخطر أعضاءه بضرورة الانسحاب. وكان هناك أمير نورماندي بين مساعديه يدعى جوي وهو أخ غير شقيق لـــبوهيموند، وظل في خدمة الإمبراطور لسنوات طويلـــة، واضطرمت نوازع الشفقة في صدره على الصليبيين الموروطين، فتوسل إلى الإمبراطور كي يستمر في مسيرته، فربما تكون هناك فرصة لإنقاذهم، غير أنه لم يكن هناك مـــن يؤيد طلبه. وانسحب الجيش البيزنطي العظيم باتجاه الشمال تاركًا نطاقًا مـــن الأرض الجرداء تحمي المناطق التي انتزعها الجيش مؤخرا من الأتراك.(١)

---

(١) *Gesta Francorum,* IX, 27, pp. 140-6 يذكر تدخل جوي Guy أخي بوهيمند ؛ Anna Comnena, XI, vi, 1-2, vol III, pp. 27-8 وتقول أناكومنينا إن بطرس أوف أولب Peter of Aulps قد أتى مع هاربين آخرين من أنطاكية . بيد أنه قد ترك حاكما لـــ Placentia التي لا بد وأنه قد جاء منها ، ومعه أنباء اقتراب الجيش التركي من الشرق لكي يعترض طريق ألكسيوس في حال تقدمه . وتوضح أنا كومنينا أن هذه الأنباء هي التي جعلت ألكسيوس يتخذ طريق العودة وإذا كان الفرنج قد هزموا فعلا في أنطاكية فمن الجنون أن يستمر في تقدمه .

ولو أن ألكسيوس استجاب لتوسلات جوي لكان ذلك أفضل للإمبراطورية ولسلام العالم المسيحي الشرقي برغم أنه لم يكن بوسعه أن يصل إلى أنطاكية قبل أن تنقضي المعركة الحاسمة. فعندما علم الصليبيون بشائعة عودة الجيش الإمبراطوري بلغت منهم المرارة مبلغها، وتصوروا أنفسهم كمحاربي المسيح ضد الكفرة، واعتبروا رفضه الإسراع لنجدتهم ـــ مهما بدت ميئوسا منها ـــ عملا من أعمال خيانة العقيدة، ولم يكن بوسعهم تقدير واجبات الإمبراطور الأخرى، وبدلا من ذلك فإن إهماله يبرر كافة الشكوك والكراهية التي يحملونها بالفعل نحو اليونانيين. ولم يغتفر ذلك لبيزنطة البتة، ووجد بوهيموند الأمر كله في صالح طموحه (١).

وتحقق الصليبيون من أن اللوم يقع أيضا على ستيفن أوف بلوا الذي تناوله مؤرخوهم بمشاعر الغضب ونعتوه بالجبن، وسرعان ما سبقته القصة إلى أوروبا، وقد عاد ستيفن نفسه متمهلا على مراحل إلى وطنه حيث وجد زوجته وقد أخذ منها الخجل كل مأخذ ولم يهدأ لها بال حتى أعادته إلى الشرق مرة أخرى للتكفير عن خطيئته.(٢)

وفي تلك الأثناء كان كربوقا يواصل تشديد الحصار على أنطاكية. وفي الثاني عشر من يونية (حزيران) شن هجوما مفاجئا كاد يستولي فيه على أحد أبراج الجزء الجنوبي الغربي من السور، لولا أن أنقذت البرج شجاعة ثلاثة فرسان من ماليتر، ولكي

---

(١) لم يكن من الممكن أن تصل إلي أنطاكية أخبار انسحاب الإمبراطور إلا بعد هزيمة كربوقا بزمن طويل. أنظر ما يلي الصفحتين ٣٨٣ و ٣٩٠

(٢) Orderic Vitalis, x, 19, vol . iv, p. 118 الذي يذكر خجل أديلا، إلي أن تتمكن من إقناع ستيفن بالذهاب مرة أخري إلي الحملة الصليبية.

يتجنب بوهيموند تكرار تلك المخاطر أمر بحرق شوارع بأكملها في المدينة بالقرب من الأسوار حتى يتمكن الجنود من المناورة بشكل أيسر.(١)

تدخل ما وراء الطبيعة

وفي ذلك المنعطف حدثت سلسلة من الأحداث بدت للمسيحيين وكأن الرب يشملهم برعايته مما رفع من معنوياتهم. فقد كان الجنود جوعى وملهوفين، وقد أبقى إيمانهم عليهم حتى تلك اللحظة، وهو الآن إيمان مزعزع لكنه لم ينكسر. وفي مثل هذا الجو تنتشر الأحلام والرؤى. ولأبناء العصور الوسطى إيمانهم بأن الخوارق ليست مستحيلة ولا حتى نادرة جدا، ولم تكن أفكارنا المعاصرة المتصلة بقوى اللاشعور قد ظهرت بعد؛ وإنما يعتقدون أن الأحلام والرؤى تأتي من الرب أو — في بعض الحالات — من الشيطان. ولا يتأتى الشك في الحلم إلا إذا كان صاحبه موضع تكذيب صريح. وعلينا أن نتذكر هذا الموقف عندما نتأمل الحادثة التالية: ففي العاشر من يونية (حزيران) ١٠٩٨ ميلادية جاء إلى خيمة الكونت ريموند فلاح اسمه بطرس بارثولوميو في ملابسه البالية وطلب مقابلته مع أديمار أسقف لوبوي، وكان قد التحق بالحملة الصليبية خادما لواحد من حجاج بروفانس يدعي وليم — بطرس. ولم يكن الفلاح أميا تماما على الرغم من أصله الوضيع، وإنما كان معروفا بين أقرانه بأنه سيئ السمعة مفرط الانغماس في الملذات. وقصة ذلك الرجل أنه كان يتعذب خلال الأشهر الأخيرة بالرؤى التي كشف له فيها القديس أندرو عن أثر من أقدس آثار العالم المسيحي يمكن العثور عليها، ألا وهو الرمح الذي نفذ في جانب المسيح. وجاءته الرؤيا الأولى عندما

---

(١) *Gesta Francorum*, IX, 26,p. 136; Radulph of Caen, LXXVI, pp. 660-1 ويقول راد ولف أوف كاين إن روبرت الفلندرزي أحرق الحي ؛ ويذكر **Albert of Aix**, IV,35,p.413 الفرسان الآتين من مالين **Malines** .

حدث زلزال الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) ; فبينما كان يصلي في رعب ظهر له فجأة رجل مسن فضي الشعر وبصحبته شاب طويل يأخذ جماله بالألباب، وأخبره الرجل إنه هو القديس أندرو نفسه، وأمره بالذهاب من فوره لمقابلة أسقف لوبوي والكونت ريموند ليوبخ الأسقف على إهماله في واجبه كواعظ، وليكشف للكونت عن مكان الرمح الذي اطلعه القديس عليه. وبعد ذلك وجد بطرس أنه محمول على الهواء بنفس الهيئة التي كان عليها، مرتديا قميصه وحسب، إلى داخل المدينة حيث كاتدرائية القديس بطرس التي حولها الأتراك إلى مسجد، وقاده القديس أندرو من المدخل الجنوبي إلى الكنيسة الصغيرة في الناحية الجنوبية، وهناك اختفى داخل الأرض ليظهر ثانية حاملا الرمح، وأراد بطرس أن يأخذه في الحال ولكن القديس أندرو أمره أن يعود مرة أخرى ومعه اثنا عشر من رفاقه بعد الاستيلاء على المدينة، وأن يبحثوا عن الرمح في نفس المكان. ثم وجد نفسه وقد حمله الهواء عائدا به إلى المعسكر.

رؤى بطرس بارثولوميو

وقال بطرس أنه تجاهل أوامر القديس خشية ألا يستمع أحد إلى رجل فقير مثله، وبدلا من ذلك رحل إلى الرها في حملة لجلب الطعام. وفي العاشر من فبراير (شباط)، وبينما كان جالسا في الحصن القريب من الرها في وقت صياح الديكة، ظهر له القديس أندرو ورفيقه مرة أخرى وزجره على عصيانه لأوامره وعاقبه بمرض مؤقت في عينية، كما ألقى عليه القديس أندرو محاضرة عن حماية الرب الخاصة مضيفا أن القديسين كلهم مشتاقون لاستعادة أجسادهم ليحابوا إلى جانبهم. واعترف بطرس بارثولوميو بذنبه وعاد إلى أنطاكية، ولكن شجاعته خذلته مرة أخرى ولم يجرؤ على مفاتحة الأمراء العظام. وفي مارس (آذار) شعر بالارتياح حينما أخذه سيده وليم —

بطرس في رحلة لشراء الطعام من قبرص. وفي مساء أحد السعف(١) العشرين من مارس (آذار)، وأثناء نومه مع سيده في خيمة بميناء السويدية، جاءته الرؤيا مرة أخرى، فأعاد بطرس بارثولوميو اعتذاراته، فقال له القديس أندرو ألا يخاف وأعطاه التعليمات التي ينبغي للكونت ريموند تنفيذها عندما يصل إلى نهر الأردن. وسمع سيده وليم ـ بطرس المناقشة ولكنه لم ير شيئا. وعاد بطرس بارثولوميو بعد ذلك إلى المعسكر في أنطاكية ولم يتمكن من مقابلة الكونت، ولذا رحل إلى ماميسترا ليواصل رحلته إلى قبرص. وفي ماميسترا جاءه القديس أندرو غاضبا وأمره بالعودة، وأراد بطرس أن يطيع الأوامر لكن سيده اضطره إلى الإبحار. وجرفت الأمواج السفينة ثلاث مرات عائدة بها، وأخيرا ألقتها على شاطئ جزيرة قريبة من ميناء السويدية حيث ألغيت الرحلة. ومرض بطرس فترة من الزمن، وبعدما شفي كان الصليبيون قد استولوا على أنطاكية، فدخل المدينة وشارك في معركة العاشر من يونية (حزيران) وكاد أن يقتل منسحقا بين حصانين، وعلى الأثر ظهر له القديس أندرو مرة أخرى وحادثه في صرامة بحيث لم يعد في مقدوره أن يعصى أوامره، فقص القصة على رفاقه أول الأمر، ورغم ارتيابهم فيها ها هو الآن يعيدها على الكونت ريموند وأسقف لوبوي.(٢)

---

(١) (المترجم) : أحد السعف : يوم الأحد السابق علي الفصح ، يحتفل فيه بذكري دخول المسيح القدس ظافرا وقد نثر سعف النخل في طريقه

(٢) وردت قصة بطرس بارثولوميو كاملة في Raymond of Aguilers, x, pp. 253-5 وهو يؤمن به إيمانا مطلقا . والرواية المقتضبة الواردة في تاريخ *Gesta Francorum*, IX, 35, pp. 132-4 والتي ربما كتبت في ذلك الوقت ، تظهر تصديقا بالقصة . وكذلك خطاب الأمراء المرسل إلي إيربان الثاني الوارد في Hagenmeyer, *op. cit.* p.163 وهو الخطاب الذي كتب بوهيمند مسودته .

ولم يتأثر أديمار بالقصة، واعتبر أن بطرس بارثولوميو شخصية مغمورة لا يعـــول على قصته وربما استاء من انتقاد حماسه كواعظ، وربما تذكر أنه شاهد في القسطنطينية رمحا مقدسا مشهود له بأصالته منذ زمن بعيد، ولكونه رجل كنيسة متمرس لم يكـــن ليثق في رؤى الجهلاء. أما ريموند، الذي كان في ورعه أكثر بساطة وأشـــد حماســا، فكان مهيئا للاقتناع، وأعد العدة للبحث الجاد عن الرمح خلال خمسة أيام، وفي نفـــس الوقت عهد إلى واعظ جيشه برعاية بطرس بارثولوميو.(١)

وتوالت الرؤى بسرعة. ففي ذلك المساء، وبينما كان الأمراء مجتمعين أعلى المدينة بجوار السور المحيط بالقلعة، طلب قسيس من فالنس (٢) يدعـــى ســتيفن مقابلتـــهم، وأخبرهم أنه في الليلة السابقة ظن أن الأتراك قد استولوا على المدينة، فاصطحب معـــه مجموعة من القساوسة إلى كنيسة السيدة العذراء لإقامة قداس شفاعة، وبعـــد انتـــهاء القداس استغرق الآخرون في النوم، وبينما كان مستلقيا رأى أمامه هيئة شخص بـــارع الجمـــال استفسر منه عمن يكون هؤلاء الرجال ، وسره أن يعلم أنهم مسيحيون طيبون وليسوا هراطقة، ثم سأل ستيفن عما إذا كان يعرفه، فأجاب بالنفي لكنه لاحظ هالـــة صليبية الشكل تحيط برأسه على النحو الذي يراه في صورة المسيح، وأقر الزائر أنه هو المسيـــح ثم سأل عمن يكون قائد الجيش، فرد ستيفن بأنه لا يوجد قائد للجيش وإنما

---

(١) Raymond of Aguilers, *ibid.*p. 255 وعن الرمح الذي حفظ في القسطنطينية أنظر Ebersolt, *Les Sanctuaires de Byzance,* pp. 9, 24, 116 أنظر أيضا رانسيمان "الرمح المقدس الـــذي عثر عليه في أنطاكية 'The Holy Lance found at Antioch' فـــي " المختـــارات اليسوعيـــة "Analecta *Bollandiana* vol. LXVIII ويـــرد في Ralph of Caen, CII, p .678 سمعـــة بطرس السيئة كما أخبر عنها بوهيمند .

(٢) (المترجم) : فالنس : مدينة جنوب شرقي فرنسا علي نهر الرون .

السلطة الرئيسية في يد أسقف، فطلب المسيح من ستيفن أن يخبر الأسقف أن قومه قد أثموا بشهواتهم واقترافهم الزنا، لكنهم إذا عادوا إلى سبيل الحياة المسيحية فسوف يرسل لهم الحماية في غضون خمسة أيام، ثم ظهرت سيدة وضاءة المحيا وقالت للمسيح إن هؤلاء هم الناس الذين كانت تشفع لهم دائما، وانضم إليهما القديس بطرس كذلك، وحاول ستيفن أن يوقظ واحدا من رفاقه ليكون شاهدا على الرؤيا، لكن الزائرين ذهبوا قبل أن يتمكن من ذلك.

اكتشاف الرمح المقدس

وكان أديمار على استعداد لقبول هذه الرؤيا وتصديقها، إذ أن ستيفن قسيس حسن السمعة، فضلا عن أنه أقسم على الإنجيل أنه صادق في قوله، ولما رأى أديمار أن الأمراء قد تأثروا بالقصة استحثهم في الحال على أن يقسموا بالسر المقدس ألا يترك أي منهم أنطاكية إلا برضاء الآخرين جميعا، فكان بوهيموند أول من أقسم، وتلاه ريموند، وروبرت النورماندي، وجودفري وروبرت أوف فلاندرز، ثم تبعهم الأمراء الأقل شأنا، ورفعت أنباء القسم من معنويات الجيش. وزيادة على ذلك، فإن ما ذكره ستيفن من وجود علامة على رعاية إلهية ستحدث خلال خمسة أيام دعم مزاعم بطرس بارثولوميو. وازدادت التوقعات قوة.(١)

وفي الرابع عشر من يونية (حزيران) شوهد نيزك في السماء بدا وكأنه سيسقط فوق معسكر الأتراك، وفي الصباح التالي توجه بطرس بارثولوميو إلى كاتدرائية القديس بطرس ومعه صحبة من اثني عشر شخصا تضمنت الكونت ريموند، وأسقف أورانج،

---

(١) Raymond of Aguilers, XI, pp. 255-6; *Gesta Francorum*, IX, 24, pp. 128-32.

وريموند أوف أجيليه المؤرخ، وظل العمال يحفرون الأرض طوال اليوم، لكنهم لم يجدوا شيئا، فانصرف الكونت تسبقه خيبة الأمل. وأخيرا وثب بطرس نفسه وهو يرتدي قميصه في الخندق، وأمر الحاضرين جميعا بالصلاة، ثم أخرج قطعة من الحديد وعلى وجهه آيات الانتصار، وأعلن ريموند أوف أجيليه أنه رآها بينما كانت ما تزال مدفونة في الأرض، وسرعان ما انتشرت قصة اكتشافه في أنحاء الجيش وتلقاها الجميع بحماس وغبطة(١).

وإذا حاولنا الآن أن نحكم على حقيقة ما حدث فستكون المحاولة عقيمة. فقد تم تنظيف الكاتدرائية مؤخرا لإعادة تكريسها لخدمة الرب، وربما شارك بطرس بارثولوميو في هذا العمل بعد عودته إلى أنطاكية، فهو لم يكشف مطلقا عن تاريخ هذه العودة، وبذا تتوفر لديه الفرصة لدفن قطعة الحديد تحت الأرضية، أو ربما كانت لديه موهبة المستنبئ بالعصا الذي يعرف مواقع المعادن تحت الأرض. والجدير بالملاحظة أنه حتى في ذلك العصر الذي تعتبر المعجزات فيه ممكنة الحدوث بشكل عام، التزم أدهمار أسقف لوبوي بوضوح بوجهة النظر القائلة بأن بطرس مجرد دجال، وكما يظهر من تتمة القصة شارك كثيرون أدهمار في عدم ثقته التي لم تكن قد أعلنت بعد، فالعثور على هذا الأثر أثلج صدور المسيحيين، حتى اليونانيين والأرمن، بحيث لم يشأ أحد أن يفسد ما أحدثه من بهجة وغبطة. ومع ذلك، فإن بطرس بارثولوميو نفسه سبب بعض الصدمة لمؤيديه حينما أعلن بعد ذلك بيومين أنه تلقى زيارة أخرى من القديس أندرو، وربما شعر بالغيرة من ستيفن الذي حادثه المسيح مباشرة ، ولذا أبهجه أن يسمع من القديس

---

(١) Raymond of Aguilers, XI, p. 257 وتذكر جميع المراجع قصة العثور علي الرمح ، بما في ذلك أناكومنينا XI, vi, 7, vol. III, p. 30 التي تقول إنه مسمار وليس رمحا ، وتنسب اكتشافه إلى بطرس الناسك ، كما ذكر القصة Matthew of Edessa, II, clv, p. 223 ويقول ابن الأثير صراحة إن بطرس دفن رمحا بنفسه *op. cit.* p. 195. أنظر رانسيمان Runciman, *op. cit.*

أندرو أن رفيقه الصامت الذي ظهر معه في الرؤيا كان هو المسيح بالفعل، ثم أعطاه القديس تعليمات دقيقة عن الطقوس التي ستقام احتفالا بالاكتشاف وإحياء ذكراه السنوية، ولدى سماع أسقف أورانج بتلك الطقوس الدينية وتفاصيلها ارتاب في بطرس وسأله ما إذ كان يستطيع القراءة. وظن بطرس أنه من الحكمة أن يعلن أنه أمي، واتضح أنه كاذب، ولكن سرعان ما اطمأن أصدقاؤه إذ أنه منذ ذلك الوقت لم يعد قادرا على القراءة، وسرعان ما عاود القديس أندرو الظهور ليعلن عن معركة وشيكة مع الأتراك لا ينبغي لها أن تتأخر طويلا لأن خطر الموت جوعا يتهدد الصليبيين. وأوصى القديس بالصوم خمسة أيام، تكفيرا عن خطايا الناس. وعلى الجيش بعد ذلك أن يهاجم الأتراك وسوف يحظى بالنصر. ولا ينبغي لهم أن ينهبوا خيام الأعداء.(١)

ومرض الكونت ريموند، وبذا أصبح بوهيموند القائد الأعلى للجيش، وقرر أن المخرج الوحيد هو شن هجوم شامل على معسكر كربوقا، ومن الجائز أن يكون القديس أندرو قد استوحى نصيحته الأخيرة من مصادرها الأرضية. وبينما كانت معنويات الصليبيين تتحسن كان كربوقا يواجه صعوبات متزايدة في الحفاظ على تحالفاته؛ فمازال رضوان الحلبي متباعدا عن الحملة، لكن كربوقا شعر بالحاجة إلى مساعدته؛ فبدأ يتفاوض معه، مما أغضب دقاق الدمشقي الذي كان عصبيا بسبب العدوان المصري في فلسطين وهو يتلهف على العودة إلى الجنوب، وأما أمير حمص فكانت له ثارات عائلية مع أمير منبج و لم يسعه التعاون معه. وحدث احتكاك بين الأتراك والعرب في قوات كربوقا نفسه الذي حاول الحفاظ على النظام باستخدام سلطته الاستبدادية التي استاء منها كل الأمراء لمعرفتهم أنه مجرد أتابج. وباقتراب الشهر

---

(١) Raymond of Aguilers, *ibid.* pp. 257-9

من نهايته كان الهاربون من المعسكر يزدادون أكثر فأكثر، وعاد الكثير من الأتراك والعرب على السواء إلى بلادهم.(١)

سفارة بطرس الناسك

ولا شك في أن قادة الصليبيين علموا بمتاعب كربوقا فحاولوا إقناعه بالتخلي عن الحصار. ففي السابع والعشرين من يونية (حزيران) أرسلوا إليه سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وواحد من الفرنج يدعى هيرلوين كان يتحدث العربية والفارسية، ولاختيار بطرس الناسك دلالة على أنه استعاد سمعته التي كانت قد تلوثت بمحاولته الفرار قبل ذلك بخمسة أشهر، وربما لم يذهب في هذه السفارة أحد من القادة خشية ألا يحترم الأتراك حصانة المبعوثين، وقد اختير بطرس الناسك باعتباره أفضل المعروفين من غير المقاتلين مع الجيش، ويعتبر قبوله القيام بهذه المهمة دليل على شجاعته، واسهام في الحفاظ على هيبته. ولا ندري الشروط التي كان مسموحا لبطرس أن يعرضها، فمن الواضح أن الأحاديث التي يقولها المؤرخون المتأخرون على لسان كل من بطرس وكربوقا مجرد تخيلات، وكما يقول بعض المؤرخين ربما أثير اقتراح إجراء سلسلة من المبارزات الفردية تقرر مصير الأمر كله. وعلى الرغم من ضعف كربوقا المتزايد فقد استمسك بضرورة التسليم دون قيد أو شرط، ورجعت السفارة خاوية الوفاض، ولكن ربما اكتسب هيرلوين بعض المعلومات النافعة عن طبيعة الأحوال في المعسكر التركي.

ولم يعد هناك مفر من القتال بعد فشل السفارة. وفي باكورة يوم الاثنين الثامن والعشرين من يونية (حزيران) قام بوهيموند بتنظيم الجنود الصليبيين للعمل، فقسم الجيش إلى ستة جيوش: الأول من الفرنسيين والفلاندرز بقيادة هيو أوف فيرمندوا

---

(١) Kemal ad-Din, *op. cit.* 583; Abu'l Feda, *Moslem Annals,* p. 4; Ibn al-Athir, *op. cit.* p. 194

وروبرت أوف فلاندرز، والثاني من اللوثارنجيين(١) بقيادة جودفري، والثالث من النورمانديين القادمين من نورماندي بقيادة الدوق روبرت، والرابع من أبناء تولوز وبروفانس بقيادة أسقف لوبوي بسبب مرض ريموند الشديد، والخامس والسادس من النورمانديين القادمين من إيطاليا بقيادة بوهيموند وتانكريد، ولكي لا تغيب القلعة عن أعينهم تركوا في المدينة مائتي رجل يقودهم ريموند من فراش مرضه. وصعد بعض القساوسة ووعاظ الجيش على الأسوار يقيمون قداس شفاعة، بينما سار البعض الآخر مع الجنود. ومنح ريموند أوف أجيليه شرف حمل الرمح المقدس في المعركة، ورفرفت رايات الأمراء المميزة لكل أمير عن الآخر، لكن دروع الفرسان كانت ملطخة بعض الشيء، واضطر كثيرون ممن فقدوا خيولهم إلى السير راجلين أو امتطوا دواب الحمل الأخرى، على أن شجاعة الجنود ـــ التي عززتها علامات الرعاية الإلهية التي ظهرت مؤخرا ـــ بدت مرتفعة وهم يخرجون الواحد تلو الآخر عبر الجسر المحصن.(٢)

الانتصار على كربوقا

وأثناء ظهورهم وهم يخرجون من البوابة حاول القائد العربي وثاب بن محمود إقناع كربوقا بمهاجمتهم على الفور، ولكن كربوقا كان يخشى إن هو هاجمهم بغاية السرعة فسيقضي على طليعة الجيش الصليبي وحسب، بينما لو انتظر فسوف يتخلص منهم جميعا بضربة واحدة. وكان يفضل عدم المضي في ذلك الحصار المرهق نظرا لحالة جنوده السيئة، لكنه عندما رأى جمع الفرنج تردد وأرسل مبعوثا، بعد فوات الأوان ،

---

(١) (المترجم) : نسبة إلي مملكة لوثارنجيا التي أسسها سنة ٨٥٥ ميلادية " لوثير " أصغر أبناء الإمبراطور الكارولينجي " لويس الأول " (الورع) ، وكانت تضم أجزاء من شمال شرق فرنسا وشرقها وما جاورها .

(٢) *Gesta Francorum*, IX, 28, pp. 146-50; Fulcher of Chartres, I, xxi, 1-2, pp. 247-9; Raymond of Aguilers, XI, p. 259; Albert of Aix, IV, 44-9, pp. 420-1

يعلن أنه يقبل مناقشة شروط الهدنة، وتجاهل الفرنج رسوله وواصلوا تقدمهم. واتبع كربوقا الوسيلة التركية المعتادة، فانسحب لاستدراجهم إلى أرض صعبة حيث يمطر رماته سهامهم فجأة على صفوفهم، وفي نفس الوقت أرسل فصيلة تلتف حولهم ليحصروا مسيرتهم بجوار النهر حيث لا تتوفر الحماية لهذا الجانب; غير أن بوهيموند كان مستعدا لذلك وكون جيشا سابعا بقيادة رينالد أوف تول لصد الهجوم. وعلى الجبهة الرئيسية التهب وطيس القتال وسقط من بين القتلى حامل راية أديمار الخاص، لكن رماة الأتراك لم يتمكنوا من وقف تقدم الصليبيين وبدأ الصف التركي يهتز، وشدد المسيحيون ضغطهم على الأتراك وقد شجعهم أن رأوا على جانب التل جماعة من الفرسان على خيول بيضاء يلوحون برايات بيضاء، وتعرفوا على قادتها: القديس جورج، والقديس ميركوري، والقديس ديميتريوس. وأما العون العملي الأكبر فقد جاءهم من قرار الكثير من أمراء كربوقا بالتخلي عن قضيته لخشيتهم من أن يجعله الانتصار هائل القوة ويصبحون هم أول ضحاياه، فبدءوا ينسحبون من الميدان وعلى رأسهم دقاق الدمشقي مما نشر الذعر بين الجنود. وأشعل ربوقا النيران في الحشائش الجافة أمام خطوطه في محاولة عقيمة لإعاقة الفرنج إلى أن يستعيد النظام. وكان سقمان الأرتقي وأمير حمص هما آخر من بقى على إخلاصه له، وحينما لاذا بالفرار كذلك أدرك أن الأمر قد انتهى وتخلى عن المعركة، وتفتت الجيش التركي كله مذعورا، والتزم الصليبيون بنصيحة القديس أندرو بألا يتخلفوا لسلب معسكر الأعداء، وتتبعوا الفارين حتى الجسر الحديدي وهم يقتلون أعدادا غفيرة منهم، وحاول آخرون الاحتماء بحصن تانكريد فأحاط بهم الصليبيون وقضوا عليهم. واشترك أبناء البلاد من السوريين والأرمن في مذبحة قضوا فيها على كثيرين ممن نجوا من المعركة، ووصل كربوقا إلى الموصل ومعه بقايا قواته، ولكنه فقد قوته وهيبته إلى الأبد.

وكان أحمد بن مروان، آمر القلعة، يرقب المعركة من القلعة أعلى الجبل، وعندما رأى الأتراك ينهزمون أرسل رسولاً في المدينة يعلن استسلامه، واقتيد الرسول إلى خيمة ريموند الذي أرسل راية من راياته لرفعها على برج القلعة، لكن أحمد الذي علم أنّ الراية ليست راية بوهيموند رفض رفعها. ويبدو أنه كان قد أعدّ ترتيبًا سريًا مع بوهيموند يُنفّذ في حالة انتصار المسيحيين، ولم يفتح بوابته إلى أن ظهر بوهيموند نفسه، وسمح لأفراد الحامية بالخروج سالمين بعد أن تحول البعض منهم إلى المسيحية والتحقوا بجيش بوهيموند بما فيهم أحمد ذاته.(١)

ولم يكن انتصار الصليبيين متوقعا، ولكنه كان انتصارا كاملا حسم بقاء أنطاكية في حوزة المسيحيين، وإن لم يحسم مسألة من تؤول إليه المدينة من بين المسيحيين. ومن الواضح أن القسم الذي أقسمه جميع الأمراء للإمبراطور، عدا ريموند، يستوجب تسليم المدينة. لكن بوهيموند أظهر بالفعل نواياه في الاحتفاظ بها. وكان رفاقه، خلا ريموند، على استعداد لأن يرتضوا ذلك لأنه هو الذي خطط للاستيلاء عليها وهو الذي استسلمت له القلعة، وإنما ضايقهم قليلا الاستخفاف بالقسم الذي أقسموه. غير أن الإمبراطور بعيد جدا. ولم يخف لنجدتهم، وتركهم مندوبه، وقد استولوا على المدينة وهزموا كربوقا دون مساعدة منه، وبدا لهم من غير العملي ترك حامية في المدينة إلى أن يتنازل ألكسيوس فيجيء بنفسه أو يرسل واحدا من ضباطه، كما بدا لهم أن الدفاع عن حقوق من هو غائب أمر يخلو من السياسة ومضيعة للوقت ومخاطرة بأن يعاديهم أبرز العسكريين من بينهم، وربما يتخلى عنهم. وكان من الواضح لجودفري أوف لورين أن الوقوف في طريق طموحات بوهيموند أمر يتصف بالحماقة ، أما ريموند فكان

---

(١) Gesta Francorum, IX, 29, pp. 150-8 (وهي أكثر الروايات حيوية) ؛ Raymond of Aguilers, XII, pp. 259-61; Fulcher Chartres, XXII - XXIII, pp. 251-8; Albert of Aix, IV, 47-56, pp. 421 - 9; Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 160; Kemal ad-Din, *loc. cit.;* Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 195-6

دائما يعاني مرارة الغيرة من بوهيموند. وليس من الإنصاف أن نعتبر أن غيرته هي الدافع الوحيد وراء تأييده ألكسيوس في مطالبه; إذ كان قد أقام علاقة صداقة مع ألكسيوس قبل أن يغادر القسطنطينية، وكان من الحصافة بحيث أدرك أن تقصيرهم في إعادة أنطاكية إلى الإمبراطورية سيفقدهم حسن نوايا الإمبراطور التي تعتبر ضرورية بالنسبة لهم إذا ما أرادوا المحافظة على خطوط مواصلاتهم، وإذا ما أرادوا كبح جماح المسلمين الذين سيقومون بعمل مضاد لا محالة. فضلا عن أن الحرب الصليبية لن تصبح جهدا مبذولا من عالم مسيحي موحد. وشاركه أديمار أسقف لوبوي الرأي، إذ كان عاقد العزم على التعاون مع المسيحيين الشرقيين، وهذا بلا شك ما يريده سيده البابا إيربان الذي كان يدرك خطورة الإساءة إلى بيزنطة.(١)

طباع سيئة

وربما مارس أديمار أسقف لوبوي نفوذه لإرسال هيو أوف فرمندوا إلى الإمبراطور ليشرح له الموقف. وكان هيو، بعد أن أصبحت أنطاكية آمنة، يرغب في العودة إلى موطنه عن طريق القسطنطينية، وكان الصليبيون ما يزالون يعتقدون أن ألكسيوس في طريقه إليهم عبر آسيا الصغرى، ولم تكن قد وصلتهم بعد أنباء انسحابه في أعقاب مقابلته مع ستيفن أوف بلوا، وكان في مأمول أديمار وريموند أن ينجح هيو في إقناع ألكسيوس بالإسراع إليهم. وفي ذات الوقت تقرر أن يبقى الصليبيون في أنطاكية حتى أول نوفمبر (تشرين الثاني) قبل أن يشرعوا في المسير إلى القدس. وكان قرارا طبيعيا نظرا لما يعانيه الجيش من إجهاد، كما أن السير في قيظ صيف سوريا، وفي طريق تكاد أن تكون مجهولة تندر فيها المياه، بدا عملا من أعمال الحمق، وفضلا عن ذلك لا بد

---

(١) Albert of Aix, v, 2, pp. 433-4 دور أديمار تخميني .

أولا من حسم مسألة أنطاكية، ولا شك في أن أديمار كان يأمل في وصول الإمبراطور قبل ذلك الموعد. وانطلق هيو في وقت مبكر من يولية (تموز) بصحبة بـــالدوين أوف هينولت، وفي الطريق عبر آسيا الصغرى هاجم الأتراك جماعته وأوســـعوهم ضربـا، واختفى بالدوين كونت هينولت و لم يعرف مصيره مطلقا. وحل فصـــل الخريـــف في القسطنطينية قبل وصول هيو إليها وقبل أن يقابل الإمبراطور ويخبره بالقصة الكاملـــة لأنطاكية. وأمسى من المتعذر إعداد حملة تعبر جبال الأناضول، ولذا رأى ألكسيوس أنه من غير المجدي الارتحال إلى أنطاكية قبل الربيع التالي.(١)

وفي ذات الوقت ازدادت الطباع حدة في أنطاكية. ففي بداية الأمر كانت قوات كل من بوهيموند، وريموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز قوات تحتـــل القلعـــة بصورة مشتركة، واحتفظ بوهيموند بالسيطرة على الأبراج الرئيسية ونجــــح في طـــرد جنود زملائه. وربما تم ذلك بموافقة جودفري وروبرت وفرض الأمر على ريموند رغم اعتراضه، فاشتد حنقه ورد على ذلك بأن انفرد بالتحكم في الجسر المحصن وقصر ياغي سيان. غير أن ريموند كان مريضا جدا ولا يستطيع اتخاذ خطوات عملية، والآن سقط أديمار مريضا أيضا، ولقي الفرنسيون الجنوبيون، وقد غاب قائداهما، معاملة سيئة مـــن الجنود الآخرين ولا سيما النورمانديين، فتلهف الكثير منهم على أن يتم الصلـــح بـــين ريموند وبوهيموند الذي كان يتصرف وكأنه سيد المدينة بالفعل. وما أن انتشرت أنباء هزيمة كربوقا حتى أسرع الكثيرون من أبناء جنوا إلى أنطاكية متلهفين على أن يكونوا أول من يستولي على تجارتها. وفي الرابع عشر من يولية (تموز) أعطاهم بوهيموند موثقا يسمح لهم بسوق وكنيسة وثلاثين مترلا; ومن ثم أصبحـــوا يدافعـــون عـــن مطالبـــه واستطـــاع هو أن يعتمد على مساعدتهم كي تظل اتصالاته بإيطاليا مفتوحة، ووافقوا

---

(١) *Gesta Francorum,* x, 30, pp. 161-2; Albert of Aix, v, 3, pp. 434-5

على مؤازرته في أنطاكية ضد جميع الوافدين إليها باستثناء ريموند كونت تولوز، ففي حالةالصدام معه سوف يبقون على الحياد.(١)

وبينما كان ريموند وبوهيموند يتربص كل منهما بالآخر متحفزا، رحل النبلاء الأقل شأنا لينضموا إلى بالدوين في الرها، أو خرجوا في حملات للنهب والسلب، أو ليقيموا لأنفسهم إقطاعيات صغيرة في الريف المحيط. وقام بأكثر هذه الغارات طموحا ريموند بيليت القادم من مقاطعة ليموزين الفرنسية، وهو من جيش ريموند، وقد خرج في السابع عشر من يولية (تموز) عبر نهر العاصي واتجه شرقا وبعد ثلاثة أيام احتل مدينة تل مناس حيث تلقاه سكانها السوريون مرحبين. وبعد استيلائه على حصن تركي في الجوار واصل تقدمه لمهاجمة مدينة أكبر هي معرة النعمان بجيش يتألف أساسا من المسيحيين المحليين، لكنهم لم يعتادوا حمل السلاح، وعندما واجهوا الجنود الذين أرسلهم رضوان الحلبي لأنقاذ المدينة انقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار، ولكن رضوان لم يستطع طرد ريموند بيليت من تل مناس.(٢)

موت أديمار أسقف لوبوي

وفي يولية (تموز) انتشر وباء خطير في أنطاكية لا نستطيع أن نحدد طبيعته بدقة. وأغلب الظن أنه كان وباء التيفود نتيجة لحصار ومعارك الشهر الفائت وعدم دراية الصليبيين بالاحتياطات الصحية الضرورية في جو الشرق . وكانت حالة أديمار الصحية

---

(١) Raymond of Aguilers,XIII, pp. 261-2 ؛ اتفاق استئجار السفن الجنوية مع بوهيمند يرد في Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 155-6

(٢) *Gesta Francorum*, x, 30, pp. 162-4, Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 584

متوعكة لبعض الوقت، فكان أول الضحايا البـــارزين لهـــذا الوبـــاء، ومـــات في أول أغسطس (آب).(١)

كان موت أديمار مأساة من أعظم مآسي الحملة الصليبية. وهو على صفحـــات المؤرخين شخصية غامضة نوعا ما، لكنهم يصورونه على أنه قد مارس نفوذا شخصيـــا أكثر من أي صليبي آخر، وحظى بالاحترام كممثل للبابا، وفازت شخصيته بود الجيش كله، لشفقته ورعايته للفقراء والمرضى، ولتواضعه ولأنه لم يكن عدوانيا قـــط، وإنمـــا لديه الاستعداد الدائم لبذل النصيحة الحكيمة حتى في الأمور العسكرية. وكان كقـــائد عسكري يجمع بين الشجاعة والحصافة، وإليه وإلى استراتيجيته يعزى انتصار دوريليـــوم بدرجة كبيرة، وقد ترأس الكثير من مجالس الجيش أثناء حصار أنطاكية. ومن الناحيـــة السياسية كان يعمل على إيجاد تفاهم طيب مع المسيحيين الشرقيين، سواء مع بيزنطـــة أو مع كنائس سوريا الأرثوذوكسية. واستحوذ على ثقة البابا إيربـــان وعـــرف آراءه، وأمكن في حياته كبح التعصب الفرنجي العنصري والديني، كما أمكنه الحيلولة دون أن يتسبب الأمراء بطموحاتهم الأنانية وخلافاتهم في الإضرار بالحملة الصليبية إضـــرارا لا سبيل إلى إصلاحه. وبرغم حرصه على ألا يحاول السيطرة على الحركة الصليبية مطلقا، فقد اعتبر قائدا للحملة الصليبية ـــــ كما نعلم من القسيس ستيفن الذي أبلغ المسيح بذلك في رؤياه. وبعد موته لم يعد هناك من له السلطة العليا المهيمنـــة، وقـــد ورث أفكاره ريموند كونت تولوز الذي سبق أن ناقش البابا إيربان في السياسة الصليبية منذ وقت طويل. على أن ريموند كونت تولوز لم يكن له ما لـــأديمار من اقتدار، وإن كان بوسعه التحاور مع بوهيموند حوار الند للند فإنه لم يكن المتحدث باسم الكنيسة، وفي

---

(١) *Gesta Fracorum,* x, 30, pp. 166; Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Fulcher of Chartres, 1, xxiii, 8, p. 258; letter of the princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 164

غيابه لم يكن لأي أمير من سعة الأفق ما يؤهله للحفاظ على وحدة العالم المسيحي، وإن إحسان أديمار وحكمته وتكامل شخصيته لم تكن أبدا محل مساءلة من رفاقه، حتى أولئك الذين كان يعارض طموحاتهم. وقد بكاه أتباع بوهيموند بنفس القدر من الإخلاص كأبناء جلدته من الفرنسيين وأقسم بوهيموند أن يحمل جثته إلى القدس — لقد تأثر الجيش كله وانزعج لموته.

ومع ذلك، كان هناك رجل واحد لم يشعر بالأسف لموته وهو بطرس بارثولوميو الذي لم يغتفر أبدا للمندوب البابوي تكذيبه للرؤى التي رآها. وأخذ بثأره بعد موته بيومين؛ فأعلن أن القديس أندرو زاره مرة أخرى مصطحبا معه في هذه المناسبة أديمار الذي أعلن أنه قد عوقب على عدم تصديقه فقضى الساعات التي تخللت الفترة منذ موته في الجحيم، ولم ينقذه سوى صلوات رفاقه، خاصة صلوات بوهيموند، والهبات النقدية القليلة التي تبرع بها لصيانة الرمح، وقد نال الغفران وطلب أن يبقى جسده في كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية. ثم قدم القديس أندرو النصح للكونت ريموند قائلا إنه ينبغي إعطاء أنطاكية لذلك الذي يطالب بها حاليا إذا ما ثبت أنه رجل ورع، ذلك الورع الذي ينبغي أن يقرره بطريق يتم انتخابه من بين أتباع الطقوس اللاتينية، وعلى الصليبيين أن يندموا على خطاياهم وأن يواصلوا المسير إلى القدس التي لا تبعد سوى مسافة عشرة أيام، لكن الرحلة قد تستغرق عشرة أعوام إن لم يعودوا إلى العادات الأكثر ورعا. أي أن بطرس بارثولوميو وأصدقاءه من البروفانسال اعتبروا أنه ينبغي السماح لبوهيموند بالحصول على أنطاكية طالما يتعهد بتقديم المساعدة إلى الحملة الصليبية، وأنه ينبغي للجيش أن ينطلق بسرعة إلى القدس، وألا يكون هناك تعامل مع البيزنطيين ولا مع الكنائس الأرثوذكسية المحلية.

وتسبب هذا الوحي في إحراج ريموند. فكان يعتقد اعتقادا مخلصا في الرمح المقدس بالإضافة إلى أن وجود الرمح مع جنوده أضفى عليه الهيبة. ورغم أن كثيرين ربما يقولون إن الانتصار في المعركة مع كربوقا يرجع إلى استراتيجية بوهيموند ، فكان

هناك كثيرون آخرون ينسبون الانتصار إلى الرمح المقدس وبالتالي إلى ريموند بطريق غير مباشر. على أن مصدر السلطة الرئيسية الآخر لـــــريموند ينبــع لارتباطــه الطويــل بـــأديمار، وإذا كان للرسول الإلهي الذي كشف عن موضع الرمـــح أن ينـــاقش رأي أديمار، وينكر السياسة التي ورثها منه ريموند، والتي تتناسب مع أراء ريموند الخاصة به، فلابد له من ألا يعتمد على ما تضفيه عليه صداقته لـــأديمار، ومن ثم بدأ يحاور ويداور؛ فبينما ظل مخلصا لاعتقاده في الرمح أظهر تشككه في أن رؤى بطرس بارثولوميو مـــا تزال صحيحة. فعلى الرغم من كلمات القديس أندرو فهو ما يـــزال يؤكـــد، ومعـــه آخرون، أن أنطاكية ينبغي أن تعطى للإمبراطور. ونتيجة لذلك وجد نفسه في موقف يعارضه أغلب جنوده.

وتولد انطباع سيئ في صفوف عامة الجيش من جراء الهجوم على أديمـــار بعـــد وفاته. وهذا الهجوم وإن كان بمثابة إعلان عن عدم إيمان المندوب البابوي بالرمح فإنه أحيا الشكوك التي راودت الكثيرين في بادئ الأمر. وبدأ النورمـــانديون والفرنســـيون الشماليون بوجه خاص ـــ وهم دائمو الكراهية لأبناء بروفانس ـــ يشجبـــون الرمـــح ويستخدمون فضيحة التزوير لتكذيب الكونت ريموند ومخططاته. وبدفاعهم عن سمعـــة أديمار، استطاعوا العمل ضد السياسة التي كان ريموند يدافع عنها وما تنطوي عليه من إيمان بالرمح. ولنا أن نفترض أن بوهيموند كان مستمتعا بهذا الموقف(١).

مسألـــة اللاذقيـــة

وبانتشار الوباء في أنحاء أنطاكية لجأ قادة الصليبيين إلى مناطق أخرى من البلاد .

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 262-4 ويبدو أن بوهيمند قد بدأ في ذلك الوقت تقريبا يلقي ظلال الشك على أصالة الرمح (Radulph of Caen, *loc. cit.*)

فعبر بوهيموند جبال الأمانوس إلى داخل كيليكيا حيث عزز الحاميات التي تركها تانكريد هناك في الخريف الفائت والتي رحبت به، وكان في نيته أن تضم إمارته الأنطاكية مقاطعة كيليكيا. وذهب جودفري شمالا إلى مدينتي تل بشير وروانداان اللتين سلمهما له أخوه بالدوين، وكان جودفري غيورا من نجاح أخيه، وكان يود أن يكون له نصيبه من الأراضي بالقرب من أنطاكية شأنه شأن غيره من الأمراء، ولذلك ربما تعهد بإعادة المدينتين إلى أخيه بالدوين إذا ما سار الجيش إلى فلسطين. وأما تحركات ريموند فليست أكيدة. بينما ذهب روبرت النورماندي إلى اللاذقية.(١)

وكانت اللاذقية قبل الغزو التركي هي أقصى ميناء جنوبي للإمبراطورية البيزنطية، واستولى عليها الأتراك سنة ١٠٨٤ ميلادية، لكنها خضعت فيما بعد لأمير شيزر العربي، وفي خريف ١٠٩٧ ميلادية هبط جوينيمير أوف بولونيا على الميناء واستولى عليه وبقيت حاميته هناك إلى ما بعد الشتاء. ولكن حدث في مارس (آذار) أن أبحر أسطول إديجار أثلنج بعد تفريغ إمدادات الصليبيين في السويدية إلى اللاذقية وطرد رجال جوينيمير واستولى على المدينة باسم الإمبراطور، لكنه لم يستطع أن يترك فيها سوى فصيلة صغيرة لحمايتها، ولذا تلقى الجيش الصليبي نداء لاستكمال الدفاع، فما أن تم الانتصار على كربوقا حتى ذهب روبرت النورماندي ملبيا النداء حيث سلمت إليه اللاذقية توطئة لتسليمها إلى الإمبراطور. على أن مفهوم الحكم لم يكن يعني لروبرت سوى جباية أكبر قدر ممكن من الأموال من المحكومين، وبذا بات حكمه ممقوتا من عامة الناس حتى أجبر على ترك المدينة بعد أسابيع قليلة، والآن جاءتها حامية مرسلة من إيوستاسيوس فيلوكاليس حاكم قبرص التابع للإمبراطور.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Albert of Aix, v, 4, p. 435, 13, pp. 440-1.

(٢) عن مسألة اللاذقية أنظر :

Chalandon, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 205-12, and :==

وفي سبتمبر (أيلول) خفت وطأة الوباء وعاد الأمراء إلى أنطاكية حيث اجتمعـــوا في الحادي عشر من الشهر لوضع مسودة خطاب إلى البابـــا إيربـــان ببيـــان تفصيـــلات الاستيلاء على أنطاكية ونبأ وفاة مندوبه البابوي. وشعورا منهم بالحاجة إلى سلطة عليا تسيطر على الفرق المتنازعة استحثوه على أن يأتي بنفســـه إلى الشـــرق مؤكديـــن أن أنطاكية دائرة أسقفية أسسها القديس بطرس، وباعتباره وريثا للقديس بطرس فينبغـــي تنصيبه فيها، كما ينبغي له زيارة المدينة المقدسة ذاتها، وهم على استعداد لأن ينتظـــروا

== David, *Robert Curthiose*, pp. 230 ff., and :

Albert of Aix, VI, 45, pp. 500-1.

ويقـــول هذا الأخير (ألبرت أوف آيكس) إن Guynemer أخذ اللاذقية من الأتراك في خريـــف سنـــة ١٠٩٧م واحتفظ بها باسم ريموند التولوزي Raymond of Toulouse ويقول Orderic Vitalis إن Edgar Atheling والإنجليز أخذوها من الإمبراطور ، في وقت ما من أوائل عام ١٠٩٨م ، وعهدوا بها إلي روبرت النورماندي (loc. cit. on p. 228n 1) Robert of Normandy . أما David, *loc. cit.* فيكذب قصة ألبرت ويقول إن الإنجليز لابد وأن أخذوها مباشرة من الأتراك وأن روبرت كان هناك في شتاء عامي ١٠٩٧-١٠٩٨م.ويخبرنا ريموند أوف أجيليه أن روبرت كان غائبا عن أنطاكية في وقت الحمـــلة في ديسمبر ١٠٩٧م . غير أنه من المشكوك فيه ما إذا كان الإنجليز قد جاءوا أمـــام الساحـــل السوري قبـــل شهـــر مارس . ويقول Radulph of Caen إن روبرت ذهب إلي اللاذقيـــة ، الـــتي كانت خاضعة لحكم الإمبراطور ، في وقت فرار ستيفن أوف بلوا (LVIII,p.649) . غير أنه اشترك في المعركة ضـــد كيربوقا بعد ذلك بأيام قليلة ، في الوقت الذي تؤكد كافة المصـــادر وجـــوده .ويقـــول Guibert of Nogent (XXXVII, p. 254) إن روبرت كان قد حكم اللاذقية ذات مرة لكنه نحـــي بسبـــب ظلمه في الجباية المالية . وقد أوردت أنا الرواية التي أظنها مقنعة بأقصي درجة .

حضوره قبل أن يواصلوا المسير إلى فلسطين.(١) وتصدر اسم بوهيموند قائمة أسماء الأمراء، وأغلب الظن أن كاتم أسراره هو الذي كتب الخطاب. ويظهر أثر غياب المندوب البابوي فيما ألمحو إليه ضمنا من نبذ لحقوق البطريق جون وفي الإشارة العدائية إلى الطوائف المسيحية الوطنية التي اتهمت بأنها طوائف هرطيقية. ولم يتوقع الصليبيون أن يتمكن البابا من الارتحال إلى الشرق، لكن هذه الدعوة مكنتهم مرة أخرى من تأجيل البت في مصير أنطاكية، فسيرسل البابا بلا شك مندوبا بابويا آخر يكون مسئولا عن القرار. ومن الواضح أن الإمبراطور لن يتوغل داخل سوريا في ذلك الفصل من العام، وربما علموا بانسحابه من فيلوميليوم.

غارات الصليبيين

وساءت أحوال الجنود والحجاج إلى حد بعيد. فلم يكن هناك حصاد لأية محاصيل في سهل أنطاكية بسبب الحرب وما يزال الطعام ناقصا. وبدأ ريموند في تنظيم غارات على أراضي االمسلمين تهدف إلى الحصول على الطعام، وقبل أن يستقر عزمه على ما يهدف إليه دعاه جودفري ليشترك معه في حملة على مدينة أعزاز الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يصل بين الرها وتل بشير وبين أنطاكية، وكان عمر ــ أمير أعزاز ــ في حالة تمرد على سيده رضوان الحلبي الذي كان في طريقه لمعاقبته، وكان أحد قادة عمر قد سبى سيدة فرنجية وأحبها، وهي أرملة أحد فرسان اللورين، واقترحت عليه أن يستنجد بـجودفري لمساعدته، واستجاب جودفري مبتهجا؛ فكان يقلقه أن تبقى مدينة أعزاز تابعة لـرضوان. وقد قبل ريموند دعوة جودفري لمساعدة عمر وأصر على تسلم إبن عمر كرهينة، كما أرسل بالدوين جنودا من الرها. وباقتراب الجيش المسيحي انسحب رضوان من أعزاز وثبت جودفري عمرا على المدينة بعد تقديمه الولاء، وتمكن ريموند من جمع المؤن من الجوار ولكنه منى بخسائر جسيمة من جراء الكمائن التركية التي نصبت في طريق عودته. وتدل هذه الواقعة على استعداد أمراء

---

(١) خطاب الأمراء الى إيربان الثانى فى Hagenmeyer, *op. cit.* pp.161- 5 .

المسلمين للاستعانة بمساعدة الفرنجة في خلافاتهم بين بعضهم البعض. ليس هذا وحسب، وإنما تدل أيضا على أن الفرنج على استعداد لقبول أمراء تابعين لهم من بين المسلمين، معدلين بذلك عقيدتهم المسيحية المتشددة.(١)

وعلى الرغم مما أبلغ به بطرس بارثولوميو من أن القديس أندرو طلب مرة أخرى تبكير الرحيل إلى القدس، انطلق ريموند في أكتوبر (تشرين الأول) في غارة أخرى للحصول على المؤن. وكان ريموند قد احتل بالفعل بلدة روحة الواقعة على نهر العاصي على بعد حوالي ثلاثين ميلا من أنطاكية، ومن هناك هاجم مدينة البرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي، واستسلم سكانها — وكلهم من المسلمين — لكنهم إما قتلوا أو بيعوا عبيدا في أنطاكية، وأعيد تسكين المسيحيين في المدينة وحول المسجد إلى كنيسة، وعين ريموند أحد قساوستها بطرس أوف ناربون أسقفا للمدينة مما أدخل البهجة على جيشها، وقد تم هذا التعيين لأنه لم تكن توجد أسقفية أرثوذكسية رسمية في المدينة، ولم يكن أحد يتصور حتى ذلك الحين إمكان حدوث صدع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية يؤدي إلى ازدواجية الأسقفية. ورغم أن الأسقف الجديد كان لاتينيا فقد رسمه بطريق أنطاكية اليوناني حون، وقد كان رفع بطرس أوف ناربون إلى درجة الأسقفية علامة على بدء وجود كنيسة لاتينية مقيمة في الشرق، كما كان بمثابة تشجيع للبعض من الصليبيين من أمثال بطرس بارثولوميو التواقين إلى استبدال رجال الكنيسة اليونانية المحليين بغيرهم من اللاتينيين(٢).

---

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 264-5; Albert of Aix, v, 5-12,p. 435-40; Kemal ad-Din, *op. cit.* p.586

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 266; *Gesta Francorum,* x, 31,pp.36-8 . ويقول تاريخ جستا فرانكورام إن الأسقف قد جيء به إلي أنطاكية لرسامته .

وفي المناقشات التي أعقبت هزيمة كربوقا تعهد الأمراء بالانطلاق إلى القدس في نوفمبر (تشرين الثاني)، وفي أول هذا الشهر بدءوا يتجمعون في أنطاكية لمناقشة خططهم. فجاء ريموند من البرة بعد أن ترك فيها أغلب جنوده، وجاء جودفري من تل بشير وقد أحضر معه رءوس جميع الأسرى الأتراك الذين أسرهم في سلسلة من الغارات الصغيرة في المقاطعة. وكان كونت فلاندرز ودوق نورماندي في أنطاكية بالفعل، ووصل بوهيموند ـــ الذي كان مريضا في كيليكيا ـــ بعد ذلك بيومين. وفي اليوم الخامس من نفس الشهر اجتمع الأمراء ومستشاروهم في كاتدرائية القديس بطرس، واتضح على الفور عدم وجود اتفاق بينهم؛ إذ افتتح أصدقاء بوهيموند الاجتماع بالمطالبة بأن تكون أنطاكية له، فالإمبراطور لن يأتي، وبوهيموند رجل يتصف بالمقدرة، وهو الصليبي الذي يخشاه الأعداء أشد ما يخشون. ورد ريموند الحجة بأن ذكر المجلس في حدة بقسم الولاء للإمبراطور الذي أقسمه الجميع باستثناءه هو، وكان معروفا أن جودفري وروبرت أوف فلاندرز يؤيدان بوهيموند في مطلبه لكنهما لم تتوفر لديهما الجرأة على الجهر بذلك خشية اتهامهما بالحنث باليمين، واستمر الجدل عدة أيام نفد خلالها صبر الجنود والحجاج الذين كانوا ينتظرون إعلانهم؛ فلم يكن لهم سوى رغبة واحدة وهي تنفيذ العهود التي قطعوها على أنفسهم والوصول إلى القدس. وكانوا تواقين إلى مغادرة أنطاكية التي تأخروا فيها طويلا وعانوا منها كثيرا. وحثهم بطرس باثولوميو والرؤى التي تأتيه فقدموا إلى رؤسائهم إنذارا يعكس احتقارهم لطموحات كل من بوهيموند وريموند وقالوا فيه إن من يرغب في التمتع بخيرات أنطاكية فليتمتع بها، ومن يتطلع إلى هدايا الإمبراطور فلينتظر مجيئه، أما هم فإنهم سائرون إلى القدس، وإذا ما استمر قادتهم في المماحكة حول امتلاك أنطاكية فسوف يدمرون أسوارها قبل رحيلهم ويسوونها بالأرض. وفي مواجهة هذا الموقف خشي القادة الأكثر اعتدالا أن يلجأ ريموند وبوهيموند إلى السلاح، فاقترحوا إجراء مناقشة يسودها الود يشترك فيها الأمراء الرئيسيون فقط دون غيرهم . وبعد أن شهد الاجتماع المزيد من المشاهد الغاضبة

توصلوا إلى اتفاق مؤقت; وأعلن ريموند أنه يوافق على القرارات التي يتوصل إليها المجلس في نهاية الأمر بشأن أنطاكية شريطة أن يقسم بوهيموند على مصاحبة الحملة الصليبية إلى القدس، بينما أقسم بوهيموند أمام الأساقفة على عدم تأخير الحملة الصليبية أو الإضرار بها من أجل طموحاته الشخصية. وهكذا لم تحسم مسألة أنطاكية ولكن بقيت القلعة وثلاثة أحياء من المدينة في حوزة بوهيموند، بينما ظل ريموند يسيطر على الجسر المحصن وقصر ياغي سيان وعهد بأمرهما إلى وليم إرمنجار. ولم يحدد المجلس تاريخا للانطلاق إلى القدس وإنما — لكي يشغل الجنود في تلك الأثناء — قرر مهاجمة مدينة معرة النعمان الحصينة، فمن المستصوب إخضاعها لحماية ميسرة الجيش عندما يتقدم جنوبا باتجاه فلسطين.(١)

الهجوم على معرة النعمان

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) خرج ريموند وكونت فلاندرز إلى روحة والبرة ووصلا إلى أسوار معرة النعمان في السابع والعشرين. وفشلت محاولة الهجوم على المدينة صباح اليوم التالي، وعندما وصل بوهيموند وجنوده بعد ظهر ذلك اليوم فشل الهجوم الثاني كذلك، فتقرر اتباع طريقة الحصار المعتادة ولم يكن هناك أي تقدم طوال أربعة عشر يوما رغم إحكام الحصار. فراح الصليبيون يطوفون في الأراضي المجاورة بحثا عن أخشاب يصنعون منها آلات الحصار. وتناقص الطعام، فتركت فصائل من الجيش مواقعها للبحث عن الحبوب والخضر. وأخيرا، وفي الحادي عشر من ديسمبر (كانون الأول)، وبعد أن أعلن بطرس بارثولوميو أن النجاح وشيك، دفعوا إلى أحد

---

(١) Raymond of Aguilers, XIV,pp.267-8; *Gesta Francorum,* x,3,pp.168-70; *Historia Belli Sacri,* XCII,p. 208

أبراج المدينة بحصن خشبي ضخم على عجلات بناه رجال ريموند وكان آمره وليم أوف مونتبلييه. وفشلت محاولتهم تسلق البرج من الحصن الخشبي لكنهم تمكنوا من نسف جدار البرج الملاصق للحصن الخشبي الذي وفر لهم الحماية، وفي المساء انهار جدار البرج وتمكن عدد من صغار الجنود من شق طريقهم إلى داخل المدينة وبدءوا السلب والنهب. وفي تلك الأثناء شعر بوهيموند بالغيرة من نجاح ريموند، وأراد تكرار ضربته الموفقة في أنطاكية فأرسل مناديا ينادي في المدينة أنه إذا استسلمت له المدينة فسوف يحمى أرواح جميع المدافعين إذا لجأوا إلى القاعة الكبيرة بالقرب من البوابة الرئيسية. وخمد القتال أثناء الليل، ورأى الكثير من أبناء المدينة أن الدفاعات قد اخترقت فحصنوا منازلهم وصهاريج مياههم، لكنهم عرضوا دفع ضريبة يفتدون بها أرواحهم، وهرب آخرون إلى القاعة التي أشار إليها بوهيموند. بيد أنه عندما استؤنف القتال في الصباح التالي لم يتبق أحد منهم على قيد الحياة; فقد اندفع الصليبيون إلى داخل المدينة وهم يجهزون على كل من يقابلهم واقتحموا المنازل ونهبوها ثم أحرقوها، أما الذين لجأوا إلى القاعة معتمدين على حماية بوهيموند فقد ذبح الرجال وبيع النساء والأطفال عبيدا.

وأثناء الحصار تعذر التعاون بين جنود بوهيموند وريموند إلا بصعوبة. وبعد استيلاء بوهيموند ــ بخيانته ــ على النصيب الأعظم من الغنائم، رغم أن جيش ريموند هو الذي استولى على المدينة. تفجرت العداوة مرة أخرى بين الفرنسيين الجنوبيين وبين النورمانديين. وطالب ريموند بالمدينة ورغب في وضعها تحت إمرة أسقف البرة، لكن بوهيموند لم يكن ليجلو عن المدينة إلا إذا تخلى ريموند عن المنطقة التي يحتلها في أنطاكية. وكهجوم مضاد، بدأ يتساءل علانية عن صحة الرؤى التي جاء بها بطرس بارثولوميو.

وفي تلك الأثناء تزايد السخط في الجيش كله، لاسيما بين جنود ريموند الذين طالبوا باستئناف المسير إلى القدس. وفي يوم عيد الميلاد تقريبا قابل ريموند ممثلون عن

الجنود، أوضحوا له أنهم سوف يعترفون به قائدا للحملة الصليبية كلها إذا مـــا قـــام بتنظيم رحيلها، وشعر ريموند بعدم استطاعته الرفض، وبعد ذلك بأيام قليلة غادر معرة النعمان إلى روحة معلنا أن الحملة على وشك الرحيل إلى فلسطين، وعلى الأثر عـــاد بوهيموند إلى أنطاكية، وتركت معرة النعمان بين يدي أسقف البرة.(١)

على أنّ ريموند تأخر بعد إعلانه هذا، إذ لم يسعه الرحيل جنوبًا تاركًا أنطاكية في يد بوهيموند. وربما رأى بوهيموند أنه كلما تردد ريموند ازداد جنوده تمـــردًا، وكـــان يعرف أنّ الإمبراطور لن يهبط عبر آسيا الصغرى خلال شهور الشتاء، فاقترح تـــأجيل الحملة إلى عيد الفصح. ولكي يحسم ريموند الأمر استدعى جميع الأمـــراء لمقابلتـــه في روحة حيث حاول شراءهم ليقبلوا قيادته؛ ويفترض أن تتناسب المبالغ التي عرضها مـــع ما لكل منهم من قوة، فعرض على جودفري عشرة آلاف سو، ونفس المبلغ لـــروبرت النورماندي، وستة آلاف لـــروبرت أوف فلاندرز، وخمسة آلاف لـــتانكريد، ومبالغ أقل للزعماء الأقل، ولم يعرض شيئا على بوهيموند، وكان يأمل بذلـــك في تنصيـــب نفسه رئيسا بلا منازع للحملة الصليبية، وبالتالي يستطيع كبح جماح بوهيموند، إلا أن عروضه قوبلت ببرود شديد.(٢)

وبينما كان الأمراء مؤتمرين في روحة قام الجيش بعمل مباشر في معرة النعمـــان؛ فقد كان يعاني التضور جوعا بعد أن استنفد إمدادات الجوار كلـــها، وبـــدا أن الحـــل الوحيد هو أكل لحوم البشر. وحتى الأتراك تأثروا غاية التأثر لإصرار الجيش على أكل لحوم البشر في هذه الظروف ويعلق المؤرخ ريموند أوف أحيليه في حزن وأسى قائـــلا: "لقـــد علمنـــا بموقـــف الأتـــراك بعـــد فوات الأوان بحيث لم نستطع الاستفادة به".

---

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 267-70; *Gesta Francorum*, x, 33, pp. 172-7; Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp.46-7; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 196-7

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p.271; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 178. See Appendix II

ومات أسقف أورانج نتيجة هذه الصعاب وكان له بعض النفوذ على أبناء بروفانس. وأخيرا، صمم الرجال على تدمير أسوار معرة النعمان ـ رغم اعتراضات أسقف البرة ـ لإجبار ريموند على الرحيل. ولم يكد ريموند يسمع بذلك حتى أسرع عائدا إلى المدينة، لكنه أيقن من عدم إمكان التأجيل أكثر من ذلك.(١)

جيش ريموند ينطلق إلى القدس

وفي الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٠٩٩ ميلادية خرج ريموند ورجاله من معرة النعمان لمواصلة الحملة الصليبية. وسار الكونت عاري القدمين على النحو الذي يليق بقائد الحج، وتأكيدا منه لعدم العودة ترك المدينة تأكلها النيران. وكان معه كل الأمراء التابعين له، كما رحل معه أسقف البرة، وريموند بيليت ـ وهو لورد مدينة تل مناس ـ بعد أن هجرا مدينتيهما، وأما الحامية التي كان يحتفظ بها في أنطاكية تحت إمرة وليم إرمنجار فلم تستطع الصمود أمام بوهيموند، لذا أسرعت وراءه. ولم يخرج أحد للحاق به من أقرانه الأمراء سوى روبرت النورماندي يصحبه تانكريد الذي كان بوهيموند بلا شك يريده أن يراقب مصالح النورمانديين الإيطاليين في الحملة الصليبية. وتردد كل من جودفري أوف لورين وروبرت أوف فلاندرز قرابة شهر إلى أن أجبرهما الرأي العام على اللحاق بالحملة، على أن بالدوين وبوهيموند بقيا في الأراضي التي استوليا عليها.(٢)

وهكذا، بدا أن الخلاف بين الأميرين العظيمين قد وجد حلا. وأصبح ريموند الآن قائد الحملة الصليبية بلا منازع، لكن بوهيموند امتلك أنطاكية.

---

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 270-2; *Gesta Francorum,* x, 33-4 , pp. 176 - 8

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 272; Gesta Francorum, x, 34,p.180 وكان صاحب تاريخ جستا مرافقا لكتيبة تانكريد .

الباب الخامس

أرض الميعـــــــــــاد

الفصل الأول

الطريق إلى القدس

الطريق إلى القدس

"وَالآنَ اذْهَبِ اهْدِ الشَّعْبَ إِلَى حَيْثُ كَلَّمْتُكَ"

(سفر الخُرُوج: ٣٢ : ٣٤)

عندما كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته من نيقية معربًا عن مخاوفه من احتمال تأخر الحملة الصليبية في أنطاكية، لم يكن يحلم البتّة بطول الفترة التي سيستغرقها التأخير؛ إذ انقضت خمسة عشر شهرًا منذ وصول الجيش إلى أسوار المدينة. وحدثت خلال هذه الفترة تغيرات هامة في العالم الإسلامي؛ إذ كان الفاطميون في مصر قبل بداية الحملة الصليبية قد أفاقوا ــ كشأن البيزنطيين ــ من الصدمة الأولى الناتجة عن الاكتساح التركي، وكانوا يأملون ــ كشأن البيزنطيين كذلك ــ في استخدام الحملة الصليبية لتعزيز أنفسهم بعد أن أفاقوا. وكان الحاكم الفعلي لمصر هو الشاهنشاها

الأفضل الذي خلف والده الأرميني بدر الجمالي الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام كوزير للخليفة الصبي المستعلي. ولم تحقق سفارة الأفضل إلى معسكر الصليبيين في أنطاكية أية نتائج، ورجع سفراء الفرنج إلى القاهرة مع مبعوثيه، ولكن سرعان ما اتضح أنهم لم يكونوا مخولين في أن يتفاوضوا على أيّ تحالف، وأنّ الصليبيين — البعيدين كل البعد عن تقديم العون طواعية للمصريين لاستعادة فلسطين — ينوون هم أنفسهم الزحف إلى القدس. ولذا عقد الأفضل العزم على الاستفادة من الحرب الدائرة شمالي سوريّا. فما أن سمع بهزيمة كربوقا في أنطاكية، وتحقق من أنّ حالة الأتراك في سائر أنحاء آسيا تحول دون مقاومتهم لهجوم جديد، حتى غزا فلسطين التي كانت ما تزال في أيدي ابني أرتق، سقمان والغازي، اللذين اعترفا بسيادة دقاق الدمشقي. وبينما كان الأفضل يتقدم، كانا يتقهقران خلف أسوار القدس لعلمهما أنّ دقاق لا يستطيع أن يخفّ لنجدتهما على الفور، وكان يراودهما الأمل في أن تمكنهما التحصينات العظيمة للقدس إلى جانب القدرة القتالية لجنودهما التركمان من الصمود إلى أن تصل النجدة. وكان جيش الأفضل مجهزًا بأحدث آلات الحصار التي تضم أربعين منجنيقًا، لكن ابني أرتق قاوما لأربعين يومًا إلى أن دُكت الأسوار أخيرًا واضطر الأخوان إلى التسليم، وسُمح لهما بالعودة إلى دمشق مع رجالهما، ومن هناك واصلا مسيرتهما ليلحقا بأبناء عمومتهما في المنطقة المحيطة بديار بكر. ثم احتل المصريون فلسطين كلها، وبحلول الخريف كانوا قد حددوا حدودهم عند نهر الكلب على الساحل جنوبي بيروت، وفي ذات الوقت قاموا بترميم دفاعات القدس.[1]

---

(1) Ibn Al-Athir, *op. cit* pp. 197-8. أنظر مقال "القدس Al Kuds" الذى كتبه Buhl ومقال "سقمان بن أرتق Sukman Ibn Ortok" الذى كتبه Zettersteen فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopedia of Islam*.

الأمراء السوريون

وفي شمال سوريّا ابتهجت جميع الأسر المالكة العربية المحلية لانهيار القوة التركيـة. وكانوا على استعداد للتفاوض مع الفرنج. بل إنّ أمير حماه وهو في نفس الوقت حمـو رضوان، وكذلك أمير حمص، وهما صاحبا البلاء الحسن في القتال مع كربوقا، تخليا عن أيّ تفكير في مقاومة الفرنج. وكانت العائلتان الأكثر أهمية للصليبيين همـا العـائلتين العربيتين البارزتين: عائلة المنقذين في شيزر، وعائلة بني عمار في طرابلـس؛ فكـانت الأولى تسيطر على البلاد الواقعة أمام الصليبيين مباشرة من نهر العاصي إلى السـاحل، وكانت الثانية تسيطر على الخط الساحلي الممتد مـن أواسـط لبنـان إلى حـدود الفاطميين. فإذا أراد الصليبيون التقدم فإنّ صداقتهما، أوعلى الأقل حيادهما، يعتبر شيئًا أساسيًّا لتقدم الحملة الصليبية.[١]

وسار ريموند من معرّة النعمان إلى كفر طاب التي تبعد حوالي اثني عشر ميـلاً إلى الجنوب حيث انتظر حتى السادس عشر من يناير (كانون الثاني) يجمع المـؤن لإعـادة تموين جنوده، وحيث لحق به تانكريد وروبرت النورماندي. وجاءه هناك سفراء مـن شيزر التي يعرض أميرها تقديم المرشدين والمؤن الرخيصة في حالـة عبورهـم أراضيـه بسلام، فقبل ريموند العرض. وفي السابع عشر سار مرشدو الأمير بالجيش عـبر نهـر العاصي بين شيزر وحماه وقادوه أعلى وادي سروت. وكانت كل قطعـان الماشـية في المقاطعة قد أخفيت في أحد الأودية الملاصقة لوادي سروت، وبطريق الخطأ اقتاد أحـد المرشدين الفرنج إلى هذا الوادي، ولم يكن الرعاة والقرويون المحليون من القوة بحيـث يمنعون الفرنج من مواصلة الاستيلاء على البهائم. وفضّل قائد الحصن الذي يسيطر علـى

---

[١] أنظر مقال "شيزر Shizar " الذى كتبه Honigmann ، ومقال "إبن عمار Ibn Ammar" الذى كتبه Sobrnheim ، فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopedia of Islam*.

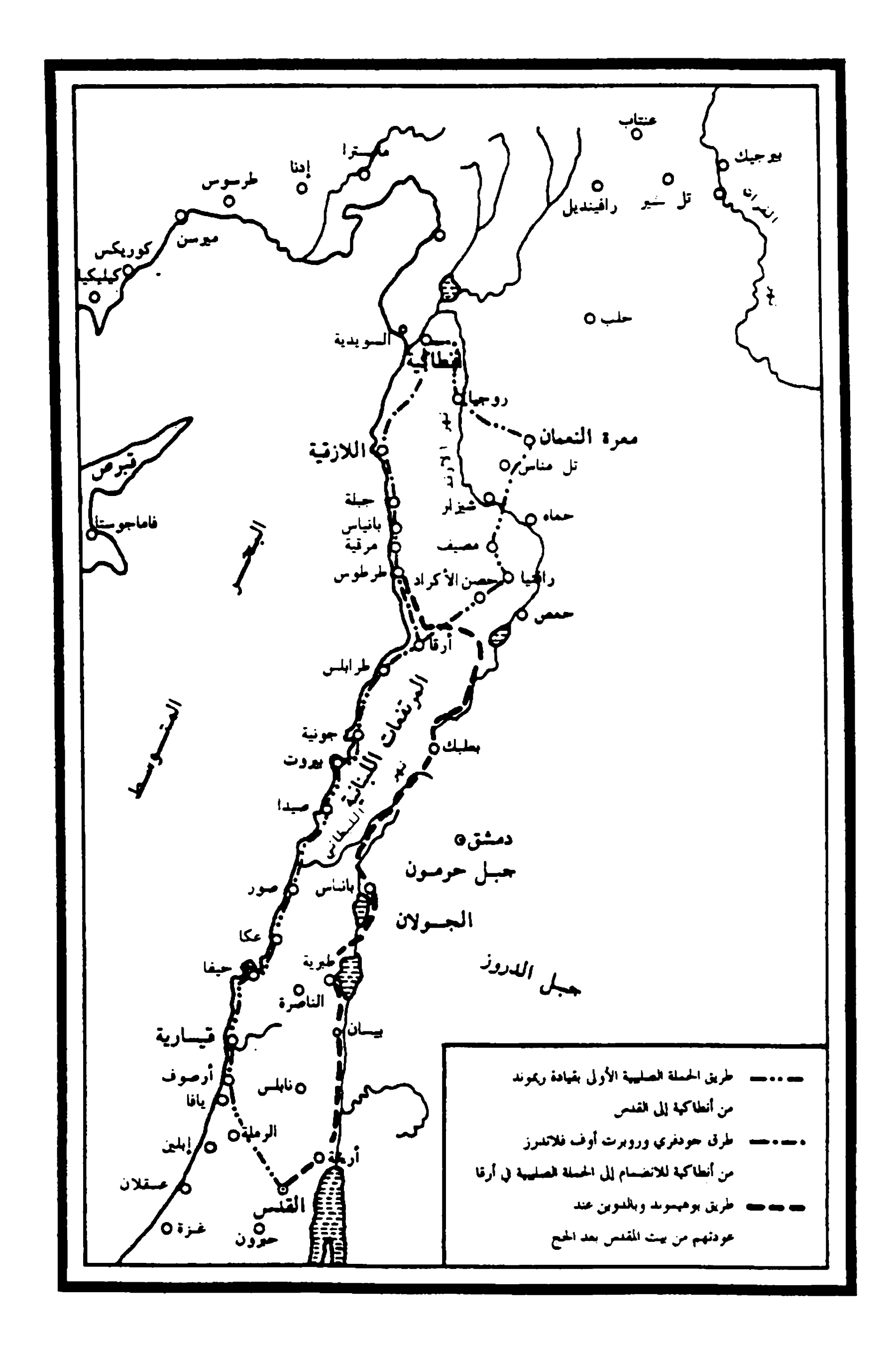
الوادي أن يشتري سلامته، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث ذهبت أعداد من الفرسان إلى شيزار وحماه لبيع الفائض منها في مقابل خيول الأحمال التي اشتروا منها ألفًا. لقد اختارت السلطات العربية السماح لهم بدخول مدنها والتسوّق فيها.(١)

وبينما كان الصليبيون يجمعون هذه الإمدادات اجتمع ريموند بقواد جيشه لمناقشة الطريق الذي سيسلكونه. وكان ريموند نفسه يؤيد الرأي القائل بأنه ينبغي للجيش أن يتجه إلى الغرب عبر سلسلة جبال النصيري ليصل إلى الساحل بأقصى سرعة ممكنة، لاسيّما وأنّ ميناء اللاّذقيّة في أيدي المسيحيين بالفعل، وطالما ظلّ في طريق الساحل فسوف يكون على اتصال بأنطاكية ويستطيع الحصول على الإمدادات من السلطات البيزنطية في قبرص وهو على علاقة حسنة بها. على أنّ تانكريد أشار إلى ضرورة الاستيلاء على جميع القلاع الكبيرة الواقعة على الساحل لضمان سلامة الطريق. وكانت القوة القتالية للجيش الآن لا تجاوز ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة، فكيف يتسنّى لهذه القوة أن تقوم بأعمال الحصار الحربي؟ لذلك استحثهم تانكريد على المضي إلى القدس مباشرة لتجنب ضرورة الاستيلاء على القلاع الساحلية، وبعد الاستيلاء على القدس سوف تجلب أنباء الانتصار مزيدًا من الجنود من أوروبا. ليس هذا وحسب، وإنما لن تقاوم مدن أخرى مثل طرابلس، وصور وعكا، وعارضه آخرون بحجة أنّ كل البلاد الواقعة بين لبنان والصحراء في حوزة دقاق الدمشقي الذي سوف يتصدى بلا شك لتقدم الصليبيين على خلاف الأمراء العرب الصغار. وأخيرًا تقرر الانطلاق في طريق الساحل إلى الجنوب خلال وادي البقاع الواقع بين جبال النصيري ولبنان، وهو أيسر السبل الموصلة من داخل سوريا إلى البحر، كما تقرر استغلال أقل وقت ممكن في إخضاع القلاع المعادية.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers, xiv, pp. 272-3; *Gesta Francorum*, x, 34, pp. 180-2.

(٢) Raymond of Aguilers, xiv, p. 273.



خريطة رقم (٥) : سوريا في وقت الحملة الصليبية الأولى

الصليبيون في حصن الأكراد

وفي الثاني والعشرين من يناير (كانون الثاني) وصل الصليبيون إلى مدينة مصيف التي سارع حاكمها بإبرام معاهدة معهم. ومنها اتجهوا إلى جنوب الجنوب الشرقي ليتجنبوا منطقة الحلو الجبلية، وفي اليوم التالي وصلوا مدينة الرفعانية فوجدوا أهلها قد هجروها، لكنها كانت مليئة بالإمدادات من كل نوع، فبقوا فيها ثلاثة أيام ثم نزلوا إلى سهل البقاع الذي تسيطر عليه قلعة حصن الأكراد الضخمة المشيدة على المرتفع الذي توجد فيه الآن أطلال حصن الفرسان (كرك دي شيفالييه). وجمع السكان المحليون قطعانهم كلها للاحتماء داخل أسوار القلعة. ولضرورات التموين — وليس لأهداف استراتيجية — قرر الصليبيون الاستيلاء عليها، فهاجموا التحصينات في الثامن والعشرين من يناير (كانون الثاني)، ولكن المدافعين كانوا مدركين لعاداتهم، ففتحوا إحدى البوابات وأخرجوا منها بعضًا من بهائمهم، فانصرف الفرنج إلى الإمساك بكل هذه الغنيمة حتى تبعثروا، وخرجت من القلعة قوة لم تحل دون تجمعهم وحسب، بل كادت أن تأسر الكونت ريموند نفسه بعد أن تركه حراسه. وشعر الفرنج بالعار بعدما انطلت الحيلة عليهم، فخططوا لشن هجوم جاد في اليوم التالي، لكنهم حينما وصلوا إلى الأسوار اكتشفوا أنّ السكان هجروا القلعة أثناء الليل، وما تزال فيها غنيمة كبيرة، فأقام الجيش ثلاثة أسابيع أجرى خلالها المزيد من المناقشات حول الإستراتيجيّة، واحتفلوا داخل القلعة بعيد التطهر.[1]

وأثناء إقامة ريموند في حصن الأكراد جاءه مبعوثون من أمير حماه محملين بالهدايا ووعدوه بعدم مهاجمة رجاله، وتبعهم مبعوثون من أمير طرابلس (جلال الملك أبوالحسن) من آل بني عمار، وهي أسرة مشهورة بثقافتها أكثر من شهرتها بفنون

---

(١) "المترجم": عيد التطهر: تقديم المسيح فى المعبد بعد إكتمال تطهير العذراء (أنظر إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني: ٢٢).

Raymond of Aguilers، xiv, pp. 272-5; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 182.

القتال. وقد تمكن هذا الأمير من الحفاظ على استقلال إمارته بالوقيعة بين السلاجقة والفاطميين. وبالنظر إلى تدهور القوة التركية كان على استعداد لتشجيع الفرنج ضد القوة المصرية التي ولدت من جديد. فوجه الدعوة إلى ريموند لإرسال ممثليه إلى طرابلس لمناقشة ترتيبات مرور الحملة الصليبية، وإحضار رايات تولوز لترفرف فوق المدينة. وتأثر مبعوثو ريموند إعجابًا بازدهار طرابلس وما حولها تأثرًا بالغًا. وبعد عودتهم إلى المعسكر أشاروا عليه بأنه إذا قام باستعراض للقوة أمام إحدى قلاع الإمارة، فسوف يدفع الأمير لا محالة مبلغًا كبيرًا ليؤمن باقي المناطق التي يبسط عليها سلطانه، فأخذ ريموند بنصيحتهم لحاجته إلى المال، وأمر جيشه بمهاجمة مدينة أرقا التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلاً من طرابلس حيث ينفتح سهل البقاع على الساحل، ووصل أمام أسوارها في الرابع عشر من فبراير (شباط).[١]

وفي تلك الأثناء كان ريموند متلهفًا على إقامة مواصلات إلى حامية اللاذقيَّة والبحر، فشجع ريموند بيليت، وريموند فيكونت تورين على القيام بهجوم مفاجئ على طرطوس، وهو الميناء الوحيد الملائم على الساحل بين اللاذقيَّة وطرابلس، فأسرعا غربًا ومعهما فصيلة صغيرة ووصلوا أمام أسوار المدينة بعد هبوط ظلام السادس عشر من فبراير (شباط)، وأشعلوا سلسلة من نيران المعسكر حول الأسوار كلها ليلقوا في روع المدينة أنّ هناك جيشًا أكبر بكثير مما كان في حقيقته. ونجحت الحيلة، إذ أنّ حاكم طرطوس الذي كان تابعًا لأمير طرابلس تملكه ذعر شديد، فرحل مع حاميته بحرًا أثناء الليل، وفي الصباح فتحت أبواب المدينة للفرنج. وعلى أثر أنباء الغزو سارع حاكم مدينة مرقية الواقعة على بعد عشرة أميال إلى الشمال بالاعتراف بسلطان ريموند. وقويت الحملة الصليبية كثيرًا باستيلائها على طرطوس التي فتحت لهم طريق مواصلات يسير عبر البحر إلى أنطاكية وقبرص وأوروبا.[٢]

---

(١) Raymond of Aguilers، xiv-xv, pp. 275; *Gesta Francorum,* x, 34, p. 184.

(٢) Raymond of Aguilers, xv, p. 276; *Gesta Francorum,* x, 34, pp. 184-6.

حصـــار أرقــا

وأثار هذا النجاح غيرة الصليبيين الذين كانوا ما يزالون في أنطاكية ودفعـــهم إلى اللحاق بــريموند في الجنوب. وفي نهاية فبراير (شباط) خرج جودفري أوف لوريـــن، وبوهيموند، وروبرت أوف فلاندرز من أنطاكية إلى اللاذقية، ولكن بوهيمونـــد عـــاد أدراجه بعد أن خطر له أن من الحكمة، برغم كل شيء، أن يعزز نفســـه في أنطاكيـــة خشية أن يسير الإمبراطور باتجاه سوريا في الربيع، أما جودفري وروبرت فقد اتجـها إلى ميناء جبلة الصغير لمحاصرته، وأثناء تواجدهما هناك جاءهما أسقف البرة مرســـلا مـــن ريموند راجيا منهما اللحاق به في أرقا.(١)

ولم يكن حصار أرقا يسير على ما يرام، إذ كانت المدينة محصنة تحصينا قويا وقـــد استبسل حماتها في الدفاع عنها، ولم يكن جيش ريموند كبيرا بما يكفي لإحاطتها تمامـــا. ولقد كان تحذير تانكريد من أن الجيش ليس في حالة تسمح له بمحاولة غزو الحصـــون تحذيرا معقولا تماما. لكن ريموند بدأ الحصار ولم يسعه التخلي عنه خشية أن يعاديه أمير طرابلس عداوة صريحة بعد أن يلمس ضعفه. وربما لم يبذل الجنود الجهد الكبير الـلازم؛ فالحياة ناعمة في المعسكر، والبلاد المحيطة خصبة، وبدأ المزيد من الإمدادات يصل مـــن طرطوس، مما دفع الجنود إلى التمتع بالاسترخاء لفترة بعد كل ما عـــانوه. وفي أوائـــل مارس (آذار) انتشرت شائعة بتجمع جيش إسلامي لنجدة أرقا يقوده خليفـــة بغـــداد بنفسه، ثم اتضح أنها شائعة كاذبة، إلا أنها أشعرت ريموند بالخطر مما دفعه إلى استدعاء جودفري وروبرت أوف فلاندرز، فعقدا هدنة مع أمير جبلة الـــذي قبـــل ســـيادتهما وأسرعا جنوبا إلى أرقا. واحتفلا بوصولهما بالإغارة على ضواحي طرابلس وبالقيـــام

---

(١) *Gesta Francorum*, x, 35, p. 186; Albert of Aix, v, 33, p. 453.

بعدد من الغارات الناجحة الأخرى في البقيعة لجمع كافة أنواع الدواب بما فيها الجمال.[١]

وسرعان ما أسف ريموند لوصول زميليه، بعد أن ظل لشهرين القائد الوحيد للحملة الصليبية وبعد أن اعترف تانكريد بسلطته في مقابل خمسة آلاف سو. فأصبح عندئذ مضطرا إلى الاستعانة بخصومه لينصروه، وتركهتانكريد بعد أن تجاهل نصحه واتجه إلى معسكر جودفري قائلا إن ريموند لم يدفع له بما فيه الكفاية. وأظهر كل من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي ميلا قليلا للاعتراف بسيادته. كما أنه أثار الاستياء نتيجة محاولته تأكيد حقوقه، ومن ثم بدأت المنازعات. وعندما رأى رجال كل جيش أن قادتهم يتناطحون، حذوا حذوهم ورفضوا أن يتعاونوا مع بعضهم البعض.

وفي وقت مبكر من إبريل (نيسان) تفاقم الجدل بوصول خطابات من الإمبراطور يعلنهم فيها بأنه على أهبة الاستعداد للتوجه إلى سوريا، فإذا كان باستطاعتهم انتظاره حتى نهاية يونية (حزيران) فسيكون معهم في عيد القديس جون ويقودهم إلى فلسطين. ورغب ريموند في قبول هذا العرض، إذ أنه الحليف المخلص للإمبراطور، ولذا يمكنه أن يعول على الدعم الإمبراطوري في مساعدته على إعادة تأكيد سيادته على جيش الفرنج. وهناك الكثير من بين رجاله ـــ مثل ريموند أوف أجيليه ـــ يشعرون بأن وصول الإمبراطور سيوفر للحملة الصليبية ـــ على الأقل ـــ قائدا يقبله جميع الأمراء برغم كراهيتهم الشديدة للبيزنطيين. على أن سواد الجيش قد نفد صبره انتظارا للتحرك نحو القدس، ولم يكن هناك من الأمراء الآخرين من يرغب في أن يجد نفسه تحت السيادة الإمبراطورية، ولا تستطيع سياسة ريموند أن تحقق أهدافها في مواجهة هذا الرأي العام القوي. وأغلب الظن أن ألكسيوس لم يتوقع مطلقا أن ينتظره الصليبيون، لقد شعر بالاشمئزاز من تصرفهم في أنطاكية، فقرر أن يلتزم جانب الحياد. وليس هذا بالموقف السلبي عند الدبلوماسي البيزنطي، وإنما يعني إقامة علاقات مع الجانبين كي

---

[١] *Gesta Francorum,* loc.cit.; Raymond of Aguilers, xvi, pp. 277-8.

يجني الثمار كائنا من يكون المنتصر منهما. فكان على اتصال بالمصريين الذين ربما كاتبوه عندما تقدمت الحملة الصليبية باتجاه أراضيهم ليسألوه ما إذا كانت تلك الحملة لحسابه، فتبرأ في رده من تلك الحركة الصليبية، وكان لديه من الأسباب ما يبرر ذلك، إذ تعلم من سلوك بوهيموند ألا يعتمد على إخلاص الفرنج، ولم يكن مهتما بشكل خاص بفلسطين الواقعة خارج حدود الأراضي التي يأمل في استعادتها للإمبراطورية، والتزامه الوحيد في فلسطين هو التزامه قبل المسيحيين الأرثوذوكس باعتباره القوة التي تحميهم. وكان يحق له أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذوكس في فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج الذين أظهروا بالفعل في أنطاكية عداوة واضحة نحو المسيحية المحلية، وفي ذات الوقت لم يكن راغبا في قطع اتصاله بالحملة الصليبية، فربما تكون ذات نفع للإمبراطورية. وفيما بعد وقعت مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم الدليل على خيانته صدمة عميقة،

رغم أن خيانتهم له بدت في نظرهم معقولة وصحيحة تماما، وألقوا عليه اللائمة عندما طالت فترة بقاء سفرائهم المرسلين من أنطاكية في القاهرة.(١)

وعاد هؤلاء السفراء إلى الجيش في أرقا بعد ذلك بأيام قليلة حاملين معهم عرضا من الفاطميين بتسوية نهائية مفادها أنه إذا تخلت الحملة الصليبية عن أية محاولة لشق طريقها بالقوة في الأراضي الفاطمية، فسوف يسمح لحجاجهم بحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وسوف تتخذ كل التدابير لتسهيل الحج. وقد رفض هذا العرض في الحال.(٢)

---

(١) Raymond of Aguilers, xvi, p. 277, xviii, p.286.

(٢) Raymond of Aguilers, xvi, p. 277; William of Tyre, vii, 19, vol. 1, pt. 1, pp. 305-6

مسألة الرمح المقدس

ورغم أنّ الأمراء الآخرين كانوا يرغبون في استئناف المسير، رفض ريموند التخلّي عن أرقا دون الاستيلاء عليها. وحسمًا للأمور أعلن بطرس بارثولوميو أنّ المسيح والقديس بطرس والقديس أندرو ظهروا له في الخامس من إبريل (نيسان)، وأعلنوا ضرورة الهجوم على أرقا فورًا. وكان سواد الجيش قد بدأ يمل رؤى بطرس التي اعتبروها حيلة سياسية من اختراع ريموند. وتزعم القس آرنولف أوف روهس التابع لروبرت النورماندي فريقًا من النورمانديين الشماليين الذين أعلنوا على الملأ أنهم لا يصدقون بطرس بارثولوميو، بل ويشككون في صحة الرمح المقدس مشيرين إلى أنّ أديمار أسقف لوبوي لم يقتنع به أبدًا. فجمع أبناء بروفانس صفوفهم لمؤازرة بطرس، فذكّرهم ستيفن أوف فالنس برؤياه في أنطاكية، كما ذكّرهم ريموند أوف أجيليه بأنه قبّل الرمح وهو ما يزال مطمورًا في الأرض، وأخبرهم قسيس آخر (بطرس دزيديريوس) أنّ أديمار ظهر له بعد موته ووصف له سعير جهنم التي اصطلى بها بسبب تشككه في الرمح، وقال آخر يدعى ايفيرارد إنه عندما كان في زيارة عمل في طرابلسأثناء حصار الأتراك لأنطاكية أخبره أحد السوريين هناك عن رؤيا تحدّث فيها القديس مرقص عن الرمح، وذكر أسقف آبت رؤيا جعلته يغير من رأيه بعد أن كان متشككًا، وأعلن برتراند أوف لوبوي الذي كان من حاشية أديمار أنّ الأسقف أديمار وحامل رايته قد ظهرا له كلاهما في رؤيا ليعترفا له بأنّ الرمح هو الرمح الأصلي. وفي مواجهة كل هذه الدلائل المؤثرة اعترف أرنولف علانية بأنه قد اقتنع، ولكن أصدقاءه استمروا في إلقاء ظلال الشك على القصة كلها إلى أن طلب بطرس بارثولوميو أخيرًا وهو في سورة الغضب أن يُسمح له بالدفاع عن نفسه عن طريق الاحتكام إلى النار[1].

---

[1] (المترجم): المحاكمة بالتعذيب Ordeal أو الإحتكام إلى النار: وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أم مذنبا بإخضاعه لضروب التعذيب الخطر أو المؤلم، وكان يُظن أن تلك الوسيلة تخضع لتدخل الرب الذى ينجي البريء من آثارها.

وأيا ما كانت الحقيقة، فمن الواضح أنه يعتقد اعتقادا راسخا في أنه كان يوحى إليه من السماء.

وتم الاحتكام إلى النار في يوم الجمعة الحزين الثامن من إبريل (نيسان)، فأحضروا كمية من الكتل الخشبية ووضعوها في صفين متقابلين بحيث تشكل ممرا ضيقا وأشعلت فيها النيران، وجاء بطرس بارثولوميو وعليه قميصه فقط والرمح في يده، وقفز بسرعة خلال اللهب، ثم برز من الناحية الأخرى وهو محترق احتراقا مرعبا، وأوشك أن يهوي إلى الخلف في النيران لولا أن أمسك به ريموند بيليت، وظل يعاني من الآلام اثني عشر يوما ثم مات متأثرا بجراحه. وأسفر هذا الاحتكام عن تكذيب الجميع لأصالة الرمح كلية، فيما عدا البروفنسال الذين أكدوا أن بطرس مر بسلام خلال النار ولكن المحتشدين المتحمسين دفعوه إلى الخلف في تلهفهم على لمس قميصه المقدس.

وظل الكونت ريموند يحتفظ بالرمح فى كنيسته الصغيرة بكل التبجيل .[١]

الصليبيون أمام طرابلس

وبقى الجيش شهرا خارج أسوار أرقا إلى أن أمكن اقناع ريموند بالتخلي عن الحصار. وأزهقت أرواح كثيرة في القتال منها أنسيلم أوف ريبيمو الذي تضمنت

---

[١] Raymond of Aguilers, xvii-xviii, pp. 279-88 يؤيد بطرس بارثولوميو

Fulcher of Chartrs, 1, xviii, 4-5, pp. 238-41.

Radulph of Caen, cviii, pp.682;

Albert of Aix, v, 13, p.452.

ويتشكك كل من فولشر وألبرت لكنهما يتخذان موقفا سلبيا لا إلى التأييد ولا إلى الإنكار . ورادولف صريح العداء لبطرس. أما صاحب تاريخ جيستا فرانكورام فيحذف الرواية .

رسائله إلى مولاه رئيس أساقفة ريم سَردًا حيًّا للحملة الصليبية.[1] وفي الثالث عشر من مايو (أيار) أذعن ريموند لإقناع رفاقه وأمر بهدم المعسكر والدموع تملأ مآقيه، وتحرك الجمع كله باتجاه الجنوب إلى طرابلس. ودارت مناقشات أخرى حول الطريق الذي سيسلكه الجيش، فأخبر السوريون ريموند أنّ هناك طريقًا سهلاً يمر بدمشق ولكن تنقصه المياه رغم وفرة الطعام فيه. أما طريق لبنان فالمياه فيه وفيرة ولكنه وعر لدواب الحمل، والبديل الثالث هو طريق الساحل لولا أنّ به بعض الأماكن تستطيع حفنة من الأعادي أن تقطعه فيها. ومع ذلك، أعلنت النبوءات المحلية أنّ مخلصي القدس سوف يرتحلون بطول الساحل. فاختار هذا الطريق لدواعي الاتصال بالأسطولين الجنوي والإنجليزي المبحرين في مياه الشرق وليس استجابة للتنبؤ باختياره.[2] وعندما اقترب الصليبيون سارع أمير طرابلس ليؤمن عاصمته وضواحيها بأن أفرج عن ثلاثمائة سجين مسيحي كانوا في المدينة. ودفع لهم عوضًا عن احتلال المدينة خمس عشرة ألف بيزنتة وخمسة عشر جوادًا أصيلاً، وزود الجيش كله بدواب الحمل والطعام، وزاد على ذلك بأن عرض أن يتخذ المسيحية دينًا إذا هزم الصليبيون الفاطميين.[3]

وفي يوم الاثنين السادس عشر من مايو (أيار) غادر الصليبيون طرابلس بصحبة المرشدين الذين قدمهم الأمير، فقادوهم في أمان عبر الطريق الملتف حول رأس الشقعة، وبعد أن مروا بسلام خلال مدينتي البترون وجبيل التابعتين للأمير وصلوا إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب في التاسع عشر من مايو (أيار). ولم يكن للفاطميين جنود

---

(1) Raymond of Aguilers, xvi, pp. 276-7; *Gesta Francorum,* x, 35, p. 188 ويخبرنا Fulcher of Chartres, 1 , xxv, 8, p.270 أنه قتل بحجر .

(2) Raymond of Aguilers, xviii, pp. 288,290-1.

(3) *Ibid.* p. 291; *Gesta Francorum,* x, 35-6, pp. 188-90.

على حدودهم الشمالية فيما عدا حاميات صغيرة في المدن الساحلية، لكنهم يملكـــون بحرية عظيمة تستطيع توفير دفاع إضافي لتلك المدن. وهكذا، وبرغم انعدام المقاومة على هذا الطريق، لم يكن في مأمول الصليبيين الاستيلاء على أيّ ميناء من المواني التي مـــروا بها، كما لم يعد في مقدور الأسطول المسيحي الاتصال بهم. وكان الخوف من تنـــاقص الإمدادات يدفعهم إلى الإسراع بكل قوتهم إلى هدفهم النهائي.

وعندما اقتربوا من بيروت خشى السكان المحليون أن يقوم الصليبيون بتدمير الحدائق الباسقة وبساتين الفاكهة المحيطة بالمدينة، فسارعوا إلى تقديم الهدايا والسماح لهم بحرية المرور عبر أراضيهم شريطة عدم الإضرار بأشجار الفاكهة والكروم والمحاصيل، وقبِل الأمراء شرطهم واقتادوا الجيش بسرعة إلى ميناء صيدا فوصل هناك في العشرين من مايو (أيار). وكانت حامية صيدا أقوى شكيمة، فبينما كان الصليبيون معسكرين على ضفاف نهر الليطاني خرجت إليهم قوة من الحامية وهاجمتهم، لكن الصليبيين صدوا الهجوم وردوا على تلك الهجمة بأن نهبوا الحدائق في الضواحي. ولكنهم رحلوا بكل ما لديهم من سرعة إلى جوار صور حيث انتظروا يومين حتى يدركهم بالدوين أوف لوبورج وعدد من الفرسان من أنطاكية ومن الرها. وكان لجداول المياه والخضرة الزاهية ما جعل المكان خليقًا بأن يكون محطة رائعة للراحة. وبقيت حامية صور داخل أسوارها ولم تناوشهم إلى أن رحلوا في الثالث والعشرين من نفس الشهر، وعبر الجيش الممر المسمى (سلم صور) بلا صعوبة، وكذلك مرتفعات الناقورة، ووصل إلى مشارف عكا في اليوم الرابع والعشرين. وحذا حاكم عكا حذو حكام بيروت، فافتدى المزارع الخصيبة المحيطة بالمدينة بإهدائهم الإمدادات الوفيرة. وسار الجيش من عكا إلى حيفا، عبر الساحل على سفح جبل الكرمل إلى قيسارية حيث أمضى أربعة أيام من السادس والعشرين إلى الثلاثين من الشهر لكي يحتفل الاحتفال الملائم بأحد العنصرة.[1] وبينما هم في معسكرهم هناك انقض أحد الصقور

---

[1] (المترجم): أحد أو عيد العنصرة: يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تخليدا لذكرى هبوط الـــروح القدس فى عيد الخمسين (أنظر الإنجيل، العهد الجديد، سفر أعمال الرسل : 2) .

على حمامة محلقة فوقهم فقتلها وسقطت بالقرب من خيمة أسقف آبت، واتضح أنها حمامة زاجلة تحمل رسالة من حاكم عكا يستثير فيها مسلمي فلسطين ضد الغزاة.[1]

احتلال الرملة

واستأنف الصليبيون السير بطريق الساحل حتى أرصوف، ثم انحرف الجيش إلى داخل البلاد، فوصل في الثالث من يونية (حزيران) أمام مدينة الرملة. وكانت الرملة مدينة إسلامية بخلاف أغلب مدن فلسطين، وكانت قبل الغزو التركي العاصمة الإدارية للإقليم لكنها تدهورت في السنوات الأخيرة. وباقتراب الصليبيين شعر السكان بالذعر؛ فالحامية صغيرة، والمدينة بعيدة عن البحر بحيث لا تستطيع البحرية المصرية مساعدتهم، فهربوا من منازلهم في حشد واحد وساروا باتجاه الجنوب الغربي بعد أن دمروا من قبيل التحدي كنيسة القديس جورج التي كانت قائمة على أطلال قرية اللد التي تبعد عن الرملة مسافة ميل واحد. وعندما تقدم روبرت أوف فلاندرز وجاستون أوف بيلون في طليعة الجيش الصليبي وجدا الشوارع مهجورة والمنازل خاوية.

وأدى احتلال مدينة إسلامية في قلب الأراضي المقدسة إلى أن يشعر الصليبيون بالزهو. وفي الحال أقسموا على إعادة بناء كنيسة القديس جورج وتأسيس لوردية تضم اللد والرملة وجعلها وقفًا عليه، وإنشاء أسقفية جديدة يكون أسقفها هو سيد اللوردية، وعُين القسيس النورماندي روبرت أوف روين أسقفًا لهذه الدائرة الأسقفية. وكما كان في مدينة البرة، لم يكن ذلك يعني وضع أسقف لاتيني محل آخر يوناني، وإنّما كان يعني تأسيس أسقفية في بلد إسلامي مفتوح. ودلّ هذا التعيين على أنّ الرأي العام الصليبي يعتبر أنّ البلاد التي تؤخذ بالحرب ينبغي أن تعطى للكنيسة. وعهد بمدينة

---

[1] Raymond of Aguilers, XVIII-XIX, p.291; *Gesta Francorum*, x, 36, pp.190-2 ; Fulcher of Chartres, 1, xxv, 10.12, pp. 271-6.

الرملة إلى روبرت ومعه حامية صغيرة لحمايتها.[1] وفي تلك الأثناء ناقش الأمراء الخطوة التالية؛ فالبعض يعتبر أنّ الهجوم على القدس في قيظ الصيف عمل أحمق، وإنّما الأصوب هو التقدم نحو العدو الحقيقي، مصر. وبعد مناقشات رُفض الاقتراح واستأنفوا السير إلى القدس في السادس من يونية (حزيران).[2]

ومن الرملة سلك الجيش الطريق القديم الذي ينتهي داخل تلال يهودا (حاليًّا الضفة الغربية لنهر الأردن) إلى شمال الطريق العام الحالي، وأثناء مروره من قرية إيماوس وصل مبعوثون من مدينة بيت لحم لينقلوا إلى الأمراء توسلات جميع سكانها المسيحيين لتخليصهم من نير المسلمين، وعلى الفور ذهب تانكريد وبالدوين أوف لوبورج ومعهما فصيلة فرسان صغيرة إلى تلال بيت لحم حيث وصلوا في منتصف الليل. وفي أول الأمر ظنّ السكان الخائفون أنهم جزء من جيش مصري جاء لتعزيز دفاعات القدس. وعند بزوغ الفجر وبعدما تحققوا من أنهم فرسان مسيحيون، خرجت المدينة كلها في مواكب زِيَّاحية[3] ومعها كل الآثار والصلبان من كنيسة الميلاد للترحيب بمنقذيهم ولتقبيل أياديهم.[4]

وبعدما عاد مكان مولد المسيح (بيت لحم) إلى الحكم المسيحي أخذ الجيش الصليبي يشق طريقه طوال اليوم وخلال الليل نحو القدس. وخسف القمر، منذرًا بخسوف الهلال مما قوّى من عزيمتهم، وفي الصباح التالي جاء مائة فارس من فرسان تانكريد من بيت لحم وانضموا إلى رفاقهم مرة أخرى. وعند الضحى وصل الصليبيون

---

(1) Raymond of Aguilers, xix, pp. 291-2; *Gesta Francorum, loc. cit.* William of Tyre, vii, 22, vol. 1, pt. 1, p. 313.

(2) Raymond of Aguilers, xix, p. 292.

(3) (المترجم): الموكب الزياحى: إحتفال يقوم به المسيحيون ، ويطوفون فيه الشوارع حاملين أشياء مقدسة يعرضونها على الجمهور .

(4) Fulcher of Chartres, 1, xxv, 13-17, pp. 277-8; Albert of Aix, v, 44-5, pp. 461-3.

إلى أعلى نقطة في الطريق عند مسجد النبي صمويل، على قمة التـــل الـــذي يســـميه الحجاج جبل الإرشاد، وظهرت القدس بأسوارها وأبراجها أمامهم على مرمى البصـــر. وفي مساء الثلاثاء السابع من يونية (حزيران) سنة ١٠٩٩ ميلاديـــة ضـــرب الجيـــش المسيحي خيامه أمام المدينة المقدسة.[١]

(1) *Gesta Francorum,* x, 37, p. 194; Raymond of Aguilers, xx, p. 292; Albert of Aix, v, 45, p. 463.

الفصل الثانى

إنتصـــــار الصليـــب

انتصار الصليب

"اهتِفُوا لِلّهِ بِصَوْتِ الابْتِهَاجِ. لِأَنَّ الرَّبَّ عَلِيٌّ مَخُوفٌ"

(سفر المَزَامِير: المزمور٤٧: ٢،١)

كانت مدينة القدس واحدة من القلاع العظيمة في عالم القرون الوسطى، ومنذ أيام اليبوسيين[1] اشتهر موقعها بالقوة التي عززتها مهارة الإنسان على مر القرون. فكانت الأسوار التي وجد الصليبيون أنفسهم تحتها مبينة على غرار الأسوار التي تحيط اليوم بالمدينة القديمة، والتي بناها فيما بعد السلطان العثماني سليمان العظيم. ولقد وضع

---

[1] (المترجم): اليبوسيون Jebusites : سكان أورشليم على عهد داوود ، (أنظر الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس إلى الثامن) .

تخطيط الأسوار عندما أعاد هادريان بناء المدينة، ثم أضاف إليها البيزنطيون والأمويون والفاطميون كل بدوره وأصلحوها. فمن الشرق كان غدير قدرين الذي يجري في الوهد الصغير الضيق شديد الانحدار يحمي الأسوار، ومن الجنوب الشرقي كانت الأرض تنحدر إلى وادي جهنم، وكان هناك واد ثالث أقل عمقًا بقليل من الواديين الآخرين يحيط بالسور الغربي، وكانت منطقة الجنوب الغربي حيث تواجه الأسوار جبل صهيون، وكذلك المنطقة المقابلة للأسوار الشمالية، هما فقط المنطقتين الملائمتين للهجوم على التحصينات. وأما القلعة، واسمها برج داوود، فكانت تتوسط جنوب السور الغربي وتتحكم في الطريق الذي يصعد في جانب التل ليصل إلى بوابة يافا. وبرغم عدم وجود ينابيع داخل المدينة فإنّ صهاريج المياه الوفيرة كانت تضمن إمدادات المياه. وحافظ نظام الصرف الروماني على المدينة وهو ما يزال يستخدم في القرن العشرين.

الدفاع عن القدس

وكان الحاكم الفاطمي إفتخار الدولة هو قائد دفاعات المدينة، وكانت الأسوار في حالة جيدة، ولديه حامية قوية من الجنود العرب والسودانيين. وعلى أثر أنباء اقتراب الفرنج اتخذ احتياطاته؛ فهدم الآبار خارج المدينة أو سمّمها، ونقل قطعان الدواب من المراعي المحيطة بالمدينة إلى أماكن آمنة، وأمر السكان المسيحيين كلهم، من الأرثوذكس والهراطقة على السواء، بالبقاء خارج الأسوار، ومع ذلك سمح لليهود بالبقاء داخلها. وكانت خطوة تتصف بالحكمة. ففي القرن العاشر فاق عدد المسيحيين في القدس عدد المسلمين، ورغم تناقص عددهم بسبب ما اقترفه الخليفة الحاكم من اضطهاد، ورغم أنّ كثيرين آخرين ــ وفيهم أغلب رجال الدين الأرثوذكس ــ قد رحلوا مع البطريق أثناء الأوقات العصيبة التي أعقبت موت أرتق، كان ما يزال في القدس ألوف المسيحيين عديمي الفائدة كمقاتلين، فقد حُرِّم عليهم القتال ضدّ رفاقهم المسيحيين، بالإضافة إلى ذلك كان طردهم يعني تقليل عدد الأفواه التي ستطلب الطعام

أثناء الحصار. وفي نفس الوقت أسرع افتخار الدولة بإرسال المبعوثين إلى مصر لطلب العون المسلح.[١]

حتى وإن كانت طبيعة وضع الأرض المحيطة بالقدس تسمح بمحاصرة المدينة، فلم يكن لدى الصليبيين القوات الكافية لتطويق المدينة كلها. فركزوا على القطاعات التي يستطيعون فيها الاقتراب من الأسوار: فأخذ روبرت النورماندي موقعه بطول السور الشمالي في مواجهة بوابة الزهور (بوابة هيرود)، وعلى يمينه روبرت أوف فلاندرز في مواجهة بوابة العمود (بوابة القديس ستيفن أو بوابة دمشق)، وتولى جودفري أوف لورين المنطقة التي تغطي الزاوية الشمالية الغربية للمدينة حتى بوابة يافا، ولحق به في هذا المكان تانكريد الذي جاء من بيت لحم ومعه قطعان الماشية التي استولى عليها في طريقه، وإلى الجنوب منه كان ريموند أوف تولوز الذي وجد أنّ الوادي يفصل بينه وبين الأسوار، فتحرك بعد يومين أو ثلاثة إلى جبل صهيون، وأمّا القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي فقد تركا دون حراسة.[٢]

وبدأ الحصار في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون إلى الأسوار وهو السابع من يونية (حزيران)، ولكن سرعان ما اتضح أنّ الوقت في جانب المحاصَرين، فكان لدى افتخار كميات وفيرة من الطعام والماء، وكان تسليحه أفضل من تسليح الفرنج، واستطاع تقوية أبراجه بأجولة مليئة بالقطن والقش تخفف من وطأة قذائف المنجنيق التي يطلقها الفرنج. فإذا استطاع الصمود إلى أن يأتي جيش النجدة القادم من مصر

---

[١] Fulcher of Chartres (1,xxvii, 12, p. 300) يذكر وجود جنود "أثيوبيين "Aethiopian". ويذكر كل من (Raymond of Aguilers (xx, pp. 293-4 و *Gesta Francorum* (x, 37, p. 198). تسميم الآبار. وكان بطريق الكنيسة الأرمينية "الكاثوليكوس فلهرام "Catholicus Varham" موجودا فى القدس فى ذلك الوقت، ويبدو أنه تمكن من الفرار من المدينة (,Matthew of Edessa, II clvii,p. 225).

[٢] Raymond of Aguilers, xx, p. 293; *Gesta Francorum,* x, 37, p. 194; Albert of Aix, v, 46, pp. 463-4.

فسوف تنتهي الحملة الصليبية كلها. على أن الحامية، برغم حجمها، لم تكد تكفي لتمركز الرجال على الأسوار كلها. وسرعان ما واجهت الصليبيين صعوبة إمدادات المياه، فقد كانت التدابير التي اتخذها افتخار تدابير فعالة، وكان مصدر المياه النقية الوحيد المتاح للمحاصرين يأتي من بركة سيلوم أسفل السور الجنوبي، وكانت معرضة بشكل خطير لقذائف الحامية، ولكي يعوض الصليبيون نقص المياه كان عليهم أن يقطعوا ما لا يقل عن ستة أميال، وكانت الحامية تعلم ذلك، فكانت ترسل جماعات صغيرة تخرج إلى الطرق المؤدية إلى الينابيع لتنصب الأكمنة؛ فهلك جنود وحجاج كثيرون من تلك الهجمات المباغتة. وبدأ الطعام يتناقص هو الآخر، فلم يكن هناك من طعام بالقرب من المدينة سوى النذر اليسير، وأسهم القيظ والأتربة والافتقار إلى الظل في المزيد من رهق الصليبيين الوافدين من أجواء أكثر برودة، وقد ارتدى الكثير منهم عدة الحرب التي لا تلائم صيف يهودا (الضفة الغربية)، واتضح لهم جميعا أنه ليس بوسعهم تحمل حصار طويل، وإنما ينبغي لهم الهجوم على المدينة بسرعة والاستيلاء عليها.[1]

وفي الثاني عشر من يونية (حزيران) حج الأمراء إلى جبل الزيتون حيث خاطبهم ناسك مسن طالبا منهم مهاجمة الأسوار في اليوم التالي، فاعترضوا لعدم وجود الآلات الضرورية لنجاح الهجوم، لكن الناسك لم يقبل شيئا من اعتراضاتهم قائلا لو أنه كان لديهم الإيمان فإن الرب ناصرهم. وأدخلت كلمته الجرأة في قلوبهم، فأمروا بهجوم عام في صباح اليوم التالي. بيد أن الناسك كان مخطئا، أو أن إيمانهم كان بالغ الضعف؛ فقد انطلق الصليبيون إلى الهجوم بحماس مستعر، وسرعان ما اكتسحوا دفاعات السور الشمالي الخارجية، لكن سلالمهم كانت أقل بكثير من أن تمكنهم من اعتلاء الأسوار في

---

(1) Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-4; *Gesta Francorum*, x, 37, pp. 194-8.

أماكن كافية في وقت واحد، وبعد عدة ساعات من القتال اليائس أدركوا عُقم محاولتهم فانسحبوا.[١]

وتسبب فشل الهجوم في خيبة أمل مريرة، غير أنه بيّن للأمراء حاجتهم الملحة إلى بناء المزيد من آلات الحصار، فقرروا في اجتماع عقدوه في الخامس عشر من يونية (حزيران) الكفّ عن أيّة هجمات أخرى إلى أن تتوفر لديهم المناجق والسلالم بصورة أفضل. لكنهم كانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنعها. وكما حدث في أنطاكية أنقذهم وصول العون بحرًا في الوقت الملائم تمامًا. ففي السابع عشر من يونية (حزيران) رست ست سفن مسيحية في مرفأ يافا بعد أن هجره المسلمون، وكان الأسطول يتألف من غليونين[٢] من جنوا بقيادة الأخوين إمبرياكو، وأربع سفن ربما كانت من الأسطول الإنجليزي، وكانت السفن تحمل إمدادات الطعام والأسلحة بما في ذلك الحبال والمسامير والصواويل وكلها أشياء ضرورية لصنع آلات الحصار. وما أن سمع الصليبيون بوصول تلك السفن حتى أرسلوا في الحال فصيلة صغيرة للاتصال بالأسطول، ووقعت هذه الفصيلة في كمين نصبه فريق من المسلمين يعمل من عسقلان، ولم ينقذ الفصيلة سوى وصول ريموند بيليت ورجالة الذين كانوا في أعقابها. وفي ذات الوقت ظهر أسطول مصري أغلق سواحل يافا، وتمكنت إحدى السفن الإنجليزية من أن تفلت من هذا الحصار وأبحرت عائدة إلى اللاذقيَّة. وأمّا السفن الأخرى فقد هجرها بحارتها فور تفريغ شحنتها وساروا في حراسة ريموند بيليت إلى معسكر الصليبيين خارج القدس حيث قوبلوا بترحاب حار هم والبضائع التي أحضروها معهم. على أنه كان ما يزال من الضروري العثور على الأخشاب اللازمة لصنع الآلات، ولم يكن هناك سوى القليل منها في التلال الجرداء المحيطة بالقدس مما دفع الصليبيين إلى إرسال الحملات مسافة أميال عديدة لجمع الأخشاب المطلوبة. ولم يبدأ العمل في تلك الآلات إلاّ بعدما توغل

---

[١] Raymond of Aguilers, xx, p. 293; *Gesta Francorum*, x, 37, p. 196.

[٢] (المترجم): الغليون galley: سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف.

تانكريد وروبرت أوف فلاندرز بأتباعهما مسافات بعيدة إلى الغابات المحيطة بمدينة السامرة[1] وعادا محملين بكتل وألواح الأخشاب الضخمة المحمولة على ظهور الجمال، أو على أكتاف الأسرى من المسلمين. وصنعت السلالم، وبدأ كل من ريموند وجودفري في تشييد حصن خشبي مجهز بالمنجنيق مثبت على عجلات، وعهد إلى جاستون أوف بايرن بتشييد حصن جودفري، وإلى وليم ريكو بتشييد حصن ريموند.[2]

معاناة المحاصرين

وسار العمل ببطء بينما كان الفرنج يعانون المعاناة الرهيبة من حرارة الجو; فقد هبت رياح حارة مزعجة على مدى أيام كثيرة كان لها أثر مميت على أعصاب رجال لم يعتادوا عليها. وتفاقمت صعوبة إمدادات المياه حتى أن أعدادا من دواب الحمل والقطعان كانت تهلك في كل يوم من العطش، مما دفع الجيش إلى إرسال فصائل حتى الأردن للبحث عن المياه. وكانت تلك الفصائل تلقى غاية الحفاوة من السكان المسيحيين الذين أرشدوها إلى ينابيع المياه والغابات الواقعة في الجوار، على أنه كان من المحال منع غارات وكمائن الجنود المسلمين سواء أكانوا من الحامية أو من الجماعات التي تجوب أرجاء البلاد. وثارت المشاحنات بين الأمراء مرة أخرى، أولا بسبب امتلاك بيت لحم: فتانكريد هو الذي حرر المدينة وترك رايته ترفرف فوق كنيسة الميلاد، لكن رجال الدين وأنداده من الأمراء رأوا أنه من الخطأ أن يكون هذا المبنى المقدس تحت سلطان لورد علماني، ودافع تانكريد عن مطالبته ببيت لحم، وبرغم وقوف الرأي العام ضده فقد اتفقوا على تأجيل هذا الأمر. وثانيا، بدأ الجدل حول مستقبل القدس فاقترح بعض الفرسان تعيين ملك عليها، فعارض رجال الدين بالإجماع قائلين إنه لا يوجد مسيحي واحد بمقدوره أن يسمي نفسه ملكا في مدينة توج فيها المسيح وعانى الآلام،

---

[1] (المترجم): السامرة Samaria : منطقة فى فلسطين بين الجليل ويهودا (فى الضفة الغربية).

[2] Raymond of Aguilers, xx, pp. 294-7; *Gesta Francorum,* x, 37, pp. 196-200.

ومرة أخرى وقف الرأي العام إلى جانب رجال الدين وتقرر تأجيل المناقشـــات. وأدت المتاعب الجسمانية البائسة وما صاحبها من محاولة الهجوم الفاشلة وما ترتب على ذلــك من تجدد المشاحنات بين الأمراء إلى تخلي الكثيرين عندئذ عن الحملة الصليبية. فذهبــت جماعة منهم إلى نهر الأردن لإعادة تعميد أنفسهم في النهر المقدس، وبعـــد أن جمعــوا سعف النخيل من ضفة النهر ارتحلوا إلى يافا مباشرة يحدوهم الأمل في العثـــور علـــى قوارب تحملهم في رحلة العودة إلى أوروبا.[1]

وفي أوائل يولية (تموز) علم الصليبيون أنّ جيشًا عظيمًا قد خرج من مصر لنجـــدة القدس. وتحقق الأمراء من أنه لا وقت لديهم للتأخير، ولكن معنويات جنودهم كـــانت منخفضة، فأغاثتهم الرؤيا مرة أخرى; ففي صباح السادس من يولية (تموز) جاء بطـرس دزيديريوس، الذي شهد من قبل برؤيته للأسقف أديمار بعد موته، إلى أخي أديمار، وهو وليم هيو أوف مونتيبه وكذلك إلى سيده إيزوار أوف جاب وقال لهمـــا إنّ الأســـقف ظهر له مرة ثانية وأمر الصليبيين بأن يكفّوا عن مخططاتهم الأنانية وأن يصوموا ثم يسيروا بعد انتهاء الصوم في مواكب زيّاحية حول أسوار القدس وهم حُفاة الأقدام. فإذا فعلــوا ما أُمروا به بقلوب تائبة فلسوف يستولون على القدس في غضون تسعة أيام. وعندمـــا زعم بطرس دزيديريوس بأنه شاهد أديمار يُصلى نار جهنم لريبته في قصة الرمح المقـدس كذّبه الصليبيون جميعهم، ولكن الآن ـــ ربما لأن الأسقف ظهر في صورة أكثر إشـراقًا، ولأن أسرة مونتيبهمنحت مؤازرتها ـــ فقد لقيت الرؤيا قبولاً فوريًا من الجيش كله على أنها رؤيا صحيحة. وقوبلت تعليمات أديمار بطاعة متلهفة; فقـــد صـــدرت الأوامـــر بالصوم، وروعي تنفيذها مراعاة متفانية خلال الأيام الثلاثة التالية، وفي يـــوم الجمعـــة الثامن من يولية (تموز) دار الموكب الزّياح الوقور حـــول المدينـــة، وســـار الأســـاقفة والقساوسة في الطليعة حاملين صلبانًا وآثارًا مقدسة، وتبعهم الأمـــراء والفرســـان، ثم الراجلون من الجنود والحجاج، وكان الجميع حفاة الأقدام. وتجمع المســـلمون علـــى

---

[1] Raymond of Aguilers, xx, pp. 295-6.

الأسوار يسخرون منهم، لكنهم تفاخروا بهذه السخرية، وبعد أن أتموا الدورة حول المدينة صعدوا جبل الزيتون حيث خطب فيهم بطرس الناسك، وبعده خاطبهم واعظ ريموند أوف أجيليه، ثم واعظ روبرت النورماندي، آرنولف أوف روه الذي كان يعدّ آنذاك أبلغ الوعاظ الموجودين مع الجيش، وحركت فصاحتهم الجمع الكبير وأثارته حتى نسى ريموند وتانكريد خلافاتهما وأقسما على أن يحاربا معًا من أجل الصليب.(١)

ترتيبات الهجوم

وتواصل الحماس. فخلال اليومين التاليين دأب رجال الجيش على العمل لإتمام أبراج الحصار الضخمة برغم ما يعانونه من عطش، وكانت مهارة أبناء جنوا برئاسة وليم امبرياكو ذات عون كبير، وحتى المسنين من الرجال والنساء كان لهم نصيبهم في حياكة جلود الثيران والجمال وتثبيتها بالمسامير على الأجزاء المكشوفة من الأعمال الخشبية لحمايتها من النيران الإغريقية التي يستعملها العرب.(٢) وفي العاشر من نفس الشهر أصبحت الأبراج الخشبية جاهزة للعمل، وسُحبت على عجلاتها إلى مواقعها فوضع أحدها في مواجهة السور الشمالي، وآخر فوق جبل صهيون، وثالث أصغر بقليل من سابقيه في مواجهة الركن الشمالي الغربي من الدفاعات. وأنجز الصليبيون أعمال الإنشاءات بحذر شديد بعيدًا عن أعين جنود الحامية الذين أخذ منهم الذهول والذعر لدى رؤيتهم تلك القلاع أمامهم، فسارع افتخار إلى تقوية الدفاعات الأضعف، وأخذ في قذف أبراج الحصار قذفًا منتظمًا بالأحجار والسوائل الحارقة للحيلولة دون التصاقها بالأسوار.(٣)

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 296-7؛ خطاب ديامبرت Diambert إلى البابا، فى Hagenmeyer, *ob. Cit.* pp. 170-1; *Gesta Francorum,* x, 38, pp. 200-2.

(٢) (المترجم): النيران الإغريقية the Greek fire : مركب قابل للإحتراق يشتعل فى الماء.

(٣) Raymond of Aguilers, xx, p. 298; *Gesta Francorum,* x, 38, p. 200.

وتقرر أن يبدأ الهجوم خلال ليلة الثالث عشر والرابع عشر من يولية (تموز)، على أن يكون الهجوم الرئيسي في وقت واحد من جبل صهيون وعلى القطاع الشرقي من السور الشمالي، وهجوم آخر للتضليل على الزاوية الشمالية الغربية. واستنادا إلى أرقام المؤرخ ريموند أوف أجيليه — وليس ثمة شك فيها — كانت قوة الجيش المقاتل الفعالة آنذاك اثني عشر ألفا من جنود المشاه وألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك حجاج كثيرون لم يحاول تقدير أعدادهم، وهم رجال بلغوا من العمر أو من المرض ما يحول دون اشتراكهم في القتال، كما كان هناك نساء وأطفال. وكانت المهمة الأولى للمغيرين هي إحضار حصونهم الخشبية لتلاصق الأسوار تماما، وهي مهمة تتطلب ردم الخندق المحيط بالأسوار في ذلك القطاع، وركز الصليبيون على مهمتهم هذه طوال الليل وأثناء نهار الرابع عشر من الشهر، ولاقوا الأمرين من الأحجار والسوائل الحارقة التي كان المدافعون يقذفونها، وردوا على ذلك بقصف شديد من المناجق الخاصة بهم. وبحلول مساء الرابع عشر من يولية (تموز) أفلح رجال ريموند في دفع عجلات برجهم أعلى الخندق إلى أن أصبح في مواجهة السور، ولكن الدفاع كان شرسا، ويبدو أن افتخار نفسه كان آمر هذا القطاع، ولم يستطع ريموند أن يحصل على موطيء قدم على السور نفسه. وفي صباح اليوم التالي اقترب برج جودفري الخشبي من السور الشمالي القريب من البوابة التي تسمى حاليا بوابة الزهور، ومن الطابق الأعلى قاد جودفري وأخوه إيوستاس أوف بولونيا عمليات الهجوم. وفي منتصف النهار تقريبا نجحا في إقامة جسر بين البرج وقمة السور، حيث قام اثنان من فرسان الفلاندرز (ليتولد وجيلبرت أوف تورناي) بقيادة رأس حربة الجيش اللوثارنجي، وسرعان ما تبعهما جودفري نفسه، وما أن سقط قطاع من السور في أيدي المقتحمين حتى تدفق كثيرون آخرون إلى داخل المدينة عن طريق السلالم. وبينما بقي جودفري على السور يشجع المتسلقين الجدد ويرسل الرجال لفتح بوابة العمود لقوات الصليبيين الرئيسة، توغل تانكريد ورجاله وكانوا وراء أبناء اللورين في أعماق شوارع المدينة.

ورأي المسلمون دفاعاتهم تُخترق. فهربوا باتجاه الحرم الشريف حيث توجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى الذي لجأوا إليه ليتخذوه ملاذًا أخيرًا لهم. لكن لم يكن هناك وقت لتهيئة المكان للدفاع، وبينما هم يتزاحمون داخل المسجد وأعلاه هبط عليهم تانكريد فاستسلموا له في الحال ووعدوه بفدية عظيمة وأخذوا رايته لرفعها فوق المسجد، لكنه كان قد دنس قبة الصخرة بالفعل ونهبها. وفي تلك الأثناء تراجع سكان المدينة فرارًا وهم في حالة من الاضطراب إلى الأحياء الجنوبية حيث كان افتخار ما يزال صامدًا أمام ريموند. وفي وقت مبكر من بعد الظهر تحقق من ضياع كل شيئ، فانسحب إلى داخل برج داوود وعرض تسليمه إلى ريموند مع مقدار كبير من المال في مقابل الإبقاء على حياته هو وحرسه الخاص، فقبل ريموند شروطه واحتل البرج وخرج افتخار ورجاله من المدينة سالمين تحت الحراسة وسُمح له بالذهاب إلى الحامية الإسلامية في عسقلان.(١)

المنتصرون يرتكبون المذابح

كان افتخار ورجاله هم وحدهم الذين بقوا على قيد الحياة من المسلمين في القدس. فهذا النصر الكبير بعد تلك المعناة الشديدة أصاب الصليبيين بمس من الجنون، فاندفعوا في الشوارع واقتحموا المنازل والمساجد وأخذوا في تقتيل كل من يقابلهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال. واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله، و لم تشفع راية تانكريد في حماية اللاجئين بالمسجد الأقصى، ففي

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-300; *Gesta Francorum,* x, 38, pp. 202-4 وهذان المؤرخان كلنا شاهدا عيان فى المعركة وتتفق مقالاتهما مع بعضهما. Fulcher of Chartres, 1, xxvii, 5-13, pp. 295-301. ويتفق فولشر أوف شارترز وريموند أو أجيليه فى توقيت دخول المدينة فى منتصف النهار . ويقول صاحب تاريخ جيستا فرانكورام إن دخول المدينة حدث فى ساعة وفاة المسيح. ويورد Albert of Aix (VI, 19-28, pp. 477-83) رواية طويلة ولكنها أقل فى مصداقيتها.

باكورة الصباح التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلوا كل من فيه. وعندما ذهب المؤرخ ريموند أوف أجيليه في وقت متأخر من ذلك الصباح لزيارة منطقة الحرم الشريف كان عليه أن ينتقي مواطيء قدميه بين الجثث والدماء التي وصل ارتفاعها إلى ركبتيه.[١]

وهرب يهود القدس في حشد واحد إلى كنيسهم الرئيسي، لكن الصليبيين اعتبروا أنهم قدموا المساعدة للمسلمين، فلم يظهروا تجاههم أية رحمة، وأشعلوا النيران في المبنى واحترق اليهود كلهم بداخله.[٢]

وكان لمذبحة القدس وقع عميق على العالم كله. وليس في مقدور أحد أن يعرف عدد الضحايا، وإنّما أفرغ الصليبيون القدس من سكانها المسلمين واليهود، وأصيب كثيرون، حتى من المسيحيين، بالهلع مما جرى. وحتى ذلك الوقت كان هناك من بين المسلمين من هم على استعداد لقبول الفرنج كعنصر آخر في سياسات ذلك الزمان المعقدة. بيد أنه بعد المذبحة أصبح هناك تصميم واضح على طرد الصليبيين، وكان هذا الدليل على التعصب المسيحي المتعطش للدماء هو الذي أدى إلى تعصب المسلمين. وفيما بعد، عندما حاول لاتينيو الشرق الأكثر حكمة السعي نحو إيجاد بعض الأسس لتعاون المسيحيين والمسلمين، كانت ذكرى المذبحة تقف دائمًا عائقًا في الطريق.

وبعدما فرغ الصليبيون من قتل المسلمين دون أن يبقوا على أي منهم، ذهب أمراء الحملة الصليبية في وقار إلى الحي المسيحي المقفِر، الذي بات مهجوراً منذ أن طرد

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum,* x, 38, pp. 204-6; letter of Diambert in Hagneneyer, *ob. cit.* p. 171؛ ويصف المذبحة كل من أبو الفدا *ob. cit.* p.4 وإبن الأثير *ob. cit.* pp.198-9 ويثني الأخير على ريموند لحفاظه على كلمته. أنظر أيضا إبن القلانيسي، تاريخ دمشق Damascus Chronicle, p. 48.

(٢) Ibn Al-Qalanisi, *loc. cit.*

افتخار ساكنيه، ليشكروا الرب في كنيسة القبر المقدس. ثم احتمعوا في السابع عشر من يولية (تموز) لتعيين حاكم للمدينة المغتصبة.(١)

ومات الحاكم الذي كان خليقا بأن يلقى الترحيب من أغلب الصليبيين، وتأسى الجيش كله لغياب أديمار أسقف لوبوي ليرى انتصار القضية التي طالما كافح من أجلها، فلم يصدق أحد أن أديمار لم يشهد حقا هذا الانتصار; فقد أدلى الجنود بشهاداتهم، الواحد تلو الآخر، بأنهم رأوا محاربا يقاتل في جبهة القتال المتقدمة وتعرفوا فيه على ملامح الأسقف.(٢) كما كان هناك آخرون لم يمتد بهم الأجل ليسمعوا بهذا النصر البهيج; فقد مات بطريق القدس سيميون في منفاه بقبرص قبل النصر بأيام قليلة(٣)، وفي إيطاليا على البعد يرقد مؤسس الحملة الصليبية مريضا. وفي التاسع والعشرين من يولية (تموز) سنة ١٠٩٩ ميلادية، وبعد دخول جنوده المدينة المقدسة بأسبوعين، قبل أن تصله أية أنباء عن النصر، يموت البابا إيربان الثاني في روما.(٤)

---

(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum*, x, 38, p. 206; Fulcher of Chartres, 1, xxix, 1-4, pp. 304-6.

(٢) Raymond of Aguilers, *loc. cit.*

(٣) Albert of Aix, VI, 39, p. 489.

(٤) *Vita Urbani*, in *Liber Pontificalis*, II, p. 293.

الفصل الثالث

أدفوكاتوس سانكتي سيبالكرى

(حامى القبر المقدس)

أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري
(حامي القبر المقدس)

"فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ"

(سفر القُضَاة: ٢١ ــ ٢٥)

تم بلوغ المرام. واستُردت القدس إلى العالم المسيحي. ولكن كيف السبيل إلى الحفاظ عليها ؟وكيف تكون حكومتها ؟ ليس في الإمكان الآن تأجيل الإجابة على هذا السؤال الذي كان كل صليبي يفكر فيه بينه وبين نفسه. ويبدو أنّ الرأي العام قد تذكر أنّ الكنيسة هي التي خططت للحملة الصليبية لتمجيد المسيح، فشعر بأنه ينبغي أن تكون الكنيسة صاحبة السلطة النهائية. ولو أنّ أديمار أسقف لوبوي كان ما يزال على قيد الحياة فلا شكّ في أنه كان سيضع الدستور ويعين مسئُولي الحكومة؛ فهو الشخصية المحبوبة التي يحترمها الصليبيون، وهو على دراية برغبات البابا إيربان، وربما كان يتصور دولة كنسية يرأسها البطريق سيميون ويكون هو نفسه مندوبًا بابويًا يعمل مستشاراً له،

وريموند أوف تولوز حاميًا دنيويًّا وقائدًا لجيوشها. على أننا لا ندّعي تفصيل نواياه التي دفنت معه. وفي واقع الأمر، كان البابا إيربان قد عين مندوبًا بابويًّا آخر يخلفه يعمل مستشارًا، هو دیامبرت أوف بيزا، ولم يكن الصليبيون قد علموا بذلك بعد[١]. لكن دیامبرت أثبت أنه شخصية طموحة للغاية، ويمكن في نفس الوقت التأثير عليه بحيث لا يمكن اعتباره مفسرًا للسياسة البابويّة. وليس مع الحملة الصليبية أحد الآن ينصح فيطاع طاعة عمياء.

واجتمع القادة في السابع عشر من يولية (تموز) لمعالجة المسائل الإدارية العاجلة: فلابد من إخلاء الشوارع والمنازل من الجثث واتخاذ الترتيبات اللازمة للتخلص منها، ويتعين تخصيص بعض أحياء المدينة للجنود والحجاج، ولا بدّ من الاستعداد للتصدي للهجوم المصري المضاد. كما نوقشت مسألة ما إذا كان سيسمح لتانكريد بالاحتفاظ بكل الكنز الذي أخذه من قبة الصخرة والمشتمل على ثمانية مصابيح ضخمة من الفضة.[٢] وأثار أحدهم مسألة انتخاب الملك فاعترض رجال الدين من فورهم، فلا بدّ من تقديم الضرورات الروحانية على غيرها، وقبل انتخاب الملك ينبغي تعيين البطريق الذي سوف يترأس عملية الانتخاب. وبعد ذلك بقرن من الزمان تقريبًا، وبعدما أصبحت الملكية مقبولة قبولاً تامًّا، كتب المؤرخ وليم الصوري ـــ برغم أنه كان رئيس أساقفة ـــ يتهم الكنيسة بأنّ ذلك كان محاولة مفضوحة تتجاوز فيها الكنيسة حقوقها، على أنّ تلك المحاولة لم يُعترض عليها آنذاك إلاّ لأنّ القائمين بها لم يكونوا على مستوى من الجدارة. لكنهم في حاجة إلى بطريق، ولو أنّ سيميون كان ما يزال على قيد الحياة للقيت حقوقه الاحترام اللائق، فقد كان مفضلاً لدى أديمار، كما كان الصليبيون يذكرونه بمشاعر العرفان لهداياه التي كان يرسلها لهم في أنطاكية. غير أنه لم يكن هنالك

---

[١] وصل دیامبرت إلى اللازقية فى سبتمبر ١٠٩٩م . ولذا لابد وأن يكون قد غادر إيطاليا قبل الإستيلاء على القدس بوقت طويل . أنظر مايلى صفحة ٤٤٩-٤٥٠.

[٢] Raymond of Aguilers, xx, pp. 300-1; *Gesta Francorum*, x, 39, p. 206; Fulcher of Chartres, 1, xxviii, 1-2, pp. 301-3.

رجل كنيسة آخر يلقى القبول يونانيًا كان أو سوريًا، وفي واقع الأمر لم يكن هناك من يطالب بذلك، فقد لحق أعلى القساوسة الأرثوذوكس في القدس بالبطريق في المنفى، فلا بدّ إذن من رفع أحد اللاتينيين إلى هذا الكرسي البابويّ، بيد أنه لم يكن بين القساوسة اللاتينيين قس واحد بارز آنذاك، فبعد موت أدهمار كان وليم أوف أورانج أكثر الأساقفة احترامًا، لكنه مات في معرّة النعمان. وكان أنشط القساوسة حينئذ هو أرنولف أسقف مارتورانا النورماندي الإيطالي الذي اقترح تعيين صديقه أرنولف ماليكورن أوف روه — وهو واعظ روبرت النورماندي — أسقفًا، على أن يُمنح ... نفسه أسقفية بيت لحم. ولم يكن أرنولف أوف روه يخلو من ميزة؛ إذ كان معلمًا لإبنة وليم الغازي، سيليشيا الراهبة التي استحثت أخاها روبرت على أن يستعين به ويعده بأسقفية، وكان خطيبًا بليغًا وأديبًا. لكن المعروف عنه أنه كان منغمسًا في دنيويته، وتذكروا عداوته لبطرس بارثولوميو، وفضلاً عن ذلك بدا الأمر كله وكأنه مؤامرة نورماندية؛ فلم يكن القساوسة الفرنسيون الجنوبيون الذين يؤيدهم ريموند أوف تولوز على استعداد للتعاون، ورُفض اقتراح انتخاب البطريق من قبل الملك. ولم تكن القصة بمثل ما أولاها المؤرخ وليم الصوري من أهمية، بيد أنّ تتمة القصة تُظهر أنّ الرأي العام كان ما يزال يُعضد الكنيسة ضد القوى العلمانية.[1]

---

(1) Raymond of Aguilers, xx-xxi, pp. 301-2; William of Tyre, ix, vol. 1, pt. 1, pp. 364-6. ويقول Fulcher of Chartres (i, xxx, 2, p. 308) إنه لم يتم إنتخاب أى بطريق إلا بعد الحصول على نصيحة البابا. وربما كان يشير إلى هذه المناقشة الأولى. وعن سيرة حياة Arnulf المبكرة أنظر David, *Robert Curthose*, pp. 217-20 ويطلق المؤرخ David عليه "Arnolf of Choques" ويعتبر أن الإسم "of Rohes" غير صحيح .

مؤامرات من أجل العرش

وفي الأيام التالية انشغل الأمراء بالدسائس حول شغل العرش. ولم يبق إلا أربعة من الأمراء الكبار الذين انطلقوا من القسطنطينية في الحملة الصليبية هم ريموند أوف تولوز، وجودفري أوف لورين، وروبرت أوف فلاندرز، وروبرت النورماندي. وأما إيوستاس أوف بولونيا فكان دائما يلعب الدور متواريا وراء أخية جودفري، وأما تانكريد، وبرغم كل جسارته، فكان أتباعه قليلين ولا يكاد يجاوز كونه من أقرباء بوهيموند الفقراء. ومن بين هؤلاء الأمراء كان ريموند أقواهم شكيمة لما يتصف به من خصائص لا تتوفر لغيره وهي عمره وثروته وخبرته وارتباطه الطويل بأديمار، لكنه لم يكن يحظى بإعجاب رفاقه؛ فهو مفرط في التعالي عليهم طوال الوقت، ودائما ما يظهر نفسه بمظهر القائد العلماني للحملة الصليبية. وكانت سياسة صداقته مع الإمبراطور منفرة للغاية حتى للكثيرين من أتباعه، ولم يثبت نجاحه خلال الأشهر القليلة التي كان فيها قائدا عاما بلا منازع؛ إذ أن خيبته في أرقا وإنكار الرمح المقدس حطما هيبته. ومع أن شجاعته الشخصية ونشاطه ليسا موضع شك إلا أنه كجندي لم يفلح في إحراز أي نصر كبير، فإذا ما أصبح ملكا فسوف ينقلب إلى الغطرسة والاستبداد، ولن توحي قيادته أو سياسته بالثقة. وأما عن الأمراء الآخرين، فكان روبرت أوف فلاندرز أكثرهم اقتدارا، لكن المعروف عنه أنه كان يرغب في العودة إلى وطنه فور إنقاذ القدس. وكان روبرت النورماندي محبوبا وله هيبته باعتباره رئيس النورمانديين، لكنه لم يكن شخصية قاهرة، كما كان هو الآخر يميل إلى العودة إلى أوروبا. ويبقى لدينا جودفري، فهو فيما مضى كان دوقا للورين الأسفل، وهو مركز أرفع من أي مركز آخر شغله أي من رفاقه، لكنه لم يكن الدوق الذي يتصف بالكفاءة العالية، وأظهر سلوكه في القسطنطينية أنه رجل ضعيف عنيد مرتاب يخلو من الذكاء. على أن قصوره كرجل دولة وإداري كان شيئا غير معروف للصليبيين الذين رأوا فيه رجلا شهما وتقيا

وخادمًا كرس نفسه لقضيتهم. وقيل إنه حينما استفسر الناخبون عن الحياة الخاصة لكل قائد لم تجد حاشية جودفري فيه أي نقص سوى شغفه بالممارسات الدينية.(1)

انتصار جودفري

ولا نعرف من هم الناخبون. وربما كانوا من كبار القساوسة والفرسان الذين كانوا بمثابة كبار مستأجري الأرض بالنسبة لأمراء الصليبيين. وفي بادئ الأمر عُرض التاج على ريموند، لكنه رفض رفضًا أدهش المؤرخين لما كان يعرف عنه من طموح واضح لقيادة الحملة الصليبية، ولكنه تحقق من أنّ ذلك العرض لم يحظ بتأييد مخلص من أغلب الصليبيين، وأنّ رفاقه لن يخضعوا لسلطانه أبدًا في واقع الأمر، بل إنّ جنوده التابعين له، الذين يتوقون إلى العودة إلى أوروبا، أعلنوا عدم رغبتهم في أن يقبل العرض. وهكذا أعلن أنه لا يرغب في أن يكون ملكًا في مدينة المسيح المقدسة، آملاً بذلك أن يجعل من المستحيل أن يصبح أيّ فرد آخر ملكًا. وتحول الناخبون في ارتياح إلى جودفري، الذي كان معروفًا أنّ كلا من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي يؤيدانه، فأظهر بعض التمنع ثم قبل سلطة الملك، لكنه طلب إعفاءه من لقب الملك، وأن يسمى بدلاً من ذلك أدفوكاتوس سانكتي سيالكري أيّ حامي القبر المقدس.(2)

وظنّ ريموند أنه راح ضحية خدعة. ومن المؤكد أنّ جودفري كان مخلصًا حينما رفض وضع تاج على رأسه في المدينة التي وُضع فيها على رأس المسيح تاج من الشوك.

---

(1) William of Tyre, ix, i, vol. 1, pt1, pp. 365-6.

(2) يذكر Raymond of Aguilers, xx, p. 301 رفض ريموند للتاج ؛ ويقول صاحب تاريخ Gesta Francorum, x, 39, pp. 206-8 إن جودفرى قد إنتخب princeps civitatis (أمير مدن) لغرض قتال العرب ؛ ويستخدم Fulcher of Chartres, 1, xxx, 1 لقب "princeps" (أمير)" ؛ كما أن Albert of Aix, vi, 33, pp. 485-6 يذكر رفض ريموند ؛ William of Tyre, ix, 2, vol. 1, pt 1, pp. 306-7 . وعن لقب جودفرى أنظر Moeller, 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-sépulcre', *passim* .

وكانت ميزته الرئيسية تتمثل في أن ورعه يتسق مع ورع سائر الصليبيين، ولم يفارق ذهنه أبدا اقتناعه بأن كنيسة المسيح ينبغي أن تكون هي الحاكم النهائي للأرض المقدسة. ولم يصبح في الإمكان تتويج ملك في القدس إلا بعد وفاته، وبعد عودة أغلب الحجاج إلى أوطانهم تاركين وراءهم مستعمرة تتألف من المغامرين من رجال الأعمال من ذوي النظرة العملية.[١]

وقابل ريموند انتصار جودفري بصورة سيئة للغاية; فرفض أن يسلم الحاكم الجديد برج داوود الذي كان في حوزته قائلا إنه ينوي البقاء في القدس للاحتفال بعيد الفصح التالي وسيكون البرج محل إقامته، لكنه بعد أن احتج عليه كل من روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وافق على أن يتركه في رعاية أسقف البرة إلى أن يعقد مجلس عام للحملة الصليبية لحسم الأمر. على أنه ما أن انتقل ريموند من البرج حتى سلمه الأسقف إلى جودفري دون انتظار لقرار تحكيمي. وأعذر الأسقف نفسه أمام ريموند بأنه كان أعزل من كل دفاع واضطر للرضوخ، غير أن ريموند أوف أجيليه شاهد بنفسه أكوام السلاح الهائلة التي نقلها المندوب البابوي عديم الإيمان إلى مترل قريب من القبر المقدس، وربما شجعه على تصرفه هذا رجال ريموند التواقون إلى دفع سيدهم إلى العودة إلى فرنسا. وثارت ثائرة ريموند وأعلن بادئ الأمر أنه عائد إلى وطنه فورا، وغادر القدس ولكن باتجاه الجنوب إلى وادي الأردن ومعه كل جنوده لتنفيذ تعليمات بطرس بارثولوميو له في أنطاكية، وقاد رجاله وكل منهم يحمل سعفة نخل وساروا من أريحا إلى النهر. وبعدما عاد من النهر نزل أصحابه كلهم ليستحموا في النهر المقدس وهم يرددون الصلوات والترانيم، ثم ارتدوا الملابس النظيفة. وعلق ريموند أوف أجيليه على ذلك بقوله: "ومع ذلك لم نعرف بعد لماذا طلب منا الرجل المقدس أن نفعل كل

---

[١] See Chalandon, *Histoire du la première Croisade*, pp. 290-2.

هذا". و لم يشأ ريموند العودة إلى القدس التي شهدت مذلته، فضرب معسكره في أريحا.[1]

جودفري ورفاقه

وأدى فشل ريموند في الحصول على التاج إلى أن أصبح أتباعه في موقف الضعف. فحينما اجتمع القساوسة في أول أغسطس (آب) لانتخاب بطريق لم تكـــن معارضـــة البروفنسال لـــآرنولف أوف روه معارضة فعّالة، ووجد أسقف مارتورانو تأييدًا مــــن أهل اللورين ونورمانديّي فرنسا وإيطاليا فتمكن من إقناع أغلب من بـــالمجلس بتعيـــين آرنولف. وعبثًا حاول ريموند أوف أجيليه وأصدقاؤه أن يؤكدوا أنّ انتخاب آرنولف لا يتفق وقوانين الكنيسة؛ فـــآرنولف لم يكن حتى مساعد شماس، كما كان الجيش يتخـــذ من أخلاقياته مادة يتغنى بها. ورحبت به جماهير الناس في منصبه البطريقي الجديـــد.[2] و كان آرنولف من الناحية السياسية يتصف بالاعتدال، وإذا كان رجال الدين قد توقعـــوا أن يملي سياسته على جودفري فقد خاب ظنهم، وربما كان يدرك أنه ليس أهـــلاً لأن يحكم القدس، ولذا حصر نطاق أنشطته في الشؤون الكنسية ووضع جُلّ اهتمامـــه في أن يجعل من الدائرة الأسقفية دائرة لاتينية. وبموافقة ودفري، عيّن عشرين كاهنًـــا لإقامـــة الخدمات الدينية اليومية في كنيسة القبر المقدس، وزوّد الكنيسة بالأجراس لدعوة النـــاس إلى الصلاة، و لم يكن المسلمون يسمحون للمسيحيين باســـتخدامها مطلقًـــا. ثم أبعـــد قساوسة الطقوس الشرقية القائمين بالخدمات الدينية في الكنيسة التي كانت آنذاك ـــ

---

(1) Raymond of Aguilers, xx, pp. 301-2; William of Tyre, ix, 3, Vol. 1, pt 1, pp. 367-8.

(2) Raymond of Aguilers, xxi, p. 30; *Gesta Francorum*, x, 39, p. 208, calling Arnulf 'sapientissimum honorabilem virum'; William of Tyre, ix, 4, vol. 1, pt 1, p. 369.

كشأنها الآن ـــ تضم مذابح كنسية تنتمي إلى جميع طوائف العالم المسيحي الشـــرقي، ليس فقط اليونانية الأرثوذوكسية والجورجية[١]، وإنمـــا أيضـــا الطوائـــف الأرمينيـــة واليعقوبية والقبطية. وغداة الغزو اللاتيني بدأ السكان المسيحيون المحليـــون يعـــودون متلهفين إلى القدس، على أنهم بدأوا يشعرون بالأسى لتغير الحكام.فحينمـــا أخرجـــهم افتخار من المدينة أخذ بعض القساوسة الأرثوذوكس معهم أقدس آثار كنيسة القـــدس، ألا وهو القسم الرئيسي من الصليب الحقيقي، وتبددت رغبتـــهم الآن في تســـليمه إلى الحبر الذي تجاهل حقوقهم. ولم يستطع آرنولف معرفة مكان إخفائه إلا بعد تعذيـــب المحتفظين به. على أنه برغم تزايد استياء المسيحيين الأرثوذوكس من أبناء البلاد فلـــم يكن أمامهم خيار آخر سوى تقبل الهرمية اللاتينية. وأما كبار قساوستهم فقد تفرقـــوا وأحجموا عن تعيين أساقفة أو بطريق من بينهم في مواجهة اللاتينيين. وحـــتى ذلـــك الوقت لم يكن هناك صدع بين الأرثوذوكسية الشرقية والغربية في فلسطين، ورغـــم أن آرنولف قد اتخذ الخطوات الأولى التي تجعل من هذا الصدع حقيقة حتمية. وهكذا فـــإن الكنائس الهرطيقية التي كانت تنعم بتسامح المسلمين وجدت في الغزو اللاتيـــني بدايـــة الخسوف.[٢]

---

[١] (المترجم): الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية : إحدى أقدم الطوائف المسيحية فى العالم ، وحاليا كنيسة مستقلة فى الملة الأرثوذكسية . وإعتنق الجورجيون المسيحية عن طريق أمرأة (القديسة "نينو") فى أوائـــل القرن الرابع الميلادى . ومنح الإمبراطور "زينو" (٤٧٤-٤٩١م) الكنيسة إستقلالها بموافقة بطريق أنطاكيا ، ومنذ ذلك الوقت يحمل رؤساء الكنيسة لقب "كاثوليكوس" . وفى ســـنة ١٨٠١م ضمـــت روســـيا جورجيا ، ففقدت البلاد إستقلالها السياسي والكنسى ، وأثناء الثورة الروسية سنة ١٩١٧م إســـتعادت الكنيسة إستقلالها ، لكنها عانت الإضطهاد فى العشرينات. على أنه فى عهد "جوزيف ستالين" — الـــذى كان طالبا فى معهد جورجيا اللاهوتى- تمتعت بمعاملة متميزة فيما يبدو . وبعد إنتخاب "كـــاثوليكوس إلياس" سنة ١٩٧٧م عين أساقفة جددا فى العديد من الكراسى الأسقفية.

[٢] Fulcher of Chrtres, 1, xxx, 4, pp. 309-19; William of Tyre, *loc. cit.* Raymond of Aguilers, *loc. cit.*

وبعد انتخاب جودفري تدهورت العلاقات بينه وبين رفاقه الذين كانوا يؤيدونه حتى ذلك الوقت. فسرعان ما أساء إلى روبرت النورماندي لسبب أو لآخر، وازداد فتور روبرت أوف فلاندرز حياله، وكان تانكريد وقتئذ قد رحل إلى نابلس بعد أن أرسل سكانها إلى القدس يعلنون استسلامهم للصليبيين، وصحبه أخو جودفري (إيوستاس أوف بولونيا)، ربما ليحول دون ما اعتاد عليه من استحواذه على الأسلاب كلها لنفسه، ولقيا استقبالاً حسنًا هناك ولكن يبدو أنهما لم يحصلا على غنائم.(١)

وبعد رحيلهما مباشرة وصلت سفارة مصرية إلى القدس لتوبيخ الفرنج على نقضهم العهد ولتأمرهم بمغادرة فلسطين. ووصلت في أعقاب السفارة أنباء بأن هناك جيشًا مصريًا بقيادة الوزير الأفضل دخل فلسطين وأنه في طريقه إلى عسقلان. فأرسل جودفري إلى تانكريد وايوستاس طالبًا منهما النزول في السهل البحري وإطلاعه على تحركات العدو، فأسرعا باتجاه قيسارية ثم استدارا جنوبًا باتجاه الرملة، وفي طريقهما أمسكا بعدد من الكشافين الذين أرسلهم المصريون أمامهم، وانتزعا منهم معلومات تتصل بعدد قوات الوزير وأماكن تمركزها، وتوصلا إلى أنّ الأفضل ينتظر أسطوله ليلحق به حاملاً إمدادات إضافية، وأنه لا يتوقع هجومًا من الفرنج، فأرسلا إلى جودفري بذلك يحثانه على أن يأخذه بغتة، فحشد جودفري جيشه من فوره، وطلب من رفاقه أن يلحقوا به، فاستجاب روبرت أوف فلاندرز للنداء. وأمّا روبرت النورماندي وريموند ـ الذي كان ما يزال في وادي الأردن ـ فقد أجابا بأنهما سينتظران إلى أن تتأكد الأنباء، ولم يتحركا إلاّ بعد أن أرسلا الكشّافين التابعين لهما لمعرفة ما كان يحدث.(٢)

---

(١) *Gesta Francorum*, x, 39, pp. 208-10

(٢) *Ibid*. pp. 209-10

الانتصار في عسقلان

وفي التاسع من أغسطس (آب) انطلق جودفري وروبرت أوف فلاندرز من القدس ومعهما رجالهما، وصاحبهما البطريق آرنولف. وعندما وصلوا إلى الرملة وقابلوا تانكريد وايوستاس صدرت الأوامر إلى أسقف مارتورانو بسرعة العودة إلى القدس ليعلن مدى خطورة الوضع، ولكي يستحث كل رجل قادر على القتال أن يلحق بالجيش. وهنا اقتنع ريموند وروبرت النورماندي وغادرا القدس في العاشر من أغسطس (آب)، وتخلفت حامية صغيرة في المدينة حيث كانت التعليمات تقضي بأن يقوم بطرس الناسك بإجراء الطقوس الدينية بين صلاة وقدّاس شفاعة يبتهل فيها اليونانيون واللاتينيون على السواء من أجل انتصار العالم المسيحي. وفي باكورة الحادي عشر تجمع حشد الصليبيين كله في إبلين الواقعة وراء الرملة بأميال قليلة، ثم تقدموا في الحال إلى داخل سهل أشدود حيث اكتشفوا ساعة الغسق قطعان الماشية التي أحضرها المصريون معهم لأطعام الجنود، فأحاطوا بها واستولوا عليها، واستراحوا لفترة قصيرة حتى الصباح، ثم برزوا في وادي المجدل الأخضر الخصيب شمالي عسقلان حيث معسكر جيش الوزير. وفي ضوء الفجر رتبوا وحداتهم المقاتلة بحيث اتخذ ريموند الميمنة ناحية البحر، وجودفري الميسرة، وروبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وتانكريد القلب. وما أن صدر أمر الهجوم حتى اندفع الجنود داخل الجيش المصري، وبغت الأفضل تماما، ويرجع ذلك إلى سوء الاستكشاف، فلم يتوقع أن يكون الفرنج على مثل هذه المسافة القريبة. ولم يبد رجاله مقاومة تذكر، وفي دقائق قليلة كانوا يفرون مذعورين، ولاذت جماعة كبيرة منهم بغابة صغيرة من أشجار الجميز حيث قتلوا فيها حرقا، وفي مسيرتهم دفع ريموند بأعداد كبيرة إلى البحر، وفي الوسط توغل روبرت النورماندي وتانكريد إلى قلب المعسكر، واستولى حرس روبرت الخاص على راية الوزير والكثير من أمتعته الشخصية، وتمكن الوزير ومعه حفنة من الضباط من الهرب

إلى عسقلان حيث استقلوا سفينة عادت بهم إلى مصر، وفي ساعات قليلة اكتمل النصر وتأكد استيلاء الصليبيين على القدس.(١)

وغنم المنتصرون أسلابا هائلة. واشترى روبرت النورماندي راية الوزير بعشرين مثقالا فضيا من النورماندي الذي استولى عليها ثم قدمها إلى البطريق آرنولف، واشترى أمير آخر سيف الوزير بستين بيزنتة، وعثروا على سبائك ذهبية وأحجار كريمة بكميات هائلة ضمن أمتعة المصريين، ووقع في أيديهم من الأسلحة والدواب الشيء الكثير. وفي يوم السبت الثالث عشر من أغسطس (آب) عاد إلى القدس موكب منتصر محمل بالغنائم، وما استعصى عليهم حمله أشعلوا فيه النيران.(٢)

وتحقق للانتصار مغزاه الكامل. وإذا كان هذا الانتصار قد ضمن ألا يستعيد المصريون ما فقدوه من أراض، فلم يعن ذلك أن الفرنج سوف يحتلون فلسطين كلها. فالبحرية المصرية ما تزال تتحكم في الساحل وتوفر الحماية للثغور. وكان في مأمول جودفري مواصلة المعركة والاستيلاء على عسقلان خاصة وأن الحامية في عسقلان تدرك تمام الإدراك تعذر الصمود أمام القوات الصليبية المتحدة. ومذبحة القدس لم تذهب أدراج النسيان، ولا يرغب مسلمو عسقلان في أن يلقوا مصير إخوانهم في القدس، وهم يعلمون أن الذين بقوا أحياء في القدس من المسلمين هم فقط الذين استسلموا لريموند أوف تولوز لما رفع من سمعته في الفروسية؛ فأرسلوا إلى المعسكر الصليبي بأنهم على استعداد لتسليم المدينة له هو وحده، لكن جودفري ــ لارتيابه الشديد في ريموند منذ حادثة برج داوود ــ رفض الاعتراف بأية شروط لا تؤدي إلى

---

(١) 18; Albert-Ibid. pp. 210-16; Raymond of Aguilers, xxi, pp. 302-4; Fulcher of Chrtres, 1, xxxi, I-II, pp. 311. Of Aix, vi, 44 -50, pp. 493-7; Ibn Al-Athir, *op. cit.* p. 202

(٢) *Gesta Francorum,* x, 39, pp. 216-18; Raymond of Aguilers, xxi, pp. 304-5; Albert of Aix, vi, 47, p. 495; Fulcher of Chartres, 1, xxxi, 10, pp. 316-17. وبمعركة عسقلان ينتهي تاريخ كل من Raymond of Aguilers وصاحب تاريخ *Gesta Francorum*.

تسليمه المدينة هو نفسه، فغضب ريموند وشعر بالمهانة، وبدأ لتوه في التحرك شمالاً ومعه كل رجاله. وأصيب روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز بصدمة شديدة من تفاهة جودفري حتى أنهما تركاه هما كذلك. وبدون مساعدتهما لا يجرؤ جودفري على المغامرة بمهاجمة عسقلان، وهكذا ضاعت عسقلان من الفرنج لأكثر من نصف قرن من الزمان.[1]

وعرضت مدينة أرصوف الصغيرة الاستسلام إلى ريموند، ورفض جودفري مرة أخرى الموافقة على أي اتفاق من هذا النوع، وانصرف ريموند غاضبًا مرة أخرى، وأعلن أصدقاء جودفري أنّ ريموند شجع حامية أرصوف على الصمود أمام جودفري وحرص على أن يؤكد لهم ضعفه.[2]

وبانتهاء أغسطس (آب) قرر ريموند، وروبرت النورماندي، وروبرت أوف فلاندر مغادرة فلسطين; فكل من دوق نورماندي وكونت فلاندرز يتلهف على العودة إلى الوطن، وكل منهما يعتبر أنه قام بواجبه المسيحي وبذا يكون قد أوفى بعهده. وبرغم المشاحنات التي حدثت مؤخرًا، شعر جودفري بقلبه يهبط إلى قدميه لرحيليهما، وفي مقابلة الوداع التي تمت بينهم توسل إليهما ألاّ يدخرا جهدًا لدى وصولهما إلى أوروبا في حث الجنود على الخروج إلى الشرق للحرب من أجل الصليب، وذكّرهما بمدى الخطورة التي تحدق بالباقين في الأرض المقدسة. وفي أوائل سبتمبر (أيلول) شرعا في رحلتهما شمالاً أعلى الساحل[3] وصاحبهما ريموند. غير أنّ رحيل ريموند لم يكن قاطعًا; إذ كان قد أقسم على البقاء في الشرق، ولقد خسر القدس، ولكن ليس هناك ما يمنعه من أن يحذو حذو بوهيموند وبالدوين ويؤسس إمارته الخاصة به. وكانت المنطقة التي

---

(1) Radulph of Caen, cxxxm, p. 703; Albert of Aix, vi, 51, pp. 497-8.

(2) Albert of Aix, *loc. cit.*

(3) Albert of Aix, vi, 53, p. 499; Fulcher of Chartres, 1, xxxii, 1, pp. 318-20; Orderic Vitalis , x, ii, vol. iv, p. 69

تلائمه أكثر من غيرها هي أواسط سوريا حيث الأمان بعيدا عن الأتراك والمصريين، لا سيما وأن أغلبها في أيدي بني عمار المسالمين، كما كان يأمل في الحصول على تأييد من بيزنطة.(١)

وسار مع ريموند وروبرت أوف فلاندر وروبرت النورماندي أغلب رجالهم، وتخلف القليل من كل جيش للاستقرار في فلسطين، ولكي تتوازن القوات عادت أعداد من رجال جودفري — وفيهم بالدوين أوف لوبورج — باتجاه الشمال تحت راية كونت أوف فلاندر، وبقي تانكريد وأتباعه القليلون في فلسطين.(٢)

ديامبرت أوف بيزا

وتمت الرحلة إلى الشمال دون صعوبات. فقد سارع حكام المدن الساحلية المسلمون إلى إمداد الجيش بالمؤن أثناء مروره، وفي منتصف سبتمبر (أيلول) وصل الجيش إلى ميناء طرطوس الذي كان ما يزال في أيدي حامية من رجال ريموند، وواصل رحلته إلى جبلة حيث سمع القادة أنباء صدمتهم صدمة شديدة وأثارت قلقهم.(٣)

ذلك أن البابا إيربان كان قبل وفاته بوقت قصير قد عين مندوبا بابويا ليحل محل أديمار في فلسطين، ووقع اختياره على ديامبرت رئيس أساقفة بيزا. وكان البابا إيربان على دراية كاملة برفاقه الفرنسيين، ولكنه كان مخطئا بالنسبة للإيطاليين; وكان ديامبرت رئيس أساقفة نشطا، وعرف عنه اهتمامه بالحرب المقدسة، ولذلك أرسله البابا

---

(1) Albert of Aix, *loc. cit.* وليس يقينيا التاريخ الذى قرر فيه ريموند إنشاء إمارة فى وسط سوريا.

(2) *Ibid.* vi, 54, pp. 499-500.



سنة ١٠٩٨ ميلادية مندوبا بابويا لـــه إلى بـــلاط الملـــك ألفونســـو الســـادس (أوف كاستيل)[١] ، حيث أظهر حماسا بالغا واقتدارا في تنظيم الكنيســـة في الأراضـــي الـــتي انتزعت من عرب الأندلس، بيد أنه كانت هناك شائعات بأن إدارته لم تخل من فســـاد، لا سيما وأنه احتفظ لنفسه بجزء كبير من الأموال التي كان الملك ألفونسو قد أرســـلها إلى البابا. وعلى الرغم من نشاطه، كان من الواضح أنه مغرور وطموح وغير أمـــين. وأدى تعيين البابا إيربان له كمندوب بابوي في الشرق إلى تقويض سياســـته إلى حـــد بعيد.[٢]

غادر ديامبرت إيطاليا قبل نهاية سنة ١٠٩٨ ميلادية يصحبه أسطول مـــن بـــيزا جهزته بلدية المدينة. ولا شك في أنه كان يأمل في استغلال أهل بيزا لترسيخ مكانته بمـــا له من نفوذ عليهم، بينما أدركوا هم جدوى مساعدتهم له كي يحصلوا على امتيـــازات خاصة. وكانوا عصبة تتصف بالفوضى؛ فقد استفادوا أثناء رحيلهم شرقا من الإغـــارة على جزر هبتانيز، وكورفو، وليوكاس، وسيفالونيا، وزانت، وســـرعان مـــا علمـــت القسطنطينية بتلك الانتهاكات، فسير إليهم الإمبراطور أسطولا بقيـــادة تاتيســـيوس ـــ العائد من أنطاكية مؤخرا بعد شهور كثيرة قضاها هناك ـــ وكذلك البحـــار الإيطـــالي المولد لاندولف. وحاول البيزنطيون اعتراض أبناء بيزا أثناء مرور سفنهم أمام سلموس، غير أنهم وصلوا هناك متأخرين، كما فشلوا في اللحاق بهم أمام شواطئ كوس. وأخـــيرا ظهر الأسطولان أمام رودس بحيث يري كل منهما الآخر، وحاول البيزنطيون الهجـــوم واستولوا على إحدى سفن بيزا وعلى ظهرها أحد أقارب بوهيموند، ولكـــن عاصفـــة

---

(١) (المترجم): كاستيل : إقليم فى أسبانيا.

(٢) يورد Albert of Aix, vii, 7, pp. 51-2 رواية عدائية عن سابق حياة Diambert . أنظر أيضـــا Pisani, (ed. Annales Tronci .), vol. 1, pp. 178 ff. ويحتمل أنه انطلق قبل أن يعلم إيربـــان بموت أدميار ، وإما أن يكون قد عيّن مندوبا بابويا أثناء رحلته أو اتخذ لنفسه السلطة بإعتباره شـــخصية كنسية أعلى فى الشرق .

الساحل القبرصي، لكن الحاكم البيزنطي فيلوكاليس دحرهم وألحق بهم بعض الخسائر، فأبحروا باتجاه الساحل السوري، بينما دخل الأسطول البيزنطي قبرص.[1]

بوهيموند وديامبرت في اللاذقيّة

ظل بوهيموند، منذ أن رحل رفاقه إلى القدس، مشغولاً بتوطيد مركزه في أنطاكية. ولم يكن هناك ما يخشاه من الأتراك آنذاك، وإنّما كان مشغولاً بالبيزنطيين في المقام الأول، فهو يعرف أنّ الإمبراطور لن يغفر له أبدًا. ولمّا كان للإمبراطور أقوى أسطول في المياه الشرقية، بالإضافة إلى ميناء اللاذقيّة الواقع جنوبه مباشرة، فلن يشعر بالأمان أبدًا، فقرر في نهاية أغسطس (آب) أن يحسم الأمر، وسار لمهاجمة اللاذقيّة، لكنه كان فاقد الحيلة بدون القوة البحرية، فالتحصينات قوية وتستطيع الحامية الحصول على المؤن من قبرص. ووصل أسطول بيزا المعادي للبيزنطيين في الوقت المناسب تمامًا. وسارع بوهيموند إلى التوصل إلى اتفاق مع ديامبرت والقباطنة من أهل بيزا الذين وعدوه بتقديم كل ما يستطيعون من مساعدة.[2]

وكان الإمبراطور قد أمر أمير بحريته بمعاقبة من يأتون أعمال القرصنة من اللاتينيين، وإن كان يرغب في اجتناب الصدام العلني. ولم يعرف تاتيسيوس على وجه اليقين كيف يتعامل مع تلك التطورات الجديدة، وبعد التشاور مع حاكم قبرص طلب من الجنرال البيزنطي بوتوميتيس، الذي ربما جاء إلى قبرص ليكون سفيرًا فوق العادة في الشرق، أن يعبر البحر إلى أنطاكية وأن يقابل بوهيموند، ولكن بوهيموند رجل عنيد، فلم تحقق السفارة شيئًا. وعاد بوتوميتيس إلى قبرص وأبحر مع تاتيسيوس والأسطول إلى القسطنطينية لإطلاع الإمبراطور على ما حدث وتلقي تعليماته. وهبت عاصفة هوجاء

---

(1) Anna Comnena, xi, x, 1-6, vol. iii, pp. 41-4.

(2) Albert of Aix, vi, 45, pp. 500-1

أمام سيس على ساحل كيليكيا الغربي حيث تحطمت سفن بيزنطية كثيره، وتمكنت القطع البحرية التابعة لأمير البحار من مواصلة الرحلة. وبعد ذلك اتخذت سفن بيزا مواقعها لتغلق ميناء اللاذقية من البحر.[1]

وفي ذلك الوقت وصل ريموند وروبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى جبلة، وكان طبيعيا أن يترعج ريموند من أحداث اللاذقية; فهو يمقت كل ما يفعله بوهيموند، وسياسته هي سياسة التحالف مع بيزنطة، وكان شعور رفيقيه بالأسى لا يقل عن شعوره هو; وأيا ما كان شعورهما بالأسف لبعض أفعال الإمبراطور، فقد أدركا ضرورة وجود بعض التعاون بين مسيحيي الشرق والغرب، وكانا يواجهان مشكلة إعادة نقل جيشيهما إلى أوروبا، وهي مهمة تكاد أن تكون مستحيلة بدون مساعدة من بيزنطة. ومن غير اللائق أن يستهل المندوب البابوي سفارته في الشرق بعمل يثير استياء المسيحيين الشرقيين. واستدعي دايمبرت إلى المعسكر في جبلة حيث واجه اعتراضاتهم الغاضبة، فأدرك الخطأ الذي وقع فيه واستدعى أسطول بيزا. ولا يستطيع بوهيموند حصار اللاذقية في غيبة المساعدة البحرية، فضلا عن مشاعر الغضب التي أظهرها رفاقه، فاضطر إلى التخلي عن الحصار. وأظهر مواطنو اللاذقية كامل الرضا والترحيب بريموند، فدخلها بصحبة رفيقيه، ورفع رايته على القلعة لترفرف إلى جانب راية الإمبراطور. وعندما سمع حاكم قبرص بهذه التطورات أعلن عن موافقته وعرض تقديم وسائل النقل البحري دون مقابل لسفر روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى القسطنطينية في المرحلة الأولى من الرحلة إلى الوطن، فقبلا العرض بامتنان بالغ وأبحرا في أمان إلى القسطنطينية حيث استقبلهما الإمبراطور استقبالا حسنا. ورفضا اقتراحه بالبقاء في الشرق في خدمته. وبعد أن أتما زيارتهما القصيرة واصلا

---

[1] Anna Comnena, xi, x, 7-8, vol. iii, p. 45; Albert of Aix, *loc. cit.*

رحلتهما إلى الغرب. ولا نعرف عدد الذين أبحروا معهما من رجالهما، وربما أبحر البعض على سفن جنوا للذهاب إلى إيطاليا مباشرة. وأما ريموند فقد بقي في اللاذقية.[١]

حج بوهيموند في القدس

وفي تلك الأثناء لحق دايمبرت ببوهيموند مرة أخرى في أنطاكية. وكان بوهيموند عليما بالرجل، وسرعان ما استعاد نفوذه عليه. وفي تلهف المندوب البابوي على الرحيل إلى القدس قرر بوهيموند أن يصحبه; فقد أقسم هو والصليبيون الآخرون على الصلاة في كنيسة القبر المقدس وعدم الوفاء بهذا القسم يعرض هيبته للدمار، ولا ينبغي أن تضيع هذه الفرصة الرائعة كي يحج مع دايمبرت وبذا يضمن تحالفه، كما يتعين النظر في مستقبل القدس، فليس هناك من يرث جودفري، وصحته معتلة، ومن المرجح أن يتحكم المندوب البابوي فيمن يأتي بعده، وعلى أية حال تقضي الحكمة بأن يلم بصفه شخصية بالوضع; فأعلن عن رحيل دايمبرت وبوهيموند إلى المدينة المقدسة في أواخر الخريف ليكونا هناك في أعياد الميلاد.[٢]

وعندما سمع بالدوين بتلك الأخبار أرسل من الرها بأنه سوف ينضم إليهما في الحج، فقد شعر هو الآخر بضرورة الوفاء بالقسم، وبمقدوره أن يترك الرها لفترة من الوقت. وكان واضحا أنه ينبغي للجماعة أن تقوى بقدر الاستطاعة من أجل الصالح العام، وكان هو الآخر مهتما بوراثة عرش القدس; فهو أخو جودفري ويليه من حيث القرابة في الشرق ــ فربما غادر إيوستاس أوف بولونيا فلسطين في أعقاب روبرت أوف فلاندرز ــ ولا يقل طموحه عن طموح بوهيموند. وربما شعر بوهيموند فيما بعد بالأسف لصحبته، فقد جاء مع بوهيموند وبالدوين كل رجالهما الزائدين عن

(1) Albert of Aix, vi, 56-60, pp. 501-5; Ordric Vitalis, vol. iv, pp. 70-2; Guibert of Nogent, p. 232.

(2) Fulcher of Chartres, 1, xxxiii, 1-6, pp. 322-6; Albert of Aix, vii, 6, p. 511.

احتياجات الدفاع في أراضيهما، وكذلك عدد غفير من النساء، واستنادا إلى ما أورده فولشر أوف تشارترز بلغ عددهم خمسة وعشرين ألف شخص.[1]

وانطلق الحجاج في أوائل نوفمبر (تشرين الثاني)، وسلك بوهيموند ودايمبرت الطريق الساحلي يحرس جانبهما أسطول بيزا، وأثناء مرورهما باللاذقية رفض ريموند مساعدتهما بالمؤن، وتوقفا في بانياس الواقعة إلى الجنوب قليلا كي يتمكن بالدوين من أن يلحق بهما، فقد وصل إلى أنطاكية بعد رحيل بوهيموند مباشرة، واستقبله ريموند في اللاذقية استقبالا حسنا. أما أهل بانياس وهم مسيحيون يونانيون يعترفون بسلطان الإمبراطور فلم يرحبوا بالحجاج وأظهروا عزوفهم عن تقديم الإمدادات، فواصل الحجاج مسيرتهم لكنهم سرعان ما داهمهم الجوع. وكانت مدينة طرطوس التي مروا بها في نهاية الشهر قد عادت إلى أيدي المسلمين، وهاجمت حاميتها الراجلين في مؤخرة الحجاج وقتلتهم، ولم يستطيعوا الحصول على الطعام منها، أو على الكثير منه في طرابلس، إذ كان الخبز باهظ الثمن ولم يستطع شراءه إلاّ الأغنياء. واستخرجوا بعض العصارة الغذائية من قصب السكر الذي كان ينمو في جوار طرابلس، ورغم اهتمام الحجاج بهذا النبات الجديد بالنسبة لهم، إلاّ أنه لم يكف لإشباع احتياجاتهم. وجاء شهر ديسمبر (كانون الأول) ببرد غير متوقع، وهطلت الأمطار بلا توقف، وارتفع معدل الوفيات بين المسنين والضعفاء، وهلك أغلب دواب الأحمال، لكنهم ثابروا وواصلوا تقدمهم، وفي منتصف ديسمبر (كانون الأول) وصلوا إلى قيساريّة حيث تمكنوا من شراء الطعام، وفي الحادي والعشرين وصلوا إلى القدس.[2]

---

[1] يقول Fulcher of Chartres (*loc. cit.*) إن بوهيمند دعا بلدوين لمصاحبته لأن الأعداد الأكبر توفر الأمان الأكبر . ويورد Fulcher عدد الحجاج، ولا شك أنه عدد مبالغ فيه (*ibid.* 8, p. 328) .

[2] Fulcher of Chartres, *ibid.* 7-18, pp. 326-32 .

وابتهج جودفري برؤياهم؛ فهو في حاجة ملحة إلى القوة البشرية، وداعبه الأمل في إقناع الكثير منهم بالبقاء في فلسطين والاستقرار في الضياع التي يستطيع تقديمها إليهم. ولقد أصاب بعض النجاح؛ فعندما عاد بوهيموند وبالدوين إلى الشمال تخلف عدد من الفرسان برجالهم وبقوا معه. وكانت هزيمة المصريين في عسقلان تعني خروج يهودا والسامرة في داخل البلاد من نطاق سيطرتهم، برغم بقاء المدن الساحلية في أيدي حكام فاطميين وتحت حماية الأسطول المصري باستثناء ميناء يافا. وكان أغلب سكان القرى من صغار المزارعين المسيحيين السلبيين الذين حرموا من حمل السلاح لأجيال. وكان سادتهم المسلمون يستغلونهم عندما تكون الحكومة المركزية ضعيفة، ولقد رحبوا في بادئ الأمر بتغير الأسياد. وبنهاية الصيف امتد سلطان جودفري إلى سهل جزريل[١] في الشمال وإلى ما وراء حبرون داخل النقب في الجنوب برغم عدم اكتمال سيطرته على جنوب يهودا؛ لأن أغلب السكان من المسلمين، وتسلل البدو من الصحراء لا ينقطع. وكانت حبرون ـــ التي أطلق عليها الصليبيون اسم (القديس إبراهام) ـــ محصنة تحصينا قويا حتى يمكن السيطرة على المنطقة.[٢]

وفي تلك الأثناء توغل تانكريد في الجليل ومعه مجموعة صغيرة مكونة من أربعة وعشرين فارسا ورجالهم. والجليل منطقة اختلف عليها مؤخرا الفاطميون ودقاق الدمشقي الذي لم يتسع الوقت أمامه لاحتلال تلك المقاطعة بعد هزيمة الفاطميين في عسقلان، ولذلك لم يقاوم مسلموها تانكريد، وعندما اقترب من عاصمتهم طبرية هربوا إلى الأراضي الدمشقية، واستقبلته الأقلية المسيحية في المدينة بمشاعر السعادة، أما الجالية اليهودية الكبيرة فكان أفرادها في كرب شديد، إذ أن ذكرى مصير إخوانهم في

---

[1] (المترجم): سهل جزريل : يقع شمال فلسطين ويفصل بين منطقة تلال الجليل فى الشمال والسامرة فى الجنوب . وهو مذكور فى الكتاب المقدس ، العهد القديم ، بإسم " وادى يزرعيل " (سفر يشوع 17:16).

[2] إستنادا إلى William of Tyre ، لم يكن لدى جودفرى سوى ثلاثمائة فارس وألفين من المشاه . (ix, 19. Vol. 1, pt 1, p. 393)

القدس ما تزال ماثلة في أذهانهم. وقام تانكريد بتحصين طبرية، ثم واصل مسيرته إلى مدينة الناصرة المسيحية وإلى جبل طابور[1]، ثم توج غزواته بالاستيلاء على قلعة بيسان الحصينة (سكيتوبوليس) التي تتحكم في الممر الواصل من سهل جزريل إلى الأردن. وسارع مسلمو الجليل بالرحيل عن المنطقة، وتابع تانكريد رحيلهم بسلسلة من الغارات الخاطفة الناجحة على الأراضي الإسلامية المحيطة جريا على أسلوب العرب. وأسفرت تلك الغارات لا عن حصوله هو وأتباعه على غنائم وفيرة وحسب، وإنما أكدت أيضا امتلاكه للجليل. وهكذا كبرت الدولة المسيحية وأصبحت كتلة متماسكة من الأراضي تفصل المدن الفاطمية الساحلية فصلا تاما عن الأردن وحوران في داخل البلاد. وها هم المصريون غير مستعدين بعد للثأر من هزيمة عسقلان، وها هو دقاق الدمشقي غارقا إلى أذنيه في مشاجرات عائلية بحيث لا يجرؤ على المخاطرة بحرب هجومية، وإذن فليس هناك من خطر عاجل يتهدد جودفري. وواقع الحال أنه لا يتحمل هجوما مضادا جديدا بما لديه من قوات محاربة يقدرها المؤرخ وليم الصوري بثلاثمائة فارس وألفي راجل.

إن تفرق العرب، دون غيره، هو الذي سمح للدولة الدخيلة الصغيرة بأن تقام داخل أراضيهم.[2]

ديامبرت يصبح بطريقا

وخطط ديامبرت وبوهيموند سياستهما المقبلة أثناء ارتحالهما جنوبا. وكان جودفري في حاجة إلى مساعدتهما؛ فهو يفتقر إلى القوة البحرية المتمثلة في سفن بيزا التي يستحوذ ديامبرت على ولائها، كما كان في حاجة إلى أكبر عدد من الفرسان يستطيع بوهيموند الاستغناء عنهم. وأمضى الحجاج عيد الميلاد في بيت لحم، وما أن

---

[1] (المترجم) : جبل طابور أو الطور : الجبل الذى تحيا فيه ذكرى تجلى المسيح .

[2] Radulph of Caen, cxxxix, pp. 703-4; William of Tyre, ix, 13, vol. 1 pt 1, p.394

انتهت الاحتفالات حتى كشف الوافدان عن خططهما، فقد خُلع البطريــق آرنولــف، الذي كان أعداؤه كثيرين، تأسيسًا على أنّ انتخابه لم يكن طبقًا للقــانون الكنســي، وكان نصيره دوق نورماندي بعيدًا آنذاك. وبتحريض من بوهيموند انتُخب ديامــبرت بطريقًا للقدس مكان آرنولف. وانتشرت شائعات تقول إنّ الهدايا التي أخذها كل مــن بوهيموند وجودفري ساعدت على إنجاز المهمة. وفور الانتهاء من تتويجه بطريقًا ركــع بوهيموند وجودفري أمامه حيث نصبّهما في أراضي القدس وأنطاكية.[1]

وكان احتفالاً له شأن كبير واتضح مغزاه بجلاء. إذ دائمًا ماكان الرأي العام بــين الحجاج يعتبر أنّ الأراضي المقدسة ينبغي أن تكون وقفًا كنســيًّا، بيــد أنــه لم يكــن لــآرنولف من السلطة أو الشخصية ما يمكنه من السيطرة على القوى الدنيوية، ثم جــاء ديامبرت مندوبًا بابويًّا يتمتع بمهابة أضفاها عليه قرار البابا إيربان بتعيينه، وأحضر معــه المساعدة الفعّالة المتمثلة في أسطول من السفن ومؤازرة مقتدرة من بوهيموند، ولــذا لم يكن الصليبي العادي ينكر عليه مطالبه. وشارك جودفري في تقديم فــروض الاحــترام اللائق الأصيل للكنيسة، فهو رجل ضعيف لا يشعر بالأمان برغم ما ينتابه من نوبــات عناد، وكان يأمل ـــ باعترافه بسيادة الكنيسة ـــ في أن يرتكز على ركــيزة معنويــة ملائمة في منصبه، وأن ينال من الكنيسة دعمًا كاملاً لحكومته الدنيوية في البلاد، لكنــه لم يكن حتى ذلك الوقت يعرف ديامبرت حق المعرفة. وكان بوهيموند أشدّ مكرًا; فــهو لم يخسر شيئًا باعترافه بسيادة ديامبرت الذي سيكون بعيدًا جــدًا بحيــث لا يســتطيع التدخل في شؤون أنطاكية، وسره تجاهل حقوق بطريق أنطاكية اليوناني لا سيّما وأنــه يرتاب في أنه عميل لبيزنطة. ولأنّ سلطانه الآن يرتكز من الناحية الرسمية علــى رجــل الكنيسة اللاتيني الرئيسي في الشرق، فإنه بذلك أجاب على مطالب الإمــبراطور بــرد عملي من شأنه أن يلقى الترحيب من جميع اللاتينيين، وبذا يمكنه أن يأمل في عونهــم

---

[1] Albert of Aix, VII, 7, pp. 511-12; William of Tyre, IX, 15, vol. 1 pt , p. 387 .

الصادق إذا ما حاول الإمبراطور مهاجمته. ولعله حصل في تلك المناسبة على لقب أمير أنطاكية. و لم يكن لقب (أمير) المرتبط بالأرض معروفًا في الغرب إلاّ فيما ندر، وباستثناء جنوب إيطاليا حيث سبق أن استخدمه بعض الحكام النورمانديين الذين تعاقبوا على الأرض اللومباردية، و لم يعترفوا بأية سيادة دنيوية أعلى سوى كرسي القديس بطرس، وكان ذلك اللقب يناسب بوهيموند تمامًا. وفي ذات الوقت حصل إبن أخيه تانكريد على لقب أمير الجليل أيضًا، وربما أراد بذلك أن يظهر أنّ سيده لم يكن جودفري وإنّما البطريق. ولقد اغتبط ديامبرت بالولاء الذي أظهره له [1]، ولعل البابا إيربان كان ينوي أن تصبح الأراضي المقدسة وقفًا كنسيًّا رغم أنه لم يكن يرغب في إفساد الترتيبات الكنسية القائمة، ولا شكّ في أنه كان سيرحب باستخلاف أحد اللاتينيين في كل بطريارقيّة شرقية إذا ما تيسر ذلك بالطرق القانونية والسلمية، وربما يعنّ لنا أن نتساءل ما إذا كان يوافق على إجراء تنتحل بموجبه بطريارقية القدس لنفسها سلطانًا يعلو فوق سلطان بطريارقية أنطاكية الأقدم ذات الزعامة التاريخية. وكانت مطالب ديامبرت هي المطالب البطريارقية المتمثلة في سيادة دينية ودنيوية في الشرق تسمو بنفس قدر السيادة التي أتاحها البابا جريجوري السابع نفسه للبابويّة في الغرب. ولقد اختيرت اللحظة اختيارًا موفقاً؛ فقد مات البابا إيربان، ولابد أن تكون أنباء استخلاف باسكال الثاني — الذي رُفع إلى منصب البابويّة في الثالث عشر من أغسطس (آب) — قد وصلت القدس بحلول الشتاء، وربما كان ديامبرت على صلة وثيقة بالبابا الجديد الذي كان قد سبقه كمندوب بابويّ في إسبانيا وعرف أنه رجل عادي القدرات وليس بالشخصية القوية، ومن غير المحتمل أن يتسبب في وجود عراقيل طالما تم الاعتراف بسيادته الاسمية.[2]

---

(1) See Grousset, *Histoire dex Crousades*, vol. 1, pp. 194-6, and Moeller, *op. cit.*

(2) For Paschall II, see article 'Paschall II' by Amann in Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Cathorlique*.

ولم يقدم بالدوين صاحب الرها ولاءه للبطريق. وليس معروفا ما إذا كان قد طلب منه أن يفعل ذلك ورفض، أم أن المسألة لم يثرها أحد. ولكن يبدو أن علاقته بديامبرت لم تكن علاقة ودودة.[١]

بوهيموند وبالدوين يعودان إلى الشمال

وبانتهاء الاحتفال رحل بوهيموند وبالدوين معا في يوم رأس السنة الجديدة ١١٠٠ ميلادية إلى أراضيهما. وعاد معهما أغلب أتباعهما، وتخلف عدد منهم منحهم جودفري إقطاعيات في فلسطين. وصاحب جودفري وديامبرت الحجاج إلى أريحا والأردن حيث أمضوا عيد الغطاس[٢]، ثم تحول بالدوين وبوهيموند شمالا أعلى الوادي إلى بيسان، ومنها إلى طبرية حيث قررا عدم السفر على الطريق الساحلي وإنما المضي قدما مرورا ببانياس ووادي الليطاني إلى داخل سوريا دون أن يعترض طريقهما أحد إلى أن أصبحا داخل سوريا بالقرب من معبد بعلبك حيث الولاء لدقاق الدمشقي الذي خطط لاعتراضهما هناك. وعندما هاجمت القوات الدمشقية كان الركب يسير في طابور يتقدمه بوهيموند بينما كان بالدوين في المؤخرة، ولكن الدقاق كان حريصا على سرعة طردهم خارج أراضيه أكثر من حرصه على القضاء عليهم، فلم تكن غارته عليهم كاسحة ولذا كان من اليسير ردها، وواصل الفرنج طريقهم هبوطا إلى البحر

---

[١] ليس هناك من دليل على أن بلدوين قدم الولاء لديامبارت بشأن الرها فى أى وقت. ويتضح من الأحداث اللاحقة أن ديامبرت لم يكن يثق فيه .

[٢] (المترجم) : عيد الغطاس أو عيد الظهور الإلهى : عيد كنسى (٦ يناير) تخليدا لمجئ المجوس، بإعتباره أول ظهور للمسيح لغير اليهود ؛ وفى الكنيسة الشرقية تخليدا لذكرى تعميد المسيح .

خلال البقاع ومن هناك اتخذوا الطريق الساحلي مروراً بطرطوس واللاذقيَّة إلى أنطاكية، وقبل نهاية فبراير (شباط) كان بالدوين قد عاد إلى الرها.[3]

وتمكن جودفري من بسط سيطرته على سهول فلسطين الساحلية بعد أن زادت قواته المسلحة، وكانت أراضيه معزولة عن البحر باستثناء ممر يؤدي إلى يافا، وأثناء الخريف حاول توسيع هذا الممر بالاستيلاء على ميناء أرصوف الصغير الواقع شمال يافا. وكان أهل أرصوف قد عرضوا الاستسلام لريموند أوف تولوز، ولكن أحبط مسعاهم تدخل جودفري، والآن وقد غادر ريموند فلسطين رأوا أن من الحكمة التوصل إلى اتفاق مع جودفري، فأرسلوا إليه بعض الرهائن وفي المقابل سمحوا بأن يدخل مدينتهم أحد الفرسان من هينولت وهو جيرار أوفِ أفيسن ليقيم في المدينة من ناحية وليكون رهينة من ناحية أخرى، بيد أن جودفري كان يريد السيطرة المباشرة، فسار في أواخر الخريف ومعه قوة صغيرة لمهاجمة المدينة. وكان أول ضحاياه صديقه جيرار أوف أفيسن الذي قيده أهل أرصوف وعلقوه من فوق الأسوار بحيث أصبح معرضًا تمامًا لسهام المغيرين، وراح جيرار يصرخ دون جدوى متوسلاً إلى جودفري كي يبقي على حياته، ولكن رد عليه جودفري بأنه لو كان أخوه إيوستاس نفسه معلقًا في مكانه فلن يثنيه ذلك عن تشديد الهجوم، وسرعان ما سحب أهل أرصوف جسد جيرار بعد أن اخترقه اثنا عشر سهمًا من سهام رفاقه. على أنّ استشهاده ذهب هباء؛ إذ كان رجال جودفري فاقدي الحيلة أمام أسوار المدينة بعدما دمرت الحامية البرجين المتحركين اللذين شيدهما قذفًا بالنيران الإغريقية الواحد تلو الآخر. ورفع جودفري الحصار في الخامس عشر من ديسمبر (كانون الأول)، ولكنه ترك نصف جيشه في الرملة وأمره بتخريب الريف المحيط بأرصوف ليستحيل على مواطنيها أن يفلحوا أرضهم.[1]

---

(3) Fulcher of Chartres, I, xxxiii, 19-21, pp. 332-4.

(1) Albert of Aix vii, 1-6, pp. 507-11.

وبوصول التعزيزات واصل جودفري سياسته تلك بصورة موسعة; فبدأ رجاله في الإغارة على الريف المحيط بكل المدن الفاطمية الساحلية: عسقلان وقيسارية وعكا فضلاً عن أرصوف، إلى أن عجزت كلها عن الحصول على أية إمدادات من داخل البلاد. وفي نفس الوقت استعان ببحارة بيزا في تحصين مدينة يافا، وإدخال التحسينات على مرفئها، وتدفقت السفن من جميع الموانئ الإيطالية وموانئ بروفانس الفرنسية لمشاركة أهل بيزا في تلك الفرصة السانحة تجذبها توقعات التجارة الرائجة مع الدولة الجديدة، وبمساعدتها تمكن جودفري من محاصرة الساحل الفلسطيني. وتزايدت الصعوبات أمام السفن الفاطمية في جلب الإمدادات بحرًا إلى الموانئ الإسلامية. وكانت هناك أعمال قرصنة من الجانبين، لكن على وجه العموم كان مواطنو تلك الموانئ هم الذين عانوا أسوأ المعاناة.[١]

وفي منتصف شهر مارس (آذار) استجاب المصريون لنداء عاجل من حامية أرصوف وأرسلوا لها فصيلة صغيرة بطريق البحر لتعزيزها، فتشجع رجال أرصوف ونظموا غارة مضادة على الفرنج، لكنهم وقعوا في كمين قُتل فيه الجزء الأعظم من جيشهم، فتملكهم اليأس وأرسلوا إلى جودفري سفارة وصلت القدس في الخامس والعشرين من مارس (آذار) حاملة إليه مفاتيح أبراج المدينة كهدية رمزية، على أن تدفع إتاوة سنوية، فقبل جودفري استسلامهم ومنح حق استلام الإتاوة لواحد من أهم فرسانه هو روبرت أوف أبوليا. وبعد ذلك بأيام قليلة فوجئ جودفري واغتبط لظهور جيرار أوف أفيسن في القدس وقد شفي من جراحه والآن أعادته سلطات أرصوف كعلامة على حسن النوايا. ودفعه تأنيب الضمير الذي كان يعاني منه إلى إهدائه إقطاعية القديس إبراهام، أي حبرون.[٢]

---

(١) *Ibid*, VII, 12, 14, pp. 515-16.

(٢) Ibid. VII, 13, 15, pp. 515-16.

جودفري وأمراء الساحل

ولم يمض وقت طويل حتى سارت مدن عسقلان وقيسارية وعكا على نفس الدرب الذي سارت عليه أرصوف. ففي أول إبريل (نيسان) اجتمع أمراء تلك المدن وأرسلوا المبعوثين إلى جودفري محملين بهدايا من الحبوب والفاكهة والزيتون والخيول العربية، وعرضوا عليه دفع إتاوة شهرية قدرها خمسة آلاف بيزنتة إذا سمح لهم بأن يفلّحوا أرضهم في سلام، فقبل جودفري عرضهم، وسرعان ما نشأت علاقات حميمة بين المدن الإسلامية وحاكمها المسيحي. وكان العديد من صغار مشايخ المسلمين في سفوح الجبال قد أعلنوا خضوعهم من قبل; فبينما كان جودفري في معسكره أمام أرصوف زاره وفد منهم بهدايا من الطعام، وتأثر الوفد بالبساطة التي يعيش فيها وابتهجوا لها — وهي بساطة أملاها عليه فقره وذوقه، وتناسبت تلك البساطة مع تصورهم للمحارب العظيم المتواضع ويسّرت له الفوز بصداقتهم.(1)

وسار على دربهم شيوخ شرق الأردن وسعوا إلى التفاهم معه. إذ اعتادوا إرسال فائض إنتاجهم إلى مدن الساحل، والآن تعترض الدولة الفرنجية طرق تجارتهم، فطلبوا تمكينهم من إرسال قوافلهم عبر يهودا مرة أخرى فأذن لهم جودفري، لكنه حاول تحويل التجارة إلى ميناء يافا المسيحي بقدر الإمكان. وفي نفس الوقت شجع الإيطاليين على اعتراض أية تجارة بين المدن الإسلامية الساحلية ومصر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كي تصبح تلك المدن معتمدة على المسيحيين في تجارتها. وهكذا بدأت فلسطين كلها تتكامل في كيان اقتصادي واحد بعلاقات مع أوروبا فيما وراء البحار، وحققت السياسة الفرنجية عائداً سريعاً من الثروة والرخاء للدولة الصليبية.(2)

---

(1) *Ibid. loc. ct.*; William of Tyre, ix, 20, vol. 1 pt 1, pp. 395-6 .

(2) Albert of Aix, vii, 14, p. 516 .

غارات عبر الأردن

وشجع تزايد نفوذ جودفري بين جيرانه المسلمين على محاولة توسيع سيطرته لتشمل البلاد الواقعة عبر الأردن. وكان في أرض سوات الواقعة إلى الشرق من الجليل أمير أطلق عليه الصليبيون اسم "الفلاح السمين"، وكان تانكريد قد أغار على أراضيه ودفعه إلى الاعتراف بالسيادة الفرنجية، لكن "الفلاح السمين" سرعان ما تحلل من تلك التبعية فور رحيل تانكريد ولجأ إلى سيده الأعلى دقاق الدمشقي طلبا للمساعدة. ولذا طلب تانكريد بدوره المساعدة من جودفري، فإذا كان للفرنج موطئ قدم هناك فسوف يتمكنون من تحويل التجارة الرائجة في الجولان وحوران إلى الموانئ الفلسطينية، فضلا عن أن منطقة سوات تشتهر بخصب أراضيها. وتلهف جودفري على الاشتراك في غزوها، فجمع الجنود في وقت مبكر من شهر مايو (أيار) وألحقهم بقوات تانكريد في غارة أدت بهما عبر أراضي "الفلاح السمين" إلى قلب الجولان مباشرة. وأثناء عودهما مثقلين بالغنائم انقض الدقاق على المؤخرة التي يقودها تانكريد، ومضى جودفري الذي كان في الطليعة وهو يجهل ما كان يحدث، ولم يتمكن تانكريد من تخليص نفسه إلا بعد أن فقد الكثير من رجاله وكل نصيبه من الأسلاب. على أن الدقاق لم يشعر بأنه من القوة بحيث يطارد الفرنج فعاد إلى دمشق بعد أن تأكد من مغادرتهم أراضيه. ومضى جودفري ومعه أسلابه إلى القدس. لكن تانكريد كان يتحرق شوقا للانتقام، فبعد أن استراح جيشه في طبرية وجمع التعزيزات قام بغارة أخرى في الأراضي الدمشقية كانت من الشراسة بحيث دفعت الدقاق إلى اقتراح هدنة. فكان رد تانكريد أن بعث بستة فرسان إلى دمشق ومعهم رسالة مؤداها أنه على الدقاق إما أن يصبح مسيحيا أو يغادر دمشق، فتملكته سورة الغضب من تلك الإهانة، ورد على الرسل بالمثل وخيرهم بين أن يسلموا أو يقتلوا، وتخلى واحد منهم عن عقيدته وقتل الخمسة الآخرون. وفي الحال طلب تانكريد المساعدة من جودفري ليثأر لاستشهادهم، فخرج جودفري مرة أخرى ليشترك معه في غارة أكثر هولا من سابقتها؛ وظلوا أربعة عشر يوما يخربون الجولان بينما احتمى المسلمون وراء أسوار مدنهم. على أن الدقاق، الذي لم يكن ميالا بطبعه

للالتزام بحملات القتال، لم يحاول أن يتصدى لهم. ووجد "الفلاح السمين" نفسه وقد هجره سيده وأفقره الفرنج فوافق مرة أخرى على قبول سيادة تانكريد ودفع إتاوة منتظمة له.[1]

وبرغم قوة جودفري الصاعدة بين جيرانه المسلمين، كانت قوته الداخلية في نطاق أراضيه آخذة في الاضمحلال. فكانت علاقته بتانكريد، وهو أكبر أتباعه، علاقة ودودة، غير أنه يبدو أن تانكريد، برغم كل ما يطلبه من مساعدات جودفري، شكل سياسته وفقا لرغباته. وبينما كان تانكريد، وهو أمير الجليل، يتصرف كما لو كان عاهلا مستقلا، وجد جودفري أن سيده الأعلى الذي قبله دونما روية، وهو البطريق ديامبرت، يقيد من استقلاله أكثر فأكثر؛ فلم يكن ديامبرت يرضى بأن تكون سلطته مجرد سلطة اسميه نظرية، وإنما يريدها أن تستند إلى قوة إيجابية، ولم يكن جودفري يميل إلى رفض طلباته لشعوره الدائم بعدم الثقة في نفسه أمام الكنيسة، ولخشيته من أن يفقد مساعدة [illegible] بيزا. ففي عيد تطهير العذراء، الثاني من فبراير (شباط) سنة ١١٠٠ ميلادية، قام بتسليم ربع مدينة يافا إلى دائرة القدس الكنسية، وبعد ذلك طلب ديامبرت السيطرة لا على يافا كلها وحسب، وإنما أيضا على مدينة القدس نفسها وعلى قلعتها (برج داوود) وأذعن جودفري مرة أخرى لكنه أصر على التأخير الذي ربما دفعه إليه فرسانه الحانقون؛ ففي قداس وقور أقيم يوم عيد الفصح أول إبريل (نيسان) وهب المدينتين للبطريارقية، لكنه أعلن استمرار امتلاكه لهما حتى توافيه المنية أو إلى أن يستولي من الكفار على مدينتين كبيرتين بدلا منهما. ولم يكن هذا حلا مرضيا؛ إذ ليس من اليسير بناء مملكة منظمة حول عاصمة مؤقتة، ويبدو أنه لم يكن لدى جودفري هيئة حكومية بخلاف جماعته هو نفسه، كما لم يكن بوسعه أن يأمل الآن في تأسيس حكومة في القدس. ولو كان ديامبرت إداريا متمرسا، أو رجل دولة يتصف بالحكمة مثل أديمار، لقدر لنظام الحكم الهرمي الذي تصوره أن يبقى، لكن

---

[1] *Ibid.* vii, 16-17, pp. 517-18.

محاولته غير المتبصرة أن يطرد من العاصمة حماتها الدنيويين الذي يعتمد عليهم أمن الدولة المسيحية، لهي محاولة من شأنها أن تؤدي إلى كارثة، وحتى المهلة التي حصل عليها جودفري جعلت المستقبل غير معروف. لكن العناية الإلهية أظهرت الرحمة للقدس.[١]

فلدى عودة جودفري إلى الجليل في الثامن عشر من يونية (حزيران) بعد غارته في الجولان علم بوصول أسطول قوي إلى يافا قادما من البندقية، فهرع جنوبا لتحيته وهو يدرك الفائدة الكبيرة لهذا الأسطول في السيطرة على السواحل، وانطلق من طبرية مرورا بعكا وحيفا إلى قيسارية. وكان أميرها تواقا إلى إظهار احتراماته لسيده،فدعاه إلى مأدبة عومل فيها بأسمى مظاهر التشريف. ومن قيسارية انطلق جودفري مباشرة إلى يافا، فوصلها وهو يعاني من المرض، وانهار فور وصوله النزل الذي كان قد شيده بنفسه لكبار الزوار. وتذكر أصدقاؤه كل ألوان الفاكهة التي تناولها على مائدة الأمير وتهامسوا بكلمة السم، والحقيقة أن مرضه ربما كان التيفود. وفي اليوم التالي استرد من قوته ما يكفي لاستقبال آمر الأسطول البندقي والأسقف الذي كان بصحبته، وناقش معهما الشروط التي بموجبها يقدم الأسطول المساعدة للصليبيين. على أن الجهد الذي بذله في المقابلة كان فوق طاقته الصحية، فطلب من جماعته نقله إلى القدس حيث تحسن تحسنا طفيفا في هوائها المنعش، لكنه كان بالغ الضعف بحيث لم يقدر على العمل.[٢]

جودفري في مرضه الأخير

وتحلق السياسيون حول فراش مرضه يتشاحنون. فهذا ديامبرت قد عيل صبره انتظارا للحظة يستولي فيها على المدينة، وها هم البنادقة متلهفون على اتخاذ الخطوات

---

(1) William of Tyre, ıx, 16-17, vol. 1, pt 1, pp. 388-90.

(2) Albert of Aix, vıı, 18, p. 519. ويقول المؤرخ ماثيو الأورفي Matthew of Edessa، ويفترض أنه إعتمد على شائعات مسيحية محلية ، إن الأمير دس السم لجودفري (ıı, clxv, p. 299).

اللازمة للمضي في ترتيباتهم، وقد جاءوا إلى القدس في جماعتين للعبادة في الأماكن المقدسة: الأولى في الحادي والعشرين من يونية (حزيران)، والثانية في الرابع والعشرين، لكن ربما تخلف آمرهم وأسقفهم لفترة أطول لمواصلة المفاوضات. وما أن سمع تانكريد بوصولهم وبمرض جودفري حتى ترك الجليل متجهاً إلى الجنوب على عجل. ومن فراش المرض أناب جودفري إبن عمه الكونت البرجندي وارنر أوف جراي للقيام بأعماله، وأعطى موافقة على الشروط التي اشترطها البنادقة والتي تتمثل في أن يُسمح لهم بحريّة التجارة في سائر أنحاء الدولة الفرنجية، وأن يكون لهم سوق وكنيسة في كل مدينة من مدن الدولة، وأن يحصلوا على ثلث كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها، وعلى مدينة طرابلس كلها شريطة دفع إتاوة لجودفري، وفي مقابل ذلك يقدمون مساعدتهم للصليبيين حتى منتصف أغسطس (آب).[1] ثم نوقشت المدن التي سوف تتم مهاجمتها في الصيف، وتقرر أن تكون عكا الهدف الرئيسي على الرغم من المعاهدة المعقودة بين أميرها وجودفري، ولابد من الاستيلاء على حيفا كذلك. وكان تانكريد يأمل في ضمان عكا لنفسه وضمها لإمارته، على أنّ جودفري شخصيًا وعد صديقه جلدمار كاربنيل بإعطائه حيفا.[2]

وخلال النصف الأول من يولية (تموز) بدا جودفري أقوى قليلاً، وكان يُظن أنه سوف يشفى. وبدأ الاستعداد لتنفيذ مخططات تسيير الحملة إلى عكا، فلحق جنود تانكريد بقائدهم في العاصمة، وعُيّن وارنر أوف جراي قائدًا لجنود جودفري. وعندئذ قرر البطريق ديامبرت مصاحبة الحملة كي يُظهر أنه السلطة الرئيسية في البلاد، ولكي يكون له رأي عند أيّ توزيع للأراضي؛ فهو لا يثق في وارنر، وظنّ أنه من المأمون أن

---

(1) vii, 19, p. 519 *Translatio Sancti Nicolai in Venetiam R.H.C.Occ* vol. v, pt 1, pp. 272-3; Albert of Aix.

(2) *Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.*; Albert of Aix vii, 20, p. 520.

يغادر القدس فجوفري يعاني المرض الشديد ولا يقوى على اتخاذ أيّ إجراء، وجنوده كلهم بعيدون عنه في الحملة. و لم يحدث قطّ أن أخطأ في حساباته على هذا النحو.

وفي الثالث عشر من يولية (تموز) غادر القدس كل من البطريق وتانكريد ووارنر وجميع رجالهم، وساروا جنوبًا إلى يافا للاتصال بالبنادقة. وأثناء اقترابهم من يافا سقط وارنر مريضًا فجأة، وكان واضحًا أنّ حالته لا تسمح له بمواصلة الحملة، فبقي أربعة أيام في يافا ثم عادوا به إلى القدس محمولاً على محفّة. بينما أسرع الجيش شمالاً على الساحل وتجهزت سفن البندقية للإبحار شمالاً إلى جانبه، لكن الرياح الشمالية أوقفتها و لم تحرز تقدمًا يذكر.[1]

و لم يكد وارنر أن يصل إلى القدس حتى توقف قلب جودفري المرهق. وفي يوم الأربعاء الثامن عشر من يولية (تموز)، كان جودفري ـــ كونت اللورين وحامي القبر المقدس ـــ يرقد في هدوء ليستريح راحته الأخيرة بعد أن تقوى بآخر طقوس الكنيسة. لقد كان حاكمًا ضعيفًا يفتقر إلى الحكمة، لكنه نال احترام الرجال من كل الأمم لشجاعته وتواضعه وإيمانه. وفي القدس قوبل نبأ موته بالحداد، وظل مسجّى في نعش مكشوف خمسة أيام، ثم دُفن في كنيسة القبر المقدس.[2]

---

(1) Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.

(2) Albert of Aix, vII 21, pp. 520-1; William of Tyre, IX, 23, vol. 1 pt 1, p. 399.

الفصل الرابع

(مملكـــــة أورشليـــــم)

مملكة أورُشَليم

"لاَ بَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ"

(صَمُوئِيلَ الْأَوَّلُ : ٨ ــ ١٩)

أملى جودفري وصيته وهو على فراش المرض، وأوفى بوعده الذي وعد به في عيد الفصح ووهب مدينة القدس للبطريق. وعندما مات لم يكن في القدس من يتمتع بأيـــة سلطة فيما عدا وارنر أوف جراي، فقد رحل البطريق وزعماء الفرسان كلهم في الحملة

إلى عكا. وكان وارنر نفسه يحتضر، لكنه أدرك ما ينبغي عمله؛ فنهض من فراش مرضه واحتل من فوره برج داوود ووضع فيه رجالاً من حرس جودفري الشخصي، وبعد أن تشاور مع بعض الضباط في مترل جودفري وهم ماثيو وكيل الإقطاعيات، وجودفري (الياور)، ومع روبرت أسقف الرملة وآرنولف الأسقف السابق، أرسل أسقف الرملة مع فارسين للانطلاق بغاية السرعة إلى الرها ليخبروا بالدوين بوفاة أخيه، ويستدعوه ليتولى التركة؛ فلا طاعة عليهم إلاّ لواحد من أقاربه. وهو أمر دُبر من قبل؛ إذ شملت الدعوة الموجهة إلى بالدوين أسماء جماعة من الفرسان كانوا عند إرسالها مع الجيش مثل جلدمار كارنبل وفيشر الألماني. وتتألف هذه الجماعة من أبناء اللورين والفرنسيين الشماليين الذين جاءوا إلى الحملة الصليبية مع جودفري أو لحقوا به، وكانوا يعارضون النورمانديين والإيطاليين معارضة مريرة لا سيّما وأنّ جودفري كان واقعًا تحت نفوذهم. وأفلحوا في كتمان سرهم وظنوا أنّ الحكمة تقضي بإبقائه طي الكتمان، فلم تصل أنباء موت جودفري إلى الجيش.[1]

وبينما كانت سفن البنادقة ما تزال بالقرب من يافا انتظارا لهدوء الرياح الشمالية جاءهم من لقدس رسول ينعي إليهم موت جودفري، فساءل آمر البنادقة نفسه عن مدى تأثير ذلك على الحملة، وأرسل لتوه أسرع ثلاث سفن لديه شمالا بمحاذاة الساحل لتلحق بتانكريد والبطريق وتستفسر عما ينويانه الآن. ووقع النبأ على الجيش وقعا سيئا لما كان يكنه لجودفري من محبة، ويبدو أن ديامبرت قد تردد. لقد كان قلقا على ميراثه، لكنه كان مطمئنا إلى ما أوصى به جودفري، وظن أن أهل اللورين بلا قيادة، ووافق على ما أصر عليه تانكريد من ضرورة انتهاز فرصة وجود الأسطول

(1) Albert of Aix, vii, 30, p. 526; William of Tyre, x, 3, vol. 1, pt 1, pp. 403-4.

يتضح أن قادة الجيش لم يعلموا بموت جودفرى إلا عن طريق البنادقة

البندقي للاستيلاء على حيفا على الأقل وتأجيل الهجوم على عكا. لكنــه أرســل مبعوثا إلى القدس للاستيلاء على برج داوود باسمه.(1)

وواصل الجيش زحفه إلى حيفا وعسكر على منحدرات جبل الكرمل، وسرعان ما ابحر الأسطول البندقي داخلاً إلى خليج حيفا التي كان أغلب سكانها من اليـــهود مــع وجود حامية مصرية صغيرة. وتذكر اليهود مصير ذويهم التعس في القـــدس والجليــل، فأظهروا الاستعداد للدفاع عن أنفسهم إلى النهاية، وزودهم المسلمون بالسلاح، فحاربوا بكل ما أوتي من جنسهم من عناد. وفي معركة دارت في المرفأ فقد البنادقة سفينة، فثبّـط ذلك من عزيمتهم وانسحبوا إلى الخليج، وفي نفس الوقت علم تانكريد فجــأة بــالوعد الذي وعده جودفري بمنح جلدمار كاربنل ميناء حيفا فتملكه الحنق، واستدعى رجالــه وتقهقر إلى خيمته حيث ظل متجهمًا مقطب الجبين. واستخدم ديامبرت كــل لباقتــه لإقناعه باستئناف الهجوم، وتبين له أنّ البنادقة يعدون العدة بالفعل للانصراف، ووعــده بأنه سيعمل على منح حيفا للرجل الأفضل، فوافق تانكريد على التعاون مــرة أخــرى وشنّ هجومًا جديدًا. وبعد كفاح يائس انهالت القذائف على البرج الرئيسي للدفاعــات فأحدثت ثغرة. وهرب من كان قادرًا على الفرار من المسلمين واليهود إلى عكــا أو إلى قيسارية، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان.(2)

وسقطت حيفا في الخامس والعشرين من يولية (تموز). وفي الحال اجتمــع قــادة الجيش لتعيين من سيأخذها، وكان لــتانكريد أكثر القوات عــددًا إلى جــانب تــأييد ديامبرت، فلم يستطع جلدمار كارنبل أن يفعل شيئًا ضده وطردوه من المدينــة، فاتجــه ومعه أبناء اللورين إلى حبرون جنوب فلسطين حيث اتخذها مقرًا له. وأمــا حاكمــها

(1) *Translatio Sancti Nicolai in Venetiam*, pp. 275-6; William of Tyre, *loc. cit.*

(2) Albert of Aix, vıı, 22-5, pp. 521-3; *Translatio Sancti Nicolai*, pp. 276-8

جيرار أوف أفيسن فربما كان ما يزال مع تانكريد.[1] وبعد ذلـــك اجتمـــع ديامـــبرت وتانكريد لمناقشة القضية الأكبر ألا وهي حكومة القدس المقبلة، وبلغت ديامـــبرت الآن أخبار القدس؛ فقد وجد مبعوثه أن وارنر أوف جراي قد استولى علـــى بـــرج داوود ورفض تسليمه إلى ممثلي البطريق، كما علم باستدعاء بالدوين إلى الجنوب. ومات وارنر في الثالث والعشرين من يولية (تموز) من جرّاء الإرهاق الذي بذله في مجهوده الأخـــير؛ غير أنه على الرغم من تفسير أصدقاء البطريق لموته هذا بأنّ يد الرب قد امتدت لمعاقبتـه على عدم تقواه، فإنّ ذلك لم يُجدهم فتيلا؛ فقد بقي الـــبرج آمنًـــا في حيـــازة أبنـــاء اللورين.[2] وليس بمقدور ديامبرت أن يأمل في تحقيق مطالبه دون أن يُعان على ذلـــك ومن ثم أصبح التحالف مع تانكريد أمرًا أساسيًّا، فإمارته تمتد الآن من شرق الجليـــل إلى البحر المتوسط وتفصل القدس عن الشمال. وأما تانكريد فكان يمقت بالدوين منـــذ أن تشاجرا في كيليكيا قبل ذلك بثلاث سنوات. ولذلك قرر ديامبرت، بموافقـــة تـــانكريد التامة، أنه ينبغي أن يعرض حكم فلسطين على بوهيموند، وأمر أمين سرّه موريللـــوس بالتوجه فورًا إلى أنطاكية ومعه رسالة إلى أميرها.

ديامبرت يلجأ إلى بوهيموند

و لم يكن ديامبرت يقصد أن ينخدع بوهيموند بأية أوهام حـــول طبيعـــة توليـــه للسيادة مستقبلاً. وافتتح خطابه بالتذكير بمساعدة بوهيموند له في انتخابه بطريقًا للدائرة الكنسية التي ووصفها بأنها أم الكنائس جميعاً وسيدة الأمم، متجاهلاً بذلك مطالب روما تجاهلا بينًا. ثم ذكر التنازلات التي انتزعها من جودفري، واشتكى من محاولات حاشـيته الحيلولة دون ذلك، وأعاد التأكيد على بنود المنحة التي تمت يوم عيد

---

[1] Albert of Aix, vii, 6, pp. 523-4. وليس هناك تسجيل يدل على أن جيرارد Gerard إعترض على تصرف جلدمار Geldemar .

[2] William of Tyre, *loc. cit.*.

الفصح والتركيز على أنه بموجبها ينبغي للقدس أن تؤول إليه بموت جودفري. غـير أن وارنر أوف جراي قد جانبه الصواب باحتلاله برج داوود، وعـرض الميراث علـى بالدوين. ومن أجل ذلك طلب من بوهيموند أن يخف لمساعدته. تماما كما فعل والـد بوهيموند حينما ساعد البابا جريجوري السابع وقت أن ظلمه الأباطرة الألمان، وهـي ذكرى لم تكن تتصف بسماحة نفس إزاء الكنيسة كما يبدو من تخيل ديامبرت. وعلـى بوهيموند أن يكتب إلى بالدوين لمنعه من الحضور إلى فلسطين دون إذن البطريـق، وإذا ما عصى فلا بد من أن يستخدم بوهيموند القوة لكبح جماحه، أي أنه مـن أجـل أن يحكم البطريق فلسطين متحديا بذلك رغبة الفرسان الذين يقع على كاهلهم أمر الدفاع عن البلاد، ينبغي لأمير أنطاكية المسيحي أن يعلـن الحـرب علـى كونـت الرهـا المسيحي.[١]

وليس من الممكن أن نعرف ما كان يمكن أن يكون عليه رد بوهيموند على تلـك الرسالة، لو أنها وصلته! فلم يكن من المحتمل أن يندفع ويخاطر بالدخول في صراع مـع بالدوين؛ ولو أنه جاء إلى فلسطين لما بقى طويلا خاضعا للبطريق ديامبرت. علـى أن تلك الدعوة لم تصل إلى بوهيموند على الإطلاق، وتخلى الحظ عن ديامبرت.

ريموند في زيارة القسطنطينية

وحدثت تطورات في شمالي سوريا خلال الأشهر القليلة المنصرمة نتجـت عنـها بعض تغيرات. فقد أمضى ريموند أوف تولوز أشـهر الشـتاء في اللاذقيـة يحكمـها بالاشتراك مع ممثلي الإمبراطور، وكان على علاقة ممتازة بحاكم قبرص الذي كان يـزوده بالإمدادات. وفي وقت ما من الربيع التالي تلقى رسالة من الإمبراطور ألكسيوس يشكره فيها على مساعدته ويطلب منه تسليم اللاذقية إلى السلطات البيزنطية، ويدعوه لزيـارة

---

(1) Albert of Aix, vii, 27, p. 524 . ويرد نص خطاب ديامبرت عند William of Tyre, x, 4, 1, pp. 405-6 .

البلاط الإمبراطوري. وربما حمل الرسالة من القسطنطينية إيوستاثيوس الخصيّ الذي نال مؤخرًا ترقية وأصبح أمير البحار للأسطول الإمبراطوري، وخرج بأسطول قوي وشرع في الحال في الاستيلاء على موانى غرب كيليكيا، وسيليوسيا، وكوريكوس، ثم وسع سيطرته لتشمل أراضي كيليكيا الأبعد إلى الشرق التابعة لبوهيموند، فاحتل طرسوس، وأدنا، وماميسترا. وقبل ريموند الدعوة وأبحر إلى القسطنطينية في أول يونية (حزيران)، وفي قبرص قابل الأسطول البندقي الذي كان في طريقه إلى يافا، ووصل إلى العاصمة الإمبراطورية في نهاية الشهر تقريبًا. وأمّا زوجته الكونتيسة إلفيرا أوف أراجون التي بقيت بجانبه في جميع رحلاته، فقد تخلفت في اللاذقيَّة تحت حماية السلطات البيزنطية مع من تبقي من جيوش تولوز وبروفانس.[1]

وكان أمين سر ديامبرت قد وصل إلى اللاذقيَّة في نهاية يولية (تموز) وهو في طريقه إلى أنطاكية، واحتجزته السلطات لفحص أوراقه، واكتشفت الرسالة المرسلة إلى بوهيموند. وأرسلت الرسالة إلى رجال ريموند لترجمتها، فصدموا صدمة شديدة وأبقوها في طي الكتمان واعتقلوا موريللوس.[2]

ولو أنّ بوهيموند تسلم الرسالة لغدا مستقبله كله أكثر إشراقًا. ففي بداية أغسطس (آب) غادر أنطاكية وهو يجهل أحداث فلسطين متوجهًا إلى أعلى الفرات تلبية لنداء الأرمن في ملطية. وكان قد تمكن في باكورة الصيف من تعزيز حدوده الجنوبية الشرقية وراء نهر العاصي بانتصاره على هجوم مضاد شنّه رضوان الحلبي الذي انسحب واتجه إلى حمص يطلب مساعدة أميرها.[3] وكانت العلاقات بين حمص وحلب

---

(1) Anna Comnena, xi, vii, 4, x, 9-10, vol. iii, pp. 345-6; Fulcher of Chartres, I, xxxii, 1, pp. 320-1; *Translatio Sancti Nicolai*, p. 271. والتتابع التاريخي الذى توردہ أنا كومنينا ليس واضحا ، وإن كان التاريخ يمكن تأكيده من المصادر الغربية .

(2) Albert of Aix, *loc. cit.*

(3) Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 588-9.

في غاية الاضطراب بحيث لا تشكل خطرا على بوهيموند حتى وإن كـان المسـلمون قادرين على استرداد تل مناس التي تركها ريموند بيليت دون حماية كافية ورحل جنوبـا مع كونت تولوز. وشعر بوهيموند بقدرته على توسيع سلطانه باتجـاه الشـمال، ولم يستطع منع البيزنطيين من استعادة كيليكيا لافتقاره إلى القوة البحرية، لكنه كان متلهفا على السيطرة على ممرات جبال طوروسالمقابلة التي ربما تخترقها أيـة حملـة بيزنطيـة تستهدف أنطاكية. وسعد بوهيموند لتلبية جبرييل صاحب ملطية نداء الاستغاثة الـذي كان يتوقع هجوما من مالك غازي جوموشتكين الأمير الدانشمندي صاحب سـيواس الذي دأب على الإغارة على أراضي جبرييل لثلاث سنوات في الصيف، ويخشـى الآن من أن يتقدم إلى المدينة نفسها. ولم يشأ جبرييل الاستغاثة بـبالدوين، مع أنه أقـرب، بعد التجربة التي مر بها زوج ابنه ثوروس صاحب الرها. لكن بوهيموند أظهر مراعاتـه لمشاعر الأرمن. وكان من بين أصدقاء جبرييل أسقف أنطاكيـة الأرمـني سـيبريان، وأسقف مرعش جريجوري، واستغل جبرييل وساطتهم وعـرض تسـليم المدينـة إلى بوهيموند شريطة وضع نهاية للتهديد التركي.[1]

وقبيل أن يتوجه بوهيموند إلى أنطاكية استجابة للنداء تصـرف تصرفـا أدى إلى انفصاله عن اليونانيين إلى الأبد. وترتب عليه أول صـدع لا سـبيل إلى رتقـه بـين الكنيستين اليونانية واللاتينية. ذلك أن جون الرابع، الذي أعاد أديمار تنصيبـه بطريقـا لأنطاكية، استمر في منصبه منذ ذلك الوقت. لكنه يوناني، وبوهيموند يشـك في أنـه متعاطف مع بيزنطة وفي أنه يشجع الأرثوذكس التابعين لدائرته البطريارقية على التطلـع إلى الخلاص على يد الإمبراطور. والآن طرده بوهيموند من المدينة، وعين مكانه واحـدا من اللاتينيين هو برنارد أوف فالنس، الذي كان قسيسـا تابعـا لـأديمار، وجعلـه بوهيموند مؤخرا أسقفا لمدينة أرطة، وأخذه معه إلى القدس لرسامته. وكان اللاتينيـون

---

(1) Albert of Aix, *loc. cit.*; Matthew of Edessa, II, clxvii, pp. 230-1; Michael the Syrian (ed. Chabot), III, iii, p. 187; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 203-4.

المتأخرون، مثل وليم الصوري شديدي الرغبة في ترسيخ شـــرعية تعـــاقب البطارقـــة اللاتينيين في أنطاكية، فأعلنوا أن جون الرابع استقال بالفعل من كرســـيه الأســـقفي، ولكن الحقيقة هي أن جون لم يعلن عن استقالته إلا بعد وصولة إلى القسطنطينية كـــي يفسح الطريق ليخلفه يوناني. واستقر في أحد الأديرة في أكسيا حيث كتب بحثا ينكـــر فيه الأعراف اللاتينية ويتحدث بمرارة عن الاضطهاد اللاتيني، وآلت حقوقه إلى البطريـــق الجديد الذي انتخبه القساوسة المبعدون. وهكذا تأسس خطان متنافسان من البطارقـــة، الخط اليوناني والخط اللاتيني، لا يتنازل أحدهما للآخر. وبات الصدع بين الكنيستين في أنطاكية واضحا لا لبس فيه بسبب بوهيموند، أما الإمبراطور الذي يتطلع إلى اســـتعادة أنطاكية إلى إمبراطوريته، فقد أضاف إلى تطلعه هذا تصميمه على إعادة الخط الشـــرعي إلى العرش البطريقي.(١)

بوهيموند في الأسر

وانطلق بوهيموند إلى ملطية بعد أن أزاح مصدر الخيانـــة الرئيســـي المحتمـــل في أنطاكية. ولم يشأ أن يترك عاصمته بحامية غير كافية، فلم يصطحب معه سوى إبن عمه ريتشارد أوف سالرنو وثلاثمائة فارس وتكملة من المشاه، وصحبه الأساقفة الأرمن مـــن أنطاكية ومرعش، وربما كان بعض فرسانه من الأرمن كذلك. وامتلأت نفسه بالثقة من أنه سوف ينتصر على الأتراك حتى بمثل هذه القوة الصغيرة، فسار دون أن يأخذ جـــانب

---

(١) William of Tyre, vi, 23, vol. 1, pt 1, pp. 273-5; Orderic Vitalis, vol. iv, p. 141. ويفترض Orderic Vitalis دونما منطق أن التغيير حدث أثناء أسر بوهيمند، ومع ذلك عيـــن بوهيمند مـــن يخلفـــه؛ Radulph of Caen, cxi, p. 704. See Leib, *Deux Indédits Byzantins*, pp. 59-69. ويرد هروب جون المؤرخ في أكتوبر ١١٠٠م في مخطوطة في سيناء ترد في Benechewitch, *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum*, p. 279. أنظـر Grumel, 'Les Patriarches D'Antioche du nom de Jean', *in Echos d'Orient*, vol. xxxii, pp. 286-98.

الحذر في التلال التي تفصل ملطية عن وادي اكسو. وهناك كان الأمير الدانشمندي ينتظر متربصا في كمين، وانقض عليه فجأة، فبوغت الفرنج وأحيط بهم، وأبيد جيشهم بعد صراع خاطف مرير، وقتل الأساقفة الأرمن. واقتيد بوهيموند ومعه ريتشارد أوف سالرنو إلى الأسر المذل، وهو الذي طالما أخاف الكفرة.[1]

وكان بالدوين هو الذي خلص شمال سوريا للعالم المسيحي. فلما وجد بوهيموند نفسه أسيرا قص خصلة من شعره الأصفر وعهد بها لجندي انسل من بين الأتراك المحيطين، وأسرع إلى الرها حيث أبلغ بالدوين رسالة من بوهيموند مظهرا خصلة الشعر الأصفر دليلا على صدقه، وقد توسل بوهيموند في رسالته إلى بالدوين أن يعمل على إنقاذه قبل أن ينقله الأتراك إلى أعماق الأناضول. على أنه كان مهتما بسلامة الدويلات الفرنجية أكثر من اهتمامه بصديقه وغريمه القديم، فانطلق في الحال بقوة صغيرة لا تضم سوى مائة وأربعين فارسا وكان استطلاعه رائعا، فسبقته شائعات تضخم من حجم جيشه. وكان مالك غازي جوموشتيكين قد سار في الصباح التالي لانتصاره إلى أسوار ملطية وأخذ يلوح للحامية برءوس ضحاياه من الفرنج والأرمن، لكنه عندما سمع باقتراب بالدوين رأى من الأفضل العودة إلى أراضيه ومعه أسلابه وأسراه، وتبعه بالدوين داخل الجبال ولكنه خشي التوغل في أعمال البلاد لئلا يقع في كمين، فضلا عن عدم ثقته في السكان المحليين، فعاد إلى ملطية بعد ثلاثة أيام. ونقل

---

(1) Albert of Aix, vii, 27-8, pp. 524-5; Fulcher of Chartres, 1, xxxv, 1-4, pp. 343-7; Radulph of Caen, Cxli, pp. 704-5; Matthew of Edessa, *loc. cit.*; Michael the Syrian (ed. Chabot), iii,iii, pp. 188-9 (talking of Armenian treachery); Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp. 49-50; Ibn al-Athir, *op. cit.* p. 203; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 589.

بوهيموند وريتشارد أوف سالرنو مقيدين بالسلاسل ليقضيا سجنًا طويلاً في قلعة نكسار البعيدة في جبال بنطش.[1]

ورحب جبريل صاحب ملطية ببالدوين باعتباره مخلصه، وسارع بوضع نفسه تحت سيادته. وفي المقابل ترك بالدوين خمسين فارسًا لتدبير الدفاع عن المدينة، وبعد ذلك بأشهر قليلة استطاع جبريل بمساعدة الفرسان ردّ هجوم دانشمندي قام به الأتراك بعدما علموا بنبأ رحيل بالدوين عن الشمال.[2]

رحلة بالدوين إلى القدس

أمّا مبعوثو القدس الذين جاءوا ليخبروا بالدوين بموت أخيه، فلم يستطيعوا المثول بين يديه سوى بعد عودته إلى الرها من حملته في نهاية أغسطس (آب). وأمضى شهر سبتمبر (أيلول) في الترتيب لرحلته والإعداد لحكومة الرها. وكان إبن عمه بالدوين أوف لوبورج في أنطاكية حيث يبدو أنه كان نائبًا عن بوهيموند، وربما كان يعمل ضابط اتصال بين القائدين الكبيرين، واستدعى إلى الرها حيث خلع عليه بالدوين الكونتية تحت سيادته. وانطلق بالدوين إلى القدس في الثاني من أكتوبر (تشرين الأول) ومعه عائلته والحرس الخاص المؤلف من مائتي فارس وسبعمائة راجل. وكما يخبرنا قسيسه فولشر أوف تشارترز، انطلق لا يستشعر إلاّ قليلاً من الحزن لموت أخيه، وغاية السرور بما سيرثه.[3]

---

[1] (المترجم): منطقة جبال بنطش Puntos : تقع شرقى البحر الأسود ، والإسم مأخوذ من الإسم القديم للبحر الأسود وهو (بحر بنطش) . Albert of Aix, vii, 29, pp. 525-6 ، والمراجع فى الحواشى السابقة

[2] Albert of Aix, *loc. cit.* .

[3] Fulcher of Chartres, ii, i, 1, pp. 352-4; Albert of Aix, vii, 31, p. 527.

وتبددت آمال ديامبرت في خروج بوهيموند لإيقاف بالدوين، فقد ضاع بوهيموند الآن في السر. وبمشاعر البهجة استقبل الفرنج في أنطاكية الرحل الذي أنقذهم بتدخله مما كان سيترتب على الكارثة. وبعد أن أمضى ثلاثة أيام في أنطاكية أرسل زوجته ومن صحبها من السيدات ليرحلن بحرًا إلى يافا خشية ما قد يواجهه من مصاعب في الرحلة. وفي اللاذِقّيَّة، حيث استقبلته السلطات استقبالاً حسنًا، أمضى ليلتين وانضم إليه جنود آخرون كثيرون، لكن سرعان ما تبدد حماسهم على أثر الأنباء التي تقول إنّ أتراك دمشق عاقدون العزم على القضاء عليه أثناء رحيله جنوب الساحل. وبوصوله إلى جبله كانت قواته قد تضاءلت إلى مائة وستين فارسا وخمسمائة راجل، ولم يصل سالما إلى طرابلس إلا بالإسراع في السير. وكانت علاقة أمير طرابلس الجديد، فخر الملك، بدقاق الدمشقي في أسوأ أحوالها لأنه كان يحاول التعدي تدريجيا على المنطقة اللبنانية الساحلية؛ ولذلك سره أن يقدم إلى بالدوين ليس فقط جميع المواد الغذائية التي يحتاجها، وإنما أيضا المعلومات حول تحركات ومخططات الدقاق.

وبينما يقترب الطريق الساحلي من بيروت قادما من طرابلس، وعند ممر نهر الكلب، يقع الطريق في ممر ضيق بين الجبال والبحر. ولهذا الممر شهرته منذ أقدم العصور؛ إذ قام كل الغزاة الذين اقتحموه، منذ الفرعون رمسيس، باحتفاء بانتصاراتهم بتسجيل ذلك في عبارة على واجهة الصخرة. وهنا كان الدمشقيون ينتظرون مجيئ بالدوين الذي كان ما يزال يذكر تحذير أمير طرابلس ولذا كان يتقدم بحذر شديد ليجد نفسه في مواجهة جيش الدقاق كله ومعه جيش أمير حمص. بينما يقف أسطول عربي قادم من بيروت على استعداد لقطع طريق الانسحاب، وفشل بالدوين في عبور النهر في مواجهة تلك القوات المتفوقة، وشعر بالامتنان لهبوط الليل، فتمكن من الانسحاب تحت جنح الظلام. وحث أمير حمص الدمشقيين على مهاجمته في الظلام، لكن مستشاري الدقاق فضلوا الانتظار حتى الفجر ليتمكن الأسطول الإسلامي من العمل معهم، واكتفوا بإطلاق سيل من السهام أثناء الليل على صفوف الفرنج. ويصف فولشر أوف تشارترز المعركة قائلا: "كم كنت أود لو عدت إلى وطني في تشارترز أو أورليانز!

وكم شعر آخرون بمثل شعوري!" ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة بالدوين، ففي الصباح التالي تظاهر بمواصلة الانسحاب، لكنه راعى أن يكون أفضل رجاله المسلحين في المؤخرة، وتبعه الدمشقيون يطاردونه متلهفين، وعندما وصل إلى الجزء الضيق من الطريق مرة أخرى عبر جونيا الواقعة على مسافة خمسة أميال إلى الشمال، واستدار فجأة واندفع فرسانه المدرعون في قوة وسرعة وبكل ثقل نحو مطارديه الذين بوغتوا وتداعوا إلى الوراء على حشود الجنود من خلفهم. وسرعان ما عم الاضطراب في الطريق الضيق وشدد بالدوين هجماته، ولم تتمكن السفن العربية من الاقتراب من الشاطئ لمساعدة حلفائها الذين دب الذعر بينهم. وبهبوط الليل كان الجيش الإسلامي كله قد هرب إلى الجبال أو وراء أسوار بيروت. وعسكر بالدوين تلك الليلة في جونيه وفي الصباح التالي عبر جيشه المحمل بالغنائم نهر الكلب دون مقاومة.

ومن تلك المرحلة حتى نهاية الرحلة لم يتعرض له المسلمون. ومر بسلام على بيروت وصيدا، وفي صور أرسل له حاكمها المصري المؤن عن طيب خاطر، وفي اليوم الأخير من أكتوبر (تشرين الأول) وصل إلى ميناء حيفا المسيحي. وكانت حيفا تابعة لتانكريد الذي كان آنذاك في القدس يساعد دايمبرت في محاولة يائسة لأخذ برج داوود من أبناء اللورين قبل مجيئ بالدوين. وأثناء غياب تانكريد عرض الفرنج في حيفا فتح بوابات المدينة لبالدوين ولكن الريب ساورته وفضل أن يعسكر خارج الأسوار. وبعد أن استراح جنوده هناك عدة أيام واصل سيره جنوبا على الساحل إلى يافا. ولدى سماع تانكريد أنباء اقترابه أسرع إلى يافا ليحاول تزعم المدينة ضده، لكن مواطنيها طردوه، ودخل بالدوين يافا وسط حماس سكانها، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً. وفي التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) سار أعلى التلال ودخل القدس.[1]

---

[1] Fulcher of Chartres, II, i, 2-iii, 9, pp. 354-66 ، وهي عبارة عن رواية شاهد عيان تنبض بالحيوية عن الرحلة ؛ Albert of Aix, VII, 32-5, pp. 527-31.

الملك بالدوين

وبينما هو يقترب من المدينة شيئا فشيئا خرج سكانها للترحيب به بأروع مظاهر البهجة. ولم تكن حشود المستقبلين تتألف من الفرنج جميعا وحسب، وإنما من اليونانيين والسوريين والأرمن كذلك، الذين قابلوه جميعا خارج الأسوار ونقلوه بمظاهر التشريف إلى كنيسة القبر المقدس. وتبعثر أعداؤه؛ فانسحب ديامبرت من القصر البطريقي إلى دير على جبل صهيون وقضى الوقت في الصلاة والممارسات الورعة. ورحل تانكريد شمالا إلى أراضيه في الجليل، وانتهت الفوضى التي سادت فلسطين منذ موت جودفري. وفي يوم ذكرى القديس مارتين، الأحد الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني)، وافق الجميع بسرور على أن يحمل بالدوين لقب ملك القدس.[1]

وكان بالدوين بالغ الحصافة بحيث لم يلجأ إلى الانتقام. وتطلع أعداء ديامبرت — ومنهم البطريق السابق آرنولف — إلى مشاهدة خذلانه السريع، لكن بالدوين لم يتخذ أي إجراء ضده، وإنما تركه يتمتع بكامل حقوقه وذهب في حملة ضد العرب. وتحقق ديامبرت من أنه سوف يحسن صنعا بقبول الهزيمة ومحاولة الإفادة منها قدر الإمكان. وعندما عاد بالدوين إلى القدس في منتصف ديسمبر (كانون الأول) وجد ديامبرت على استعداد للصلح بعد أن تلاشت آماله في إنشاء حكومة ثيوقراطية فعالة. على أنه ربما يظل محتفظا بسيادته الاسمية وما له من نفوذ كبير على المملكة. كما أن بالدوين — الذي لم يفته ما لديامبرت من سيطرة على المساعدة التي تقدمها بيزا — عفى عنه عن طيب خاطر وثبته في دائرته البطريارقية.[2] أما تانكريد فكان أكثر ضراوة؛ إذ استدعاه بالدوين إلى القدس ليبين أسباب عصيانه لرغبات جودفري المعروفة حيال تسليم حيفا، ولم يمتثل تانكريد للاستدعاء مرتين، ثم وافق أخيرا على مقابلة بالدوين على ضفاف نهر

---

(1) Fulcher of Chartres, ii,iii, 13-14, pp. 368-9; Albert of Aix, vii, 36, pp. 531-2; William of Tyre, x, 7, 1, pp. 410-11.

(2) Fulcher of Chartres, ii, iii, 15, pp. 369-70; William of Tyre, x, 9, i, p.413.

العوجاء الصغير بين يافا وأرصوف، لكنه لم يأت في الموعد وطلب أن تتم المقابلـــة في حيفا. وكان هناك حل أيسر، فلا يوجد قائد لفرنج أنطاكية منذ وقوع بوهيمونـــد في الأسر ورحيل بالدوين أوف لوبورج ليحكم الرها، فاقترحوا مجيئ تانكريد إليهم ليكون وصيا مكان خاله. فوجد تانكريد في هذا الاقتراح متسعا لا يطغى عليـــه فيـــه ظـــل بالدوين، بينما شعر بالدوين بالغبطة لتخلصه دون مشقة من تابع له لا يثـــق فيـــه ولا يحبه، وتمت المقابلة في حيفا في أوائل مارس (آذار) سنة ١١٠١ ميلادية في جو من الود، وأعاد تانكريد إلى بالدوين إقطاعية الجليل مع تمنياته الطيبة ورحل إلى أنطاكية.(١)

وكان قد سبق في يوم عيد الميلاد في سنة ١١٠٠ ميلادية، في كنيسة الميـــلاد في بيت لحم، أن قدم بالدوين تبجيله إلى البطريق ديامبرت الذي قـــام بـــدوره بتتويجـــه ملكا.(٢)

وهكذا تأسست مملكة أورشليم بعد أكثر من أربع سنوات على رحيـــل أمـــراء الغرب الأوروبي من أوطانهم في الحملة الصليبية. وكان الفائز الوحيد من بـــين جميـــع قادتها هو بالدوين، الابن الأصغر المفلس لكونت بولونيا، وسقط أنداده الواحـــد تلـــو الآخر; إذ عاد الكثير منهم إلى الغرب: روبرت النورماندي، وروبرت أوف فلانـــدرز، وهيو أوف فرمندوا، وستيفن أوف بلوا، حتى أخوه إيوستاس أوف بولونيا ـــ الذي ربما كان يأمل في أن يرث أخاه جودفري ـــ فضل أراضيه على شاطئ القنال الإنجليزي. أما منافسوه الرئيسيون في الشرق، فهذا بوهيموند يرقد يائسا في ســـجنه التـــركي، وذاك ريموند ـــ الذي ما يزال بلا أرض ـــ بعيد في القسطنطينية عميل للإمـــبراطور. لكـــن بالدوين ترقب الزمن واغتنم الفرص المتاحة. وهو الوحيد من بينهم جميعا الذي أثبت أنه

---

(1) Fulcher of Chartres, ii, vii, 1, pp. 390-3; Albert of Aix, vii, 44-5, pp. 537-8

(2) Fulcher of Chartres, ii, vi, 1, pp. 384-5; Albert of Aix, vii, 43, pp. 536-7; William of Tyre, *loc. cit.*

أكثرهم اقتدارا وأشدهم صبرا وأعمقهم بصيرة فنال مكافأته، وأظهر المستقبل أنه أهـــل لها، وكان تتويجه تتويجا رائعا، ونهاية تحدوها الآمال للحملة الصليبية الأولى.

المرفقـــــــات

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

المرفق الثانى: (قوة الصليبيين العدديّة)

الملحق الأول

المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

غطت المصادر المعاصرة أو شبيه المعاصرة على وجه التقريب قصة الحملة الصليبية الأولى . وقد تناولت فى الحواشى النقاط التى أثارتها المصادر الأقل أهمية أو الثانوية ؛ بيد أن أهم المصادر الرئيسية التى نعتمد عليها دوما ، والتى لا تتفق دائما مع بعضها البعض، فى حاجة إلى تقييم نقدى كى نقدم قيمتها النسبية .

(١) المصادر اليونانية

المصدر الوحيد ذو الأهمية الرئيسية هو Alexiad الذى كتبته Anna Comnena ، وهو يتناول حياة الإمبراطور ألكسيوس الذى كتبته إبنته الأثيرة التى كتبت تاريخها بعد أربعين سنة من أحداث الحملة الصليبية ، بعدما أصبحت عجوزا . وربما خانتها ذاكرتها أحيانا ، وينصرف ذلك خاصة إلى أن تأريخها يتسم بشئ من التشوش ؛ فضلا عن إنها عالجت الأحداث بعد إنقضائها ، كما أنها كانت إبنة بارة أرادت أن تظهر والدها

ألكسيوس فى كل حال بمظهر الرجل الطيب الحكيم ذى الضمير الحى ؛ ومن ثم كانت تميل إلى إخفاء ما قد يُفسَّر فى رأيها على أنه يسئ إليه أو إلى أصدقائه . فهى بصراحة لايعتمد عليها عندما تتناول الأحداث التى تقع خارج حدود الإمبراطورية إذ تطلق العنان لتحاملاتها ، مثل ما جاء فى روايتها عن سيرة حياة البابا جريجورى السابع . على أن المؤرخين المحدثين يتجهون إلى التقليل من شأنها . ولقد كانت إمرأة ذكية ذات ثقافة عالية تُعمل ضميرها وتحاول التحقق من مصادرها . وعلى الرغم من أنها كتبت فى شيخوختها فقد كان فى نيتها لزمن طويل أن تكون مترجمة حياة أبيها ولابد أن تكون قد جمعت الكثير من مادتها أثناء حياته عندما كانت تواتيها الفرصة الكاملة للحصول على أوراقه الرسمية . وكانت تتحكم فى إنحيازها عندما تستند إلى معلومات لها مصداقيتها ، كروايتها عن مسيرة الصليبيين عبر الأناضول ، ومن الواضح أنها إستفادت من تقارير تاتيسيوس ؛ وعلى الرغم من أنها قد أخطأت فى حذف بعض الأشياء ، فليس من الممكن إتهامها بأنها قد ارتكبت أى حذف فى وصفها للأحداث التى حدثت فى القسطنطينية أو داخل الإمبراطورية . وكانت تتمتع بثقة والدها كما كان لها معرفة شخصية بالكثير من الشخصيات والأحداث التى تصفها . ومن اليسير التجاوز عن ورعها وإنحيازها ، ومن ثمّ فإن شهادتها على كافة الشؤون المتصلة مباشرة ببيزنطة ينبغى تفضيلها على أية شهادة أخرى لأى مؤرخ آخر .[1]

أما أعمال المؤرخين Zonaras and Glycas [2] ، والتاريخ العام الموجز المعروف بإسم the *Synopsis Sathas*[3] ، فلا تضيف سوى القليل جدا إلى معلوماتنا . وليست هناك وثائق بيزنطية رسمية باقية تتصل بالحملة الصليبية عدا الرسائل التى كتبها

---

[1] نُشرت آخر طبعة عن أنا كومنينا فى The *Collection Budé* ، وحررها Leib بمقدمة كاملة وحواشى . وترد فى *Anna Comnena*, by Mrs Buckler دراسة نقدية تفصيلية عن *Alexiad* . وهناك ترجمة إنجليزية لـ *Alexiad* (London, 1928) by E. A. S. Dawes .

[2] كلاهما نشر فى . the Bonn *Corpus Scriptorun Historiae Byzantinea*.

[3] . Ed. In Sathas, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, vol. VII

ألكسيوس للأمراء والمسؤلين على إختلاف رتبهم وهى مترجمة إلى اللاتينية ومن ثم تفتقر يقينا إلى الدقة . كما أن خطابات أسقف بلغاريا Theophylact ، التى لم تنشـــر علـــى الوجه الملائم حتى الآن فلا تضيف سوى القليل من المعلومات .[1]

(٢) المصادر اللاتينية

المصادر اللاتينية أكثر عددا ، وهى تمدنا بأغلب معلوماتنا .

إنضم Raymond of Aguilers (أو Aighuilhe فى دائرة اللوار الأعلى Department of Haute Loire) إلى الحملة الصليبية فى صحبة Adhemar of Le Puy ، وســرعان مــا أصبح واعظا لريموند التولوزى Raymond of Toulouse . وبدأ يكتب تاريخــه *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem* أثناء حصار أنطاكية وأنهاه فى نهاية ســنة ١٠٩٩م . وقد ركّز على حملة الكونت ريموند ؛ على أنه وإن كان فرنسيا جنوبيا مخلصا ، فإنــه يقينا لم يكن بمنأى عن أن ينتقد رئيسه ، فقد عارض تأخر الكونت عن مواصلة الســير من أنطاكية ، ولم يتعاطف معه فى تبنيه للسياسة البيزنطية . ولم يكــف عــن توجيــه التعليقات غير الودودة لليونانيين إلا فى مناسبة واحدة (أنظر ما سبق صفحــة ٣٢٦) . وكان دوره فى قصة الرمح المقدس سببا فى إرتياب النقاد فى مصداقيته ، على أنه مــن الواضح أنه كان مخلصا فى نطاق حدوده وعلى دراية واسعة ، وســرعان مــا إنتشــر تاريخه إنتشارا واسعا . وبالرغم من أن بعض المخطوطات المبكرة تحتوى على تلفيقــات معينة فلم يعاد نشرها مطلقا.[2]

وكان Fulcher of Chartres حاضرا فى مجمع كليرمونت ، ثم ذهب إلى الشــرق فى صحبة سيده الأعلى Stephen of Blois ، وفى شهر يونيو ١٠٩٧م أصبح واعظا لـــدى

---

[1] ترد رسائل Theophylact فى *M. P. G.* vol. cxxvi .

[2] *Ed.* In the *Recueil des Historiens des Croisade* ، وهناك متسع لنشرة نقدية جيدة .

Baldwin of Boulogne ، وبقى فى حاشيته منذ ذلك الوقت قُدُما . وقد كتب تاريخه Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium على ثلاث مراحل فى ١١٠١و ١١٠٦ و ١١٢٤ – ١١٢٧م . وكان فولشر أكثر المؤرخين اللاتينيين ثقافة وأكثرهم مصداقية . وبرغم إخلاصه التام لبلدوين إلا أن نظرته العامة كانت موضوعية بصورة ملفتة . ولا تظهر أية لمحة عدائية للبيزانطيين إلا فى مرحلته الثالثة فقط ؛ كما أن نظرته العامة إلى المسيحيين الشرقيين عادلة وودودة . وقد استعان المؤرخون اللاحقون كثيرا بتاريخه.[1] وفى حوالى ١١٠٨م، نشر Bartolf of Nangis، وربما كان يكتب فى سوريا ، طبعة تضم الفصول المبكرة مع إضافات قليلة تعالج الوصف البيئى بصورة أساسية .[2] وهناك موجز مقتضب للفصول اللاحقة ينسب إلى Losiard of Tours .[3] وقد إستخدم William of Malmesbury و Richard of Poitiers و Sicard of Cremona تاريخ فولشر كله كمصدر رئيسى عندما كانوا يكتبون عن الحملة الصليبية .[4]

وأكثر الروايات المعاصرة إنتشارا عن الحملة الصليبية هو العمل الذى لايعرف صاحبه والمعروف بإسم *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* ، الذى ربما كتبه كمذكرا ت يومية أحد أتباع بوهيمند ممن ذهبوا إلى القدس مع تانكريد . وينتهى هذا التاريخ بقصة معركة عسقلان فى عام ١٠٩٩م ، ونشر للمرة الأولى سنة ١١٠٠م أو أوائل ١١٠١م ؛ وقد قرأه Ekkehard فى القدس سنة ١١٠١م . وتضم أقدم مخطوطة باقية تلفيقات مثل الوصف " الحرفى " لأنطاكية ، وفقرة تشوه أعمال بوهيمند فى القسطنطينية (أنظر ما سبق ص ٢٠٩ الحاشية ١) أوحى بها بوهيمند نفسه فى حوالى

---

[1] الطبعة التى نشرها Hagenmeyer ، وهى مشروحة بالكامل ، حلت محل الطبعة المنشورة فى *Recueil* .

[2] Ed. In the *Recueil*. See Cahen, *La Syrie du Nord*. P. 11 n1 .

[3] Ed. In the *Recueil*. .

[4] أنظر Cahen *loc. cit.* . ولم يعد تاريخ Sicard موجودا .

سنة ١١٠٥م ، وكذلك فقرة أقتبست من Raymond Of Aguilers . وكـــان الكـــاتب جنديا بسيطا ، ومخلصا بقدر إسهامه ، غير أنه كان ساذجا ومتحيزا وشديد الإعجـــاب ببوهيمند . ويعزى النجاح الواسع الذى حققه تاريخ *Gesta* بصورة أساسية إلى الجـــهود التى قام بها بوهيمند نفسه . وقد إعتبر أنها بمثابة دفاع عـــن نفســـه "*apologia*" وراح يعرضها للنشر فى شمال فرنسا أثناء زيارته هناك سنة ١١٠٦م .[١] وأعيد نشره فى تاريخ مبكر بطريقة تكاد أن تكون كلمة بكلمة ، وقام على نشره قس من بوتو الفرنســـية ، وكان صليبيا ، يدعى Tudebod . وتحتـــوى نســـخته the *De Hiersolymitano Itinere* على إضافات قليلة من ذكريات شخصية.[٢] وفى حوالى سنة ١١٣٠م ظـــهر *Historia Belli Sacri* ، وهو عبارة عن تجميع أهوج جمعه راهب من مونت كاسينو يرتكز علـــى *Gesta* وبه فقرات قليلة مأخوذة من Radulph of Caen ، ومن مصدر آخر مفقود الآن ، ومن مأثورات التقاليد الجارية.[٣] وأعيد كتابة *Gesta* عدة مـــرات، فى حـــوالى ســـنة ١١٠٩م بواسطة Guibert of Nogent الذى أضاف معلومات شخصية وإســـتعار مـــن Fulcher، والذى كان ينشد المزيد من النغمة النقدية الأخلاقية فى الأســـلوب [٤]؛ وفى حوالى سنة ١١١٠م بواسطة Baudri of Bourgueil رئيس أساقفة Dol، الذى كان يسعى إلى تحسين الأسلوب اللفظى[٥]؛ وبواسطة Robert of Reims الذى ظهرت نســـخته — وهـــى شعبية رومانسيـــة نوعا مـــا *Historia Hierosolymitana*— فى حـــوالى ســـنة

---

[١] نشر Bréhier آخر نشرة بعنوان *Histoire Anonyme de la première Croisade* . ومـــا تزال هناك فائدة ترتجى من الحواشى الموجودة فى نشرة Hagenmeyer المعروفـــة بإســـم *Anonymi Gesta Francorum* (Heidelberg, 1890) .

[٢] Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*. pp. 8-9

[٣] Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*.

[٤] Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*.

[٥] Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit*.

١١٢٢م .[١] كما أنها ألهمت التاريخ *Expeditio contra Turcos* الذى لايعرف كاتبــه، والفصول الخاصة بالحملة الصليبية فى تــاريخى Hugh of Fleury and Huntingdon of Henry.[٢]

وهناك ثلاثة مؤرخين للحملة الصليبية الأولى على جانب من الأهمية لم يشــتركوا فيها هم أنفسم. فقد جاء Ekkehard رئيس دير Aura إلى فلسطين مع الصليبيين الألمــان فى الحملات الصليبية لعام ١١٠١م. وبعد عودته إلى ألمانيا فى حوالى عام ١١١٥م كتب عملا يسمى Hierosolymita انتوى أن يكون جزءا من تاريخ للعــالم كــان يفكــر فى وضعه. وهو يتألف من ذكريات شخصية قليلة وقصص حكاها له أو لصديقه Frutholf of St Nichelsberg أعضاء عاملون فى الحملة الصليبية، واستكمله بمعلومات مأخوذة مــن تواريخ نشرت بالفعل. ودائما ما كان يذكر مصادره، ولكنه كــان ســاذجا ســريع التصديق.[٣]

وقد جاء Radulph of Caen إلى سوريا سنة ١١٠٨م؛ واشترك مع بوهيمند بالفعل فى حملة Epirot سنة ١١٠٧م ثم ألحق نفسه بتانكريد. وبعد موت تانكريد فى حــوالى سنة ١١١٣م، كتب *Gesta Tancredi Siciliae in Expeditione Hierosolymitana*؛ وهــو كتاب لايوجد إلا فى مخطوطة و لم يستكمل قط. ويدل أسلوبه على جهل كاتبه وإدعائه الكبير، ويضم القليل من فضلات شاملة من المعلومات حول بطلها، وبخلاف ذلك يسير

---

[6] Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

[2] Extracts of Hugh and Henry are published in the fifth volume of the *Recueil*. The *Expedition Cotra Turcos* is publish with Tudebod in the third volume.

[3] النسخة الواردة فى المجلد الخامس من *Recueil* أفضــل بكثــير مــن نســخة Hagenmeyer (*Ekkehard von Aura*, Leipzing, 1888).

على نهج أعمال أخرى منشورة بالفعل؛ ومع ذلك، لايبدو أن الكاتب قـــد قـــرأ *Gesta Francorum* .[4]

وترد أكثر الروايات المعاصرة إكتمالا للحملة الصليبية الأولى فى *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae* of Albert of Aix (Aachen)، وهو التاريخ الذى كتب فى وقت ما فى حـــوالى سنة 1130م. ولا نعرف شيئا عن Albert سوى أنه لم يذهب إلى الشرق مطلقا. وحـــتى منتصف القرن الماضى كان يعتبر أكثر المصادر أصالة لتاريخ الحملـــة الصليبيـــة؛ وأولاه مؤرخون عظام مثل جيبون Gibbon ثقتهم الكاملة. على أنه منذ أن نقـــده von Sybel نقدا هداما أصبح الإتجاه الحديث التقليل من شأنه على نحو لا يتصف بالعدل. وتاريخـــه عبارة عن تجميع لأساطير وروايات شهود العيان، جمعها بقدر ضئيل جدا مـــن الحـــس النقدى وبدون الإستشهاد بالمصادر. ومن الواضح أن روايته عن حياة بطرس الناســـك المبكرة لا يعتمد عليها؛ بيد أن سرده لحملة بطرس أمده بها يقينا أحد الذين اشـــتركوا فيها؛ فهناك تفصيلات مقنعة إجمالا مثل الوقت المستغرق فى الإنتقال مـــن مرحلـــة إلى أخرى فى المسيرة. ولابد من أنه اعتمد فى قصة رحلة جودفرى إلى القسطنطينية والمســـير عبر الأناضول على مارواه له جندى فى جيش جودفرى. وربما كان من عادته قبـــل أن يبدأ فى جمع كتابه تدوين المعلومات التى يدلى له بها الجنود والحجاج العـــائدون. ومـــن اليسير بصورة معقولة التعرف على ما يحويه كتابه من أساطير؛ علـــى أنـــه فى ســـرده لأحداث الحملة الصليبية ذاتها يتعين أن يعامل بما يستحقه من إحترام.[1]

---

[4] Ed. In the *Recueil*.

[1] Ed. In the *Recueil*. وهناك كم كبير من الكتابات عن Albert، من أهمها ما كتبـــه Kres, von Syble, وانظـــر أيضـــا Kügler, Kühne and Beaumont (see Bibliography) Hagenmeyer, *Le Vrai et le* و ،(المقدمة) *Geschichte des ersten Kreuzzuges*, 2nd ed. *Faux sur Pierre l'Hermite*، وخاصة صفحة 9 وما بعدها .

أما William of Tyre، وهو أعظم المؤرخين، الصليبيين، فقد كتب بعـــد الحملـــة الصليبية بحوالى سبعين سنة. وإلى أن وطّد الصليبيون أنفسهم فى فلسكين إعتمد فى كتابة تاريخه على Albert of Aix بصورة تكاد تكون مانعة؛ على أنه بعد الإستيلاء على القدس إستند تاريخه كذلك على ما بقى فى مملكة الصليبيين من سجلات وتراث. ولم يصبـــح تاريخه الرائع *Historia Rerum in Partibus Transmairnis Gestarum* مصدرا هاما إلا بعد إستخلاف بالدوين. وأرجو أن أناقشه بصورة أكثر إكتمالا فى جزء تـــالٍ مـــن هـــذا الكتاب. [1]

وهناك وجهة نظر مختلفة إختلافا بسيطا تغطى الســـنوات مـــن 1100 إلى 1163م أوردها Caffaro الجِنوى مؤلف The Annals of Genoa و *De Liberatione Civitatum Orientis* وهو العمل المكتوب سنة 1155م والذى أكْتُشِف ضمن بعض الأوراق القديمـــة بعد قرن من الزمان، ويحتمل أن يكون قد حدث فيه تغيير طفيف قبل نشـــره. وكـــان Caffaro من أسرة جِنوية جاءت إلى فلسطين سنة 1100م وتصطبغ روايته بالصبغة الوطنية وإن كانت معتدلة ويعتمد عليها. [2]

وجميع المؤرخين المعاصرين فى أوربا الغربية يذكرون الحملـــة الصليبيـــة، لكنـــهم يعتمدون إعتماداً كليا على مصدر أو آخر من المصادر التى ذكرناهـــا، باســـتثناء the *Chronicle* of Zimmern الذى يقدم معلومات عن الصليبيين الألمان. [3]

ولقد نتج عن الحملة الصليبية ملاحم حماسية باللاتينية وبلهجات فرنسا العصـــور الوسيطة شمالا وجنوبا. ومع ذلك، كان لمثيراتها الأدبية من الأهمية ما يفـــوق جدارتهـــا

---

(1) Ed. In the *Recueil*. See Prutz, *Wilhelm von Tyrus*, and Cahen, *op. cit.* pp. 17-18.

(2) Ed. In the fifth volume of the *Recueil*.

(3) Extrcts are published by Hagenmayer in vol. п of the *Archives de l'Orient Latin*.

التاريخية؛ ذلك أن الشعراء اللاتـــين Gregory the Lombard, Joseph of Exeter and Gunther of Basle ليست لهم قيمة من الناحية التاريخية. أما "أنشودة أنطاكية البروفنسـية *Provençal Chanson d'Antioche*" التي تنسب إلى Gregory Bechada فهي أكثر إثـــارة وتستحق مزيدا من الدراسة. وفي لهجات شمال فرنسا العصـــور الوسـيطة توجـد — بالإضافة إلى أنشودة Baudry الشعرية أنشودة أنطاكيـة a *Chanson d'Antioche* الـتي نظمها Graindor of Douai، وهي ترتكز جزئيا على Robert the Monk وجزئيـا علـى أنشودة سابقة نظمها Richard the Pilgrin الذي شارك في الحملة الصليبية على ما يبـدو في جيش Ropert of Flanders. وكان رجلا بسيطا جاهلا نوعا ما وإنما كانت له وجهـة نظره الخاصة به. فمثلا، وبرغم رغبته في أن يستولي الصليبيون على القسطنطينية، وكـان ودودا إزاء تاتيسيوس. كما توجد قصيدة شعرية بالفرنسية نظمها Ginon مـع بعـض التلفيقات التي حشرها من يدعى Fulcher تقوم على أساس نفـس المـادة، وأخـرى بالأسبانية *Gran Conquista d'Utramar*، في تاريخ لاحـق، تسـتخدم Bechada and William of Tyre and Graindor. وليست الدائرة سوى تاريخ أسطوري بطلها Godfrey of Lorraine، مثل *Chevalier eu Gygne*.[1]

والمتبقى لدينا من المراسلات المعاصرة للحملة الصليبية قليل جدا؛ وإن كان ذا أهمية عظمى. فهناك رسائل قليلة من وإلى البابا إيربان الثاني وباسكال الثاني؛ ومناشدتان مـن رجال الدين في الشرق؛ ورسالتان مثيرتان ، وإن كان هما الكثير من المراءاة، مرسـلتان من زعماء صليبيين؛ والأكثر قيمة رسالتان من كل من صليبيين بـارزين Stephen of Blois و Anselm أسقف Ribemont. وقد كتب ستيفن ثلاث رسائل لزوجته؛ ضـاعت الأولى التي كتبها لدى وصوله القسطنطينية. والثانية من معسكر في نيقية والثالثـة مـن معسكر في أنطاكية. وعلى الرغم من أن ستيفن كان رجلا ضعيفا إلا أنه كان مخلصـا ومتحمسا؛ ورسالتاه هما الأكثر إنسانية من بين وثائق الحملة الصليبية. وكتـب Anselm

---

[1] عن الملاحم الحماسية أنظر Hatem, *les Poèmes Epiques des Croisades* ، الذي يدافـع عن الأصل السوري للقصائد، والموجز الموجود في Cahen, *op. cit.* pp. 12-16.

رسالتيه من أنطاكية ووجههما إلى رئيسه Manases رئيس أساقفة Reims، ويحتويان على معلومات ولكنهما يخلوان من نوعية الكتابة الشخصية التى يتصف بها خطابا ستيفن.[1]

وليس هناك من شك فى الأهمية الكبيرة للقرارات البابوية القليلة التى تنظم الحملة الصليبية ، والمواثيق المتصلة بإنشاء المملكة الصليبية. وتضم محفوظات جنوا والبندقية مادة تتزايد أهميتها بتزايد إهتمام المدن الإيطالية بشؤون الصليبيين.

(3) المصادر العربية

على الرغم من كثرة المصادر العربية وأهميتها البالغة للحملات الصليبية المتأخرة فهى لاتعطينا سوى القليل فيما يتصل بالحملة الصليبية الأولى. ولم تبقَ أية مواثيق أو مستندات رسمية عن تلك الفترة. إن ما يشتهر به العرب من دوائر المعارف العظيمة والمؤلفات الجغرافية الكبيرة لاتكاد تهتم بسنوات الحملة الصليبية الأولى، باستثناء واحد، وهو أن أعمال المؤرخين الذين يعرف أنهم عاشوا فى ذلك الوقت لم تصل إلينا إلا على هيئة مقتبسات قصيرة متفرقة فى أعمال الكتاب المتأخرين. وليس هناك سوى تواريخ ثلاثة لها أهمية حقيقية.

فى الفترة من 1140 إلى 1160م كتب إبن القلانيسى الدمشقى Ibn al-Qalanisi of Damascus تاريخا عن مدينته فى وقت الغزوات التركية حتى عصره. ويظهر من عنوان تاريخه "مذيَّل تاريخ دمشق *Mudhayyal Tarikh Dimashq* " أن المقصود به أن يكون تذييلا لتاريخ المؤرخ هلال Hilal الذى كان يستهدف كتابة تاريخ عن العالم بينما لم

---

[1] يرد أفضل نشر لهذه الرسائل فى Hgenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe* . وهناك مجموعة مكتملة على نحو أكبر ترد فى Riant, *Inventaire des Lettres historiques*.

يهتم إبن القلانيسى إلا بدمشق وحكامها. وقد أمضى حياته فى ديوان الإنشاء بـالبلاط الدمشقى وتدرج فيه إلى أن أصبح رئيسا له، ومن ثم كان على دراية جيدة؛ ويبدو أنـه كان يتوخى الدقة والموضوعية إلا عندما كانت تتعرض سمعة رؤسائه للخطر.[1]

وفى بداية القرن الثالث عشر كتب إبن الأثير الموصلى Ibn al-Athir of Mosul كتابه "كامل التواريخ Kamil et-Tawarikh" وقد كان لإستخدامه المعتنى ونقـده للمصـادر السابقة أن جعل منه حجة لها أهمية بالغة رغم أن رواياته تتسـم عـادة بالإقتضـاب الشديد.[2]

وبعد ذلك بنصف قرن كتب كمال الدين الحلبى Kemal ad-Din of Aleppo تاريخه، الذى لم يستكمل حتى الآن، عن حلب وموسوعته؛ على أنه إستعان هو الآخر بما سبقه من مصادر واستشهد فى موسوعته بأسماء تلك المصادر، التى من بينها ما يثير ضياعه غاية الأسف، ألا وهو تاريخ الغزو الفرنجى لكاتبه حمدان بن عبد الرحيم الأثاربى، و لم يبق منه سوى صفحات قليلة حتى فى عصر كمال الدين نفسه.وتر ك إبن زريق المعرى، من معرة النعمان المولود سنة 1051م، والذى لعب دورا فى أحداث الحملة الصليبية، تاريخا لعصـره لم يعرف هو الآخر إلا من مقتطفات قليلة؛ وترك إبن زريق الحلـبى المولـود فى 1090م تاريخا لشمال سوريا فى وقت الحملة الصليبية، ما يزال موجودا منه الآن عدد أكبر بقليل من المقتطفات.[3]

---

[1] عن إبن القلانيسى أنظر مقدمة Gibb لترجمة فقرات تاريخ دمشق *Damascus Chronicle* التى تشير إلى الحملات الصليبية (أنظر ثبت المراجع). والنص العربى الكامل نشره Amedorz (Leyden, 1908).

[2] نشر Tornberg (Leyden, 195-76) الأعمال الكاملة لإبن الأثير باللغة العربية فى أربعة عشـر مجلدا، والفقرات ذات الصلة منشورة فى *R. H. G. Occ.*

[3] ليست هناك طبعة جيدة لتاريخ كمال الدين. ويرد فى *Recueil* فقرات كاملـة تتصـل بالحملـة الصليبية من 1097 إلى 1146م .

(4) المصادر الأرمينية

هناك مصدر أرميني لايقدر بثمن يغطي فترة الحملة الصليبية الأولى، ألا وهو: تاريخ ماثيو الأورفى *Chronicle* of Matthew of Edessa الذى يتناول تاريخ سوريا من سنة 952 إلى 1136م ولابد أنه كُتب قبل سنة 1140م. وكان ماثيو رجلا ساذجا يحمل الكراهية لليونانيين ولايشعر بكبير حب لأبناء جلدته من الأرثوذكس. ولابد أنه إستقى الكثير من معلوماته عن الحملة الصليبية من بعض جنود الفرنج الجهلة؛ أما عن الأحداث التى حدثت فى مدينته وما جاورها فكان على دراية كاملة.[1]

ويتناول الحملة الصليبية باقتضاب المؤرخون الأرمن اللاحقون مثل Samuel of Ani and Mekheta of Airavanq، الذين كتبا فى نهاية القرن الثانى عشر، وKirakos of Ganzag and Vartan the Great فى القرن الثالث عشر ويبدو أنهم إستفادوا من Matthew ومن تاريخ مفقود كتبه من يدعى Hohn the Deacon الذى يثنى على صموئيل ثناءً كبيرا، والذى أظهر عداءً معينا لا إزاء الإمبراطور ألكسيوس فحسب، وإنما أيضا إزاء أمه أنا دلاسينا Anna Dalassena.[2]

---

[1] نشر Dulaurier سنة 1858م ترجمة فرنسية من المخطوطات، ومقتطفات من النص الأرميني مع ترجمة فرنسية فى *R. H. C. Arm.*، ونُشر النص الأرميني بكامله فى القدس سنة 1868م ، ولم أتمكن من الحصول عليه، ولذا إستخدمت ترجمة Dulaurier، مع مطابقتها بقدر الإمكان بالمقتطفات الأرمينية المنشورة فى *Recueil*.

[2] ترد فى *Recueil* مقتطفات عن هؤلاء المؤرخين .

(5) المصادر السورية

العمل الوحيد الباقى الذى يتناول الحملة الصليبية الأولى هـــو تــاريخ ميخـــائيل السورى Michaeal the Syrian، بطريـــق أنطاكية اليعقوبى من 1166 إلى 1199م، وهو يمر مر الكرام بالفترة السابقة على سنة 1107م. ولقد استعان بالتواريخ السورية الأقدم الــتى ضاعت الآن، كما استعان بالمصادر العربية. ومعلوماته ضئيلة القيمة إلى أن يصـــل إلى عصره.[1]

وعلى الرغم من أن التواريخ الرئيسية للحملة الصليبية قد نشرت كل على حـــدة فإن التجميع الكبير الوحيد للمصادر هـــو *Recueil des Historiens des Croisades*، الذى نشر فى باريس من سنة 1844م قُدُما. وهو يتضمن نصوصا لاتينية وفرنسية قديمـــة وعربية ويونانية وأرمينية مع ترجمات إلى الفرنسية للكتاب الغربيين واليونانيين. ولســـوء الحظ شاب الإهمال طبعات المخطوطات فيما عدا المجلد الأخير (الخامس) من النصـــوص اللاتينية المنشورة بعد عدة سنوات من نشر باقى *Recueil*. كما أن هناك الكثـــير مـــن الفراغات العشوائية فى النصوص، وليست الترجمة دقيقة دائما. ومع ذلك، تبقى المجموعة شيئا لاغنى عنه لدارس الحملات الصليبية.

---

[1] ترجمها Chabot ونشرها.

الملحق الثانى

قوة الصليبيين العددية

يتورط أى مؤرخ من مؤرخى العصور الوسيطة، مهما كان جنسه، بدرجات متفاوتة فى مبالغات تشوبها الكتابات التصويرية الفظّة كلما اضطر إلى تقدير الأعداد التى لا سبيل إلى حصرها؛ ولذا يستحيل علينا اليوم إثبات الحجم الحقيقى الذى كانت عليه الجيوش الصليبية. فعندما يخبرنا Fulcher of Chartres and Albert of Aix أن مقاتلى الحملة الصليبية الأولى بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، بينما يخبرنا Ekkehard لأنهم كانوا ثلاثمائة ألف، ويورد Raymond of Aguilers رقما متواضعا قدره مائة ألف، أو عندما تعلن أنا كومنينا أن جودفرى اللوريني Godfrey of Lorraine أحضر معه عشرة آلاف فارس وسبعين ألف من المشاه، فمن الواضح أن هذه الأرقام لاتعنى سوى الدلالة على ضخامة العدد الكبيرة جدا فى الواقع.[1] على أنه عندما يتناول المؤرخون أعدادا أصغر، فلا حاجة هناك إلى إنعدام الثقة الكاملة فى هؤلاء المؤرخين، على الرغم من أنهم يفضلون ذكر رقم تقريبى. ومن الأدلة التى يسوقونها نستطيع أن نجرى تخفيضات معيّنة.

ولاسبيل إلى تقدير نسب أعداد غير المقاتلين فى الجيوش، إذ كانت أعدادهم مرتفعة يقينا. ولقد أحضر عدد كبير من الفرسان عقيلاتهم معهم؛ وقد إصطحب ريموند التولوزى Raymond of Toulouse زوجته، واصطحب بالدوين البولونى Baldwin of Boulogna زوجته وأولاده وكان مع بوهيمند أخت واحدة على الأقل. ونحن نعرف أسماء عدد من السيدات اللاتى اشتركن فى حملة روبرت النورمندى Robert of

(1) Anna Comnena, x, ix, 1, vol. 11, p. 220; Fulcher of Chartres, 1, x, 4, p. 183; Ekkehard, *Hierosolymite*, xiii, p. 21; Raymond of Aguilers, v, p. 242. ويذكر تاريخ *Chronicle of Zimmern*, p. 27 أن جيش Godfrey كان قوامه ٣٠٠٠٠ رجل.

Normandy، وأحيانا تظهر سيدات أخريات فى القصة. وقد جلبت كل هؤلاء السيدات معهن وصيفات، ويقينا كان مع الجيش عدد كبير من السيدات الأقل شأنا، من الفضليات ومن اللاتى يفتقدن الفضل والإحترام. وما نفتأ نسمع عن ذكور غير مقاتلين مثل بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ومخدومه. وكان عدد رجال الدين المصاحبين للجيش كبيرا، على أنه من الأرجح أن أغلب الذكور من غير المقاتلين كانوا يُدفعون دفعا إلى الخدمة فى أوقات الخطر. وليس من الممكن أن تجاوز نسبة غير المقاتلين الدائمين من النساء وكبار السن والأطفال ربع القوة كلها.

كما يُرجَّح أن معدل الوفيات كان مرتفعا بصورة خاصة بين غير المقاتلين، ولاسيما كبار السن والأطفال. أما معدل الوفيات بين المشاه المقاتلين بسبب الأمراض والمشاق فلابد أنه قد جاوز معدله بين الفرسان والسيدات، ممن كانت تتوفر لهم خدمات أفضل ومقدرة أكبر على شراء الطعام. وكان دور الفرسان فى المعارك أكثر تعرضا للقتال من المشاه ومن ثم كانت خسائرهم أكبر.

ويبدو أن نسبة الفرسان إلى المشاه حوالى واحد إلى سبعة مع الأخذ فى الإعتبار أن المشاه يشملون جميع القادرين على القتال. وربما كانت تقديرات أنا كومنينا صحيحة فيما يتعلق بالقوة النسبية لقوات جودفرى صحيحة، وإن تعين قسمة أرقامها على عشرة على الأقل. وفى معركة عسقلان التى إشترك فيها كل رجل متاح فى فلسطين، كان عدد الفرسان ألف وماءتين فارس وعدد المشاه تسعة آلاف راجل، وهى نسبة واحد إلى سبعة ونصف.[1] وفى حصار القدس، وإستنادا إلى Raymond of Aguilers، كان هناك ما بين ألف ومائتين إلى ألف وثلاثمائة فارس من جيش قوامه أثنى عشر ألف رجل، كان يضم - مع ذلك - أبناء جنوا وإنجليز وبحارة.[2] ويتعين أن يؤخد المصطلح "فارس" على أنه يعنى خيَّال مسلَّح وليس بأى معنى آخر من معانى الفروسية، بينما كان الكثير من رجال

---

(1) William of Tyre, ix, 12, vol. 1, pt. 1, p.380.

(2) Raymond of Aguilers, xix, p. 292.

المشاه غير مسلحين تسليحا كاملا. وربما كانت نسبة رماة السهام وحملة الحراب مجرد نسبة ضئيلة بصورة معقولة من المجموع الإجمالى.

وعن الجيوش كل على حده، فمن اليقين تقريبا أن جيش ريموند كان هو الأضخم، وإن لم يتوفر لدينا سوى دلالة واحدة على حجمه. ذلك أنه عندما سمع الشائعات الكاذبة فى كوكسون Coxon بأن الأتراك قد أخلوا أنطاكية أرسل قوة فرسان من خمسمائة فارس بمن فيهم بعض فرسانه البارزين، لإحتلال المدينة.[١] ويتواتر ذكر الرقم خمسمائة تواترا تشوبه الريبة، بيد أنه ربما كان ذلك الرقم يعتبر الوحدة الملائمة لغلوة أو حملة من هذا النوع. ومن غير المحتمل أن يكون ريموند قد حجز نصف قوة فرسانه فى هذه المرحلة. وإذا ما قابلنا هذا الرقم (٥٠٠) على أنه صحيح بوجه التقريب، فلابد وأن كانت قوة فرسانه كلها قد بلغت ألف ومائتى فارس أو أكثر، وإجمالى جيشه قد بلغ عشرة آلاف رجل عدا كبار السن والنساء والأطفال.[٢]

ويرد فى تاريخ لوقا Chronicle of Lucca أن بوهيمند ذهب إلى الشرق ومعه من الفرسان ٥٠٠ فارس.[٣] وتلاحظ أنا كومنينا أن جيشه لم يكن جيشا ضخما، ومن ثم ربما كان هذا الرقم صحيحا تماما.[٤] وقد سمح لتانكريد بأن يأخذ معه فى حملته على

---

[١] أنظر ما سبق ص ٣٠٣.

[٢] من الواضح أن جيش ريموند كان مازال جيشا هائلا عندما غادر فلسطين كما أظهرت الحملات اللاحقة .

[٣] من إقتباس .Chalandon, *Histoire de la Premiére Croisade*, p. 133. و لم أتمكن من إكتشاف التاريخ الذى يشير إليه.

[٤] Anna Comnena, x, ix, 1 vol. 11, p. 230 : "بوهيمند ... لم يكن لديه جيش كبير لأنه كان يفتقر إلى المال ... " .

كيليكيا مائة فارس ومائتى راجل. رغم أنه أرسل له لاحقا ثلاثمائة راجل آخرين. وتتفق هذه الأرقام مع بعضها البعض بصورة معقولة.[١]

والدليل الوحيد المتوفر لدينا على الأحجام النسبية للجيوش الأخرى يتمثل فى تصرف ريموند فى روجيا Rugia عندما حاول أن يرشو أنداده ليقبلوا زعامته، إذ عرض على جودفرى وروبرت النورمندى عشرة آلاف سو لكل منهما[٢] وعلى روبرت الفلاندرزى ستة آلاف سو، وتنكريد خمسة آلاف سو ومبالغ أقل للقادة الأقل شأنا. ولابد أن المبالغ قد حُددت فى علاقتها بالقوة التى يستطيع كل أمير تقديمها آنذاك. رغم أنه من المحتمل أن يكون ريموند قد عرض على تنكريد مبلغا أكبر بصورة تفاوتية كى يُبعده هو وأكبر عدد ممكن من النورمنديين عن بوهيمند.[٣]

ودليلنا الوحيد على حجم جيش جودفرى، بعيدا عن الرقم الخيالى الذى أوردته أنا كومنينا، يتمثل فى إستعداده لأن يتخلى عن خمسمائة فارس وألفى راجل لأخيه بلدوين من أجل حملته على كيليكيا. ولايحتمل فى الأغلب الأعم أن يكون قد تخلى عن نصف قوة فرسانه، حتى وإن كان فى نيته أن تعود هذه القوة للإنضمام إليه قبل الوصول إلى أنطاكية. والأمر يغرينا إلى أن نفترض أن العرض الذى عرضه ريموند فى روجيا Rugia كان يقوم على أساس دفع عشر عملات سو عن كل فارس. وفى ذات الوقت، لو أننا قسّمنا الرقم الذى ساقته أنا كومنينا على عشرة فقد نضيف إلى رصيد جودفرى حوالى ألف فارس وسبعة آلاف راجل وقت وصوله إلى القسطنطينية. ولابد أن خسائره كانت كبيرة قبل تاريخ الإجتماع المعقود فى روجيا، وذلك باستبعاد الفرسان الذين صحبوا بلدوين إلى الرها؛ على أن هناك من إنضم إليه من الباقين على قيد الحياة من حملة بطرس الناسك الصليبية والحملات الصليبية الألمانية التى لم يكتب لها النجاح، فضلا عن بعض

---

[١] أنظر ما سبق ص ٣١٤.

[٢] (المترجم) : سو Sou عملة فرنسية قديمة مختلفة القيمة.

[٣] أنظر ماسبق ص ٣٩٦.

بحارة جوليمار Guynerer الذين كان سيدهم بولوني، ومن الطبيعي لذلك أن ينضموا إلى كونت بولينيا وإخوته.[١]

وفي روجيا كان روبرت نورماندي يتساوى في المرتبة مع جودفري فإذا كان تحت إمرة جودفري ألف فارس فلابد وأن روبرت كان على نفس القدر من القوة. وبعد قرن من الزمان اضطرت نورماندي إلى تزويد دوقها بعدد من الفرسان يقل قليلا عن ستة آلاف فارس.[٢] وربما كان روبرت قادرا على أن يجمع بسهولة للحملة الصليبية أكبر عدد من الفرسان، ربما ستمائة وخمسين فارسا، وقد إنضم إليه جنود من بريتاني ومن وراء القناة الإنجليزية الأمر الذي ربما أضاف إليه مائة أو مائة وخمسين فارسا. وزيادة على ذلك، وبعد عودة ستيفن أوف بلوا وهيو أوف فيرمندوا إلى أوربا، فإنه قد تولى زمام قيادة قواتهما التي بقيت بعد رحيلهما . فأما ستيفن، الذي لم تكن أراضيه شاسعة وإنما كانت غنية، فربما قدم مائتين وخمسين أو ثلاثمائة فارس. وأما هيو، فيرجح أنه لم يحضر معه الكثير مما يزيد على مائة فارس. وإجمالا، يرجح بصورة معقولة أن روبرت كان لديه ما يقترب من ألف فارس تحت قيادته في وقت روجيا.

وبنفس القاعدة، لابد وأن كان لدى روبرت أوف فلاندرز ستمائة فارس أتى بعضهم من أراضي جاره كونت هينولت Count of Hainault. وكان روبرت مدين قانونا لمليكه، ملك فرنسا، بمجرد عشرين فارسا كاملي التسليح؛ غير أنه في سنة

---

(١) أنظر ما سبق الصفحات ٢٥٠-٢٥١و٣١٩.

(٢) *Milites Regni franciea*, in Bouquet, R. H. F. vol. xxII, pp. 684-5. وذلك يعطي نورمادي ٦٠ صاحب راية (المترجم : صاحب الراية هو فارس له أتباع تحت رايته في الميدان.) وذلك في زمن فيليب أوغسطس. وربما كان لكل صاحب راية عشرة من الخيَّالة . أنظر أيضا قائمة المرجع السابق vol. xxIII, p. 698 n. 2، التي تذكر ٥٨١ فارسا لدوقية نورماندي.

١١٠٣م عرض فى معاهدة تزويد هنرى الأول ملك إنجلترا بألف فارس.[١] ولـــذا مـــن اليسير عليه أن يجمع ستمائة فارس للحملة الصليبية.

وتتناسب مع هذه الأرقام قوة بوهيمند المؤلفة من خمسمائة فارس الـــتى ذكرهـــا تاريخ لوكا the Chronicle of Lucca. وإذا إفترضنا أن جيوش اللوردات الأقل شأنـــا تحتسب فى الجيوش الأكبر، وأن المبالغ التى عرضها عليهم ريموند فى روجيـــا شـــخصية خالصة، فإننا نصل إلى العدد الإجمالى للحملة كلها وهو تقريبا أربعة آلاف ومـــائتين إلى أربعة آلاف وخمسمائة فارس وثلاثين ألف راجل، بما فى ذلك المدنيين الذيـــن يمكـــن إجبارهم على الخدمة القتالية. ويرد فى الخطاب الذى كتبه ديامبرت للبابا قوة الجيـــش بخمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل. وربما كان هذا العدد الأخـــير للجيـــش يتضمن المقاتلين المسلحين فقط، أما الرقم الأول ففيه مبالغة عن رقم أربعة آلاف يمكـــن التغاض ى عنها.[٢]

ويبدو هذا الجيش صغيرا بما فيه الكفاية من الصغر. ومع ذلك، وعندما نتعـــرض للأرقام التى يذكرها المؤرخون لكل معركة على حده، نجد الأرقام أصغر من ذلك؛ ففى معركة بحيرة أنطاكية، وعندما قيل لنا إن جميع الفرسان دخلوا المعركة، لم يكن هنـــاك سوى سبعمائة فارس فى المعركة؛ على أن الكثير من الفرسان كانوا مرضـــى فى ذلـــك الوقت؛ ويتضح من رسالة أرسلها Anselm of Ribemont أن النقص الحقيقى كـــان فى الجياد، يقدر بأن لم يكن متاحا سوى ٧٠٠ فى وقت حصار أنطاكية، ولذا هلك الكثـير من الجوع ومن البرد؛ ويعلن أنه لم يكن هناك نقص فى عدد الرجال.[٣] وفضـــلا عـــن ذلك، يحتمل فى هذه المناسبة أن بقى فرسان ريموند معه لحراسة المعســـكر. وقيـــل إن

---

[١] *Actes des Cômtes de Flandres*, ed. by Vercauteren, nos. 30, 41، ومقتبســة بتعليقات فى Lot, *L'Artmilitaire et les Armées du Moyen Age*, vol. 1, p. 130 n. 2.

[٢] Letter in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, p. 172.

[٣] أنظر ما سبق ص ٣٤٣.

الحملة المغيرة التى قادها بوهيمند وروبرت أوف فلاندرز فى الشهر التالى كانت تتـــألف من ألفى فارس وخمسة عشر ألف راجل، وذلك قطعا باستبعاد جيش ريموند.[١] ولكن، مرة أخرى لم يكن حاضرا فى حصار القدس سوى ألف ونائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وأزيد قليلا من عشرة آلاف راجل؛ وكانت قوة الجيش فى عسقلان مماثلـــة جـــدا.[٢] وعلى الرغم من أن الكثير من الجنود قد لاقوا حتفهم أو قتلوا وأن كثيرين قد عـــادوا إلى أوطانهم، فمن الممكن أن تكون قوة الجيش قد تقلصت بمقدار الثلثين فى الفترة ما بـــين إجتماع روجيا وحصار القدس.

ولذلك، ليس بوسعنا إلا أن نعيد التاكيد على أن أى تقديـــر ينبغـــى أن يؤخـــذ بتحفظ. وأنا أعتقد أن قوام الجيش كله وقت أن غادر القسطنطينية قد بلغ على وجـــه التقريب العدد الإجمالى الذى سبق أن أقترحته أعلاه. وعلى مدى العامين التاليين تضاءل الجيش بصورة كبيرة جدا؛ وأما فى روجيا فقد كان حسابات ريموند عتيقـــة ويشـــوبها الكثير من التفاؤل إستخدمها ليبنى عليها عروضه. وفى إعتقادى أنه يمكن قبول الأرقـــام الصغيرة نسبيا، المذكورة فى تاريخ إنجازات بلدوين الجسورة، على أنها صحيحة علـــى الجملة.

ومن المحال بنفس القدر إحتساب حجم حملة بطرس الناسك الأصلى. فمن الواضح أن الرقم الذى أورده المؤرخ ألبرت أوف آيكس وهو أربعين ألف مبالغ فيه، وإن كـــان من المحتمل أن يصل عدد أتباعه إلى عشرين ألف شخص، وكان غير المقاتلين من هـــذا لرقم يمثل الأكثرية الساحقة.[٣]

---

[١] أنظر ما سبق ص ٣٤١.

[٢] أنظر ما سبق ص ٥٠٤ الحاشيتين ١و٢.

[٣] يقدر المؤرخ Chalandon, *op. cit.* p. 59 أن ١٥٠٠٠ شخصا غادروا فرنسا مع بطرس؛ ومـــن المحال التحقق من هذا العدد وهو معقول فيما يبدو. ويقول تاريخ *Chronicla of Zimmern*, pp. 27-8 إن بطرس كان معه ٢٩٠٠٠ شخصا فى سيفيتوت بعد أن قتل ٣٢٠٠ ألمان (فى كســـيريجوردون Xerigordon).

ولإغراض المقارنة، تجدر ملاحظة أن الجيش البيزنطى كله فى القرن التاسع قد أحتسب على أنه يبلغ مائة وعشرين ألف رجل. ولابد أن ضياع مقاطعات الأناضول قد نتج عن خفض القوات المتاحة بحلول نهاية القرن الحادى عشر؛ على أنه ربما كان بإمكان ألكسيوس الإستغناء عن سبعين ألف رجل إقتضت الحاجة إلى إستخدام أغلبهم فى شغل حاميات حدوده المترامية الأطراف، بينما كانت نسبة كبيرة يجرى تسريحها فى كل شتاء لأسباب إقتصادية. ومن غير المحتمل أن يكون أكبر جيش دافع به البيزانطيون فى المعارك فى هذه الفترة يزيد على عشرين ألف رجل من الجنود المجهزين والمدربين على نحو جيد. ومن المحال تقدير أحجام الجيوش الإسلامية؛ وربما بلغ جيش كيربوقا حوالى ثلاثين ألف رجل، ولكن ليس هناك من دليل فعلى على ذلك. وكان قادرا على الإضطلاع بحصار أنطاكية أكثر فاعلية مما كان يستطيعه الجيش الصليبى. ومن المؤكد أن جيش المصريين فى عسقلان كان أكبر من جيش الصليبيين، وإن لم يكن هناك من سبيل لمعرفة حجمه الفعلى سوى بالتخمين. ومن المشكوك فيه ما إذا كان الجيش التركى فى دوريليوم على نفس القدر من ضخامة جيش الصليبيين؛ إذ كان الأتراك يعتمدون على هجومهم المفاجئ وعلى حركتهم لتعويض أى نقص فى أعدادهم .

(ثبت المراجع)

BIBLIOGRAPHY

I. ORIGINAL SOURCES

1. Collections of Sources

[*Note.* The abbreviations at the end of certain items are used to refer to these items in the footnotes and the following sections of the bibliography.]

Achéry, L. d'. *Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum*, 13 vols. Paris, 1655–77. 2nd ed. (ed. L. F. J. de la Barre), 3 vols. Paris, 1723.

Acta Sanctorum (*Bollandiana*). Antwerp-Paris-Rome-Brussels, 1643– (in progress). [*Aa. Ss.*]

Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti (ed. J. Mabillon and L. d'Achéry), 9 vols. Paris, 1668–1701.

Amedroz, H. F. and Margoliouth, D. S. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate: Original Chronicles of the Fourth Islamic Century*, 6 vols. and Index. Oxford, 1920–1.

Archives de l'Orient Latin, pub. Société de l'Orient Latin, 2 vols. Paris, 1881–4.

Assemani, J. S. *Bibliotheca Orientalis*, 3 vols. Rome, 1719–28.

Benechewitch, V. *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum qui in Monasterio Sanctae Catharinae in Monte Sinai Asservantur*. St Petersburg, 1911.

Bouquet, M. and others. *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*, 23 vols. Paris, 1738–1876. New series, Paris, 1899– (in progress). [*R.H.F.*]

Brosset, M. F. *Collection d'Historiens Arméniens*, 2 vols. St Petersburg, 1874–6.

Caetani, L. See Bibliography, p. 352.

Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium (ed. J. B. Chabot and others). Paris, 1903– (in progress). [C.S.C.O.]

Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum. Vienna, 1866– (in progress).

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn, 1828–97. [*C.S.H.B.*]

Dölger, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, 3 vols. Munich-Berlin, 1924–32.

Fonti per la Storia d'Italia, Istituto Storico Italiano. Rome, 1887– (in progress).

Hagenmeyer, H. *Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088–1100*. Innsbruck, 1902.

Holtzmann, W. See Bibliography, p. 355.

Jaffé, P. *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, 6 vols. Berlin, 1864–73.

Jaffé, P. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2nd ed. (ed. W. Wattenbach, S. Loewenfeld, and others), 2 vols. Leipzig, 1885–8.

Leib, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites au début du XIIme Siècle*. Rome, n.d. (1924).

Bibliography

Liber Pontificalis (ed. L. Duchesne), 2 vols. Paris, 1884–92.

MABILLON, J. *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, 6 vols. Paris, 1703–39.

MABILLON, J. *De Re Diplomatica Libri VI*. Paris, 1681.

MANSI, J. D. *Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio*, 31 vols. Florence, Venice, 1759–98. *Continuation* (ed. J. B. Martin and L. Petit). Paris, 190– (in progress).

MIGNE, J. P. *Patrologiae Cursus Completus*.
 I, *Patrologia Latina*, 221 vols. Paris, 1844–55. [*M.P.L.*]
 II, *Patrologia Graeco-Latina*, 161 vols. in 166. Paris, 1857–66. [*M.P.G.*]

MONTFAUCON, B. DE. *Bibliotheca Coisliniana*. Paris, 1715.

Monumenta Germaniae Historica (ed. G. H. Pertz, T. Mommsen, and others). Hanover, 1826– (in progress). [*M.G.H.*]

MURATORI, L. A. *Rerum Italicarum Scriptores*, 25 vols. Milan, 1723–51. [*R.I.Ss.*]

NEUBAUER, A. and STERN, M. *Quellen zur Geschichte der Juden in Deutschland*, 2 vols. Berlin, 1892.

Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. and Index. London, 1896–7. [*P.P.T.S.*]

Patrologia Orientalis (ed. R. Graffin and F. Nau). Paris, 1907– (in progress). [*P.O.*]

Recueil des Historiens des Croisades. Publ. Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris, 1841–1906.
 Documents Arméniens, 2 vols. 1869–1906. [*R.H.C.Arm.*]
 Historiens Grecs, 2 vols. 1875–81. [*R.H.C.G.*]
 Historiens Occidentaux, 5 vols. 1844–95. [*R.H.C.Occ.*]
 Historiens Orientaux, 5 vols. 1872–1906. [*R.H.C.Or.*]

RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades*, *Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.

RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*, 2 vols. Innsbrück, 1893–1904.

ROZIÈRE, E. DE. *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs du Vme au Xme Siècle*, 2 vols. Paris, 1859.

SATHAS, K. N. Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, 7 vols. Venice-Paris, 1872–9.

TOBLER, T. and MOLINIER, A. *Itinera Hierosolymitana et Descriptiones Terrae Sanctae*, 2 vols. Geneva, 1879.

UGHELLI, F. *Italia Sacra*, 9 vols. Rome, 1644–62.

VAISSÈTE, DOM. See Bibliography, p. 359.

2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

Adamnan. *Arculf's Narrative about the Holy Places* (trans. J. R. Macpherson). *P.P.T.S.* vol. III.

Aetheria. See *Pilgrimage of Saint Silvia*.

Bibliography

Aimé of Monte Cassino. *Chronicon, L'Ystoire de li Normant* (ed. O. Delarcq). Rouen, 1892.

Albert of Aix (Albertus Aquensis). *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Alexius I Comnenus. Letters nos. I, V and XI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Ambrose, St, Archbishop of Milan. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XVI.

Annales Altahenses Majores, in *M.G.H. Scriptores*, vol. XX.

Annales Pisani (ed. P. Tronci), 4 vols. Pisa, 1828–9.

Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum (ed. L. Bréhier as *Histoire Anonyme de la Première Croisade*). Paris, 1924. (Also ed. H. Hagenmeyer. Heidelberg, 1890.)

Anselm of Ribemont. Letters nos. VIII and XV, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Augustine, St, of Hippo. *Contra Faustum*, in *M.P.L.* vol. XLII.

Augustine, St, of Hippo. *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. XLI.

Augustine, St, of Hippo. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XXXIII.

Bartolf of Nangis. *Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Baudri of Dol. *Historia Jerosolimitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Baudri of Dol. *Vita di Roberti de Arbrisello*, in *Aa. Ss.* (23 February), vol. III.

Bechada, Gregory. *Chanson d'Antioche en provençal* (ed. P. Meyer) in 'Fragment d'une Chanson d'Antioche en provençal', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II.

Benedict of Accolti. *Historia Gotefridi*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Berno. *Libellus de Officio Missae*, in *M.P.L.* vol. CXLII.

Bernold of Constance (Saint-Blaise). *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. V.

Bohemond. Charter no. X, and letters (with other princes) nos. XII and XVI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Caffaro de Caschifelone. *Annales Ianuenses*, in *Fonti per la Storia d'Italia*, vols. I and II.

Caffaro de Caschifelone. *De Liberatione Civitatum Orientis Liber*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.

Cartulaire de Saint-Chaffre (ed. U. Chevalier). Paris, 1881.

Chanson du Chevalier au Cygne (Belgian version, ed. Reiffenberg and Borgnet), 3 vols. Brussels, 1846–59.

Chanson du Chevalier au Cygne (ed. Hippeau), 2 vols. Paris, 1874–7.

Chronicon Barense, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.

Chronique de Zimmern (German text with French trans., ed. Hagenmeyer), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II.

Clementia, Countess of Flanders. Charter no. VII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Clergy of Lucca. Letter no. XVII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

Commemoratorium de Casis Dei vel Monasteriis, in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana*, vol. I.
Cosmas of Prague. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VII.
Daimbert (Dagobert), Archbishop of Pisa and Patriarch of Jerusalem. Letters nos. XVIII and XXI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
De Sancto Wlphlagio, in *Aa. Ss.* (7 June), June, vol. II.
Ekkehard of Aura. *Chronicon Universale*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VI.
Ekkehard of Aura. *Hierosolymita*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.
Ennodius. *Libellum pro Synodo*, in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. VI. Vienna, 1882.
Expeditio Contra Turcos (ed. at base of Tudebod), in *R.H.C.Occ.* vol. III.
Fulbert of Chartres. *Epistolae*, in *R.H.F.* vol. X.
Fulcher of Chartres. *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* (ed. H. Hagenmeyer). Heidelberg, 1913.
Genoese citizens. Pact with Bohemond no. XIV, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
Gesta Adhemari Episcopi Podiensis Hierosolymitana, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Gesta Francorum. See *Anonymi Gesta Francorum*.
Gilon. *De Via Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Glaber. See Radulph.
Graindor of Douai. See Richard the Pilgrim.
Gregory VII, Pope. *Epistolae*, in *Monumenta Gregoriana*, vol. II of Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*.
Gregory VII, Pope. *Registra* (ed. E. Caspar), in *M.G.H. Epistolae*, vol. II.
Gregory of Tours. *De Gloria Martyrum*, in *M.P.L.* vol. LXXI.
Guibert of Nogent. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.
Gunther of Basle. *Solymarius*, in *Archives de l'Orient Latin*, vol. I.
Henry of Huntingdon. *De Captione Antiochiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Historia Belli Sacri (*Tudebodus Continuatus*), in *R.H.C.Occ.* vol. III.
Historia et Gesta Ducis Gotfridi, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Hugh of Fleury. *Itineris Hierosolymitani Compendium*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Hugh of Lerchenfeld. *Breviarium Passagii in Terram Sanctam*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.
Itinerary of Bernard the Wise (trans. J. H. Bernard), in *P.P.T.S.* vol. III.
Itinerary of the Bordeaux Pilgrim (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. I.
Jerome, St. *De Viris Illustribus*, in *M.P.L.* vol. XXIII.
Jerome, St. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XXII.
Jerome, St. *Liber Paralipumenon*, in *M.P.L.* vol. XXVIII.
John VIII, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. CXXVI.
Joseph of Exeter. *Poemata* (ed. J. Jusserand), *De Josepho Exoniensi*. Paris, 1877.
Joseph the Historiographer. *Tractatus de Exordio Sacrae Domus Hospitalis Jerosolimitani*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Bibliography

Lambert of Arras. Canons of the Council of Clermont, in Mansi, *Concilia*, vol. xx.
Leo IX, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. cxliii.
Leo of Ostia. *Chronicon Monasterii Casinensis*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. vii.
Lisiard of Tours. *Historiae Hierosolimitanae Secunda Pars*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
Liudprand of Cremona. *Opera* (ed. J. Becker). Hanover-Leipzig, 1925.
Malaterra, Gaufredus. *Historia Sicula*, in *M.P.L.* vol. cxlix.
Martin I, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. lxxxvii.
Milites Regni Franciae, in *R.H.F.* vol. xxii.
Miracles de Saint-Benoît (ed. E. de Certain). Paris, 1856.
Miracula Sancti Wolframni Senonensis, in *Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti*, ser. iii, pt. ii.
Monitum in Balduini III Historiae Nicenae vel Antiochenae Prologum, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. i.
Nicholas I, Pope. *Epistolae*, in *M.G.H. Epistolae*, vol. vi.
Notitiae Duae Lemovicenses de Praedicatione Crucis in Aquitania, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
Orderic Vitalis. *Historia Ecclesiastica* (ed. A. Le Prevost and L. Delisle) in Société de l'Histoire de France, 5 vols. Paris, 1838–55.
Paschal II, Pope. Letters nos. xix and xxii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
Peregrinatio Frotmundi, in *Aa. Ss.* (24 October), Oct., vol. x.
Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. i.
Prudentius. *Carmina* (ed. J. Bergman), in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. lxi.
Radulph of Caen. *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana.* in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
Radulph Glaber. *Historiarum Sui Temporis Libri V*, in *R.H.F.* vol. x.
Raymond of Aguilers. *Histöria Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
Richard the Pilgrim. *La Chanson d'Antioche*, in *Roman des Douze Pairs: La Chanson d'Antioche composée au Commencement du XIIme Siècle par le Pélérin Richard, renouvelée sous le Règne de Philippe Auguste par Graindor de Douai et publiée pour la première fois par Paulin Paris*, 2 vols. Paris, 1848.
Robert the Monk. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
Sigebert of Gembloux. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. vi.
Stephen of Blois. Letters nos. iv and x, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
Symeon, Patriarch of Jerusalem (with others). Letters nos. vi and ix, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
Tolomeo. *Annales Lucchenses*, in *M.G.H. Scriptores* (new ser.), vol. viii.
Translatio Sancti Nicolai in Venetiam, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. i.
Tudebod. *De Hierosolymitano Itinere*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
Urban II, Pope. Letters nos. ii and iii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

Victor II, Pope. Letter no. 1 (wrongly attributed to Victor III), in *M.P.L.* vol. CXLIX.

Victricius, St. *Liber de Laude Sanctorum*, in *M.P.L.* vol. XX.

Vita Genovefae Virginis Parisiensis, in *M.G.H. Scriptores Rerum Merovingiarum*, vol. III.

Vita Lietberti, in d'Achéry, *Spicilegium*, vol. IX.

Vita Urbani II, in *Liber Pontificalis*, vol. II.

William of Malmesbury. *Gesta Regum* (ed. W. Stubbs), Rolls Series, 2 vols. London, 1887–9.

William of Tyre. *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, in *R.H.C. Occ.* vol. I, pts. I and II. Old French version, *L'Estoire de Eracles, Empereur, et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ibid.*

Willibald. *Hodoeporicon* (trans. W. R. Brownlow), in *P.P.T.S.* vol. III.

3. Greek Sources

Anna Comnena. *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 3 vols. Paris, 1937–45. (Also ed. Ducange, in *R.H.C.G.* vol. I.)

Attaliates, Michael. *Historia* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1853.

Basil, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. XXIX–XXXII.

Bryennius, Nicephorus. *Historia* (ed. A. Meineke), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Cedrenus, Georgius. *Synopsis Historiarum* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1839.

Cerularius, Michael, Patriarch. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. CXX.

Chronicon Paschale (ed. L. Dindorf), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1832.

Constantine Porphyrogennetus. *De Ceremoniis Aulae Byzantinae* (ed. J. J. Rieske), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1829–30. (Also ed. A. Vogt, in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 4 vols. Paris, 1935–40.)

Doctrina Jacobi nuper Baptizati (ed. N. Bonwetsch), in *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaft zu Göttingen, Phil.-Hist. Klasse*, Neue Folge, vol. XII, no. 3. Berlin, 1910.

Eastern Patriarchs. Letter to Theophilus, in *M.P.G.* vol. XCV.

Eusebius of Caesarea. *Ecclesiastical History* (trans. H. J. Lawlor and J. E. L. Oughton), 2 vols. London, 1928.

Glycas, Michael. *Chronicon* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Gregory Nazianzene, St. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. XLVI.

John VI Cantacuzenus. *Historia* (ed. L. Schopen), in *C.S.H.B.* 3 vols. Bonn, 1828–32.

John Chrysostom, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. XLVII–LXIV.

John the Oxite, Patriarch of Antioch. Περὶ τῶν Ἀζύμων, in Leib, *Deux Inédits Byzantins*.

Bibliography

Nicephorus Callistus. *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. CXLVI.
Nicephorus, Patriarch. *Opuscula Historica* (ed. C. de Boor), in *Bibliotheca Teubneriana*. Leipzig, 1880.
Origen. *In Joannem*, in *M.P.G.* vol. XIV.
Passio LX Martyrum et Legenda Sancti Floriani (ed. H. Delehaye), in *Analecta Bollandiana*, vol. XXIII. Brussels, 1903.
Peter, Patriarch of Antioch. Letter to Michael Cerularius, in *M.P.G.* vol. CXX.
Synopsis Chronicon, in Sathas, Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, vol. VII.
Theodosius, Patriarch of Jerusalem. Letter to Ignatius of Constantinople, in Mansi, *Concilia*, vol. XVI.
Theophanes Confessor. *Chronographia* (ed. C. de Boor), 2 vols. Leipzig, 1883–5.
Theophylact, Archbishop of Bulgaria. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. CXXVI.
Zonaras, Joannes. *Epitome Historiarum*, vol. III (ed. T. Büttner-Wörst), in *C.S.H.B.* Bonn, 1897.

4. Arabic and Persian Sources

[*Note*. The titles of the works are translated into English.]

Abu'l Feda. *Moslem Annals* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. I. (Full text with Latin trans. ed. J. Reiske. Copenhagen, 1789–94.)
Abu'l Mahāsin. MS. passages quoted with Russian trans. in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar-slayer*.
Agapius of Maboug. *Universal Chronicle* (ed. with French trans. by A. A. Vasiliev), in *P.O.* vols. V, VII and VIII.
Antiochus the Stratege. *Capture of Jerusalem by the Persians*, Arabic version (ed. with French trans. by A. Couret), in *Revue de l'Orient Chrétien*. Paris, 1897. See Bibliography, p. 350.
Balādhurī. *The Conquest of the Nations*, Arabic text. Cairo, A.H. 1319. (English trans. by P. K. Hitti and F. C. Murgotten, 2 vols. New York, 1916–24.)
Chronicle of Seert (ed. with French trans. by A. Scher), in *P.O.* vols. IV, V, VII and XIII.
Eutychius, Patriarch of Alexandria. *Annals* (Latin trans. in *M.P.G.* vol. CXI).
Ibn al-Athir. *History of Atabegs of Mosul* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. II, pt. II.
Ibn al-Athir. *Sum of World History* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Occ.* vol. I. (Full Arabic text ed. C. J. Tornberg, 14 vols. Leyden-Upsala, 1851–76.)
Ibn Khaldūn. *Universal History*, Arabic text, 7 vols. Bulaq, A.H. 1287. (Partial Latin trans. by C. J. Tornberg. Upsala, 1840.)

Bibliography

Ibn al-Qalānisī. *Continuation of the Chronicle of Damascus: The Damascus Chronicle of the Crusades* (selected and trans. into English by H. A. R. Gibb). London, 1932. (Full Arabic text ed. H. F. Amedroz. Leyden, 1908.)
al-Jahiz. *Three Essays* (ed. J. Finkel). Cairo, 1926.
Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. III.
Miskawaihi. *The Experiences of the Nations* (concluding portions with English trans. by D. S. Margoliouth), in Amedroz and Margoliouth, *Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vols. I and II (Arabic text); vols. IV and V (English text).
Mukaddasi. *Description of Syria* (English trans. by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. III.
Nasir-i-Khusrau. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (English trans. from the Persian by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. IV.
Severus of Aschmounein. *History of the Patriarchs of Alexandria* (ed. with English trans. by B. Evetts), in *P.O.* vols. I and V.

5. Armenian Sources

Aristaces of Lastivert. *History* (Armenian text). Venice, 1844.
Kirakos of Gantzag (Guiragos of Kantzak). *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Matthew of Edessa. *Chronicle* (French trans. by E. Dulaurier). Paris, 1858. (Extracts with French trans., in *R.H.C.Arm.* vol. I.)
Mekhitar of Airavanq. *History* (Armenian text). St Petersburg, 1867.
Samuel of Ani. *Chronological Tables* (French trans.), in Brosset, *Collection d'Historiens Arméniens*, vol. II.
Sebeos. *History of Heraclius* (Armenian text). Constantinople, 1851.
Sembat, Constable of Armenia. *Chronicle* (Armenian text). Paris, 1859.
Vahram Rabuni. *History of the Rupenian Dynasty* (rhyming chronicle, Armenian text with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Vartan the Great. *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

6. Syriac Sources

Anonymous Chronicle (ed. A. S. Tritton with English trans.) in 'First and Second Crusades from an anonymous Syriac chronicle', in *Journal of the Royal Asiatic Society*. London, 1933.
Anonymous Chronicle (ed. with Latin trans. by I. Guidi), in *C.S.C.O Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV. (Quoted as *Anon. Guidi.*)
Bar Hebraeus, Gregory, called Abu'l Faraj. *Chronography*. Part I, *Political History* (ed. with English trans. by E. A. W. Budge), 2 vols. Oxford, 1932. Parts II and III, *Ecclesiastical History* (ed. with Latin trans. by

Bibliography

J. B. Abbeloos and T. J. Lamy), 2 vols. Louvain, 1872–7. (Extracts in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. II.)
Elias of Nisibin. *Chronicle* (ed. with French trans. by E. W. Brooks and J. B. Chabot), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vols. VII and VIII.
Michael the Syrian. *Chronicle* (ed. with French trans. by J. B. Chabot), 4 vols. Paris, 1899–1910.
'Thomas the Priest.' *Book of the Caliphs* (ed. as *Chronicon Miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens* with Latin trans. by E. W. Brooks), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV.

7. Hebrew Sources

Anonymous of Mainz-Darmstadt. *Memorial* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.
Eliezer bar Nathan. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.
Ephraim bar Jacob. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.
Martyrology of Nuremberg, Das Martyrologium des Nürnberger Memorbuches (ed. with German trans.), in Safeld, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. III. Berlin, 1898.
Salomon bar Simeon. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

8. Various Sources

Antiochus the Stratege. *Capture of Jerusalem by the Persians*, in Georgian (ed. with Russian trans. by A. Marr), in *Textes et Recherches rélatifs à la Philologie Arménienne*, vol. IX. St Petersburg, 1909. (This work was probably originally written in Greek. The Georgian version is derived from a lost Arabic version, of which the work mentioned in Bibliography, p. 348, is an abridgement. A second Georgian and a slightly fuller Arabic version have since been discovered. See P. Peeters in *Analecta Bollandiana*, vols. XXXI and XXXVIII.)
John of Nikiu. *Chronicle* (trans. from the Ethiopic by R. H. Charles). London, 1916. (This work was originally written in Greek and translated into Arabic and from Arabic into Ethiopic. Both the Greek and Arabic versions are lost.)

II. MODERN WORKS

Amann, E. and Dumas, A. *L'Eglise au pouvoir des Laïques*, vol. VII of A. Fliche and V. Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1940.
Amantos, K. Ἱστορία τοῦ Βυζαντινοῦ Κράτους, 2 vols. Athens, 1939–48.
Amari, M. *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 9 vols. Florence, 1854–72.

Bibliography

Améllineau, E. 'La Conquête de l'Egypte par les Arabes', in *Revue Historique*, vol. cxix. Paris, 1915.

Anderson, J. G. C. 'The Road-System of Eastern Asia Minor', in *Journal of Hellenic Studies*, vol. xvii. London, 1897.

Archer, T. A. and Kingsford, C. L. *The Crusades*. London, 1894.

Arnold, T. and Guillaume, A. *The Legacy of Islam*. Oxford, 1931.

Ballesteros y Beretta, A. *Historia de España*, vol. ii. Barcelona, 1908.

Barker, E. Article 'The Crusades', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.

Barthold, W. Article 'Turks', in *Encyclopaedia of Islam*.

Barthold, W. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Gibb Memorial Series. Oxford, 1928.

Baudrillart, A., Vogt, A. and Rouziès, M. *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*. Paris, 1912– (in progress).

Beaumont, A. A. 'Albert of Aachen and the County of Edessa', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

Becker, C. H. Article 'Djizya', in *Encyclopaedia of Islam*.

Berchem, M. van. 'The Mosaics of the Dome of the Rock at Jerusalem and of the Great Mosque at Damascus', ch. v in Creswell, *Early Muslim Architecture*.

Bleye, A. *Manual de Historia de España*, 2 vols. Bilbao, 1927–8.

Bogiatzides, I. 'Ιστορικαὶ Μελέται. Thessalonica, 1932.

Boissonnade, P. 'Cluny, la Papauté et la première grande Croisade internationale contre les Sarrasins d'Espagne', in *Revue des Questions Historiques*, vol. cxvii. Paris, 1932.

Boissonnade, P. *Du nouveau sur la Chanson de Roland*. Paris, 1923.

Bréhier, L. *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades*. Paris, 1928.

Bréhier, L. and Aigran, A. *Grégoire le Grand, les Etats barbares et la Conquête Arabe*, vol. v of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*.

Breysig, T. 'Gottfried von Bouillon vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte*, vol. xvii. Trier, 1898.

Browne, L. E. *The Eclipse of Christianity in Asia*. Cambridge, 1933.

Buckler, G. *Anna Comnena*. Oxford, 1929.

Buhl, F. Articles 'Al Kuds' and 'Muhammed', in *Encyclopaedia of Islam*.

Burkitt, F. C. *Early Eastern Christianity*. London, 1904.

Bury, J. B. *History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene*, 2 vols. London, 1889.

Bury, J. B. *Selected Essays* (ed. Temperley). Cambridge, 1930.

Bury, J. B. 'The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos', in *English Historical Review*, vol. xxii. London, 1907.

Butler, A. J. *The Arab Conquest of Egypt*. Oxford, 1902.

Byrne, E. H. 'Genoese Colonies in Syria', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

Bibliography

CABROL, F. and LECLERCQ, H. *Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie.* Paris, 1907- (in progress).

CAETANI, L. C. *Annali dell' Islam,* 7 vols. Milan, 1905-14.

CAHEN, C. 'Diyar Bakr au temps des premiers Artuqides', in *Journal Asiatique,* vol. CCXXVII. Paris, 1935.

CAHEN, C. 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Mussulmanes', in *Byzantion,* vol. IX. Brussels, 1934.

CAHEN, C. 'La première Pénétration turque en Asie Mineure', in *Byzantion,* vol. XVIII. Brussels, 1948.

CAHEN, C. *La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades.* Paris, 1940.

CAHEN, C. 'La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique,* vol. CCXXXIV. Paris, 1943-5.

Cambridge Medieval History (planned by J. B. Bury), 8 vols. Cambridge, 1911-36.

CAUWENBERGH, E. VAN. *Les Pèlerinages expiatoires et judiciaires dans le droit communal de la Belgique au Moyen Age.* Louvain, 1922.

CAVAIGNAC, E. *Histoire du Monde.* See Gaudefroy-Demombynes.

CHALANDON, F. *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène Ier.* Paris, 1900.

CHALANDON, F. *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile,* 2 vols. Paris, 1907.

CHALANDON, F. *Histoire de la première Croisade.* Paris, 1925.

CHALANDON, F. *Les Comnènes,* t. II: *Jean II Comnène et Manuel Comnène.* Paris, 1913.

CHAMICH, M. *History of Armenia* (trans. J. Avdall), 2 vols. Calcutta, 1827.

CHEVALIER, U. *Cartulaire de Saint-Chaffre.* See Bibliography, p. 344.

CHRISTENSEN, A. *L'Iran sous les Sassanides.* Paris-Copenhagen, 1936.

COGNASSO, F. *La Genesi delle Crociate.* Turin, 1934.

COURET, A. *La Palestine sous les Empereurs grecs.* Grenoble, 1869.

COURET, A. *La Prise de Jérusalem par les Perses en 614.* Orléans, 1896.

CRESWELL, K. A. C. *Early Muslim Architecture,* 2 vols. Oxford, 1932-40.

CROZET, R. 'Le Voyage d'Urbain II et ses arrangements avec le Clergé de France', in *Revue Historique,* vol. CLXXIX. Paris, 1937.

DAVID, C. W. *Robert Curthose.* Cambridge, Mass., 1920.

DELBRÜCK, H. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte,* 3 vols. Berlin, 1907.

DELEHAYE, H. *Les Origines du Culte des Martyres,* in *Analecta Bollandiana,* vol. XLIV. Brussels, 1925.

DELEHAYE, H. *Sanctus: Essai sur le Culte des Saints.* Brussels, 1927.

DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire.* Cambridge, Mass., 1945.

DESCHAMPS, P. *Les Châteaux des Croisés en Terre Sainte*: vol. I, *Le Crac des Chevaliers.* Paris, 1934; vol. II, *La Défense du Royaume de Jérusalem.* Paris, 1939.

Bibliography

DEVREESSE, R. *Le Patriarchat d'Antioche*. Paris, 1945.
DIEHL, G. and MARÇAIS, G. *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, vol. III of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1936.
DIEHL, C., MARÇAIS, G., OECONOMOS, L., GUILLAUD, R. and GROUSSET, R. *L'Europe Orientale de 1081 à 1453, ibid.* vol. IX. Paris, 1945.
DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, vol. II. Munich-Berlin, 1925.
DOZY, R. *Histoire des Musulmans d'Espagne* (new ed.), 3 vols. Leyden, 1932.
DUCANGE, C. DU F. *Les Familles d'Outremer* (ed. E. G. Rey). Paris, 1869.
DUCHESNE, L. *Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical*. Paris, 1898.
DUNCALF, F. 'The Pope's Plan for the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
DUVAL, R. *Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse*. Paris, 1892.
DUSSAND, R. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*. Paris, 1927.
DVORNIK, F. *The Photian Schism*. Cambridge, 1948.
EBERSOLT, J. *Les Sanctuaires de Byzance*. Paris, 1921.
EBERSOLT, J. *Orient et Occident*, 2 vols. Paris, 1928–9.
Encyclopaedia of Islam, 4 vols. Leyden-London, 1908–34.
ENLART, C. *Les Monuments des Croisés*, 2 vols. (with albums). Paris, 1925–8.
ERDMANN, C. *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*. Stuttgart, 1935.
EVERY, G. *The Byzantine Patriarchate*. London, 1947.
FLICHE, A. *Le Règne de Philippe Ier, Roi de France*. Paris, 1912.
FLICHE, A. *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, vol. II of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1930.
FLICHE, A. 'Urbain II et la Croisade', in *Revue de l'Histoire de l'Eglise de France*, vol. XIII. Paris, 1927.
FLICHE, A. and MARTIN, E. V. *Histoire de l'Eglise*. See Amann and Bréhier.
FRITSCHE, E. *Islam und Christentum im Mittelalter*. Breslau, 1930.
FRYE, R. and SAYILI, A. 'Selcuklardan evvel Ontasarkta Türkler', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1946.
GAUDEFROY-DEMOMBYNES, J. and PLATONOV, S. F. *Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades*, in E. Cavaignac, *Histoire de Monde*, vol. VII[1]. Paris, 1931.
GAY, J. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*. Paris, 1904.
GAY, J. *Les Papes du XIe siècle et la Chrétienté*. Paris, 1926.
GIBBON, E. *Decline and Fall of the Roman Empire* (ed. J. B. Bury), 7 vols. London, 1896.
GINDLER, P. *Graf Balduin I von Edessa*. Halle, 1901.
GOEJE, M. J. DE. *Mémoire sur la Conquête de la Syrie par les Arabes*. Leyden, 1900.
GORDLEVSKY, A. *Seldjuk Empire in Asia Minor* (in Russian). Moscow, 1941.

Bibliography

GRAEFE, E. Article 'Hakim', in *Encyclopaedia of Islam.*

GRAETZ, H. *Geschichte der Juden*, 11 vols. Leipzig, 1866–78.

GRAF, G. *Geschichte der Christlichen Arabischen Litteratur*, 2 vols. Vatican City, 1944–7.

GRANDCLAUDE, M. *Etude Critique sur les Livres des Assises de Jérusalem.* Paris, 1930.

GRÉGOIRE, H. 'Mahomet et le Monophysisme', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.

GRÉGOIRE, H. 'Notes sur Anne Comnène', in *Byzantion*, vol. III. Brussels, 1926.

GROUSSET, R. *Histoire de l'Arménie des Origines à 1071.* Paris, 1947.

GROUSSET, R. *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*, 3 vols. Paris, 1934–6.

GROUSSET, R. *L'Empire du Levant.* Paris, 1946.

GRUMEL, V. 'Jérusalem entre Rome et Byzance', in *Echos d'Orient*, vol. XXXVIII. Paris, 1939.

GRUMEL, V. 'Les Patriarches d'Antioche du nom de Jean', in *Echos d'Orient*, vol. XXXII. Paris, 1933.

GRUNEBAUM, G. E. V. *Medieval Islam* (2nd imp.). Chicago, 1947.

GÜTERBOCK, C. *Der Islam im Lichte der byzantinischen Polemik.* Berlin, 1912.

HAGENMEYER, H. *Chronologie de la Première Croisade.* Paris, 1902.

HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe.* See Bibliography, p. 342.

HAGENMEYER, H. *Peter der Eremite.* Leipzig, 1879. French trans. (without appendices) by Furcy Raynaud, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite.* Paris, 1883.

HALPHEN, L. *L'Essor de l'Europe*, vol. VI of *Peuples et Civilisations* (ed. L. Halphen and P. Sagnac), 2nd ed. Paris, 1940.

HANSEN, W. *Das Problem des Kirchenstaates in Jerusalem.* Fribourg, 1928.

HATEM, A. *Les Poèmes Epiques des Croisades.* Paris, 1932.

HEERMANN, O. *Die Gefechtsführung der abendländischen Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzuges.* Marburg, 1887.

HEFELE, C. J. *Histoire des Conciles* (trans. and ed. H. Leclercq). Paris, 1907– (in progress).

HERGENRÖTHER, J. *Photius, Patriarch von Konstantinopel*, 3 vols. Regensburg, 1887–9.

HEYD, W. *Histoire du Commerce du Levant* (trans. Furcy Raynaud; 2nd reimp.), 2 vols. Leipzig, 1936.

HILL, G. *A History of Cyprus*, vol. I. Cambridge, 1940.

HOGARTH, D. G. and MUNRO, J. A. R. *Modern and Ancient Roads in Eastern Asia Minor. Royal Geographical Society, Supplementary Papers* (new ser.), vol. III. London, 1893.

Bibliography

HOLTZMANN, W. 'Die Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXVIII. Leipzig, 1928.

HONIGMANN, E. *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. III. Brussels, 1935.

HONIGMANN, E. Articles 'al Lâdhiqiya', 'Izniq', 'Macarrat al Numan', 'Malatya', 'Marash', 'Missis', 'Orfa', 'Ortoqids' and 'Shaizar', in *Encyclopaedia of Islam*.

HOUTSMA, M. T. Article 'Seljuks', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.; articles 'Menguchek' and 'Tutush', in *Encyclopaedia of Islam*.

HUART, C. *Histoire des Arabes*, 2 vols. Paris, 1911–12.

HUBERTI, L. *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*. Ansbach, 1892.

HUSSEY, J. M. *Church and Learning in the Byzantine Empire*. Oxford, 1937.

IORGA, N. *Histoire de la Vie Byzantine*, 3 vols. Paris, 1934.

IORGA, N. *Histoire des Croisades*. Paris, 1924.

IORGA, N. *Les Narrateurs de la Première Croisade*. Paris, 1928.

Islam Ansiklopedisi. Istanbul, 1940– (in progress).

JIREČEK, C. *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe*. Prague, 1877.

JORANSON, E. 'The Great German Pilgrimage of 1064–65', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

JUGIE, M. *Le Schisme Byzantin*. Paris, 1941.

JUGIE, M. 'Le Schisme de Michel Cérulaire', in *Echos d'Orient*, vol. XXXV. Paris, 1937.

JUYNBOLL, T. W. Article 'Kharadj', in *Encyclopaedia of Islam*.

KLEIN, C. *Raimund von Aguilers: Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Berlin, 1892.

KNAPPEN, M. M. 'Robert II of Flanders in the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

KÖPRÜLÜ, M. F. 'Anadolun Selcuklarî Tarihi'nin Yerli Kaynaklari', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1943.

KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.

KRAUSS, S. *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichten*. Leipzig, 1914.

KREBS, F. *Zur Kritik Alberts von Aachen*. Münster, 1881.

KREY, A. C. 'A Neglected Passage in the *Gesta*', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

KREY, A. C. 'Urban's Crusade, Success or Failure?', in *American Historical Review*, vol. LIII. New York, 1918.

KRUMBACHER, K. *Geschichte der byzantinischen Litteratur*. Munich, 1897.

KÜGLER, B. *Albert von Aachen*. Stuttgart, 1885.

KÜGLER, B. *Bohemund und Tankred*. Tübingen, 1862.

Bibliography

KÜGLER, B. *Geschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1891.

KÜGLER, B. 'Peter der Eremite und Albert von Aachen', in *Historische Zeitschrift*, vol. XLIV. Berlin-Munich, 1880.

KÜHNE, E. *Zur Geschichte des Fürstentums Antiochien, 1098–1130*. Berlin, 1897.

KULAKOVSKY, Y. 'Criticism of evidence in Theophanes' (in Russian), in *Vizantiiski Vremennik*, vol. XXI. St Petersburg, 1915.

KULAKOVSKY, Y. *History of Byzantium* (in Russian), 3 vols. Kiev, 1913–15.

KURAT, A. N. *Peçenek Tarihi*. Istanbul, 1937.

Kuseir Amra. Published by Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, 2 vols. Vienna, 1907.

LABOURT, J. *De Timotheo I, Nestorianorum Patriarcha*. Paris, 1904.

LABOURT, J. *Le Christianisme dans l'Empire Perse*. Paris, 1904.

LAMMENS, H. *Etudes sur le Siècle des Ommayades*. Beirut, 1930.

LAMMENS, H. *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*. Beirut, 1928.

LAMMENS, H. *La Syrie: Précis Historique*, 2 vols. Beirut, 1921.

LA MONTE, J. L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*. Cambridge, Mass., 1932.

LANE POOLE, S. *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, 1925.

LANE POOLE, S. *The Mohammedan Dynasties*. Paris, 1925.

LANGLOIS, V. *Numismatique de l'Arménie au Moyen Age*. Paris, 1855.

LAURENT, J. *Byzance et les Turcs Seldjoucides jusqu'en 1081*. Nancy, 1913.

LAURENT, J. 'Byzance et les Origines du Sultanat de Roum', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.

LAURENT, J. 'Des Grecs aux Croisés: Etude sur l'histoire d'Edesse', in *Byzantion*, vol. I. Brussels, 1924.

LAURENT, J. *L'Arménie entre Byzance et l'Islam*. Paris, 1919.

LAURENT, J. 'Le Duc d'Antioche Katchatour', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXX. Leipzig, 1929–30.

LAURENT, J. 'Les Arméniens de Cilicie', in *Mélanges Schlumberger*, vol. I. Paris, 1924.

LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*. See Bibliography, p. 343.

LEIB, B. *Rome, Kiev et Byzance à la fin du XIème siècle*. Paris, 1924.

LE STRANGE, G. *Lands of the Eastern Caliphate*. Cambridge, 1905.

LE STRANGE, G. *Palestine under the Moslems*. London, 1890.

LOEWE, H. M. J. 'The Seljuks', in *Cambridge Medieval History*, vol. IV, ch. X, B. Cambridge, 1923.

LONGNON, J. *Les Français d'Outremer au Moyen Age*. Paris, 1929.

LOT, F. *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, 2 vols. Paris, 1946.

LUCHAIRE, A. 'Les premiers Capétiens', in E. Lavisse, *Histoire de France*, vol. II, 2. Paris, 1901.

MANSELLI, R. 'Normanni d'Italia alla Prima Crociata: Boemondo d'Altavilla', in *Japigia*, vol. IX. Naples, 1940.

Bibliography

MANTEYER, G. DE. *La Provence du Ier au XIIe Siècle*. Paris, 1908.
MARICQ, A. 'Un "Comte de Brabant" et des "Brabançons" dans deux textes byzantins', in *Académie Royale de Belgique, Bulletin de la Classe des Lettres*, 5ème série, vol. XXXIV. Brussels, 1948.
MÉLY, F. DE. 'La Croix des premiers Croisés', in supplementary vol. to Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*. Paris, 1904.
MICHAUD, J. F. *Histoire des Croisades*, 5 vols. Paris, 1817–22.
MICHEL, A. *Amalfi und Jerusalem im griechischen Kirchenstreit. Orientalia Christiana Analecta*, no. 121. Rome, 1939.
MICHEL, A. *Humbert und Kerularios*, 2 vols. Paderborn, 1924–30.
MOELLER, C. 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-Sépulcre', in *Mélanges Godfried Kurth*, vol. I. Liège, 1908.
MORAVCSIK, G. *Byzantinoturcica*, 2 vols. Budapest, 1942–3.
MORDTMANN, J. H. Articles 'Izmir' and 'Eskişehir', in *Encyclopaedia of Islam.*
MUIR, W. *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall* (rev. ed.). Edinburgh, 1915.
MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). Article 'Danişmend', in *Islam Ansiklopedisi.*
MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). *Türkiye Tarihi, Selcuklu Dairi*, vol. I, *Anadolun Fethi*. Istanbul, 1934.
MUNRO, D. C. 'Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza?', in *American Historical Review*, vol. XXVII. New York, 1922.
MUNRO, D. C. *The Kingdom of the Crusaders*. New York, 1936.
MUNRO, D. C. 'The Speech of Pope Urban II at Clermont', in *American Historical Review*, vol. XI. New York, 1906.
NAU, F. *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIème au VIIIème siècle*. Paris, 1933.
NICHOLSON, R. H. *Tancred*. Chicago, 1940.
NORDEN, W. *Das Papsttum und Byzanz*. Berlin, 1903.
OECONOMOS, L. *La Vie Religieuse dans l'Empire Byzantin*. Paris, 1918.
O'LEARY, DE L. *Arabia before Mohammed*. London, 1927.
O'LEARY, DE L. *A short History of the Fatimid Khaliphate*. London, 1923.
O'LEARY, DE L. *How Greek Science passed to the Arabs*. London, 1948.
OMAN, C. W. C. *A History of the Art of War in the Middle Ages* (2nd ed.), 2 vols. London, 1924.
ORMANIAN, M. *L'Eglise Arménienne*. Paris, 1910.
OSTROGORSKY, G. 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire', in *Cambridge Economic History of Europe*, vol. I. Cambridge, 1942.
OSTROGORSKY, G. *Geschichte des byzantinischen Staates*. Munich, 1940.
PARIS, G. 'La Chanson d'Antioche provençale et la Grande Conquista de Ultramar', in *Romania*, vols. XVII, XIX and XXII. Paris, 1888, 1890, 1893.
PAULOT, L. *Un Pape Français: Urbain II*. Paris, 1903.
PERNICE, A. *L'Imperatore Eraclio*. Florence, 1905.
PFISTER, C. *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux*. Paris, 1885.

Bibliography

PIGEONNEAU, H. *Le Cycle de la Croisade et la Famille du Bouillon.* Saint-Cloud, 1877.

PIGNOT, J. H. *Histoire de l'Ordre de Cluny*, 3 vols. Autun, 1868.

PIGULEVSKAYA, N. V. *Byzantium and Iran in the Sixth and Seventh Centuries* (in Russian). Moscow, 1946.

PONTIERI, E. *Tra i Normanni nell' Italia meridionale.* Naples, 1948.

POUPARDIN, R. *Le Royaume de Bourgogne.* Paris, 1907.

PRUTZ, H. G. *Wilhelm von Tyrus.* Munich, 1883.

RAMSAY, W. M. *The Historical Geography of Asia Minor. Royal Geographical Society, Supplementary Papers*, vol. IV. London, 1890.

RAMSAY, W. M. 'The Intermixture of Races in Asia Minor', in *Proceedings of the British Academy*, vol. VII. London, 1917.

RASOVSKY, D. 'The Polovtsians' (in Russian), in *Seminarium Kondakovianum*, vols. VI–X. Prague-Belgrade, 1935–9.

REY, E. G. *Les Colonies Franques de Syrie.* Paris, 1883.

REY, E. G. 'Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII. Paris, 1900–1.

RIANT, P. *Donation de Hugues, Marquis de Toscane. Académie d'Inscriptions et de Lettres, Histoires et Mémoires*, vol. XXXI. Paris, 1884.

RIANT, P. *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte.* Paris, 1865.

RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.

RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades.* See Bibliography, p. 343.

RICHMOND, E. T. *The Dome of the Rock in Jerusalem.* Oxford, 1924.

RÖHRICHT, R. 'Die Pilgerfahrten nach dem Heiligen Lande vor den Kreuzzügen', in Raumer, *Historisches Taschenbuch*, vol. V, Folge 5. Leipzig, 1875.

RÖHRICHT, R. *Geschichte des ersten Kreuzzuges.* Innsbruck, 1901.

RÖHRICHT, R. *Geschichte des Königreichs Jerusalem.* Innsbruck, 1898.

RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani.* See Bibliography, p. 343.

ROSEN, V. R. *Emperor Basil the Bulgar-slayer* (in Russian). St Petersburg, 1883.

ROUSSET, P. *Les Origines et les Caractères de la première Croisade.* Neuchâtel, 1945.

RUNCIMAN, S. 'Charlemagne and Palestine', in *English Historical Review*, vol. L. London, 1935.

RUNCIMAN, S. 'The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1948.

RUNCIMAN, S. *The Emperor Romanus Lecapenus.* Cambridge, 1929.

RUNCIMAN, S. 'The Holy Lance found at Antioch', in *Analecta Bollandiana*, vol. LXVIII. Brussels, 1950.

SACKUR, E. *Die Cluniacenser*, 2 vols. Halle, 1892–4.

SCHLUMBERGER, G. 'Deux Chefs normands des Armées byzantines', in *Revue Historique*, vol. XVI. Paris, 1881.

Bibliography

SCHLUMBERGER, G. *L'Epopée Byzantine*, 3 vols. Paris, 1896–1905.

SCHLUMBERGER, G. *Numismatique de l'Orient Latin*, 2 vols. Paris, 1878–82.

SCHLUMBERGER, G. *Récits de Byzance et des Croisades*, 2 vols. Paris, 1917–22.

SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Empire Byzantin*. Paris, 1884.

SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Orient Latin* (continued by F. Chalandon and completed by A. Blanchard). Paris, 1943.

SCHLUMBERGER, G. *Un Empereur Byzantin, Nicéphore Phocas*. Paris, 1890.

SIMON, G. *Der Islam und die Christliche Verkündigung*. Gütersloh, 1920.

SOBERNHEIM, M. Article 'Ibn Ammar', in *Encyclopaedia of Islam*.

STARR, J. 'Byzantine Jewry on the eve of the Arab Conquest', in *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. XV. Jerusalem, 1935.

STARR, J. *The Jews in the Byzantine Empire, 641–1204*. Athens, 1939.

STEVENSON, W. B. 'Islam in Syria and Egypt' and 'The First Crusade', in *Cambridge Medieval History*, vol. V, chs. VI and VII. Cambridge, 1926.

STEVENSON, W. B. *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.

SYBEL, H. VON. *Geschichte des ersten Kreuzzuges* (2nd ed.). Leipzig, 1881.

TER MIKELIAN, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zur Byzantinischen Kirche*. Leipzig, 1892.

TER MINASSIANTZ, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zu den Syrischen Kirchen*. Leipzig, 1904.

THIBAUDET, A. *Cluny*. Paris, 1928.

THUROT, C. 'Etudes Critiques sur les Historiens de la Première Croisade', in *Revue Historique*, vol. I. Paris, 1876.

TOMASCHEK, W. *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter. Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philos.-hist. Classe*, vol. CXXIV. Vienna, 1891.

TOURNEBIZE, F. *Histoire politique et religieuse de l'Arménie*. Paris, 1910.

TRITTON, A. S. *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*. Oxford, 1930.

USENER, H. *Der Heilige Tychon, Sonderbare Heilige*, no. 1. Leipzig-Berlin, 1907.

USPENSKY, F. I. *History of the Crusades* (in Russian). St Petersburg, 1900.

VACANT, A. and MANGENOT, E. *Dictionnaire de Théologie Catholique*. Paris, 1899– (in progress).

VAILHÉ, S. 'La Prise de Jérusalem par les Perses en 614', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. VI. Paris, 1901.

VAILHÉ, S. 'Les Juifs et la Prise de Jérusalem en 614', in *Echos d'Orient*, vol. XII. Paris, 1907.

VAISSÈTE, DOM. *Histoire de Languedoc* (ed. A. Molinier), 10 vols. Toulouse, 1874.

VASILIEV, A. A. *Byzantium and the Arabs* (in Russian), 2 vols. St Petersburg, 1900–2. Vol. I trans. H. Grégoire and E. M. Canard as *Byzance et les Arabes*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. I. Brussels, 1935.

Bibliography

VASILIEV, A. A. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols. Paris, 1932.

VASILIEV, A. A. 'The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century', in *Seminarium Kondakovianum*, vol. IX. Prague-Belgrade, 1937.

VASILIEVSKY, V. G. *Works* (in Russian), vol. I, containing *Byzantium and the Petchenegs*, and *The Varango-Russian and the Varango-English Company in Constantinople*. St Petersburg, 1908.

VERLINDEN, C. 'Robert Ier, Le Frison, Comte de Flandre', in *Werken mitgegeven door de Faculteit der Wijsbegeerde en Letteren te Gent*. Ghent, 1935.

VILLEY, M. *La Croisade: Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, vol. VI of H. X. Aquillière, *L'Eglise et l'Etat au Moyen Age*. Paris, 1942.

VINCENT, H. and ABEL, R. *Jérusalem*, vol. II, *Jérusalem Nouvelle* (2 fasc.). Paris, 1914–26.

WELLHAUSEN, J. *Das Arabische Reich und sein Sturz*. Berlin, 1902.

WIET, G. *L'Egypte Arabe*, vol. IV of C. Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*. Paris, 1937.

WILKEN, F. *Geschichte der Kreuzzüge*, 7 vols. Leipzig, 1807–32.

WITTEK, P. 'Byzantinisch-seldschukische Beziehungen', in *Ostersche Genootschap in Nederland, Verlag van het achste Congress*. Leyden, 1936.

WITTEK, P. 'Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum', in *Byzantion*, vol. XI. Brussels, 1936.

WITTEK, P. 'Le Sultan de Rum', in *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves*, vol. VI. Brussels, 1938.

WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1938.

WOLFF, T. *Die Bauernkreuzzüge des Jahres 1096: ein Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Tübingen, 1891.

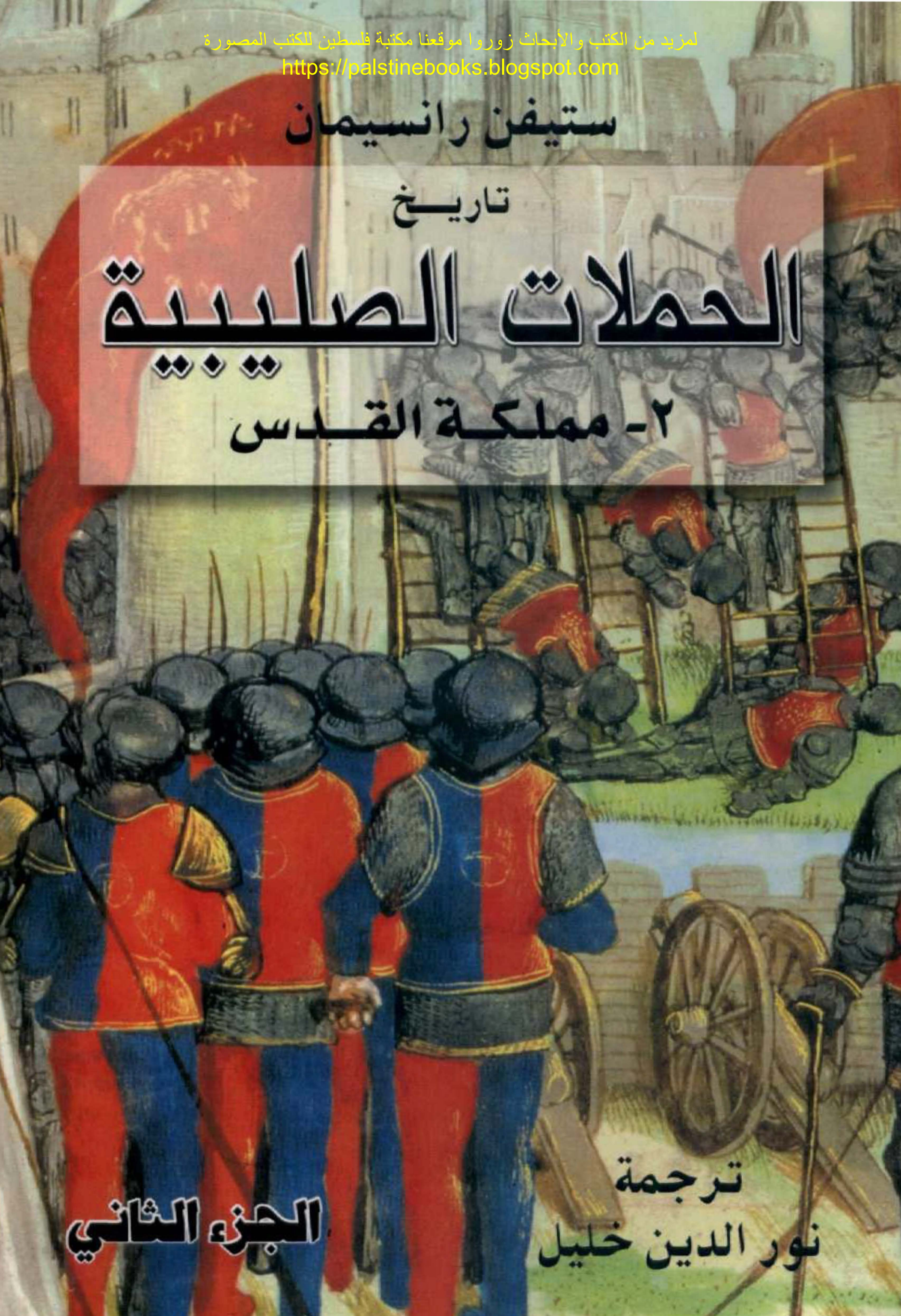
YAKUBOVSKY, A. 'The Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *Proceedings of the Academy of Science of the U.S.S.R.* Moscow, 1936.

YEWDALE, R. B. *Bohemund the First*. New York, 1917.

YINANÇ. See Mukrimin Halil.

ZETTERSTEEN, K. V. Articles 'Sukman ibn Ortok' and 'Suleiman ben Qutulmush', in *Encyclopaedia of Islam*.

ZLATARSKY, V. N. *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), 3 vols. in 4. Sofia, 1918–40.



لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com
ستيفن رانسيمان
تاريـــخ
الحملات الصليبية
٢- مملكــة القــدس
ترجمة
نور الدين خليل
الجزء الثاني

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجى

١١٠٠ - ١١٨٧م

ترجمة

نور الدين خليل

تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجى

١١٠٠ - ١١٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الباب الرابع: تحول المد

المرفقات:

الخرائط:

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من "تاريخ الحملات الصليبية"، للمؤرخ ستيفن رانسيمان الذى نقلنا إلى العربية من قبل جزءه الأول وقدمنا له. ولابد لنا من أن نستهل هذه المقدمة بفقرة من مقدمة الجزء الأول: "إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية فى تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه فى سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن "يؤرخوا لأنفسهم"، وألا يتركوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية فى قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفا يجنح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وآذنت بانقضائه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقَدر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغى أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفى كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع الأيام عن الجادّة التى أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، فآل

أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أداتهم وضاقت آفاقهم فأصبحوا يعوّلون على من لا يبغون إلا مضرتهم وإذلالهم" وإنما نعيد ذكر هذه الفقرة ونحن نتوسع ، بعض الشئ ، فى بيان مدى حاجتنا إلى مدرسة تأريخ عربية قادرة على أن تعين المسلمين على أن يصححوا صور الإسلام التى تبدو مشوهة فى مرآة الغرب، والتى جاوزت - فى زمن الهيمنة - نطاق حدود الغرب الفكرية إلى غير نطاق كان ينبغى أن تأتلق فيه قدرة العرب والمسلمين على أن يعنوا هم أنفسهم بتقديم حضارتهم وتراثها.

تاريخ وتواريخ

وثمة فارق هام بين **تاريخ الإسلام والتأريخ له وغيره من تواريخ الأديان الأخرى والتأريخ لها** . ذلك أن حضارة الإسلام جاءت إلى الوجود بعد أن واتت الإنسان - ونعنى به الإنسان المسلم - القدرة على تسجيل تاريخه؛ فى حين أن المسيحية - التى ترجع بداياتها إلى القرن الأول الميلادى - لم يتح أن تتخذ لها مكانا فى العالم إلا فى القرن الرابع، فأتت بنمط من التأريخ يغاير ، من حيث الواقع والمنهج ، أنماط التأريخ عند الإغريق والرومان. ذلك أنه كان لابد للمسيحية من أن تجد لنفسها أصولا فى اليهودية.

واليهود هم أول شعب فى العالم القديم فرضت عليه عقيدته واجبا دينيا يقضى بأن يتذكر أبناؤه ماضيهم ، لأن العبرة فيما توارثوه من تواريخ تتمثل فى ذكر ما فعله الرب لشعبه المختار. وذلك على نقيض الحال عند الإغريق الذين لم تأمرهم آلهتهم بأن يتذكروا شيئا من هذا القبيل . فكان يتعين على كل يهودى أن يكون على دراية بالكتابات اليهودية المقدسة ، التى جُمع من بينها فى نهاية المطاف ما أصبح يعرف فيما بعد بـ"العهد القديم". فكتّاب أسفار العهد القديم انتقوا من بين تلك الكتابات ، التى يُفترض أن كل يهودى يعرفها ، ما رأوا أنه يفسر "قصد الرب" . زد على ذلك أن لليهود تراثا غير مكتوب ، يقول عنه يوسيفوس Josephus ، المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : "إن ما لم يدون منه بقى فى الذاكرة الجمعية لشعب إسرائيل وكهانه خاصة".

ثم جاء المسيحيون فأخذوا بالعهد القديم وأضافوا إليه كماً جديداً من "التاريخ المقدس". فكتّاب الأناجيل الأربعة ، التى يضمها العهد الجديد ، جاءوا بذكر ما رأوا أنه حقائق ينبغى على المؤمنين أن يعرفوها ؛ غير أن المؤرخين يرون أنه ليس ثمة سبيل مقنع

يعين على الوصول إلى حقائق تاريخية مما جاء به العهد الجديد ، باستثناء ما يُروى بسفر "أعمال الرسل". فالعهد الجديد على إجماله لا يمثل سوى مختارات من الكتابات المسيحية الأولى ، ولا يتضمن إلا ما اتفق مع عقيدة الكنيسة ، عندما أتيح لتلك العقيدة بآخرة أن تتخذ شكلا واحدا . وثمة فراغ تام بين سفر "أعمال الرسل"، الذى يرجع فيما يحتمل إلى أواخر القرن الأول الميلادى، وبين كتاب "التاريخ الكنسى" Ecclesiastical History الذى ألفه يوسيبيوس بامفيلوس Euscbius Pamphili of Caesarea (الذى توفى حوالى سنة ٣٤٠ ميلادية) وكتابات معاصريه فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى.

ووجد الكتاب المسيحيون أن قصة السيد المسيح ، كما ترويها الأناجيل ، يتمثل فيها تحقيق النبوات التى ذكرت فى غير مكان من العهد القديم ، وبذلك أضاف الجزء اليهودى من الكتاب المقدس إلى المسيحية بعدا قديما . وتحول التاريخ الذى ورد فى عهدى الكتاب المقدس ، اللذين أمسيا وثيقى الارتباط ، إلى ثبت وحيد يتمثل فيه وحى الرب ويتضاءل بجانبه غيره مما كتبه الناس والجماعات الدينية على اختلافها.

تاريخ عام

لم يكن مفهوم "التاريخ العام" مجهولا عند الوثنيين؛ ثم جاء المسيحيون وحاولوا أن يستفيدوا منه . ذلك أنه كان عليهم أن يحيلوا "التاريخ المسيحى المقدس" إلى "تاريخ عام" يصطبغ بالعراقة . ويرى الدارسون أن ما توخاه المسيحيون فى ذلك يتصف بمغالاة تفوق تلك التى يتصف بها ما جاء به اليهود .

واضطر المسيحيون الأولون ، فى دفاعهم عن دينهم ، إلى أن يوفقوا بين بعض ما جاء فى التاريخ الوثنى وما جاء فى "تاريخهم العام". فكان المؤرخ المسيحى يحاول بلوغ ذلك بالتوفيق بين التاريخ المقدس والترتيب الزمنى العام منذ بدء الخليقة وحتى الزمن الذى كان يعيش فيه ، فجاءت أحداث التاريخ المسيحي اليهودى متزامنة مع الأحداث البارزة فى التاريخ الوثنى بما فيه من أساطير وخرافات . وكان سيكستوس يوليوس الإفريقى Sextus Julius Africanus أول كاتب مسيحى حاول ذلك التوفيق فى القرن الثالث ، فقال - فيما قال - إن وجود البشرية بدأ منذ ستة آلاف عام وأن السيد المسيح ولد بعد مضى خمسة آلاف وخمسمائة عام على خلق العالم. وتمثل فيما كتبه سيكستوس نموذج تأثره يوسيبيوس Eusebius فى مدونته التأريخية "التاريخ الكنسى"

التى غدت أساسا توالت بعده تواريخ ألفها الكتاب البيزنطيون فى لغتهم اليونانية. وقد نقل القديس جيروم St. Jerome (الذى توفى سنة ٤١٩ أو ٤٢٠) هذا العمل إلى اللغة اللاتينية وظل تأثيره بالغا، فى غرب أوروبا ، لما يجاوز ألف عام . ويقول إدموند فرايد Edmund B. Fryde فى تناوله لهذا الموضوع: "إن الدارس المحدث يعجب ببراعة يوسيبيوس، ومن أتوا بعده، ويتملكه اليأس من سخف الكثير مما انتهوا إليه". ولنا أن نلاحظ أن الأخذ بمولد السيد المسيح على أنه بداية التقويم الميلادى استحدثه ديونيسيوس إكسيجيوس Dionysius Exiguus فى روما فى أوائل القرن السادس ، ولكن هذا التقويم لم يرج إلا عندما استخدمه اللاهوتى والمؤرخ الإنجليزى بيد Bede فى القرن الثامن.

و لم يُعن مسيحيو القرنين الرابع والخامس بكتابة تاريخ عصرهم ، وإن عنّ لهم أحيانا أن يفعلوا ذلك، فلم يكن هذا إلا من قبيل الدفاع عن دينهم فى مواجهة العالم الوثنى أو الجماعات الدينية المسيحية المعارضة التى كانت توصم بالهرطقة. وكل هذه التواريخ التى كتبها "المدافعون عن الدين" يعتورها بالضرورة قدر كبير من التحريف المتمثل فى انتقائهم ما يرون أنه يجب إبداؤه وما يرون أنه ينبغى إخفاؤه. وغالبا ما كان هؤلاء المدافعون يشتطون فى إجحافهم بحق من يناهضونهم وبحق غير المسيحيين. و لم تخلُ أعمال المؤرخين الكلاسيكيين من مثل تلك المثالب بطبيعة الحال، بيد أن المسيحيين تجاوزوا فى اقتناعهم بأنهم لابد أن يكونوا - دون غيرهم - أهل صواب. وعند المقارنة بين المؤرخين المسيحيين وواحد من الكتاب الوثنيين المبرزين مثل أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus (النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى) يتبين تميزه بأنه لا يتوانى فى إبداء إعجابه بمن يستحق الإعجاب من المسيحيين، وأنهم - على النقيض منه - يتصفون بضيق النظرة والتصلب.

التأريخ للتاريخ

ذلك ما كان عليه التأريخ الغربى على إجماله. ومن الغريب أن تلك الحال بقيت على ماكانت عليه حتى القرن التاسع عشر. وما تناولناه إن هو إلا الصورة التى تظهرها مرآة البحث الحديث، والتى وقفنا منها عند ما يقتضيه السياق. وهى صورة مركبة يتمثل فى قسماتها واقع ما انتهى إليه الباحثون، وهى قسمات تجنح بالضرورة إلى إبداء ما لا يكاد "عَطّار" الإنحياز يفلح فى إصلاح قبحه بمحاولة إخفائه. ومن شأن مثل هذا

التأريخ أن ينتج تاريخا أو تواريخ لا تسوغها فلسفة التاريخ بمنظوريها التأملى والتحليلى النقدى. ويحق لنا هنا أن نقول: أوليس غريبا أن يكون للإنسان تاريخان أو أكثر، تاريخ يتمثل فيه ما تتابع بالفعل من أحداث، ولا يكاد يلم الإنسان به إلمام الموقن، وتاريخ أو تواريخ كلها من نتاج "تأريخ" لا يكاد الإنسان فى محاولة توخى الجيدة فيه أن يبلغ بعض شأو!

وأولى ما نُعنى به فى هذا السياق هو أن نلتفت إلى حقيقة جلية مؤداها أن التواريخ اليهودية المسيحية، فى أصلها تواريخ دينية انتهى بها المطاف إلى أن تصبح، على أيدى أصحاب العقائد، تاريخا دينيا موحدًا يقوم على الانتقاء وعلى الإبداء والإخفاء ؛ ثم حاول أصحابه أن يحيلوه إلى تاريخ عام، فتخلطت الحقائق بالأساطير والأوهام، ذلك أن أسفار الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والجديد تقوم، فى إجمالها، على سرد يرى أصحابه أنه تواريخ أو تاريخ أو أساس للتأريخ. وهذا على النقيض من تاريخ الإسلام فالقرآن الكريم لا يعنى بالتأريخ أو بأى سرد للتاريخ أو بتحديد تواريخ، وما جاء به من قصص لم يكن إلا من قبيل ذكر المثال للتدبر والاعتبار. كما أن تاريخ محمد ﷺ لم يتناوله القرآن الكريم من قريب أو من بعيد، وإنما تناوله المؤرخون وما يزالون. وثمة فارق بيِّن بين تواريخ كتبت، على نحو أسلفناه، وانتهى البحث الحديث فيها إلى ما انتهى إليه، وتاريخ بدأ واتخذ مسيرته بعد أن أتيح للعيون والعقول أن تبصر فى نور الحقيقة والحق وإعمال العقل.

الانتماء والتأريخ

ويضطرنا ضيق النطاق ، ونحن بصدد بيان مدى حاجتنا إلى تأريخ عربى إسلامى معاصر جديد ، أن نتجاوز الحائل إلى الماثل فنلقى نظرة غير مستأنية على واقع التأريخ الحديث والمعاصر، ومدى تأثره بما انتهى إليه فكر الإنسان فى عصره الأخير. فنقول إن فروع العلم المختلفة تؤدى أدوارا بالغة الخطورة فى صياغة أوجه الفكر المختلفة على المستويات المحلية والعالمية فى مجابهة الإيديولوجيات بعضها بعضا. وإذا شئنا أن نمثل لذلك، فإننا نقول إنه يتعين على المرء أن يلقى نظرة على تاريخ العالم، أو على تاريخ أمة بعينها، من خلال الكتابات التاريخية التى قام بها كتاب ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة، فإنه واجد ولا شك أن هذا التاريخ - سواء أكان تاريخ العالم أم تاريخ أمة معينة - يصطبغ بشئ من طابع الفكر الذى ينتمى إليه كاتب التاريخ. ويتجلى ذلك فى

أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التى يصدرها العالم الغربى والتواريخ التى كان يصدرها الشق الماركسى من العالم، كما أسلفنا فى مقدمة الجزء الأول.

وليس ذلك وحسب ، فإن نعرات التراث القومية أحدثت أثرها فى فوارق نلحظها فى التواريخ التى يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هى الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون وغيرهم.

وإذا شئنا أن نسوق مثلا يعبر عن هذه الحقيقة فى واحد من جوانبها، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى فى معالجته لأحداث الواقع ، وإن كان حديثا أو معاصرا ، نرجع إلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية عندما استقر الأمر لهتلر فى بولندا بإخضاعها فى أوائل عام ١٩٤٠، ثم قفزت قواته بغتة من شرق أوروبا لتجتاح غربها، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله إلى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج. وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر، واستبسل النرويجيون دفاعا عن وطنهم بعد أن تجاوزوا وقع المباغتة. وفى تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية لتعين النرويجيين على التصدى للهجوم الألمانى؛ وبدى عندئذ أن نجاح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه، ولكن الألمان أثبتوا فى نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أندادا لهم. وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا، وسقطت النرويج فى أيدى الألمان، الذين أتاح لهم غزو الدنمارك والنرويج الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة فى بحر الشمال، والتى تقع فى مواجهة الساحل البريطانى، مما دعم مركز هتلر فى قتاله مع بريطانيا. ومضى هتلر فى توجيه ضرباته ، فغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محايدتين أخريين، وهما بلجيكا وهولندا، وقضت فى وقت قصير على قواتهما. واندفعت قوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديدتين، ولكنهما عجزت عن إيقاف الضربات القاصمة والسريعة التى وجهتها فرق البانزر The Panzer divisions، وأسراب كبيرة من الطائرات القاذفة. وتهاوت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة.

ويصف المؤرخ الأمريكى "سوثورث" ما حدث بعد ذلك قائلا: "إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا، وقد عجز عن أن يهضم أن تذبح قواته، أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم".

"King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms."

وهذه العبارة على بساطتها تبين أن خطوة "ليوبولد الثالث" كانت نتيجة حتمية ترتبت على ما سبقها من أحداث. ولكننا نجد أن للمؤرخ البريطاني "هربرت جورج ويلز"، رأيا آخر في ذلك، إذ يقول: "وخطر للملك ليوبولد، الذى كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عند غزو بلاده، أن الوقت كان مواتيا عندئذ لعمل من أعمال الجبن والخيانة الفائقين".

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of supreme cowardice and treachery."

هذا ما يقوله ويلز، بالرغم من أنه ينعى على الفرنسيين فى الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو إلى ما وراء الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للتحرك العسكرى من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد...

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete."

ونحن نقدر تفهم "سونورث" لموقف الملك ليوبولد الثالث، ونعرف فى الوقت نفسه دوافع "ويلز" فى موقفه منه. وإذا كان للنظرة أن تختلف إزاء حدث له مثل ما أسلفنا من مقدمات، فماذا يمكن أن تكون عليه الحال إذا تعلق الأمر بالمعتقدات والأيديولوجيات وما بينهما من صراعات وسياسات!

وهذا المثال يظهر جانبا واحدا من جوانب المسألة، التى تتعقد أيما تعقد إذا حاولنا أن نعدد أمثالها على امتداد تاريخ الإنسان فى عجزه القديم الجديد عن بلوغ الحيدة الموضوعية.

وإذا كان الباحثون فى فروع العلم المختلفة يتأثرون، على وعى منهم أو على غير وعى، بانتمائهم الفكرى أو العقدى أو الأيديولوجى على نحو يحيل الحيدة الموضوعية إلى ضالة يعسر الوقوع عليها، فإن أدوات البحث العلمى ووسائله كالموسوعات والمعاجم - والدور الذى تلعبه فى هذه المجالات جد خطير - تتأثر تبعا لذلك بكل هذه العوامل. وإذا ما أردنا أن نتعرف على شئ مما يشوبها يكفى أن نلقى نظرة على دائرة المعارف الإسلامية التى صنفها المستشرقون فى عصر غفلة ما تزال تهيمن على عقولنا وتتغلغل

فيما ننتهى إليه، وليذهب من شاء إليها ليرى بنفسه ولنفسه ما آلت إليه حال حضارتنا فى كتابات الغرب.

وأما عن المعاجم العام منها والنوعى فحدث ولا حرج، ويكفى أن نشير إلى ما ارتبط بألفاظ: "عربى" و"محمد"، وغيرهما فى معاجم الغرب لنتبين بعدا آخر من أبعاد السعار الذى تتناول أنيابه كل ما يمت إلى الإسلام والمسلمين بصلة.

ولعله يحق لنا أن نذكر فى هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينة فى المواقف التى يتخذها الغرب وتفصح عنها أحيانا أداة البحث العلمى؛ فإننا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة "يهودى Jew" فى قاموس أكسفورد فى طبعتيه الرابعة والخامسة على التوالى، نرى فارقا فى التعريف لا تحتاج دوافعه إلى تعقيب، ويكفى أن نسوق التعريفين كما هما:

تعريف الطبعة الرابعة: يهودى، (اسم) شخص من الجنس العبرانى؛ مرابى مبتز (معنى دارج)، عاقد الصفقات المجحفة، غنى كيهودى (تركيب)؛ يهودى لا يؤمن = شخص لا يصدق؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

يهودى، (فعل) يغش، يحتال (دارج).

Jew (1), n. Person of Hebrew race: (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; *rich as a ~; unbelieving~*, incredulous person; *tell that* (an unlikely tale) *to the~s; ~baiting,* persecution of ~s.

Jew (2), v.t. (colloq) Cheat, overreach.

تعريف الطبعة الخامسة: يهودى، (اسم) شخص من الشعب العبرانى أو اليهودى، أو شخص يعتنق اليهودية؛ مرابى (معنى مهين ومبتذل)، التاجر الذى يعقد الصفقات المجحفة؛ تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

Jew, n. One of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism; (transf., derog., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; *~-baiting,* persecution of ~s.

ونحسب أننا لسنا فى حاجة إلى بيان أوجه التغيير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والإضافة والحذف ولياقة استخدام الكلمة، كما نلاحظ أن استخدام "الفعل Jew" بمعنى "يغش أو يحتال" قد أسقط نهائيا من الطبعة الخامسة رغم وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة الرابعة.

فإذا كان لنا أن نقول أن المعجم أداة بحث هامة، فإن الموسوعة تمثل وسيلة لا يستغنى عنها باحث، وهى لا تسلم فى الوقت الحاضر مما يفرضه الصراع الأيديولوجى بين مختلف الثقافات. فدائرة المعارف البريطانية، على سبيل المثال، أداة بحث حظيت وتحظى بثقة الباحثين عبر العالم كله لما عرفت به من حيدة، وإن كانت حيدتها فى نطاق انتماء حضارى معين، ويبقى الإنسان إنسانا! غير أننا لاحظنا، ونحن ننقل النظر فى طبعتها الصادرة منذ عشرين عاما وطبعاتها الأخيرة أن ما شابها نتيجة لما يقتضيه الإنتماء بالضرورة تحول إلى مثالب فرضتها الهيمنة التى تفرض نفسها فى الوقت الحاضر. ولا تتسع مقدمة كهذه لذكر مزيد من الأمثلة، ولكننا نذكر هذه الحقيقة لنلفت الأذهان إلى واجب أغفلناه أيما إغفال يفرض علينا أن نعد لأنفسنا أدوات بحث تعين باحثينا على أن يتعرفوا على حقيقة تراثنا وحضارتنا.

ولكم يعانى المرء عندما يجد أن باحثا مصريا يقول فى تاريخه عن الإسلام، عند تناوله لصفات على بن أبى طالب ﷺ : "وكان على – كما يقول نيكلسون – يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ... ". ونحب أن نتساءل هنا: ألم يكن من الأجدر بمؤرخنا أن يعود إلى المراجع العربية والإسلامية وهو يحاول التأريخ لعلى ﷺ؟ فما معنى أن ننقل عمن نقلوا عن مراجعنا، أإلى هذا الحد يمكن أن يبلغ تعويلنا على ثقافة غريبة عنا فندور فى حلقة رذيلة خادعة، دون أن نعمل ملكاتنا النقدية فنقع فى حبائل من يتَنقَّصون الإسلام ومثله العليا المتمثلة فى أعلامه ورجاله ويذهبون فى عدائهم له ولهم كل مذهب! عن عمد يمليه الهوى أو عن جهل يفرضه قصور الأداة.

وهذا القصور فى أداة الغرب البحثية فى الفروع التى تتصدى للتأريخ للشرق، يقر به الباحثون الغربيون أنفسُهم. وحسبنا هنا أن نذكر القليل مما كتبه برنارد لويس الأستاذ بجامعة برنستون حول هذا الموضوع فى مقاله عن "الإسلام" فى كتاب "الاستشراق والتاريخ" Oriantalism and History : **"يلاحظ أن تاريخ العرب غالبا ما يكتبه فى أوروبا مؤرخون يجهلون العربية أو مستعربون يجهلون التاريخ. وفى هذا القول سخرية شديدة غير أن لها ما يبررها".**

"It has been remarked that the history of the Arabs has been written in Europe chiefly by historians who know no Arabic, or by Arabists who know no history. The gibe is sharp, but not wholly unjustified."

ثم يستطرد برنارد لويس مبينا أنه: "في معظم الجامعات الغربية تنفصل الدراسات التاريخية عن الدراسات الشرقية في فروع مستقلة يشتغل بها أساتذة ودارسون تختلف أهدافهم ومناهج بحثهم في غالب الأمر. ومن قبيل المبالغة بلا ريب أن نقول إن الإثنين لا يلتقيان على الإطلاق غير أنه ليس من الإجحاف أن نقول إن كلا منهما يجاوز الآخر على الطريق محييا إياه في برود وفي غير مبالاة بل وفي إعراض أحيانا .... إن التعامل مع المصادر التاريخية الإسلامية يقتضي من الباحث أن يبذل في دراسة فقه اللغة جهدا عسيرا يكاد يستغرق كل وقته، فلا يتأتى له أن يكتسب دُرْبَة المؤرخ. وإذا ما واتت المؤرخ الغربي الجرأة على أن يدرس لغة شرقية فإنه لا يكاد يبلغ في ذلك بعض غاية. فليس ثمة "لغة عمل" في أي من اللغات الشرقية، وتعلم واحدة منها يعني دراسة جادة ممتدة، وعندما يحاول المؤرخ أن يرجع إلى المصادر الشرقية فإن خطر تعذر الفهم والتفسير ربما جاوز في جسامته خطر اعتماده على الترجمات التي أعدها المستشرقون ـــ برغم أن لنا أن نقول إن هذه الترجمات لا تبرأ بأية حال من الخطأ". ولا نحسب أننا في حاجة إلى أن نعقب على ما كتبه برنارد لويس الذي استعرض فيما لم ننقله عنه العديد من المثالب المعقدة التي تتصف بها فروع التأريخ في الغرب.

وينبغي أن نلتفت هنا إلى الأهمية الخاصة التي يجب أن نوليها لأدوات البحث ووسائله. ذلك أنه لابد للباحث كي يعد عملا علميا من أن يتعامل مع هذه الأدوات والوسائل ليقدم لنا في نهاية الأمر بحثا يتحول بذاته إلى "مصدر" يعتمد عليه غيره من الباحثين فيما بعد، أي أنه يصبح "مرجعاً" يستعان به. وهذا يعني بطبيعة الحال أن الأخطاء التي ترد في أدوات البحث ووسائله الأولية تتواتر ثم تتواتر، وهذا التواتر في حد ذاته ربما يضفي على الخطأ "قناعا" يوحي بصحته، أو يحول دون تبين حقيقته. وهذا التصور على إجماله يبين مدى الزيف الذي يمكن أن يصطبغ به نتاج الفكر. وتلك مأساة تلحق بجهد الإنسان كثيرا من التخلط والهوان.

ولنا أن نخلص من هذا كله إلى أنه يجب علينا أن ننظر فيما كتبناه من تواريخ تأثرنا فيها خطى المدرسة الغربية وأخذنا بمناهجها واعتمدنا على أدوات بحثها ، حتى نتخلص مما اعتورها من أخطاء تواترت عندهم ثم عندنا مما أفسح المجال للأباطيل والأوهام أن تتراءى فى ظل المسوح الأكاديمية وكأن لها بعض صلة بواقع أو حقيقة. ونرجو أن يتيح ذلك لنا أن نصحح ما ينبغى تصحيحه وأن نكمل ما اعتورد النقصان وأن نؤرخ لما لم يؤرخ له. ولا تتسع هذه المقدمة - بطبيعة الحال - لمعالجة النهج الذى يجب علينا أن نتخذه كى نبلغ هذه الغاية بيانا لمسيرة حضارتنا والتزاما بأصالتنا، وتقويما لثقافتنا.

وأسأل الله أن يعيننا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

نور الدين خليل

جنيف ١٩٩٦

مقدمة المؤلف

أجتهد فى هذا المجلد أن أعرض قصة الدويلات وراء البحار (أوتريميه) ، بدءا من اعتلاء الملك بالدوين العرش وإلى أن استعاد صلاح الدين القدس . وهى قصة سبق أن رواها كتاب أوروبيون ؛ إذ أبرزها (روهريخت) فى شمول ألمانى ، وأضفى عليها (رينيه جروسيه) من فرنسية الأناقة والأصالة ، وعرضها (ى. ب. ستيفنس) فى إيجاز إنجليزى بالغ . ولقد سرت على نفس الدرب ، واستعنت بذات مصادرهم ؛ على أننى جازفت بأن أضفت إلى الدليل تفسيرا يختلف أحيانا عن تفسير من سبقونى . وليست القصة يسيرة دائما ، لاسيما وأن سياسات العالم الإسلامى فى باكورة القرن الثانى عشر تتحدى أى تحليل مباشر ، وإنما يلزم فهمها إذا أردنا أن نفهم قيام الدويلات الصليبية وأسباب استرجاع الإسلام لقوته فيما بعد.

ولم يشهد القرن الثانى عشر أيا من الهجرات العنصرية الضخمة التى صبغت القرن الحادى عشر ، والتى كان لها أن تتكرر فى القرن الثالث عشر ، وبذا تتعقد قصة الحملات الصليبية اللاحقة واضمحلال وسقوط الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) . ونستطيع الآن أن نركز اهتمامنا أساسا فى (أوتريميه) ذاتها ، على أنه ينبغى

لنا دائما أن نستحضر خلفية أشمل تتسع لسياسات أوروبا الغربية ، والحروب الدينية التى أشعلها حكام أسبانيا وصقلية ، وانشغال بيزنطة ، والخلافة الشرقية . إن تبشير القديس برنار ، ووصول الأسطول الإنجليزى إلى لشبونة ، ودسائس القصور فى القسطنطينية وبغداد ، كلها أحداث مترابطة تلعب أدوارها فى المسرحية ، برغم بلوغها الذروة على تلٍ عارٍ فى الجليل .

والحرب هى جوهر هذا المجلد . وفى عرضى المسهب للكثير من الحملات والغارات سرت على درب المؤرخين القدامى الذين أتقنوا أعمالهم ؛ فما الحرب إلاّ الخلفية الأساسية للحياة فى الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) التى غالبا ما يتوقف مصيرها على المخاطر التى يزخر بها ميدان القتال . على أننى خصصت فى هذا المجلد فصلا عن الحياة فى الشرق الفرنجى ونظامها؛ وأرجو أن أكتب فى مجلدى التالى عن تطوراته الفنية والاقتصادية ، فكلاهما جانبا الحركة الصليبية اللذان بلغا ذروة الأهمية فى القرن الثالث عشر .

ولقد ذكرت فى مجلدى الأول بعض عظام المؤرخين ممن ساعدتنى كتاباتهم . وفى هذا المجلد لابد لى من تسجيل تقديرى الخاص لأعمال (جون لامونت) ، الذى كان موته المبكر بمثابة ضربة قاسية للتأريخ الصليبى ، ونحن مدينون له قبل الآخرين جميعا بمعلوماتنا المتخصصة المتصلة بالنظام الحكومى فى الشرق الفرنجى . وأود كذلك أن أعترف بالعرفان للبروفيسور (كلود كوهين) من ستراسبورج ، الذى تعدّ رسالته العظيمة عن شمال سوريا، ومقالاته المختلفة، على جانب عظيم من الأهمية للموضوع الذى نتناوله .

كما أننى مدين لأصدقائى الكثيرين الذين ساعدونى فى رحلاتى إلى الشرق ، خاصة إدارة الآثار القديمة فى كل من الأردن ولبنان ، وشركة بترول العراق .

ومرة أخرى أعرب عن شكرى لموظفى مطبعة جامعة كمبردج لما أبدوه من عطف وصبر .

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٢

الباب الأول:

إنشاء المملكة

الفصل الأول:

مملكة ما وراء البحار (أونريميه) وجيرانها

٢٩

مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) وجيرانها

"أنتِ أكالةُ النّاس ومُثْكِلَةُ شُعُوبِكِ"

(حزقيال : ٣٦ . ١٢)

دخلت الجيوش الفرنجية مدينة القدس ، وبذا حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها. على أنه إذا أراد المسيحيون أن تبقى القدس فى أيديهم ، وأن يتيسر على الحجاج بلوغها، فلا بد لهم من إقامة حكومة راسخة ، ذات دفاعات منيعة ، تربطها بأوروبا مواصلات آمنة؛ إذ أن الصليبيين الذين تمكنوا من الاستقرار فى الشرق كانوا مدركين جيدا لاحتياجاتهم . وقد شهدت الفترة القصيرة من حكم الدوق جودفرى مولد المملكة المسيحية؛ لكنه كان ضعيف أحمق برغم طيبته ؛ إذ دفعته الغيرة إلى أن يشاحر مع رفاقه ، وبرازع من ورع دفين وهب الكنيسة سلطات ضخمة ، وبموته وتولّى أخيه بالدوين أنقذت المملكة الوليدة. وكان بالدوين يتصف بالحكمة والبصيرة وصرامة رجل الدولة ؛ غير أن مسؤوليات هائلة كانت فى انتظاره ، وليس لديه سوى القليل ممن يستطيع الاعتماد عليهم بعد رحيل أهم محاربى الحملة الصليبية الأولى إلى الشمال أو

إلى أوطانهم ، و لم يتخلف من بين أبرز عناصر تلك الحركة سوى أضعفهم - بطرس الناسك - الذى لا نعرف شيئا عن حياته الغامضة هناك ، وقد عاد هو نفسه إلى أوروبا عام ١١٠١م[١] واصطحب الأمراء معهم جيوشهم فى طريق عودتهم ، و لم يكن بالدوين قد أحضر إلى الشرق أى أتباع ، فهو الإبن الأصغر المفلس ، وإنما استدان الرحال من إخوته ، وها هو الآن يعتمد على حفنة من المحاربين الورعين الذين سبق أن أخذوا العهد على أنفسهم قبل مغادرتهم أوروبا بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، وعلى مغامرين يعلقون الآمال على امتلاك الممتلكات التى ترفعهم درجات تصل بهم إلى مصاف الأثرياء ، وكان أغلبهم - كشأنه - من أصغر الأبناء المفلسين.

أرض فلسطين

وكانت سيطرة الفرنج على أغلب الأراضي الفلسطينية ضعيفة واهية عندما تولى بالدوين شؤون المملكة . وكانت أكثرها أمنا تلك المنطقة الممتدة عبر السلسلة الجبلية من بيت لحم شمالا إلى سهل حزريل[٢] وكان المسيحيون المحليون يسكنون الكثير من القرى بعد أن هجرها أغلب المسلمين بمجىء الجيوش الفرنجية ، بل هجروا مدينتهم المفضلة نابلس التى كانوا يطلقون عليها دمشق الصغيرة . وكان الدفاع عن هذه المنطقة يسيرا ؛ إذ يوفر لها وادى الأردن الحماية من الشرق ، وليست بالنهر مخاضة بين أريحا وبيسان ، كما لا يوجد من الممرات سوى ممر واحد يصعد من الوادى إلى داخل الجبال ، كما كان من العسير دخول المنطقة من الغرب ، وإلى الشمال تقع إمارة الجليل التى استولى عليها تانكريد وضمها إلى العالم المسيحى ، والتي تشتمل على سهل إزدراليون مرج بنى عامر والتلال الواقعة بين الناصرة وبحيرة الحولة . وحدود هذه الإمارة أكثر تعرضا للإختراق ؛ إذ يمكن اختراقها من عكا على ساحل البحر المتوسط ، ومن الشرق عبر الطرق الواقعة شمال وجنوب بحر الجليل . غير أن الكثير من المسلمين هاجروا من هناك أيضا ، و لم يبق سوى المسيحيين وجماعات قليلة من اليهود فى بعض المدن ، خاصة مدينة صفد وهى الوطن الرئيسى للتقاليد التلمودية منذ أمد بعيد ؛ لكن

---

(١) Hagenmeye, Pierre l'Hermite, pp. 330-44. (ibid p. 347) مات بطرس الناسك في سن متقدمة عام ١١١٥م.

(٢) سهل حزريل : شمال فلسطين المحتلة ، ويفصل تلال الجليل شمالا عن السامرة جنوبا . وهو مذكور في العهد القديم باسم "وادي برزعيل" (أنظر سفر يشوع : ١٧ - ١٦).

أغلب اليهود آثروا اللحاق بالمسلمين فى المنفى بعد المذابح التى حصدت أبناء دينهم فى القدس وطبرية وبعد مقاومتهم للمسيحيين فى حيفا[٣] . وكانت سلسلة الجبال المركزية وطبرية بمثابة قلب المملكة . وانتشرت مواقع الاستطلاع واتسعت فى المناطق الإسلامية المحيطة ، وحصلت إمارة الجليل مؤخرا على منفذ إلى البحر فى حيفا ، وسيطرت حامية فرنجية على النقب جنوبا فى الخليل ، أما قلعة القديس أبرام ، وهي تسمية أطلقها الفرنج على الخليل ، فكانت أكثر قليلا من كونها جزيرة فى محيط إسلامى[٤]. ولم يكن للفرنج سيطرة على الطرق الآتية من شبه الجزيرة العربية حول الطرف الجنوبى للبحر الميت بطول الطريق البيزنطى القديم المسمى بطريق التوابل . وكان البدو يستخدمونه للتسلل داخل النقب والاتصال بالحاميات المصرية في غزة وعسقلان على الساحل. وكان للقدس نفسها منفذ على البحر عبر ممر يمضى خلال اللد والرملة إلى يافا ، لكن الطريق لم يكن مأمونا بغير مواكبة عسكرية ؛ إذ كانت الجماعات المغيرة المنطلقة من المدن المصرية، واللاجئون المسلمون فى الهضاب المرتفعة وبدو الصحراء، يطوفون المنطقة ويتعرضون للمسافرين في غفلة منهم. ويروى (سايولف) - وهو من الحجاج الشماليين - مشاعر الهلع والمخاطر عندما حج إلى القدس عام ١١٠٢م[٥]. وكان أميرا المدينتين الإسلاميتين أرسوف وقيسارية ، الواقعتين بين يافا وحيفا ، قد أعلنا أنهما من أتباع جودفرى ، لكنهما بقيا على اتصال بمصر عن طريق البحر ؛ إذ كان الساحل شمالى حيفا ، الممتد مسافة مائتى ميل تقريبا، يخضع للسيطرة الإسلامية حتى مشارف اللاذقية حيث كانت الكونتيسة زوجة ريموند (كونت تولوز) تقيم مع حاشية زوجها فى حماية الحاكم البيزنطى[٦].

وكانت فلسطين بلدا فقيرا بعد أن كان مزدهرا فى العصور الرومانية . على أن ذلك الازدهار لم يصمد للغزوات الفارسية ؛ ثم شهدت البلاد مولد ازدهار آخر فى ظل الخلافة العربية ، لكن الحروب المتواصلة منذ مجىء الأتراك قضت على ذلك الازدهار فى مهده . والآن تنتشر الغابات أكثر من ذى قبل ، فما تزال هناك غابات عظيمة فى الجليل وعلى امتداد جبل الكرمل وحول السامرة ، وكذلك غابة الصنوبر

(٣) عن اليهود، أنظر صفحة ٣٤٤.

(٤) أنظر أعلاه ، الجزء الأول ، الصفحتين ٢٦٣ و ٣٧٦.

(٥) *Pilgrimage of Saewulf* (in P. P. T. S. vol. IV).

(٦) أنظر أعلاه ، الجزء الأول الصفحتين ٣٧٨ و ٣٧٩.

الساحلية جنوب قيسارية ؛ مما أدى إلى وجود رطوبة في بلد يفتقر بطبيعته إلى الماء . وقد بقيت تلك الغابات والحدائق كلها برغم ما أحدثه الفرس من خراب مرات ومرات ، وبرغم ما تسبب فيه أبناء البلاد والماعز من خراب بطيء . وازدهرت حقول الحبوب في وادى ازدراليون (مرج بنى عامر)، وأينعت ثمار الموز وغيرها من ثمار الفاكهة المستجلبة إلى وادى الأردن ذي المناخ المداري ؛ ولولا الحروب الأخيرة لازدهر السهل الساحلى كذلك بمحاصيله وحدائقه التى تنمو فيها الخضروات والبرتقال اللاذع؛ وكانت بساتين الزيتون وأشجار الفاكهة تحيط بقرى جبلية كثيرة . على أن البلاد فى أغلبها كانت مجدبة والتربة خفيفة ضعيفة خاصة حول القدس ، وقد خلت مدنها من أية صناعة كبيرة . وحتى عندما بلغت المملكة أوج عظمتها لم يكن ملوكها فى مصاف كبار الأثرياء مثل كونت طرابلس أو أمراء أنطاكية(٧)؛ إذ كانت الضرائب هى المصدر الرئيسى للثروة . أما الأراضى الخصبة فى مواب والجولان عبر الأردن فكان منفذها الطبيعى عن طريق موانى الساحل الفلسطينى ؛ إذ كانت البضائع المنقولة من سوريا إلى مصر تسلك الطرق الفلسطينية ، وكانت القوافل المحملة بالتوابل الآتية من جنوبى شبه الجزيرة تجتاز النقب إلى البحر المتوسط على مر العصور. على أنه كان لابد من إغلاق المنافذ الأخرى كلها لتأمين هذا المصدر ، وهو الرسوم ؛ وكذا كان على الفرنج أن يسيطروا على كل الحدود الممتدة من خليج العقبة جنوبا إلى جبل الشيخ(٨) ، بل ومن لبنان إلى الفرات .

وفضلا عن ذلك ، لم تكن فلسطين بلادا صحية ، باستثناء القدس ذات الهواء الجبلى والمرافق الصحية الرومانية ، فهى مدينة صحية بما فيه الكفاية ، فيما عدا ما تجلبه رياح الخماسين من الجنوب من حرارة شديدة وأتربة . على أن السهول الدافئة التى جذبت الغزاة بخصوبتها كانت مرتعا خصبا للأمراض بما فيها من مياه راكدة وبعوض وذباب ، فتفشت أمراض الملاريا والتيفود والدوسنتاريا ، وسرعان ما انتشرت أوبئة الكوليرا والطاعون وغيرها فى القرى المزدحمة الخالية من المرافق الصحية ، وكثرت حالات الجزام. وسقط فرسان الغرب وجنوده فريسة لتلك الأمراض بملابسهم التي لا تلائم المناخ ، وبشهيتهم القوية ، وجهلهم بقواعد الصحة الشخصية ، وبات معدل

---

(٧) يرد موجز جيد عن فلسطين فى *Munro, The Kingdome of the Crusaders, pp. 3-9.*

(٨) جبل الشيخ أو حرمون أو سنير : اسم الجزء الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية.

الوفيات أعلى بين الأطفال. ودائما ما تمزح الطبيعة مزاحا لا يخلو من قسوة ، فتجعل مواليد الإناث أقدر على المقاومة من الذكور، مما أثار مشكلة سياسية متواصلة لدى الأجيال اللاحقة لمملكة الفرنج . على أن المستعمرين تعلموا فيما بعد ممارسة العادات الصحية ، فتهيأت الفرص لحياة أطول؛ لكن معدل وفيات الأطفال ظل في مستواه الرهيب ، وسرعان ما اتضح بجلاء ضرورة استمرار تدفق الهجرة بأعداد كبيرة من أوروبا كي يتوفر لفرنج فلسطين ما يكفي للسيطرة على البلاد .

الإحتياج إلى ميناء بحرى

كانت أولى مهام الملك بالدوين هى تأمين الدفاع عن مملكته . ولما كان ذلك ينطوى على أعمال هجومية ، فكان لزاما عليه الاستيلاء على أرسوف وقيسارية وابتلاع أراضيهما، ولابد من الاستيلاء على عسقلان التى فشل المسيحيون في غزوها عام ١٠٩٩م بسبب غيرة جودفرى من الكونت ريموند[٩] ، ودفع الحدود المصرية جنوبا كى يسلم الطريق من القدس إلى الساحل . ويجب إنشاء نقاط مراقبة متقدمة عبر الأردن وجنوب البحر الميت ، وينبغي له أن يحاول ربط مملكته بالدويلات المسيحية فى الشمال لفتح طريق الحجاج ولمزيد من المهاجرين ؛ وعليه التقدم بطول الساحل قدر الاستطاعة وتشجيع إقامة دويلات مسيحية أخرى فى سوريا . كما ينبغى له أن يوفر للمملكة ميناءً بحريا أفضل من يافا أو حيفا ؛ إذ أن ميناء يافا قريب جدا من الشاطئ ومفتوح ومياهه ضحلة للغاية فلا تستطيع السفن الكبيرة الإقتراب من الشاطئ ، ومن أجل النزول إلى الشاطئ يتعين استخدام قوارب صغيرة تتعرض لأخطار شديدة إذا ما نشطت الرياح ، أما إذا قويت الريح تعرضت السفن ذاتها للخطر . ويخبرنا الحاج (سايولف) أنه فى اليوم التالى لنزوله إلى البر هناك عام ١١٠٢م شاهد حطام أكثر من عشرين سفينة من سفن الأسطول الذى أبحر معه، كما شاهد أكثر من ألف حاج وهم يغرقون[١٠]. وأما شاطئ الرسو فى حيفا فهو أعمق وتحميه منطقة جبل الكرمل من الرياح الجنوبية والغربية ، لكن الأخطار تحدق به فى مهب الرياح الشمالية . والميناء

(٩) انظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٥٤ .

(١٠) *Pilgrimage of Saewulf, pp. 6-8*

الوحيد الآمن على الساحل الفلسطيني في جميع الأحوال المناخية هو ميناء عكا. ولأسباب اقتصادية ، فضلا عن مبررات استراتيجية ، ينبغي غزو عكا .

أما عن الحكومة الداخلية ، فكان بالدوين في حاجة ماسة إلى الرجال والمال . فليس في مأموله بناء المملكة بغير ما يكفي من الثراء والقوة اللازمين للسيطرة على أتباعه . ولا سبيل إلى الحصول على الرجال سوى الترحيب بالهجرة واستمالة المسيحيين المحليين للفوز بتعاونهم . وبمقدوره توفير الأموال بتشجيع التجارة مع البلدان المجاورة ، واغتنام فرصة التبرعات من الورعين الأوروبيين الراغبين في تشييد الكنائس في الأراضي المقدسة ووقف الأموال عليها؛ على أن هؤلاء الورعين سيرسلون أموالهم إلى الكنيسة ، فعليه إذن أن يصبح سيد الكنيسة لضمان الإفادة من تلك الأموال لصالح المملكة كلها .

إن أعظم مصدر لقوة الفرنج هو تشتت العالم الإسلامي . وما كان للحملة الصليبية الأولى أن تحقق هدفها لولا الغيرة التي تسلطت على القادة المسلمين ونبذ التعاون مع بعضهم البعض ؛ فأما مسلمو الشيعة وعلى رأسهم الخليفة الفاطمي في مصر، فكانوا يحملون للأتراك السنيين والخليفة العباسي في بغداد ما يحملونه للمسيحيين من كراهية ؛ وأما الأتراك ، فقد غاصوا في التنافس بين بعضهم البعض : بين السلاجقة والدانشمنديين ، وبين الأراتقة وآل تتش ، وبين ولدى تتش ذاتهما ، دقاق ورضوان ؛ وأما الأتابج من أمثال كربوقا ، فقد تسببوا في زيادة الإضطراب سوء على سوء لما كان يراود كل منهم من طموحات شخصية ؛ وأما الأسر المالكة الأصغر ، مثل بني عمار في طرابلس وبني منقذ في شيزر ، فقد انتهزت تلك الفوضى العارمة ونالت استقلالا واهيا ؛ ولم يكن هناك من أثر ترتب على نجاح الحملة الصليبية سوى تفاقم تلك الفوضى العقيمة ، فدب اليأس في نفوس الأمراء المسلمين ، وراحوا يتبادلون الاتهامات، مما جعل التعاون مع بعضهم البعض يزداد صعوبة على صعوبة(١١).

وانتهز المسيحيون ارتباك الإسلام . فراحت عبقرية الإمبراطور ألكسيوس المرنة تعمل عملها في تسيير دفة الأمور ؛ فأفاد من الحملة الصليبية واستعاد السيطرة على غربي آسيا الصغرى ، واسترد الأسطول البيزنطي مؤخرا كامل الخط الساحلي لشبه الجزيرة فصار تحت سلطة الإمبراطور ، بل عاد ميناء اللاذقية السوري إلى ممتلكات

---

(١١) للإطلاع على مقال رائع موجز حول العالم الإسلامي آنذاك ، أنظر مقدمة *Gibb's The Damascus Chronicles* (إبن القلانيسي - تاريخ دمشق)

الإمبراطور بمساعدة ريموند (كونت تولوز)[١٢] . وباتت الإمارات الأرمينية آمنة بعد أن كان الأتراك يتهددونها بالفناء؛ وأسفرت الحملة الصليبية عن مولد إمارتين فرنجيتين كانتا بمثابة إسفين فى العالم الإسلامى.

إمارة أنطاكية

كانت إمارة أنطاكية أغنى الإمارتين وأكثرهما أمانا . وقد أنشأها بوهيموند النورماندى على الرغم من معارضة رفيقه ريموند (كونت تولوز) ، وبرغم ما أقسم عليه من تعهدات للإمبراطور الكسيوس . ولم تكن أنطاكية واسعة المساحة ، وإنما تتألف من وادى نهر الأرند (العاصى) وسهل أنطاكية وسلسلة جبال أمانوس وميناءي الإسكندرونة والسويدية . على أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت غنية برغم التقلبات التى مرت بها مؤخرا؛ فكانت مصانعها تنتج الملابس الحريرية والسجاد والزجاج والفخار والصابون ، وكانت القوافل الآتية من حلب وما بين النهرين تتجاهل الحروب بين المسلمين والمسيحيين وتعبر بوابات المدينة فى طريقها إلى البحر . وأما سكان الإمارة فكانوا كلهم تقريبا من المسيحيين الذين يتألفون من اليونانيين ، والسريان الأرثوذكس، والسريان اليعاقبة ، والأرمن ، وقليل من النساطرة ؛ وكل طائفة منهم تنهشها الغيرة من الطائفة الأخرى ، بحيث بات من اليسير أن يسيطر عليهم النورمانديون[١٣] . أما أهم خطر خارجي تعرضت له أنطاكية فكان يتمثل فى بيزنطة أكثر مما يتمثل في المسلمين ؛ إذ أدرك الإمبراطور البيزنطي خديعته فى المسألة الأنطاكية، لكنه يسيطر الآن على موانى كيليكيا واللاذقية ، ولديه قاعدة بحرية فى قبرص ، فراح يتحين الفرصة لإستعادة حقوقه المسلوبة فى أنطاكية ، خاصة وأن الأرثوذكس كانوا تواقين للحكم البيزنطى ، لكن النورمانديين أفلحوا فى ضربهم بالأرمن واليعاقبة.

وفى صيف عام ١١٠٠م تعرضت أنطاكية لضربة قاسية ، عندما انطلق بوهيموند على رأس حملة لملاقاة أمير الدانشمند ، فانهزم وتحطم جيشه ووقع هو نفسه أسيرا . على أن الكارثة لم تتسبب في أضرار دائمة فى الإمارة عدا خسائر الرجال ؛ إذ أن الملك بالدوين، الذى كان آنذاك كونت الرها ، تصرف على الفور بحيث كان حائلا بين

(١٢) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٧٩ .

(١٣) بالنسبة لأنطاكية أنظر *Cahen, La Syrie du Nord, pp. 127 ff.*

الأتراك وبين متابعة انتصارهم ، وبعد أشهر قليلة أتى تانكريد من فلسطين لتولى مهام الوصاية على أنطاكية أثناء سجن خاله بوهيموند ، ووجد النورمانديون فى تانكريد قائدا لا يختلف عن خاله فى كثرة تحركه وتجرده من المبادىء الخلقية(١٤).

إمارة الرها

وكانت الإمارة الفرنجية الثانية هى كونتية الرها ، أو أورفا ، وكانت دويلة حاجزة توفر الحماية لأنطاكية من المسلمين . والآن يحكمها ابن عم الملك بالدوين وسميه، بالدوين (كونت لوبورج). وكانت الكونتية أكبر مساحة من إمارة أنطاكية ، وتمتد على جانبى الفرات من رواندان وعينتاب إلى حدود غير واضحة فى أراضى الجزيرة إلى الشرق من مدينة الرها . وكانت تفتقر إلى الحدود الطبيعية وتجانس السكان ؛ إذ كانوا مسيحيين فى أغلبهم من اليعاقبة والسيريان والأرمن ، ولكن كانت هناك مدن إسلامية كذلك مثل سروق . ولم يكن بمقدور الفرنج إقامة حكومة مركزية ، وإنما كانوا يحكمون من خلال حاميات فى القليل من الحصون القوية التى كانت تفرض الضرائب والإتاوات على القرى المحيطة ، وتنطلق منها الغارات عبر الحدود فتعود محملة بالغنائم . ودائما ما كانت المنطقة كلها بلدا حدوديا ومسرحا للأعمال الحربية التى لا نهاية لها . وكانت زاخرة بالأراضى الخصبة والمدن المزدهرة . على أن الملك بالدوين الآن أقل ثراء مما كان عليه أيام أن كان هو كونت الرها، عندما كان يجبى الضرائب من أهل الرها فضلا عن إغاراته هناك(١٥) .

وكانت الدويلتان فى مسيس الحاجة إلى الرجال . بل كانت القدس ذاتها في أمس الحاجة إلى الرجال ؛ فمنذ أن فتح المسلمون فلسطين بادىء الأمر ، حرموا سكانها المسيحيين من حمل السلاح ، لذا لم يجد الحكام الجدد الصليبيون من يُعتمد عليه من الجنود المحليين . أما أنطاكية والرها فكانتا تقعان داخل الحدود البيزنطية السابقة ، وفيهما الكثير من المسيحيين من ذوى التقاليد العريقة فى الشجاعة العسكرية ، ولا سيما الأرمن ؛ وبذا كان بمقدور أى أمير فرنجى إنشاء جيش كامل العدة إذا ما تعاون معه الأرمن . وقد حاول بوهيموند ثم تانكريد فى أنطاكية ، وبالدوين الأول ثم

(١٤) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٨٠ ، وأدناه ، الفصل الثالث .

(١٥) *Cahen, op. cit. pp. 110 ff.*

بالدوين الثانى فى الرها، استمالة الأرمن بادىء الأمر ؛ على أنه ثبت من التجارب أنهم قوم تجرى الخيانة فى عروقهم ، فامتنع الإعتماد عليهم ، ولم يجرؤ حكام أنطاكية والرها على وضعهم مواضع الثقة ، ولم يكن هناك من بد لحكام هاتين الدويلتين من الإستعانة بفرسان ولدوا وتربوا فى الغرب لقيادة كتائبهم وإدارة حصونهم ، ومن الإستعانة كذلك برجال الدين الذين نشأوا فى الغرب لتسيير حكوماتهم .بيد أنه بينما كانت أنطاكية تتيح للمهاجرين حياة وادعة ناعمة، لم تجتذب الرها سوى المغامرين المعتادين على حياة السلب والنهب .

المدن الإسلامية الساحلية

أما القدس ، فكانت بينها وبين الدويلتين الفرنجيتين الشماليتين مناطق فسيحة شاسعة يحكمها عدد من عواهل المسلمين الغيورين . وكانت منطقة الساحل شمالى المملكة مباشرة تحت سيطرة الموانى الأربعة عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها تدين بالولاء لمصر بحيث يقوى ذلك الولاء باقتراب الأسطول المصرى ويضعف بابتعاده[١٦] . وكان بنو عمار مستقلين بإمارتهم الواقعة شمالى بيروت ويحكمونها من عاصمتهم طرابلس ؛ وقد انتهز أميرها رحيل الصليبيين جنوبا فراح يوسع رقعة حكمه مؤخرا حتى طرطوس[١٧] . وبين طرطوس واللاذقية كان القاضى ابن صليحة يحكم إمارة جبلة ، على أنه فى صيف عام ١٠٠١م سلمها إلى طغتكن – أتابج دقاق الدمشقى – الذى سلمها بدوره إلى بنى عمار[١٨] . وفى جبال النصيرية الواقعة وراء طرطوس وجبلة كان بنو محرز يحكمون إمارتى المرقب وقدموس الصغيرتين ، بينما كانت إمارة الكهف تحت حكم بنى عمرون[١٩] . وأما الوادى الأعلى لنهر العاصى فكان مقسما بين خلف بن ملاعب فى أمافيا ، وهو مغامر شيعى اعترف بالولاء للسيادة الفاطمية ، وبنى منقذ أمراء شيزر – الأمراء الأهم من تلك الأسر الحاكمة الصغيرة – وجناح الدولة فى حمص ، وهو أتابج سابق لرضوان الحلبى الذى استقل بحمص بعد أن وقع في خلاف مع

---

(١٦) *Gibb, op. cit. pp. 15-18; Le Strange, Palestine under the Moslems, pp. 342-52*

(١٧) للمزيد حول بنى عمار أنظر مقال *Sobernheim* "إبن عمار" فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١٨) إبن القلانيسى ، تاريخ دمشق ، *The Damascus Chronicle, pp. 51-2*

(١٩) *Cahen, op. cit. p. 180*

سيده[٢٠] . وكانت حلب ما تزال فى قبضة رضوان الذى كان يحمل لقب ملك لكونه من الأسرة السلجوقية الحاكمة . وكان بنو أرتق يحكمون الجزيرة التي تقع إلى الشرق من حلب بعد انسحابهم إليها من القدس التى احتلها الفاطميون عام ١٠٩٧م . وكان بنو أرتق أنفسهم من أتباع دقاق أمير دمشق ، الذى خلع على نفسه لقب ملك كأخيه رضوان[٢١].

وتفاقم اضطراب هذه الإنقسامات السياسية بسبب اختلاف عناصر السكان في سوريا؛ إذ كان الأتراك يشكلون أرسطقراطية إقطاعية صغيرة متناثرة ؛ وكان الأمراء الأقل كلهم تقريبا من العرب ؛ وأما سكان المدن فى شمالى سوريا ومناطق دمشق ، فكانوا مسيحيين فى أغلبهم ، من السريان المنتمين إلى الكنيسة اليعقوبية ، والنساطرة في المناطق الشرقية ، ومن الأرمن المتسللين من الشمال، وكان أغلب السكان فى أراضى بنى عمار من المارونيين أتباع مذهب "المونوثيلية"[٢٢]. وفى جبال النصيرية استقرت قبيلة النصيرية ، وهى طائفة شيعية يستمد منها خلف بن ملاعب قوته ، وكان الدروز - وهم فئة شيعية تؤله الحاكم بأمر الله - يقيمون في منحدرات جنوب لبنان، ويكرهون جيرانهم المسلمين ، لكنهم كانوا أشد كراهية للمسيحيين. وازداد تعقد الأمور بهجرة العرب المطرودة من الصحراء ، وتدفق الأكراد من الجبال الشمالية إلى الأراضى الخصيبة ، وكذلك بوجود جماعات التركمان التى كانت على استعداد لأن تضع نفسها تحت إمرة أى زعيم محارب يدفع لها[٢٣].

الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية

كان حكام مصر الفاطميون أقوى جيران سوريا من المسلمين؛ إذ كان وادى النيل والدلتا فى عالم العصور الوسطى أكثر المناطق كثافة بالسكان ، وكانت مصانع القاهرة والإسكندرية العظيمتين تنتج الزجاج والفخار والأدوات المعدنية ، فضلا عن الكتان

---

(٢٠) أنظر مقال *Honigman* "شيزر" ، ومقال *Sobernheim* "حمص" ، فى دائرة المعارف الإسلامية ، وكذلك *introduction to Hitti, An Arab-Syrian Gentleman, pp.5-6*

(٢١) أنظر Gibb, *op. cit. pp. 22-4*

(٢٢) (المترجم) *Monotheletism* معتقد لاهوتى مفاده أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٢٣) أنظر Gibb, *op. cit.* pp. 27-9

والمنسوجات المزركشة ، وكانت المحاصيل الوفيرة من الحبوب تنمو فى المناطق المزروعة، والدلتا زاخرة بمزارع قصب السكر . كما كانت مصر تسيطر على تجارة السودان الرائجة بما تشمله من ذهب وصمغ عربى وريش نعام وعاج ، وتنقل تجارة الشرق الأقصى المبحرة عن طريق البحر الأحمر عبر الموانى المصرية إلى البحر المتوسط . وبرغم ما كان يشاع من إفتقاد المصريين للشهرة العسكرية ، كان بمقدور الحكومة المصرية أن تدفع بالجيوش الجرارة إلى الميدان ، كما كان باستطاعتها استخدام المرتزقة أيا كان عددهم ؛ وفضلا عن ذلك ، فهى القوة الوحيدة التى تنفرد بامتلاك أسطول بحرى ضخم . ولذا كان من الطبيعى للحاكم الشيعى فى مصر أن يوفر الحماية للشيعة فى سوريا ، بل وللعرب السنيين الذين يخشون السيطرة التركية ، ومن ثم كانوا على استعداد للإعتراف بسيادته لما كان يتحلى به دائما من تسامح ؛ على أن الغزوات التركية دأبت على تقليص الإمبراطورية الفاطمية فى سوريا، كما أن استيلاء الفرنج على القدس وتغلبهم على التعزيزات المصرية فى عسقلان ، أضر بمكانة الخلافة الفاطمية. بيد أنه كان بمقدور مصر تعويض جيش فقدته فى معركة ، فلم يكن هناك مفر فى أن يسرع الوزير الأفضل قدر استطاعته فى الانتقام من الهزيمة واسترجاع فلسطين ، لاسيما وأنه هو نفسه أرمينى مولود فى عكا ويحكم مصر باسم الخليفة الفاطمي الصغير (الآمر) ؛ وهكذا ظل الأسطول المصرى على اتصال بالمدن الإسلامية الساحلية فى فلسطين(٢٤) .

أما الخليفة العباسي الشاب المستظهر بالله العباسى ، والذي يعتبر ندا لنظيره الفاطمي، فكان قابعا فى الظل فى بغداد لا ينفذ له أمر من الأمور إلا بعد موافقة السلطان السلجوقى بركيارق أكبر أبناء ملك شاه العظيم ، وإن كان دون أبيه قوة واقتدارا ؛ ودائما ما كان إخوة السلطان السلجوقى يتمردون عليه ، فاضطروه إلى أن يهب أخاه الأصغر سنقر ، مقاطعة خراسان ، وظل منذ عام ١٠٩٩م فى حرب دائرة مع أخيه محمد الذى تمكن أخيرا من الفوز بمقاطعة العراق . وهكذا بقى بركيارق فى انشغال دائم يحول بينه وبين أن يكون حليفا نافعا فى الكفاح ضد المسيحيين .

وكان زعيم أصغر فرع فى الأسرة الحاكمة السلجوقية ، وهو قلج أرسلان الأناضولى، والذى خلع على نفسه لقب سلطان ، فى وضع أفضل قليلا من ابن عمه فى

(٢٤) أنظر Wiet, *L'Egypte Musulman*, pp. 260 ff.

العراق آنذاك. وكانت الحملة الصليبية الأولى قد انتزعت منه عاصمته نيقية مع جُل ثروته في معركة دوريليوم ؛ كما استردت بيزنطة أغلب الأراضى التى كان يسيطر عليها ؛ وكان على خلاف مع سلاجقة الشرق إذ رفض الإعتراف بسيادتهم . على أن المهاجرين التركمان الوافدين إلى الأناضول وفروا له الوسيلة التى أعاد بها بناء جيشه ، وأصبحوا شعبه الذى يفوق عدد المسيحيين[٢٥]. على أن الإمارة الأكثر نشاطا فى شمال شرق الأناضول كانت إمارة الدانشمند فى سيواس وعلى رأسها الأمير أنوشتكين الذى أطبقت شهرته الآفاق لإيقاعه بوهيموند فى الأسر ، وكان أول قائد مسلم يحرز النصر على جيش من فرسان الفرنج ، وما فتئت قوته تتزايد بمجىء المهاجرين التركمان[٢٦] .

وكانت هناك عدة إمارات أرمينية تفصل بين أتراك الأناضول والدويلتين الفرنجيتين فى شمال سوريا؛ فكان أوشين يسيطر على أواسط جبال طوروس ، وأمراء بيت روبين يسيطرون على المنطقة الواقعة إلى الشرق منه ، وكواسيل فى جبال طوروس المقابلة ، وثاتول فى مرعش ، وجبرائيل فى ملطية . وكان كل من ثاتول وجبرائيل من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية ، ومن ثم اتجهت ميولهما إلى بيزنطة ، وكان كلاهما يرتكز من الناحية القانونية على ما خلعه الإمبراطور على كل منهما من ألقاب . وأما أمراء بيت روبين ، الذين انفردوا بنجاحهم فى إنشاء دويلة كتب لها الدوام ، فكانوا على عدائهم التقليدي لكل من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية[٢٧].

بيـزنطة

كانت بيزنطة أكثر القوى المسيحية الخارجية اهتماما بشؤون سوريا . وكان الإمبراطور الكسيوس معتليا عرش الإمبراطورية لما يقرب من عشرين سنة . وقد تسلم الإمبراطورية بادىء الأمر وهي فى أشد حالات تدهورها ، فراح يعيد بناءها على دعائم

---

(٢٥) أنظر مقالى "السلاجقة" و "قلج أرسلان" فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢٦) *For the Danishmends, see Mukrimin Halil, article 'Danishmend', in Islam Ansiklopedisi*

(٢٧) لمزيد من الإطلاع على الخلفية الأرمينية أنظر: *Tournebize, Histoire Politiqueet Religieuse d'Armeniepp. 168-70.* ؛ وانظر أيضا أعلاه ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٥ وما بعدها.

راسخة بما عرف عنه من دبلوماسية وإدارة إقتصادية ماهرة ومعاملة حسنة لرعاياه ، بل ولأنداده داخل وخارج الإمبراطورية على السواء ؛ فاستغل الحركة الصليبية لإسترجاع غربى آسيا الصغرى من الأتراك ، وأعاد تنظيم أسطوله فسيطر به على السواحل . وكان لبيزنطة مكانتها التقليدية العظيمة فى أرجاء الشرق حتى وهى فى أشد درجات تدهورها ؛ فهى الإمبراطورية الرومانية بتاريخها الذى تحمله وراءها بألف سنة ؛ والجميع يعترف بالإمبراطور رئيسا للعالم المسيحى مهما بلغت كراهية رفاقه المسيحيين لسياسته أو حتى لجشعه ؛ والقسطنطينية أكثر مدن العالم أخذا بالألباب لكثرة سكانها ونشاطهم ، ولضخامة ثروتها، وتحصيناتها المنيعة . وكانت القوات البيزنطية المسلحة تنفرد بأنها الأحسن تجهيزا فى زمانها ؛ كما تنفرد عملة الصلدوس الذهبية ، (هيبربيرون Hyperpyron) التى تسمى بيزانت بأنها العملة الوحيدة المضمونة فى احتساب المبادلات الدولية لوقت طويل ، وكان قسطنطين العظيم هو الذى ثبّت قيمتها . وكان لبيزنطة أن تلعب دورا مسيطرا فى السياسات الشرقية لما يقرب من قرن من الزمان أمامها . على أن ما حققته بيزنطة من شتى ضروب النجاح كان يرجع فى حقيقة الأمر إلى ما كان يتصف به رحالاتها من ذكاء متقد، وإلى اسمها الرومانى ، أكثر مما يرجع إلى قوتها الحقيقية ؛ فقد دمرت الغزوات التركية نظام الأناضول الإقتصادى والإجتماعى الذى كانت الإمبراطورية تعتمد عليه حُل اعتمادها لتلبية احتياجاتها من الجنود والغذاء ؛ وبرغم إمكان استرداد الأرض ، يكاد يستحيل إسترجاع النظام السابق . والآن أصبح الجيش كله تقريبا من المرتزقة ، ولذا فهو باهظ التكاليف وليس فى الإمكان كذلك الإعتماد عليه ؛ فإذا كان من الجائز الإطمئنان إلى استئجار المرتزقة الأتراك من البنجاك للتصدى للفرنج أو للسلافيين ، فليس فى الإمكان وضعهم موضع الثقة أمام أتراك آسيا؛ كما أن المرتزقة من الفرنج لن يحاربوا رفاقهم الفرنج طواعية . وكان الكسيوس قد لجأ فى مستهل حكمه لجوء المضطر إلى شراء المساعدة من البنادقة على أن يمنحهم امتيازات تجارية برغم ما لحق رعاياه من أضرار ؛ ثم أتبع ذلك بمنح امتيازات للمدينتين البحريتين جنوا وبيزا ، ومن ثمّ بدأت تجارة الإمبراطورية تنتقل إلى الغرباء . وبعد ذلك بقليل إضطرته حاجته إلى السيولة المالية إلى التلاعب فى العملة ، فأمر بضرب قطع من العملات الذهبية التى يقل محتواها الذهبى عمّا كان عليه من قبل ، فاختلت الثقة فى البيزانت ، وفى الحال أصر عملاء الإمبراطورية على أن يتقاضوا مستحقاتهم بعملة "الميخائيليات" التى ضربت فى عهد الإمبراطور ميخائيل السابع ، وكانت آخر العملات التى اشتهرت بأنها الجديرة بالثقة .

وكانت أول اهتمامات الإمبراطور توفير الرفاهية لإمبراطوريته . ولقد رحب بالحملة الصليبية الأولى ، وكان مهيأ للتعاون مع زعمائها ؛ لكن طموحات بوهيموند وخيانته فى أنطاكية صدمته وأغضبته ، وباتت أولى رغباته إسترجاع أنطاكية والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى . وكان تعاونه مع الصليبيين قد وصل إلى نهايته بانتقالهم جنوبا إلى فلسطين . وأما السياسة البيزنطية التقليدية طوال القرن السابق فكانت التحالف مع الفاطميين فى مصر ضد السنيين العباسيين والأتراك ؛ فكانت معاملة الفاطميين للمسيحيين الشرقيين تتميز بالرفق والعطف ، عدا فترة حكم الخليفة الحاكم المجنون ؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو ألكسيوس إلى افتراض أن حكم الفرنج للمسيحيين الشرقيين سيكون أفضل من حكم الفاطميين ، وبذا نأى بنفسه عن المسيرة الفرنجية التى تستهدف القدس . بيد أنه لم يكن بوسعه ، وهو باعتباره راعيا للأرثوذكس ، أن يتجاهل مصير القدس . وإذا كان مقدرا للمملكة الفرنجية البقاء ، فيكون لزاما عليه أن يتخذ من الخطوات ما يكفل له تأكيد حقوقه ؛ وهو على استعداد لأن يُظهر للفرنج فى فلسطين ما يدل على حسن نواياه، لكن مساعداته الإيجابية سوف تقتصر على مساعدتهم فى فتح الطرق العابرة لآسيا الصغرى. وأما مشاعره حيال النورمانديين فى أنطاكية فكانت العداء لا غير ، وقد اتضح فيما بعد أنه عدوهم الخطر. ولا يبدو أنه كان يمنى النفس باستعادة الرها، وربما تحقق من فائدة الكونتية الفرنجية بوضعها كمخفر متقدم فى مواجهة العالم الإسلامى(٢٨) .

مشاكل بالدوين

ولقد برز عنصر جديد فى السياسات الشرقية بتدخل المدن التجارية الإيطالية التى تخلفت عن الإنضمام إلى الحملة الصليبية إلى أن أيقنت من أنها تبشر بالنجاح ؛ فعندئذ راحت بيزا والبندقية وجنوا ترسل الأساطيل إلى الشرق ، واعدة بتقديم المساعدة للصليبيين نظير حصولها على منشآت فى أية مدينة تشارك فى غزوها . ورحب الصليبيون بذلك ؛ فيكاد يستحيل إخضاع المدن الساحلية الإسلامية بغير القوة البحرية، فضلا عن أن السفن ستؤمن لهم سرعة الإتصال بأوروبا الغربية بدلا من الرحلة الطويلة

---

(٢٨) للإطلاع على وضع بيزنطة وسياسة ألكسيوس ، أنظر المجلد الأول فى أماكنها المختلفة .

على اليابسة . على أن ما كانت تطلبه تلك المدن مـن امتيـازات وتحصـل عليـه لم يكـن يعني سوى أن تفقد حكومات الفرنج فى الشرق الكثير من الإيرادات الهامة(٢٩) .

و لم تكن تعقدات الوضع الدولى من حول الملك بالدوين تبشره بالتفاؤل . فإمـا أن حلفاءه تعوزهم الحماسة أو أنهم مجبولون على الجشـع ، فـلا تشـغلهم سـوى الأنانيـة . فكـان يسـتعين بتشـتت أعدائـه ؛ ولـو أن العـالم الإسـلامى وحـد زعيمـا يجمـع شملـه ، لتضاءلت فرصة البقاء أمام الدويلات الفرنجية فى الشرق . وفى ذات الوقت لم يكن مع بالدوين سوى قلة قليلة من الأنصار فى أرض مناخها مميت ، كـانت علـى مـر القـرون ساحة للإقتتال بين الأمـم. ولقـد استبشـر لمّـا علـم بـأن هنـاك حمـلات صليبيـة جديـدة انطلقت فعلا من الغرب .

(٢٩) يـرد أحسـن موجـز للـدور الـذى لعبـه الإيطاليــون فــى: Heyd, *Histoire du Commerce du Levant vol.* i, pp., 131 ff.

الفصل الثانى:

الحملات الصليبية

سنة ١١٠١م

٤٧

الحملات الصليبية سنة ١١٠١م

"فَقَالُوا لا نَصْغَى"

(إرميا: ٦. ١٧)

وصل نبأ استعادة المسيحيين لبيت المقدس إلى أوروبا الغربية فى أواخر صيف ١٠٩٩ م ؛ فأثار فى القلوب الحماس والبهجة . وتوقف المؤرخون فى أرجاء أوروبا عن تناول الأحداث المحلية ليسجلوا تلك الرحمة العظيمة التى أنزلها الرب بهم. وكان البابا إيربان قد مات قبل أن يعلم بذلك النبأ ؛ لكن أصدقاءه ومساعديه فى جميع الكنائس راحوا يمجدون الرب لنجاح سياسته . وعاد كثير من زعماء الصليبيين خلال الشتاء التالى إلى أوطانهم ومعهم رحالهم . ولا شك فى أن الجنود - كدأبهم - بالغوا فى وصف ما اعترضهم من مصاعب و تصوير روعة الأراضى التى احتازوها ، واختلقوا الكثير من معجزات السماء ليشدوا من أزرهم . على أنهم جميعا أعلنوا عن أن الحالة فى الشرق تحتاج إلى محاربين و مستعمرين لمواصلة "عمل الرب" ، وأن الثروات والضياع الضخمة تنتظر من يفوز بها من المغامرين . وراحوا يشجعون حملة صليبية جديدة

يمنحها دعاة الكنيسة بركاتهم[١].

على أن الحملة التالية لم تشرع فى الرحيل إلا فى بداية خريف ١١٠٠ م ، فلم يكن السفر مناسبا فى أشهر الشتاء، وكان الحصاد ينتظر من يجمعه . وفى سبتمبر عام ١١٠٠ م غادرت الحملة الصليبية اللومباردية إيطاليا إلى الشرق ، وعلى رأسها أبرز الشخصيات اللومباردية أنسلم (كونت بُويه) رئيس أساقفة ميلانو وبصحبته ألبرت كونت بياندرات، وجيبرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتبيللو . ولم يكن لأبناء لومبارديا فى الحملة الصليبية الأولى دور بارز ؛ فخلال الأشهر الأولى من تلك الحملة رحل الكثير منهم شرقا وانضموا إلى بطرس الناسك ، لكنهم أسهموا فى دمار حملته لتآمرهم مع رفاقه الألمان ضد الفرنسيين ، ومن بقى منهم على قيد الحياة انضم الى بوهيموند ، الذى علا نجمه فوق زعماء الصليبيين جميعا نتيجة لذلك. وكانت الحملة الراهنة أكثر تنظيما بقليل. وكان فيها قلة قليلة من الجنود المدربين ، وتتألف أساسا من رعاع جاءوا من الأحياء الفقيرة فى المدن اللومباردية ، بعد أن اضطربت معيشتهم لانتشار الصناعة فى المقاطعة ولم يكن لهم محلا فيها . وصحبتهم أعداد كبيرة من رجال الدين والنساء والأطفال . وكانت حملة ضخمة الحشود يقدر المؤرخ ألبرت كونت آيكس عدد أفرادها بمائتى ألف شخص ، إلا أنه ينبغى أن نقسم هذا العدد على عشرة على الأقل . ولم يكن هناك سبيل لأن يسيطر أحد على هذا الحشد ، سواء أكان رئيس الأساقفة ، أم كونت بياندرات الذى كان يعتبر القائد العسكرى للحملة[٢].

١١٠٠م اللومبارديون يتجمعون

وفى خريف ١١٠٠ م ، شرع اللومبارديون فى مسيرتهم متمهلين ، عبر كارنيولا أسفل وادى نهر ساف وخلال أراضى ملك هنجاريا ، ودخلوا الامبراطورية البيزنطية عند بلجراد ؛ وكان الكسيوس مهيأ للتعامل معهم . فسار جنود حراسته معهم عبر البلقان . وكانوا كثرة يتعذر توزيع الإمدادات عليهم ومراقبتهم وهم فى معسكر واحد؛

---

(١) أنظر مثلا، خطاب البابا باسكال الوارد فى Migne, Patrologia Latina, vol. CLXIII, cols. 42 ff. وكان يعتقد فى الشرق أنه إذا لم تصل تعزيزات فقد يتعين إخلاء الأراضى المفتوحة *De Translatione S. Nicolai in R. H. C. Occ. vol. v,p. 271*.

(٢) Albert of Aix, VIII, I, p.559; Anna Comnena, XI, viii, I, vol. III, p. 36,. وتسميهم أنا كومنينا "نورمانديين تحت قيادة أخوين باسم.(Phlantras)

فتقرر تقسيم الحملة إلى ثلاث مجموعات : الأولى تمضى الشتاء فى معسكر خارج مدينة فيلوبوبوليس ، والثانية خارج أدريانوبل (أدرنة) ، والثالثة على مشارف مدينة رودوستو. وحتى مع هذه التجزئة استحالت السيطرة عليهم لما كانوا عليه من فوضى عارمة ؛ إذ راحت كل مجموعة تغير على المناطق المحيطة بمعسكرها ، تنهب القرى وتقتحم مخازن الغلال ، وتسرق الكنائس . وفى نهاية الأمر جمعهم الامبراطور فى شهر مارس فى معسكر واحد خارج أسوار القسطنطينية منتويا نقلهم إلى آسيا بغاية السرعة؛ لكنهم علموا بخروج صليبيين آخرين للحاق بهم ، فرفضوا عبور مضيق البوسفور إلى آسيا إلى أن تصل تلك التعزيزات . فقطعت عنهم السلطات الامبراطورية المؤن لإجبارهم على التحرك ، فما كان منهم إلا أن بادروا بمهاجمة أسوار المدينة وشقوا طريقهم إلى فناء قصر (بلاشيرنا) الامبراطورى حيث قتلوا أسدا أليفا من أسود الامبراطور وحاولوا فتح بوابات القصر . وكان رئيس أساقفة ميلانو وكونت بياندرات فى ضيافة الامبراطور الكريمة ، فارتاعا لما حدث ، واندفعا خارجين إلى وسط الحشود المشاغبة ونجحا أخيرا فى إقناعها بالعودة إلى المعسكر ؛ ثم كان عليهما أن يواجها مهمة تهدئة الامبراطور[٣].

غير أن الذى تأتى له أن يصنع السلام هو ريموند (كونت تولوز) الذى كان يمضى فصل الشتاء فى ضيافة الامبراطور ، بعد أن فاز بثقته الكاملة . وكان ذا شهرة عظيمة لأنه أقدم أمراء الصليبيين جميعا ، وكان صديقا للبابا إيربان والأسقف أديمار ، فأصغى له اللومبارديون ووافقوا على الأخذ بنصيحته والإنتقال إلى آسيا. وبنهاية شهر أبريل كانوا قد استقروا فى معسكر بالقرب من نيكوميديا انتظارا لوصول الصليبيين الجدد من الغرب[٤].

١١٠١م : اللومبارديون والفرنسيون فى القسطنطينية

ولم يطو النسيان أبدا فرار ستيفن كونت (بلوا) من أنطاكية ، لأنه لم يفِ بقسمه

(٣) Albert of Aix, VIII, 2-5, pp. 559-62; Orderic Vitalis, x, 19, vol. IV, P. 120 , يخلط ألبرت القصة قائلا إن الإمبراطور استخدم أسوده ضد الصليبيين.

(٤) Albert of Aix, VIII, 7, p.563; Anna Comnena, XI, viii, 2 vol. III, pp. 36-7. وقيل إن ريموند كان بحوزته ما يسمى (الرمح المقدس) أنظر Runciman, *'The Holy Lance found at Antioch'*, in Analecta Bollandiana, vol. LXVIII, pp. 205-6.

الصليبي، وأظهر الجبن في وجه الأعداء . ولذا كانت زوجته الكونتيسة أديلا، إبنة وليم الغازى ، تعتصرها مرارة الخجل منه . فلم تكن تكف ، حتى حينما ينفردا معا في مخدعهما ، عن توبيخه كي يذهب لإسترداد سمعته . و لم يكن بوسعه التذرع بأن الكونتية في احتياج اليه . إذ أن زوجته كانت دائما الحاكم الفعلي للكونتية . ونال منه الضجر وتملكته الهواجس الشريرة ، فانطلق إلى الأراضى المقدسة مرة أخرى فى ربيع ١١٠١م(٥).

وانتشر نبأ اعتزامه الخروج، وبدأ فرسان كثيرون يعدون العدة لمصاحبته إلى أن خرجوا معه تحت قيادة ستيفن كونت برجاندى ، وهيو كونت بروى ، وبالدوين كونت جراندبريه ، وهيو كونت بييرفوند (أسقف سواسن) . وارتحلوا جنوبا خلال إيطاليا ثم عبروا البحر الأدرياتيكى ، ووصلوا القسطنطينية فى أوائل مايو تقريبا. وفى مكان ما أثناء الرحلة أدركتهم فرقة ألمانية صغيرة يرأسها كونراد الذى كان كونستابل الامبراطور هنرى الرابع(٦).

وابتهج الصليبيون الفرنسيون لرؤية ريموند فى القسطنطينية ، وزادت بهجتهم بعد أن استقبلهم الامبراطور . وربما بإيحاء من الكسيوس ، قرروا تنصيب ريموند قائدا للحملة كلها؛ و لم يكن بوسع اللومبارد يين سوى الإذعان . وفى الأيام الأخيرة من شهر مايو تحرك الجيش كله من نيكوميديا فى طريقه الى دوريليوم ، و كان يتألف من فرنسيين ، وألمان ، ولومبارديين ، وبعض البيزنطيين بقيادة تسيتاس ، الذى كان معه خمسمائة من المرتزقة الأتراك - وربما كانوا من البتشنج.

واستهدفت الحملة الوصول إلى الأراضى المقدسة وأن تعيد ، فى طريقها ، فتح الطرق التى تخترق آسيا الصغرى فى ، وهو هدف ثانوي أيده الامبراطور تأييدا تاما . ولذا أوصى ستيفن (كونت بلوا) أن تسلك الحملة طريق الحملة الصليبية الأولى من خلال دوريليوم وقونية . ووافق ريموند على نصيحته لأنها تتفق والتعليمات التى تلقاها من الامبراطور. لكن النورمانديين الذين يشكلون أغلب الجيش كان لهم رأى آخر، فبوهيموند هو بطلهم ، وليس هناك غيره ممن يثقون فى قدرته على قيادتهم إلى النصر ؛ لكنه أسير لدى أمير الدانشمند فى قلعة نقصار الواقعة على مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقى من الأناضول ، فأصروا على أن تكون مهمتهم الأولى هى إنقاذ بوهيموند ، و لم

---

(٥) Orderic Vitalis, x, 19, vol.iv, p. 119.

(٦) Albert of Aix, VIII, 6, pp. 256-3; Orderic Vitalis, loc.cit.

تجد اعتراضات ريموند وستيفن أذنا صاغية ؛ فما يشعر به ريموند من غيرة حيال بوهيموند كان معروفا جيدا ، كما أن ريموند - برغم مزاياه - لم يظهر أبدا بمظهر القائد الذى يأمر فيطاع . وأما ستيفن ، فقد تسبب جبنه السابق فى أنطاكية فى القضاء على ما تبقى له من نفوذ . وهكذا انتصر رأى اللومبارديين بعدما آيدهم كونت بياندرات ورئيس اساقفة ميلانو(٧). وانحرف الجيش شرقا من نيكوميديا ويمم وجهه شطر أنقرة . وكانت البلاد فى أغلبها تحت السيطرة البيزنطية ، ولذا لم يجد الصليبيون صعوبة فى الحصول على الغذاء من أى مكان، فيما عدا أنقرة نفسها التى تتبع الآن السلطان السلجوقى قلج أرسلان . وعندما وصلوها يوم ٢٣ يونية وجدوا تحصيناتها ضعيفة فهاجموها واستولوا عليها ، وسلموها لممثل الامبراطور ، فكان ذلك تصرفا حكيماً.

١١٠١م : معركة مرسيفان

غادر الصليبيون أنقرة باتجاه الشمال الشرقى عبر الطريق الذاهب إلى جنجرة الواقعة إلى الجنوب من بفلاجونيا كى يصلوا إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى أماسيا ونيقصار . على أن متاعبهم بدأت ولمّا يصلوا إلى جنجرة ، إذ كان قلج أرسلان يتقهقر أمامهم مخربا البلاد ليمنع عنهم الطعام . وفى ذات الوقت شعر الملك غازى الدانشمند بالخطر فبادر بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان ، وأرسل إلى رضوان الحلبى يستحثه على إرسال التعزيزات . وفى أوائل يوليه وصل الصليبيون إلى جنجرة حيث كان السلاجقة ينتظرونهم بأعداد ضخمة فى الحصن المنيع ، واضطر الصليبيون إلى الرحيل بعد أن نهبوا البلاد واستولوا على ما فيها من طعام ، ثم نال منهم الجوع والتعب ، وهم الذين لا قِبل لهم بحرارة يولية المحرقة فى هضبة الأناضول . وبين مشاعر اليأس وخيبة الأمل أخذوا بنصيحة الكونت ريموند بأن لا سبيل إلى إنقاذ الجيش من كارثة محققة إلا بالسير شمالا باتجاه كستمونى ، ومنها إلى أية مدينة بيزنطية على ساحل البحر الأسود . ولم يساور ريموند شك فى أن الامبراطور سيغفر له مخالفته لتعليماته بعد أن استعاد له القلعتين العظيمتين : أنقرة وكستمونى ، لاسيما أن الأخيرة (كاسترا كومنون - أى قلعة كومنين) هى موطن الأسرة الامبراطورية من قبل.

---

(٧) Albert of Aix, VIII, 7, pp. 563-4 يقول إن قرار السير شرقا هو قرار اللومبارديين.

ومضت الرحلة إلى كستموني بطيئة مؤلمة . فالماء في تناقص ، والأتراك يدمرون المحاصيل أثناء تحركهم السريع في صفوف متوازية ، يناوشون طليعة الصليبين تارة ومؤخرتهم تارة اخرى . و لم يمض وقت طويل حتى هاجم الأتراك فجأة حرس الطليعة الذى كان يتألف من سبعمائة فارس من اللومبارديين فضلا عن المشاة فلاذ الفرسان اللومبارديون بالفرار تاركين المشاة للقتل والتنكيل . وبجهد جهيد تمكن ستيفن (كونت برحندى) من جمع شتات الطليعة لصد هجوم الأعداء . وخلال الأيام التى تلت تكرر اشتباك ريموند فى المؤخرة مع الأتراك ، مما أجبر الجيش كله على أن يتحرك فى حشد واحد ، فامتنع إرسال الكشافين أو فرق البحث عن المؤن . وبوصول الجيش إلى كستمون بدا واضحا للقادة أن فرصة النجاة الوحيدة هى الإندفاع مباشرة بقدر الإمكان فى اتجاه الساحل، على أن النورمانديين رفضوا مرة أخرى الاستجابة لنداء العقل ، ولعلهم ألقوا باللوم كله على ريموند لإختياره طريق كستموني بما فيه من مصاعب ، وربما ظنوا أن الأمور ستسير على ما يرام بخروجهم من أراضى السلاجقة إلى أراضى الدانشمند ، وانتهى بهم الأمر إلى إصرار أحمق على التوجه إلى الشرق مرة أخرى ، و لم يكن للأمراء من حيلة سوى الرضوخ لإصرارهم ؛ إذ أن انفصالهم بفرقهم الصغيرة عن الجيش الرئيسى يعني ضياعا محققا . وتحركت الحملة الصليبية وعبرت نهر هاليس فصارت فى أراضى الدانشمند . وفى الطريق تلبّسهم شيطان النهب والسلب ، فنهبوا قرية مسيحية قبل وصولهم إلى مدينة مرسيفان الواقعة فى منتصف الطريق بين النهر وأماسيا ، وهناك وقع الكونستابل كونراد فى كمين ففقد عدة مئات من جنوده الألمان وبات جليًا الآن أن الدانشمند وحلفاءهم يتجمعون فى حشود ضخمة استعدادا لهجوم حاد ، فراح ريموند ينظم صفوف الجيش المسيحى استعدادا للمعركة[٨].

وبدأ الأتراك أسلوبهم المفضل فى الحرب : ينقض الرماة ويطلقون سهامهم وينسحبون بسرعة ليظهر رماة أخرون من اتجاه آخر . و لم تتهيأ للصليبيين فرصة نزال رجل لرجل بحيث تظهر ميزات قوتهم البدنية الأكبر وأسلحتهم الأفضل . وسرعان ما

---

(٨) Albert of Aix, VIII, 8-14, PP. 564-7. يقول ألبرت إن ريموند أخذ رشوة من الأتراك ليقود الجيش إلى كستموني وليس هذا مقنعا .Anna, loc. cit. تذكر أنا كومنينا نهب القرية المسيحية من الواضح أنه على حق فى رفض Grousset, Histoire des Croisades, vol. II, p. 326 N. 2, ما حدده Tomaschak من أن "Maresch" التى ذكرها Albert هى (Amasea Topographie von kleinasien,p.88) وأن يعكس ما حدده Michaud على أنه Merzifun or Mersivan. ويستطيع أى فرنسى جاهل أن يغير بسهولة Mersivan إلى Maresiam or Marescan والأخيرة هى الشكل الفرنسي لـ Marash ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن وضع حرف الراء `r` فى Amasya، وهى الإسم التركى لـ Amasea أو Masa العربية.

انهار اللومبارديون ، ودب الرعب فى قلوبهم وهم يولون الأدبار يسبقهم قائدهم كونت بياندرات تاركين وراءهم نساءهم وقساوستهم ، وفى الحال لحق بهم المرتزقة من البتشنج الذين لم يجدوا أى مبرر لانتظار موت محقق . وصار ريموند وحيدا بعد أن هجره رفاقه ، فتقهقر مع حرسه الخاص إلى تل صخرى صغير وراح يقاوم إلى أن تمكن ستيفن كونت بلوا وستيفن كونت برجاندى من إنقاذه . وارتد الفرسان الفرنسيون وكونراد الألمانى إلى المعسكر حيث قاوموا بشجاعة طوال النصف الثانى من النهار . وبحلول الليل وجد ريموند أن لا طاقة له بمزيد من القتال ، فهرب متخفيا تحت جنح الظلام مع حرسه الخاص (البروفانس) والحرس البيزنطى ، ويمم وجهه شطر الساحل . ولما علم رفاقه بفراره كفوا عن القتال ؛ وشهد انبلاج الصباح تسابق من نجا من الجيش تاركين المعسكر يستولى عليه الأتراك بمن فيه من غير المحاربين.

وتمهل الأتراك فى المعسكر ليقتلوا الرجال والمسنين ، ثم انطلقوا يتعقبون الفارين وقد أخذ الحماس منهم كل مأخذ ، ولم يفلت من سيوفهم سوى الفرسان على خيولهم، ولم يبق من اللومبارديين المعاندين الذين تسببوا فى الكارثة سوى قادتهم . وهكذا فقد الجيش أربعة أخماسه ، وفاز الأتراك بكثير الكثير من نفيس الثروة والأسلحة ، وامتلأت أجنحة الحريم وأسواق الرقيق فى الشرق يومئذ بالأسرى من الصبايا والأطفال[٩].

وأفلح ريموند وحرسه فى الوصول إلى ميناء بافرة البيزنطى الصغير على مصب نهر هاليس حيث وجدوا سفينة أبحرت بهم إلى القسطنطينية ؛ وأما الفرسان الآخرون فقد شقوا طريق عودتهم عبر النهر حتى الساحل عند سينوب على البحر الأسود ، حيث واصلوا سيرهم البطئ على الطريق الساحلى وسط الأراضى البيزنطية وحتى البوسفور ثم تجمعوا مرة أخرى فى القسطنطينية فى باكورة الخريف[١٠].

١١٠١م نتائج معركة مرسيفان

حاول الرأى العام الصليبى أن يجد كبش فداء يلقى عليه بمسؤولية الكارثة ، فوجده فى بيزنطة ؛ إذ قيل إن ريموند بقيادته للجيش فى غير طريقه ، ليهلك فى كمين

(٩) Albert of Aix, VIII, 14-23, pp. 567-73, وتتفق روايه ألبرت مع الرواية المقتضبة التى روتها أنا كومنينا فى Anna Comnena, xi, viii, 3, vol. iii, pp. 37-8.

(١٠) Albert of Aix, viii, 24, p. 274.

متفق عليه سلفا ، إنما كان ينفذ تعليمات الامبراطور . لكن الحقيقة هي أن الامبراطور غاضب الآن على ريموند ورفاقه برغم استقباله لهم بأدب يشوبه برود لا يخفى إمتعاضه[١١] ، وكان حريا به أن يغفر لهم لو أن الحملة الصليبية استردت له كستمونى والجزء الداخلى من بفلاجونيا ؛ فقد كان متلهفا على طريق مباشر مأمون إلى سوريا ، وراغبا فى تأمين معاودة غزواته فى جنوب غرب آسيا الصغرى ، وساعيا إلى التدخل فى شؤون سوريا ، فضلا عن عزوفه عن التورط فى حرب مع الأمير الدانشمندى ، لاسيما أن المفاوضات جارية الآن لشراء بوهيموند ؛ وهكذا فشلت مخططاته بسبب حماقة اللومبارديين ليس إلا . على أن الكارثة كانت لها آثارها الأخطر ؛ فالحملة الصليبية الأولى جردت الأتراك من شهرتهم ومن ثقتهم بأنفسهم كذلك ، ولكن الأتراك الآن استعادوا الشهرة والثقة بالنفس على السواء ، وتمكن السلطان السلجوقى من بسط سيطرته على أواسط الأناضول ، وسرعان ما أقام عاصمة ملكه فى قونية الواقعة فى قلب الطريق الرئيسى من القسطنطينية إلى سوريا ، بينما واصل الملك غازى الدانشمندى غزواته فى وادى الفرات وحتى مشارف كونتية الرها[١٢] . وهكذا بات الطريق البرى من أوروبا إلى سوريا مغلقا فى وجه البيزنطيين ، فضلا عن الصليبيين . وعلاوة على ذلك ، ساءت العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة لإصرار الصليبيين على أن صانع بلاياهم هو الامبراطور ، بينما شعر البيزنطيون بالصدمه والغضب لغباء الصليبيين وجحودهم وخداعهم.

١١٠١م : الحملة الصليبية النفرسية

لم يمض وقت طويل حتى اتضحت نتائج الكارثة . فبعد أيام قليلة من انطلاق اللورمبارديين من نيكوميديا ، كان جيش فرنسى قد وصل القسطنطينية وعلى رأسه وليم الثانى، كونت نفرس . وكان قد خرج من وطنه فى فبراير ١١٠١ م ، مرتحلا عبر إيطاليا ثم عبر البحر الأدرياتيكى من برنديزى إلى أفلونا. وترك جيشه انطباعا رائعا أثناء مسيرته عبر مقدونيا لما أبداه من انضباط، واستقبل الامبراطور الكونت استقبالا حسنا، ولكن الكونت قرر عدم البقاء فى القسطنطينية ؛ وربما توقع أن ينضم فى القسطنطينية إلى قوات كونت برجندى - وهو جاره فى الوطن - ولذا أسرع فى الرحيل قدر

---

(١١) Ibid., loc. cit. يقول إن ريموند راح يهدىء من حفيظة الإمبراطور.

(١٢) Cahen, La Syrie du Nord, p.232; Michael the Syrian, iii, pp.189-191.

استطاعته آملا اللحاق به . وبوصوله نيكوميديا ، علم أن الصليبيين ذهبوا إلى أنقرة ، فوصلها فى نهاية يوليه تقريبا . على أنه لم يكن هناك من يعرف مكان الجيش الفرنسى اللومباردى ؛ ولذلك عاد وليم متخذا الطريق الذاهب إلى قونية . وبرغم ما لقيه الجيش فى رحلته من مشاق فى بلد لم يبرأ من الخراب منذ الحملة الصليبية الأولى ، فقد تقدم الجيش فى نظام تام . وكانت قونية آنذاك فى قبضة حامية سلجوقية قوية ، وباءت بالفشل محاولات وليم فى الهجوم على المدينة للاستيلاء عليها. وتحقق من أن التأخير هناك يخلو من الحكمة ، فواصل مسيرته . بيد أنه فى تلك الأثناء علم قلج أرسلان والملك غازى بظهور هذا العدو الجديد. وكان حماس الانتصار على اللومبارديين ما يزال مشتعلا ، فأسرعا جنوبا ربما خلال (قيصرية مزاكا) و(نيجده) ، فوصلا هرقلة قبل وليم. وكان الجنود النفرسيون يسيرون ببطء باتجاه الشرق من قونية ، وقد نفد الطعام ، والآبار الموجودة على الطريق قد سدها الأتراك . ولدى اقترابهم من هرقلة ، وهم فى حالة من شدة التعب والضعف ، وقعوا فى كمين وأحاط بهم الجيش التركى الذى كان يفوقهم بأعداده الغفيرة . وانهارت مقاومتهم بعد قتال قصير . وسقطت القوة الفرنسية بكاملها فى ميدان المعركة ، عدا الكونت وليم نفسه والقليل من الفرسان الراكبين الذين تمكنوا من اختراق خطوط الأتراك ، وبعد أن هاموا على وجوههم عدة أيام فى جبال طوروس وصلوا قلعة جيرمانيكوبوليس البيزنطية ، الواقعة شمال غرب سلوقية الإيزورية . ويبدو ان الحاكم البيزنطى هناك أمدهم بقوة من اثنى عشر جنديا مرتزقا من البتشنج لمرافقتهم حتى الحدود السورية . وبعد ذلك بأسابيع قليلة دخل الكونت وليم ورفاقه أنطاكية ، نصف عرايا وبلا سلاح، قائلين إن البتشنج استلبوهم وتركوهم فى الصحراء التى كانوا يعبرونها ؛ غير أن ما حدث فى حقيقة الأمر لا يعلمه أحد(١٣).

١١٠١م : الحملة الصليبية الأكيتانية

لم يكد كونت نفرس يعبر البوسفور فى طريقه إلى الأراضى المقدسة حتى وصل القسطنطينية جيش آخر أكبر يتألف من فرنسيين وألمان . وكانت الفصيلة الفرنسية بقيادة وليم التاسع ، دوق أكيتان ، الذى كان أشهر الشعراء الغنائيين فى عصره (Troubadour)، والذى كان من الناحية السياسية غريما مريرا لريموند التولوزى ؛ إذ أن زوجته ، الدوقة فيليبا ، هى إبنة الأخ الأكبر لريموند ، وكان لها أن ترث كونتيته. وجاء

(١٣) Albert of Aix, viii, 25/33, pp. 576/8.

مع وليم التاسع هير (كونت فيرمندوا) الذى كان قد تخلى عن الحملة الصليبية الأولى بعد الإستيلاء على أنطاكية ، وكان متلهفا على الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . وانطلق الجيش الأكيتانى من فرنسا فى شهر مارس فى الطريق البرى الذى يخترق جنوب ألمانيا وهنجاريا. وفى الطريق إنضم إليه الدوق ويلف دوق بافاريا الذى أمضى حياة حافلة فى ألمانيا، ثم أزمع أن يمضى مابقى له من سنوات الشيخوخة فى الحرب من أجل الصليب فى فلسطين . وأحضر معه جيشا مجهزا تجهيزا جيدا يتألف من فرسان وراجلين ؛ وكان بصحبته ثيمو ، رئيس أساقفة سالزبرج ، ومرحرافين إيدا النمساوية ، وكانت إحدى أجمل نساء عصرها؛ لكنها الآن وقد ولى شبابها سعت إلى مافى الحملة الصليبية من إثارة يشوبها الورع . وسار الجيشان المتحدان معا أسفل نهر الدانوب إلى بلجراد ثم سلكا الطريق الذى يخترق البلقان . وكان حشدا جامحا يغلب علي سلوكه العبث الذى بلغ مداه بوصولهم ادريانوبل ؛ فأرسلت السلطات البيزنطية جنود البتشنج و الأتراك الروس (البولوفتسيان) لوقف أى تقدم آخر لهم . وبدأت معركة عادية ؛ ولم يسمح لهم بالتقدم إلا بعد أن تدخل الدوق وليم ومعه ويلف شخصيا وتعهدا بانضباط سلوك الجند . ورافقهم حرس قوى حتى القسطنطينية ، حيث استقبل ألكسيوس الكونت وليم ، وويلف ، ومارجرافين ، استقبالا حسنا، وكان قد أعد العدة لنقل رحالهم بأسرع ما يمكن عبر البوسفور . واستقل بعض الحجاج المدنيين سفينه أخذتهم مباشرة إلى فلسطين التى وصلوها بعد رحلة استغرقت ستة أسابيع، وكان بينهم المؤرخ إيكارد (كونت أورا) Ekkehard of Aura.

وكان بمقدور الدوقين اللحاق بوليم الثانى كونت (نفرس) وتقوية جيشيهما بالانضمام الى قواته. لكن كونت نفرس كان يرغب فى الإنضمام الى كونت برجندى ، وليس من المتوقع أن ينضم الدوق وليم الى جيش يقوده عدوه القديم ريموند كونت تولوز . أما ويلف البافارى ، الذى كان عدوا قديما للإمبراطور هنرى الرابع ، فربما كانت المودة منعدمه بينه وبين كونراد ، الذى كان يعمل فى خدمة هنرى الرابع (كونستابل) . وأسرع كونت نفرس متقدما إلى أنقره ، بينما تريث الجيش الأكيتانى البافارى على ضفاف البوسفور خمسة أسابيع ، ثم تحرك متمهلا على طول الطريق الرئيسى الذاهب إلى دوريليوم وقونية . ووصل دوريليوم بعد أن غادرها الجيش النفرسى بأيام قليلة وابتعد كثيرا فى طريق عودته باتجاه قونية . ومما زاد من صعوبات الأكيتانيين والبافاريين مرور جيش آخر على نفس الطريق قبل ذلك بأيام قليلة ، مستوليا على

القدر الضئيل الذى كان متاحا من إمدادات الطعام ، فألقى الصليبيون باللوم على البيزنطيين خاصة . وكشأن النفرسيين ، وجدوا الآبار جافة أو مسدودة فنهبوا مدينة فيلوميليوم بعد أن هجرها أهلها . وكانت الحامية التركية ، التى صدت الجيش النفرسى فى قونية ، قد هجرت المدينة قبل وصول هذا الجيش الأكبر آخذة معها كل شئ يؤكل، ونزعت الثمار والفواكه من البساتين والحدائق جميعا ، فلم يجد الصليبيون ما يجددون به حيويتهم . وفى نفس تلك اللحظة تقريبا كان قلج أرسلان وملك غازى أمامهم على مسافة مائة ميل تقريبا يذبحون رجال نفرس.

١١٠١م : معركة هرقلة

راح الصليبيون يكدحون فى شق طريقهم من قونية خلال الصحراء نحو هرقلة وقد نال منهم الجوع والعطش . وظهر فرسان الأتراك من يمينهم ويسارهم ، يرشقونهم بسهامهم ، ويتصيدون فرق البحث عن الطعام والجماعات الشاردة . وفى أوائل سبتمبر دخلوا هرقلة فوجدوها مهجورة مثل قونية . وكان النهر يتدفق بمياهه وراء المدينة ، وهو أحد الأنهار القليلة ذات المياه الوفيرة طوال الصيف فى الأناضول.

واندفع المحاربون المسيحيون نحو المياه التى بدت لهم مرحّبة تاركين صفوفهم وقد أوشكوا على الجنون من قسوة الظمأ ، ولكن الجيش التركى كان مختبئا فى الآحام الكثيفة على جانبى النهر . وبينما كان الصليبيون فى صخبهم الفوضوى ، انقضّ عليهم الجيش التركى وأحاط بهم، ولا وقت هناك لإصلاح الصفوف ، فدبّ الذعر فى الجيش المسيحى واختلط الفرسان والمشاة فى فرارهم مذعورين ، وأثناء تعثرهم فى محاولة الفرار راح العدو يعمل فيهم السيف . وتمكن دوق أكيتان من شق طريقه على فرسه إلى الجبال يتبعه سائس الخيل ، وبقى هكذا هائما على وجهه أياما عدة إلى أن عثر على طريق طرسوس . وجرح هيو (كونت فيرمندوا) جرحا بليغا فى المعركة ؛ وتمكن بعض رجاله من إنقاذه وتمكن هو الآخر من الوصول إلى طرسوس ، لكنه كان رجلا ميتا ، إذ وافته المنية يوم ١٨ أكتوبر ودفن هناك فى كتدرائية القديس بطرس ، ولم يف قط بعهده الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . ولم يفلح ويلف البافارى فى النجاة إلا بعدما ألقى بدروعه كلها ، وبعد عدة أسابيع وصل إلى أنطاكية مع اثنين أو ثلاثة من خدمه . وأسير رئيس أساقفة ثيمو ، واستشهد فى سبيل عقيدته .وأما مصير سارجرافين النمساوية فلا يعلمه أحد . وتقول الأساطير المتأخرة إنها أنهت أيامها أسيرة فى

حريم بعيد حيث ولدت البطل المسلم زنكي ، والراجح أنها سقطت من فوق محفتها أثناء الذعر وداستها الأقدام حتى ماتت(١٤).

انتهت كل حملة من الحملات الصليبية الثلاث عام ١١٠١ م بكارثة ، مما كان له أثره في قصة الحركة الصليبية برمتها. فقد انتقم الأتراك لهزيمتهم في دوريليوم ، وفضلا عن ذلك ، ليسوا هم الذين يطردون من الأناضول . وظل الطريق عبر شبه الجزيرة محفوفا بالمخاطر للجيوش المسيحية ، فرنجية كانت أو بيزنطية . وفيما بعد عندما رغب البيزنطيون في التدخل في سوريا ، كان عليهم تعزيز مواقعهم في نهاية خطوط المواصلات التي كانت طويلة وضعيفة جدا ؛ بينما كان المهاجرون الفرنج يخشون الرحيل برا عن طريق القسطنطينية ، إلا إذا كانوا في صحبة جيوش جرارة ، وليس أمامهم سوى ركوب البحر ، وهو أمر لا يتوفر إلاّ للقليل من ذوى القدرة المالية . وبدلا من وصول آلاف المستعمرين الذين تستفيد منهم سوريا وفلسطين في ذلك العام، لم يصل إلى الدويلات الفرنجية سوى عدد ضئيل من القادة المشاغبين الذين فقدوا جيوشهم شهرتهم ، حيث يوجد بالفعل ما يكفى من القادة المشاغبين.

ومع ذلك ، لم يشعرالمسيحيون كلهم بالأسف لكوارث عام ١١٠١ م . إذ وجدت المدن البحرية الإيطالية أن الفشل في تأمين الطريق البرى عبر آسيا الصغرى يعنى زيادة نفوذها وثروتها؛ فهى تملك السفن التى توفر البديل لخطوط مواصلات الدويلات الفرنجية فى الشرق ، وأصبح التعاون معها أمرا لازما لازبا ، وأصرّوا على أن يكون الدفع فى شكل امتيازات تجارية . وأما الأرمن فى جبال طوروس ، خاصة الأمراء الروبيون ، فقد رحبوا بالظروف التى حالت دون معاودة بيزنطة إنشاء امبراطوريتها فى المناطق التى يعيشون فيها ؛ رغم أن الأرمن الأقرب إلى الشرق كانوا أقل ابتهاجا لتلك الظروف ، إذ أن عدوهم الرئيسى هو الأمير الدانشمندى ، الذى سرعان ما دفعه حماس انتصاره إلى مهاجمتهم . أما النورمانديون فى أنطاكية ، كشأن

---

(١٤) Albert of Aix, VIII, 34-40, pp.579-82 (وهو المصدر الوحيد الكامل) ؛ Ekkehard, XXIV XXVI, pp.30-2، ذهب بحرا من القسطنطينية ، ويشوّش الحملات الأرضية كما يفعل Fulcher of Charters, VII,xvi, 1-3, pp. 428-33. وهناك ثلاثة Passiones S. Thiemonis يصف استشهاد رئيس الأساقفة ولكن ليس هناك تفصيلات عن الحملة . وأما مصير إيدا الحدسى فيرد فى Historia Welforum Weingartensis, in M.G.H.Ss.vol. XXI, p. 462. ويقول إكهارد إنها قتلت لا غير. وهناك عدة مؤرخين غربيين يشيرون إلى هذه الحملة لمجرد المناسية . ويحدد Hagenmeyer(op.cit. p. 457) تاريخ نهب فيلوميليوم بحوالى ١٠ أغسطس ، وتاريخ المعركة حوالى ٥ سبيمبر.

الروبيين يخشون بيزنطة أكثر مما يخشون الأتراك، فقد أتيحت لهم فسحة من الوقت نافعة ؛ فما زال بوهيموند فى الأسرالمضنى ، وانتهز تنكريد - الوصى على أنطاكية - الفرصة بكاملها وراح يقوى الإمارة على حساب الامبراطور . وسرعان ما وضعت الأقدار فى يده ورقة رابحة.

١١٠٢م اعتقال الكونت ريموند

كان دوق آكيتان ، وكونت بافاريا ، وكونت نفرس ، قد وصلوا فعلا مع القليلين الباقين على قيد الحياة إلى أنطاكية بحلول خريف ١١٠١ م . أما قادة الحملة الصليبية الفرانكولومباردية فكانوا لا يزالون فى القسطنطينية . وكان من الصعب أن يغفر لهم ألكسيوس حماقاتهم . حتى ريموند الذى كان يعلق عليه الآمال العراض خيب آماله هو الآخر . وفى نهاية العام قرر الأمراء الغربيون مواصلة رحلة الحج ؛ وطلب ريموند الإذن ليلحق بزوجته وجيشه فى اللاذقية ، فأذن لهم الامبراطور وأمدهم بسفن أبحرت بهم إلى سوريا. وفى بداية العام تقريبا هبط إلى البر فى ميناء السويدية ستيفن (كونت بلوا) ، وستيفن (كونت برجندى) ، والكونستابل كونراد ، وألبرت (كونت بياندرات) ، وأسرعوا إلى اللاذقية حيث رحب بهم تنكريد ترحيبا حارا أما سفينة الكونت ريموند فقد انفصلت عن باقى السفن واضطرت إلى الرسو فى ميناء طرسوس . وما أن وطئت قدمه البر حتى تقدم منه فارس يدعى برنار الغريب وألقى القبض عليه لخيانته العالم المسيحى بفراره من ميدان القتال فى مرسفان . ولم يكن بمقدور حرس ريموند الخاص أن يفعل شيئا لقلة عدده ، فلم يتمكن من إنقاذه . واقتيد ريموند تحت الحراسة وسُلّم لتنكريد[١٥].

(١٥) Albert of Aix, viii, 42, pp. 582-3 ، كان برنار الغريب هو الآمر فى طرسوس فى سبتمبر ١١٠١م (انظر ادناه ص ٦٤) . وكما يفترض رادولف (Radulph of Caen) cxlv, p.708, (followed by Cahen) La Syrie du Nord,p.232,n.10 من المحتمل ان يكون ريموند قد هبط الى الساحل فى لونجنيادا ، او ميناء طرسوس ، وليس فى السويدية مع الصليبيين الآخرين كما يفترض ألبرت . أما ماثيو الأورفى Matthew of Edessa, clxxii, p. 242 فيقول إن ريموند قد سُجن فى (ساروانتافى) ، أى سارفينتيكار فى جبال طوروس . وليس ذلك محتملا.

الفصل الثالث:

أمراء أنطاكية النورمانديون

أمراء أنطاكية النورمانديون

"وهؤلاءِ كلُّهم يَعْمَلُون ضدَّ أحكامِ قَيْصَرَ"
(أعمال الرسل : ١٧ - ٧)

وبرغم انزعاج أمراء الفرنج ، على ما بدا آنذاك ، لهزيمة بوهيموند ووقوعه أسيرا لدى الملك غازي الدانشمندي، إلا أن ذلك لم يكن يخلو من أحداث وجدوا فيها بعض عِوض ؛ فأنطاكية فى حاجة إلى وصى عليها فى غيبة بوهمند ، وكان تنكريد هو المرشح لمباشرة مهام الإمارة بدلا من خاله الأسير، وبذا تمكن الملك بلدوين من التخلص من أخطر أتباعه فى فلسطين ، بينما أقبل تنكريد على أنطاكية تسبقه مشاعر البهجة ، ففيها الخلاص من وضع لا يخلو من حرج ، يفتقر فيه إلى الأمان ، وفيها أحوال جديدة يتسع فيها المجال ويتحقق الإستقلال . وعندما رحل عن فلسطين في شهر مارس ١١٠١م لم يكن لديه سوى شرط واحد : أن يستعيد إقطاعية الجليل التى سبق أن استولى عليها، فى حالة أطلاق سراح خاله من الأسر خلال ثلاث سنوات وإذا لم تعد

أنطاكية فى احتياج إليه . وهكذا بات بلدوين وتنكريد كلاهما حريصا على بقاء بوهيموند أسيرا أطول فترة ممكنة ، و لم يبذلا أية محاولة للتفاوض مع آسره[١] .

وتوخى تنكريد الاستقامة في وصايته على أنطاكية . فلم يتخذ لنفسه لقب أمير أنطاكية وبرغم أنه سكّ عملة - كما تقول الأسطورة فى لغة يونانية رديئة - فلم تحمل هذه العملة سوى عبارة (خادم الرب). وكان أحيانا يطلق على نفسه (الأمير الأكبر) ، ولو أن طموحاته أغرته بأكثر من ذلك لوجد معارضة من الرأي العام فى أنطاكية على الأرجح، فما زال النورمانديون يعتبرون بوهمند قائدهم ، كما كان هناك صديق مخلص لبوهمند هو البطريق اللاتينى "برنار الفالنسى" الذي عينه قبل الأسر مباشرة والذى من أجله طرد البطريق اليونانى "حون الأوكزيتى" . وسار تنكريد على نفس السياسة التى كان يسير عليها بوهمند ، فراح يعزز الجوانب الداخلية فى إدارة الإمارة ، ويضفى الصبغة اللاتينية على الكنيسة؛ وفى الشؤون الخارجية دأب على تحقيق الثراء على حساب البيزنطيين وأمراء المسلمين من جيرانه . على أن طموحاته المحلية فاقت طموحات خاله، على عكس طموحاته العالمية التي كانت أقل من طموحات خاله[٢].

١١٠١م تنكريد وبيزنطة

وكان أول شاغل لتنكريد هو توفير الحماية من أى هجوم بيزنطى . وقد ساعده ما منى به الصليبيون من كوارث عام ١١٠١ م ؛ فلا يستطيع الامبراطور - بعد النهضة القوية لأتراك الأناضول - أن يسير جيشا يجتاز شبه الجزيرة ويمضى مباشرة إلى الجنوب الشرقى البعيد . وكان تنكريد يرى أن الهجوم هو أفضل سبل الدفاع ، ولذا بعث فى صيف ذلك العام - وربما فور أن سمع بأنباء مرسيفان - بالجنود إلى كيليكيا لإستعادة مامسترا وأضنة وطرسوس التى كان البيزنطيون قد استردوها قبل ذلك بثلاث سنوات . و لم تكن القوات البيزنطية المحلية من القوة بحيث تصمد لمقاومة قواته ، فكان له ما أراد.

---

(١) Fulcher of Charteres, I, vii, I, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8.

(٢) Schlumberger, *Les Principautes franques du Levant, pp. 14-15,* يناقش عملات تانكريد التى تظهره فى أردية امبراطورية ، ومع ذلك توجد "كوفية" على رأسه . ومنقوش على العملة باللغة الإغريقية : "تانكريد ، خادم الله" ، وعلى الوجه الآخر : IC XP NIKA (مثل العملات البيزنطية) . وطبقا لما ورد فى *Historia Belli Sacri, p. 228,* لم يتأكد منصبه كحاكم إلى أن أقسم قسم الولاء لبوهيموند وخلع عليه الوصاية المندوب البابوى موريس أوف بورتو *Maurice* of Porto.

وعندما لجأ وليم كونت أكيتان وهيو كونت فيرمندوا إلى طرسوس في نهاية سبتمبر كان برنار الغريب التابع لتنكريد حاكما على المدينة(٣) .

وبعد ذلك تحول اهتمام تنكريد إلى ميناء اللاذقية البيزنطى الذى كان النورمانديون يشتهونه منذ زمن طويل . وكان ميناء هائلا ، خاصة بعد مجيء جنود ريموند البروفانسيين من مقاطعة بروفانس الفرنسية مما أضاف قوة جديدة للميناء ، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى يوفر له الحماية بحرا، فلم يجرؤ تنكريد على مهاجمة اللاذقية قبل أن يتفاوض مع مدينة جنوا الإيطالية ضمانا لمساعدة سفنها(٤) . فراح يختل البلاد الداخلية ويحاول الإستيلاء على جبلة فى الجنوب . ولقد سبق أن حاول بوهمند الإستيلاء على جبلة في صيف ١١٠٠م بحملة صغيرة أسر فيها "الكونستابل " التابع له وباءت تلك الحملة بالفشل ؛ وكذلك فشل تنكريد في الإستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠١م . على أن حملة تنكريد هذه الفاشلة دفعت قاضيها ابن صليحة إلى تسليم المدينة لأتابج دمشق ، وتقاعد هو نفسه فى دمشق ليمضى شيخوخة هادئة . وأرسل أتابج دمشق ، طغتكن ، ابنه بورى ليتولى حكم جبلة . لكنه كان مكروها ، فخلعه أبناء جبلة بعد أشهر قليلة ووضعوا أنفسهم تحت حماية بنى عمار فى طرابلس ، وسحب تنكريد جنوده من المنطقة(٥) .

وقد مكّنه اعتقاله لريموند وحجزه فى أنطاكية من معاودة خطته للإستيلاء على اللاذقية . على أن تصرفه حيال ريموند كان بمثابة صدمة للبطريق برنار ولرفاقه الصليبيين . ونزولا على رغبتهم أطلق سراح ريموند ؛ على أنه كان لزاما أن يقسم ريموند أولا على عدم التدخل مطلقا فى شؤون سوريا الشمالية(٦) . وانطلق ريموند لغزو طرطوس ، وفى طريقه الذى يمر باللاذقية التزم بقسمه وأمر جنوده بإخلاء المدينة والإنضمام إليه ومعهم زوجته الكونتيسة ، وهكذا ترك الحامية البيزنطية وحيدة دون مساعدة البروفانس الفرنسين . وفى ربيع ١١٠٢م زحف تنكريد على اللاذقية ، لكن أسوارها المنيعة استعصت عليه وصدته حاميتها ببسالة ، بينما كانت وحدات البحرية

---

(٣) Radulph of Caen, cxliii, p. 706; Albert of Aix, VIII, 40, p. 582; Orderic Vitlais, XXIII, p. 140.

(٤) Caffaro, Liberatio, p. 59; Ughelli, *Italia Sacra*, IV, pp. 847-8.

(٥) Ibn al-Qalanisi, Damascus, pp. 51-2.

(٦) Albert of Aix (VIII,42, pp. 582-3) يقول إن ريموند أقسم ألا يغزو سوريا شمال عكا، وحيث لا اعتراض على هجومه على طرطوس فربما اقتصر قسمه على البلاد الواقعة إلى الشمال من اللاذقية .

البيزنطية تزود الحامية بالمؤن ، واستمر الحصار لما يقرب من عام . وفى الأسابيع الأولى من ١١٠٣م ، وبينما كان تنكريد ينتظر سفن جنوا التى استأجرها لقطع المواصلات بين اللاذقية وقبرص ، تدبر خدعة حربية لرجال الحامية خارج أسوار المدينة، وانقض عليهم وأوقعهم فى الأسر ، فاستسلمت له المدينة(٧) .

١١٠٢م ضغينة الأسقف مناس

و لم يكن الامبراطور ألكسيوس ليرضى عن تلك التصرفات ؛ إذ أغضبه إبعاد بطريق أنطاكية اليونانى جون الأوكسيتى ، وطرد رجال الدين اليونانيين واستبدالهم بآخرين من اللاتينيين . وكان قد تسلم رسالة فى باكورة ١١٠٢م من الملك بلدوين يرجوه فيها بذل ما لديه من جهد لمساعدة أية حملة صليبية تالية ، وذلك بعد أن سمع شائعة تقول إن البيزنطيين ساعدوا فى تحطيم الحملات الصليبية سنة ١١٠١م بامتناعهم عن التعاون معها.وحمل رسالة بلدوين أسقف يدعى مناس كان قد ذهب إلى فلسطين مع إكارد فى ١١٠١م وكان عائدا لتوه من القدس . ويبدو أن العبارات الرقيقة كانت تغلب على أسلوب الرسالة ، فضلا عما حمله الأسقف من هدايا بالدوين، فتأثر الامبراطور ألكسيوس وظن أن بمقدوره مصارحة الأسقف بما يداخله من أحزان ، لكنه أخطأ الحكم على الرجل ؛ إذ كان الأسقف لاتينيا أكثر منه مسيحيا ، ولا تعاطف لديه إزاء اليونانيين ، ورجاه الامبراطور أن يذهب إلى إيطاليا ويبلغ البابا بما صارحه به ، ففعل الأسقف وإنما بطريقة أثارت غضب البابا على بيزنطة . ولو كان البابا إيربان الثانى على قيد الحياة ما وقع الضرر لما كان يتصف به من سعة الأفق وعزوف عن الدخول فى خلافات مع العالم المسيحى الشرقى؛ أما خلفه البابا باسكال الثانى فكان ضئيلا بجانب سلفه ، منعدم البصيرة ، سهل الإنقياد . وسرعان ما وافق على وجهة النظر الفرنجية المبتذلة من أن الامبراطور يناصبهم العداء . ولم يجد الامبراطور سبيلا للإنتصاف .

ثم حاول تنكريد التدخل فى شؤون مملكة القدس . ففى ١١٠١م نفى الملك بلدوين البطريق دايمبرت ، فرحب به تنكريد على الفور فى أنطاكية حيث وضع كنيسة القديس جورج تحت تصرفه . وبعد أشهر قليلة انهزم الملك بلدوين أمام العرب فى

(٧) Radulph of Caen, cxliv, pp. 708-9; Anna Comnena, IX, vii, 7, vol. III, p. 36.

الرملة ، فاستنجد بأمراء الشمال ، لكن تنكريد رفض تقديم المساعدة مالم يرجع البطريق دايمبرت إلى القدس ويسترد بطرقيته ، فاضطر بلدوين إلى الموافقة ، وبهذا ارتفعت شهرة تنكريد ، غير أنها خبت عندما أدين دايمبرت فى أحد المجالس الكنسية وتقرر طرده مرة أخرى ، فرحب به تنكريد مرة ثانية ، لكنه لم يواصل الدفاع عن قضيته .

١١٠٢م بلدوين الثانى يرهن لحيته

ولم تلق تصرفات تنكريد استحسانا قط من جاره فى الرها بلدوين أوف ليبورج. وأبو بلدوين، وهو هيو الأول كونت ريثيل، هو ابن أميرة من بولونيا، وهى عمة جودفرى كونت لورين والملك بلدوين . ولأن بلدوين الثانى هذا ابن هيو الأصغر ، ومن ثم مفلس ، فقد جاء إلى الشرق مع أبناء عمومته ، لكنه بقى مع بوهمند في أنطاكية وقت أن نصب بلدوين الأول نفسه فى الرها، وكان يقوم بدور الوساطة والاتصال بين الأميرين ، فلما وقع بوهمند فى الأسر تولى حكومة أنطاكية إلى أن استدعى بلدوين من الرها وأصبح ملك القدس ، وعندئذ خلع الملك بلدوين على ابن عمه ، بلدوين كونت ليبورج ، إقطاعية الرها ليحكمها حكما ذاتيا تحت سيادة القدس. ولم يكن وضعه هذا الذى ورثه فى الرها وضعا سهلا ؛ فليست لإمارة الرها حدود طبيعية ، وهى معرضة للغزو دائما ، ولا يستقيم له حكم إلا بتعزيز المدن الرئيسية والحصون بالحاميات ، وإذن كان فى احتياج إلى من يثق فيهم من القائمين على خدمته ومن رفاقه ، لكنه يفتقر إلى رجال من أبناء جلدته ، فراح يعمل على توثيق عرى الود مع المسيحيين من أهل البلد . وكان أول عمل يقدم عليه حيال ذلك هو زواجه - بصفته كونت الرها - من أميرة محلية هى الأميرة "مورفيا" ابنة جبرائيل القديم صاحب ملطية ذى العرق الأرمينى، ولكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفى ذات الوقت راح يتودد للأرمن من أتباع الكنيسة الغريغورية المنفصلة وفاز بمؤازرتهم ، ومن بينهم مؤرخهم الكبير ماثيو الأورفى (أوف إيديسا) الذى كان يثنى عليه غاية الثناء لما يتحلى به من طباع ودودة ومسلك لا تشوبه شائبة برغم تندمه على طموحاته وبخله . وعلى الرغم من المحاباة التى كان بلدوين يظهرها للأرمن بوجه خاص كى ينتفع بهم فى حروبه ، فقد كان يظهر العطف كذلك على رعاياه من السيريان اليعاقبة ، وأفلح فى رأب صدع حدث فى كنيستهم . ولم يكن هناك ما يعيب بلدوين سوى الجشع ؛ فكان

فى احتياج لا ينقطع إلى المال ، يبذل ما فى وسعه للحصول عليه . على أن مساعيه فى الحصول على المال كانت أقل تعسفا من مساعى بلدوين الأول ، بل تجاوزها لطفا ومرحا ، وكثيرا ما كان فرسانه يمرحون من مساعيه تلك ، لاسيما عندما يفكر فى انتزاع ثلاثين ألف بيزنت من حميه ، فيعلن أنه مدين لرحاله بهذا المبلغ ويقسم لهم أنه سوف يحلق لحيته إن لم يوفهم حقوقهم ، وكان يعلم مدى أهمية اللحية لكرامة الرجولة - كشأن اليونانيين - بين الأرمن الذين أصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الصليبيين بادىء الأمر بلحاهم الحليقة ، كما كان يعلم جيدا رأى حميه من أن صهرا بلا لحية يحط من هيبته . وعندما كان رجال بلدوين يشاركون فى هذه الملهاة مؤكدين قسم سيدهم ، كان جبرائيل يسارع بتقديم المال المطلوب للحيلولة دون تلك المهانة الشنيعة ، ويفرض على زوج ابنته قسما جديدا بالا يرهن لحيته مرة أخرى(٨) .

واضطر بلدوين الثانى فى بداية حكمه إلى التصدى للأمير سقمان الأرتقى صاحب ماردين فى هجوم الأخير على مدينة سروق الإسلامية التى سبق أن استولى عليها بلدوين الأول وعهد بحكمها إلى فولشر أوف تشارتر . لكن بلدوين الثانى الذى خف لنجدة فولشر انهزم أمام سقمان ولقى فولشر مصرعه ، واستولى المسلمون على المدينة عدا القلعة الصامدة بقيادة بنديكت رئيس الأساقفة اللاتينى فى الرها ؛ فأسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية لاستئجار الجنود لتعويض خسائره . وابتسم له الحظ لدى عودته ؛ إذ اندحر سقمان خارج المدينة بخسائر كبيرة ، فراح بلدوين الثانى يقتل كل من تعاون مع الأراتقة من السكان ، وامتلأت السجون ، واضطر السجناء إلى افتداء أنفسهم مما زاده ثراء بهذه الأموال الجديدة(٩) .

وسرعان ما وجد بلدوين نائبا مفيدا فى شخص ابن عمته جوزلين (أوف كورتناى) ، وهو المفلس أصغر أبناء لورد كورتناى ، ويبدو أنه أتى إلى الشرق فى صحبة جاره الحميم كونت (نفرس) ، ووهبه بلدوين كل أراضى الكونتية الواقعة غربى نهر الفرات ، واتخذ تل بشير مقرا رئيسيا له . وأثبت أنه الصديق الوفى لبلدوين ، على أن ولاءه هذا حامت حوله الشكوك فيما بعد(١٠) .

---

(٨) وليم الصورى William of Tyre, x, 24, pp. 437-8, XI, II, pp. 469-72 ، يروى قصة زواج بالدوين ولحيته . ويتحدث ماثيو الأورفى Matthew of Eddessa, ccxxv, p. 296 عنه باحترام ولكن بدون تعاطف معه.

(٩) Al Azimi, p. 494; Ibn al-Qalanisi, p.50-1; Matthew of Edessa, clxviii, pp. 232-3.

(١٠) William of Tyre, x, 24, pp. 437.

١١٠٣م إطلاق سراح بوهيموند

ويبدو أن مشاعر الريبة من طموحات تنكريد تزايدت على مر الأيام لدى بلدوين، الذى كان يرغب فـى إعـادة بوهمنـد إلى أنطاكيـة ، فشـرع ومعـه البطريق برنـار فـى مفاوضة الأمير الدانشـمندى علـى إطـلاق سـراحه ، ولم يشـاركهما تنكريد فـى تلـك الصفقة . وكان الامبراطور الكسيوس قد سبق وأن عرض على الأمير ستين ومائتى ألف بيزانت فدية لإطلاق سـراح بوهمنـد ، وكـان الأمـير علـى استعداد للموافقـة لـولا أن السلطان قلج أرسلان بلغته تلك الأنباء ، وكان قد طلب نصف أية فدية قـد يتسـلمها الدانشمند بصفته السيد الأعلى الرسمـى لأتـراك الأنـاضول . وأدى الخـلاف بـين الأمـير والسلطان إلى منع الأول من سرعة قبول عرض الامبراطور ؛ لكنه كان عرضا نافعا ، إذ أحدث صدعا بين الأميرين . وكان بوهمنـد فـى أسره علـى علـم بتلـك المفاوضـات ، وكان ما يزال وسيما فاتنا يلفت انتباه سيدات بيت الأمير ؛ وربما تمكن بمساعدتهن مـن الإيحاء لآسره بأن الأفضل من صفقة الامبراطور التى ينوى السلاجقة دس أنوفهم فيها ، إجراء ترتيب خاص مع فرنج سـوريا والوعـد بمحـالفتهم . ووافـق الأمـير علـى إطـلاق سراح بوهمند لقاء مائة ألف بيزانت[١١] .

وهاجم جيش الدانشمند ملطيـة أثنـاء المفاوضـات، ولابـد وأن استنجد حـاكمهـا جبرائيل بزوج ابنته بلدوين الذى لم يتحرك لمساعدته لعزوفه عن الإساءة إلى الأمـير فـى تلك المرحلة الحرجة . وكـان جـبرائيل مكروهـا مـن رعايـاه لعقيدتـه الأرثوذكسـية ، خاصة وأن السريان لم يغفروا له أبـدا إعـدام أحـد أسـاقفتهم بتهمـة الخيانـة ؛ فاسـتولى الدانشمند على عاصمته وأسروه ، عدا إحدى قلاعه التى ظلت صامدة أمام المهـاجمين ؛ فطلب منه آسروه أن يأمر باستسـلامها ، ولمـا رفضـت الحامية أوامـره ، أعدمـوه أمـام أسوارها[١٢] .

---

(١١) يذكر Albert of Aix, IX, 33-6, pp. 610-12; Orderic Vitalis, x, 23 vol. IV, P. 144 قصة حب بوهيموند مع ابنة الدانشمند ، بينما يجعل *Miracula S. Leonardi* (Aa. Ss., Nov., vol. III, PP. 160-8, 179-82) صديقته زوجة مسيحية للأمير. ويقول Matthew of Edessa (Clxxviii, p. 252) إن أليكسيوس دفع فدية ؛ ولكن ريتشارد كان في سوريا بالفعل قبل إطلاق سراح بوهيموند ويقول Radulph of Caen إن بلدوين كان يتصرف من منطلق كراهيته لتنكريد. ويورد إبن القلانيسي الشجار بين الحاكمين السلجوقى والدانشمندى.

(١٢) Michael the Syrian, III, pp. 185-9.

وبعد أشهر قليلة ، وفى ربيع ١١٠٣م ، جرى تسليم بوهمند إلى فرنج ملطية ، وتولى بلدوين والبطريق برنار جمع مبلغ الفدية يساعدهم أمير من صغار أمراء الأرمن يدعى كواسيل ، وأقارب بوهمند فى إيطاليا . ولم يشاركهم تنكريد فى جهودهم . وعلى الفور اتجه بوهمند إلى أنطاكية حيث استعاد سلطانه ، وأعرب عن شكره لتنكريد على الملأ لتوليه شؤون الإمارة أثناء غيابه . غير أنهما كانا على شىء من الخلاف ؛ إذ لم يجد تنكريد ما يدفعه إلى تسليم الأراضى التى غزاها هو نفسه أثناء وصايته ، لكن الرأى العام أجبره على التراجع ، وكوفىء بإقطاعية صغيرة داخل الإمارة . وكان بمقدوره أن يطالب قانونا باستعادة الجليل من بلدوين الأول ، لكنه رأى أن الأمر لا يستحق العناء(١٣).

واحتفل الفرنج بعودة بوهمند بهجوم على جيرانهم . ففى صيف ١١٠٣م أغار بوهمند ومعه جوسلين أوف كورتناى على أراضى حلب واستوليا على مدينة المسلمية شمالى حلب وانتزعا إتاوة كبيرة من مسلمى المنطقة استخدمت فى سداد الدين المستحق للفرنج على بلدوين والبطريق للفدية(١٤) . ثم تحول الفرنج للإغارة على الأراضى البيزنطية؛ فبعد أن كتب ألكسيوس إلى بوهمند مطالبا استعادة مدن كيليكيا، عزز رسالته بإرسال قائده بوتوميتس لاستردادها؛ لكن القوة البيزنطية لا يعتمد عليها، ولذا ، وبعدما دخل كيليكيا فى خريف ١١٠٣م ، سرعان ما قرر أن المهمة فوق طاقته ، وإثر أنباء تفيد بأن الفرنج يخططون للتوسع شمالا ومهاجمة مرعش سارع إليها، وكان يحكمها ثاتول باسم الامبراطور . وربما كان بوسعه وقتئذ إنقاذ ثاتول بذهابه إليها ، لكنه تسلم أمر استدعاء من القسطنطينية . وفى وقت مبكر من الربيع التالى اتجه بوهمند وجوسلين إلى مرعش . وشعر ثاتول بأنه فاقد الحيلة ؛ فالجيش البيزنطى بعيد جدا، وأصبح الأتراك الدانشمند على علاقة طيبة الآن بالفرنج ؛ فلم يجد بديلا عن تسليم المدينة لجوسلين الذى سمح له بالعودة إلى القسطنطينية ، بينما استولى بوهمند على مدينة البستان الواقعة شمال مرعش(١٥).

---

(١٣) أنظر أعلاه ، يقول Fulcher (II, xxiii, I, p. 460) إن تنكريد قد كوفئ على اقتداره ، ولكن رادولف يقول إنه لم يعط سوى مدينتين صغيرتين.

(١٤) Ibn al-Athir (Kamil at-Tawarikh, p212); Kemak ad-Dim p. 591 يقول إن بوهيموند اغتصب أموالا من قنسرين.

(١٥) Matthew of Edessa, clxxxvi, p. 257 ويخطئ Anna Comnena, XI, ix, 1-4, vol. III, pp.40-1 فى إيراد الاستيلاء على مرعش بعد معركة حران، Radulph of Caen, cxlviii-cl, pp. 710-2 .

١١٠٤م أهمية حرّان

وأصبح الفرنج الآن في مأمن من أى هجوم يأتيهم من الأناضول ؛ وإذن بإمكانهم أن يتحولوا لمهاجمة مسلمى الشرق . وفى شهر مارس عاود بوهمند غزو أراضى رضوان الحلبى واستولى على مدينة بصرفوت الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب ، لكن محاولته الإستيلاء على مدينة كفر لاثا الواقعة إلى الجنوب من حلب لم تكلل بالنجاح لما أبدته قبيلة بنى عليم من مقاومة باسلة . وفى تلك الأثناء قطع جوسلين طريق المواصلات بين حلب والفرات . على أنه إذا كان من المطلوب عزل مسلمى سوريا عزلا فعليا عن مسلمى العراق وفارس ، فلا بد للمسيحيين من الإستيلاء على قلعة حرّان العظيمة الواقعة بين الرها والفرات شمالى الجزيرة ، بل إنهم يستطيعون ، والحال كذلك ، تجريد حملة على الموصل وإلى قلب ما بين النهرين . وبدت الظروف مناسبة فى ربيع ١١٠٤ م ؛ إذ كانت الحرب الأهلية، خلال ١١٠٣م، بين السلطان السلجوقى بركياروق وأخيه محمد تمزق الشرق الإسلامى كله ، وفى يناير ١١٠٤م إتفقا على السلام على أن يحتفظ السلطان ببغداد والهضبة الإيرانية الغربية - وكان أخوه الثالث سنقر قد سبق وحصل على خراسان وإيران الشرقية - وحصل محمد ، وفقا للإتفاق على شمال العراق والجزيرة وحقوق سيادية على دياربكر وكل سوريا. لكنه كان اتفاقا غير يسير ، إذ كان الأخوان كلاهما يترقبان إفساد هذا الإتفاق، وفى ذات الوقت راح كل منهما يكيد المكائد للفوز بحلفاء من أمراء الترك والعرب جميعا؛ ففى الجزيرة نشبت الحرب الأهلية بموت كربوقا ، أتابج الموصل ، الذى هزمه الفرنج فى أنطاكية ؛ إذ لم يتمكن سقمان الأرتقى أمير ماردين من استخلاف مرشحه ، ودارت الحرب بينه وبين الأتابج الجديد جكرمش الذى عيّنه السلطان السلجوقى محمد ، أما حران نفسها فكانت خاضعة للقائد التركى قراجة الذى كان من مماليك ملكشاه ، لكن سلوكه الشرس دفع أهلها إلى التمرد عليه ، فسلموا الحكم لمحمد صاحب أصفهان ، الذى قتل بدوره على يد غلام سابق لقراجة يدعى جوالى بعد أن توثقت عرى الصداقة معه . على أن سلطة جوالى كانت غير مأمونة بدرجة كبيرة ، بينما كانت حران ذاتها

تعانى معاناة شديدة من غارات فرنج الرها الذين خربوا حقولها واعترضوا تجارتها ، وقد اتضحت نيتهم فى سرعة المضى قدما[١٦].

داهمت مشاعر الخطر كلا من سقمان فى ماردين وجكرمش فى الموصل ، مما دفعهما إلى نسيان خلافهما والاتحاد معا فى حملة لمهاجمة الرها قبل أن تهاجمهما ، وتوجها إليها معا فى أوائل مارس ١١٠٤ م، وكان مع سقمان قوة كبيرة من فرسان التركمان الذين يتصفون بخفة الحركة ، ومع جكرمش قوة أصغر قليلا تتألف من السلاجقة والأتراك والأكراد والعرب . وعلم بلدوين الثانى بتجمعهما فى رأس العين الواقعة على بعد سبعين ميلا تقريبا من عاصمته؛ فاستنجد بجوسلين وبوهمند مقترحا عليهما تحويل الهجوم بالإغارة على حران . وبعد أن ترك حامية صغيرة فى الرها، اتجه إلى حران ومعه فرقة صغيرة من الفرسان ومشاة الأرمن ، وصحبه بندكت رئيس أساقفة الرها. وعلى مقربة من حران انضم إليه جوسلين وجنوده ، وكذلك جيش أنطاكية بقيادة بوهمند ، وتنكريد والبطريق برنار ، ودايمبرت البطريق السابق للقدس . وبلغ عدد الجيش الفرنجى كله ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس وربما ثلاثة أضعاف عددهم من المشاة ، وهو القوة الفرنجية الضاربة كلها فى شمال سوريا ، عدا حاميات الحصون.

١١٠٤م كارثة حرّان

تجمع الجيش أمام حران بينما الأميران المسلمان ما يزالان على مسافة ما إلى الشمال الشرقى فى طريقهما إلى الرها . ولو أن الفرنج حاولوا الإنقضاض على الحصن لاستولوا على حران ؛ لكنهم كانوا عازفين عن تحطيم التحصينات على أمل أن ينتفعوا بها هم انفسهم فيما بعد، ظانين أن الخوف سيدفع الحامية إلى الاستسلام . وكان تفكيرا لا يخلو من حكمة ؛ إذ كان المسلمون داخل المدينة لا حول لهم ولا قوة ، فبادروا بمفاوضتهم من فورهم . وعلى إثر ذلك اختلف بلدوين وبوهمند ؛ أىّ من رايتيهما يرتفع أولا على الأسوار؟ وانتهى الأمر بأن قضى عليهما تأخرهما ؛ إذ مال الجيش التركى جنوبا وأصبح فوقهما قبل تسوية الخلاف .

---

(١٦) للاطلاع على خلفية الحملة على حران, أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 236-7 مع المراجع ويركز نيكلسون في مقالته عن تنكريد أن الحملة لم تكن جزءا من سياسة عامة للتوسع، وإنما استجابة لتهديد من المسلمين. ولكن يقينا كانت حران هدفا نهائيا للفرنج.

ودارت المعركة على ضفاف نهر البليخ ، بالقرب من ساحة معركة (كارها) القديمة، حيث سبق منذ قرون أن أباد (البارثيون) الفيالق الرومانية وفيالق (كراسوس). وكانت استراتيجية الفرنج تقضي بأن يشتبك جيش الرها في الميسرة مع قوة العدو الرئيسية ، بينما يختبئ الجيش الأنطاكي خلف تل منخفض يبعد نحو ميل إلى اليمين استعدادا للتدخل في اللحظة الحاسمة . لكن المسلمين وضعوا خططا مماثلة ؛ فهاجم جزء من جيشهم ميسرة الفرنج ثم استدار هاربا ؛ فظن جنود الرها أنهم فازوا بنصر يسير ، واندفعوا يتعقبونهم ، مما أفقدهم الإتصال بزملائهم في الميمنة ، وبعبورهم النهر وقعوا مباشرة في كمين أعده الجيش الإسلامي الرئيسي ، ولقي الكثير منهم حتفه على الفور، واستدار الباقون ولاذوا بالفرار . وعندما تجهز بوهمند - الذي دحر كتيبة صغيرة أمامه - للإشتراك في المعركة لم يجد سوى سيل متدفق من الهاربين على مبعدة يتزاحمون عائدين عبر النهر حيث هبطت عليهم فصيلة تركية جديدة . وأدرك أنه خسر كل شيء؛ فأسرع بالفرار مع عدد ضئيل من جنود الرها. وأثناء مرور المحاربين أسفل أسوار حران انقضت عليهم الحامية ، وفي فوضى حماسها قتلت مع الفرنج عددا من المسلمين المتعقبين ، وهرب جيش أنطاكية دون خسائر جسيمة . أما جنود الرها فقد أسروا أو قتلوا جميعهم تقريبا . وكان البطريق برنار في قمة الفزع بحيث قطع أثناء فراره ذيل حصانه خشية أن يلحق به الترك ويمسكونه من الذيل ، رغم أنه لم ير أحدا من الإعداء وقتئذ .

وكان بندكت رئيس الأساقفة من بين أول من وقعوا في الأسر . لكنه لم يلبث أن أطلق سراحه ، إمّا لتواطؤ حارسه - وهو مسيحي مرتد - أو بسبب هجوم أنطاكي مضاد . وهرب بلدوين وجوسلين معا على صهوة جواد ، لكن البعض أدركهما في مجرى النهر واقتادوهما أسيرين إلى خيمة سقمان .

وأسرع بوهمند وتنكريد إلى الرها وهما يخشيان - بحق - أن يهاجمها الترك كخطوة تالية ، وراحا يعملان على تنظيم دفاعاتها . ومرة أخرى تنقلب مصائب بلدوين عند تنكريد فوائد ؛ إذ أن من تبقى من الفرسان في الرها وعلى رأسهم رئيس الأساقفة توسلوا إلى تنكريد أن يتولى الوصاية على الرها إلى حين إطلاق بلدوين من الأسر؛ فقبل تنكريد هذا العرض مرحبا، وساورت بوهمند - كشأن بلدوين الأول منذ أربع سنوات - مشاعر الإرتياح لإبتعاد تنكريد عنه . وبقي تنكريد في الرها مع بقايا

جيشه وما استطاع بوهمند الإستغناء عنه من جنود ، بينما رجع بوهمند إلى أنطاكية حيث كان جيرانه يعدون العدة للإفادة من الكارثة التى حلت بالفرنج(١٧).

وتعد معركة حران تتمة للحملات الصليبية فى ١١٠١م؛ إذ أن تلك الحملات جميعها حطمت أسطورة القوة الفرنجية التى لا تقهر . ذلك أن هزائم ١١٠١م تعنى حرمان شمال سوريا من تعزيزات الغرب التى يطلبها الفرنج لتوطيد سيادتهم هناك ؛ وأما كارثة حران فتعنى ، على المدى الطويل ، الحكم بهلاك كونتية الرها، وأن الفرنج لن يستولوا أبدا على حلب. إن الإسفين الذى كان فى نية الفرنج دقّه بين المراكز الإسلامية الثلاثة: الأناضول ، والعراق ، وسوريا ، قد تم دقّه دون مراعاة لاعتبارات الأمن . و لم يكن المسلمون هم وحدهم المستفيدين ؛ إذ كان الامبراطور يرقب الأحداث من بيزنطة بعين الغضب ، و لم يأسف للخزى الذى لحق بالفرنج .

١١٠٤م بوهمند وتنكريد يتركان بلدوين أسيرا

لم تكن النتائج العاجلة لكارثة حران مهلكة كما كان يُخشى ؛ إذ لم يستمر التحالف طويلا بين سقمان وجكرمش بعد انتصارهما ؛ فقد استحوذ جنود الأول على أغلب الأسرى والغنائم ، مما أثار غيرة الأخير ، فهاجمت كتيبته السلجوقية خيمة سقمان واختطفت بلدوين ، الأمر الذى أثار حنق التركمان ، لكن سقمان مارس من ضبط النفس ما يكفى لمنعهم من الهجوم المضاد ، وروّض نفسه على قبول خسارة سجينه ذى القيمة العالية . وقام بإخضاع بعض الحصون المسيحية الصغيرة على الحدود بخدعة بسيطة وهى إرتداء جنوده ملابس ضحاياهم الفرنج ، ثم إنه رجع إلى ماردين و لم يشترك فى الحرب أكثر من ذلك(١٨) . أما جكرمش فواصل القتال ؛ بادئا بتأمين نفسه من سقمان بأن سحق الحصون الفرنجية فى شبختان شرقى الرها ثم واصل سيره إلى العاصمة . إن تأخر الفرنج قد أنقذ حران للإسلام ، والآن أدى تأخر المسلمين فى الإبقاء على الرها للعالم المسيحى؛ إذ توفر لتنكريد الوقت الضرورى لترميم دفاعات المدينة. ويُعزى نجاحه فى مقاومة هجوم جكرمش الأول بدرجة كبيرة إلى ولاء الأرمن

(١٧) Radulph of Caen, cxlviii, p. 712; Albert of Aix, loc. cit.; Matthew of Edessa, clxxxiii, p. 256.

(١٨) Ibn al-Athir, loc. cit. ، المأثور عن سقمان أنه قال : "أفضل أن أفقد غنائمى على أن يعيبنا المسيحيون بالحماقة".

المحليين وبسالتهم ، لكن شدّة الهجوم دفعته إلى طلب النجدة العاجلة من بوهمند الذى كانت لديه بعض المشكلات ، غير أن تهديد الرها لا تعلوه أولوية ، فسار فى الحال لنجدة ابن أخته ، لكن وعورة الطريق تسببت فى تأخره . وفى غمرة اليأس أمر تنكريد حاميته بالخروج قبل الفجر ، وانقض رجاله فى ظلمة الليل على الأتراك فى نومهم المطمئن ، واكتمل النصر بوصول بوهمند؛ وهرب جكرمش مذعورا تاركا كنوزه فى المعسكر . وهكذا تم الإنتقام لحرّان وبقيت الرها(١٩) .

ومن بين الذين أسرهم تنكريد أميرة سلجوقية كريمة الأصل كانت فى معيّة الأمير، وكانت أثيرة لدى جكرمش بحيث عرض أن يفتديها فى الحال إمّا بخمسة عشر ألف بيزانت أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . ووصلت أنباء هذا العرض إلى القدس ، فسارع الملك بلدوين بمكاتبة بوهمند راجيا ألاّ تضيع هذه الفرصة لإطلاق سراح الكونت بلدوين؛ لكن بوهمند وتنكريد فضّلا سد حاجتهما من المال ، فضلا عن أن عودة بلدوين تعني تنحية تنكريد من منصبه الراهن ليصبح بين يدى خاله ؛ وكان ردهما أن التلهف على قبول العرض يخلو من الدبلوماسية ، وربما يؤدي التردد إلى أن يرفع جكرمش من قيمة الفدية ؛ وفى الوقت ذاته كانا يعدان الترتيبات لإستلام الفدية . وبقى بلدوين أسيرا.

وبعد أن نال بوهمند وتنكريد من الثراء بالتضحية بزميلهما ، تحولا لمجابهة الأعداء من حولهما الذين دأبوا على ممارسة الضغوط عليهما. ولم يحاول جكرمش مهاجمة الرها مرة أخرى ، وتمكن تنكريد من ترميم دفاعات المدينة؛ أمّا بوهمند فكان عليه أن يسرع لمجابهة غزو رضوان الحلبى للمناطق الشرقية من إمارته . وفى شهر يونية تخلى سكان أرتاح الأرمن عن مدينتهم للمسلمين وقد شملتهم البهجة لتخلصهم من الطغيان الأنطاكى ، وحذت حذوهم المدن الحدودية: المعرة ومسرين وسرمين ، ممّا عزل الحاميات الفرنجية الصغيرة فى معرة النعمان والبارة وكفر طاب فانسحبت إلى أنطاكية. وفى تلك الأثناء أغار رضوان على الإمارة إلى أن بلغ الجسر الحديدي ؛ وعلى البعد فى شمال الإمارة تمكنت حامية بوهمند من البقاء بعد أن سجنت أبرز زعماء الأرمن المحليين الذين كانوا يخططون للتآمر مع الأتراك . وكاد الخطر أن يحدق بدويلة بوهمند كلها

(١٩) Albert of Aix, IX, 43, pp. 617-18; Ibm al-Athir, p. 223; Ibn al-Qalanisi, pp. 69. 69-. 70.

لولا أن مات دقاق الدمشقى فى أواخر يونية ١١٠٤ م ، فتحول اهتمام رضوان إلى الصراع بين ابنىّ الدقاق - بورى وأرتاش - على خلافة أبيهما[٢٠].

وكان انشغال بوهمند بالشؤون البيزنطية من أسباب فشله فى مواجهة هجوم رضوان . فالامبراطور ألكسيوس على علاقة طيبة بالدويلات الفرنجية الواقعة إلى الجنوب، وريموند كونت تولوز لايزال صديقه الحميم ، وفاز الامبراطور بثقة الملك بلدوين بعد أن افتدى بماله كثيرا من وجهاء الفرنج الأسرى فى مصر ، لقد كان كرمه هذا تسبقه الحكمة بالمقارنة المذهلة بما أقدم عليه بوهمند وتنكريد من التخلى عن بلدوين الرها فى الأسر . إن افتداء الامبراطور للأسرى ذكّر الفرنج بما له من نفوذ ومهابة تحظيان باحترام الفاطميين ؛ ولذلك ، وعندما تصرف الامبراطور ضد أنطاكية ، لم يتلق أميرها أية مساعدة من أقرانه . وكان ألكسيوس قد قام بالفعل بتحصين كوريكوس وسليوكية الواقعتين على ساحل كيليكيا لمنع ما قد تقدم عليه أنطاكية من عدوان على غرب كيليكيا . وفى صيف ١١٠٤ م استرد الجيش البيزنطى بقيادة موناستراس دونما صعوبة مدن كيليكيا الشرقية: طرسوس وأضنة والمصيصة؛ وفى ذات الوقت قام أسطول بيزنطى صغير يقوده الأدميرال كنتاكوزينوس - وكان فى قبرص يطارد أسطولا مغيرا من جنوا - باستغلال موقف بوهمند ، فأبحر إلى اللاذقية حيث استولى بحارته على المرفأ وأسفل المدينة : وسارع بوهمند بجمع ما أمكنه من جنود الفرنج لتعزيز الحامية فى القلعة واستبدال قائدها الذى ما عاد يوليه ثقته ، لكنه لم يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم لافتقاره إلى القوة البحرية .

١١٠٤م بوهمند يرحل إلى الغرب

وبحلول الخريف داخلت بوهمند مشاعر اليأس ؛ فعقد مجلسا فى سبتمبر ضم أتباعه فى أنطاكية واستدعى تنكريد كذلك ، وصارحهم بالأخطار المحدقة بالإمارة قائلا إن المخرج الوحيد هو تأكيد إرسال التعزيزات من أوروبا ، وأنه سيذهب بنفسه إلى فرنسا لممارسة نفوذه الشخصى في استجلاب الرجال المطلوبين . ومن باب الواجب عرض تنكريد القيام بهذه المهمة ، لكن خاله أجاب بأنه لا يتمتع بما يكفى من نفوذ فى

(٢٠) Radulph of Caen, loc. cit.; Kemal ad-Din, pp. 592-3; Sibt ibn al-Djauzi, p. 529; ibn al-Qalanisi, pp. 62-5. ويلاحظ أن رانسيمان أورد اسم أحد ابنى الدقاق بلفظ (إلتاش). في حين أن ابن القلانيسي ذكره بلفظ (ارتاش) وهو عم بورى وليس ابنه. (المترجم)

الغرب، وأنه ينبغى أن يبقى وصيا على أنطاكية. وسرعان ما تمت ترتيبات رحيل بوهمند، وأبحر فى أواخر الخريف من ميناء السويدية مصطحبا معه ما كان متاحا من الذهب والفضة والجوهرات والأشياء الثمينة ونسخا من "إنجازات الفرنج"، وهو تاريخ مجهول للحملة الصليبية الأولى من وجهة النظر النورماندية، وأدخل بوهمند فى تلك النسخ فقرة توحى بأن الامبراطور وعده لوردية أنطاكية(٢١).

وتولى تنكريد حكومة أنطاكية، وأقسم فى ذات الوقت أن يحافظ على الرها لبلدوين وأن يسلمها له فور إطلاق سراحه من الأسر؛ ولأنه لا يستطيع أن يحكم الرها من أنطاكية بصورة جيدة، فقد عهد بحكومتها لإبن عمه وصهره ريتشارد كونت ساليرنو، نائبا عنه عبر الفرات(٢٢).

وفى وقت مبكر من العام الجديد وصل بوهمند إلى أملاكه فى أبوليا حيث بقى هناك حتى سبتمبر التالى يدبر شؤونه الخاصة ويشرف عليها بعد غيبة تسع سنوات، وينظم فرق النورمانديين ليلحقوا بزملائهم فى الشرق. ثم ذهب إلى روما لمقابلة البابا باسكال وأكّد له أن الامبراطور ألكسيوس هو عدو اللاتينيين اللدود فى الشرق، وكان باسكال قد انحاز فعلا ضد ألكسيوس بتأثير من الأسقف مناس، وسرعان ما وافق على وجهة نظر بوهمند. وعندما ذهب بوهمند إلى فرنسا كان بصحبته ممثل البابا، برونو، حاملا معه توصيات من البابا بالتبشير بحرب مقدسة ضد بيزنطة. وكانت هذه نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية. وباتت السياسة النورماندية - وهدفها كسر شوكة الامبراطورية الشرقية - هى السياسة الصليبية الرسمية. وتقرر التضحية بمصالح العالم المسيحى كله من أجل المغامرين الفرنج. وفيما بعد ندم البابا على ما أقدم عليه من طيش، ولكن بعد أن نفذ سهم الضرر. وما كان يشعر به فرسان الغرب وجماهيره من ازدراء لغطرسة الامبراطور، وغيرة من ثروته، وريبة فى طقوس مسيحية لا يفهمونها،

---

(٢١) تذكر بعض المصادر الموثوقة أن "إنجازات الفرنج Gesta Francorum" كتبه فولشر أوف تشارتر Fulcher of Charteres (حوالى ١٠٥٩ - حوالى١١٢٧) القس والمؤرخ الفرنسى الذى صاحب الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها. وهو عبارة عن سرد ينبض بالحياة مكتوب على ثلاث مراحل: الحملة الصليبية الأولى (١١٠١)، ورحلة بلدوين إلى القدس (١١٠٦)، ومملكة القدس (١١٢٤ - ١١٢٧) (المترجم).

(٢٢) Matthew of Edessa, clxxxix, p. 260; Michael the Syrian, III, p. 195; Ibn-alAthir, pp. 262-3. ومن هذا الوقت فصاعدا يطلق تنكريد على نفسه فى وثائقه الرسمية "تانكريد دوكس إيه برنسيبس أنتيوكينوس" (تانكريد دوق وأمير أنطاكية). وأثناء فترة وصايته الأولى كان يسمى فى الوثائق الرسمية (أمير) دون تحديد أماكن. كان ما يزال يحمل لقب أمير الجليل.

لقى كل ذلك تأييدا رسميا من الكنيسة . ومنذ ذلك الوقت قدما، كانوا يشعرون بأن لديهم المبررات التى تسوّغ كل عمل عدائى يستهدف بيزنطة، حتى ولو عدّل البابا من آرائه . إن الحملات الصليبية ، والبابا على رأسها ، لم تكن حركة تبذل العون للعالم المسيحى ، وإنما كانت أداة للإستعمار الغربى العارى من الخلق . وترتب على هذا الإتفاق التعس بين بوهمند والبابا باسكال آثار أبعد شأوا بكثير من كل الخلافات بين الكاردينال همبرت وميخائيل سربولاريوس التى أكّدت الفصل بين الكنيستين الشرقية والغربيــة .

وقوبل بوهمند بحرارة فى فرنسا حيث أمضى بعض الوقت فى بلاط الملك فيليب الذى أذن له بتجنيد الرجال فى أنحاء المملكة ، ولقي تشجيعا فعّالا من كونتيسة بلوا، الكونتيسة أديلا وهى صليبية متحمّسة بالإنابة ؛ فزيادة على تقديمها بوهمند لأخيها هنرى الأول الإنجليزى ، الذى سبق أن قابله فى نورماندى فى عيد الفصح عام ١١٠٦م ووعد بتشجيعه ، رتبت له زواج تحالف مثير من ابنة الملك فيليب، كونستانس ، وهى كونتيسة شامبانيا المطلقة، وتم الزواج فى وقت متأخر من ربيع ١١٠٦م ؛ وفى ذات الوقت وافق الملك فيليب على منح يد ابنته الصغرى ، سيشيليا ، وهي وليدة السفاح من علاقة الزنا مع برترادا أوف مونتفورت ، لتنكريد . ولم تذهب كونستانس إلى الشرق أبدا ، وإنما قضت حياتها الزوجية وفترة ترملها فى إيطاليا؛ أمّا سيشيليا فقد أبحرت إلى أنطاكية فى نهاية العام تقريبا . وقد عززت هذه العلاقات الملكية من مكانة الأمراء النورمانيين(٢٣) .

(٢٣) Orderic Vitalis, XI, vol. IV, pp. 210-13; Suger, Vita Ludovici, pp. 29-30; Chronicon S. Maxentii, p. 423; Chronicon Vindocinnnense, pp. 161-2; William of Tyre, XI, I, p. 450; Anna Comnena, XII, i, I, vol. III, p. 53. وقد تم الزواج بين كونستانس وبوهيموند – فى إبريل أو مايو ١١٠٦م استنادا إلى Luchaire, Louis VI le Gros, p. 22 – . ويحتمل أن تكون سيشيليا قد انطلقت إلى الشرق بعد هذا التاريخ . ولذلك يحتمل أن يكون زواجها قد حدث في وقت لاحق من عام ١١٠٦م . ويعتقد ماثيو الأورفي أن بوهيموند كان مجبرا على الزواج من سيدة ثرية ، يطلق عليها زوجة سيفن بول (وواضح أنه يخلط بين Hugh of Champagne مع الصليبي Hugh of Saint Pol الذي كان صديقا لبوهيموند). وقد أمرت بسجنه حتى رضى في النهاية. وكان يفضل العودة إلى الشرق.

١١٠٧ م بوهمند يغزو الامبراطورية

بقى بوهمند فى فرنسا حتى وقت متأخر من عام ١١٠٦ م ، ثم عاد إلى أبوليا حيث خطط لحملته الصليبية الجديدة التى تقرر أن تبدأ بهجوم لا هوادة فيه على الامبراطورية البيزنطية ؛ وتمهّل فى حملته إذ عرف من الأنباء أن أنطاكية لا تعانى من أخطار عاجلة في ظل حكم تنكريد . وفى أول أكتوبر ١١٠٧ م هبط بجيشه على ساحل إبيوس الامبراطورى فى أفلونا ، وبعد أربعة أيام ظهر أمام قلعة درهاكيوم العظيمة التى تعدّ مفتاح شبه جزيرة البلقان ، وهى التى طالما سال لها لعاب النورمانديين منذ احتلالها قبل ذلك بربع قرن . على أن ألكسيوس هو الآخر قد توفر له الوقت لوضع ترتيباته ؛ فكان على استعداد للتضحية بحدوده الجنوبية الشرقية لإنقاذ درهاكيوم ؛ فسالم السلطان السلجوقى قلج أرسلان الذى أمده بالمرتزقة . وجد بوهمند القلعة منيعة وحاميتها شديدة البأس بحيث تعذر الإنقضاض عليها فحاصرها . لكنه يفتقر إلى القوة البحرية كشأنه فى حروبه الأولى ضد بيزنطة ، فبات الدمار مصيره ؛ ذلك أن البحرية البيزنطية قطعت خطوط مواصلاته مع إيطاليا فى الحال تقريبا وسدّت الساحل. ثم حاصره الجيش البيزنطى الرئيسى فى وقت مبكر من الربيع التالى ؛ وبحلول الصيف تفشت فى جيش بوهمند الدوسنطاريا والملاريا، ونالت منهم المجاعة ، بينما حطّم ألكسيوس معنوياتهم بإطلاق الشائعات وتزييف الرسائل لزعمائهم ، وهى وسائل وصفتها ابنته أنّا كومنينا بإعجاب شديد . وبحلول سبتمبر أيقن بوهمند من الهزيمة فاستسلم للإمبراطور . لقد كان نصرا مؤزراً لبيزنطة ؛ إذ كان بوهمند آنذاك أشهر محارب فى العالم المسيحى ، وكان مشهد هذا البطل المرعب بقامته الطويلة التى تعلو الامبراطور ، ومع ذلك بدت متضرّعة مطيعة لما يمليه عليها ، شاهدا على ما للامبراطور من مهابة طاغية لا تنسى .

١١٠٨ معاهدة ديفول

استقبل ألكسيوس بوهمند فى معسكره الذى ضربه فى مدخل الوديان الضيّقة حيث يجري نهر ديفول . وعامله بكياسة يعلوها البرود ؛ و لم يضيّع وقتا ، وإنما بسط أمامه معاهدة السلام التى لابد له من التوقيع عليها. وتردد بوهمند بادئ الأمر ، لكن (نسفورس برنيوس) ، زوج أنّا كومنينا، الذي كان يقف بين يدي حميه الامبراطور ، حثّه على التوقيع الذى لا مفر منه .

وترد صيغة المعاهدة بكاملها فى صفحات آنّا كومنينا. وبموجبها يعرب بوهمند أولا عن أسفه العميق لحنثه بقسمه الأول للإمبراطور ؛ ثم يقسم بكل الوقار أن يصبح التابع والمولي المخلص للإمبراطور ووريثه حون "كريم النسب"(٢٤)؛ ويفرض على كل رجاله أن يحذوا حذوه ؛ ولا ينبغى أن يكون هناك غموض فى المصطلح اللاتينى "مولى"، فأحصيت واحبات التابع ؛ وأن يظل أميرا لأنطاكية يحكمها تحت سيادة الامبراطور ؛ وتشمل أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية ومناطق الشمال الشرقى حتى مرعش مع الأراضى التى يغزوها وينتزعها من أمراء حلب المسلمين وغيرها من الدويلات السورية الداخلية ؛ وتبقى مدن كيليكيا والسحل المحيط بأنطاكية تحت الحكم المباشر من الامبراطور ؛ ولا مساس بأراضى الأمراء الروبيين . وأضيف ملحق بالمعاهدة يضم قائمة المدن التى يمارس بوهمند سلطاته عليها وقد اختيرت بعناية . ويتولى بوهمند فى إطار سلطاته ، ممارسة السلطة المدنية ؛ ويستعيض عن البطريق اللاتينى بآخر يونانى. وتوحد نصوص خاصة تقضى بأنه فى حالة رفض تنكريد أو غيره من رجال بوهمند الإمتثال لشروط المعاهدة ، يتولى بوهمند إجباره على الطاعة قسرا.

وتعتبر معاهدة ديفول مثيرة للإهتمام ؛ إذ تكشف عمّا كان يتراءى لألكسيوس من حل المسألة الصليبية . فهو على استعداد لأن تصبح مناطق الحدود ، بل وأنطاكية ذاتها، تحت الحكم الذاتى لأمير لاتينى ، طالما يلتزم هذا الأمير بالتبعية له وفقا للأعراف اللاتينية ، وطالما تحتفظ بيزنطة ببسيطرة غير مباشرة من خلال الكنيسة ؛ فضلا عن أن ألكسيوس يعتبر نفسه مسؤولا عن المسيحيين الشرقيين ، بل يريد تأكيد حقوق أتباعه الأرمن الروبيين المتذمرين . ولقد بقيت المعاهدة بحرد قصاصة ورق . لكنها كسرت بوهمند ؛ فلم يجرؤ على الظهور فى الشرق مرة أخرى البتة ، وتقاعد مخذولا مخزيا فى أراضيه فى أبوليا حيث مات عام ١١١١م ، واحدا من صغار أمراء إيطاليا المغمورين تاركا طفلين من زوجته الفرنسية ليرثا حقوقه فى أنطاكية . كان جنديا شجاعا، وقائدا مقداما ماكرا، وبدا فى أعين أتباعه بطلا ؛ وهو الوحيد الذى طغت شخصيته على جميع رفاقه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ لكن طموحاته العريضة العارية من الخلق كانت هاويته . ولم يأت الوقت بعد كى يدمر الصليبيون درع العالم المسيحى الشرقى .

وكما تحقق ألكسيوس جيدا ، كانت معاهدة ديفول تتطلب تعاون تنكريد . وتنكريد ، الذى لم يأسف لإزالة خاله من الشؤون الشرقية ، لم يكن على استعداد لأن

(٢٤) المعنى الحرفى : الابن المولود للإمبراطور بعد إعتلائه العرش "Porphyrogennete".(المترجم)

يصبح تابعا للإمبراطور . وكان أقل طموحا من بوهمند ، إذ لا مطمح له سوى إنشاء إمارة قوية مستقلة . على أن توقعاته لم تكن تبشر بالآمال ؛ إذ لم يترك له بوهمند سوى القليل من الرحال ، ولم يترك له أية أموال جاهزة . ورغم ذلك قرر المبادرة بالهجوم ، فانتزع قرضا من أثرياء تجار أنطاكية أنعش خزائنه ومكّنه من استئجار مرتزقة محليين ؛ واستدعى من الفرسان والخيالة ما أمكن الإستغناء عنهم فى الرها وتل بشير وكذلك الأراضى الأنطاكية . وفى ربيع ١١٠٥ م انطلق لإسترداد أرتاح. وكان رضوان الحلبى يتهيأ للرحيل جنوبا لمساعدة بنى عمار فى كفاحهم ضد الفرنج ؛ لكنه تحول للدفاع عن أرتاح لدى وصول الأنباء بتقدم تنكريد . وتقابل الجيشان يوم ٢٠ إبريل فى قرية تيزين القريبة من أرتاح فى سهل منعزل تكسوه الصخور . وفزع تنكريد من ضخامة العدو التركى ، فاقترح على رضوان التفاوض . وكان رضوان حريّا بالموافقة لولا أن حثه قائد خيالته صباو على الهجوم دون تأخير . وتسببت الصخور فى الحيلولة دون أن يستخدم الأتراك تكتيكهم المعتاد ؛ وبعدما اندحر الأتراك من أول هجوم الفرنج ، ارتدوا ليتربصوا بالعدو ، لكنهم لم يتمكنوا من إعادة ترتيب صفوفهم للهجوم التالى ؛ وفى تلك الأثناء قام فرسان الفرنج بتعجيز مشاتهم . وتسبب فشل خططهم فى إصابتهم بالذعر ، فانطلق رضوان هاربا إلى حلب مع حرسه الخاص ، وتبعه أغلب فرسانه ، وقتل من بقى من الراحلين فى ميدان القتال .

واستعاد تنكريد بنصره كل الأراضى التى فقدها قبل ذلك بعام ؛ إذ تخلت الحامية التركية عن أرتاح وسلمته المدينة ، بينما طارد جنوده الهاربين حتى أسوار حلب ، وانتهبوا كثيرا من سكانها أثناء فرارهم فى رعبهم . وطلب رضوان السلام بأن عرض تسليم كل أراضيه فى وادى العاصى ودفع إتاوة منتظمة لتنكريد . وبنهاية عام ١١٠٥م كانت سيطرة تنكريد قد اتسعت مرة أخرى جنوبا حتى البارة ومعرة النعمان .

١١٠٦ م الإستيلاء على أفاميا

وفى فبراير ١١٠٦ م أغتيل أمير أفاميا ، خلف بن ملاعب ، على يد متعصبين من حلب لأنه لم يكن مناهضا للفرنج ، ثم اختلف القتلة مع حليفهم الرئيسى داخل المدينة، أبو الفتح ، الذى تولى حكومتها، فطلب مساعدة رضوان . ودعا الأرمن المحليون تنكريد الذى رأى الظروف مناسبة للتدخل ، فسار جنوبا وبدأ حصار أفاميا . وتمكن أبو الفتح من المحافظة على النظام ؛ وتلقى من أميرى شيزر وحماة وعودا بالمساعدة .

واضطر تنكريد إلى التراجع بعد حصار ثلاثة أسابيع بدعوى ضرورة مساعدة حامية اللاذقية التى تواجه المجاعة من حصار البيزنطيين طوال ثمانية عشر شهرا . وزودها بالمؤن ثم عاد إلى أنطاكية . وبعد ذلك بأشهر قليلة ظهر فى أنطاكية أحد أبناء خلف، مصبح بن ملاعب ، مع مائة من أتباعه ، وقد نجا من المصير الذى لقيه أبوه ، وراح يحرض تنكريد على معاودة الهجوم على أفاميا؛ فحاصر تنكريد المدينة مرة أخرى بمساعدة مصبح ، وحفر خندقا حولها لمنع الدخول أو الخروج . ولم يهب أحد من الجيران الأمراء لمساعدة أبي الفتح ؛ وبعد أسابيع قليلة ، فى ١٤ سبتمبر ١١٠٦ م استسلم المسلمون بعد أن وافق تنكريد على شرط الإبقاء على حياتهم . وبعد أن دخل تنكريد المدينة أراد أن يدخل البهجة على قلب مصبح ، فقتل أبو الفتح وثلاثة من رفاقه . واقتيد نبلاء أفاميا إلى أنطاكية وبقوا فيها إلى أن رتب رضوان فديتهم . وتم تنصيب حاكم فرنجى فى أفاميا ، بينما منح مصبح إقطاعية فى الجوار. وسرعان ما استعاد الفرنج كفر طاب وعهد بها إلى فارس يدعى ثيوفيلوس الذى مالبث أن جعل من نفسه مصدر رعب لمسلمي شيزر .

أصبح تنكريد آمنا على حدوده الشرقية والجنوبية ؛ ومن ثم يستطيع أن يتحول إلى العدو الذى يبغضه البغض كله — بيزنطة . وفى صيف ١١٠٧ م ، وفى الوقت الذى كان يتهيأ فيه بوهمند لمهاجمة المقاطعات الأوروبية ، اضطر ألكسيوس إلى نقل جنوده من الحدود السورية للتصدي لما يعتبره تهديدا أخطر ، فاستدعى كنتاكوزينوس من اللاذقية مع كثير من رجاله ، وموناستراس من كيليكيا التى عهد بإدارتها إلى الأمير الأرمينى سبارابيد أوشين أوف لامبرون . وفى شتاء ١١٠٨ م ، أو أوائل ١١٠٩ م ، وبعد خذلان بوهمند فى إيبيروس ، هاجم تنكريد كيليكيا. ولقد أخطأ الامبراطور الحكم على الرجال ؛ ذلك أن أوشين ينحدر من أسرة عريقة النسب، وكان مشهورا فى شبابه بالشجاعة ، لكنه بات الآن مترفا كسولا ؛ وكان حصن المصيصة الواقع على نهر جيهان هو الباب المؤدى إلى كيليكيا. وعندما تقدمت قوات تنكريد برا عبر جبال الأمانوس ، وبحرا أعلى النهر لمحاصرة المدينة ، تقاعس أوشين فى التصدى له ، فسقطت المصيصة بعد حصار قصير . ويبدو أن تنكريد نصّب نفسه خلال الأشهر التالية حاكما على أضنة وطرسوس برغم بقاء غربى كيليكيا فى أيدى الامبراطورية . ورجع أوشين نفسه إلى أراضيه فى طوروس .

١١٠٩ م تنكريد في ذروة قوته

كانت اللاذقية قد استرجعت بالفعل . وحتى آنذاك ، كانت حركة النورمانديين مقيدة لغياب القوة البحرية ؛ لكن البحرية البيزنطية تركزت الآن بعيدا في البحر الأدرياتيكي ، فتمكن تنكريد من شراء مساعدة أسطول مدينة بيزا ، التي طلبت أن يكون ثمن مساعدتها أحد شوارع أنطاكية ، وحيًا من أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع . وكان بتزياس - الذي خلف كنتاكوزينوس كقائد بيزنطي هناك - يفتقر إلى القوة اللازمة للمقاومة ؛ وفي ربيع ١١٠٨ م ضُمت اللاذقية أخيرا إلى الإمارة الأنطاكية. وفي العام التالي توسع تنكريد جنوبا منتزعا حبلة وبولونياس وقلعة المرقب من سيادة بني عمار التي أفل نجمها .

وهكذا ، وعندما كان بوهموند يستسلم للامبراطور ويوقع على تنازله عن استقلاله ، كان تنكريد في ذروة قوته ، ولم يكن على استعداد بأي حال لأن يطيع المرسوم الامبراطوري ؛ فسلطانه الرئيسي يمتد من طوروس إلى الجزيرة ووسط سوريا ، وكان حاكم أنطاكية والرها، رغم أنه كان مجرد الوصي عليهما في الواقع؛ لكن الأمير بوهمند يعيش الآن في إيطاليا مخزيا ولن يعود إلى الشرق أبدا؛ والكونت بلدوين يعاني الوهن في الأسرالتركي ، ولن يبذل تنكريد أي جهد لإنقاذه من الأسر ؛ وأمير حلب تابعه بالفعل؛ ولن يجرؤ أحد من جيرانه على مهاجمته . لقد انتصر في تحديه لوريث القياصرة في القسطنطينية . وعندما استقبل سفراء الامبراطور في أنطاكية الذين وفدوا لتذكيره بالتزامات خاله ، طردهم في عجرفة . وكان - كما قال عن نفسه - نينوس الآشوري العظيم ، عملاق لا يقدر إنسان على مقاومته .

على أن للعجرفة حدودها . فبرغم ذكائه ، كان بغيضا غير مأمون الجانب . وكان زملاؤه الصليبيون هم الذين تحدوا قوته وقضوا عليها.

الفصل الرابع:

تولوز وطرابلس

تولوز وطرابلس

"جدُ لُبنانَ إليكِ يأتى"

(اشعياء ٦٠ . ١٣)

كان ريموند كونت تولوز الأكثر ثراء وتميزا من بين جميع الأمراء الذين انطلقوا فى الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ م ، وقد توقع الكثيرون تعيينه قائدا للحركة. وبعد مضى خمس سنوات كان من أقل الصليبيين اعتبارا ، إذ كانت مشاكله من صنع يده . إذ على الرغم من أنه لم يكن أكثر جشعا ولا أبعد طموحا من أغلب رفاقه ، إلا أن خيلاءه جعل أخطاءه واضحة جليّة . وكانت سياسة ولائه للإمبراطور ترتكز على الشعور بالشرف والتبصر بفنون إدارة شؤون الحكم ، لكن ولاءه بدا لرفاقه حيلة خادعة ، ولم يجن من ولائه ثمارا كثيرة إذ سرعان ما اكتشف الإمبراطور أنه صديق عاجز . وكان أتباعه يحترمون ما كان عليه من ورع ، ولكنه لم يكن له سلطان عليهم، إذ أجبروه على الإسراع فى رحيل مبكر أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ كما أظهرت كوارث ١١٠١ م مدى ضعف كفاءته فى توجيه حملة عسكرية ، و انحدر إلى أدنى

درجات المهانة عندما اعتقله زميله الصغير تنكريد . وعلى الرغم من حفيظة الرأى العام إزاء تصرف تنكريد ، إذ يعدّ خرقا لقواعد الضيافة والشرف ، لم يحصل ريموند على حريته إلا بتوقيع تنازله عن أية مطالب فى شمال سوريا ، ناسفا دون قصد أساس اتفاقه مع الإمبراطور[١] على أنه كان يتميز بالعزيمة ؛ إذ أخذ على نفسه عهدا بالبقاء فى الشرق، وسيفى بعهده ، ولسوف ينحت لنفسه فى الصخور إمارة.

بنو عمار أصحاب طرابلس

وكانت هناك منطقة لا مفر للمسيحيين من الإستيلاء عليها كى تستديم إقامتهم فى الشرق . إذ تفصل بين فرنج أنطاكية والرها وبين اخوانهم فى القدس من ناحية أخرى، مجموعة من الإمارات الإسلامية ، أهمها إمارة بنى عمار فى طرابلس وعلى رأسها زعيم العائلة المسالم القاضى فخر الملك أبو على الذى كان يحكم منطقة غنية برغم ضآلة جيشه . وكانت سياسته الماهرة مع جيرانه هى سياسة الإسترضاء إزاءهم جميعا حتى وإن تعارضت مع مبادئه ، فاستطاع الحفاظ على استقلال هش يرتكز - كملاذ أخير - على قوة عاصمته المحصّنة فى شبه جزيرة الميناء . وكان كلما اقترب الفرنج من أراضيه يظهر لهم الكثير من المودة ، وزود الحملة الصليبية الأولى بالمؤن ، ولم يعارض قادتها عندما حاصروا مدينته أرقا ، وقدم لبلدوين البولونى مساعدات قيّمة أثناء رحلته الشائكة لتسلم تاج القدس . وعندما انسحب الصليبيون من مدينتى طرطوس وبرزية إلى مسافة بعيدة استولى عليهما بهدوء . وهكذا كان يتحكم فى الطريق الساحلى كله من اللاذقية وجبلة حتى محمية بيروت الفاطمية[٢].

وكان الطريق البديل الذى يربط بين شمال سوريا وفلسطين يمضى أعلى وادى العاصى مرورا بمدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينة حماه التى تدين بالولاء لرضوان، وحمص حيث يحكم جناح الدولة زوج أم رضوان ، ثم يتشعب الطريق من هناك ؛ فيمضى فرع منه خلال البقاع إلى طرابلس والساحل ، وهو طريق ريموند الذى سلكه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ ويمضى الفرع الثانى مباشرة وراء محمية بعلبك الدمشقية إلى

---

(١) أنظر أعلاه ص (٦٥).

(٢) أنظر أعلاه ص (٣٧) ، وكذلك مقال Sobernheim إبن عمار "Ibn Ammar" فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopaedia of Islam.* وقد أعطى الشيخ المحلى فى جبلة مدينته هذه لبورى - إبن دقاق - لكن فخر الملك أوقف هذه العطية.

منابع نهر الأردن.

وراح ريموند - الذى لم تكن طموحاته متواضعة أبدا - يتأمل فى إنشاء إمارة تتحكم فى كل من الطريق الساحلى ووادى العاصى تكون عاصمتها حمص التى يطلق عليها الفرنج لاشاميل La Chamelle ، على أن هدفه الأول كان مدن الساحل، والأرجح أنه قرر ذلك في وجود سفن جنوا التى قد تساعده . وبعد أن أطلق تنكريد سراحه فى الأيام الأخيرة من عام ١١٠١ م انطلق من أنطاكية مع من تبقى على قيد الحياة من أمراء الحملات الصليبية فى عام ١١٠١ م ، وهم : ستيفن أوف بلوا ، ووليم الأكيتانى، ويلف البافارى ، ورفاقهم ؛ وكانوا يتلهفون على إتمام رحلة الحج إلى القدس . وفى اللاذقية اجتمع الشمل مرة أخرى مع زوجته وجنوده، وساروا جميعا إلى طرطوس . وبوصوله خارج أسوار المدينة ، شاهد أسطول جنوا الصغير راسيا قبالة الشاطئ، وكان يعقد الآمال على مساعدته. وكان حاكم المدينة قد أبدى مقاومة ضعيفة قبل هذا التهديد المزدوج من البر والبحر ، وفى منتصف فبراير تقريبا دخل ريموند طرطوس مع من رافقه من المرتحلين ، الذين وافقوا دون نقاش على أن تكون المدينة مدينته . وظنوه سيصحبهم بعد ذلك إلى القدس ؛ لكن رفضه أغضبهم ، ونعتوه بنعوت الكفر حسب ما ذكره المؤرخ فولشر أوف تشارتر؛ لكنه قرر أن تكون طرطوس نواة أملاكه، فاستأذنوه وواصلوا رحلتهم جنوبا(٣).

ولم يحاول ريموند إخفاء مخططاته ، مما جعل ناقوس الخطر يدق فى العالم الإسلامى؛ وأرسل فخر الملك إلى أمير حمص وإلى دقاق الدمشقى يحذرهما. وعندما ظهر ريموند أمام أسوار طرابلس اتضح أن جيشه يزيد قليلا على ثلاثمائة رجل ، وظن المسلمون أن اللحظة قد حانت لتدميره، وسارع الدقاق بتقديم ألفى فارس، وقدم جناح الدولة مثلهم وأكثر، واستنفر بنو عمار جيشهم كله؛ وعندما تجمع الحشد الإسلامى فى السهل المطل على المدينة كان واضحا أنه يفوق جيش ريموند بعشرين ضعفا.

١١٠٢م إنتصار ريموند أمام طرابلس

لم نجد فيما كتبه مؤرخو الصليبيين عن أعمال ريموند سوى النذر اليسير، وإنما نعلم

---

(٣) Fulcher of Chartres, II, xvii, 1-2, pp. 433-5; Albert of Aix, VIII, 43, p. 583; Caffaro, *Liberation, p. 69* يقول إن أسطولا من جنوا قدم المساعدة.

عن هذه المعركة غير العادية التي تلت من المؤرخ العربي إبن الأثير . فقد وضع ريموند مائة من رجاله في مواجهة الدمشقيين ، ومائة في مواجهة بني عمار ، وخمسين في مواجهة رجال حمص، والخمسين الباقين لحرسه الخاص . وبدأ جنود حمص الهجوم ؛ لكنهم فشلوا فأصابهم الذعر فجأة ، وانتشر الذعر بين الدمشقيين . وأما جنود طرابلس فكانوا يحرزون تقدما؛ وعندما وجد ريموند أن أعداءه الآخرين يلوذون بالفرار تحول إلى جند طرابلس بجيشه كله ؛ فكانت صدمة مفاجئة فاقت احتمالهم ، فاستداروا هم أيضا ولاذوا بالفرار . واندفع فرسان الفرنج في ساحة القتال يجهزون على كل المسلمين ممن لم يتمكن من الهرب . ويقدّر المؤرخ العربي عدد الهالكين من إخوانه في الدين بسبعة آلاف رجل.

لم يسترجع النصر سمعة ريموند وحسب ، بل ضمن كذلك بقاء مملكته اللبنانية . و لم يجرؤ المسلمون على مهاجمته مرة أخرى البتة . على أن قواته كانت من الضآلة بحيث لم يتمكن من الإستيلاء على طرابلس ذاتها بتحصيناتها الهائلة في شبه جزيرة الميناء. وبعد أن فرض إتاوة باهظة من المال والجياد عاد إلى طرطوس للتخطيط لحملته التالية[٤] .

وبعد أن أمضى الأشهر التالية في توطيد مواقعه في جوار طرطوس ، انطلق في ربيع ١١٠٣م لغزو البقاع ، وهي غزوة ضرورية لعزل طرابلس وللتوسع باتجاه وادي العاصي. وفشلت محاولته في مباغتة قلعة طوبان الواقعة في مدخل الوادي الشمالي الشرقي، لكنه حط رحاله غير هياب وحاصر قلعة الحصن الهائلة التي تسيطر على الوادي كله ، والتي سبق أن احتلها جنوده لمدة أسبوع عام ١٠٩٩ م ؛ والقلعتان تابعتان لجناح الدولة الحمصي الذي لم يكن بوسعه أن يفقدهما ؛ فجرّد جيشا لإنقاذهما. بيد أنه أثناء خروجه من الجامع الكبير في حمص بعد صلاة الدعاء بالنصر ، قتله ثلاثة من الحشاشين مما أشاع الإضطراب والفوضى في المدينة . وعلى الفور رفع ريموند الحصار عن قلعة الحصن وسار شرقا لينتهز هذه النهزة . وينسب الرأى العام تلك الجريمة إلى عملاء رضوان الذي لم يغفر لجناح الدولة مطلقا هجوم الأخير عليه قبل ذلك بثلاث سنوات بينما كان يقاتل الفرنج في أنطاكية . وفزعت أرملة جناح – وهي أم رضوان – من اقتراب ريموند؛ فأرسلت إلى حلب تعرض المدينة على رضوان. و لم

---

(٤) Ibn al-Athir, pp. 211-12; Sibt ibn al-Djauzi (p.525) يذكر أن مكان المعركة خارج طرطوس وكذلك يذكر Caffaro, *Liberatio, loc. cit.* Radulph of Caen, cxlv, p. 707 .

يوافقها مستشارو جناح في ذلك ، وإنما استدعوا دقاق الدمشقي لإنقاذهم بدلا من رضوان ؛ فأتى دقاق بنفسه على عجل وبصحبته أتابجه طغتكين الذى عهد إليه بحكومة حمص، ولم يكن ريموند في وضع يستطيع فيه محاربته ، فانسحب إلى الساحل[٥].

ولدى عودته إلى طرطوس علم بوصول أسطول صغير من جنوا يتألف من أربعين سفينة ألقت مراسيها في اللاذقية ، فاستأجاره من فوره لمساعدته في الهجوم على طرابلس ؛ لكن الهجوم باء بالفشل ، فرحل الحليفان جنوبا واستوليا على ميناء جبيل ، أو جبيل، الذى كان القدماء يطلقون عليه إسم بيبلوس؛ وكوفىء أبناء جنوا بثلث المدينة[٦] لكن ريموند كان قد عقد العزم على غزو طرابلس نفسها ؛ وفى الأشهر الأخيرة من عام ١١٠٣ م ضرب معسكره في ضواحي المدينة وشرع في تشييد قلعة ضخمة فوق سلسلة من التلال في الداخل تبعد حوالى ثلاثة أميال عن المدينة . وقبل ذلك بفترة وجيزة حاول إقناع تنكريد بالتحول عن اللاذقية ، إرضاء لبيزنطة ، فكافأته بيزنطة بأن أمدته من قبرص بمواد البناء والبنّائين المهرة . وبحلول ربيع عام ١١٠٤ م اكتمل بناء القلعة وحل بها ريموند وأسماها جبل الحاج ، وهى التي يسميها العرب قلعة سنجيل ، أى قلعة سان جيل[٧].

١١٠٥م: موت ريموند

باتت طرابلس الآن في حالة حصار دائم ، لكنها ظلت منيعة ؛ إذ كان ريموند يسيطر على المداخل البرية لكنه لا يملك القوة البحرية الدائمة . وكان بنو عمار لا يزالون يحتفظون بأسطول تجارى كبير ، ولديهم الكثير من الثروة المكدسة ، فاستمروا في إحضار المؤن من الموانى المصرية في الجنوب لكن قلعة ريموند كانت تهدد حريتهم ؛ فخرجوا في أواخر الصيف وحرقواالضواحى حتى أسوارها، وأصيب ريموند نفسه عندما وقع عليه سقف محروق . وفى أوائل الربيع التالى أمكن إغراء فخر الملك بترتيب عقد

---

(٥) Ibn al-athir, p. 213 والتاريخ الذى ذكره غامض. Kemal ad-Din, pp. 590-1 .

(٦) Albert of Aix, IX, 26, pp.605-6; Caffaro, Liberatio, p. 71

(٧) Anna Comnena, XI, viii, 5, vol. III, p. 380; Albert of Aix, ix, IX, 32, P. 510; Caffaro, iberatio, p.70; RadulphofCaen, loc.cit.; William of Tyre, X, 17, p. 441; Ibn al-Athir, pp. 217-18; Abu'l Mehasin,p.275.

هدنة مع المسيحيين تخلى لهم بموجبها عن الضواحى .وما أن تمت المفاوضات حتى مرض ريموند مرض الوفاة و لم يكن قد شفى تماما من جراحاته التي أصابته قبل ذلك بستة أشهر ، ومات فى جبل الحاج يوم ٢٨ فبراير عام ١١٠٥ م ، وبقيت له شهرته لما أقدم عليه من مغامرات تغلب عليها الشجاعة فى سنواته الأخيرة . ونعاه عارفوه على أنه فارس مسيحى عظيم فضّل شدائد الحرب على متع الوطن كلها[٨].

وكان جديرا بما نسب إليه . فعلى خلاف زملائه الصليبيين - المستقرين الآن فى الشرق بعد أن كانوا فقراء لا شأن لهم يذكر فى أوطانهم - كان لدى ريموند ميراث ضخم فى أوروبا ؛ وبرغم قسمه بعدم العودة إلى ميراثه أبدا ، كان مع ذلك يحتفظ بنوع ما من السيطرة على أملاكه هناك . وبموته برزت مشكلة استخلافه فى تولوز فضلا عن لبنان . فقد ترك تولوز يحكمها برتراند أكبر أبنائه ، الذى حامت الشكوك حول حقه فى وراثة الكونتية ، ربما لأنه كان ابن سفاح . ولقد مات جميع أبناء ريموند من الكونتيسة ألفيرا فيما عدا ولد صغيره ، ألفونسو جوردون ، الذي ولد قبل أشهر قليلة فى قلعة جبل الحاج ، ولا يستطيع طفل أن يحكم دويلة عسكرية لها وضعها الشائك فى لبنان ، وربما لم يكن وجوده نفسه معروفا بعد فى تولوز . واستمر برتراند يباشر إدارة أراضى أبيه الأوروبية . وفى الشرق إختار جنود ريموند - وربما توافق إختيارهم مع آخر رغبات ريموند - إبن عمه وليم جوردون ، كونت سردانيا (الواقعة على جبال البرانس) ، والذى وصل إلى الشرق مؤخرا، وكانت جدته لأمه هى خالة ريموند . وقد اعتبر نفسه وصيا على إبن عمه الطفل ألفونسو ، وأبى أن يأخذ أية أملاك من أراضيه فى الشرق . بيد أنه طالما بقى ألفونسو جوردن على قيد الحياة ، فلن يتوفرالأمن فى حكومة وليم جوردن ولا فى حكومة برتراند[٩].

---

(٨) Albert of Aix, loc.cit.; Carraro, *Liberatio*, p. 72; Bartolf of Nangis, LXVIII, p. 539.

(٩) Albert of Aix, IX, 50,pp.123-4. وطبقا لما ذكره Vaissette فى تاريخه Histoire de Languedoc, ed. Molinier, vol.IV, I, pp. 195-9, ولد برتراند إبن ريموند من زوجته الأولى إبنة مركيز بروفانس . وأبطل هذا الزواج فيما بعد على أساس القرابة الوثيقة التى تحظره . ولا يترتب على هذا الإبطال دائما إعتبار ثمرته أولاد سفاح . ولكن من الواضح أنه على الرغم من أن ريموند اعتبر برتراند وريثه فى تولوز حينما رحل إلى الشرق بصحبة أولاده من ألفيرا (وهم غير معروفين من ناحية الذكورة والأنوثة)، فإن مطالب برتراند تعتبر أدنى من مطالب ألفونسو جوردن الشرعية الثابته فى تولوز وفيما بعد تسببت مطالب ألفونسو جوردن حول طرابلس فى إنزعاج حفيد برتراند ، ريموند الثانى (أنظر أدناه، الباب الثالث ، الفصل الثالث) أما William of Malmesbury ، الذى لا يتوخى الدقة دائما، فيسمى برتراند إبن ريموند العشيق (II,9. 456) ويسميه الكاتب المعاصر Caffaro إبن الحرام. (Liberatio, p.72)

وسار وليم جوردن على سياسة سلفه ، مضيّقا الحصار ومحتفظا بالتحالف مع بيزنطة . وأرسل له حاكم قبرص ، إيومانيوس فيلوكاليس ، بناء على تعليمات الإمبراطور ، سفيرا لتلقى تعابير الإحترام ، وإزاء ذلك أعطاه الهدايا القيّمة . ونتيجة لإمتثال وليم جوردن لبيزنطة ، دأبت قبرص على إرسال إمدادات منتظمة للفرنج الموجودين أمام طرابلس . ومن حين لآخر كان جنود بيزنطة يساعدون فى حصار المدينة . وتدفق الطعام على المعسكر الفرنجى فى الوقت الذى هددت فيه المجاعة سكان طرابلس ؛ إذ تعذر وصول الطعام برا ، ولم يعد يكفى هذا العدد الكبير من السكان ما تنقله السفن من الموانى الفاطمية ، فضلا عن الطعام الذى كان يتسلل عن طريق أراضى تنكريد التى تخترق الحصار؛ وارتفعت أسعار المواد الغذائية إرتفاعا خياليا ، بحيث أصبح سعر رطل التمر قطعة ذهبية ؛ وهاجر كل قادر على الهرب من المدينة ، ولم يبق داخل الأسوار سوى البؤس والمرض ، اللذين حاول فخر الملك تخفيفهما بتوزيع الطعام على الجنود والمرضى وتسديد أثمانها من ضرائب خاصة . وهرب بعض نبلاء المدينة إلى معسكر الفرنج ، وكشف اثنان منهم للمحاصرين الممرات التى لا تزال الأطعمة تهرّب عن طريقها إلى داخل المدينة . وعرض فخر الملك على وليم جوردن مبالغ طائلة لقاء تسليمه هذين الخائنين؛ وعندما رفض الكونت تسليمهما وجدا مقتولين فى المعسكر المسيحى(١٠).

١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة

لم يجد فخر الملك من يلجأ إليه طلبا للعون ؛ فعندما طلبه من الفاطميين أصروا على ضم دويلته إليهم؛ ولسبب أو لآخر لم يكن على علاقة طيبة مع طغتكين صاحب حمص، وهو أقرب الحلفاء إليه ، وقد تولى حكم دمشق بعد موت الدقاق فى ١١٠٤م ، وقد دأب هو نفسه على محاربة وليم جوردن . وبدا له أن أقاصى الحلفاء هم الأكثر حرصا عليه ، فأرسل فى سنة ١١٠٥م نداء عاجلا إلى سقمان الأرتقى حاكم ماردين الذى لم يكن عزوفا عن معاودة الدخول فى ساحة الصراع فى الساحل السورى ، فانطلق مع جيش كبير عبر الصحراء . غير أنه مات فجأة لدى وصله البتراء ، وأسرع

(١٠) Anna Comnena, loc. cit.; ويقول إبن الأثير (Ibn al-Athir, p. 236) إن المدينة تلقت إمدادات جيدة من الإغريق فى اللاذقية.

قواده بالعودة إلى الجزيرة ليختلفوا حول استخلافه[١١].

وتمكن فخر المالك طوال عامى ١١٠٦ و١١٠٧ م من تدبر أمره فى طرابلس وسط البؤس المتزايد بفضل ما كان له من ثروة وما اتصف به من دبلوماسية ؛ فتحسنت علاقته بطغتكن الذى استطاع مساعدته بعد أن استعاد رفنيّة من الفرنج سنة ١١٠٥ م محوّلا بذلك إنتباههم عن طرابلس[١٢]؛ على أن أقدام الفرنج باتت راسخة الآن على الساحل اللبنانى ، وليس هناك من الجيران المسلمين من يتوفر لديه الإستعداد ، أو الاقتدار ، لطردهم . وفى ربيع ١١٠٨ م ، قرر فخر الملك وهو فى غمرة اليأس أن يلتمس المساعدة بنفسه من الخليفة العباسي فى بغداد ، ومن أكبر عاهل هناك وهو السلطان محمد السلجوقى.

وانطلق من طرابلس فى شهر مارس بعد أن عهد إلى إبن عمه أبو المناقب بن عمار بتصريف شؤون الحكم ، وبعد أن أمر بمنح جميع الجنود راتب ستة أشهر مقدما. وكان قد أطلع طغتكن على نيّته ، ويبدو أنه حصل على إذن من وليم جوردون بالمرور من الأراضى التى يسيطر عليها الفرنج ؛ واصطحب معه حرسا خاصا يتألف من خمسمائة رجل ، كما حمل العديد من الهدايا للسلطان . وبوصوله إلى دمشق إستقبله طغتكن بمظاهر الاحترام اللائق، وأمطره أمراء دمشق البارزون بالهدايا، برغم توخيه الحيطة ونزوله خارج أسوار المدينة . وعندما شرع فى مواصلة الرحلة انضم إلى حرسه ابن طغتكن ، تاج الملك بورى . وعلى مشارف بغداد استُقبل بأسمى آيات التشريف ؛ إذ أرسل إليه السلطان زورقه الخاص ليعبر به نهر الفرات ، وأجلسه على الوسادة التى تتشرف عادة بجلوس السلطان نفسه عليها . ورغم أن فخر الملك ليس له من لقب قط سوى لقب القاضى ، فقد دخل بغداد بالتشريفات التى لاتجرى الا لعاهل أمير . وأظهر كل من الخليفة و السلطان مشاعر تعاطفهم الأخوية ، وأثنيا على ما قدمه للدين من خدمات . على أنه حينما بدأت المناقشة الجديّة سقط القناع عن خواء تلك المجاملات ؛ إذ وعده السلطان بإرسال جيش سلجوقى كبير لتخليص طرابلس ، ولكن هناك أولا بعض المهام الصغيرة التى يتعيّن إنجازهابالقرب من بغداد، فمثلا ينبغى تأديب جاولى أمير الموصل حتى يظهر من الطاعة أكثر مما هو عليه . وأدرك فخر الملك حقيقة أن محمدا عزوف عن التدخل في مسألة طرابلس . وبعد مرور أربعة أشهر عقيمة ومترفة فى بلاط

(١١) Ibn al-Athir, pp. 226-7.

(١٢) Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 60; Ibn al-Athir, p. 230.

السلطان شرع فى رحلة العودة إلى وطنه ليكتشف أنه لم يعد له وطن[١٣].

ذلك أن أبا المناقب ووجهاء طرابلس كانوا واقعيين ؛ وتحققوا من أن القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على مساعدتهم هى القوة الفاطمية التى مازالت تسيطر على البحار ، فتوجهوا إلى الوزير المصرى الأفضل ملتمسين إرسال حاكم يتولى شؤون المدينة، وإستجابة لرغبتهم أرسل شرف الدولة الذى وصل طرابلس فى صيف ١١٠٨م حاملا معه الحبوب للسكان ؛ ولم يجد صعوبة فى إحكام سيطرته على المدينة؛ إذ اعتقل أنصار فخر الملك وأرسلهم بحرا إلى مصر . وكان فخر الملك قد وصل في طريق عودته إلى دمشق قبل أن يعلم بهذه الثورة ، وكان لا يزال يمتلك جبلة الواقعة إلى الشمال من طرطوس ، فولى وجهه شطرها، لكن حكمه هناك لم يدم طويلا ؛ فقد ظهر تنكريد الأنطاكى فى شهر مايو ١١٠٩ م بكامل قوته أمام المدينة ، فاستسلم فخر الملك بعد أن اشترط الإحتفاظ بالمدينة كإقطاعية من تنكريد ؛ لكن هذا الأخير خان وعده ، فاضطر فخر الملك إلى الرحيل إلى دمشق دون أن يتحرش به تنكريد ليتقاعد فيها، وقضى ما بقى من حياته يتقاضى معاش تقاعده من طغتكين[١٤].

١١٠٨م : برتراند التولوزى يرحل إلى الشرق

مع أن فخر الملك فقد طرابلس ، لم يستطع المصريون الإحتفاظ بها ، كما لم يتمكن وليم جوردن من الفوز بها؛ إذ أنه بموت ريموند وافق بارونات تولوز على إستخلاف برتراند، فقد حكمهم بالفعل لما يقرب من عشر سنوات ، فضلا عن أنهم لم يعلموا بعد بوجود إبن شرعى لريموند. على أنهم بعدما علموا بوجود ألفونسو جوردن الصغير ، أرسلوا إليه يستدعونه لتسلم حقه فى الميراث ، ولا تلام الكونتيسة ألفيرا على إيثارها الأراضى الخصبة فى جنوب فرنساعلى لوردية وضعها شائك فى الشرق . فوصلت مع ابنها إلى تولوز سنة ١١٠٨م.

وبوصولهما ، كان لزاما على برتراند أن ينظر فى مستقبله . والراجح أنه قد تم إعداد إتفاق عائلى ، يتخلى برتراند بموجبه عن مطالباته فى أراضى أبيه الأوروبية ، مقابل تخلى ألفونسو جوردن له عن ميراثه فى لبنان وبذا يتخلص منه نهائيا فى تولوز .

---

(١٣) Ibn al-Qalanisi, op.cit. pp. 83-6; Ibn al-Athir, pp. 255-7..

(١٤) Ibn al-Qalanisi, pp.86-90; Ibn al-Athir, p.274; Sibt ibn ak-Djauzi, p.536.

وفى صيف ١١٠٨م رحل برتراند إلى الشرق وقد عقد العزم على غزو طرابلس ليكون هذا الغزو بمثابة تتويج لإمارته التي تنتظره. وربما توقع بعض الصعوبات مع وليم جوردن ، ولذا اصطحب معه جيشا من أربعة آلاف فارس وراجل ، وأسطولا من أربعين قادسا[١٥] أمدته بها موانى بروفانس ، واصطحب معه إبنه الصغير بونز . وكان ميناء جنوا أول مكان توقف فيه للزيارة آملا الحصول على المساعدة البحرية اللازمة للإستيلاء على طرابلس . وحاول وليم جوردن هو الآخر ترتيب تحالف مع أبناء جنوا، لكن سفارته وجدت أنهم قد قبلوا برتراند بالفعل حليفا للجمهورية . ووعدت جنوا بمساعدة برتراند على استلامه الأراضى التى غزاها أبوه فى الشرق وتتويجها بالإستيلاء على طرابلس التى سيحصلون فيها على مناطق تجارية مفضلة ؛ وفى الخريف أبحر أسطول من جنوا مع برتراند بإتجاه الشرق[١٦].

ورتّب برتراند أن تكون خطوته التالية هى زيارة القسطنطينية كى يضمن مؤازرة الإمبراطور ، صديق أبيه . ودفعت العواصف بأسطوله إلى خليج فولو ، وإلى مرفأ ألميرو حيث ترك رجاله إنطباعا رائعا بإحجامهم عما إعتاد عليه الغرب من نهب الريف . وترتب على ذلك أن استقبله ألكسيوس فى القسطنطينية بمشاعر التعاطف وعامله كإبنه، وأغدق عليه من الهدايا القيّمة ، ووعده بميزات إمبراطورية ؛ وفى مقابل ذلك أقسم على الولاء للإمبراطور[١٧].

وأبحر برتراند من القسطنطينية مع حلفائه أبناء جنوا إلى ميناء السويدية الأنطاكى، وأرسل مبعوثا إلى تنكريد كى يحضر لمقابلته ، فجاء تنكريد فى الحال . لكن المناقشة التى دارت بينهما لم تتخذ مسارا سلسا هيّنا؛ إذ طلب برتراند بأسلوب متعجرف أن يسلمه تنكريد الأجزاء من مدينة أنطاكية التى كانت فى حوزة أبيه ذات مرة ، ورد تنكريد بأنه على استعداد للنظر فى طلبه إذا ما ساعده فى حملته المرتقبه ضد المصيصة ومدن كيليكيا البيزنطية . ولم يلق هذا الإقتراح قبولا لدى برتراند الذى أقسم لتوه قسم الولاء للإمبراطور ألكسيوس ، لاسيما وأنه أدخل فى حسبانه المساعدات البيزنطية .

---

(١٥) (المترجم) القادس : سفينة شراعية بمجدافية كبيرة.

(١٦) يقول ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, XI, 3, p.664) إن برتراند زار بيزا وهو يعنى جنوا؛ .Caffaro, *Liberatio*, p. 72.

(١٧) تقول آنا كومنينا (Anna Comnena, XIV, ii, 6, vol. III, p. 149) إن برتراند أقسم قسم الولاء لألكسيوس عندما كان بالفعل فى طرابلس . ولكن ألبرت أوف آيكس (المرجع السابق) يذكر زيارته عن طريق هالميروس Halmyrus إلى القسطنطينية.

وبدلا من ذلك عرض على تنكريد أن يغزو له مدينة جبلة التى لاذ بها فخر الملك ، ولكن تنكريد أصرّ على التعاون معه فى حملة كيليكيا . وبرفض برتراند ومصارحته بالقسم الذى أقسمه للإمبراطور ، أمره تنكريد بمغادرة الإمارة ، وأصدر أوامره لرعاياه ألاّ يبيعوه شيئا من المؤن ؛ فاضطر برتراند إلى الرحيل مبحرا جنوبا إلى ميناء طرطوس(١٨).

١١٠٩م برتراند ووليم جوردن

كان أحد نواب وليم جوردون حاكما على طرطوس . وسارع باستقبال برتراند فى المدينة ، وزوده بكل ما كان فى حاجة إليه من المؤن . وفى اليوم التالى أرسل برتراند مبعوثا إلى مقر وليم جوردن الرئيسى فى جبل الحاج طالبا تسليم كل تركة أبيه فى أراضى لاشاميل La Chamelle ، أى إمارة حمص ، التى كان ريموند يأمل فى إنشائها . لكن وليم جوردن كان قد حقق مؤخرا نجاحا ملحوظا . إذ عندما تولى المصريون حكم طرابلس قام أهالى مدينة أرقا - التى كانت تحت قيادة واحد من غلمان فخر الملك المفضلين - بوضع المدينة تحت حماية طغتكين الدمشقى الذى خرج بنفسه لتفقد محميته الجديدة ؛ و لكن أمطار الشتاء أخّرت تقدمه فى البقاع ؛ وأثناء إنتظاره تحسن الجو هاجم بعض الحصون التى بناها المسيحيون بالقرب من الحدود ؛ فزحف وليم جوردن مع ثلاثمائة من الخيالة ومائتين من المشاة المحليين فوق كتف جبل لبنان وباغته بالإنقضاض عليه بالقرب من قرية الأكمة ، فهرب طغتكين مع جيشه الدمشقى مذعورا إلى حمص والفرنج فى أعقابه يطاردونه ، لكنهم آثروا عدم المغامرة بمهاجمة المدينة وإنما تحولوا شمالا للإغارة على أراضى شيزر . وعلم أميرا شيزر مرشد وسلطان ، وهما من المنقذين ، بأن جيش الفرنج صغير ، فخرجا وهما على ثقة من هزيمته بيسر ، لكن الفرنج بادروا بهجوم ضارٍ كسر رجال شيزر فلاذوا بالفرار وعاد وليم جوردن إلى أرقا التى استسلمت له بعد حصار لا يزيد على ثلاثة أسابيع(١٩).

وانتشى وليم جوردن بانتصاراته ، ولم يكن فى حالة تسمح له بالتنازل عما يطلبه برتراند، ورد عليه قائلا إنه يمتلك أراضى ريموند بحق الوراثة ، فضلا عن أنه دافع عنها

---

(١٨) Albert of Aix, XI, 5-7, PP. 665-7.

(١٩) Usama, ed. Hitti, p. 78; Ibn al-Athir, pp. 226-7.

ووسع من رقعتهـا . على أنه استشعر الخطر من ضخامـة أسطول برتراند ؛ فاستنجد بأنطاكية ملتمسا تدخل تنكريد لصالحه بعد أن وعد بأن يصبح تابعا لتنكريد . واضطر برتراند إلى إتخاذ إجراء مناظر، فأرسل مبعوثا إلى القدس يعرض قضيته على الملك بلدوين ويناشده التدخل بصفته الحكم الأعلى لفرنج الشرق ، ومن ثمّ يعترف بسيادته عليه(٢٠).

واستجاب بلدوين من فوره للنداء . ذلك أن حنكته السياسية ترى ضرورة تعاون فرنج الشرق، وصوّر له طموحه أنه قائدهم . وكان غاضبا أشد الغضب على تنكريد من موقفه إزاء بلدوين الرها وجوسلين أوف كورتناى . وتحرك برتراند جنوبا إلى طرابلس حيث كان الجيش يقوم بمهمة مزدوجة : مواصلة حصار المدينة الإسلامية ، ومحاصرة أعوان وليم جوردن فى جبل الحاج . وفى ذات الوقت كان وليم جوردن قد غادر جبل الحاج واحتل طرطوس مرة أخرى ، ولبث فيها ينتظر تنكريد . وما أن وصل حتى جاء مبعوثان من الملك بلدوين ؛ هما إيوستاس جارنييه وباجان أوف حيفا ، وأمراهما بالمثول فى بلاط الملك أمام طرابلس لتسوية مسألة ميراث ريموند، وإعادة الرها وتل بشير إلى أصحابهما الشرعيين. وود وليم جوردن لو أن تنكريد يرفض هذا الإستدعاء ، لكن تنكريد تحقق من عدم جدوى التحدى.

وفى شهر يونية تجمع أمراء فرنج الشرق جميعا خارج أسوار طرابلس ؛ فحضر برتراند مع جيشه ، وجاء الملك بلدوين من الجنوب وبصحبته خمسمائة فارس ومثلهم من المشاة ، وأحضر تنكريد سبعمائة من أقدر فرسانه ، ووصل بلدوين الرها وجوسلين مع الحرس . وانعقدت جلسة وقورة فى قلعة جبل الحاج أسفرت عن مصالحة رسمية بين تنكريد وبلدوين الرهاوجوسلين ، بينما تقرر تقسيم الميراث التولوزى بأن يحتفظ وليم جوردن بطرطوس وما غنمه غزوا - أى أرقا ؛ ويحصل برتراند على جبيل وطرابلس فور الإستيلاء عليها . وأقسم الأول قسم الولاء لتنكريد ، وأقسم الثانى قسم الولاء للملك بلدوين. ويقضى الإتفاق بأنه فى حالة وفاة أى منهما يرث الآخر أراضيه(٢١).

(٢٠) Fulcher of Chartres, II, xi, I, pp. 526-30; Albert of Aix, XI, 1-2, 8, pp. 663-4, 666.

(٢١) Fulcher of Chartres, II, xli, I, p. 531; Albert of Aix, XI, 9-12, pp. 666-8.

١١٠٩م استسلام طرابلس

وحل السلام بين القادة ، وشرع الجيش الفرنجى حادا فى الإستيلاء على طرابلس . وكان الحاكم المصرى شرف الدولة لا يزال يلح يائسا فى طلب المساعدة من السلطات المصرية التى شغلتها مكائد قادتها وخلافاتهم ، فتأخر ما جهزته فى موانى الدلتا من أسطول ضخم وسفن من ناقلات الجنود وقوارب محملة بالإمدادات . وكانت الشهور تمضي والوزير يحاول تهدئة الخلافات بمحاولات منقوصة ، إلى أن صدرت الأوامر أخيرا بالإبحار . غير أن الرياح الشمالية هبت واشتدت مما عرقل إبحار السفن من الميناء، وعندما أبحرت فى نهاية الأمر وقد نقص عددها ، كان السيف قد سبق العذل(٢٢).

وتلفتت حامية طرابلس فوجدت أساطيل جنوا وبروفانس تعزلها بحرا ، وآلات الفرنج تقصف أسوارها فتعجزها برا ؛ فنفضت عن نفسها فكرة المقاومة ، وأرسل شرف الدولة إلى الملك بلدوين يعرض تسليم المدينة بشرط السماح للمواطنين الراغبين فى الهجرة بالرحيل آمنين ومعهم منقولاتهم، وأن يسرى على المواطنين الراغبين فى البقاء ما يسرى على رعايا الفرنج ، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم ، وإنما يدفعون ضريبة سنوية معينة، وأن يسمح له هو نفسه بالرحيل مع جنوده إلى دمشق . فوافق بلدوين ودخل المسيحيون طرابلس يوم ٢١ يولية ١١٠٩م.

وأمّا بلدوين ، فقد احترم إتفاقه و لم يحدث فى المناطق التى كان يباشرها نهب أو تخريب ، وأمّا بحارة جنوا فقد اقتحموا المدينة العارية من أى دفاع ، وراحو ينهبون المنازل ويحرقونها ، وأخذوا يقتلون كل مسلم يقابلهم ؛ و لم تتمكن السلطات من كبح جماحهم إلاّ بعد فترة من الوقت ، وأثناء النهب والشغب أحرقوا مكتبة بنى عمار العظيمة عن آخرها وهلكت كل محتوياتها. وكانت أروع مكتبة فى العالم الإسلامى(٢٣).

وبعد الإستيلاء على كامل المدينة وفرض النظام تم تنصيب برتراند حاكما لها ومُنح لقب كونت طرابلس ، وأعاد تأكيد تبعيّته لمملكة القدس . وضرب بتعهداته للإمبراطور ألكسيوس عرض الحائط . وكوفئ أبناء جنوا بحى من أحياء طرابلس ، وقلعة تعرف

---

(٢٢) Ibn al-Athir, p. 274; Ibn al-Qalanisi, p. 89

(٢٣) Fulcher of Charters, II, xli, 2-4, pp. 531-3; Albert of Aix, XI, 13, p. 668; Ibn al-Qalanisi, pp. 89-90; Ibn al-Athir, loc. cit.; Abu'l Mahasin, p. 489; Ibn Hmdun, p. 455; Sibt ibn al-Djauzi, p. 536.

بقلعة الكونستابل تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من طرابلس، وبالثلثين الباقيين من مدينة جبيل بعد منحها للأدميرال هيو أمبرياكو، وقد حوّلتها ذريته إلى إقطاعية وراثية(٢٤).

و لم ينتظر برتراند طويلا ليستحوذ على ميراث أبيه كله فى الشرق ، إذ أصيب وليم جوردن بسهم أثناء تواجد الجيش الفرنجى فى طرابلس ، وبقيت ملابسات مقتله غامضة. ويبدو أنه اندفع لفض شجار شب بين إثنين من سائسى الخيل ، وأثناء محاولته الفصل بين الرجلين أطلق البعض عليه سهما. ويقينا حامت الشبهات حول برتراند ، ولكن دون بيّنة . وعلى الفور تسلم برتراند جميع أراضى وليم جوردن ، التى أصبحت إذن تدين بالولاء للملك بلدوين . ولقد راهن تنكريد على الحصان الخاسر(٢٥).

وهكذا تحققت طموحات ريموند فى تأسيس دويلة فى الشرق أقامها ولده . ولكنها كانت إمارة تقل عمّا كان يراود خياله ، ولم تكن أراضى "لا شاميل" جزءا منها قط ، وبدلا من الاعتراف بسيادة الإمبراطور البعيد فى القسطنطينية ، أصبح لها سيد أعلى على مقربة فى القدس . على أنه كان ميراثا غنيا مزدهرا . وكان لهذه الإمارة، بما لها من ثروة وموقع يربط فرنج شمال سوريا بفرنج فلسطين ، دورا حيويا فى تاريخ الحروب الصليبية.

---

(٢٤) Caffaro, *Libertio*, pp. 72-3. See Rey, 'Les Seigneurs de Gibelet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 399-403.

(٢٥) Fulcher of Charters, loc. cit.; Albert of Aix, XI, 15, pp. 669-70.

الفصل الخامس:

الملك بالدوين الأول

الملك بلدوين الأول

"قلبه صُلب كالحجر وقاسٍ كالرحى"

(أيوب ٤١ – ٢٤)

اتضح بجلاء من تدخل الملك بلدوين فى طرابلس سـنة ١١٠٩ م أنـه عـاهل فرنـج الشرق بلا منازع.وقد حظى بتلك المكانة بما كان له من دأب شاق صبور ومن جسارة المغامرة . وعندما وصل القدس بعد موت جودفرى ، برغم معارضـة البطريـق ديامـبرت وحليفه أمير انطاكية (بوهيموند)، كان مـا ورثـه عبـارة عـن خزانـة خاويـة وممتلكـات مبعثرة تتألف من سلسلة الجبال الوسطى فى فلسطين وسهل ازدراليون ، وحصون نائيـة قليلة شيّدت فى أراض معادية ، وجيش بـالغ الضآلـة مؤلـف مـن فرسـان متعجرفـين لا سلطة للقانون عليهم، ومرتزقة من أهل البلاد لاثقة فيهم . ولم يكن فى المملكة أية هيئة واحدة منظمة عدا الكنيسة التـى تضـم شيعتين : شيعة ديامـبرت ، وشـيعة أرنولـف . وكانت أسرة جودفرى هى التى تتولى تصريف الإدارة المركزية ، وهى أسرة صغيرة غير جديرة بتولى حكومة بلد. وأما النبلاء الذين أوكلت إليهم الحصون الحدوديـة ، فكـانوا

يحكمون أراضيهم بما تمليه عليهم أهواؤم.

ورأى بلدوين أن أخطر ما يتهدد مملكته هجوم إسلامي قبل أن تنتظم أمورها. وإعتقادا منه بأن أفضل سبل الدفاع هي الهجوم ، انطلق في حملة يرهب بها الكفرة قبل أن يجد حلا لمشكلة علاقته مع دايمبرت ، وقبل أن يوضع التاج على رأسه وهي مشكلة يرى أنها ملحة. وكان لأعماله الجريئة في الرها وإنتصاره في نهر الكلب ما أضفى عليه سمعة مرعبة راح ينتفع بها. فلم يكد يمر أسبوع على وصوله إلى القدس حتى انطلق جنوبا إلى عسقلان وسار أمام أسوارها مستعرضا ؛ بيد أن قلعة عسقلان كانت من القوة بحيث لا يستطيع جيشه الهزيل مهاجمتها ، فاتجه شرقا إلى الخليل ، فجنوبا داخل النقب ، إلى زُغر في الأرض المالحة في الطرف الجنوبي للبحر الميت ، وراح يشعل الحرائق في القرى التي يقابلها في طريقه . وواصل مسيرته خلال قفار إيدوم (الشراه) إلى جبل هارون حيث دير القديس هارون القديم بالقرب من البتراء. ورغم أنه لم يبق طويلا في تلك المنطقة ، فقد كان لمسيرته أثرها المروّع على العرب ، فأحجموا عن التسلل إلى أراضيه في السنوات القليلة التي تلت[١].

وعاد إلى القدس قبيل عيد الميلاد بقليل، وتوفر للبطريق دايمبرت الوقت الكافي ليتدبر أمره ، فاختار أن ينحني لعاصفة قدره المحتوم . وفي عيد الميلاد من عام ١١٠٠م وضع تاج الملك على رأس بلدوين معلنا تتويجه ملكا على القدس ، وفي المقابل آلت إليه البطريارقية.

وفي بدايات ربيع ١١٠١م علم بلدوين بأن قبيلة عربية ثريّة تعبر وادي الأردن، فسارع إليها على رأس كتيبة عبر النهر وانقضّ عليها بليل، وأجهز على أغلب الرجال وهم في خيامهم، وسبى النساء والأطفال واستلب الكثير من الثمين والمال، ولم يتمكن من الهرب إلا القليل. ومن بين السبايا كانت زوجة أحد شيوخ القبيلة تتهيأ لتضع حملها، فأمر بلدوين بإطلاق سراحها مع خادمتها وناقتين وكثير من الطعام والشراب. ووضعت طفلها على جانب الطريق حيث وجدها زوجها. ومسّت كياسة بلدوين شغاف قلبه فأسرع إليه يوفيه حقه من الشكر والعرفان، واعدا برد الجميل يوما ما[٢].

---

(١) صاحب فولشر أرف تشارتر هذه الحملة (Fulcher of Charters,, II, iv, i-5, ii, pp. 370-83) ؛ Albert of Aix, VII, 28-42, pp. 533-6. كان هناك دير إغريقي في جبل هارون حاليا، وانزل للرهبان حول الضريح النبطي الكبير الذي يعرف الآن باسم الدير.

(٢) William of Tyre, X, II, p. 415.

وزادته هذه الغارة شهرة على شهرة ، فوفدت السفارات فى مارس إلى القدس من مدن الساحل أرسوف وقيسارية وعكا وصور تحمل الهدايا الثمينة ، كما أرسل دقاق الدمشقى يعرض خمسين ألف بيزنت فدية أسرى معركة نهر الكلب ؛ وإذن وجدت أعقد المشاكل المالية طريقها إلى الحل[٣].

١١٠١م : الإستيلاء على أرسوف وقيسارية

أمّا هدايا أرسوف وقيسارية ، فلم تغن عنهما شيئا ؛ إذ ظهر أسطول جنوا فى مارس أمام حيفا ، وألقى مراسيه فى يافا يوم ١٥ أبريل ، وكان من بين ركابه الأسقف موريس كاردينال بورتو الذى بعثه البابا باسكال ممثلا شخصيا له . وحتى آنذاك ، كان بلدوين يعتمد على أسطول بيزا الصغير الذى حمل عدوه دايمبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، إلى الشرق . وأملت المصلحة على بلدوين تفضيل التحالف مع أبناء جنوا ، إذ أنهم أنداد بيزا الشداد ، فانطلق جنوبا إلى حيفا للتحية ولإستقبال ممثل البابا. ودعا قادة الأسطول لقضاء عيد الفصح فى القدس حيث إتفقوا على تقديم خدماتهم البحرية طوال موسم كامل نظير ثلث الأسلاب المستلبة ، المال والمنقول سواء بسواء ، وشارع فى حى السوق من كل مدينة يتم الاستيلاء عليها . وحالما وقعوا الإتفاق ، انطلقوا يريدون أرسوف ، بلدوين برا وأهل جنوا بحرا . وسرعان ما انهارت المقاومة وعرضت سلطات المدينة التسليم شريطة السماح للسكان بالهجرة المأمونة مع ذويهم ومنقولاتهم إلى أرض إسلامية ، وقبل بلدوين فرحلوا فى حراسة جنوده إلى عسقلان . وعزز بلدوين الحامية برجاله بعد أن أعطى أبناء جنوا حقهم المتفق عليه[٤].

ورحل الحلفاء من أرسوف إلى قيسارية حيث بدأوا حصارها يوم ٢ مايو . وأبت الحامية أن تستسلم المدينة اعتمادا على أسوارها البيزنطية القديمة . على أن المدينة سقطت إثر هجوم عام يوم ١٧ مايو . وأطلق القادة المنتصرون جنودهم لينهبوا المدينة كما يحلو لهم ؛ وبلغت الشراسة حدا أذهل حتى القادة أنفسهم ؛ ووقعت أفظع المذابح فى الجامع الكبير ، الذى كان ذات مرة معبد هيرود أجريبا[٥]، حيث لاذ به الكثيرون

---

(٣) Albert of Aix, VII, 52, pp. 541-2.

(٤) Fulcher of Charters, II, viii, 1-7, pp. 393-400; Albert of Aix, VII, 54, pp. 452-3.

(٥) (المترجم) : هيرود أجريبا: من ملوك بنى إسرائيل (١٠ ق م ـ ٤٤ م) استغل صداقته بالأسرة الإمبراطورية وأصبح ملكا . اضطهد المسيحيين ، وسجن بطرس الرسول ، وقتل الحوارى يعقوب بن

الذين توسلوا طالبين الرحمة ، لكنهم ذبحوا رجالا ونساء سواء بسواء ، إلى أن استحالت أرضية الجامع بحيرة دماء . ولم يخرج من الجامع أحد على قدميه سوى عدد قليل من البنات والأطفال الرضع ، إلى جانب كبير القضاة وقائد الحامية بعد أن أنقذهما بلدوين نفسه طمعا فى فدية ثمينة . وقد أمر بلدوين بتلك الوحشية متعمدا ، حتى يظهر أنه عند كلمته مع كل من يعقد معه اتفاقا ، وإلا فإنه لا يرحم(٦).

وما أن أنهى بلدوين توزيع الغنائم بحسب الإتفاق ، ووضع جنود الحامية ، حتى جاءته الأنباء بأن جيشا مصريا قد دخل فلسطين.

ذلك أن الوزير الأفضل كان متلهفا على الثأر من كارثة عسقلان التى وقعت قبل عامين ، فجهز حملة يقودها المملوك سعد الدولة الجواشى ، وصلت عسقلان فى منتصف مايو ، وواصلت تقدمها حتى الرملة ، وربما على أمل التوغل إلى القدس بينما كان بلدوين منهمكا فى قيسارية ؛ وأسرع بلدوين بقواته إلى الرملة ، فعاد سعد إلى عسقلان انتظارا للتعزيزات . وبعد أن قام بلدوين بتعزيز تحصينات الرملة اتخذ من يافا مقرا لقيادته كى يتمكن من مراقبة تحركات المصريين ، وفى ذات الوقت يبقى على اتصاله بالمواصلات البحرية ، ولبث فى يافا طوال الصيف عدا زيارة قصيرة للقدس لأغراض إدارية ، كما أنه علم من رسالة اكتشفت مع حاملها بوصول قوات مصرية جديدة إستعدادا للزحف على القدس.

١١٠١ م معركة الرملة الأولى

فى ٤ سبتمبر تحرك سعد بجنوده تحركا بطيئا حتى مشارف الرملة . وفى مجلس الحرب الذى عقده بلدوين قبل يومين تقرر المبادرة بالهجوم فجرا دون إنتظار هجوم الأعداء . وكانت عدة الفرنج مائتين وستين فارسا وتسعمائة راجل ، تسليحهم جيد وخبرتهم بالحرب حسنة . أما المصريون فكانت عدتهم أحد عشر ألف فارس وواحد

زبدى بقطع رأسه فى القدس عام ٤٤ م.

(٦) Fulcher of Charters, IX, 1-9, pp. 400-4; Albert of Aix, VII, 55-6, pp.453- 4,William of Tyre, X, 16, p.423, يذكر أن أبناء جنوا أخذوا - كجزء من الغنائم - كأسا أخضر إعتقدوا أنه مصنوع من الزمرد الخالص . ولا يزال موجودا فى خزانة كتدرائية القديس لورينزو فى جنوا، وإعتبر فيما بعد الكأس المقدسة (التى شرب منها المسيح فى العشاء المقدس) (أنظر Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, I, p. 137.)

وعشرين ألف راجل ، تسليحهم سيئ وكذلك تدربهم على الحرب . وقـ
رجاله إلى خمس فرق : الأولى يقودها فارس يقال له برفولـد، والثانية يقود
كارنبل – لورد حيفا ، والثالثة يقودها هيو (أوف سانت أومير) الذى خـ
أميرا للجليل ، والفرقتان الرابعة والخامسة يقودهما بلدوين نفسه . وسـ
الرملة يستلهمون حماسهم من الصليب الحقيقى ، ومن الصلاة التى أقامها أ
روس ، وما أعلنه الكاردينال ممثل البابا من غفران خاص لهم . ومع أ
الأولى إنقضوا على المصريين بالقرب من يبنة إلى الجنوب الغربى من المدينة

وسحق المصريون هجوم الفرقة الأولى بقيادة برفولد وسقط هو
وإندفع جلدمار بفرقته الثانية لمعاونته ، ليهلك هو الآخر مع رجاله كله
فرقة الجليل على الأثر ، ولم تفعل شيئا فى حشود المصريين . وتمكن هيو (
أومير) بعد خسائر فادحة من سحب رجاله ولاذ بالفرار قاصدا يافا ور
المصريين تطارده . وبدا أن الفرنج قد خسروا كل شئ . على أن الملك بلد
أن اعترف بذنوبه علانية أمام الصليب الحقيقى ، وبعد أن ألقى على رفاقه خـ
اعتلى فرسه العربى الشجاع "الغزال" واندفع أمام فرسانه فى قلب العد
المصريون الواثقون من النصر ، وبعد سجال قصير استدار جنود الوسط وهر
الذعر إلى ميمنتهم ، ومنع بلدوين رجاله من التوقف لنهب الجثث أو سلب
وطاردهم حتى أسوار عسقلان . ثم جمع شتات رجاله وراحوا يقتسمون الأ
فازوا بها فى ساحة القتال[٧].

وفى تلك الأثناء، وصل هيو (أوف سانت أومير) إلى يافا، وأبلغ الملكـ
بالهزيمة. وظنا منهم أن الملك قد قتل فى هذه الكارثة، سارعوا بطلب المـ
الرجل الذى ظنوه الوحيد القادر على العون ــــ تنكريد فى أنطاكية. وفى الـ
شاهدوا فى الأفق جيشا ظنوا أنه جيش المصريين؛ لكن النشوة تملكتهم عـ
رايات الفرنج وتعرفوا على الملك. فأرسلوا إلى أنطاكية ثانية بأن الأمور تسير
ولا حاجة لأن يأتى تنكريد. غير ان تنكريد كان قد تجهز – بشئ من
للإنطلاق جنوبا[٨].

ولقد مال الخطر عن الفرنج مؤقتا ؛ وأصيب المصريون بخسائر كبيرة ، و ـ

---

(٧) of Chartres, II, xi, I-xiii, 5, pp. 407-20; Albert of Aix, VII, 66-70, pp.550-3

(٨) Fulcher of Chartres, II, xiv, I-8, pp. 420-4.

من معاودة إرسال حملة فى ذلك الفصل من السنة. غير أن مصر زاخرة بمواردها ، فلم يجد الأفضل صعوبة فى تجهيز جيش آخر فى العام التالى لمواصلة الكفاح . وفى ذلك الوقت وفد على بلدوين من نجا من أمراء الحملات الصليبية فى الأناضول عام ١١٠١م ، وكانوا قد وصلوا إلى مشارف بيروت فى أوائل ربيع ١١٠٢م وعلى رأسهم وليم الأكيتانى ، وستيفن أوف بلوا ، وستيفن أوف برجندى ، والكونستابل كونراد ، وبصحبتهم نبلاء شتى من الأراضى الواطئة، وإيكارد أوف أورا، وأسقف مناس، وأكثرهم جاء إلى أنطاكية بطريق البحر. وأرسل بلدوين حرسا لاستقبالهم وحراستهم حتى القدس خوفا عليهم من الأعداء . وبعد أن احتفل القادة بعيد الفصح فى الأماكن المقدسة ، تهيأوا للعودة إلى بلادهم ؛ فأبحر وليم الأكيتانى فى أمان من ميناء السويدية فى نهاية إبريل ؛ بيد أن العواصف قذفت بالسفينة التى تقل ستيفن أوف بلوا وستيفن البرجندى وآخرين إلى يافا . وقبل العثور على سفينة أخرى تقلهم جاءت الأنباء بمسير جيش إسلامى جديد من مصر . ولسوء حظهم لبثوا للمساعدة فى الصراع الوشيك(٩) .

١١٠٢م معركة الرملة الثانية

فى منتصف مايو ١١٠٢م تجمع الجيش المصرى فى عسقلان ثم انطلق باتجاه الرملة. وكان قوامه نحو عشرين ألفا من العرب والسودانيين يقودهم شرف المعالى، ابن الوزير. وكان بلدوين قد أعد عدته بجيش من عدة آلاف مسيحى ينتظر فى يافا، وحاميات الجليل على أهبة الإستعداد لإرسال الكتائب إذا ما دعت الحاجة . لكن جواسيس بلدوين ضللوه ، فظن المصريين جماعة صغيرة من المغيرين ، فقرر القضاء عليهم بنفسه دون إستدعاء قواته الإحتياطية . وكان معه فى القدس أصدقاؤه من الغرب ، ستيفن أوف بلوا ، وستيفن البرجندى ، والكونستابل كونراد ، وهيو كونت لوسينان ، وغيرهم من فرسان البلجيك . واقترح عليهم الإنطلاق مع الفرسان لإنهاء هذه المهمة . وغامر ستيفن أوف بلوا بالقول بأن هذا تصرف يتصف بالتهور ، وأن من الأفضل إجراء إستطلاع جيّد ؛ لكنه لم يجد أذنا صاغية ، وإنما تذكّروا جبنه فى أنطاكية، فصحبهم دون أن يزيد على ما قال.

وفى ١٧ مايو انطلق بلدوين من القدس على رأس نحو خمسمائة فارس ، يغلب

(٩) Fulcher of Chartres, II, XV, I-6, pp. 424-8.

عليهم الكثير من المرح والقليل من النظام . وساعة أن خرجوا إلى السهل بوغتوا بالجيش المصرى الضخم ، وتحقق بلدوين من خطئه ، ولا سبيل الآن إلى التراجع فقد شاهدهم المصريون الذين بادرت خيالتهم الخفيفة بقطع طرق تقهقرهم ، وبذا أصبحت الفرصة الوحيدة أمام الفرنج هى الإندفاع مباشرة إلى قلب العدو . وظن المصريون بادىء الأمر أن هؤلاء لابد وأن يكونوا طليعة الجيش الفرنجى الكبير ، وفقدوا الأمل من وصول قوات أخرى في أثرهم قبل الإلتحام ، فجمعوا شملهم وأطبقوا على الفرنج ، فانكسرت صفوف بلدوين . وتمكن فرسان قليلون بقودهم روجر أوف روزوى ، وهيو أوف لى بورج ، إبن عم بلدوين ، من شق طريقهم بين المصريين والوصول سالمين إلى يافا . وسقط الكثير من فرسان الفرنج صرعى، منهم جيرار أوف أفيزن ، والياور الأسبق لجودفرى ، ستابيلون . وتمكن بلدوين نفسه ورفاقه القادة من شق طريقهم إلى حصن الرملة القريب . وبات الجيش المصرى بهم محيط.

ولولا هبوط الظلام لانقض عليهم المصريون . لكن دفاعات الرملة كانت بالغة السوء، وربما يصمد برج واحد كان بلدوين قد شيّده قبل ذلك بعام ، فتزاحموا بداخله . وفى منتصف الليل جاء أحد الأعراب إلى البوابة طالبا مقابلة الملك فأجيب إلى طلبه ؛ وكشف عن شخصيته قائلا إنه زوج السيدة التى تعطف عليها بلدوين أثناء غارة الأردن . وعرفانا منه بالجميل جاء يحذر بلدوين من هجوم مصرى فى الفجر ونصحه بالهرب فى التو واللحظة . وأخذ بلدوين بنصيحته . وأيا ما قد تكون مشاعر أسفه لتخليه عن زملائه - وليس هو بالرجل الذى يعتني كثيرا بالشرف - ارتأى له أن بقاء المملكة يتوقف على بقاء شخصه، فتسلل مع ثلاثة من رفاقه وأحد غلمانه خلال خطوط العدو تملأه الثقة فى فرسه "الغزال" الذى سيحمله سالما إلى مأمنه . وفى تلك الليلة تمكن فيكونت يافا ليثار أوف كامبارى ، وجوثمان أوف بروكسل من الهرب كل على حده . وتمكن جوثمان، رغم جراحاته البالغة من الوصول إلى القدس معلنا أخبار الكارثة ، وناصحا بالمقاومة اعتقادا منه أن بلدوين ما يزال على قيد الحياة.

وفى باكورة اليوم التالى تسلق المصريون أسوار الرملة بأعداد غفيرة ووضعوا حزم الحطب حول البرج الذى لاذ به الفرسان . فآثر الفرسان وعلى رأسهم كونراد الاندفاع إلى الأعداء بدلا من الهلاك فى النيران . على أنه لم يكن هناك مهرب ، وفي لحظات قتّلوا جميعا وأسر البعض منهم . وتركت شجاعة كونراد إنطباعها على المصرين فأبقوا على حياته وأرسلوه مع أكثر من مائة من زملائه أسرى إلى مصر . ومن بين من صُرعوا من القادة ستيفن البرجندى، وهيو أوف لوسينان ، وجيوفرى أوف فندوم ، وقُتل معهم

ستيفن أوف بلوا وبهذا استعاد سمعته بموته المجيد ، وإذن تستطيع زوجته الكونتيسة أديلا أن تنام ملء جفنيها(١٠).

١١٠٢م : الملك بلدوين في يافا

وكانت الملكة والبلاط ، مرة أخرى ، فى يافا حيث أخبرهم روجر أوف روزوى ومن معه من الهاربين بالهزيمة النكراء . وداهمهم الجزع من سقوط الملك مع كل فرسانه، وراحو يعدون خطط الهرب بحرا، فلا يزال فى الوقت متسع . لكن الجيش المصرى وصل إلى أسوار المدينة يوم ٢٠ مايو ، كما اقترب الأسطول المصرى فى الأفق الجنوبى . وتحققت أسوأ المخاوف عندما رفع جندى مصرى أمامهم رأسا بدت وكأنها رأس الملك ، لكنها كانت فى حقيقتها رأس جيربود اوف وينثينك الذى كان شديد الشبه بالملك . وفى تلك اللحظة ، وكما لو كان فى الأمر معجزة ، شوهدت سفينة صغيرة مبحرة من ناحية الشمال وعليها راية الملك الخاصة به فى قمة الصارى.

كان بلدوين قد هرب من الرملة ويمم وجهه شطر الساحل محاولا اللحاق بالجيش فى يافا. لكن الجنود المصريين كانوا يجوبون البلاد ، فاضطر بلدوين إلى تمضية ليلتين ويومين متجولا خلال سفوح التلال شمال الرملة ، ثم أسرع بعبور سهل شارون إلى أرسوف التى وصلها مساء التاسع عشر ، فكانت مفاجأة سارة لحاكمها روجر أوف حيفا . وفى ذات الليلة لحق به فى أرسوف جنود الجليل وعددهم ثمانون فارسا جمعهم وقادهم هيو أوف سانت أومير ، وكانوا قد أسرعوا جنوبا بمقدم أنباء تقدم المصريين . وفى الصباح التالى اتجه هيو برجاله جنوبا فى محاولة لشق طريقه إلى يافا ، بينما أفلح بلدوين فى إقناع مغامر إنجليزى بالابحار بسفينته وإختراق الحصار المصرى . ورفع بلدوين رايته ليدخل البهجة على بلاطه ، وما لبث المصريون أن شاهدوها فأرسلوا

(١٠) Fulcher of Chartres, II, xviii, I-xix,5, pp. 436-44; Ekkehard of Aura, *Hierosolymita* pp. 33-5; Albert of Aix, IX, 2-6, pp. 591-4; Bartolf of Nangis, pp. 533-5؛ ويذكر وليم الصورى (William of Tyre, X, 20-1, pp. 429-32) تدخل الشيخ البدوى ؛ ورواية إبن الأثير (Ibn al-Athir, pp. 213-16) رواية مضطربة لأنها تقوم على أساس روايتين مختلفتين . وأنا أقبل التاريخ الذى أورده Hagenmeyer (op. cit. pp. 162-6) ، رغم أن the *Chronicon S. Maxentii, p. 421* تقول ٢٧ مايو ، وألبرت أوف آيكس "حوالى عيد العنصرة" أى حوالى ٢٥ مايو؛ وحول موت ستيفن أوف بلوا ، وطبقا لرواية Guibert of Nogent, p.245 ، فليس هناك شيء معروف بصورة قطعية ؛ ويرد تاريخ وفاته فى *Cartulaire* de Notre Dame de *Chartres, III, p. 115* وهو ١٩ مايو.

السفن من فورهم لاعتراض سفينة بلدوين ، غير أن رياحا شمالية قوية أعاقت المصريين عن اللحاق بها، ودفعت سفينة بلدوين إلى داخل المرفأ بسرعة.

وشرع بلدوين من فوره فى إعادة تنظيم قواته . وقبل أن يتمكن المصريون من إحكام الحصار حول المدينة ، شق لنفسه طريقا وخرج لمقابلة هيو ومجموعة الجليل وأخذهم إلى داخل الأسوار . ثم أرسل إلى القدس إستدعاء جميع من يمكن الإستغناء عنه من هناك ومن الخليل . وتطوع راهب محلى بحمل الرسالة وتسلل بها من يافا عبر خطوط العدو تحت طيات الظلام ، لكنه وصل القدس بعد ثلاثة أيام . وبتأكيده بقاء الملك على قيد الحياة عمّت الفرحة، وأمكن جمع تسعين فارسا تقريبا وعددا أكبر من الخيالة ، وتحرزوا جميعا بقطعة من الصليب الحقيقى ، وأسرعوا جنوبا إلى يافا . أما الفرسان ، فقد تمكنوا من شق طريقهم إلى داخل المدينة لما كانوا عليه من تسليح جيد وعدّة ، وأما الخيالة فقد حرفوا إلى البحر فتركوا خيولهم وسبحوا إلى داخل المرفأ . وفى تلك الأثناء كتب بلدوين إلى تنكريد وبلدوين الرها بخسائره الجسيمة طالبا إرسال التعزيزات.

وقبل إنطلاق فرسان الشمال ، هبطت على يافا نجدة لم تكن فى الحسبان ؛ إذ دفعت الرياح إلى يافا أسطولا من مائتى سفينة أغلبها سفن انجليزية محملة بالجنود والحجاج القادمين من إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وتمكن هذا الأسطول من تخطى الحصار المصرى . وبذا توفر لبلدوين المزيد مما كان يحتاجه من الرجال . وفى ٢٧ مايو خرج على رأس الجيش لملاقاة العدو . وليست لدينا تفصيلات المعركة، ويبدو أن المصريين حاولوا إستدراجه والإحاطة به دون جدوى، وأخيرا اندفع عدد كثيف من الفرسان نحو العدو فشتتوا صفوفه فاستدار المصريون وهربوا. وبعد ساعات قليلة كانت القوة المصرية كلها تسرع الخطى إلى عسقلان، تاركة معسكرها بما فيه من غنيمة للمسيحيين[١١].

ونجا بلدوين ومملكته بسلسلة من المصادفات رأى فيها المسيحيون يد الرب تمتد إليهم، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ، وليست استراتيجية المصريين العاجزة أقل تلك الأحداث ؛ إذ كان بمقدور كتيبة مصرية صغيرة أن تستولى على القدس بعد معركة الرملة مباشرة دون أن يضعف تطويق يافا ؛ لولا أن قبضة الوزير الأفضل على الأمور كانت تتراخى ، وكان ولده الأشرف ضعيفا لا طاعة له ، فأصاب الشلل حركته لما

(١١) Fulcher of Chartres, II, xx, I-xxi, 18, pp.444-55; Ekkehard of Aura, loc. cit.; Albert of Aix, IX, 7012, pp. 595-7; Ibn al-Athir, loc. cit.

ساد بين قواده من صراع . وفى الصيف التالى أرسل والده حملة جديدة بحرا وبرا . على أنه أثناء إبحار الأسطول شمالا إلى يافا رفضت القوات البرية التقدم وراء عسقلان لما كان يشعر به قائدها المملوك تاج العجم من غيرة من أمير البحار القاضى ابن قادوس . وترتب على ذلك حبس تاج العجم لانعدام الولاء ، لكن السهم كان قد نفذ وضاعت أفضل فرصة لإسترداد فلسطين(١٢).

ولمّا علم تنكريد وبلدوين أوف لي بورج بمأزق القدس ، راحا يعدان العدة للإنطلاق جنوبا بغاية السرعة . وكان معهما وليم الأكيتانى الذى كان فى أنطاكية وقت وصول رسالة الملك بلدوين . وارتحلوا جميعا أعلى وادى العاصى مرورا بحمص ثم هبوطا خلال الأردن الأعلى . وبدت قواتهم كبيرة بحيث تجنبت السلطات الإسلامية المحلية إيقاف مرورهم . ووصلوا يهودا فى أواخر سبتمبر . وآنذاك ، لم يعد بلدوين فى حاجة عاجلة لمساعدتهما ، لكن وجودهما أغراه بمهاجمة الجيش المصرى فى عسقلان . ورجّحت المناوشات كفّة المسيحيين ، لكنهم لم يغامروا بالهجوم على تلك القلعة(١٣).

١١٠١م بلدوين وديامبرت

وكان تجمع حكام الفرنج مفيدا لبلدوين لأسباب أخرى ؛ إذ كان تنكريد ينوى المساعدة بشروطه ، لكنه فى الواقع مكّن بلدوين من التغلب على أعضل مشاكله الداخلية . فقد سبق للبطريق ديامبرت أن توّج بلدوين يوم عيد الميلاد من سنة ١١٠٠م، لكنه فعل ذلك على مضض دون أن تخفى مشاعره على بلدوين . وشعر بلدوين بضرورة السيطرة على الكنيسة ، فهى جيدة التنظيم وهى - لا السلطة العلمانية - التى تتلقى من أتقياء المتعاطفين فى الغرب الهبات وتركات المواريث المذكورة فى الوصايا. وقد حامت الشكوك حول ترقية ديامبرت من الناحية القانونية ، خاصة وأن هناك شكاوى أرسلت إلى روما بشأنه ، أدت فى نهاية الأمر إلى أن أرسل البابا باسكال ممثله موريس ، أسقف وكاردينال بورتو، فى مهمة لتقصّى الحقائق، فوصل فى عيد الفصح من سنة ١١٠١م. وفى الحال اتهم بلدوين ديامبرت، فى حضوره، بتهمة

---

(١٢) Ibn al-Athir, loc.cit.

(١٣) Albert of Aix, IX, 15, p. 599; Ibn Moyessar, p. 464 ؛ ويقول إبن الأثير Ibn al-Athir p. 213 إن أمراء الشمال أصروا على الإنسحاب.

الخيانة، وأظهر الخطاب الذى ارسله دايمبرت إلى بوهمند بعد موت جودفرى محرضا على معارضة استخلاف بلدوين ولو أدى الأمر إلى إستخدام القوة. وفضلا عن ذلك أعلن أن دايمبرت حاول إغتياله أثناء رحلته جنوبا. ومهما يكن الأمر بشأن إحتمال تزوير الخطاب، فلا جدال فى وجود الخطاب نفسه. فما كان من موريس إلاّ أن منع دايمبرت من المشاركة فى احتفالات عيد الفصح وقام بها بمفرده. وأمّا دايمبرت، الذى أخذ منه الخوف على مستقبله فقد سعى إلى مقابلة بلدوين، وركع أمامه يذرف دموعه متوسلا المغفرة. لكن بلدوين رجل صعب المراس لا تلين له قناة، فأصرّ على موقفه إلى أن تمتم دايمبرت بأنه يدخر ثلاثمائة بيزانت. وعندئذ لانت قناة بلدوين، فهو دائم الاحتياج إلى المال، فقبل الهدية سرا ثم قصد إلى ممثل البابا وأعلن فى شهامة غفرانه لدايمبرت. وأشرقت أسارير موريس، وهو الرجل المسالم، لنجاحه فى التوفيق بينهما[١٤].

وبعد بضعة أشهر احتاج بلدوين مرة أخرى إلى المال ، فطلبه من دايمبرت الذى أعطاه مائتى مارك مدعيا أن ذلك المبلغ هو كل ما كانت تحويه خزانة البطريارقية . على أن رجال الدين المشايعين لأرنولف همسوا فى أذن الملك بأن دايمبرت يخفى مبالغ طائلة فى الواقع . وحدث بعد أيام قلائل أن أقام دايمبرت مأدبة سخيّة على شرف ممثل البابا ، فقد دأب على استثمار مؤازرته . واقتحم بلدوين عليهما خلوتهما وألقى عليهما محاضرة استنكر فيها ما يتمتعان به من ترف المعيشة بينما قوات العالم المسيحى تتضور جوعا . فثارت ثائرة دايمبرت ورد عليه قائلا ان للكنيسة أن تنفق أموالها كما يحلو لها ولا سلطة للملك عليها ، بينما حاول موريس تهدئة الموقف وقد بدا عليه القلق. ولم يكن هناك من سبيل لإسكات بلدوين الذى ساعده تدريبه القديم على أعمال القساوسة فى الإستشهاد بالقانون الكنسى ، وكان فى لسانه فصاحة فعلت فعلها فى موريس الذى أقنع دايمبرت بأن يتكفّل بكتيبة من الفرسان . ومع ذلك ، لم يدفع دايمبرت المال أبدا برغم طلبات بلدوين المستمرة . وفى خريف ١١٠١م وصل مبعوث من الأمير روجر أوف أبوليا حاملا منحة قدرها ألف بيزانت للبطريق على أن يخصص ثلثها لكنيسة القبر المقدس، وثلثها الثانى للمستشفى ، وثلثها الأخير للملك للإنفاق على

---

(١٤) كتب ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, VII, 46-51, pp. 538-41) رواية معادية لدايمبرت . وكان وليم الصورى (William of Tyre (x, 26-7, pp.438-40) مدافعا على طول الخط عن حجة دايمبرت فى مصالح استقلال الكنيسة ، وبطريقة المحتالين لم يذكر شيئا عن تحقيقات موريس Maurice. ريان. Riant, *Inventaire*, pp.218-19 .

الجيش. وتهور ديامبرت واحتفظ بالمنحة كلها، رغم أن شروطها لم تكن خافية. وعندما اشتكى بلدوين لم يعد فى وسع ممثل البابا المضى فى مؤازرة ديامبرت، وأعلن تنحيته عن البطريارقية. فعاد ديامبرت إلى يافا حيث أمضى الشتاء ، ثم ارتحل فى مارس إلى أنطاكية. وتلقاه صديقه القديم تنكريد مرحاب ، وعهد إليه بكنيسة القديس جورج، وهى واحدة من أغنى كنائس المدينة . وفى ذات الوقت ، ترك بلدوين منصب البطريق شاغرا بدعوى ضرورة إخطار روما. واقتحم إثنان من أتباعه خزانة البطريارقية فوجدا أن ديامبرت قد أخفى عشرين ألف بيزانت . أمّا موريس ، الذى كان يباشر أعمال البطريارقية بصفة مؤقتة ، فقد تلفت تلك الفضائح صحته، فمات فى ربيع ١١٠٢م[١٥].

١١٠٢م : خلع ديامبرت

عندما جاء تنكريد فى الخريف لإنقاذ بلدوين أعلن أنه يشترط إعادة تنصيب ديامبرت الذى كان بصحبته . وآنذاك كان بلدوين ليّن العريكة إلى أقصى الحدود . غير أنه فى تلك الآونة وصل ممثل جديد للبابا - روبرت كاردينال باريس . فأصر الملك على عقد مجمع كنسى برئاسة روبرت لوضع الأمور فى نصابها، فأسقط فى يد تنكريد وديامبرت و لم يجرؤا على الرفض . وتقرر فى إحدى الجلسات إعادة تنصيب ديامبرت مؤقتا إلى حين إجراء تحقيق شامل . وبعد ذلك ألحق تنكريد جنوده بجنود الملك فى الحملة على عسقلان .وسرعان ما عقد المجمع الكنسى فى كنيسة القبر المقدس برئاسة ممثل البابا وبمساعدة أسقفى لاوون وبياتشنزا الزائرين ، وحضر المجمع الكنسى أساقفة ورهبان فلسطين كلهم ، وكذلك أسقف المصيصة من أراضى تنكريد . وبإيحاء من أرنولف أوف روه ، قام أساقفة قيسارية وبيت لحم والرملة بتوجيه الإتهامات إلى ديامبرت معلنين أنه أثناء رحلته إلى فلسطين عام ١٠٩٩م ، ترأس أهل بيزا وهاجموا رفاقا مسيحيين فى جزيرة أيونيا؛ وسعى إلى إشعال حرب أهلية بين الملك بلدوين والأمير بوهمند ، واستولى على أموال أودعت لديه لرعاية الحجاج فى المستشفى فضلا عن جنود المسيح . وكانت التهم حقيقية لا سبيل إلى إنكارها ، فلم يجد الكاردينال ممثل البابا مندوحة من إعلان عدم جدارة ديامبرت لمنصبه وأمر بخلعه . و لم يجد تنكريد ما يعترض به على هذا الإجراء الكنسى فاضطر إلى قبول الهزيمة . وصحبه ديامبرت فى

---

(١٥) Albert of Aix, VII, 58-64, pp. 545-9.

رحلة العودة إلى أنطاكية وأعيد تنصيبه فى كنيسة القديس جورج إلى أن تتاح له فرصة الذهاب إلى روما . لقد صنع لنفسه صورة رجل هرم فاسد جشع، وغادر فلسطين لم يأس لحاله أحد . لقد كان تعيينه ممثلا رسوليا خطأ فادحا ارتكبه البابا إيربان الثانى(١٦).

أمّا أرنولف أوف روه ، الذى أعان بلدوين فى الأمر كله من تلقاء نفسه ، فقد بلغ من المكر مابلغه بحيث لم يحاول أن يحل محل دايمبرت فى منصبه. وبدلا من ذلك ، وحينما طلب ممثل البابا مرشحا للبطريارقية، اقترح الأساقفة الفلسطينيون قسّا هرما يدعى إيفرمار ، جاء من ثيروان إلى الشرق مع الحملة الصليبية الأولى ، وكان يشتهر بورعه وإحسانه . ورغم أنه وأرنولف من نفس البلد، إلاّ أنه لم يشاركه مكائده، وفاز باحترام الجميع . وابتهج ممثل البابا وهو يقوم برسم هذا القس الذى لا تشوبه شائبة؛ كما أحس بلدوين بمشاعر الرضا لأن إيفرمار شيخ كبير لا يخشى جانبه، ومحال أن يغامر بدس أنفه فى السياسة، وفى ذات الوقت يستطيع أرنولف مواصلة وضع مخططاته دونما عائق.

على أن اليأس لم يداخل دايمبرت. فحينما ذهب بوهموند - الذى كان يوفر له الحماية - إلى إيطاليا عام ١١٠٥م صحبه إلى روما ليبث أحزانه للبابا باسكال الذى كان حذرا أول الأمر، لكنه بعد أن تريث قليلا منحه مؤازرته، وربما كان مرد ذلك إلى نفوذ بوهمند الذى لا يقاوم. وأرسل البابا يطلب من بلدوين ردا على ما اتهمه به دايمبرت، لكن الملك لم يعر الأمر انتباها، ربما لعلمه أن البابا دائما يستمع لبوهمند. فألغى باسكال قرار خلع دايمبرت قائلا إن هذا الخلع كان نتيجة لتدخل سلطات مدنية. ولحسن الطالع إمتدت يد الرب لتصلح من حمق البابا؛ فبينما كان دايمبرت يتهيأ للعودة منتصرا لإستعادة عرشه البطريقى مرض ومات فى ميسينا يوم ١٥ يونية ١١٠٧م(١٧).

١١٠٢م : انتخاب أرنولف بطريقا

ولم تنته مشاكل البطريارقية . وتزايد شعور بلدوين بعدم الرضا عن إيفرمار، وربما كان يدرك ما للكنيسة من أهمية فائقة بحيث لا يصح أن تترك ، لمن لا كيان له ، وإنما

---

(١٦) Albert of Aix, IX, 14, 16-17, pp. 598-600; William of Tyre, loc. cit.

(١٧) William of Tyre, XI, I, pp. 450-I.

يلزم أن يرأسها، حليف له يتصف بالكفاءة . وعندما علم إيفرمار بإعادة تنصيب ديامبرت رسميا، شد الرحال إلى روما ، ليجد غريمه ديامبرت ميتا مع شكاواه من السلطة المدنية . وعندما وردت أنباء موت ديامبرت إلى فلسطين ، سارع أرنولف إلى روما كي يبذل جهوده لمؤازرة الملك . وكان البابا باسكال آنذاك يميل إلى إيفرمار ؛ غير أنه أدرك أن القضية أشد تعقيدا مما كان يظن ؛ فعهد بها إلى رئيس أساقفة آرل ، جيبلين أوف سابران ، وهو شيخ طاعن فى السن واسع الخبرة . ووصل فلسطين فى ربيع ١١٠٨م ، وقد سبقه إليها إيفرمار وأرنولف. واستقر رأيه على أن إيفرمار ليس أهلا للمنصب ، وليس هناك من يرغب فى عودته ، ولذا أعلن أن كرسى البطريارقية شاغرا وعقد مجلسا كنسيا لتعيين خلفا له. واقترح بلدوين ترشيح جيبلين ، فقبل بمشاعر الغبطة المشوبة بالحرج، وتم تعيين إيفرمار رئيسا لأساقفة قيسارية الذى كان شاغرا لحسن الحظ، وذلك من قبيل التعويض.

وترددت شائعات بأن أرنولف حرّض الملك على إختيار جيبلين لتقدمه فى السن وبذا سرعان ما ستصبح البطريارقية شاغرة مرة ثانية . وهذا ما حدث فى الواقع، إذ لم يعش جيبلين سوى أربع سنوات، وبموته انتخب أرنولف أخيرا ليعتلي عرش البطريارقية دون معارضة من أحد(١٨).

وكان بلدوين يرى أن أرنولف بطريق مثالى ؛ وقد تمكن من الإحتفاظ بمنصبه برغم نفور أتباعه وبرغم ما نشأ لاحقا من مشاكل حول زواج بلدوين الثانى. ولقد كان أرنولف فاسدا بلا شك . فعندما تزوجت إبنة أخته إيما من بابوستاس جارنيه وهو زوج حاز رضاه، وهبها إقطاعية ثمينة فى أريحا تابعة لكنيسة القبر المقدس . لكنه كان نشطا وكفؤا وكّرس نفسه للملك الذي يرجع إليه الفضل فى التخلى نهائيا عن فكرة أن تخضع القدس لحكومة دينية ثيوقراطية بعاهل يكون مجرد وزير للدفاع ، وهى فكرة غير عملية كان يتصورها أغلب المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى ؛ كما تدبر إشراك كنائس فلسطين كلها معه فى الرأى ، حتى فى خلع رجال الدين التابعين لكنيسة القبر المقدس ممن لا يثق فى ولائهم ، والذين عيّنهم جودفرى أوف لورين . وباتساع المملكة غزوا ، كافح بلا هوادة فى سبيل إتحاد السلطتين الدينية والمدنية ضد البابا باسكال الذى كان يدافع عن الحقوق التاريخية غير العملية للكرسى الرسولى الأنطاكى ، مدفوعا

(١٨) Albert of Aix, x, 589,pp.650-9,xii, 24,p.704;William of Tyre,loc. cit.and XI,4, pp. 455-6.

بتحيزه المشؤوم لمناصرة أمراء أنطاكية النورمانديين . و لم يكن أرنولف حذيرا بالإحترام، وإنما كان خادما أمينا لمملكة القدس . وقد شجب المؤرخ وليم الصورى ذكراه ولطخ سمعته دون وجه حق، لأنه بذل الكثير لتعزيز الحملة الصليبية الأولى(١٩).

كما يرجع الفضل إلى أرنولف سيده الملك بلدوين في تحسن علاقة الهرمية اللاتينية بالمسيحيين المحليين . ففى بداية الأمر ، عندما كان أرنولف على رأس البطريارقية سنة ١٠٩٩م ، نهب الطوائف الشرقية وطردها من كنيسة القبر المقدس . على أن ديامبرت كان عدوا أسوأ للطوائف الشرقية ، فلم تقتصر سياسته على طردهم من الكنيسة وحسب ، وإنما أيضا من أديرتهم ومنشآتهم فى القدس ، سواء كانوا أرثوذوكس كاليونانيين أو الجورجيين ، أو هراطقة كالأرمن واليعاقبة والنساطرة . كما لوث آداب المجتمع التقليدية بالسماح للنساء بالخدمة فى الأماكن المقدسة . ونتيجة لتلك الأفعال الشائنة انطفأت مصابيح كنيسة القبر المقدس عشية عيد الفصح ، و لم تهبط النار المقدسة من السماء لإضاء تهامرة أخرى إلى أن تشترك الطوائف الخمس المحرومة فى صلاة ضراعة أن يغفر الرب للفرنج . ووعى بلدوين الدرس، وأصر على إنصاف الوطنيين ، وأن يحتفظ اليونانيون بمفاتيح كنيسة القبر المقدس ذاتها ؛ ويبدو أن جميع المسيحيين فى فلسطين آزروه منذ آنذاك .واقتصر تعيين كبار رجال الدين على الفرنج برغم وجود قساوسة يونانيين فى الكنيسة، ولقى ذلك الوضع قبولا من الأرثوذوكس المحليين الذين سبق لكاهنهم الأعلىأن غادر البلاد خلال سنوات الإضطراب قبل الحملة الصليبية مباشرة . وبرغم ما كانت تحمله الأديرة الأرثوذوكسية من نفور شديد من الهرمية اللاتينية فقد مارست نشاطها دون عائق ، و لم يجد الحجاج الأرثوذوكس ولا الوطنيين مبررا للشكوى من السلطة المدنية ، ويبدو أن كنائس الهراطقة كانت راضية كذلك . لكن الوضع إختلف تماما فى الدويلات الفرنجية شمال سوريا حيث ساد الإستياء من ظلم الفرنج(٢٠).

---

(١٩) William of Tyre,XI,15,p.479. وليم الصورى يستهجن انتهازية أرنولف.

(٢٠) أنظر أدناه الصفحات ٣٦٩-٣٧٢ . توجد رواية طويلة حول القداس فى مخطوطة فولشر أوف تشارتر، وهى مطبوعة فى طبعة *Recueil des Historiens des Croisades.* ويلاحظ هاجنماير Hagenmeyer، فى طبعته عن فولشر ، أنها تظهر فى مخطوطة واحدة فقط (لاتينية) ، ويرفضها كلها فيما عدا كلمات المقدمة "conturbati sunt omnes propter ignem quem die sabbati non habuimus ad Sepulcrum Domini" (II, viii, 2, p. 396). See his note 5, pp. 395-6 للإطلاع على كامل المناقشة. وفى ملحق خاص (ibid. pp. 831-7) حشر نصا ، مع النصوص التى وجدت فى Bartolf of Nangis and Guibert of Nogent. ونظرا إلى أن فولشر أوف تشارتر هو القس الخاص لبالدوين ، فلا بد وأنه قد حضر هذا القداس . ويورد دانيال الموجومينى Daniel the

١١٠٣ م : حصـار عـكا

لم تفتر عزيمة الوزير الأفضل لهزيمة يافا عام ١١٠٢ م ، ولا لإخفاق حملة الربيع من العام التالى ١١٠٣م ، غير أنه استغرق وقتا أطول فى إعداد حيش آخر . أمّـا بلدويـن ، فقد أرخى قبضته على الساحل الفلسطينى . وبرغم سيطرته على المدن الساحلية من يافا إلى حيفا ، واصل المغيرون المسلمون هجومهم على الطرق االتي تربط بينهمـا ، وخاصـة منحدرات حبل الكرمل ؛ بل إن الطريق من يافا إلى القدس لم يسـلم مـن الإغـارة كمـا ذكر الحاج سايولف[٢١]. كما كان القراصنة يتسللون من مينائى صـور وعكاالخـاضعين للسيطرة المصرية للإغارة على التجارة المسيحية . وفـى أواخـر خريـف ١١٠٢م قذفـت العواصف بسفن الحجاج العائدين إلى أوطانهم - وهم الذين أنقذوا بلدوين فى يافا فـى شهر مايو - إلى شتى شواطىء الساحل ، بعضها بالقرب من عسقلان ، والبعض الآخر بين صور وصيدا ؛ ولم يسلم أحد من الركاب ، فمات من مات ، ومن لم يمت بيع فـى أسواق الرقيق المصرية وفى ربيع ١١٠٣م حـاصر بلدويـن عكـا بمساعدة بعـض السـفن الإنجليزية التى كانت لاتزال معه . وأوشكت الحامية على الإستسلام لولا وصـول إثنـى عشر قادسا فاطميا وعدد كبير من سفن النقل القادمة من صـور وصيـدا تحمـل الرحـال وآلات إطلاق النيران الإغريقية، فلم يجد بلدوين مفرا من رفع الحصار[٢٢]. وحاول فـى الصيف التالى تطهير منطقة حبل الكرمل من قطاع الطـرق، فلـم يصـب نجاحـا يذكـر، وأصيب فى أحد الإشتباكات بجرح خطير فى كليتيه وأشرف علـى الهـلاك. وبينمـا هـو راقد فى فراش المرض فى القدس حاءت انباء الحملة المصرية المزدوحة بقيادة تاج العجـم وابن قادوس. على أن امتناع تاج العجم عن التقدم وراء عسقلان أحبر ابن قادوس على محاولة حصار يافا بمفرده ، وبذل حهوده ببعض الحمـاس وليـس كلـه . وبعـد أن شـفى بلدوين بالقدر الذي يسمح له بقيادة الجيش إلى الساحل أقلع الأسطول المصرى[٢٣].

وفى مايو التالى وصل إلى حيفا من حنوا أسـطول حربـي سبق وأن سـاعد ريمونـد التولوزى فى الإستيلاء على حبيل . وقابل بلدوين قادته وضمن تحالفهم لإخضاع عكـا

Higumene (ed. de Khitrowo, pp. 75-83)رواية القـداس فـى عـام ١١٠٧ . ويتضـح مـن هـذه الروايات أن الإغريق قد منحوا مسؤولية كنيسة القيامة نفسها.

(٢١) Albert of Aix, IX, 18, pp. 600-1.

(٢٢) Albert of Aix,IXh,15,p.59;Ibn l-Athir,p.213 ،ذكر ابن الأثير عاما مختلفـا ٤٩٥ هـ بـدلا مـن ٤٩٦.

(٢٣) Fulcher of Chartres, II, xxiv, I, pp. 460-1; Albert of Aix, IX, 22-3, pp.103-4.

بعد أن وعدهم بما اعتادوا عليه من قبل ، وهو ثلث الغنائم وامتيازات تجارية وأحد الأحياء في السوق؛ وبدأ الخلفاء حصار عكا يوم ٦ مايو . وقاومهم القائد الفاطمي المملوك ظهر الدولة الجيوشي مقاومة عنيدة ؛ لكن مصر لم ترسل إليه أية مساعدة ، فاضطر بعد عشرين يوما إلى أن يعرض التسليم بشروط مماثلة لشروط استسلام أرسوف ، وهي السماح بالمرور الآمن للمواطنين الراغبين في الرحيل مع منقولاتهم ، ومعاملة الباقين كرعايا للملك الفرنجي . وقبل بلدوين الشروط والتزم بها، بل وأمر بالإبقاء على مسجد لرعاياه المسلمين . أما بحارة إيطاليا فقد أبوا أن يتركوا تلك الثروة الهائلة تفلت من أيديهم فانقضوا على المهاجرين وقتلوا منهم خلقا كثيرا ونهبوهم جميعا ، مما أغضب بلدوين وهمّ بمهاجمة أبناء جنوا لمعاقبتهم ، لولا أن وصل البطريق إيفرمار وأفلح في تهدئته ومصالحته بهم(٢٤).

وبسقوط عكا ، نال بلدوين ما كان يصبو إليه من مرفأ آمن في شتى الأحواء المناخية . وبرغم بعد الشقة عن القدس بما يزيد على مائة ميل ، سرعان ما أصبحت عكا الميناء الرئيسي للمملكة بدلا من يافا بممراتها المائية المفتوحة . وفضلا عن ذلك ، كانت عكا هي الميناء الرئيسي الذي تشحن منه بضائع دمشق إلى الغرب ، ولم يتوقف هذا الطريق التجاري بعد الغزو الفرنجي ، وإنما شجعه مسلمو عكا المقيمون بها(٢٥).

١١٠٥م : معركة الرملة الثالثة

وفي صيف ١١٠٥م شرع الوزير الأفضل في آخر محاولة لإسترجاع فلسطين ؛ ففي أوائل أغسطس حشد في عسقلان جيشا مجهزا تجهيزا حسنا قوامه خمسة آلاف جندي من العرب الخيالة والمشاة السودانيين ، يقوده ابنه سناء الملك حسين . وتعلم المصريون مما فشلوا فيه من دروس سابقة ؛ فطلبوا مساعدة حكام دمشق الأتراك . ولو أن دمشق ساهمت بمساعدتها في عامي ١١٠٢ و ١١٠٣م لكانت مساعدة لها قيمتها . على أن دقاق الدمشقي مات في يونية ١١٠٤م، ونشأ الخلاف بين أسرته وأتابجه طغتكين ، بل جاء رضوان الحلبي سعيا وراء نصيبه في الإرث.

---

(٢٤) Fulcher of Chartres, II, xxv, I-3, pp.462-4; Albert of Aix, IX, 27-9, pp.606-8; Caffaro, *Liberatio, pp.71-2;* Charter of Baldwin in *Liber* Jrium Reipublicae Genuensis, vol. I, pp. 16-17.

(٢٥) أنظر أدناه ص (٣٦٧). كانت التجارة ماتزال مستمرة في زمن ابن جبير (١١٨٣).

وبدأ طغتكن بتنصيب ابن الدقاق ، تتش ، على العرش ولّما يجاوز من العمر عاما واحدا ؛ ثم إستبدله بأخى الدقاق ، أرتاش ، البالغ من العمر إثنى عشر عاما. وسرعان ما ارتاب أرتاش فى نوايا الوصى طغتكن ، فهرب إلى حوران حيث أجاره أتكين أمير بُصرى ، ومنها استغاث بالملك بلدوين الذى دعاه إلى القدس . وفى تلك الملابسات إغتبط طغتكن بطلب المساعدة من المصريين ، بيد أنه آثر عدم المغامرة بإرسال قوة كبيرة ، وإنما أرسل قائده صباوو على رأس ألف وثلاثمائة من الرماة الراكبين[٢٦] وفى أغسطس دخل الجيش المصرى فلسطين حيث إنضم إليه جنود دمشق بعد هبوطهم خلال الأردن وعبر النقب . وكان بلدوين منتظرا فى يافا ، لكنه بعد أن شاهد الأسطول المصرى فى الأفق اختار الانتقال إلى موقع الرملة الذى لابد أن تدور فيه المعركة ، وعهد بيافا إلى ليثار (أوف كمبارى) مع ثلاثمائة جندى . وكان بصحبته أرتاش الدمشقى الصغير المطالب بالعرش ، وكل من بقى من جند الفرنج فى فلسطين ، وحاميات الجليل وحيفا والخليل ، وكذلك الجيش الرئيسى المؤلف من خمسمائة فارس وألفين من المشاة . كما استدعى بلدوين البطريق إيفرمار من القدس ، فجاءه مع مائة وخمسين رجلا جمعهم من هناك ومعهم الصليب الحقيقي.

وبدأت المعركة يوم الأحد ٢٧ أغسطس . ومع انبلاج الصبح اعتلى البطريق فرسه وسار فى غدو ورواح أمام صفوف الفرنج بكامل أرديته والصليب فى يده ، مانحا بركته وغفرانه ، وبعد ذلك هجم الفرنج ؛ لكن هجوما مضادا من الأتراك الدمشقيين كاد أن يكسر صفوف الفرنج لولا أن حمل بلدوين رايته فى يده وقاد هجوما بعثرهم . وحارب المصريون بشجاعة غير عادية، لكن ميسرتهم كانت قد ذهبت فى محاولة فاشلة لمفاجأة حيفا، وعادت بعد فوات الوقت . وبحلول المساء هزم المسلمون ؛ فاستدار صباوو ورجاله عائدين إلى بلادهم ، وانسحب المصريون إلى عسقلان ، ومنها أسرع قائدهم سناء الملك عائدا إلى القاهرة . وكانت الخسائر جسيمة ، إذ قتل حاكم عسقلان وأسر حاكما عكا وأرسوف السابقان وافتديا فيما بعد بفدية كبيرة. وأعرب المؤرخ فولشر أوف تشارترز عن مشاعر الأسى من هرب سناء الملك لضياع الفدية السخية التى كان سيحصل الفرنج عليها. غير أن خسائر الفرنج كانت كبيرة أيضا. وبعد سلب المعسكر، لم يطارد بلدوين المصريين ، وكف عن مساندته للأمير الصغير أرتاش الذى عاد إلى الرحبة فى الفرات كسير القلب . وعاد الأسطول المصرى إلى مصر

(٢٦) Ibn al-Qalanisi, p. 71; Ibn al-Athir, p.229.

و لم يحقق شيئا سوى هلاك بعض السفن فى عاصفة(٢٧).

وكانت معركة الرملة الثالثة خاتمة المحاولات الكبيرة التى بذلها الفاطميون لإستعادة فلسطين ؛ لكنهم ظلوا خطرا حالما يتهدد الفرنج . ففى خريف ١١٠٦م أوشكت غارة صغيرة أن تنجح حيث فشلت الجيوش الكبيرة ؛ ففى أكتوبر من ذلك العام كان بلدوين مشغولا على الحدود فى الجليل ، وهاجم بضعة آلاف من فرسان المصريين معسكر حجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا من كان فيه . وخرج لهم حاكم يافا ، روجر أوف روزوى ، لكنه وقع فى كمين نصبوه له، و لم ينقذه سوى فرسه الذي سابق به الريح عائدا إلى يافا . واشتعل حماس المصريين فى المطاردة ، حتى أنهم أدركوا أربعين من جنوده المشاة خارج البوابات وقتلوهم . وبعد ذلك توجه المصريون شمالا باتجاه القدس، وهاجموا حصنا صغيرا يطلق عليه كاستيل آرنو لم يكن بلدوين قد أستكمل بناءه ، وكان مخصصا لحراسة الطريق . واستسلم العمال ، لكنهم قتلوا عدا قائدهم جيوفرى ، آمر قلعة برج داوود ، الذي أسروه للحصول على الفدية . وعندئذ سمع بلدوين بالغارة فسار جنوبا فى قواته ، فلم يجد المصريون مفرا من الإنسحاب إلى عسقلان(٢٨).

١١٠٦ - ١١٠٨م : هجمات على المدن الإسلامية الساحلية

وفى العام التالى كادت حملة مصرية أن تستولى على الخليل ، لكن بلدوين دحرها بنفسه . وفى عام ١١١٠ م توغل المصريون حتى أسوار القدس ، إلا أنهم سرعان ما تراجعوا(٢٩) وتكررت غارات مماثلة من حين لآخر على نطاق أصغر خلال السنوات العشر التالية ، الأمر الذي حرم المسيحيين من الأمان فى السهل الساحلى والنقب مستوطنين وحجاجا سواء بسواء ؛ على أن تلك الغارات كانت أكثر قليلا من كونها غارات إنتقامية لما أقدم عليه بلدوين من غارات على الأراضى الإسلامية .

وهكذا أطلق بلدوين يده فى محاولته لتوسيع المملكة . وكانت أهم أهدافه المدن الساحلية عسقلان جنوبا ، وصور وصيدا وبيروت شمالا . لكن عسقلان وصور كلاهما

---

(٢٧) -Albert of Aix,IX,48-50, pp .621-4; Fulcher of Chartres, II,XXXI, I-xxxiii,3,pp.489 503;Ibn al-Athir,pp. 228-9; Ibn Moyessar, p. 466.

(٢٨) Albert of Aix, x, 10-14, pp. 635-8.

(٢٩) . Ibid. x, 33, pp. 646-7; XI, 28, p.676.

قلعة قوية بحامية كبيرة متواحدة بصورة مستديمة، ولابد لإخضاعهما من إعداد العدة بعناية. وفى ربيع ١١٠٦م جاء إلى الأراضى المقدسة حشد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين ، مما أغرى بلدوين بالتخطيط لحملة على صيدا ، التى ما أن علم حاكمها بذلك حتى أرسل إلى الملك مبلغا ضخما من المال . وقبل بلدوين الهدية ، فحاجته إلى المال لا نهاية لها . وبقيت صيدا آمنة لعامين آخرين(٣٠).

وفى أغسطس ١١٠٨م ، سار بلدوين مرة أخرى إلى صيدا يساعده أسطول صغير يتألف من بحارة مغامرين من شتى المدن الإيطالية ، وعلى الفور استأجر حاكم صيدا مساعدة أتراك دمشق لقاء ثلاثين ألف بيزانت ، بينما أبحر أسطول مصرى من مصر وهزم الإيطاليين فى معركة بحرية خارج الميناء ، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار . وعلى الأثر رفض أهالى صيدا - ببعض المبررات - دخول الأتراك مدينتهم ، خشية أن يكون لطغتكين أطماع فيها ، بل رفض الحاكم دفع المبلغ المتفق عليه ، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين ؛ فأبدى الحاكم استعداده للعدول عن رفضه ، فوافقوا على تسعة آلاف بيزانت على سبيل التعويض ثم انصرفوا(٣١).

وفى الصيف التالى تلقى برتراند التولوزى مساعدة من بلدوين فى الإستيلاء على طرابلس ؛ وفى المقابل أرسل برتراند فى أوائل ١١١٠م الجنود لمساعدة بلدوين فى الهجوم على بيروت . وكانت سفن جنوا وبيزا جاهزة لحصار المدينة ، خاصة وأن طرابلس تعتبر قاعدة بحرية مناسبة . وحاولت السفن الفاطمية الآتية من صور وصيدا كسر الحصار ، لكنها لم تفلح . واستمر الحصار من فبراير إلى مايو . وداخل الحاكم اليأس من وصول المساعدة ، فهرب بليل مخترقا الأسطول الإيطالى إلى قبرص حيث سلم نفسه للحاكم البيزنطى . وفى ١٣ مايو استولى الحلفاء على المدينة التى تخلى عنها حاكمها بهجوم ارتكب فيه الإيطاليون مذبحة عامة قتل فيها الكثير من السكان قبل ان يتمكن بلدوين من المحافظة على النظام(٣٢).

---

(٣٠) *Ibid. x, 4-7, pp. 632-4*

(٣١) *Ibid. x, 48-51, pp. 653-5; Ibn al-Qalanisi, p. 87.*

(٣٢) Fulcher of Chartres, II, xlii, 1-3, p. 536، ويذكر فولشر التاريخ ١٣ مايو فى أشعار فلكية؛ ويورد Albert of Aix فى صفحة (٦١١) التاريخ ٢٧ مايو ؛ Ibn al-Qalanisi pp. 99-101 التاريخ ١٣ مايو.

١١٠١ م : الاستيلاء على صيدا

وأثناء ذلك الصيف تلقى بلدوين من الغرب مزيدا من التعزيزات البحرية . ففى سنة ١١٠٧م أبحر أسطول من ميناء برجين النرويجى يقوده سيجورد ، الذى كان يشارك أخويه فى عرش النرويج ، وعبر بحر الشمال ، متوقفا فى إنجلترا فى الطريق إلى جبل طارق ، ثم قشتالة ، فالبرتغال ، فجزر باليار ، فصقلية ، وأخيرا عكا التى وصلها وقت أن كان بلدوين عائدا من إستيلائه على بيروت . وكان سيجورد أول رئيس متوّج يزور المملكة ، ولذا استقبله بلدوين بأسمى آيات التشريف ، ورافقه شخصيا إلى القدس . ووافق سيجورد على مساعدة الفرنج فى حصار صيدا ، وبدأ الحلفاء الحصار فى أكتوبر . لكن تحصينات صيدا كانت شديدة القوة ، وبوصول أسطول فاطمى قوى من صور كادت السفن النرويجية أن تتبعثر و لم ينقذها سوى وصول أسطول من البندقية وعلى رأسه كبير القضاه فى جمهورية البندقية بنفسه ، أورديلافو فاليرى . وفى تلك الأثناء خطط حاكم صيدا لإغتيال بلدوين ؛ إذ وافق مرتد مسلم من العاملين فى خدمة بلدوين الشخصية على تنفيذ الاغتيال لقاء مبلغ كبير من المال ، على أن المسيحيين المحليين فى صيدا علموا بالمؤامرة ، فأطلقوا سهما يحمل رسالة إلى معسكر الفرنج يحذرون فيها الملك . وأخيرا استسلمت صيدا يوم ٤ يناير بنفس شروط عكا . ورحل وجهاء المدينة إلى دمشق مع منقولاتهم ، وأمسى الفقراء رعايا للملك الفرنجى الذى انتزع منهم جباية مقدارها عشرين ألف بيزانت ذهبى . وكوفئ البنادقة بهدية تتألف من كنيسة وبعض الممتلكات فى عكا. وعُهد بصيدا - باعتبارها بارونية - إلى إيوستاس جارنييه الذى كان بالفعل حاكما لقيسارية ، وقد عزز من - كزه بعد ذلك مباشرة بزواج سياسى من إيما، إبنة أخت البطريق أرنولف[٣٣].

وسيطر الفرنج على الساحل السورى كله ، باستثناء قلعتين: عسقلان فى الطرف الجنوبى وصور فى الوسط . وكان حاكم صور عصبيا ، فأرسل فى خريف ١١١١م إلى طغتكين فى دمشق يستأجر منه فيلقا من خمسمائة من الرماة لقاء عشرين ألف بيزانت ، وفي ذات الوقت طلب السماح له ولوجهاء المدينة بإرسال ممتلكاتهم الثمينة

---

(٣٣) Fulcher of Chartres, II, xliv, 1-7, pp. 543-8; Albert of Aix, XI, 26, 30-4, pp. o75, 677، ويذكر وليم المسيحيين المحليين ؛ William of Tyre, XI, 14, pp. 476-9, *Sigurdar Saga* فى *Agrip of Noregs Konungasogum*, passim; Sigurdar, Saga Jorsalafara ok Broedra Hans, pp. 75 ff. Ibn al-Qalanisi, pp. 106-8; Ibn al-Athir, p. 275; Dandolo in Muratori, Ss. R.I. vol. XII, p. 264; Tafer and Thomas, I, 86, 91, 145; Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, chap. IV, passim.

إلى دمشق للحفاظ عليها؛ ووافق طغتكن ، وانطلقت من الساحل قافلة غنية فيها الأموال والممتلكات . وكان من الضرورى أن تعبر القافلة بلادا يسيطر عليها الفرنج ، فتدبر الحاكم الصورى عز الملك رشوة فارس فرنجى يدعى رينفريد ليرشد القافلة ويضمن سلامتها ، فقبل الفارس الرشوة لكنه سارع بإبلاغ بلدوين ، الذى إنقض على وجهاء صور على حين غرة وسلبهم ثروتهم كلها . ووجد بلدوين فى تلك الثروة التى هبطت عليه فجأة تشجيعا للإستيلاء على صور ، فقاد جيشه كله فى نهاية نوفمبر لمهاجمة أسوار صور .بيد أنه كان يفتقر إلى أسطول بحرى لمساعدته ، برغم وجود اثنتى عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير البيزنطى بوتوميت ؛ غير أن البيزنطيين غير راغبين في القيام بعمل عدائى ضد الفاطميين الذين تربطهم بهم علاقات طيبة ، إلاّ فى حالة واحدة وهى أن يساعدهم بلدوين على استرداد المدن التى استولى عليها أمراء أنطاكية . وبينما تردد بلدوين فى الالتزام بشرطهم ، لم يفعل البيزنطيون أكثر من إمداد الجيش الفرنجى بالمؤن . واستمر حصار صور حتى إبريل التالى . وحارب أبناء صور بشجاعة ، وأشعلوا النيران فى برج الحصار الخشبى الهائل الذى شيده بلدوين . لكن الحرب أضعفتهم ، على الأقل ، بحيث سعوا إلى طلب مساعدة طغتكين ، وقبل أن يطلب عز الملك هذه المساعدة كتب إلى البلاط المصرى مبررا تصرفه . وفشلت الاتصالات الأولى التى حاولها طغتكين ؛ إذ اعترض أحد الأعراب العاملين فى خدمة الفرنج حمامة زاجلة ، وأظهر زميله الفرنجى رغبته فى ترك الحمامة تواصل طيرانها، لكن الأعرابى أخذها إلى بلدوين . وتنكر بعض الرجال لاستقبال سفراء دمشق واعتقلوهم ثم قتلوهم. ورغم ذلك ، تقدم طغتكين إلى صور وباغت فرقة فرنجية تبحث عن الأعلاف ، وحاصر الفرنج فى معسكرهم بينما أغار على القرى . واضطر بلدوين إلى رفع الحصار، ولم يعد إلى عكا إلاّ بشق طريقه قتالا(٣٤).

كما فشل بلدوين فى حملته على عسقلان بنفس القدر . إذ توجه إليها بعد استيلائه على صيدا مباشرة . لكن حاكمها شمس الخلافة ضاق ذرعا بكل هذا القتال ، فألهمته عقليته التجارية شراء هدنة حاول حباية ثمنها من سكان مدينة صور التي كانت ضمن نطاق سلطته . وعلمت مصر بتلك التصرفات ، فما كان من الأفضل إلا أن بعث بجنود مخلصين أمرهم بخلعه . وارتاب شمس الخلافة فى حقيقة نواياهم ، فرفض استقبالهم، بل طرد من جنوده من يرتاب فى تعاطفهم مع الفاطميين ، واستعان بمرتزقة

---

(٣٤) Albert of Aix, XII, 3-7, pp. 690-3; Ibn al-Athir, p. 257; Ibn Moyessar, p.467.

من الأرمن مكانهم . ثم ذهب بنفسه إلى القدس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية بلدوين، وعاد ومعه ثلاثمائة جندى فرنجى عيّنهم فى القلعة . وصُدم أهل عسقلان من تلك الخيانة ، فدبروا تمردا فى يوليه ١١١١م بمساعدة من مصر اغتالوا فيه شمس الخلافة وقتلوا الفرنج . وسارع بلدوين جنوبا لإنقاذ رجاله ، إلا أنه وصل بعد نفاد السهم . وبقيت عسقلان شوكة فى حلق الفرنج لأربعين سنة أخرى(٣٥).

كما فشل بلدوين فى محاولة مماثلة فى ربيع ١١١٠م لإنشاء محمية فى بعلبك بتواطؤ من حاكمها الخصى جمشتكين التاجى ؛ إذ علم طغتكين بالمؤامرة فاستعاض عن جمشتكين بابنه تاج الملك بورى(٣٦).

١١٠٥م : تشييد الحصون فى الجليل

بات شاغل بلدوين الأكبر أن يوفر للمملكة خطا ساحليا ملائما ؛ كما كان مهتما بمنحها تخوما ملائمة على النحو الذي يحقق لها أكبر فائدة من قرب المملكة من طرق التجارة العربية الكبيرة الآتية من العراق والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط ومصر. وعندما غادر تنكريد فلسطين إلى أنطاكية ، كان بلدوين قد عهد بإمارة الجليل - التى ظلت تحتفظ بالإسم الطنّان الذى أطلقه عليها تنكريد - إلى جاره السابق فى فرنسا ، هيو (أوف سانت أومير) الذى لقى تشجيعا على انتهاج سياسة عدوانية ضد المسلمين ؛ فبدأ بتشييد حصن طورون - المعروف اليوم بإسم تبنين - فى الجبال على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس ودمشق . ثم بنى حصنا آخر على التلال الواقعة جنوب غربى بحيرة طبرية كان العرب يسمونه علعال ، لاستخدامه بصورة أفضل فى الإغارة على الأراضى الخصبة الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وقد استُكمل تشييد الحصنين فى خريف ١١٠٥م. على أن الحصن الثانى لم يبق طويلا فى أيدى المسيحيين؛ إذ لم يكن طغتكين الدمشقى ليسمح بتهديد أراضيه على هذا النحو . ولذا، وبينما كان هيو عائدا فى نهاية العام إلى علعال محملا بغنائم وفيرة بعد غارة ناجحة ، انقض عليه الجيش الدمشقى وجرح جرحا مميتا فى المعركة وتبعثر رجاله ، واستولى طغتكين على الحصن دون صعوبة . وكان أخو هيو ، جيرار (أوف سانت أومير) ، مريضا آنذاك وفارق

---

(٣٥) Albert of Aix, XI, 36-7, pp. 680-1; Ibn al-Qalanisi, pp. 108-10.

(٣٦) Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 106; Sibt ibn al Djauzi, p. 537.

الحياة بعد أخيه بفترة وجيزة ، فاضطر بلدوين إلى منح إقطاعية الجليل للفارس الفرنسى جرفاس (أوف باسوش)(٣٧).

وتواصلت أعمال حرب العصابات . ففى عام ١١٠٦م أغار أبناء صور على طورون فى ذات الوقت الذى أغار فيه الدمشقيون على طبرية ، ولم يُكتب النجاح لأى من الغارتين . وباقتراب بلدوين أرسل الدمشقيون إليه فى معسكره رسولين يعرضان الإعداد لهدنة قصيرة . فاستقبلهما بمظاهر الإحترام والسخاء ، مما زاده شهرة على شهرة بين المسلمين ؛ غير أنها كانت هدنة قصيرة(٣٨)؛ إذ أغار طغتكين على الجليل مرة أخرى فى ربيع ١١٠٨م ، واستطاع فى إحدى المعارك خارج طبرية أن يأسر جرفاس (أوف باسوش) وأغلب رجاله ، وأرسل إلى بلدوين يخبره بأن ثمن إطلاق سراحهم هو مدن طبرية وعكا وحيفا الثلاث.ولمّا رفض بلدوين العرض قُتل جرفاس ووضعت فروة رأسه بخصلاتها البيضاء المتماوجة على قائم أمام الجيش الإسلامى المنتصر(٣٩) فأعاد بلدوين إلى تنكريد لقب أمير الجليل، والأرجح أن الإمارة كانت تدار من القدس . وفى ١١١٣م ، وهو العام الذى مات فيه تنكريد ، أمر بلدوين الرهاوي بنفى جوسلين (أوف كورتناى) ، فخلع الملك بلدوين عليه إمارة الجليل على سبيل التعويض(٤٠).

١١٠٨م : هدنة مع دمشق

فى أواخر ١١٠٨م كان لكل من بلدوين وطغتكين مصالح رئيسية فى أماكن أخرى، فاتفقا على عقد هدنة لعشر سنوات تقضى بتقسيم عوائد منطقتي السواد وجبل عوف، أى شمال الأردن ، على أن يأخذ بلدوين ثلثها، وطغتكين ثلثها الثانى ، ويبقى الثلث الأخير للسلطات المحلية(٤١). وربما ترجع أسباب تلك الهدنة إلى دوافع تجارية ؛ فالغارات تقضى على ما ينقل عبر البلاد من تجارة تعود بالنفع على الجميع . ولقد

---

(٣٧) William of Tyre, XI, 5, pp. 459-60; Ibn al-Qalanisi, pp. 72, 75; Ibn al-Athir, pp. 229-30; Albert of Aix, X, 8, pp. 635-6.

(٣٨) Albert of Aix, X, 25-6, pp. 642-3; Ibn al-Qalanisi, p. 75.

(٣٩) Albert of Aix, X, 57, p. 658; Ibn al-Qalanisi, pp. 86-7; Ibn al-Athir, pp. 268-9. ويطلق ابن الأثير على جيرفاس : إبن أخت بالدوين.

(٤٠) Albert of Aix, XI, 12, p. 668; William of Tyre, XI, 22, p. 492.

(٤١) Ibn al-Qalanisi, p. 92; Ibn al-Athir, p. 269.

كانت هدنة تجارية خالصة ؛ إذ لم تمنع طغتكين من أن يهب لمساعدة المدن الساحلية الإسلامية ، كما لم تقيّد بلدوين فى محاولته تحويل بعلبك إلى مدينة تابعة له . لكن المؤرخين العرب يذكرون بمشاعر الإمتنان ما أسفرت عنه تلك الهدنة من الحيلولة دون أن يغزو بلدوين الأراضى الدمشقية عندماسنحت له الفرصة لهزيمة طغتكين على يد وليم جوردن فى أرقا[٤٢]، وربما نبعت رغبة بلدوين فى الهدنة نتيجة لهزيمة حيرفاس وما ترتب عليها من خطر الغارات المنطلقة من الأردن على الجليل . وبالمثل رغب فيها المسلمون بعد غارتين حدثتا مؤخرا . إذ قام وليم كليتون ، إبن روبرت النورمندى ، الذى حلّ مؤخرا بفلسطين للحج ، بمهاجمة أميرة عربية ثريّة كانت مرتحلة مع كل ممتلكاتها من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق ، والغارة الثانية على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مصر . وغنم الفرنج فى الغارة الأولى أربعة آلاف جمل ، وغنموا فى الثانية جميع بضائع القافلة التى قتل فيها كل من بقى على قيد الحياة فيما بعد على يد البدو[٤٣]. وفى ١١١٣م خرق بلدوين المعاهدة بمهاجمته للأراضى الدمشقية.

وبعد أن أخفق بلدوين أمام صور فى ١١١١م، انشغل حينا من الزمن ببعض الأمور شمالى سوريا. فقد سبق أن أوضح بجلاء فى طرابلس فى ١١٠٩م عزمه على أن يصبح سيدا لجميع فرنج الشرق . وأتاحت له أحداث أنطاكية والرها تأكيد دعواه كما استطاع أن يلفت الانتباه مرة أخرى إلى تضخيم سلطانة الشخصى . ذلك أنه كان مدركا لحقيقة أن فلسطين بلاد مفتوحة للغزو والتسلل من الجنوب الشرقى خلال النقب ، فمن الضرورى إذن السيطرة على المنطقة الممتدة من البحر الميت وحتى خليج العقبة لعزل مصر عن العالم الإسلامى الشرقى . وفى ١١٠٧م أرسل طغتكين جيشا دمشقيا إلى أدوم (العرابة) تلبية لنداء البدو المحليين هناك ، وذلك لإنشاء قاعدة للإغارة على يهودا . وكان فى برارى العرابة هذه عدة أديرة يونانية ، فأرسل الراهب ثيودور يحث بلدوين على التدخل ؛ فسار بلدوين جنوبا إلى أن اقترب من المعسكر التركى فى وادى موسى بالقرب من البتراء ، لكنه لم يكن راغبافى قتال الترك ، فعرض الراهب ثيودور أن يذهب إلى القائد التركى كما لو كان هاربا ويحذره من اقتراب الجيش الفرنجى الضخم . فاستشعر الأتراك الخطر وانسحبوا بغاية السرعة عائدين إلى دمشق . وعاقب بلدوين البدو بإشعال النيران فى كهوفهم فدمرها واستولى على قطعانهم. وفى

---

(٤٢) Ibn al-Athir, pp. 269-70.

(٤٣) Albert of Aix, x, 45, p. 653; Ibn al-Athir, p. 272.

طريق عودته شمالا اصطحب معه الكثير من المسيحيين الذين كانوا يخشون انتقام البدو(٤٤).

وفى ١١١٥م عاد بلدوين إلى منطقة العرابة وقد عقد العزم على الإستيلاء عليها بصفة دائمة ؛ فهبط من الخليل ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت ، وعبر وادى العرابة المقفر الذى يمتد من البحر الميت وحتى مشارف خليج العقبة ، ووصل إلى بقعة من البقاع الخصبة القليلة فى تلك المنطقة الجرداء ، وهى البقعة المعروفة بالشوبك ، فى رقعة شجراء بين المنخفض والصحراء العربية. وفى ذلك المكان الذى يبعد مائة ميل تقريبا من أقرب مستوطنة فرنجية ، شيّد حصنا ضخما وترك فيه حامية وأسلحة جيدة ، وأطلق عليه إسم الجبل الملكى . وفى العام التالى قاد جيشه ومعه قافلة طويلة من البغال المحملة بالمؤن ، واندفع فى تهور إلى أماكن بعيدة غير معروفة من شبه الجزيرة العربية . وزار الجبل الملكى مرة أخرى ، ثم سار جنوبا إلى أن وصل أخيرا برحاله الذين نال منهم التعب إلى شواطىء البحر الأحمر فى العقبة ، حيث استمتعوا بالإستحمام فى البحر مع خيولهم ، وراحوا يصيدون الأسماك التى تشتهر بها تلك المياه. وانزعج السكان المحليون وأصابهم الذعر فلاذوا بالفرار فى قواربهم ؛ واحتل بلدوين العقبة التى أطلق عليها الفرنج إيليا أو إيلين ، وحصنها بتشييد قلعة فيها ، ثم أبحر إلى جزيرة فرعون الصغيرة التى أطلق عليها الفرنج جراى حيث بنى حصنا ثانيا ، وترك حامية فى كل حصن منهما . وبفضلهما أصبح الفرنج يسيطرون الآن على الطرق التى تربط بين دمشق وشبه الجزيرة العربية ومصر ، وبإمكانهم الإغارة على القوافل بيسر يسير ، وبات من الصعب على أى جيش إسلامى أن يصل إلى مصر من الشرق(٤٥).

١١١٨م : بلدوين يغزو مصر

وبعد عودة بلدوين من شواطىء البحر الأحمر ، سار ثانية إلى صور لكنه اكتفى بفرض حصار برى صارم على المدينة ببناء حصن فى سكاندلون حيث يبدأ الطريق الساحلى فى الصعود بمحاذاة الجرف إلى الممر المعروف باسم سلم صور(٤٦).

---

(٤٤) Albert of Aix, x, 28-9, pp. 644-5; Ibn al-Qalalnisi, pp. 81-2.

(٤٥) Albert of Aix, XII, 21-2, pp. 702-3; William of Tyre, XI, 29, p. 505. For Aila, see Musil, article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam.*

(٤٦) Fulcher of Chartres, II, lxii, I, pp. 605-6; William of Tyre, XI,30,p.507

وتشجع بلدوين بما حققه من إنجازات ، فشرع فى١١١٨م فى حملة أكثر جسارة. إذ أن الجيوش الفاطمية قامت مؤخرا بغارتين ناجحتين على أراضيه ؛ فبينما كان منشغلا فى الشمال مع الأتراك ١١١٣م ، تمكنت الجيوش الفاطمية من التقدم حتى أسوار القدس وهى تنهب البلاد فى طريقها. وفى ١١١٥م أوشكت على النجاح فى مباغتة يافا. والآن يأتى رد بلدوين على ذلك بغزو مصر نفسها؛ فبعد مفاوضات حذرة مع شيوخ القبائل فى الصحراء ، قام فى وقت مبكر من شهر مارس بقيادة جيش صغير قوامه ستين ومائتى فارس وأربعمائة راجل ، وزوده جيدا بالمؤن وسار به من الخليل عابرا شبه جزيرة سيناء إلى ساحل البحر المتوسط فى العريش (الفرما) الواقعة في عمق الحدود المصرية بالقرب من فرع النيل البيلوزى . وتهيأ للهجوم على المدينة ، غير أن الحامية هربت فى الفزع ؛ وواصل مسيرته إلى النيل نفسه . وفغر رحاله أفواههم لرؤية النيل الشهير . غير أن بلدوين أصيب بمرض مميت ، وعاد باتجاه فلسطين وهو يحتضر(٤٧).

تمكن الملك بلدوين ، بحملاته التى لا تعرف الكلل ، وبانتهازه لكل نهزة ، من أن يرتقى بدويلته التي ورثها لتصبح دولة موحدة تحوى مقاطعة فلسطين التاريخية كلها . وباستثناء صور وعسقلان ، سيطر على البلاد الممتدة من بيروت شمالا إلى بئر سبع جنوبا وحدود الأردن شرقا ونقاط حدودية فى أقصى الجنوب الشرقى تتحكم فى المداخل من شبه الجزيرة العربية . واعترف رفاقه المسيحيون فى الشرق الفرنجى بسيادته عليهم ؛ وفاز باحترام المسلمين . وكان ما حققه من إنجازات بمثابة ضمان لعدم إمكان تدمير مملكة القدس بسهولة.

وليس لدينا سوى القليل جدا من الشواهد التى تدلنا على إدارته الداخلية للمملكة. وإذا تحدثنا بصورة عامة نقول إنها كانت مملكة إقطاعية . لكنه احتفظ بأغلب البلد فى يديه هو شخصيا، يعين النبلاء من طبقة الفيكونت نوابا له ، بل إن أكبر الإقطاعيات بقيت لبضع سنوات بلا عاهل ، ولم تكن الإقطاعيات تورث بعد . إذ عندما قتل هيو (أوف سانت أومير) ، ساد الظن بأن أخاه جيرار سيخلفه فى الإمارة لو سمحت صحته بذلك ، لكن حقه لم يكن حقا مطلقا . وقد طوّر بلدوين مشروع دستور للمملكة ، وحكم هو نفسه من خلال بيت ملكى كبير كان حجمه آخذا فى الاتساع . وكان لكل من أصحاب الإقطاعيات التابعين له بيته الكبير الخاص به . كما تعزى إليه

(٤٧) Albert of Aix, XII, 25, p. 705; Ibn al-Athir, p.314.

الترتيبات التى أعدها مع الإيطاليين فـى الموانـى البحريـة، وبرغـم أنهـم لم يُجبروا علـى مساعدة الحملات الصليبيـة إلا أنهـم كـانوا مضطريـن للاشـتراك بقواتهـم البحريـة فـى الدفاع عن الأحياء التى يحصلون عليها(٤٨).

وقد أظهر بلدوين بجلاء نيّته فى السيطرة على الكنيسة . ولـما أيقّـن مـن مؤازرتهـا عاملها بسخاء ومنحطها طواعية بعض الأراضى التى استولى عليها مـن الكفـرة . لكنـه كان فى سخائـه هـذا على شيء من الخطأ؛ فالكنيسة غير ملتزمة بـتزويده بـالجنود. إلا أنه كان يتوقـع من الناحية الأخرى أن تزوده بالمال.

وأظهرت أحداث كثيرة مدى ما كان بالدوين يتمتع به من شـهرة بـين المسـيحيين المحليين . فمنذ تلك الحادثة التى حدث فى عيد الفصح من عام ١١٠١م، كـان حريصـا على احترام مشاعرهم . فكان يسمح لهـم فيمـا يعقـده مـن محاكمـه بـالحديث بلغـاتهم الخاصة ، والتصرف بحسب عـاداتهم الخاصـة بهـم ؛ ولم يكـن مـن المسـموح للكنيسـة بـالتدخل فـى ممارسـاتهم الدينيـة. وفـى السـنوات الأخـيرة مـن حكمـه شـجّع هجـرة المسيحيين، الهراطقة والأرثوذوكس على السواء مـن البلـدان المجـاورة الخاضعـة للحكـم الإسلامى . فكان فى احتياج لفلاحين كادحين يحتلون الأراضى التى بـاتت شـاغرة فـى الخليل بعدما رحل المسلمون . وكان يشجع زواج الفرنج من الوطنيات ، وضـرب هـو نفسه المثل على ذلك . وقليل جدا من أصحاب لقب البارون تزوجوا من محليات ؛ بيـد أن الممارسة أصبحت شائعة بين جنود الفرنج والمسـتوطنين الأفقـر. وفيمـا بعـد ، كـان الأطفال المهجنون هم الذين يوفرون للمملكة أغلب احتياجاتها من الجنود.

وأظهر بالدوين شيئا مماثلا من الود إزاء المسلمين واليهود الذين باتوا مـن رعايـاه ؛ فسمح بالقليل مـن المسـاجد والمعابد اليهوديـة. وفـى المحـاكم القانونيـة أصبـح بإمكـان المسلمين أن يقسموا بالقرآن واليهـود بالتـوراة ؛ وبـذا غـدا بإمكـان المتخـاصمين مـن الكفرة التطلع إلى العدالـة . وسمح بـالتزاوج مـع المسـلمين . وفـى عـام ١١١٤م تلقـى البطريق أرنولف توبيخا شديدا مـن البابـا باسـكال لعقـده زواج بـين مسـيحى وسـيدة مسلمة(٤٩).

وفى تلك المسألة اتضح سوء فهم البابـا باسـكال للشـرق مـرة أخـرى .فـإذا أراد

(٤٨) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 228-30

(٤٩) Rohricht, *Regesta*, n. 83, p. 19.

فرنج الشرق البقاء بصورة دائمة، فلا ينبغي لهم أن يظلوا أقلية مغتربة ، وإنما يتعين أن يصبحوا جزءا من العالم المحلي . وأما فولشر أوف تشارتر ، وهو قسيس بالدوين ، فقد أورد في تاريخه فصلا حماسيا منظوما عمّا لاحظه من معجزة الرب في تحويل الغربيين إلى شرقيين ، وبدا له أن امتزاج العرقين الشرقي والغربي يثير الإعجاب ، ورأى فيه الخطوة الأولى على طريق اتحاد الأمم . وعلى مدى تواجد الدويلات الصليبية نجد القصة نفسها : افرنجي حكيم محنّك في الشرق يتبع تقاليد بالدوين فيتبنى العادات المحلية ، وينشئ صداقات وتحالفات محلية ، بينما الوافدون الجدد من الغرب لا يجلبون معهم سوى الأفكار المتعصبة المتسلطة التي لا تجلب على البلاد سوى الكوارث.

وقد أساء بلدوين إلى البابا عندما استولى على مدينتي صيدا وبيروت الساحليتين وأخضع كنائسها لبطريارقية القدس ، ظنا منه أن الإدارة السليمة للملكة تستدعي ذلك، وهي التي كانت طوال تاريخها تابعة لبطريق أنطاكية. واعترض بطريق انطاكية - برتراند - لدى البابا من هذا التصرف غير الكنسي . وكان البابا قد أخطر القدس في ١١١٠م بإمكان تجاهل الأوضاع التاريخية للكنائس نظرا للظروف المتغيرة . على أن البابا ، وبضعفه المعهود ، غيّر في عام ١١١٢م من موقفه هذا وأيد مطالب أنطاكية ؛ وبهدوء تجاهل بالدوين هذا القرار الجديد للبابا .وعلى الرغم مما أبداه البابا باسكال من توبيخ لاذع، بقيت الأسقفيات خاضعة لبطريارقية القدس(٥٠).

١١١٣م زواج بالدوين من أديللا

وأما عن زواج بالدوين ، فقد ارتكب خطأً جسيما . ذلك أنه منذ اليوم الذى هرب فيه حموه مذعورا من وحشية زوج ابنته ودون أن يعطى لبالدوين مهر ابنته المتفق، لم يعد بالدوين يهتم كثيرا بعروسه الأرمينية . وكان بالدوين شغوفا بالمغامرات الغرامية، لكنه كان يتوخى التعقل ، ومنعه وجود مليكته معه في البلاط من الإنغماس في شهواته. وقد كان للملكة هى الأخرى سمعة الملكة الطروب حتى أنها ، كما قيل ، وهبت حظوتها لقراصنة مسلمين أثناء رحلتها من أنطاكية جنوبا إلى حيث ينتظرها عرشها . ولم يثمر زواجهما أطفالا يوثّقون عرى الرابطة الزوجية بينهما؛ وبعد سنوات قليلة ، وبعد ما تحقق بالدوين من انتفاء أية فائدة سياسية لزواجه هذا، طردها من

(٥٠) William of Tyre, XI, 28, pp. 502-5.

البلاط بدعوى ارتكابها الزنا وأجبرها على دخول دير القديسة آن فى القدس ، وراح يغدق على الدير الهبات بسخاء ، مداهنة لضميره . على أن الملكة لم تكن تشعر بنداء دفين لحياة الرهبنة ، وسرعان ما التمست الإذن بالإعتزال فى القسطنطينية حيث يقيم والداها منذ أن طردهما الفرنج من مرعش ، وأجيب مطلبها. وفى القسطنطينية نضت عن نفسها رداء الرهبنة ، وراحت تتذوق كل ما تقدمه المدينة العظيمة من ملذات(٥١) وفى ذات الوقت أبهج بالدوين أن يجد نفسه قادرا على العودة إلى حياة العزوبة مرة أخرى . على أنه كان لايزال فى حاجة إلى المال . وفى شتاء عام ١١١٢م علم بوجود أرملة مناسبة للغاية فى أوروبا تبحث عن زوج : إذ أن أديلايدى السالونية - كونتيسة صقلية الأرملة - قد تركت لتوها الوصاية على كونتيتها لبلوغ ابنها الصغير ، روجر الثانى ، سن الرشد . وكانت فائقة الثراء . واجتذبها اللقب الملكى . ولم يكن بالدوين يرغبها لما سيحصل عليه من بائنة وحسب ، وإنما أيضا لما تتمتع به من نفوذ على نورمانديى صقلية ، فسوف يساعد التحالف معهم فى إمداده بالقوة البحرية، فضلا عن أن ذلك التحالف سيكون بمثابة توازن مضاد إزاء النورمانديين فى أنطاكية . فأرسل طالبا يدها . وقبلت الكونتيسة ولكن بشروطها . إذ أن بالدوين أبتر بلا ولد بعد أن مات أبناؤه من زوجته الأولى فى الأناضول أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ولم تلد له مليكته الأرمينية . فأصرّت أديلايدى على أنه مالم يثمر زواجهما من بالدوين بولد - وعمر كل من العريس والعروس لا يبشر كثيرا بولد - فلا بد أن ينتقل تاج القدس إلى ابنها الكونت روجر.

وتم عقد الزواج. وفى صيف ١١١٣م أبحرت الكونتيسة من صقلية تحوطها أبهة لم يشهدها البحر المتوسط منذ أن أبحرت كليوباترة قاصدة سيدنوس Cydnus للقاء مارك أنطونيو . كانت متكئة على بساط خيوطه من ذهب فى سفينتها التى كانت مقدمتها مزدانة بصفائح من الذهب والفضة . وكانت هناك سفينتان أخريان بصحبتها، على جانبى كل سفينة ثلاثة صفوف من المجاديف ، مقدمتاهما مزدانتان بنفس زينة سفينتها، وتقلان حرسها العسكرى ، وقد تألق من بينهم الجنود العرب من حرس إبنها الشخصى، تلمع وجوههم السمراء فوق أرديتهم ذات البياض الناصع . وفى أثرالمياه الذى تركته السفن وراءها كانت هناك سبع سفن أخرى امتلأت عنابرها بكنوزها الخاصة بها . وهبطت إلى الشاطئ فى عكا فى شهر أغسطس ، حيث كان الملك

---

(٥١) Guibert of Nogent, p. 259، الذى يذكر حياتهاالخليعة . ويفترض William of Tyre, XI, PP. 451-2 أنها انساقت فى الشرور بعد طلاقها.

بالدوين فى استقبالها بكل الروعة التى تستطيع مملكته إظهارها ، وكانت الأردية الحريرية الفاخرة تكسوه وتكسو بلاطه كله ؛ وكانت خيولهم وبغالهم مزدانة بالأكسية الأرجوانية والذهب . وبُسطت الشوارع بالبسط الفاخرة ، ورفرفت الرايات الأرجوانية من النوافذ والشرفات . وعلى طول الطريق إلى القدس بدت المدن والقرى كما لو كانت فى ملابس مبهرجة . كانت البلاد كلها فى بهجة، ولكنها ليست البهجة الكبيرة لمقدم السيدة الجديدة التى تخطر إلى شيخوختها بقدر ماكانت بهجة لما جلبته فى بطانتها من ثروة(٥٢).

وبرغم تلك البداية الباهرة لم يحقق الزواج نجاحا. إذ تسلم بالدوين على الفور بائنته من الملكة ، وأنفقها فى تسديد أجور الجنود المتأخرة ، وفى الإنفاق على أعمال التحصينات ؛ وأسفر تداول هذه الأموال عن انتعاش اقتصاد البلاد . ولكن سرعان ما خبت الجذوة ؛ وانجلت مساوىء الزواج . ويتذكر أصحاب الورع أن زوجة بالدوين السابقة لم تطلّق أبدا طلاقا قانونيا . وصدمهم قيام البطريق أرنولف بكل طواعية بإنجاز ما كان فى حقيقته احتفالا بالجمع بين زوجتين؛ وسارع أعداء أرنولف فى استغلال تصرفه ذاك الشاذ . وزادت حدة الهجوم عليه عندما أغضب رعية بالدوين كلها اكتشاف أنه اقترح التخلص من ولاية عرش المملكة دون استشارة مجلسه . وانهمرت على روما الشكاوى ضد أرنولف. وبعد عام على الزواج الملكى ، وصل إلى القدس المندوب البابوى بيرينجار أسقف أورانج . وفضلا عن إتهام أرنولف ببيع المقدسات والمناصب الكنسية ، تأكد لدى المندوب البابوى أنه قد غض النظر عن علاقة زنا، بل وباركها ؛ فجمع أساقفة ورهبان البطريارقية فى مجمع كنسى وأعلن خلع أرنولف. على أن أرنولف لا يخلع بهذه السهولة . فتدبرعدم تعيين خليفة له وانطلق هو نفسه إلى روما فى شتاء ١١١٥م، حيث مارس كل ما لديه من سحر إغوائى على البابا والكرادلة الذين قويت مشاعر العطف عليه لما أهداهم من هدايا اختارها لهم بعناية . ووقع البابا باسكال تحت نفوذه ، وأنكر قرار مندوبه البابوى . ووافق أرنولف على تقديم تنازل واحد : لقد وعد بأن يأمر الملك بطرد الملكة الصقلية . وعلى الأثر لم يكتف البابا بإعلان بطلان خلع أرنولف ، وإنماقام هو نفسه وقدم له الطّيْلسان ليرتديه ، وهكذا آيد

---

(٥٢) Albert of Aix, XII, 13-14, pp. 696-8; William of Tyre, XI, 21, pp. 487-9; Fulcher of Chartres, II, li, pp. 575-7. كانت أدېلايدى إبنة المركيز مانفريد ، وإبنة أخت صاحب حانة سالونا، وقد تزوجت روجر الأول الصقلى كزوجته الثالثة عام ١٠٨٩ ولمعرفة نسبها أنظر Chalandon, *Histoire de la Domination Normande en Italie*, II, p. 391, n. 5.

بقاءه فى منصبه بما لا يدع مجالا لأية ريبة . وفي صيف ١١١٦م عاد أرنولف منتصرا إلى القدس[٥٣].

وقد أقدم أرنولف على هذا التنازل بلا تردد ؛ إذ كان يعرف ان بالدوين الآن ، وبعد أن أنفق البائنة - أصبح شبه آسف على زواجه ، كما لم تجد أديلايدى هى الأخرى أنها معجبة بمعبد سليمان فى القدس الذي تفتقر فيه إلى أسباب الراحة ، وهى التى اعتادت على الحياة الفاخرة فى قصر باليرمو . على أن بالدوين تردد ؛ فهو كاره لأن يخسر مزايا التحالف الصقلى ؛ فقاوم طلبات أرنولف إلى أن أصيب بمرض شديد فى شهر مارس١١١٧م؛ وأنصت ، وهو بين يدى الموت، إلى كهنة الأعتراف الذين قالوا له إنه يموت وهو فى حالة من الإثم . وعليه أن يطرد أديلايدى ، وأن يستدعى زوجته السابقة لتكون إلى جانبه . ولم يستطع أن يلبى كل رغباتهم ؛ إذ أن الملكة السابقة لم تكن مهيأة لمغادرة القسطنطينية والتخلىعما كانت غارقة فيه من ملذاتها الرائعة. على أنه عندما شفى من مرضه أعلن إلغاء زواجه من أديلايدى ، التى نال منها الغضب ، وقد جُردت من ثروتها ، فأبحرت عائدة إلى صقلية فى رحلة تكاد أن تكون بلا حراسة. وكان ذلك إهانة لم ينسها البلاط الصقلى أبدا . ومضى وقت طويل قبل أن تتسلم مملكة القدس أية مساعدة أو تعاطف من صقلية[٥٤].

١١١٨م موت أمراء

خسف القمر يوم ١٦ يونية ١١١٧م، ومرة ثانية يوم ١١ ديسمبر ، وبعد ذلك بخمس ليال حدثت الظاهرة النادرة فتلألأ الشفق القطبى الشمالى فى سماء فلسطين ، فكانت نذيرا مرعبا يتنبأ بموت أمراء[٥٥] . ولم يكذب النذير . ففى ٢١ يناير ١١١٨م مات البابا باسكال فى روما[٥٦] ، وفى ١٦ إبريل أنهت الملكة السابقة أديلايدى بموتها

(٥٣) خطاب باسكال الثانى المورخ فى ١٥ يولية ١١١٦، M. P. L. vol. CLXIII, cols. 408-9; Albert of Aix, XII, 24, p. 704; William of Tyre, XI, 24, pp. 499-500 .

(٥٤) Albert of Aix, *loc. cit.;* William of Tyre, *loc.cit.;* Fulcher of Chartres, II, lix, 3, p.601.

(٥٥) Fulcher of Chartres, II, lxi, 1-3, lxiii, 1-4, pp. 604-5, 607-8. وتناقش الملاحظات عند Hagenmeyer تاريخ وقوع الظاهرة . ويذكر Fulcher موت باسكال ,بالدوين وأديلايدى وأرنولف وألكسيوس.

(٥٦) *Annales Romani, M.G.H.Ss., vol. v.p.477;* William of Tyre, XII, 5, p. 518.

وحودها الذليل فى صقلية(٥٧) ، ولم يعش صديقها الزائف البطريق أرنولد سوى اثنىعشر يوما بعدها ، وشهد يوم ٥ إبريل موت السلطان محمود فى إيران ، وفى ٦ أغسطس مات الخليفة المستظهر فى بغداد(٥٨) . وفى ١٥ أغسطس ، وبعد مرض طويل مؤلم ، مات فى القسطنطينية أعظم عواهل الشرق ، الإمبراطور ألكسيوس(٥٩) ، وفى بداية الربيع عاد الملك بالدوين من مصر وقد ضربته الحمى . ولم يبق فى بدنه المرهق المتعب أية مقاومة. وقد حمله جنوده عائدين به إلى قلعة العريش الحدودية الصغيرة ، وهو محتضرا. وهناك، وبدقة عبر حدود المملكة التى تدين له بوجودها، مات يوم ٢ إبريل بين ذراعى أسقف الرملة . وجئ بجثته إلى القدس ، وفى يوم أحد السّعف ، ٧ إبريل ، رقد ليستريح فى كنيسة القبر المقدس ، بجانب أخيه جودفرى(٦٠).

وصاحب موكب الجنازة نواح الفرنج والمسيحيين المحليين على السواء ؛ بل إن العرب الزائرين كانوا متأثرين . كان ملكا عظيما ، قاسيا و مجردا من المبادىء الخلقية ، لم يكن محبوبا ، ولكن حظى باحترام عميق لما أبداه من نشاط وبصيره ونظام وعدالة فى حكمه . لقد ورث مملكة ضعيفة غير مستقرة ، لكن قوته الحربية ، وحدة ذهنه الدبلوماسية ، وتسامحه الحكيم ، أوجد لها مكانا راسخا بين ممالك الشرق.

---

(٥٧) *Necrologia Panormitana, in Forschungen zur deutschen Geschichte,* vol. XVIII, PP. 472; William of Tyre, XII, 5, P. 518 .

(٥٨) Ibn al-Athir, pp.310-11; Matthew of Edessa, ccxxvi, p. 297.

(٥٩) Zonaras, p. 759; William of Tyre, XII, 5, p. 517; Ibn al-Qalanisi, p. 157 ، ويذكر موته أيضا Matthew of Edessa , ccxxviii, pp. 300-1.

(٦٠) Fulcher of Chartres, II, xiv, 1-5, pp. 609-13; Albert of Aix, XII, 26-9, pp. 706-9; William of Tyre, XI, 31, pp. 508-0; Ibn al-Qalanisi, loc. cit..

الفصل السادس:

تـوازن فى الشمال

توازن فى الشمال

"فَيحاربُون كُلُ وَاحدٍ أخاهُ وكُلُ وَاحدٍ صَاحِبَهُ"
(أشعياء : ١٩ - ٢)

كان الملك بالدوين الأول ، قبل وفاته ببضع سنين ، قد أعلن نفسه زعيما دون منازع لفرنج الشرق . ولم يكن ذلك إنجازا يسيرا ، وقد أفلح فيه بالدوين بمهارته فى استخدام الظروف.

وغدا تنكريد بلا غريم بين فرنج شمال سوريا بعد أن وقع فى الأسر فى حران كل من بالدوين (أوف لو بورج) وجوسلين (أوف كورتناى) ، وبعد رحيل بوهيموند إلى الغرب؛ ونتيجة للشقاق الذى كان محتدما بين المسلمين تمكن من انتهاز كل نهزة أمامه انتهازا كاملا. وكانت الامبراطورية السلجوقية تتداعى قطعة قطعة لأسباب تعزى فى أهميتها إلى ما ساد من خلافات بين أمرائها بصورة أكبر من عزوها إلى ما كانت تواجهه من ضغوط خارجية. وارتفع نجم جكرمش - أتابج الموصل - بنصره فى حران إلى مركز الصدارة بين عواهل الأتراك فى شمال سوريا والجزيرة، برغم فشله الذريع فى

متابعة الهجوم ضد الفرنج. وكان حليفه السابق ونده ، سقمان الأرتقى صاحب ماردين، قد مات فى باكورة ١١٠٥م ، وهو فى طريقه لمساعدة طرابلس المحاصرة ، وتنازع على الميراث أخوه ايلغازى، وابنه ابراهيم[١] وكان أيلغازى فيما مضى تحت إمرة رضوان الحلبى ، ولذا كان الأخير يأمل الآن فى أن يمنحه ايلغازى - بعد الانتصار - نفوذا فى الجزيرة ؛ لكن ايلغازى نسى الولاء القديم ، وكان رضوان نفسه غارقا فى محاربة الفرنج لتأكيد زعامته العليا القديمة[٢] وفى ١١٠٦م مات الأمير الدانشمندى العظيم الملك غازى جوموشتكين تاركا وراءه مملكة مقسمة ؛ فأصبحت سيواس وأراضى الأناضول من نصيب ابنه الأكبر غازى ؛ وأمست ملطية وأراضى سورية من نصيب ابنه الأصغر سنقر ، وهو شاب لا خبرة له ، مما أغرى قلج أرسلان - الذى تعاقد مع بيزنطة على السلام مؤخرا - بالتحول شرقا ومهاجمة ملطية والاستيلاء عليها فى خريف ١١٠٦م[٣] . ثم إنه خلع على نفسه لقب سلطان وحاول الحصول على الاعتراف بلقبه هذا فى أنحاء العالم التركى، وكان على استعداد لمصادقة من يعامله بهذه الصفة[٤].

ولم ينعم جكرمش بمركز الصدارة طويلا ، إذ كان له حتما أن يتورط فى النزاعات الدائرة فى السلطنة السلجوقية الشرقية . وعندما اضطر السلطان بارقياروق إلى اقتسام أملاكه مع أخيه محمد فى ١١٠٤م ، تقرر ضم الموصل إلى أملاك الأخير . وحاول جكرمش أن يستقل بنفسه فأعلن أنه يدين بالولاء لبارقياروق فقط ، وتحدى جنود محمد؛ غير أن بارقياروق مات فى يناير ١١٠٥م وورث محمد أملاكه كلها ؛ فلم يجد جكرمش ذريعة للإستقلال عن محمد ، وأسرع إليه معلنا خضوعه إليه . وأظهر محمد الصداقة إلى حين، وعاد شرقا دون أن يغامر بدخول الموصل دخول المنتصرين[٥].

---

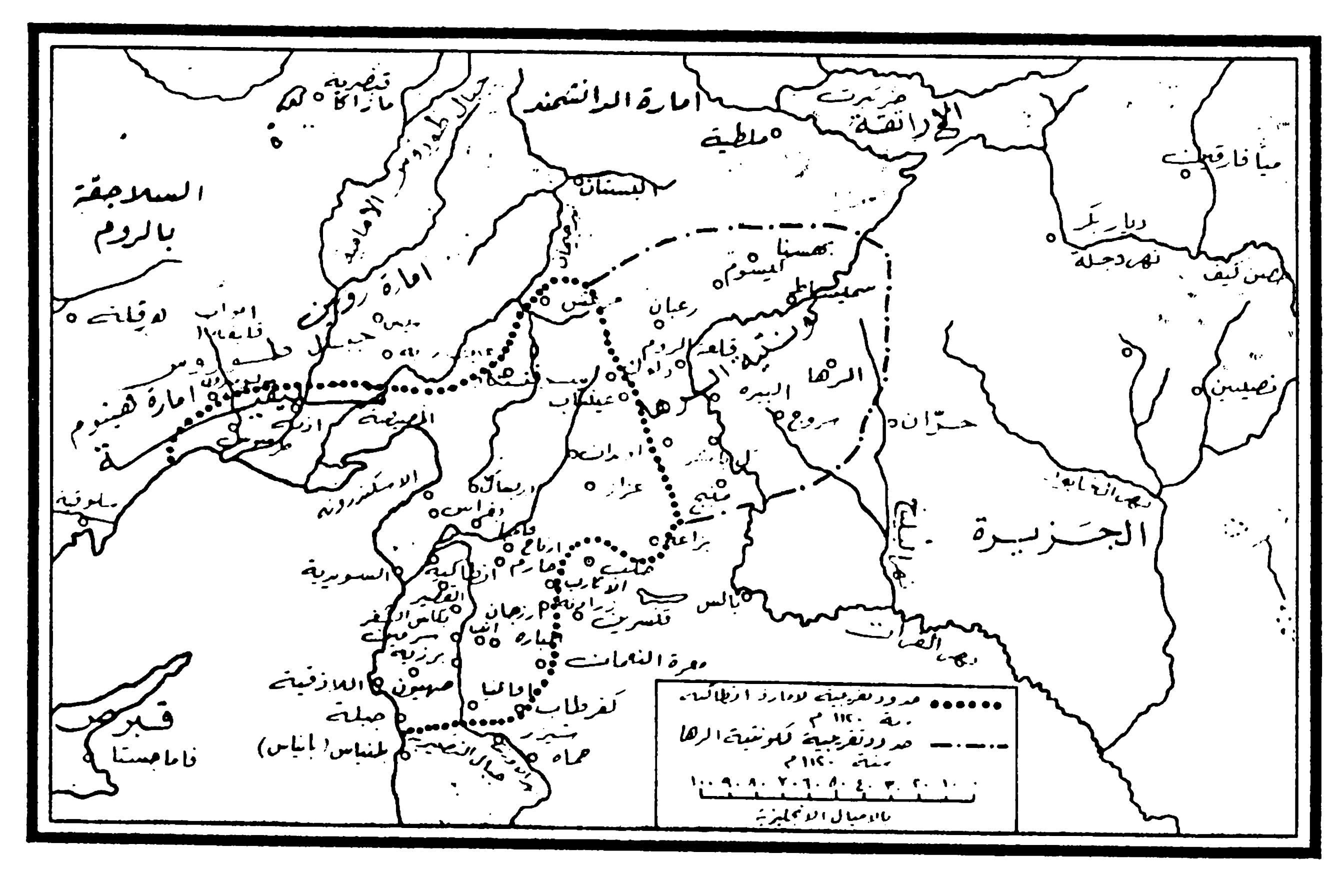
(١) إبن الفرات ، اقتبسه Cahen, La Syrie du Nord, p. 248, n. 26 ؛ ويقول إبن الأثير - Ibn al Athir, pp. 226-7، إن ايلغازى أخذ ماردين من إبراهيم فى ١١٠٧ . وللإطلاع على التاريخ المعقد لأمراء المسلمين أنظر Cahen, op. cit. pp. 246-9.

(٢) Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣) ميخائيل السورى Michael the Syrian, III, p. 192.

(٤) أنظر مقال `Kilij Arslan` فى دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam. أما ابن القلانيسى ، وابن الأثير، وغيرهما من المؤرخين العرب فيتوخون جانب الحذر ولا يطلقون عليه سوى مالك . ويسميه ماثيو الأورفى Matthew of Edessa وميخائيل السورى Michael the Syrian سلطان.

(٥) Ibn al-Athir, pp. 224-5.



خريطة رقم (١) شمال الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى

ثم شرع جكرمش فى تنظيم حملة جديدة ضد الفرنج ، وربما كان ذلك بناء على طلب محمد ، فتحالف مع رضوان الحلبى وصباو، القائد العسكرى لرضوان ، وايلغازى الأرتقى ، وزوج ابنته ألبو ابن أرسلانتاش صاحب سنقار. واقترح الحلفاء على رضوان إدخال البهجة على السلطان محمد بالهجوم على جكرمش ، ففى ذلك حنكة سياسية ومنفعة ؛ فساروا معا إلى مدينته الثانية نصيبين . غير أن عملاءه هناك أفلحوا فى الوقيعة بين رضوان وايلغازى؛ فخطف الأول الثانى فى مأدبة أقامها أمام أسوار نصيبين ، وكبّله بالسلاسل ؛ فقام العساكر الأراتقة بمهاجمة رضوان وأجبروه على العودة إلى حلب. وهكذا نجا جكرمش وسار بنفسه وهاجم الرها؛ على أنه بعد أن أفلح فى هزيمة فرقة خرجت للتصدي له من جنود ريتشارد حاكم الإمارة، عاد إلى بلده ليواجه مشاكل جديدة[٦].

وفى تلك الأثناء حاول قلج أرسلان بدوره الهجوم على الرها - وكان قد استولى لتوه على ملطية - لكنه وجد دفاعاتها قوية ، فتحول إلى حران التى كانت حاميتها تابعة لجكرمش ، وقد سلمته الحامية المدينة . وكان من الواضح أن سلاجقة الروم يسعون إلى توسيع رقعة سلطانهم فى العالم الإسلامى على حساب أبناء عمومتهم سلاجقة الفرس[٧].

ولم يغفر السلطان محمد أبدا ما راود جكرمش من نزعات استقلالية ، وكان يرتاب فى أنه متواطئ مع قلج أرسلان . وفى شتاء ١١٠٦م حرمه رسميا من الموصل ووهبها مع حكم الجزيرة وديار بكر لمغامر تركى يدعى جوالى سقاوه . فقاد جوالى جيشا ضد جكرمش الذى تقدم هو الآخر لقتاله ، لكن جكرمش هزم خارج المدينة مباشرة ووقع هو نفسه أسيرا ؛ وعلى الفور نصّب أبناء الموصل ابن جكرمش ، زنكى ، أتابجا لما كان لجكرمش من شعبية بينهم ، بينما أرسل الأصدقاء خارج المدينة إلى قلج أرسلان طالبين مساعدته . وكان فى مأمول جوالى أن يستخدم جكرمش كورقة للمقايضة عليها ، غير أنه بعد أن مات جكرمش بغتة في أسره ، رأى الحكمة فى الإنسحاب . وفتحت الموصل أبوابها لقلج أرسلان الذى وعد باحترام حريتها.

ورسخ جوالى دعائم سلطانه فى وادى الفرات ، ومن هناك تفاوض مع رضوان الحلبى واتفقا على خلع قلج أرسلان أولا ثم يتقدمان معا لمهاجمة انطاكية . وفى يونية

(٦) Matthew of Edessa, clxxxix, pp. 260-1.

(٧) Ibn al-Athir, p. 239.

١١٠٧م توجه الإثنان على رأس أربعة آلاف رجل وهاجما الموصل . وكان قلج أرسلان بعيدا وجيشه أصغر ، لكنه مع ذلك خف لمجابهة الحليفين على ضفاف نهر خبير . وبرغم ما اتصف به من شجاعة ، فقد هزم هزيمة ماحقة وهلك هونفسه وهو يعبر النهر هاربا(٨).

وتركت نهاية قلج أرسلان أثرها على العالم الشرقي كله . إذ انزاح عن بيزنطة خطر هائل فى لحظة حاسمة كان فيها بوهيموند على وشك مهاجمة البلقان ؛ وتمكنت السلطنة السلجوقية الفارسية من أن يطول أجلها لقرابة قرن من الزمان ؛ وكانت بمثابة أول مرحلة خطرة فى انفصال أتراك الأناضول عن إخوانهم فى الشرق الأبعد . وحرمت سوريا - لوقتها - من قوة خليقة بأن تحقق لها وحدتها.

وأصبح بإمكان جوالى دخول الموصل. وسرعان ما صنع من نفسه حاكما بغيضا بأفعاله الوحشية فى حكمه؛ و لم يظهر لسيده السلطان محمد احتراما أكثر مما أظهره حكرمش من قبله. وبعد عام، خطط محمد لاستبداله، وأرسل إليه جيشا بقيادة المملوك مودود الذى أصبح النصير الرئيسى للإسلام خلال السنوات القليلة التى تلت(٩).

١١٠٧م : إطلاق سراح جوسلين

واثناء كل هذا الإضطراب كان بالدوين (أوف لوبورج) أسيرا فى الموصل ، بينما انتقل ابن خالته جوسلين (أوف كورتناى) بعد موت سقمان إلى ايلغازى الذى كان يخطط لطرد ابن اخيه ابراهيم من ماردين ؛ على أن ايلغازى كان فى حاجة إلى المال والحلفاء ؛ ولذا وافق على اطلاق سراح جوسلين مقابل عشرين ألف دينار ووعد بمساعدة عسكرية . وتعهد رعايا جوسلين فى تل بشير طواعية بمبلغ الفدية ، واطلق سراحه فى وقت ما من عام ١١٠٧م(١٠) . وتمكن ايلغازى ، بالترتيبات التى أعدها ،

---

(٨) المرجع السابق الصفحتان ٢٤٦ - ٢٤٧ . ويعتبر ماثيو الأورفى Matthew of Edessa,cxcvi,p.264 أن موت قلج أرسلان بمثابة كارثة للعالم المسيحى كله ، أى الأرمن.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 259-61; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 241.

(١٠) يقول ميخائيل السورى Michael the Syrian, III, pp. 195-6 إن مواطنى طرابزون سلموا أنفسهم كرهائن الى أن يتم جمع المال ، ثم تراجعوا ، بحيث لم يدفع شيء فى الواقع ، على أن جوسلين عاد الى الأسر كرهينة لبالدوين ، وترك انطباعا رائعا على سلطان لموصل الذى طلب رؤيته خصيصا. ويفترض ابن الأثير Ibn al-Athir, p. 261 أن الفدية قد دفعت على النحو الواجب.

من الإستيلاء على ماردين . ثم سعى جوسلين إلى تخليص بالدوين الذى كان فى قبضة حوالى مع كل متعلقات جكرمش . ولقد اختيرت اللحظة اختيارا حسنا ؛ إذ كان حوالى فى حاجة إلى مساعدة لصد هجوم مودود القادم ؛ فطلب ستين ألف دينار، واطلاق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين فى الرها ، وتحالفا عسكريا . وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تخلى أهالى الموصل عن حوالى وفتحوا بوابات مدينتهم لمودود، ووجد حوالى نفسه وقد طرد من الموصل، فوطد دعائم ملكه فى الجزيرة آخذا معه بالدوين(١١).

وتمكن جوسلين من تجهيز ثلاثين الف دينار بلا صعوبة كبيرة . وأحضر المال بنفسه إلى قلعة الجبّار فى الفرات حيث يعيش حوالى الآن ؛ وعرض أن يبقى هو نفسه رهينة بدلا من بلدوين الذى سيتولى احضار باقى الفدية . وتحركت مشاعر حوالى بهذه الحركة وأثارته بسالة الأمير الفرنجى ، وقبل جوسلين بدلا من بلدوين . وبعد أشهر قليلة أطلق سراح جوسلين واضعا ثقته فى كلمته التى وعدها بتسديد باقي الفدية، وكان لثقته ما يبررها(١٢) . ولقد أقدم على هذه الحركة بوازع الفروسية من ناحية، وبدافع المصلحة الذاتية من الناحية الأخرى - إذ كان شديد الرغبة فى التحالف الفرنجي.

١١٠٨ م: مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين ومسلمين

مضى على تانكريد الآن أربع سنوات وهو سيد الرها التى يحكمها باسمه ابن عمه ريتشارد (أوف برنسيبات) ؛ وكان تانكريد عزوفا عن تسليم الرها لبلدوين . وعندما ظهر بلدوين فى الرها وافق تانكريد على دفع ثلاثين ألف دينار ، لكنه رفض إعادة المدينة لبلدوين إلا بعد أن يقسم قسم الولاء له . ولم يكن بوسع بلدوين الموافقة باعتباره تابعا للملك القدس ، فذهب إلى تل بشير مغاضبا حيث لحق به جوسلين ، وأرسلا إلى حوالى يطلبان مساعدته . وسار تانكريد إلى تل بشير حيث وقعت مناوشات طفيفة اجتمع بعدها المتحاربون فى جلسة معقدة لمناقشة المسألة مرة أخرى ، ولكن دون جدوى . وأطلق بلدوين سراح مائة وستين أسيرا مسلما وأرسلهم هدية إلى

(١١) Ibn al-Athir, p. 260 P Bar-Hebraeus, loc. cit.

(١٢) Michael the Syrian, *loc. cit.*; *Chron. Anon. Syr.* pp.81-2; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 243; Ibn al-Athir, p. 261.

حوالى بعد أن أعاد تجهيزهم ثم سار شمالا يبحث عن حلفاء آخرين. وكان حكم ريتشارد فى الرها مكروها من الأرمن خاصة لقسوته وابتزازه ، ولذا ذهب بلدوين لزيارة كبير أمراء الأرمن فى الجوار - كواسيل أمير كيسوم - الذى عزز مكانته مؤخرا باستمالة كاثوليكوس الأرمينى وأقنعه بالعيش فى كنفه . واستقبل كواسيل بلدوين فى مدينة رعبان ووعده بالمساعدة ، بينما أبهج أوشين الأرمينى ، الذى كان يحكم كيليكيا باسم بيزنطة ، أن يخطو أية خطوة ضد تنكريد ، ومن ثمّ أرسل ثلاثمائة من المرتزقة البتشنج . وعاد بلدوين بهذا الحشد المحالف إلى تل بشير . ولم يكن تنكريد مستعدا للإساءة إلى العالم الأرمينى كله ، لاسيما وأن برنارد - بطريق انطاكية - انحاز بنفوذه إلى جانب بلدوين ، فاضطر تنكريد على مضض إلى سحب ريتشارد أوف برينسيبات من الرها التى استقبلت بلدوين بمشاعر البهجة(١٣) .

ولم تكن سوى هدنة مؤقتة . وكان بلدوين مخلصا فى صداقته مع حوالى ، فأعاد له الكثير من الأسرى المسلمين ، وسمح بإعادة بناء المساجد فى مدينة سروج التى كان أغلب سكانها من المسلمين ، وأمر بإعدام كبير قضاتها بعد خذلانه إذ لم يكن مقبولا من السكان لارتداده عن الإسلام . واستشعر رضوان الحلبى الخطر من هذا التحالف ، إذ راح حوالى يهدد ممتلكاته فى الفرات ، فرد بالإغارة على قافلة بضائع تضم بعض فدية بلدوين المرسلة من تل بشير إلى بلاط حوالى . وفى سبتمبر ١١٠٨م استولى حوالى على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات ، والتى لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلا، وصلب أبرز المؤيدين لرضوان فى المدينة . وعلى الفور استنجد رضوان بتنكريد . وفى أوائل أكتوبر وصل بلدوين وجوسلين إلى منبج بين حلب والفرات مع بضع مئات من فرسانهما وانضما إلى جيش حوالى الذى كان يتألف من نحو خمسمائة تركى وعدد أكبر من البدو برئاسة ابن صدقة أمير بنى مزيد ، وبذا بلغ قوام الجيش المتحد قرابة ألفي رجل . وكان مع رضوان نحو ستمائة رجل لمواجهة الجيش المتحد ، لكن تنكريد جاء بقوة قوامها ألف وخمسمائة رجل . وحمى وطيس معركة يقاتل فيها مسيحيون ومسلمون مسيحيين ومسلمين . وبينما كان جنود حوالى يدفعون فرنج أنطاكية إلى الوراء شيئا فشيئا منزلين بهم خسائر جسيمة ، كان البدو قد لاحظوا الخيول التى كان فرسان بلدوين يحتفظون بها بصورة احتياطية ، فتعذر عليهم مقاومة اغراء الخيول ، فتخلوا عن القتال وسرقوها وانطلقوا بها ، وإذ رآهم أتراك حوالى يذهبون استداروا

---

(١٣) Fulcher of Charters, II, xxviii, 1-5, pp.477-81; Albert of Aix, x,37, p.648; Matthew of Edessa, CXCIX, p.266;

ولاذوا بالفرار . ونظر بلدوين وجوسلين فوجدا أنهما وحيدان أو يكادان ، فاضطرا إلى الفرار هما أيضا مع بقايا جنودهما، وقد كادا أن يقعا فى الأسر كلاهما. وقيل إن خسائر المسيحيين بلغت نحو ألفين(١٤).

وانسحب جوسلين إلى تل بشير وعاد بلدوين إلى دلوك شمال رواندان حيث حاول تنكريد محاصرته، لكنها كانت مجرد محاولة كفّ عنها عندما سمع بشائعة اقتراب جاول. وفى نهاية الأمر استعاد بلدوين وجوسلين الرها فوجدا أهلها فى حالة من الذعر . إذ أنهم ، خشية من أن يكون بلدوين قد مات ، ومن ثم يخضعون لحكم ريتشارد الممقوت، اجتمعوا فى كنيسة القديس يوحنا حيث قام الأرمن منهم بتوجيه الدعوة إلى الأسقف اللاتينى للمشاركة فى انشاء حكومة مؤقتة إلى أن ينجلى الموقف . وعندما جاء بلدوين بعد ذلك بيومين ارتاب فى أن الأرمن كانوا يدبرون خيانة لاستعادة استقلالهم . فضرب بسرعة وبقسوة . فاعتقل الكثير من الأرمن وفقأ أعينهم . ولم تسلم عينا الأسقف الأرمينى إلا بغرامة باهظة تبرعت بها رعيته ، وأعقب ذلك طرد الأرمن قسرا من المدينة . وما حدث فى واقع الأمر غير معروف، غير أنه من الواضح أن بلدوين لا بد وأن شعر بخطر جسيم بحيث عكس اتجاه سياسته الأرمينية بصورة مفرطة(١٥).

١١٠٩م : المصالحة بين أمراء الفرنج

وبرغم انتصار تنكريد ، وبرغم مصالحة جوالى بعد أشهر قليلة مع سيده السلطان الذى خلع عليه إمارة بعيدة فى فارس ، لم يُقدِم تنكريد على أية محاولة لاخراج بلدوين من الرها، وبدلا من ذلك قاد حملة فى خريف ١١٠٨م ضد شيزر حيث قتل بصعوبة جماعة صغيرة من الأعداء فاجأها فى كهف ، ثم ارتضى الرحيل عن شيزر مقابل جواد أصيل قُدّم له هدية(١٦).

وفى الربيع التالى تورط فى النزاع الذى نشأ بين وليم جوردون وبرتراند التولوزى على ملكية الأراضى الفرنجية فى لبنان . وقوبلت موافقته على أن يصبح وليم جوردن

---

(١٤) Matthew of Edessa, CXCIX, pp. 266-7; Ibn al-Athir, pp. 265-7; Kemal ad-Din, p. 595; Ibn al- Fourat, quoted in Cahen, *op. cit.* p. 250 n. 34.

(١٥) Matthew of Edessa, CXCIV, pp. 267-8.

(١٦) Usama, ed. Hitti, pp. 99-100.

من أتباعه بتدخل سريع من المللك بلدوين باعتباره سيدا أعلى لجميع فرنج الشرق . وعندما استدعاه الملك للحضور مع غيره من قادة الفرنج لقبول تحكيمه فى المعسكر المقام أمام طرابلس ، لم يجرؤ على الرفض . وفى حضور الأمراء المجتمعين قام الملك بلدوين بتقسيم الميراث التولوزى ، ليس هذا وحسب ، بل أجبر تنكريد وبلدوين وجوسلين على التصالح والتعاون ضد الكفرة . وقد قبل تنكريد حق الملك فى التحكيم، ومن ثمّ اعترف بسيادته ، وإزاء ذلك سُمح له بأن يحتفظ بوليم جوردون كواحد من أتباعه ، وأعيد له لقب أمير الجليل وملكية المعبد فى القدس ، وحصل على وعد باستئناف ادارة الإقطاعية فى حالة عودة بوهمند إلى انطاكية. وقلّت تلك المزايا بعدما قتل وليم جوردون وانتقلت أراضيه إلى برتراند الذى اعترف بالملك بلدوين وحده سيداً له. على أن تنكريد تشجع على مهاجمة جبلة ، وهي آخر ممتلكات بنى عمار ، فاستولى عليها فى شهر يولية ١١٠٩م ، وبذا باتت حدوده تتاخم حدود برتراند جنوبا[١٧].

وقد كان أمرا ضروريا أن تتم هذه المصالحة بين أمراء الفرنج تحت الملك بلدوين . ففى أوائل ١١١٠م أعد مودود ، أتابج الموصل ، حملة ضد الفرنج تنفيذا لتعليمات سيده السلطان ، وفى ابريل توجه إلى الرها يساعده ايلغازى الأرتقى مع جنوده التركمان ، وسقمان القطبى أمير ميافارقين ، الذى كان يشتهر بأنه شاه أرمينيا. وبوصول أنباء تلك الحشود الإسلامية ، قام بلدوين (أوف لو بورج) بإيفاد جوسلين إلى القدس متوسلا إلى الملك بلدوين ارسال تعزيزات عاجلة ، ومعربا عن ريبته فى تشجيع تنكريد للأعداء. وأغار أصدقاء تنكريد ، من جانبهم ، بهجوم مماثل على بلدوين ، وان كان أقل خطورة. وكان الملك بلدوين مشغولا فى حصار بيروت ، ولم يكن ليتحرك إلا بعد الاستيلاء عليها. غير انه سارع بالانطلاق شمالا متجنبا انطاكية ، اقتصادا فى الوقت من ناحية ولأنه لايثق فى تنكريد من ناحية اخرى ، ووصل أمام الرها فى نهاية شهر يونية. وبينما كان يقترب من المدينة لحقت به القوات الأرمينية التى أرسلها كواسيل وأمير البيرة وأبو الغريب ، زعيم البهلوان . وكان مودود يحاصر الرها منذ شهرين . وعندما لاحت فى الأفق رايات فرسان القدس وبريق دروعهم تعكسه أشعة الشمس ، تراجع إلى حران وفى مأموله أن ينصب لهم كمينا ويهاجمهم هجوما خاطفا[١٨].

---

(١٧) Albert of Aix, XI, 3-13, pp. 664-8, 685-6; Ibn al-Athir, p.274.

(١٨) -Albert of Aix, XI, 16-18, pp. 670-2; Matthew of Edessa, cciv, pp. 270-3;Ibn al Qalanisi,p.103.

وأطل بلدوين أوف لى بورج من قلعته منبسط الأسارير لمقابلة ابن عمه وسيده . ثم انه سرعان ما اشتكى تنكريد . فأرسل الملك مبعوثا إلى انطاكية يستدعى تنكريد فى قواته لينضم إلى الائتلاف المسيحى ولكى يرد على الاتهامات . وتردد تنكريد . على أن مجلسه الكبير أصر على الامتثال للاستدعاء . وفور وصوله وجّه اتهامات مضادة إلى بلدوين اوف لى بورج قائلا إن مقاطعة أسروين التى تقع فيها الرها كانت دائما تعتمد على انطاكية طوال تاريخها، وانه سيدها الشرعى . فرد عليه الملك بلدوين في صرامة بأنه بصفته الملك المختار، ولكونه رئيسا للعالم المسيحى الشرقي ، يطلب من تنكريد أن يتصالح مع بلدوين (اوف لو بورج) ، وفى حالة رفض تنكريد واستمراره فى كيد المكائد مع الأتراك، فليس هو بأمير مسيحي وسيلقى حربا لا هوادة فيها باعتباره عدوا لهم . وأيّد الفرسان المجتمعون ما قاله الملك ، فاضطر تنكريد إلى التصالح(١٩) .

١١١٠ م : إخلاء الريف الرهاوى

وانطلق الجيش الفرنجى المتحد يطارد مودود الذى واصل تقهقره ليستدرج الفرنج إلى أرض معادية منتويا الالتفاف حوله بانحراف مفاجئ إلى الشمال . وأنذر الملك بلدوين فى الوقت المناسب ، فتوقف لمحاصرة قلعة شناو الواقعة إلى الشمال الغربى من حران . وهناك تبعثر الإئتلاف . إذ سمع تنكريد شائعات تقول إن رضوان الحلبى يعد العدة للهجوم على أنطاكية ، وجاء رسل من فلسطين يخبرون الملك بتحرك مصرى يهدد القدس . فتقرر التخلى عن حملة الجزيرة ، وعاد تنكريد إلى سميساط ، وقرر بلدوين (أوف لو بورج) – بناء على نصيحة الملك – عدم جدوى محاولة حماية الكونتية شرقى الفرات ، وتساقطت عبراته وهو يشاهد ما أحدثه مودود من خراب أثناء محاصرة الرها ، وخطط عدم الاحتفاظ بحاميات إلا فى القلعتين الكبيرتين أورفا وسروج وفى بعض الحصون القليلية الأصغر ، والتوقف عند أية محاولة لحراسة الحدود بعد الآن . ونصح السكان المسيحيين بالارتحال إلى الأراضى الأكثر أمانا على الضفة اليمنى للنهر الكبير ، فأخذوا بنصيحته . إذ جمع مسيحيو الريف ، وأغلبهم من الأرمن ، متعلقاتهم وتحركوا تحركا بطيئا باتجاه الغرب. على أن جواسيس مودود أخبروه بما كان يجرى تدبيره ، فأسرع فى آثارهم . وعندما وصل إلى نهر الفرات كان القادة الفرنج قد عبروا

---

(١٩) Albert of Aix, XI, 20-4, pp.672-4; Fulcher of Charters, II, xliii, 1-6, pp. 532-41; Ibn al-Qalanisi, p.102

النهر فعلا ، ولكن القاربين الكبيرين كانا محملين فوق الطاقة بالجنود ، فغرقا قبل أن يعبر المدنيون . فانقض عليهم وهم على حالهم دون سلاح ، و لم يفلت من القتل رجل أو امرأة أو طفل إلا فيما ندر . وكانت هذه الإبادة الرهيبة للفلاحين الأرمن بمثابة ضربة لم تبرأ منها المقاطعة تماما قط . فبرغم انهم لا يعوّل عليهم سياسيا ، إلا انهم كانوا أثرياء ويقومون بالأعمال الشاقة . وربما يستمر أمراء الفرنج في حكم الرها نفسها لسنوات قليلة تالية ، ومع ذلك ثبت أن مصير السيادة الفرنجية عبر الفرات هو الفشل المحتوم ، ومن ثمّ دمار رعاياهم التعساء من المسيحيين الوطنيين الخاضعين لهم[٢٠].

وفي سَورة الغضب عاد بلدوين (اوف لو بورج) على رأس كتيبة عبر النهر للانتقام من مودود . لكن رجاله كانوا فاقدي الحيلة أمام عدوهم الذي يفوقهم عددا ، وهم هالكون لا محالة ، لولا أن اسرع الملك بلدوين لنجدتهم ومعه تنكريد الذي جاء على مضض[٢١].

وعاد الملك بلدوين جنوبا . ورجع تنكريد لمعاقبة رضوان على خيانته بالإغارة على أراضيه . فهاجم حصن النقرة الواقع عبر الحدود مباشرة واستولى عليه ، ثم اتجه إلى مدينة الأثارب التي تبعد عن حلب بنحو عشرين ميلا . و لم يخف أيٌّ من زملاء رضوان المسلمين لنجدته ، فحاول أن يعرض على تنكريد ثمنا لرحيله ، لكن الثمن كان باهظا للغاية . وتوقفت المفاوضات بفرار خازن رضوان إلى معسكر تنكريد ومعه جزء من ثروة سيده . وفي نهاية الأمر سحقت آلات تنكريد أسوار مدينة الأثارب ، فاستسلمت المدينة في شهر اكتوبر ١١١٠م . وكان ثمن السلام الذي تكلفه رضوان هو مدينة الأثارب ، وزردنا الواقعة قليلا إلى الجنوب، وعشرين ألف دينار ، وعشرة من أجود الخيول العربية الأصيلة[٢٢] ثم سار تنكريد لمهاجمة شيزر وحماه.واشترى أمير شيزر من بني منقذ فترة هدنة لشهور قليلة بأربعة آلاف دينار وجواد آخر . على أنه عندما انتهت الهدنة في ربيع ١١١١م عاد تنكريد وبنى حصنا قويا على تل مجاور في ابن معشر يستطيع منه مراقبة كل تحرك من المدينة أو إليها. ثم استولى على حصن بسكرائيل الواقع على الطريق من شيزر إلى اللاذقية . ودفع أمير حمص ألفي دينار كي يُترك في

---

(٢٠) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, XI, 7, p. 464; Matthew of Edessa, cclv, p. 273; Ibn al-Qalanisi, p. 103-4.

(٢١) Albert of Aix, XI, 25, p. 675

(٢٢) Matthew of Edessa, cciv, p. 274; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 243;

سلام[٢٣].

وكان هناك عاملان اثنان أسهما في نجاح تنكريد . الأول أن البيزنطيين كانوا غير مهيأين لهجوم مضاد . وقد تسبب موت قلج أرسلان سنة ١١٠٧م فى أن بات الموقف فى الأناضول مائعا، إذ أسِر ابنه الأكبر ملكشاه في موقعة الخابور ، وهو الآن فى قبضة السلطان محمد . واستولت أرملته على ملطية والمقاطعات الشرقية لابنها الأصغر طغرل. وكان ابنه الآخر مسعود يعيش فى بلاط الدانشمند . بينما استولى ابن رابع ، وهو عربى ، على قونية فيما يبدو . وكان السلطان محمد يخشى أن يستولى مسعود أو طغرل على الميراث كله ، فأطلق سراح ملكشاه الذى وطّد نفسه فى قونية واتخذ لنفسه لقب سلطان في حدود للعرفان[٢٤] ولم يكن انهيار الحكومة المركزية السلجوقية مفيدا تماما لبيزنطة ، إذ راح السلاحقة يغيرون إغارات عديدة لامسؤولة على الأراضى البيزنطية؛ غير أن الامبراطور الكسيوس تمكن من احتلال مختلف القلاع الحدودية، ومع ذلك كان عازفا عن المخاطرة بحملة على كيليكيا أو سوريا[٢٥] وكان لسلبيته تلك المفروضة عليه أن عادت بالفائدة لا على تنكريد فقط ، وانما ايضا على كواسيل الارمينى الذى أقدم على تقوية امارته فى جبال طوروس الشرقية ، وربما بموافقة الامبراطور ، ومن ثم أفلح فى صد الهجمات التركية. وأما الأمراء الروبيون فى طوروس، وهم الأكثر تعرضا للعدوان السلجوقى ، فلم يتمكنوا من زيادة قوتهم ، ومنعهم تنكريد من التوسع فى كيليكيا ، وهكذا غدا كواسيل سيدا بلا غريم فى العالم الأرميني[٢٦].

انتشار الحشاشين

ولقد ظهرت طائفة حديدة ومدمرة فى العالم الاسلامى أضافت مزيدا من الفائدة لتنكريد وفواجع أكثر لأية قوة اسلامية مضادة للصليبيين . فخلال العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر أسس حسن الصباح فى فارس هيئة دينية ، عرفت فيما بعد بطائفة الحشاشين ، ونظمها تنظيما جيدا . وكان حسن قد تحول إلى المذهب الاسماعيلى الذي

(٢٣) Albert of Aix, XI, 43-6, pp. 684-6; Usama, ed. Hitti, pp. 95-6;.

(٢٤) See Cahen, *op. cit.* pp. 253-4. Michael the Syrian, III, pp. 194-5; Ibn al-Qalanisi, p. 81 (a vague story)

(٢٥) Anna Comnena, XIV, i, v-vi, pp. 141-6, 166-72. See Chalandon, *op.cit.* pp.254-6.

(٢٦) عن كواسيل انظر: Matthew of Edessa, clxxxvii, pp.258-9; ccx, pp.281-2.

يرعاه الخلفاء الفاطميون ، وغدا خبيرا بالباطنية وخباياها الخفية ، وطور تعاليمه على نفس اللاهوت الصوفى المجازى الاسماعيلى ، لكنها تعاليم غامضة ، على أن انجازه البارز يعتبر عمليا بصورة اكبر ، وهو انشاء نظام تتمثل وحدته فى الطاعة العمياء لأوامره باعتباره السيد الأعظم ، واستخدم هذا النظام فى اغراض سياسية موجهة ضد الخلفاء العباسيين فى بغداد الذين تحدى شرعيتهم ، وبصورة أخص ضد أعوانهم من الأسياد السلاجقة الذين ساعدت قوتهم على بقاء الخلافة العباسية . وكان سلاحه السياسى الرئيسى هو الاغتيال[٢٧] Assassination . وكانت الطوائف المبتدعة فى الاسلام دائما ما تمارس الاغتيال فى سبيل العقيدة ، على أن حسن الصباح افلح فى الارتفاع به إلى مستوى عاليا من الكفاءة . إذ أن ما كان أتباعه عليه من تكريس لا مساءلة فيه واستعدادهم للارتحال إلى اماكن قاصية والمخاطرة بأرواحهم تنفيذا لأوامره ، قد مكنه من أن يضرب أى خصم له فى أى مكان فى العالم الاسلامى . وفى سنة ١٠٩٠م اتخذ حسن مقره فى القلعة المنيعة (ألموت) ، أى عش النسر ، فى خراسان . وفى سنة ١٠٩٢م قام بأول اغتيال قتل فيه الوزير الأكبر نظام الملك الذى كان على جانب من الاقتدار بحيث يعد بمثابة الدعامة الرئيسية للأسرة الحاكمة السلجوقية فى إيران . وتتردد أسطورة متأخرة تضيف إلى هول هذا العمل ، تقول إن نظام وحسن ، ومعهما الشاعر عمر الخيام ، كانوا من يتلقون العلم معا من أستاذهم العالم موفق النيسابورى . وأقسموا جميعا على أن يساعد كل منهم زميليه مدى الحياة . وكان سلاطين السلاجقة مدركين تماما للخطر الذى استحدثه الحشاشون ، لكن محاولاتهم للقضاء على قلعة عش النسر باءت كلها بالفشل. وبعد منعطف القرن مباشرة ، سرعان ما أنشئ مقر للحشاشين فى سوريا احتضنه رضوان الحلبى الذى كان دائما على علاقة سيئة ببنى عمومته السلاجقة ، وربما كان عميق التأثر بمذهب الحشاشين ، فضلا عما كان لزعيمهم أبى طاهر ، الصائغ الفارسى ، من نفوذ كبير على رضوان . وكانت كراهية الحشاشين للسنيين تجاوز كراهيتهم للمسيحيين وربما كان استعداد رضوان للتعاون مع تنكريد يعزى بدرجة كبيرة إلى تعاطفه مع معتقدهم . وكان اغتيال جناح الدولة أمير حمص عام ١١٠٣م أول انجاز للحشاشين فى سوريا، وبعد ثلاث سنوات اغتالوا خلف ابن ملاعب أمير أمافيا، على أنه لم يستفد من موته سوى فرنج انطاكية . وعلى الرغم

---

(٢٧) (المترجم) كلمة assassinate ، ومشتقاتها فى سائر اللغات الاوربية ، بمعنى الاغتيال ، مأخوذة من الكلمة العربية "حشاشين" نظرا لما كان أتباع حسن الصباح يقدمون عليه من جسارة فائقة فى زمن الحملات الصليبية.

من أن الحشاشين لم يكشفوا عن سياستهم ، حتى ذلك الوقت ، إلاّ باغتيالات متفرقة، فقد كانوا بمثابة عنصر من عناصر السياسة الاسلامية ، دفع حتى المسيحيين إلى أن يحترموه[٢٨].

١١١١م : ائتلاف إسلامي جديد

وفي سنة ١١١١م شرع مودود ، حاكم الموصل ، في اعداد العدة مرة اخرى لتسيير جيش لمهاجمة الفرنج ، تنفيذا لأوامر سيده السلطان . وفي أوائل تلك السنة كان أهالي حلب حانقين على حاكمهم لما كان عليه من خروج على الدين وخضوع لتنكريد ، فأرسلوا وفدا إلى بلاط الخليفة في بغداد للحث على اعلان الجهاد الذى يخلصهم من تهديد الفرنج . على أن الوفد لم يجد سوى وعود خاوية، فاستثار أهالي بغداد فحدثت أعمال شغب أمام مسجد القصر. وفي تلك الآونة استقبل الخليفة سفارة من الامبراطور جاءته من القسطنطينية ، وكانت مثل هذه السفارات شيئا عاديا ، إذ كانت لكل من القسطنطينية وبغداد مصالح مشتركة في معاداة الأسرة الحاكمة السلجوقية . بيد أنه يبدو أن الامبراطور الكسيوس اعطى تعليماته لمبعوثيه هذه المرة لمناقشة السلطات الاسلامية في امكانية القيام بعمل مشترك ضد تنكريد[٢٩] ؛ وقد أسهمت تلك المفاوضات في أن أعلن المشاغبون أن الخليفة المسلم أسوأ من الامبراطور المسيحي . واستشعر الخليفة المستظهر الخطر من هذا الحماس ، لاسيما وان الاضطرابات أعاقته عن استقبال زوجته على النحو الذى يليق بها لدى عودتها من زيارة ابيها السلطان محمد في اصبهان[٣٠] ، فما كان من الخليفة الا أن أرسل إلى حميه الذى اصدر من فوره تعليماته لمودود بإنشاء تحالف جديد تحت قيادة ابنه الصغير مسعود . ووضع مودود في قائمة التحالف المساعدة التى سيقدمها سقمان صاحب ميافارقين ، واياز بن

---

(٢٨) عن الحشاشين ، انظر von Hammaer في *Histoire de l'Order des Assassins;* ، وانظر كذلك مقال "الحشاشين" Assassins و "الاسماعيلية" Ismaili في دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam* Brown; *Literary History of Persia,* vol. II, pp. 193 ff.

(٢٩) Ibn al-Qalanisi, *op. cit.* pp. 112-13، يقول ابن القلانيسي إن الامبراطور (الذى يطلق عليه لقب المتملك ، بمعنى "المغتصب" 'userper') أرسل يحذر المسلمين من مخططات الفرنج ، ويقول ضمنا إن السفارة زارت دمشق . وربما لم يقترح الكسيوس سوى عمل موجه ضد تنكريد ، إذ لم يجد تأييدا من أيّ من زعماء الفرنج في محاولته حمل تنكريد على تنفيذ معاهدة ديفول (انظر Ibn al-Athir, pp. 279-80، يورد ابن الأثير وصول السفارة الى بغداد نقلا عن ابن حمدون Ibn Hamdun.

(٣٠) Ibn al-Athir, *loc. cit.*.

ايلغازى ، والأميرين الكرديين أحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجا صاحب أربل ، وبعض نبلاء الفرس بزعامة برسق بن برسق صاحب همدان . وفى يولية أصبح الحلفاء على اهبة الاستعداد ، فانطلقوا فى سرعة خاطفة عبر الجزيرة لمحاصرة قلعة جوسلين فى تل بشير . ولدى انتشار النبأ أرسل اليهم (سلطان) أمير شيزر يستحثهم على الاسراع لنجدته . ورأى رضوان أن من السياسة أن يرسل اليهم للاسراع اليه ، إذ لا يستطيع الصمود طويلا ضد تنكريد . وتأثر مودود بما طرأ على وجدان رضوان من تغيير ، وعملا باقتراح أحمديل - الذى كان على علاقة سرية بجوسلين - رفع مودود الحصار عن تل بشير وسار بالجيش قاصدا حلب . غير أن رسالة رضوان كانت تخلو من الاخلاص ، فما أن اقترب الحلفاء المسلمون حتى اغلق رضوان البوابات دونهم واتخذ جانب الحيطة باعتقال الكثير من وجهاء المواطنين والقى بهم فى السجن رهائن منعا لأعمال الشغب . فأسقط فى يد مودود . فما كان منه الاّ أن خرّب البلاد حول حلب ثم سار جنوبا إلى شيزر حيث انضم اليه طغتكين الدمشقى الذى جاءه طلبا لمساعدته على استعادة طرابلس[٣١].

أما تنكريد ، الذى كان معسكرا أمام شيزر ، فقد انسحب إلى أفاميا وارسل إلى الملك بلدوين مستنجدا ، فاستجاب الملك واستنفر جميع فرسان الفرنج فى الشرق . فجاء معه البطريق جبلين وتابعاه الرئيسيان فى المملكة وهما إيوستاس جارنييه حاكم صيدا وولتر حاكم الخليل ، وصحبهم برتراند حاكم طرابلس فى الطريق . ومن الشمال جاء بلدوين من الرها مصطحبا تابعيه الكبيرين جوسلين حاكم تل بشير وباجان حاكم سروج . واستدعى تنكريد تابعيه من النواحى المحيطة بالإمارة الانطاكية ، فأحضر جوى - الملقب بالجدى - من طرسوس وريتشارد حاكم مرعش ، وجوى - الملقب خشب الزان - أمير حارم ، وروبرت حاكم السويدية ، ولونز حاكم تل مناس ، ومارتان حاكم اللاذقية ، وبونابلوس حاكم سرمد، وروجر حاكم هاب ، وانجراند حاكم افامية، وأرسل كل من كواسيل والروبيون كتيبة أرمينية ، حتى اوشين حاكم لامبرون أرسل القليل من الرجال ربما كان دورهم يقتصر على التجسس نيابة عن الامبراطور . وبذا خلا الشمال من الجنود ، فكانت فرصة سانحة لطغرل ارسلان صاحب ملطية، فقام على الفور بانتزاع البستان من الحامية الفرنجية الصغيرة واستولى على الجوار المحيط

---

(٣١) Ibn al-Qalanisi, pp. 114-15; Kemal ad-Din, pp. 600-1; Ibn al-Athir, p. 282; Albert of Aix, xi, 38, p. 681.

بها، ثم قام بغارة داخل كيليكيا(٣٢).

١١١١م : فشــل مودود

وإزاء هذا التركيز الفرنجى الذى بلغ قوامه ستة عشر ألف رجل ، انسحب مودود بحذر داخل اسوار شيزر رافضا استدراجه فى معركة تم الإعداد لها بعناية ، لاسيما وان الامور لم تكن على مايرام فى جيشه . فأما طغتكن فقد رفض المساعدة ما لم ينتقل مودود باتجاه الجنوب ، وفى ذلك مجازفة بالغة من الناحية الاستراتيجية ، وأما برسق الكردى فكان مريضا ورغب فى العودة إلى بلاده ، وأما سقمان فقد مات فجأة وانسحب جنوده شمالا مع جثته ، وأما أحمديل فسرعان ما تخلى كى يحاول انتزاع شيئا من الميراث ، وبقى اياز الأرتقى ، غير أن اباه ايلغازى هاجم الركب المصاحب لنعش سقمان فى محاولة لم يكتب لها النجاح للاستيلاء على كنزه . ومع تقلص قوات مودود شيئا فشيئا ، لم يتمكن من المبادرة بالهجوم ، فضلا عن انه كان عازفا عن تمضية الشتاء وهو على هذا البعد البعيد من قاعدته ، فعاد إلى الموصل فى الخريف(٣٣).

وأظهر الفشل عدم استطاعة المسلمين رد الهجوم على الفرنج طالما بقى الفرنج متحدين ، وما هذه الوحدة إلاّ ما أجبرهم عليه الملك بلدوين ، وبهذا استطاع أن ينقذ ما أرسى الفرنج دعائمة فى تلك المرحلة . وفى الصيف التالى أغار مودود على أراضى الرها ، وكان لغارته ثمارها لكنها لم تكن غارة حاسمة ، هذا فى الوقت الذى أقدم فيه طغتكن على عقد تحالف مهلهل مع رضوان ، متكرما عليه نوعا ما، إذ حاول رضوان حث أصدقائه الحشاشين على قتله(٣٤) على أن الخطر الاسلامى تبدد فى تلك المرحلة. وكان حتما أن يعاود المسيحيون الشجار فيما بينهم مرة اخرى . فأولا ، قرر الفرنج مهاجمة كواسيل الذى أدت قوته الصاعدة إلى اثارة مشاعر الغيرة لدى بلدوين الأورفى وتنكريد ، فأغار تنكريد على أراضيه واستولى على رعبان وراح

---

(٣٢) Albert of Aix, xi, 39-40, pp.682-3، ويورد ألبرت قائمة الحلفاء؛ Matthew of Edessa,ccvi,p.275، ويذكر ميخائيل السورى الاستيلاء على البستان، Michael the Syrian, iii, p. 205.

(٣٣) Fulcher of Charters, ii, xlv, 1-9, pp. 549-57; Albert of Aix, xi, 41-3, pp. 683-4.

(٣٤) Kemal ad-Din, pp.601-2; Albert of Aix (xi, 43, p. 684)، ويذكر ألبرت الاستيلاء على عزاز فى ذلك الوقت تقريبا، غير ان عزاز كانت ما تزال فى حوزة المسلمين عام ١١١٨م (انظر ادناه ص ١٦٤).

بعد العدة لمحاصرة كيسوم قبل احلال السلام بينهما[٣٥] ؛ وبعد ذلك تحول بلدوين كونت الرها فجأة ضد ابن عمته جوسلين . فقد حدث فى صيف ١١١٢م ، عندما كان مودود يهاجم الرها ، أن اكتشف جوسلين مؤامرة ارمينية تستهدف تسليم المدينة للمسلمين ، فأخطر بلدوين وبذا انقذه واشترك معه فى معاقبة الخونة . غير أن بلدوين سمع فى الشتاء التالى شائعات تقول أن جوسلين تحدث عن خلعه ليحل محله ، إذ كانت اقطاعية تل بشير إقطاعية غنية بينما تعانى أراضى الرها بقسوة من الغارات واضطرار السكان إلى الهجرة . وكان الأرمن يحبون جوسلين بينما يحملون الكراهية لبلدوين الآن . ولم يكن فى تصرفات جوسلين ما يؤكد ريبة بلدوين التى ربما كانت قائمة على اساس الغيرة . وفى نهاية العام استدعى بلدوين جوسلين بدعوى المرض وضرورة مناقشة مسألة استخلافه . وعندما وصل جوسلين ، دون أن تخامره أدنى ريبة ، فوجئ باتهامه بالتقاعس عن امداد الرها بما يكفى من الأطعمة من أراضيه ، والقى به فى غيابة السجن. ولم يطلق سراحه الا بعد أن وعد بالتنازل عن الاقطاعية . وفى بداية العام التالى تقريبا رحل جنوبا إلى القدس حيث أقطعه الملك بلدوين إمارة الجليل[٣٦].

١١١٢م : موت تنكريد

شهد شمال سوريا تغيرات أخرى كثيرة فى سنة ١١٢١م . إذ مات كواسيل يوم ٢١ أكتوبر ، فسارعت ارملته إلى اغداق تنكريد بالهدايا كى تضمن مساعدته فى استخلاف ابنها بالتبنى واسيل دغا، فأرسلت ضمن ما ارسلت تاجها المرصّع بالجواهر المخصص للأميرة سيشيليا ، غير أن تنكريد كان يشتهى الميراث لنفسه[٣٧] . ومن بين امراء الفرنج ، كان ريتشارد (اوف برنسيبات) قد مات فى وقت ما من الربيع[٣٨]، ومات برتراند كونت طرابلس فى يناير أو فبراير ، ولم يكن ابن برتراند الصغير وولى العهد (بونز) يشارك أباه حبه للبيزنطيين ولا كراهته لتنكريد ، وربما كان مجلسه يعتقد

---

(٣٥) Matthew of Edessa, ccix, pp.280-1.

(٣٦) William of Tyre, xi, 22, pp.489-92; Matthew of Edessa, ccviii, p.280، ويُلمع المؤرخ ماثيو الأروفى الى وجود مؤامرة ضد الفرنج أثناء حصار مودود؛ *Chron. Anon. Syr.*, p.86; Ibn al-Qalanisi, op. cit. p.133

(٣٧) Matthew of Edessa, ccx, pp.281-2

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 127، يقول إن نبأ وفاة برتراند وصل دمشق يوم ٣ فبراير.

أن حسن نوايا تنكريد ضرورية كي يوطد الكونت الشاب مكانته ، ومن ثم جرت مصالحة بين بلاطي طرابلس وانطاكية مما ضخّم من نفوذ تنكريد[٣٩] . وتأكدت سيادة تنكريد ، إذ بات جوسلين مخزيا ، وهذا كونت طرابلس صديقه، ولقى أمير الأرمن العظيم حتفه، فراح يعد العدة لحملة يقهر بها كواسيل ويضم اراضيه ، لولا أن سقط مريضا فجأة . وترددت الهمسات حتما عن السم ، على أن الراجح هو مرض التيفود . وإذ أيقن من عدم شفائه من مرضه ، سمّى ابن اخيه روجر (اوف ساليرنو) ، وهو ابن روجر (اوف برنسبات)، وريثا له . على أنه أجبر روجر على أن يقسم على تسليم السلطة لإبن بوهمند الصغير لو جاء الصبى إلى الشرق ، وفى ذات الوقت طلب من بونز أن يتزوج من أرملته الفرنسية التى لم يبن بها - سيشيليا الفرنسية . ومات يوم ٢١ ديسمبر عام ١١١٢م ولم يجاوز السادسة والثلاثين[٤٠] .

وليست شخصية تنكريد ساطعة بوضوح بين طيات ضباب التاريخ . كان بالغ النشاط والقدرة ، وكان دبلوماسيا حصيفا ، وجنديا بارزا ، وكان له حكمة تتزايد كلما تقدم به العمر . لكنه كان يفتقر إلى السحر الذى كان يحيط بخاله بوهمند . ولا يبدو أنه كان محبوبا بين رجاله ، بخلاف كاتب سيرته المتملق - رادولف (اوف كاين). وكان رجلا صعبا ، دائم الاهتمام بنفسه ، متجردا من المبادئ الخلقية . وكان منضبطا مع بوهمند ، ومع ذلك تصرف حياله بالغدر ، كما كان غادرا مع رفيقه بلدوين كونت الرها . ولولا تدخل الملك بلدوين ، الذى لا يقل عنه عنادا وإنما يفوقه فى سعة الأفق ، لتسببت طموحاته فى أن يمضى إلى غاية المدى فى تحطيم فرنج الشرق، إذ كان يتطلع إلى ترسيخ امارة انطاكية وتضخيمها ، وقد اصاب فى ذلك نجاحا بالغا، ولولاه لتداعى ما أسسه بوهمند . وما تاريخ أمراء انطاكية الطويل إلا ثمرة نشاطه . ولم يكن من بين جميع أمراء الحملة الصليبية الاولى سوى الملك بلدوين ، وهو المغامر المفلس كشأنه ، الذى تركت حياته أثرها هناك . ومع ذلك ، وبينما كان محمولا ليدفن فى رواق كتدرائية القديس بطرس ، لم يجد المؤرخون ما يؤرخونه من مشاهد الحزن عليه سوى القليل . وكان المؤرخ الوحيد الذى كتب عنه بحرارة وتفجع لموته هو ماثيو الأورفى الأرمينى Matthew of Edessa[٤١] .

---

(٣٩) يبدو ان (بونز) قد التحق لبعض الوقت بعائلة تنكريد ، وتلقى منه لقب فروسيته.

(٤٠) Fulcher of Charters, ii, xlvii, i, pp. 562-3 (12 December); Albert of Aix, xii, 8, p.693 (about Advent);

(٤١) Matthew of Edessa, loc. cit.، وصفه بأنه "أعظم المخلصين أجمعين".

وتحقق الوفاق بين الفرنج بتولى روجر امارة انطاكية - وقد اتخذ لنفسه لقب الإمارة على الرغم من اعترافه بحق ابن بوهمند في المطالبة بها. وتزوج من سيشيليا اخت بلدوين كونت الرها[٤٢] وبرغم ما اشتهر به من انه زوج غير مخلص ، كان دائما على علاقة طيبة بأخى زوجته . وأصبحت اخته ، ماريا، الزوجة الثانية لجوسلين (اوف كورتناي)[٤٣] وتزوج بونز امير طرابلس من أرملة تنكريد ، سيشيليا الفرنسية ، نزولا على رغبة تنكريد ، وغدا صديقا دائما لروجر[٤٤]، ووحد بين الامراء الثلاثة اتفاقهم على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى . ونتيجة لهذا التضامن النادر الحدوث ، وتجدد النزاعات فيما بين المسلمين في الوقت ذاته ، ارتفعت السيادة الفرنجية في شمال سوريا إلى اقصى ذروتها.

١١١٣م : موت مودود ورضوان

وشرع الملك بلدوين عام ١١١٣م في حملة ضد طغتكين صاحب دمشق الذى أفلح اخيرا في الحصول على مساعدة مودود وأياز الأرتقي . واستدرج الحلفاء المسلمون الملك بلدوين إلى الأراضى الدمشقية حتى جسر الصنبرة أعلى نهر الأردن . ونسى الملك بلدوين هذه المرة ما اعتاد عليه من توخى جانب الحذر ، فلحقته هزيمة منكرة[٤٥] ، فاستنجد بالأميرين بونز وروجر لمساعدته . ولولا وصولهما مع جميع فرسانهما لما استطاع الملك أن ينجو بنفسه . وتقدم المسلمون حتى وصلوا إلى جوار طبرية ، لكنهم لم يغامروا بمواجهة الجيش الفرنجي كله . وبعد اسابيع قليلة من التردد عاد مودود

---

(٤٢) William of Tyre, xi, 9, p. 523، يطلق على روجر زوج اخت بلدوين ، وكذلك يفعل Walter the Chancellor, ii, 16, p. 131. ويرد اسم سيشيليا في ميثاق عام ١١٢٦م (Rhrich, Regesta, Additamenta, p. 9)، ويعطى Orderic Vitalis, x,23,iv,p.158 لروجر زوجة تركية اسمها ميلاز، وهى ابنة امير الدانشمند التى - بناء على روايته - ضمنت اطلاق سراح بوهمند . انظر اعلاه.

(٤٣) لم تكن ماريا لتعرف لولا شجار نشأ لاحقا بسبب بائنتها. انظر ادناه الصفحتين ١٦١ و١٨١ . ويرد في تاريخ مجهول *Chron. Anon. Syr.* أن جوسلين تزوجها عام ١١٢١م (ص ٨٩) ، غير انه من الواضح ان الزواج تم ترتيبه في حياة روجر. واعتبرت ابنتهما (ستيفاني) عجوزا في عام ١١٦١م - انظر ادناه ص ٣٦٢ ، الملحوظة ١

(٤٤) استنادا الى رواية (Albert of Aix (xii, 19, p. 701 ، لم يتم الزواج حتى عام ١١١٥م . على انه يبدو أن ابن بونز (ريموند الثانى) كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة عام ١١٣٦م.

(٤٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 132-6.

وطغتكين إلى دمشق . وهناك ، وفى آخر يوم من شهر سبتمبر ، وبينما كان مودود يخطو إلى داخل المسجد الكبير مع مضيفه، انقض عليه أحد الحشاشين وطعنه فى مقتل . وفى الحال قتل طغتكين القاتل ليبرئ نفسه من الجريمة. ورغم أن الرأى العام اعتبره مذنبا، الا انه التمس له العذر تأسيسا على أن مودود كانت له مخططاته حيال دمشق[٤٦] .

وتحرر الفرنج بموت مودود من عدو مرعب . وبعد مرور شهرين ، مات رضوان صاحب حلب فى ١٠ يناير ١١١٣م[٤٧] ، وكانت علاقاته الباردة مع رفاقه المسلمين ذات عون كبير فى توطيد الفرنج فى سوريا ، على أن الإسلام لم يستفد كثيرا بغيابة عن الساحة ، إذ خلفه ابنه ألب ارسلان الذى كان صبيا فى السادسة عشرة من عمره ، وكان ضعيفا فاسدا به قسوة وخاضعا خضوعا تاما لخصيّه المفضل لؤلؤ. أما الحشاشون، الذين كانوا فى حماية رضوان قبل موته ، فقد عاملهم الحكم الجديد بجفاء ، بناء على الأوامر الصريحة من السلطان محمد . الذى أرسل مبعوثه ابن بديع الفارسى وأجبر ألب ارسلان على اصدار أمر بقتل أبى طاهر وغيره من قادة الطائفة . وانطلق سكان حلب النافرين من الحشاشين منذ وقت طويل يقتلون من تناله ايديهم . وجاهدت الطائفة تدافع عن نفسها ، فحاولت الاستيلاء على القلعة بينما كان رضوان يحتضر، لكن المحاولة باءت بالفشل[٤٨] . ثم حاول افراد الطائفة مباغتة قلعة شيزر أثناء أن كانت أسرة الأمير تشاهد احتفال المسيحيين بعيد الفصح ، غير أن أهل المدينة شاركو الأمير فى مقاومتهم ، وكان نجاحهم الوحيد هو الاستيلاء على حصن قُليّة القريب من بالس حيث يقترب طريق حلب بغداد من الفرات ، وبخلاف ذلك تحولوا إلى السريّة أو لاذوا بحماية الفرنج ، غير انهم كانوا لا يزالون اقوياء وبدأوا يحولون انتباههم إلى لبنان[٤٩]
و لم يدم عهد الب ارسلان طويلا . وعندما ذهب فى زيارة ودية إلى دمشق استقبله طغتكين استقبال الملوك . على أنه حدث فى سبتمبر ١١١٤م أن ارتاع الخصّى لؤلؤ من تصرفاته الوحشية حتى أنه كان يخشى على حياته، فتدبر قتله في فراشه ونصّب مكانه على العرش أخاه سلطانشاه البالغ من العمر ست سنوات. وخلال السنوات القليلة التى

---

(٤٦) *Ibid.* pp. 137-42

(٤٧) *Ibid*, p. 144; Kemal ad-Din, p. 602.

(٤٨) Ibn al-Qalanisi, pp.145-6; Kemal ad-Din, pp.603-4. See Cahen, op. cit. pp. 267-8.

(٤٩) (Ibn al-Qalanisi, pp. 146-8;Usama, ed. Hitti, pp.146,153) و لم يذكر أسامة تاريخا للمحاولة فى شيزر.

تلت كان لؤلؤ وضابطه شمس الخواص يسيطران على القلعة ويتحكمان في جيش حلب، وان كان وجهاء المدينة هم الذين يمسكون بزمام السلطة الحقيقة ، ولم يكن لؤلؤ ليجرؤ على اهمال رغباتهم. ونتيجة لغياب أمير قوى عن حلب، فضلا عن ضآلة جيشها، باتت عاجزة لاتقدر على أكثر من الدفاع عن أسوارها . وبرغم إبعاد الحشاشين ، اعتبر جيرانها أن هناك ميول شيعية خطرة لدى السلطة الجديدة بسبب النفوذ الفارسى فى المدينة ، مما أوجد لدى لؤلؤ الاستعداد لمواصلة السير على الدرب الذى سار عليه رضوان باقامة صداقة خانعة مع فرنج انطاكية(٥٠).

وفى أعقاب موت مودود أمر السلطان بأن يوكل حكم الموصل إلى ممثله لدى بلاط الخليفة ، أقسنقر البرسقى ، وهو جندى تركى ابتسم له الحظ كسلفه . وكان من بين واجباته ادارة العمليات ضد الفرنج . ففى شهر مايو ١١١٤م قاد جيشا قوامه خمسة عشر الف رجل لمهاجمة الرها ، وبصحبته ابن السلطان مسعود تميراك امير سنقار، وتركى صغير يدعى عماد الدين زنكى ، وهو ابن آقسنقر الأسبق الذى كان حاكما لحلب وحماه فى السنوات السابقة على الحملة الصليبية . واستدعى ايلغازى حاكم ماردين للانضمام للحملة، لكنه رفض ، فكانت الخطوة الاولى هى السير إلى ماردين الأمر الذى اضطر ايلغازى إلى الرضوخ فأرسل ابنه أياز على رأس كتيبة من جنود التركمان . وحاصر المسلمون الرها طوال شهرين ، غير أن حاميتها كانت قوية ولدى المدينة الكثير من المؤن ، بينما لم يكن الريف المنهوب صالحا لإطعام القوات المحاصرة ، ومن ثمّ اضطر البرسقى إلى رفع الحصار واكتفى بنهب الريف إلى أن أتاح له الأرمن مجالا جديدا للعمل(٥١).

١١١٦م : سقوط واسيل دغا

بعد مؤامرة الأرمن عام ١١١٢م لتسليم الرها لمودود ، حُبكت مؤامرة ثانية وقت أن كان غزو مودود للأراضى الفرنجية وشيكا ، وبينما كان بلدوين فى تل بشير يتسلم اقطاعية جوسلين . واكتُشِفت المؤامرة فى الوقت المناسب . وفي صرامة طرد بلدوين السكان الأرمن جميعا من عاصمته فانتقلوا إلى سميساط . وفى بدايات سنة ١١١٤م ،

(٥٠) Ibn al-Qalanisi, pp. 148-9; Kemal ad-Din, pp. 605-6.

(٥١) Matthew of Edessa,ccxii,pp.282-3;ccxvi,p.287; Chron.Anon.Syr.p.86;Ibn al-Athir, pp. 292-3

وبعد أن لقّنهم الدرس سمح لهم بـالعودة ، غير أن البعض كـان قـد ذهـب إلى أراضـي واسيل دغا - وريث كواسيل - الذى استشعر الخطر بطريقـة مـا مـن محـاولات فرنجيـة تستهدف ميراثه . والآن قام هو وأمه التى تبنّته بدعوة البرسقى لتخليصهما من الفرنج ، فأرسل البرسقى أحد ضباطه - سنقر الطويل - للتفاوض مع واسيل دغا فـى كيسـوم . وسمع الفرنج بذلك ، وهاجموا سنقر والأرمن ، ولكن دون جـدوى . على أنـه قبـل أن ينتهز المسلمون هذا التحالف الجديد دب خلاف بـين البرسـقى وأيـاز الأرتقـى فسـجن الأول الثانى . وما أن سمـع ايلغـازى - وهـو أبـو أيـاز - بذلـك حتـى اسـتنفر عشـيرته وسحب جنوده التركمان وهاجم البرسقى وهزمه شر هزيمة وأجبره على الانسحاب إلى الموصل . ومرة اخرى تنتهى الحملة الاسلامية المضادة للصليبية بالإخفاق التام(٥٢).

ودفع الأرمن الثمن . إذ تقدم الفرنج لمعاقبة واسيل دغا ، ولم يتمكنـوا مـن اقتحـام عاصمته المنيعة رعبان . على انه رأى من الحكمة التحالف مع الأمـير الأرمينـى تـوروس الذى دعاه إلى الحضـور لمناقشـة زواج تحـالف ، لكنـه اعتقلـه وسـجنه وباعـه لبلدويـن كونت الرها . ولم يطلق سراح واسيل دغـا إلاّ بعـد وعـد بـالتخلى عـن أراضيـه كلهـا لبلدوين كونت الرها ، وسُمح له بالذهـاب إلى القسـطنطينية للتقـاعد . وبعـد أن ضـم بلدوين رعبان وكيسوم سنة ١١١٦م قرر اخضاع الامارات الأرمينية المتبقيـة فـى وادى الفرات . وبدأ فى سنة ١١١٧م بخلع أبى الغريب حـاكم البيرة ، وهـو الـذى سبق أن ساعده بلدوين ابّان الحملة الصليبية الاولى فى تنصيب نفسه ، وأعطى مدينة البيرة لابـن خالته - واليران أوف لي بويسيه - الذى تزوج ابنة أبى الغريب . وبعد ذلك أغار علـى باجرات - شقيق واسـيل فـازيل - فـى لورديتـه الصغـيرة فـى خـوروس الواقعـة غربـى الفرات ، وهو العدو السابق والصديق اللاحق لبلدوين الأول . وأخـيرا اكتسـح أراضـى حليف آخر من حلفاء بلدوين ، هو الأمير قنسطنطين الجارجارى ، الذى اعتقله وسجنه في سميساط حيث وقع فيها زلزال أهلك هذه الضحية التعسة . وسرعان ما وجد الأمـير الأرمينى نفسه العاهل الوحيد الأرمينى المستقل الباقى ، مما جعله يشعر بالرضـا . علـى أن الشعب الأرمينى - باستثناء الروبيين - كان قد فقد الثقة فى الفرنج(٥٣).

وكان تقلص الخطر من الشرق أحد العوامل التى ساعدت بلدوين كونت الرها فى

---

(٥٢) -Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-4; Michael the Syrian, iii, pp. 216-17; Ibn al Athir, pp. 292-3.

(٥٣) Matthew of Edessa, ccxiii-ccxiv, pp. 293-5. *Chron. Anon. Syr.* p. 86. وربما كان والـيران شقيقا لهيو (أوف لى بواسيه) الذى كانت أمه Alice خالة بلدوين الثاني وابنة عم تنكريد.

غزواته الأرمينية . وكان العام الذى سبقه زاخرا بالأحداث المثيرة ، ففى نوفمبر ١١١٤م حدث زلزال عنيف تسبب فى خراب الأراضى الفرنجية من انطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها . وعلى أثر ما أشيع من أن السلطان محمد يعد العدة لحملة جديدة ، سارع روجر امير انطاكية فى جولة تفقد فيها حصونه الرئيسية(٥٤).

١١١٥م : حملة برسق بن برسق

كان السلطان محمد آخر السلاطين السلاجقة العظام . فقد تسلم من اخيه بركياروق دولة متفسخة ، لكنه استطاع فرض النظام فى العراق وايران ، والسيطرة على العرب المتمردين فى الصحراء الشرقية عام ١١٠٨م ، وتمكن من كبح جماح الحشاشين ، وانصاع له الخليفة المستظهر الذى كان كسولا فى قصره يكتب اشعار الحب . غير أن محاولاته فى تنظيم الحملات لطرد الفرنج من سوريا باءت بالفشل الواحدة تلو الأخرى . وأيقن من أن النجاح لا يتأتى الا بفرض سلطته على الأمراء المسلمين هناك الذين تسببت غيرتهم وعصيانهم فى خيبة مساعيه . فبدأ بارسال ابنه مسعود لمباشرة حكومة الموصل ومن ثمّ ضمن ولاءها . وفى فبراير ١١١٥م سيّر جيشا كبيرا باتجاه الغرب يقوده أمير همدان ، برسق بن برسق ، وفى صحبته أمير الموصل السابق ، جيوش بك ، وكذلك أمير سنجر ، تيمرك ، لمساعدته.

وشعر امراء سوريا المسلمون بالخطر كالفرنج . ولم يكن باستطاعة السلطان محمد أن يعتمد على احد فى سوريا سوى بنى منقذ فى شيزر وابن قراجا أمير حمص . وبانتشار انباء الحملة سارع ايلغازى الأرتقى إلى دمشق لتأكيد تحالفه مع طغتكين ، غير انه فى طريق عودته وقع فى كمين اعده له أمير حمص واعتقله . ونتيجة لتهديد من طغتكين ، أطلق امير حمص سراح ايلغازى شريطة احتجاز ابنه مكانه. وتمكن ايلغازى من العودة إلى مردين وجمع جنوده ثم اتجه غربا مرة اخرى كى ينضم إلى طغتكين ووعد الخصى لؤلؤ بمساعدة الجانبين كليهما. غير انه رأى أن انتصار السلطان ليس فى صالحه، فانضم إلى طغتكين وايلغازى . وفى تلك الأثناء جمع روجر امير انطاكية قواته واتخذ لنفسه موضعا بجانب الجسر الحديدى عبر نهر العاصى ، حيث عقد معاهدة مع طغتكين وحلفائه – ولا نعرف بمبادرة من – وطلب انضمام جيشهم إلى جيشه امام اسوار افامية

---

(٥٤) Fulcher of Charters, II,Iii,1-5,pp.578-80; Water the Chancellor, I,pp.83-4; Matthew of Edessa, ccxvii, pp.287-9; Ibn al-Qalanisi, p. 149; Kemal ad-Din, p. 607.

الذى يعد مكانا رائعا لمراقبة تحركات برسق عندما يضطر إلى عبور نهر الفرات والتقدم نحو اصدقائه فى شيزر . وقدم الفرنج نحو ألفى فارس وراحل ، وقدم حلفاؤهم المسلمون نحو خمسة آلاف.

ولم يلق برسق أية مقاومة أثناء مروره بجيشه الضخم عبر الجزيرة . وكان فى مأموله اتخاذ حلب مقرا لقيادته ، لكنه عندما علم بانضمام لؤلؤ إلى اعدائه ، وعلى رأسهم طغتكين ، تحول جنوبا لمهاجمة هذا الأخير . وتمكن بمساعدة أمير حمص تمكن من شن هجوم مفاجئ على حماه التى كانت تابعة لطغتكين وفيها الكثير من امتعة الجيش ، وسقطت المدينة وانتهبت مما اثار حنق المسلمين المحليين ، ثم إنه اتجه بعد ذلك إلى حصن كفرطاب الفرنجى . وأراد روجر القيام بهجوم مضلّل ، غير أن طغتكين أقنعه بخطورة ما يريده ، وبدلا من ذلك طلب الحلفاء مساعدة الملك بلدوين وبونز امير طرابلس فأسرعا شمالا ، الأول يقود خمسمائة فارس وألف راحل ومع الثانى مائتى فارس وألفى راحل ، ودخلا المعسكر فى أفاميا على نفير الأبواق . أما برسق ، وهو الآن فى قاعدته فى شيزر ، فقد أملت عليه الحكمة الانسحاب نحو الجزيرة . ولقد كان لخدعته فعلها . إذ اعتبر بلدوين وبونز أن سُحُب الخطر قد انقشعت وعادا أدراجهما ، وانفض جيش الحلفاء . واندفع برسق فجأة عائدا إلى كفرطاب واستولى على القلعة بعد مقاومة ضئيلة وسلمها إلى بنى منقذ . وعلى الفور كاتبه لؤلؤ من حلب - إما بوازع الخيانة أو بدافع الجبن - معتذرا عمّا سبق من خطاياه وطالبا ارسال كتيبة لاحتلال حلب . فأرسل برسق اليه جيوش بك على رأس فيلقه ، وبذا ضعفت قوته . ولم يكن روجر قد سرح جيشه ، وليس بامكانه انتظار وصول العون من الملك بلدوين ولا من بونز ولا حتى من طغتكين ، وبعد أن استنجد ببلدوين كونت الرها ، رجا البطريق برنارد أن يبارك جنوده وأن يسمح بارسال قطعة من الصليب الحقيقى يأخذونها معهم ، ثم غادر انطاكية يوم ١٢ سبتمبر وسار جنوبا أعلى وادى العاصى إلى شاسيل روج ، بينما سار برسق شمال بطول خط مواز فى داخل البلاد . ولم يعلم أيٌ من الجيشين بموقع الآخر ، إلى أن اندفع داخل المعسكر فى (شاسيل روج) فارس يدعى ثيودور برنفيل كان فى حملة استكشافيه ، وقال إنه شاهد جيش السلطان يتحرك فى الغابه باتجاه تل دانيث بالقرب من مدينة سرميد . وفى صباح الرابع عشر من سبتمبر زحف الجيش الفرنجى فوق منطقة جبلية معترضة ، وانقض على برسق بينما كان الجنود يسيرون فى غير عناية وامامهم الحيوانات حاملة الأمتعة ، وكانت بعض الكتائب قد توقفت بالفعل لنصب الخيام للاستراحة فترة الظهيرة ، بينما كان بعض أمراء الجيش قد ذهبوا إلى المزارع

المجاورة طلبا للمؤن ، وذهب البعض الآخر لاحتلال بزاعه . وحينما بدأت المعركة كان برسق وحيدا غاب عنه أكفأ قواده.

١١١٥م : انتصار الفرنج فى تل دانيت

ولم يكن هجوم الفرنج متوقعا قط . إذ ظهروا فجأة من بين الأشجار واندفعوا بسرعة نحو المعسكر الذى لم يكن مستعدا تماما ، وسرعان ما عمت الفوضى الجيش الاسلامى كله ، وتعذر على برسق لم شمل رجاله ، وكاد هو نفسه أن يقع فى الأسر ، لكنه تمكن من التقهقر مع بضع مئات من الفرسان إلى تل ناتئ بالقرب من تل دانيت حيث دحر الأعداء لفترة ، وبذل غاية جهده كى يسقط قتيلا بدلا من أن يواجه عار الهزيمة ، غير أن حراسه أقنعوه فى نهاية الأمر بعدم جدوى مواصلة القتال فانسحب باتجاه الشرق . وكان تميراك ، أمير سنجار ، أكثر نجاحا بادئ الأمر ودحر ميمنة الفرنج ، لكن جوى فرسنل ، أمير هارنس ، أحضر جنودا آخرين وتمكن من أن يحيط برجال سنجار ، ولم يسلم من الفرسان سوى أسرعهم . وبحلول المساء كانت بقايا الجيش الاسلامى تسرع فى غير نظام نحو الجزيرة(٥٥).

كان انتصار الفرنج فى تل دانيت نهاية محاولات سلاطين ايران السلاجقة لاستعادة سوريا. ومات برسق بعد المعركة بأشهر قليلة من فرط الخزى والمهانة ، ولم يكن السلطان محمد على استعداد للمخاطرة بحملة جديدة . والآن ، أصبح الخطر الوحيد الذى يتهدد الفرنج من الشرق هو الأمراء شبه المستقلين الذين كانوا غير متحدين وفى حالة من الإحباط . وغدت مكانة روجر امير انطاكية فى أعلى درجاتها ، وسرعان ما استرد رجاله كفرطاب التى كان برسق قد سلمها لبنى منقذ(٥٦) . وشعر أميرا حلب ودمشق بالخطر الحقيقى ، فسارع الأخير ، طغتكين ، إلى عقد سلام مع السلطان محمد الذى غفر له لكنه لم يقدم له معونة مادية(٥٧). وفى حلب قبع الخصي لؤلؤ يرقب

---

(٥٥) Fulcher of Charters, II, Iiv, 1-6, pp.586-90; Albert of Aix, XII, 19, p. 701; Walter the Chancellor, I, 6-7, pp.92-6 (the fullest account); al-Azimi, p.509; Ibn Hamdun in Ibn al-Athir, pp.295-8; Usama, ed. Hitti, pp.102-6; Michael the Syrian, III, p. 217; *Chron. Anon. Syr.* p.86.

(٥٦) Usama, ed. Hitti, p. 106.

(٥٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 151-2، الذى يقول ان المبادأة جاءت من جانب السلطان، Ibn Hamdun, *loc. cit.*

الأحداث وهو فاقد الحيلة ، بينما عزز الفرنج مراكزهم من حوله ، فسعى إلى عقد تحالف أقوى مع طغتكين، غير انه كان سيئ السمعة على اجماله . وفى شهر مايو ١١١٧م اغتاله أتراك من حاميته وخلفه زميل خصي كذلك ، هو الأرمينى المرتد ياروقتاش ، الذى بادر بطلب مساندة الفرنج ، مانحا روجر حصن القبة الواقع على الطريق بين حلب ودمشق الذى يسلكه الحجاج إلى مكة ، كما منحه حق جباية رسوم الحج(٥٨) . ولم تنفعه تلك التنازلات.إذ بدأ قتلة لؤلؤ يتصرفون باسم الإبن الأصغر لرضوان ، سلطانشاه ، الذى لم يعترف به ، فالتمس ياروقتاش العون من ايلغازى الأرتقى . بيد انه عندما وصل جنود ايلغازى إلى حلب وجدوا أن ياروقتاش قد سقط وأن وزير سلطانشاه ، ابن الملحى الدمشقى ، يتولى ادارة الحكومة ، فانسحب ايلغازى تاركا ابنه ، كزل تمرتاش ، ممثلا له فى حلب بعد أن استولى على قلعة بالس على الفرات ، وقد مُنحت له نظير مساعدته فيما لو حاول البرسقى - الذى يحكم الآن فى الرحبة - الاستيلاء على حلب التى زعم أن السلطان عهد بها اليه . على أن ابن الملحى أيقن من أن ايلغازى ليس هو الحليف الذي يعتمد عليه تماما ، فقام بتسليم حلب ، وكذلك كزل ابن ايلغازى ، إلى أمير حمص - خيرخان - وأعد العدة لاستعادة بالس بمساعدة الفرنج . بيد أن تحالف ايلغازى مع طغتكين ثبتت جديته . فبينما سار طغتكين إلى حمص وأجبر خيرخان على التقاعد ، حرر ايلغازى بالس ودخل حلب فى صيف ١١١٨م . وكان ابن الملحى قد سبق وان استُبدل بخصيٍّ اسود يدعى ابن قراجا ، فاعتقله ايلغازى وحبسه ومعه ابن الملحى والأمير سلطانشاه(٥٩) ، وأثناء هذه التحركات والمكائد ، كانت الأطراف جميعا كل بدوره تسعى إلى تدخل الفرنج. ورغم أن روجر لم يكن قط سيدا لحلب نفسها، إلا انه استطاع احتلال الأراضى الواقعة شمالها، فاحتل عزاز سنة ١١١٨م ، وبزاعة فى أوائل سنة ١١١٩م ، وبهذا عزل حلب عن الفرات فى الشرق(٦٠).

وفى ذات الوقت على وجه التقريب، كان روجر يعزز حدوده الجنوبية، فاستولى على قلعة المرقب الواقعة على تل مرتفع يشرف على البحر من وراء بلنياس (بانياس - البلانة)(٦١).

---

(٥٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 155-6.

(٥٩) Ibn al-Qalalnisi, *loc. cit.* Kemal ad-Din, pp. 610-15; Ibn al-Athir, pp. 308-9.

(٦٠) Matthew of Edessa, ccxxvii, pp. 297-8; Kemal ad-Din, pp. 614-15.

(٦١) للاطلاع على المصادر العربية ، انظر المناقشة فى.Cahen, op. cit.p.279 n. 16 ، ويبدو ان بونز أمير

وهكذا ، وبنهاية سنة ١١١٨م ، أصبح هناك توازن في شمال سوريا . إذ غدا الفرنج جانبا مقبولا في نمط البلاد . وكانوا لا يزالون بعيدين عن الكثرة العددية ، غير أن تسليحهم كان جيدا ، وراحوا يشيدون القلاع ويتعلمون كيف يكيّفون انفسهم مع نمط الحياة المحلي . فضلا عن أنهم كانوا آنذاك متحدين ، وكان روجر أمير انطاكية أعظم امراء المسيحيين في الشمال إلى حد بعيد ، ولم يسبب تعاظمه امتعاضا من جانب بلدوين كونت الرها ولا من بونز أمير طرابلس ، ولم يحاول من جانبه أن يتسيد عليهما وانما شاركهماالإعتراف بسيادة ملك القدس . علي أن الأمراء المسلمين كانوا أقوى نفيرا، لكن الفرقة سادتهم والغيرة غلبتهم ، ولم يجنبهم الفوضى سوى التحالف بين طغتكين والأراتقة ، ومن ثمّ كان التوازن يميل بصورة طفيفة لصالح الفرنج . ولم تكن هناك قوة خارجية في وضع يمكنها من الإخلال بهذا التوازن . إذ ليس بمقدور الملك بلدوين التدخل دائما في الشمال خشية تهديد الفاطميين في مؤخرته ، كما أن سلطان ايران السلجوقي كفّ بعد كارثة تل دانيث عن أية محاولة فعلية يؤكد بها سلطته في سوريا . كما كانت القوتان الرئيسيتان في الأناضول ، بيزنطة وسلاجقة الروم ، في وضع متوازن وقتئذ.

١١١٨م : صدع في الكنيسة اليعقوبية

بل كان المسيحيون الوطنيون في حالة توازن كذلك . ذلك أن الرعايا الأرمن في الرها وأنطاكية كانوا بعيدين عن الأوهام وكان بهم غدر ، وكانت الدويلة الأرمينية الوحيدة الحرة الباقية ، وهي امارة الروبيين في جبال طوروس، على استعداد للتنسيق مع الفرنج. فقد سبق أن أحضر أميرها (ليو) كتيبة لمساعدة روجر أمير انطاكية في حصار عزاز[٦٢] ، وحدث صدع في الكنيسة اليعقوبية أدى إلى انقسامها ، ففي سنة ١١١٨م تقريبا تشاجر رئيسها البطريق أثاناسيوس ، الذي كان مقيما في انطاكية ، مع مطرانه في الرها، بار صابوني ، حول ملكية بعض الكتب المقدسة ، وأصدر قرارا بحرمانه من المهام الكنسية . وإثارة منه للمشاكل ، لجأ المطران بار صابوني إلى بطريق

طرابلس ساعد روجر بعد خلاف طفيف حول بائنة زوجة بونز ، وهي أرملة تنكريد ، سيشيليا ، التي كانت تطالب بمنحها جبلة ، غير أنها رضيت أخيرا بشاسيل روج وأرزغان (William of Tyre, xiv, 5, p. 612).

(٦٢) Matthew of Edessa, *loc. cit.*، وعن تاريخ الروبيين انظر Tournebize, *op.cit.*pp.168 ff.

انطاكية اللاتيني ، برنار ، الذى استدعى أثاناسيوس لمناقشة المسألة فى مجلس كنسى يعقد فى الكندرائية اللاتينية . فجاء أثاناسيوس معترضا . ونتيجة لعجز المترجم فهم برنار أن الخلاف يدور حول دَيْن خاص بين الأسقفين ، فأصدر حكمه على أثاناسيوس متهما إيّاه بارتكابه السيمونية[٦٣] ، لأنه لم يغفر للمَدين . فاهتاج اثاناسيوس لهذا الحكم ولم يعترف بصحته ولم يفهم معناه ، وأعرب عن احتجاجه بألفاظ فظّة ، فما كان من البطريق برنار الاّ أن أمر بجلده . وكان هناك صديق أرثوذوكسى للبطريق أثاناسيوس ، هو الفيلسوف عبد المسيح ، الذى أشار باللجوء إلى روجر أمير انطاكية ، الذى كان بعيدا آنذاك ، للإنتصاف . وغضب روجر على البطريق برنار ووبخه لتدخله فى امر لا يخصه ، وسمح لأثاناسيوس بالرحيل من انطاكية عائدا إلى وطنه الأول ، دير مار بارسوما ، حيث أصبح اثاناسيوس فى اراضى الأراتقة الذين منحوه حمايتهم . وأصدر حكما على بار صابون بالطرد من الكنسى ، وأخضع الكنيسة اليعقوبية فى الرها تحت حكم الحرمان الكنسى ، مما دفع بالكثير من اليعاقبة واهالى الرها ، وقد حرموا من ممارسة طقوسهم الكنسية ، إلى تغيير مذهبهم والتحول إلى المذهب اللاتينى . وأطاع البعض البطريق . ولم يتحقق السلام طوال اعوام كثيرة ، وحتى بعد موت اثناسيوس[٦٤] .

وكانت المجامع الأرثوذوكسية فى انطاكية والرها مستاءة من الحكم اللاتينى ، على أنه لم يكن هناك ما يغويها مطلقا للتآمر مع المسلمين ، غير خلاف الأرمن واليعاقبة، وانما كانت تتنهد فى حسرة تلهفا على عودة بيزنطة . على أن ما كان يوحّد بين الأرمن واليعاقبة من اشمئزاز إزاء الأرثوذوكس كان بمثابة كابح لقوتهم.

١١١١م - ١١١٣م : مفاوضات بيزنطة مع الغرب

ومع ذلك ، وبرغم خشية فرنج الرها - بحق - من امكان ظهور خطر جديد فى الشرق ، ظلت بيزنطة العدو الرئيسى فى نظر فرنج انطاكية . ذلك أن الامبراطور الكسيوس لم ينس قط مطالبته بأنطاكية . وكان على استعداد للإعتراف بمملكة لاتينية فى القدس ، فقد اظهر حسن نواياه ببذل فدية سخيّة لإطلاق أسرى الفرنج لدى

---

(٦٣) (المترجم) السيمونية : شراء أو بيع المناصب الكهنوتية.

(٦٤) Michael the Syrian, III, pp. 193-4, 207-10.

الفاطميين من الرملة عام ١١٠٢م ، وبوجود سفنه في حصار عكا عـام ١١١١م الـذى لم يكن فعالا . أما الملك بلدوين فكان من ناحيته دائم الكياسة والانضبـاط فـى تصرفه حيال الامبراطور ، غير انه رفض ممارسة اى ضغـط علـى تنكريـد لتنفيـذ بنـود معـاهدة ديفول(٦٥) . ومنذ ايام الحملـة الصليبيـة عـام ١١٠١م ، والعلاقـات الفرنجيـة البيزنطيـة تلفها غيوم الريبة ، بينما لم تغفر القسـطنطينية مطلقـا تدخـل البابـا باسـكال نيابـة عـن بوهمند عام ١١٠٦م . وكان الكسيوس سياسيا ليّن العريكة بصورة فائقة بحيث لم يدع للإستياء مجالا فى ساسته . وكان خـلال عـامى ١١١١م و١١١٢م يجـرى سلسـلة مـن المفاوضات مع البابا ، من خلال وسيطه رئيس دير مونت كاسينو . واستمال السلطات الرومانية بأن وعدها بتسوية الخلافت المعلقة بين الكنيستين الرومانية واليونانية ، وذلـك لكى تقدم له أو لإبنه تاج الغرب الامبراطورى ، واقترح أن يذهب بنفسه لزيارة روما . وكان البابا باسكال يعانى آنذاك من مصاعب جسيمة مع الإمبراطور هـنرى الخـامس ، ولذا كان على استعداد لدفع ثمن غال لقاء مساندة بيزنطـة ، علـى أن الحـروب التركيـة واعتلال صحة الكسيوس حالت دون المضى فى مشـروعه(٦٦) . وأسـفرت المفاوضـات عن لاشئ . وفى عام ١١١٣م ، قام رئيس اساقفة ميلانو ، بطرس كريسولان ، بزيـارة القسطنطينية لمناقشة بعض الأمور الكنسية(٦٧) غير أن جدله اللاهوتى مع اسقف نيقية ، ايوستراسيوس ، لم تسـاعد علـى بقـاء العلاقـات طيبـة بـين الكنيسـتين . والراجـح أن الكسيوس نفسه لم يأخذ مخططه الايطالى الطموح مـأخذا جـادا. وانمـا كـانت للصداقـة البابويـة قيمتهـا لديـه كوسـيلة لكبـح الطموحـات النورمـانديين ولتعزيـز سـلطته علـى اللاتينيين فى الشرق.

وفى ذات الوقت لم يسـتطع البـيزنطيون أن يفعلـوا شـيئا لاسـتعادة انطاكيـة. فقـد ظلت معاهدة الإمبراطور مع بوهمند خطابا لا حياة فيه ، ولم يغض عنها تنكريـد نظـره فحسب ، وانما أضاف إلى اراضيه المزيد مما اغتصبه من البيزنطيين ، وسـار روجـر علـى نفس الدرب الذى سار عليه تنكريد. وكان الكسيوس يعلق الآمال على أن يصبح أمراء طرابلس عمـلاءه فى سـوريا، وقدم أموالا تُحفظ فى طرابلس لتمويل المشـاريع البيزنطيـة

---

(٦٥) Anna Comnena, xiv, ii, 12-13, pp. 152-3.

(٦٦) انظر Chalandon, *op.cit.* pp. 260-3 with full references.

(٦٧) Landolph, in Muratori, Ss. R.I. vol. v, p. 487; Chrysolan's speeches in M.P.L. vol. cxxvii, col. 911-19; Eustratius's speeches in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. 1, p. 15.

الطرابلسية المشتركة . على انه بموت برتراند ، اختار ابنه بونز التعاون مع الأنطاكيين ، ولذا قام بوتوميتيس ، السفير البيزنطي فوق العادة لدى الدويلات اللاتينية ، بالمطالبة باسترداد تلك الأموال ، لكنه لم يحصل عليها الاّ بعد أن هدد بقطع المؤن التى تصل طرابلس من قبرص ، ثم رأى من حصافة الرأى إعادة الذهب والجواهر الثمينة إلى بونز لأنها كانت ممنوحة لبرتراند شخصيا ، وفى مقابل ذلك اقسم بونز يمين الولاء للإمبراطور ، وربما كان ذلك هو قسم عدم الإضرار الذى سبق أن أقسمه جده ريموند . واستخدمت بيزنطة الأموال التى استردتها فى شراء الخيول للجيش البيزنطى من دمشق والرها والجزيرة العربية(٦٨).

١١١٢م - ١١١٥م: حروب سلجوقية ضد بيزنطة

كان من الواضح عدم امكان اغواء بونز كى يعمل ضد انطاكية ، بينما حال النشاط التركى دون تدخل الامبراطور بصورة مباشرة فى سوريا . ومنذ أن مات الملك غازى انوشتكين الدانشمندى عام ١١٠٦م ، وقلج أرسلان السلجوقى عام ١١٠٧م ، لم يعد فى الأناضول عاهل تركى عظيم . وكان بامكان الكسيوس الحفاظ على سلطته شيئا فشيئا فى مناطق الأناضول الغربية وبطول الساحل الجنوبى، مالم ينصرف انتباهه إلى النورمانديين . وآنذاك ، حاول الأمير البارز حسن أمير كبادوكيا الإغارة على الأراضى البيزنطية عام ١١١٠م ، وتقدم حتى فيلادلفيا مستهدفا أزمير . وقد عهد ألكسيوس مؤخرا إلى إيوستاثيوس فيلوكان ادارة الأراضى الواقعة غربى الأناضول وكلّفه بتطهير المقاطعة من الأتراك . فتمكن بقواته القليلة من ملاحقة جيش حسن الذى كان منقسما إلى فرق شتى مغيرة هزمها الواحدة تلو الأخرى ، وتقهقر حسن بسرعة ، فباتت سواحل بحر إيجة آمنة من الغارات . على انه فى نفس ذلك العام ، أُطلق سراح ملكشاه - أكبر أبناء قلج أرسلان - من الأسر الفارسى ، فاتخذ من قونية عاصمة له ، وسرعان ما سيطر على أغلب ميراثه بعدما هزم حسن وضم أراضيه . وأخذ العبرة من مصير أبيه فتجنب التورط فى الشرق . لكنه سرعان ما شعر بأن لديه مايكفى من القوة، فانطلق يستعيد الأراضى التى فقدها قلج أرسلان فى زمن الحملة الصليبية الأولى. وشرع فى الأشهر الأولى من سنة ١١١٢م فى الإغارة داخل الامبراطورية متجها إلى فيلادلفيا حيث صدّه القائد البيزنطى جابراس، فتفاوض على هدنة . غير انه أغار مرة

(٦٨) Anna Comnena, XIV, ii, 14, pp. 153-4.

اخرى عام ١١١٣م ، وسيّر حملة عاجلة انطلقت خلال بيثينيا ووصلت أسوار نيقية ذاتها ، بينما توغل قائده محمد إلى بومانيوم الأبعد إلى الغرب حيث هزم القائد البيزنطى وأسره ، وأغار قائده الآخر منالوك على أبيدوس الواقعة على الدردنيل ذات الإيرادات الكثيرة من الجمارك ، وهاجم ملكشاه نفسه برحاموم واستولى عليها . وانطلق الامبراطور لملاقاة المغيرين ، لكنه آثر الانتظار والامساك بهم فى طريق عودتهم محملين بالأسلاب الكثيرة . وانقض عليهم اثناء مرورهم من دوريليوم بالقرب من كوتيايوم وظفر بهم تماما واستعاد كل ماكان بحوزتهم من أسلاب وأسرى . وفى عام ١١١٥م ترددت أنباء بأن ملكشاه يعد العدة لمعاودة الاغارة ، فأمضى الكسيوس وقتا طويلا من العام يطوف تلال بيثينيا ، وفى العام التالى ، وبرغم اشتداد مرضه ، قرر أخذ زمام الهجوم بنفسه ، فسار جنوبا باتجاه قونية والتقى بالجيش التركى بالقرب من فيلوميليوم ، وانتصر مرة اخرى وأجبر ملكشاه على التوقيع على معاهدة سلام تعهد فيها باحترام حدود الامبراطورية التى كانت تسيطر آنذاك على كل الساحل من طرابزون إلى سلوقية فى كيليكيا وغرب أنقره الداخلى ، والصحراء المالحة وفيلوميليوم . وفشلت محاولات ملكشاه فى معاودة الغزو . وبعد أشهر قليلة خلعه أخوه مسعود عن عرشه وقتله بعد أن تحالف مع الدانشمند . غير أن الأتراك ظلوا متحصنين بصورة راسخة فى قلب الأناضول . وباتت بيزنطة عاجزة عن أخذ زمام الهجوم فى سوريا . وكان أهم المستفيدين من هذه الحروب الأرمن فى جبال طوروس وأمير انطاكية الفرنجى(٦٩).

(٦٩) Anna Comnena, xɪv, v-vi, xv, i-ii, iv-vi, pp. 164-72, 187-72, 187-94, 199-213. See Chalandon, op. cit, pp. 265-71.

الباب الثانى:

الـــــذروة

الفصل الأول:

الملك بالدوين الثاني

الملك بلدوين الثانى

"لا يُعدَمُ لكَ رَجُلٌ عَن كُرسي إسرَائيلَ"

(الملوك الأول ٩ : ٥)

أهمل الملك بلدوين آخر واجبات الملوك . فلم يوصِ بمن يخلفه على العرش . وانعقد مجلس المملكة على عجل . وبدا لبعض النبلاء أن خروج التاج من بيت آل بولونيا أمر غير وارد . فقد خلف بلدوين الأول أخاه جودفرى ، ومازال هناك أخ ثالث هو إيوستاس ، كونت بولونيا ، أكبر الثلاثة . فأُرسل الرسل على عجل بطريق البحر لإبلاغ الكونت بوفاة أخيه والتماس حضوره لتسلم الميراث . بيد أن إيوستاس كان عازفا عن مغادرة بلده الملئ بالمسرات والرحيل إلى الشرق بما فيه من مخاطر ، لكنهم أخبروه أن ذلك واجب ينبغى له القيام به . فانطلق إلى القدس ، لكنه عندما وصل أبوليا قابل رسلا آخرين حاملين الأنباء بأنه قد قضى الأمر ، واستخلف غيره . ورفض اقتراحا بأن يواصل رحلته ويحارب دون حقوقه ، فعاد على الأثر إلى بولونيا وهو غير

كاره[١].

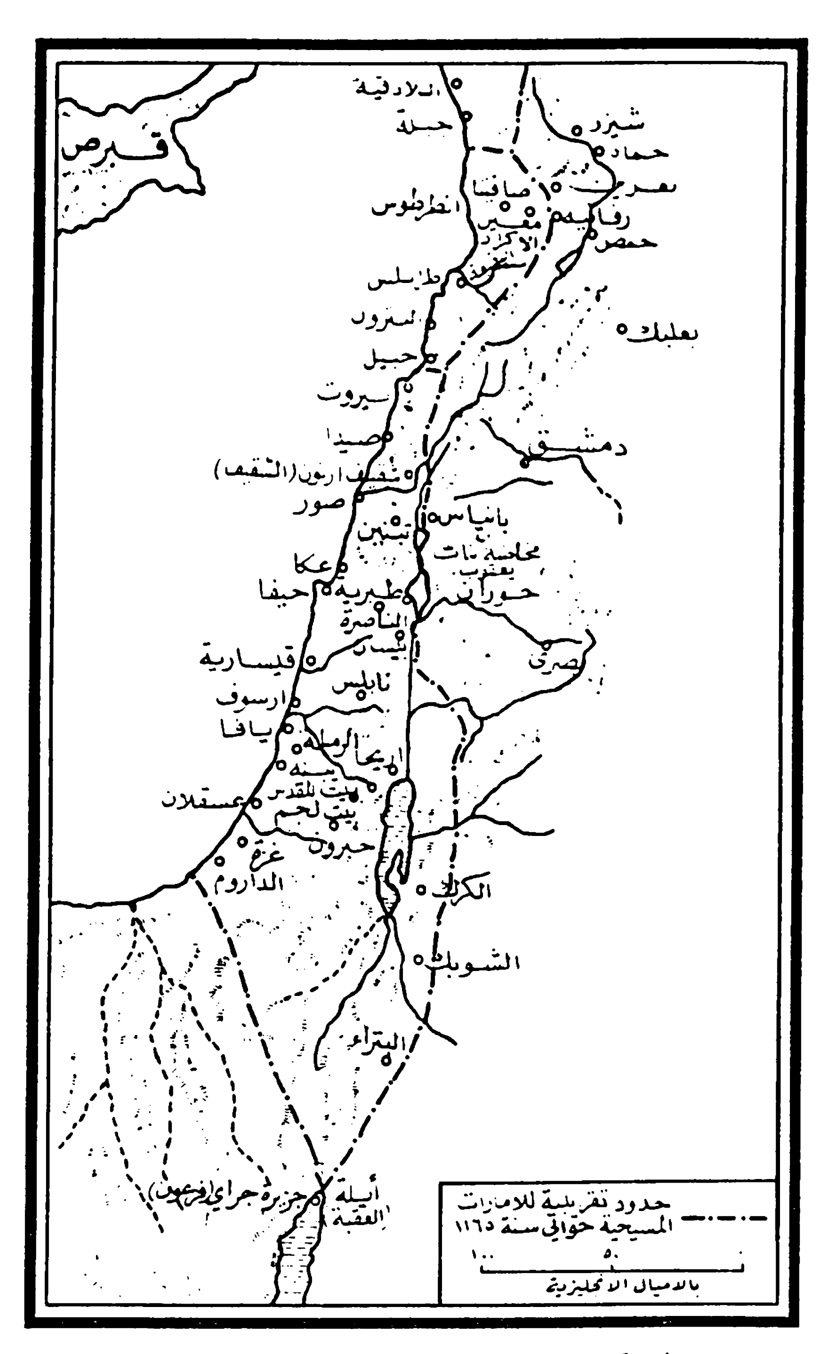
وما حدث فى واقع الأمر أن القلة من أعضاء المجلس هى فقط التى أبدت استخلافه. ولقد كان بعيدا ، الأمر الذى يعنى بقاء العرش خاليا لأشهر كثيرة . وكان أكثر أعضاء المجلس نفوذا هو جوسلين (اوف كورتناى) أمير الجليل ، الذى طلب منح العرش لبلدوين (اوف لو بورج) ، كونت الرها . و قد اتخذ جانب الحذر وهو يذكّر أعضاء المجلس بأنه ليس هناك ما يجعل بلدوين محبوبا لديه هو شخصيا ، إذ سبق أن اتهمه بلدوين بالخيانة زورا وبهتانا ، وأمر بنفيه من أراضيه فى الشمال . غير أن بلدوين رجل اقتدار وشجاعة ، وهو ابن عم الملك الراحل ، وهو الوحيد الباقى على قيد الحياة من فرسان الحملة الصليبية الأولى العظام . وفضلا عن ذلك ، كان فى تقدير جوسلين أنه إذا غادر بلدوين الرها إلى القدس، فإن أقل ما يفعله لابن عمه الذى كافأه بسخاء على الإساءة أن يعهد اليه بكونتية الرها . ولقى اقتراح جوسلين تأييدا من البطريق أرنولف ، وراحا معا يستحثان المجلس على الموافقة . وفى نفس اليوم الذى شُيّعت فيه جنازة الملك ، وكما لو كان الأمر حسما لمناقشة المجلس ، ظهر بلدوين (اوف لو بورج) فجأة فى القدس . وربما سمع بمرض الملك فى العام الذى قبله ، ولذا رأى من المناسب القيام بحج الفصح إلى الأراضى المقدسة . واستقبل بمشاعر البهجة ، وانتخبه المجلس ملكا بالإجماع . وفى يوم أحد الفصح ، ١٤ ابريل ١١١٤م ، وضع البطريق أرنولف التاج على رأسه[٢].

وكان بلدوين الثانى كرجل يختلف عن سلفه اختلافا كبيرا . فبرغم ما كان عليه من وسامة ، بلحيته الطويلة الشقراء ، غابت عنه الهيبة التى كان يتصف بها بلدوين الأول . كان أيسر لقاءً ، أنيسا، مغرما بخفة الظل ، لكنه كان فى ذات الوقت حاد الذهن ، ماكرا ، اقل انفتاحا ، واقل طيشا، وأكثر ضبطا للنفس . كان ذا مقدرة على الإتيان باللفتات الضخمة ، لكنه على الجملة كان وضيعا خاليا من الكرم. وبرغم تعسفه فى الشؤون الكنسية ، كان عظيم الورع ، وكانت ركبتاه متورمتين من كثرة الصلاة . وعلى خلاف بلدوين الأول ، لم يكن هناك ما يعيب حياته الخاصة ، إذ ضرب هو وزوجته مورفيا الأرمينية مثلا رائعا على السعادة الزوجية المثالية ، وهو أمر

---

(١) William of Tyre, XII, 3, pp. 513-16. ولا نعلم على وجه اليقين الترتيبات التى أعدها لبولونيا . وقد ماتت زوجته ، مارى الاسكتلندية عام ١١١٦ م .

(٢) Fulcher of Charters, III, i, I, pp. 615-16; Albert of Aix, XII, 30, pp.70710; William of Tyre, XII, 4, p.517.



خريطة رقم (٢) جنوب الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى

كان نادرا فى الشرق الفرنجى(٣).

وكوفئ جوسلين كما توقع بكونتية الرها باعتباره تابعا للملك بلدوين ، تماما كما كان بلدوين نفسه تابعا لبلدوين الأول . كما اعترف كل من روجر امير انطاكية ، وهو صهر الملك ، وبونز أمير طرابس ، بالملك الجديد سيدا أعلى ، إذ كان مقررا أن يبقى الشرق الفرنجى موحدا تحت تاج القدس(٤). وبعد أسبوعين من تتويج بلدوين مات البطريق أرنولف . وكان فى خدمته للدولة مخلصا ذا كفاءة إلا انه ، وبرغم براعته التبشيرية ، تورط فى عدد ضخم من الفضائح تحول دون احترامه كرجل كنيسة ، ومن المشكوك فيه ما إذا كان بلدوين قد تأسى لموته . وحرص على أن يُنتخب مكانه قس بيكاردى(٥) هو جورمون البيكوينى الذى لا نعرف شيئا عن سابق حياته . وكان اختيارا موفقا ، إذ كان جورمون يشترك مع أرنولف فى خصائص عملية تعلوها طبيعة القداسة ، ولقى الإحترام من الكافة . وجاء تعيينه فى اعقاب موت البابا باسكال مؤخرا ، وبذا بقيت العلاقات طيبة بين القدس وروما(٦).

١١١٩م : غارات فى شرق الأردن

لم يكد بلدوين يستقر على العرش حتى سمع الأنباء المشؤومة عن تحالف مصر ودمشق. إذ كان الوزير الفاطمى الأفضل متلهفا على معاقبة بلدوين الأول على ما اقدم عليه من غزو متعجرف لمصر، بينما شعر طغتكين فى دمشق بالخطر من تعاظم قوة الفرنج . فسارع بلدوين بارسال سفارة إلى طغتكين الذى ، طلب من الفرنج التخلى عن كافة الأراضى الواقعة شرق نهر الأردن مدفوعا بثقتة من مساعدة مصر. وكان جيش مصرى ضخم قد تجمع خلال الصيف على الحدود متخذا موضعه خارج مدينة اشدود ، ووجّهت الدعوة لتغطكين كى يتولى قيادته . واستنفر بلدوين مليشيات انطاكية وطرابلس لتعزيز جنود القدس ، وسار جنوبا لملاقاة العدو . وظل الجيشان يواجهان بعضهما البعض طوال ثلاثة أشهر ، لا يجرؤ أيّ منهما على التحرك ، إذ كان

---

(٣) William of Tyre, XII, 2, pp.512-13.، (انظر أعلاه ص ٦٧).

(٤) استدعى بلدوين بعد توليه العرش مباشرة كلا من روجر وبونز لقتال المصريين تحت قيادته . (انظر أدناه ص.١٤٦).

(٥) (المترجم) نسبة الى اقليم بيكاردى التاريخى الواقع شمال فرنسا.

(٦) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, XII, 6, p.519

كل فرد - كما جاء على لسان المؤرخ فولشر (اوف تشارتر) - يفضل الحياة على الموت . وفى نهاية الأمر تفرق الجنود فى كل من الجانبين عائدين إلى بلادهم(٧).

وفى تلك الأثناء تأخر رحيل جوسلين . إذ كان وجوده فى الجليل اكثر الحاحا من وجوده شمال البلاد ، حيث يبدو أن الملكة مورفيا كانت ما تزال هناك ، وحيث كان واليران ، لورد البيرة يتولى الحكومة(٨) . وكان على جوسلين الدفاع عن الجليل ، باعتباره أميرها ، من غارات دمشق . وفى الخريف شاركه بلدوين فى غارة على اذرعات فى حوران ، وهى بمثابة مخزن حبوب دمشق . وخرج بورى ، ابن طغتكين ، لملاقاتهم ، لكنه هزم لتهوره . وبعد هذه الواقعة حول طغتكين انتباهه إلى الشمال مرة أخرى(٩).

وفى ربيع ١١١٩م علم جوسلين بأن قبيلة بدوية غنية ترعى قطعانها شرقى نهر الأردن على نهر اليرموك . فانطلق لينهبها يصحبه اثنان من بارونات الجليل ، هما الأخوان جودفرى ووليم (اوف بور) ، ونحو مائة وعشرون من الخيالة . وانقسمت الجماعة لمحاصرة رحال القبيلة . لكن الأمور سارت مسارا سيئا ، إذ علم رئيس القبيلة والتزم جانب الحذر ، وضل جوسلين طريقه فى التلال . وأما جودفرى ووليم فقد سقطا فى كمين أعد لهما، وقُتل جودفرى ووقع أغلب رفاقه فى الأسر . وعاد جوسلين تعيسا إلى طبرية وارسل من يخبر الملك ، الذى سار شمالا وأدخل الخوف فى قلوب البدو فأعادوا الأسرى ودفعوا تعويضا ، وسمح لهم بتمضية الصيف فى سلام(١٠) .

وأثناء وجود بلدوين فى طبرية للراحة فى طريق عودته من هذه الحملة القصيرة ، جاءه الرسل من أنطاكية متوسلين أن يسرع شمالا مع جيشه ، بغاية ما يستطيعه من سرعة.

ذلك أنه منذ انتصار روجر أمير انطاكية فى تل دانيت ، باتت مدينة حلب التعسة لا حول لها ولا قوة فى منع العدوان الفرنجى ، وقد أمضّها أن تضع نفسها تحت حماية ايلغازى الأرتقى ، وبعد استيلاء روجر على البزاعة عام ١١١٩م أمست محاصرة من

---

(٧) Fulcher of Charters, III, ii, 1-3, pp. 617-19; William of 19 Tyre, XII, 6, pp. 518.

(٨) *Chron. Anon. Syr.*, p. 86.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 315-16.

(١٠) pp.325-6. *Ibid.*

ثلاث جهات . وكانت خسارة البزاعة فوق ما يتحمله ايلغازى الذى لم يكن منذ آنذاك ، ولا حليفه الدائم طغتكين صاحب دمشق ، على استعداد للمخاطرة بكامل القوات فى معركة ضد الفرنج ، إذ كانا يخشيان سلاطين الشرق السلاجقة ، بل ويحملان لهم مقتا يفوق الخشية . على أن السلطان محمد قد مات فى ابريل ١١١٨م ، ومن ثمّ انطلقت طموحات الحكام وصغار الأمراء فى سائر أنحاء امبراطوريته . وحاول ابنه الشاب ووريثه محمود جاهدا توطيد سلطته إلى أن اضطر أخيرا فى أغسطس ١١١٩م إلى تسليم السلطة العليا لعمه سنجر ، ملك خراسان ، وأمضى ما تبقى له من حياة قصيرة فى التمتع بمتع الصيد والقنص . وأما سنجر ، الذى كان آخر حكام اسرته على كل الاراضى السلجوقية الشرقية ، فكان مقتدرا بما فيه الكفاية ، غير أن مصالحه تركزت فى الشرق ، ولم يشغل نفسه قط بسوريا ، وكذلك كان شأن ابناء عمومته من سلاجقة الروم ، الذين صرفتهم الخلافات فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الدانشمند، والحروب مع بيزنطة ، عن امكان تدخلهم فى الشوون السورية[١١] . وأخيرا اتيحت الفرصة لأكثر الأمراء المحليين عنادا ، ألا وهو ايلغازى ، الذى لم تكن رغبته فى القضاء على الدويلات الفرنجية تفوق رغبته فى الحصول على حلب لنفسه ، على أن هذه الرغبة الأخيرة تحمل فى طياتها الرغبة الأولى.

١١١٩م : معركة بحر الدم

وخلال ربيع ١١١٩م راح ايلغازى يجول فى املاكه ، يجمع جنود التركمان ، ويرتب لاستجلاب الكتائب من الأكراد ومن القبائل العربية فى الصحراء السورية . ومن باب الشكليات المحضة طلب المساعدة من السلطان محمود ولم يصله رد . ووافق حليفه طغتكين على المجئ من دمشق، ووعد بنو منقذ فى شيزر بأن يشغلوا روجر إلى الجنوب من اراضيه[١٢] . وفى شهر مايو انطلق الجيش الأرتقى الذى قيل أن قوامه بلغ أربعين الف رجل . وتلقى روجر النبأ رابط الجأش، غير أن البطريق برنار حثه على طلب المساعدة من الملك بلدوين ومن بونز امير طرابلس . وأرسل الملك بلدوين من طبرية من يقول إنه سيحضر بغاية السرعة التى يستطيعها وسيُحضر معه جنود طرابلس،

(١١) Ibn al-Athir, pp. 318-23. وانظر مقالى "سنجر Sandjur" و "السلاحقة Seldjuks" فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopaedia of Islam*.

(١٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 157-7; Kemal ad-Din, pp. 615-16.

وأنه ينبغى لروجر أن ينتظر متخذا زمام الدفاع . ثم جمع بلدوين جيش القدس وحصّنه بقطعة من الصليب الحقيقى الذى كان تحت رعاية إيفرمار ، رئيس اساقفة قيسارية[١٣] .

وفى الوقت الذى أغار فيه بنو منقذ على افاميا ، أرسل ايلغازى فصائل التركمان ناحية الجنوب الغربى كى يصنع اتصالا يصله بهم وبالجيش الصاعد من دمشق . وأغار هو نفسه على اراضى الرها ، لكنه لم يبذل اية محاولة للإغارة على عاصمتها الحصينة . وفى منتصف يونية عبر نهر الفرات عند بالس وتقدم ليضرب معسكره فى قنسرين التى تبعد نحو خمسة عشر ميلا جنوب حلب انتظارا لطغتكين . ولم يكن روجر على ما يكفى من الصبر ، إذ انه قرر ملاقاة العدو فى الحال ، على الرغم من رسالة الملك، وبرغم التحذير الصارم من البطريق برنارد ، وبرغم كل التجارب السابقة التى خاضها امراء الفرنج . فقاد جيش انطاكية كله يوم ٢٠ يونية ، وكان مؤلفا من سبعمائة من الخيالة وأربعة آلاف من المشاه ، وعبر به الجسر الحديدى ، وضرب معسكره امام حصن تل عفرين الصغير ، الواقع على الحافة الشرقية لسهل سرمدا، حيث توفر الأراضى القاحلة دفاعا طبيعيا جيدا . وبرغم ضآلة حجم قواته بكثير عن قوات العدو ، كان يأمل فى امكان الانتظار لحين وصول بلدوين.

وفى قنسرين ، علم ايلغازى تمام العلم بتحركات روجر كلها، إذ أن عيونه تنكروا فى هيئة تجار وأمعنوا فى فحص معسكر الفرنج ثم أبلغوا ايلغازى بما عليه الجيش الفرنجى من ضآلة العدد . وبرغم أن ايلغازى كان يفضل انتظار وصول طغتكين ، فقد ألح عليه امراؤه التركمان كى يبادر بالهجوم على معسكر الفرنج . وفى يوم ٢٧ يونية تحرك جزء من جيشه لمهاجمة حصن الأتارب الذى كان فى حوزةالفرنج ، وتوفر الوقت لروجر كى يدفع ببعض رجاله إلى هناك تحت قيادة روبرت (اوف فييه بون)، ثم أقلقه أن يجد العدو على مثل هذه المسافة القريبة ، وبهبوط الظلام أرسل كل ما كان لدى الجيش من أموال إلى حصن أرتاح الواقع على الطريق إلى أنطاكية .

وظل روجر طوال الليل قلقا يترقب أخبار تحركات المسلمين ، وهب الجنود من راحتهم على صوت رجل يسير فى نومه ، يجرى فى انحاء المعسكر صائحا إن كارثة قد حلّت بهم . وفى فجر يوم ٢٨ يونية اعلن الكشافون للأمير أن المعسكر محاصَر . وهبت من الجنوب رياح الخماسين الجافة التى تبعث الوهن فى الأبدان ، ولم يكن فى المعسكر نفسه سوى القليل من الطعام والماء ، ورأى روجر الإندفاع خلال صفوف العدو أو

---

(١٣) Walter the Chancellor, II, I, pp. 100-1.

الهلاك . وكان بطرس رئيس اساقفة افاميا ومن قبل رئيس اساقفه ... مع الجيش، وهو أول أسقف فرنجي في الشرق . قام بجمع الجنود في حسب واحد والقى فيهم موعظة واخذ اعترافاتهم جميعا ، واخذ اعتراف روجر في خيمته . . منحه الغفران للكثير من آثام بدنه . ثم إن روجر أعلن في ثبات انه ذاهب للصيد إلا أنه أرسل أولا فرقة أخرى من الكشافين وقعت في كمين ، وهرول قليل من أفرادها ممن نجوا من الكمين عائدين إلى المعسكر معلنين أن لا سبيل لاختراق الحصار وقسم روجر الجيش إلى أربعة اقسام وقسم خامس احتياطي ، وعلى الأثر باركهم رئيس الأساقفة مرة اخرى وانطلقوا في كامل النظام في هجومهم على الأعداء .

على أنه كان هجوما يائسا من بدايته . ولم يكن هناك مهرب من جحافل الخيالة والرماة التركمان . فكان أول من أصيب بالذعر من بين الفرنج . المشاة الجنديين من السريان والأرمن ، لكن لم يكن هناك ملجأ يهربون اليه ، فتزاحموا فيما بين الفرسان ، وبذا أعاقوا الجياد ، وتحولت الرياح فجأة شمالا وزاد هبوبها حاملة معها سحب الأتربه تلقي بها في وجوه الفرنج . وفي مستهل المعركة تمكن عدد يقل عن مئة من فرسان الفرنج من اختراق صفوف التركمان ، وانضموا إلى روبرت (اوف فيه بون) الذى كان عائدا من الأثارب للاشتراك في القتال ، ولكن بعد فوات الأوان ، وهربوا جميعا إلى انطاكية . وبعد ذلك بقليل ، تمكن رينالد مازوار وفرسان قليلون من الهرب والوصول إلى مدينة سرمدا الصغيرة في السهل . ولم يبق على قيد الحياة أحد غير هؤلاء من جيش انطاكية. وسقط روجر نفسه قتيلا عند قاعدة صليبه الضخم المرصع بالجوهرات، وسقط حوله فرسانه عدا القليل الذين كانوا أقل حظا، إذ أخذوا أسرى. وبانتصاف النهار كان كل شئ قد انتهى. ويطلق الفرنج على هذه المعركة Ager Sanguinis، بحر الدم[١٤]

١١١٩م : ايلغازى ضيّع انتصاره

وفي حلب ، التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلا ، لبث المسلمون يترقبون الأنباء في

(١٤) (Walter the Chancellor, II, 2-6, pp. 101-11 الذى يورد أكثر الروايات اكتمالا ، William of Tyre. II 9-10. pp. 523-6; Fulcher of Charters, III, iii, 24, pp. 621-3) يورد وصفا قصيرا يقول فيه ان الكارثة سببها غضب الرب مما اعتاده روجر من ارتكاب الزنى Matthew of) -Edessa. ccxxvi pp 276-7; Michael the Syrian, III, p. 204; Ibn al-Qalanisi, pp. 159 61. Kemal ad-Din pp 61618; Usama, ed. Hitti, pp.148-9; Ibn al-Athir, pp. 324-5. ، يقول فولشر إن خسائر الفرنج بلغت سبعة آلاف وخسائر الأتراك عشرين

قلق . وفى وقت الظهر تقريبا جاءت شائعة بأن نصرا مؤزرا قد تحقق للإسلام ، وفى لحظة الأذان لصلاة العصر شوهد أول المنتصرين وهم يقتربون . و لم يمكث ايلغازى فى أرض المعركة الاّ لتوزيع الغنائم على رجاله، ثم سار إلى سرمدا حيث استسلم له رينالد مازوار . وتأثر ايلغازى من هيئة رينالد التى بدت رابطة الجنان، فأبقى على حياته . وسحب المنتصرون الأسرى الفرنج وراءهم عبر الوادى ، وراح التركمان يعذبونهم ويقتلونهم فى حدائق الكروم إلى أن أمر ايلغازى ، الذى كان يفاوض رينالد فى تلك الأثناء ، بالكف عن ذلك، لأنه لم يشأ حرمان سكان حلب من مشهد الأسرى . وسيق من تبقى إلى حلب التى دخلها ايلغازى المنتصر وقت الغروب ، وهناك عذبوا حتى الموت فى الشوارع(١٥).

وفى الوقت الذى كان ايلغازي يحتفل فيه بانتصاره ، وصلت انطاكية الأنباء المرعبة عن المعركة ، وتوقع الجميع وصول التركمان لمهاجمة المدينة التى خلت ممن يدافع عنها من الجنود . وفى خضم الأزمة تولى البطريق برنارد القيادة . وأول ما كان يخشاه خيانة المسيحيين المحليين الذين ذاقوا من أفعاله بهم الأمرين فباتوا مغتربين بين أهل انطاكية ، فأرسل فى الحال من يجردونهم من السلاح وفرض عليهم أمرا بحظر التجول . ثم قام بتوزيع ما جمعه من سلاح على رجال الدين الفرنج والتجار ووضعهم على الأسوار للمراقبة . وظلوا فى حالة تأهب ليلا ونهارا ، بعدما ارسلوا رسولا إلى الملك بلدوين كى يسرع الخطى(١٦).

على أن ايلغازى لم يتابع انتصاره . وانما كتب إلى عواهل العالم الاسلامى يخبرهم بنصره ، ورد عليه الخليفة بأن أهداه رداء الشرف ولقب نجم الدين(١٧) . وفى تلك الأثناء سار إلى ارتاح حيث كان أحد الأساقفة قائدا لأحد أبراجها ، فقام بتسليمه إلى ايلغازى مقابل رحيله إلى انطاكية سالما . غير أن رجلا معينايدعى يوسف ، ربما كان من الأرمن، ومسؤولا عن القلعة التى تحوى ثروة روجر ، اقنع ايلغازى بتعاطفه مع المسلمين لولا أن ابنه محتجز فى انطاكية كرهينة . فتأثر ايلغازى بالقصة وعهد إلى يوسف هذا بالمدينة واكتفى بإرسال احد أمرائه للإقامة كممثل له فى المدينة(١٨) . وعاد

(١٥) Kemal ad-Din, *loc. cit.;* Walter the Chancellor, II, 7, pp. 111-13.

(١٦) Walter the Chancellor, II, 8, pp. 114-15.

(١٧) Ibn al-Athir, p. 332.

(١٨) Walter the Chancellor, II, 8, p. 114.

من ارتاح إلى حلب حيث توالت عليه سلسلة من الاحتفالات إلى أن ساءت صحته وبدأت معاناته . وأرسل جنود التركمان للإغارة على ضواحى انطاكية ونهب ميناء السويدية ، لكن التقارير أفادت وجود حاميات قوية فى المدينة . وهكذا ضيّع المسلمون ما فازوا به من ثمار معركة بحر الدم[١٩].

ومع ذلك كان الموقف حسيما للفرنج . فقد وصل بلدوين اللاذقية ، وبونز وراءه على مقربة ، قبل أن يعلم النبأ . فغذ السير ولم يتوقف حتى لمهاجمة معسكر للتركمان بلا حماية بالقرب من الطريق ، ووصل انطاكية دون حادثة فى الأيام الأولى من أغسطس . وكان ايلغازى قد أرسل بعض جنوده لاعتراض الجيش المنقذ ، واضطر بونز الذى كان خلف بلدوين بمسيرة يوم إلى تفادى هجومهم ولم يتأخر كثيرا. واستقبل الملك استقبالا ساراً من اخته الأميرة سيشيليا الأرملة ، ومن البطريق ، ومن كل الناس. وأقيم قداس شكر للرب فى كتدرائية القديس بطرس . وبدأ بتطهير الضواحى من المغيرين ، ثم قابل وجهاء المدينة لمناقشة حكومتها فى المستقبل . وكان الأمير الشرعى ، بوهمند الثانى ، الذى كان روجر دائم الاعتراف بحقوقه ، صبيا فى العاشرة من عمره يعيش مع امه فى ايطاليا ، وليس هناك من بقى لتمثيل البيت النورماندى فى الشرق ، إذ هلك الفرسان النورمانديون جميعا فى معركة بحر الدم . فتقرر أن يتولى بلدوين نفسه، باعتباره السيد الأعلى للشرق الفرنجى ، حكومة أنطاكية إلى أن يبلغ بوهمند سن الرشد ، وأن يتزوج بوهمند واحدة من بنات الملك . ثم قام الملك بإعادة توزيع إقطاعيات الإمارة التى تركتها الكارثة بلا أصحاب . وتقرر ، بقدر الإمكان ، أن تتزوج المترملات اللاتى سقط أزواجهن فى المعركة من فرسان يناسبهن من جيش بلدوين أو من الوافدين الجدد من الغرب . ونجد الأرملتين الأميرتين أرملة تنكريد ، التى أصبحت كونتيسة طرابلس ، وأرملة روجر ، وقد أصبحتا زوجتين لتابعين جديدين للملك على أراضيهما التى هى بمثابة المهر لكل واحدة منهما . وفى ذات الوقت ، يرجح أن بلدوين أعاد ترتيب إقطاعيات كونتية الرها ، وتقرر رسميا تعيين جوسلين ، الذى تبع الملك من فلسطين ، كونت الرها . وبعد أن اطمأن بلدوين لإدارة البلاد ، تقدم موكبا من حفاة الأقدام إلى الكتدرائية، ثم قاد جيشا مؤلفا من نحو سبعمائة فارس وبضعة آلاف من المشاة لملاقاة المسلمين[٢٠].

---

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 332-3. واستنادا الى ما قرره أسامة ، فان ايلغازى اذا ما شرب الخمر يظل يشعر بأنه مخمور مدة عشرين يوما.

(٢٠) -Walter the Chancellor, II, 9-10, pp. 115-18; Fulcher of Charters, III, vii, 13, pp. 633

١١١٩م : معركة مُحكمة فى هاب

والآن انضم طغتكين إلى ايلغازى ، وانطق الزعيمان يوم ١١ أغسطس للاستيلاء على الحصون الفرنجية الواقعة شرقي نهر العاصى ، بدءا بالأثارب التى استسلمت حاميتها فى الحال مقابل المرور الآمن إلى أنطاكية . وفى اليوم التالى واصل الأميران الزحف على زردنة التى سبق أن غادرها أميرها ، روبرت المجزوم ، إلى انطاكية ، ومرة اخرى استسلمت الحامية فى مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ، لكن التركمان قتلوهم فور خروجهم من البوابات . وكان بلدوين يأمل فى انقاذ الأثارب ، لكنه ما أن عبر الجسر الحديدى حتى قابل حاميتها . فانطلق جنوبا وسمع بحصار زردنة ، لكنه ارتاب فى أن المسلمين ينوون التحرك جنوبا لتطهير الحصون المحيطة بمعرة النعمان وأفاميا ، فسارع بالانطلاق قُدما وضرب معسكره فى الثالث عشر فى تل دانيث ، فى نفس مسرح انتصار روجر عام ١١١٥م . وعلم فى الصباح التالى أن زردنة قد سقطت ورأى من الحكمة التقهقر قليلا ناحية انطاكية . وفى تلك الأثناء جاء ايلغازى وفى مأموله مباغتة الفرنج وهم نيام بالقرب من قرية هاب . غير أن بلدوين كان مستعدا . إذ أدلى باعترافه، وألقى رئيس اساقفة قيسارية موعظة فى الجنود ثم رفع الصليب الحقيقى ليباركهم ، واصبح الجيش على استعداد للقتال.

وساد الاضطراب المعركة . إذ ادّعى كل من الجانبين الانتصار ، على أن الفرنج هم الذين فازوا فى الواقع . فقد دحر طغتكين بونز امير طرابلس فى ميمنة الفرنج ، لكن جنود طرابلس حافظوا على صفوفهم . وإلى جانبه هاجم روجر المجزوم كتيبة حمص وقد عقد العزم على استعادة زردنة ، لكنه وقع فى كمين وبات أسيرا . وصمدت ميسرة الفرنج وقلبه ، وفى اللحظة الحاسمة تمكن بلدوين من رمى الأعداء بجنود جدد ، فاستدار عدد من التركمان وهربوا . على أن أغلب جيش ايلغازى غادر ساحة القتال فى نظام جيد . وعاد ايلغازى وطغتكين باتجاه حلب ومعهما صفوف ضخمة من الأسرى ، واستطاعا أن يخبرا العالم الاسلامى أن النصر كان حليفهما . ومرة اخرى أبهج سكان حلب مشاهدة مجزرة للمسيحيين بالجملة ، إلى أن أبدى أيلغازى امتعاضه لخسارة الفدية التى كانت بمثل هذا المال الكثير بعد أن اوقف القتل ريثما يجّرب جواداً

5; Orderic Vitalis (XI, 25, vol. IV, p. 245)، يذكر أوردريك فيتاليس أن سيشيليا ، كونتيسة طرابلس ، كانت تستثمر الفرسان بالإقطاع. واستمرت أرملة روجر بالاقطاع فرسانا فى عام ١١٢٦م.(Rhrich, *Regesta, Additamenta*, p.9) وربما انتقلت فى ذلك الوقت مرعش من سيادة انطاكية الى سيادة الرها.

جديداً. وسُئل روبرت المجزوم عن ثمن فديته فرد قائلا انها عشرة آلاف قطعة ذهبية ، فأرسله ايلغازى إلى طغتكين أملا فى رفع السعر ، لكن طغتكين لم يكن قد روى بعد ظمأه من الدماء . ورغم أن روبرت كان صديقا قديما لطغتكين منذ أيام ١١٥١م ، الاّ أن هذا الأخير أطاح رأسه بنفسه ، مما تسبب فى امتعاض ايلغازى الذى كان يريد مبلغ الفدية تسديدا لرواتب جنده[٢١].

ووصل إلى انطاكية من فر من جيش بونز حاملين معهم أنباء الهزيمة ، لولا أن وصل رسول أرسلته الأميرة سيشيليا ومعه خاتم الملك برهانا على نجاحه . و لم يحاول بلدوين نفسه ملاحقة جيش المسلمين ، وانما اتجه جنوبا إلى معرة النعمان و إلى الروج التى استولى عليها بنو منقذ . فأخرجهم منها لكنه ابرم معهم معاهدة يعفيهم فيها من دفع الجباية السنوية التى سبق أن طلبها روجر . واسترد ما استولى عليه المسلمون من حصون فيما عدا البيرة والأثارب وزردنة ، ثم رجع بلدوين إلى انطاكية فى موكب المنتصرين ، وأرسل الصليب المقدس جنوبا ليصل القدس فى الوقت المناسب لعيد ظهور الصليب يوم ١٤ سبتمبر[٢٢] وأمضى هو نفسه الخريف فى انطاكية يستكمل ما بدأه قبل المعركة من ترتيبات . وفى ديسمبر عاد إلى القدس تاركا البطريق برنارد لمباشرة حكومة انطاكية نيابة عنه ، بعد أن نصّب جوسلين فى الرها[٢٣] واصطحب معه إلى الجنوب زوجته وبناته الصغيرات اللاتى حضرن من الرها . وفى احتفالات عيد الميلاد فى بيت لحم توّجت زوجته مورفيا ملكة[٢٤].

١١١٩م : فشل حملة الأراتقة

و لم يجازف ايلغازى بمهاجمة الفرنج مرة اخرى ، إذ كان جيشه يتقلص شيئا فشيئا. فقد جاء جنود التركمان من اجل الأسلاب فى المقام الأول ، وبعد معركة تل دانيث بقوا بلا عمل وقد نال منهم الضجر ورواتبهم تأخر سدادها ، فشرعوا فى العودة إلى

---

(٢١) Walter the Chancellor, II, 10-15, pp. 118-28; William of Tyre, XII, 1112, pp. 527-30; Kemal ad-Din, pp. 620-2; Usama, ed.Hitti, pp. 14950.

(٢٢) (المترجم) عيد ظهور الصليب Exaltation of the Cross ، عيد يحتفل فيه بذكرى ما اشتُهر من ظهور الصليب للامبراطور قسطنطين ، واسترداده فيما بعد من الفرس.

(٢٣) Walter the Chancellor, II, 16, pp. 129-31; William of Tyre, XII, 12, p. 530.

(٢٤) Fulcher of Charters, III, vii, 4, p. 635; William of Tyre, XII, 12, p.531

بلادهم ومعهم زعماء العرب من أبناء الجزيرة ، ولم يكن بوسع ايلغازى منعهم من العودة ، إذ سقط هو نفسه مريضا مرة اخرى وظل يتأرجح بين الحياة والموت لأسبوعين ، وعندما برأ من مرضه كانت فرصة إعادة جمع الجيش قد ولّت ، فغادر حلب عائدا إلى عاصمته الشرقية فى ماردين ، وعاد طغتكين إلى دمشق(٢٥).

وهكذا أخفقت الحملة الأرتقية الضخمة ولم تحقق شيئا ملموسا للمسلمين ، فيما عدا حصون حدودية قليلة وتخفيف الضغط الفرنجى على حلب . بيد أنها كانت نصرا معنويا عظيما للاسلام . ولم يكن صدهم فى معركة تل دانيث تعويضا يوازن الإنتصار الرائع فى معركة بحر الدم . ولو كان ايلغازى أكثر قدرة ويقظة لفاز بأنطاكية . إذ أن ما حدث من قتل الفرسان النورمانديين وأميرهم على رأسهم ، قد شجّع أمراء الجزيرة وشمالى العراق على تجديد هجماتهم ، ولاسيما وانهم قد تحرروا مما كان سيدهم الأعلى السلجوقى فى فارس يمارسه عليهم من وصاية إسمية . وسرعان ما كان مقدّرا أن يظهر رجل أعظم من أيلغازى . وأما الفرنج ، فكانت أسوأ نتائج الحملة هى خسارتهم الفادحة من الرجال . فليس من اليسير تعويض من سقطوا فى معركة بحر الدم من الفرسان ، والأكثر من المشاه . على أن الفرنج لقنوا الدرس جيدا الآن وهو أن فرنج الشرق ينبغى لهم أن يتعاونوا دائما وأن يعملوا معا متحدين . فقد أنقذ الملك بلدوين أنطاكية بتدخله الفورى ، وتحقق ما أملته ظروف الساعة من استعداد الفرنج كافة لقبول الملك على أنه السيد الأعلى النشط . لقد أحدثت الكارثة رتقا فيما أقامه الفرنج فى سوريا.

وبعد أن عاد بلدوين إلى القدس راح يشغل نفسه بإدارة مملكته . فاستخلف على إمارة الجليل وليم (اوف بور) وبقيت الإمارة فى أسرته . وفى يناير١٢٠١م استدعى الملك رجال الكنيسة وكبار حائزى الأراضى فى المملكة لحضور مجلس عقد فى نابلس لمناقشة النهوض بأخلاقيات رعاياه ، وربما كان ذلك محاولة منه لكبح ما كان يميل اليه المستعمرون اللاتينيون فى الشرق مما وجدوه من اعتياد التراخى واليسر ، كما كان مهتما فى الوقت ذاته برفاهيتهم المادية . إذ انه فى ظل بلدوين الأول وجد عدد متزايد من اللاتينيين تشجيعا على الاستقرار فى القدس ، فبدأ ظهور طبقة بورجوازية لاتينية آخذة فى التضخم شيئا فشيئا إلى جانب المحاربين ورجال الدين فى المملكة ، والآن حصلت هذه الطبقة البورجوازية على كامل حرية التجارة من وإلى المدينة ، وفى الوقت

---

(٢٥) Walter of Chancellor, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, p. 161; Kemal ad-Din, pp. 624-5.

ذاته ، ولضمان الامدادات الكاملة من الطعام ، سُمح للمسيحيين الوطنيين ، بل للتجارالعرب استجلاب الخضروات والحبوب معفاة من الرسوم الجمركية[٢٦].

١١١٨-١١٢٠م: بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان

كان أهم حدث داخلي في تلك السنوات هو إرساء القواعد لأنظمة دينية عسكرية للرهبان الفرسان . ففي عام ١٠٧٠م قام بعض المواطنين الأتقياء من مدينة أمالفي بانشاء نُزُل في القدس لإيواء الفقراء من الحجاج ، وقد سمح الحاكم المصرى آنذاك للقنصل الأمالفي باختيار موقع مناسب ، وكرّست المنشأة للقديس يوحنا المتصدّق Saint John the Almsgiver ، وهو بطريق الاسكندرية الخيّر في القرن السابع . وكان موظفو النُزُل من أبناء أمالفي أصلاً ، وكانوا قد أخذوا على أنفسهم العهود الرهبانية ، ويخضعون لتوجيهات "السيد" الذى كان يخضع بدوره للسلطات البندكتية في فلسطين[٢٧] . وفي وقت استيلاء الصليبيين على القدس كان "السيد" رجلا يدعى جيرارد Gerard ، وربما كان من أبناء أمالفي . وقبل بدء حصار القدس نفاه حاكم القدس المسلم من المدينة هو ورفاقه في الدين ، فأفاد الصليبيون من معلوماته القيمة عن الأحوال الداخلية في المدينة . وقد حث الحكومة الفرنجية الجديدة على منح الهبات للمستشفى ، وانضم الكثير من الحجاج إلى موظفيه الذين سرعان ما تحرروا من إطاعة تعليمات البنديكتيين ، وراحوا يجمعون الأموال كي يستقل النظام بنفسه تحت اسم "أصحاب المستشفى" the Hospitallers ، ويدينون بالطاعة للبابا مباشرة . وخلعت عليه المزيد من الأراضي ، وقدم له أغلب كبار رجال الدين في المملكة عشور ايراداتهم . ومات جيرارد حوالي عام ١١١٨م وخلفه الفرنسي ريموند اوف لو بوى Raymond of Le Puy، الذى كانت لديه أفكار أكبر . فاستقر رأيه على أنه لا يكفي لنظامه مجرد إرشاد الحجاج واستضافتهم ، وإنما ينبغي للنظام أن يحارب كي تظل طرق الحج مفتوحة . وكان النظام يضم إخوة كانت واجباتهم سلمية محضة ، بيد أن واجباتهم تحولت الآن إلى رعاية مؤسسة من الفرسان الملتزمين بعهود دينية تلزمهم بالبقاء في حالة

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 20; Mansi, *Concilia*, vol. XXI, pp. 262-6; William of Tyre, XII, xiii, p.531.

(٢٧) (المترجم) التسمية مشتقة من اسم الراهب الإيطالي القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٤٣م). وهو مؤسس النظام البنديكتي ويوم احياء ذكراه ١١ يولية. ويسمى أيضا القديس بندكت النورسياني St. Benedict of Nursia

من الفقر الشخصي والعفّة والطاعة ، وتكريس حياتهم لقتال الكفرة . وفى ذات الوقت على وجه التقريب ، وكما لو كان الأمر إعلانا للمركز الأكبر "للمستشفى" ، ودون أن يلحظ أحد ، استعيض عن اسم القديس "يوحنا" المتصدّق المعلن عنه قديسا راعيا للنظام ، بالحوارى "يوحنا" الرسولى . وتميز فرسان المستشفى بعلامة صليب أبيض يضعونها على أرديتهم الكهنوتية فوق لباسهم الحربي.

وساعد على هذا التحول إنشاء فرسان المعبد فى ذات الوقت . وفى واقع الأمر ، فإن فكرة وجود نظام يجمع بين الجانبين الدينى والعسكرى ربما تكون قد نبعت فى ذهن فارس من مقاطعة شامبانيا يدعى هيو اوف بايين Hugh of Payens كان قد حث الملك بلدوين الأول عام ١١١٨م على السماح له بأن يستقر مع بعض رفاقه فى جناح القصر الملكى ، المسجد الأقصى سابقا ، فى منطقة المعبد . وكشأن فرسان المستشفى ، اتبع فرسان المعبد بادئ الأمر النظام البنِديكتى ، غير أنهم رسّخوا أنفسهم فى الحال تقريبا كنظام مستقل ، بثلاث طبقات : الفرسان ، على أن يجرى فى عروقهم جميعا دم النبلاء ؛ وضباط النظام، الآتين جميعا من الطبقة البورجوازية ، وكانوا هم سائسى الخيول والخدم المشرفين لمجتمع النظام ؛ ورجال الدين ، الذين كانوا القسس الرعاة المسؤولين عن المهام غير العسكرية . وكانت العلامة التى تميز أعضاء المعبد هى صليب أحمر يوضع على رداء أبيض بالنسبة للفرسان ، وعلى رداء أسود بالنسبة لضباط النظام. وكان أول واجب أُخذ عليه القسم لهذا النظام هو الحفاظ على الطريق من الساحل حتى القدس نظيفا من قطّاع الطرق ، لكنهم سرعان ما أصبحوا يشتركون فى أية حملة حربية تشترك فيها المملكة . وأمضى هيو نفسه الكثير من وقته فى أوروبا الغربية يجنّد المجندين لنظامه.

ومنح الملك بلدوين النظامين العسكريين كامل مساندته . وكانا مستقلين عن سلطته ولا يدينون بالولاء إلاّ للبابا . وحتى الإقطاعيات الضخمة التى بدأ يخلعها عليهما هو وأتباعه لم تكن تنطوى على أى التزام بالحرب فى جيش الملك ، غير أن أجيال قد مضت قبل أن يصيب النظامان من الثراء ما يكفيهما لتحدى السلطة الملكية. وفى الوقت ذاته ، كانا يزودان المملكة بما كانت فى حاجة ماسة اليه ، ألا وهو جيش نظامى بجنود مدربين ، مكفول وجوده المستديم . وفى الاقطاعيات الدنيوية ، إذا مات فجأة صاحب الاقطاعية ، فقد يترتب على إنتقال الإقطاعية إلى إمرأة أو إلى طفل ، أن يحدث توقف فى إمداد الجنود ويتكرر تورط الملك فى أعمال مضطربة ومصالح مختلة. كما لا يستطيع الاعتماد على تعويض من مات من اللوردات، بغيرهم من الوافدين

الجدد من الغرب كلما احتاج اليهم . لكن الأنظمة العسكرية ، بتنظيمها ذى الكفاءة ، وما لها من فتنة ومهابة تتخلل العالم المسيحى الغربى ، تستطيع أن تضمن إمدادا منتظما من المقاتلين المكرسين ، الذين لن تلهيهم أطماع أو مكاسب شخصية(٢٨).

وفى عام ١١٢٠م عاد بلدوين إلى انطاكية . إذ أن بلاق وإلى ايلغازى على أثارب، بدأ يغير على الأراضى الانطاكية بينما زحف ايلغازى نفسه على الرها . وصُدّت الغارتان كلاهما، على أن ايلغازى اقترب من حوار انطاكية ، فتوترت أعصاب البطريق برنار وارسل إلى القدس ، إلى الملك بلدوين . وفى يونية شرع بلدوين فى مسيرته شمالا ، حاملا معه مرة اخرى الصليب الحقيقى ، مما سبب الأسى لكنيسة القدس التى كانت نافرة من أن ترى مثل هذا الأثر الثمين يتعرض لمخاطر الحرب . ورحل البطريق جورموند نفسه مع الجيش ليكون مسؤولا عن هذا الأثر . وعندما وصل بلدوين إلى الشمال وجد أن ايلغازى ، الذى اضعفه انصراف جنوده التركمان ، قد انسحب فعلا ، وشعر المسلمون بالخطر حتى انهم استدعوا طغتكين إلى حلب . واثناء الحملة التى تلت تبادل كل من الطرفين الكر والفر حتى أنهك المسلمون فى نهاية الأمر وانسحب طغتكين إلى دمشق ، وعقد ايلغازى هدنة مع بلدوين . وتحدد خط حدود يفصل منطقة نفوذ كل منهما ، فقطع هذا الخط فى مكان ما (طاحونة) إلى نصفين ، وفى مكان آخر قسم الخط حصنا إلى نصفين ، وهدمت المبانى برضاء الطرفين ، واما زردنا التى بقيت جيبا اسلاميا فقد جردت من تجهيزاتها العسكرية(٢٩) . وفى وقت مبكر من الربيع التالى عاد بلدوين إلى القدس بعد أن فاز بنصر معنوى لم تسفك فيه الدماء . وكان مطلوبا فى الجنوب ، إذ اعتقد طغتكين أنه فى كامل انشغاله فى الشمال ، فأغار بغارات مكثفة فى الجليل . وفى شهر يولية ١١٢١م ، انتقم بلدوين بعبوره نهر الأردن وانتهب الجولان ، واحتل حصنا ثم دمّره ، وكان طغتكن قد بناه فى

---

(٢٨) عن الأنظمة العسكرية انظر (William of Tyre, XII, 7, pp. 520-1) (فرسان المعبد) و(XVIII, 4, pp. 822-3) (فرسان المستشفى) . وللاطلاع على مقالات عصرية جيدة انظر Delaville Le Roulx, *Les* Hospitaliers en Terre Sainte; Curzon, *La Règle du Temple*; Melville, *La Vie* des Templiers. ويورد ميخائيل السورى مقالا كاملا عن فرسان المعبد وسميهم (الإخوة الفرنج III, pp. 201-3) انظر ايضا La Monte, *Feudal Monarchy, pp. 217-25.*

(٢٩) Fulcher of Charters, III, ix, 1-7, pp. 638-42; Walter the Chancellor, II. 16, p.131; -Matthew of Edessa, ccxxx, pp. 302-3; Michael the Syrian, III, pp. 205-6; Kemal ad Din, p/627; Ibn al-Qalanisi, p. 162; Grousset, *op.cit.* I, p.574، ويتبع المؤرخ Grosset ما يذكره ميخائيل السورى، فيخلط بين بلاق وبلك ابن اخى ايلغازى، الذى كان آنذاك فى حملة ابعد الى الشمال (ابن القلانيسى، المرجع السابق).

حيزاس[٣] وفي تلك الأثناء كان جوسلين يجني ثمار غزوة ناجحة في أراضي ايلغازي في الجزيرة[٣١].

١١٢١م الحملة الصليبية الجورجية

ظهر خلال صيف ١١٢١م ظهر عامل جديد ترك بصماته على السياسات الشرقية فعلى مسافة بعيدة إلى الشمال ، عند سفوح الجبال القوقازية ، فرض ملوك جورجيا (الكرج) البجراتيون سلطانهم على الشعوب المسيحية التي كانت ما تزال مستقلة عن السيادة الإسلامية ، ووسع الملك داود الثاني سلطته إلى جنوب وادي الرّس حيث أصبح في نزاع مع الأمير السلجوقي طغرل ، أمير أرّان . وبعد هزيمة طغرل من قوات داود ، وجّه طغرل الدعوة إلى ايلغازي كي يشترك معه في حرب مقدسة ضد الملك المسيحي قليل الأدب . وكانت الحملة التي تلت بمثابة كارثة للمسلمين ، وفي اغسطس ١١٢١م ، كاد الجورجيون أن يجتثوا شأفة الجيش المتحد بين طغرل وايلغازي ، ونجا ايلغازي نفسه بشق الأنفس وهو يهرب عائدا إلى ماردين . وتمكن الملك داود من ترسيخ دعائم ملكه في العاصمة الجورجية القديمة تفليس ، وبحلول عام ١١٢٤م استولى على شمال أرمينيا والحاضرة آني ، وهي موطن اسرته القديم . ومنذ آنذاك والعالم التركي كله يدرك إدراك اليائس للخطر الماثل عليه من جورجيا بموقعها الاستراتيجي الرائع بل أن هذا الخطر لم تخف حدته بموت داود الثاني عام ١١٢٥م[٣٢]، إذ ورث خلفاؤه شدته وكانت شجاعتهم، التي أبقت المسلمين في حالة عصبية دائمة إزاء جبهتهم الشمالية ، ذات قيمة عظيمة للفرنج على الرغم مما يبدو من عدم وجود اتصال مباشر بين القوتين المسيحيتين ، إذ كان الجورجيون مرتبطين ببيزنطة بروابط الدين والتقاليد ، ولا شعور بالود لديهم نحو الفرنج ، فضلا عن أن ما لقيته مؤسساتهم في القدس من برود المعاملة لم تكن لتدخل السرور على مثل هذا

---

(٣) Fulcher of Charters, III, x. 1-6, pp.643-6

(٣١) Ibn al-Qalanisi, *op. cit* p. 163; Kemal ad-Din pp. 623-6

(٣٢) *Georgian Chronicle* (in Georgian), pp. 209-10 215, Matthew of Edessa ccxxxi-ii ccxxxix, ccxliii, pp. 303-5, 310-1 313-14; Ibn al- Qalanisi, p. 164 Ibn al-Athir pp 330-2; Kemal ad-Din, pp 628-9 Walter the Chancellor 16 p. 130, يعزو والتر Michael the Syrian, III. p. 206 [illegible]

الشعب المتكبر(٣٣).

ومع ذلك ، وجد بلدوين أن مصير ايلغازي بات تحت رحمة الجورجيين ، وفي ذلك فرصة لم يدعها تفلت منه . ذلك أن ايلغازي عين ابنه سليمان مؤخرا واليا على حلب ، لكن هذا الابن الطائش انتهز هزيمة والده واعلن استقلاله ، ولما وجد نفسه عاجزاً عن التصدى للهجوم الذى شنه عليه بلدوين على الفور، تصالح مع الفرنج متنازلا لهم عن زردنه وأتارب ، وهما ثمرة انتصار أبيه ايلغازى . فسارع ايلغازى إلى معاقبة ولده العاق، ولكنه ارتأى من الحكمة تأييد المعاهدة مع بلدوين ، الذى عاد إلى القدس وقد نال منه السرور بحصاد ذلك العام(٣٤).

وفى وقت مبكر من عام ١١٢٢م ، خلع بونز ، كونت طرابلس ، فجأة ولاءه للملك . ولسنا نعرف سبب هذا العصيان ، فيصعب أن نفهم ما هى المساعدة التى كان ينتظرها لكى يحتفظ بولائه للملك . وقد حنق بلدوين واستدعى أتباعه على الفور للحضور ومعاقبة العاصى . وسار الجيش الملكى من عكا، وباقترابه من بونز استسلم وغفر له(٣٥) . بيد أن استسلامه كان مؤقتا ، إذ أن ايلغازى كان على شفا الحرب مرة أخرى بعد أن حرّضه ابن أخيه بلك ، الذى كان أميرا على سروج والآن حاكم خانزيت . وعندما علم بلدوين بتلك الأنباء رفض أن تصديقها، فقد وقع معاهدة مع ايلغازى وهو يعتقد أن السيد المهذب - ويستخدم المؤرخ العربى كلمة "شيخ" - يحافظ على كلمته، لكن ايلغازى لم يكن سيدا مهذبا ، وقد وعده طغتكين بالمساعدة . فحاصر زردنا التى سبق أن أعاد الفرنج تشييدها ، وكان قد استولى على جزء من التحصينات عندما اقترب بلدوين . وتلى ذلك حملة بدون معركة ، إذ لم يشأ بلدوين أن يستدرج إلى كمين بما اعتاده الترك من التظاهر بالهرب كخدعة عسكرية . ومرة اخرى، كان المسلمون هم أول من سأم الكر والفر ، فعادوا إلى بلدهم . وأرسل بلدوين الصليب الحقيقى إلى القدس وهو مرتاح البال ، وذهب هو نفسه إلى

---

(٣٣) عن المؤسسات الجورجية فى القدس ، انظر Georgian Chronicle, pp. 222-3 and Brosset, Additions et Eclaircissements, x, pp. 197-205. ، وترد ملاحظات موجزة فى Rey, Les Colonies Franques, pp. 93-4، ومن الجائز ان يكون التهديد الجورجى المستمر للأراتقة والسلاجقة فى بيرسارمينيا، قد ساعد بصورة غير مباشرة فى تعاظم قوة زنكى.

(٣٤) Kemal ad-Din, p.629; Ibn al-Athir, pp. 340-50.

(٣٥) of Charters, III, xi, pp.647-8; William of Tyre, XII, 17, pp. 536-7.

انطاكية[٣٦].

١١٢٢م : الكونت جوسلين يقع أسيراً

قبل وصول الصليب الحقيقى إلى القدس ، وصلت من الرها أنباء سيئة . ففى ١٣ سبتمبر ١١٢٢م، كان الكونت جوسلين ووإليران أمير البيرة على جواديهما مع قوة صغيرة من الفرسان بالقرب من سروج عندما وجدوا انفسهم فجأة امام جيش بلك . فهاجموا الجيش ، لكن الأمطار الغزيرة أحالت السهل إلى بحيرة من الطمى ، فانزلقت الجياد وتعثرت ، ولم يجد التركمان خفيفو التسليح صعوبة فى الاحاطة بالفرنج . وأُسر جوسلين ووإليران وستون من رفاقهما . وعلى الفور عرض بلك اطلاق سراحهم مقابل التخلى عن الرها . وبرفض جوسلين الاستماع إلى هذه الشروط ، اقتاد بلك الأسرى إلى قلعته فى خرتبرت[٣٧].

ولم يكن لأسر جوسلين كبير أثر في القوة البشرية للدويلات الصليبية . فنجد فى الشهر التالى فرسان الرها يغيرون بنجاح على الأراضى الاسلامية . غير أنه كان لطمة للمهابة الفرنجية أجبرت بلدوين على أن يضيف إلى مشاغله عملاً آخر بأن تولى مرة اخرى إدارة الرها . ولحسن الحظ مات ايلغازى فى شهر نوفمبر فى ميافارقين ، وقسّم أبناؤه وأبناء اخوته الميراث الأرتقى . فكانت ميافارقين من نصيب سليمان أكبر أبنائه ، وحصل أصغر ابنائه تمرتاش على ماردين ، أمّا بلك فقد زاد من املاكه فى الشمال وأخذ حران فى الجنوب ، وذهبت حلب إلى ابن اخيه بدر الدولة سليمان[٣٨].

وكان المسلمون قد استردوا اثارب مؤخرا، وفى إبريل من العام التالى استغل بلدوين ما ساد من اضطراب وحاول اجبار حاكم حلب الجديد الضعيف على تسليمها إلى الأبد . وبعد أن استعاد الملك مدينة البيرة شرع فى الرحلة إلى الرها كى يرتب

(٣٦) -Fulcher of Charters, III, xi, 3-7, pp. 648-51; Kemal ad-Din, pp. 632-3; Ibn al Qalanisi, p.166.

(٣٧) Fulcher of Charters, III, xii, 1, pp. 651-2; Matthew of Edessa, ccxxxiv, pp. 306-7; Kemal ad-Din, p. 634; *Anon.* Chron. Syr. p. 90، ويقول تاريخ سوريا المجهول ان جوسلين كان يحضر زوجته الى البيت ، أخت روجر . ولكن لا توجد اشارة عن اعتقالها، وحيث ان روجر قد وهب اخته المبات ، فلا بد وان يكون الزواج قد حدث قبل موت روجر.

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 166; Ibn Hamdun, p. 516; Kemal ad-Din, pp. 6324; Matthew of Edessa, *loc. cit.* (يورد ماثيو مقالا يدل على جهل بالاستخلاف الأرتقى).

حكومتها. فوضع جيوفرى الراهب ، وهو لورد مرعش، على رأس ادارتها ، ثـم مضى مع قـوة صغيرة باتجاه الشمال الشرقى كى يستطلع الموضع الـذى أسـر فيـه جوسـلين . وفى ١٨ ابريل ضرب معسكره على مسافة غير بعيدة مـن كركـر علـى نهـر الفـرات . وبينما كان يتهيأ للاستمتاع برياضة الصباح مع صقره ، غافلاً عن اقترابه من التركمان، انقض بلك على المعسكر.وقتل أغلـب الجيش، وأسـر الملـك نفسـه ، وعومـل باحـترام وأرسل تحت الحراسة لينضم إلى جوسلين فى قلعة خرتبرت(٣٩) .

١١٢٣م : بلدوين وجوسلين يحاولان الهرب من الأسر

ومرة أخرى اجتمع بلدوين وجوسلين فى الأسر . لكن الأمر هذه المرة أخطر مما كان عليه عام ١١٠٤م ، إذ أن بلدوين الآن هو الملك ، أي بؤرة الهيكل الفرنجى كلـه . وقد برهنت مقدرته الإدارية على بقاء الهيكل قائما ، إذ واصل جيوفـرى الراهـب تدبـر حكومة الرها ، وعندما وصلت الانباء أنطاكية، عاد البطريـق برنـارد فجعـل مـن نفسـه السلطة المسؤولة مرة أخرى . وفى القدس ، أشـيع أولا أن الملـك قُتـل ، فقـام البطريـق جورموند باستدعاء مجلس المملكة للانعقاد فى عكا . وعندما حان وقت انعقاده انجلـت حقيقة وقوعه فى الأسر . وانتخب المجلس أيوستاس جارنييـه ، لـورد قيسـارية وصيـدا، كي يعمل نائبا ووكيلا عن المملكة إلى حين تخليص الملك . وسارت الحياة الاداريـة فـى الأراضى الثلاث دونما عائق(٤٠) .

واكتسب الأمير بلك مكانة علية ، غير انه لم يستغلها فى توجيه ضربـة قاضيـة إلى الفرنج، وانما استخدمها فى ترسيخ نفسه فى حلب . وكان ذلك عملا أصعب مما كـان يتوقع لأنه لم يكن محبوبا هناك . وأصبح سيدها فى يونية ، ثم هاجم الممتلكات الفرنجية الواقعة أكثر إلى الجنوب ، وما أن استولى على البارة فى شهر اغسطس حتى اضطـر إلى التوجه شمالا مرة أخرى إثر أنباء جاءته من خرتبرت(٤١) .

(٣٩) Fulcher of Charters, III, xvi, I, pp. 658-9; William of Tyre, XII, II, p. 537; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 247; Matthew of Edessa, ccxxv, pp. 307-8; Ibn al-Qalanisi, p. 167; Ibn al-Athir, p.352.

(٤٠) Fulcher of Chartres, III, xvi, 1-3, pp. 659-61; William of Tyre, XII, 17, p. 538.

(٤١) Keman ad-Din, pp. 636-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 167-8. وللاطـلاع علـى مختلـف مـا كُتـب عـن استيلاء بلـك على حلـب انـظر.. Cahen, op.cit. p. 296 n.35.

ذلك أن جوسلين كان محبوبا دائما من الأرمن . وبعد وصوله إلى الشـرق سرعان ما حذا حذو بلدوين الأول وبلدوين الثانى وتزوج من فتاة أرمينيـة هـى اخـت ثوروس الروبينى، ولم تكن أرثوذوكسية المولد - مثل ملكتي القدس - ولكنها كانت من أتباع الكنيسة الأرمينية المستقلة ، ومن ثم كـان أغلـب أبنـاء بلدهـا يتعـاطفون معهـا تعاطفـا عظيما . وقـد مـاتت الآن ، وتـزوج جوسـلين مـرة اخـرى ، علـى أن علاقتـه الحميمـة بالارمن استمرت ، ولم يُظهـر لهـم قـط مـا أظهـره سـلفه بلدويـن الثـانى مـن قسـوة . وكانت قلعة خرتبرت واقعة فى الاراضى الأرمينية ، ووافق فلاح أرمينـى علـى توصيـل رسالة إلى أصدقاء جوسلين الأرمن . وجاء خمسون منهم متنكرين إلى قلعـة خرتـبرت ، وحصلوا على اذن الدخول كى يعرضوا على الحاكم مظلمة لهـم باعتبـارهم مـن رهبـان وتجـار المنطقـة . ومـا أن دخلـوا القلعـة حتـى أخرجـوا أسـلحتهم مـن طيـات أرديتهـم وتكاثروا على رجال الحامية . ووجد بلدوين وجوسلين فجأة أنهما اصبحا سـيدين فـى سجنهما . وبعد تشاور وجيز تقرر أن يغادر جوسلين القلعة ويطلب العون قبل أن يأتى الجيش الأرتقى، بينما يحاول بلدوين الحفاظ على القلعة . وتسلل جوسلين مع ثلاثة مـن رفاقه الارمن ، وبعدما أفلح فى التسلل خلال القـوات التركيـة المتجمعـة ، أرسـل أحـد رجاله عائدا ليطمئن الملك . وانطلق هو نفسه خلال ارض العدو الخطرة ، يختبـئ نهـارا ويتخبط ليلا فى ضجر على قدميه . واخـيرا وصـل الهـاربون إلى نهـر الفـرات ، ولكـن جوسلين لا يعرف السباحة ، بيد أنه كان يحمل معه قربتين من قرب النبيـذ كـان يحمـل فيهما الماء ، فنفخ فيهما من فمه واستخدمهما كطوافتين ، وتمكـن رفيقـاه ، وهمـا مـن السباحين الأقوياء ، من دفعه عبر النهر فـى الظـلام . وفـى اليـوم التـالى وجدهمـا أحـد الفلاحين الذى تعرف على الكونت ورحب به مبتهجا ، إذ سـبق وأن أعطـاه جوسـلين بعض الصدقة . وبمساعدة الفلاح وأسرته واصل جوسـلين ارتحالـه الحـذِر إلى تـل بشـير حيث كشف عن نفسه لزوجته وللبلاط . ولم يتوقـف هنـاك وإنمـا أسـرع إلى أنطاكيـة لجمع الجنود لانقاذ الملك. لكـن جيـش أنطاكيـة كـان صغـيرا، وكـان البطريـق برنـارد عصبيا. وبناء على اقتراحه أسرع جوسلين على جواد يسـابق الريـح إلى القـدس. وكـان أول ما فعله أن قدم قيـوده قربانـا علـى مذبـح كالفـارى (موضـع صلـب المسـيح). ثـم استدعى مجلس الفرسـان وقـص عليهـم قصتـه. وتحمس البطريـق جورمـون والوكيـل ايوستاس فى جمع الجنود الذين انطلقوا تحت قيادة البطريق جورمون والصليـب الحقيقـى فى المقدمة، باتجاه تل بشير. على أنهم بوصولهم هناك سمعوا انهم قد وصلوا بعـد فـوات الأوان.

ذلك أن بلك ، الذى سمع بأنباء الثورة فى خرتبرت، صعد بجيشه من الجنوب بسرعة أذهلت معاصريه . ولدى وصوله عرض على بلدوين مرورا مأمونا إلى بلده لقاء تسليم القلعة . ورفض بلدوين إما لعدم ثقته فى الأمير أو لأنه لم يشأ التخلى عن رفاقه. على أن القلعة كانت أقل مناعة مما كان يظن، إذ سرعان ما نسف مهندسو بَلَك جدارا اقتحمه الجيش الأرتقي . و لم يظهر بلك الآن أي رحمة ، خاصة بوجود حريمه فى القلعة وقد انتهكت حرمتهن . وجئ بكل من كان يدافع عن القلعة ، فرنجى أو أرمينى وكل امرأة ساعدتهم - والراجح أن كانت هناك إماء من الأرمينيات فى الحريم - وألقى بهم من فوق أسوار القلعة ليلقوا حتفهم . و لم يسلم سوى الملك وابن أخ له ، ووالـيرين . فأقتيدوا إلى قلعة حرّان حيث المزيد من الأمان[٤٢].

١١٢٤م : مـوت بَلَكْ

و لم يجازف جوسلين بالهجوم على حرّان . وبعد أن استغل جيشه في غارة ناجحة في جوار حلب، تخلى عنها وعاد إلى تل بشير . وكان بلك عاجزا بنفس القدر عن الافادة من الموقف . فلا يستطيع واليه على حلب إلاّ أن يرد على الفرنج بتحويل كنائس حلب إلى مساجد ، مما أثار ثائرة المسيحيين المحليين ، لكنهم لم يلحقوا ضررا قط باللاتين. وجاء بلك بنفسه إلى حلب لاعداد العدة لحملة جديدة . غير أنه فى أوائل ١١٢٤م تمرد عليه أمير منبج ، لكن تمرتاش الأرتقى اعتقله وسحق التمرد بناء على تعليمات بلك ، على أن شقيق المتمرد ، ويدعى عيسى ، كان يحتل القلعة واستنجد بجوسلين . ولقى بلك جيش جوسلين وهزمه ، وقتل جيوفرى الراهب ، ثم انطلق إلى منبج ، وهو متلهف على حفظ النظام هناك ، بعدما تسلم استدعاءً عاجلا من الجنوب، من عكا . غير أن سهما طائشا أصابه من قلعة منبج أنهى حياته يوم ٦ مايو . ومات

---

(٤٢) Fulcher of Chartres, III, xxiii-xxvi, 6, pp. 676-93; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. pp. 248-10.، يقول فيتاليس إن الملكة مورفيا الأرمينية المولد ساعدت فى تجنيد المواطنين لانقاذ الملك . ويضيف ان السجناء أرسِلوا الى فارس لكنهم اطلق سراحهم لاحقا William of Tyre, XII, 18-20, pp. 538-41; Matthew of Edessa, ccxxxvi, pp. 308-10: Ibn al-Qalanisi, p.169; (ولسوء الحظ توجد فجوة فى نص ابن القلانيسى (Kemal ad-Din, p. 637; Michael the Syrian, III, p.211. وربما كان ابن اخت بلدوين هو أخو Manasses of Hierges ، ابن اخته هوديرنا (انظر ادناه ص ٢٣٣). ويقول لنا ميخائيل، الذى يسميه بار نول (Arnulf?) انه كان ابن احدى الأخوات . ويبدو ان اخت بلدوين الاخرى ، ماهالدا ، سيدة فيتزى ، كان لديها ابنا واحدا ، تزوج ابنة عم له وريثة وتولى امارة Rethel ؛ William of Tyre XII, I, pp. 511-12, .

وهو يتمتم قائلاً إن موته بمثابة ضربة مميته لكفاح الإسلام . وكان على حق، إذ كان هو الوحيد ، من بين جميع القادة الأتراك الذين حاربهم الفرنج ، الذى أظهر أقصى درجات النشاط والحكمة . ولم تستمر قوة الأراتقة طويلا بعده(٤٣).

وفى مملكة القدس نفسها لم يترتب على غياب بلدون فى الأسر أي أثر ضار ، وإنما أغوت المصريين بغزو البلاد مرة اخرى . وفى مايو ١١٢٣م تحرك جيش مصرى كبير خارجا من عسقلان إلى يافا. وعلى الفور قاد ايوستاس حارنييه جيش القدس للتصدى له ، وذهب معه الصليب الحقيقي ، بينما سار مواطنو القدس المسيحيون وهم حفاة الاقدام فى مواكب زيّاحية إلى الكنائس . وكانت جوانب الاحتياط المتصفة بالورع هذه مطلوبة ، إذ عندما واجه الفرنج المصريين عند يبنه يوم ٢٩ مايو ، استدار المصريون هاربين برغم تفوقهم العددى ، تاركين معسكرهم نهبا للمسيحيين(٤٤) وكان ذلك آخر انجازات ايوستاس الذى مات يوم ١٥ مايو . وجريا على العادة السائدة فى المملكة ، اتخذت أرملته من فورها، وهى ايما ابنة أخت البطريق أرنولف الغنية ، زوجا آخر هو كونت يافا ، هيو (اوف لو بواسيه) ، كى لا تحرم أرضها من مستأجر نشط . وأمر مجلس المملكة بنقل منصب وكيل المملكة (كونستابل) إلى وليم (اوف بور) أمير الجليل(٤٥).

١١٢٣م : وصول أسطول بندقى إلى عكا

فى عام ١١١٩م ، وبعد معركة بحرالدم مباشرة ، كتب الملك بلدوين إلى جمهورية البندقية ملتمسا مساعدتها، فبرغم أن المصريين لا يمثلون خطراً جسيماً على البر ، إلا أن اسطولهم ما يزال يسيطر على غرب فلسطين . وقد عرض على البندقية فى المقابل مزايا تجارية ، وعزز البابا هذا الطلب ، وقرر الدوج (رئيس قضاة البندقية)، دومينيكو ميشيلى ، تلبية هذا الالتماس . ومرت حوإلى ثلاث سنوات قبل أن تجهز حملة البندقية .

---

(٤٣) Fulcher of Chartres, III, xxxi, 1-10, pp. 721-7; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 260; William of Tyre, XIII, II, pp. 570-1; Matthew of Edessa, ccxl, pp. 311-12; -Kemal ad-Din, pp. 641-2; Usama, ed. Hitti, pp. 63, 76, 130; Ibn al-Qalanisi, pp. 168 9 (ولا يذكر ابن القلانيسى موت بلك).

(٤٤) Fulcher of Chartres, III, xvi, 3-xix, I, pp. 661-8; William of Tyre, XII, I, pp.543-5.

(٤٥) Fulcher of Chartres, III, xxii, pp. 674-5; William of Tyre, *loc. cit.*، وبالنسبة لهيو (اوف بواتيه) انظر ادناه ص ١٩١ . تزوج ايما قبل ابريل ١١٢٤م .(Rohrich, *Regesta*, p.25).

وفى ٨ اغسطس ١١٢٢م ، أبحر من فينيسيا ما يزيد كثيرا على مئة سفينة حربية تحمل الرجال والخيول وأدوات الحصار . على أن هذا الاسطول لم يبحر مباشرة إلى فلسطين ، إذ تشاجرت فينيسيا مؤخرا مع بيزنطة بسبب محاولة من الامبراطور حون كومنينوس لتقليل مزاياها التجارية ؛ ولذا توقف البنادقة لمهاجمة جزيرة كورفو البيزنطية. وطوال نحو ستة اشهر من شتاء ١١٢٢-١١٢٣م ، ضرب الدوج حصارا عقيما على مدينة كورفو . وفى نهاية ابريل ، جاءتهم سفينة مبحرة على عجل من فلسطين لتخبر البنادقة بكارثة الملك . فرفع الدوج الحصار على مضض ، واخذ معه اسطوله الذى لا يقهر شرقا ، ولم يكن يوقفه الا مهاجمة اية سفينة بيزنطية تقابله . ووصل ميناء عكا فى نهاية مايو وسمع أن أسطولا مصريا يبحر فى شواطئ عسقلان . فأبحر جنوبا لمقابلته ، وأرسل فى المقدمة سفنه ذات أسلحة خفيفة كي يوقع الأسطول المصرى فى كمين . ووقع المصريون فى الفخ ، إذ ظنوا أنهم سيحصلون على نصر يسير فأبحروا خارج الميناء ، ليجدوا انفسهم وقد حوصروا بين أسطولين للبنادقة يفوقانهم عدداً ، ولم تفلت بالكاد من الكارثة أيه سفينة مصرية ، فالبعض غرق ، والبعض الآخر استولى عليه البنادقة ، ثم استولوا فى طريق عودتهم على اسطول تجارى قابلهم يتألف من عشر سفن مملوءة عن آخرها[٤٦] ، وبذا تعاظم نصرهم.

وكان وجود الاسطول البندقى فرصة ثمينة ينبغي انتهازها. ودارت مناقشة حول ما إذا كان يتعين استغلال الاسطول فى الاستيلاء على عسقلان أو صور ، وهما القلعتان الاسلاميتان الباقيتان على الساحل . وأيد نبلاء يهودا مهاجمة عسقلان ، وأيد نبلاء الجليل مهاجمة صور.وأخيرا قرر البنادقة مهاجمة صور ؛ إذ أن ميناءها هو الأفضل على طول الساحل ، وهو الآن ميناء الأراضى الدمشقية الغنية ، وهو مركز تجارى أكثر أهمية بكثير من عسقلان ، ففيه مكان رسو مفتوح للسفن ، ومن حوله البلاد الداخلية الفقيرة . على أنهم أصرّوا على الثمن الذى يطلبونه . وتطاولت المفاوضات حول الشروط طوال الخريف . وفى عيد الميلاد من عام ١١٢٣م ، استمتع القادة البنادقة بما اغدقه الصليبيون عليهم من متع القدس ، وحضروا الصلوات فى بيت لحم . وفى وقت مبكر من السنة الجديدة تم توقيع معاهدة فى عكا بين ممثلى جمهورية البندقية من ناحية ، وبين البطريق حورمون ، والوكيل وليم والمستشار باجان باسم الملك الأسير، من ناحية اخرى . وتقضى المعاهدة بأن يتسلم البنادقة شارعا بكنيسة ، وحمامات ومخبزا ، معفاة

(٤٦) Fulcher of Chartres, III, xx, 1-8, pp. 669-72; William of Tyre, XII, 23, pp. 546-7; *Historia Ducum Veneticorum, M. G. H. Ss.* vol. xiv, p. 73

جميعا من كل الإلتزامات المألوفة ، وذلك فى كل مدينة من مدن المملكة . ولهم مطلق الحرية فى استخدام الأوزان والمقاييس الخاصة بهم فى كافة تعاملاتهم ، وليس فقط فيما بينهم ، وأن يعفوا من كافة المكوس والرسوم الجمركية فى سائر انحاء المملكة . ولهم أن يتسلموا بيوتا اضافية من عكا ، وثلث كل من صور وعسقلان إذا ساعدوا فى الاستيلاء عليهما. وفضلا عن كل ذلك، يُدفع لهم مبلغ سنوى مقداره ثلاثمائة بيزانت عربى (ساراسانى) يضاف إلى العوائد الملكية فى عكا. وفى المقابل وافقوا على استمرارهم المعتاد فى تسديد ثلث أجور سفر الحجاج للخزانة الملكية. بل طالب البنادقة بأنه لا ينبغى للمملكة أن تخفض الرسوم الجمركية المفروضة على الرعايا الآخرين دون موافقة البنادقة. وأقسم البطريق حورمون على الإنجيل بأن الملك بلدوين سوف يؤيد المعاهدة عندما يطلق سراحه، وهو ما حدث فى الواقع بعد سنتين ، رغم أن بلدوين رفض قبول الشرط الأخير، الذى يعنى أن تصبح تجارة المملكة كلها خاضعة لمصالح البندقية[٤٧]. وبعد توقيع المعاهدة تحرك الجيش الفرنجى أعلى الساحل إلى صور ، وأبحر الاسطول البندقى فى خط مواز له. وبدأ حصار صور يوم ١٥ فبراير ١١٢٤م[٤٨].

١١٢٤م : حصار صور

كانت صور ما تزال تابعة للخلافة الفاطمية . وكان مواطنوها فى عام ١١١٢م قد صُدموا من ضآلة المساعدة التى تلقوها من مصر أثناء حصار المدينة فى العام الذى قبله ١١١١م ، مما دفعهم إلى السماح لطغتكين بأن يولّى عليها واليا من عنده ، فأرسل واحدا من أقدر قواده ، الأمير مسعود، لكى يباشر أمور المدينة . وفى الوقت ذاته ، كانت سيادة مصر معترفا بها ، وكان الأئمة فى المساجد يدعون على المنابر للخليفة الفاطمى ، الذى كان مطلوباً منه إرسال مساعدة بحرية منتظمة إلى المدينة[٤٩]. وسارت الحكومة الثانية سيرا سلسا لعشر سنوات ، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى حرص الوزير الأفضل على حسن العلاقات مع طغتكين ، فهو فى حاجة إلى صداقته ضد الفرنج . لكن أحد الحشاشين اغتال الأفضل فى ديسمبر ١١٢١م فى أحد شوارع القاهرة .

---

(٤٧) Tafel and Thomas, I, pp. 84-9; Rhricht, *Regesta*, pp. 23-5; William of Tyre, XII, 4-5, pp. 547-53; Fulcher of Chartres, III, xxvii, 1-3, pp. 693 5.

(٤٨) Fulcher of Chartres, III, xviii, *i*, pp. 695-6.

(٤٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 128-30, 142.

فرغب الخليفة الآمر ، الذى اصبح سيد نفسه أخيرا، فى استعادة السيطرة على صور . فأرسل اليها اسطولا عام ١١٢٢م ، كما لو كان يقصد تعزيز الدفاع عن المدينة ، وقام أمير البحر بتوجيه الدعوة إلى حاكم المدينة مسعود ليتفقد السفن ، وعندما صعد ظهر السفينة اختطفه وأخذه إلى القاهرة . واستقبل استقبالا حسنا هناك ، وأرسل بكل مظاهر التشريف إلى طغتكين ، الذى لم يشأ أن يثير نزاعاً حول استعادة الفاطميين للمدينة . على انه باقتراب الفرنج من المدينة ، أعلن الخليفة الآمر عدم استطاعته أن يفعل شيئا لانقاذ المدينة بعد تدمير أسطوله ولذا أسلم دفاعاتها إلى طغتكين الذى دفع اليها لتوه سبعمائة جندى تركى ومؤن لمواجهة الحصار(٥٠).

ولم يكن يربط صور بالبر الرئيسى للبلاد سوى برزخ ضيق كان الاسكندر الاكبر قد شيده ، وكانت تحصيناتها فى حالة جيدة . على انه كان يعيبها نقطة ضعف واحدة؛ إذ كانت مياه الشرب تأتى خلال قناة من داخل البلاد ، لعدم وجود آبار فى شبه الجزيرة . وقطع الفرنج هذه القناة فى اليوم التالى لمجيئهم، لكن أمطار الشتاء ملأت صهاريج المدينة ، ومضى بعض الوقت قبل أن يشعر السكان بنقص المياه . واستقر الفرنج فى معسكر بين الحدائق والبساتين حيث يلتقى البرزخ بالبر الرئيسى للبلاد . وأرسى البنادقة سفنهم بمحاذاتهم ، لكنهم دائما ما كانوا يحتفظون بقادس فى البحر لاعتراض أية سفينة قد تحاول الابحار للدخول إلى الميناء . وكان القائد الاعلى للجيش هو البطريق جورمون ، وكان يثير الانطباع بأن لديه من السلطة أكثر مما لدى الوكيل (الكونستابل) . وكان كونت طرابلس ، عندما جاء بجيشه للانضمام إلى القوات المحاصرة ، قد أبدى استعداده لأن يطيع البطريق فى كل شئ ، وهذا تنازل ربما لم يكن يمنحه لوليم (اوف بور)(٥١).

وتواصل الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف . ودأب الفرنج على قصف منتظم للأسوار عبر البرزخ من آلات أحضر البنادقة مواد صنعها . وكان المدافعون عن المدينة من جانبهم مجهزين جيدا براجمات الحجارة والنيران الاغريقية التى كانوا يطلقونها على مهاجميهم. وحاربوا حربا رائعة ، غير أن أعدادهم الضئيلة لم تكن تسمح لهم بمحاولات الخروج . وخشية أن يجبرهم الجوع والعطش ونقص الرحال على التسليم ، تسلل

---

(٥٠) *Ibid.* pp.165-6, 170-1; Ibn al-Athir, pp. 356-8.

(٥١) Fulcher of Chartres, III, xxviii, I-xxx, 13, pp. 695-720) وقد أورد استطرادا طويلا حول تاريخ صور) William of Tyre, III, 7, p. 565.؛

رسلهم خارج المدينة لحث طغتكين والمصريين على الاسراع لنجدتهم . فقام جيش مصرى بهجوم مضلل على القدس نفسها ، ووصل إلى ضواحى المدينة المقدسة . غير أن مواطنيها وتجارها ورجال الدين والقساوسة أسرعوا إلى أعلى أسوارها الضخمة ، ولم يجازف القائد المصرى بمهاجمتها . وسرعان ما قام جيش مصرى آخر بنهب المدينة الصغيرة بلين أو (ماهومرى La Mahomerie) ، على مبعدة أميال قليلة شمال القدس ، وقتل سكانها . على أن هذه الغارات المنفردة لا تنقذ صور . بل كان طغتكين أقل حماساً فى مساعدتها ، وعندما بدأ الحصار تحرك بجيشه إلى بانياس عند منبع نهر الأردن منتظرا أخبار وصول أسطول مصرى يستطيع أن ينسق معه هجومه على المعسكر الفرنجى ، ولكن لم يبحر أسطول مصرى أعلى الساحل ، إذ لم يستطع الخليفة أن يجمع أسطولا . وكان الفرنج يخشون هذا التلاقى بين القوات البحرية والبرية المعادية ، ولذا بقى الاسطول البندقى لعدة أسابيع خارج صور ليعترض المصريين ، وأرسل البطريق جيشا كبيرا على رأسه بونز أمير طرابلس ووليم (اوف بور) لمقابلة طغتكين . وعندما وصلوا بانياس ، قرر طغتكين عدم المجازفة بمعركة وانسحب إلى دمشق . والآن بات الأمل الوحيد للمحاصَرين فى صور هو بلك الأرتقى ، الذى اشتهر بانه آسر الملك وأزمع بلك أن يخف لنجدتهم ، لكنه قتل فى منبج فى شهر مايو.

وبنهاية شهر يونية أصبح الوضع داخل صور باعثا على اليأس . إذ أخذ الطعام والشراب فى التناقص وسقط الكثير من رجال الحامية . وأيقن طغتكين من أن المدينة سوف تستسلم لا محالة ، فأرسل إلى معسكر الفرنج يعرض استسلام المدينة بالشروط المعتادة ، بأن يُسمح للسكان الراغبين فى مغادرة المدينة بالرحيل الآمن مع منقولاتهم ، ويحتفظ من يرغب فى البقاء بحقوق المواطنة . وقبل القادة الفرنج والبنادقة هذا العرض ، برغم ما بدا على الجنود والبحارة من غيظ شديد لدى سماعهم بأنه لن يكون هناك سلب ونهب ، وهددوا بالتمرد .وفى ٧ يولية فتحت البوابات واستولى الجيش الفرنجى على المدينة، ورفعت راية الملك على البوابة الرئيسية ، ورايتا كونت طرابلس والدوج البندقى على البرجين الواقعين يمين ويسار البوابة الرئيسية . والتزم القادة بكلمتهم ، فلم يحدث سلب ، ومر موكب طويل من المسلمين فى سلام خلال المعسكر الصليبى . وهكذا انتقلت آخر مدينة اسلامية ساحلية واقعة شمال عسقلان إلى المسيحيين ، وعاد جيشهم مبتهجا إلى القدس ، وأبحر البنادقة عائدين إلى فينيسيا بعدما حصلوا على رطل

اللحم[٥٢] الخاص بهم[٥٣].

١١٢٤م : فدية الملك بلدوين

وصلت الأنباء السارة الملك بلدوين فى شيزر . فبعد موت بلك ، انتقلت مسؤولية حبس الملك إلى تمرتاش بن ايلغازى ، الذى لم تَرُقْه المسؤولية وفضّل فكرة الحصول على فدية سخية . فطلب من أمير شيزر الدخول فى مفاوضات مع الفرنج . ورحلت الملكة مورفيا إلى الشمال لتكون أقرب ما يمكن من زوجها ، وقامت هى والكونت جوسلين بترتيب الشروط مع الأمير . وكانت الفدية المطلوبة باهظة. فكان على الملك أن يسدد لتمرتاش ثمانين الف دينار ، وكان عليه التخلى عن مدن أتارب ، وزردنا وعزاز وكفرطاب والجزْر ، لتصبح مدنا تابعة لحلب - حيث خلف تمرتاش سلطة بلك ، وعليه أيضا مساعدة تمرتاش فى اخضاع زعيم البدو دوبيس بن صدقة ، الذى استقر فى الجزيرة . وينبغى له أن يدفع عشرين الف دينار مقدما ، ويتم الاحتفاظ برهائن فى شيزر لحين دفع المبلغ المتبقى ، وما أن يتسلم المسلمون المبلغ يطلق سراح بلدوين . وعن الرهائن ، طلب تمرتاش أصغر أطفال الملك ، الأميرة جوفيتا ذات السنوات الأربع ، وابن جوسلين ووريثه ، صبى فى الحادية عشرة من عمره ، وعشرة من ابناء النبلاء . ولكى يظهر الأمير سلطان شيزر حسن نواياه ، أرسل بعض افراد اسرته إلى حلب . وفى نهاية يونية ١١٢٤م ، غادر بلدوين حران على جواده الصوّال الخاص به الذى كان تمرتاش قد احتفظ له به ، ومعه هدايا كثيرة ثمينة . وذهب إلى شيزر ، حيث أكرم أميرها وفادته لاعفائه قبل ذلك بخمس سنوات من الأموال المستحقة على شيزر لأنطاكية ، وقابل ابنته ورفاقها الرهائن . وبوصولهم سُمح له بالانطلاق إلى انطاكية التى وصلها فى الأيام الأخيرة من شهر اغسطس[٥٤].

---

(٥٢) (المترجم) اشارة الى مسرحية شكسبير " تاجر البندقية " فليرجع اليها من شاء.

(٥٣) Fulcher of Chartres, III, xxxii, I-xxxiv, 13, pp. 728-39، يحدد فولشر تاريخ الاستيلاء على المدينة (ويوجه اللوم ظلما الى أبناء انطاكية لعدم تعاونهم)؛ William of Tyre, XIII, 13-14, pp. 573-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 170-2 giving the date; Ibn al-Athir, pp. 358-9 يعطى التاريخ ٩ يولية Abu'lFeda, pp.15-16 يحدد التاريخ ٥ يولية؛ Matthew of Edessa, ccxliv, p.314.

(٥٤) Usama, ed. Hitti, pp. 133, 150; Kemal ad-Din, pp. 643-4; Matthew of Edessa, ccxli, pp. 312-13 ويذكر ماثيوالأروفى ان جوسلين والملكة قاما بترتيب الفدية ، واضاف ان تيمورتاش قتل واليران وابن اخ الملك - والراجح ان سبب ذلك ان الملك خان شروط فديته (Michael the Syrian, III, pp. 212-225)، وفى المواثيق سُمّيت جوفيتا Joveta بأسماء مختلفة Yvette, Ivetta or Juditta.

والآن ، وبعد أن نال بلدوين حريته ، خان الشروط التى قبلها . فقد أكّد له البطريق برنارد انه ليس سوى الوصى على انطاكية وسيدها، وليس من حقه التنازل عن اراضيها التى تنتمى إلى الشاب بوهمند الثانى . واقتنع بلدوين عن طيب خاطر بالحجة وأرسل يخبر تمرتاش بعميق الاعتذارات انه لسوء حظه البالغ لايستطيع عصيان البطريق . وكان تمرتاش مهتماً بتسلم المال أكثر من اهتمامه بالأرض ، فغفر الاساءة خشية ضياع باقى الفدية . ولمّا وجد بلدوين أن تمرتاش على هذا القدر من الاذعان ، لم يحترم شرطه الآخر الذى بموجبه وعد بمساعدته ضد الأمير البدوى دبيس بن صدقة ، وبدلا من ذلك استقبل سفارة من دبيس للتخطيط لعمل مشترك ضد حلب. وولد التحالف بينهما . وفى اكتوبر انضم جيشا انطاكية والرها إلى رجال دبيس الأعراب أمام أسوار حلب . وسرعان ما تعزز هذا التحالف بمقدم المطالب بعرش حلب إلى معسكرهم ، سلطانشاه (بن رضوان) ، الذى هرب مؤخرا من سجن الاراتقة ، مع ابن عمه طغرل ارسلان ، اخى سلطان سلاجقة الروم ، وكان الدانشمند قد أخرجوه مؤخرا من ملطية فراح يبحث عن حلفاء.

ولم يبذل تمرتاش أية محاولة للدفاع عن حلب . إذ كان أخوه سليمان صاحب ميافارقين يقضى آخر أيامه ، وأراد تمرتاش أن يستوثق من الميراث ، فمكث فى ماردين تاركا وجهاء حلب يقاومون قدر استطاعتهم ، فقاوموا لثلاثة اشهر كان الرسل خلالها يأتونه فيسئ استقبالهم ، إذ لا رغبة لديه فى أن يسببوا له مزيدا من المضايقة ، فتوجهوا إلى الموصل وأثاروا اهتمام أتابجها ، آقسنقر البرسقى ، الذى سبق وأن قاد جيوش السلطان ضد الفرنج عام ١١١٤م . وكان البرسقى يكره الأراتقة ، فأرسل قادة من عنده لاستلام قلعة حلب بينما انطلق هو نفسه مع الجيش ، برغم مرضه ، تشيعه بركات السلطان . وعندما اقترب من حلب أمر خيرخان صاحب حمص ، وطغتكين صاحب دمشق بالانضمام اليه، فأرسل كلاهماالكتائب . وقبل استعراض القوة هذا ، كان التحالف الفرنجى - البدوى قد تفكك . إذ رحل دبيس مع قبيلته باتجاه الشرق ، بينما انسحب بلدوين إلى قلعة الأثارب . وفى نهاية يناير دخل البرسقى حلب، لكنه لم يحاول مطاردة الفرنج فعاد الملك إلى انطاكية ومنها إلى القدس التى وصلها فى ابريل ١١٢٥م بعد غيبة عامين(٥٥).

---

(٥٥) Fulcher of Chartres, III, xxxviii-xxxix, 9, 2, pp. 751-6; William of Tyre, XIII, 15, pp. 576-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 172-3; Kemal ad-Din, pp. 645-50; Usama, ed. Hitti, p. 133; Matthew of Edessa, ccxlv, pp. 314-15.

١١٢٥م : معركة عزاز

ولم ينتظر الملك طويلا فى القدس . إذ كان البرسقى أكثر رعبا للفرنج من الأراتقة. فقد تمكن من توحيد مسلمى شمال سوريا تحت سلطته لكونه سيد الموصل وحلب ، ويحظى بمؤازرة السلطان ، وخضع طغتكين وأمير حمص لزعامته . فى شهر مارس قام بزيارة شيزر ، التى كان أميرها ، سلطان بن منقذ ، تواقا دائما لمصادقة ذوى الشأن ، فسلّمه الرهائن الفرنج ، الأميرة يوفيتا وجوسلين الصغير ورفاقهما . وفى شهر مايو ، قاد تحالفا اسلاميا جديدا وهاجم القلعة الفرنجية كفرطاب واستولى عليها، وحاصر زردنا . فأسرع بلدوين شمالا لانقاذ زردنا ، وقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها فبلغ قوامها ألف ومائة فارس وألفين من جنود المشاة . وانطلق المسلمون إلى عزاز حيث جرت فى نهاية شهر مايو واحدة من اكثر المعارك تعطشا للدماء فى تاريخ الحملات الصليبية . فحاول المسلمون النزال رجل لرجل، معتمدين على تفوقهم العددى غير أن تفوق لباس الحرب وضخامة ابدان الفرنج كان فوق طاقة المسلمين ، فهزموا هزيمة حاسمة . ومن الغنائم الكثيرة تمكن بلدوين من جمع مبلغ ثمانين الف دينار المطلوبة لفدية الرهائن ، إذ تخلى كل فارس عن جزء من نصيبه لانقاذ ابنة الملك . ورغم أن المال كان من حق تمرتاش فى الواقع ، إلا أن البرسقى قبله وأعاد الرهائن . وأُرسل مبلغ آخر إلى شيزر لافتداء السجناء والرهائن الذين كانوا ما يزالون هناك. وفور اطلاق سراحهم هاجمهم امير حمص ، غير أن بنى منقذ سارعوا لانقاذهم وارسلوهم إلى حيث يتخذون طريقهم.

وبعد المعركة ابرم المتقاتلون هدنة . فاحتفظ المسلمون بكفرطاب التى أعطيت لأمير حمص، ولم تكن هناك تغييرات أخرى على الأرض . وبعد أن ترك البرسقى حامية فى حلب عاد إلى الموصل . وحل السلام على الشمال طوال ثمانية عشر شهرا(٥٦).

وعاد بلدوين إلى فلسطين ، حيث قام فى خريف ١١٢٥م بغارة على الأراضى الدمشقية ، ومظاهرة عسكرية لاستعراض القوة أمام عسقلان . وفى يناير ١١٢٦م قرر قيادة حملة جادة ضد دمشق، وغزا حوران . فجاءه طغتكين لملاقاته ، وتلاقى الجيشان عند تل الشقب ، حوإلى عشرين ميلا جنوب غرب دمشق . ومال ميزان الحرب لصالح

---

(٥٦) -Fulcher of Chartres, III, xlii, I-xliv, 4, pp. 761-71; William of Tyre, XIII, II, pp. 578 80; Sigebert of Gembloux, M.G.H.Ss. vol.VI, p. 380; Kemal ad-Din, p. 651; *Bustan*, p. 519; Usama, loc. cit.; Matthew of Edessa, ccxlvii, pp. 315-18; Michael the Syrian, III, p.221.

المسلمين أول الامر ، وتمكنت فصيلة التركمان التابعة لطغتكين من التوغل حتى المعسكر الملكي . لكن بلدوين فاز في النهاية وطارد الأعداء حوالي نصف المسافة باتجاه دمشق ، غير أنه نظرا لخسائره الجسيمة رأى الحكمة في التخلي عن الحملة وانسحب إلى القدس محملا بالغنائم(٥٧).

وفي مارس ١١٢٦م هاجم بونز أمير طرابلس القلعة الاسلامية رافنية التي تتحكم في مدخل البقاع من وادى نهر العاصي . وهي هدف فرنجي منذ وقت طويل ، منذ أن استولى عليها طغتكين عام ١١٠٥م . وبينما استنجد حاكمها بطغتكين والبرسقي ، طلب بونز مساعدة الملك بلدوين . وسارع الأميران المسيحيان بالسير إلى القلعة ، قبل أن يتهيأ المسلمون للمجئ لانقاذها بوقت طويل . فاستسلمت لهما بعد حصار دام ثمانية عشر يوما . وكان الاستيلاء عليها ذا قيمة عظيمة للفرنج ، فزيادة على أنها بمثابة حماية لطرابلس نفسها ، اصبحت تؤمّن طرق المواصلات بين القدس وانطاكية(٥٨).

وفي تلك الأثناء أعاد المصريون بناء اسطولهم . وفي خريف ١١٢٦م أبحر الاسطول من الاسكندرية لمهاجمة الساحل المسيحي . ولما سمع البرسقي بذلك راح يخطط لهجوم متزامن في الشمال فحاصر الأثارب . وكان بلدوين على حق عندما قرر أن الهجوم الأخير هو الأخطر فأسرع إلى أنطاكية.وما حدث في واقع الأمر أن المصريين قاموا بغارات على ضواحي بيروت ثم وجدوا المدن الساحلية محصنة جيدا بالحاميات حتى انهم سرعان ما عادوا إلى النيل(٥٩). وفي الشمال ، انضم جوسلين إلى بلدوين وأجبرا المسلمين على الانسحاب من الأثارب ولم يجازف أيّ من الجانبين بالدخول في معركة. وسرعان ما أعيد ابرام الهدنة . وعاد البرسقي إلى الموصل بعد أن نصّب ابنه عز الدين مسعود حاكما على حلب . وفي نفس يوم وصوله ، ٢٦ نوفمبر ، طعنه أحد الحشاشين طعنات قاتلة(٦٠).

---

(٥٧) Fulcher of Chartres, III, xlvi, 1-7, l, 1-15, pp. 772-4, 784-93; William of Tyr, XIII, 17-18, pp. 581-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 574-7.

(٥٨) Fulcher of Chartres, III, li, 4, lii, I, pp. 795-7, 798-9; William of Tyre, XIII, 19, pp. 585-6; Ibn al-Qalanisi, p. 180; Kemal ad-Din, p. 652.

(٥٩) Fulcher of Chartres, III, lvi, 1-5, pp. 803-5; William of Tyre, XIII, 20, pp. 587-8.

(٦٠) Fulcher of Chartres, III, lv, 5, pp. 802-3; Ibn al-Qalanisi, pp. 177-8; Kemal ad-Din, pp. 653-4.

وتسبب موت البرسقي في فوضى عارمة بين المسلمين ، زادت سوءً بموت ابنه مسعود بعده بأشهر قليلة ، ربما بالسم ، خاصة وانه قد تشاحر مع طغتكين . وأما حلب فتجاذبتها أيدى كثيرة . إذ كانت تتأرجح بين طومان ، الذى عيّنه مسعود ، وضلع أبه ، وهو مملوك ارسله السلطان ، وبدر الدولة سليمان الأرتقى ، وابن رضوان ابراهيم السلجوقى(٦١).

١١٢٦م : وصول بوهمند الثاني

وفى نفس الوقت على وجه التقريب تنفس بلدوين الصعداء بعد أن استراح من وصايته على انطاكية . ذلك أن بوهمند الثاني الصغير بلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاما ، وها هو قد أتى ليتسلم ميراثه ، بعد أن تخلى عن اراضيه فى ايطاليا لابن عمه روجر الثاني الصقلى . وقد أبحر من أوترانتو فى شهر سبتمبر ١١٢٦م مع أسطول صغير يتألف من أربع وعشرين سفينة تحمل عددا من الجنود والجياد . ونزل إلى شاطئ السويدية في وقت مبكر من اكتوبر ، وسار مباشرة إلى انطاكية حيث رحب به الملك بلدوين بكل مظاهر التشريف ، وقد ترك انطباعا رائعا ، إذ كان له مظهر ابيه الفخيم ، بهيئته الطويلة وشعره الأشقر ووسامته ، واظهر جواً من التنشئة الرفيعة اكتسبه من أمه كونستانس ابنة الملك فيليب الأول الفرنسى . وفى الحال سلمه الملك بلدوين الامارة بكل ممتلكاتها ، وبكل ما كان يتصف به من دقة وأمانة ، وقد تأثر سفير شيزر عميق التأثر عندما رأى الملك منذآنذاك يدفع للأمير ما كانت تستهلكه جياد جيش القدس. وكان بصحبة الملك ابنته الثانية ، الاميرة أليس ، وتنسيقاً للخطة المرسومة سلفا تزوجها بوهمند الثاني . وبدأ بوهمند عهده بداية لامعة ، بهجوم على كفرطاب فاستعادها من أمير حمص ، وسرعان مانسمع بعد ذلك بشجاعته فى مناوشات مع جيش شيزر(٦٢).

واستطاع الملك بلدوين أخيراً العودة جنوبا وهو يشعر أن موت البرسقى ومجئ

---

(٦١) Ibn al-Qalanisi, pp. 181-2; Kemal ad-Din, p. 654; Michael the Syrian, III, p. 225.

(٦٢) Fulcher of Chartres, III, lvii, 1-4, lxi, 1-5, pp. 805-9, 819-22) وتتحدث الفصول التى تتوسط تاريخ فولشر عن مخاطر البحر المتوسط وانواع الثعابين التى توجد على شواطئه. وبعد فصل آخر حول طاعون الفئران عام ١١٢٧م ، ينتهى تأريخ فولشر) (William of Tyre, XIII, 21, pp. 588-9; Orderic Vitalis, XI, 9, vol. IV, p. 266; Matthew of Edessa, ccl. p.319) ويقول ماثيو الأورفى ان بلدوين وعد بوهمند باستخلافه على عرش القدس؛ Michael the Syrian, III, p.224; Usama, ed. Hitti, p.159.

بوهمند سوف يتيح له حرية تدبر مملكته . فأمضى سنة ١١٢٧م فى سلام دائم حتى اننا لا نعرف شيئا عن تحركاته ، باستثناء حملة قصيرة شرقى البحر الميت فى شهر اغسطس(٦٣) . وفى باكورة ١١٢٨م مات صديقه المخلص البطريق جورمون . وخلفه قس فرنسي آخر هو ستيفن (اوف لا فيرتيه) رئيس دير القديس جون إنفاليه فى تشارترز ، وهو نبيل المولد ، تربطه قرابة بالملك بلدوين . وكان بلدوين يأمل فى أن تؤدى روابط القرابة إلى التعاون بروح الود ، لكنه سرعان ما اكتشف انه كان واهما.ذلك أن البطريق الجديد جدد فى الحال مسألة الاتفاق الذى سبق وأن عقده جودفرى مع البطريق دايمبرت . فطالب بأن تكون يافا ملكية ذاتية للبطريارقية ، وذكّر الملك بأنه فور أن يتم الاستيلاء على عسقلان ، فلا بد أن تسلم اليه القدس نفسها. ورفض بلدوين الانصات لتلك الطلبات ، لكنه لم يدر كيف يعالجها . وساءت العلاقات بين البلاط الملكى والبطريارقية طوال عام ١١٢٩م . وفى أوائل ١١٣٠م ، اوشكت الأزمة أن تصبح علنية، لولا أن مات ستيفن بعد فترة مرض قصيرة . وارتاب أصدقاؤه فى السم . إذ عندما جاء الملك لزيارة البطريق المحتضر والاستفسار عن صحته علق هذا الأخير بمرارة : "سيدى ، ها أنا مفارق كرغبتك" . وحقا، كان موته شيئاً مرغوبا . وتدبر بلدوين انتخاب خلفه وليم (اوف ميسينا) رئيس دير القبر المقدس، وهو رجل شديد الورع والطيبة ، برغم شئ من البساطة وسوء التعليم . ولم تكن لديه طموحات سياسية، وكانت سعادته فى إنفاذ مشيئة الملك . ونتيجة لذلك غدا محبوبا من الجميع(٦٤) .

١١٢٨م : الإستخلاف على العرش

كان الأمر الثانى الهام أن يرتب بلدوين خلافة العرش . إذ لم تلد له الملكة مورفيا ذكورا ، وانما كان هناك أربع بنات : ميليسند ، وأليس ، وهوديرنا ، ويوفيتا . والآن اصبحت أليس أميرة انطاكية ، واما هوديرنا ويوفيتا فكانتا طفلتين . وتقرر أن تخلفه ميليسند بعد اقترانها بزوج مناسب . وفى ١١٢٨م ، وبعد أن استشار مجلسه ، ارسل وليم (اوف بور) ، ومعه لورد بيروت ، جوى بريسبار إلى فرنسا ملتمسا من ملك

(٦٣) Ibn al-Qalanisi, p. 182.

(٦٤) William of Tyre, XIII, 25-6, pp. 594-5, 598؛ أحيانا كان يسمى الراهب وليم (اوف مالينز of Malines) وأما ميسينا Messines فهى تقع فى غرب فلاندرز.

فرنسا لويس السادس أن يختار من بين النبلاء الفرنسيين رجلا مناسبا لهذا المقام الرفيع . ورشح الملك كونت أنجو ، فولك الخامس ، الذى كان فى الأربعين من عمره ، وهو ابن فولك الرابع ، ريشين ، ومن زوجته برترادا (اوف مونت فورت)، والتى اشتهرت بعلاقة الزنا مع الملك فيليب الأول ملك فرنسا. وكان فولك رئيس عائلة عظيمة قامت خلال العقدين الماضيين ببناء واحدة من أغنى الثروات الاقطاعية الهائلة فى فرنسا ، وأضاف اليها هو نفسه اضافات كثيرة عن طريق الحرب ، والزواج ، والدسائس . وفى نفس ذلك العام حقق نصرا عائليا بتزويج ابنه الصغير ووريثه ، جيوفرى ، من الامبراطورة الأرملة ماتيلدا، وهى الابنة الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من هنرى الأول الإنجليزى ووريثة انجلترا ونورماندى. وفولك الآن أرمل ، وقد قرر أن يتخلى عن اراضى العائلة لابنه ، ويكرّس نفسه لخدمة الصليب . وقد سبق وان ذهب إلى القدس حاجا عام١١٢٠م، ولذلك كان بلدوين يعرفه معرفة شخصية . ولّما كان مرشحا مرموقا هكذا ، ويحظى بتأييد ملك فرنسا، ومؤازرة البابا هونوريوس الثانى، فقد قبله الملك بلدوين بمشاعر الغبطة، وكان تواقا لأن تحوز ترتيبات الاستخلاف استلطاف النبلاء فى مملكته، فمن المستحيل على أيّ من هؤلاء النبلاء أن يجادل في مزايا هذا الأمير المحارب ، الذى يتمير بهذه الرفعة ، وزوج كبرى كريمات الملك.

غادر فولك فرنسا فى اوائل الربيع من عام ١١٢٩م ، يصحبه وليم (اوف بور) وحوى بريسبار . ونزلوا إلى البر فى عكا فى شهر مايو وتوجهوا إلى القدس . وهناك ، وفى اواخر الشهر ، تزوج فولك وميليسند فى حفول عظيمة مبهجة . وقد حاز هذا الترتيب قبول البلد بأسره ، ربما باستثناء واحد . إذ أنه لم يحرك ساكنا لدى الاميرة ميليسند نفسها ، بقامته القصيرة ، ونحافته ، وشعره الأحمر ، وعمره الوسط ، والذى فرضته عليها فرضا مزاياه السياسية [٦٥].

(٦٥) William of Tyre, XIII, 24, p. 593, XIV, 2, p. 608; Halphen et Poupardin, *Chroniques des Comtes d'Anjou, Gesta Ambaziencium Dominorum*, p. 115 and *Gesta Consulum Andegavorum*, pp. 69-70 كان فولك قد تزوج Arenburga أو Guiberga ، ووريثة Maine حوالى عام ١١٠٩م ، وواصل الحرب ضد هنرى الأول الانجليزى بسبب ميراثها. وقد انتهت المشكلة بزواج ابنه جيوفرى (١٧ يونية ١١٢٨م) من الإمبراطورة ماتيلدا وكانت ابنته سيبيلا قد تزوجت من Thierry اوف الزاس، كونت فلاندرز. وقد حج بالفعل الى القدس عام ١١٢٠ (وليم الصورى ص. ٦٠٨). ويرد خطاب البابا هونوريوس الثانى الى بلدوين الذى يطريه فيه ، فى Rozière, *Cartulaire du Saint Sèpulcre, pp.* 1718.

١١٢٦م : الحشاشون فى بانياس

شرع بلدوين فى عام ١١٢٩م بمساعده فولك فى اضخم مشاريع عهده كلـه ، ألا وهو غزو دمشق. فقد مات طغتكين صاحب دمشق يـوم ١٢ فـبراير ١١٢٨م ، وكـان لسنوات كثيرة سيد المدينة بكل مافى السيادة من معنـى ، واكـثر شخصيات المسلمين احتراما فى غربى سوريا(٦٦). وقبل ذلك ببضع سنوات تمكن أحـد زعمـاء الحشاشين ، وهو باهرام من استرأباد ، من الهرب من فارس وذهب إلى حلب ، ورسـخ نفسـه قـائدا للحركة الاسماعيلية السرية فى شمال سوريا. ورغم ما كان يلقاه من مساندة ايلغـازى ، كان ابناء حلب يمقتون هذه الطائفة ، وأجبر باهرام على النزوح من حلـب ، قادمـا إلى دمشق وهو يعوّل على التوصية التى منحها اباه ايلغـازى ، فاستقبله طغتكـين استقبالا حسنا . واستقر هناك ، واخذ يجمع المناصرين مـن حولـه شيئا فشيئا ، وفـاز بتعـاطف المزدقانى وزير طغتكين . وتعاظمت قوة الطائفة مع انكار أهـل دمشـق السنّيين ، ولـذا طلب باهران الحماية من المزدقانى . ونزولا على طلب الوزير ، قام طغتكين فى نوفمبر ١١٢٦م بتسليم الطائفة القلعة الحدودية بانياس - الواقعة تحت تهديـد الفرنـج - وبـذا باتت الآمال تراود طغتكين فى استغلال نشاطات الطائفة . وأعاد باهرام تحصين القلعـة وجمع حوله كل اتباعه ، وسرعان ما بدأوا يرهبون الجوار . أما طغتكين ، الذى كان ما يزال يوفر لهم الحماية من الناحية الرسمية ، فقد أزمع القضاء عليهم، لكـن المنيـة عاجلتـه قبل أن تسنح له الفرصة . وبعد ذلك بأشهر قليلة قتل باهرام فى صدام مع قبيلـة عربيـة بالقرب من بعلبك كان باهرام قد قتل شـيخها. وتـولى مـن بعـده فارسـى آخـر يدعـى اسماعيل(٦٧).

وخلف طغتكين ، كأتابج دمشق ، ابنه تاج الملك بورى ، الذى عقـد العـزم على أن يخلص نفسه من الحشاشين . واتخذ خطوتـه الاولى فـى سـبتمبر ١١٢٩م ، بـأن قتـل فجأة راعى الطائفة ، الوزير المزدغانى، بينما كان حاضرا المجلس فى الايوان الوردى فـى دمشق . وفى التو اندلعت فى دمشق أعمال الشـغب ، التـى كـانت مـن دبـير بـورى ، وقُتل كل من وقعت عليه الايدى من الحشاشين . وفى بانياس ، شعر اسمـاعيل بـالخطر، فبدأ مفاوضات مع الفرنج لكى ينقذ شيعته.

وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها الملـك بلدويـن . إذ انـه لـدى سماعـه بمـوت

(٦٦) Ibn al-Qalanisi, pp.183-6; Ibn al-Athir, pp.317-18

(٦٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 179-80, 187-91; Ibn al-Athir, pp. 382-4.

طغتكين ، أرسل هيو (اوف باين) ، وهو السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إلى اوروبا لتجنيد الجنود هناك معلنا أن دمشق باتت الهدف . وعندما جاءته رسل اسماعيل ، شرع جنود الفرنج فى استلام بانياس من الحشاشين ، وبدأوا يعدون العدة كى يستقر بها اسماعيل وطائفته فى داخل الاراضى الفرنجية . وهناك مرض اسماعيل بالدوسنتاريا ، ومات بعد ذلك بأشهر قليلة وتفرق أتباعه(٦٨) ، وجاء بلدوين نفسه إلى بانياس فى أوائل نوفمبر على رأس جيش القدس كله الذى زاد ضخامة بوصول الوافدين الجدد من الغرب . وتقدم دون مقاومة جادة وعسكر عند الجسر الخشبى ، الذى يبعد نحو ستة أميال جنوب غرب دمشق . وحشد بورى جيشه قبالتهم والمدينة من خلفه . ولم يتحرك أيّ من الجيشين لعدة ايام ، وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل تتألف أساسا من الوافدين الجدد ، تحت قيادة وليم (اوف بور) لجمع الطعام والمواد قبل أن يجازف بمحاصرة المدينة . على أن وليم لم يستطع السيطرة على رجاله الذين كان اهتمامهم منصبا على السلب والنهب أكثر من اهتمامهم بجمع المؤن بطريقة منظمة . وعلم بورى بذلك . وفى باكورة احد الأيام المتأخرة من نوفمبر ، انقض فرسانه التركمان على وليم وهو على بعد عشرين ميلا جنوب المعسكر الفرنجى . وحارب الفرنج بشدة ، لكنهم غلبوا ، ولم يسلم منهم سوى وليم نفسه وخمسة وأربعين من رفاقه بقوا على قيد الحياة ليخبروا الملك بما حدث(٦٩).

وقرر بلدوين السير فى التو لملاقاة الاعداء وهم يحتفلون بنصرهم ، وأعطى الأمر بالتقدم . وفى تلك اللحظة بدأت الأمطار تهطل بغزارة السيول الجارفة ، واستحال السهل إلى بحر من الطمى ، ونشأت أنهار عميقة قطعت الطرق بعرضها . وفى مثل هذه الظروف يكون الهجوم مستحيلا . وأصيب الملك بخيبة أمل مريرة ، فتخلى عن أية فكرة لمواصلة الحصار . وانسحب الجيش الفرنجى انسحابا بطيئا وانما فى نظام مثالى إلى بانياس ، ومنها إلى داخل فلسطين ، حيث تفرق الجيش(٧٠).

---

(٦٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 191-5; Ibn al-Athir, pp. 384-6.

(٦٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 195-8.

(٧٠) William of Tyre, XIII, 26, pp. 595-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 198-200.

١١٢٧م : نزاع بين بوهمند الثاني وجوسلين

أسهمت أحداث الشمال فى اشتداد قسوة الشعور بخيبة الأمل . إذ كان بلدوين يأمل فى أن ينتهز بوهمند الثانى وجوسلين ما عمّ حلب من فوضى ويستوليا اخيرا على المدينة الاسلامية العظيمة . على انه بالرغم من نجاح غارات كل منهما على اراضى حلب فى خريف ١١٢٧م ، كان التعاون بينهما بعيداً ، فكل منهما غيور من صاحبه . وكان جوسلين بهدنة مع البرسقى ، قد حصل على مقاطعات كانت أنطاكية تحتلها لفترة من الزمن . وما هو أسوأ ، أن ماريا زوجة جوسلين الثانية ، أخت روجر امير انطاكية ، كانت قد حصلت على وعد بان يكون مهرها مدينة عزاز ، بينما اعتبر بوهمند أن روجر لم يكن سوى الوصي باسمه ولا حق له فى أن يهب أرضا أنطاكية . ورفض الاتفاق ، مما دفع جوسلين إلى توجيه جنوده بمساعدة المرتزقة الأتراك للاغارة على القرى الأنطاكية القريبة من الحدود . وأطلق البطريق برنارد حرمانا من شركة المومنين ضد امارة الرها كلها ، لكن ذلك لم يردع جوسلين . وأحيط الملك علما بأنباء النزاع ، فتملكه الحنق ، واسرع باتجاه الشمال فى اوائل ١١٢٨م ، وأجبر الأميرين على التصالح مع بعضهما . ولحسن الحظ أصيب جوسلين ، الذى كان أكثر شراسة ، بمرض فجائى ارتأى فيه عقوبة من السماء ، ووافق على أن يعيد إلى بوهمند الأسلاب التى أخذها ، والظاهر انه تخلى عن مطالبته بمدينة عزاز . غير أن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان . إذ ضاعت فرصة ذهبية فى العام التالى فى دمشق ولن تتكرر قط . إذ وجد الاسلام بطلا جديدا بالغ القوة[٧١].

ذلك أن الخليفة العباسى المسترشد ، الذى خلف الشاعر الودود المستظهر عام ١١١٨م، فكّر خلال الأشهر الأخيرة من عام ١١٢٦م ، فى استغلال النزاعات العائلية بين سلاطين السلاجقة كى يتحرر من سيطرتهم ، مما اضطر السلطان محمود ، وكانت بغداد واقعة ضمن مناطق نفوذه ، إلى أن يتوقف عن الصيد لارسال جيش إلى هناك ، وأمّر عليه قائده عماد الدين زنكى . وقد ذاعت شهرة زنكى فى الحروب ضد الفرنج، وكان أبوه آقسنقر حاكما لحلب قبل فترة الحملات الصليبية . وبعد حملة يسيرة، تمكن زنكى من الايقاع بقوات الخليفة فى (منطقة واسط) ، وأجبر الخليفة على الطاعة . وسُرّ الخليفة المسترشد مما أبداه زنكى من تصرف فيه الحذق واللباقة بعد انتصاره ، وعند تعيين اتابج جديد للموصل بعد موت البرسقى ، جاء بذهن السلطان محمود تعيين

(٧١) William of Tyre, XIII, 22,p.590; Michael the Syrian, III, p.224; Kemal ad-Din, p. 665.

شيخ القبيلة البدوى دوبيس ، غير انه وافق الخليفة علـى أن زنكـى مرشـح افضـل . وتم تنصيب ابن السلطان ، ألب ارسلان الشاب، أميراً للموصل مع زنكى كأتابجه . وأمضى زنكى شتاء عام ١١٢٧م فى الموصل ينظّم حكومته هناك . وفى ربيع عام ١١٢٨م سار إلى حلب مدعيا أنها جزء من أراضى البرسقى . وكان سـكان حلـب قـد احهدهـم مـا عانوه من الفوضى ، فاستقبلوه بمشاعر البهجة ، ودخل المدينـة فـى موكـب حـافل يوم ٢٨ يونية(٧٢).

ورأى زنكى فى نفسه بطـل الإسـلام ضـد الفرنـج ، لكنـه لم يشـأ أن يضـرب الاّ عندما يعد للأمر عدته. فأبرم هدنة مع جوسلين تستمر أربع سنوات ، راح اثناءها يعزز من قوته فى سوريا . وسارع اميرا شيزر وحمـص إلى الاعـتراف بسـيادته عليهمـا . ولم يكن يخشى الأول ، أما الثانى فقد حثه على مساعدته فى حملة ضد حماه التابعة للاملاك الدمشقية ، مع الوعد بمنحه حق ولايتها . على انه ما أن تم الاسـتيلاء علـى حمـاة حتـى استبقاها زنكى لنفسه وسجن خيركان أمير حمص ، رغم عدم تمكنه من الاستيلاء علـى حمص ذاتها. وكان بورى أتابج دمشق ، الـذى وعـد بالانضمـام اليـه فـى الجهـاد ضـد المسيحيين ، مشغولا للغاية فى حروبه ضد القدس بحيث لم يعترض بصورة ايجابيـة علـى ما اقدم عليه زنكى . وبنهاية عام ١١٣٠م كان زنكى سيد سـوريا دون منـازع حتـى حمص جنوبا(٧٣).

١١٣٠م : مصرع بوهمند الثانى

وفى نفس ذلك العام أصيب الفرنج بكارثة جسيمة . إذ كان بوهمند الثانى يطمح فى أن يضم إلى امارتـه كافـة الاراضـى التـى كـانت تضمهـا مـن قبـل . كـانت القـوة الانطاكية تتدهور فى كيليكيا ، وكانت طرسوس وأدنـة مـاتزالان فـى أيـدى الفرنـج ، ويبدو انهما كانتا بمثابة مهر أرملة روجر ، سيشيليا أخت الملـك بلدويـن ، وقـد بقيـت الحامية الفرنجية فى المصيصة . أما فى داخل البلاد الأبعد ، فقد كانت (عين زربـة) فـى قبضة الأمير الأرمينى ثوروس الروبينى الذى اتخذ عاصمته فى سيس القريبة . وقد مـات ثوروس عام ١١٢٩م ، ومات ابنه قنسطنطين بعده بأشهر قليلة فى احداث مكيـدة فـى

---

(٧٢) عن تاريخ زنكى حتى عام ١١٢٨م انظر Cahen, op.cit. pp.306-7, and nn. 12 and 13 (with references).

(٧٣) Ibn al-Qalanisi, pp. 200-2; Kemal ad-Din, p. 658; Matthew of Edessa, cclii, p. 320.

القصر . وكان الأمير التالى هو ليو الأول ، شقيق ثوروس(٧٤) وظن بوهمند أن اللحظة قد حانت لاسترداد (عين زربة) . وفى فبراير ١١٣٠م زحف بقوة صغيرة اعلى نهر جيحان نحو غايته . وشعر ليو بالخطر وطلب المساعدة من الأمير غازى، الدانشمندى ، الذى تصل اراضيه الآن إلى جبال طوروس . ولم يعلم بوهمند بهذا التحالف، وبينما كان يتقدم أعلى النهر بلا اكتراث لما كان يقابله من مقاومة طفيفة ، انقض عليه الأتراك الدانشمند وقتلوا رجال جيشه كلهم . وقيل إن الأتراك لو تعرفوا على الأمير نفسه لأبقوا على حياته طمعا فيما كان سيدفع من فدية. لكن الذى حدث أن الأمير الدانشمندى أخذ رأسه وحنّطها وجعلها شعارا أرسله هدية إلى الخليفة(٧٥).

وتسبب تدخل بيزنطة فى عرقلة الأتراك عن متابعة انتصارهم ، وبقيت عين زربة فى حوزة الأرمن(٧٦) . غير أن موت بوهمند كان بمثابة الكارثة لأنطاكية ، فقد تولى بوهمند امارة انطاكية بحق الوراثة ، وتقضى العواطف بأن تنتقل حقوقه إلى وريثه . غير أن زواجه من أليس لم ينجب سوى طفلة واحدة فى الثانية من عمرها تدعى كونستانس . وكان ينبغى أن يقوم الملك ، مستخدما حقه بصفته السيد الأعلى ، بتعيين وصىّ لها . لكن أليس ، ودون انتظار تلك الخطوة من أبيها ، تولت الوصاية لتوها. لكنها كانت طموحة . وسرعان ما انتشرت الشائعات فى انطاكية انها تريد أن تحكم لا كوصية ، وانما باعتبارها السيد الحاكم . وكان من المقرر أن تودع الطفلة كونستانس داخل اسوار الدير ، أو عندما تصل البلوغ ، تتزوج من زوج حقير . وهكذا فقدت الأم الشاذة شعبيتها فى الامارة ، التى يشعر فيها الكثير من الرجال بأن هذه الأوقات تستدعى وصيًا محاربا . وعندما سمعت أليس أن الملك فى طريقه اليها من القدس، شعرت بأن القوة تنزلق من قبضتها، فاتخذت خطوة يائسة . إذ كان هناك رسول فوق صهوة جواد تحيطه الزينة ومحلّى بأزهى الأغطية المزركشة ، يسرع العدو إلى حلب ، إلى أتابكها زنكى ، تعلن له انها على استعداد للاعتراف بسيادته إذا ضمن لها امتلاك انطاكية.

---

(٧٤) Vahram, *Armenian Rhymed Chronicle*, p. 500.

(٧٥) William of Tyre, XIII, 27, pp.598-9; Orderic Vitalis, XI, 10, vol.IV, pp. 267-8; Romuald, M.G.H.Ss. vol. XIV, p.420; Michael the Syrian, III, p. 227; *Chron. Anon. Syr.* pp.98-9; Ibn al-Athir, p. 468.

(٧٦) Michael the Syrian,(III, p.230)، يقول ميخائيل إن حون كومنينوس بدأ فى الحال هجوما على الأتراك . (انظر ادناه ص ٢٤٦).

وكان الملك بلدوين قد اسرع إلى الشمال مع زوج ابنتـه فولـك، على اثـر سماعـه بموت بوهمند ، ليتولى الوصاية على الوريث ويعيّن الوصى . وباقترابه من المدينة ، القت قواته القبض على مبعوث أليس إلى زنكى . فشنقه الملك فى الحال . وعندما ظهـر امـام انطاكية وجـد ابنتـه قـد أغلقـت البوابات فـى وجهـه . فاستدعى جوسلين لمساعدته وعسكر امام المدينة . و فى داخل المدينة فازت أليس بتأييد مؤقت بعدما اغرقت الجنـود والناس بالمال من خزانة الإمارة . وربما كانت الدماء الأرمينية التى تجرى فـى عروقهـا جعلتها محبوبة بين المسيحيين الوطنيين . غير أن النبـلاء الفرنـج لـن يـؤازروا امـرأة ضـد سيدهم. وبعد ايام قليلة قام فارس نورماندى ، وليـم (اوف افـرس) ، والراهـب بطـرس اللاتينى ، بفتح بوابة الدوق لجوسلين ، وبوابة القديس بولس لفولك . وفى اليوم التـالى دخل الملك . وحجزت أليس نفسها فى برج من الأبراج، و لم تظهر الاّ عندما ضمن لها وجهاء المدينة حياتها وتلى ذلك مقابلـة مؤلمـة بين بلدويـن وابنتـه التـى ركعـت أمامـه مرعوبة فى عارها . وأراد الملك تجنب الفضيحة ، ولا شك فـى أن قلـب الأب بداخلـه قد خفق لابنته ، فغفر لها ، لكنه أبعدها عن الوصاية ونفاها إلى اللاذقية وجبلـة ، وهـى الأراضى التى منحها لها بوهمند الثانى مهرا. وباشر هـو نفسـه الوصايـة ، وحصـل مـن كل لـوردات انطاكيـة علـى القسـم لـه ولحفيدتـه معـا ، وبعـد أن عهـد إلى جوسـلين بمسؤولية الوصايـة علـى انطاكيـة وأميرتهـا الطفلـة ، عـاد إلى القـدس فـى صيـف ١١٣٠م(٧٧).

١١٣١م : موت بلدوين الثانى وجوسلين الأول

وكانت تلك آخر رحلاته . إذ أضنته حياة طويلة حافلة بنشاط لا ينتهى لم يقطعها سوى فترتين بئيستين قضاهما فى الأسر . وبدأت صحته تنهـار فـى ١١٣١م ، وبحلـول أغسطـس ، بدا جليـا انـه يحتضـر . وأبدى رغبته فى أن ينقل من القصر فى القـدس إلى مكان اقامة البطريق الملحق بمبانى كنيسة القبر المقدس ، حتى يموت أقرب ما يمكـن مـن الجمجمة(٧٨). وعندما شارف على النهاية استدعى نبلاء المملكـة إلى حجرتـه ، ومعهـم ابنته ميليسيند وزوجها فولك وابنهما وسميّه بلدوين البالغ من العمر سنة واحـدة. ومنح

(٧٧) William of Tyre, xiii, 27, pp. 599-601; Micael the Syrian, iii, p. 230; Kemal ad-Din, pp. 660-1.

(٧٨) (المترجم) الجمجمة Calvary، أو الموضع الذى صلب فيه المسيح خارج اورشليم.

فولك وميليسيند بركاته ودعا الجميع إلى مبوهما على انهما سيدا المملكة وكان هو نفسه مرتديا رداء كاهن تحت رسامته كاهنا من كهنة كنيسة القبر المقدس . وتمت رسامته بالكاد قبل أن يموت يوم الجمعة ٢١ اغسطس ١١٣١م ، ودفن في كنيسة القبر المقدس ، وسط براح يستحقه ملك عظيم(٧٩).

ولم يعش ابن عمه ورفيقه القديم جوسلين كونت الرها فترة طويلة بعده . وفي الوقت الذى كان فيه الملك يموت تقريبا ، راح جوسلين يحاصر قلعة صغيرة شمال شرق حلب ، وبينما كان يتفقد رجاله انهار من تحته أحد الأنفاق كان رجاله قد حفروه . وكانت جراحاته بالغة وتبددت الآمال في شفائه . وبينا هو راقد يحتضر ، جاءت الأنباء بأن الأمير الدانشمندى غازى قد زحف على مدينة كيسوم ، وهي القلعة العظيمة التى نصّب فيها جوسلين مؤخرا بطريق انطاكية اليعقوبي . وشدد الأتراك ضغطهم على كيسوم، وأمر جوسلين ابنه بالذهاب لانقاذها . غير أن جوسلين الصغير اجاب بأن جيش الرها ضئيل للغاية بحيث تنتفي صلاحيته .فما كان من الكونت المسن الاّ أن نهض من فراشه ، وحملوه في محفّة على رأس جيشه ليحارب الأتراك . وجفل غازى من انباء قدومه ، إذ كان يظنه قد مات فعلا ، وفي حالة القلق التى راودته رفع الحصار عن كيسوم . وجاء من المدينة رسول يعدو ليخبر جوسلين الذى أمر بأن توضع محفته على الأرض حتى يتمكن من توجيه الشكر إلى الرب . وكان الجهد والانفعال فوق احتماله ، فمات هناك على حافة الطريق(٨٠).

وبموت بلدوين وجوسلين ، يأتي الجيل القديم من الرواد الصليبيين إلى نهايته . وفي السنوات التى سوف تلي ، نجد انماطا جديدة من النزاعات بين صليبيي الجيل الثاني. رجال ونساء من أمثال جوسلين الثاني والأميرة أليس ، أو من مثل بيت طرابلس، المهيّأ لأن ينتظم في نمط الحياة الشرقية ، ولا يعبأ إلا بالحفاظ على ما في

---

(٧٩) William of Tyre, XIII, 28, pp. 601-2; Orderic Vitalis, XII, 23, vol. IV, p. 500. Ibn al-Qalanisi, pp. 207-8 يذكر ابن القلانيسي تاريخ الوفاة يوم الخميس ٢٥ رمضان ، لكنه يخطئ العام ويذكر (٥٢٦ هجرية).

(٨٠) William of Tyre, XIV, 3, pp. 609-11; Michael the Syrian, III, 232; *Chron. Anon. Syr.* pp. 99-100

حوزته من ممتلكات، والوافدين الجدد الآتين من الغرب بسيمتهم العدوانية ، غير المصقولين ، الذين يستعصى عليهم الفهم ، من أمثال فولك . أو ريموند (اوف بواتييه)، أو رينالد (اوف شاتيلون) المشئوم[٨١].

(٨١) Ibn al-Athir, pp. 389-90، يتحقق ابن الأثير من الظروف المتغيرة باختفاء سرد الصليبيين من ناحية، وبداية الوحدة الإسلامية تحت راية زنكي من ناحية أخرى

الفصل الثانى:

الجيل الثانى

الجيل الثانى

"لأنهم وَلَدوا أولاداً أجنبيين"
(هُوشَعْ ٥ : ٧)

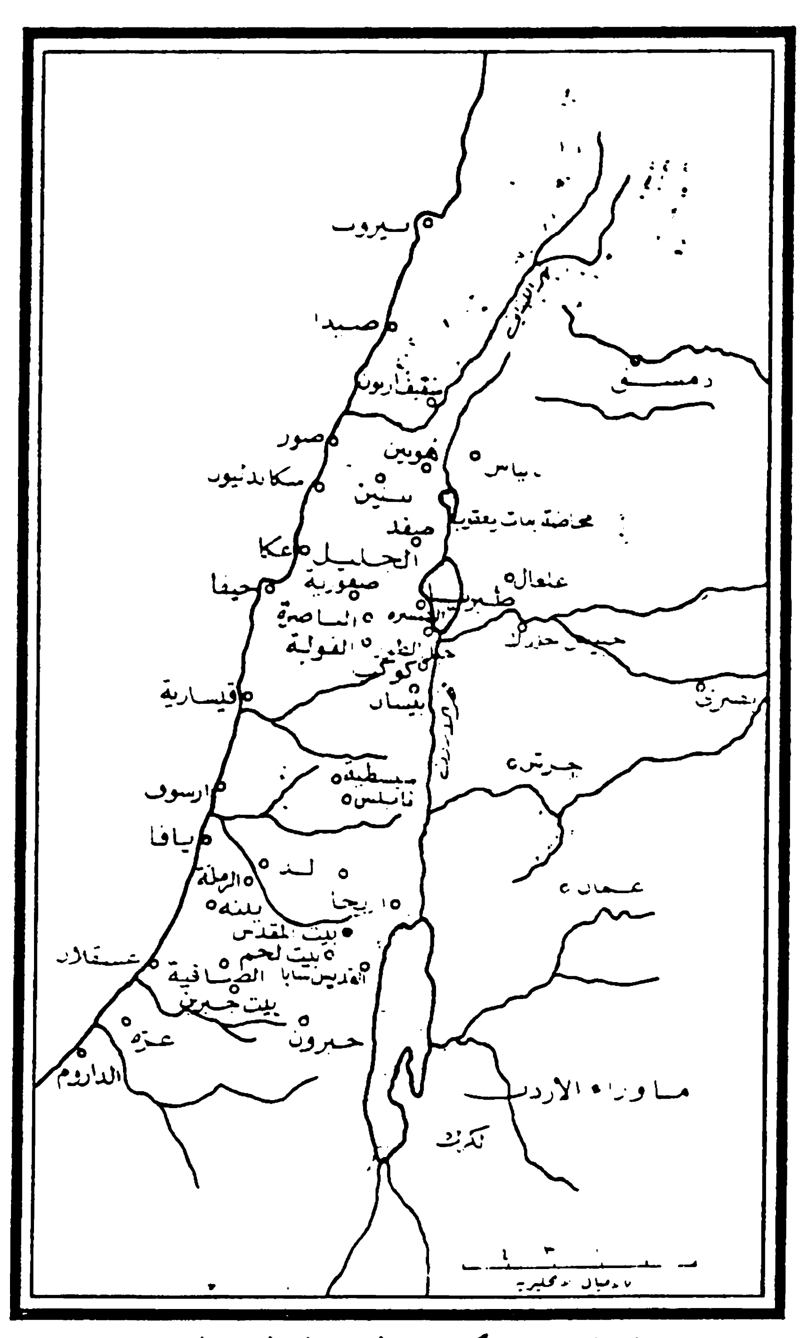
فى ١٤ سبتمبر ١١٣١م ، وبعد ثلاثة أسابيع من رقود الملك بلدوين الثانى ساحيا ليستريح فى كنيسة القبر المقدس ، شهدت الكنيسة ذاتها تتويج الملك فولك والملكة ميليسند . وأقيمت الحفول البهيجة فى مناسبة استخلاف العاهل الجديد[١] .

على أنه بينما قبل بارونات مملكة القدس الملك فولك دون تردد ، كان أمراء الشمال الفرنج أقل استعدادا لقبوله كسيد أعلى . إذ سبق وأن كان كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى سيدا أعلى لجميع الدويلات الفرنجية لأن لكل منهما من القوة والشخصية ما يمكنه من ذلك . غير أن الوضع القانونى لم يكن واضحا بأى حال من الأحوال ، ففى حالة الرها ، اعترف جوسلين الأول - كبلدوين الثانى من قبله -

(١) William of Tyre, xiv pp. 608-9, 2.

بسيادة سلفه عندما غدا سلفه هـذا ملكـا للقـدس وورّثـه الإقطاعيـة . فهـل يعـني ذلـك الترتيب أن يصبح ورثة جوسلين أتباعا لورثة بلدوين الثانى؟ فى طرابلس خضع الكونت برتراند لسيادة بلدوين الأول كى يوفر الحماية لنفسه من عدوان تنكريـد ، غـير أن ابنـه بونز حاول فعلا انكار حقوق بلدوين الثانى ، ولم يعترف بتلـك الحقـوق الا لأنـه كـان يفتقر إلى ما يكفى من القوة لتحدى قوات الملك . وفى انطاكية ، اعتـبر بوهمنـد الأول نفسه أميرا ذا سيادة . وأما تنكريد ، وبرغم انـه كـان وصيًّـا فقـط وليـس أمـيرا ، فقـد رفض أن يعتبر نفسه تابعا للملك إلا فيما يتصل بامارته للجليل . وعلـى الرغـم مـن أن روجر وبوهمند الثانى قد اعترفا ببلدوين الثانى سيدا أعلى ، فمن الجـائز الجـدل بأنهمـا كانا مخطئين فى ذلك . وكان الوضع معقدا بما كان الامبراطور البيزنطى يطالب بـه مـن حق مشروع فى الحصول على انطاكية والرهـا ، بموجـب المعاهدة المبرمـة بـين الامـراء والامبراطور فى القسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى ، والحصول أيضا على طرابلس بسبب ما اعترف به الكونت برتراند من سيادة للامبراطور.

وأدت خلافة فولك إلى إثارة المسألة برمتها.فتولت أليس ، شقيقة زوجته ، زعامـة موجة المعارضة لسيادته العليا ، وقد خضعت لأبيها الملك بلدوين وهى فى خزى شديد، لكنها الآن أعادت تأكيد مطالبتها بأن تكون وصيـة علـى ابنتهـا الصغيرة . ففـى حالـة إمكان التوصل إلى أن ملك القدس ليس السيد الأعلى لأنطاكية فلن تكون مطالبتها هذه بلا أساس تستند إليه ، إذ أنه من المعتاد فى كل من بيزنطـة والغـرب منـح الوصايـة لأم الطفل الأمير . وقد كان موت جوسلين الأول ، بعد شهر تقريبـا مـن مـوت بلدويـن ، فرصة أتيحت لها ؛ إذ أن جوسلين كان وصيا على الأميرة الصغـيرة كونسـتانس ، ولـن يلجأ بارونات انطاكية إلى تعيين ابنه جوسلين الثانى وصيـا مكـان أبيـه. وكـان كونـت الرها الجديد ينصت إلى ما كانت أليس تتملقه به من إطـراء وهـو فـى حالـة مـن خيبـة الأمل ، فلا شك فى انه هو الآخر غير مستعد لقبول فولـك سيدا اعلـى لـه . وأيدهـا بونز امير طرابلس أيضا ، وكـانت زوجتـه سيشـيليا قـد حصلـت مـن زوجهـا الأول ، تنكريد ، على أراضى قلعة اليحمـور (روج) وأرزغـان مهـرا لهـا، ومـن ثـمّ أصبـح مـن خلالها أحد عظام بارونات الإمارة الأنطاكية . وأيقن من أن تحرر انطاكيـة مـن القـدس سوف يمكّن طرابلس من أن تسير على نفس الدرب. وقد فازت أليس فعلا بتأييد أرفـع البارونات شأنا فى جنوب الامارة وهم: الأخوان وليم وغارينتون فى زَردَنا، ولـوردات صهيون، وهى القلعة العظيمة التى شيدها البيزنطيون على التلال الواقعة خلف اللاذقيـة؛ وكان لديها أنصارها فى أنطاكية نفسها. غير أن أغلب لوردات انطاكية كانوا يخشـون



خريطة رقم (٣) مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

من أن تحكمهم امرأة. وعندما سمعوا شائعات بما تدبره أليس : ـ بو ـ معوثـا إلى القـدس لاستدعاء الملك فولك.

وفي الحال انطلق فولك من القدس مـع جيش كـان الأمـر تحديا ليس بوسعه تجاهله . وعندما وصل إلى حدود طرابلس رفض بونز أن يدعه يمر وكانت الكونتيسة سيشيليا أخت غير شقيقة لفولك ، ولم تفلح مناشدته لها باسم حقـوق القرابة . وكـان على جيش القدس أن يتقدم بحرا من بيروت إلى السويدية . ومـا أن هبـط فـي الأراضي الأنطاكيـة حتـى زحـف الملـك جنوبا وهـزم الحلفـاء المتمرديـن فـي شاسـتيل روج (اليحمور). لكنه لم يكن على ما يكفي مـن القـوة لمعاقبـة أعدائـه . إذ اعتـذر لـه بونـز وتصالحا . وبقيت أليس دون أن يلحقها أذى في اللاذقية ، فـي اراضيهـا التـي اخذتهـا على سبيل المهر . وغفر للأخوين وليم وجارينتون (أميرا صهيون) ، وكذلـك جوسلين كونت الرها الذى لم يكن حاضرا في المعركة . ومن المشكوك فيه ما اذا كان فولك قـد حصل على قسم الولاء من أيٍّ من بونز أو جوسلين ، ومن مواضع الشك كذلك مـدى نجاحه في تحطيم الحزب الذى تحزب لأليس . وبعد شهور قليلة قُتل وليم (أمير صهيون) في غارة اسلامية صغيرة على زردنا ، وعلى الفور تزوج جوسلين أرملته بيـاتريس التـي ربما منحته زردنا باعتبارها بائنتها . علـى أن السـلام تحقـق فـي ذات الوقـت. واحتفـظ فولك نفسه بالوصاية على انطاكية ، وعهد بادارتها إلى وكيـل الامـارة (الكونسـتابل)، رينالد مازوار لورد مرقب . وعاد هو نفسه إلى القـدس ليشـترك فـي مأسـاة مرعبـه فـي البلاط[٢].

١١٣٢م : هيو (اوف لو بواسيه) والملكة ميليسند

كـان مـن بـين النبـلاء شـاب وسـيم يدعـى هيـو (اوف لو بواسيه) لـورد يـافـا وكان أبوه ، هيـو الأول (اوف لو بواسيه) الأورليانزى ، وهو ابن عـم مباشـر للملـك بلدوين الثانى ، زعيما للمعارضة البارونية للملك لويس السـادس ملـك فرنسـا ، ودمـر في عام ١١١٨م قلعة (لو بواسيه) وحرمه من اقطاعيته . وكان شقيقا هيو ، جيلدوان ،

(٢) William of Tyre, XIV,.4-5,.pp. 611-14; Michael the Syrian,.III,.p. 233; Kemal ad-Din, p. 664, ، ويقول كمال الدين إن وليـم صـاحب زردنـا قتـل فـي الحـرب الأهليـة ولكـن ابـن القلانيسى (p.125) يقول إن وليم قد قتل في وقت مبكر من عام ٣٣ ١١ والراجح ان يعود تـاريخ تمرد أليس الى وقت مبكر من عام ١١٣٢م.

راهب دير القديسة مارى حوزافات ، ووالبران امير البيرة ، قد ذهبا بالفعل إلى الشرق. وعندما أصبح بلدوين مؤخرا ملكا للقدس ، قرر هيو اللحاق بهم ومعه زوجته مابيلا[٣]. وانطلقا مع ابنهما الصغير هيو وأثناء مرورهم فى أبوليا سقط الولد مريضا ، فتركاه هناك فى بلاط بوهمند الثانى وهو ابن عم مابيلا المباشر . ولدى وصولهما فلسطين منحهم بلدوين لوردية يافا . ومات هيو الأول بعد ذلك مباشرة ، وعلى اثر ذلك انتقلت مابيلا واقطاعيتها إلى فارس ولّونى[٤] هو ألبرت (اوف نامور). وسرعان ما سار كل من مابيلا والبرت على نفس دربه الذى انتهى بهما إلى القبر . وأما هيو الثانى ، وهو الآن فى نحو السادسة عشرة من عمره ، فقد أبحر من ابوليا للمطالبة بميراثه . واستقبله بلدوين استقبالا حسنا وسلمه اقطاعية والديه ، وأبقاه فى البلاط الملكى حيث كان أهم رفاقه ابنة عمه الأميرة الصغيرة ميليسيند . وفى نحو عام ١١٢١ م تزوج إمّا، ابنة اخت البطريق ارنولف وأرملة أيوستاس حارنييه ، وهى سيدة فى سن ناضجة غير أن أملاكها كانت شاسعة . وفتنها زوجها الطويل الوسيم ، غير أن ابنيها التوأمين ايوستاس الثانى وريث صيدا ، ووالتر وريث قيسارية ، كانا يكرهان زوج امهما الذى كان يكبرهما بقليل[٥] وفى أثناء ذلك تزوجت ميسيلند من فولك ، ولم تحفل به مطلقا برغم حبه الكبير لها . وبعد تولي العرش استمرت فى ألفتها مع هيو، وشاع فى البلاط القيل والقال ، فتمكنت الغيرة من فولك . وهناك اعداء كثيرون يعادون هيو بزعامة ابنى زوجته ، فأشعلوا شكوك فولك ، واخيرا ، جمع هيو حوله -

---

(٣) كانت أم هيو الأول (اوف لو بواسيه) واسمها أليس (اوف مونتلهيرى)، أخت أم بلدوين الثانى ميليسند (خالته). وهذا وارد فى Cuissard, *Les Seigneurs du Puiset.*, p. 89.. ومن الواضح ان الراهب جيلدوان (اوف سانت مارى حوزافات) ، ووالبران صاحب البيرة ، كانا أخويه . ومابيلا هى ابنة هيو كونت روسى وامها هى سيبيلا ابنة روبرت جيسكارد ، كونت روسى . أنظر ادناه المرفق الثالث للاطلاع على شجرة النسب الأولى ، ١ و ٢. ويخطئ وليم الصورى (انظر المرجع ادناه ص. ١٩٣، ملحوظة ١) بافتراضه ان هيو الثانى ولد فى أبوليا ، وفى هذه الحالة يكون قد تزوج فى السادسة من عمره !.

(٤) المترجم : نسبة الى والّون ، أى المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا وما حولها من مناطق فرنسية.

(٥) اسما ابنى ايوستاس حارنييه ليسا يقينيين . ويظهر وولتر كلورد قيسارية وصيدا فى وثيقة رسمية مؤرخة فى ١٢ سبتمبر ١١٣١م (Rohrich, *Regesta,* p.35)؛ وكان ايوستاس الثانى لورد صيدا عام ١١٢٦م Rohrich, *Regesta Additamenta,* p.8، ويظهر ايوستاس ووالتر كابنى ايوستاس الأول فى وثيقة رسمية فى نفس العام Rohricht, *Regesta,* p.28. ولكن *Lignages* يسمى الابنين جيرارد ووالتر ، كما ان جيرار Gerard يسمى حوى Guy فى *Assises*. انظر La Monte, 'The Lords of Sidon' in *Byzantion*, vol XVII, pp.188-90. الذى يجعل جيراراابن أيوستاس الثانى، ويجعل موت الأخير قبل عام ١١٣١ عندما اصبح وولتر وصيا لجيرار.

دفاعا عن النفس - مجموعة من خاصته كان أبرز اعضائها رومان (اوف بوى) لورد منطقة الأردن. وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلهابين الملك والكونت الذى اشتهر عنه التعاطف مع الملكة . وسادت مشاعر التوتر طوال أشهر الصيف من عام ١١٣٢م . وفي يوم ما فى اواخر الصيف، عندما كان القصر زاخرا بالوجهاء من ذوى الجاذبية في المملكة، وقف ولتر حارنييه واتهم زوج أمه ، هيو ، صراحة بأنه يتآمر على حياة الملك، ودعاه متحديا إلى منازلته كي يبرئ ساحته . وأنكر هيو التهمة وقبل التحدى . وحددت المحكمة العليا تاريخ النزال، وعاد هيو إلى يافا ووالتر إلى قيسارية، لكى يجهّز كل منهما نفسه للنزال.

وعندما أزف يوم النزال ، جاء والتر إلى مكان النزال المحدد وهو فى أهبة الاستعداد، ولكن هيو لم يظهر . وربما شعرت الملكة بالخطر ، إذ مضت الأمور شأوا بعيدا، فتوسلت إليه أن يتغيب ، أو ربما كانت الكونتيسة إمّا هى التى ارتاعت عندما تصورت أنها لابد وأن تفقد إما الزوج أو الابن ، أو ربما كان هيو هو نفسه ، الذي كان مدركا لما ارتكبه من اثم ، خائفا من انتقام الرب . ومهما يكن السبب ، فقد كان حبنه دليلا ناصعا على خيانته . و لم يعد بوسع اصدقائه تأييده أكثر من ذلك .وأعلن مجلس الملك غيابيا أنه مذنب، مما جعل هيو يعيش فى ذعر دائم ، فهرب إلى عسقلان ملتمسا الحماية من الحامية المصرية . فأعادته فصيلة مصرية إلى يافا وبدأت تنتهب سهل شارون ، فصارت خيانة هيو الآن صريحة . وانقلب عليه أهم اتباعه ، باليان ، لورد يبنه ووكيل يافا ، وعندما جاء جيش ملكى على عجل من القدس إلى يافا ، استسلمت له يافا فى الحال . حتى المصريين ، وجدوا فى هيو حليفا عقيما فتخلوا عنه.فلم يكن له من بد سوى أن يسلم نفسه للملك .

و لم يكن عقابه قاسيا ، إذ كانت الملكة صديقته ، كما نصح البطريق وليم (اوف ميسين) بالرحمة . وكان الملك نفسه راغبا في تهدئة الامور ، إذ أطلت أخطار الحرب الأهلية برأسها . فضلا عن أنه فى ١١ ديسمبر ، وعندما استنفر الجيش للزحف على يافا ، كان أتابج دمشق قد فاجأ قلعة بانياس واستعادها للاسلام . وتقرر نفى هيو ثلاث سنوات ، يجوز له بعدها أن يعود إلى أراضيه وقد أعفى من العقوبة.

١١٣٢م : محاولة قتل هيو

أثناء أن كان هيو ينتظر سفينة تقله إلى ايطاليا ، ذهب إلى القدس فى وقت مبكر

من العام الجديد لتوديع اصدقائه . وبينا هو يلعب النرد فى احدى الامسيات عند باب أحد حوانيت الفراء ، تسلل فارس بريتونى[٦] من ورائه وطعنه فى رأسه وفى بدنه ، فحملوه وهو ينزف نزيف الموت ، وفى التو حامت الشبهات حول الملك ، غير أن فولك تصرف فورا تصرفا لا يخلو من حصافة ، وسُلّم الفارس إلى المحكمة العليا لمحاكمته، واعترف بأنه قد تصرف بمحض رغبته ، آملا بذلك أن يفوز بعطف الملك ، وحكم عليه بالاعدام عن طريق بتر أوصاله قطعة قطعة . ونُفّذ حكم الاعدام علنا . وبعد أن بترت ذراعا الضحية ورجلاه ، ولكن مازالت رأسه كما هى ، أجبر على إعادة النطق بالاعتراف . وبذا أنقذت سمعة الملك ، غير أن الملكة لم تكن راضية . وبلغ بها الغضب من أعداء هيو أن ظلوا لشهور عديدة يخشون الاغتيال ، ولم يجرؤ زعيمهم، راؤوت أمير نابلس ، على المشى فى الشوارع بدون حراسة . بل يقال أن الملك فولك كان خائفا على حياته . على أن رغبته الوحيدة كانت الفوز بحظوة زوجته ، فكان يوافقها على كل شئ ؛ أما هى ، وقد أحبطت فى الحب ، فسرعان ما وجدت العزاء فى التمتع بالسيطرة[٧].

وقد نجا هيو من محاولة قتله ، ولكن ليس لفترة طويلة . وتقاعد فى بلاط ابن عمه، الملك روجر الثانى الصقلى ، الذى منحه اقطاعية جارجانو حيث مات فيها بعد فترة قصيرة[٨].

ولاشك فى أن فولك قد وجد الراحة فى توجيه انتباهه إلى الشمال مرة أخرى ، إذ كان الوضع هناك نذير سوء للفرنج أكثر مما كان عليه الوضع فى أيام بلدوين الثانى. فليس فى أنطاكيه أمير قوى ؛ وجوسلين الثانى فى الرها يفتقر إلى نشاط أبيه وحسه السياسى ، كان شخصا بلا جاذبية ، اذ كان قصيرا بدينا داكن الشعر والجلد ، تتناثر فى وجهه البثور ويبرز الأنف الهائل وتجحظ عيناه البارزتان . وكان حريا بأن يأتى بلفتات كريمة ، لكنه كان كسولا مترفا فاسقا ولا يصلح قط لقيادة أهم ثغور العالم المسيحى الفرنجى[٩].

---

(٦) (المترجم) نسبة الى مقاطعة بريتون Breton الواقعة شمال غربى فرنسا.

(٧) ترد القصة مطولة لدى وليم الصورى William of Tyre, XIV,.15-17,.pp. 627-33ويذكر ابن القلانيسى (ص ٢١٥) باقتضاب وجود نزاع فيما بين الفرنج - 'غير مألوف لديهم'

(٨) William of Tyre, XIV, 17, P.633.

(٩) William of Tyre, XIV, 3, p. 610 . واستنادا لما جاء فى (Crhron. Anon. Syr). p. 35 ولد جوسلين الثانى عام ١١١٣م

وكانت ندرة القيادة بين الفرنج شديدة الخطر ، إذ أن المسلمين لديهم زنكى الآن، وهو الرجل القادر على جمع قوات الإسلام . وكان حتى الآن يتحين الفرصة ، إذ كان غارقا فى احداث العراق بحيث لم يتمكن من استغلال الوضع الذى ساد فيما بين الفرنج. فقد مات السلطان محمود بن محمد عام ١١٣١م ، تاركا ممتلكاته فى العراق وجنوب فارس لابنه داود . غير أن سنجر ، وهو المهيمن فى الاسرة ، قرر أن يؤول الميراث إلى أخى محمود ، طغرل صاحب قزوين وشقيق محمود، مما دفع أخوى محمود الآخرين - مسعود صاحب فارس وسلجوق شاه صاحب اذربيجان - إلى التقدم بمطالب لهما . وسرعان ما تنازل داود الذى لم يؤيده الخليفة المسترشد ولا رعاياه. ولفترة من الزمن أعلن فى بغداد عن قبول طغرل ، إذ كان نفوذ سنجر فى جعبته ، وأجبر سنجر مسعود على التخلى . على أن سنجر نفسه سرعان ما انطفأت جذوة اهتمامه بهذا الأمر ، وعلى الاثر جاء سلجوق شاه إلى بغداد وفاز بتأييد الخليفة . فاتجه مسعود إلى زنكى يناشده المساعدة ، فزحف زنكى على بغداد ، لكن قوات الخليفة وسلجوق شاه هزمته بالقرب من تكريت . ولولا أن حاكم تكريت الكردى ، نجم الدين أيوب ، نقله عبر نهر دجلة ، لكان معتقلا أو مقتولا . ووجد الخليفة فى هزيمة زنكى تشجيعا له على تحقيق حلمه فى بعث ما كان لآل بيته من قوة . وشعر حتى سنجر بالخطر ، فعاود زنكى - وهو نائبه - الهجوم مرة اخرى على بغداد فى يونية ١١٣٢م ، وهذه المرة متحالفا مع الزعيم البدوى دوبيس المتقلب الأهواء . وكان زنكى منتصرا فى بداية المعركة ، لكن الخليفة تدخل بنفسه ، وهزم دبيس هزيمة منكرة ثم تحول منتصرا إلى زنكى الذى اضطر إلى الانسحاب إلى الموصل. وفى الربيع التالى وصل المسترشد إلى هناك على رأس جيش ضخم ، وبدا كما لو أن العباسيين سوف يسترجعون أمجادهم الخوالى ، إذ كان سلطان العراق السلجوقى أكثر قليلا من كونه تابعا للخليفة . غير أن زنكى كان قد انسحب من الموصل وبدأ مناوشاته مع معسكر الخليفة بلا هوادة وقطع عنه الامدادات . وبعد ثلاثة اشهر انسحب المسترشد[١٠] وانتكست محاولة البعث العباسى . وخلال العام التالى أزاغ الأمير السلجوقى مسعود تدريجيا غيره من المتطلعين إلى سلطنة العراق ، برغم محاولات المسترشد الفاشلة فى منعه. ففى معركة جرت رحاها فى دايمرج فى يونية ١١٣٥م ، هزم جيش الخليفة

---

(١٠) Ibn al-Athir, pp. 398-9 و *Atabegs of Mosul,* pp.78-85 : انظر المقالات 'Mas'ud ibn Mohammacd', 'Tughril I',and Sanjar' فى دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam.*

هزيمة نكراء اوقعها به مسعود وألقى القبض على الخليفة نفسه ، ونفاه إلى ازربيجان حيث قتله الحشاشون ، وربما كان مسعود متواطئا معهم . ونُصّب فى الخلافة ابنه رشيد الذى استنجد بالمتطلعين إلى سلطنة العراق داود السلجوقى وزنكى ولكن بلا طائل . وتدبر مسعود خلع رشيد من الخلافة عن طريق القضاة فى بغداد، وتمكن خليفته المقتفى من إبعاد زنكى عن رشيد وداود بما وعده من وعود سخية . وهكذا ، وبعد أن نال زنكى التأييد بألقاب تشريف جديدة من المقتفى ومن مسعود ، وجد نفسه قادرا ابتداء من عام ١١٣٥م قُدُما على تحويل انتباهه نحو الغرب(١١).

١١٣٣م : فولك ينقذ بونز أمير طرابلس

بينما كان زنكى منشغلا فى العراق ، كان واليه على حلب (سوار) الذى عينه يدير شئون سوريا نيابة عنه ، ولم يكن بوسع زنكى أن يرسل إليه الكثير من الجنود ، غير انه نتيجة لإغراءات سوار التحقت مختلف جماعات قطاع الطرق التركمان بخدمته ، وتجهز بهم فى ربيع ١١٣٣م لمهاجمة انطاكية . واستنجد الأنطاكيون الخائفون بالملك فولك كى يأتى لانقاذهم . وأثناء ترحاله شمالا مع جيشه قابلته فى صيدا كونتيسة طرابلس وأخبرته بأن زوجها بونز وقع فى كمين نصبته عصبة من التركمان فى جبال النصيرية وهربوا إلى قلعة بعرين على حافة وادى العاصي . ونزولا على رغبتها سار فولك مباشرة إلى بعرين، وباقترابه انسحب التركمان . وأعادت تلك الحادثة ماكان بين فولك وبونز من علاقة ودودة. وسرعان ماتزوج بعد ذلك ابن بونز ووريثه - ريموند - من اخت ملكة القدس هوديرنا، بينما تزوجت ابنته - آجنس - من ابن وكيل فولك فى انطاكية - الكونستابل ريموند مازوار أمير المرقب(١٢).

وبعد أن أنقذ فولك كونت طرابلس ، واصل تحركه إلى انطاكية ، حيث علم أن ساور قد أفلح فى الاغارة على مدينة تل بشير الواقعة فى اراضى الرها ، وانه حشد جيشا ليستخدمه ضد انطاكية . فتأخر فولك بضعة أيام متخذا جانب الحذر ثم تقدم نحو معسكر المسلمين فى قنسرين وباغته ليلا بهجوم مفاجئ فاضطر سوار إلى التقهقر

---

(١١) Abul' Feda, pp. 21-3; Ibn al-Athir, *Atabegs of Mosul*, pp. 88-91; Ibn at- Tiqtaqa, *AlFakhiri*, pp. 297-8.

(١٢) William of Tyre, xiv, 6, pp.614-15; Ibn al-Qalanisi, pp. 221-2; Ibn al - Athir, pp. 399-400.

والتخلي عن خيامه ، غير أن النصر كان أبعد ما يكون عن الاكتمال ، إذ أن المسلمين في المناوشات التي تلت قضوا تماما على عدة فصائل فرنجية . لكن فولك دخل انطاكية دخول الظافرين قبل أن يعود إلى فلسطين في صيف عام ١١٣٣م . وما أن رحل حتى عاود سوار الاغارة على الأراضي المسيحية(١٣).

١١٣٥م : زنكي أمام دمشق

وباستثناء تلك الغارات الحدودية ، مرت سنة ١١٣٤م بسلام فيه الكفاية . وفي العام التالي أضعفت الثورات العالم الاسلامي ؛ ففي مصر حاول الخليفة الفاطمي الحافظ كبح سلطان الوزارة بأن عين ابنه حسن وزيرا . لكن الشاب كاد أن يظهر نفسه في صورة وحش مخبول ، إذ أطاح برؤوس أربعين أميرا تباعا لاتهامهم باتهامات تافهة مما تسبب في اندلاع الثورة . ولم ينقذ الخليفة نفسه الا بعد أن قتل ابنه بالسم وسلم جثته للثائرين ، ثم عين وزيرا ارمينيا ، فاهرام ، الذى انصرف اهتمامه إلى زيادة ثراء اصدقائه ورفاقه المسيحيين أكثر من اهتمامه باتخاذ احراءات عدوانية ضد الفرنج(١٤). وكانت دمشق على نفس القدر من العجز ، فقد مات بوري ابن طغتكين عام ١١٣٢م، وخلفه ابنه اسماعيل كأتابج . وبدأ حكم اسماعيل بداية ساطعة بالاستيلاء على بانياس من الفرنج وبعلبك وحماه من أنداده ، لكنه سرعان ما بدأ يمزج بين القسوة الطاغية وجباية الضرائب الجائرة ، مما استفز البعض في محاولة لاغتياله ، فأنزل عقوبة الإعدام بالجملة ، حتى انه علق على الجدران شقيقه هو نفسه ، سونج ، لأوهى مظنات الريبة . وأزمع بعد ذلك القضاء على مستشار ابيه وموضع ثقته ، يوسف بن فيروز . وقد تحملت أمه ، الأميرة المهيبة زمرد ، موت ابنها سونج وهي متمالكة لنفسها ، لكن يوسف كان حبيبها ، فراحت تدبر أمرها لانقاذه . وبات اسماعيل مدركا أنه غير آمن حتى في قصره ، وفي لحظة الشعور بالخطر كتب إلى عدو أبيه القديم، زنكي ، يعرض عليه أن يصبح تابعا له اذا استطاع زنكي أن يبقيه في السلطة ، وان لم يفعل زنكي ذلك فسوف يسلم دمشق للفرنج . ولم يكن بوسع زنكي أن يرحل عن الموصل دون أن يهزم الخليفة العباسي المسترشد ، غير أنه في ذات الوقت لا يستطيع تجاهل النداء

---

(١٣) William of Tyre, XIV, 7, pp. 615-16; Ibn al-Qalanisi, pp. 222-3; Kemal ad-Din, p. 665.

(١٤) Ibn al-Athir, pp. 405-8.

الذى تسلمه متأخرا للغاية . فعبر الفرات يوم ٧ فبراير، لكن زمرد قبل ذلك بستة أيام، نفّذت اغتيال اسماعيل وتولية ابنها الأصغر شهاب الدين محمود . وأرسل زنكى رسله إلى الاتابج الجديد كى يستسلم ، غير أن هذا الأخير ، وبتأييد من سكان دمشق ، رد على الرسل باعتذار مهذّب . ولّما وصل زنكى إلى دمشق ، وقد استسلمت له حماه وهو فى الطريق ، وجد دمشق فى حالة دفاع. وأخفقت محاولته قصف الأسوار ، وسرعان ما نفدت المؤن من معسكره ، وتخلى عنه البعض من جنوده . وفى تلك اللحظة وصلته سفارة من الخليفة المسترشد ، ترجوه أن يتلطّف ويحترم استقلال دمشق . وقَبِل زنكى بامتنان اعتذاراً مكّنه من الانسحاب دون مساس بمكانته . وحل السلام بين زنكى ومحمود ، وقام زنكى بزيارة رسمية لدمشق ، غير أن محمود لم يتوفر لديه ما يكفى من الثقة فى زنكى بحيث يرد الزيارة ، فأرسل أخاه بدلا منه(١٥).

وكانت تلك الحادثة ، التى جاءت فى وقت ضعفت فيه مصر ، بمثابة فرصة نادرة للفرنج لاسترداد بانياس والمبادرة بالعدوان . غير أن فولك ترك الفرصة تفلت من بين يديه . ذلك أن زنكي، بعدما خلُص بنفسه من دمشق، راح يغير على الأراضى الأنطاكية . فبينما كان قائده ساوار يهدد تل بشير وعينتاب وعزاز ، مانعا وجود الاتصال بين جيشي انطاكية والرها ، كان زنكى يكتسح طريقه مرورا بحصون الحدود الشرقية ، كفرطاب ، والمعرة ، وزردنا، والأثارب مستوليا عليها الواحدة تلو الأخرى. ولحسن حظ الفرنج اضطر وقتئذ إلى العودة إلى الموصل ، ولكن الدفاعات الحدودية ضاعت من الفرنج(١٦).

وأرغمت تلك الكوارث فولك على السير إلى الشمال مرة اخرى . وكان مايزال وصيا اسميا على انطاكية ، لكن السلطة هناك كانت فى يد البطريق الوقور برنارد . على أن برنارد مات فى اوائل الصيف ، وقد كان رجل دولة مقتدرا ، نشطا ، ثابتا ، شجاعا ، لكنه كان حازما مع نبلاء الفرنج ، ومتعصبا إزاء المسيحيين الوطنيين . وهلّل العوام لخليفته أسقف المصيصة اللاتينى ، رادولف (اوف دومفورت) الذى ، فاتخذ لنفسه العرش البطريقى دون انتظار انتخاب كنسى . وقد كان رادولف رجلا مختلفا جدا ، إذ كان مليحا ، برغم حَوَل طفيف، محبا للأبّهة ، مبسوط اليد ، بشوشا ، ليس

---

(١٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 211-36، أورد ابن القلانيسى رواية كاملة للغاية ، لكنه يعزو الدوافع الجديرة بالثناء الى قتل السيدة المهيبة لإبنها . فيقول ان الوزير الأول لإسماعيل كان كرديا مسيحيا، هو برتراند الكافر. *Bustan*, p. 329; Kemal ad-Din, pp. 667-70; Ibn al-Athir, pp. 403-5.

(١٦) Kemal ad-Din, p. 670.

بصاحب علم ولكنه كان متحدثا فيه استدراج وفصاحة ، لكنه كان - وراء قناع من الشفقة - متعلقا بالدنيا ، طموحا ، خبيثا . ولم يكن راغبا فى أن يسيطر عليه الملك ورجاله ، ولذا استهل المفاوضات مع السيدة الأرملة الأميرة أليس التى كانت ماتزال تعيش فى اراضيها فى اللاذقية . ووجدت أليس فرصتها وناشدت اختها الملكة ميليسند للمساعدة. وجاء فولك إلى انطاكية فى اغسطس فى زيارة قصيرة . وشعر بأن القوة تنقصه بحيث يحتج على انتخاب رادولف انتخابا غير عادى ، ولا يستطيع الآن أن يرفض شيئا تراه زوجته . وسُمح للأميرة اليس بالعودة إلى انطاكية . وبقى فولك وصيا ، ولكن السلطة باتت مشاركة فى تحالف غير يسير بين الأرملة والبطريق(١٧).

١١٣٦م : استدعاء ريموند (اوف بواتييه) إلى انطاكية

وما لبث رادولف أن تشاجر مع رجال الدين التابعين له ، وبقيت أليس سيدة المدينة . ولكنها كانت فى وضع مقلقل ، إذ كان أهم تأييد لها يأتيها من السكان المسيحيين الوطنيين ، وكما ظهر من محاولتها التواطؤ مع زنكى ، كان تقديرها للعواطف الفرنجية شيئا ضئيلا . والآن طافت بذهنها خطة افضل . فقد ارسلت فى نهاية عام ١١٣٥م مبعوثا إلى القسطنطينية يعرض يد ابنتها الأميرة كونستانس لإبن الامبراطور الأصغر مانويل . وربما اقدمت على هذا التصرف ، كما اعلن الصليبيون المرتاعون ، بنوازع طموحاتها الشديدة ؛ غير أنها فى واقع الأمر قدمت أفضل حل للمحافظة على شمالى سوريا . إذ كان العنصر اليونانى قويا فى انطاكية ، والتهديد الاسلامى يتعاظم فى ظل زنكى ، والامبراطورية البيزنطية هى القوة الوحيدة التى يتوفر لها ما يكفى من القوة للتصدى لهذا التهديد . إن دويلة تابعة ، يجرى حكمها فى ظل السيادة الامبراطورية ، أولا بالأميرة نصف الارمينية أليس ، ثم بصورة مشتركة بين أمير بيزنطى وأميرة فرنجية ، كانت خليقة حقا بأن تلحم اليونانيين والفرنج معا من اجل الدفاع عن العالم المسيحى . غير أن نبلاء الفرنج باتوا فى رعب شديد ، ورأى البطريق رادولف نفسه وقد أزيل من منصبه لصالح يونانى بغيض . ويبدو أن بارونات انطاكية استشاروا الملك فولك أثناء زيارته حول أنسب زوج لكونستانس . والآن ذهب رسول سرا إلى الملك يقول إن من اللازم العثور على زوج فى الحال . وبعد أن استعرض فولك

(١٧) William of Tyre, xiv, 9, 20, pp. 619-20, 636 .. كان فولك فى انطاكية فى اغسطس عام ١١٣٥م وفقا لما جاء فى Rhricht , *Regesta,* p. 39

كل أخلائه من الأمراء الفرنسيين ، قرر اختيار ريموند (اوف بواتييه) وهو الابن الاصغر لدوق أكيتان وليم التاسع ، وكان آنذاك فى انجلترا فى بلاط الملك هنرى الأول الذى تزوجت ابنته مؤخرا من ابن فولك جيوفرى . وأرسل فارس من فرسان المستشفى ، جيرارد جيبار ، إلى انجلترا لإحضاره وروعيت أقصى درجات السرية ، فلا يجب أن تعرف أليس شيئا ، ولا تؤتمن حتى الملكة لو علمت . وهناك خطر آخر يكمن فى عداوة الملك روجر الصقلى الذى لم يغفر البته لمملكة القدس اهانتها لأمه أديلايدى ، والذى كانت طموحاته فى البحر المتوسط لا تدعه قط يسمح بمرور من يتطلع إلى الإقتران بأعظم الوريثات فى الشرق . ووصل جيرارد إلى البلاط الانجليزى وقبل ريموند العرض . لكن الملك روجر اطلع على السر ، اذ كان نورماندييو انجلترا وصقلية على اتصال وثيق ببعضهم البعض دائما . فقرر القبض على ريموند الذى لن يجد سفينة تقله إلى سوريا إلاّ من ميناء فى جنوب ايطاليا. واضطر ريموند إلى تجزئة بطانته والتنكر على هيئة حاج حينا ، وخادم لتاجر حينا آخر ، وتمكن من التسلل من خلال الحصار ، ووصل انطاكية فى ابريل ١١٣٦م .

ولم يكن وصوله ليخفى على أليس ، ولذا ذهب فى الحال لمقابلة البطريق . وعرض عليه البطريق رادولف المساعدة بشروط أن يخضع ريموند له ويذعن له فى كل شئ . فلمّا وافق ريموند طلب رادولف الاجتماع مع اليس ليخبرها أن ذلك الغريب الفتان جاء طالبا يدها . وهى قصة مقنعة ، إذ كان ريموند فى السابعة والثلاثين ، وأليس دون الثلاثين ، وابنتها كونستانس بالكاد فى التاسعة . وبينما كانت أليس فى قصرها تنتظر خطيب المستقبل ، اختطف البعض كونستانس وذهبوا بها إلى الكتدرائية حيث سارع البطريق باجراء زفافها بريموند . وانهزمت أليس . فليس للأرملة المسنة حقوق إزاء الزوج الشرعى للوريثة . فتقاعدت مرة اخرى فى اللاذقية لتبقى متفطّرة القلب ما تبقى من حياتها القصيرة[١٨] .

وكان ريموند فى ميعة الصبا ، وسيما ذا قوة بدنية رائعة . ولم يصب من العلم إلا القليل ، مغرم بالمقامرة، طائش وكسول فى ذات الوقت ، على انه كان ذا شهرة فى الكياسة وطهارة السلوك[١٩] . وسرعان ما تسببت شهرته بين الناس في ارتياع البطريق

---

(١٨) William of Tyre, xiv, 20, pp. 635-6; Cinnamus, pp. 16-17; Robert of Torigny (I,p. 184)، ويعتقد روبرت ان ريموند تزوج ارملة بوهمند الثانى .

(١٩) William of Tyre, xiv,21, pp. 637-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p.522، يصف كمال الدين كيف كان يستطيع ثنى قضيب حديدى Cinnamus (p.125) الذى يقارنه بهرقل .

الذي استمرت مشاكله مع تابعيه من رجال الدين ، ووجد نفسه يعامَل باحترام وانما فى الواقع مسلوب القوة . وأيد النبلاء ريموند تأييدا قويا ، إذ كانت حقيقة الوضع بالنسبة لهم من الخطورة بحيث لا يملكون غير ذلك ، فكانت الامارة مهتزة لفقدها الدفاعات الشرقية ، ليس هذا وحسب وانما قام احد المغامرين التركمان فى الجنوب ، فى جبال النصيرية ، بالاستيلاء على حصن بكسرائيل من صاحبه رينالد مازوار عام ١١٣١م ، وفى عام ١١٣٦م كاد يستولى على بلاطنس . ثم إن بكسرائيل قد استردت بعد ذلك . وفى الجنوب الأبعد ، حيث سبق للفرنج الاستيلاء على قلعة قدموس عام ١١٢٩م ، عادت تلك القلعة عام ١١٣١م إلى الأمير المسلم ، سيف الدين ابن عمرون صاحب قلعة كهف التي باعها فى العام التالى لزعيم الحشاشين أبو الفتح . وفى عام ١١٣٥م اشترى الحشاشون قلعة كهف نفسها من أولاد سيف الدين ، وفى شتاء عام ١١٣٦م انتزعوا حصن الجزية من الفرنج[٢٠]. وكانت كيليكيا قد ضاعت فعلا من أنطاكية. ذلك أنه فى عام ١١٣١م ، بعد موت بوهمند الثانى مباشرة ، هبط الأمير ليو الروبينى - بعد أن تدبر حماية ظهره بتحالف مع الأمير الدانشمندى - إلى السهل واستولى على المدن الثلاث : المصيصة وطرسوس وأدنه . وكان أخوه وسلفه ، ثوروس ، قد أفلح قبل ذلك بسنوات قليلة فى طرد الحاميتين البيزنطيتين من سيس وعين زربة فى داخل البلاد. وفى ١١٣٥م انتزع ليو من بلدوين - لورد مرعش - قلعة سرفنتيكار الواقعة على منحدرات جبال الأمانوس . على أن قبضة الأرمن على كيليكيا كانت ضعيفة ، إذ لجأ اليها قطاع الطرق وباتت سواحلها مرتعا للقراصنة[٢١].

١١٣٦م : الحرب مع الأرمن

ولم تكن كونتية الرها أفضل حالا . إذ أن تمرتاش الأرتقى ضم مؤخرا بعض أراضيها فى الشرق ، وفى الشمال تنازل ميخائيل أمير كركر الأرمينى الذى عجز عن الصمود أمام الترك ، عن أراضيه للكونت جوسلين الذى سلمها فى خطوة طائشة إلى العدو الشخصى لميخائيل ، بازل ، شقيق بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) الأرمينى ، فشبت حرب اهلية بين الأميرين الأرمينيين ، واضطر جوسلين إلى تزويد

(٢٠) Ibn al-Qalanisi, p. 241; Usama, ed. Hitti, p. 157; Kemal ad-Din, p. 680.

(٢١) Gregory the Priest, p. 152; Michael the Syrian, III, PP. 230-3; *Armenian Rhymed Chronicle*, p.499; Sembat the Constable, p.615.

كركر بحامية من عنده ، لكنه لم يستطع الحيولة دون أن يتناوب الأرمن والأتراك نهب الريف . فأغار سوار على منطقة تل بشير عام ١١٣٥م ، وفى ابريل ١١٣٦م تقريبا، وفي نفس الوقت الذى وصل فيه ريموند (اوف بواتييه) إلى الشرق ، لم يكتف قائده أفشين بشق طريقة خلال الاراضى الانطاكية حتى اللاذقية فى الجنوب وهو يحرق القرى وينهبها فى طريقه ، وانما استدار شمالا فيما بعد مارا بمرعش وكيسوم ، وكان أميرهما - بلدوين ، التابع الرئيسى لكونت الرها - يفتقر إلى القوة التى يدافع بها عن اراضيه(٢٢).

واعتزم ريموند أن تكون أول مهامه استعادة كيليكيا، وكان عليه أن يوفر الحماية لمؤخرته قبل أن يغامر بمجابهة زنكى . وبموافقة الملك سار مع بلدوين امير مرعش لمهاجمة الروبيين ، لكن التحالف لم يكن مكتملا . إذ أن جوسلين امير الرها، وبرغم كونه تابعا للملك وسيدا لبلدوين ، كان ايضا ابن أخت ليو الأرميني (صاحب كيليكيا) ومالت عواطفه ناحية خاله ، ولم تعد سلطة ملك القدس كافية لاعادة توحيد امراء الفرنج . وتمكن ليو - بمساعدة جوسلين - من دحر الجيش الأنطاكى . وإذ هو منتصر ، وافق على مقابلة شخصية مع بلدوين الذى غدر به وسجنه وبعثه أسيرا إلى أنطاكية . وفى غيبة ليو تشاجر أبناؤه الثلاثة ، وانتهى أمر كبيرهم ، كونسطنطين ، إلى أن اعتقله أخواه وأعميا عينيه . لكن الفرنج فى الوقت نفسه لم ينتفعوا من الأحداث بشئ . وقام الامير الدانشمندى محمد الثانى ابن غازى بغزو كيليكيا ، مدمرا الحصاد ، ثم تحول إلى أراضى بلدوين فانتهبها فى طريقة حتى كيسوم . ولم يجد ليو ، الذى هزته الكوارث ، من وسيلة سوى أن يشترى حريته بالتخلى عن مدن كيليكيا لريموند ، لكنه وهو فى طريق عودته إلى وطنه تناسى وعده . واشتعلت مرة اخرى حرب مضطربة إلى أن تمكن جوسلين فى اوائل ١١٣٧م من رتق هدنة بين المتحاربين الذين ارتاعوا من انباء جاءتهم من الشمال ، مفادها أن الاميرة أليس ليست حمقاء مع كل ماحدث(٢٣).

ولم يتمكن الملك فولك من تقديم أى عون فعلى لصديقه ريموند ، إذ كان عليه مواجهة اخطار أقرب إليه . ذلك أن حكومة اتابج دمشق الصغير محمود كانت خاضعة

(٢٢) Michael the Syrian, III, p. 244; Ibn al-Qalanisi, pp. 239-40; Kemal ad-Din, p. 672

(٢٣) Gregory the Priest, *loc cit.*(and note by Dulaurier); Sembat the Constable, p. 616; Matthew of Edessa, ccliii, p.320-1

لما كان يمارسه يوسف – عشيق أمه – من سيطرة هادئة ، غير أنه فى إحدى أمسيات ربيع ١١٣٦م ، وبينما كان الأتابج محمود يمشى فى الفناء مع يوسف والقائد المملوكى، بزْواجْ انقض الأخير فجأة على يوسف وطعنه طعنات قاتلة ثم هرب إلى كتيبته فى بعلبك . ومن هناك هدد بالزحف على دمشق ما لم يصبح هو الوزير الأول . فأذعن محمود لرغباته ، وسرعان ما اتخذ الدمشقيون موقفا عدوانيا من الفرنج ، ففى بداية العام التالى قاموا بغزو كونتية طرابلس ، يساعدهم المسيحيون المحليون الذين لا يحملون ولاء للفرنج ، فقاموا بارشادهم سرا خلال ممرات لبنان إلى داخل السهل الساحلى ، وبذا بوغت الكونت بونز ، فخرج بجيشه الصغير لملاقاتهم فلقى هزيمة كانت بمثابة كارثة ، وهرب هو نفسه داخل الجبال ، ولكن فلاحا مسيحيا خانه وأوشى به للمسلمين فقتل فى الحال . أما أسقف طرابلس ، جيرارد ، الذى أسر فى المعركة ، فكان أسعد حظا إذ لم يتعرف عليه احد ، وسرعان ما تمت مبادلته على انه رجل ليس له أهمية . واستولى بِزْواج على حصن حدودى أو أثنين ، لكنه لم يجازف بمهاجمة طرابلس نفسها ، وسرعان ما عاد إلى دمشق يحمل الغنائم الكثيرة(٢٤) .

١١٣٧م : استخلاف ريموند الثانى فى طرابلس

استمر حكم بونز فى طرابلس خمسا وعشرين سنة . ويبدو انه كان إداريا مقتدرا، ولكنه كان عديم القيمة من الناحية السياسية ، متلهفا دائما إلى التحرر من تسيد ملك القدس عليه ولكنه كان بالغ الضعف بحيث لا يستطيع تحقيق الاستقلال . وخلفه ابنه ، ريموند الثانى ، الذى كان مزاجه أكثر حِدّة ، وقد بلغ الآن من العمر الثانية والعشرين ، وتزوج مؤخرا من الأميرة هوديرنا شقيقة مليسيند ملكة القدس، وكان منصرفا اليها بكل جوارح الغيرة . وكان أول ما بدأه من اعمال أن انتقم لمقتل أبيه ، ليس من مماليك دمشق، فقوتهم لا قبل له بها وإنما من مسيحيي لبنان الغادرين ، فزحف على القرى التى تحوم الشكوك حول مساعدتها للأعداء ، وراح يقتل الرجال ويأخذ النساء والأطفال ليبيعهم عبيدا فى طرابلس . وتركت قسوته بصمات الجبن على اللبنانيين ، مما أدى إلى نفورهم من الفرنج(٢٥) .

(٢٤) William of Tyre, xɪv, 23, p. 640; Ibn al-Qalanisi, pp. 240-1; Ibn al-Athir, pp. 419-20

(٢٥) William of Tyre, *loc. cit*

ولم يستحسن زنكي ما قام به بزواج من نشاط . فهو لا يفضل مهاجمة الفرنج مع وجود دولة مسلمة عدوانية مستقلة على جانب من جوانبه . وفي نهاية يونية زحف على حمص ، التي كان يحكمها أنُر المملوك المسن باسم أتابج دمشق . وظل زنكي أمام المدينة نحوا من اسبوعين ، إلى أن جاءت انباء اقتراب جيش فرنجي قادم من طرابلس . وأيًا ما كانت نوايا الكونت ريموند ، تسبب تحركه في أن يرفع زنكي الحصار عن حمص ويتحول إلى الفرنج . وبينما كان ريموند يتقهقر أمامه ، أخذ يتقدم لمحاصرة قلعة بعرين العظيمة الواقعة على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية ، والتي تتحكم في المدخل إلى البقاع، بينما أرسل ريموند إلى الملك فولك في القدس طالبا مساعدته.

وكان فولك قد تسلم لتوه نداءً عاجلا من أنطاكية ؛ لكنه لا يستطيع تجاهل التهديد الاسلامي لطرابلس . فأسرع شمالا مع كل ما استطاع جمعه من رجال كي يلحق بريموند . وانطلقا معا في مسيرة اضطرارية حول سفوح تلال النصيرية إلى مونت فرات . وكانت رحلة شاقة سرعان ما جعلت الجيش في حالة يرثى لها . وكان زنكي قد ابتعد باقترابهما ، لكنه عندما سمع بحالتهم عاد وأطبق عليهم من حولهم عندما كانوا خارجين من التلال بالقرب من القلعة . وبوغت الفرنج المرهقون . وحاربوا بشجاعة لكن المعركة سرعان ما انتهت ، تاركة أغلب الفرنج جثثا ملقاة في الميدان ، والآخرين في الأسر ، بمن فيهم كونت طرابلس ، بينما هرب فولك مع قلة من حرسه الشخصي إلى داخل القلعة(٢٦).

١١٣٧م : استسلام قلعة بعرين

بادر الملك فولك ، قبل أن يتمكن زنكي من محاصرة القلعة ، بارسال الرسل إلى بطريق القدس ، وكونت الرها ، وأمير أنطاكية ، متوسلا ارسال العون العاجل . واستجاب الثلاثة لندائه متجاهلين المخاطر الأخرى ، إذ أن وقوع الملك وكل فرسانه في الأسر قد يعني فعلا نهاية المملكة . فقام البطريق وليم بتجميع باقي المليشيات المتبقية في فلسطين وقادها - والصليب المقدس على رأسها - شمالا إلى طرابلس . وهبط جوسلين الرها من الشمال متناسيا همومه المحلية ، وانضم إليه في الطريق ريموند أمير انطاكية الذي اضطر إلى مغادرة عاصمته في هذه اللحظة على مضض . وكانت

---

(٢٦) William of Tyre, xıv, 25m oo,643-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 242-3 (أغفل ابن القلانيس بلباقة ذكر التحالف الدمشقي الفرنجي)؛ Kemal ad-Din, pp. 672-3; Ibn al-Athir, pp. 420

فلسطين حسنة الحظ جدا ، إذ لم يكن جيرانها فى مزاج عدوانى ، وقد تعرت من كل رجالها المحاربين . فكانت مصر مشلولة بثورة فى القصر أدت إلى الاستعاضة عن الوزير الأرمينى باهرام واستبداله بوزير آخر عنيف مناهض للمسيحيين هو رضوان بن الولخشي ، الذى كان مشغولا تماما بقتل اصدقاء سلفه والعراك مع الخليفة . وأغارت حامية عسقلان على ليديا، لا أكثر(٢٧) . وكان المملوك بزواج والي دمشق أكثر خطورة ، فما أن غادر البطريق مملكة القدس حتى سمح لنفسه بنهب البلاد فى طريقه جنوبا حتى مدينة نابلس المفتوحة فقتل سكانها ، لكنه بالنسبة لدمشق كان يخشى ما يترتب على تمتع زنكى بانتصار ساحق ، بحيث لم يكن يرغب فى الضغط على الفرنج إلى آخر المدى(٢٨).

وتجمعت قوات الاغاثة فى نهاية يولية فى البقاع ، بينما كان يأس الملك آخذا في التزايد فى قلعة بعرين ، إذ انقطعت عنه أخبار العالم الخارجى ، وأخذ تموينه يتناقص ، وزنكى يستخدم آلات المنجنيق العشر ليل نهار يرجم بها الحجارة فتدق أسوار القلعة . وأخيرا بعث فولك رسولا إلى زنكى يسأله عن شروطه . ولبهجته التى تخالطها الريبة ، طلب مجرد تسليم قلعة بعرين ، وبامكان الملك الانصراف مع كل رجاله فى حرية . وفضلا عن ذلك ، سوف يطلق سراح الفرسان البارزين المأسورين فى المعركة بمن فيهم كونت طرابلس وبدون أية فدية . فقبل فولك فى الحال . وحافظ زنكى على كلمته ، وحيئ بالملك فولك وحرسه الخاص أمام زنكى الذى عاملهم بكامل مظاهر التشريف ، وأهدى الملك رداءً فاخرا وسمح لهم باصطحاب اخدانهم ، وساروا فى طريقهم آمنين . وقابلوا جيش الإغاثة فى البقاع ، أقرب مما كانوا يظنون . واغتاظ البعض لاكتشافهم انهم لو صمدوا قليلا فربما أمكن انقاذهم ، على أن آخرين أكثر تعقلا أسعدهم أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب(٢٩).

والحقيقة أن ما كان عليه زنكى من رفق وأناة ما يفتأ يتسبب فى ذهول المؤرخين . لكن زنكى كان على دراية تامة بما يفعله . فليست بعرين بالجائزة الحقيرة ، وامتلاكها سيمنع الفرنج من التوغل فى وادى العاصى الأعلى . كما أنها فى موقع يتحكم تماما

---

(٢٧) William of Tyre, xɪv, 26 645-7.

(٢٨) *Idem*, xɪv, p. 647

(٢٩) William of Tyre, xɪv, 28-9, pp. 545-51; Ibn al-Qalanisi, *loc. cit.;* Kemai ad-Din, *loc. cit.;* Ibn al-Athir, pp. 421-3.

فى حماه وحمص الدمشقية ، والحصول عليها بلا مزيد من الحرب فيه الغَناء ، لأنه كان راغبا عن المحازفة بمعركة مع قوة الإغاثة الفرنجية على مثل هذا القرب القريب من تخوم دمشق التى لن يتردد حكامها فى انتهاز ما قد يعانيه من هزيمة . وفضلا عن ذلك كان زنكى ، كشأن أعدائه الفرنج ، يشعر بالقلق من الأنباء الآتية من الشمال.

الفصل الثالث:

مطالب الإمبراطور

مطالب الامبراطور

"لا يَتَّكِل عَلى السَّوء يَضِلّ لأنّ السّوء يَكونُ أُجْرَتَهُ"

(أيوب ١٥ : ٣١)

أما الأنباء التى تسببت فى رتق سلام بين الفرنج والأرمن ، والتى جعلت الأمير ريموند يشعر كارها لمغادرة أنطاكية ، والتى دفعت زنكى إلى اظهار الرحمة لأعدائه ، فهى أنباء تحرك جيش ضخم فى داخل كيليكيا يقوده الامبراطور جون كومنينوس بشخصه . فمنذ أن فشل الامبراطور الكسيوس فى الحضور إلى انطاكية اثناء الحملة الصليبية الاولى ، اعتاد السياسيون في الشرق الفرنجى على تجاهل بيزنطة تجاهلا لا يخلو من تلطف ، وحتى مع فشل محاولة بوهمند غزو الامبراطورية من الغرب فشلا ذريعا ، فقد عجز ألكسيوس تماما عن ضمان تنفيذ شروط المعاهدة التى وقعها بوهمند . وكما يعلم فرنج أنطاكية جيدا ، كانت همومه الأقرب إلى وطنه هى التى صرفته عن ذلك .

واستمرت تلك الهموم لما يقرب من ثلاثين سنة ، نظرا للحروب المتقطعة المتشرة

في كل مكان من تخوم الامبراطورية ؛ فكانت هناك غزوات البولوفستيين[١] عبر الدانوب الأسفل ، كما حدث في عامي ١١١٤م و١١٢١م . وكان هناك التوتر المستمر مع الهنجاريين في الدانوب الأوسط ، الذى اندلع حربا صريحة عام ١١٢٨م ، ووصل الغزو الهنجارى لشبه جزيرة البلقان حتى صوفيا ، لكن الامبراطور دحر هذا الغزو وهزم الهنجاريين في أراضيهم. ودأبت المدن التجارية الإيطالية على الاغارة من حين لآخر على الإمبراطورية كى تنتزع مزايا تجارية ، فحصلت بيزا على معاهدة تفضيلية عام ١١١١م ، وأما البندقية ، فاستمرت الحرب بينها وبين بيزنطة أربع سنوات بعد أن رفض الامبراطور حنا تجديد الإمتيازات التى منحها أبوه ، وفى ١١٢٦م استردت بعد تلك الحرب كافة ما كان لها من حقوق . وكان نورمانديو جنوب إيطاليا، فى حالة من الجبن منذ هزيمة بوهمند فى دورازو (ديرهاكيوم) ، وأصبحوا مصدر خطر مرة اخرى عام ١١٢٧م عندما قام روجر الثانى الصقلى بضم إقليم أبوليا . ثم أن روجر الثانى ، الذى اتخذ لنفسه لقب ملك عام ١١٣٠م ، تلبسته كراهية عائلته لبيزنطة ، رغم ميوله إلى اقتباس أساليبها ورعاية فنونها.، لكن طموحاته كانت من الاتساع بحيث كان من اليسير دائما العثور على حلفاء لكبح طموحاته . فلم يكتف بالسعى للسيطرة على ايطاليا وحسب ، وانما كان يطالب بانطاكية باعتباره الممثل الوحيد الباقي على قيد الحياة من ذكور بيت هوتفيل ، بل والقدس نفسها استنادا إلى المعاهدة التى ابرمتها امه أديلايدى مع بلدون الأول[٢].

الأيام الأخيرة من حكم ألكسيوس الأول

ولم يكن هناك سلام فى آسيا الصغرى . وخلال الحملة الصليبية الأولى وبعدها عزز ألكسيوس قبضته على الثلث الغربى من شبه الجزيرة وعلى السواحل الشمالية والجنوبية ، ولو أنه تعامل مع الأمراء الأتراك فقط لاستطاع الاحتفاظ بأملاكه سليمة ، لكن جماعات من التركمان دأبت على التسلل داخل البلاد بحيث تضاعفت أعدادهم

---

(١) (المترجم) : البولوفستيون Polovstians بالروسية أو الكومان Kuman بالبيزنطية أو الكيشاك Kipchak : اتحاد قبائلى احتل مناطق شاسعة من السهول الآسيوية الأوروبية ، من شمال بحر الآرال وحتى شمال البحر الأسود.

(٢) عن روجر الثانى انظر Chalandon, *Domination Normande en Italie,* II, pp. 1-51. وقام Basil of Edessa اليعقوبى بعمل وصف تخطيطى عن الغزو البولوفتسى عام ١١٢١م ، وقد أفاد منه ميخائيل السورى Michael the Syrian (III, p. 207) .

وقطعانهم ، وكان حتما أن يتدفقوا فى الوديان الساحلية سعيا وراء مناخ ألطف ومراع أكثر ، ومن ثم، كان لابد من انهيار الحياة الزراعية المستقرة للمسيحيين . وفى واقع الأمر ، كلما كان ضعف الأمراء يزداد كلما زاد رعاياهم البدو ضراوة وخطورة على الامبراطورية(٣).

وفى الوقت الذى مات فيه ألكسيوس عام ١١١٨م، كانت الأناضول التركية مقسمة بين السلطان السلجوقى مسعود ، الذى كان يحكم من قونية الجزء الجنوبى من وسط شبه الجزيرة ، من نهر صنغارى إلى جبال طوروس ، والأمير الدانشمندى غازى الثانى، الذى كانت أراضيه ممتدة من نهر هاليس إلى نهر الفرات . وقد ابتلعا ما بينهما من الامارات الأصغر ، باستثناء ملطية فى الشرق حيث كان اخو مسعود الأصغر ، طغرل، يحكم تحت وصاية امه وزوجها الثانى ، بلك الأرتقى . وعلى الرغم مما احرزه البيزنطيون من انتصار فى فيلوميليوم عام ١١١٥م ، وما اعقب ذلك من محاولة رسم الحدود ، استعاد الأتراك فى السنوات التالية لاوديكيا الفريجيّة وتوغلوا داخل وادى نهر الميانلر وقطعوا الطريق الذاهب إلى أضاليا . وفى الوقت ذاته كان الدانشمند يشدد هجماتهم باتجاه الغرب داخل بافلاجونيا . وكان الامبراطور الكسيوس يخطط لحملة يسترد بها مناطق الحدود الأناضولية عندما عرض له مرضه الأخير(٤).

١١١٨م : ولاية عهد جون كومنينوس

جلبت ولاية عهد الامبراطور جون قوة جديدة لبيزنطة . وكان جون ، الذى يطلق عليه رعاياه (كالويوانيس) ، أى جون الطيب ، واحدا من تلك الشخصيات النادرة التى لا يجد فيها أى مؤرخ من معاصريه ما يعيبها ، باستثناء مؤرخ واحد، هو أخته المؤرخة أنّا كومنينا التى كانت أكبر أولاد الكسيوس . وكانت فى طفولتها قد خطبت إلى ولى العهد الامبراطورى الصغير كونسطنطين دوكاس ، الذى حدث وأن وعده الكسيوس باستخلافه امبراطورا . على أن موته المبكر ، بعد مولد أخيها مباشرة ، كان بمثابة ضربة

(٣) يرد موجز جيد حول مسار وأثر الغزوات التركمانية فى حرب المسلم والمسيحى لامتلاك آسيا الصغرى 'Ramsay, War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the* Eastern Provinves of *the* Roman Empire, pp. 295-8.

(٤) Anna Comnena, xv, i, 6-vi, 10, pp.187-213; Chalandon, *Règne d'Alexius I Comnène*, pp. 26871

قاسية لطموحاتها ، ودأبت فيما بعد ساعية لاصلاح ما ألحقته بها العناية الالهية من ظلم، بمحاولة اقناع والدها ، وبموافقة أمها ، بان يترك العرش الامبراطورى لزوجها القيصر نيسفورروس برينيوس ، حتى عندما كان الامبراطور راقدا فى فراش الموت ، بين زوجته وابنته تمرّضانه بغاية جهدهما ، ودأبت المرأتان أثناء تمريضه على المطالبة بعدم توريث حون . لكن الكسيوس قرر أن يخلفه ابنه . وعندما دخل عليه ابنه حون لتوديعه ، ناوله الرحل المحتضر خاتمه الامبراطورى فى هدوء ، وأسرع حون لاغلاق بوابات القصر ، فأفادته السرعة ، اذ هتف به الجيش ومجلس الشيوخ (السّينيت) امبراطورا حاكما فى الحال ، وأسرع البطريق إلى تأييد قرارهما باقامة حفل تتويجه فى كنيسة القديسة صوفيا . وهكذا غلبت الحيلة والدهاء أنّا وامها الامبراطورة . على أن حون كان يخشى من أن يحاول أشياعهما الاعتداء على حياته ، حتى انه رفض حضور حنازة أبيه بعدما توفرت له معلومات قوية بوحود مخطط لاغتياله فى هذه المناسبة . وبعد أيام قليلة دبرت أنّا مؤامرة للتخلص منه أثناء وحوده فى قصر الضاحية الهادئة فيلوباتيوم . غير أن المؤامرة كان بها نقطة ضعف خطيرة ؛إذ أن ترتيبها كان يقضي بتتويج نيسفورروس برينيوس ، ولكنه لم يكن راغبا فى العرش ، وربما كان هو الذى انذر الامبراطور . وعاقب حون المتآمرين برفق شديد ، وربما لم تكن الامبراطورة الأم على علم بالمؤامرة ، لكنها مع ذلك تقاعدت فى أحد الأديرة. وصودرت ممتلكات أبرز المؤيدين لأنّا ، لكن الكثير منهم استعادها فيما بعد . وحُرمت أنّا نفسها من ممتلكاتها لفترة ، ثم عاشت منذ آنذاك فى عزلة تامة . ولم يعاقَب نيسفورس الذي امتهن مع زوجته مهنة التأريخ ذات التبعات الأقل، عزاءً لهما عن ضياع التاج[٥].

وأصبح حون آمنا الآن . وكان فى الثلاثين من عمره رحلا نحيفا صغيرا داكن الشعر والعينين والبشرة خاصة . وكان صارما فى معالجة للأمور ، فلم يكن يشارك أغلب أفراد اسرته ما كانت تسعد به من مناقشات أدبية ودينية . فهو فوق كل شئ حندى ، يشعر بالسعادة فى الحملات أكثر مما يشعر بها فى القصر . على انه كان إداريا دقيقا ومقتدرا ، وبرغم قسوته على نفسه كان كريما مع أصدقائه ومع الفقراء وعلى استعداد أن يظهر فى أبهة حافلة إذا دعت الحاجة. وكان حنونا حليما مع اسرته ومخلصا لزوجته ، الأميرة الهنجارية بيريسكا ، ثم سُميت اسما مسيحيا إيرين ، غير أن تأثيرها عليه كان ضئيلا برغم مشاركتها له فى صرامته وأوجه احسانه . وكان صديقه

---

(٥) Anna Comnena, xv, xi, 1-23, pp. 229-42; Zonaras,III, p. 759، (رواية زوناراس أقل تحيزا)؛ أنظر Chalandon, *op.cit.* pp.273-6, and *Les Comnènes*, pp. 1'8 .

الحميم الوحيد هو كبير خدمه ، وهو تركي يدعى آكسوخ الذي أسر وهو صبي عند الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧م ونشأ في القصر . وكان تصور جون لدوره الإمبراطوري تصورا رفيعا، وقد ترك له أبوه أسطولا قويا وجيشا مؤلفا من خليط من الأجناس لكنه كان جيد التنظيم والتجهيز ، كما ترك له خزانة فيها ما يكفي لتدبر سياسة نشطة . ولم يكن يرغب في الحفاظ على حدود الامبراطورية وحسب، وانما يسترجع كذلك حدودها القديمة، ويحيل المطالب الامبراطورية في شمال سوريا إلى واقع(٦).

وبدأ جون حملته الأولى ضد الأتراك في ربيع ١١١٩م . فهبط خلال فريجيا واستعاد لاوديشيا . واضطر للعودة إلى القسطنطينية لدواعي عاجلة ، لكنه عاد بعد شهر ليستولى على سوزوبوليس ويعيد فتح الطريق إلى أضاليا . وبينما كان يهاجم السلاجقة بنفسه في الغرب ، كان قد جهّز لمهاجمة الدانشمند في الشرق . وقد استغل كونسطنطين جابراس ، دوق طرابزون ، شجارا بين الأمير غازي وزوج ابنته الأمير التركي ابن مَنجو الذى اتخذ في طارناغى بأرمينيا مقرا له ، فهب لمساعدة الاخير . لكن غازي ومعه حليفه طغرل أمير ملطية هزماه واخذاه أسيرا ، فاضطر إلى دفع ثلاثين الف دينار ليفتدى نفسه . وحدث خلاف بين غازي وطغرل في ذلك الوقت حال دون أن يتابع الترك انتصارهم(٧).

١١٣٧م : جون يعد العدة لغزو سوريا

لم يتمكن جون من التدخل في الأناضول في السنوات القليلة التي تلت ، إذ شهدت تلك السنوات تعاظم قوة الدانشمند ينذر بالخطر . ففي سنة ١١٢٤م ، وعندما مات بلك الأرتقي زوج ام طغرل امير ملطية ، اثناء القتال في الجزيرة ، هاجم الامير غازي ملطية وضمها، الأمر الذي أبهج المسيحيين الوطنيين هناك إذ وجدوا حكمه يسيرا ومنصفا . ثم استدار غازي غربا وانتزع من البيزنطيين أنقرة وجنجرة وقسطمونية ووسع سلطانه جنوبا حتى ساحل البحر الأسود ، مما عزل كونسطنطين جابراس برا عن القسطنطينية فأعلن نفسه حاكما مستقلا في طرابزون . وفي ١١٢٩م ، وبعد موت

---

(٦) Chalandon, *op. cit.* pp.8-11, 19.

(٧) *Ibid*, pp. 35-48

الأمير الروبيني ثوروس ، تحول اهتمام غازى إلى الجنوب ، وفى العام التالى ، وبتحالفه مع الأرمن ، ذبح الأمير بوهمند الثانى امير انطاكية على ضفاف نهر جيحان . ومهما كانت آراء حون حول انطاكية ، فانه لم يكن يرغب فى أن تنتقل إلى أمير مسلم قوى، فشن هجوما فوريا على بافلاجونيا مما حال بين غازى وبين متابعة انتصاراته . ولحسن الحظ كان سلاجقة الأناضول فى حالة من الضعف بسبب خلافات عائلية . ففى ١١٢٥م تمكن الأمير عرب من انتزاع عرش أخيه السلطان مسعود الذى هرب إلى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور بمظاهر التشريف . ثم ذهب بعد ذلك إلى زوج امه غازى الدانشمندى واستطاع بمساعدته ، وبعد اربع سنوات من الكفاح، من استعادة عرشه . ولاذ أخوه عرب بدوره إلى القسطنطينية حيث مات[٨].

وابتداء من ١١٣٠م إلى ١١٣٥م دأب حون على الخروج بحملة ضد الدانشمند كل سنة. وفى مرتين تتوقف الحملة بسبب مكائد من أخيه ، اسحق سيباستوكراتور، الذى هرب من البلاط ١١٣٠م وامضى السنوات التسع التالية فى التآمر مع شتى الأمراء المسلمين والأرمن . وفى ١١٣٤م عاد من الحروب لموت الامبراطورة المفاجئ . وفى سبتمبر ١١٣٤م ، عندما هدأ الموقف بموت الأمير غازى، تمكن من استعادة كل الأراضى التى فقدها باستثناء حنجرة التى استعادها فى العام التالى . وأما ابن غازى وخليفته ، محمد ، فقد ضايقته المشاحرات العائلية فلم يعد بوسعه معودة هجماته . وأما مسعود ، الذى حُرم من مساعدة الدانشمند ، فقد توصل إلى اتفاق مع الامبراطور[٩].

وتملك الخوف أتراك الأناضول ، فغدا حون مهيّأ للتدخل فى سوريا . بيد أنه من الضروري أن يحمي ظهره اولا . ولذا وصلت سفارة بيزنطية فى عام ١١٣٥م إلى المانيا فى بلاط الامبراطور الغربى لوثير ، وعرضت عليه نيابة عن حون معونات مالية ضخمة مقابل الهجوم على روجر الصقلى . وتواصلت المفاوضات عدة أشهر إلى أن وافق لوثير على مهاجمة روجر فى ربيع عام ١١٣٧م[١٠] وهُزم الهنجاريون عام ١١٢٨م ، وزحفت حملة عام ١١٢٩م إلى الصرب فأخضعتهم . وبذا تحقق الأمان للدفاع على

---

(٨) -Chalandon,pp. 77-91; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, III, pp. 223 .4, 227,237.

(٩) Cinnamus, pp.14-15; Nicetas Choniates, pp.27-9; Michael the Syrian, III, pp. 237-49.

(١٠) .Peter Diaconus, in *M.G.H.Ss.* vol.VII, p. 833.

الدانوب الأسفل[١١] وأدت معاهدة أبرمت فى ١١٢٦م إلى عزل أبناء بيزا عن حلفائهم النورمانديون ، وأمسى الامبراطور الآن على علاقة طيبة بكل من البندقية وجنوا[١٢].

وفى ربيع عام ١١٣٧م ، تجمع الجيش الامبراطورى وعلى رأسه الامبراطور وأبناؤه فى أضاليا وتقدم شرقا داخل كيليكيا ، وكان الاسطول الامبراطورى يحرس ميمنته، فبوغت الأرمن بأنباء اقترابه كما بوغت الفرنج بنفس القدر. وحاول ليو الروبينى ، وهو الآن سيد سهل كيليكيا الشرقى ، أن يوقف تقدمه بمحاولة الاستيلاء على القلعة الحدودية البيزنطية سيلوقية ، لكنه أجبر على التقهقر . واكتسح الامبراطور مرسين ، وطرسوس ، وأذنه ، والمصيصة ، والتى استسلمت له كلها فى الحال . وفى عين زربة، اعتمد الامير الارمينى على تحصيناتها الهائلة فى صده ، وقاومت حاميتها طوال سبعة وثلاثين يوما ، غير أن آلات الحصار التى كانت فى حوزة البيزنطيين سحقت أسوارها، واضطرت المدينة إلى التسليم ، وانسحب ليو داخل جبال طوروس العالية ، ولم يعبأ الامبراطور بمطاردته آنذاك . وبعد أن طهر عدة حصون ارمينية فى الجوار من حامياتها ، قاد قواته جنوبا مرورا بإسوس والإسكندرونة ، والبوابات السورية إلى داخل سهل انطاكية . وفى ١٩ أغسطس ظهر أمام أسوار المدينة وضرب معسكره على الضفة الشمالية لنهر العاصى (الأرند)[١٣].

وكانت انطاكية بغير أميرها ، إذ ذهب ريموند (اوف بواتييه) لإنقاذ الملك فولك من بعرين وكان معه جوسلين امير الرها . ووصلا البقاع ليجدا الملك قد نجا من القلعة. وانتوى فولك الذهاب بنفسه إلى أنطاكية لمقابلة البيزنطيين ، لكنه فضل العودة إلى القدس بعد التجارب التى مر بها مؤخرا . وسارع ريموند بالعودة إلى انطاكية ليجد الامبراطور قد بدأ حصاره للمدينة ، ولكن الحصار لم يكن مستكملا بعد ، فتمكن من أن يتسلل داخلا مع حرسه الشخصى من خلال البوابة الحديدية تحت القلعة.

---

(١١) Chalandon, *op.cit.* pp. 59-63, 70-1.

(١٢) *Ibid.* pp.158-61

(١٣) Cinnamus, pp. 16-18; Nicetas Choniates, pp. 29-35; William of Tyre, XIV, 24, pp. 341-2; Matthew of Edessa, ccliv, p.323; Sembat the Constable, pp. 616-17; Gregory -the Priest, pp. 152-3; Michael the Syrian, III, p. 45; Ibn al-Athir, p. 424; Ibn al Qalanisi, pp.2401 (فى صفحة ٢٤٠، ملحوظة ٢، يورد الناشر قراءة مغايرة فى Kiyalyani, i.e. Kaloioannes الى Imanyal, Emmanuel. غير انه جون هو الذى يتحدث عنه المؤرخ).

١١٣٧م : ريموند يقدم فروض الولاء للإمبراطور

ظلت الآلات البيزنطية تدق التحصينات عدة ايـام . ولم يكـن فـى مـأمول ريمونـد الحصول على مساعدة من الخارج ، ولم يكن واثقا من مشاعر السكان داخل الأسوار ، وقد بدأ الكثير من الناس ، حتى من باروناته هو نفسـه، يدركـون الحكمـة مـن سياسـة أليس العنيدة . ولم يمض وقت طويل حتى بـادر ريمونـد بارسـال رسـالة إلى الامـبراطور يعرض عليه الاعتراف بسيادته مقـابل الاحتفـاظ بالإمـارة باعتبـاره مندوبـا امبراطوريـا، وكان رد حون هـو الاستسـلام بـلا قيـد أو شـرط ، وعندئـذ أخـبره ريمونـد بـأن عليـه استشارة الملك فولك ، وأرسلـت الرسـائل بغايـة السرعـة إلى القـدس . علـى أن رد فولـك كـان عقيما ، إذ قـال الملـك : "نعلـم جميـعا ، وقد دأب كبراؤنا من قديم علـى تعليمنا ، أن أنطاكية كانت حزءا من امبراطورية القسطنطينية إلى أن اخذها الأتراك مـن الامـبراطور واحتفظـوا بهـا أربـع عشـرة سنة ، وأن مطـالب الامـبراطور الـواردة فـى المعاهـدات المبرمـة مـع أسلافنا صحيحـة . أفينبغى لنا إذن إنكار الحقيقة والتنكر لما هـو صحيح؟" ولم يكن بوسع ريموند أن يتردد أكثر من ذلك ، بعدمـا عـرض عليـه الملـك ، سيده الأعلى ، هذه النصيحــة . ووجـد مبعوثـوه أن الامـبراطور علـى استعداد لتقديـم تنازلات . وتقرر أن يأتى ريموند إلى معسكره ويقسم كامل قسم الولاء له ، وأن يصبح رحلا من رحاله ويمكنه من دخول المدينة والقلعة . وفضلا عن ذلك ، وفى حالة تعـاون الفرنج مع البيزنطيين فى الاستيلاء على حلـب ومـا حاورهـا مـن المـدن ، يعيـد ريمونـد انطاكية إلى الامبراطورية ويأخذ بدلا منها امارة تتألف من حلب وشيزر وحماه وحمص. وأذعن ريموند . وركع أمام الامبراطور وقدم له فروض الولاء والطاعة. ولم يصـر حـون عندئذ على دخول انطاكية ، لكن الراية الامبراطورية رفرفت فوق القلعة(١٤).

وقد أظهرت المفاوضات موقف الفرنج المضطـرب إزاء الامـبراطور . وربمـا كـانت احتياجات اللحظة العاجلة هى التى أملت الرد الذى كتبه فولك ، الذى كان يعلم تمامـا أن زنكى هو العدو الأكبر للمملكـة الفرنجية ، وليس بوسـع الملـك الإسـاءة إلى القـوة المسيحية الوحيدة القادرة على صد المسـلمين ، وربمـا مارسـت الملكـة ميليسـند نفوذهـا لصالح سياسة من شأنها أن تبرئ اختها أليس وتلحق الخزى بالرحـل الـذى خدعهـا . على أن هذا الرأى الذى كتبه فولك ربما كان هو الرأى الذى ارتآه محاموه . وبرغم كل

---

(١٤) William of Tyre, XIV, 30, pp. 651-3; Orderic Vitalis, XIII, 34, pp. 99-100; Cinnamus, pp. 18-19; Nicetas Choniates, pp.36-7

ما أتاه بوهيموند الأول من دعاية ، كان رأى الصليبيين الأكثر ارتيابا أن المعاهدة المعقودة بين ألكسيوس وآبائهم فى القسطنطينية ما تزال صالحة ، وان انطاكية كان ينبغى أن تعود إلى الامبراطورية ، وان حنث بوهمند وتنكريد بما أقسماه من قسم إنما هو تفريط لأية مزاعم قد يزعمونها . وكان ذلك رأيا امبراطوريا أكثر تطرفا مما كان يراه الامبراطور نفسه . والحكومة الامبراطورية تتصف بأنها دائما واقعية ، وقد رأت أن طرد الفرنج من انطاكية دون تقديم تعويض أمر غير عملى ويخلو من الحكمة . وفضلا عن ذلك ، كانت تود تحديد التخوم مع الدويلات التابعة بحيث يسيطر الامبراطور على سياستها العامة وفى نفس الوقت تتحمل تلك الدويلات صدمات هجوم الأعداء . ولذلك لم يرتكز موقف الامبراطور على معاهدة القسطنطينية ، وإنما على المعاهدة الموقعة مع بوهمند فى ديفول . إذ طلب استسلام انطاكية غير المشروط باعتبار ذلك استسلاما من تابع متمرد ، غير انه كان على استعداد لأن يترك انطاكية تستمر كدويلة تابعة . ومطلبه العاجل هو أن تتعاون معه فى حملاته ضد المسلمين[١٥] .

بات الوقت متأخرا هذا العام للقيام بحملة ولذا عاد حون ، إلى كيليكا ليستكمل غزوها ، بعد أن رسخ سلطته . وهرب امامه الأمراء الروبيون إلى داخل جبال طوروس العالية ، ولاذ ثلاثة من أبناء ليو وهم مليخ ، وستيفن ، وقنسطنطين الضرير ، بابن عمتهم جوسلين أمير الرها . وصمدت فاهكا التى تعد بمثابة قلعة الأسرة لبضع اسابيع بقيادة قائدها المقدام قنسطنطين الذى كان لنزاله مع ضابط من الكتيبة المقدونية يدعى ، إيوستراتيوس ، أبلغ الأثر في الجيش الامبراطورى كله . وبعد سقوط فاهكا مباشرة ألقى القبض على ليو وولديه الكبيرين روبين وثوروس ، وأرسلوا إلى السجن فى القسطنطينية حيث أعدم روبين لتوه ، لكن ليو وثوروس فازا بالرأفة من الامبراطور الذي سمح لهما بالعيش تحت المراقبة فى البلاط. ومات ليو هناك بعد أربع سنوات ، وانتهى أمر ثوروس بفراره وعودته إلى كيليكيا. وبعدما استكمل حون غزو المنطقة ، ذهب إلى منتجع شتوى فى السهل الكيليكى حيث جاءه بلدوين حاكم مرعش ليقدم له فروض الولاء ويلتمس حمايته من الاتراك. وفى الوقت ذاته، أرسلت سفارة امبراطورية إلى زنكى كي يتولد لديه الانطباع بأن البيزنطيين غير راغبين فى الشروع فى مغامرة عدوانية.

---

(١٥) أنظر Chalandon, *op. cit.* pp. 122-7, 130-3

١١٣٨م : المسيحيون يحاصرون شيزر

وفى فبراير التالى ، وبأوامر من الامبراطور ، اعتقلت سلطات أنطاكية فجأة كل التجار والمسافرين من حلب والمدن الاسلامية المجاورة ، كى لا ينقلوا فى أوطانهم ما شاهدوه من استعدادات عسكرية . وفى أواخر مارس تحرك الجيش الامبراطورى إلى انطاكية حيث انضم إليه جنود أمير انطاكية وكونت الرها وكذلك كتيبة من فرسان المعبد. وفى أول ابريل عبر الحلفاء إلى اراضى الأعداء واحتلوا مدينة بلاط. وفى الثالث من الشهر ظهروا أمام البزاعة التى صمدت لخمسة أيام بقيادة زوجة القائد . وانقضى اسبوع آخر فى جمع الجنود المسلمين فى المنطقة وقد لاذ اغلبهم بمغارات الباب حيث اجبرهم البيزنطيون على الخروج ببث الأدخنة فى المغارات . وكان زنكى مع جيشه أمام حماه يحاول أن يخرج منها الحامية الدمشقية عندما اخبره الكشافون بالغزوات المسيحية . فسارع بارسال الجنود بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب . وكان حون يمنى نفسه بمباغتة حلب ، لكنه عندما وصل امام اسوارها يوم ٢٠ ابريل وشن عليها هجوما، وجدها فى حالة دفاع قوى ، فقرر عدم المضى مع أثقال الحصار واستدار جنوبا . وفى ٢٢ ابريل احتل أتارب ، وفى ٢٥ معرة النعمان ، وفى ٢٧ كفرطاب . وفى يوم ٢٨ كان جيشه أمام بوابات شيزر.

كان صاحب شيزر هو الأمير المنقذى أبو العساكر سلطان ، الذى تدبر استقلاله عن زنكى . ولذا ربما كان حون يأمل في أن يصرف زنكى اهتمامه عن مصير حلب . غير أن امتلاكها سوف يتيح للمسيحيين السيطرة على أواسط العاصى وسوف يعوق زنكى عن مزيد من التقدم فى سوريا . وشدد البيزنطيون الحصار ، وسرعان ما احتلوا جزءا أسفل المدينة ، وأحضر الامبراطور ما لديه من راجمات الحجارة الضخمة لرجم أعلى المدينة فى التل شديد الانحدار المطل على نهر العاصى . وتروى المصادر اللاتينية والاسلامية على السواء ما بدا من شخص الامبراطور من شجاعة ونشاط ، وكفاءة الرجم كذلك ، فقد بدا كما لو كان فى كل مكان فى ذات الوقت فى خوذته الذهبية، يتفقد الآلات ، ويشجع المهاجمين، ويواسى الجرحى . وشاهد أسامة ابن اخي الامير ما أحدثته المنجنيقات اليونانية من دمار مرعب إذ كانت القذيفة الواحدة منها تدمر بيوتا بكاملها ، بينما انسحقت السارية الحديدية التى تحمل علم الامير ، وهوت إلى اسفل فنفذت فى بدن رجل كان فى الشارع فقتلته . على انه بينما دأب الامبراطور ومهندسوه على العمل بلا كلل ، تخلف الفرنج . إذ كان ريموند يخشى الإقامة في شيزر حال الاستيلاء عليها وهي فى خط المواجهة للعالم المسيحى، تاركا أسباب الراحة فى

أنطاكية ، بينما لم يكن جوسلين ، الذى كان يحمل الكراهية لريموند ، يود أن يراه وقد وطّد نفسه فى شيزر وربما فى حلب لاحقا ، ولذا كان لحماسته أثرها فى تشجيع ما يحمله ريموند من تراخ طبيعي ومن عدم ثقة فى البيزنطيين . وبدلا من أن يشترك الأميران فى القتال ، أمضيا أيامهما فى خيمتيهما يلعبان النرد . و لم يكن لتوبيخات الامبراطور من أثر سوى أن دفعتهما دفعا إلى بعض النشاط الخامل لفترة وجيزة . وفى ذات الوقت رفع زنكى حصاره عن حماه وتقدم باتجاه شيزر . وكان مبعوثوه قد أسرعوا إلى بغداد ، حيث كان السلطان عازفا عن تقديم المساعدة أول الأمر ، إلى أن اندلعت اعمال شغب صارخة بالجهاد ، مما اضطره إلى ارسال حملة . ووعد الأمير داود الأرتقى بجيش قوامه خمسين ألفا من التركمان من الجزيرة . كما أرسلت رسائل إلى الأمير الدانشمندى بطلب شن هجوم في الأناضول . وفضلا عن أن زنكى كان مدركا تماما لما يسود البيزنطيين والفرنج من شقاق ، راح عملاؤه فى الجيش المسيحى ينفثون ما يكنه الأمراء اللاتين من ازدراء للإمبراطور.

١١٣٨م : دخول جون أنطاكية

على الرغم من كل مابذله جون من قوة ، فإن صخور شيزر ، وشجاعة المدافعين عنها ، وبلادة الفرنج ، اجتمعت كلها وهزمته . واقترح عليه بعض حلفائه الخروج لملاقاة زنكى خاصة وان جيشه اصغر من جيش المسيحيين، لكنه لم يشأ أن يترك آلات الحصار دون حراسة ، ولا أن يثق بالفرنج الآن . لقد كانت المجازفة فائقة الضخامة . وتدبر أمره واحتل جزء المدينة الاسفل كله ، وفى حوالى ٢٠ مايو أرسل إليه امير شيزر يعرض دفع تعويض ضخم واهدائه أجود خيوله وأردية حريرية وأنفس كنزين لديه : منضدة مرصعة بالجواهر ، وصليب بفصوص اليواقيت سبق وأن أخذ من الامبراطور رومانوس ديوجينيس فى منزكيرت قبل سبع وثلاثين سنة، فضلا عن قبوله الاعتراف بالامبراطور سيده الأعلى ودفع جباية سنوية له . فما كان من جون ، الذى كان يشعر بالغثيان من حلفائه اللاتين ، إلا أن قبل الشروط ، فرفع الحصار فى ٢١ مايو . وبينما كان الجيش الامبراطورى العظيم يتحرك عائدا إلى انطاكية ، جاء زنكى إلى شيزر. وبعد عدة مناوشات قليلة ضئيلة الخطر لم يشأ أن يجازف بمطاردة الانسحاب البيزنطى(١٦).

---

(١٦) William of Tyre, xv, 1-2, pp.655-8; Cinnamus, pp.19-20; Nicetas Choniates, pp. 37-

وصل حون بجيشه إلى أنطاكية وأصر على دخول المدينة في موكب حافل، فتقدم على صهوة حواده وسار على حانبيه أمير أنطاكية وكونت الرها على الأقدام كما لو كانا سائسين لفرسه . وقابله عند البوابه البطريق وكل رحال الدين ومشوا بين يديه خلال الشوارع المزدانة بأعلام الزينة الملونة حتى الكتدرائية حيث اقيم قداس وقور ، ومنها إلى القصر حيث اتخذ مكان اقامتـه . واستدعى ريموند ، وألمح أن الأمير فشل مؤخرا فى واحباته كتابع ثم طلب أن يدخل الجيش المدينة ويتسلم القلعة ، إذ أن الحملات المقبلة ضد المسلمين يتعين التخطيط لها فى انطاكية ، وهو فى حاحة إلى القلعة لتخزين ما لديه من أموال ومواد الحرب . وارتاع الفرنج . والتمس ريموند بعض الوقت للنظر فى هذا الطلب بينما انسل حوسلين خارحا من القصر . وما أن خرج من القصر حتى طلب من حنوده نشر شائعة بين السكان اللاتين فى المدينة بأن الامبراطور يطلب طردهم في الحال ، وحثّهم على مهاجمة السكان اليونانيين . ولدى تفجّر أعمال الشغب اندفع عائدا إلى القصر ، صائحا بالإمبراطور أنه حاء مجازفا بحياته ليحذره من الخطر المحدق به . ويقينا كانت هناك ضجة وهرج فى الشوارع ، وكان اليونانيون الغافلون يقتّلون . ولا أحد يعلم في الشرق أين ينتهي الشغب . ولم يكن حون يحب المعاناة لليونانيون فى المدينة ولا أن تغلق عليه ابواب القصر مع حرسه الخاص فقط، وقد انقطع الاتصال بجيشه البعيد على ضفاف نهر العاصى . فضلا عن انه علم أن سلاجقة الاناضول قاموا بغزو كيليكيا وأغاروا على أذنة، بفضل دبلوماسية زنكى. ولم ينخدع بحيلة حوسلين ، لكنه قبل أن يخاطر بعداوة صريحة مع اللاتين لابد وان يؤمّن تماما خطوط مواصلاته، فأرسل إلى ريموند وحوسلين قائلا إنه فى الوقت الراهن لا يطلب اكثر من تجديد قسم التبعية وانه لابد من أن يرحع إلى القسطنطينية . وغادر القصر عائدا إلى حيشه ، وعلى الفور هدأت اعمال الشغب بأوامر من الأميرين . غير انهما كانا ما يزالان فى حالة من التوتر وفى تلهف كبير لاسترداد حسن نوايا الامبراطور ، حتى أن ريموند عرض تواحد موظفين امبراطوريين فى المدينة وهو يظن – صوابا – أن حون لن يقبل بهذا العرض الذى يخلو من الاخلاص . وبعد وقت قصير ودع حون كلا من ريموند وحوسلين بمظهر خارحى يحمل الصداقة وكامل الريبة المتبادلة . ثم قاد حيشه

وترحى 41; Michael the Syrian, *loc.cit.;* Usama, ed. Hitti, pp.26, 124,143-4; Ibn al-Qalanisi, pp.248-52; Kemal ad-Din, pp. 674-8; Ibn al-Athir, pp.426-8 قصيدة التهنئة التى وحهها Prodomus الى الامبراطور بأن الجو هو الذى انقذ شيزر (M.P.G. vol. CXXXIII, cols. 1344-9).

عائدا إلى كيليكيا(١٧).

١١٣٩م : جون فى الأناضول

والجدير بالملاحظة عدم التعرض للكنيسة طوال مفاوضات حون حول انطاكية . وكانت سلطات الكنيسة اللاتينية تخشى أن يصر الامبراطور على تنفيذ البند الوارد فى معاهدة ديفول بأن تعود البطرباركية إلى الحظيرة الاغريقية . ذلك انه فى مارس ١١٣٨م، أصدر البابا إينوسنت الثانى أمرا يحظر على أى عضو فى كنيسته البقاء مع الجيش البيزنطي فى حالة إقدام هذا الجيش على أى عمل مضاد للسلطات اللاتينية فى انطاكية وليس هناك أدنى شك في أن البابا أصدر هذا الأمر استجابة لطلب أنطاكية . ولا بد وأن حون كان عازفا عن اثارة أية مشكلة دينية إلى أن ترسخ أقدامه على أرض صلبة سياسيا واستراتيجيا ، ولو أنه استطاع تقديم إمارة اخرى بدلا من انطاكية إلى ريموند ، لتمكن من إعادة بطريق يونانى إلى المدينة . لكنه فى الوقت ذاته ، وعلى الملأ، كان متسامحا إزاء الوحود اللاتينى عندما كان فى موكبه الوقور داخلا المدينة إذ حاء رادولف (اوف دومفرنت) وحياه وسار بين يديه إلى القداس الذى تم فى الكتدرائية(١٨).

وعاد حون متباطئا إلى القسطنطينية بعد أن ارسل قسما من حيشه لمعاقبة مسعود السلجوقى على غارته فى كيليكيا، فطلب مسعود السلام ودفع تعويضا . وخلال عامي ١١٣٩م و١١٤٠م انشغل الامبراطور مع الامير الدانشمندى الذى كان عدوا أخطر بكثير من السلاحقة . إذ لم يكتف محمد بغزو كيليكيا العليا عام ١١٣٩م والاستيلاء علىقلعة فاهكا ، وإنما قاد أيضا حملة باتجاه الغرب توغلت حتى نهر صنغاري . وبتحالفه مع قسطنطين جابراس ، دوق طرابزون المتمرد ، تمكن من حراسة جانبه الشمالى . وخلال صيف ١١٣٩م أفلح حون فى دحر الدانشمند خارج بيثينيا وبافلاجونيا ، وفى الخريف سار شرقا بمحاذاة ساحل البحر الأسود . واستسلم

---

(١٧) William of Tyre, xv,3-5,pp.658-65; al-Azimi (p.352) is the only other chronicler to mention the plot.

(١٨) William of Tyre, xv,3,p.659. ولكن ابن القلانيسى يقول (ص ٢٤٥) ان حون طلب بطريقا يونانيا لأنطاكية . وربما اضطرب عليه الأمر بين مطالب حون والمطالب اللاحقة التى طالب بها مانويل . ويرد خطاب إينوسينت ، المؤرخ فى ٢٥ مارس ١١٣٨م فى *Cartulaire du Saint Sèpulcre*, ed. Rozière, p.86.

قسطنطين حابراس ، وتحول الجيش الامبراطورى إلى داخل البلاد لمحاصرة قلعة نقصار الدانشمندية . وكانت مهمة صعبة ، إذ وهبتها الطبيعة القوة والحماية الجيدة، وفي تلك البلاد الجبيلة الوعرة يصعب الحفاظ على خطوط المواصلات . وتأسى حون لخسارته الجسيمة في حنوده ، ولفرار ابن أخيه ، حون بن اخيه اسحق ، إلى صفوف الاعداء وتحوله إلى الاسلام وزواحه من ابنة مسعود . ويدعى السلاطين العثمانيون انهم من نسله . وفى خريف ١١٤٠م تخلى حون عن مواصلة الحملة وأعاد حيشه إلى القسطنطينية وفى نيته استئناف الحملة فى العام التالى . لكن االأمير محمد مات فى العام التالى ، وتوقفت القوة الدانشمندية عن نشاطها مؤقتا بما دار لديها من حرب أهلية اشتعلت بين الورثة ، ومن ثم يستطيع حون العودة إلى مشروعه الأكبر وأن يحول انتباهه مرة اخرى إلى سوريا(١٩).

وسرعان ما خسر في سوريا ما فازت بـه حملته ضد المسلمين عام ١١٣٧م ، إذ استعاد زنكى كفرطاب من الفرنج فى مايو ١١٣٧م ، ومعرة النعمان وبزاعة وأتارب فى الخريف . وفى السنوات الأربع التالية كان زنكى مشغولا تماما بمحاولته الاستيلاء على دمشق ، وقد فشل فرنج شمال سوريا الكسالى فى انتهاز فرصة الصعوبات التى يواجهها زنكى . وفى كل سنة يتبادل ريموند وسوار والي حلب الغارات فى أراضى بعضهما البعض ، ولكن لم تحدث معركة كبرى(٢٠) . وفازت كونتية الرها بسلام نسبى، نظرا للنزاعات المهلكة بين امراء المسلمين حول الحدود ، والتي وتفاقمت بموت محمد الدانشمندى . وكان الامبراطور حون يراقب الأحداث بعناية من القسطنطينية ، وبدا له بوضوح أن فرنج شمال سوريا لا قيمة لهم كجنود للعالم المسيحي.

١١٣٩م : خلع البطريق رادولف

ويرجع ما ظهر على ريموند من عدم المبالاة إلى نقص القوة العاملة من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى شجاره مع البطريق رادولف . ولم يكن فى نيته قط أن يحترم قسمه بطاعة البطريق فى كل شئ، وكانت عجرفة رادولف تثير ثائرته . وعثر على حلفاء فى بعض رجال الكنيسة الملحقين بالكتدرائية يتزعمهم رئيس الشمامسة ،

(١٩) Nicetas Choniates, pp. 44-9; Michael the Syrian, III, p. 248

(٢٠) Kemal ad-Din, pp. 681-5

لامبرت ، وكاهن يدعى أرنولف (اوف كلابريا) . وبتشجيع من ريموند ، رحلوا إلى روما فى اواخر عام ١١٣٧م للشكوى من انتخاب رادولف بطريقة غير كنسية ، وعند مرورهم فى اراضى الملك روجر الثانى ، استثاره أرنولف - المولود من بين رعاياه - ضد رادولف بأن أكد له أن رادولف قد ضمن لريموند عرش انطاكية ، وهو العرش الذى طالما كان روجر الثانى يشتهيه . واضطر رادولف إلى اللحاق بهم فى روما للدفاع عن نفسه ، وعندما وصل بدوره إلى جنوب ايطاليا اعتقله روجر . لكنه أوتى من سحر البديهة وإغواء اللسان ما جعله يفوز بالملك إلى جانبه بسرعة . وواصل الرحلة إلى روما حيث انتصر سحره مرة اخرى . ونضا عن نفسه طيلسانه الأسقفى ووضعه على مذبح القديس بطرس ، ثم استرده من البابا . وفى طريق عودته خلال ايطاليا لاستئناف مسؤوليات عرشه البطريارقى ، عامله الملك روجر معاملة ضيف الشرف ، لكنه عندما وصل انطاكية ، رفض أتباعه من رجال الدين - يؤازرهم ريموند - أن يحيوه التحية المألوفة وهى مقابلته عند بوابات المدينة . فتظاهر رادولف بمظهر الرجل الوديع المجروح ، وتقاعد سرا فى دير بالقرب من السويدية ، وبقى هناك إلى أن دعاه جوسلين امير الرها - الساعى دائما إلى إحراج ريموند - إلى زيارة رسمية لعاصمته ، حيث استقبل رئيس الأساقفة استقبال السيد الروحى الأعلى . وسرعان ما قرر ريموند أن الأسلم له شخصيا أن يعود البطريق إلى انطاكية ، ولما عاد لقى من التحية كل آيات التشريف التى يودها.

على أن ملف التحقيق أعيد فتحه من جديد فى روما نظرا لما اثاره ريموند من هياج واضطراب. وفى ربيع ١١٣٩م ، أرسل بطرس ، رئيس أساقفة ليون ، لينظر الحالة فى مكانها . وذهب بطرس الذى كان طاعنا فى السن لزيارة الأماكن المقدسة ، وأثناء رحلة العودة إلى الشمال مات فى عكا. وكان موته خزيا على اعداء رودولف ، وحتى أرنولف (اوف كلابريا) عرض خضوعه لرادولف الذى منعته غطرسته من قبول ذلك العرض ، فثارت ثائرة ارنولف وعاد إلى روما وحث البابا على ارسال مندوب آخر ، ألبيريك ، أسقف أوستيا . ووصل المندوب الجديد فى نوفمبر ١١٣٩م ، وعقد على الفور مجمعا كنسيا حضره كل مطارنة الشرق ، بمن فيهم بطريق القدس . وكان جليا أن تعاطف المجمع يميل إلى جانب الأمير ورجال الدين المعارضين ، وكان رئيس أساقفة أفاميا سيرلون يحاول الدفاع عن البطريق رادولف فطردوه من المجمع، ومن ثم رفض رادولف حضور جلسات المجمع المنعقدة في كتدرائية القديس بطرس، عندما طرد مؤيده الوحيد. وبعد رفضه الاستدعاء لثالث مرة ليدفع عن نفسه الاتهامات الموجهة إليه ،

أعلن المجمع خلعه . وانتخب المجمع مكانه آميرى (اوف ليموج) رئيس كهنة الكنيسة ، وهو رجل ضخم ، نشط، ويكاد يكون أميًا ، ومدين لأرنولف بأول درجات تقدمه ، لكنه كان حصيفا عندما أنشأ علاقة الصداقة مع ريموند . وبناء على قراره المكتوب ألقى ريموند البطريق السابق فى غيابة السجن . وفيما بعد هرب رادولف وذهب إلى روما حيث فاز مرة اخرى بتأييد البابا والكرادلة . لكنه قبل أن يتمكن من استغلال مساعدتهم لإعادة توطيد مكانته وافته المنيّة فى وقت ما من عام ١١٤٢م ، وحامت الشكوك حول السم. وضمنت تلك الحادثة التعاون المخلص من كنيسة انطاكية ، على أن ما كان يتصف به البطريق من معاملة جائرة ، ترك انطباعا قبيحا حتى بين رجال الدين الذين كانوا يكرهونه الكراهية كلها[٢١].

١١٤٢م : جون يعود إلى كيليكيا

وفى ربيع ١٤٢١م كان جون مهيأ للعودة إلى سوريا . وكما حدث عام ١١٣٦م ، احتاط لحماية ظهره بتحالف مع العاهل الالمانى ضد روجر الصقلى ، وزار سفراؤه بلاط كونراد الثالث ، خليفة لوثير ، لعمل الترتيبات الضرورية ولكى توضع اللمسات الأخيرة للصداقة بخاتم الزواج ، وعادوا عام ١١٤٢م ومعهم اخت زوجة الملك كونراد ، بيرثا (اوف سولزباخ) ، التى تقرر أن تصبح زوجة أصغر ابناء جون - مانويل تحت اسم إيرين . كما ضمن جون النوايا الحسنة للمدن البحرية الايطالية[٢٢]. وفى ربيع ١١٤٢م قاد جون وأبناؤه الجيش عبر الأناضول إلى أضاليا، وهو يدحر فى مسيرته السلاجقة ورعاياهم التركمان الذين كانوا يحاولون مرة اخرى شق طريقهم إلى فريجيا ، ويقوى الدفاعات الحدودية . وبينما كان الامبراطور منتظرا فى اضاليا ، اصابته مصيبة جسيمة . إذ أن أكبر أبنائه ألكسيوس ، المعيّن وريثا ، سقط مريضا ومات هناك . وتقرر أن يعهد إلى إبنيه الثانى والثالث - أندرونيكوس واسحق - بنقل الجثة بحرا إلى القسطنطينية ، وأثناء الرحلة مات أندرونيكوس هو الآخر[٢٣] . وبرغم هاتين

---

(٢١) William of Tyre, XIV, 10, pp. 619-20, XV, II-16, pp. 674-85. وهو مصدرنا الوحيد.

(٢٢) Chalandon, *op. cit.* pp.161-2, 171-2

(٢٣) Cinnamus, p. 24; Nicetas Choniates, pp. 23-4. بقول سيّناموس (Cinnamus ص ٢٣) إن جون كان ينوى توريث الامبراطورية لألكسيوس ، وأن يحصل مانويل ، أصغر ابنائه ، على امارة تتألف من أنطاكية و أضاليا وقبرص.

الفاحعتين، واصل حون زحفه شرقا معلنا أن الهدف هو كيليكيا العليا لاستعادة ما أخذه الدانشمند من قلاع ، إذ لم يرغب فى اثارة شكوك الفرنـج(٢٤) ، وشق الجيش طريقه الوعر خلال كيليكيا وعبر سلسلة حبال امانوس العليا المسماة حياورداغ، وفى منتصف سبتمبر ظهر فجأة أمام تل بشير ، العاصمة الثانية لجوسلين أمير الرها. وبوغت حوسلين فسارع إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للامبراطور وقدم له رهينة ، ابنته ايزابيلا . فاستدار حون واتجه نحو انطاكية ، وفى ٢٥ سبتمبر وصل إلى قلعة باحراس وهي قلعة فرسان المعبد العظيمة التى تتحكم فى الطريق من كيليكيا إلى انطاكية . ومن هناك ارسل إلى ريموند طالبا تسليم المدينة كلها له ، وكرر ما سبق أن عرضه من تقديم امارة حديدة للأمير من الغزوات المقبلة.

وانزعج ريموند . فيقينا عقد الامبراطور عزمه الآن على متابعة مطالبه والحصول عليها بالقوة ، ويبدو أن المسيحيين الوطنيين كانوا على استعداد لمساعدة البيزنطيين . وحاول الفرنج كسب الوقت . فرد ريموند بأنه لابد وأن يستشير اتباعه ، وبذا غير تماما الوضع القانونى الذى ارتكز عليه عام ١١٣١م وانعقد مجلس فى انطاكية أعلن فيه الأتباع - وربما استدعاهم البطريق الجديد على وحه السرعة - أن ريموند يحكم كمجرد زوج وريثة انطاكية ، ومن ثم لاحق له فى التخلى عن أراضيها ، بل إن الأمير والأميرة معا لا يستطيعان تغريب الامارة او مبادلتها دون موافقة أتباعهما الذين سوف يطيحون بهما من على العرش اذا حاولا ذلك . وحمل اسقف حبلة رد المجلس إلى حون الذي استشهد بسلطة البابا في تأييد رفض المطلب الامبراطورى غير انه عرض على حون أن يدخل انطاكية في موكب يكلله الوقار . ولم يكن فى هذا الرد الذى يتعارض تماما مع كل تعهدات ريموند السابقة أى خيار يختاره حون سوى الحرب . على أن الموسم كان متقدما حدا بحيث لا يسمح بالعمل الفورى ، ولذا راح حون ينهب ممتلكات الفرنج فى حوار المدينة ، ثم انسحب إلى داخل كيليكيا لاستعادة القلاع التى اخذها الدانشمند ولكى يمضى الشتاء(٢٥).

---

(٢٤) William of Tyre, xv,19, p.688 ، يشير وليم الى ان ريموند دعا حون للتدخل خشية من زنكى، ولكن Nicetas Choniates (p.52) يتحدث عنه مخفيا خططه وأن وصوله الفعلى الى سوريا كان مفاجأة (William of Tyre, *ibid.* p. 689) .

(٢٥) William of Tyre, xv, 19-20, pp. 688-91; Nicetas Choniates, pp. 52-3; Gregory the Priest, p.156; Matthew of Edessa, cclv, p.325.

ومن كيليكيا أرسل حون سفارة إلى القدس لتعلن للملك فولك عن رغبته في زيارة الأماكن المقدسة ولكي يناقش مع الملك عملا مشتركا ضد الكفرة . واسقط في يد فولك . فهو لا يرغب في نزول الجيش الامبراطوري العظيم إلى فلسطين ، وسوف يكون ثمن ما يقدمه الامبراطور من مساعدة هو حتما الاعتراف بسيادته . وانطلق أسقف بيت لحم ، انسيلم ، وبصحبته آمر قلعة القدس ، رورد ، ورئيس رهبان فرسان المعبد جيوفرى الذى كان دارسا جيدا لليونانية ، ليشرحوا لجون أن فلسطين بلد فقير لا يستطيع توفير الطعام لإعاشة جيش ضخم كجيش الامبراطور ، ولكنه اذا تعطف بالحضور مع حرس صغير فسوف يكون الملك في غاية السرور للترحيب به . وقرر حون عدم الاصرار على طلبه أكثر من ذلك حاليا[٢٦].

في مارس ١١٤٣م ، عندما أتم الامبراطور استعداداته للاستيلاء على انطاكية ، منح نفسه عطلة قصيرة يذهب فيها لصيد الخنزير البرى في جبال طوروس . وأثناء الصيد أصيب عرضا بسهم فجرحه . ولم يعبأ كثيرا بهذا الجرح . لكن الجرح تعفّن وسرعان ما دخل في مرحلة الاحتضار بسبب تسمم الدم . وواجه حون نهايته رابط الجأش ، وظل حتى آخر لحظة يعمل في الترتيب لاستخلافه ولاستمرار الحكومة استمرارا سلسا. لقد مات أكبر ابنين من ابنائه الأربعة . وكان الثالث اسحق ، الموجود الآن في القسطنطينية ، شابا متقلب المزاج . فقرر حون أن يورّث الامبراطورية للأصغر والأحد ذكاءً ، مانويل ، وحث صديقه العظيم ، آكسوك كبير متبوعيه ، مساندة مانويل في مطلبه . وبيديه الضعيفتين وضع التاج على رأس مانويل واستدعى جنرالاته للهتاف للامبراطور الجديد وبعد أن نطق باعترافه الأخير لراهب جليل من بامفيليا، مات يوم ٨ ابريل[٢٧].

وكان موت حون بمثابة الخلاص لأنطاكية الفرنجية . وفى الوقت الذى أسرع فيه

---

(٢٦) William of Tyre, xv, 21.pp. 691-3. ويقول (Cinnamus, p.25) إن حون أعدّ قرابين للقبر المقدس.

(٢٧) William of Tyre, xv, 22-3, pp. 693-5; Cinnamus, pp. 26-9; Nicetas Choniates, pp. 56-64; Matthew of Edessa, cclv, p. 325; Gregory the Priest, p. 156; Michael the Syrian, III,p. 254; Ibn al-Qalanisi, p.264; *Bustan*, p. 537.

آكسوك إلى القسطنطينية يسبق الأنباء لحماية القصر والحكومة من أية محاولة من جانب اسحق بن حون للمطالبة بالعرش ، كان مانويل يقود الجيش عائدا به عبر الأناضول. وإلى أن يتأكد أولا من عاصمته ، ليس هناك مجال للمزيد من المغامرات فى الشرق . ونُحّى المشروع الامبراطورى جانبا ، ولكن ليس لفترة طويلة(٢٨).

(٢٨) Cinnamus, pp. 29-32، يتحدث عن سفارة انطاكية تتصف بالوقاحة ذهبت الى مانويل الذى رد بأنه سوف يعود لتأكيد حقوقه Nicetas Choniates, pp. 65-9; William of Tyre, xv, 23, p.696.

الفصل الرابع:

سقوط الرهــــا

سقـوط الرها

"رُبَّ مُلْكٍ مُعَجَّلٍ فى أوّلِهِ . أمّا آخِرَتُهُ فلا تُبارَكُ"

(أمثال ٢٠ : ٢١)

تنفس فرنج الشرق الصعداء لدى سماعهم نبـأ وفـاة الامـبراطور ، و لم يلحظـوا فـى تنهدات راحتهم كم كان الأتابج زنكى أكثر منهم ارتياحا بكثير وهو ألـد أعدائهـم[١]. وقد أمضى زنكى فترة سنتين ، من ١١٤١م ، وهـو يعـانى الحـرج مـن رغبـة السـلطان مسعود فى إعادة تـأكيد سـلطته عليـه . ولم يتمكـن زنكـى مـن تجنـب غـزو السـلطان لأراضى الموصل إلاّ بالتظاهر فى الوقت المناسب بالخضوع له ، إلى جـانب هديـة ماليـة وإرسال ابنه كرهينة[٢]. ولو قد حدث غزو بيزنطى لسوريا فى تلك اللحظة ، لانتهـت مخططات زنكى فى الجهة الغربيـة ، بل زاد تهديد تلك المخططات من جرّاء تحالف بـين

(١) يتمثل الموقف الاسلامى حيال البيزنطين فيما أورده ابن القلانيسـى (ص ٢٥٢) عندمـا كـان يتحـدث عن انسحاب الأمبراطور عام ١١٣٨م فيقول : "اطمأنت كل القلوب بعد حزنها وخوفها".

(٢) Ibn al-Athir, pp. 241-2

ملك القدس وأتابج دمشق ، نشأ نتيجة لخوفهما المشترك منه .

وبعد انهيار التحالف الفرنجي البيزنطي عام ١١٣٨م ، عاد زنكي إلى ما كان فيه من محاولة الاستيلاء على دمشق . وكان حصاره لحمص قد توقف مرتين ، المرة الأولى بتقدم الفرنج إلى قلعة بعرين ، والمرة الثانية بحصار الفرنج لشيزر . وقد عاد الآن في كامل قوته إلى حمص ، وأرسل إلى دمشق طالبا يد أم الأتابج للزواج ، الأميرة زمرد ، عارضا حمص مهرا لها . ولم يكن الدمشقيون في موقف يساعدهم على الرفض . وفي يونية ١١٣٨م تزوجت السيدة الأرملة من زنكي ودخلت جنوده حمص . وإظهارا لحسن النوايا، أقطع زنكي حاكم حمص المملوك المسن أُنر إقطاعية تضم قلعة بعرين التيإحتلهاحديثا وبعض الحصون في الجوار(٣).

وكانت أسرة بوري الحاكمة في دمشق حسنة الحظ ، إذ لم يتخذ أُنر مقامه في قلعة بعرين وإنما جاء إلى دمشق . وهناك قُتل الأتابج الصغير شهاب الدين محمود في فراشه على يد ثلاثة من أقرب غلمانه ، وكان ذلك في ليلة ٢٢ يونية ١١٣٩م . ولو كان زنكي - الذى حامت حوله شكوك التواطو - يأمل بذلك في الاستيلاء على الحكم فقد خاب أمله ، إذ باشر أُنر في الحال تسيير دفة الأمور ، فصلب القتلة ، واستدعى الأخ غير الشقيق للأتابج ، جمال الدين محمد ، حاكم بعلبك ، ليتسلم عرش محمود. وفي المقابل أعطى محمد بعلبك لأنر الذي تزوج من أم التابج الجديد . لكن أُنر بقي في دمشق مسؤولا عن الحكومة . ولم يصادف ذلك هوى لدى زنكي ، وخاصة بتشجيع زوجته زمرد وأخ لمحمد ، هو باهرام شاه الذى كان يحمل عداوة شخصية لأُنر . وفي أواخر صيف ١١٣٩م حاصر بعلبك بجيش ضخم وأربع عشرة آلة من آلات الحصار ، فاستسلمت المدينة يوم ١٠ أكتوبر ، كما استسلمت يوم ٢١ من الشهر حامية القلعة - والتى شُيِّدت من بقايامعبد بعل الكبير - بعد أن أقسم زنكي على القرآن بالإبقاء على حياة افراد الحامية ؛ لكن زنكي حنث بقسمه ، إذ قتلوا جميعا شر قتلة وبيعت نساؤهم سبايا . ولم يكن زنكي يقصد من ذلك سوى ترويع الدمشقيين ، لكنها جعلت مقاومتهم أكثر صلابة وأدت بهم إلى النظر إلى زنكي على انه عدو خرج عن العقيدة(٤).

وفي الأيام الأخيرة من تلك السنة عسكر زنكي بالقرب من دمشق ، وعرض على

---

(٣) Ibn al-Qalanisi, p. 252; Kemal ad-Din, pp. 678-9

(٤) Ibn al-Qalanisi, pp. 253-6; Ibn al-Athir, p.431

الأتابج محمد بعلبك أو حمص بدلا من دمشق . وكان الأمير الصغير حريا بالقبول لوسمح له أنر . وبرفض هذا الأخير تحرك زنكى لمحاصرة المدينة . وفى خضم تلك الأزمة مات محمد يوم ٢٩ مارس ١١٤٠م . بيد أن الدمشقيين كانوا يحملون الولاء لآل بورى، و لم يجد أنر صعوبة فى رفع إبن محمد الشاب مجير الدين أبق إلى العرش . وفى ذات الوقت قرر أنر أن لديه من المبررات الدينية والسياسية ما يدفعه إلى طلب مساعدة المسيحيين ضد عدوه الغادر. فانطلقت من دمشق سفارة يرأسها الأمير أسامة بن منقذ قاصدة القدس(٥).

١١٣٩م : التحالف الفرنجى مع دمشق

كان الملك فولك يحاول انتهاز فرصة ما يعانيه الدمشقيون من ارتباك كى يحكم قبضته على منطقة ما وراء نهر الأردن. وفى صيف ١١٣٩م زاره ثيرى (اوف ألزاس)، كونت فلاندرز ، زوج سيبيللا ابنة فولك من زواجه الأول . وبمساعدة ثيرى أغار فولك على جلعاد ، وبشئ من الصعوبة استولى على حصن صغير بالقرب من عجلون، وذبح المدافعين عنه(٦) . و لم يجن من كده سوى القليل . إذ أنه عندما عرض عليه أنر عشرين ألف بيزنت شهريا وإعادة قلعة بانياس لقاء طرد زنكى من دمشق ، لم يتردد في تغيير سياسته . و لم تكن فكرة هذا التحالف جديدة ، فقد سبق وان حدث فى أوائل ١١٣٨م أن رحل أسامة إلى القدس نيابة عن أنر لمناقشة جدوى التحالف . وبرغم ما استقبله به البلاط الفرنجى من مظاهر التشريف ، إلاّ انه رفض ما عرضه من مقترحات . أما الآن ، فالبلاط الفرنجى يفهم ما تشكله الأخطار الناجمة عن تعاظم قوة زنكى ، وعندما استدعى فولك مجلسه لينظر فى العرض ، كان هناك شعور عام بأنه ينبغى قبوله(٧).

بعد تسلم الفرنج رهائن من دمشق ، انطلق جيشهم فى ابريل قاصدا الجليل . وسار فولك متوخيا جانب الحذر ، وتوقف بالقرب من طبرية بينما استمر الكشّافون . وهبط زنكى على الساحل المقابل لبحر الجليل كى يراقب تحركاته ، فوجده ماكثا لا

---

(٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 256-9

(٦) William of Tyre, xv, 6, pp. 665-8

(٧) *Ibid.* xv, 7, pp. 668-9; Ibn al-Qalanisi, pp. 259-60

يتحرك ، فعاد لمحاصرة دمشق . وعلى الأثر انطلق فولك شمالا . و لم يكن زنكى ليجازف بأن يقع بين فكي الفرنج والدمشقيين ، ولذا انسحب مبتعدا عن دمشق . وعندما قابل فولك قوات أنر إلى الشرق قليلا من بحيرة الحولة في وقت مبكر من يونية ، علموا أن زنكي انسحب إلى بعلبك . وعادت بعض قوات زنكى فى وقت متأخر من الشهر للإغارة حتى وصلت إلى أسوار دمشق ، لكن زنكي إنسحب بجيشه الرئيسى إلى حلب و لم يصبه أذى[٨] . وبذا أنقذ التحالف دمشق دون معركة . والتزم أنر بشروط الصفقة، وكان جنوده يحاصرون بانياس حصارا متقطعا لعدة شهور خلت. وانتهز أحد قادة زنكي - إبراهيم بن طرغوت - فترة خمود فى الحصار وراح يغير على الساحل بالقرب من صور حيث بوغت بجيش فرنجى أنطاكي يقوده ريموند جاء جنوبا لمساعدة فولك فى الحملة الدمشقية . وهزم ابراهيم وقتل . وسرعان ما قرر المدافعون عن بانياس التسليم عندما شاهدوا أنر نفسه وبصحبته فولك وريموند ، اللذين شجعتهما زيارة المندوب البابوى، ألبريك (اوف بوفيه) . ورتب أنر تعويض المدافعين عن بانياس بأراض بالقرب من دمشق ، ثم سلّم المدينة للفرنج الذين نصّبوا فيها حاكمها السابق ، رينيه (اوف بروس) ، بينما تقرر تعيين آدم ، رئيس شمامسة عكا ، أسقفا لها[٩].

وتأكد تحالف فولك وأنر بزيارة قام بها الأخير بعد ذلك مباشرة إلى بلاط الملك فى عكا يصحبه فيها أسامة . ولقيا استقبالا ساده الود والتملق ، ثم ذهبا إلى حيفا والقدس ، وعادا خلال نابلس وطبرية . وتمت الجولة فى جو تميز بحسن النية البالغة، رغم أن اسامة لم يوافق البتة على كل ما شاهده[١٠] . وفضلا عن ذلك ، أظهر فولك رغبته المخلصة فى صداقة الدمشقيين . إذ شكوا له مما يقوم به رينيه (اوف بورس) من غارات من بانياس على قطعانهم ، فأصدر فولك اوامره الصارمة بأن يكف رينيه عن غاراته وأن يدفع تعويضات للضحايا[١١].

---

(٨) William of Tyre, xv, 8, pp. 669-70; Ibn al-Qalanisi, p.260; Kemal ad-Din, p. 682

(٩) William of Tyre, xv, 9-11, pp. 770-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 260-1

(١٠) Usama, ed. Hitti, pp. 166-7, 168-9, 226

(١١) *Ibid.* pp.93-4

١١٤٠م : بناء القلاع على الحدود الجنوبية

شعر الملك فولك بالاطمئنان على حكومته فى حوالى عام ١١٤٠م. وكانت الأحوال فى شمال سوريا قد تدهورت منذ أيام أسلافه ، ولم يكن يشعر بأن له مكانة أو سلطة هناك . بل ومن المشكوك فيه ما اذا كان جوسلين أمير الرها يعترف بسلطته هناك. لكنه كان آمنا فى نطاق سلطانه الخاص به . وقد لقن الدرس الذى يفرض على الفرنج تخفيف خصومتهم للمسلمين إذا أرادوا العيش هناك، وينبغى لهم أن يكونوا على استعداد لمد يد الصداقة لأقلهم خطورة ، وقد طوّع الملك نبلاءه بحيث ساروا معه على نفس درب سياسته . واجتهد فى الوقت نفسه كي يوفر الحماية للبلد . فشُيّدت على الحدود الجنوبية ثلاث قلاع للحراسة من غارات المصريين الآتية من عسقلان: ففى يبنه، الواقعة على مسافة عشرة أميال تقريبا جنوب غرب اللد ، وفى بقعة وفيرة المياه تتحكم فى تلاقى الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة ، استغل أطلال المدينة الرومانية القديمة يمنية لتشييد قلعة رائعة عهد بها إلى باليان ، وشهرته "العجوز" ، شقيق فيكونت تشارترز . وكان بليان يمتلك الأرض فى ظل لوردات يافا ، وفاز بعطف فولك عندما سانده الملك ضد هيو (اوف لو براسيه) . ولأنه آمر قلعة يبنة ، فقد رفع إلى مصاف كبار مستأجرى الأرض ، وتزوج هيلفيس ، وريثة الرملة . وكانت ذريته تشكل أشهر عائلة نبيلة فى الشرق الفرنجى[١٢].

وإلى الجنوب من يبنة يقع الطريق المباشر من عسقلان إلى القدس ، تحرسه قلعة (الحراسة البيضاء Blanchegarde) ، على التل الذى يسميه العرب تل الصافية ، أى المشرقة . وقد أصبح وكيلها ، أرنولف ، من أغنى وأقوى بارونات المملكة[١٣]. وبنيت القلعة الثالثة فى بيت جبريل عند القرية التى يسميها الصليبيون خطأ بئر سبع . وكانت تتحكم فى الطريق من عسقلان إلى الخليل ، وعهد باستحكاماتها إلى فرسان المستشفى[١٤]. ولم تكن تلك الاستحكامات على ما يكفى من الاكتمال بحيث تمنع كل الغارات المنطلقة من عسقلان . ففى ١١٤١م ، اخترق المصريون تلك

(١٢) William of Tyre, xv, 24 pp.696-7. For Balian's origin , see Ducange, *Familles d'Outre Mer*, ed.Rey, pp.360-1

(١٣) William of Tyre, xv, 25, pp. 697-9.

(١٤) *Ibid.* xiv, 22, pp.638-9. Martin, 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacovites de Jérusalem. II', *Journal Asiatique*, 8 me série, vol. xiii, pp.34-5, gives Szrian evidence suggesting that the castle was being built in 1135.

الاستحكامات وهزموا قوة صليبية صغيرة فى سهل شارون[١٥]، غير أن تلك التحصينات كانت قادرة على صد أى هجوم حاد من الجنوب على القدس ، وكانت بمثابة مراكز للإدارة المحلية .

وفى الوقت ذاته اتخذ فولك الخطوات الكفيلة بإخضاع البلاد شرقى وجنوبى البحر الميت للرقابة الصارمة . وقد ساعدت اقطاعية الشوبك ، بقلعتها الواقعة فى واحة فى تلال إيدوم ، فى تحكم الفرنج المطلق فى طرق القوافل الذاهبة من مصر إلى الجزيرة العربية وسوريا ، على أن القوافل الاسلامية كانت ما تزال تمر آمنة على الطرق ، وكان المغيرون من الصحراء ما يزالون قادرين على الاختراق والوصول إلى يهودا. ومنذ أن تولى فولك العرش منح رومان (اوف لو بوي) الشوبك ومنطقة ماوراء الأردن نحو عام ١١١٥م . لكن رومان ساند هيو (اوف لو بواسيه) ضد الملك ، الذى صادرهما وحرم ابنه من وراثتهما ، ومنح الاقطاعية لباحان الساقي الذي كان من أرفع مسؤولي بلاطه . وكان باحان إداريا قويا حاول إحكام رقابته على المنطقة الكبيرة التى يحكمها . ويبدو انه أفلح فى أن يستتب الأمن فى البلاد حتى جنوب البحر الميت ، ولكن عندما كان فولك مشغولا فى جلعاد عام ١١٣٩م تمكنت جماعة من المسلمين من عبور نهر الأردن على مقربة من اتصاله بالبحر الميت والإغارة على يهودا، حيث نصبت شركاً - بخدعة تقهقر زائف - قضت فيه على جماعة من فرسان المعبد كانت قد أرسلت للتصدى لها . وربما نقل باحان مقره من الشوبك فى الشراه إلى مؤاب لكى يسيطر على الطرف الشمالى للبحر الميت وطرفه الجنوبي أيضا. وهناك فى مؤاب، وبموافقة الملك عام ١١٤٢م ، وعلى تل يسميه المؤرخون حجرة الصحراء Petra Deserti ، بنى قلعة عظيمة تعرف باسم كرك مؤاب . وكانت ذات موقع رائع يسيطر على الطرق الوحيدة التى تربط مصر عمليا بغربى الجزيرة العربية والداخلة إلى سوريا ، ولم تكن تلك القلعة تبعد كثيرا عن مخاضات نهر الأردن الأسفل . وكان بلدوين الأول قد انشأ فعلا مرقبا أسفل شاطئ خليج العقبة ، عند إيلين أو أيله . ونصّب باحان حامية أقوى هناك ، وكذا فى حصن وادى موسى بالقرب من البتراء القديمة . وقد ساعدت تلك الحصون ، مع الشوبك وكرك ، في توطيد سيادة لورد منطقة الأردن على أراضى إيدوم (الشراه) ومؤاب ، وعلى ما يحيطها من حقول غنيّة بالحبوب ، ومنخفضات الملح على البحر الميت على الرغم من أن الفرنج لم يستعمروا تلك المناطق بجدية ، وواصلت قبائل

---

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p. 263

البدو حياتها البدوية القديمة فى المناطق القاحلة ، تدفع أحيانا مجرد إتاوة للفرنج[١٦].

وتحسنت الحالة الأمنية الداخلية في المملكة في عهد فولك . إذ كان الطريق بين يافا والقدس فى وقت استخلافه ما يزال محفوفا بالمخاطر بسبب قطاع الطرق الذين لم يعتادوا على التحرش بالحجاج وحسب ، وانما كانوا يقطعون كذلك امدادات الطعام الذاهبة إلى العاصمة . وفى ١١٣٣م ، وبينما كان الملك غائبا فى الشمال ، نظّم البطريق وليم حملة ضد قطاع الطرق وشيّد حصنا سمى (شاسيل إيرنوت) بالقرب من بيت نوبه ، حيث يصعد الطريق القادم من اللد إلى داخل التلال . وكان تشييدها تسهيلا للسلطات فى حراستها للطريق ، وبعد اتمام التحصينات على الحدود المصرية ، لم يكن المسافرون يواجهون صعوبة أثناء رحلتهم من الساحل إلا فيما ندر[١٧].

١١٤٣م : مؤسسات الملكة مليسند

ليس لدينا سوى القليل عن حكومة المملكة فى السنوات الأخيرة من حكم فولك . فبعد سحق تمرد هيو (اوف لو بواسيه) ، بعد أن هدأت رغبة الملكة فى الإنتقام ، أيّد البارونات التاج بغاية الإخلاص . وكانت علاقات فولك بكنيسة القدس طيبة على الدوام . إذ أن البطريق وليم (اوف ميسين) الذى توّجه والذى قُدّر له أن يعيش من بعده ، ظل صديقه الوفي الذي يرعاه . وبتقدم الملكة مليسند فى السن اتجهت اهتماماتها إلى أعمال التّقى والورع ، برغم أن المقصود من أهم مؤسساتها هو زيادة مجد أسرتها. وكرّست نفسها لأخواتها ، فغدت أليس أميرة لأنطاكية ، وهوديرنا الآن كونتيسة طرابلس ، أما الصغرى جوفيتا التى أمضت سنة من طفولتها رهينة لدى المسلمين ، فلم تعثر لها على زوج مناسب . وقد انخرطت فى التدين وأصبحت راهبة فى دير القديسة آن فى القدس . و اشترت الملكة عام ١١٤٣م من كنيسة القبر المقدس قرية بيثانى ، كبديل لأراضى قريبة من الخليل ، وبنت هناك ديرا للراهبات تخليدا

---

(١٦) William of Tyre, XV, 21, pp.692-3. وعن منتجات المنطقة انظر Abel, GÉOGRAPHIE DE LA PALESTINE, I, p 505.. وعن الأثر الواقع على التجارة الاسلامية انظر Wiet, *op.cit.*pp.320-1.. أنظر Rey, 'Les Seigneurs de Montréal et de la Terre d'Oultre Jourdain'، فى *Revue de l'Orient Latin,* vol. IV, pp. 19ff.. والقلعة فى وادى موسى تقع على تل شديد الإنحدار يعرف الآن باسم ويرا Wueira خارج ضواحى البتراء، حيث تبدو أطلال خرائب صليبية كثيرة عبر وادى موسى. كما توجد أطلال قلعة صغيرة من العصور الوسيطة على تل الحابس فى وسط البتراء.

(١٧) William of Tyre, XIV, 8, p. 617

للقديس لازاروس وأختيه مارثا وماري ، وجعلت أريحا بكل بساتينها ومزارعها المحيطة وقفا على الدير، وحصّنته ببرج . وحتى لا تتضح دوافع الملكة غاية الوضوح ، عيّنت أول رئيسة لدير الراهبات راهبة ممتازة عجوز تريد أن تحتضر ، وقد ماتت بعد شهور قليلة بمهارة شديدة . ومن باب الواجب انتخب دير الراهبات رئيسة له جوفيتا البالغة من عمرها أربعة وعشرين ربيعا. وبذا كانت جوفيتا تقوم بدور مزدوج ، أميرة تجرى في عروقها الدماء الملكية ، ورئيسة أغنى أديرة الراهبات في فلسطين ، ومن ثـمّ كانت تشغل مكانة متميّزة مبجّلة مابقى لها من عمرها الطويل(١٨).

كان ذلك أكثر عطايا الملكة مليسيند الخيرية إسرافا ، على أنها حرّضت زوجها على أن يهب كنيسة القبر المقدس عدة هبات على هيئة أراض ، ودأبت على إنشاء دور دينية على درجة من السخاء طوال فترة ترملها. كما كانت مسؤولة عن تحسين العلاقات مع الكنيستين اليعقوبية والأرمينية . وقبل الاستيلاء الصليبي على القدس كان اليعاقبة قد هربوا كلهم معا إلى مصر . وعندما عادواوجدوا الضياع التى كانت تملكها كنيستهم فى فلسطين قد منحت لفارس فرنجى ، جوفيير ، الذى أسره المصريون عام ١١٠٣م ومن ثمّ استعاد اليعاقبة أراضيهم . غير أن جوفيير ، الذى ظنه الجميع ميتا ، عاد عام ١١٣٧م من الأسر وطالب بممتلكاته . وبتدخل الملكة تدخلا مباشرا ، سُمح لليعاقبة الاحتفاظ بممتلكاتهم ، بعد دفع ثلاثمئة بيزانت لجوفيير على سبيل التعويض . وفى عام ١١٤٠م نجد كاثوليكوس بطريق الأرمن وقد حضر مجمعا كنسيا للكنيسة اللاتينية هناك . كما وهبت مليسيند العطايا لدير القديس ساباس الأرثوذوكسي(١٩).

أما سياسة فولك التجارية فكانت امتدادا لسياسة سلفه . فكان يحترم التزاماته حيال المدن الإيطالية التى تسيطر الآن على تجارة تصدير البلد . غير انه رفض رفضا مطلقا منح حق الإحتكار ، وفى ١١٣٦م عقد معاهدة مع تجار مرسيليا، واعدا منحهم أربعمائة بيزانت سنويا من عوائد يافا ، لصيانة منشآتهم هناك(٢٠).

---

(١٨) William of Tyre, xv, 26, pp. 699-700 كانت جوفيتا مسؤولة عن تعليم حفيدة اختها سيبيللا ملكة المستقبل (انظر أدناه ص ٤٦٥) . وماتت فى وقت ما قبل عام ١١٧٨م ، إذ قالت رئيسة دير الراهبات ، إيفا (اوف بيثانى) إنها قد خلفتها فى رئاسة الدير (*Cartulaire de Ste Marie* (*Josaphat*, ed. Kohler, p. 122

(١٩) Nau, 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique*, 9me sèrie, vol xiv, pp. 421-31é Rohricht, *Regesta*, pp.1067. انظر ادناه الصفحات ٣٢١-٣.

(٢٠) Rohricht, *Regesta*, p.40. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p.272. وبعد ١٦ سنة أعطاهم بلدوين الثالث حيا فى القدس Rohricht, *Regesta*, p. 70.

١١٤٣م : موت الملك فولك

فى خريف ١١٤٣م كان البلاط فى عكا يستمتع بالهَدْأة التى أتاحها انسحاب زنكى من دمشق . وفى ٧ نوفمبر رغبت الملكة فى الخروج لنزهة خلوية . وبينا الجماعة الملكية على جيادها متجهة إلى داخل البلد فزع أرنب ، وركض الملك ينهب الأرض وراءه . وفجأة تعثر جواده وألقى الملك من على ظهره ، وسقطت صهوة الفرس الثقيلة مرتطمة برأسه . وعادوا به فاقد الوعى والجراحات فظيعة فى رأسه إلى عكا حيث مات بعد ثلاثة ايام . وكان ملكا طيبا لمملكة القدس ، لكنه لم يكن بالملك العظيم ولا بقائد فرنج الشرق[٢١].

وصدرت عن الملكة مليسيند ألفاظ الأسى ، التى حركّت مشاعر البلاط كله ، لكن ذلك لم يصرفها عن تولى شؤون المملكة . وكان من بين أولادها من فولك إبنان : بلدوين ابن ثلاث عشرة سنة ، وأماليك ابن سبع سنين . وكان فولك قد تولى العرش باعتباره زوجها ، وكانت حقوقها كوريثة معترف بها كلها . غير أن فكرة وجود ملكة وصيّة بمفردها لم تخالط أذهان البارونات . ولذا عيّنت ابنها بلدوين زميلا لها وباشرت هى الحكومة . واعتُبر تصرفها تصرفا دستوريا مثاليا وأيده مجلس المملكة عندما قام البطريق وليم بتتويجها هى وبلدوين يوم عيد الميلاد[٢٢] . وكانت مليسيند امرأة ذات اقتدار وكان حكمها خليقا بالنجاح فى أوقات أكثر سعادة . واتخذت مستشارها ابن عمها الوكيل (الكونستابل) مناس (اوف هيرجز) ابن اللورد الوالونى الذى تزوج اخت الملك بلدوين الثانى ، هوديرنا (اوف ريثيل) . وقد برز مناس الشاب فى بلاط عمه ، حيث كفلت له قدراته وعلاقاته الملكية تقدما مطردا . وعندما مات باليان العجوز فى يبنة ، بعد موت فولك مباشرة ، تزوج مناس أرملته هيلفيس ، وريثة الرملة التى كانت تسيطر على السهل الفلسطينى كله بحقها الشخصى وبحق أولادها. وكان مقدرا أن يشعر البارونات بالاستياء عاجلا أو آجلا من قوة مناس ، إذ كان هو والملكة يميلان إلى الحكم الاستبدادى على أنه لم تكن في الوقت الراهن أية معارضة للملكة[٢٣].

---

(٢١) William of Tyre, xv, pp.700-2; Matthew of Edessa, cclvi, p. 325; Ibn al-Qalanisi, p.265. كتب سان برنار خطاب تعزية للملكة مليسيند (no. 354, M.P.L. vol. CLXXXII, cols. 556-7)

(٢٢) William of Tyre, xvi, 3. p.707 وعن وضع مليسيند الدستورى أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 14-18.

(٢٣) William of Tyre, xvi, 3, p.707، يقرّظ الملكة . وعن مناس (انظر ادناه ص ٣٨٦). وزواجه سجّله وليم . وكثيرا ما يظهر اسم هيلفيس Helvis فى صكوك عقود ، e.g. Rohricht, *Regesta*,

وكان لتوليها العرش عيب خطير . ففى ظل حكم الملك فولك ، كان وضع ملك القدس كسيد أعلى للدويلات الصليبية يتنامى نظريا وليس عمليا ، ومن غير الراجح أن يولى أمراء الشمال انتباها اكبر إلى سيادة امرأة وطفل . وعندما كانت المشاحرات تتفجر بين أمير انطاكية وكونت الرها، كان ملك القدس القوى - كبلدوين الثانى - يشد الرحال شمالا ويهدئ الخلافات قسرا . وهذا مالا تستطيعه ملكة ولا ملك صبى ، وليس هناك من يملك السلطة الغالبة .

أما ريموند أمير أنطاكية فمنذ أن مات الامبراطور حون ، وصد زنكي أمام دمشق، بُعثت من حديد ثقتة فى نفسه ، فأرسل فى الحال إلى الامبراطور الجديد مانويل طالبا إعادة كيليكيا إلى إمارته ، وعندما رفض مانويل طلبه هذا قام بغزو المنطقة، وقد اضطر مانويل نفسه أن يبقى فى القسطنطينية فى الشهور الأولى من حكمه ، لكنه أرسل حملة برا وبحرا بقيادة الأخوين كونتوستيفانوس وبرسق التركى المرتد وأمير البحار ديميتريوس براناس ، ولم تكتف الحملة بطرد ريموند من كيليكيا ، وانما طاردت حنوده حتى أسوار أنطاكية(٢٤). وكان ريموند قبل ذلك بأشهر قليلة قد أضاف أراض حلبيّة وصلت إلى البزاعة بينما تقدم حوسلين أمير الرها حتى الفرات لمقابلته . غير أن حوسلين وقع فجأة هدنة مع سوار ، حاكم حلب ، حطّمت مخططات ريموند . وزادت العلاقات سوءً بين ريموند وحوسلين . ويبدو أن حوسلين قد اضطر منذ نحو عام ١١٤٠م إلى أن يقبل ريموند كسيد اعلى له ، بيد أن الود كان غائبا عنهما تماما . وكان حوسلين قد أغاظ ريموند بتدخله لصالح البطريق رادولف ، وحاءت هذه الهدنة تكاد أن تقطع العلاقات بينهما(٢٥).

١١٤٤م : حصار الرها

كان زنكى يراقب تلك المشاحنات . وقد حرره موت الامبراطور من أخطر عدو كامن ، ولن يتخذ الدمشقيون أى عمل ضده بدون مساعدة الفرنج ، ولا يحتمل أن

pp.22,76

(٢٤) Cinnamus, pp. 33-4

(٢٥) Azimi, p.537; Ibn al-Qalanisi, p. 266. . يضع حوسلين تاريخ وثيقة رسمية فى عام ١١٤١م 'Raimundo Antiochiae principe regnante' (Rohricht, *Regesta*, p.51)، ويجعله وليم الصورى (XVI, 4, p.710) يلمح الى ريموند على انه سيده عام ١١٤٤م .

تشرع مملكة القدس الآن فى مغامرات ، وإذن فلا ينبغي تفويت الفرصة . وفى خريف ١٤٤١م هاجم زنكى قره أرسلان أمير ديار بكر الأرتقى ، الذى تحالف مؤخرا مع جوسلين . وتعزيزا لهذا التحالف خرج جوسلين من الرها بأكثر جيشه هابطا باتجاه الفرات ، لقطع اتصالات زنكى مع حلب فيما يبدو. وقام مراقبون مسلمون فى حرّان باخطار زنكى بتحركات جوسلين . وفى الحال أرسل زنكى فصيلة بقيادة ياغى سيانى أمير حماه كى يباغت مدينة الرها ، لكن ياغى سيانى ضل طريقه فى ظلام ليلة مطيرة من ليالى نوفمبر ، ووصل الرها ليجد زنكى قد سبقه اليها بالجيش الرئيسى يوم ٢٨ نوفمبر . وكان أبناء الرها وقتئذ قد أُنذروا وتجهزت الدفاعات بالمدافعين.

وتواصل حصار الرها أربعة أسابيع . وكان جوسلين قد اصطحب معه أبرز جنوده كلهم ، ولذا عُهد بالدفاع إلى رئيس الأساقفة اللاتينى هيو الثانى ، وسانده بإخلاص الأسقف الأرمينى جون والأسقف اليعقوبى بازل . وربما كان زنكى يأمل فى إغواء المسحيين الوطنيين بالتخلى عن الولاء للفرنج ، لكن خابت آماله كلها . واقترح بازل اليعقوبى طلب هدنة ، لكن الرأى العام عارضه . على أن المدافعين ، برغم بسالتهم ، كانوا فى قلّة من عددهم ، وقد تراجع جوسلين نفسه إلى تل بشير . وينتقده المؤرخ وليم الصورى انتقادا لاذعا لتراخيه عن انقاذ عاصمته . غير أن جيشه لم يكن من القوة بحيث يجازف بمعركة مع جيش زنكى . وكان جوسلين واثقا من صمود التحصينات العظيمة فى الرها لبعض الوقت، وبامكانه وهو فى تل بشير أن يعترض أية تعزيزات قد يستدعيها زنكى من حلب ، وكان يعوّل على مساعدة جيرانه الفرنج . وكان قد ارسل من فوره إلى انطاكية والى القدس . وفى القدس عقدت الملكة مليسيند مجلسا سمح بجمع جيش أرسلته بقيادة الوكيل مناس (الكونستابل)، وفيليب أمير نابلس ، وإيلينالند (اوف بور) أمير الجليل . وفى انطاكية ، لم يفعل ريموند شيئا ، وضاعت هباء كل مناشدات جوسلين له باعتباره سيده الأعلى ، وبدون مساعدته لم يكن جوسلين ليجرؤ على مهاجمة زنكى ، فلبث فى تل بشير منتظرا وصول جيش الملكة .

لكن جيش الملكة وصل بعد أن سبق السيف العذل . إذ أن جيش زنكى أخذ يتضخم بجموع الأكراد والتركمان التى انضمت اليه من وادى دجلة الأعلى ، فضلا عن آلات الحصار الجيدة التى كانت معه . وفى داخل الرها ، كان رجال الدين والتجار ، الذين يشكلون جُلّ الحامية ، يفتقرون إلى الخبرة الحربية ، ومن ثم فشلت هجماتهم المضادة وعمليات التلغيم المضادة . وساد الظن أن هيو رئيس الأساقفة يحتجز الأموال التى اكتنزها برغم شدة الحاجة اليها للدفاع . وفى عشية عيد الميلاد انقض

جدار في السور بالقرب من بوابة الساعات وتدفق سيل المسلمين خلال الفجوة فهرب السكان في فزع إلى القلعة ليجدوا بواباتها مغلقة في وجوههم بأمر رئيس الأساقفة ، الذى بقى هو نفسه خارجها في محاولة يائسة للحفاظ على النظام . وهلك الألوف تحت الأقدام في الهرج والمرج ، وجدّ جنود زنكي في أعقابهم يقتلون ألوفا أكثر ممن فيهم الأسقف ، إلى أن دخل زنكي نفسه على جواده وامر بإيقاف المذبحة . وابقى على حياة المسيحيين الوطنيين . أما الفرنج فقد جُمعوا كلهم وقتلوا ، وبيعت نساؤهم في الرق . وبعد يومين ، استسلم لزنكي القس اليعقوبي بارسوما ، الذى كان يتولى قيادة القلعة[٢٦].

١١٤٥م : سياسة زنكي في الرها

عامل زنكي المدينة معاملة طيبة بعد أن خلصها من الفرنج ، وعيّن عليها كوجك علي والي إربل، مع السماح للمسيحيين ، الأرمن واليعاقبة وحتى اليونانيين ، بتدبير معين من تدابير الحكم الذاتي. وعلى الرغم من تدمير الكنائس اللاتينية ، لم تمس كنائسهم ، ووجدوا تشجيعا على جلب اخوانهم في الدين لإعادة إسكان المدينة ، وعلى نحو خاص فاز الأسقف السوري بازل بعطف الغزاة بسبب رده المتكبّر على سؤالهم له ما إذا كان جديرا بالثقة ، إذ أجاب بأن ولاءه للفرنج أظهرت مدى ما يتمتع به من قدرة على الولاء . أما الأرمن ، وكانت أسرة كورتناى الحاكمة دائما مشهورة بينهم ، فكانوا أقل ميلا إلى النظام الجديد[٢٧].

ومن الرها توجه زنكي إلى سروج ، وهي ثاني قلعة فرنجية عظيمة شرقي الفرات ، فسقطت هي الأخرى له في يناير . ثم انه تقدم إلى البيرة ، وهي المدينة التي تتحكم في أهم مخاضة عبر نهر الفرات ، على أن الحامية الفرنجية أظهرت مقاومة شديدة .

---

(٢٦) William of Tyre, XVI, 4-5, pp. 708-12; Matthew of Edessa, cclvii, pp.326-8; Michael the Syrian, III, pp. 259-63; *Chron. Anon. Syr.*, pp.281-6. (لايوجد في مكان آخر رواية أكثر اكمالا بالتفاصيل) -Nerses Shnorhal, *Elegy on the fall of Edessa,* pp. 2ff; Bar Hebraeus, trnas. Budge, pp. 268-700; Kemal ad-Din, pp.685-6; Ibn al-Qalanisi, pp.266-8; Ibn al-Athir, pp.443-6 . والكثير من المؤرخين الأوروبيين يذكرون سقوط الرها بعض الشئ . وترد اشارة الى سقوط الرها في خطاب القديس برنارد no. 256, M.P.L.vol. CLXXXII, col. 463. ويخبرنا ابن الأثير أن مسلما في بلاط الملك روجر في صقلية جاءته رؤيا تخاطرية (تليباثى) بالاستيلاء على الرها.

(٢٧) Michael the Syrian, *loc. cit.; Chron. Anon. Syr. loc. cit*.

وكان جوسلين قريبا في المتناول ، وجيش الملكة يقترب ، وفي تلك الأوقات سمع زنكي شائعات بوجود اضطرابات في الموصل . فرفع الحصار عن البيرة وأسرع باتجاه الشرق . وكان لايزال من الناحية الإسمية مجرد أتابج الموصل يحكمها للأمير السلجوقي الصغير ألب أرسلان ابن مسعود . وعاد إلى الموصل ليجد أن ألب أرسلان حاول تأكيد سلطته فقتل القائد التابع للأتابج ، جقر . وقد جاء اختيار الوقت غاية في السوء ، إذ أن زنكي ، الذي قهر عاصمة فرنجية ، قد بلغ ذروة الهيبة في العالم الإسلامي . فخلع ألب أرسلان عن العرش وأعدم مستشاريه ، وفي ذات الوقت بعث الخليفة سفارة إلى زنكي ، محمّلة بالهدايا، لتخلع عليه شرف تلقيبه بالملك الغازي[٢٨].

وتردد صدى سقوط الرها في العالم كله . فكان للمسلمين بمثابة أمل جديد جاءهم ، إذ انهارت دويلة مسيحية دخيلة في قلب أراضيهم ، واقتصر وجود الفرنج على الأراضي المطلة على البحر المتوسط . وتطهرت الآن الطرق التي تربط بين الموصل وحلب من الأعداء ، وتم خلع الإسفين المحشور بين أتراك إيران وأتراك الأناضول . وكان زنكي جديرا بلقبه الملكي . أما الفرنج ، فقد هبط عليهم النبأ هبوط القنوط والإنذار ، ووقع من مسيحيي غرب أوروبا موقع الصدمة المرعبة . ولأول مرة يتحققون من أن الأمور ليست على مايرام في الشرق ، ومن ثم نشطت حركة للتبشير بحملة صليبية جديدة.

كان من الضروري ارسال حملة صليبية جديدة في واقع الأمر، إذ كان أمراء فرنج الشرق لا يزالون عاجزين عن التعاون مع بعضهم البعض برغم المخاطرالمحيطة بهم . وقد حاول جوسلين إعادة بناء إمارته في الأراضي التي يحتلها إلى الغرب من الفرات ، وأن يجعل من تل بشير عاصمته[٢٩]. على انه ، وعلى الرغم من أن زنكي سرعان ما سوف يهاجمه ، فإنه لم يغفر لريموند رفضه المساعدة . وجاهر بخلافه معه ، وأنكر سيادته عليه. وكان ريموند رافضا للمصالحة بنفس القدر، ولكنه كان مدركا لخطر العزلة . وفي عام ١١٤٥م ، وبعد أن هزم غارة من التركمان قرر الرحيل إلى القسطنطينية ملتمسا المساعدة من الامبراطور مانويل الذي رفض استقباله فور وصوله. ولم يأذن له بمقابلة إلا بعد أن ركع ريموند في ندامة متضعة أمام قبر الامبراطور جون . ثم أن مانويل عامله

(٢٨) *Chron. Anon. Syr.* pp. 286-8; Ibn al-Qalanisi, pp.268-9; Ibn al-Athir, pp.445-8; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p.371 n.11.

(٢٩) كان جوسلين ما يزال يمتلك الأراضي الواقعة من سميساط ، مرورا بمرعش (وهي في حوزة التابع بلدوين) جنوب البيرة وعينتاب وراوندان وتل بشير.

معاملة رقيقة كيّسة ، وحمّله بالهدايا ووعده بمعونة مالية . لكنه لم يعد بمساعدة عسكرية عاجلة ، إذ أن البيزنطيين يخوضون حربا تركية على أراضيهم ، وتحدثا عن حملة في المستقبل وباتت الزيارة في نظر باروناته مهينة ومجروحة ، لكنها مع ذلك أثمرت ثمرة واحدة مفيدة . إذ انها لم تمر دون أن يلحظها زنكى ، فقرر تأجيل المزيد من الهجوم على فرنج الشمال وأن يحول انتباهه مرة اخرى إلى دمشق(٣٠) .

١١٤٦م : مصرع زنكى

في شهر مايو ١١٤٦م سار زنكى إلى حلب كي يعد العدة لحملته على سوريا. وبينا كان يعبر الرها علم بمؤامرة دبرها الأرمن حاولوا بها التخلص من حكمه واعادة جوسلين ، وقد سحقها كوجك على بسهولة. وأمر زنكى باعدام زعماء المؤامرة ، ونفى جزءا من السكان الأرمن حل محلهم ثلاثمائة اسرة يهودية جلبهم زنكى لما كانوا يشتهرون به من استعداد لتأييد المسلمين ضد المسيحيين(٣١) . وفي الصيف قاد زنكى جيشه جنوبا إلى مدينة قلعة جعبر الواقعة على الطريق المباشر الذاهب من الفرات إلى دمشق ، كان بها أمير ضئيل الشأن رفض الاعتراف به سيدا أعلى له . وبينما كان يحاصر المدينة ، حدثت في ليلة ١٤ سبتمر ١١٤٦م مشاجرة بينه وبين أحد الخصيان من أصل فرنجى عندما ضبطه يشرب من قدحه الخاص به . فاحتدم الخصى غيظا مما سمعه من توبيخ ، فانتظر حتى نام ثم قتله(٣٢) .

كان اختفاء زنكى المفاجئ نبأ سار تلقاه كل أعدائه الذين راودهم الأمل في تمزيق مملكته لما سوف ينشأ من خلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة، وهو خلاف عادة ما يعقب وفاة أمراء المسلمين . وبينما كان جسده ساجيا وحيدا لم يدفن بعد ، أسرع أكبر ابنائه سيف الدين غازى ، يصحبه الوزير جمال الدين الأصفهانى ، إلى الموصل لتولي الحكومة هناك، بينما استولى ابنه الثانى ، نور الدين ، على خاتم الوزارة من اصبع الجثة وانطلق إلى حلب كي ينادى به شيركوه الكردى ، الذى أنقذ أخوه أيوب حياة زنكى عندما

(٣٠) Cinnamus, p. 35; Michael the Syrian, III, p. 267.

(٣١) Michael the Syrian, III, pp. 267-8; *Chron. Anon. Syr.* p.289; Ibn al-Qalanisi, p. 270; Ibn al-Furat, *loc. cit.*

(٣٢) William of Tyre, XVI, 7, p.714; Michael the Syrian, III, p.268; Chron. Aon.Syr. p.291; Ibn al-Qalanisi, pp.270-1; Kemal ad-Din, p.688.

هزمه الخليفة عام ١١٣٢م . وكان انقسام المملكة بمثابة العلامة للأعداء كى يبدأوا غزوهم. ففى الجنوب استعاد جنود أنر الدمشقيون بعلبك ، واخضعوا أمير حمص ، وياغى سيانى أمير حماه فأصبحا تابعين لدمشق. وفى الشرق أقدم ألب أرسلان على محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة ، بينما استعاد أراتقة ديار بكر مدنا كانوا قد فقدوها(٣٣). وفى الوسط قاد ريموند أمير انطاكية غارة حتى أسوار حلب نفسها، بينما خطط جوسلين لإعادة احتلال الرها . وأجرى عملاؤه اتصالات مع الأرمن فى المدينة وفازوا بتأييد اليعاقبة ، فانطلق جوسلين نفسه مع جيش صغير انضم اليه بلدوين أمير مرعش وكيسوم . ومرة أخرى رفض ريموند مساعدته ، ولكنه رفض له ما يبرره هذه المرة ، لسوء تخطيط الحملة . إذ كان جوسلين يأمل فى مباغتة الرها ، ولكن المسلمين كانوا على استعداد ، وعندما وصل أمام أسوار المدينة يوم ٢٧ أكتوبر لم يتمكن - إلا بالمساعدة الوطنية - من اقتحام طريقه إلى داخل المدينة ذاتها ، غير أن حامية القلعة كانت فى انتظاره . وكان جنوده من ضآلة العدد بحيث تعذر اقتحام تحصيناتها عنوة . فلبث فى المدينة حائرا لا يدرى ماذا يفعل . وفى تلك الأثناء وصل الرسل إلى نور الدين فى حلب ، الذى كان جيشه الآن يهاجم ريموند هجوما مضادا فى أراض انطاكية ، فاستدعى الجيش للعودة فى الحال وطلب المساعدة من الحكام المسلمين فى الجوار . وفى يوم ٢ نوفمبر ظهر أمام الرها ، وبذا وقع جوسلين بينه وبين القلعة ، وارتأى أن فرصته الوحيدة فى الجلاء العاجل . وتمكن خلال الليل من التسلل خارجا مع رجاله ومع عدد كبير من المسيحيين الوطنيين ، ويمم وجهه شطر الفرات . وتبعه نور الدين عن كثب . وفى اليوم التالى دارت رحى المعركة . وصمد الفرنج صمودا جيدا إلى أن أمر جوسلين فى تهور بهجوم مضاد دحره المسلمون ، وتفتت الجيش الفرنجى مذعورا . وقتل بلدوين أمير مرعش فى ميدان المعركة ، وأصيب جوسلين بجرح فى رقبته ، وتمكن من الهرب مع حرسه الخاص ولاذ بسميساط حيث لحق به الأسقف اليعقوبى بازل . وألقى القبض على الأسقف الأرمينى جون واقتيد إلى حلب . وأما المسيحيون المحليون الذين تخلى عنهم الفرنج فقد قتلوا جميعا، وباتت نساؤهم إماء وأطفالهم رقيقا . وفى الرها تقرر نفى السكان المسيحيين جميعا . وأصبحت المدينة العظيمة ، التى يُدّعى بانها كانت اقدم كومنويلث مسيحي فى العالم ، خاوية موحشة ، ولم تبرأ قط حتى يومنا هذا(٣٤).

---

(٣٣) Ibn al-Qalanisi,pp.272-4; Ibn al-Athir,pp.455-6; see Cahen, 'Le Diyarbekr' in *Journal Asiatique*,1935, p.352.

(٣٤) William of Tyre, XVI, 14-16, pp.728-32; Matthew of Edessa, cclviii, pp.328-9 (giving the wrong date 1147-8); Michael the Syrian, III, pp.270-2. Basil the Doctor,

١١٤٧م : الفرنج يتخاصمون مع أنر

أيقن أعداء زنكى انهم لم يكسبوا من وفاته سوى القليل . فضلا عن أن ولديه ، برغم قلة المودة فيما بينهما ، كانا من الحكمة بحيث لم يتشاجرا . وبادر سيف الدين غازى ، برغم انشغاله الشديد مع الأراطقة ، بالترتيب لمقابلة مع أخيه ، تم فيها الإتفاق بسلام على تقسيم الميراث . فأخذ سيف الدين اراضى العراق ونور الدين اراضى سوريا. وفى نفس تلك الأثناء على وجه التقريب تعزز وضع نور الدين نتيجة لتصرف أحمق غير متوقع ارتكبه فرنج القدس . ففى وقت مبكر من عام ١١٤٧م ، قام أحد قواد أنر ، ألتونتاش ، والى بُصرى وصلخد الواقعتين فى حوران ، وكان أرمينيا ثم تحول إلى الإسلام ، بإعلان استقلاله عن دمشق وذهب إلى القدس ملتمسا تأييدها عارضا تسليم الفرنج بُصرى وصلخد إذا نصّبوه فى لوردية فى حوران . وكان تصرف الملكة مليسيند سليما جدا بدعوتها مجلسها لمناقشة الاقتراح . وكان قرارا هاما ذلك الذى سوف يتخذ؛ إذ أن مساندة ألتونتاش تعنى تمزيق التحالف مع دمشق . غير انه كان عرضا مغريا ، فأغلب سكان حوران من المسيحيين الملكيين[٣٥]، من الطائفة الأرثوذكسية. وبهذه المساعدة المسيحية سيكون من اليسير احتلال حوران ، والسيطرة عليها سوف تضع دمشق تحت رحمة الفرنج . وتردد البارونات ، ثم أمروا بأن يتجمع الجيش عند طبرية، غير انهم ارسلوا إلى أنر سفارة تقول إنهم اقترحوا تنصيب ألتونتاش . فغضب أنر ، لكنه رغب فى تجنب الانفصال خوفا من نورالدين ، فرد على الملكة يذكّرها بأنه وفقا لقانونها هي الخاص بالاقطاع ، لا يستطيع أي حاكم تأييد تابع لحاكم آخر تربطه بالأول علاقة صداقة إذا تمرد ذلك التابع على سيده ، وعرض تسديد أية مصروفات تكون قد تكبدتها من جراء تجهيز الحملة . فأرسلت الملكة فارسا يدعى برنارد فاشير إلى دمشق يقول إنها لسوء الحظ ملتزمة بتأييد ألتونتاش الذى سوف يعيده جيشها إلى بُصرى ، وتعهدت بعدم الحاق أى أذى بالأراضى الدمشقية بأى حال . وسرعان ما عاد برنارد وقد اقنعه أنر بأن الاقتراح يخلو من الحكمة والصواب . وأقنع الملك الصغير

Elegy on Baldwin, p.205; *Anon. Chron. Syr.* pp.292-7; Ibn al-Qalanisi, pp.274-5; Ibn al-Athir, pp.455-8 (and *Atabegs*, p. 156); *Bustan* p. 541.

(٣٥) (المترجم) المَلِكيون Melchites أو Melkites: تسمية تطلق على من أخذوا من مسيحيي سوريا ومصر بما انتهى اليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية . وللتفصيل انظر الجزء الأول ، ص ٣٢ ، الحاشية رقم (١).

بلدوين بآرائه ، وعندما نوقش الأمر مرة اخرى فى المجلس تقرر التخلى عن الحملة . ولكن حماس الجنود كان قد اشتد الآن ، وحنق قادة الدهماء فى الجيش لإلغاء غارة على الكفرة كانت ستعود عليهم بالأسلاب ، فأنكروا برنارد ورموه بالخيانة وأصروا على الحرب . فخاف الملك والبارونات وأذعنوا للدهماء .

وفى شهر مايو ١١٤٧م عبر الملك على رأس الجيش الفرنجى نهر الأردن ودخل الجولان . غير أن الأمر لم يكن ما توقعه الجنود من نصر مؤزر، ذلك أن أُنر كان قد أعد العدة تماما ، فراح جنوده التركمان خفيفو الحركة ومعهم أعراب المنطقة يضايقون جنود الفرنج أثناء كدحهم أعلى وادى اليرموك باتجاه درعا. وكان أُنر نفسه قد أرسل سفارة إلى حلب ملتمسا العون من نور الدين الذي ابتهج لهذه المناشدة . وولد تحالف . ووافق أُنر على منح يد ابنته إلى نور الدين ، الذى وعد بالحضور فورا لمساعدته ، وقد تقرر أن تعود حماه إلى نور الدين ولكن عليه أن يحترم استقلال دمشق . وفى نهاية مايو وصل الفرنج إلى درعا الواقعة على أكثر قليلا من منتصف المسافة بين الحدود وبُصرى، بينما سارع أُنر إلى صلخد الواقعة أبعد إلى الشرق ، والتي طلبت فيها حامية ألتونتاش الهدنة . وتحرك أُنر غربا كى ينضم إلى نورالدين الذى هبط من حلب بالسرعة القصوى. وزحفا معا إلى بُصرى فما كان من زوجة ألتونتاش إلا أن سلمتها إليهما ووصلت أنباء الاستسلام مساءً إلى الفرنج عندما وصلوا على مرمى البصر من بصرى وقد عانوا في ترحالهم غاية الرهق وشدة الظمأ، ومن ثم لم يتمكنوا من مهاجمة المسلمين، و لم يكن بوسعهم سوى التقهقر . وكانت رحلة الإياب أصعب من رحلة الذهاب، إذ سرعان ما تناقص الطعام ، والكثير من الآبار قد دمرت ، وتعلق الأعداء بمؤخرتهم يضايقونهم ويقتلون الجماعات الشاردة . وأبدى الملك الصبى بطولة عظيمة عندما رفض اقتراحا بأن يترك الجيش الرئيسى ويسرع إلى مأمن مع حرس شخصى يجرى اختياره ، وبفضل ما ضربه من مثل ظل الإنضباط فى حالة جيدة . وأخيرا قرر البارونات عقد السلام مع أُنر ، وأرسلوا رسولا يتحدث العربية ، ربما كان برنارد فاشر، يلتمس هدنة ، لكنه قتل فى الطريق . ومع ذلك ، وبوصول الجيش إلى الرحبة الواقعة على سفح جبل عجلون ، جاء رسول من أُنر عارضا إعادة تموين الفرنج. ذلك انه لم يشأ أن يمحو الجيش الفرنجى تماما مع وجود نور الدين على مقربة منه، ورفض الملك العرض فى غطرسة ، على انه لوحظ ظهور فارس غريب غامض على فرس ابيض يرفع راية قرمزية قاد الجيش بأمان إلى حدر . وبعد مناوشة أخيرة هناك عبر الجيش نهر الأردن عائدا إلى داخل فلسطين . وكانت الحملة باهظة التكاليف ولا مغزى لها .

وكشفت عن حماقة الفرنج في السياسة والاستراتيجية برغم ما قد يبدو عليهم من مهارة في القتال(٣٦).

١١٤٧ م : ارتفاع نجم نور الدين

لم تعد الحملة بالنفع على أحد سوى رجل واحد فقط هو نور الدين . واستعاد أنر حران في الواقع . وعندما ذهب ألتونتاش إلى دمشق راجيا المغفرة ، فقئت عيناه والقى في غيابة السجن ، ولحق الخزى بأصدقائه. على أن أنر بات مدركا إدراك اليائس لما أصبح عليه نور الدين من قوة. وشعر بالخطر على مستقبله وظل مشتاقا لاستعادة التحالف الفرنجى . ومع ذلك ، التزم نور الدين بمعاهدته مع أنر ، وعاد شمالا لمواصلة مهمته في تجريد الإمارة الأنطاكية من كل اراضيها الواقعة شرق العاصى . وفى نهاية ١١٤٧م ، كان قد استولى على أرتاح وكفرلاتا وبسرفوت والبلاط(٣٧).

وهكذا برز نور الدين العدو الرئيسى للمسيحيين . وهو الآن فى التاسعة والعشرين من عمره ، غير أن حكمته كانت أكبر من سنه ، بل كان معارضوه يعجبون بنزوعه إلى العدالة والاحسان والورع الصادق . وربما لم يبلغ مبلغ والده زنكى فى ذكائه العسكرى ، لكنه كان أقل قسوة وغدرا وأبعد شأوا فى صواب حكمه على الرجال . وكان وزراؤه وقواده على اقتدار واخلاص ، ومصادره المادية أقل مما كان عليه أبوه ، إذ كان بمقدور زنكى أن يطلب ثروات العراق الأعلى ، التى أمست الآن فى حوزة سيف الدين . ولذلك ورث سيف الدين مصاعب زنكى مع الأراتقة ومع الخليفة ومع السلطنة السلجوقية، تاركا نور الدين يوجه كل انتباهه إلى الغرب لا يشغله شاغل . وفضلا عن ذلك ، بقي ولدا زنكى مخلصين لرباطهما العائلى . إذ أن سيف الدين خليق بان يرسل العون إلى نور الدين وقت الشدة دون أن يطمع فى ضم نصيبه من اراضى الأسرة . وكان هناك ابن ثالث ، تم تنصيبه فى حران كتابع لنور الدين ، بينما كان أصغر افراد الأسرة قطب الدين ، ينشأ فى بلاط أخيه الأكبر فى الموصل . وغدا نور

---

(٣٦) William or Tyre, XVI, 8-13, pp. 715-28; Ibn al-Qalanisi, pp. 276-9; Abu Shama, pp. 50-3.

(٣٧) Kemal ad-din, ed. Blochet, pp. 515-16; Ibn al-Athir, pp.461-2

الدين ، بمتانة روابطه الأسـرية ، وبتحالفه مع أُنر ، في مـأمن مما قـد يشـكله رفاقه المسلمون من أخطار ، ومن ثمّ صار الرجـل المناسب تماما ليقـود الإسـلام في هجومه المضاد، ولكي لا يعمل مسيحيو الشرق على تركيز جهودهم ضده(٣٨).

(٣٨) Ibn al-Athir, p. 456, and *Atabegs*, pp.152-8

الباب الثالث:

الحملة الصليبية الثانية

الفصل الأول:

اجتماع الملوك

اجتماع الملوك

"قُمْ وَاعْمَلْ وَلْيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ"
(أخبار الأيام الأول ٢٢ : ١٦)

ما أن علمت القدس بسقوط الرها حتى أرسلت الملكة ميليسيند مبعوثيها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها بصدد إرسال سفارة إلى روما لإبلاغ البابا وطلب ارسال حملة صليبية جديدة . وتقرر اختيار هيو أسقف جبلة ليكون سفيرا ، لما أصاب من شهرة بين المسيحيين اللاتينيين لمعارضته مطالب الامبراطور حون . وبرغم حالة العاجلة التي اتصفت بها سفارته لم يصل الأسقف إلى المقر البابوي قبل خريف عام ١١٤٥م . وكان البابا إيوجينيوس الثالث فى مدينة فيتربو ، إذ كانت روما تحت سيطرة جماعة تزدرى الحكم البابوى . وكان بصحبته المؤرخ الألمانى أوتو (أوف فريزنجن) ، الذى سجل تلقى البابا للأنباء المرعبة على الرغم من أنه كان أكثر اهتماما هو نفسه بالمعلومات التى حملها أحد أساقفة عاهل مسيحيي فى شرق فارس ، يدعى حون من

النساطرة، ويحرز تقدما ناجحا ضد الكفرة[١]. وكان قد غزا فعلا العاصمة الفارسية Ecbatana (همدان) ، غير أنه اتجه إلى منطقة ثلجية فى الشمال حيث فقد عددا غفيرا من رجاله مما اضطره إلى العودة . وكان ذلك إيذانا بدخول بريستر جون الأسطورى فى صفحات التاريخ[٢].

ولم يشارك البابا إيوجينيوس المؤرخ فى آماله التى عقدها على بريستر جون فى انقاذ العالم المسيحى. وكان فى حالة من القلق البالغ . وفى ذات الوقت جاءه وفد من أساقفة الأرمن من كيليكيا، يتلهفون على المساعدة ضد بيزنطة[٣] . ولم يكن بوسع البابا اهمال واجباته نحو الشرق . وبينما ذهب الأسقف هيو لإطلاع عواهل فرنسا وألمانيا بأنباء الرها ، قرر البابا إيوجينيوس التبشير بحملة صليبية[٤] . على أن البابوية لم تكن فى وضع يمكّنها من توجيه الحركة على النحو الذى حاوله البابا إيربان ؛ فمنذ أن اعتلى إيوجينيوس عرش البابوية فى فبراير لم يتمكن من دخول روما ، وفضلا عن ذلك لم يكن قادرا على السفر عبر الألب . ولحسن الحظ كان على علاقة طيبة بالعاهلين الرئيسيين فى اوروبا الغربية ، إذ كان كونراد (أوف هوهينيشتافن) ملك ألمانيا مدينا بعرشه للمساندة الكنسية وقد قام الممثل البابوى بتويجه. وكانت العلاقات البابوية أكثر ودا مع لويس السابع ملك فرنسا الورِع التائب من بعض الجرائم التي ارتكبها فى وقت مبكر بسبب نفوذ زوجته إليانور الأكيتانية ، وارتضى أن يُسلِم قياد أمره كله للمستشارين الكنسيين ، وبصورة ملحوظة لرئيس دير رهبان كليرفو ، القديس برنارد. وقرر البابا أن يكون الملك لويس هو المستهدف لتقديم المساعدة للشرق ، أما كونراد ملك ألمانيا فكان فى احتياج لمساعدته فى ايطاليا لإخضاع الرومان وكبح طموحات روجر الثانى الصقلى ، ولم يشأ أن يتولى كونراد التزامات اخرى . وكان لويس ملكا للأراضى التى جاء منها أغلب أمراء ولوردات فرنج الشرق ، ومن ثم كان هو القائد المرشح لقيادة الحملة التى سوف تخلّصهم . وفى أول ديسمبر ١١٤٥م أصدر إيوجينيوس أمرا بابويا إلى الملك لويس وكافة الأمراء والمخلصين فى المملكة الفرنسية

---

(١) (المترجم) : النسطورية Nestorianism مذهب مسيحى هرطيقى يعزى الى البطريق نسطوريوس Nestorius (بطريق القسطنطينية ٤٢٨-٤٣١) القائل بوجود طبيعتين للمسيح ، إلهية وبشرية .

(٢) Otto of Freisingen, *Chronica*, pp. 363-7. See Gelber, *Papst Eugen* III, p. 36.

(٣) أنظر Tournebize, *Histoire Politic et Religieuse de l'Arménie,* pp.235-9.

(٤) *Chronicon Mauriniacense,* R.H.F. vol II, p.88; Otto Freisingen, *Gesta Friderici,* pp.54-7.

يحثهم على الذهاب لانقاذ العالم المسيحى الشرقى واعدا إياهم بالحفاظ على ممتلكاتهم في الحياة الدنيا وغفران خطاياهم في الحياة الآخرة(٥).

حملات صليبية متفرقة

ارتاع الغرب لسقوط الرها . وكانت حذوة الحملة الصليبية الأولى وحماسها قد هدأت بعد أن ألهب احتلال القدس خيال الرحال ، فكانوا يسارعون طواعية إلى تلبية النداءات الآتية من الشرق بطلب التعزيزات ، كما اتضح من الحملات الصليبية عام ١١٠١م . غير أن الحملات الصليبية عام ١١٠١م كانت نهاياتها فاجعة ، وبرغم ذلك صمدت دويلات الشرق الفرنجية وعززت مواقعها. وكانت التعزيزات ما تزال تفد على الشرق ، على ضآلتها البالغة، ولم ينقطع سيل المهاجرين الذين بقى الكثير منهم فترات طويلة بما يكفى لاشتراكاهم فى إحدى الحملات الصيفية . وكان من بين هؤلاء الحجاج زعماء من مثل سيجورد النرويجى ، أو كانت هناك جماعات كبيرة من الرعاع، كالانجليز، والفلاندرز من البلجيك والدانمركيين ، ممن جاءوا عام ١١٠٦م . وكانت المدن البحرية الإيطالية ترسل من حين لآخر أسطولا للمساعدة فى الاستيلاء على بعض الموانى ، وان كانت دوافعها المعلنة تتمثل فى المصالح التجارية ، كما كانت تجلب معها أعدادا متزايدة من التجار الايطاليين . غير انه منذ حكم بلدوين الأول قلّت حملات الحجاج المسلّحة هذه ، وكانت الحملة الوحيدة الملحوظة فى السنوات الأخيرة الحملة التى قادها صهر الملك فولك ، ثيرى كونت فلاندرز . وتواصل تدفق المهاجرين - من أصغر الأبناء المفلسين - مثل باليان (أوف تشارتر) مؤسس بيت إيبيلين (ينبة)، أو بارونات من أمثال هيو (أوف لو بواسيه) أو مناس (أوف هيرج) ممن كانوا يعقدون الآمال على استغلال علاقة القرابة بالبيت المالك . ومن العوامل الأكثر دواما ونفعا الفرسان الذين جاءوا للانضمام إلى النظامين العسكريين الكبيرين : فرسان المعبد وفرسان المستشفى ، اللذين أخذا تدريجيا فى مباشرة مهام الجيش الدائم للمملكة ، وكانت هبات الأراضى الكبيرة التى أغدقها التاج عليهم شاهدا على مدى التقدير الذى ينالونه . على انه منذ أن تبعثرت جيوش الحملة الصليبية الاولى ، لم تكن هناك قوة

---

(٥) Jaffé-Wattenbach, *Regesta,* no. 8796, vol. II, p. 26. Caspar, 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Newes Archiv,* vol XLV, pp.285-306K، ويثبت كاسبار أن تاريخ الأمر البابوى هو قطعا أول ديسمبر ١١٤٥، الأمر الذى ينسف النظرية الفرنسية القائلة بأن لويس السابع هو الذى حرّض على الحملة الصليبية.

فرنجية فى الشرق لديها من القدرة ما يكفى لشن هجوم كبير على الكفرة.

كانت صدمة الكارثة فى الرها ضرورية لإثارة الغرب مرة اخرى . ففى ذلك الوقت بدت الدويلات الصليبية فى سوريا فى منظور أوروبا الغربية مجرد الجناح الأيسر للحملة المضادة للاسلام باتساع البحر الابيض المتوسط ، وأسبانيا جناحها الأيمن حيث كانت ما تزال هناك مهام يقوم بها الفارس المسيحى . وكان تقدم الصليب فى اسبانيا قد توقف فى العقدين الثانى والثالث من القرن الثاني عشر بسبب المشاحرات التى جرت بين الملكة أوراكا ملكة قشتالة وزوجها الملك ألفونسو الأول ملك أراجون . غير أن ابن الملكة، ألفونسو السابع، ووريثها من زواجها الأول البرجندى أحدث نهضة فى قشتالة . وبعد ست سنوات من استخلافه بدأ سلسلة من الحملات ضد المسلمين جاءت به فى عام ١١٤٧م إلى بوابات قرطبة حيث تم الاعتراف بسيادته العليا . وقد سبق أن اتخذ لنفسه عام ١١٣٤م لقب امبراطور ليُظهر انه السيد الأعلى لشبه الجزيرة وأنه ليس تابعا لأحد . وفى تلك الأثناء تحرر ألفونسو الأول من مشاكل كاستيل المعقدة بموت زوجته أوراكا، فأمضى سنواته الأخيرة وهو يبادر بالهجوم فى مورسيا Murcia بدرجات متفاوته من النجاح . وعلى طول الساحل راح ريموند برينجار الثالث كونت برشلونة ، يوسّع من سلطانه جنوبا . ومات ألفونسو الأول عام ١١٣٤م ، وحكم أخوه الراهب السابق راميرو حكما مشؤوما لثلاث سنوات . وفى عام ١١٣٧م زُوجت ابنته البالغة من العمر سنتين - الملكة بترونيلا - من ريموند برينجار الرابع عاهل برشلونة ، واتحدت قطالونية وأراجون فى قوة واحدة مكّنتها بحريتها القوية من استكمال استعادة شمال شرق اسبانيا وهكذا كانت الأمور فى عام ١١٤٥م تسير على ما يرام على المسرح الأسبانى ، غير أن عاصفة كانت تتجمّع . ذلك أن المرابطين، الذين سيطروا على أسبانيا المسلمة طوال النصف الأخير من القرن ، وقعوا فريسة اضمحلال لا مخرج يرتجى منه . وحل محلهم فى افريقيا الموحدون ، وهم يمثلون طائفة من المصلحين النسّاك ، تكاد عقيدتهم اللاهوتية أن تكون غنوصية[٦]. وكانوا يصرون على أنهم طبقة من المقتدرين ، أسسها ولي من أولياء البربر يدعى ابن تومرت ، وواصل خليفته عبد المؤمن نشاط هذا المذهب بمزيد من العنف فهزم زعيم المرابطين - تاشفين بن على - وقتله بالقرب من تلمسان عام ١١٤٥م ، وفى العام التالى استكمل الاستيلاء

---

(٦) (المترجم) : الغنوصية Gnosticism or Gnosis : معرفة الأمور الروحية . وتطلق عموما على طائفة مسيحية هرطيقية فى القرن الأول حتى القرن الثالث كان أفرادها يدّعون معرفتهم بالأمور الروحية.

على المغرب واصبح على استعداد للانتقال إلى اسبانيا[٧] . ونتيجة لتلك التوقعات لم يلق الفرسان المسيحيون فى اسبانيا بالاً للنداء الآتى من الشرق . ومن الناحية الاخرى، وبعد أن تأسست الممالك الأسبانية بصورة مضمونة الآن ، لم يعد هؤلاء الفرسان يوفرون لفرسان وامراء فرنسا نفس النطاق الذى كان سائدا فى القرن المنصرم .

الملك روجر الثانى الصِقِلّى

احتل الملك روجر الثانى الصقلى مركز الصدارة فى ميدان القتال ضد الاسلام . وكان قد وحّد كافة الأراضى النورماندية فى ايطاليا واتخذ لنفسه اللقب الملكى عام ١١٣٠م . وقد وعى جيدا ما لمملكته من أهمية استراتيجية ، إذ كانت ذا موقع مثالى للسيطرة على البحر المتوسط . غير أنه لكى يستكمل تلك السيطرة كان ضروريا أن يكون له موطئ قدم على الساحل الافريقى قبالة صقلية . واتيحت لروجر الفرصة لما ساد بين الاسر الحاكمة الاسلامية من مشاحنات وندبّة فى شمال افريقية ، فاقم من حدّتها اضمحلال قوة المرابطين فى المغرب وضعف السيادة الفاطمية فى تونس ، فضلا عن أن المدن الافريقية كانت تعتمد على واردات الحبوب من صقلية . غير أن حملاته الأولى من ١١٢٣ إلى ١١٢٨م لم تعد عليه بنفع يذكر سوى حصوله على جزيرة مالطة. وفى عام ١١٣٤م ، وبمساعدة قضائية جاءته فى وقتها ، استمال الحسن - صاحب مهدية - إلى قبول سيادته العليا ، وفى العام التالى احتل جزيرة جربه الواقعة فى خليج قابس وانفتحت شهيّته بغارات ناجحة على السفن الاسلامية ، فبدأ فى مهاجمة المدن الساحلية ، وفى يونية ١١٤٣ دخل جنوده طرابلس لكنهم أجبروا على الانسحاب . وبعد ثلاث سنوات كاملة أعاد احتلال المدينة ، فى وقت اندلاع ثورة داخلية فيها كانت تنصّب أميرا من امراء المرابطين حاكما عليها ، وتعذر إخراجه منها هذه المرة ، وغدت طرابلس نواة لمستعمرة نورماندية فى افريقيا[٨] .

وهكذا أصبح الملك روجر مناسبا بصورة تثير الإعجاب للاشتراك فى الحملة الصليبية الجديدة. غير انه كان موضع ريبة . فلم يكن سلوكه سلوك من يستشعر الواجب إزاء البابوية قط ونادرا ما كان يوليها المراعاة الواجبة . وقد شعر ذوو السلطان

---

(٧) عن المهادنين انظر Codera, *Decadencia y Desaparicion de los Almoravids en Espana*، ومقال Bel عن 'Almohads' فى دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam*.

(٨) Chalandon, *Domination Normande en Italie*, pp. 158-65.

الآخرون فى أوروبا بالامتعاض من تجرؤه على تتويج نفسه ملكا؛ وقد علّق القديس برنار في رسالته إلى لوثير ملك ألمانيا قائلا: "إن من يجعل من نفسه ملكا لصقلية فإنما يهاجم الامبراطور"(٩). ويعنى اعتراض القديس برنار عدم موافقة الرأى العام الفرنسى . وكان روجر ما يزال يفتقر إلى الشعبية بين امراء الشرق ؛ إذ أظهر بجلاء انه لم يغفر البتة لمملكة القدس اساءة معاملتها لوالدته أديلايدى ، وفشلها فى استخلافه ملكا للقدس على نحو ما ينص عليه عقد الزواج ، وكان يطالب بأنطاكية ميراثا باعتباره الوريث الوحيد من الذكور من ذرية ابن عمه بوهمند . لقد كان وجوده فى الحملة الصليبية غير مرغوب فيه ، لكن الآمال كانت معقودة عليه للمضى فى حربه على الاسلام فى منطقته الخاصة به(١٠).

ومن اليسير تفهم اختيار البابا للملك فرنسا ، لويس ، لتنظيم الحملة الصليبية الجديدة ، وقد استجاب الملك للنداء متلهفا . وعندما وصل الأمر البابوى ، الذى جاء بعد وقت قصير من وصول الأنباء التى حملها أسقف جبله ، كان لويس قد أصدر لتوه استدعاء لكبار مستأجري الأرض لمقابلته في يوم عيد الميلاد فى بورج. وعندما اجتمعوا اخبرهم أنه قد قرر أن يأخذ الصليب ورجاهم أن يحذوا حذوه . وداهمته مشاعر الأسف فى خيبة أمله من ردهم ؛ فلم يظهر عوام النبلاء حماسا لطلبه ، وأعرب رجل الدولة البارز في المملكة - سوجر ، رئيس دير رهبان سانت دينيس - عن عدم موافقته على غياب الملك المتوقع . ولم يفصح أحد عن مؤازرته لسيده سوى أسقف لانجر(١١).

١١٤٦م : التجمع فى فيزيلاى

ثبطت همة الملك لويس لما أظهره أتباعه من عدم المبالاة ، فقرر إرجاء مناشدته ثلاثة أشهر ، واستدعى تجمعا آخر لمقابلته فى فيزيلاى يوم عيد الفصح ، وفى ذات الوقت كتب يطلع البابا على رغبته فى قيادة حملة صليبية ، وأرسل إلى الرجل الوحيد فى فرنسا الذى كان له من السلطة ما يفوق سلطته هو نفسه ، ألا وهو برنار رئيس دير رهبان كليرفو . وكان القديس برنار الآن فى ذروة شهرته . ومن العسير علينا الآن

---

(٩) Saint Bernard, letter no. 139, in M.P.L. vol. CLXXXII, col. 294.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 22-3.

(١١) Vita Sugerii Abbatis, pp. 393 ff.; Odo of Deuil, p. 121

أن نلتفت وراءنا عبر القرون لنعرب عن تقديرنا لما كان له من نفوذ رائع على كل من عرفوه ؛ إذ أن لهيب فصاحته فقد رواءه فيما بقى من كلمات مكتوبة . ولكونه لاهوتيا مجادلا بدا الآن صارما فظّا جافيا ، لكنه منذ اليوم الذى عُين فيه رئيسا لدير رهبان كليرفو عام ١١١٥م ، وهو آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمره، وحتى وفاته بعد ذلك بأربعين سنة تقريبا ، كان صاحب الأثر المهيمن على الحياة الدينية والسياسية فى اوروبا الغربية : فهو الذى أعطى النظام البندكتى قوته الدافعة ، وهو وحده - دون معين فى الأغلب - الذى انقذ البابوية من رغام الصدع الذى كاد يسببه أناكليتوس[١٢]، إذ كان فى وعظه حماس واخلاص ، وكان شجاعا قويا ، وقد خلت حياته مما يعيبها، فكانت تلك المزايا تجتمع لديه وتمكّنه من الانتصار لأية قضية يمنحها مؤازرته ، باستثناء قضية واحدة فقط هي حالة طائفة الكثار المريرة فى لانجدوك[١٣]. وكان مهتما منذ زمن طويل بمصير العالم المسيحى الشرقى وسبق أن أسهم هو نفسه عام ١١٢٨م فى وضع مبدأ انشاء نظام فرسان المعبد . وعندما ترجاه البابا والملك

---

(١٢) (المترجم): بعد وفاه البابا هونوريوس الثانى عام ١١٣٠م انتخب اغلب الكرادلة أناكليتوس الثانى Anacletus II ، وانتخبت أقلية الكرادلة إينوسنت الثانى Innocent II ، ورُسم البابوان كلاهما مما أنذر بصدع فى الكنيسة جسيم . ودعا الملك الفرنسى لويس السادس ملك فرنسا (السمين) مجلسا لتقرير الشرعية البابوية عام ١١٣٠م ، فاختار المجلس البابا إينوسنت لكن أناكليتوس أجبر غريمه إينوسنت على الهرب الى فرنسا حيث آيده الراهب القديس برنار (اوف كليرفو) الذى هاجم انحدار أناكليتوس من أسلافه اليهود . وبرغم تحالف أناكليتوس مع الملك روجر الصقلى الطموح ، فقد تغلب مناصرو إينوسينت بمن فيهم الإمبراطور البيزنطى جون الثانى كومنينوس والامبراطور الالمانى لوثير الثانى على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الذى اصطحب اينوسنت وقاد جيشا ألمانيا عام ١١٣٢م واحتل روما كلها ماعدا الجزء الذى يحتله انصار أناكليتوس. وبعد رحيل لوثير أجبر أناكليتوس غريمه إينوسنت على الهرب من روما مرة اخرى فلجأ الى بيزا حيث عقد مجلسا عام ١١٣٤ م وأعلن الحكم على أناكليتوس بالحرمان الكنيسى . وتمكن الامبراطور لوثير فى حملته الثانية (١١٣٦-٧) من طرد روجر الصقلى من جنوب ايطاليا ، وبذا أمسى أناكليتوس بقليل من المناصرين، فمات منهيا بذلك الصدع الوشيك ، ولكن الآراء منقسمة حول تلك المسألة حتى يومنا هذا .

(١٣) (المترجم) : الكثار Cathari: طائفة مسيحية هرطيقية ازدهرت فى القرنين ١٢ و١٣ فى لانجدوك Languedoc فى جنوب فرنسا وانحاء من اوروبا الغربية. اعتنقت ثنائية مانوية جديدة ذات مبدأين : مبدأ الخير ومبدأ الشر ، قالت إن المادة شر والإنسان مغترب فى هذا العالم الشرير . كانت لها قواعد صوم صارمة منها الامتناع التام عن اكل اللحوم . حظرت المضاجعة الجنسية ونادت بالتبرؤ التام النسكى من العالم . أعادت كتابة القصة الانجيلية وطوّرت خرافة مدروسة لتحل محلها بعد ان تحفظت على أغلب العهد القديم الذى أنكره بعض أفرادها برمته . ورفضت مبدأ التجسد Incarnation وليس عيسى عليه السلام سوى ملاك ، وما آلامه البشرية وموته إلا مجرد وهم . وهاجمت فساد الكنيسة الكاثوليكية واهتماماتها الدنيوية هجوما لاذعا. جرّدت الكنيسة الكاثوليكية ضدها الحملة الصليبية الألبنسية the Albigensian Crusade وراح بارونات شمال فرنسا يخربون تولوز وبروفانس ويقتلون الكثار والكاثوليك على السواء.

للمساعدة فى التبشير بالحملة الصليبية لبّى النداء بشغف[١٤].

وتجمعت الحشود فى فيزيلاى Vèzèlay يوم ٣١ مارس ١١٤٦م ، وبانتشار الأنباء بأن القديس برنار سوف يبشّر فى هذا الجمع ، جاء الزائرون من سائر انحاء فرنسا . وكما حدث فى كليرمونت منذ نصف قرن ، كان الحشد من الضخامة بحيث تعذر اجتماعه فى الكاتدرائية ، فتحدث القديس برنار وهو يعتلى منصة أقيمت فى حقل خارج المدينة الصغيرة . ولم تسجل الأجيال كلماته ، وانما نعرف فقط انه قرأ الأمر البابوى الداعى إلى حملة مقدسة مع وعد المغفرة لكل من يشارك فيها ، ثم استغل فصاحته التى لا تبارى كى يوضح العجالة التى تتطلبها الدعوة البابوية . وسرعان ما وقع الحاضرون أسرى لنفوذه الطاغى ، وبدأ رجال يصيحون طالبين الصلبان - "الصلبان ، اعطونا الصلبان !" - ولم يمض طويل وقت قبل أن تنفد المواد التى سبق اعدادها لخياطة الصليب، فنضى القديس برنار رداءه الخارجى والقى به لتمزيقه إلى صلبان صغيرة، وغربت الشمس ولا زال هو ومساعدوه يخيطون الصلبان، إذ كان المخلصون الذين نذروا انفسهم للذهاب فى الحملة الصليبية يفدون بأعداد آخذة فى التزايد[١٥].

وكان الملك لويس أول من أخذ الصليب . وتلهف اتباعه على أن يحذوا حذوه وقد نسوا ما أبدوه من برود سابق . وكان من بينهم أخوه روبرت كونت دريو ، وألفونسو - جوردان كونت تولوز الذى ولد هو نفسه فى الشرق ، ووليم كونت نفرس الذى قاد أبوه إحدى الحملات الفاشلة عام ١١٠١م ، وهنرى وريث كونتية شامباني ، وثييرى (اوف فلاندرز) الذى سبق له أن حارب في الشرق وكانت زوجته ابنة (فولك) زوج الملكة ميليسيند ، وأماديوس (اوف سافوى) عم الملك ، وأرشمبالد كونت بوربون ، وأراس وليزيو من أساقفة لانجر وكثير من نبلاء المرتبة الثانية . وجاءت الاستجابة الأعظم حتى من رعاع الناس[١٦]. واستطاع القديس برنار أن يكتب للبابا

---

(١٤) Odo of Deuil, p. 21. واستنادا الى Otto Freisingen فإن البارونات رغبوا فى استشارة القديس برنار قبل أن يلزموا انفسهم (Gesta Friderici,p. 58) وعن القديس برنار وفرسان المعبد ، أنظر Vacandard, *Vie de Saint Bernard, ii*, pp.227-49.

(١٥) Odo of Deuil, p. 22; *Chronicon Mauriniacense, loc. cit;* Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp. 158-60.

(١٦) كان أسقف لانجر هو Godfrey de la Roch Faillèe، وكان راهب كليرفو ويمت الى القديس برنار بصلة قرابة . ولا نعرف سوى القليل عن أسقف أراس Alvisus الذى كان سابقا رئيسا لدير أنشين . وجعلته الأساطير المتأخرة أخا لـ Suger دون أى أساس لذلك . وكان أسقف ليزيو Arnulf of Séez

بعد ذلك بأيام قليلة قائلا : "أنت أمرت . وأنا أطعت . وسلطة من أعطى الأمر جعلت طاعتي مثمرة . قد فتحت فمي . تكلمت . وعلى الفور تضاعفت اعداد الصليبيين إلى ما لا نهاية . القرى والمدن الآن مهجورة . ستجد بالكاد رجلا واحدا لكل سبع نساء . وفي كل مكان ترى أرامل لا يزال أزواجهن على قيد الحياة."(١٧) .

١١٤٦م : القديس برنار في المانيا

وإذ تشجع القديس برنار بما صادفه من نجاح ، قام بجولة فى برجندى واللورين وفلندرز ، يبشر بالحملة الصليبية في طريقه . وبينما كان فى فلاندرز تلقى رسالة من رئيس اساقفة كولونيا يترجاه الحضور على الفور إلى أراضى الراين ؛ ذلك أنه كما حدث في ايام الحملة الصليبية الأولى ، فإن ما أثارته أنباء الحركة من حماس انقلب ضد اليهود . ففى فرنسا اشتكى رئيس دير رهبان كلانى ، بطرس الموقر، من أن اليهود لا يدفعون اسهاما ماليا لإنقاذ العالم المسيحى ؛ وفى ألمانيا اتخذ الازدراء لليهود شكلا أكثر شراسة ؛ إذ أن راهبا بندكتيا متعصبا يدعى رودولف راح ينفث الإيحاء بمذابح لليهود فى كافة انحاء أراضى الراين : فى كولونيا ومينز وورمز وسبير وستراسبورج . وبذل رئيسا أساقفة كولونيا ومينز ما فى وسعهما لإنقاذ الضحايا ، إلى أن استدعيا برنار أخيرا للتعامل مع البندكتي. فسارع برنار بالرحيل من فلاندرز وأمر بعودة رودولف إلى ديره . وعندما عاد الهدوء مكث برنار فى المانيا ، إذ بدا له أن على الألمان كذلك الإنضمام إلى الحملة الصليبية(١٨) .

ولم يكن للألمان دور متميز حتى الآن فى الحركة الصليبية . وانما كان حماسهم

دارسا كلاسيكيا للأذواق العلمانية المتميزة . وقد اعتبر أسقفا لانجر وليزيو نفسيهما أنهما وقد منحا وضع المندوبين البابويين، رغم ان المندوبين البابويين كانا فى الواقع هما Theodwin الألمانى كاردينال بورتو، و Florentine كاردينال جويدو . واعتبر John of Salisbury فى *Historia Pontificalis*, pp. 54-5 أن المشاحنات التى دارت بين الأسقفين وازدراءهما المشترك للكاردينالين تعزى بدرجة كبيرة الى فشل الحملة الصليبية . وكان يعتقد ان Godfrey of Langres أكثر تعقلا من Arnulf of Lisieux.

(١٧) St Bernard, letter no. 247, in *op. cit.* col.447

(١٨) St. Bernard, letters no. 363, 365, in *op. cit.* cols. 564-8, 570-1; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 58-9; Joseph ben Joshua ben Meir, *Chronicle*, trans. Biellablotzky, I, pp. 116-29. وساعد الشائعات التى انتشرت عن قتل اليهود لطفل مسيحى فى نورويش على اثارة المشاعر ضدهم . انظر Vacandard, op.cit. II, pp. 274-81 .

المسيحى موجها نحو التنصير القسرى للسلافيين الوثنيين على حدودهم الشرقية . فمنذ بداية القرن كان العمل التبشيرى والاستعمار الألمانى يجريان على قدم وساق فى المقاطعات السلافية في بوميرانا وبراندنبرج ؛ وقد اعتبر اللوردات الألمان أن توسع العالم المسيحى هذا عمل يفوق فى اهميته الحرب ضد الاسلام الذي بدأ تهديده لهم نائيا ونظريا ، ومن ثم أعرضوا عن الاستجابة لتبشير القديس برنار . كما لم يكن ملكهم كونراد (أوف هوهينشتافن) ، برغم اعجابه الشديد بالقديس ، أكثر تلهفا للإنصات اليه . فكانت لديه اهتمامات فى البحر المتوسط ، غير انها كانت مقيدة بايطاليا حيث وعد البابا بتقديم المساعدة ضد الرومان المتمردين وضد روجر الصقلى ، لقاء تتويجه الامبراطورى الذى يتمناه . كما أن وضعه فى المانيا نفسها لم يكن مستقرا. فبرغم انتصاره فى فينسبرج عام ١١٤٠م إلا أنه كان يلقى العداوة من مناصرى بيت ويلف ، وفى الوقت ذاته كانت التصرفات الغريبة من اخوته واخواته غير الأشقاء تثير له المتاعب بطول جناحه الشرقي . وكتب القديس برنار إلى الأساقفة الألمان ليضمن تعاونهم. ثم قابل الملك فى فرانكفورت فى خريف عام ١١٤٦م ، لكن كونراد راوغه؛ وتهيأ برنار للعودة إلى كليرفو لولا أن توسل اليه الأساقفة مواصلة تبشيره بالحملة الصليبية فى فريبورج ، وبازل ، وشافهاوزن ، وكونستانس. وسرعان ما نجحت الجولة حتى مع ضرورة ترجمة المواعظ الدينية بمعرفة مترجم ألمانى . وتدافعت قطعان الرعاع ليأخذوا الصليب . وفشلت المحاصيل فى المانيا ذلك العام وانتشرت المجاعة. والتضور جوعا خليق بأن يولد شعورا غامضا بالنشوة ؛ والأرجح أن الكثيرين ممن استمعوا إلى برنار قد ظنوا – كشأن حجاج الحملة الصليبية الأولى – أن الرحلة ستوصلهم إلى فردوس اورشليم الجديدة فى السماوات(١٩).

ووافق الملك كونراد على مقابلة القديس برنار مرة اخرى فى يوم عيد الميلاد من عام ١١٤٦م أثناء عقده لمجلس تشريعى فى مدينة سباير . ومرة ثانية طلب القديس برنار من الملك فى موعظته يوم عيد الميلاد أن يأخذ الصليب ، لكن نداءه لم يحرك من الملك ساكنا. على انه بعد يومين ألقى برنار موعظة اخرى أمام البلاط ، وتحدث كما لو كان هو المسيح نفسه مطوّقا الملك ومذكّرا إيّاه بالأفضال التى أمطرتها

---

(١٩) Bernhardi, *Konrad III*, oo, 563-78k الذى يورد موجزا كاملا للحملات الصليبية ضد السلافيين . وفى St Bernard's letter no. ٤٥٧ (*op. cit.* cols. 651-2) يأمر القديس مسيحيى المانيا بالخروج فى الحملة الصليبية فى الشرق . وفى رقم ٤٥٨ cols.652-4 يصدر نفس الأمر للملك بوهيميا وشعبها. والمورخون من مثل William of Tyre, Odo of Deuil وأغلب المؤرخين المعاصرين يشيرون الى كونراد على انه امبراطور ، غير انه فى الواقع لم يتلق قط تتويجا امبراطوريا .

السماء عليه ، وصاح به قائلا : "يا إنسان ، ما الذى كـان ينبغـى لى أن افعلـه لـك و لم أفعله ؟" فتحركت مشاعر كونراد فى اعماقه ووعد باتباع اوامر القديس[٢٠].

ورحل القديس برنار عن المانيا وقد تملكته الغبطة بما أنجزه من عمل . وسافر خلال شرقى فرنسا يشرف على ترتيبات الحملة الصليبية وراح يكتب للبيـوت البنديكتيـة فـى كافة انحاء أوربا يأمرها بتشجيع الحركة . وعاد إلى المانيا فى شهر مارس للمساعدة فـى مجلس فى فرانكفورت عندما تقرر ارسال حملة صليبية ضد السلاف شـرقى أولدنـبرج . وكان المقصود من وجوده أن يُظهر انه بينمـا ينـاصر حملـة صليبيـة فـى الشـرق فإنـه لا يرغـب فـى أن يهمـل الألمـان واحبـاتهم الأقـرب . وعلـى الرغـم مـن أن البابـا سمـح للمشتركين بارتداء الصليب فـى هـذه الحملـة الصليبيـة، إلا أنهـا أخفقـت إخفاقـا تامـا تسبب بدرجـة كبيرة فـى تـأخر تحـول السـلاف إلى المسيحية . وسـارع برنـار مـن فرانكفورت إلى دير رهبانه فى كليرفو ليستقبل البابا الزائر[٢١].

١١٤٧م : البابا إيوجينيوس فى فرنسا

كان البابا إيوجينيوس قد امضى عيد الميلاد من عـام ١١٤٥م فـى رومـا ؛ غـير أن المتاعب مع أهل روما أجبرته على سرعة انسحابه مرة اخرى فى فيتربو ، بينما خضعـت روما نفسها لتأثير المحرض على الاثارة ضد الكنيسـة ، أرنولـد (اوف بريشـيا) . وتحقـق ايوجينيوس من انه بدون مساعدة الملك كونراد لن يتسنّى له إعـادة تنصيـب نفسـه فـى المدينة المقدسة ، وفى ذات الوقت قرر عبور جبال الألب إلى فرنسا لمقابلة الملـك لويـس والاشراف على الحملة الصليبية ، فغادر فيتربو فـى شـهر ينـاير ١١٤٧م ووصـل مدينـة ليون يوم ٢٢ مـارس . وتلقى اثناء ترحاله أنباء عما بذله القديس برنار من أنشطة، فلم يُسر تماما لذلك . ذلك أن احساسه العملى جعله يتخيل حملـة صليبيـة فرنسـية خالصـة تحت الزعامة العلمانية لملك فرنسا وبدون القيادة المنقسمة التى كادت أن تحطّـم الحملـة الصليبية الأولى ، وها هو القديس برنار قد حول الحركة إلى مغامرة دولية ؛ ومن الجـائز

(٢٠) Otto of Freisingen, *Gesta Fridericik*, pp. 60-3; *Vita S. Bernardi*, cols. 381-3 . ويحتمـل ان يكون كونراد قد تأثر بسماعه ان غريمه Welf VI of Bavaria قرر ان يـأخذ الصليـب . (انظـر Cosack, 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug' in *Mitteilungen des Institus fur osterreichische Geschichtsforschung,* vol XXXV؛ غير ان قرار ويلف أعلن لكونراد فى وقـت قصير جدا بحيث لم يكد هذا الأخير ان يسمع به أنظر Gleber, *op. cit.* pp.53-4).

(٢١) See St Bernard, letter no. 457, *loc. cit;* Vacandard, *op.cit.* II, pp. 297-8

حدا عمليا أن ترجح كفة المنافسة بين الملوك على كفّة تصوراته الرائعة. وفضلا عن ذلك ، سوف يحرم البابا من مساعدة الملك كونراد التى يعلق عليها الآمال فى ايطاليا . فاستقبل أنباء الاشتراك الألمانى استقبالا غاية فى البرود . لكنه لم يكن بوسعه منع الألمان من الاشتراك(٢٢).

وقابل البابا الملك لويس فى ديجون أثناء الرحلة فى فرنسا فى الأيام الأولى من ابريل، ووصل كليرفو يوم ٦ ابريل . وارسل اليه الملك كونراد سفارة هناك يلتمس مقابلته فى ستراسبورج يوم ١٨ من الشهر ؛ لكن ايوجينيوس كان قد وعد بتمضية عيد الفصح - يوم ٢٠ ابريل - فى سانت دينيس ولن يغير من خططه . وأعد كونراد العدة للرحيل إلى الشرق دون مباركة من البابا شخصيا . وفى تلك الأثناء أجرى إيوجينيوس مقابلات عديدة مع الراهب سوجر الذى كان مقررا أن يحكم فرنسا أثناء غيبة الملك لويس. وعقد مجلسا فى باريس للتعامل مع هرطقة جيلبرت (اوف دى لا بوريه) ، وقابل لويس مرة اخرى فى سانت دينيس يوم ١١ يونية . وبينما كان لويس يستكمل ترتيباته الأخيرة ، رحل البابا ببطء جنوبا للعودة إلى ايطاليا(٢٣).

وفي الوقت الذي كان ملكا فرنسا وألمانيا يعدان فيه العدة للحملة الصليبية ويخططان لرحلة برية طويلة ، كانت هناك حملة أكثر تواضعا تتألف من إنجليز مع بعض البلجيكيين من الفلاندرز وأبناء شمال هولندا (من الفريزيين) ، استلهموا ما قام به عملاء القديس برنار من تبشير بالخروج بحرا إلى فلسطين . فأبحرت السفن من انجلترا فى اواخر الربيع من عام ١١٤٧م ؛ وفى أوائل يونية أجبرها سوء الأحوال الجوية على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل البرتغالى . وقابلهم مبعوثو ألفونس هنرى ، كونت البرتغال ، الذى كان قد حقق استقلال بلاده مؤخرا وكان يتفاوض مع البابوية على منحه لقب ملك بمبرر نجاحه فى حملاته ضد المسلمين. وكان قد استغل ما يواجهه المرابطون من صعوبات وانتزع نصرا كبيرا فى عريق عام ١١٣٩م ، وفى عام ١١٤٧م كان قد وصل إلى ضفاف نهر التاجة بعد استيلائه على شنترين. وقد رغب الآن فى مهاجمة العاصمة الاسلامية لشبونة وكان فى حاجة إلى مساعدة بحرية . وجاء وصول الصليبيين فى وقته المناسب. إذ أكّد لهم مبعوثه ، أسقف أوبورتو ، عدم الحاجة إلى القيام برحلة طويلة إلى فلسطين اذا كانوا يريدون الحرب من اجل الصليب ؛ فهنا كفرة

---

(٢٢) See Gleber, *op. cit.* pp. 22-7, 48-61

(٢٣) Odo of Deuil, pp. 24-5

فى متناول اليد ، ولن ينال الصليبيون الجدارة الروحية فحسب ، وانما أمامهم ضياع غنية يمكنهم الفوز بها هنا والآن . فوافق البلجيكيون والفريزيون من فورهم ، لكن أفراد الفصيلة الانجليزية ترددوا ، إذ أخذوا على أنفسهم العهد بالذهاب إلى القدس، وكان الأسقف قد أفلح فى اقناع قائدهم ، هنرى جلانفيل حاكم سافوك ، بالبقاء . واضطر قائد الفصيلة الانجليزية إلى بذل كل ما فى وسعه من نفوذ لتحريض افراد فصيلته على البقاء. وبعد أن تم الإتفاق على الشروط أبحر الأسطول الصغير جنوب نهر التاجة للانضمام إلى الجيش البرتغالى ؛ وبدأ حصار لشبونة . ودافع المسلمون عن مدينتهم ببسالة ، و لم تستسلم الحامية الا فى اكتوبر، بعد أربعة اشهر ، بعد ضمانات بالمحافظة على ارواح أفرادها وممتلكاتهم. وعلى الفور نقض الصليبيون عهدهم وانغمست أيديهم فى مذبحة كبيرة للكفرة قام بعدها أفراد الفصيلة الانجليزية بتبادل التهنئة على ما قدموه من "فضيلة" ، مع أنهم لم يلعبوا فيها سوى دور ضئيل . وبعد انتهاء الحملة واصل بعض الصليبيين رحلتهم إلى الشرق ، غير أن اغلبهم بقى فى حالة استيطان تحت التاج البرتغالى . ورغم أن هذه الحادثة كانت إيذانا بتحالف طويل بين انجلترا والبرتغال ، وبرغم انها كانت بمثابة إرساء القواعد لانتشار المسيحية وراء المحيطات ، فإنها لم تفعل سوى القليل لمساعدة المسيحيين فى الشرق حيث كانت القوة البحرية بالغة الأهمية للقضية[٢٤].

١١٤٧م : الملك كونراد يغادر المانيا

فى الوقت الذى تأخر فيه الشماليون فى البرتغالى كان ملكا فرنسا والمانيا قد شرعا فى الرحيل برا إلى الشرق . وكان الملك روجر الصقلى قد أرسل إلى كل منهما يعرض نقلهما ونقل جيشيهما بحرا. وكان طبيعيا أن يرفض كونراد ذلك العرض إذ كان لفترة طويلة عدوا لروجر ، وكذلك فعل لويس . و لم يكن البابا راغبا فى تعاون روجر ؛ ومن المشكوك فيه ما اذا كانت البحرية الصقلية من الضخامة بحيث تحمل كل الجنود الذاهبين فى الحملة الصليبية . و لم يكن لويس راغبا فى أن يسلم نفسه - وقد انفصل عن نصف جيشه - إلى رجل اشتهر بماضي نفاقه الحافل فضلا عن كونه عدوا لدودا لعم الملكة

---

(٢٤) المصدر الرئيسى الأصلى للحملة الصليبية البرتغالية هو Osborn, *De expugnatione Lyxbonensi,* مطبوع فى Stubbs *Memorials of the Reign of Richard I,* vol. I, pp. CXLIV-CLXXXII. أنظر ايضا Ermann, 'Die Kreuzzugegedanke in Purtugal' in *Historische Zeitschrift* , vol CXLI, pp.23-53.

الفرنسية . فكان السفر برا أكثر أمانا وأقل تكلفة(٢٥).

وانتوى الملك كونراد مغادرة ألمانيا في عيد الفصح من عام ١١٤٧م ، وكان قد تلقى سفارة بيزنطية في ديسمبر في مدينة شبير ، أخبرها برحيله الفورى إلى الشرق . على انه لم يبدأ رحلته في واقع الأمر إلاّ في نهاية مايو . وغادر راتيسبون في الأيام الأخيرة من الشهر وعبر إلى هنجاريا . وكان الجيش بالغ الضخامة . إذ تحدث المؤرخون المرتاعون عن مليون جندى ؛ والأرجح أن العدد الإجمالي للرجال المسلحين والحجاج قد بلغ عشرين الفا . وجاء مع كونراد اثنان من الملوك التوابع : فلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا . وكان على رأس النبلاء الألمان فريدريك ، دوق سوابيا، وهو ابن اخي كونراد ووريثه . وكانت هناك كتيبة من اللورين بقيادة ستيفن أسقف ميتز ، وهنرى اسقف تول . ولقد كان جيشا مشاغبا؛ فكان الأقطاب الألمان يغارون من بعضهم البعض ، ودامت الإحتكاكات بين الألمان والسلاف وأبناء اللورين من الناطقين بالفرنسية . ولم يكن كونراد بالرجل الذى يسيطر على الجيش ويبقيه في حالة انضباط، إذ جاوز عمره الآن الخمسين بكثير ، وصحته لا هي بالجيدة ولا بالسيئة ، ومزاجه ضعيف قلق . وقد بدأ في تفويض الكثير من سلطاته إلى يدى إبن أخيه فريدريك القويتين غير المتمرستين(٢٦).

وعبر الجيش الألماني هنجاريا في شهر يونية. وكان ملك هنجاريا الصغير (جيزا) ودودا جدا ، ولم تحدث حادثة سيئة . وفي هنجاريا جاءت سفارة بيزنطية يرأسها ديميتريوس ماكريمبولايتس والإيطالي ألكسندر (اوف جرافينا) وقابلت كونراد وسألته - نيابة عن الامبراطور - ما إذا كان قد جاء صديقا أم عدوا ، ولكى تترجاه أن يقسم القسم بألا يأتى من الأفعال ما يضر بمصالح ورفاهية الامبراطور . وقد أُحسن اختيار قسم عدم الإضرار هذا ؛ إذ كان القسم المعتاد في اجزاء معينة من الغرب يؤخذ من تابع لسيده؛ وهو الذى أقسمه ريموند التولوزى لألكسيوس أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ومع ذلك كان القسم مصاغا بحيث اذا رفضه كونراد فمعنى هذا انه قد وصم نفسه بعداوة الامبراطور . ولقد أقسم كونراد هذا القسم . فوعده السفراء البيزنطيون بتقديم

---

(٢٥) كان الملك لويس قد اعلن لروجر عن الحملة الصليبية (Odo of Deuil, p.22)، على انه عندما اقترح روجر أن يشترك في الحملة بصورة ايجابية نبذ الملك لويس مساعدته مما تسبب في استعادة المؤرخ Odo لأحزانه (*ibid. p.24*).

(٢٦) Odo of Freisingen, *Chronica*, p. 354 and *Gesta Friderici*, pp. 63-5.

كل المساعدة أثناء عبوره أراضي الامبراطورية[٢٧].

١١٤٧م : الألمان في البلقان

في يوم ٢٠ يولية تقريبا دخل كونراد أراضي الامبراطورية عند برانيتشوف . وساعدت السفن البيزنطية فى نقل رحاله عبر نهر الدانوب . وفى نيش ، قابله حاكم المقاطعة البلغارية ، ميخائيل براناس وزود الجيش بالطعام الذى سبق تخزينه استعدادا لوصوله . وفى صوفيا ، التى وصلها بعد ذلك بأيام قليلة ، أقام حاكم ثيسالونيكا، ميخائيل باليولوجوس ابن عم الامبراطور ، ترحيبا رسميا لكونراد من الامبراطور . وحتى الآن سارت الأمور على ما يرام . وكتب كونراد إلى اصدقاء له فى المانيا يخبرهم بأنه راض عن كل شئ . على انه بعد مغادرته صوفيا بدأ رحاله فى نهب الريف رافضين أن يدفعوا للقرويين مقابل ما يأخذونه منهم ، بل انهم قتلوا من اعترض عليهم . وعندما تلقى كونراد الشكاوى اعترف بأنه عاجز عن فرض الانضباط على الغوغاء . وفى فيلوبوبوليس حدثت احداث فوضوية أسوأ ، إذ سُرق المزيد من الطعام ، وحدثت اعمال شغب عندما قام أحد المشعوذين ببعض الحيل وفى مأموله الحصول على بعض المال من الجند ، فاتهمه الألمان بالسحر . واضرمت الحرائق فى الضواحى ، بيد أن اسوار المدينة كانت من القوة بحيث تعذر على الألمان مهاجمتها . وكان احتجاج رئيس الأساقفة ميخائيل اتاليكوس لدى كونراد من القوة بحيث شعر الأخير بالخجل وعاقب زعماء العصابات . ثم أن مانويل أرسل الجنود لمصاحبة الصليبيين وضمان عدم خروجهم عن الطريق . ولم يؤد ذلك إلا إلى عمل فريد من أعمال الفوضى الأسوأ ؛ إذ تكرر الصدام بين البيزنطين والالمان . وبلغت الأمور ذروتها من السوء بالقرب من أدرنه عندما هاجم بعض قطاع الطرق البيزنطين وجيها المانيا كان قد تخلف لمرضه وقتلوه ؛ فما كان من فريدريك (اوف سوابيا) إلا أن حرق ديرا كان بالقرب من مكان ارتكاب الجريمة وقتل قاطنيه . وانتقاما لذلك ، دأب البيزنطيون على قتل الشاردين المخمورين - وكانوا بأعداد غفيرة بين الألمان - أينما وقعوا عليهم . وعندما تمكن القائد البيزنطى بروسوخ من تهدئة الأمور واستأنف الجيس مسيرته ، جاءت سفارة من مانويل ، الذى شعر بالخطر الشديد ، تحث كونراد على أن يسلك الطريق الذاهب إلى سيستوس على بوغاز الدردنيل والعبور من هناك إلى آسيا . ولما كان مقررا أن تستمر

---

(٢٧) Cinnamus, pp. 67-9 .

مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ، فقد اعتبر طلب مانويل عملا غير ودى لم يوافق عليه كونراد . ويبدو أن مانويل قرر آنذاك مقاومة الصليبيين بالقوة ، لكنه فى آخر لحظة ألغى اوامره المرسلة إلى بروسوخ . وسرعان ما نزل بالألمان عقاب الهى . فبينما كانوا مستلقين فى معسكرهم فى شيرفاس الواقعة فى سهل ترافيا ، فاجأهم سيل مغرق أطاح بخيامهم وأغرق الكثير من الجنود ودمّر الكثير من ممتلكاتهم ، ولم ينج من الأذى سوى فصيلة فريدريك التى كانت تعسكر فوق ربوة اكثر ارتفاعا . ولم تحدث حوادث اخرى حسيمة إلى أن وصل الجيش القسطنطينية فى العاشر من سبتمبر على وحه التقريب[٢٨].

وحاء الملك لويس والجيش الفرنسى فى اعقابهم بعد شهر تقريبا . وكان الملك نفسه قد انطلق من سانت دينيس فى الثامن من يونية ، وبعد ايام قليلة استدعى أتباعه لمقابلته فى ميتز . والأرجح أن حملته كانت اصغر من حملة كونراد . وقد حاء معه كل النبلاء الذين اخذوا الصليب معه فى فيزيلاى للوفاء بعهودهم، وكان مع الملك زوجته ، إليانورا الأكيتانية ، أعظم وريثة فى فرنسا وابنة اخت أمير أنطاكية . وكانت كونتيسات فلاندرز وتولوز وكثيرات من السيدات الفخيمات قد ارتحلن مع ازواجهن . وانضم إلى الجيش السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إيفيرارد (اوف بار) مصطحبا معه فصيلة من الذين جندهم فى نظام فرسانه[٢٩]. وكان عمر الملك نفسه ستة وعشرين عاما ، وقد اشتهر عنه الورع وليس قوة الشخصية ، وقد مارس كل من أخيه وزوجته نفوذهما عليه ؛ وكقائد كان يفتقر إلى التدريب والحسم[٣٠]. وعلى الجملة كان جنوده أكثر انضباطا وأقل شيطنة من الألمان ، برغم وجود حالات من الفوضى حدثت فى مدينة فورمز عند عبور نهر الراين.

---

(٢٨) Cinnamus, pp. 69-74; Nictas Choniates, pp. 82-7; Odo of Deuil, p. 38. وكان المؤرخ Odo قد سبق له ان ذكر المحتال من قبل فى صفحة ٣٦ . Odo of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 65-7.

(٢٩) ترد قائمة بالصليبيين أوردها Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp.158-60 والأسطورة القائلة بأن الملكة إلينور حاءت على رأس مجموعة من الأمازون تقوم على أساس ملحوظة Nicetas p.80 بأن الجيش الألمانى كان يشتمل على عدد من النساء المسلحات تسليحا كاملا .

(٣٠) تدل صورة شخصيته التى أوردها Suger فى مؤلفه *Gesta* وفى رسائله الخاصة به على أنه لم يكن رجلا حاسما.

١١٤٧م : وصول الفرنسيين إلى القسطنطينية

وعندما انضمت جميع الفصائل الفرنسية إلى الملك ، انطلق الجيش عبر بافاريا . وفى راتسيبون التى وصلها يوم ٢٩ يونية ، كان هناك سفيران من الامبراطور مانويل فى انتظاره ، هما ديميتريوس ماكريمبولايتس الذى سبق وان أجرى مقابلة مع كونراد فى هنجاريا ، وآخر يدعى مووروس . وطلبا ضمانا بأن يتصرف لويس كصديق أثناء تواجده فى الأراضى الامبراطورية وأن يعد بأن يعيد إلى الامبراطورية أية ممتلكات سابقة لها قد يستولى عليها فى الحملة . وكان واضحا انهما لم يطلبا منه أن يقسم قسم عدم الإضرار ، إذ كان خليقا بأن يعي مغزاه تماما . وأعلن لويس رسميا أنه جاء كصديق ، لكنه لم يعد شيئا بشأن الغزوات المقبلة ، إذ وجد الطلب مبهما بصورة خطيرة[٣١]. ومن راتيسبون ارتحل الجيش فى سلام لخمسة عشر يوما خلال هنجاريا ووصل الحدود البيزنطية فى نهاية أغسطس[٣٢]. وعبر المرتحلون الدانوب عند برانيتشيفو وسلكوا الطريق الرئيسى خلال البلقان . ووجدوا بعض الصعوبة فى شراء ما يكفى من الطعام ، إذ سبق أن استهلك الألمان كل ما كان متاحا ، وما ارتكبه الألمان من تجاوزات أثار الريبة لدى السكان المحليين الذين باتوا عازفين عن المساعدة .وفضلا عن ذلك ، لم يكن التجار المحليون على استعداد لمنح أية تخفيضات فى الأسعار بعد تصميمهم على الدفع اولا . غير أن المسؤولين البيزنطيين كانوا ودودين ، واستطاع القادة الفرنسيون السيطرة على انضباط رجالهم . ولم تحدث مشاكل جسيمة إلى أن اقترب الجيش من القسطنطينية رغم أن الفرنسيين بدأوا يشعرون بالإزدراء تجاه كل من البيزنطيين والألمان . وفى أدرنه حاولت السلطات دون جدوى ما حاولته مع كونراد من حث لويس على تجنب العاصمة وعبور الدردنيل إلى آسيا . وفى ذات الوقت ، كان بعض الفرنسيين قد نفد صبرهم من تمهل الجيش فى سيره ، فأسرعوا قُدُما ليلحقوا بالألمان . لكن الألمان كانوا يفتقرون إلى الود ، إذ رفضوا منحهم مخصصات الطعام . لذا قامت فصائل اللورين - وكانت على غير وفاق مع زملائهاالألمان - بالانضمام إلى الجنود الفرنسيين وأشعلت رأيا عاما فرنسيا مناهضا للألمان[٣٣]. وهكذا ، وقبل أن يصل الملك الفرنسى إلى القسطنطينية ، كانت العلاقات بين الجيشين الصليبيين مصطبغة بصبغة الريبة والمرارة ،

---

(٣١) Cinnamus, p. 82; Odo of Deuil, pp. 28-30 يقول أودو إن لويس جعل ممثليه يقسمون نيابة عنه.

(٣٢) Odo of Deuil, pp.30-4.

(٣٣) *Ibid* pp. 35-44

وقد اتخذ الألمان والفرنسيون سواء بسواء موقفا عدائيا إزاء بيزنطة ؛ وليس ذلك بشيرا بنجاح الحملة الصليبية .

الفصل الثانى:

الشقاق المسيحى

٣٠٧

الشقاق المسيحى

"خُصُومَاتٌ وَمُحَاسَدَاتٌ وسَخَطَاتٌ وَتَحَزّبَاتٌ وَمَذَمَّاتٌ
وَنَمِيمَاتٌ وَتَكَبّراتٌ وتشويشَاتٌ"
(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ : ٢٠)

عندما وصلت أنباء الحملة الصليبية إلى القسطنطينية أول الأمر كان الامبراطور مانويل مستغرقا فى شؤون الأناضول . وبرغم الحملات التى أطلقها أبوه وحده من قبل فى المقاطعات الآسيوية للامبراطورية ، بقى الوضع مثيرا للقلق ، إذ لم يسلم من الغزوات التركية سوى المقاطعات الساحلية ، أما فى داخل البلاد فكانت الغارات التركية تكاد أن تكون سنوية ، تكتسح البلاد مجتنبة الحصون الكبيرة وهى تراوغ الجيش الامبراطورى، وقد هجر سكان المواجهة قراهم وهربوا إما إلى المدن أو إلى الساحل . وأقام مانويل سياسته على أساس إنشاء خط حدودى محدد تحرسه سلسلة من القلاع المتصلة ببعضها البعض عن قرب . وكانت دبلوماسيته وحملاته تستهدف الحفاظ على هذا الخط.

وكان الأمير الدانشمندى محمد بن غازى قد مات فى ديسمبر عام ١١٤١م ،

وكان يمثل القوة الاسلامية الرئيسية فى آسيا الصغرى ، فاندلعت بعد موته الحروب الأهلية بين ابنائه واخوته ، وقبل نهاية سنة ١١٤٢م انقسمت الإمارة إلى ثلاثة أجزاء احتفظ ابنه ذو النون بقيصرية مزاكا ، بينما احتفظ أخواه يعقوب أرسلان بن غازى وعين الدولة بن غازى بسيواس وملطية على التوالى . وقد رأى مسعود سلطان قونية السلجوقى فى هذا الانقسام فرصته فى السيطرة على أتراك الأناضول . فغزا اراضى الدانشمند وبسط سلطانه على المقاطعات الممتدة حتى نهر الفرات ، فتسبب هذا العدوان في إثارة مشاعر الخوف لدى الأخوين يعقوب أرسلان وعين الدولة فسعيا إلى التحالف مع بيزنطة .وبموجب معاهدة ربما عقدت عام ١١٤٣م أصبحا تابعين للإمبراطور بدرجة ما . وبعد ذلك حول مانويل انتباهه نحو مسعود الذى توغلت غاراته إلى ملاحينه الواقعة على الطريق بين نيقية ودوريليوم ، ورد تلك الغارات على أعقابها ، لكنه سرعان ما عاد إلى القسطنطينية لاعتلال صحته ، وللمرض المميت الذى أصيبت به اخته المحبوبة ماريا ، التى دلت على اخلاصها له عند تآمر زوجها ، القيصر جون روجر النورمانى المولد ، على العرش وقت استخلاف أخيها . وفى عام ١١٤٥م غزا مسعود الامبراطورية مرة اخرى واستولى على حصن براكانا الصغير فى إيسوريا ، وبذا هدد خطوط المواصلات البيزنطية مع سوريا ، وسرعان ما أغار بعد ذلك على وادى نهر المياندر وحتى البحر تقريبا.

١١٤٦م : حملة مانويل ضد قونية

قرر مانويل ان الوقت قد حان ليضرب مسعود بشدة ويزحف على قونية . وكان قد تزوج حديثا ، وقيل إنه أراد أن يُطلع زوجته الألمانية على روائع الفروسية البيزنطية . وفى صيف عام ١١٤٦م أرسل إلى السلطان إعلانا رسميا بالحرب ، وانطلق في موكب فخيم بطول الطريق مارا بدوريليوم جنوبا إلى فيلوميليوم حيث حاولت فصائل تركية التصدى له لكنها اندحرت . وتراجع مسعود باتجاه عاصمته التى عزز حاميتها، لكنه رغم ذلك بقى فى الأراضى المفتوحة وأرسل يطلب التعزيزات من الشرق على عجل . وعسكر الجيش البيزنطى لعدة شهور امام قونية التى كان السلطان يدافع عنها . وكان موقف مانويل إزاء اعدائه يتصف بالكياسة ؛ ذلك انه عند انتشرت الشائعات بمقتل السلطان ، أرسل إلى السلطانة يخبرها بان القصة غير حقيقية ؛ وحاول - دون طائل - أن يفرض على جنوده احترام مقابر المسلمين خارج المدينة . وفجأة أصدر أمره

بالانسحاب . وقيل فيما بعد انه قد سمع شائعات بتحرك الحملة الصليبية ؛ لكنه مع ذلك لم يكد يعلم بالقرار المتخذ فى فيزيلاى ذلك الربيع . وكان بالقطع مرتابا فى النوايا الصقلية ، وربما تحقق فعلا من أن هناك شيئا يأخذ مجراه . كما انه علم أن مسعود تلقى تعزيزات كبيرة لجيشه ، فكان يخشى من الإمساك به ووراءه خطوط مواصلات طويلة محفوفة بالأخطار . فتقهقر ببطء فى غاية النظام عائدا إلى أراضيه(١).

وقبل إمكان الترتيب لحملة اخرى ضد قونية ، وجد مانويل نفسه يواجه الواقع الفعلى للحملة الصليبية ، فانتابه القلق وله العذر؛ إذ لم تكن تجارب البيزنطيين مع الصليبيين باعثة على الطمأنينة ، ولذا وافق مانويل على ما اقترحه عليه مسعود فى ربيع ١١٤٧م من عقد هدنة وإعادة براكانا وما استولى عليه فى غزواته الأخيرة . وبسبب هذه المعاهدة نعته العالم المسيحى بالخيانة . غير ان عداوة كونراد التى اتضحت قبل أن يتلقى الألمان نبأ المعاهدة تظهر أن توجسات الامبراطور نابعة من منبع الحكمة وليس هناك ما يجعله ملتزما إزاء رفيق مسيحى يفكر علنا فى مهاجمة القسطنطينية . كما لا يستطيع مانويل أن يغتبط بحملة لا شك فى انها سوف تشجّع امير أنطاكية على تناسى احترامه وتبعيّته . وإذا ما دخل فى حرب حادة مع الأتراك فربما كانت عونا للصليبيين فى مرورهم عبر الأناضول ، غير انها كانت ستجعلهم يلحقون أضرارا لا حد لها بالامبراطورية التى تعتبر حصنا للعالم المسيحى . ففضّل عدم التورط الذى ربما يضعفه فى ذلك الوقت الحساس لا سيما وان هناك حربا وشيكة مع صقلية(٢).

١١٤٧م : الألمان يعبرون إلى آسيا

كانت العلاقات طيبة بين مانويل وكونراد حتى ذلك الحين ؛ إذ جمع بينهما الخوف المشترك من روجر الصقلى ؛ فضلا عن ان مانويل تزوج حديثا من أخت زوجة كونراد(٣). على ان سلوك الجيش الألمانى فى البلقان ، ورفض كونراد اتخاذ الطريق الذى يعبر مضيق الدردنيل جعله يشعر بالخطر . وعندما وصل كونراد أمام

(١) أنظر .Chalandon, les Comnènes, pp. 248-58 ويقول ميخائيل السورى Michael the Syrian (III,p.275) إن مانويل عقد سلاما مع الأتراك خشية الصليبيين ، وانه تمكن من صدهم لسنتين.

(٢) Chalandon, op. cit., pp.266-7 اندلعت الحرب مع صقلية فى الواقع فى صيف ١١٤٧م (po.cit.p.318 n.1) ويشير اليها .Odo of Deuil (p.53)

(٣) وقد تم الزواج فى يناير ١١٤٦م. (Chalandon, op. cit. p. 262 n.3)

القسطنطينية خُصص لإقامته قصر فيلوبـاتيوم بـالقرب مـن الأسـوار ، وعسـكر جيشـه حوله . على أنه فى غضون أيام قليلة راح الألمـان ينهبـون القصـر بحيـث لم يعـد صالحـا للإقامة وانتقل كونراد عبر رأس القرن الذهبى إلى قصر بيكريديوم، فـى مواجهـة ناحيـة فانار . وفى تلك الآونة ارتكب جنوده أعمال العنف ضد السـكان المحليـين ، وأرسـلت فصائل من الجنود البيزنطيين لقمعهم ، وتلى ذلك سلسلة من المناوشات . وعندما طلب مانويل الإنتصاف قـال كونـراد بـادئ الأمـر إن الاعتـداءات لم تكـن هامـة ؛ ثـم هـدد بالعودة فى العام التالى والاستيلاء على العاصمة . ويبدو أن الامبراطورة - أخت زوجـة كونراد - تمكنت من تهدئة العاهلين . وكـان مـانويل يحـث الألمـان علـى سـرعة عبـور البوسفور لما كان يخشاه مما سوف يترتب على اتصال الألمان بالفرنسـيين، وفجـأة أذعـن الألمان ، إذ انهم بدأوا بالفعل فى مشاجرات مع أول القادمين الفرنسيين . وأمكن تحقيق وفاق ظاهرى ، وعبر كونراد وجيشه إلى خلقدونية ومعهـم الكثـير مـن الهدايـا النفيسـة وقد تلقى كونراد نفسه بعض الخيول الجميلة . غير أنه رفض اقتراحا بترك بعـض رجالـه للخدمة مع الامبراطور لقاء حصوله على بعض الجنود البيزنطيـين فى كيليكيـا ، وكـان ذلـك الترتـيب ملائـما لمانويـل فى حربه مع روجر الصقلى[٤].

وعندما وصل كونراد إلى خلقدونية طلب من مانويل تزويده بمرشدين يأخذونه عبر الأناضول ، وعهد مانويل بتلك المهمة إلى رئيس الحرس الفارنجي، ستيفن . وفى الوقـت ذاته نصح الألمان بتجنب الطريق المستقيم العابر لشبه الجزيـرة ، واتخـاذ طريـق السـاحل الملتـف إلى أضاليـا، وبـذا يسـلكون طريقهـم فـى الأراضـى الواقعـة تحـت السـيطرة الامبراطورية. كما اقترح مراعاة الحكمة وإعادة جميع الحجاج غـير المقـاتلين إلى بلادهـم إذ ليس فى وجودهم سوى احراج للجيش . ولم يعبأ كونراد بهذه النصيحة وانما انطلـق إلى نيقية . وبوصوله هناك أعاد التفكير وقرر تقسيم الحملة . فتقرر ان يصطحـب أوتـو (اوف فريسينجين) فرقة تضم اغلب الحجاج غير المقاتلين ، فـى طريـق يخـترق لاوديقيـا على نهر ليكوس إلى أضاليا ، بينما يسلك هو نفسه ومعه القـوة المقاتلـة الرئيسـية طريـق الحملة الصليبية الأولى مخترقا داخل البلاد[٥].

---

(٤) Cinnamus, pp.74-80; Nicetas Choniates, p.87; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae in Jaffé, Bibliotheca, I,p.166. يقول إن الامبراطور استقبله استقبالا حسنا. Annales Herbipolenses,pp.4-5;Romuald of Salerno,p.424؛ ويقول Odo of Deuil, pp.39 -40 إنه طبقا للحسابات الإغريقية عبر البوسفور ٩٠٠٥٦٦ من الجنود والحجاج الألمان . والأرجح ان الرقم الصحيح هو ٩٥٦٦ شخصا. كما يقول إن كونراد لم يقابل مانويل مقابلة شخصية.

(٥) Cinnamus, pp. 80-1 .

غادر جيش كونراد نيقية يوم ١٥ أكتوبر مع ستيفن الفارانجى كبير المرشدين . وطوال الأيام الثمانية الأولى ، أثناء تواجدهم فى اراضى الامبراطور ، كانوا يحصلون على جيد الطعام ، رغم أنهم فيما بعد اشتكوا من ان عملاء الامبراطور خلطوا ما كانوا يزودونهم به من دقيق بالطباشير ، كما انهم كانوا يعطونهم عملات منخفضة القيمة . على انهم لم يزودوهم بالطعام أثناء سيرهم فى الأراضى التركية التى افتقروا فيها إلى الماء بصورة خاصة . وبوصولهم فى ٢٥ اكتوبر إلى نهر باثى الصغير بالقرب من دوريليوم، فى حوار الموقع الذى شهد الانتصار الصليبى العظيم قبل ذلك بنصف قرن ، انقض عليهم الجيش السلجوقى كله . وكان مشاة الألمان فى حالة من التعب والعطش ، والكثير من الفرسان مترجلون لإتاحة الراحة لخيولهم المرهقة ؛ فبوغتوا بفرسان الأتراك الخفاف يهجمون عليهم فى هجمات متكررة سريعة مفاجئة . وكانت في حقيقتها مذبحة لا معركة . وحاول كونراد أن يلم شعث رجاله ، ولكن دون جدوى . وبحلول المساء كان يسابق الريح هربا مع قليلين ممن بقوا على قيد الحياة عائدا إلى نيقية. لقد فقد تسعة أعشار جنوده وكل ما كان يشتمل عليه معسكره . وباع المنتصرون الغنائم فى الاسواق المنتشرة فى سائر انحاء الشرق الاسلامى حتى فارس[٦].

١١٤٧م : الفرنسيون يعبرون إلى آسيا

وفى تلك الأثناء كان الملك لويس والجيش الفرنسى في الطريق إلى القسطنطينية التى وصلاها يوم ٤ أكتوبر، ليجدا حرس المقدمة وجيش اللورين فى حالة اشمئزاز سببتها وحشية الألمان من ناحية ، وأنباء هدنة مانويل مع الأتراك من ناحية أخرى. وحالت السلطات البيزنطية دون اتصال فصائل اللورين مع الفرنسيين برغم توسلات مبعوث لويس ، إيفرارد (أوف بارر) السيد الأعظم لفرسان المعبد[٧]. فاقترح أسقف لانجرز - راهب كليرفو بتعصبه غير المسيحى - على الملك وجوب تغيير سياسته وعقد تحالف مع روجر الصقلى ضد الغدر اليونانى (البيزنطى) . على ان الوساوس المتسلطة على لويس منعته من الأخذ بهذا الاقتراح مما أثار الشعور بخيبة الأمل لدى باروناته .

---

(٦) Cinnamus, pp. 81-2; Nicetas Choniates, p. 89; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.152; Annales Palidenses p.82; Annales Herbipolenses, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.53, 56-8; William of Tyre, XVI, 21-2, pp.740-4; Michael the Syrian, III, p.276.

(٧) Odo of Deuil, pp. 40-1 .

لقد شعر بالرضا من استقباله فى البلاط الامبراطورى وفضّل الأخذ بالنصيحة الرقيقة التى نصح بها أسقف ليزيو ذو النوازع الانسانية ، وأقام فى قصر فيلوباتيوم الذى جرى تنظيفه بعد الاحتلال الالمانى ، ودعى إلى مآدب فى القصر الامبراطورى فى بلاشيرناي حيث لقى ضروب الحفاوة ، واصطحبه الامبراطور فى جولة شاهد فيها معالم المدينة العظيمة . وافتتن كثيرون من نبلائه بنفس القدر لما لاقوه من الاهتمام بهم[٨]. على ان مانويل تدبر سرعة عبور الجيش مضيق البوسفور ، وبعدما استقر الجيش فى خلقدونية ، قطع الامدادات عن الفرنسيين متذرعا بأعمال شغب أثارها حاج فلمنكى ظن أنه خدع. ورغم ان لويس شنق من ارتكب الجريمة فى الحال، امتنع مانويل عن إعادة تموين الجيش إلى ان أقسم لويس أخيرا بأن يعيد إلى الامبراطورية ما يمكنه أن يعين على استعادته من ممتلكاتها المفقودة ، ووافق على أن يعترف البارونات بولائهم مقدما للامبراطور فى كل أرض جديدة يحتلونها ، فاعترض النبلاء الفرنسيون ؛ غير أن لويس اعتبر الطلب معقولا نظرا لحاجته الشديدة للمساعدة البيزنطية ، لاسيما بوصول شائعات حول الكارثة الألمانية[٩].

وفى أول نوفمبر وصل الجيش الفرنسى نيقية حيث أيقن من هزيمة كونراد ، إذ وصل فريدريك (اوف سوابيا) على جواده إلى المعسكر الفرنسى وأخبرهم بالقصة وطلب من لويس ان يذهب من فوره لمقابلة كونراد . وسارع لويس إلى مقر الرئاسة الألمانى ودارت المشاورات بين الملكين . وقررا كلاهما أن يتخذا طريق الساحل المتجه جنوبا ليكونا فى داخل الأراضى البيزنطية . وكان الجيشان على وفاق فى تلك اللحظة. ولم يجد الألمان طعاما فى المنطقة التى يعسكرون فيها بعد أن استولى الفرنسيون على كل ما كان متاحا ، فأغار الألمان على القرى المجاورة، فما كان من الشرطة البيزنطية إلا أن هاجمتهم فى الحال ، ولم ينقذهم سوى فصيلة فرنسية يرأسها كونت سواسون الذى سارع لإنقاذهم بناء على طلب كونراد . وفى تلك الأثناء كان كونراد قادرا على المحافظة على نوع من الانضباط بين جنوده . وقد تركه أغلب الحجاج الباقين على قيد الحياة عائدين يتلمسون طريقهم إلى القسطنطينية ، ولا نعلم عنهم شيئا بعد ذلك[١٠].

---

(٨) Cinnamus, pp. 82-3; Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, p.488; Odo of Deuil, pp. 45-6, 47-8

(٩) Odo of Deuil, pp. 48-51.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 58-60; William of Tyre, xvi, 23, pp. 744-5.

وانطلق الجيشان معا . وفى ١١ نوفمبر ضربا معسكريهما فى إبسيرون بالقرب من باليق سراى الحديثة ، وهناك غيرا الخطة مرة اخرى . ويرجح أنهما تلقيا تقارير حول الرحلة التى قام بها أوتو (اوف فريسينجين) بطول الطريق المباشر الذاهب إلى فيلادلفيا ولاوديفيا . ولا نعلم عن تلك الرحلة سوى القليل ، عدا وصول تلك الحملة فى نهاية الأمر إلى أضاليا وهى مرهقة وقد انخفض عدد افرادها ، تاركة على جانبى الطريق الكثير من الموتى الذين سقطوا صرعى تضورهم جوعا او ضحايا المغيرين الأتراك . وقرر الملكان السير على مسافة أقرب إلى الساحل خلال الأراضى الأكثر خصوبة ، ومداومة الاتصال بالاسطول البيزنطى . وواصلا سيرهما خلال أدراميتيوم وبرجاموم وأزمير وهبطا إلى إفسوس . وكان جيش لويس فى الطليعة بينما كان الألمان يشقون طريقهم فى الخلف بمسيرة يوم تقريبا وقد باتوا موضع سخرية مهينة من حلفائهم المتلكئين . ويسجل المؤرخ البيزنطى سيناموس Cinnamus الصيحة الفرنسية "تحركوا يا ألمان" التى قذفهم بها الفرنسيون بازدراء[١١].

١١٤٧ - ١١٤٨م : الفرنسيون فى آسيا الصغرى

وعندما وصلوا إلى إفسوس كانت صحة كونراد قد تدهورت بحيث تخلف هناك . وما أن سمع مانويل بذلك حتى أرسل له الهدايا الثمينة وحثه على العودة إلى القسطنطينية حيث استقبله استقبالا طيبا وأنزله فى القصر . وكان مانويل شديد الاهتمام بالطب وأصر على ان يكون طبيبا لضيفه واستعاد كونراد صحته وقد مس أعماق مشاعره ما لمسه من اهتمام الامبراطور والامبراطورة . وأثناء هذه الزيارة تمت ترتيبات زواج أخيه هنرى ، دوق النمسا، من ثيودورا ، ابنة أخى الامبراطور، أندرونيكوس . وبقى الملك الألمانى وأهل بيته فى القسطنطينية حتى أول مارس ١١٤٨م عندما نقلهم اسطول بيزنطى صغير إلى فلسطين[١٢].

وأثناء الأيام الأربعة التى أمضاها الملك لويس فى إفسس ، تلقى رسالة من مانويل

---

(١١) Odo of Deuil, pp.61-3. ويناقش سيناموس Cinnamus الفرق بين الجيشين . إذ كان الفرنسيون أفضل حالا على خيولهم ومعهم الرماح ، بينما كان الألمان راجلين ومعهم السيوف . وقد أورد عبارة "تحركوا يا ألمان" بالحروف الاغريقية.

(١٢) Cinnamus, pp.85-6; letters of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.153; Annales Hdrbipolenses, p.6; Odo of Deuil, pp.63-4; William of Tyre, XVI, 23, pp. 745-6.

يخبره فيها أن الأتراك يعدون العدة للحرب ونصحه بتجنبهم وأن يبقى فى نطاق المأوى الذى توفره الغابات البيزنطية . ومن الواضح ان مانويل كان يخشى أن يعانى الفرنسيون من الترك فتلقى عليه الملامة ؛ وفى ذات الوقت لم يكن راغبا فى أن يحدث ما يعكر السلام المعقود بينه وبين السلطان ، ولا سيما وأن الحرب الصقلية على الأبواب . ولم يرد لويس . كما لم يرد عندما كتب له مانويل محذرا من ان السلطات البيزنطية لن تمنع مواطنيها من الانتقام لأية اضرار بسببها الصليبيون . ذلك ان انضباط الجيش الفرنسى كان آخذا فى الانهيار ، وكانت العاصمة تتلقى شكاوى المواطنين من تمرد الصليبيين على القانون(١٣).

وشق الجيش الفرنسى طريقه الملتوى أعلى وادى نهر مياندر . وفى ديسيرفيوم ، حيث أمضوا عيد الميلاد ، ظهر الأتراك وبدأوا فى مضايقة الصليبيين حتى وصلوا إلى الجسر الذى يعبر النهر فى أنطاكيا البيسيدية(١٤)، حيث دارت معركة مدروسة، غير ان الفرنسيين شقوا طريقهم فوق الجسر وانسحب الأتراك داخل أسوار انطاكياالبيسيدية . ولا نعرف شيئا عن الظروف التى مكنت الأتراك من اللجوء إلى تلك القلعة البيزنطية ، وهى الحادثة التى اعتبرها الفرنسيون بمثابة خيانة للعالم المسيحى ، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ؛ على أنه سواء كانت الحامية المحلية للقلعة قد مالت إلى القوة الأقوى ، أو كان هناك نوع من الترتيب الخاص مع الكفرة ، فمن غير المحتمل أن يكون الامبراطور نفسه قد أجاز الخطة(١٥).

وكانت المعركة التى دارت أمام الجسر فى أنطاكيا البيسيدية قد حدثت فى أول يناير ١١٤٨م تقريبا . وبعد ذلك بثلاثة ايام وصل الصليبيون إلى لاوديفيا ليجدوها مهجورة ؛ إذ أن سمعتهم دفعت بالسكان إلى النزوح إلى التلال ومعهم كل المؤن . وتعذر على الجيش ان يجمع أية أطعمة للمرحلة الشاقة التى تنتظره، إذ أن الطريق إلى أضاليا كان ملتفا حول مجموعة من الجبال العالية المقفرة ؛ فكانت الرحلة شاقة فى أحسن الظروف . أما بالنسبة لجيش جائع يكافح عواصف شهر يناير ، والأتراك متعلقون بأطرافه يتصيدون الشاردين والمرضى بلا هوادة ، فكانت الرحلة بمثابة كابوس.

---

(١٣) Cinnamus, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.63-5 .

(١٤) (المترجم) بيسيديا : Pisidia كورنتية قديمة كانت تقع فى أواسط جنوب آسيا الصغرى ، جنوب فريجيا.

(١٥) Odo of Deuil, pp. 65-6; William of Tyre, XVI, 24, pp. 746-7

فعلى طول الطريق كان الجنود يرون جثث الحجاج الألمان الذين هلكوا فى سيرهم قبل ذلك بأشهر قليلة . و لم تعد هناك محاولات لفرض الانضباط ، فيما عدا مجموعة فرسان المعبد . وكانت الملكة والسيدات المصاحبات لها يرتعدن فى محفاتهن وقد أقسمن ألاّ يواجهن مرة أخرى قط مثل تلك المحنة . وفى عصر أحد الأيام ، وبينما بدأ الجيش يهبط باتجاه البحر ، عصى جودفرى (اوف رانكون) قائد حرس المقدمة ، أوامر الملك بأن يضرب المعسكر فوق قمة الممر ، وهبط إلى اسف التل ففقد الإتصال بالجيش الرئيسى ، فكانت فرصة سانحة لهجوم الأتراك . وثبت الصليبيون فى موقعهم ؛ غير ان هبوط الظلام هو وحده الذى أنقذ حياة الملك ، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة(١٦) .

١١٤٨م : الفرنسيون فى أضاليا

ومن هنا قدما كان الطريق أيسر ، إذ لم يغامر الأتراك بالهبوط إلى السهل . وفى بداية فبراير وصل الصليبيون إلى أضاليا حيث كان حاكمها البيزنطى إيطاليا يدعى لاندولف. وبناء على اوامر الامبراطور بذل ما أمكنه فى التخفيف عن الغربيين . غير ان أضاليا ليست بالمدينة الكبيرة التي تتوفر فيها موارد الطعام الضخمة ، وانما كانت فى موقع سيئ فى الريف وقد انتهبها الأتراك مؤخرا. وآنذاك تقلصت تخزينات الشتاء ، بعد أن أخذ الحجاج الألمان الجزء المخصص للتخزين ، فلا عجب من قلة المتاح من المون وارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا . على أنه فى نظر الفرنسيين الغاضبين المحبطين ، كان كل ذلك بمثابة دليل آخر على الخيانة البيزنطية . والآن قرر الملك لويس أن تتواصل الرحلة بحرا ، وتفاوض مع لاندولف للحصول على السفن . ولم يكن من اليسير فى ذلك الوقت من العام تجميع اسطول فى ميناء على الساحل الكارامانى الموحش . وأثناء الانشغال فى جمع السفن الناقلة ، هبط الأتراك وشنوا هجوما مفاجئا على معسكر الصليبيين . ومرة اخرى ألقى الفرنسيون باللائمة على البيزنطيين ، الذين ربما لم يبذلوا أى جهد للدفاع عن هؤلاء الضيوف الثقال الذين لولا وجودهم لما كانت هناك غارات تركية . وعندما وصلت السفن كانت من قلة العدد بحيث يتعذر نقل الجيش كله ، ولذا

---

(١٦) Ibid. pp. 67-7, 71-2; William of Tyre, xvi, 25, pp. 747-9. وعن القصة التى لا أساس لها القائلة بأن الملكة إلينورا مسؤولة عن الكارثة ، أنظر Walker, 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain'in American Historical Review, vol. LV, pp. 857-61. وكان Odo of Deuil مسؤولا عن الكثير من الأعمال الطيبة فى تزويد الجيش بالطعام . وهو متواضع للغاية بحيث لم يذكر ذلك (William the Monk, Dialougus Apologeticus).

ملأها لويس بأهل بيته هو وبأكبر عدد يمكن أخذه من الفرسان ، وأبحر إلى ميناء السويدية الذى وصله يوم ١٩ مارس. ومداراة من الملك لضميره لتخليه عن جيشه ، ترك مع لاندولف خمسمائة مارك كى يقوم على رعاية المرضى والجرحى ، ويرسل الباقى بحرا - إذا أمكن - وترك كونت فلاندرز وكونت بوربون ليتوليا مسؤولية الإشراف . وفى اليوم التالى لرحيل الملك اندفع الأتراك هابطين إلى السهل وهاجموا المعسكر . واستحال دحرهم دحرا فعالا نظرا لعدم كفاية الفرسان ؛ ولذا حصل الصليبيون على إذن باللجوء إلى داخل الأسوار ، حيث عولجوا علاجا جيدا وحصل المرضى منهم على الرعاية الطبية ؛ وضاعف لاندولف من نشاطه لجمع المزيد من السفن. ومرة اخرى لم يجد ما يكفى من السفن للحملة كلها، ولذا حذا ثييرى كونت فلاندرز، وأرشيمبالد كونت بوربون، حذو مليكهما وركبا السفن مع أصدقائهما وباقى الفرسان، تاركين المشاة والحجاج لمواصلة طريقهم برا بقدر استطاعتهم[١٧]. وأعد لاندورف معسكرا خارج المدينة لمن تبقى من الجيش، لكن الجنود التعساء الذين هجرهم قادتهم رفضوا الإقامة على الساحل خوفا من تعرضهم لهجمات رماة الأتراك، وبدلا من ذلك انطلقوا مرة أخرى يشقون طريق العذاب إلى كيليكيا، ووراءهم من تبقى من مشاة كونراد الألمان يجرون اقدامهم، والجميع على حالهم من الجهل وعدم الانضباط والريبة فى مرشديهم، والمضايقات تتواصل من جانب الأتراك المقتنعين كذلك بأن البيزنطيين متحالفين معهم. وفى أواخر الربيع وصل أقل من نصفهم إلى انطاكية[١٨].

١١٤٧ - ١١٤٨م : السياسة البيزنطية أثناء الحملة الصليبية

فى إحدى الرسائل الكثيرة المرسلة من الملك لويس إلى الراهب سوجر - وموضوعها جميعا لا يتغير وهو طلب المزيد من المال - نسب الملك ما نزل بالصليبيين من كوارث فى الأناضول إلى "خيانة الامبراطور وأخطائنا أيضا". ودأب المؤرخ الفرنسى الرسمي للحملة الصليبية - أودو اوف دويل Odo of Deuil - على مهاجمة الامبراطور مانويل بصورة دائمة وبحميّة زائدة وردد صداه المؤرخون الغربيون حتى يومنا

---

(١٧) Odo of Deuil, pp. 73-6 يحاول محاولات مربكة التمويه على تخلى الملك عن الجيش William of Tyre, XVI, 26, pp. 749-51

(١٨) Odo of Deuil, pp. 76-80 .

هذا ، باستثناءات قليلة[١٩] ، وتسببت النكبات التى منى بها الصليبيون فى تنغيص العلاقات بصورة شديدة بين العالم المسيحى الغربى والشرقى بحيث ينبغى فحص الاتهامات فحصا دقيقا . فيشكو أودو من أن البيزنطيين لم يقدموا ما يكفى من امدادات الغذاء التى تقاضوا عنها أسعارا فادحة ، ولم يقدموا ما يكفى من وسائل النقل، ولا ما يكفى من المرشدين ، والأسوأ من هذا كله أنهم تحالفوا مع الأتراك ضد رفاقهم المسيحيين . والاتهامات الأولى سخيفة . فلا توجد دولة فى القرون الوسطى - حتى وان كانت منظمة تنظيما جيدا كبيزنطة - تمتلك ما يكفى من مخزونات الطعام بالقدر الذى يمكّنها من امداد جيشين كبيرين بصورة غير عادية هبطا عليها دون دعوة وباخطار مسبق بفترة وجيزة ؛ وعندما يندر الطعام ترتفع الأسعار حتما . وأما محاولات الكثير من التجار وبعض المسؤولين الحكوميين خداع الغزاة ، فهذا أمر يقينى . فمثل هذا السلوك لم يكن قط ظاهرة نادرة فى التجارة ، ولاسيما فى العصور الوسطى وفى الشرق . وليس من المعقول أن يُتوقع من لاندولف إمداد العدد الكافى من السفن لجيش بكامله فى ميناء أضاليا الصغير فى منتصف الشتاء ؛ كما لا يمكن إلقاء اللوم على المرشدين - ونادرا ما يؤخذ بنصائحهم - إذا كان غائبا عنهم آخر ما قام به الأتراك من تدمير الجسور والآبار ، أو فى حالة هربهم إزاء التهديدات والأعمال العدوانية من جانب الرجال الذين يرشدونهم . ومسألة التحالف التركى أكثر حسامة ، على أنه ينبغى النظر اليها من وجهة نظر الامبراطور مانويل ، الذى لم يوجه الدعوة إلى الحملة الصليبية ولا كان راغبا فيها . وكان له أسبابه المعقولة لاستنكارها . ذلك أن الدبلوماسية البيزنطية آنذاك قد تعلمت جيدا كيف توقع الفتنة بين شتى الأمراء المسلمين ضد بعضهم البعض ومن ثمّ تعزل كلا منهم بدوره ؛ إذ من شأن حملة أُعد لها إعلام جيد كالحملة الصليبية أن توحد حتما جبهة الأعداء ضد العالم المسيحى . وفضلا عن ذلك ، ومن أجل الاستراتيجية البيزنطية ضد الاسلام ، كان من الضروري السيطرة على أنطاكية ؛ وقد فازت بيزنطة أخيرا بهذه السيطرة عندما أعلن الأمير ريموند عن خضوعه المذل فى القسطنطينية . ولابد حتما أن يغريه وصول حملة صليبية على رأسها ابنة اخته (اليانور) وزوجها (لويس السابع) بالتخلى عن تبعيته ؛ ولم يكن تصرف الصليبيين ، عندما كانوا ضيوفا فى أراضى الامبراطور ، هو السلوك الذى من شأنه أن يزيد من حب الامبراطور لهم ؛ فقد دأبوا على النهب ، وهاجموا شرطته ، وتجاهلوا

---

(١٩) Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, pp.495-6؛ وموقف Odo of Deuil الشامل مناهض لليونانيين بصورة هستيرية.

طلباته بأن يسلكوا طرقا معينة ، وجاهر الكثير من وجهائهم بضرورة الهجوم على القسطنطينية . وفى ضوء هذه الحقائق، تبدو معاملته لهم كريمة متحملة بالصبر ، وهذا ما تحقق منه بعض الصليبيين . غير أن الغربيين لم يفهموا و لم يغفروا معاهدته مع الأتراك، إذ كانت الاحتياجات العريضة للسياسة البيزنطية بعيدة عن إدراكهم ، ولقد اختاروا أن يتجاهلوا - رغم إدراكهم يقينا - الحقيقة التى مفادها أنه بينما كانوا يطلبون العون من الامبراطور ضد الكفرة كانت أراضيه هو نفسه خاضعة لهجوم حقود من قوة مسيحية اخرى ؛ ذلك أنه فى خريف عام ١١٤٧م احتل الملك روجر الصقلى جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشا للإغارة على شبه الجزيرة اليونانية . وخُرّبت طيبه (ثيبيس) ، واختطف الألوف من عمالها للمساعدة فى صناعة الحرير الوليدة فى باليرمو، وحتى كورينث نفسها - وهى القلعة الرئيسية فى شبه الجزيرة - استولوا عليها وجردوها من كنوزها . وعاد النورمانديون الصقليون محملين بالأسلاب إلى كورفو التى خططوا الاحتفاظ بها لتكون بمثابة تهديد دائم للامبراطورية وقبضة خانقة على البحر الأدرياتيكى . وانما كانت شدة الهجوم النورماندى هى التى دفعت مانويل إلى اتخاذ قراره بالانسحاب من قونية عام ١١٤٦م وقبول ما قدمه السلطان من عروض للسلام فى العام التالى . وإذا كان مانويل يوصم بأنه خائن للعالم المسيحى ، فيقينا تكون للملك روجر الصقلى الأسبقية عليه.

١١٤٧ - ١١٤٨م : دور الامبراطور

كان الجيش البيزنطى كبيرا ، لكن وجوده لم يكن مطلقا فى كل مكان وفى كل وقت . وكانت الحاجة تستلزم استخدام أفضل الجنود ضد روجر . ثم كانت هناك شائعات بوجود قلاقل فى السهول الروسية ، حدث أن أسفرت فى صيف عام ١١٤٨م عن غزو بولوفتسيانى للبلقان . ومع وجود الصليبيين على مقربة ، لم يستطع مانويل تعرية حدوده فى كيليكيا من الرجال ؛ إلى جانب أن مرور الصليبيين خلال الامبراطورية كان يعنى ضرورة زيادة الشرطة العسكرية زيادة كبيرة . وبكل تلك المشاغل ، لم يتمكن الامبراطور من توفير قوات حدودية كاملة لتغطية حدوده الطويلة فى الاناضول ، ففضّل هدنة تساعد رعاياه فى الاناضول على أن يعيشوا حياتهم متحررين من تهديد الغارات التركية . وقد تسبب الصليبيون فى تعريض هذه الهدنة للخطر ؛ إذ كان تقدم كونراد إلى دوريليوم بمثابة استفزاز مباشر للأتراك . أما لويس ،

فيرغم بقائه داخل الأراضى البيزنطية ، إلاّ أنه جاهر بإعلانه أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء داخل المدى الذى تحرسه الحاميات البيزنطية . ومن المحتمل تماما أن يكون مانويل - وهو يواجه هذه المشكلة - قد أعد ترتيبا مع الأتراك تغاضى بمقتضاه عن الاغارة على اراضيه طالما انهم يهاجمون الصليبيين فقط ، وان الأتراك التزموا بالصفقة ، مما يولد انطباعا واضحا بأنهم كانوا فى حلف مع السكان المحليين الذين كان يستوى عندهم الصليبيون والأتراك فى سرقة قطعانهم ومخزونات طعامهم ، والذين كانوا فى تلك الظروف يفضلون الأتراك بطبيعة الحال(٢٠) على انه من المستحيل أن نصدق ما أكده أودو (اوف دويل) من أن السكان المحليين انضموا إلى جانب الأتراك في الهجوم على الصليبيين. فهو يوجه هذا الاتهام إلى سكان أضاليا بعد أن قال مباشرة إن الامبراطور عاقبهم فيما بعد لتعاطفهم مع الصليبيين(٢١).

إن المسؤولية الرئيسية عن الكوارث التى حلت بالصليبيين فى الأناضول ينبغى ان تقع على حماقاتهم هم أنفسهم . وكان الامبراطور حريا فى الواقع أن يفعل من أجلهم أكثر مما فعل ، وانما لا يكون ذلك إلاّ على حساب المخاطرة الجسيمة بامبراطوريته . بيد أن المسألة الحقيقية أعمق من ذلك . فهل كان الأفضل للعالم المسيحى أن تكون هناك حملات عرضية فخمة تأتى إلى الشرق ، يقودها خليط من المثاليين الحمقى والمغامرين الغلاظ ، لإنقاذ دويلة متفحّمة يتوقف وجودها على تشتت المسلمين ؟ أم أن تستمر بيزنطة التى ظلت طويلا حارسة للحدود الشرقية فى القيام بدورها دون أن يسبب لها الغرب الحرج ؟ لقد أظهرت قصة الحملة الصليبية الثانية بصورة حتى أوضح مما أظهرت الحملة الصليبية الأولى أن السياستين ليستا متفقتين . وعندما سقطت القسطنطينية نفسها وراح الأتراك يهدرون هدير الرعد على أبواب فيينا ، كان يمكن أن نفهم أي السياستين هى السياسة الصحيحة.

---

(٢٠) للاطلاع على مشاغل مانويل فى ذلك الوقت أنظر Chalandon ويكرر ميخائيل السورى الكثير من اتهامات الفرنج لليونانيين (III, p. 276) على أن المصادر الاسلامية ، مثل أبو شامة فى صفحة ٥٤ ، تقول إن مانويل كانت له قضية مشتركة مع الفرنج.

(٢١) Odo of Deuil, p. 79.

الفصل الثالث:

الإخفــاق التــام

الإخفاق التام

"تَشَاوَروا مَشُورَةً فَتَبْطُلُ"

(إشَعْيَاءَ ٨ : ١٠)

فى ١٩ مارس ١١٤٨م وصلت أنطاكية أنباء نزول الملك لويس إلى البر فى ميناء السويدية ، فهبط إليها الأمير ريموند وأهل بيته كلهم للترحيب بـه ومرافقتـه إلى المدينـة. ومضت الأيام الأولى فى حفول وسرور . وبـذل الوجهـاء مـن نبـلاء انطاكيـة مـا فـى وسعهم لإدخال البهجة على ملكة فرنسـا وعقيـلات السيدات فـى حاشـيتها ؛ ونسى الزائرون المشاق التى مروا بها فـى هـذا الربيـع السـورى البهيـج وسـط مفـاخر البـلاط الأنطاكى . وما أن انتعشوا حتى بدأ ريموند يناقش القادة الفرنسـيين خطـط حملـة ضـد الكفرة ؛ إذ كانت الآمال العراض تداعب خيال ريموند بمجـئ الحملـة الصليبيـة . ولقـد كان في وضع محفوف بالمخـاطر ؛ إذ كـان نـور الديـن يوطـد سـلطانه الآن علـى طـول الحدود المسيحية من الرها إلى حماة ، وقد أمضـى خريـف عـام ١١٤٧م ينـتزع القـلاع الفرنجية الواحدة تلو الأخرى شرق نهـر العـاصى ، وكـان الكونـت جوسـلين منشـغلا

للغاية فى الحفاظ على كونتيته فى تل بشير . وفي حالة هجوم إسلامي على انطاكية بأعداد كبيرة فإن القوة الوحيدة القادرة على مساعدة ريموند هى بيزنطة ، والأرجح أن لا يصل جنود بيزنطة إلا بعد فوات الأوان ، وعلى أية حال سوف تصر بيزنطة على تشديد تبعية انطاكية . وقدم الجيش الفرنسي - رغم أن حوادث الرحلة قللت من قوة المشاة - هذا التعزيز الهائل من الفرسان بحيث يتمكن فرنج انطاكية من أخذ زمام الهجوم . ودأب ريموند على تحريض الملك على ضرورة أن يضربا معا قلب قوة نور الدين - مدينة حلب - وحث الكثير من الفرسان الفرنسيين على الإنضمام إليه فى استطلاع مبدئى حتى أسوارها ، مما تسبب فى انتشار الذعر بين سكانها[١].

١١٤٨م : لويس وإلينور فى أنطاكية

غير انه عندما حانت لحظة العمل تردد الملك لويس ، قائلا إن قسمه الصليبى يجبره على أن يذهب إلى القدس أولا قبل أن يبدأ فى أية حملة . غير أن العذر كان مجرد قناع يخفى وراءه عجزه عن اتخاذ قرار . لقد كان أمراء الشرق الفرنجى كلهم يطلبون مساعدته ؛ فالكونت جوسلين يعلق عليه الآمال فى استعادة الرها ، أليس سقوطها هو الذى حرك الحملة الصليبية كلها؟ وكان ريموند أمير طرابلس يطالب بحق رابطة أبناء الخؤولة، إذ كانت أمه أميرة فرنسية ، فسعى إلى مساعدته لاستعادة قلعة بعرين . ثم حدث أن جاء إلى انطاكية فى شهر ابريل بطريق القدس نفسه ، مرسلا من البلاط الأعلى للملكة، يلتمس منه الإسراع جنوبا ، وليخبره بأن الملك كونراد موجود بالفعل فى الأراضى المقدسة[٢]. وفى نهاية الأمر كان هناك دافع شخصى محض هو الذى جعل الملك يستقر على رأى. ذلك أن الملكة إلينور كانت أذكى من زوجها للغاية ؛ وكانت قد أدركت فى الحال الحكمة التى ينطوى عليها مخطط ريموند ، على أن ترديدها لعواطفها البادية ومساندتها لخالها (ريموند) لم يكن لها من أثر سوى إثارة غيرة زوجها لويس . وبدأت الألسن فى القيل والقال ، وكانت الملكة والأمير يشاهدان معا أغلب الأوقات . ودارت الهمسات بأن افتتان ريموند يتجاوز اهتمام خال بابنة اخته . وشعر لويس بالخطر على شرفه ، فأعلن عن رحيلة فى الحال ، فما كان من الملكة الا أن

---

(١) William of Tyre, xvi, 27, pp.751-3; William of Nangis, i, p. 44.

(٢) البطريق هو Fulcher of Angoulême ، رئيس أساقفة صور الأسبق ، عينته ملسيند عقب وفاة William of Messines عام ١١٤٧م.

اعلنت عن بقائها فى انطاكية وعزمها على السعى للحصول على الطلاق من زوجها ؛ وردا على ذلك جر لويس زوجته بالقوة من قصر خالها وانطلق إلى القدس مع جنوده جميعا(٣).

وكان الملك كونراد قد هبط إلى البر فى عكا مع أهم أمرائه فى منتصف ابريل ولقى فى القدس استقبالا وديا ومشرفا من الملكة ملسيند وابنها(٤). وبعد ذلك بشهر استقبل الملك لويس بمظاهر تشريف مماثلة عند دخوله الأراضى المقدسة . و لم تشهد القدس قط مثل هذا الحشد الرائع من الفرسان والعقيلات(٥). غير انه قد غاب كثيرون بصورة ملحوظة . ذلك أن ريموند أمير أنطاكية تملكه الحنق مما أتاه لويس ، فنفض يديه من الحملة الصليبية برمتها . وعلى أية حال لم يكن بوسعه أن يترك إمارته وهى تعانى من الضغط الشديد من اجل بعض المغامرات فى الجنوب . كما لم يستطع الكونت جوسلين أن يترك تل بشير . وأما غيبة كونت طرابلس فتعزى إلى حادثة عائلية فاجعة. إذ كان من بين الصليبيين الذين أقسموا القسم فى فيزيلاى ، ألفونسو - جوردان ، كونت تولوز . وكان قد ركب البحر مع زوجته وأولاده من القسطنطينية وهبط فى عكابعد كونراد بأيام قليلة . وكان لوصوله مع كتيبة كبيرة أن أشعل حماس فرنج الشرق إذ كان بالنسبة لهم شخصية خيالية ، فهو ابن الصليبى القديم ريموند (اوف تولوز) وقد ولد فى الشرق على جبل الحجاج أثناء أن كان والده يحاصر طرابلس . بيد أن مجيئه كان إحراجا للكونت الذى يحكم طرابلس ، وهو حفيد برتراند، الإبن غير الشرعي للكونت ريموند. فإذا ما طالب ألفونسو - جوردان بطرابلس ، يصعب إنكار ذلك عليه ؛ ويبدو أنه أحب أن يذكر حقوقه . وفى طريقه شمالا من عكا إلى القدس ، توقف قليلا فى قيصرية . وهناك ، مات فجأة من الألم . وربما كان سبب موته مرض حاد مثل التهاب الزائدة الدودية ، إلا أن الجميع فكروا فى السم فورا ، وجاهر إبن الميت - برتراند - باتهام ابن عمه ريموند أمير طرابلس بتدبير قتله . واعتقد آخرون أن الملكة ملسيند هى التى ارتكبت الجرم عملا بوصية اختها المحبوبة - الكونتيسة هوديرنا - زوجة ريموند . و لم يثبت شئ من ذلك ؛ غير أن ريموند شعربالسخط من الإتهام

---

(٣) William of Tyre, *loc.cit.*، الذى يطلق على إلينور : المرأة "البلهاء" لكنه لا يفترض انها غير مخلصة. وقد أورد شكوك الملك John of Salisbury (*Historia Pontificalis*, p.53).

(٤) William of Tyre, XVI, 28, pp. 753-4; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.88-9.

(٥) William of Tyre, XVI, 29, pp. 754.

فامتنع عن أى تعامل مع الحملة الصليبية[٦].

١١٤٨م : قرار الهجوم على دمشق

عندما وصل كل الصليبيين إلى فلسطين ، وجّهت الملكة ملسيند والملك بلدوين الدعوة اليهم لحضور تجمع كبير تقرر عقده فى عكا يوم ٢٤ يونية ١١٤٨م . وكان حشدا مؤثرا . فكان المضيفون الملك بلدوين ، والبطريق فولشر مع رئيسى أساقفة قيسارية والناصرة ، والسيدين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وأبرز أساقفة وبارونات المملكة . وجاء مع كونراد أخواه غير الشقيقين ، هنرى جاسوميرجوت أمير النمسا ، وأوتو (اوف فريسينجن) ؛ وابن أخيه فريدريك (اوف سوابيا) ، وويلف (اوف بافاريا) والكثير من الأمراء الأقل . وكان مع الملك لويس أخوه روبرت (اوف دروو) وخطيب ابنته هنرى (اوف شامبانى) ، وثييرى كونت فلاندرز ، وكذلك برتراند الصغير ، الإبن غير الشرعى لألفونسو - جوردان . ولا نعرف المسار الذى سارت فيه المناقشة ولا الذى تقدم بالاقتراح الأخير . وقرر الجمع ، بعد قليل من المعارضة ، تركيز كل قوته فى الهجوم على دمشق[٧].

ولقد كان القرار هو الحماقة عينها . فدمشق ستكون فى الواقع جائزة ثمينة ، واستيلاء الفرنج عليها سوف يقطع الصلة تماما بين مسلمى مصر وأفريقيا وبين اخوانهم فى الدين فى شمال سوريا والشرق . غير أنه من بين الدول الاسلامية جميعا كانت المملكة البورية الدمشقية هى وحدها التى كانت تتطلع إلى أن تبقى على علاقة صداقة مع الفرنج ؛ إذ أنها - كشأن ذوى البصيرة من الفرنج - كانت تعتبر عدوها الرئيسى هو نور الدين . والمصلحة الفرنجية تقضى بالحفاظ على صداقة دمشق إلى أن يتم سحق نور الدين ، وأن يظل الخلاف مفتوحا بين دمشق وحلب . ويعتبر الهجوم على الأولى أنجح وسيلة لأن يرتمى حكامها فى أحضان نورالدين ، كما أظهرت أحداث العام الفائت . لكن بارونات القدس كانوا يشتهون الأراضى الخصيبة التى تدين بالولاء لدمشق ، وكانوا يعانون مرارة الألم فى تذكرهم للخزى الذى أصابهم مؤخرا ، ولابد

---

(٦) William of Tyre, XVI, 28, p. 754d؛ William of Nangis, I, p. 43 ويفترض أن ملسيند متورطة فى القتل.

(٧) William of Tyre, XVII, I, pp. 758-9، الذى يورد قائمة بأبرز الحاضرين من رجال الدين والعلمانيين؛ Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, p.89; Suger, *Gesta Ludovici*, pp.403-4

أن مليكهم الشاب ذا المعنويات المرتفعة كان متلهفا علـى الثـأر. ولم تكن حلب تعني شيئا للصليبيين الزائرين ، وانما كانت دمشق هـي المدينـة المبجلة فـى الأسـفار المقدسة والتى ستكون استعادتها من الكفرة بمثابة تمجيد للرب وليس هنـاك مـن جدوى فى توزيع الملامة فى اتخاذ هذا القرار ، غير أن المسؤولية الأكبر ينبغى أن تقع على عاتق البارونات المحليين الذين كانوا يعرفون الوضع ، أكثر من وقوعها على عاتق الوافدين الجدد الذين كانوا ينظرون إلى المسلمين كلهم نفس النظرة(٨).

وفى منتصف يولية ، انطلق الجيش المسيحى ، من الجليل خلال بانياس ، وهو أكبر جيش على الاطلاق يدفع بـه الفرنـج إلى ميـدان القتـال . وفـى يـوم السبت ٢٤ يولية ضرب معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق . وفى بداية الأمر لم يـأخذ الأمير أُنـر أنبـاء الحملـة الصليبية مـأخذا جـادا ، بعد أن سمع بخسـائرها الجسيمة فـى الأناضول ، وعلى أية حال فإنه لم يتوقع أن تجعل الحملـة مـن دمشـق هدفـا لهـا . لكنـه عندما اكتشف الحقيقة سارع باصدار الأوامر لحكام المقاطعات بارسال كـل مـن يمكـن الاستغناء عنه من الرجال؛ بينما هرع رسول إلى حلب طالبا المساعدة من نـور الديـن . وتوقف الفرنج أولا في الموضع المسمى منـاكل العسـاكر على بعـد حوالى ثمانيـة أميـال جنوب دمشق التى كانت أسوارها وأبراجهـا البيضـاء تومـض مـن خـلال مـا تعـج بـه البساتين من أوراق كثيفة ؛ غير انهم سرعان ما تقدموا شمالا إلى قرية الميزة حيـث المياه الوفيرة . وهناك حاول الجيش الدمشقي وقف تقدمهم لكنه أجبر على الانسحاب وراء الأسـوار . وابتهـج زعمـاء الصليبيـين بانتصـارهم ، فأرسـلوا جيش القـدس إلى داخـل البساتين لتطهيرها من مقاتلى حرب العصابات ؛ وما أن حل عصـر اليـوم حتـى كـانت البساتين الواقعة جنوب المدينة فى قبضة الفرنج الذين راحوا يغرزون متـاريس الحسـائك الخشبية من الأشجار التـى كـانوا يقطعونهـا . وبعـد ذلـك ، وبفضـل شـجاعة كونـراد شخصيا، شقوا طريقهم إلى قرية الربوة الواقعة على نهر بردى أسفل أسوار المدينة تماما. وظن مواطنو دمشق الآن أن كل شئ قد ضاع وبدأوا فى وضع المتاريس والحواجـز فـى الشـوارع إيذانـا بـالصراع الأخير اليـائس . لكـن المـد تحـول فـى اليـوم التـالى ؛ إذ أن التعزيزات التى طلبها أنر بدأت تتدفق إلى داخـل المدينـة مـن خـلال البوابـات الشـمالية للمدينة ، وبمساعدتها شن هجوما مضادا دحر المسـيحيين بعيـدا عـن الأسـوار . وأثنـاء اليومين التاليين كرر الهجمات ، بينما زاد توغل رجال حرب العصابات داخل الحدائـق

---

(٨) William of Tyre, *loc. cit.*.

والبساتين . وكانت عملياتهم من الخطورة البالغة للمعسكر بحيث اجتمع كونراد وبلدوين وقررا إخلاء البساتين جنوب المدينة والانتقال إلى الشرق وضرب المعسكر فى بقعة لا يجد فيها العدو مثل هذه التغطية . وفى يوم ٢٧ يولية تحرك الجيش كله إلى السهل خارج الأسوار الشرقية . ولقد كان القرار بمثابة كارثة ؛ إذ كان الموقع الجديد يفتقر إلى المياه ويواجه أقوى قسم فى الأسوار ؛ وتستطيع الآن فرق الهجوم الدمشقية أن تتحرك بحرية أكبر فى أنحاء البساتين . وفى واقع الأمر ، اعتقد الكثير من جنود الفرنج أن البارونات الفلسطينيين الذين نصحوا الملكين ، لابد وأنهم تلقوا الرشاوى من أونر لقاء نصيحتهم . ذلك أن انتقالهم أضاع آخر فرصة للإستيلاء على دمشق . وكان جنود أونر يتزايدون فى أعدادهم ، وكان يعلم أن نور الدين فى طريقه جنوبا ، فراح يجدد هجماته على المخيم الفرنجى . وبات الجيش الصليبى - وليس المدينة المحاصَرة - هو الذى يحارب حربا دفاعية[٩].

١١٤٨م : مشاجرات فى المعسكر المسيحى

فى الوقت الذى ترددت فيه الهمهمات عن الخيانة فى أنحاء الجيش المسيحى ، اختلف قواده جهارا حول مستقبل دمشق بعدما يحتلونها . فتوقع بارونات مملكة القدس إدماجها اقطاعية فى المملكة ، واتفقوا على تعيين جوى بريسبار - لورد بيروت - لوردا لها ، ويبدو أن الملكة ملسيند وكونستابل مناس قد وافقا على هذا الترشيح . غير أن ثيرى (اوف فلاندرز) كان يشتهى دمشق التى كان يرغب فى الاحتفاظ بها اقطاعية شبه مستقلة على غرار طرابلس . وفاز بتأييد كونراد ولويس والملك بلدوين الذى كانت اخته غير الشقيقة زوجة ثيرى . ولمّا علم البارونات المحليون بتأييد الملوك لثيرى توانى نشاطهم ؛ وزاد مؤيدوا من كانوا دائما يعارضون الهجوم على دمشق ، وربما كانوا على صلة خفية بأونر ، إذ كانت هناك همسات حول مبالغ طائلة من الأموال المدفوعة المزيفة - وهذا صحيح - التى عثر عليها أثناء مرورها بين دمشق وبين بلاط القدس وأمير الجليل (إليناند). وربما قال لهم أونر إنهم إذا انسحبوا فى الحال فسوف يتخلى عن تحالفه مع نور الدين . وسواء استغل أونر هذا الجدل استغلالا محددا أم لا ، فلاشك فى أنه كان له أثره على نبلاء المملكة . وكان نور الدين قد وصل

(٩) -William of Tyre, xvii, 2-5, pp. 760-7; Ibn al-Qalanisi, pp.282-6; Abu Shama, pp. 55-9; Usama,ed. Hitti, p.124.

بالفعل إلى حمص وراح يتفاوض على شروط مساعدته لأونُر ؛ فطلب ضرورة السماح لجنوده بالدخول إلى دمشق ؛ وكان أونر يناور كسبا للوقت ؛ إذ كان الجيش الفرنجى فى وضع صعب أمام دمشق ، ولا يتوقع وصول تعزيزات ، بينما يستطيع رجال نور الدين أن يكونوا فى ساحة القتال فى غضون أيام قليلة. وفى حالة مجيئهم ، فلن تجتث شأفة القوة الصليبية عن آخرها وحسب ، وإنما سوف تكون دمشق فى قبضة نور الدين يقينا(١٠).

والآن اقتنع بارونات فلسطين كلهم - بعد فوات الأوان - بحماقة مواصلة الحرب ضد دمشق ؛ وراحوا يضغطون برأيهم على الملك كونراد والملك لويس . وأصيب العاهلان الغربيان بالصدمة ؛ وليس باستطاعتهما المضى فى الجدل السياسى الخبيث ، لكنهما كانا يعلمان أنهما لا حيلة لهما بدون مساعدة الفرنج المحليين . واشتكى الملكان علانية من عدم الطاعة التى وجداها بين الفرنج المحليين وافتقارهم إلى الحماس للقضية . لكنهما أصدرا الأمر بالانسحاب(١١).

وفى فجر يوم الأربعاء ٢٨ يولية ، أى فى اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق ، هدم الجيش المعسكر وبدأ طريق العودة باتجاه الجليل . ورغم أن أموال أونُر ربما كانت ثمن انسحابهم فإنه لم يدعهم يرحلون فى سلام . إذ أن فرسان التركمان الخفاف تعلقوا بجناحيهم ومؤخرتهم طوال اليوم كله والأيام القليلة التالية ، وهم يمطرون حشودهم بسهامهم ، وتحول الطريق إلى فراش لجثث الرجال والخيول ، تسببت عفونتها فى تلوث السهل طوال أشهر كثيرة تالية . وفى أوائل أغسطس عادت تلك الحملة العظيمة إلى فلسطين وعاد الجنود المحليون إلى منازلهم . وكانت كل إنجازاتها أنها فقدت العديد من رجالها والكثير من موادها وعانت من خزى مرعب . إن ما أتاه هذا الجيش الجرار بتخليه عن هدفه بعد مجرد أربعة أيام يعد بمثابة لطمة مريرة للكبرياء المسيحى.

---

(١٠) William of Tyre, xvii, 6, pp. 767-8. Rey, 'Les Seigneurs de Barut', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 14-15، ويحدد Rey البارون المرشح على أنه Guy of Beirut ، وذلك من .Assisse, ii,p.458 ويورد ميخائيل السورى (iii,p.276) شائعة الأموال التى دفعت للملك بلدوين وإيليناند ، والتى قبلاها خشية من طموحات كونراد. ويقول Bar Hebraeus (trans. Budge, p.274) إنه لم يجد القصة لدى أى كاتب عربى . ويقول ابن القلانيسى فى صفحة (٢٦٤) إن الفرنج شعروا بالخطر من اقتراب الجيوش الإسلامية . ويقول ابن الأثير (pp. 469-70) إن أونور بالقطع حذر الفرنج المحليين من تلك الجيوش وبذر الخلاف بينهم وبين ملك ألمانيا.

(١١) William of Tyre, xvii,7,pp.768-70. وتدرج الترجمة الفرنسية هجوما على (البولانى) أى الفرنج الذين نشأوا فى الشرق . ويلقى كونراد باللوم على البارونات المحليين . انظر letter in *Wibaldi. Epistolae*, pp. 225-6.

وتحطمت تماما أسطورة فرسان الغرب الذين لا يُقهرون ، التى أكسبت هيبتها إبان المغامرة العظيمة للحملة الصليبية الأولى . وعادت الحياة إلى معنويات العالم الإسلامى(١٢).

١١٤٨م : الملك كونراد يغادر فلسطين

لم يمكث الملك كونراد فى فلسطين بعد عودته من دمشق ؛ وإنما اصطحب حاشيته يوم ٨ سبتمبر وركب سفينة متجهة إلى ثيسالونيكا . وبوصوله اليها تلقى دعوة ملحّة من الامبراطور مانويل لتمضية أعياد الميلاد فى بلاطه الامبراطورى . والآن ساد الوفاق التام بين العاهلين . واستمر ابن اخيه الصغير فريدريك فى ضغينته للبيزنطيين وتوجيه اللوم اليهم عن الخسائر الألمانية فى الأناضول ، ورغم ذلك لم يفكر كونراد إلا في تحالفه النفيس مع الامبراطور ضد روجر الصقلى ، وبات أسيرا لجاذبية مانويل الشخصية وضيافته البهيجة . وأثناء زيارته تمت مراسم زواج أخيه هنرى كونت النمسا من ابنة أخى مانويل ثيودورا بأعظم مظاهر الأبهة . وبكى البيزنطيون في ذهولهم لرؤيتهم أميرتهم الشابة المحبوبة تذهب ضحية لهذا المصير البربرى - وكما كتب أحد شعراء البلاط مواسيا أمها: "راحت قربانا لوحش الغرب" . غير أن الزفاف كان علامة على المصالحة التامة بين البلاطين الألماني والبيزنطي . وغادر كونراد القسطنطينية فى فبراير ١١٤٩م عائدا إلى ألمانيا ، وحاملا معه تحالفا بينه وبين مانويل ضد روجر الصقلى ، يقضي بتقسيم أراضيه الواقعة على شبه الجزيرة الإيطالية(١٣).

وفى الوقت الذى كان فيه كونراد يستمتع بما تقدمه القسطنطينية من أسباب الراحة ، لبث الملك لويس متريثا فى فلسطين وكتب له الراهب سوجر المرة تلو الأخرى راجيا منه العودة إلى فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على حسم أمره . إذ كان بلا شك راغبا فى تمضية عيد من أعياد الفصح فى القدس . وكان يعلم أن عودته سيعقبها طلاق وما يترتب عليه من كافة المترتبات السياسية . فسعى إلى تأجيل اليوم الشؤم .

(١٢) William of Tyre, *loc. cit.;* Ibn al-Qalanisi, pp. 286-7.

(١٣) William of Tyre, XVII, 8, pp. 770-1; Cinnamus, pp. 87-8; *Annales Palidense,* p. 83; Otto of Saint Blaise, p. 305; Otto of Freisingeg, *Gesta Friderici,* p. 96. وترد قصيدة من الشعر قالها Prodromus على شرف زواج ثيودورا في *R.H.C.G.* II, P. 772 ؛ لكنه يشير اليها قصيدة مرسلة لأمها على أنها راحت ضحية "لوحش من الغرب." *Ibid.* p.768

وفى الوقت ذاته ، وبينما حدد كونراد صداقته مع بيزنطة ، كان لويس يزداد مقتا للإمبراطور كلما خطر بذهنه، وغير سياسته وسعى إلى التحالف مع روجر الصقلى. وكان خلافه مع ريموند أمير انطاكية بمثابة تنحيه أهم عقبة فى طريق هذا التحالف الذى سوف سيزيد الشحناء مع بيزنطة . وأخيرا غادر لويس فلسطين فى أوائل صيف عام ١١٤٩م فى سفينة قبرصية سرعان ما انضمت إلى أسطول صقلى يبحر فى المياه الشرقية من البحر المتوسط . وكانت الحرب الصقلية ضد بيزنطة ما تزال دائرة ؛ وبينما كان الأسطول يدور حول بيلوبونيز[١٤] هاجمته سفن البحرية البيزنطية . فسارع الملك لويس باصدار الأوامر برفع العلم الفرنسى على سفينته ، وبذا سُمح له بمواصلة الابحار ؛ غير أن سفينة اخرى تحمل الكثير من اتباعه وممتلكاته وقعت فى أيدى البيزنطيين الذين أخذوها إلى القسطنطينية غنيمة حرب . ومرت أشهر كثيرة قبل أن يوافق الامبراطور على إعادة الرحال والمتاع إلى فرنسا[١٥].

وهبط لويس إلى البر فى كلابريا فى نهاية يولية ، واستقبله الملك روجر فى بوتنزا. وعلى الفور اقترح الملك الصقلى شن حملة صليبية جديدة يكون هدفها الأول الانتقام من بيزنطة . ووافق لويس ومستشاروه بسهولة ، وواصل رحلته إلى فرنسا وهو ما يفتأ يخبر كل شخص فى طريقه بما لقيه من غدر البيزنطيين وضرورة معاقبتهم . وكان البابا إيوجينيوس - الذى قابله لويس فى تيفولى - فاتر الحماس ، غير أن الكثير من أعوان البابوية رحبوا بالمخطط . وبدأ الكاردينال ثيودوين فى البحث عن مبشرين لتشجيعها ، فمنحه بطرس المبجل مؤازرته . وعندما وصل لويس إلى فرنسا حرض الراهب سوجر على الموافقة . والأهم من كل ذلك أن القديس برنارد أصابته الحيرة من تصاريف العناية الإلهية التى قضت مشيئتها بانتهاء حملته العظيمة مثل هذه النهاية المؤسفة ، فقبل متلهفا اعتبار بيزنطة مصدرا لكل ما لحق بالحملة الصليبية من كوارث ، وأطلق طاقاته جميعها فى استنزال الثأر من السماء على الامبراطورية الآثمة . بيد أنه لكى تنجح الحركة لابد لها من الاستعانة بمساعدة الملك كونراد الألمانى ؛ وكونراد الألمانى لن يتعاون معها، إذ أنه كان يرى بوضوح شديد أصابع عدوه روجر ، ولم يجد سببا فى التخلى عن تحالفه

---

(١٤) (المترجم): بيلوبونيز Peloponnese, Peloponnesus or Peloponnesos: شبه جزيرة تكون الجزء الجنوبى من اليونان حاليا.

(١٥) Cinnamus, p.87; letter of Suger (*Sugeri Opera*, ed. de la Marche, pp. 258-60); William of Nangis, I, p. 46. وقد احتجز البيزنطيون السفينة التى تقل الملكة إلينور لفترة (John of Salisbury, *Historia Pontificalis*, p. 61).

مع مانويل لكي يزيد روجر قوة على قوة . وحاءته المناشدات من الكاردينـال ثيودوين ومن بطرس المبجل ولكن بلا حدوى ؛ وتوسل إليه القديس برنارد نفسه وأطلق الرعـود فى وحه ، بلا طائل كذلك ؛ إذ كانت المرة الأخيرة التى أخـذ فيهـا كونـراد بنصيحة القديس هى نصيحة الحملة الصليبية الثانية . ولن يسمح لنفسه بأن يقـع فـى الفـخ مـرة أخرى . وبرفض الملك كونراد تقديم المسـاعدة ، لم يكـن هنـاك مفـر مـن التخلى عـن المخطط. وهكذا تأجلت الخيانة العظمى للعالم المسيحى التى نفثها القديس برنارد إلى ما بعد نصف قرن آخر.

١١٤٩م : برتراند التولوزى

ولم يمكث فى الشرق سوى أمير واحد من أمراء الحملة الصليبية الثانية ؛ ولم تكـن اقامته هناك من اختياره . ذلك أن برتراند التولوزى ، وهو ابـن الكونـت ألفونسـو مـن الزنا ، لم يتحمل رؤية ميراث طرابلس الكبير فى حوزة ابـن عمـه الـذى يرتـاب في أنـه قاتل أبيه . فلبث فى فلسطين إلى أن غادرها الملك لويس ، ثم سار شمـالا برحالـه أبنـاء لانجدوق (فى حنوب فرنسا) كما لو كان ينوى ركوب البحر من ميناء شمالى سـوري. وبعد أن عبر السهل الذى ينفتح فيه وادى البقاع باتجـاه البحـر تحـول فجـأة إلى داخـل البلاد واحتل قلعة العريمة، ومن هناك تحدى الجنود الذين أرسـلهم الكونـت ريمونـد مـن طرابلس لإقتلاعه . وكانت القلعة فى موقع مرتفع حيد كما لو كان وكـرا للنسـر ؛ إذ أنها تسيطر على الطرق الموصلة من طرابلس إلى طرطوس ومن طرابلس إلى داخل البلاد أعلا البقاع . ولم يجد الكونت ريموند من يتعاطف معه بين الأمراء من رفاقه المسيحيين، ولذا أرسل إلى دمشق طالبا المساعدة من أونُر الذي استجاب بسرور ودعـا نـور الديـن للانضمام إليه ؛ وبذا أظهر استعداده للتعاون مع نور الدين ضد المسيحيين دون الإضرار بمحاولته الحفاظ على علاقات طيبة مع مملكة القدس . وفى واقع الأمر فإنه بذلك يرضى الملكة مليسند بمساعدة زوج أختها . وقد هبط الأمـيران المسـلمان علـى العريمـة التـى لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا الحشد الكبير . ونهب المسـلمون الظـافرون القلعـة عـن آخرها ثم دمروها تدميرا وتركوها للكونت ريموند ليحتلهـا مـرة اخـرى وانسـحبوا وفي أثرهم صف طويل من الأسرى . وكـان برترانـد وأختـه مـن نصيـب نـور الديـن الـذى أخذهما إلى حلب حيث أمضيا اثنى عشر عاما فى الأسر[١٦].

---

(١٦) Ibn al-Qalanisi, pp. 287-8; Ibn al-Athir, pp. 470-1, and *Atabegs*, p. 162; Kemal ad-

ولقد كانت خاتمة ملائمة للحملة الصليبية الثانية ، أن يقع آخر صليبى فيها أسيرا لدى المسلمين الحلفاء لرفيقة الأمير المسيحى الذى حاول أن يسلبه امارته . وليست هناك مغامرة فى العصر الوسيط بدأت بآمال أكثر روعة منها . إذ أن الحملة الصليبية الثانية ، وقد خطط لها البابا ، وبشرت لها وأوحتها فصاحة القديس برنارد الذهبية ، وقادها العاهلان الرئيسيان فى أوروبا الغربية ، كانت واعدة بالكثير من أجل مجد وخلاص العالم المسيحى . على أنها عندما وصلت إلى نهايتها المخزية بانسحابها الكئيب من دمشق ، كان كل ما حققته من انجاز هو تنغيص العلاقة بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين حتى كادت أن تصل إلى مرحلة الصدام ، وزرع بذور الريبة بين الصليبيين من الوافدين الجدد والفرنج المقيمين فى الشرق ، والمباعدة بين الأمراء الفرنج الغربيين عن بعضهم البعض، والتقريب الأوثق بين المسلمين من بعضهم البعض ، وإلحاق أضرار مهلكة بما اشتهر به الفرنج من الإقدام العسكرى . وربما حاول الفرنسيون أن يلقوا لائمة الإخفاق التام على غيرهم ، على الامبراطور مانويل الخؤون ، أو على بارونات فلسطين فاترى الحماس ، وربما راح القديس برنارد يهدر رعوده ضد الأشرار ممن تدخلوا فى مشيئة الرب ؛ غير أن الحملة الصليبية فى واقع الأمر قد انتهت إلى لا شئ بسبب قادتها ، بضراوتهم وجهلهم وحماقتهم العقيمة.

Din, ed. Blochet, p.517 واستنادا الى التراث الفرنجى تزوجت أخت برتراند من نور الدين وأصبحت أم وريثه الصالح.(Robert of Torigny, II, p. 53)

الباب الرابع:

تحول المد

الفصل الأول:

الحياه فى الشرق الفرنـجى

(أوتـريـميـه)

الحياة فى الشرق الفرنجى
(أوتريميه)

"بَل عَمِلتُم حَسب أحْكام الأُمم الّذين حَوْلكُم"

(حِزْقيال ١١ : ١٢)

فشلت الحملة الصليبية الثانية ، فكان فشلها نقطة تحول في قصة الشرق الفرنجي . وكان سقوط الرها بمثابة اكتمال المرحلة الأولى من البعث الإسلامي ، ثم انهارت الحملة العظيمة انهيارا يرثى له ، وهي الحملة التي كان يفترض لها أن تعيد السيادة الفرنجية ، وبذا جاء انهيارها تثبيتا لمكاسب الإسلام.

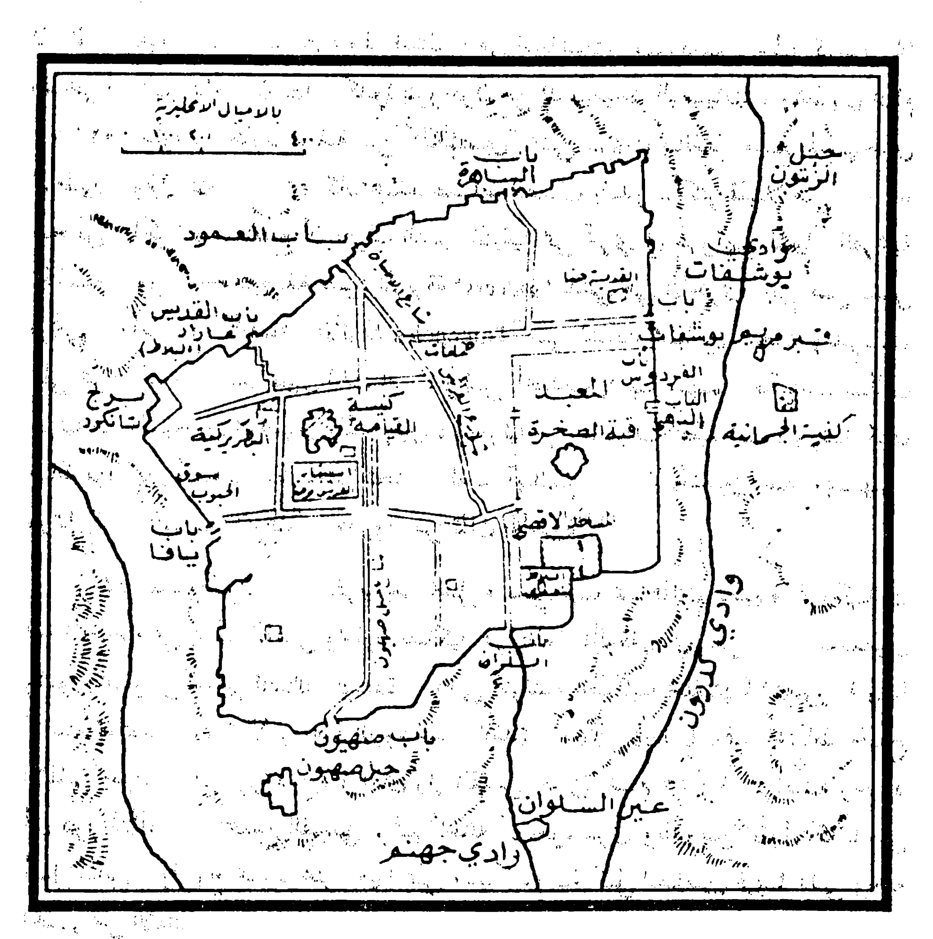
ومن أهم أسباب ذلك الفشل اختلاف العادات والتوقعات بين الفرنج المقيمين فى الشرق وأبناء عمومتهم فى الغرب . ذلك أن الصليبيين صُدموا بعد أن اكتشفوا وجود مجتمع فى فلسطين غيّر أفراده أسلوب حياتهم على مدى جيل واحد. كانوا يتحدثون لهجة فرنسية ، وكانوا أتباعا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، وحكومتهم تتبع التقاليد التى نطلق عليها التقاليد الإقطاعية . على أن هذا التشابه المصطنع لم يكن له من أثر سوى أن زاد من حيرة الوافدين الجدد بسبب تلك الفروق.

ولو كان المستعمرون أكثر عددا لتمكنوا من الاستمرار بأساليبهم الغربية ، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة فى بلد كان مناخه وأسلوب حياته غريبين عنهم . وليس فى الامكان معرفة الأعداد الحقيقة إلا حدسا ؛ لكن يبدو أنه لم يحدث فى أى وقت أن زاد عدد البارونات والفرسان المقيمين إقامة دائمة فى مملكة القدس عن ألف شخص . وأما أقاربهم من غير المقاتلين ، من النساء والمسنين ، فلم يزيدوا كثيرا على ألف أخرى . وكانت مواليد الأطفال كثيرة ، لكن القليل منهم يبقى على قيد الحياة . وبتعبير آخر ، وبخلاف رجال الدين الذين كان عددهم مئات قليلة ، وفرسان النظامين العسكريين ، لم يكن هناك سوى عدد يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف شخص من البالغين فى الطبقات العليا الفرنجية[1] . وربما كان مجموع سكان طبقات الفروسية فى إمارة أنطاكية وكونتيتى طرابلس والرها هو نفس العدد[2]، وبقيت تلك الطبقات نقيّة العرق عموما. أما فى الرها وانطاكية فكانت هناك زيجات مختلطة مع اليونانيين المحليين والأرستقراطية الأرمينية ؛ إذ تزوج كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى - عندما كان كل منهما كونت الرها - من زوجة أرمينية من الطائفة الأرثوذوكسية ، وقيل لنا إن بعض نبلائهم قد حذوا حذوهما . وكانت زوجة إبلين الأول وزوجة فاليران أمير البيرة أرمينيتين من أتباع الكنيسة المنفصلة على أنه لم يكن في الجنوب أرستقراطية مسيحية محلية ، وانما كان العنصر الشرقي الوحيد يتألف ممن تجرى فى عروقهم دماء أرمينية فى العائلة المالكة وآل كورتناى ، وفيما بعد ذرية االملكة البيزنطية ماريا كومنينا - سواء الذرية المالكة أو ذرية إبلين[3].

(١) ربما كان فى الجيش العظيم الذى هزم فى حطين ١٢٠٠ فارس ، منهم ٣٠٠ فارس من فرسان المعبد، وربما مثلهم من فرسان المستشفى . وأما البارونات والفرسان العلمانيين فلا يمكن لعددهم أن يزيد على ٧٠٠ شخص ، ومع ذلك اشترك جميع الفرسان فى المعركة . ولم يتخلف فى القدس سوى اثنين فقط. وكان هذا الجيش يشتمل على القليل من الفرسان الآتين من طرابلس أو أنطاكية . وكان عدد معين من الفرسان قد غادر المملكة مع بلدوين (اوف إبلين) أنظر أدناه صفحتى ٤٥٤،٤٦٤. وفى تقديرات جون (اوف إبلين) أن المملكة كانت تستطيع فى عهد بلدوين الرابع استدعاء ٥٧٧ فارسا بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، و ٥٠٢٥ ضابطا من ضباط النظام.(Ibelin,pp. 422-7)

(٢) ليس فى الإمكان معرفة أرقام أنطاكية وطرابلس إلاّ حدسا . وربما لم تكن الرها تشتمل على مايزيد على ١٠٠ أسرة من أسر النبلاء وفرسان الفرنج . وربما كانت كونتية طرابلس تشتمل على ٢٠٠ أسرة وأنطاكية أكثر بكثير . وفى عام ١١١١م ، يقول Albert of Aix (XI, 40-I, pp. 182-3) إن تل بشير قدمت ١٠٠ فارس والرها ٢٠٠ فارس ، غير انه لابد وأن كان الكثير منهم من الأرمن.

(٣) أنظر أدناه ، شجرات الأنساب.



خريطة رقم (٤) بيت المقدس زمن ملوك اللاتين

أما طبقة "ضباط الصف" فكانت أكثر عددا ؛ وكـان أفرادهـا أصـلا بمثابـة دعامـة المشاة الفرنجية كاملة التسليح ، وقد استقروا فى اقطاعيات اللـوردات . ولمّـا كـانوا بـلا مفاخر أنساب يفاخرون بها ، كانوا يتزوجون من المسيحيات الوطنيات ؛ وبحلـول عـام ١١٥٠م بـدأوا يشـكلون طبقـة مـن "المخلطـين" التـى بـرزت بـالفعل مـع المسـيحيين الوطنيين. وفى عام ١١٨٠م كان عـدد ضبـاط الصـف يقـدر بـأكثر قليـلا مـن ٥٠٠٠ شخص ؛ لكننا لا نستطيع أن نعرف النسبة المتبقية ممن تجري في عروقهم الدماء الفرنجية الخالصة . وربما كانت طبقة جنود المرتزقة "sodeers" تدعى هى الأخرى بأنها مـن نسـل فرنجى . وأما طبقة "أنصاف الأتراك Turcopoles" التى نشأت محليا وتسلحت وتدربـت على غرار الفرسان البيزنطيين الخفـاف ، والتـى أخـذت إسمهـا منهـم ، فكـانت تتـألف جزئيا من المسيحيين الوطنيين والمتحولين ، وجزئيا من أنصـاف الطبقـات ، وربمـا كـان هناك فرق بين أنصاف الطبقات المتحدثين لغـة آبـائهم وبـين المتحدثـين لغـة أمهـاتهم . وربما كان "أقطاب الأتراك" ينحدرون من تلك الأخيرة[٤].

وكان المستوطنون كلهم تقريبا من أصل فرنسي فيما عدا المدن الكبيرة . وكـانت لغة المخاطبة فى مملكة القدس وامارة انطاكية هى اللغة المألوفة لدى الفرنسيين الشماليين والنورمان والتى تدعى Langue d'oeil . وفـى كونتيـة انطاكيـة بخلفيتهـا التولوزيـة ربمـا كانت تستخدم بادئ الأمر لغـة البروفنسـال القديمـة Langue d'oc وقـد اغتـاظ الحـاج الألمانى جون (اوف فورزبرج) ، الذى زار القدس حوالى عـام ١١٧٥م ، لعـدم وجـود أى دور للألمان فى المجتمع الفرنجى برغم ادعائه أن جودفـرى وبلدويـن الأول كانـا مـن أصل ألمانى . وابتهج عندما عثر أخيرا على منشأة دينيـة كـل العـاملين فيهـا علـى وجـه الحصر من الألمان.

وكانت المدن تشتمل على مستعمرات إيطالية كثيرة . إذ كان البنادقة وأبناء جنـوا يمتلكون شوارع فى القدس نفسـها . وكـانت هنـاك منشـآت لأبنـاء جنـوا – مضمونـة بمعاهدة – فى كل من يافا وعكا والسويدية وانطاكية ، ومنشآت للبنادقة فى أكبر تلك المدن . وكان لأبناء بيزا مستعمرات فى صور وعكا وطرابلس واللاذقية . وكانت كلها كميونـات تـدار بـالحكم الذاتـى ، وكـان مواطنوهـا يتكلمـون الايطاليـة و لم يختلطـوا اجتماعيا بجيرانهم . وكانت هناك على شاكلتها منشآت يملكها أبناء مرسـيليا فـى عكـا

---

(٤) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.160-2; Munro, *The Kingdom of the Crusaers*, pp.106-7, 120-1.

ويافا وصور وجبيل ، ومنشآت يملكها أبناء برشلونة فى صور . وباستثناء عكا ، كان عدد الأشخاص فى كل من تلك المستعمرات لا يزيد على مئات قليلة[٥].

المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود

كانت الأغلبية الساحقة من السكان تتألف من المسيحيين . وفى مملكة القدس كان هؤلاء المسيحيون من أصل مختلط ، أغلبهم يتحدث العربية ، وقد أطلق عليهم بلا اكتراث اسم المسيحيون العرب ، وكلهم تقريبا من أتباع الكنيسة الأرثوذوكسية . وفى كونتية طرابلس كان بعض السكان أعضاء فى الطائفة المونوثيليتية (التى تؤمن بوحدة إرادة المسيح ذى الطبيعتين) والتى تسمى الطائفة المارونية . وفى المناطق الأبعد إلى الشمال كان السكان فى أغلبهم من الوحديطبعيين Monophysites[٦] التابعين للكنيسة اليعقوبية ، غير أنه كانت هناك مستعمرات كبيرة جدا للأرمن ، وكل أفرادها تقريبا من أتباع الكنيسة الأرمينية المنفصلة ، وكان فى أنطاكية واللاذقية وكيليكيا مجموعات كبيرة من الأرثوذوكس المتحدثين باليونانية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان فى الأراضى المقدسة مستعمرات دينية من كل طائفة دينية . وكانت الأديرة أرثوذوكسية أساسا وتتحدث اليونانية ؛ ووجدت كذلك منشآت جورجية أرثوذوكسية ، كما كان فى القدس خاصة مستعمرات للوحديطبعيين من الأقباط المصريين والاثيوبيين على السواء ، ومن اليعاقبة السيريان ، وجماعات لاتينية قليلة كانت قد استقرت هناك قبل الحملات الصليبية[٧] . وقد هاجرت جماعات إسلامية كثيرة بعد إنشاء المملكة المسيحية ، على

---

(٥) Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7، يشير الى أن الأنشطة التجارية للايطاليين خلال القرن الثاني عشر كانت تركز أساسا على مصر والقسطنطينية. وكانت الموانى الساحلية السورية أقل بكثير فى أهميتها بالنسبة لهم.

(٦) (المترجم): أى القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، بخلاف الطائفة القائلة بوجود طبيعتين له بشرية وإلهية

(٧) ليس هناك سوى أدلة قليلة على وجود مسيحيين وطنيين فى فلسطين أثناء القرن الثانى عشر انظر أدناه الصفحات ٣١٩-٢٣. و Rey, *Les Colonies Franques*, pp.75-94 عن الأقباط والأثيوبيين أنظر Gerulli, *Etiopi in Palestina*, pp. 8 ff.

أن هناك قرى إسلامية كانت ما تزال موجودة حول نابلس[٨] ، وبقى سكان مقاطعات كثيرة على اسلامهم بعد أن احتلها الفرنج فى وقت لاحق . وفى شمال الجليل ، بطول الطريق من بانياس إلى عكا ، كان الفلاحون على وجه الحصر تقريبا مسلمين . وأبعد إلى الشمال ، فى البقاع وجبال النصيرية ووادى نهر العاصى، كانت هناك طوائف اسلامية هرطيقية تعترف بالحكم الفرنجى[٩]. وبطول الحدود الجنوبية وما وراء نهر الأردن كانت هناك قبائل رحّل بدوية . وأدت مذابح اليهود والتهديد بها إلى تقليص أعداد اليهود بدرجة كبيرة فى فلسطين وسوريا المسيحية . وشعر بنيامين تيوديلا بالأسى عندما زار البلاد لضآلة عدد مستعمراتهم[١٠] ، وكان عددهم فى دمشق وحدها أكثر من عددهم فى كل الدويلات المسيحية[١١] ، على أنهم فى وقت ما خلال القرن الثانى عشر اشتروا احتكار صناعة الصباغة من التاج ؛ وكانت صناعة الزجاج فى أيديهم بدرجة كبيرة[١٢] ، وكان فى نابلس طائفة سامرية[١٣] صغيرة تعيش هناك[١٤].

وكانت تلك المجتمعات المختلفة تشكل قاعدة الدويلات الفرنجية ؛ ولذا لم يكن الأسياد الفرنج يتسببون في إزعاجهم ، إلا فيما ندر . وحيثما تمكن الوطنيون من اثبات ملكيتهم للأرض كان يسمح لهم بالاحتفاظ بها ؛ غير أن أصحاب الأرض فى فلسطين وطرابلس كانوا كلهم تقريبا من المسلمين، باستثناء الأراضى التى تملكها الكنائس المحلية، وقد هاجروا فرارا من الغزو الفرنجى تاركين أراض شاسعة تساعد الحكام الجدد على تثبيت أتباعهم من بنى جلدتهم . وبدا أنه لم تعد هناك قرى حرة باقية مثل تلك

---

(٨) تسبب المسلمون حول نابلس فى استشعار الخطر للفرنج بعد حطين (Abu Shama, p.302)؛ وعن المسلمين فى عكا وحولها انظر .. Ibn Jubayr, ed. Wright, pp.8 ff.

(٩) أنظر .. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 170 ff. ويشير Burchard of Mt Sion إلى شتى الطوائف الاسلامية فى شمال سوريا.(P.P.T.S. vol. XII, p. 18)

(١٠) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, pp. 26-47

(١١) *Ibid.* pp. 47-8.

(١٢) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, p. 35 (dye-monopoly at Jerusalem).وكان اليهود يصنعون الزجاج فى أنطاكية وصور.*Ibid.* pp.26-47 .

(١٣) (المترجم): نسبة إلى طائفة من اليهود توشك الآن على الانقراض، وترى أنها تنتسب إلى السامرة القديمة، ويسمون أنفسهم بنى إسرائيل (أو الشيميريم) أى "المراعين" لأنهم لا يعتدون كمرجع لهم إلا التوراة محصورة فى الأسفار الخمسة الأول من العهد القديم.

(١٤) *Ibid.* pp.33-4 واستنادا الى بنيامين (pp. 32-44) ، كانت هناك ألف أسرة ووجدت غيرها فى قيسارية وعسقلان.

التى كانت موجودة فى العهود البيزنطية المبكرة .وكان كل مجتمع من مجتمعات القرى مرتبطا بالأرض ويدفع حصة من انتاجها للسيد ؛ غير أن تلك الحصة لم تكن موحّدة . ففى الجزء الأكبر من البلد ، حيث كان القرويون يتبعون نظام الزراعة المختلطة البسيط، ربما كان السيد يتوقع ما يكفى من الإنتاج لإطعام أهل بيته والتابعين له من "المخلطين وأنصاف الأتراك" الذين كانوا يعيشون في جماعات حول القلعة ؛ إذ لم يكن الفلاح المحلى مناسبا هو نفسه لأن يكون جنديا . وكانت الزراعة تدار فى السهول الخصيبة على أساس تجارى بصورة أكبر . فكان السيد يستغل البساتين وحدائق الكروم، وقبل كل ذلك مزارع قصب السكر ، وربما كان الفلاح يتقاضى ما يزيد قليلا عن قوته. و لم تكن هناك أعمال عبودية فيما عدا بيت السيد ، رغم أن أسرى المسلمين ربما كانوا يعملون مؤقتا فى أراضى الملك أو أراضى السيد الأعظم. وكان التعامل بين القرويين وسيدهم يجري عن طريق رئيسهم ، وأحيانا كان يسمى بالإسم العربى (الريس) وأحيانا بالشكل اللاتينى ريجولوس regulus وكان السيد يستخدم إلى جانبه أحد مواطنيه على أنه الترجمان (dragoman) ، وهو سكرتير يتحدث العربية بإمكانه مسك الدفاتر(١٥).

إقطاعيات المملكة

على الرغم من التغير الطفيف الذى حدث فى حياة الفلاحين ، أعيد تنظيم مملكة القدس تنظيما ظاهريا على غرار الإقطاعات التى نطلق عليها "إقطاعية". فكان نطاق السلطة المَلَكية يتألف من المدن الثلاث القدس وعكا ونابلس ، وفيما بعد مدينة دارون الحدودية وما حولها من أراض . وكان نطاقا يشغل جزءا كبيرا من المملكة ، إذ أن الملوك الأوائل ، وخاصة الملكة ملسيند ، دأبوا على الإسراف فى إهداء الأراضى لأصدقائهم وللكنيسة وللنظامين العسكريين الدينيين . وكانت هناك اجزاء اخرى تقتطع كبائنة للأرامل من الملكات . وكانت أهم الإقطاعيات الأربع للمملكة هى كونتية يافا التى كانت تخصص عادة لأحد المتعلمين من البيت الملكى ؛ وإمارة الجليل ، التى تدين بإسمها الفخيم لطموح تنكريد ؛ وإقطاعية صيدا السيادية ؛ وإقطاعية ما وراء الأردن

(١٥) أنظر Cahen, `Notes sur l'histoire des Croisades ed de l'Orient latin. II. Le régime rural syrien au temps de la domination franque', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7، حيث يرد فيها دراسة نفيسة حول هذه المسألة العويصة.

السيادية . ويبدو أن حائزى تلك الإقطاعيات كان عندهم موظفون كبار تقليدا لما كان عليه الملك . وهذا ما كان يفعله كذلك لورد قيسارية ، الذى كانت اقطاعيته بنفس الأهمية تقريبا ، رغم أن تصنيفها جاء مع الإقطاعيات الإثنتى عشرة الثانوية . وبعد حكم بلدوين الثانى، كانت حيازة الأرض تقوم على أساس الحق الوراثى بحيث تؤول إلى الإناث فى حالة عدم وجود وريث من الذكور . وليس فى الإمكان إخلاء المستأجر إلا بقرار من المحكمة العليا إذا ارتكب بعض الأعمال الشريرة. غير انه كان مدينا للملك أو لسيده الأعلى بعدد محدد من الجنود فى حالة طلبهم منه ، ويبدو أنه لم تكن هناك فترة زمنية محددة لخدمتهم . وكان كل من كونت يافا ولورد صيدا وأمير الجليل مدينا بمائة فارس كاملى التسليح ، وأما لورد منطقة الأردن فكان مدينا بستين فارسا(١٦).

وقد اختلفت أحجام الإقطاعيات . فكانت الإقطاعيات العلمانية تتحدد بالغزو وكانت عبارة عن قطع محددة من الأرض . على أن ممتلكات الكنيسة والنظامين العسكريين ، كانت آخذة في التضخم بسبب الهبات الخيرية ووصايا التوريث ، أو ما يتلائم استراتيجيا فى حالة النظامين الدينيين العسكريين ، وقد تبعثرت تلك الممتلكات في أنحاء الدويلات الفرنجية . وكانت وحدة القياس التى تقاس بها الأراضى هى القرية ، أو الدار casal ، أو نادرا جدا نصف القرية أو ثلثها ؛ لكن القرى كانت تختلف فى أحجامها كذلك . وفى شمال الجليل حول صفد ، يبدو أن القرى كانت تشتمل فى المتوسط على مجرد أربعين من السكان الذكور ، لكننا نسمع عن قرى أكبر حول الناصرة ، وقرى أصغر حول صور حيث كان السكان عموما أكثر كثافة مع ذلك(١٧).

كما كان هناك لوردات عاديون يتحصلون على اقطاعيات نقدية ، أى كانوا يحصلون من مدن وقرى معينة على إيراد مالى ثابت لقاء التزامهم بتوفير الجنود بأعداد متناسبة . وكانت تلك الإقطاعيات المالية وراثية ويكاد يستحيل أن يلغيها الملك(١٨)، وانما كان يأمل - كما هى الحال فى إقطاعيات الأراضى - أن يموت صاحب الإقطاعية المالية دون أن يترك ورثة ، أو على الأقل يترك بنتا ترثه ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يختار لها زوجا أو أن يصر على أن تختار هى زوجا من ثلاثة رجال يرشحهم هو(١٩).

---

(١٦) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.138-65; Rey, *op.cit.* pp. 1-56, 109-64.

(١٧) Cahen, *op. cit.* pp. 291-8.

(١٨) La Monte, *op. cit. pp. 144-51.*

(١٩) يقول Grandclaude, 'Liste d'Assises de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*,p. 340 إن تاريخ القانون الذى يسمح للوريثة باختيار زوج من بين ثلاثة

وكانت المدن الملكية مجبرة على توفير الجنود بحسب ثرواتها . فكان على القدس توفير واحد وستين جنديا ، ونابلس خمسة وسبعين جنديا ، وعكا ثمانين جنديا . على أن الجنود لم يكونوا من الطبقة البورجوازية ، وانما من النبلاء المقيمين فى المدينة ، أو أصحاب المنازل فيها . وكان رجال الدين البارزون مدينين بالجنود كذلك في مقابل ضياع الأراضى التى فى حوزتهم أو ملكيتهم للمنازل . أما الطبقة البورجوازية فكانت تدفع للحكومة ضرائب مالية . وكانت الضرائب المنتظمة مفروضة على الموانى والصادرات ، وعلى المبيعات والمشتريات ، وعلى رسو السفن والحجاج ، وعلى استخدام الموازين والمقاييس . كما كانت ضريبة الأرض terraticum مفروضة على ممتلكات الطبقة البورجوازية ، ولا نعرف عنها سوى القليل . وبالإضافة إلى ذلك ، قد تدفع ضريبة خاصة لبعض الحملات . ففى عام ١١٦٦م كان على غير المقاتلين أن يدفعوا عشرة فى المائة من قيمة منقولاتهم ؛ وفى عام ١١٨٣م كانت هناك ضريبة رأسمالية مقدارها واحد فى المائة على الممتلكات والديون يدفعها جميع السكان ، مقترنة بنسبة اثنين فى المائة على إيرادات المنشآت الكنسية وممتلكات البارونات . وكان على كل فرد من الفلاحين أن يدفع ضريبة الرأس الشخصية لسيده إلى جانب ما تدفعه القرية على انتاجها ؛ وكان على الرعايا المسلمين دفع العُشر أو الدايْم dime (أى مبلغ ضئيل) يذهب إلى الكنيسة . ودأبت الهرميات اللاتينية على محاولة تمديد ضريبة الدايم هذه لتطبق على المسيحيين المنتمين إلى كنائس هرطيقية . لكن تلك الهرميات اللاتينية لم تفلح رغم أنها أجبرت الملك أماريك على رفض عرض من الأمير الأرمينى ثوروس الثانى بارسال مستعمرين إلى المقاطعات الفلسطينية الخالية من السكان لأن رجال الهرمية اللاتينية أصروا على أن يدفع هؤلاء المستعمرون الجدد الدايم(٢٠) . على أن المسلمين قد وجدوا فى هذا الدايم مستوى ضريبى عام أقل فى ظل الحكم الفرنجى عن مستواه فى ظل الحكام المسلمين المجاورين . كما أنهم - أى المسلمين - لم يُستبعدوا من الالتحاق بالوظائف الحكومية البسيطة ، إذ كان بامكانهم - والمسيحيين كذلك - الإلتحاق بوظائف مسؤولى الجمارك ومحصّلى الضرائب(٢١).

يرشحهم الملك يرجع الى ما بعد عام ١١٧٧م . غير أن بلدوين الثالث عرض على كونستانس فى أنطاكية الإختيار من بين ثلاثة خطاب فى عام ١١٥٠م. ومع ذلك لا يستطيع الملك إجبارها على قبول أى منهم (انظر أدناه صفحة ٣٣١).

(٢٠) Cahen, *op. cit.* pp. 299-302. وأورد Ernoul, pp. 27-30 عرض ثوروس.

(٢١) Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 305.

الدستـــور

من المحال أن نذكر شيئا دقيقا عن دستور الدويلات الفرنجية لأنه لم يكن هناك دستور ثابت فى أى وقت . وعندما قدم القانونيون المتأخرون ما جمعوه من مثل "كتاب للملك Livre au Roi " أو "قوانين القدس Assisscs de Jerusalem"، إنما كانوا يحاولون اكتشاف الحالات التى تسببت فيها القرارات المحددة فى تغيير العادات المقبولة ، وليس وضع قانون حكومى راسخ . وكانت هناك اختلافات محلية . إذ لم يكن أمير انطاكية أو كونت الرها أو كونت طرابس يصادف مشاكل من الأتباع سوى القليل . بينما كان ملك القدس فى وضع أضعف . فهو ممسوح الرب ، وزعيم الفرنج المقبول فى الشرق ، لا غريم له ، بعد أن وضع بلدوين حدا لطموحات البطريارقية . على أنه فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أميرا أنطاكية وطرابلس توريث سلطانهما بقواعد الاستخلاف الوراثى المقبولة ، كانت المَلَكية انتخابية ، وإن كان الشعور العام ربما يؤيد الحق الوراثى . ففى عام ١١٧٤م كان بلدوين الرابع مقبولا دون منازع ليخلف أباه، رغم انه كان فى الثالثة عشرة فقط من عمره فضلا عن اصابته بالجزام . على أن تثبيت الملك بالانتخاب كان ضروريا . وكان الناخبون أحيانا يضعون شروطهم ، كما حدث عندما أجبر أماريك الأول على تطليق زوجته آحنس قبل أن يسمحوا له بتتويجه. وعندما يكون الوريث الطبيعى امرأة تكون هناك تعقيدات أخرى ؛ إذ يتعين انتخاب زوجها كملك ؛ غير أن هذا الملك الزوج ربما اعتُبر أنه يستمد حقوقه من خلالها . وفى حالة الملكة ملسيند وابنها بلدوين الثالث ، لم يكن هناك أحد يعلم جيدا ما يكون عليه الوضع القانونى ؛ واتضحت المشكلة الدستورية برمتها بصورة فاجعة بعد موت بلدوين الخامس عام ١١٨٦م[٢٢].

المحكمة العليا

كان الملك هو قمة الهرم الاجتماعى ، لكنها قمة منخفضة . فباعتباره ممسوح الرب، كانت له مكانة ما ، ومن ثم فالإساءة إليه خيانة عظمى . وهو رئيس المحكمة العليا، والقائد الأعلى لقوات المملكة ، وهو المسؤول عن الادارة المركزية ويعين المسؤولين فيها. وباعتباره السيد الأعلى لأتباعه ، يستطيع منعهم من التصرف فى

(٢٢) فى أماكن متفرقة من La Monte, *op. cit.* pp. 87-137 وانظر أعلاه ص ٢٧١ وأدناه ص ٣٨٦، ٥٠٢.

أراضيهم ، وبامكانه اختيار الأزواج للوريثات . ولأنه ليس له سيد أعلى فوقه ، يستطيع أن يهب الهبات كما يحلو له من ممتلكاته الخاصة ، رغم انه عادة ما كان يُشرك زوجته وأولاده فى منح الهبة - كما كان يفعل نبلاؤه عندما يتصرفون فى أراضيهم - خوفا من أن تثار لاحقا بعض الشكاوى حول بائنة الأرملة أو ميراث الإبن . غير أن السلطة الملكية كانت تنتهى عند هذا الحد . وكانت الايرادات الملكية مقيدة وتتناقص بسبب ما يهبه من هبات سخية . ولقد كان الملك دائما فى حاجة إلى المال . وكان على رأس المملكة ، لكنه تحت قانون المملكة الذى كانت المحكمة العليا تمثله . وتتألف المحكمة العليا من كبار مستأجرى الأرض فى المملكة، وهم اللوردات الذين يدينون بالولاء المباشر للتاج . وكان أبرز رجال الدين يحضرون بفضل حيازتهم للأراضى . أما المجتمعات الأجنبية التى تمتلك الأراضى فى المملكة ، مثل البنادقة وأبناء جنوا ، فكانوا يرسلون ممثلين عنهم . ومن الجائز دعوة كبار الزائرين للحضور ، رغم انهم لا يمثلون جزءا من المحكمة ولا يحق لهم التصويت(٢٣).

والمحكمة العليا هى أساسا محكمة قانونية ، ومن ثم كان لها وظيفتان رئيسيتان . الأولى أن توضح الجانب القانونى المتصل بنقطة معينة . ومعنى ذلك أنها كانت تصدر تشريعات ؛ إذ كانت كل قاعدة assise من الناحية النظرية مجرد بيان للقانون ، لكنها كانت فى الواقع تحديدا لقانون جديد كذلك . وثانيا ، كانت تحاكم المذنبين من اعضائها وتنظر فى القضايا التى قد يرفعها بعضهم ضد بعض . وكانت المحاكمة عن طريق الأنداد ملمحا أساسيا فى التقاليد الفرنجية ؛ وكان مركز الملك هو الأول بين الأنداد primus inter pares من كبار مستأجرى الأرض، رئيسهم وليس سيدهم . والنظرية التى تؤسس ذلك الوضع هى أن المملكة لم يقهرها ملك ، وانما مجموعة من الأنداد الذين انتخبوا مليكهم بعد ذلك . وهى النظرية التى تبرر للمحكمة أن تنتخب ملوكا على التعاقب ، وفى الحالة التي يكون الملك فيها دون سن الرشد أو في حالة وقوعه في الأسر ، تنتخب المحكمة وصيا أو مشرفا ملكيا bailli كما كانت المحكمة العليا تستشار فى أهم المسائل السياسية ، وكان ذلك تطورا محتما ، إذ لا يستطيع الملك بدون تعاون أتباعه تنفيذ سياسته إلا نادرا . وفى عام ١١٦٦م توسعت المحكمة العليا لتشمل أتباع الأتباع arrière-vassals ، كجزء من مخطط أماريك الأول كى يجد مساندة للتاج ضد أتباعه الرئيسيين . وفى عام ١١٦٢م أجبر المحكمة على إصدار

---

(٢٣) *Ibid.* pp.87-104

قاعدة assic تسمح لأتباع الأتباع بالاستئناف صد أسيادهم أمام المحكمة العليا . وفى حالة رفض السيد الاستجابة للاستدعاء ، يستطيع كبار مستأجريه أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف التاج . ورغم أن هذا القانون قد زود الملك بسلاح نافع ضد نبلائه ، إلا أنه على المدى البعيد زاد من سلطة المحكمة العليا لا أكثر ، بل وأمكن استخدامه ضد الملك . ويبدو أن المحكمة كانت تنظر فى القضايا بعناية وبما يمليه الضمير ، ورغم ذلك كانت نتيجة المحاكمة عن طريق النزال مقبولة كدليل . و لم يكن لها مكان انعقاد محدد ، وانما يستطيع الملك استدعاءها فى اى مكان يراه ملائما . وفي عهد المملكة الأولى عادة ماكانت تعقد فى القدس أو عكا . وبدأ النبلاء المتلهفون على حضورها ، يهملون اقطاعياتهم ويتخذون لأنفسهم أماكن للإقامة فى أى من المدينتين[٢٤] . غير أن قوتهم كهيئة جماعية ضعفت بمشاحراتهم المتكررة والضغائن العائلية التى تضخمت وتعقدت بمرور الزمن، وكانت أسر النبلاء كلها تقريبا مرتبطة بعلاقات زواج فيما بينها.

وبمقتضى مبدأ المحاكمة عن طريق الأنداد ، كان للمستوطنين الفرنج من غير النبلاء محاكمهم البورجوازية الخاصة بهم cours des bourgeois . وكانت تلك المحاكم البورجوازية موجودة فى كل مدينة كبيرة ، ويرأسها دائما فيكونت المدينة Viscount ولكل محكمة هيئة محلفين من اثنى عشر محلفا يختارهم السيد من رعاياه اللاتينيين المولودين أحرارا ، وكانوا يعملون عمل القضاة ، رغم استطاعة أحد أطراف الخصومة اختيار احدهم ليكون محاميه ، وفى هذه الحالة لا يشترك هذا المحامى المحلف فى اصدار الحكم . كما كان يُطلب من المحلفين أن يشهدوا على أى عمل أو وثيقة فى المحكمة . وعلى خلاف الممارسة فى المحكمة العليا، كانت هناك سجلات دقيقة لكافة الإجراءات القانونية . وكانت المحاكم البورجوازية تجتمع بصفة منتظمة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع ، فيما عدا أيام الأعياد . وكانت تنظر فى الدعوى المرفوعة بين أحد النبلاء وأحد البورجوازيين . وكانت المحكمة البورجوازية تقر التحاكم بالنزال والتحاكم بالماء[٢٥].

وبادئ الأمر كان للمجتمعات الوطنية محاكمها الخاصة بها فى القضايا البسيطة برئاسة الزعيم المحلى الذى يعينه الفيكونت ، حيث تطبق قوانينها العرفية . غير انه فى

---

(٢٤) Ibid pp.106-13. ويذكر Usama أمثلة لمحاكمات عن طريق النزال الفردى ، الماء. (ed. Hitti, pp.167-9)

(٢٥) La Monte, po. cit. pp. 105-8

عهد الملك اماريك الأول أنشئت محكمة الدعوى Cour de la Fonde فى كل مدينة من المدن الثلاث والثلاثين التجارية الرئيسية . وكانت تنظر فى الشؤون التجارية وكافة الدعاوى الأخرى ، حتى الجنائية ، التى يتنازع فيها السكان الوطنيون . وكان يرأسها مشرف ملكى bailli ، يعينه السيد المحلى ، وتتألف من ستة محلفين اثنان من الفرنج وأربعة من الوطنيين . وكان المتخاصمون الوطنيون يقسمون القسم كل على كتابه المقدس ؛ ويستطيع المسلمون أن يقسموا على القرآن ؛ وقد أعجب الزائرون المسلمون بنزاهة الاجراءات القانونية . كما كانت محكمة الدعوى تسجل المبيعات والهبات من كافة الممتلكات فيما عدا العقارات وكانت بمثابة مكتب لجمع ضرائب المشتريات . وفى الامكان الاستئناف لدى المحكمة البورجوازية بنفس اجراءاتها . كما أنشأ أماريك محكمة السلسلة Cour de la Chaine فى جميع المدن البحرية ، للنظر فى القضايا المتعلقة بالملاحة ولكى تكون بمثابة مكان لتسجيل الرسوم الجمركية ورسوم رسو السفن . وكان محلفوها يختارون من التجار والبحارة . وبالاضافة إلى ذلك كان للمجتمعات التجارية الايطالية والبروفنسالية محاكمها الاستشارية الخاصة بها للنظر فى شؤونها الداخلية . وكان لكبار الاقطاعيين محاكمهم الخاصة بهم "محكمة البارونات" لتتناول النزاعات التى تنشأ بين أتباعهم من الفرسان . وكان هناك أثنتان وعشرون محكمة من تلك المحاكم وكذلك أربع محاكم لأملاك الملك . وكان لكل محكمة من تلك المحاكم الكثيرة مجالها المحدد بوضوح ؛ وحيثما تكون هناك دعوى تشتمل على خصمين من مرتبتين مختلفتين، كانت الدعوى تنظر فى المحكمة الملائمة لأدناهما[٢٦].

وبسبب مفهوم القانون فى العصور الوسطى الذى لم يكن يتطلب قوانين محددة ، إلا عندما تنشأ الحاجة إلى تحديد نقطة بعينها ، يبدو أن النشاط التشريعى للحكومة كان متعسفا ذا نزوات . ومن بين القوانين الواردة فى القرن الثالث عشر فى قواعد القدس Assise de Jèrusalem، الأرجح أن ستة قوانين يرجع تاريخها إلى عهد الدوق جودفرى ، وتسعة عشر قانونا آخرين من الفترة حتى عام ١١٨٧م ، ومنها أحد عشر قانونا يمكن تحديد تواريخها بالتقريب[٢٧].

---

(٢٦) pp.108-9*Ibid*

(٢٧) Grandclaude, *op.cit.* pp.322 ff.، يورد قائمة بالقواعد التى يمكن إرجاعها الى الفترة ١٠٩٩-١١٨٧م. ويحدد ستة قواعد لعهد جودفرى وإحدى عشرة قاعدة للملوك من بلدوين الأول الى بلدوين الرابع (رغم انه يظن أن إحدى تلك القواعد التى تقضى ببيع الاقطاعيات التى لا ورثة لها لدفع فدية الملك يرجع تاريخها الى ما بعد وقوع Guy فى الأسر فى حطين . ومع ذلك ، ربما تشير الى أسر بلدوين الثانى). كما توجد ست قواعد يتعذر

الإدارة

كان المسؤولون الرئيسيون في الأسر الكبيرة يباشرون الإدارة بعد أن يختارهم من كبار مستأجرى الأرض فى المملكة. وكان للقهرمان Seneshal الترتيب الأول فى الأسبقية فهو الذى يرأس الاحتفالات ، ومن ثم يحمل الصولجان أمام الملك فى حفل التتويج ، وهو رئيس الخدمة المدنية ، والمسؤول بصورة خاصة عن الخزانة (الأمانة Secrète) وهو الذى يشغل المركز الذى تدفع فيه الأموال المستحقة للتاج ، وتؤخذ منه الرواتب ، وهو الذى يحتفظ بسجلات لكافة التعاملات المالية التى تشترك فيها الحكومة. وكانت الأمانة Secrète عبارة عن مكتب واسع التنظيم أخذه الفرنج عن العرب الذين سبق أن أخذوه بدورهم عن البيزنطيين . ويأتى بعد القهرمان الياور أو الكونستابل Constable الذى كان ذا سلطة فعلية أقوى ، إذ كان رئيس الجيش - تحت الملك - والمسؤول عن كافة جوانب تنظيمه وإدارته . وفى حفل التتويج يحمل راية الملك ويمسك بلجام حصانه، وهما مهمتان زائدتان على مسؤولياته . وكان مسؤولا عن الإمدادات العسكرية والعدالة العسكرية . وكان المرتزقة الذين يستأجرهم الملك أو أحد النبلاء يخضعون لنطاق سلطته الخاصة ، ويستوثق من تسلمهم لرواتبهم على النحو الملائم . وفى حالة غياب الملك أو نائبه الملكى bailli عن الحملة تكون له كامل السيطرة عليها . وكان يساعده المارشال الذى كان بمثابة القائم مقامه فى كل شئ . وكان حاجب الملك Chamberlain مسؤولا عن أسرة الملك وأمواله الشخصية . وكان ينتفع بمركزه هذا، بالهدايا التي يغدقها عليه الأتباع الآتين للإعراب عن احترامـاتهم للملك . وكانت هناك أراض معينة مخصصة لهذا المكتب ؛ على انه فى عام ١١٧٩م باعها حاجب الملك جون (اوف بيليزم) دون أن تكون هناك إساءة ظاهرة للملك . أما مهام كبير الخدم Butler فليست معروفة ، وربما كانت واجباته تقتصر على الاحتفالات . وكان المستشار Chancellor - كشأنه فى الغرب - رجل دين دائما، رغم أنه لم يكن قسيس الملك على نحو ما اعتاد عليه الغرب . وباعتباره رئيسا للديوان الملكى كانت مهمته صياغة كافة المواثيق وتسجيلها وختمها بالخاتم الملكى . وظل الديوان الملكى مكتب سجلات . ولمّا لم تكن هناك عدالة مَلكية ولا قانون عام ، فلم يُطلب منه البتة أن يصدر أوامر رسمية أو أن ينشئ محكمة خاصة به ، ويبدو أن السجلات كانت محفوظة جيدا برغم بقاء القليل منها . وكانت لغة الديوان الملكى فى القرن الثانى عشر

ارجاعها الى تاريخ محدد.

هى اللاتينية ، وتحديد التواريخ بالسنة الميلادية والخمسعشرية الرومانية[٢٨]، وأحيانا إضافة السنة الملكية أو عدد السنوات المنصرمة منذ الاستيلاء على القدس. وتبدأ السنة فى عيد الميلاد. وكان الملوك يضعون لأنفسهم أرقاما ابتداء من بلدوين الأول بغض النظر عن أسمائهم . ولم يكن لقب الملك يأخذ صيغة محددة بادئ الأمر ، لكنه أصبح فى نهاية الأمر لقبا معياريا[٢٩] "ملك القدس اللاتينية المدنية المقدسة بفضل الرب" (per Dei gratiam in sancta civitate Jerusalem Latinorum Rex) .

وكان الفيكونت أهم المسؤولين المحليين ، إذ كان يمثل الملك فى المدن الملكية، وهو اللورد فى المدن البارونية . وكان يجمع الضرائب المحلية ويرسلها إلى الخزانة بعد أن يستبقى حاجته من مصروفات الحكومة المحلية، وكان مسؤولا عن المحاكم القانونية المحلية وعن حفظ النظام عموما فى مدينته . ويأتي اختياره من أسرة نبيلة لكن مركزه لم يكن وراثيا . وكان الذى يليه فى القيادة ما يعرف باللقب العربى المحتسب Mathesep، وأحيانا رئيس ضباط النظام Master-Sergeant ، الذى كان مسؤولا أصلا عن لوائح التسويق[٣٠].

الدويلات التابعة

نادى ملك القدس بالسيادة على كل الدويلات الفرنجية فى الشرق ، واعتبر أن من حقه مطالبة حكامها بتسيير الجنود للانضمام اليه فى حملاته . وواقع الأمر أن تلك السيادة لم تكن موجودة إلا عندما يكون الملك قويا بما يكفى لفرضها ، بل لم تكن أنطاكية ولا طرابلس من الناحية النظرية تعتبر جزءا من المملكة . وقد تمكن الملوك الأوائل من فرض السيادة الشخصية على طرابلس . وقدم الكونت برتراند فروض الولاء لبلدوين الأول عام ١١٠٩م لما منحه من الأراضى . وسعى الكونت بونز إلى انكار تبعيته لبلدوين الثانى عام ١١٢٢م لكن محكمته العليا هى التى احبرته على الخضوع ، وفى عام ١١٣١م رفض السماح للملك فولك المرور فى أراضيه ، لكن الملك عاقبه وأجبره على الخضوع مرة اخرى . وفى الفترة من عام ١١٦٤م إلى ١١٧١م كان الملك

---

(٢٨) (المترجم) الخمسعشرية الرومانية Roman Indiction : دورة زمنية من ١٥ سنة أسسها الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ باعتبارها فترة ضريبية.

(٢٩) La Monte, *op.cit.* pp. 114-37، حيث يرد أفضل موجز لوظائف مسؤولى الدولة.

(٣٠) *Ibid.* pp. 135-6, 167-8.

أماليك وصيا على طرابلس للكونت الطفل ريموند الثالث ، غير أن ذلك لكونه أقرب الأقرباء الذكور للصبى وليس كسيده الأعلى. وعندما شب ريموند الثالث عن الطوق لم يعترف قط بالسيادة للملك رغم انه كان تابعا للملك فيما يتصل بإمارة الجليل التى تملكها زوجته . وأثناء حملة عام ١١٨٧م التى اشترك فيها كأمير للجليل ، أعلنت كونتية طرابلس التابعة له عن حيادها . وأما علاقة القدس بكونتية الرها ، فكانت الرابطة الشخصية هي التي تربط الملكين ؛ فعندما عين بلدوين الأول بلدوين الثانى ليخلفه فى الرها ، أخذ منه قسم التبعية ، وحذا بلدوين الثانى حذوه مع جوسلين (اوف كورتناى) . على أن جوسلين اعترف فى أواخر ايامه بأمير انطاكية سيدا اعلى له . وكانت انطاكية فى وضع مختلف ، إذ أن بوهمند لم يعترف بأى سيد أعلى له ، وهذا ما لم يفعله الوصيان تنكريد وروجر اللذان عينتهما كلاهما المحكمة العليا فى الإمارة. وكان بلدوين الثانى يقوم بأعمال الوصى على الأمير الصغير بوهمند الثانى من عام ١١١٩م إلى عام ١١٢٦م ، بيد أنه يبدو أن ذلك كان بناء على دعوة من المحكمة العليا وليس بالحق القانونى . ودعى مرة اخرى عام ١١٣١م لسبب آخر زائد وهو كونه جد الأميرة كونستانس الصغيرة ، التى بدا للمحكمة أن مصالحها معرضة للخطر بسبب امها أليس . وبعد موته ، وعندما حاولت أليس مرة اخرى الاستيلاء على السلطة ، دعت المحكمة العليا الملك فولك ليتسلم الوصاية بدلا منه . ومرة اخرى كان الملك هو أقرب الأقرباء الذكور للأميرة باعتباره زوج خالتها . ولو كان فى الشرق آنذاك أحد افراد آل هوتفيل الذكور لكان هو المختار كوصى . وبالمثل ، عندما اختار الملك زوجا للأميرة كان يتصرف بناء على طلب المحكمة العليا وليس كسيد أعلى . وكان بلدوين الثانى قد طلب من ملك فرنسا اختيار زوج لوريثته ملسيند دون اى افتراض بأنه قبل السيادة الفرنسية . وعندما حان الوقت كى تختار كونستانس زوجا ثانيا ، اختارته بمحض اختيارها كأميرة ذات سيادة . وإذا كانت قد طلبت الإذن من الملك بلدوين الثالث ، فذلك لأن زوجها الذى اختارته كان تابعا للملك . وفى عام ١١٦٠م دعا الأنطاكيون الملك بلدوين الثانى كى يتولى الوصاية ؛ ومرة أخرى لأن الملك كان أقرب الأقرباء الذكور لأميرهم . إن الوضع القانونى لم يتضح بجلاء قط . وربما كان أمير انطاكية يعتبر ملك القدس أعلى منه مكانة ولكن ليس سيده الأعلى(٣١).

---

(٣١) Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.436 وانظر أيضا La Monte, *op. cit.* pp.187-202. ومع ذلك كان بوهمند الثانى تابعا لأماليك بسبب الإقطاعية النقدية التى كان يتقاضاها فى عكا.

وكانت أنطاكية هى الأخرى متميزة عن طرابلس والرها فى نظام حكومتها . ولا نعرف عن الرها سوى القليل ، وقد ضاعت المواثيق التى ربما يكون الكونت قد أصدرها. ويفترض أن كان له بلاط من أتباعه كأى لورد اقطاعى عظيم ؛ غير أن موضع الكونتية كأول المخافر الأمامية للعالم المسيحى حال دون أى تطور دستورى . فكانت معيشة أميرها شديدة الشبه بحياة أحد الأمراء الأتراك ممن كانوا يحيطون به ، وكان المستعمرون الفرنج قليلين، وكذلك كانت الإقطاعيات الكبيرة قليلة . وكان الكونت يعتمد بدرجة كبيرة على المسؤولين الأرمن المدربين على النمط البيزنطى ، وقد اضطرته الحروب شبه الدائمة إلى أن يحكم حكما فرديا مطلقا بصورة أكبر مما لو كان الحال عليه فى أراض هادئة . ويبدو أن دستور كونتية طرابلس كان مماثلا لدستور القدس . وكان للكونت محكمته العليا التى تقيده بأحكامها . بيد أن لقبه كان وراثيا وليس اختياريا ، وكانت أملاكه الشخصية أكثر بكثير من أملاك أىّ من اتباعه . وباستثناء أمر أو أمرين من أمور السياسة الجسام ، لم يكن الكونت يصادف متاعب من باروناته سوى القليل ، إذ كان البارونات منحدرين من الأتباع التولوزيين لأسلافه ، فيما عدا لوردات جبيل من ابناء جنوا . وكان لأهم مسؤولى البلاط نفس القاب ووظائف مسؤولى بلاط القدس . وبالمثل كان الفيكونت يدير مدن الإمارة[٣٢].

إمارة أنطاكية

كانت المؤسسات فى امارة انطاكية تماثل فى ظاهرها مثيلاتها فى مملكة القدس . فكانت هناك محكمة عليا ومحكمة بورجوازية ونفس المسؤولين الكبار . وكان لأنطاكية قوانينها الخاصة بها Assises ، غير أن مغزاها العام كان متسقا مع مغزى قوانين القدس . ومع ذلك ، كانت هناك فروق كثيرة مستترة تحت السطح ؛ فكان لقب الأمير وراثيا ، ولم تكن المحكمة العليا تتدخل إلا لتعيين وصى إذا دعت الحاجة ، وكان الأمير يسيطر منذ البداية فى أهم مدن الإمارة والكثير من أراضيها ، وكان ضنينا فى منح هبات الأرض فيما عدا المقاطعات الحدودية ، وانما كانت الاقطاعيات النقدية تناسبه بصورة أفضل . ويبدو أن القضاة المعينين من قبل الأمير يقتصرون على المحكمة العليا ، وأن ممثليه الخصوصيين يسيطرون على المحاكم البورجوازية . أما إدارة المدن والأملاك الأميرية، فقد تبنى الأمير النظام البيزنطى بما له من بيروقراطية مقتدرة ووسائل معتنية فى

---

(٣٢) La Monte, *op. cit., loc. cit.;* Richard, *Le Comté de Tripoli,* pp. 30-43.

جمع الضرائب . وكان لكل من أنطاكية واللاذقية وحبلة دوقها الذى كان مسؤولا مسؤولية كاملة عن البلدية . والأمير هو الذى يعينه أو يفصله كما يحلو له ، لكنه أثناء فترة توليه لمنصبه يبدو انه كان عضوا من أعضاء المحكمة العليا . ودائما ما كان دوق اللاذقية ودوق حبلة يعينون من بين السكان الوطنيين ، أما دوق أنطاكية فكان ذا مولد فرنجى نبيل ، وانما يساعده فيكونت قد يكون وطنيا . وقد عزز أمراء أنطاكية أنفسهم - كشأن أبناء عمومتهم فى صقلية - إزاء طبقة النبلاء باستغلالهم للمسؤولين المولودين محليا والذين كانوا يعتمدون كلية على ما كان الأمراء يولونهم من معروف . وقد وحدوا فى انطاكية مجتمعا محليا متعلما من أصل يوناني وسيرياني وأرمينى، باقيا منذ العصور البيزنطية . وكانت هناك رقابة زائدة على المحكمة العليا من خلال تعيين القضاة للبت فى المسائل القانونية الخالصة كما هو الحال فى المحاكم البورجوازية . وقد ورث الأمراء ما كانت تتبعه بيزنطة من نظام تقييم الضرائب وجمعها، وكان لخزانتها Secrète بيروقراطيتها الخاصة بها ، ولا تعتمد فى ايراداتها على المحاكم المحلية كما هو الحال فى القدس . وكانوا يوجهون السياسة بقليل من الإعتبار للمحكمة العليا ، ويبرمون معاهداتهم الخاصة بهم مع القوى الأجنبية . وكان تنظيم الامارة كله مرتبطا بعضه البعض بصورة أوثق وأكفأ مما كان عليه فى الدويلات الفرنجية الأخرى . ولولا الحروب الدائمة فى انطاكية ، وضآلة شأن الأمراء أو وقوعهم فى الأسر واستبدال أسرة حاكمة نورماندية بأخرى فرنسية ، لتطورت حكومة انطاكية بحيث تصبح على نفس القدر من كفاءة حكومة صقلية(٣٣).

السيادة الامبراطورية

وزادت أهمية أنطاكية الفريدة بعلاقتها الخاصة مع الامبراطور البيزنطى . إذ كان الامبراطور ، وفقا للنظرية البيزنطى ، رئيسا للكومنوليث المسيحى .ورغم أنه لم يحاول قط ادعاء السيادة على عواهل الغرب ، كان يعتبر العالم المسيحى الشرقى مجاله الخاص به . ذلك أن المسيحيين الأرثوذوكس فى ظل الخلافة الاسلامية كانوا تحت حمايته ، وكان المسلمون يعترفون بالتزاماته إزاءهم ، ولم تكن لديه أية نية فى التخلى عن واجباته بسبب الغزو الفرنجى . على انه كان هناك فرق بين انطاكية والرها من ناحية وبين القدس وطرابلس من الناحية الأخرى . فلم يكن البلدان الأخيران يشكلان جزءا

---

(٣٣) Cahen, *op. cit.*pp.435 ff.، حيث يرد مقال كامل عن الدستور الأنطاكى وتطوره.

من الامبراطورية منذ القرن السابع ، على خلاف البلدين الأولين اللذين كانا مقاطعتين امبراطوريتين أثناء حياة الامبراطور ألكسيوس الأول . وعندما كان ألكسيوس يحث زعماء الحملة الصليبية الأولى على الاعتراف بسيادته ، كان يفرق بين الأراضي الامبراطورية السابقة التي كان يتعين إعادتها إليه كأنطاكية ، وبين الغزوات الأخرى التي لم يكن يدعي سوى سيادة غير محددة عليها . وفشل الصليبيون في احترام ما أقسموا عليه ، و لم يستطع ألكسيوس إرغامهم على ذلك . بيد أن السياسة البيزنطية كانت دائما واقعية ؛ إذ أن ألكسيوس عدّل من طلباته بعد انتصاره على بوهمند بالسماح للنورمانديين - في معاهدة ديفول - بحكم أنطاكية وانما كأتباع له بصورة صارمة ، وطلب ضمانات معينة مثل تنصيب بطريق يوناني. وكانت تلك المعاهدة بمثابة حجر الأساس للمطالب البيزنطية ، لكن الفرنج تجاهلوها . ويبدو أن الرأى العام الفرنجي كان يرى أن بوهموند قد تصرف تصرفا سيئا إزاء الامبراطور ، لكن الامبراطور ضيع قضيته بعدم ظهوره شخصيا . ومع ذلك ، كانت حقوق الامبراطور تتأكد عند ظهوره شخصيا ، وبتعبير آخر ، وبالحكم من نصيحة الملك فولك عام ١١٣٧م ، فإن مطالبته بالسيادة تصبح مقبولة كمطلب معقول من الناحية القضائية عندما يكون في وضع يمكنه من فرض مطالبته ، وان اختار ألا يفعل ذلك ، ففي الامكان غض النظر عنها . وكانت هناك مناسبات اخرى قليلة عومل فيها الامبراطور كسيد أعلى ، مثلا عندما طلبت الأميرة كونستانس من الامبراطور مانويل اختيار زوج لها ؛ على انها لمّا وجدت اختياره لا يسرها تجاهلته . وهكذا كانت السيادة الامبراطورية متقطعة خفيفة في ثقلها، غير أن أمراء انطاكية ومحاميهم كانوا يشعرون بالقلق ازاءها ؛ وبقيت بمثابة تقييد كامن لاستقلال سيادة الأمير.

وقد اعترف كونت الرها بالسيادة الامبراطورية عام ١١٣٧م؛ لكن الرها كانت بعيدة عن الحدود الامبراطورية، وكانت المسألة أقل إلحاحا. ووافق الرأى العام الفرنجي على أن تبيع كونتيسة الرها عام ١١٥٠م ما تبقى من اراض في الرها للامبراطور؛ على انه من الواضح أن ذلك قد حدث لتعذر الدفاع عن تلك الأراضي ضد المسلمي. وكان ريموند التولوزى على استعداد للاعتراف بسيادة الامبراطور، وفي عام ١١٠٩م قدم ابنه برتراند فروض الولاء للامبراطور ألكسيوس عن كونتيته المقبلة. وكرر ريموند الثاني هذا الولاء للامبراطور حون عام ١١٣٧م. ورغم أن ريموند الثالث هاجم بيزنطة عام ١١٥١م، إلا أنه تلقى مساعدة من البيزنطيين عام ١١٦٣م، وربما كانت لفته من مانويل لإظهار سيادته العليا. بيد أن هذا الولاء ربما كان قاصرا على طرطوس وجيرانها

التى كانت تنتمى من الناحية التقليدية لأراضى أنطاكية كجزء من "موضوع" اللاذقية.

أما العلاقات الشرعية بين بيزنطة ومملكة القدس فكانت ما تزال أقل دقة . إذ أن بلدوين الثالث قدم فروض الولاء للامبراطور مانويل فى انطاكية عام ١١٥٨م ؛ وفى عام ١١٧١م قام أماLريك بزيارة القسطنطينية كتابع - وان عومل كتابع رفيع المستوى. وكان كل من بلدوين وأماLريك يعتبر الصداقة البيزنطية جانبا أساسيا فى سياستهما ، ومن ثم كانا على استعداد لمنح بعض التنازلات . ورغم ذلك ، يبدو أن محاميهما لم ينظروا إلى هذه التبعية بأكثر من كونها تبعية نفعيّة مؤقتة(٣٤).

التنظيم الكنسى

إذا كان هناك سيد أعلى لملك القدس فهو البابا . إذ كانت الحملة الصليبية الأولى تتوقع قيام دولة دينية ثيوقراطية فى فلسطين ؛ ولو عاش البطريق أديمار (اوف لو بوى) لربما أمكن تطوير شئ من مثل هذا التنظيم ، وربما كانت تلك الفكرة هى التى جعلت جودفرى يحجم عن قبول تاج ملكى . وأما البطريق ديامبرت - خليفة أديمار - فكان يتخيل دولة يسيطر عليها بطريق القدس . وعكس بلدوين الآية باتخاذه التاج وباستغلال أعداء ديامبرت داخل الكنيسة . وكان واضحا أن البابوية لن تقر قيام بطريارقية شديدة القوة فى القدس ، إذ قد تعمل على ترسيخ دعائمها هى نفسها كما كان ديامبرت يأمل، لما لها من موضع خاص وثروة آخذة فى التنامى ، بحيث تصبح كفؤا شرقيا لروما، ومن ثمّ كان من اليسير على الملك الافادة من البابا ضد البطريق . وكانت التقاليد تفرض عليه تقديم فروض الولاء للبطريق فى حفل التتويج ، غير أنه سعى إلى ترسيخ لقبه من البابا . وكانت تلك التبعية للبابا أكثر قليلا من التبعية الإسمية ، ولا صرامة فيها أكثر مما كان البابوات يدّعونه من تسيد على الممالك الأسبانية ؛ على أنها كانت تبعية مفيدة للمملكة ، إذ كان البابوات يشعرون بأنهم مسؤولون عن مواصلة امداد الأراضى المقدسة بالرجال والمال ، وتقديم المساعدة الدبلوماسية كلما دعت الحاجة اليها. وفى الإمكان كذلك استخدام البابوية فى كبح البطريارقية وممارسة بعض

(٣٤) عن علاقات أنطاكية ببيزنطة أنظر Cahen, *op.cit.*pp.437-8 وعن علاقات طرابلس ببيزنطة أنظر Richard,*op.cit.*pp. 26-30 وعن كامل مسألة المزاعم البيزنطية المتصلة بالدويلات الصليبية انظر La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States?" in *Byzantion*, vol.VII .

السيطرة على النظامين العسكريين . غير انه من الناحية الأخرى قد يساعد البابا النظامين العسكريين ضد الملك ؛ وكثيرا ما تدخل البابا عندما كان الملك يحاول كبح جماح المدن التجارية الإيطالية[٣٥].

وكانت الكنيسة في المملكة خاضعة لبطريق القدس . وبعدما سببته طموحات دايمبرت من اضطراب بادئ الأمر ، أصبح هو نفسه في واقع الأمر خادما للتاج . وكانت الهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس ترشّح اثنين من البطارقة يختار الملك واحدا منهما . وتحت البطريق كان هناك أربعة من رؤساء الأساقفة لصور ، وقيسارية ، والناصرة ، ورعبوت - مؤاب ؛ وتسعة أساقفة ، وتسعة رؤساء أديرة رهبان يحق لهم وضع تاج الأسقف ، وخمسة نواب لرؤساء اديرة الرهبان ؛ على انه كانت هناك أديرة أخرى معينة تعتمد على البابوية مباشرة ، وتقوم بأعمال النظامين العسكريين . وكانت كنيسة فلسطين ذات ثراء فائق سواء ثراء اقطاعيات الأراضى أو الإقطاعيات النقدية . وعادة ما كان أبرز رجال الكنيسة مدينين بتقديم جنود خدمات ضباط النظام وليس جنود خدمات الفرسان ؛ فكان البطريق والهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس مدينين بتقديم خمسمائة من ضباط النظام ، وأسقف بيت لحم مائتين ، ورئيس أساقفة صور مئة وخمسين ، وكذلك رؤساء أديرة رهبان القديسة مارى جوزافات وجبل صهيون . وكان دير راهبات بيثاني - الذى أسسته الملكة مليسيند لأختها - يمتلك مدينة أريحا كلها . وفضلا عن ذلك ، كانت لدى البطريارقية والكثير من الأديرة الأكثر شهرة أراض شاسعة وعقارات فى سائر أنحاء أوروبا الغربية ، وكانت إيراداتها ترسل إلى فلسطين . وكان للكنيسة محاكمها الخاصة بها لتتعامل مع الحالات التي تتصل بالهرطقة والانضباط الدينى والزواج ، بما فى ذلك الطلاق والزنا ، والمواثيق الدينية ، وكانت تلك المحاكم تسير على خطى القواعد والاجراءات المعتادة فى محاكم القانون الكنسى فى الغرب[٣٦].

وكانت أراضى أنطاكية وطرابلس والرها تابعة كنسيا لبطريق انطاكية . وتسبب رسم حدود نطاق سلطة البطريق فى إثارة المشاكل ؛ إذ أن صور كانت داخلة من الناحية التقليدية فى بطريارقية أنطاكية ، رغم أنها كانت تشكل جزءا من مملكة القدس بطريق الغزو . وحكم باسكال الثانى بنقل صور ، بأسقفياتها المستقلة فى عكا وصيدا

---

(٣٥) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 203-16.

(٣٦) La Monte, *op. cit.* pp.215-16; Rey, *op. cit.* pp. 268-9

وبيروت ، إلى القدس ؛ وقد تم ذلك لاتساقه مع الحقائق السياسية . غير أن المحاولات التى بذلها بطارقة القدس للفوز بنطاق السلطة على الأسقفيات الطرابلسية الثلاث فى طرابلس وطرطوس وجبلة فشلت برغم تأييد البابوية من حين لآخر . ويبدو أن ريموند التولوزى كان يمنى نفسه بكنيسة مستقلة فى كونتيته المقبلة ؛ غير أن خلفاءه سلموا بالسيادة الكنسية لأنطاكية ، إذ كان الأمر يسيرا عليهم لأنهم كانوا يعينون أساقفتهم دون تدخل.

وكان بطريق أنطاكية - كشأن زميله بطريق القدس - يُنتخب عن طريق الهيئة العامة للكنيسة ، لكن تعيينه فى الواقع يتم بمعرفة الحاكم العلمانى الذى كان بمقدوره أن يعزله كذلك . ونعرف أن أمراء معينين قدموا فروض الولاء للبطريق أثناء تتويجهم ، لكن الأرجح أن ذلك كان فقط فى ظل الظروف الاستثنائية . وكان بطريق أنطاكية يرأس أساقفة البارة وطرسوس والمصيصة ، وكذلك الرها . أما رئاسة أسقفية تل بشير فقد أنشئت فيما بعد باللقب الرسمى "هيرابوليس (مينبج) Hierapolis (Menbij)"، وكان عدد الأسقفيات يختلف باختلاف الظروف السياسية . فكان هناك تسعة رؤساء ونائبان لأديرة الرهبان اللاتينية . وأهم منشأتين رهبانيتين هما دير القديس بول ودير القديس جورج ، حيث يبدو أن الرهبان البندكتيين قد حلوا محل الرهبان اليونانيين ، ودير القديس سيميون حيث كانت الطقوس اللاتينية والطقوس اليونانية موجودة جنبا إلى جنب . ولم تكن كنيسة أنطاكية على نفس المستوى المرتفع من الثراء الذى كانت عليه كنيسة القدس ؛ إذ كان هناك فى واقع الأمر الكثير من المنشآت الفلسطينية تمتلك ضياعا فى الإمارة(٣٧).

النظامان العسكريان

قبل نهاية القرن الثانى عشر بوقت طويل كان النظامان العسكريان قد بسطا كامل سلطانهما على الكنائس العادية فى الدويلات الفرنجية . فمنذ إنشائهما كانت أعداد أفرادها وثرواتهما آخذة فى الارتفاع بصورة مطردة ، وبحلول عام ١١٨٧م كان النظامان العسكريان يمثلان أهم ملاك الأراضى فى الشرق الفرنجى ؛ إذ أخذت ضياعهما تتزايد باستمرار عن طريق الهبات والشراء على السواء. وانضم الكثير من

---

(٣٧) Cahen, *op. cit.* pp.501-10

النبلاء الفلسطينيين إلى صفوفهما ، وكان المجندون يفدون اليهما من الغرب بصورة منتظمة ؛ إذ كانوا يشبعون حاجة عاطفية فيهم كانت سائدة آنذاك ، عندما كان الكثير من الرجال تواقين إلى أن يسلكوا حياة دينية وتعتمل فى أنفسهم الرغبة الدفينة فى عمل ايجابى والقتال من أجل العقيدة . كما كانوا يشبعون حاجة سياسة يمليها النقص المتواتر فى جنود الشرق الفرنجى ؛ إذ كان التنظيم الإقطاعى يعتمد بصورة مفرطة على ما يحدث فى الحياة العائلية للنبلاء من حوادث لتقديم البديل عن الرجال من ضحايا المعارك أو المرض ، فكان الصليبيون الزائرون يشاركون فى الحرب مشاركة ايجابية طوال فصل أو فصلين ثم يعودون إلى أوطانهم ، بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، إذ كانا يقدمان امدادا لا ينقطع من الجنود المحترفين المكرسين الذين لا يكلفون الملك شيئا إلى جانب ما كانوا عليه من ثراء بحيث بنوا الحصون وحافظوا عليها على نطاق لم يكن يقدر على الإضطلاع به من اللوردات العلمانيون سوى القلة ، ولولا مساعدتهم لهلكت الدويلات الفرنجية فى مهدها . وليس لدينا معلومات عن أعداد أفرادهما سوى ما تدل عليه الأحداث . ففى عام ١١٥٨م شارك فرسان المستشفى فى الحملة المصرية بإرسال خمسمائة فارس وعدد متناسب من الجنود الآخرين ؛ وكان عدد فرسان المعبد الذين اشتركوا فى حملة عام ١١٨٧م ثلاثمائة تقريبا . وفى كل من الحالتين ربما كانت تلك الأعداد تمثل الفرسان القادمين من مملكة القدس فقط ، بخلاف عدد معين كان يستبقي كحاميات . وربما كان نظام فرسان المستشفى هو النظام الأكبر والأكثر ثراء من نظيره، غير أن فرسان المستشفى دأبوا على الانشغال بالأعمال الخيرية . وكانت دور الضيافة التابعة لهما فى القدس تتسع لألف حاج ، وكانت لديهم مستشفى للمرضى المعدمين الباقين على قيد الحياة بعد الغزوات العربية المضادة . وكانوا يوزعون الصدقات يوميا على الفقراء بسخاء أدهش الزائرين . وكانوا - مع فرسان المعبد - يحرسون طرق الحجاج ويهتمون بصفة خاصة بأماكن الاستحمام المقدسة فى الأردن . كما كان فرسان المعبد يوزعون الصدقات ، وانما بتبذير أقل من فرسان المستشفى . وكان جل الاهتمام منصبا على الأمور العسكرية ، وقد اشتهروا بالشجاعة فى الهجوم وكانوا يعتبرون أنفسهم متخصصين فى الحرب الهجومية ؛ كما اتقنوا الأعمال المصرفية وسرعان ما جعلوا من انفسهم وكلاء ماليين للصليبيين الزائرين ؛ وفيما بعد ساءت سمعتهم لما كان يشوب طقوسهم الخفية الغريبة من ريبة وتشكك ؛ لكنهم حتى ذلك الوقت كانوا محل تقدير عام لشجاعتهم وفروسيتهم[٣٨] .

---

(٣٨) للإطلاع على المراجع المتصلة بالنظامين العسكريين انظر أعلاه ص ١٥٨ ، الملحوظة رقم ١

والى حانب مزايا النظامين العسكريين كانت هناك المساوئ كذلك ، إذ لم يكن للملك سيطرة على النظامين وانما كان السيد الأعلى الوحيد لهما هو البابا ؛ وكانت الأراضى التى توهب لهما تتحول إلى وقف عليهما ، وليس هناك خدمات يلتزمان بها ، ورفضا أن يدفع كبار مستأجرى أراضيهما العشور المستحقة للكنيسة . وكان فرسانهما يحاربون مع حيوش الملك كحلفاء متطوعين لا أكثر . وربما وضع الملك أو اللورد من حين لآخر حصنا تحت السيطرة المؤقتة لفرسانهما ، وكان يطلب منهما أحيانا العمل كأوصياء على بعض القصّر. وفى تلك الحالات كانوا حديرين بالقيام بالخدمة على صورة ملائمة . وكان السيدان العظيمان ، أو نائباهما ، يحضران المحكمة العليا للمملكة؛ وكان ممثلوهما يحضرون فى المحاكم العليا التابعة لأمير انطاكية وكونت طرابلس . غير أن ما كانوا يشيرون به من نصح يخلو من أية مسؤَولية ، فإذا لم تلق السياسة الرسمية هوى فى انفسهم يرفضون التعاون ، كما حدث عندما قاطع فرسان المعبد الحملة على مصر عام ١١٥٨م . وكان تواتر المنافسة بين النظامين بمثابة مصدر خطر دائم ، فنادرا ما أمكن إقناعهما بالاشتراك معا فى حملة . وكان كل نظام يسير طبقا لما اختطه لنفسه من خط دبلوماسى بغض النظر عن السياسة الرسمية للمملكة. فنجد كلا النظامين يبرم المعاهدات مع حكام المسلمين ، وليست قصة المفاوضات مع الحشاشين عام ١١٧٢م سوى دليل على استعداد فرسان المعبد للتضحية بترتيب تتضح الحاحة الماسة إليه ، وذلك من أحل مصالحهم المالية ، وازدرائهم الصريح لسلطة البلاط الملكى . وكان فرسان المستشفى طوال تاريخهم أكثر اعتدالا ولا يتصفون بالأنانية، على أن النظام ، حتى مع هذا ، كانت له الأسبقية على المملكة.

وهناك توازن مماثل بين المزايا والمساوئ يظهر فى علاقات الدويلات الفرنجية بالمدن التجارية الإيطالية والمدن التجارية فى البروفانس الفرنسى[٣٩] . لقد كان المستعمرون الفرنج حنودا لا بحارة . وفيما بعد طورت كل من طرابلس وانطاكية أسطولا صغيرا ، وبنى النظامان العسكريان أساطيل أصغر ؛ لكن المملكة نفسها ، بموانيها القليلة الجيدة ، والنقص العام فى الأخشاب ، لم يكن لديها قط مؤسسة بحرية ملائمة . فكان من الضرورى لأية حملة تشتمل على قوة بحرية لغزو المدن الساحلية، أو الحملات التى حُردت على مصر ، الإستعانة ببعض القوى البحرية ، وكانت القوتان البحريتان العظيمتان فى الشرق هما بيزنطة ومصر . على أن مصر كانت دائما عدوا كامنا

(٣٩) أنظر أدناه الفصلين الثانى والثالث ، فى أماكن متفرقة.

حقيقيا ، وبيزنطة محل ريبة دائما . وكان ممكنا أن ترتجى الفائدة من الأسطول الصقلى لولا أن السياسة الصقلية لم تكن جديرة بالثقة . ومن ثم بات الإيطاليون والفرنسيون الشماليون هم الحلفاء الأفضل ؛ وزاد من أهمية مساعدتهم الحاجة إلى إبقاء الطرق البحرية الموصلة بالغرب مفتوحة ولنقل الحجاج والجنود والمستعمرين إلى الشرق الفرنجى. بيد انه كان يتعين دفع مقابل للمدن التجارية التى طلبت تسهيلات وحقوق تجارية ، وأن يكون لها أحياؤها الخاصة بها فى المدن الأكبر ، والإعفاء التام أو الجزئى من الرسوم الجمركية؛ وكان من الضرورى منح مستعمراتهم امتيازات زائدة فيما يتصل بالأرض . ولم تسبب تلك الامتيازات فى جملتها استياء لدى السلطات الفرنجية. فأية خسارة فى الايرادات سوف يوازنها ما يحفزونه من انتعاش التجارة ؛ ولم تر المحاكم الملكية ما يضطرها إلى إنفاذ قوانين جنوا أو البندقية ، خاصة وان القضايا التى تشتمل على مواطن من مواطنى المملكة ، أو على جريمة جسيمة مثل القتل ، كانت تترك لهم . وكانت هناك منازعات من حين لآخر ؛ إذ كان البنادقة فى حالة عداء دائم مع رئيس أساقفة صور ، ودام شجار طويل بين أبناء جنوا والملك أماريك الأول . وفى كل من الحالتين أيدت البابوية الإيطاليين ، وربما كان الحق القانونى فى جانبهم . على أن المدن التجارية لم تخرج من أجل رفاهية العالم المسيحى ، وانما وراء مجرد الكسب التجارى. وعادة ما كانت المصلحتان تحدثان فى آن واحد ؛ لكنهما إذا ما اصطدمتا كانت المصلحة التجارية العاجلة هى السائدة . ومن أجل ذلك ، لم يكن الايطاليون والفرنسيون الشماليون على علاقة صداقة منتظمة مع الملك . وفضلا عن ذلك ، كانت غيرة النظامين من بعضهما البعض زادت شحوب طفيف إذا قورنت بما كانت عليه الغيرة المتفشية فيما بين المدن التجارية ؛ فكانت البندقية على استعداد لمساعدة المسلمين على نحو أسرع بكثير من مساعدتها لجنوا أو بيزا أو مرسيليا ، ويصدق نفس الشئ على ما كانت تراه غريماتها المدن الأخرى . وهكذا، وبينما كانت المساعدة التى تقدمها تلك المدن جميعا أمرا أساسيا للحفاظ على بقاء الشرق الفرنجى ، فإن ما كان سائدا بين مستعمريها من مكائد وشغب ، واستعدادهم الطوعى للإقدام على خيانة القضية المشتركة من أجل منفعة لحظية ، قضى على الكثير من القيمة المرتجاة منها[٤٠].

وبدوا فى نظر الحجاج خاصة فى صورة جشعة مخزية ، وبصورة غير مسيحية؛ ذلك أن الغزو كان حافزا كبيرا لرواج حركة مرور الحجاج ، بحيث كان النّزل الضخم

---

(٤٠) Heyd, *op. cit.* pp.129-63، حيث يرد موجز كامل

الذى يمتلكه فرسان المستشفى كامل العدد دائما . وبرغم الهدف الأصلى للحملة الصليبية ، ظل الطريق العابر للأناضول على حالته غير الآمنة ؛ إذ لا يجرؤ على تحدى أخطاره سوى جماعة مسلحة تسليحا جيدا ، ومن ثم كان الحاج العادى يفضل السفر بحرا بعد أن يجد له مضجعا فى سفينة ايطالية حيث كانت أجرة السفر باهظة التكلفة . وربما يجتمع عدد من الحجاج لاستئجار سفينة بكاملها ، وحتى مع هذا كان استئجار القبطان والبحارة باهظ التكلفة كذلك . وكان الأرخص للحاج من شمال فرنسا أو انجلترا أن يرتحل مع إحدى القوافل الصغيرة التى كانت تبحر سنويا من أحد موانئ القنال الانجليزى إلى الشرق . غير انها كانت رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ؛ ففيها التعرض لعواصف الأطلنطى ؛ فضلا عن سفن القرصنة الاسلامية المنتظرة فى مضيق جبل طارق وبطول الساحل الأفريقى ، ولم تكن هناك موانى من أوبورتو أو لشبونة وحتى صقلية يمكن الحصول منها على الماء والمؤن بسلام ، وكان من العسير أن تحمل السفينة من الإمدادات ما يكفى للرجال والخيول الذين تقلهم . فكان الأيسر بكثير السفر برا إلى بروفانس أو ايطاليا لركوب سفن اعتادت على الرحلة اعتيادا حسنا . وبالنسبة لمن يحج بمفرده كان العثور على مضجع فى سفينة أيسر وأرخص فى موانى ملك صقلية ، لكن الجماعات الكبيرة كانت تعتمد على اساطيل المدن التجارية الكبيرة[٤١].

الملابس

وعندما كان المسافر يهبط فى عكا أو صور أو السويدية ، يجد نفسه فى الحال فى جو غريب . إذ كانت البنية الفوقية للشرق الفرنجى تخفى تحتها أرضا شرقية . وكانت حياتها الفاخرة تصدم الغربيين وتترك فيهم أثرها ، خاصة وان الحياة فى أوروبا الغربية كانت ما تزال بسيطة متقشفة ؛ إذ كانت الملابس مصنوعة من الصوف ونادرا ما تُغسل ، إذ كانت تسهيلات الغسيل قليلة ، فيما عدا بعض المدن القديمة التى تعلقت بها تقاليد الحمامات الرومانية . وحتى فى أعظم القلاع ، كان الأثاث خشنا ولا يرتجى منه أكثر من تأدية الغرض ، وكادت السجاجيد أن تكون مجهولة . وكان الطعام رديئا

---

(٤١) أنظر Cahen, "Notes usr l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Lebant", in *Bulletin de la Faculté des Lettre de Strasbourg*, p. 333

يفتقر إلى النوعية ولا سيما خلال أشهر الشتاء الطويلة . وفي كل مكان تقل الراحة وتتضاءل الخصوصية . أما الشرق الفرنجي فكان على نقيض منهل . وربما لم يكن هناك الكثير من البيوت التي تصل ضخامتها وروعتها ما كان عليه القصر الذي بناه آل إبلين في أوائل القرن التالي في بيروت، بأرضياته الفسيفسائية ، وحوائطة الرخامية ، وسُقُفه المطلية ، ونوافذه الكبيرة السخية، التي يطل بعضها على البحر غربا ، وبعضها الآخر على الجبال شرقا حيث الحدائق والبساتين . ويقينا كان القصر الملكي في القدس - المنشأ في جزء من المسجد الأقصى - أقل تواضعا ، مع أن قصر عكا كان صرحا شامخا. على أن جميع النبلاء والبورجوازيين الأثرياء ملأوا منازلهم في المدن بمفاخر مماثلة؛ فكانت تحوى البُسُط ، والسُتُر الدمقْسية ، والموائد وصناديق النفائس ذات التقوسات الرائعة ، وأكسية الفُرُش والموائد الخالية من العيوب ، ومعدات الطعام الذهبية والفضية ، وسكاكين الموائد ، والخزف المزخرف الرائق ، وحتى صحاف الخزف الصيني المجلوبة من الشرق الأقصى . وكانت المياه في أنطاكية تنقل من عيون دافني إلى كافة المنازل الكبيرة خلال قنوات المياه المبنية والأنابيب . والكثير من المنازل الواقعة بطول الساحل اللبناني كانت لها إمداداتها الخاصة بها . أما في فلسطين ، حيث تقل وفرة المياه ، فكان للمدن صهاريج تخزين منظمة تنظيما جيدا ؛ وفي القدس كانت شبكة المجارير التي شيدها الرومان ما تزال في حالة مثالية . وكانت أماكن القلاع الحدودية الكبيرة محددة لتكون مريحة كمنازل المدن تقريبا ، على الرغم من تجهم الحياة وشراستها خارج الأسوار . فكانت فيها حمامات ، ومخادع مزدانة لسيدات الأسرة وقاعات استقبال رائعة. وأما الحصون التابعة للنظامين العسكريين فكانت أبسط بقدر طفيف ، أما في المقار الأسرية العظيمة ، مثل قلعة الكرك في مؤاب أو غيرها في طبرية ، كان آمر القلعة يعيش عيشة تزيد في روعتها عن حياة أى ملك في أوروبا الغربية[٤٢].

وسرعان ما اصطبغت ملابس المستوطنين بالصبغة الشرقية الفاخرة بنفس القدر الذى أصطبغت به مفروشاتهم . فعندما يخلع الفارس أرديته الحربية ، يرتدى بُرنسا حريريا يطل رأسه منه ، وعادة ما يحيط رأسه بتوربان (عمامة ضيقة لا حرف لها) ؛ وكان عند خروجه في حملة يرتدى معطفا كتّانيا فوق دروعه ، لحماية الدروع المعدنية من الشمس، وكوفية على النمط العربى فوق خوذته . واتخذت ملابس السيدات الزى الشرقى التقليدى الذى يتألف من ثوب داخلى طويل (روب) ، وسترة (بلوزة) قصيرة

(٤٢) Rey, *op.cit.*pp.3-10. Cahen, *La Syrie du Nord*,pp.129-32 ؛ ويورد كاهن Cahen مقالا عن انطاكية وأسباب الراحة فيها.

أو معطف قصير ، بتطريز كثيف بخيوط الذهب ، وربما مطرزة بالجوهرات . وكن فى الشتاء يرتدين الفراء كما كان يفعل أزواجهن . وكن خارج المنزل يضعن خمارا كالنساء المسلمات ، وذلك لحماية بشرتهن المطلية بوافر الطلاء أكثر من كونه خمارا للعفّة ، وكن يمشين مشية رقيقة متكلفة . بيد أنه على الرغم من جو الرقة والتراخى هذا كله ، كان فيهن شجاعة كأزواجهن وإخوتهن ، فكانت الكثيرات من نبيلات النساء يتسلمن قيادة الدفاع عن حصونهن فى غيبة بعولتهن . وقد حذت زوجات التجار حذو سيدات الطبقة الأرستقراطية وكثيرا ما بزّتهن فى سخاء زينتهن . وكانت المحظيات الناجحات - وهى طبقة لم تكن معروفة حتى آنذاك فى المجتمع الغربى - رائعات بنفس القدر . ويقول المؤرخ وليم الصورى عن السيدة باشيا دى ريفيرى ، وهى زوجة صاحب حانوت من نابلس أوقعت البطريق هيراكليوس فى حبائل فتنتها، إنك قد تظن أنها كونتيسة أو بارونة مما ترتديه من حرير وجواهر(٤٣).

ولإن بدت تلك الفخامة غريبة للحاج الغربى، فقد كانت شيئا طبيعيا للزائر القادم من الشرق الإسلامى أو من بيزنطة. ولم يكن للمستعمرين الفرنج مندوحة من محاولة التكيف مع بيئتهم الجديدة، ولا مهرب من الاتصال باتباعهم وجيرانهم. وكان المناخ من الأمور التى يتعين وضعها فى الاعتبار؛ فشتاء فلسطين وسوريا يكاد يطابق شتاء اوروبا الغربية فى كآبته وبرودته ، لكن فترة دوامه أقل. وأما الصيف الطويل القائظ فسرعان ما تعلم منه المستعمرون أن لا غنى لهم عن ارتداء ملابس مختلفة، وتناول أطعمة مختلفة، وتعديل أوقاتهم اليومية. ولا محل لعادات الشمال الفظة، وبدلا منها كان عليهم أن يتعلموا الاساليب الوطنية. وعليهم توظيف الخدم الوطنيين ، وكانت المربيات الوطنيات يقمن على رعاية اطفالهم، وسائسو الخيول يعتنون بجيادهم. وكانت هناك أمراض غريبة فى الأنحاء، ومن ثم كان أطباؤهم فاقدى الحيلة حيالها، وسرعان ما اضطروا إلى الاعتماد على الطب الوطنى(٤٤). وكان حتما عليهم أن يتفهموا الوطنيين

---

(٤٣) تظهر صورة تنكريد على العملات النقدية وهو يرتدى التّربان أو عمامة الرأس الضيقة بلا حافة (انظر إعلاه ص ٦٤) وفى عام ١١٩٢م شكر هنرى (اوف شامباني) صلاح الدين على هدية التربان التى أهداها له معلنا أن تلك الأشياء تلقى استحسان زملائه وأنه سوف يرتديها دائما (انظر Rey, op. cit. pp.11) ويصف ابن جبير Ibn Jubayr (ed. Wright, p.309) ملابس زفاف مسيحى فى عكا عام ١١٨٤. (وعن باشيا أنظر أدناه ص ٤٨٢).

(٤٤) الطبيب الطرابلسى الذى يفترض انه دس السم لبلدوين الثالث كان وطنيا (انظر ادناه ص ٤١٤). وعندما كان أماليك على فراش الموت أثبت الأطباء الوطنيون أنهم أكثر حكمة من أطباء الفرنج (انظر أدناه ص ٤٥٥). وعين أماليك رجلا يدعى سليمان بن داود وإبنه الأكبر فى منصب طبيبى البلاط ، بينما كان الابن الثانى لسليمان يشغل منصب معلم

وان يمتزجوا بهم؛ ومما ساعد على ذلك غيبة الأرستقراطية الوطنية ، التى كانت خليقة بتحدى حكمهم، بعد أن هرب المسلمون من مملكة القدس وكونتية طرابلس. أما فى الأماكن الأبعد إلى الشمال، فكانت الطبقتان الأرستقراطيتان اليونانية والأرمينية تشعران بالغيرة منهم، وتدخلت السياسة فى تفاهمهما المتبادل، رغم أن الأرمن فى نهاية الأمر تقابلوا معهم فى منتصف الطريق وتبنوا الكثير من العادات الفرنجية[٤٥].

الصداقة مع المسلمين

لم يكن من الممكن قط أن يحل السلام الدائم بين الفرنج وجيرانهم المسلمين ، وانما كانت هناك اتصالات آخذة في التزايد . إذ كانت إيرادات الدويلات الفرنجية تتألف بدرجة كبيرة من الضرائب المفروضة على التجارة بين داخل البلاد المسلمة وبين الساحل؛ فكان يتعين السماح لتجار المسلمين بحرية الحضور إلى الموانى البحرية ومعاملتهم معاملة معقولة . ومن العلاقات التجارية نبعت الصداقة . ذلك أن نظام فرسان المعبد - بأنشطته المصرفية الضخمة - كان على استعداد لتوسيع عملياته بحيث يصبح دائنا للعملاء الكفرة، والاحتفاظ بمسؤولين متخصصين فى شؤون المسلمين . وفى ذات الوقت ، كان الساسة الأعقل بين الفرنج يرون أن لا دوام لمملكتهم إلا إذا بقى العالم الاسلامى مشتتا ، ومن أجل ذلك باتت البعثات الدبلوماسية فى جيئة وذهوب . وكان لوردات الفرنج والمسلمين على السواء يُستقبَلون بآيات التشريف فى كلٍ من بلاط غريم العقيدة . وكثيرا ما كان الأسرى أو الرهائن يمضون سنوات فى حصون الأعداء أو قصورهم . ورغم المعاناة التى تجشمها مسلمون قليلون فى تعلم اللغة الفرنسية ، كان الكثير من الفرنج - نبلاء وتجار - يتكلمون العربية ، بل إن القليل منهم اهتم بالأدب العربى مثل رينالد أمير صيدا . وفى وقت الحرب كان كل جانب يعرب عن التقدير لما يلمسه من لفتات الكياسة والفروسية . وفى أوقات السلم كان اللوردات من كل جانب يشاركون لوردات الجانب الآخر فى رحلات الصيد[٤٦].

ركوب الخيل فى البلاط . أنظر Cahen, 'Indigènes et Croisés', *Syria, 1934* ولم يترك الطب الفرنجى أى انطباع لدى أسامة (انظر أدناه ص ٣٦٩).

(٤٥) أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.561-8

(٤٦) (عن رينالد أمير صيدا أنظر أدناه ص ٥٢٦). عندما كان المسلمون يتفاوضون مع الحكام المسيحيين ، كان المسلمون يصرون على أن يدفع فرسان المعبد ضمانات مالية - مثلا المؤرخ أبو شامة.Abu Shama, p. 32 وكان ريموند الثالث كونت طرابلس يتحدث اللغة

كما غاب كامل التعصب الدينى . إذ كانت للعقيدتين العظيمتين خلفية مشتركة ؛ فحيثما تُكتشف فى الخليل آثار يعتقد أنها لإبراهيم واسحق ويعقوب كان المؤرخون المسلمون على نفس القدر من الاهتمام الذى كان عليه المسيحيون(٤٧). وحتى فى اوقات الحرب كان حجاج الفرنج يستطيعون التوغل حتى مزار سيدة سارديناى Our Lady of Sardenay على التلال خلف دمشق(٤٨)، وكان البدو الذين يحرسون دير سانت كاثرين العظيم فى صحراء سيناء يحرسون دائما زائريه(٤٩). وتسببت المعاملة الوحشية التى كان رينالد (اوف شاتيلون) يعامل بها الحجاج المسلمين فى أن شعر رفاقه فى العقيدة بصدمة كادت أن تكون مساوية لما شعر به صلاح الدين من حنق . وكان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre على استعداد للاعراب لنور الدين عن تقديره لورعه رغم اختلافه معه فى العقيدة. وكثيرا ما كان الكتاب المسلمون يعربون عن اعجابهم بالفروسية الفرنجية(٥٠).

ويرد أروع وصف للجو السائد آنذاك فى مذكرات أسامة بن منقذ فى شيزر . وكان بنو منقذ يؤلفون أسرة حاكمة ضئيلة الشأن تعيش فى خوف دائم من أن يستولى عليها مسلمون آخرون يفوقونها قوة ، ولذا كانوا على استعداد للتفاهم مع الفرنج ، وأمضى أسامة نفسه سنوات كثيرة فى كل من بلاطى دمشق والقاهرة عندما كان كلاهما على علاقة دبلوماسية وثيقة بالقدس . وكثرا ما كان أسامة يقوم بزيارات للأراضى الفرنجية ، كمبعوث وكسائح وكرياضى ؛ ورغم أنه فى كتابته يحدد لكل تلك الأنشطة سوء المصير فى الآخرة ، كان له أصدقاء كثيرون من الفرنج يستمتع بمناقشاتهم . وقد صدمته فجاجة ما كانوا عليه من الطب ، رغم أنه تعلم منهم علاجا ناجعا لنوع من أنواع مرض الدرن الورمى ، وصُعِق لمدى الحرية المسموح بها لنسائهم،

العربية ، ويكاد يكون من اليقين ان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre كان يقرأ العربية ، أو كان يستخدم أمناء يعرفون اللغات الشرقية. (انظر ادناه ص ٥٣٤).

(٤٧) يشير ابن القلانيسى الى الاكتشاف. Ibn al-Qalanisi, p. 161 أنظر أيضا Kohler, 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol.IV, pp. 477 ff.

(٤٨) عن سيدة سارديناى Our Lady of Sardenay ، انظر. Rey, *op.cit.*pp.291-6

(٤٩) عن دير سانت كاثرين وحجاجه انظر. Rey, *op. cit.* pp.287-91

(٥٠) مثلا ، يطلق William of Tyre (xx,31, p. 1000) على نور الدين (الأمير العادل، الفطن الحصيف، والأصل الثانى للتقاليد الدينية princeps justus, vafer et providus, et secundum gentis suae traditiones religiosus).

وشعر بالحرج عندما عرض عليه صديق فرنجي ارسال ابنه كي يتعلم في اوروبا الغربية . وكان يراهم برابرة بعض الشئ ، ويضحك منهم مع أصدقائه المسيحيين الوطنيين ، غير انه كان يستطيع أن يتوصل إلى تفاهم معهم . وكان الوافدون الجدد من الغرب بمثابة العقبة الواحدة التي تعوق الصداقة ، ففي احدى المرات كان جالسا مع فرسان المعبد في القدس وقام يصلي في ركن من المسجد الأقصى بعد أن استأذنهم ، فأهانه أحد الفرسان إهانة فظة ، وسارع فارس آخر من فرسان المعبد يشرح له أن ذلك الرجل الفظ قد جاء لتوه من اوروبا وهو لا يعرف بعد أي سلوك حسن(٥١) .

الكنيسة الأرثوذكسية

دأب المهاجرون في الواقع، بطبيعتهم الفجة، على تدمير سياسة الشرق الفرنجي، وهم الذين جاءوا لحرب من أجل الصليب وقد عقدوا العزم على عدم السماح بأي تأخير في تحقيق غايتهم. وكانوا أقوياء في الكنيسة بوجه خاص . ولم يكن أيّ من بطارقة القدس اللاتين في القرن الثاني عشر قد ولد في فلسطين ، وليس هناك من عظام رجال الكنيسة اللاتينية سوى وليم رئيس أساقفة صور الذي أُنكر عليه منصب البطريارقية . ونادرا ما كان نفوذ الكنيسة مؤيدا للتفاهم مع الكفرة ؛ بل كان نفوذها فاجعا بشكل أكبر في علاقاتها حتى مع المسيحيين الوطنيين . وكان للمسيحيين الوطنيين نفوذ عظيم لدى عواهل المسلمين ، وكان الكثير من أشهر مشاهير الكتاب والفلاسفة العرب ، وجميع الأطباء تقريبا مسيحيين . وكانوا خليقين بتشكيل جسر بين العالمين الشرقي والغربي.

وقد قبلت طوائف الأرثوذكس في فلسطين الهرمية اللاتينية نظرا لوجود رجال الدين الأرثوذكس الأعلى جميعا في المنفى وقت الغزو . وحاول البطريق ديامبرت أن يحرم قساوستهم من مراكزهم في كنيسة القبر المقدس ، غير أنه حدثت أحداث في قداس النار المقدسة عام ١١٠١م ، وأبقى نفوذ الملك على رجال الدين في الكنيسة وسمح باقامة الشعائر الأرثوذكسية فيها . وكان التاج صديقا دائما للأرثوذكس ، فكانت مورفيا - مليكة بلدوين الثاني وأم مليسيند - أميرة ارثوذكسية ، وكذلك كانت الملكتان زوجتا ولديّ ميليسيند أرثوذكسيين. وكان بلدوين الأول يظهر آيات

---

(٥١) Usama, ed. Hitti, *passim*, esp. pp. 161-70

التشريف في تعامله مع رئيس دير القديس ساباس ، وهي الهرمية الأرثوذكسية الرائدة التي بقيت في فلسطين ؛ ووهبت الملكة مليسيند الأراضي للدير الذى ربما كان مدينا للتاج ببعض الخدمات . وتمكن الامبراطور مانويل من الحفاظ على مكانته الحامية للمصالح الأرثوذكسية ، ويتضح ذلك مما قام به من اصلاحات كان مسؤولا عنها في الكنيستين الكبيرتين : كنيسة القبرالمقدس وكنيسة الميلاد . وفي ذات الوقت تقريبا ، وربما بمساعدة الامبراطور ، أعيد بناء وزخرفة دير القديس إيوثيميوس في برية يهودا . على أن المودة لم تتزايد بين رجال الدين اللاتين واليونانيين ؛ ففي عام ١١٠٤م استقبل الحاج الروسى دانيال بحفاوة في المنشآت اللاتينية ، لكن الحاج اليوناني فوكاس الذى حج عام ١١٨٤م ، وبرغم زيارته لمنشآت لاتينية ، لم يستلطف اللاتينيين ، باستثناء راهب اسباني عاش في وقت ما في الأناضول ، ويقص مرحا معجزة أربكت الكاهن اللاتيني الذى يطلق عليه أسقف اللد "المتقحّم" . والأرجح أن محاولة الهرمية اللاتينية لفرض دفع العشور على الأرثوذكس، إلى جانب ازدرائها للأرثوذكس حتى أنه كان نادرا ما تسمح لهم الكنائس الكبيرة باقامة شعائر عقيدتهم ، هو الذى قلل استحباب الأرثوذكس للحكم الفرنجي ، وجعلهم على استعداد لقبول استرداد صلاح الدين للبلاد - بل وللترحيب به - بعد أن انتهت حماية مانويل لهم . وفي انطاكية ، أسفر وجود مجتمع يوناني قوى ، وما حدث من تطورات سياسية عن ظهور العداوة علانية بين اليونانيين واللاتين ، مما أضعف الامارة على نحو حسيم[٥٢].

---

(٥٢) انظر Daniel the Higumene في اماكن متفرقة ، و John Phocas, *A Brief Description*، في اماكن متفرقة . وانظر ايضا Rey, op.cit. pp.75-93 ، و Cahen, loc.cit. عندما كانت الحاجة الروسية إيوفروسين (Euphrosyne of Polotsk) تموت في فلسطين التمست من رئيس دير القديس ساباس أن يجد لها مقبرة ملائمة باعتباره رئيس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . انظر de Khitrowo, `Péleringe en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne'، في *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 32'5. وقام الكتاب الأرثوذكس المتأخرون - مثل دوثيسيوس Dositheus في القرن السادس عشر - والذين كرهوا التسليم بحقيقة ان الأرثوذكس قبلوا البطارقة اللاتين من ١٠٩٩م الى ١١٨٧م ، باصدار قائمة بستة بطارقة أو سبعة في الفترة بين وفاة سيميون عام ١٠٩٩م وحتى ١١٨٧م (Dositheus, II, p.1243; Le Quien, *Oriens Christianus*, III, pp.498-503) وهناك من يدعى John ، بطريق القدس ، الذى آيد إدانة Soterichus عام ١١٥٧م ، وجون آخر بطريق القدس - ويفترض انه نفس الشخص - الذى كتب بحثا ضد اللاتين في نفس الفترة تقريبا (Drumbacher, *Gesch. der Byz. Literatur*, p.91) ويحتمل ان الإمبراطور مانويل كان يفكر في إعادة الاستيلاء على بطريارقية القدس ، واحتفظ ببطريق لذلك اليوم . غير انه من الواضح ان الأرثوذكس في فلسطين خضعوا للبطريق اللاتيني . ويتأكد وجود قساوسة يونانيين في كنيسة القبر المقدس ، في *Carulaire du Saint Sépulcre*, ed. Rozière, p.177.

وفى المملكة ذاتها ، لم تكن طوائف الهراطقة بذات أهمية خارج القدس ، حيث كانت كلها تقريبا تحتفظ بمنشآت فى كنيسة القبر المقدس . وحاول دهامبرت دون حدوى طردهم هم ايضا ؛ فقد حفظ لهم التاج حقوقهم . وكانت الملكة مليسيند فى الواقع قد منحت تأييدها شخصيا للسيريان اليعاقبة عند نظر الدعوى التى رفعوها ضد فارس فرنجى، وفى كونتية طرابلس كانت أهم كنيسة هرطيقية هى كنيسة الموارنة ، وأتباعها هم الباقون من العقيدة المونوثيليتية[٥٣] وعاملتهم الكنيسة المسيحية بما يندر من اللباقة والصبر ؛ وفى عام ١١٨٠م وافقت الطائفة على الإعتراف بسيادة الكرسى الأسقفى الرومانى ، شريطة أن يحتفظ رعاياها بطقوسهم الدينية وعاداتهم السيريانية ولم يتخلوا عن معتقدهم الهرطيقى القائل بوجود إرادة واحدة للمسيح . وأما عن مفاوضاتهم - التى لا نعرف عنها سوى النذر اليسير - فقد أدارها باقتدار البطريق إيمرى بطريق انطاكية . إن القبول بهذه الكنيسة المتحدة الأولى[٥٤] يظهر أن البابوية كانت على استعداد للسماح بأعراف متشعبة ، وحتى بلاهوت مشكوك فيه ، شريطة الإعتراف بسلطتها النهائية[٥٥].

رفاهية الشرق الفرنجى

كانت الكنيسة الأرمينية المنفصلة فى امارة انطاكية قوية وتلقى التشجيع من الأمراء ، الذين رأوا فيها غريما نافعا ضد الكنيسة الأرثوذكسية . وفى الرها كان الأرمن يحظون بصداقة آل كورتناى رغم أنهم كانوا محل ريبة من بلدوين الأول وبلدوين الثانى. وجاء الكثير من أساقفة الأرمن للاعتراف بسيادة البابا ، وحضر البعض منهم عددا من المجامع الكنسية التى عقدتها الكنيسة اللاتينية ، وهم يغفرون فى التعاليم اللاتينية مالا يغفر فى التعاليم اليونانية . وفى بادئ الأمر كان السيريان اليعاقبة فى عداوة صريحة للصليبيين ويفضلون الحكم الاسلامى ؛ ولكن بعد سقوط الرها ، أصبحوا فى حالة صلح مع أمير انطاكية ، إسميا بسبب معجزة عند قبر القديس بارسوما ، وفعليا

(٥٣) (المترجم): المونوثيليتية Monotheletism : معتقد لاهوتى يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٥٤) (المترجم): الكنيسة المتحدة Uniate Church : أية كنيسة مسيحية شرقية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وانما تمارس طقوسها الخاصة بها وأعرافها وما الى ذلك.

(٥٥) انظر Dib, article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, vol.x, 1.

لشعورهم شعورا عاما بخوف من بيزنطة وكراهيتها . وكان البطريق اليعقوبى ميخائيل - وهو احد عظام مؤرخى عصره - صديقا للبطريق إيمرى ، وقام بزيارة ودية للقدس . ولم يكن هناك من كنائس الهراطقة الأخرى كنيسة تعتبر ذات اهمية فى الدويلات الفرنجية[٥٦].

وأما المسلمون من رعايا الفرنج ، فقد قبلوا اسيادهم بهدوء ، واعترفوا بعدالة ادارتهم ؛ ومن الواضح أنهم لا يعتمد عليهم اذا ساءت أمور المسيحيين . وأما اليهود ، فكانوا على حق في تفضيلهم حكم العرب الذين كانوا يعاملونهم دائما بأمانة وشفقة ، ولو بازدراء معين[٥٧].

كان الشرق الفرنجى، فى نظر الحاج الغربى المعاصر، بمثابة صدمة لما كان عليه من رفاهية وفجور. وأما المؤرخ العصرى فكان بالأحرى يتأسى لتعصب الصليبيين وبربريتهم المشينة . ومع ذلك ، يمكن تفسير كلا الجانبين بالجو الذى كان سائدا هناك . فكانت الحياة بالنسبة للمستعمرين الفرنج غير يسيرة ومحفوفة بالمخاطر . إذ كانوا فى أرض ازدهرت فيها المكائد والقتل ، والعدو يتربص عبر الحدود القريبة . ولم يكن أحد يعلم متى سوف يسلم من طعنة خنجر تأتيه من احد الحشاشين المخلصين ، أو متى ينجو من سم يدسه له خدمه . وتفشت بينهم امراض غامضة لا يعرفون عنها سوى القليل ؛ وحتى بمساعدة الأطباء المحليين ، لم يعش فرنجى طويلا فى الشرق . وكانت النساء أكثر حظا من الرجال ؛ لتجنبهن مخاطر القتال . ونظرا للمعرفة الطبية الأفضل فى الشرق ، كانت الولادة أقل خطورة منها فى الغرب . بيد أن وفيات الاطفال كانت مرتفعة ، ولا سيما بين الأولاد . فكانت الإقطاعية تلو الإقطاعية تقع فى يد وريثة ، يغوى ميراثها مغامرى الغرب المتوددين للنساء ؛ على انه فى الأغلب الأعم كانت الضياع الضخمة تفتقر إلى سيد لها وقت الأزمة ، ولم تكن أية زيجة سوى مسألة نزاع وتآمر . وغالبا ما كان الزواج عقيما ، إذ فشل الكثيرون من أعنف المحاربين فى أن ينجب طفلا. وأدى التزاوج بين العائلات النبيلة القليلة إلى زيادة التنافس الشخصى . وكانت الاقطاعيات توهب وتقسّم بقليل من الاعتبار للضرورات الجغرافية ؛ وتواترت المشاحرات بين أقرب الأنسباء.

---

(٥٦) أنظر أدناه ص ٤٢٨ ، وكذلك مقدمة Nau's edition of Michael the Syrian.

(٥٧) Ibn Jubayr, ed. Wright, pp. 304-5 وتظهر احصائيات Benjamin of Tudela ازدهارا أعظم لليهود فى ظل الحكم الاسلامى.

وكان الهيكل الإجتماعي الذى جلبه الفرنج من الغرب يستلزم نظام استخلاف وراثى منتظم ، واعتناء بالقوة العاملة . وكان الانحطاط المادى للعنصر الانسانى غاية فى الخطورة ؛ فأحالهم الخوف وحوشا وخونة ، وأطلق الإرتياب حبهم للمباهج التافهة . وبينما كانت سيطرتهم آخذة فى الضعف والوهن ، زاد اسرافهم فى مباريات الفروسية ومظاهر البطولة . وكان الزائرون والوطنيون على السواء يرتاعون لما يرونه حولهم من فسوق وتطرف، وكان أسوأ المسيئين هو البطريق هيراكليوس(٥٨) بيد أن الزائر الأعقل كان يفهم أن تحت هذا السطح الرائع كان كل شئ سيئا ؛ فالملك الذى كان مثقلا بالحرير والذهب كان دائم الحتياج إلى المال لدفع رواتب جنده . وربما يتلقى فارس المعبد المتعجرف - الذى يعد أكياس نقوده عدا - استدعاء فى اية لحظة ليقاتل بشراسة تفوق ما عرفه الغرب . وقد ينهض المعربدون - كضيوف قلعة كيراك فى١١٨٣م - من المائدة على أصوات آلات المنجنيق يقذفها الكفرة لتدق أسوار القلعة . إن زخرف الحياة الأنيقة المرحة فى الشرق الفرنجى كانت معلقة بخيط رفيع من القلق ، والريبة ، والخوف ؛ وقد يتساءل المتفرج بحق ما اذا كانت المغامرة تستطيع أن تستمر طويلا ، حتى فى ظل أفضل الحكام.

---

(٥٨) Estoire d'Eracles, II, p.88; Ernoul, pp.83-7; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp.5-6; Caesarius of Heisterbach, *Dialogus Miraculorum*, I, p. 188 ويعزو هذا الأخير سقوط القدس الى فساد فرنج الشرق.

الفصل الثانى:

ارتفاع نجم نور الدين

ارتفاع نجم نور الدين

"وَخَرَجَ غَالِباً وَلِكَيْ يَغْلِبَ"

(رؤيا يوحنا اللاهوتى ٦ : ٢)

كان ريموند أمير أنطاكية مصيبا فى حثه زعماء الحملة الصليبية الثانية على السير للاستيلاء على حلب . ولقد جنى عليه فشله فى اقناعهم ، فكلفه حياته . ذلك أن نور الدين كان العدو الرئيسى للعالم المسيحى ؛ ولو كان هناك جيش كبير لدى ريموند فى ١١٤٧م لكان خليقا بأن يسحقه . كان نور الدين سيد حلب والرها ، ولم يكن أونر صاحب دمشق ولا صغار الأمراء المستقلين فى وادى العاصى ليخفوا لنجدته ؛ كما لم يكن ليعتمد على مساعدة أخيه سيف الدين صاحب الموصل الذى كانت له مشاكله الخاصة به فى العراق. غير أن حماقة الصليبيين دفعت بأونر إلى الدخول فى تحالف معه يبقى طالما بقى الخطر ؛ وواتته فرصة التدخل فى شؤون طرابلس فراح يحكم قبضته على أواسط سوريا .

وكان لريموند كذلك ما يبرر رفضه الانضمام إلى الحملة الصليبية . فلم يكن

يسعه، لا هو ولا جوسلين كونت الرها ، ترك أراضيهما مكشوفة لنور الدين، وحتى عندما كان الصليبيون أمام دمشق أغار جنود من حلب على الأراضى المسيحية. وذهب جوسلين نفسه - تحت علم الهدنة - إلى معسكر نور الدين متوسلا الرحمة؛ وكان كل ماحصل عليه فترة راحة مؤقتة[١]. وفى تلك الأثناء كان مسعود سلطان قونية فى سلام مع بيزنطة، فانتهز ما كان فيه الفرنج من ارتباك وهاجم مرعش. فاستعد ريموند لملاقاته، ولذا أرسل مسعود إلى نور الدين للقيام بهجوم مضلّل، فأجيب إلى طلبه؛ غير أن ريموند كان قد تحالف مع كردى من زعماء الحشاشين - على بن وفا - الذى كان يحمل من الكراهية لنور الدين ما يفوق كراهيته للمسيحيين، فباغت ريموند نور الدين فى نوفمبر ١١٤٨م أثناء زحفه خلال القرى الواقعة فى سهل السواد فى أفاميا، على الطريق من أنطاكية إلى مرعش. وكان قائدا نور الدين الرئيسيان - شيركوه الكردى وابن الداية من وجهاء حلب - قد تشاجرا، ورفض الأول الاشتراك فى المعركة؛ واضطر الجيش الاسلامى كله إلى أن ينسحب انسحابا سريعا مشينا. وفى الربيع التالى هاجم نور الدين البلاد مرة اخرى وهزم ريموند فى بجراس بالقرب من ساحة القتال السابقة. ثم تحول جنوبا لمحاصرة قلعة إيناب، وهى واحدة من المعاقل القليلة المتروكة للمسيحيين شرقى نهر العاصى، فسارع ريموند لانقاذها ومعه جيش صغير وقليل من حلفائه الحشاشين يقودهم على بن وفا؛ وبتلقى نور الدين معلومات خاطئة عن قوة ريموند، اضطر إلى الانسحاب. وفى حقيقة الأمر، كان جيش نور الدين الذى يتألف من ستة آلاف فارس يفوق جيش الفرنج المؤلف من أربعة آلاف فارس وألف راجل. وإزاء نصيحة على ابن وفا قرر ريموند تعزيز حامية إيناب. على أن نور الدين أدرك الآن ضعف ريموند. ففى ٢٨ يونية ١١٤٩م كان الجيش المسيحى معسكرا فى قاع واد من الوديان بالقرب من نبع مراد فى الوادى بين إيناب ومستنقع الغاب، فزحف جنود نور الدين أثناء الليل وحاصروا الجيش المسيحى. وفى الصباح تحقق ريموند من أن فرصته الوحيدة للخروج هى الهجوم؛ غير أن طبيعة الأرض كانت ضده، وهبت رياح قذفت بالأتربة فى أعين فرسانه أثناء شق طريقهم على خيولهم أعلى المنحدر، ولم تمض ساعات قليلة حتى احتُثت شأفة الجيش كله. وكان بين القتلى رينالد أمير مرعش وزعيم الحشاشين على ابن وفا. وهلك ريموند نفسه، قتله شيركوه وبذا استعاد استحسان سيده الذي فقده فى أفاميا. ووضعت جمجمة الأمير فى صندوق فضى، وأرسلها نور الدين هدية لسيده

---

(١) Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 382.

الروحى الخليفة فى بغداد[٢].

١١٥٠م : إعتقال الكونت جوسلين

كان جوسلين كونت الرها هائنا بهدنة مزعزعة مع المسلمين ، ولذا رفض مساعدة غريمه القديم ريموند . والآن جاء دوره . إذ أن نور الدين اخترق الأراضى الأنطاكية مستوليا على أرزغان وتل كشفان ، ثم داهم حاميتى أرتاح وحارم الواقعتين أبعد إلى الشمال ، وبذا استكمل إحكام قبضته على أواسط وادى العاصى ، ثم تحول غربا ليظهر أمام أسوار أنطاكية نفسها وراح يغير على الجوار حتى على ميناء السويدية[٣]. ولم يبذل جوسلين أية محاولة لإنقاذ رفاقه الفرنج ، وانما سار إلى مرعش يحدوه الأمل فى الاستيلاء على ميراث رينالد الذى كان زوج ابنته . ودخل المدينة ، لكنه تركها باقتراب السلطان مسعود ، تاركا فيها حامية سرعان ما استسلمت للسلاحقة نظير الوعد بالإبقاء على حياة المسيحيين ؛ لكنهم عندما انطلقوا مع قساوستهم على الطريق الذاهب إلى انطاكية ، قتلوا عن آخرهم . وطارد مسعود جوسلين حتى جوار تل بشير . بيد أن التعزيزات كانت تقترب ، ولم يكن نور الدين راغبا فى أن يرى جوسلين - الذى كان لا يزال عميله - يفقد أراضيه ليفوز بها السلاحقة . ووجد مسعود أن من السياسة أن ينسحب . وبعد ذلك ، سعى أراتقة الجزيرة - الذين حدد لهم نور الدين وأخويه حدودهم الجنوبية - إلى التوسع بطول الفرات على حساب الأرمن فى كركر الذين كانوا أتباعا يدفعون الجزية لرينالد . وبدد جوسلين طاقاته عبثا بارسال المساعدة إلى بازل حاكم كركر ، إذ استولى قرة أرسلان الأرتقى على كامل مقاطعة كركر وخرتبرت ، مما أبهج المسيحيين اليعاقبة الذين كانوا يفضلون حكم أرسلان بصورة لا حدود لها على حكم رينالد لتحيزه الشديد إلى جانب الأرمن ، ومشاعره البغيضة نحو اليعاقبة[٤]. وفى شتاء عام ١١٤٩م خاصم نور الدين جوسلين ؛ ولم تنجح هجماته

---

(٢) William of Tyre, xvii, 9, pp.771-3p ؛ وخطاب قهرمان نظام فرسان المعبد الى السيد الأعظم Everard ، الوارد فى R.H.F. vol. xv, p.541؛ وأيضا Cinnamus, pp. 122-3; Michael the Syrian, iii, pp. 288-9; *Cron. Anon Syr.* Syriac edition, p.296; Matthew of Edessa, cclix, p. 329; Gregory the priest, p.142; Ibn al-Qalanisi, pp. 288-92; Abu Shama, pp. 10-12; Ibn al-Furat, loc.cit.، ويحدد ابن الفرات موقع المعركة بأنه أرض الحاتم .

(٣) William of Tyre, xvii, 10pp. 774-5; letter to Everard, loc. cit.; *Chron. Anon. Syr* (Syriac edition), p.299; Ibn al-Qalanisi, p.293; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 180.

(٤) Matthew of Edessa, cclix, pp. 330-1; Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian,

الأولى ، لكنه فى ابريل ١١٥٠م ، وبينما كان جوسلين متجها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها هناك ، انفصل عن حرسه المرافق له ووقع فى أيدى بعض التركمان المنفصلين من الباحثين عن المغانم ؛ وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية ثمينة، لولا أن سمع نور الدين باعتقاله فأرسل فصيلة من الفرسان لتأخذه من آسريه . وفقئت عيناه وسجن فى حلب حيث مات بعد تسع سنين فى ١١٥٩م[٥].

وهكذا ، وبحلول صيف عام ١١٥٠م ، كانت كل من إمارتي انطاكية وما تبقى من كونتية الرها قد فقدتا سيديهما . ولم يغامر نور الدين بالمضى إلى أكثر من ذلك . وعندما وصلت أنطاكية أنباء موت ريموند ، حول البطريق إيمرى المدينة إلى حالة دفاع وسارع بارسال مبعوث جنوبا يلتمس من الملك بلدوين أن يخف للنجدة . ثم انه حصل من نور الدين على هدنة قصيرة بعد أن وعد بتسليم انطاكية فى حالة عدم وصول الملك بلدوين . وكان ذلك ملائما لنور الدين الذى توخى جانب الحذر فى عدم محاصرة انطاكية ، بينما كان قادرا على الإستيلاء على أفاميا وهى آخر القلاع الأنطاكية فى وادى نهر العاصى . وهرع الملك بلدوين شمالا مع فرقة صغيرة تتألف فى أغلبها من فرسان المعبد . وأغرى ظهوره نور الدين للقبول بهدنة أطول ساعدت على كبح مسعود من مهاجمة تل بشير . بيد أنه على الرغم من إنقاذ أنطاكية، تقلصت الإمارة لتقتصر على وادى انطاكية نفسها والساحل من الإسكندرونة إلى اللاذقية[٦].

---

iii, 294-6 and Armenian version, p.346.

(٥) William of Tyre, xvii, ii, pp. 776-7; Matthew of Edessa, cclix, pp. 331-2; Michael the Syrian, iii, p. 295; *Chron. Anon. Syr.*, p.300; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, op.cit. p.386; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 523-4; *Bustan*, p.544; Ibn al-Qalanisi, p.300; Ibn al-Athir, p.481; Sibt ibn el-Djauzi, p. 122 وتختلف الظروف فى كل من هذه المراجع . فيقول وليم إنه كان ذاهبا الى أنطاكية تلبية لنداء من البطريق ؛ بينما يقول كل من ماثيو (اوف إيديسًا – الرها) وابن الفرات إنه كان يسعى الى الحصول على المساعدة من انطاكية ؛ ويرد فى التاريخ المجهول Anonymous Chronicle انه ذهب ليضمن الوصاية على انطاكية . ويعزو وليم انفصاله عن صحبته الى تلبيته لنداء الطبيعة ، بينما يعزوه سبط بن الجوزى الى علاقة حب مع فتاه تركمانية ، وابن الفرات الى سقوطه من على جواده أثناء اصطدام الجواد بشجرة – واستنادا الى ميخائيل السورى لم تكن الشجرة موجودة إلا فى خياله (ويرى المؤرخون السيريان أن اعتقال جوسلين جاء انتقاما إلهيا لاضطهاده اليعاقبة)؛ ويقول المؤرخون السيريان إن يهوديا تعرف عليه . والتاريخ المجهول هو فقط الذى يقول بتعميته . ويضيف ميخائيل السيريانى إنه لم يسمح له بالاعتراف – وهو على فراش الموت – على يد قس لاتينى ، وانما تلقى اعترافه أسقف يعقوبى من الرها.

(٦) William of Tyre, xvii, 15, pp.783-4; Ibn al-Qalanisi, pp. 293-4, 300-1.

١١٥٠م : استسلام تل بشير لبيزنطة

بقى بعد ذلك ترتيب حكومة الامارتين العاريتين من رئيسيهما . وكان نور الدين قد هاجم تل بشير بعد اعتقال جوسلين ، غير أن الكونتيسة بياتريس أعدت دفاعا شجاعا أجبر نور الدين على الانسحاب . ومع ذلك ، كان من الواضح عدم امكان الإحتفاظ بتل بشير ؛ إذ كانت مكتظة باللاجئين من الفرنج والأرمن القادمين من المقاطعات البعيدة عنها . وكان المسيحيون اليعاقبة يجهرون بالعصيان ، وقد انعزلت المنطقة كلها عن انطاكية بغزوات نور الدين . وأثناء أن كانت الكونتيسة تعد العدة للتخلى عن أراضيها جاءتها رسالة من الامبراطور مانويل ، الذى كان مدركا للموقف، عارضا أن يشترى منها كل ماتبقى من بلدها . والتزمت بياتريس براجبها فأحالت العرض إلى الملك بلدوين الذى كان فى انطاكية . وناقش العرض لوردات مملكته المرافقين له، ولوردات انطاكية ، الذين شعروا بالاشمئزاز لفكرة تسليم أية أراض ليونانى بغيض ؛ غير انهم قرروا بعد الموافقة أنه لو فقد العالم المسيحى تلك الأماكن الآن فيكون الامبراطور هو المخطئ . وأحضر حاكم كيليكيا البيزنطى - توماس - أحولة من الذهب ، لا ندرى عددها ، إلى كونتيسة انطاكية ، التى سلمت جنوده فى المقابل القلاع الست : تل بشير وراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة . وصاحب جيش الملك الحاميات البيزنطية فى رحلتها ، وفى طريق العودة قام بحراسة الكثير من اللاجئين الفرنج والأرمن المرتابين فى الحكم البيزنطى والذين فضلوا الأمان الأكبر فى انطاكية . واحتفظت الكونتيسة من الصفقة بقلعة واحدة هى قلعة الروم الواقعة على الفرات بالقرب من سميساط ، والتى اعطتها لكاثوليكوس بطريق الأرمن . وبقيت القلعة مكان اقامته تحت السيادة التركية لقرن ونصف من الزمان . وبينما كان الجيش الملكى واللاجئون فى طريق عودتهم حاول نور الدين مباغتتهم فى عينتاب ، غير أن التنظيم الرائع الذى نظمه الملك حافظ عليهم . وتوسل اليه أبرز باروناته - همفرى (اوف تورون) وروبرت (اوف سورديفال) - السماح لهم بالاستيلاء على عينتاب بإسمه ، لكنه التزم بالصفقة التى عقدها مع الامبراطور(٧) .

---

(٧) William of Tyre, xvii 16-17, pp.784-9 . لم يذكر المؤرخون البيزنطيون الصفقة . وللاطلاع على التاريخ والأدلة التى أوردها المؤرخون المسلمون انظر Cahen, op.cit.p.388 n.24; Michael the Syrian, iii, p.297, and Armenian version, p.343.. ويرد التخلى عن روم قلعة فى Vartan, p.435, and Vahram, *Rhymed Chronicle*, p.618. وتقول نسخة ميخائيل السريانية إن الكونتيسة طلبت من كاثوليكوس مساعدة لورد أرمينى فى روم قلعة ، ولكن كاثوليكوس نصب نفسه فيها بالخديعة .

أما لماذا عرض الامبراطور الصفقة ، فليس بقينيا . إذ ظن الفرنج أن كبرياء الامبراطور جعله يعتقد أن بامكانة الاحتفاظ بتلك القلاع . ولا يحتمل انه كانت تنقصه المعلومات بهذه الدرجة . بل انه كان يتطلع إلى المستقبل ؛ إذ انه كان يأمل منذ وقت طويل أن يأتي بقواته إلى سوريا ، فاذا فقدها الآن فسوف يمكنه استعادتها فيما بعد ، ولن يكون هناك نزاع حول مطالبته . وفى حقيقة الأمر ، فقدها فى اقل من سنة ، عندما تحالف نور الدين مع مسعود السلجوقى . ولقد ولد التحالف فى اليوم التالى لاعتقال جوسلين ، وتثبّت بزواج نور الدين من ابنة مسعود ، وتقرر أن تكون تل بشير مهرا لها . على أن مسعود لم ينضم إلى زوج ابنته فى الهجوم على بياتريس ، وانما راح يتملى العيش باستيلائه على كيسوم وبهسنا فى شمال البلاد ، وقد منحهما لإبنه قلج أرسلان . وفى ربيع ١١٥١م راح نور الدين ومسعود كلاهما يهاجمان الحاميات ، وسارع الأراتقة للحصول على نصيبهم . فسقطت عينتاب ودُلوك فى يد مسعود ، وسميساط والبيرة فى يد تمرتاش الأرتقى صاحب ماردين ، ورواندال فى يد نور الدين . وفى تل بشير نفسها قاوم البيزنطيون لفترة ، لكن المجاعة اجبرتهم على الخروج والتسليم لنائب نور الدين حسان أمير منبج فى يولية ١١٥١م[٨] وذهب كل ماتبقى من أثر لكونتية الرها . وتقاعدت الكونتيسة بياتريس فى القدس مع ولديها جوسلين وآجنس ، اللذين قدر لهما فيما بعد أن يلعبا أدوارا فاجعة فى سقوط المملكة[٩] .

١١٥٠م : خطّاب الأميرة كونستانس

ضاعت الرها ، وبقيت انطاكية . وترك موت ريموند الأميرة كونستانس أرملة بأربعة أطفال صغار . وكان العرش عرشها بحق الميراث ؛ غير أنه ساد الشعور بضرورة أن يحكم رجل فى مثل هذه الظروف . وكان ابنها الأكبر - بوهموند الثالث - فى الخامسة من العمر عندما مات ابوه ؛ ولابد من وجود وصى من الذكور إلى أن يشب عن الطوق . وكان البطريق إيمرى قد تولى المسؤولية وقت الأزمة ، لكن الرأى العام العلمانى لم تعجبه فكرة وجود وصى من رجال الكنيسة . واتضحت ضرورة زواج

(٨) William of Tyre, loc.cit.; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p.277; Michael, Armenian version, p.297; Ibn al-Qalanisi, p.309; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 132 (with the wrong date).

(٩) ربما كانت إيزابيلا - ابنة جوسلين الثانى الأخرى - (انظر اعلاه ص ٢٢٢) ميته آنذاك ، رغم ان وليم الصورى (ص ٧٧٧) يذكرها عندما مات أبوها على انها على قيد الحياة .

الأميرة الشابة مرة أخرى . وفى الوقت ذاته يتعين أن يكون الوصى الملائم ابـن خالتهـا، الملك بلدوين ، بصفته أقرب أقربائها الذكور وليس السيد الأعلى . وكـان الملـك قـد سارع إلى انطاكية لدى وصوله نبأ موت ريموند ، وعالج الموقف بحكمة تندر مـع صبى مثله فى التاسعة عشرة من عمره ، وقبلت سلطته قبولا عاما . وعـاد فـى أوائـل صيـف ١١٥٠م ليعتمد صفقة بيع أراضى الكونتيسة بياتريس . وكانت مشغولياته فى الجنـوب من الكثرة بحيث لم يكـن راغبـا فـى البقـاء فـى انطاكيـة ليكـون مسـؤولا عنهـا.فحث كونستانس - التى لم تكن قد حاوزت الثانيـة والعشـرين - علـى اختيـار زوج آخـر ، واقترح عليها ثلاثة مرشحين : الأول ، ييف (اوف نيسـيل)، كونـت سواسـون ، وهـو نبيل فرنسى ثرى حاء إلى فلسطين فى أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، وكان يعـد العـدة للاستقرار؛ والثانى ، وولتر (اوف فالكونبرج) ، من أسرة سانت أومـير التـى احتفظـت فيما مضى بلورديـة الجليـل ؛ والثـالث ، رالـف (اوف مـيرل) ، البـارون الشـجاع فـى كونتية طرابلس . لكن كونستانس لم تكن راغبـة فـى أى منهـم ؛ واضطـر بلدويـن إلى العودة إلى القدس تاركا الحكومة فى يديها(١٠).

وأسـخط كونسـتانس الحـاج ابـن خالتهـا الصغـير ، فغـيرت سياسـتها فـى الحـال وأرسلت سفارة إلى القسطنطينية تلتمس من الامبراطور ، باعتباره سـيدها الأعلـى ، أن يختار لها زوجا. وكان مانويل تواقا إلى إجابة رغباتها ؛ فالنفوذ البيزنطى كان آخذا فـى التدهور بطول الحدود الجنوبيـة الشـرقية للامبراطوريـة . وحـوالى عـام ١١٤٣م ، كـان الأمير الأرمينى - ثوروس الروبينى - قد هرب من القسـطنطينية ولاذ بـبلاط ابـن عمـه حوسلين الثانى كونت الرها ، حيث جمع فرقة من بنى وطنه تمكن بها من استعادة قلعـة العائلة - فاهكا ، الواقعة شرقى حبال طوروس . وانضم إليه اثنان من اخوتـه - سـتيفن ومليح - وأنشأ صداقة مع لورد فرنجى فى الجوار ، سيمون حاكم رعبـان الـذى زوجـه ابنته . وفى عام ١١٥١م ، وبينما كان المسلمون يحيّرون البيزنطيين بهجومهم علـى تـل بشير ، زحف جنوبا إلى داخل سهل كيليكيا وهزم توماس الحاكم البيزنطى وقتلـه عنـد بوابات المصيصة ؛ مما دفع مانويل على الفـور إلى ارسـال ابـن عمـه أندرونيكـوس علـى رأس حيش لاسترجاع الأراضى التى استولى عليها ثـوروس ؛ والآن حاءتـه الفرصـه فـى وقتها المناسب لكى يضع من يرشحه هو على عرش انطاكية .

---

(١٠) William of Tyre, xvii , 18 pp. 789-91. يفتـرض وليـم الصـورى أن البطريـق إيمـرى شجـع كونسـتانس على رفض المرشحين خشـية ان يضعف سلطانه. Cinnamus, p. 178

ولم يقدّر النجاح لأى من المشروعين . ذلك أن أندرونيكوس كومنينوس كان أكثر أفراد عائلته الموهوبة اتقادا للذكاء وأكثرهم فتنة ، لولا ما كان فيه من تهور واهمال . فبينما كان في طريقه لمحاصرة ثوروس فى المصيصة ، هاجمه الأرمن بخروج مفاجئ وأطبقوا عليه على حين غرة ، فهزم جيشه هزيمة منكرة وهرب هو نفسه عائدا إلى القسطنطينية يجر اذيال العار . وفى اختيار زوج للأميرة كونستانس ، أظهر مانويل من البراعة أكثر مما أظهر من التعقل ؛ إذ أرسل زوج أخته القيصر جون روجر ، وهو أرمل أخته المفضلة ماريا . وكان جون روجر نورمانديا بالمولد ، ورغم أنه تآمر مرة ليستأثر بالعرش الامبراطورى ، أصبح الآن صديقا يثق فيه الامبراطور الذى أدرك أن بالامكان الإعتماد على ولائه ، وانما اعتقد أن أصله اللاتينى يرشحه للقبول لدى النبلاء الفرنج ، ولقد نسى التفكير في كونستانس نفسها . إذ كان جليا أن جون روجر فى أواسط العمر ، وقد فقد سحر شبابه كله ؛ فلا ينتظر من الأميرة الشابة ، التى اشتهر زوجها الأول بوسامته ، أن تقبل هذا القرين الذى يفتقر إلى الرومانتيكية . وهكذا ودعت الأميرة القيصر فى رحلة العودة إلى الامبراطور. كان الأفضل للامبراطور أن يرسل أندرونيكوس إلى أنطاكية ، وجون روجر إلى كيليكيا للقتال[١١].

١١٥٢م : اغتيال ريموند الثانى

كان الملك بلدوين مهيأ لأن يرحب بأى زوج لابنة خالته ؛ إذ جاءته مؤخرا مسؤولية جديدة . ذلك أن الحياة الزوجية التى عاشها الكونت ريموند الثانى كونت طرابلس وزوجته هوديرنا التى جاءت من القدس لم تكن حياة سعيدة تماما . إذ كانت هوديرنا - كشأن أختيها مليسيند وأليس - عنيدة طروب . ودارت همسات الريبة حول شرعية ابنتها مليسيند ، مما دفع ريموند فى غيرته عليها إلى محاولة حبسها فى عزلة على النمط الشرقى . وبلغت العلاقة بينهما فى أوائل عام ١١٥٢م من السوء ما جعل الملكة مليسيند تشعر أن من واجبها التدخل ؛ فسافرت مع ابنها الملك إلى طرابلس لترقيع مصالحة عاجلة . وانتهز بلدوين الفرصة واستدعى كونستانس إلى طرابلس حيث راحت الخالتان توبخانها على إصرارها العنيد على البقاء مترملة . على أنه ربما لأنهما

---

(١١) Cinnamus, pp.121-4, 178; Matthew of Edessa, cclxiii, pp.334-6; Gregory the Priest, p. 166; Sembat the Constable, p. 619; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 504-6; Michael the Syrian, iii p. 281.

كلتاهما لم تنجحا تماما فى الحياة الزوجية ، ذهبت نصائحهما أدراج الرياح ، وعادت كونستانس إلى أنطاكية دون أن تعد بشئ . غير أن تدخل الملكة كان فعالا بصورة اكبر مع ريموند وهوديرنا اللذين وافقا على تسوية شجارهما ، وارتئى أنه من الأفضل أن تمضى هوديرنا أجازة طويلة للاستجمام فى القدس ، وقرر ريموند البقاء فى طرابلس لفترة نظرا لما أشيع من أن نور الدين سوف يهاجم الكونتية . وانطلقت الملكة والكونتيسة على الطريق الذاهب جنوبا وقد صاحبهما الكونت مسافة ميل أو ميلين . وأثناء عودته ، وبينما كان يعبر البوابة الجنوبية لعاصمته ، وثبت عليه عصبة من الحشاشين وطعنوه إلى أن أسلم الروح . وقد حاول رالف (اوف ميرل) وفارس آخر كانا معه حمايته فلقيا حتفهما كذلك . وقد تم الأمر بسرعة شديدة بحيث لم يتمكن حراسه من الإمساك بالقتلة . وكان الملك يلعب النرد عندما جاءته الصيحات من أسفل المدينة ؛ واندفعت الحامية إلى سلاحها ونزلت كالسيل فى الشوارع تقتل كل مسلم تراه. غير أن الحشاشين تمكنوا من الهرب و لم يعرف قط الدافع الذي دفعهم إلى ذلك(١٢).

وأُرسل من يدعو الملكة والكونتيسة للعودة ، وباشرت هوديرنا الوصاية باسم ابنها ريموند الثالث البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة . لكن الوضع كان يتطلب - كشأن أنطاكية - وجود رجل وصى على الحكومة ؛ واضطر بلدوين إلى تولى الوصاية بصفته أقرب الأقرباء الذكور . وفى الحال شن نور الدين غارة وصلت حتى طرطوس التى احتلها جنوده لفترة ، لكنهم سرعان ما دحروا منها ، وسلمها بلدوين - بموافقة هوديرنا - إلى فرسان المعبد(١٣).

١١٥٢م : الملكة مليسيند ترضخ لإبنها

أسعد الملك أن تمكنه الظروف من العودة إلى القدس . وكانت الملكة مليسيند المدركة لحقها الوراثى عازفة عن تسليم السلطة لإبنها . لكنه تجاوز الآن الثانية والعشرين من عمره ، والرأى العام يطالب بتتويجه كحاكم ناضج . ولذلك ، رتبت الملكة مع البطريق فولشر أن يعيد تتويجها إلى جانبه حتى تكون مشاركتها السلطة

(١٢) William of Tyre, xvii, 18-19, pp.789-92.

(١٣) *Ibid., loc. cit.;* Ibn al-Qalanisi, p. 312.

مقبولة بوضوح . وكان من المقرر أن يتم التتويج يوم أحد الفصح ٣٠ مارس ، لكن بلدوين أرجأه . ثم إنه دون أن ترتاب أمه في شيء دخل كنيسة القبر المقدس يوم الثلاثاء مع حرس من الفرسان وأجبر البطريق الغاضب على تتويجه بمفرده . وكان ذلك علامة على صدع بيّن في المملكة . إذ كان للملكة الكثير من الأصدقاء ؛ مناس (اوف هيرج) ، حاميها الذى كان لا يزال المسؤول عن الأمن (كونستابل) ، وكانت لعائلته اتصالات كثيرة من بينها عشيرة إيبلين الكبيرة التى تسيطر على السهل الفلسطينى ، وكان الكثير من نبلاء جنوب فلسطين من شيعته . والجدير بالملاحظة أنه عندما ذهب بلدوين إلى انطاكية عام ١١٤٩م ، لم يصحبه سوى القليل من النبلاء ، إذ انها كانت بعثة لا تهتم بها الملكة . وكان النبلاء الذين صحبوه تحت زعامة همفرى (اوف تورون) ووليم (اوف فالكونبرج) ، وكانت ضياعهما فى الجليل . ولم يغامر الملك باللجوء إلى القوة ، وانما عقد مجلسا كبيرا للمملكة دافع فيه عن مطالبه . وبفضل نفوذ رجال الدين أجبر على قبول حل وسط يقضى بتخصيص الجليل والشمال كمملكة له ، وأن تحتفظ مليسيند بالقدس نفسها ونابلس ، أى يهودا والسامرة ، وأن يوضع الساحل - حيث يحتفظ الأخ الصغير للملك ، أماريك ، بكونتية يافا - تحت سيادتها . وكان حلا مستحيلا . وبعد أشهر قليلة طلب الملك من أمه التنازل له عن القدس التى بدونها - كما قال - لا يستطيع الاضطلاع بحماية المملكة . وبتعاظم قوة نور الدين يوما بعد يوم، قويت الحجة ، وبدأ حتى أهم مؤيدى الملكة يتخلون عن قضيتها . غير انها صمدت بقوة وحصنت القدس ونابلس ضد ابنها ؛ ولسوء حظها باغت جنود الملك حاميها الكونستابل مناس واعتقلوه فى قلعته ميرابيل الواقعة على حافة السهل الساحلى، وأُبقى على حياته فى مقابل الوعد بالرحيل عن الشرق وعدم العودة مطلقا ؛ وعلى الأثر استسلمت نابلس للملك . أما الملكة ، التى هجرها نبلاؤها العوام ، والتى كانت ما تزال تحظى بتأييد البطريق ، فحاولت الصمود فى القدس. بيد أن المواطنين انقلبوا عليها ايضا وأرغموها على الكف عن النزاع ، وبعد أيام قليلة سلمت المدينة لابنها الذى لم يتخذ حيالها اجراء قويا نظرا لأن الرأى القانونى قد ارتأى ذلك مناسبا فيما يبدو . وسمح لها بالاحتفاظ بنابلس وما حولها كبائنة لها ؛ ورغم انها تقاعدت من الحياة السياسية ، فقد احتفظت بحق رعاية الكنيسة . والآن وقد أمسى بلدوين هو الأعلى فى الحكومة العلمانية ، استبدل الكونستابل مناس بصديقه همفرى أمير تبنين(١٤).

---

(١٤) William of Tyre, xvii, 13-14 pp. 779-83. كانت نابلس فى حوزة Philip of Milly الذى كان يؤيد الملكة . وفى ٣١ يولية ١١٦١م وقبل أسابيع قليلة من موت الملكة ، مُنح السيادة على ما وراء الأردن بدلا من نابلس (Rohrich, *Regesta*, p.96). ولم تستشر الملكة مليسيند ، ربما لمرضها

كـان نـور الديـن يراقـب تلـك الاضرابـات فـى الأسـر الحاكمـة الفرنجيـة بغايـة الاستحسان. ولم يجشم نفسه عنـاء شن هجمـات حـادة ضـد المسيحيين خـلال تلك السنوات ؛ إذ كانت أمامه مهمة أكثر الحاحا ، ألا وهى غزو دمشق . ولقد واصل أونر الدمشقى حروبا متقطعة ضد المسيحيين لعدة شهور بعد فشل الحملـة الصليبيـة الثانيـة ، غير أن خشيته من نور الدين دفعته إلى قبول عروض السلام مـن القـدس بكـل سـرور ، وفى مايو ١١٤٩م ، أعدت هدنة لمدة سنتين . وبعد ذلك مباشرة مات أونـر فـى شـهر أغسطس ، وتولى الحكومة الأمير مجير الدين ابن بوري، حفيد تغطكين والذي كان أونر يحكم بإسمه[١٥] . وكان ضعيفا ، مما أتاح لنور الديـن فرصتـه ، علـى أن نـور الديـن لم يتصرف في الحال ، إذ مات أخوه سيف الدين فـى شـهر نوفمبر ، وكـان لزامـا إعـادة ترتيب أراضى الأسرة على الأثر . وورث الأخ الأصغر قطب الديـن الموصـل والأراضـى الواقعة فى العراق ، وقد اعترف بسيادة نور الدين عليه فيما يبدو[١٦]. وفى شهر مـارس من العام التالى زحف نور الدين على دمشق ، لكن الأمطار الغزيرة أبطأت من تقدمه ، وأتاحت لمجير الدين الوقت الكافى لطلب المساعدة من القدس ؛ ولذا انسحب نور الدين بعد أن تلقى وعدا بأن ينقش إسمه على العملة ويذكر فى الصلوات العامـة فـى مسـاجد دمشق بعد اسم الخليفة وسلطان فارس . ومن ثم تأكدت حقوقـه فـى سـيادة عليـا غـير واضحة.

وفى مايو ١١٥١م ظهر نور الدين مرة اخـرى أمـام دمشـق ، وجـاء الفرنـج ثانيـة لإنقاذها . وبعد أن عسكر نور الدين بالقرب من المدينة مدة شهر ، انسحب إلى بعلبك المجاورة التى كان يحكمها قائده أيوب ، أخو شيركوه . وفى تلـك الأثنـاء سـار الفرنـج بقيادة الملك بلدوين إلى دمشق ، وسمح للكثير منهم بزيـارة الأسـواق داخـل الأسـوار ،

الشديد رغم ان ان اختها هوديرنا، كونتيسة طرابلس الأرملة وافقت على الصفقة . ويفترض ان فيليب كان يمتلك اراضيه التى منحتها له مليسند وليس بلدوين الذى لم يتمكن مـن تنفيـذ التبـادل إلا على فراش موتها ، وإلا لحرمت من صديقها وتابعها الرئيسـى . وكـانت زوجـة فيليـب ، إيزابيـلا أو إليزابث ، ابنة اخت Pagan of Oultrejourdain، والوريثة فى نهايـة الأمـر لخليفتـه Maurice الـذى انضم الى فرسان المعبد بعد موتها. ويبدو أن زوج اختها ماريا Walter Brisebarre III of Beirut اصبح لورد ما وراء الأردن التى حصل عليها بدلا من اقطاعيته فى بيروت ، ولكن بعد مـوت زوجتـه وابنتها الرضيعة يبدو أنه فقـد الاقطاعيـة التـى انتقلـت الى ابنـة فيليـب Stephanie. انظر Rey, `Les Seigneurs de Montréal'andk 'Les Seigneurs de Barut' فى اماكن متفرقة.

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p. 295. يقول ان اونور مات بمرض الدوسنتاريا .

(١٦) Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.171-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 295-6. وللاطلاع على مصادر المخطوطات انظر Cahen, *op.cit* p.393 n.12.

بينما قام مجير الدين بزيارة ودية للملك فى المعسكر المسيحى ؛ لكن قوة الحلفاء لم تكن بالقدر الكافى لتعقب نور الدين ، وبدلا من ذلك زحفوا على بصرى التى تمرد أميرها سرخاك على دمشق وقبل المساعدة من نور الدين . ولم تفلح حملة الفرنج ؛ غير انه سرعان ما تصادق سرخاك مع الفرنج ، كما هى عادة صغار امراء المسلمين فى التقلب السريع ، واضطر مجير الدين إلى الاستنجاد بنور الدين لإرغام سرخاك على الطاعة . وعندما اتجه نور الدين شمالا مرة اخرى ، تبعه مجير الدين وقام بزيارته فى حلب حيث وقعت معاهدة صداقة . لكن أمراء دمشق كانوا لا يزالون رافضين التخلى عن التحالف مع الفرنج . وفى ديسمبر ١١٥١م حاولت عصبة من التركمان الإغارة على بانياس ، وربما كان ذلك بأوامر من أيوب ؛ وقامت الحملة بغارة مضادة على أراضى بعلبك دحرها أيوب . وتوخى مجير الدين جانب الحذر واعلن براءته من أية علاقة له بتلك الأعمال الحربية . وشعر بحرج أكبر فى خريف ١١٥٢م عندما جاءه فجأة الأمير الأرتقى تمرتاش صاحب مردين على رأس جيش من التركمان قاده خلال المستنقعات حول حافة الصحراء ، وطلب مساعدته فى شن هجوم مفاجئ على القدس ، وربما سمع بالمشاجرات التى دارت بين بلدوين ومليسيند فظن أن توجيه ضربة قوية قد تفلح . وتصرف نور الدين تصرفا وسطا بأن سمح له بشراء المؤن ، ثم سعى إلى اقناعه بعدم المضى أكثر من ذلك . ثم إن تمرتاش اندفع اندفاعا عنيفا عبر الأردن ، وضرب معسكره أينما اتفق فوق جبل الزيتون ، بينما كان نبلاء الفرنج مجتمعين فى مجلسهم فى نابلس ، للترتيب بلا شك لبائنة مليسيند . غير أن حامية القدس خرجت فى هجوم مفاجئ على التركمان الذين وجدو أن هجومهم المفاجئ قد فشل ، فاضطروا إلى الانسحاب إلى الأردن ، حيث هجم عليهم جيش المملكة وهم على ضفة النهر وفاز بنصر كامل[١٧] .

١١٥٠م : مكائد فى مصر

خلال الأشهر التالية تحول انتباه المسيحيين والمسلمين على السواء إلى مصر . إذ بدت الخلافة الفاطمية هناك على وشك التصدع . فمنذ مقتل الوزير الأفضل ومصر تفتقر إلى حاكم مقتدر . وقد حكم الخليفة الآمر حتى اكتوبر ١١٢٩م إلى أن اغتيل هو الآخر ، وتعاقب على تصريف شؤون الحكم سلسلة من الوزراء الضعاف . وأظهر الحافظ - الذى خلف الآمر - شخصية أقوى وحاول التخلص من اصفاد الوزارة بتعيين

(١٧) William of Tyre, xvii, 20pp. 792-4.

ابنه هو نفسه ، حسن ، فى منصب الوزير . بيد أن حسن لم يكن بالوزير المطيع وقتل بأوامر من أبيه عام ١١٣٥م . وراح الوزير التالى ، فاهرام الأرمينى المولد ، يملأ الادارة بأبناء جلدته ، لا لشئ سوى اثارة رد فعل عام ١١٣٧م عندما جرت فى شوارع القاهرة دماء المسيحيين لعدة ايام . ولم يكن الحافظ أكثر حظا من آخر وزرائه رغم انه تشبث بالعرش إلى أن مات عام ١١٤٩م . وبدأ عهد ابنه الظافر بحرب اهلية صريحة بين أبرز قائديه ، ففاز أمير بن صلاح وأصبح وزيرا ، لكى يُغتال هو نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات[١٨] . وتسببت مكائده وما سال من دماء لا نهاية لها فى ارتفاع الآمال لدى أعداء مصر ؛ فبدأ الملك بلدوين عام ١١٥٠م فى ترميم تحصينات غزة ، وكانت عسقلان ماتزال قلعة فاطمية ، وقد دأبت حاميتها على الإغارة على الأراضى المسيحية. فتقرر أن تكون غزة قاعدة للعمليات ضد عسقلان ؛ مما أثار مشاعر الخطر لدى الوزير ابن صلاح . وكان من بين اللاجئين فى البلاط الفاطمى الأمير أسامة بن منقذ ، وكان من قبل فى خدمة زنكى . فأرسله ابن صلاح إلى نور الدين ، الذى كان معسكرا الآن امام دمشق ، طالبا منه القيام بهجوم مضلل فى الجليل ، وسيقوم الأسطول المصرى فى الوقت نفسه بالإغارة على الموانى الفرنجية . ولم تفلح السفارة، اذ كانت هناك مشاغل اخرى تشغل نور الدين . وتوقف اسامة فى طريق عودته فى عسقلان لعامين للقيام بعمليات عسكرية ضد الفرنج المحليين ، ثم عاد إلى مصر فى الوقت المناسب ليشهد المكائد التى تلت مقتل ابن صلاح على يد عباس ، ابن زوجته ، بتستر من الخليفة[١٩].

١١٥٣م : الإستيلاء على عسقلان

وقد حدثت تلك الفواجع فى أعقاب انتصار الملك بلدوين على أمه مباشرة ، فقرر مهاجمة عسقلان وراح يعد لها عدتها بعناية ، وفى ٢٥ يناير ١١٥٣م ظهر أمام أسوارها جيش المملكة كله بكل آلات الحصار التى استطاعت المملكة تعبئتها . وكان مع الملك السيدان العظيمان لنظامى فرسان المستشفى وفرسان المعبد مع نخبة رجالهما ، وعظام لوردات المملكة العلمانيين ، والبطريق ، ورؤساء أساقفة صور وقيسارية والناصرة،

---

(١٨) Ibn al-Athir, pp. 475-7. See Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 190-5 .

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 40-3; Ibn al-Qalanisi, p. 314. أورد ابن القلانيسى pp. 307-8 الغارة المصرية على الساحل الفرنجى عام ١١٥١م ، كما أورد غارة مصرية انطلقت من عسقلان فى ابريل عام ١١٥٢م (p.312).

وأسقفا بيت لحم وعكا . وكان الصليب الحقيقى بصحبة البطريق . وكانت عسقلان قلعة هائلة ، ممتدة من البحر فى شبه دائرة عظيمة ، وتحصيناتها مرممة ترميما رائعا ؛ وكانت الحكومة المصرية تحتفظ فيها دائما بمخزونات الأسلحة والمؤن . وظل الجيش الفرنجى لعدة شهور عاجزا عن التأثير فى أسوارها رغم قدرته على حصارها حصارا كاملا . وأضافت سفن الحجاج التى وصلت فى وقت عيد الفصح تقريبا قوة إلى صفوف رجال الجيش الفرنجى ، غير أن وصول الاسطور المصرى فى شهر يونية وازن الموقف . ولم يغامر الفاطميون بانقاذ عسقلان برا ، وانما ارسلوا اسطولا من سبعين سفينة محملة بالرجال والسلاح والامدادات من كل لون. ولم يجرؤ جيرارد أمير صيدا - الذى كان قائدا للسفن العشرين وهى كل ما تملكه المملكة - على مهاجمة الاسطول المصرى ، وأبحرت السفن المصرية منتصرة إلى داخل الميناء مما أشعل حماس المدافعين، لكن السفن أبحرت بعيدا بعد أن أفرغت حمولتها ، وتواصل الحصار . وكان أروع آلات الحصار لدى الفرنج برج خشبى هائل تجاوز ارتفاعه قمة الأسوار وراح يقذف الأحجار والحزم المشتعلة فى شوراع المدينة مباشرة . وفى إحدى الليالى ، فى أواخر يولية ، زحف بعض أفراد الحامية خارجين من المدينة وأشعلوا فيه النيران ؛ لكن رياحا هبت ودفعت الكتلة الهائلة المحترقة لترتطم بالسور ، وتسببت الحرارة الشديدة فى تفكك بناء السور ، وفى الصباح كانت هناك فجوة فى السور . وقرر فرسان المعبد - الذين كانوا يشغلون ذلك القطاع - أن يكون لهم وحدهم شرف النصر . فوقف بعض رجالهم يمنعون أى مسيحى آخر من الاقتراب ، واندفع أربعون فارسا إلى داخل المدينة . وظنت الحامية بادئ الأمر أن كل شئ قد ضاع ، لكنها بعدما رأت ضآلة عدد فرسان المعبد ، أحاطوا بهم وقتلوهم . وأصلحت فجوة السور على عجل ، وعلقت جثث فرسان المعبد خارج الأسوار .

وأثناء الهدنة التى عقدت لتمكين كل جانب من دفن موتاه ، عقد الملك مجلسا فى خيمته ، أمام الصليب الحقيقى . وثبطت همة النبلاء العلمانيين مما حدث ، فرغبوا فى التخلى عن الحصار ؛ غير أن البطريق ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى - ريموند (اوف لو بوى) حثا الملك على مواصلة الحصار ، وكان لفصاحتهما فعلها فى إثارة مشاعر البارونات ، وعاد الهجوم بأعنف مما كان .

وفى ١٩ أغسطس ، وبعد قصف المدينة قصفا شرسا ، قررت الحامية التسليم ، بشرط السماح للمواطنين بالرحيل المأمون مع منقولاتهم . وقبل بلدوين الشرط والتزم به باخلاص . وبينما كانت الجموع الغفيرة من المسلمين تتدفق خارج المدينة برا وبحرا

للعودة إلى مصر ، دخل الفرنج المدينة فى حالة من الإثارة واستولوا على الحصن بما فيه من مخزونات الثروة والأسلحة الهائلة . وعهد بسيادة عسقلان إلى أخى الملك أماريك ، كونت يافا . وتحول المسجد الكبير إلى كتدرائية القديس بول ورسم البطريق أحد قساوستها أسقفا وهو ابسالوم . وفيما بعد حصل أسقف بيت لحم ، جيرارد ، على مرسوم من روما باستقلال المقر الأسقفى[٢٠].

كان الاستيلاء على عسقلان آخر الانتصارات العظيمة لملوك القدس ، ورفعت مكانتهم ارتفاعا كبيرا. ذلك أن الفوز أخيرا بالمدينة التى كانت تعرف بأنها عروس سوريا ، يعتبر انجازا مدويا ؛ بيد أنه في واقع الأمر لم يعد بفائدة حقيقة . وعلى الرغم من أن تلك القلعة كانت قاعدة انطلاق غارات صغيرة فى الأراضى الفرنجية ، لم تعد مصر تمثل تهديدا خطيرا للمسيحيين . لكن الفرنج ، وقد باتت عسقلان فى أيديهم ، أصبحوا هدفا لكمائن المغامرات الخطرة التي تأتيهم من النيل . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل نور الدين ، ببصيرة سياسته ، يحجم عن محاولة التدخل فى الحملة ، فيما عدا ما كان يخطط له من حملة على بانياس اشترك معه فى التخطيط لها مجير الدين صاحب دمشق ، والتى لم تسفر عن شئ نظرا للمشاحرات المتبادلة بينهما . و لم يكن بوسعه التأسي لإضعاف مصر ، ولا لتحول انتباه الفرنج نحو الجنوب . أما مجير الدين صاحب دمشق ، فقد تأثر بسهولة أكبر ، وسارع يؤكد لبلدوين صداقته المخلصة ، ووافق على أن يدفع له إتاوة سنوية. وبينما راح لوردات الفرنج يتجولون ويغيرون على الأراضى الدمشقة كما يحلو لهم ، كان سفراء الفرنج يأتون إلى المدينة لجمع المال لمليكهم[٢١].

١١٥٤م : نور الدين يأخذ دمشق

كان مجير الدين ومستشاروه حريصين على سلامتهم الشخصية ، ولذا فضلوا أن تكون دمشق محمية فرنجية من أجل مصيرهم على أن يصبح نور الدين سيدهم . لكن المواطن العادى فى دمشق كان يشعر بأن غطرسة المسيحيين فوق الإحتمال وأن الأسرة

(٢٠) William of Tyre, xvii, 1-5, 27-30, pp.794-802, 804-13: Ibn al-Qalanisi, pp.314-17; Abu Shama, pp.77-8; Ibn al-Athir, p.490.

(٢١) Ibn al-Qalanisi, pp. 315-16 (الذى التزم التحفظ حول النفوذ الفرنجى فى دمشق)؛ Ibn al-Athir, p.496, and *Atabegs*, p.189.

المالكة البورية ما تفتأ تثبت خيانتها للعقيدة ، فانتهز أيوب أمير بعلبك تلك المشاعر ، وأرسل عملاءه يتوغلون فى المدينة يحثون على الازدراء من مجير الدين ، وحدث فى تلك الآونة أن نقص الطعام في دمشق ؛ فاحتجز نور الدين القوافل التى كانت تجلب الحبوب من الشمال، وراح عملاء أيوب ينشرون الشائعات بأن ذلك خطأ مجير الدين لرفضه التعاون مع رفاقه المسلمين . ثم إن نور الدين أقنع مجير الدين بأن الكثير من وجهاء دمشق يتآمرون ضده ، مما أثار الذعر لدى مجير الدين فنكل بهم . وهكذا خسر مجير الدين كلا من الأغنياء والفقراء ، وعندئذ جاء شيركوه ، أخو أيوب ، أمام دمشق كسفير من نور الدين ، مصطحبا قوة مسلحة كما تجرى عليه عادة البعثات الصديقة ، غير أنه كان يضمر الشر . ولم يسمح له مجير الدين بدخول المدينة ولا خرج لمقابلته ؛ فاعتبر نور الدين ذلك التصرف اهانة لسفيره وزحف على دمشق بجيش كبير . وذهبت رسل مجير الدين تناشد فى يأسها مساعدة الفرنج ، لكنها أرسلت بعد فوات الأوان ؛ إذ ضرب نور الدين معسكره أمام أسوار دمشق يوم ١٨ ابريل ١١٥٤م ؛ وبعد أسبوع واحد بالضبط ، حدثت أثناءه بعض المناوشات خارج السور الشرقى ، ساعدت امرأة يهودية بعض رجاله على دخول الحى اليهودى ، وعلى الفور فتحت الجماهير البوابة الشرقية ليدخل سواد الجيش . وفر مجير الدين إلى القلعة ، لكنه استسلم بعد ساعات قليلة فقط ؛ ووهبت له حياته وامارة حمص . على انه بعد اسابيع قليلة حامت الريب حول تآمره مع أصدقاء قدامى فى دمشق ؛ فطرد من حمص . ورفض مدينة باليس التى عرضت عليه فى الفرات ، وتقاعد فى بغداد .

وفى تلك الأثناء استقبل مواطنو دمشق نور الدين بآيات البهجة البالغة . ومنع جنوده من النهب ، وملأ الأسواق من فوره بالمواد الغذائية ، وألغى الضرائب على الفاكهة والخضروات . وعاد نور الدين إلى حلب بعدما ترك أيوب لتصريف شؤون دمشق . وعهد إلى أحد النبلاء المحليين بمدينة بعلبك ، لكنه تمرد فيما بعد على نور الدين وكان لزاما إخضاعه للطاعة(٢٢).

رجحت كفة الميزان رجحانا شديدا باستيلاء نور الدين على دمشق وفاقت استيلاء بلدوين على عسقلان . إذ امتدت أراضيه الآن جنوبا بطول الحدود الشرقية للدويلات الفرنجية ، من الرها إلى ما وراء الأردن ؛ ولم يبق فى سوريا الاسلامية سوى القليل من

---

(٢٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 318-21; Ibn al-Athir, pp. 496-7, and *Atabegs*, pp. 190-2; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 527-8.

الامارات الصغيرة التى احتفظت باستقلالها ، مثل شيزر . وعلى الرغم من أن الممتلكات الفرنجية كانت أوسع فى مساحتها وأغنى فى مواردها ، كان لممتلكات نور الدين ميزة الوحدة فى ظل سيد واحد لا يكاد يضايقه أحد من أتباعه كما كان يعانى الفرنج من اتباعهم المتعجرفين . لقد كان نجمه آخذا فى الصعود . لكنه كان شديد الحذر من مواصلة انتصاراته بسرعة سريعة ؛ ويبدو انه أعاد تأكيد التحالف بين دمشق والقدس وجدد الهدنة فى ١١٥٦م لسنتين أخريين عندما دفع ثمانية آلاف وحدة من عملة الدوقاتية[٢٣] استمرارا للإتاوة التى كان يدفعها مجير الدين . ويعزى صبره أساسا إلى تنافسة مع سلاجقة الأناضول ، إذ كان يرغب فى الاستيلاء على نصيبهم من كونتية الرها السابقة[٢٤].

ومات السلطان مسعود عام ١١٥٥م ؛ وعلى الفور تشاحر ولداه قلج أرسلان الثانى وشاهنشاه على الميراث . وفاز الأول بتأييد الأميرين الدانشمنديين ذوالنون صاحب قيسارية وذوالقرنين صاحب ملطية ؛ وفاز الثانى بتأييد أكبر الدانشمنديين ، ياغى سيان صاحب سيواس . وطلب ياغى سيان مساعدة نور الدين الذى استجاب بالهجوم على الحصة السلجوقية من الرها السابقة ، فضم مدن عينتاب ودولوك ، وربما المصيصة . وهزم قلج أرسلان أخيه . ورغم أنه حاول التحالف مع الأرمن والفرنج ضد نور الدين ، إلا أنه أجبر على قبول خسارته لمقاطعته الفراتية[٢٥].

ولما أمن نور الدين على نفسه فى الشمال ، عاد إلى الجنوب مرة اخرى . وفى شهر فبراير ١١٥٧م نقض بلدوين هدنته مع نور الدين . ذلك أن أعدادا غفيرة من التركمان ، وقد اعتمدوا على الهدنة ، جاءوا بقطعان أغنامهم وخيولهم لترعى فى المراعى الخصيبة بالقرب من الحدود عند بانياس . ولم يستطع الملك بلدوين - المثقل بالديون لحبه للرفاهية لا غير - مقاومة إغراء مهاجمة الرعاة فى غير ارتياب منهم واختطاف قطعانهم . وقد أكسبه هذا الخرق المخزى لالتزاماته ، أنفس الغنائم التى غنمتها فلسطين لعقود كثيرة ؛ لكنها أنهضت نور الدين للثأر . ففى الوقت الذى توقف فيه فى بعلبك لإخضاع أميرها المتمرد ، كان قائده شيركوه قد هزم بعض

---

(٢٣) (المترجم): نسبة إلى اللفظة الإيطالية *Ducato* أى عملة ذهبية أو فضية تحمل صورة دوق Duke، كانت تستعمل فيما سبق فى بعض البلدان الأوروبية.

(٢٤) Ibn al-Qalalnisi, pp. 322, 327.

(٢٥) *Ibid.* pp 324-5; Nicetas Choniates, pp. 152-4; Gregory the Priest, p. 176.

الغارات اللاتينية فى البقاع ؛ واحتث أخوه نصرالدين شأفة جماعة من فرسان المستشفى بالقرب من نابلس . وفى شهر مايو انطلق نور الدين نفسه من دمشق لحصار بانياس ؛ وقهر شيركوه قوة إغاثة صغيرة ثم لحق بسيده أمام اسوار بانياس . وسرعان ما استولى على اسفل المدينة ، لكن القلعة - التى تبعد مسافة ميلين على قمة جبل شديد الانحدار - صمدت بقيادة الكونستابل همفرى (اوف تورون) ، الذى أوشك على الاستسلام لولا أن جاءت الأنباء باقتراب الملك ؛ فأشعل نور الدين النيران فى أسفل المدينة وانسحب تاركا بلدوين يدخل بانياس ويصلح الأسوار . وبينما كان الفرنج فى طريق عودتهم جنوب الأردن ، انقض عليهم نور الدين شمال بحر الجليل مباشرة ونال نصرا مؤزرا. وبشق الأنفس هرب الملك إلى صفد ، وتمكن المسلمون من العودة لمحاصرة بانياس. على انه بعد أيام قليلة جاءت الأنباء من الشمال بتوقع هجوم من قلج أرسلان، الأمر الذى دفع نور الدين إلى التخلى عن محاولة الحصار وأسرع عائدا إلى حلب(٢٦).

١١٥٦م : زلازل فى سوريا

وكانت هناك أسباب اخرى تدعو إلى الرغبة فى تجنب حرب صريحة فى تلك الآونة .ففى أوائل خريف عام ١١٥٦م ، حدثت فى سائر أنحاء سوريا سلسة من الزلازل . ولم تحدث فى دمشق أضرار جسيمة ، وانما جاءت أنباء الدمار من حلب وحماه ، بينما انهار موقع محصن فى أفاميا . وفى نوفمبر وديسمبر حدثت هزات اخرى عانت منها مدينة شيزر . وفى الربيع التالى حدثت هزات اخرى كان لها تأثيرها على قبرص والمدن الساحلية الواقعة شمالى طرابلس . وفى أغسطس ١١٥٧م عانى وادى نهر العاصى من هزات أكثر جسامة . وسقط ضحايا عديدون فى حمص وحلب . وفى حماة كان الدمار من البشاعة بحيث أطلق المؤرخون على الزلزال زلزال حماة . وفى شيزر كانت عائلة المنقذين قد تجمعت لتحتفل بختان أمير صغير عندما انقضت أسوار القلعة الضخمة على أفرادها ؛ ولم يتبق على قيد الحياة من كل الأسرة الحاكمة سوى أميرة شيزر التى أُخرجت من بين الأنقاض ، وأسامة الذى كان بعيدا فى مهمته الدبلوماسية. وكان المسلمون والمسيحيون سواء بسواء منهمكين تماما في إصلاح القلاع المحطمة ولم يفكروا فى حملات هجومية جادة لبعض الوقت(٢٧).

---

(٢٦) William of Tyre, xviii, ii-i5, pp. 834-45; Ibn al-Qalanisi, pp. 325-6, 330-7 .

(٢٧) Robert of Torignz, i, p. 309; Michael the Syrian, iii, pp. 315-16, Armenian version,

وفى اكتوبر ١١٥٧م ، وبعد أن عاد نور الدين من بانياس ، سقط فجأة مريضا فى حالة مرئسة فى سارمين . وظنا منه أن قد حان أجله ، أصر على أن يُنقل على محفة إلى حلب ؛ حيث أوصى بوصيته التى تقضى بأن يخلفه أخوه نصر الدين فى دويلاته ، على أن يحكم شيركوه دمشق تحت سيادته . على انه عندما دخل نصر الدين حلب للاستعداد لتسلم الميراث ، لقى معارضة من حاكمها ، ابن الداية ، وحدثت اضطرابات فى الشوارع لم تهدأ إلى أن استدعى وجهاء حلب إلى فراش أميرهم ، فوجدوه ما يزال على قيد الحياة، وقد مرت الأزمة المرضية الآن وبدأ يستعيد صحته ببطء . لكنه بدا وقد فقد شيئا من مبادرته وطاقتـه ؛ فلم يعد المحارب الذى لا يقهر . لقد كانت هناك قـوى اخرى آخذة فى الظهور فى سوريا تتهيأ للسيطرة على مسرح الأحداث(٢٨).

-p.356; *Chron. Anon. Syr.*(Syriac edition), p. 302; Ibn al-Qalanisi, pp. 338-41; Ibn al-Athir, p. 503; Kemal ad-Din, ed.Blochet, p. 529.. واستنادا الى ابن القلانيسى ، خشى نورالدين أن يهاجم الفرنج حصونه العارية من الحماية ولذا ابقى على تجمع الجيش لمنع أية حركة كهذه . ويرد عند أبى شامة طبعة القاهرة، المجلد الأول ص ١١٢، المرثاة الشعرية لأسامة على دمار عائلته ، التى كان قد تشاجر معها.

(٢٨) William of Tyre, xviii, 17 pp. 847-8; Ibn al-Qalanisi, p. 341; Kemal ad-Din, ed.Blochet, pp. 531-i; Abu Shama, p. 110 (in R.H.C.Or.).

الفصل الثالث:

عـودة الإمبـراطور

عودة الامبراطور

"فَيرجعُ مَلكُ الشِمَال ويُقيمُ جُمهوراً أكثرَ من الأوّل ويأتى بعدَ
حينٍ بعد سنينَ بجيشٍ عظيمٍ وثروةٍ جَزيلةٍ"
(دانيال ١١ : ١٣)

فى عام ١١٥٣م ، وبينما كان نور الدين يركز انتباهه على دمشق ، وأثناء أن كان الملك بلدوين وجيشه أمام عسقلان ، قررت أميرة انطاكية أن تختط مصيرها بنفسها . ذلك أنه كان هناك فارس من بين الفرسان الذين تبعوا لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية يدعى رينالد ، هو الابن الأصغر المفلس لجيوفرى (كونت جين ولورد شاتيلون سير لوان) . وكان المستقبل مظلما أمام رينالد (اوف شاتيلون) فى بلده، ولذا لم ينضم إلى الصليبيين عندما عادوا إلى بلادهم ، وانما مكث فى فلسطين حيث التحق بخدمة الملك بلدوين الصغير ، وصحبه إلى انطاكية عام ١١٥١م ؛ وسرعان ما التقطته عينا الأميرة المترملة . ويبدو انه بقى فى امارتها، بعدما تملك اقطاعية صغيرة طبعا ؛ وربما كان وجوده هو الذى دفعها إلى رفض الأزواج المرشحين من الملك والامبراطور . وفى ربيع عام ١١٥٣ قررت أن تتزوجه . وقبل أن تعلن عن نيتها التمست الاذن من الملك، إذ أنه الوصى على دويلتها والسيد الأعلى لعريسها ، وسارع

رينالد إلى عسقلان حيث معسكر الملك وسلمه رسالة كونستانس . ولم يعترض الملك لمعرفته أن رينالد جندى شجاع ، وقبل كل شئ وجد فيه الخلاص من مسؤوليته عن انطاكية ؛ وما أن عاد رينالد إلى انطاكية حتى انعقد الزواج ونُصّب رينالد أميرا. على انه لم يكن بالزوج الذى يحظى بالقبول إذ ساد الاعتقاد ، ليس فقط لدى عظام الأسر فى أنطاكية وانما ايضا لدى رعايا الأميرة الأكثر تواضعا ، بأنها قد حطت من قدرها بتسليم نفسها لهذا المغرور بحداثة النعمة[١].

وكان من اللائق والصواب أن تطلب كونستانس الإذن من الامبراطور مانويل كذلك ؛ إذ أن القسطنطينية استقبلت أنباء الزواج استقبالا سيئا ، على أن مانويل كان مشغولا آنذاك فى حملة ضد السلاجقة ؛ ولم يكن بوسعه أن يعرب عن حنقه بصورة عملية ؛ وإدراكا منه لحقوقه الأنطاكية أرسل يعرض الإعتراف بالأمير الجديد إذ حارب فرنج انطاكية إلى جانبه ضد ثوروس الأرمينى . وامتثل رينالد طواعية؛ فالتأييد الامبراطورى سيقوى من مركزه شخصيا ؛ فضلا عن أن الأرمن توغلوا فى مقاطعة الإسكندرونة التى يزعم الفرنج انها جزء من الإمارة الأنطاكية ؛ وتصدى لهم رينالد في معركة قصيرة بالقرب من الإسكندرونة ودحرهم إلى كيليكيا ، وأهدى البلد الذى استعاده إلى نظام فرسان المعبد الذى راح يعمل على حماية مداخلها بإعادة بناء قلعتى قسطون وبجراس اللتين تتحكمان فى البوابات السورية . وكان رينالد قد قرر تنسيق تعاونه مع نظام فرسان المعبد ، ومن ثم بدأ معه علاقة صداقة قدر لها أن تكون مهلكة للقدس[٢].

وبعد أن ضمن رينالد الأراضى التى أرادها، طلب الإعانة المالية من الامبراطور ، الذى رفض مشيرا إلى أن المهمة الرئيسية لم تُنجز بعد، فما كان من ريموند الا أن غير سياسته. وبتشجيع من فرسان المعبد، توصل إلى سلام مع ثوروس واخوته؛ وفى الوقت الذى كان الأرمن يهاجمون فيه القلاع البيزنطية المتبقية فى كيليكيا، قرر تسيير حملة ضد جزيرة قبرص الغنية. لكنه كان يفتقر إلى المال اللازم لهذه الحملة. وكان بطريق

---

(١) William of Tyre, XVII, 26 p. 802، يقول إنها تزوجت سرا قبل حصولها على إذن الملك . ويطلق عليه Cinnamus,p.178 "واحد اسمه رينالد"؛ Michael the Syrian, Armenian version؛ ويرد أصل منشأه فى (Schlumberger (*Renauld de Châtillon*,p.3. وقد تم الزواج قبل شهر مايو، عندم أكد رينالد امتيازات البنادقة فى انطاكية (Rohricht, *Regesta*, p.72)

(٢) William of Tyre, XVIII, 10 pp. 834-5; Michaael the Syrian, III, p. 314 and Armenian version, p. 349 ويورد ميخائيل السورى فى تاريخه ما يؤيد ثوروس ؛ Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 283

انطاكية، إيمرى، على جانب كبير من الثراء، وكان قد جاهر بعدم موافقته على زواج كونستانس، فعقد رينالد العزم على معاقبته على النحو الذى يعود عليه بالنفع. وكان إيمرى قد نال احترام الأنطاكيين بما كان له من شجاعة ونشاط فى الأيام السوداء التى أعقبت موت الأمير ريموند؛ لكن البطريق إيمرى كان أميًا منحلّ الخلق مما نال من سمعته وجعلته معرضا للهجوم. وطلب منه رينالد المال، ولمّا رفض فقد رينالد أعصابه وألقى به في غيابة السجن، حيث ضُرب الأسقف ضربا مبرحا على رأسه، ثم لُطّخت جراحات رأسه بالعسل وترك على سطح القلعة مقيدا بالسلاسل تحت الشمس المحرقة طوال يوم كامل من ايام الصيف ليكون ضحية لكافة الحشرات في الجوار. وأثمر هذا العقاب؛ إذ أسرع البطريق البائس إلى الدفع بدلا من أن يقضي يوما آخر فى العذاب. وفى تلك الأثناء وصلت القصة إلى القدس، فارتاع الملك بلدوين وأرسل فى الحال مستشاره رالف وأسقف عكا للإصرار على اطلاق سراح البطريق فى الحال. وأطلق رينالد سراحه بعد أن حصل على المال، وعاد إيمرى بصحبة منقذيه إلى القدس حيث استقبله الملك والملكة مليسيند وأخوه البطريق بأسمى آيات التشريف؛ ورفض العودة إلى انطاكية(٣).

١١٥٦م : رينالد يُغِير على قبرص

صدمت تجربة البطريق الدوائر الفرنجية المسؤولة ، لكن رينالد لم يخجل ، وبامكانه الآن مهاجمة قبرص . وفى ربيع عام ١١٥٦م ، هبط هو وثوروس على الجزيرة فجأة . وكانت قبرص قد تجنبت الحروب والغزوات التى أشاعت الاضطراب فى القارة الآسيوية خلال القرن المنصرم ، وكانت راضية ومزدهرة فى ظل الحكام البيزنطيين . وقبل نصف قرن ، كانت طرود الطعام القبرصية ذات عون كبير لفرنج الحملة الصليبية الأولى عندما كان أفرادها يتضورون جوعا أمام انطاكية ، وكانت العلاقات بين الفرنج وحكومة الجزيرة تنعم بدفء الود ، باستثناء بعض الخلافات الادارية المؤقتة . وما أن سمع الملك بلدوين بخطة رينالد حتى أرسل رسالة عاجلة لتحذير الجزيرة ، لكنها وصلت بعد فوات الأوان ؛ وتعذر دفع التعزيزات لتصل فى الوقت المناسب . وكان حاكم الجزيرة هو جون كومنينوس ، ابن أخى الامبراطور، وكان معه فى الجزيرة الجندى البارز ميخائيل براناس. وبوصول أنباء الهبوط الفرنجى على الجزيرة ، اندفع براناس بميليشيات الجزيرة

(٣) William of Tyre, XVIII, I, pp. 816-17; Cinnamus, p. 181.

إلى الساحل وانتزع نصرا مبدئيا صغيرا ؛ غير أن الغزاة كانوا بأعداد غفيرة ، وسرعان ما تغلبوا على جنوده واسروه هو نفسه ؛ وعندما خف جون كومنينوس لمساعدته أسير هو الآخر . ثم أن الفرنج والأرمن المنتصرين انساحوا فى أرجاء الجزيرة يسلبون وينهبون كل ما تقع عليه أعينهم من المبانى التى تستوي فيها الكنائس والأديرة والحوانيت والمنازل الخاصة . وأحرقت الجثث ، وجمعت قطعان الماشية مع السكان كلهم وسيقوا إلى الساحل . واغتصبت النساء، أما الأطفال والطاعنون فى السن غير القادرين على الحركة، فقد قطعت السيوف حناجرهم . وكان نطاق القتل والسلب من السعة والبشاعة بحيث يثير الحسد لدى المغول والهون[٤]. وتواصل الكابوس نحوا من ثلاثة اسابيع ، وبانتشار شائعة بأن الأسطول الامبراطورى فى الأفق، أصدر رينالد أوامره بالعودة إلى السفن التي كانت مكتظة بالاسلاب . فبيعت القطعان والأسراب لأصحابها بأسعار مرتفعة . وأجبر كل قبرصى على أن يفتدى نفسه، ولم يتبق فى الجزيرة من المال يدفع للفدية. ولذا أخذ الغزاة معهم إلى انطاكية الحاكم وبراناس ، بالإضافة إلى كبار رجال الكنيسة وأبرز الملاك وأهم التجار بعلائلاتهم ، ليمكثوا فى السجن إلى أن تصل اموال الفدية ، فيما عدا البعض ممن مُزقت أوصالهم وارسلوا فى هيئة ساخرة إلى القسطنطينية[٥]. ولم تبرأ جزيرة قبرص قط من الخراب الذى احدثه الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن . واكتمل البؤس بزلازل شديدة ضربت قبرص ضربات قاسية عام ١١٥٧م؛ وفى عام ١١٥٨م أغار الأسطول المصرى - الذى لم يغامر قط بدخول المياه القبرصية - ببعض الغارات العارية من الحماية ، والأرجح أن ذلك قد حدث بدون إذن رسمى من حكومة الخليفة ؛ إذ كان من بين المأسورين أخو حاكم الجزيرة الذى استقبل فى القاهرة استقبالا مشرفا وأعيد فى الحال إلى القسطنطينية[٦].

١١٥٧م : الفرنج يهاجمون شيزر

فى عام ١١٥٧م ، عاد كونت فلاندرز - تيرى - إلى فلسطين مع فصيلة من

(٤) (المترجم) الهون Huns : شعب مغولى اجتاح أجزاء كبيرة من اوروبا الشرقية والوسطى تحت زعامة أتيلا عام ٤٥٠م تقريبا.

(٥) William of Tyre, xviii, 10, pp. 834-5; Cinnamus, pp. 78-9; Michael the Syrian, iii, p.315, and Armenian version, p.350; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 284 ؛ ويقول Gregory the Priest, p.187 إن رينالد قطع أنوف القساوسة اليونانيين الذين أسرهم

(٦) Ibn Moyessar, p. 473.

الفرسان ، وفى الخريف قرر بلدوين انتهاز بحيثه ومرض نور الدين لإعادة ترسيخ الأوضاع الفرنجية فى وسط وادى العاصى ، وشجع رينالد على الانضمام إلى الجيش الملكى فى الهجوم على شيزر . وكانت قلعتها، بعد زلزال أغسطس المدمر ، قد سقطت فى أيدى عصبة من المغامرين الحشاشين . ووصل الجيش إلى هناك فى نهاية العام ؛ وفى الحال استولوا على اسفل المدينة ، وبدا سقوط القلعة المحطمة وشيكا لولا أن ثارت مشاجرة بين المحاصرين ؛ إذ وعد بلدوين بأن يهب المدينة لثيرى لتكون نواة لإمارة يحتفظ بها تحت سيادة التاج ؛ غير أن رينالد ادعى بأن المنقذين من رعايا انطاكية ، ومن ثم طلب من ثيرى أن يقدم له فروض الولاء نظير حصوله عليها . وكان الكونت يرى أنه من المحال التفكير فى تقديم فروض الولاء لمثل هذا الرجل المجهول الأصل. ولم يستطع بلدوين تسوية المشكلة إلا بتخليه عن الأراضى المتنازع عليها ، وتحرك الجيش مبتعدا باتجاه الشمال للإستيلاء على أطلال أفاميا ثم محاصرة حارم. وهذه الأراضى أراض أنطاكية بلا شك ، لكن بلدوين وثيرى كانا على استعداد لمساعدة رينالد على استعادتها نظرا لأهميتها الاستراتيجية . وبعد قصف شديد بالمنجنيقات استسلمت فى فبراير ١١٥٨م ، وبعد وقت قليل عهد بها إلى أحد فرسان ثيرى هو رينالد (اوف سانت فاليرى) الذى احتفظ بها تحت سيادة أمير انطاكية[٧].

لم يرض الملك عن تصرف امير انطاكية وقرر إعادة توجيه سياسته . وكان مدركا لعلاقة رينالد السيئة مع الامبراطور الذى لا يُحتمل أن يغفر الغارة على قبرص ، كما كان مدركا لحقيقة أن الجيش البيزنطى لا يزال أقوى الجيوش فى العالم المسيحى . وفى صيف عام ١١٥٧م أرسل سفارة إلى القسطنطينية ملتمسا اختيار عروس من العائلة الامبراطورية . وكان على رأس السفارة أشار ، رئيس اساقفة الناصرة ، الذى مات أثناء الرحلة ، وهمفرى الثانى أمير تبنين . واستقبل الامبراطور مانويل السفارة استقبالا حسنا ؛ وبعد شئ من المفاوضات عرض ابنة اخته ثيودورا مع بائنة مقدارها مائة ألف قطعة هيبربرى ذهبية بالاضافة إلى عشرة آلاف أخرى لمصروفات الزفاف ، وهدايا تعادل ثلاثين الفا اخرى . ولقاء ذلك يتعين منحها عكا والأراضي التابعة لها كبائنة تحتفظ بها فى حالة موت زوجها دون ذرية . وبعودة السفارة وتأكيد الملك قبوله

---

(٧) William of Tyre, xviii, 17-19, pp. 847-53; Robert of Torigny, i, p.316; Michael the Syrian, Armenian version, pp.351-3; Ibn al-Qalanisi, pp.342, 344؛ وكان رينالد (اوف فاليرى) لا يزال أحد بارونات القدس فى ١١٦٠م (Rohricht, *Regesta*, p.94) لكنه عاد الى الغرب بعد ذلك مباشرة . والمؤرخ الوحيد الذى يخبرنا بأنه مُنح حران هو Robert of Torigny.

الشروط ، أبحرت الأميرة الصغيرة من القسطنطينية ووصلت عكا فى سبتمبر ١١٥٨م ، وارتحلت فى أبهة إلى القدس ، حيث تزوجت الملك بمراسم زواج قام بها البطريق ايمرى الأنطاكى ، إذ لم يكن البابا قد ثبت بعد بطريق القدس المنتخب . وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وانما كانت فارعة القامة وجميلة . وسُرّ بها بلدوين ، وسار سيرة الزوج المخلص بعد أن تخلى عن أيام عزوبته المنحلة(٨).

ويبدو أن مانويل وعد اثناء المفاوضات بالانضمام فى تحالف ضد نور الدين ، وان بلدوين وافق على ضرورة اخضاع ريتالد . وفى تلك الأثناء أغار الملك على الحدود الدمشقية . وفى مارس ١١٥٨م قام هو وكونت فلاندرز بزحف مفاجئ على دمشق نفسها يوم أول ابريل محاصرا قلعة داريا وضواحيها . بيد أن نور الدين ، بعد أن تماثل للشفاء ، كان فى طريقه بالفعل جنوبا ليضع نهاية للمكائد التى أينعت هناك اثناء مرضه ، فوصل دمشق فى السابع من ابريل مما أثار مشاعر البهجة البالغة لدى سكانها، ورأى بلدوين الحكمة فى أن ينسحب . فقام نور الدين بهجوم مضاد ؛ وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضى صيدا ، كان هو نفسه يهاجم قلعة الحبيس حلدك التى بناها الفرنج كمخفر امامى جنوب شرق بحر الجليل على ضفاف نهر اليرموك . وكان الهجوم شديدا على الحامية بحيث سارعت إلى الموافقة على التسليم فى حالة عدم وصول العون فى غضون عشرة ايام ؛ ولذا خف بلدوين مع الكونت ثيرى لنجدتها . غير انه بدلا من أن يذهب اليها مباشرة ، سلك الطريق الواقع شمال البحيرة والمؤدى إلى دمشق. وأفلحت الحيلة ؛ إذ خشى نور الدين على خطوط مواصلاته فرفع الحصار . وتقابل الجيشان عند قرة البُطيحة الواقعة شرقى وادى الأردن الأعلى . وما أن لمح الفرنج المسلمين حتى هاجموا وهم يظنونهم مجرد فرقة كشافة . لكنهم سمعوا صهيل جواد كان الملك قد اعطاه لأحد الشيوخ المعروف انه مع نور الدين - وقد تعرف الجواد على رائحة أصدقائه القدامى بين خيول الفرنج - فلهم ذلك الصهيل على أن القوة المسلمة كلها قد وصلت. ووحد نور الدين، الذى لم يكن بكامل عافيته، من حثه على مغادرة ساحة القتال، وبرحيله استدار الجيش كله منسحبا بشئ من عدم النظام. وكان النصر الفرنجى كافيا لاقناع نور الدين طلب الهدنة. وللسنوات القليلة التالية لم تكن هناك أعمال حربية جادة على الحدود السورية الفلسطينية؛ وبذا تمكن كل من بلدوين ونور

(٨) William of Tyre, XVIII, 16, 22, pp. 846, 857-8; Gregory the Priest, pp. 186-9; Matthew of Edessa, cclxxiii, pp. 352-8.

الدين من تحويل انتباهه إلى الشمال(٩).

١١٥٨م : الامبراطور مانويل يدخل كيليكيا

انطلق الامبراطور من القسطنطينية فى خريف عام ١١٥٨م على رأس جيش عظيم ميمما وجهه شطر كيليكيا . وبينما كانت القوة الرئيسية تتبعه بطيئة بطول الطريق الساحلى الوعر شرقا أسرع هو إلى الأمام مع قوة تتألف من مجرد خمسمائة فارس . وكانت استعداداته من السرية وحركته من السرعة بحيث لم يعلم أحد فى كيليكيا بمجيئه . وكان الأمير الأرمينى ثوروس فى طرسوس لا يرتاب فى شئ ، إلى أن حدث فجأه فى يوم ما فى اواخر اكتوبر أن اندفع إلى بلاطه حاج لاتينى كان على سابق معرفة به ، يخبره أنه شاهد جنود الامبراطورية على مسيرة مجرد يوم واحد . فجمع ثوروس عائلته وأصدقاءه المقربين وأمواله وهرب من فوره إلى الجبال . وفى اليوم التالى دخل مانويل سهل كيليكيا . وفى الوقت الذى احتل فيه صهره ثيودور فاتاسيس طرسوس ، واصل هو تقدمه بسرعة ؛ وفى غضون اسبوعين كانت كل مدن كيليكيا حتى عين زربه فى قبضته . على أن ثوروس نفسه كان مايزال يراوغه ؛ فبينما راحت الفصائل تجوب الوديان بحثا عنه ، كان هو يهرب من قمة تل إلى قمة اخرى إلى أن وجد الملاذ أخيرا على قمة صخرة شاهقة يطلق عليها داجيج ، بالقرب من منابع نهر البردان التى لم يسكن أطلالها أحد لأجيال خلت . ولم يعرف أحد مكان اختبائه سوى خادميه اللذين يثق فيهما ثقة عمياء(١٠).

بات رينالد هلوعا لوصول الامبراطور . وكان يدرك تمام الإدراك أن لا قبل له بمقاومة جيشه الامبراطورى العرمرم ؛ وقد انقذه ادراكه هذا . إذ سارع بالخضوع من فوره وهو يعلم أنه بذلك يستطيع الحصول على شروط أفضل للغاية منها فى حالة هزيمته فى معركة . وأكد له جيرار - أسقف اللاذقية - وهو أكثر مستشاريه فطنة وفراهة ، أن دوافع الامبراطور هى الكبرياء وليس الغزو . فسارع رينالد بارسال من يعرض تسليم قلعة انطاكية لحامية بيزنطية ، وعندما جاءه مبعوثه ليخبره بأن ذلك لا يكفى ، ارتدى هو نفسه رداء التائب وأسرع إلى معسكر الامبراطور خارج اسوار

---

(٩) William of Tyre, XVIII, 21 pp. 855-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 346-8; Abu Shama, pp. 97-100؛ (ويقول أبو شامة إن بلدوين طلب المدنة، وربما اعتمد على جملة مبهمة عند ابن القلانيسى).

(١٠) Cinnamus, pp. 179-81; Matthew of Edessa, *loc. cit*; Gregory the Priest.

المصيصة . وكان المبعوثون من كافة الأمراء فى الجوار يتوافدون لتحية الامبراطور ، من نور الدين ، ومن الدانشمند ، ومن ملك جورجيا ، وحتى من الخليفة . وأمر مانويل بترك رينالد ينتظر قليلا . ويبدو أن الامبراطور قد تسلم فى تلك اللحظة رسالة من البطريق المنفى إيمرى يقترح فيها إحضار رينالد امامه مكبلا بالسلاسل وخلعه . غير أن الامبراطور رأى الأفضل له أن يحتفظ به عميلا وضيعا . وفى جلسة وقورة للامبراطور على عرشه فى خيمته العظيمة ، وقد تحلقت حوله جماعات حاشيته والسفراء الأجانب ، واصطفت فصائل بديعة من الجيش على المداخل ، كان خضوع رينالد : فسار هو وأتباعه حفاة الأقدام عاري الرؤوس خلال المدينة ثم خارجها إلى المعسكر ، حيث سجد فى التراب أمام منصة الامبراطور ، بينما رفع أتباعه أيديهم فى تضرع . ومرت دقائق كثيرة قبل أن يتنازل مانويل ويلاحظ وجوده ، ثم مُنح المغفرة بشروط ثلاثة : أن يسلم القلعة إلى حامية امبراطورية فى اى وقت يُطلب منه ذلك ؛ وعليه أن يقدم كتيبة إلى الجيش الامبراطورى ؛ وأن يقبل بطريقا يونانيا لأنطاكية بدلا من البطريق اللاتينى . وأقسم رينالد على أن يلتزم بتلك الشروط ، ثم صرفه الامبراطور وأعيد إلى انطاكية .

لدى وصول أنباء اقتراب مانويل سارع الملك بلدوين ومعه اخوه أمالريك والبطريق إيمرى شمالا فوصلوا انطاكية فى أعقاب عودة رينالد مباشرة . ولما علم بلدوين بالعفو عن رينالد شعر بشيء من خيبة الأمل وكتب لمانويل فى الحال ملتمسا الاجتماع به . وتردد مانويل لأنه ظن على مايبدو أن بلدوين كان يرغب فى أن يستأثر بالامارة ؛ وربما كان ذلك جزءا من مقترحات إيمرى . ولما أصر بلدوين وافق الامبراطور . وركب بلدوين خارجا من انطاكية يودعه مواطنوها متوسلين اليه أن يصالحهم مع الامبراطور . ونجحت المقابلة نجاحا بالغا ؛ إذ افتتن مانويل بالملك الصغير وأبقاه ضيفا لديه لعشرة ايام. وبينما كانا يناقشان خطط التحالف، نجح بلدوين فى الحصول على عفو عن توروس الذى قام بنفس الخطوات التى قام بها رينالد وسُمح له بالاحتفاظ بأراضيه فى الجبال. وربما يُعزى إلى بلدوين عدم اصرار الامبراطور على التنصيب الفورى لبطريق يونانى، واعيد تنصيب إيمرى رسميا فى عرشه البطريقى وأجريت مصالحة رسمية بينه وبين رينالد. وعاد بلدوين محملا بالهدايا إلى انطاكية وقد خلف وراءه أخاه مع الامبراطور .

١١٥٩م : الامبراطور فى انطاكية

وفى أحد الفصح ١٢ ابريل ١١٥٩م جاء مانويل إلى أنطاكية ودخل المدينة فى موكب وقور . وحاولت السلطات اللاتينية أن تبقيه خارج المدينة قائلة إن هناك مؤامرة لاغتياله هناك ؛ لكنه لم يعبأ بالتخويف ، ولم يطلب سوى بعض الرهائن من المواطنين ، وأن يُجرد الأمراء اللاتينيون المشتركون فى الموكب الزياحى من سلاحهم ، وارتدى هو نفسه درعا تحت أرديته ، ولم تحدث حادثة سيئة . وبينما كانت الرايات الامبراطورية ترفرف اعلى القلعة ، كانت حاشيته تعبر الجسر المحصّن داخلة المدينة . وأتى أولا الحرس الامبراطورى الاسكندنافى الفخيم ؛ ثم الامبراطور نفسه على صهوة جواد متشحا برداء أرجوانى وعلى رأسه تاج مرصع بدرر اللؤلؤ ، ورينالد على قدميه ممسكا بلجام جواده، ومشى لوردات فرنج آخرون بجوار الجواد . وتبعه بلدوين على جواده بلا تاج وبلا سلاح . ثم جاء خلفهما كبار مسؤولى الامبراطورية . وفى داخل البوابات مباشرة كان البطريق ايمرى منتظرا ، بكامل ارديته البابوية ومعه رجال كنيسته كلهم ليقود الموكب الزياحى خلال شوارع المدينة، التى فُرشت بالبسط والزهور، إلى كتدرائية القديس بطرس أولا ثم إلى القصر .

ومكث مانويل فى أنطاكية ثمانية ايام قضاها فى حفول من بعدها حفول . ورغم انه كان هو ذاته ذا كبرياء وجلال فى المناسبات الجديرة بالوقار ، إلا أنه أشاع من جاذبيته وتودده ما أسر الجموع ، وزادت البهجة فى مجملها بما كان يغدقه من سخاء هداياه على النبلاء والعوام على السواء . وفى لفته إلى أبناء الغرب نظّم بعض العاب الفروسية وأشرك رفاقه معه فى المثاقفة ؛ وكان فارسا بارعا وأدى دوره بمظاهر الشرف؛ غير أن رفاقه - وكانت الفروسية عندهم وسيلة لا غاية - تركوا انطباعا أقل بالمقارنة بفرسان الغرب . وقويت عرى الود بين الامبراطور وبين ابن اخته بالزواج - الملك . وعندما كُسرت ذراع بلدوين أثناء الصيد ، أصر مانويل على أن يعالجه بنفسه، تماما كما كان يقوم بدور المستشار الطبى لكونراد الألمانى(١١).

---

(١١) William of Tyre, XVIII, 23-5 pp. 859-64; Cinnamus, pp. 181-90; Nicetas Choniated, pp. 141-5; Prodromus, in R.H.C.G. II, pp. , 752 , 766 Matthew of Edessa, cclxxiv, pp. 354-5; Gregory the Priest, pp. 188-9; Vaharam, *Rhymed Chronicle*, p. 505; Ibn al-Qalanisi, pp. 349, 353. وانظر أيضا La Monte 'To what extent was the Bzyantine Empire the suyerain of the Crusading States? in *Byzantion*, vol. VII

١١٥٩م : الهدنة بين مانويل ونور الدين

كان الأسبوع الرائع علامه على انتصار كبرياء الامبراطور ؛ وكان حيرار أسقف اللاذقية على حق عندما قال إن ما يريده الامبرطور هو الكبرياء وليس الغزو . وعندما انتهت الاحتفالات كلها انضم إلى حيشه مرة اخرى خارج الأسوار وانطلق شرقا إلى الحدود الاسلامية ؛ حيث قابله فى الحال تقريبا سفراء نور الدين ومعهم كامل السلطة للتفاوض على هدنة ؛ فاستقبل السفراء وبدأت المناقشات مما أشعل حنق اللاتين الذين كانوا يتوقعونه أن يزحف على حلب . وباقتراح نور الدين اطلاق سراح جميع أسراه من المسيحيين البالغ عددهم ستة آلاف أسير فى سجونه ، وتسيير حملة ضد الأتراك السلاجقة ، وافق مانويل على الغاء حملته .

وربما لم يكن فى نية مانويل الاستمرار في حملته قط، وبرغم ما صدر عن الصليبيين والمدافعين عنهم من المؤرخين العصريين من صرخات توصم الامبراطور بالخيانة ، فمن العسير علينا أن نتصور ما كان يستطيع الامبراطور أن يفعله غير ذلك . لقد كانت سوريا بالنسبة للصليبيين تمثل الأهمية كلها ، لكنها كانت بالنسبة لمانويل بمجرد واحدة من المناطق الحدودية الكثيرة ، وليست بالمنطقة الحيوية لإمبراطوريته . ولم يكن بوسعه البقاء شهورا طويلة فى نهاية خط مواصلات طويل ومعرض للمخاطر ، ولا أن يغامر بخسائر حسيمة لجيشه - وإن كان عظيما - ثم يتنصل من الملامة . وفضلا عن ذلك ، لم يكن راغبا فى كسر قوة نور الدين ، إذ كان يدرك من التجربة المريرة أن الفرنج لم يرحبوا به إلا عندما خشوا سطوته ، ومن ثم يكون من الحمق أن يقضى على مصدر خوفهم الرئيسى؛ إلى حانب أن التحالف مع نور الدين يعد بمثابة أصل من الأصول النفيسة فى حروبه مع أعداء أخطر علي الامبراطورية بكثير ، الا وهم أتراك الأناضول . غير أنه يقدم المساعدة ، كما تظهر الأحداث اللاحقة ، ليمنع نور الدين من غزو مصر؛ إذ أن ذلك يقلب الموازين بصورة قاتلة . وربما تسرع فى الهدنة ، إذ كان بوسعه الحصول على شروط أفضل ؛ لولا انه تلقى أنباء تثير القلق بوجود مؤامرة فى القسطنطينية واضطرابات على حدوده الأوروبية . وعلى أية حال ، لم يكن بوسعه البقاء أكثر من ذلك فى سوريا[١٢].

---

(١٢) William of Tyre, XVIII,25, p.864 (لا يوحه لوما الى الامبراطور بأى حال) ؛ Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*,p. 229; Cinnamus, pp.188-90; Gregory the Priest, pp.190-1; Matthew of Edessa, cclxxv, pp. 355-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 353-5.

ومع ذلك ، كانت هدنته مع نور الدين خطأ نفسيا . إذ كان الفرنج آنذاك على استعداد لقبوله سيدا لهم ؛ لكن الحكيم من ذوى البصيرة يراه وقد أظهر نفسه مهتما بمصير الامبراطورية بصورة اكثر من اهتمامه بمصيرهم . كما أنهم لم يجدوا كثير تعزية فى الإفراج عن الأسرى المسيحيين الذين يضمون بعض أهم المحاربين المحليين ، ومن بينهم السيد الأعظم لفرسان المعبد برتراند (اوف بلانسفورت) ؛ إلا أن أغلبهم كانوا من الألمان الذين وقعوا فى الأسر إبان الحملة الصليبية الثانية ، وفيهم برتراند (اوف تولوز) المطالب بامارة طرابلس ، والذى قد يكون ظهوره مرة اخرى مسببا للحرج لولا أن حال الأسر دون موته(١٣).

بعد أن عقد الامبراطور الهدنه انسحب مع جيشه غربا ، بطيئا أول الأمر، ثم بدأ يسرع بورود أنباء من عاصمته تثير المزيد من الانذار . وحاول بعض اتباع نور الدين مناوشة الجيش على غير رغبة سيدهم . ولإختصار المسافة ، اتجه الجيش من خلال الأراضى السلجوقية ، وحدثت مناوشات مع جنود السلطان ؛ غير أن الجيش وصل سالما إلى القسطنطينية فى اواخر الصيف . وبعد ثلاثة اشهر تقريبا عبر مانويل مرة اخرى إلى آسيا فى حملة ضد السلاجقة ، يجرب فيها معهم شكلا من التكتيكات أكثر حركة، بينما كان مبعوثوه يعملون على تعزيز التحالف ضد السلطان السلجوقى قلج ارسلان الثانى . وشعر نور الدين بالارتياح العميق لرحيل مانويل ، فتوغل فى الأراضى السلجوقية من أواسط الفرات ؛ وهاجم الأمير الدانشمندى يعقوب ارسلان من الشمال الشرقى هجوما بلغ من نجاحه أن اضطر السلطان إلى أن يتنازل له عن الأراضى المحيطة بالبستان فى جبال طوروس المقابلة . وفى تلك الأثناء ، كان القائد البيزنطى جون كونتوستيفانوس يجمع فصائل الجنود التى التزم بتقديمها بموجب المعاهدة كل من رينالد وثوروس ، إلى جانب فصيلة من البنجاك تركها مانويل ماكثة فى كيليكيا ، ثم تحرك بكل هذا الجمع خلال مضايق جبال طوروس ؛ وزحف مانويل مع الجيش الامبراطورى الرئيسى أعلى وادى المياندر ، بعد أن عزز الجيش بجنود أرسلها امير الصرب ، وبالحجاج الفرنج الذين جُندوا عندما رست سفنهم فى جزيرة رودس . وكان على السلطان أن يقسم قواته . وبعدما أحرز كونتوستيفانوس نصرا كاملا على الأتراك الذين تصدوا له ، كف قلج ارسلان عن الحرب ؛ وكتب إلى الامبراطور عارضا السلام لقاء إعادته كل المدن اليونانية التى احتلها المسلمون فى السنوات الحديثة ، والتأكد من

---

(١٣) William of Tyre, *loc. cit*, Cinnamus, p. 188.

احترام الحدود وتوقف الغارات ، وتقديم فصيلة لتحارب فى جيش الامبراطور متى يُطلب منه ذلك . ووافق مانويل على الشروط ؛ لكنه احتفظ لديه احتياطيا بأخى السلطان المتمرد ، شاهنشاه ، الذى جاءه طالبا الحماية . ولذا، وكى يؤكد قلج ارسلان المعاهدة ، أرسل مستشاره المسيحى كريستوفر إلى القسطنطينية مقترحا القيام بزيارة رسمية للبلاط الامبراطورى . وتوقفت الأعمال الحربية فى صيف عام ١١٦١م ، وفى الربيع التالى استقبل قلج ارسلان فى القسطنطينية . وكانت الاحتفالات رائعة ، وعومل السلطان بأسمى آيات التشريف وأمطروه بالهدايا ، لكنه عومل كأمير تابع . وكان للزيارة أثرها فى أمراء الشرق كلهم(١٤).

وعند الحكم على سياسة مانويل الشرقية ، لا بد لنا من أن نحكم فى هذا الضوء العام . فقد فاز بنصر كبريائى نفيس ، وأخضع السلاجقة - على الأقل مؤقتا - وهم الذين يمثلون التهديد الرئيسى لامبراطوريته . وقد جلب هذا النجاح على الفرنج بعض المزايا المعينة ؛ فمع أن نور الدين لم يهزم ، إلا انه خاف ، ولن يحاول شن هجوم مباشر على الأراضى المسيحية ؛ وفى الوقت نفسه تسبب السلام مع السلاجقة فى إعادة فتح الطريق البرى للحجاج القادمين من الغرب الذين كانت أعدادهم آخذة فى التزايد ، وأما عن الأعداد الأكثر التى لم تصل ، فذلك يعزى إلى السياسات الغربية ، وإلى الحروب الدائرة بين الهوهينشتافن وبين البابويين(١٥) فى ألمانيا وايطاليا ، وبين الكابشيين والبلانتاجونيت(١٦) فى فرنسا . ومع أنه كان مقدرا أن يبقى لبيزنطة أعظم نفوذ فى شمال سوريا للسنوات العشرين التالية ، كان أصدقاؤها الأصلاء بين الفرنج قليلين .

---

(١٤) Cinnamus, pp. 191-201, 204-8; Nicetas Choniates, pp. 152-64; Gregory the Priest, pp. 193-4, 199; Matthew of Edessa, cclxxxii, p. 364; Michael the Syrian, III, p. 320; *Chron. Anon. Syr* p. 302; Ibn al-Athir, p. 544.

(١٥) (المترجم) الهوهينيشتافن Hohenstaufen: إسم الأسرة التى حكمت المانيا (١١٣٨-١٢٠٨م) وصقلية (١١٩٤-١٢٦٨م) . والبابويين Papalists نسبة الى الدول البابوية Papal State فى وسط وشمال وسط ايطاليا والتى حكمتها البابوية من القرن الثامن وحتى عام ١٨٧٠م .

(١٦) (المترجم) الكابيشيون أو الكابيشيان Capetians: نسبة الى الأسرة الحاكمة الفرنسية (٩٨٧-١٣٢٨م) التى أسسها هيو كابت Hugh Capet. والبلانتاجينيت Plantagenets: اسم الأسرة التى حكمت انجلترا (١١٥٤-١٣٩٩م) .

١١٦٠م : رينالد يقع فى الأسر

أظهرت أحداث عام ١١٦٠م طبيعة السيادة الامبراطورية على انطاكية وقيمتها سواء بسواء . وكان الملك بلدوين قد عاد إلى الجنوب ، وانشغل ببعض الغارات القليلة الضئيلة على الأراضى الدمشقية منتهزا انشغال نور الدين فى الشمال ، إلى أن سمع بأن رينالد قد وقع فى أسر نور الدين . ذلك أن حركة القطعان الموسمية من حبال طوروس المقابلة إلى سهول الفرات ، أغرت الأمير بالإغارة أعلى وادى النهر فى نوفمبر ١١٦٠م. وأثناء عودته البطيئة نظرا لما كان يسوقه من قطعان الماشية والجمال والجياد التى جمعها ، وقع فى كمين نصبه له حاكم حلب مجدالدين ، وهو أخو نور الدين فى الرضاع . وقد حارب بشجاعة ، لكن رجاله كانوا قلة أمام عدوهم ، وأجبر هو نفسه على الترجل واقتيد أسيرا . وأرسل مع رفاقه وهم مقيدين ، على ظهور الجمال إلى حلب حيث قدر له أن يبقى فى السجن ستة عشر عاما . ولم يسارع أحد لإفتدائه ، لا الامبراطور ولاملك القدس ولا حتى أهالى انطاكية . وفى سجنه وجد جوسلين الصغير (اوف كورتناى) كونت الرها باللقب فقط ، الذى سبق أن أسر فى غارة قبل ذلك بشهور قليلة[١٧].

وأثارت إزاحة رينالد مشكلة دستورية فى انطاكية التى كان يحكم فيها كزوج للأميرة كونستانس، التى طالبت الآن بتحويل السلطة اليها؛ غير أن الرأى العام أيد حقوق ابنها من زواجها الأول ، بوهمند الذى اشتهر باسم "المتلجلج" ، وهو مع ذلك فى الخامسة عشرة من عمره . وكان ذلك الوضع شبيها بوضع الملكة مليسيند وبلدوين الثالث فى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة . ولم يكن هناك خطر محدق، إذ أن خشية نور الدين من مانويل صدته عن مهاجمة انطاكية نفسها . على انه يتعين وجود نوع من الحكومة الفعالة . وبصيغة مباشرة ، كان للإمبراطور – المقبول كسيد أعلى لأنطاكية – أن يسوى المسألة . لكن مانويل بعيد ، والأنطاكيون لم يقبلوه بدون تحفظات ؛ وكان نورمانديو انطاكية من الأمراء يعتبرون أنفسهم أمراء ذوى سيادة . غير أن كثرة وجود أمراء من القصَّر بين خلفائهم كانت تجبر ملوك القدس على التدخل بصفتهم من الأقارب أكثر من كونهم ملوكا . ومع ذلك ، شبت فى انطاكية عاطفة تعتبر الملك السيد الأعلى ، ولا شك فى أن مانويل أصبح مقبولا بيسر كبير لأن بلدوين كان يوافق

(١٧) William of Tyre, XVIII, 28 pp.868-9; Matthew of Edessa, cclxxxi, pp. 363-4; *Chron. Anon. Syr* p.302; Gregory the Priest, p.308; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 533; Cahen (*op. cit* p.405 n.1)، ويورد كاهن Cahen مصادر اضافية ويناقش طبوغرافية الأرض.

على هذه الترتيبات . واتجهت أنظار أبناء انطاكية الآن إلى بلدوين لا مانويل ، لايجاد حل ؛ وبناء على دعوتهم جاء إلى انطاكية ، وأعلن أن بوهمند الثالث هو الأمير الشرعى ، وعهد بالحكومة إلى البطريق إيمرى إلى أن يشب الأمير عن الطوق . وكان قرارا أغضب كونستانس ، وكان أسلوبا أغضب مانويل . وفى الحال ناشدت الأميرة البلاط الامبراطورى التدخل للانتصاف(١٨).

١١٦١م : مليسيند الطرابلسية

فى نهاية ١١٥٩م تقريبا ، ماتت امبراطورة بيزنطة إيرين - المولودة باسم بيرثا (اوف سولزباخ) - تاركة وراءها طفلة وحيدة . وفى عام ١١٦٠م ، وصلت القدس سفارة يرأسها جون كونتوستيفانوس ، يصحبها رئيس مترجمى البلاط ، ثيوفيلاكت الإيطالى ، تلتمس من الملك ترشيح إحدى أميرات الشرق الفرنجى تكون عروسا مناسبة للإمبراطور البيزنطى الأرمل . وكان هناك اثنتين من المرشحات - ماريا إبنة كونستانس أميرة طرابلس ، ومليسيند ابنة ريموند الثانى أمير طرابلس . وكلتاهما من بنات خؤولة بلدوين ، وقد اشتهرتا كلتاهما بالجمال . وارتاب بلدوين فى تحالف عائلى وثيق الصلة بين الامبراطور وانطاكية ، ولذا رشح مليسيند ؛ وارتحل السفراء إلى طرابلس لإبلاغ الأميرة التى حياها الشرق الفرنجى كله على انها امبراطورة المستقبل ؛ وانتشى بالفخار ريموند أمير طرابلس فقرر منح أخته مهرا يليق بها ، وانفق المبالغ الطائلة على تجهيزها . وانهمرت الهدايا من امها هوديرنا وخالتها الملكة مليسيند . وهرول الفرسان من سائر الأنحاء إلى طرابلس يداعبهم أمل دعوتهم إلى الزفاف . على أن القسطنطينية لم تبعث بتأكيدها للزواج . وأرسل السفراء إلى مانويل أوصافا متلألئة لشخصية مليسيند ، لكنهم سجلوا كذلك شائعة حول مولدها تستند إلى الشجار الشهير بين أمها وأبيها . ويبدو أن لم تكن هناك ريبة حول شرعيتها فى حقيقة الأمر ، ويبدو أن تلك الشائعة الباطلة جعلت الامبراطور يتردد . ثم إنه سمع بتدخل بلدوين فى أنطاكية، ثم تسلم مناشدة كونستانس للإنتصاف. وفى باكورة صيف ١١٦١م ، نفذ صبر ريموند ، فأرسل أحد فرسانه - أوتو (اوف ريسبيرج) - ليسأل عن التطورات ؛ وعاد أوتو فى

---

(١٨) William of Tyre, xviii30, p.874 ؛ Michael the Syrian, iii, p.324 ويقول ميخائيل السورى إن ثوروس أبعد كونستانس عن حكم انطاكية.

أغسطس تقريبا ينبئ بأن الامبراطور تخلى عن الارتباط(١٩).

فأما مليسيند ، فكانت الصدمة والإهانة فوق احتمالها ، فنال منها الضعف وسرعان ما ذوت مثل "الأميرة بعيدة المنال" *Princesse Lointaine* ، في رومانسية العصور الوسطى الفرنسية . وأما أخوها ريموند فقد احتدم غيظا ، وفي ثورته طلب تعويضه عن المبالغ الطائلة التي أنفقها على جهازها ؛ ولما رُفض طلبه جهز السفن الإثنتي عشرة التي وصلته لتنقل العروس إلى القسطنطينية وحولها إلى سفن حربية مسلحة وقادها للإغارة على سواحل قبرص(٢٠). وأما الملك بلدوين ، الذي كان ينتظر مع بنات خؤولته يترقب الأنباء ، فقد شعر بالقلق ، خاصة عندما تلقى السفراء البيزنطيون أوامر بالذهاب إلى أنطاكية ؛ فهرول وراءهم ليجد في انطاكية سفارة فخيمة من الامبراطور ، يرأسها ألكسيوس برينيوس كومنينوس إبن أنّا كومنينا ، ووالى القسطنطينية ، جون كاماتيروس . وكانوا قد تفاوضوا فعلا على عقد زواج بين سيدهم وبين الأميرة ماريا الأنطاكية ؛ وكان وجودهم كافيا لتثبيت كونستانس حاكمة للإمارة . واضطر بلدوين إلى قبول هذا الوضع . وأما ماريا ، التي كانت أجمل حتى من ابنة خالتها مليسيند ، فقد أبحرت من ميناء السويدية في سبتمبر ، يملأها الفخار أن تصبح امبراطورة ، وتشملها السعادة وقد غاب عنها ما سيكون عليه مصيرها في نهاية مطافها. وعقد زواجها إلى الامبراطور في ديسمبر في كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية بمعرفة ثلاثة بطارقة ، ليوك بطريق القسطنطينية ، وسوفرونيوس بطريق الإسكندرية ، وأثناسيوس الثاني ، صاحب لقب بطريق انطاكية(٢١).

١١٦٢م : موت بلدوين الثالث

أدرك بلدوين قيمة التحالف البيزنطي ؛ لكن نجاح مانويل كان أعظم مما كان يرغبه في الشمال السوري المسيحي وأقل فعالية ضد نور الدين ، رغم أن التحالف

---

(١٩) William of Tyre, XVIII, 30, pp. 874-6. ويقول سناموس Cinnamus, pp. 208-10 إن صحة مليسيند لم تكن مرضية ، فضلا عن الشائعات حول عدم شرعيتها. وقد ذكرت مليسيند على أنها 'امبراطورة القسطنطينية المقبلة' في ميثاق ٣١ يولية ١١٦١م ، عندما منح شرق الأردن الى فيليب (اوف ميلف) ، ووقتئذ كانت هي وأخوها مع الملك في الناصرة (Rohrich, *Regesta*, p. 96).

(٢٠) William of Tyre, XVIII 33, 31, pp. 876-9.

(٢١) *Ibid.* XVIII, 31, pp. 875-6; Cinnamus, p. 210-II, ويورد Nicetas Choniates, p.151 تقريظا بالغا لجمال الامبراطورة الجديدة .

جعل المسلمين فى حالة من الهدوء طوال السنتين التاليتين . وعاد الملك بلدوين إلى مملكته بعد هزيمته الدبلوماسية فى زواج الامبراطور . وقد سارت حكومته فى القدس سيرا سلسا منذ إقصاء والدته عن السلطة . وكانت قد برزت عام ١١٥٧م لترأس مجلسا للوصاية أثناء أن كان بلدوين بعيدا فى الحروب ، واحتفظت لنفسها برعاية الكنيسة . وبعد وفاة البطريق فولشر فى نوفمبر من ذلك العام - ١١٥٧م - ضمنت تعيين خليفته أماليك (اوف نيسيل) ، وهو قس بسيط كانت تعرف عنه تعليمه الجيد ، إلا انه لا يهتم بالحياة الدنيوية وغير عملي . وعارض ترقيته هرنيس رئيس اساقفة قيصرية ، ورالف اسقف بيت لحم ؛ فاضطر البطريق أماليك إلى ارسال أسقف عكا ، فريدريك، إلى روما لضمان التأييد البابوى . وأفلحت براعة فريدريك ورشاويه - كما أُلمع - فى الحصول على تأييد الحكومة البابوية[٢٢] . وجاءت فى المرتبة الثانية بعد مليسيند ابنة زوجها ، سيبيلا (اوف فلاندرز) التى رفضت العودة إلى اوروبا مع زوجها تيرى عام ١١٥٨م وبقيت كراهبة فى الدير الذى كانت مليسيند قد أنشأته فى بيثانى . وبعد أن ماتت مليسيند فى سبتمبر ١١٦١م ، بينما كان الملك فى أنطاكية ، خلفتها سيبيل فى ممارسة نفوذها فى العائلة الملكية وفى الكنيسة إلى أن ماتت بعد ذلك بأربع سنوات[٢٣] .

وبينما كان الملك بلدوين مارا خلال طرابلس سقط مريضا . وأرسل كونت طرابلس طبيبه الخاص - باراك السيرياني - لمداواته ، لكن حالة الملك ازدادت سوءا ؛ وانتقل إلى بيروت حيث مات يوم ١٠ فبراير ١١٦٢ . وكان طويل القامة ، قوي البنية، وكانت بشرته النضرة ولحيته الكثة الشقراء توحيان بالصحة والرجولة ؛ فظن العالم كله أن عقاقير باراك قد سمّته . وكان فى ربيعه الثالث والثلاثين ، ولو قدر له أن يعيش أكثر من ذلك ، لأصبح ملكا عظيما لما كان لديه من طاقة وبصيرة نافذة وجاذبية شخصية لا تقاوم . وكان يجيد القراءة والكتابة ، وعلى علم بكل من التاريخ والقانون. وبكاه رعاياه بمرارة ، وجاء حتى الفلاحون المسلمون من التلال للإعراب عن تقديرهم فى موكبه الجنائزى الذى تحرك بطيئا إلى القدس . واقترح البعض من اصدقاء نور الدين على الأتابج أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم على المسيحين ، غير أن نور الدين

---

(٢٢) William of Tyre, xviii, 20p. 854. وترد أمثلة على الأعمال الخيرية الدينية التى قامت بها مليسيند فى عامي ١١٥٩م و١١٦٠م فى Rohricht, *Regesta*, pp. 88, 94.

(٢٣) William of Tyre, *loc. cit*. يذكر اشتراك سيبيلا . ويذكر Ernoul, p.21 رفض سيبيلا مغادرة الأراضى المقدسة.

الذى وصل لتوه من حجه في مكة بعد كثرة التأجيل رفض إزعاج الناس وهم ينتحبون على فقد مثل هذا الأمير العظيم[٢٤].

(٢٤) William of Tyre, xvi, 2, pp. 705-6، يذكر وصفا تقريبيا لشخصية بلدوين الثالث .

الفصل الرابع:

تربص مصر

تربّص مصر

"لا ، بل إلى أرض مصرَ نذهبُ"

(إرمياء ٤٢ : ١٤)

مات بلدوين الثالث بلا ذرية ، وترمّلت الملكة اليونانية ثيودورا ولّما تجاوز ربيعها السادس عشر، وغدا أخوه أماليك كونت يافا وعسقلان وريثا للمملكة وتوجه البطريق أماليك بعد ثمانية أيام من موت بلدوين ، برغم المشكلة التى أثيرت حول استخلافه ؛ إذ لم يكن البارونات راغبين فى التخلى عن حقهم فى الانتخاب ، حتى ولو لم يكن هناك مرشح آخر . وكانت لهم مظلمة مشروعة ؛ إذ كان أماليك قد تزوج قبل ذلك بنحو أربع سنوات من أجنيس (اوف كورتناى) ، إبنة جوسلين الثانى كونت الرها ، وكانت من بنات عمومته من الجيل الثالث وتقع من ثم في الدرجات التى تحرم الكنيسة الزواج منها، وقد رفض البطريق اعتماد الزواج . وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى النفور من أجنيس ؛ إذ كانت أكبر من أماليك بكثير ، وقد قتل زوجها الأول ، رينالد أمير مرعش ، عام ١١٤٩م عندما كان أماليك فى الثالثة

عشرة من عمره ، و لم تكن عفيفة السمعة . وطالب البطريق والبارونات بالغاء الزواج ، فرضخ أماالريك فى الحال ، لكنه أصر على الإعتراف بشرعية حقوق ولديه فى الميراث، بلدوين وسيبيلا[١].

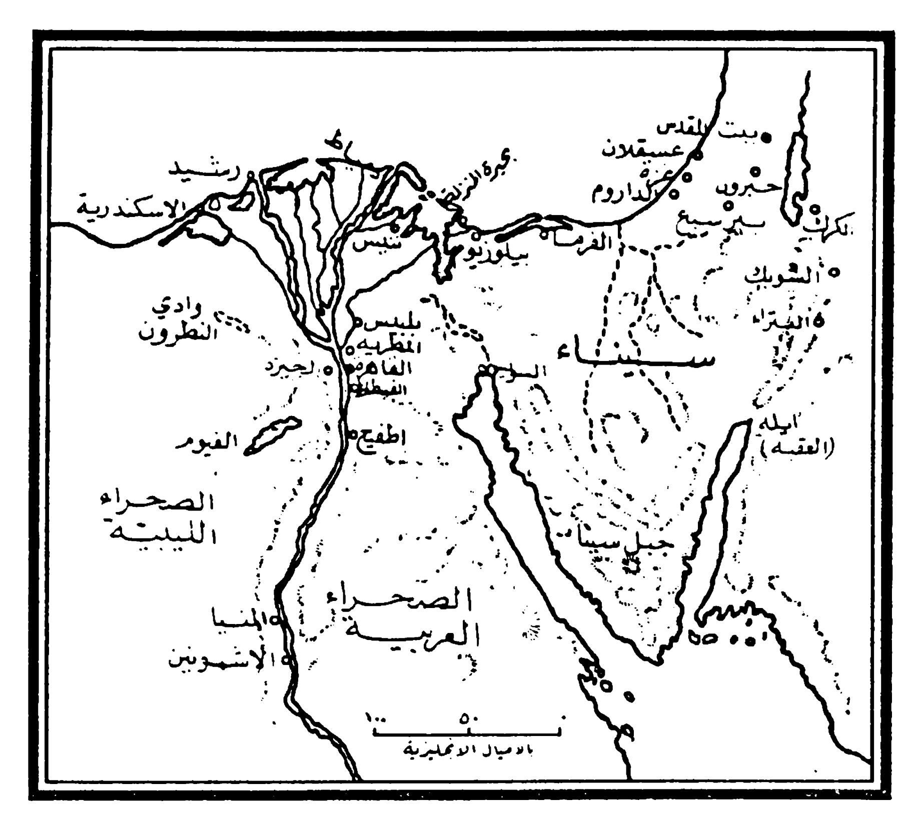
١١٦٢م : الملك أماالريك

بلغ أماالريك الآن الخامسة والعشرين من عمره ، وكان طويل القامة وسيما كأخيه، بنفس لون البشرة المتوردة واللحية الكثة الشقراء ، رغم ما يقوله النقاد من أنه مفرط السمنة فى صدره . وكان أقل تعليما ، برغم معروماته الجيدة المتصلة بالمسائل القانونية . وعلى غير شاكلة أخيه الذي كان شغوفا بالثرثرة ، كانت لديه بعض اللجلجة ولذا كان سكوتا ، غير أنه كان كثيرا ما تعاوده نوبات من القهقهة الضاحكة، فتحرمه بعضا من وقاره . و لم يكن يتمتع قط بشعبية كأخيه ، إذ كان يفتقر إلى الجاذبية والانفتاح على الغير ؛ فضلا عن أن حياته الخاصة لم تكن خليقة بالثناء[٢]. وفى غضون أشهر قليلة من استخلافه اتضحت نوعيته التى كان عليها كرجل دولة ، عندما أقدم جيرارد - لورد صيدا وشقيق أرنون - بنزع ملكية أحد رعاياه بلا سبب يدعو إلى ذلك، ولجأ التابع إلى التاج شاكيا؛ فأصر أماالريك على أن تنظر الدعوى أمام المحكمة العليا للمملكة ، ثم إنه أصدر قانونا assise ، يستند إلى سوابق أخرى مماثلة يخول الأتباع الاستئناف من أسيادهم أمام المحكمة العليا ، وفى حالة عدم حضور السيد أثناء نظر الجلسة فى المحكمة يحكم فى الدعوى غيابيا ، ويُنصف المدعى باعادة الأمور كما كانت عليه. وهذا القانون، الذى يؤسس علاقة مباشرة بين أتباع كبار مستأجرى الأرض والملك الذى ينبغى لهم أن يقدموا له فروض الطاعة المخلصة ، من شأنه أن يضفى سلطات لا

---

(١) William of Tyre, xix, 1, 4, pp.883-90. ويحدد Robert of Torigny, I, p.309 تاريخ زواج أماالريك بعام ١١٥٧م . وعن زوج أجنيس الأول أنظر أعلاه ص ٣٢٦. وقد كرهها متبعو وليم الصورى كراهية شديدة لأسباب وجيهة (انظر أدناه ص ٤٠٧) . وربما بالغوا فى أخطائها، غير انه من غير المحتمل أن تكون قرابة الدم البعيدة هى التى جعلت البارونات يصرون على طلاقها. واستنادا الى وليم ، أكد علاقة القرابة ستيفانى رئيسة الدير ، وهى ابنة جوسلين الأول ، وماريا (اوف سالرنو) : بيد انه لابد وأن كان معروفا جيدا أن بلدوين الأول وجوسلين الأول كانا أبناء عمومة من الدرجة الأولى ، وقد رفض البطريق فعلا مباركة الزواج . والأرجح أن أجنس قد ولدت عام ١١٣٣م، إذ مات أول زوج لأمها بياتريس عام ١١٣٢م ، وتزوجت جوسلين كونت الرها بعد ذلك مباشرة.

(٢) William of Tyre, xix, 2-3, pp. 884-8.



خريطة رقم (٥) مصر فى القرن الثانى عشر

حدود لها على ملك قوى يهيمن على المحكمة العليا . غير أن المحكمة العليا ذاتها كانت تتألف من نفس تلك الطبقة الموجّه ضدها القانون. فإذا كان الملك ضعيفا، يمكن استخدام القانون ضده بتطبيقه على كبار مستأجرى الأراضى الملكية[٣]. وأعقب هذا القانون قواعد أخرى تنظم علاقات الملك بأتباعه.

وبعدما وطد أماليك دعائم سلطته الملكية فى الداخل ، أصبح بامكانة الانتباه إلى الشؤون الخارجية . ففى الشمال كان على استعداد للتضحية بأنطاكية للبيزنطيين . وفى أواخر عام ١١٦٢م على وجه التقريب حدثت اضطرابات فى كيليكيا فى أعقاب اغتيال ستيفن أخى ثوروس الذى كان فى طريقه إلى مأدبة دعاه اليها الحاكم الامبراطورى أندرونيكوس . وإن كانت هناك لدى ثوروس أسبابه الخاصة التى تثير لديه الرغبة فى التخلص من ستيفن ، فإنه اتهم أندرونيكوس بالتواطؤ واكتسح طريقه مستوليا على المصيصة وعين زربة وفاهكا ، بمباغتة أفراد حامياتها اليونانيين وقتلهم . وسارع أماليك بعرض المساعدة على الامبراطور الذى استبدل أندرونيكوس بقائد هنجارى المولد ذى اقتدار هو قنسطنطين كولومان ؛ الذى جاء إلى كيليكيا بالتعزيزات، فانسحب ثوروس عائدا إلى الجبال بعد أن قدم بعض التفسيرات[٤]. وأصبح بوهمند أمير انطاكية الآن فى الثامنة عشرة من عمره أي بلغ سن الرشد ليحكم . لكن أمه كونستانس ، كانت راغبة في الاحتفاظ بالسلطة فناشدت كولومان تقديم المساعدة العسكرية . وبانتشار شائعة استنجادها بكولومان ، اندلعت أعمال الشغب فى انطاكية؛ الأمر الذى أدى إلى نفى كونستانس وتنصيب بوهمند الثالث مكانها، وسرعان ما ماتت بعد ذلك مباشرة[٥].

ولم يعترض الامبراطور على تغيير نظام الحكم، ربما لأن أماليك كفل احترام

---

(٣) عن هذا القانون الهام *assise* ، انظر أعلاه ص ٣٠١ ,La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 22 -3. 99, 153; also Grandclaude, "Liste d'Assises de Jérusalem" in *Mélanges Paul Fournier*, p. 329 ff. وهذا الأخير يحدد تاريخ هذا القانون assise بعام ١١٦٦م ويدرج قائمة بالقوانين الأخرى assizes التى يمكن ان تعزى الى أماليك.

(٤) Cinnamus,p.227; Gregory the Priest,p.200; Sembat the Constable,p.621; Michael the Syrian, III, p.319, Armenian version,pp.349,356

(٥) Michael the Syrian,III,p.324، الذى يؤيده تاريخ سوريا المجهول *Chron.Anon.Syr.*. ويبدو أن التاريخين يمزجان أحداث ١١٦٠م والفترة ١١٦٢-١١٦٣م . ويقتبس Ughelli, *Italia Sacra*, VII,p.203 من وثيقة فى عام ١١٦٧م يطلق فيها بوهمند الثالث على نفسه "أمير أنطاكية ولورد اللاذقية وجبلة ."Prince of Antioch, Lord of Laodicea and Gibel وحيث ان اللاذقية وجبلة كانتا مهرا لأمه ، فيفترض انها قد ماتت آنذاك.

سيادته. وليضمن ذلك، دعا ابن كونستانس الثاني - بلدوين - وفيما بعد أطفالها من رينالد إلى القسطنطينية. وانضم بلدوين إلى الجيش الامبراطوري وقتل في الحرب[٦]. وفي الوقت الذي كان فيه الملك أماريك يؤيد البيزنطيين علنا كتب إلى الملك لويس السابع ملك فرنسا يسأله إن كان هناك أي أمل في إرسال المساعدة للاتين في سوريا[٧].

١١٥٤م : مكائد في القاهرة

كان ضروريا لأماريك أن يضمن حسن النوايا لبيزنطة كي يمضي مع أهم طموحاته السياسية ألا وهي السيطرة على مصر . وكما يفهم جيدا فإن وجود الدويلات اللاتينية يتوقف على تشتت جيرانها المسلمين وقد اتحدت الآن سوريا المسلمة، بيد أنه طالما بقيت مصر في حالة عداء مع نور الدين ، فلن يكون الوضع باعثا على اليأس . وكانت الخلافة الفاطمية ، مع ذلك ، في حالة من الوهن بحيث بدت نهايتها وشيكة ، لكنها لا ينبغي قط أن تقع في قبضة نور الدين . ومنذ سقوط عسقلان والفوضى آخذة في التزايد في بلاط الخليفة ؛ إذ تمكن الوزير عباس من البقاء سنة برغم الكارثة ، وكان ابنه نصر هو المفضل لدى الخليفة الصغير الظافر ؛ وأثار ما بينهما من وداد شائعات فاضحة مما أثار ثائرة عباس ، لا لدوافع أخلاقية ، وانما لأنه ارتاب - بحق - أن الظافر كان ينوي الوقيعة بين الابن والأب . وعلم أسامة الذي كان ما يزال في البلاط أن نصر وافق في الواقع على اغتيال عباس ؛ فسارع إلى مصالحتهما وسرعان ما حرض نصر على أنه من الأفضل اغتيال الخليفة بدلا من عباس . ودعا نصر من أنعم عليه إلى حفل ماجن في منتصف الليل في منزله حيث طعنه . وتصنع عباس الإعتقاد بأن القتله هم أخوة الخليفة ذاتهم وأعدمهم . وبينما صادر ثروة الخليفة وضع على العرش إبن الظافر - الفائز - وهو صبي في الخامسة من عمره شاهد موت أعمامه، وفيما بعد عاني من نوبات التشنج المزمنة . وارتابت أميرات العائلة في حقيقة

---

(٦) عن بلدوين ، انظر أدناه ص ٤١٣ . وفيما بعد تزوجت إبنة كونستانس من رينالد - أجنس - من آلكسيوس المدعي المنجاري أو بيلا الثالث ، الذي أصبح ملك هنجاريا عام ١١٧٣ (Nicetas Choniates, p. 221) .

(٧) ترد خطابات اماريك في Bouquet, R.H.F. vol. xvi, pp. 36-7, 39-40. ويتحدث الخطاب الثاني عن التهديد البيزنطي لأنطاكية. وفي ذات الوقت تقريبا كتب بوهمند الثالث الى الملك لويس. *Ibid.* pp. 27-8

ماحدث ، وسارعن باستدعاء محافظ مصر العليا ابن رزيق الأرمينى المولد لإنقاذهن . فزحف على القاهرة واستمال ضباط الحامية إلى جانبه . فحمل عباس ونصر أموالهما وهربا يوم ٢٩ مايو ١١٥٤م من العاصمة ، مصطحبين معهما أسامة الذى بدأ يتآمر مع ابن رزيق . وبينا هم يخرجون من صحارى سيناء ، هبط عليهم جنود الفرنج من حصن مونتريال ، وتمكن أسامة من الهرب سالما ووصل إلى دمشق في نهاية الأمر؛ وقتل عباس وألقى القبض على نصر وصودرت الأموال ، وسُلم نصر إلى فرسان المعبد ، وأعلن على الفور رغبته فى التحول إلى المسيحية ؛ غير أن البلاط فى القاهرة عرض دفع ستين ألف دينار مقابل تسليمه ، ولذا أوقف تعليمه الدين الجديد وأرسل مقيدا بالسلاسل إلى القاهرة حيث قامت أرامل الخليفة الأربع بتمزيق أوصاله بأنفسهن . ثم إنه شنق ، وعلقت جثته على باب زويلة طوال عامين(٨).

وحكم ابن رزيق حتى عام ١١٦١م . وفى ١١٦٠م مات الخليفة الصبى ليخلفه ابن عمه العاضد البالغ من العمر تسع سنوات ، والذى أجبر فى العام التالى على الزواج من ابنة ابن رزيق . على أن عمة الخليفة ، وهى أخت الظافر ارتابت فى طموحات الوزير ، فحرضت أصدقاءها على طعنه فى ساحة القصر . وكان قبل وفاته قد تمكن فى سبتمبر ١١٦١م من استدعاء الأميرة اليه وقتلها بنفسه . وخلفه ابنه العادل فى منصب الوزير وحكم لخمسة عشر شهرا . وجاء دوره فخلعه محافظ مصر العليا - شاور - وقتله ، وحكم ثمانية أشهر حتى أغسطس ١١٦٣م عندما خلعه ياوره العربى ضرغام الذى قتل كل من كان يخشى طموحه حرصا على بقائه في السلطة الأمر الذى جعل الجيش المصرى يكاد أن يكون خاليا من كبار الضباط(٩).

١١٦٣م: هزيمة نور الدين فى الكرك

فى عام ١١٦٠م هدد بلدوين الثالث بغزو مصر التى اشترت سكوته بتعهد بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار ولم تدفع هذه الإتاوة قط . وفى عام ١١٦٣م، اتخذ أماريك ذلك ذريعة وهبط فجأة على مصر عابرا برزخ السويس بلا

---

(٨) (Usama, ed. Hitti, pp. 43-54 وروايته لا تكشف بوضوح خياناته المتقلبة): Ibn al-Athir, pp. 492-3; William of Tyre, XVIII, 9, pp. 832-4. وللاطلاع على تاريخ مصر فى هذه الفترة انظر Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 191 ff..

(٩) Ibn al-Athir, p. 529; Abu Shama, p. 107.

صعوبة وحاصر الفرما . لكن النيل كان فى موسم الفيضان ، وتمكن ضرغام من إرغامه على الانسحاب بأن كسر سدا أو سدين من سدود النيل[١٠]. ولم يغب عن نور الدين ما أقدم عليه أماريك من تدخل في مصر ، فانتهز غيابه للهجوم على أضعف الدويلات الصليبية - طرابلس ؛ فقام بغزو البقاع كى يضرب الحصار حول قلعة الكرك التى كانت تسيطر على سهل ضيق . ولحسن حظ الفرنج كان هيو ، كونت لوسينيان، وجيوفرى مارتل ، أخو كونت أنجوليم ، يمران خلال طرابلس بأتباعهما فى طريق عودتهما من الحج فى القدس ، فانضما إلى الكونت ريموند ، وأرسلت استغاثة عاجلة إلى أنطاكية جاء على أثرها من الشمال لا بوهمند الثالث وحسب ، وانما أيضا القائد الامبراطورى قنسطنطين كولومان ؛ وسار الجيش المسيحى المتحد مسرعا خلال التلال وباغت المسلمين فى معسكرهم أسفل قلعة الكرك . وبعد معركة قصيرة أظهر فيها كولومان وجنوده تميزهم بصورة خاصة ، هرب نور الدين بلا نظام إلى حمص ، حيث أعاد تجميع جيشه وتلقى تعزيزات مما دفع المسيحيين إلى التخلى عن المطاردة[١١].

وسرعان ما ظهر بعد ذلك الوزير السابق شاور الهارب من مصر فى بلاط نور الدين ، يعرض عليه أن يرسل جيشا لإعادة تنصيبه فى القاهرة ، وفى هذه الحالة يدفع شاور مصروفات الحملة ، ويتخلى له عن مقاطعات على الحدود ، ويعترف بسيادة نور الدين ، ويدفع له ضريبة سنوية تعادل ثلث ايرادات البلد . وتردد نور الدين خشية المجازفة بجيش يمضى بطول الطرق التى يسيطر عليها الفرنج أو فى طرق ما وراء نهر الأردن . ولم يتخذ قرارا إلا فى ابريل ١١٦٤م ، بعد أن استخار آيات القرآن الذى فتحه كيفما اتفق ، وأمر بأن ينطلق أكثر قواده إخلاصا - شيركوه - بكتيبة ضخمة ويذهب مع شاور عبر الصحراء ، بينما قام هو بهجوم مضلل على بانياس . واصطحب شيركوه معه ابن اخيه صلاح الدين - وهو ابن نجم الدين أيوب - الذى كان شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، ولم يكن شديد الشغف بالانضمام إلى الحملة . وارتاع ضرغام ، فأرسل يطلب المساعدة من أماريك ؛ غير أن شيركوه كان قد انطلق بسرعة عبر برزخ السويس قبل أن يتهيأ الفرنج للتدخل . وبالقرب من الفرما هزم أخو ضرغام

---

(١٠) William of Tyre, XIX, 5, pp. 890-1; letter of Amalric, *R.H.F.* vol. XVI, pp. 59-60، ويؤكد أماريك فى خطابه للملك لويس ان بالامكان هزيمة مصر بقليل من المساعدة الاضافية ؛ Michael the Syrian, III, p. 317.

(١١) William of Tyre, XIX, 8, pp. 894-5; Ibn al-Athir, p.531, and *Atabegs*, pp. 207-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 534. Michael the Syrian, III, p. 324. ويقول ابن الأثير إن البيزنطيين كانوا الأكثر رعبا فى الجيش المسيحى.

مع عدد ضئيل من الجنود الذين تمكن من جمعهم . وشهدت القاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر مايو ١١٦٤م إعادة تنصيب شاور وموت ضرغام(١٢).

وما أن استعاد شاور سلطانه حتى تنكر لوعوده وطلب من شيركوه العودة إلى سوريا . فرفض شيركوه واستولى على بلبيس ، فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك أماريك ، وحثه على الإسراع عارضا عليه ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرين مرحلة، وواعدا بهدايا أخرى لفرسان المستشفى المصاحبين له ودفع تكاليف أعلاف جيادهم . فأعد أماريك سبل الدفاع الجيد لمملكته ، ثم انطلق بسرعة فى أوائل أغسطس إلى فاقوس الواقعة على النيل ، حيث انضم اليه شاور وانطلقا لمحاصرة شيركوه فى بلبيس . وصمدت القلعة ثلاثة أشهر، ولاح احتمال سقوطها . لكن أماريك جاءته أنباء من سوريا فقرر رفع الحصار بشرط أن يجلو شيركوه عن مصر . ووافق شيركوه ، وسار الجيشان الفرنجى والسورى فى طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء ، وقد تركا شاور مسيطرا على مملكته . وكان شيركوه آخر من رحل من أصحابه . وعندما كان يودع الفرنج سأله أحدهم من الوافدين الجدد إلى الشرق : ألا تخشى الخيانة ؟ فأجابه بفخر بأن جيشه كله سيثأر له ، ورد عليه سائله الفرنجى بعبارات الشهامة بأنه يفهم الآن سبب ارتفاع شهرة شيركوه بين الصليبيين(١٣).

١١٦٤م : كارثة فى أرتاح

ولقد كانت أنطاكية هي مصدر الأنباء التى دفعت أماريك إلى أن يسرع بالعودة إلى بلده . ذلك أن نور الدين عندما علم أن أماريك رحل إلى مصر ، ضرب الامارة الشمالية وحاصر قلعة حارم التى تعتبر القلعة الأساسية ، وكان معه جيش أخيه الذى جاء من الموصل وجنود من أمراء الأراتقة فى دياربكر وماردين وديبرت وكير . وبينما كان لورد حران - رينالد (اوف سانت فاليرى) يدافع عن القلعة ببسالة ، استنجد الأمير بوهمند بريموند أمير طرابلس ، وثوروس الأرمينى ، وكولومان البيزنطى .

---

(١٢) William of Tyre, XIX, 5, 7, pp. 891-2, 893; Abu Shama, p. 107; Ibn al-Athir, p. 533, and *Atabegs*, pp.215-6; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 46-8.

(١٣) William of Tyre, XIX, 7, pp. 893-4; Ibn al-Athir, pp. 534-6 and *Atabegs*, pp. 217-9; Abu Shama, p. 125.

فانطلقوا معا فى منتصف أغسطس ، ولمّا جاءت نور الدين اخبار تحركهم رفع الحصار . وقيل لنا إن نور الدين شعر بالخطر بوجه خاص من وجود الكتيبة البيزنطية . وبينما كان بوهموند ينسحب ومعه نحو ستمائة فارس تقريبا قرر مواصلة المطاردة ضاربا عرض الحائط بنصيحة رينالد (اوف سانت فاليرى) الذى كان يرى أن الجيش الإسلامى أكبر بكثير . واصطدم الجيشان يوم ١٠ أغسطس بالقرب من أرتاح . وتجاهل بوهمند ما حذره منه توروس ، وهاجم على الفور . وتظاهر المسلمون بالهرب فاندفع بوهمند وراءهم مباشرة ، لا لشئ إلا ليقع فى كمين ويجد نفسه وفرسانه وقد طوقهم جيش الموصل . وتمكن توروس وأخوه مليخ - وكانا أكثر حذرا - من الهرب من ساحة القتال ، أما باقى الجيش المسيحى فقد وقع ضحية الأسر أو القتل ؛ وكان من بين الأسرى بوهمند ، وريموند أمير طرابلس ، وقسطنطين كولومان ، وهيو (اوف لوسينيان) ، وقد اقتيدوا وهم مقيدون معا فى قيد واحد إلى حلب(١٤).

وراح مستشارو نور الدين يحثونه على الزحف على مدينة انطاكية العارية من أى دفاع ؛ لكنه رفض قائلا إنه لو زحف على انطاكية فسوف يسرع اليونانيون بارسال حامية داخل القلعة ، وإنه برغم امكان استيلائه على المدينة ، تستطيع القلعة الصمود إلى أن يأتى الامبراطور . كان يعتقد أن وجود دويلة فرنجية ضئيلة الشأن أفضل من أن تصبح جزءا من امبراطورية عظيمة . وكان بالغ الحرص على عدم الإساءة إلى بيزنطة بحيث أطلق سراح قنسطنطين كولومان على الفور تقريبا مقابل مائة وخمسين رداء حريريا . ومرة أخرى أنقذت أنطاكية للعالم المسيحى بفضل هيبة الامبراطور.

وبينما كان أماريك يغذ السير مسرعا باتجاه الشمال ، انضم اليه تيرى (اوف فلاندرز) الذى جاء إلى فلسطين فى حجته الرابعة . وبهذا التعزيز توقف أماريك فى طرابلس لترسيخ حقه فى أن يكون الوصى على الكونتية أثناء أسر الكونت ، ثم واصل مسيرته إلى أنطاكية ، حيث دخل فى مفاوضات مع نور الدين الذى وافق على إطلاق سراح بوهمند أمير طرابلس وتوروس لقاء فدية ضخمة ، وانما فقط لأنهما من أتباع الامبراطور ؛ ولم يكن ليطلق سراح ريموند أمير طرابلس ولا سجينه الأقدم - رينالد

---

(١٤) William of Tyre, XIX, 9, pp. 895-7، الذى يحدد التاريخ خطأ بعام ١١٦٥م ؛ Robert of Torigny, I, p.355؛ خطابات أماريك الأول وخطابات Gaufred Fulcher الموجهة الى لويس السابع فى;R.H.F. vol. XVI, pp. 60-2 ؛ ويشير Cinnamus, p.216 اشارة مقتضبة جدا حول أسر كولومان; Michael the Syrian, III, p.324; ؛ *Chron. Anon. Syr. p.304; Bustan,*p.559; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 510; Abu Shama, p. 133; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.220-3.

(اوف شاتيلون)(١٥) . وانتاب أماريك نفسه القلق عندما جاءه مبعوث امبراطورى يسأله عن سبب وجوده فى انطاكية ؛ فكان رده أن أرسل إلى القسطنطينية رئيس أساقفة قيسارية ، وخازنه - اودو (اوف سانت أماند)، بطلب يد إحدى الأميرات الامبراطوريات ، واقتراح عقد تحالف لغزو مصر(١٦). واحتجز الامبراطور مانويل السفارة مدة عامين لإعطائها الرد . وفى تلك الأثناء لم يكن لأماريك بد من أن يعود إلى الجنوب إذ أن نور الدين ، بدلا من مهاجمة أنطاكية ، ظهر فجأة فى أكتوبر أمام بانياس التى كان أميرها همفرى الثانى (اوف تورون) مع جيش أماريك . وكان قد أشاع شائعات بأن الهدف هو طبرية ؛ فتركزت الميليشيات الفرنجية المحلية هناك . أما حامية بانياس ، فقد قاومت بشجاعة بادئ الأمر ، وكان المأمول أن يخف لنجدتها تييرى (اوف فلاندرز) ، الذى وصل لتوه إلى فلسطين ، لكن القلعة استسلمت فجأة ، ربما بسبب الخيانة . واحتل نور الدين البلاد المحيطة وهدد بالتوغل فى الجليل فسارع باروناتها بالوعد بدفع إتاوة(١٧) .

١١٦٥م : بطريق يونانى فى أنطاكية

ما أن أُطلق سراح بوهمند أمير أنطاكية حتى ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته ، ولكى يتوسل إلى زوج اخته (الامبراطور) دفع جزء من الفدية التى لا يزال مدينا بها لنور الدين ؛ فأعطاه مانويل المعونة المطلوبة وفى المقابل عاد بوهمند إلى أنطاكية ومعه بطريق يونانى - أثناسيوس الثانى ؛ أما البطريق اللاتينى إيمرى الذى اعترض فقد ذهب إلى منفاه فى قلعة قصير(١٨). وطوال السنوات الخمس التالية سيطر اليونانيون على الكنيسة الأنطاكية ؛ ولا يبدو أن الأساقفة اللاتينيين قد طردوا ، وإنما كان اليونانيون يشغلون المناصب الشاغرة . وأدى مجئ اليونانيين إلى ارتماء الكنيسة اليعقوبية فى أحضان

(١٥) William of Tyre, XIX, 10, II, pp.898, 900-1; *Bustan*, p.561; Michael the Syrian, III, p. 326, Armenian version, p. 360، ويقول ميخائيل السيريانى ، فى النسخة الأرمينية ، إن ثوروس الذى أطلق سراحه أولا أصر على إطلاق سراح بوهمند.

(١٦) Cinnamus, pp. 237-8; William of Tyre, XX, I, p. 942.

(١٧) William of Tyre, XIX, 10, pp. 898-900; Ibn al-Athir, pp. 540-2, and *Atabegs*, p. 234; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 541.

(١٨) William of Tyre, XIX, II, p. 901; Michael the Syrian, III, p.326. عُين أثناسيوس الثانى بطريقا لأنطاكية عام ١١٥٧م عندما اتهم البطريق المعين Panteugenes Soterichus بالهرطقة.

اللاتينيين ، إذ كانوا على علاقة ودودة منذ عام ١١٥٢م عندما حدثت معجزة عند قبر القديس السيرياني بارسوما أسفرت عن شفاء طفل فرنجي أعرج ؛ وفي عام ١١٥٦م سُمح لليعاقبة ببناء كتدرالية جديدة ساعد في تخصيص الوقف لها الأميرة كونستانس والأمير الأرميني ثوروس ، مما أدخل البهجة على بطريقهم - ميخائيل السوري المؤرخ. والآن ذهب البطريق ميخائيل لزيارة إيمرى في القصير ليؤكد له تعاطفه معه . وبلغت كراهية ميخائيل لليونانيين شأوا بعيدا بحيث رفض عام ١١٦٩م دعوة ودية من الامبراطور للحضور إلى القسطنطينية للاشتراك في إحدى المناظرات الدينية التي كان الامبراطور مانويل شغوفا بها[١٩].

وأمضى نور الدين عامي ١١٦٥م و١١٦٦م في القيام بهجمات مفاجئة على القلاع الواقعة شرقي منحدرات لبنان ، بينما راح شيركوه يغير على منطقة الأردن ، ودمر حصنا كان فرسان المعبد قد بنوه في مغارة جنوب عمان[٢٠]. وفي نهاية عام ١١٦٦م حصل شيركوه أخيرا على اذن سيده في غزو مصر مرة أخرى ؛ وحث الخليفة في بغداد على المناداة بهذا المشروع كحرب مقدسة ضد هرطقة الخلافة الشيعية الفاطمية ؛ وربما كان لهذا الجدل أثره على نور الدين الذي أصبح عميق التدين منذ مرضه ، وزود شيركوه وجيشه بتعزيزات من حلب . وانطلق شيركوه من دمشق في يناير ١١٦٧م ، واصطحب معه صلاح الدين مرة أخرى . ولم يخف نواياه ، مما أتاح الوقت لشاور كي يستنجد بالملك أماريك . واستدعى الملك باروناته لمقابلته هناك ؛ وبعد تأكيده للخطر المحدق بفلسطين في حالة غزو السوريون السنيون لمصر ، وافقت المحكمة العليا على إرسال حملة كاملة لإنقاذ شاور . وكان على قوة المملكة المقاتلة كلها أن تشترك في الحملة أو أن تبقى على الحدود للحراسة في غيبة الملك ؛ ولذا كان على كل شخص لا يستطيع الحضور أن يدفع عشر دخله السنوى . وقبل أن يتهيأ الجيش جاءت الأنباء بأن شيركوه يعبر صحراء سيناء ؛ فسارع أماريك بإرسال ما كان

---

(١٩) Michael the Syrian, III, pp. 301-4, 332, 334-6.

(٢٠) William of Tyre, XIX, II, pp.901-2; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p.501، ويحدد بهاء الدين تاريخ الإستيلاء على مونيترا بعد الحملة المصرية عام ١١٦٧م ؛ Ibn al-Athir, pp.545-6 and *Atabegs*, pp.235-6، استولى نورالدين على مونيترا ، على الطريق من جبيل الى بعلبك ، بينما استولى شيركوه على شقيف تيتون ، أو كهف تيرون ، الذى يحدده Rey(*Colonies Franques*,p.513) بأنه قلعة نينها، الواقعة على مسافة ١٥ ميلا تقريبا شرق صيدا . ومكان قلعة فرسان المعبد القريبة من عمان غير معروف . ويطلق عليها بهاء الدين آكاف ، وربما تكون مغارة كاف الواقعة جنوب شرق عمان والتى تضم أطلالا رومانية ، ولكن ليس هناك ما يدل على وجود أطلال من العصور الوسطى.

حاهزا من الجنود لإعتراض طريقه ، لكن السيف كان قد سبق العذل[٢١].

١١٦٧م : السفراء الفرنج فى القاهرة

هبت عاصفة رملية مرعبة كادت أن تسحق حيش شيركوه ؛ لكنه وصل برزخ السويس فى الأيام الأولى من فبراير تقريبا ، وهناك سمع بأن الجيش الفرنجى انطلق يوم ٣٠ يناير ؛ ولذا سار باتجاه الجنوب الغربي ، خلال الصحراء ، ليصل إلى النيل عند أطفيح ، على بعد أربعين ميلا حنوب القاهرة . وعبر النيل وهبط على الضفة الغربية وضرب معسكره فى الجيزة أمام العاصمة . وفى تلك الأثناء اقترب الجيش الفرنجى من القاهرة من الشمال الشرقى ؛ وقابله شاور فى مكان ما خارج المدينة وقاده إلى حيث يعسكر على الضفة الشرقية للنيل ، على مسافة ميل من أسوار المدينة . ورفض شاور اقتراحا من شيركوه بالاتحاد ضد المسيحيين ، وعقد حلفا مع أماريك يدفع بموجبه للفرنج أربعمائة ألف بيزانت نصفها في الحال والنصف الآخر بعد وقت قصير ، شريطة أن يقسم أماريك بعدم مغادرة مصر إلا بعد طرد شيركوه منها . وبعث الملك إثنان هما هير (لورد قيسارية) وفارس من فرسان المعبد يدعى حيوفرى - ربما كان يتحدث العربية - إلى داخل القاهرة للحصول على تصديق رسمى من الخليفة على الحلف . واستقبلا فى القصر استقبالا فخيما؛ إذ اقتيدا عبر صفوف أشجار وينابيع وحدائق ، حيث ما كان يحتفظ به البلاط من وحوش وأقفاص ضخمة للطيور ، ومن قاعة إلى اخرى تتدلى فى كل منها الستائر الكثيفة المحلاة بخيوط الحرير والذهب وأزرار المجوهرات ، إلى أن رُفعت ستارة ذهبية ضخمة ، لتكشف عن الخليفة الصبى من وراء ستر على عرشه الذهبى . وأقسم المقسمون بالحفاظ على المعاهدة . ثم إن هيو - كنائب عن الملك - رغب فى اتباع الطريقة الغربية للتصديق على التحالف بأن يشد على يد الخليفة العارية . وارتاع رحال الحاشية الملكية ، وأخيرا تم اقناع سيدهم ، وهو يتسم ابتسامة فيها الإزدراء ، بأن يخلع قفازه. وانسحب السفيران وقد تأثرا تأثراً عميقا - كما كان مقصودا - بما كان للامبراطورية الفاطمية من ثروة هائلة[٢٢].

---

(٢١) William of Tyre, XIX, 13, 16, pp. 902-4, 907-8; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p.48، ويقول بهاء الدين إن نورالدين أحبر صلاح الدين على مصاحبة شيركوه؛ Ibn al-Athir, p. 547, and *Atabegs*, p. 236.

(٢٢) William of Tyre, XIX, 17-19, pp.908-13; Ernoul, p.19، ويعلق إيرنول بأن بلاط الإمبراطور فى القسطنطينية هو فقط الأكثر ثراء من بلاط القاهرة ؛ Abu Shama, p. 130. ويواصل وليم

ومضى شهر والجيشان يحملق كل منهما فى الآخر ، لا يقدر أى منهما على عبور النهر في وجود الآخر قبالته . ثم تمكن أماريك من تنفيذ عبور إلى جزيرة على رأس الدلتا - إلى الشمال قليلا - ومنها إلى الضفة اليسرى ، حيث باغت إحدى فرق شيركوه . ووجد شيركوه أن جيشه ضئيل العدد أمام الفرنج والمصريين ، فانسحب باتجاه الجنوب أعلا النيل ، وتبعه أماريك وشاور ، متوخين جانب الحذر بترك حامية قوية فى القاهرة تحت قيادة ابن شيركوه، الكامل ، وهيو (اوف إبلين). وتسبب دخول كتيبة هيو إلى القاهرة والسماح للضباط بحرية دخول القصر ، فى إثارة الذعر لدى دوائر المسلمين الأكثر تشددا فى المدينة.

وفى مكان ما لا يبعد كثيرا عن مدينة المنيا فى وسط مصر ، تهيأ شيركوه لعبور النيل مرة اخرى وفى ذهنه العودة لغزو الحدود السورية . فعسكر فى أشمونين بين أطلال هرموبوليس القديمة ؛ حيث لحق به الجيش الفرنجى المصرى - الذى كان أكبر من جيشه حتى بدون الحامية التى تخلفت فى القاهرة . غير أن جيش شيركوه كان مؤلفا أساسا من فرسان الأتراك خفيفى الحركة ، بينما كان الجيش المصرى يتألف من المشاة ومع الجيش الفرنجى مجرد بضع مئات من الفرسان ؛ وبخلاف ما أشار عليه أمراء الجيش ، قرر شيركوه الاشتباك فى معركة . وتردد أماريك من ناحيته ، وعندئذ حدثت إحدى تدخلات القديس برنارد التعسة فى التاريخ الصليبى ؛ فقد ظهر للملك فى حلم وراح يوبخه توبيخا مهينا بأنه غير جدير بهذه القطعة الخشبية من الصليب الحقيقى التى يعلقها حول رقبته ، وأنه لن يبارك هذا الأثر إلا عندما يقسم الملك بأن يكون مسيحيا أكثر اخلاصا . وبهذا التشجيع ، شن أماريك فى الصباح التالى ، ١٨ مارس ١١٦٧م ، هجوما على السوريين . واتبع شيركوه التكتيكات التركية المعتادة ؛ فقد تهاوى القلب من جيشه بقيادة صلاح الدين ، وعندما انطلق الملك وفرسانه فى عدوهم يطاردون القلب ، دفع شيركوه ميمنته إلى ميسرة الفرنج والمصريين فانهارت . ووجد أماريك نفسه وقد أحيط به . وإنما يُعزي تمكنه من الهرب على قيد الحياة - كما يُظن - إلى الأثر المبارك المعلق فى رقبته ؛ على أن الكثيرين من أفضل فرسانه قتلوا وأسر آخرون ، من بينهم هيو كونت قيسارية . واندفع أماريك وشاور وبقايا جيشهما منسحبين إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية(٢٣).

الصورى بيان الفرق بين الطائفتين السنية والشيعية.

(٢٣) William of Tyre, xix, 22-5, pp. 917-28 (متضمنا وصفا لمصر والنيل)؛ Ibn al-Athir, pp. 547-9، يحدد تاريخ معركة أشمونين فى ١٨ مارس ، وفى *Atabegs,* p. 23 تحدد تاريخها فى ١٨

١١٦٧م : صلاح الدين محاصَر فى الإسكندرية

لقد انتصر شيركوه ؛ لكن هناك جيشا متحالفا لا يزال فى ساحة القتال . وبدلا من محاولة الهجوم على القاهرة ، عبر النهر مرة اخرى واتجه بسرعة إلى الشمال الغربى من خلال الفيوم ؛ وفى غضون أيام قليلة ظهر امام الإسكندرية . وفتحت له هذه المدينة العظيمة بواباتها لما كان يعرف عن كراهيتها لشاور . وفى تلك الأثناء أعاد أماليك وشاور تشكيل جيشهما خارج القاهرة . وبرغم الخسائر كان لا يزال أكبر من جيش شيركوه ؛ ولذا تبعاه إلى الاسكندرية وضربا حصارا حول المدينة ؛ ووصلت تعزيزات قليلة من فلسطين، وأبحرت سفن فرنجية لتحكم الحصار . وبعد انقضاء شهر تقريبا وجد شيركوه المجاعة تتهدده ، فترك صلاح الدين مع حوالى ألف من رجاله للدفاع عن المدينة ، وتسلل خارجا فى إحدى ليالى شهر مايو مع القسم الأكبر من جيشه ، مارا بمعسكر أماليك ويمم وجهه شطر مصر العليا . وشعر أماليك بالحنق ورغب فى مطاردته ؛ غير أن شاور أخبره بأن الأهم استرجاع الإسكندرية ، ولا مانع لديه من أن ينهب شيركوه مدن مصر العليا إذا شاء . وبنهاية شهر يونية أصبح وضع صلاح الدين داخل المدينة باعثا على اليأس بحيث توسل إلى عمه أن يعودوا .وتحقق شيركوه من أنه ليس هناك ما يمكنه أن يفعله ، فاقترب من الإسكندرية وأرسل أحد أسراه الفرنج ، وهو أرنولف امير تل بشير - بعد أن رفض هيو أمير قيسارية المهمة - إلى معسكر أماليك يقترح عقد السلام على أساس أن يجلو هو والفرنج عن مصر ، وعلى أن يعد شاور بعدم معاقبة رعاياه فى الاسكندرية وغيرها من الذين أيدوا الغزاة . وقبل أماليك بالشروط ، إذ كان فى حالة عصبية لانشغاله بشؤون فلسطين وطرابلس . وفى ٤ أغسطس ، دخل الجيش الفرنجى الاسكندرية وعلى رأسه الملك . وخرج صلاح الدين وجيشه بأسمى آيات الشرف العسكرى تحت الحراسة ، رغم أن السكان تمنوا لو يمزقوه إربا بعدما ألقوا عليه باللائمة لما هم فيه من بؤس . على أن متاعبهم لم تكن قد انتهت بعد ؛ فما أن دخل مسؤولو شاور المدينة حتى اعتقلوا كل من حامت حوله الشكوك فى التعاون مع السوريين ، مما دفع صلاح الدين إلى الشكاية لأماليك الذى أمر شاور باطلاق سراح السجناء . وقدم هو نفسه قوارب لنقل الجرحى من جيش شيركوه بحرا إلى عكا ، ولسوء الحظ أرسل من شفى من جراحاته للعمل فى مزارع السكر إلى أن جاء الملك بنفسه للإفراج عنهم . وأثناء المفاوضات ، صادق صلاح الدين الكثيرين من

Vita S. Bernardi, M.P.L. vol. CLXXXV, cols. 366-7، يحدد تاريخ المعركة فى ١٩ ابريل مارس.

بين الفرنج ، وساد الاعتقاد فيما بعد بأنه نال درجة الفروسية على يد الكونستابل همفرى (اوف تورون) . وغادر شيركوه وصلاح الدين مصر يوم ١٨ أغسطس تقريبا ووصلا دمشق فى سبتمبر . واتجه أماليك وجيشه إلى القاهرة لإعفاء هيو (اوف إبلين) من مهمته فى الحامية ، غير أنه انتهى مع شاور إلى أن وقع الأخير على معاهدة يعد فيها بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة ذهبية ، والاحتفاظ بمندوب سام فرنجى وحامية فرنجية صغيرة فى القاهرة تسيطر على بوابات المدينة . وبعد ذلك عاد الملك إلى فلسطين ووصل عسقلان يوم ٢٠ أغسطس[٢٤].

وظن بعض لوردات الفرنج أن كان من الممكن الحصول على صفقة أفضل ، لكن أماليك لم يشأ المجازفة بقواته أكثر من ذلك فى مصر وترك فرنج سوريا بلا حماية من هجمات نور الدين ؛ وحدث عندما كان فى مصر أن أغار نور الدين على أراضى طرابلس ، ولكن دون أن يستولى على أية حصون هامة ؛ فكان من الضرورى إعادة تنظيم الدفاع عن البلاد. على أن مشكلة المشاكل هى دائما الرجال ؛ وكانت أعداد الأسر المقيمة تتناقص بسبب الموت أو الوقوع في الأسر ، وأما الصليبيون الزائرون - مثل ثييرى (اوف فلاندرز) - فليس فى الامكان الاستعانة بهم إلا فى حملات محددة ؛ ومن ثم كان حُل اعتماد أماليك على النظامين العسكريين اللذين منحا فى عام ١١٦٧م والأعوام التالية أعدادا كبيرة من القلاع والأراضى المحيطة . وكانت الهبات على جانب من الأهمية بالنسبة لطرابلس خاصة ، إذ كان أميرها ما يزال أسيرا و لم يكن فيها من الأسر النبيلة الكبيرة سوى القليل . وكانت طرطوس وشمال البلاد كله تقريبا تحت سيطرة فرسان المعبد ، أما فرسان المستشفى - الذين ربما كانوا قد استولوا فعلا على الكرك التى يسمونها "حصن الفرسان des Chevaliers" - فقد عهد اليهم بالبقاع. وفى المملكة ، كان فرسان المعبد - الذين وطدوا دعائمهم بالفعل فى غزة - قد منحوا صفد فى الشمال ، بينما حصل فرسان المستشفى على قلعة كوكب التى تتحكم فى مخاضات نهر الاردن الواقعة إلى الجنوب من بحر الجليل . وفى انطاكية حذا بوهمند الثالث حذو أماليك ؛ فزادت حيازات فرسان المعبد من المناطق المحيطة ببجراس ، على البوابات السورية ، وخصص لفرسان المستشفى مساحة ضخمة من الأراضى جنوب الامارة ، كان اغلبها فى الواقع فى أيدى المسلمين . ولو أن الغيرة المتفشية بين النظامين

---

(٢٤) William of Tyre, xix, 26-32, pp.928-39; Abu Shama, pp. 130-4; Ibn al-Athir, pp. 547-51, and *Atabegs*,pp. 236-46; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 49-51; Imad ed-Din. وترد قصة فروسية صلاح الدين فى *Itinerarium Regis Ricardi*, p.9 .

كانت أقل والشعور بالمسؤولية كان أكبر ، لاستطاعا الحفاظ على دفاعـات المملكـة بما لهما من قوة[٢٥].

١١٦٦-١١٦٧م: مغامرات أندرونيكوس كومنينوس

بينما تقرر أن يقود النظامان الدفاع عن المملكة ، سعى أمـالريك كذلـك إلى عقـد تحالف اوثق مع بيزنطة . وفـي أغسطس ١١٦٧م ، وكـان قـد عـاد لتـوه مـن مصـر ، وصلته أنباء بأن سفيريه في القسطنطينية، رئيس أساقفة قيسارية والنادل أودو، قد هبطا في ميناء صور مع إبنـة أخي الامـبراطور الجميلـة الشـابة ماريـا كومنينـا ؛ فسـارع إلى مقابلتها ؛ وشهدت كتدرائية صور حفل زواجهما الفاخر الذى عقده البطريق أمـالريك يوم ٢٩ أغسطس . ومنحـت الملكـة نـابلس والأراضـى المحيطـة بهـا مهـرا لهـا . وكـان بصحبتهـا اثنـان مـن كبـار المسـؤولين فـى بـلاط عمهـا، وهمـا ابنـا عمومتـه جـورج بالايولوجوس ومانويل كومنينوس، وكانا مزودين بسلطة مناقشة التحالف مع امالريك.

وكانت العلاقات الحسنة بين امراء الفرنج والامبراطور قد تعرضت مؤخرا للخطر بسبب ماكان عليه ابن عم آخر لمانويل ، هو أندرونيكوس كومنينوس من رعونة، وكان أكثر امراء عائلته ذكاء ووسامة ؛ وكان هـذا الامـير في أحـط درجـات الخزى لمغازلتـه إحدى قريباته ، وهى إيوديشيا ابنـة اخـت االامـبراطور ، التـى تحدثـت الشـائعات بـأن الامبراطور نفسه كان بالغ الشغف بها . وفضلا عن ذلك ، أتى من التصرفات مـا يـدل على افتقاره إلى الحكمة عندما كان محافظا فى كيليكيا عام ١١٥٢م ؛ غير أنه عُيّن مـرة اخرى فى هذا المنصب عام ١١٦٦م . وكان سلفه الكسـيوس آكسـوخ - الـذى أوفـد مكان كولومان أثناء أسـره - قـد فشـل فـى تنفيـذ أوامـر الامـبراطور فـى التوفيـق بـين الأرمن، وقـت أن كـانت الآمـال معلقـة على نجاحـه مـع ثـوروس لمـا كـان يتمتـع بـه أندرونيكـوس مــن جاذبيــة شــخصية ، إلى جــانب الكثــير مــن المعونــات. بيــد أن أندرونيكوس، الذى بلغ من العمر السادسة والأربعين ، كان أكثر اهتماما بالمغامرة منـه بالادارة ؛ وسرعان ما اتيحت له الفرصة لزيارة انطاكيـة حيـث أصابتـه الامـيرة الشـابة فيليبا - اخت بوهمند - بسهم جمالها . ونسى أو تناسى واجباته الحكومية ومكـث فـى انطاكية يتودد لفيليبا بسلسـلة مـن الأناشـيد العاطفيـة الليليـة حتـى تملـت و لم تملـك أن

---

(٢٥) انظر Delaville Le Roulx, *op. cit.* pp.74-6. وترد أمثلة متواترة عن الهبات الممنوحة للنظـامين فـى .Rohricht, *Regesta*, pp. 109 ff.

ترفض له طلبا . واغتاظ بوهمند ولجأ فى شكواه إلى زوج أخته مانويل، الذى تملكه الغضب فاستدعى أندرونيكوس وأرسل مكانه قنسطنطين كولومان . كما صدرت الأوامر لكولومان بالتوجه إلى انطاكية ومحاولة الفوز بقلب فيليبا؛ لكن الأميرة وجدته بسيطا قصيرا فى منتصف عمره بالمقارنة بحبيبها الرائع . ومع هذا ، كانت دوافع أندرونيكوس بدرجة كبيرة مضايقة القيصَرة التى كان يبغضها ، والآن اتخذ سبيل الحصافة فهجر انطاكية ومحظيته ؛ وأخذ معه نصيبا ضخما من الايرادات الامبراطورية من كيليكيا وقبرص ويمم وجهه شطر الجنوب عارضا خدماته على الملك أماليك . وسرعان ما عُثر على زوج للأميرة المهجورة ، الكونستابل همفرى الثانى (اوف تورون) الأرمل المسن.

وافتتن أماليك بأندرونيكوس ، وأثرت فيه شجاعته الشخصية ، فوهبه اقطاعية بيروت التى كانت شاغرة آنذاك . وبعد ذلك مباشرة ذهب أندرونيكوس إلى عكا ، وهى مهر ابنة عمه الأرملة الملكة ثيودورا التى كانت وقتئذ فى ربيعها الحادى والعشرين وفى رائعة جمالها . وكانت قصة حب من كلا الجانبين؛ والتصق كل منهما بالآخر بحيث لم يكن للزواج بينهما ضرورة ، وانتقلت الملكة بلا خجل إلى بيروت حيث مكثت خليلة له . وعندما سمع مانويل بهذه الصلة الجديدة ، ربما من سفرائه الذين رافقوا الملكة ماريا إلى فلسطين ، تفجرت لديه سورة الغضب . ولذا ، وعندما ذهب سفراؤه بعد ذلك إلى فلسطين طلبوا سرا تسليم الجانى . ووقعت التعليمات المعطاة للسفراء فى يد ثيودورا . ولما كان معروفا أن اماليك يسعى إلى الفوز بنوايا الامبراطور الحسنة ، ارتأى اندرونيكوس أن الحكمة تدعوه إلى الرحيل وأعلن عن نيته فى العودة إلى وطنه ، وجاءت ثيودورا إلى عكا مرة اخرى لتوديعه . وما أن التقيا حتى تركا كل ممتلكاتهما ولاذا بالفرار دون مرافق عابرين الحدود إلى دمشق . واستقبلهما نور الدين استقبالا طيبا؛ وأمضيا السنوات التالية يتجولان فى أرجاء الشرق الإسلامى ، وزارا حتى بغداد ، إلى أن منحهما أحد الأمراء المسلمين حصنا بالقرب من حدود الامبراطورية عند بافلاجونيا ، حيث استقر أندرونيكوس بعدما حكم عليه بالطرد من الكنيسة ، سعيدا بحياة قطاع الطرق . ولم يأس أماليك لرحيلهما ، إذ استعاد مهر اخت زوجته النفيس ـــ عكا[٢٦]

(٢٦) illiam of Tyre, xx, 2, pp. 943-4; Cinnamus, pp. 250-1; Nicetas Choniates, pp. 180-6.
(وعن تاريخ أندرونيكوس بعد ذلك انظر أدناه الصفحات ٤٨٣-٤٨٥).

١١٦٨م : التحالف مع بيزنطة

ومن الواضح أن اماليك أرسل مع جورج بالايولوجوس إلى مانويل يقترح غزو مصر . وحملت السفارة التالية لمانويل - التى رأسها إيطاليان هما الكسندر (اوف كونفرسانو) كونت جرافينا، وميخائيل (اوف اوترانتو) - شروط الامبراطور التى يبدو أنها كانت تتألف من حصة فى أسلاب مصر وإطلاق يده تماما فى انطاكية ، وربما التنازل عن أراض فرنجية أخرى . كانت الشروط قاسية ؛ ولذا بعث امالريك رئيس شمامسة صور ، وليم - مؤرخ المستقبل - إلى القسطنطينية لإستئناف المناقشات . وعندما وصل وليم هناك علم أن الامبراطور فى حملة فى الصرب فتبعه إلى هناك وقابله فى موناستير حيث استقبله مانويل بما اعتاد عليه من سخاء الكرم وعاد معه إلى عاصمته. وأبرمت المعاهدة التى تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملك غزوتهما لمصر . وعاد وليم إلى فلسطين فى أواخر خريف ١١٦٨م[٢٧].

وللحظ التعس ، لم ينتظر البارونات عودته . إذ وردت الأنباء بأن شاور يفتقر إلى الأمان، وأنه متبرّم من الحامية الفرنجية فى القاهرة ، وقد تأخر فى دفع الإتاوة ، إلى جانب انتشار الشائعات بأن ابنه الكامل يتفاوض مع شيركوه ، وطلب يد أخت صلاح الدين . وكان لوصول الكونت وليم الرابع كونت نفرس إلى فلسطين فى اواخر الصيف ومعه صحبة رائعة من الفرسان ، أن شجع أولائك المتعجلين للعمل . وعقد الملك مجلسا فى القدس راح فيه السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جيلبرت (اوف أسّيلى) يحث بعنف على الانطلاق إلى مصر إذ لم يعد هناك مجال لأى تأخير ؛ وأيده أغلب البارونات العلمانيين ؛ وزاد التأييد بما أضافه كونت نفرس ورجاله ، الذين جاءوا للحرب من اجل الصليب . وعارض فرسان المعبد صراحة ارسال اية حملة وأعلنوا انهم لن يشتركوا فيها. وربما ترجع معارضتهم إلى غيرتهم من فرسان المستشفى ، الذين قرروا بالفعل الحصول على الفرما (بيلوزيوم) باعتبارها نصيبهم فى الحملة ، كمقابل لحصن غزة الذى يحتله فرسان المعبد . على أن لفرسان المعبد أيضا علاقات مالية مع المسلمين ومع المدن التجارية الايطالية التى اصبحت تجارتها الآن مع مصر أكبر من تجارتها مع سوريا المسيحية . ووافق الملك أماليك على أنه من الضرورى القيام بعمل عاجل نظرا لضعف شاور وعدم امكان الاعتماد عليه ، لكنه اعرب عن رغبته فى الانتظار إلى أن تصل مساعدة الامبراطور . لكنهم تغلبوا عليه . وأمام الإصرار المتعنت من فرسان المستشفى

---

(٢٧) William of Tyre, xx, 4, pp. 945-7.

ومن أتباعه هـو نفسـه ، الذين لم يجدوا مـا يـبرر حصـول اليونـانيين على حصـة مـن اسلابهم، رضخ أماليك . وتقرر التخطيط لحملة فى أكتوبر(٢٨).

١١٦٨م : أماليك يتقدم نحو القاهرة

عاد وليم الصورى بمعاهدته من القسطنطينية ليجد الملـك قـد رحـل فعـلا . وكـان أماليك قد أذاع أنه سيهاجم حمص ردعا لنور الدين عن الإقدام على أى عمل ؛ وفعلا كان نور الدين راغبا فى تجنب أى حرب مع الفرنج نظرا لمتاعبـه الخاصـة بـه فـى شمـال شرق سوريا . كما أن شاور لم يتحقق مما كان جاريا إلى أن خرج الجيش الفرنجـى مـن عسقلان يوم ٢٠ اكتوبر ليصل بعد ذلك بعشرة ايام أمام بلبيـس ، الأمـر الـذى أصابـه بالهلع فما كان يظن قط أن يخرق اماليك معاهدته معه على هذا النحو المستهتر . وقابل سفيره الأول - الأمير بدران - الملك فى الـداروم علـى الحـدود ، لكنـه ارتشـى . وأمـا سفيره الثانى - شمس الخلافة - فقابل الملك فى الصحراء بعد مروره على بلبيس بمسـيرة أيام قليلة فراح يؤنبه تأنيبا مريرا على غدره ؛ فكان رد الملك على ذلك أن المبرر لتصرفه ما قام به الكامل - ابن شاور- من مفاوضـات مـع شـيركوه ، وعلـى أيـة حـال ، فـإن الصليبيين الوافدين مؤخرا من الغرب عقدوا العزم على مهاجمة مصـر ، وان وجـوده انمـا ليكبح جماحهم. وأضاف أنه قد ينسحب لو تسلم مليونين آخرين من الدنانير . غـير أن شاور ارتاب الآن فى نوايا الملك . ولدهشة الملك ، قرر شاور المقاومة ورفض ابنه طـيئ - وكان آمر الحامية فى بلبيس - فتح بواباته للفرنج . لكن قواته كانت ضئيلة العـدد ، فبعد ثلاثة أيام من القتال اليـائس ، الـذى لم يكـن امـاليك يظـن أن المصريـين قـادرين عليه، دخل الجيش الفرنجى القلعة يوم ٤ نوفمبر ، أعقبه مذبحة مروعة للسكان . وربمـا كان أبطال المذبحة هم رجال نفرس ، الذين كانوا متقدين حماسا وفوضى كشأن أغلـب الوافدين الجدد من الغرب ، وكان زعيمهم الكونت قد مات فى فلسطين من الحمى قبل بداية الحملة ، ولم يكن هناك من يقدر على السيطرة عليهم . وحاول أمـاليك المحافظـة على النظام ، وعندما أفلح أخيرا اضطر هو نفسه إلى أن يشترى من الجنود من بقى على قيد الحياة ممن أخذهم الجنود رهائن . على أن المحظور كان قد وقـع. وكـان الكثـير مـن

(٢٨) William of Tyre, xx, 5, pp.948-9 (بذكر وصول كونت نفرس فى الفصل السابق)؛ Michael the Syrian (III, pp.332-3)، وكان المؤرخون العـرب Ibn al-Athir,pp 553-4, and *Atabegs*, pp. 246-7, and Abu Shama, pp. 112-13 مدركون أن الملك رضخ لمجلسه.

المصريين الكارهين لشاور على استعداد للترحيب بالفرنج كمخلصين ، وكانت الطوائف القبطية وهي بأعداد كبيرة فى مدن الدلتا خاصة ، على استعداد للتعاون مع الرفاق المسيحيين ؛ غير أن الأقباط والمسلمين على السواء قد هلكوا فى المذبحة ، فاتحد الشعب المصرى كله فى بغضه للفرنج . وبعد أيام قليلة وصل اسطول فرنجى صغير محمّل فى أغلبه بالغربيين ، وكان مقررا أن يبحر أعلى مصب النيل فى تانيس ، إلى بحيرة المنزلة وهبط فجأة على مدينة تانيس ؛ وتكررت نفس مشاهد الرعب ، وكان الأقباط هم الذين عانوا أكثر من غيرهم.

وتمهل اماريك لأيام قليلة فى بلبيس ، لإعادة محاولة السيطرة على جيشه بلا شك. وفاتته فرصة مباغتة القاهرة ، وانما ظهر يوم ١٣ نوفمبر امام اسوار الفسطاط ، وهى الضاحية القديمة الواقعة جنوب المدينة العظيمة . وتشكك شاور فى قدرة الفسطاط على الصمود فأشعل فيها النيران ، وأرسل سفيره شمس مرة اخرى إلى الملك ليقول له إنه قبل أن تسقط القاهرة فى أيدى الفرنج سيحرقها هى ايضا إلى أن يسويها بالارض بكل ما فيها من ثروة . وكان الاسطول محجوزا فى أعلى الدلتا بحواجز وضعت فى مجرى النهر، فتحقق اماريك من أن الحملة سلكت مسلكا خاطئا . وأخذا بنصيحة قهرمانه - مايلز (اوف بلانس) - جعل شاور يفهم أن فى الامكان رشوة الملك . فراح شاور يتلاعب كسبا للوقت ؛ فبدأ يساوم على المبلغ الذى يستطيع دفعه ؛ فدفع مائة ألف دينار فدية ابنه طيئ ، وراح يتحدث عن مدفوعات اخرى . وفى تلك الأثناء انتقل الجيش الفرنجى بضعة اميال شمالا وعسكر فى المطرية ، حيث شجر الجميز الذى أوقف ظله السيدة العذراء اثناء هروبها فى مصر . وانتظروا هناك ثمانية ايام إلى أن جاءت الأنباء فجأة بأن شيركوه يزحف داخل مصر التى جاءها بدعوة من الخليفة الفاطمى(٢٩).

١١٦٩م : شيركوه يفوز بمصر لنور الدين

لم يكن شاور يرغب فى اتخاذ تلك الخطوة اليائسة ؛ لكن ابنه الكامل فرض عليه رأيه وأرغم سيده الإسمى الأعلى - الخليفة العاضد - على الكتابة إلى حلب عارضا على نور الدين ثلث أرض مصر واقطاعيات لقواده . ولابد أن الخليفة الصغير أدرك خطر

---

(٢٩) William of Tyre, xx, 6-9, pp.949-56; Abu Shama, pp. 114-15, 136-40، يقتبس أبو شامة من عماد الدين؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P. 52; Ibn al-Athir, pp. 554-6, and *Atabegs*, pp. 247-50.

التماس الحماية ممن يبدو فى عينيه هرطيقى مدّع ، لكنه كان فاقد الحيلة . وعندما تسلم نور الدين الدعوة أرسل مبعوثا إلى شيركوه فى حمص التى يقيم بها ؛ علـى أن المبعوث وحد شيركوه فعلا على بوابات حلب . ولم يتردد نور الدين هذه المرة ، فزود شيركوه بثمانية آلاف فارس وخزانة تمويل الحرب تحوى مائتى ألـف دينـار للإنفـاق علـى جيش دمشق لغزو مصر ، وأمر صلاح الدين بمصاحبته . ولم يكن شاور علـى يقـين بعـد أبـن تكمن مصالحه ، فأنذر أماليك الذى تحرك مع جيشـه ناحية بـرزخ السـويس أمـلا أن ينقض على شيركوه عندما يبرز من الصحراء ؛ لكن شيركوه أفلت منه بانحداره جنوبا ، وبذا لم يكن للفرنج الآن بد من الجلاء . وبدأ أماليك انسـحابه بـوم ٢ ينـاير ١١٦٩م بعد أن أمر أسطوله بالعودة إلى عكا وبعد أن استدعى الحاميـة التـى تركهـا فـى بلبيـس للإنضمام اليه(٣٠).

وبعد ستة أيام دخل شيركوه القـاهرة تاركـا جيشـه معسـكرا عنـد بـاب اللـوق ، وذهب إلى القصر حيث منحه الخليفـة الهدايـا الرسميـة ووعـد بالمـال والطعـام لجنوده . وحيّاه شاور بحرارة ؛ ودأب على زيارته يوميا فى الأيام التاليـة لمناقشـة الترتيبـات الماليـة وتقسيم الوزارة . وتلقى شيركوه تلـك العـروض بكياسـة ؛ غـير أن ابـن أخيـه صـلاح الدين، الذى كان أهم مستشاريه ، أصر على اتخاذ اجراء اكثر شـدة . وأفلـح فى اقنـاع الخليفة بالحضور متنكرا إلى مقر شـيركوه ؛ وفـى ١٨ ينـاير تلقـى شـاور دعـوة لمرافقـة شيركوه فى زيارة دينية لقبر الإمام الشافعى ، وعندما شرع شاور فى الذهـاب ، انقـض عليه صلاح الدين وامراؤه ، وجردوا حراسه من أسلحتهم والقـى القبـض عليـه . وفـى اقل من ساعة صدر امر من الخليفة بضرب عنقه، ووضعت رأسـه عنـد قدمـى الخليفـة. ولكى يتجنب شيركوه أية محاولة تنال منه أعلن أن بيت الوزير مفتـوح لمـن يرغـب فـى نهبه، وبينما كانت الجماهير تتدافع إلى هناك، انتقل هو والخليفة إلى القصر وتولى زمـام الحكومة بهدوء. ولقد كان حكـم شـاور أبعـد مـا يكـون عـن الشـعب، وكـان اعتبـار شيركوه للشرعية غاية فى الريبة بحيـث لم يلـق النظـام الجديـد معارضـة أيّ مـن حكـام المقاطعات. ولم تمض أسابيع قليلة حتى غدا شيركوه سـيد مصـر كلهـا؛ وتسـلم أمـراؤه الاقطاعيات التى كـانت لـدى شـاور وأسـرته، وحصـل هـو نفسـه علـى لقـب الوزيـر

---

(٣٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 52-3; Ibn al-Athir, p. 563, and *Atabegs*, p.250; Abu Shama, p. 117 واستنادا الى رواية بهاء الدين، التى كررها ابن الأثير بمزيد من الإكمال ، كان صلاح الدين عازفا بشدة عن الانضمام إلى الحملة.

الملك[٣١].

ولم يعش شيركوه طويلا فى رفعته ؛ إذ مات يوم ٢٣ مارس ١١٦٩م بسبب التخمة . ولقد حُجبت شهرته فى التاريخ بظلال سيده نور الدين وابن اخيه صلاح الدين . ومع ذلك ، كان هو الذى أدرك بجلاء يفوق أى مسلم آخر ، أن غزو مصر بما لها من موقع استراتيجى وموارد لا تنضب ، هو المقدمة الضرورية لاسترجاع فلسطين ؛ وبرغم تردد نور الدين ويقظة ضميره، ظل شيركوه يعمل بلا كلل لتحقيق هذه الغاية. وكان لابن اخيه أن يحصد ما دأب على غرسه. كان ذا مظهر يخلو من أهمية، وكان قصيرا، ربلا، أحمر الوجه، يبصر بعين واحدة، وكانت ملامحه تنم عن وضاعة مولده. غير أنه كان جنديا عبقريا. والقليل من القادة يتفانى جنودهم فى حبهم[٣٢].

ولقد تحقق الفرنج جيدا من الأهمية القاتلة لانتصار شيركوه . وبينما ألقى بعضهم باللائمة على جشع مايلز (اوف بلانسى) ، الذى جعل الملك يقبل المال بدلا من الحرب، بحث آخرون عن كبش فداء فوجدوه فى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، الذى أجبر على التخلى عن منصبه والعودة إلى بلاده فى الغرب . وأما أماريك نفسه فقد أرسل النداء إلى الغرب لتسيير حملة صليبية جديدة . فانطلقت فى باكورة عام ١١٦٩م سفارة لتحريك العواطف ، يرأسها البطريق اماريك ورئيس اساقفة قيسارية ، تحمل رسائل إلى الامبراطور فريدريك ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ، ومارجريت الملكة الوصية على صقلية ، والى كونتات فلاندرز وبلوا. ويروى أنه بعد مضى يومين فى البحر ، هبت عاصفة هوجاء أعادت سفن السفراء إلى عكا ، ولم يرض أحد من الركاب المجازفة مرة اخرى بأخطار الأعماق . وانطلقت سفارة ثانية يرأسها فريدريك رئيس اساقفة صور ، ومساعده الأسقف ، وجون أسقف بانياس ، وجيبرت مرشد نظام فرسان المستشفى . ووصلوا روما فى يولية ١١٦٩م حيث أعطاهم البابا ألكسندر الثالث خطابات توصية موجهة إلى جميع رجال الدين اتباعه . بيد أن تلك الرسائل جميعها لم تجد فتيلا؛ إذ احتجزهم الملك لويس لأشهر

---

(٣١) (اقتباس من عماد الدين Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 53-5)؛ Ibn al-Athir, pp.558-60 and -*Atabegs*, pp.251-3; Abu Shama, pp.118-19, 142-5; William of Tyre, xx,10, pp. 956-8.

(٣٢) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 55; Ibn al-Athir, pp. 560-1؛ ويصفه وليم الصورى (xix, 5, p.892) بنفس العبارات كالتى استخدمها الكتاب العرب . ويصف بهاء الدين (pp. 50-1) عزمه المتلهف على ضم مصر الى ملك سيده.

كثيرة فى باريس ، حيث مات أسقف بانياس ، بينما كان الملك يشرح لهم مشاغله مع أسرة البلانتاجينيتس (الحاكمة فى انجلترا) . فواصلوا رحلتهم إلى انجلترا حيث حادثهم الملك هنرى عن متاعبه مع الكابيتيون . ولم يكن هناك معنى لزيارة المانيا نظرا للخلاف بين البابا والامبراطور . وبعد عامين من الإستجداء العقيم عادوا إلى فلسطين بقلوب متفطرة(٣٣).

١١٦٩م : حملة تحالف ضد مصر

وأحرزت السفارة المرسلة إلى القسطنطينية نجاحا أكبر . ذلك أن مانويل أدرك جيدا أن ميزان القوى فى الشرق قد انقلب بصورة خطيرة ، فعرض على أماريك تعاون الأسطول الامبراطورى العظيم فى حملته التالية(٣٤)، فوافق الملك مسرورا . وربما أمكن مع ذلك استعادة مصر ، إذ أن نور الدين فى غاية الانشغال فى الشمال على مايبدو . فقد نتج عن موت قرة أرسلان ، أمير دياربكر الأرتقى عام١١٦٨م ، وما تلى ذلك من خلاف حول الميراث ، أن أفسد النظام على نور الدين وعلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ؛ فضلا عن أن غازى بن حسّان ، حاكم منبج ، تمرد بعد ذلك مباشرة ومضت عدة أشهر قبل تسوية أمره . والآن كان قطب الدين يحتضر ، وسرعان ما سوف تثار مسألة الاستخلاف على الموصل(٣٥). وفى مصر انتقلت ألقاب شيركوه وسلطته إلى ابن اخيه صلاح الدين . ولكن صلاح الدين ليس بالحاكم المحنك ، وكان هناك آخرون من أمراء شيركوه يتمنون استخلافهم مكانه ، غير أن الخليفة اختار صلاح الدين وهو على ثقة من أن افتقاره إلى الخبرة ستدفعه إلى الاعتماد على المسؤولين الفاطميين . وفى ذات الوقت كتب كبير الطواشية لدى العاضد - وهو نوبى يدعى المؤتمن - سرا إلى القدس يعد بالمساعدة فى حالة غزو الفرنج لمصر . ولكن لسوء حظه، لاحظ أحد عملاء صلاح الدين شكلا غير طبيعى لخُفّين مع أحد سعاة البلاط مما أثار ريبته، فأخذهما وقطع خياطتهما ووجد الرسالة فيهما . وانتظر المؤتمن

---

(٣٣) William of Tyre, xx,12,pp. 960-1; letters of Amalric in *R.H.F.* vol. XVI, pp. 187-8; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.258-. فى عام ١١٨٣م مات السيد الأعظم لفرسان المستشفى غرقا وهو يعبر من ديبى الى انجلترا. انظر Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers*, pp. 76 ff.

(٣٤) William of Tyre, xx, 13, pp. 961-2.

(٣٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P.52; Abu Shama, pp. 188-9; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 264; Michael the Syrian, III pp. 339-42؛ ومات قطب الدين فى العام التالى (١١٧٠م).

ثار صلاح الدين ، غير أن أنباء انعدام الأمن لديه شجعت المسيحيين(٣٦).

وأرسل أماليك إلى الامبراطور يستعجله ؛ وفى ١٠ يولية ١١٦٩م انطلق الأسطول الامبراطورى الضخم من الدردنيل بقيادة الدوق العظيم أندرونيكوس كونتوستيفانوس . وأبحر الأسطول الرئيسى إلى قبرص مستوليا على سفينتين مصريتين فى طريقه ، وأبحر أسطول أصغر مباشرة إلى عكا يحمل معونات مالية لجنود أماليك . وقيل لأماليك بأن يرسل إلى قبرص مستدعيا الأسطول عندما يرغب فى ذلك . لكن اماليك لم يكن جاهزا ، إذ أن حملة عام ١١٦٨م سببت الاضطراب فى قواته ، وكانت خسائر فرسان المستشفى جسيمة جدا . وأما فرسان المعبد فكانوا لا يزالون يرفضون الاشتراك ، وقد خبت جذوة الحماس عند البارونات عمّا كانت عليه، إذ أن التجربة السابقة أضعفت عزائمهم ، ولم يرسل أماليك إلى قبرص لاستدعاء الأسطول إلى عكا إلا فى سبتمبر ، وقد أثار منظره الرائع مشاعر البهجة لدى السكان ؛ ولم تتهيأ الحملة كلها للمسير إلى مصر إلا فى منتصف اكتوبر . وضاعف التأخير من الحظ التعس ؛ ذلك أن مانويل ، الذى أدخلوا فى روعه التفاؤل ، أعد العدة لحملة تستغرق وقتا قصيرا وزود سفنه بالمؤن التى تكفى ثلاثة أشهر فقط ، وقد قاربت الأشهر الثلاثة على الانقضاء . ولم تستطع قبرص المساعدة فى اعادة تموين الاسطول وهى التى لم تبرأ بعد مما سببه رينالد من خراب ، وليس فى عكا مؤن يمكن الحصول عليها(٣٧). وفى ذات الوقت تلقى صلاح الدين تحذيرات كثيرة عن الحملة ؛ ولكى يوفر لنفسه الأمان فى القاهرة اعتقل فى ٢٠ اغسطس ١١٦٩م الخصى المؤتمن وضرب عنقه ، وطرد جميع خدم القصر ممن يعرف عنهم الولاء للخليفة واستبدلهم بصنائعه هو نفسه . وطرد بعض المسؤولين الذين شجعهم الخليفة على تحريض حرس القصر النوبيين على الثورة ومهاجمة جنود صلاح الدين . وقام أخو صلاح الدين ، فخر الدين ، بهجوم مضاد لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إلى أن أشعل صلاح الدين النيران فى ثكنات الحرس فى الفسطاط التى كان بها زوجات وأولاد أفراد الحرس النوبيين ، فما كان من الحرس الا أن هرولوا هربا لإنقاذهم؛ فانقض عليهم فخر الدين وقتلهم جميعا على وجه التقريب . أما الخليفة الذى كان يرقب المعركة ، فقد سارع ليؤكد ولاءه لصلاح الدين . وأدى تخلي الخليفة عن النوبيين إلى القضاء على الحرس كله ؛ إذ أن الحرس الأرمينى ، الذى لم يشترك فى

---

(٣٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 55-6; Ibn al-Athir, pp. 566-8; Abu Shama, p.146. الوثيقة التى اصدرها الخليفة بتعيين صلاح الدين موجودة فى برلين ، folios long.٩٨ .

(٣٧) Nicetas Choniates, pp. 208-9; William of Tyre, *loc. cit.*.

المعركة ، قد حُرق حتى الموت فى الثكنات . وهكذا أفلح صلاح الدين فى إسكات معارضيه(٣٨) .

١١٦٩م : حصار دمياط

انطلق الجيش المسيحى أخيرا يوم ١٦ أكتوبر . وعرض أندرونيكوس كونتوستيفانوس ، الذى أغاظه تأخير اماليك ، نقل جُل الجنود بحرا ؛ لكن الفرنج أصروا على الطريق البرى . وفى ٢٥ اكتوبر دخل الجيش مصر عند الفرما بالقرب من بليوزيوم . وكان صلاح الدين يتوقع هجوما على بلبيس ، فركز قواته هناك ؛ لكن السفن البيزنطية كانت قد نقلت الفرنج عبر فروع النيل الشرقية ، وابحرت بمحاذاتهم بطول الشاطئ ، فزحف الفرنج بصورة خاطفة على دمياط ، تلك القلعة الغنية التى تتحكم فى فرع النيل الرئيسى ، ومنها يستطيع الأسطول الإبحار باتجاه القاهرة . وبرغت صلاح الدين . ولم يجرؤ هو نفسه على مغادرة القاهرة خشية أن يتشجع مناصرو الفاطميين للقيام بثورة ؛ لكنه أرسل التعزيزات إلى دمياط ، وكتب بنفسه إلى سوريا يلتمس المساعدة من نور الدين . وكانت الحامية فى دمياط قد ألقت بسلسلة عظيمة بعرض النهر ؛ ولم تتمكن السفن اليونانية - التى أعاقتها ايضا رياح معاكسة - من الابحار مرورا بالمدينة كى تعترض تعزيزات الجنود والمؤن الآتية فى المجرى من القاهرة. وربما استطاع المسيحيون الاستيلاء على القلعة بهجوم مفاجئ ؛ غير أنه برغم الحاح كونتوستيفانوس للقيام بهجوم فورى - وقد شغله تناقص الامدادات - فقد شعر اماليك بالرهبة من التحصينات المروعة ، وأبدى رغبته فى تشييد المزيد من ابراج الحصار . وبقرار خاطئ وضع البرج الأول أمام أقوى جزء فى الأسوار ؛ وأطلق اليونانيون آلات حصارهم تقصف ناحية مقدسة تضم كنيسة صغيرة مكرّسة للسيدة العذراء ، وهى ناحية كانت السيدة العذراء قد توقفت فيها أثناء رحلتها إلى مصر؛ فدب الهلع بين السكان المحليين من المسيحيين والمسلمين على السواء . وفى كل يوم يتدفق جنود جدد إلى داخل المدينة . وفى كل يوم كانت حصص البحارة اليونانيين ورفاقهم على الشاطئ تتناقص ، دون أن يساعدهم حلفاؤهم الفرنج بما لديهم من وفرة فى الامدادات . وفى كل يوم كان كونتوستيفانوس يناشد اماليك المجازفة بهجوم شامل على الأسوار ، ويرد اماليك بأن المجازفة بالغة الخطر ، ويهمس له قواده المرتابون

---

(٣٨) Abu Shama, pp. 147-8; Ibn al-Athir, p. 568.

فى اليونانيين بأن الذى يحرك حماس كونتوستيفانوس هو رغبته فى الاستيلاء على دمياط كجزء من الغنائم الامبراطورية . وما أن أهل شهر ديسمبر حتى بدا جليا أن الحملة قد فشلت . فبدون طعام لا يستطيع اليونانيون المضى فى الحرب . وأطلق المدافعون قاربا مشتعلا فى وسط الأسطول ، فأنزل باليونانيين خسائر فادحة ، رغم أن تدخل اماريك العاجل قلل من الأضرار . وصارت القلعة الآن مزودة جيدا بالرجال والامدادات ، وقيل إن الجيش الإسلامى الآتى من سوريا يقترب ؛ وعندما هطلت الأمطار هطولا مبكرا وأحالت المعسكر المسيحى إلى مستنقع ، كان الوقت قد حان لرفع الحصار . ولا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان أماريك هو الذى بدأ التفاوض مع العرب أم كونتوستيفانوس ، ولا الشروط التى اتفق عليها . وربما أعطى المسيحيون تعويضا ماليا ؛ وبكل اليقين كان أماريك يأمل فى عزل صلاح الدين عن نور الدين بمظهر من مظاهر الصداقة مع صلاح الدين خاصة وان علاقات اماريك بنور الدين يشوبها البرود على الأرجح.

وفى ١٣ ديسمبر حرق المسيحيون آلات حصارهم كلها حتى لا تقع فى أيدى المسلمين ورحلوا عن دمياط ، ووصل الجيش إلى عسقلان فى الرابع والعشرين . أما الأسطول فكان أقل حظا ؛ فبينما كان مبحرا باتجاه الشمال هبت عاصفة شديدة ، ولم يستطع البحارة الذين كانوا يتضورون جوعا السيطرة على سفنهم التى امتلأ الكثير منها بالماء وغاص فى الأعماق . وكانت مياه البحر تلقى بالجثث اليونانية على شواطئ فلسطين لأيام ؛ وهرب كونتوستيفانوس نفسه وأبحر إلى كيليكيا ومنها ارتحل برا لرفع تقريره إلى الامبراطور. ووصلت بقايا الأسطول العظيم إلى مياه البوسفور فى وقت مبكر من العام التالى(٣٩).

وأدت النتيجة الفاجعة للحملة حتما إلى تبادل السباب والإتهامات . وألقى الفرنج باللائمة على اليونانيين لنقص الامدادات ؛ والقى اليونانيون ، بتعقل أكثر ، باللوم على

---

(٣٩) William of Tyre, xx, 14-17, pp.962-71; Cinnamus, pp. 278-80. ويقول سينّاموس إنه بعد الحملة أرسل صلاح الدين الى مانويل عارضا دفع إتاوة سنوية ، لكن مانويل رفضها؛ ومن الناحية الأخرى، يستنتج Nicetas Choniates, pp. 209-19 ضمنا أن مانويل عقد السلام مع مصر ؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 56-9; Abu Shama, pp.151-13; Ibn al-Athir, pp. 668-70 and (III, p.335, and Armenian version, pp.369 ويفترض ميخائيل السورى *tabegs*, pp. 259-60. (70- أن اليونانيين أخذوا رشوة من صلاح الدين للتخلى عن الحملة . ودليله على ذلك مناهض لليونانيين على نحو ثابت بحيث يفقد قيمته . ويقول وليم الصورى إن كونتوستيفانوس كان هو اول من طلب وقف القتال ، بينما يقول Nicetas إنه كان الملك.

الفرنج للتأخير الذى لم تكن له نهاية . على أن اماليك والامبراطور أدركا أنه لا ينبغى كسر التحالف . إذ أن صلاح الدين الآن سيد مصر بلا منازع.

وكان صلاح الدين من الحكمة بحيث لم يقع فى الشرك الدبلوماسى الذى أعده له أماليك . ولقد كان نور الدين يثق فى شيركوه ، لكنه كان مرتابا فى طموحات حاكم مصر الجديد ؛ ومع ذلك لزم صلاح الدين جانب الاستقامة المثالية . ذلك أن نور الدين بعث فى ابريل ١١٧٠م إلى صلاح الدين والده نجم الدين أيوب مع صحبة من الجنود السوريين ، في لفتة من لفتات الصداقة من ناحية ، وربما كتلميح من ناحية أخرى ، إذ كان أيوب شديد الولاء لسيده . وصاحب القافلة أعداد كبيرة من التجار السوريين المتلهفين على تبادل التجارة مع القاهرة ، ولكى يساعد نور الدين هذه القافلة الضخمة على العبور بصورة مأمونة عبر أراضى الأردن، قاد استعراضا عسكريا ضد الكرك[٤٠]. وكان ذلك التحرك هو الحركة الوحيدة التى اقدم عليها نور الدين ضد الفرنج ؛ وكان قد تركهم فى سلام أثناء حملتهم على مصر ، بل انهم تمكنوا فى يناير ١١٧٠م من استعادة قلعة عكار جنوب البقيعة ، والتى ربما كانوا قد فقدوها عام ١١٦٥م . وقد سلمها اماليك وكذلك مدينة أرقا - بصفته وصيا على طرابلس - إلى فرسان المستشفى الذين باتوا يسيطرون على الوادى كله الآن[٤١].

١١٧٠م : زلزال يضرب أنطاكية

فى يوم ٢٩ يونية ١١٧٠ رزئت سوريا بزلزال مروع ألحق بها من الدمار نفس القدر الذى سببه زلزال ١١٥٧م ؛ وفى الأشهر القليلة التالية انهمك المسيحيون والمسلمون سواء بسواء فى اصلاح ما أصاب قلاعهم من أضرار . وقد أصيبت حلب وشيزر وحماه وحمص بدمار شديد وكذلك الكرك وطرابلس وجبيل . وفى انطاكية كان الدمار هائلا ، وجد فيه الفرنج عدالة الهية ؛ إذ كان البطريق اليونانى ورجال كنيسته يقيمون قداسا فى كتدرائية القديس بطرس عندما انهار عليهم المبنى . وبينما كان أثناسيو يحتضر تحت الأنقاض أسرع الأمير بوهمند ورجال بلاطه إلى القصير

(٤٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 59-60; Abu Shama, pp. 153-4; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.260-1.

(٤١) Abu Shama, p.149. وحدث اهداء عكار وأرقا الى فرسان المستشفى بعد وقوع الزلزال فى يونية.(Rohricht, *Regesta*, p.125)

يتوسلون إلى غريمه إيمرى (اللاتيني) العودة إلى كرسيه البطريارقى . وهكذا انتهت الفترة القصيرة من الحكم الكنسى اليونانى(٤٢).

و لم يتمكن الامبراطور من التدخل رغم تلقيه الأنباء بمشاعر الغضب . ذلك أن الأمور كانت تسير سيرا سيئا فى كيليكيا ؛ فقد مات الأمير ثوروس عام ١١٦٨م تاركا طفلا ليخلفه - روبين الثانى - تحت وصاية لورد فرنجى يدعى توماس كانت امه أخت ثوروس . لكن أخا ثوروس ، مليح ، أثار نزاعا حول الاستخلاف ؛ وكان فى وقت ما قد أخذ على نفسه العهد كفارس من فرسان المعبد ، وبعد مشاجرته مع ثوروس ومحاولة اغتياله هرب إلى نور الدين وتحول إلى الاسلام . وفى وقت مبكر من عام ١١٧٠م أمده نور الدين بالجنود وتمكن بذلك من خلع ابن اخيه ، ليس هذا وحسب وانما توغل ايضا فى سهل كيليكيا واستولى على المصيصة وأدنه وطرسوس من حامياتها اليونانية . ثم أنه هاجم فرسان المعبد فى باجراس ، مما دفع بوهمند إلى الاستنجاد بأماريك ، الذى توغل داخل كيليكيا ، ويبدو أنه أعاد الحكم الامبراطورى مؤقتا . ومن الجائز أن يكون عمله هذا الودود قد أحدث وفاقا لدى مانويل وتعويضا لخسارة سيطرته الكنسية فى انطاكيه. لكن مليح لم يرتدع . وبعد عام او بعض عام تمكن من أسر قنسطنطين كولومان وأغار مرة اخرى على كيليكيا(٤٣).

وكان نور الدين فى تلك الأثناء مشغولا فى الشرق الأبعد . فقد مات أخوه قطب الدين صاحب الموصل فى صيف ١١٧٠م ؛ وتنازع ابناه سيف الدين وعماد الدين على الميراث ، ومرت بضعة اشهر قبل أن يتمكن نور الدين من تسوية المسألة بما يتفق ورغبته(٤٤) . وكانت المهلة ذات فائدة للفرنج . غير أن مشكلة مصر بقيت بلا حل . وبقى اماريك متمسكا بسياسة ذات الشعبتين : التحالف الوثيق مع الامبراطور واستمرار المناشدة للغرب . وفى ربيع ١١٧١م قرر القيام بزيارة شخصية إلى

---

(٤٢) Michael the Syrian, III, p.339; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 262; William of Tyre, XX, 18, pp.971-3.

(٤٣) William of Tyre, XX, 26, pp. 991-2; Nicetas Choniates, p.183; Michael the Syrian, III, pp. 331, 337; Sembat the Constable, pp. 622-5; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-9؛ ومن غير الممكن البت فى التاريخ . إذ أن وليم الصورى يحدد تلك الأحداث بعد زيارة أماريك للقسطنطينية ، وميخائيل السورى قبل زلزال عام ١١٧٠م . وكانت طرسوس ما تزال يونانية عندما عاد هنرى الأسد Henry the Lion من حملته الصليبية عام ١١٧٢م (Arnold of Lübeck, pp.22-3).

(٤٤) أنظر المراجع أعلاه ص (٤٤١) الملحوظة (٣٥)، وأدناه ص (٤٥٠).

القسطنطينية.

وتأخر رحيله بسبب هجوم مفاجئ قام به صلاح الدين على حدوده الجنوبية . ففي وقت مبكر من عام ١١٧٠م ظهر جيش مصرى ضخم أمام الداروم ، وهى آخر قلعة فرنجية جنوبية على البحر المتوسط . وكانت دفاعاتها ضعيفة ، وبرغم عدم توفر آلات حصار لدى صلاح الدين فقد بدا سقوطها وشيكا . فسارع اماريك ، ومعه البطريق وقطعة من اثر الصليب الحقيقى ، إلى عسقلان التى وصلها يوم ١٨ ديسمبر ، وواصل مسيرته إلى قلعة فرسان المعبد فى غزة ، حيث ترك مايلز (اوف بلانسى) لقيادتها إذ رافقته فرسان المعبد فى مسيرته إلى الداروم . وتمكن من اختراق الجيش المصرى ودخل الداروم ، وعلى الأثر رفع صلاح الدين الحصار وسار إلى غزة ؛ فاستولى على أسفل المدينة ، برغم ما أبداه مايلز من مقاومة عنيمة ، وقتل سكانها . على أن القلعة كانت هائلة بحيث لم يغامر صلاح الدين بمهاجمتها . وبنفس الفجاءة التى جاء بها صلاح الدين ، اختفى مرة اخرى عائدا إلى الحدود المصرية . ثم إنه أرسل أسطولا صغيرا أعلى خليج العقبة واستولى على المخفر الفرنجى الأمامى المسمى أيلة الواقع على رأس الخليج ، وذلك فى الأيام الأخيرة من السنة(٤٥).

١١٧١م أماريك فى القسطنطينية

غادر اماريك عكا قاصدا القسطنطينية يوم ١٠ مارس ، ومعه حاشية كبيرة تضم اسقف عكا ومارشال البلاط جيرار (اوف بوجى) . وكان سيد فرسان المعبد ، فيليب (اوف ميلى) قد استقال من منصبه ليسبق الملك كسفير . وبعد الرسو فى طرابلس ، واصل الملك ابحاره إلى الشمال . وفى نجاليبولى قابله صهره وكانت الرياح المعاكسة قد اضطرته إلى الذهاب برا إلى هرقلة . ومن هناك ركب الملك البحر مرة اخرى كى يدخل العاصمة من بوابة القصر فى ميناء بوكوليون ، وهو شرف لا يناله سوى الملوك المتوجين.

واستُقبل اماريك استقبالا ملأه بهجة هو وحاشيته . وكان مانويل يستلطف الغربيين عموما ، وقد وجد أماريك متعاطفا معه . وأظهر كرمه السخى المعتاد . وشاركت عائلته كلها - خاصة صهره - فى الاحتفاء به . وأقيمت قداسات دينية

(٤٥) William of Tyre, xx,19-20, pp.973-7; Ibn al-Athir, pp. 577-8.

واحتفالات لا نهاية لها . واجرى استعراض راقص فى هيبودروم ، ورحلة بحرية أعلا البسفور وأسفله[٤٦]. وفى وسط البسفور ناقش الامبراطور والملك المستقبل . وعقدت معاهدة وتم التوقيع عليها ، لكن بنودها لم تسجل . ويبدو أن الملك اعترف فيها على نحو مبهم بسيادة الأمبراطور على المسيحيين الوطنيين ، وان مانويل وعد بالمساعدة البحرية والمالية وقتما تتهيأ حملة اخرى للهجوم على مصر ، وأنه يتعين القيام بعمل مشترك ضد مليح الأرمينى . والأرجح أن كانت هناك بنود بشأن الكنيسة اليونانية فى انطاكية ، بل وربما فى المملكة ، التى تولى فيها مانويل بالفعل فى عام ١١٦٩م مسؤولية إعادة زخرفة كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، التى تحمل نقشا مكتوبا بالفسيفساء يشهد بأن الزخرفة أجراها إيفرايم بناء على اوامر الامبراطور . كما تولى مسؤولية اجراء الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس[٤٧].

وأيا ما كانت عليه تفاصيل المعاهدة ، فقد رضى الفرنج بزيارتهم الرضا كله ، وأعجبوا بمضيفهم أيما إعجاب . وفى ١٥ يونية أبحروا من القسطنطينية عائدين إلى بلدهم تحدوهم الآمال العراض للمستقبل.

وأما مناشدة الغرب إرسال حملة صليبية فكانت أقل نجاحا ؛ ذلك أن فريدريك رئيس أساقفة صور كان ما يزال يتجول تجوالا عقيما بين بلاطى فرنسا وانجلترا . وفى نهاية ١١٧٠م تقريبا كتب له أماليك كى يوجه الدعوة إلى ستيفن (اوف شامباني)، كونت سانسير ، للحضور إلى فلسطين ليتزوج الأميرة سيبيلا[٤٨]. كانت هناك مأساة

---

(٤٦) William of Tyre, xx,22-4, pp. 980-7; Cinnamus, p.280، وما أورده سيناموس مقتضب جدا يقول فيه ان اماليك وعد الامبراطور بمنحه قلعة ؛ Michael the Syrian, III, p. 343.

(٤٧) De Bogue, *Les Eglises de la Terre Sainte,* pp. 99-103، الذى يورد وصفا للفسيفساء فى كنيسة بيت لحم . ويشير اليها الرحالة اليونانى فوكاس Phocas ويتحدث عن الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس .(pp.19, 31) ويناقش La Monte فى "الى أى مدى كانت الامبراطورية البيزنطية متسيدة على الدويلات الصليبية؟ To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?" مسألة السيادة الامبراطورية ويقرر انها لم يعترف بها قط . لكن مانويل ، كأسلافه قبل الصليبيين ، ربما اعتبر نفسه مسؤولا عن رفاهية الأرثوذكس فى فلسطين وان حقه فى التدخل لصالحهم كان معترفا به. أنظر أعلاه ص ٣٦٩ عن بطريق القدس الذى احتفظ به مانويل احتياطيا فى القسطنطينية . وربما يعزى الى مانويل اجراء الإصلاحات حوالى آنذاك فى المنشآت الأرثوذكسية فى فلسطين ، مثل Lavra of Calamon) انظر Vailhé, `Les Laures de Saint Gérasime et de Calamon' in *Echos d'Orient,* vol. II, p. 117)، وكذلك دير القديس إيوثيميوس .) انظر Johns محاولة الصليبيين استعمار فلسطين وسوريا The Crusaders'attempt to colonize Palestine and Syria فى *Journal of the Royal Central Asian Society,* vol.XXI, pp.292-3.

(٤٨) William of Tyre, xx, 25 mo, 988. وكان ستيفن حفيد كونت بلوا الصليبى وأصغر ابناء تيبالد،

حدثت في البيت الملكي عجّلت بهذا الاقتراح . فقد أرسل ابن امالريك - بالدوين - وهو الآن في التاسعة من عمره مع رفاق من سنه لتلقى التعليم لدى وليم رئيس شمامسة صور . وكان صبيا وسيما ذكيا ، وفي يوم ما ، بينما كان التلاميذ يختبرون قوة التحمل لدى كل منهم بغرز أظافرهم في أذرع بعضهم البعض ، لاحظ معلمهم وليم أن الأمير هو فقط الذي لم يجفل قط ؛ فراح يراقبهم بعناية وسرعان ما تحقق من أن الولد عديم الإحساس بالألم لأنه كان مجذوما[٤٩]. كان ذلك من تصاريف الرب بسبب زواج سفاح القربى الذى اقدم عليه والداه ، أماليك وآجنيس ؛ وكانت الحادثة نذير شؤم للمملكة . وحتى عندما يكبر بلدوين لن تتمكن الأسرة الحاكمة من الاستمرار من خلاله ، وربما تحمل الملكة اليونانية الشابة ابنا بعده ؛ على أنه في تلك الآونة، وتوخيا للسلامة ، رأت حكمة امالريك أن تتزوج ابنته الكبرى سبيللا من أمير غربي محنك ثرى يستطيع التصرف وقت الضرورة كوصى أو حتى كملك . وقبل ستيفن الدعوة وهبط شاطئ فلسطين في صيف ١١٧١م مع صحبة من الفرسان ، وكان ذلك قبل وصول امالريك من القسطنطينية بأيام قلائل . غير أنه لم يرض عن مظهر فلسطين . وقطع فجأة مفاوضات الزواج بطريقة فظة ، وبعد تأدية النذر في الأماكن المقدسة رحل مع صحبته إلى الشمال منتويا زيارة القسطنطينية . وأثناء عبوره كيليكيا ترصده مليح الأرميني وسلبه كل ما كان معه[٥٠].

وفي العام التالي جاء إلى فلسطين زائر أكثر أهمية ، هنرى الأسد ، دوق ساكسونيا وبافاريا ، وحفيد الامبراطور لوثر ، وزوج ابنة هنرى الثاني ملك انجلترا . غير أنه رفض هو الآخر أن يحارب من أجل الصليب قائلا إنه جاء كمجرد حاج ، ورحل إلى المانيا بأسرع ما يمكن[٥١].

كونت بلوا وتشارترز وتروى. وقد ولد حوالى ١١٣٠م ، وفي عام ١١٥١م فر هاربا بزواجه من ماتيلدا (اوف دوزى). (انظر .Anselme, *Hist. Généalogique de la France*, II, p.847) ولما كانت زوجته تدعى أحيانا أليكس ، وأحيانا اخرى ماريا ، فمن المرجح انه تزوج اكثر من مرة وانه كان أرملا في عام ١١٧٠م.

(٤٩) William of Tyre, xxi, i, pp. 1004-5.

(٥٠) *Ibid.* xx, 25, p 988.

(٥١) ر. Joranson 'The Crusade of Henry the Lion' وصفا مطولا لحملته الصليبية في *Medieval Essays presented to G.W Thompson*، أهم المراجع هو Arnold of Lübeck.

١١٧١م : انتهاء الخلافة الفاطمية

تسببت لا مبالاة الغرب في خيبة أمل مريرة . على أنه ربما لم تكن هناك ضرورة عاجلة لتسيير حملة ضد مصر ، إذ بدا أن علاقات صلاح الدين بنور الدين وصلت إلى نقطة القطع . ففى عام ١١٧١م كان نور الدين قد وضع حامية خاصة به فى الموصل ، حيث يحكم ابن اخيه سيف الدين ، وكان قد ضم نصيبين ووادى نهر خابور إلى نطاق سلطته ، ومنح سنجار لابن اخيه المفضل لديه عماد الدين . وبنوازع التقى لنصرة الإسلام الأصولى ، كتب إلى صلاح الدين طالبا الكف عن ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى المساجد المصرية واستبداله باسم الخليفة فى بغداد . ولم يرغب صلاح الدين فى الامتثال لهذا الطلب ؛ إذ بعد قرنين من الحكم الفاطمى بات النفوذ الشيعى قويا فى مصر . وفضلا عن ذلك ، ورغم أنه قد يعترف بنور الدين سيدا له ، فإن سلطته فى مصر مستمدة من الخليفة الفاطمى . فراح يراوغ ، إلى أن هدد نور الدين فى اغسطس بالحضور شخصيا إلى مصر . وبعد أن اتخذ صلاح الدين احتياطات الشرطة ، أعد العدة للتغيير ؛ بيد أنه لم يجرؤ احد على الإقدام على أول خطوة ، حتى أول يوم جمعة من السنة الإسلامية ٥٦٧ هجرية عندما خطا إلى المسجد برباطة جأش زائر سنى من الموصل واعتلى منبر الجامع الكبير ودعا للخليفة المستضئ . وحذت القاهرة كلها حذوه. وكان الخليفة الفاطمى العاضد راقدا فى القصر يحتضر ، ومنع صلاح الدين الخدم من إخطاره بالنبأ قائلا : "إن يبرأ من مرضه ، فسرعان ما سيعلم ، وإن يمت ، فليمت فى سلام" . على أن الشاب البائس عندما طلب رؤية صلاح الدين قبل وفاته ببضع ساعات ، رفض طلبه خوفا من وجود مكيدة . وندم صلاح الدين على رفضه بعد فوات الأوان ، وكان لا يذكره الا بالخير . وهكذا هلكت الأسرة الحاكمة الفاطمية بموت العاضد . وجمع شمل من تبقى من الأمراء والأميرات ، وأرسلوا حيث عاشوا حياة فاخرة ولكن دون أى اتصال بالعالم(٥٢).

وبعد أيام قليلة انطلق صلاح الدين لمهاجمة قلعة الشوبك جنوب البحر الميت ، وشدد الحصار حولها . وخف اماليك لانقاذها ، لكنه رحل عن القدس متأخرا للغاية بسبب معلومات خاطئة . وعندما كانت الحامية تتهيأ للتسليم ، ظهر نور الدين فجأة على الطريق إلى الكرك ؛ وفى تلك اللحظة رفع صلاح الدين الحصار ، قائلا لنور الدين

---

(٥٢) Ibn al-Athir. pp.575-80, and *Atabegs*, pp. 202-3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.551; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.61-2.

إنه مضطر إلى العودة إلى القاهرة بسبب حروب اخوته فى مصر العليا. وبهذا ذلك لنور الدين محض خيانة بتعين المعاقبة عليها بالقوة . وعندما سمع صلاح الدين بغضبه شعر بالخطر واستدعى مجلسا من افراد عائلته وقواده ، ونصح الشباب من افراد الأسرة بالتحدى ؛ غير أن أبا صلاح الدين ، نجم الدين ايوب المسن ، وقف وقال إنه هو نفسه مخلص لسيده وانتهر ابنه لطموحه، وعندما خلا به وبّخه مرة اخرى على أن جعل طموحه بيّنا جليّا . فأخذ صلاح الدين بنصيحته وأرسل باعتذاراته البائسة إلى نور الدين الذى قبلها إلى حين(٥٣).

١١٧٢م : اطلاق سراح ريموند أمير طرابلس

وفى صيف ١١٧١م خطط نور الدين لحملة على الجليل ، لكنه كف عنها . وفى أواخر الخريف ارتكب الفرنج أعمال قرصنة من اللاذقية هاجموا فيها سفينتين تجاريتين مصريتين ، مما أثار سورة غضبه ، فراح يخرب الأراضى الأنطاكية والطرابلسية ، ودمر حصنى صافيتا وأرايما ، مما اضطر الفرنج إلى دفع تعويض باهظ حتى يتوقف(٥٤). غير أنه فى عام ١١٧٢م فضل استمرار السلام ، جزئيا لعدم ثقته فى صلاح الدين من ناحية، ولأنه كان يرغب فى الحصول على مساعدة السلاجقة فى الهجوم على أنطاكية من ناحية أخرى . لكن السلطان السلجوقى ، بعد أن تلقى تحذيرا صارما من القسطنطينية، تخلى عن تقدمه وبدلا من ذلك بدأ حربا ضد الدانشمند استمرت عامين. وبذا أنقذ التحالف البيزنطى انطاكية على الأقل ، رغم أنه لم يحقق شيئا يذكر ، من ائتلاف بين حلب وقونية(٥٥) . وفى الوقت نفسه على وجه التقريب ، وافق نور الدين فى نهاية الأمر على اطلاق سراح ريموند أمير طرابلس لقاء مبلغ ثمانين ألف دينار . واشترك الملك وفرسان المستشفى معا فى جمع أغلب المبلغ ؛ وسُمح لريموند بالعودة إلى

---

(٥٣) William of Tyre, xx, 27, pp. 992-4; Ibn al-Athir, pp. 581-3, and *Atabegs*, pp. 286-8; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.552; Maqrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII,p. 506. وأورد بهاء الدين *P.P.T.S.* pp.62-3 سردا ماهرا مبهما ، خالطا الحملات فى عامى ١١٧١م و١١٧٣م . كما أنه يجعل صلاح الدين يقول إنه هو فقط رفض التفكير فى معارضة نورالدين.(p.65) .

(٥٤) Ibn al-Athir, *Atabegs*, p.279; Kemal ed-Din, p. 584; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 62. ويقول بهاء الدين ان نورالدين استولى على أرقا ، وهو اسم خطأ بدلا من أرايما.

(٥٥) Cinnamus, pp. 291-2; Imad ed-Din, pp. 159-60. وكان قلج أرسلان قد استقبل هنرى الأسد استقبالا حسنا أثناء مروره بالأناضول فى طريقه من فلسطين.

بلده . ولكنه لم يدفع أبدا باقى المبلغ المستحق لنور الدين وقدره ثلاثين ألف دينار[٥٦].

وبدأت الحرب عام ١١٧٣م . ذلك أن أماليك بعدما شعر بما يكفى من الأمان اتجه شمالا داخل كيليكيا لمعاقبة مليح على ما ألحقه بستيفن (اوف شامبانى) من إساءة ولكى ينفذ وعده للإمبراطور . ولم تنجز الحملة شيئا سوى الحيلولة دون أن يزيد مليح من التوسع[٥٧]. وانتهز نور الدين الفرصة وغزا منطقة الأردن واستدعى صلاح الدين لمساعدته . وفى اخلاص صلاح الدين لنصيحة أبيه ، اتجه شمالا بجيش من مصر وضرب الحصار حول الكرك ، بينما سار نور الدين جنوبا من دمشق . وباقترابه رفع صلاح الدين الحصار وعاد إلى مصر قائلا - بحق - إن والده يعانى مرضا خطيرا . غير أنه من الواضح أن صلاح الدين لم يكن راغبا فى القضاء على الدويلة الفرنجية الحاجزة الواقعة بينه وبين سيده المتعسف . فعسكر نور الدين بدوره أمام الكرك ، التى كانت عاصمة منطقة الأردن ، وكانت تنتمى إلى وريثة هى ستيفانى (اوف ميلى). وكان زوجها الأول - همفرى - وريث تبنين ، قد مات قبل ذلك بسنوات قليلة ؛ وكان زوجها الثانى ، وهو قهرمان اماليك - مايلز (اوف بلانسى) - بعيدا مع الملك ؛ وكان اول من خف لنجدتها صهرها ، الكونستابل المسن ، همفرى الثانى أمير تبنين . وبتعبئة القوات المتبقية فى المملكة انسحب نور الدين ، وقد ملأه الحنق على صلاح الدين . وعندما سمع فى اغسطس بوفاة نجم الدين ايوب ، أخلص أتباعه فى مصر ، نذر أن يغزو مصر بنفسه فى الربيع التالى[٥٨].

١١٧٣م : اغتيال سفراء الحشاشين

كان فى هذه الفُرقة بين المسلمين تعزية للفرنج . وفى خريف ١١٧٣م تلقوا عروضا من مكان آخر لم يكن متوقعا . ولم يكن يُسمع عن الحشاشين سوى القليل

---

(٥٦) Abu Shama, p. 168; William of Tyre, xx, 28, p. 995. وظروف اطلاق سراح ريموند غامضة . أنظر Baldwin, *Raymond III of Tripoli*, p.11 and n. 23. ويقع التاريخ بين سبتمبر ١١٧٣م وابريل ١١٧٦م.

(٥٧) William of Tyre, xx, 26, pp.991-2؛ (انظر المراجع أعلاه ص ٤٤٩ (الملحوظة ٤٩)) وربما خلط وليم بين حملتى أماليك.

(٥٨) Ibn al-Athir, pp. 587-93, and *Atabegs*, p. 293; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 553; Maqrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 509-11. ومات نجم الدين إثر سقوطه من فوق حصانه وهو يمارس لعبة الجوكان (البولو).

خلال العقود المنصرمة ، بخلاف اغتيالهم التعسفى لريمونـد الثانى أمير طرابلس عام ١١٥٢م ، إذ كانوا يوطدون مقارهم بهدوء فى حبال النصيري . وعلى الجملة لم يظهروا عداوتهم للفرنج ، وانما كان عدوهم المقيت هو نور الدين الذى تسببت قوته فى تقييدهم شرقا . لكنه كان عاجزا عن قمعهم ، وفى احدى الليالى عُثر على خنجر فوق وسادته ، كان بمثابة انذار له كى لا يمضى شأوا بعيدا . ولكون عواطفهم تميل إلى الشيعة وليس السنة ، فقد صدمهم انتهاء الخلافة الفاطمية . وفى عام ١١٦٩م أرسلت قيادة الحشاشين من مقرها فى قلعة (ألموت) فى فارس محافظا جديدا لمقاطعة النصيري ، هو رشيد الدين سينان من بُصرى . وبدأ هذا الشيخ الرهيب ، الذى كان يعرفه الفرنج باسم عجوز الجبل ، سياسة أكثر نشاطا . إذ أرسل الآن إلى امالريك يقترح انشاء تحالف وثيق ضد نور الدين ، والمع بأنه هو وأتباعه كلهم يفكرون فى التحول إلى المسيحية ، وكان جليا أن المقابل لذلك هو إلغاء الإتاوة التى أفلح فرسان المعبد فى طرطوس في فرضها على مختلف قرى الحشاشين . وسواء كان امالريك يظن أن الحشاشين سيتحولون إلى المسيحية أم لا ، أقبل على تشجيع صداقتهم فى سرور . وعاد مبعوثو الشيخ سينان باتجاه الجبال يحملون وعدا بأن تلحق بهم حالا سفارة فرنجية. وبينا هم فى ترحالهم عبر طرابلس ، سقطوا قتلى فى كمين نصبه لهم فارس من فرسان المعبد، وولتر (اوف مينسيل) ، بتواطؤ مع سيده الأعظم . وارتاع الملك امالريك ، فقد دمرت سياسته ولطخت سمعته لمجرد أن نظام فرسان المعبد كان بالغ الجشع بحيث يرفض التضحية بجزء صغير من إيراداته. وأمر السيد الأعظم ، أودو (اوف سانت أماند) بتسليم الجانى . ورفض أودو ، وانما عرض مجرد ارسال وولتر كى يحاكمه البابا ، إذ أنه لا يعترف بأية سلطة أخرى عداه . غير أن امالريك كان فى قمة الغضب بحيث لم يعبأ بدستور نظام فرسان المعبد . وأسرع مع بعض الجنود إلى صيدا حيث السيد الأعظم وهيئة الكنيسة ، واقتحم عليهم مجلسهم بالقوة وخطف وولتر وعاد به والقاه فى غيابة السجن فى صور. وأرسل من يؤكد للحشاشين أن العدالة اخذت مجراها ، فقبل الحشاشون اعتذارات الملك . وفى تلك الأثناء عزم أمالريك أن يطلب من روما حل نظام فرسان المعبد العسكرى[٥٩].

وكانت فاتحة عام ١١٧٤م فاتحة حسنة للمسيحيين ، إذ أصبح الحشاشون أصدقاء، وأمسى التحالف البيزنطى في أحسن أحواله، ووعد ملك صقلية الصغير ، وليم الثانى ،

---

(٥٩) William of Tyre, xx, 29-30, pp. 995-9.

بتقديم المساعدة البحرية للربيع ، وبلغ الشقاق بين نور الدين وصلاح الدين حد الأزمة. ولم يكن صلاح الدين نفسه آمنا قط في مصر التي راحت فيها رؤوس الشيعة تحيك ضده المكائد بينما كانت على اتصال بالفرنج . وفي عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر ، توران شاه ، لاحتلال السودان كي تكون بمثابة ملاذ للعائلة في حالة الضرورة ، واحتل توران البلد حتى إبريم بالقرب من وادى حلفا ، حيث قتل الأسقف القبطي وأتباعه وجمهوره وخنازيره السبعمائة على السواء . لكنه أبلغ أن الأرض غير ملائمة للملاذ . فأرسله صلاح الدين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فوجدها توران شاه أفضل من سابقتها ، واحتلها باسم اخيه وحكمها نائبا عنه حتى ١١٧٦م(٦٠).

على أنه لم هناك ما يدعو صلاح الدين للهرب من سخط نور الدين . ففي ربيع عام ١١٧٤م ، جاء الأتابج نور الدين إلى دمشق للتخطيط لحملته على مصر . وبينما كان على جواده صباح يوم ما مع اصدقائه يتريضون خلال البساتين ، حدثهم عن انعدام الثقة في الحياة الإنسانية . وبعد مضى تسعة ايام ، اى في ١٥ مايو ، مات متأثرا بالتهاب اللوزتين . لقد كان حاكما عظيما ورجلا من كبار الرجالات ، أحب العدل فوق كل ما يُحب . وكان بعد مرضه السابق قبل تسع عشرة سنة قد فقد شيئا من طاقة نشاطه ؛ وزادت الأوقات التي كان يقضيها في الورع والتقى . وقد أكسبه ورعه برغم محدوديته احترام رعيته وأعدائه . كان جادا نادرا ما يبتسم ، وعاش حياة بسيطة وألزم أسرته بها ، مفضلا أن ينفق إيراداته الهائلة في أعمال الخير . وكان إداريا معتنيا مرتقبا ، وعززت حكومته الحكيمة أراضيه التي انتزعها بسيفه . وسعى خاصة إلى كبح جماح أمرائه الأتراك والكرديين بتوطينهم في اقطاعيات يدفعون ايجارها على هيئة جنود ، وتمكنت محاكمه القانونية التابعة له من أن تسيطر عليهم . وأسهم هذا الوضع الإقطاعي المخفف اسهاما كبيرا في ازدهار سوريا بعد ما يقرب من قرن حكمها فيه البدو . وكان طويل القامة أسمر اللون يكاد يكون بلا لحية ، ذا ملامح متناسقة ، وعلى وجهه انطباع حزين هادئ . وكانت لعبة الجوكان (البولو) هي نشاطه الترفيهي الوحيد(٦١).

---

(٦٠) Ibn al-Athir, pp. 599, 602-3, and *Atabegs*, p.293; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65-6.

(٦١) Ibn al-Athir, pp. 604-5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65.

١١٧٤م : موت الملك أماريك

ورث نور الدين ابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبي في الحادية عشرة، وكان معه في دمشق . وهناك استولى على الوصاية الأمير ابن المقدم ، توازره ام الصبي ، بينما أعلن جوموشتكين ، حاكم حلب التي كانت العاصمة الرئيسية لنور الدين ، عن نفسه وصيا . وتدخل ابن عم الصبي ، سيف الدين صاحب الموصل ، لضم نصيبين والجزيرة كلها حتى الرها . وكتب صلاح الدين ، كأمير لأغنى مقاطعات نور الدين ، إلى دمشق بأن الوصاية هي وصايته ، لكنه كان في تلك اللحظة فاقد الحيلة كي يتابع مطالبته(٦٢). وأتاح انهيار الوحدة الإسلامية لأماريك فرصة سرعان ما اختطفها . ففي يونية زحف على بانياس . وخرج له ابن المقدم لملاقاته وربما حدث ما كان يقصده أماريك، إذ عرض المقدم على الفور أن يشتري أماريك بمبلغ ضخم من المال وعده به، والافراج عن جميع الفرنج الأسرى في دمشق ، وتحالف في المستقبل ضد صلاح الدين(٦٣). وقبل أماريك العرض ، وكان قد بدأ يعاني من نوبات الدوسنتاريا ؛ وبعد توقيع المعاهدة عاد خلال طبرية ونابلس إلى القدس ، معتليا جواده ورافضا الراحة على المحفة . ووصل القدس وهو في حالة مرضية شديدة . واستدعى الأطباء من اليونانيين والسوريين إلى جانب فراشه ، وطلب منهم أن يفصدوه حتى ينزف دما ثم يعطوه شرابا مسهّلا . لكنهم رفضوا ، إذ كانوا يرون أنه في حالة من الضعف لا يتحمل معها الجهد. ولذا استعان بطبيبه الفرنجي الذى لم تكن لديه تلك الوساوس . ويبدو أن العلاج قد أفاده ، ولكن لمجرد يوم او يومين . وفي ١١ يولية ١١٧٤م ، مات وهو في الثامنة والثلاثين من عمره(٦٤).

وإذا كان التاريخ بمجرد التحدى والاستجابة ، يكون نجاح الوحدة الاسلامية تحت زنكي ونور الدين وصلاح الدين رد فعل حتمي إزاء الحملة الصليبية الأولى . على أن صروف القدر لا تكف عن فرض أهواء أحكامها . ففي بداية ١١٧٤م بدا أن نجم صلاح الدين في طريقه للأفول ، ومات اماريك ونور الدين ، دون توقع الموت لأى منهما ، فأنقذه القدر منهما وفتح له طريق انتصاراته المقبلة . وقد رأى فرنج الشرق في

(٦٢) Ibn al-Athir, pp. 606-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 558-60.

(٦٣) William of Tyre, xx, 31, p. 1000; Abu Shama, p. 162; Ibn al-Athir, p. 611.

(٦٤) William of Tyre, xx, 31, pp. 1000-1. وربما كان الطبيب السورى هو سليمان بن داود . (انظر أعلاه ص ٣٦٦ الملحوظة (٤٤)).

موت أماريك ، فى هذه اللحظة ، والنوائب التى حلت بأسرته ، نذير سوء بنهاية مملكتهم ؛ إذ كان اماريك آخر ملوك القدس المسيحية الجدير بعرشه . ولقد كانت له أخطاء ، وقد تأرجح بحماس نبلائه عام ١١٦٨م ، وبترددهم عام ١١٦٩م . وكان أكثر استعدادا لقبول عطايا الأموال، التى تحتاجها الحكومة آنيّا، من أن ينفذ سياسة تتسم ببعد النظر. وكانت طاقته وعزيمته بلا حدود. وأثبت أنه لا مجال لأن يتحداه أتباعه ولا النظامين العسكريين دون أن يلحق بهم الضرر . ولو أنه عاش أطول مما عاش، لتحدى حتمية انتصار الاسلام.

الباب الخامس:

إنتصار الإسلام

الفصل الأول:

الوحـدة الإسلاميـة

الوحـــدة الإسـلامـــية

"الحُكماءُ يرثُون مجداً والحمقَى يحمِلون هَوَاناً"
(أمثال ٣ : ٣٥)

مكث صلاح الدين فى القاهرة قلقا يترقب، ورأى فى موت الملـك امـالريك نعمـة وفضل من ا لله. وكانت مكائد الشيعة قد بلغت ذروتها فى شهر ابريل عندما افتضحت مؤامرة لقتله . فضرب ضربته لم يتردد ، وقضى على زعماء التآمر ؛ لكنه لم يكـن علـى ثقة من عدم وجود آخرين على استعداد للتـآمر إذا جـاء الجيش المسيحى لمعـاونتهم ، بينماسينتقل ميراث نور الدين يقينا إلى غـيره[١]. والآن وقـد مـات أمـالريك فقـد تبـدد خطر الغزو برا . لكن هناك فعلا أسـطولا قبرصيـا فـى الأفـق ؛ إذ لم يكـن الملـك وليـم الثانى قد سمع بانهيار المؤامرة ولا بموت أماليك . وفى ٢٥ يولية ١١٧٤م ، ظهر أمـام الإسكندرية فجأة مائتان وأربع وثمانين سفينة قبرصيـة تحمـل الرحـال والماشية والمؤن ، تحت قيادة تنكريد كونت ليشى . لكنهم لم يجدوا المساعدة التى كانوا يعولـون عليهـا ؛

(١) Ibn al-Athir, p. 600.

وكانوا قد رفضوا قبول أية مساعدة من الامبراطور بعدما تشاجر وليم مع مانويل الـذى عرض عليه يد ابنته ماريـا ثـم سـحب العـرض ؛ وعلـى أيـة حـال ، فقـد رغـب وليـم القبرصي فى أن يظهر أنه أكفأ مما كان عليه البـيزنطيون عـام ١١٦٩م . وبفشـلهم فـى مباغتة المدينة، وباقتراب صلاح الديـن علـى رأس حيـش ، عـادوا بسـفنهم مـرة اخـرى وابحروا مبتعدين يوم ١ أغسطس . وبهذا تحرر صلاح الدين كي يزحف على سوريا[٢].

وشعر ابن المقدم والى دمشق بالخوف ، فناشـد الفرنـج تقديـم المسـاعدة ؛ وزادت خشيته عندما هرب الصالح الصغير بن نور الدين مع امه إلى حلب حيث الوصى الأقوى حوموشتكين . وبعد ذلك استنجد ابن المقدم بسيف الدين صاحب الموصـل كـى يخـف لنجدته ؛ لكن سيف الدين فضل تعزيز ما حصل عليه فـى الجزيـرة. وأصـر الدمشـقيون على أن يرسل واليهم مسـتدعيا صلاح الديـن . وانطلـق صـلاح الديـن مـن فـوره مـع سبعمائة فارس اختارهـم ، وعـبر منطقـة الأردن عبـورا خاطفـا دون أن يتعـرض الفرنـج لإيقافه هناك ، ووصل دمشق يوم ٢٦ نوفمبر ، حيث إستُقبل بمشاعر البهجة . وامضـى الليل فى منزل ابيه القديم . وفى صباح اليوم التالى فتح لـه ابـن المقـدم أبـواب القلعـة . ونصّب صـلاح الديـن أخـاه طغتكـين واليـا علـى دمشـق باسـم الصـالح بعـد أن أمطـر الدمشقيين بالهدايا النفيسة من ثروة الصالح ، ثم زحف شمالا ضد حوموشتكين[٣].

١١٧٤م : ريموند كونت طرابلس وصيّا

بات الفرنج بعد موت أماريك بلا قوة فلا يقدرون علـى التدخـل . وكـان الأمـير الوحيد الباقى فى البيت الملكى هو بلدوين الصبى المجذوم ابـن الثالثـة عشـرة سـنة ؛ ولم تكن اخته سبيللا التى تكبره بعام قد تزوجت بعد . ولم تلد زوجة أبيـه ، الملكـة ماريـا كومنينا ، سوى بنتين ماتت إحداهما والأخرى فى الثانية من عمرها . ووافق البارونات على قبول بلدوين مليكا لهم دون اعتراض . وبعد أربعة أيـام مـن وفـاة امـاريك، تـوج البطريق بلدوين . ولم يكن هناك وصـى تم تعيينـه . وتـولى الحكومـة القهرمـان مـايلز ، الذى كان أقرب الأصدقاء إلى الملك ، وكان من اللوردات بما تملكه زوجته من اقطاعيـة

(٢) Abu Shama (مقتبسا من عماد الدين)، pp.164-5؛ ويحدد بهاء الدين تاريخ وصول القبارصة يوم ٧ سبتمبر .Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 66-7; William of Tyre, xxi, 30p. 1007

(٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.67-70; Ibn al-Athir, pp.614-16; Maqrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, p.517.

منطقة الاردن الضخمة . لكن مايلز لم يكن يتمتع بالشعبية ، ولا سيما بين افراد الأرستقراطية المولودين محليا، والذين ناصروا الكونت ريموند كونت طرابلس فى المطالبة بالوصاية . وكان ريموند هو اقرب الأقرباء للملك - بعد أخواته - من الجانب الملكى للأسرة . فكانت أمه ، هوديرنا الأميرة فى القدس ، خالة اماليك. وعلى الرغم من أن بوهمند أمير انطاكية من ذرية أخت هوديرنا الكبرى - أليس - إلا أنه كان من جيل بعيد عن التاج ، فضلا عن أنه كان يقيم فى مكان بعيد ؛ بينما تزوج ريموند مؤخرا من ثانية أكبر الوريثات فى المملكة ، إيشيفا (اوف بور) ، واميرة الجليل ، وأرملة وولتر (اوف سانت أومير) . وراح مناصرو ريموند ، يتزعمهم الكونستابل القديم همفرى الثانى أمير تبنين ، وأسرة إيبيلين ، ورينالد أمير صيدا ، يلحون على أن تعرض حقوق ريموند على المحكمة العليا . وراوغ مايلز أطول فترة يستطيعها ، لكنه اضطر إلى الرضوخ . وفى وقت متأخر من الخريف نُصّب ريموند وصيا ، وبذا هوى مايلز من سلطته غير مأسوف عليه . وبعد أسابيع قليلة ، اغتيل مايلز فى ليلة ظلماء فى أحد شوارع عكا(٤).

كان ريموند آنذاك فى الرابعة والثلاثين من عمره ، طويلا ، نحيفا ، أسود الشعر والجلد ، يسيطر على وجهه أنف ضخم ، بارد الشخصية ، ضابطا لنفسه ، يفتقر شيئا ما إلى الكرم . ولم يكن فيه ما يدل على حميّة الفروسية التى كان يتمتع بها الصليبيون الأوائل . وكان خلال سنوات أسره الطوال قد قرأ قراءة متعمقة ، وتعلم اللغة العربية ، وتدارس عادات المسلمين . وكان ينظر إلى الدويلات الفرنجية ومشاكلها بمنظور محلى ؛ وكان مهتما ببقائها، وليس بدورها كرأس حربة للعالم المسيحى العدوانى . وكان ذا اقتدار، وقد سانده أصدقاؤه ، غير أنه لم يكن سوى وصى ، وكان له أعداء(٥).

وكانت وصايته بداية انشقاق فى المملكة . إذ كانت هناك شيع من قبل ولا سيما فى أيام الملكة مليسيند لكنها لم تعش طويلا نظرا لسيطرة التاج ، والآن برزت فرقتان محددتان ، تتألف احداهما من البارونات المحليين وفرسان المستشفى وتسعى بقيادة الكونت ريموند إلى إيجاد تفاهم مع الجيران الأجانب ، وليست مستعدة للمجازفة بمغامرات ؛ وتتألف الثانية من الوافدين الجدد من الغرب وفرسان المعبد . وكانت هذه الفرقة عدوانية تصبغها المسيحية العسكرية ؛ ووجدت قائدها عام ١١٧٥م عندما أفرج

(٤) William of Tyre, xxi, 4-3, pp.1007-9.

(٥) William of Tyre, xxi, 5 pp.1010-12.

أخيرا عن رينالد (اوف شاتيلون) من سجنه لدى المسلمين ، إلى جانب جوسلين كونت الرها - وقد غدا كونتا بلا كونتية - فتحول مصيره إلى أن يصبح مغامرا[٦]. وكانت العداوات الشخصية أعنف حتى من الاختلافات السياسية . وأغلب النبلاء الآن ابناء عمومه بين بعضهم البعض ؛ والمشاحرات العائلية هة الأكثر مرارة. فأما زوجتا أماليك فكانت كل منهما تكره الأخرى . وأما آجنس (اوف كورتناى) ، أخت الكونت جوسلين فكانت قد تزوجت مرتين منذ طلاقها ، وقد مات زوجها التالى ، هيو (اوف إيبلين) بعد الزواج بسنوات قليلة ، وأبهج خليفته - رينالد امير صيدا - أن يكتشف أنه شديد الالتصاق بزوجته من حيث القرابة - كشأن امالريك - فحصل على إبطال الزواج[٧]، وانضمت آجنس إلى جانب أخيها وفرسان المعبد ، بينما انضم هو إلى الفرقة الأخرى ؛ وأما الملكة ماريا كومنينا ، فسرعان ما تزوجت من هيو (اوف باليان - أخي ايبلين) ، وقد وهبته اقطاعية مهرها نابلس ، وكان زواجا سعيدا ، ولعبت الأرملة الملكة دورا كبيرا في حزب زوجها[٨]. وبعد اطلاق سراح رينالد (اوف شاتيلون) بأشهر قليلة تزوج وريثة منطقة الأردن ، ستيفانى ، أرملة مايلز (اوف بلانسى) ، التى اعتبرت الكونت ريموند قاتل زوجها[٩]. وقد بدأ شجار ريموند الطويل مع فرسان المعبد على مسألة شخصية ؛ ذلك أن فارسا بلجيكيا فلمنكيا ، جيرار (اوف ريدفورت) ، جاء إلى طرابلس عام ١١٧٣م والتحق بالخدمة تحت إمرة الكونت الذى وعده بتزوجه من أول وريثة ملائمة في كونتيته . غير انه عندما مات لورد البطرون بعد أشهر قليلة ، تاركا أراضيه لإبنته لوسيا ، تجاهل ريموند وعده لجيرار ، وزوجها لأحد أثرياء بيزا ويدعى بليفانو ، الذى وضع الفتاة - على نحو يفتقر إلى الكياسة - على ميزان ومنح الكونت وزنها ذهبا. وغضب جيرار وتملكته خيبة الأمل ، فانحاز إلى فرسان المعبد ، وسرعان ما غدا أكثرهم نفوذا وأصبح قهرمانهم . ولم يغفر لريموند قط[١٠].

---

(٦) عن اطلاق سراح رينالد وجوسلين ، انظر أدناه ص ٤٦٧.

(٧) مات هيو (اوف إيبلين) عام ١١٦٩م تقريبا، وكان مندوبا لأماليك فى القاهرة عام ١١٦٧م . وكان خطيبا لآجنس قبل أن تتزوج أماليك (William of Tyre, xix, 40, p.890). كما يتحدث وليم عن طلاق رينالد امير صيدا. ويظهر ابو رينالد وآجنس على علاقة ببعضهما البعض . ولاشك أن هذه العلاقة كانت من خلال أمها بياتريس أرملة وليم (اوف صهيون) ، و لم يسجّل اسمها قبل زواجها .

(٨) William of Tyre, xxi, 180, p. 1035; Ernoul, p.44.

(٩) Ernoul, pp.30-1.

(١٠) Ernoul, p.114; *Estoire d'Eracles*,pp.51-2. دفع بليفانو عشرة آلاف بيزانت لقاء عروسه . ولو

أما الملك الصغير ، الذى كان مدركا فى بكورة نضجة للمكائد التى تدور من حوله ، فقد حاول الحفاظ على التوازن بين الفرق . وبقى ريموند وصيا عليه لثلاث سنوات ، لكن روابط القرابة جعلت علاقة بلدوين بآل كورتناى أوثق . فعين خاله جوسلين قهرمانا عام ١١٧٦م ؛ وعادت أمه - الليدى آجنس - إلى البلاط حيث مارست نفوذا مخربا . كانت شريرة وجشعة ، لا نهاية لشراهتها للرجال ولا للمال ، و لم يسمح لها بتربية اولادها ؛ إذ كان بلدوين قد أرسل إلى وليم الصورى لتربيته ، وسيبيللا إلى جدتها لخالتها الأميرة رئيسة الدير، جوفيتا (اوف بيثانى) . وبدأت الآن تتدخل فى معيشتهم ، وكان بلدوين يأخذ بآرائها المخالفة لآرائه الأفضل ، وسيطرت على سبيللا[١١].

١١٧٤م : صلاح الدين يهاجم حلب

كان أول واجبات ريموند الوصى هو كبح تعاظم قوة صلاح الدين . و لم يكن باستطاعة الفرنج الحيلولة دون اتحاد دمشق والقاهرة ؛ ولكن حلب على الأقل ما تزال منفصلة . وما أن وصلت صلاح الدين التعزيزات من مصر حتى زحف على حلب من دمشق . وفى ٩ ديسمبر ١١٧٤م دخل حمص وترك جنوده يحاصرون قلعتها التى صمدت أمامه ، ومر خلال حماه إلى حلب . ولمّا أغلق جوموشتكين البوابات فى وجهه، بدأ يحاصر المدينة الحصار المعتاد فى ٣٠ ديسمبر . وكان المواطنون مذبذبين فى الاستسلام له ؛ لكن الصالح الصغير هبط اليهم بنفسه ووقف فى وسطهم وناشدهم الحفاظ عليه من الرجل الذى اختلس ميراثه ؛ فمس كلامه قلوبهم فلم يهنوا أبدا . وفى تلك الأثناء كان جومشتكين قد استغاث بالحشاشين وبالفرنج . وبعد أيام قليلة عُثر على بعض الحشاشين فى قلب معسكر صلاح الدين فى نفس خيمته فقتلوا بعد دفاع يائس . وفى أول فبراير ظهر الكونت ريموند على رأس جيش فرنجى أمام حمص ، وبمساعدة حامية القلعة بدأ مهاجمة أسوار المدينة . وأتى ذلك بثماره ، إذ رفع نور الدين

كان محتواها من الذهب الخالص لكان وزنها ١٠ أحجار. (المترجم): الحجر stone وحدة وزن انجليزية تساوى ٣٥ر٦ كيلوجرامات.

(١١) هناك ما يؤكد أن جوسلين كان قهرمانا من ١١٧٧م قدما (Rohrich, *Regesta*, p.147). وكان دائما يسمي"الكونت جوسلين". وفى الوثائق تسمى آجنس كونتيسة ، لأنها كانت كونتيسة يافا وعسقلان أثناء زواجها من أماريك . و لم تكن ملكة البتة ، و لم يطلق عليها لقب ملكة قط .(وعن تربية سيبللا انظر William of Tyre, xxı, 2, p.1006، وعن تربية بلدوين انظر أعلاه ص ٤٥٠).

الحصار عن حلب وأسرع جنوبا ، ولم ينتظره ريموند . وطوال الشهر التالى كان صلاح الدين مقيدا بحصار قلعة حمص . وبحلول ابريل كـان سيد كـل سوريا حتى حماه فى الشمال ؛ لكن حلب بقيت مستقلة . واعترافا من جومشتكين بـالجميل للفرنـج أطلق سراح رينالد (اوف شاتيلون) وجوسـلين (اوف كورتنـاى) وكـل السـجناء المسيحيين الذين ذبلت أبدانهم فى غيابات سجون حلب[١٢].

وأثار نجاح صلاح الدين ابن أخى نور الدين ، سيف الدين ، صاحب الموصل الذى أرسل أخاه عز الدين مع جيش كبير إلى سوريا للانضمام إلى جومشتكين . وعرض صلاح الدين ، على جومشتكين أن يتنازل له عن حماه وحمص ، آملا ربما فى إثارة المشاكل بين حلب والموصل . ورُفض العرض . لكن صلاح الدين انقض بجنوده المحنكين على جيش الحلفاء أثناء عبوره أخدود بين التلال شمالى حماه ، ومزق الجيش تمزيقاً. ولم يشعر صلاح الدين بأنه قوى بما فيه الكفاية لمتابعة نصره . وعقدت هدنة تسمح لصلاح الدين باحتلال مدن قليلة شمالى حماه ، وبخلاف ذلك بقيت الأمور كما كانت عليه[١٣].

والآن نفض صلاح الدين عن نفسه تبعيته للصالح ، قائلا إنه فعل ما فى وسعه لخدمته باخلاص، لكن الصالح فضّل مستشارين آخرين ورفض مساعدته ، ولذا اتخذ لنفسه لقب ملك مصر وسوريا وسك العملة باسمه فقط . وأيده الخليفة فى بغداد تكرما وأرسل له أردية ملكية وصلته فى حماه فى مايو[١٤].

١١٧٦م : صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل

لم تعش الهدنة مع آل زنكى طويلا . ففى مارس ١١٧٦م عبر سيف الدين نفسه الفرات مع جيش كبير وانضم اليه جنود جومشتكين خارج حلب ؛ فاتجه اليه صلاح

(١٢) William of Tyre, xxi, 6, pp. 1012-13; Abu Shama, pp. 167-8; Ibn al-Athir, pp. 618-20; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 562-4.

(١٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.70-1; Ibn al-Athir, pp.621-2، ويطلق ابن الأثير على موقع المعركة قرنى حماه ؛ Kemal ed-Din, ed Blochet, p. 564.

(١٤) يرجع تاريخ اول العملات التى تحمل لقب صلاح الدين الملكى الى عام ٥٧٠ هجرية (١١٧٤-١١٧٥م) . ولم يتخذ لقب سلطان أبدا ، ولكن الكتاب العرب ، وحتى معاصريه ، عادة ما يمنحونه لقب سلطان .(مثلا ابن جبير وبهاء الدين). انظر Wiet, *op.cit.*pp.335-6.

الدين شمالا بعد أن جاءته التعزيزات مرة اخرى من مصر . وفى ١١ ابريل حدث كسوف للشمس ، رأى فيه رجاله نذيرا سيئا أثناء عبورهم وادى العاصى بالقرب من حماه ، وبعد عشرة أيام باغتهم سيف الدين بينما كانوا يسقون جيادهم . غير أن سيف الدين تردد فى الهجوم فى الحال . وفى الصباح التالى ، وعندما جاء سيف الدين بكل قواته لمهاجمة معسكر صلاح الدين على رابية السلطان الواقعة جنوب حلب بعشرين ميلا تقريبا ، اكتشف أنه جاء متأخرا للغاية ؛ إذ كاد هجومهم الأول أن ينجح ، لكن صلاح الدين قام بهجوم مضاد على رأس قواته الإحتياطية وشتت صفوف الأعداء ، وباقتراب المساء كان سيد الساحة . وكان سيف الدين قد ترك ثروته عندما ولى هاربا ، فأعطاها صلاح الدين كلها جائزة لرجاله ، وأحسن معاملة الأسرى وسرعان ما أعادهم إلى بيوتهم . لقد ترك كرمه ورأفته انطباعا رائعا(١٥).

وكانت حلب ما تزال ترفض فتح أبوابها لصلاح الدين ، ولذا هاجمها واحتل القلعة الواقعة بين المدينة ونهر العاصى والتى تتحكم فى الطريق الذاهب شمالا . وهنا كاد أن يهلك مرة اخرى عندما دخل أحد الحشاشين الخيمة التى يستريح فيها ، ولم ينقذه سوى القلنسوة المعدنية التى كان يضعها تحت عمامته الضيقة . واستسلمت عزاز يوم ٢١ يونية . وفى يوم ٢٤ يونية ظهر مرة اخرى أمام حلب ؛ لكنه وافق الآن على المصالحة ؛ إذ أن الصالح وامراء حصن كيفا وماردين الأراتقة الذين كانوا يناصرونه وافقوا على التخلى لصلاح الدين عن كل الأراضى التى غزاها ، وأقسموا هم وصلاح الدين على أن يحافظوا على السلام . وبعد التوقيع على معاهدة السلام يوم ٢٩ يولية ، جاءت اخت الصالح الصغرى لزيارة معسكر صلاح الدين ، وطلب منها بكياسة أن تختار الهدية التى تحبها، فقالت : "قلعة عزاز". فأعادها صلاح الدين إلى أخيها(١٦).

ورغم أن صلاح الدين لم يتمكن بعد من الاستيلاء على حلب ، كان الصالح وبنوعمومته يشعرون بأنه يتهددهم . وباستطاعة صلاح الدين أن يتحول للتعامل مع الحشاشين والفرنج ؛ فدخل جبال النصيرى لمحاصرة مصياف ، وهى المعقل الرئيسى للحشاشين ، وكان الشيخ سينان بعيدا عن المعقل ، وعندما أسرع بالعودة إلى معقله

---

(١٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S* PP. 71-4; Ibn al-Athir, pp. 625-6. ويقول بهاء الدين إن المعركة حدثت فى تل السلطان وفى قرني حماه .

(١٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* ,PP.74-5; Kemal ad-Din, ed. Blochet,pp.146-7; Ibn al-Athir, *loc.cit*.. واستنادا الى كمال الدين ، كان الرأى العام فى حلب مناهضا للمعاهدة ومناصرا للصالح بقوة .

كان باستطاعة صلاح الدين وجنوده القبض عليه لولا أن ثبطتهم قوة غامضة معينة . وشمل الجو نوع من السحر ؛ إذ اضطرب صلاح الدين نفسه بأحلام رهيبة . وفى احدى الليالى هب من نومه فجأة ليجد بعض قطع الكعك الساخنة على فراشه من النوع الذى لا يخبزه سوى الحشاشين ، ومع الكعك خنجر مسموم وورقة مكتوب عليها بيت من الشعر يتهدده ؛ واعتقد صلاح الدين أن شيخ الجبل العجوز كان هو نفسه فى الخيمة . وانهارت أعصابه ؛ فأرسل رسولا إلى الشيخ سينان يلتمس منه العفو عن ذنوبه وبعد ، فى المقابل ، مرورا آمنا منذ ذلك الوقت قدما تاركا الحشاشين دون إزعاج. وعفا عنه الشيخ العجوز ، وتم الوفاء بالمعاهدة(١٧).

و لم يكن إبرام مثل هذه المعاهدة ممكنا بين صلاح الدين والفرنج . إذ كانت هناك هدنة عام ١١٧٥م أطلق بموجبها صلاح الدين ما كان لديه من أسرى مسيحيين كى يتمكن من التعامل مع سيف الدين(١٨) . على أن الفرنج نقضوا الهدنة فى العام التالى . فبينما كان صلاح الدين يحاصر حلب ، أغار ريموند من البقيعة على إقليم البقاع فى الوقت الذى صعد فيه من الجنوب جيش ملكى بقيادة همفرى (اوف تورون) والملك ابن الخامسة عشرة ربيعا . ويبدو أن ابن المقدم ، وهو والى بعلبك الآن ، هزم ريموند هزيمة طفيفة ؛ غير أن المسيحيين أقاموا اتصالا فيما بينهم وهزموا أخا صلاح الدين توران شاه وميليشيات دمشق هزيمة فادحة ، وما أن شعروا باقتراب صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا مرة اخرى على الفور . و لم يطاردهم ، إذ كان يتعجل عودته إلى مصر . وبعد أن ترك توران شاه قائدا لجيش قوى فى سوريا ، تسلل مرة أخرى خلال منطقة الأردن ووصل القاهرة فى نهاية سبتمبر(١٩).

١١٧٦م : زواج سيبيللا الأول

ومضت فترة راحة من القتال طوال عام كامل ، لقيت ترحيبا من كل من الجانبين.

---

(١٧) Abu Firas, ed. Guyard, *Journal Asiatique,* 7 me série, vol. IX, 1877, Arabic text, pp.455-9; Ibn al-Athir (*loc.cit*)، ويسجل ابن الأثير خطاب التهديد المرسل من سينان الى خال صلاح الدين ، شهاب الدين .

(١٨) William of Tyre, XXI, 8, pp. 1017-19. وهو يوبّخ همفرى (اوف تورون) ، الذى كان مسؤولا عن الهدنة ، لضياع فرصة الهجوم على صلاح الدين عندما كان فى وضع محرج .

(١٩) William of Tyre, XXI, II, pp. 1021-3; Ibn al-Athir, p. 627.

إذ راح صلاح الدين يعيد تنظيم مصر ويعيد بناء القاهرة وتحصينها من حديد ، وفي ذات الوقت كانت حكومة القدس تواجه أهم مشاكلها الداخلية . ففي عام ١١٧٧م شب الملك بلدوين عن الطوق ببلوغه السادسة عشرة ، وكف ريموند عن الوصاية . بيد أن مرض الجذام الذى يعانى منه الملك ازداد سوءا ، ويقينا لن يعيش سنوات كثيرة . ولكي تتأهل الأميرة سيبيللا للاستخلاف ، كان لابد لها من أن تتزوج . ولذا ، وجه بلدوين الدعوة فى عام ١١٧٥م ، وربما باقتراح من لويس السابع ملك فرنسا، إلى وليم طويل السيف (William Long-Sword) ، وهو أكبر أبناء مركيز مونتفرات ، للحضور إلى فلسطين وقبول يد سبيللا . وكان اختيارا حسنا . إذ كانت لوليم اتصالات جيدة ؛ إذ كان والده أغنى الأمراء في شمال ايطاليا ، وكان من أبناء عمومة كل من الامبراطور فريدريك باربروسا والملك لويس . وكان هو نفسه ، رغم أنه لم يعد شابا ، على مايكفى من الشجاعة والوسامة بحيث يرضى الأميرة الطروب . وهبط فى ميناء صيدا فى اكتوبر من عام ١١٧٦م ، وبعد أيام قليلة ، مُنح كونتية عسقلان وكونتية يافا ، في نفس يوم زواجه من سبيللا ، وكان مقبولا عموما كوريث للعرش . على أن الآمال التى كانت معقودة على شجاعته واتصالاته ذهبت أدراج الرياح . ففى عام ١١٧٧م سقط فريسة مرض الملاريا الذى تواصل بضعة أشهر ، إلى أن مات فى يونية. ووضعت أرملته ابنا فى أواخر الصيف ؛ وريثا للمملكة ، لكنه الوريث الذى جعل الوصاية لا مفر منها. وراح مبعوثو الملك ينقبون فى أوروبا مرة أخرى للعثور على زوج ثان للأميرة[٢٠].

كما كان مبعوثو الملك ينقبون أوروبا بحثا عن حلفاء ضد صلاح الدين ؛ إذ أن هدوء القتال يقينا لن يستمر طويلا . غير أن أمراء الغرب كانوا غارقين إلى آذانهم فى شؤونهم الخاصة بهم ؛ وحتى القسطنطينية لا تستطيع تقديم نفس العون كما كانت تفعل من قبل . إذ كان عام ١١٧٦م بمثابة نقطة تحول فى تاريخ بيزنطة . ذلك أن السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى زاد عنادا ضد الامبراطور ؛ بعدما كان مقيد الشكيمة أثناء حياة نور الدين ، الذي تدخل فى الأناضول عام ١١٧٣م للحيلولة دون أن يبتلع السلاجقة أراضى الدانشمند . فقد حافظ أحد قواد نور الدين ، وهو عبد المسيح ، وكان وزيرا سابقا لدى أخيه قطب الدين ، على قيصرية مازاكا لذى النون

(٢٠). William of Tyre, xxi, 13, pp. 1025-6؛ كانت أم وليم أختا غير شقيقة للملك كونراد ولأبى فريدريك باربروسا . وكان أبوه، وأم الملك لويس - أديلايدى (اوف مورين) - أطفالا من زيجتين مختلفتين لـ .Gisela of Burgundy

الدانشمندى ، وبقى هو نفسه مع حامية فى سيواس . وفى نفس الوقت ثبت لأخى قلج ارسلان ، شاهنشاه ، امتلاك أنقرة حيث كان الامبراطور قد نصبه فيها قبل عدة سنوات . على أن موت نور الدين حرر قلج أرسلان من القيود ؛ وفى نهاية عام ١١٧٤م أعيد عبد المسيح إلى الموصل ، وكان ذوالنون وشاهنشاه فى المنفى فى القسطنطينية ، وبذا تملك قلج ارسلان أراضيهما . ثم إنه تحول ضد بيزنطة ، وفى صيف عام ١١٧٦م ، قرر مانويل أن يتعامل مع الأتراك مرة والى الأبد . وتشجع بما حققه فى الصيف السابق من بعض النجاح الطفيف فكتب إلى البابا ليعلن أن الوقت قد أصبح ملائما لحملة صليبية جديدة . وسوف يؤمن الطريق الآن عبر الأناضول إلى الأبد. وبينما أرسل جيشا بقيادة ابن عمه أندرونيكوس فاتاتسيس خلال بافلاجونيا لصد ذى النون عند حدوده، قاد مانويل نفسه الجيش الامبراطورى العظيم ، الذى تضخم بكل التعزيزات التى امكنه الحصول عليها، وزحف على عاصمة السلطان - قونية . وما أن سمع قلج ارسلان بالحملة حتى أرسل طالبا السلام . لكن مانويل لم يعد يثق فى كلمته.

١١٧٦م : معركة ميريوسيفالوم

فى وقت مبكر من سبتمبر واجهت الحملة البفلاجونية كارثة أمام أسوار نقصار . وقد أرسل تمثال رأس فاتاتسيس إلى السلطان كعلامة على الانتصار ؛ وبعد أيام قلائل تحرك جيش مانويل خارجا من وادى نهر مياندر ، مرورا بحصن كان قد بناه فى سوبالايوم قبل ذلك بعام ، وملتفا حول قمة بحيرة إيجريدير إلى داخل التلال التى تصعد حتى سلسلة الجبال الضخمة واسمها جبال السلطان داغ . وتباطأت العربات الثقيلة التى تحمل آلات الحصار والأعلاف ؛ وكان الأتراك قد خربوا الأراضى التى كان لتلك العربات أن تمر خلالها . وكان الطريق يؤدى إلى ممر يطلق عليه اليونانيون تسيبريتسى ، وتظهر فى الطرف البعيد أطلال قلعة ميريوسيفالوم . وهناك تجمع الجيش التركى على مرأى فوق جانب التل المقفر . وحذر قواد مانويل من ذوى الحنكة من أن يمر جيشه البطئ المتثاقل فى ممر صعب فى مواجهة الأعداء ؛ ولكن الأمراء الأصغر كانوا على ثقة من شجاعتهم وإقدامهم وكانوا من طالبي الأمجاد ؛ فحثوه على المضى . وكان السلطان قد جمع الجنود من حلفائه وأتباعه جميعا ، بحيث أصبح جيشه كبيرا بنفس القدر كجيش مانويل ، وان كان أقل فى جودة التسليح ولكنه أكثر قدرة على الحركة . وفى ١٧ سبتمبر شق حرس الطليعة طريقه خلال الممر ، وتنحّى الأتراك أمامهم ، كى يلتفوا

حول التلال ويندفعوا هابطين المنحدرات إلى الممر حيث كان الجيش الامبراطورى الرئيسى يشق طريقه بطول الطريق الضيّق . وكان زوج أخت الامبراطور - بلدوين أمير انطاكية - على رأس كتيبة للفرسان ، فقام بهجوم مضاد صاعدا التل إلى الأعداء ، لكنه قتل مع رجاله جميعا ، وشاهد الجنود فى الوادى الضيق هزيمته ؛ وكانوا مكدسين مع بعضهم البعض بحيث لا يكاد أحدهم أن يكون قادرا على تحريك يديه . وكان لا يزال بإمكان القيادة الشجاعة أن تنقذ اليوم من أن يشهد الهزيمة ، لكن شجاعة مانويل خذلته ؛ إذ كان هو نفسه أول من أصابه الذعر فولى دبره وكر هاربا من الممر . والآن حاول الجيش كله اللحاق به ؛ لكن عربات النقل سدت الطريق فى خضم الفوضى المتلاطمة . ولم يستطع الفرار سوى القليل من الجنود . وراح الأتراك يقتلون كما يحلو لهم ، وهم يلوحون بتمثال رأس فاتاتسيس ، إلى أن هبط الظلام. ثم إن السلطان أرسل رسولا إلى الامبراطور الذى كان يحاول تنظيم صفوف جنوده المرعوبين فى الوادى، عارضا عليه السلام شريطة أن ينسحب فى التو ، ويزيل التحصينات من قلعتى سوبلايوم ودوريليوم . وقبل مانويل الشروط بامتنان . وعاد من الممر حرس الطليعة الذى أفلت من الهزيمة وانضم إلى البقايا المفجعة التى يقودها مانويل الآن باتجاه الوطن ، يتحرش بها الأتراك الذين استعصى على فهمهم ما أبداه قلج أرسلان من رأفة . وربما لم يدرك السلطان قيمة تمام انتصاره ؛ إذ كان جُل اهتمامه منصباً الآن على الشرق ، ولم يكن يعبأ آنذاك بالتوسع غربا . فكل ما كان ينشده هو الأمان[٢١].

ومع ذلك كان مانويل مدركا لمدى جسامة الكارثة التى قارنها هو نفسه بكارثة منزيكيرت التى وقعت قبل ما يزيد قليلا على قرن من الزمان[٢٢]. لقد دُمرت آلة الحرب العظيمة التى دأب جده وأبوه على بنائها ، وسوف تنقضى سنوات كثيرة قبل إعادة بنائها ، وفى واقع الأمر لم يعاد بنائها قط . وخلال السنوات الثلاث التالية

---

(٢١) انظر Nicetas Choniates, pp. 236-48; Michael the Syrian, III, pp. 369-72. Chaladnon, *Les Comnènes*, pp.506-13, and Cahen, *La Syrie du Nord*, p.417 n. 3 وعن المعركة ذاتها انظر Ramsay, 'Preliminary report', in *History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp.235-8.

(٢٢) Nicetas Choniated, p. 249 . ومن الناحية الأخرى حاول مانويل التقليل من الكارثة الى أدنى الحدود فى خطابه بشأنها المرسل الى ملك انجلترا هنرى الثانى (مقتبس فى Roger of Hoveden, *Chronica*, II, p. 101). ولاحظ المعركة كثيرون من المؤرخين الغربيين.

S. Rudberti Salisburgensis II, p. 435, and *Liber Pontificalis, Vita Alexandri*, in *Annales* p.777.

كان هناك ما يكفى من الجنود للدفاع عن الحدود ، بل والفوز بانتصارات قليلة بسيطة. على أن الامبراطور لم يعد قادرا أبدا بعد ذلك اليوم على الزحف على سوريا وإملاء إرادته على انطاكية ؛ كما لم يبق لديه شئ من كبريائه العظيم الذى كان فيما مضى يردع نور الدين وهو فى ذروة قوته من زيادة تشديده على العالم المسيحى . وتكاد كارثة ميريوسيفالوم أن تكون قاتله للفرنج بنفس القدر الذي قضت به على بيزنطة ؛ فبرغم كل ما كان بينهما من تبادل انعدام الثقة وسوء الفهم ، كان الفرنج يعلمون أن وجود امبراطورية شديدة القوة يعتبر ضمانا أخيرا ضد انتصار الإسلام ؛ ففى لحظتها، وعندما كان الولد الضعيف الصالح يحكم شمال سوريا ، لم يلحظ الفرنج أهمية المعركة. ولكن عندما ذهب وليم الصورى لزيارة القسطنطينية بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلم بما حدث كاملا ، تحقق من الأخطار التى تنتظر الفرنج(٢٣).

١١٧٧م : فيليب كونت فلاندرز فى فلسطين

على الرغم من هلاك جيش مانويل كان أسطوله لا يزال قويا ، وكان على استعداد لاستخدامه ضد صلاح الدين . ومرة أخرى وعد فى عام ١١٧٧م بإرساله للمساعدة فى هجوم فرنجى على مصر . وخلال صيف ذلك العام ، راحت شائعات بحملة صليبية جديدة آتية من الغرب ، وقيل إن كلا من لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا قد أخذ الصليب(٢٤) . ولكن الذي ظهر فى فلسطين كان عاهلا واحدا فقط . ففى سبتمبر، وأثناء أن كان الملك بلدوين فى طريقه إلى الشفاء من نوبة ملاريا حادة ، هبط فى ميناء عكا فيليب كونت فلاندرز ومعه أتباع كثيرون . وهو ابن كونت ثيرى وسبيللا كونتيسة أنجو ؛ وتذكر الفرنج اشتراك ابيه فى أربع حملات صليبية ، وكانوا يعلمون مدى ما تكنه أمه من الحب الورع للأرض المقدسة ، فعلقوا عليه الآمال العراض . وأسفرت أنباء حضوره عن إرسال الامبراطور أربعة سفراء من أصل عريق يعرضون المال لتسيير حملة ضد مصر ، ووصل فى أعقابهم إلى ميناء عكا أسطول بيزنطى من سبعين سفينة تحمل المحاربين المحنكين . ونظرا لما كان عليه الملك

---

(٢٣) William of Tyre, XXI, 12, p. 1025.

(٢٤) فى معاهدة إيفري Ivry بتاريخ ٢١ سبتمبر ١١٧٧م ، اتفق كل من لويس السابع وهنرى الثانى على الذهاب فى حملة صليبية مشتركة (Benedict of Peterborough, 1, pp.191-4). لكن المشروع سرعان ما انهار بعد ذلك .

بلدوين من شدة المرض الذي أقعده عن الذهاب إلى الحرب ، فقد سارع بعرض الوصاية على فيليب إذا قبل الخروج على رأس حملة ضد مصر . لكن فيليب تردد وراوغ قائلا إنه قد حضر أولا لمجرد الحج ، وثانيا لأنه لا يستطيع تحمل مثل تلك المسؤوليات بمفرده؛ وعندما اقترح الملك تعيين رينالد (اوف شاتيلون) قائدا مشاركا معه ، انتقد فيليب شخصية رينالد . وحذبوا انتباهه إلى أن الأسطول البيزنطي موجود هنا وعلى استعداد للتعاون ، فكان رده بمجرد التساؤل لماذا يتعين إلزام اليونانيين . وأخيرا كشف عن أن هدفه الوحيد من حضوره إلى فلسطين هو أن يزوّج ابنتي عمه ، الأميرتين سيبيلا وإيزابيلا من ابني أفضل أتباعه لديه - روبرت أوف بيثون . وكان ذلك فوق ما يتحمله بارونات القدس ؛ فعندما تقدم الكونت بطلبه لدى البلاط ، صرخ في وجهه بلدوين (اوف إيبيلين) قائلا : "كنا نظن أنك قد جئت لتحارب من أجل الصليب ، وأنت لا تتحدث إلا عن الزواج " . وأخذ الكونت فيليب يعد العدة للرحيل ثانية وهو غارق في مشاعر الإحباط والحنق . وكان للمشاحنة وقع الصدمة على سفراء الامبراطور ؛ واتضح بجلاء أنه لن تكون هناك حملة ضد مصر . وانتظروا قرابة شهر ، ثم أبحروا مع الأسطول تصحبهم أحاسيس الغيثان ، كي يحذّروا سيدهم الامبراطور من عبث الفرنج الذى لا دواء له[٢٥].

وغادر كونت فلاندرز القدس قاصدا طرابلس فى نهاية اكتوبر . وربما بدأ ضميره يضايقه الآن ، إذ انه وافق على مصاحبة الكونت ريموند فى حملة ضد حماه ؛ وقدم الملك جنودا من المملكة لتعزيزه . وفي الوقت الذى أغارت فيه كتيبة على أراضى حمص ، فقط لكى تقع فى كمين وتفقد كل ما غنمته من أسلاب ، ضرب الكونت ريموند والكونت فيليب الحصار حول حماه التى كان حاكمها في شدة المرض . غير أنه عندما جاء الجنود من دمشق ، انسحبا دون أن يحققا شيئا . ومن طرابلس ارتحل الكونت فيليب قاصدا أنطاكية حيث وافق على مساعدة الأمير بوهمند فى الهجوم على مدينة حارم ، التى كان يحكمها والى صلاح الدين السابق ، جومشتكين ، الذى تشاجر مع سيده صلاح الدين فقتله ، ولذا تمرد أتباعه فى حارم ضد الصالح ، لكن تمردهم

---

(٢٥) William of Tyre, xxi, 18-14, pp. 1027-35. يفترض أن كلا من ريموند أمير طرابلس وبوهمند أمير انطاكية كان يعارض تسيير حملة ضد مصر وثبّطا من عزيمة فيليب . لكن آل إيبيلين كانوا يشعرون بالغثيان من فيليب ، ونظرا لاعتيادهم التدخل مع ريموند ، فمن الجائز القبول بأن وليم الصورى قد بالغ . إذ كان مسؤولا عن التحالف البيزنطى ، ومن ثم أقلقه التخلى عن هذا التحالف ، وربما كان ما أبداه فيليب لاحقا من استعداد لمساعدة ريموند وبوهمند قد جعله يرتاب فيهما. أنظر أيضا Ernoul, p.33 الذى يذكر سخرية بلدوين (اوف إيبيلين) .

انتهى باقتراب الفرنج . وبعزيمة فاترة حاصر بوهمند وفيليب المدينة ، إذ لم تفلح محاولاتهما نسف أماكن في الأسوار ، وتمكن الصالح من ارسال فصيلة اخترقت صفوفهم لتعزيز الحامية . وعندما أرسل الصالح اليهما مبعوثيه يؤكدون أن العدو الحقيقى لكل من حلب وانطاكية هو صلاح الدين الذى عاد إلى سوريا ، وافقا على رفع الحصار . وعاد فيليب كونت فلاندرز إلى القدس فى عيد الفصح ، ثم أبحر على ظهر سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية(٢٦).

١١٧٧م : هزيمة صلاح الدين فى تل الجزر

كان صلاح الدين قد عبر الحدود من مصر يوم ١٨ نوفمبر . وكان جهاز استخباراته رائعا دائما؛ إذ علم أن التحالف الفرنجى البيزنطى قد انهار وأن كونت فلاندرز غائب فى الشمال ؛ فقرر شن هجوم مضاد مفاجئ أعلى الساحل داخل فلسطين . واستدعى فرسان المعبد كافة فرسان النظام للدفاع عن غزة ؛ بيد أن الجيش المصرى تقدم إلى عسقلان مباشرة . وكان الكونستابل همفرى (اوف تورون) مريضا مرضا شديدا ، وقد نهض الملك لتوه من فراش المرض ، فجمع ما استطاع جمعه من الجنود - ومجموعهم خمسمائة فارس - وأصطحب معه أسقف بيت لحم حاملا الصليب الحقيقى ، وأسرع إلى عسقلان ودخل القلعة قبل وصول الأعداء مباشرة . وكان قد استدعى كل قادر على حمل السلاح ليلحق به هناك ، لكن صلاح الدين اعترض السرايا الأولى وأسرها . وبعد أن ترك صلاح الدين قوة صغيرة لضمان بقاء الملك فى عسقلان، زحف على القدس . ولمرة واحدة فقط كان صلاح الدين مفرط الثقة بالنفس ؛ فلم يعد هناك أعداء بينه وبين العاصمة المسيحية ، ولذا أرخى لجنوده حبل الانضباط وسمح لهم بالتجوال فى انحاء الريف للنهب . وبشجاعة اليائس تدبر بلدوين إرسال رسالة إلى فرسان المعبد يطلب منهم التخلى عن غزة والانضمام اليه ؛ وعندما اقتربوا شق طريقه خارجا من عسقلان وسار بكل رجاله شمال الساحل إلى يبنة ومنها تحول إلى داخل البلاد . وفى يوم ٢٥ نوفمبر كان الجيش المصرى يعبر واديا صغيرا ضيقا بالقرب من قلعة تل الجزر جنوب شرق الرملة بأميال قليلة ، وفجأة هبط عليه فرسان الفرنج قادمين

---

(٢٦) William of Tyre, xxi, 25, 19, pp. 1036, 1047-9; Ernoul, p.34; Michael the Syrian, iii, pp. 75-6; Abu Shama, pp. 189-92; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 76-7; Ibn al-Athir, pp. 630 3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 148-53.

من الشمال . ولقد كانت مفاجأة كاملة . وكان البعض من جنود صلاح الدين غـالبين يجمعون المرعى ، و لم يكن لديه وقت لإعادة تجميع الباقين الذين هرب الكثير منهم قبل الصدمة الأولى . و لم ينقذ صلاح الدين نفسه سوى حرسه المملوكى ، وأما الفصيلة التى صمدت فقد هلكت كلها أو كادت. وكان بلدوين فى المقدمة بين المسيحيين ؛ وساعد على احراز النصر شجاعة أمراء يبنة ، بلدوين وباليان ، وكذلك شجاعة ابنى زوجة ريموند ، هيو ووليم من امراء الجليل . وشوهد القديس جورج نفسه يحارب إلى جانبهم.

وفى غضون ساعات قليلة كان الجيش المصرى يسابق الريح فرارا إلى مصر ، وقد تخلى عن كل ما استلبه وعن الأسرى الذين اسرهم ؛ بل إن الجنود ألقوا بأسلحتهم ليتسنى لهم الفرار الأسرع . وتمكن صلاح الدين من الحفاظ على بعض معايير النظام ؛ غير أن عبور صحراء سيناء كان مؤلما ، مع مضايقات البدو الرحل للهاربين بلا حماية . وأرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسلا من الهجانة إلى القاهرة يؤكدون لمن تسول لهم أنفسهم التمرد أنه مازال على قيد الحياة ؛ وأعلن عن عودته إلى القاهرة فى سائر أنحاء مصر بالحمام الزاجل . لكن هيبته أصيبت اصابة شديدة[٢٧].

لقد كان نصرا عظيما أنقذ المملكة إلى حين . لكنه على المدى البعيد لم يغير الوضع؛ فموارد مصر لا حدود لها بينما الفرنج لا يزالون يعانون من نقص الرجال . ولو كان ممكنا للملك بلدوين أن يطارد الأعداء داخل مصر ، أو يهاجم دمشق هجوما خاطفا ، لأفلح فى سحق قوة صلاح الدين ، لكنه لا يستطيع المجازفة بجيشه هذا الصغير بهجوم فى غيبة المساعدة الخارجية ؛ وبدلا من ذلك قرر تشييد حصون قوية بطول الحدود الدمشقية ، إذ أن فقد بانياس قد أحدث الاضطراب فى النظام الدفاعى للمملكة. فبينما راح همفرى أمير تبنين يحصن منطقة تل هونين على الطريق من بانياس إلى طورون، شرع الملك فى بناء قلعة فى منطقة الأردن الأعلى بين بحيرة حولة وبحر الجليل ، لكى تسيطر على المخاضة التى شهدت المصارعة بين يعقوب والملاك[٢٨] ، وهى المخاضة التى تعرف أيضا بمخاضة الأحزان ؛ وكانت الأراضى الواقعة على جانبيها يقطنها المسلمون من الفلاحين والرعاة ، البعض يدين بالولاء لدمشق ، والبعض الآخر

---

(٢٧) William of Tyre, xxi, 24-20, pp. 1037-47; Ernoul, pp. 41-5; Michael the Syrian, III, p. 375; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 75-6; Abu Shama, pp.184-7; Ibn al-Athir, pp. 627-35.

(٢٨) (المترجم): أنظر سفر التكوين، الإصحاح الثانى والثلاثين، الآيات ٢٤ وما بعدها.

للمسيحيين ، وكانوا يتمتعون بحرية الذهاب والإياب عبر الحدود التـى كـانت علامتهـا الوحيدة شجرة بلوط ضخمة ، وكان الفرنج قد تعهدوا بعدم تحصين مناطق العبور قط. وقد رغب بلدوين فى الإلتزام بالمعاهدة وتشييد القلعـة فـى مكـان آخـر ، لكـن فرسـان المعبد فرضوا عليه رأيهم . وشكى المسلمون المحليون نقض العهد لصلاح لدين ، الـذى عرض علي بلدوين أولا ستين ألف قطعة ذهبية ، ثم مائة ألف قطعة ذهبية للتخلـى عـن البناء . ولمّا رفض الملك ، أقسم صلاح الدين أن يتخذ احراء هو نفسه[٢٩].

وبعد الكارثة التي نزلت بصلاح الدين فى تل الجزر مكث فى مصـر بضعـة أشـهر إلى أن أيقن أن كل شئ على مايرام تحت سيطرته . وفى نهاية ربيـع عـام ١١٧٨م عـاد إلى سوريا وأمضى ما تبقى من العام فى دمشق . وكانت الأعمال الحربية الوحيـدة فـى ذلـك العام تتألف من غارات قليلـة وغـارات مضـادة[٣٠] . وأما فى المنـاطق الأبعـد إلى الشمال فكان هناك سلام بين انطاكية وحلـب ، وتحـالف بـين انطاكيـة وأرمينيـا، التـى أطيح بأمـيرها الخائـن ، مليـح ، بعـد مـوت نور الدين مباشرة على يد ابن اخيه روبـين الثالث . وكان روبين صديقا للفرنج الذين ساعدهم فى حصار حارم العقيم[٣١]. كمـا سعى بوهمند الثالث إلى مصادقة الامبراطور ، وفى عام ١١٧٧م تزوج إحـدى قريبـات مانويل وتدعى ثيودورا ، كزوجته الثانية[٣٢].

(٢٩) William of Tyre, xxi, 26, pp. 1050-1; Ernoul, pp. 51-2; Abu Shama, pp.194-7; Ibn al-Athir, p. 634.. وكان صلاح الدين مشغولا آنذاك بتمرد محلى فى بعلبك . ويعبر مخاضة يعقوب الآن جسر يعرف باسم "جسر بنات يعقوب".

(٣٠) Ibn al-Arhir, p. 633.

(٣١) Sembat the Constable, p. 624; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p.509. وعـن زواج روبـين انظر ادناه ص ٤٨٠.

(٣٢) William of Tyre, xxii, 5, p.1069. تاريخ هذا الزواج ، وحتى اسم العـروس ، محـل خـلاف . إذ أن *Lignages v*, p.446 يسميها إيرين Irene، ويجعل لها ابنة تسمى كونستانس ، ليست معروفة مع ذلك .وليس معروفا ما إذا كانت من آل كومنينوس أم انها علـى صلـة قرابـة بالامـبراطور عـن طريـق امها. ويعتقد Rey ، فى 'Histoire des Princes d'Antioche', *Revue de l'Orient Latin*, 1896، m ii, pp. 379 82، أنهـا زوجـة بوهمنـد الأولى . والارجـح ان زوجتـه الأولى هـى Orgillosa of Harenc، التى تظهر فى الوثائق (Rohricht, *Regesta*, pp.125, 1399, 5-1170).ويقول وليم يقينا: "إن بوهمند ترك ثيودورا ليعيش مع سيبيللا".

١١٧٩م : موت همفرى أمير تبنين

وفى ربيع ١١٧٩م ، عندما بدأت الحركة الموسمية للقطعان ، انطلق الملك بلدوين لجمع الأغنام التى سوف تمر باتجاه بانياس من السهول الدمشقية ، وأرسل صلاح الدين ابن أخيه فاروق شاه ليرى ما يحدث هناك . وكان مقررا أن يخبر عمه عن طريق الحمام الزاجل بالاتجاه الذى يسلكه الفرنج . وفى يوم ١٠ ابريل انقض فاروق شاه فجأة على الأعداء فى واد ضيق فى غابة بانياس ، وبوغت الملك الذى لم يستطع تخليص جيشه الا بما أبداه الكونستابل القديم ، همفرى أمير تبنين من بطولة ، إذ صمد للمسلمين مع حرسه الشخصى إلى أن هرب الجيش الملكى . وجرح همفرى جرحا مميتا ، وقضى نحبه فى حصنه الجديد فى هونين يوم ٢٢ ابريل . وأعرب الجميع ، بل والمسلمون ، عن تقديرهم لشخصيته . لقد كان موته ضربة رهيبة للمملكة، إذ كان هو وحيدها من السياسيين الكبار الذى حظى باحترام الجميع .

وتابع صلاح الدين الانتصار بمحاصرة قلعة مخاضة يعقوب ، لكن الدفاعات كانت من القوة بحيث انسحب بعد ايام قليلة كى يعسكر أمام بانياس ، ومنها راح يرسل المغيرين إلى داخل الجليل وخلال لبنان لتدمير حصاد المحاصيل بين صيدا وبيروت . وجمّع الملك بلدوين قوات المملكة واستدعى ريموند امير طرابلس للانضمام اليه ، وساروا أعلى طبرية وصفد إلى تبنين . وهناك علموا أن فاروق شاه وفرقة من المغيرين فى طريق عودتهم من الساحل وهم محملين بالغنائم ، فانتقلوا إلى الشمال لمهاجمتهم فى وادى مرج عيون الواقع بين نهر الليطانى والأردن الأعلى . غير أن صلاح الدين لاحظ من مرقب فوق تل شمال بانياس أن القطعان فى الجهة المقابلة من الاردن تجرى مبعثرة فى فزع ، فتحقق من أن الجيش الفرنجى يمر بها، فانطلق يطارده . وفى يوم ١٠ يونية ١١٧٩م ، وبينما كان الجيش الملكى يهزم فاروق شاه فى مرج عيون ، انتقل الكونت ريموند وفرسان المعبد متقدمين قليلا باتجاه الأردن . وفى مدخل الوادى هبطوا على جيش صلاح الدين ، وشارك فرسان المعبد فى المعركة على الفور ؛ بيد أن هجوم صلاح الدين المضاد دحرهم إلى الخلف منكبين على جنود بلدوين ، الذين كانوا يندحرون هم كذلك ؛ و لم يمض وقت طويل حتى كان الجيش الفرنجى كله موليا الأدبار . وتمكن الملك والكونت ريموند ، مع بعض رجالهما ، من عبور نهر الليطانى واللجوء إلى حصن الشقيف أرنون الواقع على مكان مرتفع على الضفة الغربية للنهر . وقتل من تبقى عبر النهر من الرجال جميعا، او جُمعوا فيما بعد . و لم يتوقف بعض الهاربين فى قلعة الشقيف ، وانما انطلقوا مباشرة إلى الساحل ؛ حيث قابلوا فى طريقهم

رينالد أمير صيدا مع جنوده المحليين ، وأخبروه أنه جاء بعد أن سبق السيف العذل ، ولذا عاد أدراجه رغم أنه لو تقدم إلى الليطاني لأنقذ الكثير من الهاربين الآخرين .

وكان من بين أسرى صلاح الدين أودو (اوف سانت أماند) ، السيد الأعظم لفرسان المعبد ، الذى كان تهوره السبب الرئيسي للهزيمة النكراء ، وبلدوين امير يبنة ، وهيو امير الجليل . وسرعان ما افتدى هيو بعد أن دفعت أمه ، كونتيسة طرابلس ، خمسة وخمسين الف دينار من دينارات صور . وأما بلدوين امير يبنة فقد طلب صلاح الدين مائة وخمسين الف دينار ، وهي فدية ملك ، وكذلك كان صلاح الدين يقيس اهمية بلدوين . وبعد أشهر قليلة أفرج عن بلدوين لقاء الافراج عن ألف أسير مسلم وبالوعد بأن يبحث عن المال . واقترح مبادلة أودو بأسير مسلم هام ؛ لكن السيد الأعظم كان بالغ الغرور بحيث لم يوافق على أن هناك من يعادله في اهميته . فبقى فى غيابة الجب في دمشق إلى أن مات فى العام التالى .

١١٨٠م : هدنة عامين

لم يتابع صلاح الدين نصره بغزو فلسطين ، ربما لأنه سمع بوصول جماعة كبيرة من الفرسان القادمين اليها من فرنسا بقيادة هنرى الثانى (اوف شامباني) ، وبطرس (اوف كورتناى) ، وفيليب أسقف بوفيه ؛ وبدلا من ذلك هاجم قلعة بلدوين فى مخاضة يعقوب ، وبعد أن حاصرها لخمسة ايام ، من ٢٤ إلى ٢٩ أغسطس ، أفلح فى نسف جزء من الاسوار واقتحمها وقتل المدافعين عنها ودمرها إلى أن سواها بالارض . ولم يخرج الزائرون الفرنسيون لمحاولة انقاذ القلعةوإنما سارعوا بالعودة إلى بلدهم . ومرة أخرى أثبت صليبيو الغرب أنهم بلا فائدة البتة[٣٣] .

وبعد أن قام الأسطول المصرى بغارة ناجحة فى اكتوبر على حركة السفن فى نفس ميناء عكا، وبعد غارة اسلامية ضخمة داخل الجليل فى وقت مبكر من العام الجديد ، أرسل الملك بلدوين يطلب الهدنة من صلاح الدين . فوافق صلاح الدين . وقد

---

(٣٣) William of Tyre, xxi, 30-27, pp. 1052-9; Ernoul, pp. 53-4; Abu Shama, pp.194-202; Ibn al-Athir, pp. 635-6; Maqrisi, *Revue de l'Orient Latin*, vol. viii, pp. 530-1. تدور بعض الشكوك حول ماذا كان أودو (اوف سانت أماند) قد قتل ، لكن كتابا بابويا مرصوصا بالرصاص أرسله البابا ألكسندر الثالث يفترض أنه عاش كأسير . انظر d'Agbon, 'La Mort d'Odon de Saint'Amand' in *Revue de l'Orient Latin*, vol. xii, pp. 279-82.

حدث جفاف شديد طوال الشتاء وباكورة الربيع وأحدقت المجاعة بسوريا كلها ، وليس هناك من يرغب في غارة تدمر المحاصيل الهزيلة ، وربما قرر صلاح الدين ضرورة أن يسبق غزو حلب غزو القدس . وفى مايو من عام ١١٨٠م وقع ممثلو بلدوين وصلاح الدين على هدنة لمدة سنتين ، واستبعدت طرابلس من الهدنة . على انه بعدما أغارت البحرية المصرية على ميناء طرطوس ، وبعد صد صلاح الدين من غارته على البقاع ، عقد معاهدة مماثلة مع ريموند[٣٤] . وفى الخريف سار شمالا إلى الفرات حيث تشاجر الأمير الأرتقى نور الدين صاحب حصن كيفا - والذى أصبح حليفه - مع قلج ارسلان السلجوقى . ذلك أن نور الدين كان قد تزوج ابنة السلطان ، لكنه أهملها بسبب إحدى الراقصات . وفى ٢ اكتوبر ١١٨٠م عقد صلاح الدين مؤتمرا بالقرب من المصيصة، حضره امراء الاراتقة ومبعوثون من قلج ارسلان ، ومن سيف الدين صاحب الموصل ، ومن روبين الأرمينى . وأقسموا على أن يظلوا جميعا في سلام طوال السنتين التاليتين[٣٥] .

وأما الملك بلدوين فقد أمضى فترة الهدنة فى محاولة بناء جبهة مسيحية ضد الاسلام فذهب وليم الصورى ، وهو رئيس أساقفة منذ عام ١١٧٥م ، إلى روما عام ١١٧٩م لحضور مجلس لاتيرانى[٣٦] . وفى طريق عودته قام بزيارة إلى القسطنطينية فى الأيام الأخيرة من السنة ، وكان الامبراطور مانويل على ما اعتاد عليه من إظهار الكياسة والود ، لكن عين وليم النافذة استطاعت أن ترى فيه رجلا ميتا . لم يبرأ مانويل قط من صدمة معركة ميريوسيفالوم مع أنه أظهر اهتماما كبيرا بسوريا ، ومكث وليم هناك سبعة أشهر ، وحضر الاحتفالات العظيمة التى اقيمت بمناسبة زواج ابنة مانويل ماريا، وكانت عانسا فى الثامنة والعشرين من عمرها ، على رينيه (اوف مونتفرات)، أخى زوج سبيللا ؛ وزواج ابن مانويل ، وهو ابن عشر سنوات على الأميرة آجنس الفرنسية وعمرها تسع سنين . وعاد برفقة مبعوثين امبراطوريين رافقوه حتى انطاكية[٣٧]. وكان

(٣٤) .William of Tyre, xxii, 3-1, pp. 1053-6; Abu Shama, p. 211; Ibn al-Athir, p. 642.

(٣٥) Ibn al-Athir, pp. 639-40.

(٣٦) (المترجم): المجلس اللاتيراني Lateran Council. تنسب التسمية الى القديس جون لاتيران St John Lateran، او الى كنيسته المساة باسمه ، وهى كنيسة البابا الكاتدرائية على موقع قصر Plautius Lateranus البازيليكى الرائع فى روما . والمجالس اللاتيرانية Lateran Councils هى خمسة مجالس عامة للكنيسة الغربية عقدت فى Lateran basilica، (١١٢٣م و١١٣٩م و١١٧٩م و١٢١٥م و١٥١٢-١٥١٧م) ويعتبرها الكاثوليك على أنها مجالس مسكونية او عالمية.

(٣٧) . William of Tyre, xxii, 4, pp. 1066-8.

الأمير الأرميني روبين متلهفا على تقوية تحالفه مع الفرنج ، ففي باكورة عام ١١٨١م جاء حاجا إلى القدس ، وهناك تزوج الليدى ايزابيلا أميرة تبنين ، بنت ستيفاني اميرة منطقة الاردن(٣٨). وأعلن حتى اليعاقبة السيريان ولاءهم للقضية المسيحية المتحدة ، عندما زار بطريقهم - ميخائيل المؤرخ - القدس وقابل الملك مقابلة طويلة(٣٩).

كما كانت هناك آمال معلقة على حليف من الشرق الأبعد . ذلك أنه منذ عام ١١٥٠م ، ذاعت رسالة فى أنحاء اوروبا الغربية تدل على أن الذى كتبها ذلك العاهل العظيم بريستر جون(٤٠) إلى الامبراطور مانويل . وبرغم أنها من تزييف أسقف ألماني بصورة شبه يقينية ، فإن محتواها الذى يتحدث عن ثروة وورع ذلك القس الملك فائق الروعة بحيث يمتنع تصديقه . وفي عام ١١٧٧م أرسل البابا طبيبه فيليب برسالة يطلب فيها معلومات ومساعدة ، ويبدو أن فيليب أنهى رحلته فى الحبشة ، ولم يكن لها نتائج حقيقية(٤١).

١١٨٠م : سبيلا وبلدوين أمير ابيلين

ومع ذلك لم يأت فارس قوى من الغرب ، ولا حتى للزواج من الأميرة سبيلا وخلافة العرش . وعندما كان فريدريك رئيس أساقفة صور فى روما ، أرسل إلى هيو الثالث البرجندى ، وهو من سلالة البيت الملكي كأبيه ، يترجاه أن يقبل الترشيح ؛ فوافق هيو بادئ الرأى ، لكنه فضل البقاء فى فرنسا . وفى تلك الأثناء وقعت سبيلا نفسها فى حب بلدوين أمير ابيلين . وكانت أسرة إبيلين الآن ، برغم أصلها المتواضع ، فى مقدمة نبلاء فلسطين . وبموت باليان العجوز الذي أسس الأسرة ، مُنحت إقطاعية إبيلين نفسها لفرسان المستشفى ، لكن الرملة كانت من نصيب ابنه الأكبر هيو ، وبموت هيو مرت إلى أخيه بلدوين الذى كان قد تزوج وريثة بيسان ، ولكن نبذها

---

(٣٨) Sembat the Constable, p. 627. ويشير Ernoul, p.31 الى الزواج ، ويطلق على روبين ابن توروس . كما أورد (pp.25-30) زيارة توروس الى القدس ، وهي غير مسجلة فى أى مكان آخر، وربما كانت وهمية .

(٣٩) Michael the Syrian, III, p.379.

(٤٠) (المترجم) بريستر جون Prester John: ملك مسيحى أسطورى فى العصور الوسطى وقسيس ، يقال إنه كان يحكم إما فى الشرق الأقصى أو فى اثيوبيا.

(٤١) Rohricht, *Regesta*, pp.67, 145 . وعن اسطورة بريستر جون انظر Marinescu, 'Le Prêtre Jean' in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. x.

بذريعة قرابة الدم الشديدة التي تحرم الزواج . والآن كان الابن الأصغر باليان زوج الملكة ماريا كومنينا ، ولورد مدينة نابلس التي كانت مهرها ؛ وكان بلدوين وباليان الأكثر نفوذا من كل النبلاء المحليين ؛ وبرغم ما كان عليه بلدوين من نسب غير متميز ، كان لزواجه من سبيلا أن يحظى بشعبية في سائر انحاء البلاد . وقبل إعداد ترتيبات الخطوبة ، وقع بلدوين في الأسر في مرج عيون ؛ وكتبت له سبيلا وهو في سجنه تؤكد له حبها ؛ لكنها بعد أن اطلق سراحه قالت له ببرود إنها لا تستطيع أن تتخيل الزواج بينما هو ما يزال مدينا بفدية ضخمة . وكان حلها معقولا ، وان كان مثبطا ؛ ولم يعرف بلدوين كيف يدبر المال ، فرحل إلى القسطنطينية وتسولها من الامبراطور ، الذى دفع الفدية كلها لما يعرف عنه من شغف باللفتات الكريمة. وعاد بلدوين منتصرا إلى فلسطين في وقت مبكر من ربيع ١١٨٠م ، لا لشئ إلا ليجد سبيلا مخطوبة لرجل آخر[٤٢].

ولم تكن الليدى آجنس تستلطف قط أقارب أزواجها على اختلافهم وكانت تستهجن آل إيبيلين . وقبل بضع سنين جاء إلى فلسطين فارس من بواتو ، هو أماليريك الإبن الثاني لكونت لوسينان . وكان جنديا جيدا ، وبموت همفرى أمير تبنين عُيّن كونستابلا. وفي نفس الوقت تقريبا تزوج إيشيفا ، إبنة بلدوين (اوف إيبيلين) ؛ وكان أيضا عشيقا لآجنس . وكان له أخ أصغر في فرنسا ، يدعى جوى . وبتشجيع من آجنس ، بدأ يخبر سبيلا عما كان يتحلى به هذا الشاب من وسامة غير عادية وفتنة إلى أن رجّحته أخيرا في إحضاره إلى فلسطين . وفي الوقت الذى كان فيه بلدوين في القسطنطينية ، أسرع اماليريك إلى فرنسا لإحضار جوى ولإعداده للدور الذى كان مقررا أن يعلبه . ووجدته سبيلا على نفس قدر الوسامة التى قيلت لها ، فأعلنت أنها تنتوى الزواج منه . واعترض أخوها الملك ولكن دون جدوى ؛ إذ كان جوى - كما اتضح للجميع - صبيا ضعيفا أحمقا . واغتاظ بارونات فلسطين لاحتمال أن يصبح مليكهم المقبل هذا الابن الأصغر لنبيل فرنسي تافه ، وكل ما يميزه هى أنه من ذرية ميلوسين الأشبه بجنيات الماء ؛ غير أن آجنس وسبيلا راحتا تضايقان الملك المرهق المريض إلى أن وافق . وفي عيد الفصح من عام ١١٨٠م تزوج جوى من سبيلا ومنح اقطاعيتى يافا وعسقلان[٤٣].

---

(٤٢) لم يذكر أحد قصة حب بلدوين (اوف ايبلين) سوى Ernoul, pp.48, 56-9 . وإيرنول كان فى خدمة أخي بالدوين ، باليان ، ولذلك كان على علم جيد بشؤون الأسرة .

(٤٣) William of Tyre, XXII, I, pp. 1064-5; Ernoul, pp. 59-60 ؛ ويقول Benedict of

١١٨٠ م : البطريق هيراكليوس

لأسباب سياسية، وكذلك شخصية، كان آل إيبلين في غاية الحنق ، وتفاقم الشقاق بينهم وبين آل كورتناى ، يساندهم فى ذلك رينالد (اوف شاتيلون) . وفى اكتوبر ١١٨٠م حاول الملك التوفيق بينهما بأن خطب أخته غير الشقيقة إيزابيلا إلى همفرى الرابع أمير تبنين . وكانت ايزابيلا ابنة زوجة باليان (اوف ابيلين)، وهمفرى ابن زوجة رينالد (اوف شاتيلون) . وفضلا عن ذلك كان همفرى ، حفيدا ووريثا للكونستابل الكبير ووريثا شرعيا عن طريق أمه لاقطاعية منطقة الأردن ، ولذلك كان أكثر النبلاء المحليين جدارة ، ومن شأن الزواج أن يضفى رونقا على جدارته . ونظرا لصغر سن الأميرة ، التى كانت فى الثامنة ، تقرر تأجيل الزواج الفعلى لثلاث سنوات(٤٤) . على أن الخطوبة لم تصلح شيئا . إذ بعد أيام قلائل استعرض آل كورتناى قوتهم بتعيين بطريق جديد . ذلك أن البطريق اماليك مات يوم ٦ أكتوبر ؛ وفى ١٦ أكتوبر ، وبضغط من الليدى آجنس ، انتخبت هيئة الكنيسة فى القدس كخليفة له هيراكليوس ، رئيس أساقفة قيسارية . وكان قسيسا لا يكاد يعرف القراءة والكتابة أتى من أوفرن Auvergne ، وكانت له وسامة لا قِبل لآجنس بمقاومتها ، وارتقى فى المناصب بما كان لها من حظوة . وكانت محظيته الحالية زوجة أحد تجار الجوخ فى نابلس ، تدعى باشيا دى ريفيرى ، وسرعان ما اشتهرت فى سائر أنحاء المملكة بأنها السيدة البطريقة Madame la Patriarchesse. وجاء وليم الصورى من أسقفيته صاخبا فى محاولة لمنع الإنتخاب ولكن دون طائل . وسمّاه الناخبون على أنه اختيارهم الثانى ، لكن الملك صدّق على تعيينه بأمر من أمه(٤٥).

وباتت القوة الآن راسخة فى قبضة آل كورتناى ولوسينان وحلفائهم رينالد (اوف

Peterborough,1,p.343 إن سيبلا كانت قد اتخذت بالفعل جوى عشيقا لها. وعندما اكتشف الملك ذلك ، أراد أن يقتل جوى ، ولكن بناء على طلب فرسان المعبد أبقى على حياته وسمح له بالزواج .

(٤٤) William of Tyre, XXII, 5, pp. 1068-9; Ernoul, pp. 81-2. واستنادا الى وليم ، تخلى همفرى عن أراضيه فى الجليل للملك مقابل الارتباط وأعطى بلدوين تورون لأمه . ويقول ابن جبير Ibn Jubayr, ed.Wright, p. 304 إنها ملك "الخنزيرة بنت الخنزير لورد عكا" ، وإن حنين ملك عمه جوسلين .

(٤٥) William of Tyre, XXII, 4, p.1068، أورد ملحوظة مقتضبة توخى فيها حذف أى أمر يتعلق بترشيحه . ويقول Ernoul, pp.82-4 بالتحديد إن آجنس أصرت على انتخاب هيراكليوس "لأن جماله محبوب" (pour sa biauté l'ama)؛ وسبق ان جعلته رئيس أساقفة قيصرية . ويضيف أن وليم حذر الكهنة من انتخابه . ويذكر Estoire d'Eracles, II, pp.57-9 أن وليم الصورى تنبأ بأن الصليب الذى وجده هيراكليوس ، سوف يضيعه هيراكليوس .

شاتيلون) والبطريق الجديد. وفى شهر ابريل ١١٨١م وجهوا ضربتهم إلى وليم الصورى الذى اعتبروه خطرا عليهم لأنه كان مدرس الملك سابقا. وبذريعة تافهة حكم عليه هيراكليوس بالطرد من الكنيسة . وبعد محاولات عقيمة لرأب الصدع رحل وليم الصورى عام ١١٨٢م أو ١١٨٣م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوى ، ومكث هناك حيث مات ، ويقال إن البطريق أرسل وراءه جاسوسا دس له السم(٤٦).
وكان ريموند امير طرابلس ثانى المستهدفين للهجوم . فعندما كان يتهيأ فى وقت مبكر من عام ١١٨٢م للانتقال من كونتيته إلى أراضى زوجته فى الجليل ، منعه ضباط الملك من دخول المملكة ؛ إذ أن آجنس وأخاها جوسلين ألقيا فى روع الملك أنه يتآمر ضد التاج . ولم يرضخ الملك بلدوين إلا بعد الاحتجاجات الغاضبة من بارونات المملكة ؛ وعلى مضض رضى بمقابلة ريموند الذى أقنعه ببراءته(٤٧).

١١٨٠-١١٨٢م : عهد ألكسيوس الثانى

ربما كانت المكائد التى تحاك حول الملك المجذوم الميت أقل خطورة لو لم يكن الوضع الخارجى حساسا. ففى ٢٤ سبتمبر فقد الفرنج أهم حلفائهم بموت الامبراطور مانويل فى القسطنطينية. وكان يحبهم حبا أصيلا ، كما كان يعمل لمصلحتهم بصورة أصيلة ، إلا عندما كان الأمر يصطدم بمصالح الامبراطورية. كان رجلا مؤثرا حاد الذكاء ، ولكنه لم يكن امبراطورا عظيما ؛ إذ أن طموحه للهيمنة على العالم المسيحى أدى به إلى مغامرات لا تقدر الامبراطورية على خوضها . وأرسل جنوده إلى ايطاليا والى داخل هنجاريا فى الوقت الذى كان وجودهم مطلوبا على حدود الأناضول أو فى البلقان . وتعامل مع صندوق ثروته كما لو كان لا ينفد أبدا . وكانت كارثة

---

(٤٦) Ernoul, pp. 84-6: *Estoire d'Eracles,* II, pp. 57-9، الذى يقول إن الذى دس السم لوليم هو طبيب أرسله هيراكليوس الى روما، وأن هيراكليوس نفسه زار روما بعد ذلك . وتاريخا رحيل وليم وموته مجهولان . ويتوقف تأريخه فى عام ١١٨٣م. وقد زار هيراكليوس روما عام ١١٨٤ (انظر ادناه، ص ٤٤٤). ومن الناحية الأخرى جاء ذكر وليم فى وثيقة للبابا ايربان الثالث مؤرخة فى ١٧ أكتوبر ١١٨٦م على انه القاضى فى الدعوى القانونية المتخاصم فيها نظام فرسان المستشفى و أسقف بولونياس (Rohricht, *Regesta, Addiamenta,* p.44). ولذلك يفترض Rohricht أنه عاد الى الأراض المقدسة (*Kreuzzugen,* p.491, n.5 *Geschichte der*) . والأكثر ترجيحا أن المحفوظات البابوية وقعت فى خطأ بشأن الإسم . وكان Josias رئيسا لأساقفة صور فى ٢١ اكتوبر ١١٨٦م (Rohricht, *Regesta,* p. 173).

(٤٧) William of Tyre, XXII, 9, pp. 1077-9.

ميريوسيفالوم ضربة مميتة لجيشه الذى كان لديه من المسؤوليات ما يثقل كاهله . وفى سلسلة طويلة من التنازلات التجارية التى منحها للمدن الايطالية نظير مميزات دبلوماسية عاجلة ، أضعف ما كان عليه رعاياه من رفاهية اقتصادية ، ومن ثمّ لم تُملأ الخزانة الامبراطورية مرة اخرى قط . وبهرت روعة بلاطه العالم بحيث ساد الاعتقاد أن الامبراطورية أعظم مما هى عليه بالفعل ؛ ولو أنه عاش أطول مما عاش فربما كان أسطوله وذهبه ، مع ذلك ، شيئا ذا قيمة للفرنج . وكانت شخصيته هى التى حافظت على تماسك الامبراطورية ؛ ولكن موته كشف عن انهيارها . ولقد صارع الموت متشبثا فى عناد بنبوءات منحته أربعة عشر عاما أخرى يعيشها ، فلم يعبأ بالترتيب للوصاية التى سوف يحتاجها ابنه(٤٨) .

كان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثانى ، فى الحادية عشرة من عمره . وجريا على ما اعتادت عليه بيزنطة من سوابق راسخة منذ القدم تولت الامبراطورة الأم الوصاية . لكن الامبراطورة ماريا لاتينية من انطاكية ، وهى أول لاتينى يحكم الامبراطورية ، ولكونها لاتينية لم تكن محبوبة من أبناء القسطنطينية ؛ كما أن حب مانويل للاتين كان محل ازدراء لفترة طويلة ، وقد أضافت المنازعات الكنسية التى دبت فى انطاكية مرارة على مرارة لدى البيزنطيين ؛ إذ لم ينس أحد البتة مرور الصليبيين الصاخب فى أراضى الامبراطورية ، وكانت ذكريات المذابح فى قبرص ، والمجازر التى اقترفها البنادقة وأبناء بيزا وجنوا لا تزال عالقة بالأذهان . وأبغضهم جميعا التجار الايطاليون الذين كانوا يتبخترون زهوا فى القسطنطينية ، مغتبطين بتحكمهم فى تجارة الامبراطورية التى كانوا دائماما يحصلون عليها باعتدائهم على المواطنين المسالمين فى المقاطعات . واتخذت الامبراطورة مستشارا لها ، وكما كان يُظن ، عشيقا ، ابن أخ لزوجها ، بروتوسيباستوس ألكسيوس كومنينوس ، عم الملكة ماريا من القدس . وكان أحمقا لا يحظى بشعبية . وجنحا معا إلى العنصر اللاتينى ولا سيما إلى التجار الايطاليين. وقامت المعارضة فى وجه الأمبراطورة تقودها ابنة زوجها، بورفيروجينت ماريا ، وزوجها رينيه (اوف مونتفرات) . وفشلت مؤامرتهما فى قتل المحبوب ؛ لكنهما عندما لاذا بكنيسة القديسة صوفيا ، مضى شأوا أبعد فى الاساءة إلى الجماهير عندما دنّس الكنيسة . وأُرغمت الامبراطورة على العفو عن المتآمرين ، لكنها فى وضعها هذا غير المأمون توسلت إلى أخى زوجها، بيلا الثالث ملك هنجاريا كى يأتى لإنقاذها . وكان

---

(٤٨) أنظر Chalandon, *op. cit* pp. 605-8. ويذكر William of Tyre, XXII, 5, p.1069 موته .

ابن عم زوجها ، أندرونيكوس كومنينوس ، الذى غُفِر له ما قضاه فى الشرق من حياة الغواية ، يعيش الآن متقاعدا فى بونتوس(٤٩)، وقد تذكر رفاقه شجاعته وفتنته، وعندما قدموه عليهم ليكون زعيما وطنيا كانت استجابته سريعة ؛ وفى اغسطس ١١٨٢م سار عبر الأناضول، وبسهولة هزم الجنود القلائل الذين لم ينضموا إلى صفوفه . وأما الامبراطورة فسرعان ما وجدت نفسها بمفردها ومعها مجرد اللاتينيين لمساعدتها. وباقتراب اندرونيكوس من البوسفور ، انقض ابناء القسطنطينية فجأة على كل اللاتين فى المدينة ، وقد أثارت الغطرسة اللاتينية المذبحة ؛ على أن مسارها المرعب صدم الكثير من أكثر البيزنطيين وطنية ، ولم ينج سوى القليل من التجار الايطاليين الذين هرعوا إلى سفنهم وابحروا غربا مغيرين على الشواطئ التى مروا بها. وبذا أصبح الطريق إلى القسطنطينية مفتوحا لأندرونيكوس .

وأول ما بدأ به هو القضاء على خصومه ؛ فألقى بروتوسيباستوس في السجن وفقأ عينيه بقسوة . وماتت بروفيروجينيت ماريا وزوجها ميتة غامضة . وأما الامبراطورة الأم فقد حُكم عليها بالإعدام خنقا وأُجبر ابنها نفسه على التوقيع على الحكم . وأصبح أندرونيكوس امبراطورا مشاركا ، وبعد ذلك بشهرين ، فى نوفمبر ١١٨٢م ، اغتيل الامبراطور الصبى الكسيوس الثانى نفسه ، وتزوج أندرونيكوس الذى كان في عامه الثاني والستين من أرملته آجنس الفرنسية البالغة من العمر الثانية عشرة سنة .

وبخلاف حالات القتل هذه ، بدأ اندرونيكوس عهده بداية طيبة ؛ فطهّر الخدمة المدنية من موظفيها الفاسدين والزائدين عن الحاجة ، وأصر على سيادة العدالة وصرامة القانون ، وأرغم الأثرياء على دفع ضرائبهم، ووفر الحماية للفقراء من الاستغلال . ولم يحدث لقرون أن كانت المقاطعات محكومة بمثل هذا الحكم الجيد. بيد أن اندرونيكوس كان خائفا وله العذر . ذلك أن الغيرة راحت تنهش الكثيرين من أقربائه، بينما كانت الطبقة الأرستقراطية تزدرى سياسته ، وكانت الشؤون الخارجية تتوعد بالأخطار . وتحقق من الإنطباع الرهيب الذى تركته مذبحة ١١٨٢م فى الغرب ، فسارع ليس فقط إلى ابرام معاهدة مع البندقية يعد فيها بتعويض سنوى عن خسائرها ، وانما سعى كذلك إلى تهدئة البابا بتشييد كنيسة فى العاصمة لإقامة الطقوس اللاتينية ، وشجع تجار الغرب على العودة . بيد أن ألد أعداء بيزنطة كانا امبراطور هوهينشتوفن (الألمانى) وملك صقلية، وفى عام ١١٨٤م حدث زواج مشؤوم بين ابن الامبراطور فريدريك، هنرى،

(٤٩) (المترجم) بونتوس Pontus: مملكة قديمة شمال شرق آسيا الصغرى على البحر الأسود.

وأخت وليم الثانى والوريثة، كونستانس . ولعلمه بأن صقلية سرعان ما ستهاجمه، فقد أحب اندرونيكوس أن يستوثق من حدوده الشرقية؛ ووجد أن نجم صلاح الدين فى ارتفاع هناك، ولذا قلب سياسة مانويل رأسا على عقب بعقد معاهدة مع صلاح الدين يطلق فيها يده ضد الفرنج فى مقابل تحالفه معه ضد السلاجقة ، ويبدو انهما اتفقا كذلك على تفاصيل تقاسم الغزوات المقبلة ومجالات النفوذ.

١١٨٥م : سقوط اندرونيكوس كومنينوس

على أن المعاهدة كانت عقيمة . إذ أن خشية اندرونيكوس على نفسه فى القسطنطينية دفعته إلى الشروع فى اتخاذ اجراءات قمعية تزايدت فى وحشيتها حتى لم يعد أحد فى العاصمة يشعر بالأمان . و لم يوجه ضربته إلى الارستقراطيين فحسب ، وانما اعتقلت شرطته حتى التجار والعمال البسطاء لأوهى اشتباه فى التآمر ، فكانت عيونهم تُفقأ أو كانوا يرسلون إلى حيث تُفصَل رؤوسهم . وعندما هبط إلى البر فى عام ١١٨٥م جيش صقلى فى إيبيروس وزحف على ثيسالونيكا، تملك الذعر أندرونيكوس. وأسفر ما أقدم عليه من اعتقالات بالجملة ، وما ارتكبه من اعدامات ، إلى أن دفعت بالشعب كله إلى الثورة التى تفجرت عندما افلح أحد أبناء عمومة الامبراطور ، هو ايزاك أنجيلوس ، من الهرب من سجانيه إلى مذبح القديسة صوفيا والتمس العون من هناك ، وكان يتصف بكراهيته للإساءة . بل أن الحرس الشخصى المحيط بأندرونيكوس تخلوا عنه ؛ فحاول عبثا الهرب عبر آسيا ، لكنهم امسكوا به وطافوا به فى انحاء المدينة على جمل أجرب ، ثم عذبته الجماهير الهائجة ومزقته إربا حتى الموت . وأعلن عن تنصيب ايزاك انجيلوس امبراطورا ، فتمكن من الحفاظ على نوع من النظام وعقد سلاما مهينا مع ملك صقلية ، لكنه لم تكن له أية فعالية كحاكم . لقد غدت الامبراطورية القديمة قوة من الدرجة الثالثة بنفوذ طفيف فى السياسة العالمية[٥٠].

وأدى اضمحلال بيزنطة إلى قلب موازين القوة فى الشرق . وقد ابتهج لذلك امراء أرمينيا وانطاكية ، واحتفلوا بخلاصهم من بيزنطة بأن تشاجروا مع بعضهم البعض . فما أن سمع بوهمند الثالث بنبأ وفاة مانويل حتى نبذ زوجته اليونانية كى يتزوج سيدة انطاكية منحلّة تدعى سيبيلا ؛ و لم يكن البطريق ايمرى قد استحسن الزواج اليونانى ،

---

(٥٠) عن عهد اندرونيكوس انظر .Nicetas Choniates, pp. 356-463 ويورد William of Tyre, XXII, 13-10 pp. 1079-86 عرضا مفيدا بما فيه الكفاية عن استخلاف اندرونيكوس .

ولكن الزنا صدمه ، فأصدر مرسوما بطرد بوهمند من الكنيسة ، وفرض على المدينة الحرمان الدينى ، وانسحب مرة اخرى إلى القصير . وكان نبلاء انطاكية على حق فى بغضهم لسيبيلا ، إذ كانت جاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين لقاء معلومات تتصل بقوة الجيوش الفرنجية وتحركاتها . فساند النبلاء البطريق ايمرى ، وأطلت الحرب الأهلية برأسها لولا أن أرسل الملك بلدوين وفدا كنسيا برئاسة البطريق هيراكليوس للتحكيم . ووافق البطريق ايمرى على رفع الحرمان المفروض على المدينة ، ولكن ليس الطرد لبوهمند ، لقاء تعويض مالى ، وتم الإعتراف بسبيلا اميرة . ولم يرض الكثير من النبلاء بالتسوية فهربوا إلى بلاط روبين . وفى نهاية عام ١١٨٢م زادت العلاقات بين الأميرين تعقيدا عندما تمرد محافظ كيليكيا البيزنطى ، ايزاك كومنينوس ، على اندرونيكوس وطلب المساعدة من بوهمند ضد روبين ، وقبل مجئ جنوده فى طرسوس . وعلى الفور غير بوهمند من رأيه وباع طرسوس والمحافظ لروبين ، ثم ندم على ذلك . وطلب فرسان المعبد فدية عن ايزاك على فهم أن القبارصة المتعاطفين معه سيدفعونها لاحقا ، وعلى الأثر انسحب ايزاك إلى قبرص حيث نصب نفسه امبراطورا مستقلا وتناسى الدين . ثم إن روبين ابتلع إمارة هيثوميانز الارمينية الصغيرة التى بقيت فى لامبرون شمال غرب كيليكيا تحت حماية القسطنطينية ، وكان ذلك بمثابة الانذار لجيرانه. وهكذا ادى توسيعه لسلطته إلى أن شعر بوهمند بالخطر ، فدعاه عام ١١٨٥م إلى مأدبة مصالحة فى انطاكية واعتقله لدى وصوله . غير أن أخا روبين ، ليو ، أنهى غزو هيثوميانز ، وهاجم انطاكية . وأفرج عن روبين بعدما تنازل لبوهمند عن المصيصة وأدنا، لكنه سرعان ما استردهما لدى عودته إلى كيليكيا وأعلن عن نفسه سيدا للمقاطعة كلها . وأغار بوهمند بغارات عقيمة لم تحقق شيئا[٥١].

١١٨١م : رينالد (اوف شاتيلون) ينقض المعاهدة

كانت النزاعات الدائرة بين أقزام الزعماء المسيحيين ملائمة للغاية لصلاح الدين . فلا بيزنطة ولا حتى فرنج شمال سوريا سيعرقلون تقدمه ، كما ولن يرسلوا العون إلى

---

(٥١) William of Tyre, XXII, 7-6, pp. 1071-4; William of Tyre, *Latin Continuation*, p. 208; Ernoul, p. 9; Nicetas Choniates, pp. 376-7; Neophytus, *De Calamitatibus Cypri*, clxxxvii; Michael the Syrian, III, pp. 389-94; Sembat the Constable, p.628; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-10. وللاطلاع على جاسوسية سيبلا انظر Ibn al-Athir, pp. 729-30; Abu Shama, p. 374.

مملكة القدس . وكانت الدولة الوحيدة فى الشرق التى حظت بالاحترام فيما بين المسلمين هى مملكة جورجيا النائية ، والتى كانت تتضخم على حساب أمراء ايران السلاجقة المنهمكين فى مصاعبهم التى كانت ملائمة تماما للسلطان[٥٢]. أما والحالة هكذا ، كان من اللازم للمملكة أن تحافظ على هدنة ١١٨٠م . لكن رينالد (اوف شاتيلون) ، وهو الآن لورد منطقة الأردن ، استعصى على فهمه سياسة تسير بما لا يتفق مع رغباته ؛ إذ بمقتضى الهدنة يستطيع التجار من المسيحيين والمسلمين على السواء أن يرتحلوا فى أمان فى أراضى كل من الجانبين ، وأضنى رينالد أن يرى القوافل الاسلامية الثرية فى المتناول تمر دون أن يلحقها أذى . وفى صيف ١١٨١م ، ضعف أمام الإغراء فقاد جنوده الجمليين شرقا إلى داخل الجزيرة العربية إلى تيماء بالقرب من الطريق المتجه من دمشق إلى مكة ؛ وبالقرب من الواحة انقض على قافلة كانت مرتحلة فى أمان إلى مكة وانسل هاربا بكل بضائعها، بل يبدو انه كان يتأمل فكرة السير جنوبا لمهاجمة المدينة المنورة، لكن صلاح الدين ، الذى كان فى مصر، أرسل حملة سريعة بقيادة ابن اخيه فاروق شاه من دمشق إلى داخل منطقة الأردن جعلت رينالد يسرع بالعودة . واشتكى صلاح الدين إلى الملك من خرق المعاهدة وطلب تعويضا ؛ واعترف بلدوين بعدالة المطلب ؛ وأرسل المبعوثين على جناح السرعة إلى رينالد الذى رفض دفع أية تعويضات رغم ذلك . وقد أيده أصدقاؤه فى المحكمة العليا إلى أن ترك الملك الضعيف الموضوع بلا حل . لكن صلاح الدين تابعه ؛ فبعد أشهر قليلة ، اضطر الجو العاصف أن يهبط ألف وخمسماءة حاج إلى البر فى مصر بالقرب من دمياط وهم لا يعلمون بأن الهدنة قد انتهكت . فقيدهم صلاح الدين جميعا بالسلاسل ، وأرسل إلى بلدوين يعرض اطلاق سراحهم فور عودة البضائع التى استلبها رينالد . ومرة اخرى رفض رينالد إعادة اى شئ . وباتت الحرب الآن أمرا حتميا[٥٣].

حث رينالد واصدقاؤه الملك على تركيز الجيش الملكى فى منطقة الأردن للإمساك بصلاح الدين عندما يأتى صاعدا من مصر . وأكد آل إبيلين وريموند أن ذلك سوف يكشف فلسطين له عندما يمر بها، ولكن دون جدوى . وفى ١١ مايو ١١٨٢م غادر

---

(٥٢) للاطلاع على تاريخ جورجيا فى ظل الملك جورج الثالث (١١٥٦-١١٨٤م) انظر *Georgian Chronicle*, pp. 231-7. وقد خلفته ابنته الملكة العظيمة ثمار Thamar. انظر Allen, *History of the Georgian People*, pp. 102-4.

(٥٣) William of Tyre, xxii, 14, p. 1087، حذف السبب الذى دفع صلاح الدين الى اعتقال الحجاج؛ Ernoul, pp. 54-6; Abu Shama, pp. 214-18; Ibn al-Athir, pp.647-50.

صلاح الدين مصر ؛ وبينما كان يودع وزراءه فـى حفـل وداع، عـلا صـوت مـن بـين الحشد يردد بيتا من الشـعر فحـواه أنـه لـن يرجـع إلى مصـر ثانيـة قـط . وتصـادف أن صدقت النبوءة . وقاد جيشه عبر صحراء سـيناء إلى العقبـة ، وسـار شمـالا بـلا صعوبـة شرق الجيش الفرنجى تماما، يدمر المحاصيل فى طريقه . ولّما وصل دمشق وجد أن فاروق شاه قد أغار فعلا على الجليـل وخـرب القـرى الواقعـة علـى منحـدرات جبـل الطـور ، واستولى على عشرين الف رأس مـن الماشـية والـف أسـير ، وفـى طريـق العـودة هـاجم فاروق قلعة حبيس جلدك المقوسة فى نتـوء خـارج الصخـور أعلـى نهـر اليرموك عـبر الأردن ؛ وحفر خندقا اليها عبر الصخور جعلهـا تحـت رحمتـه ، وعلـى الفـور استسـلم المسيحيون السيريان العازفين عن التضحية بأنفسهم من أجل الفرنج . وأمضـى صـلاح الدين ثلاثة اسابيع فى دمشق، ثم رحل مع فاروق شـاه وجيـش ضخـم يـوم ١١ يوليـة وعبر إلى داخـل فلسـطين حـول جنـوب بحـر الجليـل. وأدرك الملـك حماقـة اسـتراتيجيته السابقة فعاد من منطقـة الأردن وسـار أعلـى الضفـة الغربيـة للنهـر ، وقـد أحضـر معـه البطريق والصليب الحقيقى كى تحل البركات على فرق الجيش . والتقى الجيشـان أسـفل قلعة فرسان المستشفى المسماه "كوكب الهوى" (بلفوار) . وفـى وطيـس المعركـة صمـد الفرنج لهجمات صلاح الديـن ، لكـن هجمـاتهم المضـادة لم تفلـح فـى كسـر صفـوف المسلمين . وفى آخر النهار انسحب كل جانب زاعما احراز النصر(٥٤).

كانت المعركة بمثابة صدمة لصلاح الدين باعتباره الغـازى ، ولكنهـا مجـرد صدمـة مؤقتة . وفى أغسطس عبر الحدود مرة اخرى فى مسيرة خاطفة خلال جبـال بـيروت ، وفى ذات الوقت ظهر اسطوله على السـاحل ، وكـان قـد استدعاه مـن مصـر بالحمـام الزاجل بين القاهرة ودمشق . لكن بيروت كانت محصنـة جيـدا . ومـا أن سمـع بلدويـن بالأنباء حتى دفع بجيشه إلى الشمال من الجليل ، ولم يتوقف الا ليجمع سفنه الراسية فى مينائى عكا وصور . ولم يفلح هجوم صلاح الدين علـى المدينـة قبـل وصـول الفرنـج ،

---

(٥٤) William of Tyre, xxii, 16-14 pp. 1087-95; Abu Shama, pp. 218-22; Ibn al-Athir, pp. 651-3. وبيت الشعر الذى قيل لصلاح الدين أثناء توديعه قبل مغادرته القاهرة هو :

تمتع من شميم عَرَار نجد ∴ فما بعد العشية من عَرَار

-(Enjoy the perfume of the ox-eyes of Nejd. After tonight there will be no more ox eyes.).

فانسحب(٥٥) . لقد حان الوقت لكى ينصرف إلى أعمال اخرى أكثر الحاحا .

١١٨١م : وفاة الصالح اسماعيل

فى ٢٩ يونية ١١٨٠م مات سيف الدين صاحب الموصل تاركا مجرد أطفال صغار. ودعا أمراء الموصل أخاه عز الدين ليخلفه . وبعد ذلك بثمانية عشر شهرا ، فى ٤ ديسمبر ١١٨١م ، مات الصالح صاحب حلب فجأة فى نوبة مغص قولونى ، رأى فيه الجميع السم . وكان شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، نبيها، ذكيا، حريا بأن يصبح حاكما عظيما . وبينما كان على فراش الموت توسل إلى أمرائه أن يستخلفوا ابن عمه صاحب الموصل كى تتحد أراضى العائلة ضد صلاح الدين . ووصل عز الدين إلى حلب فى نهاية العام ولقى ترحيبا حماسيا حارا . وجاءه رسل أمير حماه يعرضون عليه ولاءهم ؛ غير أن هدنة السنتين مع صلاح الدين لم تنته بعد ، ورفض عز الدين عرضهم، بدافع التراخى أكثر من كونه بوازع الشرف ، وكان لديه الكثير مما يقلقه ؛ إذ أن أخاه عماد الدين صاحب سنجار ادعى فى فبراير ١١٨٢م أن له نصيبا فى الميراث ، وراح يحيك المكائد مع قائد جيش حلب ، قوقبورى . وعاد عز الدين إلى الموصل فى مايو بعد أن أعطاه عماد الدين سنجار بدلا من حلب ، وكوفئ قوقبورى بامارة حارم حيث راح يتآمر مع جيرانه الأراتقة ، امير حصن كيفا وأمير البيرة ، ضد امراء حلب والموصل وقطب الدين الأرتقى صاحب ماردين ، ودعا المتآمرون صلاح الدين لمساعدتهم . وانتهت فى سبتمبر الهدنة المعقودة فيما بين الأمراء المسلمين ؛ وفى يوم انتهائها عبر صلاح الدين الحدود ، وبعد هجوم مضلل على حلب ، عبر الفرات عند البيرة ، وسقطت امامه مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى ، الرها ، وسروج ، ونصيبين. فواصل زحفه على الموصل وبدأ حصارها يوم ١٠ نوفمبر . ومرة أخرى شعر بالاحباط إذ وجد أن التحصينات من القوة بحيث لا تنال منها الراجمات . وشعر سيده الروحى - الخليفة الناصر - بالصدمة من هذه الحرب الدائرة بين المسلمين ، فحاول التفاوض على السلام . وأخذ حاكم شاة أرمن السلجوقى وأمير ماردين يعدان العدة لإرسال قوات لمساعدة الموصل ، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار التى استولى عليها بهجوم شامل بعد حصارها لمدة اسبوعين . وفى هذه المرة فقط لم يستطع كبح جنوده من نهب

---

(٥٥) William of Tyre, xxII, 18-17 pp. 1096-1101; Abu Shama, p. 223; Ibn al-Athir, pp. 653.

المدينة، لكنه اطلق واليها وأرسله إلى الموصل معززا مكرما . وخرج عز الدين وحلفاؤه لملاقاته فى ماردين ، ولكنه أرسل من يتقدمه عارضا المدنة ؛ وعندما رد صلاح الدين بفظاظة أنه سيقابلهم فى ميدان المعركة ، تفرقوا هاربين إلى بلادهم . ولم يطاردهم ، وانما اتجه شمالا لإخضاع ديار بكر ، وهى أغنى وأقوى قلاع الجزيرة ، وبها المكتبة الأرفع شأنا فى الاسلام . وأعطى المدينة لأمير حصن كيفا . وبعد أن أعاد تنظيم الجزيرة ، بأن عهد بكل مدينة إلى من يثق فيه من الأمراء كإقطاعية ، ظهر مرة يوم ٢١ مايو أمام حلب(٥٦).

١١٨٣م : صلاح الدين يمتلك حلب

عندما انطلق صلاح الدين للهجوم على عماد الدين وعز الدين ، استنجد كلاهما بالفرنج . وذهبت اليهم سفارة تعدهم بإعانة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، مع التنازل عن بانياس وحبيس قلدك ، والإفراج عن الكثير من الأسرى المسيحيين ممن قد يتضح وجودهم لدى صلاح الدين ، وذلك فى حالة قيامهم بهجوم مضلل على دمشق. وكانت لحظة زاخرة بالآمال ؛ فبعد أيام قلائل من غزو صلاح الدين للجزيرة مات فجأة ابن اخيه فاروق شاه والى دمشق . وعلى الأثر أغار الملك بلدوين - ومعه البطريق والصليب الحقيقى - على أراضى حوران ، ونهب عزير ووصل إلى بُصرى ، بينما استعاد ريموند كونت طرابلس حبيس قلداك . وفى وقت مبكر من ديسمبر ١١٨٢م ، قاد ريموند بجموعة مغيرة من الفرسان توغلت مرة اخرى فى بصرى ، وبعد أيام قلائل انطلق الجيش الملكى يريد دمشق ، وضرب معسكره فى ضاحية الدارية التى كان بها مسجد شهير ، أبقى عليه بلدوين بعد أن استقبل وفدا من مسيحيى دمشق يحذرونه من المساس به وإلا سينتقم المسلمون بالهجوم على الكنائس . ولم يحاول الملك مهاجمة المدينة ذاتها ، وسرعان ما انسحب محملا بالغنائم لتمضية عيد الميلاد فى صور . وخطط لحملة أخرى فى الربيع، غير انه فى وقت مبكر من العام الجديد سقط مريضا بالحمى فى الناصرة وهو فى حالة ميئوس منها . وأمضى بضعة اسابيع بين الحياة والموت ، وتسبب مرضه فى أن أصبح جيشه فى حالة سكون(٥٧). وأبعد إلى الشمال كان بوهمند الثالث

---

(٥٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.79-86; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 159-60; Ibn al-Athir, pp. 656-7.

(٥٧) William of Tyre, XXII 22-20, 25, pp. 1102-16; Ibn al-Arhir, pp.155-9.

فاقد الحيلة بلا قوة تمكنه من الإقدام على اى عمل ضد صلاح الدين . وأرسل إلى معسكره امام حلب وابرم معاهدة هدنة لأربع سنوات ، مكّنته من اصلاح دفاعات عاصمته(٥٨).

وفى حلب ، لم يبذل عماد الدين جهدا يذكر للتصدى لصلاح الدين ؛ إذ لم يكن يحظى بشعبية هناك ، وقبل بسرور ما عرضه عليه صلاح الدين من منحه بلده القديم الذى يضم سنجار بالاضافة إلى نصيبين وسروج والرقة . وفى ١٢ يونية ١١٨٣م تملك صلاح الدين حلب ، وبعد خمسة أيام رحل عماد الدين إلى سنجار تحيطه مظاهر التشريف ، ولكن الجماهير سخرت من تخليه على هذا النحو المستهتر. وفى ١٨ يونية دخل صلاح الدين المدينة دخوله الرسمى واتجه بفرسه إلى القلعة(٥٩).

وفى ٢٤ أغسطس عاد السلطان إلى دمشق التى تقرر أن تكون عاصمته(٦٠). والآن امتدت امبراطوريته من سيرانيكا(٦١) إلى نهر دجلة . وطوال قرنين مضيا ، لم يكن هناك أمير مسلم بهذه القوة . كان لديه ثراء مصر حائطا يحمى ظهره ، والمدينتان العظيمتان دمشق وحلب تخضعان لحكومته المباشرة ، وحولهما اقطاعيات يضع ثقته فى حكامها تمتد شمالا وشرقا حتى أسوار الموصل ، وكان الخليفة فى بغداد يسانده ؛ وعز الدين فى الموصل يخشى بأسه ؛ والسلطان السلجوقى فى الأناضول يسعى إلى التقرب منه للفوز بصداقته ، وأمراء الشرق السلاجقة بلا قوة ليعارضوه . ولم يبق الآن سوى قمع الدخلاء الأجانب الذين كان امتلاكهم لفلسطين وساحل سوريا مهانة باقية للاسلام .

---

(٥٨) Ibn al-Athir, p. 662.

(٥٩) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 86-8; Ibn al-Athir, pp.662; Abu Shama, pp. 225-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 167; William of Tyre, XXII, 24, pp. 1113-14, ويتضح أن وليم الصورى فهم جيدا مغزى فتح صلاح الدين لحلب .

(٦٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S* p. 89.

(٦١) (المترجم) Cyrenaica: التسمية القديمة لإقليم برقة الواقع شرق ليبيا حاليا.

الفصل الثانى:

قرنــا حطيــن

قرنا حطين

"قربت نهايتنا . كملت أيامنا لأن نهايتنا قد أتت"

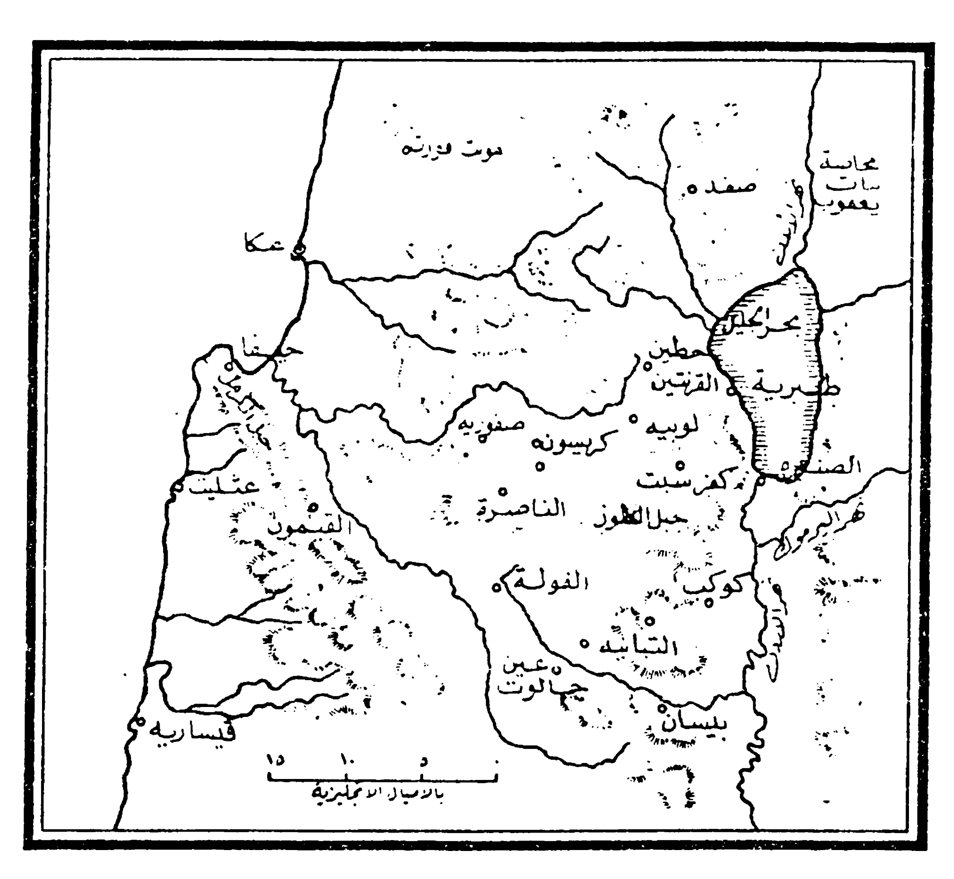
(مراثى إرميا ٤ : ١٨)

عندما نهض الملك بلدوين من فراش مرضه فى الناصرة ، بات جليا أنه لم يعد قادرا على حكم البلاد . إذ أن الحمى فاقمت مما يعانيه من الجذام ، ففقد القدرة على استخدام ذراعيه وقدميه ، وقد بدأ الأربعة فى التآكل ؛ وكاد يفقد البصر . وقام على خدمته وحراسته أمه واخته سبيلا والبطريق هيراكليوس ، وراحوا يحثونه على تسليم الوصاية لزوج سبيلا ، جوى (اوف لوسينان) . وتقرر أن يسيطر جوى سيطرة كاملة على المملكة ، فيما عدا مدينة القدس التى احتفظ بها الملك لنفسه ، بايراداتها البالغة عشرة آلاف بيزانت . وقبل بارونات المملكة قرار الملك على مضض[١].

(١) William of Tyre, xxii, 25, pp. 1116-17.

١١٨٢م : حملة رينالد فى البحر الأحمر

و لم يكن رينالد (ارف شاتيلون) حاضرا تلك المداولات . وعندما علم برحيل صلاح الدين إلى الشمال فى خريف عام ١١٨٢م ، بدأ فى تنفيذ مشروع كثيرا ما كان يداعب خياله ؛ وهو اطلاق اسطول صغير إلى البحر الأحمر للإغارة على قوافل البحر الثرية الذاهبة إلى مكة ، ومهاجمة حتى مدينة الاسلام المقدسة ذاتها . وعندما اقتربت السنة من نهايتها سار جنوبا إلى أيلة على رأس خليج العقبة ، وقد أحضر معه السفن التى بناها من أخشاب غابات مؤاب وجربها فى مياه البحر الميت . واستولى على ميناء ايلات الذى كان بحوزة المسلمين منذ عام ١١٧٠م ، لكن القلعة المشيدة على الجزيرة القريبة التي أطلق عليها مؤرخو الفرنج "جزيرة جراى Ile de Graye" ظلت صامدة؛ وبقى رينالد مع سفينتين من سفنه لمحاصرتها ، وأبحر باقى اسطوله بعيدا عن الجزيرة فى مرح وطرب ، يرشده القراصنة المحليون . وأبحروا جنوبا على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، يغيرون على المدن الساحلية الصغيرة التى كانوا يمرون بها ، وأخيرا هاجموا عيذاب ، الميناء النوبى العظيم المواجه لمكة . وهناك استولوا على سفن تجارية غنية محملة بالبضائع من عدن ومن الهند ؛ وهاجمت فرقة ارضية قافلة ضخمة بلا حراسة جاءت عبر الصحراء من وادى النيل . ومن عيذاب عبر القراصنة إلى ساحل الجزيرة العربية ؛ وحرقوا السفن الراسية فى مينائى المدينة ، الحوراء وينبع ، وتوغلوا حتى الرغيب ، وهو أحد موانئ مكة ذاتها ، وعلى مقربة أغرقوا باخرة حجاج كانت قاصدة ميناء جدة . وارتاع العالم الإسلامى كله . بل أن امراء حلب والموصل ، الذين طلبوا مساعدة الفرنج ، شعروابالخزى لإقدام حلفائهم على هذا الانتهاك لحرمة العقيدة. وتحرك أخو صلاح الدين ، الملك العادل والى مصر فأرسل أمير البحارالمصرى حسام الدين لؤلؤ بأسطول يحمل ملاحين مغاربة من شمال افريقية لمطاردة الفرنج . وبدأ لؤلؤ بتخليص جزيرة جراى واستعاد ميناء ايلات الذى كان رينالد نفسه قد انسحب منه ؛ ثم إنه لحق بأسطول القراصنة خارج ميناء الحوراء فدمّره وأسر جميع الرجال الذين كانوا على ظهره تقريبا . وأرسل عددا قليلا منهم إلى مكة لكى تجرى عليهم شعيرة الأضحية فى مكان الذبح فى منى أثناء الحج التالى . وأخذ الباقون إلى القاهرة حيث ضربت



خريطة رقم (٦) الجليل

أعناقهم . وأقسم صلاح الدين أغلظ الايمان بالانتقام من رينالد لمحاولته المشينة(٢) .

وغادر صلاح الدين دمشق يوم ١٧ سبتمبر ١١٨٣م بجيش ضخم لفتح فلسطين . وفى التاسع والعشرين عبر الأردن ، جنوب بحر الجليل تماما ودخل بيسان التى هرب اهلها حيث الأمان وراء أسوار طبرية . ولمّا سمع جوى (اوف لوسينان) بمجيئه استدعى كامل قوة المملكة وقد تعززت بزائرين صليبيين اثنين من الأثرياء ، جودفرى الثالث ، دوق برابانت، ورالف الأكيتانى (اوف موليون) ورجالهما . وكان مع جوى ريموند أمير طرابلس ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى ، ورينالد (أوف شاتيلون) ، والأخوان إبيلين ، رينالد امير صيدا ووالتر أمير قيسارية ؛ وانضم اليهم همفرى الرابع الصغير امير تبنين مع قوات زوج أمه من منطقة الأردن ، لكن المسلمين نصبوا له كمينا على منحدرات جبل جلبوع ، حيث قتل أغلب رجاله . ثم أرسل صلاح الدين فصائل لانتزاع حصون الجوار وتدميرها، بينما راح آخرون يخربون الدير اليونانى على جبل الطور ، لكنهم أخفقوا فى اختراق الأسوار المنيعة للمنشأة اللاتينية على قمة التل . وعسكر هو نفسه مع جيشه الرئيسى بجوار عيون التبانية فى موقع مدينة بزرعيل القديمة.

١١٨٣م : جوى يتشاجر مع الملك

تجمع الفرنج يوم أول ديسمبر فى صفورية وساروا إلى داخل سهل بزرعيل . وهاجم المسلمون فى الحال حرس المقدمة ، الذي كان يقوده الكونستابل أماريك ، ولم ينقذه منهم سوى وصول الأخوين إبيلين مع جنودهما فى الوقت المناسب . وعسكر المسيحيون عند عيون جالوت فى مواجهة صلاح الدين الذى أفسح جناحيه بحيث كاد أن يطوقهم . وظل الجيشان ساكنين لخمسة ايام ، ولم يكن من اليسير أن تصل الامدادات إلى المسيحيين ، وبعد يوم أو يومين اشتكى المرتزقة الإيطاليون من الجوع، وجاء اكتشاف الأسماك فى عيون جالوت فى وقته المناسب لإنقاذ الجيش من التضور جوعا . وكان أغلب الجنود ، بمن فيهم الفرسان الفرنسيين ورينالد الذي استهان

---

(٢) Abu Shama, pp.231-5; Ibn al-Athir, p.658: Maqrisi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 550-1. ولم يذكر احد من المورخين الفرنج تلك الغارة سوى Ernoul pp.69-70، يتحدث عنها على انها حملة علمية . وشاهد ابن جبير Ibn Jubayr (طبعة Wright, p.49) الأسرى الفرنج فى القاهرة .

بالمسلمين ، يرغبون فى الهجوم على المسلمين ؛ ولكن جوى تردد وارتجف، وأصر ريموند وأميرا إيبلين على أن استثارة هذه الأعداد الغفيرة فيه الموت المحقق ، ولا بد للجيش من أن يبقى فى حالة الدفاع ، وكانوا على حق . وحاول صلاح الدين عدة مرات أن يتصيدهم للخروج ، ولما فشل فى ذلك هدم معسكره وعاد يوم ٨ أكتوبر عبر الأردن .

صدم تصرف جوى كلا من الجنود الذين عرفوا فيه جبن الخوف ، والفرسان الذين يعلمون عنه صفة الضعف . ولدى عودته إلى القدس تشاجر مع الملك . ذلك أن بلدوين شعر أن هواء صور يناسبه على نحو افضل من مرتفعات القدس ذات الرياح . فسأل زوج اخته أن يتبادلا المدينتين ، لكن جوى تلقى الطلب بقلة أدب ، فتملكت بلدوين نوبة غضب أثارت معها دفعة من الحيوية ، فاستدعى أهم أتباعه ، وأخذا بنصيحتهم خلع جوى من الوصاية ، وبدلا من ذلك أعلن يوم ٢٣ مارس ١١٨٣م عن أن وريثه هو بلدوين ابن اخته سبيلا من زواجها الأول ، وهو طفل فى السادسة ، وحرض أخته على السعى لإبطال زواجها . وفى ذات الوقت ، وبرغم عدم قدرته على الحركة دون مساعدة ، وبرغم عجزه عن التوقيع باسمه ، تولى الحكومة بنفسه . وإزاء ذلك عاد جوى إلى كونتيته فى عسقلان ويافا ، ونفض عن نفسه ولاءه للتاج . فاستولى بلدوين على يافا ووضعها تحت السيطرة المباشرة للتاج ، لكن جوى تحداه فى عسقلان . وبلا طائل تشفع البطريق هيراكليوس والسيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى من اجل المتمرد . وفقد الملك صبره معهم ، فطردهم من المحكمة العليا ؛ وكان قد استدعاهم ليأمرهم للتبشير بالرحيل إلى الغرب بحملة صليبية ، ولكن شهور عديدة انقضت قبل أن يرضوا بالرحيل[٣].

١١٨٣م : الزواج فى قلعة الكرك

كان مجلس البارونات الذى نصح الملك بخلع جوى يتألف من بوهمند أمير انطاكية، وريموند امير طرابلس ، ولورد قيصرية ، والأخوين ابيلين . ولم يكن لورد منطقة الأردن حاضرا . ولقد حان الوقت كى يتم الزواج بين الاميرة ايزابيلا، وهى الآن فى الحادية عشرة ، وهمفرى أمير تبنين الذى اصبح فى السابعة عشرة من عمره .

---

(٣) William of Tyre, XXII, 29, pp. 1127-8، يقول إن بلدوين الخامس تُوِّج فى هذه المناسبة .

وكان رينالد قد عقد العزم على اتمام حفل الزواج بكل مظاهر الفخامة التى يستطيعها فى قلعته فى الكرك التى سيرثها العريس .وخلال شهر نوفمبر بدأ الضيوف يتوافدون على القلعة ؛ وكان البعض منهم ، مثل أم العروس - الملكة ماريا كومنينا - من الذين يكنون عداوة شخصية لرينالد ، لكنهم جاءوا فى محاولة لرأب الصدع بين الفرق المتشاحنة . وجاء مع الضيوف مسامرون وراقصون ومشعوذون وموسيقيون من سائر انحاء الشرق المسيحى . وفجأة توقفت الاحتفالات لوصول انباء مرعبة بأن صلاح الدين يقترب بجيشه .

كان تدمير قلعة الكرك واميرها الكافر من بين الآمال المحلّقة لطموحات صلاح الدين . فطالما يسيطر رينالد على هذه القلعة العظيمة يستطيع اعتراض أى محاولة للمرور بين سوريا ومصر ؛ وأظهرت التجربة أن المعاهدات لا تقيده . ولذا عسكر صلاح الدين يوم ٢٠ نوفمبر امام الأسوار بجيشه الذى وصلته تعزيزات من مصر . ولاذ المزارعون والرعاة السيريان المسيحيين مع قطعانهم بالمدينة حيث المأمن ، ولجأ الكثير منهم إلى فناء القلعة . وعلى الفور هاجم صلاح الدين أسفل المدينة وشق له طريقا إلى داخلها . ولم يستطع رينالد أن يفعل شيئا سوى أن يهرب إلى القلعة بفضل بطولة أحد فرسانه الذى راح يدافع وحيدا عن الجسر الذى يعلو الخندق بين المدينة والقلعة إلى أن تهدم خلفه . وفى استعراض رائع لبيان الثقة بالنفس تواصلت الاحتفالات فى القلعة بينما كانت الصخور تندفع لتدق اسوارها . واستمر الغناء والرقص بالداخل ، وأعدت الليدى ستيفانى ، ام العريس ، بنفسها أطباقا من حفل العرس أرسلتها خارج القلعة إلى صلاح الدين الذي سأل فى المقابل عن البرج الذى يسكنه العروسان ، وأصدر اوامره بعدم قصفه بآلات حصاره ، ولكن بخلاف ذلك لم تتراخى ضرباته . وواصلت منجنيقاته التسعة الضخمة العمل بلا انقطاع ، وأوشك رجاله على سد الخندق.

وكانت الرسل قد سارعت إلى القدس تستنجد بالملك ، الذى استدعى الجيش الملكى ووضعه تحت أمرة الكونت ريموند ، لكنه أصر على مرافقة رجاله بنفسه على محفته . وأسرعوا جنوبا مرورا بأريحا ثم أعلى طريق جبل نيبو . ولم تحدث آلات حصار صلاح الدين سوى أثر طفيف فى أسوار القلعة القوية ، وباقتراب الجيش الملكى رفع صلاح الدين الحصار ورحل باتجاه دمشق يوم ٤ ديسمبر . وفى نشوة النصر حُمل الملك إلى داخل الكرك ، وشرع ضيوف الزواج فى العودة إلى بلادهم[٤] . ولم يكن للتجربة

---

(٤) William of Tyre, xxii, 28-30, pp. 1124-7, 1129-30; Ernoul, pp.102-6، والمؤرخ الوحيد الذى ذكر حفل الزواج هو Ernoul الذى ربما كان حاضرا الحفل لأنه كان تبيع بلدوين. وهو يظن

من أثر فى إنهاء ماكانوا عليه من خلافات عانت منها العروس الصغيرة أكثر المعاناة؛ إذ أن حماتها منعتها من رؤية أمها ، كطلب رينالد بلا شك ؛ وكانت أمها غارقة فى حبها لكيد المكائد بين مختلف التحزبات نظرا لدمائها اليونانية ، ولـذا كـانت تعتبرهـا نصـف خائنة ؛ ولم يكن أحد يعاملها معاملة طيبة سوى زوجها . أما همفرى امير تبنين فكـان شابا ذا جمال خارق وعلى جانب كبير من التعليم ، وميوله أنسب لأن يكون بنتا أكـثر منه رجلا . وكان رقيق الحاشية يعامل زوجته الطفلة معاملة حكيمة ، وكانت تحبه[٥].

وفى الخريف التالى زحف صلاح الدين مرة أخرى على قلعة الكرك بجيش انضمت إليه كتائب مرسلة من أتباعه الأراتقـة . ومـرة اخـرى كـانت التحصينـات الهائلـة فـوق طاقته ؛ ولم يستطع تصيد المدافعين للخروج للقتال على المنحدرات اسفل المدينة ، ومرة أخرى انسحب إلى أراضيه عندما اقترب جيش من القدس ، تاركا مجرد فصيلـة للإغـارة على الجليل وتخريب البلاد جنوبا حتى نابلس . وعاد صلاح الديـن نفسـه إلى دمشـق ، فهناك الكثير مما ينبغى انجازه لإعادة تنظيم امبراطوريته . إن الوقـت لم يحـن تمامـا لإزالـة المسيحيين[٦].

وفى القدس كانت يدا الملك المجذوم المتآكلتان تمسكان بعنان الحكومة ، وحوى ما يـزال يحتفـظ بعسـقلان رافضـا دخـول المسـؤولين الملكيـين إلى داخـل المدينـة ؛ وكـان أصدقاؤه البطريق والسيدان الأعظمان فى اوروبا يحاولون عبثـا التأثير علـى الامـبراطور فريدريك والملك لويس والملك هنرى بما ينتظـر مسيحيى الشـرق مـن أخطـار . وكـان عواهل الغرب يستقبلونهم بآيات الشرف البالغ ، ويناقشون معهم الخطط لحملة صليبية

أن صلاح الدين – فى صباه – كان رهينة فى قلعة كيراك حيث كانت الليدى سـتيفانى تلاعبـه علـى ركبتيها. ولا يوجد مرجع آخر يذكر أسر صلاح الدين . وقد ولد صلاح الدين عام ١١٣٧م ، وربما لم تكن ستيفانى قد ولدت قبل ١١٤٥م – تزوجت زوجهـا الأول حـوالى ١١٦٢/١١٦٣م وكـانت البنات يتزوجن صغار السن فى فلسطين – فتكون القصة بعيدة الإحتمـال ؛ Abu Shama, p. 248; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.91-2; Maqrisi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. IX, .pp. 13-14.

(٥) (أنظر أدناه ص ٥٠٨) . وأما التاريخ اللاحق لزواجه فيرد فى قصة الحملـة الصليبيـة الثالثـة . ويصـف مؤلـف *Itinerarium Regis Ricardi* (p.120) همفـرى علـى أنـه 'Vir feminae quam viro proprior, gestu mollis, sermone fructus'. ويذكر Behad ed-Din (*P.P.T.S.* p.288) جماله ويقول انه كان يتحدث العربية بصورة جيدة . ويذكر تاريخ هرقل *Estoire d'Eracles*, II, p. 152 منع ايزابيلا من رؤية امها.

(٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 95-8; Abu-Shama, pp. 249-56; letter of Baldwin IV to Heraclius, in Radulph of Diceto, II, pp. 27-8.

ضخمة ، لكنهم يسوقون الذرائع التى تحول بين اشتراكهم هم شخصيا فى الحملة الصليبية . وكان كل ما أتى به المبعوثون هو أن عددا ضئيلا من الفرسان أخذوا الصليب(٧).

وفى خريف ١١٨٤م عاود حوى إثارة سخط الملك أخي زوجته . ذلك أنه منذ استيلاء المسيحيين على عسقلان ، كان مسموحا لبدو المنطقة التحرك كما يحلو لهم لرعى قطعانهم لقاء إتاوة صغيرة يدفعونها للملك . والآن اغتاظ حوى لعدم حصوله على الإتاوة وذهابها إلى الملك ، فانقض على الرعاة فى أحد الأيام وقتلهم واستولى على قطعانهم(٨).

١١٨٥م : وصية الملك بلدوين الرابع

بات بلدوين الآن طريح الفراش لا يستطيع النهوض منه قط . وأدرك مدى النفوذ المميت، الذى تمارسه أمه وأصدقاؤها ، فأرسل إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة ادارة الحكومة، وفى ذات الوقت أعد العدة لرحيله الأخير ، فأعلن عن وصيته قبل احتماع للبارونات فى وقت مبكر من عام ١١٨٥م . فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن اخته الصغير ؛ ونزولا على رغبة المجلس الصريحة لا يتولى حوى الوصاية ، وانما يتولاها ريموند امير طرابلس ، على أن يحتفظ ببيروت ثمنا لخدماته . بيد أن ريمرند رفض تحمل الوصاية الشخصية للملك الصغير خشية أن يموت الصغير صغيرا - إذ بدت عليه رقة الهزال - وفى هذه الحالة تشير اليه اصابع الإتهام بأنه عجّل بموته . ونظرا لما كان عليه الصبى من صحة هزيلة ، يقسم البارونات ايضا بأنه فى حالة وفاة الصبى قبل بلوغه العاشرة ، يحتفظ ريموند بالوصاية إلى أن يصدر من الحكام الأربعة الكبار فى الغرب - البابا والامبراطور الغربى وملكى فرنسا وانجلترا - قرار التحكيم فيما تطالب به الأميرتان سبيلا وايزابيلا . وفى الوقت ذاته ، وفى محاولة أخيرة للتقريب بين الفرق المتشاحنة ، مُنحت الوصاية الشخصية على الصبى لخال أمه ، حوسلين (اوف كورتناى) ، الذى بدأ الآن يظهر صداقته الودودة لريموند(٩).

---

(٧) عن هذه البعثة انظر Benedict of Peterborough, 1, p.338; Radulph of Diceto, II, pp. 32- 3. وقد استشار هنرى الثانى بجلسه الذى طلب منه عدم الذهاب فى حملة صليبية .

(٨) *Estoire d'Eracles*, II, p. 3.

(٩) *Estoire d'Eracles*, II, p.7, Ernoul, pp.115-19، يورد أكثر التواريخ اكتمالا. ويضع تاريخ تلك

وأقسم البارونات المؤتمرون كلهم على انفاذ رغبات الملك . وكان من بينهم البطريق هيراكليوس الذى عاد لتوه من الغرب ، مع السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، روجر (اوف ليه مولان) ؛ اما السيد الأعظم لفرسان المعبد ، أرنولد (اوف توروجا) فقد مات اثناء الرحلة . وبعد مناقشة عاصفة انتخب النظام خليفة له جيرار (اوف ريدفورت) ، العدو القديم لريموند . وأيد جيرار هو الآخر وصية الملك . وأُخذ الطفل إلى كنيسة القبر المقدس - محمولا بين ذراعى باليان امير ابيلين - حيث توّجه البطريق[١٠].

وبعد أسابيع قليلة ، فى مارس ١١٨٥م ، أراح الموت الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه الطويل الموجعة ولمّا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . كان الوحيد من بين ملوك القدس أجمعين الأكثر تعاسة ، ولا محل للارتياب فى قدراته ، كما كانت شجاعته فائقه ؛ لكنه وهو على فراش مرضه كان فاقد الحيلة في السيطرة على المكائد التى تحاك من حوله ، وغالبا جدا ما كان يرضخ لما كانت أمه الشريرة تمارسه عليه من نفوذ نكد ، ويرضخ كذلك لأخته الحمقاء . وعلى الأقل جنبته الأقدرا المهانة الأخيرة التى سوف تلحق بالمملكة[١١].

الأحداث بعد حصار صلاح الدين الثانى لقلعة كيراك (سبتمبر ١١٨٤م)، ويقول إن بلدوين الرابع مات بعد ذلك مباشرة . غير ان وليم الصورى William of Tyre يذكر (انظر اعلاه ص ٤٤٠ ,n.1) تتويج بلدوين الخامس فى التاريخ ٢٠ نوفمبر ١١٨٣م. ونظرا الى أن وليم ربما مات قبل نهاية ١١٨٤م ، وكتب صفحاته الأخيرة في روما، فمن الجائز أنه قد علم بقرار بلدوين بتتويج ابن اخته منذ أن أخزي جوى عام ١١٨٣م ، لكن وليم أخطأ فيالظن بأن التتويج قد حدث . وأما الحقوق القانونية لسبيلا وايزابيلا فقد أثارت مشكلة ؛ إذ أن أماليك كان قد أصد قاعدة assize فى عام ١١٧١م تسمح للأختين بالمشاركة فى الاقطاعيات سيرا على التقاليد الاقطاعية المعتادة فى اوروبا الغربية . ويعتقد Grandclaude, op.cit. p. 340 أنها تتعلق باستخلاف العرش . وربما ولدت الملكة ماريا آنذاك مباشرة بنتها الكبرى . ومن الناحية الأخرى فإن الأطفال من الزواج الأول ، ذكورا وإناثا، مُنحوا الأسبقية على الأطفال من الزواج الثانى . (انظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p.36) ولكن هل هناك اسبقية لمسألة زواج آجنس الباطل على الزواج الامبراطورى من ماريا؟ يتضح من احداث عام ١١٨٦م أن الرأى العام يساند مطالب سيبلا (انظر ادناه ص ٤٤٧) . على ان الحالة غامضة بما فيه الكفاية بحيث تتطلب التفكير .

(١٠) *Estoire d'Eracles*, II, pp.7-9; Ernoul, pp.114, 118.

(١١) - Ernoul, pp. 118-19; *Estoire d'Eracles*, II, p.9. ويسجل عماد الدين (ابو شامة) Imad ed-Din (Abu Shama, p. 258) تقديره لذكرى بلدوين الرابع .

١١٨٥م : مرض صلاح الدين

بعدما دفنت جثة الملك فى كنيسة القبر المقدس بمظاهر الأسى ، استدعى ريموند الوصى البارونات مرة اخرى ليسألهم عن السياسة التى يتعين عليه اتباعها . لقد خانتهم امطار الشتاء وأطلت المجاعة تتهددهم . وكان الصليبى الوحيد الذى جاء إلى الشرق هو المركيز العجوز وليم (اوف منوتفرات) ، جد الملك الطفل ؛ فبعد أن اطمأن على أن كل شئ على مايرام فيما يتصل بحفيده ، استقر فى هدوء فى اقطاعية فى الجليل . وانطلق ابنه كونراد - عم الملك - ليتبعه ، ولكنه توقف فى طريقه فى القسطنطينية حيث كان اخوه قد هلك قبل ذلك بسنوات قليلة . وهناك عرض مساعدته على من انتقم لرينيه ، الامبراطور ايزاك أنجيلوس ، الذى زوجه اخته . ونسى ابن اخيه وفلسطين. وكان واضحا لجميع البارونات المتجمعين فى القدس أن البلاد التى تتضور جوعا لا تستطيع أن تواجه حربا إلى أن تصل حملة صليبية جديدة ، فوافقوا على اقتراح ريموند بالسعى لدى صلاح الدين للموافقة على فترة هدنة تستمر أربع سنوات .

وكان صلاح الدين على استعداد للقبول ؛ إذ كانت هناك مشاجرة بين اقاربه فى مصر فى حاجة إلى تسوية ؛ وكان قد سمع أن عز الدين صاحب الموصل أصبح مشاكسا مرة اخرى . ووقعت المعاهدة وعادت إلى التجارة حيويتها بين الدويلات الفرنجية وجيرانها، وتدفقت الحبوب من الشرق لتنقذ المسيحيين من المجاعة[١٢].

وفى ابريل ١١٨٥م سار صلاح الدين باتجاه الشمال ، عابرا نهر الفرات عند البيرة فى الخامس عشر من الشهر . وهناك انضم اليه قوقبورى والى حران ومبعوثون من أتباع عز الدين ، واليا الجزيرة واربيل ، وارسل عز الدين سفارات إلى الحكام السلاجقة فى قونية وشاه أرمن ، وأرسل الأخير بعض الجند لمساعدته ، وأرسل الأول رسالة تهديد لصلاح الدين ولكنه لم يُقدم على شيئ . وفى يونية كان صلاح الدين امام الموصل ، رافضا عروض عز الدين للسلام ، حتى عندما جاءته ام الأمير العجوز بنفسها لكى تحاججه . ولكن الموصل كانت ما تزال قلعة هائلة ؛ وبدأ جنود صلاح الدين يمرضون من حرارة الصيف . وعندما مات فجأة سلطان برسارمينيا السلجوقى ، سقمان الثانى ، زحف صلاح الدين شمالا للاستيلاء على المدن التابعة للسلطان ، دياربكر ومايافرقين ، ولكى يتيح لجنوده الراحة فى المناخ الأكثر برودة فى الأراضى المرتفعة . وهناك أصابه المرض هو نفسه واتجه على فرسه وهو يكاد يحتضر إلى قلعة

---

(١٢) Ernoul, pp.121-8; *Estoire d'Eracles,* II, pp.12-13; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp. 104-5.

صديقه قوقبورى فى حران . وأسرع اخوه العادل ، وهو الآن والى حلب ، باحضار أمهر أطباء الشرق، لكنهم لم يقدروا على شئ . ولما شعر بأن نهايته قد حانت ، ولعلمه بأن أقاربه يتآمرون على الميراث ، جعل امراءه يقسمون على الولاء لأبنائه. ثم بدأ يشفى دون توقع ، ولم يحل شهر يناير إلا وكان خطر المرض قد زال عنه . وفى نهاية فبراير استقبل سفارة من عز الدين ووافق على السلام . وفى ٣ مارس وقع السفراء على معاهدة أصبح عز الدين بموجبها تابعا لصلاح الدين وتم تثبيته فيما لديه من املاك ؛ أما الأراضى الواقعة عبر دجلة إلى الجنوب من الموصل ، بما فيها إربيل وشيزر فتقرر أن يحكمها أمراء يعينهم صلاح الدين ويدينون له بالولاء المباشر . وكان وجودهم بمثابة الضمان لولاء عز الدين[١٣] . ثم ذهب صلاح الدين نفسه إلى حمص ، حيث كان واليها ناصرالدين ، ابن شيركوه ، وصهر صلاح الدين ، قد تآمر على عرش سوريا أثناء مرض صلاح الدين ، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما عثر عليه ميتا فى فراشه يوم ٥ مارس بعد الاحتفال بعيد الأضحى . ومنح ابن الضحية ، شيركوه الثانى ، وكان صبيا فى الثانية عشرة من عمره ولاية حمص . وصادر صلاح الدين الكثير من أمواله ، لكن الصبى تلى بلباقة آيات من القرآن الكريم تتوعد من يأكل أموال اليتامى بعذاب شديد ، وبذا استعادها . وفى ابريل عاد صلاح الدين إلى دمشق . الآن امتدت امبراطوريته امتدادا مأمونا حتى تخوم فارس[١٤].

كان من شأن الهدنة بين المسيحيين والمسلمين أن جلبت معها الازدهار إلى فلسطين، فتجددت حركة التجارة بنشاط بين داخل البلاد ومينائى عكا وصور ، مما عاد بالمزايا على التجار فى كل من الديانتين . وإذا ما أمكن الحفاظ على السلام إلى أن تأتى حملة صليبية كبيرة من الغرب ، إذن قد يكون للمملكة مستقبل . لكن الأقدار كانت قاسية على المسيحيين مرة اخرى . ففى حوالى نهاية اغسطس ١١٨٦م مات الملك بلدوين الخامس فى عكا ولمّا يبلغ التاسعة من عمره[١٥].

---

(١٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.98-103; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp.123-6; Abu Shama, p.288; *Bustan*, p.581.

(١٤) Abu'l Feda, p.55. Lane Poole, *Saladin*, pp.194-5 تلى شيركوه الثانى الآية :"إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا"؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S* PP 103-4.

(١٥) Ernoul, p. 129; *Estoire d'Eracles*, II, p. 25.

١١٨٦م : الإعلان عن سبيلا ملكة

كان الوصى ريموند والقهرمان جوسلين حاضرين إلى جانب فراش الموت . وأعرب جوسلين عن رغبته فى التعاون مع ريموند ، وحثه على الذهاب إلى طبرية لدعوة بارونات المملكة لمقابلته هناك حيث المأمن من مؤامرات البطريق ، كى يستمر تنفيذ شروط وصية بلدوين الرابع ؛ وسوف ينقل هو نفسه الجثة الصغيرة إلى القدس لدفنها هناك . ووقع ريموند فى المصيدة وسافر بحسن نية . وما أن رحل حتى أرسل جوسلين من يثق بهم من الجنود لاحتلال صور وبيروت ، وبقى هو نفسه فى عكاحيث أعلن عن سبيلا ملكة ، وبعث بالجثة الملكية إلى القدس فى رعاية فرسان المعبد . واستدعى رسله سبيلا وجوى من عسقلان لحضور الجنازة ؛ وأسرع رينالد من الكرك للانضمام اليهما.

واكتشف ريموند أنه انخدع ، فهبط إلى نابلس ، إلى قلعة باليان امير ابيلين ، واستدعى المحكمة العليا للبارونات بصفته الوصى الشرعى . وسارع كل مناصريه للانضمام اليه ؛ فكان مع باليان وزوجته الملكة ماريا وابنتها ايزابيلا مع همفرى امير تبنين ، وبلدوين امير الرملة ، وولتر امير قيسارية ، ورينالد امير صيدا ، وجميع كبار مستأجرى الأرض فى المملكة ، باستثناء رينالد (اوف شاتيلون) . وهناك تلقوا دعوة من سبيلا لحضور حفل تتويجها . فكان ردهم أن أرسلوا راهبين بندكتيين كمبعوثين إلى القدس لتذكير المتآمرين بقسمهم للملك بلدوين الرابع ، ولمنع اتخاذ أى اجراء إلى أن تعقد المحكمة مداولاتها .

لكن القدس والموانى البحرية تحت سيطرة سبيلا . وكان إلى جانبها جنود القهرمان جوسلين والكونستابل أماليريك - وهو اخو جوى - وقد أتى رينالد بجنوده من منطقة الأردن . وأكّد لها البطريق هيراكليوس - وهو عشيق امها القديم - مساندة المؤسسة الكنسية . وأبدى السيد الأعظم لفرسان المعبد ، جيرارد (اوف ريدفورت) استعداده لأن يفعل أى شئ نكاية فى عدوه القديم ريموند . ولم يكن فى القدس من بقى على اخلاصه للقسم سوى السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان جمهور القدس يحمل الكثير من التعاطف مع سبيلا ؛ إذ كانت تمثل الحق الوراثى ، ورغم أن العرش كان مايزال بالانتخاب ، فليس من اليسير تجاهل المطالبة بالوراثة خاصة وأن حقوقها كانت مؤكدة وقت طلاق امها ، وكان أخوها ملكا وكذلك ابنها. ونقطة الضعف الوحيدة لديها أن زوجها كان مكروها فى موضع الإزدراء .

أغلق البطريق وفرسان المعبد بوابات القدس ووضعوا الحراس لمنع أى هجوم يشنه

البارونات من نابلس ، ثم أعدوا العدة للتتويج . وكانت الشارة الملكية محفوظة فى خزانة لها ثلاثة أقفال يحتفظ بمفاتيحها البطريق والسيدان الأعظمان للنظامين العسكريين، مع كل واحد منهم مفتاح . ورفض روجر السيد الأعظم لفرسان المستشفى تسليم مفتاحه لما كان يعتبره متعارضا مع القسم الذى أقسمه، وفى نهاية الأمر ، وفى لفتة منه تدل على الغثيان ، ألقى بمفتاحه من النافذة . ورفض أن يشترك هو أو أى فارس من فرسانه فى حفل التتويج ، الذى أقيم حالما كان كل شئ جاهزا . ونظرا لانعدام شعبية جوى ، توج البطريق سبيلا فقط ، ولكنه وضع تاجا ثانيا إلى جانبها . وبعد أن وضع هيراكليوس التاج على رأسها ، دعاها لأن تستخدم التاج الثانى لتتويج الرجل الذى تظنه جديرا بحكم المملكة . فأشارت إلى جوى كي يقترب منها وينحنى أمامها ووضعت التاج على رأسه . ثم إن أفراد الصحبة المجتمعة أدوا فروض الولاء لمليكهم ومليكتهم الجديدين . وبينما كان جيرارد (اوف ريدفورت) يخطو خارجا، صاح بصوت مرتفع قائلا إن هذا التاج ما هو إلا انتقام من الزواج الذي تم في البطرون.

وإزاء حقيقة هذا التتويج ، لم تستطع المحكمة العليا فى نابلس أن تفعل شيئا . وفى الاجتماع نهض بلدوين أمير ابيلين قائلا إنه عن نفسه لن يمكث فى بلد يحكمه مثل هذا الملك ، ونصح البارونات كلهم بأن يحذوا حذوه ؛ لكن ريموند رد قائلا إنهم لم يفقدوا كل شئ بعد ، وقال إن الأميرة ايزابيلا وزوجها همفرى امير تبنين فى جانبهم ، فليتوّجا وليذهبا إلى القدس ؛ فلا يستطيع أندادهم الصمود أمام الجيوش المتحدة للبارونات جميعا، فيما عدا رينالد (اوف شاتيلون) وتعاطف فرسان المستشفى ، ليس إلا . وأضاف ريموند أنه طالما كان الوصي فإنه يضمن احترام صلاح الدين للهدنة . فوافقه البارونات وأقسموا على نصرته حتى وان كان ذلك يعنى الحرب الأهلية . على أنهم لم يدخلوا فى حسابهم واحدا من أهم الفاعلين من بينهم ؛ ذلك أن همفرى أصابه الرعب من المصير الذى ينتظره ، فهو لا يرغب فى أن يكون ملكا ؛ فتسلل من نابلس فى الحال قاصدا القدس حيث طلب مقابلة سبيلا . فرفضته بازدراء أول الأمر ، لكنه عندما وقف مرتبكا أمامها، يهرش رأسه ، لانت له ودعته إلى أن يفرغ قصته . وأصغت اليه

في حنان ثم أخذته بنفسها لمقابلة جوى ، الذى تلقى منه الولاء[١٦].

١١٨٦م : أول مجلس للملك جوى

تسبب فرار همفرى في هزيمة البارونات ، وأعفاهم ريموند من أيمانهم ، وذهبوا الواحد تلو الآخر إلى القدس لإعلان خضوعهم لجوى . حتى باليان أمير ابيلين وأكثرهم احتراما جميعا ، رأى أنه لا شئ يمكن عمله . لكن أخاه بلدوين أعاد ماقرره بأنه يفضل الرحيل عن المملكة على أن يقبل جوى ملكا لـه ؛ وانسحب ريموند امير طرابلس إلى أراضى زوجته فى الجليل ، مقسما على أنه هو الآخر لن يقدم ولاءه للملك الجديد . لقد كان حريا أن يقبل ايزابيلا قبول الولاء كملكة ، غير أن ما أبداه همفرى من جبن أقنعه بأنه هو نفسه المرشح الوحيد الجدير بالعرش[١٧].

وسرعان ما عقد الملك جوى مجلس باروناته الأول فى عكا . ولم يظهر ريموند ، وأعلن جوى أن بيروت التى كانت تحت اشراف ريموند باعتباره وصيا قد انتزعت منه ، وأرسل من يطلب منه تقديم حسابات الأموال العامة التى أنفقها أثناء وصايته . أما بلدوين أمير إبيلين ، الذى كان حاضرا ، فقد استدعاه رينالد (اوف شاتيلون) الذى كان واقفا بجانب الملك لكى يقدم ولاءه للملك . وبالكاد حيا الملك تحية رسمية وقال له إنه وهب أراضيه فى الرملة لإبنه توماس الذى سوف يقدم ولاءه عندما يبلغ سن الرشد، وأنه هو نفسه لن يفعل ذلك قط . وغادر المملكة بعد أيام قلائل ، والتحق بالخدمة لدى بوهمند امير انطاكية الذى رحب به بسرور ومنحه اقطاعية اكبر من التى تركها ،

---

(١٦) Ernoul, pp.129-36، اكمل الروايات وأكثرها تصويرا؛ Estoire d'Eracles, II, pp.25-31; Radulph of Diceto, II, p.47; Arnold of Lübeck, pp. 116-17. المرجعان الأولان (الأكثر موثوقية) يحددان تاريخ التتويج فى سبتمبر، ويحدده Ralph فى أغسطس ، وArnoul فى ٢٠ يولية. والوثيقة الأولى لـ جوى، مؤرخة في اكتوبر، .Rohricht, *Regesta*,p.873.

(١٧) من الواضح أن ريموند اعتبر نفسه مرشحا للعرض . ويذكر ابن جبير شائعات عن طموحاته فى وقت مبكر يرجع الى ١١٨٣م (Ibn Jubayr, p.304). ويقتبس أبو شامة (ص ٢٥٧-٨) من تقرير عماد الدين أنه كان على استعداد للتحول الى الاسلام لتحقيق طموحه ، ويقول ابن الأثير (ص ٦٧٤) إنه كان يعوّل على مساعدة صلاح الدين . ويرد فى *Historia Regni Hierosolymitani* (pp.51-2) المتأخرة، أنه طالب بالعرش لأن أمه (تسمى هنا Dolcis) ولدت بعد تتويج والده ، بينما ولدت مليسيند قبل التتويج . ولأن صغرى بنات بلدوين الثانى ، الديّارة Joveta، هى الوحيدة التي ولدت في الكاردينالية ، فلم يكن ليستطيع استخدام هذه الحجة . وربما أدلى فى نابلس بحجة مماثلة لكى يبرر للبارونات اختيار ايزابيلا وليس سيبلا ، والمؤرخ خلط القصة .

ولحق به هناك لوردات أقل ، إذ أن بوهمند لم يخف تعاطفه مع ريموند وحزبه[١٨].

وبينما كانت المملكة تتمزق هكذا إلى شيع مريرة من بعضها البعض، كانت الهدنة مع العرب تتزايد تماسكا وصمودا . وكان باستطاعة جوى رأب الصدع ، لكنه كان يفتقر إلى صديقه رينالد (اوف شاتيلون). وبفضل الهدنة عادت القوافل الضخمة بين دمشق ومصر إلى سابق عهدها دونما عائق فى الأراضى الفرنجية .وفى نهاية عام ١١٨٦م ارتحلت قافلة هائلة من القاهرة ومعها فرقة صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها من البدو المغيرين ؛ وبينما كانت تعبر مؤاب انقض عليها رينالد فجأة ، فقتل الجنود وأخذ التجار وعائلاتهم بكل ممتلكاتهم معه إلى قلعة الكرك ؛ وكانت الغنيمة أكبر من كل ما سبق أن سلبه فى حياته . وسرعان ما وصلت صلاح الدين انباء العدوان ؛ واحتراما منه للمعاهدة أرسل إلى رينالد يطلب منه اطلاق سراح السجناء وتعويضهم عن خسائرهم . ورفض رينالد استقبال المبعوثين ، فذهبوا إلى القدس شاكين للملك جوى الذى أنصت اليهم بعين العطف وأمر رينالد بالانصياع . غير أن رينالد ، الذى يعلم أن جوى مدين له بالمساعدة فى الوصول إلى العرش والمحافظة عليه ، لم يعبأ بأوامره؛ و لم يستطع جوى، أو لم يشأ ، أن يفرض عليه الطاعة[١٩].

١١٨٧م : خيانة ريموند

ومع انتهاك الهدنة على تلك الصورة الوقحة لم يكن هناك بد من الحرب التى لا يستطيع بلد منقسم على امره مواجهتها . وسارع بوهمند امير انطاكية إلى تجديد معاهدته مع صلاح الدين[٢٠] . وعقد ريموند امير طرابلس معاهدة هدنة لبلده ووسعها بحيث تشمل إمارة زوجته فى الجليل ، حتى وان كان السيد الأعلى للمملكة فى حالة حرب مع المسلمين . وفى ذات الوقت ضمن تعاطف صلاح الدين الذي وعده بمساندته في مسعاه لأن يصبح ملكا للفرنج . وأيا ماكانت تبدو عليه سياسة ريموند من الحكمة فقد كانت خيانة بلا ريب . وبتشجيع من جيرار السيد الأعظم لفرسان المعبد ،

---

(١٨) Ernoul, pp.137-9; *Estoire d'Eracles*, II, p.33, *Les Gestes des Chiprois* (p.659) يقول إن جوى أوشك أن يضرب بلدوين لولا عراقة مولده .

(١٩) *Estoire d'Eracles*, II, p. 34. يقول إن أخت صلاح الدين أسرت فى القافلة . والواقع أنها كانت عائدة من مكة مع قافلة تالية (انظر أدناه ص ٥١٢) ؛ Abu Shama, pp. 259-II.

(٢٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S* p. 109.

استدعى حوى أتباعه المخلصين وسار شمالا إلى الناصرة لإخضاع الجليل قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم . على أن تدخل باليان امير إيبلين هو فقط الذى جنب الفرنج الحرب الأهلية ؛ ذلك أنه عندما وصل إلى المعسكر سأل الملك بفظاظة : ماذا تفعل ؟ وعندما رد حوى بأنه سيحاصر طبرية ، أكد له باليان حماقة الخطة ، إذ أن ريموند ستكون له قوات اقوى من قوات الملك بما يستطيع الاعتماد عليه من مساعدة العرب ، وطلب باليان ، بدلا من الحرب ، أن يرسله الملك ليتحدث مع ريموند . على أن مناشدته للوحدة لم يكن لها أثر على الكونت ريموند الذى اشترط استرجاع بيروت ليخضع للملك . واعتبر حوى أن ذلك ثمنا فادحا[٢١] . على أنه بوصول أنباء استعدادات صلاح الدين للحرب الوشيكة ، ناشد باليان الملك مرة اخرى كى يتصالح مع ريموند . وذكره بأخيه وهو فخور به قائلا : "لقد خسرت أفضل فارس فى شخص بلدوين امير الرملة ، فإذا ما خسرت مساعدة ومشورة الكونت ريموند أيضا ، فيكون فى ذلك نهايتك". ودائما ما كان حوى مهيأ للانصياع لمن يحادثه بصرامة ، فسمح لباليان بالذهاب فى سفارة جديدة إلى طبرية ، ومعه جوسياس رئيس أساقفة صور ، والسيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد . وكان ضروريا لهذا الأخير ، وهو ألد أعداء ريموند ، أن يشترك فى أية تسوية[٢٢] .

وانطلق المندوبون من القدس يوم ٢٩ ابريل ١١٨٧م ، يصاحبهم عشرة من فرسان المستشفى . وأمضوا تلك الليلة لدى باليان فى قلعة نابلس ، حيث كان باليان مشغولا ببعض الأعمال ، ولذ طلب من السيدين الأعظمين ورئيس الأساقفة أن يسبقوه ، إذ سيتخلف عنهم ذلك اليوم ويلحق بهم فى اليوم التالى فى قلعة الفولة La Fève ، فى سهل بزرعيل . وفى وقت متأخر من مساء ٣٠ ابريل ، غادر باليان نابلس مع حفنة من توابعه منتويا الانطلاق على الخيل طوال الليل ؛ لكنه تذكر فجأة أن الليلة هى ليلة القديس فيليب والقديس جيمس ، ولذا تنحى عن الطريق فى سبسطية ، التى تعتبر 'سامرة' القدماء ، وطرق باب قصر الأسقف . واستيقظ الأسقف واستقبلهم ، ومكثوا يتسامرون طوال الليل إلى أن انبلج الفجر وحان موعد القداس ، فقال لمضيفه إلى اللقاء ثم انصرف .

---

(٢١) Ernoul, pp.141-2; *Estoire d'Eracles*, II, pp.31-5. ويقول إيرنول إن ريموند تلقى بالفعل تعزيزات من صلاح الدين .

(٢٢) Ernoul, pp. 142-3. كان مقررا أن ينضم رينالد امير صيدا الى الوفد ، لكنه انطلق بمفرده .

وفى ٣٠ ابريل ، وبينما كـان باليـان ينـاقش بعض الأعمـال مع توابعه ، وكـان السيدان الأعظمان على حواديهما فوق التل فـى طريقهمـا إلى الفولـة ، تلقـى الكونـت ريموند مبعوثا من المسلمين فى بانياس ؛ ذلك أن ابن صلاح الدين الأصغر ، الذى كـان قائدا للمعسكر هناك ، تلقى من أبيه تعليمات بارسـال استطلاع فـى فلسطين ، وفـى تصرف سليم حدا طلب الإذن من ريموند كى يعبر رجاله أراضى الكونت فـى الجليـل . ولّما كان ريموند ملتزما بمعاهدته الخاصة مع صلاح الدين فلم يستطع رفض هـذا الطلب المحرج . وانما اشترط أن يعبر المسلمون الحدود بعد فجر اليوم التالى ويعودوا قبـل حلـول الظلام ، وألا يلحقوا الأذى بأية مدينة أو قرية فى اراضيه ، ثم أنه أرسل رسله فى انحاء اقطاعياته كلها يطلب من الناس البقاء مع قطعانهم وراء الأسوار طوال اليوم ولا يخشـوا شيئا . وفى تلك اللحظة سمع بمجئ الوفد من القدس ؛ فخرج رسول آخر ليخطر الوفـد بنفس الإنذار . وفى باكورة أول مايو شاهد ريموند من قلعتـه الأمير قوقبـورى وسبعة آلاف مملوك يتجولون على جيادهم فى مرح .

وفى نحو ضحى ذلك اليوم وصل باليان وصحبه إلى الفولـة . وكـانوا قـد شـاهدوا عن بعد خيام فرسان المعبد منصوبة أسفل الأسوار ؛ لكنهم عندما اقتربوا منها وجدوهـا خالية ؛ وقد خيم الصمت على القلعـة نفسها. ودخـل تـابع باليـان - إرنـول - المبنى وانتقل مـن حجـرة إلى اخـرى ، ولم يجد أحـدا سـوى جنديين مستلقيين فـى إحـدى الشرفات العليا ، وهما فى حالة مرضية مميته ولا يقدران على الكـلام . واحتـار باليـان وتملكه القلق . فانتظر ساعة أو ساعتين ، لا يستقر له قرار فيما يفعلـه ، ثـم أنـه انطلـق مرة اخرى بطول الطريق الذاهب إلى الناصرة . وفجأة ظهر فارس من فرسان المعبد آتيـا ينهب الأرض ركضا، أشعث الرأس تنزف منه الدماء وهو يصيح بكارثة مروعة .

١١٨٧م : عيون كريسون

وفى ذات الساعة كان ريموند فى طبرية يراقب المماليك وهم فى طريق عودتهم إلى وطنهم . لقد التزموا بما اشترطه عليهـم . وكـانت عودتهـم قبـل هبـوط الظـلام بوقـت طويل ، ولم يعتدوا على أى مبنى فى المقاطعة. غير أن حرس الطليعـة كـان يحمـل علـى أسنة رماحه رؤوس فرسان المعبد .

وصلت رسالة ريموند إلى السيدين الأعظمين فى الفولة مساء يوم ٣٠ من الشـهر . وعلى الفور استدعى جيرار فرسان المعبد من الجوار للإنضمام اليـه هنـاك ، علـى الرغـم

من معارضة روجر فارس المستشفى . وكان قيّم فرسان المعبد - جيمس (اوف ميلى) - فى قرية كاكون التى تبعد مسافة خمسة أميال ، ومعه تسعون فارسا ، فجاء وامضى الليلة أمام القلعة . وفى الصباح التالى انطلق الخيّالة إلى الناصرة ، حيث انضم اليهم أربعون فارسا علمانيا، وبقى رئيس اساقفة صور هناك ؛ لكن جيرارد توقف لمجرد الصياح فى أهل المدينة بأن هناك معركة ستنشب حالا وأن عليهم المجئ لأخذ الغنائم . وبينا الفرسان يعبرون التل خلف الناصرة ، وجدوا المسلمين يسقون خيولهم من عيون كريسون أسفل الوادى. ومع تلك الأعداد الكبيرة نصح كل من روجر وجيمس (اوف ميلى) - القيّم - بالانسحاب ؛ فاهتاج جيرارد غيظا ، وتحول عن رفيقه السيد الأعظم وزجر قيّمه فى ازدراء قائلا : "إنك شديد الإعجاب برأسك الأشقر بحيث تكره أن تفقده"، فرد عليه جيمس فى كبرياء : "سأموت فى المعركة ميتة الشجعان ، وانما أنت الذى سيلوذ بفرار الخائنين" . وأشتعل الفرسان غيظا من هذه الإهانة ، فاندفعوا نحو المماليك . ولقد كانت مذبحة لا معركة ، وكان رأس جيمس الأشقر أحد الرؤوس الأخيرة التى سقطت ، وسقط بجانبها السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وفى لمح البصر قُتل كل فارس من فرسان المعبد فيما عدا ثلاثة كان جيرارد واحدا منهم ، وسابقوا الريح مع جراحاتهم عائدين إلى الناصرة ، وكان أحدهم هو الذى قابل باليان . وأما الفرسان العلمانيون فقد أسروا أحياء . وكان البعض من مواطني الناصرة الجشعين قد خرجوا إلى ساحة القتال لجمع الغنائم التى وعد بها جيرارد ، فأحيط بهم وأخذوا أسرى .

وبعد أن أرسل باليان إلى زوجته يحثها على جمع فرسانها ، لحق بجيرار فى الناصرة وحاول اقناعه بالذهاب إلى طبرية ، لكن جيرار تذرع بجراحاته الجسيمة ، ولذا واصل باليان رحلته مع رئيس الأساقفة ؛ فوجدا ريموند فى حالة من الرعب من المأساة التى جعلته يشعر أن سياسته هى التى يقع عليها اللوم . وقبل بسرور وساطة باليان ، فألغى معاهدته مع صلاح الدين ، وانطلق جنوبا إلى القدس حيث قدم فروض الطاعة للملك، الذى لم يكن حقودا برغم كل اخطائه واستقبل ريموند استقبالا ودودا بل واعتذر له عن الطريقة التى توّج بها . وأخيرا ، بدا أن المملكة قد اتحدت مرة اخرى[٢٣].

---

(٢٣) أورد Ernoul القصة بالكامل ، إذ كان مع باليان بصفته تبعه *Estoire d'Eracles* pp.143-54 III, pp. 37-44; Imad ed-Din, in Abu Shama, p. 262 ويقول ابن الأثير (p.678) إن الأفضل أرسل قوقبورى قائدا للحملة ويحدد عدد الفرسان بأنهم سبعة آلاف . ويرد فى *De Expugnatione* (pp. 21-11) نفس العدد ، لكن الرواية القصيرة تنكر أن ريموند أصر على عدم الاضرار بالملكية وتحاول تبييض زلات فرسان المعبد . وأما La Fève ، فهى قرية الفولة العربية (وكلا

١١٨٧م : صلاح الدين يعبر الأردن

وكذلك بدا صلاح الدين يوحد جيوشه . إذ كان معروفا أن صلاح الدين يجمع جيشا جرارا عبر الحدود في حوران . وفي شهر مايو ، وبينما كان الحشد يتجمع من سائر انحاء الامبراطورية ، ذهب صلاح الدين في رحلة هابطا الطريق المتجه إلى مكة ليرافق قافلة حج كانت فيها اخته وابنها عائدين من المدينة المقدسة، وذلك ليستوثق من أن رينالد لن يقدم على محاولة اخرى من غاراته في قطع الطرق . وفي تلك الأثناء توافد الجنود من حلب والموصل وماردين ، إلى أن غدا جيشه أضخم الجيوش التي قادها قاطبة. وعبر الأردن استدعى حوى كبار مستأجرى الأرض ومستأجريهم جميعا لمقابلته مع رجالهم في عكا . وكان النظامان العسكريان في لهفة على الإنتقام لمذبحة كريسون، فجاءوا بكل ما كان لديهما من الفرسان ، ولم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن قلاعهم التي يسيطرون عليها . بل زاد فرسان المعبد من مساعدتهم بتسليم الملك نصيبهم من الأموال التي أرسلها مؤخرا الملك هنرى الثاني كفارة عن اغتيال توماس بيكيت[٢٤] . وقيل لهم أن يودعوها في أحد المصارف لحساب الحملة الصليبية التي أقسم هنرى على الخروج بها ، لكن الاحتياج إلى المال الآن كان ملحّا ، وحمل الجنود الذين جهزتهم تلك الأموال راية معهم تدل على جيش هنرى . أما بوهمند أمير انطاكية ، فقد نال منه التأثر بعدما ناشده ريموند وباليان ، فوعد بارسال كتيبة تحت إمرة بلدوين امير إبيلين ، وأرسل ابنه ريموند لينضم إلى كونت طرابلس الذى كان بمثابة الأب الروحي له . وفي نهاية يونية تجمع في معسكر أمام عكا ألف ومائتان فارس بكامل أسلحتهم وعدد اكبر من الخيالة الوطنية خفيفة الحركة من طبقة أنصاف الأتراك (Turcopoles) ، ونحوا من عشرة آلاف من المشاة . وطُلب من البطريق هيراكليوس أن يأتي ومعه الصليب الحقيقي ، لكنه رد بأنه يمر بوعكة وعهد بالصليب الحقيقي إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس كي يعطيه لأسقف عكا . لقد فضّل - كما قال أعداؤه - البقاء مع محبوبته باشيا .

وفي يوم الجمعة ٢٦ يونية استعرض صلاح الدين جنوده في عشترا في حوران ؛ وقاد هو نفسه القلب وابن اخيه تقى الدين الميمنة وقوقبورى الميسرة . وسار الجيش في

"الإسمين يعني الحبة) وتقع في منتصف المسافة بين حنين والناصرة .

(٢٤) (المترجم) القديس توماس أ بيكيت Saint Thomas à Becket (حوالى ١١١٨-١١٧٠م) : حبر انجليزى ، رئيس أساقفة كانتربرى، اغتيل بعد معارضته لهنرى الثاني . يوم احياء ذكراه ٢٩ ديسمبر .

تشكيلات قتال إلى خيسفين ومنهـا إلى الطرف الجنوبى لبحر الجليـل ، حيث مكث خمسة أيام قامت فيها كشافته بجمع المعلومات عن القوات المسيحية . وفى أول يولية عبر الأردن إلى سن النبرة ، وفى الثانى من يولية عسكر بنصف جيشه فى كفر سبت ، على التلال الواقعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من البحيرة ، بينما هاجم جنود أخيه طبرية التي سقطت فى أيديهم بعد ساعة من القتال . وكان ريموند وأبناء زوجته مع جيش الملك، فلاذت الكونتيسة إشيفا ، بعد أن أرسلت رسولا ليخبر زوجها بما يحدث ، إلى القلعة حيث صمدت مع حاميتها الصغيرة .

ولمّا علم الملك جوى بأن صلاح الدين عبر الأردن ، عقد مجلسا مع باروناته فى عكا. وتكلم الكونت ريموند أولا ، فأشار إلى أن حمّارة قيظ الصيف تعد من المساوئ للجيش الذى لا يبادر بالهجوم ، ولذا ينبغى أن ترتكز استراتيجيتهم على الهجوم الخالص، وسوف يتعذر على صلاح الدين الحفاظ على قواته الضخمة طويلا فى بلاد لافحة من الحر الشديد مع وجود الجيش المسيحى بلا هزيمة ، ولسوف يُجبر على الانسحاب بعد برهة ، وفى ذات الوقت سوف تأتى تعزيزات انطاكية . ومال أغلب الفرسان إلى الأخذ بنصيحته ؛ غير أن كلا من رينالد (اوف شاتيلون) وجيرارد السيد الأعظم اتهم ريموند بأنه جبان وأن العرب اشتروه . ودائما ما كان الملك جوى يقتنع بآخر المتكلمين ، وأصدر أوامره بأن يتحرك الجيش باتجاه طبرية .

وبعد ظهر الثانى من يولية عسكر المسيحيون عند صفورية ، فى موقع رائع لإقامة المعسكر توجد فيه المياه الوفيرة والمراعى الجيدة للخيل . ولو أنهم مكثوا هناك ، كما فعلوا قبل أربع سنوات عند عيون جولياث ، لم يكن صلاح الدين ليجازف بمهاجمتهم قط ، إذ كان جيشهم بنفس حجم جيشه وكانت لديهم ميزة الموقع ؛ غير أن مبعوث كونتيسة طرابلس جاءهم فى ذلك المساء ، فعقد جوى مرة اخرى مجلسا فى خيمته ، وتحركت مشاعر الفروسية لدى الفرسان بتفكيرهم فى تلك السيدة الشجاعة الصامدة صمود اليأس بجانب البحيرة ، وانهمرت عبرات أولادها وهم يتوسلون العمل على إنقاذ أمهم ، وتبعهم آخرون يؤيدون ضراعتهم . ثم نهض ريموند خطيبا ، فأعاد خطبته التى ألقاها فى عكا وانما بمزيد من التركيز اليائس ، وأوضح مدى حماقة التخلي عن هذا الموضع القوى والمجازفة بالسير المحفوف بالمخاطر فى حرارة يولية على جوانب التلال الوعرة . وقال إن طبرية هى مدينته والمدافع عنها هى زوجته ، بيد أنه يرى أن تضيع طبرية بكل ما فيها بدلا من أن تضيع المملكة . وحملت كلماته فى طياتها الحجة المقنعة. وانفض المجلس فى منتصف الليل وقد عزم على البقاء فى صفورية.

وبعد أن عاد البارونات إلى أقسامهم ، زحف السيد الأعظم لفرسان المعبد عائدا إلى الخيمة الملكية وقال : "سيدى، أتراك تثق فى خائن ؟" من العار أن تضيع مدينة لا تبعد سوى ستة فراسخ ؛ وأعلن أن فرسان المعبد خليقون بأن يتخلوا عن نظامهم العسكرى عن أن يتخلوا عن ثأرهم من الكفرة . وكان جوى مخلصا فى اقتناعه بما قاله ريموند قبل ساعة ، لكنه تذبذب وترك جيرار يفرط فى اقناعه . وأرسل المنادين فى انحاء المعسكر يعلنون أن الجيش سوف يتحرك فجرا باتجاه طبرية .

١١٨٧م : الفرنج يعسكرون فى لوبيًا

كان أفضل طريق من صفورية إلى طبرية يمضى منحرفا شمالا انحرافا طفيفا عن الشرق عبر تلال الجليل ثم يهبط إلى البحيرة على بعد ميل إلى الشمال من المدينة . وكان الطريق البديل يمضى إلى الجسر فى سن النبرة حيث يمضى أحد روافد النهر شمالا بمحاذاة شاطئ البحيرة . وكان معسكر صلاح الدين فى كفر سبت يقع عبر طريق سن النبرة الذى سلكه آتيامن أعلى النهر . ومن الجائز أن ذهب بعض الخونة من معسكر المسيحيين وأخبروه بأن جوى سيخرج من صفورية بطول الطريق الشمالى ، ولذلك قاد جيشه نحوا من خمسة أميال عبر تلال حطّين حيث يبدأ الطريق فى الهبوط باتجاه البحيرة، وكانت حطّين عبارة عن قرية ذات مراع واسعة ومياه وفيرة ؛ وانضم اليه هناك أغلب جنوده الذين كانوا فى طبرية تاركين مجرد العدد المطلوب لحصار القلعة .

وكان صباح يوم الجمعة ٣ يولية صباحا حارا انعدم فيه الهواء ، وقد شهد ذلك الصباح خروج الجيش المسيحى من حدائق صفورية الخضراء للسير على التلال العارية من الأشجار . وجريا على التقاليد الإقطاعية ، كان ريموند أمير طرابلس قائدا للطليعة بصفته لورد الإقطاعية ، وقاد الملك الوسط ، وأما المؤخرة فكانت تحت قيادة رينالد والنظامين العسكريين وباليان ابيلين . وكان الطريق بطوله خاليا من المياه ، وسرعان ما بدأت المعاناة المريرة من الظمأ لدى الرجال والجياد سواء بسواء ، وأبطأت معاناتهم من سيرهم ، ودأب المناوشون المسلمون على مهاجمة حرس الطليعة وحرس المؤخرة ، يطلقون السهام فتنهمر فى وسطهم ثم ينسحبون بعيدا قبل أى هجوم مضاد . وبحلول عصر ذلك اليوم وصل الفرنج إلى الهضبة التى تعلو حطّين مباشرة ، وبدا أمامهم تل صخرى بقمتين مرتفعتين نحوا من مائة قدم ، ووراءه تنحدر الأرض انحدارا شديدا نحو القرية ثم إلى البحيرة . وكان التل يسمى "قرنا حطّين" . وأرسل فرسان المعبد يخبرون

الملك بأنهم لا يستطيعون اليوم المضى أكثر من ذلك ، وترجاه بعض البارونات أن يأمر الجيش بالاندفاع وشق طريقه حربا إلى البحيرة ؛ غير أن جوى تأثر بمعاناة رجاله فقرر التوقف تلك الليلة . وما أن سمع ريموند بذلك حتى عاد من المقدمة على جواده صائحا: "آه أيها الرب الإله ، لقد انتهت الحرب ، انما نحن رجال موتى ، لقد انتهت المملكة ." وأخذا بنصيحته ضرب جوى معسكره بعد لوبيّة مباشرة ، باتجاه منحدر القرنين حيث يوجد بئر تحلّق حوله الجيش كله . على أنهم أساءوا اختيار الموقع ، إذ كان البئر جافا .

و لم يملك صلاح الدين ضبط مشاعر غبطته وهو ينتظر فى الوادى المخضوضر بأسفل . لقد جاءته فرصته أخيرا .

وأمضى المسيحيون ليلة بائسة يستمعون إلى صلوات المسلمين وتلاواتهم الآتية اليهم من أسفل. وانطلق جنود قليلون من المعسكر فى بحث عقيم عن الماء ، فقط ليقتلهم الأعداء . وكى يفاقم المسلمون من معاناة الفرنج أشعلوا النيران فى الأعشاب الجافة التى تغطى التل ، واندفع الدخان الحار ليملأ المعسكر. وتحت غطاء الظلام حرك صلاح الدين رجاله أعلى التل . وعند انبلاج فجر يوم السبت ٤ يولية ، أصبح الجيش الملكى ليجد نفسه محاصرا . ويقول المؤرخ إنه لم يكن باستطاعة أحد التسلل من شبكة الحصار حتى وان كانت قطة .

١١٨٧م : معركة حطّين

وسرعان ما بدأ هجوم المسلمين بعد الفجر . فأما جنود المشاة المسيحيون فلم يكن يسيطر على ذهنهم سوى شئ واحد ، الماء . فاندفعوا فى خضم عارم محاولين شق طريقهم أسفل المنحدر باتجاه البحيرة التى كانت مياهها تبدو أسفلهم لامعة جاذبة ، فدُفعوا أعلى رابية طوقتها النيران والأعداء ، وقتل خلق كثير منهم لتوهم ، وأسر آخرون ؛ وكان مشهدهم وهم رقود فى جراحاتهم وبأفواههم المتورمة تثير فائق الألم بحيث ذهب خمسة من فرسان ريموند إلى قادة المسلمين يتوسلون اليهم كى يقتلوهم جميعا رحمة بهم وبما هم فيه من بؤس . وأما الخيالة على التل ، فقد حاربوا بشجاعة فائقة يائسة وصدوا هجمات الخيالة المسلمين ، التى كانت تجبر الهجمة تلو الأخرى على العودة وبها خسائر ؛ غير أن أعدادهم كانت آخذة فى التضاؤل ، ووهنت عزائمهم من العطش ، وبدأت قوتهم تخذلهم . وقبل أن يسبق السيف العذل، ونزولا

على طلب الملك ، قاد ريموند فرسانه فى محاولة لإختراق صفوف المسلمين ؛ وانقض بكل ثقل رحاله على الكتائب التى يقودها تقى الدين ، لكن تقى الدين فتح له صفوفه ليمر من بينها، ثم أطبق عليه مرة اخرى من خلفه ، فلم يتمكن ريموند وفرسانه من شق طريق العودة إلى رفاقهم ، فارتحلوا فى بؤسهم بعيدا عن ميدان القتال ويمموا وجوههم شطر طرابلس . وبعد قليل تمكن باليان أمير ابيلين وريناالد امير صيدا من شق طريقهم خارجين من ساحة القتال . وكانا آخر الهاربين .

تبدد أمل المسيحيين الآن ، لكنهم واصلوا القتال وقد تراجعوا إلى أعلى التل ، إلى القرنين . ونقلت خيمة الملك الحمراء إلى القمة وأحاط به فرسانه . وكان الأفضل، ابن صلاح الدين الصغير بجانب أبيه يشهد أول معاركه . وبعد المعركة بسنوات كثيرة أعرب عن تقديره لشجاعة الفرنج وقال : "عندما انسحب الملك الفرنجى إلى قمة التل ، حمل فرسانه بشجاعة على المسلمين ودحروهم منكبين إلى أبى . وراقبت فزعه . تغير لون وجهه وشد على لحيته ، ثم اندفع إلى الأمام صائحا : "كذبوا الشيطان" ، فانقض رجالنا على الأعداء الذين تراجعوا أعلى التل . وعندما شاهدت الفرنج يهربون صرخت مسرورا : "هزمناهم" لكنهم هجموا ثانية ودحروا رجالنا إلى حيث كان يقف أبى . فعاود حث رجاله للتقدم إلى الأمام ، فدحروا الأعداء مرة أخرى إلى اعلى التل . ومرة اخرى صرخت "هزمناهم" . فالتفت أبى الي وقال : "اسكت . إننا لم نهزمهم طالما بقيت تلك الخيمة هناك." . وفى تلك اللحظة انقلبت الخيمة ، فترجل والدى وخر ساجدا على الأرض شكرا لله وهو يذرف دموع الفرح".

١١٨٧م : فى خيمة صلاح الدين

قتل أسقف عكا . وانتقل الصليب الحقيقى الذى حمله فى المعركة إلى أيدى الكفرة. وأخطأ الموت القليل من جياد الفرسان . وعندما وصل المنتصرون إلى قمة التل وجدوا الفرسان انفسهم وبينهم الملك ممددين على الأرض ، وقد أنهكوا حتى لم يقوالفارس منهم على مواصلة القتال ، وتبقت لديهم بالكاد القوة كى يسلموا سيوفهم استسلاما . واقتيد زعماؤهم إلى خيمة صلاح الدين التى نصبت فى ساحة المعركة[٢٥].

استقبل صلاح الدين الملك جوى وأخاه الكونستابل أماريك ، وريناالد (اوف

(٢٥) للإطلاع على الوقائع المعقدة المتناقضة حول حملة حطين ، انظر أدناه المرفق الثانى .

شاتيلون) وابن زوجته همفرى امير تبنين ، والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، والمركيز العجوز امير مونتفرات ، ولوردات جبيل والبطرون ، والكثير من البارونات الأقل في المملكة . وحيّاهم تكرما ، وأجلس الملك إلى جانبه . ولما لاحظ عطشه ناوله قدحا من ماء الورد ، مبردا بثلوج جبل هرمون . وشرب منها الملك جوى ثم ناولها لرينالد الذى كان إلى جانبه . وتقاليد الضيافة العربية تقضى بأن إعطاء الطعام أو الشراب لأسير يعنى أن حياته مأمونة، ولذا سارع صلاح الدين قائلا للمترجم : "قل للملك إنه هو الذى أعطى ذلك الرجل شرابا وليس أنا." ثم تحول إلى رينالد الذى لم يستطع أن يغفر له زندقة لصوصيته ، فذكّره بجرائمه ، وخيانته ، وتجديفه فى الدين ، وجشعه . وعندما رد رينالد بغلظة ، تناول صلاح الدين نفسه سيفا وأطاح برأسه . وارتجف جوى ظنا منه أن دوره سيأتى بعده ؛ لكن صلاح الدين هدأ من روعه قائلا : "الملك لا يقتل ملكا. لكن غدر ذلك الرجل بلغ شأوا بعيدا" . ثم أصدر أوامره بألا يؤذى أحد من البارونات العلمانيين وأن يعامل الجميع بكياسة واحترام أثناء أسرهم . على أنه لم يبق على أرواح فرسان النظامين العسكريين، فيما عدا السيد الأعظم لفرسان المعبد . وكانت جماعة من متعصبى المسلمين من الصوفية قد انضمت إلى جنوده، فعهد اليهم بمهمة قتل الأسرى من فرسان المعبد والمستشفى، فأنجزوا بقابلية ما عهد به اليهم. ثم رحل بجيشه عن حطين، أما الجثث التى ملأت ساحة المعركة فتركت للذئاب والضباع.

وأرسل الأسرى إلى دمشق حيث أودع البارونات فى اماكن مريحة ، وبيع الأسرى من الأفقر فى سوق العبيد . وكانت أعدادهم كبيرة بحيث هبط ثمن الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير ، وإنك لتستطيع أن تشترى أسرة فى صحة جيدة بكاملها تتألف من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتيه بثمانين دينارا ؛ بل إن أحد المسلمين فكر فى صفقة رابحة بأن يستبدل سجينا بزوج صندل[٢٦].

سبق لمسيحيي الشرق أن عانوا من الكوارث قبل ذلك . وسبق أن أسر ملوكهم وأمراؤهم ، غير أن آسريهم آنذاك كانوا من صغار الأمراء الذين كانوا يخرجون سعيا لكسب زهيد . أما على قرني حطين فقد هلك أضخم جيش جمعته المملكة فى تاريخها، وضاع الصليب الحقيقى ، وكان المنتصر عاهل العالم الإسلامى كله .

---

(٢٦) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 114-15; Kemal ed-Din (ed. Blochet, pp.180-1) ، يورد كمال الدين رواية تختلف اختلافا طفيفا لكنها تحمل نفس المعنى؛ ويورد Ernoul (pp.172-4) نفس القصة تقريبا.

١١٨٧م : فلسطين تستسلم لصلاح الدين

لم يبق أمام صلاح الدين بعد أن قضى على أعدائه سوى احتلال قلاع الأراضي المقدسة . أما كونتيسة طرابلس ، فقد سلّمت له طبرية بعد أن تلاشت امكانية وصول مساعدة لها ، وقد عاملها بما تستحقه من التشريف وسمح لها بالذهاب إلى طرابلس مع كل أفراد اسرتها ثم أنه نقل سواد جيشه جنوبا إلى عكا. ولم يكن القهرمان جوسلين (اوف كورتناي) يفكر إلا في سلامته الشخصية . فأرسل مواطنا يدعى بطرس بريس لمقابلة صلاح الدين عندما جاء امام الأسوار يوم ٨ ابريل ، يعرض الاستسلام إذا ضمن أرواح وممتلكات السكان . وبدا للكثيرين في المدينة أن من العار أن تستسلم المدينة هذا الاستسلام الذليل ، فحدثت أعمال شغب لفترة قصيرة أحرقت فيها عدة منازل ؛ لكن النظام استتب قبل استيلاء صلاح الدين على المدينة رسميا في العاشر من الشهر . وكان يعلق الآمال على اقناع اغلب التجار المسيحيين بالبقاء هناك ، لكنهم كانوا يخشون المستقبل فهاجروا ومعهم كل منقولاتهم ، ووجد المنتصرون مخزونات هائلة من البضائع، والحرير، والادوات المعدنية ، والمجوهرات ، والأسلحة ، تخلى عنها التجار فراحوا يوزعونها ، بإشراف ابن صلاح الدين الأفضل الذى أعطيت له المدينة ، على الجنود والرفاق . واما مصنع السكر الضخم فقد انتهبه تقى الدين مما ضايق صلاح الدين(٢٧) . وبينما مكث صلاح الدين فى عكا، كانت كتائب من جيشه تتسلم المدن والقلاع التى تستسلم في الجليل والسامرة . وفى نابلس صمدت حامية باليان لأيام قلائل وحصلت على شروط مشرفة عندما استسلمت ؛ وقاومت قلعة تبنين لأسبوعين قبل أن تستسلم حاميتها . كان هناك القليل من المقاومة فى اماكن اخرى(٢٨) . وفى تلك الأثناء جاء أخو صلاح الدين ، العادل ، من مصر وحاصر يافا . ولم تستسلم له المدينة ، لذا استولى عليها عنوة وأسر كل السكان من الرجال والنساء والأطفال . ووجد أكثرهم الطريق إلى اسواق العبيد والحريم في حلب(٢٩) .

بعد استيلاء صلاح الدين على الجليل اتجه إلى الساحل الفينيقى . وكان أغلب

---

(٢٧) Ernoul, *loc. cit.; Estoire d'Eracles,* II, oo, 70-1; Abu Shama, pp.295-7; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*P. 116; Ibn al-Athir, pp.688-90.

(٢٨) *Estoire d'Eracles,* II, p.68, *De Expugnatione,* pp.31-4؛ ولم يذكر بهاء الدين ، سوى طورون ؛ Abu Shama, pp.300-6; Ibn al-Athir, *loc. cit*..

(٢٩) Ibn al-Athir, pp.690-1. وقد اشترى هو نفسه أمة فى سوق حلب ، بنتا صغيرة فقدت زوجا وستة أطفال (ص ٦٩١)؛ *De Expugnatione,* p.229.

الباقين على قيد الحياة في حطين قد هربوا مع باليان إلى مدينة صور ، التى كانت حاميتها قوية وكانت أسوارها الضخمة التى تحرسها من جهة الأرض شديدة المناعة ؛ وبفشل هجومه الأول ، تركها وانطلق إلى صيدا التى استسلمت من فورها يوم ٢٩ يولية . وهرب أميرها ، رينالد ، إلى قلعته المنيعة شقيف أرنون فى داخل البلاد . وحاولت بيروت الدفاع عن نفسها ، لكنها استسلمت يوم ٦ أغسطس ؛ واستسلمت حبيل بعدها بأيام قلائل بأوامر من اميرها هيو إبرياكو الذى اطلق صلاح الدين سراحه بهذا الشرط . وبحلول نهاية اغسطس لم يبق للمسيحيين جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة ، وبعض الحصون القليلة المبعثرة ، ومدينة القدس المقدسة(٣٠).

وفى سبتمبر ظهر صلاح الدين امام عسقلان وقد أحضر معه أهم أسيرين لديه ، الملك جوى والسيد الأعظم جيرارد . وقد قيل لجوى إن ثمن حريته استسلام عسقلان ؛ ولدى وصوله أمام الأسوار ألقى خطبة للمواطنين طالبا منهم التخلى عن الكفاح ، وكذلك فعل جيرارد ؛ لكن المواطنين ردوا عليهما بتوجيه الإهانات إليهما . وكان الدفاع عن عسقلان دفاعا شجاعا ، وخسر صلاح الدين فى الحصار اثنين من امرائه . على أن الحامية أرغمت على الاستسلام يوم ٤ سبتمبر ، وسمح للمواطنين بالرحيل مع كل منقولاتهم . ورافقهم حراس صلاح الدين إلى مصر حيث نزلوا فى اماكن مريحة فى الاسكندرية ، إلى أن يُرحّلوا إلى أراض مسيحية(٣١) . أما فى غزة ، حيث تقضى قوانين نظام فرسان المعبد بطاعة سيدها الأعظم ، فقد أجبرت الحامية على الإذعان لأمر جيرارد بالاستسلام على الفور ، وحصل بدلا من القلعة على حريته(٣٢). لكن الملك جوى مكث فى السجن لعدة أشهر ، أولا فى نابلس ، ولاحقا فى اللاذقية ؛ وسمح للملكة سيبلا بالحضور من القدس للإنضمام اليه . وكما توقع صلاح الدين دون شك، كان لإطلاق سراحهما فى الربيع التالى أن زاد المسيحيين حرجا على حرج(٣٣).

---

(٣٠) Beha ed-Din *P.P.T.S* pp.116-17; Abu Shama, pp.306-10; Ibn al-Athir, pp.692-3; *De Expugnatione*, p.236.

(٣١) Ernoul, p.184; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 78-9, *De Expugnatione*, pp.236-8; Beha ed Din, *P.P.T.S.*P.117; Ibn al-Athir, pp.696-7.

(٣٢) Abu Shama, pp.312-13; Beha ed-Din, *loc.cit;* Ibn al-Athir, p. 697.

(٣٣) استنادا الى Ernoul (pp.175, 185)، كانت سيلا فى القدس حتى عشية الحصار وسمح لها وقتئذ بالذهاب الى نابلس (p.185). Ibn al-Athir, p.703; *Estoire d'Eracles*, II, p.79، ويقول *Itinerarium Regis Ricardi* pp.21-3, إن سيلا كانت في القدس طوال الحصار ثم ذهبت الى نابلس بمجرد مقابلة قصيرة . ويقول بهاء الدين (*P.P.T.S.*P.143) إن صلاح الدين أخذ جوى الى طرطوس وأطلق سراحه هناك أثناء أن كان صلاح الدين يحاصر كيراك دى شيفاليه. وكان ذلك فى يولية ١١٨٨م ،

١١٨٧م : الدفاع عن القدس

في ذات اليوم الذى دخل فيه جنود صلاح الدين عسقلان خسفت الشمس ؛ واستقبل صلاح الدين في الخفاء وفدا من مواطنى القدس كان قد استدعاه لمناقشة شروط استسلام المدينة المقدسة. على أنه لم تكن هناك مناقشة ؛ إذ رفض الوفد تسليم المدينة التى مات فيها ربّهم من أجلهم ، وعادوا بكبريائهم إلى القدس ، وأقسم صلاح الدين أن يأخذها بالسيف . وجاء إلى القدس من أعانها دون توقع ؛ ذلك أن إيلين باليان ، الذى كان مع اللاجئين الفرنج فى صور ، أرسل إلى صلاح الدين ملتمسا مرورا مأمونا إلى القدس ، إذ كانت زوجته ، الملكة ماريا ، قد لجأت اليها من نابلس حيث مكثت هناك مع أطفالها وقد أبدى رغبته في احضارهم إلى صور . ولبّى صلاح الدين طلبه شريطة أن يمضى بالقدس ليلة واحدة وألا يحمل سلاحا . وعندما وصلها وجد البطريق هيراكليوس ومسؤولى النظامين العسكريين يحاولون تهيئة المدينة للدفاع ، ولكن لم يكن هناك قائد يشق فيه الناس . وتصايحوا جميعا بأنه ينبغى لباليان البقاء لقيادتهم ، وانهم لن يدعوه يرحل . وفى حرجه العميق ، كتب باليان إلى صلاح الدين يشرح له حنثه بيمينه . وكان صلاح الدين دائما كيّسا مع عدو يحترمه . فلم يغفر لباليان وحسب ، بل أرسل هو نفسه حرسا لنقل الملكة ماريا ، وأطفالها ، وعائلتها ، وجميع ممتلكاتها جنوبا إلى صور[٣٤] . ورحل معها ابن أخى باليان الصغير توماس (اوف ايلين) وابن هيو (اوف جبيل) الصغير . وبكى صلاح الدين لرؤية هؤلاء الأطفال ، ورثة المهابة التى ولت ، وهم يمرون خلال معسكره إلى المنفى .

وفى القدس بذل باليان مافى وسعه . وتضخم عدد السكان باللاجئين من كافة المقاطعات المجاورة ، والقليل منهم يصلح للقتال . فكان لكل رجل خمسين امرأة وطفل. ولا يوجد سوى فارسين اثنين فى المدينة ؛ ولذا منح باليان الفروسية لكل صبى تجاوز السادسة عشرة وولد فى اسرة نبيلة ، ولثلاثين رجلا من البورجوازيين . وبعث بالفرق تجمع كل ما تجده من طعام قبل أن تأتى الجيوش الإسلامية لتحكم حصار المدينة .

قبل استيلاء صلاح الدين على طرطوس بأيام قلائل . وربما أخطأ صلاح الدين فى ذكر اسم طرطوس بدلا من طرابلس ، لكن تاريخ الافراج كان بالقطع فى يولية ١١٨٨. ومع ذلك يقول Ernoul (p.185) ان جوى أطلق سراحه فى مارس ١١٨٨م ، لكنه يذكر التاريخ (فى ص ٢٥٢) عندما كان صلاح الدين يحاصر طرابلس (يولية ١١٨٨م). ويقول *Itinerarium* إن جوى أطلق سراحه فى طرطوس حيث انضمت اليه سيبلا أخيرا (p.25).

(٣٤) Ernoul, pp. 174-5, 185-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp.81-4; *De Expugnatione*, p.238.

وتولى مسؤولية الخزانة الملكية والأموال التى أرسلها هنرى الثانى إلى فرسان المستشفى . بل أنه نزع الفضة من سقف القبر المقدس ، ووزع السلاح على كل رجل يستطيع حمله.

وفى ٢٠ سبتمبر عسكر صلاح الدين امام المدينة وبدأ مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية ، لكن الشمس كانت فى مواجهة أعين جنوده والدفاعات قوية . وبعد خمسة أيام نقل معسكره. وللحظة قصيرة ظن المدافعون أنه رفع الحصار ؛ ولكنه اقام جيشه فى صباح ٢٦ سبتمبر فوق جبل الزيتون ، وراح بعض المتسللين من جيشه تحت حماية فرسانه يزرعون الألغام فى السور بالقرب من بوابة العمود ، غير بعيد من الموضع الذى اقتحم فيه المدينة جودفرى (اوف لورين) قبل ذلك بثمانية وثمانين عاما. وبحلول يوم ٢٩ سبتمبر كانت هناك فجوة كبيرة فى السور ؛ وتجمع المدافعون حولها بقدر استطاعتهم ، وحاربوا باهتياج ، لكن عددهم كان ضئيلا بحيث استحال عليهم الصمود طويلا أمام جحافل أعدائهم . وود جنود الفرنج أن يقوموا بخروج رائع ولو أدى ذلك إلى موتهم ، لكن البطريق هيراكليوس لم يكن يفكر فى أن يصبح شهيدا ، وقال لهم إنهم إن يفعلوا ذلك ، فسوف يتركون نساءهم واطفالهم للرق المحتم ، ولن يمنح بركته لمثل هذا التصرف العارى من الورع . وآزره باليان الذى ارتأى الحماقة فى خسارة المزيد من الأرواح . وفى ٣٠ سبتمبر ذهب هو نفسه إلى معسكر الأعداء يلتمس من صلاح الدين وضع شروطه .

١١٨٧م : استسلام القدس

كانت المدينة تحت رحمة صلاح الدين الذى يستطيع قصفها وقتما يحلو له ، فضلا عن أن له بداخلها الكثير من الأصدقاء المحتملين . ذلك أن كبرياء الكنيسة اللاتينية كان دائما موضع ازدراء المسيحيين الأرثوذوكس الذين كانوا يؤلفون أغلب سكان المدينة الأكثر فقرا . ولم يكن هناك صدع قاطع بينهما ؛ إذ كانت العائلة الملكية والنبلاء العوام، إلا فى انطاكية ، يظهرون مشاعر الود والاحترام لرجال الدين الأرثوذوكس . غير أن قمة الهرمية كانت قاصرة على اللاتينيين . وفى مكان عبادتهم المقدس الكبير كان المسيحيون المحليون يضطرون إلى حضور الصلوات بلغة وطقوس غريبة عنهم . وكانت الذكريات ترجع بهم إلى أيام الحكام المسلمين عندما كانوا يمارسون عبادتهم كما يحلو لهم ؛ وكان المستشار الخصوصى لصلاح الدين لشؤون الأمراء المسيحيين

علاّمة ارثوذوكسيا من القدس يدعى يوسف باتيت وقد أجرى الآن اتصالاته مع الطوائف الأرثوذوكسية فى المدينة ، ووعدوا بفتح البوابات لصلاح الدين .

على أنه لم تكن هناك حاجة إلى تدخلهم . ذلك أنه عندما جاء باليان أمام خيمة صلاح الدين ، أعلن صلاح الدين أنه أقسم أن يستولى على المدينة بالسيف ، ولا يحله من هذا القسم سوى الاستسلام غير المشروط . وذكّر باليان بالمذابح التى ارتكبها المسيحيون عام ١٠٩٩م ، فهل يكون تصرفه غير ذلك؟ وتأججت المعركة أثناء المناقشة، وأشار صلاح الدين إلى رايته التى ترفرف الآن على أسوار المدينة . على أنه فى اللحظة التالية اندحر رجاله إلى الخلف ؛ وحذر باليان صلاح الدين أنه ما لم يحصل على شروط مشرفة فإن المدافعين عن المدينة سوف يدمرون فى يأسهم قبل أن يموتوا كل شئ فى المدينة بما في ذلك المبانى التى يقدسها المسلمون فى منطقة المعبد ، وسيقتلون الأسرى المسلمين لديهم . وكان صلاح الدين على استعداد لإظهار الكرم طالما سلطته معترف بها ، وكان يرغب فى أن تعانى القدس قليلا بقدر الإمكان . فوافق على وضع شروط ، عارضا أن يفتدى المسيحيون جميعا أنفسهم بعشرة دنانير للرجل، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار واحد للطفل . فأشار باليان إلى وجود عشرين ألف من الفقراء في المدينة ليس بامكانهم أبدا دفع هذا المبلغ . فهل يقبل مبلغا اجماليا تدفعه السلطات المسيحية نظير حريتهم جميعا ؟ وكان صلاح الدين على استعداد لقبول مائة الف دينار عن الفقراء كلهم وعددهم عشرين الف شخص ، لكن باليان يعلم عدم امكان جمع هذا المبلغ ، فاتفقا على تحرير سبعة آلاف شخص نظير مبلغ ثلاثين ألف دينار . وبناء على اوامر باليان ألقت الحامية سلاحها؛ ودخل صلاح الدين القدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر الذي يوافق ٢٧ رجب ، وهو ذكرى اسراء النبى إلى القدس ومعراجه إلى السماء .

١١٨٧م : اللاجئون

كان المنتصرون أهل استقامة وإحسان . وحيث كان الفرنج قبل ثمانية وثمانين عاما يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم يُنتهب الآن مبنى واحد ، ولم يُصب شخص واحد . وبأوامر صلاح الدين طاف الحراس فى الشوارع والأبواب للحيلولة دون أى اعتداء على المسيحيين . وراح كل مسيحى يجاهد ليجد المال اللازم لفديته ، وأفرغ باليان الخزانة لجمع ما وعد به وهو ثلاثين الف دينار . وكان من العسير اجبار نظامى المستشفى والمعبد على أن يتقيّآ كل منهم ثروته ؛ ولم يكن البطريق وهيئة الكنيسة

يهتمون إلا بأنفسهم فقط . وصُدم المسلمون لرؤية هيراكليوس وهو يفتدى نفسه بدنانيره العشرة تاركا المدينة ترزح تحت ثقل النهب الذى كان يحمله معه ، تتبعه العربات المحملة بالسجاجيد والصحاف . وبفضل ما تبقى من منحة هنرى الثانى ، أمكن تحرير فقراء المدينة العشرين الف ؛ وكان ممكنا تلافى الرق لآلاف كثيرة لو كان النظامان العسكريان والكنيسة اكثر كرما . وسرعان ما توافد المسيحيون فى صفين طويلين خارجين من البوابات ، أحد الصفين يضم من دفعوا فديتهم بأنفسهم أو دفعها عنهم باليان ، والصف الآخر لغير القادرين على أن يفتدوا أنفسهم ولذا كانوا ذاهبين إلى الرق . وكان المشهد غاية فى الأسى بحيث التفت العادل إلى اخيه صلاح الدين ملتمسا منحه ألفا منهم جائزة له على خدماته ، فلبى صلاح الدين طلبه ، فأعتقهم العادل لتوه . وانبسطت أسارير البطريق هيراكليوس إذ عثر على وسيلة رخيصة لفعل الخير ، فالتمس منحه بعض العبيد ليعتقهم ، فمُنح سبعمائة ، ومنح باليان خمسمائة . ثم أعلن صلاح الدين نفسه أنه سيعتق كل رجل مسن وامرأة عجوز . وجاءته السيدات الفرنجيات اللاتى افتدين انفسهن باكيات يتساءلن إلى أين يذهبن بعد أسر أو قتل آبائهن أو أزواجهن ! فوعدهن صلاح الدين بعتق الأزواج ومنح الأرامل واليتامى هبات من ماله الخاص بحسب حالة كل منهن . لقد كانت رحمته وشفقته ناصعة البياض على نحو غريب إزاء ما ارتكبه الغزاة المسيحيون فى الحملة الصليبية الأولى .

وكان البعض من أمرائه وجنوده أقل شفقة ؛ إذ كانت هناك حكايات عن ابتزاز بعض المسلمين لبعض المسيحيين لتهريبهم سرا بعد الاستيلاء على كل ما يملكونه . واعترف امراء مسلمون آخرون بهروب عبيد بعد تسديد رسوم مرتفعة سرا . غير أن صلاح الدين كان ينزل أشد العقوبة فى كل مرة يعلم فيها بتلك الممارسات(٣٥).

وسار صف اللاجئين الطويل بطيئا باتجاه الساحل دون أن يتحرش به المسلمون . وكانوا يرتحلون فى ثلاث قوافل ، يقود الأولى نظام فرسان المعبد ، والثانية نظام فرسان المستشفى ، والثالثة باليان والبطريق . وفى صور ، التى اكتظت بلاجئين آخرين ، لم

---

(٣٥) أورد إيرنول أكثر الروايات اكتمالا وأصالة، إذ كان مع باليان فى القدس Ernoul, pp.174-5, 211-30؛ Estoire d'Eracles, II, 81-99 ويرد فى De Expugnatione, pp.241-51 رواية شاهد عيان جرح أثناء الحصار وكان يعارض الاستسلام ؛ Abu Shama, pp.320-40; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.118-20; Ibn al-Athir, pp.699-703. وترد قصة يوسف باتيت فى "تاريخ بطارقة الاسكندرية The History of the Patriarchs of Alexandria, p.207، وهو مرجع قبطي عدوانى؛ إذ يضيف المؤرخ أن المسيحيين الأرثوذكس كانوا فى شدة الحزن من الاستسلام، لأنهم كانوا يفضلون قتل الفرنج .

يسمح بدخول المدينة أحد سوى الرحال القادرين على القتال . وبالقرب من مدينة البطرون، هاجمهم بارون محلى - ريموند (اوف نيفين) - وسلبهم الكثير من بضائعهم . وواصلوا ارتحالهم إلى طرابلس المكتظة هى الأخرى باللاجئين ، ورفضت السلطات دخولهم لنقص الطعام وأغلقت البوابات فى وجوههم . ولم يجدوا ملاذا يأويهم قبل وصولهم إلى انطاكية. وحتى فى انطاكية لم يسمح لهم طواعية بالدخول إذ كان لاجئو عسقلان أكثر حظا . وعندما رفض قباطنة السفن التجارية الإيطاليون اصطحابهم إلى الموانى المسيحية إلا برسوم باهظة ، منعت الحكومة المصرية السفن من الإبحار إلى أن أخذوهم بلا رسوم(٣٦).

وبقى المسيحيون الأرثوذوكس واليعاقبة فى القدس . ومن الناحية الرسمية كان على كل فرد منهم أن يدفع الجزية إلى جانب فديته ، وقد أعفى الكثير من الطبقات الفقيرة من الدفع . واشترى الأغنياء منهم الكثير من الممتلكات التى تركها الفرنج بعد رحيلهم، وما بقى اشتراه المسلمون واليهود الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار فى المدينة. وعندما وصلت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، أرسل الامبراطور إيزاك أنجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته وإعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى الكنيسة الأرثوذوكسية ، فلبى صلاح الدين طلبه بعد قليل من التأخير . وراح الكثير من اصدقاء صلاح الدين يحثونه على تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكنه أكد لهم أن المسيحيين يبجلون الموقع وليس المبنى وأنهم لايزالون يرغبون فى الحج إلى هناك ، ولا رغبة لديه فى تثبيطهم عن ذلك . وفى واقع الأمر أغلقت الكنيسة لثلاثة أيام فقط ، وسمح لحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين(٣٧).

وباستعادة صلاح الدين للقدس يكون قد أنجز أهم واجباته الدينية . ولكن هناك بعض القلاع الفرنجية التى لا يزال يتعين اخضاعها . وكانت الليدى ستيفن ، سيدة منطقة الأردن ، من بين الأسيرات اللاتى دفعن الفدية فى القدس ، وكانت قد التمست من صلاح الدين اطلاق سراح ابنها همفرى (اوف تبنين) ، فوافق شريطة استسلام حصنيها الكبيرين الكرك والشوبك ؛ وأرسل ابنها همفرى من سجنه كى ينضم اليها .

---

(٣٦) Ernoul, pp. 320-4; *Estoire d'Eracles,* II, pp. 100-3.

(٣٧) عن مصير المسيحيين الوطنيين انظر Bar-Hebraeus, trans. Budge, pp.326-7؛ ويورد Beha ed Din, *P.P.T.S* pp.198-201 تبادل السفارات بين صلاح الدين والامبراطور. ويرد الإغلاق المؤقت لكنيسة القبر المقدس فى Maqrisi, ed.Blochet, *Revue de l'Orient Latin,* vol IX, p.33. وعن اليهود انظر Schwab, 'Al-Harizi', in *Archives de l'Orient Latin,* 1 p. 236.

لكن الحاميتين رفضتا كلتاهمـا الانصيـاع لأوامرهـا بالاستسـلام . ولفشـلها فـى تنفيـذ شرطها أعادت ابنها إلى الأسر ثانية ؛ وهو تصـرف أدخـل السـرور علـى قلـب صـلاح الدين ، فأعتق همفرى بعد ذلك بأشهر قليلة . وفى تلك الأثناء ضرب العـادل والجيـش المصرى الحصار حول الكرك . واستمر الحصـار مـا يربـو علـى سـنة كاملـة ؛ ولشـهور كثيرة أشرف المدافعون على التضور جوعا ، وأخرجوا نساءهم واولادهم لإعالة انفسهم بأنفسهم ، بل انهم باعوا فى حقيقة الأمر البعض منهم للبدو نظير الحصول على الطعام. ولم تستسلم القلعة إلا فى نهاية عام ١١٨٨م ، عندما أكلت الحامية آخر حصان فيها . وصمدت الشوبك بضعة أشهر بعدها إذ لم يكن الحصار محكما كسابقتها[٣٨].

١١٨٧م : دبلوماسية رينالد أمير صيدا

وفى الشمال استسلم فرسان المعبد فى قلعة صفد يوم ٦ ديسمبر ١١٨٨م بعد شهر من القصف الشديد ، وبعد ذلك حذا فرسان المستشـفى حذوهـم فـى قلعـة كوكـب ، الواقعة فى مكان مرتفع من وادى الأردن. وكانت قلعة هونين قد احتلـت قبـل ذلـك . أما شقيف أرنون الذى لجأ اليه رينالد امـير صيـدا ، فقـد أنقـذ بفضـل دبلوماسيته . إذ كان رينالد رجلا متعلما ، شغوفا بالأدب العربى ، فجاء إلى خيمة صلاح الدين معترفـا بأنه على استعداد لتسليم حصنه والتقاعد فـى دمشـق إذا منـح ثلاثـة أشـهر يتدبـر فيهـا شؤونه ؛ بل إنه ألمع إلى أنه قد يعتنق الإسلام . وكان أسلوبه فى المناقشة فاتنـا حتـى أن صلاح الدين اقتنع بحسن نواياه ، لا لشئ سوى أن يكتشف بعد فوات الأوان أن الهدنـة التى منحها له استغلها فى تعزيز دفاعات الحصن . وفى ذات الوقت كان صلاح الديـن قد انتقل إلى منطقة طرابلس وانطاكية[٣٩].

كان ريموند أمير طرابلس ، بعد فراره من حطين مباشرة ، قد مات فـى نهايـة عـام ١١٨٧م تقريبا متأثرا بمرض ذات الجنب[٤٠]، رغم الظن بأن مرضه يرجع إلى الإكتئاب

---

(٣٨) Ernoul, p.187; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, p. 382; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.139, 143.

(٣٩) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.122-3, 138-41, 142-3. تقابل المؤرخ بهاء الدين مـع رينـالد ووجـده جذابا؛ Abu Shama, pp.395-400; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 191.

(٤٠) (المترجم): التهاب الغشاء البلورى المحيط بالرئتين ، ويتصف بصعوبـة وآلام التنفـس ، غالبـا مايصحبه ارتشاح سائل فى فراغ الصدر.

(الملاخوليا) والعار ؛ وقد اعتبره كثيرون من معاصريه خائنا ساهمت أنانيته فى دمار المملكة ؛ لكن المؤرخ وليم الصورى وباليان ابيلين كانا من أصدقائه ودافع عنه كلاهما. لقد كانت مأساته الحقيقة هى مأساة كل المستعمرين الفرنج من الجيلين الثانى والثالث الذين كانوا على استعداد ، بنزوعهم الطبيعى ومن منطلق السياسية ، لأن يصبحوا جزءا من العالم الشرقى ، لكن تعصب أبناء عمومتهم من الوافدين الجدد من الغرب أجبرهم على التحزب ، ولم يكن يسعهم فى نهاية الأمر إلا أن يتحزبوا لرفاقهم المسيحيين . ولم يترك ذرية ، ولذا أوصى بتوريث كونتيته لابنه الروحى ريموند ، ابن أقرب أقربائه الذكور بوهموند أمير انطاكية ، لكنه اشترط أنه فى حالة مجئ أحد من أفراد آل تولوز إلى الشرق تكون الكونتية من نصيبه . وقبل بوهمند الميراث لإبنه ، ثم استعوضه لأخيه الأصغر ، بوهمند ، خشية أن تصبح انطاكية وطرابلس معا تحت امرة رجل واحد لا يستطيع الدفاع عنهما[٤١].

بيد أنه سرعان ما أصبح هناك القليل من الميراث ؛ ففى أول يولية ١١٨٨م زحف صلاح الدين مخترقا البقاع ، مارا بقلعة فرسان المستشفى فى الكرك التى ظن أنها شديدة القوة بحيث لا يقدر على مهاجمتها ، ويمم وجهه شطر طرابلس ؛ لكن وصول اسطول ملك صقلية اليها صرفه عن مهاجمتها، وتحول شمالا . وقصف مدينة طرطوس ، لكن قلعة فرسان المعبد صمدت له . فتابع زحفه أسفل أسوار مرقب حيث حاول فرسان المستشفى التصدى له أثناء مروره . واستسلمت جبيل يوم الجمعة ١٥ يولية واللاذقية يوم ٢٢ من الشهر ؛ وكانت اللاذقية مدينة جميلة ، يرجع تاريخ كنائسها وقصورها إلى العصور البيزنطية ، وبكى المؤرخ المسلم عماد الدين لرؤيتها منهوبة مخربة. ومن اللاذقية تحول صلاح الدين إلى داخل البلاد نحو صهيون ، حيث كان يعتقد أن قلعة فرسان المستشفى لا تقهر ؛ غيرانه بعد ايام قلائل من القتال العنيف استولى عليها بهجوم عام يوم الجمعة ٢٩ يولية . وفى يوم الجمعة ١٢ اغسطس استسلمت حامية قلعة بكاس الشغر ، وكانت ذات حماية جيدة رغم وجود الحصن بجوار أخدود هائل ومجارى كبيرة من أثر المياه ؛ وجاء استسلامها لعدم وجود مساعدة آتية من انطاكية . وفى يوم الجمعة ١٩ سقطت مدينة سرمين . وبعد أيام قلائل ، استسلمت

(٤١) يرد موت ريموند بدون تاريخ محدد فى *Estoire d'Eracles*, p.72، حيث ترد ترتيبات الإستخلاف، وأوردها أيضا عماد الدين (فى ابى شامة p.284) وبهاء الدين .*P.P.T.S.*p.114 ويقول الكتاب العرب إنه مات بمرض ذات الجنب . وعن تصرفه فى حطين انظر أدناه ، المرفق الثانى . ويقول Benedict of Peterborough إنه وجد ميتا فى فراشه (II, p. 21).

قلعة برزية الواقعة فى أقصى جنوب وادى العاصى . وكان قائدها زوجا لأخت المخبر السرى لصلاح الدين وهى أميرة من أنطاكية ومنح حريته هو وزوجته . وفى ١٦ سبتمبر استسلمت قلعة فرسان المعبد فى درب ساك الواقعة فى جبال الأمانوس ، وفى يوم ٢٦ سقطت قلعة بجراس التى تسيطر على الطريق من انطاكية إلى كيليكيا(٤٢). بيد أن جيش صلاح الدين بات مرهقا الآن ، ورغب جنود سنجار فى الذهاب إلى أوطانهم. ولذا ، وعندما توسل الأمير بوهمند لعقد هدنه تعترف بكل فتوحات المسلمين، منحها له صلاح الدين. وظن أن بإمكانه أن يفرغ من مهمته وقتما يحب. وكان كل ما تبقى لبوهمند وأولاده عاصمتاه أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية، بينما احتفظ فرسان المستشفى بحصني المرقب والكرك، وفرسان المعبد بطرطوس(٤٣).

١١٨٧م : الدفاع عن صور

على أنه كانت في الجنوب مدينة لم تسقط بعد لصلاح الدين ، وهنا ارتكب خطأه الكبير . ذلك أن بارونات فلسطين اللاجئين احتشدوا الآن فى صور ، اقوى مدن الساحل ، التى لم يكن يصلها بالبلاد سوى شبه جزيرة ضيقة رملية بنى عبرها سور ضخم . ولو أن صلاح الدين عجّل بهجومه على صور حالما استولى على عكا ، لما أوقفه شئ حتى هذا السور ؛ لكنه تأخر إلى ما بعد فوات الأوان . وكان رينالد امير صيدا ، الذى كان وقتئذ يسيطر على المدينة ، يتفاوض من اجل التسليم ، بل إن صلاح الدين أرسل رايتين من راياته ليرتفعا فوق القلعة ، لولا أن حدث يوم ١٤ يولية - بعد حطين بعشرة ايام - أن دخلت سفينة إلى الميناء . وكان على ظهرها كونراد ، ابن مركيز مونتفرات المسن وشقيق الزوج الأول للملكة سبيلا . وكانت معيشته فى القسطنطينية ، وكان متورطا فى جريمة قتل هناك ، ولذا أبحر سرا مع مجموعة من فرسان الفرنج للحج فى الأماكن المقدسة . وكان خالى الذهن عن الكوارث التى حلت بفلسطين ، فاتجه إلى عكا . وعندما وصلت الباخرة خارج مياه الميناء اندهش القبطان لعدم سماعه صوت الجرس الذى كان عادة يدق عند رؤية سفينة . وحدثته نفسه بأن

(٤٢) -Ernoul, pp.252-3; *Estoire d'Eracles,* II, p. 122; Abu Shama, pp. 356-76; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.125-38; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 187-90; Ibn al-Athir, pp.726-9: ويقتبس أبو شامة pp.361-2 وصف عماد الدين للاذقية وتخريبها .

(٤٣) Ibn al-Athir, pp.732-3; Beha ed-Din, *P.P.T.S* p.137. كان من المقرر ان تستمر المدنة سبعة أشهر .

هناك شيئا غير طبيعي ولذا لم يدخل إلى المرسى . وسرعان ما جاءت بمحاذاة سفينته مركب شراعى بسارية واحدة وعليها مسؤول الميناء المسلم ؛ فتظاهر كونراد بأن السفينة سفينة تجارية وسأل ماذا هناك ، واجابه المسؤول بأن صلاح الدين استولى على المدينة قبل أربعة أيام . وتسبب الرعب الذى تملكه فى اثارة الريبة لدى المسؤول المسلم؛ ولكن كونراد تمكن ، قبل أن يطلق المسؤول سبل الإنذار ، من الإسراع بالإبحار إلى صور ، حيث لقى ترحيبا باعتباره المخلّص وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المدينة . والغيت شروط صلاح الدين للسلام وألقى برايتيه فى الخندق المائى . وكان كونراد عفيًا ، قاسيا ، شجاعا ؛ رأى أن المدينة تستطيع الصمود إلى أن تأتى المساعدة من الغرب ، وكان على ثقة من أن أخبار سقوط القدس سوف تجعل المساعدة تأتى لا محالة. وعندما ظهر صلاح الدين امام صور بعد أيام قليلة ، كانت قوة دفاعاتها تفوق قوته ، فأحضر مركيز مونتفرات من دمشق ؛ وأظهره امام الأسوار مهددا بقتله إن لم تستسلم له المدينة؛ غير أن ورع البنوة لدى كونراد لم يكن قويا بمايكفى لكى يميل عن واجبه كمحارب مسيحى ؛ فلم يحرك ساكنا ؛ وبالطيبة المعتادة أبقى صلاح الدين على حياة الرجل العجوز . ورفع الحصار ليتجه إلى عسقلان . وعندما ظهر مرة اخرى امام صور فى نوفمبر ١١٨٧م وجدها قد عززت من تحصيناتها ، ووصلتها بعض التعزيزات البحرية والعسكرية ، وحال الشريط الأرضى الضيّق دون أن يستخدم رجاله ومنجنيقاته . وجاء بعشر سفن اسلامية من عكا ؛ لكن المسيحيين استولوا على خمس منها يوم ٢٩ ديسمبر ، واندحر هجوم متزامن على الأسوار . وفى مجلس حرب أنصت صلاح الدين لأمرائه الذين أشاروا إلى أن الجنود فى حاجة إلى الراحة ؛ وكان الشتاء مطيرا وباردا ، وظهرت الأمراض فى المعسكر . وفى أول أيام العام الجديد ١١٨٨م أمر صلاح الدين بتسريح نصف جيشه وانسحب للاستيلاء على الحصون فى داخل البلاد . وأُنقذت المدينة بفضل حيوية كونراد وثقته ، وأُنقذ معها بقاء المملكة المسيحية(٤٤).

١١٨٧م : تشريف صلاح الدين

وفيما بعد أسف صلاح الدين أسفا مريرا على فشله فى الاستيلاء على صور . غير أن ما أنجزه كان هائلا بلا أدنى ريب . وسواء جاءت انتصاراته نتيجة لاستجابة

(٤٤) Ernoul, pp. 179-83; *Estoire d'Eracles*, II, pp.74-8, 104-10; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp.18-19; Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp. 120-2; Ibn al-Athir, pp. 694-6, 707-12.

الإسلام الحتمية لتحدى الفرنج الدخلاء ، أو نتيجة لسياسة أسلافه العظام ذوي البصيرة النافذة ، أو نتيجة لنزاعـات وحماقـات الفرنـج أنفسـهم ، أو نبعـت مـن شـخصيته هـو نفسه، فقد جاء بالبيّنة التي تدل على قوة الشرق وروحه . وفـى قرنـى حطـين ، وعلـى بوابات القدس ، انتقم لإهانة الحملـة الصليبيـة الأولى ، وأظهـر كيـف يحتفـل الشـريف بانتصاره .

المرفقات:

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتينى

المرفق الثانى: معركة حطين

المرفق الثالث: شجرات الأنساب

المرفق الأول

المصادر الرئيسـية لتاريخ الشرق اللاتيـنى
١١٠٠-١١٨٧م

١- المصارد اليونانيـة

لا تتناول المصادر اليونانية اللاتينيين فى الشرق إلا عنـد وجـود اتصـال مباشـر مـع بيزنطة . وحتى عام ١١١٨م ، يظل التاريخ المسمى أليكسياد Alexiad الـذى كتبتـه أنـا كومنينا Anna Comnena أهم المصادر اليونانية ، برغم وجود نوع من الإضطراب فيمـا كتبتـه مـن تتـابع احـداث الشـوون الفرنجيـة[١]. وفيمـا يتصـل بعهـدى جـون ومـانويل كومنيـنـوس ، يعتـبر تاريخـى جـون سينامـوس John Cinnamus ونيكتـاس أكوميناتـوس، أو خونياتـيس Acominatus, or Choniates Nicetas المصدريـن الأساسيين . إذ كان الأول كاتم سر الامبراطور مانويل كومنينـوس وكتـب تاريخـه بعـد موت مانويل مباشرة . ويفتقر تاريخ عهد الامبراطور جون إلى المهارة ؛ غير أنـه يتنـاول تاريخ مانويل نفسه بعناية ويعتـبر جديـرا بالثقـة . وبغـض النظـر عـن بعـض التحـيزات الوطنية الطفيفة ، فهو مؤرخ ذو رصانة ، يمكن الإعتماد عليه[٢]. أما نيكتـاسNicetas ، فكتب تاريخه فى باكورة القرن الثالث عشر ، ويغطى الفترة من عهد الامبراطور جون إلى ما بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية . وتاريخه مستقل تماما عن تاريخ سينامـوس Cinnamus وبدءا من النصف الأخير من حكـم مـانويل قدُما ، يصـف الأحـداث التـى

---

(١) .انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر.

(٢) نشر فى مجموعة Bonn *Corpus* .

يعرفها معرفة شخصية، وعلى الرغم من الأسلوب البلاغي السائد والميل إلى الأخلاقيات ، فإنه تاريخ دقيق يمكن الإعتماد عليه[٣]. ولا يوجد مصدر يونانى آخر له أهمية رئيسية[٤]، فيما عدا رواية مثيرة وان كانت غامضة حول رحلة حج قام بها إلى فلسطين عام ١١٧٨م من يدعى جون فوكاس[٥] John Phocas .

٢- المصادر اللاتينية

أهم مصادرنا للتاريخ المبكر للدويلات الصليبية هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، وبصورة ملحوظة فولشر اوف تشارترز Fulcher of Chartres وألبرت اوف آيكس Albert of Aix، وبدرجة أقل رادولف اوف كاين Radulph of Caen ، وإيكار اوف أورا Ekkehard of Aura وكافارو Caffaro وقد ناقشت تلك المصادر فى الجزء الأول من هذا التاريخ. ويتعين اضافة أنه بالنسبة للفترة ١١٠٠ إلى ١١١٩م ، وعندما تصل إلى نهايتها يمكن ان يعتبر تاريخ ألبرت المصدر الذى يعتمد عليه بصورة شاملة. وليس معروفا مصدر حصوله على المعلومات، بيد أنه بمطابقته على المصادر السورية فإنها تؤيده.

ويغطى التاريخ الأنطاكى للفترة ١١١٥م إلى ١١٢٢م عمل قصير يسمى De Bello Antiochene كتبه المستشار ولتر Walter the Chancellor ، الذى ربما كان مستشارا للأمير روجر . وهو عمل يتصف بالأصالة وزاخر بالمعلومات المفيدة حول تاريخ مؤسسات انطاكية آنذاك[٦].

ومن عام ١١٢٧م ، عندما ينهى فولشر عمله ، وحتى العقد الأخير السابق على استيلاء صلاح الدين على القدس، فإن مصدرنا الهام الوحيد هو تاريخ وليم الصورى William of Tyre's Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum،

---

(٣) نشر فى مجموعة Bonn *Corpus* .

(٤) لا يزال زوناراس Zonaras مفيدا للسنوات الأولى من القرن . انظر الجزء الأول، مرفق المصادر. وما كتبه Manasses من تاريخ منظوم لا يقدم سوى مادة ضئيلة قليلة الأهمية (نشر فى مجموعة Bonn *Corpus*) ونشرت القصائد ذات الصلة التى كتبها برودروموس Prodromus فى (مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil des Historiens des Croisades*.)

(٥) Translated in the *Palestine Pilgrims' Text Society*, vol. v.

(٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil*.

الذى يغطى الفترة من ١٠٩٥م إلى ١١٨٤م[٧]. وقد ولد وليم فى الشرق بعد عام ١١٣٠م بفترة قصيرة . وربما تعلم اللغة العربية واليونانية فى طفولته ، ثم ذهب إلى فرنسا لإتمام دراسته . وبعد عودته إلى فلسطين مباشرة اصبح رئيس شمامسة صور ومستشارا للمملكة من ١١٧٠م إلى ١١٧٤م . كما كان معلما لبلدوين الرابع فى صغره . وفى عام ١١٧٥م اصبح رئيس اساقفة صور ، وفى عام ١١٨٣م ، وبعد فشله فى الحفاظ على البطريارقية ، تقاعد فى روما حيث مات قبل عام ١١٨٧م . وبدأ كتابة تارخه عام ١١٦٩م ، وأنهى الكتب الثلاثة عشر الأولى بحلول عام ١١٧٣م . وقد اخذ معه العمل كله إلى روما وكان ما يزال يعمل فيه وقت موته واعتمد وليم فى روايته عن الحملة الصليبية الأولى اعتمادا رئيسيا على ألبرت Albert، وبدرجة اقل على ريموند اوف احيلير Raymond of Aguilers وعلى نسخة Baudri من Gesta ، وعلى فولشر Fulcher من عام ١١٠٠م إلى عام ١١٢٧م ، وفولشر مصدره الرئيسى ، رغم أنه استعان ايضا بالمستشار وولتر . وإضافاته الوحيدة اليهم حكايات شخصية حول الملوك ومعلومات عن الكنائس الشرقية وعن صور . وخلال الفترة من ١١٢٧م وحتى عودته إلى الشرق كان يعتمد على محفوظات المملكة وعلى هيكل تاريخى للملوك ، مفقود الآن. وترتيبا على ذلك فإن معلوماته عن شمال سوريا لايعول عليها . ومن ستينات القرن الثانى عشر قُدُما كانت لديه معرفة وثيقة ومتبصّرة عما كان يصفه من احداث وشخصيات فاعلة . ويغلب الاضطراب على تواريخه وأحيانا يتوفر البرهان على أنها خاطئة . وربما يرجع ذلك إلى أنها أضيفت إلى مخطوطاته عن طريق ناسخ لمخطوطاته فى وقت مبكر . ويعتبر وليم واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسيطة . وكانت له تحاملاته ، مثل كراهيته للسيطرة العلمانية على الكنيسة ، غير أنه معتدل فى كلماته إزاء أعدائه هو شخصيا ، مثل البطريق هيراكليوس، وآجنس اوف كورتناى ، وكانا كلاهما يستحقان ملامته . وكان يرتكب الأخطاء حيثما تكون معلوماته غير كاملة. بيد أنه كان ذا بصيرة نافذة؛ إذ وعى مغزى الأحداث العظام التى حدثت فى عصره ، وتعاقب المسببات والنتائج فى التاريخ . وأسلوبه مباشر ولا يخلو من خفة الظل. ويترك عمله الإنطباع بأنه كان هو نفسه حكيما، شريفا، محبوبا.ولسوء الحظ ، فقد عمله الآخر – تاريخ الشرق - History of the East الذى اعتمد فيه اساسا على التاريخ العربى

---

(٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية.*Receuil* انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر. وعن تاريخ وليم انظر Steven فى مؤلفه Crusaders in the East, pp. 361-71 ، وهو عمل موثق ويشتمل على مناقشة كاملة.

الذى كتبه سعيد بن البطريق ، رغم اعتماد مؤرخى القرن التالى عليه ، من مثل جاك أوف فيترى.Jacques of Vitry .

ولتاريخ وليم الصورى استطراد Continuation لاتيني كُتب فى الغرب عام ١١٩٤، باضافات لاحقة[٨]، وهو عمل يتصف بالرصانة والموضوعية ، وربما استند إلى عمل مفقود يعتبر ايضا أساسا للكتاب الأول من خط سير الملك ريتشارد Itinerariusm Regis Ricardi، الذى يغطى السنوات من ١١٨٤م إلى الحملة الصليبية الثالثة[٩]. ومن المشاكل الجسيمة مداومة الكتابة باللغة الفرنسية القديمة ؛ وقد حدث فى نحو منتصف القرن الثالث عشر أن ترجم احد أتباع الملك الفرنسى تاريخ وليم ، فشرح بعض النصوص وأدخل تعليقات مشكوك فى قيمتها ، وأضاف إلى ذلك التاريخ اضافات تاريخية امتدت لفترة طويلة فى القرن الثالث عشر . ومن كلماته الافتتاحية ، يعرف هذا العمل عادة بأنه تاريخ هرقل Estoire d'Eracles وفى نفس الوقت تقريبا ظهر فى الشرق لمن يدعى برنارد الخازن Bernard the Treasurer استطرادا لعام ١١٢٩م تعزى إلى إرنول Ernoul الذى كان متبوعا لبلدوين اوف إبيلين. وترتبط هاتان الترجمتان ارتباطا وثيقا ، وهما موجودتان فى عدد كبير من المخطوطات التى تضم ، مع ذلك ، اختلافات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات للفترة من ١١٨٤م إلى ١١٩٨م . ولا يمكن الحكم على أيّ من المجموعات الثلاث بأنها المخطوطة الاصلية ، إذ أن كل مجموعة تضم أحداثا غير موجودة فى أيّ من الأخرتين. وأكثر الحلول احتمالا هو أنها كلها تعتمد على عمل مفقود كتبه إرنول نفسه عن هذه الفترة . ويقينا كتب إرنول أصلا أحداث يوم أول مايو ١١٨٧م ، وهى واردة فيما كتبه برنارد عن إرنول ؛ وتظهر المجموعة كلها اهتماما بآل إبيلين وتشتمل على الكثير مما وصفه شهود العيان مما يتلاءم مع أصالة أحد افراد آل إبيلين . وعلى الجملة تعتبر تلك الاستطرادات مصادر يعتمد عليها برغم كونها غير موضوعية . ويبدو أن إرنول كان يسجّل بعناية بقدر ما يسمح به تحيزه لصالح آل إبيلين. ويأتى الترتيب التاريخى للفقرات الأولى عشوائيا ؛ ويبدو أنها تتألف من ملاحظات وذكريات غير متصلة ببعضها البعض[١٠].

---

(٨) نشره M. Salloch .

(٩) نشر خط سير الملك ريتشارد *Itinerarium* فى سلسلة Rolls التى يحررها..Stubbs .

(١٠) يرد نشر *Estoire d'Eracles* فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* ونُشر Ernoul عن طريق Mas Latrie وللإطلاع على مناقشة المشكلة برمتها انظر مقدمة Mas Latrie لإرنول وكاهن *La Syrie du Nord*, pp.21-4.

كما يرد وصف موجز لفتح صلاح الدين لفلسطين في Libellus de Expugnatione Terrae Sanctae Saladinum ، ويعزى أحيانا إلى رالف اوف كوجشال Ralph of Coggeshall ويكاد يكون من اليقين انَ الذى كتبه رحل انجليزى بعد سنوات قليلة من الحادثة التي يصفها . ويظهر الكاتب اعجابا بالنظامين العسكريين ، وخاصة نظام المعبد ، وقد سكت بمهارة عن سيئاته ، لكنه أظهر في الوقت ذاته مودته لريموند امير طرابلس . ويدرج رواية لأحد شهود العيان في حصار القدس قالها هي نفسها جندى جرح هناك[١١].

وهناك تواريخ متأخرة عن المملكة تضيف معلومات اخرى ، وخاصة Historia Regni Hierosolymitani، وهو استطراد لكفّارو Caffaro ، وحوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte، وموجز للتاريخ المسمى Historia Regum Hierosolymitanorum[١٢] وترد معالجة كاملة للحملة الصليبية الثانية فيما كتبه أودو اوف دويل De Ludovici VII profectione in Orientum of Odo of Deuil ، وهي رواية حية ومتحاملة للغاية لأحد المشتركين في رحلة لويس وصل فيها حتى اضاليا، وترد بإيجاز اكثر في Gesta Friderici التي كتبها Otto of Freisingen وكان هو نفسه مشترك في الرحلة ايضا ؛ وحياة لويس السابع التي كتبها سوجر[١٣] Life of Louis VII by Suger وأما قصيدة أمبرواز Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte، وكذلك خط سير الملك ريتشارد Itinerarium Regis Ricardi ، وبرغم معالجتهما للحملة الصليبية الثالثة ، فلا تعرضان سوى معلومات استعادية[١٤].

ويورد مؤرخون غربيون كثيرون فقرات تتصل بالشرق اللاتيني ، مثل الإنجليزى William of Malmesbury و Benedict of Peterborough ، وكذلك المهتمون بالحملة الصليبية الثالثة ؛ والفرنسي Sigebert of Gembloux ومكمّلوه، وRobert of Torigny؛

---

(١١) نشرها J. Stevenson في سلسلة Rolls .

(١٢) نشرت *Historia Regni Hier.* في *M.G.H.Ss*، ونشرت *Annales de la Terre Sainte* عن طريق Rohricht في *Archives de l'Orient Latin* وفي, Kohler in *Historia Regum* . *Mélanges.*

(١٣) Odo, or Eudes, Of Deuil's book has recently been edited by Waquet, and Otto of Freisingen's *Gesta* by Hofmeister in *M.G.H.Ss.*, new series ولا توجد طبعة جيدة لعمل سوجر Suger

(١٤) نُشر Ambroise عن طريق G. Paris وتوجد ترجمة انجليزية بملاحظات مفيدة قام بها Hubert and La Monte.

والإيطاليان Romuald and Sicard of Cremona وغيرهم(١٥). ويعتبر Norman Orderic Vitalis، أهمهم إذ أن تاريخه الذى ينتهى عام ١١٣٨م زاخر بالمعلومات المتصلة بالشرق الفرنجى Outremer ، ولا سيما ما يتصل بشمال سوريا، ويحتمل أن كان له أصدقاء أو أقارب بين نورمانديي انطاكية . ويتضح ان الكثير من القصص التى رواها ليست سوى اساطير ، ولكن الكثير من المادة التى كتبها مقنعة ولا توجد فى اماكن اخرى(١٦).

وفيما يتصل بالرسائل المعاصرة ذات الصلة ، فإن أهم مجموعة رسائل هى الواردة فى المراسلات البابوية . والمراسلة بين لويس السابع وكونراد الثالث تلقى الضوء على الحملة الصليبية الثانية(١٧) وبقيت من الضياع رسائل قليلة كتبها لاتينيون بارزون فى الشرق(١٨) وبقيت من الضياع محفوظات ثلاث منشآت كنسية فى الشرق ، وهى محفوظات كنيسة القبر المقدس ، ومحفوظات دير القديسة مارى حوزافات Saint Mary Josaphat ومحفوظات دير القديس لازاروس Saint Lazarus وتكاد محفوظات نظام فرسان المستشفى أن تكون كاملة ، ولكن محفوظات نظام فرسان المعبد فلا تعرف إلا بمراجع نادرة وغير مباشرة . كما يوجد عدد معين من السجلات العلمانية التى تتناول نقل الأرض فى الدويلات الفرنجية(١٩) ، وتعطى المحفوظات البابوية بعض المعلومات الإضافية ؛ وأما المعلومات المتصلة بالشؤون التجارية فيمكن استخلاصها من محفوظات بيزا والبندقية وجنوا(٢٠). وأما قوانين القدس Assises ، التى كتبت فيما بعد ، فتضم قوانين assises محددة يرجع تاريخها ابتداء من القرن الثانى عشر(٢١).

---

(١٥) للإطلاع على ما نشره هؤلاء المؤرخون ، انظر قائمة المصادر والمراجع.

(١٦) لا تزال أفضل طبعة لتاريخ Orderic هى طبعة Le Prévost .

(١٧) نشرت فى *R.H.F.* and in *Wibaldi Epistolae* (Jaffé, *Bibliotheca*), respectively .

(١٨) أغلبها نشر فى *R.H.F.* ويوجد غيرها فى شتى التواريخ.

(١٩) انظر قائمة المصادر والمراجع عن السجلات *Cartulaires* وأغلبها مختصر فى Rohricht's *Regesta*.

(٢٠) ترد الرسائل البابوية فى *M.P.L.* و لم تُنشر المحفوظات الايطالية كاملة . وأورد Cahen, موجزا لما صدر منها *op. cit*, pp.3-4.

(٢١) نُشرت القوانين *Assises* فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية the *Recueil*. وللإطلاع على مناقشتها انظر La Monte, فى مؤلفه *Feudal Monarchy*, pp.97-100 , و Grandclaude, op.cit فى اماكن متفرقة.

ومن السجلات المثيرة للإهتمام ما تركه مسافران سافرا إلى فلسطين خلال القرن الثاني عشر ، هما Saewulf ، الذى ربما كان انجليزيا وزار البلد عام ١١٠١م ، والألمانى John of Wurzburg، الذى زار البلد حوالى ١١٧٥م[٢٢].

٣- المصادر العربية

بتقدم القرن الثانى عشر أخذ عدد المصادر العربية المعاصرة فى التزايد . وبالنسبة للجزء الأول من القرن نعتمد على ابن القلانيس Ibn al-Qalanisi فى الشؤون الدمشقية، وعلى العظيمى al-Azimi فيما يتصل بشمال سوريا، وعلى التاريخ الذى يبدو مشوشا شيئا ما الذى كتبه ابن الأزرق[٢٣] Ibn al-Azraq فيما يتعلق بالجزيرة بخلاف ما ورد من استشهاد من تواريخ مفقودة اقتبسها مؤرخون متأخرون . ومع ذلك ، لدينا المذكرات القيّمة التى كتبها أسامة ابن منقذ[٢٤] Usama ibn Munqidh وكان أسامة من امراء شيزر، وقد ولد عام ١٠٩٥م. وبعد ثلاثين سنة ، نفى نتيجة لمكائد عائلية ، وأمضى مابقى من عمره الذى بلغ ثلاثا وتسعين سنة فى دمشق أساسا ، مع فترات اقامة فى مصر وديار بكر . وبرغم كونه من مدبرى المكائد الماهرين ، وكان الولاء الشخصى بالنسبة له لا يعنى شيئا ، فقد كان رجلا ذا فتنة ساحرة وذكاء ، وكان جنديا ، مولعا بالألعاب الرياضية، وأديبا . وليس فى مذكراته التى تسمى الإعتبار Instruction by Examples، ترتيب تاريخى ، وقد جمعها شيخ مسن دون تحقيق ، لكنها تعطى صورة حيّة غير عادية للحياة فيما بين الأرستقراطية العربية والفرنجية فى عصره. وتضارعها حيوية رحلات ابن جبير الأندلسى Spaniard Ibn Jubayr ، وقد مر ابن جبير فى مملكة القدس عام ١١٨١م[٢٥].

---

(٢٢) نشرت وترجمت الى الإنجليزية فى *P.P.T.S.* vols.IV AND V .

(٢٣) لم ينشر كاملا . والإقتباسات ذات الصلة حللها Cahen فى. *Journal Asiatique, 1935* .

(٢٤) بالنسبة لأسامة ، أستخدم أنا ترجمة فيليب حتّى Hitti بعنوان *An Arab-Syrian Gentleman* التى تستند الى دراسة معتنية بالنص الأصلى بصورة أكثر من نص Derenbourg ، الذى نشر عام ١٨٩٥ . والترجمة الإنجليزية التى ترجمها Potter تستند الى نص Derenbourg .

(٢٥) نشر Wright النص الكامل لإبن جبير منذ قرابة مائة عام فى .Leyden ويجرى نشر ترجمة الى الفرنسية يقوم بها Gaudefroy-Demonbynes، وسوف تصدر قريبا ترجمة Broadhurst الى اللغة الإنجليزية. ويرد فى *Recueil* بعض الإقتبسات.

أما سيرة حياة صلاح الدين فقد ألهمت جمعا غفيرا من الكتاب ، أهمهم عماد الدين الأصفهاني[٢٦] Imad ed-Din of Isfahan ، وبهاء الدين بن شداد[٢٧] Beha ed Din ibn Shedad، والمؤرخ المجهول الذى كتب (البستان)[٢٨] the General Garden of all the Histories of the Ages وكان عماد الدين يعمل موظفا سلجوقيا فى العراق ، والتحق بخدمة نورالدين ، ثم أصبح كاتم سر صلاح الدين من عام ١١٧٣م قُدُما . وكتب عددا من الأعمال ، بما فيها تاريخ السلاجقة وروى حروب صلاح الدين . وهذه الأخيرة تكاد تكون برمتها مستنسخة عند أبى شامة ، وتعد أكثر المصادر ثقة حول ترجمة صلاح الدين . وأسلوبه مزخرف على نحو غريب ومعقد ولا يخلو من صعوبة . كما كان بهاء الدين من حاشية صلاح الدين منذ عام ١١٨٨م . وأما ما كتبه عن حياة صلاح الدين ، فيأتى فى اسلوب بسيط ودقيق ، يعتمد أساسا على السماع وبعض ذكريات صلاح الدين نفسه حتى ذلك التاريخ . ومنذآنذاك ، اتصف بالدقة التى يتصف بها عماد الدين . وقد كتب البستان فى حلب فى ١١٩٦/١١٩٧م، وهو على نحو ما تاريخ أجوف وموجز للإسلام ، يتناول أساسا حلب ومصر ، لكنه يضم معلومات لا توجد إلا فى فيما كتبه ابن ابى طي من تاريخ لاحق اكثر اكتمالا . وربما اعتمد كلاهما على مصدر شيعي مفقود . وأما المؤرخان الآخران الفاضل الشيبانى وابن الدهان ، فليسا معروفين إلاّ من الإقتباسات[٢٩].

ويعتبر ابن الأثير الموصلى ، المولود فى ١١٦٠م والمتوفى فى ١٢٣٣م ، أعظم كتاب التاريخ فى القرن الثالث عشر . ومؤلفه "كامل التواريخ" عبارة عن تاريخ العالم الإسلامى ، دأب فيه على توخى العناية فى اختيار ما يعد حساسا من الكتاب السابقين عليه والمعاصرين له . وبالنسبة للحملة الصليبية الأولى وبداية القرن الثانى عشر ، تعتبر مقدماته مقتضبة نوعا ما . وبالنسبة لنهاية القرن يستند أساسا على مؤرخين كانوا فى حاشية صلاح الدين ، رغم ما يضيفه من ذكريات شخصية قليلة . وبالنسبة لمنتصف القرن ، الذى لم يكتب فيه مؤرخ اسلامى على قدر من الأهمية ، يبدو أنه استخدم

---

(٢٦) للإطلاع على أعمال عماد الدين انظر Cahen,. *La Syrie du Nord*, pp. 50-2، ويورد أبو شامة Abu Shama (أنظر أدناه ص ٤٨٢) ، اقتباسات طويلة من أعماله.

(٢٧) نشر النص العربى عن طريق Schultens, and in *Recueil* وأنا أشير فى الحواشى المذكورة اعلاه الى النص المنشور فى *P.P.T.S.* والذى جمع من علاقة مختلطة من النشرتين.

(٢٨) نشره Cahen فى *Bulletin de l'Institut Oriental à Damas* .

(٢٩) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 52-4.

مادة اصيلة . ولا يخلو تاريخه من عيوب ؛ فهو لا يسمّي مصادره وغالبا ما يغير الروايات لكي تتناسب خاصة مع تحيزه لزنكي . بيد أنه - كشأن وليم الصورى - يعد مؤرخا حقيقيا حاول ان يفهم المغزى الواسع للأحداث التى يصفها . وأما عمله الثانى "تاريخ اتابجة الموصل" فيعتبر من الكتابات ذات المستوى المنخفض ، وتتصف نوعا ما بالتقريظ الخالى من النقد ، والتى مع ذلك تشتمل على بعض المعلومات التى لا توجد فى غيره(٣٠).

أما كتاب كنوز الذهب لإبن أبى طي الحلبى Mines of Gold of Ibn abi Tayyi of Aleppo، وهو وحده أعظم مؤرخى الشيعة ، والمولود فى ١١٨٠م ، فلا نعرفه إلا من غزارة استخدم مؤرخى السنة لإعماله ، وكانوا مدركين لهذه الحقيقة . ومن الواضح أنه عمل يتصف بأهمية عظمى ، يغطى التاريخ الإسلامى كله ، مع اشارة خاصة لحلب ؛ ومن الاقتباسات المتبقية ، لا بد وأن هذا العمل استفاد فى تفصيلاته من نفس المصدر الذى أفاد منه البستان(٣١).

أما كمال الدين الحلبى Kemal ad-Din of Aleppo ، الذى عاش من ١١٩١م إلى ١٢٦٢م ، ومؤلف موسوعة تراجمية ربما لم يتمها ، فقد كتب قبل ١٢٤٣م تاريخ حلب، وهو تاريخ طويل واضح وسهل الأسلوب ، يعتمد بصورة كبيرة على العظيمى وابن القلانيسى ومعاصرى صلاح الدين ، وكذلك على التقاليد والأخبار المتواترة. ولا يتوخى كمال الدين الدقة فى ايراد العلاقة بمصادره ، وهو متحامل على الشيعة(٣٢). وأما سبط بن الجوزى Sibt Ibn al-Djauzi ، المولود فى بغداد عام ١١٨٦م ، فكتب أحد أطول التواريخ الإسلامية ، مرآة الزمان ؛ على أنه فيما يتعلق بالقرن الثانى عشر لم يفعل سوى ان استنسخ معلومات أوردها كتاب سابقون(٣٣). وفى ١٢٥١م أكمل أبو شامة Abu Shama ، المولود فى دمشق عام ١٢٠٣م ، تاريخا لعهدى نورالدين وصلاح الدين يسمى "كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين"(٣٤) ويتألف بدرجة كبيرة من نسخ

(٣٠) عن الإصدارات ، انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع.

(٣١) انظر Cahen, *op. cit.* pp.55-7.

(٣٢) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . وترجم Blochet فصوله التى تغطى الفترة الأخيرة من القرن الثانى عشر وهى منشورة فى *Revue* de l'Orient Latin .

(٣٣) يرد فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* اقتباسات قليلة . ونشر Jewett (Chicago, 1907) طبعة مصورة أخرى من المخطوطة التى تعتبر مختلفة نوعا ما.

(٣٤) نشر فى بولاق عام ١٨٧١م وعام ١٨٧٥م . والمراجع التى أستند اليها هى اقتباسات نشرت فى

مطابقة من ابن القلانيسي ، وبهاء الدين ، وابن الأثير (الأتابج) ، وابن ابى طي ، والفاضل ، وقبلهم جميعا عماد الدين الذى كان حريصا فى شغف على تشذيب أسلوبه مع ذلك.

ومن بين المؤرخين المتأخرين كتب أبو الفدا ، الذى كان أميرا لحماه فى بداية القرن الرابع عشر، تاريخا ليس فيه أكثر من موجز مفيد للمؤرخين الأبكر ، ولكنه حاز على شعبية هائلة ودائما ما يُقتبس[٣٥].

أما ابن خلدون Ibn Khaldun ، الذى كتب فى نهاية القرن الرابع عشر ، فقد لخص ابن الأثير فيما يتصل بالشؤون السورية ، لكنه بالنسبة للتاريخ المصرى استخدم تاريخ ابن الطوير ، وهو تاريخ مفقود كتب فى عصر صلاح الدين[٣٦]. ويشتمل تاريخ المقريزى Maqrisi ، الذى كتب فى بداية القرن الخامس عشر ، على معلومات حول مصر لا توجد فى سواه[٣٧].

أما قاموس التراجم (وفيات الأعيان) الذى جمعه ابن خلكان Ibn Khallikan فى القرن الثالث عشر ، فيضم شذرات قليلة فريدة من المعلومات التاريخية[٣٨].

ولا توجد مصادر تتناول أتراك الأناضول مباشرة . وفى واقع الأمر ، يخبرنا مؤرخ القرن الثالث عشر ابن بيبى Ibn Bibi أنه لم يستطع الشروع فى كتابة تاريخه عن السلاجقة قبل عام ١١٩٢م ، وهو العام الذى مات فيه قلج ارسلان الثانى ، نظرا لافتقاره إلى المادة التاريخية[٣٩] كما لا توجد أية مصادر فارسية ذات صلة.

مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٥) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٦) طبع فى بولاق عام ١٨٦٨م فى سبعة مجلدات.

(٣٧) ترجم Blochet اقتباسات منه نشرت فى *Revue de l'Orient Latin* .

(٣٨) ترجمه de Slane الى الفرنسية.

(٣٩) ترد تعليقات ابن بيبى فى بداية المجلد الثالث من مؤلف هوتسما Houtsma المعنون "النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة" (وهو ترجمة تركية قديمة لابن بيبى *Textes Relatifs à l'Histoire des Seldjoukides*.)

٤- المصادر الأرمينية

أهم مصدر أرميني للعقود الأولى من القرن الثاني عشر، كشأن الحملة الصليبية الأولى ، هو ماثيو الأورفي Matthew of Edessa ، المتوفى عام ١١٣٦م وأكمل عمله، بنفس الروح الوطنية المعادية لبيزنطة ، جريجورى القسيس الكيسونى Gregory the Priest, of Kaisun، حتى عام ١١٦٢م[٤٠] . أما معاصره ، القديس نرسيس شنورهال الأول Saint Nerses Shnorhal I ، بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) من عام ١١٦٦م إلى عام ١١٧٢م ، فقد كتب قصيدة طويلة عن سقوط الرها ، تفتقر نوعا ما إلى الاهتمام الشعرى والتاريخى[٤١] ، لا ولا كانت القصيدة الطويلة التى كتبها خليفته، بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) جريجورى الرابع دغا Catholicus Gregory IV Dgha مؤثرة هى الأخرى[٤٢] . والأحسن من الناحية الشعرية المرثاة التى كتبها قسيس يدعى بازل العالِم الدينى Basil the Doctor، لبلدوين امير مرعش ، وكان واعظه الكنسى[٤٣] والأكثر اهمية حوليات صموئيل أوف آنى Annals of Samuel of Ani، التى كتبت فى أرمينيا الكبرى ووصلت عام ١١٧٧م[٤٤] وهى تعتمد جزئيا على متى Matthew وجزئيا على التواريخ المفقودة التى كتبها جون الشماس John the Deacon وآخر يدعى ساركافاج .Sarcavag وأما المجموعة التالية من المؤرخين الأرمن ، مثل ميخيتار اوف ايرافانك Mekhitar of Airavank ، وفارتان Vartan ، وكيراكوس Kirakos، فلا يعتمد عليهم كثيرا عندما يتناولون الشؤون الفرنجية ، رغم انهم على جانب من الأهمية للخلفية الإسلامية[٤٥]. ويبدأ مؤرخو أرمينيا الصغرى (كيليكيا) بكاتب مجهول ترجم فى حوالى عام ١٢٣٠م تاريخ ميخائيل السورى ، وعدل فيه كما -

---

(٤٠) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية (*Recueil* والتى أشير أنا اليها فى الحواشى) . كما ترجمها Dulaurier فى نهاية إصداره لمتى الأورفى. Matthew of Edessa .

(٤١) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٢) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٣) توجد مقتبسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٤) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

(٤٥) توجد اقتباسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية ***Recueil*** .

يحلو له بحيث يتفق مع وطنيته المشبوبة[٤٦]. وفي حوالى عام ١٢٧٥م ، كتب الكونستابل سيمباط Sembat ، وهو مترجم قوانين Assises انطاكية، تاريخا يعتمد على متى Matthew و جريجورى Gregory بالنسبة للقرن الثانى عشر ، ولكنه يضيف معلومات قليلة مشتقة من محفوظات الدولة[٤٧]. وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب من يسمى "المؤرخ الملكى" Royal Historian تاريخا لم ينشر بعد مطلقا[٤٨]. وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر كتب المفوض فاهرام الأورفى Vahram of Edessa التاريخ المقفى Rhymed Chronicle، الذى يستند بدرجة كبيرة إلى متى Matthew ، غير أنه يضم معلومات غير معروف مصدرها[٤٩].

٥- المصادر السيريانية

يعتبر "تاريخ العالم" الذى كتبه ميخائيل السورى Michael the Syrian أهم المصادر السيريانية[٥٠]. وكان مؤرخا معتنيا حي الضمير ، والذى كان تحامله الوحيد مناهضته لبيزنطة . وهو يذكر المصادر السيريانية التى استخدمها ، وكلها مفقود الآن ؛ كما أنه عرف مصدرا عربيا مجهولا للسنوات من ١١٠٧م إلى ١١١٩م ، والذى يبدو أنه كان معروفا كذلك لإبن الأثير.

ويوجد تاريخ سيريانى مجهول ، كتبه قس مغمور فى الرها حوالى عام ١٢٤٠م ، يضم معلومات قيّمة حول الرها ، بخلاف معلومات مشتقة بوضوح من ميخائيل[٥١]. وقرب نهاية القرن الثالث عشر كتب جريجورى أبو الفرج ، ويعرف بصورة أفضل باسم ابن العبرى Bar-Hebraeus ، تاريخا للعالم ، يعتمد بالنسبة إلى القرن الثانى عشر

---

(٤٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٨) . المخطوط اليدوى موجود فى البندقية فى المكتبة الميختارية Mekhitarist Library .

(٤٩) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٥٠) نشره Chabot وترجمه الى الفرنسية.

(٥١) نشر القسم الأول من هذا التاريخ بترجمة انجليزية قام بها Tritton (*Journal of the Royal Asiatic Society;*) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . ونشر Chabot النص الكامل باللغة السيريانية فى *Corpus Scriptorum Orientalium* .

بصورة رئيسية على ميخائيل وابن الأثير ، ولكن بقدر معين من المعلومات المشتقة من مصادر فارسية أو غيرها[٥٢].

٦- مصادر أخرى

تعتبر رحلة بنيامين التطيلي Voyage of Benjamin of Tudela المصدر اليهودي الوحيد الهام لهذه الفترة، وهو يورد رواية معتنية عن المستعمرات اليهودية في سوريا في وقت رحلته حول البحر المتوسط في الفترة من ١١٦٦م إلى ١١٧٠م[٥٣].

أما المصادر الجورجية ، وهي ذات قيمة فقط بالنسبة لتاريخ جورجيا والأراضي المجاورة ، فقد جُمعت مع بعضها البعض في تاريخ واحد "تاريخ جورجيا" Georgian Chronicle، ونشر في القرن الثامن عشر[٥٤].

ويوجد باللغة السلوفية القديمة Old Slovanic رحلة حج دانيال هيجومين Pilgrimage of Daniel the Higumene وقد زار فلسطين عام ١١٠٤م[٥٥].

وتوجد قصص نرويجية معينة ، ولاسيما التي تتناول الحملة الصليبيئة للملك سيجورد Sigurd ، تشتمل على قطع من المعلومات التاريخية المثيرة للإهتمام في وسط التفصيلات الأسطورية[٥٦].

---

(٥٢) نشرها Wallis Budge وترجمها الى الإنجليزية.

(٥٣) نشرها Adler .

(٥٤) نشره Brosset .

(٥٥) ترجمتها الى الفرنسية Mme de Khitrowo و لم أتمكن من رؤية النص السلوفاكي . كما أنها ترجمت من السلوفية المختصر رحلة حج الديّارة إيوفروسين *Pilgrimage of the Abbess Euphrosyne* .

(٥٦) يرد موجزها في Riant, *Les Expéditions des Scandinaves* .

المرفق الثانى

معركة حطين

تصف المصادر العربية واللاتينية معركة حطين بشئ من الإسهاب ، غير أن ما يرد فى تلك المصادر يفتقر دائما إلى التنسيق . وقد حاولت فى الصفحات ٤٥٥-٦٠ أعلاه أن أذكر رواية متناسقة بقدر الإمكان عن المعركة ، على أنه لا بد من تسجيل الاختلافات . ومن سوء الطالع أن مؤرخين اثنين فقط يبدو أنهما قد حضرا المعركة هما إيرنول ، الذى يفترض أنه ، بصفته تبيعا لباليان (اوف ابيلين) ، قد صحب سيده وهرب معه ، وعماد الدين الأصفهانى الذى كان فى حاشية صلاح الدين ، هذا بخلاف تيرينس أو تيريكوس Terence (or Terricus) ، وهو من فرسان المعبد كتب رسالة مقتضبة حول المعركة ، وبعض المسلمين الذين اقتبس أبو شامة رسائلهم . بيد أن الرواية الأصلية التى كتبها إيرنول تلاعب فيها برنارد الخازنBernard teh Treasurer وغيره من المؤرخين التابعين على وليم الصورى ، وأما رواية عماد الدين، وبرغم أنها تنبض بالحياة أحيانا فإنها خليقة بأن توصف بالبلاغة أكثر من كونها تتصف بالدقة . وأما ما نقله الأفضل ، ابن صلاح الدين ، إلى ابن الأثير عن أزمة المعركة ففيه نبض الحياة ولكنه شديد الاقتضاب.

ويعتبر تاريخ هرقل Estoire d'Eracles المصدر الوحيد الذى أوضح أن حوى عقد مجلسين منفصلين قبل المعركة ، أحدهما فى عكا وربما يوم أول يولية ، والثانى فى صفورية مساء اليوم الثانى من يولية. وتحدث ريموند امير طرابلس في المناسبتين ، ولا شك أن الحديثين المذكورين فى تاريخ هرقل يعكسان جوهر كلماته التى قالها فعلا . غير أنه لابد وأن أخطأ تاريخ هرقل فى قوله بمجلس عكا عقد بعد أن أرسلت كونتيسة طرابلس لتعلن استيلاء صلاح الدين على مدينة طبرية ، إذ أن صلاح الدين دخل طبرية

صباح الثانى من يولية ؛ ولا يذكر ريموند طبرية فى حديثه فى عكا ، وانما نصح فقط باتباع استراتيجية دفاعية . أما إيرنول ، وكما نشر تاريخه برنارد الخازن ، يتجاهل المجلس الأول . وربما اعتبر برنارد أن ريموند تحدث مرتين فى نفس المناسبة . كما أن تاريخ De Expugnatione لا يذكر سوى المجلس الثاني . وخطبة ريموند الثانية معروفة لدى ابن الأثير الذى يكاد يسجلها بنفس الكلمات الواردة في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول وتاريخ De Expugnatione ولذا تكون نصيحة ريموند يقينية رغم أن عماد الدين يعتقد أنه كان يحث على الهجوم ، أما المؤرخون المتأخرون، من بين حاشية ريتشارد قلب الأسد، المنحازون إلى جانب جوى (اوف لوسينان) فقد اتهموا ريموند بالخيانة . ويفترض Ambroise و Itinerarium Reicardi Regis كلاهما أن ريموند استدرج الجيش لوجود اتفاق بينه وبين صلاح الدين ، وترد نفس التهمة فى رسالة من أهل جنوا إلى البابا ، وفيما بعد أوردها ابن العبرى السيرياني.

ويقول عماد الدين إن كونتيسة طرابلس أبقت أولادها معها في طبرية . ولكن إيرنول يقول إن ريموند هرب من المعركة ومعه أبناء زوجته الأربعة ، وثابت فى رسالة (المواطن الجنوى) تلهفهم على انقاذ أمهم فى المجلس قبل المعركة .

وقرر الملك جوى التحرك من صفورية بناء على طلب جيرارد سيد فرسان المعبد . وذلك مذكور بوضوح فى تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول ، لكن مؤلف De Expugnatione، الذى لم يكن يرغب أبدا لسبب أو لآخر توجيه اللوم إلى فرسان المعبد، ألقى على ذلك الطلب من جيرارد التمويه والغموض، ذلك إذا حكمنا مما يبدو عليه أحيانا من تحفظات. ولأن ريموند هو سيد المنطقة ، فقد طلبت نصيحته فيما يتصل بالطريق الذى يتبع ، فاختار الطريق الذى يخترق حطين . وكانت نصيحته تلك ، التى سببت الكارثة ، هى الذريعة التى اتخذها أعداؤه لاتهامه بالخيانة . وتخبرنا رسالة الجنوي والرسالة المتداولة بين فرسان المستشفى عن المعركة ، بوجود ستة من الخونة ، من الواضح أنهم من فرسان ريموند - يدعى أحدهم لاوديسيوس أو ليوسيوس الطبرى Laodiceus or Leucius of Tiberias وهم الذين أخبروا صلاح الدين بحالة الجيش المسيحى. ومن المحتمل ، فى اعتقادى ، أن خيانتهم حدثت فى هذا المنعطف ، وأنها تكمن في اخطار صلاح الدين بالطريق الذى اختاره المسيحيون . ومن الصعب أن نفهم ماهى المعلومات المفيدة التى يعطونها له بعد ذلك. ويلقى كل من تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول باللائمة على ريموند لاختياره مكان المعسكر أمام حطين ؛ إذ كان يظن بوجود مياه هناك ، لكن نبع الماء كان جافا . ويروى صاحب تاريخ De Expugnatione قصة

أكثر اكتمالا؛ فيقول إن ريموند ، الذى كان فى المقدمة ، أوصى بسرعة المسير إلى البحيرة ، لكن فرسان المعبد فى المؤخرة لم يقدروا على المضى أكثر من ذلك . وقد ارتاع ريموند من قرار الملك بضرب المعسكر وصرخ " لقد ضعنا!" ؛ على أنه طالما اتخذ القرار ، فيفترض انه اختار موضع المعسكر ترتيبا على الإعتقاد الخاطئ بوجود مياه فيه . ويذكر عماد الدين ما أبداه صلاح الدين من اغتباط بتحركات الجيش المسيحى.

والموقع الفعلى للمعسكر ليس يقينيا . إذ أن تاريخ De Expugnatione ، وتاريخ حملة ريتشارد Itinerarium ، وتاريخ Ambroise ، يطلقون عليه قرية ماريسكالكيا أو ماريسكاليا - Marescalcia or Marescallia وربما يكون الاسم هو خان المسكينه المعروف الآن ؟ - بينما يطلق عليه عماد الدين قرية لوبية ، الواقعة على الطريق الحالى على مسافة ميلين جنوب غرب قرنى حطين . ويطلق المؤرخون العرب على المعركة معركة حَطّين (أو حِطّين) ويوضحون بجلاء أن المشاهد النهائية قد تمت فوق قرنى حطين . وتطلق حوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte على المعركة قرنيتين Karneatin أى - Qarnei Hattin (قرنى حطين)[١]. ويقول إيرنول إن المعركة حوربت على مسافة فرسخين من طبرية . والقرنان فى الواقع على مسافة خمسة أميال من طبرية فى خط مستقيم ، وحوالى تسعة أميال على الطريق.

ويقول عماد الدين إن رماة العرب بدأوا يطلقون سهامهم على المسيحيين أثناء سيرهم ، ويعقّد القصة بقوله أن ذلك كان يوم الخميس لأنه أراد أن تنشب المعركة فى يوم جمعة . ويشير إرنول وتاريخ هرقل إلى خسائر فادحة تكبدها المسيحيون أثناء سيرهم . وليس أكيدا الوقت الذى أشعلت فيه النيران . ويقول ابن الأثير ضمنا إن النيران بدأت مصادفة على يد متطوع من المسلمين ، ويوضح بجلاء هو وعماد الدين أن النيران كانت متأججة عندما بدأت المعركة صباح يوم ٤ يوليو . ويرسم عماد الدين صورة حية للصلوات والتلاوات فى معسكر العرب خلال الليل.

واستنادا إلى ابن الأثير ، حاولت قوات مشاة الفرنج صبيحة يوم المعركة الاندفاع نحو المياه . ويقول عماد الدين إنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو المياه بسبب النيران . ويقول تاريخ De Expugnatione إن أفراد قوات المشاة هربوا فى الحال وهم فى جمع واحد اعلى التل بعيدا عن الفرسان ورفضوا تنفيد أوامر الملك بالعودة قائلين إنهم يموتون عطشا ، وقد قتلوا عن آخرهم هناك . ومن الناحية الأخرى يقول إيرنول إنهم

(١) Qarnei هى مثنّى Qarn أى Horn - قرن.

استسلموا ، رغم ذهاب خمسة من فرسان ريموند إلى صلاح الدين يتوسلون اليه أن يجهز عليهم جميعا . وربما اعتبر تصرفهم هذا خيانة اشار اليها فرسان المستشفى (انظر اعلاه) رغم أن إيرنول ، كما قال حرفيا ، يقول إنها ربما كانت ايضا استعطافا لموت سريع من احل الرحمة . أما بهاء الدين فلا يذكر سوى أن جيش المسيحيين انفصل إلى حزابين ، أحدهما - ويفترض المشاة - أحاطت به النيران فماتوا جميعا ، بينما وقع فى الأسر الجزء الآخر أى المؤلف من الفرسان المحيطين بالملك . وتقول كافة المصادر الإسلامية إنه قبل بدء الهجوم على فرسان الفرنج كان هناك نزال بين مملوك وفارس مسيحى قتل فيه الأول الذى ظنه المسيحيون خطأ أنه ابن السلطان.

واستنادا إلى إيرنول ، فإن الملك عندما شاهد قتل المشاة طلب من ريموند شن هجوم على العرب . وريموند هو الشخص المناسب لشن هذا الهجوم باعتباره سيد المنطقة ، وهو هجوم الفرصة الوحيدة لكى يخلّص الجيش نفسه . ولذلك لا يبدو أن هناك أساسا لاتهام ريموند بالخيانة من قبل الكتاب المسيحيين ، والجنوي ، وأصدقاء الملك ، ولا لاتهامه بالجبن من قبل المسلمين . على أن المناورة الذكية التى نفذها تقى الدين بفتح صفوفه لكى يمر ريموند ، يبدو انها تؤيد الإتهامات الأولى رغم أن عماد الدين يقول إن رجال ريموند تكبدوا خسائر فادحة . ويقول إيرنول إن ريموند لم يهرب من ميدان القتال إلاّ عندما رأى أن وضع الملك ميئوسا منه وليست هناك أية فرصة لإنقاذه . ويقول تاريخ De Expugnatione إن باليان ورينالد امير صيدا قد هربا مع ريموند دون ذكر تفاصيل كما فعل عماد الدين. غير أن إيرنول يقول ضمنا إنهما هربا كل على حده ، وهو الأمر الأكثر احتمالا لأنهما كانا فى مكانين مختلفين فى الجيش. ولابد أنهما قد شقا طريقهما مع القليل من فرسان المعبد الذين يذكر تيرينس Terence هروبهم . وأما الرواية المفصلة عن المعركة الواردة فى تاريخ De Expugnatione فتتوقف عند فرار ريموند . وربما كان المؤرخ قد حصل على معلوماته من أحد رجال ريموند.

ويقول عماد الدين إنه بعد فرار ريموند بدأ الملك وفرسانه الانسحاب صعودا أعلى تل حطين تاركين جيادهم (التى يفترض انها كانت جريحة ولا فائدة منها على التل) . كما يلاحظ عماد الدين كم كان الفرسان المسيحيون يفتقرون إلى القوة فى غيبة جيادهم . ويقول ابن الأثير إنهم حاولوا نصب خيامهم على القمة ولكن الوقت لم يساعدهم إلا فى نصب خيمة الملك . وكان الفرسان مترجلين ومنهكين عندما أُسروا . ويقول كلاهما إن تقى الدين استولى على الصليب . وتروى رواية الأفضل اللحظات الأخيرة للجيش المسيحى ؛ بينما يفصّل ابن القادسى أن ريحا شديدة هبت فى منتصف

النهار عندما شن المسلمون هجومهم الأخير.

وتكاد الاحداث التي حدثت في خيمة صلاح الدين بعد المعركة أن ترد بنفس الأسلوب لدى إيرنول وتاريخ هرقل وعماد الدين وابن الأثير . وليست هناك ضرورة للارتياب في قصة الشراب الذى أعطى للملك جوى ، ولا فى مقتل رينالد (اوف شاتيلون) على يد صلاح الدين نفسه.

ويرد فى تاريخ Historia Regni Hierosolymitani أن قوام الجيش المسيحى كان ألف فارس من فرسان المملكة و ألف ومائتى فارس آخرين دفع نفقاتهم الملك هنرى الثانى ، و٤ آلاف من أنصاف الأتراك ، و٣٢ ألف من المشاة ، منهم ٧ آلاف دفع هنرى نفقاتهم . ومن الواضح أن هذا العدد مبالغ فيه . ويتحدث تاريخ حملة ريتشارد Itinerarium عن عدد اجمالى قدر ٢٠ ألف جندى ، وهو عدد لا يزال يحتمل أن يكون مرتفعا بصورة فائقة . وربما كان العدد الحقيقى للفرسان هو ألف فارس ، إلى جانب ٢٠٠ آخرين جهّزهم هنرى ، فيكون المجموع ١٢٠٠ فارس . وفى إحدى مخطوطات تاريخ هرقل يرد عدد الجيش كله على انه ٩ آلاف جندى ، وفى مخطوطة اخرى ٤٠ ألف جندى . وتتحدث رسالة فرسان المستشفى عن سقوط ألف فارس فى المعركة بين قتيل وجريح ، وفرار ٢٠٠ فارس . ويقول إيرنول إن ريموند امير انطاكية أحضر ٥٠ أو ٦٠ فارسا (تختلف قراءات المخطوطات). ويقول Terence إن ٢٦٠ فارسا من فرسان المستشفى قتلوا فى المعركة ويكاد أن لم يهرب احد - وهو يقول "nos" التى قد تعنى نفسه فقط . ويرد فى رسالة فرسان المستشفى أن الذين بقوا على قيد الحياة ٢٠٠ فقط. وليس من الممكن أن يزيد عدد المشاة على عدد الفرسان بنسبة تصل إلى عشرة إلى واحد ، وربما كان عددهم يقل كثيرا عن ١٠ آلاف جندى . وربما كان عدد خيالة أنصاف الأتراك الخفيفة ٤ ألاف خيال ، على انه لا يبدو انهم لعبوا دورا خاصا فى المعركة وربما كانوا أقل من ذلك . وقد يكون جيش صلاح الدين اكبر بصورة طفيفة ، ولكن ليست هناك أرقام يعتد بها . أما ما أورده عماد الدين من أن العدد كان ١٢ ألف خيال وأعداد غفيرة من المتطوعين ، فهو يقينا مبالغ فيه ، رغم انه ليس بنفس المبالغة التى أورد بها عدد الجيش المسيحى وهو٥ آلاف جندى . (ومع ذلك يمضى بهاء الدين أبعد من ذلك قائلا إن ٣٠ ألف قتلوا و ٣٠ ألف أسروا). وقد يجوز لنا أن نفترض أن مجموع جيش صلاح الدين النظامى بلغ حوالى ١٢ ألف جندى، وتضخم بالمتطوعين والفصائل الآتية من الحلفاء ليصل إلى ١٨ ألف تقريبا . ويبدو أن الجيشين كانا من أضخم الجيوش التى القى بها فى ساحة القتال حتى آنذاك سواء من

جانب المسيحين او من جانب اعدائهم ؛ على انه ينبغى اعتبار أن ١٥ ألف جندى فى الجانب المسيحى و ١٨ ألف جندى فى الجانب الإسلامى ، على أنها الأعداد القصوى. وكان فرسان المسيحين أفضل تسليحا من الجنود المسلمين أيا كانوا ، غير أن الخيالة الخفيفة الإسلامية ربما كانت أفضل تسليحا من أنصاف الأتراك والمشاة ايضا، أو افضل من المسيحين.

ملاحظـــات

أهم مصادر المعركة هى كما يلى:

الفرنجيـة

Ernoul, pp. 155-74; Estoire d'Eracles, ii, pp. 46-49; De Expugnatione, pp. 218-28; Itinerarium Regis Ricardi, pp. 12-17; Benedict of Peterborough, ii, pp.10 14، ويوجد بنيديكت رسالة ابناء جنوا إلى البابا ورسالة Terence المعبدى ؛ Ambroise, ed. Paris, cols. 67-70; Ansbert, Gesta Frederici, containing letter of the Hospitallers to Archimbald; Historia Regni Hierosolymitani, pp.52-3; Annales de .la Terre Sainte, p. 218.

العربيـة

Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 110-16 ؛ Ibn al-Athir, pp.679-88 ، بما فى ذلك وصف الأفضل للمعركة ؛ Abu Shama, pp. 262-89 مشتملا على رواية عماد الدين الكاملة عن المعركة واقتباسات من بهاء الدين ومحمد بن القادسى.

ويرد فى تاريخ ميخائيل السورى (iii, p.404) وصف مقتضب للمعركة ، كما يرد وصف أطول وغير دقيق فى ترجمة ابن العبرى Bar-Hebraeus Budge, pp. 322-4 ، يخلط فيه الملكة ايزابيلا بالكونتيسة إيشيفا كونتيسة طرابلس . ويرد وصف غير دقيق فى النسخة الأرمينية لميخائيل السورى (pp.396-8) و Kirakos of Gantzag (pp. 420-1) والروايات السيريانية والأرمينية كلها تصف ريموند على انه خائن. وتوجد مناقشة قيمة للمصادر ودور ريموند فى Baldwin, Reymond III of Tripolis, pp.151-60 .

المرفق الثالث

شجرات الأنساب

BIBLIOGRAPHY

[NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliography in vol. I of this *History*, and does not include works already mentioned there. The same abbreviations are employed.]

I. ORIGINAL SOURCES

1. COLLECTIONS OF SOURCES

BORGO, F. DAL. *Diplomata Pisana*. Pisa, 1765.

DEMETRACOPOULOS, A. K. *Bibliotheca Ecclesiastica*. Leipzig, 1866.

Fornmanna Sögur, 12 vols. Copenhagen, 1825–37.

HALPHEN, L. and POUPARDIN, R. *Chroniques des Comtes d'Anjou*. Paris, 1913.

Liber Jurium Reipublicae Genuensis (ed. Ricotti), 3 vols., in *Monumenta Historiae Patriae*. Turin, 1854–7.

MARCHEGAY, P. and MABILLE, E. *Chronique des Eglises d'Anjou*. Paris, 1869.

MURATORI, L. A. *Antiquitates Italicae*, 6 vols. Milan, 1738–42.

Recueil des Historiens des Croisades, Lois, 2 vols. Paris 1841–3, including the *Assises* and *Lignages* of Jerusalem (*R.H.C. Lois*).

REINAUD, M. *Extraits des Historiens Arabes*, in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, vol. II. Paris, 1829.

TAFEL, G. L. F. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur ältern Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856–7.

2. LATIN AND OLD FRENCH SOURCES

Ambroise. *L'Estoire de la Guerre Sainte* (ed. Paris). Paris, 1897.

Annales Barenses, in *M.G.H.Ss.* vol. V.

Annales Beneventani, in *M.G.H.Ss.* vol. III.

Annales Herbipolenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.

Annales Palidenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.

Annales Romani, in *M.G.H.Ss.* vol. V.

Annales S. Rudberti Salisburgensis, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.

Annales de Terre Sainte (ed. Röhricht), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.

Ansbert. *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in *M.G.H.Ss.*, *in usum scholarum*, 1892.

Arnold of Lübeck. *Chronica Slavorum*, *M.G.H.Ss.*, *in usum scholarum*, 1868.

Benedict of Peterborough. *Gesta Regis Henrici II* (ed. Stubbs), 2 vols., Rolls Series. London, 1867.

Bernard, St, Abbot of Clairvaux. *Epistolae*, *M.P.L.*, vol. CLXXXII.

Burchard of Mount Sion. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII. London, 1896.

Caesarius of Heisterbach. *Dialogus Miraculorum* (ed. Strange), 2 vols. Cologne, 1851.
Cartulaire de Notre Dame de Chartres (ed. L'Epinois and Merlet), 3 vols. Chartres, 1852–5.
Cartulaire de Sainte Marie Josaphat (ed. Kohler). *Revue de l'Orient Latin*, vol. VII. Geneva, 1899.
Cartulaire du Saint Sépulcre (ed. Rozière). Paris, 1849.
Cartulaire Général de l'Ordre des Hospitaliers (ed. Delaville Le Roulx), 4 vols. Paris, 1894–1904.
Cartulaire Général de l'Ordre du Temple (ed. D'Albon). Paris, 1913.
Chronicon Mauriniacense, in *R.H.F.* vol. XII.
Chronicon Sancti Maxentii, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
Chronicon Vindocinense, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
Dandolo. *Chronicon Venetum*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XII.
De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1875.
Ernoul. *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier* (ed. Mas Latrie). Paris, 1871.
Estoire d'Eracles, *R.H.C.Occ.* vols. I and II.
Eudes, *see* Odo.
Gesta Ambaziencium Dominorum, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
Gesta Consulum Andegavorum, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
Gestes des Chiprois, *R.H.C.Arm.* vol. II.
Historia Ducum Veneticorum, in *M.G.H.Ss.* vol. XIV.
Historia Regni Hierosolymitani, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
Historia Regum Hierusalem Latinorum, ed. in Kohler, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1906.
Historia Welforum Weingartensis, in *M.G.H.Ss.* vol. XXI.
Ibelin. *Le Livre de Jean d'Ibelin*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.
John of Salisbury. *Historiae Pontificalis quae Supersunt* (ed. Lane Poole). Oxford, 1927.
John of Wurzburg. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. V. London, 1896.
Landolph Junior. *Historia Mediolanensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.
Letters of King Amalric, Masters of the Temple, officials of the Temple and other officials of Outremer, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.
Lignages d'Outremer, in *R.H.C. Lois*, vol. II.
Louis VII, King of France, letters, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.
Miracula Sancti Leonardi, *Aa. Ss.* (Nov.), vol. III.

Necrologia Panormitana (ed. Winkelmann), in *Forschungen zur deutschen Geschichte*, vol. xviii. Göttingen, 1878.
Odo (Eudes) of Deuil. *De Profectione Ludovici VII in Orientem* (ed. Waquet). Paris, 1949.
Osborn. *De Expugnatione Lyxbonensi*, in Stubbs, *Memorials of the Reign of Richard I*, Rolls Series. London, 1864.
Otto, Bishop of Freisingen. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1912.
Otto, Bishop of Freisingen. *Gesta Friderici Imperatoris* (ed. Simson), *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1912.
Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss., in usum scholarum*, 1912.
Paschal II, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. clxiii.
Passiones Sancti Thiemonis, in *R.H.C.Occ.* vol. v.
Peter Diaconus. *Chronica* (ed. Wattenbach), *M.G.H.Ss.* vol. vii.
Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem (trans. Bishop of Clifton), *P.P.T.S.* vol. iv. London, 1896.
Radulph of Diceto. *Opera Historica* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1876.
Ralph of Coggeshall. *Chronicon Anglicanum* (ed. Stevenson), Rolls Series. London, 1875.
Robert of Torigny. *Chronique* (ed. Delisle), 2 vols. Rouen, 1872–3.
Roger of Hoveden. *Chronica* (ed. Stubbs), 4 vols., Rolls Series. London, 1868–71.
Romuald of Salerno. *Chronicon* (ed. Arndt). *M.G.H.Ss.* vol. xix.
Suger, Abbot of Saint-Denis. *Gesta Ludovici cognomine Grossi* and *Historia gloriosi regis Ludovici VII* (ed. Molinier). Paris, 1887.
Suger, Abbot of Saint-Denis. *Opera* (ed. de la Marche). Paris, 1867.
Vita Alexandri III, in *Liber Pontificalis*, vol. ii.
Vita Sancti Bernardi, in *M.P.L.* vol. clxxxv.
Walter the Chancellor, *Bella Antiochena* in *R.H.C.Occ.* vol. v.
Wibald, *Wibaldi Epistolae*, in Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. i.
William the Monk. *Dialogus Apologeticus* (ed. Wilmart), in *Revue Mabillon*. Paris, 1942.
William the Monk. *Vita Sugerii*, in Suger, *Opera* (*see* above).
William of Nangis. *Gesta Ludovici VII*, in *R.H.F.* vol. xx.
William of Tyre. *Die lateinische Fortsetzung* (*Latin Continuation*) (ed. Salloch). Leipzig, 1934.

3. Greek Sources

Chrysolan, Peter, Archbishop of Milan. *De Sancto Spiritu* in *M.P.G.* vol. cxxvii.
Cinnamus, John. *Epitome Historiarum*, *C.S.H.B.* Bonn, 1836.
Eustratius, Archbishop of Nicaea. *On the Holy Ghost*, in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. i.

Nicetas Choniates (Acominatus). *Historia*, *C.S.H.B.* Bonn, 1835.
Neophytus. *De Calamitatibus Cypri* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864. (In preface to *Itinerarium Regis Ricardi.*)
Phocas, John. *A Brief Description* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. v. London, 1896.
Prodromus, Theodore. *Poemata*, selections in *M.P.G.* vol. CXXXIII and *R.H.C.G.* vol. II.

4. Arabic Sources[1]

Abu Firas. *Noble Word*, ed. in Guyard, 'Un Grand Maître des Assassins' in *Journal Asiatique*, 7me série, vol. IX, Paris, 1877.
Abu'l Mahâsin. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. III.
Abu Shama. *Book of the Two Gardens.* Extracts in *R.H.C.Or.* vols. IV and V; full edition. Cairo, 1870–1. (Except when otherwise stated references are to the *R.H.C.* edition.)
Al-Azimi. *Abrégé* (ed. Cahen), in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXII. Paris, 1940.
Beha ed-Din ibn Shedad. *Life of Saladin* (trans. Conder), in *P.P.T.S.* vol. XIII. London, 1897.
Bustan al-Djami li Djami Tawarikhi z-Zaman (ed. Cahen), in *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas*, vols. VII and VIII. Damascus, 1938.
Ibn Jubayr. *Voyage* (Arabic text ed. Wright). Leyden, 1852.
Ibn Moyessar. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. III.
Ibn at-Tiqtaqa. *Al-Fakhri* (*History of Musulman Dynasties*); trad. Amar. Paris, 1910.
Imad ed-Din. *Al Fath al Qussi fi'l Fath al Qudsi* (ed. de Landsberg). Leyden, 1888. Extracts quoted by Abu Shama, *op. cit.*
Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (later portions trans. Blochet) in *Revue de l'Orient Latin*, vols. III and VI. Paris, 1895–8.
Maqrisi. *History of Egypt* (trans. Blochet). *Revue de l'Orient Latin*, vols. VIII–X. Paris, 1900–2.
Sibt ibn al-Djauzi. Extracts in *R.H.C.Or.* vol. III.
Usama ibn Munqidh. *Autobiography* (ed. Hitti). *An Arab-Syrian Gentleman of the Crusades.* New York, 1929.
Zettersteen Chronicle. Anonymous chronicle (ed. K.V. Zettersteen). Leyden, 1919.

5. Armenian, Syriac, Georgian and Hebrew Sources

Basil the Doctor. *Funeral Elegy of Baldwin of Marash*, *R.H.C.Arm.* vol. I.
Gregory the Priest. *Continuation of Matthew of Edessa's Chronicle*, *R.H.C.Arm.* vol. I.
Gregory IV Dgha, Catholicus. *Elegy on the Fall of Jerusalem*, *R.H.C.Arm.* vol. I.
Nerses Shnorhali, Catholicus. *Elegy on the Fall of Edessa*, *R.H.C.Arm.* vol. I.

[1] References to Ibn al-Athir are to his *Sum of World History* (*Kamil at-Tawarikh*), except when otherwise stated.

Anonymous Syriac Chronicle (full text, ed. Chabot). *C.S.C.O.* vol. III. (Quoted as *Chron. Anon. Syr.*) References are to Tritton's translation—see above, vol. I, Bibliography, p. 349—except where otherwise stated.

Georgian Chronicle, in Brosset, *Histoire de la Géorgie.*

Benjamin of Tudela. *Voyages* (ed. Adler). London, 1907.

Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicle* (trans. Biellablotzky), 2 vols. London, 1835.

6. Slavonic and Norse Sources

Daniel the Higumene. *Vie et Pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe* (trans. de Khitrowo). *Itinér. Russes en Orient, Société de l'Orient Latin.* Geneva, 1889.

'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne, Princesse de Polotsk' (trans. de Khitrowo), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1896.

Agrip of Noregs Konungasögum (ed. Munch), in *Samlinger til det Norske Folks Sprog og Historie*, vol. II. Oslo, 1834.

Sigurdar Saga Jorsalafara ok brœdra hans in Fornmanna Sögur, vol. VII.

II. MODERN WORKS

Abel, F. M. *Géographie de la Palestine*, 2 vols. Paris, 1933–8.

Allen, W. E. D. *History of the Georgian People.* London, 1932.

Almeida, F. de. *Historia de Portugal*, 4 vols. Coimbra, 1922–6.

Anselme de la Vierge Marie (P. de Guibours). *Histoire Généalogique et Chronologique de la France*, 9 vols. Paris, 1726–33.

Baldwin, M. W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem.* Princeton, 1936.

Bel, A. Article 'Almohads', in *Encyclopaedia of Islam.*

Bernhardi, W. von. *Konrad III.* Leipzig, 1883.

Brosset, M. F. *Histoire de la Géorgie.* St Petersburg, 1849.

Browne, E. G. *Literary History of Persia*, 4 vols. London, 1906–30.

Cahen, C. 'Indigènes et Croisés', in *Syria*, vol. XV. Paris, 1934.

Cahen, C. 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 1951.

Caspar, E. 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Neues Archiv der Gesellschaft*, vol. XLV. Hanover, 1924.

Cate, J. L. 'A Gay Crusader', in *Byzantion*, vol. XVI, 2. New York, 1943.

Codera, F. *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España.* Saragossa, 1899.

Cosack, H. 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug', in *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV. Vienna, 1914.

Cuissard, C. *Les Seigneurs du Puiset.* Orleans, 1881.

CURZON, H. DE. *La Règle du Temple.* Paris, 1886.

D'ALBON, G. A. M. J. A. 'La Mort d'Odon de Saint-Amand', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII. Paris, 1904.

DELAVILLE LE ROULX, G. *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre.* Paris, 1904.

DELISLE, L. *Mémoire sur les Opérations Financières des Templiers.* Paris, 1889.

DIB, P. Article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique.*

DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem.* Paris, 1894.

DOSITHEUS, Patriarch of Jerusalem. 'Ιστορία περὶ τῶν ἐν 'Ιεροσολύμοις Πατριαρχευσάντων. Bucharest, 1715.

ERDMANN, K. 'Der Kreuzzugsgedanken in Portugal', in *Historische Zeitschrift*, vol. CXLI. Munich, 1930.

GERULLI, E. *Etiopi in Palestina.* Rome, 1943.

GLEBER, H. *Papst Eugen III.* Jena, 1936.

GRANDCLAUDE, M. 'Liste d'Assises remontant au premier Royaume de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier.* Paris, 1929.

HAGENMEYER, H. *Chronologie du Royaume de Jérusalem.* Paris, 1901.

HAMMER, J. VON. *Histoire de l'Ordre des Assassins* (French trans.). Paris, 1833.

HERTZOG, E. *Die Frauen auf den Fürstentronen der Kreuzfahrerstaaten.* Zürich, 1915.

JOHNS, C. N. 'The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria', *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI. London, 1934.

JORANSON, E. 'The Crusade of Henry the Lion', in *Medieval Essays presented to G. W. Thompson.* Chicago, 1938.

KOHLER, C. 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.

KÜGLER, B. *Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges.* Stuttgart, 1866.

LA MONTE, J. L. 'The Lords of Caesarea in the period of the Crusades', in *Speculum*, vol. XXII. Cambridge, Mass., 1947.

LA MONTE, J. L. 'The Lord of Le Puiset on the Crusades', in *Speculum*, vol. XVII. Cambridge, Mass., 1942.

LA MONTE, J. L. 'The Lords of Sidon', in *Byzantion*, vol. XVII. New York, 1944.

LA MONTE, J. L. 'To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?' *Byzantion*, vol. VII. Brussels, 1932.

LANE POOLE, S. *Saladin.* London, 1898.

LE QUIEN, M. *Oriens Christianus*, 3 vols. Paris, 1740.

LUCHAIRE, A. *Louis VI le Gros.* Paris, 1890.

MARINESCU, C. 'Le Prêtre Jean', in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. X. Bucharest, 1923.

MARTIN, ABBÉ. 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem', in *Journal Asiatique* (8me série), vols. XII and XIII. Paris, 1888–9.
MELVILLE, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
MUSIL, A. Article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.
NAU, F. 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique* (9me série), vol. XIV. Paris, 1899.
NEUMANN, C. *Bernhard von Clairvaux und die Anfänge des zweiten Kreuzzuges*. Heidelberg, 1882.
RAMSAY, W. M. 'Preliminary report on exploration in Phrygia and Lycaonia' and 'War of Moslem and Christian for the posession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*. Aberdeen, 1906.
REY, E. G. 'Les Seigneurs de Giblet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1895.
REY, E. G. 'Les Seigneurs de Barut' and 'Les Seigneurs de Montréal et la Terre d'Oultrejourdain', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
REY, E. G. 'Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
RICHARD, J. *Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine*. Paris, 1945.
SCHLUMBERGER, G. *Campagnes du roi Amaury de Jérusalem en Egypte*. Paris, 1906.
SCHLUMBERGER, G. *La Numismatique de l'Orient Latin*. Paris, 1878.
SCHLUMBERGER, G. *Les Principautés Franques du Levant*. Paris, 1877.
SCHLUMBERGER, G. *Renaud de Châtillon*. Paris, 1923.
SCHWAB, M. 'Al-Harizi et ses pérégrinations en Terre Sainte', in *Archives de l'Orient Latin*. vol. I. Paris, 1881.
VACANDARD, E. *Vie de Saint Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols. Paris, 1895.
VAILHÉ, S. 'Les Laures de Saint Gérasime et de Calamon', in *Echos d'Orient*, vol. II. Paris, 1899.
VOGUÉ, C. J. M. DE. *Les Eglises de la Terre Sainte*. Paris, 1860.
WALKER, C. H. 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain', in *American Historical Review*, vol. LV. New York, 1950.


تم بحمد الله تعالى



ستيفن رانسيمان

تاريخ

الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا

ترجمة
نور الدين خليل

الجزء الثالث

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

ترجمة

نور الدين خليل

تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الباب الخامس : خاتمة

المرفقات:

الخرائط:

مقدمة المترجم

منطق التاريخ

هذا هو الجزء الثالث من "تاريخ الحملات الصليبية" الذى أخذنا على عاتقنا ترجمته بأكمله ، لما تميز به من خصائص علمية وفنية تفرده بين ما كُتب فى مختلف العصور عن تلك الحملات . وليس ثمّة شك فى أن هذا التاريخ ، الذى يوفى على كل غاية للخصائص التى أسلفناها ، يتفرد تفردا عبقريا قلّما يتاح لغيره فى ناحية واحدة مميّزة وجليلة الخطر ، تتمثل فى أن كاتبه التزم فيه حيدة موضوعية علمية قلما يتسم بها مؤرخ فى تناوله لأمور تمس عقيدة أخرى غير عقيدته ، وحضارة لا ينتمى إليها. فالإنسان هو الإنسان لا يتأتى له - وإن أراد - أن يخلص عن وعى أو عن غير وعى من أثار تنشئته الإجتماعية والدينية والسياسية . وإذا أجلنا النظر فيما يدور حولنا الآن يستبين لنا أن الصراع الدائر فى شتى أرجاء العالم اتخذ فى العقود الأخيرة شكلا جديدا

يمكن أن نحمله على أنه "صراع فكرى" . فالسلاح ، وقد بلغ به الإنسان مبلغا يمكن أن ينتهى بالعالم إلى أسوأ مصير ، أمسى نتيجة لذلك عقيما لا يكاد يُبلِغ جماعة من الناس غاية ما تريد ، فالضوابط التى تحكم استخدامه أصبحت حدودا لا يمكن تجاوزها إلا إذا أراد الإنسان أن يضع حدا للحياة نفسها . غير أن العقائد هى العقائد ، والمذاهب السياسية وغير السياسية هى المذاهب ، باقية على ما كانت عليه ، ولا بد لها من أن تصطرع محاولةً تحقيق غاياتها أو بعض غاياتها . ولم يعد فى يد الإنسان بعد مسيرة الحضارات الطويلة سوى فكرِه كي يخوض به غمار عالم قميىء لم يكد يتعلم شيئا أو يلقن درسا من ماضى أيامه . وكلمة "فكر" فى هذا السياق لا تحمل على ما فيها من إيجاب ، بل هى تقارب السلب أيما مقاربة . ومن الغريب أن هذه حال صَدُقت فيما مضى وتصدق فى أيامنا . إذ أن روح "المؤامرة" التى غلبت علي سياق الحملات الصليبية فى شتى مراحلها الطويلة ، هى نفس الروح التى تغلب على الفكر السياسى فى الوقت الحاضر.

ولعل أقرب مثال على ذلك ما حدث للإتحاد السوفياتى السابق الذى كان يشكّل طوال خمسة وسبعين عاما قوة هائلة يحسب لها كل حساب ، انتهى وانتهت أيامه وانتهت العقيدة التى بشّر بها وظن أنها باقية إلى يوم الدين . والمفكرون السياسيون فى شتى بقاع العالم يكادون يجمعون على أن ذلك الإتحاد السوفياتى إنما قضت عليه "المؤامرة" . فالمعسكر الغربى الذى بنى أمجاده على أساس فلسفة رأسمالية ، والذى لم يأبه بانسانية الإنسان ، إلاّ عندما تهددت كيانه تلك الإيديولوجية التى سادت ردحا من الزمان فى الإتحاد السوفياتى ، لم يتأتّ لسلاحه النووى الرهيب أن يتصدى لذلك الخصم القوى أو يقضى عليه . ولم تكن ثمة سبيل إلى ذلك إلاّ بإنفاق قدر هائل من المال خاطب فى الإنسان غرائزه وجموحه واستطاع أن يستلب عقيدته ووطنيته . وبات من المعروف أن أمريكا انفقت ذلك المبلغ الطائل كى تجتنب الجوء إلى السلاح الذى كان سيؤدى بالضرورة إلى هلاكها إن هى أقدمت على استخدامه . ولا يتسع هذا المجال لتفصيل كل ذلك ، وإنما الذى يعنينا هو التماثل الواضح بين الأمس واليوم . فالإنسان على إدعائه الإيمان لا يستطيع فى كل حال أن يقبض في يقين على ما يعتنقه ، وفى هذه العبارة مفتاح يعيننا على أن نتفهم ما جرى إبان الحملات الصليبية.

فالمسلمون أصحاب عقيدة تستطيع أن تتصدى دون غيرها لمنطق عام يتفق مع فطرة الإنسان، وتحرك قدراته ولا تتجاهل طبائع الأشياء وحقائقها ، ومع ذلك استطاع الصليبيون عبر عقود متعاقبة أن يحققوا بعض انتصار على المسلمين ، لا لأنهم كانوا

مدافعين عن عقيدة وإنما لأنهم كانوا أصحاب دنيا وأصحاب سياسة أى أصحاب "مؤامرة" . والحملات الصليبية فى تتابعها تظهر فى جلاء أنه لم يتأتّ للصليبيين أن يحققوا شيئا من نصر إلاّ عندما نجحوا فى أن يخذّلوا المسلمين بعض حين عمّا يعتقدون . وفى اللحظات التى غلب فيها الإيمان على هوى الإنسان لم يستطع أحد عبر التاريخ كله أن يغنم من المسلمين مغنما وإن كان يسيرا ، على كثرة العدو وقلّة المسلمين. وهذا الرأي ليس رأي مسلم ، وإنما هو منطق التاريخ ، وفيه دلالة واقعية على أن ما هو صحيح لا بد أن يصح فى منطق الواقع إذا التزم الإنسان كائنا من كان جادة إيمانه وصواب عقله ، أى أن التاريخ نفسه دلّل ، ولسوف يدلّل ، على صحة هذه العقيدة التى جمع الخصوم لها ويجمعون ، وحاولوا وهم يحاولون.

ففترات الإضمحلال فى دورات الحضارة لا تدل على أن قوة قاهرة استطاعت أن تدحر قوة دونها، وإنما تدل على أن فكر الإنسان وقدرته على الخديعة استطاع فى غيبة الإيمان أن يجد له منفذا عند بعض طلاب الدنيا.

"الخطر" القديم الجديد

والذى يتدبر ما أورده رانسيمان فى مجلداته الثلاثة على عمقها وشمولها، يتاح له أن يستبين فى غير ما شك أن الصليبيين على اختلاف انتماءاتهم وقومياتهم وعقائدهم وعلى اختلاف أيامهم ، لم يكونوا سوى طلاب منفعة و لم يكن للدين موضع فى وجدانهم، وإنما اتخذوه ذريعة يتعللون بها لاستلال سيوفهم . ولنعد ، فى لمحة سريعة ، إلى القرن العشرين لنرى أنه فى العقد الثانى منه بدا يلوح فى الأفق عدو للغرب مكين ، أنساه عداوته للإسلام إلى حين . وما أن دار الزمان دورته وانتهى الإتحاد السوفياتى الذى كان يقوم على فكر وضعى ، حتى عاود الغرب الإحساس بالخطر بما هو ماثل بالإمكانية فى الإسلام . وبدأ مفكرو الغرب يعيدون استكناه التاريخ ليكتشفوا من جديد مدى ما يمكن أن يتمثل فى ذلك العدو القديم من خطر شديد . وعلينا فى هذا السياق أن نقصر النظر على مجال واحد لنتبين مدى خطورة ذلك . ففى الوقت الذى يتاح فيه لإسرائيل أن تملك السلاح النووى ، وأن ترفض فى صلف التوقيع على معاهدة منع انتشار السلاح النووى ، يحال بين أية دولة إسلامية وبين أن تحاول مجرد محاولة امتلاك ذلك السلاح أو غيره مما يوصف بأنه متقدم . ولقد نجح الغرب فى ذلك كله من خلال نفاذه إلى عقول كثير من الحاكمين الذين يستهويهم ما فى الدنيا من متاع

رخيص ، بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين ما ينبغى لهم أن يلتزموه من أمر دينهم ، وبعد أن وجدوا من يبرر لهم مسلكهم ويزيّنه.

لقد أجملنا فى نظرة عامة ما توحى به فى النهاية قراءة ما كتبه رانسيمان عن الحملات الصليبية ، والذى لا بد لنا أن نستخلص منه أنه ينبغى للمسلمين إن أرادوا البقاء أن يعودوا إلى ما يفرضه عليهم دينهم . ولقد سبق أن أوضحنا فى مقدمتي الجزأين الأول والثانى من هذه الترجمة كثيرا مما أعاننا رانسيمان على أن نتفهمه من اللوحة العامة التى رسمها فى فن واقتدار للحملات الصليبية والتى أبرز فيها على نحو يدهش المتأمل كثيرا من الخصائص التى يتميّز بها من يحق لهم أن يقولوا أنهم صدروا عمّا تمليه عليهم ضمائرهم ومقتضيات دينهم . ونحن كرانسيمان نستطيع أن نلتزم الحيدة العلمية الموضوعية غير متأثرين بانتمائنا وإنما مستجيبين لمقتضيات العقل والمنطق برغم غيبتهما فى عالم تناءى تنائيا يكاد يكون كاملا عمّا هو عقلانى أو منطقى . ولن نعاود هنا بطبيعة الحال ذكر ما سبق أن تناولناه فى مقدمتى الجزأين السابقين ، وإنما سننظر على نحو عام فى مجمل ما حققه رانسيمان تحقيقا تاريخيا علميا ، ضاربين عددا من الأمثلة المدلّلة التى تعبر فى صدق وعمق عن واقع حال تلك الصفحات السوداء التى خطها الصليبيون فى صلف وعدوان فى كتاب التاريخ .

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

ولعل لنا أن نبدأ بالإشارة إلى الأحوال العامة التى كانت سائدة بين جماعات المسلمين باختلاف تسمياتها السياسية لنتأمل من خلالها ما يسود العالم العربي والإسلامي الآن من أحوال مشابهة . ونحن فى ذلك لا نقول مع القائلين "إن التاريخ يعيد نفسه" ، فهذه العبارة تبدو للوهلة الأولى كما لو كانت صحيحة، وواقع الحال أنها ليست كذلك إلا بمعيار واحد . فالتاريخ لا يعيد نفسه أبدا كوقائع وأحداث ، ومَن يتأمل تفاصيل أحداث التاريخ ، أو بالأحرى أحداث التواريخ ، يجد أنها لا تتماثل على الإطلاق . ونحسب أن مَن قال بهذه العبارة إنما يعنى ما نعنيه بقولنا إن العبارة قد تكون صحيحة بمعيار واحد يتمثل فى الإنسان نفسه . ذلك أن "الإنسان العاقل" - مذ كان يزحف على ظهر الأرض فى بدائية لا تكاد تدرى من أمرها أو من أمر غيرها شيئا، وحتى عصرنا الحالى الذى يقال فيه إن الحضارة السائدة هى حضارة الإنسان المعاصر أو حضارة القرن العشرين على إطلاق - لا يكاد يثبت إزاء منطق سَويّ إلاّ من حيث

ظاهر القشرة التى تُرقّش العالم بألوانها الخادعة . وليس ثمة شيء يمكن أن يكون ثابتا سوى أثَرة الإنسان وتنائيه عن القيمة ، فهذان هما العاملان الأساسيان اللذان حركا ويحركان تواريخ الإنسان فى مختلف حِقب حضاراته . ونحسب أن عبارة "إن التاريخ يعيد نفسه" لا تصدق أو تصح إلا بهذا المعيار . فبرغم ما تقلب فيه الإنسان من عقائد وأديان وأيديولوجيات لم يستطع فى أية حال أن يعلو على أثَرته أو يُثبت على قيم عليا تستطيع أن تبرر وجودها عبر منطق سَوي أو عام . فلكل جماعة من البشر منطقها الذى يقوم أساسا للدفاع عن مصالحها الخاصة المنبثقة عن أثَرتها وظلمها برغم ما قالته الآلهة وما قاله الله وما نادى به المخلدون ، وبرغم ما تدعو إليه المسيحية من تسامح . ونقف هنا عند المسيحية بصفة خاصة لأننا نعالج "الحملات الصليبية" . ولعل ذلك يعود بنا إلى واقعة تدلل على صحة ما أسلفناه . فعندما أراد ريتشارد قلب الأسد أن يغادر عكا فى لهفة للذهاب إلى القدس ، كان وجود أسرى المسلمين لديه يشكّل حجر عثرة تسبب له الحرج ، فلم يجد سبيلا إلى بلوغ غايته سوى أن يتخلص من أولائك الأسرى على نحو لا نحسب أن عقلا أو إيمانا أو قلبا به مسحة من إنسانية يستطيع أن يتدبر الأمر فى منطق قويم يمكن أن يجد شبه مبرر لما قام به قلب الأسد . ويحسن بنا أن ننقل ما جاء به رانسيمان عن هذه الواقعة:

> "وبرحيل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذى وافق على الإلتزام بالمعاهدة التى أبرمها ضباطه فى عكا. وبينما انهمك الصليبيون فى إعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين فى جمع الأسرى والمال المطلوب منه. وفى الثانى من أغسطس استقبل صلاح الدين فى معسكره ضباط مسيحيين ينقلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجزئة المدفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يُطلَق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسُمح للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذى كان صلاح الدين يحتفظ به فى حالة من الوقار. وفى الحادى عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تحددت أسماؤهم لم يصلوا جميعا، ومن ثم فلن يطلقوا سراح جنود السلطان المأسورين فى عكا. فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات المفقودين واطلاق

سراح رحاله، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رحاله.؛ ورفض السفراء العرضين كليهما ، وطلبوا دفعة المال وإعطائه مجرد تعهد بشأن الأسرى العرب . لكن صلاح الدين لا يثق فى كلمتهم، ولذا رفض إعطاءهم أى شيء ما لم يفرجوا عن رحاله.

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس ، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة تحرجه ، فسرّه أن يجد ذريعة للتخلص منهم . وفى العشرين من أغسطس ، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفرائه إليه ، أعلن أن صلاح الدين قد أخل بتعهده ، وبكل العمد وسبق الإصرار أمر بقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير . وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشارد فى سرورهم - راح جنوده المتلهفون يعمِلون السيف ذبحا شاكرين الرب على هذه الفرصة للإنتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة. وقتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم ، وأبقوا على مجرد القليل من الوجهاء وأقوياء البنية لإستخدامهم فى أعمال السخرة . وشاهد العرب فى المخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم ، بيد أنه برغم بسالتهم فى القتال حتى هبوط الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف إليهم . وعندما انتهى الذبح غادر الإنجليز مكان المذبحة بما فيه من جثث تمزقت أوصالها وفسدت ، وبات بإمكان المسلمين الحضور للتعرف على أصدقائهم الشهداء".

وحشية طائشة وإنسانية حليمة

ويتبين من تفاصيل هذه الواقعة ، التى لا نجد من الألفاظ ما يعبر عن سوء ما فيها، أن قلب الأسد لم يُقِم وزنا للضمير المسيحى ، أو مقتضيات ضمير الإنسان كإنسان ، ولم يلتزم بما ينبغى أن تفرضه عليه العهود والأعراف ، كما أنه وسفراءه لم يستجيبوا للعروض المنطقية التى عرضها صلاح الدين فى المفاوضات لبلوغ حل لهذه المسألة، على ما فى ذلك كله من عدم الإعتداد بما يمكن أن يحدث لكبار الأسرى المسيحيين لدى صلاح الدين ، مما ينبى عن روح مجازفة لا تقيم وزنا لحياة الإنسان حتى وإن كان من الرفاق المحاربين ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن الآصرة التى كانت تشد

أولائك الرفاق الصليبيين بعضهم إلى بعض لم تكن تنبثق عن وازع من دين أو رغبة فى الدفاع عن قيمة وإنما هى أثرة الإنسان وظلمه . ونضيف إلى ذلك أن المؤرخين المدافعين عن ريتشارد قلب الأسد حاولوا تبرير مسلكه الذى لا يتأتى لعقل أو قلب أن يقبله . بل إنهم يجاوزون ذلك إلى تمجيد الرب شكرا على المذبحة التى ارتكبها أولائك الذين يجاوزون الوحوش فى وحشيتهم . ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما يجاوزه إلى المخاطرة بعودة "الصليب المقدس" الذى كان فى حوزة صلاح الدين . والأمر على هذا النحو ليس أمر دين أو أمر اعتداد بأهم رمز لهذا الدين الذى قامت الحملات الصليبية تحت رايته . وإذا وقفنا عند "الصليب" فى المسيحية فإنه يمثل الفداء فى أحلى صورة من وجهة نظر المسيحية التى ترى أن الرب نفسه ، تعبيرا عن المحبة ، يفتدى الإنسان، ذلك الخاطىء الذى خرج عن طاعته . فأى فداء وقد تُرك المحاربون المدافعون عن الصليب لدى صلاح الدين ؟ ثم أى فداء والصليب المقدس نفسه لا يُؤبه به ؟

ولنعد مرة أخرى إلى واقعة تظهر أن ريتشارد لم يكن بطبيعته يجنح إلى شىء سوى الإفحاش فى سفك الدماء ، ولنر ما يقوله رانسيمان مقارنا ريتشارد قلب الأسد بصلاح الدين الأيوبى:

> "وبعد خمسة أيام من القتال المستعر، قُصف أسف المدينة (مدينة دارون) واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف، وألقى بالبعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض فى عبودية سرمدية"

وليس ثمة فحش يدل على شذوذ العقل من قتل المستسلمين بإلقائهم من علٍ ، فهذا درك لا تنحط إليه الوحوش فى همجيتها.

منطق الدعاية وواقع التاريخ

ونحن إذ نعرض لريتشارد قلب الأسد إنما نعرض لقائد فرد يستطيع أن يوجه الأمور حيثما يعِنّ له وحيثما تشاء نزواته . وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإننا إذا انتقلنا إلى نظرة عامة نجد أن الصدع بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة اليونانية الشرقية ينبثق عن نزوع إلى تعصب لا يتهيأ له أن يقيم وزنا لما يراه الآخرون من أتباع نفس الدين من ناحية ، وعن تعلق بما يمكن أن تتيحه الحرب "المقدسة" من مغانم ينعم بها

أصحاب الشأن دون اعتبار للرأى العام المسيحى الذى كانت الكنيسة تعمل جاهدة على اقناعه بأن الحملات الصليبية موجّهة فى أساسها للدفاع عن الصليب. ولنقرأ الفقرة التالية من الباب الثانى الذى عمد رانسيمان إلى تسميته "حملات صليبية ضالة" ، إذ يقول فى الفصل الأول من هذا الباب ، وعنوانه "الحملة الصليبية ضد المسيحيين: "

> "على أن الصليبى العادى قد لُقّن الإعتقاد الذى مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الخيانة ضد العالم المسيحى طوال الحروب المقدسة. فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن. وأبهج الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا فى سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين المنشقين إلى الحظيرة . أما الأكثر ولعا بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون فى ثراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب. وربما تطلع بعض البارونات ، وفيهم بونيفاس نفسه ، إلى نفس التوقعات ، وراحوا يوازنون حساباتهم التى تقول إن الضياع على شواطىء بحر إيجة أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يجدونها فى أراضى سوريا القاحلة . وأسهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحى الشرقى، فجعل من اليسير على داندولو وبونيفاس تطويع الرأى العام وشدّه لمناصرتهما"

ويبدو أن الحروب على اختلاف زمانها وظاهر دواعيها تنصرف فى التحليل النهائى إلى أسباب اقتصادية بالمعنى العام لهذه الكلمة ، وهذا المعنى العام يشمل بطبيعة الحال نزوع الفرد إلى تحقيق أمانيه الجامحة واتجاه الجماعة إلى التصرف على نحو يرضى مطامعها ويكفل لها أسباب الرفاهية ، وإن تحقق ذلك على حساب أية قيمة وإن كانت ديناً. ولنتأمل معا الدوافع الحقيقية التى تبرزها الفقرة التالية من نفس الفصل، وإن لم تكن هذه الدوافع حينذاك متمثلة إلاّ فيما يتعلق بآمال أصحابها (قبل الإستيلاء على القسطنطينية)، ولا شك فى أن أمل الإنسان ، على زيفه ، يحدد مسار خطاه:

> "وتقرر فى نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لإختيار الامبراطور بعد الإستيلاء على المدينة مباشرة . وإذا كان الامبراطور الذى سيقع عليه الإختيار فرنجيا - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريق . وينبغى أن يكون للإمبراطور

القصر الإمبراطورى الفخيم وقصر الإقامة بلاشيرنا ، وربع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نصفها للبنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبيين يقتسمونها إلى اقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا الدوج . وهكذا يكون كل شىء قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن تواصل الحملة مسيرتها فى وقت ما لمحاربة الكفرة، فقد تخلوا عنه صراحة".

للتاريخ دلالة عامة

ولننظر حولنا الآن لنرى أن الأمس البعيد لا يختلف إلا من حيث الشكل عن يومنا هذا . فلقد نجحت القوى الإستعمارية فى تقسيم العالم العربى إلى دول ودويلات ، ربما لا يتوفر لبعضها مقومات الدولة كما يراها علماء السياسة ، وكانت الغاية من وراء ذلك أن تصطنع تلك القوى لنفسها دُمىً تتولى حكم هذه الدول والدويلات ، وهذه الدُمى تستجيب دونما تردد لكل ما يمليه السيد صاحب الأمر في سياسات العالم الحديث، وتعمل فى نفس الوقت على الإستماتة فى الدفاع عن مصالحها الشخصية دون اعتبار لأية مقتضيات قومية أو دينية أو إنسانية . وبذلك استطاع أعداء المسلمين أن يُحكِموا وثاقهم وأن يسيروهم تبعا لأهوائهم وحسبما تقتضيه مصالحهم إلى حد يصيب كل صاحب عقل باغتراب لا يكاد يقرّ على قرار. ولعل لنا أن نستخلص من هذه النظرة العامة أن الإنسان - كما قلنا - هو الإنسان ، يحرك التاريخ ، أو يتحرك به التاريخ طبقا للعاملين الأساسيين اللذين أشرنا إليهما واللذين يتمثلان فى أنانية الإنسان ونزوعه إلى الظلم.

ونعود هنا إلى ما سبق أن ارتأيناه من أن التاريخ لا يعيد نفسه إلا من حيث دلالته العامة . فواقعة تخريب القسطنطينية التى أوردها رانسيمان فى نفس الفصل تدل فى جلاء على أن الإنسان الذى يدعى التحضر لم يبلغ فى تحقيق ادعائه هذا أى حد بالمعنى الأخلاقى أو القيَمى فى القديم والجديد . فالفقرة التى سوف تلى عن دخول الصليبيين القسطنطينية تجاوز قدرة الإنسان على الوصف ، وتدل فى نفس الوقت على أن أولائك الصليبيين لم يكونوا سوى شراذم من البرابرة لم يتح لهم أى قدر من التحضر وإن دافع عنهم المدافعون . فأهل البندقية على سبيل المثال لم يبلغوا فى عدوانهم همجية

٢٠

الصليبيين، لأنهم كانوا ما يزالون يمثلون أبناء الحضارة الإغريقية القديمة التى تدعى الحضارة الأوروبية الحديثة أنها وليدتها . ومن ثم كانوا على قدر من التقدم بالمعنى الإقتصادى والتجارى والفني وبقدرتهم على ارتياد البحار ، ولذلك بذلوا الجهد فى سبيل الإبقاء على ما كانوا عليه من رفاهة وهيمنة . ولن نفيض فى التعليق على ما جاء فى الفقرة التالية ، فقد أغنانا رانسيمان عن ذلك:

"انتهبت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها فى التاريخ . ولتسعة قرون خلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية ؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التى بقيت من اليونان القديمة ، والطُرف المشوقة التى أبدعتها أيدى أبنائها المهرة ؛ وكان البنادقة يعرفون حقا قيمة تلك الأشياء ، إذ أينما وجدوا كنوزا كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزيين ميادين مدينتهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيك كانوا قد أُشربوا فى قلوبهم شهوة التخريب فكانوا يندفعون متجمهرين فى جماعات تعوى فى وحشية فى الشوارع وفى البيوت، ينتزعون أي شيء يبرق أمامهم ، ويدمرون كل ما لا يستطيعون حمله ، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتحطيم بوابات أقبية النبيذ لينتعشوا ، فلم يخلص من تخريبهم دير أو كنيسة أو مكتبة . وفى كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة الفضية العظيمة ويحطمونها قطعا قطعا ، بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات . وبينما كانوا يشربون الخمر فى أوانى المذبح جلست إحدى العاهرات على عرش البطريق وراحت تغنى أغنية فرنسية بذيئة . وهُتكت أعراض الراهبات فى صوامع أديرتهن ، واقتحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها. وكانت النساء الجريحات ملقيات مع الأطفال يحتضرن فى الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفزعة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استحالت المدينة الضخمة الجميلة إلى وضم كبير بحيث صرخ المؤرخ نيستاس قائلا : لو أنهم العرب لكانوا أرحم . وكان على حق".

حقيقة الإنتماء وواقع التاريخ

وتذكرنا هذه الواقعة البالغة الدلالة بما ارتكبه الصليبيون عندما دخلوا مدينة القدس قبل ذلك بحوالى مائة عام على النحو الذى ورد فى الجزء الأول من هذا التاريخ الحافل، مع فارق لا بد لنا من أن نلحظه، ذلك أنهم كان ينبغى لبربريتهم أن تجد فى قداسة مدينة القدس حائلا يحد ولو إلى بعض حد من غلوائهم ، إذ أنها مهد المسيحية وموضع صلب المسيح وقيامته ، ولكن طبيعة الصليبيين تغالب فى كل حال حسن ظن إنسانية الإنسان وما يفترض فيه من عقل وحكمة . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن دارس التاريخ ، وإن كان على غير حيدة ، لن يجد صورة كهذه أو حتى تقاربها ، أتى بها المسلمون حيثما توجه فتحهم . بل الأمر على نقيض يدعو إلى كثير من التفكير، إذ كان الظلم والجهالة سائدين فى كل الأصقاع التى فتحها المسلمون، وجاء الفتح إيذانا بانقضاء كل ما ترتب على ذلك ، فعرّب القرآن ألسنة أهل هاتيك الأصقاع على اختلافهم ، وأتاح القادم الجديد لعقولهم أن تفكر وأن تتدبر ، وخلق من أصحاب القدرة فيهم عبقريات ما تزال آثارها الفكرية والعلمية ماثلة فى حضارة اليوم ، ويرى المنصفون من الدارسين أن ما يقال إنه حضارة الغرب لم تكن لتبلغ ما بلغت لولا ذلك الجهد الفائق الذى قام به روّاد المسلمين الأول فى سبيل احقاق الحق وإقامة العدل وإعمال العقل. وليس من قبيل الخروج على مقتضيات البحث أن نقول إن الحضارة الإغريقية لم تكن هى الباعث القادر فى حد ذاته على أن يولد حضارة الغرب دون الجهد الذى قام به المسلمون ، أى أننا لو افترضنا جدلا أن الله لم يشأ أن يبعث برسالة الإسلام لبقى العالم على ما كان فيه من جهالة قديمة راسخة .

ولنا أن نشير على عجل إلى حملة بالغة الشذوذ جاءت بين الحملات الصليبية لتضفى عليها مظهرا معبرا غير مسبوق أو ملحوق فى التاريخ كله ، ألا وهى "حملة الأطفال الصليبية" . ذلك أن تلك الحملة تعبر عن أمرين : أولهما أن الهوس الدينى الذى لم يؤتِ أُكُله فيما قام به الكبار ، كان له أثره الوخيم على الأطفال الذين لم يتأتّ لخيالهم الصغير أن يتبيّن ما وراء الحملات الصليبية من دوافع حقيقية . وثانيهما أن الطفل الذي يمثل قيمة لها مغزاها فى كل ما ساد العالم من ثقافات قد فقد هذه القيمة إبّان تلك الفترة ، وفى ذلك إدانة كاملة لقدرة الصليبيين على أن يلتزموا جادة ما تفرضه عاطفة الإنسان الشخصية المباشرة . ويدل ذلك فى نفس الوقت على أن الكبار من غير ذوى المصلحة المتمثلين فى آباء أولائك الأطفال كانوا من السذاجة الدينية والإجتماعية على نحو جد مهين ، وإلا لما تركوا أولادهم يقدمون على رحلة غاية فى

المشقة تحف بها المخاطر والأهوال . وما آل إليه أمر هؤلاء الأطفال بيّنه رانسيمان فيما أورده . ولعل لنا أن نعجب الآن كثيرا ونحن نرى أبناء الغرب من حفدة الصليبيين وهم يتصدون للعالم رافعين لواء ما يسمونه "حقوق الإنسان" و "حقوق الطفل."

الوهم والتاريخ

ولنا أن ندرك أن حملة الأطفال الصليبية تلك قامت على كثير من الوهم . ويبدو أن الوهم كان يلعب دورا بالغ الخطورة فى تاريخ الحركة الصليبية . فالتحالف الصليبى المغولى الذى أفاض رانسيمان فى بيانه لم يقم من وجهة نظر الصليبيين على أساس تحالف قوتين معاديتين ضد عدو مشترك وحسب ، وإنما أوغل الصليبيون فى إيهام أنفسهم بزعم أن القس حون الأسطورى ، وهو فى رأيهم حبشى ، تجسّد على حين غِرة فى شخصية مغولية ، وأن خلاص الصليبيين من المسلمين سوف يأتى من الشرق البعيد . ولنا هنا أن نطرح سؤالا بسيطا عسانا أن نجد مَن يجيب عليه : كيف يتأتى لأناس يُفترض أنهم يتحركون بوحى ربّانى أن يجدوا عونهم فى قوم وثنيين ؟ على أن لنا أن نلاحظ كذلك أن المغول على شراستهم وهمجيّتهم فى استخدام القتال كانوا أصحاب سياسة يمكن أن تتسق مع نمط فكرى ساد فى المجتمعات السابقة يتمثل فى أن القوة تصنع الحق . ونقول ، بين قوسين ، إن هذا النمط الفكرى ما زال سائدا حتى الآن. ولا شك فى أن عقد المقارنة بين المغول والصليبيين يظهر أن المغول كانوا أصحاب نظام يحكم علاقاتهم ببعضهم البعض ، فلا نراهم ينتهكون حُرماتهم أو يترامون بهرطقة تُحدث صدعا بينهم ، وأن همجيتهم لم تستشرِ فيما بينهم كما استشرت همجيّة الصليبيين ضد المسيحيين وضد غيرهم.

ولئن شئنا أن نضيف إلى الوهم الصليبى شيئا ، فلن نبلغ فى ذلك مبلغ رانسيمان عندما قال فى الفصل الثانى (القديس لويس) من الباب الثالث (المغول والمماليك):

> "تسببت حملة القديس لويس الصليبية فى توريط مسيحيى الشرق فى كارثة عسكرية مروعة، وعلى الرغم من أن بقاءه فى الشرق لأربع سنواتٍ قد أفاد كثيرا فى إصلاح الأضرار ، إلا أن خسارة القوة البشرية لم تُستعوض تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام

الصليبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألاّ يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لفشله عميق الأثر . ذلك أنه كان رجلا طيبا يخشى الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفى سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُبتلى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهى على ما ارتكبوه من جرائم وشرور، بيد أنه لم يعد فى الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية الهشّة . فهل يا ترى قد عبس الرب من الحركة الصليبية برمتها؟"

على أن للتاريخ منطقا نستفيد منه دروسا جديرة بالإعتبار إذا أعملنا عقولنا . فالوهم الصليبى الذى اقتيد به عوام الصليبيين إلى مصائر لم يكونوا ليتمنوها لأنفسهم، بيّن منطق التاريخ حقيقته بمضى الزمان وتراكم النتائج التى ترتبت على الحملات الصليبية ، ونكتفى بقولة رانسيمان فى الفصل الرابع (السلطان بيبرس) من الباب الثالث (المغول والمماليك):

"والأسوأ من كل ذلك أن لا أحد بات يؤمن الآن فى المزايا الروحانية الموعودة لمن يصبح صليبيا ، اللهم سوى القليل . ويقينا فإن هذا الإنكار الذى يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرا انتشارا واسعا؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من المنشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد فى حاجة إلى الحملات الصليبية . وأخفقت مقترحات هومبرت فى مناهضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة؛ فلا جدوى فى مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن الهزائم والإهانات تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرجال بأن الحملة الصليبية هى أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أمست محاولة متأخرة للغاية".

أحداث التاريخ وموضع الثقة

ولعل ما قدمناه يبين فى كثير من وجوهه أن الأُطُر الأخلاقية الصليبية لم تكن فى عمومها تتسق مع ما يدعو إليه الدين أو ما تفترضه الفطرة السليمة . وليس ذلك فحسب ، وإنماينبغى لنا أن نلاحظ هنا أن الرأي العام الذى كان سائدا بين الشعوب على اختلافها بيّن فى نهاية المطاف وبرغم سذاجة العصر حقيقة الوهم الذى بثّه فيها

أصحاب النفوذ والقوة المهيمنة وراء القيام بالحملات الصليبيـة . ومـا أورده رانسيمان يدل على أن تلك الشعوب قد تحررت من الوهم بحيث تغنّى المنشدون مرددين خيبة الأمل التى تعين على الخلاص من الوهم . ولا نكاد نجد غرابة فى ذلك ، ولكن الغريب أن أولائك الصليبيين الذين كانوا يستخدمون لفظة "كفار" وهم يشيرون إلى عامة المسلمين كانوا يوقنون فى دخيلتهم بأن المسلمين أصحاب قيم تُحترم وتُلتزم ويقام لها كل وزن ويُعتد بها فى كل مسلك من مسالكهم ، ولبيان ذلك نورد الفقرة التالية من نفس الفصل دون تعليق:

"أما الملك هيو فى قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها ، وإنما يريد مجرد الحفاظ على الهدنة مع بيبرس ، ومع ذلك لم تفعل الهدنة سوى القليل لتحسين وضعه. وفى سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فبوفاة جون الثانى الإبليني انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا، ملكة قبرص الأرملة التى تُركت أرملة عذراء في سنة ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلا؛ ذلك أن افتقارها إلى العفّة وعلاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا في إصدار مرسوم بابوى حثّها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفى ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها لإنجليزي - هامو الأجنبى - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرتاب فى الملك هيو فعندما حضرته الوفاة فى العام التالى وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيبرس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة وإعادتها إلى قبرص ليزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالعهد الذى أوصى به هامو وطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عُيّن حارس مملوكى لحمايتها".

وإذا كان ما سبق يعبّر عمّا يعتور سلوك الصليبيين إزاء غيرهم بصفة عامة ، فلا بد لنا من أن نورد هنا فقرة أوردها رانسيمان فى "خاتمة كتابه" ، وهى بمثابة تعليق عام على الحملات الصليبية ، وهى فقرة تتعلق بفئة كان لها دورها الدائم عبر الحملات الصليبية كلها ، ألا وهى طائفة " نظام فرسان المعبد الدينى العسكرى" . فهذ الطائفة، فضلا عن قيامها بدور المرابى المبتز ، كان لها من الطقوس الخفيّة المريبة ما يدمغها ويصم أخلاقها بما لا ينبغى أن توصم به فئة تلعب دورا دينيا عسكريا بالغ الخطورة . والفقرة

التالية تبيّن فى جلاء تام كيف أن الصليبيين من تلك الفئة المتسيّدة لم يكونوا على خلق يتفق وأبسط ما تنادى به القيمة الإنسانية حتى فى المجتمعات البدائية ، ناهيك عمّا ينادى به الدين أيا كان هذا الدين :

"أما نظام فرسان المعبد فكان أقل إقداما وأقل حظا ؛ وكان دائماأكثر إثارة للعداوة من نظام فرسان المستشفى ، وإن كان هو الأكثر غنى . وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسى ومقرض الأموال فى الشرق ، يحقق النجاح فى مهنة لا تلهم المودة ، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأنانية والإستهانة . وبرغم شجاعة فرسانه فى قتالهم فى أوقات الحرب ، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيجة قربى بين فرسانه والمسلمين؛ واتخذ كثير من الفرسان أصدقاء مسلمين ، واهتموا بالديانة والعلم الإسلاميين . وذاعت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلاعه فلسفة خفيّة وأنه كان ينخرط فى طقوس ملطّخة بالهرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تجديفيّة يعوزها الإحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة . ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها اختلاق من الأعداء لا أساس له، فربما كان فى تلك الشائعات ما يُنبى عمّا يكفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام".

ولعل القارىء يدرك أن هذا درك فى الفحش والتدنى لا ينحط إليه انسان يحق له أن يدعى أنه ينتمى إلى هذا الجنس.

القيمة وصِبغة التاريخ

ويُجمل رانسيمان اتساق مسلك الصليبيين عبر فترات الحملات الصليبية المتعاقبة والمتباينة والتى جاوزت قرنين من الزمان فى عبارة بليغة إذ يقول :

"وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها فى قبضة الصليبيين واحتفل الغزاة بنصرهم فى وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلّم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهى المذابح سوى مذبحة القدس سنة ١٠٩٩م ومذبحة القسطنطينية سنة ١٢٠٤م. ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا فى أنطاكية ولا فى

عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراءً غير عادى ، وقد جُنّ جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذى عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين فى المدينة شاهدوا مصانعهم ومخازنهم تُنتهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دمروه ؛ ولم تسلم الكنائس من نهبهم رغم أن سيدة قبطية كسيحة شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها، ومَنْ توانى منهم فى تسليم كل ممتلكاته قُتل هو وأسرته ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف سجين من المسيحيين واليهود والمسلمين لبيعهم رقيقا . وحُملت الأسلاب على ظهور الخيول والحمير والجمال التى سارت فى خط طويل لنقلها إلى السفن الراسية فى الميناء ، وبعدما انتهت الدواب من مهمتها قتلت فى أماكنها . وغرقت المدينة كلها فى رائحة جثث الآدميين والدواب".

ولا بد لنا من أن نشير هنا إلى أن كل باحث محايد لسوف يحنى الهامة احتراما لقدرة وحيدة رانسيمان مؤرخ الحملات الصليبية الذى تجىء فقرته السابقة كأبلغ تدليل على أن تلك الحملات لم تكن "مقدسة" ولم تنبعث فى ظل أية عقيدة تعتد بإنسانية الإنسان، ونحن فى ذلك كله لا نشير إلى أي دين ، وإنما نشير إلى الصليبيين الذين تناءى بهم سلوكهم عن مقتضيات دينهم ، وليس أدل على ذلك مما أصاب المسيحيين أنفسهم على أيديهم.

قيمة تسود

وخلاصة القول أن الحملات الصليبية بعد قرنين ونصف من الزمان آذنت بانقضاء ما كان للإمبراطوريتين الغربية والشرقية من سلطان حاولتا فرضه فى كل حال باسم الإنتماء إلى عقيدة تدعو إلى التسامح وعدم اللجوء إلى القوة . وترتب على ذلك نشأة وتنامى قوة الإمبراطورية العثمانية شيئا فشيئا ، والتى أرسى قواعدها عثمان بن أرطغرل وتوالى من بعده سلاطين آل عثمان الذين لم يكد يمضِ بهم أكثر من قرن وربع قرن حتى استطاع محمد الفاتح أن يفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م . ولن نعرض هنا

لأحداث أو دوافع أو ظروف سياسية ، وإنما سنجمل القول فى أن الإمبراطورية العثمانية أتاحت لها مقوماتها أسباب البقاء كإمبراطورية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وهذا يعنى أنها بقيت مذ أرسى عثمان بن أرطغرل لبناتها الأولى فى مستهل القرن الرابع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين . ولا نحسب أن الإمبراطوريات العظمى تقوم ويقدر لها طول بقاء نتيجة لمقومات يمكن أن تنحصر فى نطاق ما هو سياسى أو عسكرى أو اقتصادى . فلا بد لتلك العوامل الأساسية كلها من عامل أهم يشكّل القيمة العليا الجامعة والمحرّكة لهذه العوامل . ونعنى بهذه القيمة العليا هنا العقيدة التى تزوّد الرجال بإيمان يحيلهم إلى أبطال واثقين من أنهم إنما يدافعون عن قضية حق تصل أسباب الأرض بقيم السماء . وليس أدل على ذلك من أنه لا يحق لباحث أن يفترض أن تلك القيمة العليا التى أشرنا إليها قد انقضت بانقضاء الإمبراطورية العثمانية.

الصليبية الجديدة

والذى حدث يتلخص فى أن خصوم الإسلام اجتهدوا فى التنائى بالمسلمين والعرب عن المقتضيات التى يلزمهم بها دينهم ، فعمدوا إلى إحياء الإتجاهات العرقية والنزوع إلى تحقيق المصالح الشخصية فى نفوس أناس كانوا فى محل قيادة الشعوب الإسلامية والعربية . وأبين مثال على ذلك ما تمثّل فى شخصية قائد يحسب فى العادة على المسلمين وإن كان فى حقيقة الأمر أداة من أدوات التسلط والإستعباد والتنائى عن القيمة الحقة باسم العلمانية ، ألا وهو مصطفى كمال أتاتورك الذى جاء عند نهاية الإمبراطورية ليبتعد بالأتراك عن كل مقوّمة تمت إلى الإسلام والتراث الإسلامى بصلة. ففضلا عن علمانيته المعلنة ، وإقصاء الدين عن إدارة الدولة ، لم يدع اللغة التركية فى حروفها التى أكسبها الإسلام لها ، شأنها فى ذلك شأن كثير من الشعوب الآسيوية التى عرّب الإسلام لسانها أو أكسب لغتها حروف العربية وكثيرا من ألفاظها . وكان أتاتورك فى ذلك حريصا - حرص الشيوعيين الذين تولوا أمر عدد من تلك الشعوب - على أن تنبتّ الصلة بين شكل اللغة والتراث الذى تنتمى إليه ، حتى لا يتهيأ للأجيال الجديدة أو يسهل عليها سبيل دراسة العربية والعودة إلى ذلك التراث الهائل الذى يمكن أن يحرك فيهم ما يباعد بينهم وبين اولائك الذين تآمروا وحاولوا أن يجتثوا شأفة الإسلام.

ولعل من الواضح أننا لم نبتعد عن الحملات الصليبية فيما أسلفناه من فورنا . ذلك

أن ما حدث منذ أيام أتاتورك وما يحدث فى أيامنا إن هو إلا امتداد للحملات الصليبية ينتهج سبلا تختلف عن سبيل القتال الذى باء بالفشل بعد طول محاولة . فالحملات الصليبية ما تزال ممتدة حتى الآن فى صليبية جديدة عن طريق انتهاج سياسات التفرقة والتبعية والإحتواء ووأد القدرات والإمكانيات مما أدى إلى تفرق المسلمين والعرب فى دول ودويلات تتناءى بهم فيها الأحابيل والسياسات عمّا يبثه الإسلام من إيمان وعزمات قادرة . غير أن هذه الصليبية الجديدة تغيب عنها حقيقة ماثلة لن تستطيع أن تجد حيالها مخرجا ، وهذه الحقيقة تتمثل فى العقيدة الواحدة التى تجمع الشعوب الإسلامية والعربية على نهج واحد وتكفل لها أسباب البقاء على النحو الذى تبرزه وقائع التاريخ، وما العصر الذى نحياه بالنسبة للمسلمين إلا مرحلة من مراحل التدنى تشبه تلك الفترة التى هيّأت للصليبيين أن يحاولوا محاولتهم الطويلة دون طائل حقيقى . وإعمالا لمبدأ الحيدة الكاملة الذى توخيناه فى ترجمتنا لهذا الكتاب وفى تناولنا لما جاء به، ننهى هذه المقدمة بما يختتم به رانسيمان رحلته الطويلة المقتدرة مع الحملات الصليبية :

> "أما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من أوجه الفشل البيّن لا تفسير له . لقد كانوا يحاربون لنصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت قضية الرب تلك . وفى فورة النجاح الأولى وضعوا عنوانا لتواريخهم Gesta Dei per Francos (الفرنج قاموا بعمل الرب)."

وليس هناك أدنى شك فى أن رانسيمان يقرر فى وضوح أن القضية التى حارب الصليبيون تحت شعارها ليست قضية الرب ، وإنما قضية الرب الحقيقية تتمثل فى قوله : أحبوا أعداءكم!

الإسكندرية فى يونية ١٩٩٨

نور الدين خليل

مقدمة

تتجه النية فى هذا الجزء الثالث إلى تناول تاريخ الشرق الفرنجى والحروب المقدسة منذ إحياء المملكة الفرنجية وقت الحملة الصليبية الثالثة إلى انهيارها بعد ذلك بقرن ، مع خاتمة تجلو المظاهر الأخيرة للروح الصليبية . وهى قصة تتشابك فيها المواضيع . إن اضمحلال الشرق الفرنجى ، بصغار مآسيه المعقدة، تخللته من آن لآخر بصورة دورية حملات صليبية ضخمة انتهت جميعها، بعد الحملة الصليبية الثالثة ، إلى الانصراف عما جاءت من أجله أو أنها انتهت بكارثة . وفى أوروبا ، ورغم اعتياد ذوى النفوذ فيها على إظهار التملق للحركة الصليبية ، فلم تستطع حتى حميا ورع القديس لويس أن توقف تدهورها ، بينما وصلت العداوة بين العالم المسيحى الشرقى والغربى ذروتها التىتمثلت فيها أضخم فواجع العصور الوسيطة ، الا وهى تدمير الحضارة البيزنطية باسم المسيح . أما فى العالم الإسلامى ، فقد أسفر حافز الجهاد المستمر عن استبدال الأيوبيين الطيبين المهذبين بالمماليك الأكثر كفاءة والأقل عاطفة ، والذين قدر لسلاطينهم القضاء على ما كان في سوريا من فرنج . وأخيرا ، جاء المغول بغزوهم الطاغى ، وبدا أول الأمر أن مجيأهم ينطوى على انقاذ العالم المسيحى الشرقى، بيد أنه لم يكن لنفوذهم فى نهاية الأمر ، ولما كان عليه حلفاؤهم من سوء تدبير واساءة فهم، من أثر سوى الدمار . والحكاية كلها هى حكاية عقيدة وحماقة، شجاعة وجشع ، آمال وتخلص من أوهام.

ولقد أدخلت فصولا قصيرة حول التجارة والفنون في الشرق الفرنجى ، والمعالجة فيها من قبيل أداء الواجب بالضرورة ؛ فليس فى الامكان فصل التاريخ التجاري أو التاريخ الفنى لدولة استعمارية مثل الشرق الفرنجى عن التاريخ العام للتجارة أو للحضارة في العصور الوسيطة. ومن ثم حاولت ألاّ أتجاوز حدود مايتصل اتصالا وثيقا

بفهم الشرق الفرنجى.

وتاريخ الحملات الصليبية موضوع ضخم ليست له حدود محددة ؛ ومعالجتى له لا تمثل سوى اختيارى الشخصى. فإذا ما رأى القارئ أننى أخطأت فيما منحته من تركيز لشتى جوانبه ، فليس فى وسعى إلا الدفع بأن للكاتب أن يكتب كتابه بالطريقة التى يراها. وليس للنقاد أن يشكوا من أن الكاتب لم يكتب الكتاب على النحو الذى كانوا هم سيكتبونه لو أنهم تناولوا الموضوع . غير أن الأمل يحدونى فى ألاّ أكون قد حذفت ما يعد أساسيا لفهم الموضوع.

والدَيْن الضخم الذى أنا مدين به للكثير من الثقاة أمواتا وأحياء يظهر ، على ما أظن، فى الحواشى التى أثبتها . وإن تاريخ قبرص العظيم الذى كتبه السير جورج هيل، والتاريخ بالغ الدقة للحملات الصليبية المتأخرة الذى كتبه الاستاذ عطية، كلاهما أساسى لدراسة هذه الفترة، وعلى الطلبة أن يشعروا دوما بالامتنان للأستاذ كلود كاهن لما تحويه أعماله من معلومات عميقة العلم. ولابد لى أن أذكر ما أشعر به من أسى لوفاة م. جروسيت الذى كان لبصيرته ذات الرؤية الواسعة وكتاباته النابضة بالحياة أثر كبير فى تبيان سياسات الشرق الفرنجى والخلفية الآسيوية . ومرة أخرى ، لجأت إلى الدارسين الأمريكيين ، مثل الأستاذ لا مونت الذى رحل عنا ، والسيد ب. أ. ثروب.

ومرة أخرى اشكر اصدقائى فى الشرق الأدنى الذين ساعدونى أثناء رحلاتى هناك، وأخص بالذكر شركة بترول العراق ، ومديرى مطبعة جامعة كامبريدج على فضلهم.

لندن ١٩٥٤

ستيفن رانسيمان

الباب الأول:

الحملة الصليبية الثالثة

الفصل الأول:

ضمير الغرب

ضمير الغرب

"لم نصدق ملوك الأرض وكل سطان المسكونة أن العدو
والمبغض يدخلان أبواب أورشليم"
(مراثى أرميا ٤ : ١٢)

تنتشر الأنباء السيئة بسرعة . إذ أن الرسل سارعوا إلى أمراء الغرب يخبرونهم بما حدث و لم تكد معركة حطين تشرف على نهايتها الفاجعة ؛ وسرعان ما تبعهم رسل آخرون يحملون نبأ سقوط القدس . وهبطت أنباء الكارثتين على العالم المسيحى الغربى فأصابته بالهلع. وبرغم النداءات الكثيرة من مملكة القدس فى السنوات المتأخرة، لم يتحقق أحد من الخطر الجاثم ، وباستثناء البلاط البابوى فيما يبدو. وكان المسافرون باتجاه الشرق من الفرسان والحجاج قد وجدوا فى الدويلات الفرنجية حياة أكثر ترفا ونعيمامما يعرفونه فى أوطانهم جميعها، وسمعوا عن غرائب البسالة فى الحرب ، ورأوا التجارة وهى في قمة ازدهارها، وقد استعصى عليهم أن يتفهموا كيف تحدق المخاطر بكل ذلك الإزدهار ، والآن بورغتوا بأن كل شئ قد انتهى؛ فالجيش المسيحى قضى عليه، والصليب المقدس ، أقدس الآثار فى العالم المسيحى ، بات فى أيدى الكفرة،

والقدس ذاتها ضاعت ؛ لقد انهار صرح الشرق الفرنجي كله في غضون أشهر قليلة ، وإذا ما كان لشيء أن يُنقَذ من الأنقاض، فلا مهرب من إرسال المساعدة ، وإرسالها بسرعة.

أما اللاجئون الناجون من الكارثة ، فقد تزاحموا الآن خلف أسوار صور ، وساعدتهم حمية كونراد (أوف مونتفرات) التى لا تعرف الكلل على التشبث بشجاعتهم . إذ أن مصادفة وصوله السعيدة أنقذت المدينة من الاستسلام ، وراح اللوردات الذين افلتوا من قبضة صلاح الدين ينضمون إليه فى صور الواحد تلو الآخر وقبلوا زعامته بامتنان . على أنهم كانوا جميعا يعلمون أن صور لا قبل لها بالصمود دون أن يأتى الغوث من الغرب ، وأن احتمالات استعادة الأرض المفقودة منعدمة . وفى فترة الهدوء التى أعقبت أول هجوم لصلاح الدين على صور ثم رحيله عنها لفتح شمال سوريا، أرسلوا أكثرهم مهابة ، جوسياس ، رئيس أساقفة المدينة ليخبر البابا وملوك الغرب شخصيا بمدى احتياجهم إلى المساعدة احتياج اليائس. وفى ذات الوقت تقريبا أرسل الناجون من النظامين العسكريين نفس القصة المقلقة للتأثير فى إخوتهم الغربيين[١].

١١٨٧م : بعثة رئيس أساقفة صور

أبحر رئيس الأساقفة من صور فى أواخر صيف ١١٨٧م ، وبعد رحلة سريعة وصل إلى بلاط الملك وليم الثانى ملك صقلية الذى كان فى شدة الكآبة لما أشيع عن الكارثة. وبعدما سمع وليم من رئيس الأساقفة بما وصلت إليه من مدى ارتدى رداء من الخيش واعتزل الناس أربعة ايام ، كتب بعدها إلى زملائه العواهل يحثهم على الانضمام إليه فى حملة صليبية، وأنه هو نفسه قد أعد العدة لإرسال حملة إلى الشرق فى أسرع وقت ممكن . وقد سبق له أن حارب بيزنطة عام ١١٨٥م عندما حاول جنوده احتلال ثيسالونيكى وهزم هزيمة بشعة . على أن أسطوله الآن ما يزال مبحرا فى المياه القبرصية يساعد ايزاك كومنينوس اللورد الذى اغتصب قبرص فى تمرده على الامبراطور ايزاك

---

(١) عن رحلة جوسياس انظر Ernoul, pp. 247-8؛ويرد تقرير تيرينس Terence من فرسان المعبد إلى اخوته فى المعتقد، فى Benedict of Peterborough, II, pp. 13-14، ويرد تقرير فرسان المستشفى فى Ansbert, *Expedition Friderici, pp.2-4* كما كتب تيرينس إلى هنرى الثانى ؛ Benedict of Peterborough, II, pp. 40-1.

أنجيلوس . وبسرعة سالم الامبراطور ، واستدعى الأدميرال الصقلى مرجاريتوس (أوف برينديزى) لإعادة تهيئة سفنه والإبحار إلى طرابلس بصحبة ثلاثمائة فارس . وفى ذات الوقت واصل رئيس الأساقفة جوسياس طريقه ترافقه سفارة صقلية إلى روما[٢].

وهناك فهم البابا أيضا مدى خطورة الأنباء ؛ إذ سبق أن أرسل أبناء حنوا بالفعل تقريرا إلى البلاط البابوى[٣]، في عهد البابا السابق ، إيربان الثالث ، الذى كان رجلا مريضا و لم يحتمل الصدمة فمات كمدا يوم ٢٠ اكتوبر[٤]. لكن خليفته البابا جريجورى الثامن أرسل على الفور رسالة عامة إلى جميع المخلصين فى الغرب يخبرهم بخطورة الخسارتين : الأراضى المقدسة والصليب المقدس؛ وذكّرهم بأن ضياع الرها قبل أربعين سنة كان ينبغى أن يكون بمثابة الإنذار ، أما الآن فالمطلوب عدم ادخار أى جهد؛ فليلجأ كل فرد إلى التوبة من آثامه ، وليدخر فى السماء كنزا بأخذ الصليب . ووعد بمنح غفران عام لجميع الصليبيين؛ ولسوف ينعمون بحياة أبدية فى السماء ، وسوف تحفظ مقتنياتهم التى على الأرض فى حماية الكرسى البابوى . واختتم رسالته بالأمر بالصوم أيام الجمعة لخمس سنوات تالية والامتناع عن أكل اللحم أيام الأربعاء والسبت، وسوف يصوم الذين تحت إمرته، وكذلك تحت إمرة كاردينالاته أيام الإثنين أيضا . وانطلق رسل آخرون من روما يحملون لكافة امراء العالم المسيحى امرا بهدنة مدتها سبع سنين ؛ وقيل إن الكاردينالات أقسموا جميعا أن يكونوا من بين أوائل الذين يأخذون الصليب ، ولسوف يعتبرون أنفسهم رهبانا متسولين[٥] ويقودون الجيوش المسيحية إلى فلسطين[٦].

و لم يقدر للبابا جريجورى أن يشهد نتائج جهوده، إذ مات فى بيزا يوم ١٧ ديسمبر ، بعد أن شغل البابوية لشهرين تاركا العمل لأسقف براينيست الذى انتخب بعده بيومين على أنه كلمنت الثالث وبينما سارع كلمنت بالاتصال بعظماء عواهل

---

(٢) .Ernoul, *loc. cit.*

(٣) .Benedict of Peterborough, II, pp. 11-13

(٤) .*Annales Romani* in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae*, II, pp. 682-3

(٥) (المترجم): mendicant friar: قديما كانت توجد بعض الأنظمة الدينية يعيش أفرادها على الصدقات فقط ولا يملكون شيئا.

(٦) أورد Benedict Peterborough, II,pp. 15-19 خطابات البابا بنصها. ومع ذلك ، فإن الشاعر البروفنسالى Giraut يعتبر أن نشاط البابا لم يكن كافيا (انظر Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 29-30).

الغرب ، ارتحل الامبراطور فريدريك بارباروسا ورئيس أساقفة صور عبر جبال الألب لمقابلة ملكي فرنسا وانجلترا[٧].

ولقد سبقته أنباء بعثته قبل أن يرحل . ذلك أن إيمرى ، بطريق أنطاكية المسن ، كتب في سبتمبر رسالة إلى الملك هنرى الثاني يخبره فيها بما يعانيه الشرق من محن ، وأرسلها مع أسقف بانياس لتسليمها بيده[٨]، وقبل أن يصل جوسياس رئيس أساقفة صور إلى فرنسا كان أكبر أبناء هنرى ، ريتشارد كونت بواتو، قد أخذ الصليب[٩]. وكان هنرى نفسه يحارب فيليب أوغسطس الفرنسي حروبا متقطعة لسنوات كثيرة . وعندما وصل جوسياس في يناير ١١٨٨م وجد الملكين في جيسور على الحدود بين نورماندى والأراضي الفرنسية ، حيث تقابلا لمناقشة الهدنة . وساعدته فصاحته في اقناعهما بالاتفاق على السلام والوعد بالذهاب في حملة صليبية بأسرع ما يمكنهما . وسارع فيليب كونت فلاندرز يحذو حذوهما ، وربما كان يشعر بالخجل لحملته الصليبية التي أُحهضت قبل عشر سنوات ؛ وأقسم الكثير من كبار النبلاء على مرافقة الملكين. وتقرر أن تسير الجيوش معا على أن يضع الجنود الإنجليز صلبانا حمراء ، والفرنسيون صلبانا بيضاء ، والفلاندرزيون صلبانا خضراء . ولمجابهة نفقات الحملة فرض الملكان كلاهما ضرائب خاصة[١٠]، وفي نهاية يناير اجتمع مجلس الملك هنرى في لامان La Mans لاتخاذ قرار بدفع عشور صلاح الدين ، وقدرها عشرة في المائة ضريبة على الإيرادات والمنقولات تُحصّل من كل فرد من رعايا الملك من العوام فى كل من انجلترا وفرنسا . ثم عبر هنرى إلى انجلترا لإعداد مزيد من الترتيبات للحملة الصليبية التي دأب رئيس أساقفة كانتربرى - بلدوين - على التبشير بها تبشيرا متحمسا . وشرع رئيس أساقفة صور فى رحلة العودة وهو مفعم بالآمال[١١].

وبعد مؤتمر جيسور مباشرة كتب هنرى رده على بطريق أنطاكية قائلا إن الغوث

---

(٧) *Annales Romani* in Watterich, *op. cit.* II, p. 692.

(٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 36-8.

(٩) Ambroise, *L'Estoire de la Guerre Sainte*, col.3; *Itinerarium Regis Ricardi*, p.32; Rigord, pp.83-4. ومن الناحية السياسية فشل المؤتمر الذى عقد فى جيسور Gisors.

(١٠) Benedict of Peterborough, II, p. 30; Ambroise, cols. 3-4; *Itinerarium*, pp. 32-3.

(١١) Benedict of Peterborough, II, pp. 30-2.

قادم على جناح السرعة[١٢] على أنه لم يكن هناك ما يبرر تفاؤله، وقد جمعت عشور صلاح الدين بما يبعث على الرضا برغم محاولة أحد فرسان المعبد ، جيلبرت (أوف هاكستون) أن يأكل الأموال التى جمعها ؛ بينما كان وليم الأسد ، ملك الاسكتلنديين ومن أتباع الملك هنرى ، عاجزا تماما عن اقناع باروناته المسرفين بالاسهام بنس واحد. ووضعت ترتيبات حكم البلاد أثناء غيبة الملك ووريثه فى الشرق[١٣]. غير أن الحرب اندلعت مرة أخرى فى فرنسا قبل أن يتجمع الجيش بوقت طويل ؛ إذ تمرد بعض أتباع ريتشارد عليه في بواتو ، وفى يونية ١١٨٨م تورط فى نزاع مع كونت تولوز . وغضب الملك الفرنسي للإعتداء على تابعه ، فبادر بغزو بيرى Berry ، فغزا هنرى بدوره أراضى فيليب ، وتواصلت الحرب طوال الصيف والخريف . وكانت مشاعر البنوّة لدى ريتشارد مزعزعة ، ولذا انضم فى يناير ١١٨٩م إلى فيليب فى هجوم ضد هنرى . وارتاع الكثير من المسيحيين الطيبين من هذه الحرب التى لا تنتهى ، ورفض بعض اتباع فيليب ، كونت فلاندرز وكونت بلوا ، حمل السلاح إلى أن تنطلق الحملة الصليبية[١٤] وكان البابا قد أرسل فى خريف ١١٨٨م أسقف ألبانو ، ثم أرسل فى الربيع التالى - بعد وفاة الأسقف - الكاردينال جون (أوف أنانى) ، يأمر الملكين بعقد السلام بينهما ولكن دون جدوى . وأخفق بلدوين رئيس أساقفة كنتربرى بنفس القدر. وكان فيليب وريتشارد قد توغلا فى أراضى هنرى الفرنسية طوال بدايات الصيف ، واستولى فيليب يوم ٣ يولية على قلعة تور العظيمة ، وفى اليوم التالى وافق هنرى ، الذى كان آنذاك فى حالة مرضية يائسة ، على عقد سلام بشروط مهينة ، وبعد يومين اثنين ، وقبل التصديق على معاهدة السلام ، مات هنرى يوم ٦ يولية فى شينون[١٥] Chinon.

١١٨٩م : استخلاف الملك ريتشارد

هدأ الوضع بموت الملك العجوز . ومن المشكوك فيه ما إذا كان قد خطر بباله قط

---

(١٢) .Ibid. pp. 38-9.

(١٣) .Ibid. pp. 44, 47-8.

(١٤) Ibid. pp. 34-6, 39-40, 44-9; Rigord, pp. 90-3.

(١٥) Benedict of Peterborough, II, pp. 50-1, 59-61, 66-71; Rigord, pp. 94-7; Roger of Wendover, I, pp. 154-60.

على نحو حاد أن يرى نفسه ذاهبا فى حملة صليبية ، على خلاف وريثه ريتشارد الذى كان عاقد العزم على الوفاء بقسمه ، وبرغم أنه قد ورث حتما نزاع أبيه مع الملك فيليب ، إلا أنه كان على استعداد لقبول أية تسوية تمكنه من حرية الانطلاق إلى الشرق ، لاسيما أن فيليب سينضم إلى الحملة الصليبية . أما فيليب فكان ما يشعر به من رهبة حيال ريتشارد أقل منها إزاء هنرى ورأى من سوء السياسة تأجيل الحملة الصليبية أكثر من ذلك ، وسرعان ما عقدت معاهدة ، وعبر ريتشارد إلى انجلترا كي يُتوّج ويتولى شؤون الحكم(١٦).

وجرت مراسم التتويج يوم ٣ سبتمبر ، اعقبتها أعمال اضطهاد بيّن لليهود فى لندن ويورك ، إذ كان المواطنون غيورين مما أسبغه عليهم الملك الراحل من محاباة ، ودائما ما كانت الحميّة الصليبية توفر ذريعة لقتل أعداء الرب . وعاقب ريتشارد مثيرى الشغب وسمح ليهودى كان قد تحول إلى المسيحية تفاديا للقتل بأن يعود إلى يهوديته . وأذهل المؤرخين التعليق الذى قاله بلدوين رئيس الأساقفة أنه إن لم يكن رجل الرب فالأفضل له أن يكون رجل الشيطان . ومكث الملك فى انجلترا طوال الخريف يعيد تنظيم ادارة البلاد ، ومُلئت المناصب الكنسية الشاغرة . وبعد إجراء بعض التغييرات الأولية، تم تعيين وليم لونجشامب ، أسقف إيلى ، مستشارا وقاضيا لجنوب انجلترا ، بينما عُين هيو ، أسقف دورهام ، قاضيا لشمال انجلترا وأيضا وكيلا في ويندسور . ومُنحت الملكة الأم إلينورا سلطات نائب الملك لكنها لم تكن تنوى البقاء في انجلترا . ومُنح اخو الملك ، جون ، اقطاعيات ضخمة في جنوب غرب البلاد وقد سبق أن صدر بحقه حظر، له ما يبرره، من دخوله انجلترا وسُحب هذا الحظر على وجه السرعة. وبيعت الضياع الملكية لجمع المال ، واجتمعت أثمانها مع الهدايا وعشور صلاح الدين لتوفر للملك ثروة ضخمة ؛ وأرسل وليم ملك اسكتلندا عشرة آلاف جنيه نظير تحرره من الولاء للتاج الإنجليزى واستعادته لمدينتي بيرويك وروكسبورج اللتين سبق أن فقدهما في عهد هنرى(١٧).

وفي نوفمبر جاء روترود ، كونت بيرش ، من فرنسا ليعلن أن الملك فيليب كاد أن يستكمل استعداداته للحملة الصليبية وأعرب عن رغبة الملك في مقابلة ريتشارد في

---

(١٦) Benedict of Peterborough, II, pp. 74-5; Roger of Wendover, I, pp. 162-3.

(١٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 80-8, 97-101; Roger of Wendover, I, pp. 164-7; Ambroise, cols.6-7.

فيزيلاى يوم أول ابريل لمناقشة رحيلهما معا[١٨]. وفى نهاية عام ١١٨٨م وصلت إلى البلاط الفرنسي رسالة من عملائه في القسطنطينية مفادها أن الناسك المقدس دانيال تنبأ بأنه في السنة التى يقع فيها عيد البشارة[١٩] فى يوم أحد الفصح سوف يستعيد الفرنج الأراضى المقدسة ، وسوف يحدث اقتران اليومين هذا في عام ١١٩٠م . وأضاف التقرير أن صلاح الدين يواجه اضطرابات نظرا للنزاعات الدائرة فى عائلته ومع حلفائه، حتى برغم مساعدة الامبراطور إيزاك عديم التقوى، وسرت شائعة بأن صلاح الدين نفسه قد هزم هزيمة نكراء بالقرب من أنطاكية[٢٠]. و لم تكن الأخبار الواردة إلى فرنسا في العام التالى بمثل هذا التفاؤل الكبير ، غير أنه عرف أن الفرنج بدأوا يأخذون زمام الهجوم، بفضل المساعدة الصقلية[٢١]. وفضلا عن ذلك ، كان الامبراطور الغربى فريدريك بارباروسا في طريقه بالفعل إلى الشرق[٢٢] وقد حان الوقت لملكي فرنسا وانجلترا لينطلقا.

ووافق الملك ريتشارد ، مسترشدا بنصيحة مجلسه ، على أن يكون تجمع القوات في فيزيلاى ، وعاد إلى نورماندى في عيد الميلاد وأعد العدة للانطلاق إلى فلسطين في أواخر الربيع ، على أنه في اللحظة الأخيرة تقرر تأجيل كل شئ لوفاة ملكة فرنسا ايزابيلا (أوف هينو) في وقت مبكر من شهر مارس[٢٣] وحدث اللقاء في فيزيلاي يوم ٤ يوليه لا قبله ، بين الملك وفرسانه ومشاته ، استعدادا للإنطلاق في مشروعهم المقدس[٢٤].

١١٨٩م : إبحار الأسطول الإنجليزي

ومضت ثلاث سنوات على نكبة حطين التى حلت بمملكة القدس ، ومن حسن

---

(١٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 92-3.

(١٩) (المترجم): Annunciation بشارة الملَك جبريل لمريم بحبلها بالمسيح.

(٢٠) *Ibid.* II, pp. 51-3 .

(٢١) *Ibid.* II, pp. 51-3

(٢٢) انظر ادناه (ص٤٤).

(٢٣) Benedict of Peterborough, II, p. 108; *Itinerarium,* p.146; Rigord, pp. 97-8 .

(٢٤) Benedict of Peterborough, II, p. 111; *Itinerarium,* pp. 147-9; Ambroise, cols. 8-9; Rigord, pp. 98-9.

حظ الفرنج أن كان هناك صليبيون آخرون ليسوا على هـذا القـدر مـن التمهـل ؛ إذ أن الإستجابة الفورية من الملك وليم الصقلي أنقذت صور وطرابلس من الضيـاع . ومـات وليم يـوم ١٨ نوفمبر ١١٨٩، وكـان على خليفتـه تنكريـد أن يواجـه اضطرابـات في بلده[٢٥] على أنـه وصـل في سـبتمبر أسـطول يتـألف مـن سـفن دانمركيـة وفلمنكيـة (فلاندرز)، بالغت التواريخ المتفائلة في تقدير عددها بأنه خمسمائة سفينة، قبالة الشـاطئ السـورى؛ وجـاء في نفس الوقـت تقريبـا جيمـس ، لـورد أفيسـن ، أشـجع فرسـان فلاندرز[٢٦] وحتى الإنجليز، لم ينتظروا جميعا مليكهم لكي يتحركوا، وإنما أبحر أسـطول صغير من أبناء لنـدن، مغـادرا نهـر التيمـز فـى أغسـطس، ووصـل في الشـهر التـالى إلى البرتغال حيث وافقوا، كما فعل رفاقهم قبل أربعين سنة ، على الالتحاق باعمـال مؤقتـة لدى ملك البرتغال، وبفضل مساعدتهم تمكن الملك سانكو مـن أن ينتزع مـن الاسـلام قلعة سيلفيس الواقعة شرق رأس القديس فينسينت . وفي يوم عيد ميخائيل كبير الملائكة (٢٩ سبتمبر) واصل اللندنيون إبحارهم خلال مضيق جبـل طـارق[٢٧]. غـير أن أضخـم قوة كانت قد شرعت فعـلاً فـى الرحيـل إلى الأراضـي المقدسـة هـى جيـش الامـبراطور فريدريك باربا روسا .

وكان لأنباء الكوارث التى حلت بفلسطين عميق الأثر لدى فريدريـك . فمنـذ أن عاد مع عمه الملك كونراد من الحملة الصليبية الثانية التعيسة وهـو يتلهـف على محاربة الكفرة مرة اخرى . وقد تقدم به العمر الآن ، إذ كاد يبلغ السبعين من عمـره، وأمضـى في حكم المانيا خمسا وثلاثين سنة . ولم تمح السنون شـجاعته ولا جاذبيتـه ، وانمـا تعلـم الحذر من تجاربة المريرة الكثيرة . ولم تكن هناك روابط شخصية كثيرة تربطـه بفلسـطين التى لا تضم من المستوطنين من أصل المـاني سـوى القليـل ، وأدى خلافـه الطويـل مـع البابوية إلى أن تحجم الحكومة الفرنجيـة عـن طلـب مسـاعدته ، علـى أن آل مونتفرانـت كانوا دائما من بـين مناصريـه ، وربمـا أدت شـجاعة كونـراد في الدفـاع عـن صـور إلى تحريك مشاعره . وبسبب زواج وريثه هنرى مؤخرا من الأميرة الصقليـة كونسـتانس ، أصبح على علاقة وثيقة بنورمانديي الجنوب ؛ وبوفاة البابا ايربان الثالث في خريف عـام

---

(٢٥) انظر Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 416-18. ويرد موت ولـيم في كافة التواريخ الأنجلو-رومانية والفرنسـية على أنه كارثة.

(٢٦) Benedict of Peterborough, II, p. 94; *Itinerarium*, p. 65; Ambroise, cols. 77-8.

(٢٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 116-22; Ralph of Diceto, II, pp.65-6; *Narratio Itineris Navalis ad Terram* Sanctam, passim.

١١٨٧م تمكن من التصالح مع روما . وكان جريجورى الثامن شغوفا بانضمام مثل هـذا الحليف الرائع لإنقاذ العالم المسيحى ، كما كان كليمنست الثالث ودودا بنفس القدر[٢٨].

في اليوم السابع والعشرين من مارس ١١٨٨م، أخذ فريدريك الصليب في مينز من يد الكاردينال ألبانو. وكان ذلك اليوم رابع أيام الأحد في فترة الصوم الكبير Lent الذي يعرف من صلاة القداس الافتتاحية على أنه[٢٩] Laetare Hierusalem، بيد أنه انقضى ما يزيد على عام قبل أن يتهيأ للرحيل إلى الشرق . ومُنحت الوصاية على املاكه لابنه الذي سوف يصبح هنرى السادس . أما غريمه الكبير في المانيا - هنرى أسد ساكسونيا - فقد صدرت له الأوامر إما أن يتخلى عن حقوقه في جزء من أراضيه ، أو ينضم إلى الحملة الصليبية على حسابه الخاص ، أو يُنفي لثلاث سنوات ؛ فاختار الحل الأخير وتقاعد في بلاط زوج أمه هنرى الثاني في انجلترا[٣٠] وبفضل التعاطف البابوي ، هدأت الكنيسة الألمانية بعد سلسلة طويلة من المشاحنات . وتعززت الحدود الغربية لألمانيا بانشاء منطقة عسكرية جديدة[٣١] Margravate. وبينما كان فريدريك يجمع جيشه كتب إلى عواهل الأراضي التى سوف يعبرها، ملك هنجاريا والإمبراطور ايزاك أنجيلوس والسلطان قلج أرسلان السلجوقى ؛ وأرسل إلى صلاح الدين سفيرا ، هنرى (أوف ديتز)، برسالة متبجّحة يطالبه فيها باعادة فلسطين كلها إلى المسيحين ويتحداه في معركة في ساحة زوآن[٣٢] في نوفمبر ١١٨٩[٣٣]. وقد رد ملك هنجاريا والسلطان السلجوقي برسائل تعد بتقديم المساعدة ، فى عام ١١٨٨ وصلت سفارة بيزنطية إلى

---

(٢٨) لا تزال أفضل رواية عن حياة فريدريك الأول العامة هى التى أوردها Prutz في *Kaiser Friedrich I.* وأورد Ansbert حملته الكاملة إلى الشرق في *Expeditio Friderici* وكذلك في *Historia Peregrinorum* و*Epistola de* Morte Friderici Imperatoris. ونشرت كل تلك التواريخ في Chroust, *Quellen zur Geschichts des Kreuzzuges* Kaiser Friedrichs I.

(٢٩) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* v, 2, pp. 1143-4.

(٣٠) Benedict of Peterborough, II, pp. 55-6.

(٣١) Hefele-Leclercq, *op. cit.* p. 1144, with references.

(٣٢) (المترجم): Zoan: التسمية التى أطلقها الكتاب المقدس على مدينة تانيس Tanis بدلتا مصر القديمة.

(٣٣) Ansbert, *Expeditio Friderici,* p. 16. وترد نسخة من رسالة فريدريك إلى صلاح الدين في Benedict of Peterborough, II, pp. 62-3. ويكاد زيفها أن يكون يقينيا.

نورمبرج للترتيب لتفصيلات مرور الصليبيين عبر اراضي ايزاك[٣٤]. على أن رد صلاح الدين كان كيّسا متعاليا؛ إذ عرض الافراج عن أسرى الفرنج وإعادة الأديرة اللاتينية في فلسطين إلى أصحابها، لا أكثر، وإلاّ فهى الحرب.

١١٨٩م : الامبراطور فريدريك يغادر ألمانيا

في باكورة شهر مايو ١١٨٩، انطلق فريدريك من راتسيبون ، يصحبه ابنه الثاني فريدريك (أوف سوابيا) وكثيرون من كبار أتباعه ؛ وكان جيشه أكبر قوة تجتمع حتى ذلك الوقت لتنطلق في حملة صليبية ، وكان جيد التسليح والإنضباط[٣٥]. ورحب به الملك بيلا ترحيبا ودودا اثناء عبوره هنجاريا و لم يدخر جهدا في تقديم كل ما يطلبه من تسهيلات . وفي ٢٣ يونية عبر نهر الدانوب عند بلجراد ودخل الأراضى البيزنطية[٣٦]، فبدأ سوء التفاهم . إذ أن الامبراطور ايزاك أنجيلوس لم يكن بالرجل الذي يعالج موقفا يتطلب المهارة والصبر والشجاعة . لقد كان ذكيا ، ولكنه كان من رجال الحاشية ضعيف الإرادة ووصل إلى العرش مصادفة ويعى دائما وجود أنداد له في اراضيه ؛ لقد كان مرتابا في مسؤوليه جميعا لكنه لم يجرؤ على مراقبتهم مراقبة صارمة . كما أن القوات المسلحة لإمبراطوريته وخزائنها لم تبرأ من الإستنزاف الذي فُرض عليها إبان عهد المجد الزائف لمانويل كومنينوس ، وأما محاولة الامبراطور أندرونيكوس إصلاح الإدارة فقد انتهت بسقوطه ، وباتت الآن أكثر فسادا من أى وقت مضى ، وكانت الضرائب الباهظة الظالمة تسبب الإضطراب في البلقان ؛ فكانت قبرص ثائرة تحت ايزاك كومنينوس ، وضاعت كيليكيا للأرمن ، وكان الأتراك يقتطعون من الأقاليم الامبراطورية في وسط الأناضول وجنوبها الغربى ، وقد شن النورمانديون هجوما ضخما على إيبروس ومقدونيا، وكانت هزيمة النورمانديين هى النصر العسكري الوحيد الذي تحقق في عهد ايزاك انجيلوس ، أما فيما عداه فكان يستند إلى الدبلوماسية ؛ فدخل فى تحالف وثيق مع صلاح الدين مما أثار رعب فرنج الشرق ؛ و لم تكن دوافعه

---

(٣٤) Ansbert, *Expeditio Friderici*, p. 15; Hefele-Leclercq, *loc. cit.*

(٣٥) يقدر Arnold of Lubeck أن احصاءً احري للجيش عند عبوره نهر ساف، فكان هناك خمسون الف فارس ومائة الف راجل (pp.130-1) ويقدر المؤرخون الألمان أن قوام الجيش كله كان مائة الف.

(٣٦) Ansbert, *Expeditio Friderici*, p. 26.

أن يقضي على مصالحهم ، وانما كان يستهدف كبح قوة السلاجقة. وكان قد أنجز انجازا طارئا بإعادة الأماكن المقدسة في القدس إلى الرعاية الأرثوذكسية ، لكنه انجاز صدم الغرب خاصة . ولكي يعزز من قبضته على البلقان صادق ملك هنجاريا - بيلا - وتزوج ابنته الصغرى مارجريت عام ١١٨٥ ؛ لكن الضرائب غير العادية التى فرضها بمناسبة الزواج كانت الشرارة التى فجّرت تمرد الصرب والهنجاريين المتوقدين، ولم يستطع جنرالاته سحق المتمردين برغم القليل من النجاح أول الأمر . وعندما ظهر فريدريك في بلجراد كانت هناك دويلة صربية مستقلة تشكلت فعلا في التلال الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة ؛ وعلى الرغم من أن القوات البيزنطية كانت ما تزال تستحوذ على الغابات بطول الطريق الرئيس الذاهب إلى القسطنطينية ، كان قطاع الطرق الهنجاريون هم أسياد الريف[٣٧].

١١٨٩م : فريدريك في البلقان

لم يكد الجيش الألماني يعبر نهر الدانوب حتى بدأت المتاعب ؛ إذ راح قطاع الطرق الصرب والبلغار يهاجمون الجماعات الشاردة ، وارتاع الريفيون وتوحسوا من الألمان الذين اتهموا البيزنطيين في الحال بالتحريض على تلك العداوة ، ولم يتحققوا من أن ايزاك كان أضعف من أن يضع حدا للمتاعب . وكان فريدريك حصيفا عندما سعى إلى مصادقة زعماء التمرد ؛ فجاء ستيفن نيمانيا أمير الصرب مع أخيه سراسيمير إلى مدينة نيش لتحية العاهل الألماني أثناء مروره بالمدينة في يولية ؛ وأرسل زعيما التمرد البلغاري، الأخوان فلاخ ، ايفان آسين وبيتر ، رسائل إلى العاهل الألماني يعدانه بتقديم المساعدة . وتسببت تلك المفاوضات في اثارة مشاعر قلق ليست غير طبيعية في القسطنطينية . وقد كان ايزاك مرتابا من قبل في نوايا فريدريك ؛ إذ أنه أرسل سفيريه السابقين في البلاط الألماني وهما جون دوكاس وقنسطنطين كانتاكوزينوس ، لتحية فريدريك فور دخوله الأراضي البيزنطية . وذهل صديقهما القديم المؤرخ نيستاس خونياتيس عندما وجدهما ينتهزان الفرصة ويحرضان فريدريك ضد ايزاك ، الذى سرعان ما علم بتآمرهما. وبينما كان مرافقو فريدريك يثيرون بمخططاتهم ما كان

---

(٣٧) عن ايزاك أنجيلوس انظر Cognasso, `Un Imperatore Bizantino della Decadenza, Isacco II Angelo'in *Bassarione*, vol. XXXI, pp. 29 ff., 246 ff.. ويرد خطاب فريدريك الأول إلى هنرى في Bohmer, *Acta Imperii Selecta*, p. 152

يشعر به فعلا من انعدام الثقة فى ايزاك التي سبق وان نشأت من تجاربه اثناء الحملة الصليبية الثانية ، في تلك الأثناء تخلت عن ايزاك حكمته . فحتى ذلك الوقت كان نظام الجيش الألماني ، واستعدادات السلطات البيزنطية لإعادة تموين الجيش ، قد ساعدا في الحيلولة دون حدوث ما لا تحمد عقباه ؛ ولكن فريدريك احتل فليبوبوليس ومنها ارسل مبعوثين إلى القسطنطينية لإعداد ترتيبات عبور الجيش إلى آسيا، فما كان من ايزاك الا أن القي بالرسل في غيابة السجن وهو يقصد الاحتفاظ بهم رهائن كي يضمن تصرفا هادئا من فريدريك . ولقد أخفق اخفاقا تاما في الحكم على فريدريك الذي أرسل ابنه على الفور ، فريدريك (أوف سوابيا)، للاستيلاء على مدينة ديديموتيخوم فى ثراس كرهينة مضادة ، وكتب إلى ابنه هنرى في المانيا كي يحشد اسطولا لمهاجمة بيزنطة ، كما كتب إلى البابا ملتمسا بركاته لحملة صليبية ضد اليونانيين ، قائلا إنه ما لم يتحكم الفرنج في المضايق فلن تنجح الحركة الصليبية قط . وتوقع ايزاك وصول اسطول غربي ليساعد الجيش الالماني في هجومه على القسطنطينية ، فراح يراوغ لعدة أشهر إلى أن تراجع اخيرا وأطلق سراح السفراء الألمان. ورُقع السلام ترقيعا في ادريانوبل ، وأعطى ايزاك رهائن لفريدريك ووعد بتقديم السفن إذا وافق فريدريك على عبور الدردنيل وليس البوسفور ، كما وعد بتزويده بالمؤن أثناء عبوره الأناضول . وكانت رغبة فريدريك هى الانطلاق مباشرة إلى فلسطين ؛ فكظم غيظه ووافق على الشروط.

وكان سير الجيش الألماني في البلقان بطيئا للغاية ، وكان فريدريك في شدة الحرص بحيث لم يشأن عبور الأناضول في فصل الشتاء . فأمضى شهور الشتاء في أدريانوبل بينما كان سكان القسطنطينية يرتعدون خوفا من أن يرفض اعتذارات ايزاك ويهاجم مدينتهم . وأخيرا ، تحركت حملته كلها في شهر مارس ١١٩٠ هابطة إلى حاليبولي على الدردنيل ، وبمساعدة الناقلات البيزنطية عبرت إلى آسيا فتنفس ايزاك ورعاياه الصعداء(٣٨).

بمغادرة فريدريك الشاطئ الآسيوي للدردنيل اتخذ تقريبا الطريق الذي طرقه الاسكندر الأكبر قبل خمسة عشر قرنا ، عابرا جرانيكوس ونهر انجلوكوميتس اثناء فيضانه إلى أن اتخذ الطريق العام البيزنطي المرصوف الذي يربط ميليتوبوليس وبلقسير

---

(٣٨) Nicetas Choniates, pp. 525-37; Ansbert, *Expeditio Friderici*, pp. 27-66; *Gesta Federici in Expeditione Sacra*, pp. 80-4; Otto of St Blaise, pp. 66-7; *Itinerarium*, pp.47-9; See Hefele-Leclercq, *op. cit.* pp. 1147-9; Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 445-7.

الحديثة ، وعلى هذا الطريق اخترق كالاموس إلى فيلادبلفيا، حيث أظهر السكان الود أول الأمر ، لكنهم حاولوا بعض السرقات من حرس المؤخرة وعوقبوا . ووصل لاوديفيا يوم ٢٧ ابريل ، أي بعد ثلاثين يوما من عبوره الدردنيل ؛ ومن هناك اتجه إلى داخل البلاد بطول الطريق الذي اتخذه مانويل فى مسيرته المهلكة إلى ميريوسيفالوم . وفي الثالث من مايو ، وبعد مناوشة مع الأتراك ، عبر ساحة المعركة حيث كانت عظام الضحايا ما تزال ظاهرة للعيان . وقد غدا الآن في الأراضي التي يسيطر عليها السلطان السلجوقي . وكان واضحا جليّا أن قلج ارسلان لم يكن ليترك الصليبيين يمرون في اراضيه سالمين - برغم ما وعدهم به . غير أنه ارتاع من حجم جيشهم ، فنشط في التسكع حول اطرافه ، يتصيد الشاردين ويتدخل في عمليات جمع الطعام . وأثبتت تلك التكتيكات فعاليتها ، إذ اجتمع الجوع والعطش وسهام الأتراك ، فبدأت الاصابات تتوالى . واضطر فريدريك إلى اتخاذ طريق ملتف حول طرف سفوح السلطان داغ ثم إلى الطريق القديم من فيلوميليوم شرقا فوصل قونية يوم ١٧ مايو ، حيث كان السلطان وحاشيته قد انسحبوا امامه ، وبعد معركة حادة مع قطب الدين ، ابن السلطان ، تمكن كونراد فى اليوم التالي من شق مدخل إلى داخل المدينة ، ولم يلبث بها طويلا وانما ترك جيشه يأخذ قسطا من الراحة في حدائق ميرام في الضواحي الجنوبية . وبعد ستة ايام انتقل إلى كارامان التى وصلها يوم ٣٠ مايو ومنها قاد الجيش خلال ممرات جبال طوروس دون مقاومة باتجاه ساحل سيلوقية الجنوبي . وكان الميناء الآن تحت سيطرة الأرمن ، فسارع بطريق الأرمن (كاثوليكوس) بارسال رسالة إلى صلاح الدين . وكان الطريق يخترق بلادا وعرة وتقلص الطعام واشتد لهيب حرارة الصيف[٣٩].

١١٩٠م : مصرع فريدريك بارباروسا

في العاشر من يونية هبط الجيش الضخم إلى سهل سيلوقية وأعد العدة لعبور نهر كاليكادنوس ليدخل المدينة . وتقدم الامبراطور على جواده مع حرسه الخاص ، ثم هبط إلى ناحية المياه . وما حدث بعد ذلك غير يقيني ، فإما أنه وثب من على جواده لينعش

---

(٣٩) Nicetas Choniates, pp. 538-44; Ansbert, *Expeditio Friderici,*pp 67-90; *Gesta Federici,* pp.84-97; *Epistola* de Morte Friderici, pp. 172-7; *Historcial* *Itinerarium*, pp. 49-53. ويناقش Ramsay الطريق الذي سلكه فريدريك في *Geography of Asia Minor,* pp.129-30 واما تحذير كاثوليكوس لصلاح الدين فقد أورده بهاء الدين Beha ed-Din (*P.P.T.S.*pp.185-9).

نفسه في تيار الماء البارد ووجد التيار أقوى مما كان يظن ، أو أن بدنه الطاعن في السن لم يتحمل الصدمة ؛ أو أن جواده انزلق وألقى به في الماء حيث غرق بثقل ما كان يحمله من دروع . وفي وقت وصول الجيش إلى النهر كانت جثته قد انتشلت وبقيت ممددة على ضفة النهر(٤٠).

كان موت الامبراطور العظيم ضربة مريرة ليس فقط لرفاقه وانما للعالم الفرنجي كله، إذ أن أنباء مجيئه على رأس جيش ضخم قد شدت كثيرا من عزائم الفرسان المحاربين علي الساحل السورى . وبدت قوته وحدها كافية لدحر المسلمين ، وبانضمام جيوش ملكي فرنسا وانجلترا إليه ، التي كان مقررا أن ترحل حالا إلى الشرق ، فإن استعادة الأراضي المقدسة إلى المسيحية بدت يقينية . وكان صلاح الدين نفسه يخشى أن يكون تجمع الجيوش فوق طاقته . وعندما سمع أن فريدريك في طريقه إلى القسطنطينية أرسل كاتم سره ومترجم سيرته - بهاء الدين - إلى بغداد لتحذير الخليفة الناصر والدعوة إلى أن يتكتل المؤمنون للتصدي للتهديد ، واستدعى اتباعه جميعا للإنضمام إليه . وظل يجمع المعلومات عن كل مرحلة من مراحل تحرك الجيش الألماني ، وظن خطأ أن قلج ارسلان يساعد الغزاة سرا . وعندما سمع المسلمون فجأة بموت فريدريك ، بدا لهم أنها معجزة مهداة اليهم من السماء ، وفي الإمكان الآن تقليص الجيش الذي تجمع لصد الألمان في شمال سوريا ، وأرسلت فصائل للإنضمام إلى قواته على الساحل الفلسطيني(٤١).

كان الخطر كبيرا على الإسلام ، وكان صلاح الدين محقا في أن يرى خلاصه فى مصرع الامبراطور . فبالرغم من هلاك عدد من الجنود الألمان ، وضياع بعض المعدات أثناء الرحلة الشاقة عبر الأناضول ، كان جيش الامبراطور ما يزال ضخما . غير أن الألمان ، بتلهفهم الغريب إلى عبادة زعيم ، عادة ما تضعف معنوياتهم باختفاء الزعيم . وهيمن الارتباك على جنود فريدريك . إذ أن دوق سوابيا الذى تولى القيادة كان يفتقر إلى شخصية ابيه . وقرر بعض الأمراء العودة مع اتباعهم إلى أوروبا ، واستقل آخرون

(٤٠) Nicetas Choniates, p. 545; Ansbert, *Expeditio Friderici*, pp.90-2; *Epistola de Morte Friderici*, pp.177-8; *Gesta* Federici, pp.97-8; Otto of St Blaise, -p.51; *Itinerarium*, pp.54-5; Ibn al-Athir,II,p.5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.183 .4.

(٤١) Ernoul, pp.250-1; *Estoire d'Eracles*,II, p140; *Itinerarium*, pp.56-7; Ambroise, col.87; Ibn al-Athir, *loc.cit.*; Abu Shama,pp.34-5. Beha ed-Din, .*P.P.T.S.* pp.189-91 ; Bar-Hebraeus, pp. 332-4

سفينة من سيلوقية أو طرسوس إلى صور . وواصل الدوق مسيرته مع الجيش الذي تناقص عدده بصورة كبيرة ، في حمارة قيظ الصيف في سهل كيليكيا ، يحمل معه جثة الامبراطور المحفوظة في الخل . وقام الأمير الأرميني ليو بزيارة المعسكر الألماني من قبيل اللياقة بعد أن كان مترددا . و لم يتمكن القادة الألمان من عمل الترتيبات الكفيلة بإطعام رجالهم بما فيه الكفاية ، فانعدم الإنضباط بين الجنود ، وخاصة في غياب الامبراطور ، فكثير منهم جوعى ، وكثير مرضى ، وكلهم بين مشاكس وعنيد ، وأصيب الدوق نفسه بمرض عضال واضطر إلى أن يمكث في كيليكيا ، واستمر جيشه بدونه ، لكي يجابه هجوما سقط فيه ضحايا كثيرون بينما كان يعبر البوابات السورية . وكان من وصل إلى أنطاكية يوم ٢١ يونية مجرد جماعة من الغوغاء في حالة تدعو إلى الرثاء ، وبعد أيام قليلة وصل فريدريك دون سوابيا بعد أن تماثل الشفاء[٤٢].

الألمان فى أنطاكية

ورحب الأمير بوهمند كونت أنطاكية بالألمان ترحيبا حارا . وكانوا في حالة دمار. فبدون قادتهم فقدوا حماسهم ، وبعد ما لا قوه من مشاق الرحلة كانوا على غير استعداد للتخلى عن رفاهية أنطاكية . كما أن ما أقبلوا عليه من إفراط فى الملذات لم يكن له أثر فى تقوية حالتهم الصحية . فقد اغتبط فريدريك (أوف سوابيا) لما لمسه من ترحيب بوهمند ، وتلقى دعوة من ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) من صور لزيارته، جعلته متلهفا على مواصلة الرحلة . على أنه عندما غادر أنطاكية فى نهاية اغسطس كان الجيش بصحبته قد تقلص أكثر فأكثر ، ومن ثم لم يجد الكثير من الفرنج فائدة ترجى من أي جهد يبذل لمساعدتهم ، وكان معارضو كونراد جميعا يعلمون أن فريدريك ابن عمه وصديقه ، فدأبوا على الهمس بأن صلاح الدين قد دفع لكونراد ستين ألف بيزانت لكي يعمل على ابعاد فريدريك عن أنطاكية ، وهى المكان الذي يستطيع فيه أن يؤدى خدمات نافعة للقضية المسيحية . ومن الناحية الرمزية ، فشل مفعول الخل أيضا فتحللت جثة الامبراطور ، وبغاية السرعة دفنت بقاياه في كتدرائية أنطاكية ، لكن بعض العظام انتُزعت من الجثة وسافرت مع الجيش على أمل غاش في أن

---

(٤٢) Sicard of Cremona, p. 610; Otto of St Blaise, p.52; Abu Shama, pp.458-9; .Beha ed-Din,*P.P.T.S.*pp.207-9.

يكون هناك جزء على الأقل من فريدريك بارباروسا منتظرا يوم القيامة في القدس[٤٣].

إن الإخفاق المروّع الذى منيت به حملة الامبراطور الصليبية ، أسفر عن تزايد أهمية رحيل ملكى فرنسا وانجلترا إلى الشرق ، ليدليا بدلوهما في الصراع المصيرى المرير الذي اندلع على ساحل فلسطين الشمالى.

---

(٤٣) Abu Shama, pp. 458-60; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 212-14; Ernoul, p. 259.

الفصل الثانى:

عكــــا

عكّـــا

"هأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك
بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور"
(إرميا ٢١ :٤)

أخطأ صلاح الدين فى ساعة الانتصار خطأ واحدا حسيما عندما ترك نفسه لمخاوفها من تحصينات مدينة صور ، فلو أنه زحف عليها بعد استيلائه على عكا مباشرة عام ١١٨٧م لفاز بها . وكان يظن أن استسلامها قد رُتب وإن تأخر لأيام قليلة، وعندما وصل إلى صور كان كونراد (أوف مونتفرات) قد وصلها قبله ورفض التفكير في الاستسلام ، ولم يكن لدى صلاح الدين آنذاك ما يعينه على ضرب حصار منظم حول المدينة ، فانتقل إلى أهداف أخرى أيسر في الاستيلاء عليها . وبعد سقوط القدس، هاجم صلاح الدين مدينة صور للمرة الثانية في شهر أكتوبر بجيش كبير وبكل ما لديه من آلات الحصار . غير أن الأسوار وراء البرزخ الضيّق صارت الآن حصينة بعدما قواها كونراد الذى خصص ما أحضره من أموال من القسطنطينية لتقوية الدفاعات كلها . ولم يستطع صلاح الدين النيل من الأسوار بآلات الحصار ، كما أن اسطوله دمّر في

معركة خارج مدخل الميناء، فرفع الحصار مرة أخرى وسرّح أغلب جنوده ، وقبل أن يأتي مرة أخرى لاستكمال فتح منطقة الساحل كان العون قد وصل من وراء البحار[١].

ولم تكن القوات التى أرسلها وليم الثاني الصقلي في أواخر الربيع من عام ١١٨٨ كبيرة ، إلا أنها كانت تتألف من أسطول جيد التسليح بقيادة الأدميرال مارجاريتوس ومئتين من الفرسان المدربين . وعلى أثر وصول هذه التعزيزات رفع صلاح الدين الحصار عن قلعة الكرك في يولية ١١٨٨م وأحجم عن مهاجمة طرابلس[٢] ويرضى الآن بالتفاوض على السلام . وكان هناك فارس من أسبانيا جاء إلى صور في الوقت المناسب للمشاركة فى الدفاع عنها ، ولا نعرف اسمه ولكن من الدروع التي كان يرتديها كانوا يطلقون عليه الفارس الأخضر . وقد تأثر صلاح الدين كثيرا بشجاعته واقدامه ، وقابله بالقرب من طرابلس في صيف عام ١١٨٨م آملا أن يقنعه بالترتيب لهدنه وبإلحاقه بالخدمة مع العرب . لكن الفارس الأخضر أجاب بأن الفرنج لن يضعوا في اعتبارهم شيئا أقل من استعادة بلدهم ولا سيما وأن العون آتٍ من الغرب. فليخل صلاح الدين فلسطين، ولسوف يجد الفرنج بعد ذلك أكثر حلفائه اخلاصا[٣].

١١٨٨م : الإفراج عن الملك جوي

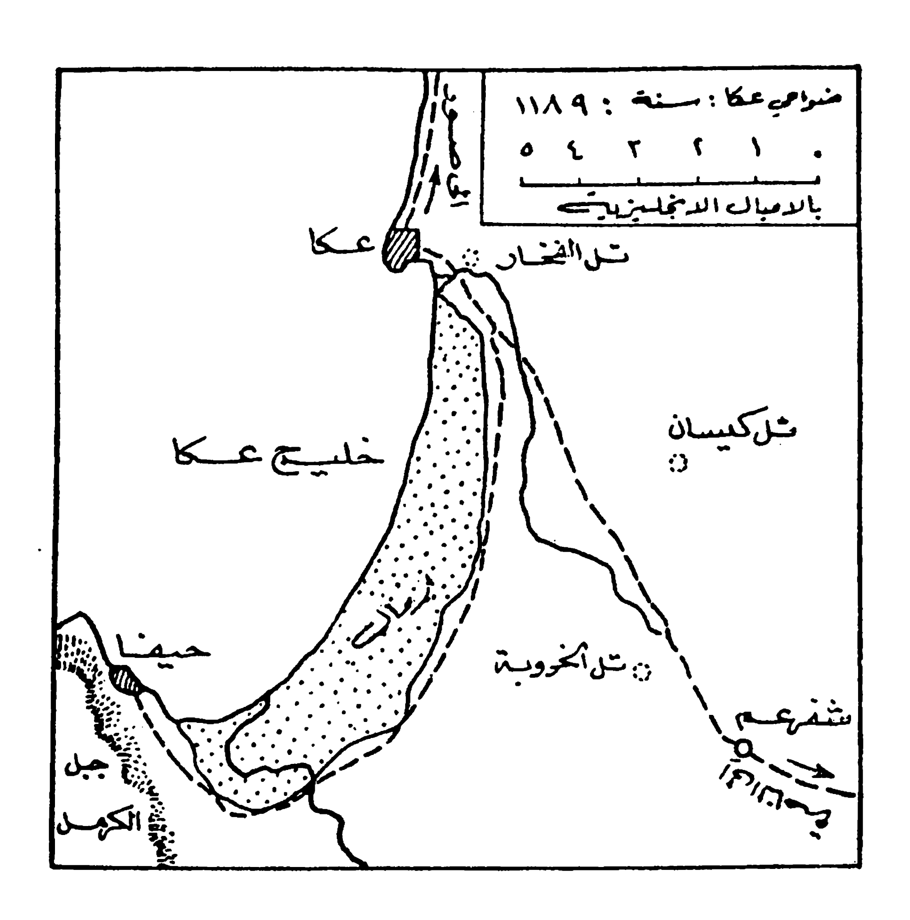
على الرغم من عدم إمكان التوصل إلى السلام ، أبدى صلاح الدين نواياه الودودة بأن اطلق سراح البعض من أبرز سجنائه . ولقد كان من عادته أن يُغوى لوردات الفرنج من أسراه بأن يفوزوا بحريتهم بالأمر بتسليم حصونهم اليه ، فكانت وسيلة رخيصة وسهلة فى الحصول على القلاع . بل إن فروسيته مضت أبعد من ذلك ؛ فعندما فشلت الليدى ستيفانى سيدة منطقة الأردن فى إقناع حاميتي كرك ومونتريال بالاستسلام لكي يُفرج عن ابنها همفرى (أوف طورون) ، أعاده صلاح الدين إليها

(١) انظر اعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٥٢٢-٥٢٣.

(٢) *Itinerarium,* pp.27-8; Benedict of Peterborough,II, p. 54; *Estoire d'Eracles,*II, pp.114, 119-20; Abu Shama, pp. 362-3; Ibn al-Athir, pp. 718, 720-1. ويقول تاريخ *Eracles* والمؤرخون الإسلاميون إن مارجاريتوس اجرى مقابلة مع صلاح الدين في اللاذقية.

(٣) Ernoul, pp. 251-2.

خريطة رقم ١ : عكا



حتى قبل أن يستولى على القلعتين العنيدتين بالقوة . وكانت عسقلان هى ثمن الافراج عن الملك حوي ، لكن سكانها خجلوا من أنانية مليكهم فرفضوا احترام اتفاقه مع صلاح الدين . ولقد سقطت عسقلان الآن ، ولذا كتبت الملكة سيبيلا مرارا وتكرارا إلى صلاح الدين تتوسل اليه أن يعيد اليها زوجها . وفي يولية أجابها صلاح الدين إلى طلبها ، وبعد أن أقسم حوي أغلظ الأيمان بأنه سوف يعبر البحر عائدا إلى بلده وأنه لن يحمل السلاح قط في وجه المسلمين أُرسل مع عشرة من أبرز أتباعه ، بمن فيهم الكونستابل أماريك ، إلى طرابلس للانضمام إلى الملكة.وفي ذات الوقت سُمح لمركيز مونتفرات المسن بالذهاب إلى ابنه في صور(٤).

وتسبب ما كان عليه صلاح الدين من كرم وسخاء فى أن يشعر رفاقه بالخطر . إذ أنه لم يكتف بالسماح للمواطنين الفرنج فى كل مدينة تستسلم له بالذهاب إلى صور أو طرابلس للانضمام إلى رفاقهم، وإنما مضى أبعد من ذلك بأن صخّم حاميتي هاتين القلعتين المسيحيتين بالإفراج عن الكثير من اللوردات الأسرى. على أن صلاح الدين كان يدرى ما هو فاعل . ذلك أن مشاحنات التحزبات التى مزقت الفرنج في السنوات الاخيرة من مملكة القدس لم تخمد إلاّ قبل معركة حطين بأسابيع قليلة بفضل مهارة باليان (أوف ابيلين)، ثم تفجّرت مرة أخرى في نفس مساء يوم المعركة ، بعد أن زادت الكارثة من مرارتهم . ووراح مناصروا لوسينان وكورتناى يلقون بمسؤولية الكارثة على ريموند أمير طرابلس ؛ بينما وجد أصدقاء ريموند – وهم آل ابيلين وآل جارنيه واغلب النبلاء المحليين – أسبابا أفضل ليلقوا باللائمة على ضعف الملك حوي ونفوذ فرسان المعبد ورينالد (أوف شاتيلون). والآن مات ريموند ورينالد ؛ ولكن المرارة لم تمت . ذلك أن النبلاء الذين حرموا من أملاكهم وظلوا محبوسين وسط الحشود وراء اسوار صور لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى تقاذف الاتهامات بين بعضهم البعض . والآن وبعد أن تملص باليان وأصدقاؤه من الأسر أعلنوا عن قبولهم لكونراد (أوف مونتفرات) زعيما لهم معتبرين أنه الوحيد الذى انقذ صور ؛ أما مناصروا حوى الذين برزوا من السجن بعد أن انتهت أسوأ مراحل الأزمة، فلم يكن في ناظرهم سوى متطفل وغريم محتمل لمليكهم . ولقد جاء الإفراج عن حوى ، وهو أمر أبعد ما يكون عن

---

(٤) عن مشكلة الافراج عن حوي ومكان وزمان الافراج عنه بدقة انظر اعلاه الجزء الثانى ص ٤٦٢, n.4 مع المراجع . ويشير (Ernoul (p.253 وتاريخ هرقل (*Eracles* (p.121 وبهاء الدين.(P.P.T.S. (p.143والى قسم حوى بعدم حمل السلاح ضد المسلمين . ويقول تاريخ *Itinerarium* إنه وعد بأن يهجر المملكة (p.25)كما يقول (Ambroise (col.70 إنه وعد بالعودة عبر البحر . وبعد ذلك قال حوي إنه أوفى بوعده بذهابه من طرطوس الى جزيرة رودس.(*Estoire d'Eracles, II*, p.131).

تقوية الفرنج ، ليصل بالمشاحنات إلى ذروتها[٥].

١١٨٨م : المنافسة بين جوي وكونراد

وانسحبت الملكة سبيلا إلى طرابلس، وربما كانت مدفوعة في ذلك بالرغبة في الهرب من الجو المعادى لزوجها . وبموت ريموند في خريف ١١٨٧م ، انتقلت طرابلس إلى الابن الأصغر لابن عمه ، بوهمند الأنطاكي الذي كان مستهترا لا يبالي بشئ ، ولذا ربما سرّه تعزيز الحامية في طرابلس ولم يعبأ بتجمع أنصارها اللوسينيين حولها . ولحق بها جوى فور إطلاق سراحه ، وعلى الفور عثر على أحد القساوسة ليحرره من قسمه الذى أقسمه لصلاح الدين . إذ كان قسما تحت الإكراه ولأحد الكفرة ولذا قالت الكنيسة إنه قسم باطل . وأغضب صلاح الدين أن يسمع بذلك غير أن دهشته جاوزت كل حد . وبعد أن زار جوى أنطاكية حيث وعده بوهمند وعدا مبهما بالمساعدة سار مع مناصريه من طرابلس إلى صور منتويا الاستيلاء على ما تبقى له من مملكته الغابرة. وأغلق كونراد البوابات في وجهه ، فكان كونراد وحزبه يرون أن جوي قد خسر المملكة فى حطين وأثناء أسره ، وقد تركها بلا حكومة ، وكان كل شيئ خليقا بالضياع لولا تدخل كونراد . ولما طلب جوى أن يجرى استقباله كملك ، كان رد كونراد أنه يحتفظ بصور أمانة لعواهل الصليبيين الآتين لإنقاذ الأراضى المقدسة ، وعلى الإمبراطور فريدريك وملكي فرنسا وانجلترا أن يقرروا لمن تُعطى الحكم في نهاية الأمر . وبدا الجدل عادلا ويناسب كونراد تماما ؛ إذ ربما يحظى جوى في مطلبه بتأييد ريتشارد ملك انجلترا وهو السيد الأعلى للوسينيين في جيين (بجنوب غرب فرنسا)؛ ولكن الامبراطور فريدريك وفيليب ملك فرنسا من أبناء عمومة كونراد ومن أصدقائه . وعاد جوى مغتمّا مع حزبه إلى طرابلس[٦]. وسُر الصليبيون لإنشغال صلاح الدين في تلك الآونة باخضاع القلاع في شمال سوريا، وقد سرّح جيشه تسريحا جزئيا، ثم سرّح المزيد من الفصائل فى يناير ١١٨٩م. وقد أمضى هو نفسه الشهور الأولى من العام في القدس وعكا يعيد تنظيم حكومة فلسطين ، ثم عاد إلى عاصمته دمشق في مارس[٧].

---

(٥) ابن الأثير pp. 707-11 ، ينتقد بشدة سياسة صلاح الدين.

(٦) Ernoul, pp. 256-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 123-4; Ambroise, cols.71-3; *Itinerarium*, pp. 59-60.

(٧) Abu Shama, pp. 380-1; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 140-1.

وفي ابريل عاد جوى مع سبيلا إلى صور ومرة أخرى طلب منحه السيطرة على المدينة ، ولما وجد أن كونراد شديد العناد كسابق عهده ، عسكر أمام أسوار المدينة . وفي نفس الوقت تقريبا وصلت تعزيزات قيّمة من الغرب . ففي وقت سقوط القدس ، كانت مدينتا بيزا وجنوا تخوضان واحدة من الحروب المعتادة بينهما ، ومن بين انجازات البابا جريجورى الثامن أثناء بابويته القصيرة، مفاوضات الهدنة بينهما والوعد بأسطول من بيزا في حملة صليبية . وأبحر أبناء بيزا قبل نهاية العام لكنهم أمضوا الشتاء في ميناء ميسينا الواقع شمال شرق صقلية ، ووصلت سفنهم البالغ عددها اثنتين وخمسين سفينة إلى صور يوم ٦ إبريل ١١٨٩م تحت قيادة أوبالدو رئيس أساقفتهم . ويبدو أن أوبالدو تشاجر مع كونراد بعد وصوله مباشرة ، وعندما ظهر جوى ، انضم اليه ابناء بيزا . كما أنه فاز بتأييد القوات الصقلية التى انضمت إليه. وفى بداية الصيف حدثت بعض المناوشات الطفيفة بين الفرنج والمسلمين ، غير أن صلاح الدين كان مايزال يرغب فى أن تستريح جيوشه، وكان المسيحيون ينتظرون المزيد من المساعدة من الغرب . وفجأة هدم الملك جوي معسكره في نهاية أغسطس وانطلق مع أتباعه جنوب الطريق الساحلى للهجوم على عكا ، وأبحرت سفن بيزا وصقلية بمحاذاته.

١١٨٩م : جوي يصل أمام عكا

وكانت تلك حركة من حركات التهور اليائس ، وقرار رجل شجاع لكنه في ذات الوقت غاية في الحماقة. فبعد أن أحيطت رغبة جوي في أن يحكم صور ، شعر بحاجته الملحة إلى مدينة يستطيع منها أن يعيد انشاء مملكته . وكان كونراد آنذاك فى شدة المرض ، ورأي جوي الفرصة سانحة لكي يُظهر أنه هو القائد النشط للفرنج ، لكن المخاطرة كانت هائلة . ذلك أن حجم الحامية الإسلامية في عكا يجاوز ضعف حجم جيش جوي كله ، فضلا عن وجود قوات صلاح الدين النظامية في متناول اليد. ولم يكن أحد يتوقع النجاح لهذه المغامرة ، لكن للتاريخ مفاجآته . فإذا كان كونراد بطاقته الجامحة هو الذي أنقذ بقايا فلسطين للعالم المسيحي ، فإن حماقة جوي الطائشة هى التي حوّلت المد وبدأت حقبة جديدة من إعادة الغزو(٨).

كان صلاح الدين في التلال الواقعة وراء صيدا يحاصر قلعة بيوفورت عندما

---

(٨) Ernoul, p.257; *Estoire d'Eracles,* II, pp.124-5; Ambroise, cols.73-4; *Itinerarium,*pp.60-62; Beha ed-Din,*P.P.T.S.pp.143-4*

وصلته أنباء حملة جوي . وكانت القلعة مشيدة على منحدر صخري شاهق وتتبع لريتالد أمير صيدا وقد بقيت حتى آنذاك بما كان لسيدها من مكر . إذ أنه ذهب إلى بلاط صلاح الدين وسحر السلطان وحاشيته باظهار تقديره العميق للأدب العربى واهتمامه بالاسلام ، وألمع إلى أنه إذا توفر له بعض الوقت فسوف يستقر في دمشق بعد أن يتحول إلى الاسلام . غير أن الشهور انقضت و لم يحدث شئ سوى تقوية تحصينات قلعة بيوفورت . وأخيرا قال صلاح الدين في اوائل اغسطس إن الوقت قد حان لكي تستسلم قلعة بيوفورت وتبقي بمثابة ضمان لنوايا رينالد ، الذي اخذه المسلمون تحت الحراسة حتى بوابة القلعة حيث أمر قائد الحامية بتسليمها باللغة العربية ، وان يقاوم باللغة الفرنسية . و لم تنطل الخدعة على العرب ، لكنهم كانوا فاقدي الحيلة لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالهجوم ، وبينما كان صلاح الدين يجمع قواته لمحاصرتها ألقى برينالد في السجن في دمشق[٩] . وظن صلاح الدين بادئ الأمر أن مسيرة جوي تستهدف سحب الجيش العربى بعيدا عن قلعة بيوفورت ، غير أن جواسيسه سرعان ما اخبروه أن جوي يريد عكا . وعندئذ أراد صلاح الدين مهاجمة الفرنج أثناء صعودهم سلم صور أو لسان الناقورة ، لكن مجلسه لم يوافق وانما رأي الأفضل أن يترك الفرنج يصلون إلى عكا لكي يقعوا بين الحامية وجيش صلاح الدين الرئيسي . و لم يكن صلاح الدين على ما يرام آنذاك ، فوافق على ما ارتآه المجلس وهو في حالة من الوهن[١٠] .

وصل جوي إلى مشارف عكا يوم ٢٨ أغسطس وضرب معسكره على تل تورون، حاليا تل الفخّار، الذي يبعد مسافة ميل شرقي المدينة ، على نهر بيلوس الصغير كي يتزود رجاله بالماء . وبعد ثلاثة أيام فشلت محاولته الاولى في الهجوم على المدينة ، فلبث ينتظر التعزيزات[١١] . وكانت عكا قد بنيت على شبه جزيرة صغيرة ناتئة في خليج حيفا ، فوفّر لها البحر الحماية من الجنوب والغرب وكذلك حاجز الأمواج القوي . وكان هناك حاجز أمواج متهدم يمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى صخرة يكللها حصن يدعي برج الذباب Tower of Flies. ووراء حاجز الأمواج مرفأ لا يؤثر فيه سوى رياح البحر البعيدة عن الشاطئ. وأما شمال المدينة وشرقها فقد توفرت لهما الحماية بأسوارها العظيمة التى تلتقي في الركن الشمالي الشرقي بزاوية قائمة مع حصن يدعى البرج

---

(٩) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 140-3, 150-3.

(١٠) *Ibid.* pp. 154, 175; Ibn al-Athir, II, p.6; Ambroise, cols. 74-5.

(١١) Ernoul, pp. 358-9; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 125-6

الملعون Cursed Tower . وكانت البوابتان الأرضيتان تقعان في نهاية كل سور من السورين على الشاطئ ، وكانت هناك بوابة ضخمة تفتح في المرفأ ، وبوابة ثانية تفتح على مرسى معرّض للرياح الغربية المستديمة . وكانت عكا في ظل ملوك الفرنج أغنى مدينة في المملكة ومكان اقامتهم المفضل ، ودائما ما كان صلاح الدين يزورها خلال الأشهر الأخيرة وقد اعتنى باصلاح الأضرار التي سببها جنوده أثناء الاستيلاء عليها. والآن اصبحت قلعة قوية بها حامية جيدة ومؤن وفيرة وخليقة بمقاومة طويلة(١٢).

وكانت التعزيزات قد بدأت تصل من الغرب في أوائل سبتمبر. فجاء أولا أسطول كبير يحمل الدانمركيين والفريزيين (قاطنو شمال هولاندا)، وهم جنود لا يعرفون الإنضباط لكنهم ملاحون مهرة كانت سفنهم ذات فائدة بالغة في احكام الحصار حول المدينة من البحر ، وخاصة عندما أدى موت وليم الصقلي في نوفمبر إلى انسحاب الأسطول الصقلي(١٣). وبعد أيام قليلة جاءت سفن من ايطاليا تحمل كتائب البلجيك من الفلاندرز وكتائب الفرنسيين ، يقودهم الفارس المقدام جيمس (أوف آفيزن)(١٤)، وكذلك كونتات باروبرين وبريو ، وفيليب أسقف بوفيه . وقبل نهاية الشهر جاءت فرقة من الألمان بقيادة لويس ، الحاكم العسكرى في ثورينجيا، الذي فضّل السفر مع أتباعه بحرا على مرافقة الامبراطور. وكان معه كونت جيلدرز وفرقة من الايطاليين بقيادة جيرار رئيس أساقفة رافينّا وأسقف فيرونا.

١١٨٩م : صلاح الدين ينتقل إلى عكا

شعر صلاح الدين بخطر هذه التعزيزات ، وبدأ يستدعى أتباعه مرة اخرى فجاءوا مع جزء من جيشه من بيوفورت ، تاركين فصيلة صغيرة لتنهي إخضاع الحصن. ولم يفلح هجومه على معسكر جوى يوم ١٥ سبتمبر ، غير أن ابن أخيه تقي الدين تمكن

---

(١٢) عن عكا انظر Enlart في .. *Les Monuments des Croisés,* vol. II, pp. 29 ويرد وصف للمدينة في *Itinerarium,* pp.75-6.

(١٣) *Estoire d'Eracles,* II, pp.127-8; Ambroise, col.77، ويذكر أمبرواز بحارة من La Marche في وسط فرنسا و Cornwall أقصى جنوب غرب انجلترا؛ *Itinerarium,* pp.64-5. أنظر Riant في *Expéditions des Scandinaves*, pp.277-83

(١٤) عن James of Avesnes أنظر Ambroise, *loc. cit.*: Benedict of Peterborough, II, pp. 94-5؛ وفي *Itinerarium* يرد ذكر أسقف Beauvais ورفاقه والحاكم العسكري، وفي ٧٣-٤ يرد ذكر الإيطاليين

من اختراق خطوط الفرنج وإقامة اتصال مع البوابة الشمالية للمدينة، وضرب معسكره هو نفسه إلى الشرق قليلا من معسكر المسيحيين. وسرعان ما شعر الفرنج بقدرتهم على أخذ زمام الهجوم . وبينما كان لويس (أوف ثورينجيا) مارا بصور أقنع كونراد (أوف مونتفرات) بالانضمام إلى الجيش الفرنجي ، طالما وانه لن يكون مضطرا إلى الخضوع لأوامر جوي . وفي ٤ أكتوبر ، وبعد أن حصن الفرنج معسكرهم الذي تركوه تحت قيادة جودفري أخي جوي ، شنوا هجوما كبيرا على خطوط صلاح الدين. وكانت معركة مريرة ؛ ذلك أن تقي الدين الذي كان على ميمنة العرب انسحب تمويها لينصب كمينا لفرسان المعبد الذين كانوا قبالته ، لكن صلاح الدين لم ينتبه للمناورة وانطلق لإنقاذه فأضعف واسطة جيشه وكانت النتيجة أن تداعى الوسط والميمنة فاستداروا هاربين بعد أن نزلت بهم خسائر فادحة ، ولم يكبح البعض عنان جيادهم إلى أن وصلوا إلى طبرية ، بل أن كونت برين توغل حتى خيمة صلاح الدين نفسه ، لكن ميسرة العرب كانت متماسكة، وعندما تفرقت صفوف المسيحيين لمطاردة الهاربين ، هاجمهم صلاح الدين بالميسرة وردهم وهم يفرون في فوضى إلى معسكرهم الذي كان يتعرض في نفس الوقت لهجوم عنيف قامت به حامية عكا . وصمد جودفرى (أوف لوسينان) في المعسكر ، وسرعان ما اصبح الجزء الأكبر من الجيش المسيحى آمنا خلف دفاعاته ، ولم يشأ صلاح الدين أن يجازف بالهجوم عليهم . وسقط الكثير من فرسان الفرنج على أرض المعركة ومن بينهم آندرو (أوف برين) ، وأصيب الجنود الألمان بالذعر ولحقت بهم خسائر جسيمة ، كما كانت خسائر فرسان المعبد جسيمة هى الأخرى ، إذ أُسر سيدهم الأعظم جيرار (أوف ريدفورت)، وهو الذى كان يمثل العبقرية الشيطانية للملك جوى في الأيام التي سبقت حطين ، ودفع حياته ثمنا لحماقاته . ولم ينقذ كونراد نفسه من الأسر سوى تدخل غريمه الشجاع الملك جوى(١٥).

ولقد كان النصر في جانب المسلمين ، وإن لم يكن كاملا ، إذ لم يبرح المسيحيون مكانهم؛ وأثناء الخريف جاءهم المزيد من المساعدة من الغرب، فقد وصل أسطول

---

(١٥) Ambroise, cols. 78-81; *Itinerarium,* pp.68-72; Ralph of Diceto, II, p.70; *Estoire d'Eracles* II, p.129; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.162-9، ويورد بهاء الدين مقالا نابضا بالحيوية إذ أنه كان حاضرا هو نفسه. ولا تطابق روايته تماما الرواية الواردة في *Itinerarium* ، فهو لا يذكر أي خروج قامت به الحامية. ويصف المناوشات التى سبقت pp.154-62. Abu Shama, pp. 415-22.

اللندنيين في نوفمبر بعد أن شد من أزره ما احرزه من نجاح في البرتغال[١٦]. ويتحدث المؤرخون عن مجئ صليبيين آخرين كثيرين من نبلاء فرنسا ومن فلاندرز وايطاليا، وحتى من هنجاريا والدانمارك[١٧]. وقد رفض الكثير من فرسان الغرب انتظار أسيادهم المتثاقلين. وبهذه القوات الاضافية تمكن الفرنج من استكمال حصار عكا من البر . لكن صلاح الدين كان يتلقى التعزيزات هو الآخر ، إذ أن أنباء ارتحال الامبراطور فريدريك بارباروسا التى شجعت المسيحيين دفعت صلاح الدين إلى استدعاء أتباعه من سائر انحاء آسيا ، بل أنه كتب إلى مسلمى المغرب واسبانيا قائلا إنه إذا كان العالم المسيحى الغربى يرسل فرسانه للحرب من أجل الأراضى المقدسة ، فينبغى لغرب العالم الإسلامى أن يحذو حذوه . فأجابوه بعبارات التعاطف وانما بالنذر اليسير من المساعدة الايجابية[١٨]. ورغم ذلك سرعان ما غدا جيشه ضخما بما فيه الكفاية لكي يحكم بدوره حصار المسيحيين أو يكاد ؛ وإذن أمسى المحاصِرون محاصَرين . وفي ٣١ أكتوبر اخترقت خمسين سفينة من سفنه الاسطول الفرنجى ، وان كان ذلك ببعض الخسائر ، وجلبت الطعام والمؤن إلى داخل عكا ، وفي ٢٦ ديسمبر أعاد أسطول من مصر (أرمادا) فتح المواصلات مع المرفأ[١٩].

١١٩٠م : توقف إجباري للطرفين

واجه الجيشان بعضهما طوال الشتاء لا يغامر أيهما باشتباك عام . وقد كانت بينهما مناوشات وصراعات ، غير أنه كان هناك في الوقت نفسه اختلاط ودي سرى بينهما ، وبدأ الفرسان في الجانبين يعرفون ويحترمون بعضهم، وقد يحدث توقف للحرب بينما الزعماء يتمتعون بمناقشة ودية ، وكانت الدعوة توجّه إلى جنود الأعداء لحضور الاحتفالات والسمر في كل من المعسكرين ، وفي أحد الأيام تحدى صبية صغار يعيشون في معسكر العرب الصبية المسيحيين في معركة وهمية مرحة . وتميز صلاح الدين نفسه

---

(١٦) يورد *Itinerarium* التاريخ على انه سبتمبر. على انه إذا صحّت التواريخ التى أوردها Benedict و Ralph of Diceto (انظر اعلاه p.9, n.6) ، يكون شهر نوفمبر هو أبكر تاريخ تستطيع السفن فيه ان تصل الى سوريا

(١٧) *Itinerarium*, pp.73-4; Ambroise, col.84. ولم يرد تاريخ وصول كلٍ من هؤلاء

(١٨) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 171, 175-8; Abu Shama, pp. 497-506.

(١٩) *Itinerarium*, pp.77-9; Ambroise, cols. 84-5; Abu Shama, pp. 430-1.

بما أظهره للأسرى المسيحيين من طيبة وبما كان يرسله إلى الأمراء المسيحيين من هدايا ورسائل تتصف بالود. أما الأكثر تعصبا من أتباعه فكانوا يتساءلون عما حدث للجهاد الذي توسل صلاح الدين إلى الخليفة أن يبشر به ، كما أن هذا الجو الغريب استعصى على فهم الوافدين الجدد من فرسان الغرب . ومن الناحية الظاهرية ، كانت الحرب خلوا من المرارة ، لكن الجانبين كليهما كانا يصران اصرارا صارما على النصر[٢٠].

وبرغم نوادر الكياسة هذه كانت الحياة في معسكر المسيحيين صعبة ذلك الشتاء، إذ نقص الطعام ولا سيما بعد أن فقد الفرنج السيطرة على البحر . وباقتراب الأحوال الجوية الأكثر دفئا أصبحت المياه تمثل مشكلة وانهارت ترتيبات المرافق الصحية ، فانتشر المرض بين الجنود . ودفعت تلك الصعاب كلا من جوي وكونراد إلى عقد اتفاق بينهما يقضي بأن يحتفظ كونراد بصور، وكذلك بيروت وصيدا بعد استردادهما، على أن يعترف بجوى ملكا. وبعد أن أبراما السلام بينهما على تلك الهيئة غادر كونراد المعسكر في مارس وعاد في نهاية الشهر بسفن محملة بالطعام والأسلحة ، وأقلع أسطول صلاح الدين من ميناء عكا لاعتراضه ، على أنه بعد معركة حامية الوطيس رُدت سفن العرب برغم استخدامها للنار الأغريقية وتمكن كونراد من النزول إلى الشاطئ ومعه المؤن . واستغل الفرنج المواد التي احضرها فشيدوا أبراج حصار خشبية حاولوا بها الهجوم على المدينة يوم ٥ مايو ، غير أن الأبراج أُحرقت[٢١].

وسرعان ما عاد ظهور المجاعة والمرض في معسكر المسيحيين الذين شعروا بقليل من العزاء عندما سمعوا بوجود مجاعة في عكا أيضا ، رغم أن السفن العربية كانت تشق طريقها حربا إلى داخل الميناء من حين لآخر حاملة معها مؤنا جديدة[٢٢]. ودأبت فصائل من المسلمين طوال الربيع على الانضمام إلى جيش صلاح الدين . وفي ١٩ مايو، يوم السبت السابع[٢٣]، بدأ في مهاجمة المعسكر الذي صمد لثمانية أيام من الحرب[٢٤]، وفي يوم ٢٥ يولية ، وهو يوم القديس جيمس ، دارت رحى معركة على نطاق شامل

---

(٢٠) Abu Shama, pp. 412, 433; Ibn al-Athir, II, pp. 6,9.

(٢١) -*Itinerarium*,pp.79-85; Ambroise,cols.85-92; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.178-80; Ibn al Athir,II, pp.18-21

(٢٢) *Itinerarium,* pp. 85-6, 88; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 181-2

(٢٣) (المترجم) السبت السابع :Whit Saturday بعد عيد الفصح ، تخليدا لنزول الروح القدس في عيد الخمسين او العنصرة (Pentecost انظر العهد القديم ، اعمال الرسل ٢).

(٢٤) pp. 87-8*Itinerarium*,.

حدث فيها أن قام جنود الفرنج بقيادة ضباط الصف، وضد رغبة قادتهم ، بهجوم جرئ على معسكر تقي الدين على ميمنة صلاح الدين ، فهُزموا هزيمة منكرة وهلك الكثير منهم ، وخف لنجدتهم رالف (أوف التا ريا)، وهو صليبي انجليزي مرموق ، ورئيس شمامسة كولشيستر ، وقتل في المعركة(٢٥).

وخلال الصيف جاء إلى المعسكر صليبيون آخرون رفيعو النسب حيث لقوا الترحيب رغم أن كل جندي جديد كان يعني فما جديدا يتعين إطعامه . وكان من بينهم الكثير من أعظم النبلاء الفرنسيين والبرجانديين ، الذين اسرعوا بالمجئ يسبقون مليكهم . فكان من بينهم تيبالد كونت بلوا، وأخوه ستيفن (أوف سانسير) والذي سبق أن عزف عن الزواج بالملكة سبيلا ، ورالف كونت كليرمونت ، وجون كونت فونتيني، وألان (أوف سانت فاليري)، مع رئيس اساقفة بيزانسون وأساقفة بلوا وتول وغيرهم من رجال الدين البارزين . وكانوا تحت امرة هنرى (أوف تروى) كونت شامباني ، وهو شاب مرموق للغاية إذ أن أمه - ابنة الينور الأكيتانية من زواجها الفرنسي - كانت اختا غير شقيقة لملكي انجلترا وفرنسا، وكان كل من خاليه يقدّراه تقديرا عاليا . وفي الحال حصل على مركز خاص كمندوب للملكين ومبعوثهما . وتولى زمام عمليات الحصار الجارية التى كان يديرها حتى آنذاك جيمس (أوف افزن) ولاند جريف (أوف ثورينجيا)(٢٦) واستغل لاندجريف وصوله ليعود إلى اوروبا بعد أن كان مريضا لبعض الوقت ، وربما بالملاريا(٢٧) ووصل فريدريك (أوف سوابيا) مع بقايا جيش بارباروسا إلى عكا في اوائل اكتوبر(٢٨) وبعد أيام قلائل هبطت في صور فصيلة انجليزية وسارت جنوبا إلى عكا. وكان على رأسها بلدوين ، رئيس اساقفة

---

(٢٥) *Itinerarium* pp. 89-91; Ambroise, cols. 93-4، ويخطئ امبرواز في تحديد تاريخ معركة ويقول انها وقعت في يوم القديس جون بدلا من يوم القديس جيمس ؛ *Estoire d'Eracles,* II, p. 151; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp. 193-6

(٢٦) *Itinerarium*, pp.92-4; Ambroise, col. 94; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*p. 197. كان هنري ابن هنرى الأول كونت شامباني. وكان تيبالد (اوف بلوا) وستيفن (اوف سانسير) الأخوين الصغيرين لأبيه. وكانت عمته Alix زوجة ثانية للملك لويس السابع ، وأم الملك فيليب الذي كان لذلك ابن عمته من الدرجة الأولى وعمه من الدرجة الثانية.

(٢٧) مات لاندجريف في طريقه الى الوطن. ويتهمه Ralph of Diceto بأنه كان على علاقة بالأعداء وقبل منهم الأموال.(II, pp. 82-3)

(٢٨) Abu Shama, p. 474، يحدد التاريخ على انه ٤ أكتوبر ؛ Beha ed-Din *P.P.T.S.*pp.209,213; *Itinerarium*, pp. 94-5.

كنتربرى[٢٩].

١١٩٠م : قتال متهاوش

انقضى الصيف كله في قتال متهاوش، وكل جانب ينتظر التعزيزات التى تمكّنه من أخذ زمام الهجوم ، فبعد أن استولى رحال صلاح الدين على بيروت ، انضموا اليه في عكا ، لكنه كان قد ارسل جنودا للتصدي لفريدريك باربا روسا في الشمال ، ولم يعودوا حتى الشتاء . وفي تلك الأثناء انقلبت المناوشات إلى اختلاط ودي . ولاحظ مؤرخو المسيحيين، والرضا يأخذ بألبابهم، عدة أحداث أنعم فيها الرب على البطولة الصليبية وخيّب مساعى العرب ، لكن جميع محاولاتهم لتسلق اسوار عكا باءت بالفشل. وشن فريدريك (أوف سوابيا) بعد وصوله مباشرة هجوما شرسا ، حاول بعده رئيس أساقفة بيسانسون دك المدينة بآلات حصار منجنيقية متطورة شُيّدت حديثا . ولم يكن هناك طائل من أيّ من الهجومين[٣٠] وفي نوفمبر تدبر الصليبيون زحزحة صلاح الدين عن موقعه فى تل قيسان الواقع على بعد خمسة اميال من المدينة ، لكنه رسّخ قواته في موضع اقوى في تل خروبا الأبعد قليلا ، وقد مكّنهم ذلك من شق طريق إلى حيفا في بعثة للبحث عن الطعام خففت قليلا بعض الجوع في المعسكر . على أن كلا المدينة والمعسكر كانا يعانيان من الجوع والمرض ، ولم يكن أي منهما في وضع يمكنه من بذل أقصى جهد[٣١].

١١٩٠م : زواج كونراد وايزابيللا

كانت الملكة سبيللا من بين ضحايا المرض ذلك الخريف ، وقبل وفاتها بأيام قلائل كانت البنتان الصغيرتان اللتان ولدتهما للملك جوي قد لقيتا حتفهما[٣٢]. والآن

---

(٢٩) *Itinerarium* p. 93.

(٣٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 214-18; Abu Shama, pp. 480-1; *Itinerarium*, pp.97-109، ويرد في Itinerarium أحداث معجزات متنوعة وفي الصفحات ١٠٩-١١ هجوم على برج الذباب وفي الصفحات ١١١-١١٣ هجوم رئيس اساقفة بيسانسون؛ Ambroise, cols.98-104.

(٣١) *Itinerarium*, pp.115-119; Ambroise, cols. 105-8; Abu Shama, pp. 513-14

(٣٢) *Estoire d'Eracles*, II, p. 151 حيث يرد إسما البنتين على انهما أليس وماريا؛ Ernoul, p. 267 الذي يقول انها كان لها أربعة أطفال ؛ ويُرجع Ambroise, col.104 تاريخ وفاتها في نهاية اغسطس،

أصبحت الأميرة أيزابيلا هي وريثة المملكة، وبات عرش حوى في خطر ، إذ أنه قد فاز بالتاج كزوج للملكة . فهل تبقى حقوقه بعد وفاتها؟ أما بارونات المملكة الباقين على قيد الحياة ، بقودهم باليان (أوف ابيلين) فكانت تلك فرصتهم كي يتخلصوا من حكمه الضعيف المشؤوم . وكان مرشحهم للتاج هو كونراد (أوف مونتفرات). فلو أنه استطاع أن يتزوج ايزابيلا لصارت مطالبته اقوى من مطالبة حوى . وكانت الصعوبات تكتنف هذا الحل ، إذ أن شائعات قد انتشرت بأن كونراد لديه زوجه تعيش في القسطنطينية ، وربما زوجة أخرى في ايطاليا ، ولم يعبأ البتة بمحاولة الغاء الزواج أو الطلاق . لكن القسطنطينية وايطاليا بعيدتان ، وان كانت فيهما سيدتان مهجورتان ففي الامكان نسيانهما . على أن المشكلة الأعضل كانت تتمثل في زواج ايزابيلا من همفري أمير تبنين الذي لم يكن على قيد الحياة وحسب، وانما موجود أيضا في المعسكر. وقد كان همفري شابا فاتنا وشجاعا ومثقفا ، لكنه كان وسيما بصورة أنثوية بحيث لم يكن الجنود الغلاظ من حوله يحترمونه ، كما لم ينس البارونات قط ضعفه الذي دفعه إلى التخلي عن قضيتهم عام ١١٨٦م عندما نال حوى التاج متحديا للشروط الواردة في وصية الملك بالدوين الرابع . فقرروا أنه لابد وأن يُطلّق . وكان من اليسير اغواء همفري نفسه بالموافقة على الطلاق ، إذ لم يكن مناسبا للحياة الزوجية ؛ فضلا عن أنه امتلأ رعبا من المسؤوليات السياسية . غير أن ايزابيلا كانت أقل انقيادا منه ، إذ كان همفري دائما لطيفا معها ، ولم ترغب في استبداله بمحارب مقيت في أواسط عمره ، ولا طموحات لديها للتاج . وترك البارونات الأمر لأمها المقتدرة الملكة ماريا كومنينا ، زوجة باليان . فمارست عليها سلطة الأمومة التي دفعت الأميرة العازفة في نهاية الأمر إلى أن تهجر همفرى . ثم أعلنت أمام الأساقفة المجتمعين أن خال الأميرة، بلدوين الرابع، قد أجبرها على الزواج وأنها لم تكن قد جاوزت عامها الثامن عندما تمت ترتيبات الارتباط . وحيث انها في شرخ الشباب ، وبالنظر إلى ما هو معروف عن همفري من تخنث، فلا بد من إلغاء الزواج . وكان البطريق هيراكليوس في شدة المرض بحيث لم يتمكن من حضور الاجتماع وعيّن رئيس أساقفة كنتربري ليكون ممثله . ولأن هذا الأخير يعلم مدى شغف سيده الملك ريتشارد بأبناء لوسينيان ، فقد رفض النطق بابطال الزواج ، وانما ذكر زواج كونراد السابق وأعلن أن الزواج بين

بينما يرد في احدى مخطوطات Ernoul تاريخ ١٥ يولية. وفي وثيقة محررة في عكا بتاريخ شهر سبتمبر ١١٩٠ م ورد اسمها على انها على قيد الحياة ، ووردت على أنها ميتة في رسالة مؤرخة في ٢١ اكتوبر .*Epistolae Cantuarenses,* pp. 228-9 ويقول Rohricht في *Regesta,* *Addimentum,* p.67 انها ماتت يوم ١ أكتوبر ١١٩٠

كونراد وايزابيلا لن يكون سوى انغماس في علاقة زنا . على أن كونـراد كـان قـد فـاز برئيس اساقفة بيزا، الذي كان مندوبا بابويا، لمناصرة قضيته في مقـابل - هكـذا قيـل - امتيازات تجارية لأبناء بلدته ؛ وقام اسقف بوفيه - وهو من ابناء عمومة الملك فيليب - باستغلال مؤازرة المندوب البابوي لضمان الإتفاق العام على طلاق ايزابيـلا ، وقـام هـو نفسه بتزويجها من كونراد يوم ٢٤ نوفمبر ١١٩٠م . وشعر أبناء لوسينان بـالحنق مـن هذا الزواج الذي أطاح بحق حوي فـي العـرش ، وتعـاطف معهـم للغايـة أتبـاع الملـك ريتشارد القادمين من انجلترا ونورماندي وغيين[٣٣] . أما بلدوين رئيس الأسـاقفة ، وهـو متحدثهم الرئيسي ، والذي راح يقذف أوامر الطرد من الكنيسة لكل من له صلـة بهـذا الأمر ، فقد مات فجأة يوم ١٩ نوفمبر . وبذل المؤرخـون الإنجليز كـل مـا في وسـعهم لتلطيخ ذكرى كونراد . ومضى حوى نفسه شأوا بعيدا بحيث تحدى كونراد لملاقاتـه في نزال فردى ، لكن كونراد رفض حتى قبول مناقشة هذا الأمر، بعدما أيقن مـن أن حقـه المشروع قد اصبح الآن في حانبه ، وقد رمي أبناء لوسينان كونراد بالجبن . غير أن كـل من كان حريصا على مستقبل المملكة كان على يقين من أنه لكي يستمر الخط الملكي ، كان ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة اخـرى وأن تنجـب طفـلا ؛ وكـان مـن الواضـح أن كونراد ، الذى انقذ صور ، هو الذي يقع عليه اختيارها . ومكـث العروسـان في صـور حيث ولدت ايزابيلا في العام التالي بنتا سمّتها ماريا كي تكون سميّـة لجدتهـا البيزنطيـة . وكان كونراد - محقا فى رفضه لقب الملـك إلى أن يتـم تتويجـه هـو وزوجتـه ، ورفـض العودة إلى المعسكر لأن حوي رفض التنازل عن أيّ من حقوقه[٣٤] .

---

(٣٣) (المترحم) :Guienne, Guyenne منطقة تاريخية تقع حنوب غرب فرنسا.

(٣٤) Ernoul, pp. 267-8؛ وتـرد الروايـة الأكـثر اكتمـالا وبأسـلوب يخلـو مـن الهـوى في الجـزء الثـاني ، الصفحات ١٥١-٤ من *Estoire d'Eracles* ؛ أما الروايتان الواردتان في Ambroise, cols. 110-12 ، وفـى *Itinerarium*, pp.119-24 ، فكلتاهمـا مشـربتان بـالعداوة المريـرة إزاء كونـراد وباليـان والملكـة ماريا كومنينا. وقد حاء في *Itinerarium* ان ايزابيلا رضيت طواعية، بينما مـن الواضـح في *Eracles* أنها لم ترض إلا لأن رضاها كان واجبها السياسى. واستنادا الى Ernoul ، رضي همفري بالطلاق لأنه حصل على الرشوة . فجعلته ايزابيلا يحتفظ باقطاعيـة تبنين التـى كـانت في حـوزة جـده ثـم ضمهـا بلدون الرابع الى التاج . ويقينا كانت زوحة كونراد الإيطالية قد ماتت قبل زواجه من الأميرة البيزنطية ثيودورا آنجيلينا (Nicetas Choniates, p.497) ومن أسلوب رواية المؤرخ نيـستاس يحتمـل ان زوجتـه البيزنطية كانت قد ماتت هى الأخرى (المرجع السـابق .pp.516-17) وأما حوي (اوف سينليس) الـذي عرض تحدي همفري في نزال اذا عارض الطلاق ، فقد أسره العرب عشية الزواج

١١٩١م : المجاعة في المعسكر الفرنجي

واستمر الصليبيين في بلاياهم طوال أشهر الشتاء ، ووصلت صلاح الدين تعزيزاته من الشمال وبات الحصار محكما الآن حول معسكر الفرنج ، فلا الطعام يصلهم برا ولا البحر الهائج الهادر شتاءً يسمح بتوصيل الكثير اليهم في أشهر الشتاء ، بينما تستطيع سفن العرب أن تشق طريقها حربا من حين لآخر إلى المرفأ في عكا. ومن بين اللوردات الذين لقوا حتفهم من المرض في المعسكر تيبالد (أوف بلوا) وأخوه ستيفن (أوف سانسير)(٣٥). وفي ٢٠ يناير ١١٩١م مات فريدريك (أوف سوابيا)، ووجد الجنود الألمان أنفسهم بلا قائد رغم أن ابن عمه ، ليوبولد كونت النمسا الذى وصل من فينيسيا في باكورة الربيع ، حاول تنظيمهم تحت رايته(٣٦). وكان هنرى (أوف شامباني) مريضا لأسابيع كثيرة بحيث باتت زوجته يائسة من شفائه(٣٧) والقى الكثير من الجنود ، وخاصة الإنجليز ، باللائمة على كونراد لما هم فيه من بؤس لأنه كان يمضى الوقت يداعب زوجته ورفض أن يخف لمساعدتهم . غير أنه مهما كانت دوافعه ، فمن الصعب أن نتخيل ما كان بوسعه أن يفعله، خاصة وان المعسكر كان بالفعل مزدحما بدونه(٣٨) ومن حين لآخر كانت هناك محاولات لتسلق الأسوار ، وبصورة ملحوظة يوم ٣١ ديسمبر ، عندما تحرك حطام سفينة اغاثة عربية ليقف عند مدخل المرفأ ، فصرف انتباه الحامية ، لكن محاولة الفرنج باءت بالفشل . وبعد ستة ايام انهار جزء من سور المدينة من ناحية البر، ولم يستطع الصليبيون انتهاز تلك الفرصة كذلك ، وهرب الكثير منهم إلى المسلمين . وبفضل مساعدة صلاح الدين ، وجهاز جواسيسه الماهر ، تمكن من ارسال قوة اخترقت خطوط الصليبيين يوم ١٣ فبراير ، ودخل المدينة قائد جديد وحامية جديدة لإغاثة المدافعين عن المدينة الذين نال منهم التعب والرهق ، لكنه تردد

---

(٣٥) أورد المؤرخ Haymar Monachus موت تيبالد واخيه في .De Expugnatione Acconis, p.38 وترد المحن التي ابتلي بها الصليبيون في *Itinerarium* في الصفحات ١٢٤-٣٤، مع قصيدة من الشعر تلعن كونراد؛ كما أن Ambroise, cols. 112-15 يلقى باللائمة على كونراد. ويذكر Beha ed-Din, *P.P.T.S.*p.236 موت الكونت باليات.(Tibald)

(٣٦) أورد بهاء الدين Beha ed-Din, *P.P.T.S. loc.cit.* موت فريدريك)اوف سوابيا(.وأورد Ansbert في *ExpeditioFriederici*,pp.96-وصول ليوبولد ملك النمسا مع مجموعة من ابناء الراين Rhinelanders من فينيسيا. وامضى الشتاء في زارا .Zara وكان ابن اخي فريدريك بارباروسا، هنرى ملك النمسا وثيودورا كومنينا

(٣٧) Beha ed-Din, *loc. cit.*.

(٣٨) *Itinerarium, loc. cit.*

هو نفسه في شن هجوم نهائي على معسكر المسيحيين ، إذ كان الكثير من جنوده في حالة ارهاق ، وعندما وصلت التعزيزات كان قد أرسل فصائل إلى اماكن بعيدة للراحة. وبدا أن البؤس في معسكر المسيحيين يقوم بالمهمة بدلا من قيام صلاح الدين بانجازها(٣٩).

ومرة أخرى جاوز حِلْم صلاح الدين حد الحكمة. وباقتراب فترة الصوم الكبير للمسيحيين بدا أن الفرنج لن يقدروا على البقاء طويلا . فكانت عملة البنس (الدرهم الصغير الفضي) في المعسكر ثمنا لمجرد ثلاث عشرة حبّة من الفاصوليا أو ثمنا لبيضة واحدة ، وكان ثمن جوال الحبوب مائة قطعة ذهبية . وذُبح الكثير من اكرم الجياد سدا لأفواه أصحابها . وكان الجندي العادى يأكل العشب ويقضم ما يجده من عظام . وحاول الأساقفة ورجال الدين تنظيم نوع من التخفيف ، لكن العقبة تمثلت فيما كان عليه تجار بيزا من بخل ، فهم الذين كانوا يسيطرون على أغلب امدادات الطعام . على أنه في شهر مارس ، وعندما بدا كل شيء باعثا على اليأس ، وصلت سفينة مليئة بالحبوب وتمكنت من إفراغ حمولتها على الشاطئ ، وبتحسن الجو تبعتها سفن اخرى . فكان الترحيب بها مضاعفا ، إذ انها لم تكن تحمل المواد الغذائية وحسب ، وانما كانت تحمل أيضا أنباء مفادها أن ملكي فرنسا وانجلترا قد وصلا أخيرا إلى مياه الشرق(٤٠).

---

(٣٩) Abu Shama, pp. 517-18; Ibn al-Athir, II, pp. 32-3

(٤٠) *Itinerarium*, pp. 136-7; Ambroise, cols. 119-20

الفصل الثالث:

قلب الأسد

قلب الأسد

"لأنى آتى بِشَرٍ من الشمال وكسر عظيم.
قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم"
(ارميا ٤ : ٦-٧)

هبط الملك فيليب أوغسطس إلى البر عند المعسكر أمام عكا يوم ٢٠ ابريل ١١٩١م في يوم السبت التالي لعيد الفصح ، وبعد سبعة اسابيع ، وفي يوم السبت التالى لأحد العنصرة ، هبط الملك ريتشارد ، بعد أن انقضى ما يقرب من أربع سنوات على معركة حطين والنداء اليائس إلى الغرب للمساعدة . ورحب الجنود المرهقون المحاربون على الساحل الفلسطينى بالملكين وقد أخذ منهم السرور كل مأخذ بحيث غفروا أو تناسوا هذا التأخير الطويل . على أن المؤرخ العصري يرى شيئا من العبث في رحلة ريتشارد المتمهّلة المشاكسة إلى ميدان المعركة حيث كان مطلوبا بغايةالسرعة.

ومن اليسير أن نتفهم تريث الملك فيليب وإيثاره عدم التعجل ، إذ ليس هو بالرجل المثالي ، وانما ذهب يحارب حربا صليبية من منطلق الضرورة السياسية لا أكثر. ولو أنه أحجم عن المغامرة المقدسة لخسر النوايا الحسنة لا من الكنيسة وحسب ، وانما من

أغلب رعاياه . فكانت مملكته ضعيفة مهددة ، وكان على حق لأن يرتاب في طموحات الأنجفين[١]، ولذا لم يكن بوسعه الرحيل عن فرنسا إلى أن يستوثق من أن غريمه الإنجليزى في طريقه هو الآخر . وكانت الحكمة تستدعي أن يشرعا في الرحيل معا . كما لا يلام أي من الملكين للتأخير النهائي الذي سببه موت الملكة الفرنسية. وكان لريتشار بعض الأعذار المعينة أيضا، إذ أجبره موت أبيه على إعادة تنظيم المملكة ، وفضلا عن ذلك ، كان ينوى الارتحال بحرا كشأن فيليب ؛ وكان الرحيل بالبحر غير عملي خلال أشهر الشتاء . على أن ضآلة ما يبديه الصليبي من تلهف أصيل تظهر غيبة الهدف والمسؤولية كلاهما.

الملك ريتشارد والملك فيليب

ولقد كانت في شخصية ريتشارد عيوب جسيمة ؛ فمن الناحية البدنية كان فاتنا، فارعا طويل الأوصال وقويا، ذا شعر ذهبى يميل إلى الحمرة وملامح فيها وسامة ، وقد ورث عن أمه ليس فقط ما يتميز به آل بواتو من وسامة ، وانما ورث عنها أيضا طريقتها الجذابة وشجاعتها وتذوقها للشعر والرومانسية ، وكان اصدقاؤه وخدمه يتبعونه في مهابة وتفان. وقد أخذ عن والديه كليهما طبعا حادا وارادة عاطفية . على أنه لم يرث عن والده دهاءه السياسي ولا اقتداره الاداري ، كما لم يأخذ من الملكة إلينور حسّها السليم . إذ أنه قد نشأ في بيئة تحيطها المشاحنات العائلية والخيانة الأسرية ؛ ولأنه كان الإبن المدلل المفضل لدى امه فقد كره أباه ، وفقد الثقة في اخوته رغم أنه احب أخته الصغرى حوانًا . ولقد تعلم أن يكون محاربا عنيفا لا أن يكون محاربا مخلصا. وكان شحيحا مقترا وإن كانت به قدرة على الإتيان بلفتات سخيّة . وكان ولوعا بمظاهر التباهي بالتبذير . وكانت له طاقه ليس لها حدود ، غير أنه في فورة حماسه بما يشغله ينسى المسؤوليات الأخرى ؛ وكان يحب النظام لكنه كان يتملكه الضجر من الإدارة ، ولم يكن يستحوذ على انتباهه سوى فن الحرب ، وكجندي كانت له ملكات حقيقية ، واحساس بالاستراتيجية والتكتيكات والقدرة على قيادة الرجال . وهو الآن في الثالثة والثلاثين من عمره ، في شرخ الحياة ، شخصية ساحرة لها شهرة سبقته إلى

---

(١) (المترجم) : Angevin نسبة الى اقليم آنجو Anjou غربي فرنسا؛ أو من ينتمي الى ملوك انجلترا Plantagenet 1154-1399.

الشرق(٢).

أما الملك فيليب أوغسطس فكان مختلفا جدا . إذ كان أصغر من ريتشارد بثماني سنوات ، وأن كان قد امضى فعلا ما يزيد على عشر سنوات كملك ، وقد علّمته تجاربه المريرة الحكمة . ولم يكن ندا لريتشارد من الناحية البدنية ، وانما كان ذا بنية جيدة وكومة من شعر أشعث وقد فقدت إحدى عينيه القدرة على البصر . ولم يكن هو شخصيا يتصف بالشجاعة ، ورغم أنه كان سريع الغضب ويطلق لأهوائه عنانها فقد كانت لديه القدرة على حجب عواطفه ، ولم يكن يحب التفاخر لا عاطفيا ولا ماديا . وكان بلاطه باعثا على الملل متقشفا، ولم يكن يعبأ بالفنون ، كما لم يكن على قدر من التعليم رغم إدراكه لقيمة المتعلمين وكان يسعى من قبيل السياسة إلى اكتساب صداقتهم والحفاظ عليها بما له من فطنة وبحديثه البليغ. وكسياسي كان صبورا، يقظا ماكرا غادرا بلا ضمير . لكنه كان ذا احساس طاغٍ بواجباته ومسؤولياته . وبرغم تقتيره وشحّه على نفسه وعلى أصدقائه كان كريما مع الفقراء ، يحميهم من ظالميهم . كان رجلا مُنفّرا غير محبوب ، لكنه كان ملكا طيبا . ومن بين فرنج الشرق كان يتمتع بمكانة خاصة ، إذ كان السيد الأعلى للأسر التى أنجبتهم جميعا تقريبا ، وكان أغلب الصليبيين الزائرين أتباعا له بصورة مباشرة أو غير مباشرة . لكنهم كانوا يحسنون تقدير ريتشارد لشجاعته وبسالة فروسيته وجاذبية ؛ وبالنسبة للعرب بدا ريتشارد الأكثر نبلا من قرينه ، والأكثر ثراءً ، والأعظم(٣).

وانطلق الملكان معا من فيزيلاى يوم ٤ يولية ١١٩٠م . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل أسطوله للابحار حول الساحل الأسباني ومقابلته في مرسيليا، لكن القوة البرية كلها تقريبا كانت معه ، وأما جيش فيليب فكان أصغر إذ أن الكثير من أتباعه قد سبق ورحلوا إلى الشرق فعلا . وسار الجيش الفرنسي من فيزيلاى يتبعه الجيش الانجليزى على مقربة إلى أن وصلا ليون ، وبعد أن عبر الجيش الفرنسى نهر الرون ، انهار الجسر العابر للنهر تحت ثقل الحشود الانجليزية ، وفقدت أرواح كثيرة ، وتأخر الركب إلى أن

---

(٢) يرد في ص ١٤٤ من *Itinerarium* وصف لشخص ريتشارد . أما عن شخصيته فانظر ما كتبه Stubbs في introduction to the *Itinerarium* ، وانظر ايضا Norgate, *Richard the Lion Heart, passim.*

(٣) يرد مديح للملك فيليب في *Continuation of William the Breton, p. 323.* أما تاريخ *Itinerarium* فيضع في كل مكان أسوأ تفسير ممكن لشخصيته ، وللاطلاع عليه انظر Cartellieri, *Philipp II August, passim.*

اعيد تنظيم النقل. وبعد أن غادر الجيشان ليون مباشرة افترق الملكان ؛ فاتجه فيليب إلى الجنوب الشرقي عبر سفوح الألب ثم لزم الساحل بالقرب من نيس ثم بطول الساحل إلى جنوا حيث كانت السفن في انتظاره ، واتجه ريتشارد إلى مرسيليا حيث انضم اليه اسطوله يوم ٢٢ اغسطس . و لم تحدث حوادث في الرحلة فيما عدا تأخير بسيط في البرتغال في شهر يونية حيث ساعد البحارة الملك سانكو في صد غزو من امبراطور مراكش. ومن مرسيليا أبحر إلى فلسطين مباشرة البعض من أتباع ريتشارد بقيادة بلدوين (أوف كنتربرى)، لكن الجيش الرئيس ابحر في قوافل مختلفة إلى ميسينا في صقلية حيث كان يفترض أن ينضم إلى الفرنسيين مرة أخرى[٤].

١١٩٠م : الملك تنكريد الصقلي

كان الملك وليم الثاني الصقلي قبل وفاته في نوفمبر ١١٨٩م قد اقترح أن يلتقي ملك فرنسا وملك انجلترا بقواتهما في صقلية ، وذلك عند بدء تخطيط حملتهما الصليبية أول الأمر . وكان وليم الثاني قد تزوج من أخت الملك ريتشارد، حوانا الانجليزية، لكن الزواج لم يثمر ولدا ، ولذا ورثته خالته كونستانس، زوجة هنري (أوف هوهينشتوفن[٥] وهو اكبر ابناء فريدريك باربار وسا. ورأي الكثير من الصقليين أن فكرة وجود حاكم الماني فكرة بغيضة لديهم ، ولذا حيكت مؤامرة قصيرة بمؤازرة من البابا كليمنت الثالث - الذي شعر بالخطر من توقع أن تتحكم أسرة هوهينشتوفن في جنوب ايطاليا - وضعت على العرش بدلا من كونستانس وزوجها هنرى، أحد أبناء الزنا للملك الراحل ويدعى تنكريد كونت ليكّي . وكان تنكريد رجلا ضئيلا قبيحا لا يثير الاعجاب قط ، و لم يكد يجلس على العرش حتى وجد نفسه في الحال يواجه المصاعب؛ إذ حدث تمرد اسلامي في صقلية ، وغزو الماني لأراضيه ؛ وقد بدأ الأتباع الذين انتخبوه يغيرون رأيهم. ولذا اضطر تنكريد إلى استدعاء رجاله وسفنه من فلسطين ، ولولاهم لما تمكن من هزيمة أعدائه . ورغم أنه كان على استعداد لاستقبال الملكين الصليبيين بمظاهر التشريف ومساعدتهما بالمؤن إلا أنه لم يكن على استعداد البتة

---

(٤) للإطلاع على رحلة الملك عبر فرنسا انظر *Itinerarium*, pp.149-53 ؛ وانظر Ambroise, cols. 11 - 14; Benedict of Peterborough, 11, pp. 111-15; Rigord, pp. 98-9; William the Breton, pp. 95-9.

(٥) (المترجم) :Hohenstaufen: اسم الأسرة الحاكمة في المانيا (١١٣٨-١٢٠٨؛ ١٢١٥-١٢٥٤) وفي صقلية (١١٩٤-١٢٦٨.)

لأن يصاحبهما في حملتهما الصليبية[٦].

وكان الملك فيليب قد غادر جنوا في نهاية اغسطس ، وبعد رحلة يسيرة على الساحل الإيطالي وصل ميسينا يوم ١٤ سبتمبر . ولنفوره من مظاهر الأبهة ، اتخذ طريقه داخل المدينة محتاطا بقدر الإمكان كي لا يتطفل عليه أحد ، لكن تنكريد أصدر أوامره باستقباله بمراسم التشريف وجعله يقيم في قصر ملكي هناك . أما الملك ريتشارد فقد قر قراره على الرحيل برا من مرسيليا ، ويبدو أنه كان عزوفا عن الرحلات البحرية لأنه كان يعاني بلا شك من مرض دوار البحر . ونقل أسطوله الجيش إلى ميسينا وانتظره خارج الميناء ، بينما سار ومعه حفنة صغيرة من الحراس في الطريق البري بطول الساحل مخترقا جنوا ثم بيزا وأوستيا إلى ساليرنو حيث انتظر إلى أن سمع أن اسطوله قد وصل ميسينا ، ويبدو أنه عندئذ أرسل أغلب حرسه بحرا إلى ميسينا للإعداد لوصوله ، بينما استمر هو نفسه على جواد مع رفيق واحد فقط . وبينما كان مارا بمدينة ميليتو في منطقة كلابريا بالجنوب الايطالي حاول أن يسرق صقرا من بيت أحد الفلاحين ، وأوشك القرويون الحانقون على القضاء عليه ، ولذا كان في حالة مزاجية سيئة عندما وصل إلى مضايق ميسينا بعد يوم أو يومين ، وقد قابله رجاله على الشاطئ الايطالي واصطحبوه في موكب فخيم الي ميسينا حيث هبط هناك يوم ٣ سبتمبر . وبدت الفخامة المفرطة لدخوله المدينة صارخة في تعارضها مع وصول فيليب المتواضع.

وأثناء مرور ريتشارد عبر ايطاليا سمع عن تنكريد الكثير مما أغضبه ، إذ كانت شقيقته الملكة الأرملة المهيبة جوانا تحت الاقامة الجبرية التكديرية وقد حُرمت من بائنتها، وكان لها بعض النفوذ في المملكة ، وكان واضحا أن تنكريد لم يكن يوليها ثقته. وفضلا عن ذلك، كان وليم الثاني قد ترك ميراثا ضخما لحميه، هنرى الثاني، يتألف من طبق ذهبي وأثاث ذهبي وخيمة حريرية وسفينتين كبيرتين مسلحتين والكثير من الأكياس المليئة بالمؤن . وبموت هنرى ، افترض تنكريد أن بوسعه الإحتفاظ بالميراث لنفسه . ومن ساليرنو أرسل ريتشارد إلى تنكريد يطلب اطلاق سراح اخته والتخلي عن بائنتها وميراثها، وكان لهذه الطلبات وما ورد من أنباء عن تصرفات ريتشارد في كلابريا أن تسببت في خوف تنكريد ، فتدبر أن ينزل ريتشارد في قصر خارج أسوار ميسينا ، ولكى يرضيه أرسل جوانا تصحبها حراسة ملكية لتنضم إلى أخيها ودخل في مفاوضات حول مدفوعات من الأموال بدلا من البائنة والميراث . وكان الملك فيليب ،

---

(٦) عن وضع تنكريد انظر .Chalandon, *Domination Normande en Italie,* II, pp. 419-24

الذى زاره ريتشارد بعد وصوله بيومين ، قد عرض مساعيه الحميدة ، وعندما ذهبت اليه الملكة حوانًا للإعراب عن تقديرها ، استقبلها استقبالا بلغ من الود القدر الذي جعل الجميع يتوقعون أن يسمعوا عن زواجهما الوشيك . على أن ريتشارد لم يكن في مزاج يساعده على المصالحة ؛ فأولا أرسل فصيلة عبرت المضايق واحتلت مدينة باحنارا على ساحل كلابريا حيث نصّب اخته هناك. ثم هاجم جزيرة صغيرة في مواجهة ميسينا تماما كان بها دير اغريقى ، وطُرد الرهبان شر طردة ليحل جنوده مكانهم . وكانت المعاملة التى نالت من قداسة الرهبان أن جعلت الرعب يتملك أهل ميسينا الذين كانوا يونانيين في أغلبهم ، بينما أثار الجنود الإنجليز حنق المواطنين الأكثر ثراء لما أقدموا عليه ازاء زوجاتهم وبناتهم.

١١٩٠م : ريتشارد يحاصر ميسينا

وفي الثالث من اكتوبر حدثت مشادة في احدى الضواحى بين بعض الجنود الإنجليز وجماعة من المواطنين أدت إلى أعمال شغب . وانتشرت في المدينة شائعة بأن ريتشارد ينوى غزو صقلية كلها ، وأغلقت البوابات في وجه رجاله ، ولم تفلح محاولة لسفنه في اقتحام المرفأ . وسارع الملك فيليب إلى استدعاء رئيس اساقفة ميسينا وقائد بحرية تنكريد ، مرجاريتوس ، وغيره من الوجهاء الصقليين إلى قصره وذهب معهم في الصباح التالي لتهدئة ريتشارد في مقر اقامته خارج الأسوار . وفي اللحظة التى بدا فيها أن هناك بعض الترتيبات للمصالحة ، سمع ريتشارد بعض المواطنين المتجمعين على تل وراء النافذة يكيلون الشتائم المهينة لإسمه ، فتملكه الهياج وغادر الاجتماع وأمر جنوده بالهجوم مرة اخرى . وفي هذه المرة بوغت المواطنون وتمكن الإنجليز من احتلال المدينة في غضون ساعات قليلة وراحوا ينهبون الأحياء كلها ولم يتركوا سوى الشوارع المحيطة بالقصر الذي ينزل فيه الملك فيليب . وبالكاد تمكن مارجاريتوس والوجهاء الآخرين من الهرب مع عائلاتهم واحتل ريتشارد منازلهم ، وأحرق الأسطول الصقلى الراسى فى المرفأ ، ولم يحن عصر اليوم الاّ وكانت راية البلانتاجين ترفرف على المدينة.

ولم تتوقف وحشية ريتشارد وضراوته عند هذا الحد ، فبرغم موافقته على أن ترفرف راية الملك فيليب بجاور رايته ، اجبر المواطنين على أن يدفعوا له برهائن يحتفظ بها ضمانا لحسن سلوك مليكهم وأعلن أنه على استعداد للاستيلاء على المقاطعة كلها ، وفي ذات الوقت شيّد حصنا خشبيا ضخما خارج المدينة مباشرة أطلق عليه

"ماتيجريفون" اي لجام اليونانيين ، تحقيرا لشأنهم.

وشعر الملك فيليب بالقلق مما ظهر من أخلاق نظيره ، وارسل ابن عمه دوق برجندى لمقابلة الملك تنكريد في كتانيا وتحذيره من نوايا ريتشارد ، ولكي يعرض عليه المساعدة إذا ساءت الأمور، وكان تنكريد في وضع صعب إذ كان يدرك أن هنرى (أوف هوهنشترفن) على وشك غزو اراضيه، وكان مدركا أن أتباعه غير جديرين بالثقة ، وبحساباته السريعة قرر أن ريتشارد سيكون حليفا أفضل من فيليب ؛ إذ ليس من المحتمل أن يهاجمه فيليب الآن، ولم يكن ملوك فرنسا على علاقة طيبة بآل هوهينشتوفن ، فضلا عن أن صداقة فيليب في المستقبل غير يقينية . وكان ريتشارد من الناحية الأخرى يمثل اعظم شر ماثل ، لكن المعروف أنه يمقت آل هوهنشترفن وهم اعداء بني عمومته الويلف . وهكذا رفض تنكريد عرض مساعدة الفرنسي ودخل في مفاوضات مع الإنجليزى ، فعرض على ريتشارد عشرين الف أوقية من الذهب بدلا من الميراث المستحق لهنرى الثاني ، ونفس المبلغ لجوانًا بدلا من بائنتها.

١١٩٠م: مفاوضات في صقلية

وفى الامكان دائما تهدئة غضب ريتشارد بمنظر الذهب ، فقبل العرض الخاص به والعرض الآخر نيابة عن اخته ، بل أنه وافق على خِطبة وريثه الصغير ، آرثر دوق بريتاني ، لإحدى بنات تنكريد ، وعندما كشف تنكريد ما اقترحه عليه فيليب ، وافق ريتشارد طواعية على أن تُكتب الشروط في معاهدة وطلبا من البابا منحهما مؤازرته . وهكذا حل السلام ، وبناء على نصيحة رئيس أساقفة روين أعاد ريتشارد على مضض ما صادره من منقولات مستحقة لمارجاريتوس ووجهاء مواطنى ميسينا.

ولقد انخدع الملك فيليب لكنه لم يجهر بالاعتراض . وفي ٨ أكتوبر ، وأثناء صياغة المعاهدة ، تقابل مع ريتشارد مرة اخرى لمناقشة المرحلة المقبلة للحملة الصليبية ؛ فوضعت قواعد مراقبة أسعار المواد الغذائية ، وتحدد ولاء الرحال لسادتهم، وخصص كل فارس نصف أمواله لاحتياجات الصليبيين ، ومُنعت المقامرة على الجميع باستثناء الفرسان ورحال الدين ، واذا أفرطوا في الميسر يتعين معاقبتهم ، وينبغي للحجاج الذين يقعون تحت طائلة الديون أن يدفعوا ديونهم . وصدق رحال الدين على هذه اللوائح ووعدوا بمعاقبة منتهكيها بالطرد من الكنيسة . وكان من اليسير أن يوافق الملكان على هذه الأمور ، وإن لم تكن تسوية بعض الأمور السياسية على نفس القدر من اليسر ،

وبعد محاورات اتفق الملكان على اقتسام الغزوات المقبلة بينهما بالتساوى . وكانت المشكلة الأكثر حساسية تتصل بالأميرة أليس أخت الملك فيليب فمنذ سنوات طويلة أرسلوا هذه الاميرة التعسة وهى طفلة إلى البلاط الانجليزى لتتزوج ريتشارد أو أحد أبناء هنرى الثاني . وقد احتجزها هنرى الثاني برغم نفور ريتشارد من الموافقة على زواجه المقترح منها . وسرعان ما تناقل البلاط همسات قبيحة بأن هنرى نفسه قد أصبح مفرط الألفة معها . ولم يكن ريتشارد بالرجل الذي تتجه ميوله ناحية الزواج ، ولذا رفض الانقياد إلى ما أعده أبوه من ترتيبات برغم استعجال فيليب مرارا وتكرارا. وحتى بعد وفاة هنرى ، لم تكن أم ريتشارد الملكة الينورا - التى تحررت الآن بموت زوجها - لترى ابنها المفضّل مقيّدا بفتاة من أسرة تمقتها ، بل فتاة كانت تعتقد أنها عشيقة زوجها الراحل. ولحرصها على مصالح مواطنيها من أبناء منطقة جين التي نشأت فيها عزمت على تزويجه من إحدى أميرات نافار، وقد قبل اختيارها[٧]. وهكذا، وعندما أثار فيليب مرة أخرى مسألة زواج اخته اليس، رفض ريتشارد أن يعير الموضوع أي اعتبار قائلا إن سمعة أليس تحول بينه وبين التفكير فى زواجه منها. وكانت الاهانة فوق احتمال فيليب، رغم أنه كان دائم اللامبالاة بسعادة اسرته ، ولم يتدخل قط لمساعدة اخته البائسة آجنس أرملة الامبراطور الكسيوس الثاني البيزنطى . ولذا زادت علاقته بريتشارد برودا على برود وقرر مغادرة ميسينا في الحال إلى الشرق ، لكن عاصفة هوجاء أعادته إلى صقلية بعد يوم من ابحاره. ولأنه الآن في منتصف اكتوبر فقد قرر أن الحصافة تدعوه لقضاء الشتاء في ميسينا. ويبدو أن ذلك ما كان ينتويه ريتشارد دائما ، ولم توقع معاهدته مع تنكريد الا في ١١ نوفمبر . وفي الوقت ذاته أرسل يطلب من أمه إرسال الأميرة برينجاريا النافارية لتلحق به في صقلية.

وانصرم الشتاء هادئا في صقلية . وفي يوم عيد الميلاد أولم ريتشارد وليمة تقطر سخاء في حصن ماتيجريفون (لجام اليونانيين)، دعا اليها ملك فرنسا ونبلاء صقلية . وبعد أيام قلائل اجتمع في مقابلة مثيرة بالراهب يواخيم المسن رئيس دير كورازو ومؤسس نظام فيورى الدينى . وشرح له القديس المبجّل معنى سفر الرؤيا . فقال له أن رؤوس التنّين السبعة هى :هيرود ونيرون وكونستانتيوس ومحمد وميلسموث (وربما كان يعنى به عبد المنعم مؤسس طائفة الـ Almohad) وصلاح الدين وأخيرا المسيح الدجّال

---

(٧) (المترجم): تقع منطقة جين التاريخية Guienne في جنوب غرب فرنسا المسمّاة حاليا اكيتان Aquitaine. وأما نافار التاريخية Navarre فهى مملكة قديمة تقع حاليا شمال شرق اسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

نفسه الذى ، كما أعلن ، ولد بالفعل قبل ذلك بخمس عشرة سنة في روما وسوف يجلس على العرش البابوى . ورد ريتشارد ردا يفتقر إلى الأدب لم يلق الترحيب من القديس ، قائلا أن المسيح الدجال ربما كان هو البابا الحالي كليمنت الثالث الذي قال إنه هو نفسه يبغضه ؛ ولم يتفق معه القديس في أن المسيح الدجّال قد ولد من قبيلة دان البابلية أو الأنطاكية ولا أنه سوف يحكم في القدس . على أن ريتشارد ابهجه أن يسمع من يواخيم أن المنتصر في فلسطين سيكون ريتشارد وأن صلاح الدين سرعان ما سيُقتل. وفي فبراير نظّم ريتشارد مباريات مبارزة رياضية تشاجر اثناءها مع الفارس الفرنسي وليم (أوف بار)، لكن فيليب تمكن من مصالحتهما . والواقع أن ريتشارد تصرف تصرفا سليما جدا إزاء فيليب ، بل أنه اعطاه بعد ايام قليلة عدة سفن كانت قد وصلت مؤخرا من انجلترا . وفي ذات الوقت سمع أن أمه الملكة الينور والأميرة بيرينجاريا قد وصلتا نابلي فأرسل من يقابلهما ويصطحبهما إلى برنديزى إذ كانت حاشيتهما فائقة الضخامة بحيث لا تتحملها ميسينا بمواردها المحدودة ، خاصة وأن كونت فلاندرز قد وصل ميسينا لتوه مع صحبة كبيرة للغاية.

وباقتراب الربيع تأهب الملكان لاستئناف رحلتهما. فذهب ريتشارد إلى كتانيا لزيارة تنكريد وأقسم معه قسم صداقة أبدى . وتحركت مشاعر الخوف لدى الملك فيليب من هذا التحالف فلحق بهما في تورمينا، وهو على استعداد الآن لأن يصلح على عجل جميع خلافاته مع ريتشارد ، وأعلن رسميا أن لريتشارد كامل الحرية في أن يتزوج من يرغب في اختيارها . وعندما أبحر فيليب يوم ٣٠ مارس مع كل رحاله من ميسينا كانت مشاعر حسن النية على عمومها تغلب عليه . وما أن ابحر من الميناء حتى وصلته الملكة الينور والأميرة بيرينجاريا . ولم تبق الينورا مع ابنها سوى ثلاثة ايام ثم شدت رحالها إلى انجلترا متخذة طريق روما لك تتوقف لدى البلاط البابوي لإنجاز بعض المهام لابنها ، وبقيت الأميرة بيرينجاريا في صحبة دائمة مع الملكة جونا[٨].

وأخيرا غادر ريتشارد ميسينا يوم ١٠ ابريل بعد أن فكّك حصن ماتيجريفون (لجام

---

(٨) ترد قصة تصرفات الملك في صقيلة بالكامل في *Itinerarium,* pp.154-77 ؛ وكذلك عند Ambroise, cols.14-32 وكلاهما يؤيد ريتشارد بشدة(؛ وانظر Benedict of Peterborough, II, pp. 126-60 الذي يورد اكثر الروايات اكمالا ويتضح انه اكثر قليلا من الناحية الموضوعية؛ أما Rigord, pp. 106-9، فانه يقول ضمنا إن فيليب كان متلهفا على الاستمرار في الحملة الصليبية بينما كان ريتشارد يضع الصعوبات . وانظر Chalandon, op. cit. II, pp. 435-42. ويورد Benedict (II, pp. 151-5) مقابلة ريتشارد مع يواشيم ، ومن الواضح انها قائمة على اساس معلومات من شخص كان حاضرا في المقابلة

اليونانيين) . وشعر تنكريد بالأسف لرحيله وكان له ما يبرر ذلك ؛ إذ أن البابا كليمنت الثالث مات في نفس ذلك اليوم في روما ، وبعد أربعة ايام تمت رسامة كاردينال سانتا ماريا في كوزميدين على أنه البابا سيليستين الثالث . وكان هنرى (أوف هوهنشتوفن) في روما آنذاك ، وكان أول ما فعله البابا الجديد أن قام تحت الضغوط بتتويجه هو وكونستانس الصقلية امبراطورا وامبراطورة.

وأبحر فيليب بأسطوله الفرنسي بسلام إلى صور حيث استقبله بترحاب كبير ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) ، ووصل مع كونراد إلى عكا يوم ٢٠ ابريل ، وفي الحال تم تشديد الحصار على هذه القلعة الاسلامية . وبدت أعمال الحصار الحربي جذابة لفيليب بمزاجه الصبور الخلاّق ، فأعاد تنظيم آلات الحصار وبنى الأبراج للمحاصيرين، غير أنه تقرر تأجيل محاولة الهجوم على الأسوار إلى أن يصل ريتشارد ورجاله[٩].

١١٩١م : الأسطول الإنجليزى يصل مياه قبرص

وكانت رحلة ريتشارد أقل أمانا . إذ سرعان ما هبت رياح قوية فرّقت هذا الأسطول الصغير ، وأمضى الملك نفسه يوما في ميناء بجزيرة كريت ، وأبحر منه في مياه عاصفة إلى جزيرة رودس حيث بقي عشرة ايام من ٢٢ ابريل إلى ١ مايو ، في فترة نقاهة مما يصيبه من دوار البحر . وفي تلك الأثناء ضاعت إحدى سفنه في عاصفة ، بينما ألقت الرياح بثلاث سفن اخرى إلى قبرص ، من بينها السفينة التى تقل الملكة جوانّا وبيرينجاريا ؛ وتحطمت سفينتان على الساحل الجنوبى للجزيرة ، لكن الملكة جوانّا تمكنت من الوصول إلى مرسى أمام ميناء ليماسول.

وكانت قبرص طوال خمس سنوات تحت حكم اسحق دوكاس كومنينوس الذي نصّب نفسه امبراطورا بعدما نجح في تمرده على بيزنطة وقت استخلاف اسحق أنجيلوس، والذي تمكن من الحفاظ على استقلاله بتحالفات هشّة، فتارة مع الصقليين ، وتارة مع أرمن كيليكيا، وثالثة مع صلاح الدين لقد كان مشاكسا يكره اللاتينيين و لم تكن له شعبية على الجزيرة لما كان يفرضه من ضرائب باهظة. وكان الكثير من رعاياه لا يزالون يعتبرونه متمردا ومغامرا . ولقد كان لظهور الأساطيل الفرنجية الضخمة امام الشواطئ القبرصية أثره في احساسه بالخطر ، لكنه واجه المشكلة على نحو يخلو من الحكمة . ذلك

---

(٩) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 155-6; Rigord, p. 108; Abu Shama, II, p. 6 .

أنه عندما تمكن بحارة ريتشارد من الوصول إلى الشاطئ بعد تحطم سفينتهم ، اعتقلهم وصادر كل ما امكنهم انقاذه من بضائع، ثم أرسل مبعوثا إلى سفينة الملكة حوانا يدعوها هي وبيرينجاريا إلى الهبوط إلى الشاطئ ؛ لكن الملكة حوانّا كانت تعلم من التجارب قيمتها هي نفسها باعتبارها رهينة محتملة، فردت بأنها لا تستطيع مغادرة السفينة دون إذن أخيها ، والتمست السماح بارسال من يحضر لها الماء من الشاطئ ، فرفض طلبها بطريقة فظّة تخلو من الكياسة . بل أن اسحق جاء بنفسه إلى ليماسول وبنى التحصينات بطول الساحل لمنع أية محاولة للهبوط إلى الشاطئ.

وفي ٨ مايو، أي بعد أسبوع من وصول حوانّا امام شواطئ ليماسول، لاح اسطول ريتشارد على مرمى البصر . وقد كان ابحاره من رودس شنيعا ، وأوشكت سفينة ريتشارد ذاتها أن تتحطم في خليج أتّاليا ، ولم يكن لدوار البحر اثره في تلطيف مزاج ريتشارد ، وعندما سمع بما لقيته اخته وخطيبته من معاملة اقسم على الإنتقام . وعلى الفور بدأ في إنزال الرحال بالقرب من ليماسول وزحف على المدينة ؛ ولم يقاوم اسحق وانما انسحب إلى قرية كيلاني على سفوح ترودوس . ولقي ريتشارد الترحيب في ليماسول ليس فقط من التجار اللاتين المستقرين في المدينة ، وانما أبدى اليونانيون صداقتهم للغزاة من منطلق بغضهم لإسحاق الذي أبدى استعداده من ثمّ للتفاوض . وبمنحه الأمان جاء إلى كولوسي وذهب إلى معسكر ريتشارد حيث وافق على دفع تعويض عن البضائع التى سرقها والسماح للجنود الانجليز بشراء المؤن معفاة من الرسوم الجمركية وإرسال قوة رمزية من مائة رحل مع الحملة الصليبية رغم أنه رفض مغادرة الجزيرة هو نفسه ، وعرض ارسال ابنته رهينة إلى ريتشارد.

وقد اقتنع اسحق من زيارته للمعسكر أن ريتشارد ليس بالرحل المرعب كما كان يُظن . ولذلك، وما أن عاد إلى كولوسي حتى تنكّر لاتفاقه وأمر ريتشارد بالرحيل عن اراضيه . لقد ارتكب غلطة حمقاء . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل سفينة إلى عكا لتعلن عن وصوله الوشيك إلى قبرص ، وفي ١١ مايو، وهو اليوم الذي تقابل فيه اسحق مع ريتشارد وعاد إلى كولوسي، دخلت إلى ميناء ليماسول سفن تحمل أبرز الصليبيين المعارضين لكونراد جميعا؛ فكان عليها الملك حوى وأخوه جيوفرى، وكونت لوسينيان وهو أحد أبرز أتباع ريتشارد في فرنسا، وكان عليها بوهمند كونت انطاكيةمع ابنه ريموند، وكان عليها الأمير ليو الروبينى الذي خلف مؤخرا أخاه روبين، وكان هناك همفرى سيد تبنين وهو زوج ايزابيلا المطلّق، كما كان هناك الكثير من فرسان المعبد البارزين. ولأن فيليب انحاز إلى جانب كونراد، فقد جاءوا ليضمنوا مؤازرة ريتشارد

لحزبهم، ورأي ريتشارد أن قوته تعاظمت بمجيئهم ، فقـرر غـزو الجزيـرة بكاملهـا. ولا شك في أن زائريه أكدوا له أهميتها الاستراتيجية في الدفاع عن الساحل السوري كله ، والمخاطر الماثلة لو أن اسحق دخل فى تحالف وثيق للغاية مع صلاح الديـن . لقـد كـان غزو الجزيرة فرصة سانحة لا ينبغي تفويتها.

١١٩١م : ريتشارد يغزو قبرص

وفي ١٢ مايو احتفل ريتشارد بزواجه مـن بيرينجاريـا في كنيسـة القديـس جـورج الصغيرة في ليماسول ، وتوجها أسقف إيفريو ملكة لإنجلترا ، وفـى اليـوم التـالى جـاءت السفن المتبقية من الاسطول الانجليزى . أما اسحق ، الذى كان مدركـا للخطـر المحـدق بـه، فقـد انتقـل إلى فاماجوسـتا ، وتبعـه بعـض الانجليز بـرا والبـاقى بحـرا . ولم يبـذل الامبراطور أية محاولة للدفاع عن فاماجوستا ، وانما انسحب إلى نيقوسيا . وبينمـا كـان ريتشارد في فاماجوسـتا جاءتـه الرسـل مـن فيليـب ومـن لـوردات فلسـطين تحثـه علـى الاسراع إلى فلسطين . لكنه رد بغضب قائلا إنه لن يتحرك حتـى يستولى علـى قـبرص التى ركز على أهميتها لهم جميعا . وكان من المفترض أن يذهب أحـد مبعوثـى فيليـب، وهو باجان أمير حيفا ، إلى اسحق تأكيدا لتحذيره . فأرسل اسحق زوجته ، وهي اميرة ارمينية ، وابنتـه إلى قلعـة كيرينيـا ، ثـم سـار جنوبـا باتجـاه فاماجوسـتا ، وقابلـه جنـود ريتشارد بالقرب من قرية تريميثوس وهزمـوه بعـد التحـام شـديد قيـل إنـه اسـتخدم فيـه سهاما مسمومة . وهرب من ساحة القتال إلى كانتارا ، ودخل ريتشـارد نيقوسـيا دون مقاومة ، فقد أظهر قبارصة نيقوسيا لامبـالاتهم بمصير اسـحق ، بـل إنهـم كـانوا علـى استعداد لمساعدة الغزاة.

وفي نيقوسيا سقط ريتشارد مريضا ، وكان اسحق يأمل في أن تصمد قلاعه الأربع الشـمالية الضخمـة ، كانتـارا وبوفـافينتو وسـانت هيلاريـون وكيرينيـا ، إلى أن يكـلّ ريتشارد مـن الحـرب ويرحـل باسـطوله ، لكـن الملـك جـوى الـذي كـان آمـرا لجيـش ريتشارد زحف على كيرينيا واستولى عليهـا ، وأسـر الامـبراطورة وطفلتهـا ، ثـم بـدأ محاصرة سانت هيلاريون وبوفافينتو . وتلفت اسحق فوجد نفسـه محرومـا مـن أسـرته ، ورعاياه في حالة من الفتور أو العداوة حياله ، ففقد اتزانه واستسلم بلا قيـد أو شـرط ، واقتيد ليمثل أمام ريتشارد في سلاسله الفضية الثقيلة . وبنهاية شهر مايو كانت الجزيـرة كلها في قبضة ريتشارد.

وكانت الأسلاب التى حصل عليها ريتشارد فائقة الضخامة؛ إذ كان اسحق قد كدّس ثروة هائلة من جباياته من الضرائب . واشترى الكثير من نبلائه حسن نوايا سيدهم الجديد بالهبات السخيّة ، وسرعان ما أوضح ريتشارد أن المال هو الذي يشغل جُلّ اهتمامه ، ففرض على كل يوناني ضريبة على رأسماله قدرها خمسين فى المائة ، على أنه في المقابل أكّد بقاء القوانين والمؤسسات التي كانت قائمة أيام مانويل كومنينوس . ووضع الحاميات اللاتينية في قلاع الجزيرة ، وعيّن انجليزيين هما ريتشارد (أوف كامفيل) وروبرت (أوف تورنهام) كلا في منصب المندوب السامي وأُنيط بهما الاشراف على الادارة في الجزيرة إلى أن يقرر ريتشارد مصيرها النهائي . وسرعان ما اكتشف اليونانيون أن فرحتهم بسقوط اسحق ليس لها دعامة ترتكز عليها ، إذ حُرموا من الاشتراك في حكومتهم ، وأُمروا بحلق لحاهم كعلامة على حالة الخنوع الذليل التي باتوا فيها(١٠).

أما ريتشارد نفسه فقد بدا له أن غزوه لقبرص قد أتاح له ثروة لم يكن يتوقعها . وواقع الأمر أن ذلك الغزو كان أكثر منجزاته بقاءً وتعبيرا عن بعد نظره من كل ما انجزه في الحملة الصليبية ؛ ذلك أن امتلاك الفرنج لقبرص أطال عمر أراضيهم في فلسطين ، وتجاوز بقاء منشآتهم التي أقاموها في الجزيرة منشآتهم في سوريا بقرنين من الزمان . على أن الغزو كان نذير شر لليونانيين . فإن كان الصليبيون على استعداد واقتدار على ضم مقاطعة ارثوذكسية، أفلا يغريهم ذلك فى الإسراع في شن حرب مقدسة طال تلهفهم عليها ضد بيزنطة؟

---

(١٠) يرد غزو ريتشارد لقبرص بغاية الإكتمال في *Itinerarium*, pp.177-204، وفي Ambroise, cols. 35-57، وباكتمال أقل بصورة طفيفة في Bemedict of Peterborough, II, pp. 162-8 ؛ وانظر William of Newbury, II, pp. 59 ff.; Richard of Devizes, pp.423-6 - وكلها من وجهة نظر انجليزية وما قام به ريتشارد من مهمة موجزة وارد في *Epistolae Cantuarenses*, p.347. أما إيرنول Ernoul ص: ٢٠٧-٢١٣، وتاريخ هرقل *Estoire d'Eracle* جزء ٢ ، ص ١٥٩-١٧٠) وأورد Mas Latrie روايات مختلفة في *Documents*, II, pp.1 ff.III,ppp.159-70 ، عارضا وجهة نظر الشرق الفرنجي (اوتريميه) المؤيدة لريتشارد. ويبرر Rigord, pp.109-10 ، وكذلك Williamthe Breton, pp. 104-5 ما فعله ريتشارد بسبب رفض القبارصة مساعدة الصليبيين. وتوجد رواية كاملة كتبها أحد اليونانيين يدعى Neophytus ، شديد العداء لإسحاق ، لكنه يأسى للغزو ، منشورة في مقدمة Stubbs's edition of teh *Itinerarium*, pp.clxxxv-clxxxix (De Calamitatibus Cypri). ويذكر Nicetas Choniates (p.547) الغزو باقتضاب. كما يورد أبو شامة Abu Shama (II,p.8) وبهاء الدين Beha ed-Din (*P.P.T.S.*p.242) الغزو بإيجاز. ولكن ابن الأثير Ibn al-Athir (II,pp.42-3) يقول إن ريتشارد استولى على الجزيرة بطريق الخيانة. ويذكر كل من أبي شامة وبهاء الدين أن بعض المسيحيين المرتدين القادمين من اللاذقية قد أغاروا على الجزيرة قبل ذلك بأشهر قليلة. انظر Hill, *History of Cyprus, I*, pp.314-21.

وفي الخامس من يونية أبحر الأسطول الانجليزي من فاماجوستا قاصدا الساحل السوري . وكان الامبراطور اسحق على ظهر الاسطول أسيرا لدى الملك جوى ، وأما ابنته الصغرى فقد ألحقت ببلاط الملكة جوانا كي تتعلم عندها أسلوب الحياة الغربية . وكان أول ما شاهده الملك ريتشارد من الساحل السوري هو قلعة المرقب . وبعد أن ظهرت له اليابسة تحول مبحرا جنوبا مرورا بطرطوس وجبيل وبيروت وهبط بالقرب من صور مساء يوم ٦ يونية . ورفضت حامية المدينة دخوله بناء على أوامر فيليب وكونراد ، ومن ثمّ واصل طريقه بحرا إلى عكا وسره أن يشاهد سفنه وهي تغرق غليونا عربيا كبيرا . ووصل أمام المعسكر يوم ٨ يونية[١١] .

١١٩١م : وصول ريتشارد إلى معسكر الصليبيين

تجددت الثقة في النفس ، وعلت آمال الجنود المرهقين في حصارهم لعكا ، بوصول الملك ريتشارد على رأس خمسة وعشرين غليونا ، فارتفعت المشاعل احتفالا بمجيئه ، وقرعت الطبول في انحاء المعسكر . وكان ملك فرنسا قد شيّد الكثير من آلات الحصار المفيدة ومنها منجنيق ضخم أطلق عليه جنوده "الجار الشرير" وسلما متشابكا يعرف باسم "القط" ، وكان كل من دوق برجندى والنظامين العسكريين لديه منجنيقه ، بخلاف منجنيق آخر شُيّد من الأموال العامة التي أطلق عليها "مِقلاع الرب"[١٢] .

كانت تلك المنجنيقات تدق الأسوار فتحدث فيها بعض الأضرار ، بيد أنه كان لابد من وجود قائد يستثير المحاصِرين لبذل جهد أخير ، وكان ملك فرنسا شديد الحذر من هذا الدور ولم يُقدم عليه ، وكان أمراء الصليبيين الآخرين أو المحليين في غاية الإرهاق أو غير قادرين على ذلك. وبعث ريتشارد حمّيا جديدة في ذلك كله . فما أن وصل حتى أرسل مبعوثا ومعه مترجم مؤتَمن ، وهو أسير مغربي يضع فيه ثقته ، إلى معسكر صلاح الدين يقترح مقابلته ؛ إذ تملكه الفضول لرؤية هذا الكافر الشهير ، وكان يعلق الآمال على التوصل إلى نوع من التسوية السلمية لو أنه تمكن من أن يخاطب

---

(١١) *Itinerarium*, pp.204-11; Ambroise, cols. 57-82; Benedict of Peterborough, II, pp. 168-9; Ernoul, p.273, and *Estoire d'Eracles* pp. 169-70 ويركز كل من إيرنول وتاريخ هرقل على ترحيب فيليب الرائع بريتشارد؛ Abu Shama, II, pp. 42-3: Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP.242-248، ويذكر ابو شامة الاستيلاء على بعض وسائل النقل التابعة لريتشارد.

(١٢) *Itinerarium*, p. 218; Haymar Monachus, pp. 44-6.

في مثل هذا العدو فروسيته. بيد أن صلاح الدين رد عليه ردا حذرا بأنه من غير الحكمة أن يتقابل الملوك الأعداء قبل أن يوقعوا على هدنة ، ورغم ذلك قال إنه على استعداد لأن يسمح لأخيه العادل بمقابلة ريتشارد . وتقرر تأجيل القتال ثلاثة ايام واتّفق على أن تتم المقابلة في السهل الواقع بين المعسكرين ، لكن المرض داهم فجأة ملكي انجلترا وفرنسا وسقط كلاهما مريضا بمرض يطلق عليه الفرنج أرنالديا ، وهو حمّى تسبب تساقط الشعر والأظافر. وكانت اصابة فيليب طفيفة ، أما اصابة ريتشارد فكانت شديدة استمرت عدة ايام . لكنه كان يقود العمليات من فراش مرضه ، فأصدر أوامره بالمكان الذى يوضع فيه المنجنيق الضخم وأمر ببناء برج خشبي هائل مثل برج ماتيجريفون الذي بناه في ميسينا. و لم يكد يبرأ من مرضه حتى أصر على زيارة جنوده في خطوطهم(١٣).

وتلقى صلاح الدين كذلك تعزيزات في أواخر شهر يونية ، إذ وصل جيش سنجار في الخامس والعشرين من الشهر ، ووصل في أعقابه مباشرة جيش مصرى جديد وجنود من صاحب الموصل ، وفي أوائل يولية أرسل أميرا شيزر وحماة بعض الكتائب . وعلى الرغم من هذه القوات المتكاثرة لم يكن صلاح الدين بقادر على إخراجهم الصليبيين من معسكرهم ، إذ أنهم انتهزوا توقف القتال في الشتاء ونعومة التربة بفعل الأمطار وأحاطوا أنفسهم بسدود ترابية ومتاريس تحميها خنادق من اليسير عليهم الدفاع عنها. وبقي شكل المعركة كما هو طوال شهر يونية وأوائل يولية فدأبت آلات الحصار الفرنجية على قصف أسوار عكا ، وإذا حدث وأفلح الفرنج في إحداث ثغرة صغيرة واندفع خلالها الفرنج ، أشارت الحامية على الفور بعلامة ما إلى صلاح الدين الذي كان يشن في الحال هجوما على المعسكر ومن ثمّ يسحب المعتدين بعيدا عن الأسوار . وكانت هناك معارك بحرية من حين لآخر ، إذ أن وصول الأساطيل الانجليزية والفرنسية قد انتزع من العرب سيادتهم على البحار ، ولذا كان نادرا أن تتمكن سفنهم من اختراق الحصار البحري وجلب المؤن إلى المرفأ؛ فأخذ الطعام والمواد الحربية في التناقص في المدينة المحاصرة فبدأ الحديث فيها عن التسليم.

---

(١٣) Ibid.pp. 213-25; Ambroise, col. 123; Benedict of Peterborough,II,p. 170: أما مرض الحمى 'Arnaldia' والذى يسميه المؤرخ أمبرواز 'Leonardie' ، فربما كان نوعا من الأسقربوط ، وهو داء من اعراضه تورم اللثة ونزيفها، أو مرض الغشاء المتقرّح الذي يصيب الجنود فى الميدان. أنظر La Monte وترجمة Hubert لأمبرواز ص ١٩٦ حاشية ٢.

١١٩١م : خلافات في المعسكر

وتواصل المرض والشجار في المعسكر المسيحي . ذلك أن البطريق هيراكليوس قد مات ، فحيكت المكائد حول انتخاب خليفته(١٤). ولم يتوقف النزاع على التاج ؛ فقد ناصر ريتشارد الملك جوي ، بينما شايع فيليب كونراد ، وانضم أبناء بيزا إلى حزب ريتشارد ، ومن ثمّ كانت الأساطيل القادمة من جنوا تعرض خدماتها على فيليب . وعندما خطط فيليب لهجوم عاصف على المدينة قرب نهاية يونية ، رفض ريتشارد أن يتعاون رجاله معه ، وربما كان مرجع ذلك إلى أنه لم يبرأ بعد بالقدر الذي يسمح له بالحرب شخصيا وخشي أن يفقد مغانم النصر . وفشل الهجوم لغيبة أتباعه وأصدقائه ، وأما هجوم صلاح الدين المضاد فلم يتمكن الصليبيون من صده إلاّ بشق الأنفس(١٥). وتعقدت العلاقات بين ريتشارد وفيليب عندما مات في ١ يونية فيليب كونت فلاندرز، ذلك الصليبى الذى سبق أن تقاعس عن الحرب سنة ١١٧٧م، دون أن يترك وراءه ورثة مباشرين؛ فبينما كانت للملك فرنسا بعض المطالب في الميراث الفلاندرزي، كان ملك انجلترا عازفا عن أن يترك ذلك الإقليم الخصب ذا الموقع الإستراتيجي يقع في يد غريمه . وأثناء أن كان فيليب يستشهد ببنود الاتفاق الموقع في ميسينا مطالبا بنصف جزيرة قبرص ، رد ريتشارد بطلب مضاد ألا وهو نصف فلاندرز، ولم يواصل أي من الجانبين مسعاه لتحقيق مطالبه ، وانما ظل كل منهما في ترديده لشكواه(١٦).

وفي الثالث من يولية، وبعدما حاول تقي الدين ابن أخى صلاح الدين بلا جدوى شق طريقه داخل المدينة، أحدث الفرنسيون ثغرة خطيرة في الأسوار ، لكنهم أجبروا على التقهقر. وبعد ثمانية أيام قام الإنجليز وأبناء بيزا في اللحظة التى كان باقى الصليبيين يتناولون العشاء بتجربة حظهم فنجحوا أول الأمر لكنهم فشلوا في النهاية. وآنذاك، كانت الحامية قد قررت فعلا الكف عن الكفاح ، وأرسلت مبعوثين إلى معسكر الصليبيين في الرابع من يولية ، بيد أن ريتشارد رفض مقترحاتهم رغم أن سفراءه كانوا في زيارة لصلاح الدين في نفس ذلك اليوم يطلبون السماح بشراء الفاكهة والحلوى المثلجة ويلمعون باستعدادهم لمناقشة شروط السلام. وصُدم صلاح الدين لسماعه بأن

---

(١٤) أنظر مقدمة Mas Latrie للمؤرخ Haymar Monachus ، صفحة .xxxvi

(١٥) Ambroise, col. 123; Rigord, pp. 108-9; Haymar Monachus, p.35.

(١٦) Rigord, p. 113; Benedict of Peterborough, II, p.171.

رجاله داخل عكا فقدوا الأمل ، فوعدهم بالمساعدة العاجلة ، لكنه لم يتمكن من حث جيشه على شن هجوم ضخم على معسكر المسيحيين كان قد خطط لتنفيذه في الخامس من يولية. وفي السابع من يولية جاءه مبعوث سابحا من عكا يحمل آخر نداء من المدينة؛ فلم تعد الحامية قادرة على الصمود أكثر من ذلك بدون مساعدة ، وكانت معركة الحادى عشر من يولية هى آخر جهد من المحاصَرين . وفي اليوم التالى عرضت الحامية التسليم ، وقُبلت شروطها . وكان على عكا أن تستسلم بكل ما فيها من سفن ومخزونات عسكرية ، وتدفع مئتي ألف قطعة ذهبية للفرنج وفوقها أربعمائة قطعة لكونراد شخصيا . وتقرر الإفراج عن ألف وخمسمائة سجين مسيحي معهم مائة سجين من الجنود ، بأسمائهم المحددة ، وإعادة الصليب الحقيقي . فإذا نفذت الحامية هذه الشروط فسوف يبقى أفرادها على قيد الحياة.

١١٩١م : الصليبيون يدخلون عكا

وسبح سابح من المرفأ ليطلع صلاح الدين على ما اتفق عليه ، إذ تقرر أن يقوم هو بتنفيذ الشروط. وتملكه شعور بالارتياع ؛ فبينما جلس أمام خيمته يجهّز ردا يمنع الحامية من الخضوع لهذه الشروط ، شاهد الرايات الفرنجية تُنشر على أبراج المدينة . لقد سبق السيف العَذل ، وأبرم ضباطه المعاهدة باسمه ، ولكونه رجلا شريفا التزم بها ، وانتقل بمعسكره إلى شَفرعَمر الواقعة على الطريق الذاهب إلى صفورية مبتعدا عن المدينة ، إذ ليس بوسعه أن يفعل شيئا لمساعدتها ، وتجلّد استعداداً لاستقبال سفراء الفرنج المنتصرين(١٧).

ما أن تم قبول التسليم حتى خرجت الحامية العربية خارج عكا. وتحركت مشاعر الغزاة وهم يشاهدون المدينة وهى تقع فى الأسر، فقد ملكهم الاعجاب بشجاعتها وتماسكها ، وبكونها خليقة بمصير أفضل . وعندما خرج آخر عربى دخل الفرنج وكونراد على رأسهم وقد رفع حامل الراية رايته الشخصية ورايات الملوك . واتخذ الملك ريتشارد من القصر الملكي السابق محل اقامته بالقرب من السور الشمالى للمدينة، ونزل الملك فيليب في المنشأة السابقة لفرسان المعبد المطلة على البحر بالقرب من طرف شبه

---

(١٧) *Itinerarium,* pp. 227-33; Ambroise, cols. 133-9; Benedict of Peterboroughii, pp. 174-9; Rigord, pp. 115-16; Ernoul, p. 274; *Estoire* d'Eracles, II, pp. 173-4; Abu Shama, II, pp. 19-29; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 258-69; Ibn al-Athir, II, pp. 44-6.

الجزيرة . وثارت مشاحنات غير لائقة شوّهت عملية تخصيص الأحياء في المدينة . ذلك أن دوق النمسا ، باعتباره قائدا للجيش الألماني ، طالب بمكان مماثل للملكي انجلترا وفرنسا ورفع رايته بجوار راية ريتشارد ، لا لشئ إلاّ ليراها وقد أنزلها الانجليز وألقوا بها في الخندق أسفل القصر . فكانت إهانة لم يغفرها قط ليوبولد دوق النمسا ؛ وعندما عاد إلى وطنه بعد أيام قليلة كان قلبه مليئا بكراهية ريتشارد . وطالب التجار والنبلاء الفرنج ، الذين كانت لهم أملاك في عكا من قبل ، بإعادة ممتلكاتهم اليهم ، وكانوا كلهم تقريبا من أنصار كونراد ، ولذا لجأ إلى الملك فيليب عندما حاول الصليبيون الزائرون اجلاءهم عن ممتلكتهم ، وأصر على تلبية مطالبهم(١٨).

وكانت أولى المهام الواجب انجازها تنظيف كنائس عكا وإعادة ما كان لها من قداسة، وأشرف على تلك المهمة المندوب البابوي أديلار (أوف فيرونا)، ثم اجتمع الأمراء معا لتسوية المسألة الملكية بصورة نهائية . وبعد أن تشاوروا تقرر أن يظل جوي ملكا إلى أن يلقى حتفه ، فينتقل التاج إلى كونراد وايزابيلا وذريتهما ، وفي ذات الوقت يعين كونراد لوردا لصور وبيروت وصيدا ويقتسم هو وجوي العوائد الملكية . وبضمان المستقبل لكونراد ، بدأ فيليب يتحدث عن العودة إلى الوطن ، ذلك أنه منذ أن جاء إلى الأراضى المقدسة وهو يعاني من مرض يكاد يكون متواصلا ، ولقد أدى واجبه المسيحي في المساعدة على استعادة عكا ، وسوف يخلّف وراءه دوق برجندى والقسم الأكبر من جيشه الفرنسي . ومارس ريتشارد ضغوطه عبثا من أجل إعلان مشترك بأن الملكين سوف يبقيان في الشرق لثلاث سنوات . وكان أقصى ما وعد به فيليب هو عدم الهجوم على أراضي ريتشارد الفرنسية إلى حين عودة ريتشارد إلى الوطن ، وهو وعد لم يراع مراعاة تامة . وفي الحادي والثلاثين من يولية غادر عكا إلى صور يصحبه كونراد الذى صرح بأنه ينبغي أن يتدبر أمر أراضيه هناك ، لكنه في حقيقة الأمر كان عازفا عن الخدمة في جيش يسيطر عليه ريتشارد . وبعد ثلاثة أيام أبحر الملك فيليب من صور قاصدا برنديزى(١٩).

---

(١٨) *Itinerarium,* p. 234; Ernoul, pp. 274-5; *Estoire d'Eracles,* II, pp. 175-6; *Chronica Regia Coloniensis,* p. 154، ويرد في تاريخ المستعمرات الملكية قصة شجار ريتشارج مع ليوبولد دوق النمسا. ويقول Ansbert,*Expeditio Friderici,* p.102 إن ليوبولد كان مستاءً من هجوم ريتشارد على اسحق كومنينوس في قبرص، إذ كان ابن عم أمه.

(١٩) (19)*Itinerarium,* pp.238-9; Ambroise, cols. 142-3; Benedict of Peterborough, II, pp. 183-5, 192-9, 227-32؛ ويقول تاريخ هرقل *Estoire* d'Eracles,ii,pp.179-81 إن فيليب كان مريضا حقيقة Ernoul, pp. 277-8; Rigord, pp.116-17; William the Breton,pp 106-9.

ونظر الإنجليز إلى رحيل فيليب على أنه تصرف الجبان وفرار الخائن . غير أنه يبدو أن صحته كانت سيئة حقيقة ، فضلا عن وجود مشاكل في الوطن كان مسؤولا عن إيجاد حلول لها ، كمسألة ميراث الفلاندرز . هذا إلى جانب ارتاب في تآمر ريتشارد عليه وأن زوجته كانت في خطر . وقد ذاعت قصة غريبة تقول إن ريتشارد عندما ذهب لزيارة فيليب وهو طريح الفراش في مرضه الشديد قال له كذبا إن ولده الوحيد لويس قد مات ، إما على أنهاشكل من أشكال الهزل الماجن ، أو على أمل شرير في أن تكون الصدمة فوق احتماله . ولقد كان هناك كثيرون في الجيش المسيحي ممن يتعاطفون مع فيليب فيما يعانيه من شدائد . وعلى الرغم من أن ريتشارد استأثر بإخلاص رجاله واعجاب العرب ، إلا أن بارونات الشرق الفرنجي كانوا يرون في ملك فرنسا العاهل الجدير بالاحترام وقد أحسوا بأنه يتفهم احتياجاتهم[٢٠].

وبرحيل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذى وافق على الالتزام بالمعاهدة التي أبرمها ضباطه في عكا . وبينما انهمك الصليبيون في اعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والمال المطلوب منه وفي الثاني من أغسطس استقبل صلاح الدين في معسكره ضباط مسيحيين ينقلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجزئة المدفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يطلق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسُمح للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذى كان صلاح الدين يحتفظ به في حالة من الوقار. وفي الحادى عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال ، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تحددت اسماؤهم لم يصلوا جميعا، ومن ثم فلن يطلقوا سراح جنود السلطان المأسورين في عكا. فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات المفقودين واطلاق سراح رجاله، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رجاله ؛ ورفض السفراء العرضين كليهما ، وطلبوا دفعة المال واعطائه مجرد تعهد بشأن الأسرى العرب . لكن صلاح الدين لا يثق في كلمتهم ، ولذا رفض إعطاءهم أي شئ ما لم يفرجوا عن رجاله.

---

(٢٠) *Estoire d'Eracles, loc. cit.*، الذي يذكر قصة تآمر ريتشارد. ويقول Beha ed-Din, *P.P.T.S.*p. 240 إن الجميع كانوا يعترفون بسلطة ملك فرنسا، ويقول فيما بعد في صفحة ٢٤٢ إن ملك انجلترا كان أقل منه مكانة برغم تبرزه عليه في الثروة والشجاعة والشهرة.

١١٩١م : ريتشارد يقتل الأسرى العرب

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس ، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة تحرجه فسرّه أن يجد ذريعة للتخلص منهم . وفي العشرين من اغسطس، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفرائه اليه ، أعلن أن صلاح الدين قد أخل بتعهده ، وبكل العمد وسبق الإصرار أمر بقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير. وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشاد في سرورهم راح جنوده المتلهفون يعملون السيف ذبحا شاكرين الرب على هذه الفرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة . وقتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم ، وأبقوا على مجرد القليل من الوجهاء وأقوياء البنية لاستخدامهم في أعمال السخرة . وشاهد العرب في المخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإنقاذ اخوانهم ، بيد أنه برغم بسالتهم في القتال حتى هبوط الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف اليهم . وعندما انتهى الذبح غادر الإنجليز مكان المذبحة بما فيه من جثث تمزقت أوصالها وفسدت ، وبات بامكان المسلمين الحضور للتعرف على أصدقائهم الشهداء(٢١).

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من أغسطس خرج ريتشارد من عكا على رأس الجيش الصليبي، وتغيّب كونراد والكثير من البارونات المحليين، وسار الفرنسيون بقيادة دوق برجندى في المؤخرة متذمرين، فلم يكن أحد من الجنود راغبا في مغادرة المدينة، فكم فيها من الراحة والدعة طوال الشهر المنصرم، وما أحلى ما فيها من طعام وفير، وكم فيها من امرأة لعوب ترضى الشهوة ؛ ولم يرضهم ما سمعوه من أن القائمين على خدمة المعسكر من النساء الغسّالات قد سُمح لهن بمرافقة الجيش في مسيرته ، غير أن قوة الشخصية لدى ريتشارد تغلبت . وكان صلاح الدين ما يزال في شَفرعَمر التي تتحكم في الطريقين الرئيسيين الآتيين من الساحل ، أحدهما يذهب إلى طبرية ودمشق ، والآخر إلى القدس مخترقا الناصرة . على أن ريتشارد اتجه جنوبا بطول الطريق الساحلي حيث يوفر البحر وأسطوله الحماية لجناحه . ولذا تبعه السلطان وسار بمحاذاته وعسكر

---

(٢١) (*Itinerarium*,pp.240-3; Ambroise,cols 144-8كلاهمايبرر ما فعله ريتشارد بسبب وحشية صلاح الدين ويقولان إن كونراد حاول ان يعهد اليه بالسجناء ليحتفظ بهم . وأمبرواز Ambroise يمجّد الرب للمذبحة Ernoul, pp.276-7; *Estoire d'Eracles*, ii,pp.178-9 .)؛ ويورد بهاء الدين *P.P.T.S.*pp.270-4 قصة أكثر إقناعا. واستنادا إلى أبي شامة Abu Shama,ii,pp.30-3 طلب صلاح الدين من فرسان المعبد ـ وكان يثق في كلمتهم برغم كراهيته لهم ـ أن يضمنوا الشروط لكنهم رفضوا متوجسين من انتهاك ريتشارد للشروط . ولم يعد الصليب المقدس.

في تل القيمون على منحدرات جبل الكرمل ومن هنـاك خرج لتفقـد البـلاد في منطقـة الشاطئ جنوب الكرمل ليختار مكان المعركة.

وجاوز المسيحيون حيفا ، وكان صلاح الدين قد نزع عنها أسلحتها قبل سقوط عكا بوقت قصير ، ثم التف المسيحيون حول أنـف جبـل الكرمـل . وكـانت حركتهـم بطيئة كي يظل الأسطول بمحاذاتهم ، وكان ريتشارد يعتقد أنه ينبغي السماح للجنـود بالراحة كل ثاني يوم تقريبا ، إذ كانت الرياح في الغرب وقد وجدت السفن صعوبة في الالتفاف حول الموقع ، فكان فرسان العرب خفيفو الحركة يهبطـون جبـل الكرمـل مـن حين لآخر وينقضـون علـى الجيش في مسيرته ، ويعزلـون الشـاردين مـن الجيـش ، ويأخذونهم إلى صلاح الدين ، ويُستجوبون ، ثم يقتلون انتقاما لمذبحة عكا ، ولا يبقـى منهم أحد على قيـد الحيـاة سوى الغسـالات . وفي تلـك الأثنـاء قـاد ريتشـارد جيشـه الرئيسي فوق حافة جبل الكرمـل وعسـكر في مكـان مـا داخـل البـلاد يبعـد قليـلا عـن قيسارية[٢٢].

١١٩١م : معركة أرسوف

وفي الثلاثين من الشهر ، وباقتراب المسيحيين من قيسارية ، أصبح الجيشـان أقـرب إلى بعضهما ، واستعر القتال في كل يوم منذآنذاك . غير أن ريتشارد قاد جيشه بصورة شكسة ؛ فكان عادة في أحسن أحواله في المقدمة ، لكنه من حين لآخر كان ينطلق على فرسه إلى الوراء بطول الجيش كله يشجع الرجال . على أن الجو كان في حمّارة القيـظ ، والغربيون مثقلون بالدروع و لم يعتادوا على حرارة الشمس ، فهلك الكثير منهم بضربـة الشمس ، وكثيرون فقدوا الوعى وقتلوا حيثمـا رقـدوا ، وكـاد دوق برجنـدى والجنـود الفرنسيون أن يبادوا عن آخرهم أثناء تثاقلهم في المؤخرة خلف عربـات المـؤن ، لكنهـم خلصوا بأنفسهم . لقد كان الحشد كله يكدح كدحـا ، صارخـا في ضراعـة مـن حـين لآخر "Sanctum Sepulchrum adjuva ساعدنا أيها القبر المقدس".

وبعد أيام قليلة اختار صلاح الدين ساحة المعركة التى قرر أن تكون شمال أرسوف مباشرة حيث يتسع الوادى بما يكفى لإنطلاق الفرسان ، وفي ذات الوقت تحجبـه جيدا

---

(٢٢) *Itinerarium*, pp.248-56; Ambroise, cols. 152-60; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.275-81; Abu Shama, II, pp.33-6

الغابات التى تمتد جنوبا على مبعدة ميلين من البحر . وفى الخامس من سبتمبر طلب ريتشارد التفاوض وقابل العادل ، أخا صلاح الدين ،تحت علم الهدنة . على أنه برغم حالة الانهاك التى يعانيها من الحرب ، طلب تسليم فلسطين كلها ، لا أقل . وعلى الفور أوقف العادل المفاوضات.

وفي صباح السبت السابع من سبتمبر أيقن ريتشارد أن المسلمين سيفرضون عليه معركة ، فراح ينظم رجاله استعدادا لها . وكانت أحمال المؤن ممتدة بطول الساحل يحرسها هنرى (أوف شامباني) وجزء من المشاة . وكان رماة السهام في خط المقدمة وخلفهم الفرسان ، وفرسان المعبد على اليمين في الطرف الأخير من الخط . وبعدهم كان البريتون ورجال أنجو ، ويليهم جنود جين بقيادة جوى وأخيه ، جيوفرى (أوف لوسينان). وفي الوسط كان الملك نفسه مع جنوده من الإنجليز والنورمان ، ثم الفلمنكيون أبناء فلاندرز والبارونات المحليون تحت قيادة جيمس (أوف أفيسن)، والفرنسيون بقيادة هيو (أوف برجندي) وفي أقصى اليسار كان فرسان المستشفى. وبعد إعداد كل شئ انطلق ريتشار ودوق برجندي على جواديهما بطول الخطوط يحثان الجنود ويشجعانهم.

وبدأ العرب هجومهم في الضحى . فكانت الموجة تلو الموجة من مشاة الزنج والبدو خفيفى السلاح تنقض على المسيحين ، تمطرهم بوابل من السهام والرماح ، وأفلحوا في بعثرة الخط الأول من جنود المشاة الذين شملتهم الفوضى ، بيد انهم لم يؤثروا تأثيرا يذكر فى الفرسان بدروعهم . وفجأة قسّم العرب جنودهم ، واندفع الفرسان الأتراك وقد لمعت سيوفهم وفؤوسهم ، وشنوا أعنف هجماتهم على فرسان المستشفى والفلمنكيين والى جانبهم البارونات المحليين ، وفي مأمولهم الإحاطة بجناح المسيحيين الأيسر . وصمد الفرسان وبعد كل موجة كان رماة السهام يعيدون تنظيم صفوفهم . غير أن ريتشار ، وبرغم ما يدعيه من حنكة عسكرية ، لم يكن يسمح لأى جزء من جيشه بالهجوم الاّ بعدما يكون الجميع على أهبة الاستعداد وبعد أن يُظهر المهاجمون الأتراك علامات على الانهاك وإلى أن يصبح الجيش العربى الرئيسى أقرب . ومرة بعد مرة يرسل السيد الأعظم لفرسان المستشفى إلى ريتشارد متوسلا أن يعطى إشارة الهجوم ، قائلا إن فرسانه سيصيبهم الوهن ما لم يتسلموا زمام الهجوم ، لكن ريتشارد كان لا يزال يأمر بالاصطبار ، فقام فارسان هما مارشال من فرسان المستشفى وبلدوين كاريو بالتصرف وانطلقا إلى الأعداء ، وانطلق خلفهما كل رفاقهما ، وحذا كل الفرسان بطول الجيش حذوهما فنخسوا خيولهم بالمهاميز . وساد الإضطراب اول

الأمر ، إذ لم يكن رماة السهام على استعداد وكانوا في الطريق حجر عثرة امام الفرسان، وانطلق الملك نفسه إلى وسط الهرج في محاولة لإعادة بعض النظام ، وتولى زمام الهجوم . وكان كاتم اسرار صلاح الدين على تل قريب يرقب روعة المشهد ففغر فاه أثناء أن كان الفرسان المسيحيون يرعدون في طريقهم باتجاهه . وكان ذلك فوق احتمال الجنود المسلمين ، فانكسرت صفوفهم وهربوا ، لكن صلاح الدين جمعهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره ، بل قاد هجوما آخر على العدو ، ولكن دون جدوى وبحلول المساء كان الجيش المسيحى مسيطرا على الميدان ويواصل سيره باتجاه الجنوب(٢٣).

١١٩١م : انتصار ريتشارد

لم تكن معركة أرسوف معركة حاسمة ، لكنها كانت نصرا معنويا ضخما للمسيحيين . وكانت خسائرهم قليلة بصورة باعثة على الدهشة برغم مصرع الفارس العظيم جيمس (أوف افيزن) الذى كان راقدا مع خمس عشرة جثة من جثث العرب حوله . على أن خسائر العرب كانت قليلة أيضا بنفس القدر تقريبا ، ولم يسقط أى أمير مرموق ، وفى اليوم التالى جمع صلاح الدين كل رجاله وكان على استعداد لمواجهة أخرى ، تجنبها ريتشارد إذ لم يكن من القوة بما يكفى للدخول فيها . كانت قيمة النصر تكمن فيما منحه من ثقة للمسيحيين . وكانت هذه المعركة أول معركة كبيرة مكشوفة منذ معركة حطين ، وأظهرت إمكان هزيمة صلاح الدين . ولكونها قد وقعت بعد الاستيلاء على عكا مباشرة ، فقد بدا ذلك مؤشرا على أن المد قد تحول وأن بالامكان تحرير القدس ذاتها مرة أخرى . وكانت شهرة ريتشارد فى أوج ارتفاعها . ومن الحق أن هجوم الانتصار قد شُنّ بالمخالفة لأوامره ، لكنه لم يحدث سوى قبل دقائق قليلة من اكتمال استعداده ، إن تمالكه لنفسه من قبل ، وتوجهه للهجوم من بعد أظهر قدره فائقة على القيادة . فكان ذلك بشيرا لمستقبل الحملة الصليبية.

ومن الناحية الأخرى ، أصيب صلاح الدين بمهانة شخصية وعامة . فجيشه لم يكن ذا فعالية في عكا والآن هزم فى معركة مكشوفة . وكشأن سلفه العظيم نور الدين، كان صلاح الدين يفقد شيئا من طاقته وسيطرته على الرجال وهو يخطو نحو

---

(٢٣) *Itinerarium*, pp.256-78; Ambroise, cols. 160-78; Beha ed-Din. *P.P.T.S.* pp.281-95; Abu Shama,II,pp.36-40

الشيخوخة . كانت صحته سيئة وقد عانى من نوبات متكررة من الملاريا . وقد تراجعت قوته عمّا كانت عليه أيام شبابه في فرض قراراته على الأمراء المشاكسين الذين كانوا أتباعه ، وكان كثيرون ينظرون إليه على أنه حديث النعمة ومغتصب ، وإذا ما بدا نجمه ينحدر كانوا سراعا في اظهار تحررهم من تبعيته . لقد كان كثيرا عليه أن يقبل تفوق ريتشارد عليه في القيادة العسكرية . وقبل كل شئ ، لا ينبغي له أن يفقد القدس التى كان استرجاعها أكبر انتصاراته المجيدة . وقد أخذ جيشه في نظام جيد إلى الرملة الواقعة على الطريق إلى القدس ، انتظارا لما سيقدم عليه ريتشارد فى حركته التالية.

واصل الجيش الصليبى سيره إلى يافا وشرع في إعادة بناء تحصيناتها . وحتى آنذاك كان ريتشارد يتوخى أن يكون الأسطول إلى جانبه لتزويده بالمؤن ، و لم يكن على استعداد للتوغل داخل البلاد إلى المدينة المقدسة بدون قاعدة قوية على الساحل ، فضلا عن أن جيشه قد أصابه الكلل بعد سيره الطويل جنوب الساحل بحيث كان في شدة الحاجة إلى الراحة . وقد أحدث حذره وتأخيره الكثير من الحيرة للمؤرخين ، إذ لو أنه اتجه بسرعة خاطفة إلى القدس لوجد بها حامية واهية ولوجد أسوارها ضعيفة ، على أن جيش صلاح الدين كان قد هُزم فقط و لم يُدمّر ، وما زال جيشا جبارا ، وحتى لو أفلح ريتشارد في اقتحام طريقه إلى القدس ، لأصبح معزولا عن الساحل ، فكان من الحصافة التأكد من يافا قبل الشروع في مغامرة أكبر . ومع ذلك ، كان التأخير مفرطا ، وأتاح لصلاح الدين تقوية دفاعات المدينة المقدسة . ثم إنه خشى أن يتجه ريتشارد إلى عسقلان ويقيم بها قاعدة ، ومن ثم يقطع عليه الطريق إلى مصر التى هى بمثابة مصدره الرئيسى من الرجال ، ولذا أخذا قسما من جيشه من الرملة إلى عسقلان وراح يحطّمها تحطيما رتيبا برغم ثرائها وازدهارها[٢٤]. وفي تلك الأثناء راح الجيش المسيحى يسبح فيما تتيحه يافا من أسباب الراحة ؛ فالحياة فيها ناعمة ، والحدائق من حولها بألوان الثمار زاخرة ، والسفن تجلب المؤن الوافرة ، كما تستجلب من عكا عاهرات النساء ليتسلّى بهن الرجال . وبقى العرب على مسافة من المدينة ، و لم تحدث سوى مناوشات قليلة بين الفرسان في سهل اللد في ضواحى المعسكر . ودبّت في الجيش حياة التراخى والنعومة ، واتخذ الكثير من الجند سبيلهم عائدين إلى عكا ، فاضطر ريتشارد إلى إرسال الملك جوى لحثّهم على العودة إلى المعسكر ، لكنهم لم يعيروه التفاتا؛ فكان من

---

(٢٤) *Itinerarium*,pp.280-1; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.295-300; Abu Shama, II,pp.41-4، ويُظهر ابن الأثير II,pp.50-1 أن صلاح الدين أذعن لأمرائه على خلاف رغبته فيما يتصل بعسقلان.

الضرورى أن يذهب ريتشارد نفسه إلى عكا كي يجمع شملهم مرة أخرى[٢٥]. وكان لريتشارد شواغله التى تقلقه ، إذ لم يكن راضيا عن سير الأمور في عكا وما يليها شمالا حيث كان حزب كونراد يتمتع بالقوة. كما كانت هناك اضطرابات في قبرص بعد موت ريتشارد (أوف كامفيل)، وبعد الصعوبات التى واجهها روبرت (أوف تورنهام) في اخماد تمرد . وساورته المخاوف مما قد يفعله الملك فيليب في طريق عودته إلى فرنسا . ووجد ريتشارد حلا لمشاكله في قبرص بأن باع الجزيرة لفرسان المعبد[٢٦]. على أنه كان متلهفا على الشروع في التفاوض مع صلاح الدين ، وهذا الأخير على استعداد لسماع مقترحاته ، فأناب أخاه العادل للتفاوض باسمه.

١١٩١م : ريتشارد يتفاوض مع العادل

كان همفرى (أوف تورون) أفضل دارس للغة العربية في الجيش ، وكان ريتشارد يحمل له عاطفة عميقة . فما أن وصل ريتشارد إلى يافا حتى أرسل همفرى إلى اللد حيث يتولى العادل القيادة لمناقشة الشروط الأولية لعقد هدنة ، لكن شيئا لم يتقرر. وكان العادل دبلوماسيا ماهرا ، وكبح جماح أخيه في تلهفه على تسوية . وأتيحت لدبلوماسيته فرصة رائعة عندما جاءه مبعوثون في اكتوبر من صور يسألونه إن كان على استعداد لاستقبال سفارة من كونراد . وكانت أول مطالب ريتشارد التى لا يتنازل عنها استرداد القدس وكل البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن وعودة الصليب المقدس . وأرسل صلاح الدين رده قائلا إن المدينة المقدسة هى مدينة مقدسة للإسلام أيضا ، ولا سبيل لإعادة الصليب بدون بعض التنازلات في المقابل . وبعد أيام قليلة تقدم ريتشارد بمقترحات جديدة . إذ أنه - كشأن الصليبيين جميعا - كان معجبا بالعادل الذين اطلقوا عليه سيف الدين ، واقترح أن يتسلم العادل فلسطين كلها التي يملكها صلاح الدين الآن ، وأن يتزوج العادل من أخت الملك - الملكة جوانّا الصقلية - التي يتعين أن توهب لها المدن الساحلية التي استولى عليها ريتشارد ، بما فيها عسقلان، وأن يعيش العريسان في القدس التي ينبغى أن تتوفر للمسحيين امكانية الوصول اليها ، وأن يُسترد الصليب ، وأن يفرج عن جميع الأسرى من الجانبين ، وأن

---

(٢٥) *Itinerarium*, pp.283-6; Ambroise, cols. 187-9.

(٢٦) Benedict of Peterborough, II,pp.172-3; Ernoul, p.273; *Estoire d'Eracles*, II, pp.170,189-90.

يسترد فرسان المعبد وفرسان المستشفى ممتلكاتهم الفلسطينية . وذهب كاتم أسرار صلاح الدين في زيارة لصلاح الدين ومعه العرض ، واعتبر صلاح الدين العرض طرفة من الطرائف ووافق عليه في مرح . على أن ريتشارد ربما كان جادا تماما في عرضه . وأما الملكة حوانّا، التي انضمت إلى ريتشارد في يافا مع الملكة بيرينجاريا، فقد ارتاعت لدى سماعها الاقتراح ، وقالت إنه ليس ثمة ما يدفعها إلى الزواج من مسلم . وبعد ذلك ، سأل ريتشارد العادل إن كان بمقدوره أن يتفكر في أن يصبح مسيحيا . ورفض العادل في أدب هذا الشرف ، ودعا ريتشارد إلى وليمة فاخرة في اللد في الثامن من نوفمبر ، فكان مهرجانا بهيجا وافترقا بتأكيد مشاعر الود إزاء بعضهما وفي حعبة كل منهما كثير من الهدايا. بيد أنه في نفس تلك اللحظة كان صلاح الدين يتسلّى في معسكره القريب بسفير أرسله كونراد - ريموند الجذاب أمير صيدا - الذي غفر له السلطان أحاييله في بيوفورت.

وفي الصباح التالى استقبل صلاح الدين مبعوث ريتشارد - همفرى (أوف تورون) - الذى حاء بعرض يقضى بالاعتراف بالعادل حاكما لفلسطين كلها طالما سيكون المسيحيين نصيب في القدس . وكان المأمول أن تُجرى ترتيبات الزواج من حوانّا ، رغم اعتراف ريتشارد بأن الرأي العام المسيحى قد أصيب بنوع من الصدمة من هذه الفكرة؛ ويعتقد ريتشارد أن تدخل النظام البابوي قد يجعل حوانا تغير رأيها ، وفي هذه الحالة يستطيع العادل أن يتزوج ابنة اخته - إلينور (أوف بريتانى) - التي يمكنها الزواج دون تدخل بابوى باعتبارها تحت وصاية الملك ، وبعدما تتم تسوية كل ذلك ، سيرجع ريتشارد إلى أورروبا . وكان عرض كونراد أقل إثارة ، ففي مقابل حصوله على صيدا وبيروت سوف يتخاصم مع الصليبيين الآخرين ، بل اقترح عودة عكا إلى المسلمين . على أنه عندما سألوا السفير ما إذا كان كونراد سيحمل السلاح فعلا في وجه ريتشارد، راوغ فى رده.

وعقد صلاح الدين مجلسا لتقرير أي الحزبين الفرنجيين الذي تستمر معه المباحثات. وصوت العادل وأمراء آخرون فى حانب حزب ريتشارد ، وربما لم يكن ذلك بدافع استلطافه وانما لأنه سرعان ما سيغادر فلسطين ، بينما كونراد ، وكانوا جميعا يشعرون بشئ من الخشية حياله كان ينوى البقاء في فلسطين على الدوام . وقُبلت مقترحات ريتشارد من حيث المبدأ ، غير أن حاشية همفرى شعرت بالحزن يوما ما عندما شاهدت رينالد أمير صيدا يخرج في رحلة صيد مع العادل وقد بدا الاثنان على علاقة

وطيدة ودودة . وواقع الأمر أن العادل تدبر إطالة المفاوضات إلى أن حل الشتاء[٢٧]. وفي تلك الآونة كانت الحرب بين الجيشين متقطعة ومتفرقة . وفي احد أيام شهر نوفمبر ، وبينما كان ريتشارد في رحلة صيد بالصقور ، سقط هو نفسه في كمين عربي، وأوشك العرب أن يأخذوه لولا شهامة الفارس وليم (أوف برو) الذي صاح بأنه هو الملك وحل محل الملك في الأسر ، وقد سقط بعض الفرسان الآخرين في ذلك اليوم ، على أنه بخلاف تلك المناوشات الطفيفة لم يكن هناك اشتباك حدير بالذكر[٢٨].

١١٩٢م : ريتشارد في بيت نوبا

عندما بدأت أمطار نوفمبر هطولها سرّح صلاح الدين نصف جيشه وعاد مع الباقين إلى مقره الشتوى في القدس . وكانت التعزيزات في طريقها من مصر . غير أن ريتشارد رفض أن يثبّطه الجو عن عزمه ، ففي منتصف الشهر قاد جيشه ، الذي زاد عدده بفصائل جديدة أتته من عكا ، خارجا من يافا حتى الرملة التى وجدها وقد هجرها العرب وفككوا حصونها ، وبقي فيها ستة أسابيع ينتظر الفرصة للزحف على القدس ، ودأب العرب على الإغارة على مخافره الأمامية ، وكاد هو نفسه أن يقع في الأسر عندما كان يقوم بأعمال استطلاع بالقرب من قلعة بلانشجارد ، وفي اشتباك آخر وقع في الأسر أحد الوجهاء ، هو إيرل ليشيستر لكنه أفرج عنه فيما بعد . وخلال الأيام الأخيرة من العام كان الجو من السوء بحيث سحب صلاح الدين فرق الإغارة التابعة له . وأمضى ريتشارد عيد الميلاد في لاترون الواقعة على حافة تلال يهودا ، وفي الثامن والعشرين من ديسمبر تحرك جيشه شمالا في التلال دون أن يعترضه الأعداء . وهطلت الأمطار بغزارة شديدة واستحالت إلى سيول ، وغرق الطريق في الطين، وهبت رياح عاتية خلعت قوائم الخيام قبل التمكن من نصب أية خيمة . وبحلول الثالث من يناير كان الجيش قد وصل إلى بيت نوبا التى لا تبعد عن المدينة المقدسة سوى اثنى عشر ميلا . وامتلأ الجنود الإنجليز والفرنسيون حماسا ، وباقترابهم على هذا النحو من هدفهم الذي بات وشيكا هانت عليهم المشاق التي عانوها في المعسكر في هذا الارتفاع تحت الرياح المطيرة ، والدمار الذى سببته الأمطار لمخزوناتهم من البسكوت والخنازير ،

---

(٢٧) *Itinerarium*,pp.295-7; ويورد بهاء الدين *P.P.T.S.* pp.302-35 رواية مفصّلة عن المفاوضات؛ Abu Shama,II,pp.45-50.

(٢٨) *Itinerarium*, pp. 286-8.

وهما طعامهم الرئيسي، وما فقدوه حياد كثيرة بسبب البرد ونقص التغذية ، وما عـانوه من كدح ورهق . على أن الفرسان من ذوى الدراية بالبلاد - فرسان المستشفى والمعبد والبارونات المولودين محليا - كان لهم وجهة نظر أكثر حصافة وبعثا على الأسـى ذلـك أنهم قالوا للملك ريتشارد إنه حتـى إذا تمكـن مـن التوغـل فـوق التـلال الطينيـة مخترقـا العواصف إلى القدس ، وحتى لو تمكن من محاصرة حيش صلاح الدين هناك ، فإن هناك حيشا عربيا آتيا من مصر سوف يعسكر على التـلال خـارج المدينـة ، وبـذا سـيقع بـين شقى الرحى . وأضافوا أنه حتى لو تمكن من الاستيلاء على القدس ، فماذا بعـد ذلـك؟ فالزائرون الصليبيون سيعودون جميعا إلى اوطانهم في اوروبا بعد حجهم ، وليس الجنـود المحليون بما يكفي من العدد للصمود بها في وحه قوات الإسلام المتحد. واقتنع ريتشارد. وبعد تردد دام خمسة أيام اتخذ القرار الصائب بالانسحاب(٢٩).

وعاد الجيش أدراجه غاضبا وقد وهنـت عزيمتـه مخترقـا الجليـد إلى الرملـة ، وتحمـل الإنجليز خيبة الأمـل بثبـات ، لكـن الفرنسـيين بطبعهـم المتقلـب سـرعان مـا شـرعوا في التخلى عن الجيش فهرب الكثير منهم إلى يافا وبينهم دوق برجندى ، بل ذهب البعـض إلى عكا . وأدرك ريتشـارد أنه من الضرورى القيام ببعض النشاط حفاظا على معنويات الجنود ، وفي العشرين من يناير عقد مجلسا آزره في اصدار الأوامر للجيش بالتحرك مـن الرملة والاتجاه إلى ابلين في الطريق إلى عسقلان . وهناك شـرع في اصـلاح تلـك القلعـة العظيمة التى سبق أن دمّر صلاح الدين تحصيناتهـا قبـل أشـهر قليلـة . وكشـأن صـلاح الدين ، كان ريتشارد يدرك أهميتها الاستراتيجية . وحث الفرنسيين على الانضمام اليه هناك(٣٠).

وأمضى ريتشارد الأشهر الأربعة التالية في عسقلان ، لم يغادرها إلامرة واحـدة زار فيها عكا. وقد حعل من عسقلان أقوى قلعـة علـى السـاحل الفلسـطيني كلـه . ولعـدم وجود مرفأ بها ، لم يكن من اليسير دائما تفريغ مؤن الطعام الآتية بطريق البحر ، فضلا عن أن الأحوال الجوية في ذلك الشتاء كانت دوما سيئة ولم يفعـل صـلاح الديـن شـيئا لمضايقتهم ، وقد ظن البعض من أتبـاع ريتشـارد أن فروسـية صـلاح الديـن منعتـه مـن مهاجمتهم وهم على مثل هذه الحالة الضعيفة ، الأمر الذي أثار سخط أمرائـه . علـى أن حقيقة الأمر أن صلاح الدين كان يريد لجيشه أن يستريح ، وكان ينتظر التعزيزات مـن

---

(٢٩) *Ibid.* pp. 303-8; Ambroise, cols. 203-8.

(٣٠) *Itinerarium,* pp. 309-12; Ambroise, col. 208-11; Abu Shama, II, p. 51.

الجزيرة والموصل . وربما كان بعض أمرائه ساخطين حقا وأن لم يكن ذلك لإحجامه عن مهاجمة الصليبيين بالضرورة ، وهو لا يسعه المجازفة بمعركة وهم على ما هم عليه من سوء الطبع[٣١].

هذا فضلا عن أن الأنباء الآتية من عكا تشير إلى تشتت الفرنج ، ففي فبراير استدعى ريتشارد كونراد إلى عسقلان للمساعدة في الأعمال الجارية ، لكن كونراد أرسل ردا فظا . وبعد أيام قليلة تخلى هيو (أوف برجندي) وكثير من الفرنسيين عن الجيش وفروا إلى عكا . وكان الملك فيليب قد ترك للدوق قدرا زهيدا للغاية من المال لرواتب الجند ، ومنذآنذاك ورواتبهم يدفعها ريتشارد على هيئة قروض . على أن ثروة ريتشارد الضخمة بدأت تتناقص ، ولذا كفّ عن تمويلهم . وفي عكا اشتد التنافس بين أبناء بيزا وأبناء جنوا ، ولكل منهما الآن الكثير من الرحال والسفن الراسية ، وشيئا فشيئا تحول التنافس إلى حرب مفتوحة . وزعم أبناء بيزا أنهم يعملون باسم الملك جوى، فاستولوا على المدينة برغم معارضة هيو (أوف برجندى) الذى كان قد وصلها من فوره ، واحتلوا المدينة لثلاثة أيام معتبرين أنها لا تحق لهيو ولا لكونراد ، ولا لأبناء جنوا ، وأرسلوا إلى ريتشارد يلتمسون منه الحضور لمساعدتهم . وفي العشرين من فبراير وصل ريتشارد إلى عكا وحاول إحلال السلام ، وأجرى مقابلة مع كونراد في كاسال امبرت الواقعة على الطريق إلى صور ، لكن المقابلة لم تفلح ، إذ كان كونراد لايزال يرفض الانضمام إلى الجيش فى عسقلان ، حتى عندما هدده ريتشارد بأنه إذا أصر على رفضه الانضمام إلى الجيش فسوف تُصادر أراضيه جميعها ، وهو تهديد يستحيل تنفيذه. وفي نهاية الأمر أفلح ريتشارد في ترقيع هدنة هشّة ، ثم عاد إلى عسقلان وقد اقتنع أكثر من اي وقت مضى بضرورة تحقيق السلام مع صلاح الدين[٣٢].

١١٩٢ م : مفاوضات جديدة

وكان ريتشارد ما يزال على اتصال بالعادل . فأرسل مبعوثا انجليزيا هو ستيفن (أوف تورنهام)، فى زيارة للقدس لمقابلة السلطان وأخيه ، وأصيب المبعوث بالصدمة لدى رؤيته رينالد أمير صيدا وباليان أمير ابلين وهما يخرجان من بوابة المدينة . ولم تكن

---

(٣١) *Itinerarium*, pp.313-17; Ambroise, cols. 212-14

(٣٢) *Itinerarium*, pp. 319-24; Ambroise, cols. 218-21.

مفاوضات صلاح الدين مع كونراد قد انقطعت ، وكان وجود باليان نذيرا سيئا ، إذ كان فارسا يحظى بتقدير كبير من صلاح الدين . على أية حال انطلق العادل على جواده في العشرين من مارس هابطا إلى معسكر ريتشارد وهو يحمل عرضا نهائيا بأن يحتفظ المسيحيون بما استولوا عليه ، ولهم الحق في الحج إلى القدس حيث يمكن للاتينيين الاحتفاظ بقساوسة ، وأن يبقى معهم الصليب المقدس ، ومن حقهم ضم بيروت كذلك في حالة هدم حصونها . واستقبل الملك السفارة استقبالا حسنا حقا ؛ وكعلامة على التشريف الخاص طُوّق أحد أبناء العادل بحزام الفروسية ، ولا شك في أن المظاهر المسيحية المعتادة قد ألغيت من الاحتفال . وعندما رجع العادل إلى أخيه في أوائل ابريل، بدا أنه قد تم التوصل أخيرا إلى تسوية(٣٣).

وتأكدت ضرورة التسوية بعد أيام قليلة ، عندما وصل من انجلترا رئيس أديرة هيرفورد ليخبر ريتشارد بأن الأمور تسير بصورة سيئة في انجلترا . ذلك أن أخا الملك ، جون ، كان يغتصب السلطة أكثر فأكثر، وتقدم كبير القضاة وليم أسقف إيلى متوسلا ريتشارد أن يذهب إلى الوطن على الفور . وكان ريتشارد قد أمضى عيد الفصح ، الخامس من ابريل ، في المعسكر وهو حانق لرحيل الفرنسيين الباقين بعد أن استدعاهم هيو (أوف برجندى) في الشمال . والآن ، واكثر من أى وقت سابق ، يتعين أن تُخمد المشاحنات بين الصليبيين ، ولذا أمر الملك بعقد مجلس من الفرسان جميعا وبارونات فلسطين ، وأخبرهم بأنه سرعان ما سيغادر البلد ، ويجب الإنتهاء إلى قرار فيما يتعلق بتاج القدس عارضا عليهم الإختيار بين الملك جوى و المركيز كونراد . وصدمه الاّ يجد مؤيدا واحدا لجوى ، كانوا جميعا يريدون كونراد.

وكان ريتشارد من الحكمة والأريحية بحيث يرضخ للقرار ، ووافق على الاعتراف بكونراد ملكا، وانطلقت بعثة يرأسها ابن اخيه هنرى (أوف شامباني) إلى صور لنقل الأخبار الحسنة إلى المركيز.

وعندما وصل هنرى إلى صور في العشرين من ابريل تقريبا كانت البهجة بالغة . وتقرر أن يجرى التتويج في غضون أيام قليلة في عكا ، وكان مفهوما أن كونراد سوف يرضى في نهاية الأمر بالانضمام إلى المعسكر في عسقلان . ورحل هنرى من صور على الفور إلى عكا لإعداد المدينة للاحتفال(٣٤).

---

(٣٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 328-9; *Itinerarium*, p.337.

(٣٤) *Itinerarium*, pp.329-38; Ambroise, cols. 225-31.

١١٩٢م : اغتيال كونراد

ركع كونراد على ركبتيه لدى سماعه الأنباء ضارعا إلى الرب قائلا إنه إن لم يكن جديرا لأن يصبح ملكا، فلا يأذن الرب بذلك . وبعد أيام قلائل ، وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ابريل ١١٩٢ ، اضطرته زوجته الأميرة إيزابيلا إلى الانتظار طويلا قبل تناول العشاء ، إذ كانت قد بقيت في حمامها متريثة تريثا طويلا، ولذا قرر الخروج لتناول عشاءه مع صديقه القديم أسقف بوفيه . لكنه وجد الأسقف قد فرغ من تناول وجبته. ورغم الالحاح عليه كي ينتظر ريثما يتم إعداد الطعام له ، انطلق في مرح قاصدا بيته . وبينما كان يجتاز منعطفا حادا برز له رجلان أعطاه أحدهما خطابا يقرؤه ، بينما طعنه الآخر في جسده . وحُمل إلى قصره وهو يحتضر.

فأما أحد الرجلين فصرع على الفور ، واقتيد الثاني واعترف قبل اعدامه بأنه ورفيقه من الحشاشين ، كلفهما سيد الجبل، الشيخ سينان ، بتنفيذ المهمة . وكان الحشاشون قد توخوا حيادا هاما طوال تلك الحملة الصليبية، مما أتاح لهم الفرصة لتقوية حصونهم وتكديس المزيد من الثروة . وكان كونراد قد أساء إلى الشيخ سينان بعمل من اعمال القرصنة أقدم عليه ضد سفينة تجارية محمّلة بنفيس البضائع كان الحشاشون قد اشتروها . وبرغم اعتراضات سينان ، لم يُرجع كونراد البضائع ولا البحارة الذين غرقوا كلهم في الواقع . وربما كان سينان يخشى من أن تتعرض أراضيه للخطر في نهاية الأمر من انشاء دويلة صليبية قوية على الساحل اللبناني . وقيل إن القاتلين كانا قد أمضيا بعض الوقت في صور ينتهزان النهزة المواتية ، وأنهما قبلا حتى التعميد تحت رعاية كونراد وباليان . غير أن الرأي العام كان يبحث عن دوافع أعمق ؛ فقال البعض إن صلاح الدين دفع رشوة لسينان كي يقتل ريتشارد و كونراد كليهما ، لكن خشي سينان من أن يودى مقتل ريتشارد إلى أن يصبح صلاح الدين حرا في الزحف على الحشاشين ، ولذا تولى تنفيذ المهمة الأخيرة . وهناك نظرية أخرى أكثر شيوعا وهي أن ريتشارد نفسه قد رتب الإغتيال . وليس تواطؤ صلاح الدين على الاغتيال جديرا بالتصديق ؛ وريتشار - برغم كراهيته الشديدة لكونراد - لم يستخدم قط سلاح الاغتيال هذا . لكن أعداءه ، وعلى رأسهم أسقف بوفيه ، رفضوا تصديق براءته[٣٥].

---

(٣٥) *Itinerarium*, pp. 337-42; Ambroise, cols. 233-8; Ernoul, pp. 288-90; Estoire d'Eracles, II, pp.192-4; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 332-3; Abu Shama, II, pp. 52-4

وكان مقتل كونراد بمثابة صدمة للمملكة الوليدة . ذلك أن كونراد الفظ الطموح عديم الخُلُق والذى مع ذلك حاز ثقة واعجاب النبلاء المحليين من الفرنج ، كان حريا بأن يكون ملكا قويا ماكرا . ومع ذلك ، كان هناك بعض العِوض لاختفائه ؛ إذ توفرت حرية الإختيار لوريثة المملكة - إيزابيلا - لأن تتزوج وتضع التاج على رأس مرشح آخر أقل إثارة للخلاف . ولقد أسرع هنرى (أوف شامباني)، لدى سماعه بالإغتيال ، عائدا من عكا إلى صور حيث وجد الأميرة الأرملة وقد أغلقت على نفسها القلعة رافضة تسليم مفاتيح مدينتها لأي شخص عدا ممثل ملك فرنسا أو ممثل ملك انجلترا . وما أن وصل هنرى حتى نادى به أبناء صور على أنه الرجل الذي ينبغي أن يتزوج أميرتهم ويرث العرش ، لاسيما وأنه كان شابا ، وذا شهامة ، ويحظي بالشعبية، وابن اخت كل من الملكين . ورضخت ايزابيلا لصخب عامة الناس ، فوهبت نفسها ومفاتيحها لهنرى ، وأعلنت خطبتهما بعد يومين من اغتيال كونراد . وقد رأي البعض أنه كان من اللائق التأخير أكثر من ذلك ، وكان من المشكوك فيه ما إذا كان التزوج مرة أخرى في غضون عام أمرا قانونيا من الناحية الكنسية . وكان لدى هنرى نفسه بعض الفتور ، على خلاف ايزابيلا التى كانت امرأة بالغة الفتنة في ربيعها الحادى والعشرين غير أنها سبق أن تزوجت مرتين ، ولديها الآن طفلة رضيعة سوف ترثها . ويبدو أن هنرى قد أصر على أن يصدق ريتشارد على الخطبة ، فأُرسلت الرسل التى جاءت بهنرى إلى عكا حيث قابل ابن اخته . وأشيع أنه أخبر هنرى بما يساوره من شكوك ، وبتلهفه إلى العودة إلى الوطن حيث أراضيه الفسيحة في فرنسا. على أن الحل راق في عيني ريتشارد ونصح هنرى بقبول اعتلاء العرش ووعده بأنه سوف يرجع يوما ما بمساعدة جديدة لمملكته ، ورفض أن يبذل له النصح حول الزواج ؛ ولكن هنرى لا يستطيع أن يغدو ملكا بغير زواجه من ايزابيلا . وفي الخامس من مايو ١١٩٢ - وبعد أسبوع واحد تماما من الترمل - دخلت ايزابيلا عكا وهنرى إلى جانبها . وخرج الشعب كله لتحيتهما ، وأقيمت احتفالات الزواج بين مظاهر الفخامة والبهجة ، ثم أن الأميرة وزوجها اتخذا من قلعة عكا مكان إقامتهما[٣٦].

---

(٣٦) (*Itinerarium*, pp. 342-3; Ambroise, cols. 238-9 كلاهما يقول إن الجماهير أصرت على اختيار هنرى ، وآيده الفرنسيون ، لكن ريتشارد لم يكن ليلزم نفسه) ؛ وأما Ernoul,pp. 290-1; *Estoire d'Eracles*, II, pp.195-6 فيوحيان كلاهما بأن ريتشارد أصر على ذلك ؛ ويقول أبو شامة Abu Shama, loc.cit. إن إيزابيلا كانت حُبْلى عندما تزوجت هنرى . ومع ذلك ربما كانت ابنتها ماريا قد ولدت قبل مصرع كونراد.

١١٩٢م : ريتشارد يستولي على دارون

ولقد كان زواجا سعيدا ، فسرعان ما جاشت أعماق هنري بحب زوجته حتى ما يكاد يحتمل غيابها عن ناظريه . وهي الأخرى وجدت سحره لا يقاوم بعد أن عانت من جهامات ذلك العجوز القادم من اقليم بيدموت الإيطالي والذي أجبرت على الزواج منه قسرا.

وقد تخلى ريتشارد فعلا عن الملك جوي ، بعد أن فهم أخيرا أن لا أحد في فلسطين يرتجى أي نفع من ذلك العاهل السابق الذى لا خير فيه . بيد أن هناك مستقبل قبرص الذي يتعين تدبره ، وكان عازفا عن الإحتفاظ بضباط في الجزيرة عندما يرجع إلى أوروبا ، كما أن فرسان المعبد ، الذين باع لهم حكومة قبرص ، كانوا يفتقرون إلى الحكمة في معاملة المواطنين اليونانيين ، وتمنوا لو يعيدونها اليه ، ولذا سمح لجوى أن يشترى منهم حكومتها بعد أن طلب لنفسه مبلغا إضافيا ، لم يدفعه جوي كاملا في واقع الأمر . وفي وقت مبكر من شهر مايو ، هبط جوي في جزيرة قبرص وله كامل السلطة ليحكمها كما يحلو له(٣٧).

وبعدما استقرت تلك الأمور كلها ، وجّه ريتشارد الدعوة إلى هنرى للإنضمام اليه في عسقلان . وكانت هناك شائعة تفيد بأن أحد أبناء أخي صلاح الدين في الجزيرة شرع في تمرد خطير ضد السلطان ، ولذا قرر ريتشارد شن هجوم مفاجئ على دارون الواقعة جنوب الساحل بعشرين ميلا ، وخاصة وأن معاهدته مع العرب لم يتم التصديق عليها بعد . غير أن هنرى تلكأ مع الجيش الفرنسي في عكا ، فلم ينتظرهم ريتشارد وانما زحف بحرا وبرا على دارون ، وفي الثالث والعشرين من مايو ، بعد خمسة أيام من القتال المستعر ، قصف أسفل المدينة واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين ، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف ، وألقى بالبعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض في عبودية سرمدية(٣٨).

طربت قلوب الصليبيين باستيلائهم ذاك اليسير على آخر قلاع صلاح الدين الساحلية ، حتى أنهم خططوا مرة اخرى الزحف على القدس . ووصل هنرى والفرنسيون إلى دارون غداة الاستيلاء عليها ، في الوقت المناسب لقضاء عيد العنصرة

---

(٣٧) للإطلاع على بيع قبرص أنظر Hill, *History of Cyprus*, II, pp. 36-8, 67-9.

(٣٨) *Itinerarium*, pp. 352-6; Ambroise, cols. 245-51; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.337; Abu Shama, II, p. 54.

هناك مع الملك . ثم إن الجيش عاد بعد ذلك مباشرة إلى عسقلان ، وراح الفرنسيون والانجليز سواء بسواء يحثون الملك على شن هجوم عاجل على المدينة المقدسة . وكان ريتشارد قد وصله لتوه المزيد من الأنباء المقلقة من انجلترا ، وساورته الريبة عما إذا كانت الحملة ستكون مجدية من الناحية العسكرية ، وانصرف إلى فراشه في حيرته ، ولم يوقظه إلا خطاب عكّر صفوه سلمه له أحد قساوسته الفرنسيين ، وأقسم على البقاء في فلسطين حتى عيد الفصح التالى(٣٩).

في السابع من يونية انطلق الجيش الصليبى مرة أخرى من عسقلان . وبتجاوزه الرملة فى سيره خلال بلانشجارد ، وصل لاترون في العاشر وبيت نوبا في الحادى عشر وهناك توقف ريتشارد وبقى الجيش هناك شهرا . وكان صلاح الدين ينتظر في القدس التى وصلتها التعزيزات من الموصل والجزيرة لتوها . وكان تقدم المسيحيين أكثر من ذلك في التلال بلا مخزون طعام أو دواب أمتعة أمراً يتصف بالحماقة . وانتهى الأمر بالجانبين إلى المناوشات بينهما بدرجات متفاوتة من النجاح . وفي أحد الأيام، وبينما كان الملك ريتشارد على جواده على التلال فوق إماوس ، شاهد على البعد فجأة أسوار وأبراج القدس، فسارع بتغطية وجهه بدرعه حتى لا يشاهد المدينة التى لم يأذن له الرب بتخليصها . بيد أنه كان هناك بعض العِوض؛ ففى أحد الأيام جاء إلى المعسكر أسقف اللد السورى ومعه قطعة من الصليب الحقيقى كان يحتفظ بها ، وجاءه بعد ذلك بقليل رئيس الدير اليوناني مار إلياس ، وهو رجل وقور بلحية بيضاء طويلة، وأفضى إلى الملك بالمكان الذي دفن فيه قطعة أخرى من الصليب لكي ينقذها من الكفرة ، واحتفروا المكان وأخرجوها وأعطوها لريتشارد . وكانت القطعتان عزاءً للجيش عن فشله فى استعادة الجزء الرئيسى لهذا الأثر الهام الذي يبدو أن صلاح الدين قد أعاده الآن إلى كنيسة القبر المقدس في القدس.

وفي العشرين من يونية ، عندما كان قواد الجيش مترددين في التخلى عن محاولة الهجوم على القدس والتوجه بدلا من ذلك إلى مصر ، جاءت أنباء بأن قافلة اسلامية ضخمة آتية من الجنوب في طريقها إلى المدينة المقدسة . وبعد ثلاثة أيام انقض عليها ريتشارد عند الحوض الدائر ، أو آبار كويفا ، في المنطقة الجدباء على بعد عشرين ميلا تقريبا جنوب غرب الخليل . ولم يكن المسلمون على استعداد لمجابهة هذا الهجوم ، وبعد معركة قصيرة وقعت القافلة كلها في أيدى الصليبيين ، بنفيس بضائعها ، وما كانت

---

(٣٩) *Itinerarium*, pp. 356-65; Ambroise, cols. 252-9.

تحمله من مؤن الطعام الوفيرة ، وبضعة آلاف من الجياد والجمال . وعاد الجيش المسيحي منتصرا إلى بيت نوبا.

وارتاع صلاح الدين من الأنباء ، وعلم أن ريتشارد سوف يزحف الآن على القدس لا محالة ، فسارع بارسال الرجال لسد كافة الآبار الواقعة بين بيت نوبا والقدس وقطع جميع أشجار الفاكهة . وفي أول يولية عقد مجلسا في القدس يحيطه جو من القلق ، لمناقشة ما إذا كان عليه أن ينسحب باتجاه الشرق . وقد رغب هو نفسه في البقاء هناك، وأيده أمراؤه المجتمعون مؤكدين ولاءهم له . غير أن الأتراك وجنود الأكراد كانوا على خلاف فيما بينهم، ولذا لم يكن واثقا من صمودهم لهجوم كبير.

١١٩٢م : ريتشارد ينسحب إلى يافا

وسرعان ما هدأت مخاوفه . إذ كانت هناك في المعسكر المسيحي مناقشات يشوبها القلق أيضا، فكان الجنود الفرنسيون متلهفين على التقدم في الحال بعدما أصبح الطعام ووسائل الانتقال بتلك الوفرة الوفيرة . غير أن الكشافين التابعين لريتشارد حذروه من عدم توفر الماء . كما كانت هناك مشكلة ما تزال تفرض نفسها ، وهي كيفية الإحتفاظ بالقدس بعد عودة الصليبيين الغربيين إلى أوطانهم . وأمر ريتشارد الجيش مرة اخرى بالانسحاب من بيت نوبا ، مما أثار سخرية الفرنسيين وشعورهم بالإهانة . وفي الرابع من يولية جاءت صلاح الدين الأنباء بأن المسيحيين قد هدموا معسكرهم وأنهم يشرعون في التحرك جنوبا باتجاه الساحل ، فخرج على رأس رجاله إلى تل مجاور ليشاهد الموكب على البعد(٤٠).

وما أن عاد ريتشارد إلى يافا حتى سعى مرة أخرى إلى عقد هدنة تتيح له حرية العودة إلى الوطن. وأرسل هنرى (أوف شامباني) إلى صلاح الدين رسالة متغطرسة يعلنه فيها أنه الآن وريث مملكة القدس وأنها ينبغي أن تسلم اليه كاملة . وبعد ثلاثة أيام وصل القدس سفراء من ريتشارد ، كانوا أكثر رقة ، إذ أن ريتشارد اعلن أنه يترك ابن أخيه كي تشمله أفضال صلاح الدين ، وحث على التوصل إلى تسوية الأمر بصورة ودية. وعقد صلاح الدين مجلسا وافق على معاملة هنرى معاملة رقيقة ، وعلى

---

(٤٠) *Itinerarium*, pp. 365-98; Ambroise, cols. 260-87; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.337-52; Abu Shama, II,pp.56-62

السماح للقساوسة اللاتينيين بدخول الأماكن المقدسة ، والتنازل عن الساحل الفلسطيني للمسيحيين ، شريطة تفكيك حصون عسقلان . ورفض ريتشارد التفكير في هدم حصون عسقلان ، حتى عندما عرض صلاح الدين اللد في مقابل ذلك . وأثناء أن كانت المحادلات دائرة يحملها الرسل جيئة وذهوبا ، انتقل ريتشارد إلى عكا ، وفي نيته الابحار حتى وإن لم تكن المعاهدة قد وقعت بعد . وكان يخطط للزحف المفاجئ على بيروت والاستيلاء عليها ، ومنها يركب البحر إلى أوروبا(٤١).

وتهيأت لصلاح الدين فرصة بغيابه . ففى باكورة السابع والعشرين من يولية قاد جيشه خارجا من القدس ووصل مساء نفس ذلك اليوم أمام يافا وبدأ مهاجمة المدينة من فوره ، وبعد ثلاثة أيام من قصف المدينة أفلح مهندسو الألغام في إحداث ثغرة اندفع منها الجنود العرب داخل المدينة . وكان الدفاع عن المدينة بطوليا لكنه كان عقيما . وأجبرت الحامية على التسليم وفي مفهومها أن الأعداء سوف يبقون على حياة أفرادها ، ودارت المفاوضات مع البطريق الجديد الذى تصادف وجوده في المدينة . على أن جنود صلاح الدين كانوا آنذاك خارج سيطرته ، واندفع الأكراد والأتراك في الشوارع ينهبون المدينة ويقتلون المواطنين الذين كانوا يحاولون الدفاع عن بيوتهم ، ولذا نصح صلاح الدين جنود الحامية بأن يغلقوا على انفسهم أبواب القلعة إلى أن يتمكن من استعادة النظام.

١١٩٢م : آخر انتصارات ريتشارد

وكانت المدينة، لحظة اقتراب صلاح الدين من الأسوار، قد أرسلت رسالة خاطفة إلى ريتشارد تحمل أنباء الهجوم، فخرج ريتشارد في الحال لإنقاذها، وذهب هو نفسه بحرا تساعده سفن بيزا وجنوا بينما أرسل جيشه برا . وهبت رياح معاكسة أعاقته وقذفت به إلى نقطة جبل كارمل ، ولذا كان جيشه عازفا عن الوصول إلى يافا قبله ، فتأخر في الطريق إلى قيسارية . وفي الحادي والثلاثين، وبعدما تمكن صلاح الدين من تهدئة جنوده بالقدر الذي يسمح له بإجلاء تسعة وأربعين فارسا من فرسان الحامية مع زوجاتهم ومنقولاتهم من القلعة إلى المدينة ، لاح في الأفق أسطول ريتشارد المؤلف من خمسين غليونا . فما كان من الحامية الا أن استأنفت القتال ، وكادت في هجمة واحدة

---

(٤١) *Itinerarium*, pp. 398-9; Ambroise, cols. 287-8; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 353-60; Abu Shama, II, pp. 63-6

أن ترد المسلمين غير المنظمين خارج المدينة . و لم يكن ريتشارد على علم بما يحدث ، فتردد في النزول إلى البر ، إلى أن سبح قس إليه ليخبره أن القلعة لم تسقط بعد . فدفع بسفنه إلى أسفل القلعة وخاض الماء إلى الشاطئ على رأس جيشه . أما في خيمة صلاح الدين ، فكانت رسل الحامية تحاول التفاوض مع صلاح الدين يائسة في ذات الوقت الذى شن فيه ريتشارد هجومه . وبوغت العرب الذين كان أغلبهم لا يزال مبعثرا في الشوارع . وترتب على الشراسة التى كان يحارب بها ريتشارد ، وقد تقدم هو نفسه في المقدمة ، في ذات الوقت الذي شنت فيه الحامية هجوما آخر ، أن اندفع العرب في فرارهم لا يلوون على شئ . وجاء كاتم أسرار صلاح الدين وهمس في أذنه بنبأ الهزيمة النكراء . وبينما كان يحاول تعطيل زائريه بحديثه الممتع ، جاء سيل الهاربين المسلمين ليكشف الحقيقة . فاضطر صلاح الدين إلى الأمر بالإنسحاب . وكان بمقدوره البقاء هو نفسه في معسكره مع حفنة من الفرسان، لكن جيشه الرئيسى هرب إلى عسير الواقعة على مبعدة خمسة أميال داخل البلاد ، قبل أن يعيد تنظيم صفوفه. وهكذا استعاد ريتشارد يافا بما يقرب من ثمانين فارسا وأربعمائة من رماة السهام ، وربما ألفي بحار إيطالي. و لم يكن مع قواته كلها سوى ثلاثة جياد(٤٢).

وفي الصباح التالي مباشرة أرسل صلاح الدين حاجبه أبا بكر لإستئناف محادثات السلام ، فوجد ريتشارد يتفكّه مع بعض الأمراء الأسرى ، حول استيلاء صلاح الدين الخاطف على يافا وعن استيلائه عليها. وقال إنه كان بلا سلاح و لم يتوفر لديه الوقت حتى لتغيير حذائه . على أنه اتفق على الفور مع أبي بكر على أن الحرب ينبغي أن تتوقف . وكانت رسالة صلاح الدين تقترح - كنقطة مساومة - أنه طالما أن يافا قد دمرت الآن ، فينبغي أن تتوقف الحدود الفرنجية عند قيسارية . وعرض ريتشارد اقتراحا مضادا بأن يحتفظ بيافا وعسقلان كإقطاعيتين تحت سيادة صلاح الدين ، دون أن يفسر كيفية ادارة الاقطاعيتين عندما يكون الملك في أوروبا . وكان رد صلاح الدين هو تقديم يافا ، وأصر على الاحتفاظ بعسقلان . ومرة أخرى أثبتت عسقلان أنهابمثابة حجر عثرة ، وتوقفت المفاوضات(٤٣).

وكان الجيش الفرنجي الذي استدعاه ريتشار لإنقاذ يافا يتقدم بعد أن مر بقيسارية.

---

(٤٢) *Itinerarium,* pp. 400-11; Ambroise, cols. 289-302; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp. 361-71; Abu Shama, II,pp.66-71

(٤٣) لم يذكر تلك المفاوضات سوى المؤرخين المسلمين، بهاء الدين(Beha ed-Din (*P.P.T.S.*pp.371-4 وأبي شامة .(II, pp.71-3)

والآن أدرك صلاح الدين جيدا مدى ضآلة قوة ريتشارد في يافا ، فقرر أن يضرب ضربته في معسكره خارج الأسوار قبل وصول قوات جديدة . وفي فجر يوم الأربعاء الخامس من أغسطس ، وبينما كان واحد من أبناء جنوا يتجول خارج المعسكر ، سمع صهيل خيول ووقع أقدام جنود ، ورأى على البعد وميض حديد يلمع في ضوء الشمس البازغة ، فأيقظ من في المعسكر ، وعندما ظهر العرب كان ريتشارد مستعدا . ولم يتوفر لرجاله الوقت الكافي ليحملوا أسلحتهم . فوضع ريتشارد رجاله خلف سياج من أوتاد خيام خشبية كانت مغروزة لتفريق خيول العدو، ونظّمهم في أزواج بحيث ثبتوا دروعهم على هيئة سور أمامهم ، وغرسوا رماحهم الطويلة في الأرض بزاوية لتخترق أجساد المهاجمين. وبين كل زوج من الرجال كان هناك رامي سهام . وهجم فرسان المسلمين في سبع موجات كل منها ألف رجل ، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق سور الحديد ، وتواصل الهجوم حتى ما بعد الظهر . وعندما بدا التعب على جياد الأعداء ، جعل ريتشار رماته يمرون إلى الخط الأمامي وصوبوا كل سهامهم على العدو المهاجم . وأوقف وابل السهام الأعداء . وعاد الرماة مرة اخرى وراء حملة الرماح الذين هجموا يتقدمهم ريتشارد على صهوة جواده . وأعجب صلاح الدين بالمشهد في برغم غضبه، وعندما تعثر جواد ريتشارد وسقط به ، أرسل سائسا في خضم الاضطراب ومعه جوادين جديدين كهدية للملك شجاع . وزحف بعض المسلمين ملتفين لمهاجمة المدينة نفسها ، فهرب البحارة الذين كانوا يحرسونها إلى سفنهم ، إلى أن جاءهم ريتشارد على جواده وجمعهم . وبحلول المساء ، أوقف صلاح الدين المعركة وانسحب إلى القدس، وراح يضيف اليها تحصينات على تحصيناتها تحسبا مقدم ريتشارد(٤٤).

١١٩٢م : معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد

ولقد كان نصرا مؤزرا ، يرجع الفضل فيه إلى تكتيكات ريتشارد وشجاعته الشخصية . لكنه لم يتابع انتصاره . ففي غضون يوم أو يومين عاد صلاح الدين إلى الرملة بجيش جديد يتألف من كتائب من مصر وشمال سوريا ، بينما كان ريتشارد ، الذي نال منه الإجهاد ، يرقد في خيمته مريضا بحمة شديدة، وهو الآن متلهف على السلام . وأعاد صلاح الدين عرضه الأول ، ولازال مصرا على تسليم عسقلان ، وهو

---

(٤٤) *Itinerarium*, pp.413-24; Ambroise, cols. 304-11; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.374-6; Abu Shama,II,p.74.المؤرخون المسلمون يجعلون من المعركة معركة صغيرة

أمر يصعب على ريتشارد احتماله ، فكتب إلى صديقه القديم الأفضل ، الذى كان هو الآخر على فراش مرضه بالقرب من القدس ، راجيا تدخله كي يترك له صلاح الدين عسقلان ، لكن صلاح الدين أبى ، وأرسل إلى الملك المريض خوخا وكمثرى وبعض الثلوج من جبل حرمون لتبريد مشروباته ، لكنه لا يتخلى عن عسقلان . ولم يكن ريتشارد في وضع يمكنه من المساومة ؛ ذلك أن حالته الصحية ، فضلا عن سوء تصرفات اخيه في انجلترا ، كانا يفرضان عليه العودة فورا إلى بلده . والصليبيون الآخرون قد نال منهم الضجر ، فكان ابن اخته هنرى والنظامان العسكريان يظهرون عدم ثقتهم في سياسته ، فما فائدة عسقلان عندما يرحل هو وجيشه؟ وقد دأب أغلب الوقت على الجهر بتصميمه على مغادرة فلسطين . وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من أغسطس ، جاءه حامل بريد العادل بالعرض النهائي من صلاح الدين . وبعد خمسة أيام، في الثاني من سبتمبر ١١٩٢، وقّع على معاهدة سلام مدتها خمس سنوات وأثبت سفراء السلطان أسماءهم عليها . ثم تناول السفراء يد ريتشارد وأقسموا نيابة عن سيدهم ، ورفض ريتشارد نفسه القسم باعتباره ملكا ، ولكن هنرى (أوف شامباني) وباليان (امير ابلين) والسيدين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى أقسموا نيابة عنه . وفي اليوم التالى وقّع صلاح الدين نفسه المعاهدة في حضور سفراء ريتشارد . لقد انتهت حرب الحملة الصليبية الثالثة.

وتقضى المعاهدة بأن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية جنوبا حتى يافا ، وبحرية الحجاج في زيارة الأماكن المقدسة ، والسماح للمسلمين والمسيحيين بالمرور في أراضى بعضهم البعض . لكن تقرر هدم حصون عسقلان.

وسرعان ما طلبت مجموعات من الصليبيين زيارة الأماكن المقدسة ، وما أن رتب صلاح الدين لمرافقتهم وايوائهم ، حتى انطلق افراد تلك الجماعات بلا سلاح حاملين جواز مرور من الملك إلى القدس للإعراب عن تبجيلهم لمزاراتها. ولم يشأ ريتشارد نفسه الذهاب ، ورفض منح أي جواز مرور للجنود الفرنسيين ، على أن الكثير من فرسانه التابعين له قاموا بالرحلة . وكانت إحدى الجماعات بقيادة هوبرت والتر أسقف سالزبورى ، الذي استقبل هناك بمظاهر التشريف وسُمح له بمقابلة مع السلطان ، تحدثا خلالها في مواضيع كثيرة ولا سيما شخصية ريتشارد . وأعلن الأسقف أن ريتشارد يتمتع بكافة المزايا الطيبة ، لكن صلاح الدين أعرب عن اعتقاده أن ريتشارد يفتقر إلى الحكمة والاعتدال . وعندما قدم صلاح الدين هدية وداع للأسقف ، طلب الحبر السماح لقسيسين من اللاتين ولإثنين من الشمامسة بالخدمة في كنيسة القبر المقدس

وكذلك في بيت لحم والناصرة؛ فوافق صلاح الدين وبعد أشهر قليلة وصل القساوسة وسُمح لهم بأداء واحباتهم دون إعاقة.

ووصلت القسطنطينية شائعات بأن ريتشارد يمارس ضغوطه لإضفاء الصبغة اللاتينية على الأماكن المقدسة. فوصلت سفارة من الامبراطور اسحق أنجيلوس إلى صلاح الدين الذي كان ما يزال في القدس، تطلب استرداد الأرثوذوكس للسيطرة الكاملة على الكنيسة الأرثوذوكسية التي كانت لهم أيام الفاطميين، لكن صلاح الدين رفض الطلب، فهو لن يسمح لأية طائفة بمفردها بالسيطرة على تلك الأماكن، لكنه - كشأن السلاطين العثمانيين من بعده - سيكون بمثابة جهة تحكيم بينهم جميعا. كما أنه رفض على الفور ما عرضته ملكة جورجيا من شراء الصليب المقدس بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار(٤٥).

١١٩٩م: موت ريتشارد

بعد توقيع المعاهدة رحل ريتشارد إلى عكا حيث وضع أموره في نصابها ودفع ما عليه من ديون وحاول جمع الديون المستحقة له. وفي التاسع والعشرين من سبتمبر أبحرت الملكة بيرينجاريا والملكة جوانا من عكا فوصلتا فرنسا بسلام قبل عواصف الشتاء. وبعد ذلك بعشرة أيام رحل ريتشارد نفسه عن الأراضي التى حارب فيها ببسالة طوال ستة عشر شهرا مريرة. كان الحظ خصمه؛ إذ اضطرته الأحوال الجوية إلى الرسو بسفينته في ميناء كورفو الواقع في أراضى الامبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس. وخشية من أن يقع فى الأسر، تنكر من فوره في زى فارس من فرسان المعبد، واصطحب معه أربعة رجال من أتباعه، واستقل زورق قراصنة كان قاصدا رأس البحر الأدرياتيكى، لكن الزورق تحطم بالقرب من أخيليا، فاستمر ريتشارد واصحابه برا خلال كارينثيا والنمسا منتويا الإسراع في هدوء ليصل إلى أراضى صهره هنرى (أوف ساكسونى). غير أن ريتشارد ليس بالرجل الذي يتنكر عن اقتناع بمبدأ التنكر، فتم التعرف عليه في الحادى عشر من ديسمبر بينما كان متوقفا في حان بالقرب من فيينا، واقتيد في الحال ليمثل بين يدى ليوبولد دوق النمسا، وهو الرجل الذى نزع ريتشارد رايته في عكا. واتهمه ليوبولد بقتل كونراد (أوف مونتفرات) وألقى به في غيابة

(٤٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 334-5. كما رفض صلاح الدين طلب الإمبراطور المساعدة في استرجاع قبرص.

السجن . وبعد ثلاثة أشهر سلمه ليوبولد إلى سيده الأعلى الامبراطور هنرى الخامس ، الذي كان يحمل له كراهية شديدة لصداقته الطويلة مع هنرى الأسد وتحالفه مؤخرا مع تنكريد في صقلية، ولذا أبقاه في السجن عاما كاملا و لم يطلق سراحه إلا في مارس ١١٩٤، لقاء فدية ضخمة وقسم بالتبعية . وأثناء أشهر السجن المضنية ، تعرضت أراضيه لمكائد أخيه جون والهجمات الضارية من الملك فيليب . وعندما عاد إلى أراضيه كانت تنتظره مهام كثيرة للغاية بحيث أبعدت عن خياله التفكير في رحلة اخرى إلى الشرق . وحارب في فرنسا ببسالة طوال خمس سنوات دفاعا عن ميراثه ضد الكابيتيون اللئام[٤٦] إلى أن أصابه سهم طائش في السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م انطلق من قلعة متمردة في ليموزين ، كان فيه نهاية حياته . لقد كان إبنا شريرا ، وزوجا شريرا ، وملكا شريرا ، لكنه كان جنديا باسلا رائعا[٤٧].

---

(٤٦) (المترجم) أسرة حاكمة فرنسية (٩٨٧-١٣٢٨م) أسسها .Hugh Capet

(٤٧) ترد عودة الجيش الى الوطن في .*Itinerarium*,pp 439-40; Abroise, cols.327-9 وأما رحلة ريتشارد وما صادفه من نوائب فترد باقتصاب في *Itinerarium*,pp.441-6.كما في ذلك الخطاب المزيف المرسل من شيخ الجبال الى ليوبولد دوق النمسا يعلن براءة ريتشارد من مقتل كونراد(، وكذلك في التواريخ الأخرى . أنظر .Norgate, *Richard the Lion Heart*,pp.264-76

الفصل الرابع:

المملكة الثانية

المملكة الثانية

"ويكون الساحل لبقيّة بيت يهوذا عليه يرْعَوْن"
(صَفَنيَا ٧:٢)

وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى نهايتها . ولن تعاود قط تلك الكوكبة من الأمراء الرحيل شرقا فى حرب مقدسة . وبعد ، وبرغم الجهد الهائل الذي بذلته أوروبا الغربية مجتمعة ، كانت النتيجة ضئيلة تافهة . فقد أنقذ كونراد صور قبل وصول الصليبيين ، وأنقذ الأسطول الصقلى طرابلس. وكل ما أسهم به الصليبيون في إعادة مولد المملكة الفرنجية هو عكا والخط الساحلى جنوبا حتى يافا ، بخلاف جزيرة قبرص التى نشلها الصليبيون من سيدها المسيحى . ومع ذلك ، كان هناك إنجاز واحد ؛ ألا وهو صد اندفاع صلاح الدين في الغزو . لقد أرهق المسلمون من الحرب المطولة ، ولن يفكروا ولو لهنيْهة في محاولة قذف الصليبيين إلى البحر . لقد ولدت المملكة من جديد حقا ، وباتت من القوة بما يكفي لإستمرارها طوال قرن آخر . ولقد كانت مملكة صغيرة حدا. وبرغم أن ملوكها كانوا إسما ملوك القدس ، كانت القدس ذاتها خارج قبضتهم .

وكل ما كانوا يملكونه هو شريط من الأرض لا يزيد عرضه مطلقا على عشـرة أميال ، يمتد تسعين ميلا على البحر من يافا إلى صور . وأبعد إلى الشمال أبقت حيدة بوهمونـد الحصيفة على عاصمته وأراض قليلة حولها جنوبا حتى ميناء السويدية ؛ بينما احتفظ ابنه بطرابلس ذاتها ، واحتل فرسان المستشفى قلعة الكرك، وفرسان المعبد في طرطوس تحت سيادته . ولم يكن ذلك بالشيء الكثير الذى أُنقذ من حطام الشرق الفرنجى ، غير أنـه في تلك اللحظة كان ما أنقذ في أمان.

١١٩٣م : وفاة صلاح الدين

لم يكن صلاح الدين قد جاوز الرابعة والخمسـين مـن عمـره ، لكنـه كـان مرهقـا ومريضا بعد كل أوزار الحرب تلك . وظل في القدس منشـغلا بـالإدارة المدنيـة لمقاطعـة فلسطين إلى أن سمع أن ريتشارد أبحر من عكا . وكان يعقد الآمـال عندئـذ علـى زيـارة مصر ، وبعدها يحقق طموحه الورع بالحج إلى مكة ، لكن الواجب استدعاه إلى دمشق. وبعد أن قام بجولة دامت ثلاثة أسابيع في الأراضى التى فتحها، وبعد أن قابل بوهمند في بيروت ووقع معه معاهدة سلام قاطعة ، وصل دمشق في الرابع من نوفمبر ، حيث كـان في انتظاره كثير من الأعمال التى تراكمت أثناء سنوات أربـع مـن حياتـه أمضاهـا مـع الجيش . ولقد كان شتاء قاسـيا ، ولديـه الكثـير ممـا ينبغـى عملـه في عاصمتـه ، فأرجـأ الرحلة إلى مصر والحج إلى مكة . وكلما أتيحـت لـه فسـحة مـن الوقـت كـان يسـتمع لمناظرات المتعلمين من رجاله في الفلسفة ، وكان أحيانا يخرج للصيد . علـى أنـه بمـرور أشهر الشتاء ، عرف المقربون إليه أن صحته آخذة في التدهور ، وكان يشكو من التعب الشديد والنسيان ، ونادرا ما كان بمقدوره بذل الجهد لإجراء مقابلة . وفي يـوم الجمعـة التاسع عشر من فبراير ١١٩٣م تحامل على نفسه وخرج على جواده لإستقبال الحجـاج القادمين من مكة . وفي ذلك المساء اشتكى من الحمى ومن الأوجـاع، واحتمـل مرضـه صابرا محتسبا ، وهو على يقـين مـن اقـتراب أجلـه . وفي غـرة مـارس راح في غيبوبـة . وسارع ابنه الأفضل ليضمن ولاء الأمراء ، ولم يبق بجوار فراش السـلطان سـوى قـاضى دمشق وقليل من الخدم المخلصين . وفى يوم الأربعاء الثالث مـن الشـهر ، وبينمـا كـان القاضى يقرأ القرآن بجواره ، تلى الآية : "لا إله الا هو عليه توكلـت" ، ففتـح السـلطان المحتضر عينيه ، وتبسّم ، ثم مضى في سلام إلى بارئه(١).

---

(١) يرد وصف نابض بالحيوية لأيام صلاح الدين الأخيرة أورده بهـاء الدين(*P.P.T.S.* pp.392-402) ،

ومن بين جميع الشخصيات العظيمة في العصر الصليبي ، كان صلاح الدين الأكثر جاذبية . ولقد كانت له أخطاؤه ؛ ففي وصوله إلى السلطة أظهر من المكر والقسوة ما يتعارض مع سمعته فيما بعد . وعندما كان الأمر يتصل بمصالح السياسة ، لم يكن ليحجم قط عن سفك الدماء ، فقد قتل بيديه ريموند (أوف شاتيلون) الذى كان يمقته. لكنه فى لحظات قسوته، لم يكن ذلك إلا ابتغاء لصالح قومه ودينه. لقد كان مسلما مخلصا. ومهما كانت مشاعره الطيبة نحو أصدقائه المسيحيين ، كان يعرف أن مصير أرواحهم إلى هلاك ، ومع ذلك كان يحترم سبلهم ونظر اليهم كرفاق آدميين . وعلى خلاف عواهل الصليبين ، لم يحنث قط بوعد وعده لأى انسان أيا ما تكون ديانته . وعلى الرغم من شدة حميّته كان دائما كيّسا ، كريما ، رحيما باعتباره غازيا وقاضيا، وكسيد على الآخرين كان منصفا متسامحا . ورغم أن بعض الأمراء ربما كان متبرما منه باعتباره كرديا عصاميا ، ورغم أن المبشرين في الغرب يطلقون عليه عدو المسيح ، فإن الذين لم يشعروا حياله بالاحترام والتبجيل كانوا ندرة نادرة ، كما أن قليلا من أعدائه كان باستطاعتهم مقاومة جاذبيته . وكان ضئيل البنية ، وكان وجهه في لحظات الراحة كئيبا يوحى بانقباض الصدر ، لكنه من اليسير أن يتحول وجها مضيئا تزينه ابتسامة فاتنة . وكانت أخلاقه دائما كيّسة ، ويرضيه القيل. وكان يكره الفظاظة والبهرجة ويعشق الهواء الطلق والصيد ، على أنه كان ذا معارف جيدة ويجد المتعة في المناقشات الفكرية رغم أنه أشاع الرعب بين المتشككين. وعلى الرغم من قوته وانتصاراته كان رجلا هادئا متواضعا . وبعد سنوات كثيرة وصلت قصة إلى مسامع الكاتب الفرنجى فينسينت أوف بوفيه تقول إنه بينما كان يحتضر استدعى حامل رايته وأمره بالتجول في أنحاء دمشق بخرقة من كفنه مثبته على رمح وينادى في الناس أن عاهل الشرق كله لا يستطيع أن يأخذ معه إلى القبر سوى خرقة القماش هذه(٢).

ولقد كانت انجازاته عظيمة ؛ فقد أكمل ما بدأه نور الدين في توحيد الاسلام ، وطرد الدخلاء الغربيين من المدينة المقدسة وحصرهم في شريط ضيق على الساحل، لكنه

الذى كان موجودا في بلاطه آنذاك . ويذكر أبو شامة روايات مختلفة. Abu Shama,II, pp.93-7. أنظر أيضا ابن الأثير Ibn al-Athir, II,pp.72-5. ويخطئ Ernoul (p. 304) وتاريخ هرقل *Estoire d'Eracles* (II,p. 217) في ذكر تاريخ وفاته عام ١١٩٧، وكذلك *Gestes des Chiprois* (p.15)، ١١٩٦. أما المؤرخ Roger of Hoveden (III,p.213) فيذكر التاريخ الصحيح .

(٢) يورد بهاء الدين تقريظا مقنعا عن شخصيته مع أمثلة وأقاصيص .(*P.P.T.S.*pp.4-45) ويورد Vincent of Beauvais (Douai edition) قصة الخرقة .p.1204 ويذكره جميع المؤرخين المسيحيين بمشاعر الاحترام. وللاطلاع على الأقاصيص المثيرة بشأنه انظر Lane-Poole, *Saladin*,pp. 370 - 401.

لم يتمكن من طردهم نهائيا، إذ كان الملك ريتشارد وقوات الحملة الصليبية الثالثة فوق احتماله ، ولو أن حاكما آخر له نفس الثّقل جاء بعده ، لأكمل المهمة بغاية السرعة . غير أن مأساة الإسلام في العصور الوسيطة هي غيبة المؤسسات المستديمة للمضي بالسلطة بعد وفاة الحاكم . فكانت الخلافة هي المؤسسة الوحيدة التي يسمو وجودها على وجود أصحابها؛ والآن أصبح الخليفة عاجزا من الناحية السياسية. على أن صلاح الدين لم يكن خليفة ، وانما كان كرديا ليست عائلته بالعائلة الكبيرة ، وكان هو الذي يفرض الطاعة على العالم الإسلامي قوة شخصيته وحسب. وكان أبناؤه في أشخاصهم يفتقرون إلى شخصيته.

١١٩٣م : أبناء صلاح الدين

مات صلاح الدين تاركا سبعة عشر ابنا وبنتا صغيرة . كان أكبرهم الأفضل ، وهو شاب متكبر في الثانية والعشرين من عمره ، استخلفه أبوه في وراثة دمشق وزعامة الأسرة الأيوبية . وبينما كان صلاح الدين يحتضر ، استدعى الأفضل كل أمراء دمشق ليقسموا له قسم الولاء ، وفي حالة الحنث بالقسم تطلق نساؤهم ويحرم أولادهم من المواريث*. وسببت هذه العبارة الأخيرة الصدمة للكثيرين منهم ، ورفض بعضهم القسم ما لم يقسم الأفضل بدوره بالابقاء عليهم في ضياعهم . على أنه بعد وفاة أبيه ودفنه في المسجد الأموى الكبير ، لقيت سلطته القبول في دمشق . وكان ابنه الثاني ، العزيز ، حاكم مصر فعلا وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وأعلن نفسه هناك سلطانا مستقلا . وكان ابنه الثالث ، الظاهر ، يحكم في حلب ولم يظهر استعداده لقبول سيادة أخيه العليا . وأخ آخر ، خضر ، كان يحكم في حوران واعترف بسيادة الأفضل . ولم يبق على قيد الحياة من إخوة صلاح الدين سوى اثنين : طغتكين ، الذي خلف تورانشاه في حكم اليمن ، والعادل الذي لم يكن صلاح الدين يثق في مطامحه، وكان يسيطر على أراضى شرق الأردن التي كانت بحوزة الفرنج من قبل كإقطاعية له ، وأراضى الجزيرة حول الرها . وكان أبناء إخوته وأبناء عمومته يمتلكون ضياعا أصغر في سائر انحاء أراضى السلطان . أما أمراء آل زنكى ، عز الدين وعماد الدين ، فكانوا يحكمون الموصل وسنجار كأتباع ؛ وكان الأراتقة لا يزالون يسيطرون على ماردين وكيفا. وكان أغلب اصحاب الإقطاعيات الآخرين قوادا عسكريين استخدمهم صلاح

الدين ، وكان أبرزهم بكتمر أمير خلاط[٣].

وبموت صلاح الدين بدأت وحدة الإسلام تتفتت . فبينما كان أبناؤه في غيرتهم يرقبون بعضهم البعض ، كانت هناك مؤامرة يجرى تدبيرها في الشمال الشرقي لإعادة حكم آل زنكي في شخص عز الدين ، بمساندة من بكتمر والأراطقة . وأنقذ الأيوبيون لما اتخذه العادل من جوانب الحذر ، وللموت المفاجئ لكل من عز الدين وبكتمر ، وكان الظن أن عملاء العادل ضالعون في ذلك . ولقن الدرس ابن عز الدين ووريثه - نورالدين أرسلان - وخليفة بكتمر آقسنقر، وأظهرا الاحترام للعادل إلى حين . وفي الجنوب سرعان ما دب الخلاف بين الأفضل والعزيز . ذلك أن الأول أتى بحركة تخلو من الحكمة طرد فيها أغلب وزراء والده ، والقى بكل ثقته في ضياء الدين بن الأثير ، وهو أخو المؤرخ ابن الأثير ، بينما راح هو نفسه يمضى أيامه ولياليه يعاقر الخمر ويطرب للأوتار . وهرب الوزراء السابقون إلى القاهرة حيث العزيز الذى سرّه الترحيب بهم . وبناء على نصيحتهم قام العزيز بغزو سوريا في شهر مايو ١١٩٤م ، ووصل إلى أسوار دمشق ؛ فارتاع الأفضل واستنجد بعمه العادل الذى هبط على رأس جيش من الجزيرة وقابل العزيز في معسكره . وأجريت ترتيبات جديدة للأسرة اضطر بمقتضاها الأفضل إلى التنازل عن يهودا بشمال فلسطين للعزيز ، وعن اللاذقية وجبلة لأخيه الظاهر صاحب حلب ، على أن كلا من العزيز والظاهر اعترفا بسيادته العليا . ولم يحصل العادل على شئ من هذه الصفقة ، سوى المكانة الرفيعة لكونه الحَكَم في العائلة . ولم يستمر السلام طويلا ، ففي أقل من سنة زحف العزيز على دمشق مرة أخرى، واضطر العادل إلى المجئ ثانية لإنقاذ ابن اخيه الأكبر، وبدأ الأمراء من حلفاء العزيز يتخلون عنه، فرده الأفضل عبر اقليم يهودا إلى داخل مصر وخطط للزحف على القاهرة . وكان ذلك أكثر مما كان يريده العادل ، وهدد بمساندة العزيز إن لم يعد الأفضل إلى دمشق . ومرة أخرى كانت كلمته مطاعة.

١١٩٩م : الخلافات الأيوبية

سرعان ما اتضح عجز الأفضل عن الحكم ، إذ باتت حكومة دمشق كلها في قبضة الوزير ضياء الدين الذي كان يحرّض على العصيان بين كل أتباع سيده . وقرر العادل

(٣) Abu Shama, II, pp.101-9; Ibn al-Athir, II,pp.75-7; Kemal ad-Din, trns. Blochet, p.305

أن المصالح الأيوبية لا يصلح لها مثل هذا العجز من حانب رأس الأسـرة ، فغير سياسته وتحالف مع العزيز الذي تمكن بمساعدته من الاستيلاء على دمشق في يولية ١١٩٦، وضم كل أراضى الأفضل ، الذي عرضوا عليه تقاعدا مشرفا في مدينة صلخـد الصغيرة في حوران حيث كف عن المتع الحسيّة واستبدلها بحماية التّقى ، واعتُرف بالعزيز سلطانا أعلى للأسرة الحاكمة . ولم تكن سلطة العزيز على عمـه تزيد قط عن كونها سلطة إسمية.

ودام ذلك الوضع لعامين . ففـى نوفمبر ١١٩٨، سقط العزيز من على صهوة جواده أثناء صيد ابن آوى بالقرب مـن الأهرامـات ومـات متـأثرا بإصاباته في التاسع والعشرين من نوفمبر . وكان ابنه الأكبر ، المنصور، صبيا في الثانية عشـرة مـن عمـره . وخشى الوزراء من طموح العادل ، فاستدعوا الأفضل من صلخـد ليكـون والي مصـر ، فوصل الأفضل إلى القاهرة في يناير ١١٩٩ وتـولى الحكومـة . وكـان العـادل آنـذاك في الشمال يحاصر ماردين التى كان أميرها الأرتقي يولوك - أرسلان ضجـرا مـن السيطرة الأيوبية . ولقد أصبح العادل في وضع يشوبه الحرج مؤقتا ، الأمر الذى جعل ابـن اخيـه الثالث الظاهر صاحب حلب يخطط لتحالف ضده ، إذ كان يلقى المتاعب طوال حكمه من أتباعه وقد ارتاب في أن عمه كان يشجعهم على ذلك . وفي الوقت الذي أرسل فيه الأفضل جيشا من مصر لمهاجمة دمشق ، كان الظاهر يعد العدة للهبـوط مـن الشـمال ، وانضم اليهما أفراد آخرون من العائلة مثل شيركوه صاحب حمص . فترك العادل ابنـه ، الكامل، لمواصلة حصار ماردين ، وسارع إلى دمشق التي وصلها في الثامن من يونيـة . وبعد ستة أيام وصل الجيش المصرى ، وفي أول هجوم له علـى دمشـق توغـل داخلهـا ، لكنه سرعان ما رُدّ خارجا منها . ووصل الظـاهر وجيشـه بعـد ذلـك بأسبوع ، وظـل الأخوان يحاصران عمهما في عاصمته طوال ستة أشـهر ؛ لكـن العـادل كـان دبلوماسيا خبيرا حصيفا ، وشيئا فشيئا استطاع أن يجتذب إلى جانبه الكثير مـن أتبـاع ابـن أخيـه، بمن فيهم شيركوه صاحب حمص ؛ وأخيرا فى يناير عام ١٢٠٠ ظهر ابنـه الكـامل علـى رأس جيشه الذى انتصر في الجزيـرة ، فـانفصل الأخـوان اللـذان كانـا السـبب في بـدء الشجار وانسحبا . وطارد العادل الأفضل داخل مصـر، وهـزم جنـوده في بلبيس . وفي فبراير ، رضخ الأفضل لعمه بعدما تلبّسه ورع جديـد ، وعـاد إلى تقـاعده في صلخـد، واستولى العادل على ولاية مصر . على أن الظاهر لم يهزم . فقام بهجـوم مفـاجئ علـى دمشق في الربيـع التـالي بينمـا كـان العـادل مـا يـزال في مصـر ، وحـث الأفضـل علـى الانضمام إليه ثانية . ومرة أخرى يسارع العادل إلى عاصمتـه في الوقـت المناسـب لكـى

يحاصره ابنا اخيه ، غير أ سرعان ما تمكن من اثارة الشجار بينهما . ذلك أنه اشترى الأفضل بأن وعده بمدينتي المصيصة وميافارقين في الشمال بدلا من صلخد ، وبدأ أتباع الظاهر يتخلون عنه الواحد تلو الآخر ، وسره أن يسالم عمه العادل معترفا بسيادته القاطعة . وفي نهاية عام ١٢٠١م كان العادل قد بسط سيادته على كامل امبراطورية صلاح الدين واتخذ لقب سلطان . ولم يُمنح المنصور صاحب مصر سوى مدينة الرها . ولم يُسمح للأفضل مطلقا بالسيطرة على ميافارقين التى مرت مع الأراضي المحيطة بها إلى المظفر وهو الإبن الرابع للكامل . وحصل ابنه الأكبر ، الكامل ، على مصر تحت سيادة أبيه ، وكان ابنه الثاني ، المعظّم ، نائب أبيه في دمشق ، وحكم ابنه الثالث ، الأشرف ، أغلب أراضي الجزيرة من حران . أما الأبناء الأصغر فقد منحوا اقطاعات بلوغهم ما يكفي من العمر ؛ غير انهم جميعا كانوا تحت رقابة أبيهم الوثيقة . وهكذا عادت وحدة الإسلام وعلى رأسها أمير كان يلقى من الاحترام أقل مما كان يلقاه صلاح الدين ، لكنه كان أكثر مكرا ونشاطا(٤).

١١٩٤م : حكومة هنرى

حالت مشاحنات الأيوبيين دون أن يتسلم المسلمون زمام الهجوم على المملكة الفرنجية الوليدة ، وتمكن هنرى (أوف شامباني) شيئا فشيئا من اعادة بعض النظام إليها. ولم يكن ذلك بالعمل اليسير ، كما لم يكن وضع هنرى مأمونا تماما . فلعدة أسباب لا محل لشرحها الآن، لم يُتوّج ملكا قط . وربما كان ينتظر وهو يداعب الأمل الأثير لديه باسترجاع القدس يوما ما ؛ وربما اتضح له أن الرأي العام كان عازفا عن قبول لقبه الملكى ؛ أو ربما كان تأثير الكنيسة عظيما(٥). وترتب على ذلك أن تقيّدت سلطاته ، ولاسيما سلطته على الكنيسة . وعندما مات البطريق هيراكليوس كانت هناك بعض الصعوبة في العثور على من يخلفه على عرشه الأسقفي ، وفي نهاية الأمر عُين قسيس

---

(٤) للإطلاع على تاريخ الأيوبيين المضطرب خلال تلك السنوات أنظر Abu Shama, pp. 110-40; Ibn al-Athir, II,pp. 78-89. وللاطلاع على مزيد من المراجع انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 581 n.3..

(٥) أنظر المناقشة المثيرة في Prawer, `L'Etablissement des Coutumes du Marvhé à Saint Jean d'Acre' in Revue Historique de *Droit* Francais et Etranger, 1951. pp. 341-3 وهو يفترض أن زواج هنرى الذى عُقد بعد ترمل ايزابيلا بأيام قليلة لا تعتبره أعراف البلد زواجا قانونيا ، ولذلك كان هنرى خجولا من ان يتخذ اللقب الملكي.

مغمور يدعى رادولف . ولمّا مات عام ١١٩٤ احتمع كهان كتدرائية القبر المقدس في عكا التى كانوا فيها آنذاك ، وانتخبوا البطريق آيمار ، الملقب بالراهب، رئيسا لأساقفة قيسارية وأرسلوا إلى روما للتصديق على الانتخاب . لكن هنرى لم يكن راضيا عن هذا الاختيار ، وفى سورة غضبه اشتكى من أنه لم يُستشر واعتقل الكهّان ، الأمر الذى أطلق الإنتقادات حتى من أصدقائه ، فليس هو بالملك المتوّج ومن ثم لا يحق له التدخل. وحثه مستشاره حوسيا رئيس أساقفة صور على التراجع عن موقفه وتهدئة الكنيسة بالافراج عن الكهان مع الإعتذارات اللازمة ومنح ابن اخى البطريق الجديد ضيعة غنية بالقرب من عكا ، وفي ذات الوقت تلقى توبيخا حادا من البابا[٦] وعلى الرغم من إحلال السلام، ربما كان البطريق عازفا تماما عن أن يمن على هنرى الآن بتتويجه . فهنرى أكثر حظا بأتباعه العلمانيين ، إذ أنه بتمتع بتأييد زعيمهم ، باليان ، أمير ابلين والنظامين العسكريين . على أن حوى (أوف لوسينان) كان ما يزال في قبرص ينظر باشتياق إلى مملكته السابقة ، يشجعه في ذلك أبناء بيزا الذين وعدهم بامتيازات كبيرة، وكان الغضب يملأهم لما كان هنرى يغدقه على أبناء حنوا من امتيازات . وفي شهر مايو ١١٩٣ اكتشف هنرى أن المستعمرة التى يمتلكها أبناء بيزا في صور تتآمر للاستيلاء على المدينة وتسليمها لجوى ، فاعتقل زعماء المؤامرة على الفور وأمر بأن يخفض عدد المقيمين في المستعمرة إلى ثلاثين شخصا ، وانتقم أبناء بيزا بالإغارة على القرى الساحلية الواقعة بين صور وعكا ، فما كان من هنرى إلا أن طردهم من عكا نفسها ، وكان ياور المملكة (الكونستابل) ما يزال أخا حوى ، أماليك (أوف لوسينان) الذى كان مسؤولا عن وصول حوى إلى فلسطين قبل ذلك بسنوات كثيرة ، لكنه تمكن من إقامة علاقات حيدة مع البارونات المحليين . وكانت زوجته هي إيشّيفا (أوف ابلين) ، ابنة اخت باليان (أوف ابيلين) ، وابنة بلدوين (كونت الرملة) وهو أكثر المعارضين مرارة لجوى ، ولم يكن زوجا مخلصا فيما مضى ، لكنه تصالح معها الآن ، وتدخل نيابة عن ابناء بيزا ، لا لشئ إلا لكي يعتقله هنرى بسبب تدخله. وسرعان ما تدخل السيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد وأقنعا هنرى بإطلاق سراحه ، ورأى من الحكمة أن ينسحب إلى يافا التى كان الملك ريتشارد قد عيّن أخاه جيوفرى حاكما لها. ولم يكن قد استقال من منصبه كياور (كونستابل) ، لكن هنرى اعتبره مقصّرا وعيّن فى عام ١١٩٤ خليفة له جون (أوف ابيلين)، وهو ابن باليان والأخ غير الشقيق لإيزابيلا . وفي ذات الوقت حل السلام مع ابناء بيزا وأعيدت لهم ناحيتهم في عكا ، ومنذ آنذاك

---

(٦) *Estoire d'Eracles*, II, pp.203-5 (manuscript D).

قدما اعترفوا بحكومة هنرى(٧).

١١٩٧م : مملكة قبرص

مات الملك حوي في قبرص في مايو ١١٩٤، وبهذا أمكن تحقيق مصالحة عامة ؛ وأدى غيابه عن الساحة إلى أن يصبح هنرى آمنا على نفسه ، وحرمان ابناء بيزا ومخالفين آخرين من أن يكون لهم مرشح منافس. وكان حوى قد أوصى بسلطته في قبرص لأخيه الأكبر حيوفرى ؛ لكن حيوفرى هذا كان قد عاد إلى فرنسا ، ولم يتردد الفرنج في قبرص في استدعاء أماريك من يافا ليحل محله . وكان هنرى قد طلب في أول الأمر ، باعتباره ممثلا لملوك القدس ، استشارته في امر الاستخلاف ، لكنه لم يجد سبيلا لتنفيذ مطلبه وسرعان ما أدرك هو وأماريك أن عليهما أن يتعاونا معا. وجاء بلدوين ، كونسطبل قبرص الذي كان من قبل لورد بيسان ، إلى عكا وحث هنرى على الاعتراف بأماريك وزيارته في قبرص أيضا. وكانت مقابلتهما ودودة جدا ووضعا مخططات لتحالف وثيق تربطه خطبة أبناء أماريك الثلاثة ، حوي وجون وهيو ، إلى بنات ايزابيلا الثلاث ، ماريا (أوف مونتفرات) وأليس وفيليبا (أوف شامباني). وهكذا كان المأمول توحيد ممتلكاتهما في الجيل التالي ، لكن أميرين من الأمراء القبارصة ماتا في سن صغيرة جدا ، وكان الزواج الوحيد الذي أثمر فى الأسرة الحاكمة الآتية هو زواج هيو من أليس. وكان مثل هذا الترتيب ضروريا للغاية ، ذلك أنه إذا كان المطلوب أن تعود الأملاك الفرنجية في قبرص بالفائدة على فرنج فلسطين وتوفر لهم قاعدة آمنة ، فلا بد للبلدين من التعاون . لقد كان الإغراء مستمرا ، ليس فقط للهجرة من الغرب للاستقرار في الجزيرة الرائعة بدلا من البقايا الضئيلة في المملكة الفلسطينية الخالية الآن من الإقاطاعيات، ولكن كان إغراءً أيضا لبارونات فلسطين نفسها المفلسين كي يعبروا البحر الضيق . وإذا كان اللوردات القبارصة على استعداد لعبور البحر والحرب من اجل الصليب وقت اقتراب الخطر ، إذن تصبح قبرص بمثابة أصل من الأصول للشرق الفرنجى. أما في حالة وجود سوء تفاهم ، فسوف تصبح قبرص قوة طاردة خطيرة جدا(٨).

---

(٧) *Estoire d'Eracles*, II, pp.202-3.

(٨) أنظر Hill, *History of Cyprus*, II, p. 44 and notes ، حيث ترد مناقشة كاملة حول الاستخلاف على قبرص. وللإطلاع علي مصالحة هنرى مع أماريك أنظر *Estoire d'Eracles*, II, pp. 207-8.

وعلى الرغم مما كان عليه أماريك من الود ، لم يكن على استعداد لأن يصبح تابعا يذعن لهنرى . فلقد سعى بالفعل إلى أن يتخذ لنفسه لقب ملك، كي يحدد بوضوح طبيعة سلطته لرعاياه وللمستعمرين، وكذلك للقوى الأجنبية. لكنه شعر بأنه في حاجة إلى نوع من التصديق من جهة أعلى؛ ولا بد وأن ما سبق من تاريخ ملوك القدس قد جعله عازفا عن التقدم إلى البابا لتتويجه . ويقينا لن يمنحه الامبراطور الشرقي قط ذلك التتويج . ولذا ، أتى بحركة تخلو من الحكمة للمستقبل ، فأرسل إلى الامبراطور الغربي هنرى السادس . الذى كان يخطط للقيام بحملة صليبية ولسوف يناسبه للغاية وجود ملك عميل له في الشرق. وهكذا ، وفي شهر اكتوبر عام ١١٩٥ ، وصل سفير أماريك ، رينيه (أوف جبيل) موفدا من مملكة قبرص نيابة عن سيده ، إلى جيلنهاوزن القريبة من فرانكفورت لتقديم الإحترامات للإمبراطور . وتسلم أماريك صولجانا ملكيا مرسلا من سيده ؛ وأجريت مراسم التتويج في سبتمبر ١١٩٧ عندما جاء المستشار الإمبراطورى كونراد أسقف هيلدشايم إلى نيقوسيا للاشتراك في المراسم، وقدم له أماريك فرض الولاء[٩]. ووضعت الخطط لأن تتبع حكومة البلد الممارسات الإقطاعية الصارمة التي كانت سائدة في مملكة القدس، بوجود محكمة عليا على غرار محكمة القدس العليا ، على أن تسرى قوانين القدس، بما فيها من تعديلات أدخلها ملوكها، على الجزيرة. ولجأ أماريك إلى البابا لتنظيم كنيسته ، فعين البابا رئيس شمامسة اللاذقية وألان ، ورئيس شمامسة اللد ، وقاضي قضاة قبرص ، وأوكل اليهم إنشاء كراسي أسقفية على النحو الذي يرونه . فأنشأوا مقرا لرئاسة الأساقفة في نيقوسيا، شغلها ألان ، ومقار للأسقفيات في بافوس وفاماجوستا وليماسول . ولم يُفصل الأساقفة الإغريق فى الحال ، وانما فقدوا عشورهم والكثير من أراضيهم التى استولى عليها أصحاب المناصب الجدد من اللاتين[١٠].

وعلى الرغم من عدم استطاعة هنرى (أوف شامباني) السيطرة على قبرص ، أصبح باروناته في مملكته يخلصون له الولاء الآن . على أن معارضيه سرهم الانسحاب إلى قبرص تاركين الأراضى الفلسطينية لأصدقائه . وأعيد تنصيب اللوردات السابقين لحيفا وقيسارية وأرسوف في إماراتهم السابقة؛ وكان صلاح الدين قبل وفاته قد وهب باليان

212-13 (manuscript D).

(٩) *Estoire d'Eracles* II, pp. 209-12; Ernoul, pp. 302-3; Arnold of Lubeck, p.204; *Annales Marbacenses*, p.167.

(١٠) Mas Latrie, *Documents*, III, pp. 599-605; Makhaeras, pp. 28-9.

صاحب ابلين إقطاعية كايمون - أو تل كايمون - النفيسة الواقعة على منحدرات جبل الكرمل[١١]. وقد كانت الصداقة مع آل إبيلين ، وزوج أم زوجته والإخوة غير الأشقاء، ذات قيمة كبيرة في تحقيق القبول العام لسلطة هنرى . وكانت هناك مشكلة اكبر فيما يتصل بإمارة انطاكية ذلك أن بوهمند الثالث أمير انطاكية، وكان أيضا حاكما لطرابلس باسم ابنه الصغير، كان قد لعب دورا مريبا نوعا ما أثناء فتوحات صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ؛ فلم يبذل جهدا حادا لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حصونه الواقعة في وداي العاصي عام ١١٨٨ ، ولا لإستعادة اللاذقية وجبلة اللتين استولى عليهما المسلمون بطريق الخيانة من قاضيه المسلم ، القاضي منصور بن نبيل ؛ وقد سره أن يقبل من صلاح الدين هدنة تسمح له بالاحتفاظ بأنطاكية ذاتها وميناتها السويدية . ولم ينقذ طرابلس سوى تدخل الأسطول الصقلي فبقيت لإبنه . وكان بوهمند عندما وصل فريدريك (أوف سوابيا) وبقايا جيش بارباروسا إلى أنطاكية - قد اقترح عليهم اقتراحا معتدلا بأن يعاونوه في محاربة المسلمين في الشمال ، ولكنهم عندما اتجهوا جنوبا ، لم يشترك بصورة ايجابية في الحملة الصليبية أكثر من قيامه بزيارة واجبة للملك ريتشارد في قبرص . وقد غير موقفه في ذات الوقت إزاء سياسات الأحزاب الفلسطينية . وما أن مات ابن عمه ريموند (أوف طرابلس)، وضمن الميراث لإبنه ، حتى منح تأييده كله لجوى (أوف لوسينان) وأصدقائه ، ربما من خشيته من أن يكون لكونراد (أوف منتفرات) أطماع في طرابلس . ولم يكن يرغب في وجود ملك عدواني قوى على حدوده الجنوبية إذ كان في غاية الإنشغال باشتباكات مع جاره الشمالي ، أمير أرمينيا الروبينى ليو الثاني، وهو أخو روبين الثالث ووريثه.

١١٨٦م : ليو الثاني الأرمينى

بتولي ليو الحكم عام ١١٨٦م سعى إلى التحالف مع بوهمند واعترف به سيدا أعلى له . واشترك الأميران فى التصدي لغارة توركمانية عام ١١٨٧م ؛ وبعد ذلك مباشرة تزوج ليو إحدى بنات أخت الأميرة سيبللا، وفي نفس الوقت تقريبا كان قد أقرض بوهمند مبلغا ضخما من المال ؛ انتهت الصداقة عند هذا الحد، فلم يظهر بوهمند اهتماما بسرعة سداد القرض ؛ وعندما غزا صلاح الدين الأراضي الأنطاكية بقي ليو على حياد مشوب بالحذر . وفي عام ١١٩١م دمر صلاح الدين قلعة باجراس العظيمة

(١١) Ernoul, p. 293.

بعد أن استولى عليها من فرسان المعبد . وما أن انصرف رحال صلاح الدين بعد هدم الحصون ، حتى حاء ليو وأعاد احتلال الموقع وأعاد بناء الحصون . وطلب بوهمند إعادتها إلى فرسان المعبد ، ولمّا رفض ليو اشتكى لصلاح الدين الذي حالت مشغولياته الشديدة في اماكن اخرى دون امكان التدخل ، وبقي ليو مستوليا على باحراس ؛ على أنه كان حانقا من لجوء بوهمند إلى صلاح الدين ، وزاد تغيظه عندما علم أن زوحة بوهمند - سبيللا - كانت تأمل في الاستعانة بمساعدته لاسترحاع الميراث الأنطاكي لإبنها وليم على حساب أبناء زوحها . وفى أكتوبر ١١٩٣م دعا ليو بوهمند إلى الحضور إلى بجراس لمناقشة المسألة برمتها ، فوصل بوهمند تصحبه سبيللا وابنها. وما أن دخل حتى اعتقله مضيفه مع كل حاشيته ، وقيل له إنه لن يفرج عنه إلا بتنازله للأمير ليو عن سيادة أنطاكية . ووافق بوهمند على الشروط بأسى ، وربما بتحريض من سبيللا التي كانت تأمل أن يعطى ليو - باعتباره سيدا أعلى لأنطاكية - الخلافة لابنها . وذهب أحد قواد بوهمند ، بارثولوميو تيريل ، وابن أخى زوحة ليو ، هيثوم (أوف ساسون)، ومعهما حنود من الأرمن، إلى أنطاكية لإعداد المدينة للنظام الجديد.

ووصل الوفد إلى أنطاكية التي كان باروناتها لا يحبون بوهمند كثيرا ، والكثير منهم تجرى في عروقه دماء أرمينية ، فكانوا على استعداد لقبول ليو كسيد أعلى، وسمحوا لبارثولوميو بدخول الجنود الأرمن إلى المدينة وأنزلوهم في القصر . غير أن البورحوازيين من المواطنين الإغريق واللاتين على السواء ارتاعوا لما حدث وقد ظنوا أن ليو ينوى أن يحكم المدينة هو نفسه ، وأن الأرمن سوف يتسلطون عليهم. وحدث أن تحدث حندي أرميني باستخفاف عن القديس هيلاري ، وهو قديس فرنسي كُرّست له أبرشية القصر ، فبادر خازن المؤن في الكنيسة بقذف الجندى بالحجارة . وطرد الأرمن من المدينة ووجدوا أن من الحكمة الانسحاب إلى بجراس . وعندئذ اجتمع المواطنون في كتدرائية القديس بطرس وعلى رأسهم البطريق وشرعوا في إنشاء مجلس كوميوني ليتولى إدارة المدينة . ولكي يكون وضع المنتخبين قانونيا ، سارعوا بقسم الولاء للإبن الأكبر لبوهمند ريموند إلى حين عودة بوهمند ؛ فقبل ريموند ما أظهروه من مظاهر الولاء ، واعترف بمطالبهم . وفي تلك الأثناء أرسلت الرسل إلى أخيه بوهمند أمير طرابلس والى هنرى (أوف شامباني) يتوسلون اليهما أن يخفا لنجدة أنطاكية من الأرمن.

وأظهرت الحادثة أنه بينما كان بارونات أنطاكية على استعداد للمضي حتى أبعد مما فعله أبناء عمومتهم في القدس ليضعوا أنفسهم في مصاف مسيحيي الشرق، جاءت معارضة هذا الاندماج من المجتمع التجاري . غير أن الظروف كانت مختلفة عمّا كانت

عليه المملكة قبل سنوات قليلة . وكان كل من الفرنج واليونانيين في انطاكية يعتبرون الأرمن برابرة الجبال . وأظهرت الكنيسة اللاتينية - في شخص البطريق - تعاطفها مع مجلس الكوميون ، غير أنه من المشكوك فيه ما اذا كانت قد لعبت دورا رئيسيا في ذلك. إذ كان البطريق رادولف الثاني رجلا ضعيفا مسنًا لم يصعد إلى عرش البطريارقية الا حديثا بعد أن كان يشغله البطريق المهيب إيمرى (أوف ليموج). والأكثر ترجيحا أن المحرضين الرئيسيين كانوا التجار الإيطاليين الذين يخشون على تجارتهم تحت السيطرة الأرمينية ؛ وخاصة وأن فكرة مجلس الكوميون كانت آنذاك فكرة تخطر للإيطالي على نحو أيسر للغاية من أن تخطر للفرنسي. وأيا كان أولائك الذين شجعوا الكوميون، فإن يوانانيي أنطاكية هم الذين سارعوا بلعب دور قيادى فيه[١٢].

١١٩٤م : هنرى والحشاشون

وهرول بوهمند أمير طرابلس إلى أنطاكية ملبيا نداء أخيه ، وأيقن ليو من أنه قد فقد فرصته . فتقهقر مع سجنائه إلى عاصمته سيس . وفي بداية الربيع التالي قرر هنرى (أوف شامباني) التدخل ، ومن حسن الطالع أن لم يكن العرب على حال تتيح لهم أن يعتدوا بعد وفاة صلاح الدين ، غير أنه لا يمكن السماح باستمرار مثل هذا الوضع الخطير ؛ وأثناء ارتحاله شمالا قابلته سفارة من الحشاشين ؛ فقد مات مؤخرا شيخ الجبل سينان ، وكان خليفته متلهفا على إعادة الصداقة التي كانت قائمة بين طائفته والفرنج؛ فأرسل اعتذاراته لاغتيال كونراد (أوف منتفرات) ، وهى جريمة كان من اليسير على هنرى اغتفارها ، ودعاه إلى زيارة قلعته الكهف . وهناك ، وعلى إحدى القمم الوعرة في جبال النصيرى، لقي هنرى ألوان التسلية الفاخرة ؛ وشهد بناظريه كيف يقتل المتشيعون أنفسهم عن طيب خاطر عندما يأمرهم شيخهم إلى أن توسل ايقاف الاستعراض. ورحل وهو محمّل بنفيس الهدايا ووعد ودود من الحشاشين بقتل أي فرد من أعدائه يطلب قتله[١٣].

---

(١٢) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 582-5 ، وهو بمثابة رواية كاملة المراجع لتلك القصص.

(١٣) Ernoul, pp. 323-4; *Estoire d'Eracles*, pp. 216,231 (manuscript D).

١١٩٨م : تتويج ليو الثاني

ومن الكهف ، انطلق هنرى شمالا بمحاذاة الساحل إلى أنطاكية حيث توقف قليلا قبل مواصلته رحلته في أرمينا . ولم يكن ليو راغبا في الدخول معه في حرب مفتوحة ، فقابله أمام سيس مظهرا استعداده للتفاوض على تسوية . واتفقا على اطلاق سراح بوهمند بلا أية فدية ، وأن يُعترف ببجراس والأراضي المحيطة بها على أنها أراض أرمينية، وأن لا يكون أي من الأميرين سيدا على الآخر . وللتصديق على المعاهدة ، وعلى أمل توحيد الإمارتين، اتفق على أن يتزوج وريث بوهنمد - ريموند - من ابنة اخت ليو والوريثه الشرعية، أليس ابنة روبين الثالث . وحقيقة كانت أليس متزوجة فعلا من هيثوم أمير ساسون ، غير أنه كان من اليسير التغلب على هذه العقبة ؛ إذ حدثت وفاة هيثوم المفاجئة وانما في وقتها المناسب. وكانت التسوية بمثابة البشير بالسلام في الشمال ، وبها أظهر هنرى نفسه على أنه مهندسها ومن ثم فهو جدير بخلافة ملوك القدس الأوائل . وعاد جنوبا وقد زادت مكانته رفعة(١٤).

ومع ذلك ، لم يشعر ليو بأنه قد أشبع طموحاته . ولعلمه بأن أماليك حاكم قبرص يسعى إلى تاج ملكي، فقد حذا حذوه . على أن الرأي القانوني آنذاك كان يرى أن التاج لا يمنحه سوى الامبراطور أو البابا - كما يرى الفرنج . أما بيزنطة، التى انقطعت صلتها الآن بكيليكيا وسوريا بسبب الغزوات السلجوقية، فلم يعد لديها ما يكفي من القوة اللائقة باسمها بحيث يكون لها وزنها إزاء الفرنج الذين أراد ليو أن يؤثر فيهم. ومن أجل ذلك أرسل إلى الامبراطور الغربي هنرى السادس الذي راح يراوغ، إذ كان يأمل في الحضور هو نفسه إلى الشرق ، وعندئذ ينظر في المسألة الأرمينية . ولذلك طرق ليو أبواب البابا كليستين الثالث ، إذ كان ليو على اتصال بروما أيام البابا كلمنت الثالث ملوحا بإخضاع كنيسته للبابوية ؛ ذلك أنه كان يدرك أنه لن يكون مقبولا قط كسيد أعلى للفرنج باعتباره رئيسا لدولة هرطيقية . وعارض رجال الدين التابعين له هذا العبث معارضة عنيفة لما كانوا يحملونه من غيرة وحماس لإستقلالهم وعقيدتهم ؛ غير أن ليو ثابر على مساعيه في صبر ، إلى أن أدخل في روع أساقفته المتذمرين أن السيادة البابوية لن تكون سوى سيادة اسمية ولن تغير من الأمر شيئا ، بينما أخبر المندوبين البابويين أن الأساقفة قد رحبوا بالإجماع بهذا التغيير . وكان البابا قد أمر مندوبيه بمراعاة الرفق واللين والكياسة، ولذا لم يسأل المندوبون أية أسئلة . وفي تلك الأثناء كان

---

(١٤) Cahen, *op. cit.* pp. 585-6.

الامبراطور هنرى - الذى سبق أن وعد أماريك بالتاج - قد وعد ليو بنفس الوعد في مقابل الإعتراف بحقوقه السيادية على أرمينيا ، على أن تجرى مراسم التويج لدى وصوله . لكنه لم يذهب إلى الشرق البتّة ؛ إذ حالت المنيّة دون ذلك . على أن مستشاره كونراد (أوف هيلدشايم) ، يصحبه المندوب البابوي كونراد رئيس أساقفة مينز، جاء إلى سيس في يناير ١١٩٨م بعد موت الامبراطور مباشرة ، وشهد احتفال التتويج الرائع . وكان الامبراطور الشرقي ألكسيوس أنجيلوس يأمل في الحفاظ على بعض النفوذ في كيليكيا فأرسل الي ليو قبل ذلك بأشهر قليلة تاجا ملكيا تسلمه ليو بغاية العرفان . وقام رأس الكنيسة الأرمينية كاثوليكوس جريجورى أبيراد بوضع التاج على رأس ليو ، بينما أعطاه كونراد صولجانا ملكيا. وحضر المراسم رئيس أساقفة طرسوس الأرثوذكسي، والبطريق اليعقوبي ، وسفراء الخليفة ، وكذلك الكثير من النبلاء من أنطاكية . وكان بمقدور ليو الإدعاء بأن لقبه الملكي قد اعتُرف به رعاياه كلهم وجيرانه كلهم[١٥].

وكان يوما مشهودا للأرمن الذين رأوا في ذلك إحياء لمملكة أرمينيا القديمة ؛ وكان في هذا التتويج استكمال لاندماج الإمارة الروبينية في عالم فرنج الشرق ؛ على أن دواعي الشك كانت تدور حول ما اذا كانت سياسة ليو في صالح الأرمن ككل ، إذ أنها فصلت أبناء أرمينيا الكبرى القديمة التى هي بيت ذلك الجنس عن إخوانهم الجنوبيين. وبعد انقضاء فترة من الفترات المجيدة وجد أرمن كيليكيا أن إضفاء الصبغة الغربية لم تعد عليهم بفائدة في نهاية الأمر.

وكان تواجد كونراد رئيس الأساقفة في الشرق يرجع إلى عزم الامبراطور هنرى على إطلاق حملة صليبية جديدة ، إذ أن وفاة والده فريدريك المباغتة جعلت من اشتراك الألمان في الحملة الصليبية الثالثة اشتراكا عقيما يدعو للرثاء . وكان لدى هنرى طموحات في أن تصبح امبراطوريته واقعا دوليا ، فما أن رسخت أقدامه في اوروبا حتى فكر في أن عليه استعادة المكانة الألمانية في الأراضى المقدسة . وبينما كان يضع الخطط لحملة ضخمة كفيلة بأن تجعل البحر المتوسط كله تحت سيطرته ، وضع الترتيبات لإرسال حملة ألمانية مبكرة تبحر مباشرة إلى سوريا، فانطلق من بارى رئيس الأساقفة كونراد (أوف مينز) وأدولف كونت هولشتاين ومعهما جمع غفير من الجنود استُجلبوا أساسا من دوقيات الراينلاند وهوهنشتوفن . ووصلت الفصائل الأولى إلى عكا

---

(١٥) *Ibid.* pp. 587-90.

في أغسطس ، غير أن القادة توقفوا في قبرص من أجل تتويج أماليك ، وسبقهم هنرى دوق برابانت مع كتيبة من رفاقه(١٦).

ولم يرحب بهم هنرى (أوف شامباني) ترحيب المبتهجين ؛ فقد علمته التجارب مدى حماقة استثارة حرب لا ضرورة لها . وكان مستشاروه الرئيسيون هم آل إبيلين ، وحما زوجته وأخوتها ولوردات طبرية وأبناء زوجة ريموند كونت طرابلس ، وبوازع من الإخلاص لتقاليدهم العائلية أشاروا بالتوصل إلى تفاهم مع المسلمين ودبلوماسية حساسة تمارس ضرب أبناء وإخوة صلاح الدين بعضهم ببعض . وكانت السياسة ناجحة ؛ إذ كان السلام حيويا لإستعادة المملكة المسيحية ، وتحقق السلام على الرغم من استفزاز أمير بيروت القرصان أسامة الذي لم يتمكن العادل في دمشق ولا العزيز في القاهرة من السيطرة عليه(١٧). وكانت بيروت وصيدا ما تزالان في قبضة المسلمين تفصلان المملكة عن كونتية طرابلس . في وقت مبكر من عام ١١٩٧م ضاقت هذه الثغرة باستعادة جبيل؛ وكانت سيدتها الأرملة ستيفاني (أوف ميللى) إبنة أخت رينالد أمير صيدا ، وكانت تحصل منه على الهدايا للتعامل مع المسلمين ؛ وبمكيدة مع الأمير الكردي هناك تمكّنت من إعادة احتلال المدينة بدون قتال وتسليمها إلى ابنها(١٨).

١١٩٧م : موت هنرى (أوف شامباني)

ولقد جاء الألمان وهم عاقدو العزم على الحرب . ولم يتوقف أوائل القادمين لإستشارة الحكومة في عكا، وإنما ساروا مباشرة في الأراضى الإسلامية في الجليل . فأثار هذا الغزو المسلمين ؛ وكانت الأراضى تابعة للعادل فاستدعى أقاربه حاثا إياهم على تناسي خلافاتهم والإنضمام إليه . ولم يكد الألمان يعبرون الحدود حتى انتشرت الأنباء باقتراب العادل ؛ وضخّمت الشائعات من حجم قواته ؛ وتسلط الذعر على الألمان فلم ينتظروا ملاقاته وانما ولوا الأدبار باتجاه عكا، وسارع الفرسان تاركين المشاة . وبدا مرجحا أن يواصل العادل مسيرته دون مقاومة إلى عكا، غير أن هنرى أخذ بنصيحة

---

(١٦) تاريخ هرقل .*Estoire d'Eracles,* II, pp.214-16 (manuscript D) وقد أجريت استعدادات هنرى للحملة الصليبية على(Diet of Gelnhausen *(Annales Marbacenses, p.167*

(١٧) Ibn al-Athir, II, p.85p Ernoul, pp. 315-16.

(١٨) *Estoire d'Eracles,* II, pp. 217-18p; Ernoul, p. 305.

هيو كونت طبرية وسارع بارسال فرسانه وما استطاع جمعه من جنود ايطاليين لتعزيز مشاة الألمان الذين أثبتوا شجاعة تفوق شجاعة قادتهم ، فأصبحوا بعد وصول التعزيزات على استعداد للصمود . ولم يكن العادل ليجازف بمعركة قبل أن يعد لها عدتها ، ولم يشأ في الوقت ذاته أن يفقد جيشه ، فانحرف جنوبا وزحف على يافا التي كانت محصّنة تحصينا جيدا ، ولكن حاميتها كانت ضئيلة العدد ، ولم يتمكن هنرى من تعزيزها ، وكان أماليك (أوف لوسينيان) يحكم المدينة قبل ذهابه إلى قبرص ، فعرض عليه هنرى اعادتها إليه شريطة أن يدافع عنها ، فمن الأفضل أن يأتي القبارصة إليها بدلا من أن تؤول إلى المسلمين أو إلى الألمان الذين لا يقيمون للمسؤولية وزنا. وما أن تلقى أماليك هذا العرض حتى أرسل واحدا من باروناته - رينالد بارليه - ليتولى القيادة في يافا ويعد العدة للحصار الوشيك . بيد أن رينالد كان رجلا مستهينا ، وسرعان ما جاءت الأنباء بأنه يقضى أيامه في لهو طائش وليس لديه نيّة إعداد العدة لمقاومة العادل ، ولذا جمع هنرى ما استطاع جمعه من الجنود الزائدين عن الحاجة في عكا وطلب من مستعمرة بيزا هناك تقديم التعزيزات(١٩) .

وفي العاشر من سبتمبر جمع هنرى جنوده في فناء القصر ، ووقف يستعرضهم من نافذة مفتوحة في أحد الأروقة العليا . وفي تلك اللحظة دخل الحجرة مبعوثون من مستعمرة بيزا ، فاستدار هنرى لتحيتهم ناسيا المكان الذي يقف فيه وخطا خطوة إلى الخلف من خلال النافذة المفتوحة . وكان القزم الضئيل الذي يرافقه (سكارليت) واقفا بجواره فتعلق بملابسه ؛ غير أن هنرى كان ثقيل الوزن وسكارليت خفيفه ، فهويا معا وارتطما بالرصيف وقُتلا(٢٠) .

١١٩٨م : زواج إيزابيلا وأماليك

وأدى ذهاب هنرى المفاجئ إلى أن ألقى بالمملكة كلها في حالة من الذهول ، إذ كانت له شعبية كبيرة. وبرغم افتقاره إلى المواهب الطبيعية البارزة ، فقد استغل مهارته ودأبه واعتماده على مستشاريه المخلصين وأثبت اقتداره لأن يحكم واستعداده لأن يتعلم من التجربة ، وقد لعب دورا هاما في استمرار بقاء المملكة . غير أن البارونات لا

---

(١٩) Abu Shama,؛ Ernoul, pp.305-7؛ D(المخطوطة*Estoire d'Eracle,* II,pp. 216-19) Ibn al-Athir,II,pp.84-6.؛II,pp.116,152

(٢٠) *Estoire d'Eracles,*II,p.220; Ernoul, p.306; Amadi,pp.90-1; Ibn al-Athir,II,p.86.

يستطيعون إضاعة الوقت في البكاء عليه ، إذ يتعين العثور على حاكم جديد بسرعة ليتولى أمر الحرب مع العرب والحملة الصليبية الألمانية وكافة ما تواجهه المملكة من المشاكل المعتادة . وكانت وطأة الثكل قد نالت من أرملته الأميرة إيزابيلا فأحالتها إلى حالة من التخبط يستحيل معها أن تتولى حكم المملكة ، لكنها كانت الشخصية التي تحرك الأمور باعتبارها وريثة الخط الملكي . وكان لها بنتان صغيرتان من هنرى بقيتا على قيد الحياة هما أليس وفيليبا ، وأما ابنتها من كونراد - ماريا أوف مونتفرات - التي اشتهرت بلقب أبيها باسم (لا ماركيز)، فكانت في الخامسة من عمرها . وكان واضحا أنه ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة أخرى . وفي الوقت الذي كان يعترف فيه البارونات بوضعها كوريثة ، اعتبروا أن اختيار زوجها التالي هو أمر يدخل في اختصاصهم ، ولسوء الحظ لم يتمكنوا من الإتفاق على اختيار زوج مناسب لها . فاقترح هيو أمير طبرية وأصدقاؤه ترشيح أخيه رالف الذي كانت أسرته - آل فالكونبرج أوف سانت أومير - إحدى أبرز العائلات في المملكة ؛ لكنها كانت عائلة فقيرة بعد أن استولى المسلمون على أراضيها في الجليل ، وكان رالف إبنا أصغر من المفلسين ، وكان معروفا عنه بصورة واسعة الإنتشار أنه يفتقر إلى ما يكفي من الثروة والمكانة المرموقة ، وكان فرسان النظامين العسكريين بصفة خاصة يعارضونه . وأثناء أن كانت المناقشات جارية جاءت الأنباء بسقوط يافا دون مقاومة ، فانطلق دوق برابانت لإستعادتها. والآن عاد إلى عكا وتولى زمام الحكم ، وبعد أيام قليلة ، في العشرين من سبتمبر ، وصل كونراد (أوف مينز) والقادة الألمان من قبرص . وكان كونراد يتصف بقوة سلطته البالغة باعتباره بطريق الإمبراطورية الغربية، وموضع ثقة الامبراطور ، وصديقا - كذلك - للبابا الجديد إنوسنت الثالث . وعندما اقترح منح التاج للملك أماليك القبرصي لم يعارضه أحد عدا البطريق آيمار الراهب برغم عدم تأييد رجال الدين التابعين له لمعارضته . وبدا الإختيار اختيارا رائعا ، إذ كانت زوجة اماليك الأولى - إيشيفا أوف إيبلين - قد ماتت مؤخرا ، وبذا لم يكن هناك ما يعوقه من زواج إيزابيلا . ورغم أن الكثيرين من البارونات السيريان لم يتناسوا تماما أنه من آل لوسينان، فقد أظهر تخليه عن كل السياسات المتحيزة ، وأظهر أنه أكثر اقتدار من اخيه الأصغر جوى. وكان اختياره باعثا على إدخال السرور على البابا الذي بدا له من الحكمة لم شمل الشرق اللاتيني تحت زعامة واحدة. على أن نوايا المستشار كونراد كانت أكثر خبثا. إذ كان أماليك مدينا بتاجه القبرصي للإمبراطور هنرى واصبح تابعا له . وباعتباره الآن ملكا للقدس ، أفلا يُخضع مملكته الجديدة للسلطة الإمبراطورية ؟ وتردد

أماريك نفسه قليلا . ر لم يصل إلى عكا قبل يناير ١١٩٨م . وفي الصباح التالي لوصوله تزوج من الأميرة إيزابيلا وبعد أيام قليلة توجهما البطريق ملكا وملكة للقدس(٢١).

ولم تكن وحدة التاجين مكتملة على الصورة التي كان يطمح إليها البابا أو المستعمرون ، إذ أوضح أماريك منذ البداية الفصل بين إدارة كل من المملكتين وعدم انفاق أية أموال قبرصية في الدفاع عن الأراضي المقدسة . وكان هو نفسه بمثابة رابطة شخصية بينهما ، فكانت قبرص مملكة وراثية ، ووريثه هناك هو ابنه هيو ، أما في مملكة القدس فكان الحق الوراثي مرتبطا بالقبول العام واحتفظت المحكمة العليا بمطالبتها بانتخاب من يعتلي العرش، وفي القدس كان أماريك مدينا بوضعه لزوجته ، فلو مات فسوف تعاود الزواج وسوف يُقبل الزوج الجديد ملكا، وكانت وريثة العرش هي ابنتها ماريا (أوف مونتفرات) ، وحتى لو أنجب منها ولدا ، كان من المشكوك فيه أن تكون لثمرة الزواج الرابع أسبقية على ثمرة الزواج الثاني . على أن ذريتهما الفعلية اقتصرت على بنتين هما سيبلا وميليسند(٢٢).

ورغم أن أماريك كان يعتبر نفسه أكثر قليلا من نائب للملك، فقد كان حاكما ذا اقتدار ونشاط . وقد حث المحكمة العليا على مشاركته في مراجعة الدستور كي تتحدد الحقوق الملكية بوضوح ، خاصة وأنه أثار مسألة استشارة رالف أمير طبرية ، وهو غريمه في العرش ، والذي يقال إنه كان محل تقديره وإن لم يكن يحبه . وكان رالف متميزا بمعلوماته القانونية ، فكان من الطبيعي أن يُطلب منه اصدار الطبعة الجديدة من القوانين التي كانت تسمى كتاب الملك .Livre au Roi بيد أن أماريك كان يخشى أن تُستغل معلومات رالف ضده . وفي شهر مارس ١١٩٨م ، وبينما كان الملك على صهوة جواده مع حاشيته يتجولون في البساتين المحيطة بصور، هبط عليه أربعة فرسان ألمان . وأنقذ الملك دون أن تلحق به إصابات جسيمة ، ورفض المهاجمون التصريح

---

(٢١) Roger of Hoveden, iv,p29 ويفول *Estoire d'Eracles, ii,* pp.221-3; Ernoul, pp. 309-10. الذي يطلق اسم ميليسند خطأ على العروس إن الزوجين قد تزوجا وتوّجا في بيروت بواسطة كونراد اوف مينز. والأرجح أن ذلك دعاية ألمانية، إذ أن البابا إنوسنت الثالث كتب الى البطريق آيمار يوبّخه على أنه رفض أولا السماح بالزواج بسبب روابط الدم، ثم أتمّه وأتم التتويج رسالة في M.P.L.vol.ccxiv,col.477. وأصبحت العادة منذ آنذاك قدما أن يتم تتويج ملك القدس في كتدرائية صور.

(٢٢) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy,* p.43. وعن الملكية الوراثية في قبرص أنظر Hill, op.cit. vol. ii, p.50 n. 4.

بالجهة التى ينوبون عنها في محاولتهم ، لكن أماليك أعلن أن رالف مذنب وحكم عليه بالنفي . وطالب رالف بحقه في محاكمة يجريها أقرانه من النبلاء . وبناء على نصيحة حون أمير إبيلين - وهو أخو الملكة غير الشقيق - اقتنع الملك بأن رالف لابد رأن يحيل القضية إلى المحكمة العليا ، التي قضت بأن الملك قد أخطأ في نفي رالف دون محاكمته . ولم تُحل المسألة إلا عندما أعلن رالف أنه سيذهب طواعية إلى المنفى في طرابلس بعد أن فقد ثقة الملك ، وربما كان ذلك راجعا إلى تدخل حون أمير ابيلين المعروف بمهارته. وأظهرت الحادثة للنبلاء عدم إمكان معارضة الملك دون الإفلات من القصاص ، لكنها أظهرت للملك أن عليه أن يمتثل للدستور(٢٣).

وكانت سياسته الخارجية تتصف بالقوة والمرونة . ففى أكتوبر ١١٩٧م، وقبل أن يعتلي العرش، بذل المساعدة لهنرى (أوف برابانت) مستغلا تمركز المسلمين في يافا وأرسل حملة مفاجئة تتألف من ألمان وجنود من أبناء برابانت بقيادة هنرى لإستعادة صيدا وبيروت . أما صيدا فقد سبق أن دمرها المسلمون الذين ظنوا أن لا سبيل للدفاع عنها ، ولما وصلها المسيحيون وجدوها أثرا بعد عين . وكان أمير بيروت القرصان أسامة قد طلب العون من العادل ، ولما وجد أن هذا الأخير لم يرسل له العون قرر تدمير مدينته ، غير أنه بدأ متأخرا جدا ، إذ وصل هنرى وجنوده فوجدوا أسوارها مفككة بحيث يسهل عليهم دخولها ، غير أن أغلب المدينة كان سليما وسرعان ما أصلحوا ما تلف منها . ومُنحت بيروت كإقطاعية لأخى الملكة غير الشقيق جون (أوف ابيلين). وبعودة جبيل إلى قبضة أمراء المسيحيين بالفعل ، أصبح للمملكة حدود مشتركة مع كونتية طرابلس مرة اخرى ، غير أن الساحل المحيط بصيدا لم يخلُ تماما من الأعداء الذين كانوا يحتفظون بنصف الضواحي(٢٤).

١١٩٧م : الحملة الصليبية الألمانية

تشجع الصليبيون الألمان بنجاحهم في بيروت فخططوا ، وعلى رأسهم رئيس الأساقفة ، للزحف بعد ذلك على القدس . وحاول البارونات السيريان أن يُثنوهم عن

---

(٢٣) pp.228-30; John of Ibelin, pp.327-8; Philip of Novara, pp.522-3,570. *Estoire d'Eracles, ii*

(٢٤) -Ernoul, pp. 311-17; *Estoire d'Eracles, ii*, pp.224-7; Arnold of Lubeck,p.205; Ibn al Athir,ii,p. 86.

عزمهم ، آملين الحفاظ على السلام مع العادل على أساس تخليه عن يافا واحتفاظه ببيروت ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وفي نوفمبر ١١٩٧م دخل الألمان الجليل وحاصروا قلعة تبنين العظيمة . وكان هجومهم الأول من القوة بحيث سارعت الحامية الإسلامية تعرض التخلي عن القلعة ومعها خمسمائة سجين مسيحي محتجزين في غيابة سجونها مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ومرورهم آمنين مع أمتعتهم الشخصية . غير أن رئيس الأساقفة كونراد أصر على التسليم بلا قيد او شرط . وفي لهفة بارونات الفرنج على مصادقة العادل ، وبدافع من خشية حدوث مذبحة تثير جهاد المسلمين ، أرسلوا يحذرون السلطان من أن الألمان ليسوا معتادين على الإبقاء على حياة أسراهم. واستبسلت الحامية في الدفاع ، بينما حث العادل ابن أخيه العزيز على ارسال جيش من مصر لملاقاة الغزاة . وبدأ الألمان يشعرون بالوهن وتراخت عزائمهم . وفي تلك الأثناء وصلت الأنباء بموت الامبراطور هنرى في سبتمبر ، ولذا تلهف الكثير من القادة على العودة إلى المانيا ، ولما جاءت اخبار الحرب الأهلية في المانيا قرر كونراد ورفاقه التخلي عن الحصار . وفي الثاني من فبراير ١١٩٨م اقترب الجيش المصرى القادم من الجنوب . وتهيأ جنود الألمان وضباطهم للحرب ، ولكن انتشرت فجأة شائعة بفرار المستشار رئيس الأساقفة مع عظام اللوردات ، فدب الذعر في الجميع ، وانطلق الجيش كله هاربا ولم يتوقف أبدا إلى أن وصل إلى مأمنه في صور . وبعد أيام قليلة شرع الجيش في رحلة العودة إلى المانيا . وهكذا لم تحقق الحملة الصليبية كلها سوى الخيبة ولم تفعل شيئا للحفاظ على المكانة الألمانية . ومع ذلك ، فقد ساعدت في استعادة بيروت للفرنج ، وتركت خلفها مؤسسة دائمة هى منظمة فرسان التيوتون[٢٥].

وكانت الأنظمة العسكرية الدينية الأقدم قد استجلبت أعدادا ضئيلة من الألمان برغم انها كانت أنظمة عالمية من الناحية الرسمية . وفي وقت الحملة الصليبية الثالثة ، كان بعض التجار القادمين من مينائي بريمن ولوبيك الألمانيين قد أنشأوا نُزلا للألمان في عكا على غرار مستشفى القديس يوحنا ، وتقرر تكريسه للعذراء ، وخُصص لرعاية الحجاج الألمان . وكان لابد وأن تزداد أهميته بحضور الحملة الألمانية عام ١١٩٧م ، وعندما قرر عدد من فرسان الصليبيين عدم العودة إلى المانيا في الحال ، حذت المنظمة حذو مستشفي القديس جون قبل ذلك بقرن من الزمان وضمت هؤلاء الفرسان ، وفي عام ١١٩٨م تلقت اعترافا من الملك ومن البابا بأنها نظام عسكرى . والأرجح أن

(٢٥) (المترجم) - التيوتون : شعوب المانية قديمة وخاصة في في شمال ألمانيا.

المستشار الأسقف كونراد كان مدركا أن وجود نظام ألماني خالص سيكون ذا قيمة في زيادة المخططات الإمبراطورية ، وقد تحمل هو نفسه مسؤولية الشروع فيها بدرجة كبيرة. وسرعان ما حصلت على هبات الضياع الخصبة في ألمانيا ، وبدأت في الحصول على القلاع في سوريا ، فكان أول ممتلكاتها برج فوق بوابة سانت نيكولاس في عكا، وهبه أماريك شريطة أن يعيد الفرسان تسليمه بناء على أمر الملك . ثم سرعان ما اشتروا قلعة مونتفورت الواقعة على التلال المسيطرة على "سلم صور"، وأعادوا تسميتها باسم ستاركنبرج . وكشأن فرسان المعبد والمستشفى قدم النظام العسكرى الألماني الجنود للدفاع عن الشرق الفرنجى ، لكنه لم يعمل على تسهيل حكم المملكة(٢٦).

وما أن رحل الصليبيون الألمان حتى دخل أماريك في مفاوضات مع العادل ؛ وكان العزيز قد أسرع في العودة إلى مصر ، ولم يكن العادل يرغب فى الشجار مع الفرنج لتلهفه على الحصول على الميراث الأيوبى كله . وفي أول يولية ١١٩٨م وقع على معاهدة تقضى بأن يحتفظ العادل بيافا ، ويحتفظ الفرنج بجبيل وبيروت ، وبتقسيم صيدا بينهما ، على أن تستمر المعاهدة خمس سنوات وثمانية أشهر . وكانت تلك التسوية في صالح العادل ، إذ بعد وفاة العزيز في شهر نوفمبر أطلقت يده للتدخل فى مصر وضم أراضى السلطان المتوفي . وبتزايد قوته زاد إصرار أماريك على مسالمته إذ كانت هناك مشاكل في أنطاكية مرة أخرى(٢٧).

١١٩٧م : الإستخلاف على أنطاكية

كان بوهموند الثالث قد شارك في حصار بيروت ، وفي طريق عودته خطط لمهاجمة جبلة واللاذقية ، غير أنه اضطر إلى الإسراع إلى إمارته ، فقد مات إبنه ريموند فجأة في أوائل عام ١١٩٧م ، وبذا انهارت مخططاته الرائعة في توحيد كيليكيا وانطاكية تحت ابنه ريموند وعروسه الأرمينية . ولقد ترك إبنا رضيعا هو ريموند-روبين الذى كان وريثا لأنطاكية بحق الوراثة . لكن بوهموند الثالث الآن قد دلف بـاب سنته الستين ،

---

(٢٦) أنظر .Rohricht, *Geschichte des Konigreichs Jerusalem*, pp. 677-8

(٢٧) Estoire d'Eracles, ii,p.228; Ernoul,pp.316-17؛ ويقول Roger of Hoveden, iv,p.28 إنه كان مقررا أن تستمر الهدنة ست سنوات وستة أشهر وستة أيام؛ أبو شامة :النص العربى.ed. Bairaq، i,pp. 220-1؛ Ibn al-Athir, ii, p. 89.

ومن غير المحتمل أن يعيش ليرى حفيده وقد بلغ سن الرشد . ولو أن الوصى على الطفل كان من اقاربه الأرمن ففي ذلك الخطورة كلها التي تتمثل في سيطرة الأقلية ؛ فأرسل بوهموند الأرملة أليس مع وليدها إلى أرمينيا ، ربما لأنه كان يخطط لأن يستخلف أحد أبناء سبيلا ، وربما لأنه ظن أن في ذلك سلامتهما . وقد حدثت تلك الأحداث في وقت تتويج ليو تقريبا . وكان كونراد (أوف مينز) تواقا للإستيلاء على عرش أنطاكية لأحد أتباع سيده ، وبذا يكون قد استكمل مهمته في عكا ، فما كان منه إلا أن سارع بمغادرة سيس إلى أنطاكية حيث أجبر بوهموند على استدعاء باروناته وجعلهم يقسمون على مساندة استخلاف ريموند-روبين(٢٨).

وكان الأفضل لكونراد أن يذهب إلى طرابلس . إذ كان بوهموند كونت طرابلس، وهو الإبن الثاني لبوهموند الثالث ، شابا تتوفر لديه طموحات ضخمة والقليل من الشعور بالضمير ، وهو ضليع في القانون وقادر على أن يجد ما يبرر به أكثر اعماله فحشا، ولم يكن بينه وبين الكنيسة شئ من الود . وفي خلاف بين أبناء بيزا وأسقف طرابلس على بعض الأراضى ، ناصر أهل بيزا - من أجل المال بلا شك . وعندما عُيّن الأسقف بطرس (أوف انجوليم) بطريقا لأنطاكية وقام بتعيين خليفة له في دائرة طرابلس بلا اجراءات كنسية بسبب العجلة ، قبل البابا ما تذرع به من أن وجود حاكم مثل بوهموند لا تستطيع الكنيسة المجازفة بالتأخير . وكان بوهموند عاقدا عزمه على ضمان استخلاف انطاكية ، وعلى الفور رفض الإعتراف بصحة القسم الذى أقسمه النبلاء لصالح ريموند-روبين . وكان في احتياج لحلفاء ، فوجدهم في فرسان المعبد الذين انضموا إليه في سرور بعد غضبهم من ليو الذي احتفظ ببجراس ، وضم إليه فرسان المستشفى بعد أن حصلوا على منح معقولة . وأما أبناء بيزا وجنوا فقد ارتشوا بامتيازات تجارية . والأكثر أهمية أن كميون أنطاكية نفسه كان يخشى الأرمن ، ويحمل العداوة لأي عمل يأتيه البارونات . وفي نهاية ١١٩٨م ظهر بوهموند كونت طرابلس فجأة في أنطاكية ، وعزل أباه وحثّ الكميون على قسم الولاء لنفسه.

بيد أن ليو كان له حليف عظيم ، ألا وهو البابا إينوسينت الثالث . وأيا ما كانت

---

(٢٨) Arnould of Lubeck, p.207; *Chronica Regia Coloniensis*, p. 161; Roger of Hoveden, iv, p. 28، وجميعهم يقول ضمنا إن بوهموند احتل المدن مؤقتا. كمال الدين ترجمة Blochet,pp.213-15قائلا إنه لم يهاجمها في الواقع. وأما Rohricht, op.cit.p. 675, n. ، فيخطئ في ترجمة جبيل ويذكرها Gibelet وهي Jebail في تاريخ هرقل *Eracles, ii,* p.228 ، ويذكرها جبلة Jabala (Dschebele).

الشكوك التى ربما كانت البابوية تشعر بها حول اخلاص الكنيسة الأرمينية في خضوعها لروما ، كان اينوسنت الثالث عازفا عن إبعاد أتباعه الجدد . وانهمرت على روما وبطريق كنيسته الأرمينية (كاثوليكوس) رسائل من ليو وطلبات تعكس الود والإخلاص، و لم يكن هناك مجال لتجاهلها . وأدت معارضة الكنيسة على الأرجح إلى أن يسمح بوهموند الصغير لوالده بالعودة إلى أنطاكية وعاد هو نفسه إلى طرابلس ؛ لكنه تمكن بشكل او آخر من مصالحة والده الأمير الشيخ الذي تحول ومال إلى جانبه . وفي تلك الأثناء مارس فرسان المعبد كل ما لديهم من نفوذ للتأثير على روما ؛ غير أن ليو تجاهل تلميحات الكنيسة التي تفيد بأنه ينبغي له إعادة بجراس إلى نظام فرسان المعبد، إذ كانت بجراس من الناحية الإستراتيجية موقعا أساسيا له إذا كان له أن يتحكم في أنطاكية . ودعا الأمير الشيخ وبوهموند والبطريق بطرس لمناقشة المسألة برمتها ، غير أن عناده دفع حتى بالبطريق إلى الانحياز إلى جانب بوهموند كونت طرابلس . وانضمت الكنيسة في أنطاكية إلى الكميون والأنظمة العسكرية في معارضتها للإستخلاف الأرميني. وعندما مات بوهموند الثالث في ابريل ١٢٠١م ، لم يجد بوهموند كونت طرابلس صعوبة في تنصيب نفسه في المدينة . بيد أن الكثير من النبلاء المتمسكين بقسمهم ، والذين كانوا يخشون استبداد بوهموند ، هربوا إلى بلاط ليو في سيس(٢٩) .

١٢٠١م : الحرب الأهلية في الشمال

وطوال الربع التالي من القرن انشغل مسيحيو شمال سوريا بحرب الإستخلاف الأنطاكية ، وقبل تسوية المسألة بوقت طويل كان الوضع كله في الشرق قد تغير . ومن حسن الحظ أن أمراء الأناضول السلاجقة والأيوبيين لم يكونوا في وضع يمكّنهم من شن حرب للغزو هناك . ذلك أن وفاة السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى أعقبتها حرب أهلية طويلة فيما بين أولاده . وانقضت عشر سنوات تقريبا تمكن بعدها أحد الأبناء الصغار ، ركن الدين سليمان صاحب توقات، من إعادة توحيد أراضى الأسرة . وحدثت غارة سلجوقية على كيليكيا عام ١١٩٣م ، ومرة أخرى عام ١٢٠١م، الأمر الذى تسبب فى اضطراب ليو في اللحظة الحرجة التي كان فيها بوهموند الثالث راقدا يحتضر . على أنه عندما كان يتوفر لركن الدين بعض الوقت أثناء حروبه مع اخوته ومع

---

(٢٩) للإطلاع على هذه القصة المعقدة أنظر Cahen, op. cit. pp. 590-5 ، مع مناقشة حول تعارض المصادر.

أمراء الدانشمند الضعفاء ، كان يستغله في مهاجمة جورجيا ، التي كانت مليكتها تامار تبدو أشد خطورة في تهديدها للإسلام من أي عاهل لاتيني[(٣٠)].

ولم يكن من السهل الحفاظ على السلام . ففي نهاية عام ١٢٠٢م هبط على عكا أسطول فلمنكي صغير ، كان قد أبحر مجتازا مضيق جبل طارق تحت قيادة آمر قلعة بروج ، جون (أوف نيسل) .وبعد أيام قليلة وصلت حفنة من الفرسان في سفن من مرسيليا برئاسة الأسقف وولتر (أوف أوتون) وكونت فوريه ، ولحقت بهم مجموعة أخرى من الفرسان الفرنسيين القادمين من فينيسيا ، وفيهم ستيفن (أوف بيرش) وروبرت (أوف مونتفورت) ورينالد الثاني كونت دامبيير . ولم يبلغ عدد المجموعات الثلاث سوى مئات قليلة من الرحال ، وهم نسبة ضئيلة بمقارنتها بالجيش العرمرم الذي يبحر الآن من دالماتيا ؛ وكان رينالد (أوف مونتميريل) قد غادر زارا أمام الجيش ، وسرعان ما جاء بالأنباء التي تفيد بأنه سيمر بعض الوقت قبل أن يظهر الجيش في سوريا، وربما لن يصل . وكشأن الوافدين الجدد ، عقد الفرسان الفرنسيون العزم على الخروج في الحال للحرب من أجل الصليب ، وقد تملكهم الرعب عندما حثهم الملك أماليك على الإنتظار متحملين بالصبر ، فما كان من رينالد كونت دامبيير إلا أن أهان الملك في وجهه راميا إياه بالجبن ، وباعتباره قائدا بذاته ، حرض الفرسان على الإلتحاق بخدمة بوهموند كونت طرابلس . فانطلقوا للإنضمام إليه في انطاكية بعدما عبروا طرابلس في أمان . لكن جبلة واللاذقية كانتا ما تزالان في أيدى المسلمين ، وكان أمير جبلة رجلا مسالما تربطه بجيرانه المسيحيين أوثق الروابط ، فرحب بهم ضيوفا عليه، وحذرهم من عبور اللاذقية دون أخذ الأمان من سيدها الظاهر صاحب حلب ؛ وعرض أن يكاتب هو نفسه السلطان الذي كان حريا بتلبية طلبهم لإهتمامه بزيادة إشعال الحرب الأهلية في أنطاكية ، غير أنه لم يسع رينالد ورفاقه الإنتظار، فغذوا السير عبر اللاذقية التى أراد أميرها الوفاء بواجبه الإسلامى فنصب لهم كمينا وأسر كثيرين وقتل الباقين[(٣١)].

---

(٣٠) Ibn Bibi, ed. Houtsma, iv, pp. 5-22; Ibn al-Athir, ii, pp.69-72; *Georgian Chronicle* (ed. Brosset),i,pp.292-7.

(٣١) Ernoul, p. 341; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 247-9; Villehardouin, ed. Faral, pp. 102-4؛ وكمال الدين ترجمة Blochet, p.39. وذهب جون اوف نيسيل وقليلون ممن أفلتوا من اللاذقية الى ليو الثاني ضد أنطاكية . وعن الحملة الصليبية الرابعة أنظر أدناه ص ١٠٧ ff.. وينتقد Villehardouin بمرارة الصليبيين الذين أصروا على الذهاب الى الأراضى المقدسة.

١٢٠٥م : موت الملك أماليك

أغار أماليك نفسه من حين لآخر على المسلمين عندما كان أحد الأمراء يقوى نفسه بالقرب من صيدا ويبدأ في الإغارة على السواحل المسيحية . وحيث أن العادل لم يعرض أية تعويضات ، انتقم أماليك بإرسال سفن تعترض قافلة بحرية ثمينة كانت مبحرة إلى اللاذقية واستولى عليها، كما قام بغارة على الجليل . ورغم أن العادل وصل في مسيره إلى جبل طابور لملاقاته ، فقد رفض الدخول معه في معركة . كما أن رد فعله لم يكن عنيفا عندما أبحر الأسطول المسيحي إلى دلتا النيل ثم أعلا النهر مارا برشيد وخرّب مدينة فوّة. وفي ذات الوقت تقريبا قام فرسان المستشفى في الكرك ومرقب بالإغارة على حماه ، وهي إمارة المنصور ، حفيد أخى العادل دون نجاح دائم(٣٢).

وفي سبتمبر ١٢٠٤م أبرمت معاهدة سلام بين أماليك والعادل لست سنوات . ويبدو أن المبادرة بها جاءت من أماليك ، وإن كان العادل مشتاقا من جانبه لإنهاء القتال ، ربما لقلقه من تفوق المسيحيين في القوة البحرية ، غير أنه يقينا كان مدركا أن امبراطوريته سوف تجنى الثمار باستئناف التجارة التي ركدت مع الساحل السورى. ولذا كان على استعداد للتخلى لا عن بيروت وصيدا نهائيا لأماليك فحسب ، وانما تخلى له كذلك عن يافا والرملة وسهّل ترتيبات الحج للحجاج الذاهبين إلى القدس والناصرة . أما أماليك ، الذى لا يتوقع الآن تلقى أية مساعدة فعالة من الغرب ، فقد بدت له الشروط جيدة بصورة تثير الدهشة(٣٣) غير أنه لم يتمكن من التمتع بمكانته المتزايدة لفترة طويلة ، ففى أول ابريل ١٢٠٥، وبعد فترة قصيرة من المرض نتيجة الإفراط في أكل السمك، مات في عكا عن عمر يزيد قليلا على الخمسين(٣٤).

ولم يكن أماليك ملكا عظيما ، غير أنه كشأن سلفه هنرى تعلم من التجربة الحكمة السياسية التي كانت ذات قيمة لهذه المملكة البائسة المحفوفة بالأخطار ؛ وأسهم

---

(٣٢) Ernoul, pp. 355-60; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 258-63; Abu Shama, ii, p. 158; Ibn al Athir, ii, p. 96.

(٣٣) Ernoul, p. 360; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 263; Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣٤) Ernoul, p. 407; *Estoire d'Eracles*, ii,p.305; Appendix to Robert de Monte, Bouquet, R.H.F.vol.xviii,p.342. ويقتبس روبرت دي مونت في تذيله خطابا من رئيس أساقفة قيسارية يرد فيه التاريخ بدقة . وقد مات ابنه الرضيع من إيزابيلا يوم ٢ فبراير . وكان السمك من صنف البورى الأبيض .

ذهنه المنسق القانوني لا في إيجاد دستور لقبرص وحسب ، وإنما فعل الكثير من احل الحفاظ على الملكية في الأراضي الأصلية . وكرحل كان يلقى الإحترام ولكن لم يكن محبوبا كثيرا . وكان في شبابه يتصف باللامسؤولية وكان مشاغبا ، ودائما ما كان يستهين بالمعارضة . وبرغم أنه أوضح بجلاء تفضيله لأن يظل ملكا لقبرص وحدها، فيرجع إليه الفضل في قبوله للمهام التى ألقاها التاج الثاني على عاتقه ونفذها بكل ما تستدعيه من واجبات . وفي وقت وفاته كانت المملكتان منفصلتين ، فآلت قبرص إلى إبنه هيو الأول ابن إيشّيفا (أوف ابيلين)، وكان طفلا في السادسة من عمره . وكانت الأخت الكبرى للطفل قد تزوجت حديثا من وولتر (أوف مونتبيليارد) الذى عهدت إليه المحكمة العليا في الجزيرة بالوصاية(٣٥). وفي مملكة القدس آلت السلطة تلقائيا إلى الملكة إيزابيلا التي لم تشعر بالإرتباك لموت زوجها هذا الأخير على النحو الذي يعوقها عن مباشرة الحكم . بيد أنها هى نفسها لم تعش طويلا ؛ إذ طوت أكفان الغموض تاريخ وفاتها كما طوت أغلب أحداث حياتها . وكانت هي الوحيدة من بين سيدات البيت الملكى في القدس التي كانت شخصيتها شخصية معتِمة لم يبق لنا شئ يكشف عن شخصيتها . وكان زواجها ووجودها ذاته ذا أهمية كبيرة. ولو كان لها تطلعات سياسية لكانت بمثابة قوة فى الأراضى المقدسة ، لكنها تركت نفسها تنتقل من زوج إلى زوج دون اعتبار لرغباتها الشخصية . ونحن نعلم أنها كانت جميلة ؛ على أننا ينبغى أن نصل إلى نتيجة أنها كانت هزيلة ضعيفة(٣٦).

وتركت ايزابيلا خمس بنات ، ماريا (أوف مونتفرات) وأليس وفيليبا (أوف شامباني) وسيبيلا وميليسيند (أوف لوسينان). واعتلت ماريا العرش ، وكانت آنذاك في الثالثة عشرة من عمرها ، وعُيِّن جون أوف إبيلين ، لورد بيروت ،وصيا على العرش. وليس معروفا ما إذا كان تعيينه جاء عن طريق الملكة الراحلة أو عن طريق البارونات ، غير أنه كان المرشح البارز ، إذ باعتباره الأخ الأكبر غير الشقيق لإيزابيلا ، كان هو أقرب الأقرباء الذكور لماريا . وكان صاحب أغنى إقطاعية في المملكة الصغيرة وكان القائد المقبول للبارونات ، وقد جمع بين شجاعة أبيه وحكمته باليان وبين الدهاء الإغريقي الذى ورثه عن أمه - ماريا كومنينا . وظل يحكم البلد لثلاث سنوات بمهارة وهدوء لا تزعجه فيها الحروب العربية ولا تحرجه فيها الحملات الصليبية . وفي واقع

---

(٣٥) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 305.

(٣٦) Ibid..

الأمر ، وكما توقع أماريك وهو محزون عندما وقع معاهدته مع العادل ، ليس هناك فارس غربى يزعج نفسه طواعية بالحضور إلى فلسطين . لقد وجدت الحملات الصليبية مراتع أخرى أكثر خصوبة تتصيدها[٣٧].

(٣٧) Ibid.; Ernoul, p. 407.

الباب الثانى:

حملات صليبية ضالة

الفصل الأول:

الحملة الصليبية ضد المسيحيين

الحملة الصليبية ضد المسيحيين

"كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم. السيّدة في البلدان صارت تحت الجِزْيَة،
كلُّ أصحابها غدروا بها صاروا لها أعداء"
(مراثي إرْميا ٢:١:١)

في نوفمبر ١١٩٩م، دعا الكونت تيبالد (أوف شامباني) أصدقاءه وجيرانه لمشاهدة ألعاب الفروسية في قلعته إكرى الواقعة على نهر إيسن في شمال فرنسا . وبعد انتهاء المقارعة ، تحولت أحاديث اللوردات إلى الحاجة إلى حملة صليبية جديدة ، وهو أمر وقع من الكونت موقعا قويا ، إذ كان هو ابن اخى قلب الأسد وفيليب أوغسطس ، وكان اخوه هو الكونت هنرى الذي حكم في فلسطين . وبناء على اقتراحه دُعِيَ الواعظ الجوّال فولك (أوف نويلى) ليحادث الضيوف . وأشعلت فصاحته المجموعة كلها فأقسموا على أخذ الصليب ؛ وأُرسل مبعوث إلى البابا لإبلاغه بالقرار الورِع[١].

كان إينوسنت الثالث متربعا على العرش البابوي لأكثر من عام في الواقع. وكان

---

(١) Villehardouin, i, pp. 2-6.

متّقد الحماس في طموحه لإقامة السلطة غير العادية للكرسي البابوى ، لكنه في الوقت ذاته كان حذرا بعيد النظر رائق الذهن، وقانونيا يفضل وجود أساس قانوني لمطالباته، وكان سياسيا لا يتورع عن استخدام أية وسيلة في متناول يده مهما تكن . وكان قد أصابه الاضطراب من جراء الوضع في الشرق ، وكان أحد أعماله الأولى أن أفصح جهرة عن رغبته في حملة صليبية جديدة ؛ وفي عام ١١٩٩م كاتب البطريق آيمار بطريق القدس طالبا تقريرا مفصلا عن المملكة الفرنجية[٢]. وكان ملوك القدس أتباعا له ، وزاد من رغبته في مساعدتهم السياسة الدؤوبة للإمبراطور هنرى السادس، الذى كان منحه للتاجين في قبرص وأرمينا بمثابة التحدى للسلطة البابوية فى تلك الأماكن. وقد أظهرت التجربة أن الملوك والأباطرة ليسوا مرغوبين تماما في الحملات الصليبية . والحملة الصليبية الوحيدة التي تعتبر نجاحا كاملا هى الحملة الصليبية الأولى التي لم يشارك فيها ملك على رأسه تاج . ومن شأن حملة صليبية تتألف من بارونات، متجانسين في العنصر بشكل أو بآخر، أن تتجنب مظاهر الندية الملكية والقومية التي دمرت بدرجة كبيرة الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . وستكون نوازع الغيرة التي قد تنشأ تافهة يسهل السيطرة عليها في وجود ممثل بابوي مقتدر. ولذلك، رحب إينوسنت ترحيبا حارا بالأنباء التي وصلته من شامباني ، ذلك أن الحركة التي أطلقها تيبالد لن تساعد الشرق مساعدة فعالة فحسب ، وإنما يمكن استخدامها كذلك في توطيد أواصر وحدة العالم المسيحى تحت سلطة روما[٣].

١١٩٩م : إينوسينت الثالث والحملة الصليبية

وقد اختيرت اللحظة اختيارا حسنا للبابوية . ففي زمن الحملة الصليبية الأولى لم يكن هناك امبراطور في الغرب في وضع يمكّنه من التدخل ؛ ونتج عن موت هنرى السادس في سبتمبر ١١٩٧م أن أراح الكنيسة من تهديد حقيقي . وكان هنرى - باعتباره إبن فريدريك بارباروسا وزوج وريثة صقلية، التي أصبح ميراثها في قبضته القوية بحلول عام ١١٩٤م - أكثر هولا من أي عاهل آخر منذ شارلمان ، وكان شعوره بتلك المكانة قويا وكاد أن ينجح في تعزيز تلك المكانة على أساس وراثى ؛ إذ أن منحه

---

(٢) Rohricht, *Regesta*, pp. 202-3.

(٣) عن موقف إينوسنت الثالث، أنظر Fliche, *La Chrétienté Romaine* vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise)*pp.44-60.

للتيجان في الشرق وطلبه التحالف مع قلب الأسد الأسير ، أوضح أنه ينظر لنفسه على أنه "ملك الملوك" . ولم يخف كراهيته لبيزنطة ، وهي الامبراطورية القديمة التي فاقت تقاليدها تقاليده في نديّتها، لا ولم يخف ما كان يصبو إليه في المضي في السياسة النورماندية لبناء سلطان له في البحر المتوسط ، والتي كانت تشتمل بذاتها على دمار بيزنطة . وكان أطلاق حملة صليبية جزءا حتميا من هذه السياسة . وطوال عام ١١٩٧م كان يضع خططه بحذر. وكان للبعثة الألمانية التي هبطت عكا في ذلك العام أن تكون بشيرا لجيش عظيم يقوده بنفسه . وأسقط في يد البابا إينوسنت الثالث ، وهو رجل هيّاب متذبذب ، لكنه لم يحاول إثناءه عن عزمه رغم أنه نصحه بعدم شن هجوم عاجل على القسطنطينية إذ أنه يفاوض أمبراطورها على وحدة الكنيسة . ولو لم يمت هنرى فجأة في ميسينا، وهو في الثانية والثلاثين، أثناء تجهيزه لإسطول عظيم يقهر به الشرق، فربما نجح نجاحا كبيرا في أن يجعل من نفسه سيد العالم المسيحى كله(٤).

مات البابا سيليستين بعد أشهر قليلة من موت الامبراطور ، ولذا وجد البابا إينوسنت الثالث نفسه مستخلفا دون غريم دنيوي . وعهدت الإمبراطورة الأرملة كونستانس إليه بمملكتها الصقلية وابنها الصغير فريدريك . وفي ألمانيا، حيث لم يكن الأمير الصقلي المولد معروفا، استولى عمه - أخو هنرى - فيليب (أوف سوابيا) على أراضى العائلة ونصب نفسه إمبراطورا ووجد أن أعداء الهوهينيشتوفن لم يجبنوا إلا بشكل مؤقت . وعيّن آل ويلف مرشحا ندا هو أوتو (أوف برونسفيك)؛ وكان ريتشارد البريطاني قد قتل في شهر مارس ١١٩٩م، وقد بدأ الخلاف على ميراثه بين أخيه جون وابن أخيه آرثر، بينما كان ملك فرنسا فيليب مشتركا في النزاع اشتراكا نشطا. وهكذا كان ملكا فرنسا وانجلترا في شغل شاغل ، وألمانيا منصرفة إلى الحرب الأهلية، والسلطة البابوية آمنة في جنوب إيطاليا ، فيستطيع إينوسنت الثالث إذا أن يشرع في التبشير بالحملة الصليبية تملأه الثقة . وكخطوة أولى بدأ مفاوضات مع الامبراطور البيزنطى ألكسيوس الثالث حول وحدة الكنائس(٥).

---

(٤) أنظر Foreville and de Pina, *Du Premier Concile du Latran à l'avènement d'Innocent III* (vol. ix of Fliche and Martin, *Histoire* de *l'Eglise*) pp. 216-26.

(٥) Fliche, op. cit. pp.46, 50; *Gesta Innocentii III, M.P.L.* vol. ccxiv, cols. 119-23.

١٢٠١م : تعين بونيفاس قائدا للحملة الصليبية

وفي فرنسا، كان الوكيل الرئيسي للبابا هو فولك (أوف نيويلى) المبشر المتجول الذي طالما كان يسعى إلى الإيحاء بحملة صليبية . وكان مشهورا بعدم الهيبة أمام الأمراء، كما حدث أن أمر الملك ريتشارد بالتخلي عن كبريائه وشحه وشهوته(٦). وتنفيذا لطلب البابا راح يتجول في البلاد محرضا القرويين على أن يتبعوا أسيادهم إلى الحرب المقدسة . وفي ألمانيا كادت المواعظ الكنسية التي يلقيها آبوت مارتان (أوف بيريز) أن تكون ملهمة بنفس القدر ، رغم أن النبلاء كانوا متورطين في الحرب بحيث لم يولوه اهتماما كبيرا(٧). على أنه لا فولك ولا مارتان استطاع إشعال الحماس كمبشرى الحملة الصليبية الأولى . وكان التجنيد أكثر تنظيما ، إذ كان مقصورا أساسا على التابعين للبارونات الذين أخذوا الصليب ، والكثير من هؤلاء البارونات تحركوا بوازع الورع بصورة أقل من وازع الرغبة في الحصول على أراض جديدة بعيدة عما كان يمارسه الملك فيليب أوغسطس من أنشطة تنظيمية . ولقى تيبالد (أوف شامباني) قبولا عاما لأن يصبح قائد الحركة ؛ وكان معه بالدوين التاسع (أوف هينولت) وكونت فلاندرز، وأخوه هنرى، ولويس كونت بلوا، وجيوفري الثالث (أوف لي بيرش) وسيمون.الرابع (أوف مونتفورت) وإخوتهم، وإنجوراد (أوف بوف)، ورينالد (أوف دامبيير) وجيوفري (أوف فيلهاردوين)، ولوردات آخرون اقل شأنا من شمال فرنسا والبلاد والواطئة . وأعلن أسقف أوتون ملازمته لمجموعة من الفرسان من أوفرنيّ. وفي اقليم الراين الألماني أخذ أسقف هالبرتشتادت الصليب وكذلك كونت كاتزنيلينبوجين ومعهما الكثير من جيرانهما(٨). وسرعان ما حذا حذوهم بعد ذلك مختلف الوجهاء في شمال ايطاليا ، يتزعمهم بونيفاس مركيز مونتفرات ، الذي تسبب اشتراكه في أن يثير لدى البابا إينوسنت الثالث أول مشاعر الريبة حول المغامرة كلها، إذ كان أمراء مونتفرات أصدقاء مخلصين وحلفاء لآل هوهينشتوفن(٩).

---

(٦) Villehardouin, loc. cit; Roger of Hoveden, iv, pp.76-7.عرض ريتشارد أن ينسب كبرياءه لفرسان المعبد، وشحه للسيسترسيين)الرهبان البنيدكتيين(، وشهوته لأساقفته .

(٧) Gunther, *Historia Constantinopolitana* in Riant, *Exuviae, i*, pp. 60-5.

(٨) يورد Villehardouin, i, pp. 6-14 and Robert of Clary (ed.lauer), pp. 2-3 قوائم بالصليبيين الفرنسيين. ويذكر Villehardouin, p.74 أسماء الصليبيين الألمان.

(٩) يقول Villehardouin, i, p. 44 ضمنا إن بونيفاس لم يأخذ الصليب إلا بعد أن تم تعيينه قائدا أعلا للحملة ؛ *Gesta Innocentii* III, *loc.cit*,col.132، الذي يوحي بشكوك البابا. وكانت أم بونيفاس أختا غير شقيقة لجد هنرى السادس، وكان أبوه أخا غير شقيق لجدة فيليب ملك فرنسا.

ولم يكن في الإمكان تنظيم الحملة بسرعة . وكانت المشكلة الأولى هي العثور على سفن تحملها إلى الشرق ؛ إذ مع اضمحلال بيزنطة لم يعد الطريق البري عبر البلقان والأناضول وسيلة عملية للوصول إلى الشرق . ولم يكن أحد من الصليبيين يملك أسطولا تحت تصرفه ، باستثناء كونت فلاندرز؛ وكان الأسطول الفلمنكي قد أبحر بمفرده إلى فلسطين بقيادة جون (أوف نيسيل)(١٠). وبعد ذلك كانت هناك مسألة الإستراتيجية العامة ؛ وكان ريتشارد قلب الأسد عندما غادر فلسطين قد أدلى برأيه من أن مصر هي النقطة الضعيفة في الإمبراطورية العربية. وتقرر في نهاية الأمر أن تكون مصر هي هدف الصليبيين . وكان عام ١٢٠٠م قد انقضى في مفاوضات مختلفة، حاول فيها إينوسنت الإحتفاظ ببعض السيطرة. وفي شهر مارس ١٢٠١م مات تيبالد (أوف شامباني) فجأة ؛ واختارت الحملة الصليبية بونيفاس (أوف مونتفرات) قائدا للحملة بدلا منه . وكان اختيارا طبيعيا ، إذ كان لآل مونتفرات اتصالات ملحوظة مع الشرق. وكان أبو بونيفاس قد مات وهو بارون فلسطيني ، ومن بين أخوته تزوج وليم من سيبيلا ملكة القدس وأصبح أبا الطفل الملك بلدوين الخامس ؛ وتزوج رينير ابنة الامبراطور مانويل وقتل في القسطنطينية ؛ وكان كونراد هو منقذ صور، وحاكم الأراضي المقدسة وأبا لوريثها الحالية. غير أن تعيينه لقيادة الصليبيين أبعده عن نفوذ البابا إينوسنت . وكان بونيفاس قد جاء إلى فرنسا في أغسطس عام ١٢٠١م ، وقابل رفاقه الرئيسيين في سواسون ، حيث صدّقوا على زعامته ؛ ومن هناك واصل رحلته إلى ألمانيا لتمضية اشهر الشتاء مع صديقه القديم فيليب (أوف سوابيا)(١١).

وكان فيليب (أوف سوابيا) مهتما هو نفسه بالشؤون الشرقية ، وإنما في الأمور البيزنطية وليس في سوريا . وقد بلغ الغاية في مشاركته لأسرته الحاكمة شعورها بالكراهية الشديدة تجاه الأباطرة البيزنطيين . وتوقع أن يصبح في القريب العاجل إمبراطورا غربيا ، وود لو أنه يواصل تنفيذ برنامج أخيه هنرى كاملا . وفضلا عن ذلك، كانت لديه علاقات مع بيزنطة . وعندما استولى هنرى السادس على صقلية غزوا، كان من بين الذين أسرهم الأرملة الشابة للأمير المتوج روجر الصقلي المحروم من عرشه ، وهي إيرين أنجلينا ، إبنة الامبراطور اسحق أنجيلوس ؛ فمنحها لفيليب عروسا. وكان زواجا يكلله الحب ؛ ومن خلال حبه لفيليب أصبح متورطا في المشاجرات الملكية

---

(١٠) أنظر أعلاه ، ص ١٤٠.

(١١) Villehardouin, i, pp. 40-6; Robert of Clary, pp.4-6؛ ويلمّح تاريخ *Gesta Innocentii III*, *loc. cit.* بأن فيليب ملك فرنسا قد تدخل لصالح بونيفاس.

لأنجيلى[١٢].

وبعد أشهر قليلة من زواج فيليب فقد حموه عرشه . إذ أن القوة لم تضف شيئا إلى قدرة إسحق ؛ إذ كان مسؤولوه فاسدين لا سبيل إلى السيطرة عليهم ، وكان هو نفسه على قدر من التبذير أكثر بكثير مما تستطيع تقديمه إمبراطوريته التى افتقرت . ففقد نصف شبه جزيرة البلقان انتزعتها منه مملكة قوية تهدده هي المملكة الفلاكية البلغارية[١٣]. وكان الأتراك - حتى موت قلج أرسلان الثاني عام ١١٩٢م - يستولون على الأناضول شيئا فشيئا ، وبذا يحجبون بيزنطة عن الساحل الجنوبي وعن سوريا. وبدأت التنازلات التجارية تُباع للإيطاليين أكثر فأكثر من أجل النقد الجاهز . وكان حفل الزفاف الرائع للإمبراطور إلى الأميرة مرجريت الهنجارية من الإسراف وانعدام الفطنة بحيث أشعل غضب رعاياه المثقلين بالضرائب ؛ وبدأت أسرته هو نفسه تهجره ، وفي ١١٩٥م خطط أخوه ألكسيوس مؤامرة وضع هندستها في القصر بنجاح. وفُقئت عينا إسحق وألقى به في غيابة السجن ومعه ابنه ألكسيوس الأصغر. وكان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثالث ، أكثر اقتدارا بقليل من أخيه ؛ فأظهر بعض النشاط الدبلوماسي وتودد ليكسب صداقة البابوية بعرض اجراء محادثات حول الوحدة الكنسية - وهى صداقة ربما جنبته هجوم هنرى السادس - وأفلح بمكائده في الإبقاء على الفرقة بين أمراء السلاجقة . على أنه ترك الشؤون الداخلية لزوجته إيوفروسين التى كانت مسرفة متلافة ، وأحاطت نفسها بالخدم والحشم بنفس القدر كما كان أخو زوجها[١٤].

وفي نهاية عام ١٢٠١م ، هرب ألكسيوس الأصغر ، إبن اسحق ، من السجن في القسطنطينية ويمم وجهه شطر بلاط أخته في ألمانيا . واستقبله فيليب استقبالا حسنا وقدمه إلى بونيفاس (أوف منونتفرات) . وتشاور الثلاثة وأعرب ألكسيوس عن رغبته في الحصول على عرش والده ، وكان فيليب على استعداد لمساعدته كي يحوّل الإمبراطورية الشرقية إلى عميل للإمبراطورية الغربية . ولدى بونيفاس جيش صليبي تحت تصرفه . أليس من صالح الحملة الصليبية أن تتوقف في طريقها لكى تعيد حاكما صديقا

---

(١٢) *Chronica Regia Coloniensis*, p.157.

(١٣) (المترجم) ـ المملكة الفلاكية البلجارية .Vlacho-Bulgarian نسبة إلى الشعوب الفلاكية جنوب شرق أوروبا ، أساسا في رومانيا ، وهي غير سلافية

(١٤) أنظر: Vasiliev, *History of the Byzantine Empore*, pp.440-487.

إلى عرشه في القسطنطينية؟[١٥].

١٢٠٢م : مفاوضات مع البندقية

وفي تلك الأثناء راح الصليبيون يبحثون عن وسيلة نقل لرحلتهم البحرية . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠١، وأثناء حياة كونت شامباني ، دخلوا في مفاوضات مع البنادقة وأرسلوا إلى البندقية جيوفرى (أوف فيلهاردوين) لترتيب الشروط . وفي إبريل وقعت معاهدة بين جيوفرى والبنادقة تقضى بحصولهم على ٨٥,٠٠٠ مارك كولوني فضي لقاء توفير وسائل النقل والأطعمة لمدة عام ، من ٢٨ يونية ١٢٠٢م ، لعدد من الفرسان قدره ٤,٥٠٠ فارس وخيولهم ، و ٩,٠٠٠ فارس بلا لقب ، و ٢٠,٠٠٠ جندى مشاه . وفضلا عن ذلك ، توفر جمهورية البندقية خمسين قادسا لمصاحبة الحملة الصليبية شريطة أن تحصل على نصف ما تحققه الحملة من غزو . وما أن تم الإتفاق حتى استدعي الصليبيون للتجمع في البندقية وهم على أهبة الاستعداد للإبحار قاصدين غزو مصر[١٦].

وكان هناك صليبيون قليلون مرتابون في المعاهدة ؛ ولذا اصطحب أسقف أوتون جماعته مباشرة من مرسيليا إلى سوريا. ونفد صبر آخرين ، برئاسة رينالد (أوف دامبيير)، من التأخير في البندقية فرتبوا ترتيبهم للإبحار إلى عكا كما كان هناك شيئ من عدم الإرتياح من جانب الصليبيين الأقل شأنا لصدور القرار بمهاجمة مصر ؛ فقد انخرطوا في الحملة لإنقاذ الأرض المقدسة ، ولا يفهمون القصد من الذهاب إلى مكان آخر . ونفخ البنادقة بهدوء في نار استيائهم ، إذ لم تتوفر لديهم النيّة للمساعدة في الهجوم على

---

(١٥) Nicetas Choniates, p. 712; Innocent III letters, v, 122, *Gesta Innocentii III, loc.cit.*, cols.123-5; ibid.cols.130-2. دارت بجادلات مريرة حول المسألة كلها وما إذا كان تحول الحملة الصليبية الرابعة كان مرتبا له . أنظر Vasiliev, op.cit. pp.455-8. ويبدو أن الحقيقة هي أنه في الوقت الذي تفوفرت فيه أسباب منفصلة لفيليب أوف سوابيا ، وبونيفاس ، وأهل فينيسيا للرغبة في مهاجمة القسطنطينية ، فإن مصادفة وصول ألكسيوس هي التي جعلت نحو الحملة الى القسطنطينية شيئا عمليا. ولم يكن لدى البابا مثل هذه النوايا ، وكان الصليبي الفرنسى العادي تتوفر لديه النية الأصلية للذهاب الى الأراضى المقدسة ولكنه سمح للظروف بأن تحيد به هنا وهناك . وعن موقف بونيفاس أنظر Gregoire, 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', *Byzantion*, vol.xv.. وعن مخطط فيليب او ف سوابيا المتعمّد أنظر Winkelmann, *Philipp* von Schwaben,i,pp. 296-525.

(١٦) Villehardouin, ii, pp. 18-34. وافق البابا على المعاهدة وإنما بلا حماس ، إذ من الواضح انه يرتاب في البنادقة (*Gesta Innocentii* III, *loc.cit.*col.131)

مصر . وكان العادل مدركا تماما لما تجلبه التجارة مع أوروبا من مميزات لبلاده ، وكان في أعقاب غزوه لمصر قد عرض امتيازات تجارية لها قيمتها على المدن الإيطالية . وفي نفس اللحظة التي كانت فيها حكومة البندقية تساوم الصليبيين حول نقل قواتهم ، كان سفراؤها في القاهرة يرتبون لعقد اتفاق تجاري مع والي السلطان الذي وقع معهم على معاهدة في ربيع ١٢٠٢م ، وذلك بعد أن حصل مبعوثو العادل إلى البندقية على تأكيدات حاكم البندقية (الدوج) أنه لن يوافق على أية حملة على مصر(١٧).

وليس يقينيا ما إذا كان الصليبيون قد فهموا دقائق دبلوماسية البندقية ، على أنه إذا كان أي منهم يرتاب في أنهم قد خُدعوا ، فلم يكن هناك ما يمكن عمله ، إذ وضعتهم معاهدتهم مع البندقية في قبضتها تماما ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من جمع المبلغ الذى وعدوا به وهو ٨٥,٠٠٠ مارك . وفي يونية ١٢٠٢م تجمّع الجيش ؛ ولكن جمهورية البندقية امتنعت عن تقديم السفن لمّا وجدت أن المال ليس في طريقه إلى السداد. وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم قد عسكروا في جزيرة سان نيكولو دي ليدو الصغيرة ، يضايقهم تجار البنادقة الذين يطالبونهم بديون لم يدفعوها ويهددونهم بمنع المؤن عنهم تماما ما لم تظهر نقودهم أولا ، وبحلول سبتمبر لم يكن لديهم حيلة إلا أن يوافقوا على أية شروط قد تفرضها عليهم البندقية . وكان بونيفاس قد لحق بهم ذلك الصيف بعد زيارة للبابا في روما لم يصادفها النجاح ، ولذا كان مهيأ للتعاون مع البنادقة . وكانت قد مرتْ بضع عقود شهدت حروبا متقطعة بين جمهورية البندقية وملك هنجاريا من أجل السيطرة على دالماتيا ، وكانت مدينة زارا الهامة قد سقطت مؤخرا في أيدى الهنجاريين . وأُخطر الصليبيون الآن بإمكان البدء في الحملة وتأجيل دفع الدين إذا شاركوا في حملة مبدئية لإستعادة زارا ، وما أن سمع البابا بذلك العرض حتى أرسل من فوره لمنع قبوله . بيد أنه أيّا ما كانت مشاعرهم حيال ذلك العرض ، لم يكن بوسعهم إلا أن يلتزموا به(١٨).

ودُبّر الأمر بليل بين بونيفاس (أوف مونتفرات) ، الذى لم يرض عنه ضميره

---

(١٧) ينكر المؤرخون وجود معاهدة محددة رغم أن المؤرخ هوبف Hopf *Geschichte Griechenlands,i,p.118* يحدد تاريخها في ١٣ مايو ١٢٠٢م ، ولا يورد المؤرخ أية مصادر في الواقع . غير أن Ernoul, pp.345-6 يقول بكل التأكيد إن المفاوضات بين البندقية والسلطان كانت جارية آنذاك . وليس هناك ما يدعونا إلى افتراض أنه اخترع هذه القصة ، التي يفترض أنه استمدها من البنادقة في سوريا . وعن الحروب من الحملة الصليبية انظر Villehardouin, i. pp.52-4.

(١٨) Villehardouin, i, pp. 58-66; Robert of Clary, pp. 9-11.

المسيحي رضاء كاملا، زبين دوج البندقية إنريكو داندولو . وكان هذا الأخير قد بلغ من العمر أرذله ، لكن الشيخوخة البالغة لم تخمد طاقته أو طموحاته. فقبل نحو ثلاثين سنة كان في سفارة إلى القسطنطينية حيث تورط في شجار صاخب فقد على أثره بصره جزئيا . وزادت مرارته ضد البيزنطيين بعد إرتقائه الدوجية مباشرة في ١١٩٣م عندما صادفته بعض الصعوبات مع الامبراطور ألكسيوس الثالث في تجديد شروط تجارية مجزية كان الامبراطور إسحق قد منحها للبندقية ؛ ولذا كان مهيأ لأن ينقاش مع بونيفاس مخططات حملة تستهدف القسطنطينية ، على أنه يتعين في الوقت ذاته المحافظة على مظهر الحملة الصليبية ؛ فما أن تمت الموافقة على مهاجمة زارا حتى أقيم حفل وقور في كنيسة القديس مارك حيث تباهى الدوج وكبار مستشاريه بأخذ الصليب(١٩).

١٢٠٢م : نهب مدينة زارا

أبحر الأسطول من البندقية في الثامن من نوفمبر ١٢٠٢م ووصل أمام زارا بعد ذلك بيومين . وبعد هجوم شرس، استسلمت المدينة في الخامس عشر من الشهر وانتهبت عن آخرها . وبعد ثلاثة أيام بدأ القتال بين البنادقة والصليبيين عند تقسيم الأسلاب ، غير أنه أمكن تدبير السلام بين الفريقين . ثم إن الدوج وبونيفاس قررا أن الوقت متأخر هذا العام للقيام بمغامرة الإتجاه إلى الشرق . فبقيت الحملة في زارا لتمضية الشتاء، بينما خطط زعماؤها لعملياتهم المقبلة(٢٠).

وعندما وصلت روما أنباء تخريب زارا ، أصيب البابا اينوسنت بالرعب ، فهو لا يحتمل أن تستخدم حملة صليبية في تحد صارخ لأوامره لمهاجمة أراضى أحد أبناء الكنيسة البررة فطرد الحملة الصليبية كلها من الكنيسة ، ثم إنه بعد أن تحقق من أن الصليبيين أنفسهم كانوا ضحية ابتزاز ، عفى عنهم وإنما أبقى على إعلان طرد البنادقة من الكنيسة(٢١). ولم ينزعج داندولو ، فمن خلال بونيفاس كان فعلا على علاقة بفيليب (أوف سوابيا) وهو زميله فى الطرد من الكنيسة . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠٣م

---

(١٩) Villehardouin, i, pp. 66-70; Robert of Clary, pp.10-12. وعن Dandolo أنظر Diehl, *Une République Patricienne, Venise*, pp. 47-8; Vasiliev, *op. cit.* pp. 452-3

(٢٠) Villehardouin, i, pp. 76-90; Robert of Clary, pp. 12-14.

(٢١) Innocent III, letters, v, 161, 162, vi, 99-102 (*M.P.L.*vol. ccxiv, cols.1178,1182; vol ccxv, cols. 103-10); Villehardouin, i,pp.104-8.

جاء رسول من ألمانيا إلى زارا ، من فيليب إلى بونيفاس بعرض محدد من زوج أخته ألكسيوس . إذا زحف الصليبيون على القسطنطينية ونصّبوا ألكسيوس على العرش الإمبراطورى هناك ، فإن ألكسيوس يضمن للصليبين دفع المال الذى لا يزالون مدينين به للبنادقة ؛ وسوف يزودهم بالمال اللازم والمؤن لغزو مصر ، وسوف يضيف فرقة مؤلفة من ١٠,٠٠٠ رجل من الجيش البيزنطى ؛ وسوف يتكفل بتكاليف إعالة خمسمائة فارس ليبقوا في الأرض المقدسة ، وسوف يضمن خضوع كنيسة القسطنطينية لروما . فأحال بونيفاس الموضوع إلى داندولو الذي ثارت لديه مشاعر البهجة . إذ يعنى ذلك أن البندقية سوف تتسلم أموالها ، وفي ذات الوقت سوف تجعل اليونانيين أذلاء ، وسوف تتمكن من توسيع وتقوية رقعة مميزاتها التجارية في سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية . وأما الهجوم على مصر فيمكن بسهولة تدبره لما بعد(٢٢).

عندما طُرح الإقتراح على الصليبين كان هناك قليل من المنشقين ، مثل رينالد (أوف مونتميريل) الذى أعرب عن شعوره بأنهم قد أخذوا الصليب لمحاربة المسلمين ، وليس هناك ما يبرر المزيد من التأخير ، فتركوا الجمع وأبحروا ميممين وجوههم شطر سوريا ؛ وبقى آخرون مع الجيش ، يفصحون عن اعتراضاتهم ؛ وكُممت أفواه آخرين مرة أخرى برشاوى البنادقة التى جاءت في وقتها المناسب . على أن الصليبى العادى قد لُقّن الإعتقاد الذي مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الخيانة ضد العالم المسيحي طوال الحروب المقدسة . فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن. وأبهج الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا في سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين المنشقين إلى الحظيرة . أما الأكثر ولعاً بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون في ثراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب. وربما تطلع بعض البارونات ، وفيهم بونيفاس نفسه ، إلى نفس التوقعات ، وراحوا يوازنون حساباتهم التي تقول إن الضياع على شواطئ بحر إيجة أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يجدونها في أراضى سوريا القاحلة . وأسهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحى الشرقي ، فجعل من اليسير على داندولو وبونيفاس تطويع الرأي العام وشده لمناصرتهما(٢٣).

---

(٢٢) Villehardouin, i, pp. 90-100. وهو يتحدث عن مفاوضات مسبقة بين ألكسيوس والصليبيين في البندقية ص.٧٠-٤.

(٢٣) Villehardouin, i. pp. 100-4; Robert of Clary, pp. 14-15. ويقول هيو)اوف سانت بول Hugh of Saint Pol, letter in *Chronica* Regia *Coloniensis*, p. 205، إن كل الصليبيين تقريبا

لم تخف حدة القلق لدى البابا عندما سمع بالقرار الذي اتخذته الحملة الصليبية . إن المخطط الوليد الذى وحد رعاية البنادقة وأصدقاء فيليب (أوف سوابيا) لم يكن ليضيف رصيدا للكنيسة ، وفضلا عن ذلك قابل ألكسيوس الشاب وأفصح له عن رأيه فيه من أنه شاب تافه . لكن السيف كان قد سبق العذل ، فلا سبيل له لأن يعترض اعتراضا مؤثرا ؛ وإذا كان انحراف الحملة الصليبية سوف يضمن حقيقة معونة بيزنطية إيجابية ضد الكفرة ، ويحقق في ذات الوقت وحدة الكنائس ، فيكون للحملة الصليبية ما يبرر تصرفها . وأرضى نفسه بأن أصدر أمرا بعدم مهاجمة أي مسيحيين بعد ذلك إلا إذا كانوا يعرقلون الحرب المقدسة فعلا . وكان الأكثر حكمة للبابا ، على المدى البعيد ، أن يعرب صراحة وبلا هوادة عن معارضته ، ولو كان ذلك بلا طائل . أما اليونانيون ، المرتابون دوما في النوايا البابوية ، وغير المدركين لتعقدات السياسات الغربية، فقد بدا لهم أن فى فتور همته في إدانته للحملة الصليبية الدليل على أنه كان القوة المحركة وراء المكيدة برمتها(٢٤) .

١٢٠٣م : الحملة الصليبية تبحر قاصدة القسطنطينية

وفي الخامس والعشرين من ابريل وصل ألكسيوس إلى زارا قادما من ألمانيا، وبعد أيام قليلة أبحرت الحملة وتوقفت بعض الوقت في دورازو، حيث قبل ألكسيوس كامبراطور، ثم في كورفو حيث وقّع ألكسيوس بوقار معاهدة مع حلفائه . وتواصلت الرحلة في الخامس والعشرين من مايو . والتف الأسطول حول بيلوبونيس (شبه الجزيرة اليونانية) ثم انحرف شمالا إلى جزيرة أندروس حيث أعاد ملء صهاريج المياه من عيون المياه الوفيرة هناك. ومن أندروس يمم وجهه شطر الدردنيل الذي وجده بلا حماية .

كانوا يرغبون في الإنطلاق إلى فلسطين لكن التحريض كان اقوى منهم.

(٢٤) *Gesta Innocentii III, loc. cit.* cols. 130-2: Innocent III, letters, v, 122 (to the Emperor Alexius, M.P.L. vol. ccxiv, cols. 1123-5)؛ وخطاب الى رئيس أساقفة سالزبورج Ebrard ، الموجود في *Registrum de Negotio Romani Imperii*, lxx (M.P.L. vol.ccxvi, cols. 1075-7)، والذي يتحدث فيه إلى ضرورة التفكير في مثل تلك الأمور . وربما علم فيليب (اوف سوابيا) بمشروع مهاجمة زارا، إذ أرسل الكاردينال Peter of Capua ، يرافقه زعماء صليبيون لضمان موازرة البابا لألكسيوس في الوقت الذي يستحيل فيه وصول رد إذا كانت الحملة الصليبية ذاهبة مباشرة الى الشرق. أنظر Bréhier, *Les Croisades*, p.155. ويعلن تاريخ نوفجورود The *Novgorod Chronicle* (ed. Lasonov, . 241) أن البابا آيد مخطط الهجوم على القسطنطينية ، بينما يرد ضمنا في *Chronica Regia Coloniensis*, p.200 أنه رفع قرار الطرد من الكنيسة من على الصليبيين لمهاجمتهم زارا عندما قرروا الزحف على القسطنطينية.

وكان حصاد تراقيا (شرق جزيرة البلقان) ناضجا ، ولذا حط الصليبيون رحالهم في مدينة أبيدوس القديمة في آسيا الصغرى ليجمعوا ما يستطيعونه . وفي الرابع والعشرين من يونية وصلوا أمام العاصمة الإمبراطورية[٢٥].

ولم يكن الامبراطور ألكسيوس الثالث قد أعد أية ترتيبات ضد وصولهم ، إذ لم يبرأ الجيش الإمبراطورى قط من كوارث السنوات السابقة على مانويل ، فكاد أن يكون كله من المرتزقة ؛ ومن الواضح أن الفرق الفرنجية لا يعوّل عليها في مثل تلك الظروف ؛ ولم تكن الثقة تتوفر في السلاف والبتشنج إلا بقدر ما تتوفر الأموال الجاهزة لدفع رواتبهم . وأما الحرس الفارنجي، الذي يتألف أساسا من الإنجليز والدانمركيين، فكان لديه إخلاص تقليدي لشخص الامبراطور ، غير أن ألكسيوس الثالث لم يكن بالرجل الذي يلهم الولاء الشخصي الكبير ، فهو مغتصب حصل على العرش لا من خلال أية جدارة كجندي أو كرجل دولة، وإنما عن طريق مؤامرة تافهة في القصر ، وظهر بمظهر الحاكم الضعيف . ولم يكن واثقا لا من جيشه فحسب، وإنما من الشعور العام لرعاياه؛ فبدا الأسلم ألا يفعل شيئا إذ سبق للقسطنطينية أن قاومت عواصف كثيرة من قبل طوال تسعة قرون من تاريخها ، ولسوف تقاوم عاصفة أخرى بلا ريب.

وبعدّ أن هاجم الصليبيون بلا جدوى خلقدونية وكريسوبوليس على الشاطئ الآسيوي للبسفور، هبطوا إلى الأرض في غلاطيا ، أمام القرن الذهبى. واحتلوا المدينة وتمكنوا من كسر السلسلة المحيطة بمدخل القرن الذهبي وإحضار سفنهم إلى داخل المرفأ. وكان ألكسيوس الصغير قد أوهم الصليبيين بأن بيزنطة كلها سوف تنهض مرحبة به ، فأدهشهم أن يجدوا بوابات المدينة مغلقة في وجوههم والجنود يعتلون الأسوار . وصُدّت محاولاتهم الأولي في قصف أسوار المدينة من سفنهم بطول القرن الذهبى ، غير انه بعد كفاح شرس تمكن داندولو والبنادقة من إحداث ثغرة في السابع عشر من يولية . أما ألكسيوس الثالث، الذي أدهشه كشأن الصليبيين أن يجد مدينته فى موضع الدفاع، فكان يفكر فعلا في الفرار ؛ وقد قرأ في الكتاب المقدس كيف هرب داود أمام أبشالوم ولذا عاش ليستعيد عرشه . فاصطحب معه إبنته الأثيرة لديه وجوالا مليئا بالأحجار الكريمة ، وتسلل عبر الأسوار الأرضية ولجأ إلى موسينوبوليس في تراقيا . ووجد المسؤولون الحكوميون أنفسهم وقد تخلى عنهم الامبراطور ، فاتخذوا قرارا سريعا وإنما لا

(٢٥) Villehardouin, i, pp. 110-28; Robert of Clary, pp. 30-40; Anonymous of Halberstadt, in Riant, *Exuviae*, i,pp.14-15; *Devastatio Constantinopolitana* (ed. Hopf), pp. 88-9; Nicetas Choniates, p. 717.

يخلو من براعة . فأخرجوا الامبراطور السابق الأعمى إسحق من سجنه وأجلسوه على العرش وأعلنوا لداندولو والصليبيين أنه طالما أعيد والد المطالب بالعرش فلا ضرورة هناك لمواصلة القتال . وكان ألكسيوس الصغير حتى آنذاك قد اختار تجاهل وجود أبيه، ولكنه لا يستطيع الآن أن يتنصل منه ، فحرض حلفاءه على وقف الهجوم . وبدلا من ذلك أرسلوا سفارة إلى المدينة تقول إنهم سوف يعترفون باسحق إذا رُفع ابنه ليكون امبراطورا مشاركا، وإذا تعهد الإثنان بإنفاذ المعاهدة التي وقعها الأخير . ووعد اسحق بتلبية مطالبهم وفي أول أغسطس، وفي احتفال وقور في كنيسة القديسة صوفيا ، وبحضور أبرز بارونات الصليبيين ، توّج ألكسيوس الرابع ليصبح رفيق أبيه(٢٦) .

١٢٠٣م : ألكسيوس الصغير إمبراطورا

وسرعان ما وجد ألكسيوس الرابع أن الامبراطور لا يستطيع أن يكون غير مسئول كالمطالب بالعرش ذلك أن محاولته إجبار رجال الدين في المدينة على قبول سيادة روما وإدخال الأعراف اللاتينية، لقيت مقاومة عنيدة ؛ كما لم يكن من اليسير عليه جمع كل الأموال التي وعد بها . وبدأ عهده بداية طائشة بأن أغدق الهدايا الثمينة على الصليبيين فتحركت من ثم نوازع جشعهم . بيد أنه عندما حان موعد تسليم البنادقة الأموال المستحقة لهم ، اتضح أن الخزانة لم يكن فيها الكفاية ، ولذا أعلن ألكسيوس عن ضرائب جديدة ، وزاد من غضب الكنيسة ما أقدم عليه من مصادرة قدر كبير من المشغولات الذهبية الكنسية لصهرها للبنادقة. وطوال خريف وشتاء عام ١٢٠٣م زاد التوتر في المدينة زيادة مطردة ، وأسخط المواطنين رؤية فرسان الفرنج المتغطرسين وهم يتجولون خلال الشوارع . وقد ركدت التجارة . ودأبت مجموعات من سكارى الجنود الغربيين على نهب القرى في الضواحي ، بحيث لم تعد الحياة آمنة خارج أسوار المدينة . وفي محاولة لإظهار الورع، أحرقت جماعة من الفرنسيين مسجدا كان قد بُنى للزائرين من تجار المسلمين ، فانتقلت النيران وأتت تماما على حي من أحياء المدينة بصورة فاجعة. وكان الصليبيون من جانبهم ساخطين كالبيزنطيين بنفس القدر ؛ وتيقنوا من أن الحكومة البيزنطية غير قادرة مطلقا على تنفيذ الوعود التى وعد بها ألكسيوس الرابع،

---

(٢٦) Nicetas Choniates, pp. 718-26 حيث يرد وصفا كاملا من وجهة النظر اليونانية؛ Villehardouin, i, pp. 154-84 الوصف الصليبي الأكثر اكتمالا؛ Robert of Clary, pp. 41-51; Anonymous of Halberstadt, pp. 15-16; *Devastatio Constantinopolitana*, pp. 89-90, letter of Saint Pol in *Chronica Regia* Coloniensis, pp.203-8.

فلا الرحال ولا الأموال التى عرض دفعها تلوح في الأفق . وسرعان ما كفّ ألكسيوس نفسه عن المهمة اليائسة فى محاولة إرضاء ضيوفه . ودعاهم الي حفل فى احدى المناسبات في القصر ، وبمساعدتهم خرج في حملة عسكرية خفيفة ضد عمه ألكسيوس الثالث في تراقيا ، وما أن انتصر في مناوشة صغيرة حتى عاد إلى القصر ليحتفل بانتصاره؛ وكان يقضي باقى أيامه ولياليه غارقا في متعه الخاصة . أما أبوه اسحق ، الذي فقد بصره بحيث لم يستطع المشاركة في الحكم، فقد أغلق على نفسه كل الأبواب مع منجميه الأثيرين لديه ولم يكن في نبوءاتهم أية تأكيدات حول المستقبل . وكان لابد من أن يحدث صدع واضح؛ وبذل داندولو ما في وسعه ليزيد من حدته بأن تقدم بطلبات غير معقولة(٢٧).

ولم يكن في القسطنطينية سوى رجلين اثنين بدا أنهما قادران على تولي الحكم ، وهما زوجا إبنتى الامبراطور السابق ألكسيوس الثالث . وكان زوج أنّا ، ثيودور لاسكاريس ، جنديا بارزا نظّم الدفاع الأول ضد اللاتينيين ، غير انه تقاعد بعد هرب حميه . أما زوج إيودوشيا ، ألكسيوس مورزوفلوس ، على غير شاكلة الأول ، سعى إلى نيل حظوة ألكسيوس الرابع ومُنح لقب بروتوفستياريوس ؛ والآن جعل من نفسه زعيم الوطنيين . وربما أراد أن يدخل الرهبة في قلب ألكسيوس الرابع ، فدبر بعض أعمال الشغب في يناير ١٢٠٤م، غير أن نتيجتها الوحيدة الملموسة كانت تدمير تمثال أثينا العظيم ، وهو من أعمال فيدياس(٢٨)، وكان قائما في الساحة المواجهة للغرب ؛ فحطمته جماعة من الغوغاء السكارى إلى شظايا ، لأن الإلهة بدت وهى تشير إلى الغزاة(٢٩).

١٢٠٤م : ثورة في القصر

وفي شهر فبراير جاء وفد من الصليبيين إلى قصر بلاشيرنا يطلب من الكسيوس

---

(٢٧) -Nicetas Choniates, pp. 736-8; Villehardouin, i, pp. 186-206; Robert of Clary, pp. 57-8; *Devastatio Constantinopolitana*, pp. 90-1.

(٢٨) (المترجم) - المثّال الشهير Phidias ، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ويُنسب إليه بناء معبد أثينا الداترى على الأكروبوليس

(٢٩) Nicetas Choniates, pp. 738-47; Villehardouin, ii, pp. 6-23; Robert of Clary, p. 57; *Devastatio Constantinopolitana*, p. 91 .

الرابع الوفاء بوعوده فورا ، ولم يكن يملك إلا أن يعترف بعجزه ، وكادت الجماهير الغاضبة أن تمزق المندوبين إربا إربا أثناء خروجهم من قاعة المقابلات الإمبراطورية ؛ ثم اندفعت الجماهير إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث أعلنوا خلع ألكسيوس وانتخبوا مكانه نبيلا مغمورا يدعى نيكولاس كانابوس تصادف وجوده وحاول رفض هذا الشرف . وبعد ذلك قام مورزوفليس بغزو القصر ، ولم يحاول أحد الدفاع عن ألكسيوس الرابع الذي ألقى به في زنزانة السجن حيث شُنق دون أن يبكيه أحد قط ، إذ لم يكن يستحق البكاء عليه. وبعد أيام قليلة مات أبوه اسحق من الأسى ومما لقيه من سوء المعاملة. وسُجن كانابوس المغمور؛ واعتلى مورزوفلوس العرش على أنه ألكسيوس الخامس(٣٠).

كانت ثورة القصر تحديا مباشرا للصليبيين . وطالما كان البنادقة يحرضونهم على أن السبيل العملي الوحيد هو الإستيلاء على القسطنطينية بالقوة وتنصيب أحد الغربيين امبراطورا، والآن بدا لنصيحتهم ما يبررها ؛ غير أنه لم يكن من اليسير اختيار امبراطور . وتواصلت المناقشات طوال شهر مارس في معسكر في غلاطيا ، وكان البعض يمارس الضغوط لإنتخاب فيليب (أوف سوابيا) لكي يوحد الإمبراطوريتين ، لكن فيليب كان بعيدا ، وقد حُكم عليه بالحرمان الكنيسي ، ولم يكن البنادقة يفضلون فكرة وجود امبراطورية واحدة قوية . وكان بونيفاس (أوف مونتفرات) المرشح البارز غير أنه على الرغم مما عدده داندولو من آيات الإعجاب به ، فقد رفضه البنادقة ؛ إذ لمسو فيه تطلعات مفرطة، فضلا عن العلاقات التي تربطه بأبناء جنوا. وتقرر في نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لإختيار الامبراطور بعد الإستيلاء على المدينة مباشرة . وإذا كان الامبراطور الذي سيقع عليه الإختيار فرنجيا - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريق . وينبغي أن يكون للإمبراطور القصر الامبراطوري الفخيم وقصر الإقامة بلاشيرنا، وربع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نصفها للبنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبيين يقتسمونها إلى اقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا الدوج . وهكذا يكون كل شيئ قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن تواصل الحملة مسيرتها في وقت

---

(٣٠) Nicetas Choniates, pp.738-47; Villehardouin, ii, pp.6-23; Robert of Clary, pp.58-9; *Devastitio Constantinopolitana*, p.92.

ما لمحاربة الكفرة ، فقد تخلوا عنه صراحة(٣١) .

وكان الكسيوس الخامس حاكما ذا بأس ، لكنه لم يكن يحظي بشعبية تذكر . فأقدم على طرد أي وزير يظن أنه غير موال له، ومنهم المؤرخ نيستاس خونياتيس Nicetas Choniates الذي انتقم منه في تأريخه له . وبُذلت بعض المحاولات لترميم الأسوار وتنظيم الناس للدفاع عن المدينة ، على أن معنويات حرس المدينة قد تدنت لكثرة الثورات ، ولم يكن هناك سبيل قط لإستجلاب الجنود من المقاطعات ؛ كما كان هناك خونة داخل المدينة اشتراهم البنادقة. وصُدّ أول هجوم شنه الصليبيون في السادس من ابريل بخسائر جسيمة . وبعد ستة أيام عاود الصليبيون هجومهم ؛ ونشب قتال يائس في القرن الذهبي حاولت فيه السفن اليونانية بلا جدوى منع الأسطول البندقي من إنزال الجنود أسفل الأسوار . وكان الهجوم الرئيسي منصبا على حي بلاشيرنا حيث كانت الأسوار ممتدة حتى القرن الذهبي ، وهناك فتحت ثغرة في السور الخارجي بينما كان المدافعون في السور الداخلي صامدين، وفجأة شبت النيران - إما مصادفة أو خيانة - في المدينة من ورائهم وحاصرتهم ، فانهار دفاعهم وتدفق الفرنج والبنادقة إلى داخل المدينة . وهرب مورزوفلوس مع زوجته بامتداد الأسوار حتى البوابة الذهبية القريبة من بحر مرمرة ، ثم خارجا في تراقيا ، لائذا بحميه في موسينوبوليس . وبعد تسرب أنباء فراره ،.اجتمع من بقي من النبلاء في كنيسة القديسة صوفيا لمنح التاج لثيودور لاسكاريس ؛ على أن السيف كان قد سبق العذل لإنقاذ المدينة ، فرفض ثيودور خواء هذا الشرف ، وخرج مع البطريق واتجه إلى العمود الذهبي في الميدان الذي بين الكنيسة والقصر الكبير وخاطب الحرس الفارنجي في حرارة قائلا إنهم لن يكسبوا شيئا الآن باستسلامهم لأسياد جدد. لكن معنوياتهم كانت قد كُسرت، ولن يحاربوا أكثر من ذلك ؛ ولذا تسلل ثيودور مع زوجته والبطريق والكثير من النبلاء إلى مرفأ القصر وهربوا في سفينة إلى آسيا(٣٢) .

وشق الغزاة طريقهم إلى داخل المدينة ، وحدث قتال قليل ؛ وبحلول الصباح التالي كان الدوج وأبرز الصليبيين قد استقروا في القصر الكبير، وأمروا جنودهم بتمضية الأيام

---

(٣١) Villehardouin, ii,pp.34-6. Robert of Clary, p. 68; Andrea Dandolo, *Chronicle* (ed. Pastorello),p.279.

(٣٢) -Nicetas Choniates, pp. 74[illegible]-56; Villehardouin, ii, pp. 32-50; Robert of Clary, pp. 60 79; Gunther, pp. 91-4, 100-4; letter of Baldwin, R.H.F. vol.xviii, p. 522; *Devastatio Constantinopolitana*, p.92; Ernoul, pp.369-73; *Novgorod Chronicle*, pp. 242-5.

الثلاثة التالية في نهب المدينه.

١٢٠٤م : نهب القسطنطينية

انتهبت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها في التاريخ . ولتسعة قرون خلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التي بقيت من اليونان القديمة، والطُرف المشوقة التى أبدعتها أيدى أبنائها المهرة ؛ وكان البنادقة يعرفون حقا قيمة تلك الأشياء ، إذ أينما وجدوا كنوزا كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزيين ميادين مدينتهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيك كانوا قد أُشربوا في قلوبهم شهوة التخريب فكانوا يندفعون متجمهرين في جماعات تعوى في وحشية في الشوارع وفي البيوت ، ينتزعون أي شيئ يبرق أمامهم ويدمرون كل مالا يستطعون حمله ، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتحطيم بوابات أقبية النبيذ لينتعشوا ، فلم يخلص من تخريبهم لا دير أو كنيسة أو مكتبة. وفي كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة الفضية العظيمة ويحطمونها قطعا قطعا ،' بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات. وبينما كانوا يشربون الخمر في أواني المذبح جلست إحدى العاهرات على عرش البطريق وراحت تغنى أغنية فرنسية بذيئة . وهُتكت أعراض الراهبات في صوامع أديرتهن ، واقتحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها . وكانت النساء الجريحات ملقيات مع الأطفال يحتضرن في الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفزعة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استحالت المدينة الضخمة الجميلة إلى وضم كبير، بحيث صرخ المؤرخ نيستاس قائلا: لو أنهم العرب لكانوا أرحم، وكان على حق(٣٣).

---

(٣٣) Nicetas Choniates, pp. 757-63; Nicolas Mesarites, in Heisenberg, *Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertums*, i, pp.41-8; letter of Greek clergy in Cotererius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, iii, pp. 510-14; Innocent III letters, viii, 126 (M.P.L.vol.ccxv, cols. 699-702)، وقد كتبت للبابا إينوسينت الثالث تقارير تفصيلية لم تترك شيئا عن الفظائع ؛ Villehardouin, ii, pp. 52-8; Robert of Clary, pp. 68-9, 80-1; Gunther, pp. 104-8; letter of Baldwin, loc. cit; Ernoul, pp. 374-6; *Novgorod Chronicle*, pp. 245-6.. وقد أصيب المؤرخون اللاتينيون من ضراوة السلب أكثر من صدمتهم من قسوة الصليبيين. ويعترف Gunther قائلا حتى Martin of Pairis المشهود له بالجدارة كان مصمما على أن يأخذ نصيبه من الأسلاب، رغم أنه انتهب الكنائس فقط بوازع من الورع . ويلقى Ernoul باللائمة على البنادقة لأنهم كانوا الأكثر جشعا في النهب . ويقول أبو شامة Abu Shama

وفي نهاية الأمر تحقق زعماء اللاتينيين أن كثرة التخريب هذه ليست في صالح أحد ، وبعدما استنفد الفحش طاقة الجنود، عاد النظام ؛ وأجبر كل من سرق شيئا ثمينا على تسليمه إلى نبلاء الفرنج ، وعُذب المواطنون التعساء لكي يكشفوا عمّا تحايلوا على اخفائه من أشياء . وحتى بعد اختفاء الكثير من الأسلاب على هذا النحو الشائن ، كانت كميات الأسلاب تثير الذهول. وقد كتب المؤرخ Villehardouin أنه لم يكن بمقدور أحد أن يحصى الذهب والفضة والمشغولات ومجوهراتا ، وضروب النسيج الفاخر وأنواع الحرير وأردية الفراء وفراء السنجاب والأقمشة الرمادية المتلألئة وفراء حيوان القاقوم ؛ وأضاف من مصادره العليمة هو نفسه أنه منذ أن خُلق العالم لم يحدث أن أُخذت هذه المقادير الضخمة من مدينة ما . وقُسّمت كلها طبقا للمعاهدة، فذهب ثلاثة أثمان إلى الصليبيين ، وثلاثة أثمان إلى البنادقة ، واستُبقي الربع الباقى لإمبراطور المستقبل(٣٤).

١٢٠٤ م : تتويج بلدوين كونت فلاندرز إمبراطورا

كانت المهمة التالية هي اختيار امبراطور . وكان الأمل لا يزال يداعب بونيفاس (أوف مونتفرات) في أن يختاروه، ولكي يرفع من مكانته أنقذ الإمبراطورة الأرملة مرجريت الهنجارية أرملة إسحق وتزوجها فجأة ، لكن البنادقة لم يكونوا لينالوا من ورائة شيئا ؛ وبنفوذهم مُنح العرش لأمير أقل إثارة للجدل وهو بلدوين التاسع كونت فلاندرز وهاينولت ، وهو رجل كريم النسب عظيم الثروة ، لكنه أضعف وأسهل انقيادا ، وكان اللقب الذى ينتظره أضخم مما سيكون له من سلطان فعلى. وتقرر أن يكون سيدا أعلا لجميع الأراضى التى غُزيت ، مع الإستثناء الذىيتقرر للأراضى المخصصة لدوج البندقية . وتقرر أن تضم أملاكه الخاصة تراقيا حتى كورلو ، وبيثينيا وميسنيا حتى جبل الأوليمب وبعض جزر بحر إيجة ، ساموتراتيا و ليسبوس وكيوس وساموس وكوس . غير أنه كان من المقرر ألا يمتلك عاصمه ملكه كلها ؛ إذ طالب البنادقة بحقهم في ثلاثة أثمان القسطنطينية ، وأخذ الجزء الذي يضم كنيسة القديسة صوفيا حيث نصّبوا أحد البنادقة ، توماس موروسيني ، بطريقا. وفضلا عن ذلك ، طالبوا بأجزاء من الأمبراطورية من شأنها أن تساعد تفوقهم البحرى ، وهي السواحل

(ii,p.154)إنهم باعوا الكثير من أسلابهم للمسلمين.

(٣٤) Villehardouin, ii, pp. 59-60; Robert of Clary, pp. 80-1 .

الغربية للجزء القاري من اليونان ، وبيلوبونيز كلها ، وناكسوس وأندروس وإيوبويا وغاليبولي وموانى تراقيا على بحر مرمرة ، وأدريانوبل. وأعطوا بونيفاس ، كتعويض عن العرش ، أملاكا غير محددة في الأناضول وشرق ووسط اليونان القارية وجزيرة كريت ؛ ولكي لا يُقدم على السير لغزو أراض في آسيا طلب بدلا من ذلك ماسيدونيا مع ثيسالونيكا . واعترض بلدوين ، غير أن الرأي العام آزره في طلبه وخاصة عندما طرح حقا وراثيا منبثقا من أخيه رينيير الذي كان قد تزوج ماريا المولودة بعد تولي أبيها العرش ؛ وكسب البنادقة إلى صفه بأن باع لهم كريت ، وأصبح ملك ثيسالونيكا تحت سيادة الامبراطور . وخُصص للنبلاء الأقل شأنا اقطاعيات تتناسب مع مكانة كل منهم وأهميته[٣٥].

وفي السادس عشر من مايو ١٢٠٤م أُقيم حفل تتويج بلدوين في كنيسة القديسة صوفيا ، وفي أول أكتوبر، وبعد أن أفشل محاولة من بونيفاس للإستقلال، عقد مجلسا للبلاط في القسطنطينية حيث خلع على حوالى ستمائة من أتباعه اقطاعياتهم ولورديانهم؛ وفي تلك الأثناء صدر دستور يرتكز جزئيا على نظريات القانونيين الإقطاعيين وجزئيا على ما كان يُظن أنه متبع فى مملكة القدس . وكان هناك مجلس يتألف من كبار ملاك الأرض يساعدهم الحاكم البندقي للقسطنطينية المطلق الصلاحية (بودستا) ؛ وكان هذا المجلس يقدم النصح للإمبراطور حول المسائل السياسية ، ويوجّه العمليات العسكرية ، ومن سلطاته نقض الأوامر الإدارية الصادرة عن الامبراطور . وكانت هناك محكمة عليا، مشكلة بصورة مثيلة ، تنظم علاقاته بأتباعه . وأصبح أكثر قليلا من رئيس مجلس الأعيان . وقليلة هي الدساتير غير العملية كتلك الواردة في القوانين الرومانية[٣٦].

١٢٠٤ - ١٢٦١م :الإمبراطورية اللاتينية

لم يكن لرومانيا - وهو الإسم الذي أطلقه اللاتين على امبراطوريتهم - من حقيقة

---

(٣٥) عن مناقشة تتصل بتقسيم الإمبراطورية أنظر Longnon, *L'Empire Latin de Constantinople*, pp.49-64. وترد معاهدة التقسيم في Tafel and Thomas, *Urkunden*, i, pp. 464-8 .

(٣٦) أنظر Villehardouin, ii, pp. 66-8; Robert of Clary, p. 93. *Assises of Romania* (ed. Recoura), *passim*..

واقعية سوى ما يزيد قليلا على سلطة امبراطورها ؛ فالكثير من مقاطعاتها كان لا يزال في أيدى أعدائها ، ولا سبيل لغزوها قط. وأما البنادقة الذين يعيشون الواقع ، فلم يأخذوا سوى ما كانوا يعرفون أنه سوف يصمد ، جزيرة كريت وموانى مودون وكروتون في شبه جزيرة البيلوبونيز وكورفو إلى حين . ونصّبوا في الجزر التابعة لهم في بحر إيجة أتباعا من اللوردات المنحدرين من أصل بندقى ، أما في سيفالونيا وإيوبويا فأعربوا عن ترحيبهم بالولاء الذي أعلنه أمراء اللاتين الذين نصبوا أنفسهم قبلهم . وسرعان ما اكتسح بونيفاس (أوف منتفرات) أغلب اليونان القارية ونصّب أتباعا له هناك ، وأصبح أوتو (أوف لا روش) البرجندي دوقا لأثينا وطيبة . وخضعت بيلوبونيز لاثنين من اللوردات الفرنسيين هما وليم (أوف شامبليت) وجيوفري (أوف فيلهاردوين) ، وهو إبن أخى المؤرخ ، الذي أسس أسرة حاكمة من أمراء أخايا[٣٧].

وهكذا ، أصبحت كل المقاطعات الأوروبية تقريبا في الإمبراطورية في قبضة اللاتين. غير أن اللاتين كانوا مخطئين في اعتقادهم أن الاستيلاء على القسطنطينية سوف يعطيهم الإمبراطورية كلها ؛ ففي أوقات الكوارث كانت الروح اليونانية تُظهر نفسها في أعلا درجات الشجاعة والحيوية . وفي أول الأمر أدى ضياع العاصمة الإمبراطورية إلى الفوضى ، غير أنه في غضون سنتين أعاد العالم اليوناني المستقل تنظيم نفسه في ثلاث دول وراثية؛ فبعيدا في الشرق، احتل حفيدان للإمبراطور أندرونيكوس ، هما الكسيوس وداود كومنينوس ، طرابزون وأقاما سلطانهما بطول شواطئ البحر الأسود المطلة على آسيا الصغرى ، وقد أفلحا في ذلك بمساعدة عمتهما الملكة العظيمة تمارا ملكة جورجيا (الكرج). وفي ١٢٠٦م قتل داود في قتال أراد به توسيع سلطانهما باتجاه البوسفور ، وعاش الكسيوس ليتخذ لقب امبراطور وليؤسس أسرة حاكمة استمرت لمدة قرنين ونصف ، ازدهرت من التجارة الآتية من فارس والشرق لتمر خلال عاصمتها ، ومن مناجم الفضة في التلال الواقعة إلى الخلف ، كما كانت لها شهرة جمال أميراتها . وبعيدا في الغرب تمكن أحد ابناء السّفاح من اسرة انجيلوس من أن يصبح طاغية في إبيروس وأسس أسرة حاكمة كان لها أن تجتث شأفة مملكة مونتفرات في ثيسالونيكا . وأكثر الممالك الثلاث روعة هي الإمبراطورية التي أسستها في نيقية إبنة الكسيوس الثالث ، أنّا وزوجها ثيودور لاسكاريس ؛ إذ التف حولهما أبرز المواطنين الذين هربوا من القسطنطينية ، وتخلى البطريق اليوناني جون كماتيروس ، الذي سبق أن هرب إلى

(٣٧) Longnon, loc. cit.; Hopf, *Geschichte Griechenlands*, ii, p. 10.

ترافيا ، عن منصبه لكي يتمكن رجال الدين المنفيون من العاصمة الإمبراطورية القديمة من انتخاب قسيس موجود فعلا في نيقية ، وهو ميخائيل أوتورينوس ، الذي قام بناء على ذلك بتتويج ثيودور وآنا . وهكذا أصبحت نيقية في أعين اليونانيين العاصمة الشرعية للإمبراطورية . وسرعان ما وسّع ثيودور حكمه ليشمل أغلب الأراضي المتروكة لبيزنطة في آسيا . وخلال أكثر قليلا من خمسين عاما كان خلفاؤه قد عادوا لحكم القسطنطينية[٣٨].

كما نسي اللاتين السلالات العنصرية الأخرى في البلقان ؛ إذ كانت امبراطورية الإخوة آسن الفلاخية-البلغارية[٣٩] لتصبح طواعية حليفا لهم ضد اليونانيين المكروهين ؛ غير أن الامبراطور كان يطالب بالأراضي التي سبق أن احتلها القيصر كالويان ، وكان البطريق اللاتيني يطالب بالسطلة على الكنيسة الأرثوذوكسية البلغارية؛ فانساقت بلغاريا إلى تحالف غير طبيعي مع اليونانيين ؛ وفي معركة أدرنة في عام ١٢٠٥م كاد جيش رومانيا أن يهلك ، وأسر الامبراطور بلدوين وأودع السجن في قلعة بلغارية ليقضي فيه نحبه . وبدا للحظة أن الامبراطور التالي حكم في القسطنطينية سيكون القيصر البلغارى، غير أن الشرق اللاتيني أخرج من جعبته حاكمة العظيم الأوحد، في شخص هنرى أخى بلدوين. ذلك أن ما أبداه خلال عهده الذي دام عشر سنوات من طاقة نشطة وحكمة متسامحة أنقذ الإمبراطورية اللاتينية من هلاك عاجل ، وساعد على بقائها حتى عام ١٢٦١م ما ساد عواهل اليونانيين من خصومة ومشاجرات مع بعضهم البعض ومع البلغار، ووجود الأتراك في الخلفية[٤٠].

ولم يستطع غزاة عام ١٢٠٤م المبتهجون التنبؤ بخواء ما يترتب على مشروعهم، وقد انبهر معاصروهم بذلك الغزو. وفي بادئ الأمر كانت البهجة تعم العالم اللاتيني كله . ومن الحق أن يتساءل شاعر الهجاء الكلوني جيوت (دي بروفانس)[٤١] في

---

(٣٨) Vasiliev, 'Foundation of the Empire of Trebizond', *Speculum*, vol. xi, pp.3-37; Ostrogorsky, *Geschichte des Byzantinischen Staates*, 2nd ed., pp. 337-46.

(٣٩) (المترجم): شعب فلاخ Vlach. أحد الشعوب الأوربية التى تمثل العنصر الرئيسي لشعوب رومانيا وملدوفيا وجماعات أصغر في البلقان جنوب وغرب نهر الدانوب . وقد أطلق عليهم جيرانهم اسم فولوخ Volokh ، الذي صار الى فلاخ ، رغم تسميتهم أنفسهم رومانيين

(٤٠) Longnon, op.cit. *passim*, esp. pp. 77-186; Ostrogorsky, op.cit. pp. 337-59; Zlatarsky, *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), III, pp. 211-47.

(٤١) (المترجم): كلونيCluniac ، نسبة الى نظام رهبان كلوني المنشق على النظام البنيديكتي في القرن الحادي عشر

أشعاره لماذا سمح البابا بحملة صليبية موجّهة ضد مسيحيين، وأما الشاعر الغنائي البروفانس غيوم فيجويرا فقد اتهم روما اتهاما مريرا بخيانة اليونانيين خيانة غادرة. غير أنه في الوقت الذى كان يكتب فيه كانت روما تبشّر بحملة صليبية ضد رفاقه المواطنين(٤٢). وكانت هذه الحالات من الخلاف في الرأي نادرة . وكان البابا إينوسنت مبتهجا بادئ الأمر برغم كل ما شعر به من هواجس حول انحراف الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، ؛ ففى رد إينوسنت على رسالة تفيض ببهجة غامرة من الامبراطور الجديد بلدوين تتباهى بنتائج المعجزة العظيمة القيّمة لصنع الرب ، كتب إينوسنت معربا عن ابتهاجه بالرب ، ومنحه موافقته دون تحفظ(٤٣). وانتشرت في سائر أنحاء الغرب أناشيد الشكر والتمجيد ، وفار الحماس عندما بدأت الآثار الثمينة تفد على كنائس فرنسا وبلجيكا ؛ وانطلقت الترانيم احتفالا بسقوط المدينة العظيمة الدنسة Constantinopolitana Civitas diu profana، التي تتقيّأ الآن كنوزها . ولقي لاتينيو الشرق تشجيعا بهذه الأنباء(٤٤)، فيقينا سوف تصبح استراتيجية الحملات الصليبية كلها فعّالة على نحو أكبر بعدما باتت القسطنطينية في أيدى أبناء جلدتهم . وانتشرت الشائعات بأن المسلمين قد أصيبوا بالرعب ؛ وهنا البابا نفسه على ما أعرب عنه سلطان مصر من الشعور بالتوحس كما قيل(٤٥).

١٢٠٤م : إينوسنت يدين الحملة الصليبية

كانت معاودة التفكير أقل تشجيعا ، وعادت إلى البابا هواجسه . ذلك أن اندماج الإمبراطورية الشرقية وكنيستها في دنيا العالم المسيحى الروماني كان انجازا رائعا؛ ولكن، هل تم ذلك على النحو الذي يجلب النفع المستديم؟ لقد تلقى المزيد من المعلومات ، وشعر بالرعب عندما علم بمشاهد التجديف والتعطش للدماء عند نهب

---

(٤٢) Guyot de Provins, *OEuvres* (ed. Orr), p. 34; Guillem Figuera, 'Dun Servientes Far' in de Bartholomaeis, *Poesie Provenziale Storiche*, ii, pp. 98-9. أنظر: ثروب نقد الحملة الصليبية. Throop, *Criticism of the Crusade*, pp. 30-1.

(٤٣) Innocent III, letters, vii, 153, 154, 203, 208 (M.P.L.vol. ccxv, col. 454-61, 512-16, 521-3).

(٤٤) ترانيم واردة في Riant, *Exuviae*, ii, pp. 43-50 ؛ وخاصة *Sequientia Andegavensis*.

(٤٥) Innocent III, letters, viii, 125 (M.P.L. vol. ccxv, col. 698). ويعلق بان الأثير Ibn al-Athir, ii, p. 95 بأن غزو القسطنطينية ساعد الصليبيين على الوصول الى سوريا بصورة أيسر

المدينة . لقد أصيب بصدمة عميقة كمسيحي ، وشعر بالقلق كرجل سياسة . إن مثل هذه الوحشية البربرية ليست هي السياسة الفضلى للفوز بتعاطف العالم المسيحي الشرقي ؛ فكتب في حنق مرير إلى القسطنطينية يعدد الفظائع وينكرها ؛ كما علم أن الغزاة قد قسّموا الدولة في خفة وكذلك الكنيسة هناك دون أية إشارة لسلطته ؛ لقد كان هناك تعمّد في تجاهله ، وهو يدرك مدى عجز الترتيبات التي تمت للإمبراطورية الجديدة ، وكيف أن البنادقة فاقوا الصليبيين حيلة ودهاءً. ثم إنه سمع بكل الغثيان أن مندوبه الرسولي بطرس (أوف سانت مارسيل) قد أصدر مرسوما يحل كل من أخذ الصليب من واجب مواصلة الرحلة إلى الأراضي المقدسة . لقد سقط القناع عن الحملة الصليبية لتظهر بمظهر الحملة التي لا تبغي سوى غزو الأراضي المسيحية ، ولم تفعل شيئا لمساعدة الجنود المسيحيين الذين يحاربون الإسلام[٤٦].

وتحقق فرنج سوريا فعلا من تلاشي الأمل في وصول أية حملة في عام ١٢٠٤م . وانقضى الصيف والصليبيون قاعدون في القسطنطينية ؛ وفي سبتمبر عقد الملك أماريك هدنة مع العادل بعدما أدرك عدم وصول تعزيزات[٤٧]. غير أنه سرعان ما اتضح أن المنشآت اللاتينية الواقعة أبعد إلى الشمال سوف تلحق أضرارا جسيمة بالمنشآت في سوريا ؛ إذ أن الامبراطور بلدوين أرسل إلى البابا إينوسنت متباهيا بأن الكثير من فرسان مملكة ما وراء البحار قد حضروا تتويجه ، وأنه قد بذل ما في وسعه لحثهم على البقاء معه . وبعد أن اتضح وجود اقطاعيات غنية تبعث على البهجة على شواطئ البوسفور أو في اليونان ، سارع الفرسان الآخرون الذين استولى المسلمون على أراضيهم في سوريا إلى القسطنطينية للإنضمام الي رفاقهم . وكان من بينهم هيو كونت طبرية ، وهو أكبر أبناء زوجة ريموند كونت طرابلس، وزوج مرجريت (أوف ايبلين)، إبنة ماريا كومنينا . ووجد المغامرون من فرسان الغرب عدم جدوى الذهاب بعيدا إلى مملكة القدس ذات الزحام الشديد للبحث عن لوردية أو عن إحدى الوريثات ؛ فهناك أراض أفضل في اليونان . وكان غزو قبرص قد سبق وأغوى مستوطنين من الأراضي السورية. وبعد غزو رومانيا لم يكن هناك تقريبا من مجندين سوى المجندين من فرسان الأنظمة الدينية العسكرية الذين خرجوا من أوروبا للدفاع عن الأرض المقدسة[٤٨].

---

(٤٦) Innocent III, letters, viii, 126 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 699-0702).

(٤٧) أنظر أعلاه صفحة ١٤٢.

(٤٨) Villehardouin, ii, p. 124.

١٢٠٤م : النتائج المترتبة على الحملة الصليبية

ليست هناك قط جريمة ضد الإنسانية أعظم من الحملة الصليبية الرابعة . فهي لم تقف عند تدمير أو تبديد كل كنوز الماضى التى دأبت بيزنطة على جمعها، و لم تقف عند الجراحات التى قتلت حضارة بقيت نشطة وعظيمة ، وإنما تجاوزت ذلك إلى أن أمست عملا من أعمال الحماقة السياسية الهائلة، و لم تجلب أية مساعدة للمسيحيين في فلسطين ؛ وبدلا من ذلك ، استلبتهم معينين كانوا قادرين على مساعدتهم، وقلبت رأسا على عقب كل سبل الدفاع عن العالم المسيحى . ولو أن اللاتين كانوا قادرين على تولى أمر الإمبراطورية البيزنطية كلها كما كانت عليه في أيام مانويل ، لتمكنوا من توفير عون قوى للحركة الصليبية على الرغم من أن اتجاه بيزنطة لمصلحة سوريا اللاتينية لم يكن ليزدهر طويلا . على أن بيزنطة قد خسرت أراض في الأناضول منذ وفاة مانويل؛ و لم يستطع اللاتين غزو ما تبقى ، بينما كان هجومهم على اليونانيين بمثابة قوة إضافية للأتراك . وأصبح الطريق البري بين أوروبا وسوريا أكثر صعوبة نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، مع ريبة اليونانيين في نيقية ، وعداوة الأتراك للمسافرين . و لم تحاول قط أية جماعة مسلحة من الغرب الترحال عبر الأناضول مرة أخرى ؛ كما لم يصبح الطريق البحرى أيسر ، إذ كانت السفن اللاتينية الآن تفضّل نقل المسافرين إلى الجزر اليونانية والبوسفور وليس إلى عكا والموانى السورية.

وفي الحركة الشاملة لتاريخ العالم ، كانت الآثار مفجعة للغاية؛ فمنذ أن بدأت بيزنطة امبراطوريتها وهي بمثابة الحارس لأوروبا ضد الشرق الكافر والشمال البربرى، وقد واجهتهم بجيوشها وروضتهم بحضارتها . ومرت بالكثير من فترات القلق عندما كان يتراءى لها أن قَدرها قد أزف ، لكنها بقيت حتى الآن . وعند نهاية القرن الثاني عشر كانت تواجه أزمة طويلة ، إذ أن ما دمّرته الغزوات التركية في الأناضول من قوتها البشرية واقتصادها قبل ذلك بقرن بدأت آثاره الكاملة تظهر عليها ، وتفاقمت تلك الآثار بما كانت عليه المدن التجارية الإيطالية من تنافس دائب . على أنها كانت خليقة بأن تُظهر على نحو جيد مرونتها للتكيف مرة أخرى واستعادة البلقان وقدرا كبيرا من الأناضول ، وكانت ثقافتها خليقة بأن تواصل تأثيرها الذي لم ينقطع على البلدان من حولها. حتى الأتراك السلاجقة ربما يخضعون تماما لسيطرتها إلى أن تستوعبهم لإنعاش الإمبراطورية . وتُظهر قصة امبراطورية نيقية أن البيزنطيين لم يفقدوا بأسهم ؛ ولكن

ضياع القسطنطينية كسر وحدة العالم البيزنطي ، ولم يعد هناك سبيل مطلقا لإصلاح ما انكسر حتى بعد استرجاع العاصمة نفسها لقد كان صد السلاجقة جزءا من انجازات أهل نيقية ، ولكن عندما ظهرت قبيلة تركية جديدة أشد بأسا تحت زعامة آل عثمان الرائعين، كان العالم المسيحي الشرقي قد بلغ من الانقسام حدا يحول دون أن يكون له موقف مؤثر؛ إذ تحولت زعامته إلى مكان آخر ينأى عن منطقة البحر المتوسط التي ولدت فيها الثقافة الأوروبية إلى الشمال الشرقي البعيد ، إلى سهول روسيا الشاسعة . لقد كانت روما الثانية تخلي المكان لروما الثالثة الموسكوفية(٤٩).

وفي تلك الأثناء غُرست بذور الكراهية بين العالم المسيحي الشرقي والعالم المسيحي الغربى ؛ ولم تتحقق البتة آمال البابا إينوسنت الطيبة، ولا تبجحات الصليبيين المطمئنة بأنهم قد أنهوا الصدع ووحدوا الكنيسة . وإنما تركت بربريتهم ذكرى لن تُغتفر لهم قط. وفيما بعد ، قد يناصر العواهل المسيحيون الشرقيون الوحدة مع روما في توقع أثير لديهم بأن الوحدة سوف تخلق جبهة متحدة ضد الأتراك ، غير أن شعوبهم لن تتبعهم ، فهم لا يستطيعون نسيان الحملة الصليبية الرابعة . وربما كان حتما أن تنجرف كنيسة روما والكنائس الشرقية الكبيرة بعيدا عن بعضها البعض ؛ على أن الحركة الصليبية برمتها قد نغّصت العلاقات فيما بينها، ومنذآنذاك قُدُما، معهما حاول قليل من الأمراء أن يبلغوا غاية، كان الصدع في قلوب المسيحيين الشرقيين كاملا ومستعصيا ونهائيا.

---

(٤٩) (المترجم):نسبة إلى Muscovy وهي دوقية كبيرة سابقة محيطة بموسكو وتحتويها، اتسعت في الإمبراطورية الروسية في القرن السادس عشر تحت ايفان الرابع

الفصل الثانى:

الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية الخامسة

"هل يسير اثنان معا إن لم يتواعدا ؟"
(عاموس ٣:٣)

لم يكن فشل الحملة الصليبية الرابعة فى مساعدة فلسطين يخلو من عِوض؛ إذ تُركت المملكة الصغيرة في سلام طوال ما يزيد على عشر سنوات ، وصمدت الهدنة التي رتبها الملك أماليك مع السلطان . و لم يكن بمقدور الفرنج المجازفة بخرقها دون مساعدة غربية ، بينما كان لدى العادل ما يكفيه من المشاغل في توطيد دعائم سلطانه بحيث لم يشأ أن يسبب لنفسه ربكة غزو دويلة لا ضرر منها ، ولو أنه هاجمها لاستثار حملة صليبية جديدة. وظل جون (أوف إيبلين) طوال ثلاث سنوات يحكم فى هدوء كوصي على ابنة اخته الملكة ماريا.

وفي ١٢٠٨م بلغت الملكة عامها السابع عشر ، وآن وقت البحث لها عن زوج . فسافرت بعثة مؤلفة من فلورينت أسقف عكا ، وأيمار لورد قيصرية إلى فرنسا تلتمس من الملك فيليب ترشيح زوج لها . وكان المأمول أن يستميل هذا العرض بمنح التاج أحد

الأمراء الأثرياء الأقوياء للحضور لإنقاذ الشرق الفرنجي ، بيد أن العثور على عريس لم يكن بهذا اليسر اليسير. وأخيرا، أعلن فيليب في ربيع ١٢١٠م أن فارسا من شامباني يدعى جون (أوف برين) قبل المنصب[١].

١٢١٠م : جون (أوف برين) ملك القدس

وكان اختيارا باعثا على خيبة الأمل . إذ كان جون إبنا أصغر مفلسا يبلغ من العمر فعلا ستين عاما . وقد سبق أن تزوج أخوه الأكبر ولتر كبرى كريمات الملك تنكريد ملك صقلية ، وبذا أعلن عن مطالبة عقيمة بعرش صقلية ؛ لكن جون أنفق حياته بصورة غامضة نسبيا كواحد من قادة الملك الفرنسي . وأشيع عنه أنه قد اختير الآن بسبب خيانة زوجية مع الكونتيسة بلانش (أوف شامباني) فضحت البلاط . وبغض النظر عن فقره ، لم يكن غير مناسب للمنصب ؛ إذ لديه دراية واسعة بالسياسة الدولية ، وكانت سنه المتقدمة بمثابة ضمان لعدم إقدامه على مغامرات يشوبها الطيش والتهور . ولكي يزداد قبولا منحه كل من الملك فيليب والبابا إينوسنت دوطة (مهرا) أربعين ألف جنيه فضي[٢].

وفي تلك الأثناء، تولى جون (أوف ابيلين) الحكم إلى أن يصل . وكان شهر يولية ١٢١٠م هو موعد انتهاء الهدنة مع العادل ، فأرسل السلطان إلى عكا يقترح تجديدها . وكان جون (أوف ابيلين) يترأس مجلسا ، وأوصى لديه بالموافقة على العرض ، وأيده السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، غورين (أوف مونتيجو)، والسيد الأعظم لفرسان التيوتون هرمان بارديت . لكن السيد الأعظم لفرسان المعبد ، فيليب (أوف لو بليسييه)، حرض الأساقفة على الإصرار على رفض هذا الإقتراح ، على أساس قانوني مؤداه أن الملك المقبل لا يستطيع أن يكون مقيدا بأية هدنة جديد . ووقع قتال حقيقي طفيف ؛ فأرسل العادل ابنه المعظّم مع بعض الجنود إلى جبل الطور ، وأسفر وجوده عن توقف الفرنج[٣].

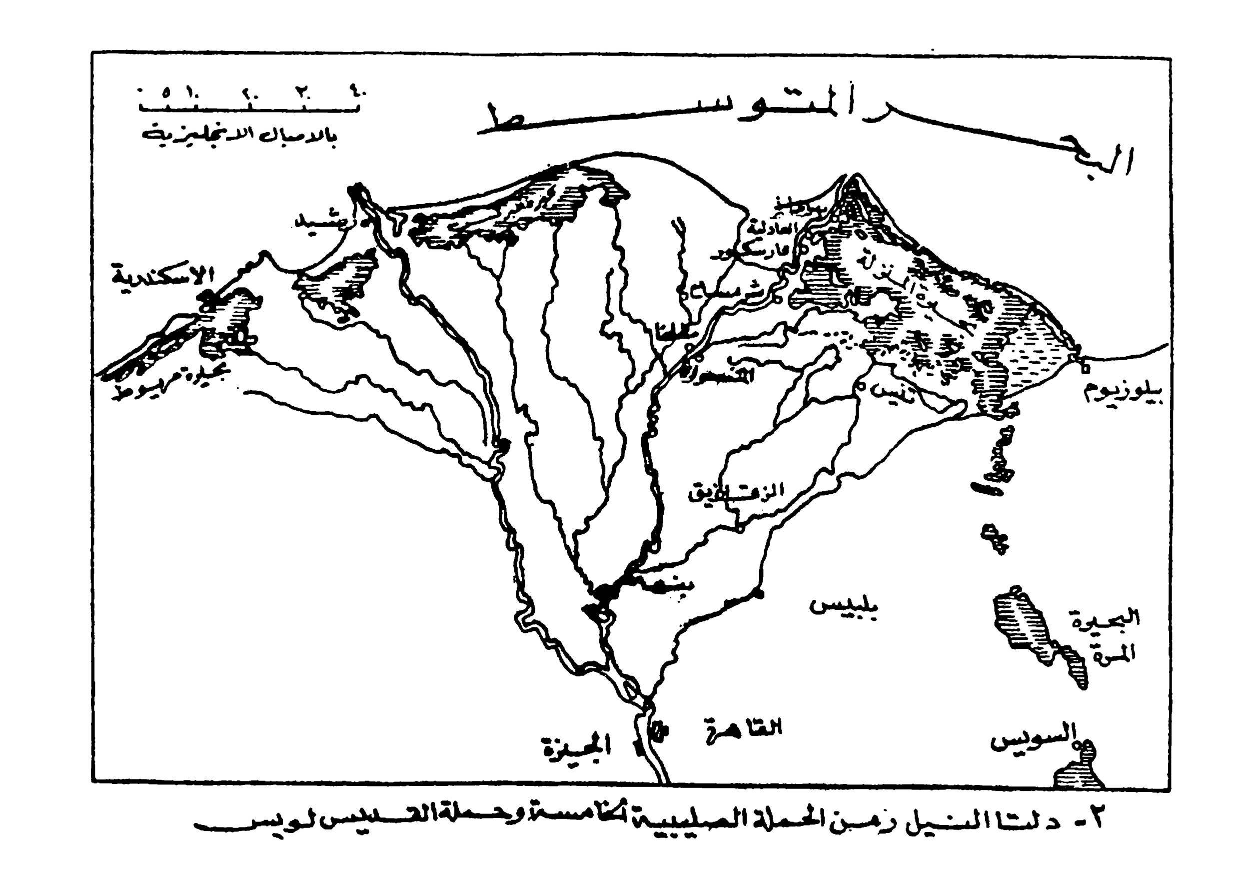
---

(١) Ernoul, pp. 407-8; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 305-8; see La Monte, 'John d'Ibelin', in *Byzantion,* vol.xii

(٢) *Estoire d'Eracles, loc. cit.*.

(٣) pp. 310, 316; Abu Shama, ii, p.158*Ibid.*.

خريطة رقم (٢) دلتا النيل



٢- دلتا النيل زمن الحملة الصليبية الخامسة وحملة القديس لويس

هبط حون (أوف برين) إلى البر في عكا في الثالث عشر من سبتمبر ١٢١٠م ، وفي اليوم التالى زوجه بطريق القدس ألبرت من الملكة ماريا ؛ وفي الثالث من اكتوبر توج العروسان في صور.

وسرعان ما اكتسب الملك الجديد شعبيته . فقد أظهر مهارة في التعامل مع أتباعه ومع الأنظمة الدينية العسكرية وأظهر الحذر في تعامله مع المسلمين . فبينما كان رجال البلاط في صور للتتويج ، أغار المعظّم على ضواحى عكا لكنه لم يجازف بمهاجمة المدينة ذاتها . وفي وقت مبكر من الصيف التالي سمح حون لبعض أتباعه بالإنضمام إلى فرسان المعبد في حملة بحرية على مصب النيل في دمياط ، لكنها كانت عديمة الجدوى . وبعد أشهر قليلة قبل عرضا جديدا من العادل للتوقيع على هدنة لخمس سنوات بدأ تنفيذها في يولية ١٢١٢م . وفي ذات الوقت أرسل الملك رسائل إلى روما طالبا حملة صليبية جديدة تتهيأ للحضور إلى فلسطين بمجرد انتهاء الهدنة(٤).

وفي نفس ذلك العام ماتت الملكة الشابة بعد ولادتها لطفلة سميت إيزابيلا تسميا بجدتها لأمها ، لكن اسمها المعتاد هو يولاندا . وبموت الملكة بات الوضع القانوني للملك مثار ريبة ، فقد حكم كزوج للملكة وقد مرت المملكة الآن إلى يولاندا وليس لأبيها حق قانوني . لكنه أبوها، وقبل كوصي طبيعى للمملكة ، على الأقل إلى أن تتزوج ، واستمر يحكم المملكة في سلام حتى وصول الحملة الصليبية التالية . ولكي يعزي نفسه في ترمله تزوج عام ١٢١٤م من الأميرة ستيفاني الأرمينية إبنة ليو الثاني. وثبت أنها زوجة أب سيئة ، وذاعت شائعة باطلة تعزو موتها في ١٢١٩م إلى الضرب المبرح من حون لمحاولتها دس السم للطفلة يولاندا(٥).

وكانت الدويلات اللاتينية المجاورة أقل حظا من مملكة عكا . ففي قبرص خلف الملك أماليك ابنه هيو ذو السنوات العشر، ومنحت الوصاية لولتر (أوف مونتبيليارد) وهو فارس فرنسي كان ياورا (كونستابلا) لأماليك وتزوج اخت هيو الكبرى بورجونديا . وكان وصيّا فاشلا وورّط الجزيرة في حرب غير موفقة مع الأتراك، وعندما سلّم السلطة لأخي زوجته في ١٢١٠م ، نفي كرها للإرتياب في اختلاس ضخم أثناء

---

(٤) *Estoire d'Eracles, loc. cit.* Abu Shama,loc. cit. and p. 317; .

(٥) Ernoul, p. 411. انظر أدناه (ص. ٢١٠) *Estoire d'Eracles*, ii, p.320. أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p.55. واسم الملكة الشابة عند جميع مؤرخي مملكة أورتريميه (ما وراء البحار) هو إيزابيلا ، وإن كانت عادة تسمى يولاندا عند المؤرخين الغربيين . وأنا أستخدم هذا الإسم الأخير لتقليل الإضطراب مع الإيزابيلات الأخريات.

توليه منصبه . والآن أصبح الملك هيو في الخامسة عشرة من عمره[٦]. وقبل ذلك بعامين تزوج إبنة زوجة أبيه أليس ، من أميرات القدس ، وذلك بناء على الترتيب الذي اتفق عليه أبواهما . وتولت الملكة ماريا كومنينا ، وهي جدة العروس ، المفاوضات لتنفيذ الزواج ، وقدمت دوطة بلانش (أوف نافار)، كونتيسة شامباني ، وأرملة عم العروس، إذ كانت تخشى أنه مالم تتزوج أليس وأختها في سلام في الشرق ، فقد تأتي إحداهما للمطالبة بالإستيلاء على كونتية شامباني من ابنها الطفل . وكان الملك هيو شابا طائشا فباتت علاقاته مع جيرانه وأتباعه وكنيسته والبابوية علاقات عاصفة ، لكنه وفّر لمملكته حكما راسخا[٧].

١٢٠١م : الإستخلاف في أنطاكية

كانت الأحوال في إمارة أنطاكية تجاوز كثيرا مملكة قبرص فى اضطرابها. إذ كان بوهموند كونت طرابلس قد نصّب نفسه هناك في اعقاب وفاة والده بوهمند الثالث عام ١٢٠١م ، متحديا حقوق ابن أخيه ريموند-روبين ؛ على أن ليو الأرميني - وهو والد خال ريموند - استمر في الضغط من أجل قضيته . وتعقّدت الأمور بسبب الشجار الذي نشب بين ليو وفرسان المعبد لرفضه إعادة قلعتهم في بجراس . ولذلك انحاز فرسان المستشفى إلى جانبه ضد بوهمند. ومع ذلك، كان بمقدور بوهمند طلب العون من الأتراك السلاجقة الذين تواترت الحرب بينهم وبين ليو ؛ وكان الظاهر صاحب حلب على استعداد دائما لأن يرسل إليه التعزيزات ، ومن أجل ذلك كان العادل يحمل العداوة لبوهمند ، وكان تعاطف ملكي القدس وقبرص يغلب عليه التقلب . ثم جاءت المشاكل الدينية لتزيد من الفوضى . وكان من الأمور الأساسية لصالح الحركة الصليبية برمتها تسوية مسألة الإستخلاف في انطاكية ؛ وشعر البابا إينوسنت أن من واجبه التدخل ، فحاول كل من مندوبيه البابويين ، سوفريد (أوف سانت براكسيدس) وبطرس (أوف سانت مرسيل) كل على حدة، ثم معا ، سماع القضية . على أنه في الوقت الذي كان يظهر فيه ليو مراعاته لروما بالكلام فقط ، رفض عقد السلام مع

---

(٦) *Estorie d'Eracles,* ii, pp. 15-16; Mas Latrie, *Documents,* ii, p. 13.

(٧) Mas Latrie, *Histoire de l'Ile de Chypre,* i, pp. 175-7; *Documents,* ii, p. 34; Innocent III, letters, ix, 28 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 829-30); Hill, *History of Cyprus,* ii, 72-83

فرسان المعبد بالتخلي لهم عن قلعة بجراس ، كما أمره البابا . ومن الناحية الأخرى ، أنكر بوهمند حق البابا في الاهتمام إلى مسألة إقطاعية خالصة . وبعد موت بوهمند الثالث مباشرة انضم البطريق بطرس الأنطاكي إلى حزب ليو ، ولم يغتفر له ذلك بوهمند الرابع ولا من كميون انطاكية الذي كان شديد العداوة لأرمينيا. غير أنه في عام ١٢٠٣م كتب ليو إلى البابا قائلا إن الكنيسة الأرمينية ينبغي أن تخضع مباشرة لولاية روما ، وفي ١٢٠٥م تشاجر البطريق مع المندوب البابوي بطرس (أوف سانت مرسيل) حول تعيين رئيس شمامسة أنطاكية . ووجد البطريق نفسه بلا صديق وفي وسع بوهمند أن يثأر منه(٨).

وكانت لبوهمند نفسه مشاكله . إذ على الرغم من حيازته لأنطاكية وفوزه بتأييد الكميون ، كانت سلطته في الريف مقيّدة . وحدث الإضطراب في كونتيته الطرابلسية في نهاية عام ١٢٠٤م من جراء تمرد رينورت ، لورد نيفين ، الذي تزوج وريثه عكّار دون إذن بوهمند ، وانضم إليه عدد من اللوردات ، بمن فيهم رالف لورد طبرية الذي كان أخوه أوتو الآن في بلاط ليو ، وفاز المتمردون بتعاطف الملك أماريك . وبينما كان بوهمند يسعى إلى قمع التمرد ، ضرب ليو الحصار حول أنطاكية ولم ينسحب إلا عندما أرسل الظاهر صاحب حلب جيشا لمساعدة بوهمند . وبعد موت أماريك ، سحب جون (أوف ابيلين) كل تأييد للمتمردين الذين هزمهم بوهمند في نهاية العام ، وبعدما فقد عينا أثناء القتال . وفي ذات الوقت ، ولكي يُظهر أنطاكية بمظهر الدويلة العلمانية ومن ثمّ خارج نطاق سلطة البابا ، أعلن أن سيدها الأعلى كان دائما امبراطور القسطنطينية . وعندما قامت ماريا (أوف شامباني) وزوجة الامبراطور اللاتيني الجديد بلدوين بزيارة فلسطين عام ١٢٠٤م في طريقها للإنضمام إلى زوجها ، سافر إلى عكا ليقدم اليها احتراماته(٩).

---

(٨) عن التاريخ الأنطاكي خلال هذه الفترة، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.600-15 مع المراجع الكاملة.

(٩) Alberic of Trois Fontaines, *Chronicon, R.H.F.*, vol. xviii, p. 884. كان الإفتراض السائد فيما بين الفرنج هو أن امبراطور القسطنطينية اللاتيني قد ورث كافة حقوق البيزنطيين . ومع ذلك ، تفاوض ليو الأرميني على الفور مع امبراطور نيقية ، الذي زعم بنفس القدر أنه وريث البيزنطيين . أنظر Cahen, *loc. cit.* esp. p. 606.

١٢٠٦م : بطريق يوناني في أنطاكية

وبات بوهموند في عام ١٢٠٦م مهتاجا من البابا وبطريقه سواء بسواء ، فأقدم على خلع الأخير واستدعى البطريق اليوناني سيمون الثاني، الذى كان بلا منصب، ليحل محله . ومن الراجح أن سيمون كان يقيم فعلا في أنطاكية ؛ ولابد أن الكوميون آيد حركة بوهمند ، إن لم يكن هو الذي اقترحها . وبرغم انقضاء قرن كامل من الحكم الفرنجي ، كان العنصر اليوناني لا يزال كبيرا ومزدهرا ، وبمرور الوقت تزاوج بلا شك الكثير من العائلات التجارية اللاتينية مع اليونانيين ، وكلهم يكرهون الأرمن ، وتسبب الغزل بين البابا وليو في تخوفهم ضد روما . أما بوهموند من ناحيته ، فلم تعد بيزنطة قادرة على تهديده ، ومن ثمّ توفر لديه الاستعداد لأن يشايع الكنيسة التي كانت تقاليدها توصى بالحذر من الأمراء العلمانيين. ومن سخريات القدر أن يعيد اللاتين البطريارقية اليونانية بعد دمار بيزنطة والتي حارب من أجلها الأباطرة البيزنطيون في القرن الماضى حروبا شرسة . وعلى الفور أنهى البطريق اللاتينى بطرس شجاره مع المندوب البابوى الذي أعاد إليه سلطة الطرد من الكنيسة، وكانت موضع شك . وبكل التأييد من روما طرد الأمير والكميون من الكنيسة ، فردوا بالاحتشاد فى الكنائس اليونانية في المدينة. ثم لجأ البطريق اللاتينى إلى الدسائس . ففى نهاية العام التالي ١٢٠٧م أدخل إلى المدينة ليلا بعض الفرسان الذين يدينون له بالولاء ، وتمكنوا من الإستيلاء على أسفل المدينة ، غير أن بوهمند جمع قواته في القلعة وسرعان ما ردهم إلى خارج المدينة . وحوكم البطريق بطرس ، الذي كان تآمره جليّا واضحا ، بتهمة الخيانة وألقى به في غيابة السجن حيث مُنع عنه الطعام والماء ، فابتلع فى يأسه زيت مصباحه فمات متوجعا[١٠].

وبدأت مشاعر القلق تنتاب البابا اينوسنت من هذا النزاع الذى لا نهاية له، وعهد بمسؤولية تسويته إلى بطريق القدس . وفي عام ١٢٠٨م، خرب ليو البلاد المحيطة بأنطاكية بينما كانت طرابلس تواجه غزوا من قوات العادل التي جاءت ، دون روية، للإنتقام لهجوم شنه بعض القبارصة على تجار مسلمين ولغارة عدوانية شنها فرسان المعبد. وأنقذ بوهمند نفسه بالإستنجاد بالسلاجقة ضد ليو ، بينما أرسل البابا مناشدة

---

(١٠) Cahen, loc. cit. esp. pp.612-13.وتظهر القصة أن العنصر اليوناني في الكميون لا بد وأن كان قويا. والمفترض أن كان هناك قدر كبير من التزاوج فيما بين الدوائر البورجوازيـــة.

إلى الظاهر صاحب حلب لإنقاذ أنطاكية من اليونانيين . وأعقب ذلك ثورة ديبلوماسية؛ إذ كان بطريق القدس ألبرت صديقا لفرسان المعبد حلفاء بوهمند ، وأغضب ليو بإصراره على أن تكون الخطوة الأولى المبدئية لأية تسوية هي ضرورة إعادة بجراس إلى النظام . وفي تلك الأثناء وافق بوهمند على قبول بطريق لاتيني جديد في أنطاكية ، بطرس (أوف لوسيديو) ، وبذا تناسى ليو ولاءه لروما ، وتحالف متباهيا مع الامبراطور اليوناني في نيقية ، ورحب ببطريق أنطاكية اليوناني ، سيميون ، في صقلية وأعطى الكثير من أراضي الكنيسة اللاتينية فيها لليونانيين . على أنه في ذات الوقت سعى لنيل صداقة هيو ملك قبرص الذي كانت أخته هيلفيس متزوجة من ريموند-روبين، ومنح نظام فرسان التيوتون حصونا في كيليكيا. وتواصل الصراع[١١].

وفي عام ١٢١٣م ، وبينما كان إبن بوهمند الأكبر ، ريموند ، البالغ من العمر الثامنة عشرة في كتدرائية طرطوس ، اغتالته عصبة من الحشاشين . ويبدو أن فرسان المستشفى قد حرضوا القتلة الذين كانوا يدفعون لهم الإتاوة. وفي العام التالي ، قتل الحشاشون بطريق القدس ، ألبرت ، وهو عدو آخر لفرسان المستشفى . وسعى بوهمند للثأر ، فهاجم بتعزيزات من فرسان المعبد حصن الخوابي الذي يملكه الحشاشون . واستنجد الحشاشون بالظاهر الذي استنجد بدوره بالعادل . ورفع الحصار عن حصن الخوابي ، واعتذر بوهمند للظاهر الذي كان الآن أقل استعدادا لتأييده . وفضلا عن ذلك ، كانت هناك شائعات بحملة صليبية جديدة أسفرت عن لم شمل المسلمين . وبدأ الظاهر يتودد لعمه العادل[١٢].

واستغل ليو الوضع ليسالم روما مرة أخرى . وكان بطريق القدس الجديد رالف، وهو أسقف صيدا السابق، ليّن العريكة ، والبابا على استعداد لأن يمنح ليو مغفرته شريطة أن يساعد في الحملة الصليبية التالية . وكان زواج جون (أوف برين) من ستيفاني إبنة ليو بمثابة تصديق على تحالف أرمينيا وعكا . وفي عام ١٢١٦م تدبر ليو دسيسة ناجحة لا شك وأن ساعد فيها البطريق بطرس ، تمكن بها من تهريب جنود إلى داخل أنطاكية واحتلال المدينة دون ضربة واحدة . وكان بوهمند بعيدا في طرابلس، وسرعان ما استسلم جنود قلعته لليو . ونُصّب ريموند-روبين أميرا على أنطاكية . وفي خضم البهجة الغامرة التي انتابت ليو لهذه النتيجة الناجحة لحرب طويلة، أعاد ليو أخيرا

---

(١١) Cahen, *op. cit.* pp.615-19.

(١٢) *Ibid.* pp. 619-21.

قلعة بجراس إلى فرسان المعبد وأعاد أراضى الكنيسة اللاتينية في كيليكيا. غير أنه فقد في مقابل نصره قلاعا في الغرب وعبر طوروس استولى عليها أمير قونية السلجوقى كيكاوس(١٣).

ولقد سويت مسألة أنطاكية في الوقت المناسب تماما للحملة الصليبية الجديدة . ذلك أن البابا إينوسنت، ومنذ تحرر من أوهام الحملة الصليبية الرابعة ، دأب على بذل جهد أوقع لإنقاذ الشرق . ولقد كانت هناك اضطرابات كثيرة أزعجته ؛ فكان عليه أن يجد حلا لمشكلة عريصة ، ألا وهى مشكلة هراطقة جنوب فرنسا ؛ كما أن الحل الشرس المتمثل في الحملة الصليبية الألبيجينسية(١٤)، ورغم أنه هو الذي حرض عليها ومنح الصليبيين فيها غفرانا مماثلا للغفران الممنوح في الحرب ضد الكفرة، هذا الحل الشرس أثار صعوبات بدوره. وفي ١٢١١م بشّر بحملة صليبية في أسبانيا ردا على غزو الوزير الناصر فى دولة الموحدين لإقليم كاستيل الواقع في وسط اسبانيا الشمالي ؛ وبرر جهوده ذلك النصر الرائع الذى أحرزه لاس لافاس دى تولوزوا فى يولية ١٢١٢م عندما قضى على جيش افريقى؛ وبدأت مرحلة جديدة لإعادة الغزو المسيحى.على أنه كان هناك القليل من الفرسان الذين ابدوا استعدادهم للسفر إلى الأراضى المقدسة . لقد جاءت الإستجابة الوحيدة للصلاة التي اقيمت لإنقاذ القدس من طبقة مختلفة تمام الاختلاف(١٥).

١٢١٢م : التبشير بحملة الأطفال الصليبية

في أحد أيام شهر مايو ١٢١٢م وبينما كان الملك فيليب الفرنسى يعقد بلاطه في

---

(١٣) *Ibid.*, pp. 621-3.

(١٤) (المترجم): الألبيجنسيون Albigenses: هراطقة ازدهروا فى جنوب فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. كانوا يعتقدون أن المسيح كان ملاكا له جسد وهمي ومن ثم لم يعان الآلام و لم تحدث له قيامة، وأن الخلاص الذى جاء به ليس له وجود إلا فى أقواله. وأنكروا الأسرار المقدسة واعتقدوا أن الشر كامن فى كل شئ ومن ثم اعتنقوا عقيدة أخلاقية ذات صرامة متطرفة، فأدانوا الزواج واستعمال المنتجات الحيوانية كلها. وقد أدانت مجامع متعاقبة هذه الهرطقة من سنة ١١٦٥ قدما، لكن الهرطقة انتشرت إلى أن شن البابا اينوسنت الثالث حملة صليبية عليهم اتصفت بقسوة بالغة، وفى ١٢٣٣ عهد البابا جريجورى التاسع إلى محكمة التفتيش الدومينيكية باستئصال شأفهم بصورة نهائية، وبحلول القرن الرابع عشر لم يبق لهم أثر.

(١٥) للإطلاع على سياسة إينوسنت في جنوب فرنسا لانجويدوك وأسبانيا أنظر Fliche, *La Chrétienté Romaine*, pp.107-8,112-37.

سانت دينيس، ظهر صبي من رعاة الغنم في نحو الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن، وهو من مدينة كلوي الصغيرة في أورليانيه. وأحضر معه رسالة للملك، قال إن المسيح شخصيا أعطاها له بعدما تجلى له وهو يرعى غنمه، وأمره أن يذهب ويبشر بحملة صليبية. ولم يتأثر الملك فيليب بالطفل وأمره أن ينصرف إلى منزله. لكن ستيفن، الذي أشعل الزائر الغامض جذوة حماسه، رأى نفسه الآن زعيما ملهما يقدر على النجاح حيثما فشل فيه الكبار. وطوال الأعوام الخمسة عشر الماضية كان المبشرون يجولون الريف يحثون على حملة صليبية ضد المسلمين في الشرق أو في أسبانيا أو ضد هراطقة لانجويدوك. ومن اليسير على صبي هستيري أن يصاب بعدوى الفكرة التي مفادها أنه يستطيع هو أيضا أن يصبح مبشّرا ويستطيع محاكاة بطرس الناسك الذي بلغت حراته الفائقة مبلغا أسطوريا خلال القرن الماضي. ولم ييأس من لامبالاة الملك ، وبدأ يبشّر في نفس مدخل دير سانت دينيس ويعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي . ولسوف تجف البحار أمامهم وسيمرون ، كما مر موسى خلال البحر الأحمر، آمنين إلى الأراضي المقدسة . وقد وُهب فصاحة غير عادية ، ومست أقواله قلوب الكبار ، وجاءه الأطفال زرافات ملبين نداءه . وبعد نجاحه الأول انطلق مرتحلا في أنحاء فرنسا يستدعى الأطفال ؛ ومضى كثيرون ممن تحولوا إلى عقيدته يضربون فى الآفاق للتبشير نيابة عنه . وكان على الجميع أن يتجمّعوا في فيندوم في غضون نحو شهر لينطلقوا منها إلى الشرق.

وفى نهاية يونية احتشد الأطفال في فيندوم . وتحدث المعاصرون الذين ارتاعوا عن ثلاثين ألف طفل ليس فيهم من يزيد عمره على اثنتى عشرة سنة . ويقينا كان هناك عدة آلاف منهم ، جُمعوا من كافة أنحاء البلد ، البعض منهم ريفيون بسطاء تركهم آباؤهم طواعية يذهبون في حملتهم العظيمة . بيد أنه كان هناك كذلك صبيان من أصل نبيل تسللوا من بيوتهم للإنضمام إلى ستيفن وأتباعه من "الأنبياء القُصَّر" كما يسميهم المؤرخون ؛ وكان الحشد يضم أيضا فتيات وقليلا من القساوسة الشبان وثلّة من الحجاج المسنين البعض منهم جذبته التقوى ، والبعض الآخر ربما جذبته الشفقة ، والبعض يقينا للمشاركة في الهدايا التي كانت تهبط عليهم كلهم كالمطر. وجاءت المجموعات محتشدة إلى المدينة ، مع كل منها قائد يحمل راية الحرب[(١٦)] وهي التى

---

(١٦) (المترجم) : راية الحرب : Oriflamme وهي علم فرنسا الملكي القديم عبارة عن راية حريرية حمراء بأحد طرفيها عدة شقوق لتمثل ألسنة اللهب . ومن معاني الكلمة أيضا أي رمز يلهم الشجاعة والتفاني في الحرب.

اتخذها ستيفن شعارا الحملة الصليبية . ولم تستوعبهم المدينة ، فعسكروا في الحقول خارجها.

١٢١٢م : الأطفال فى مرسيليا

وبعد أن منح القساوسة الودودون بركاتهم ، وبعد إبعاد آخر الآباء المحزونين ، انطلقت الحملة باتجاه الجنوب . وكانوا جميعا على وجه التقريب يسيرون على الأقدام؛ لكن ستيفن أصر على أن يكون له ما يليق بزعيم الحملة من عربة مزدانة بزينة مرحة تعلوها ظُلّة تحجب عنه أشعة الشمس ؛ وسار إلى جانبه خيول يعلوها نبلاء الأطفال، وكل منهم على ما يكفي من الثراء بحيث يمتلك حصانا. ولم يمتعض أحد من النبي الملهَم وهو يرتحل مستريحا ؛ بل على العكس عومل وكأنه قديس ، وكانت خصلات من شعره وقطع من ملابسه تجمع كآثار نفيسة . وسلكوا الطريق الذي يمضى عبر تورو وليون قاصدين مرسيليا . وكانت رحلة كلها آلام ؛ إذ كان الصيف شديد الحرارة بصورة غير عادية ، وكانوا يعتمدون في طعامهم على الصدقات في الوقت الذي لم يترك فيه الجفاف ما يفيض عن الحاجة ، فضلا عن ندرة المياه. ولقي الكثير من الأطفال حتفهم على جانب الطريق ، وعدل آخرون عن مواصلة الرحلة ومضوا يهيمون على وجوههم محاولين العودة إلى أهليهم . على أنه في نهاية الأمر وصلت الحملة الصليبية الصغيرة إلى مرسيليا.

واستقبل مواطنو مرسيليا الأطفال استقبالا طيبا ؛ إذ وجد الكثير بيوتا يبيتون فيها، وأقام آخرون في الشوارع . وفي الصباح التالي اندفعت الحملة كلها إلى المرفأ لمشاهدة البحر وهو ينفلق أمامهم ، ولمّا امتنعت المعجزة تملكتهم مشاعر خيبة الأمل المريرة . وتحول بعض الأطفال ضد ستيفن صائحين بأنه خذلهم وبدأوا ينقلبون على أعقابهم ؛ لكن أغلبهم بقوا على شاطئ البحر ، آملين في كل صباح أن يلين لهم الرب. وبعد أيام قليلة ، وكما يروى فى المأثور، عرض تاجران من مرسيليا هما هيو الحديدى ووليم الخنزير بعض السفن لتكون تحت تصرفهم وتنقلهم إلى فلسطين بلا مقابل ، تمجيدا للرب. فقبل ستيفن في شغف هذا العرض الشفوق . واستأجر التاجران سبع سفن ركبها الأطفال وأبحرت . وانقضت ثماني عشرة سنة قبل معرفة أي خبر عنهم.

وفي تلك الأثناء وصلت حكايا ما قام به ستيفن من تبشير إلى بلاد الراين في ألمانيا التي لم يشأ أطفالها أن يفوتهم الأمر؛ ذلك أنه بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفن في

حملته، شرع صبي يدعى نيكولاس من قرية في بلاد الراين يبشر بنفس الرسالة أمام ضريح الملوك الثلاثة في كولونيا . وكشأن ستيفن ، أعلن أن الأطفال يستطيعون أن يأتوا بما لم يستطعه الكبار ، وأن البحر سوف ينفلق عن طريق أمامهم . على أنه بينما كان للأطفال الفرنسيين أن يغزوا الأراضي المقدسة بالقوة ، كان لأطفال ألمانيا تحقيق هدفهم بتحويل الكفار عن دينهم . وكان نيكولاس ، شأنه شأن ستيفن ، على قدر من الفصاحة الفطرية واستطاع أن يجد حواريين فصحاء ليحملوا تبشيره إلى اماكن أبعد ، أعلى وأسفل بلاد الراين . وفي غضون أسابيع قليلة تجمّع حيش من الأطفال في كولونيا على أهبة الإستعداد للإنطلاق إلى ايطاليا حيث البحر . ويبدو أن الأطفال الألمان كانوا في متوسط عمري يزيد زيادة طفيفة عن مثيله لدى الأطفال الفرنسيين ، كما يبدو أن كان معهم عدد أكبر من الفتيات ؛ كما كانت هناك فصيلة أكبر من صبيان النبلاء ، وعدد من المتشردين سيّئي السمعة والعاهرات.

وانقسمت الحملة إلى فريقين ؛ يتألف الفريق الأول، استنادا إلى ما رواه المؤرخين، من عشرين ألف طفل يقودهم نيكولاس نفسه . وانطلق هذا الفريق أعلى نهر الراين إلى بازل ثم مخترقا غرب سويسرا ، مرورا بجنيف ليعبر جبال الألب من ممر جبل سيني . وكانت رحلة شاقة على الأطفال فكانت خسائرهم فادحة ؛ إذ أن أقل من ثلث المجموعة التي غاردت كولونيا ظهروا أمام أسوار جنوا في نهاية أغسطس وطلبوا إيواءهم ليلة واحدة داخل أسوارها . وكانت السلطات في جنوا على استعداد للترحيب بالحجاج أول الأمر ، لكن السلطات عندما عاودت التفكير ارتابت في وجود مؤامرة ألمانية؛ فسمحوا لهم بقضاء ليلة واحدة فقط، ومن شاء منهم في الإستقرار بصورة دائمة في جنوا لقى الترحيب. فشعر الأطفال بالرضا، وهم يتوقعون انفلاق البحر أمامهم في الصباح التالي . على أن البحر في الصباح التالي كان منغلقا أمام صلاتهم بنفس قدر انغلاقه للفرنسيين في مرسيليا . وفي خضم خيبة الأمل التي داهمت الأطفال قبل الكثير منهم على الفور عرض سلطات جنوا وأصبحوا مواطنين جنويين ، ونسوا رحلة الحج . وفيما بعد زعمت عدة عائلات رفيعة المستوى أنها من سلالة هذه الهجرة الأجنبية . بيد أن نيكولاس والعدد الأكبر واصلوا رحلتهم ؛ ولسوف ينفلق البحر أمامهم في مكان آخر . وبعد أيام قليلة وصلوا بيزا حيث وافقت سفينتان قاصدتان فلسطين على اصطحاب عدد من الأطفال ، ركبوا البحر وربما وصلوا إلى فلسطين ولكن لا يعرف شيئ عن مصيرهم. ومع ذلك ، كان نيكولاس ما يزال ينتظر أن تحدث معجزة ، وواصل سيره الجهيد مع أتباعه المخلصين إلى روما ، حيث استقبلهم البابا اينوسنت

الذي تحركت مشاعره لتفواهم وإن كان قد شعر بالحرج من حماقتهم . وفي صرامة تغلب عليها الشفقة قال لهم إنهم ينبغي الآن أن يعودوا إلى بلادهم ، وعندما يشبوا عن الطوق عليهم عندئذ الوفاء بعهودهم والذهاب للحرب من أجل الصليب.

١٢١٢م : مصير الأطفال

ولا نعرف سوى القليل عن رحلة العودة . ولم يستطع الكثير من الأطفال ، وخاصة الفتيات ، مواجهة حرارة الطريق الملتهبة وتخلفوا في بعض المدن أو القرى الإيطالية . ولم يكن هناك سوى مجموعة صغيرة من التائهين الهائمين الذين وجدوا طريق العودة إلى بلاد الراين في الربيع التالي . وربما لم يكن نيكولاس من بينهم . غير أن الآباء الغاضبين الذين هلك أطفالهم أصروا على القاء القبض على أبيه الذي يبدو أنه شجّع الصبي على الخروج مدفوعا بالخُيلاء . فأخذوه وشنقوه.

ولم تكن المجموعة الثانية من الحجاج الألمان أكثر حظا من سابقتها . فقد ارتحلت إلى ايطاليا خلال سويسرا الوسطى ثم خلال سانت جوثارد وبعد مشاق ضخمة وصلت إلى البحر في أنكونا . وعندما فشل البحر في الإنفلاق لهم تحركوا ببطء أسفل الساحل حتى برنديزي ، حيث وجد القليل منهم بعض السفن المبحرة إلى فلسطين وقبلت نقلهم؛ لكن الباقين عادوا وبدأوا تجوالهم البطئ في طريق العودة مرة اخرى. ورجعت بجرد حفنة منهم إلى منازلهم أخيرا.

وبرغم حالتهم المفجعة البئيسة ، ربما كانوا أكثر حظا من الفرنسيين . ففي عام ١٢٣٠م وصل أحد القساوسة إلى فرنسا من الشرق ومعه حكاية غريبة، وقال إنه كان أحد صغار القساوسة الذين صحبوا ستيفن إلى مرسيليا ، وركب معهم السفن التي قدمها التاجران . وبعد أيام قليلة من الإبحار واجههم جو سيئ وتحطمت سفينتان على جزيرة سان بييترو الواقعة أمام الركن الجنوبي الغربي لسردينيا، وغرق جميع الركاب . أما السفن الخمس التي نجت من العاصفة فسرعان ما وجدت نفسها وقد حاصرها أسطول للعرب قادم من أفريقيا ؛ وعلم الركاب أنهم قد جيئ بهم هناك بناء على ترتيب مسبق لكي يباعوا في الأسر . وأخذوا جميعا إلى بوجي على الساحل الجزائري حيث تم شراء الكثير منهم فور وصولهم وأمضوا ما بقي من حياتهم في الأسر هناك . وشُحن الباقون ، ومن بينهم القس الصغير ، على سفن ذهبت إلى مصر حيث كانت أسعار عبيد الفرنج أفضل ؛ وعندما وصلوا إلى الإسكندرية اشترى حاكمها الجزء الأكبر

من الشحنة للعمل في ضيعته . واستنادا إلى ما رواه القس ، كان هناك نحوا من سبعمائة منهم لا يزالون على قيد الحياة. وأخذت مجموعة صغيرة إلى أسواق الرقيق في بغداد ، حيث استشهد ثمانية عشر شخصا منهم لرفضهم الدخول فى الإسلام . وكان القساوسة وقليلون من المتعلمين هم الأكثر حظا ، إذ كان حاكم الإسكندرية ، وهو الكامل إبن العادل ، مهتما باللغات والآداب الغربية ، فاشتراهم وأبقاهم عنده كمترجمين ومدرسين وأمناء سر ، ولم يحاول أن يحولهم إلى عقيدته . وبقوا في القاهرة في أسر مريح ؛ وفي نهاية المطاف أطلق سراح هذا القس بمفرده وسُمح له بالعودة إلى فرنسا . وأجاب على أسئلة الآباء قائلا لهم كل ما كان يعرفه ، ثم إنه اختفى اختفاءً غامضا . وهناك قصة أخرى لاحقة تطابق قصة التاجرين الشريرين في مرسيليا بتاجرين شُنقا بعد ذلك بسنوات قليلة لمحاولة اختطاف الامبراطور فريدريك نيابة عن العرب ، وبهذا عوقبا في النهاية على ما اقترفاه من جرائم[١٧].

لم يكن الأطفال الصغار هم الذين سينقذون القدس . إذ كان لدى البابا إينوسنت آراء أوسع وأكثر واقعية ، فقرر عقد مجلس كبير للكنائس في روما عام ١٢١٥م لتنظيم كافة الشؤون الدينية للعالم المسيحى ، وقبل كل شيء ينبغي ادماج الكنيسة اليونانية . وكم كان بوده أن تكون قد انطلقت حملة صليبية بحلول ذلك الوقت ؛ فطوال عام١٢١٣م ومندوبه روبرت (أوف كورسون) يجوب فرنسا ومعه الأوامر بالتساهل فى قبول من يأخذ الصليب ، إذ كانت الضرورة بالغة. ونفّذ المندوب أوامر سيده بحماس مفرط . وسريعا جدا شرع النبلاء الفرنسيون في الكتابة لملكهم قائلين إن مبشّرى المندوب البابوي أعفى أتباعهم من العهود التي قطعوها على أنفسهم ، وأن هناك جمع سخيف من المسنين والأطفال وذوي الجذام وذوى العرج والنساء وذوي السمعة السيئة، قد تجمعوا للحرب المقدسة . وأجبر البابا على كبح جماح روبرت ؛ وعندما افتُتح المجلس اللاتيراني[١٨] لعام ١٢١٥م، لم تكن هناك حملة صليبية جاهزة بعد

---

(١٧) للإطلاع على قصة الحملة الصليبية للأطفال أنظر Rohrich, 'Die Kinderkreuzzug' in *Historiche Zeitschrift*, vol. xxxvi؛ و Alphandéry, 'Les Croisades d'Enfants' in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. lxxiii; Munro, 'The Children's Crusade' in *American Historical Review*, vol. xix; Winkelmann, *Geschichte Kaiser Friedrichs des Zweiten*, i, pp. 221-2. ويرد اشتراك الأطفال الألمان في *Annales Stadenses (M.G.H. Scriptores*, vol. xvi, p. 355).

(١٨) (المترجم) : نسبة الى كنيسة القديس جون لاتيران St. John Lateran ؛ أو كتدرائية البابا باعتباره أسقف روما . وترجع تسمية هذا المكان الى اسم الأسرة الرومانية (*Plautii Laterani*) التي كان قصرها يشغل نفس الموقع.

للإنطلاق . وفي الجلسة الأولى تحدث البابا نفسه عن ورطة القدس ، ونهض بطريق القدس مناشدا المجلس تقديم العون . وسارع المجلس إلى تأكيد المزايا والمغفرة المقرر منحها للصليبيين وإلى الترتيب لتمويل الحملة التي تقرر أن تتجمع في صقلية أو أبوليا وتبحر إلى الشرق يوم أول يونية ١٢١٧م(١٩).

١٢١٦م : موت البابا إينوسنت الثالث

واستثار المجلس نشاط الكنيسة . فطوال ربيع عام ١٢١٦م انطلق المبشرون في سائر أنحاء العالم المسيحي الغربي ، وإلى أماكن بعيدة كبعد ايرلندا واسكندنافيا . وأعلن علماء اللاهوت البارزون من دكاترة جامعة باريس أن من يأخذ الصليب ثم يحاول التنصل من الوفاء بعهده فإنه إنما يرتكب إثما مميتا . وانتشرت الرؤى الشعبية عن صلبان تسبح في الهواء ورُوِّج لها بدعاية ضخمة. وراودت الآمال إينوسنت . إذ لاحظ أن الأعوام التي مقدارها ٦٦٦ عاما المخصصة في سفر الرؤية للوحش قد انقضت . لقد انقضت في الواقع ستة قرون ونصف على مولد محمد . ولقد كتب إلى السلطان العادل يحذره من العقاب الإلهي الآتى ويحثه على التخلي عن القدس بصورة سلمية وما زال في الوقت متسع . غير أن تفاؤله كان سابقا بعض الشيئ لأوانه ؛ إذ كتب له جيرفاس ، راهب بريمونتري، رسالة سرية يقول فيها إن نبلاء فرنسا يتجاهلون آراء علماء اللاهوت من دكاترة باريس ، وأنه لا بد وأن يكون هناك عمل ما يتصف بالقسوة للمحافظة على ما قطعه دوقات برجاندى واللورين من عهود على انفسهم . كما نصح في حكمة عدم الجمع بين الفرنسيين والألمان في حملة واحدة ؛ إذ أن الأمتين لا تتعاونان معا تعاوننا متناغما. بيد أن العوام من فقراء الناس كانوا يأخذون الصليب في حماسهم ولا يجب تثبيط هممهم بالتأخير.

وفي شهر مايو ١٢١٦م ذهب البابا اينوسنت إلى بيروجيا في محاولة لإنهاء العداوة الطويلة بين جنوا وبيزا ؛ وهناك، وبعد مرض قصير ، مات يوم ١٦ يولية . وقليلة هي العهود البابوية التي كانت أكثر روعة وأكثر انتصارا من الناحية الظاهرية . ومع ذلك ، لم تتحقق قط أعز طموحاته ألا وهى استعادة القدس. وبعد يومين من وفاته ، انتخب

---

(١٩) Fliche, op. cit. pp. 156-216. وعن التاريخ الكامل للحملة الصليبية الخامسة أنظر Donovan, *Pelagius and the Fifth Crusade*، حيث يرد مقال يتصف بالعناية وموثق توثيقا جيدا ، وان كان منحازا انحيازا طفيفا لصالح بيلاجيوس .

الكاردينال المسن سافيلي لمنصب البابا باسم هونوريوس الثالث(٢٠).

وتولي هونوريوس في شغف برنامج سلفه . فبعد أيام قليلة من استخلافه ، كتب إلى الملك حون في عكا يخبره بأن الحملة الصليبية آتية(٢١). وكان حون يزداد قلقا على قلق؛ إذ كان من المقرر أن تنتهي هدنته مع العادل في العام التالى . كما كتب هونوريوس إلى ملوك أوربا فاستجاب له القليل منهم. وفي الشمال البعيد أخذ الملك إنجى الثاني ملك النرويج الصليب ، لا لشئ إلا ليموت في الربيع التالي ؛ وعندما خرجت الحملة الإسكندنافية كانت تافهة الشأن(٢٢). وكان الملك أندرو الثاني ملك هنجاريا قد أخذ الصليب فعلا ، لكن إينوسنت أعفاه من الوفاء بعهده في وقت سابق بسبب الحرب الأهلية الدائرة في بلده، والآن أظهر الحماس، لكنه كان لديه مأرب آخر؛ فمليكته كانت من ناحية أمها إبنة أخت الامبراطور اللاتيني هنري امبراطور القسطنطينية الذي كان أبترا، ولذا داعبت الآمال هنري في الميراث . على أنه عندما مات هنرى في يونية ١٢١٦م اختير في مكانه أبوها بطرس (أوف كورتناى)؛ وبدأ تحمس أندرو يخمد ، لكنه وافق أخيرا على أن يكون حيشه على أهبة الإستعداد بحلول الصيف التالى(٢٣). أما في بلاد الراين السفلى فكانت هناك استجابة جيدة للتبشير ؛ وكان البابا يأمل في أسطول كبير محمّل بالفريزيين(٢٤) على أنه كان هنا تأخير مرة اخرى . كما لم تكن الأنباء الآتية من فلسطين مشجّعة كثيرا ؛ إذ أن حيمس (أوف فيتري)، الذي أرسل هناك أسقفا لعكا بتعليمات لإثارة اللاتينيين المحليين، أرسل تقريرا مريرا عما وجده . إذ أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ويفضلون الحكم الإسلامى ، بينما كان اللاتينيون أنفسهم يعيشون حياة كسولة مترفة خليعة ، وكانوا شرقيين كليّة . ورجال الدين فاسدون بخلاء أصحاب مكائد . ولا أحد جدير بالثناء سوى الأنظمة الدينية العسكرية ، على الرغم من أن المستعمرين الإيطاليين ، الذين كانوا على ما يكفي من الحصافة بحيث توخوا الإعتدال في نفقاتهم ، احتفظوا ببعض الأنشطة والأعمال ؛ غير أن مشاعر الغيرة المتبادلة بين المدن الإيطالية الكبيرة البندقية

---

(٢٠) Filche, op. cit. p. 212.

(٢١) *Regesta Honorii Papae III* (ed. Pressutti), nos. i, 673, i, pp. i, 1178-80.

(٢٢) *Regesta Honorii Papae III,* no. 399, i, p. 71.

(٢٣) Innocent III, letters, xv, 224 (M.P.L. vol.ccxvi, col. 757); Theiner, *Vetera Monumenta,* i, pp. 5-6.

(٢٤) *Regesta Honorii Papae III,* no. 885, i, pp. 149-50.

وحنوا وبيزا حالت دون إمكان التعاون مع بعضها البعض . وفي واقع الأمر، وكما اكتشف الأسقف جيمس ، لم يكن فرنج أوتريميه يرغبون في حملة صليبية جديدة ؛ إذ أن انقضاء عقدين من الزمان زاد من رخائهم المادى . ومنذ وفاة صلاح الدين لم يُظهر المسلمون ميلا للعدوان ، إذ كانوا هم أيضا يستفيدون من التجارة الآخذة في التزايد ، فقد كانت البضائع الآتية من داخل البلاد تملأ أرصفة عكا وصور، ويشهد القصر الذي بناه جون (أوف ابيلين) في بيروت على الرخاء المتجدد . وكانت هناك مستعمرات ايطالية أنشئت بمهارة في مصر ؛ ومع تزايد القوة الشرائية لأوروبا الغربية تزايدا مطردا ، كانت التوقعات رائعة لتجارة البحر المتوسط . على أن ذلك كله كان يتوقف بصورة مقلقلة على الحفاظ على السلام[٢٥].

١٢١٧م : تأخر الصليبين

وكان البابا هونوريوس يفكر بطريقة أخرى . إذ كان يعقد الآمال على أن تبحر حملة عظيمة من صقلية في صيف عام ١٢١٧م . غير أنه عندما حل الصيف ، وبرغم وصول شتى مجموعات الفرسان الفرنسيين إلى الموانى الإيطالية ، لم تكن هناك سفن . ووصل جيش ملك هنجاريا إلى سبالاتو في دالماتيا في شهر أغسطس ، وانضم إليه هناك الدوق ليوبولد السادس دوق النمسا وجيشه[٢٦]. ولم يصل الأسطول الفريزى إلى البرتغال إلا في يولية ، وبقى جزء منه في لشبونة . ولم يبحر الباقى إلى جايتا إلا في أكتوبر ، وبذا كان الوقت متأخرا للغاية للإنطلاق إلى فلسطين إلى أن ينقضى الشتاء[٢٧]. وفي نهاية يولية أمر البابا الصليبين بالتجمع في ايطالياوصقلية للإنطلاق إلى قبرص ؛ على أن وسيلة النقل كانت لا تزال غائبة . وأخيرا وفي أوائل سبتمبر وجد الدوق ليوبولد سفينة في سبالاتو تحمل جماعته الصغيرة إلى عكا ، ولم تستغرق رحلته سوى ستة عشر يوما . وتبعه الملك أندرو بعد حوال اسبوعين. غير أن أبناء سبلاتان لم

---

(٢٥) James of Vitry, *History of Jerusalem* trans. Stewart), P.P.T.S. vol. xi, pp. 56-91.

(٢٦) *Scriptores Rerum Hungaricarum,* Thomas Spalatensis, *Historia Salonitana* III, p.573.

(٢٧) *Gesta Crucigerorum Rhenanorum,*pp.29-34; *De Itinere Frisonum,*pp.59-68 hricht, *Quinti Belli Sacri Scriptores Minores*,both in

يسمحوا له بأن يأخذ أكثر من سفينتين ، ولـذا بقـى سـواد جيشـه هنـاك[٢٨]. في ذات الوقت تقريبا هبط الملك هيو القبرصي في عكا مع ما استطاع جمعه من جنود[٢٩].

كان الحصاد سيئا في سوريا ذلك العام ، وبات من الصعب إطعام جيش متعطّـل . وعندما وصل الملوك ، أوصى جون (أوف برين) بحملة على الفور . وفي يـوم الجمعـة ٣ نوفمبر انطلق الصليبيون من عكا وساروا شمال سـهل بزرعيـل . وبرغـم أن اعدادهـم لم تكن كبيرة ، إلا أنها كانت أكبر من أية أعداد شوهدت في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة . وكان العادل قد جاء ببعض الجنـود إلى فلسـطين عندمـا سمع بـأن المسـيحيين يتجمعون ، غير أنه لم يكن يتوقع غزوا مبكـرا هكـذا . كـانت قواتـه أقـل عـددا، ولـذ انسحب أمام الصليبيين عند تقدمهم باتجاه بيسان ، مرسلا ابنه المعظّم لتغطيـة القـدس ، بينما انتظر هو في عجلون مهيّأ للتصدى لأي هجـوم علـى دمشـق . ولم يكـن لمخاوفـه مايبررها ؛ إذ كان الجيش المسيحي يفتقر إلى النظام ، فـالملك جـون يعتـبر نفسـه القـائد الأعلى، لكن الجنود النمساويين الهنجاريين كانوا يعتبرون قـائدهم الملـك أنـدرو فقـط ، والقبارصة الملك هيو ، بينما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تطيع قوادها لاغير. واحتل المسيحيون بيسان وخربوها ، ثم راحوا يهيمون على وجوههـم بـلا هـدف عـبر الأردن وأعلى الشاطئ الشرقى لبحر الجليـل ، والتفـوا حـول كفرنـاعوم (الكنيّسـة) ثـم عـادوا خلال الجليل إلى عكا . وكان شاغلهم الشاغل هـو الحصـول علـى المخلفـات الدينيـة ؛ فأبهج الملك أندرو أن يحصل على أباريق المياه التي استخدمت في حفل الـزواج في كفـر كانة (في الجليل)[٣٠].

١٢١٨م : الملك أندرو يعود إلى بلاده

ضجر الملك جون وخطط حملة لنفسه لتدمير الحصن الـذى شـيده المسـلمون فـوق جبل الطور . ولم ينضم إليه هيو ولا أندرو ، ولم ينتظر الأنظمة الدينية العسكرية . وفى الثالث من ديسمبر فشل أول هجوم له على الحصن رغم أن الحامية كانت على استعداد

---

(٢٨) *Regesta Honorii Papae III,* no. 672, i,p. 117; Thomas Spalatensis, p.574: *Annales Claustroneoburgenses (M.G.H. Scriptores,*vol.ix,p.622).

(٢٩) ii, p. 322 *Estoire d'Eracles,*.

(٣٠) *Ibid.* pp. 323-4; Oliver, *Historia Damiatana,* p.165; Johannes Thwrocz, *Chronica Hungarorum (Scriptores Rerum Hungaricarum,*vol.i,p.149).

للتسليم في الواقع . وعندما وصلت الأنظمة الدينية العسكرية بعد ذلك بيومين كانت هناك محاولة ثانية للهجوم ، لم تكن أفضل من سابقتها . ومرة أخرى انسحب الجيش إلى عكا(٣١).

وفي مستهل العام الجديد تقريبا أزمعت مجموعة صغيرة من المتحاربين ، على خلاف نصائح المحليين وبلا إذن من مليكها، الخروج للإغارة والسلب في البقاع وكادت أن تهلك عن آخرها في عاصفة ثلجية عند عبورها لبنان(٣٢). بينما سار الملك أندرو مع الملك هيو إلى طرابس حيث كان بوهمند الرابع ، أمير أنطاكية السابق، الذي ترمل حديثا من زوجته الأولى بليسانس (أوف جبيل)، يحتفل بزواجه من ميليسند أخت هيو غير الشقيقة . وهناك مات هيو فجأة في العاشر من يناير ، تاركا عرش قبرص لطفله هنرى الذي لم يجاوز شهره الثامن ، تحت وصاية أرملته أليس ابنة القدس(٣٣). وعاد الملك أندرو إلى عكا وأعلن عن رحيله إلى أوروبا ؛ لقد أوفى بعهده وأضاف مؤخرا إلى مجموعة آثاره التى جمعها رأس القديس ستيفن ، وقد حان الوقت للعودة إلى وطنه . وعبثا حاول بطريق القدس أن يثنيه عن عزمه بالحجة وبالتهديد . وأخذ جنوده باتجاه الشمال مارا بطرابلس وأنطاكية إلى أرمينا ومنها إلى القسطنطينية بعد أن أخذ أمان المرور من السلطان السلجوقى . إن حملته الصليبية لم تحقق شيئا(٣٤).

وتخلّف ليوبولد دوق النمسا ؛ إذ كان يفتقر إلى المال ، واضطر إلى أن يقترض خمسين ألف بيزانت من جوى إمبرياكو (أوف جبيل)، غير أنه كان على استعداد لمزيد من العمل من أجل الصليب . واستعان به الملك جون للمساعدة في تقوية تحصينات قيسارية ، بينما شرع فرسان المعبد وفرسان التيوتون في تشييد قلعة ضخمة في عثليت جنوبي جبل الكرمل ، قلعة الحجاج . وفي ذات الوقت هدم العادل حصنه الواقع فوق

---

(٣١) *Estoire d'Eracles,* ii,pp.324-5; Oliver, *Historia Damiatana,*pp.165-7; Jamse of Vitry, *History of Jerusalem,* p.119; Abu Shama, ii, pp. 163-4.

(٣٢) *Ibid.* pp. 164-5; Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 167-8.

(٣٣) Ernoul, p. 412; *Estoire d'Eracles,*ii, pp.325,360; *Gestes des Chiprois,* p. 98.

(٣٤) Oliver, *Historia Damiatana,* p.168; James of Vitry, *Epistola,* iii (ed. -hricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte (Z.K.G.),* vol.xv, pp.568,R 70;Johammes Thwrocz, *loc. cit.*. حصل أندرو أيضا على رأس القديسة مرجريت ، واليد اليمنى للقديس توماس والقديس بارثولوميو وجزء من عصا هارون.

جبل الطور ، فهو عرضة سهلة للهجوم وليس جديرا بالصيانة(٣٥).

وفي السادس والعشرين من ابريل ١٢١٨ وصل إلى عكا النصف الأول من أسطول الفريزيين ، وبعد اسبوعين وصل النصف الذى كان قد أمضى الشتاء في لشبونة . وكانت هناك أنباء بأن الصليبيين الفرنسيين المحتشدين في ايطاليا على وشك اللحاق بهم. وعلى الفور أخذ الملك جون بالنصيحة حول أفضل سبل الإنتفاع بالقادمين الجدد. لم ينس أحد قط أن الملك ريتشارد نصح بالهجوم على مصر ، كما أن المجلس اللاتيراني ذكر مصر باعتبارها الهدف الرئيسي لأية حملة صليبية . فإذا أمكن طرد المسلمين خارج وادى النيل ، فلن يفقدوا أخصب أقاليمهم وحسب ، وإنما لن يتمكنوا من الإحتفاظ بأسطول في شرق البحر المتوسط ؛ لا ولن يستطيعوا الإحتفاظ بالقدس طويلا ضد هجوم كمّاشة يأتى من عكا ومن السويس . وبتوفر السفن الفريزية تحت تصرف الصليبيين ، أصبح لديهم الوسيلة الآن لشن هجوم كبير على الدلتا . وبلا تردد، تقرر أن يكون الهدف الأول هو ميناء دمياط ، مفتاح النيل(٣٦).

أصبح السلطان العادل شيخا مسنًا الآن يود أن يقضى سنواته الأخيرة في سلام . ولكن كان لديه ما يقلقه في الشمال ، وقد مات ابن اخيه الظاهر صاحب حلب عام ١٢١٦م تاركا طفلا كخليفة له يدعى العزيز ، والخصي طغرل قائما بالوصاية . وبرز أخو الظاهر - الأفضل - أكبر أبناء صلاح الدين من تقاعده في سميساط مطالبا بالميراث ومستنجدا بسلطان قونية السلجوقى كيكاوس ؛ وكان سلاجقة الأناضول الآن في ذروة بأسهم، ولم تعد كذلك بيزنطة ؛ وكان امبراطور نيقية في بالغ انشغاله بمحارب الفرنج لإزعاجهم ؛ وقد تلاشت قوة الدانشمند ، واستقر رعاياهم الآن طائعين، وبدأ الرخاء يعود إلى شبه الجزيرة . وفي باكورة ١٢١٨م زحف كيكاوس والأفضل على أراضى حلب وتقدموا نحو العاصمة . وكان طغرل الوصى يعلم أن العادل مهدد من الصليبيين، فاستنجد بابن العم الشاب لسيده ، الأشرف صاحب العراق ، وهو ثالث أبناء العادل . وهزم الأشرف الجيش السلجوقي هزيمة نكراء بالقرب من بزاعة ، وانسحب الأفضل عائدا إلى سميساط ، واضطر صاحب حلب إلى الإعتراف بالأشرف سيدا أعلا له ؛ غير

---

(٣٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.325-6; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 169; Abu Shama, ii, pp.164-6.

(٣٦) *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, pp. 37-8; *De Itineri Frisonum*, pp.69-70; Ernoul, pp. 414-15; James of Vitry, *loc. cit.*; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 175. أنظر Donovan, op. cit. pp. 36 n., 54.

أن السلاجقة ظلوا بمثابة تهديد إلى أن مات كايكاوس في العام التالي عندما كان يخطط للتدخل في نزاع على الإستخلاف في الموصل . ومكّن ذلك الأشرف من تعزيز قوته ، ومن أن يصبح ندا خطيرا لإخوته في الجنوب(٣٧).

وحتى آخر لحظة يبدو أن العادل كان يأمل في ألاّ تبلغ الحماقة بالفرنج حدا يقطعون فيه السلام ، وقد شاركه آماله إبنه الملك الكامل والي مصر . وكان الكامل على علاقة ممتازة مع البنادقة الذين وقّع معهم معاهدة تجارية عام ١٢٠٨م. وفي ١٢١٥م كان في مصر مالا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر أوروبي . وأدى وصول اثنين من اللوردات بصورة مفاجئة إلى الإسكندرية في ذلك العام إلى إثارة مشاعر الخوف لدى السلطات التى اعتقلت مؤقتا الأوروبيون كلهم، غير أن العلاقات الحسنة قد استعيدت ؛ وفي عام ١٢١٧م استقبل الوالى سفارة بندقية جديدة استقبالا ودودا . ولم يتأثر المسلمون من تسكع الحملة الصليبية غير الفعّال في عام ١٢١٧م. وما كانوا يظنون بوجود أي خطر الآن.

١٢١٨م : الصليبيون ينزلون إلى البر في مصر

فى عيد الصعود(٣٨)، الرابع والعشرين من مايو ١٢١٨م، ركب الجيش الصليبي السفن الفريزية في عكا بقيادة الملك جون ، وأبحر هابطا إلى عثليت لجمع المزيد من المون؛ وبعد ساعات قليلة رفعت السفن مراسيها ، لكن الرياح هدأت ؛ وتمكن بمجرد القليل منها من مغادرة المرسى والإبحار إلى مصر ، فوصلت أمام مصب النيل في دمياط في السابع والعشرين من الشهر ، وألقت المراسى هناك انتظارا لرفاقهم . ولم يغامر الجنود بادئ الأمر بمحاولة الهبوط إلى البر لعدم وجود ضابط كبير معهم ، غير أنه في التاسع والعشرين من الشهر ، ودون أن يظهر أي اسطول في الأفق ، حرض رئيس اساقفة نيقوسيا، إيوستورجيوس، الجنود على قبول الكونت سيمون الثاني (أوف ساربروك) قائدا لهم ، وعلى اقتحام الضفة الغربية لمصب النهر ؛ ولم تكن هناك معارضة جادة ، وكادت العملية أن تكتمل عندما ظهرت في الأفق أشرعة أسطول الصليبيين الرئيسى . وسرعان ما دخلت السفن عبر حاجز الأمواج ، وهبط الملك جون ودوق

---

(٣٧) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord,* pp. 624-8.

(٣٨) (المترجم) : عيد الصعود Ascension Day ذكرى صعود المسيح الى السماء في اليوم الأربعين بعد قيامته (في العقيدة المسيحية).

النمسا والسادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة إلى الشاطئ(٣٩).

تقع دمياط على الضفة الشرقية للنهر وعلى مسافة ميلين منه، تحمى ظهرها بحيرة المنزلة . وكما أظهرت تجربة الفرنج عام ١١٦٩م، ليس في الإمكان مهاجمتها بصورة تتصف بالكفاءة إلا عن طريق الماء والبر معا. وكان المصريون في عام ١١٦٩م قد مدوا سلسلة بعرض النهر أسفل المدينة قليلا من الضفة الشرقية إلى برج على جزيرة ملاصق للضفة الغربية ، فسدّت بذلك الحيز الوحيد الصالح للملاحة ؛ وأقاموا جسرا من القوارب خلف السلسلة . وحدد الصليبيون هذا البرج على أنه أول هدف لهم.

وعندما أيقن المسلمون أن الحملة الصليبية موجّه ضد مصر ، سارع العادل بتجنيد جيش في سوريا ، بينما سيّر الكامل الجيش المصرى الرئيسى من القاهرة باتجاه الشمال وعسكر في العديلية جنوب دمياط بأميال قليلة . بيد أنه لا يملك ما يكفى من الرجال والسفن لمهاجمة مواقع المسيحيين برغم تقوية البرج . وفي نهاية يونية فشل أول هجوم جاد على الحصن، وعندئذ اقترح أوليفر (أوف بادربون)، وهو مؤرخ الحملة بعد ذلك، صنع وسيلة جديدة تحمّل هو وأحد أبناء جلدته تكاليفها . وهي عبارة عن برج مبني على سفينتين مربوطتين معا ، ومغطى بالجلود ومثبت فيه السلالم والآن أصبح في الإمكان مهاجمة الحصن من النهر ومن الشاطئ أيضا(٤٠)

وفي يوم الجمعة السابع عشر من أغسطس، أقام الجيش المسيحي صلاة شفاعة مهيبة، وبعد أسبوع ، في عصر الرابع والعشرين ، بدأ الهجوم . وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة تقريبا ، وبعد قتال شرس، تمكن الصليبيون من تثبيت أنفسهم فوق الإستحكامات واندفعوا إلى داخل الحصن . وقاتلت الحامية بلا توقف إلى أن بقي من رجالها مائة رجل على قيد الحياة ، ثم استسلمت . وكانت الأسلاب الموجودة في الحصن وفيرة ، وأقام المنتصرون جسرا صغيرا من القوارب لنقلها إلى الضفة الغربية . ثم إنهم قطعوا السلسلة وهدموا جسر القوارب الذي يعبر المجرى الرئيسي، وباتت سفنهم قادرة على الإبحار فيها حتى أسوار دمياط(٤١).

---

(٣٩) James of Vitry, *History of Jerusalem,* pp. 118-19; Oliver, *Historia Damiatana,*pp.175-7; *Gesta Crucigerorum Rhenanorum,* pp. 38-9; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 326-7.

(٤٠) Abu Shama, ii, p. 165; *Histoire des Patriarches d'Alexandrie,* trans. Blochet, pp.240-1; Oliver, *Historia Damiatana,* pp.179-82.

(٤١) Oliver, *Historia Damiatana,*pp. 182-4; *Gesta Crucigerorum Rhenanorum,*p

كان العادل مريضا في دمشق عندما وصلته أنباء سقوط الحصن بعـد أيام قليلة . وكان قد علم لتوه أن إبنه المعظّم قـد استولى على قيسارية ودمّرهـا ، غـير أن صدمة الكارثة في دمياط كانت فوق احتماله ، فمات في الحادى والثلاثين مـن أغسطس وهـو يناهز الخامسة والسبعين . وكان صفاء الدين ، كما كان الصليبيون يسمونه ، يفتقر إلى شخصية أخيه صلاح الدين المرموقة ، وقد أظهر تعامله مع أبناء أخيه صلاح الدين نوعا من الخيانة والخبث . بيد أنه حافظ على وحدة الإمبراطوريـة الأيوبيـة وكـان حاكمـا ذا اقتدار وتسامح ومحبا للسلام . وكان في أعين الصليبيين دائم الطيبة وشريفا ، ولقد حـاز اعجابهم واحترامهم على الدوام. وخلفه في سوريا ابنـه الأصغر المعظّـم وفي مصـر ابنـه الأكبر الكامل(٤٢).

لم تكن كارثة دمياط كارثة ضخمة على النحو الذي كان يخشاه العـادل . فلـو أن المسيحيين واصلوا الحرب وهاجموا دمياط من فورهم ، فربما سقطت المدينة ، لكنهم بعد استيلائهم على الحصن ، ترددوا وقرروا انتظار التعزيزات . وعـاد الكثير مـن الفريزيـين إلى وطنهم ، لا لشئ إلا ليُعاقبوا على تنكرهم للقضية بفيضان كاسح اكتسح فريزيـا في اليوم التالي لوصولهم هناك . وعُرف آنذاك أن الحملة البابوية التي طال التخطيط لهـا قـد غادرت ايطاليا فعلا . ولقد كان هناك تأخير مستمر ، ولكن البابا هونوريوس تمكـن في نهاية الأمر من تجهيز اسـطول بتكلفـة ثمانيـة وعشـرين الـف مـارك فضـى لنقـل الجنـود المنتظرين لما يزيد علـى عـام في برنديـزى . وأمّـر عليهـم الكاردينـال بيلاجيـوس (أوف سانت لوتشيا)(٤٣).

١٢١٨م : وصول الكاردينال بيلاجيوس

وفي ذات الوقت تقريبا كان نبيلان فرنسيان هما هيرفي كونت نِفرس، وهيو (أوف

40; John of Tulbia, *De Domino Johanne,* in Rohrich, loc. cit., p. 120; *Histoire des Patriarches,* p. 243.

(٤٢) Abu Shama, ii, p. 170; Ibn al-Athir, ii, pp. 116, 148; Ibn Khallikan, *Biographical Dictionary,* iii, p. 235. ويقول ابن الأثير إن العادل كان في الخامسة والسبعين ، بينما يقول ابن خلكان إنه كان في الثلاثة والسبعين من عمره . ويـرد وصـف خيـالى لفراش مرضـه فـى *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 229-30.

(٤٣) Oliver, *Historia Damiatana,* p. 186; Alberic of Trois Fontaines, p. 788; *Regesta Honorii Papae III,* nos. 1350,1433,i, pp. 224,237.

لوسينان) كونت دي لا مارش ، يفاوضان أبناء جنوا على سفن لنقل مجموعة الصليبيين الفرنسيين والإنجليز إلى الشرق . ورغم اشتهار كونت نِفرس بأنه ابن الكنيسة الشرير ، سمح له البابا بدفع تكاليف النقل من ضريبة قدرها جزء من عشرين من دخل الكنائس الفرنسية. وانضم إلى الكونتين في جنوا رئيس أساقفة بوردو ، وليم الثاني ، وأساقفة باريس ولاوون وآنجرز وغيرهم من ذوى الرتب الأقل ، وإيرل[٤٤] كل من تشستر، وآروندل ، وديربي ، و وينشستر . وأرسل البابا كاردينال كورسون ، روبرت ، ليكون الموجّه الروحى للأسطول ، وإنما بلا أية سلطات بابوية[٤٥].

وصل الكاردينال بيلاجيوس وحملته إلى المعسكر المسيحي في منتصف سبتمبر . وكان بيلاجيوس أسبانيا وعلى قدر كبير من المثابرة والخبرة الإدارية وإن كان يفتقر تماما إلى الحذق؛ إذ سبق تعيينه لتسوية مسألة الكنائس اليونانية في امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، ولم يصب نجاحا إلا في إثارة المزيد من العداوة المريرة لروما . وما أن وصل إلى المعسكر حتى ثار الإضطراب ؛ ذلك أن جون (أوف برين) كان مقبولا كقائد للحملة الصليبية ، وكانت قيادته موضع خلاف في السنوات السابقة من ملكي هنجاريا وقبرص، وقد رحل أحدهما ومات الآخر . واعتبر بيلاجوس نفسه الوحيد المسؤول عن الحملة بصفته المندوب البابوى ، خاصة وأن التنابذ الذى طغى على شتى الأمم المشاركة كان جليًا واضحا بصورة فائقة وليس هناك سوى ممثل البابا الذي يستطيع تطويعهم . وجلب معه انباء بأن الامبراطور الغربي فريدريك الثاني قد وعد باللحاق به مع جيش امبراطورى ، وعندما يصل فلا بد من أن يُمنح القيادة العسكرية العليا . ولكن بيلاجيوس لن يقبل أية أوامر من الملك جون الذي كان ، قبل كل شئ ، مجرد ملك من خلال زوجته الميّتة[٤٦].

وفي اكتوبر أصبح لدى الملك العادل ما يكفي من التعزيزات لشن هجوم على معسكر الصليبيين بأسطول صغير أرسله شمال النهر، فرُد بفضل جهد الملك جون فى المقام الأول، وبعد أيام قلائل بنى المسلمون جسرا عبر النيل إلى الشمال قليلا من المدينة.

---

(٤٤) (المترجم) : إيرل :Earl لقب انجليزى دون المركيز وفوق الفيكونت

(٤٥) *Regesta Honorii Papae III,* nos. 1498, 1543, 1558, i, pp. 248, 256, 260. Greven, `Frankreich und der funfte Kreuzzug', *Historische Jahrbuch,* vol. xlii. يورد وللإطلاع على قائمة صحيحة لهؤلاء الصليبيين أنظر Matthew of Westminster أسماء الصليبيين الإنجليز. (*Flores Historiarum,* ii, p. 167).

(٤٦) أنظر Donovan, op. cit. pp. 46-9 والحواشي.

ونظّم بيلاجيوس إغارة على اعمال البناء باءت بالفشل ، لكن الكامل لم يواصل البناء لنقل جيشه عبر النهر ، وبدلا من ذلك شن هجوما آخر شرسا من الماء ، لكنه جاء بعد فوات الأوان ؛ إذ جاءت الكتيبة الأولى من الصليبيين الفرنسيين وقادت الدفاع . ووصل الهجوم الثاني إلى المعسكر نفسه لكنه رُدّ إلى النهر حيث غرق الكثير من جنود المسلمين(٤٧).

وبعد وصول الجيش الفرنسي والإنجليزى كله فى وقت متأخر من أكتوبر ، مر القتال بفترة من الهدوء . وتسببت وفاة العادل في تأخير التعزيزات التي كان الكامل ينتظرها من سوريا ، وهو الآن ينتظر الجيش الذي وعد أخوه المعظّم بارساله . وكان للمسيحيين مشاكلهم الخاصة بهم ؛ إذ حفروا قناة تصل البحر بالنهر إلى الشمال من جسر المسلمين ، لكنهم لم يستطيعوا ملأها . وفي ليلة ٢٩ نوفمبر هبت عاصفة هوجاء دفعت بمياه البحر إلى المنطقة المنخفضة حيث يوجد معسكرهم ؛ فامتلأت كل خيمة بالماء وتشرّبت المخازن به إيضا ، وتحطمت قوارب كثيرة ، ودفعت المياه بقوارب أخرى عبر النهر إلى معسكر المسلمين ، وغرقت الخيول ، وعندما انحسر الماء كانت هناك أسماك كثيرة ملقاة في كل مكان ، وهو مشهد لطيف، كما يقول المؤرخ أوليفر (أوف بادربورن)، يبهج أي شخص يراه. ولتجنب تكرار ذلك ، أمر بيلاجيوس ببناء حاجز بسرعة . واستخدمت كل أنواع الحطام ، حتى الأشرعة الممزقة وجثث الخيول ، لزيادة تعلية الحاجز. وكانت النتيجة الوحيدة الحسنة لهذا الفيضان هى أن امتلأت القناة، وأصبح بمقدور القوارب المسيحية أن تتوغل فى النهر(٤٨).

وقبل أن يكتمل اصلاح المعسكر مباشرة ضرب الجيش وباء خطير . فكان الضحايا يعانون من الحمى المرتفعة واستحالت جلودهم إلى اللون الأسود ؛ وحصد الوباء أرواح سُدس الجنود على أقل تقدير ، بمن فيهم الكاردينال روبرت كورسون . وبات الناجون من الوباء في حالة من الضعف والإكتئاب ، ثم جاء في أعقاب ذلك شتاء قارس بصورة غير عادية . وكان من حسن حظ المسيحيين أن عانى المسلمون كذلك من المرض

---

(٤٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.190-2; *Histoire des Patriarches*, p.394; *Gesta Obsidionis Damiate* (in Rohricht, op.cit. pp.79-80); John of Tulbia, p.123

(٤٨) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 131-2, 196-7; *Gesta Obsidionis Damiate* p. 82; John of Tulbia, p. 124; *Libre Duellii Christiani in Obsidione Damiate Exacti* (in Rohricht, op. cit.), pp. 148-9; James of Vitry, *Epistola v (Z.K.G.* vol. xv, pp. 582-3); *Histoire des Patriarches*, pp. 245-6

والبرد[٤٩].

١٢١٩م : احتلال العديلية

وفي أوائل فبراير ١٢١٩م رأى بيلاجيوس تعذر الحفاظ على معنويات الجنود في غيبة النشاط . ولذا حث الجيش في يوم السبت ٢ فبراير على الانطلاق لمهاجمة المسلمين؛ لكن عاصفة ممطرة تعمي الأبصار أجبرتهم على العودة . وفي يوم الثلاثاء التالى جاءت المعسكر أنباء تقول إن السلطان ينسحب بجيشه ، فسارع الصليبيون عابرين النهر إلى العديلية ووجدوا الموقع مهجورا ، وخرجت جماعة من حامية دمياط لملاقاتهم ، لكنهم رُدوا واستولى الصليبيون على العديلية ، وبذا عزلوا المدينة تماما[٥٠].

ويُعزى انسحاب السلطان الكامل المفاجئ إلى اكتشافه مؤامرة في بطانته . ذلك أن أحد الأمراء ، عماد الدين احمد بن المشطوب ، كان يخطط لقتله واستبداله بأخيه الفائز، ولم يعرف السلطان في يأسه عدد المتورطين من بين حاشيته ، ففكر في اللجوء إلى اليمن وكان واليها ابنه المسعود ، لكنه علم أن أخاه المعظّم في طريقه أخيرا لمساعدته . فانتقل مع جنوده باتجاه الجنوب الشرقي إلى أشمون حيث التقى الأخوان السلطانان يوم ٧ فبراير. وكان وجود المعظّم مع جيش ضخم بمثابة رادع للمتآمرين ؛ وألقى القبض على ابن المشطوب وأرسل إلى السجن في الكرك ، ونُفى الأمير الفائز إلى سنجار ومات في ظروف غامضة في الطرق إلى هناك . لقد أنقذ الكامل عرشه ، ولكن على حساب ضياع دمياط[٥١].

وحتى بمساعدة المعظّم ، لم يستطع الكامل طرد المسيحيين . إذ أن النهر والأهوار والقنوات حالت دون استغلال المسلمين لتفوقهم العددى ؛ وفشلت الهجمات التى شنها المسلمون على المعسكرين في الضفة الغربية وفي العديلية أيضا . فضرب السلطان

---

(٤٩) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 192-3; James of Vitry, loc. cit.; John of Tulbia, p. 125; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 83; *Histoire* des Patriarches, p. 249.

(٥٠) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.194-201; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp.83-4; *Estoire d'Eracles*, ii, p.337; John of Tulbia, loc.cit.

(٥١) Ibn al-Athir, ii, pp.116-17; Ibn Khallikan, iii, p. 240; *Histoire des Patriarches*, pp. 246-7.

معسكره في فارسكور جنوب دمياط بستة أميال تقريبا ، على أهبة الإستعداد لمهاجمة مؤخرة الصليبيين إذا حاولو الهجوم على دمياط. واستمر الوضع مجمدا طوال الربيع . ونشبت معارك ضارية يوم أحد السّعف[٥٢]، ومرة أخرى يوم أحد العنصرة[٥٣] حاول فيها المسلمون شق طريقهم إلى داخل العديلية دون جدوى . أما في دمياط ذاتها، وعلى الرغم من أن الطعام كان ما يزال وفيرا ، ازداد نقص عدد افراد الحامية بسبب المرض ؛ لكن المسيحيين لم يجرؤا عل شن هجوم عليها[٥٤].

وفي تلك الأثناء قرر السلطان المعظّم هدم القدس . إذ قد يكون من الضروري عرض القدس على المسيحين لإنهاء الحرب ؛ وفي هذه الحالة سوف يتسلمونها أطلالا ويتعذر الدفاع عنها ، وبدأ تدمير الأسوار يوم ١٩ مارس ، وسبب الذعر في المدينة ، إذ ظن المواطنون المسلمون أن الفرنج قادمون ، فهرب الكثير منهم مذعورين عبر الأردن. ثم راح الجنود ينهبون المنازل غير الآهلة ، وحاول بعض المتعصبين تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكن السلطان لم يكن ليسمح بذلك . وبعد القدس ، هدمت قلاع الجليل وطورون وصفد وبانياس ، ودمّرت كلها . وفي الوقت نفسه أرسل السلطانان يناشدان العون في سائر أنحاء العالم الإسلامى ، موجّهين دعوتهما بصورة خاصة إلى الخليفة في بغداد الذى وعد بإرسال جيش عرمرم لم يصل قط[٥٥].

وأعقب الشتاء الثلجى صيف حارق ، وهبطت معنويات الصليبين ثانية . ومرة أخرى أصر بيلاجيوس على العمل ؛ فبعد صد هجوم اسلامى شديد على المعسكر يوم ٢٠ يولية وبخسائر فادحة في كل من الجانبين ، ركّز الصليبيون على قصف أسوار المدينة. و لم يفلح قصفهم هذا لأن النيران الإغريقية التي كان المدافعون يستخدمونها سببت أضرارا جسيمة لآلاتهم ، و لم يخمدها النبيذ ولا الأحماض ، وبينا هم منهمكون في قصف الأسوار ، شن المسلمون هجوما آخر أوشك على تدمير الجيس المسيحي كله

---

(٥٢) (المترجم) : احد السّعف : Palm Sunday يوم الأحد السابق على عيد الفصح ، وفيه احتُفل بدخول المسيح بيت المقدس بمواكب زيّاحية حمل فيها السّعف

(٥٣) (المترجم) : أحد العنصرة Whit-Sunday ، يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح ، إحياء لذكرى هبوط الروح القدس في عيد العنصرة (انظر سفر أعمال الرسل ، الإصحاح الثاني.)

(٥٤) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 202-6; *Liber Duellii*, pp. 151-2; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 87-90.

(٥٥) Abu Shama, ii, pp. 173-4; Ibn al-Athir, ii, p. 119; *Histoire des Patriarches*, p. 52; *Estoire d'Eracles*, ii, p.339; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 203

الذي لم ينقذه سوى هبوط الظلام فجأة . وشن الصليبيون هجوما ثانيا على الأسوار يوم ٦ أغسطس ، لكنه أخفق بنفس القدر(٥٦).

وأثارت الهزائم الجنود العادين في الحملة الصليبية ودفعتهم إلى العمل. وألقوا باللائمة على قادتهم لتراخيهم وسوء تصرف قوادهم؛ إذ قُتل الكثير من النبلاء المرموقين، بمن فيهم كونتات لا مارش، وبار-سور-سين ، ووليم (أوف تشارتر) والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، وعاد آخرون إلى أوروبا ؛ وغادر الجيش في شهر مايو ليوبولد دوق النمسا الذي كان أكثر الأمراء طاقة ونشاطا ؛ غير أنه لا يلام على عودته إلى بلده بعد أن قدم خدماته في الشرق طوال عامين ، ومحا بشجاعته سوء السمعة التى لطخت والده من جراء خلافاته الكثيرة مع قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . وقد أخذ معه إلى بلده كِسْرَة من الصليب الحقيقي ، على أن القافلة التى أخذته إلى أوروبا كانت تضم آخرين بدا رحيلهم هروبا من القضية(٥٧). وفي أواخر أغسطس ، وبينما كان الملك جون يتشاحن مع بيلاجيوس حول الإستراتيجية ، فيدافع أحدهما عن تشديد الحصار ، بينما يصر الآخر على شن هجوم على معسكر السلطان ، ثار الجنود وأخذوا في أيديهم زمام الأمور ، وفي ٢٩ أغسطس خرجوا متدفقين في فوضى عارمة لمواجهة خطوط المسلمين . وتظاهر المسلمون بالانسحاب ثم قاموا بهجوم مضاد . وحاول بيلاجيوس تولي القيادة ، وبرغم نصائحه ، استدارت الكتيبة الإيطالية وولت الأدبار ، وسرعان ما تفشى ذعر عام ، ولم ينقذ الباقين على قيد الحياة ومعسكرهم سوى مهارة الملك جون والنبلاء الفرنسيين والإنجليز والأنظمة الدينية العسكرية(٥٨).

---

(٥٦) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 208-10; *Gesta Obsidionis Damiate,* pp.87,90-7; John of Tulbia, pp.127-8.

(٥٧) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 188, 207-8; *Gesta Obsidionis Damiate, p. 90; Liber Duellii,* p. 258. وعن آثار المخلفات الدينية التي حصل عليها ليوبولد ، أنظر Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae,*ii, p.283. وكان كونت بار-سور-سين هو Milo III of Le Puiset.

(٥٨) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 213-19; *Fragmentum Provinciale de Captione Damiatae* (in Rohricht, op. cit.), pp. 185-92; *Gesta* Obsidionis Damiate, pp. 101-4; John of Tulbia, pp. 132-3; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 340-1.

١٢١٩م : القديس فرانسيس (أوف أسيسي)

كان هناك زائر بارز للمعسكر راح يرقب المعركة في أسى بئيس ، وهو الأخ فرانسيس (أوف أسيسي) . لقد جاء إلى الشرق وهو يظن - كظن كثير من الطيبين الحمقى قبله وبعده - أن سفارة سلام يمكنها أن تتوصل إلى السلام . وقد طلب الآن الإذن من بيلاجيوس للذهاب لمقابلة السلطان . وبعد قليل من التردد وافق بيلاجيوس ، وأرسله تحت راية الهدنة إلى فارسكور . وارتاب حراس المسلمين بادئ الأمر لكنهم سرعان ما قرروا أن أي شخص على هذا القدر من البساطة ، وبهذه الرقة ، وبتلك القذارة الطاغية ، لابد وأن يكون مجنونا ، وعاملوه بما يجب من احترام لشخص به مس من الرب . وأخذوه إلى السلطان الكامل الذي انبهر به ، وأنصت إلى مناشدته في صبر، وكان السلطان فائق الطيبة وبالغ التحضر بحيث لم يسمح له بأن يشهد على عقيدته عن طريق اختبار التعذيب بالنار[٥٩] ؛ كما لم يجازف بما قد تثيره مناقشة عامة حول الدين من مرارة . وعرضت على فرانسيس هدايا كثيرة لكنه رفضها ، وأعيد إلى المسيحيين يحيط به حرس الشرف[٦٠] .

ولم يكن تدخل القديس ضروريا في الواقع ، إذ كان الكامل نفسه يجنح إلى السلم. فقد ارتفع النيل في ذلك الصيف ارتفاعا طفيفا ووجدت مصر نفسها مهددة بالمجاعة ؛ وكانت الحكومة في حاجة إلى كل مواردها لإستجلاب الطعام على عجل من الأراضي المجاورة . وكان المعظّم في شوق للعودة مع جيشه إلى سوريا؛ ولم يكن أيّ من السلطانين سعيدا بأنشطة أخيهما الأشرف في الشمال . وفي بغداد كان الخليفة تحت سيطرة جلال الدين خوارزم شاه الذي دمّر أبوه محمد الأملاك السلجوقية في ايران وأسس امبراطورية ممتدة من نهر الإندوس إلى نهر دجلة[٦١] . ومن الممكن استخدام جلال الدين ضد الأشرف ، بيد أنه نظرا لطموحاته المعروفة كان من الخطورة تشجيعه على أن يبلغ هذا الشأو البعيد . ولذلك كان المعظّم على استعداد لمساندة الكامل في أية

---

(٥٩) (المترجم): اختبار التعذيب أو المحاكمة بالتعذيب :Ordeal طريقة ألمانية قديمة لتقرير ما إذا كان المشتبه فيه مذنبا أو بريئا بإخضاعه لإختبار بدني ، مثل وضع يده في ماء مغلى أو مروره بين أكوام محترقة بالنيران ، فإذا مر بهذا الإختبار بأمان ، يؤخذ ذلك على أنه تبرئة إلهية

(٦٠) *Acta Sanctorum,* October 4, pp. 611 ff. See van Ortroy `Saint Francois et son Voyage en Orient' in *Analecta Bollandiana,* vol. xxxi. ويبدو أن القصة التى أوردها Ernoul, p. 431 حول رجال الدين الذين لم يسمّيهم تشير الى زيارة القديس للسلطان

(٦١) (المترجم) : نهر الإندوس:Indus نهر في جنوب آسيا ينبع من جنوب غرب التبت ويتدفق غربا عبر جامو وكشمير في الهند، ثم الى الجنوب الغربى خلال باكستان ليصب في بحر العرب

مفاتحة وديّة مع الفرنج . وفي وقت ما من شهر سبتمبر وصل إلى الصليبيين سجين فرنجي من قبل السلطان يعرض هدنة قصيرة ويعرض استعداد المسلمين للتخلي عن القدس ؛ وقبلت الهدنة ، ولكن المسيحيين رفضوا مناقشة المزيد من شروط السلام[٦٢].

١٢١٩م : الكامل يعرض شروط السلام

وأمضى الجانبان كلاهما الهدنة في ترميم دفاعاتهما . كما وجد الكثير من الصليبيين فرصة سانحة للعودة إلى أوطانهم ، وقد سبق أن رحل البعض في بداية الشهر ، وفي ١٤ سبتمبر أبحر عدد آخر منهم بملأ اثنتي عشرة سفينة . وبعد أسبوع وصل اللورد الفرنسي سوفاري (أوف موليون) مع صحبة كبيرة نُقلت على عشرة قوادس شراعية من جنوا[٦٣]. وعندما خرق الكامل الهدنة وهاجم الفرنج يوم ٢٦ من الشهر تولى القادمون الجدد الدفاع بنجاح[٦٤].

وكان الكامل ما يزال يأمل في السلام ؛ إذ كان مدركا أن دمياط لن تصمد ، فعدد أفراد حاميتها انكمش للغاية من جراء المرض بحيث لم يتوفر ما يكفي من الرجال على الأسوار ، وقد باءت بالفشل محاولاته ادخال التعزيزات اليها ، كما لم ينجح الخونة في المعسكر ممن اشترى خدماتهم في أيّ من محاولاتهم . وفي نهاية اكتوبر أرسل فارسين من الأسرى لينقلا إلى الفرنج شروطه النهائية ، وهي أنه في حالة جلائهم عن مصر سوف يعيد اليهم الصليب الحقيقي ، وسوف يحصلون على القدس، وكل فلسطين الوسطى والجليل ، ولن يحتفظ المسلمون إلا بالحصون الواقعة في منطقة الأردن ، وسوف يدفعون لهم إتاوة[٦٥].

ولقد كان عرضا يأخذ بالألباب . إذ يمكن بدون حرب استعادة المدينة المقدسة مع

---

(٦٢) Oliver, *Historia Damiatana, p. 218; Gesta Obsidionis Damiate,* p. 105.

(٦٣) Oliver, *Historia Damiatana, loc. cit; Gesta Obsidionis Damiate,* p. 104; John of Tulbia, p. 133; James of Vitry, loc.cit..

(٦٤) Oliver, *Historia Damiatana, p. 219; Fragmentum Provinciale, pp. 193-4; Gesta Obsidionis Damiate, p. 106; Liber Duellii, p.160.*

(٦٥) Oliver, *Historia Damiatana, p.222; Estoire d'Eracles,* ii, pp. 341-2; Ernoul, p. 435; Maqrisi (trans. Blochet), ix, p. 490; *Histoire des Patriarches, p. 253; Gesta Obsidionis Damiate,* pp. 109-10; Ibn al-Athir, ii, p. 122.

بيت لحم والناصرة والصليب الحقيقي إلى العالم المسيحي . ونصح الملك جون بقبول العرض ، وأيده باروناته هو نفسه وبارونات انجلترا وفرنسا والمانيا . بيد أن بيلاجيوس لم يوافق على أي من هذا الشروط ، ولا بطريق القدس . إذ كانا يعتقدان أن الخطأ كله في التوصل إلى تفاهم مع الكفرة؛ ووافقتهما الأنظمة الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية؛ فقد هُدمت القدس وحصون الجليل ، ويستحيل على أية حال الإحتفاظ بالقدس بدون السيطرة على منطقة الأردن . وعارض الإيطاليون الشروط بنفس القدر. وبرغم أن المدن الإيطالية كانت قليلة الرغبة في إحداث صدع في العلاقات مع مصر ، فإن حدوث الصدع الآن بالفعل جعلهم يرغبون في الإحتفاظ بدمياط كمركز تجاري ؛ ولم يكن ضم أراض داخل البلاد يستهوى تلك المدن الإيطالية . وتفاقم الخلاف بين الفريقين بصورة ملؤها المرارة حتى أن أسقف عكا ، جيمس ، اعتقد أن السلطان قدم هذا العرض لا لشيء سوى أن يُحدث الشقاق بينهم . وبإصرار بيلاجيوس رفض العرض(٦٦).

وبعد أيام قلائل عادت مجموعة استكشاف كان بيلاجيوس قد أرسلها لتعلن أن سور دمياط الخارجي ليس عليه رجال ، وفي اليوم التالي، الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٢١٩م تقدم الصليبيون بقواتهم وتسوروه ، والسور الداخلي كذلك، بلا مقاومة تذكر . وفي داخل المدينة وجدوا رجال الحامية كلهم تقريبا يعانون المرض ، ولم يكن هناك على قيد الحياة من المواطنين سوى ثلاثة آلاف شخص ، كلهم في حالة من الضعف البالغ بحيث لا يستطيعون حتى دفن موتاهم . وكان الطعام والمال وفيرا ، غير أن المرض قام بما كان مفروضا أن يقوم به الصليبيون . وما أن استولى الصليبيون على المدينة كلها حتى احتجزوا ثلاثمائة من وجهاء المدينة كرهائن ؛ وسلموا الأطفال الصغار لرجال الدين لتعميدهم واستخدامهم في خدمة الكنيسة ، وباعوا من تبقى من المواطنين رقيقا. وكان من المقرر تقسيم المال فيما بين الصليبيين بحسب رتبة كل منهم ، غير أن كل ما أعلنه المندوب البابوى من لعنات للسارقين، لم يمنع الجنود من سرقة الأشياء الثمينة واخفائها(٦٧).

---

(٦٦) James of Vitry, *Epistola,* vi (Z.K.G. vol. xvi, pp. 74-5); Oliver, *Historia Damiatana,* p. 223, and *Epistola Regi Babilonis,* p. 305; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 342; letter of French lords to Honorius in Rohricht, *Studien zue Geschichte des Funften Kreuzzuges,* p.46; Maqrisi, *loc. cit.*.

(٦٧) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 236-40; *Gesta Obsidionis Damiate,* pp. 111-14; *Fragmentum Provinciale,*pp. 196-200; Ibn Khallikan, iv, p. 143;

وتمثلت الخطوة التالية فى ضرورة الاتفاق على حكم دمياط. وعلى الفور طالب الملك حون بأن تكون حزءا من مملكة القدس وأيده في ذلك الأنظمة الدينية العسكرية والنبلاء العلمانيين . وحاجج بيلاجيوس بأن المدينة المهزومة تنتمى إلى العالم المسيحى كله، أي إلى الكنيسة ؛ غير أنه خضع بعدما وحد الرأي العام ضده وبعد أن هدد حون بالإبحار عائدا إلى عكا . وبامكان الملك أن يحكمها إلى أن ينضم فريدريك الألماني إلى الحملة الصليبية(٦٨). وفي تلك الأثناء أرسل حزءا من الجيش لمهاجمة تانيس الواقعة على المصب التانيسي للنيل على مسافة أميال قليلة إلى الشرق ؛ فوحد الجنود أن حاميتها هجرتها قد خوفا ، فعاد الصليبيون بمزيد من الأسلاب ، لم تؤد إلاّ إلى مزيد من المشاحرات . وقد ظن الإيطاليون خاصة أنهم قد خُدعوا ، ولمّا وحدوا بيلاحيوس رافضا مناصرتهم انقلبوا على أعقابهم في تمرد حقيقي ؛ فكان لزاما على الأنظمة الدينية العسكرية طردهم من المدينة . وبحلول الشتاء كان الجيش المنتصر كله يتأجج سخطا(٦٩).

١٢٢٠م : بيلاجيوس ينشد حلفاء

تنبأ بيلاحيوس ، في غمرة ابتهاجه الأولى ، بالدمار النهائي للإسلام . فسوف تهزم الحملة الصليبية مصر كلها ؛ ولا شك أن العون سيأتى من ذلك العاهل المسيحي ذى الشهامة ملك حورحيا . كما أن هناك بريستر حون الذي قالت الشائعات إنه ينتظر ليضرب ضربة حديدة من أحل العالم المسيحي، وقد ظن بادئ الأمر أن بريستر حون إن هو إلا نجاشي اثيوبيا الذي لم يرد قط ، مع ذلك ، على رسالة من البابا أرسلها قبل أربعين سنة(٧٠). على أن هناك الآن مرشّحا جديدا للقيام بهذا الدور وهو عاهل شرقي يدعى جنكيز خان . ولسوء الحظ لم يكن للحلفاء المقصودين من تأثير ؛ إذ أن المغول التابعين لجنكيز خان هزموا حيش الملك جورج ، وهو ملك جورجيا ، هزيمة نكراء عام ١٢٢٠م على حدود أذربيجان ، ودمّرت القوة العسكرية الهائلة التي بنتها الملكة تمار .

Ibn al-Athir, ii, p. 119; Abu Shama, pp. 176-7.

(٦٨) *Gesta Obsidionis Damiate*, p.115; John of Tulbia, p. 139; Ernoul, p. 426.

(٦٩) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 240-1; John of Tulbia, p. 139; *Liber Duellii*, p. 166.

(٧٠) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 231-5. وقد تأثر بيلاجيوس أيضا بنبوءة اسلامية واعدة. وعن بريستر حون انظر أعلاه، الجزء الثاني ، (ص. ٤٧٤) والملحوظة (٣٩).

ولم يعبأ المنتصرون بمهاجمة الإمبراطورية الأيوبية[٧١]. أما التعاون الأكثر حدية فكان متوقعا من أعظم عواهل غرب اوروبا، فريدريك، ملك ألمانيا وصقلية.

وقد سبق أن أخذ فريدريك الصليب عام ١٢١٥م، لكن البابا إينوسنت منحه الإذن بتأجيل الحملة الصليبية حتى يفرغ من ترتيب الأمور في ألمانيا. وما يزال فريدريك يتلكأ؛ إذ وعد البابوية بتسليم عرش صقلية الذي ورثه وهو صبى لإبنه الصغير هنرى. لكنه سرعان ما اكتشف أنه بمعاودة تصميمه على الذهاب في حملة صليبية فإنه إنما يرضى بتقسيم مملكته، وسوف يساوم البابا على تتويجه الإمبراطورى. وكانت رغبته في الذهاب إلى الشرق رغبة أصيلة، برغم أن دوافع الذهاب ترجع إلى الطموح أكثر مما ترجع إلى التقوى؛ إذ أنه ورث عن أبيه هنرى السادس تطلعاته الشرقية، لكنه لن يحاول تحقيقها إلا كامبراطور ممالكه الاوروبية آمنه في قبضته. وكان ينبغي لنواياه أن تكون واضحة جلية للبابا؛ على أن هونوريوس، الذي كان ذات مرة معلما له، كان رجلا بسيطا اعتبر أن وعوده أصيلة، ودأب على ارسال الرسائل إلى الصليبين في مصر يزف اليهم نبأ توقع جيش هوهينيشتافن[٧٢].

ومن أجل ذلك ركن الصليبيون إلى الدعَّة والراحة؛ وفي حالة التراخى التى ركنوا اليها تفاقمت الخلافات بين بيلاجيوس والملك جون والإيطاليين والأنظمة الدينية العسكرية. ولو أنهم زحفوا على القاهرة فور سقوط دمياط لكان النجاح حليفهم؛ إذ كان الكامل في وضع يائس، وقد وهنت العزيمة لدى جيشه، ورعاياه يتضورون جوعا ولقد أصر المعظّم على إعادة قواته إلى سوريا لخشيته من حدوث اضطرابات في الشمال ولإعتقاده أن أفضل السبل لمساعدة الإسلام هي شن هجوم الآن على عكا نفسها. وبات الكامل في كل يوم يتوقع تقدم المسيحيين، فاتخذ من طلخا مقرا لمعسكره، على مسافة أميال قليلة أعلى فرع دمياط وشيّد على عجل التحصينات على جانبي النهر

---

(٧١) أنظر أدناه ص ٢٩٧. وقد كتب بيلاجيوس الى البابا هونوريوس الثالث معربا عن آماله في مساعدة جورجيا (Rohricht, *Studien*, p. 52). وكان إينوسنت الثالث قد سبق وطلب تعاون جورجيا (Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 232-3). وأظهر James of Vitry اهتمامه بتدخل المغول بأن ترجم من العربية، بمساعدة بعض الخبراء، كتاب يسمى *Excerpta de Historia* David regis Indiorum qui *Presbyter Johannes a vulgo appellatur* (ed. Rohricht, Z.K.G. vol. xvi, pp. 93 ff.). وما أورده من حقائق خاطئ تماما.

(٧٢) للإطلاع على ملخص بالمراجع حول تعاملات فريدريك مع البابا أنظر Donovan, *op.cit.* pp. 75-9.

توقعا لهجوم لم يحدث قط[٧٣].

١٢٢٠م : الملك جون يغادر الجيش

وقد مات ليو الثاني ملك أرمينيا في أوائل الصيف من عام ١٢١٩م تاركا بنتين كانت كبراهما ستيفاني زوجة جون (أوف برين)، وكانت الصغرى ، إيزابيلا ، إبنة الأميرة سبيللا أميرة قبرص والقدس ، وكانت في الرابعة من عمرها . وكان ليو قد وعد باستخلاف ابن اخيه ريموند-روبين أمير انطاكية ، غير أنه وهو على فراش الموت عيّن إيزابيلا وريثة له . وعلى الفور تقدم جون بمطالبة بالعرش نيابة عن زوجته وابنهما الرضيع، وفي فبراير ١٢٢٠م تسلم إذنا من البابا بمغادرة الحملة الصليبية وزيارة أرمينيا. وكانت علاقته ببيلاجيوس من السوء بحيث لم يكن هناك مغزى في بقائه مع الجيش ، ومن ثمّ منح البابا الآن صراحة كامل القيادة لبيلاجيوس، ورحل جون إلى عكا . وبينما هو يتهيأ للإبحار إلى كيليكيا ماتت زوجته الأرمينية وقالت الشائعات إن موتها جاء نتيجة لسوء معاملته لها . وبعد أسابيع قليلة مات ابنهما الصغير ، ومن ثم لم يعد لجون أية مطالبات أخرى في العرش الأرميني . بيد أنه لم يرجع إلى مصر[٧٤]. وفي شهر مارس أغار المعظّم على المملكة مهاجما قلعة قيسارية التى أعيد بناؤها لتوها، ثم تحول ليضرب الحصار حول معقل فرسان المعبد في عثليت . فهرع فرسان المعبد عائدين من دمياط ، وأبقى جون جيشه في الأفق . ودام الحصار حتى شهر نوفمبر عندما انسحب المعظّم إلى دمشق[٧٥].

وفي تلك الأثناء بقيت الحملة الصليبية ساكنة لا تتقدم ولا تتأخر . وبُذلت محاولات لإعادة بناء المدينة ففي عيد التطهير، في فبراير[٧٦]، كُرّس المسجد الجامع ليصبح كتدرائية العذراء . وفي شهر مارس وصلت مجموعة من الأساقفة الإيطاليين على رأسهم رئيس اساقفة ميلانو ، يصحبهم مبعوثان من فريدريك الثاني، وجلبوا معهم

---

(٧٣) *Histoire des Patriarches*, p. 254; Abu'l Fida, p. 91 .

(٧٤) Ernoul, p. 427; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 340; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 248.

(٧٥) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 244-5, 255-6; Ernoul, pp. 421-4.

(٧٦) (المترجم) : عيد التطهير : Feast of the Purification عيد مسيحى تخليدا لتقديم المسيح في المعبد بعد استكمال تطهير مريم (انظر انجيل لوقا ، ٢:٢٢) ، وموعده ٢ فبراير

قوات كبيرة ، واتفقوا من فورهم مع بيلاجيوس على شن هجوم . لكن الفرسان لم يوافقوا قائلين إن الملك حون هو القائد الوحيد الذى ينبغي لجميع الأمم أن تدين له بالطاعة ، وهو غائب الآن(٧٧). وفي شهر يولية أرسل فريدريك ثمانية قوادس بقيادة ماثيو ، كونت أبوليا، فعاود بيلاجيوس محاولاته لشن هجوم دون جدوى، حتى عندما اقترح حملة منفصلة لم يجد أذنا صاغية ، بل انقلب ضده مرتزقته هو نفسه من الإيطاليين، وكان المشروع الوحيد الذي وافقت عليه الأنظمة الدينية العسكرية هو الإغارة على مدينة البرلس على مسافة عشرين ميلا إلى الغرب من دمياط . ونهبت المدينة ؛ لكن الفرسان وقعوا في كمين في طريق عودتهم وأسر عدد من فرسان المستشفى ، بمن فيهم رئيسهم المارشال(٧٨).

والآن استعاد الكامل ثقته بنفسه . وبرغم أنه كان ما يزال يفتقر إلى القوات البرية فقد أصلح بحريته ، وفي صيف عام ١٢٢٠م أرسل أسطولا في فرع رشيد أبحر إلى قبرص حيث وحد أسطولا صليبيا راسيا أمام ليماسول، وبهجوم مفاجئ أغرق أو أسر السفن الصليبية كلها ، وأسر ألوفا كثيرة . وقيل إن بيلاجيوس تلقى تحذيرات تقول إن البحارة المصريين دائبون على عمل الترتيبات ، إلا أنه لم يعبأ بتلك التحذيرات . وبعد أن سبق السيف العذل أرسل أسطولا بندقيا لإعتراض الأعداء ولمهاجمة موانى رشيد والإسكندرية ولكن بلا جدوى ، إذ حال افتقاره إلى المال دون أن يتوفر لديه ما يكفيه من السفن الخاصة به ؛ ولم يكن بوسع الخزانة البابوية أن توفر له أية أموال أخرى(٧٩).

وفي سبتمبر عاد المزيد من الصليبيين إلى بلادهم ؛ غير أنه في نهاية العام أرسل البابا هونوريوس أخبارا طيبة . فقد جاء فريدريك إلى روما في نوفمبر ١٢٢٠م ، توّجه البابا امبراطورا وتوّج زوجته كونستانس امبراطورة ، وفي المقابل وعد فريدريك وعدا قاطعا بالإنطلاق إلى الشرق في الربيع التالي . وكان هونوريوس قد بدأ يرتاب في وعود فريدريك ، حتى أنه نصح بيلاجيوس بعدم رفض أية عروض للسلام مع السلطان قبل أن يحيلها إلى روما . غير أن الامبراطور الجديد بدا الآن جادا في وعده ؛ ونشط في تشجيع رعاياه على أخذ الصليب ، وسيّر كتيبة كبيرة بقيادة لويس ، دوق بافاريا ،

---

(٧٧) Oliver, *Historia Damiatana,* p. 248; Roger of Wendover, ii, pp. 260-1.

(٧٨) Oliver, *Historia Damiatana,* p. 252.

(٧٩) Ernoul, pp. 429-30; Oliver, *Historia Damiatana,* p. 253.

أبحرت من ايطاليا في وقت مبكر من الربيع(٨٠).

جاءت أنباء اقتراب وصول الدوق فأثلجت للغاية صدر بيلاجيوس حتى أنه عندما سبق عرض الكامل شروط السلام في شهر يونية ، نسي تعليمات البابا ورفضها ، ولم يخطر روما إلاّ مع وصول الأخبار السارة . وكان الكامل قد عرض مرة أخرى التخلي عن القدس وفلسطين كلها عدا منطقة الأردن مع هدنة مدتها ثلاثين سنة ودفع أموال تعويضا عن تدمير القدس . وبعد رفض هذه الشروط مباشرة وصل لويس دوق بافاريا(٨١).

١٢٢١م : الصليبيون يتقدمون

كان فريدريك قد أمر لويس بألا يشن هجوما كبيرا إلى أن يصل هو نفسه . لكن لويس كان متلهفا على مهاجمة الكفرة ؛ وبعدما انتظر خمسة أسابيع دون أن تصله أية أنباء عن مغادرة فريدريك لأوروبا تساوت مع رغبات بيلاجيوس . ولم يقتنع زعماء الصليبيين بضرورة الزحف الفوري، للجيش الذي وصلته التعزيزات، داخل مصر إلاّ بعد أن جادل الدوق بأن الوقت قد حان نظرا لإقتراب وقت فيضان النيل، وبعد أن أعلن الممثل البابوي أن الحالة المالية للجيش تستلزم عملا عاجلا. ولكن زعماء الصليبيين أصروا على شيئ واحد وهو استدعاء الملك جون ليلعب دوره ، وكانت المعارضة ضئيلة . وكتبت ملكة قبرص الوصيّة على العرش إلى بيلاجيوس.أن العمل يجرى على قدم وساق لإعداد جيش اسلامي ضخم في سوريا يعده المعظّم وأخوه الأشرف ؛ وتلقى فرسان الأنظمة الدينية العسكرية من إخوانهم في فلسطين ما يؤكد تلك الأنباء. غير أن بيلاجيوس وجد في تلك الأنباء حجة اخرى للتقدم العاجل داخل مصر ؛ وخاصة وأنه سمع نبوءات تفيد بسرعة انتهاء سيادة السلطان(٨٢).

---

(٨٠) أنظر Oliver, *historia Damiatana*, p.257. Hefele-Leclereq, *Histoire des Conciles*, v, ii, pp. 1420-1.

(٨١) Oliver, *loc. cit.;* James of Vitry, *op. cit.* pp. 106-9; Ernoul, p. 442.

(٨٢) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 257-8; Roger of Wendover, ii, p. 264; James of Vitry, *Epistola* vii (Z.K.G. vol. xvi, p. 86); Ernoul, pp. 441-3. وعن النبوءات أنظر : Oliver, *Historia Damiatana*, pp.258-0; James of Vitry, *Excerpta* (Z.D.G.vol. xvi, pp. 106-13); *Annales de Dunstaplia (Annales Monastici*, vol. iii, p. 62); Alberic of Trois Fontaines, p. 790.

وفى ٤ يولية ١٢٢١م أمر الممثل البابوى بالصوم ثلاثة أيام في المعسكر . وفي السادس من الشهر وصل الملك حون عائدا مع فرسان مملكته وقد ملأه الحماس لكنه لم يكن على استعداد لأن يُتِّهم بالجبن. وفي الثاني عشر من الشهر تحركت القوة الصليبية قاصدة فارسكور، وهناك رتبها بيلاجيوس في تشكيلات قتالية . ولقد كان حيشا كبيرا؛ تحدث معاصروه عن ستمائة وثلاثين سفينة من شتى الأحجام وخمسة آلاف فارس وأربعة آلاف رامٍ وأربعين ألف جندي مشاة . وصاحب الجيش حشد كبير من الحجاج؛ وقد أمروا أنْ يسيروا بالقرب من ضفة النهر لتزويد الجنود بالماء. وتخلفت حامية كبيرة في دمياط.

وتقدم الجيش الإسلامي حتى شرمشاح لملاقاتهم ، ولكنه بعد أن شاهد أعدادهم الضخمة انسحب خلف البحر الصغير الذي يجرى من النهر إلى بحيرة المنزلة ، ولبث منتظرا في مكانين سبق الإعداد لهما ، في طلخا وفي الموقع الذى أصبح المنصورة فيما بعد على حانبى النهر . وبحلول ٢٠ يولية كان الصليبيون قد احتلوا شرمشاح . وتوسل اليهم الملك حون كي يبقوا هناك ، فقد حان وقت فيضان النيل ، والجيش السوري يقترب ؛ لكن بيلاجيوس أصر على المزيد من التقدم ، يؤيده عوام الجنود الذين سمعوا شائعة بأن السلطان قد هرب من القاهرة . وفي حنوب شرمشاح مباشرة كانت هناك قناة آتية إلى النهر من فرع آخر ؛ وفي حميّة تقدم الصليبيين لم يتركوا سفنا لحماية مصب القناة ، ربما لظنهم أنها غير صالحة للملاحة . وبحلول يوم السبت ٢٤ يولية كان الجيش المسيحى كله رابضا بطول البحر الصغير مواجها للعدو.

ولقد ارتفع النيل الآن وامتلأت القناة وغدا الدفاع عنها يسيرا . على أنها قبل أن يصبح غورها بالغ العمق عبرتها حيوش أخوي الكامل - المعظّم والأشرف - بالقرب من بحيرة المنزلة واتخذت لها مواقع حصينة تفصل بين الصليبيين ودمياط . وما أن توفر ما يكفي من المياه في القناة المارة بشرمشاح حتى ابحرت سفن الكامل فيها وقطعت طريق انسحاب الأسطول المسيحى . وفي منتصف أغسطس تحقق بيلاجيوس من أن حيوش الأعداء تفوق حيشه عددا ، وأن حيشه محاصر تماما وليس لديه من طعام سوى ما يكفيه لعشرين يوما . وبعد قليل من الجدل ، حث البافاريون القيادة على الإنسحاب الفورى كوسيلة وحيدة للهرب ؛ وفي ليلة الخميس ٢٦ أغسطس بدأ الإنسحاب الذي شابته الفوضى . ذلك أن الكثير من الجنود لم يتحملوا ترك مخزوناتهم من النبيذ ، فشربوه كله بدلا من تركه . وعندما صدرت الأوامر بالتحرك كانوا فى حالة سكر شديد . وفي حركة حمقاء أشعل فرسان التيوتون النيران في المخزونات التى لم يستطيعوا

حملها ، وبذا أبلغوا المسلمين بأنهم تاركو مواقعهم . وكان النيل ما يزال يرتفع ، وأصدر السلطان أو أحد قادته الأوامر بفتح المنافذ الواقعة بطول الضفة اليمنى . فتدفقت المياه على الأراضي المنخفضة التي ينبغي للمسحيين عبورها ؛ فراحوا يكدحون خلال بحيرات الوحل والمصارف الطينية وفي ذيلهم خيّالة السلطان من الأتراك ومشاة الحراسة من أبناء النوبة . وتمكن الملك حون وفرسانه من دحر خيالة الأتراك ، ورد فرسان الأنظمة الدينية العسكرية النوبيين ، ولكن بعد أن هلك الألوف من المشاة والحجاج . وكان بيلاجيوس على ظهر سفينة جرفتها مياه الفيضان فتجاوزت في سرعة حصار الأسطول المصرى ؛ ولأن سفينته كانت تحمل الإمدادات الطبية للجيش والكثير من طعامه ، فقد كان فراره بمثابة كارثة . وتمكنت سفن أخرى قليلة من الهرب لكن المسلمين استولوا على الكثير من السفن(٨٣).

١٢٢١م : بيلاجيوس يستعطف طالبا السلام

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر تملك اليأس بيلاجيوس ، فأرسل مبعوثا إلى السلطان طالبا السلام ؛ وما يزال لديه رصيد يساوم عليه ؛ فقد أعيد تحصين دمياط وبها حامية جيدة ولديها الأسلحة الوفيرة ؛ وهناك أسطول بحري قوي في الأفق بقيادة هنرى كونت مالطا ، وولتر (أوف باليرِ)، مستشار صقلية ، الذى أرسله الامبراطور فريدريك . لكن الكامل كان يعلم أن الجيش الصليبى الرئيسى تحت رحمته ؛ فكان صارما وانما كريما . وبعد الأخذ والرد في عطلة نهاية الأسبوع ، قبل بيلاجيوس يوم الإثنين شروطه التى تقضى بأن يتخلى المسيحيون عن دمياط ويحترموا هدنة مدتها ثمانية أعوام يعتمدها الامبراطور . ويتم تبادل جميع الأسرى من الجانبين . وسوف يعيد السلطان من جانبه الصليب الحقيقي . وعلى الحملة الصليبية تسليم زعمائها كرهائن إلى أن تستسلم دمياط ، وحدد السلطان بالإسم بيلاجيوس والملك حون ودوق بافاريا والسادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية وثمانية عشر شخصا آخرين من الكونتات والأساقفة . وفي المقابل أرسل أحد أبنائه ، وأحد إخوته وعددا من صغار الأمراء(٨٤).

---

(٨٣) يرد الوصف الأكثر اكتمالا لشاهد عيان في Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 257-73 ؛ Roger of Wendover, ii, pp. 263-4; Ernoul, pp. 439-44; *Histoire des Patriarches*, pp. 257-8; Abu Shama, ii, pp. 180, 182-3; Ibn al-Athir, ii, pp. 122-4, 158; Ibn Khallikan, iii, p. 241.

(٨٤) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des*

وعندما أُرسل السيدان العظيمان لفرسان المعبد وفرسان التيوتون إلى دمياط لإعلان استسلامها ، تمردت الحامية أول الأمر ضد هذا الأمر وهاجمت منزل الملك حون ومنازل الأنظمة الدينية العسكرية . ذلك أن هنرى ، كونت مالطا كان قد وصل لتوه مع أربعين سفينة ؛ وشعرت الحامية بما يكفى من القوة لتحدى الأعداء . غير أن الشتاء قادم والطعام ينفد وقادتهم رهائن والمسلمين يهددون بالزحف على عكا . وسرعان ما رضخ المتمردون . وبعد أن أولم الكامل للملك حون وليمة رائعة ، وبعد أن أعاد تموين الجيش المسيحى بلا مقابل ، تم تبادل الأسرى ؛ وفي يوم الأربعاء ٨ سبتمبر اعتلت الحملة الصليبية كلها ظهور سفنها ودخل السلطان دمياط[٨٥].

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة ، التى كانت قاب قوسين أو أدنى من النجاح . ولو كان في الجيش المسيحى قائد حكيم يلقى الإحترام ، لتحقق احتلال القاهرة والقضاء على الحكم الأيوبي في مصر . وبتنصيب حكومة أكثر ودا هناك - إذ لم يكن الصليبيون يأملون قط في حكم مصر كلها بأنفسهم - لكان استرجاع فلسطين كلها أمرا غير مستحيل . لكن الامبراطور الذي كان خليقا وحده بأن يشغل هذا الدور لم يأت البتّة برغم كل وعوده . لقد كان بيلاجيوس رجلا متعجرفا فاقد الحيلة ممجوجا تكشفت أخطاؤه كقائد في كارثة الهجوم الأخير ، بينما لم يكن لدى الملك حون ، برغم كل شجاعته ، الشخصية أو الهيبة لقيادة جيش دولي . وتكاد كل مرحلة من الحملة أن تكون قد تحطمت على صخرة الغيرة الشخصية أو القومية . وكان الأكثر حكمة قبول الشروط التي عرضها السلطان مرتين واسترداد القدس . غير أنه ربما كان خبراء الإستراتيجية على حق عندما قالوا إنه من المحال الإحتفاظ بالقدس بدون حصون منطقة الأردن ، على الأقل طالما كان المسلمون في مصر وسوريا متحالفين . وهكذا لم تكسب الحملة شيئا، وفقدت الكثير من الرجال والموارد والسمعة ، وكان أكثر الضحايا تعاسة هم أكثرهم طهارة ذيل . ونتيجة الخوف من مسيحيي الغرب ، ثارت موجة جديدة من التعصب في الإسلام . ففي مصر ، وبرغم التسامح الشخصى الذي كان الكامل يتحلى به ، مورست تصرفات معينة ضد المسيحيين المحليين ، الملكيين والأقباط سواء بسواء ؛ ففرضت ضرائب باهظة ، وأغلقت كنائس ، ونهب الجنود

Patriarches, pp. 257-8; Abu Shama, ii,p. 183-5

(٨٥) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des Patriarches*, p. 258.

المسلمون الغاضبون الكثير منها. كما لم يكن في الإمكان أن يستعيد التجار الإيطاليون سابق وضعهم في الإسكندرية ؛ فقد شجّع أبناء جلدتهم الحملة الصليبية ، وبرغم عودتهم إلى موائد صرافتهم لم تعد الثقة فيهم كسابق عهدها. ولقد أبحر جنود الصليب عائدين إلى بلادهم يكللهم العار وتنهشهم المرارة . ولم يعيدوا معهم حتى الصليب الحقيقي نفسه . وعندما حان الوقت لتسليمه لم يُعثر له على أثر[٨٦].

---

(٨٦) عن التفسيرات المعاصرة لفشل الحملة الصليبية أنظر Donovan, *op.cit.* pp.94-7 والحواشي ، وانظر أيضاً Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 31-4.

الفصل الثالث:

الامبراطور فريدريك

الامبراطور فريدريك

"والآن أرسلت رجلا حكيما صاحب فهم"
(اخبار الأيام الثاني ٢:١٣)

عندما أبحرت الحملة الصليبية في كآبتها من دمياط ، عاد الملك جون إلى عكا مباشرة، بينما اتجه الكاردينال بيلاجيوس شمالا لتنفيذ تعليمات البابا في أنطاكية وفي مملكة كيليكيا الأرمينية. ذلك أنه بوفاة الملك ليو الثاني، اعترف البابا هونوريوس بمطالبة جون (أوف برين) باستخلاف زوجته أو ابنها ؛ وبموتهما حوّل تأييد الكنيسة إلى ريموند-روبين أمير انطاكية الذي جاء بنفسه إلى دمياط في صيف عام ١٢٢٠م للتشاور مع بيلاجيوس . وقبل ذلك بأشهر قليلة كان بوهمند أمير طرابلس قد أعاد الإستيلاء على أنطاكية رغم احتفاظ فرسان المستشفى بالقلعة . ثم أغار ريموند-روبين على كيليكيا مع أمه الأرمينية أليس ، ووطد دعائمه في طرسوس انتظارا للعون من فرسان المستشفي الذين تربطه بهم علاقات حسنة ، إذ عهد اليهم برعاية قلعة أنطاكية. على أن النبلاء الأرمن نفذوا رغبة مليكهم الراحل وقبلوا إبنته الصغيرة إيزابيلا مليكة

تحت وصاية آدم أمير بغراس . وقد اغتال الحشاشون آدم بعد أشهر قليلة من السلطة ، بتحريض من فرسان المستشفى بلا شك ؛ وخلفه في الوصاية قسطنطين زعيم الأسرة الهيثومية ، وكان الهيثوميون فيما سبق يمثلون الحزب المناصر لبيزنطة في أرمينيا. والآن برزوا كأبطال الوطنية ضد ما كانت تميل اليه الأسرة الحاكمة من اضفاء الصبغة اللاتينية. وفي وقت مبكر من عام ١٢٢١م زحف قسطنطين على طرسوس واستولى عليها ومعه الأمير وأمه ؛ وبعد ذلك مباشرة مات ريموند-روبين في السجن ، وبرحيله باتت ايزابيللا آمنة على العرش الأرمني ، وكذلك الحال مع بوهمند أمير طرابلس في أنطاكية[١].

وكان البابا قد حذر بيلاجيوس كي يتصرف بعناية ، فلا فائدة في طرح مطالبات بنات ريموند-روبين الرضّع اللاتي تقاعدن مع أمهن اللوسينانية في قبرص . لكن بوهمند هو ابن الكنيسة العاق ، وقد تدبر انتزاع قلعة انطاكية من فرسان المستشفى ، كما حرمهم من الوعد بمنحهم حبلة التي عرضها عليهم ريموند-روبين إذا نجحوا في الإستيلاء عليها، وترك الحق في هذا الوعد لفرسان المعبد ، ومن ثمّ برز خطر اندلاع حرب مفتوحة فيما بين الأنظمة الدينية العسكرية . وتدبر بيلاجيوس اقناع كل منهما بقبول نصف المدينة ؛ غير أن بوهمند لم يرفض فقط إعادة الإعتراف بحق فرسان المستشفى في انطاكية ، وانما ضم ممتلكاتها هناك حتى برغم تهديد بيلاجيوس بطرده من الكنيسة وتنفيذه حكم الطرد . وظل فرسان المعبد على صلة حميمة به ، وسعى الوصي على أرمينيا إلى التحالف معه . وكان السلطان السلجوقي كايكوباد أعظم عاهل الآن في آسيا الصغرى ؛ إذ احتل جبال طوروس الغربية ، واتخذ من ساحل ألايا عاصمته الشتوية ، وكان يمثل تهديدا للحدود الأرمينية كلها.وكان الأرمن في احتياج لحسن نوايا أنطاكية ؛ ولذا اقترح الوصي أن يرسل بوهمند ابنه الرابع فيليب ليتزوج من الملكة الأرمينية الشابة ، مصرا على شرط واحد فقط وهو أن ينضم العريس إلى الكنيسة الأرمينية المنشقة. ولّما كانت الضغينة ملتهبة في صدر بوهمند من قرار المندوب البابوي بطرده من الكنيسة ، فقد سمح لإبنه عن طيب خاطر بالسقوط في الهرطقة . وساعد التحالف بين ارمينيا وانطاكية على تحقيق هدفه العاجل ؛ إذ حوّل كايكوباد انتباهه بعيدا عنهما إلى جيرانه المسلمين في الشرق.

---

(١) عن التفاصيل والمصادر، أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 628-32

١٢٢٦م : الإستخلاف الأرمني

كان الأرمن يعلقون الآمال على أن يصبح فيليب نفسه أرمينيا صالحا ، خاصة وأنه لم تكن لديه توقعات قط في أن يرث أنطاكية ؛ غير أن مزاجه كان لاتينيا عنيدا ، وقد أمضى أغلب الوقت في انطاكية . وثارت حفيظة الهيثوميين وأصدقائهم، فاعتقلوه بليل في أواخر عام ١٢٢٤م أثناء ترحاله إلى أنطاكية وسجنوه في سيس حيث دسّوا له السم بعد ذلك بأشهر قليلة . وثارت ثائرة بوهمند لكنه كان فاقد الحيلة؛ إذ أن البابا كان قد آيد طرده من الكنيسة وحذر فرسان المعبد كي يبتعدوا عنه . وانحاز فرسان المستشفى صراحة إلى جانب الأرمن المراطقة ، فعندما هربت الملكة الشابة أرملة فيليب كسيرة القلب إلى سيليوشيا لائذة بحمايتهم ، سلّموا المدينة كلها إلى الوصى قسطنطين ليتجنبوا عار تسليمها بأنفسهم. واستنجد بوهمند بكايكوباد فغزا السلاحقة كيليكيا ؛ فما كان من قسطنطين إلا أن حثّ بوهمند على إيقافهم بأن دعاه للحضور إلى كيليكيا ليستعيد ابنه ، وفي ذات الوقت رتّب لطغرل - الوصي على حلب - لأن يزحف على أنطاكية. وعندما وصل بوهمند فعلا إلى كيليكيا قيل له إن ابنه قد مات وعليه أن يسرع عائدا إلى عاصمته انطاكية للدفاع عنها ضد طغرل . وفي تلك الأثناء أُجبرت الملكة الشابة التعيسة إيزابيلا على الزواج من هيثوم ابن قسطنطين. وظلت لسنوات كثيرة على رفضها العيش معه ، لكنها لانت في نهاية الأمر ، وفي عام ١٢٢٦م احتُفل بتتويجهما معا . والآن رأى قسطنطين ، برغم وطنيته الشديدة ، أن من الحكمة مصالحة أرمينيا مع البابوية ؛ فأُرسلت الرسائل باسم الزوجين الشابين إلى البابا وإلى الامبراطور فريدريك[٢].

رضى مسيحيو الشمال كل الرضا لإستدامة الحرب بين جارَيهم الرئيسيين المسلمين وهما السلاحقة من ناحية والأيوبيون في حلب والموصل من ناحية اخرى ؛ إذ لا تنطبق عليهم هدنة الثماني سنوات التي ضمنها الكامل . وفي الجنوب ، استغل جون (أوف برين) هذه المعارك الإسلامية استغلالا شغوفا لكي تستريح مملكته المرهقة ، وبخاصة لكي ينعِش التجارة مع بلاد الداخل الإسلامية التي كانت مصدر إيراداته الرئيسي . وفي خريف ١٢٢٢م قرر زيارة الغرب ؛ إذ كان يرغب في استشارة البابا حول مساعدة مملكته فى المستقبل ، وعليه أن يجد زوجا لإبنته الملكة الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية

---

(٢) Cahen, *op. cit.* pp. 632-5 . ويكتب المؤرخون الأرمن من وجهة نظر الهيثوميين . وأفضل سرد موضوعي هو سرد ابن الأثير. ii, pp. 168-70

عشرة ، لكنه الآن في السبعينات من عمره ، ولا بد من ضمان استخلافه. وبعد أن عيّن نائبا له هو أودو (أوف مونتبليارد)، ركب السفينة من عكا مع بيلاجيوس الذي أنهى لتوه جولة رسولية بابوية في قبرص مع بطريق القدس ، رالف (أوف ميرينكورت) ومع السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا) موجودا بالفعل في روما . وهبطت الصحبة الي اليابسة في برنديزي بجنوب ايطاليا في نهاية أكتوبر[٣].

ومضى جون مباشرة إلى روما حيث طالب بمنح مملكة القدس أية أراض تستولي عليها أية حملة صليبية في المستقبل، وربما اعترض بيلاجيوس على ذلك، لكن البابا وافق على طلب جون وأرسل الامبراطور بموافقته كذلك . ثم ذهب جون إلى فرنسا لزيارة صديقه القديم الملك فيليب أوغسطس مرة اخرى . وفي ذات الوقت طرح هيرمان (أوف سالزا) اقتراحا يقضي بزواج الملكة يولاندا من الامبراطور فريدريك نفسه الذي ماتت زوجته الإمبراطورة قبل أربعة أشهر . ولسوف يكون زواجا رائعا . وراقت الفكرة لجون، ولكنه تردد إلى أن وعده هيرمان بالإحتفاظ بالوصاية حتى مماته . وتحمّس البابا ، فإذا كان لفريدريك أن يحكم القدس باسم زوجته أي يصبح زوجا للملكة، فيقينا لن يعاود مراوغاته وتأجيله للحملة الصليبية ؛ وبوصول جون إلى باريس كانت المفاوضات قد اكتملت تقريبا . ولم ترق الأنباء للملك فيليب وعنف جون ؛ إذ أن ملك فرنسا هو الذي كان مطلوبا منه حتى الآن أن يعثر على زوج لوريثة مملكة الشرق الفرنجي . وكان فيليب قد سبق ورشح جون ؛ ولكن تقديرا لما كان بينهما رحّب فيليب بجون ترحيبا طيبا ، وكان جون حاضرا عندما مات فيليب في مانتيس يوم ١٤ يولية ١٢٢٣م . وترك فيليب في وصيّته لجون خمسين ألف مارك كي تنتفع بها مملكة القدس ، مع ميراث مماثل لنظام فرسان المستشفى ونظام فرسان المعبد . وحضر جون جنازة الملك وتتويج ابنه لويس الثامن ، ثم ذهب في رحلة الحج إلى سانتياجو دي كومبوستيلا في أسبانيا . ومكث بضعة أشهر في كاستيل حيث تزوج برنجاريا أخت الملك فرديناند الثالث، وعاد إلى ايطاليا في وقت ما من عام ١٢٢٤م[٤].

---

(٣) Oliver, *Historia Damiatana,p.280; Estoire d'Eracles,*ii,p.355; Ernoul,pp.448-9; *Annales de Terre Sainte,*p.437

(٤) Ernoul, pp. 449-50; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 355-6; Richard of San Germano, M.G.H. vol. xix, pp.342-3; *Historia* Diplomatica Friderici Secundi (ed. Huillard Bréholles), ii, p. 375. وحيث أن يولاندا هي حفيدة بنت أخت فريدريك ، أصدر البابا تحلة للزواج. Raynaldus, Anno 1223, no. 7, i, pp. 465-6.

١٢٢٥م : زواج فريدريك ويولاندا

وفي شهر أغسطس من العام التالى ، وصل إلى عكا هنرى كونت مالطة ومعه أربعة عشر قادسا امبراطوريا لكي يصطحب الملكة الصغيرة ، التي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ، إلى ايطاليا لزفافها. وكان على ظهر السفينة جيمس ، رئيس أساقفة كابوا المختار ، الذي ما أن هبط إلى البر حتى تزوج يولاندا كوكيل لفريدريك في كنيسة الصليب المقدس . ثم أخذت إلى صور ، ولكونها تعتبر الآن راشدة ، وتوّجها البطريق رالف ملكة للقدس في حضور جميع نبلاء مملكة الشرق الفرنجى ؛ واستمرت الحفول لأسبوعين ، ثم أبحرت الملكة بصحبة رئيس أساقفة صور ، سيمون (أوف موحاستيل) وابن عمها باليان أمير صيدا . وتوقفت لأيام قليلة في قبرص لرؤية خالتها، الملكة أليس . وعندما حانت ساعة الرحيل انهمرت الدموع من مآقي الملكتين والسيدات كلهن ؛ وسمعن يولاندا تتمتم تمتمة وداع حزينة لأرض سوريا الحلوة التي لن تراها مرة أخرى[٥].

وفي برنديزي كان الامبراطور ، ومعه الملك جون ، منتظرا عروسه . واستُقبلت بالأبهة الإمبراطورية وجرى احتفال ثان بالزواج يوم ٩ نوفمبر ١٢٢٥م في كتدرائية برنديزى[٦].

كان فريدريك في عامه الحادى والثلاثين ؛ شابا وسيما ربعا قوي البنية برغم ميله إلى السمنة، وكان شعره الأحمر كآل هوهينشتوفن، يتراجع إلى الوراء قليلا . وكانت ملامحه متّسقة بفم ممتلئ يوحى بالشهوة، وتبدو طيبة إلى أن تلاحظ عينيه الباردتين الخضراوين ، اللتين تخفى نظرتهما النافذة قِصَر نظره . وكانت ألمعيته جليّة ؛ إذ كان يتحدث ست لغات بطلاقة، الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وكان ضليعا في الفلسفة والعلوم والطب والتاريخ الطبيعى ، وعلى دراية جيدة بالبلدان الأخرى ؛ وكان حديثه - إذا أراد - آسرا . غير أنه برغم كل هذا الذكاء لم يكن محبوبا ؛ إذ كان قاسيا أنانيا ، خبيثا لا يعتمد عليه كصديق ولا يغفر كعدو. وسبّب انغماسه في المتع الشهوانية من كل لون صدمة حتى للمعايير البسيطة في مملكة الشرق الفرنجى . وكان يحب أن يثير ثائرة المعاصرين بتعليقاته الفاضحة عن الدين والأخلاق . ولم يكن في الواقع بلا تدين ؛ بيد أن مسيحيته كانت على شاكلة بعض الأباطرة

---

(٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 357-8; *Gesta des Chiprois*, pp. 22-3 .

(٦) *Estoire d'Eracles, loc. cit.* .

البيزنطيين نوعا ما ؛ فكان يعتبر نفسه نائب الرب الممسوح على الأرض ، وكان يدرك أنه دارس لاهوت مقتدر ؛ ولذا لن يرضخ لما يمليه عليه أي أسقف حتى وإن كان أسقف روما ؛ و لم يجد ضررا في الإهتمام بالأديان الأخرى ، خاصة الإسلام الذي كان على اتصال به طوال حياته . وهو لا يعتبر أن اليونانيين منشقون لأنهم ينكرون سلطة البابا . ومع ذلك ، لم يكن هناك حاكم اضطهد بوحشية زائدة هراطقة المسيحيين من أمثال الكاثاريين وأبناء جلدتهم كما فعل هو . وكان الرجل الغربي العادي يرى فيه شخصا غير مفهوم . ورغم أن دماءه كانت نصف ألمانية ونصف نورماندية، فقد كان أساسا صقليّا بالتنشئة ، طفل الجزيرة التي كان نصفها يونانيا ونصفها الآخر عربيا . ولو أنه كان يحكم في القسطنطينية أو في القاهرة ، لكان حاكما بارزا ولكن ليس غريب الأطوار . وكملك لألمانيا وكامبراطور غربي ، كان أعجوبة مرعبة . ومع ذلك، وبرغم كل فهمه للشرق عموما ، لم يفهم مملكة الشرق الفرنجى قط(٧).

ولقد اتضحت أبعاده في الصباح التالي لزفافه . إذ رحل مع الإمبراطورة من برنديزى دون أن يخطر حماه ، وعندما أسرع الملك الشيخ وراءه ، استقبله استقبالا باردا. وأعقب ذلك شجار مفتوح عندما علم جون من ابنته الباكية أن زوجها أغوى واحدة من بنات عمومتها . ثم إن فريدريك أعلن فى برود أنه لم يعد قط بأن يستمر جون كوصي . و لم يكن هناك اتفاق مكتوب ، وليس للملك أي مطلب قانوني بعد أن تزوجت ابنته ، ووجد جون أن وضعه قد انتزع منه ، بل أخذ منه جنود فريدريك مبلغ المال الذي أورثه إيّاه الملك فيليب للقدس(٨). فهرب يائسا إلى البلاط البابوي . وغالب البابا هونوريوس فى عناد أن يسئ التفكير فى تلميذه السابق ، ولكنه جاوز الوهم وصُدم؛ غير أنه لم يستطع أن يضع شيئا لجون سوى أن يعهد اليه بإدارة الأوقاف الكنسية في توسكانيا. لكن سيرة حياة المحارب القديم لم تنته ؛ إذ كان قد اقترح أن يعتلى عرش انجلترا ، وفي عام ١٢٢٨م احتاجت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية إلى وصي على الامبراطور الطفل بلدوين الثاني ، ورحب جون بالوظيفة مسرورا ، برغم

---

(٧) عن مظهر فريدريك أنظر . Kantorowicz, *Fredrick II*, pp. 366-8 ويضفى عليه هذا الكتاب نوعا من المثالية والرومانسية . أنظر أيضا أدناه ص ٢٣٨.

(٨) (Ernoul, pp. 451-2; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 358-60 وأيضا في صفحة ٣٥٦ من تاريخ هرقل المذكور حيث قيل إن جون كان يعتمد على احتفاظه بالوصاية حتى عام ١٢٢٧م وهو العام الذى تبلغ فيه يولاندا السادسة عشرة ؛ Richard of San Germano, p. 345; *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, ii, p. 392 . وقد أطلق فريدريك علي نفسه فعلا ملك القدس في ديسمبر ١٢٢٥م .(*ibid.* ii, p. 526) وابنة العم التي أغويت هي إبنة وولتر (اوف برين)

اقترابه من الثمانين من العمر . وتزوج بلدوين من ابنته ماريا التى لم تجاوز الرابعة من عمرها؛ وتدبر حون بعناية أمر منحه لقب امبراطور حتى وفاته عام ١٢٣٧م[٩].

١٢٢٥م : مصير جون (أوف برين)

كانت الملكة الإمبراطورة يولاندا أقل حظا من أبيها؛ إذ أن فريدريك أرسلها إلى الحريم الذي يحتفظ به في باليرمو حيث عاشت في عزلة يأخذ منها السقم والضنى تلهفا على حياة أوتريميه البراقه. وفي ٢٥ ابريل ١٢٢٨م أنجبت ولدا ، كونراد ، وبعد أن أدّت واجبها ماتت بعد ستة أيام قبل أن تبلغ السابعة عشرة[١٠].

كان فريدريك قد وعد البابا أول الأمر بأن يتزوج عروسه في سوريا ، لكنه أرسل مع الملك حون والسيد الأعظم لفرسان التيوتون إلى البابا طالبا التأحيل ، فمنحه البابا تأحيلا لمدة سنتين .وفي٢٥ يولية ١٢٢٥م قابل مندوبين بابويين في سان حيرمانو ، وأقسم بأنه سيبدأ رحلته إلى الشرق في أغسطس عام ١٢٢٧م ، وأنه سيرسل ألف فارس في الحال ، واذا حنث بقسمه فسوف يودع مائة ألف أوقية من الذهب في روما ، ولو أن الإمبراطور أخذ بنصح أوتريميه لأحل رحيله حتى عام ١٢٢٩م ، وهو العام الذي تنتهى فيه الهدنة مع الكامل[١١].

وقد أرسل الفرسان الذين وعد بإرسالهم ضمن القافلة التي ذهبت لاصطحاب امبراطورة المستقبل . واستغل فريدريك العامين المسموح له بهما في توطيد دعائم حكمه في شمال ايطاليا ، وبذا ربط أراضيه الألمانية بأراضيه في حنوب ايطاليا. وأحبطته العداوة العنيدة لعصبة لومباردى[١٢]؛ ولم يقدر إلاّ على ضمان مصالحة وقتت فى عذده

---

(٩) عن سيرة حياة حون بعد ذلك انظر. Longnon, *L'Empire Latin*,pp.169-74

(١٠) Ernoul, p. 454; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 366; Richard of San Germano, p. 447; *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, i, p. 858 .

(١١) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp. 36-48; *Regesta Honorii Papae III*, no.5566, ii,p.352.

(١٢) (المترحم): عصبة لومباردى Lombard League: مجموعة من المدن فى شمال إيطاليا بدأت فى الاتحاد معا فى أول ديسمبر سنة ١١٦٧م لتقاوم محاولات أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة لتقليص حرية الكوميونات شمال إيطاليا وولايتها القانونية وتشكلت بادئ الأمر من ١٦ مدينة ثم زادت إلى ٢٠ مدينة، وقد أيد هذه العصبة - منذ البداية - البابا ألكسندر الثالث كحليف ضد عدوه فريدريك الأول بارباروسا. ولم ينقض أمر هذه العصبة إلا بعد وفاة الامبراطور فريدريك الثانى سنة ١٢٥٠م

عداوة عصبة لومباردى التى لا تلين، و لم يكن بوسعه سوى أن يصل إلى حل وسط مع اللومبارديين بمغازلة البابوية بإظهار حماس حديد للحملة الصليبية . غير أن معلمه القديم، البابا هونوريوس ، مات في شهر مارس ١٢٢٧م ، وكان البابا الجديد حريجوري التاسع مطبوعا على كثير من حهامة. وكان من أبناء عمومة اينوسنت الثالث، وعلى غرار اينوسنت كان رحلا ذا عقلية تشريعية رائعة وإيمان متشامخ عنيد بما للبابوية من سلطة إلهية . ولأنه كان صارما زاهدا، كان ينفر من فريدريك كرحل ، و لم ير استحالة المهادنة بين ما يريده الامبراطور من "قيصرية بابوية"(١٣) ومفهومه الخاص عن سلطته . وهكذا أملى كل من السياسة والورع أن يرحل فريدريك إلى الشرق(١٤).

١٢٢٨م : فريدريك يشرع في الرحيل إلى الشرق

بدا فريدريك مهيّاً للذهاب . وقد سبق أن أبحرت إلى الشرق مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفرنسيين تحت رئاسة أسقفى إكستر وونشستر. وراح الامبراطور طوال صيف ١٢٢٧م يحشد حيشا ضخما في أبوليا(١٥) وتفشى وباء الملاريا فأضعف الجيش ، لكن عدة آلاف من الجنود أبحروا من برنديزي في شهر أغسطس بقيادة هنري الرابع دوق ليمبورغ. وانضم فريدريك إلى الجيش بعد أيام قليلة ، وركب البحر يوم ٨ سبتمبر ؛ وما كادت المرساة ترفع حتى أصيب أحد رفاقه مريضا بمرض ميئوس من شفائه، وهو لويس حاكم ثورينغيا ؛ فرست سفينتهم في أوترانو حيث مات وانتقلت عدوى المرض إلى فريدريك نفسه فغادر الأسطول الذي أرسله إلى عكا تحت رئاسة بطريق القدس ، حيرولد (أوف لوزان)، وذهب إلى منتجع المياه المعدنية في بوزولي للاستجمام وأرسل

---

(١٣) (المترجم) : القيصرية البابوية :Caesaropapism نظام سياسي فيه رئيس الدولة هو نفسه رئيس الكنيسة وقاضى القضاة في المسائل الدينية

(١٤) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* v, ii, pp. 1467-8.

(١٥) (المترحم):أبوليا:Apulia منطقة على ساحل إيطاليا الجنوبي الشرقي للبحر الأدرياتيكي عاصمتها برنديزي

مبعوثا إلى البابا جريجوري في (أناني) ليشرح سبب هذا التأخير الذي لم يمكن تجنبه[١٦]. لكن جريجوري لم يقتنع بالرواية وظن أن الامبراطور يعاود مراوغته ، فسارع بطرده من الكنيسة ، ولكنه عاود إصدار الحكم بروية بوقار في كنيسة القديس بطرس في شهر نوفمبر[١٧] فما كان من فريدريك إلا أن أصدر بيانا مهيبا أرسله إلى أمراء اوروبا ينكر فيه مزاعم البابا ، ثم واصل استعداداته للحملة الصليبية. وعلى الرغم من تحذير البابا له بعدم إمكانه قانونا الإنطلاق إلى الحرب المقدسة وهو تحت الحظر الكنسي، فقد جمع صحبة صغيرة وركب البحر من برنديزي يوم ٢٨ يونية ١٢٢٨م[١٨] وعلى أية حال تسبب التأخير في تغير وضعه ؛ إذ ماتت الامبراطورة يولاندا ، وبهذا لم يعد فريدريك ملكا وزوج الملكة ، وإنما وصيا على إبنه الملك الرضيع كونراد . ومن حق بارونات المملكة، إذا شاءوا ، أن يرفضوا وصايته[١٩].

لم يكن حكام الشرق الفرنجي ينتظرون وصول الامبراطور بمشاعر السرور الخالص؛ وكان بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس أقلهم قلقا لعدم اعترافه بأي سيد أعلى سوى امبراطور القسطنطينية اللاتيني فيما يحتمل. على أنه بامكان فريدريك المطالبة بحقوق السيادة على قبرص ؛ إذ أن الملك أماريك قد حصل على التاج من خلال الامبراطور هنرى السادس ؛ فضلا عن أن فريدريك، وحتى موت الإمبراطورة الذي لم يكن معروفا في الشرق حتى وقت وصوله ، كان يقينا ملك القدس[٢٠] ولقد تدخل فعلا في شؤون مملكة القدس؛ إذ سبق وأن أرسل عام ١٢٢٦م توماس (أوف أكوينو)، كونت أكيرا، ليحل محل أودو (أوف مونتبيليارد) في الوصاية ؛ وأظهر توماس قوة وحزما في تعامله مع المحكمة العليا، لم يلقيا استلطافا من جانب البارونات[٢١].

---

(١٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p.44, v, p. 329; *Annales Marbacenses*, p.175; Alberic of Trois Fontaines, p. 920; Richard of San Germano, p.348 . وركان لويس (اوف ثورينجيا) زوج القديسة إليزابث المنجارية. أنظر Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1469-70 . ويذكر Ernoul, pp. 458-9 وصول أول مجموعة صليبية ولاحظ عدد الإنجليز الكبير

(١٧) Hefele-Leclercq, *op. cit.* pp. 1471-2

(١٨) *Historia Diplomatica Friderici*, iii, pp.37-48 ، الذي يرد فيه نص اعلان فريدريك

(١٩) *Ibid.*, i, p.898; Richard of San Germano, p.350; *Estoire d'Eracles*,ii,pp.366-7; Hefele-Leclercq, op.cit. p.1477.

(٢٠) عن الوضع القانوني لفريدريك ، انظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 59 .

(٢١) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 304 .

وفي قبرص كان الوصي الرسمي على الملك الطفل هنرى الأول هو أمه أليس القدسية . وكانت قد عهدت بالحكم إلى عمها فيليب (أوف ابيلين) وهو الإبن الثاني للملكة ماريا كومنينا . ولم تكن العلاقات بين الملكة ووكيلها[٢٢] طيبة؛ فكانت دائما ما تشكو من تجاهل رغباتها، وحدثت مواجهة مفتوحة عام ١٢٢٣م عندما رفض فيليب السماح باستلاب عشور رجال الدين الأرثوذكس لصالح رجال الدين اللاتين كما أوصى الكاردينال بيلاجيوس في مجلس عقد في ليماسول، وكانت الملكة متفقة مع الكاردينال ، لكنها عندما فشلت في إنفاذ طريقتها تقاعدت في غضب في طرابلس حيث تزوجت أكبر ابناء الأمير بوهمند ، من الباقين على قيد الحياة ، وهو الذي سيصبح بوهمند الخامس[٢٣]. وفي عام ١٢٢٥م، عندما أصبح من المؤكد أن الامبراطور ينوى نيّة جادة في الحضور إلى الشرق ، أمر فيليب بتتويج الملك هنرى الذي لم يجاوز الثامنة من عمره ، حتى اذا بلغ هنرى الخامسة عشرة فعلى الأقل لا تُمدد الوصاية على أساس أنه لم يُتوج بعد ؛ وكانت الملكة أليس ما تزال تعتبر نفسها وصية برغم وجودها في النفي الإختيارى، وباءت بالفشل محاولتها تعيين زوجها الجديد وكيلا ، إذ لم يقبله أحد من البارونات ، فعرضت المنصب على واحد من البارونات البارزين ، أماريك بارليه ، الذي - برغم معارضته ترشيح بوهمند - قبل المنصب لنفسه ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى كراهته لآل إيبلين . غير أن البارونات ، باستثناء منشق واحد ، أعلنوا عدم إمكان تعيين الوكيل إلاّ بموافقة المحكمة العليا ، التى طلبت أن يستمر فيليب في منصبه . وبعد أن تشاجر بارليه علنا مع مشايعى إيبلين انسحب إلى طرابلس انتظارا لمجئ فريدريك، بينما ذهب أحد أصدقائه ، جافين (أوف شينشى) إلى ايطاليا ليكون في معيّة الامبراطور[٢٤]. وفي عام ١٢٢٧م مات فيليب (أوف ابيلين)؛ ودعت المحكمة العليا أخاه الأكبر جون ، لورد بيروت ، ليحل محله وكيلا. ويبدو أن أليس وافقت على تعيينه[٢٥].

وغدا جون (أوف ابيلين) أعظم شخصية في أوتريميه . فهو أدنى الأقارب الذكور

---

(٢٢) المترجم : المعنى الحرفي للكلمة الإنجليزية *bailli* هو : مسؤول في العصور الوسيطة يمثل الملك أو السنيور وله سلطات واسعة قضائية ومالية وعسكرية . ووجدنا أفضل ترجمة لها "الوكيل."

(٢٣) Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 87-8 ، وترد في هذا التاريخ مراجع ومناقشة التواريخ

(٢٤) *Gestes des Chiprios, pp. 30-3; Estoire d'Eracles, ii, pp. 361-2.*

(٢٥) *Gestes des Chiprois, p. 37; Annales de Terre Sainte, p. 438; Estoire d'Eracles*, ii, p. 365.ويورد تاريخ هرقل تاريخ موت فيليب بالخطأ عام ١٢٢٨م . وليس هناك في أي مرجع نص صريح على تعيين جون وكيلا ، لكنه كان قائما بأعمال الوكيل عند وصول فريدريك

في الشرق لكل من ملك قبرص والإمبراطورة الملكة يولاندا . ولقد كان ثريًا إذ يملك مدينة بيروت وزوجته وريثة أرسوف ، وساعدته خصاله الشخصية على أن يكتسب احتراما عاما . واجتمع مولده النبيل وثروته واستقامته وجعلت منه فعلا زعيما مقبولا لبارونات أوتريميه لعدة عقود. ولأن نصفه شرقي-فرنسي والنصف الآخر يوناني ، فقد فهم الشرق وأهاليه ، وكان ضليعا في تاريخ وقوانين المملكة الفرنجية(٢٦). وعلى الفور اشتمّ الامبراطور فريدريك أنه بمثابة الخطر الجسيم الذي يهدد سياسته ، وقد فهم فريدريك هو الآخر الشرق وأهاليه من تدريباته في صقلية . وكانت معاملاته مع المسلمين من النوع الذي كان البارونات يتعاطفون معه . بيد أن مفهوم فريدريك على الحكم الملكي لم يكن هو مفهومهم . ذلك أن ملك القدس تقيده التقاليد بالدستور، ويجاوز قليلا رئيس المحكمة العليا ، كما أنه القائد العام . أمّا فريدريك فكان يعتبر نفسه حاكما مطلقا على النحو الروماني-البيزنطي ، مستودع القوة والقانون ، نائبا علويا للرب على الأرض ، فضلا عما تستطيع حقوق الوراثة أن تعطيه من كل المزايا . إن امبرطور الرومان لن يتحكم فيه حفنة من صغار بارونات الفرنج.

١٢٢٨م : فريدريك يهبط في قبرص

كان بارليه وحزبه على اتصال بفريدريك فعلا قبل أن يصل أمام ليماسول يوم ٢١ يولية ١٢٢٨م. وبناء على نصيحتهم استدعى على الفور جون (أوف ابيلين) ومعه ابنيه الاثنين وملك قبرص الصغير لمقابلته. وحاول أصدقاء جون تحذيره مما يشتهر به فريدريك من غدر ، لكن جون كان شجاعا طاهر الذيل ، ولم يكن ليرفض دعوة من عاهل قبرص . وبوصوله مع ولديه والملك ، استقبله فريدريك استقبالا مشرفا ملقّبا إيّاه بالعم وأغدق عليه الهدايا الثمينة . وقيل له بأن ينضو عن نفسه ملابس الحداد على أخيه فيليب وأن يحضر حفلا يقام على شرفه . وفي الحفل تسلل جنود فريدريك ووقفوا خلف كل ضيف من الضيوف، وقد استلوا سيوفهم . ثم إن فريدريك طالب جون بتسليم إقطاعيته في بيروت وكافة إيرادات قبرص المحصّلة منذ وفاة الملك هيو . ورد جون بأن بيروت قد منحتها له اخته الملكة إيزابيلا وأنه سيدافع عن حقه فيها أمام المحكمة العليا لمملكة القدس ، وأما عن الإيرادات فقد أعطاها هو وأخوه للملكة الوصية أليس ، وهو تصرف سليم . فانفجر فريدريك يهدر مهددا ، لكن جون ظل رابط

(٢٦) أنظر La Monte, 'John of Ibelin', in *Byzantion*, vol. xii

الجاش، معلنا أنه لم يرفض مساعدة الامبراطور في حملته الصليبية ، ولو أدى الأمر إلى أن يُقتل فإنه لن يخرق قوانين البلاد . ولم يكن مع فريدريك سوى ثلاثة أو أربعة آلاف جندي ، فلم يجرؤ على المجازفة بصدع علني وطالب ببقاء عشرين نبيلا بمن فيهم ولدي ابيلين معه كرهائن ، وأن يبقى الملك معه ، وأن يصحبه جون إلى فلسطين؛ وفي المقابل اعترف جون والنبلاء القبارصة ، وهذا هو الحق ، بفريدريك سيدا أعلى لقبرص ، وليس وصيا - إذ أن الملكة أليس هي الوصية الشرعية - وكوصي على القدس وليس كملك للقدس ؛ إذ عرفوا الآن بموت يولاندا وأن الملك هو ابنها الرضيع كونراد(٢٧) .

١٢٢٨م : فريدريك في عكا

وكان الامبراطور قد استدعى في ذات الوقت أبرز عواهل أوتريميه للحضور إلى قبرص ؛ فوصل باليان لورد صيدا في أغسطس مع فريق من الجنود ، وبعد ذلك مباشرة وصل جوى أمبرياكو أمير جبيل الذي يكن الكراهية لآل ابيلين ، والذي اقترض منه الامبراطور قدرا كبيرا من المال ، كما سبق أن فعل ليوبولد السابع دوق النمسا قبل ذلك بسنوات قليلة . وبهذه التعزيزات زحف الامبراطور على نيقوسيا ، وفي الطريق انضم اليه بوهمند الرابع أمير انطاكية . واتخذ جون (أوف ابيلين) جانب الحذر وانسحب إلى قلعة ديديمى - التي يسميها اليونانيون "القمتين التوأمتين" ، ويسميها الفرنج "رب المحبة" ونسميها اليوم "سانت هيلاريون" . وكان قد سبق أن أرسل سيدات وأطفال أسوته إليها مع مخزونات وفيرة من المؤن . وكان القانون الإقطاعي يقضي بأنه خلال الوصاية ليس من الممكن طرد البارونات من القلاع التي عهد اليهم بها العاهل الراحل . ولم يحاول فريدريك الآن الاستهزاء بالقانون ، إذ كان متلهفا على الانتقال إلى فلسطين ، ويبدو أن باليان أمير صيدا - وهو ابن أخي جون - قد قام بالوساطة . وأعدت الترتيبات أن يقسم الملك قسم الطاعة للإمبراطور وأن يقسم جميع القبارصة قسم الولاء له كسيد أعلا . ورغم الاعتراف بأليس وحدها وصيّة ، فسوف يعيّن فريدريك وكيلا ليحكم البلاد ، ويحضر جون إلى فلسطين للدفاع عن حقوقه في بيروت أمام المحكمة العليا ؛ وسوف يطلق سراح جميع الرهائن. وبعد أن أقسم الجميع على الحفاظ على السلام بهذه الشروط ، أبحر الامبراطور من فاماجوستا في ٣ سبتمبر

---

(٢٧) *Gestes des Chipris*,pp.37-45 ، حيث يورد فيليب (اوف نوفارا) مقالا ينبض بالحيوية ، وربما كان هو نفسه حاضرا؛ *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 367-8.

يصحبه الملك وامراء ايلين وأغلب بارونات قبرص . وتخلف بارليه باعتباره وكيلا ، يساعده جافين (أوف شينشى) وأصدقاؤه الآخرون[٢٨].

عندما وصل الامبراطور وصحبه إلى عكا، هرع جون (أوف ايلين) من فوره إلى بيروت ليتأكد من قدرتها على مقاومة هجوم من الامبراطور ، ثم عاد إلى عكا للدفاع عن حقه امام المحكمة العليا ، غير أن فريدريك لم يكن فى عجلة من أمره ليتخذ إجراءً. وجاءت الأنباء إلى فلسطين تقول إن البابا قد طرده من الكنيسة مرة أخرى لذهابه في الحملة الصليبية قبل حصوله على إبراء كنسي من طرده الأول من الكنيسة . ولذا ثارت الريب في صحة ما أقسم عليه الآخرون، ورفض الكثير من الورعين التعاون معه ، بمن فيهم البطريق جيرولد ، وكذلك فرسان المعبد وفرسان المستشفى فلا شأن لهم بالمطرود من الكنيسة ؛ فليس هناك إذن من يمكنه الإعتماد عليه سوى فرسان التيوتون ، فسيدهم الأعظم هيرمان (أوف سالزا) صديقه ، خاصة وان جيشه ليس كبيرا ؛ إذ أن الكثير من الجنود الذين رحلوا في عام ١٢٢٧م مع دوق ليمبورج قد عادوا إلى بلادهم فعلا إما بدافع نفاد الصبر أو بوازع الخشية من الإساءة إلى الكنيسة . وبعد شهر ، أبحر عدد إضافى ضئيل إلى الشرق مع البطريق ؛ وكان فريدريك قد سيّر فى ربيع ١٢٢٨م خمسمائة فارس بقيادة تابعه المخلص المارشال ريتشارد فيلانجيري . وحتى بجيش أوتريميه كله ، لم يكن بمقدوره حشد القوة العسكرية المؤثرة القادرة على توجيه ضربة حاسمة إلى المسلمين . ولكى تزداد جوانب قلقه ، جاءت كلمة من إيطاليا بأن ضابطه الدوق رينالد (أوف سبوليتو) فشل في هجوم شنّه على تخوم أنكونا ، وأن البابا يحشد القوات لغزو مملكته هو نفسه ؛ وإذن لا يستطيع فريدريك الشروع في حملة ضخمة فى الشرق. لابد إذن لحملته الصليبية أن تكون حملة صليبية دبلوماسية[٢٩].

ومن حسن طالع الامبراطور أن السلطان الكامل كانت لديه وجهة نظر مماثلة ؛ إذ أن تحالف الإخوة الأيوبيين الثلاثة ، الكامل والمعظم في سوريا والأشرف في الجزيرة ، لم يقدر له البقاء طويلا بعد انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة . ذلك أن المعظّم كان

---

(٢٨) *Gestes des Chiprois, pp.45-8; Estoire d'Eracles,* ii, pp. 368-9. وطبقا للقانون الألمانى ، يبلغ الملك سن الرشد في الخامسة والعشرين وأما في القدس وقبرص ففى الخامسة عشرة . وربما كان فريديك ينوى اعتبار هنرى قاصرا الى أن يبلغ الخامسة والعشرين . أنظر Hill, op. cit., ii, p. 98, n.4 .

(٢٩) R hricht, *Geschichte des K nigreichs Jerusalem,* pp. 776-7، وهو المرجع الذي يناقش القوة العددية لجيش فريدريك . و لم يكن عدد الجيش يتجاوز مطلقا ١١٠٠٠ رجل ، وعاد الكثير من الجنود الى بلادهم بسرعة

دائم الغيرة من الكـامل ؛ والآن ارتـاب بحق فـى أن الكـامل والأشـرف يخططـان لغـزو أراضيه . وإلى الشرق من الأيوبيـين ، كـانت الامبراطوريـة الخوارزميـة العظيمـة تحت حلال الدين قد بلغت أوج مجدها؛ وكان حلال الدين قد صد غزوا مغوليا، وهـو يحكـم الآن من أزربيجان إلى نهر الإندوس ، مسيطرا على الخليفة في بغداد . وعلى الرغم مـن أن وحود المغول في مؤخرته عرقله من أن يذهب شأوا بعيدا في مغامراته في الغرب ، إلاّ أنه كان بمثابة خطر كامن يتهدد الأيوبيين ؛ وعندما استنجد به المعظّـم عـام ١٢٢٦م ، إغاظة منه لأخويه ، واعترف بسيادته العليا ، شعر الكامل بـالخوف في أعماقـه . وكـان الأشرف في جـانب الدفـاع ، محتمـلا حصـار عاصمتـه خـلاط . وكـان المغـول آنـذاك مشغولين في الصين ، ولو أرسلت لهم مناشدة - وإن كـانت بحق فكـرة حكيمـة - لمـا صادفت اكتراثا . وهكذا ، أرسل الكـامل في خريـف ١٢٢٦م إلى صقليـة واحـدا مـن أكثر أمرائه موضعا للثقة، فخر الدين بن الشيخ ، طالبا العون من الامـبراطور فريدريـك الذي أظهر تعاطفه لكنه لم يبذل أية وعود ، إذ كان قتئذ يفكر في حملة صليبية جـادة . لكنه لم يغلق باب المفاوضات وأرسل توماس (أوف اكيرا) الذى كان فعلا في فلسطين، مع أسقف باليرمو إلى القاهرة محمّلين بالهدايا والرسائل الودودة للسـلطان . وكمـا فعـل الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، اقترح استعداده لإعـادة القـدس إلى المسـيحيين ، لكنها لسوء الحظ تنتمي لأخيه المعظّم ، وعندما ذهب أسقف باليرمو إلى دمشق لتـأكيد هذا الإقتراح ، أجابه المعظّم في غضب بأنه ليس مسالما ، وأنـه لا يـزال شـارعا سيفه . وفي تلك الأثناء زار فخر الدين صقلية مرة أخرى وبات صديقا أليفـا للإمـبراطور الـذي منحه رتبة الفروسية . كان رحيـل فريدريـك إلى الشـرق ، الـذي كـان البابـا يلـح فيـه بشغف ، يلقى نفس القدر من تشجيع السلطان[٣٠] .

١٢٢٨م : المنازعات العائلية الأيوبية

على أنه قبل أن يشرع فريدريك في الرحيل أصبح الوضع متأزما ؛ إذ مات المعظّـم يوم ١١ نوفمبر ١٢٢٧م تاركا أملاكـه لشـاب في الحاديـة والعشـرين هـو ابنـه النـاصر داود. ولمّا كان هذا الحاكم الجديد ضعيفا عديم الخبرة ، فقـد أعـد الكـامل العـدة على

(٣٠) عن سياسة الكامل عموما أنظر ابن الأثير(ii, pp. 162-8) ؛وأبـو الفـدا(pp.99-102) ؛ والعينـى.pp 183-6؛ والمقريزي(Maqrisi, trans. Blochet, ix, pp. 470-511؛ و *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, p. 518 .

الفور لضم أراضيه ، وزحف على فلسطين واستولى على القدس ونابلس . فاستنجد الناصر بعمه الأشرف الذي سارع إلى نجدته معلنا أنه جاء ليضمن عدم انتهاز الفرنج للوضع ليضموا فلسطين ؛ وكان الكامل يجهر بنفس الإدعاء الذي بدا مستصوبا ، خاصة وأن فريدريك في طريقه الآن إلى الشرق . وأخيرا تقابل الأخوان في تل العجول بالقرب من غزة وقررا تقسيم أراضى ابن اخيهما فيما بينهما ، ولا يزالان يتحاجان بأنهما يعملان بإيثار لصالح الإسلام . وكان الناصر معسكرا في بيسان حيث خطط الأشرف لإعتقاله ، غير أن الصبى سمع بالمكيدة وفر هاربا إلى دمشق ، وطارده جيشا عميه وضربا حصارا حول المدينة فى وقت ما من نهاية عام ١٢٢٨م(٣١).

وفي هذه الملابسات شعر الكامل بالأسى لمجئ فريدريك؛ كان يأمل فى أن تخلص له فلسطين بصفة دائمة؛ فالخوارزميون لم تبدر عنهم بادرة تنبى بمقدمهم لمساعدة الناصر. على أن وجود جيش صليبى في عكا كان يعنى عدم قدرته على تركيز قواته كلها في حصار دمشق، وليس فردريك بالموثوق به كليّة ، إذ ربما يقرر التدخل في جانب الناصر . وعندما أرسل فريدريك مبعوثيه توماس (أوف اكيرا) وباليان أمير صيدا إلى الكامل للإعلان عن وصوله ، طلب الكامل من فخر الدين زيارة الامبراطور مرة أخرى ، وبدء مفاوضات معه وإطالتها بقدر الإمكان حتى تسقط دمشق أو يرحل فريدريك إلى بلده . وأعقب ذلك عدة أشهر من المساومات في جو يشوبه شيئ من الخديعة المتبادلة وشيئ من الإعجاب المتبادل ، فلم يكن الامبراطور أو السلطان شديد الإخلاص لدينه، وإنما كان كل منهما مهتما بأسلوب حياة الآخر ، ولم يكن أي منهما على استعداد للذهاب إلى الحرب اذا أمكن تجنبها ؛ غير أنه كان لزاما على كل منهما أن يتشدد بقدر امكانه في المساومة حرصا على مكانته عند شعبه . فأما فريدريك فكان يريد أن يكسب الوقت ولم يكن جيشه من الضخامة بما يكفى لحملة كبيرة ؛ وأما الكامل ، فكان يشعر بالخطر من أي مظهر للقوة ولما يستولى على دمشق ، وكان على استعداد لمنح المسيحيين تنازلات إذا ساعده ذلك على المضى في سياسته الأكبر الا وهى إعادة توحيد العالم الأيوبى والسيطرة عليه . غير أن هذه التنازلات لايجب أن تمضى أبعد مما ينبغى ؛ إذ عندما طلب فريدريك النزول عن فلسطين كلها قال له فخر الدين ، بناء على تعليمات الكامل ، إنه ليس بوسع سيده الإساءة إلى الرأي العام الإسلامى بهذه الدرجة.

---

(٣١) - Ibn Khallikan, ii, p.429; Maqrisi, ix, pp.516-18; Abu Shama, ii, pp. 187-91; Ibn al Athir, ii, pp. 173-4; *Histoire des Patriarches*, p.519.

وفي آخر نوفمبر ١٢٢٨م حاول فريدريك الإسراع بالأمور بأن قام باستعراض عسكرى حشد فيه جميع الجنود التابعين له وسار جنوب الساحل إلى يافا وشرع في إعادة تحصينها . وفي ذات الوقت لم يكن الناصر يعد محاصرا تماما في دمشق ، فقاد جيشا إلى نابلس لإعتراض خطوط إمدادات عمه ؛ لكن الكامل رفض أن يُخدع ، وقطع المفاوضات قائلا إن رحال فريدريك قد نهبوا القرى الإسلامية ، و لم يستأنف المفاوضات إلا بعد أن دفع فريدريك تعويضات للضحايا(٣٢).

١٢٢٩م استعادة القدس

وفي نهاية الأمر أثبت فريدريك أنه المساوم الأفضل . فعندما حل شهر فبراير كان الناصر ما يزال آمنا في دمشق ، وكان جلال الدين الخوارزمى يلتفت ناحية الغرب مرة أخرى، واستكمل فريدريك تحصينات يافا. وبناء على نصيحة فخرالدين أرسل توماس (أوف أكيرا) وباليان أمير صيدا مرة اخرى إلى العادل . وفي ١١ فبراير عادا بشروط السلطان النهائية ، ووافق عليها فريدريك ، وبعد أسبوع، أي في ١٨ من الشهر ، وقع معاهدة سلام مع ممثلى الكامل ، فخر الدين وصلاح الدين أمير أربيل ، وشهد عليها السيد الأعظم لنظام التيوتون وأسقفا إكستر وونشستر . وبمقتضى هذه المعاهدة تسترد مملكة القدس مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع ممر يمضى خلال اللّد إلى البحر في يافا والناصرة وغربي الجليل بما في ذلك مونتفرات وتبنين ، وباقى المقاطعات الإسلامية المحيطة بصيدا . على أنه في القدس نفسها تقرر أن تبقى قبّة الصخرة والمسجد الأقصى في أيدى المسلمين ، ويُسمح للمسلمين بحق الدخول وحرية العبادة . وعلى فريدريك إعادة بناء أسوار القدس ، وكان ذلك تنازلا له شخصيا. على أن يطلق سراح جميع السجناء من الجانبين، ويستمر السلام عشر سنوات بالتقويم المسيحى أى عشر سنوات وخمسة أشهر بالتقويم الإسلامى . ولم تنطبق المعاهدة على إمارة بوهمند أنطاكية - طرابلس(٣٣).

---

(٣٢) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.369-72; Ernoul, pp. 460-3; al-Aïni, pp. 186'8.

(٣٣) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp.90-1, 93-5, 102 رسالة هيرمان (اوف سالزا) الى البابا ، وإعلان فريدريك ، ورسالة البطريق جيرولد، بإعلان شروط السلام؛ *Ibid.* pp. 86-7 (حيث يرد نص جزئي للمعاهدة مع تعليقات البطريق)؛ Ernoul, p. 465; *Histoire d'Eracles*, ii, p. 374; al-Aïni, pp. 188-90; Maqrisi, ix, p. 525

وهكذا ، ودون توجيه ضربة واحدة ، فاز الامبراطور المطرود من الكنيسة بعودة أماكن العالم المسيحى المقدسة . بيد أنه يندر أن تُقابَل معاهدة ما بمثل هذا الإنكار العاجل والشامل . إذ ارتاع العالم الإسلامى، وأتاح ذلك للناصر فى دمشق أن يعلن الحداد العام على ما لحق بالإسلام من غدر، وحتى أئمة الكامل سبّوه فى مواجهته؛ و لم يكن هناك عزاء يُذكر في إجابته العرجاء من أنه لم يفعل سوى التخلى عن بيوت وكنائس مهدمة بينما المقدسات الإسلامية سالمة باقية للإسلام ؛ كما لم يكف التذرع في تعليقه بأن المسلمين لا يزالون يسيطرون استراتيجيا على الإقليم(٣٤). وكان المسيحيون من ناحيتهم مدركين ادراكا جيدا للوضع الاستراتيجى . وراح الأكثر عنادا من بينهم يولولون باكين على أن القدس لم تسترجع بالسيف ، وأعربوا عن تقززهم من أن الكفرة سوف يحتفظون بمقدساتهم ، واسترجعوا جميعهم ما جاء فى مفاوضات الحملة الصليبية الخامسة عندما رفض المسيحيون عرض الكامل بالتنازل عن فلسطين كلها لأن خبراء الإستراتيجية أكّدوا عدم إمكان صمود القدس بدون منطقة الأردن ؛ فكيف السبيل إذن للاحتفاظ بها وليس يربطها بالساحل سوى ممر واحد ضيق من الأرض؟ لقد غاب ما كان فريدريك يتوقعه من بهجة . ولم يقترح أحد رفع قرار الطرد من الكنيسة عن الرجل الذى أدى مثل هذه الخدمة العظيمة للعالم المسيحى ؛ فقد أعلن البطريق جيرولد عن غمه ورمى المدينة المقدسة بحرمان كنسى إذا استقبلت الامبراطور ؛ وتملك فرسان المعبد الحنق من بقاء المعبد في أيدى المسلمين فأعلنوا عن اعتراضهم ؛ فلا هم ولا فرسان المستشفى سيتعاملون مع أعداء البابا . وكذلك بالنسبة للبارونات المحليين ، المستائين من استبداد فريدريك ، إذ شعروا بالخطر من الحدود الجديدة غير العملية ؛ وتفاقم استياؤهم من الامبراطور عندما أعلن أنه ذاهب إلى القدس ليُتوج ملكا، فهو في حقيقة الأمر ليس مليكهم ، وإنما فقط الوصى ووالد الملك(٣٥).

١٢٢٩م : فريدريك في القدس

وفي يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩م دخل موكب فريدريك القدس ، يحوطه جنود حرسه من الألمان والإيطاليين والقليل جدا من البارونات المحليين ؛ ولم يكن معه ممثلون

---

(٣٤) Al-Aïni, pp. 190-1; Abu'l Feda, p. 104; Maqrisi, x, pp. 248-9 .

(٣٥) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp.101,138-9 ،(رسائل هيرمان وجيرولد)؛ Mattew Paris, iii,p.177 .

عن الأنظمة الدينية العسكرية فيما عدا فرسان التيوتون، و لم يصحبه من رجال الدين سوى أساقفة فريدريك الصقليين وأصدقائه الإنجليز، بطرس (أوف وينشستر) ووليم (أوف إكستر) . واستقبل الامبراطور عند بوابة المدينة القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي سلّمه مفاتيح المدينة باسم السلطان . ثم مر الموكب الزياحي القصير خلال الشوارع الخالية إلى مبنى المستشفى القديم حيث اتخذ فريدريك مقر إقامته . وغابت كل علامات الحماس، وقد هجر المسلمون المدينة فيما عدا مزاراتهم المقدسة ؛ وتنحى المسيحيون الوطنيون عن الأبصار لخشيتهم التي لها ما يبررها من أن ينالهم الضرر لعودة الحكم اللاتيني . ولقد شعر رفاق فريدريك نفسه بالحرج من قرار طرده من الكنيسة ، وعندما عُرف أن رئيس أساقفة قيسارية في طريقه إلى المدينة يحمل أوامر البطريق بوضع المدينة تحت الحرمان الكنسي ارتبكت الحاشية وترددت . وفي الصباح التالي ، الأحد ١٨ مارس ، ذهب فريدريك لحضور قداس في كنيسة القبر المقدس. و لم يكن هناك قسيس واحد ، وإنما فقط عساكره وفرسان التيوتون . و لم يرتدع ، وانما أمر بوضع تاج ملكي على مذبح الجمجمة[٣٦] ثم تناوله بنفسه ووضعه على رأسه . وعلى الأثر انطلق السيد الأعظم لفرسان التيوتون في قراءة تقريظ للإمبراطور-الملك ، أولا بالألمانية ثم بالفرنسية ، يعدد فيه منجزاته ويبرر سياسته . ثم تحركت الحاشية عائدة إلى المستشفى حيث عقد فريدريك مجلسا لمناقشة الدفاع عن القدس . وارتضى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ومرشد فرسان المعبد حضور المجلس ، وكذلك الأساقفة الإنجليز وهيرمان (أوف سالزا). وأمر فريدريك بإصلاح برج داود وبوابة القديس ستيفن في الحال ، وسلّم مقر الإقامة الملكي الملحق ببرج داود لنظام التيوتون العسكرى. وفيما عدا فرسان التيوتون ، لم يلق تعاونا من أحد سوى القدر اليسير[٣٧].

وهدأت حدة التوتر بتحول فريدريك عما كان فيه وذهابه لزيارة المزارات الإسلامية. وكان السلطان قد تصرف بفطنة عندما أمر مؤذن المسجد الأقصى بعدم الأذان للصلاة أثناء تواجد العاهل المسيحي في المدينة . لكن فريدريك احتج، فلا ينبغي للمسلمين تغيير عاداتهم بسببه ؛ فضلا عن أنه قد جاء إلى القدس - كما قال - ليسمع

---

(٣٦) المترجم :الجمجمة أو الجُلْجثة أو الجلجلةCalvary ،اسم المكان الذي صُلب فيه المسيح . وأيضا تمثال للمسيح المصلوب

(٣٧) . *Historia Diplomatica Friderici Secundi, loc. cit.* ثبّط هيرمان عزم فريدريك على إقامة صلاة دينية في كنيسة القبر المقدس. وألقى فريدريك كلمته الخاصة به باللغة اللاتينية*Estoire d'Eracles*,ii, pp.375,385; Ernoul, p. 465

أذان المؤذن أثناء الليل . وبينا هو داخل فى المنطقة المقدسة للحرم الشريف، لاحظ قسيسا مسيحيا يتبعه ، فطرد بفظاظة من فوره ، وأصدر أوامره بقتل أي قسيس مسيحى يعبر عتبة منطقة الحرم الشريف بدون إذن من المسلمين . وأثناء طوافه حول قبة الصخرة لاحظ النقش الذى أبرزه صلاح الدين بالفسيفساء حول القبة مسجّلا تطهير المبنى من المشركين ؛ فسأل الامبراطور وعلى ثغره ابتسامة : "من هم المشركون؟" وعلّق على شبائك المثبته في النوافذ وقيل له إنها قد وضعت للحيلولة دون دخول العصافير ، فقال : "والآن أرسل الله لكم الخنازير" مستخدما المصطلح الإسلامى المسيئ للمسيحيين . ولوحظ أنه كان معه بعض المسلمين في حاشيته ، من بينهم عربي من صقلية كان معلما له في الفلسفة.

ولقد اهتم المسلمون برؤية الامبراطور ، لكنه لم يترك لديهم عميق انطباع وخاب أملهم من مظهره ، وقالوا إنه لا يساوى مئتى درهم في سوق الرقيق بوجهه الأملس الأحمر وبصر عينيه الحسيرتين . وأقلقتهم ملاحظاته المضادة لعقيدته هو نفسه ، فبمقدورهم أن يحترموا مسيحيا مخلصا، أما هذا الفرنجى الذى يستخف بالمسيحية ، ويثنى ثناء حافا على الإسلام ، فقد أثار ارتيابهم . وربما سمعوا ما يعزى إليه على نحو شائع من أن موسى والمسيح ومحمد ما هم إلا ثلاثة أدعياء . وعلى أية حال ، بدا رجلا بلا دين . ولقد وقع فخر الدين ، الذى دائما ما ناقش معه الفلسفة في قصر عكا، ضحية لسحره ، وأما السلطان الكامل ، الذى كانت نظرته التأملية تقاربه، فقد نظر اليه بإعجاب ودود ، وخاصة عندما أبلغه فخر الدين بثقة أن فريدريك ما كان ليصر قط على أخذ القدس لو لم أن تكن مكانته كلها معرضة للخطر . غير أن الورعين من المسلمين والمسيحيين على السواء نظروا شزرا إلى القصة برمتها. إن الإستخفاف البيّن لا يكسب قلوب الناس قط(٣٨).

١٢٢٩م : نهاية حملة فريدريك الصليبية

في يوم الإثنين التاسع عشر وصل بطرس أمير قيصرية ليلقى على القدس قرار البطريق بحرمانها الكنسى. واهتاج فريدريك لهذه الإهانة ، فتخلى من فوره عن كل أعمال الدفاع عن المدينة، وجمع كل عساكره وأسرع هابطا إلى يافا حيث توقف ليوم

---

(٣٨) Al-Aïni, pp. 192-3; Maqrisi, ix, pp. 525-6 .

ثم سار أعلا الساحل إلى عكا التى وصلها في الثالث والعشرين من الشهر ، فوجدها تغلى تذمرا . إذ لم يغفر له البارونات استخفافه بالدستور ؛ ورغم كونه وصيًا لا غير ، فقد أبرم معاهدة بدون رضاهم وتوج نفسه ملكا . وحدثت أعمال شغب اشتبك فيها مسلحون محليون مع حامية الامبراطور . وشعر المستعمرون الجنوبيون والبنادقة بالاستياء من الخطوة التى نالها أهل بيزاوخاصة وأن هذه المدينة كانت من حلفاء فريدريك القلائل في ايطاليا . إن عودة الامبراطور لم يكن لها من أثر سوى تفاقم المرارة التى شملت الأجواء(٣٩).

وفي الصباح التالى استدعى فريدريك ممثلين من سائر أنحاء المملكة لمقابلته وألقى عليهم بيانا بأعماله ؛ فقوبلت كلماته باستهجان غاضب ، فما كان منه إلا أن لجأ إلى القوة ؛ فضرب نطاقا من الشرطة حول قصر البطريق وحول مقار فرسان المعبد ، ووضع الحراس على بوابات المدينة حتى لا يدخلها أو يغادرها أحد إلا بإذن . وأشيع أنه ينوى مصادرة قلعة فرسان المعبد العظيمة في عثليت ، لكنه علم بأن حاميتها حصينة للغاية . وفكر في اختطاف حون (أوف ابيلين) والسيد الأعظم لفرسان المعبد وإرسالهما إلى أبوليا ؛ غير أنهما احتاطا بحراسة شديدة ، فلم يحاول المجازفة بذلك . لكنه في ذات الوقت تلقى أنباءً خطيرة من ايطاليا تقول إن حماه ، حون (أوف بريـن) قام على رأس جيش بابوى بغزو ولاياته ؛ فلم يكن بوسعه تأجيل رحيلة من الشرق أكثر من ذلك ، وليس بوسعه سحق معارضيه إلا بمزيد مما لديه من جنود في سوريا . فأعلن عن رحيله الوشيك وعيّن باليان أمير صيدا وحارنييه الألماني وكيلين عن المملكة . وكان باليان مشهورا بآرائه المعتدلة وأمه من آل إبيلين ؛ وكان حارنييه ، برغم أصله الإلمانى ، ضابطا لدى الملك حون (أوف بريـن). وعُيّن أودو (أوف مونتبليارد) ياورا للمملكة (كونستابل) مسؤولا عن الجيش.

كانت تلك التعيينات تمثل في حقيقتها هزيمة للإمبراطور . وكان مدركا أنه قد خسر ، وليتجنب مشاهد مهينة خطط لركوب البحر يوم أول مايو عند شروق الشمس، وهو وقت ليس فيه أحد ؛ غير أن السر انفضح . وأثناء مروره مع حاشيته أسفل شارع الجزارين إلى المرفأ ، احتشد الناس خارج الأبواب وراحوا يقذفونه بالأحشاء والرّوث . وسمع الشغب حون (أوف ابيلين) وأودو (أوف منتبليارد) فانطلقا على جواديهما لحفظ النظام ؛ لكنهما عندما ودعا الامبراطور على قادسه وداعا رقيقا ،

---

(٣٩) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p.101; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 374 .

رد عليهما متمتما باللعنات(٤٠).

ومن عكا أبحر فريدريك إلى ليماسول . وبقى نحوا من عشرة أيام في قبرص حيث قضى بأن يكون الوكلاء هم أمالريك بارليه وأصدقاءه الأربعة ، حافين (أوف تشينشى)، وأمالريك (أوف بايزان)، وهيو (أوف جبيل)، ووليم (أوف ريفت)؛ وعهد اليهم برعاية الملك . وفى الوقت نفسه رتّب زواج الملك الصغير وأليس (أوف مونتفرات) التى كان والدها واحدا من مناصريه المخلصين في إيطاليا .وفي ١٠ يونية ١٢٢٩م هبط في برنديزى(٤١).

من بين عظماء الصليبيين قاطبة كان فريدريك الثانى أكثرهم تخييبا للآمال . فكان ذا ذكاء حاد وعلى دراية بعقلية المسلمين وبمقدوره تقدير غوامض دبلوماسيتهم ؛ وأدرك ضرورة وجود بعض التفاهم بينهم وبين المسيحيين إذا كان لمملكة الشرق الفرنجى الفرنجية أن تبقى . بيد أنه فشل فى إدراك طبيعة فرنج أوتريميه . لقد اجتمعت تجربة أسلافه النورمانديين وإنجازاتهم مع طبعه ومفهومه عن الإمبراطورية لتؤدى به إلى السعى نحو بناء حكم استبدادى مركزى . ولقد وجد أن العمل في أوربا خارج أراضيه الإيطالية بالغ المشقّة ؛ ولو أنه أحسن اختيار وسائله لأنجزه في قبرص، على أنه في مملكة القدس المتقلّصة ، كان مصير التجربة الفشل لا محالة ؛ إذ أن المملكة لا تكاد تجاوز مجموعة من المدن والقلاع يربطها ببعضها البعض رباط مزعزع وليست لها حدود يمكن الدفاع عنها ، ولم تعد الحكومة المركزية ممكنة ، وكان لزاما أن يُعهد إلى السلطات المحلية ، مهما سببته نزاعاتها المتبادلة ونوازع الغيرة من مشقة ، بحكومة يتزعمها زعيم ماهر ومحترم . ولم تكن تلك السلطات سوى البارونات العلمانيين والأنظمة الدينية العسكرية . ولقد أبعد فريدريك البارونات العلمانيين بأن داس بقدميه على ما كانوا يفخرون به من حقوق وتقاليد . إذ كانت الأنظمة الدينية العسكرية أهم ، إذ بإمكانها دون غيرها، الآن وبعد أن آثر الفرسان العلمانيون البحث عن الثروة في اليونان الفرنجية، توفير مصادر التجنيد للحرب والإستقرار في الشرق . وعلى الرغم من أن رؤساءهم العظام لهم مقاعد في مجلس الملك ، وبرغم طاعتهم له باعتباره قائدا أعلى في ميدان القتال، إلاّ أنهم يدينون بالولاء للبابا لا سواه . ولا يُنتظر منهم مساعدة حاكم طرده البابا من الكنيسة وصنّفه على أنه عدو للعالم المسيحى . وليس هناك سوى نظام فرسان

---

(٤٠) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 375; Ernoul, p. 466; *Gestes des Chiprois*, p. 50 .

(٤١) *Gestes des Chiprois*, pp. 50-1

التيوتون الأقل أهمية بين الأنظمة الثلاثة الذي كان على استعداد لتحدى الحظر البابوى بسبب علاقة الصداقة التى تربط سيدهم بالإمبراطور . واللافت للنظر أن فريدريك، بهذه الإمكانيات الضئيلة وبما أثير ضده من كراهية ، تمكن من الفوز بنجاح دبلوماسى مذهل يتمثل فى استعادة القدس(٤٢).

١٢٢٩م : وضع القدس المقلق

كان استرجاع القدس ضئيل النفع للملكة في واقع الأمر . إذ أنه برحيل فريدريك المتعجّل بقيت القدس مدينة مفتوحة. ومن المحال حراسة الطريق الصاعد اليها من الساحل ؛ فبدأ قطاع الطرق من المسلمين على سرقة الحجاج وقتلهم أحيانا. وبعد أسابيع قليلة من رحيل فريدريك من البلد قام أئمة المسلمين من المتعصبين في الخليل ونابلس بتنظيم غارة على القدس ذاتها ، مما دفع المسحيين من كافة الطوائف إلى الهرب حيث الأمان في برج داود بينما استنجد حاكمها، رينالد أمير حيفا بعكا ؛ فخف الوكيلان باليان أمير صيدا وحارنييه مع جيش من عكا ، مما أجبر المغيرين على الإنسحاب ، وتبرأ حكام المسلمين من أية صلة بالمغيرين ، وبعد تحصين المدينة بحامية أكبر وترميم بعض التحصينات البسيطة توفر شيئ من الأمن ؛ وألغى البطريق قرار الحرمان الكنسى وجاء للإقامة في المدينة جزءا من السنة . بيد أن الوضع ظل مقلقا؛ فبإمكان السلطان إعادة الإستيلاء على القدس في أي وقت يختاره . أما في الجليل ، حيث أعيد بناء حصني مونتفرات وتبنين ، فكان صمود المسيحيين أقوى. غير أنه بوجود المسلمين فى صفد وبانياس ، لم يكن استمرار الصمود مضمون(٤٣).

وكانت الحرب الأهلية المريرة هي أهم ما أورثه فريدريك في كل من قبرص ومملكة القدس. وبدأت الحرب الأهلية في قبرص على الفور ؛ إذ تلقى الوكلاء الخمسة هناك تعليمات بطرد جميع اصدقاء آل ابيلين من الجزيرة ، وتحصيل ما وافقوا على أن يدفعوه لفريدريك وهو مبلغ عشرة آلاف مارك ، وعدم تسليم الحصون التى كانت حامياتها ما تزال تتألف من حنود الإمبراطورية إلاّ بعد دفع القسط الأول . فجمعوا المال عن طريق فرض ضرائب باهظة ومصادرة ممتلكات آل ابيلين ومناصريهم . وتصادف أن واحدا

---

(٤٢) عن تعارض الآراء فيما يتصل بانجازات فريدريك في فلسطين ، أنظر Kantorowicz, op. cit. pp. 193 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 322-3

(٤٣) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 303-5 .

من أخلص المناصرين لجون أمير بيروت ، وهـو المؤرخ الشـاعر فيليـب (أوف نوفـارا)، كان موجودا في الجزيرة ، وسمح له الوكلاء بمرور آمن للحضـور إلى نيقوسيا ومناقشـة نوع من الهدنة بينهم وبين آل ابيلين ؛ غير أنهم عندمـا وصلهـم فيليـب غـيّروا موقفهـم واعتقلوه . وأعقب ذلك مشهد غاضب أمام الملـك الصبـى الـذي كـان يعـرف فيليـب معرفة جيدة لكنه كان فاقد الحيلة لا يستطيع التدخل ؛ وانتهى الأمر بأن وافـق الوكـلاء على اطلاق سراح فيليب بكفالة ؛ لكنه اتخذ جـانب الحكمـة والحـذر وهـرب إلى مقـر فرسان المستشفى، إذ اقتحم رجال مسلحون منزله تلـك الليلـة ، وكتـب بلغـة ركيكـة يناشد جون (أوف ابيلين) في عكا أن يخف لنجدته وانقـاذ ممتلكـات أصدقائـه كلهـم ، فجهّز جون من فوره حملة على حسابه الخاص وتمكن من الهبوط عنوة شمال فاماجوسـتا في جاسترِيا ؛ ثم زحف بحذر على نيقوسيا حيث قابل جيش الوكلاء الـذي كـان أكـبر بكثير من جيشه ، وإنما أقل حماسا. ودارت بعض المفاوضات نشبت بعدها معركة شنها آل ابيلين يوم ١٤ يولية ؛ وشنّ فرسان جون هجومـا جريئـا قـاده ابنـه باليـان ، رافقـه خروج فرسان من المستشفى نظّمه فيليب (أوف نوفـارا)، فحُسـمت المعركـة ، وهـرب الوكلاء مع جنودهم إلى الحصون الثلاثة: رب المحبة ، وكانترا ، وكيرينيا . ومضى جون يتعقبهم وضرب حصارا حول الحصون الثلاثة، وسرعان ما استولى على كيرينيا ، لكـن حصن رب المحبة ، الذى لجأ إليه بارليه ومعه الملك الصغـير وأخواتـه ، وكذلـك حصـن كانترا ، كانـا مـن العسـير اقتحامهمـا ، ولم يستسـلما إلاّ في صيـف عـام ١٢٣٠م مـن التضور جوعا . وكانت شروط جون للسلام شروطا سخية . ذلك أنه من بين الوكلاء الخمسة ، قُتل جافين (أوف شينيشـي) في حصـن كانـترا ، ووليـم (أوف ريفـت) وهـو أخوه غير الشقيق ، الذى هرب من كيرينيا بحثا عـن مسـاعدة في كيليكيـا حيـث مـات فيها، ولم يعاقب جون الثلاثة الباقين مما أثار استياء كثيرين مـن أصدقـاء جـون . بـل إن جون لم يسمح لفيليب المؤرخ الشاعر أن يكتب فيهم قصيدة هجاء . وأرسـل رسـولا باسم الملك إلى عواهل أوروبا لتبرير الخطوات التى اتخذت ضد الامبراطور ، وتولى جون نفسه الحكم إلى أن يبلغ الملك هنرى سن الرشد في عام ١٢٣٢م[٤٤].

---

(٤٤) *Gestes des Chiprois*, pp.50-76) حيث يرد وصف المؤرخ فيليب أوف نوفـارا نفسـه؛ *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 375-7 . انظر Hill, op. cit., ii, pp. 100-7.

١٢٢٩م : الملكة أليس تطالب بعرش القدس

وفي تلك الأثناء كان باليان أمير صيدا وحارنييه الألماني يحكمان مملكة القدس بصورة سلمية . وفي خريف عام ١٢٢٩م جاءت الملكة أليس القبرصية إلى عكا مطالبة بالعرش ؛ إذ أن وصياتها على قبرص - التي كانت ما تزال تقوم بها من الناحية الإسمية - لم تعد عليها إلا بالمتاعب . وكانت قد طلّقت زوجها بوهمند الصغير أمير انطاكية على أساس قرابة الدم ؛ إذ كانا أبناء عمومة من الدرجة الثالثة . والآن أعلنت أنه على الرغم من أن كونراد ابن الامبراطور هو ملك القدس قانونا ، إلاّ أنه قد فرّط في حقه بفشله في المجئ إلى مملكته ، ومن ثـمّ ينبغى للمحكمة العليا تسليم التاج إلى الوريث الشرعى التالى ، أي إليها هى نفسها . ورفضت المحكمة مطالبتها تأسيسا على أن كونراد لا يزال دون سن الرشد وبذا لا يكون وجوده ضروريا . على أن المحكمة وافقت على ارسال سفارة إلى أيطاليا تطلب إرسال كونراد في غضون عام إلى الشرق للتمكين من تقديم فروض الولاء له شخصيا . ورد فريدريك بأنه سيفعل ما يراه مناسبا(٤٥).

وفي ٢٣ يولية ١٢٣٠م عقد فريدريك سلاما مع البابا بمعاهدة سان جيرمانو . فقد كان على الجملة منتصرا في ايطاليا ، وهو الآن على استعداد لتقديم بعض التنازلات حول سيطرة الكنيسة في صقلية حتى يمكن تبرئته من قرار طرده من الكنيسة . وأسفرت مصالحته مع البابوية عن تشديد قبضته في الشرق ، فقد وصلت التعليمات إلى البطريق جيرولد برفع قرار الحرمان الكنسى الذى فرض على القدس ، كما تلقى تعنيفا لإصداره هذا القرار دون الرجوع إلى روما . وشعرت الأنظمة الدينية العسكرية بأنها لم تعد مضطرة لأن تتنحى جانبا ؛ كما لم يعد في وسع البارونات الإعتماد على المساندة الكنسية(٤٦). وانتظر الامبراطور الوقت الذي يناسبه . وفي خريف ١٢٣١م، وبعدما أخبر البابا بضرورة ارسال جيش للدفاع عن القدس ، جمع نحوا من ستمائة فارس و مائة مساعد فارس و سبعمائة من المشاة المسلحين و ثلاثة آلاف من رجال البحرية ، وأرسلهم بقيادة مارشاله - ريتشارد فيلانجيري النابوليتاني - في اثنين وثلاثين قادسا . ومُنح فيلانجيرى هذا لقب المندوب الإمبراطورى(٤٧).

---

(٤٥) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 380. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 64 n 1

(٤٦) Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1489-90.

(٤٧) كتب البابا جريجورى الى فريدريك قائلا إنه لا ينبغى لفيلانجيرى أن يلقّب نفسه بلقب المندوب الإمبراطورى ، وإنما فقط مندوب الإمبراطور في القدس . وأوصى بفيلانجيرى لدى الأساقفة السوريين

وكان جون (أوف ابيلين) في عكا عندما جاء أحد عملائه من ايطاليا في باخرة لفرسان التيوتون، وحذّره من الأسطول القادم . وظن أن هدفه الأول هو قبرص ، فسارع بجمع رجاله من بيروت تاركا مجرد حامية ضئيلة العدد في القلعة وأبحر قاصدا قبرص . وعندما وصل الأسطول الإمبراطورى أمام الساحل القبرصى علم فيلانجيرى أن جون مع الملك هنرى في كيتى ، وأن باليان (أوف ابيلين) يحتل ليماسول . فأرسل سفيرا لمقابلة الملك ومعه رسالة من فريدريك يطلب منه فيها نفى آل ابيلين ومصادرة أراضيهم . ورد الملك هنرى بأن جون هو عمه وأنه على أية حال لن يجرد أتباعه من ممتلكاتهم . وكاد الحشد الحاضر أن يقتص من بارليه الذى كان حاضرا وتكلم باسم فريدريك لولا أن أنقذه جون.

١٢٣١م : إنشاء مجلس إداري (كوميون) في عكا

وبعودة السفير ، أبحر فيلانجيرى مباشرة إلى بيروت التى لم تكن بها حامية والتى سلمها له أسقفها الهَلوع ؛ وبدأ حصاره حول قلعتها، وبعدما أوشكت على السقوط اتجه إلى صيدا وصور واحتلهما ثم ظهر في عكا ؛ حيث طلب عقد اجتماع للمحكمة العليا وأظهر لها رسائل من فريدريك بتعيينه وكيلا ؛ وصدق البارونات على التعيين ، وبمقتضى ذلك أعلن فيلانجيرى مصادرة أراضى آل ابيلين ، وهنا احتج البارونات جميعا؛ إذ ليس في الإمكان مصادرة الضياع إلاّ بقرار من المحكمة العليا وبعد إتاحة الفرصة للمالك للدفاع عن قضيته ، ورد فيلانجيرى متعاليا أنه وكيل الامبراطور ولسوف ينفّذ تعليمات الامبراطور. وكان ذلك خرقا جسيما للدستور سبب الصدمة حتى للمعتدلين مثل باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتفرات) الذي كان على استعداد حتى آنذاك لتأييد الامبراطور . وعلى الأثر انحاز البارونات جميعا إلى حزب جون (أوف ابيلين)؛ وكذلك فعل تجار عكا ، لما لجون من شعبية بينهم فضلا عن استيائهم من أسلوب فيلانجيرى المتغطرس. وكان أغلبهم ، فضلا عن نبلاء قليلين ، ينتمون إلى أخوة دينية كرست نفسها للقديس أندرو ؛ وعلى أساس تلك الأخوة الدينية أنشأوا مجلسا إداريا (كوميونا) ليمثّل كافة الطبقة البرجوازية المحلية ، برئاسة اثني عشر قنصلا ودعوا جون (أوف ابيلين) ليكون أول عمدة لهم . بيد أن فيلانجيرى كان رهيبا ؛ إذ كان لديه جيش

بهذه الصفة (رسالة جريجورى التاسع ، المؤرخة في ١٢ أغسطس ١٢٣١، والواردة في M.G.H. *Epistolae Saeculares*, xiii, i, p. 363).

جيد أحضره معه يتألف أساسا من اللومبارديين ، وكان فرسان التيوتون وأبناء بيزا أصدقاءه المخلصين . أما البطريق وفرسان المستشفى والمعبد فقد انزووا جانبا ، فلا أحد منهم يعبأ بفريدريك ، لكنهم منذ أن تمت مصالحته مع البابا، ساورهم الشك في واجبهم أين يكون.

عندما وصلت إلى قبرص أنباء مهاجمة بيروت ، توسل جون (أوف ابيلين) إلى الملك هنرى لكي يخف لنجدتها مع قوات الجزيرة ، ووافق الملك الصغير وأمر بإبحار جيش المملكة كله . ورغم خطورة بقاء قبرص بلا حراسة فقد كان جون يؤمن بضرورة انقاذ الأرض الأصلية أولا ؛ ومن باب الإحتياط اضطر بارليه وأصدقاؤه إلى مصاحبة الحملة . وكان في مأمول جون مغادرة قبرص في عيد الميلاد من عام ١٢٣١م ، لكن الأجواء العاصفة حالت دون تحقيق أمله حتى ٢٥ فبراير عندما استطاع الجيش الإبحار من فاماجوستا . وأبحرت السفن بسرعة وسط عاصفة مطيرة هائلة وألقت مراسيها جنوب طرابلس مباشرة في الميناء الصغير (بوى القائد العام). وهناك هبط سرا إلى اليابسة بارليه وأصدقاؤه وعددهم ثمانون فارسا ، وذهبوا إلى طرابلس تاركين معداتهم وراءهم ، وأرسل لهم فيلانجيرى سفينة تقلهم إلى بيروت ، وتبعهم جون برا مع أغلب رجاله ، بينما أبحر الاسطول القبرصى باتجاه الجنوب لكنه صادف أجواء سيئة أمام البطرون ، حيث تحطمت سفن قليلة ودمّرت سفن اخرى وفقدت مواد كثيرة. وعندما كان جون مارا خلال جبيل هرب بعض جنود المشاة ، وأخيرا وصل بيروت وشق طريقه إلى القلعة ، ومن هناك استنجد بالبارونات لإنقاذه ؛ فجاء كثيرون يقودهم ابن أخيه جون أمير قيسارية . على أن باليان أمير صيدا كان لا يزال يأمل في المصالحة ، فأسرع إلى بيروت مع شريكه السابق فى الوكالة، جارنيه ، والبطريق والسيدين الأعظمين لفرسان المستشفى والمعبد . غير أن فيلانجيري رفض النظر في شروط المصالحة التى تترك لآل إبيلين ملكية أراضيهم ، ولم يوافق المتفاوضون على أقل من ذلك.

وبعد أن أعاد جون تعزيز حامية بيروت ، انتقل إلى صور حيث استُقبل استقبالا حسنا ، وفاز بالكثير من المجندين وخاصة من أبناء جنوا . كما أرسل سفارة برئاسة ابنه باليان إلى طرابلس للترتيب لزواج أخت الملك هنرى الصغرى ، إيزابيلا ، من ثانى أبناء بوهمند ، هنرى . لكن بوهمند لا يثق كثيرا فى قضية آل ابيلين فعامل السفارة ببرود قليل. ومع ذلك ، بات فيلانجيرى عصبيا . ذلك أنه كان قد اتخذ مقر رئاسته في صور تاركا القيادة في بيروت لأخيه لوثر . والآن أمر أخاه لوثر برفع الحصار والإنضمام اليه في صور.

وفي تلك الأثناء عاد بارليه إلى قبرص بعد أن تعززت قواته بجنود من اللومبارديين ، وشرع في الإغارة على الجزيرة ، وسقطت أمامه الحصون الواحدة تلو الأخرى فيما عدا قلعة رب المحبة التي لاذت بها أخوات الملك ، وقلعة بوفافينتو التي كانت أشدهم منعة، والتي هربت اليها متنكرة في هيئة راهب الليدى إيشّيفا (أوف مونتبيليارد) ، وهى ابنة عم الملك هنرى وابنة اخت أودو ، مصطحبة معها المؤن الوفيرة وبذا تمكنت من الاحتفاظ بهذا الحصن للملك . وكان زوجها الأول ، والتر (أوف مونتيجو) ، قد قتله رجال بارليه في معركة نيقوسيا ، وقد تزوجت مؤخرا من باليان (أوف ابيلين) ؛ غير أن الزواج ظل في طي الكتمان لأنهما كانا أبناء عمومة . وعلم باليان بالغزو عندما كان في طرابلس من قبطانين بحريين من ابناء حنوا قدما مساعدتهما لكن بوهمند أسر سفينتيهما.

١٢٣٢م : معركة كاسال إمبِرت

وفي نهاية ابريل وافق أبناء حنوا على مساعدة آل ابيلين في هجوم على فيلانجيري في صور ، في مقابل الحصول على امتيازات في قبرص ؛ فاتجه الجيش شمالا إلى (كاسال إمبِرت) على مبعدة اثني عشر ميلا تقريبا . غير أن حون قابل هناك بطريق انطاكية ، ألبرت (أوف ريزاتو) ، الذى عُين مؤخرا مندوبا بابويا في الشرق وقد جاء حنوبا للوساطة ؛ وكان قد زار صور لتوه وسمع شروط فيلانجيرى الجديدة ؛ فقال حون أنه ينبغى - بحق - احالة تلك الشروط إلى المحكمة العليا ، وعاد إلى عكا مع البطريق ومعهما قوة من الحرس أضعف غيابها جيشه بصورة جسيمة . وفي وقت متأخر من ليل ٢ مايو ، خرج فيلانجيرى ، الذي علم برحيل حون، وربما رتّب ذلك مع البطريق ، بكل قواته من صور وانقض على معسكر إبيلين الذي لم يكن يتوقع أي هجوم وكانت حراسته سيئة . وحارب أنسيلم ، الذي كان في القيادة مع لوردات إبيلين الصغار ، بشجاعة فائقة ، لكن فيلانجيرى استولى على المعسكر . وأسرع ملك قبرص الصغير في نصف ملابسه إلى حيث الأمان في عكا ، ولاذ الباقون على قيد الحياة بقمة تل.

ولم يحاول فيلانجيري متابعة انتصاره ، وإنما انسحب بكل ما غنمه إلى صور تاركا مجموعة لحراسة ممر سلم صور . أما حون (أوف ابيلين) فما أن سمع بالكارثة حتى سارع شمالا من عكا وأنقذ أبناءه ، غير انه عندما حاول اللحاق بالأعداء المثقلين بالغنائم صده حراس الممر ، فعاد إلى عكا. وفي ذات الوقت عبر فيلانجيرى إلى قبرص

بتعزيزات لبارليه . وعلى الأثر صادر حون جميع السفن الراسية في ميناء عكا ، بينما عرض الملك حون اقطاعيات في قبرص للفرسان المحليين وحتى للتجار السوريين إذا انضموا إليه ، ورتّب أن يسهم أبناء جنوا بالمساعدة في مقابل اعفائهم من المكوس ومنحهم الحق في أن يكون لهم أحياؤهم الخاصة بهم ومحاكمهم في نيقوسيا وفاماجوستا وبافوس . وكانت الأموال في تناقص ، لكن حون أمير قيسارية وحون الأصغر (أوف ابيلين) ، وهو ابن فيليب ، باعوا ممتلكات في قيسارية وعكا لفرسان المعبد والمستشفى وجمعوا قرضا يبلغ واحد وثلاثين ألف بيزانت وأعطوه للملك.

وبهذه التعزيزات والتجهيزات ، أبحر حون والملك من عكا يوم ٣٠ مايو ، وتوقفا في صيدا لالتقاط باليان (أوف ابيلين) الذى كان في طريقه من سفارته في طرابلس ، وعبروا البحر إلى فاماجوستا. وكان اللومبارديون التابعون لفيلانجيرى في المدينة ومعهم ما يربو على ألفين من الخيالة بينما كان مع انصار ابيلين مائتان وثلاثة وثلاثون فقط . وبرغم ذلك جازف حون بإنزال جنوده الرئيسيين بعد حلول الظلام على جُزيرة صخرية تقع إلى الجنوب مباشرة من الميناء . وكانت بلا حراسة إذ لم يدر بذهن احد إمكان انزال خيول هناك . ثم تمكنت فصيلة صغيرة في قواربها من شق طريقها إلى داخل الميناء مطلقة صرخات عالية بحيث ظن اللومبارديون أن جيشا عظيما يطبق عليهم، فاحرقوا سفنهم وسارعوا بمغادرة المدينة . وفي الصباح التالي عبر جيش ابيلين الصخور إلى اليابسة الرئيسة فوجد فاماجوستا مهجورة.

وبقي حون هناك ما يكفي من الوقت لكي يوفي الملك بوعده لأبناء جنوا بالتوقيع على معاهدة معهم تقضى بتخصيص حي لهم ، ثم انطلق الجيش إلى نيقوسيا . ونتيجة لتصرفات اللومبارديين الوحشية، انعدمت شعبيتهم على الجزيرة ، وباتوا يخشون ثورة الفلاحين عليهم . واثناء انسحابهم أمام جيش ابيلين أحرقوا مخازن الحبوب كلها التى خُزن فيها الحصاد لتوه . وقرروا عدم الإحتفاظ بنيقوسيا ، وانما مضوا بطول الطريق الذاهب أعلى التلال إلى كيرينيا التي استولوا عليها لتحمي مؤخرتهم وليصبحوا على اتصال بفيلانجيري نفسه ، الذي كان يحاصر حصن رب المحبة . وكان معروفا أن حامية حصن رب المحبة تتضور جوعا وعلى وشك الإستسلام ، فاذا استطاع فيلانجيري صد أعدائه إلى أن يستولى على الحصن وعلى أختي الملك الموجودتين بداخله ، فسيكون في وضع قوى لمساومة الملك.

وسار الإبليون ببطء إلى نيقوسيا وهم يعانون من نقص الطعام ، غير أنهم وجدوا

في نيقوسيا ذاتها مخازن ضخمة غفل عنها اللومبارديون . واستراب حون من ذلك بحيث لم يضرب معسكره داخل المدينة ، وانما قاد جيشه في الحال يوم ١٥ يونية باتجاه كيرينيا منتويا أن يعسكر في أجريدي الواقعة أسفل الممر مباشرة . ولخشية الجيش من هجوم في أية لحظة فقد سار في تشكيل قتالى ؛ وكان يتعين أن يقود الطليعة باليان ، ابن حون ، لكنه كان قد طُرد من الكنيسة لزواجه من ابنة عمه إيشيفا ، تلك السيدة الشجاعة التى كانت تراقب الحملة كلها من مكمنها المرتفع في بوفافينتو ، فضلا عن أن والده لم يكن ليسمح له بقيادة عليا . ولذلك قاد الفرقة الأولى أخوه هيو ، مع أنسيلم (أوف براي) . وقاد ابن حون الثالث ، بلدوين ، الفرقة الثانية ؛ وقاد حون أمير قيسارية الفرقة الثالثة ؛ وقاد حون الإبلينى نفسه المؤخرة مع أبنائه الآخرين والملك . وكان جيشا ضئيل العدد تنقصه الخيول بحيث يضطر تابع الفارس إلى أن يحارب راحلا . وبدا الجيش حقيرا في أعين اللومبارديين الذين كانوا ينظرون اليه من قمة الممر ، حيث يلتقى الدرب القادم من حصن رب المحبة بالطريق . وصدر الأمر بمهاجمتهم دون تأخير.

١٢٣٢م : معركة أجريدى

هبط جنود الخيالة من اللومبارديين التل وهم يرعدون بقيادة والتر كونت مانوبيلو، ومروا بطول جناح جيش ابيلين ، لكنهم لم يتمكنوا من كسر صفوفه ، وساقتهم قوة دفع الهجوم إلى السهل بأسفل . ومنع حون رجاله من تعقبهم ؛ ولم يجرؤ اللومبارديون على العودة والكدح لصعود المنحدر الشديد ، وانما نهبوا الأرض ركضا باتجاه الشرق دون توقف إلى أن وصلوا جاستريا . واندفعت ثاني قوة لومباردية ، بقيادة بيرارد أخى والتر ، وهجمت مباشرة في قلب الصفوف التى يقودها هيو الإبلينى وأنسيلم (أوف براي) ؛ غير أن الخيول وجدت صعوبة في هبوط جانب التل الصخرى الوعر ، فكان لكثير من الخيول كبواتها ملقية راكبيها الذين حال ثقل أسلحتهم دون الوقوف على الأقدام . وحارب أغلب الإبيليين على الأقدام ، وبرغم التفوق العددى لأعدائهم، وسرعان ما كانت لهم اليد العليا على اعدائهم . وقتل قائد اللومبارديين بيرارد بيد أنسيلم نفسه ؛ وكان فيلانجيري منتظرا على رأس الممر منتويا الهبوط لإنقاذ بيرارد ؛ غير أن باليان الإبيليني ظهر فجأة مع حفنة من الفرسان ، كانوا قد تسلقوا التل من مؤخرة جيش ابيلين في درب جبلي يقع غرب الطريق وهجموا مباشرة على معسكر فيلانجيري. ومرة أخرى كان التفوق العددى في جانب اللومبارديين الذين راحوا يشددون على

باليان وحفنة فرسانه ، ورفض أبو باليان أن يفصل فصيلة من جنوده وأن يرسلها لمساعدته ؛ غير أنه سرعان ما فقد فيلانجيرى أعصابه ، إذ لم ترجع فصائل مانوبيلو ، فقاد رجاله في حالة من الفوضى هابطا إلى كيرينيا.

وأنقذت قلعة رب المحبة وهرب محاصروها باتجاه الجنوب الغربى إلى السهل . ولما هبط الظلام فاجأهم فيليب (أوف نوفارا) وأسرهم . ووصل والتر (أوف مانوبيلو) إلى قلعة جاستريا ، لكن فرسان المعبد بداخلها رفضوا السماح له بالدخول ، وعثر عليه جون ، ابن فيليب الإبيليني ، مختبئا في حفرة واعتقله . وفي ذات الوقت سار جون أمير بيروت لمحاصرة فيلانجيرى في كيرينيا.

ودام حصار كيرينيا عشرة أشهر . إذ كان الإبيليون يفتقدون السفن بادئ الأمر ، بينما كان لدى فيلانجيرى أسطول أبقى على اتصاله بصور . ولم يتمكن الإبيليون من إحكام الحصار حول القلعة بحرا إلاّ بعد استمالة أبناء جنوا للمساعدة بسفنهم مرة أخرى . وقبل أن يكتمل الحصار هرب فيلانجيرى مع أماليريك بارليه ، وأماليريك أمير بيسان ، وهيو أمير جبيل ، وذهبوا أول الأمر إلى أرمينيا في محاولة فاشلة للحصول على مساعدة الملك هيثوم ، ثم إلى صور ، وفي نهاية الأمر إلى ايطاليا لإطلاع الامبراطور . أما اللومبارديون في كيرينيا ، بقيادة فيليب شينارت ، فقد شيدوا دفاعات قوية . وكان صغار لوردات إبيليين قد جرحوا جميعا أثناء القتال ؛ وكان أنسيلم (أوف براي) المحارب الصنديد ، والذي كان جون أمير بيروت يلقبه بلقب "الأسد الأحمر"، قد أصيب بسهم حديدى ومات بعد ستة أشهر من أوجاعه . ومن بين اللاجئين داخل كيرينيا الأميرة أليس (أوف مونتفرات) الإيطالية التى اختارها فريدريك لتكون عروس الملك هنرى ؛ وكانت قد تزوجت بالتوكيل ، ومن المشكوك فيه ما إذا كانت قد رأت زوجها قط ، إذ وصلت إلى قبرص يرافقها الحرس الإمبراطورى بعد أن انضم الملك إلى الإبيليين . وأثناء الحصار سقطت مريضة وماتت ؛ وقد توقف القتال لمراسم تسليم جثتها وعليها رداء الملكة ، وحُملت إلى نيقوسيا حيث أجريت لها جنازة ملكية ودفنها زوجها الذي لم يرها قط وهى على قيد الحياة.

واستسلمت كيرينيا في ابريل ١٢٣٣م ، وسُمح للمدافعين عنها بالإنسحاب إلى صور مع أمتعتهم الشخصية ، وتم تبادل الأسرى الذين أسرهم الإبيليون بالأسرى الذين كان يحتجزهم فيلانجيرى في صور. والآن عادت قبرص كلها إلى حكم الملك هنرى وأبناء عمومته الإبيليين. وكوفئ أتباع الملك المخلصون وسُدد ما أقترضوه من

قروض[٤٨]. ودخلت الجزيرة عهدا من السلام لا يشوبه إلا محاولات هرمية الكنيسة اللاتينية قمع أي رحل دين يوناني لا يقبل سلطتها أو لا يعترف بأعرافها، وذلك على الرغم من معارضة البارونات العلمانيين . أما الرهبان اليونانيون المعاندون في عصيانهم فقد عوقبوا حتى بالحرق[٤٩].

١٢٣٣م : تعيين موجاستيل وكيلا

على الرغم من حلول السلام في قبرص ، كان فيلانجيرى ما يزال يحتل صور في الأراضى الرئيسية ، وكان فريدريك ما يزال حاكم القدس القانوني وصيا على ابنه الصغير . وعندما علم فريدريك بفشل سياسته ، وربما من فيلانجيرى نفسه ، أرسل رسائل إلى عكا ، سلمها أسقف صيدا بيده كان يزور روما، بالغاء تعيين فيلانجيرى كوكيل ، وتعيين أحد النبلاء السوريين مكانه وهو فيليب (أوف موجاستيل) . وإذا كان أمله تهدئة البارونات بتعيين لورد محلي ، فقد خاب أمله ؛ إذ كان موجاستيل شابا مخنثا أثارت علاقته الحميمة مع فيلانجيرى فضيحة كبيرة ، بينما بقيت صور في حوزة فيلانجرى . وعندما وصلت أنباء التعيين الجديد جون أمير بيروت ، لم تكن كيرينيا قد سقطت بعد ، فأسرع من فوره مبحرا إلى عكا ، حيث كان باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتبيليارد) يتهيّآن لقبول موجاستيل ، ورتّبا بأن يتم قسم الولاء له في كنيسة الصليب المقدس ، لكن جون أمير قيسارية نهض عندما افتتح الحفل وأعلن عدم قانونية الإجراءات ؛ إذ لا يستطيع الامبراطور أن يلغي بنزوة من خياله الترتيبات التي تمت أمام المحكمة العليا. وثار خلاف غاضب ، وقرع جون جرس الإنذار لكوميون عكا مستدعيا أعضائه لمساعدته ، واندفع حشد مهتاج إلى داخل الكنيسة ، أوشك على قتل باليان وأودو لولا تدخل جون شخصيا ، بينما هرب موجاستيل مذعورا إلى صور . وأعيد انتخاب جون عمدة للكوميون وأصبح الحاكم الفعلى للمملكة ، فيما عدا صور التي كان فيلانجيرى يحكمها باسم الامبراطور ، والقدس ذاتها التي يبدو أنها كانت خاضعة

---

(٤٨) أورد Philip of Novara قصة الحرب اللومباردية الطويلة من وجهة نظر ابيلينية عاطفية(*Gestes des Chiprois*,pp. 77-117) ترد ببعض الإطالة في *Estoire d'Eracles*,pp. 386-402 ، ومرة أخرى من وجهة نظر معادية للإمبراطور . وأما تاريخي (Amadi (pp. 147-82 وBustron (pp. 80 - 104فيختلفان في مجرد تفصيلات بسيطة .أما مؤرخو فريدريك فلا يعبؤن بالقصة.

(٤٩) عن تاريخ قبرص الكنسي في هذه الفترة أنظر .Hill, op.cit. iii,pp 1043-5 وهناك رواية عن استشهاد ثلاثة عشر يونانيا على يد اللاتينيين عام ١٢٣١م منشورة في . Sathas, vol.ii, pp 20-20 .

لممثل مباشر من الامبراطور . ومن المرجح أن باليان أمير صيدا ظل وكيلا إسميا، غير أن المحكمة العليا قبلت زعامة جون إلى حين اتخاذ بعض الترتيبات القانونية الجديدة. وأرسل المبعوثان فيليب (أوف تروي) وهنرى أمير الناصرة إلى روما لشرح أعمال البارونات والكوميون ؛ غير أن السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا)، الذى كان موجودا هناك ، كان يرى أنهما لم تتح لهما فرصة عادلة لسماع وجهات نظرهما ؛ إذ كان البابا لا يزال على علاقة حسنة بفريدريك وكان تواقا لإعادة سلطته في الشرق . وفي ١٢٣٥م أرسل البابا رئيس أساقفة رافينّا إلى عكا مندوبا بابويا عنه، لكن رئيس الأساقفة لم يفعل سوى أن أوصى بالطاعة لسلطة فيلانجيرى ، الأمر الذى لم يلق قبولا . وأرسل البارونات بدورهم قاضيا إلى روما ، هو جيوفرى لو تور . وكان البابا جريجورى قد بدأ شجاره مع الامبراطور مرة اخرى ، لكنه كان عاقد العزم على أن يكون تصرفه سليما . وفي شهر فبراير ١٢٣٦م كتب إلى فريدريك والى البارونات قائلا بوجوب قبول فيلانجيرى وكيلا ، على أن يساعده أودو (أوف مونتبيليارد) حتى شهر سبتمبر الذى يعيّن فيه بوهمند أمير انطاكية وكيلا . ولأن فريدريك وكونراد حاكمان شرعيان ، فقد أخطأ البارونات فيما قاموا به من تصرف ، على أنه يتعين منح المغفرة للجميع فيما عدا آل إبيلين الذين يجب محاكمتهم امام المحكمة العليا . وينبغى حل كوميون عكا[٥٠].

ولم يقبل البارونات والكوميون تلك الشروط وتجاهلوها . وفي هذا المنعطف مات جون الإبيلينى نتيجة لحادثة حدثت له أثناء ركضه على جواده . ولقد كان لورد بيروت العجوز هذا ، كما كان يسميه معاصروه ، الشخصية المهيمنة فى الشرق الفرنجى . ولا يخامر أحد أية شكوك حول صفاته الشخصية العالية . كان شجاعا وشريفا وسليما في تصرفاته ، وكان لشخصيته التى لا تشوبها شائبة أثر كبير في تعزيز قضية البارونات[٥١]. ولولاه لأفلح فريدريك بجدارة في انشاء حكم مطلق في كل من قبرص والمملكة السورية ؛ وبرغم أن حكم البارونات يميل إلى الإعتباطية والسير كيفما اتفق ، يصعب علينا أن نعى كيف يعتبر الحكم المطلق تحسينا للأحوال . ولقد كان فريدريك نفسه بعيدا جدا بحيث لا يستطيع السيطرة عليه ؛ وكان حكمه على الرجال سيئا ؛ إذ أن وضع الحكم المطلق في قبضة رجل مثل رتشارد فيلانجيرى لا بد وأنه كان

(٥٠) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 406-7; *Gesta des Chiptois*, pp. 112-13

(٥١) أنظر اعلاه صفحة ٢٢٩، الحاشية ٢٦.

سيؤدى إلى كارثة سريعة ؛ وكان الحل الأفضل هو ما أوصى به البابا نفسه ، وهو اتحاد حكومة الأراضى الرئيسية مع قبرص[٥٢]. غير أن تقيد البارونات بالقانون ، الذى جعلهم يعارضون استبداد فريدريك ، لم يكن ليسمح لهم بوجود أي ملك آخر بخلاف سيدهم الشرعى ، ابنه كونراد . وأما الإتحاد مع قبرص ، فيتعين أن ينتظر إلى أن تأذن به يد الرب . لقد كان موقف البارونات متماسكا وسليما . لكنه في ذات الوقت قنن الفوضى.

(٥٢) اقترح البابا على جيوفرى لو تور أن تقبل الآراضى الرئيسة سلطة الملك القبرصى(*Estoire d'Eracles*, ii, p.407)

الفصل الرابع:

فوضى مقننة

فوضى مقننة

"إذ الناموسُ لم يُكمّل شيئاً"
(الرسالة إلى العبرانيين ٧:١٩)

ترتب على موت لورد بيروت العجوز أن حرد اوتريميه من زعيمها الطبيعى ؛ ولم يتمتع قط أى بارون فرنجى آخر بهذه المكانة العالية مرة أخرى . ولقد أدى دوره، إذ أسس تحالفا بين البارونات وكوميون عكا ، ودلهم على سياسة مشتركة ترتكز على حقوقهم القانونية . ومن بين أبنائه الأربعة ، بقي اثنان في الأراضى الرئيسية السورية هما باليان الذي استخلف على إمارة بيروت ، وحون الذي ورث إقطاعية أمه في أرسوف ، وتسلم اثنان ضياع الأسرة في قبرص وتزوج كلاهما زواجا سياسيا أعاد الوحدة إلى نبلاء المملكة ؛ فتزوج بلدوين ، الذي أصبح (قهرمانا) ، من أخت أماريك (أوف بيسان) ، وتزوج جوي ، الذي أصبح ياورا ، من إبنة ووريثة زعيم المتمردين أماريك بارليه . أما ابن أخى اللورد العجوز ، وهو جون آخر ، والذي أصبح كونت يافا ، وواضع قوانين القدس، فكان أبرز القانونيين في المملكة . وكان ابن عمومتهم

باليان أمير صيدا لا يزال قائما بأعمال الوكيل مع أودو (أوف مونتبيلارد) ، غير أن فشل سياسته التوفيقية أضعف من سلطته . وكان أقوى النبلاء ابن عم آخر هو فيليب (أوف مونتفورت) ، وهو أخو سيمون ذاك الذي قاد الحملة الصليبية الألبيجينسيّة. وكان فيليب قد تزوج مؤخرا الأميرة الأرمينية ماريا ، إبنة ريموند-روبين، وهي وريثة طورون عن طريق أم جدتها، أخت آخر لوردات طورون. وفوق ذلك، أكمل حون أمير قيسارية، وهو ابن عم آخر، الفرع العائلى الذى يسيطر الآن على أوتريميه . وأضاف إلى شهرة اللورد العجوز بعد وفاته أن أصبح أبناؤه وأبناء إخوته على استعداد للعمل معا بروح من التفاهم ؛ وتوثقت عرى وحدتهم بمقتهم لفيلانجيرى الذي كان لا يزال يحتل صور للإمبراطور[1].

وحتى مع ذلك، كان وضع مملكة ما وراء البحار مقلقا . إذ مات بوهمند الرابع أمير أنطاكية وكونت طرابلس في شهر مارس ١٢٣٣م بعد أن تصالح أخيرا مع الكنيسة . وقد أظهر لينا ملحوظا إبّان الحروب التى دارت بين الإمبراطوريين وبارونات اوتريميه . إذ أنه رحب بادئ الأمر بفريدريك بوازع من كراهيته للإبيليين الذين عارضوا تعيين ابنه بوهمند ، زوج الملكة أليس ، في الوصاية على قبرص . وبعد ذلك ، ولخشيته من طموحات فريدريك غيّر من سياسته . فبعد تطليق أليس من بوهمند الصغير بسبب قرابة الدم وافق طواعية على اقتراح حون الإبيليني بزواج أصغر أبنائه ، هنرى ، من إيزابيلا القبرصية ، كبرى أخوات الملك هنرى ، وهو زواج يستهدف في النهاية وضع أمير أنطاكية على العرش القبرصى . غير أنه في ذلك الوقت كان فيلانجيرى قد انتصر في معركة كاسال إمبرت ؛ ولذا راوغ بوهمند ، مدفوعا برغبته في أن يكون في حانب المنتصر . ولم يتم الزواج إلا بعد هزيمة الإمبراطوريين في قبرص[2]. وفي ذات الوقت على وحه التقريب تصالح بوهمند مع فرسان المستشفى . وكانت الكراهية المشتركة للإمبراطور فريدريك من حانب كل من نظامي فرسان المعبد والمستشفى قد دفعتهما إلى التعاون معا إلى حين ، ولم يكن بوسعه أن يضرب أحدهما بالآخر . ولذلك أعلن عن خضوعه للكنيسة والتمس من حيرولد رئيس أساقفة القدس أن يتفاوض مع فرسان المستشفى من أحله . ووافق النظام على إسقاط مطالبته بما وعده

---

(١) عن أسرة إبيلين وأبناء عمومتها،أنظر شجرة الأنساب،المرفق الثالث أدناه، المرتكزة على *Lignage d'Outremer*.

(٢) Amadi, pp. 123-4 بالنسبة لطلاق أليس و *Gestes des Chiprois*, pp. 86-7; *Estoire d'Eracles*, ii, p.360) بالنسبة لزواج إيزابيلا)

ريموند-روبين من مزايا والإعتراف بحقوق بوهمند الإقطاعية ، وذلك في مقابل إيجارات ضخمة لممتلكات في مواقع في أنطاكية وطرابلس. وفي الوقت ذاته رفع جيرود حكم الطرد من الكنيسة الصادر ضده ، وأرسل إلى روما للتصديق على تلك التسوية . وجاء تصديق البابا بعد أسابيع قليلة من موت بوهمند(٣).

١٢٣٣م : بوهمند الخامس أمير أنطاكية

وبرغم كل أخطاء بوهمند الرابع فقد كان حاكما قويا ، أعجب حتى أعداؤه بثقافته وبتعليمه كقانوني . أما إبنه بوهمند الخامس فكان رجلا ضعيفا، وكان ابن الكنيسة البار ، وسمح للبابا جريجورى التاسع بأن يختار له زوجه الثانية ، لوشين (أوف سينيي) التى كانت من أسرة البابا(٤). وبعد سنوات قليلة ، في عام ١٢٤٤م ، وباستغلاله لتجربة أبيه ، حصل من روما على ضمان بعدم امكان الحكم عليه بالطرد من الكنيسة إلا عن طريق البابا شخصيا(٥) غير أنه لم يكن السيد في إمارته هو نفسه ؛ إذ كان الذى يحكم أنطاكية مجلسها الإدارى (الكوميون) ، ولم يكن يحظى معه بشعبية أبيه ، ربما لأن صداقته بروما أغضبت العنصر اليوناني القوي هناك ، ومن ثمّ فضل الإقامة في عاصمته الثانية طرابلس . ولم تكن له من سيطرة على الأنظمة الدينية العسكرية ، وكانت علاقته بأرمينيا في ظل الهيثوميين تفتقر إلى الود ، وكان قطاع اللاذقية الإسلامي يشطر أراضيه إلى قسمين ، وكان عهده بمثابة علامة على اضمحلال سريع(٦).

وكان فريدريك قد استبعد أنطاكية وطرابلس من معاهدة السلام التي عقدها مع الكامل لضيقه من بوهمند الرابع آنذاك . ومع ذلك تمكن بوهمند من الحفاظ على السلام مع جيرانه المسلمين ، بخلاف بعض هجماته على الحشاشين الذين يبغضهم باعتبارهم حلفاء فرسان المستشفى . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية على جانب كبير

---

(٣) انظر Rohricht, *Regesta Regni Hierosolymitani*, pp. 269-70 . Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 642-3.

(٤) *Estoire d'Eracles*, ii, p.408. كانت لوسين حفيدة إبنة أخت إينوسنت الثالث ولذا فهي من بنات خؤولة جريجوري التاسع

(٥) Innocent IV, *Registres, 418* (ed. Berger), i, p. 75

(٦) أنظر Cahen, *op. cit.* pp. 650-2, 664-6; Rey, *Histoire des Princes d'Antioche*, p. 400 .

من قلة الحذر ، وهذا ما كان مثار معارضته الشديدة . إذ أن فرسان المستشفى استثاروا الكامل حتى أغار على قلعة الكرك عندما كان يهاجم دمشق عام ١٢٢٨م . وفي ١٢٢٩م شنوا غارة مضادة على بارين ، وفي ١٢٣٠م شاركوا فرسان المعبد في طرطوس في شن هجوم على حماة حيث وقعوا في كمين وهزموا هزيمة منكرة . وفى العام التالى انقضّت الأنظمة الدينية العسكرية فجأة على حبلة ، ولم يحتفظوا بها إلا لأسابيع قليلة . وفي نهاية الأمر عقدت هدنة في ربيع ١٢٣١م دامت لعامين(٧).

وبعد استخلاف بوهمند الخامس مباشرة أرسل أخاه هنرى مع فرق من عكا وقبرص لمساعدة الأنظمة الدينية العسكرية في هجوم آخر على بارين التى افتدت نفسها بالوعد بدفع إتاوة يتسلمها نظام فرسان المستشفى من حماه . واستمرت الهدنة المجددة حتى عام ١٢٣٧م ، عندما انقض فرسان معبد بجراس فجأة على قبائل التركمان المستقرة في شرق بحيرة انطاكية . وزحف جيش حلب في كامل قوته للانتقام بمحاصرة بجراس التى لم ينقذها سوى وصول بوهمند نفسه الذي تدبر تجديد الهدنة . واستاء مرشد فرسان المعبد في انطاكية وهو وليم (أوف مونتفرات) من هذه الإهانة وضرب برغبات بوهمند الصريحة عرض الحائط معلنا أنه سوف يخرق الهدنة بعد إبرامها مباشرة. وفي شهر يونية من ذلك العام حرض فرسانه ولورد حبيل ولوردات علمانيين قليلين على مهاجمة قلعة درب الساق الواقعة شمالى بجراس . وأخذت حاميتها على حين غرة لكنها قاومت مقاومة شديدة ، بينما أسرع الرسل إلى حلب التى أرسل واليها على الفور جيشا قويا . وسمع بعض الأسرى المسيحيين بنبأ ارسال هذه القوة ، فتدبروا إرسال رسالة إلى وليم يحثونه على الإنسحاب ، فتجاهل ذلك التحذير في كبرياء ، ففوجئ بفرسان المسلمين ينقضون عليه، وهُزمت قوته الصغيرة هزيمة منكرة ، وقتل هو نفسه ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وبذيوع انباء الكارثة كتب كل من نظامي المعبد والمستشفي رسائل متلهفة إلى الغرب للنجدة ؛ على أن المسلمين لم يتابعوا انتصارهم ، إذ أنهم تلقوا وعدا بمبالغ وفيرة من المال لافتداء أسراهم، فوافقوا على تجديد الهدنة . وفقدت الأنظمة الدينية العسكرية ثقتها بنفسها وحافظت على السلام لعشر سنوات بموافقة البابا الذي اضطر إلى تقديم أكبر قدر من أموال الفدية(٨).

---

(٧) Cahen, *op. cit.*, p.642 nn. 6,7 وعن مصادر المخطوطات انظر Ibn al-Athir, ii, p. 180 .

(٨) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 403-5; *Annales de Terre Sainte,* p.436; Kemal ad-Din, trans. Blochet, pp. 85, 95-6; Abu'l Feda, pp. 110-12.

ويعزى إلى السلطان الكامل العظيم، ولحسن حظ الفرنج، ما أبـداه المسلمون من غيبة الروح العدوانية، ذلك أن الكامل كان رجل سلام وشرف . ومع ذلك كـان على استعداد لأن يحارب وأن يحيك المكائد في سبيل توحيد الأراضي الأيوبية تحت زعامتـه ، فليست المنازعات العائلية والمشاحنات من مصلحـة أحـد. وكـان مهيّأ لدفع هجمـات السلاجقة أو أتراك خوارزم ، وطالمـا لا توحـد اضطرابـات يسببها المسيحيون ، فهـو تاركهم في حـالهم . وكـان أمـراء المسلمين جميعا مدركـين للمزايا التجاريـة للموانـي البحرية الفرنجية القريبة من حدودهم ؛ وكانوا كارهين للمجازفة بتغيـير مسـار التجـارة الضخمة بين الشرق والغرب بعداوات حمقاء ، وكان الكامل خاصة حريصا على تهيئـة الإزدهار المادى لرعاياه ؛ وفضلا عن ذلك ، كان كصديقه فريدريك الثانى ، رجـلا ذا فضول ذهنى واهتمامات فكرية واسعة ، وكان ذا تسامح أصيل وطيبة على نحـو يفـوق للغاية آل هوهنشتوفن . وعلى الرغم من افتقاره إلى ما كان عمه صلاح الدين يزدان بـه من جلال البطولة ، وحدة الذهن المتوقد وما كـان أبوه العـادل يتحلى بـه، فقـد كـان يفيض عاطفة إنسانية أكثر من أبيهما. وكان ملكا ذا اقتدار . وربما استـهجن معـاصروه المسلمون ما كان يظهره من استلطاف "لـلرجل الأشـقر" ، لكنهـم كـانوا يحترمون مـا كانت عليه حكومته من عدالة ونظام جيد[٩].

١٢٢٩م : الكامل يعيد وحدة الإمبراطورية الأيوبية

أفلح طموح الكامل في إعادة توحيـد العـالم الأيوبي . ففـي شـهر يونيـة ١٢٢٩م تمكن أخوه الأشرف أخيرا من إبعاد ابن اخيه الناصر عن دمشق بعد أن مُنح على سـبيل التعويض مملكة في وادى الأردن وشرقي النهر ، عاصمتها الكرك ، تحت سـيادة الكـامل الفعّالة . واحتفظ الأشرف بدمشق مع اعترافه بسيطرة الكامل وتخلّيه له عـن أراض فـى الجزيرة وبطول الفرات الأوسط . وتلك كانت مقاطعات الإمبراطوريـة الأيوبيـة الأكـثر تعرضا للهجوم ولذا رغب الكامل في السيطرة عليها مباشرة نظرا لمـا كـان يمثلـه جـلال الدين الخوارزمي من تهديد جد خطير ، ووراءه إلى الشرق ما لا يعلمه إلا الله مـن قـوة المغـول ، هـذا في ذات الوقـت الـذى كـان فيـه السـلطان السـلجوقى كايكوبـاد يشـدد ضغوطه باتجاه الشرق من الأناضول . وفى ١٢٣٠م، وعندما كان الأشرف في دمشق ،

---

(٩) عـن الكـامل، أنظـر ثنـاء أبـى الفـدا عليـه Abu'l Feda's eulogy, p. 114 ، وابـن خلكـان Ibn Khallikan,iii, pp. 241-2.

استولى جلال الدين على قلعته العظيمة الأخلاط بالقرب من بحيرة فان ، وسـار لمهاجمة السلاجقة، فسارع الأشرف شمالا وتحالف مع كايكوباد ، وهزم التحالف جلال الدين هزيمة حاسمة بالقرب مـن إرزينجـان . وفي ذات الوقـت كـان المغول يهـاجمون مؤخـرة الإمبراطورية الخوارزمية ، ومن ثمّ بدأ تفكك تلك الإمبراطورية . وفي العام التـالى هـزم المسلمون جلال الدين نفسه الذي قُتل أثناء فراره يوم ١٥ أغسطس بيـد فـلاح كـردي كان جلال الدين قد قتل أخاه منذ زمن طويل(١٠).

وبغياب صلاح الدين اختل توازن القوى؛ إذ أصبح السلاجقة في شرقى الأنـاضول بلا غريم ، وبات المغول قادرين على التقدم غربا فى حرية ، وتمتعت الخلافة العباسية في بغداد بأشهر قليلة من الإستقلال نادرة ومقلقة. ولم يمـض وقـت طويـل قبـل أن يلتفـت كايكوباد إلى أراضى الكامل الواقعة في الفرات الأوسط . ومضـت الفـترة مـن ١٢٣٣م إلى ١٢٣٥م في حروب متصلة ، وانتقلت الرها وسـروق ومـدن أخـرى في الإقليـم مـن سيد إلى آخر إلى أن تمكن الكامل في نهاية المطـاف مـن ترسـيخ قواعـده . وأثـار نجـاح الكامل غيرة أقاربه ؛ وكره الأشرف وضعه كتابع ؛ وفي حلب مات فجأة عام ١٢٣٦م الملك العزيز الصغير إبن الظاهر ، وتولت أم الظاهر ضيفة الوصاية على حفيدهـا الظـاهر الثاني، وهي أخت الكامل، لكنها كانت تخشى طموحـات أخيهـا، وشـاركها مخاوفهـا عدد من صغار الأمراء الأيوبيين . وأثناء الأشهر الأولى من عام ١٢٣٧م جمـع الأشـرف حلفاءه ، وضمن العون الفعال من كايكوباد ؛ وبدا أن لا مفر من الحرب الأهلية ، لكن كايكوبـاد مـات في بدايـة الصيـف وأصيـب الأشـرف بمـرض خطـير، وبموتـه يـوم ٢٧ أغسطس تبددت المؤامـرة ؛ إذ استـولي أحـد اخوتـه الصغـار ، الصـالح اسمـاعيل ، على دمشق وحاول بلا جـدوى إعـادة توحيـد المتـآمرين . وبمسـاعدة النـاصر والي الكـرك ، زحف الكامل على دمشق في يناير ١٢٣٨م وضمها وعوّض الصالح اسماعيل بإقطاعية في بعلبك. على أن العمر لم يطل بالكامل وانتصاراته ؛ فبعد شهرين مات في دمشق يوم ٨ مارس وهو في الستين من عمره(١١).

---

(١٠) Ibn Khallikan, iii, pp. 242, 488-9; Ibn al-Athir, ii, pp. 176-8; Maqrisi, x, pp. 250-2.
وانظر Cahen, *op. cit.* pp.644-6 والحواشى لمراجع المخطوطـات

(١١) Ibn Khallikan, iii, pp. 242-4; Kemal ad-din, trans. Blochet, pp. 88-99. See Cahen, *op. cit.* pp. 645-6

١٢٣٩م : الحرب الأهلية فيما بين الأيوبيين

وأطلقت وفاته الحرب الأهلية من عقالها . إذ كان أكبر أبنائه الصالح أيوب ، ووالدته أمَة سودانية، في الشمال فسار في الحال إلى دمشق التي سبق أن استولى على السلطة فيها أحد أبناء إخوة الكامل وهو الجواد، وتمكن الصالح أيوب من خلع ابن عمه بمساعدة بعض قطاع الطرق الخوارزميين . وفي ذات الوقت تم تنصيب أخيه الأصغر ، العادل الثاني ، سلطانا على مصر . وكان الصالح أيوب قد عزم على أن يأخذ لنفسه أغنى مقاطعات أبيه ، لكنه عندما شرع في غزو مصر ، قام عمه الصالح اسماعيل بانقلاب مفاجئ خلعه من عرشه في دمشق ؛ وأثناء فرار الصالح أيوب باتجاه الجنوب وقع في قبضة الناصر صاحب الكرك الذي، برغم ذلك، تبنى قضيته وأعاره جنوده لغزو مصر . وكان غزوا يسيرا . إذ أساء العادل الثاني إلى وزرائه بأن عهد بالحكومة إلى زنجي شاب كان به ولوعا ، وحيكت مكيدة ناجحة خلعته في يونية ١٢٤٠م، ودُعي الصالح أيوب ليعتلي العرش المصرى ؛ وكوفئ الناصر بمنصب الحاكم العسكري لفلسطين . على أن الصالح اسماعيل بقي سيد دمشق ؛ وبات العالم الأيوبى طوال العقد التالى تمزقه الخصومة بين العم وابن اخيه . وسرعان ما استحال الشمال إلى فوضى ؛ إذ راح أفراد عصابات الخوارزميين يعيثون فسادا في أنحاء شمالي سوريا ، بأوامر من الصالح أيوب فيما يبدو. وفي الجزيرة احتفظ أمير ميافارقين الأيوبي ، المظفّر ، بسلطة ضئيلة . وحاول ابن الصالح أيوب ، توران شاه ، جمع شتات أراضي جده ، لكن مدنا كثيرة سقطت في قبضة السلطان السلجوقى . وفي حلب بقي الناصر يوسف - الذى خلف أخاه عام ١٢٣٦م - في جانب الدفاع ، في نفس ذات الوقت الذي كان فيه أميرا حماه وحمص مشغولين للغاية بصد الخوارزميين[١٢].

وفي خضم هذا الإضطراب العنيف انتهت المعاهدة المعقودة بين فريدريك الثاني والسلطان الكامل. وكان البابا جريجوري التاسع قد أعد لذلك عدته بأن أرسل في صيف عام ١٢٣٩م عملاء للتبشير بحملة صليبية في فرنسا وانجلترا ؛ ولم يتوفر عند الملك الفرنسي ولا الملك الإنجليزي الاستعداد للاستجابة شخصيا لمناشدته ، غير أنهما أعربا للمبشرين عن كامل تشجيعهما . وفي أوائل الصيف كانت هناك صحبة متميزة من النبلاء الفرنسيين على استعداد للإبحار إلى الشرق . وكان على رأسهم تيبالد (أوف

---

(١٢) عن هذا التاريخ المضطرب أنظر Ibn Khallikan, ii, pp. 445-6, iii, pp. 245-6; Maqrisi, x, pp. 297-330; Kemal ad-Din (trans. Blochet), *loc. cit.*. انظر Cahen, *op. cit.* pp. 646-9.

شامباني)، وهو ملك نانار[١٣]، وابن اخي هنرى (أوف شامباني) ، ولذا فهو من أبنـاء عمومة ملوك فرنسا وانجلترا وقبرص . وكان معه دوق برجنـدى هيـو الرابع ، وبطـرس نوكلير كونت بريتاني ، وكونتات بار ونفرس ومونتفورت وجوني وسانسير والكثير من اللـوردات الأقـل . وكـان عـدد جنـود المشـاة أقـل مـن المتوقـع بـالنظر إلى ارتفـاع مستويات القادة ؛ غير أن الحملة كلها كانت هائلة[١٤].

وكان في مأمول تيبالد أن يركب البحر مع رفاقه من برنديزي ، غـير أن الحـروب التي دارت بين البابا والإمبراطور جعلت الترحال خـلال إيطاليـا صعبـا ؛ فضـلا عـن أن الامبراطور ، الذي تقع برنديزي في أراضيه، لم يكن سعيدا بالحملـة الصليبية ، إذ كـان يعتبر نفسه حاكم فلسطين لإبنه الصغير ومن ثم كان ينبغي لحملة ذاهبة لمساعدة مملكتـه أن يتم تنظيمها تحت سلطته هو . ولم يكن بوسعه موافقة النبلاء الفرنسيين الذين كـانوا يتجهون بفطرتهم - دون شك - إلى تأييد بارونات أوتريميه ضده . وفضلا عن ذلك ، ولإدراكـه لوضـع العـالم الإسـلامى ، كـانت الآمـال تداعبـه في انـتزاع مسـاومة طيبـة للمملكة بالطرق الدبلوماسية ، ولا شك في أن مجئ هـؤلاء الفرسـان الطائشـين نـافذى الصبر سوف يقضى على تلك المفاوضـات، بيـد أنـه نظـرا لمشـاكله في إيطاليـا لم يكـن بوسعه أن يرسل هو نفسه رجالا للسيطرة على هؤلاء الفرسان ، وانما حصل على وعـد بعدم الإقدام على أي شئ إلى أن تنتهى الهدنة في أغسطس ، ثم أحـل نفسـه مـن الأمـر برمّته . ولذا اضطر الصليبيون إلى ركوب البحر من آجيوس-مورت ومرسيليا[١٥].

١٢٣٩م : تيبالد (أوف شامباني) وحملته الصليبية

كانت رحلة الحملة الصليبية رحلة عاصفة خـلال البحـر المتوسـط ، انحرفـت فيهـا بعض سفنها إلى قبرص ، واندفع بعضها عائدا حتى بلـغ صقلية . غـير أن تيبـالد نفسـه وصل عكا في أول سبتمبر ؛ وخلال الأيام القليلة التالية تجمـع هنـاك جيـش قوامـه ألـف فارس على وجه التقريب . وانعقد مجلس في الحال لتقرير أفضل سبل الإستفادة من هـذا

---

(١٣) المترجم : Navarre : اقليم تاريخي ومملكة سابقة في شمال شرق أسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

(١٤) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.413-14; *Gestes des Chiprois*, p.118; Gregory IX,letter, in Potthast,*Regesta*, i, p. 906.

(١٥) *Estoire d'Eracles, ii, loc. cit.; MS of Rothelin*, p. 528; Gregory IX, letter, in Potthast, *op. cit.*, i, p.910.

الجيش ، وحضر المجلس بالإضافة إلى الأمراء الزائرين أهم البارونات المحليين ، بممثلين عن الأنظمة الدينية العسكرية ، بينما حضر رئيس أساقفة صور ، بطرس (أوف سارجين) نيابة عن بطريق القدس . وكانت لحظة مناسبة لمشروع دبلوماسي ؛ إذ أتاحت المشاحرات بين ورثة الكامل الفرصة للمسيحيين لإستخدام قوتهم الجديدة كنقطة مساومة وللحصول على تنازلات سخيّة من واحد أو آخر من الفرق المتصارعة. لكن الصليبيين جاءوا ليحاربوا ، ولن يحذوا الحذو المشين الذي سلكه فريدريك . ولذلك أوصى البارونات المحليون بتسيير حملة ضد مصر . ولن تتسبب تلك الحملة في الإساءة إلى جيرانهم المسلمين القريبين في سوريا ، ليس هذا وحسب وإنما أيضا ستكون واعدة بفرص نجاح طيبة نظرا لما يفتقر إليه السلطان العادل من شعبية . وأكّد آخرون أن دمشق هي العدو ؛ وعلى الجيش تقوية حصون الجليل ثم الزحف على العاصمة السورية . على أن تيبالد كان يشتهي انتصارات متعددة ، فقرر أن يهاجم الجيش أولا القاعدتين الأماميتين المصريتين عسقلان وغزة ، وربما كان ذلك بناء على اقتراح كونت يافا، والتر (أوف برين) الذي لم يكن ينتمي إلى جماعة العائلة الإيبيلية ؛ ثم يهاجم دمشق بعد ضمان الحدود الجنوبية. وبسماع تلك الأنباء، هرعت الرسل تجوب كل بلاط أيوبي للترتيب لهدنة مؤقتة بين الأمراء المسلمين(١٦).

وانطلقت الحملة من عكا إلى الحدود المصرية يوم ٢ نوفمبر ، وصحب الصليبيين فصائل من الأنظمة الدينية العسكرية وعدد من البارونات المحليين . وأثناء سيرهم باتجاه يافا ، جاء أحد الجواسيس وأخبر بطرس (أوف بريتاني) بأن هناك قافلة اسلامية نفيسة تتحرك أعلى وادى الأردن قاصدة دمشق ، فما كان من بطرس إلا أن خرج على جواده في الحال مع رالف (أوف سواسون) ومئتي فارس ونصبوا كمينا للقافلة . وكانت القافلة مسلحة تسليحا جيدا ، وفي المعركة التي نشبت كاد بطرس أن يُقتل ؛ لكن جنود المسلمين هربوا في نهاية الأمر تاركين قطيعا ضخما من الماشية والأغنام استولى عليها المسيحيون ، وقاد بطرس المنتصر أسلابه عائدا إلى يافا التى وصلها رفاقه الآن . ونظرا لتناقص الطعام لدى الجيش فقد قوبل انتصاره بالترحيب الشديد . على أن انتصاره هذا خلق عدوا من الناصر صاحب الكرك(١٧).

وسُيّر على وجه السرعة جيش مصرى من الدلتا إلى غزة بقيادة المملوك ركن

---

(١٦) *MS. of Rothelin, pp. 531-2; Estoire d'Eracles,* ii, pp. 413-14.

(١٧) *MS. of Rothelin,* pp. 533-6.

الدين . وكانت أول أنباء عن وصوله تلقاها المسيحيون تفيد بأن عدده مجرد ألف رجل. ونظرا لما كان يكنه هنرى (أوف بار) من مشاعر الغيرة لنجاح كونت بريتاني ، فقد عزم في الحال على مهاجمته واكتساب ما يترتب على ذلك من حدارة وأسلاب ؛ وأبقى خطته طي الكتمان عن الجميع عدا القليل من الأصدقاء مثل دوق برجاندى وغيره من اللوردات القادمين من شرق فرنسا ؛ ثم أدخل في الصحبة الوكيلين عن المملكة ، باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتبليارد) اللذين ملأهما الإستياء من قيادة تيبالد ، وكان معهما والتر أمير يافا وأحد الإبيليين ، وجون أمير أرسوف . وعند حل ليل ١٢ نوفمبر، تهيأت الصحبة كلها للزحف على غزة ، وكان قوامها خمسمائة من الخيالة وأكثر من ألف من المشاة . غير أن الأنباء تسربت ؛ إذ بينما كانوا يمتطون صهوات خيولهم فاجأهم الملك تيبالد وسادة الأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة وكونت بريتاني، وبدأوا بالرجاء ، ثم بتوجيه الأوامر اليهم للعودة إلى المعسكر ، لكن هنرى كونت بار رفض التحول عن موقفه واتهم الملك وأصدقاءه بالجبن وتحدى أوامره ؛ وانطلق الفرسان فى أشعة القمر التي تبدد ظلام الليل. أما تيبالد ، الذي كان متشككا في مدى قوة الأعداء الحقيقية ، لم يكن بوسعه منعهم. وفي الصباح التالى نقل معسكره إلى أسوار عسقلان لتقديم العون إذا قضت الحاجة.

وكان كونت بار شديد الثقة من النجاح بحيث أنه عندما اقترب من غزة فى الفجر تقريبا أوقف رجاله في فجوة بين التلال الرملية على شاطئ البحر وأمرهم بأخذ قسط من الراحة . غير أن الجيش المصرى كان أكبر بكثير مما كان يظن وقد انتشر جواسيسه في الأنحاء . ولم يصدق الأمير ركن الدين أن أعداءه على هذا القدر من الحماقة ؛ فأرسل الرماة زاحفين حول الكثبان الرملية إلى أن أحاطوا تقريبا بالفرنج . وكان والتر سيد يافا أول من تحقق مما يحدث ، فنصح بانسحاب سريع نظرا لعدم إمكان الجياد من المناورة في الرمال العميقة ؛ وركب هو نفسه جواده وابتعد ناحية الشمال ومعه دوق برجندى ؛ وتبعه فرسان أوتريميه الآخرون بأسرع ما أمكنهم . بيد أن هنرى كونت بار ما كان ليترك المشاة الذين قادهم إلى الكمين ؛ وبقى معه أقرب أصدقائه . وسرعان ما انتهت المعركة على مشهد خيولهم وجنود المشاة وهم يكدحون في الكثبان الرملية بمن فيهم الكونت هنرى نفسه . وأسر المصريون ستمائة آخرين وحملوهم إلى مصر ، كان من بينهم كونت مونتفورت الشاعر - فيليب (أوف نانتيل) - الذى أمضى أيامه في السجن يصب اللعنات المسجوعة على الأنظمة الدينية العسكرية التى ألقى عليها باللائمة ، بدافع العاطفة أكثر منه بوازع المنطق ، لفشل تلك الحملة الحمقاء.

١٢٣٩م : هزيمة الفرنج في غزة

عندما وصل الهاربون عسقلان ، نسـي تيبالد الحذر وأراد الزحف على غزة في الحال لإنقاذ رفاقه ؛ لكن فرسان أوتريميه لم يوافقوا ، إذ من الحمق المخاطرة بالجيش ، ويقينا سيقتل المسلمون أسراهم بدلا من أن يفقدوهم مرة أخرى . فتملك الغضب تيبالد و لم يغفر ذلك لجنوده قط . على أنه لم يكن هناك لبقايا الجيش شيئ سوى العودة البطيئة إلى عكا[١٨].

وفي ذات الوقت رد الناصر صاحب الكرك على الهجوم البريتوني على القافلة الإسلامية بأن زحف على القدس . وكانت القدس كلها بلا حماية فيما عدا الجزء من السور المجاور لبوابة القديس ستيفن ، الذي بدأ فريدريك تشييده ، وقلعة تضم برج داود، حرى تقويتها مؤخرا . وكانت تلك القلعة تدين بالولاء لا للحكومة في عكا وإنما لفيلنجيرى في صور ؛ وكان قد أهمل إمدادها بحامية ملائمة . واحتل الناصر المدينة بلا صعوبة ، لكن جنود الحامية صمدوا إلى أن نفدت المون بعد سبعة وعشرين يوما ، فاستسلموا يوم ٧ ديسمبر مقابل عبور آمن إلى الساحل . ودمّر الناصر التحصينات ، بما فيها برج داود ، ثم انسحب إلى الكرك[١٩].

بعد كارثة غزة انتقل تيبالد بقواته شمالا إلى طرابلس . إذ جاء مبعوث المظفّر الثاني أمير حماه الذي كان على خلاف مع جميع أقاربه الأيوبيين ، والذي كان يتهدده التحالف بين الوصى على حلب وأمير حمص . وعرض على الفرنج أن يساعدوه لقاء التخلي لهم عن قلعة أو قلعتين ، وأعرب عن أمله في التحول إلى المسيحية ؛ فقبل تيبالد العرض فى وقد استخفه الحبور . غير أن تقدمه إلى طرابلس ردع أعداء المظفر الذى أرسل إلى تيبالد قائلا في أدب إن خدماته لم تعد مطلوبة برغم ما حدث[٢٠].

---

(١٨) يرد وصف نابض بالحياة في *MS. of Rothelin*, pp. 537-50؛ *Gestes des Chprois, pp. 118 - 20;* *Estoire d'Eracles*, ii, pp.414-15; Abu Shama, ii, p. 193؛ ويرد خطأ في النص بشأن التاريخ في Maqrisi, x, p.324. وأشعار فيليب مقتبسة في Rothelin, pp. 548-9.

(١٩) *MS. of Rothelin*, pp. 529-31، حيث يرد ذلك قبل معركة غزة ، ولا يرد سوى تاريخ السنة؛ ويذكر Maqrisi, x, pp. 323-4 7 ديسمبر تاريخ الإستسلام ، أي بعد معركة غزة ؛ ويورد أبو الفدا نفس التاريخ ؛ ويورد al-Aïni, pp.196-7 مجرد تاريخ السنة. ولنا أن نقبل التاريخ الذي أورده المقريزي

(٢٠) Abu'l Feda, pp. 115-19 (المؤرخ أبو الفدا هو حفيد المظفّر الثاني)؛ Kemal ad-Din, trans. Blochet, pp. 98, 100, 104؛ *Estoire d'Eracles*, ii, p. 416; *Gestes des Chiprois*, pp. 120-1.

وأثناء تريث الحملة الصليبية في طرابلس نصّب الصالح أيوب نفسه سيدا لمصر ، واندلعت الحرب بينه وبين الصالح اسماعيل في دمشق . وغدا واضحا أن بإمكان الفرنج إجراء مساومة طيّبة . وسارع تيبالد بالعودة جنوبا وعسكر بجيشه في الجليل بجوار عيون سفورية . ولم يطل انتظاره . ففي وقت مبكر من صيف عام ١٢٤٠م ، تملك الرعب الصالح اسماعيل من غزو قام به الصالح أيوب والناصر مجتمعين ، فاقترح على الفرنج إقامة تحالف دفاعي . فإذا ضمنوا حراسة الحدود المصرية من الساحل وإمداده بالأسلحة فإنه يتخلى لهم عن القلعتين العظيمتين شقيف أرنون وصفد والتلال الواقعة بينهما . وقام بالمفاوضات فرسان المعبد الذين كانت لهم الآن علاقات مالية مع دمشق ، وكوفئوا بامتلاك صفد . غير أن رعايا الصالح اسماعيل أصيبوا بالصدمة ، ورفضت حامية شقيف أرنون تسليم وديعتهم العظيمة لباليان أمير صيدا ، وابن آخر لورداتها المسيحيين ، واضطر الصالح اسماعيل إلى الذهاب بنفسه لمحاصرة القلعة كي تستسلم . وغادر دمشق اثنان من أئمة الدين ، أحدهما الواعظ الأكبر للجامع الكبير ، تعبيرا عن تقززهما مما يحدث ولاذا بالقاهرة(٢١).

١٢٤٠م : نهاية حملة تيبالد الصليبية

أدى انعدام الثقة في الامبراطور فريدريك إلى تحالف صعب بين فرسان المعبد والمستشفى للسنوات الإثنتي عشرة الأخيرة ؛ غير أن حصول فرسان المعبد على صفد جاوز احتمال فرسان المستشفى ، فبينما قاد تيبالد جيشه لينضم إلى قوات الصالح اسماعيل ، بين يافا وعسقلان ، شرع فرسان المستشفى في مفاوضات مع الصالح أيوب، وقوي مركزهم عندما هرب نصف رجال الصالح اسماعيل إلى المعسكر المصرى لكراهتهم العمل مع المسيحيين ، واضطر الحلفاء إلى الانسحاب . ولمّا كان الهدف الرئيسى للصالح أيوب هو هزيمة الصالح اسماعيل ، فقد ابتهج عندما اتيحت له الفرصة للخروج من التحالف ؛ فعرض على الفرنج اطلاق سراح أسراهم في غزة ومنحهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها ، في مقابل التزامهم بالحياد . ووقع السيد الأعظم لفرسان المستشفى الإتفاق في عسقلان مع ممثل السلطان . وكان ذلك نصرا دبلوماسيا للصالح أيوب الذي تمكن بتكلفة زهيدة من جانبه من كسر التحالف الذي أهان الصالح

---

(٢١) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 417-18; *MS. of Rothelin,* pp. 551-3; *Gestes des Chiprois,* p. 12; Abu'l Feda, loc. cit.; Maqrisi, x, p. 340; Abu Shama, ii, p. 193.

اسماعيل نفسه بإنشائه. واغتبط تيبالد لإطلاق سراح أماليك (أوف مونتفورت) وأصدقائه الآخرين ، فمنح مساندته لفرسان المستشفى . غير أن الرأي العام في أوتريميه أصيب بالصدمة لذلك التخلى الفاضح عن التحالف مع دمشق التى ظلت حتى يوم صلاح الدين الحليف التقليدي للمسيحيين . وانحدرت شعبية تيبالد انحدارا شديدا حتى أنه قرر العودة إلى أوروبا . وبعد حجّ سريع في القدس أبحر من عكا في نهاية سبتمبر ١٢٤٠م، وتبعه أغلب رفاقه فيما عدا دوق برجندى الذي أقسم على الإنتظار لحين الإنتهاء من تحصين عسقلان، وكونت نفرس الذى انضم إلى جماعة المعبد والبارونات المحليين الذين عسكر معهم بالقرب من يافا ، وقد أخذ على نفسه العهد بالإحتفاظ بالمعاهدة مع دمشق ومقاومة أي غزو مصرى.

لم تكن حملة تيبالد الصليبية عقيمة تماما . إذ استعاد المسيحيون شقيف أرنون (بيفورت) وصفد وعسقلان جميعا . غير أنه أتيح للمسلمين أن يقضوا على مثال آخر من غدر الفرنج[٢٢].

١٢٤١م : ريتشارد إيرل كورنويل

وفي الحادى عشر من أكتوبر ، وبعد أيام قليلة من رحيل تيبالد ، وصل إلى عكا حاج أكثر تميزا ، هو ريتشارد (إيرل كورنويل) ، وهو أخو هنري الثالث الإنجليزى ، وأخته هي زوجة الامبراطور فريدريك. كان في عامه الحادى والثلاثين ، ويعتبر واحدا من أقدر أمراء زمانه. وقد حازت رحلة حجه كامل موافقة الامبراطور الذي خوّله سلطات التصرف فيما يراه الأفضل للمملكة من ترتيبات[٢٣]. وأصيب بالرعب لدى وصله لما وجده من فوضى عارمة ؛ إذ يكاد فرسان المعبد وفرسان المستشفى أن يكونوا في حرب مفتوحة فيما بينهم، ويناصر البارونات المحليون فرسان المعبد، فيما عدا والتر أمير يافا ، ولذا شرع فرسان المستشفى في السعى نحو كسب ود فيلانجيرى والإمبراطوريين ، وأما فرسان التيوتون فقد انتحوا جانبا ، وقد زودوا حصونهم السورية

---

(٢٢) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 419-20; *MS. of Rothelin,* pp. 553-5; *Gestes des Chiprois,* pp. 121-2; Maqrisi,x, p.342.

(٢٣) عن ريتشارد وحملته الصليبية أنظر Powicke,*King Henry III and the Lord Edward,*i, pp. 197-200.وكان البابا قد حث ريتشارد على التخلى عن الحملة الصليبية ، وأن يهب الأموال لحماية الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (انظر المرجع السابق ص١٩٧،الحاشية ٢.)

بالحاميات ، ولكنهم أولوا جُل اهتمامهم لصقلية حيث كـان الملـك الأرمينـى قـد عهـد اليهم بحصون ضخمة . وكان فيلانجيرى نفسه ما يزال يحتفظ بصور وكان هو المسؤول عن إدارة القدس(٢٤).

ولدى وصول ريتشارد ، سارع إلى عسقلان حيث قابله سفراء من قبـل السـلطان المصرى الذين طلبوا منه تأكيد المعاهدة المعقـودة مـع نظـام فرسـان المستشـفى . ووافـق ريتشارد ، لكنه لكي يهدئ بارونات أوتريميه أصر على أن يؤكد المصريون التنازل عـن الأراضى التى سبق أن تنازل عنها الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وأن يضيفوا إليها مـا تبقى من الجليل ، بما في ذلك (بلفوار) وجبل الطور وطبريـة . ولم يكـن بوسـع الصـالح اسماعيل منع هذا التنازل الجديد بعد أن فقد السيطرة علـى شـرقي الجليـل للنـاصر . وفي تلك الأثناء أطلق سراح أسرى الحرب الفرنج المأسورين في غزة ، مقابل أسرى المسلمين القليلين لدى المسيحيين . وهكذا استردت المملكة كافة أراضيهـا السـابقة غربـي الأردن حتى ضواحي غزة جنوبا، باستثناء مشؤوم لنابلس ومقاطعة السامرة . وبقيـت القـدس بلا تحصينات ؛ لكن أودو (أوف مونتبيلارد)، الذى كانت زوجته وريثة أمـراء الجليـل، بدأ في إعادة بناء قلعة طبرية ، واسكتملت الأعمال في عسقلان. وقـام ريتشـارد بتعيـين والـتر بينينـي حاكمـا لعسـقلان ، وقـد كـان ممثـلا لفيلانجـيري في القـدس . وأرسـل الامبراطور فريدريك ، ربما باقتراح مـن ريتشـارد ، سـفارة تهنئـة إلى السـلطان الصـالح أيوب الذي استقبل سفيرية بأسمى آيات التشريف والأبهة في القاهرة وبقيـا هنـاك حتـى أوائل الربيع.

ومكث ريتشارد نفسه في فلسطين حتى شهر مايو ١٢٤١م . ولقد تصرف بحكمة ومهارة عظيمتين واستطاع أن يجعل من نفسه نائبا للملك في المملكة يحظى بقبول عام ، وقد رضى عنه الامبراطور كثيرا وتأسـى كـل فـرد في اوتريميـه علـى رحيلـه . وعـاد إلى أوروبا ، حيث كان ينتظره مستقبل عريض الآمال ضئيل الإنجاز(٢٥).

---

(٢٤) Richard's letter in Matthew Paris, *Chronica Majora*, iv, p. 139. وكـان ريتشـارد نفسـه مقيما في مبنى المستشفى في عكا .(*Gestes des Chiprois*, p. 123) وعن النظام التيوتونى في صقليـة أنظر .Strehlke, *Tabulae Ordinis Theutonici*, pp. 37-40, 65-6, 126-7 وعـن سـيطرة فريدريك على القدس من خلال وكيله Pennenpié الذي عيّنه ، أنظر *Gestes des Chiprois*, loc. cit..

(٢٥) Richard's letter in Matthew Paris, iv, pp. 139-45; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 421-2; *MS. of Rothelin*, pp. 555-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 123-4. وليس واضحـا مـا إذا كـان تيبالد قد أبرم فعلا معاهدة مع مصر، التى آيدها ريتشارد (وذلك كما يـرد ضمنـا في *Gestes* ، وربمـا

وبعد رحيل ريتشارد إيرل كورنوول ، لم يطل بقاء النظام الذي أقامـه . ذلـك أن الآمال داعبت البارونات المحليين في أن يستمر عن طريق التوسـل إلى الامبراطور لتعيين أحد رفاقه وكيلا للمملكة ، هو سيمون (أوف مونتفورت)؛ وزوجة سيمون هي اخت ريتشارد ، وهونفسه من أبناء عمومة لورد طورون ، وولّد سـيمون انطباعـا ممتازا عـن نفسه . بيد أن فريدريك تجاهل طلبهم ، وعاد سيمون إلى مستقبل عظيم عـاصف في انجلترا[٢٦]. وسرعان ما عادت النزاعات في الأرض المقدسة مرة أخرى ، إذ رفض نظـام فرسان المعبد الإلتزام بمعاهدته مع الصالح أيوب ، وفي ربيع عـام ١٢٤٢م أغـاروا على مدينة الخليل الإسلامية . فرد الناصر صاحب الكـرك بإرسـال جنـود لقطـع الطريـق إلى القدس ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار العابرين ؛ مما أثار فرسان المعبد فانطلقوا من يافا وانقضوا على نابلس يوم ٣٠ أكتوبر وانتهبوها وحرقوا الجامع الكبير وقتلـوا الكثير من السكان ، بمن فيهم عدد كبـير مـن المسيحيين الوطنيين . ولم يكـن الصـالح أيـوب مستعدا بعد للحرب ، وإنما اكتفى بإرسال جيش قـوي لمحاصرة يافـا لفـترة مـن الوقـت كتحذير للمستقبل[٢٧]. وفي داخل المملكة غـابت السـلطة المهيمنـة ، وكـانت الأنظمـة الدينية العسكرية تتصرف كما لوكانت جمهوريات مستقلة . وكانت السـلطة الحاكمـة في عكا هي المجلس الإداري (الكوميون) الذي لم يسـتطع مـع ذلـك منـع فرسـان المعبـد والمستشفى من الإقتتـال فيمـا بينهـم في الشـوارع . وانـزوى البارونـات في إقطاعيـاتهم يحكمونها كما يحلو لهم.

أما فيلانجيرى في صور ، فقد بدا له أن تلك الفوضى تبشر بالخير الوفـير . إذ كـان على صلة سرية بنظام فرسان المستشفى في عكا ، وفاز بإثنين من أبرز البورجوازيـين إلى جانبه ، هما جون فيلان ووليم (أوف كونش). وفي إحدى ليالى ربيع ١٢٤٣م ، جـاء من صور واستقبل سرا في عكا وهو مستعد لتنظيم انقلاب ، لكـن وجـوده لم يمـر دون أن يُلحظ ، وأخطر به فيليب (أوف منتفورت) لورد طورون الذي تصادف وجـوده في عكا . وعلى الفور حذّر فيليب الكوميون ومستعمرتي جنوا والبندقية ، وقام المسؤولون

كانت النص محرّفا) أم أن ريتشارد استكمل المفاوضات التى بدأها تيبالد . أنظر أيضـا *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, pp. 342-6 .

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 286. وتاريخ الرسالة ٧ مايو ١٢٤١م. وكان أخو سيمون، أماлريك، أحد الأسرى المطلق سراحهم حديثا من مصر.

(٢٧) *Histoire des Patriarches*, pp. 350-1; Matthew Paris, iv, p. 197 . كمـا وقعـت معـارك كثيرة بالقرب من غزة عام ١٢٤٢م أشار اليها المقريزي مرتين. (Maqrisi, x, pp. 342, 348) أنظـر Stevenson, *Crusaders in the East*, p. 321 n.1.

التابعون لهم باعتقال حون فيلان ووليم (أوف كونش) ، وأطلقوا رحال الشرطة في الشوارع ، وأرسلت رسالة تستدعى باليان الإبيليني من بيروت وأودو (أوف مونتبيليارد) من قيسارية . وتحقق فيلانجيري من أن فرصته قد ضاعت ، فتسلل في هدوء عائدا إلى صور . وكان تواطؤ فرسان المستشفى واضحا ، ولذا حاصر باليان فور وصوله مقرهم في عكا ، واستمر الحصار ستة أشهر . وكان السيد الأعظم ، بطرس (أوف فياي برايد) في المرقب في حملات متقطعة على جيرانه المسلمين ، ولذا لم يكن بوسعه تقديم الرجال لإنقاذ فرسانه المحاصَرين في عكا . وفي نهاية المطاف توصل إلى السلام مع باليان بأن اعتذر له وأقسم بأنه ليس له دخل في المؤامرة(٢٨).

١٢٤٣م : قبول وصاية الملكة أليس

في ٥ إبريل ١٢٤٣م كان كونراد (أوف هوهنشتوفن) ، إبن الامبراطور فريدريك من الملكة يولاندا، في الخامسة عشرة من عمره وبلغ بذلك سن الرشد رسميا ، ومن ثم يتوّجب عليه الحضور إلى عكا وتسلم زمام المملكة ، ولم يعد لأبيه الحق في الوصاية . ورغم أن الملك الصغير أرسل في الحال توماس (أوف أكيرا) كنائب له ، ولم تظهر أية بادرة للحضور شخصيا إلى الشرق . ولذا اعتبر البارونات أنهم ملزمون قانونا بتعيين الوريث التالي المتاح كوصي عليه ، وكان ذلك الوريث التالى هو الملكة أليس ملكة قبرص الأرملة المسنة ، جدة خالته . وكانت أليس ، بعد طلاقها من بوهمند الخامس ، قد تصالحت مع أبناء عمومتها الإيبيليين ، وفي عام ١٢٤٠م ، وبموافقتهم ، تزوجت من رالف كونت سواسون ، وهو شاب يبلغ من العمر نصف عمرها ، وسبق أن جاء إلى الشرق مع الملك تيبالد . وطلب باليان الإبيليني وفيليب (أوف مونتفورت) عقد جلسة للبرلمان في عكا في قصر البطريق يوم ٥ يونية ١٢٤٣م ، حضرها البارونات كلهم ، ومثّل الكنيسة بطرس (أوف سارجين) رئيس أساقفة صور ، وأساقفة المملكة ، وأرسل الكوميون مسؤوليه وأرسلت مستعمرتا جنوا والبندقية رئيس كل منهما. وتولى فيليب (أوف نوفارا) شرح الوضع القانوني وأوصى بعدم القسم بالولاء للملك كونراد إلى أن يأتي بنفسه لتلقيه ، وأن يُعهد إلى أليس وزوجها بالوصاية إلى حين حضور كونراد .

---

(٢٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 124-7; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 422 ؛ ويرد تاريخ خاطئ (١٢٤٣م) للقصة في *Annals de Terre Sainte*, p. 441؛ Richard of San Germano, p. 382 ، الذي يتحدث عن "تمرد" في عكا ضد الإمبراطور في اكتوبر ١٢٤١م

واقترح أودو (أوف مونت بيليارد) أن يُطلب من كونراد رسميا زيارة مملكته وألاّ يتم شئ حتى يصل رده ، لكن الإبيليين لم يجدوا مغزى لتلك الخطوة ، وسادت وجهة نظرهم ، وأقسم المجتمعون قسم الولاء لأليس ورالف ، مع المحافظة على حقوق الملك كونراد(٢٩).

وأزال القرار البقية الضئيلة من سلطة فيلانجيرى التي كانت السبب في تردد البارونات في مهاجمته في صور ، وكان الامبراطور قد استدعاه للعودة إلى إيطاليا قبل تعيين توماس (أوف آكيرا) مباشرة ، فترك مدينته تحت إمرة أخيه لوثير . وفي ٩ يونية أصدر البرلمان في عكا أمرا إلى لوثير بتسليم صور إلى الوصيَّين . وبرفضه الانصياع لأمر البرلمان ، زحف باليان الإبيليني وفيليب (أوف مونتفورت) مع كتائب من البنادقة والجنويين على المدينة . ووضع لوثير ثقته في أسوارها العظيمة التى أفلحت في تحدى صلاح الدين نفسه . غير أن المواطنين المحليين كانوا قد ضجروا من فيلانجيرى ، فعرضوا فتح ممر الجزارين الخلفي الملاصق للبحر . وفي ليل ١٢ يونية زحف باليان ورجاله حول الصخور المؤدية إلى الممر وسُمح لهم بالدخول . ثم إنهم فتحوا البوابات الرئيسية لحلفائهم ؛ وما أن احتلوا منازل فرسان المستشفى وفرسان التيوتون حتى باتت المدينة في أيديهم فيما عدا القلعة في الجنوب التى انسحب إليها لوثير . وكانت قلعة هائلة صمد فيها الإمبراطوريون لأربعة أسابيع . بيد أن المصادفة سيئة الحظ أجبرت السفينة التى تحمل ريتشارد فيلانجيرى إلى إيطاليا على العودة لسوء الأحوال الجوية . وهبط ريتشارد فيلانجيرى في ميناء صور دون أن يرتاب في شئ فوقع من توه في أيدى أعدائه. وحملوه مكتوفا إلى بوابة القلعة وهددوا بشنقه مالم تستسلم الحامية . ورفض لوثير إلى أن شاهد حبل المشنقة يضيق حول رقبة أخيه ، فقبل الشروط الهيِّنة التى عرضها المنتصرون ، وهي السماح للأخوين بالرحيل بحريتهما مع عائلتيهما ومتعلقاتهما . وتقاعد لوثير في طرابلس حيث استقبله بوهمند الخامس استقبالا حسنا ، ولحق به هناك توماس (أوف آكيرا) . أما ريتشارد ، فقد دفعه ضميره إلى العودة إلى سيده الإمبراطوري الذي ألقى به على الفور في غيابة السجن . وبرحيل فيلانجيرى باتت القدس وعسقلان وصور رسميا في أيدى الوصيين.

---

(٢٩) (*Gestes des Chiprois*, pp. 128-30 رواية فيليب اوف نوفارا الذي يزعم أنه نظّم الأمر)؛ *Estoire d'Eracles*, ii, p. 240; Amadi, pp. 190-1; *Assises*, ii, p. 399؛ ويرد في Tafel - Thomas, *Urkunden*, ii, pp. 351-89 مقال كتبه شاهد عيان بندقي هو Marsiglio Giorgio. ويقول فيليب إن أبناء بيزا كانوا ممثلين، وهو أمر غير مرجح نظرا لصداقتهم مع الإمبراطور ، فضلا عن عدم ذكر ذلك في أي مكان آخر . أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.71-3.

وكان رالف (أوف سواسون) يتوقع فى ثقة من أن إدارة المدينـة المهزومـة ستمنح للوصيين ؛ لكن فيليب (أوف مونتفورت) كان يشتهى صور لنفسه ليتوج بها اقطاعيتـه شقيف أرنون ؛ ومد له الإيبيليون يد المؤازرة . وعندما طالب رالف بالمدينة مغاضبـا رد البارونات في سخرية بأنهم سوف يحتفظون بها هم أنفسهم علـى سبيل الأمانـة إلى أن يتضح يقينا إلى من تؤول . وتحقق رالف فجأة من أن النيّة تتجه إلى جعلـه مجـرد رئيس صوري ؛ وفي خضم مشاعر الخذلان والتقزز غادر من فوره الأراضى المقدسة عـائدا إلى فرنسا . أما الملكة أليس ، التي علمتها سنوات حياتهـا الخمسـون أن تتمسـك بالصـبر ، فقد بقيت وصيّة إسمية إلى أن ماتت عام ١٢٤٦م[٣٠].

١٢٤٣م : معاهدة مع الصالح اسماعيل صاحب دمشق

كان انتصار البارونات يعنى انتصار نظـام فرسـان المعبـد علـى السياسـة الخارجيـة لنظام فرسان المستشفى . وأعيدت المفاوضات مع بلاط دمشق . وكـان الصـالح أيوب صاحب مصر قد تشاجر مؤخرا مع الناصر صاحب الكرك واستشـعر الخطـر مـن تخلى الفرنج . وكان الصالح اسماعيل صـاحب دمشق ، وبموافقة الناصر، قد عرض على الفرنج أن ينسحب من منطقة المعبد في القدس ، والتى كان وجود رجال الدين المسـلمين فيهـا قد ضمنه فريدريك الثاني ، وعلى الفور عرض الصالح أيوب نفس العرض . واتضحـت مهارة نظام فرسان المعبد الذي كان يدبر ضرب أمراء المسلمين بعضهم ببعض ، فتمكن من ضمان موافقتهم جميعا على إعادة المنطقـة إلى العبـادة المسيحية . وفي حمـاس كتـب السيد الأعظم ، أرماند (أوف بيريجورد) إلى أوروبا في نهايـة عـام ١٢٤٣م يـزف إليهـا تلك النتيجة السارة وليعلن أن النظام الآن منهمـك في إعـادة تحصـين المدينـة المقدسـة . وكان ذلك آخر نصر دبلوماسي في مملكة ما وراء البحار[٣١].

وكتب الامبراطور فريدريك فى مرارة إلى ريتشارد (أوف كورنوول) معلقـا علـى استعداد النظام للسعى نحو تحالف إسلامي في الوقت الذي أنكر عليه النظام فيه أن يفعل

---

(٣٠) Gestes des Chiprois, pp. 130-6; Estoire d'Eracles, ii, p. 420; وفي Tafel-Thomas, loc.cit. (أن البنادقة لم يُعطوا شيئا خاصا بهم)؛ Assises, ii, p. 401. ليس للوصي حقوق قانونية على القلاع.

(٣١) Abu'l Feda, p. 122; Maqrisi, x, pp. 355-7; al-Aini, p. 197; Matthew Paris, iv, pp. 289-98.

ذلك[٣٢].

وتشجع فرسان المعبد بنجاحهم ؛ فعندما اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل في ربيع عام ١٢٤٤م ، حرضوا البارونات على التدخل بفعالية إلى حانب الصالح اسماعيل . وكان الناصر صاحب الكرك وأمير حمص الصغير ، المنصور ابراهيم ، قد انضما كلاهما إلى الصالح اسماعيل ؛ وحاء المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لإعتماد التحالف وليعرض نيابة عن الحلفاء حزءا من مصر على الفرنج حال هزيمة الصالح أيوب . واستقبل الأمير المسلم بآيات التشريف العظمى . وتولى فرسان المعبد تقديم أغلب حوانب التسلية والضيافة[٣٣].

بيد أن الصالح أيوب لم يكن بالذي يُهزم بهذه السهولة . ذلك أنه وحد حلفاء أشد بأسا من الفرنج . فقد دأب الأتراك الخوارزميون ، منذ أن مات مليكهم حلال الدين ، على التجول في أنحاء الجزيرة وشمال سوريا ، يغيرون وينهبون . وفي عام ١٢٤١م حاول تحالف لأمراء سوريا الأيوبيين قمعهم ، وهزمهم هزيمة بشعة في معركة لا تبعد عن الرها. لكن الخوارزميين وطدوا مقرهم في ريف البلاد بين الرها وحران ، وكانوا لا يزالون على استعداد لبيع خدماتهم[٣٤]. وكان الصالح أيوب على اتصال بهم من حين لآخر ، والآن دعاهم لغزو أراضى دمشق وفلسطين[٣٥].

١٢٤٤م : ضياع القدس نهائيا

في شهر يونية ١٢٤٤م اجتاح عشرة آلاف خيال خوارزمى الأراضى الدمشقية ، يخربون البلاد ويحرقون القرى . وكانت دمشق ذاتها شديدة القوة بحيث لم يحاولوا مهاجمتها ، ولذا واصلوا زحفهم داخل الجليل واستولوا في طريقهم على طبرية وجنوبا خلال نابلس باتجاه القدس . وتنبه الفرنج إلى الخطر ، فهرع البطريق روبرت المنتخب حديثا إلى المدينة مع السيدين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وراحوا يعززون

---

(٣٢) Matthew Paris, iv, p. 419 .

(٣٣) Joinville (ed. de Wailly), p. 290 .

(٣٤) Abu'l Feda, p. 119; Kemal ad-Din (trans. Blochet), vi, pp. 3-6, 13. أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 648-9؛ Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 410-11 .

(٣٥) Maqrisi, x, p. 358 . رسالة فريدريك الثاني في Matthew Paris, iv, p. 301 ، يوجه فيه اللوم الى بارونات أوتريميه على استفزازاتهم التي أسفرت عن ذلك التحالف

الحاميات في التحصينات التى أعاد فرسان المعبد بناءها لتوهم ، لكنهم لم تواتهم الجرأة هم أنفسهم على البقاء في المدينة . وفي ١١ يولية اقتحم الخوارزميون المدينة ، ودار القتال في الشوارع ، وتمكنوا من شق طريقهم إلى دير القديس جيمس الأرميني وقتلوا الرهبان والراهبات . وخرج الحاكم الفرنجي في قوة مسلحة من القلعة لكي يلقى حتفه مع مرشد نظام فرسان المستشفى . غير أن الحامية صمدت ، ولم تأت المساعدة من الفرنج ، ولذا ناشدوا أقرب حلفائهم المسلمين ، الناصر صاحب الكرك ، لكنه لم يكن يحب المسيحيين ، ويستاء ضرورة التحالف معهم ، ومع ذلك أرسل بعض جنوده الذين هددوا الخوارزميين إلى أن عرضوا على الحامية مرورا آمنا إلى الساحل في حالة استسلام القلعة ، ثم إن الناصر نفض يديه من مصيرها . وفي ٢٣ أغسطس خرجت مسيرة من نحو ستة آلاف مسيحيي من الرجال والنساء والأطفال ، تاركة المدينة للخوارزميين . وأثناء سيرهم بطول الطريق باتجاه يافا ، نظر البعض منهم وراءه وشاهد رايات فرنجية ترفرف فوق الأبراج ، فظنوا أن النجدة قد وصلت بطريقة ما ، وأصر كثيرون على العودة إلى المدينة لا لشئ إلا ليقعوا في كمين أسفل الأسوار وهلك ألفان تقريبا . وبينا كان الباقون مرتحلين باتجاه البحر ، هاجمتهم عصابات من العرب ، ولم يصل إلى يافا سوى ثلاثمائة.

وهكذا، خرجت القدس نهائيا من أيدى الفرنج ، وانقضى من الزمن قرابة سبعة قرون قبل أن يعبر بوابتها جيش مسيحي مرة أخرى . ولم يُظهر الخوارزميون للمدينة أي نوع من الشفقة ؛ إذ اقتحموا كنيسة القبر المقدس حيث كان قليل من القساوسة اللاتين المسنين يقيمون قداسا بعد أن رفضوا مغادرة المدينة ، فقتلوا عن آخرهم إلى جانب قساوسة الطوائف الوطنية الذين كانوا بداخلها آنذاك . واستُخرجت عظام ملوك القدس من مقابرها وهُشّمت ، وأشعلت النيران في الكنيسة ذاتها . وانتُهبت المنازل والحوانيت في سائر أنحاء المدينة ، وأحرقت الكنائس . وبعد أن خُرّبت المدينة كلها ، اتخذ الخوارزميون طريقهم إلى غزة للانضمام إلى الجيش المصرى[٣٦].

وفي الوقت الذى كان فيه الخوارزميون ينهبون القدس ، كان فرسان مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) يتجمعون خارج عكا ، حيث انضمت اليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص ؛ وأحضر الناصر جيش الكرك. وفي ٤

---

(٣٦) *Chronicle of Mailros* (Melrose), pp. 159-60; Matthew Paris, iv, pp. 308, 338-40; *MS. of Tothelin*, pp. 563-5; Maqrisi, x, pp. 358-9; al-Aini, p. 198 .

أكتوبر ١٢٤٤م، بدأ تحرك قوات التحالف باتجاه الجنوب على طول الطريق الساحلي . وعلى الرغم من أن الناصر والبدو التابعين له قد انتحوا بأنفسهم جانبا ، كان التعاون على مستوى مثالي بين الفرنج والمنصور إبراهيم ورجاله . وكان الجيش المسيحي أضخم جيش جمعته مملكة أوتريميه منذ يوم حطين المشؤوم . إذ كان هناك ستمائة فارس علماني بقيادة فيليب (أوف مونتفورت) لورد طورون وصور ، ووالتر (أوف برين) كونت يافا. وأرسل نظاما المعبد والمستشفى كلاهما ما يزيد على ثلاثمائة فارس من فرسان نظاميهما بقيادة السيدين الأعظمين أرماند (أوف بيريجورد) ووليم (أوف شاتونيف) ، وكانت هناك كتيبة من النظام التيوتوني . وأرسل بوهمند أمير أنطاكية أبناء عمومته جون ووليم (أوف بوترون) وجون (أوف هام) كونستابل طرابلس . وصاحب الجيش البطريق روبرت نفسه مع رئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة رالف . وكان هناك عدد متناسب من مساعدي الفرسان وجنود المشاة . وربما كان الجنود التابعون لإمرة الناصر إبراهيم أكثر عددا ، وإنما أخف تسليحا . ويبدو أن الناصر أحضر فرسانا من البدو.

وكان الجيش المصري رابضا أمام غزة بقيادة المملوك الشاب الأمير ركن الدين بيبرس . وكان يتألف من خمسة آلاف من الجنود المصريين المنتقين وحشود الخوارزميين. والتقت الجيوش المتعادية يوم ١٧ أكتوبر في قرية خربيا، أو لا فوربي ، في السهل الرملي الواقع على مبعدة أميال قليلة شمال شرق غزة . وسارع الحلفاء بعقد مجلس حرب أوصى فيه الناصر ابراهيم بالبقاء حيث كانوا ، وتحصين معسكرهم تحسبا لأي هجوم خوارزمي، وبنى حساباته على أن الخوارزميين سرعان ما يفقدون صبرهم لكراهتهم مهاجمة المواقع القوية ، وليس بوسع الجيش المصري شن هجوم بدونهم . وبحسن الطالع، ربما يسرع الجيش المصري في التقهقر إلى مصر . ووافقه على رأيه الكثير من المسيحيين ؛ غير أن والتر أمير يافا حثّهم حثّا متلهفا على شن هجوم فوري ، فقواتهم تفوق الأعداء عددا، وهذه فرصة مجيدة للقضاء على التهديد الخوارزمي ولإلحاق المهانة بالصالح أيوب . وكان له ما أراد ، وتحرك الجيش كله مهاجما . وكان الفرنجة في الميمنة، والدمشقيون وأبناء حمص في القلب ، والناصر في الميسرة.

١٢٤٤م : كارثة في لافوربي

وبينما كان الجنود المصريون يصدون هجوم ميمنة الفرنج ، كان الخوارزميون

ينقضون على حلفائهم المسلمين . وثبت المنصور إبراهيم ورجاله من أبناء حمص ، لكن الجنود الدمشقيين لم يتحملوا الصدمة فانقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار ومعهم الناصر وجيشه . وبينما كان المنصور ابراهيم يقاتل لشق طريق يخرج منه ، استدار الخوارزميون وانقضوا على جناح المسيحيين يدفعونهم باتجاه الكتائب المصرية . وحارب الفرنج ببسالة ولكن بلا طائل . وفي غضون ساعات قليلة تم القضاء على جيشهم كله. وكان من بين القتلى السيد الأعظم لنظام فرسان المعبد ، ومرشده المارشال ، ورئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة ، واثنان من صغار لوردات بوترون . ووقع في الأسر كونت يافا، والسيد الأعظم لنظام فرسان المستشفى ، وكونستابل طرابلس . وتمكن فيليب (أوف مونتفورت) من الهرب مع البطريق عائدين إلى عسقلان حيث انضم اليهما الباقون على قيد الحياة من الأنظمة الدينية العسكرية ، ثلاثة وثلاثون فارسا من نظام المعبد ، وست وعشرون فارسا من نظام المستشفى ، وثلاثة فرسان من النظام التيوتوني. وواصلوا رحيلهم بحرا إلى يافا . وقدر عدد القتلى بما لا يقل عن خمسة آلاف رجل ، وربما أكثر بكثير . واقتيد ثمانمائة أسير إلى مصر(٣٧).

وسار الجيش المنتصر من فوره إلى عسقلان التى كانت حاميتها الآن من فرسان المستشفى. وأثبتت تحصيناتها منعتها ، إذ فشل المصريون في هجماتهم عليها ، فضربوا حولها الحصار وقد جلبوا السفن من مصر لمراقبة الساحل . وفي تلك الأثناء أسرع الخوارزميون إلى يافا ومعهم كونتها الذي هددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية ، لكنه صاح في رجاله أن يصمدوا . وكانت تحصيناتها فوق طاقة الخوارزميين الذين انسحبوا ومعهم أسيرهم وقد أبقوا على حياته ؛ لكنه مات فى الأسر لاحقا بعد شجار مع أمير مصرى كان يلاعبه الشطرنج(٣٨).

ترتب على كارثة غزة أن سُلب الفرنج من كافة المكاسب الثمينة التى كسبتها لهم الدبلوماسية خلال العقود السابقة . و لم يكن محتملا أن تصمد القدس ومنطقة الجليل أمام أى هجوم إسلامي حاد ؛ غير أن ضياع القوة البشرية ترك مملكة الشرق الفرنجى عاجزة تماما عن الدفاع عن أى شئ فيما عدا المقاطعات الساحلية والقليل من أقوى القلاع داخل البلاد . و لم يسبق أن كانت الخسارة أفدح إلا في حطين ؛ ومع ذلك

---

(٣٧) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 427-31; *MS. of Tothelin*, pp. 562-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 145-6; *Chronicle of Mailros*, pp. 159-60; Joinville, pp. 293-5; Matthew Paris, iv, pp. 301, 307-11; Maqrisi, x, p. 360; Abu Shama, ii, p. 193 .

(٣٨) Joinville, *loc. cit.;* Amadi, pp. 201-2 .

هناك فرق بين حطين وغزة . إذ كان صلاح الدين المنتصر في حطين سيدا بالفعل لكل من سوريا ومصر ؛ أما الصالح أيوب صاحب مصر فكان عليه التغلب على غريمه صاحب دمشق قبل أن يغامر بالقضاء على المسيحيين . وأنقذ هذا التأخير مملكة الشرق الفرنجي.

وكان الخوارزميون يعقدون الآمال على أن يكافئهم الصالح أيوب على مساعدتهم بتوطينهم في أراضي خصبة في مصر ، لكنه رفض السماح لهم بعبور الحدود التى زودها بالجنود كي يستوثق من بقائهم في سوريا . فعادوا للإغارة على فلسطين حتى ضواحى عكا ، ثم تحولوا إلى داخل البلاد لينضموا إلى المصريين في حصارهم لدمشق . وزحف الجيش المصرى بقيادة معين الدين شمالا مخترقا أواسط فلسطين ، منتزعا من الناصر صاحب الكرك كل أراضيه الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن ، ووصل في نهاية الأمر أمام دمشق في شهر ابريل ١٢٤٥م . ودام الحصار ستة أشهر . وقد أزال الصالح اسماعيل صاحب دمشق السدود المقامة على نهر بردا ، فاستحالت الأراضى خارج الأسوار إلى مستنقع لا يُخترق . على أن تضييق الحصار الذي نظمه المصريون سرعان ما أثار القلق بين التجار وأصحاب الحوانيت ؛ فاضطر الصالح اسماعيل أن يقبل في اكتوبر الشروط التى تقضى بتخليه عن دمشق في مقابل إمارة تابعة تتألف من بعلبك وحوران . لكن الخوارزميين ظلوا بلا مكافأة ، ولذا قرروا في أوائل عام ١٢٤٦م التخلى عن مناصرة الصالح أيوب وعرضوا خدماتهم على الصالح اسماعيل الذي انتهز فرصة مساعدتهم وعاد إلى دمشق وضرب حولها الحصار ، وفي مأموله أن ينضم إليه أمراء أيوبيون آخرون ضد الصالح أيوب ؛ لكنهم كانوا أشد كراهة للخوارزميين . وأرسل الوصى على حلب وكذلك أمير حمص ، وكان الصالح أيوب يعينهما بالمال ، جيشا لنجدة دمشق ، فاضطر الصالح اسماعيل وحلفاؤه إلى رفع الحصار واتجهوا شمالا ، ليقابلوا القوة المخلّصة في أوائل شهر مايو في مكان ما على الطريق بين بعلبك وحمص ، وهُزم الصالح اسماعيل هزيمة نكراء وهلك الخوارزميون أو كادوا ؛ ومن بقى على قيد الحياة منهم اتخذ طريقه شرقا للإنضمام إلى المغول ، بينما كان الحلبيون المنتصرون يجوبون شوارع حلب حاملين رأس زعيمهم المقتول . وابتهج العالم العربي كله باختفائهم . وتأكد امتلاك الصالح أيوب لدمشق ، ومرة أخرى فُرض على الصالح اسماعيل أن ينغلق على نفسه في بعلبك ، واعترف الأمراء الأيوبيون في الشمال بسيادة

الصالح أيوب . الذى يستطيع أن يتحول إلى الفرنج مرة أخرى[٣٩].

١٢٤٧م : ضياع عسقلان

في السابع عشر من يونية استولى جيش مصرى على طبرية وقلعتها التى بناها مؤخرا أودو (أوف مونتبيلارد) ، وسرعان ما احتل الجيش جبل الطور (فلسطين) وقلعة الكوكب (بل فوار) ، ثم سار الجيش إلى عسقلان وحاصرها . وكانت التحصينات التى شيدها هيو (أوف برحاندى) في حالة جيدة ، وكانت فيها حامية قوية من فرسان المستشفى ، واستدعيت التعزيزات من عكا ومن قبرص . وعلى الفور أرسل هنرى ملك قبرص اسطولا من ثمانية قوادس تحمل مائة فارس بقيادة قهرمانه بالدوين الإيبلينى إلى عكا حيث كان الكوميون ، بمساعدة من المستعمرات الإيطالية ، قد أعد سبعة قوادس أخرى وخمسين سفينة أصغر . وكان المصريون قد أحضروا أسطولا من واحد وعشرين قادسا كان يحاصر المدينة ، وقد أبحر الآن للتصدى للمسيحيين . غير أنه قبل أن يبدأ الصدام هبت فجأة عاصفة في البحر المتوسط جرفت الكثير من السفن حطاكما إلى الشاطئ ، وعاد الناجون إلى مصر ، وتمكن الأسطول المسيحي من مواصلة الإبحار إلى عسقلان دون أن يتعرض له أحد وأعاد تموين الحامية والهبوط بالفرسان إلى اليابسة. لكن الأحوال الجوية السيئة استمرت ولم تستطع السفن البقاء في المرسى الذي لا تتوفر له الحماية خارج المدينة ، فعادت إلى عكا تاركة عسقلان لمصيرها . وواجهت الجيش المحاصر عقبة افتقاره إلى الأخشاب الضرورية لآلات الحصار ؛ غير أن حطام سفنه المبعثرة بطول الشاطئ أمده بكافة المواد التي يحتاجها ، واستطاعت آلة المنجنيق الضخمة أن تشق ممرا أسفل الأسوار يفضى مباشرة إلى القلعة ؛ وفي ١٥ اكتوبر تدفق الجيش المصرى في هذا الممر ، وبوغت المدافعون الذين قتل الكثير منهم على الفور ووقع الباقون في الأسر . وبناء على أوامر السلطان هُدمت القلعة واستحالت خرابا[٤٠]. ولم يتابع الصالح أيوب انتصاره ، وإنما قام بزيارة القدس وأمر بإعادة بناء أسوارها ، ثم سار إلى دمشق ليترأس الجمع هناك . ومكث فيها طوال شتاء عام ١٢٤٨م وربيع عام ١٢٤٩م

---

(٣٩) Ibn Khallikan, iii, p. 246; Maqrisi, x, pp. 361-5; Abu Shama, ii, p. 432; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 432.

(٤٠) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 432-5; *Gestes des Chiprois*, p. 146; *Annales de Terre Sainte*, p. 442; al-Aini, p. 200; Maqrisi, x, p. 315 .

وجاءه أمراء سوريا المسلمون كلهم لتقديم فروض الولاء[٤١].

أمّا في مملكة أوتريميه المتقلّصة، فقد ساد فيها الهدوء الداخلي برغم خسائرها وافتقارها إلى السطلة المركزية. وكانت الملكة أليس قد ماتت عام ١٢٤٦م، وانتقلت الوصاية إلى الوريث التالي ابنها هنرى ملك قبرص بعد إحتجاج من أختها غير الشقيقة، الأميرة المسنّة مليسيند الأنطاكية. أما الملك هنرى، الذي كانت سمنته المفرطة أهم ما يميّزه، فلم يكن بالرجل الذي يفرض سلطانه على الآخرين[٤٢]. فعيّن باليان الإيبليني وكيلا له عن المملكة وأيّد فيليب (أوف مونتفورت) في امتلاكه لصور. وعندما مات باليان في سبتمبر ١٢٤٧م، خلفه كوكيل للمملكة أخوه جون أمير أرصوف، وكلورد لبيروت ابنه، جون[٤٣].

وفي الشمال، حاول بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس أن ينأى بنفسه بقدر الإمكان عن اهتمامات جيرانه؛ وبنفوذ زوجته الإيطالية لوسين (أوف سيني) بقي على علاقة طيبة بالبابوية؛ غير أن كثرة عدد أقاربها وأصدقائها ممن دعتهم إلى الشرق أسخط باروناته وسبب له المشاكل فيما بعد. وربما أرسل كتيبة إلى معركة غزة المشؤومة بناء على طلب البابا. غير أنه احتفظ في ذات الوقت بعلاقات ودودة مع فريدريك الثانى، ومنح لوثير فيلانجيري وتوماس (أوف أكيرا) اللجوء في طرابلس، مما ضايق البابا، رغم أنه رفض منحهما مساعدة إيجابية. واستمر خلافه مع المملكة الأرمينية لبضع سنوات. وقد حاول عبثا حث البابا على ترتيب طلاق الوريثة الروبينية الشابة من الملك الجديد هيثوم، لكي يحرم هيثوم من الحق في العرش؛ لكن روما منعته هو وهنرى ملك قبرص من مهاجمة الأرمن تحديدا، بينما كان هيثوم من ناحيته مشغولا للغاية في صد هجمات السلطان السلجوقي الكبير كايكوسراو. ونتج عن زواج أخت هيثوم ستيفاني من هنرى ملك قبرص في عام ١٢٣٧م أن مهّد الطريق تدريجيا لمصالحة عامة[٤٤].

---

(٤١) Ibn Khallikan, *loc. cit.*.

(٤٢) *Gestes des Chiprois,*, p. 146- حيث يرد بالأحرى موجز مشوش عن الحل؛ Rohricht, *Regesta,*, pp. 315-16; Innocent IV, *Registres* (ed. Berger), no. 4427, ii, p. 60. أعطى البابا مطالبة ميليسيند لـ Odo of Châteauroux للتحقيق، ورفض لاحقا. أنظر Rohricht, *Geschichte des Konigreichs Jerusalem,* p. 873 n.3.

(٤٣) *Annales de Terre Sainte,* p. 442; Amadi, p. 198.

(٤٤) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord,* pp. 650-2.

١٢٤٥م : بطريارقية لاتينية في أنطاكية(٤٥)

لم يكن لبوهمند سوى القليل من السلطة على الأنظمة الدينية العسكرية المستقرة في أراضيه ؛ التى تزايد حذرها . وفي محاولة من البابوية لمصالحة كميون أنطاكية مع ما لديه من عناصر يونانية قوية غيرت البابوية ، بموافقة بوهمند فيما يبدو ، من سياستها إزاء الكنيسة الأرثوذوكسية هناك . وقد اتضح الآن بجلاء استحالة تكامل اليونانيين واللاتين في كنيسة واحدة . ولذا عرض هونوريوس الثالث على اليونانيين كنيسة خاصة بهرميتها وطقوسها الخاصة بها طالما يعترف البطريق اليوناني بسيادة سلطة روما . وقد رفض رجال الدين اليونانيون العرض ، والأرجح بتشجيع خفي من بوهمند الذي اعتبر أن الهرمية اليونانية المستقلة أيسر فى التعامل معها ؛ وسارع البطريق سيميون إلى حضور المجلس المناهض للاتينية الذي استدعاه للإنعقاد في نيمفايوم امبراطور نيقية، حيث أعلن فى ثبات طرد البابا من الكنيسة المسيحية . على أنه عندما مات سيميون في نحو عام ١٢٤٠م ، كان خليفته داود - الذي ربما تدخلت في تعيينه الأميرة لوسين - على استعداد للتفاوض . وفي عام ١٢٤٥م ، أرسل البابا إينوسنت الرابع لورينزو (أوف أورتا) الفرنشيسكاني إلى الشرق بتعليمات بالمساواة التامة في كل مكان بين اليونانيين المعترفين بالسيادة الكنسية البابوية وبين اللاتين . و لم يكن مطلوبا منهم سوى طاعة الرؤساء اللاتين حيثما كانت هناك سابقة تاريخية طيبة لذلك . وتلقى البطريق الدعوة لإرسال بعثة إلى روما على حساب البابا لمناقشة نقاط الخلاف . وقبل البطريق داود هذه الشروط . وفي نفس الوقت تقريبا كان البطريق اللاتيني ألبرت ، الذي لم يكن سعيدا تماما بتلك الترتيبات ، قد رحل إلى فرنسا لحضور مجلس في ليون حيث مات هناك . و لم يُعيّن البطريق اللاتيني التالي أوبيزون فيشي ، وهو ابن أخى البابا ، حتى عام ١٢٤٧م ، وجاء إلى أنطاكية في العام التالي . وفي ذات الوقت كان داود هو البطريق الوحيد المقيم في أنطاكية ؛ على أنه بوفاة داود في تاريخ غير معروف ، نبذ خليفته إيوثيميوس السلطة البابوية ، ولذا حكم عليه البطريق اللاتيني أوبيزون بالطرد من الكنيسة ونفاه من المدينة(٤٦).

---

(٤٥) المترجم : العنوان بالإنجليزية هو *A Uniate Patriarchate at Antioch* ، وتعني لفظة Uniate ، أية طائفة مسيحية في شرق أوروبا والشرق الأدنى تعترف بالسيادة البابوية لكنها تحتفظ بطقوسها وأعرافها. ولذلك اخترنا لفظة (لاتينية) للدلالة على الصبغة التي تصطبغ بها البطريارقية الشرقية في أنطاكية.

(٤٦) *Ibid. pp. 684-5; Regesta Honorii Papae III*, nos. 5567,5570, ii, p. 352. والأدلة كلها مشتقة من مصادر بابوية على الرغم من أن Bar Hebraeus (trans. Budge, p. 445) يذكر رحلة

وكانت مجموعة كبيرة تابعة للكنيسة اليعقوبية قد أعلنت بالفعل خضوعها لروما. وفي عام ١٢٣٧م كان البطريق اليعقوبي إجناتيوس الأنطاكي في زيارة للقدس واشترك في موكب زيّاحي لاتيني ، وأعلن إعلانا أورثوذوكسيا بالإيمان ، فمُنح رداء راهب دومينيكي. ولدى عودته استحوذ على مشاعر الكثير من رجال الدين التابعين له ، وطلب رسميا من اللاتين أن عليهم ممارسة سر الإعتراف لدى قسيس يعقوبي في حالة عدم وجود كاهن اعتراف لاتيني. وفي عام ١٢٤٥م ، جاء المبعوث البابوي أندرو (أوف لونجومو) في زيارة لماردين حيث يقيم إجناتيوس ؛ وتفاوضا على شروط الإتحاد . وكان إجناتيوس على استعداد لقبول صيغة لفظية حول عقيدة وإدارة ذاتية تخضع مباشرة لسيادة روما . على أنه كانت هناك ضغائن بين اليعقوبيين في شمال سوريا وأقرانهم في المقاطعات الشرقية والجنوبية ؛ وقد أنكر الأخيرون الإتحاد ؛ ولسوء الحظ لم يتحدث إجناتيوس إلا لطرف واحد من الكنيسة اليعقوبية . وطالما بقي إجناتيوس على قيد الحياة ، ظل أتباعه على إخلاصهم للاتين ، أمّا بعد وفاته عام١٢٥٢م فقد نشأ خلاف حول استخلافه ، انتصر فيه إلى حين المرشح المناصر للاتين جون الحلبى ، لكنه اعتبر أن أصدقاءه اللاتين لم يمنحوه ما يكفي من التأييد ، بينما دأب غريمه دينيس ، الذي حل محله في النهاية ، على معارضتهم . ولم يكن هناك من يحافظ على الاتحاد سوى شريحة ضئيلة من الكنيسة في طرابلس(٤٧).

١٢٥٢م : فضائح في كنيسة أنطاكية

تولى الجهود الرامية إلى تحقيق الاتحاد بدرجة كبيرة الرهبان المبشرون من طائفتي الدومينيكان والفرنشيسكان الذين بدأوا أعمالهم في الشرق بعد إنشاء أنظمتهم الدينية مباشرة ، ولم يجدوا كبير مجال في مملكة القدس المقيّدة ، لكنهم كانوا على جانب من النشاط بصورة خاصة في بطريارقية انطاكية حيث كان البطريق ألبريت ناصرهم المخلص . واتجهت نيتهم أكثر فأكثر إلى تغيير رجال الدين الدنيويين في شتى الأسقفيات المبعثرة للبطريارقية . ولم تكن علاقات البطارقة بأتباع نظام الرهبنة البندكتي الجديد على كامل وفاقها ؛ إذ أن البطريق بطرس الثاني ، الذي كان هو نفسه رئيسا

إيوثيميوس الى البلاط المغولي . أنظر أيضا "Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou" في *Revue de l'Orient Latin*, ii, p. 213.

(٤٧) Cahen, *op. cit.* pp. 681-4 ، مع المراجع.

سابقا للرهبان البندكتيين ، قد ساعدهم على الإستقرار في ديرين اثنين هما دير القديس حورج (أوف حوبان) بالقرب من أنطاكية، ودير بلمونت بالقرب من طرابلس . بيد أن شتى الفضائح ثارت أثناء تولى ألبرت البطريارقية؛ وتعين إرسال سلسلة من المناشدات إلى روما قبل إعادة النظام إلى الأديرة وقبل تصحيح سلطة البطريق[٤٨].

و لم يبد بوهمند الخامس نفسه سوى قليل اهتمام بهذه الإحراءات ، فنادرا ما زار أنطاكية ، وإنما كان يعقد بلاطه في طرابلس . وكما هو الحال في المملكة ، تفرقت شتى العناصر في أراضيه شيعا، وقد أنقذهم من الإنقراض مشاحرات الأيوبيين والقوة الجديدة الأكثر هولا التى بدأت ترج العالم الإسلامي ، ألا وهي أمبراطورية المغول.

(٤٨) *Ibid.* pp. 668-71, 680-1 .

الباب الثالث:

المغول والمماليك

الفصل الأول:

مجيء المغـول

مجـىء المغــول

"هُو ذا كسحاب يَصْعد وكزوبعةٍ مَركباته. أسْرعُ من النسور خَيْلُهُ. وَيْلٌ لنا لأننا قد أُخرِبْنا"

(إرميا ١٣:٤)

في سنة ١١٦٧م ، وقبل عشـرين سـنة مـن اسـتعادة صـلاح الديـن للقـدس ، وفي مكان قصيّ على ضفاف نهـر أونـون شمـال شـرقي آسـيا ، رزق زعيـم مغـولي يدعـى ييزوغاي وزوجته هويلون بمولود ذكـر أطلقـا عليـه إسـم تيموجـين ، غـير أنـه مشـهور تاريخيا باسمه الآخر جنكيز خان[1]. وكان المغول عبارة عن مجموعة مـن القبـائل تعيـش

(١) للإطلاع على كامل سيرة حياة جنكيز خان أنظر:

Howorth, *History of the Mongols*, i, pp. 27-115; Grousset, *L'Empire Mongol, 1ère phase*, pp. 35-242 and *L'Empire des Steppes*, pp. 243-315; Martin, *Chingis Khan and his Conquest of Northern China, passim.*

وأهم المصادر الأصلية هي(*Yuan Ch'ao Pi Shih* وهـو التـاريخ الرسمـي للمغـول) و *Yuan Shing* و Wu Ch'in Cheng Lu، وكلاهما كتب أصلا بالمغولية وترجم الى الصينيـة . وأعيـدت كتابـة أولهمـا ونشر (بالأحرف اللاتينية)، وترجم جزئيا الى الفرنسية بواسطة Pelliot (*L'Histoire* Secrète des Mongols) - و Rashid ad-Din, *Jami at-Tawarikh*، الذي كتب بالفارسية)ونشر جزء بالفارسية

على ضفاف نهر آمور الأعلى ، وفي حالة حرب دائمة مع جيرانهم الشرقيين التتار. وكان جد يزوغاي ، قابول-خان ، قد ربطهم في كونفدرالية ليست وثيقة العرى؛ بيد أنه بعد وفاته تفككت مملكته، وتمكن الامبراطور الصينى في شمال الصين من ترسيخ سيادته على المنطقة بكاملها. ولم يرث يزوغاي سوى جزء صغير من الكونفدرالية القديمة، لكنه راح يزيد من قوته وشهرته بما أنزله من هزائم بالقبائل التترية وضم أراضيها ، وبالتدخل في شؤون أكثر جيرانه القريبين حضارة ، خان الكيرات.

وكانت جماعات الكيرات ، وهم شعب شبه بدوى من أصل تركى ، قد سكنت البلاد المحيطة بنهر أورخون خارج منغوليا الحديثة . وفي وقت مبكر من القرن الحادى عشر تحول زعيمهم إلى المسيحية النسطورية ومعه أغلب رعاياه . وتسبب هذا التحول في اتصال الكيرات بالأتراك الأوغور إذ كان من بينهم الكثير من النساطرة . وكان الأوغور قد طوروا ثقافة مستقرة في وطنهم في وادى تاريم ومنخفض تورفان ، وطوروا أبجدية للغة التركية تقوم على أساس حروف سيريانية . وكانت ديانتهم السائدة في الأزمنة الأبكر هي المانوية[٢] . والآن ، اتجهت المانوية فى ظل النفوذ الصينى إلى أن تصبح بوذية . وكانت قوة الأوغور في انحسار ، لكن حضارتهم انتشرت لتشمل الكيرات والأتراك النايمان الذين تقع بلادهم بين الأوغور والكيرات[٣].

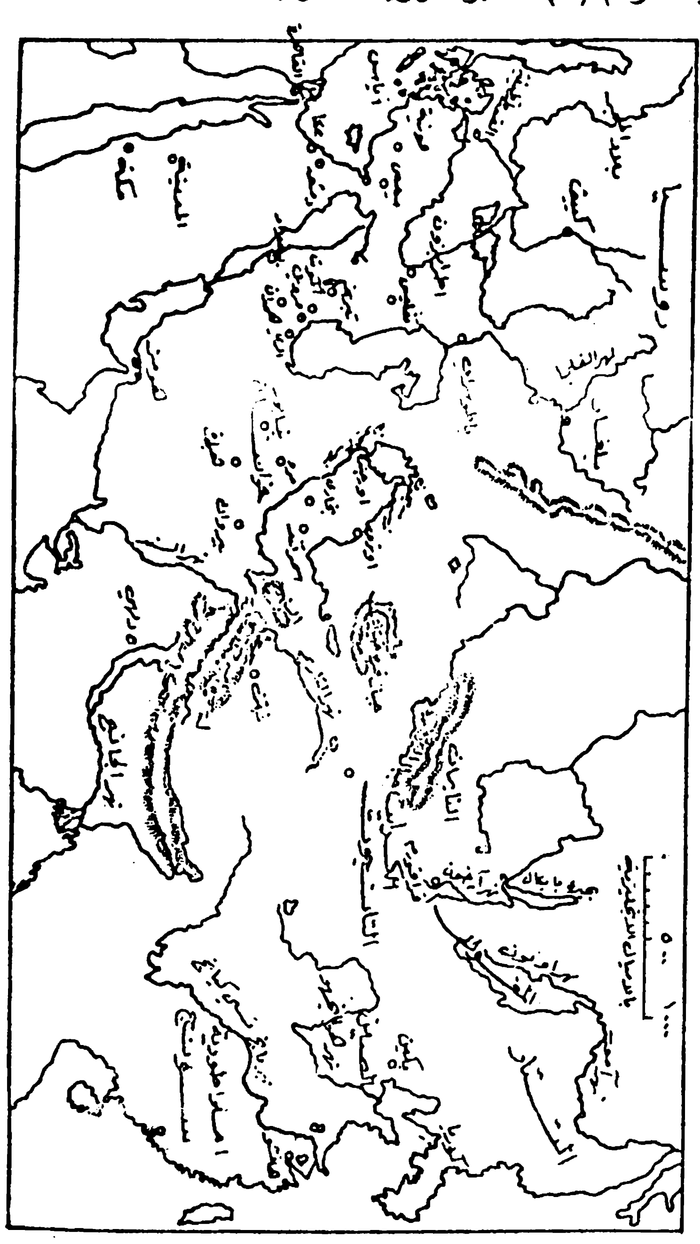
وفي نحو عام ١١٧٠م مات الخان الكيراتى قورياكوز ، وهو ابن ميرغوز خان ، ووجد إبنه طغرل بعض الصعوبة في ضمان ميراثه نظرا لمعارضة إخوته وأعمامه . وأثناء حروبه مع إخوته ضمن مساعدة يزوغاي الذى أصبح صديقه الحميم . وتسببت هذه الصداقة في ارتفاع مكانة يزوغاي بين زعماء قبائل المغول ، على أنه قبل أن يجعل من نفسه خان المغول الأكبر، دسَّ له السم بعض التتريين الرُّحَّل أثناء تناوله وجبة عشاء

مع الترجمة بواسطةQuatremère ؛ ونُشر النص كله بترجمة روسية بواسطة . (Berezin وتوجد نصوص مختلفة بالمغولية والصينية تتناوله، نشرت وترجمت الى الألمانية بواسطةDie`) Haenisch Letzten Feldzuge Cingis Hans und Sein Tod' in *Asia Major*, vol. ix) .وعن تاريخ ميلاد جنكيز خان أنظر..Grousset, *L'Empire Mongol*, p. 53 n. 3.

(٢) (المترجم): المانوية Manichaeism : عقيدة دينية تقول بالثنوية، أى وجود النور والظلمة أو الخير والشر. (النور أو الخير = الإله، الظلمة أو الشر = الشيطان).

(٣) عن شتى قبائل الأتراك المغول أنظرHoworth, *op. cit.* i, pp. 19-26; Crousset, *L'Empire Mongo*, pp. 1-32; Martin, op. cit. pp. 48-58; Pelliot, `Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. xi. For the Uighurs, Bretschneider, *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, i, pp. 236-63.

خريطة رقم (٣) الامبراطورية المغولية



معهم. وكان أكبر أبنائه تيموجين (جنكيز خان) في التاسعة من عمره آنذاك.

جنكيـــز خـــان

وتمكنت أرملة ييزوغاي النشطة - هويلون - من ضمان بعض السلطة للزعيم الصغير على قبائل أبيه . غير أن طفولة تيموجين كانت عاصفة ؛ إذ بدا زعيما وهو ما يزال صبيًا ، وكان متحجّر القلب إزاء أنداده ، وحتى فيما بين أفراد أسرته . وأثناء الحروب التي انتزع بها سيطرته على المغول ، أسرته لفترة قبيلة تايشيوت ، كما أن الأتراك المركيت على بحيرة بايكال أسروا لفترة زوجته بورك التى تزوجها وهو في السابعة عشرة ؛ ولذلك فإن شرعية ابنها الأكبر جوجى ، الذي ولد أثناء أسرها ، كانت موضع ريبة دائما. ويعزى نجاح تيموجين المتزايد، إلى حد كبير لتحالفه مع طغرل الكيرات خان ، الذي كان يعتبره في مكانة أبيه ، والذي ساعده في حروبه ضد الميركاتيين . وفي نحو عام ١١٩٤م انتخب تيموجين ملكا أو خانا للمغول جميعا، واتخذ اسم جنكيز - أى القوي . وبعد ذلك مباشرة اعترف الامبراطور الصينى بجنكيز أميرا أعظم للمغول وضمن تحالفه ضد التتار الذين كانوا يهددون الصين. ودارت حرب خاطفة أسفرت عن خضوع التتار لحكم جنكيز . وعندما خُلع طغرل خان من عرش كيرات عام ١١٩٧م كان جنكيز هو الذي أعاده . وفي ١١٩٩م ضم جنكيز قواته إلى قوات طغرل خان لهزيمة اتراك النايمان ، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى تزايدت غيرته من قوة الكيرات. والآن غدا طغرل أعظم عواهل السهوب الشرقية الفسيحة ، وكان لقبه وانج-خان أو أونج-حان، وقد تسرب هذا اللقب إلى غربي آسيا متحولا إلى "يوهانس" Johannes وهو شكل أكثر ألفة ورخامة ، وبذا جعله مرشحا للقيام بدور القسيس جون[٤]، لكنه كان رجلا خؤونا متعطشا للدماء يفتقر كل الافتقار إلى الفضائل المسيحية ؛ ولم يستطع قط مساعدة رفاقه المسيحيين . وفي ١٢٠٣م تشاجر مع جنكيز ولم تكن أول معركة بينهما في خالاخاليت معركة حاسمة ؛ على أنه بعد أسابيع قليلة هُزم الجيش الكيراتى هزيمة نكراء في جيجير أوندور ، في قلب أراضى كيرات . وقُتل طغرل أثناء فراره باحثا عن ملجأ ، واستسلم أفراد أسرته الباقين على قيد الحياة

(٤) المترجم : جون القسيس ، Prester John ، ملك وقسيس مسيحي أسطوري يقال إنه حكم في الشرق الأقصى أو أثيوبيا.

لجنكيز خان الذي ضم البلاد كلها[٥].

وفي عام ١٢٠٤م ، كانت نايمان هي الأمة الثانية التى أُخضعت في معركة ضخمة حرت رحاها في شاكيرموت ، حيث كان سلطان جنكيز كله فى خطر. وأدت الحروب التي دارت في العامين التاليين إلى ترسيخ مكانة جنكيز كسيد أعلى على جميع القبائل في المناطق الممتدة بين حوض تاريم ونهر أمور وسور الصين العظيم . وفي ١٢٠٦م انعقد (كوريلتاي) أو مؤتمر من جميع القبائل الخاضعة له على ضفاف نهر أونون أكّد لقبه الملكي ؛ وأعلن أن شعبه ينبغى أن يُعرف بصورة جماعية باسم المغول.

١٢٠٦م : تنظيم امبراطورية جنكيز خان

كانت امبراطوربة جنكيز خان أساسا عبارة عن خليط من العشائر . ولم يحاول التدخل في التنظيم القديم للقبائل باعتبارها عشائر يحكمها رؤساء بالوراثة، واقتصر على فرض سيادة عائلته، ألتين أوروك أو العشيرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية تسيطر عليها عائلته الكبيرة ورفاقه ، ووضع تحت تصرف العشائر الحرة أعدادا كبيرة من العبيد الذين استرقهم من القبائل التي قاومته وهزمها . ومنح أقاربه وأصدقاءه آلاف العبيد. وفي المؤتمر (كوريلتاي) المنعقد عام ١٢٠٦م مُنحت أمه هويلون ، وأخوه تيموغ أوتيشين ، عشرة آلاف أسرة من الأرقاء لكل منهما ، و خمسة أو ستة آلاف أسرة لكل من أبنائه الصغار . أما القبائل ، وحتى المدن ، التي استسلمت له طواعية فقد تُركت دون تدخل طالما احترمت قوانينه المهيمنة ودفعت لجامعى ضرائبه ما يطلبه من إتاوة باهظة . ولكي يضم بلاده في كيان واحد ، أصدر مجموعة من القوانين (ياسا) تقرر أن تتسيد على القوانين المألوفة في السهوب . وقد بسطت مجموعة قوانين (ياسا) ، والتي صدرت على مراحل طوال حكمه ، بصورة محددة ما يتمتع به رؤساء القبائل من حقوق ومزايا ، وشروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات المستحقة للخان ، ومبادئ فرض الضرائب ، وكذلك مبادئ القوانين الجنائية والمدنية والتجارية . وبرغم كونه حاكما مطلقا أعلى ، فقد كان جنكيز ينوى التقيد هو وخلفاؤه بالقانون[٦].

---

(٥) ترد أفضل رواية عصرية حول بروز جنكيز وتسيده في . Martin, *op. cit.*pp 60-84 وعن شهرة طغرل على أنه جون القس المشيخى أنظر Yule, *Cathay and the Way Thisther*, iii, pp. 15-22

(٦) . Ibid. pp. 85-101 ويخصص تاريخ *Yuan Ch'ao* ثلاثة فصول (١٩٤-٢٦ 68-72 .pp ,، في النص المغولي) لمعركة شاكيرموت، وهو أكثر مما تخصصه لأية معارك أخرى لجنكيز خان .

وما أن أكمل جنكيز ترتيب إدارة امبراطوريته حتى شرع في توسيعها ، فلديه الآن جيش ضخم اهتم بتنظيمه كل الاهتمام . ذلك أن جميع أفراد القبائل الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين كانوا مجبرين على أداء الخدمة العسكرية طبقا للتقاليد المغولية والتركية ؛ وكانت حملات الصيد الشتوية الضخمة كل عام، والتي تعتبر ضرورية لتزويد الجيش والبلاط باللحوم، بمثابة مناورات كي يظل الجنود في حالة تدريب . وقد جُبِلَ رحال القبائل على الطاعة العمياء لزعمائهم ؛ وكان الزعماء يعرفون من تجاربهم المريرة أن عليهم أن يطيعوا الخان . كما كان لرعاياه ، كشأن القبائل الرحل جميعا ، اشتياق إلى أن يجتازوا الآفاق، وخوف من أن تُستهلك مراعيهم وغاباتهم ؛ وقد أعطاهم الخان بلادا جديدة وأسلابا ضخمة وقطعانا من العبيد . لقد كان جيشا من الخيالة والرماة وحملة الرماح على ظهور جياد سريعة ورحال ودواب اعتادوا منذ مولدهم على خشن العيش وعلى الرحلات الطويلة عبر الصحاري بمقادير قليلة جدا من الطعام والشراب . وهذا التركيب من سرعة الحركة والنظام والأعداد الغفيرة لم يكن معروفا قط من قبل[٧].

وكانت الدول الثلاث الكبرى التى تتاخم المغول الآن هي الإمبراطورية الصينية في الشرق بعاصمتها بكين ؛ ومملكة هسياهسي التانجوتية بطول المناطق العليا على نهر الأصفر، حيث كانت هناك أسرة حاكمة من أصل تيبتي تحكم شعبا مغوليا مقيما يتألف من خليط من المغول والأتراك والصينيين ؛ وفي الجنوب الغربي ، مملكة كارا خايتاي، وهي عبارة عن جماعات رحل بوذيين من منشوريا شردهم الأباطرة الصينيون في وقت مبكر من القرن الثاني عشر وشقوا طريقهم باتجاه الشرق لينشئوا امبراطورية على حساب الأوجوريين في حوض تاريم والأتراك المسلمين في ياركاند وختان . وكان عاهلهم جور-خان عاملا مهولا في السياسات الإسلامية الشرقية ؛ وكان لأوغور في تورفان عملاء له . وكانت هسيا هسي أضعف الممالك الثلاث ، ولذا بدأ جنكيز خان بمهاجمتها ، وفي ١٢١٢م قبل ملكها سيادته ، وتلا ذلك غزو الإمبراطورية الصينية ، وأسفرت سلسلة من المعارك الطاحنة عن ضم الريف كله حتى البحر الأصفر وشانتونج إلى سلطته . بيد أن المغول لم يعتادوا على مهاجمة الأماكن الحصينة ، وصمدت أمامهم المدن ذات الأسوار الضخمة ؛ ولم تبدأ جيوشه في تعلم فن حرب الحصار إلا بعد أن التحق مهندس صيني يدعى ليو بو-لين بخدمة جنكيز خان . وبحلول عام ١٢٢٦م بات

(٧) *Ibid.* pp. 11-47، حيث ترد مناقشة كاملة حول الجيش المغولي

الامبراطور الصيني من أتباعه، وكان قد استولى قبل ذلك فى ١٢٢١م على مقاطعة منشوريا الصينية ، واعترفت كوريا بالسيادة المغولية . وعندما مات آخر الأباطرة الصينيين عام ١٢٢٣م ، أدمجت مقاطعاته المتبقية في الإمبراطورية المغولية(٨).

١٢١٨م : محمد شاه الخوارزمي

وفي تلك الأثناء كان جنكيز خان قد وسّع غزواته باتجاه الجنوب الغربي . وآنذاك كانت الإمبراطورية الخوارزمية تحت محمد شاه في أوج عظمتها ؛ إذ كان محمد سيدا لكل آسيا من كردستان والخليج الفارسى إلى بحر الآرال ، والبامير ، والإندوس . وقد وجد فيه جور-خان في كارا خيتاي جارا مقلقا وسعى إلى إحراجه بتحريض أتباعه في أرض ما وراء النهر(٩) . وأدت الحروب التى تلت إلى إلحاق الضعف الشديد بكارا خيتاي؛ وبينما كان محمد شاه يضم أراضيهم الجنوبية ، اغتصب أمير نايماني يدعى كوشلوك عرش جور-خان . وكان كوشلوك مسيحيا نسطوريا بالميلاد ، لكنه أصبح بوذيا بزواجه من أميرة من كارا خيتاي ؛ غير أنه على خلاف عواهل جور-خان ، كان متعصبا ضد رعاياه المسيحيين والمسلمين . وانتهز جنكيز خان افتقاره إلى الشعبية للتدخل . وعندما اكتسح جيش مغولي حوض تورفان جنوبا ، استُقبل كقوة مخلّصة ، وخضع الأوجور طواعية لحكم المغول ؛ وبات كوشلوك مقيّدا داخل إمارة صغيرة في وادى تاريم(١٠).

وأدى هذا التوسع بجنكيز خان إلى أن يصبح على اتصال مباشر بأراضى الخوارزميين . ولم يكن محمد شاه بالرجل الذي يتحمل غريما طموحا بنفس قدر طموحه ؛ واستقبل كل من العاهلين سفارات من نظيره ؛ على أن محمد الخوارزمي شعر بالإهانة عندما طلب جنكيز خان من هذا الأمير الخوارزمى الإعتراف به سيدا أعلا

(٨) عن غزو الصين ، أنظر نفس المرجع ، الفصول ٥-٨ و ٩-١٠ ، في أماكن مختلفة.

(٩) (المترجم): أرض ما وراء النهر Transoxiana: اقليم تاريخى فى التركستان بوسط آسيا يقع شرقى نهر جيحون (الأموداريا) Oxus River وغرب نهر سيحون (السرداريا) Jaxartes River وهو حاليا فى أوزبكستان وجزء من تركمانستان وقازاخستان. كان مركزا اسلاميا عظيما، ومركزا لامبراطورية تيمور الأعرج فى القرن الخامس عشر وازدهرت فيه مدينتي بخارى وسمرقند المشهورتان فى العالم كله آنذاك.

(١٠) عن محمد شاه ، انظر Barthol ، مقال "Khwaresm" ، في *Encyclopaedia of Islam* ؛ وعن Kuchluk أنظر Martin, *op. cit.* pp. 103-4, 109-11, 220, 224

باعتباره خان الأمم التركية المغولية . وفي ١٢١٨م ارتحلت من منغوليا قافلة ضخمة من التجار المسلمين ومعها مائة مغولي مرسلين في بعثة خاصة إلى البلاط الخوارزمي . وعندما وصلت القافلة إلى أوترور ، على نهر ياكسارتيس في أراضي محمد ، قتل الحاكم المحلي المسافرين وسرق بضائعهم ، وأرسل نصفها إلى الشاه . وكان ذلك العمل استفزازا لجنكيز خان ليس بوسعه تجاهله . وقدّر كوشلوك أن الحرب على وشك الإندلاع فأقدم على محاولة لإحياء مملكة كارا خيتاي . وفي خطة حربية شديدة الذكاء، حرّض القائد المغولي جيبي كوشلوك وجيشه على المضي بطول أراضيه إلى أن قتله في وادٍ مرتفع في بامير(١١).

١٢٢١م : هزيمة الخوارزميين

وبذهاب كوشلوك، أصبح جنكيز خان على استعداد للخروج لملاقاة الخوارزميين. ولقد كان عملا مهولا ؛ إذ قيل إن محمد شاه كان قادرا على أن يلقى في الميدان نصف مليون رجل ؛ وكان على جنكيز خان أن يقاتل على مبعدة ألف ميل من دياره . وفي وقت متأخر من صيف ١٢١٩م ، غادر الجيش المغولي ، المؤلف من مائتي ألف رجل ، معسكره على ضفاف نهر إرتيش ، وانضم اليه في طريقه باتجاه الغرب ملوك من أتباع الخان ، مثل أمير الأوغور . ولم يكن محمد شاه واثقا من المكان الذي سوف يضرب فيه المغول ضربتهم ، ولذا قسّم جنوده بين خط سيحون (السرداريا) وممرات فرغانه ، وربض ماكثا بجيشه الرئيسي في مدينتي ما وراء النهر العظيمتين بخارى وسمرقند . ومضى الجيش المغولي مباشرة إلى أواسط جامسارتيس ، وعبر النهر عند أوترور . وبقي جزء من الجيش لمحاصرة المدينة ، وهي مهمة بطيئة إذ لم يكن المغول متمرسين بعد على أعمال الحصار الحربي ؛ وتحرك جزء من الجيش جنوب النهر لمهاجمة الجيش الخوارزمي الرابض على ضفافه ؛ وتحرك جزء آخر أعلى النهر لقطع الطريق على الجيش الرابض في فرغانه ؛ وزحف جنكيز خان نفسه مع جيشه الرئيسي مباشرة إلى بخارى التي وصلها في فبراير ١٢٢٠م . وعلى الفور تقريبا فتح المدنيون له بوابات المدينة ؛ وقاوم الأتراك في القلعة لأيام قليلة ، ثم ذبحوا عن آخرهم ومعهم أئمتهم المسلمين الذين كانوا يشجعونهم على مواصلة القتال . ومن بخارى واصل جنكيز خان زحفه على سمرقند ، بينما انسحب محمد شاه ، الذي فقد الثقة في جنوده ، إلى عاصمته أورغنج على ضفاف نهر

(١١) Barthold, *op. cit.* pp. 397-9; Martin, *op. cit.* pp.230-3 .

جيحون (الأمودا ريا)، بالغرب من كيفا . وفي سمرقند ، حيث انضم أبناء جنكيز خان اليه بعد استيلائهم على أوترور ، استسلمت الحامية التركية من فورها ، راحية الإنضمام إلى جيش الغازي . غير أن جنكيز خان رأى أن هؤلاء الجنود الذين لا يعتمد عليهم غير جديرين بالثقة فقتلهم جميعا . وعبثا حاول مدنيون قليلون تنظيم مقاومة ، وذبحوا كذلك . ثم إن جنكيز خان أرسل أبناءه لمحاصرة أورغينج ، وهناك تسببت دفاعاتها الأقوى ، والمشاحنات بين أبناء جنكيز خان ، في تأخير الإستيلاء عليها لأشهر قليلة . وفي تلك الأثناء هرب محمد شاه إلى خراسان يطارده جيش تحت قيادة أكثر قادة جنكيز ثقة ، سوبوتاي وجيبي ؛ وتمكن من الفرار من مطارديه لا لشئ سوى أن يموت في ديسمبر ١٢٢٠م في جزيرة صغيرة في بحر قزوين كسير القلب وحيدا.

وتمكن ابن محمد شاه ، جلال الدين ، من خوض قتال أفضل ، إذ انضم إلى الجيش الخوارزمي في فرغانة ، وانسحب إلى أفغانستان . وفي بارفان ، الواقعة إلى الشمال مباشرة من هندوكوش ، أوقع هزيمة منكرة بالجيش المغولي المرسل لإخضاعه . وانتقل جنكيز نفسه عبر الأوكسوس عابرا بلخ التى استسلمت له ومن ثم أنقذت ، ثم باميان في أواسط كوش الهندية ، وصمدت القلعة أمام هجماته ، وأثناء الحصار قُتل حفيده الأثير لديه ، موتوجين . ولذلك ، وعندما تم الإستيلاء على المدينة لم يُترك فيها مخلوق على قيد الحياة . وفي ذات الوقت زحف ابنه تولوي وزوج ابنته توجوتشار أبعد من ذلك إلى الغرب ، واستوليا على ميرف التي لم يبق من سكانها الذكور سوى أربعمائة من أصحاب الحرف الماهرين ، ثم على نيسابور حيث قُتل توجوتشار فلقيت المدينة نفس المصير تماما، وترأست أرملته شخصيا عملية المذبحة . وأُرسل أصحاب المهن من المدينتين إلى منغوليا . وفي عام ١٢٢١م ، تقدم جنكيز خان خلال أفغانستان لمهاجمة جلال الدين ، ولحق به على ضفاف نهر الإندوس . وفي معركة يائسة دارت رحاها يوم ٢٤ نوفمبر تم تدمير الجيش الخوارزمي ، وهرب جلال الدين نفسه عبر النهر ولاذ بملك دلهي ، ووقع أبناؤه في قبضة المنتصر وقتلوا.

وأمضى جنكيز خان نحوا من عام في أفغانستان . وكانت مدينة هيرات الضخمة التي استسلمت بادئ الأمر للمغول بهدوء قد ثارت بعد انتصار جلال الدين في بارفان . وحاصرها جيش مغولي بضعة أشهر ، وبعد الإستيلاء عليها في يونية ١٢٢٢م ، قُتل سكانها الذين بلغوا مئات الآلاف ؛ واستمرت المجزرة لمدة أسبوع . وجاء إلى المدينة التى استحالت مبانيها إلى أطلال وأراضيها إلى خرائب إداريون مغول يساندهم ما يكفي من الجنود للمحافظة على نظام المدينة المرعوبة . ثم إن جنكيز خان عاد إلى أرض

ما وراء النهر التى كانت أقل في وحشة من غيرها ، حيث نصّب حاكما خوارزميا ، هو مسعود يالاواش ، ومستشارين مغول لمراقبته والسيطرة عليه . وأرسل والد مسعود، محمد يالاواش ، شرقا ليحكم بكين ، وهي وسيلة تشريفية للمزيد من ضمان ولاء مسعود. وفي ربيع ١٢٢٣م عاد جنكيز وعبر نهر سيحون (السرداريا) وارتحل متمهلا عبر السهوب، ووصل إلى إرتيش في صيف عام ١٢٢٤م ، ثم إلى وطنه على نهر تولا في الربيع التالى[١٢].

لم تمر غزوات جنكيز خان الرائعة دون أن يلحظها المسيحيون في سوريا . إذ كان معروفا أنه يهاجم أضخم قوة إسلامية في وسط آسيا ؛ ويستطيع النساطرة بكنائسهم المنتشرة عبر آسيا كلها أن يشهدوا بأنه لم يتخذ موقفا عدائيا من المسيحين . وكان الخان نفسه شامانيّا[١٣] لكنه كان يود استشارة رجال الدين المسيحين والمسلمين مع تفضيله للمذكورين أولا . وقد تزوج أبناؤه من أميرات مسيحيات ، من الكيرات ، كان لهن نفوذ كبير في البلاط . والأرجح أن يكون حليفا للعالم المسيحى[١٤].

وقد اهتزت هذه الآمال بعض الشئ خلال عام ١٢٢١م . ذلك أن الجيش الذي أرسله جنكيز خان بقيادة سوبوتاي وجيي للقبض على محمد شاه قد فشل في تحقيق هدفه المباشر ، إذ راوغهم الشاه واتخذ اتجاها معاكسا لإتجاهه الأول ووصل بحر قزوين . غير أن القائدين المغوليين واصلا مسيرتهما غربا ؛ وفي صيف ١٢٢٠م احتلا الري القريبة من طهران الحالية ونهباها ، لكنهما أبقيا على حياة أغلب سكانها . وتلتها مدينة قم التى قُتل سكانها كلهم . ولقيت مدينتا كاسفين وزينجان مصيرا مماثلا ، لكن همدان استسلمت في الوقت المناسب وانقذت نفسها بعد دفع إتاوة باهظة . ودفع أمير أذربيجان ثمنا لتجنب هجوم على تبريز ؛ وواصل المغول زحفهم في فبراير ١٢٢١م لمهاجمة جورجيا.

---

(١٢) Browne, *Literary History of Persia*, ii, pp. 426-40; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 31-46; Brestchneider, *op. cit.* i, pp. 276-94; *Yüan Ch'ao*, pp. 105-8 (a brief account); Rashid ad-Din (trans. Berezin), ii, pp. 42-85.

(١٣) المترجم : الشامانية : Shamanism ديانة شعوب معينة شمال شرق آسيا تقوم على أساس الإعتقاد في الأرواح الطيبة والشريرة التي لا يستطيع التأثير فيها سوى رجل الدين الشاماني.

(١٤) *Regesta Honorii Papae III*, no. 1478, i, p.565. يتحدث خطابه المؤرخ في ٢٠ يونية ١٢٢١م عن قوات آتية من الشرق الأقصى لإنقاذ الأراضى المقدسة . وعن دين جنكيز خان نفسه أنظر Martin, *op. cit.* pp.310-11, 316-17.

١٢٢٢م : المغول يصلون القوقاز

خرج الملك جورج الرابع إبن الملكة تمارا على رأس فرسان جورجيين لصد تقدم المغول وهزم هزيمة شنعاء في خوناني جنوب تفليس مباشرة ، وكانت بمثابة كارثة لم يبرأ منها الجيش الجورجي قط . لكن الغزاة استداروا جنوبا ؛ إذ ثارت همدان وتعيّن معاقبتها ، وفي طريقهم لتخريب المدينة وتدميرها لم يتوقفوا إلا لينهبوا ماراغا في أذربيجان . وأمضوا ما بقي من العام في شمال غرب فارس . وفي أوائل ١٢٢٢م تحولوا شمالا مرة أخرى . وبعد أن خربوا المقاطعات الجورجية الشرقية ، وهزموا جنودا أرسلوا لقمعهم ، ساروا بطول ساحل بحر قزوين مارين بالبوابات القزوينية باتجاه أراضي الكيبشاك[١٥] بين نهري الفولجا والدون . وسارع الكيبشاك بالتحالف مع قبائل شمال القوقاز ، آلان وليسغيان ؛ غير أنه عندما عرض عليهم سوبوتاي وجيي نصيبا من الغنائم أحجموا عن التدخل أثناء أن كان المغول يسحقون القوقازيين. وكان لابد أن ينقلب عليهم المغول بعد ذلك . فعلقوا الآمال على أن يأتي الروس لإنقاذهم مقابل الرشوة ؛ على أنه في ٣١ مايو ١٢٢٢م ، دُمّر جيش روسي ضخم على ضفاف نهر كالكا بالقرب من بحر آزوف ، كان يقوده أمراء كييف وجاليش وتشيرنيجوف وسمولينسكي . ولم يتابع جنرالات المغول انتصارهم ، وإنما دخلوا منطقة القرم ونهبوا مركزا تجاريا لأبناء جنوا في سولدايا، ثم انساحوا شرقا ولم يتوقفوا إلا لكي يهزموا جيشا من بلغار الكاما ويخربوا بلدهم، وفي باكورة عام ١٢٢٣م ، انضموا إلى جنكيز خان عند نهر سيحون (السرداريا).

تعلق الضحايا الغربيون لهذه الغزوة الشاسعة بأمل أن تكون ظاهرة معزولة ، جائحة مفزعة لا تتكرر . غير أن جنكيزخان امتلأ سرورا بجنرالاته ؛ إذ علاوة على ما قاموا به من استطلاع قيم واكتشافهم عدم وجود جيش يتصدى لهم في غرب آسيا ، فقد أرهبوا الأمم هناك بقسوة تحول دون أن يجرؤ أيّ من تلك الأمم على معارضتهم عندما يحين الوقت للغزو الجاد[١٦].

---

(١٥) المترجم : كيبشاك : Kipchak اتحاد قبائلي احتل في القرن الحادي عشر مناطق شاسعة من السهول الأوروبية الآسيوية تمتد شمالا من بحر الآرال (شرقي بحر قزوين) وغربا شمال البحر الأسود. يُنطق اللفظ بالروسية (بولوفستي)، ويُعرف لدى البيزنطيين باسم كومان.

(١٦) Bretshneider, *op. cit.*, i,pp. 294-9 .وتتصف الروايات الروسية عن الحملة بنوع من الإضطراب أنظر، Karamzin, *History of the Russian Empire* (in Russian), iii, p. 545; Vernadsky, .

وعندما مات جنكيزخان عام ١٢٢٧م ، كانت أملاكه ممتدة من كوريا إلى فارس ومن المحيط الهندى إلى سهول سيبيريا المتجمدة . ليس هناك رجل آخر ولم يتأت لرجل آخر عبر التاريخ أن يقيم امبراطورية شاسعة كهذه. ومن المحال أن يفسّر نجاحه بنظرية ما تقول أن الحافز الإقتصادي هو الذي دفع المغول إلى التوسع ؛ ولا يسعنا سوى أنهم كانوا وسيلة مواتية لزعيمهم التوسعي . لقد كان جنكيزخان مهندس مصيره . ولكنه يبقى لغزا . فمن حيث المظهر ، قيل لنا إنه كان طويلا قويا بعينين كعيني القط . ويقينا كانت طاقة احتماله البدنية هائلة ، ويقينا كذلك أن كان لشخصيته أعمق الأثر لدى كل من تعامل معه . كانت مهارته في التنظيم فائقة ؛ وكان يعرف كيف ينتقى الرجال وكيف يعاملهم . وكان لديه احترام أصيل للعلم ، وكان على استعداد دائما للإبقاء على حياة أي دارس للعلم ؛ غير أنه لسوء الحظ لم يتح إلا لقليلين لبيان علمهم . وتبنى للمغول الأبجدية الأوغورية وأرسى قواعد الأدب المغولي . وكان من النواحى الدينية يتصف بالتسامح ، وعلى استعداد لمد يد العون لأية طائفة لا تعارضه سياسيا. وقد أصر على أن تكون الحكومة عادلة ومنظّمة . وطُهّرت الطرق من قُطّاعها ، وأنشئت خدمة بريدية ؛ وازدهرت التجارة تحت رعايته وغدا بإمكان القوافل الضخمة أن ترتحل سنويا بعرض آسيا وهي آمنة . على أنه كان بالغ القسوة ؛ فهو لا يولى أي اعتبار للحياة البشرية، أو تعاطف مع المعاناة الإنسانية ، فهلك الملايين من أبناء المدن في حروبه ؛ وشاهد ملايين القرويين حقولهم وبساتينهم وقد استحالت خرابا . لقد كانت امبراطوريته ترتكز على دعامات البؤس الإنسانى[١٧] .

١٢٢٧م : استخلاف أوغوداي

أتاحت وفاة الغازى الكبير فرصة من الراحة للعالم الخارجي ، إذ انقضت سنتان تقريبا قبل تسوية الإستخلاف على الإمبراطورية . وتقضى الأعراف المغولية بحق أكبر الأبناء وذريته في الاستخلاف على الإمبراطورية ، وبحق أصغر الأبناء في الإحتفاظ بأراضى الوطن فى دعوة المؤتمر (كوريلتاي) الذي يصدق على الإستخلاف . وخالف جنكيزخان تلك الأعراف وسمّى ابنه الثالث أوغوداي وريثا للسلطة العليا، متخطيا

Kievan Russia, pp. 236-9. ويعلق تاريخ نوفجورود *The Novgorod Chronicles* (ed.Nasonov), p. 63 بأن الله وحده يعلم من أين أتى التتار وإلى أين ذهبوا

(١٧) يرد موجز جيد عن شخصية جنكيزخان في. Martin, *op. cit.* pp. 1-10

بذلك أكبر أبنائه يوحي الذي حامت الشكوك حول شرعيته ، فضلا عن أن سجله العسكري والإداري لم يكن مرضيا . وكان ابنه الثاني باحاتاي جنديا يتقد ذكاء ، لكن طباعه كانت من الحميّة والإندفاع بحيث تحول دون أن يكون حاكما مقتدرا . أما أوغوداي ، وبرغم كونه أقل في مواهبه البادية ، فقد ظن جنكيزخان أن لديه من الصبر والمهارة ما يساعده على التعامل مع أخويه وأتباعه . وربما كان أصغر الأبناء تولوي أقدر الإخوة لولا أن أعاقه ما اعتاد عليه من الإنغماس في ملذاته . وباعتباره الأمير المسؤول عن استدعاء المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد ، فقد كان الشخصية المحورية في حسم الاستخلاف ، وحث زعماء القبائل على تنفيذ رغبات جنكيزخان . وأصبح أوغوداي الخان الأعلى ، وخصصت لأقاربه أملاك ضخمة ، وحصل إخوة جنكيز خان على المقاطعات الشرقية المحيطة بنهر أمور وغيرها في منشوريا، واحتفظ تولوي "بأراضي الوطن" الواقعة على نهر أونون . وكان الميراث الشخصي لأوغوداي أراضي كيرات ونايمان السابقة ، وورث باحاتاي مملكتي أوغور وكارا خيتان . ومُنح أبناء يوحي المتوفى ، باتو وأوردا وشيبان ، المقاطعات الشرقية الممتدة حتى الفولجا . على أنه في الوقت الذي سُمح للأمراء بممارسة الحقوق المطلقة على رعاياهم ، كان عليهم أن يطيعوا قانون المغول الإمبراطوري ، وأن يقبلوا القرارات الصادرة من حكومة الخان الأعلى التي أقامها أوغوداي في كاراكورام . إن وحدة الإمبراطورية المغولية لم تُصب بأذى[١٨] .

عندما عاد جنكيز خان وجيوشه إلى منغوليا غادر جلال الدين الخوارزمي ملجأه في الهند وجمع حوله البقايا الكبيرة المتبقية من جيوش أبيه . واستُقبل في فارس بالترحيب على أنه المحرر من المغول ، وبحلول عام ١٢٢٥م غدا سيد الهضبة الفارسية وأذربيجان ، وبحلول عام ١٢٢٦م أصبح السيد الأعلى في بغداد . وبتهديد مملكته للأيوبيين ، كان بمثابة عامل مفيد من عوامل السياسة الفرنجية في سوريا ؛ بيد أن المسيحيين الأبعد في الشمال وجدوا فيه جارا أسوأ حتى من المغول . إذ غزا جورجيا عام ١٢٢٥م ، فأرسلت العاهلة الجورجية روسودان أخت جورج الرابع -وهي ملكة غير متزوجة وإن لم تكن عذراء- جيشا لمقلاقاته . غير أن زهرة الفرسان الجورجيين كانت قد سقطت قبل ذلك بأربع سنوات في خوناني ، فكانت هزيمة جنودها مهمة يسيرة في جارني على حدودها الجنوبية . وأثناء فرار الملكة نفسها إلى كوتايس ، احتل جلال الدين عاصمتها

(١٨) أنظر Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 284-91.

تفليس وخربها وضم وادى نهر كور كله . وحاول الجورجيون عام ١٢٢٨م استعادة مقاطعاتهم المفقودة ، لكن المحاولة انتهت بكارثة ، إذ انكمشت المملكة الجورجية واقتصرت على أراضيها المطلة على البحر الأسود ؛ و لم تعد ذات قيمة كمخفر شمالي شرقي للعالم المسيحي ، ولا كفوة تستطيع تحدى قبضة المسلمين على آسيا الصغرى(١٩).

ولم يمض وقت طويل حتى عاد المغول إلى الغرب . وكان عليهم أولا قمع ثورة صينية في شمال الصين . على أنه في أوائل عام ١٢٣١م ، ظهر جيش مغولي ضخم في فارس بقيادة خورماكان ، وساعدته ذكرى الغزو المغولي السابق مساعدة جيدة ؛ فلم يجد مقاومة في مسيرته من خراسان إلى أذربيجان ، إذ هرب جلال الدين أمامه ، لكي يموت ميتة غامضة في كردستان . وتبعه جنوده الخوارزميون في فراره ، وأعادوا تجميع أنفسهم في الجزيرة حيث ابتعدوا مؤقتا عن حشود المغول ؛ ومن هناك عرضوا على الأيوبين المتشاحنين أن يستأجروهم ، إلى أن تم القضاء عليهم في نهاية الأمر بالقرب من حمص عام ١٢٤٦م . وضم خورماكان شمال فارس كله وأذربيجان إلى الإمبراطورية المغولية ، وظل من عام ١٢٣١م إلى ١٢٤١م يحكم المقاطعة من معسكرفي موغان بالقرب من بحر قزوين . وفي ١٢٣٦م غزا جورجيا ؛ وكانت الملكة روسودان قد أعادت احتلال تفليس بعد سقوط جلال الدين ، لكنها هربت ثانيةالى كوتيس ، واستولى المغول على شرقي جورجيا . وبعد انتهاء فظائع الغزو ، كان الجورجيون يفضلون المغول كثيرا على الخوارزميين نظرا لكفاءة إدارتهم . وفي ١٢٤٣م ، أصبحت الملكة نفسها تابعة لهم على فهم أن المملكة الجورجية كلها من المقرر منحها لإبنها ليحكمها تحت السيادة المغولية(٢٠).

الغزو المغولي لأوروبا

كان المسيحيون في المناطق الشمالية الأبعد أقل ارتياحا . وفي ربيع ١٢٣٦م تجمع

---

(١٩) أنظر ترجمة حياة جلال الدين التي كتبها أمين سره الناصر(an-Nasair (ed. Houdas ، في أماكن مختلفة؛ Browne, *op.cit.* ii, pp.447-50. وانظر d'Ohsson, *Histoire des Mongols*, i, pp. 255 - 9,306. وعن انهيار جورجيا أنظر *Georgian Chronicle* (ed. Brosser), i, pp. 324-31.

(٢٠) Browne, *op. cit.*, ii, pp. 449-50; d'Ohsson, iii, pp. 65-6; *Georgian Chronicle*, i, p. 343

حيش مغولي ضخم شمال بحر الآرال بقوده باتو ، إبن يوحي ، الذي كانت أملاكه تتضمن تلك السهول. وكان مع باتو إخوته وأربعة من ابناء عمومته هم حويوك وقادان، إبنا أوغوداي ، وبايدار بن ياحاتاي ، ومونغكا بن تولوي . أما القائد المسِن سوبوتاي فكان رئيسا للأركان. وبعد أن أخضع الجيش المغولى القبائل التركية على الفولجا ، زحف على الأراضى الروسية في خريف ١٢٣٧م، وفي ٢١ ديسمبر شن هجوما على ريازان واستولى عليها ، وقُتل أميرها وسكانها جميعا ؛ وبعد أيام قلائل سقطت كولومنا ، وفي وقت مبكر من العام الجديد هاجم المغول مدينة فلاديمير العظيمة التي لم تصمد سوى ستة أيام ، ولدى سقوطها يوم ٨ فبراير ١٢٣٨م حدثت مذبحة أخرى بالجملة . ونهبت سوزدال في نفس الوقت تقريبا ، وأعقب ذلك احتلال وتدمير المدن الثانوية في وسط روسيا ، موسكو و يوريف و حاليش و بيريسلاف و روستوف و ياروسلافل . وفي ٤ مارس هُزِم وقُتل امير فلاديمير ، يوري العظيم ، على ضفاف نهر سيتي ، وبعد المعركة مباشرة سقطت تفير و تورزهوك ، وتقدم الغزاة على تلال فالداي باتجاه نوفغورود ، ولحسن حظ تلك المدينة هطلت أمطار الربيع وأغرقت الآحام والأدغال المحيطة بها من كافة نواحيها ، فانسحب باتو لتمضية ما تبقى من العام في سحق المقاومة الأخيرة للكيبشاك ، بينما هزم ابن عمه مونفكا قبائل ألان والقبائل القوقازية الشمالية ، ثم قام بغارة استكشافية وصل فيها حتى كييف.

وفي خريف ١٢٤٠م قاد باتو الجيش المغولي الرئيسي داخل أكرانيا . وخُربت مدينتا شيرنيجوف وبيريسالفل ، وتم الإستيلاء على كييف يوم ٦ ديسمبر بعد أن دافعت عن نفسها دفاعا باسلا . ودُمّر الكثير من أعظم كنوزها ، وقُتل أغلب سكانها على الرغم من الإبقاء على حياة قائد حاميتها ، دميتري ، لما أبداه من شجاعة أعجب بها باتو ومن كييف ، زحف حزء من الجيش بقيادة بايدار بن ياحاتاي شمالا إلى داخل بولندا مخربا ساندومير وكراكاو . واستنجد الملك البولندى فرسان التيوتون الذين كانوا مستقرين على الساحل البلطيقي . وفى ٩ ابريل ١٢٤١م دارت معركة شرسة في والستاد بالقرب من ليغنيتز ، احتثت فيها شأفة الجيوش المشتركة لفرسان التيوتون والملك البولندي . غير أن بايدار لم يغامر بالتوغل أكثر من ذلك غربا ، فخرب سيليسيا، ثم اتجه جنوبا خلال مورافيا إلى داخل هنجاريا.

وفي تلك الأثناء عبر باتو و سوبوتاي إلى حاليكيا ، يدفعان أمامهما قطعان الفارين

المرعوبين من كل الأقوام في السهوب. وفي فبراير ١٢٤١م عبرا جبال الكاربات[٢١] إلى داخل وادي هنجاريا . وخرج الملك بيلا على رأس جيشه لملاقاتهم وهُزم هزيمة مأساوية يوم ١١ ابريل بجوار جسر موهي على نهر سايو . وتدفق المغول على هنجاريا إلى داخل كرواتيا ومضوا حتى شواطئ البحر الأدرياتيكي . ومكث باتو نفسه بضعة أشهر في هنجاريا التي يبدو أنه كان يرغب في ضمها إلى الإمبراطورية المغولية . بيد أن الرسل جاءت في ١٢٤٢م بنبأ وفاة الخان الكبير أوغوداي في كاراكورام يوم ١١ ديسمبر ١٢٤١م[٢٢].

ولم يكن بوسع باتو أن يظل بعيدا عن منغوليا في الوقت الذي يتقرر فيه الإستخلاف ؛ إذ أنه أثناء الحملة الروسية تشاجر شجارا مريرا مع اثنين من أبناء عمومته هما جويوك بن أوغوداي وبوري حفيد ياغاتاي ، وقد انسحب كلاهما في غضب إلى الوطن . وأظهر أوغوداي مناصرته لباتو ضد إبنه الذي أرسله مخزيًا إلى المنفي. على أن جويوك ، باعتباره أكبر أبناء الخان ، كان ما يزال قويا . وعين أوغوداي كخليفة له حفيده شيريمون الذي قُتل أبوه كوشو في الحرب مع الصينيين . ومع ذلك ، كان شيريمون صغيرا غير ذي تجربة ، ولذا تولت الوصاية أرملة أوغوداي ، توراجينا خاتون ، الأميرة النايمانية بالميلاد ، وعقدت العزم على أن يعتلي جويوك العرش . واستدعت المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد ، على أنه برغم الإعتراف بسلطتها إلى حين تعيين خان عظيم جديد ، فقد مرت خمس سنوات دون أن تتمكن من إقناع الأمراء الأقارب وزعماء القبائل بقبول جويوك ، وتولت إدارة الحكومة خلال تلك السنوات الخمس . ولقد كانت ذات طاقة ونشاط لكنها كانت بخيلة . وبرغم أنها كانت مسيحية بالميلاد ، إلا أنها قربت إليها مسلما هو عبد الرحمن الذي اتهمته الشائعات بالتعجيل بموت أوغوداي . وتسبب فساده وجشعه في أن أصبح مكروها من الجميع ؛ غير أنه لم تتوفر لأحد السلطة الكافية للنيل من الوصاية[٢٣].

---

(٢١) المترجم Carpathian Mountains : ، سلسلة جبال في وسط أوربا تمتد الى الجنوب الشرقي من جنوب بولندا خلال الجمهورية التشيكية وأكرانيا الى شمال شرق رومانيا.

(٢٢) Bretscheider, op. cit. i, pp.308، من المصادر الشرقية، *Novgorod Chronicle,* pp.74-6. 285-8. وللإطلاع على رواية كاملة أنظر Strakosch-Grossman, *Der Einfall den Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242,* also Sacerdoteanu, *Marea Invazie Tatara si Sud-estul European*

(٢٣) عن وصاية توراجينا، . Grousset, *op. cit.* pp.303-6 أنظر Bar-Hebraeus (trans. Budge), pp. 410-11.

١٢٤٢م : المغول في آسيا الصغرى

لم يشأ باتو التورط في مغامرات فى الغرب إلى أن تأكد الإستخلاف . واحتفظ بحاميات في روسيا ، لكن وسط أوروبا كان في حالة من الهدوء . ولم يستمر تقدم المغول إلا في غربي آسيا حيث أرسلت الوصيّة قائدا يتصف بالنشاط والإقتدار يدعى بايشو ليكون حاكما لغرب آسيا.

وفي أواخر عام ١٢٤٢م غزا بايشو أراضى السلطان السلجوقى كيخسرو ، الذي كان آنذاك في الجزيرة يسعى إلى ضم أراض لا سيد لها بعد انهيار جلال الدين . وفي بداية الربيع سقطت إرزن الروم للمغول . وفي ٢٦ يونية ١٢٤٣م هُزم جيش السلطان فى صدغ بالقرب من إرزنجان، وتقدم بايشو إلى قيصرية-مازاكا ؛ فاستسلم كيخسرو وقبل السيادة المغولية ، وسارع جاره هيثوم ملك أرمينيا فى أن حذو حذوه[٢٤].

وربما كان متوقعا أن يخطط أمراء العالم المسيحى الغربي للترتيب لعمل متناسق ضد هذا الخطر المرعب . وقد سبق في عام ١٢٣٢م ، عندما دمّر خورماكان القوة الخوارزمية في فارس، أن أرسل الحشاشون مبعوثين إلى أوروبا لتحذير المسيحيين وطلب المساعدة بعد أن بات مقرهم الرئيسي في ألموت في الجبال الفارسية مهددا[٢٥]. وفي ١٢٤١م ، عندما بدا مصير أوروبا الوسطى محتوما ، حث البابا جريجوري التاسع على إنشاء تحالف كبير لإنقاذها . غير أن الامبراطور فريدريك، الذي كان الآن منهمكا في إخضاع الدويلات البابوية في إيطاليا ، رفض التحول عن موقفه . وأمر ابنه كونراد ، باعتباره حاكما لألمانيا ، بتعبئة الجيش الألماني ، وناشد ملكي فرنسا وانجلترا لتقديم المساعدة[٢٦]. وعندما انسحب المغول إلى روسيا في العام التالي عاد العالم المسيحى الغربي إلى أوهامه . إذ ساعدت أسطورة القس جون على انتشار عقيدة تكاد تكون رؤيويّة تركت أثرا فائقا بأن الخلاص قادم من الشرق . ذلك أن أحدا لم يتأن ليتدبر أنه

---

(٢٤) Ibn Bibi (ed. Houtsma), iv, pp. 234-47; Bar-Hebraeus (trans. Budge), pp. 406-9; Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale* (Douai edition), xxx, pp. 147, 150. See Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 694-6

(٢٥) See Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxiii, pp. 238 ff..

(٢٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, v, pp. 360-841, 921-85) سلسلة من الخطابات حول الخطر التتري.)

إذا كان وانج-كان الكيراتى هو القس حون، فمن غير المحتمل أن يقوم الذى قضى عليه بنفس دوره. فكان كل فرد يفضّل تذكر أن المغول حاربوا المسلمين وأن أميرة مسيحية تزوحت أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية . وإن لم يكن خان المغول الأعظم مسيحيا؛ إنهم كانوا يأملون أن يتلهف إلى أن يكون نصيرا للأيديولوجية المسحية ضد قوى الإسلام . إن وحود مثل هذا الحليف المحتمل شديد البأس في الخلفية الشرقية حعل اللحظة تبدو مؤاتية لحملة صليبية حديدة ؛ وكان هناك صليبيا مهيّأ في المتناول[٢٧].

(٢٧) Pelliot, *loc. cit.*; Marinescu, 'La Prêtre Jean' in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine, vol.* x *passimé* Langlois, *La Vie en France au Moyen Age,* vol. iii, pp. 44'56.

الفصل الثانى:

القديس لويس

القديس لويس

"لا ينتفع الإنسان بكونه مَرضيًا عِند الله"
(أيوب ٣٤:٩)

في ديسمبر ١٢٤٤م أصيب ملك فرنسا لويس التاسع بمرض مؤنس بعدوى الملاريا. وبينا كان راقدا والموت منه قريب أقسم لإن شُفي لينطلقن في حملة صليبية. وأنقذت حياته ؛ وما أن استرد صحته حتى بدأ في ترتيباته . والملك الآن في الثلاثين من عمره ، طويلا واهن البنية أشقر الشعر والبشرة، يعانى دائما من مرض الحمرة والأنيميا، لكن شخصيته لم تفتقر إلى القوة قط . وقليل من الجنس البشرى كله كان على مثل هذا الورع المخلص الواعي . وكملك شعر بأنه مسؤول أمام الرب عن رفاهية شعبه ؛ ولم يسمح لأي أسقف ، ولا حتى للبابا نفسه ، بأن يقف بينه وبين هذا الواجب . وكانت مهمته أن يوفر حكومة عادلة . وبرغم احترامه المرتاب لحقوق أتباعه الاقطاعية كان ينتظر منهم أن يقوموا بدورهم ، وإذا ما فشلوا في ذلك قلّص سلطاتهم ولم يكن في ذلك مبتدعا. وبفضل هذا الالتزام الصارم فاز بالإعجاب حتى من أعدائه ؛ وزاد من إعجابهم ما كان له من ورع شخصى وتواضع وتقشف مشهود . وكانت نظرته إلى الوفاء بالعهد نظرة سامية، فلم يُخلف وعدا قط. ولم تكن لديه رحمة إزاء الآثمين؛ وكان صارما، بل قاسيا، في معاملاته مع الهراطقة والكفرة . وكان أصدقاؤه يجدون في حديثه

سحرا وسخرية رقيقة ، لكنه كان يتناءى عن وزرائه وأتباعه ؛ وكان إزاء أصفاله سيدا مستبدا . وكانت مليكته مرجريت البروفانسية فتاة تتصف بالمرح وبروح الإستعلاء ، لكنه روضها وأحال سيرتها إلى ما يناسب زوجة قديس(١).

وفي ذلك العصر ، عندما كانت الفضيلة تحظى بالإعجاب الكبير لكنها نادرا ما تتحقق، جاوز الملك لويس فى رفعته رفاقه العواهل . وكان طبيعيا أن تساوره الرغبة في الذهاب في حملة صليبية ؛ ولقي امتثاله الواقعي للحركة تقديرا تشوبه البهجة . وكانت الأحوال في مسيس الحاجة إلى حملة صليبية . وفي ٢٧ نوفمبر ١٢٤٤م ، وبعد كارثة غزة مباشرة ، أبحر جاليران أسقف بيروت من عكا ليخبر أمراء الغرب ، نيابة عن بطريق القدس روبرت ، بحتمية إرسال التعزيزات وإلا فسوف تهلك المملكة كلها . وفي يونية ١٢٤٥م ، عقد البابا إينوسنت الرابع ، بعد أن أخرجته قوات الامبراطور من إيطاليا، مجلسا في مدينة ليون الإمبراطورية لمناقشة كيفية كبح جماح فريدريك ؛ انضم اليه هناك الأسقف جاليران وكذلك ألبرت بطريق أنطاكية . وكان إينوسنت قد شعر بعض الإساءة عندما طلب من لويس التغاضى عن كل أعماله المضادة للإمبراطور ، ورفض لويس طلبه هذا بوازع من ضمير؛ غير أن البابا عندما علم بما أبلغه به أسقف بيروت جاليران من أحوال الشرق الباعثة على القنوط ، أعلن في سرور تأييده لتعهدات الملك الصليبية ، وأرسل أودو ، الكاردينال-الأسقف في فراسّاتي للتبشير بحملة صليبية في سائر أنحاء فرنسا(٢).

استمرت ترتيبات الملك ثلاث سنوات . وفُرضت ضرائب غير عادية لتمويل الحملة، و لم يُستثن رجالُ الدين من دفعها مما أثار حنقهم . وكان لابد من تدبير أمر الحكم فى البلاد ، فعهد بالوصاية مرة أخرى إلى الملكة الأم بلانش ، التي ثُبت اقتدارها كحاكم أثناء الفترة العاصفة السابقة على بلوغ ابنها سن الرشد . وكانت هناك مشاكل خارجية يتعين تسويتها ، إذ ينبغى حث ملك انجلترا على الحفاظ على السلام(٣). وكانت العلاقات مع الامبراطور فريدريك حساسة بوجه خاص ؛ إذ فاز

---

(١) تتضح شخصية لويس بجلاء بيّن في التراجم التي كتبها عنه Joinville و William of Nangis و William of Saint-Pathus وهذا الأخير هو كاهن اعتراف الملكة مرجريت الذى . وكتب آخر ترجمة له ليبرر الحاقه بالقديسين.

(٢) Hefele-Leclercq, *Histoire des Concile,* v, 2, pp. 1635, 1651-3, 1655-61; *MS. of Rothelin,* pp. 566-7; Joinville, ed. Wailly, p. 37; William of Saint-Pathus, pp. 21-3; William of Nangis, R.H.F. vol. xx, p. 352.

(٣) Joinville, pp. 41-2; William of Nangis, *loc. cit.*; Powicke, *King Henry III and the*

لويس بعرفان فريدريك بالتزامه الحياد الصارم في الشجار بين البابوية والامبراطور ؛ لكنه هدد بالتدخل عام ١٢٤٧م عندما اقترح فريدريك على حلفائه مهاجمة شخص البابا في ليون. وفضلا عن ذلك ، فإن فريدريك هو والد ملك القدس الشرعى ، ولذا ليس من حق لويس دخول بلاده مالم يأذن له الملك كونراد ، ويبدو أن المبعوثين الفرنسيين دأبوا على إطلاع فريدريك اطلاعا كاملا بالحملة الصليبية المنتواة ، وأن فريدريك - الذى أعرب عن تعاطفه مع الحملة - نقل المعلومات إلى بلاط مصر . وكان لزاما العثور على السفن التي سوف تنقل الحملة إلى الشرق ، وبعد مفاوضات قليلة وافقت جنوا ومرسيليا على تقديم العون الضرورى . أما البنادقة ، الذين ساءهم بالفعل هذا المخطط الذي قد يعوق ترتيباتهم التجارية الطيبة مع مصر ، فقد زاد ذلك من عدائهم الدفين[٤].

١٢٤٨م : الملك لويس يبحر من إيجو-مورت

وأخيرا غادر الملك لويس باريس يوم ١٢ أغسطس ١٢٤٨م ، وفي اليوم الخامس والعشرين أبحر من إيجو-مورت قاصدا قبرص وبصحبته الملكة وأخوين من إخوته هما روبرت كونت أرتوا ، وتشارلز كونت أنجو . وتبعه اثنان من أبناء عمومته ، هيو دوق برجندى ، وبطرس كونت بريتاني ، وكان كل منهما قد اشترك فى حملة صليبية عام ١٢٣٩م ؛ وهيو العاشر (أوف لوسينان) ، كونت لا مارش ، وزوج أم الملك هنرى الثالث ، الذي كان شابا في الحملة الصليبة الخامسة ؛ ووليم (أوف ديامبير) ، كونت فلاندرز ؛ وجوى الثالث كونت سانت بول ، الذى شارك أبوه في الحملتين الثالثة والرابعة ؛ وجون كونت ساربروك ؛ وابن عمه المؤرخ جون (أوف جوانفيل John of Joinville)، وقهرمان شامباني ، والكثير من ذوى الشأن الأقل . وأبحر البعض منهم من إيجو-مورت ، والبعض الآخر من مرسيليا . واستأجر المؤرخ جوانفيل وابن عمه - ومع كل منهما تسعة فرسان - قاربا من الميناء الأخير[٥].

وانطلقت في أثرهم مباشرة كتيبة انجليزية بقيادة وليم ، إيرل سالزبرى ، وهو حفيد

Lord Edward, i, p. 239.

(٤) Hefele-Leclercq, *op. cit.* v, 2, pp. 1681-3. Al-Aïni, p. 201, يقول إن فريدريك حذّر السلطان

(٥) Joinville, pp. 39-40, 43-6; Matthew Paris, v, pp. 23-5.

هنرى الثاني و(فير روزاموند) . وخطط لوردات انجليز آخرون للإنضمام إلى الحملة الصليبية ، لكن هنرى الثالث لم يشأ أن يفقد خدماتهم ، ولذا رتّب أن يحول البابا دون مرورهم . وجاء من اسكتلندا باتريك ، إيرل دونبار ، الذي مات في رحلته إلى مرسيليا(٦) .

وصل الأسطول الملكى ميناء ليماسول يوم ١٧ سبتمبر ؛ وهبط الملك والملكة إلى البر في الصباح التالى . وخلال الأيام القليلة التالية تجمّع جنود الحملة الصليبية في قبرص. وبالإضافة إلى نبلاء فرنسا جاء من عكا السيد الأعظم القائم بالأعمال لنظام فرسان المعبد ، وبارونات سوريون كثيرون ، واستقبلهم هنرى ملك قبرص جميعا بحفاوة ودودة(٧) .

عندما نوقشت خطة الحملة وافق الجميع على أن تكون مصر هي المستهدفة . فهى أغنى مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية وأيسرها اقتحاما ؛ وتذكروا كيف أن السلطان أثناء الحملة الصليبية الخامسة كان على استعداد لمبادلة القدس نفسها بدمياط . وعندما اتّخذ القرار أبدى لويس رغبته في أن تبدأ العمليات على الفور ، لكن سادة الأنظمة الدينية العسكرية والبارونات السوريين أثنوه عن عزمه ، إذ سرعان ما سوف تبدأ العواصف الشتوية ، ومن الخطورة الإقتراب من ساحل الدلتا بضفافه الرملية الخؤونة وندرة موانيه. وفضلا عن ذلك، كانوا يأملون فى اقناع الملك بالتدخل في نزاعات الأيوبيين العائلية ؛ ذلك أنه في صيف ١٢٤٨م طرد صاحب حلب الناصر يوسف ابن عمه الأشرف موسى من حمص ، فاستنجد الأمير المخلوع بالسلطان أيوب الذي جاء من مصر وأرسل جيشا لإستعادة حمص ، وكان فرسان المعبد قد بدأوا فعلا فى التفاوض مع السلطان ، مقترحين عليه أن يتخلى عن بعض الأراضى لقاء مساعدات اضافية من الفرنج . على أن الملك لويس لا شأن له بهذه المخططات . إذ أنه قد جاء ، كشأن الصليبيين الزائرين في القرن الماضى ، لمحاربة الكفرة لا للخوض في الدبلوماسية . وأمر فرسان المعبد بقطع مفاوضاتهم(٨) .

---

(٦) Matthew Paris, iv, pp. 628-9, v, pp. 41, 76.

(٧) Joinville, pp. 46-7; *Gestes des Chiprois*, p.147.

(٨) Joinville, pp. 47, 51, 52; William of Nangis, pp. 367-9; Abu'l Feda, p. 125; Maqrisi, x, pp. 198-9.

١٢٤٥-١٢٤٧م : بعثة (بيان دل كاربين) إلى منغوليا

إن الهواجس التى منعت الملك من أن يتفق مع أى مسلم لم تنطبق على المغول الوثنيين. وكانت لديه سابقة يحذوها . ففى عام ١٢٤٥م استكمل البابا إينوسنت الرابع جهوده الرامية إلى انقاذ العالم المسيحى في الشرق الأدنى بأن أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الأعظم في منغوليا . وغادرت ليون في ابريل من ذلك العام إحدى البعثتين برئاسة الفرنشيسكاني حون (أوف بيان دل كاربين) ، وأمضت خمسة عشر شهرا في رحلتها عبر روسيا وسهوب أواسط آسيا إلى أن وصلت في أغسطس ١٢٤٦م إلى المعسكر الإمبراطورى في سيرا أوردو القريب من كاراكورام في الوقت المناسب لتشهد المؤتمر (كوريلتاي) الذي انتخب جويوك ووضعه على قمة السلطة . وكان لدى جويوك الكثير من النساطرة ضمن مستشاريه ، فاستقبل البعثة البابوية استقبالا طيبا . بيد أنه عندما قرأ رسالة البابا التي تطالبه بقبول المسيحية ، كتب ردا يأمر فيه البابا بالإعتراف بسيادته والحضور مع جميع أمراء الغرب لتقديم فروض الولاء والطاعة . ولدى عودة حون (أوف بيان دل كاربين) إلى البلاط البابوى في نهاية عام ١٢٤٧م ، سلّم البابا ذلك الخطاب المثبّط وتقريرا مفصّلا أوضح فيه أن المغول لا هم لهم سوى الغزو[٩]. على أن إينوسنت لم يكن ليترك أوهامه تذهب كلية أدراج الرياح ؛ فانطلقت سفارته الثانية برئاسة آسلين اللومباردي الدومينيكاني بعد ذلك بقليل وارتحلت عبر سوريا ، حيث قابل القائد المغولي بايشو في مايو ١٢٤٧م في تبريز . ووجد آسلين في شخص بايشو رجلا عدوانيا مقيتا ، لكنه كان على استعداد لمناقشة إمكانية التحالف ضد الأيوبيين . فخطط للهجوم على بغداد ، وسوف يناسبه أن تتولى حملة صليبية تشتيت انتباه مسلمى سوريا . وأسل مبعوثين مع آسلين في عودته إلى روما هما آيبج وسركيس، ويقينا كان ثانيهما نسطوريا، ورغم افتقارهما إلى سلطات التفويض المطلقة، فقد انتعشت آمال الغرب مرة أخرى . ومكثا مع البابا نحوا من عام . وفي نوفمبر ١٢٤٨م طُلب منهما العودة إلى بايشو يحملان الشكوى من أنه ليس هناك شئ يتخذ حول التحالف[١٠].

وأثناء أن كان الملك لويس في قبرص جاءه في نيقوسيا اثنان من النساطرة في ديسمبر ١٢٤٨م هما مارك وداود ، وقالا إنهما مرسلان من القائد المغولي أليغيداي ،

---

(٩) See Pian del Carpine, *Historia Mongolorum* (ed. Pulle), لرواية كاملة عن هذه السفارة, esp. pp. 115 ff. Guyuk's letter is given *ibid.* pp. 125-6.

(١٠) See Pelliot, "les Mongols et la Papauté", *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxviii, pp. 112,131.

وهو المفوض على الموصل من قبل الخان الأعظم . وأبرزا رسالة تتحدث بإسهاب مفرط عن تعاطف المغول مع المسيحية ، مما أدخل البهجة على لويس فأرسل على الفور بعثة من الدومينيكانيين يرأسها أندرو (أوف لونييمو) وأخوه ، وكلاهما يتحدث العربية . وكان أندرو في الواقع هو وكيل البابا الرئيسي في المفاوضات التي جرت مؤخرا مع القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح . وحملت البعثة معها نموذجا لكنيسة، كهدية تلائم رحّال بدوى متحول إلى المسيحية ، وبعض الآثار الدينية لمذبحها ، وهدايا أخرى دنيوية. وغادر أفراد البعثة قبرص في يناير ١٢٤٩م قاصدين معسكر أليغيداي الذي أرسلهم إلى منغوليا . وبوصولهم إلى كاراكورام وجدا أن جويوك قد مات وأرملته أوغول كايميش تقوم بأعمال الوصاية . وكانت كريمة مع البعثة ، لكنها اعتبرت هدايا الملك مجرد إتاوة من تابع لسيد ، بينما حالت مشاكل الأسرة الحاكمة في الوطن دون أن ترسل حملة كبيرة إلى الغرب ، وإن توفرت النيّة لديها . وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بلاشئ سوى خطاب من سيد أعلى شكرت فيه الوصية تابعها لما أبداه من انتباه وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل سنة . وذهل لويس من هذا الرد ، غير أنه كان لا يزال يعلق الآمال على التوصل إلى تحالف مغولي يوما ما(١١).

وهكذا ، فإن إقامة الحملة الصليبية في قبرص لم يكن لها أثر سياسى . وكان الملك لويس قبل ذلك بنحو عام قد أرسل الوكلاء لجمع الطعام والأسلحة للجيش ؛ وقد تحققت المهمة الأخيرة على نحو مفيد ، غير أن هيئة المهمات الحربية (الكوميسارية) لم تكن تتوقع أن تُطعِم تلك الأفواه الكثيرة لأكثر من شهر أو شهرين . ومع ذلك ، لم تستطع الحملة عمليا الإبحار لغزو مصر قبل شهر مايو ١٢٤٩م . وعندما حل الربيع ، طلب لويس من المستعمرات التجارية الإيطالية المحلية تزويده بالسفن ، وعارض البنادقة الحملة الصليبية برمتها ولم يقدموا المساعدة المطلوبة . وفي شهر مارس بدأت حرب صريحة بين أبناء جنوا وأبناء بيزا بطول الساحل السورى ، ووقعت أسوأ نتائجها على أبناء جنوا الذين يعلق عليهم لويس جُل اعتماده . وتدبر جون الإيبلينى ، لورد أرصوف، بعد حوالى ثلاثة أسابيع إقناع المستعمرتين بالتوقيع على هدنة تستمر ثلاث سنوات . وبنهاية شهر مايو أمكن توفير السفن التي تحتاجها الحملة الصليبية(١٢). وفي

---

(١١) Pian del Carpine, *op. cit.* pp.174-95. ومن المشكوك فيه ما إذا كان أليجيداي مخولا لإرسال سفارة . ويرد ذكر وصولها وكذلك سفارة لويس في Joinville, pp. 47-8, and *MS. of Rothelin*, p. 469 . ويصف Matthew Paris (v, pp. 80-87) شائعات تحول ملك التتار عن دينه بتهلل بالغ.('jocundissimi')

(١٢) Joinville, pp. 46-7; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 436-7, Matthew Paris, v, p. 70;

ذات الوقت كان لويس يستقبل الزائرين والسفارات في نيقوسيا ؛ إذ أرسل له هيثوم الأرميني هدايا نفيسة ؛ والتمس برهمند أمير أنطاكية الحصول على كتيبة من ستمائة من الرماة لحماية إمارته من قطاع الطرق التركمان وحصل عليها . وارتحلت إليه امبراطورة القسطنطينة، ماريا (أوف برين) اللاتينية ملتمسة العون ضد امبراطور نيقية اليوناني ، وأعرب لها لويس عن تعاطفه لكنه أخبرها أن الحملة الصليبية ضد الكفرة ينبغي أن تكون لها الأسبقية . وأخيرا ، وصل في شهر مايو وليم (أوف فيلهاردوين) أمير أخايا[١٣] مع أربع وعشرين سفينة وفصيلة من الفرنج من موريا (بولوبونيس). وكان دوق برجندى قد أمضى معه الشتاء في اسبرطة وحثه على الإنضمام إلى الملك . وكان الجيش الذي تجمّع في قبرص يتزايد حجمه على نحو مهول . غير أن جوانب المتع التى تزخر بها الجزيرة اللطيفة قد أوهنت من معنوياته ؛ وكادت أن تنفد مخزونات الطعام التى كان مقررا أن تكفي الحملة على مصر[١٤].

١٢٤٩م : الحملة الصليبية تصل أمام دمياط

في ١٣ مايو ١٢٤٩م كان هناك أمام ميناء ليماسول أسطول من مئة وعشرين ناقلة كبيرة والكثير من السفن الأصغر ، وبدأ الجيش يصعد على ظهرها . ولسوء الحظ ، هبت عاصفة بعد أيام قلائل بعثرت السفن ؛ وعندما أبحر الملك نفسه يوم ٣٠ مايو لم يبحر معه سوى ربع جيشه ، وأبحر باقي الجيش بصورة مستقلة قاصدا الساحل المصرى. ووصل الأسطول الملكي أمام دمياط يوم ٤ يونية[١٥].

وكان السلطان أيوب قد أمضى الشتاء في دمشق راجيا أن يفرغ جنوده من الإستيلاء على حمص قبل أن يبدأ الغزو الفرنجى . وتوقع أول الأمر أن يهبط لويس في سوريا ، لكنه بعد أن تحقق من أن الهجوم يستهدف مصر ، رفع الحصار عن حمص وأسرع بنفسه إلى القاهرة وأصدر أوامره لجيوشه السورية أن تتبعه . وكان رجلا

William of Nangis, p. 368.

(١٣) المترجم : أخايا Achaea ، اقليم قديم شمال بولوبونيس أو شبه الجزيرة اليونانية

(١٤) Joinville, pp. 48-51; Vincent of Beauvais, pp. 1315 ff.

(١٥) Joinville, pp. 52-3; William of Nangis, pp. 370-1; *MS. of Rothelin*, p. 589; letter of Guy of Melun in Matthew Paris, v, pp. 155-6 ؛ ويقدر أبو الفدا Abu'l Feda, p. 126 قوام جيش الملك بأنه ٥٩٠٠٠ رجل

مريضا ، فى مرحلة متأخرة من مرض السل ، و لم يعد قادرا على قيادة جنوده بنفسه؛ فأمر وزيره المسن فخر الدين - صديق فريدريك الثاني - أن يقود الجيش الذي تقرر أن يقاوم الهجوم الفرنجى على أرض مصر ، وأرسل مخزونات المؤن إلى دمياط ووضع فيها حامية من رجال قبائل بنى كنانة ورجال من البدو اشتهروا بشجاعتهم . واتخذ قاعدته في أشمون طنّاح الواقعة إلى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل(١٦).

وعلى ظهر السفينة الملكية -مونتجوا- راح مستشارو الملك يتوسلون اليه انتظار وصول باقي ناقلاته قبل محاولة الهبوط إلى البر ، لكنه رفض التأخير . وفي فجر الخامس من يونية بدأ الهبوط بين أنياب العدو على الرمال الواقعة إلى الغرب من مصب النهر. ودارت معركة شرسة على نفس شاطئ البحر ؛ غير أن استبسال الجنود الفرنسيين والملك على رأسهم ، وشجاعة فرسان أوتريميه بقيادة جون الإبيليني كونت يافا، أجبر المسلمين على التقهقر بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة ؛ وبهبوط الظلام سحب فخر الدين رجاله وعبر جسر القوارب إلى دمياط التى وجد سكانها في حالة من الذعر والحامية تتخاذل ، فقرر إخلاء المدينة . وهرب معه كل السكان المسلمين ، وتبعهم بنو كنانة بعد أن أشعلوا النيران في الأسواق ، لكنهم أهملوا أوامره بتدمير جسر القوارب . وفي الصباح التالى علم الصليبيون من المسيحيين الذين بقوا في منازلهم أن دمياط بلا دفاع . فعبروا في انتصارهم الجسر ودخلوا المدينة(١٧).

١٢٤٩م : لويس في دمياط

ذهل الفرنج وابتهجوا من سهولة الإستيلاء على دمياط . لكنهم لا يستطيعون الآن متابعة انتصارهم ، إذ سرعان ما سيبدأ فيضان النيل . وكانت التجربة المريرة التي مرت بها الحملة الصليبية الخامسة ما تزال ماثلة في الأذهان ، ولذا رفض لويس التقدم إلى أن تهبط مياه النهر . وفضلا عن ذلك، كان ينتظر وصل التعزيزات من فرنسا بقيادة أخيه ألفونسو كونت بواتو . وفي ذات الوقت تحولت دمياط إلى مدينة فرنجية . ومرة أخرى،

---

(١٦) Maqrisi, x, pp. 200-1; Abu'l Feda, p. 126; Al-Aïni, p. 201.

(١٧) Joinville, pp. 53-8; William of Nangis, p. 371; *MS. of Rothelin* (letter of John Sarrasin), pp. 589-91; *Gestes des Chiprois*, pp. 147-8; Matthew Paris, v, (letter of Guy of Melum); Maqrisi, xiii, p. 203-4; Abu'l Feda, p. 126; al-Aïni, pp. 201'23é Abu Shama, ii, p. 195.

وكما حدث عام ١٢١٩م ، تحول الجامع الكبير إلى كتدرائية ونُصّب فيها أسقف . وخصصت المباني للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، والأملاك لأبرز لوردات مملكة ما وراء البحار (اوتريميه) ؛ وكوفئ أبناء جنوا وبيزا على خدماتهم بسوق وشارع لكل منهما ، أما البنادقة النادمين على اتخاذهم موقف عدائي فقد توسلوا للحصول على مكافأة مماثلة ، وأجيب سؤالهم . وعامل الملك لويس المسيحيين الوطنيين والقبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بعدالة حذرة ورحبوا بحكمه . وعندما كان الجيش في قبرص ، كانت الملكة قد أُرسلت مع سيدات الحملة الصليبية الأخريات إلى عكا ، والآن استُدعيت للإنضمام إلى الملك . كما رحّب لويس بصديق آخر بارز ، وإن كان قد بات معدما ، هو بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية ، الذي سبق أن زار لويس في باريس لجمع المال ، وباع للملك آثار "الآلام" التي بقيت من سلب الصليبيين للعاصمة الإمبراطورية . وطوال أشهر الصيف كانت دمياط عاصمة مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) . بيد أن الجنود قد وهنت عزائمهم بهذا الإسترخاء في رطوبة الدلتا الحارة ؛ وبدأ الغذاء يتناقص ، وأظلت الأمراض في المعسكر(١٨) .

صُدم العالم الإسلامي لضياع دمياط . غير أنه بينما تردد الفرنج ، أقدم السلطان المحتضر على خطوة . وكما فعل أبوه قبل ثلاثين سنة ، عرض على الفرنج أن يعطيهم القدس ثمنا لدمياط . ورفض العرض . ذلك أن الملك لويس كان لا يزال يرفض التعامل مع واحد من الكفرة ، وفى ذات الوقت عاقب أيوب القادة المسؤولين عن ضياع دمياط، فأعدم أمراء بنى كنانة ، وأُخزي فخر الدين وكبار قادة المماليك . وأراد المماليك القيام بتمرد في القصر ، لكن فخر الدين أثناهم عن عزمهم ؛ وحفظ له السلطان إخلاصه له . وهُرع الجنود إلى المنصورة التى سبق أن بناها السلطان الكامل في موقع انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة ، ومن هنا جاء إسمها . وحُمل أيوب نفسه إلى هناك على محفته ليشرف على تنظيم الجيش . وانطلق رجال حرب العصابات البدو في المناطق المحيطة ، وكانوا يتسللون حتى أسوار دمياط ، يقتلون الفرنج الشاردين خارجها . واضطر لويس إلى إنشاء السدود وحفر الخنادق لحماية معسكره(١٩) .

---

(١٨) *MS. of Rothelin*, pp. 592-4; Matthew Paris,vi,pp.160-1; *ibid.*iv, p.626 (Empror Baldwin's visit).

ويرد إبلاغ لويس بشأن كنيسة دمياط مطبوعا في Baluze, *Collectio Veterum Scriptorum*, iv, pp. 491-5.

(١٩) Al-Aïni,pp. 202-6.(Matthew Paris, v, p.89) وقُتل هيو لا مارش أثناء هذه الإشتباكات

وفى أكتوبر هبطت مياه النيل . وفى نفس الوقت تقريبـا، في ٢٤ أكتوبـر ، وصـل الأخ الثاني للملك، ألفونسو (أوف براتو) ومعه التعزيزات من فرنسا . لقد حان الوقت للتقدم نحو القاهرة . واقترح بطـرس البريتونى بتـأييد مـن بارونـات أوتريميـه أن الأكـثر حكمة مهاجمة الإسكندرية ، إذ سيفاجأ المصريون بهذه الحركـة ، ولـدى الصليبيـين مـا يكفى من السفن لعبور فروع النيل ، وباستيلائهم على الإسكندرية فإنهم يتحكمون في ساحل مصر المتوسطي كله ، وسوف يكون لزاما على السلطان أن يرضخ لما يملونه مـن شروط . بيد أن أخا الملك ، روبرت (أوف ارتوا) ، عارض هذا المشروع بحماس وأيـده الملك . وفي ٢٠ نوفمبر انطلق الجيش الفرنجى من دمياط بطول الطريق الجنوبى الذاهـب إلى المنصورة ، وبقيت حامية قوية في دمياط مع الملكة وبطريق القدس[٢٠].

وبدا الحظ مبتسما للملك لويس ؛ إذ أن السلطان أيوب الآن على فـراش المـوت ، ومات في المنصورة بعد ثلاثة أيام في الثالث والعشرين . لقد كان رجـلا عبوسـا منعزلا تعوزه البشاشة وسعة الأفق و حب العلم مما كان يتصـف بـه أغلـب أقربائـه . وكـانت صحته ضعيفة بصورة دائمة ؛ وربما تناءت به دماؤه السودانية على وعى منه، عـن بقيـة أسرته، التي لم تتخلط سلالتها الكردية . غير أنه كان حاكمـا مقتـدرا ، وآخـر الحكـام العظام في الأسرة الحاكمة الأيوبية العظيمة . وكان موته بمثابة كارثـة تهـدد المسـلمين ؛ إذ كان ابنه الوحيد تورانشاه بعيدا في الجزيرة واليا عليها . وجـاء إنقـاذ مصـر علـى يـد السلطانة الأرملة شجرة الدر الأرمينية المولد ، التى استأمنت الخصيّ جمال الدين ، الذي سيطر على القصر ، وكذلك فخرالدين ، وأخفت نبأ موت زوجها وزيّفت توقيعه علـى وثيقة بتعيين تورانشاه وريثا وفخرالدين قائدا عاما للجيش وواليا أثناء مرض السـلطان . وعندما تسرب نبأ موت أيوب في نهاية الأمر ، كانت السلطانة وفخرالدين قـد أحكمـا قبضتهما على السلطة ، وكان تورانشاه في طريقه إلى مصر . علـى أن الفرنـج تشـجّعوا لسماعهم النبأ ، وبدا لهم أن تلك الحكومة التى تسيطر عليها امرأة وقائد مسِن سـرعان ما ستنهار . فغذوا السير باتجاه القاهرة[٢١].

(٢٠) Joinville, pp. 64-5; Matthew Paris, vi, p. 161 (letter of Guy of Melun); ويـرد في المرجع السابق أخطاء في تواريخ أحداث الشتاء في فبراير (*ibid.* v, pp. 105-7, and p. 130); Maqrisi, xiii, p. 215.

(٢١) Maqrisi, xiii, pp. 208-15; Abu'l Feda, p. 127; al-Aïni, p. 207; *MS. of Rothelin*, p. 599; Matthew Paris, v, pp. 107-8.

١٢٤٩م : الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة

كان الطريق من دمياط تقطعه أعداد لا حصر لها من قنوات النيل وفروعه ، أكبرها البحر الصغير الذي يتفرع من النيل الرئيسى جنوب المنصورة مباشرة ويجرى مارا بأشمون-طنّاح إلى بحيرة المنزلة ، وبذا يعزل ما يسمى جزيرة دمياط . وأبقى فخرالدين أغلب قواته خلف البحر الصغير ، وأرسل الفرسان لإنهاك الفرنج أثناء عبورهم كل قناة، ولم تنجح أيّ من تلك المناوشات في صد تقدم الفرنج . وكان الملك لويس يتقدم تقدما بطيئا حذرا . وفي ٧ ديسمبر حدثت معركة بالقرب من فارسكور صُد فيها الفرسان المصريون ، وأصرّ فرسان المعبد على مطاردة الفارين تحديا لأوامر الملك إلى مسافة بعيدة للغاية ، وصادفتهم بعض المصاعب في الإنضمام إلى رفاقهم . وفي ١٤ ديسمبر وصل الملك بارامون ، وفي الحادي والعشرين ضرب جيشه معسكره على ضفة البحر الصغير التي تواجه المنصورة(٢٢).

مكث الجيشان يواجهان بعضهما عبر القناة الواسعة لستّة أسابيع . وحاول الفرسان المصريون العبور إلى الجزء الأسفل الجنوبي من جزيرة دمياط ، وهاجموا مؤخرة الفرنج ، لكن تشارلز (أوف أنجو) ردهم بالقرب من المعسكر. وفي تلك الأثناء أمر لويس ببناء سد يعبرون القناة من فوقه ، غير أنه على الرغم من بنائه سقائف لحماية العمال ، كان القصف المصرى من الضفّة المقابلة ، وخاصة باستخدام النيران الإغريقية، هائلا بحيث تم التخلّي عن بناء السد . وفي باكورة شهر فبراير ١٢٥٠م ، جاء إلى معسكر الملك قبطي من سلمون ، وعرض أن يكشف لهم عن مخاضة لعبور البحر الصغير لقاء حصوله على ٥٠٠ بيزنت . وفي فجر ٨ فبراير انطلق الصليبيون عبر المخاضة ؛ وبقى دوق برجندى مع قوات قوية للحفاظ على المعسكر ، بينما سار الملك لويس مع الجيش المتقدم وقاد أخوه روبرت (كونت أرتوا) المقدمة مع فرسان المعبد والكتيبة الإنجليزية ، وصدرت إليه أوامر صارمة بعدم مهاجمة المصريين إلى أن يأذن الملك . وتحقق العبور الصعب بنجاح ، لكنه كان بطيئا . وعندما وجد روبرت كونت أرتوا نفسه على الضفة الأخرى من البحر الصغير مع رجاله ، خشي أن يضيع عنصر المفاجأة ما لم يهاجم الأعداء في الحال . وحاول فرسان المعبد عبثا تذكيره بالتعليمات الصادرة إليه ، لكنه أصر على التقدم ووافقوا على المشاركة في الهجوم . وكان لإندفاعه

---

(٢٢) Joinville, pp. 69-70; *MS. of Rothelin*, pp. 597-8; Maqrisi, xiii, pp. 215-16; al-Aïni, p. 207.

ما يبرره . ذلك أن المصريين في معسكرهم ، خارج المنصورة بنحو عشرين ميلا ، كانوا يبدأون حياتهم اليومية عندما بوغتوا بخيالة الفرنج تزمجر في وسطهم فجأة ؛ وقتل الكثير من المصريين عندما هرعوا لأخذ أسلحتهم ، وهرب آخرون في نصف ملابسهم إلى حيث الأمان في المنصورة . وكان القائد العام فخرالدين قد خرج لتوه من الحمّام ، وكان خادمه الخاص يصبغ له لحيته بالحناء ، عندما سمع الهرج والمرج . ولم ينتظر حتى يشتمل بدروعه ، وإنما قفز على حواده وانطلق إلى قلب المعركة ، ووجد نفسه في وسط بعض فرسان المعبد الذين قطعوه إربا.

١٢٥٠م : معركة المنصورة

أصبح روبرت كونت أرتوا الآن سيد معسكر المصريين . ومرة أخرى ترجّاه السيد الأعظم لنظام المعبد الانتظار إلى أن يأتي الملك والجيش الرئيسي إلى المخاضة وينضما اليه ، وكذلك نصحه وليم (أوف سالزبوري) باتخاذ جانب الحيطة ؛ غير أن روبرت أصر على الإستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصرى ، ورمى فرسان المعبد والإنجليز بالجبن ، ثم نظّم صفوف رجاله وشن هجوما جديدا على المصريين الفارين ؛ ومرة أخرى شعر سيد فرسان المعبد ووليم بأن عليهما اللحاق به . على أنه بالرغم من موت فخرالدين ، تمكن القادة المماليك من إعادة النظام إلى جنودهم ؛ وتولى القيادة أقدرهم ركن الدين بيبرس وكنيته البندقدار أي "صاحب القوس"[٢٣] . ووضع رجاله في مواضع حساسة داخل المدينة ذاتها ، وترك فرسان الفرنج يتدفقون داخل البوابة المفتوحة. وعندما اندفع فرسان الفرنج إلى أسوار القلعة ذاتها وفرسان المعبد في ذيلهم ، خرج المماليك من الشوارع الجانبة وانقضوا عليهم كالصواعق . ولم تتمكن جياد الفرنج من الإستدارة بسهولة في الحيّز الضيّق وعلى الفور تبعثروا في فوضى عارمة . وتمكن فرسان قليلون من الهرب على الأقدام إلى ضفاف النيل ، لا لشئ إلا ليغرقوا في مياهه . وتمكن قليلون آخرون من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، بينما اشتبك فرسان المعبد في قتال الشوارع ؛ ولم يبق على قيد الحياة من قوامهم البالغ مائتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . واحتمى روبرت كونت أرتوا مع حرسه الخاص في أحد المنازل ، لكن المصريين سرعان ما اقتحموا المنزل وقتلوهم جميعا ومن بين الفرسان الذين سقطوا في

---

(٢٣) (المترجم): Arbalest or Arbalist: القوس القذوف: آلة فى العصور الوسطى لقذف السهام والحجارة وما إليها.

المعركة إيرل سالزبورى وأتباعه الأنجليز كلهم تقريبا ، ولورد كوسي ، وكونت بربن. وكان بطرس البريتونى معهم في المقدمة ، وأصيب بجرح في رأسه ، لكنه أفلح في الرهب من المدينة على ظهر جواد عائدا وأسرع ينذر الملك.

عبر الجيش الصليبى كله تقريبا البحر الصغير . وما أن علم الملك لويس بالكارثة حتى نظم صف دفاعه الأول على الفور لصد أي هجوم ، بينما أرسل مهندسيه لتشييد جسر من الزوارق على الممر المائي. وترك كتائب الرماة على الجانب الأبعد من القناة كي يغطوا إعادة العبور إذا اقتضت الضرورة، رغم أنه كان شديد التلهف على أن ينضموا إليه . وكما توقع ، سرعان ما خرج المماليك المنتصرون من المدينة وشنوا هجومهم على صفوفه ، وثبّت لويس رجاله يصدون الهجوم ، بينما أمطرهم الأعداء بسيول السهام المتساقطة على جنوده ؛ وما أن بدأت سهام المماليك في النفاد ، حتى أمر بهجوم مضاد. ورد فرسانه العرب ، لكنهم سرعان ما أعادوا تشكيل صفوفهم وأعادوا الهجوم بينما حاولت فصائل منهم تعطيل بناء جسر الزوارق، وكاد الملك نفسه أن يسقط في القناة من ضغط هجوم الأعداء لولا أن أنقذه هجوم مضاد آخر . وأخيرا اكتمل بناء جسر الزوارق باقتراب مغيب الشمس وعبر عليه الرماة من الجانب الآخر ، وجلب مجيؤهم النصر للملك . وانسحب المصريون مرة أخرى إلى داخل المنصورة؛ وضرب لويس معسكره في الموقع الذي كانوا يعسكرون فيه البارحة . وعندئذ فقط علم من القائم بأعمال السيد الأعظم لفرسان المستشفى بمقتل أخيه ، فانفجرت العبرات من مآقيه(٢٤).

لقد انتصر الصليبيون ، لكنه انتصار باهظ الثمن . ولو أن روبرت كونت أرتوا أحجم عن غارته تلك الطائشة ، لشعروا بأنهم من القوة بحيث يحاولون مهاجمة المدينة فيما بعد برغم أن آلات الحرب التى سوف تتصدى لهم أفضل حالا من آلاتهم . وهكذا لم يكن هناك ما يفعله الصليبيون ؛ وكان الوضع ينذر بالخطر ويذكّرهم بالحملة الصليبية الخامسة ، عندما توقف الجيش المسيحى الذى احتل دمياط في مكان قريب من نفس هذه البقعة وأُجبر على التقهقر في نهاية الأمر . ولم يكن لويس يمّنى النفس الآن بمصير أفضل من ذلك ، ما لم تحدث اضطرابات في البلاط المصرى قد تدفع الحكومة في القاهرة إلى أن تعرض عليه شروطا مقبولة . وفي ذات الوقت حصّن معسكره وعزز

---

(٢٤) Joinville, pp. 71-93; *MS. of Rothelin*, pp. 599-608; Matthew Paris, v, pp. 147-54m vi, pp. 191-3; al-Aïni, p.208.

حسر القوارب . وكان ذلك تصرفا حكيما؛ إذ بعد ثلاثة أيام هاجم المصريون مرة أخرى يوم ١١ فبراير بعد أن وصلتهم التعزيزات من الجنوب فغدوا أقوى مما كانوا عليه . ودارت رحى معركة من أشرس المعارك التي يذكرها رحال مملكة ما وراء البحار (اوتريميه) ؛ ذلك أن المماليك راحوا يشنون الهجوم تلو الآخر ، يطلقون سحبا من السهام في كل مرة يهجمون فيها ، ومرة أخرى يكبح لويس رحاله إلى أن تحين لحظة الهجوم المضاد . وصمد بثبات تشارلز (أوف أنجو) في الميسرة ، كما صمد بارونات سوريا وقبرص في يسار الوسط ، لكن بقايا فرسان المعبد والنبلاء الفرنسيين كانوا يتأرجحون في يمين الوسط ، واضطر الملك نفسه إلى إنقاذهم كي لا يفقد اتصاله بالميسرة . وكان السيد الأعظم وليم قد فقد عينا في المنصورة ، والآن فقد الأخرى ومات متأثرا بفقدها . وكان ألفونسو (أوف بواتو) يحرس المعسكر ناحية جناحه الأيمن، وحدث أن أحاط به المصريون ولم ينقذه سوى الطبّاخين والنساء من تابعات المعسكر . وأخيرا أُنهك المسلمون وانسحبوا فى نظام تام عائدين إلى المدينة[٢٥].

١٢٥٠م : تورانشاه يتولى قيادة المسلمين

وظل الملك لويس ينتظر في المعسكر أمام المنصورة لثمانية أسابيع ؛ ولم يحدث التمرد المصرى المأمول قط. وبدلا من ذلك وصل تورانشاه ، ابن السلطان الراحل ، إلى معسكر المصريين يوم ٢٨ فبراير . ذلك أنه ما أن سمع من زوجة أبيه بوفاة والده حتى غادر عاصمته دياربكر وسابق الريح إلى الجنوب . وأمضى ثلاثة أسابيع في دمشق حيث نودى به سلطانا ، ووصل القاهرة في أواخر فبراير . وكان وصوله إلى المنصورة بمثابة علامة على نشاط جديد للمصريين . وأمر بصنع أسطول من القوارب الخفيفة نُقلت على ظهور الإبل إلى منافذ النيل السفلى في المنطقة ، حيث انطلقت لتبدأ اعتراض السفن التي تجلب الطعام إلى معسكر الصليبيين من دمياط ، واستولى المصريون على أكثر من ثمانين سفينة فرنجية الواحدة تلو الأخرى ، وفي ١٦ مارس ضاعت قافلة من اثنتين وثلاثين سفينة في ضربة واحدة. وسرعان ما شعر الفرنج بتهديد المجاعة ، وفي أعقاب المجاعة أمراض الدوسنتاريا والتيفود[٢٦].

---

(٢٥) Joinville, pp. 93-5; *MS. of Rothelin*, pp.608-9.

(٢٦) Abu Shama, ii, p. 195; al-Aïni, p. 209; Maqrisi, xiii, pp. 220-4; Matthew Paris, vi, pp. 193-4; Joinville, pp. 102-4; *MS. of Rothelin*, pp. 609-12.

وفي بداية ابريل فهم الملك لويس أنّ عليه أن يبذل قصارى جهده لانتشال الجيش من عفن المعسكر والإنسحاب إلى دمياط . وأخيرا ، أخضع نفسه للتفاوض مع الكفرة، وأرسل إلى تورانشاه يعرض استبدال دمياط بالقدس(٢٧) لكن السيف كان قد سبق العذل . إذ عرف المصريون الآن مدى خطورة الوضع الذي يعانيه ؛ وعندما رفض المصريون العرض جمع الملك لويس ضباطه لمناقشة الإنسحاب ؛ فتوسلوا إليه أن يتسلل هو نفسه مع حرسه الشخصى إلى دمياط ، لكنه رفض في كبرياء أن يترك رحاله . وتقرر إرسال المرضى بالقوارب فى النيل ، وأن يمشى القادرون بطول الطريق الذي جاءوا من خلاله . وهُدم المعسكر صباح ٥ ابريل ١٢٥٠م وبدأت رحلة العذاب والملك في المؤخرة يشجّع المتفرقين . وشاهد المسلمون في المنصورة هذه الحركة فانطلقوا يتعقبونهم . ووجدوا الفرنج جميعا قد عبروا البحر الصغير ، لكن المهندسين فاتهم تدمير جسر القوارب ، فهرعوا يعبرونه وسرعان ما راحو يناوشون الفرنج من جميع الجوانب ؛ وطوال ذلك اليوم صد الصليبيون الهجمات أثناء تحركهم البطئ . وكانت شجاعة الملك نفسه تفوق كل ثناء . لكنه سقط مريضا تلك الليلة ، وفى الصباح التالى استطاع بجهد جهيد أن يثبت على جواده . وأثناء الحركة المتثاقلة في ذلك اليوم أغلق المسلمون الدائرة حول الجيش وهاجموا بكامل قواتهم ؛ ولم يحاول الجنود المرضى والمرهقون مقاومتهم إلاّ فيما ندر . لقد كان واضحا أن النهاية قد حلّت . وكان جيوفرى (أوف ساجين) يقود الحرس الشخصى الملكى ، وفى خضم القتال أخذ الملك إلى كوخ في قرية منية الخولى عبدالله الواقعة إلى الشمال مباشرة من شرمساح . وكان قبول الهزيمة فوق احتمال فرسان الفرنج ؛ فتولى بارونات أوتريميه القيادة وأرسلوا فيليب (أوف مونتفورت) للتفاوض مع الأعداء . وكاد فيليب أن ينجح في اقناع القادة المصرين بالسماح للجيش بالمضى في أمان مقابل تسليم دمياط ، لولا أن انطلق على جواده واحد من مساعدى الفرسان يدعى مارسيل بين صفوف المسيحيين - وقد رشاه المصريون على ما يُظن - صائحا في القادة باسم الملك أن يستسلموا دون شرط . وأطاعوا الأوامر التي لم يكن لويس نفسه يعرف عنها شيئا ، وألقوا أسلحتهم ، وأحيط بالجيش كله واقتيد في الأسر. وفي ذات الوقت تقريبا حوصرت السفن التى تحمل المرضى إلى دمياط وتم الإستيلاء

---

(٢٧) Matthew Paris: يتحدث ماثيو باريس عن عروض مبكرة للسلام عرضها السلطان ورفضها الملك بناء على نصيحة روبرت (اوف أرتوا)v, pp. 87-8, 105 أو بناء على نصيحة المندوب البابوى.v, p. 143ويرد عرض الملك لويس في . Joinville, pp. 106-7 ووصلت الى أوروبا شائعة بأن لويس قد استولى على القاهرة.(*ibid.* p. 118, vi, p.117)

عليها(٢٨).

١٢٥٠م : لويس في السجن

وتحير المصريون بادئ الأمر فى أمر أعداد أسراهم الغفيرة . ونظرا لإستحالة حراستهم جميعا، اعدموا على الفور من لم يقو على المشي من الضعف ، وظل المصريون على مدى أسبوع يأخذون كل مساء ثلاثمائة لتضرب أعناقهم بأوامر السلطان نفسه . ونقل الملك لويس من فراش مرضه وأودع مكبلا بالسلاسل في منزل خاص فى المنصورة . واحتفظ المصريون بزعماء البارونات معا في سجن كبير . ودأب آسروهم على تهديدهم بالقتل ، لكنهم في الواقع لم تتوفر لديهم النيّة لقتل أى فرد قد يفتدى نفسه بفدية كبيرة . وكان جوانفيل على ظهر إحدى السفن الأسيرة ، وأنقذ حياته وحياة رفاقه بأن جعل من المفهوم أنه ابن عم الملك ؛ وعندما استجوبه أمير البحر المصرى عن ذلك ، وعلم منه أن ذلك غير صحيح وانما هو في الواقع ابن عم الامبراطور فريدريك ، ارتفعت شهرته ارتفاعا كبيرا.

وواقع الأمر أن مهابة الامبراطور فريدريك، ذلك الكافر، فعلت الكثير للتيسير على الصليبيين . ذلك أنه عندما أمر السلطان لويس في سجنه التخلى لا عن دمياط فحسب وإنما عن كافة الأراضى الفرنجية في سوريا ، رد لويس بأنها ليست تابعة له وانما للملك كونراد ابن الامبراطور ، وأن الامبراطور وحده هو الذي يستطيع التخلى عنها . ولذا سحب المصريون الإقتراح على الفور . على أن الشروط التي انتزعوها من الملك كانت قاسية للغاية ؛ إذ كان عليه أن يفتدى نفسه بالتخلى عن دمياط وأن تكون فدية جيشه دفع خمسمائة ألف جنيه تورى(٢٩)، أي مليون بيزنت . لقد كان مبلغا باهظا ، لكن أعداد الأسرى كانت هى الأخرى غفيرة . وما أن تم الإتفاق على الشروط حتى أُخذ الملك والبارونات البارزين على ظهر قوادس أبحرت بهم فى النهر إلى فارسكور حيث كان السلطان قد اتخذ مكان اقامته . وكانت الترتيبات تقضى بأن يواصلوا رحلتهم إلى

(٢٨) Joinville, pp. 107-10; *MS. of Rothelin*, pp. 612-16; William of Nangis, p. 376; -William of Saint-Pathus, pp. 74-5; Matthew Paris, v, pp. 157-9, 165-8, vi, pp. 193 7; al-Aïni, pp. 209-13; Maqrisi, xiii, p. 227; Abu'l Feda, p. 128.

(٢٩) (المترجم) Pound Tournoi: جنيه تورى :عملة نقدية فرنسية قديمة سُكّت في مدينة تور

دمياط لتسليمها بعد يومين ، يوم ٣٠ ابريل[٣٠].

لم تكن تلك المساومة لتتم قط لولا تجلّد الملكة مرجريت . ذلك أنه عندما تركها الملك للزحف على المنصورة كانت على وشك أن تضع مولودها ؛ وولد المولود على يد فارس تخطى الثمانين من عمره كقابلة ، وذلك بعد ثلاثة أيام من مجئ أنباء استسلام الجيش . فسمّت ابنها الصغير جون تريستان ، أي طفل الأسى . وفي نفس ذلك اليوم علمت أن أبناء بيزا وجنوا يعدون العدة للجلاء عن دمياط لعدم كفاية ما تبقى من طعام لأفواه السكان ، وهي تدرك أنها لا تستطيع الصمود في دمياط دون مساعدة الإيطاليين ، فاستدعت زعماءهم إلى جانب فراشها لمحاجاتهم ؛ فلو هُجرت دمياط ، فلن يبق شئ يمكن تقديمه لإطلاق سراح الملك ، وعندما اقترحت عليهم أن تشترى هي نفسها كل الطعام في المدينة والإشراف على توزيعه وافقوا على البقاء . وكلّفها الشراء ما يزيد على ثلاثمائة وستين ألف جنيه ، لكنها أنقذت معنويات المدينة . وما أن أصبحت في حالة تسمح لها بالسفر حتى أصر تابعوها على نقلها بحرا إلى عكا ، بينما ذهب البطريق روبرت بمرور آمن إلى السلطان في فارسكور لإستكمال الترتيبات المتعلقة بالفدية[٣١].

١٢٥٠م : مقتل تورانشاه

وتأخرت المفاوضات النهائية شيئا ما ، إذ وصل البطريق فوجد السلطان ميتا . ذلك أنه فى يوم الإثنين ٢ مايو كان السلطان وأسراه لا يزالون في فارسكور . وفي ذلك اليوم أقام السلطان مأدبة لأمرائه، على أنه خسر تأييد المماليك . إذ أن أهميّة وقوة هذا الجيش الضخم من الأتراك والجراكسة قد تعاظمت أثناء حكم أيوب الذي كان يشملهم برعايته فكافؤه بإخلاصهم له ، ونتيجة لتأييدهم للسلطانة شجرة الدر بقى التاج على رأس تورانشاه . لكنه الآن سلطان انتصر على الفرنج ، فشعر هو نفسه أنه من القوة بحيث يملأ الحكومة بذوى الحظوة لديه من الجزيرة ؛ وعندما اعترض المماليك،

(٣٠) Joinville, pp. 110-22; *MS. of Rothelin*, pp. 616-18; Matthew Paris, v, pp.1604, vi, pp. 196-7 و(يقول كاتب هذه الرسالة، وهو من فرسان المستشفى)، "إن أملنا الوحيد يكمن في فريدريك al-Aïni, pp. 213-14;)"

(٣١) Joinville, pp. 142-4.

رد عليهم بتهديدات لفظها وهو في حالة من السكر . وفي ذات الوقت أساء إلى روجة أبيه بأن طالبها بممتلكات كانت لأبيه. فكتبت من فورها إلى قادة المماليك لحمايتها.

وعندما نهض تورانشاه لمغادرة المأدبة يوم ٢ مايو ، انقض عليه جنود من المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقداري ونزلوا عليه ضربا بسيوفهم ؛ فهرب جريحا إلى برج خشبي على ضفة النهر ، وعندما تبعه الجنود وأشعلوا النيران فى البرج الخشبي ، قفز في النيل ووقف في الماء متوسلا الرحمة عارضا التخلي عن السلطنة والعودة إلى الجزيرة ؛ ولم يلتفت أحد إلى توسلاته ، وإنما أطلقوا عليه سربا من السهام فشلت في قتله ، فقفز بيبرس اليه في الماء وقضى عليه بخنجره . وظل جثمانه الممزق الأوصال ثلاثة أيام دون أن يُدفن ، وأخيرا حصل سفير الخليفة البغدادى على إذن من المماليك بدفنه في قبر بسيط . وعيّن المتآمرون المنتصرون زعيم قادة المماليك عزالدين أيبك قائدا عاما ووصيًا ، وتزوج الأرملة المسنّة السلطانة شجرة الدر التي تمثّل الشرعية . وفيما بعد نودي بالطفل الأشرف موسى ، وهو من أبناء عمومة السلطان الراحل ، سلطانا مشاركا لا لشئ سوى أن يُخلع بعد أربع سنوات ، ولم يُعرف مصيره النهائى(٣٢).

عندما وصل البطريق العجوز من دمياط بمرور آمن موقّع من تورانشاه ، زعمت الحكومة الجديدة أن التوقيع لا قيمة له وعاملته كأسير . وذهب بعض المماليك إلى الملك لويس وسيوفهم ما تزال ملطّخة بالدماء طالبين منه الأموال مكافأة لهم على قتل عدوه ؛ وتفكّه آخرون تفكّها مقيتا بأن راحوا يشهرون سيوفهم في وجوه النبلاء الأسرى ، وأصيب المؤرخ جوانفيل بالروع الشديد . على أنه لم يكن في نيّة المماليك التخلّى عن الفدية الكبيرة ، فأكّدوا الشروط السابقة التي تقضى بالإفراج عن الملك بعد استسلام دمياط ، غير انه ينبغى للجنود العادين من الأسرى ، وبعضهم نُقل إلى القاهرة ، الإنتظار في الأسر إلى أن يتم دفع المال الذى خفّض مبلغه إلى أربعمائة ألف جنية تورى، يدفع نصفه في دمياط والنصف الآخر لدى وصول الملك إلى عكا . وعندما طلبوا من الملك أن يقسم على أنه لم ينفذ الشروط فسوف يرتد عن ديانة المسيح رفض رفضا حازما ، وطوال فترة بقائه في الأسر كان لما أظهره من اعتزاز بالنفس وثبات أثره العميق على آسريه ، حتى أن بعضهم اقترح متمازحا أن يكون هو سلطانهم التالى(٣٣).

---

(٣٢) Maqrisi, xiii, pp. 230-2; Abu'l Feda, p. 129; Abu Shama, pp. 198-209; Ibn Khallikan, iii, p. 248. وعن الأشرف موسى ، أنظر أدناه ص ٣٦٣.

(٣٣) Joinville, pp. 123-32; William of Nangis, p. 381; William of Saint-Pathus, pp. 23, 58, 75-6; *MS. of Rothelin*, pp. 618-19; al-Aini, p. 213.

وفي يوم الجمعة ٦ مايو ١٢٥٠م ذهب جيوفري (أوف سارجين) إلى دمياط وسلّم القلعة لطلائع المسلمين ، وأُحضر الملك بعد ظهر ذلك اليوم ، وشرع الملك في البحث عن الأموال لدفع القسط الأول من الفدية . غير أن ما كان لديه من أموال في خزانته الخاصة لم يجاوز مائة وسبعين ألف جنيه، فتقرر أن يستبقي المصريون معهم أخا الملك ، ألفونسو كونت بواتو ، إلى أن يتم العثور على الباقي . وكان معروفا أن لدى فرسان المعبد مقادير هائلة من الأموال في قادسهم ، وكان التهديد بالعنف هو الوسيلة الوحيدة التي انتزعت موافقتهم على دفع المطلوب على مضض . وبعد تسليم المبلغ كله إلى المصريين أطلق سراح كونت بواتو. وفي المساء أبحر الملك والبارونات إلى عكا التي وصلوها بعد رحلة عاصفة استمرت ستة أيام . ولم تكن على سفينة الملك ملابس مهيأة ولا فراش ، واضطر إلى وضع ردائه والنوم على الحشيّة التي كان ينام عليها في السجن[٣٤].

وتخلف الكثير من الجرحى في دمياط ، فتلهم المسلمون عن آخرهم على خلاف ما وعدوا به[٣٥].

١٢٥٠م : لويس يبقى في الشرق

بعد وصول لويس إلى عكا مباشرة استشار أتباعه حول خططه للمستقبل . قد كاتبته أمه من فرنسا تحثه على الإسراع في العودة ؛ إذ قيل إن هنرى ملك انجلترا سائر على درب الحرب ، فضلا عن الكثير من المشاكل الأخرى العاجلة . غير أنه كان لديه شعور بأن وجوده مطلوب في مملكة ما وراء البحار ، ذلك أن كارثة الحملة المصرية لم تدمّر جيشا فرنسيا فحسب ، وإنما سلبت اوتريميه جنودها جميعا أو كادت فضلا عن أن واجبه يفرض عليه البقاء حتى إطلاق سراح آخر السجناء في مصر . ونصحه إخوته وكونت فلاندرز بالعودة إلى فرنسا ، غير أنه كان قد عقد العزم على البقاء . وفي ٣ يولية أعلن عن قراره؛ وبإمكان إخوته ومن يرغب في الرحيل العودة إلى الوطن ، لكنه ماكث وسوف يُلحِق بخدمته الشخصية كل من يتوفر لديه الإستعداد للبقاء معه ، مثل جوانفيل . وأرسل رسالة إلى بارونات فرنسا يشرح فيها قراره ويرجوهم إرسال

(٣٤) Joinville, pp. 135-8; *MS. of Rothelin*, pp. 619-20.

(٣٥) *MS. of Rothelin*, p. 620.

التعزيزات للحملة الصليبية ؛ إذ قد شعر شعورا مريرا بفشل جهوده الضخمة . وراقه أن يعلن أن الكارثة بمثابة علامة على فضل الرب أرسلها كي يعلمه التواضع ، وكان عليه أن يفكّر في أنه قد دفع ثمنا لفضل هذا الدرس آلافا مؤلّفة من الأرواح البريئة(٣٦).

وأبحر إخوة الملك مع أبرز نبلاء الحملة الصليبية من عكا في نحو منتصف يولية تاركين وراءهم كل ما يستطيعون الإستغناء عنه من أموال ، لكنهم تركوا نحوا من ألف وأربعمائة رحل لا غير(٣٧). وبقيت الملكة مع الملك ، الذي قُبل على الفور حاكما فعليا للمملكة . وكان تاج المملكة من الناحية الشرعية ما يزال يخص كونراد الألماني ؛ لكن الواضح بجلاء أن كونراد لن يأتي البتّة إلى الشرق الآن . وبموت أليس القبرصية انتقلت الوصاية إلى ابنها الملك هنرى الذي عيّن ابن عمه ، جون كونت أرصوف ، وكيلا للمملكة ؛ وقد أسعده تسليم الحكومة إلى لويس(٣٨).

أسفر رحيل أتباع لويس الفرنسيين عن مزيد من استداده للإصغاء للنصح. فقد وسّعت التجربة من مداركه ، وعلّمه افتقاره إلى القوات المسلحة الحاجة إلى وجود علاقات دبلوماسية مع الكفرة ، ووجده بعض أصدقائه أنه ينزع إلى اتباع سياسة حمقاء، لكنه لم يكن ليفعل ذلك والدبلوماسية مواتية في هذه اللحظة. ولم تلق ثورة المماليك في مصر قبولا حسنا من مسلمي سوريا حيث تواصل الولاء للأيوبيين ؛ فعندما وصلت أنباء موت تورانشاه ، انطلق الناصر يوسف صاحب حلب من حمص جنوبا، وفي ٩ يولية احتل دمشق حيث استُقبل استقبالا حماسيا على أنه ابن حفيد صلاح الدين. ومرة أخرى تعود الخصومة المريرة بين القاهرة ودمشق ، وتلهفت كلتاهما على شراء المساعدة من الفرنج ؛ فلم يكد لويس يصل إلى عكا حتى جاءته سفارة من الناصر يوسف . بيد أن لويس لم يكن ليلزم نفسه على الرغم من أن التحالف مع دمشق قد يكون مستصوبا من الناحية الاستراتيجية ، فعليه أن يفكر في الأسرى الفرنج المحتجزين في مصر(٣٩).

وفي شتاء عام ١٢٥٠م بدأ جيش دمشق يغزو مصر ، وفى ٢ فبراير ١٢٥١م لقي

---

(٣٦) Joinville, pp. 145-57; William of Nangis, p. 383; William of Saint-Pathus, pp. 91-2; Matthew Paris, v, pp. 173-4.

(٣٧) Joinville, p. 157.

(٣٨) لم يتحدد وضع لويس القانوني مطلقا ، غير أنه كان مقبولا بوضوح كسلطة عليا في غيبة كونراد

(٣٩) Abu Shama, ii, p. 200; Abu'l Feda, p. 131; Ibn Khallikan, ii, p. 446; Joinville, p. 158.

الجيش المصري بقيادة أيبك عند العباسية في الدلتا، التي تبعد عن الزقازيق الحالية اثني عشر ميلا إلى الشرق . وفي بداية الأمر حقق السوريون بعض النجاح رغم أن كتيبة أيبك نفسه كانت صامدة ؛ لكن كتيبة من المماليك في جيش الناصر يوسف تخلت عن قضيته في أتون المعركة ، وعلى الأثر استدار الناصر يوسف ، الذي لم يُظهر شجاعة تُذكر ، موليا الأدبار . وهكذا أنقذت سلطة المماليك في مصر . غير أن فلسطين وسوريا ما زالتا في قبضة الأيوبيين . وعندما أرسل الناصر يوسف بعد ذلك إلى عكا يلمّح بأنه قد يتنازل عن القدس لقاء مساعدة الفرنج ، أرسل لويس سفارة إلى القاهرة يحذر أيبك من أنه ما لم تتم تسوية مسألة الأسرى الفرنج على وجه السرعة فسوف يتحالف مع دمشق . وأفلح سفيره جون (أوف فالينسين) خلال زيارتين في ضمان الإفراج عن الفرسان أولا، بمن فيهم السيد الأعظم لفرسان المستشفى الذى أسر في غزة عام ١٢٤٤م ، ثم الإفراج ثانيا عن حوالي ثلاثة آلاف ممن أُسروا حديثا ، في مقابل الإفراج عن ثلاثمائة أسير مسلم لدى الفرنج . وأظهر أيبك تلهفا متزايدا على مصادقة الملك بأن أرسل اليه مع الدفعة الثانية فيلا و حمارا وحشيا كهدية ، فتجرأ لويس وطلب الإفراج عن جميع الأسرى المتبقين في أيدى المماليك دون أية مدفوعات أخرى . وعندما تحقق أيبك من أن لويس أرسل إلى بلاط دمشق مبعوثه ييف البريتوني الذي يتحدث العربية ، وافق على طلب الملك في مقابل تحالف عسكرى ضد الناصر يوسف . وتجاوز ذلك إلى الوعد بأنه ما أن يحتل المماليك فلسطين ودمشق فسوف يعيدون إلى المسيحيين كامل مملكة القدس القديمة حتى الأردن شرقا . ووافق لويس ؛ وأطلق سراح جميع الأسرى في نهاية شهر مارس ١٢٥٢م . وكاد فرسان المعبد أن ينسفوا المعاهدة برفضهم قطع علاقاتهم مع دمشق ؛ فاضطر الملك إلى زجرهم علنا وطلب اعتذارا متّضعا[٤٠].

١٢٥٣م : الخليفة يحقق السلام بين أمراء المسلمين

ولم يسفر التحالف الفرنجى المملوكى عن شئ. ذلك أنه ما أن سمع به الناصر يوسف حتى أرسل الجنود إلى غزة لقطع الإتصال بين الحلفاء ؛ فسار لويس جنوبا إلى يافا ، لكن المماليك لم يتقدموا خارج مصر . وظل السوريون والفرنج بلا حركة نحوا من عام ، وكل منهما عازف عن إشعال معركة . وفي ذات الوقت أصلح لويس

---

(٤٠) Abu Shama, *loc. cit.*; Abu'l Feda, *loc. cit.*; Joinville, pp. 158-60; *MS. of Rothelin,* pp. 624-7; Matthew Paris, v, p. 342.

تحصينات يافا بعد أن سبق أن أصلح تحصينات عكا وحيفا وقيسارية[٤١]. وفي وقت مبكر من عام ١٢٥٣م ناشد الناصر يوسف بغداد للتوسط بينه وبين المماليك . وكان الخليفة المستعصم متلهفا على توحيد العالم الإسلامى أمام المغول ؛ فحث أيبك الذي كان يعترف بسطانه الإسمى على قبول شروط الناصر يوسف . وتقرر قبول أيبك حاكما لمصر والسماح له بضم فلسطين حتى الجليل شمالا والأردن شرقا . وتم التوقيع على معاهدة السلام في إبريل ١٢٥٣م وأمست ترتيبات أيبك مع الفرنج في طي النسيان[٤٢].

واتخذ الجيش الدمشقى طريقه من غزة عائدا إلى وطنه مخترقا الأراضى الفرنجية ومغيرا عليها . وكانت المدن من القوة بحيث تتعذر مهاجمتها فيما عدا صيدا حيث كان يجرى إعادة تشييد أسوارها . ورغم أن الدمشقيين لم يحاولوا مهاجمة قلعتها الواقعة على جزيرتها الصغيرة ، إلا أنهم خربوا المدينة وانسحبوا محمّلين بالأسلاب والأسرى . وثار الملك لويس بتسيير حملة للإغارة على بانياس لم يصادفها النجاح . ولحسن طالع مملكة ما وراء البحار لم يُظهر أيبك ولا الناصر يوسف أية رغبة حدية فى الحرب[٤٣].

ويُعزى إحجامهما بدرجة كبيرة إلى وجود ملك فرنسا فى الشرق . فعلى الرغم من سجله العسكرى المفجع فقد كان لشخصيته أثر واضح. وليس في ذلك ما يؤسف عليه ؛ إذ أن الامبراطور فريدريك ، الذي كان لا يزال لإسمه وزن في الدوائر الإسلامية، مات في ديسمبر ١٢٥٠م في إيطاليا . ولم يرث إبنه كونراد شيئا من هيبته[٤٤].

وفضلا عن ذلك، كان لويس أكثر نجاحا بكثير في التعامل مع قاطنى أوتريميه من فريدريك ، إذ كان ماهرا غير مغرض. واتضحت قيمته بتدخله في إمارة أنطاكية ، إذ مات بوهمند الخامس في يناير ١٢٥٢م تاركا ابنته بليزانس التى تزوجت قبل وفاته بأشهر قليلة من هنرى ملك قبرص الأبتر، وكانت زوجة ثالثة له؛ كما ترك ابنه بوهمند البالغ من العمر خمس عشرة سنة الذي استُخلف تحت وصاية الأميرة المسِنّة لوسيين الإيطالية . وكانت لوسيين امرأة بلا فعالية ، لم تغادر طرابلس أبدا وعهدت بحكم

---

(٤١) Joinville, pp. 167-8, 184-5; *MS. of Rothelin*, pp. 627-8; Matthew Paris, vi, p. 206; al-Aïni, p. 215.

(٤٢) Maqrisi, *Sultans*, I, i, pp. 39,54; Abu'l Feda, p. 132.

(٤٣) Joinville, pp. 197-8; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 440-1.

(٤٤) مات فريدريك يوم ١٣ ديسمبر في فيورنتينو. See Hefele-Leclercq, v, i, p. 1693.

الإمارة إلى أقاربها الرومانيين . وسرعان ما أدرك بوهمند السادس أن أمه لا تتمتع بشعبية ، وتمكن بموافقة لويس من الحصول على إذن من البابا بأنه قد بلغ سن الرشد قبل الموعد القانوني بأشهر قليلة . وبعدما وافق البابا إينوسنت الرابع جاء بوهمند إلى عكا حيث منحه الملك لقب فارس وأُبعدت لوسين عن السلطة ومُنحت دخلا طيبا عوضا لها . وفي ذات الوقت أكمل لويس المصالحة بين بلاط أنطاكية وبلاط أرمينيا . وكان بوهمند الخامس قد أقام في سنواته الأخيرة علاقات مع الملك هيثوم ؛ على أنه اعتبر الماضي مليئا بالذكريات المريرة، لكن بوهمند السادس لم يكن يحمل مثل هذه الضغينة ؛ وفي ١٢٥٤م ، وبناء على اقتراح لويس ، تزوج إبنة هيثوم ، سبيلا ، وأصبح بدرجة ما تابعا لحميه . ووافق الأرمن على أن يتحملوا نصيبا من مسؤولية حماية أنطاكية[٤٥].

ومات هنرى ملك قبرص يوم ١٨ يناير ١٢٤٣م . ولأن ابنه هيو الثاني كان رضيعا لم يجاوز أشهره الأولى ، فقد طالبت الملكة بليزانس بالوصاية على قبرص والوصاية الإسمية على القدس . وأيدت المحاكم العليا في قبرص في وضعها هناك ، لكن بارونات اوتريميه اشترطوا وجودها شخصيا قبل الإعتراف بها ؛ بينما ظل جون الإيبليني، وهو سيد أرصوف ، وكيلا عن المملكة ؛ وراحت بليزانس تفكر الزواج من ابنه الشاب باليان . وقد واصل الملك لويس في الواقع تسيير شؤون الحكم[٤٦].

١٢٥٢م : التحالف الفرنجي مع الحشاشين

لم يكن هناك من أمل في أن ترسل أوروبا حملة صليبية جديدة . ذلك أن هنرى الثالث ملك انجلترا، الذي سبق أن أخذ الصليب مع كثير من رعاياه في ربيع ١٢٥٠م ، أقنع البابا بالسماح له بتأجيل حملته ورفض إخوة لويس إرسال المساعدة من فرنسا ، إذ كان الرأي العام هناك ساخطا خائب الأمل . فعندما وصلت الأنباء في أول الأمر

---

(٤٥) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 439, 441-2; *MS. of Rothelin,* p. 624; Joinville, pp. 186-7; Vincent of Beauvais, p.96.

(٤٦) -*Estoire d'Eracles,loc.cit.; Assises,*ii,p.420. See La Monte,*Feudal Monarchy,* pp.74 5; Hill, *History of Cyprus*,ii,p.149

ومن غير المحتمل أن كانت بليزانس أكثر من خطيبة لباليان ، إذ عرضت نفسها بعد سنوات قليلة لتكون عروسا لإيدموند (اوف لانكاستر). (Rymer, *Foedera,* i, p. 341) و لم يُعترف بها رسميا وصية على القدس إلى أن زارت عكا فى عام ١٢٥٨

بكارثة المنصورة ، ظهرت حركة جماهيرية هستيرية من الفلاحين والعمال أطلقت على نفسها اسم رعاة الكنيسة الصغار ، وتزعمها شخص غامض أطلق عليه "سيد هنجاريا"، واكتسحت هذه الحركة البلاد تعقد الإجتماعات منكرة البابا ورجال دينه وأخذت على نفسها العهد لإنقاذ الملك المسيحي . ومنحتهم الملكة الوصية بلانش تأييدها أول الأمر ؛ لكن الفوضى تملكتهم بحيث كان لا بد من قمعهم . وقنع النبلاء الفرنسيون بتعليقاتهم المرير ضد البابا الذي فضّل التبشير بحملة صليبية ضد الامبراطورين المسيحيين بدلا من إرسال المساعدة لمن يكافحون الكفرة. وبلغت الملكة الوصية بلانش شأوا بعيدا بحيث أعلنت عن مصادرة أملاك أي تابع ملكي يستجيب لمناشدة البابا إينوسنت الرابع من أجل حملة صليبية ضد الملك كونراد في عام ١٢٥١م . لكنها لم تجازف لا هي ولا مستشاروها بإرسال التعزيزات إلى الشرق(٤٧).

وفي سعي الملك لويس في البحث عن حلفاء ، أقام أكثر العلاقات ودا مع الحشاشين . إذ بعد كارثة دمياط مباشرة أرسل زعيمُهم السوري إلى عكا يطالب بدفع مكافأة له لإتخاذه موقف الحياد ، لكن الملك ردعه قائلا بصرامة أنه دفع لمبعوثيه في حضور سادة الأنظمة الدينية العسكرية . وقد طلب الحشاشون بصورة خاصة إعفاءهم من الإلتزام بدفع إتاوة لنظام فرسان المستشفى ، ولذا كانت سفارتهم التالية أكثر تواضعا بكثير ، إذ أحضرت معها هدايا نفيسة للملك والتماس تحالف أوثق . وكان لويس على علم بالعداء الذى يكنه الحشاشون الإسماعيليون للمسلمين السنيين، فشجّع لويس توددهم وأرسل اليهم ييف البريتون لترتيب المعاهدة . وافتتن ييف بمكتبة الطائفة التى كانت تحتفظ بها في مسياد ، إذ وجد موعظة مشكوك في صحتها موجّهة من المسيح إلى القديس بطرس الذي يعتبر ، كما أخبرته الطائفة، تجسيدا جديدا لهابيل ونوح وابراهيم . وتم التوقيع على حلف للدفاع المشترك(٤٨).

ومع ذلك ، كان المطمح الدبلوماسي الرئيس للملك لويس هو الفوز بصداقة أكثر أعداء الحشاشين شراسة ــ المغول . ففى بداية عام ١٢٥٣م ، وصل إلى عكا تقرير بأن أحد أمراء المغول ، وهو سرتق بن باتو، قد تحول إلى المسيحية ، فسارع لويس بإرسال اثنين من الرهبان الدومينيكيين ، وليم (أوف روبروك) وبارثولوميو (أوف كريمونا)

---

(٤٧) Matthew Paris, *Chronica Majora,* v, pp. 172-3, 259-61; Throop, *Criticism of the Crusades,* pp. 57-9.

(٤٨) Joinville, pp. 160-5.

ليحثا الأمير على الحضور لمساعدة رفاقه المسيحيين في سوريا . بيد أنه لم يكن من سلطة أمير مغولي صغير أن يعقد مثل هذا التحالف الهام(٤٩) وفي الوقت الذي كان الراهبان الدومينيكيان ويرتحلان في عمق آسيا قاصدين بلاط الخان الأعظم نفسه ، اضطر لويس إلى مغادرة أوتريميه . إذ ماتت أمه الملكة الوصية بلانش في نوفمبر ١٢٥٢م ؛ وسرعان ما عمّت الفوضى بعد موتها مباشرة . وبدأ ملك انجلترا في إثارة المصاعب على الرغم من قسمه بالذهاب في الحملة الصليبية، ولم يساند أساقفته الذين عهد البابا إليهم بالتبشير بالحملة الصليبية . واندلعت الحرب الأهلية بسبب ميراث كونتية فلاندرز ، وازداد تململ عظماء الأتباع الفرنسيين كلهم . وكان أول واجبات لويس مكرسا لمملكته ، فرتّب وهو كاره للعودة إلى الوطن ، فأبحر من عكا يوم ٢٤ ابريل ١٢٥٤م . وكاد قاربه الملكي أن يتحطم أمام ساحل قبرص ؛ لكن العاصفة هدأت عندما نذرت الملكة سفينة فضية لضريح القديس نيكولاس في فارانجفيل . وبعد أيام قلائل أُنقذ القارب الملكي من دمار النيران بفضل سرعة الملكة . وفي يولية هبطت الصحبة الملكية في هييريس في أراضي أخي الملك ، شارلز (أوف انجو)(٥٠).

تسببت حملة القديس لويس الصليبية في توريط مسيحيي الشرق في كارثة عسكرية مروعة ، وعلى الرغم من أن بقاءه في الشرق لأربع سنوات قد أفاد كثيرا في إصلاح الأضرار ، إلاّ أن خسارة القوة البشرية لم تُستعوض تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام الصليبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألا يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لفشله عميق الأثر. ذلك أنه كان رجلا طيبا يخشى الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفي سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُبتلى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبوه من جرائم وشرور ، بيد أنه لم يعد في الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية الهشة. فهل يا ترى قد عبس الرب من الحركة الصليبية برمتها(٥١)؟

---

(٤٩) Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', *loc. cit.* p. 220. Rubruck's *Itinerarium* is translated and edited by Rockhill.

وقد خالطته الشكوك في تحول سرتق الى المسيحية عندما قابله . (*ibid.* pp. 107,116) لكن الأرمن كانوا يعتقدون أن تحوله أصيلا.(Kirakos, trans. Brosset, p. 173)

(٥٠) Joinville, pp. 218-34; William of Saint-Pathus, pp. 29-30; *MS. of Rothelin*, pp. 629-30; Matthew Paris, v, pp. 434-452-4. For Blance's death, on 1 December 1252, see Matthew Paris, v, p. 354.

(٥١) Salimbene, *Chronica*, pp. 235-7, الذي يقول بأنه قد أُعرب عن مثل هذه الشكوك ، وقد

١٢٥٤م : الآثار التي ترتبت على رحيل لويس

على الرغم من أن مجئ الملك الفرنسي إلى الشرق كان مشؤوما ، فقد أسفر رحيله عن ضررمائل. إذ تـرك وراءه جيوفرى (أوف سارجين) كممثل له ومنحه المنصب الرسمى قهرمان المملكة. والآن كان جون الإيبلينى كونت يافا وكيلا للمملكة بعد أن خلف ابن عمه جون أمير أرصوف في المنصب عام ١٢٥٤م ، لكنه أعاده اليه عام ١٢٥٦م . والراجح أن كان جون أمير أرصوف غائبا في قبرص أثناء تلك السنوات مستشارا للملكة بليزانس التي استمرت كوصية شرعية للمملكتين معا[٥٢] وبعد وفاة كونراد الألماني في إيطاليا عام ١٢٥٤م ، انتقل لقب ملك القدس إلى ابنه كونرادين الذي لم يجاوز السنتين ، وقد تذكر قانونيو اوتريميه بكثير من الشك حقوقه الإسمية[٥٣]. وكان الملك لويس قد رتّب قبل رحيله مباشرة عقد هدنة مع دمشق تنتهى في ٢١ فبراير ١٢٥٤م ، لمدة سنتين وستة أشهر وأربعين يوما . والآن غدا الناصر يوسف صاحب دمشق مدركا تماما للخطر المغولى ولم تكن لديه أية رغبة في محاربة الفرنج . وبالمثل رغب أيبك صاحب مصر في تجنب حرب كبيرة ، وعقد في ١٢٥٥م هدنة لعشر سنوات مع الفرنج ، لكنه استبعد يافا صراحة من الهدنة إذ كان يعقد الآمال على الحصول عليها كميناء لمقاطعته الفلسطينية[٥٤]. وكانت هناك غارات تعقبها غارات مضادة عبر الحدود . ففي يناير ١٢٥٦م استولى جيوفرى (أوف سارجين) وجون أمير يافا على قافلة ضخمة من الماشية ، وعندما قاد المملوك والى القدس حملة في مارس لمعاقبة المغيرين منى بالهزيمة وقُتل . أما أيبك ، الذى كانت له مشاكله مع قواده ومنهم بيبرس ، فقد عقد معاهدة جديدة مع دمشق ، ثم معاهدة أخرى بوساطة من الخليفة البغدادى ومُنح فلسطين ثانية؛ غير أن القوتين الإسلاميتين حددتا معاهدتيهما مع الفرنج لعشر سنوات وشملتا أراضى يافا[٥٥].

وجّهت الإهانات علانية إلى الإخوة المينديكانيين الذين كانوا يبشرون بالحملة الصليبية بعد فشلها.

(٥٢) La Monte, *loc. cit.* n. 1.

(٥٣) Matthew Paris, v, pp. 459-60. For Contadin's rights, see below pp. 284-5.

(٥٤) Matthew Paris, v, p. 522; *MS. of Rothelin, p. 630; Annales de Terre Sainte, p. 446*

(٥٥) *MS. of Rothelin*, pp. 631-3; *Annales de Terre Sainte, loc. cit.*; Abu'l Feda, pp. 133-4.

١٢٥٦م : حرب القديس ساباس

إن ما أظهرته القاهرة ودمشق من أناة أملتها عليهما خشيتهما المتعاظمة من المغول، قد أنقذت الفرنج مما كانوا يستحقونه من نتائج حرب أهلية سرعان ما نشبت بعد رحيل الملك لويس مباشرة . ذلك أن شتى التجار الإيطاليين يمثلون الآن أنشط العناصر في مدن مملكة أوترميه . وباتت تجارة البحر المتوسط تحت سيطرة الجمهوريات الثلاث الكبرى جنوا والبندقية وبيزا بما لها من مستعمرات في كل ميناء شرقي . وإلى جانب الشركات المصرفية التابعة لنظام فرسان المعبد ، كانت التجارة الإيطالية تزود أوترميه بأغلب إيراداتها ، كما كانت تعود بالنفع بنفس القدر تقريبا على الأمراء المسلمين، الذين يُعزى استعدادهم بدرجة كبيرة للتوقيع على الهدنة من حين لآخر إلى خشيتهم من انقطاع مصدر الربح هذا . غير أن الجمهوريات الثلاث كانت في حالة من الخصومة المريرة. إذ تسببت الإضطرابات بين بيزا وجنوا في تأخير إبحار لويس من قبرص عام ١٢٤٩م ، وفي ١٢٥٠م قتل أحد البنادقة تاجرا من أبناء جنوا ونشب قتال في شوارع عكا[٥٦]. وعندما رحل لويس إلى أوروبا اندلعت الإضطرابات مرة أخرى إذ كان تل مونتجوا في عكا يفصل بين حي البنادقة وحي أبناء جنوا ، وكان ذلك التل ينتمي إلى أبناء جنوا فيما عدا أعلى نتوء له الذي يتوّجه دير القديس ساباس القديم . وادعت كل من المستعمرتين ملكيتها للدير. وفي صباح أحد الأيام أوائل عام ١٢٥٦م ، وبينما كان القانونيون لا يزالون مختلفين حول المسألة ، استولى أبناء جنوا على الدير ، ولمّا احتج البنادقة هرع إلى حيّهم رجال مسلحون من أبناء جنوا هابطين التل ، وسارع إلى الانضمام إليهم أبناء بيزا الذين سبق أن رتّبوا معهم الأمر ؛ وبوغت البنادقة الذين شاهدوا منازلهم تُستلب وكذلك سفنهم الراسية على رصيف الميناء . وبجهد جهيد طردوا الغزاة خارج حيّهم مرة أخرى ، بعدما استولى الغزاة على الكثير من سفنهم[٥٧].

وفى تلك اللحظة كان فيليب (أوف مونتفورت)، سيد طورون وصور - الذى اعترض طويلا على حق البنادقة فى امتلاك قرى معينة على مقربة من صور - يظن أن الفرصة سانحة لإخراجهم من ثلث صور الذى كانوا يملكونه بموجب معاهدة عقدت عند الاستيلاء على صور سنة ١١٢٤م، وإخراجهم كذلك من ممتلكاتهم فى الضواحى.

---

(٥٦) *Annales Januenses*, p. 238. See above, p. 260.

(٥٧) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 443; *Annales Januenses*, p. 239; Dandolo, p. 365. See Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, i, pp. 344-54, وذلك للإطلاع على كامل تاريخ "حرب القديس ساباس "

و لم يستطيعوا منعه لإنشغالهم فى نزاعهم مع أبناء جنوا. وعندما عرضت حكومة جنوا - التى كانت عازفة عن أن تبدأ حربا مع البندقية - التوسط، كان البنادقة على غضب يحول دون قبولهم العرض. وكان القنصل البندقى فى عكا، ماركو جوستنيانى، دبلوماسيا متمرسا. غير أن تصرف فيليب المتغطرس صدم أبناء عمومته الإبيليين الذين كانوا يتمسكون جميعا بالالتزام بالقانون. وارتاب وكيل المملكة جون أمير أرصوف فى أن المونتفورتيين ينتوون فى أن يعلنوا استقلال صور عن حكومة عكا. وبرغم أنه لم يكن على ود مع البنادقة، لبرود موقفهم من حملة لويس الصليبية فى المقام الأول، فقد نجح جستنسانى فى اكتسابه إلى جانبهم.. وكان جون أمير يافا على علاقة سيئة فعلا بأبناء جنوا الذين حاول أحدهم اغتياله . وشعرت الجماعات الدينية في عكا بالخطر من أن يُفلح فيليب في تحويل صور إلى منافس تجارى ناجح لمدينتهم عكا ، فأولوا تعاطفهم ومساعدتهم للقنصل جيستينيانى الذي كانت خطوته التالية إقناع أبناء بيزا بأن الجنويين ليسوا سوى حلفاء يتصفون بالأنانية وليست الثقة فيهم بمأمونة ، وبذا ضمن تأييدهم . كما انضم إليه التجار من مرسيليا الذين ما فتئوا يشعرون بالغيرة من الجنويين ، وعندئذ انضم إلى الجانب الآخر التجار الكتاليون الغيورون من أبناء مرسيليا . وناصر نظام المعبد والنظام التيوتوني البنادقة ، وانضم نظام المستشفى إلى الجنويين . وفى الشمال ، تذكرت أسرة إمبرياكو ، التى كانت تحكم جبيل ، أصلها الجنوي ؛ وكان زعيمها هنرى قد تشاجر مع سيده بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس ، فتحدى نهى سيده المحدد وأرسل الجنود لمساعدة الجنويين في عكا . وقد حاول بوهمند نفسه التزام الحياد، غير أن عواطفه كانت مع البنادقة ، ودفعته عداوة لإمبارياكو إلى الدخول في الصراح . و لم تستطع أخته الملكة الوصية بليزانس أن تفعل شيئا ، وكان الرجل الوحيد الذي تضع فيه ثقتها في اوتريميه هو جيوفرى (أوف سارجين) ، لكن نفوذه كان ضئيلا لكونه غريبا ولا تتوفر له القوة الفعلية . وبدأت الحرب الأهلية تجتذب مجتمع اوتريميه كله . و لم تعد المسألة مجرد اتحاد البارونات الوطنيين ضد سيد غريب كما كانت الحال أيام فريدريك الثانى ، وإنما ألهبت الخلافات العائلية التافهة أتون الصراع. وكانت أم فيليب أمير مونتفرات ، وزوجة هنرى أمير جبيل تنتميان إلى آل إيبيلين ؛ وكانت جدة بوهمند السادس من آل إمبرياكو . بيد أن عُرى القرابة لم تكن تعنى شيئا الآن(٥٨).

وكانت حكومة البندقية سريعة في اتخاذ اجراء . فما أن علم الجنويون بأن أبناء بيزا

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 445; Dandolo, pp. 366-7; *Annales Januenses, loc. cit*

قد تخلوا عنهم حتى احتاحرا حي بيزا في عكا فسيطروا على الميناء الداخلى . غير أنهم لم يتوفر لهم الوقت لمد سلسلة لسد المدخل قبل دخول أسطول كبير بقيادة الأدميرال البندقي لورنزو تيبولو ، الذى اقتحمت سفنه السلسلة وهبط الرحال على الرصيف . واندلعت في الشوارع معركة متعطّشة للدماء انتهت بطرد الجنويين مرة أخرى إلى حيّهم الذى يحميه وحود حي فرسان المستشفى شمالهم مباشرة . واحتل البنادقة دير القديس ساباس ، لكنهم لم يستطيعوا طرد الجنويين أو فرسان المستشفى من المباني الخاصة بهم[٥٩] .

١٢٥٨م : الملكة بليزانس في عكا

وفي شهر فبراير ١٢٥٨م أقدمت الملكة الوصية بليزانس على محاولة تأكيد سلطتها؛ فأبحرت من قبرص مع ابنها الملك هنرى الذي لم يجاوز الخامسة من عمره ووصلت إلى أخيها بوهمند في طرابلس حيث صاحبها إلى عكا . وطلب بوهيموند من المحكمة العليا للمملكة أن تقر مطالب ملك قبرص الذي يعتبر الوريث التالى بعد كونرادين المتغيّب ، بالإعتراف به موضع للسلطة الملكية وبأمه حارسة ووصيّة . على أن ما كان يعلقه بوهمند من آمالا فى وقف الحرب بتأكيد سلطة أخته ووجودها استحال سرابا . وما أن أقر الأبيليون بمطالب هيو وبليزانس ، اللذين كانا يتطلعان دائما إلى حقوق الملك كونرادين ، وأذعن فرسان المعبد وفرسان التيوتون ، حتة أعلن فرسان المستشفى على الفور أن لاشئ يمكن تقريره في غيبة كونرادين، متذرعين بالحجج التي دُحِضت عام ١٢٤٣م . وبذا تورطت العائلة الملكية في الحرب الأهلية ؛ فناصر الطرف البندقي بليزانس وابنها، وبسخرية التاريخ اتخذ جانب أبناء جنوا فرسان المستشفى وفيليب أمير مونتفورت ، وهذه الأطراف كلها التي سبق أن عارضت فريدريك الثاني معارضة مريرة، باتت الآن من أنصار آل هوهنشتوفن . واعترفت أغلب الأصوات بالملكة بليزانس وصيّة . وتنازل لها جون أمير أرصوف رسميا عن منصبه كوكيل للمملكة وأعادت تعيينه ثم عادت مع أخيها إلى طرابلس ومنها إلى قبرص بعد أن أصدرت تعليمات لوكيل المملكة الذي عيّنته بمعاملة المتمردين معاملة لا هوادة فيها[٦٠] .

---

(٥٩) Dandolo, *loc. cit.; Annales Januenses, p. 240; Estoire d'Eracles,* ii, p. 447.

(٦٠) *Assises, ii, p. 401; Estoire d'Eracles,* ii, p. 443; *MS. of Rothelin,* p. 643; *Gestes des Chiprois,* pp. 149, 152.

كان بطريق القدس هو جيمس بانتاليون ، ابن إسكافي من تروي . وكان قد عُيّن في ديسمبر ١٢٥٥م ، لكنه لم يصل عكا إلا في صيف ١٢٦٠م عندما نشبت الحرب الأهلية . وأعلن مناصرته - بحق - للملكة بليزانس وناشد البابا في إيطاليا اتخاذ إجراء ؛ فاستدعى البابا ألكسندر الرابع وفودا من الجمهوريات الثلاث للحضور إلى بلاطه في فييربو وأمر بهدنة فورية . وتقرر أن يذهب سفيران مفوضان من البنادقة ومثلهما من أهل بيزا إلى سوريا على متن سفينة جنوية ، واثنان من الجنويين على سفينة بندقية ، وأن تسوى المسألة برمتها. وأبحر المبعوثون في شهر يولية ١٢٥٨م ، لا لشيء إلاّ ليعلما أثناء الرحلة أن السيف قد سبق العذل . ذلك أن جمهورية جنوا أرسلت فعلا أسطولا بقيادة أمير البحر روسّو ديللا توركا وصل أمام صور في يونية حيث انضم إلى أسطول جنوي صغير كان في الشرق . وفي ٢٣ يونية أبحر من صور الأسطول المشترك المؤلف من نحو ثمانية وأربعين قادسا ، وفي ذات الوقت سارت كتيبة جنود جنوب الساحل تابعة لفيليب (أوف مونتفورت) . وكان لدى البنادقة وحلفائهم البيزيين نحوا من ثمانية وثلاثين قادسا بقيادة تيبولو . ونشبت المعركة الفاصلة أمام عكا يوم ٢٤ يونية ، وأثبت تيبولو أنه صاحب التكتيكات الأقوى ؛ وبعد صراع شرس خسر الجنويون أربعا وعشرين سفينة وألفا وسبعمائة رجل وانسحبوا في فوضى عارمة . ولم يتمكن الباقون على قيد الحياة من الوصول بأمان إلى عكا إلا عندما هبت فجأة نسمة جنوبية . وفي الوقت ذاته صدت ميليشيا عكا تقدم فيليب وخُرّب الحي الجنوي داخل المدينة . وقرر الجنويون بعد هزيمتهم أن يهجروا عكا كلية وأن ينشئوا مقرا لهم في صور(٦١) .

وفي ابريل ١٢٥٩م أرسل البابا مندوبا له إلى الشرق ، توماي آني (أوف لينتينو) ، وهو الأسقف الشرفي للقدس ، يحمل أوامر بتسوية النزاع . وفي نفس الوقت على وجه التقريب مات وكيل المملكة جون أمير أرصوف ؛ وجاءت الملكة بليزانس إلى عكا مرة أخرى ، وفي أول مايو عيّنت وكيلا للمملكة جيوفري (أوف سارجين) الذي كان ذا شخصية تحظى بالإحترام وكان أقل إثارة للجدل ، وتعاون مع المندوب البابوي لضمان الهدنة . وفي يناير ١٢٦١م اجتمعت المحكمة العليا بحضور مندوبين عن المستعمرات الإيطالية وتوصلت إلى اتفاق يقضي بأن يكون للجنويين مقرهم في صور ، وللجنويين والبنادقة مقرهم في عكا ؛ وأجريت مصالحة رسمية بين المتحاربين من النبلاء والبنادقة والبيزيين . على أن الإيطاليين لم يعتبروا الإتفاق نهائيا قط . وسرعان ما نشبت الحرب

---

(٦١) Dandolo, p. 367; *Annales Januenses*, p. 240; *Gestes des Chiprois*, pp. 153-6; Raynald, xxii, pp. 30 ff.; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 445.

بينهم وتواصلت ، مما ألحق الضرر بالتجارة كلها وبالنقل البحرى بطول الساحل السورى(٦٢).

١٢٦١م : البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية

كما لحق الضرر بالفرنج البعيدين إلى الشرق عبر الحدود السورية . إذ أن امبراطورية القسطنطينية اللاتينية المتأرجحة لم تكن لتبقى إلاّ بمساعدة الإيطاليين الذين كانوا يخشون ضياع امتيازاتهم التجارية . وكانت البندقية حريصة بصورة خاصة على بقائها ، لما لها من ممتلكات في القسطنطينية نفسها وفي جزر بحر إيجة . ولذا ساندت جنوا امبراطور نيقية اليوناني القوي ميخائيل بالايولوجوس مساندة فعالة . وكان ميخائيل قد أحرز نصرا مؤزرا عام ١٢٥٩م في بيلاجونيا بمقدونيا حيث أسر أمير أخيّا وليم (أوف ويلهاردوين) وجميع باروناته وأجبره على التنازل عن قلاع ماينا وميسترا و مونيمفاسيا ، وهي القلاع التي تسيطر على النصف الشرقي من شبه الجزيرة ؛ وبذلك أرسى ميخائيل فعلا دعائم استعادة بيزنطة لشبه الجزيرة اليونانية . وفي مارس ١٢٦١م وقّع ميخائيل معاهدة تقضي بمعاملة أبناء جنوا معاملة تفضيلية في سائر أراضيه حاليا ومستقبلا . وفي ٢٥ يولية، وبمساعدة الجنويين ، دخل جنوده القسطنطينية . لقد وصلت الامبراطورية اللاتينية، وليدة الحملة الصليبية الرابعة، إلى نهايتها ، ولم تفعل للشرق الفرنجي شيئا سوى الضرر(٦٣).

وهكذا كان استعادة البيزنطيين للقسطنطينية وانهيار الإمبراطورية اللاتينية نتيجة لحرب بدأت حول دير قديم في عكا. لقد كانت ضربة موجعة للمهابة اللاتينية والبابوية، وانتصارا لليونانيين . على أنه حتى باستعادة بيزنطة لعاصمتها ، فإنها لم تعد الامبراطورية العالمية كعهدها في القرن الثاني عشر ؛ فما هي الآن إلا دولة بين دول كثيرة . فإلى جانب الإمارات اللاتينية المتبقية ، هناك الآن مملكتان قويتان بلغارية وصربية في البلقان ؛ وفي الأناضول ، وعلى الرغم من تعجيز المغول للسلطنة

(٦٢) Tafel-Thomas, *Urkunden*, iii, pp. 39-44; *Gestes des Chiprois*, p. 156; *Annales des Terre Sainte*, pp. 448-9.

(٦٣) For the recapture of Constantinople, see Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 538-9. The chief Byzantine sourses are Pachymer, pp. 140 ff., and George Acropolita, i, pp. 182 ff.

السلجوقية، فلا أمل هناك البتّة في زحزحة الأتراك ، وقد أدى امتلاكهم لوطنهم القديم في واقع الأمر إلى إضافة المزيد من المشاكل للأباطرة بدلا من تقويتهم . وكان أبناء جنوا، أهم المستفيدين، قد هُزموا في سوريا ؛ لكن تحالفهم مع بيزنطة مكّنهم من السيطرة على تجارة البحر الأسود التي كانت تتزايد في حجمها وأهميتها في الوقت الذى طورت فيه الغزوات المغولية طرق القوافل عبر آسيا الوسطى(٦٤).

وفي مملكة الشرق الفرنجى تمكن جيوفرى (أوف سارجين) ، تسانده ما كان لذكرى القديس لويس من مهابة ، من استعادة بعض النظام بين بارونات المملكة . وماتت الأعمال العدوانية النشيطة على البر ، رغم أن الملاحين الإيطاليين قد يواصلون القتال ؛ بيد أنه لم تكن هناك عودة للصداقة القديمة بين آل مونتفرت وآل إيبلين . ولم يخفف نظاما المعبد والستشفى من عدائهما التقليدي ؛ بينما يئس النظام التيوتوني من مستقبل سوريا ، فبدأ يركز جل اهتمامه في شواطئ البلطيق البعيدة ، حيث مُنح فيها الأراضى والقلاع منذ عام ١٢٢٦ قدُما لقاء مساعدته في ترويض وتحويل الوثنيين من البروسيين والليفونيين(٦٥).

ولم تتسع سلطة جيوفري لتمتد إلى داخل كونتيّة طرابلس . إذ أن ما كان يحمله بوهمند من مقت لتابعه هنرى أمير جبيل اتّقد وتحول إلى حرب ؛ فلم ينكر هنرى سيادة بوهمند ويوطد نفسه بمساعدة الجنويين في استقلال كامل ، وإنما قام ابن عمه برتراند ، زعيم الفرع الأصغر من عائلة إمبرياكو ، بمهاجمة بوهمند في طرابلس نفسها . وكانت الأميرة المسنة لوسين ، عندما خلعت من الوصاية ، قد تمكنت من إبقاء الكثير من المقربين اليها من الرومان في مناصب هامة في الكونتية ، مما أثار حفيظة البارونات الوطنيين الذين وحدوا متمثلين فى برتراند إمبرياكو - الذي يمتلك ضياعا كبيرة في جبيل وحولها - وزوج ابنته جون أمير أنطاكية وهو لورد البطرون ومن أبناء العمومة الثانية لبوهمند . وفي ١٢٥٨م زحف البارونات على طرابلس حيث يقيم بوهمند

---

(٦٤) See Heyd, i, pp. 427 ff.

(٦٥) (Translation): Prussians and Livonians:

(المترجم): البروسيون Prussians ، نسبة الى بروسيا وهي منطقة تاريخية شمالي ألمانيا ، تحولت الى مملكة شمالي أوروبا (١٧٠١-١٨٧١) والمركز المهيمن للإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٩)، وانتهت رسميا عام ١٩٤٧م . والليفونيون Livonians نسبة الى ليفونيا Livonia ، وهي مقاطعة سابقة تابعة لبروسيا (١٧٨٣-١٩١٨) تقع على خليج ريجا ، وقسّمت عام ١٩١٨م بين لاتفيا واستونيا.

(Author's note): For the Teutonic Order, see Strehlke, *Tabulae Ordinis Teutonici*

وحاصروا المدينة ، وخرج اليهم بوهمند في رحاله لكنه هُـزم وجُـرح في كتفـه بواسـطة برتراند نفسه ، وأجبر على البقاء محاصَرا في عاصمته الثانيـة إلى أن خـف فرسـان المعبـد لنجدته . وتحرق شوقا إلى الثأر . وفي يوم ما ، وأثناء أن كان برتراند على جواده مخترقا إحدى قـراه ، انقـض عليه فجـأة بعـض القرويـين المسـلحين وقتلوه . وقُطعـت رأسـه وأرسلت هدية إلى بوهمند الذي لم يتشكك أحد في تحريضه علـى القتـل ، ولقـد كـان ذلـك الإغتيـال بمثابـة عـامل مسـاعد مؤقـت لتحقيـق غرضـه ؛ إذ ارتعـب المتمـردون وانسحبوا إلى جبيل . بيد أنه قد أصبحـت هنـاك الآن ثـارات دمـاء بـين بيـتي أنطاكيـة وإمبرياكو(٦٦).

وفي ١٢٦٣م انتهت حكومة جيوفري (أوف سارجين) . إذ ماتت الملكة القبرصيـة بليزانس في سبتمبر ١٢٦١م ، ولقيت وفاتها أعمق الأسـى، فقـد كـانت سيدة غايـة في الإستقامة . وكان ابنها هيو الثاني في الثامنة من عمـره ، فكـان ضروريـا وجـود وصـي جديد لقبرص والقدس . وكان لأبى هيـو الثـاني - هـنرى الأول - شـقيقتان تزوجـت كبراهما ماريا من والتر (أوف برين) وماتت في شـبابها تاركـة ابنهـا هيـو . وتزوجـت صغراهما إيزابيلا من هنرى الأنطاكي أخى بوهمند الخامس ، وهى مـا تـزال علـى قيـد الحياة . وكان ابنها المسمّى هيو أكـبر مـن ابـن خالتـه هيـو (أوف بريـن) الـذي نشّأته ايزابيلا ربيبا مع ابنها. وعلى الرغم من أن هيو (أوف برين) كان الوريث التالى للعرش، فقد كان عازفا عن منافسة خالته وابنها من أجل الوصايـة ؛ وبعـد مـداولات جـرت في المحكمة العليا القبرصية ، اعتبرت المحكمة أن وصاية الرجل أفضل من وصاية المرأة ، ولذا أغفلت مطالبة إيزابيلا لصالح ابنها الذي عُيّن باعتباره أكبر أمير تجرى في عروقـه الدمـاء الملكية ؛ وأتيح لمحكمة القدس العليا المزيد من الوقت للتفكير . وظلت الأمور على ماهي عليه حتى ربيع ١٢٦٣م عندما جاءت إيزابيلا إلى عكا مع زوجهـا هـنرى الأنطـاكي . واستقبلها النبلاء هناك كوصية فعلية ، لكنهم بعدما لمسوا من جوانب الريبة ما تجـاهلوه حتى آنذاك رفضوا أن يقسموا لها قسم الـولاء ؛ فلـم يكـن ذلـك ليحـدث إلا إذا كـان الملك كونرادين حاضرا. واستقال جيوفري (أوف سارجين) من منصب وكيل المملكة، فخلعت الملكة المنصب على زوجها ، وعادت هي نفسها بدونه سعيدة إلى قبرص.

---

(٦٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 157-60. See Rey, "Les Seigneurs de Giblet", in *Revue de l'Orient Latin*, iii, pp. 399-404.

وكان لورد البطرون هو جون وليس وليم كما جاء في index to Mas Latrie's edition of the *Gestes.* وقد قتل أبوه وليم في لافوربي عام ١٢٤٤م.

وماتت في العام التالي في قبرص ، وأصبح منصب الوصاية على القدس شاغرا مرة أخرى. وطالب هيو الأنطاكي ، الوصي على قبرص ، بالوصاية باعتباره ابنها ووريثها ؛ لكن هيو (أوف برين) تقدم بمطالبة مضادة الآن وأعلن أن العرف الفرنسي المتبع في أوتريميه يقضي بأن إبن الأخت الكبرى له الأسبقية على إبن الأخت الصغرى بغض النظر عن الأكبر سنا من ابني الخالتين. واعتبر قضاة أوتريميه أن العامل الحاسم هو القرابة لآخر من شغل المنصب ، وحيث أن إيزابيلا قد قُبلت كآخر وصيّة ، يكون لإبنها هيو الأسبقية على ابن اختها . وأجمع النبلاء وكبار رجال الدولة على قبوله وأعربوا له عن الولاء الذي أنكروه على أمه . وأعلنت الكوميونات والمستعمرات الأجنبية الولاء له ، واعترف به السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى . وعلى الرغم من أن الإيطاليين كانوا لا يزالون يحاربون بعضهم البعض في البحار ، فقد ساد جو عام ، وإن كان مصطنعا ، من المصالحة في المملكة نظرا لنشاط هيو في المقام الأول. إذ لم يعيّن وكيلا للملكة يعمل باسمه في الأراضي الرئيسية ، وإنما كان دائم السفر بين قبرص وعكا. وبينا هو في قبرص عُهد بحكومة الأراضي الرئيسية إلى جيوفري (أوف سارجين) الذي أصبح قهرمانا مرة أخرى ، كما غدت الإدارة في أيدى أناس محترمين ؛ إذ كانت الأخطار تتجمع وتتزايد(٦٧).

١٢٧٠م : آخر حملة صليبية للملك لويس

لم ينس لويس ملك فرنسا الأراضي المقدسة قط . إذ كان يرسل كل عام مبلغا من المال لإعالة مجموعة الجنود الصغيرة التي تركها هناك وراءه في عكا برئاسة جيوفري (أوف سارجين) ؛ ودامت هذه الممارسة حتى بعد موت جيوفري ولويس نفسه . وكان الأمل يراوده دائما في الخروج مرة أخرى في حملة صليبية ، غير أن احتياجات بلده لم تتح له ذلك . ولم يحدث إلا في عام ١٢٦٧م ، عندما كان مرهقا ومريضا، أن شعر بقدرته على الإعداد لحملته الصليبية الثانية ، وبدأ شيئا فشيئا في إعداد الترتيبات الضرورية وجمع الأموال . وفي ١٢٧٠م أصبح على استعداد للإبحار إلى فلسطين(٦٨).

على أن أخا الملك ، تشارلز ، شوّه المشروع الورِع ودمّره . ذلك أنه في عام

(٦٧) See La Monte, *op. cit.* pp.75-7, and Hill, *op. cit.*, ii, pp.151-4 لمناقشة النقاط القانونية والمراجع

(٦٨) Joinville, pp. 210-12.

١٢٥٨م ، عندما كان الـطفل كونرادين ملكا إسميا لصقلية والقدس ، خلعه ابن عمه من السفاح ، مانفريد بن فريدريك الثاني . وكان منفريد قد ورث الكثير مما كان لأبيه من ذهن متقد متغطرس ؛ ولقى نفس القدر من كراهية البابوية . وبدأ البـابوات في البحث عن أمير بديل يعتلى العرش الصقلي الذي كان تحت سلطتهم بصورة تقليدية . وبعد أن تفكـروا في إدمونـد (أوف لانكاسـتر) ، إبـن هـنرى الإنجليزي ، وحـدوا مرشـحهم في شخص تشارلز (أوف أنجو) ، الذي كان على قدر ضئيل مما كان عليه أخوه القديس ؛ إذ كان باردا وقاسيا ومتطرفا في طموحاته ، وكانت زوجته الكونتيسة بياتريس ، وهـي وريثة بروفانس وأخت لثلاث ملكات ، متلهفة على أن تضع تاجـا عـلى رأسـها . وفي ١٢٦١م ، أصبح بطريق القدس حيمس بانتاليون هو بابا باسم إيربان الرابـع. وسـرعان ما أقنع الملك لويس بأن إزالة آل هوهينشتوفن من صقلية أمر أساسي مطلـوب لنجـاح أية حملة صليبية مقبلة.

ووافق لويس على ترشيح أخيـه ، وفـرض ضرائـب في فرنسـا نيابـة عنـه . ومـات إيربان عام ١٢٦٤م لكن خليفته ، كلمنت الرابع ، وهو فرنسى آخر ، أكمل الترتيبات مع تشارلز الـذي زحـف عـام ١٢٦٥م داخـل ايطاليـا وهـزم منفريـد وقتلـه في معركـة بينيفينتو . ومكّنه النصر من السيطرة على حنوب إيطاليا وصقلية ، وتلقت زوجته التاج الذي كانت تهفو إليه . وبعد ثلاث سنوات بذل كونراديـن جهـودا شـجاعة لإسـتعادة ميراثه الإيطالي ، لكن جهوده لم تلق سوى كارثة بالقرب من تالياكوزو ، ووقع الصبى كونرادين الذي لم يجاوز السادسة عشرة من عمره في الأسر وقُطعت رأسه ، وكان أخر آل هوهينيشتوفن . وتصاعدت الآن طموحات تشارلز وزيّنت له السيطرة على ايطاليا ، واستعادة القسطنطينية من اليونانيين المنشقين، وإنشاء امبراطورية في البحر المتوسط علـى نحو ما كان يحلم به أسلافه النورمـانديون عبثـا . وبـدأ البابـا كليمنـت يخشـى الوحـش المخيف الذي رفعه ؛ لكنه مات عام ١٢٦٨م . وطوال ثلاث سنوات راح تشارلز يكيد المكائد مع الكرادلة للحيولة دون انتخاب بابا جديد ؛ ولم يكن هناك من يكبح جماحه. على أنه شعر بالقلق من الحملة الصليبية التي ينتويهـا أخـوه ، إذ ينبغـى اسـتغلال رجـال فرنسا وأموال فرنسا لصالحه ، وليس لدعم مملكة نائية لم يكن مهيّأ بعد للإهتمام بهـا . وكان يطمح في المساعدة لمهاجمة بيزنطة ، فإن لم تكن المساعدة وشـيكة ، فينبغي علـى الأقل تحويل مسارالحملة الصليبية إلى مسار ما آخر يعود عليه بالنفع(٦٩).

---

(٦٩) See Jordan, *Les Origines de la Domination Angevine en Italie, passim*; Hefele-Leclercq, *op. cit.* vi, i, pp. 47-60, 63-6; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 598-9 حيث توحد

وكان معروفا أن المستنصر أمير تونس الذي يسيطر على الساحل الأفريقي المقابل لصقلية يتخذ موقفا وديّا من المسيحيين ، لكنه أساء إلى تشارلز عندما قبل لجوء المتمردين من صقلية . فأقنع تشارلز الملك لويس ، الذي لم تحجب التجربة تفاؤله الإيماني ، بأن الأمير على استعداد للتحول إلى المسيحية ، وأن استعراضا خفيفا للقوة خليق بأن يجره إلى حظيرة الإيمان ، وبذا تكون هناك مقاطعة جديدة تضاف إلى المسيحية في بقعة ذات أهمية استراتيجية واسعة لأية حملة صليبية جديدة . ويبدو أن القرار الذي اتخذه لويس كان متأثرا بمرضه ؛ إذ لم يخفو أصدقاؤه من الحكماء ، مثل جوانفيل ، استياءهم من هذا المشروع ، لكن لويس كان واثقا من أخيه . وفي أول يولية أبحر من ميناء آجو-مورت على رأس حملة مهولة ، وكان معه أبناؤه الثلاثة الباقين على قيد الحياة ، وزوج ابنته تيبالد ملك نافار ، وابن أخيه روبرت أوف أرتوا ، وكونتات بريتاني ولامارش ، ووريث فلاندرز ، وجميع أبناء رفاقه في حملته الصليبية السابقة ، وكونت سانت بول وهو من الباقين على قيد الحياة من تلك الحملة الصليبية السابقة ، وكونت سواسون . وفي ١٨ يولية وصل الأسطول أمام قرطاجة في حمّارة قيظ الصيف الأفريقي. ولم يبدِ أمير تونس أية رغبة في التحول إلى المسيحية ، وبدلا من ذلك حصّن عاصمته ونظّم حاميتها . لكنه لم يكن بحاجة إلى القتال ، إذ تولت الأحوال المناخية هذه المهمة بدلا منه ؛ فقد تفشّى المرض بسرعة في المعسكر الفرنسي ، وسقط الأمراء والفرسان والجنود فريسة المرض بالألوف ، وكان الملك من بين الأوائل الذين صرعهم المرض . وعندما وصل تشارلز (أوف أنجو) يوم ٢٥ أغسطس مع جيشه علم أن أخاه توفى قبل ساعات قليلة . وكان وريث فرنسا ، فيليب ، مريضا في حالة خطرة؛ وكان جون الحزين (تريستان) الذي ولد في دمياط يحتضر . واستطاع تشارلز بما له من بأس أن يحفظ الحملة من كارثة حتى الخريف عندما دفع له الأمير تعويضا كبيرا كي يعود إلى ايطاليا؛ غير أن أمر الحملة الصليبية بأسرها كان قد انقضى من قبل(٧٠).

عندما وصلت أنباء مأساة تونس إلى الشرق، تنفس المسلمون الصعداء من أعماقهم، وغرق المسيحيون في نواحهم . وكان للأسى ما يبرره . إذ لن يحدث البتّة مرة أخرى أن يخرج جيش ملكي من أرضه الأم لإنقاذ فرنج مملكة ما وراء البحار

مناقشة سياسة تشارلز اوف آنجو

(٧٠) Joinville, pp. 262-3. See Sternfeld, *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis, passim*

(اوتريميه). ولقد كان الملك لويس ملكا لفرنسا عظيما وطيبا ، أما فلسطين التي أحبها بمزيد من الإعزاز ، فلم يجلب لها سوى خيبة الأمل والأسى . وراح وهو على فراش الموت يفكر فى المدينة المقدسة التي لم يرها قط ، ولم تكن مساعيه لتخليصها سوى مساع عقيمة . وكانت آخر كلماته "القدس ، القدس[٧١]."

---

(٧١) William of Saint-Pathus, pp. 153-5.

الفصل الثالث:

المغـول فى سـوريـا

المغول في سوريا

"أتثِق به لأن قوته عظيمة؟ أو تترُك له تعبك؟"

(أيوب ١١:٣٩)

عندما وصل وليم (أوف روبروك) إلى بلاط الخان الأعظم في الأيام الأخيرة من عام ١٢٥٣م ، وجد حكومة مختلفة اختلافا كبيرا عن تلك التى رحبت بأندرو (أوف لونجومو) الذي سبق أن بعثه الملك لويس . وعندما مات غويوق ، إبن أوغوداي ، عام ١٢٤٨م ، تولت أرملته أوغول قيميش أعمال الوصاية على ابنائها قوشا وناقو وقوغو . بيد أنها كانت حاكمة تغلب عليها البلادة وقد تملكها الشّح والسّحر ، ولم يبدُ على أي من أبنائها ما يبشّر باقتدار كبير . ودأب ابن عمهم شيريمون، الذي قضى له جده أوغوداي بالخلافة، على دس الدسائس ضدهم. بيد أن المعارضة الأكثر هولا جاءت من تحالف النائب على الغرب (باتو) مع الأميرة سورغقتاني أرملة تولوي الإبن الأصغر لجنكيز خان. وكانت الأميرة سورغقتاني الكيراتية المولد، كشأن أبناء جنسها جميعا، مسيحية نسطورية يغلب عليها الورع ، ولذا كانت تلقى الاحترام لحكمتها وطهارة

ذيلها . وبعد ترملها رغب أوغوداي في تزويجها من ابنه غويوق ؛ لكنها رفضت بلباقة مفضّلة تكريس نفسها لتعليم أبنائها الأربعة النّابهين مونغكا وقوبلاي وهولاكو وأرقبوغا . وعندما أجرى غويوق تفتيشا على مالية العائلة الإمبراطورية كانت هي وأبناؤها فحسب الذين كانوا يتصرفون بوازع من الضمير المثالي . وكان (باتو)، الذي لم تلتئم عداوته لغويوق قط ، معجبا بها غاية الإعجاب ، لكن مطالبته بالعرش أخذت تتزايد ضعفا على ضعف نظرا لما كان يحيط بشرعية أبيه جوجي من شكوك ، فما كان منه إلا أن انضم اليها لمناصرة مونغكا في مطالباته . وجاء باتو إلى منغوليا ، وبصفته من كبار أمراء العائلة طلب انعقاد المؤتمر (كوريلتاي)، الذي انتخب في أول يولية ١٢٥١م مونغكا لمنصب الخان الأعظم . ورفض أحفاد أوغوداي حضور المؤتمر (كوريلتاي) ، برغم ما بذلته سورغقتاني من محاولات مخلصة لتهدئتهم ، وإنما تآمروا لمهاجمة أعضائه وهم سكارى في الاحتفالات التي تعقب مراسيم التولية . وأجهضت المؤامرة ؛ وبعد عام من الحرب الأهلية المتقطّعة انتصر مونغكا على أنداده جميعا ونُصّب خانا أعظم في قراقورام . وأدين الوصي أوغول قايميش وكذلك أم شيريمون بتهمة السحر ونُفّذ فيهما الإعدام غرقا ، وأمّا أمراء آل أوغوداي فقد أرسلوا إلى المنفى[١].

وبتولي مونغكا ، أحيا المغول مرة أخرى سياستهم التوسعية . وعاد كبار الأمراء إلى مناصبهم الحكومية ، وعُهد بالمقاطعات الشرقية إلى الأخ الثاني لمونغكا ، قوبلاي ، الذي شرع يغزو كل الصين غزوا نشيطا منسّقا . وتحول إلى البوذية، وغلبت على حروبه ومعاملته للمقهورين روح الإنسانية والرفق . ومكث مونغكا وأخوه الأصغر أريقبوغا في منغوليا يراقبان في يقظة الإمبراطورية الشاسعة كلها . وبدأ ورثة ياغاتاي في التركستان محاولات تجريبية لتوسيع سلطانهم عبر بامير إلى داخل الهند . ونقل باتو مقره إلى ضفاف الفولجا السفلى كي يسيطر على أمرائه التابعين له في روسيا ، وأسس هناك مقر الخان التي أطلق عليها الكتاب المسلمون (كيبشاك) ، وأطلق عليها المغول والروس (القبيلة الذهبية) . وانتقلت حكومة فارس إلى الأخ الثالث لمونغكا ، هولاكو . وأصبحت حدوده وحدود قوبلاي في الشرق هي المنطقة التي توجهت إليها الآن جهود المغول[٢].

---

(١) William of Rubruck (ed. Rockhill), pp. 163-4; Howorth, *History of the Mongols*, i, pp. 170-86; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 306-11.

(٢) Grousset, *op. cit.* pp. 312-13, 364-6; Iakoubovski and Grekov, *La Horde d'Or*, pp. 98-120.

١٢٥٤م : التحالف الأرميني مع المغول

من بين الدول المتاخمة للبحر المتوسط كانت المملكة الأرمينية أول من تحقق من أهمية التقدم المغولي . وكان الأرمن قد شهدوا مشدوهين انهيار الجيش السلجوقي أمام الحملة المغولية التي قادها أحد حكام الأقاليم عام ١٢٤٣م ، وكان بمقدورهم أن يقدروا استحالة مقاومة الجيش الإمبراطوري . وأرسل الملك هيثوم في حركة حكيمة رسالة يغلب عليها الإحترام إلى بايشو عام ١٢٤٣م . غير أن المغول انسحبوا آنذاك واستعاد قايخوسرو أراضيه التي فقدها في الأناضول وبدأ في الضغط مرة أخرى على أرمينيا يساعده الأمير الأرميني المتمرد قسطنطين (أوف لامبرون)[٣] .

وكان في تقدير هيثوم أن المغول سوف يعودون وأن لهم أهميتهم لكل العالم المسيحي الآسيوي ، وخاصة له هو نفسه . فأرسل في عام ١٢٤٧م أخاه الكونستابل سيمباد على رأس سفارة إلى بلاط الخان الأعظم . ووصل سيمباد إلى قراقورم عام ١٢٤٨م قبل وفاة غويوق بوقت قصير ؛ واستقبله غويوق استقبالا ودودا ، وما أن علم أن هيثوم على استعداد لأن يكون تابعا له حتى وعد بإرسال العون إلى الأرمن ليستعيدوا المدن التي أخذها منهم السلاجقة . وعاد سيمباد إلى وطنه ومعه وثيقة من الخان الأعظم تضمن وحدة أراضى هيثوم[٤] . غير أن موت غويوق أوقف أي عمل عاجل . وفي ١٢٥٤م ، وما أن سمع هيثوم بخلافة خان جديد ذي بأس حتى شرع هو نفسه في الرحلة إلى قراقورم[٥] .

صارت قراقورم الآن المركز الدبلوماسى للعالم . ذلك أنه عندما وصلها سفير لويس التاسع ، وليم (أوف روبروك) عام ١٢٥٤م ، وجد سفارات من الامبراطور اليوناني ومن الخليفة ومن ملك دلهي ومن السلطان السلجوقى ، كما وجد أمراء من الجزيرة ومن كردستان وأمراء من روسيا ، وجميعهم يترقب مقابلة الخان . وكان هناك عدد من الأوروبيين الذين استقروا هناك ، وفيهم الجوهري من فارس مع زوجته الهنجارية ،

---

(٣) Ibn Bibi (ed. Houtsma), pp. 243, 249-50; Sempad, pp. 649-51; Kirakos, trans. Brosset, p. 142; Vincent of Beauvais, pp. 1295-6.

(٤) Sempad, letter to Henry of Cyprus, in William of Nangis, pp.361-3.

(٥) Ibn Sheddad, *Geography* (ed.Cahen),in *Revue des Etudes Islamiques*(1936),p. 121;Bar-Hebraeus (trans.Budge),pp.418-19

وامرأة من الألزاس متزوجة من مهندس روسي(٦). وليس هناك تمييز عنصري ولا ديني في البلاط ؛ وكانت المناصب العليا في الجيش والحكومة قاصرة على أعضاء العائلة الإمبراطورية ، غير أنه كان هناك وزراء ومحافظو أقاليم من كل أمة آسيوية على وجه التقريب . وكان مونغكا نفسه يدين بالشامانية ديانة آبائه ، لكنه كان يحضر الإحتفالات المسيحية والبوذية والإسلامية دون تمييز بينها . وكان يؤمن بوجود إله واحد يعبده المرء كما يحلو له . وكان المسيحيون النساطرة يمثلون أهم نفوذ ديني ، وكان مونغكا يحابيهم بصفة خاصة تخليدا لذكرى أمه سورغقتاني التي ظلت دائما على ولائها لعقيدتها ، رغم أنها كانت من سعة الأفق بما يكفي لأن تهب المسلمين كلية دينية إسلامية في بخارى . كما كانت زوجته الإمبراطورة الرئيسية كوتوكتاي ، والكثيرات من زوجاته الأخريات ، يعتنقن المسيحية النسطورية(٧). وأعلن وليم (أوف روبروك) على الملأ أنه قد صُدم بجهل رجال الدين النساطرة وفسوقهم ، واعتبر أن طقوسهم الدينية أزيد قليلا من خلاعات عربدة السكارى ، وفي يوم من أيام الأحد شاهد الإمبراطورة عائدة تترنح من قداس صاخب ؛ وعندما لم يوفق في أموره كان يميل إلى أن يلقي باللائمة على ما كان يسود هذه الهرمية الهرطيقية من ندّية(٨).

١٢٥٤م : وليم (أوف روبروك) في قراقورم

ولم تكن سفارته ناجحة تماما في الواقع . ذلك أنه ارتحل عن طريق عاصمة باتو على نهر الفولجا حيث وجد ابن باتو ، سرتق ، ميّالا إلى معاملة المسيحيين معاملة حسنة ، رغم احتمال عدم كونه مسيحيا حقيقيا . ولقد أرسله باتوا إلى منغوليا ، وسافر على حساب الحكومة بطول الطريق التجاري الكبير ، في راحة وأمان ، برغم مرور أيام بكاملها دون رؤية منزل واحد . وفي نهاية ديسمبر ١٢٥٣م وصل إلى

---

(٦) William of Rubruck (trans. Rockhill), pp. 165 ff., 176-7. كما كان هناك رجل انجليزي مولود في هنجاريا يدعى بازيل كان يعيش في قرقورم (ibid. p. 211). ويصف Bar-Hebraeus, p. 411 هيثوم وكذلك ملكي جورجيا الذين كانوا في قرقورم ، إلى جانب سفارات من حلب ومن الفرنج ومن الحشاشين في البرلمان (كوريلتاي) في أعقاب موت أوغوداي

(٧) Howorth, *op. cit.*, i, pp. 188-91. وماتت سورغقتاني في فبراير ١٢٥٢م . ويطلق عليها Bar-Hebraeus (p. 417) "الملكة كاملة الحكمة والإيمان"؛ William of Rubruck (trans. Rockhill), pp.184-6؛ Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', *loc. cit.* p.198. وقد أخبر هولاكو المؤرخ الأرميني فارتان أن أمه كانت مسيحية مخلصة (Vartan, Armenian text, ed. Emin, p.205).

(٨) William of Rubruck, *loc. cit.*

معسكر الخان الأعظم على مبعدة أميال قليلة من قراقورم . واستقبله مونغكا استقبالا رسميا يوم ٤ يناير ، وسرعان ما رحل بعد ذلك مع البلاط إلى قراقورم نفسها . ووجد الحكومة المغولية وقد عقدت عزمها فعلا على مهاجمة مسلمي غرب آسيا ، وعلى استعداد لمناقشة الإقدام على عمل مشترك . بيد أنه كانت هناك عقبة لا سبيل إلى تخطيها ؛ إذ لا يستطيع الخان الأعظم أن يقبل وجود أي أمير ذا سيادة غيره في العالم . وكانت سياسته الخارجية بسيطة في أساسها؛ فأمّا أصدقاؤه فكانوا أتباعا له فعلا ؛ وأما أعداؤه فكان يتعين إزالتهم أو إخضاعهم إلى حالة التبعيّة . وكان كل ما استطاع وليم الحصول عليه هو الوعد المخلص تماما بأن يتلقى المسيحيون المساعدة الوفيرة طالما جاء حكامهم لتقديم فروض الولاء لسيد العالم . ولم يكن باستطاعة ملك فرنسا التعامل بتلك الشروط . وفي أغسطس ١٢٥٤م ، غادر وليم قراقورم وقد تعلّم ، كشأن سفراء كثيرين بعده ذهبوا إلى بُلطٍ أبعد في آسيا ، أن عواهل الشرق لا يفهمون أعراف الدبلوماسية الغربيّة ولا مبادئها . وعاد بطريق آسيا الوسطى إلى بلاط باتو ومنه خلال القوقاز وهضبة الأناضول إلى أرمينيا ثم إلى عكا . وكان يُعامل في كل مكان يذهب اليه بالإحترام اللائق بمبعوث مفوض إلى الخان الأعظم(٩).

وكان الملك هيثوم قد وصل إلى قراقورم بعد رحيل وليم عنها بفترة وجيزة . ولقد جاء وقد اختار طواعية أن يكون تابعا ؛ وكان الزائرون الأجانب الآخرون إمّا من الأتباع الذين استدعوا رغما عنهم ، أو أنهم كانوا ممثلين للملوك يدعون الإستقلال في تكبّر ؛ ولذا عومل هيثوم برعاية خاصة ؛ فعندما استقبله مونغكا استقبالا رسميا في ١٣ سبتمبر ١٢٥٤م، منحه وثيقة تؤكد سلامته شخصيا وسلامة مملكته من أي انتهاك ، وعومل باعتباره المستشار المسيحي الرئيسي للخان في الشؤون المتصلة بغرب آسيا. ووعده مونغكا بإعفاء كافة الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب . وأعلن أنه أصدر أوامره لأخيه هولاكو ، الذي رسّخ فعلا أركانه في فارس ، بالإستيلاء على بغداد والقضاء على قوة الخلافة ، وتعهد باستعادة القدس ذاتها للمسيحيين اذا تعاونت معه كافة القوى المسيحية. ورحل هيثوم عن قراقورم في أول نوفمبر محمّلا بالهدايا وقد اغتبط لنجاح جهوده التي بذلها . وارتحل إلى الوطن عن طريق التركستان وفارس حيث أعرب عن ولائه لهولاكو ثم عاد إلى أرمينيا في شهر يولية التالى(١٠).

---

(٩) *Ibid.* pp. 165 ff.

(١٠) Kirakos, pp. 279 ff.; Vahram, *Rhymed Chronicle,* p. 519; Bar-Hebraeus, pp. 418-19; Hayton, *Flor des Estoires,* pp. 164-6; Bretshneider, *Mediaeval Researches,* i, pp.

وكان تفاؤل هيثوم طبيعيا لكنه كان مفرطا . ذلك أن المغول كانوا يقينا تواقين إلى السيطرة على الخلافة أو القضاء عليها . وكان لديهم فعلا الكثير من الرعايا المسلمين بحيث بات من الأمور الأساسية لهم السيطرة على المؤسسة الدينية الرئيسية في العالم الإسلامي ، ولم تكن لديهم عداوة خاصة يكنّونها للإسلام كدين ؛ وبالمثل ، وبرغم محاباتهم للمسيحية محاباة تفوق أي عقيدة أخرى ، فلم تتوفر لديهم نيّة السماح بوجود أية دولة مسيحية مستقلة ؛ وفي حالة استعادة القدس للمسيحيين ، فإنها سوف تستعاد تحت الإمبراطورية المغولية . ومن دواعي الإثارة أن نتأمّل فيما كان يمكن أن يحدث لو تحققت طموحات المغول في غرب آسيا . كان من الممكن إنشاء خانيّة مسيحية عظمى وربما تنميها بمرور الزمن من القوة المركزية في منغوليا . بيد أن حلم القديس لويس في أن يصبح المغول الأبناء المطيعين للكنيسة الرومانية لم يكن ليرد في الأذهان ؛ ولم تكن المنشآت المسيحية في غرب آسيا لتحتفظ بأي استقلال لها . لو حدث انتصار مغولي في غرب آسيا لكان في صالح العالم المسيحي ككل ؛ غير أنه ليس من الممكن توجيه اللائمة إلى فرنج أوتريميه، المدركين لموقف الخان الأعظم إزاء الأمراء المسيحيين ، لتفضيلهم المسلمين الذين عرفوهم على هؤلاء القوم الغرباء ذوي الشراسة والغطرسة الآتين من الصحارى القصيّة ، وسجلهم في أوروبا الشرقية لا يبعث على التشجيع[١١]. أما محاولة هيثوم بناء تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول فقد استقبلها المسيحيون الوطنيون استقبالا حسنا ؛ وانصاع بوهمند أمير أنطاكية الذي كان واقعا تحت نفوذ حميه . لكن فرنج آسيا نأوا بجانبهم[١٢].

١٢٥٦م : الجيش المغولي يتحرك باتجاه الغرب

في يناير ١٢٥٦م عبر جيش مغولي ضخم نهر أكسس Oxus بقيادة هولاكو أخي الخان الأعظم . وكان هولاكو - كأخيه قبلاي - أفضل تعليما من أغلب أمراء المغول؛

164-72 .

(١١) للإطلالاع على الدفاع عن موقف الفرنج، انظر Cahen, *La Syrie du Nord,* pp. 708-9. وفي تاريخ الحملات الصليبية لجروسيت Grousset in his *Histoire des Croisades* ، دأب على الإشارة بحق الى الفرص التي أضاعها الفرنج برفضهم التحالف مع المغول ، لكنه على الرغم من معرفته تاريخ المغول يبدو أنه قد تغاضى عن استحالة معاملة الخان الأعظم للفرنج على أنهم مستقلين لا تابعين . لم يكن المغول يعترفون بإمكان وجود دول أجنبية مستقلة

(١٢) أنظر أدناه الصفحات (٣٦٠-٣٦٢) و(٣٦٤-٣٦٥).

فكان يميل إلى تقريب المتعلمين وقد داوم هو نفسه إرضاء ميوله في إطلالاته على الفلسفة والكيمياء . ولقد اجتذبته البوذية كما سبق أن اجتذبت أخاه قبلاي ؛ غير أنه لم يكف قط عن شامانية أسلافه، وكان يفتقر إلى ما كان يتصف به أخوه من حب الخير . وكان يعاني من نوبات من الصرع التي ربما كان لها أثرها على طباعه التي لا يعتمد عليها ؛ فكان متوحشا إزاء المقهورين كشأن أي من أسلافه . على أنه لم يكن للمسيحيين ذريعة للشكوى منه ؛ إذ كان أقوى نفوذ في بلاطه هو نفوذ زوجته الرئيسية دوكوز خاتون . وكانت هذه السيدة المرموقة أميرة كيراتية ، حفيدة طغرل خان ، ومن ثمّ من أبناء خؤولة أم هولاكو . وكانت نسطورية غيورة ، ولم تخف كراهيتها للإسلام وتلهفها على مساعدة المسيحيين من أية ملّة[١٣].

وكان هدف هولاكو الأول هو مقر الحشاشين في فارس ؛ فليس في الإمكان وجود حكومة منظمّة حتى يتم القضاء على هذه الطائفة ، خاصة وقد أساء أتباع الطائفة إلى المغول بقتلهم ياغاتاي ، الإبن الثاني لجنكيز خان . وكان هدفه التالي بغداد التي يستطيع الجيش المغول التقدم منها إلى سوريا . وقد وضعت الخطط بعناية لكل شيء؛ فأُصلحت الطرق عبر تركستان وفارس وشيّدت الجسور ، وأرسلت الطلبات لجلب عربات آلات الحصار من الصين ، ونزعت القطعان من الرعاة كي يصبح الكلأ وفيرا لخيول المغول . وكانت مع هولاكو دوكوز خاتون واثنتان من زوجاته الأخريات وابناه الأكبران . وكان حفيده نيغودار يمثّل آل ياغاتاي . وأرسل باتو من (القبيلة الذهبية) ثلاثة من أبناء اخوته ارتحلوا أسفل الشاطئ الغربي لبحر قزوين وانضموا إلى الجيش في فارس . وقدمت كل قبيلة في الكونفدرالية المغولية خمس رجالها المقاتلين ، وكان هناك آلاف من الرماة الصينيين المهرة في إطلاق السهام المشتعلة من قِسيّهم . وكان جيش قد أرسل قبل ثلاث سنوات لإعداد العدة وعلى رأسه أكثر جنرالات هولاكو ثقة وهو قيتبوغا النسطوري ذي العرق النايماني Naiman ، والذي قيل أنه من نسل الحكماء الثلاثة من الشرق[١٤]. وكان قيتبوغا قد أعاد توطيد السلطة المغولية في أهم مدن الهضبة الإيرانية

---

(١٣) Rashid ad-Din (trans. Quatremére), pp. 94-5, 145، الذي يذكر تأثير دوكوز خاتون . وقد أعجب بها كونغكا وكان دائما ما ينصح هولاكو بالأخذ برأيها . وقد ولدت أميرة كيراتية كشأن سورغقتاني . وعن هولاكو أنظر:

Howorth, *op. cit.* iii, pp. 90 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades,* iii, pp. 563-6.

(١٤) حكماء المشرق الثلاثة، أو مجوس المشرق الذين جاءوا ليعبدوا عيسى الطفل فى بيت لحم، طبقا لإنجيل متى، الإصحاح الثاني.

واستولى على بعض معاقل الحشاشين الأقل أهمية قبل وصول هولاكو[١٥].

١٢٥٧م : إبادة الحشاشين في فارس

عبثا حاول زعيم الحشاشين ركن الدين خورشاه تجنب الخطر بالدسائس والألاعيب الدبلوماسية . ودخل هولاكو أرض فارس وزحف زحفا بطيئا وبلا هوادة خلال ديماوند وعباس أباد إلى سهول الحشاشين . وبظهور الجيش العرمرم أمام قلعة ألموت وشروعه في تشديد حصاره للقلعة ، خضع ركن الدين ، وجاء بنفسه في ديسمبر إلى خيمة هولاكو لإعلان خضوعه.ورفض حاكم القلعة إطاعة أوامره باستسلامها ، فاستولى عليها المغول عنوة بعد أيام قليلة . ووعد هولاكو الإبقاء على حياة ركن الدين، غير أن هذا الأخير التمس إرساله إلى قراقورم آملا الحصول على شروط أفضل من الخان الأعظم مونغكا . وبوصوله هناك رفض مونغكا مقابلته قائلا إنه من الخطأ إنهاك الخيول الكريمة في مثل تلك البعثة العقيمة . وكانت هناك قلعتان للحشاشين لا تزالان صامدتين أمام المغول ، جيردكوه ووليمبيسر . وقيل لركن الدين أن يعود إلى بلاده للترتيب لإستسلام القلعتين ؛ وفي الطريق قُتل مع حاشيته ، وفي ذات الوقت أرسلت الأوامر إلى هولاكو بضرورة إبادة الطائفة عن آخرها . وأرسل عدد من أقارب زعيم الحشاشين الأكبر إلى إبنة ياغاتاي ، سالغان خاتون ، كي تنتقم بنفسها لمقتل والدها . وجُمع آخرون بذريعة إجراء احصاء وقتلوا بالألوف . وفي نهاية ١٢٥٧م لم يكن هناك في الجبال الفارسية سوى القليل من اللاجئين . أما الحشاشون في سوريا فكانوا حتى آنذاك بعيدين عن قبضة المغول ؛ لكنهم استشرفوا مصيرهم[١٦].

وكان الحشاشون يحتفظون في قلعة آلموت بمكتبة ضخمة مليئة بكتب الفلسفة وعلوم السحر ، وأرسل هولاكو حاجبه المسلم ، عطاء الملك يوفيني ، لفحصها . فنحّى عطاء الملك جانبا نسخ القرآن التي وجدها ، وكذا الكتب ذات القيمة العلمية والتاريخية، وأحرق أعمال الزندقة . وبمصادفة غريبة ، شب في ذات الوقت حريق كبير بفعل البرق في المدينة المنورة ، ودمّرت تماما مكتبتها التي كانت تحوى أعظم المختارات

---

(١٥) Bretschneider, *op. cit.* pp. 114-15، من المصادر الأصلية. وعن أسلاف قيتبوغا، أنظر Hayton, *Flor des Estoires*, p. 173.

(١٦) *Ibid.* pp. 116-18; Browne, *Literary History of Persia,* ii, pp. 458-60.

عن الفلسفة الإسلامية القويمة(١٧).

واحتث هولاكو شأفة الحشاشين في فارس ، ثم زحف بجيشه الجرار على عاصمة الخلافة الإسلامية ، بغداد . وكان الخليفة المستعصم في السابعة والثلاثين من عمره ، ومن الأسرة الحاكمة العباسية ، وابن الخليفة المستنصر من أمة أثيوبية ، وكانت الآمال تداعبه في استرجاع قوة عرشه وهيبته . ومنذ انهيار الخوارزميين صارت الخلافة سيدة نفسها ، وما كان من خصومة بين القاهرة ودمشق ساعد الخليفة على أن يتصرف تصرف الحَكَم للإسلام . بيد أنه على الرغم من اصطناعه الأبهة ومظاهر التشريفات من حوله ، فقد كان المستعظم رجلا ضعيفا أحمق ، كل همّه إشباع ملذاته الشخصية ، وقد تمزق بلاطه من جرّاء العداوة بين وزيره الشيعي مؤيد الدين ، وأمين سره السنّي أيبك الذى كان يحظى بتأييد ولى العهد . وكانت حصون بغداد شديدة البأس ، وباستطاعة الخليفة بناء جيش كبير ، إذ كان عدد فرسانه مائة وعشرين ألفا؛ غير أن ذلك كان متوقفا على مصادر الإمدادات العسكرية ، والمستعصم لا يثق في أتباعه ، ومن ثم أخذ الخليفة بنصيحة وزيره بتقليص حجم الجيش ودفع إتاوة اختيارية من المال الناتج عن ذلك للمغول لإبعادهم عن بغداد . ولم يكن لسياسة التهدئة هذه أن تصيب نجاحا ، حتى في حالة تنفيذها على وجه الإتساق الأكمل ؛ ذلك أنه عندما رد هولاكو بطلب الإعتراف بسيادته على الخلافة ، كان نفوذ أيبك آخذا في الصعود ، وانتهى الأمر برفض طلب هولاكو رفضا متعاليا(١٨).

وبات العرّافون من حول هولاكو لا يتفقون جميعا على تشجيع حملته ، وراودته هواجس الخوف من خيانة أتباعه ممن يدينون بالإسلام وتدخُّل حكام سوريا ومصر، فشرع في حملته متوجسا شيئا ما . على أنه اتخذ احتياطات ذات فعالية إزاء احتمالات الخيانة، ولم يخف أحد لإنقاذ بغداد ، وفي ذات الوقت زاد جيشه قوة على قوة إذ جاءته فرقة من القبيلة الذهبية المغولية وكذلك الجيش الذي أبقاه بايكو على تخوم الأناضول طوال العقد الأخير ، فضلا عن فرقة من الفرسان الجورجيين المتحمسين لضرب عاصمة الكفرة.

وفي نهاية ١٢٥٧م انطلق الجيش المغولى هابطامن قاعدته في همذان ، وعبر بايكو

---

(١٧) Browne, *loc. cit*

(١٨) D'Ohsson, *Histoire des Mongols*, iii, pp. 215-25.

بجنوده نهر دجلة عند الموصل وسار جنوبا على الضفة الغربية ، ودخل كيتبوغا وجناح الميسرة سهل العراق الواقع شرقى العاصمة ، بينما تقدم هولاكو والقلب خلال كرمنشاه . وما أن سمع الخليفة باقتراب بايكو من الشمال الغربى حتى انطلق جيشه بقواته الرئيسية لملاقاته. وأعاد أيبك عبور نهر دجلة على مبعدة ثلاثين ميلا من بغداد ، فتظاهر بايكو بالإنسحاب وبذا تربص بالعرب في مكان منخفض معشوشب تملأه المستنقعات ، وبعث بمهندسين لهدم الجسور المقامة على نهر الفرات من خلفهم ، واستؤنفت المعركة في اليوم التالى . وأُجبر جيش أيبك على التقهقر إلى المنخفضات الطينية ، ولم يتمكن من الفرار سوى أيبك نفسه وحرسه الشخصى خلال المياه إلى بغداد وهلك سواد جيشه في ميدان المعركة ، وفر الباقون على قيد الحياة إلى داخل الصحراء وتفرقوا[١٩].

١٢٥٨م : المغول يخربون بغداد

وفى ١٨ يناير ظهر هولاكو أمام أسوار بغداد الشرقية وبحلول الثاني والعشرين من الشهر باتت المدينة محاصرة تماما مع جسور من القوارب على نهر دجلة أقيمت شمال وجنوب أسوار المدينة التى يتوسطها النهر وتطل على ضفتيه كلتيهما. وكانت المدينة الغربية التي تحوى قصر الخلفاء الغابرين أقل أهمية !الآن من المدينة الشرقية حيث تتركز مبانى الحكومة ، وشن المغول أعنف هجماتهم على الأسوار الشرقية .وبدأ اليأس يدب في نفس المستعصم . وبنهاية يناير أرسل الوزير ، الذي كان ينادى دائما بالسلام مع المغول ، ومعه البطريق النسطورى ، آملا في أن يتوسط لدى دوكوز خاتون في محاولة التعامل مع هولاكو فأعيدا دون أن يسمعهما أحد . وبعد أن قصف المغول الأسوار الشرقية قصفا مرعباخلال الأسبوع الأول من فبراير بدأت الأسوار في الإنهيار ، وفى العاشر من فبراير ، اقتحم المغول المدينة بأعدادهم الغفيرة ، وهنا برز الخليفة وسلّم نفسه لهولاكو ومعه قادة الجيش جميعا ورجالات دولته . فأُمروا بإلقاء أسلحتهم ثم ذُبحوا ، ولم يُبق المغول على أحد سوى الخليفة إلى أن دخل هولاكو المدينة والقصر يوم ١٥ فبراير . وبعد أن كشف الخليفة عن مخبأ كنوزه كلها ، قُتل هو الآخر . وفي تلك الأثناء دارت المذابح في كافة أنحاء المدينة لم يسلم منها من استسلم على الفور ومن واصل القتال ، وهلك النساء والأطفال مع رجالهم ؛ ووجد مغولي في شارع جانبى أربعين

(١٩) Brown, *op. cit. ii*, pp. 461-2.

رضيعاحديثى الولادة ماتت أمهاتهم ، فأخذته الرحمة بهم فقتلهم إذ كان يدرك عدم إمكان بقائهم على قيد الحياة وليس هناك من يرضعهم. وكان الجنود الجورجيون وهم أول من اقتحم الأسوار على جانب خاص من الشراسة في تخريبهم . وفي مدى أربعين يوما قُتل ثمانون ألف مواطن تقريبا في بغداد . وكان الباقون علي قيد الحياة عددا قليلا من المحظوظين الذين لم تُكتشف أماكن اختبائهم في بعض الأقباء وعددا من البنات والأولاد من ذوى الجاذبية نجوا ليصبحوا عبيدا ، وأفراد المجتمع المسيحى الذين لجأوا إلى الكنائس وتُركوا دونما إزعاج بأوامر خاصة من دوكوز خاتون(٢٠).

وفي أواخر مارس كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث من الشدة بحيث سحب هولاكو جنوده من المدينة خشية الأوبئة ؛ وأعرب الكثير منهم عن الأسى وهم خارجون لإعتقادهم أنه لا تزال هناك أشياء نفيسة يمكن العثور عليها. على أن هولاكو يمتلك الآن الكنوز الضخمة التى اكتنزها الخلفاء العباسيون طوال خمسة قرون . وبعد أن أرسل قسما كبيرا منها إلى أخيه مونغكا ، عاد متمهلا إلى همذان ومنها إلى أذربيجان حيث بنى قلعة حصينة فى شاها على شاطىء بحيرة أورميا، وجعلها بمثابة مخزن لكافة ما بحوزته من ذهب ومعادن نفيسة ومجوهرات . وترك بغداد يحكمها الوزير السابق مؤيد الدين يراقبه مسؤولون مغوليون عن كثب. ومُنح البطريق النسطورى ماكيكا اقطاعات خصيبة وقصرا ملكيا سابقا يكون له سكنا وكنيسة. وجرى تنظيف المدينة وإصلاح شأنها تدريجيا ، وبعد ذلك بأربعين سنة أصبحت مدينة اقليمية مزدهرة، وقد تضاءل حجمها إلى عشر ما كانت علية(٢١).

وكان لأنباء تدمير بغداد عميق الأثر فى آسيا كلها . فطُرب لذلك المسيحيون الآسيويون فى كل ماكان ؛ وفى نشوة المنتصرين كتبوا عن سقوط بابل الثانية ، وهتفوا لهولاكو ودوكوز خاتون على أنهما قسطنطين وهيلينا(٢٢)، بُعثا من جديد وقد اتخذهما

---

(٢٠) *Ibid.* pp. 462-6; Bretchneider, *op. cit.* i,pp. 119-20; Abu'l Feda, pp. 136-7; Bar Hebraeus, pp. 429-31; Kirakos, pp. 184-6; Vatran (Armenian text, ed. Emin), p. 197; Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 169-70.

(٢١) Bretschneider, op. cit. pp. 120-1; D'Ohsson, op. cit. iii, p. 257; Levy *A Baghdad Chronicle*, pp. 259-60.

(٢٢) (المترجم :)قسطنطين .(مات سنة ٣٣٧م) أول امبراطور بيزنطى يعتنق المسيحية. ناصر الكنيسة ووهبها المبانى ، خاصة فى فلسطين . اتخذ من بيزنطة عاصمة له بعد أن أعاد بناءها وأطلق عليها "القسطنطينية" عام٣٣٠م . فى٣٢١م أمر بأن يكون يوم الأحد عطلة رسمية . وفى الشرق يعتبر قديسا.

الرب وسيلة للإنتقام من أعداء المسيح[٢٣].

أما المسلمون ، فقد رأوا فى سقوط بغداد صدمة مروعة وتحديا ؛ فعلى مدى قرون اقتطعت من الخلافة العباسية جوانب كثيرة من القوة المادية ، لكن كيانها المعنوى كان لا يزال عظيما . والآن وقد أُزيلت الأسرة الحاكمة وكذلك العاصمة ، باتت زعامة الإسلام خاوية وغدا بمقدور أي قائد إسلامي طموح أن يشغلها . ولم يطُل التشفّى المسيحى ؛ فسرعان ما غلب الإسلام غالبيه ؛ غير أن وحدة العالم الإسلامى كانت قد تلقت ضربة لم تستطع قط أن تبرأ منها . وكان سقوط بغداد - بعد سقوط القسطنطينية بنصف قرن فى ١٢٠٤م - وقد وضع نهاية دائمة لثنائية الحكم القديمة المتوازنة بين بيزنطة والخلافة ، وهى الثنائية التى فى ظلها ازدهرت الإنسانية طويلا فى الشرق الأدنى ؛ لكن لم يقدر للشرق الأدنى مطلقا أن يعيد هيمنته على الحضارة.

١٢٥٩م المغول يدخلون سوريا

عد أن خرّب هولاكو بغداد حوّل انتباهه إلى سوريا . وكانت خطوته الأولى هى إحكام قبضة المغول على الجزيرة ، وخاصة لإخضاع الكامل أمير ميافرقين الأيوبى الذى رفض قبول السيادة المغولية ، ومضى شأواً بعيداً بحيث صلب قسا يعقوبيا قام بزيارته كمبعوث من هولاكو[٢٤]. واستقبل هولاكو مبعوثين من دول كثيرة قبل مغادرته معسكره . وجاءه بدرالدين لؤلؤ ، أتابج الموصل المسن ، كى يعتذر عن مساوئه السابقة؛ وسرعان ما أتى على أثره السلطانان السلجوقيان إبنا كيخوسرو ، كايكاوس الثانى وقلج أرسلان الرابع ؛ وحاول الأول بلا جدوى تهدئة هولاكو ، وكان قد قاوم بايكو عام ١٢٥٦م ، مستخدما فى هذه التهدئة رياءً مفرطا مصطنعا أذهل المغول . وأخيرا، أرسل الناصر يوسف ، صاحب حلب ودمشق ، إبنه العزيز لتقديم واجب احتراماته فى اتضاع للغازى. وحوصرت ميافرقين وتم الإستيلاء عليها في وقت مبكر

هيلينا: (قديسة) أم الإمبراطور قسطنطين . هجرها زوجها ، لكنها نالت مركزا مشرّفا بعد اعتلاء ابنها العرش الإمبراطورى . تحمست فى تأييدها للقضية المسيحية. وفي سنة ٣٢٦م زارت الأراضى المقدسة . ويقول التراث الكنسى المتأخر إنها اكتشفت الصليب الذى صُلِب عليه المسيح

(٢٣) Stephen Orbelian, *History of Siunia* (Armenian text), pp. 234-5, calls Hulagu and Dokuz Khatun "the new Constantine and Helena"

(٢٤) D'Ohsson, iii, p. 307.

من سنة ١٢٦٠م ، وذلك بفضل مساعدة حلفاء هولاكو الجورجيين والأرمن . فذبحوا المسلمين وأبقوا على المسيحيين . وعُذب الكامل بأن أُجبر على أن يأكل لحم بدنه هو نفسه إلى أن مات(٢٥).

وفي سبتمبر ١٢٥٩م قاد هولاكو الجيش المغولي قاصدا غزو شمال غرب سوريا ؛ وكان كيتبوغا يقود الطليعة ، وبايكو الميمنة ، وقائد آخر مقرب - سونجاك - الميسرة، بينما كان هولاكو نفسه يقود القلب . وتقدم خلال نصيبين وحران والرها إلى البيرة حيث عبر نهرالفرات . وحاولت سروج مقاومته ، فنُهبت . وفي باكورة العام الجديد أطبق الجيش المغولي على حلب ؛ ولمّا رفضت حاميتها الإستسلام ، حوصرت المدينة يوم ١٨ يناير ؛ وكان السلطان الناصر يوسف في دمشق عندما هبت العاصفة المغولية ؛ وكان في مأموله أن يؤدي وجود ابنه في معسكر هولاكو إلى تجنب الخطر ، وعندما وجد أنه على خطأ ، خطا الخطوة الأكثر إهانة بأن عرض قبول سيادة مماليك مصر ، فوعدوه بالمساعدة لكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم لتقديمها . وفي ذات الوقت جمع جيشا خارج دمشق ، واستدعى ابني عمه صاحب حماة وصاحب الكرك لتقديم العون . على أنه بينما كان ماكثا ينتظر ، بدأ بعض ضباطه الأتراك يتآمرون ضده ، واكتشف مخططاتهم في الوقت المناسب ؛ فهربوا إلى مصر آخذين معهم واحدا من إخوته . وتسبب هربهم في إضعاف جيشه بصورة كبيرة بحيث كف عن الأمل في الخروج لإنقاذ حلب.

وكان دفاع حلب دفاعا شجاعا بقيادة تورانشاه ، عم الناصر يوسف ؛ غير أنه بعد ستة أيام من القصف تداعت الأسوار وتدفق المغول إلى داخل المدينة . وكما حدث في الأماكن الأخرى ، ذُبح المسلمون من المواطنين ، وتم الإبقاء على المسيحيين ، بخلاف بعض الأرثوذوكس الذين لم تتضح كنيستهم في جحيم التقتيل ، وصمدت القلعة لأربعة أسابيع أخرى بقيادة تورانشاه . وعندما سقطت في نهاية الأمر ، أظهر هولاكو نفسه على أنه رحيم بصورة غير متوقعة ؛ فأبقى على حياة تورانشاه لكبر سنه ولشجاعته ، ولم تمس حاشيته . ووقع في يد الغازي قدر ضخم من الكنوز . وضم هولاكو حلب إلى أمير حمص السابق الأشرف الذي كان له من البصيرة ما جعله يأتي إلى معسكر المغول كعميل قبل ذلك بشهور قليلة ؛ وتوفر له مستشارون مغول وحامية

---

(٢٥) Kirakos, pp. 177-9; Vartan, p. 199; Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 330-1; D'Osson, iii, p. 356.

مغولية دعما لسلطانه[٢٦].

وبعد ذلك ، كان يتعين معاقبة قلعة هرنس الواقعة على الطريق الذاهب من حلب إلى أنطاكية ، لأن حاميتها رفضت الإستسلام ما لم يضمن أحد المسلمين كلمة هولاكو. وعندما تم الإستيلاء عليها مع المذبحة المعتادة ، أصبح هولاكو على حدود أنطاكية ، حيث ذهب أميرها وحموه ملك أرمينيا إلى معسكره لتقديم احتراماتهما . وكان الملك هيثوم قد سبق وأن زوده بقوات للتعزيزات وكوفىء ببعض الأسلاب من حلب ، بينما صدرت الأوامر للأمراء السلاجقة بأن يعيدوا اليه الأراضى التى استولى عليها أبوهم فى كيليكيا . كما كوفىء بوهمند لما أبداه من طاعة ؛ فأُعيدت إلى إمارة أنطاكية عدة مدن وقلاع كانت تابعة للمسلمين منذ يوم انتصار صلاح الدين ، من بينها اللاذقية ؛ وفى المقابل كان مطلوبا من بوهموند تنصيب بطريق يونانى هو إيوثيميوس فى عاصمته مكان البطريق اللاتينى . وعلى الرغم من أن الملك هيثوم لم يكن يميل إلى اليونانيين ، إلا أن هولاكو كان يعى أهمية وجود عنصرهم فى أنطاكية ؛ وربما كان حافزه فى ذلك علاقة الصداقة التى تربطه بالإمبراطور فى نيقية[٢٧].

١٢٦٠م سقوط دمشق

بدا للاتينيين فى عكا أن خضوع بوهمند مجلبة للعار ، خاصة وأنه ينطوى على إهانة الكنيسة اللاتينية فى أنطاكية . وكان النفوذ البندقى ما يزال فى أعلى مستواه فى المملكة، ومرة أخرى بات البنادقة على علاقة تجارية جيدة مع مصر ؛ وقد انصب اهتمامهم على التجارة الآتية من الشرق الأقصى خلال الطريق الجنوبى وعن طريق الخليج الفارسى أو البحر الأحمر؛ وتزايدت لديهم مشاعر القلق وهم يشاهدون طرق القوافل المغولية العابرة أواسط آسيا إلى البحر الأسود حيث كان أبناء جنوا يعززون سيطرتهم بتحالفاتهم مع اليونانيين . وتلفتت الحكومة فى عكا حولها باحثة عن بلد

(٢٦) Maqrisi, *Sultans*, I, i, pp. 90,97; Abu'l Feda, pp. 140-1; Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 327-41; Bar-Hebraeus, pp. 435-6

(٢٧) *Gestes des Chiprois*, p. 161; letter to Charles of Anjou, *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii, p. 213; Bar-Hebraeus, p. 436; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 171..

وقد قام البابا بطرد بوهموند من الكنيسة بسبب هذا التحالف Urban IV, *Registres*, 26 May 1263. و لم يُذكر قط تسليم اللاذقية ، لكنها كانت فى أيدى الفرنج عندما ذُكرت بعد ذلك . أنظر أدناه الصفحتين ٣٩٥-٣٩٦.

آخر لحمايتها ؛ وكان معروفا أن تشارلز (أوف أنجو)، أخا ملك فرنسا، لديه طموحات في البحر المتوسط وكان يتآمر بالفعل من أجل عرش صقلية ؛ فأرسلت حكومة عكا إليه رسالة عاجلة في مايو ١٢٦٠م تصف أخطار تقدم المغول وترجوه التدخل(٢٨).

وفي وقت كتابة الرسالة كان المغول أسياد دمشق . فلم يحاول السلطان الناصر يوسف الدفاع عن عاصمته ؛ إذ أنه ما أن علم بسقوط حلب واقتراب الجيش المغولي حتى هرب إلى مصر لاجئا إلى المماليك ، ثم غيّر رأيه وكر عائدا باتجاه الشمال فأسره المغول . وأرسلت حماه وفدا إلى هولاكو في فبراير ١٢٦٠م ، قدّم اليه مفاتيح المدينة ، وبعد أيام قلائل حذا وجهاء دمشق حذوهم ، وفي غرة مارس دخل كيتبوغا دمشق على رأس جيش مغولي ، وبصحبته ملك أرمينيا وأمير أنطاكية . ولأول مرة منذ ستة قرون يشهد مواطنو عاصمة الخلافة القديمة ثلاثة زعماء مسيحيين راكبين في شوارع المدينة في جولة المنتصر . وكانت القلعة قد صمدت للغزاة لأسابيع قليلة ، لكنها هُزمت وتم الإستيلاء عليها يوم ٦ إبريل.

وبسقوط المدن الثلاث العظام ، بغداد وحلب ودمشق ، بدا أن الإسلام في آسيا قد جاءت نهايته . ففي دمشق ، كما في سائر أنحاء غربي آسيا ، كان الغزو المغولي يعني نهضة المسيحيين المحليين ؛ ولم يُخفِ كيتبوغا تعاطفه مع المسيحيين ، إذ كان هو نفسه مسيحيا. وللمرة الأولى منذ القرن السابع ، يجد مسلمو وسط سوريا أنفسهم أقلية مضطهدة. فكانوا يتحرقون شوقا للإنتقام(٢٩).

وفي ربيع ١٢٦٠م أرسل كيتبوغا فصائل لإحتلال نابلس وغزة ، ومع ذلك لم يصلوا إلى القدس نفسها ؛ وبذا أصبح الفرنج محاطين تماما بالمغول . ولم يكن لدى السلطات المغولية أية نوايا لمهاجمة المملكة الفرنجية شريطة أن تبدى ما يكفي من الخضوع ؛ وكان الفرنج الأكثر تعقلا على استعداد لتجنب الاستفزاز ، لكنهم لا يستطيعون التحكم في مزاجهم المتهور ؛ وكان أكثر البارونات رعونة جوليان ، لورد صيدا وبيوفورت ، وهو رجل ضخم البنية وبه وسامة ، غير أن رغباته كانت تسيّره في حمقه ، وقد خلا مما كان يتمتع به جده رينالد من ذكاء حاد . إذ سبق أن أجبره تبذيره

---

(٢٨) 'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii, pp. 213-14

(٢٩) Abu'l Feda, pp. 141-3; *Gestes des Chiprois, loc. cit.;* Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 171-2.

وللإطلاع على مراجع المخطوطات أنظر Cahen, op. cit. p. 707 nn. 19, 20.

المفرط على أن يرهن صيدا لفرسان المعبد بعد أن اقترض منهم مبالغ طائلة ؛ وتسبب مزاجه الأخرق فى نشوب خلاف بينه وبين فيليب أمير صور الذى كان خاله غير الشقيق؛ وكان قد تزوج بواحدة من بنات الملك هيثوم ؛ ولم يكن لحميه من نفوذ عليه. وبدا له أن الحروب بين المغول والمسلمين بمثابة فرصة سانحة للتوغل فى غارة من بيوفورت إلى سهل البقاع الخصيب ؛ غير أن كيتبوغا لم يكن ليسمح للمغيرين بأن يفسدوا النظام المغولى حديث الولادة ، فأرسل فصيلة صغيرة من الجنود تحت إمرة أحد أبناء إخوته لمعاقبة الفرنج ؛ فما كان من جوليان إلا أن استنجد بجيرانه لمساعدته ، فتربصوا بابن أخى كيتبوغا وقتلوه ، فأرسل كيتبوغا فى حمأة غضبه جيشا أكبر توغل داخل صيدا ونهبها برغم إنقاذ قلعة البحر بواسطة السفن الجنوية الآتية من صور . وتسبب ذلك فى هياج الملك هيثوم وألقى باللائمة على فرسان المعبد الذين انتهزوا فرصة خسائر جوليان لمصادرة رهنية صيدا وبيوفورت . وبعد ذلك بوقت قصير أغار جون الثانى أمير بيروت وفرسان المعبد على الجليل وواجهتها قوات الإحتياط المغولية بنفس القدر من الشراسة المغولية الشديدة(٣٠).

١٢٥٩م : موت الخان الأعظم مونغكا

ومع ذلك ، لم يكن بوسع كيربوقا الشروع فى معارك كبيرة . وفى الحادى عشر من أغسطس ١٢٥٩م مات الخان الأعظم مونغكا أثناء حملته مع أخيه قوبلاى فى الصين ؛ وكان أولاده صغارا غرارا ، ولذا مارس الجيش فى الصين ضغوطا لإستخلاف قوبلاى ، غير أن الأخ الأصغر لمونغكا ، أريكبوغا ، كان يسيطر على الوطن بما فيه قراقورام والخزائن المركزية لكنوز الإمبراطورية ، واشتهى العرش لنفسه . وبعد عدة شهور من المناورات واستكشاف الصديق من غير الصديق ، عقد كل من الأخوين مؤتمرا (كوريلتاى) فى ربع ١٢٦٠م ، انتخب كل مؤتمر أحد الأخوين خانا أعظم. وكان يؤيد أريكبوغا أغلب أقاربه الإمبراطوريين الذين كانوا فى منغوليا ، بينما كان لدى قوبلاي الدعم الأقوى فيما بين القادة. ولم يكن أيّ من المؤتمرين أو (الكوريلتايين) قانونيا تماما ؛ إذ لم تكن كافة فروع العائلة ممثلة ، ولم يكن أيّ من الجانبين على استعداد لإنتظار حضور هولاكو وأمراء القبيلة الذهبية ، ولم يُخطر حتى آل ياغاتاى

---

(٣٠) *Gestes des Chirois*,pp.162-4p Hayton, *Flor des Estoires, p.174p Annales de Terre Sainte*, p. p. 449، وربما أخطأ فى ذكر تاريخ هذه الأحداث بعد معركة عين جالوت

ولم يرسلوا وفودا تمثلهم . وكان هولاكو نفسه يؤيد قوبلاى ، رغم أن ابنه شوموغار كان من حزب أريقبوغا ، بينما كان بيرك - خان القبيلة الذهبية - متعاطفا مع أريقبوغا . ولم تحسم المسألة إلا فى نهاية سنة ١٢٦١م عندما سحق قوبلاى أريقبوغا أخيرا ، وفى ذات الوقت ظل هولاكو ماكثا فى حذر بالقرب من حدوده الشرقية، على أهبة الإستعداد للتحرك إلى داخل منغوليا إذا دعته الضرورة . وكان له ما يبرر شعوره بالقلق ؛ ذلك أن أريقبوغا تدخل بصورة استبدادية فى شؤون الخانية التركستانية واستبدل الوصيّة أوراغانا بابن عم زوجها (آلغو) الذى هرب لاحقا وتزوج أورغانا ، الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى انتصار قوبلاى ؛ ولـذا كان هولاكو يخشى تدخلا مماثلا فى أراضيه ؛ وفضلا عن ذلك ، كانت علاقاته مع أبناء عمومته فى القبيلة الذهبية آخذة فى التدهور . وفى الوقت الذى أظهر بلاطه أوجه التعاطف الشديد المسيحية، كان الخان بيرك ينحاز إلى الجانب الإسلامى معترضا على سياسة هولاكو المعادية للإسلام . وحدثت مناوشات فى القوقاز وهى التخوم التى تفصل بين مناطق نفوذ كل من هولاكو وبيرك ؛ وقد دأب الأخير وقواد جيشه على اضطهاد القبائل المسيحية . على أن محالة هولاكو توطيد سلطانة على الجانب الشمالى من الجبال باءت بالفشل عندما انتصر على جيش من جيوشه حفيد ابن أخى بيرك (نوغاى) بالقرب من نهر تيرك عام ١٢٦٩م(٣١).

كان هولاكو فى خضم هذه المشاغل مما اضطره إلى سحب الكثير من جنوده من سوريا بعد استيلائه على دمشق مباشرة ، وترك قيتبوغا يحكم البلد بقيادة متقلّصة تقلصا شديدا . ولسوء حظ المغول ، استفز تقدمهم فى فلسطين القوة الإسلامية العظيمة الوحيدة التى لم تهزم ، ألا وهى مماليك مصر ؛ والآن غدا المماليك فى حالة مناسبة لقبول التحدى.

كان أول سلاطين المماليك ، أيبك ، مزعزعا فى سلطانه . ولكى يضفى الشرعية على نفسه تزوج الأرملة المسِنّة السلطانة شجرة الدر ، ليس هذا فحسب وإنما عيّن كسلطان مشارك طفلا من أمراء الأيوبيين . غير أن ذلك الطفل - الأشرف موسى - كان عديم الجدوى وسرعان ما اتضح أنه عبء بلا طائل ؛ وفى سنة ١٢٥٧م نشأ

---

(٣١) Rashid ad-Din, pp. 341 ff., 391 ff.; Bar-Hebraeus, p. 439; Kirakos, pp. 192-4; Hayton, *Flor des Estoires,* p. 173. See Grousset, *L'Empire Mongol,* pp. 317-24; Howorth, op. cit. iii, p. 151; D'Ohsson, op. cit., iii, p. 377. ويبدو أن نوغيا كان من أفراد العائلة الإمبراطورية فى خط القرابة الأنثوى

خلاف بين أيبك والسلطانة التي لم تكن على استعداد لأن يهين سلطانها من يعتبر مبتدئا حديث النعمة ؛ وفي ١٥ ابريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له في حمّامه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية ، إذ نادى بعض المماليك بالإنتقام من الأرملة ، وأيدها آخرون كرمز للشرعية . وفي نهاية الأمر انتصر أعداؤها ؛ وفي ٢ مايو ١٢٥٧م ضُربت شجرة الدر حتى الموت بينما نُصّب ابن أيبك سلطانا وكان ابن خمسة عشر ربيعا ، على أن الشاب لم يكن يمثل أسرة حاكمة لها احترامها ولا يتمتع هو نفسه بشخصية القائد ، فخلعه في شهر ديسمبر ١٢٥٩م أحد رفاق أبيه القدامى ، سيف الدين قطز ، وأصبح سلطانا بدلا منه . وبتوليه السلطنة عاد إلى مصر شتى المماليك - مثل بيبرس - ممن هربوا إلى دمشق لإستيائهم من أيبك[٣٢].

١٢٦٠م : المماليك يطلبون مساعدة الفرنج

في وقت مبكر من سنة ١٢٦٠م أرسل هولاكو سفارة إلى مصر بطلب خضوع السلطان ، فقتل قطز السفير وتأهب لملاقاة المغول في سوريا . وقد حدث في تلك الآونة أن اضطر هولاكو إلى نقل الجزء الأكبر من جيشه باتجاه الشرق بعد وصول الأنباء بموت مونغكا واندلاع الحرب الأهلية في منغوليا . وكانت أعداد الجنود الذين تُركوا مع كيتبوغا أقل كثيرا من الجيش الذى جمعه قطز الآن ، فإلى جانب المصريين أنفسهم كانت هناك بقايا القوات الخوارزمية وجنود أمير الكرك الأيوبي . وفي ٢٦ يولية عبر الجيش المصرى الحدود وسار إلى غزة ، وبيبرس يقود الطليعة . وكانت هناك قوة مغولية صغيرة في غزة بقيادة القائد بيدار الذى أرسل إلى كيتبوغا يحذره من الغزو؛ على أنه قبل أن يتمكن المدد من الوصول احتث المصريون شأفة جنوده[٣٣].

وكان كيتبوغا في بعلبك ، فأعد العدة من فوره للسير جنوبا مرورا ببحر الجليل إلى وادى الأردن ، لكن انتفاضة للمسلمين في دمشق أوقفته ؛ فقد دُمّرت بيوت المسيحيين وكنائسهم ونشأت الحاجة إلى جنود المغول لإستعادة النظام[٣٤]. وفي ذات الوقت قرر قطز المسير أعلا الساحل الفلسطيني وأن يتقدم داخل البلد نحو الشمال

(٣٢) Abu'l Feda, p. 135.

(٣٣) Rashid ad-Din (trans. Quatremère), p. 347; D'Ohsson, op. cit. iii, pp. 333-5.

(٣٤) Abu'l Feda, p. 143.

لتهديد خطوط مواصلات كيتبوغا فى حالة تقدم الأخير داخل فلسطين . ولذا أُرسلت سفارة مصرية إلى عكا طالبة الإذن بالمرور خلال الأراضى الفرنجية والحصول على المؤن أثناء المسير إن لم يكن الحصول على العون العسكرى الفعّال.

واجتمع البارونات فى عكا لمناقشة الطلب . وكانت مشاعر المرارة ضد المغول تخيّم عليهم نظرا لنهب صيدا مؤخرا ، كما راودتهم الريب حيال تلك القوة الشرقية بما لها من سجل فى المذابح بالجملة . وكانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم ؛ وكان أغلبهم يفضّل المسلمين كثيرا على المسيحيين المحليين المتمتعين بمحاباة المغول . وفى بادىء الأمر كانوا ميالين إلى تقديم بعض القوات المسلحة الإحتياطية للسطان ؛ غير أن السيد الأعظم للنظام التيوتونى(٣٥)، وهو آنّو (أوف سانجرهاوزن)، حذرهم من الثقة الكبيرة فى المسلمين ، خاصة إذا ارتفعت معنوياتهم بانتصار على المغول . وكان النظام التيوتونى يمتلك الكثير من الممتلكات فى المملكة الأرمينية ؛ وربما كان آنّو يشجّع سياسة الملك هيثوم . وقد كان لكلماته التى اتصفت بالحصافة بعض الأثر على بارونات الصليبيين ؛ فرُفض التحالف العسكرى ، وإنما وعدوا السلطان بمرور آمن لجيشه وإمداده بتسهيلات المؤن(٣٦).

وخلال شهر أغسطس قاد السلطان جيشه أعلا الطريق الساحلى وعسكر لعدة أيام فى حدائق الفاكهة خارج عكا . ووجّهت الدعوة لعدد من الأمراء لزيارة المدينة كضيوف شرف ومن بينهم بيبرس الذى ألفت قطز بعد عودته إلى المعسكر إلى سهولة الإستيلاء على المدينة بغته ؛ لكن قطز لم يكن على استعداد لأن يكون خؤونا على هذا النحو ولا أن يخاطر بانتقام مسيحي بينما المغول لم يُهزموا بعد . وتزايد شعور الحرج لدى الفرنج كثرة من أعداد زائريهم ، لكن عزاءهم كان فى الوعد بالسماح لهم بشراء ما يحصلون عليه من خيول المغول بأسعار مخفّضة(٣٧).

(٣٥) (المترجم): النظام التيوتونى Teutonic Order: نظام عسكرى دينى يتألف جُلّه من الفرسان الألمان وبعض الإسكندنافيين والهولنديين والإنجليز

(٣٦) *MS. of Rothelin*, p. 637

(٣٧) William of Tripoli, *De Statu Saracenorum*, in Du Chesne, v, p. 443; *Gestes des Chiprois*, pp. 164-5.

١٢٦٠م : معركة عين جالوت

نما إلى علم قطز وهو فى عكا أن كيتبوغا قد عبر الأردن ودخل سهل الجليل الشرقي؛ فقاد جيشه على الفور باتجاه الجنوب الشرقي ، خلال الناصرة ، وفى يوم ٢ سبتمبر وصل عين جالوت ، أى عيون جوليات ، حيث سبق وأن تحدى الجيش المسيحى صلاح الدين فى عام ١١٨٣م . وجاء الجيش المغولى فى الصباح التالى وبصحبة فرسانه كتائب جورجية وأرمينية ؛ لكن كيتبوغا كان يفتقر إلى الكشافين ، إذ كان السكان المحليون غير ودودين حياله ؛ ولذا لم يكن يعرف أن الجيش المملوكى كله على مقربة . وكان قطز على دراية تامة بتفوقه العددى ، ولذا أخفى قواته الرئيسية فى التلال القريبة و لم يُظهر سوى الطليعة التى يقودها بيبرس . ووقع كيتبوغا فى الفخ . إذ قاد رجاله كلهم فى هجوم على العدو الذى رآه أمامه ؛ فتقهقر بيبرس فى لمح البصر داخل التلال والأعداء يتعقبونه فى حماس متّقد ، وفجأة وجد الجيش المغولى نفسه وقد حوصر كله . وقاتل كيتبوغا قتالا رائعا ، وبدأ المصريون يتأرجحون ، ودخل قطز نفسه المعركة لتنظيمهم ؛ على أنه بعد ساعات قليلة اتضحت آثار تفوق المسلمين العددى . وتمكن بعض رجال كيتبوغا من شق طريقهم هربا من المعركة ، لكن كيتبوغا نفسه رفض أن يشهد هزيمته ؛ فكان وحيدا أو يكاد عندما قُتل حصانه ووقع أسيرا ، وأنهى أسره المعركة . واقتيد فى القيود إلى السلطان الذى راح يسخر من سقوطه ؛ فرد فى تحدٍ متنبئا بانتقام مخيف من المنتصرين ، ومتفاخرا بأنه - على خلاف أمراء المماليك - دائم الإخلاص لسيده . فضربوا عنقه(٣٨).

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ . ومن الحق أن الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل تسببت فى أن يصبح الجيش المغولى فى سوريا من الضآلة بحيث لم يقدر - في غيبة الكثير من الحظ الحسن - على الإضطلاع بإخضاع المماليك، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة ، لأمكن استعواض الهزيمة ؛ غير أن تصاريف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التاريخ المتخذ فى عين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكى إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُدّر للمغول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين فى آسيا غفيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أم يكونوا الجنس الحاكم. ولو

---

(٣٨) Rashid ad-Din, pp. 349-52; Maqrisi, I, i, *Sultans*, pp. 104-6; Abu'l Feda, pp. 143-4.

قُدّر لكيربوقا المسيحى الإنتصار ، لكان فى ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون الآسيويون فى مركز القوة للمرة الأولى منذ الهرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العبث أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك، ولا يستطيع المؤرخ إلا أن يقص ما قد حدث فعلا . لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية فى الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى بروز الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين فى آسيا ؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحي فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين فى غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام. كما أسرعت بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تنبأ السيد الأعظم للنظام التيوتونى ، باتوا تواقين للإنتهاء من أعداء العقيدة.

وبعد خمسة أيام من الإنتصار فى عين جالوت ، دخل السلطان دمشق . فأما الأشرف الأيوبى الذى نبذ القضية المغولية فقد أعيد تنصيبه فى حمص ؛ وأما أمير حماة الأيوبى الذى هرب إلى مصر فقد عاد إلى إمارته ؛ واستعيدت حلب فى غضون شهر . وأما هولاكو ، الذى تملكه الغضب لفقدانه سوريا ، فكان فاقد الحيلة إلى أن يعود النظام فى قلب الإمبراطورية المغولية . ولقد أرسل الجنود لإستعادة حلب فى شهر ديسمبر ، لكنهم أُجبروا بعد أسبوعين على الإنسحاب بعد أن ذبحوا عددا كبيرا من المسلمين انتقاما لموت كيتبوغا . وكان ذلك هو كل ما استطاعه هولاكو للإنتقام لصديقه المخلص[٣٩].

وانطلق السلطان قطز فى رحلة العودة إلى مصر تظلله أكاليل المجد . على أنه بالرغم من أن نبوءة كيتبوغا عن الثأر لم تتحقق تماما قط ، فإن ملاحظته المريرة عن عدم إخلاص المماليك سرعان ما كان لها ما يبررها . إذ أن ريبة قطز فى أكثر قواده نشاطا وهو بيبرس ، كانت آخذة فى التزايد ؛ وعندما طلب بيبرس أن يُنصّب حاكما لحلب رُفض طلبه بصورة جافية . ولم ينتظر بيبرس طويلا كي يتصرف ؛ ففى يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م ، وبينا كان الجيش المنصور يقترب من حافة الدلتا ، ذهب قطز للتريض فى صيد الأرانب البرية ، وانطلق مع قليل من أمرائه بمن فيهم بيبرس وبعض أصدقائه . وما أن ابتعدوا عن المعسكر حتى اقترب أحدهم كما لو كان سيطلب شيئا من السلطان ، وبينما كان ممسكا يده متهيّئا لتقبيلها، اندفع بيبرس من الخلف وطعن

---

(٣٩) Abu'l Feda, p. 144; Bar-Hebraeus, pp. 439-40. See Cahen, op. cit. pp. 710-11

سيده بالسيف فى ظهره . ثم إن المتآمرين انطلقوا على جيادهم إلى المعسكر ليعلنوا القتل . وكان أقطاى ، ياور السلطان ، فى الخيمة الملكية عندما وصلوا وسأل من فوره أيهم ارتكب القتل ؛ وعندما اعترف بيبرس على نفسه ، دعاه أقطاى إلى الجلوس على عرش السلطان ، وكان أول من أعرب له عن طاعته ؛ وحذا قادة الجيش كلهم حذوه. وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطانا(٤٠).

(٤٠) Abu'l Feda, loc. cit.; Maqrisi, *Sultans*, I, 1, pp. 110-13; Bar-Hebraeus, loc. cit.; *Gestes des Chiprois*, pp. 165-6.

الفصل الرابع:

السلطــان بيــبرس

السلطان بيبرس

"وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيتسلط عليهم
ملك عزيز يقول السيد رب الجنود"
(إشعياء ٤:١٩)

كان ركن الدين بيبرس البندقدارى يقارب الآن عامه الخمسين ، وهو تركى من الكيبشاك بالميلاد ضخم داكن البشرة ، أزرق العينين ذو صوت عال رنان . وعندما جاء إلى سوريا بادىء الأمر كعبد عُرض للبيع على أمير حماه الذى تفحصه وظنه حلفا بالغ الخشونة . غير أن أميرا مملوكيا ، البندقدار حارس السلطان ، لاحظه فى السوق وآنس فيه الذكاء ، فابتاعه . ومنذ ذلك الوقت سرعان برز نجمه ، ومنذ انتصاره على الفرنج فى سنة ١٢٤٤م عرف عنه أنه أقدر المماليك العسكر . وأظهر الآن أنه رجل دولة من أرفع مستوي ، لا تعوقه مقتضيات الشرف أو الإمتنان أو الرحمة[١].

كان أول ما يشغله توطيد وضعه الجديد كسلطان ؛ ولم يعترض سبيله أحد فى مصر، أما فى دمشق فكان هناك مملوك آخر استولى على السلطة هو سنقر الحلبى الذى

(١) Abu'l Feda, p. 156. See Sobernheim, article 'Baibars' in *Encyclopaedia of Islam*.

كانت له شعبيته فى دمشق ، لكن هجوم المغول على حلب فى نفس الوقت هدد قبضة بيبرس على سوريا؛ غير أن أميري حمص وحماه الأيوبيّين هزم المغول بينما زحف بيبرس على دمشق وهزم سنقر خارج المدينة يوم ١٧ يناير ١٢٦١م ، وحارب مواطنو دمشق تأييدا لسنقر لكن مقاومتهم سُحقت . ومضى بيبرس ليتعامل مع الأيوبيين ؛ فأغرى أمير الكرك بوعود براقة كى يضع نفسه تحت إمرة السلطان ثم أُزيل بهدوء ؛ وسُمح للأشرف صاحب حمص بالإحتفاظ بمدينته حتى وفاته سنة ١٢٦٣م. وفى أوائل سنة ١٢٦٤م اتفق نظاما المعبد والمستشفى على توحيد قواتهما للإستيلاء على حصن ليزون الصغير ، وهى مِجيدّو القديمة[٢]، وبعد أشهر قليلة قاما بغارة مشتركة حتى عسقلان ، بينما توغل فى الخريف الجنود الفرنسيون الذين يُدفع نفقاتهم من أموال القديس لويس، توغلا فعالا حتى ضواحى بيسان . ولذلك احتاح المسلمون الريف الفرنجى جنوب الكرمل فأمست الحياة غير آمنة هناك[٣].

وفى بداية سنة ١٢٦٥م انطلق بيبرس من مصر على رأس جيش رهيب . ذلك أن المغول بدأوا يعتدون على شمال سوريا فى ذلك الشتاء ؛ وانتوى بيبرس بادىء الأمر القيام بهجوم مضاد؛ لكنه علم أن جنوده فى الشمال أوقفوهم ، ولذا أصبح فى مقدوره استخدام جيشه فى مهاجمة الفرنج فى الجنوب . وتظاهر بأنه يتسلي بحملة صيد ضخمة فى التلال الواقعة خلف أرصوف ، ثم ظهر بغتة أمام قيسارية ، وسقطت المدينة فى الحال يوم ٢٧ فبراير، وصمدت القلعة لأسبوع ، واستسلمت الحامية يوم ٥ مارس وسُمح لها بحرية الرحيل، غير أن المدينة والقلعة على السواء سُوّيتا بالأرض . وبعد أيام قلائل ظهر جنوده عند حيفا. فأما المواطنون الذين أُنذروا فى الوقت المناسب فقد هربوا فى قوارب كانت راسية تاركين كلا من المدينة والقلعة اللتين دمّرتا ؛ وأما من بقى هناك فقد قُتل . وفى تلك الأثناء هاجم بيبرس قلعة فرسان المعبد العظيمة فى عثليت ، وحُرقت القرية الواقعة خارج الأسوار لكن القلعة نفسها أفلحت فى مقاومته ؛ وفى ٢١ مارس كفّ عن محاصرتها وسار إلى أرصوف التى حصنها فرسان المستشفى بالحامية والمؤن تحصينا جيدا ؛ فكان بها ٢٧٠ فارسا داخل القلعة حاربوا بشجاعة رائعة ، لكن جنوب المدينة سقط يوم ٢٦ ابريل بعد أن دمّرت آلات حصار السلطان أسوارها ، وبعد ثلاثة أيام استسلم قائد القلعة ، الذى فقد ثلث فرسانه، بعد الوعد بمرور الأحياء

(٢) (المترجم) مِجيدّو : Megiddo مدينة قديمة شمال فلسطين على سهل ازدراليون يرجع تاريخها الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . يعتقد أنها هرماجيدون Armageddon المذكورة فى الإنجيل

(٣) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 444, 449; *Annales de Terre Sainte*, p. 451.

مرورا آمنا ، وتراجع بيبرس عن وعده واقتادهم جميعا أسرى. وارتاع الفرنج لضياع هاتين القلعتين العظيمتين ، وألهمت هذه الخسارة المنشد المتجول ، ريكوت بونوميل ، قصيدةً مريرة شاكيا من أن المسيح يبدو الآن مسرورا بما لحق المسيحيين من ذِلّة(٤).

وهنا جاء دور عكا . لكن الوصى ، هيو أمير أنطاكية ، الذى كان فى قبرص ، كان قد سارع فعلا وعبر البحر مع ما استطاع جمعه من الرجال ؛ وعندما اتجه بيبرس شمالا من أرصوف مرة أخرى ، وجد هيو قد نزل إلى البر فى عكا يوم ٢٥ ابريل ؛ فعاد الجيش المصرى إلى وطنه بعد أن ترك جنودا للسيطرة على الأراضى المستعادة مؤخرا . والآن باتت الحدود على مرمى البصر من عكا ذاتها(٥). وسارع بيبرس بكتابة أنباء انتصاراته إلى مانفريد ملك صقلية الذى تظاهر البلاط المصرى بالصداقة مع والده فريدريك الثانى(٦).

١٢٦٥م : موت هولاكو

كانت تلك السنة سنة طيبة لبيبرس ؛ ففى ٨ فبراير ١٢٦٥م مات هولاكو فى أذربيجان. وكان أخوه قوبلاى قد منحه لقب الخان وتوارث إدارة الممتلكات المغولية فى جنوب غربى آسيا . وعلى الرغم من أن مشاكله مع القبيلة الذهبية ومع مغول التركستان ، الذين اعتنقوا الإسلام كذلك ، قد حالت دون استئناف هجوم حاد على المماليك ، فقد كان مع ذلك مرهوب الجانب بما يكفى لردع المماليك عن مهاجمة حلفائه . وفى شهر يوليه ١٢٦٤م عقد آخر مؤتمر له (كوريلتاى) فى معسكره بالقرب من تبريز حضره أتباعه جميعا بمن فيهم الملك داود ملك جورجيا ، والملك هيثوم ملك أرمينيا ، وبوهمند أمير أنطاكية . وكان هيثوم وبوهمند فى حالة من الخزى أمام هولاكو لقيامهما فى العام السابق باختطاف البطريق الذى أصرّ هولاكو عام ١٢٦٠م على تنصيبه ، وهو إيوثيميوس بطريق أنطاكية ، وحمله إلى أرمينيا ، واستبدلا به البطريق

---

(٤) *Gestes des Chiprois*, p. 171; *Estoire d'Eracles*, II, p. 450; *Annales di Terre Sainte*, pp.451-2; al-Aïni, pp.219-21; Abu'l Feda, p. 150; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp. 7-8. Bonomel's poem is given in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale*, II, pp. 222-4.

(٥) *Gestes des Chiprois, loc. cit.*; *Estoire d'Eracles, loc. cit.*.

(٦) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p. 16. ويورد Al-Aïni سفارة إلى بيبرس فى ١٢٦٤م من تشارلز (أوف آنجو) الذى كان يخطط لمهاجمة مانفريد.(p.219)

أوبيزون اللاتينى فى أنطاكية . وكان هولاكو يدرك أهمية التحالف مع البيزنطيين كوسيلة لكبح أتراك الأناضول ؛ فكان يتفاوض على سيدة من العائلة الإمبراطورية فى القسطنطينية ليضيفها إلى زوجاته ، وعندما اختار الامبراطور ميخائيل لهذا الشرف ابنته من السفاح ، ماريا ، رافقها إلى تبريز البطريق إيوثيميوس الذى كان لاجئا فى القسطنطينية والذى عاد إلى الشرق بدعوة صريحة لا شك فيها من هولاكو . وكان المغول من سعة الأفق بحيث لم يسمحوا للخلافات العقائدية فيما بين المسيحيين بأن تتدخل فى سياستهم العامة. ويبدو أن بوهمند تمكن من العثور على عذر لنفسه ، ولم يستقبل إيوثيميوس مرة أخرى فى أنطاكية(٧).

بيد أن موت هولاكو جعل ضعف المغول أمرا حتميا فى لحظة حرجة . وأفلحت أرملته دوكوز خاتون بما لها من نفوذ فى تأمين استخلاف ابنه المفضل أباغا الذى كان حاكما للتركستان ، على أن أباغا لم يُنصّب رسميا بلقب خان إلا فى شهر يونية بعد أربعة أشهر من موت والده ؛ ومضت عدة أشهر أخرى قبل استكمال إعادة توزيع الإقطاعيات ومناصب الحكم . وماتت دوكوز خاتون فى الصيف ، ونعاها المسيحيون بأعمق المشاعر . وفى الوقت نفسه استمر تهديد أباغا من أبناء عمومته فى القبيلة الذهبية الذين غزوا فعلا أراضيه فى الربيع التالى . وهكذا كان من المستحيل على الحكومة المغولية التدخل آنذاك فى غربى سوريا . أما بيبرس ، الذى تسببت دبلوماسيته فيما كان يلقاه الخان من اضطرابات مع جيرانه الشماليين ، فقد تمكن من استئناف حملاته ضد المسيحيين دون خشية تدخل(٨).

١٢٦٦م : بيبرس يفتح الجليل

فى باكورة صيف ١٢٦٦م ، وبينما كانت جيوش أباغا منشغلة فى صد غزوات الخان بيرك عن فارس ، انطلق جيشان مملوكيان من مصر ؛ أحدهما بقيادة السلطان نفسه الذى ظهر أمام عكا يوم أول يونية ؛ غير أن كتيبتها التى أبقاها القديس لويس

---

(٧) -Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 417-23; see Howorth, op. cit. iii, pp. 206 10. Vatran (ed. Emin), pp.205-6, 211; Bar-Hebraeus, pp. 444-5.'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin,* vol. ii, p. 213. واستشارت دوكوز خاتون فاتراد حول إمكانية إقامة قداس على روح هولاكو لكنه ثبّط من همتها.(Vatran, ed. Emin, p. 211)

(٨) Howorth, op. cit., iii, pp. 218-25.

هناك جاءتها التعزيزات مؤخرا من فرنسا فزادتها قوة ، ولذا تحول عنها بيبرس وسار فى استعراض أمام قلعة النظام التيوتونى فى مونتفورت ، ثم زحف فجأة على صفد التى كان فرسان المعبد يسيطرون من قلعتها الضخمة على باقى الجليل المرتفع . وكانت التحصينات قد أعيد إنشاؤها كلها منذ حوالى خمس وعشرين سنة ، وكانت الحامية بأعداد غفيرة رغم أن الكثير من الجنود كانوا من المسيحيين الوطنيين أو أنصاف الوطنيين . وقد صُد الهجوم الأول للسلطان يوم ٧ يولية، وكذلك فشل فى محاولتيه التاليتين يومى ١٣ و١٩ يولية . فأعلن بواسطة المنادين أنه يمنح العفو التام عن كل الجنود الوطنيين الذين يستسلمون له . ومن المشكوك فيه معرفة عدد المسيحيين الوطنيين الذين وثقوا فى كلمته ؛ على أن فرسان المعبد ساورتهم الريبة فى الحال، فتبادلوا الإتهامات وتطور الأمر بينهم إلى اقتتال ؛ وبدأ السوريون فى الفرار . وسرعان ما اكتشف فرسان المعبد استحالة صمود القلعة ، وفى آخر الشهر أرسلوا أحد أتباعهم السوريين توسموا فيه الولاء إلى معسكر بيبرس يعرضون الإستسلام . وعاد السورى - واسمه ليو - بوعد بانسحاب الحامية إلى عكا دون أذى ؛ وبعد أن سلم فرسان المعبد القلعة لبيبرس بهذه الشروط قطع رؤوسهم جميعا. وليس يقينا ما إذا كان ليو على وعى بخيانته أم لا ؛ لكن تحوله الفورى إلى الإسلام كان دليلا علية(٩).

وبالإستيلاء على صفد ، تمكن بيبرس من السيطرة على الجليل . وكانت خطوته التالية مهاجمة طورون التى سقطت له بلا قتال تقريبا . ومن طورون أرسل كتيبة لتدمير القرية المسيحية قرة الواقعة بين حمص ودمشق لإرتيابه فى اتصالها بالفرنج ؛ فقتلت البالغين وأخذت الأطفال عبيدا ، وعندما أرسل مسيحيو عكا وفدا يطلب السماح بدفن الأموات رفض بغلظة قائلا إنهم إذا كانوا يريدون جثث الشهداء فسوف يجدون مثيلها عندهم . ولكى ينفذ وعيده سار أسفل الساحل وراح يقتل كل مسيحى يقع في يده . لكنه ، مرة أخرى ، لم يغامر بمهاجمة عكا نفسها التى وصلها لتوه الوصى هيو من قبرص . وعندما انسحب المماليك فى الخريف، جمع هيو فرسان الأنظمة الدينية العسكرية وكتيبة فرنسية بقيادة جيوفرى (أوف سارجين) وقام بحملة مضادة فى الجليل. غير أنه فى ٢٨ أكتوبر وقعت الطليعة فى كمين نصبته لها حامية صفد ، بينما هاجم العرب المحليون المعسكر الفرنجى ، فاضطر هيو إلى الإنسحاب بخسائر فادحة(١٠).

---

(٩) *Gestes des Chiprois,* pp. 179-81; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 484-5; Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp. 28-30; Abu'l Feda, p. 151; al-Aïni, pp. 222'3

(١٠) *Gestes des Chiprois,* pp. 180-1; *Estoire d'Eracles, loc. cit*

١٢٦٦م : المماليك يخربون كيليكيا

وبينا بيبرس يجول بحملاته في الجليل ، تجمع في حمص الجيش المملوكي الثاني بقيادة أقدر أمرائه ، قلاوون ، الذي قام بغارة خاطفة باتجاه طرابلس استولى خلالها على حصني قوليا وحلبا ومدينة أرقا التي تتحكم في مدخل طرابلس من البقاع ، ثم أسرع شمالا كي يلحق بجيش المنصور صاحب حماه ؛ ثم سارت قواتهما المتحدة إلى حلب وانحرفت باتجاه الغرب إلى داخل كيليكيا(١١). وكان الملك هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا. ولقد حاول هيثوم في ١٢٦٣م، على أثر أنباء موت هولاكو ، أن يتصالح مع بيبرس ؛ وكانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على أخشاب غابات جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته بوهمند يسيطران على تلك الغابات ، وفي مأمولهما استغلال سيطرتهما هذه كورقة تفاوض ؛ غير أن محاولة الحصار زادت من عزم بيبرس على الحرب(١٢). وفي ربيع ١٢٦٦م ، علم هيثوم أن هناك هجوما مملوكيا وشيكا ، فانطلق قاصدا بلاط الخان في تبريز ؛ وأثناء تواجده هناك يستجدي مساعدة المغول، تفجرت العاصفة على كيليكيا . وكان الجيش الأرميني بقيادة إبني هيثوم ، ليو وثوروس، ينتظر عند البوابات السورية بينما فرسان المعبد في بجراس يحرسون جناحيه ، لكن المماليك انحرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس بالقرب من سارفنتيكار ، فهرع الأرمن لإعتراض طريقهم أثناء هبوطهم في السهل الكيليكي . ووقعت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس هلك فيها الجيش الأرميني لعجزه أمام الأعداد الغفيرة ؛ وقتل ثوروس ، أحد الأميرين ، وأُسِر الآخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكيا ؛ وبينما كان قلاوون ومماليكه ينهبون أياس وأضنا وطرسوس ، قاد المنصور جيشه مارا بالمصيصة إلى العاصمة الأرمينية سيس حيث نهب القصر وحرق الكتدرائية وذبح بضعة آلاف من السكان. وفي نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون إلى حلب ومعهم أربعون ألف أسير تقريبا وقوافل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحبة قليلة العدد من المغول ، لا لشيء سوى ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبرأ المملكة الكيليكية قط من الكارثة ، ولم تعد قادرة على أن

---

(١١) Abu'l Feda, *loc. cit.;* al-Aïni, p. 222

(١٢) Mas Latrie, *Histoire de Chypre,* i, p. 412

تلعب أكثر من دور سلبى فى سياسات آسيا(١٣).

وبعد أن احتث بيبرس شأفة الأرمن أرسل جنودا فى خريف ١٢٦٦م لمهاجمة أنطاكية ؛ غير أن قواده انتشوا بالأسلاب وكان يعوزهم الحماس ، وقبلوا من بوهمند ومن كميون أنطاكية الرشوة التى أغرتهم بالتخلى عن المحاولة(١٤).

واهتاج بيبرس من ضعف مندوبيه ، ولم يسمح هو نفسه بتأجيل القضاء على الفرنج ؛ فظهر فى شهر مايو ١٢٦٧م مرة اخرى أمام عكا ، ورفع الرايات التى استولى عليها من فرسان المعبد والمستشفى ، وتمكن بذلك من الإقتراب حتى الأسوار مباشرة قبل اكتشاف الخدعة . غير أن هجومه على الأسوار تم صده ، ورضى بنهب الريف ، وترك الجثث الخالية من الرؤوس فى الحدائق المحيطة بعكا إلى أن خاطر المواطنون بالخروج لدفنها . وعندما أرسل الفرنج سفراءهم طلبا للهدنة استقبلهم فى صفد حيث كانت القلعة كلها محاطة بجماجم الأسرى المسيحيين الذين قُتلوا(١٥).

ولم تتيسر أسباب الحياة فى عكا بتجدد القتال بين البنادقة وأبناء جنوا للسيطرة على الميناء ؛ ففى ١٦ أغسطس ١٢٦٧م قام الأدميرال الجنوي لوشيتو جريمالدى بشق طريقه عنوة إلى داخل الميناء بثمانية وعشرين غليونا بعد استيلائه على برج الذباب الذى كان يرتفع فى نهاية حاجز الأمواج . غير أنه بعد اثنى عشر يوما أخذ خمس عشرة سفينة من سفنه إلى صيدا للإصلاح ؛ وأثناء غيابه ظهر أسطول بندقي من ستة وعشرين غليونا وهاجم سفن جنوا الباقية ، وضاعت فى المعركة خمس سفن جنوية ، وحاربت السفن الأخرى لشق طريق خلال الميناء وأبحرت إلى صيدا(١٦).

وفى وقت مبكر من سنة ١٢٦٨م انطلق بيبرس مرة أخرى من مصر . وكانت الأملاك المسيحية جنوب عكا هى مجرد قلعة فرسان المعبد فى عثليت ومدينة يافا التى

---

(١٣) Vatran (ed. Emin), pp. 213-15; Hethoum, p. 407; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 522-3; King Hethoum, poem, *R.H.C. Arm.* i, pp. 551-2; Ballad on Prince Leo's Captivity, *ibid.* pp. 539-40; Hayton, *Flor des Estoire*, pp. 177-8; Bar-Hebraeus, pp. 445-6; Maqrisi, *Sultans* I, ii, p. 34; Abu'l Feda, p. 151; *Gestes des Chiprois*, p. 181; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 455.

(١٤) Cahen, op. cit. p. 716, citing MS. of Ibn Abdarrahîm (Muhi ad-Din).

(١٥) *Gestes des Chiprois, pp. 181-3; Estoire d'Eracles*, ii, p.455; al-Aïni, p. 225.

(١٦) *Gestes des Chiprois*, p. 186; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 455-6; Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, i, p. 354 .

يملكها القانونى حون (الايلينى). وفى ربيع ١٢٦٦م مات حون الذى كان المسلمون يعاملونه دائما باحترام ؛ ولم يكن ابنه حوى يتمتع بنفس المكانة ؛ وكان فى مأموله أن يحترم السلطان الهدنة المعقودة مع والده ، ونتيجة لذلك ، وعندما ظهر الجيش المصرى أمام المدينة يوم ٧ مارس ، لم تكن فى حالة تسمح لها بالدفاع عن نفسها ؛ ولذا سقطت فى قبضة السلطان بعد اثنتى عشرة ساعة من القتال ، وقتل الكثير من سكانها ، وسُمح للحامية بالرحيل دون أذى إلى عكا ؛ ودمّرت القلعة وأرسلت أخشابها ورخامها إلى القاهرة من أجل الجامع الكبير الجديد الذى كان بيبرس يبنيه هناك(١٧).

وكان الهدف التالى للسلطان هو قلعة بيوفورت التى تسلمها نظام المعبد مؤخرا من حوليان أمير صيدا . وبعد عشرة أيام من القصف الشديد استسلمت الحامية يوم ١٥ إبريل ؛ وأطلق النساء والأطفال ليذهبوا إلى صور ، لكن جميع الرجال اقتيدوا عبيدا . وأصلح بيبرس القلعة وزودها بحامية قوية(١٨). وفى أول مايو ظهر الجيش المملوكى فجأة خارج طرابلس، غير أنه وجد حاميتها قوية ، فتحول بنفس القدر من الفجاءة باتجاه الشمال . وأرسل فرسان المعبد من طرطوس وصفيطا على عجل يتوسلون إلى السلطان أن يحتفظوا بأراضيهم(١٩). واحترم بيبرس رغبتهم وزحف زحفا سريعا جنوب وادى العاصى (الأرُنْد)؛ وفى ١٤ مايو كان أمام أنطاكية حيث قسّم قواته إلى ثلاثة أقسام ؛ فذهب جيش للإستيلاء على ميناء السويدية ، وبذا عزل أنطاكية عن البحر ؛ وتحرك الجيش الثانى شمالا إلى البوابات السورية ، وبذا منع أية مساعدة قد تصل المدينة من كيليكيا ؛ وأحاطت القوة الرئيسية بقيادة بيبرس نفسه بالمدينة عن قرب.

١٢٦٨م : سقوط أنطاكية

كان الأمير بوهمند فى طرابلس ، وكانت أنطاكية تحت إمرة ياورها (الكونستابل) سيمون مانسل الذى كانت زوجته أرمينية ، وإحدى قريبات زوجة بوهمند . وكانت أسوار المدينة قد أصلحت بصورة جيدة ، لكن الحامية لم تكن من الكبر بحيث تحرس امتدادها الطويل . وقد تهور الكونستابل وقاد بعض الجنود إلى

---

(١٧) *Gestes des Chiprois,* p. 190; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 456; Abu'l Feda, p. 152; Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp. 50-1; al-Aïni, pp.2267.

(١٨) *Gestes des Chiprois, loc. cit.; Estoire d'Eracles, loc. cit.;* al-Aïni, pp. 227-8.

(١٩) Al-Aïni, p. 228.

الخارج في محاولة للتفاوض على الإستفادة بالمدينة، لكن المماليك أسروه . وأمره آسروه بالعمل على ترتيب استسلام الحامية ؛ غير أن قواده داخل المدينة رفضوا الإستماع اليه ، ووقع الهجوم الأول على المدينة في اليوم التالي وُردّ ، وافتتحت المفاوضات مرة أخرى بلا نجاح يذكر . وفي ١٨ مايو قام الجيش المملوكي بهجوم عام على الأسوار بكافة أجزائها ؛ وبعد قتال شرس فتحت ثغرة في الدفاعات الممتدة أعلا جبل سلبيوس ، وتدفق المسلمون داخل المدينة.

وأصيب المؤرخون ، والمسلمون من بينهم ، بصدمة من المجزرة التي تلت ؛ ذلك أن أمراء السلطان أصدروا أوامرهم بإغلاق بوابات المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وقُتل من كان في الشوارع في الحال ، أما الجبناء الذين بقوا في بيوتهم فقد ظلوا على قيد الحياة لا لشيء سوى لإنهاء أيامهم في الأسر . وهرب بضعة آلاف من المواطنين مع عائلاتهم لاجئين إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل ، لقد نجوا بحياتهم ، لكن الأمراء اقتسموهم ، وفي ١٩ مايو أمر السلطان بجمع الأسلاب وتقسيمها . وعلى الرغم من أن ازدهار أنطاكية اضمحل لعدة عقود ، إلا أنها كانت أغنى المدن الفرنجية ، وكانت كنوزها المتراكمة مذهلة ؛ فكانت هناك أكوام من حلي الذهب والفضة ، وكانت العملات من الوفرة بحيث كانت تعطى في أوعية ، وكان عدد الأسرى غفيرا . ولم يكن هناك جندي في جيش السلطان لم يحصل على عبد ، أما فائض العبيد فقد انخفض ثمن الصبي إلى اثني عشر درهما والبنت إلى خمسة دراهم فقط؛ وسُمح لقليلين من المواطنين الأكثر ثراءً بأن يفتدوا أنفسهم . وأطلق سراح سيمون مانسيل وتقاعد في أرمينيا ، غير أن الكثير من كبار المسؤولين في الحكومة وفي الكنيسة قُتلوا أو لم يُسمع عنهم مرة أخرى قط[٢٠].

ولقد استمرت إمارة أنطاكية ١٧١ سنة ، وهي أول دويلة أسسها الفرنج في الشرق الفرنجي . وجاء دمارها بمثابة ضربة مرعبة للهيبة المسيحية ، وجرّ وراءه الإنهيار السريع للمسيحية في شمال سوريا . وقد انتهى الفرنج ، ولم تتحسن أحوال المسيحيين الوطنيين إلا بقدر ضئيل ، وكان ذلك عقابا لهم لما قدموه من مساعدة ، لا للفرنج وإنما للأعداء الأكثر خطورة على الإسلام ، ألا وهم المغول . ولم تبرأ المدينة نفسها قط؛ إذ فقدت فعلا أهميتها التجارية ، حيث أن الحدود بين الإمبراطوريتين المغولية

(٢٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 190-1; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 456-7; Bar Hebraeus, p. 448; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp. 52-3; al-Aïni, pp. 229-34; Abu'l Feda, p. 152.

والمملوكية كانت تجرى بطول نهر الفرات . ولذا لم تعد التجارة من العراق والشرق الأقصى تمر خلال حلب ، وإنما ظلت فى الأراضى المغولية وراحت تتدفق على البحر من أياس فى كيليكيا ؛ ولذا لم يكن للغزاة المسلمين اهتمام باعادة توطين الناس فى أنطاكية ، وباتت أهميتها الآن بمجرد كونها قلعة حدودية. و لم يُعَد بناء الكثير من منازلها داخل الأسوار العظيمة ، وانتقل رؤساء الكنائس المحلية إلى مراكز تتصف بحيوية أكبر و لم يمض طويل وقت قبل أن يتأسس فى دمشق المقرين الرئيسيين للكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية(٢١).

تلفت فرسان المعبد فوجدوا أن أرمينيا قد أُضعفت وأنطاكيا دُمّرت ، فأدركوا استحالة الإحتفاظ بحصونهم فى جبال الأمانوس ؛ فهجروا حصن بجراس والحصن الأصغر فى صخرة روسل دون قتال ، وكان كل ما تبقى من الإمارة هو مدينة اللاذقية التى كان المغول قد أبقوا عليها ومنحوها لبوهمند ، وقد باتت الآن بقعة معزولة ، وحصن قُصير الذى أنشأ أميره اللورد علاقة صداقة مع مسلمى الجوار وسُمح له بالإقامة هناك لسبع سنوات أخرى كتابع للسلطان(٢٢).

١٢٦٨م : هيو ، ملك قبرص والقدس

استراح بيبرس لفترة بعد انتصاره فى أنطاكية . وكان هناك ما يدل أن المغول على يستعدون للقيام بدور أكثر إيجابية ، وكانت هناك شائعات تقول إن القديس لويس آخذ فى الإعداد لحملة صليبية ضخمة . وعندما أرسل الوصى هيو طالبا الهدنة أجاب السلطان بارسال سفارة إلى عكا تعرض هدنة مؤقتة ؛ وكان هيو يأمل فى الحصول على بعض التنازلات وحاول تهديد السفير محى الدين ، بإظهار جنوده فى استعراض حربى ؛ لكن محى الدين لم يجب سوى بأن الجيش كله لا يبلغ عدده ما يبلغه عدد الأسرى المسيحيين الضخم فى القاهرة. وطلب الأمير بوهمند أن يدخل فى الهدنة ؛ وعندما

---

(٢١) عندما زار الرحالة ابن بطوطة أنطاكية فى سنة ١٣٥٥م كان هناك عدد كبير من السكان لا يزالون يسكنونها (Ibn Battutah, *Voyages*, ed. Defrémery, i, p. 162) ، لكن بيبرس دمّر تحصيناتها. ويقول Bertrandon de la Broquière الذى زارها سنة ١٤٣٢م أن الأسوار كانت ما تزال كاملة ، وإنما لم يكن هناك سوى ٣٠٠ منزل من المنازل المسكونة داخل تلك الأسوار وكان أغلب السكان من التركمان.(*Voyage d'Outremer*, ed. Schefer, pp. 84-5)

(٢٢) *Gestes des Chiprois*, p. 191, *Estoire d'Eracles*, ii, p. 457; Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 717 n.17.

أجابه السلطان بمجرد لقب كونت لفقده الإمارة شعر بالمهانة ، لكنه قبل بسرور الهدنة التى مُنحت له . وكانت هناك غارات مملوكية قليلة الشأن فى الأراضى المسيحية فى ربيع سنة ١٢٦٩م ، وإن كانت الهدنة قد احترمت على العموم طوال سنة كاملة[٢٣].

وفى ذات الوقت حاول الفرنج تنظيم بيتهم . وفى ديسمبر ١٢٦٧م مات الملك هيو الثانى ملك قبرص وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وخلفه على العرش الوصى هيو أمير أنطاكية - لوسينان باسم هيو الثالث ، وتوّج يوم عيد الميلاد . وقد أتاح له استخلافه سلطة أوثق على أتباعه ، إذ لم يكن هناك خطر الآن من انتهاء حكمه فجأة عندما يبلغ ولى العهد السن القانونية . غير أنه كان عاجزا عن التغلب على ما يدعونه من أنهم غير مجبرين على الخدمة فى جيشه خارج حدود المملكة ، وكلما رغب فى أن يفعل ذلك كان يعتمد على رجال من الضياع الملكية وعلى المتطوعين . وفى ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م قُطعت رأس كونرادين (أوف هوهينشتوفن) فى نابولى بأوامر من تشارلز (أوف آنجو) ، الذى حاول عبثا أن يسترد منه بالقوة ميراثه الإيطالى.

١٢٦٩م : تتويج هيو

وكان موت كونرادين يعنى انقطاع الخط الأكبر للبيت الملكى فى القدس الذى ينحدر من الملكة ماريا، المركيزة . وكان التالى فى خط الإستخلاف أبناء بيت قبرص ، المنحدرين من الأخت غير الشقيقة لماريا ، أليس (أوف شامباني) . أما مطالبة هيو الثالث بأن يكون وريثا فقد اعترف بها ضمنا بتعيينه وصيا ، بينما تم تخطّى ابن عمه هيو (أوف بريان) الذى كان أحق منه فى الوراثة من الناحية القانونية . ومضى هيو (أوف بريان) يبحث عن حظه فى دوقية أثينا الفرنجية ، حيث تزوج وريثتها ، وأثناه ذلك عن تحدى ابن عمه. على أنه قبل أن يتلقى الملك هيو تاجه الثانى ، كان هناك منافس آخر يتعين وضعه موضع الإعتبار . ذلك أن الأخت الثانية غير الشقيقة للملكة ماريا - مليسيند أوف لوسينان - كانت قد تزوجت الأمير بوهمند الربع أمير أنطاكية كزوجة ثانية ، وكانت ابنتهما ماريا ما تزال على قيد الحياة . وبينما يستطيع هيو الإدعاء بأنه من نسل زواج للملكة إيزابيلا ، يسبق ماريا ، فإن ماريا كانت أقرب إلى الملكة إيزابيلا بجيل واحد . ومثلت أمام المحكمة العليا ، مدعية أن الإستخلاف ينبغى أن

---

(٢٣) Muhi ad-Din, in Reinaud, *Bibliothèque des Croisades*, pp. 513-15.

يتقرر بدرجة القرابة بالملكة إيزابيلا التى هى السلف المشترك لكل من كونرادين ، وهيو، وهي نفسها . ودفعت بأن للحفيدة أسبقية على إبن الحفيد . ورد هيو بأن حدته الملكة أليس قد تم قبولها وصيّة لأنها كانت الوريث التالى ولأن ابنها الملك هنرى ملك قبرص قد تم قبوله وصيا بموتها، وبعد هنرى تجىء أرملته ، ثم هيو نفسه ، كأوصياء على هيو الثاني. وهو الآن يمثل خط أليس. وردت ماريا كان هناك خطأ ، فكان ينبغى لأمها مليسيند أن تخلف أليس كوصية . واستمر الجدل بعض الوقت أيّد فيه فرسان المعبد ماريا ، بينما أيّد قانونيّو الشرق الفرنجى مطالبة هيو . ولو أنهم رفضوا ، لأُجبروا على الإعتراف بأنهم كانوا على خطأ فيما سبق ، وكان الرأى العام في جانبهم ؛ إذ من الواضح أن ملك قبرص الشاب الفتي كان مرشحا مرغوبا بصورة أكبر من عانس فى أواسط عمرها . ولم تقبل ماريا الحكم؛ وأصدرت اعتراضا رسميا يوم تتويج هيو، ثم رحلت والجلَبَة تحيطها إلى ايطاليا لتعرض قضيتها أمام الإدارة البابوية ، ووصلت روما فى فترة تسبق تولى بابا جديد ؛ لكن جريجورى العاشر، الذى انتخب سنة ١٢٧١م ، تعاطف معها وسمح لها بإثارة القضية في مجلس ليون سنة ١٢٧٤م . وظهر ممثلون من عكا، ودفعوا بأن المحكمة العليا فى القدس هى السلطة القضائية الوحيدة التى تقرر الإستخلاف على المملكة ، وحُفظت المسألة . وكان جريجورى - قبل أن يموت سنة ١٢٧٦م - قد أعد الترتيبات لماريا لكى تبيع قضيتها لتشارلز (أوف آنجو) ، واستكملت الصفقة فى مارس ١٢٧٧م، واستلمت الأميرة ألف جنيه ذهبا ودخلا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه تورى[٢٤]. واعتمد تشارلز الثانى عاهل نابولى ذلك الدخل السنوى ؛ غير أنه من المشكوك فيه كم من المال كانت تتسلمه ماريا التى كانت ما تزال على قيد الحياة فى سنة ١٣٠٧م[٢٥].

ونيابة عن البطريق ، قام أسقف اللد بتتويج هيو فى ٢٤ سبتمبر ١٢٦٩م . وكان هيو قبل تتويجه قد تمكن فعلا من تسوية الخلاف بين فيليب أمير مونتفورت والحكومة فى عكا . وكان كبرياء فيليب قد لحقته المهانة بضياع طورون ، ولم يعد يتوق إلى القيام بأى عمل بمفرده ؛ وعندما اقترح هيو تزويج أخته - مرجريت أميرة أنطاكية ولوسينان ، أجمل بنات جيلها - من إبن فيليب الأكبر - جون - قبل فيليب العرض

(٢٤) (المترجم) : تورىTournois ، صفة لعملة نقدية فرنسية قديمة مسكوكة فى مدينة تور على الطراز الملكى

(٢٥) *Gestes des Chiprois*, pp. 190-3; *Assises*, ii, pp.415-19. See La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.77-9, and Hill, *History of Cyprus, ii, pp. 161-5*

بسرور . وهكذا أصبح بمقدور هيو الذهاب إلى صور لكي يتَوّج فى كتدرائيتها ، وهى التى باتت منذ سقوط القدس مكان التتويج التقليدى للملوك . وسرعان ما تزوج بعد ذلك إبن فيليب الأصغر ، همفرى ، من إيشيفا (أوف إيبلين)، وهى الإبنة الصغرى لجون الثانى أمير بيروت .وكانت هذه المصالحة بين آل مونتفورت وآل إيبلين أكثر يسرا ، إذ انتهى الجيل الأكبر لآل إيبلين . وقد مات حون أمير بيروت سنة ١٢٦٤م، وحون أمير يافا سنة ١٢٦٦م ، وحون أمير أرصوف سنة ١٢٦٨م . وبعد حملات بيبرس الأخيرة كانت الإقطاعية المدنية الوحيدة فى المملكة بخلاف صور هى بيروت ، التى آلت إلى إبنة حون الكبرى ، إيزابيلا . وكانت قد زُوّجت وهى طفلة من الملك الطفل هيو الثانى ملك قبرص الذى مات قبل إنفاذ الزواج . وكان هيو الثالث يأمل فى استخدامها كوريثة قانونية مناسبة لكى تجتذب أحد الفرسان المتميزين إلى الشرق . وفى قبرص كان آل إيبلين لا يزالون يمثلون أقوى عائلة ؛ وسرعان ما فاز الملك بولائهم بزواج إيزابيلا أخرى من آل إيبلين ، وهى إبنة الكونستابل حوى[٢٦].

وعلى الرغم من أنه رتب أمر الصلح فيما بين أتباعه القليلين الباقين من غير رجال الدين، فإن ضمان تعاون الأنظمة الدينية العسكرية ، وكميون عكا ، والإيطاليين كان أكثر صعوبة. أما حنوا والبندقية فلن تكف أي منهما عن الشجار تلبية لنداء أى عاهل ؛ وأما فرسان المعبد وفرسان التيوتون فقد إزدروا مصالحة هير مع فيليب أمير مونتفورت ؛ وأما أعضاء كميون عكا فكانوا غيورين بنفس القدر مما كانت تحظى به صور من محاباة ، وقد كرهوا أن يروا نهاية المَلَكية الغائبة التى فى ظلها زادت قوتهم . كما لم يكن بامكان هيو استدعاء أتباعه القبرصيين لتعزيز سلطته . لقد كانت محاولته فى جعل حكمه فعّالا محكوما عليها بالفشل[٢٧].

ولم تكن الشؤون الخارجية مشجّعة . إذ أن ظل تشارلز (أوف آنجو) كان يغيم على عالم البحر المتوسط . وكانت هناك آمال عراض فى الشرق معلقة على حملة القديس لويس الصليبية الوشيكة ؛ بيد أن تشارلز حولها فى ١٢٧٠م لكى تخدم اهتماماته ؛ وبموت لويس فى تونس فى ذلك العام ، تحرر تشارلز من احترامه للإيثار

---

(٢٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 192-3.. وفيما بعد ظلت الأميرة مارجريت تزداد سمنة وبدانة وفقدت هيئتها. وكانت عند زواجها قد بلغت من العمر الرابعة والعشرين . أنظر أيضا *Lignages*, p. 462 ، وشجرة الأنساب أدناه ، والمرفق الثالث

(٢٧) See Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 645-6، وهو يبالغ من قدرات هيو فى ضوء ما تلى ذلك من أحداث . وانظر أيضا Hill, *op. cit.* p. 178.

الذى كان يتميز به لويس؛ وكان على علاقة ودودة مع السلطان بيبرس ، وإن كان فى أعماق نفسه يحمل العداوة للملك هيو ، وسبق أن انحاز ضده عندما أيد مطالبة هيو (أوف براين) فى عرش قبرص ، ومطالبة ماريا بعرش القدس . لقد كان من حسن حظ الشرق الفرنجى حقا أن كانت مطامح تشارلز الأساسية موجّهة ضد بيزنطة ؛ إذ كان من الواضح أن أية حملة صليبية يسهم فى مساعدتها سوف تتحول لتتناسب مع أهدافه الأنانية[٢٨].

١٢٦٩م : الحملة الصليبية لأطفال أراجون

ومع ذلك ، لم تكن الروح الصليبية قد ماتت تماما فى أوروبا . ففى أول سبتمبر ١٢٦٩م أبحر الملك جيمس الأول ملك أراجون[٢٩] من برشلونة بأسطول قوى لإنقاذ الشرق . ولم يكد ذلك الأسطول يقلع حتى هبّت ، لسوء حظه ، عاصفة مخرّبة اضطرت الملك والجزء الأكبر من أسطوله إلى العودة . ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير تحت إمرة ابني الملك من السفاح ، الطفلين فرناندو سانشيز وبيدرو فرنانديز ، ووصلوا عكا فى نهاية ديسمبر وكلهم تواق إلى محاربة الكفرة . وفى وقت مبكر من ديسمبر قطع بيبرس الهدنة مع هيو وظهر مع ثلاثة آلاف رجل فى الحقول أمام عكا، وترك جنودا آخرين مختبئين فى التلال. ورغب الأطفال فى الإسراع فى الحال لمهاجمة الأعداء ؛ ومارس فرسان العسكر ما فى وسعهم من مهارة لتهدئتهم ، وقد ارتابوا فى وجود كمين . وفضلا عن ذلك ، تقلصت أعداد المسيحيين بعد أن خرجت الكتيبة الفرنسية للقيام بغارة عبر مونتفورت، كان القهرمان جيوفرى (أوف سارجين) يقودها حتى وفاته فى ربيع ذلك العام ، مع قائدها الجديد أوليفر (أوف تيرم) ، والقهرمان الجديد روبرت (أوف كريسيك) بانصرافها إلى غارة عبر مونتفورت . ولمح هؤلاء المغيرون لدى عودتهم القوات الإسلامية . ورغب أوليفر (أوف تيرم) فى التسلل دون أن يلحظه أحد خلال حدائق الفاكهة عائدا إلى عكا ، لكن القهرمان روبرت أصر على مهاجمة الأعداء . وسقط الفرنسيون مباشرة فى الكمين الذى نصبه بيبرس لهم ، ولم ينج منهم سوى قلّة ضئيلة ، وعندما تنادى الجنود داخل عكا للذهاب لإنقاذهم ، قام أطفال

---

(٢٨) أنظر أعلاه ص ٣٤١.

(٢٩) (المترجم)، أراجون : Aragon اقليم فى شمال شرق اسبانيا . ومن القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كان مملكة تضم فى أوقات مختلفة سردينيا وصقلية ومناطق اخرى من البحر المتوسط.

أراجون - وقد لقنوا الدرس - بكبح جماحهم . ثم سرعان ما عادوا فيما بعد إلى أراجون دون أن يحققوا شيئا[٣٠].

وبرغم عدم كفاية مساعدة الغرب ، كان لا يزال هناك أمل فى الشرق ؛ ذلك أن الخان أباغا فى فارس كان يدين ، كشأن والده هولاكو ، بالشامانية الممزوجة بتعاطف مسيحى شديد[٣١]. وكان موت زوجة أبيه المسيحية - دوكوز خاتون - بمثابة انتزاع صديقة هام من إخوانها فى الدين من كل المذاهب ؛ لكنهم وجدوا حاميا جديدا فى شخص الأميرة ماريا البيزنطية ، التى كانت قد وصلت إلى بلاط الخان لتجد هولاكو ميتا ، وتزوجها أباغا على الفور، وسرعان ما أحاطها باحترام عميق ؛ ويجلها رعاياه جميعا لطيبتها وحصافتها ، وكانت معروفة لديهم على أنها ديسبينا خاتون . وحثت أنباء حسن نوايا الخان ، ملك أراجون مع البابا كلمنت الرابع ، على إرسال جيمس ألاريك (أوف بيربينيان) فى بعثة إلى الخان فى ١٢٦٧م للإعلان عن الحملة الصليبية المزمعة الأراجونية وحملة الملك لويس الصليبية، واقتراح تحالف عسكرى . غير أن أباغا كان مشغولا للغاية بحربه مع القبيلة الذهبية ، ولذا كان رده مجرد وعود غامضة[٣٢]. ويتضح عجزه عما وراء ذلك فى فشله فى انقاذ أنطاكية من المماليك فى العام التالى . وسرعان ما واجهته حرب جديدة مع أبناء عمومته من آل جاغاتاى الذين غزوا أراضيه الشرقية سنة ١٢٧٠م ورُدوا بعد معركة عنيفة بالقرب من حيرات . وفى السنتين التاليتين كانت المهمة الرئيسية هى إعادة فتح خطوط المواصلات مع عمه وسيده الأعلى الخان الأعظم قوبلاى فى الصين[٣٣]. غير أنه فى سنة ١٢٧٠م ، وبعد انتصاره فى حيرات ، كتب للملك لويس يتعهد بتقديم مساعدة عسكرية فور ظهور الحملة الصليبية فى فلسطين[٣٤]. ولكن الملك لويس ذهب إلى تونس حيث لا يستطيع المغول مساعدته. وكانت المساعدة العملية الوحيدة التى استطاع الخان تقديمها إلى المسيحيين هى تزويد

(٣٠) *Gestes des Chiprois,* pp. 183-5 يخطىء فى ذكر التاريخ فى سنة ١٢٦٧م؛ *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 457-8; *Annales de Terre Sainte,* p. 454

(٣١) (المترجم) ، الشامانية Shamanism ، ديانة شعوب معينة فى شمال شرقى آسيا تقوم على أساس الإعتقاد فى أرواح الخير والشر التى لا تتأثر إلا بالشامان ، أى رجل الدين الشامانى

(٣٢) D'Ohsson, *Histoire des Mongols,* iii, pp. 539-42; Howorth, *op. cit.* iii, pp. 278-80. وعن شهرة ماريا أنظر Bar-Hebraeus, p. 505.

(٣٣) D'Ohsson, *op. cit.* pp. 442 ff..

(٣٤) *Ibid.* pp. 458-9.

هيثوم الأرمينى بأسير مملوكى بارز ، هو شمس الدين سنقر الأشقر ، الصقر الأحمر ، الذى أسره المغول فى حلب . ولإطلاق سراح ذلك المملوك ، وافق بيبرس على إطلاق سراح ليو ، وريث هيثوم ، وعقد هدنة مع هيثوم شريطة أن يتنازل الأرمن عن حصون الأمانوس فى درباسك ، وبهسنا ، ورعبان ، ووُقعت الهدنة فى شهر أغسطس ١٢٦٨م وفى العام التالى عاد ليو إلى أرمينيا ، بعد أن سُمح له بالحج فى القدس . وعلى الفور تنازل أبوه عن العرش لصالحه وتقاعد فى أحد الأديرة حيث مات فى العام التالى . واعترف الخان أباغا بلقب ليو الجديد كملك ، وذهب ليو شخصيا اليه لتقديم احتراماته(٣٥).

١٢٧٠م : قتل فيليب أمير مونتفورت

ظل بيبرس هادئا طوال صيف سنة ١٢٧٠م ، لاحتمال الدفاع عن مصر ضد ملك فرنسا. غير أنه لكى يُضعف الفرنج ، أعد ترتيبات اغتيال البارون البارز الوحيد لديهم، فيليب أمير مونتفورت . وكان الحشاشون فى سوريا يشعرون بالإمتنان للسلطان الذى حررهم بغزواته من ضرورة دفع إتاوة لفرسان المستشفى ، كما أنهم ازدروا بشدة المفاوضات الفرنجية مع المغول الذين دمروا مقرهم الرئيسى فى فارس . وبناء على طلب بيبرس أرسلوا أحد متعصبيهم إلى صور ، وهناك ادعى أنه متحول إلى المسيحية وتوغل يوم الأحد ١٧ أغسطس إلى داخل الكنيسة الصغيرة حيث كان فيليب وابنه جون يصليان ، وفجأة انقض عليهما ، وقبل أن تصل المساعدة كان فيليب قد أصيب بجرح مميت ، وامتد به الأجل إلى أن عرف أن قاتله قد اعتُقل وأن وريثه سليم بلا أذى . وكان موته بمثابة ضربة موجعة للشرق الفرنجى ؛ إذ أن جون ، برغم تكريس نفسه للملك هيو ، زوج أخته ، كان يفتقر إلى خبرة أبيه وهيبته(٣٦).

وكان موت الملك لويس أمام تونس من بواعث الإرتياح الكبير للسلطان الذى كان على استعداد للسير لمساعدة الأمير التونسى . وعلم أن ليس هناك ما يخيفه من

---

(٣٥) Gestes des Chiprois, p. 191; *Estoire d'Eracles*, pp.457, 463; Bar-Hebraeus, pp. 446-9; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 523-4; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 178. See Cahen, *op. cit.* p.718.

(٣٦) *Gestes des Chprois*, pp. 194-8; *Annales de Terre Sainte*, p. 454; Maqrisi, *Sultans*, I,ii,pp80-3.

تشارلز (أوف أنجو) . وفى ١٢٧١م توغل مرة أخرى فى الأراضى الفرنجية ؛ وفى فبراير ظهر أمام صافيتا، الحصن الأبيض لفرسان المعبد . وبعد أن دافعت الحامية الصغيرة دفاعا حماسيا ، نصحها السيد الأعظم للنظام بالإستسلام ؛ وسُمح للباقين على قيد الحياة بالانسحاب إلى طرطوس، ثم واصل السلطان تقدمه إلى القلعة الضخمة لفرسان المستشفى Krak des Chevaliers أو قلعة الحصن ، التى وصل اليها يوم ٣ مارس . وفى اليوم التالى انضمت اليه فصائل من الحشاشين وكذلك المنصور صاحب حماه وجيشه ؛ وهطلت أمطار غزيرة لعدة أيام منعته من تثبيت آلات الحصار ؛ غير أنه فى ١٥ مارس، وبعد قصف قصير مركّز تمكن المسلمون من شق مدخل إلى برج البوابة فى الحاجز الخارجى . وبعد أسبوعين شقوا طريقهم إلى الحاجز الداخلى ، وراحوا يقتلون الفرسان الموجودين هناك ويأسرون الجنود الوطنيين ، وصمد الكثير من المدافعين لعشرة أيام أُخر فى البرج الكبير جنوب الحاجز ؛ وفى ٨ إبريل استسلموا وأُرسلوا بسلام إلى طرابلس . إن الإستيلاء على حصن الكرك ، الذى تحدى صلاح الدين نفسه ، مكّن بيبرس من السيطرة على المداخل المؤدية إلى طرابلس . ولقد تابع زحفه عليها واستولى على حصن عكار ، وهو حصن فرسان المستشفى جنوب البقاع الذى سقط فى أول مايو بعد حصار أسبوعين(٣٧).

وكان بوهمند فى طرابلس . ولخشيته من أن تشارك طرابلس مصير عاصمته الأخرى أنطاكية ، أرسل إلى بيبرس يتوسل اليه عقد هدنة . وسخر السلطان من افتقاره إلى الشجاعة وطلب أن يدفع كافة نفقات هذه الحملة المملوكية ، وكانت هناك بقية باقية فى معنويات بوهمند تعينه على رفض هذا الشرط المهين . وفى ذلك الوقت لم ينجح هجوم بيبرس على قلعة مراغة المبنية على صخرة قبالة الشاطىء بين بولونياس وطرطوس ، وكان سيدها ، بارثولوميو ، قد ذهب إلى البلاط المغولى ساعيا إلى طلب المساعدة . وتملك الغضب بيبرس لفشله حتى أنه حاول اغراء الحشاشين لقتل بارثولوميو أثناء رحلته(٣٨).

وفى نهاية مايو عرض بيبرس فجأة على بوهمند هدنة لعشر سنوات ، بلا شروط سوى الإحتفاظ بما استولى عليه مؤخرا . وبعد أن قبلها شرع فى رحلة العودة إلى مصر

---

(٣٧) Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp. 84-5; al-Aïni, pp. 237-9; Abu'l Feda, p. 154; *Gestes des Chiprois,* p.199; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 460.

(٣٨) hricht, Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp.86, 100; *Annales de Terre Sainte,* p. 455; R 'Derniers Temps' in *Archives d'Orient Latin,* ii, pp. 400-3.

ولم يتوقف إلا لكى يحاصر قلعة نظام التيوتون فى منتفورت التى استسلمت يوم ١٢ يونية بعد حصار أسبوع واحد(٣٩). والآن لم يبق للفرنج أية حصون داخل البلاد ، وفى نفس الوقت تقريبا أرسل أسطولا من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص بعد أن سمع أن الملك هيو غادر الجزيرة إلى عكا . وظهر أسطوله فجأة أمام ليماسول ، غير أنه نظرا لسوء المهارة الملاحية شحطت إحدى عشرة سفينة ووقع بحارتها أسرى لدى القبارصة(٤٠).

١٢٧١م : وصول إدوارد الإنجليزى

ويعزى تسامح السلطان مع بوهمند إلى وصول حملة صليبية جديدة . وكان هنرى الثالث ملك انجلترا قد أخذ الصليب منذ أمد بعيد ، ولكنه الآن شيخ عجوز أنهكته الحروب الأهلية فشجع ابنه ووريثه الأمير إدوارد على أن يحل محله وينطلق إلى الشرق . وكان إدوارد فى بداية الثلاثينات من عمره ، ذا قوة واقتدار وبرود ، سبق له أن أظهر مواهبه كرجل دولة فى تعامله مع المتمردين على والده . واتخذ قراره بالخروج بحملته الصليبية بعد أن سمع بسقوط أنطاكية ، لكنه خطط لها بعناية وبصورة منظّمة . ورغم أن النبلاء الإنجليز وافقوا على مصاحبته ، إلا أنهم بدأوا يعتذرون الواحد تلو الآخر لسوء حظه ؛ وفى نهاية الأمر غادر الأمير انجلترا فى صيف ١٢٧١م ومعه مجرد ألف رجل وزوجته إلينور (أوف كاستيل) . وبعد أشهر قليلة تبعه أخوه إدموند (أوف لانكاستر) بالتعزيزات ، وكان أحد المرشحين فيما سبق للعرش الصقلى . كما صحبته فصيلة صغيرة من البريتون(٤١) بقيادة الكونت الذى يتبعونه ، وفصيلة أخرى من هولاندة بقيادة تيدالدو فيسكونتى ، رئيس أساقفة ليج . وكان إدوارد ينوى الإنضمام إلى الملك لويس فى تونس ومواصلة الإبحار معه إلى الأراضى المقدسة ، لكنه وصل افريقيا ليجد الملك ميتا، والجنود الفرنسيون على وشك العودة إلى بلادهم ؛ فأمضى الشتاء فى صقلية مع الملك تشارلز الذى كانت زوجته الأولى خالته ، وواصل الإبحار

---

(٣٩) *Gestes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles, loc. cit.*.

(٤٠) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p. 88; Abu'l Feda, p. 154; al-Aïni, pp. 239-40; *Gestes des Chiprois*, p. 199; *Estoire d'Eracles, loc. cit.*; *Annales de Terre Sainte, loc. cit.*.

(٤١) (المترجم) ، البريتون : Bretons أهل بريتانى Brittany ، إقليم شمال غرب فرنسا يشغل شبه جزيرة تقع بين القنال الإنجليزى وخليج بسكاى

فى الربيع التالى إلى قبرص ثم إلى عكا حيث هبط إلى البر يوم ٩ مايو ١٢٧١م . وسرعان ما انضم اليه الملك هيو والأمير بوهمند[٤٢].

وارتاع إدوارد من الحالة التى وجد عليها الشرق الفرنجى . وكان يعلم مدى صغر جيشه ، لكن الأمل كان يراوده فى توحيد مسيحيى الشرق ليصبحوا قوة مرعبة ثم يستخدم مساعدة المغول فى القيام بهجوم فعّال على بيبرس . وكانت صدمته الأولى أن للبنادقة تجارة مزدهرة مع السلطان ، يزودونه بكل ما يحتاجه من أخشاب ومعادن للأسلحة، بينما يبذل الجنويون ما فى وسعهم لإيجاد طريق لهم فى هذه التجارة المربحة وقد سيطروا فعلا على تجارة الرقيق فى مصر . وعندما وبّخ التجار على مسلكهم الذى يعرّض مستقبل مسيحيى الشرق للخطر ، أظهروا له التصاريح التى حصلوا عليها من المحكمة العليا فى عكا لهذه الأغراض . ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئا لمنعهم[٤٣]. ثم راودته الآمال فى أن يأتى جميع فرسان قبرص إلى مليكهم فى فلسطين ؛ غير أنه برغم مجيء بعض الإقطاعيين إلا أنهم أصروا على أنهم متطوعون ، وعندما طلب منهم الملك هيو البقاء فى سوريا طوال فترة وجوده هناك ، أعلن المتحدث باسمهم فى صرامة، وهو ابن عم زوجته، جيمس (أوف إبيلين) ، أنهم لا يلتزمون بالخدمة إلا للدفاع عن الجزيرة، وأضاف متكبرا أنه لا ينبغى للملك أن يحتسب ذهاب النبلاء القبارصة للحرب فى ذلك البلد سابقة ، لأنهم كانوا كثيرا ما يفعلون ذلك بناء على طلب آل إبيلين بصورة أكبر مما كانوا يفعلونه بناء على طلب أى ملك ، وألمح إلى أن طلبه كان خليقا بأن يُلبّى لو أن هيو طلبه بطريقة أكثر مهارة . وطال الجدل حتى عام ١٢٧٣م ، عندما وافق القبارصة - بروح مصالحة نادرة - على أن يمضوا أربعة أشهر فى البلد الرئيسى إذا تواجد الملك أو وريثه مع الجيش . وفى ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ولم يحقق إدوارد هدفه[٤٤].

ولم يكن الأمير الإنجليزى أكثر نجاحا مع المغول . ذلك أنه ما أن وصل عكا حتى أرسل سفارة إلى الخان ، تتألف من ثلاثة من الإنجليز هم رينالد روسيل ، وجودفرى ويليس ، وجون باركر . وكانت جيوش أباغا الرئيسية تحارب فى التركستان ، ومع

---

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles*, pp. 460-1.. وعن حملة ادوارد الصليبية أنظر.. Powicke, *King Henry III and the Lord Edward*, ii, pp. 597 ff.

(٤٣) Dandolo, p. 380; Röhricht, 'Derniers Temps', p. 622; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 604-5.

(٤٤) *Assises*, i, pp. 347, 626, ii, pp. 427-34; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 462-4. See Hill *History of Cyprus*, ii, pp. 168-70.

ذلك وافق على أن يرسل ما يستطيعه من مساعدة. وفى ذات الوقت أرضى إدوارد نفسه ببضع غارات صغيرة عبر الحدود مباشرة .وفى منتصف اكتوبر ١٢٧١م وفى أباغا بوعده بأن اقتطع عشرة آلاف خيّال من حامياته فى الأناضول ، انساحوا جنوبا مرورا بعينتاب داخل سوريا وهزموا التركمان الذين كانوا يحرسون حلب ، وهربت حامية حلب المملوكية أمامهم إلى حماة ؛ وواصلوا زحفهم مرورا بحلب إلى معرة النعمان وأفاميا . ودب الذعر بين المسلمين المحليين ، لكن بيبرس الذى كان فى دمشق لم يفاجأه الشعور بالخطر ؛ إذ كان معه جيش ضخم واستدعى التعزيزات من القاهرة . وعندما بدأ فى الزحف شمالا يوم ١٢ نوفمبر تقهقر المغول عائدين ، إذ أنهم لم يكونوا من القوة بما يكفى لمواجهة الجيش المملوكى كله بينما ظل أتباعهم الأتراك فى الأناضول ماكثين حيث كانوا . وانسحبوا إلى ما وراء الفرات محملين بالأسلاب(٤٥).

وبينما كان بيبرس منشغلا بالمغول ، قاد إدوارد الفرنج عبر جبل الكرمل للإغارة على سهل شارون ، لكن جنوده كانوا من القِلّة بحيث عجز عن قصف قلعة قاقون المملوكية الصغيرة التى تحرس الطريق العابر للتلال . وإذن ، فالمطلوب غزو مغولى أكثر فعالية وحملة صليبية أكبر إذا أراد أدوارد استعادة أى أرض(٤٦).

١٢٧٢م : هدنة بين إدوارد وبيبرس

وفى ربيع ١٢٧٢م تحقق الأمير إدوارد من أنه ينفق الوقت بلا طائل ، وكل ما كان يستطيعه فى غيبة قوة بشرية أكبر وفى غيبة الحلفاء هو أن يرتب هدنة تحفظ الشرق الفرنجى للوقت الراهن ، وكان بيبرس من ناحيته على استعداد للهدنة ، إذ أن بقايا المملكة الفرنجية البائسة واقعة تحت رحمته طالما لا تعوقه تعقيدات خارجية . وكانت أولى مهام جيشه هى التصدى للمغول الذين ينبغى كبح جماحهم بالطرق الدبلوماسية فى الأناضول وفى السهوب . وإلى أن يشعر بالأمان فى تلك الجبهة ، فإن الإستيلاء على آخر القلاع الفرنجية لا يتطلب منه جهدا كبيرا ، وفى الوقت ذاته ينبغى له منع التدخل من الغرب ، ولذا يتعين المحافظة على حسن العلاقة مع تشارلز (أوف أنجو) وهو الوحيد الذى جلب مساعدة فعالة إلى عكا . غير أن طموح تشارلز الرئيسى

---

(٤٥) *Estoire d'Eracles,* ii, p. 461; Abu'l Feda, p. 154; D'Ohsson, *op. cit.* iii, pp. 459-60; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 601-2.

(٤٦) *Gestes des Chiprois,* pp. 200-1; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 461.

هو غزو القسطنطينية ، ولا تمثل سوريا سوى مجال اهتمام ثانوي بالنسبة له ، وكان ضم سوريا إلى امبراطوريته مجرد أفكار غامضة في رأسه ، ولذا كان يرغب في الحفاظ على وجودها ولا يفعل ما من شأنه زيادة قوة الملك هيو الذى كان يأمل فى أن يحل محله يوما ما؛ وكان مهيأً للوساطة بين بيبرس وإدوارد ، وفعلا تم توقيع معاهدة سلام يوم ٢٢ مايو ١٢٧٢م فى قيصرية بين السلطان وحكومة عكا ، تضمن للمملكة الاحتفاظ لعشر سنوات وعشرة أشهر بممتلكاتها الراهنة التى تتألف أساسا من سهل ساحلى ضيّق يمتد من عكا حتى صيدا ، إلى جانب الحق فى استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون عائق . أما كونتية طرابلس فكانت معاهدة ١٢٧١م تضمن سلامتها(٤٧).

وكان المعروف عن الأمير ادوارد رغبته فى العودة إلى الشرق على رأس حملة صليبية أكبر ؛ ومن ثم ، وبرغم المعاهدة، قرر بيبرس القضاء عليه . وفى ١٦ يونية ١٢٧٢م ، تنكّر أحد الحشاشين فى هيئة مسيحي وطنى وتوغل إلى غرفة نوم الأمير وطعنه بخنجر مسموم ، ولم يكن الجرح مميتا ، وإن ظل إدوارد مريضا بمرض خطير لعدة أشهر . وسارع السلطان بانكار ضلوعه فى هذا العمل بأن أرسل تهانيه بنجاة الأمير الذى ما أن تماثل للشفاء حتى أعد العدة للإبحار إلى وطنه ، وقد اعتلت صحته، ولم يعد هناك ما يفعله ، فأبحر من عكا يوم ٢٢ سبتمبر ١٢٧٢م(٤٨) عائدا إلى انجلترا ليجد نفسه ملكها.

١٢٧٢-١٢٧٤م : البابا جورج العاشر يجمع تقارير عن الحملات الصليبية

وكان رئيس أساقفة ليج ، الذى صحب إدوارد إلى فلسطين ، قد رحل فى الشتاء الفائت لدى سماعه بأنباء غير متوقعة بأنه قد انتخب بابا . ومنذ أن تولى البابوية باسم جورج العاشر لم يفقد اهتمامه بفلسطين قط ؛ وجعل مهمته الرئيسية العمل على إحياء الروح الصليبية ، فعُممت فى سائر أنحاء أوروبا مناشدته الرجال بأن يأخذوا الصليب ويحاربوا ، ووصلت بعيدا حتى فنلندا وأيسلندا ، وربما وصلت جرينلاند وساحل أمريكا

---

(٤٧) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 461-2; *Annales de Terre Sainte,* p. 455; Maqrisi, *Sultans,* I, ii, p. 102; al-Aïni, p. 247. See Delaville le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte,* p. 225.

(٤٨) *Gestes des Chiprois,* p. 201; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 462; Sanuto, p. 225. وقد ذكر Ptolemy of Lucca بعد مرور قرن من الزمان ، ولأول مرة ، أسطورة أن زوجة إدوارد ، إلينورا ، تمص السم من جرحه . أنظر Powicke, *op. cit.* p. 603.

الشمالية[٤٩] لكن لم تكن هناك استجابة وفى ذلك الوقت جمع تقارير توضح عداوة الرأى العام ؛ وقد أعدت هذه التقارير بمهارة ، فلم يمس أحدها المشكلة الأساسية وهى أن فكرة الحملة الصليبية نفسها قد هانت ذلك أن الثواب الروحانى موعود لمن يحارب اليونانيين ، الألبيجينستيين Albigenisians والهوهينشتوفن ، فباتت الحرب المقدسة مجرد وسيلة للسياسة البابوية العدوانية الضيقة ؛ بل إن مناصرى البابوية المخلصين لم يجدوا ما يبرر القيام برحلة شاقة إلى الشرق فى الوقت الذى تتاح فيه الفرص السانحة للفوز بمكاسب مقدسة فى حملات ذات متطلبات أقل فى شدتها.

وعلى الرغم من أن التقارير المرسلة إلى البابا توخت جانب الحرص فى انتقادها للسياسة البابوية، إلا أنها كانت صريحة بما فيه الكفاية فى تأكيد أخطاء الكنيسة . وهناك أربعة تقارير جديرة بالنظر: أولا (مجمل الفضائح الكنسية) Collectio de Scandalis Ecclesiae، وربما كان كاتب التقرير هو جيلبرت (أوف تورناى) وهو أحد الرهبان الفرنشيسكان الذى يذكر ما لحق بالحملات الصليبية من ضرر بسبب مشاحرات الملوك والنبلاء ، ركز على فساد رجال الدين وإساءة استخدام منح الغفران الذى تمنحه الكنيسة. وبينما كان كبار رجال الدين ينفقون أموالهم على اقتناء الجياد الأصيلة والقرود المستأنسة، كان عملاؤهم يجمعون الأموال فى مقابل الإعفاء من التعهد بأخذ الصليب. و لم يسهم أحد من رجال الدين فى دفع الضرائب المفروضة من أجل الحملات الصليبية ، رغم أن القديس لويس سبق أن أثار غضبهم برفض استثناءهم. هذا فى الوقت الذى فرضت فيه الضرائب على عوام الناس المرة تلو الأخرى من أجل حملات صليبية لم تحدث أبدا[٥٠].

أما التقرير الذى أرسله برونو أسقف أولموتز فقد اتخذ مسارا مختلفا ؛ إذ تحدث برونو كسابقه عن فضائح الكنيسة ، لكنه كان سياسيا . وقال إنه ينبغى أن يكون هناك سلام وإصلاح شامل فى أوروبا، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق امبراطور قوى ، وجاء فى تقريره ضمنا أن سيده الملك أوتوكار ملك بوهيميا هو المرشح الملائم لهذا المنصب . وأكد أن الحملات الصليبية فى الشرق لا معنى لها الآن وقد فات أوانها، ويتعين توجيه الحملات الصليبية لمحاربة الملحدين على الحدود الشرقية لأوروبا. وكان فرسان التيوتون

---

(٤٩) A. Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, pp. 361-4 .

(٥٠) قام Stroick بنشر وتحرير the *Collectio* فى تاريخ محفوظات الفرنشيسكان *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. xxiv. See Throop, *op. cit.* pp. 69-104.

يسيرون التصرف لما هم عليه من حشع وشهوة إلى السلطة ، أما إذا كانت موجّهة توجيها سليما عن طريق عاهل مناسب ، فهى خليقة بأن تأتى بمميزات مادية ودينة كذلك(٥١).

وقدّم وليم الطرابلسى ، وهو راهب دومينيكانى يعيش فى عكا ، تقريرا بنّاءً نزيها، تضاءلت فيه آماله فى حرب مقدسة فى الشرق تُدار من أوروبا ، غير أنه كان متأثرا بنبوءات تقول إن نهاية الإسلام قد اقتربت بل فى متناول اليد ، وكان اعتقاده أن المغول سيكونون هم محطمو الإسلام ؛ وقد حان وقت النشاط التبشيرى ، وهو كعضو فى نظام تبشيرى فإنه يؤمن بقوة المواعظ ، وهو مقتنع بإمكان الفوز بالشرق عن طريق البعثات التبشيرية وليس السيف . وكان يؤيده فى رأيه هذا مفكر عظيم للغاية ، وهو روجر بيكون(٥٢).

أما أكثر التقارير اكتمالا فقد كتبها راهب دومينيكى آخر ، هومبرت أوف رومانز، وهو الرئيس العام السابق للنظام . وقد كتب تقريره (العمل الثلاثى) Opus Tripartitum تمهيدا لإنعقاد مجلس عام لمناقشة الحملة الصليبية ، وانفصال الكنيسة اليونانية ، وإصلاح الكنيسة . وهو لا يعتقد فى امكانية تحويل المسلمين إلى المسيحية ، رغم الوعد الإلهى بتحول اليهود وإمكان تحول ملحدى أوروبا الشرقية . وارتأى أن ذهاب حملة صليبية أخرى إلى الشرق أمر أساسي ؛ وأورد شرور الكسل والبخل والجبن التى تُثبّط همم الرحال عن الإبحار شرقا . وتأسّى لحب الوطن الذى يمنعهم من الرحيل إلى الشرق والتأثير الأنثوى الذى يحاول ربطهم بمرسى الوطن . والأسوأ من كل ذلك أن لا أحد بات يؤمن الآن فى المزايا الروحانية الموعودة لمن يصبح صليبيا ، اللهم سوى القليل . ويقينا فإن هذا الإنكار الذى يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرا انتشارا واسعا ؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من المنشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد فى حاجة إلى الحملات الصليبية . وأخفقت مقترحات هومبرت فى مناهضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة ؛ فلا جدوى فى مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن الهزائم والإهانات

---

(٥١) نشر Hofler مذكرات برونو فى *Proceeding of the Bavarian Academy of Science*, 1846. وانظر Throop, *op. cit.* pp. 105-14.

(٥٢) See William of Tripoli, *De Statu Saracenorum, passim;* also Roger Bacon, *Opus Majus*, iii, pp. 120-2. ويوجه اللوم الى الغربيين لعدم إقبالهم على تعلم اللغات الأجنبية ليستعينوا بها فى أعمالهم التبشيرية

تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرحال بأن الحملة الصليبية هى أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أمست محاولة متأخرة للغاية . وأما إصلاح رحال الدين ، الذى أيده هومبرت بشدة ، فربما كانت فيه بعض الفائدة . على أن نصيحة هومبرت ، كخطة عملية لاستمالة عواطف العوام ، كانت ضئيلة القيمة ، ومن ثمّ جاءت توصياته بالإعداد لحملة صليبية كانت سابقة لأوانها، وهى توصيات تشمل ضرورة وجود برنامج للصلوات والصوم واقامة الطقوس ؛ وضرورة دراسة التاريخ ؛ ويتعين وجود هيئة من المستشارين الدينيين والمتمرسين ؛ وينبغى أن يكون هناك جيشا مرابطا من الصليبيين. أما عن التمويل ، فقد ألمع هومبرت إلى أن الوسائل البابوية لجباية الأموال لم تكن دائما تحظى بالشعبية ، وأعرب عن اعتقاده أنه فى حالة قيام الكنيسة ببيع جزء من كنوزها الضخمة ووسائل تزيينها المفرطة فلسوف تتحقق نتائج سيكولوجية طيبة فضلا عن النتائج المادية . غير أنه ينبغى للأمراء وكذلك القائمين على الكنيسة القيام بدورهم[٥٣].

١٢٧٤م : مجمع ليون

بعد أن تسلّح البابا جريجورى العاشر بكل هذه النصائح ، التى لم تطمئنه كثيرا ، أعلن عن عقد مجمع يعقد فى ليون ، وافتتحت دوراته فى شهر مايو ١٢٧٤م . وكثر الحاضرون من الشرق يقودهم بول (أوف سينى) أسقف طرابلس ، كما حضر وليم (أوف بيجو) المنتخب حديثا سيدا أعظم لنظام فرسان المعبد . غير أن ملوك العالم المسيحى تجاهلوا الدعوات الملحّة المرسلة اليهم ؛ إذ اعتذر فيليب الثالث ملك فرنسا عن الحضور ، وحتى إدوارد الأول الذى كان البابا جريجورى يعتمد عليه بصورة خاصة احتج بشواغل فى الوطن ؛ ولم يظهر سوى جيمس الأول ملك أراجون ، وهو عجوز ثرثار ، لم يحقق شيئا فى محاولته الأولى مع حملة صليبية شرقية ، لكنه كان صادق التلهف على وسيلة مدوية للإنطلاق فى مغامرة أخرى ، لكنه سرعان ما أصابه الضجر من المناقشات وسارع عائدا إلى أحضان عشيقته اللادى برينجاريا . ووعدت وفود من الامبراطور البيزنطى ميخائيل بالعمل على إخضاع كنيسة القسطنطينية ؛ إذ كان ميخائيل مرعوبا من طموحات تشارلز (أوف آنجو) ، بيد أنه كان وعدا لا سبيل

---

(٥٣) فيما يتصل بمسألة الضرائب الواردة فى *Opus Tripartitum* أنظر Throop, *op. cit.* p.147 n.1. ويورد Throop ملخصا مكتملا جدا للمحتويات ، *ibid.* pp. 147-213.

لتحقيقه ، فليس لرعايا الامبراطور ضلع فيه . وكان النجاح الوحيد للمجمع هو اتحاد الكنائس الذى ولد ميتا . ولم يتحقق شيء له حدواه من إصلاح الكنيسة ؛ وبينما كان الجميع على استعداد للحديث عن الحملة الصليبية ، لم يتقدم أحد بعروض ذات فائدة بصورة خاصة تعتبر ضرورية لإطلاق تلك الحملة الصليبية.

ومع ذلك ، تشبث جريجورى وسعى إلى جعل حكام أوروبا ينفذون القرارات المصطبغة بالورع التى أصدرها المجمع . وفى ١٢٧٥م أخذ فيليب الثالث الصليب ؛ وفى وقت لاحق من تلك السنة حذا حذوه رودولف الهابسبورجى[٥٤]، لقاء وعد بتتويجه بمعرفة البابا فى روما . وفى ذات الوقت حاول جريجورى تهيئة الأراضى المقدسة لمجىء الحملة الصليبية ؛ فأمر بترميم القلاع وإرسال المزيد والأفضل من المرتزقة . ومن تجربته الشخصية فى الشرق بدا أنه انتهى إلى أن حكومة الملك هيو لا أمل يرتجى منها؛ ولذلك كان متعاطفا مع مطالب ماريا الأنطاكية وشجعها على بيع مطالبها لتشرلز (أوف آنجو) الذى أراده أن يهتم بالشرق الفرنجى بصورة أكثر فعالية ، ليس فقط من أجل رفاهية هذا الشرق الفرنجى وإنما أيضا ليحول انتباهه عن طموحاته فى بيزنطية[٥٥]. بيد أن خطط البابا جريجورى كلها قد باءت بالفشل . وعندما مات فى ١٠ يناير ١٢٧٦م لم تكن هناك حملة صليبية فى طريقها إلى الشرق ، ولا أحد يرغب فى الرحيل.

أما الملك هيو فى قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها، وإنما يريد مجرد الحفاظ على الهدنة مع بيبرس ، ومع ذلك لم تفعل الهدنة سوى القليل لتحسين وضعه . وفى سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فبوفاة جون الثانى الإبلينى انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التى تُركت أرملة عذراء فى ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلا ؛ ذلك أن افتقارها إلى العفّة وخاصة علاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا فى إصدار مرسوم بابوى حثّها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفى ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها لإنجليزي - هامو الأجنبى - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرتاب فى الملك هيو فعندما حضرته الوفاة فى العام التالى وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيبرس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة

---

(٥٤) (المترجم) رودلف الهابسبورجى Rudolph of Hpsburg ، أسرة هابسبورج أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا-وهنجاريا (١٢٧٨-١٩١٨) ، وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠)، والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٣٨-١٨٠٦).

(٥٥) See Hefele-Leclercq, *op. cit.* VI, i,pp. 67-8,153 ff.; Throop,*op. cit.*pp.262-82.

وإعادتها إلى قبرص ليزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالعهد الذى أوصى به هامو وطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عُين حارس مملوكي لحمايتها[٥٦] ولم يتمكن هيو من إستئناف سيطرته على اقطاعية بيروت إلا بعد وفاة بيبرس بوقت طويل . وتزوجت إيزابيلا من زوجين آخرين قبل وفاتها فى سنة ١٢٨٢م تقريبا عندما انتهت بيروت إلى أختها إيشيفا، زوجة همفرى (أوف مونتفورت) الذى كان صديقا وفيا للملك[٥٧].

١٢٧٥م : الوصاية فى طرابلس

كانت انتكاسة هيو الثانية فى طرابلس . فقد مات بوهمند السادس - آخر أمراء أنطاكية - فى ١٢٧٥م تاركا ابنه بوهمند عن حوالى أربعة عشر عاما وابنته الأصغر لوسيا . وطالب الملك هيو بالوصاية على طرابلس باعتباره الوريث الذكر التالى لبيت أنطاكية ؛ غير أن الأميرة المسنّة سيبيلا الأرمينية باشرت المنصب على الفور إذ أن تقاليد العائلة تخول لها ذلك ، وعندما وصل الملك هيو إلى طرابلس لتحقيق مطالبته وجد أن بوهمند السابع الصغير قد أُرسل إلى بلاط خاله الملك ليو الثالث الأرمينى ، ووجد أسقف طرطوس ، بارثولوميو ، يباشر إدارة المدينة باسم سبيلا ، ويبدو أن بارثولوميو هذا ينتمى إلى عائلة مانسل الأنطاكية العظيمة ، ولم يساند أحد فى طرابلس الملك هيو إذ أن بارثولوميو كان يحظى بشعبية كبيرة آنذاك ، وكان عدوا لدودا لأسقف طرابلس بول (أوف سينى) وهو خال بوهمند السادس ، وعدوا كذلك لجميع الرومان الذين عيّنهم فى الكونتية بالإشتراك مع لوسين . وبتأييد من النبلاء المحليين قامت سبيلا وبارثولوميو بقتل بعض الرومان ونفى البعض الآخر . ولسوء الحظ كان أسقف طرابلس ، بول ، يحظى بتأييد نظام فرسان المعبد وقد قابل السيد الأعظم للنظام فى

---

(٥٦) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 462; Ibn al-Furat, in Reinaud, *Chroniqueurs Arabes*, p. 532. ويُظهر بويك Powicke, *op. cit.* p.6006 n.1 أن إسم زوج إيزابيلا كان هومو وليس إدموند . ويقبل هيل Hill, *op. cit.* p. 137 n.2 الرأى القائل أن علاقتها كانت بجون أمير يافا . غير أن ذلك يثير صعوبات فيما يتعلق بتأريخ الأحداث ؛ فقد مات جون أمير يافا سنة ١٢٦٦م . وفضلا عن ذلك، كان جون يتمتع باحترام كبير ، بينما كان المشهور عن جوليان أن حياته كانت حياة انحلال . وكانت زوجة جون هى أخت الملك هيثوم الذى مات فى ١٢٦٩م ، بينما كانت زوجة جوليان هى أخت خليفة هيثوم . والأرجح كثيرا أن المرسوم البابوى أخطأ جيل الأميرة

(٥٧) *Lignages*, p. 462; Ducange-Rey, *Familles d'Outremer*, pp. 235-6.

مجمع ليون. وعندما جاء برهمند السابع من أرمينيا سنة ١٢٧٧م لإستلام الحكم واجهته عداوة النظام التى لا هوادة فيها(٥٨).

وفقط فى اللاذقية الأبعد إلى الشمال فاز هيو بنصر ضئيل . إذ كانت اللاذقية هى كل ما تبقى من إمارة أنطاكية ، واعتبر بيبرس أنها لا تندرج تحت أي من معاهدتيه مع طرابلس أو عكا ، وكانت جيوشه تحيط بها عندما استنجد مواطنوها مباشرة بالملك هيو الذى استطاع التفاوض على هدنة مع السلطان الذى سحب بدوره جنوده نظير إتاوة سنوية قدرها عشرين ألف دينار وإطلاق عشرين أسيرا من المسلمين(٥٩).

و لم يمض وقت طويل حتى امتدت مشكلات هيو إلى عكا نفسها . فقد كان كوميون عكا مستاءً من حكمه المباشر ، بينما أخذت العداوة تتزايد ضده من جانب نظام المعبد الذى شعر بالإمتعاض من مصالحته مع آل مونتفورت ، وعارض توليه العرش؛ أما نظام المستشفى ، الذى لا بد وأنه كان يعتمد على حسن نواياه ، فقد تضاءلت أهميته بعد ضياع مقره الرئيسى فى الكرك؛ وكانت القلعة العظيمة الوحيدة الباقية لفرسان المستشفى هى قلعة المرقب التى تشرف من قمة تلها العالى على بولونياس. وقد سبق أن كتب السيد الأعظم لنظام المستشفى ، هيو (أوف ريفيل) فى ١٢٦٨م قائلا إن النظام يحتفظ الآن بثلاثمائة فارس وحسب فى الشرق الفرنجى بعد أن كانوا عشرة آلاف فى الأيام الخوالى ، غير أن النظام كان لا يزال يملك مقره الرئيسى فى طرطوس وكذلك فى صيدا وقلعة عثليت العظيمة ، بينما زاد من قوته علاقاته المصرفية مع العالم الشرقى كله(٦٠). وكان توماس بيرار ، السيد الأعظم للنظام من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٣م، مخلصا فى أيامه الأولى للأوصياء القبارصة ، ورغم أن كراهيته للملك هيو كانت آخذة فى التزايد إلا أنه لم يتحداه صراحة قط ؛ لكن خليفته وليم (أوف بوجو) كان من معدن آخر ؛ إذ كان من أقرباء البيت الملكى الفرنسى ، وكان عزيز النفس طموحا نشيطا . وعندما انتُخب كان فى أبوليا فى أراضى ابن عمه تشارلز (أوف آنجو) وجاء إلى الشرق بعد ذلك بسنتين وقد عقد العزم على دفع مشاريع

---

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 466-7,481; *Gestes des Chiprois*, p. 202.

(٥٩) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p. 125; Muhi ad-Din in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, ii, p.685.

(٦٠) (المترجم) العالم الشرقى : Levant اللفظ مشتق من الأصل اللاتينى levare بمعنى ينهض أو يشرق، والتسمية تنطبق على منطقة شرق البحر المتوسط بما فى ذلك جميع البلاد المطلة على البحر وهى اليونان وتركيا والشام ومصر

تشارلز ولذا عارض الملك هيو من البداية.

١٢٧٦م : الملك هيو يتقاعد فى قبرص

وفى أكتوبر ١٢٧٦م اشترى نظام المعبد قرية تسمى لافوكونارى - تقع على بعد أميال قليلة جنوب عكا - من مالكها توماس (أوف سانت برتين) ، وتعمد ألا يطلب موافقة الملك على الصفقة ، وتجاهل شكاواه . ومع هذه المضايقات من الأنظمة الدينية العسكرية ، ومن كوميون عكا ، ومن المستعمرات التجارية ، عقد هيو العزم على مغادرة تلك المملكة الجاحدة . وفجأة جمع مقتنياته وانسحب إلى صور منتويا الإبحار منها إلى قبرص ، وغادر عكا دون أن يعيّن وكيلا. وابتهج فرسان المعبد وكذلك البنادقة حلفاؤهم الموثوقين ؛ بيد أن البطريق توماس (أوف لينتينو) وفرسان المستشفى وفرسان التيوتون وكذلك الكميون وأبناء جنوا أصيبوا بصدمة وأرسلوا الوفود إلى صور يتوسلون اليه على الأقل أن يعيّن نائبا ؛ لكنه كان من الغضب أول الأمر بحيث لم يستمع اليهم ؛ وربما أقنعته حجج جون (أوف مونتفورت) فعيّن باليان الإبلينى - ابن جون أمير أرصوف - وكيلا كما عيّن قضاة لمحاكم المملكة. وبعد ذلك مباشرة أبحر إلى قبرص ليلا دون أن يخطر أحدا . ومن قبرص كتب إلى البابا ليبرر تصرفه(٦١).

وكانت مهمة باليان عسيرة .إذ كانت هناك أعمال شغب فى شوارع صور بين تجار مسلمين من بيت لحم تحت حماية فرسان المعبد وتجار نساطرة من الموصل كان رؤساؤهم فرسان المستشفى . واشتعلت العداوات مرة أخرى بين البنادقة والجنويين ؛ ولم يستقم أمر أى حكومة إلا بمساعدة البطريق وفرسان المستشفى(٦٢).

وفى سنة ١٢٧٧م استكملت ماريا الأنطاكية بيع حقوقها لتشارلز (أوف آنجو) الذى اتخذ على الفور لقب ملك القدس. وأرسل روجر (أوف سان سيفيرينو) كونت مارسيكو مع قوة مسلحة إلى عكا ليصبح وكيلا له، وبفضل مساعدة نظام المعبد والبنادقة ، تمكن روجر من الهبوط إلى البر فى عكا حيث قدم أوراق اعتماده الموقعة من تشارلز ومن ماريا ومن البابا جون الحادى والعشرين . وأحرج باليان الإبلينى حرجا

---

(٦١) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 474-5; *Gestes des Chiprois,* p. 206 (post-dating the episode). See Delaville le Roulx, *op. cit.* pp. 210-29.

(٦٢) *Estoire d'Eracles, loc. cit.; Gestes des Chiprois, loc. cit.*.

شديدا ؛ فليس لديه تعليمات من الملك هيو ، وكان يعلم أن فرسان المعبد والبنادقة على استعداد لحمل السلاح نيابة عن روجر ، بينما لم يكن هناك وعد من البطريق ولا من فرسان المستشفى بالتدخل ؛ ولكي يتجنب إراقة الدماء سلّم القلعة للأنجيفيين(٦٣). ورفع روجر علم تشارلز وأعلن أنه ملك القدس وصقلية ثم أمر بارونات المملكة أن يقدموا الولاء له هو نفسه باعتباره وكيل الملك . وتردد البارونات بوازع من حبهم لهيو أقل من كراهيتهم لقبول انتقال التاج بلا قرار من المحكمة العليا . ولكي يحافظوا على بعض الشرعية أرسلوا الوفود إلى قبرص ليسألوا ما إذا كان هيو يحررهم من الولاء له ؛ ورفض هيو أن يرسل ردا . وأخيرا هدد روجر الذى كان بيده الأمر والنهي بمصادرة ضياع الذين يرفضون تقديم ولائهم له ، لكنه أتاح فرصة أخرى للرجوع إلى هيو ، وكانت عقيمة بنفس القدر ؛ ولذا خضع البارونات لروجر ، وسرعان ما اعترف به بوهمند السابع وكيلا قانونيا. وعيّن روجر بعض الفرنسيين من بلاط تشارلز كمسؤولين رئيسيين أمامه ؛ فأصبح أودو بوالشيان قهرمانا، وريتشارد (أوف نيوبلانز) كونستابلا، وجيمس فيدال رئيسا عسكريا(٦٤).

وجاءت هذه الترتيبات على هوى بيبرس؛ فبإمكانه أن يثق فى أن ممثل تشارلز لن يستحث حملة صليبية جديدة ولن يتآمر مع المغول ، وبهذا الشعور بالأمان كان على استعداد للسماح للشرق الفرنجي بالبقاء لسنوات أخرى قليلة ، وفى الوقت نفسه يستطيع المبادرة بالهجوم على الخان . وكان أباغا مدركا للخطر ، ولذا كان تواقا لإقامة تحالف مع الغرب . وفى ١٢٧٣م أرسل خطابا إلى عكا موجّه إلى إدوارد ملك انجلترا ، يسأل متى تصل حملته الصليبية التالية . وقام بنقل الرسالة إلى أوروبا دافيد وهو دومينيكى كان راعيا للبطريق توماس (أوف لينتينو). وأرسل إدوارد ردا ودودا اعتذر فيه قائلا إنه لا هو ولا البابا قد قرر متى يمكن أن تذهب حملة أخرى إلى الشرق . وفى العام التالى ظهر مبعوثون مغول فى مجمع ليون ، وقام كردينال أوستيا - الذى صار لاحقا البابا إينوسنت الخامس - بتعميد اثنين منهم . وكانت الردود التى تلقياها من البابا وإدارته مرة أخرى ودودة ولكنها غامضة . وفى خريف ١٢٧٦م عاود الخان

(٦٣) (المترجم) الأنجيفيين : Angevins نسبة الى آنجو Anjou أو ينتمى الى ملوك الخط الإنجليزى من عائلة بلانتاجين (١١٥٤-١٣٩٩).

(٦٤) *Estoire d'Eracle*, pp. 478-9; *Gestes des Chiprois*, pp.206-7; Amadi,p.214; Sanudo, pp.227-8; John of Ypres in Martène and Durand, *Thesaurus Novus Anecdotorum*,vol. iii,col.755.

المحاولة مرة أخرى ؛ فقد هبط إلى البر فى إيطاليا اثنان من الجورجيين ، هما الأخوان جون وجيمس فاسيلى ، لزيارة البابا ومعهما أوامر بالذهاب إلى بلاطى فرنسا وانجلترا ، وكانا يحملان رسالة شخصية من أباغا إلى إدوارد الأول ، اعتذر فيها عن أن مساعدته فى سنة ١٢٧١م لم تكن فعّالة على نحو أكبر . ولم يسفر أى من هذه الأنشطة الدبلوماسية عن أية نتيجة. وكان الملك ادوارد يأمل مخلصا فى الذهاب فى حملة صليبية أخرى ، بيد أنه لم يكن هو ولا فيليب الثالث ملك فرنسا مستعد لذلك بعد .وكانت الإدارة البابوية تحت النفوذ الشرير لتشارلز (أوف آنجو) الذى كان يكره المغول باعتبارهم أصدقاء أعدائه البيزنطيين والجنويين ، والذى كان يقيم سياسته كلها على أساس التفاهم مع بيبرس . وكان الباباوات يراودهم أمل متفائل فى الترحيب بالمغول فى حظيرة الكنيسة ، لكنهم لم يتحققوا من أن الوعد بالمثوبة فى السماء لم يكن إغراءً كافيا للخان . بل حتى النداءات التى أطلقها ليو الثالث الأرمينى ، الذى كان فى الوقت نفسه تابعا مخلصا للخان وعلى اتصال وثيق بروما ، لم تسفر عن أية نتيجة عملية من البابوية(٦٥).

١٢٧٧م : بيبرس يغزو الأناضول

تمكن بيبرس من تنفيذ مخططاته دون تهديد من الغرب بالتدخل. ففى ربيع ١٢٧٥م قاد بنفسه غارة داخل كيليكيا خرب فيها مدن السهل ، بيد أنه لم يتمكن من التوغل إلى العاصمة سيس . وبعد سنتين قرر غزو الأناضول . وكان السلطان السلجوقى الآن طفلا هو قيخوسرو الثالث ، وكان وزيره سليمان حامل الأختام بمثابة القوة الرئيسية فى البلاد، غير أنه كان عاجزا عن السيطرة على الإمارات المحلية التى كانت آخذة فى الظهور ، وأهمها إمارة الكارامانيين ؛ وكان للخان محمية واسعة فى السلطنة ، يفرض وجودها حامية مغولية كبيرة . وفى ١٨ إبريل ١٢٧٧م اجتث المماليك شأفة هذه الحامية فى البستان ؛ وبعد خمسة أيام دخل بيبرس قيصرية مازاكا ، فسارع وزير السلطان - سليمان - والأمير الكارامانى إلى تهنئة المنتصر ؛ غير أن أباغا استشاط غضبا وقاد بنفسه جيشا مغوليا فى استعراضات شاقة إلى داخل الأناضول . ولم ينتظر بيبرس وصوله ، وإنما تقهقر إلى سوريا ، واستعاد أباغا بسرعة السيطرة على السلطنة

---

(٦٥) William of Nangis, pp. 540, 564; D'Ohsson, *op. cit.* iii, pp. 543-9; Powicke, *op. cit.* p.602 n.1; iii,, pp. 280-1 *op. cit.*Howorth,.

السلجوقية . وألقى القبض على سليمان الخائن وقتله ، وقالت الشائعات إن لحمه قُدم مطهيًا فى أطباق على مأدبة الخان الرسمية التالية(٦٦).

وفاة بيبرس

ولم يعش بيبرس طويلا بعد مغامرته فى الأناضول. وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فاستنادا إلى بعض المؤرخين مات متأثرا بجراحاته التى أصيب بها فى حملته الأخيرة ؛ واستنادا إلى البعض الآخر أفرط فى شراب القُمّز ، وهو لبن الفرسة المخمر الذى يحبه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هى أنه أعد القُمّز المسموم للأمير الأيوبى صاحب الكرك ، القاهر ابن الناصر داود الذى كان مع جيشه والذى أساء اليه، ثم شرب باهمال من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات يوم أول يولية ١٢٧٧م(٦٧).

ولقد أزاح موته أعدى أعداء المسيحية منذ صلاح الدين . فعندما أصبح بيبرس سلطانا كانت الأراضى الفرنجية تمتد بطول الساحل من غزة إلى كيليكيا، مع وجود قلاع ضخمة فى داخل البلاد لحمايتها من الشرق . وعلى مدى حكمه الذى استمر سبع عشرة سنة حصر الفرنج فى مدن قليلة بطول الساحل ، عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، مع مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعتى عثليت ومرقب . ولم يطل به العمر ليشهد إزالتها إزالة كاملة ، بيد أنه جعل إزالتها أمرا حتميا. وكانت شخصيته تتميز بقليل من الخصال التى أكسبت صلاح الدين الإحترام حتى من أعدائه . لقد كان قاسيا، غير مخلص، خؤونا ، بأخلاقه غلظة ، وفى كلامه خشونة . ولم يكن بوسع رعاياه أن يحبوه ، لكنهم منحوه أعجبوا به بحق، إذ أنه كان جنديا حاد الذكاء وسياسيا ماهرا، وإداريا حكيما، سريعا فى اتخاذ قراراته وكتمانها ، وكانت أهدافه واضحة له تماما . وبرغم أمه كان مسترقا فى الأصل فقد رعا الفنون وتوسع فى البناء، فعل الكثير لتجميل مدنه وإعادة عمارة قلاعه . وكرجل كان شريرا ، لكنه كحاكم كان من بين أعظم حكام زمانه.

---

(٦٦) Abu'l Feda, p. 165; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp.144-5; Bar-Hebraeus, pp. 456-9; D'Ohsson, *op. cit.* pp. 486-9. See Howorth, *op. cit.* iii, pp. 252-6.

(٦٧) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p.150; Abu'l Feda, pp. 165-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 208-9; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 193; Bar-Hebraeus, p. 458.

الباب الرابع:

نهاية الشرق الفرنجي

الفصل الأول:

تجارة الشرق الفرنجي

تجارة الشرق الفرنجى

"بكَثْرة تجارتكَ ملأوا جَوفَك ظُلما فأخطأتَ"

(حزقيال ١٦:٢٨)

على مدى تاريخ الشرق الفرنجى ، كانت القضية المباشرة فيها بين المسيحية والإسلام يعتورها شيئ من الغموض أو العِوَج. ذلك أن المستعمرات الفرنجية كانت واقعة فى منطقة تشتهر بالغنى ، وبأنها يقينا تسيطر على بعض أعظم الطرق التجارية فى العالم. وكانت طموحات المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تتعارض أحيانا مع الانتماء الدينى، وكانت هناك مناسبات تطلبت فيها احتياجاتهم الإنسانية الأساسية مصادقة جيرانهم المسلمين.

ولم تكن هناك قوة تجارية دافعة وراء إطلاق الحملة الصليبية الأولى . أما المدن البحرية الإيطالية ، التى كان تجارها أخبث جامعى الأموال فى عصرهم ، فقد استشعرت الخطر بادئ الأمر نتيجة لتلك الحركة التى كان يمكن أن تقضى على العلاقات التجارية التى أقيمت مع مسلمى الشرق ؛ وحينما نجحت الحملة الصليبية

وأنشئت المستوطنات الفرنجية في سوريا ، عرض الإيطاليون مساعدتهم وقد تحققوا من إمكان استخدام المستعمرات الجديدة لصالحهم . وكان الحافز التجارى الذى دفع الصليبيين، يتمثل في شدة الرغبة في الأرض فيما بين النبلاء الأقل في فرنسا والبلاد الواطئة ، وشوق الفلاحين هناك إلى الفرار من بيوتهم الموحشة المحرومة ، ومن الفيضانات والمجاعات التى حدثت في السنوات الأخيرة ، والهجرة إلى الأراضى ذات الثراء الأسطورى . وقد وجد كثيرون من البسطاء غموضا شديدا في التمييز بين هذه الحياة التى يعيشونها والحياة الآخرى ؛ وخلطوا بين أورشليم الدنيوية وأورشليم الملكوت[1] وتوقعوا أن يجدوا مدينة مرصوفة بالذهب تفيض لبنا وعسلا . ولقد خدعتهم آمالهم و لم يفيقوا من الوهم إلا شيئا فشيئا ؛ إذ أن حضارة مدن الشرق ومستوى معيشتها الأعلى ، اتخذت مظهر الثراء الوفير ، وهذا ما كان الحجاج العائدون يقصونه على أصدقائهم . على أنه بمرور الوقت تناقص بريق تلك الأقاصيص . وبعد الحملة الصليبية الثانية لم تعد جماهير غفيرة من فلاحي الغرب تذهب باحثة عن بيوت جديدة في الأراضى المقدسة . وظل النبلاء المغامرون يذهبون إلى الشرق لاكتساب الثروات ، ومن بين الصعوبات التى عرقلت تنظيم الحملات الصليبية المتأخرة غيبة الحافز الاقتصادى[2].

و لم تكن الأقاليم الفرنجية في الشرق الفرنجى غنية بطبيعتها وفى حقيقة الأمر. وقد كانت هناك مناطق خصبة ، مثل سهل بزرعيل (إزدراليون) وسهل شارون وسهل أريحا، والشريط الساحلى الضيق الواقع بين جبال لبنان والبحر ، ووادى البقاع ، وسهل أنطاكية . بيد أنه بالمقارنة بما وراء الأردن وحوران والبقاع ، كانت فلسطين بلدا جدبا غير ذى زرع . وكانت أهمية الأردن للفرنج تكمن فيما تزرعه من حبوب بنفس قدر سيطرتها على الطريق الذاهب من دمشق إلى مصر[3]. وبدون مساعدة

---

(١) (المترجم) أورشليم الملكوت ، أو أورشليم الجديدة New Jerusalem ، المذكورة في الإنجيل ، سفر الرؤيا ٢١:٢ "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها"

(٢) يعتبر التاريخ الذى كتبه Heyd ، واسمه *Histoire du Commerce du Moyen Age* ، العمل الرئيسى للتاريخ الإقتصادى للحملات الصليبية . وقد نوقشت حديثا المسألة برمتها في مقال هام كتبه Cahen بعنوان "Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III" ، منشور فى *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*، مايو-يونية ١٩٥١. ويورد Cahen أسباب تقليل الأهمية التجارية للدويلات الصليبية الى أدنى حد لها

(٣) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٢٧-٢٨.

الأردن، لم يكن الأمر سهلا دائما على مملكة القدس فى أن تُطعم نفسها . وفى حالة الحصاد السيئ ، كان يتعين استيراد الحبوب من سوريا المسلمة[٤]. وفى العقدين الأخيرين للشرق الفرنجى ، عندما كان الفرنج محصورين فى مدن الشريط الساحلى ، كان لزاما استيراد الحبوب دائما.

منتجات الشرق الفرنجى

وكانت إمدادات المواد الغذائية الأخرى كافية . فكانت التلال توفر المراعى لأعداد كبيرة من الأغنام والماعز والخنازير . وكانت هناك حدائق للفاكهة والخضروات تحيط بكل المدن ، كما كانت أشجار الزيتون. وربما كان زيت الزيتون فى واقع الأمر يصَدّر بكميات قليلة إلى الغرب ، بينما كانت الفواكه الفلسطينية النادرة ، كالليمون الحلو أو شراب الرمان أو الزبيب الأحمر، تشاهد أحيانا على موائد أثرياء إيطاليا[٥].

ومع ذلك ، كانت هناك منتجات قليلة يستطيع الشرق الفرنجى تصديرها على نطاق كبير يكفى لجلب قدر كبير من العوائد إلى البلد . وأهم تلك المنتجات هو السكر؛ فعندما وصل الصليبيون إلى سوريا وجدوا أن قصب السكر يزرع فى مناطق ساحلية كثيرة وفى وادى الأردن ، فواصلوا زراعته وتعلموا من أبناء البلد طريقة استخلاص السكر من القصب . وكان هناك مصنع سكر ضخم فى عكا، ومصانع فى أغلب المدن الساحلية ، وكانت صور هى المركز الرئيسى لتلك الصناعة . وكان السكر المستهلك كله فى أوروبا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر يأتى من الشرق الفرنجى[٦]. وتأتى الملابس بشتى أنواعها فى المرتبة الثانية من مراتب التصدير الرئيسية ؛ فكانت دودة القز تُربّب حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس ، بينما كان

---

(٤) E.g. in 1185 . أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٤٩٦-٤٩٧.

(٥) كان رئيس أساقفة صور يمتلك ٢٠٤٠ شجرة زيتون فى قرية واحدة فقط، Tafer-Thoma, *Urkunder*, p.299. أنظر Cahen, "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin II", in *Bulletin de* la faculté des lettres de Strasbourg (April, 1951), p. 293. Rey, *Les Colonies Franques*, p. 245; Heyd, *op. cit.* pp. 177-8. ويقول Burchard of Mount Sion فى مؤلفه وصف الأرض المقدسة Description of the Holy Land إن حدائق الفاكهة المحيطة بطرابلس كانت تعود على أصحابها بعائد سنوى قدره ٣٠٠ ٠٠٠ بيزانت ذهبى. ed. P.P.T.S. p. 16

(٦) Heyd, *op. cit.* i, p. 179, ii, pp. 680-6; Cahen, *op. cit.* ii, p. 293; Rey, *op.cit.* pp.248-9

الكتان ينمو فى سهول فلسطين ، وكانت المواد الحريرية تباع للتصدير . وكانت الانسجة الحريرية المطرزة بالذهب والفضة تُصنع فى عكا وبيروت واللاذقية ؛ وكانت صور تشتهر بقماش يعرف باسم زندادو أو سِندال . وكان للأقمشة الكتانية المصنوعة فى نابلس شهرة عالمية ، وكانت الأصباغ الأرجوانية الآتية من صور درازا عصريا للملابس . بيد أن الإيطاليين كانوا يستطيعون أيضا شراء الحرير والكتان فى أسواق سوريا ومصر حيث كانت الإمدادات أكبر والأسعار أرخص دائما(٧). وكذلك الحال مع الزجاج ؛ فكان اليهود فى شتى المدن ، خاصة صور وأنطاكية ، ينتجون الزجاج للتصدير ، بيد أن الزجاج المنتج فى مصر كان ينافس منتجاتهم. وربما كانت المدابغ لا توفر سوى الإحتياجات المحلية ، لكن الفخار كان يُصدّر أحيانا(٨).

وكانت هناك سوق دائمة للأخشاب فى مصر ؛ فمنذ أقدم العصور كان الأسطول المصرى يُبنى بالأخشاب المستجلبة من غابات لبنان أو التلال الواقعة جنوب أنطاكية ، هذا فضلا عمّا كان يحتاجه المصريون من أخشاب بمقادير كبيرة لأغراض البناء المعمارى. ونادرا ما كانت الحروب بين المصريين والدويلات الصليبية تقطع هذه التجارة لفترة طويلة(٩). وكانت هناك مناجم حديد بالقرب من بيروت، وإن بدا أن إنتاجها لا يكفى للتصدير(١٠).

وكانت تُصدَّر أنواع معينة من الأعشاب والعطارة ؛ أهمها المرهم ؛ الزيوت العطرية ولأنها تستخدم أساسا فى أوروبا فى طقوس الكنيسة ، يصبح الآتى منها من الأراضى المقدسة أكثر شعبية ، وفى القرن الثانى عشر كانت تُزرع بمقادير كبيرة بالقرب من القدس ، غير أنه لم يكن من اليسير زراعة المحصول الذى يتطلب ريّا باهظ التكاليف . وبعد إعادة الفتح الإسلامى فى نهاية القرن تضاءلت زراعتها وسرعان ما

---

(٧) Heyd, *op. cit.* i, pp. 178-9, ii, pp. 612, 696, 699, 705 . وكانت ياضات نابلس خشنة بمقارنتها بتلك الى تنتج فى مصر (*ibid.* p.632 n.1). Rey, *op. cit.* pp.214-21. ويقول الإدريسى Idrisi فى *Geography* (Arabic text, ed. Guildemeister, p.11) إن نوعا معينا من الملابس البيضاء كان يُصنع فى صور

(٨) Heyd, *op. cit.* i, p. 179; Rey, *op. cit.* pp. 211-12 (quoting *Assises,* ii, p. 179), 224-5..
أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ص.٣٣٩-٣٤٠.

(٩) See Rey, *op. cit.* pp. 234-40, for the forests in Outremer.

(١٠) Idrisi, p.16، يقول إن الحديد كان يُرسل من بيروت الى سائر أنحاء سوريا

اختفت[١١].

التجارة العابرة

وكان حكام الشرق الفرنجى يحصلون على أكبر الإيرادات من البضائع التى كانت تمر عبر البلد؛ فكان هناك طلب متزايد فى أوربا العصور الوسطى على البضائع الشرقية والعطارة والأصباغ والأخشاب المعطرة والحرير والخزف ، وكذلك بضائع من البلدان الإسلامية الواقعة على حدود الشرق الفرنجى . بيد أنه كان لزاما على هذه التجارة أن تتوقف على الظروف السياسية فى آسيا ؛ فعندما بدأت الحملات الصليبية كانت أغلب تجارة الشرق الأقصى تأتى بحرا عبر المحيط الهندى فالبحر الأحمر إلى مصر ، وقد جذبها ما كانت عليه المدن المصرية من ثراء وما كان الحكم الفاطمى يوفره من أمان ، وبذا بعدت التجارة عن طريقها السابق أعلى الخليج الفارسى إلى بغداد . وكانت الموانى السورية تستخدم فى تصدير البضائع المحلية دون غيرها، كأصباغ النيلة من العراق أو الأدوات المعدنية الدمشقية ، وأية عطارة من جنوب الجزيرة العربية تحمل فى قوافل بدلا من القوارب . وفى نهاية القرن الحادى عشر ، لم تجد التجارة أو الصناعة فى داخل سوريا تشجيعا بسبب الحروب الصغيرة التى أعقبت الغزوات التركية ؛ ولم ترجع سوريا إلى سابق ازدهارها إلا عندما جعل نورالدين ، ومن بعده صلاح الدين ، من سوريا ومصر وحدة منظمة ، فزادت المنتجات المحلية ، وأمكن نقل البضائع الآتية من العراق وفارس بأمان إلى حلب أو حمص أو دمشق ومن أيها إلى البحر ، وكان تجار حلب يستخدمون ميناء السويدية ، الذي يصلون اليه من خلال أنطاكية ، وميناء اللاذقية ؛ أما طرطوس وطرابلس فكانتا مينائي حمص وعكا ودمشق[١٢].

وعلى الرغم من أن الإيطاليين ساعدوا الصليبيين فى غزو كل ميناء من تلك الموانى، بقيت مصالحهم التجارية الرئيسية فى مصر ؛ فكانت القوانين التجارية الصادرة فى البندقية خلال القرن الثانى عشر تذكر دائما الإسكندرية أكثر مما تذكر عكا ، وبصورة خاصة بعد طرد البنادقة من القسطنطينية . كما أن سجلات جنوا فى الفترة من ١١٥٦ إلى ١١٦٤م تظهر أن عدد العملاء الذين لهم مصالح فى الإسكندرية يبلغ

---

(١١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 577-8.

(١٢) Heyd, *op. cit.* i, pp. 168-77.

ضِعف عدد من لهم مصالح فى الشرق الفرنجى تقريبا . والجدير بالملاحظة كذلك فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن أغلب المسافرين من أوروبا إلى فلسطين يذهبون أولا فى سفن بندقية أو جنوية إلى القسطنطينية ومنها برا، أو فى سفن ساحلية يونانية إلى سوريا ؛ أو أنهم يبحرون مباشرة من جنوب إيطاليا فى سفن مملكة صقلية ، ولذا يبدو أنه لم تكن هناك سفن كثيرة تبحر فى رحلات منتظمة من الموانى التجارية الإيطالية إلى سوريا حتى السنوات الأخيرة من القرن[١٣]. وحتى ذلك الوقت لم يكن حجم البضائع التى تمر خلال الموانى السورية كبيرا ؛ ولأن الرسوم الجمركية على هذه البضائع العابرة كانت بمجرد عشرة فى المائة من قيمتها تقريبا ، فمن اليسير أن نفهم علة عدم امتلاء خزانة الشرق الفرنجى فى أغلب الأحوال، وعله إغراء الملوك بالإغارة دائما فى الوقت الذى كان حريا بهم لدواعى الشرف والدبلوماسية الحفاظ على السلام[١٤].

ومن اليسير كذلك أن نفهم علة تردد المدن البحرية الإيطالية فى مساندة الحملات الصليبية . ذلك أن الواجب المسيحى يملى عليهم تقديم العون إلى الفرنج ضد المسلمين؛ بيد أن الازدهار الكامل لتلك المدن كان يتوقف على احتفاظها بعلاقات طيبة مع المسلمين ، وكلما أسهمت بالمساعدة فى مغامرة مسيحية ، كانت تجازف بخسارة حقوقها التجارية مع الإسكندرية . ومع ذلك، وفى غيبة تعاونها لم يكن الصليبيون قادرين البتّة على غزو المدن الساحلية ؛ وتظهر حقيقة تعاونها أن مشكلتها لم تكن بالمشكلة الهيّنة على كل حال . فقد أرسل الجنويون مساعدتهم بينما كانت الحملة الصليبية الأولى ما تزال فى أنطاكية ؛ وأبحر أسطول من بيزا قبل أن تصل إلى الغرب أنباء الإستيلاء على القدس ؛ وكان سلوكها اللاحق الذى اتصف بالبرود تجاه مملكة القدس يُعزى إلى شجار بلدوين الأول مع ديامبرت ، الذى كان رئيس أساقفتها ، أكثر من كونه يعزى إلى أية حسابات تجارية ؛ وحتى البنادقة ، الذين كانت لهم أوثق العلاقات مع مصر ، قدموا المساعدة إلى جودفرى (أوف لورين) قبل موته مباشرة . ولم تكن هذه السياسة تتصف تماما بالمجازفة بنفس القدر الذى يبدو من الوهلة الأولى ؛ إذ لا توجد تجارة ما لم تعد بالنفع على كلا الجانبين . ولم تكن السلطات الإسلامية فى مصر ترغب - شأنها فى ذلك شأن الإيطاليين - فى قطع العلاقات التجارية لفترة طويلة . وبرغم أن تلك السلطات كانت فى لحظات الغضب تغلق الإسكندرية فى وجه السفن

---

(١٣) Cahen, *op. cit.* iii, p. 330-3، ويورد إحصائيات

(١٤) Cahen, *op. cit.* iii, pp. 330-3 . وكانت الغزوات من مثل غزوات بلدوين الثالث فى عام ١١٥٧م لا تستهدف سوى الحصول على المال (أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ص ٣٨٨.)

المسيحية ، فقد كانت تعانى من توقف الأعمال ، ومن ثم لم تكن تثأر بصورة بالغة الصرامة . وفضلا عن ذلك ، وجد الإيطاليون مزايا كثيرة فى الحصول على حصة من الموانى التى تؤخذ حديثا ، ولم يتوفر لديهم أبدا شعور بالأمن فى المدن الإسلامية ولا حتى فى القسطنطينية ؛ ففى حالة قيام الجماهير بأعمال شغب ، ربما تُدمّر منشآتهم ، أو ربما يتدخل حكام غرباء بنزواتهم فى أعمالهم ؛ ورغم أن حجم التجارة الفعلى المقرر لموانى سوريا المسيحية ربما كان أقل منه فى القسطنطينية أو الإسكندرية ، كان بمقدورهم الإعتماد على عدم انقطاع أعمالهم . ولم يكن لديهم من صعاب سوى منافسة رفاقهم الإيطاليين وليس عداوة الحكام المحليين . وكانت هناك أيضا ميزة أخرى ذات أهمية متزايدة تتصل بالموانى الفرنجية ؛ إذ كانت الصعوبة الرئيسية للإيطاليين هى العثور على بضائع فى أوروبا يوفر بيعها ثمن البضائع التى يرغبون فى شرائها من الشرق. وحتى السنوات الأولى من القرن العاشر كانت الصادرات الرئيسية للبندقية هى العبيد من أوروبا الوسطى ، بيد أن تحول السلاف والمنجاريين إلى المسيحية أنهى هذه التجارة . وفى النصف الأخير من القرن الثالث عشر أحيا الجنويون تجارة العبيد التى كانت تقوم على نقل العبيد الأتراك والتتر من موانى البحر الأسود لبيعهم لمماليك مصر، على أنه فى السنوات التى تخللت ذلك لم يكن هناك من العبيد سوى القليل . وكانت الصادرات الهامة الوحيدة من الغرب هى المعادن والأخشاب ، ولأن هذه المواد كانت تستخدم أساسا فى صناعة الأسلحة ، فكان من الطبيعى أن ترفض السلطات الدينية فى أوروبا بيعها للمسلمين. غير أن الإيطاليين تعلموا تدريجيا أن الحركة الصليبية ووجود الشرق الفرنجى قد جذبا إلى الشرق عددا كبيرا من الجنود والدبلوماسيين ، والأهم منهم ، الحجاج ؛ فإذا تولى الإيطاليون نقلهم على سفنهم ، تمكّن أصحاب تلك السفن من استغلال عائدات نقل المسافرين ومصروفاتهم فى الموانى السورية لشراء البضائع المستوردة من الأماكن الأبعد إلى الشرق . وأخيرا، وبرغم تمسك التجار الإيطاليين بمصالحهم، فإنهم لم يتجاهلوا كليّة هواجسهم الدينية ؛ فكان الكثير منهم، حتى فى جنوا أو البندقية ، يفضلون ممارسة تعاملاتهم فى الموانى المسيحية وليس الإسلامية ؛ فضلا عن أن الكنيسة تعارض بشدة من الناحية العملية التجارة مع الكفرة، وقد كان للكنيسة قوتها السياسية فى إيطاليا، ومن شأن معاداتها أن يتسبب فى حرج خطير(١٥) .

---

(١٥) *Ibid.* and pp. 340-4 . ويحتمل أن المؤرخ Cahen يُنقص قليلا من أهمية الشرق الفرنجى للإيطاليين بصورة عامة . وفى التاريخ ما يوحى بشدة اهتمامهم بالشرق الفرنجى بصورة تفوق ما يتضمنه جدل

دور التجار الإيطاليين

وكانت الفترة التى شهدت ذروة ازدهار التجارة فى الشرق الفرنجى هى فترة السنوات العشر السابقة مباشرة على استعادة صلاح الدين للقدس والعقود الأولى من القرن الثالث عشر . وكان العالم الإسلامى متحدا مزدهرا وقد اكتشف الإيطاليون مزايا التجارة من خلال الموانى المسيحية ؛ وفى ذات الوقت تعلم المستعمرون الفرنج كيف يصادقون جيرانهم الكفرة . ويبين الحاج المسلم المؤرخ ابن جبير، الذى ارتحل مع قافلة من التجار المسلمين من دمشق إلى عكا، أن تلك القوافل كانت متواترة بصورة منتظمة، وأعرب عن استحسانه لسلاسة ترتيبات جمع الرسوم الجمركية[١٦]. وكانت عكا أكثر موانى الساحل ازدحاما بحركة الأعمال ، إذ كان الميناء الطبيعى لدمشق ، ولذا كان يستخدم لمنتجات المصانع الدمشقية والريف الغنى المحيط بحوران ، ليس هذا وحسب وإنما يخدم كذلك تجار اليمن الذين دأبوا على المجىء بطريق الحجاج بطول ساحل الجزيرة العربية؛ كما أن عكا هى الميناء الوحيد الآمن فى فلسطين كلها ، وكان المسافرون إلى الأماكن المقدسة يفضلون النزول إلى البر فيه أكثر من تفضيلهم النزول فى ميناء يافا ذات المرسى المفتوح حيث كانت تقع الحوادث بكثرة قبل استيلاء الصليبيين على عكا . وكانت المثلبَة الوحيدة لعكا هى ضآلة المرفأ الداخلى بحيث لم يكن يتسع للسفن الكبيرة فى ذلك الوقت التى كانت تضطر إلى الرسو خارج حاجز الأمواج حيث تتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، أو تضطر إلى أن تبحر شمال الساحل حيث مرفأ صور الأكبر والأكثر أمانا[١٧]. وفى شمال سوريا كان أفضل مرفأ هو مرفأ اللاذقية الذى كان يناسب جميع الأحوال الجوية، رغم أن مرفأ السويدية الواقع على مصب نهر العاصى كان ملائما بصورة أكبر لأنطاكية وحلب وكان يستخدم للسفن الأصغر[١٨].

المؤرخ

(١٦) Ibn Jubayr (ed. Wright), pp. 306-7 .

(١٧) Ibn Jubayr, pp. 307-8، الذى يلاحظ أن ميناء صور أفضل من ميناء عكا للسفن الأكبر

(١٨) أثنى الجغرافيون المسلمون جميعا على مرفأ اللاذقية باعتباره مرفأ جيدا بصورة خاصة (مثل الإدريسى Idrisi, p. 23، وياقوت فى قاموسه الجغرافى Yakut, *Geographical Dictionary*, ed. Wustenfeld, iv, p. 338، والدمشقى Dimashki, ed. Mehren, p. 209. ويبدو أن ميناء سان سيميون (السويدية) كان يستخدم بصورة أقل كثيرا فيما عدا التجارة الذاهبة الى أنطاكية ذاتها . وربما كان المرفأ قد بدأ يمتلىء بالطين فعلا . أما ياقوت Yakut, iii, p. 385 ، الذى كان يكتب قبل غزو بيبرس ، فقد أشار إليه على أنه ميناء أنطاكية الذى كان الفرنج يستخدمونه

وتذكر قوانين القدس عددا من البضائع التى كانت تمر فى جمارك الشرق الفرنجى ؛ وإلى جانب الحرير وغيره من المنسوجات كانت هناك شتى أنواع العطارة مثل القرفة والجبهان والقرنفل ولحاء جوزة الطيب والمسك ونبات الخلنجان وجوزة الطيب ، وكذلك النيلج و أصباغ الفوة وعود نبات الند والعاج[١٩]. وكان للفرنج دور ضئيل جدا فى هذه التجارة . وكان التجار ، مسلمون أو مسيحيون وطنيون ، يحضرون البضائع إلى الساحل من داخل البلاد ؛ وفى شمال سوريا كان يحضرها من أنطاكية أيضا اليونانيون والأرمن ، وكان التجار الزائرون يُعاملون معاملة طيبة ؛ فيُسمح للمسلمين أداء عباداتهم فى المدن المسيحية ، وفى واقع الأمر كان هناك فى عكا ذاتها جزء من الجامع الكبير - الذى حولوه إلى كنيسة - مخصص كى يباشر المسلمون طقوسهم . وكانت هناك أنزال يمكنهم البقاء فيها ، كما كانت هناك دور مسيحية تضم سكانا مسلمين . وكان التجار الإيطاليون يشترون مباشرة من المستوردين المسلمين ؛ وفضلا عن الإيطاليين يبدو أن كان هناك عدد معين من المسلمين الآتين بحرا إلى عكا لشراء البضائع من الداخل ، وخاصة المغاربة الآتين من شمال غرب أفريقيا وكانوا يرتحلون إلى أماكن بعيدة تصل إلى دمشق أو غيرها من المدن الإسلامية الداخلية[٢٠].

الطرق التجارية فى ظل المغول

أدى توسع الإمبراطورية المغولية فى القرن الثالث عشر إلى تغيير الطرق التجارية الرئيسية الآتية من الشرق الأقصى . وبعدما استولى المغول على داخل آسيا شجعوا التجار على اتخاذ طريق برى من الصين يخترق التركستان ثم يتجه شمالى بحر قزوين إلى الموانى الواقعة على الساحل الشمالى للبحر الأسود مثل كافا ، أو جنوبى بحر قزوين خلال إيران إلى طرابزون الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، أو إلى أياس فى مملكة أرمينيا الكيليكية . ونتيجة لنظام المغول المثالى أصبح هذا الطريق مفضلا على الطريق البحرى المحفوف بالمخاطر عبر المحيط الهندى[٢١]. وفى القرن الثانى عشر كانت

---

(١٩) *Assises,* ii, pp. 174-6. See Heyd, *op. cit.* pp. 563 ff. The *Assises* mention III dutiable articles.

(٢٠) Ibn Jubayr, pp. 307-9.

(٢١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 70-3.

السفن الصينية تبحر دائما غرب سيلان إلى الموانى العربية ، أما الآن فلم يعد الأمر يستحق الذهاب إلى أبعد من الساحل الشرقى للهند[٢٢] وقد أسفر الغزو المغولى للعراق عن وصول بعض التجارة الهندية إلى الغرب عن طريق البحر أعلى الخليج الفارسى ، وكانت نسبة منها تعبر خلال دمشق أو حلب إلى الموانى الفرنجية . غير أن أغلب التجار كانوا يفضلون البقاء داخل الأراضى الواقعة تحت السيطرة المغولية ومنها يعبرون إلى البحر المتوسط عند أياس بينما تنقل أغلب التجارة الهندية برا خلال أفغانستان وفارس[٢٣]. وكانت مصر ما تزال سوقا رائجة للبضائع الشرقية ، لكنها لم تعد تقع على أقل الطرق تكلفة من الشرق الأقصى إلى أوروبا[٢٤].

وفى ذات الوقت كانت كل من البندقية وجنوا تزيدان تجارتهما تدريجيا ، وأخذت المنافسة بينهما تزداد حدة ، وبيزا تتباطأ خلفهما . وقد زادت المنافسة بين تلك المدن نتيجة لتحول طرق التجارة ؛ فكانت البندقية أول الأمر تتحكم فى البحر الأسود نظرا لسيطرتها على الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، ولذلك لم تتأثر بقيام القوة المغولية ، ولكن عندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١م بالمساعدة الفعالة من جنوا ، تمكن الجنويون من استبعاد البنادقة من البحر الأسود واحتكار تجارة آسيا الوسطى ، وكذلك التجارة الجانبية المربحة - تجارة العبيد بين السهول الروسية ومصر؛ ولأن حكام المماليك كانوا يعتمدون على امدادات منتظمة من عبيد الكيبشاك والقبائل التركية المجاورة ، كان من المحال على البنادقة إستبعاد الجنويين من الإسكندرية ؛ ورغم أن الملك الأرمينى سمح للبنادقة بالمشاركة فى التجارة المغولية الآتية إلى أياس ، كان من الضرورى للبندقية أن تحاول طرد الجنويين من الموانى الفرنجية ؛ فأما في عكا ، فقد أصابوا النجاح ، وأما صور التى انسحب إليها الجنويون فكان موقعها يقل فى جودته. وأصبحت السياسة العامة للبندقية - فى كراهيتها لجنوا - معارضة المغول، إذ كانت جنوا تحصد من امبراطوريتهم تلك الأرباح الطائلة ؛ ونتيجة لذلك ، كان البنادقة يستخدمون نفوذهم فى عكا لتحريض حكومتها على مؤازرة المماليك ضد المغول[٢٥].

---

(٢٢) يقول الإدريسى إن السفن الصينية كانت تذهب فى القرن الثانى عشر حتى دايبال الواقعة على مصب نهر الإندوس ، لكنها فى القرن الثالث عشر لم تكن تذهب إلى أبعد من سومطرة . ثم تولت السفن العربية تجارة المحيط الهندى التى كانت ما تزال مزدهرة. أنظر Heyd, *op.cit.* i, pp. 164-5.

(٢٣) Heyd, *op. cit.* pp. 73 ff. .

(٢٤) *Ibid.*. وكان المصريون يتقاضون كذلك رسوما جمركية أعلى. (*ibid.* p.78)

(٢٥) أنظر أعلاه ص ٣٣٣ وما بعدها؛ وأيضا Bratianu, *Commerce Génois dans la Mer Noire*,

ومن الطبيعى أن يتسبب تطوير ميناء أياس - باعتباره المنفذ الرئيسى لتجارة المغول في البحر المتوسط - فى تقليل أهمية الموانى الفرنجية ؛ غير أن الزيادة العامة فى التجارة الآسيوية فى ظل المغول كانت تعنى استمرار وجود فائض فى التجارة يستخدم الطرق الأقدم . ودأب تجار الموصل على زيارة عكا أثناء النصف الثانى من القرن الثالث عشر، ولم تكن الحروب الدائرة بين المماليك والمغول تعرقل كثيرا مرور القوافل من العراق وإيران إلى فلسطين . وكانت عكا حتى السنوات الأخيرة من عمرها ، وباعتبارها العاصمة المسيحية ، مليئة بالنشاط التجارى ، بينما كانت البضائع التى تتداولها اللاذقية فى الشمال والآتية من حلب من الضخامة بحيث توسل تجار حلب بصورة خاصة السلطان المملوكى للإستيلاء على الميناء الذى لا ينبغى - بمثل مكانه هذا النفيس - أن يبقى فى أيدى الكفرة[٢٦] .

ثروة البارونات

ومع ذلك ، كانت كل هذه التجارة المزدهرة ذات نفع ضئيل للفرنج . ذلك أنه بجعل الموانى البحرية بمثابة ميدان قتال بين المستعمرات الإيطالية المتنافسة ، غدت تلك الموانى مصدرا لضعف سياسى فعال ؛ وحتى لو ظل الإيطاليون فى سلام ، لم يكن حكام الشرق الفرنجى ليحصلوا من التجارة على أموال كثيرة . فكان يحق للملك رسميا الحصول على عشرة فى المائة تقريبا من المكوس الجمركية ، غير أنه كان يبيع حصصا ضخمة من تلك النسبة لأتباعه أو للكنيسة أو للأنظمة الدينية العسكرية ، وبذا لم يكن يتبقى له الكثير . وكان أمراء أنطاكية وكونتات طرابلس أفضل حالا بقليل لأنهم لم يمنحوا غيرهم سوى القليل من عوائد الإقطاعيات، غير أن الشرق الفرنجى لم يكن بالمكان الذى تجمع فيه الثروات الضخمة ؛ إذ كان هناك لوردات على قدر من الثراء يتيح لهم العيش فى رفاهية، مثل آل إبيلين فى بيروت الذين كانوا يمتلكون مناجم الحديد المحلية ، أو آل منونتفورت فى صور بما لهم من مصانع السكر . وكان مواطنو الشرق الفرنجى يظهرون فى أعين المسافرين الغربيين البسطاء بمظاهر الإزدهار الرائع ؛ غير أن تلك المظاهر كانت مظاهر زائدة عن الحاجة ومصطنعة . وكانت المدن أكثر نظافة وترتيبا فى مبانيها ، وبإمكان ساكنيها شراء الملابس الحريرية والتعطر بالعطور والطيب

---

esp. pp. 79 ff

(٢٦) For Ayas, called by the Italians Lajazzo, see Bratianu, *op. cit.* pp. 158-62.

بأسعار لا يقدر عليها سوى أثرياء الأثرياء فى أوروبا الغربية ، بيد أن تلك الأشياء كانت من المنتجات المحلية ولذلك كانت رخيصة نسبيا(٢٧).

وليس لدينا سوى القدر القليل من العلومات المتصلة بأنشطة الطبقات البورجوازية فى الشرق الفرنجى التى يبدو أنها لم تلعب دورا فى التجارة الدولية وإنما قصر أفرادها جهدهم على إدارة الحانوت وتصنيع البضائع للإستهلاك المحلى . وكانت لهم بعض القوة السياسية ؛ ذلك أن كوميون عكا - الذى يتألف من البورجوازية الفرنجية - كان عنصرا هاما فى الدولة ، بيد أنه انتحى بنفسه جانبا بعيدا عن المجتمعات الوطنية فيما يبدو ، حتى عن الأرثوذوكس الذين كانوا يعامَلون ككيان منفصل(٢٨). وفى أنطاكية ، حيث كان الكوميون أكثر تأثيرا ، كانت البورجوازيتان الفرنجية واليونانية تعملان معا، وربما كان هناك تزاوج أكثر ، ولم يكن الفرنج هناك بأعداد كبيرة كما هى حالهم فى عكا أو فى طرابلس التى يبدو أنها حذت حذو نمط عكا(٢٩). أما الطبقات العاملة فكانت فى أغلبها من أصل وطنى أو من أصول متخلطة؛ وكثيرا ما كانت هناك أعداد كبيرة من العبيد ، من المسلمين المأسورين فى الحروب ، للعمل فى المناجم أو فى تشييد المبانى العامة أو فى الضياع الملكية أو ضياع النبلاء(٣٠).

وكان الحكم يفتقر إلى المال دائما. وحتى فى وقت السلم كان يتعين على البلد أن يكون مهيأً لإندلاع حرب مفاجئة ، وعادة ما كانت الحرب تسفر عن تخريب مناطق كبيرة من الريف . ولم تكن إيرادات المكوس والضرائب كافية ؛ وكان من العسير مجابهة الطوارىء المفاجئة فى غيبة المساعدة الخارجية ، مثل أسر الملك أو قسم بكامله من أقسام الجيش . ولحسن الحظ كانت المساعدة الخارجية دائما قادمة ؛ ذلك أنه بالإضافة إلى الأموال التى يحصل عليها الفرنج - عادة بطرق غير حكيمة - عن طريق الإغارة فى الأراضى الإسلامية للنهب ، كانت الهبات تُرسل من أوروبا بلا انقطاع ؛ إذ

---

(٢٧) يحسب أمادى Amadi أن قيمة إقطاعية فيليب (أوف مونتفورت) الموجودة فى طورون فى عام ١٢٤١م هى ستين ألف بيزانت شرقى .(p. 180) غير أن حوى أمير جبيل كان بمقدوره إقراض خمسين ألف بيزانت شرقى إلى ليوبولد دوق النمسا وثلاثين ألف بيزانت شرقى لفريدريك الثانى (أنظر أعلاه ، ص ١٤٩ و ١٨٢) . أنظر أيضا La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 171-4.

(٢٨) أنظر Cahen, *op. cit.* iii, pp. 335-7; also Prawer 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre' in *Revue Historique de Droit Français*, 1951.

(٢٩) بالنسبة لأنطاكية انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 549 ff., 153 ff.. وبالنسبة لطرابلس أنظر Richard, *La Cometé de Tripoli*, pp. 71 ff. .

(٣٠) Rey, *Les Colonies Franques*, pp. 105-8

أن فلسطين هى الأرض المقدسة ، والصليبيون والمستعمرون كانوا عموما يعتبرون جنود المسيح . وكان الزائرون يدفعون ضريبة فور وصولهم ؛ وو لم يتوقف الأمر عند ما كان يحضره الحجاج من أموال إلى البلد لإنفاقها أو التصدق بها ، وإنما كان لكثير من المزارات والأديرة أراض ممنوحة لها فى الغرب كانت إيراداتها تُرسل اليها فى فلسطين . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تحصل على أغلب دخولها من هبات الغرب التى أتاحت له أن تظل على ثرائها الفاحش حتى وإن فقدت كل ممتلكاتها فى سوريا. وكان كل فرد من مواطنى الشرق الفرنجى ، بدءا من الملك هبوطا إلى المواطن العادى ، يتلقى الهبات من حين لآخر من أقاربه فى الغرب أو من المتعاطفين معه ؛ وكانت تلك الإعانات تساعد بدرجة كبيرة فى موازنة مالية الشرق الفرنجى ، وهكذا فإن رغد العيش فى المدن السورية ، الذي كان يحوز إعجاب الزائرين من الغرب، كان يموّله جزئيا أبناء جلدتهم فى موطنهم(٣١).

ضرب العملة فى الشرق الفرنجى

كان ضرب العملة فى الشرق الفرنجى مصدرا آخر من مصادر القوة الإقتصادية يصعب تقييم آثاره . فعندما بدأت الحملات الصليبية لم يكن هناك ضرب للعملات الذهبية فى غرب أوروبا باستثناء صقلية والأندلس المسلمة ، وكانت الفضة هى أثمن المعادن المستخدمة ، كما لم تكن الدويلات الإسلامية فى سوريا تصدر عملات ذهبية فى ذلك الوقت رغم أن الخليفتين فى بغداد والقاهرة كانا يتنافسان فى ذلك . ومع ذلك ، ما أن أنشئت الدويلات الصليبية حتى بدأ ملك القدس وأمير أنطاكية وكونت طرابلس فى سك الدنانير الذهبية التى كانت تعرف باسم (البيزانتات الشرقية) والتى كانت مقلّدة من دنانير الفاطميين ، لكن محتواها الذهبى كان مجرد الثلثين تقريبا . وكانت هذه العملات ، خاصة عملات مملكة القدس التى كان المسلمون يطلقون عليها (الصورى) نسبة إلى مدينة صور ، سرعان ما انتشر تداولها انتشارا واسعا فى أنحاء الشرق الأدنى . ومن الصعب معرفة المصدر الذى حصل الفرنج منه على الذهب ؛ إذ أن السلب والفدية لم يوفرا سوى قدر ضئيل غير منتظم ، وكان المصدر الرئيسى للذهب فى ذلك الوقت هو السودان ، ويحتمل أن يكون التجار المغاربة قد أحضروا منه بعض الذهب . بيد أنه لتفسير ظهور ضرب العملة ، لابد وأن كانت هناك حركة عامة

---

(٣١) La Monte, *op. cit.* pp. 174 ff

للذهب من البلدان الإسلامية إلى البلـدان المسيحية ؛ ولابـد أن المستوطنين الأوروبيين كانوا يشترون الذهب من المسلمين - بأسعار باهظة بلا شك - في مقابل الفضـة التى كانت وفيرة فى أوروبا ؛ لابد وأن إصدارات هذه العملات الذهبية المنخفضة القيمة قد ساعد فى حركة الذهب كلها . ولابد أن تكون مقادير كبيرة مـن الذهـب قد انتقلت إلى الغرب ؛ إذ تجدر ملاحظة أن كانت هناك عملات ذهبية مـن سبائك رائعة بـدأت تظهر خلال القرن الثالث عشر فى أوروبا الغربية(٣٢).

وكان حكام الشرق الفرنجى يحتفظون بصرامة بحق إصدار العمـلات الذهبيـة ؛ ولم يكن مسموحا للمستعمرات الإيطالية هناك ولا للأنظمة الدينية العسكرية بالتعدى علـى هذا الاحتكار . وكان باستطاعة كبار مستأجرى الأرض سك مجرد العمـلات البرونزيـة للإحتياجات المحلية.

وكان للأنظمة الدينية العسكرية مصدر إضافي للثروة مشتق من أنشطتها المصرفية. ذلك أنها بممتلكاتها الشاسعة فى سائر أنحاء العـالم المسيحى ، كـانت فـى موضـع يثير الإعجاب يمكنها من تمويل الحملات الصليبية ؛ فلم يكن الإشترك الفرنسـى فـى الحملـة الصليبية الثانية ممكن التحقيق إلا بمساعدة نظـام فرسـان المعبـد الـذى دفـع مبـالغ طائلـة للويس السابع فى الشرق تم تسديدها فى فرنسا . وبنهاية القرن الثانى عشر دأب نظـام فرسان المعبد علـى ممارسـة الإقـراض المنتظـم للأمـوال بأسـعار فـائدة مرتفعـة ، غـير أن سمعتهم المالية كانت من الشهرة الواسعة بحيث جعلت المسلمين يثقون فيهم ويستفيدون من خدماتهم . وكان لفرسان المستشفى وفرسان التيوتون معاملات ماليـة مماثلـة ، وإن كانت على نطاق أصغر ؛ ولم تكسب حكومات الشرق الفرنجى شيئا مباشرا مـن تلـك الأنشطة التى زادت من قوة تلك الأنظمة وتمردها ؛ غير أنها كـانت تعـود بـالنفع المالي على البلد ككل(٣٣).

---

(٣٢) (Cahen, *Notes sur l'Historie des Croisades*, iii, pp. 337-8الـذى يـورد مناقشـة هامـة جـدا حـول المشكلة). أنظر أيضا Schlumberger, *Les Principautés Franques du Levant*, pp. 8 - 45وكـان لبيزانت القـدس الشـرقى قيمـة ذهبيـة تزيـد قليـلا علـى ثلـث الجنيـه الإنجليزى الحـالى (Sovereign). وكان بيزانت أنطاكية الذهبى أقل فى قيمته بصورة طفيفة .

(٣٣) تتجاهل قوانين القدس *The Assises of Jerusalem* الأعمال المصرفية رغم أن قوانين أنطاكية تعـترف بها أنظر Cahen, *op. cit.* p.339. وانظر Piquet, *Les Banquiers du Moyen Age, passim* ؛ وانظر أيضا Melville, *La Vie des Templiers*, pp. 75-83 . وكانت حملة لويـس التاسـع الصليبيـة، كشأن حملة لويس السابع الصليبية، تموّل بدرجة كبيرة عن طريق النظام.(Piquet, *op.cit.* pp.71-8)

معضلة الشرق الفرنجي الإقتصادية

لا يزال التاريخ الإقتصادى للحملات الصليبية غامضا جدا . فالمعلومات غير كافية، وهناك الكثير من التفصيلات لا سبيل إلى تفسيرها الآن . ومن غير الممكن أن نفهم تاريخها السياسى دون أن نضع فى الإعتبار إحتياجات المستوطنين والتجار الإيطاليين التجارية منها والمالية . وعادة ما كانت تلك الإحتياجات تسير بالتضاد مع الدافع الأيديولوجى الذى بدأ الحركة الصليبية وحافظ عليها . وكان الشرق الفرنجى دائما تحت سيف المعضلة المسلط ؛ فقد أنشأه خليط من ذوى الحميًا الدينيّة والمغامرين من المتعطشين إلى امتلاك الأرض . وإذا كان للشرق الفرنجى أن يدوم فى حالة صحية فمن غير الممكن أن يظل معتمدا على الإمدادات المنتظمة من الرحال والأموال من الغرب ؛ فلا بد أن يثبت وجوده إقتصاديا ، ولا سبيل لأن يتحقق ذلك إلا بالتراضى مع جيرانه ، فإذا كانوا ودودين ومزدهرين فسوف يزدهر هو أيضا ؛ غير أن السعى إلى صداقة المسلمين بدا خيانة كاملة للمثل الصليبية . ولم يكن المسلمون من جانبهم قادرين أبدا على التصالح مع دولة غريبة ومتقحّمة فى الأراضى التى يعتبرونها ملكهم ؛ فكانت معضلتهم أخف إيلاما ، إذ لم يكن وجود المستعمرين المسيحيين ضروريا لتجارتهم مع أوروبا ، مهما بدا وجودهم ملائما أحيانا ؛ ولذا كانت العلاقات الحسنة متقلقلة دائما. وكانت المشكلة الكبرى الثانية التى كان على الشرق الفرنجى مواجهتها هى علاقته بالمدن التجارية الإيطالية ، إذ كانت عنصرا لا غنى لبقاء الشرق الفرنجى عنه ، فبدون تلك المدن يوشك الاتصال بالغرب أن يكون مستحيلا ، ولبات مستحيلا تماما تصدير منتجات البلد أو الفوز بأي نوع من التجارة من الشرق الأبعد . وقد تسبب الإيطاليون فى إلحاق أضرار لا سبيل إلى إصلاحها بما كان لهم من عجرفة وتنافس فيما بينهم وما كانت سياستهم تتصف به من عدم اكتراث ؛ فكانوا ينأون بأنفسهم جانبا [illegible]ى الحملات الحيوية ، ويُظهرون جهارا تفتت العالم المسيحى . وقد زودوا المسلمين بمواد الحرب الأساسية ، وكانوا يقومون بأعمال الشغب ويحاربون بعضهم بعضا فى شوارع المدن . ولابد أن كان حكام الشرق الفرنجى يأسفون لهذه التجارة الغنية التى أتت بمثل هؤلاء الحلفاء الجامحين الخطرين إلى شواطئهم ؛ ومع ذلك ، وبدون هذه التجارة ، تصبح قصة الشرق الفرنجى أقصر وأكثر عتامة . وليس من السهل فى أية حال الفصل بين ما للرخاء المادى من مطالب عدوانية وبين [illegible]بدة الأيديولوجية . ولا تستطيع أية حكومة أن تأمل فى إشباع إيٍّ من المطلبين إشب[illegible] كاملا ، فليس بوسع المرء أن يعيش على الأيديولوجية وحدها ، بينما يتوقف الإزدهار على قضايا أوسع من أن تنحصر فى

شريط أرضى ضيق . ولقد ارتكب الصليبيون أخطاء كثيرة ، وكانت سياساتهم دائما تتصف بالتردد والتغير ، بيد أن اللوم كله لم يكن ليقع عليهم لفشلهم فى حل مشكلة لم يكن لها حل فى الواقع.

الفصل الثانى:

العمارة والفنون فى مملكة الشرق الفرنجى

العمارة والفنون
فى مملكة الشرق الفرنجى

"تزين الآن بالجلال والعِز والبس المجد والبهاء"
(أيوب٤٠ : ١٠)

سمح فرنج أوتريميه للتجارة ، التى كان ينبغى لها أن تقيم بلدهم ، بأن تنزلق من قبضتهم . غير أنهم احتفظوا فى بعض مجالات الفنون بمنتجاتهم ، وكانت إنجازاتهم هنا جديرة بالملاحظة ؛ إذ لم يكن المستعمرون كثيرى العدد ، والقليل منهم فقط هم القادرون على أن يكونوا فنانين . وفضلا عن ذلك ، فقد جاءوا إلى الأراضى التى كانت تقاليدها الفنية أقدم بكثير من تقاليدهم ، ولم يجدوا فيها المواد التى اعتادوا عليها؛ ومع ذلك ، بدأوا يطورون نمطاً يجارى احتياجاتهم بصورة مُرضية.

وقد اندثرت أغلب أعمالهم الصغيرة ؛ فلم يسمح تاريخ سوريا وفلسطين المضطرب ببقاء الأشياء الرقيقة الهشّة ، وأنما كانت هندسة عمارتهم أقوى على البقاء برغم ندرة مابقى – كشأن أغلب بلدان العصور الوسيطة – فيما عدا الآثار العسكرية والكنسية . وحتى تلك الآثار تبدل شكلها الأصلى من جراء التغيير والتحلل . وبخلاف

أكثر مزارات العالم المسيحي قداسة ، وهى التى لم يلمسها المسلمون لشدة حرصهم ، والتى أصلحها المسيحيون فيما بعد ، كانت الكنائس الباقية حتى الآن مُصانة فقد أبقى عليها تحويلها إلى مساجد ، واستحال غيرها أطلالا . أما القلاع والحصون الفرنجية فقد دُمّرت كلها تدميرا شديدا فى خضم الحروب ، بحيث كان المسلمون الغزاة مضطرين - إذا رغبوا فى استخدامها - إلى إعادة تشييد الكثير منها وخاصة الأسوار الخارجية والبوابات . وما تركه الإنسان وشأنه ساعدت الطبيعة على تدميره فى الأماكن التى ضربتها الزلازل. وحيثما يجتهد علماء الآثار المحدثون بما لهم من معرفة فى أعمال الترميم والتجديد - كما حدث فى قلعة الفرسان Krak des Chevaliers ليس من الممكن دائما التمييز بوضوح بين ما هو صليبى وما هو مملوكى.

وكانت أول المبانى التى احتاج الصليبيون إلى تشييدها هى ما يدافعون به عن أنفسهم . ووجب على الكنائس والقصور أن تنتظر إلى أن تصبح البلاد آمنة ؛ فكان يتعين ترميم أسوار المدن ، وبناء الحصون لحراسة الحدود ولكى تكون بمثابة مراكز إدارية آمنة لمقاطعات البلد . ولم تكن تحصينات المدن الرئيسية تستدعى سوى ترقيع هنا وهناك ، فيما عدا حالات قليلة كان الصليبيون فيها قد شقوا مدخلا بهدم الأسوار . أما فى أنطاكية، فإن نظام الدفاع العظيم الذى شيّده البيزنطيون عند نهاية القرن العاشر لم يعانِ سوى القليل من الأضرار ، ولم يكن الأمراء اللاتين فى حاجة إلى إضافة أي شىء لنظامَ الدفاع ذاك . وبالمثل ، لم يكن هناك سوى أعمال ترميم طفيفة لأسوار القدس الفاطمية ، رغم ما يبدو من أن الصليبيين قد أحدثوا من فورهم تغييرات وتحسينات فى برج داود ؛ لكنهم سرعان ما بدأوا فى بناء قلاع فى المدن برغم ما فيها من تحصينات كافية ، وقد بُنيت تلك القلاع كلها على حافة المدينة يمكن الدفاع عنها بصورة مستقلة. وكان الدافع لبناء تلك القلاع ليس فقط رغبة أمراء المدن فى تحقيق القدرة على استمرار المقاومة حتى فى حالة سقوط المدينة فى أيدى الأعداء ، وإنما ليكونوا أيضا فى موضع يرهبون به المدينة إذا ما بدرت منها بوادر تمرد أو عصيان. والقلعة الأولى التى يمكن تحديد تاريخها بصورة مؤكدة هى قلعة الكونت ريموند على جبل الحاج التى بُنيت سنة ١١٠٤م لتكون له بمثابة مقر أثناء حصاره طرابلس ؛ وكانت خارج المدينة رغم أن طرابلس الإسلامية بُنيت فيما بعد عند قاعدتها ، على أن الذى تبقى إلى الآن مما شيده ريموند يجاوز السور الغربى بقليل . ولا بد أن قلاع أمراء الجليل فى طبرية وطورون قد بُنيت فى نفس الوقت تقريبا . وقد بدأ العصر العظيم الأول لبناء القلاع فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى ظل بلدوين الثانى واستمر فى ظل فولك ،

وفيه شيدت قلاع عظيمة مثل قلعة مؤاب وقلعة بيرفورت ، وشمالا قلعة صهيون، وكذلك القلاع الأصغر فى يهودا مثل الصافية ويبنة[1].

القلعة البيزنطية

ولقد وجد الصليبيون هندسة معمارية عسكرية متقدمة تقدما بالغا فى الشرق عنها فى الغرب الذى بدأت فيه القلعة الحجرية فى الظهور الآن فقط . فقد درس الرومان الدفاع العسكرى باعتباره علما من العلوم ، وقام البيزنطيون ، الذين قلّدهم غزاة أجانب لا نهاية لهم ، بتطويره ليناسب احتياجاتهم ، وتعلم منهم العرب . على أن مشاكل البيزنطيين لم تكن هى نفسها مشاكل الصليبيين ؛ إذ كان البيزنطيون يفترضون أن القوة البشرية متاحة دائما ، وبوسعهم توفير حاميات كبيرة ، وكانوا يلاقون العنت كي يدافعوا عن مدنهم دفاعا جيدا ؛ وكانت أسوار القسطنطينية ما تزال قادرة - بعد بنائها بألف عام - على تحدى أحدث مدافع العثمانيين ، وأما أسوار أنطاكية فقد أذهلت الصليبيين إعجابا بها. على أن القلعة البيزنطية لم تزد كثيرا عن كونها معسكرا حصينا ، وكانت مصمّمة للتعامل مع عدو تقل أسلحته هولا عن أسلحة البيزنطيين . أما العرب ، وهم أخطر منافسيهم ، فكانوا أقل تقدما فى آلات الحصار ولم يكن ضروريا أن تكون أسوارالقلعة البيزنطية قوية ؛ إذ كانت هناك شبكة من التحصينات الخارجية من أهم ملامحها خندق واحد على الأقل باتساع كبير يمنع العدو من إحضار المناجق أو سلالم التسلق بالقرب من القلعة ؛ وكانت الأبراج ناتئة بصورة طفيفة على مسافات منتظمة بطول الأسوار ، وتستهدف توفير مجال أطول لأفراد الحامية من رماة السهام وقاذفى الخنادق يصل إلى خطوط الأعداء أكثر من كونها تستهدف الدفاع عن الأسوار ذاتها . ولم يكن البرج المركزى فى وسط القلعة مصمّما كآخر خط دفاعى ، وإنما ليكون مخزنا للأسلحة والمؤن . وباستثناء أمثلة قليلة على الحدود الأرمينية حيث كان يعيش بارونات الحدود عيشة شبه مستقلة ، لم يكن مقصودا من القلعة البيزنطية أن تكون مكان إقامة ؛ إذ كان آمر القلعة جنديا محترفا يترك زوجته وأولاده فى منزله . وأخيرا ، ورغم الإفادة من الدفاعات الطبيعية ، لم يكن الإعتبار الأول هو الحيلولة دون الوصول إلى الموقع ، وإنما كانت الاستفادة الرئيسية بالقلعة هى أنها بمثابة ثُكنة

---

(١) أنظر ، الجزء الثانى ، ص ٨٨-٨٩ و١٢٣ و٢٦٣-٢٦٥. وانظر Deschamps, *La Défense du Royaume de Jérusalem*, pp. 5-19, and *Le Crac des Chevaliers*, pp . 43-4.

عسكرية. ولم يكن من الملائم إجبار الجنود على الكدح فى صعود الجبل وهبوطه فى كل مرة يتحركون فيها(٢).

ومال العرب إلى اتباع النمط البيزنطى رغم أنهم كانوا أقل اهتماما بمشاكل الدفاع، إذ كانت جيوشهم أساسا متحركة وهجومية(٣).

وعكف الصليبيون على دراسة هندسة العمارة العسكرية التى كانوا يقابلونها فى ترحالهم باتجاه الشرق وتعلموا منها الكثير ، غير أن احتاجاتهم الأساسية كانت مختلفة ؛ إذ كانت تعوزهم القوة البشرية دائما ولا يستطيعون الإحتفاظ بحاميات كبيرة ، ومن أجل ذلك كان لابد لقلاعهم أن تكون أقوى بكثير وأيسر فى الدفاع عنها ، ويتعين اختيار موقع القلعة بخصائصه الدفاعية ، ويجب استغلال كل منحدر وكل تل صغير بأقصى استغلال ممكن ؛ ولمّا لم يكن هناك من يمكن الإستغناء عنه وتكليفه بالاستطلاع وحمل الرسائل كان لابد لكل معقل أن يتمكن من مشاهدة جاره وتبادل الإشارات معه . وكان لابد للأسوار أن تكون سميكة ومرتفعة حتى تكون قادرة على الصمود للهجوم المباشر ، لأن الدفاع عن التحصينات الخارجية يتطلب الكثير من الرجال . وفى الوقت نفسه ، ينبغى الإنتفاع بالقلعة كمكان إقامة لآمرها وكمركز إدارى له. وقد أحضر الصليبيون معهم وسائلهم الإقطاعية ولمّا كانوا يحكمون أناسا غرباء ، كانت القلعة مركزا للحكم المحلى . ولابد أن يكون برجها المركزى الذى يتوسطها من الكبر بما يكفى لحماية القطعان والأسراب فى حالة الغارات العدائية المتكررة . وفى واقع الأمر، كانت القلعة بالنسبة للفرنج تلعب دورا هاما يفوق كثيرا دورها عند البيزنطيين والعرب(٤).

---

(٢) *Le Crac*, pp. 45-57; Ebersolt, *Monuments d'Architecture Byzantine*, pp. 101-6; Fedden, *Crusader Castles*, pp. Deschamps22-6 .

(٣) Deschamps, *Le Crac*, p.51; Fedden, *op. cit.* p.26.

(٤) Deschamps, *Le Crac*, pp. 89-103; Smail, "Crusaders' Castles of the Twelfth Century", in *Cambridge Historical Journal*, vol.x, 2، حيث ترد مناقشة رائعة حول أعمال القلعة.

قلاع القرن الثانى عشر

أما فى الغرب ، فكانت القلعة حتى ذلك الوقت لا تزيد عن كونها برجا مربعا صلدا وقد يكون محصّنا من النوع الذى بلغ به النورمانديون حد الكمال[٥]. ولم تكن هذه القلعة ملائمة لمتطلبات الشرق الفرنجى. وقد أجبر الصليبيون على أن يكونوا روادا فى ذلك المجال ، فاقتبسوا من البيزنطيين الكثير من الأفكار ؛ فمنهم تعلموا استخدام الكوّة لإطلاق القذائف على المهاجمين ، والإستفادة من تشييد الأبراج بطول الأسوار ، رغم أنهم سرعان ما أدخلوا تعديلا فى ذلك بعد أن اكتشفوا أن البرج المستدير يتيح نطاقا أوسع من البرج القائم الزوايا الذى كان البيزنطيون يفضلونه. وكانت الحصون الأصغر المبنية فى أوائل القرن الثانى عشر ، مثل حصن الكوكب ، قد بُنيت على الطراز البيزنطى المعتاد بأسوار خارجية مضلّعة قائمة الزوايا تقريبا ، وقد زُيّنت بأبراج ، وتحيط بحيّز فى الوسط يضم البرج المركزى . وقد اختيرت المواقع بحيث يمكن الإستغناء عن أعمال التحصينات الخارجية ، وكان البناء كله متينا للغاية . ودائما ما كانت الأعمال البيزنطية متكاملة . وفى قلعة صهيون كانت الخنادق البيزنطية مستكملة بقناة ضيقة عمقها تسعون قدما محفورة فى الصخور الصلبة[٦]. كما أضاف الفرنج الأبواب الحديدية المدلاة التى لم تكن مستعملة فى الشرق منذ عصور الرومان ، وكذلك المدخل الملتوى الذى بدأ العرب فى تفضيله وإن لم يكن البيزنطيون يستخدمونه إلا نادرا ، ربما لأنه لم يكن مناسبا للآلات الثقيلة التى كانوا يحتفظون بها داخل القلاع[٧].

ومن الطبيعي أن تكون القلاع الأكبر أكثر تعقيدا . فلم تكن قلعة الكرك مثلا تقتصر على إيواء قائدها وأسرته ، وإنما كذلك الجنود والكتبة الذين يتولون إدارة المقاطعة ؛ وفى مثل هذه القلعة فى القرن الثانى عشر كان موقع البرج المركز والأماكن السكنية فى أبعد الأماكن وأكثرها يسرا فى الدفاع عنها من الحيّز المركزى . وعادة ما كان موضع المخازن والكنيسة الصغيرة فى الحيّز المركزى، بينما الأبراج الأخرى المحيطة بالحيز كبيرة بحيث تضم حجرات الثكنات والمكاتب . وكان تصميم

---

(٥) (المترجم) النورمانديون Normans : أبناء نورماندى Normandy وهو إقليم تاريخى يقع شمال غرب فرنسا على القنال الإنجليزى.

(٦) للإطلاع على مخطط لقلعة الكوكب أنظر Deschamps, *La Défence,* p.121 ، وللإطلاع على مخطط أبسط لقلعة اليحمور (Chasel Rouge) أنظر *Le Crac,* p. 57 . وتمت تقوية القلعتين التوأمتين الشغر وبكاس بخنادق صناعية مثل صهيون (*Le Crac,* pp. 80-1) .

(٧) Deschamps, 'Les Entrées de Châteaux des Croisés', in *Syria,* vol. xiii

القلعة يختلف باختلاف المنطقة التى تقع فيها . وكان البرج المركزى ما يزال برجا مكعّبا بسيطا - على الطراز النورماندى - بمدخل واحد فقط عادة . وكان البناء نفسه صلبا وبسيطا بلا زخرفة وإن كانت هناك بعض المحاولات لزخرفة أماكن الإقامة والكنيسة الصغيرة . ولسوء الحظ لم تبق أية زخارف لقلاع القرن الثانى عشر ؛ أما الحصون التى ظلت مسيحية بعد عصر صلاح الدين فقد أعيدت زخرفتها فى القرن التالى ، وقد غيّر العرب الحصون التى احتلوها ؛ واستحال ما تبقى إلى أطلال[٨].

وبتقدم سنوات القرن الثانى عشر طرأت بعض التغييرات على مخطط القلعة . من ذلك أن وضع البرج المركزى - وهو أقوى جزء فى القلعة - أصبح فى أضعف قسم من الحيز المركزى ، بدأ يعتبر من الأمور المنطقية ، وأصبح البرج المركزى نفسه مستديرا عادة وليس مضلعا لأن السطح المستدير يقاوم القصف بطريقة أكثر فعالية من السطح المضلع ؛ وأزيدت فى البرج الأبواب والأبواب السرية . وكان حجم القلعة يميل إلى الزيادة خاصة عندما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تبنى القلاع لنفسها أو عندما تستولى على قلاع من النبلاء العلمانيين ؛ ولم يكن فى قلاع الأنظمة الدينية العسكرية سيدات مقيمات، ورغم إمكان توفير أماكن إقامة رائعة لكبار المسؤولين فقد كان كل مقيم فيها يؤدى غرضا عسكريا . وأما القلاع الأكبر مثل قلعة الكرك أو عثليت فكانت مدنا عسكرية قادرة على إسكان عدة آلاف من المحاربين وما يلزمهم من خدم . ونادرا ما كانت تمتلىء هذه القلاع عن آخرها. وكانت الدفاعات الآن تقوّى عن طريق حيز مركزى مزدوج متحد المركز ؛ وكان للقلاع العظيمة التى يملكها فرسان المستشفى - مثل الكرك ومؤاب - حزام مزدوج . واتبع فرسان المعبد نفس النظام فى صافيتا، وإن كانوا يفضلون كمبدأ عام الحيز المركزى الواحد ؛ وطبقا للطراز الأول بُنيت قلعتاهم الرئيسيتان طرطوس وعثليت فى القرن الثالث عشر ، على أنه فى كل من الحالتين كانت الأقسام الأطول من الأسوار تنتصب من البحر مباشرة ، وعبر شبه الجزيرة التى كانت تصل عثليت باليابسة كان هناك خط مزدوج معقد . كما أن قلعة فرسان التيوتون فى مونتفورت ذات حيز مركزي واحد . ولم تكن فكرة الحيز المركزى فكرة جديدة ؛ ذلك أن الأسوار الأرضية للقسطنطينية كانت مبنيّة بخط مزدوج فى القرن الخامس ، وفى القرن الثامن أحاط الخليفة المنصور مدينته الدائرية بغداد بخط مزدوج .

---

(٨) أنظر على سبيل المثال الوصف التفصيلى وتصميم قلعة الكرك فى مؤاب و الصبيبة فى بانياس فى Deschmps, *La Défense*, pp. 80'93, 167-75، وانظر أيضا اللوحات .

يد أن فرسان المستشفى كانوا هم أول مَنْ طبّق فكرة الحيز المزدوج فى قلعة صغيرة رغم عدم إمكان استخدامها إلا لقلعة كبيرة الحجم(٩).

وكانت التحسينات الأخرى لقلاع القرن الثالث عشر تتمثل فى النعومة الشديدة لواجهة الأسوار الخارجية التى تحول دون تثبيت السلالم ، وفى الإستخدام الأوسع للمزاغل والفتحات لرماة السهام ذات حواف منحدرة عادة إلى أسفل وأحيانا قواعد تشبه الركاب - وفى تعقيدات أكثر فى بوابات المداخل ؛ ففى قلعة الكرك هناك مدخل طويل مغطى تسيطر عليه فتحات لرماة السهام فى جداريه الجانبيين ، تعقبه ثلاثة أركان قائمة الزوايا ، ثم باب حديدى مدلّى ، وأربعة بوابات منفصلة. وكانت الحماية تتوفر للأبواب الخلفية من أركان غير متوقعة ، وهى وسيلة كان البيزنطيون أول من قدمها(١٠).

ضعف دفاعات القلاع

إن هذه القلاع الضخمة ، بأبنيتها القوية ، ومواقعها الرائعة على الصخور الشامخة وقمم الجبال، بدت منيعة قبل أن يُعرف البارود . وكانت طبيعة الأرض تحول دائما دون أن يصبح استعمال السلالم أمرا عمليا ، وليس فى الإمكان إحضار أبراج الحصار للسيطرة على الأسوار إلا إذا كانت هناك أرض مسطّحة فى الخارج تخلو من الخنادق . وكان من الصعب دائما على المحاصِرين أن يجدوا موقعا قريبا بما فيه الكفاية يضعون فيه المناجق أو الراجمات لقذف الصخور . وكان الخطر الفنى الرئيسى هو النفق ؛ إذ كان المهندسون يحفرون النفق تحت الأسوار ، يسندون سقفه أثناء توغلهم بعُمُد خشبية ثم يشعلون فيها النيران فى نهاية الأمر بفروع الأشجار ، مما يتسبب فى انهيار النفق نفسه ومعه أحجار الأسوار من فوقه . غير أن حفر النفق كان مستحيلا فى حالة بناء القلعة فوق الصخور الصلدة ، كقلعة الكرك . وعلى الرغم من وجود المخازن والصهاريج ، كانت المجاعة والعطش هما الخطر الحقيقى . وكان نقص القوة البشرية يعنى عدم القدرة

(٩) Rey, *Architecture Militaire des Croisés*, pp. 70 ff. وهو يبالغ فى الفرق بين النمطين اللذين استخدمهما فرسان المعبد وفرسان المستشفى ؛ Fedden, *op. cit.* pp.28-9. أنظر Deschamps, *Le Crac*, pp. 279 ff. وذلك للإطلاع على مراحل كل نمط والتغيرات الداخلة عليه . أنظر أيضا Melvin, *La Vie des Templiers*, pp. 136-42.

(١٠) Fedden, *op. cit.* pp. 29-30.

على الدفاع بصورة جيدة ؛ إذ ليس بوسع المملكة دائما إرسال قوة مخلّصة ، وكانت معرفة هذه الحقيقة تتسبب في إثارة التشاؤم بين أفراد الحامية؛ ذلك أنه في ذروة انتصارات صلاح الدين ، لم تستطع قلعة صهيون العظيمة - التي اشتهرت بأنها أقوى القلاع في زمانها - مقاومة المسلمين إلا لثلاثة أيام[١١].

إن أهمية القلاع الصليبية تقع في نطاق التاريخ العسكرى أكثر مما تقع في نطاق التاريخ الفني؛ ذلك أن الصليبيين العائدين إلى أوروبا أتوا معهم بأفكار عبرت عن نفسها عمليا هناك ؛ فقلعة ريتشارد قلب الأسد التي تُعرف بقلعة جيّار قدمت تلك الأفكار إلى العالم الغربى . غير أن القلاع في الشرق كانت لها قيمتها الجمالية، فكنائسها تعد من أروع أمثلة العمارة الكنسية في الشرق الفرنجي؛ وقاعاتها الضخمة - وأجملها في قلعة الكرك - تُقارن بأروع القاعات القوطية الأولى في غرب أوروبا ؛ وتُظهر أحياؤها السكنية الرقة والجمال ، وقد بقيت لتعطينا فكرة عن قصور النبلاء في الشرق الفرنجي . أما غرفة السيد الأعظم في قلعة الكرك ، التي ترتفع عالية في البرج الجنوبي الغربي من الحيز المركزى الداخلي ، بقبّتها المضلّعة ، وأعمدتها الرقيقة ذات التيجان والقواعد ، وإفريزها البسيط كامل الإستدارة بحيث يُظهر زينته الزخرفية بخمس زهرات ببتلاتها ، ربما كانت هي الغرفة الأكثر بهاءً دون أغلب غرف قلاع وقصور المدن الأخرى . وطرازها هو الطراز القوطي لشمال فرنسا في القرن الثالث عشر ، بينما للقاعة الضخمة زخارف قوطية حجرية مماثلة للزخارف الموجودة في كنيسة سانت نيكولاس العصرية في ريم[١٢].

وكانت القلاع عملا هندسيا في أساسه ، بينما كان المقصود بالكنائس أعمالا فنية . وعندما وصل الصليبيون إلى الشرق وجدوا فيه تقاليد قديمة للبناء تناسب البلاد . وكان الخشب سلعة نادرة ؛ وكل ما تقدمه الغابات يستغل في بناء السفن وصناعة الأسلحة ، ولذا كان على المهندسين أن يقوموا بالبناء دون دعامات خشبية ، وكانت الأسقف من الحجارة وغالبا مسطّحة كي تكون بمثابة شرفات لقضاء الأمسيات . وكان نظام التقبية يستخدم لدعم السقوف ، وكانت الأقواس المدببة القادرة على حمل الأوزان الثقيلة من الملامح العصرية آنذاك . وكان الطراز الوطني للبنائين السوريين هو

---

(١١) Oman, *History of the Art of War in the Middle Ages*, ii, pp. 29 ff.; Fedden, *op. cit.* .pp. 34-40.

(١٢) (المترجم) : ريم Reims : مدينة شمال شرق فرنسا شهدت استسلام ألمانيا للحلفاء عام ١٩٤٥.

الطراز العربى - البيزنطى الذى بلغ الكمال فى ظل الخلفاء الأمويين، والذى امتد أثره إلى ما حدث من تطور فى العصر العباسى بعد ذلك ، وفى فن العمارة الفاطمية وما تأثرت به من شمال أفريقيا وكان البنّاؤون السوريون قد شاهدوا مؤخرا الأعمال البيزنطية فى الأماكن المقدسة وفى أنطاكية ، كما كان هناك تدفق للحرفيين الأرمن المهرة بطرازهم الخاص بهم.

عمارة الأماكن المقدسة

كانت أول كنيسة بناها الصليبيون فى الشرق هى كتدرائية القديس بول فى طرسوس التى استكمل بناؤها قبل عام ١١٠٢م . وهى عبارة عن مبنى يتسم بالخشونة والفظاظة على طراز كنائس شمال فرنسا الرومانيسكية الأسطورية ، ولكن أقواسها مدببة ؛ وهى كتدرائية مستطيلة الشكل ذات جناحين وصحن تحده أعمدة وركائز بالتبادل . وقد أُحضرت الأعمدة من بعض المبانى القديمة ؛ وتيجان الأعمدة مكعبات حجرية بسيطة بمثلثات، منحوتة من زوايا المكعبات ، وهو شكل من الزخرفة يوجد فى الراينلاند الألمانية ، وكذلك فى أرمينيا، وربما قام العمال الأرمن بعمل هذه الأشكال هنا . وكان لطريقتها الفجّة أثر فى ذوق العمارة الصليبية بعد ذلك[١٣].

وما أن استقر المستعمرون آمنين حتى كان أول اهتمامهم إصلاح الأماكن المقدسة ، وبعد ذلك إنشاء الكنائس المناسبة فى مدنهم الرئيسية . ومن أقدس المزارات التى بقيت فى حالة جيدة كنيسة الميلاد فى بيت لحم التى بناها قسطنطين ورممها جستينيان ؛ والإضافات المعمارية الوحيدة التى أضافها الصليبيون رواق بسيط مسقوف ذو أعمدة على النمط القوطى أقيم سنة ١٢٤٠م تقريبا ، ومدخل شمالى جنوبى إلى مغارة الميلاد، بُنى سنة ١١٨٠م تقريبا على الطراز الرومانيسكى المتأخر، له قوس مدبب وعلى تيجان الأعمدة زخرفة على هيئة أشواك من صنع سورى فيما يبدو . كما بنى الصليبيون مقاراً للرهبان حول الكنيسة دُمّرت الآن[١٤]. أما الكنيسة الأكثر قداسة عمّا سواها ، وهى كنيسة القبر المقدس فى القدس ، فقد بدت لهم غير ملائمة ؛ فبعد أن دمّرها الخليفة الحاكم بأمر الله، أعاد البيزنطيون بناء القاعة المستديرة المحيطة بالقبر

---

(١٣) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 378-9

(١٤) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 66-8.

نفسه، غير أنهم جعلوا الطرف الشرقى مسطحا وبنوا هناك ثلاثة محاريب مقبّبة ، وأُلحِق مصلّى القديسة مارى العذراء بشمال القاعة المستديرة ، أما مصلى القديس جون ، ومصلى الثالوث ، ومصلى القديس جيمس فقد أُلحِقت بجنوب القاعة المستديرة . وأُعيد بناء موضع جُلْجُثَة(١٥) كمُصَلّى منفصل ، كما أعيد بناء مصلى القديسة هيلينا فى كهف اكتشاف الصليب(١٦). وكانت المبانى مزخرفة فى ترف بالرخام والفسيفساء . وقرر الصليبيون وضع كافة المبانى معا تحت سقف واحد . ومن الواضح أن الأعمال الرئيسية قد نفّذت بعد زلزال سنة ١١١٤م وقبل سنة ١١٣٠م برغم عدم انتهاء بعض الأجزاء عند موت بلدوين الثانى سنة ١١٣١م ، ولم يتم تكريس الصرح الجديد حتى ١٥ يولية ١١٤٩م ، وهو الذكرى السنوية الخمسين للإستيلاء على المدينة ، وأُضيف برج الجرس فى حوالى سنة ١١٧٥م.

وكان لا بد أن يتأثر مخطط المبنى الجديد بالموقع الذى كان يحده من الجنوب صخرة الجمجمة ومن الشرق بالمنحدر المؤدى إلى مصلى القديسة هيلينا الذى يقع أسفل القاعة المستديرة بعدة أقدام، ولذلك هدم الفرنج الجدار الشرقى للقاعة البيزنطية ، ودمروا محاريبها المقبّبة ، مستبدلين أوسطها بقوس كبير يؤدى إلى داخل كنيسة جديدة تتألف من مكان مخصص لجوقة المنشدين له قبّة تقوم على ركائز بالقرب من الطرف الغربى ، وجناح يحيط به ممشى مسقوف ، والطرف الشرقى منحنٍ وبه ثلاثة محاريب مقبّبة . وبين المحراب الأوسط والمحراب الجنوبي سلم ينحدر مؤدياً إلى كنيسة القديسة هيلينا مباشرة . وأماالجناح الجنوبى فيقع قبالة مصلى الجمجمة الذى أعيد بناؤه برغم بقاء الفسيفساء البيزنطية على أعمدة المدخل . وفى ناحية الغرب من جلجثة ، وفيما بينها وبين القاعة المستديرة ومصلى القديس جون ، بُنيت قاعة جديدة لتضم فى غرب مصلى الجمجمة، حجر المسحة(١٧) وقبري جودفرى وبلدوين الأول. وكان هناك ممر – وهو المدخل الرئيسى الحالى – يؤدى من القاعة الجديدة إلى فناء . وامتد بطول الجناح الشمالى جناحٌ خارجى شيّد البيزنطيون معظمه ، ينفتح على فناء آخر يتفرع منه ممر

---

(١٥) (المترجم) : جُلْجُثَة Golgotha : (فى الإنجيل)، الموضع الذى صُلِب فيه المسيح : "وجاءوا به إلى موضع جُلْجُثَة الذى تفسيره موضع جُمْجُمة" (إنجيل مرقس ١٥ : ٢٢).

(١٦) (المترجم) اكتشاف الصليب Invention of the Cross ، احتفال الثالث من مايو تخليدا لذكرى ما يُروى عن اكتشاف الصليب الحقيقى فى القدس عام ٣٢٦م بواسطة هيلينا أم قسطنطين العظيم.

(١٧) (المترجم) المِسحة Anointing : من الطقوس المسيحية يُجرى بمسح الشخص خاصة عند العماد أو الذى يحتضر أو المريض بمرض خطير وما إلى ذلك.

يجاوز كنيسة القديسة مارى ويؤدى إلى شارع البطريق. وهناك فناء ثالث يحيط بمصلى القديسة هيلينا وتحيط به مبان حديدة لسكنى كبار الرهبان الأوغسطيين الذين عُهد إليهم آنذاك بالكنيسة.

وهذه الأعمال الصليبية - التى حاوزت تخريب الخوارزميين سنة ١٢٤٤م ، ومرور الزمن ، والحريق الفاجع فى ١٨٠٨م - تبدو وثيقة الصلة بالكنائس الكلونية الكبيرة التى بناها الحجاج ، وخاصة كنيسة القديس سيرنين فى تولوز التى كرّسها البابا إيربان بعد مؤتمر كليرمونت مباشرة . ويذكرنا الممشى المسقوف بشدة بأمثاله فى كلونى نفسها وبكنيسة القديس سيرنين ؛ وإن كان هناك فارق فإنه فارق فى الحجم . فقد حرص مهندسو القبر المقدس على جعل أعمدتهم أقصر وأقوى حتى تتسق مع القاعة المستديرة البيزنطية ، التى ربما كان المقصود بتصميمها مقاومة صدمات الزلازل . وفى الإمكان مقارنة التفصيلا الزخرفية - باستثناء ما تبقى من الفسيفساء البيزنطية وتيجان الأعمدة - بالكثير من مثيلاتها فى حنوب فرنسا وجنوبها الغربى . وتبدو أعمال النحت ، وبخاصة نحت الأشكال المنحوتة على الأعتاب العليا للأبواب والنوافذ ، فى أغلبها من مدرسة تولوز وإن كانت قد نحتت محليا . وعلى وجه العموم يبدو أن المهندسين والفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا فرنسيين ، ومن جنوب غرب فرنسا على الأرجح وتشربوا التراث الكلونى . والمعروف أن المهندس الذى كان يصمم برج جرس الكنيسة يدعى جوردان (الأردن) ، وهو اسم عادة ما يُطلق على الأطفال الذين يُعمّدون فى النهر المقدس .وربما كان من مواليد فلسطين[١٨].

الكنائس فى القدس

وكانت كنيسة القبر المقدس هى الضريح الأقدم الوحيد الذى أدخل عليه الصليبيون تغييرات واسعة . ورمموا عدة كنائس صغيرة ، مثل كنيسة صعود المسيح الواقعة على جبل الزيتون ، وقبر العذراء فى الجثمانية[١٩]. وعندما صارت قبة الصخرة كنيسة فرسان المعبد لم يضيفوا إليها سوى رخام زخرفى وأعمال حديدية زخرفية ، كما لم يُمَس المسجد الأقصى برغم إعادة تهيئة المنطقة التى يعلوها لتصبح حظائر

(١٨) Enlart *op. cit.* ii, pp. 144-80; Duckworth, *The Church of the Holy Sepulchre*, pp.203-58; Harvey, *Church of the Hohly Sepulchre* pp. ix-x.

(١٩) (المترجم) الجثمانية Gethsemane : الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس.

للجياد ومخازن ، وشُيِّدت المبانى حـول المسجد لإيواء فرسـان النظـام ، بينمـا أضيـف جناح فى الجهة الجنوبية الغربية أصبح مكان الإقامة المفضّل للملوك . وفى أغلـب المـدن التى استعمروها وجدوا أن الكنائس قد أصابها من شدة الدمـار مـا لا يجعلهـا تستحق الإصلاح ، فكانوا يتركونها لأصحـاب الطوائـف مـن السـكان الأصليـين الذيـن كـانوا يملكونها فعلا . واستولوا على بعض الأديرة القديمة ، وإن كانوا يفضلون بصـورة عامة تشييد مبانيهم الخاصـة بهـم.وفـى بعـض الأحيـان كـانوا يستخدمون المواضـع السـابقة وقواعدها التحتية ، كما حدث فى كنيسة البازيليك ذات القاعدة الرومانية الكبـيرة فـى جبل صهيون ؛ وفى أحيان أخرى كانوا يغيّرون اتجاهات الموضـع السـابق تغيـيرا طفيفـا، كما حدث فى كنيسة الجثمانية . وفى أغلب الأحيان كانوا يختارون المواقع الخاصة بهم أو يعيدوا بناء الكنيسة برمتها فى مواقع تقليدية[٢٠].

وبخلاف كنائس فرسان المعبد التى كانت دائرية الشـكل ، كـان التصميـم الثـابت للكنيسة الصغيرة هو الشكل المستطيل مع وجود نتوء دائرى أحيانا فى الحائط الخارجى فى الطرف الشرقى . وكان البناء قويا ذا عقد مدبب واحد متقاطع الأضلع يدعم سـقفا حجريا مسطحا . وكانت هذه الكنائس الصغيرة مبنيّة فى كل قلعة، حتـى فـى القـلاع المعزولة مثل القلعة الواقعة على تل الوعيرة بجوار أطلال البتراء القديمة[٢١].

وكانت الكنائس الأكبر مستطيلة كذلك ، ولها أجنحة جانبية بطول المبنى تفصلها عن صحن الكنيسة أعمدة أو قوائم. ودائما ما كانت هناك ثلاثـة محـاريب متواريـة فـى عمق الجدار . وكان فى الكتدرائية الكبرى فى صور وفى كنيسـة أو كنيسـتين أخريـين أجنحة فرعية قصيرة تجعل صحن الكنيسة يتخذ هيئة صليب، وإن لم يكن لذلك مدلولا معماريا. وتوجد فى كتدرائية طرطوس غرفة للأشياء المقدسـة وأخـرى لأدوات التنـاول مبنيتان فى الركنين الجنوبى الشرقى والشمالى الشرقى . وكان لقليل من الكنائس ، مثل كنيسة القديسة آه فى القدس، ولكتدرائية قيصرية فيما يبـدو قبـاب تقـوم علـى أعمـدة وتغطى الحيز الواقع أمام الحرم ؛ وكان السقف فى العادة مسطحا أو برميلـى الشـكل .

---

(٢٠) .Enlart, *op. cit.*ii, pp. 207-11, 214-21, 233-6, 243-5, 247-9

(٢١) لم يبق من كنيسة الوعيرة سوى ما يزيد قليلا على النتوء المستدير فى الحائط الخارجى . كما لا يوجـد سوى بقايا شائهة لإفريز مصبوب ولا أثر هناك للزخرفة . وتبـدو الأحجـار المستخدمة فـى تشييدها أصغر ممّا اعتاد الصليبيون على استخدامه فى المبانى . ويبدو أن كان لها دهليز صغير وسرداب . أمـا كنيسة قلعة الكرك فكانت أكبر بكثير ولها أربع نوافذ . ويقال إن لها زخارف جصّية وإن لم يبق منهـا شىء الآن . أما كنيسة فرسان المعبد فى قلعة عثليت فلم تكن دائرية وإنما باثنى عَشر ضلعـا ؛ وتنتمـى للقرن الثالـث عشر.

وكانت الأعمدة الجانبية مغطاة فى معظم الأحوال بأقبية ذوات حنايا ؛ وكان الصحن مغطى إما بقبو ذى حنايا أو بقبو برميلى طويل مدبب مضلع . وإذ كانت الأجنحة أقل ارتفاعا من بقية أجزاء الكنيسة ، تعددت النوافذ حول المنور ، وكانت النوافذ كلها ، بما فى ذلك تلك التى تقع فى الطرف الشرقى ، صغيرة لتوارى ضوء شمس سوريا المبهر. وكانت الأقواس مدببة باستثناء القليل منها . وكانت الأبراج نادرة؛ وكان لكنيسة الدير فى جبل الطور برجان على جانبى المدخل الغربي ، يحوى كل منهما مصلّى على هيئة محراب فى الدور الأرضى . وكانت تلحق بالكنائس أحيانا أبراج أجراس ، ولكنها لم تكن جزءا مكملا لها[٢٢].

زخرفة الكنائس

كانت زخارف كنائس القرن الثانى عشر بسيطة ؛ ودائما ما كانت تستخدم فى ذلك أعمدة مأخوذة من المبانى القديمة ؛ وتنوعت رؤوس تلك الأعمدة ، فكان بعضها قديما ؛ واتخذ البعض النمط الكورينثى والسّلّى لرؤوس الأعمدة البيزنطية والعربية ، الذى كان يتبعه البناؤن المحليون أو الفرنج الذين سايروا الأنماط المحلية؛ كما اتخذ البعض النمط الرومانيسكى الغربى[٢٣]. وكانت توجد فى بعض الكنائس ، مثل كنيسة قرية الناب ، لوحات جدارية على النمط البيزنطى[٢٤]، وكانت هناك أعمال من الفسيفساء

(٢٢) أنظر Enlart, *op. cit. passim* وقد اعتمدت بدرجة كبيرة على المعلومات الشخصية المتصلة بالمبانى.

(٢٣) أنظر Enlart, *op. cit.* i, pp. 70-3

(٢٤) أنظر أدناه ، ص ٤٣٩.

فى حجرة العشاء الأخير على جبل صهيون ، وفى كنيسة الرقاد[٢٥] الملاصقة لها[٢٦]. ولابد من أن يكون الفنانون البيزنطيون الذين أرسلهم الامبراطور مانويل ومعهم أدواتهم قد مارسوا فنهم هناك ، كما مارسوه بالفعل فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم[٢٧]؛ وإن كانت الزخرفة التصويرية نادرة . وكان للزخارف المحيطة بالأقواس أطراف مدببة ، أو على شكل أنياب الكلب . ولم يبق إلا القليل من الأشكال المنحوتة؛ وكانت لبنات عقود الأقواس مبطّنة فى الغالب ، وكانت الحليات وردية الشكل البسيطة من الزخارف الأخرى المفصّلة[٢٨].

وكان الوقع العام لكنائس القرن الثانى عشر يتميز بالحدّة إلى حد ما ، ولم يبلغ شأو العمارة المعاصرة فى الغرب ، ويرجع ذلك إلى الحرص على اجتناب استخدام الأخشاب والإحتراز من الزلازل ، وإن جاءت النتيجة حسنة التناسب . ولا شك فى أن الصليبيين قد جاءوا معهم بمهندسين معماريين تشرّبوا الأنماط الفرنسية ، البروفانسى والتولوزى منها على وجه الخصوص ، بيد أنه من الواضح أنهم أخذوا بآراء البنّائين المحليين ؛ وتعلموا فى الشرق طريقتهم فى استخدام القوس المدبب . وأول مثالين للقوس المدبب فى الغرب يتمثلان فى كنيستين قامت ببنائهما حوالى سنة ١١١٥م إيدا اللورينية، وهى أم أول حاكمين فرنجيين للقدس ، وكان ابنها الأكبر إيوستاس البولونى

---

(٢٥) (المترجم) الرقاد أو الموت Dormition : ويقصد به رقاد السيدة العذراء فى نزعها الأخير ، ويمثل هذا الرقاد موضوعا فنيا تناوله الفنانون المسيحيون تناولا مختلفا عبر العصور . ويرجع الإختلاف فى لوحات أولائك الفنانين إلى أن تناول موضوع موت السيدة العذراء جاء فى الأجزاء المكذوبة من الكتاب المقدس . وهذا الموضوع الفنى يدور حول فكرة تقول إن تلامذة المسيح المنتشرين فى أرجاء الأرض جاءوا عند موت العذراء إلى فراش موتها بطريقة إعجازية والتفوا حوله ، كما هبط المسيح نفسه من السماء وانضم إليهم ليتولى رفع روحها بنفسه . وفى اللوحات الأولى التى تناولت هذا الموضوع ، ظهر السيد المسيح يحمل روحها على شكل طفل فى أكفان بيضاء ، بينما ظهر القديس بولس واضعا رأسه على صدرها منصتا إلى دقة القلب الأخيرة . وفى لوحات تالية اتخذت روحها شكل ملاك ، ثم اختفى السيد والمسيح والروح فى لوحات لاحقة . ولم يكن ليتح لهؤلاء الفنانين هذا التنوع الخصب فى معالجة هذا الموضوع ما لم تكن تلك الرواية قد وردت فى الأجزاء المكذوبة من الكتاب المقدس.

(٢٦) فى سنة ١١٠٦م شاهد دانيال الهيجومينى Daniel the Higumene الفسيفساء فى حجرة العشاء الأخير in Khitrowo, *Itinéraires Russes*, p. 36؛ وفى حوالى سنة ١١٦٠م كان John of Würzburg يصف لوحات الرسل الفسيفسائية هناك بما عليها من كتابات لاتينية تصف هبوط الروح القدس، وكذلك الفسيفساء فى كنيسة الرقاد التى تصور الرقاد نفسه والكتابات المدونة عليها المكتوبة باللاتينية وإنما تستخدم مصطلحات يونانية(*P.P.T.S.* pp. 42-3) .

(٢٧) أنظر أدناه ، ص ٤٣٩.

(٢٨) Enlart, *op. cit.* i, pp. 93 ff.

قد عاد حديثا من فلسطين . ومن العسير ألاّ نعتقد أن المهندسين العائدين أشاعوا الطريقة الجديدة فى الغرب ، حيث طوّرت كى تناسب الحاجات المعمارية المحلية(٢٩).

ويستحيل على المرء أن يلجأ إلى التعميم فى تناوله لأصول شتى الوجوه المعمارية والزخرفية ؛ ذلك أن قبة كنيسة القديسة آن فى القدس شديدة الشبه بالقباب التى بناها المهندسون الفرنسيون فى Pérgord ، وإن كان نفس نمط القبة القائمة على أعمدة بلا اسطوانة موجود فى الشرق(٣٠). وغالبا ما يقارب الحفر الرومانيسكى الحفر البيزنطى والأرمينى بحيث تتعذر التفرقة الواضحة بينها ؛ ومن المحتمل أن حفر الأشكال ، والخيال الزائد الذى تتسم به رؤوس الأعمدة ؛ من نتاج الفنانين الفرنج ، على أن زخارف أوراق الأقنْثا أو الكروم نشأت محليا . ويبدو أن نموذج الأطراف المدببة كان ينتقل من الشمال إلى الجنوب حتى فى أوروبا ؛ وكان نمط أنياب الكلب معروفا فى الشرق من قبل ، ويوجد هذا النمط ، ونمط لبنات العقود المبطنة ، على البوابة الفاطمية العظيمة 'باب الفتوح' فى القاهرة ، التى بناها مهندسون أرمينيون من الرها ، وهى المدينة التى سبق أن كان البيزنطيون مسؤولين فيها لعدد من العقود عن إقامة كثير من المبانى الجديدة(٣١).

الفسيفساء واللوحات الجدارية

وتُظهر الأمثلة الباقية من فنون التصوير تأثرا شديدا بالفن البيزنطى يشكّك فيما يبدو فى أن فناناً فرنجياً واحداً قام بعمل فى الشرق . ومن اليقينى أن أعمال الفسيفساء

(٢٩) . Enlart, *op. cit.* i, pp. 3-4, 67-8 إن بعض الزخارف فى كنيستى إيدا فى Wast and Saint Wlmer فى بولونيا تذكرنافى وضوح بالأعمال العربية . ولقد وجدت الأقواس المدببة فى كلونى Clunyفى نفس التاريخ تقريبا. والنور الذى قام به المهندسون الأرمن فى نشر القوس المدبب وفى تقبة أقواس العقود)التى بالغ Strzygowski فى استنكارها(جدير بالإعتبار . أنظر Baltrusaitis, *Le problème de l'Ogive dt l'Arménie*, pp. 45 ff. esp. pp. 68-70 . ولا يزال هناك الكثير مما يقال عن أعمال الأرمن فى أوتريميه . أنظر أيضا Clapham, *Romanesque Architecture*, pp .107-12.

(٣٠) . Clapham, *loc. cit.* وقبة القديسة صوفيا فى القسطنطينية بلا اسطوانة . وكانت الإسطوانات نادرة فى العمارة الفارسية.

(٣١) . Clapham, *op. cit.* pp. 110, 112-13 وهو يرفض قبول أن المقارنات الأرمينية ذات صلة ، بسبب الشكوك المحيطة بالتواريخ . على أن زخارف الكنائس فى أرمينيا الكبرى يمكن تحديد تواريخها بشىء من اليقين . أنظر (Der Nersessian, *Armenia and the Byzantine Empire*, pp. 84 - 109الذى يظهر عرضا صعوبة تتبع أصول الأنماط الزخرفية).

فى بيت لحم صممها ونفذها فنانان من القسطنطينية هما بـازل وإفريـم ، وإن كانـا قـد قاما بعملهما بالتعاون مع السلطات اللاتينية المحلية . وبـدت فـى تلـك الأعمـال صـور القديسـين الغربيـين وكذلـك الشـرقيين ، وجـاءت الكتابـات عليهـا فـى اللغـة اللاتينيـة وكذلك اليونانية، ويحتمل أن يكون رسم المسيح بالفسيفساء فى الكنيسـة اللاتينيـة فـى الجمجمة من عملهم(٣٢). ونمط اللوحات الجدارية ، التى يعتورها البلى سريعا فى قريـن الناب ، نمط بيزنطى والنقوض عليها لاتينية ، وإن كـان اختيـار موضوعهـا شـرقيا(٣٣). وكان هناك ، على وجه اليقين ، فنـانون يونـانيون يعملـون فـى فلسـطين حـوالى سـنة ١١٧٠م تحت رعاية الامبراطور مانويل ، وكانوا مسؤولين عن اللوحات الجداريـة فـى الأديرة الأرثوذكسية فى كلامون وسان إيدثيميوس ، ولا شك فى أن الآباء اللاتينيـين فى قرية الناب كانوا يستخدمونهم فى زخرفة كنيستهم(٣٤). وأحيانا ما تؤخذ الكنيسـة الصغيرة فى أميون ، علـى مقربـة مـن طرابلـس ، علـى أنهـا أثـر صليبـى استدلالا مـن معمارها ، ولكن تكريسها باسم قديس يونانى فوكاس وكتاباتهـا اليونانيـة ، ولوحاتهـا الجدارية البيزنطية، تُظهر أنهـا مـزار أورثوذوكسـى فـى كـل حـال ، وهـى تدلـل علـى الصعوبة البالغة فى التفرقة بين النمطين الفرنجى والمحلى(٣٥). ولقد انتفع كثير من كنائس الفرنجة بالهدايا التى منحها الأمبراطور فى القسطنطينية لأساقفتها، ويخبرنا كبير الأساقفة العظيم وليم الصورى بأن الأمبراطور مانويل أغدق عليـه هدايـا فـاخرة لكتدرائيتـه(٣٦). ولقد زار أسقف الناصرة أشـارد المدينـة الإمبراطوريـة ليفـاوض فـى أمـر زواج بلدويـن الثالث ، ومات هناك ، وعاد جثمانه محمـلا بالهدايـا كذلـك(٣٧). وكـان هنـاك اتصـال مستمر طوال القرن الثانى عشر ، خاصة فى عهد مانويل، بين أوتريميه وبيزنطة ، ولا بد

---

(٣٢) *Church of the Nativity at Bethlehem* (ed. Schultz), pp. 31-7, 65-6) John Phocas's description); Enlart, *op. cit.* i, p. 159, ii, pp. 65-6; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 414-15. See above, vol. ii, pp. 391-2 and n. i. The mosaic Christ in Glory from the vault of the Latin Chapel of Calvary is reproduced as the frontispiece of Harvey, *op. cit.* Very little has been written about it. It may be Bayzantine work of the previous centry .

(٣٣) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 323-4 .

(٣٤) أنظر الجزء الثانى ص ٣٣٦ ملوحظة ١.

(٣٥) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 35-7

(٣٦) .William of Tyre, xxii, 4, p.1068

(٣٧) *Ibid.* xviii, 22, p. 857 .

من أن يكون لبيزنطة تأثير فنى عظيم آنذاك ، واستمر هذا التأثير عبر القرن التالى ويوحى الوصف الذى أورده ويلبراند (أوف أولينبرج) لقصر آل إبلين فى بيروت بلوحاته الجدارية ورخامه ، بأنه عمل بيزنطى ؛ واللورد العجوز حون الإبلينيى الذى بناه كانت أمه أميرة بيزنطية(٣٨).

وكان ذلك القصر - فى بيروت - استثناءً . فعمارة القرن الثالث عشر فى أوتريميه اقتربت من التراث الفرنسى أكثر من عمارة القرن الثانى عشر . وبانحسار المناطق الفرنجية فيما لا يجاوز المدن الساحلية إلا قليلا، بدا أن دور الصناع الوطنيين والتراث المحلى قد أخذ فى التقلص . وكانت كتدرائية البشارة فى الناصرة هى آخر الكنائس التى اكتملت قبل فتوحات صلاح الدين ثم حطّم بيبرس مبناها ، بيد أن الشكل المنحوت الباقى هناك فرنسى صرف ، ويبدو أن مدخلها الكبير ، وهو أكثر المداخل زخرفة ، كان يشبه إلى حد كبير مداخل كثير من الكتدرائيات الفرنسية فى ذلك الوقت ، وكان المبنى بأسره يقترب فيما يحتمل من النمط الفرنسى أكثر مما يقترب من النمط المحلى السابق(٣٩). وكانت الكنيسة الرئيسية التى بنيت فى القرن الثالث عشر - وهى كنيسة القديس أندرو فى عكا - عبارة عن مبنى قوطيا عاليا ورشيقا ، لا يبقى منه الآن إلا بقايا قليلة، ولكن الأوصاف والرسوم التى تركها الرحالة القدامى تؤكد ارتفاعها ؛ وكانت أجنحتها الجانبية عالية تنورها نوافذ طويلة وضيّقة مدببة من أعلاها، ويلتف أسفلها حول الأسوار الخارجية ممر مقفل عند الأطراف ذو أعمدة أنيقة.

ولا يمكننا أن نعرف كيفية إضاءة المنور والطرف الشرقى ، أما الباب الغربى فكانت تعلوه ثلاث نوافذ أكبر تعلوها ثلاث نوافذ أخرى تتخذ شكل عيون البقر . وكل ما يتبقى من الكنيسة الآن رواق من جانبها الغربى فيما يحتمل ، نقل بعد فتح عكا على ظهور الجمال إلى القاهرة حيث اتّخذ مدخلا لمسجد أقيم تخليدا لذكرى السلطان أشرف فاتح عكا ؛ ويتخذ هذا الرواق أبعادا مرتفعة وأنيقة ، وتحمل سقفه المقوّس من جانبيه سلسلتان من الأعمدة تتألف كل منهما من ثلاثة أعمدة اسطوانية يعقبها عمودان أقل استدارة وهكذا ، ويتلاقى جانبا السقف المقوّس فى تناسق مع

---

(٣٨) Wilbrand of Oldenburg in Laurent, *Peregrinatores Medii Aevi Quattuor*, pp. 166 ff.
انظر الجزء الثانى ص ٣٦١.

(٣٩) Enlart, *op. cit.* pp. 298-310 .

رؤوس الأعمدة ، وينتؤ فى باطن هذا السقف سقف آخر على شكل ورقة شجر ثلاثية الأطراف تخترقه عين بقرة . وهذا النمط هو النمط القوطى المتبع فى جنوب فرنسا[٤٠].

ويتّسم أسلوب عمارة القرن الثالث عشر فى قلعة الكرك بنفس النمط المتشامخ . وكانت غرفة السيد الأعظم الشاهقة وقاعة الطعام العظيمة تصطبغان كليّة بالصبغة الغربية ؛ وللثانية رواق شديد الشبه برواق كنيسة القديس أندرو فى عكا، وإن كانت أعمدته أقل أناقة ، وله نافذة وردية الشكل تتوسط سقفه المقوس ، تقابل عين البقرة التى تتوسط سقف رواق كنيسة القديس آندرو[٤١].

ومن المؤسف أنه لم يبق من آثار القرن الثالث عشر إلا القليل ، على أن نمط أوتريميه فى عمومه كان يقارب النمط الفرنسى القوطى المعاصر المتبع فى قبرص فى ظل حكم آل لوسينيان ، مبتعدا عن النمط الأكثر محلية الذى ساد فى القرن السابق . وتوحى الأعمال الباقية فى الناصرة بأن الفن الصليبي كان على صلة بالحركة القوطية فى الغرب . ولقد حفزت فتوحات صلاح الدين كثيرا من الحرفيين المحليين بأن يحاولوا الإستفادة من النمط الإسلامى . ومن المحتم أن يقلّص انهيار بيزنطة عند منعطف القرن من تأثير أنماطها ؛ وقد جلبت الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق أعدادا كبيرة من الفنانين والصنّاع الغربيين . ويبدو أن العداء المتزايد بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية أوحى فى نفس الوقت بتباين أشد بين أنماطهما.

مزامير الملكة مليسيند[٤٢]

ولا يوجد من مخطوطات القرن الثانى عشر سوى مخطوطة مزخرفة الحروف يُعرف أنها انتهت الينا من أوتريميه ، وهى "سفر المزامير" المعروف باسم مزامير الملكة مليسيند. وتنتمى هذه المخطوطة بلا شك إلى امرأة ؛ وقد جاء فيها ذكر موت بلدوين الثانى والملكة مورفيا ، ولم تذكر موت الملك فولك ، مما يدعو إلى افتراض أنها تنتمى إلى مليسيند وأنها كُتبت قبل موت الملك فولك . ومع ذلك ، فإن هناك ما يبرر افتراض أنها كُتبت لشقيقة مليسيند ، جوفيتا، رئيسة دير بيثانى ، وفى هذه الحالة ، وبافتراض

---

(٤٠) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 15-23 .

(٤١) Enlart, *op. cit.* i, pp. 134-7 .

(٤٢) (المترجم): نسبة إلى سفر المزامير فى العهد الجديد من الكتاب المقدس.

أن ذكر فوللك لا محل له ، يمكن أن يرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى أية سنة منحصرة في الفترة التى عاشتها جوفيتا ، أى حتى سنة ١١٨٠م. وقد كتب النص كاتب لاتينى مقتدر ، وتبدو العناوين المزخرفة لاتينية أكثر مما تبدو بيزنطية ، وإن كانت زخرفة الصفحة الكاملة بيزنطية تتخذ أسلوب المقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، يظهر عليها توقيع رسّام يدعى بازل ؛ ومن الممكن أن يكون بازل هذا هو نفسه الذى قام برسم اللوحات الجدارية فى بيت لحم سنة ١١٦٩م. وتشابه صور المخطوطة إلى حد ما صور كتاب قداس عُثر عليه فى سوريا قام بزخرفته جوزيف الذى كان يعيش فى ملطية فى عهد أسقف يدعى جون ، الذى يُرى أنه نفس الأسقف الذى كان يحكم من سنة ١١٩٣م إلى سنة ١٢٢٠م ، ومن ثم يمكن أن يكون الفنان الذى زخرف مزامير مليسيند سوريًا تدرب فى مدرسة بيزنطية ، ويحتمل أن تكون المخطوطة قد كتبت لجوفيتا رئيسة الدير فى السنوات الطويلة من عمرها الطويل(٤٣).

وهناك مجموعة مثيرة من المخطوطات يُنظر إليها فى العادة على أنها نتاج صقلى ، ويثبت البحث الحديث أنها كُتبت فى عكا فى الوقت الذى كان يقيم فيه القديس لويس هناك على وجه التقريب من سنة ١٢٥٠م إلى سنة ١٢٥٤م ، فأسلوبها بيزنطى، وقد اشترى لويس مقتنيات كثيرة من امبراطور القسطنطينية بلدوين الثانى ، وربما كان من بينها مخطوطات أرسلت إليه فى عكا وألهمت الفنانين الذين كانوا يعملون هناك . ومن المستحيل أن يقال إن تلك المدرسة قد بقيت بعد عودة الملك إلى فرنسا(٤٤).

لم يبق من الفنون الصغرى إلا أقل القليل ، ومن المستحيل أن نعرف ما صُنع منها محليا وما استجلب من الشرق أو الغرب ؛ فالأثاث والأشياء التى تستخدم فى الحياة اليومية جاءت ولا شك من ورش محلية ، ويحتمل أن تكون مواد الزينة قد جاءت من الخارج ، من القسطنطينية أو من المدن الإسلامية الكبرى ، أو جاء بها زوار من فرنسا

---

(٤٣) Boase, 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute,* vol. ii, pp. 14-15 . أما Dalton، فى مؤلفه *Byzantine Art and Archaeology,* pp. 471-3 فيعتقد أن صور الصفحة الكاملة بيزنطية اقليمية وأنها صُممت لعمل آخر . ورؤوس الصفحات من عمل فنان آخر؛ وربما كانت رومانيسكية غربية وإن كانت بتأثيرات شرقية)مثلا القديس جون الإنجيلى بلحية(. والفنان الثانى أكثر رقة من الأول ، وإن كانت ألوانه أضعف . وفى *East Christian Art,* p.309، يفترض أن الفنان الأول أرمينى. أنظر Buchthal, 'The Painting of Syrian Jacobites' in *Syria* vol. xx, pp. 136 ff. esp. p. 138 .

(٤٤) أى حكم على هذه المجموعة من المخطوطات لا بد أن ينتظر نشر العمل الوشيك الذى كتبه Dr. H. Buchthal.

أو إيطاليا . وهناك مجموعة من الأشياء عُثر عليهـا فـي القـرن التاسـع عشـر تحـت أبنيـة الأديرة فى بيت لحم تضم حوضين نحاسيين يبدو أنهما يرجعان إلى المدرسة الموسينية فـى القرن الثانى عشر ، حُفرت عليهـا مجموعـة مـن الرسـوم تصـور حيـاة القديـس تومـاس الرسول ، وشمعدانين فضيين يبدو أنهما من صنع بيزنطى فى نهاية القرن الثـانى عشـر ، وآخرين مطليين بمينا مدينة ليموج الفرنسية يرجعان إلى نهاية القرن الثانى عشر كذلك، وآخر أكبر من سابقيه ، ورأس صولجان أسقف ، مطلّين بمينا مدينة ليموج كذلك[٤٥]. وربما يكون الحاجز الحديدى الذى أقامه الصليبيون فى قبة الصخرة من صنع محلى ، وإن كان شديد الشبه بالمشغولات الحديدية الرومانسكية الفرنسية[٤٦].

الفنون الصغرى

وربما كانت الثريات الحديدية المستخدمة فى الكنائس مصنوعة محليا ، وإن جـاءت تصميماتها على غرار تصميمات أوروبا الغربية المعتـادة[٤٧] ولم تبق أدوات فخاريـة أو زجاجية يمكـن إرجاعهـا إلى تلـك الأيـام . وكـانت العمـلات والأختـام تصنـع محليـا ، وكانت تلك العملات تُصك بقصد استخدامها فى الشـرق ، ومـن ثـمّ اتخذت الأنمـاط الإسلامية المحلية ، وجـاءت عليهـا نقـوش عربيـة . وأختـام القـرن الثـانى عشـر بسـيطة وبدائية ، أما أختام القرن الثالث عشر فتتميز برقة واتقان أكثر[٤٨]. وهناك وعاء بلورى على هيئة ركاب فى إطار من الفضة المزينة بالجواهر ويحوى صندوقا داخليا من الخشـب المشغول ، وهو محفوظ الآن فى القدس وربما كان من صنـع محلـى، وإن كـانت أجـزاؤه الفضية أو البلورية قد جاءت من وسط أوروبا[٤٩] وهناك لوحتان من العـاج منقوشـتان فى رقة، وهما بمثابة غطائين لسفر مزامير الملكة مليسيند ؛ على أحدهما مدلّيات تحكـى قصة داود وفى أركانه رسوم أرواح ، وعلى الآخر عرش الرحمة وفى أركانـه حيوانـات خرافية . ورسوم الأيقونات غربية أكثر منها بيزنطية برغم أن الملابس الملكيـة بيزنطيـة ، أما الحيوانات فذات طابع أندلسى ، والزخارف أرمينية الإيحاء . ولا يمكننا فيما يبدو أن

(٤٥) Enlart, *op. cit.* i, pp. 172-201 .

(٤٦) *Ibid.* ii, pp. 310-11 .

(٤٧) *Ibid.* i, pp. 175-9 .

(٤٨) See Schlumberger, *Sigillographie de l'Orient Latin,* esp. introduction by Blanchet.

(٤٩) Enlart, *op. cit.* i, pp. 197-8 .

نفترض أن صانع عاج على هذا القدر من المهارة كان يعيش فى القدس فى ذلك الوقت. وربما كانت هاتان اللوحتان هدية من مكان آخر(٥٠).

ولا ينبغي أن يستخلص الباحث من ضآلة الشواهد أن الجهد لم يكن كبيرا ؛ ذلك أنه إذا ما ازدهرت العمارة ازدهرت الفنون الأخرى كذلك وعكست صورة الحياة فى أوتريميه ؛ فالعمارة فى القرن الثانى عشر عمارة مستعمرين كانوا على استعداد للتوافق مع البلاد التى جاءوا إليها ، وإن كانوا يستمدون العون دائما من الغرب. على أن الكوارث التى حلت فى نهاية القرن الثالث عشر قضت على التوازن القديم ؛ ففى القرن الثالث عشر لم يتبق من الأسر العظيمة القديمة فى أوتريميه سوى القليل ، وحلت محلها الأنظمة الدينية العسكرية التى كانت تجنّد أساسا من الغرب و لم تكن تتعاطف كثيرا مع التراث المحلى . والعناصر الوطنية فى المدن تفرقت الآن، واتجهت عكا بناظريها إلى الغرب ، وتركزت الثروة لدى الإيطاليين ، بينما كانت القوة فى العادة فى أيدى ذوى النفوذ من الغرب أو من ينوب عنهم . وأخذ النبلاء - أكثر فأكثر - فى اللجوء إلى قبرص حيث كانت تنبثق حضارة غوطية . وكانت هناك أصداء بيزنطية قليلة تتناهى إلى الأسماع ، وإن كانت تتخافت شيئا فشيئا ، فبيزنطة أخذت فى الأفول ، وقضى المغول على الثقافة العربية الأعرق ، وكانت ثقافة مصر المملوكية الأحدث معادية. وربما استمر تلاقى الثقافات فى أنطاكية ، غير أن النهب والزلزال والبلى قضت على شواهده. وفى الجنوب من أنطاكية ، فإن محاولة أوتريميه اتخاذ نمط يميزها قد قُضى عليها فى ميدان القتال فى حطين . و لم يكن الجهد الشديد المتواضع فى أوتريميه إبّان القرن الثانى عشر سوى افتتاحية لم تؤد إلى شىء ، وما كانت أوتريميه فى القرن الثالث عشر إلا إقليما نائيا لعالم البحر المتوسط القوطى.

---

(٥٠) Enlart, *op. cit.* i, pp. 199-200; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 221-3, and *East Christian* Art, p. 218 points out the Oriental affinities and believes that the carver was local. Boase, *loc. cit.* .

الفصل الثالث:

سقوط عكا

سقوط عكا

"نهاية. قد جاءت النهاية على زوايا الأرض الأربع"
(حزقيال ٧:٢)

عم الفرح الشرق الفرنجى لأنباء وفاة بيبرس . وكان خليفته إبنه الأكبر بركة الذى كان شابا ضعيفا يقضى وقته فى محاولة السيطرة على أمراء المماليك . وكانت مسؤوليات السلطنة فوق احتماله . وفى أغسطس ١٢٧٩م تمرد عليه أمير الجنود السوريين قلاوون وزحف على القاهرة ؛ وتنازل بركة عن العرش لأخيه البالغ من العمر سبعة عشر سنة ؛ وتولى قلاوون الحكومة، وبعد ذلك بأربعة أشهر خلع قلاوون السلطان الصبى ونصب نفسه سلطانا ؛ ورفض حاكم دمشق ، سنقر الأشقر ، الاعتراف بسلطته ونصب نفسه هو الآخر سلطانا هناك فى شهر ابريل التالى ؛ لكنه لم يستطع الصمود أمام المصريين ، وبعد معركة قريبة من دمشق دارت رحاها فى يونية ١٢٨٠م ، تقاعد فى شمال سوريا وسرعان ما تصالح مع قلاوون الذى استولى بذلك

على ميراث بيبرس كله[١].

ولم يستغل الفرنج المدنة ؛ إذ عبثا حثّهم الخان أباغا وتابعه ليو الثالث ملك أرمينيا على عقد تحالف والقيام بحملة صليبية . ولم يكن لهم من مناصر سوى نظام فرسان المستشفى . وكان تشارلز (أوف أنجو) ، بكراهيته لبيزنطة وحلفائها الجنويين ، قد أمر وكيله فى عكا روجر (أوف سان سفرينو) باحترام التحالف المعقود مع البنادقة وفرسان المعبد والبلاط المملوكى . أما البابا ، الذى وعده الامبراطور ميخائيل بإخضاع الكنيسة البيزنطية ، فقد شجّع تشارلز فى مخططاته السورية كي يشتت انتباهه عن الهجوم على القسطنطينية . وأبدى إدوارد الأول ملك انجلترا تعاطفه مع المغول ؛ ولكنه كان بعيدا فى انجلترا وليس لديه الوقت ولا المال لحملة صليبية جديدة[٢].

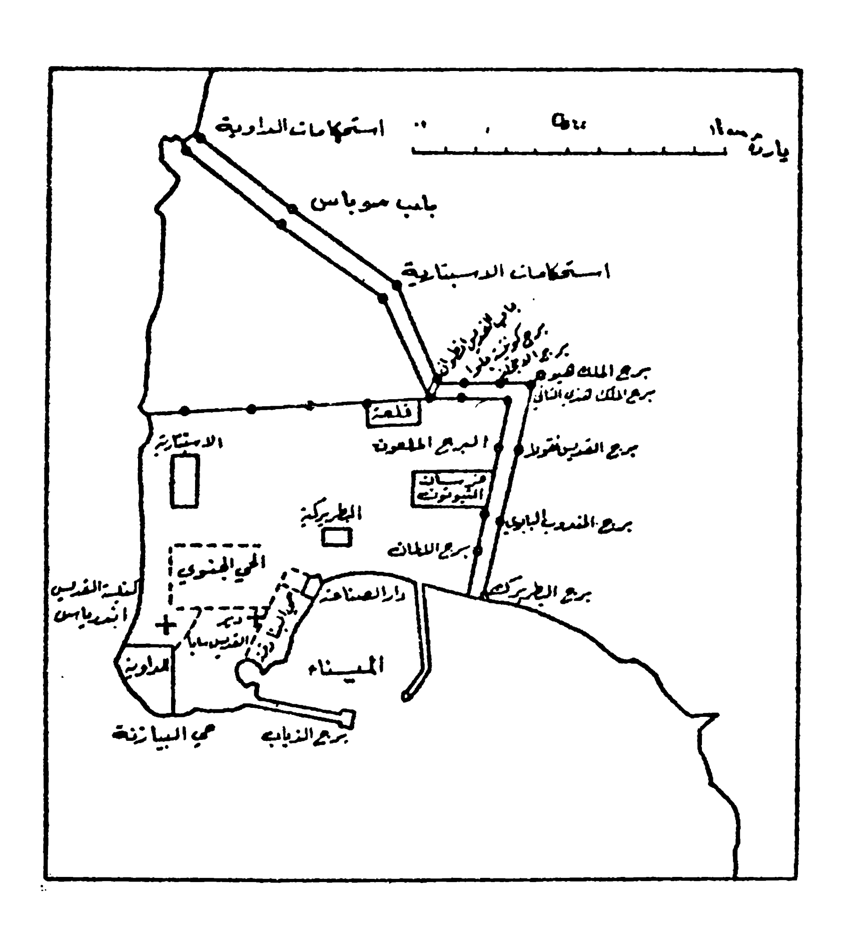
وفى الشرق الفرنجى ، كان بوهمند السابع على استعداد للتعاون مع عمه الأرمينى، غير أنه كان على علاقة سيئة بفرسان المعبد ؛ وفى ١٢٧٧م تشاجر مع أقوى أتباعه ، جوى الثانى إمبرياكو أمير جبيل الذى كان من أبناء عمومته وصديقا حميما له، وقد سبق أن حصل على وعد بتزويج إحدى الوريثات المحليات من عائلة أليمان لأخيه جون . غير أن بارثولوميو أسقف طرطوس رغب فى أن يكون الميراث لإبن أخيه وحصل على موافقة بوهمند ؛ وعلى الأثر اختطف جوى الفتاة وزوجها لجون ، ولخشيته من انتقام بوهمند هرب إلى فرسان المعبد . ورد بوهمند بأن دمر مبانى فرسان المعبد فى طرابلس وقطع أشجار غابة لهم قريبة فى مونتروك . وعلى الفور قاد السيد الأعظم لفرسان المعبد ، وليم (أوف بوجو)، فرسانه إلى طرابلس وسار فى استعراض خارج الأسوار ، وعندما عاد أحرق حصن البطرون ؛ غير أن محاولته قصف نيفين أسفرت عن أسر اثنى عشر فارسا من فرسانه ألقى بهم بوهمند فى السجن ؛ وعندما انطلق فرسان المعبد عائدين إلى عكا ، زحف بوهمند على جبيل لمهاجمتها ؛ فخرج جوى لملاقاته ومعه كتيبة من فرسان النظام كان قد تركها له وليم (أوف بوجو)، ودارت معركة عنيفة على أميال قليلة شمال البطرون ، وكان فى كل جانب مائتا مقاتل بالكاد غير أن القتال استعر ، وهُزم بوهمند هزيمة منكرة ، ومن بين الفرسان الذين فقدهم ابن عمه ، وزوج أخت جوى ، وباليان أمير صيدا ، وهو آخر رجال بيت جارنيه

---

(١) Abu'l Feda, pp. 157-8; Maqrisi, *Sultans,* I, ii, p. 171, II, i, 26; d'Ohssom, *Histoire des Mongols,* pp. 519-22.

(٢) Hayton, *Flor des Estoires,* pp. 180-1.

خريطة عكا سنة ١٢٩١م



الكبير[٣].

١٢٨٢م : الحرب الأهلية فى طرابلس

قبل بوهمند بعد هزيمته هدنة لمدة سنة ؛ غير أن جوى وفرسان المعبد عاودوا مهاجمته سنة ١٢٧٨م ؛ ومرة أخرى هُزم بوهمند ، بيد أن اثني عشر غليونا حاولت شق طريقها للدخول إلى مرفأ طرابلس لكن عاصفة بعثرتها . ثم أرسل بوهمند خمسة عشر غليونا لمهاجمة قلعة فرسان المعبد في صيدا ، فنجحت فى إحداث بعض الأضرار هناك قبل أن يتدخل السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، نيكولاس لورنى ، الذى سارع إلى طرابلس ورتّب هدنة أخرى . غير أن جوى أمير جبيل كان ما يزال على شراسته وقد عقد العزم على الإستيلاء على طرابلس ذاتها . وفى يناير ١٢٨٢م ، تمكن زمعه إخوته وبعض أصدقائه من التسلل إلى حى فرسان المعبد فى طرابلس . وقد حدث شئ من سوء الفهم ، وكان قائد فرسان المعبد - ريديكور - غائبا إذ ارتاب جوى فى وجود خيانة وأصابه الذعر ؛ وبينما كان يحاول اللياذ بمقر فرسان المستشفى جاء شخص ما وحذر بوهمند ؛ وهرب المتآمرون إلى أحد أبراج فرسان المستشفى فحاصرهم جنود بوهمند . وبعد ساعات قليلة أخذوا بنصيحة فرسان المعبد ووافقوا على الإستسلام شريطة الإبقاء على حياتهم ؛ غير أن بوهمند حنث بوعده ، وفقأ أعين رفاق جوى جميعا ؛ أما جوى نفسه فقد أُخذ مع أخويه جون وبلدوين وابن عمه وليم إلى نيفين حيث دُفنوا جميعا فى حفرة حتى أعناقهم ، وتُركوا كي يموتوا جوعا.

وارتاع أتباع بوهمند مما لاقاه المتآمرون من مصير بشع ؛ فضلا عن أن أسرة امبرياكو لم تنس أبدا أصلها الجنوى ، وقد كان هناك الكثير من أبناء جنوا بين المتآمرين. ولأن أبناء جنوا كانوا أصدقاء ودودين للأرمن ودعاة للتحالف مع المغول ، فقد تباعد بوهمند عن سياستهم . وفى ذات الوقت خطط جون أمير مونتفورت - الذى كان حليفا حميما لأبناء جنوا - للخروج من صور كي ينتقم لأصدقائه ؛ لكن بوهمند وصل إلى جبيل قبله . وقد تملكت أبناء بيزا دون غيرهم مشاعر البهجة الخالصة من هذه الحكاية كلها لما يكنّونه لأبناء جنوا من كراهية.

ولم تكن الأحوال السياسية أفضل حالا فى الجنوب . ذلك أن النبلاء المحليين كانوا

(٣) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 481; *Gestes des Chiprois*, pp. 207, 210-13.

يزدرون حكم روجر (أوف سان سفرينو) فى عكا . وفى ١٢٧٧م حاول وليم (أوف بوجو) أن يكسب إلى جانبه جون أمير مونتفورت وأفلح فى مصالحته مع البنادقة الذين سُمح لهم بالعودة إلى أحيائهم السابقة فى صور . غير أن جون ابتعد عن حكم عكا ؛ وفى ١٢٧٩م هبط إلى البر فجأة فى صور الملك هيو ، وفى مأموله أن يجمع النبلاء حوله . وسانده جون ، لكن أحدا لم ينهض لنصرته . وكانت فترة الأشهر الأربعة - التى كان يحق له فيها قانونا المطالبة بأن يتواجد أتباعه القبرصيون القادمون من وراء البحار - قد مرت بصورة عقيمة. وعندما عاد فرسانه إلى قبرص كان على الملك أن يتبعهم ؛ وألقى باللائمة لفشله على فرسان المعبد - بحق - إذ أن وليم (أوف بوجو) هو الذى أبقى عكا على إخلاصها لروجر (أوف سان سفرينو) . وانتقم من فرسان المعبد بمصادرة أملاكهم فى قبرص بما في ذلك قلعتهم فى جاستريا . واشتكى نظام فرسان المعبد لدى البابا الذى كتب لهيو يأمره برد الممتلكات، لكنه تجاهل الأمر البابوى. وعلى الرغم مما يبدو من موافقته على التحالف مع المغول ، بسبب معارضة روجر (أوف سان سفرينو) فى المقام الأول ، فإنه لم يكن فى وضع يمكّنه من اتخاذ أية خطوة عمليه فى الأراضى الرئيسية(٤).

وكان الخان متلهفا على مهاجمة المماليك قبل أن يتمكن قلاوون من ترسيخ وضعه؛ وكان سنقر - أمير دمشق السابق - ما يزال يتحدى المصريين فى شمال سوريا إلى أن عبر جيش مغولى الفرات فى نهاية سبتمبر ١٢٨٠م واحتل عينتاب وبجراس ودربساك ، وفى ٢٠ أكتوبر دخل حلب حيث نهب أسواقها وأشعل الحرائق فى مساجدها ، فارتاع السكان المسلمون فى المقاطعات وهربوا جنوبا إلى دمشق ؛ وفى ذات الوقت قام فرسان المستشفى فى المرقب بغارة مثمرة على البقاع وتوغلو فيها حتى كادوا يصلون إلى قلعة الكرك ، وأثناء عودتهم هزموا جيشا إسلاميا بالقرب من مرقية كان قد أُرسل لصدهم . بيد أن المغول لم يكونوا من القوة الكافية للإحتفاظ بحلب ؛ فعندما جمع قلاوون قواته فى دمشق انسحبوا عبر الفرات ، واكتفى السلطان بإرسال قوة لمعاقبة فرسان المستشفى الذين هزموها أمام المرقب(٥).

وفى ذات الوقت تقريبا ، ظهر سفير مغولى فى عكا ليخبر الفرنج باقتراح الخان

---

(٤) *Gestes des Chiprois,* p. 207; *Annales de Terre Sainte,* p. 457; Amadi, p. 214; Mas Latrie, *Documents,* ii, p. 109; Raynaldus, 1279, p. 488 .

(٥) Maqrisi, *Sultans,* II, i, p. 26; Abu'l Feda, p. 158; Bar-Hebraeus, p. 463; *Gestes des Chiprois,* pp. 208-9.

بإرسال جيش من مائة ألف رحل إلى سوريا فى الربيع التالى ، وليرحوهم تعزيز الجيش بالرحال والمؤن . وأحال فرسان المستشفى الرسالة إلى الملك إدوارد فى انجلترا ؛ أما فى عكا نفسها فلم تكن هناك استجابة . وشعر قلاوون بالخوف من أنباء الغزو المغولى القادم ، فتصالح مع سنقر فى يونية ٢٨١١م ، مانحا إياه أنطاكية وأفاميا كإقطاعيتين ، وأرسل إلى عكا مقترحا عقد هدنة لعشر سنوات مع النظامين الدينين العسكريين ، وكانت الهدنة المعقودة مع حكومة عكا فى ١٢٧٢م ما تزال سارية لمدة عام آخر ؛ ونصح بعض الأمراء من أعضاء السفارة المصرية الفرنج بعدم قبول الهدنة مع قلاوون لأنه سرعان ما سيطاح به ، وما أن سمع روجر (أوف سان سيفرينو) ذلك حتى كتب إلى السلطان يحذره ، وتمكن السلطان من القبض على المتآمرين فى الوقت المناسب . وفى ذلك الوقت وافقت الأنظمة الدينية العسكرية فى عكا على المعاهدة التى وُقّعت فى ٣ مايو . وفى ١٦ يولية وقّع بوهمند على هدنة مماثلة . لقد كان ذلك نصرا دبلوماسيا لقلاوون ؛ فلو أن الفرنج اتحدوا من خلفه حتى بدون تعزيزات من الغرب ، لتسبب ذلك فى تعقّد حملته ضد المغول تعقدا خطيرا[٦] .

١٢٨١م : معركة حمص

فى شهر سبتمبر ١٢٨١م ، توغل جيشان مغوليان فى سوريا ؛ كان الخان يقود أحدهما بنفسه وتمكن من إخضاع القلاع الإسلامية بطول الحدود مع نهر الفرات ، بينما كان يقود الثانى أخو الخان - مانغو تيمور - الذى بدأ بالإتصال بليو الثالث ملك أرمينا ثم سار جنوبا خلال عينتاب وحلب إلى داخل وادى العاصى . وكان قلاوون قد ذهب إلى دمشق حيث جمع قواته ثم سارع إلى الشمال. وانتحى الفرنج جانبا فيما عدا فرسان المعبد فى مرقب الذين رفضوا الإلتزام بالهدنة التى عقدها نظامهم الدينى العسكرى فى عكا ؛ وسار بعض فرسانهم للإنضمام إلى ملك أرمينيا . وفى ٣٠ أكتوبر تقابل الجيشان المغولى والمملوكى خارج حمص مباشرة . وكان مانغو تيمور يقود قلب المغول ، وعلى ميسرته أمراء مغوليون آخرون ، وعلى ميمنته قوات احتياطيه جورجية مع الملك ليو وفرسان المستشفى . وكانت ميمنة المسلمين تحت قيادة المنصور صاحب حماه ، وكان قلاوون يقود بنفسه المصريين فى القلب ، وإلى جانبه جيش دمشق بقيادة الأمير لاجين ، وفى ميسرته سنقر المتمرد السابق ومعه أبناء سوريا

---

(٦) Maqrisi, *Sultans,* II, i, pp. 28-34; Rhricht, *Regesta,* p. 374.

الشمالية والتركمان.

وما أن نشبت المعركة حتى نجح المسيحيون فى ميمنة المغول فى اقتلاع سنقر من مكانه وطاردوه إلى داخل معسكره فى حمص ، وبذا فقدوا الإتصال بمركزهم . وفى ذات الوقت ، وعلى الرغم من صمود ميسرة المغول ، جُرح مانغو تيمور نفسه أثناء هجوم مملوكى على القلب ؛ وتخلّت عنه رباطة جأشه فأمر بانسحاب متعجّل ؛ فوجد ليو ملك أرمينيا ورفاقه أنفسهم فى عزلة فكان عليهم أن يشقوا طريقهم عائدين إلى الشمال وتكبدوا خسائر جسيمة ، وخسر قلاوون الكثير من الرجال أثناء مطاردتهم للأرمن. وعاود الجيش المغولى عبور نهر الفرات بلا مزيد من الخسائر ، وبقى النهر العظيم بمثابة الحدود بين الإمبراطوريتين ، ولم يغامر قلاوون بمعاقبة الأرمن . وكان الراهب الإنجليزى لفرسان المستشفى - جوزيف (أوف تشانسى) - حاضرا فى المعركة، وفيما بعد كتب وصفها وأرسله إلى إدوارد الأول قائلا إن الملك هيو والأمير بوهمند لم يتمكنا من الإنضمام إلى المغول فى الوقت المناسب ؛ وربما كان يحاول حمايتها من سخط الملك الإنجليزى ، وهو العاهل الغربى الوحيد الذى ما زال مهتما بالحرب المقدسة ، والذى كان يساند التحالف المغولى بشدة . ولكن أحدا فى الشرق فى مثل فراسة ادوارد؛ فلم يفعل الملك هيو شيئا ، وتهادن بوهمند مع المسلمين ، بينما ذهب روجر (أوف سان سفرينو) ومندوب الملك تشارلز فى رحلة خاصة لمقابلة قلاوون وتهنئته على انتصاره(٧).

١٢٨٢ م : انهيار قوة تشارلز (أوف أنجو)

وكان الصقليون ساخطين على غطرسة تشارلز (أوف أنجو) وجنوده ، فهبّوا فجأة مساء ٣٠ مارس ١٢٨٢م وذبحوا جميع الفرنسيين فى الجزيرة . وكان لصلوات المساء الصقلية أثرا يجاوز مداه ما كان يتوقعه سكان الجزيرة الغاضبون . لقد ظهر أن الإمبراطورية المتوسطية العظيمة التى يتربع عليها تشارلز كانت بلا قواعد ترتكز عليها. فطوال العقدين التاليين حاول هو وخلفاؤه عبثا استعادة صقلية من أمراء أراجون الذين

(٧) Maqrisi, *Sultans,* II, i, pp. 35-7; Abu'l Feda, pp. 158-60; Bar-Hebraeus, pp. 464-5; Hayton, *Flor des Estoires,* pp. 182-4; *Gestes des Chiprois,*p. 210; letter of Joseph of hricht, *Regesta,* Chauncy, and King Edward's reply (ed. Sanders), P.P.T.S. vol. v; R p. 375; d'Ohsson, *op. cit.* pp. 525-34

انتخبوا لتولى عرشها ؛ ولم تعد مملكة الأنجفين[٨] فى نابلى قوة عالمية ؛ أما البابوية ، التى أمّنت للأنجفيين مملكتهم الصقلية ، فقد أهينت ولحق بها الدمار المالي فى محاولاتها الإبقاء على عملائها ، وتخلى الأنجفيون عن مشاريعهم فى البلقان وشرقه ، وفى القسطنطينية تنفس الامبراطور الصعداء ، فلم يعد مضطرا لإثارة حنق مواطنيه بأن يعرض خضوع كنيستهم لروما إذا استطاعت روما كبح جماح طموحات تشارلز[٩]. وفى الشرق الفرنجى وجد روجر (أوف سان سفرينو) نفسه فجأة بلا أي نصير ، وقد استدعاه سيده للعودة إلى إيطاليا ، فغادر عكا فى نهاية العام بعد أن عهد بمنصبه كوكيل للمملكة إلى قهرمانه أودو بوالشين[١٠].

وتلقى مماليك مصر أنباء انهيار قوة تشارلز بمشاعر الصدمة والارتياح فى آن. فقد كان كل من بيبرس وقلاوون يخشاه ويحترمه ولذا أحجما عن مهاجمة إقليمه الجديد فى أوتريميه . والآن ، لم يعد بوسع أحد أن يكبح جماح السلطان طالما حيل بين الفرنج وتحالفهم مع المغول . وفى يونية١٢٨٣م ، وهو موعد انتهاء الهدنة الموقعة فى قيصرية ، عرض قلاوون على أودو بوالشين تجديدها لعشر سنوات أخر ، فقبل أودو بسرور لكنه لم يكن واثقا من سلطته ؛ ولذا قام كميون عكا وفرسان المعبد فى عثليت وصيدا بالتوقيع فى الجانب الفرنجى من المعاهدة التى ضمنت للفرنج ممتلكاتهم فى جبل الكرمل وعثليت وأيضا فى صيدا ، واستبعدت صور وبيروت . كما نصت المعاهدة على الحق فى حرية الحج إلى الناصرة[١١].

وأبهج أودو أن يحافظ على السلام ؛ إذ أوشك الملك هيو مرة أخرى على استعادة أراضى مملكته الرئيسية. وكانت الليدى إيزابيلا البيروتية قد ماتت مؤخرا ، وانتهت مدينتها إلى أختها إشيفا زوجة همفرى أمير مونتفورت الذى كان الأخ الأصغر لسيد صور . ولإدراك هيو أن بإمكانه أن يثق فى آل مونتفورت ، فقد أبحر من قبرص فى

---

(٨) (المترجم) الأنجفين : Angevin نسبة إلى إقليم آنجو Anjou التاريخى فى غرب فرنسا والذى ساعد على ظهور الأسرة التى حكمت فى انجلترا Plangagenet house من ١١٥٤ حتى ١٤٨٥م

(٩) يبقى تاريخ أمارى Amari حرب الصلوات المسائية الصقلية *La Guerra del Vespero Siciliano* أفضل تاريخ عام للصلوات المسائية والحرب التى ترتبت عليها

(١٠) *Gestes des Chiprois,* p. 214; Sanudo, *Chronique de Romanie* in Mas Latrie, *Nouvelles Preuves,* i, pp. 39-40 . وقد تزوج أودو من أرملة باليان الإيبلينى أمير أرسوف وهى لوتشيا (أوف جوفين).

(١١) Maqrisi, *Sultans,* ii, i, p. 60, 179-85, 224-30. See Hill, *History of Cyprus,* ii, p.176.

نهاية يولية بصحبة اثنين من أبنائه - هنرى وبوهمند - وفى نيّته الهبوط فى عكا ، غير أن الرياح قذفت به إلى بيروت التى وصلها فى أول أغسطس واستُقبل استقبالا حسنا . وبعد أيام قلائل واصل إبحاره إلى صور وقد أرسل جنوده برا جنوب الساحل. وفى الطريق لقى الجنود أذى كثيرا من غارات المسلمين ، وظن هيو أن فرسان المعبد فى صيدا هم الذين حرضوا المسلمين على ذلك ؛ وعندما هبط على البر فى صور وقعت أحداث كانت بمثابة نذير شؤم له ؛ إذ سقطت رايته فى البحر، وعندما جاء رجال الدين فى موكبهم لمقابلته انزلق الصليب الضخم الذى كانوا يحملونه وهشم جمجمة طبيب البلاط اليهودى . ومكث هيو منتظرا فى صور ، غير أنه لم يبد أحد فى عكا أية بادرة للترحيب به هناك ؛ لقد كان كميون عكا وفرسان المعبد يفضّلون الحكم غير المتقحّم لأودو بوالشين . ولن يبق مع هيو نبلاؤه القبارصة لأكثر من الفترة القانونية وقدرها أربعة أشهر ، وفى الثالث من نوفمبر - قبل انقضاء الفترة - مات بوهمند أحد ولديه الذي كان يعلق عليه الآمال العراض . وكان الحدث الأخطر بالنسبة له موت صديقه وزوج أخته جون (أوف مونتفورت) الذى لم يترك ذرية ، ولذا سمح الملك بأن تؤول صور إلى أخيه ووريثه - همفرى - لورد بيروت ؛ غير أنه أضاف بندا يبيح لأخيه - إذا رغب - شراء المدينة مرة أخرى للتاج نظير مائة وخمسين بيزانت ، غير أن همفرى مات فى فبراير التالى ، وبعد فترة مناسبة تزوجت أرملته من الإبن الأصغر لهيو - جوى - ومنحته بيروت . وبقيت صور فى ذلك الوقت تحت حكم أرملة جون ، مرجريت[١٢].

وبقى هيو فى صور حتى بعد أن تركه نبلاؤه ، وفيها مات يوم ٤ مارس ١٢٨٤م. ولقد بذل ما فى وسعه للمحافظة على السلطة فى مملكة الشرق الفرنجي وحالت دون ذلك صفاته الشخصية ، إذ برغم وسامته الطاغية وجاذبيته كان سيئ الطباع وتُعوزه المهارة . ويُعزى فشله بدرجة كبيرة إلى عداوة تجار عكا والأنظمة الدينية العسكرية الذين كانوا يفضلون العاهل الغائب البعيد الذى لا يتدخل فى شؤونهم[١٣].

وخلف هيو على العرش ابنه الأكبر جون ، وهو صبي وسيم فى السابعة عشرة من عمره تقريبا . وتوّج ملكا لقبرص فى نيقوسيا يوم ١١ مايو ، وبعد ذلك مباشرة عبر البحر إلى صور حيث تُوّج ملكا للقدس . بيد أن سلطته لم يُعترف بها خارج صور

---

(١٢) *Gested des Chiprois*, pp. 214-16; Amadi, pp. 214-15 .

(١٣) *Gestes des Chiprois*, pp. 216-17; Amadi, p. 216. See Hill, *op. cit.* p. 178

وبيروت . وحكم لسنة واحدة فقط ، ومات فى قبرص يوم ٢٠ مايو ١٢٨٥م . وورثه أخوه هنرى الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره وتُوّج ملكا لقبرص يوم ٢٤ يونية . ولم يغامر آنذاك بعبور البحر إلى سوريا(١٤).

١٢٨٥م : ضياع المرقب

كان قلاوون يتهيّأ لمهاجمة الفرنج الذين لا تشملهم الهدنة الموقعة سنة ١٢٨٣م . وسارعت السيدتان الأرملتان اللتان تحكمان بيروت وصور - إيشيفا ومرجريت - تطلبان منه الهدنة ، فأجابهما إلى طلبيهما(١٥). وكان هدف السلطان الاستيلاء على قلعة المرقب العظيمة التابعة لفرسان المستشفى الذين دأبوا على التحالف مع المغول . وفى ١٧ إبريل ظهر السلطان مع جيش عظيم فى سفح الجبل الذى تعلوه القلعة وقد أتى بعدد كبير من المناحق يجاوز أي عدد شوهد مجتمعا من قبل ، وقام رجاله بجرها إلى أعلى التل وبدأو قصف الأسوار . غير أن القلعة كانت مجهزة تجهيزا جيدا وكانت مناحقها في وضع أفضل، فدمّرت الكثير من آلات الأعداء ؛ ولم يحرز المسلمون تقدما طوال شهر . وفى نهاية الأمر نجح مهندسو السلطان فى حفر نفق تحت برج الأمل الذى كان يرتفع فى نهاية الزاوية الشمالية البارزة ، وملأوه بالأخشاب القابلة للإحتراق. وفى ٢٣ مايو تفجّر النفق وسقط البرج حطاما . وتسبب سقوطه فى عرقلة هجوم المسلمين واضطروا إلى التقهقر ، غير أن الحامية اكتشفت توغل النفق بعيدا تحت دفاعاتها ، فتحققت من الهزيمة واستسلمت. وسُمح لقادة فرسان المستشفى فى القلعة البالغ عددهم خمسة وعشرين قائدا بالإنسحاب مع منقولاتهم على صهوات الجياد وبكامل أسلحتهم . وسمح لباقى أفراد الحامية بحرية الرحيل دون أن يحملوا معهم شيئا، فانسحبوا إلى طرطوس ومنها إلى طرابلس . ودخل قلاوون القلعة دخول المنتصرين يوم ٢٥ مايو(١٦).

وشعر مواطنو عكا بالخطر لضياع المرقب ، وفى نفس الوقت تقريبا علموا بوفاة

(١٤) *Gestes des Chiprois*, p. 217; Amadi, *loc. cit.*; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 80.

(١٥) Maqrisi, *Sultans*, II, ii, pp. 212-13

(١٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 217-18; Amadi, *loc. cit.;* Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 80 (also in p. 86 but dated the following yeat); Abu'l Feda, p. 161; life of Qalawun in Reinaud, *Bibliothèque des Croisades*, ii, pp. 548-52.

تشارلز (أوف أنجو) ؛ وكان ابنه تشارلز الثانى (أوف نابولى) متورطا للغاية فى الحرب الصقلية بحيث لم يعبأ بالشرق الفرنجى ، وكانت الحرب تثير الإضطراب شيئا فشيئا فى أوربا الغربية كلها . وقد حان الوقت كى يكون للشرق الفرنجى حاكم قريب متاح؛ وبناء على نصيحة فرسان المستشفى أرسل هنرى الثانى مبعوثا من قبرص يدعى حوليان الأصفر إلى عكا للتفاوض على الإعتراف به ملكا . فوافق الكميون ، وتعاطف نظاما المستشفى والتيوتون ، ووافق نظام المعبد - بعد بعض التردد - على مؤازرته؛ غير أن أودو بوالشين رفض التخلى عن منصب وكيل المملكة ، وكانت الكتيبة الفرنسية المعالة بأموال ملك فرنسا تسانده.

وفى الرابع من يونية هبط هنرى إلى البر فى عكا حيث استقبله الكميون بمشاعر الغبطة ، وقد ارتأى السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية - المستشفى والمعبد والتيوتون - أن الحكمة تقضى تغيبهم عن الإستقبال قائلين إن طبيعة مناصبهم الدينية تجبرهم على التزام جانب الحياد . واتجه هنرى مباشرة إلى كنيسة الصليب المقدس حيث أعلن أنه سوف يقيم فى القلعة كما كان يفعل الملوك السابقون ؛ لكن أودو بوالشين رفض مغادرة القلعة التى وضع فيها حامية من الفرنسيين ، فذهب إليه أسقف فاماجوستا وراهب المعبد الدومينى فى عكا ليحاجونه ، لكنه رفض الإستماع إليهم وتقدم باعتراض قانونى . وأقام الملك مؤقتا فى قصر أمير صيدا المتوفى وأعلن ثلاث مرات إمكان رحيل الفرنسيين عن القلعة مع كافة أمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ؛ بينما أخذ المواطنون يسخطون على أودو وتهيّأوا لمهاجمته ، وعلى الأثر، نظر السادة الثلاثة العظام للأنظمة الدينية العسكرية وتحققوا من اتجاه رياح الأحداث ، ونصحوا أودو بتسليمهم القلعة ثم أعطوها لهنرى الذى دخلها فى موكب وقور يوم ٢٩ يونية[١٧].

١٢٨٦م : آخر أعياد الشرق الفرنجى

وبعد ذلك بستة أسابيع ، يوم ١٥ أغسطس ، قام رئيس الأساقفة بوناكورسو (أوف جلوريا) ، نائبا عن البطريق ، بتتويج هنرى فى صيدا . وبعد الإحتفال عاد البلاط إلى عكا حيث انقضى أسبوعان فى حفول تخللتها الألعاب ومسابقات الفروسية،

---

(١٧) *Gestes des Chiprois,* pp. 218-20; Amadi, pp. 216-17; Sanudo, *Liber Secretorum,* p. 229; Machaeras (ed. Dawkins), p. 42; Mas Latrie, *Documents,* iii, pp. 671-3.

وأقيمت فى قاعة فرسان المعبد الكبيرة عروض مسرحية شملت مشاهد من قصة المائدة المستديرة ظهر فيها لانسلوت وتريسترام وبالاميد ، وقدموا قصة ملكة فيمينى المأخوذة من قصة طروادة[١٨]. ولم يشهد الشرق الفرنجى طوال قرن مضى مثل ذلك الحفل البهيج الرائع ؛ وكان لجاذبية الملك الصبى الوسيم أثرها على الجميع ؛ إذ لم يكن معروفا بعد أنه مصاب بالصرع ؛ فكان من ورائه عمّاه فيليب وبلدوين الإبيليين ينصحانه بكل شئ ، وكانا يحظيان باحترام عميق . وبناء على نصيحتهما لم يمكث طويلا فى عكا ، وإنما عاد إلى قبرص بعد أسابيع قليلة تاركا بلدوين الإبلينيى وكيلا للمملكة ، وكان عماه يدركان جيدا أن إقامة الملك فى المملكة أمر لن يستسيغه العامة من الناس[١٩].

ولا بد أن السلطان فى القاهرة قد ابتسم لدى سماعه بمرح الفرنج الأرعن ؛ أما الخان المغولى فى تبريز فقد بدا له أن الوقت قد حان للقيام بعمل أكثر جدية . وكان أباغا قد مات فى أول ابريل ١٢٨٢م ، وخلفه أخوه تيكودار الذى عمّدوه فى طفولته ليدخل عقيدة النساطرة باسم نيكولاس ، غير أن ميوله كانت مع المسلمين . وما أن اعتلى العرش أو كاد حتى أعلن تحوله إلى الإسلام متخذا إسم أحمد ولقب السلطان ، وفى نفس الوقت أرسل إلى القاهرة لإبرام معاهدة صداقة مع قلاوون . وارتاع المغول المسنون فى بلاطه من سياسته ، فما كان منهم إلا أن شكوه فى الحال لدى الخان الأعظم قوبلاى . وبموافقته ، قام ابن أباغا - أرغون - بقيادة تمرد فى خراسان التى كان حاكمها . وهُزم بادئ الأمر، غير أن قواد أحمد تخلوا عنه ، وانتهى أمر السلطان أحمد بأن اغتيل فى مكيدة دُبّرت فى القصر يوم ١٠ أغسطس ١٢٨٤م. وعلى الفور اعتلى أرغون العرش[٢٠]. وكشأن أبيه، كان أرغون إنتقائيا من الناحية الدينية ، وكانت ميوله تتجه نحو البوذية، غير أن وزيره سعد الدولة كان يهوديا ، وأعز أصدقائه كان كاثوليكوس بطريق الأرمن النسطورى ، مار يابهالاه. وكان هذا الرجل المرموق من أصل تركي ، من الأونغوت ولد فى مقاطعة شانسى الصينية على ضفاف نهر هوانج هو . وقد جاء إلى الغرب مع ابن جلدته - رابّان ساوما - على أمل غاش فى أن

---

(١٨) (المترجم) المائدة المستديرة **Round Table** مائدة كبيرة مستديرة كان يجلس عليها الملك آرثر مع فرسانه، وقد اختارها مستديرة تجنبا للخلاف حول الصدارة أو الأسبقية

(١٩) *Gestes des Chiprois*, p. 221; *Annales de Terre Sainte*, p. 548; Amadi, p. 217.

(٢٠) Howorth, *History of the Mongols*, iii, pp. 295-310؛ ويشير المؤرخ أبو الفدا Abu'l Feda, p.160، ومؤرخون عرب آخرون إلى السلطان أحمد)أنظر المراجع التى يوردها Howorth(، لكن المؤرخين الغربيين يتجاهلونه . ويتناوله المؤرخ ابن العبرى Bar-Hebraeus, pp. 467-71 بإسهاب

يحج إلى القدس . وبينما كان فى العراق سنة ١٢٨١م خلا منصب البطريق الأرمنى وتم انتخابه ليشغله . وكان له نفوذ قوى على الخان الجديد الذى كان توافقا لإنقاذ أماكن العالم المسيحى المقدسة من أيدى المسلمين ؛ بيد أنه امتنع عن ذلك ما لم يساعده ملوك الغرب المسيحيون(٢١).

١٢٨٧م : سفارة رابّان ساوما

وفى سنة ١٢٨٥م كتب أرغون إلى البابا هونوريوس الرابع يقترح القيام بعمل مشترك ، لكنه لم يتلق أى رد. وبعد عامين قرر إرسال سفارة إلى الغرب واختار سفيرا له رابّان ساوما ، وهو صديق مار يابهالاه ؛ وانطلق السفير فى وقت مبكر من سنة ١٢٨٧م وكتب قصة بعثته بأسلوب ينبض بالحياة . وقد أبحر من طرابزون ووصل القسطنطينية فى عيد الفصح تقريبا ، واستقبله الامبراطور أندرونيكوس استقبالا ودودا ، وزار كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من المزارات العظيمة فى المدينة الإمبراطورية . وكان الامبراطور أندرونيكوس على علاقة ممتازة بالمغول وأبدى استعداده لمساعدتهم بقدر ما تسمح له موارده الآخذة فى التناقص . ومن القسطنطينية توجه رابّان ساوما إلى نابولى التى وصلها فى نهاية يونية. وبينما كان هناك شاهد معركة حربية فى المرفأ بين الأسطولين الأراجونى والنابوليتانى ؛ وكان ذلك شاهده الأول على أن أوروبا الغربية مشغولة بنزاعاتها . وواصل طريقه إلى روما حيث وجد أن البابا هونوريوس قد مات لتوه ، و لم يجتمع الكرادلة بعد لإنتخاب خليفته ؛ واستقبله الكرادلة الإثنا عشر المقيمون فى روما ، غير أنه وجدهم جهلاء لا نفع يرجى منهم ؛ ذلك أنهم لا يعرفون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول ، وصدمهم أن يعرفوا أنه يخدم عاهلا وثنيا . وعندما حاول الحديث فى السياسة ، بدأوا معه استجوابا حول عقيدته وانتقدوا أوجه انحرافها عن عقيدتهم ؛ وانتهى الأمر بأن كاد يفقد السيطرة على أعصابه . ذلك أنه قال إنه قد جاء ليعرب للبابا عن احتراماته ولكى يضع الخطط للمستقبل وليس لإجراء مناقشة حول العقيدة . وبعد أن أدى طقوس عبادته فى كنائس روما الرئيسية ذهب فى حبور إلى جنوا التى رحب أبناؤها به فى احتفال كبير ، إذ كان التحالف المغولى على جانب من الأهمية بالنسبة لهم ، وقد أنصتوا لمقترحات السفير بكل انتباههم.

---

(٢١) See Budge, *The Monks of Kublai Khan*, introduction, pp. 42-61, 72-5.

وفى نهاية أغسطس ذهب رابّان ساوما إلى فرنسا ووصل باريس فى وقت مبكر من شهر سبتمبر ، حيث كان فى استقباله كل ما كان يتمناه ؛ إذ رافقه حرس خاص فى دخوله العاصمة ، وفى مقابلته مع الملك الصغير فيليب الرابع ، حظى بالتشريفات الملكية ، ونهض الملك من على عرشه لتحيته وأولاه أذنا مصغية بمشاعر الاحترام العميق. وغادر القاعة ومعه وعد بأن يقود فيليب بنفسه - إذا شاء الرب - جيشا لإنقاذ القدس . وكان لباريس أثرها المبهج فى نفس السفير ، وخاصة جامعتها التى كانت آنذاك فى قمة مجدها فى العصر الوسيط . وصحبه الملك شخصيا فى جولة فى كنيسة القديس[٢٢] لمشاهدة الآثار المقدسة التى احتلبها القديس لويس من القسطنطينية. وعندما آذنت ساعة رحيل رابّان ساوما من باريس عين الملك سفيرا - جوبرت هيليفيل - بتعليمات لأن يعود معه إلى بلاط الخان للترتيب لمزيد من تفصيلات التحالف.

وكان المضيف التالى لرابان ساوما هو ملك انجلترا إدوراد الأول الذى كان آنذاك فى عاصمة ممتلكاته الفرنسية بوردو، وكان إدوارد قد حارب فى الشرق وطالما ناصر فكرة التحالف مع المغول ، ووجد رابّان ساوما عنده استجابة ذكية وعملية لمقترحاته وألقى فى روعه أن الملك هو أقدر رجال السياسة الذين قابلهم فى الغرب ، وقد أحس بالرضا عندما طلبوا منه إقامة قداس فى البلاط الإنجليزى . بيد أنه عندما حان الوقت لوضع جدول زمنى ، راوغ الملك ولم يستطع - كشأن ملك فرنسا فيليب - أن يحدد بدقة متى سيكون جاهزا للشروع فى حملة صليبية . وعاد رابّان ساوما إلى روما وفى صدره شئ يقلقه . ولقد توقف فى جنوا لقضاء أعياد الميلاد وتصادف أن قابل هناك الكاردينال جون (أوف توسكولوم) ممثل البابا وأخبره بما يعتمل فى صدره من مخاوف ؛ وكان المماليك يعدون العدة آنذاك للقضاء على آخر دويلة مسيحية فى سوريا، وليس هناك فى الغرب من يأخذ التهديد مأخذا جادا.

وفى شهر فبراير ١٢٨٨م اختير نيكولاس الرابع لمنصب البابا ؛ وكان من بين أول أعماله استقبال السفير المغولى ، وكانت العلاقة الشخصية بينهما رائعة ؛ فقد خاطب رابّان ساوما البابا على إنه الأسقف الأول للعالم المسيحى ، وأرسل نيكولاس بركاته إلى الكاثوليكوس أى بطريق الأرمن النسطورى واعترف به بطريقا للشرق . وعلى مدى أسبوع الآلام السابق لعيد الفصح كان السفير يقيم القداس أمام جميع

---

(٢٢) (المترجم) كنيسة القديس :Sainte-Chapelle كنيسة فى باريس بناها لويس التاسع سنة ١٢٤٥م لتضم "تاج الشوك" وغيره من "آثار الآلام" . وفى سنة ١٩٠٦ لم تعد كنيسة

الكرادلة ، وتناول من يدى البابا نفسه القربان المقدس؛ وغادر روما مع جوبرت هيليفيل فى أواخر ربيع ١٢٨٨م محملا بالهدايا ، الكثير منها آثار قيّمة ، للخان ولكاثوليكوس بطريق الأرمن النسطورى ، ومعه خطابات لهما ولأميرين مسيحين فى البلاط ، ولأسقف تبريز اليعقوبى دبنيس . بيد أن الغموض كان يكتنف الرسائل ؛ إذ لم يستطع البابا أن يعد بعمل محدد فى أي تاريخ محدد(٢٣).

وفى واقع الأمر ، كان لملوك الغرب ما يصرفهم عن الحملة الصليبية ، وهذا ما بدأ رابّان ساوما يدركه ؛ ذلك أن شبح تشارلز (أوف آنجو) المشؤوم اشترك مع ما كان للبابوية من رغبة فى الانتقام ، وحالا دون القيام بأية حملة صليبية . فقد أعطى البابا جزيرة صقلية للأنجفينيين ، والآن وقد انقلب الصقليون ضد الأنجفينيين ، فإن الحفاظ على المهابة اضطر البابوية وفرنسا إلى محاربة أقوى قوتين بحريتين فى البحر المتوسط - جنوا وأراجون - لإعادة الإستيلاء على الجزيرة ؛ ولم يكن نيكولاس ولا الملك فيليب على استعداد للتفكير فى حملة صليبية إلى أن تسوى المسألة الصقلية . ولقد أدرك إدوارد ملك انجلترا الخطر المحدق بالمسألة الصليبية ، وتمكن فى عام ١٢٨٦ من ترتيب هدنة بين فرنسا وأراجون ، غير أنها بقيت هدنة قلقة لاستمرار القتال فى إيطاليا وفى البحر . وفضلا عن ذلك ، كان لإدوارد مشاكله الخاصة به ؛ وربما راوده الحنين لإنقاذ الأراضى المقدسة ، لكنه وجد أن الأكثر إلحاحا غزو ويلز ومحاولة غزو اسكتلندا . وبعد موت ألكسندر الثالث ملك اسكتلندا في سنة ١٢٨٦م ، تحولت أنظاره باتجاه الشمال ، بينما كان يخطط للسيطرة على تلك المملكة المجاورة من خلال وريثتها الطفلة مرجريت ، عذراء النرويج ، ويجب على الشرق أن ينتظر . ولم يكن هناك أية قوة للرأى العام خليقة بأن تحث العواهل على المضى قدما ؛ وكما أظهرت تحقيقات البابا جريجورى العاشر ، كانت الروح الصليبية تحتضر(٢٤).

١٢٨٩م : الخان يحث حملة صليبية

ولم يكن أرغون ليصدق أن مسيحيي الغرب ، بكل تأكيداتهم الورعة المخلصة

---

(٢٣) يورد بودج Budge, op. cit. pp. 164-97 ترجمة كاملة لمقال رابان ساوما عن رحلاته فى أوروبا

(٢٤) للإطلاع على الصورة العامة للوضع أنظر Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 711-21، وللإطلاع على آثار الحرب الصقلية على السياسة العامة أنظر أيضا Lévis-Mirepoix, *Philippe Le Bel*, pp. 22 ff.، وانظر أيضا أعلاه الصفحات ٤٨٢ وما بعدها.

على حبهم للأراضى المقدسة ، يمكن أن يُظهروا مثل هذه اللامبالاة بمصيرها المحفوف بالأخطار . وقد رحب برابان ساوما لدى عودته إلى الوطن بأسمى آيات التشريف ، وأبدى مشاعر الود لجوبرت هيليفيل ؛ غير أنه كان يرغب فى معلومات أكثر دقة مما أعطاه له جوبرت . وبعد فصح سنة ١٢٨٩م مباشرة أرسل مبعوثا ثانيا من أبناء جنوا يدعى بوسكاريل (أوف جيسولف) كان قد استقر فى أراضى الخان منذ وقت طويل ، ومعه رسائل إلى البابا وملكى فرنسا وانجلترا . ولا يزال الخطاب المرسل إلى فيليب موجودا حتى يومنا هذا، وهو مكتوب باللغة المغولية باستخدام الخط الأوجورى. وباسم الخان العظيم قوبلاى، يعلن أرغون إلى ملك فرنسا أنه يقترح - بمساعدة الرب - الزحف على سوريا فى آخر شهر شتوى من سنة الفهد ، أى فى يناير ١٢٩١م ، والوصول إلى دمشق فى حوالى منتصف أول شهور الربيع ، فبراير . وإذا أرسل الملك قوات إضافية واستولى المغول على القدس ، فسوف تمنح القدس للملك ؛ لكنه إذا فشل فى التعاون ، فسوف تذهب الحملة سدى. وهناك حاشية مضافة إلى الخطاب كتبها بوسكاريل بالفرنسية تعرب فى مهارة عن مديح الملك الفرنس وتضيف أن أرغون سوف يُحضر معه ملوك جورجيا المسيحيين وعشرين أو ثلاثين ألف خيّال ، وسوف يضمن تزويد الغربيين بالمؤن الوفيرة . ولا بد أن هناك رسالة مماثلة قد أرسلت إلى الملك إدوارد - وهى مفقودة الآن - وقد أضاف إليها البابا مذكرة توصية وتشجيع . ولم يصلنا رد فيليب ملك فرنسا ، وإنما لدينا رد إدوارد ؛ وهو يهنئ الخان على مشروعه المسيحى ويثنى عليه بصورة ودودة . بيد أن الرد جاء خلوا من تاريخ محدد ومن وعد مبذول ، وإنما أحيل الخان إلى البابا الذى لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى القليل فى غيبة تعاون الملوك[٢٥]. وفى تلك الأثناء كتب فرنجى مجهول الإسم بحثا يظهر مدى سهولة نزول قوة من الغربيين إلى البر فى أياس بأرمينيا التى سيكون ملكها غاية فى التعاون ، ومنها تذهب القوة لتنضم إلى المغول . ولم يلتفت أحد إلى نصيحته[٢٦].

وعلى الرغم من الردود المثبّطة التى عاد بها بوسكاريل ، أرسله أرغون مرة أخرى مع اثنين من المغول المسيحيين هما أندرو زاغان وساهادين ؛ فذهبوا أولا إلى روما حيث استقبلهم البابا نيكولاس ، ثم انطلقا لزيارة ملك انجلترا وقد تسلحوا برسائل عاجلة من البابا الذى اعتبر على ما يبدو أن ملك انجلترا يحتمل أن يتحمس للحملة الصليبية أكثر

---

(٢٥) Chabot, *op. cit.* pp. 593-4, 604-16، وقد أورد نص الرسالتين

(٢٦) Kohler, "Deux Projets de Croisade en Terre Sainte", text and introduction, *Mélanges pour Servir a l'Histoire de l'Orient Latin*, pp. 516 ff..

من الملك فيليب، ووصلوا اليه فى وقت مبكر من سنة ١٢٩١م . غير أن عذراء النرويج كانت قد ماتت فى العام الفائت وغرق إدوارد فى الشؤون الأسكتلندية ، وعاد المبعوثون محزونين إلى روما حيث مكثوا طوال الصيف . وفى ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ، إذ تحدد مصير الشرق الفرنجى ، ومات الخان أرغون(٢٧).

ولو أن التحالف المغولى تحقق ونفّذه الغرب باخلاص ، فلعل بقاء الشرق الفرنجى كان قد طال أكثر من ذلك ، ولبات المماليك فى حالة من الشلل ، إن لم يُدمّروا ، ولبقيت خانية فارس قوة كبرى صديقة للمسيحيين وللغرب . ولكن الذى حدث ، أن بقيت الامبراطورية المملوكية لثلاثة قرون تقريبا ، وفى غضون أربع سنوات من موت أرغون اتسع المعسكر الإسلامى ليشمل مغول فارس . إن إهمال الغرب لم يتسبب فى خسارة القضية الفرنجية فحسب ، وإنما فى خسارة قضية تجمعات العالم المسيحي الشرقى البائسة. ويعزى إهمال الغرب هذا أساسا إلى الحرب الصقلية التى كانت من نتاج المرارة البابوية والإستعمار الفرنسى.

وفى تلك الأثناء تركت أوتريميه انطباعا متزايدا بالاستهانة المخلة؛ فلم يكد الملك هنرى يرجع إلى قبرص من احتفالات عكا حتى اندلعت حرب شعواء على الساحل السورى بين أبناء بيزا وأبناء جنوا . وفى ربيع سنة ١٢٨٧م أرسلت جنوا أسطولا إلى الشرق بقيادة الأدميرالين توماس سبينولا وأورلاندو أشيرى . وبينما كان سبينوزا فى زيارة للإسكندرية للحصول على حياد مسالم من السلطان ، كان أشيرى مبحرا أعلى وأسفل الساحل السورى يغرق أية سفينة أو يأسرها، إذا كانت لأبناء بيزا أو لفرنج من أصل بيزيّ . وكان تدخل فرسان المعبد هو وحده الذى حال دون بيع البحارة المأسورين كعبيد. ثم إن أشيرى انسحب إلى صور ليخطط للهجوم على مرفأ عكا وألحق البنادقة أسطولهم المحلى بأبناء بيزا لحماية المرفأ ؛ غير أن أشيرى انتزع انتصارا أمام حاجز الأمواج يوم ٣١ مايو ١٢٨٧م ، رغم أنه لم يتمكن من التوغل داخل الميناء . وعندما أبحر سبينولا شمالا من الإسكندرية ، تمكن أبناء جنوا من محاصرة الساحل كله . وفى نهاية الأمر تمكن السيدان الأعظمان لفرسان المعبد وفرسان المستشفى ، مع ممثلى النبلاء المحليين ، من اقناع أبناء جنوا بالإبحار إلى صور والسماح بحرية الملاحة(٢٨).

---

(٢٧) Chabot, *op. cit.* pp. 617-19.

(٢٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 220-30; *Annales Januenses*, p. 317

١٢٨٧م : سقوط اللاذقية

وتجنب ميناء واحد هذا الصراع ، لأنه كان يواجه فعلا مصيرا أسوأ . ذلك أن تجار حلب دأبوا على الشكوى إلى السلطان منذ بعض الوقت من أنه من غير المناسب أن يضطروا إلى إرسال بضائعهم إلى ميناء اللاذقية المسيحى ، وهو آخر بقايا إمارة أنطاكية . وسنحت الفرصة لقلاوون فى ذلك الربيع بعد أن دمّر زلزال أسوار المدينة يوم ٢٢ مارس تدميرا شديدا . وادعى السلطان بأن اللاذقية - باعتبارها جزءامن الإمارة القديمة - لا تغطيها الهدنة المعقودة مع طرابلس ، وأرسل قائده الأمير حسام الدين طورانطاى للإستيلاء على المدينة التى سقطت بسهولة فى يديه ؛ غير أن المدافعين عنها انسحبوا إلى القلعة الواقعة فى فتحة المرفأ ، والتى يصلها بالأرض الرئيسية طريق مرتفع. ووسّع طورانطاى الطريق المرتفع وسرعان ما أقنع الحامية بالإستسلام يوم ٢٠ إبريل ، و لم يحاول أحد أن يخف لنجدتها(٢٩).

و لم يعش سيدها السابق بوهمند السابع طويلا بعد ضياعها ؛ فقد مات أبتر يوم ١٩ أكتوبر ١٢٨٧م ، وورثته أخته لوتشيا التى سبق أن تزوجت الأدميرال الكبير السابق لتشارلز (أوف أنجو) المدعو نارجوت (أوف توسى)، وهى تعيش الآن فى أبوليا. و لم يرغب نبلاء ومواطنو طرابلس فى أن يستدعوا إلى الشرق أميرة توشك ألا تكون معروفة ، وترتبط بالأنجفتين سيئى السمعة ؛ فعرضوا الكونتية على السيدة المسنة الأميرة سيبيلا الأرمينية التى ما أن تلقت العرض حتى كتبت إلى صديقها القديم الأسقف بارثولوميو أسقف طرطوس تدعوه ليكون وكيلها عن المملكة . غير أن رسالتها وقعت فى أيدى نبلاء الكونتية الذين جاءوها وأخبروها أن الأسقف غير مقبول. ورفضت أن تتحول عن موقفها . وبعد مشهد عاصف انسحب النبلاء وتشاوروا مع كبار التجار ؛ وأعلنوا جميعا خلع الأسرة الحاكمة عن العرش وإنشاء كميون يصبح من الآن قدُما هو السلطة السيادية . وكان رئيس الكوميون هو بارثولوميو إمبرياكو الذى كان والده برتراند العدو اللدود لبوهمند السادس والذى سبق لبوهمند السابع أن أعدم أخوه وليم بصورة بشعة مع ابن عمه لورد جبيل.

---

(٢٩) *Gestes des Chiprois*, p. 230; Abu'l Feda, p. 162; Maqrisi in Reinaud, *op. cit.*pp.5612.

١٢٨٨م : لوتشيا ، كونتيسة طرابلس

وذهبت الأميرة المسنة إلى أخيها فى أرمينيا . وفى وقت مبكر من سنة ١٢٨٨م وصلت لوتشيا مع زوجها إلى عكا لكى تذهب إلى طرابلس لتسلم ميراثها. واستقبلها فرسان المستشفى استقبالا طيبا، فهم الحلفاء القدامى لأسرتها الحاكمة، وصحبوها حتى مدينة نيفين الحدودية للكونتية ؛ وهناك أصدرت بيانا بإعلان حقوقها . وكان رد الكميون اصدار قائمة طويلة تحوى المآسى والشكاوى من أعمال القسوة والاستبداد التى ارتكبها أخوها وأبوها وجدها ، وأعلنوا عن عدم رغبتهم فى هذه الأسرة الحاكمة، ووضعوا أنفسهم تحت حماية جمهورة جنوا ؛ وقد أرسل رسول إلى جنوا لإطلاع الدوج الجنوى الذى أرسل على الفور الأدميرال بنيتو زخاريا ومعه خمس سفن ليتفق مع الكوميون . وفى ذات الوقت توجّه السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، ومعهم وكيل البنادقة فى عكا ، إلى طرابلس للدفاع عن قضية الوريثة ؛ وكان دافع فرسان المستشفى فى ذلك هو الصداقة القديمة بين النظام وعائلتها ، وتمثل دافع فرسان المعبد وفرسان التيوتون فى أنهم يساندون البندقية ضد جنوا . بيد أنه قد قيل لهم إنه يجب على لوتشيا أن تعترف بالكوميون كحاكم للكونتية.

وعندما وصل الأدميرال زخاريا أصر على عقد معاهدة تعطى أبناء جنوا مزيدا من الشوارع فى طرابلس، والحق فى وجود قاض لقضاة المدينة ليحكم مستعمرتهم ، بينما ضمن حرية الكميون وامتيازاته . على أن مواطنى طرابلس بدأوا يرتابون فى نزاهة صديقتهم جنوا . أما بارثولوميو إمبرياكو ، الذى ضمن السيطرة على جبيل بتزويج ابنته آجنس من ابن عمه بطرس ابن جوى الثانى ، فقد اشتهى الكونتية لنفسه ؛ وأرسل رسالة إلى القاهرة ليعرف ما إذا كان قلاوون سوف يسانده إذا ما نادى بنفسه كونتا وبدأت الشكوك تحوم حول طموحاته ؛ وتحول الرأى العام فى طرابلس لمناصرة قضية لوتشيا . وكتب الكميون فى عكا رسالة لها ، دون إخطار أبناء جنوا ، يعرض قبولها إذا ما أكّدت وضع الكميون وامتيازاته . وفى حركة لا تخلو من فطنة أخبرت لوتشيا زخاريا الذى كان فى أياس يرتّب لعقد معاهدة تجارية مع ملك أرمينيا ، فسارع إلى عكا لمقابلتها . ووافقت على تأكيد امتيازات كل من الكميون وجنوا ، وبهذه الشروط تم الإعتراف بها كونتيسة طرابلس(٣٠).

---

(٣٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 231-4; Amadi, pp. 217-18; Sanudo, p. 229; *Annales Janvenses*, pp.322-6.

ولم تلق تلك الترتيبات استحسانا من البنادقة ولا من بارثولوميو إمبرياكو الذى كان على اتصال فعلى بقلاوون . ووصل إلى القاهرة اثنان من الفرنج يلتمسان تدخل السلطان ، وليس فى الإمكان الآن معرفة ما إذا كان بارثولوميو هو الذى أرسلهما، أم بنادقة عكا ؛ وكان كاتم أسرار السيد الأعظم لفرسان المعبد يعرف أسماء المبعوثين لكنه فضّل عدم الكشف عنهما . وقد حذرا السلطان من أنه إذا سيطرت جنوا على طرابلس فسوف تهيمن على الشرق كله ولسوف تغدو تجارة الإسكندرية تحت رحمتها(٣١).

وأبهج السلطان أن توجّه اليه الدعوة للتدخل ؛ إذ كانت تلك الدعوة ذريعة لخرق الهدنة مع طرابلس . وفى فبراير ١٢٨٩م نقل الجيش المصرى كله إلى سوريا دون أن يكشف عن الهدف . غير أن أحد أمرائه ، بدرالدين بكتاش الفخرى، كان مأجورا لفرسان المعبد ، فأرسل كلمة إلى السيد الأعظم ، وليم (أوف بوجو) أن هدف قلاوون هو طرابلس . وسارع وليم يحذر المدينة ويناشدها الإتحاد وترتيب دفاعاتها . ولم يصدقه أحد ، إذ كان المشهور عن وليم أنه مغرم بالمكائد السياسية ، وقيل إنه اختلق تلك القصة لمصلحته الخاصة آملا أن توجّه اليه الدعوة للوساطة ولم يتغير شئ وواصلت الأطراف نزاعاتها حتى أواخر مارس تقريبا عندما زحف الجيش الضخم للسلطان مخترقا البقاع وتجمع أمام أسوار المدينة(٣٢).

١٢٨٩م : سقوط طرابلس

وأخيرا ، أخذ التهديد مأخذا الجد. ففى داخل المدينة منح الكميون والنبلاء على السواء الكونتيسة لوتشيا السلطة العليا . وأرسل فرسان المعبد قوة شمالا بقيادة مارشالهم، جيوفرى (أوف فينداك) ؛ وأرسل فرسان المستشفى قوة بقيادة مارشالهم ، ماثيو (أوف كليرمونت) . وسارت الكتيبة الفرنسية شمالا من عكا بقيادة جون (أوف جريللى) . وكان فى الميناء أربعة غلايين جنوية وغليونان بندقيان ، فضلا عن قوارب أصغر بعضها لأبناء بيزا . ومن قبرص أرسل الملك هنرى أخاه الأصغر أماريك الذى كان قد عيّنه لتوه كونستابلا للقدس ، ومعه صحبة من الفرسان وأربعة غلايين . وفى

---

(٣١) . *Gestes des Chiprois*, p. 234 ويقول أبو المحاسن إن بارثولوميو حذر قلاوون Abu'l Muhasin in Reinaud, op. cit. p. 561

(٣٢) . *Gestes des Chiprois*, pp. 234-5 وكان الفخرى يلقب (بأمير السلاح)، ومن هنا يطلق عليه صاحب تاريخ *Gestes* صلاح . انظر أبو الفدا. Abu'l Feda, p. 159

نفس الوقت هرب الكثير من المواطنين غير المقاتلين عابرين البحر إلى قبرص.

كانت طرابلس العصور الوسطى تقع علي البحر ، على شبه الجزيرة الجدباء التي تقف عليها الآن ضاحية "الميناء" العصرية، وقد فصلت عن قلعة جبل الحاج التى لم تبذل محاولة للدفاع عنها على ما يبدو . أما المدينة نفسها فقد كانت دفاعاتها رائعة . وبرغم سيطرة المسيحيين على البحر ، إلا أن التفوق العددى الشاسع للمسلمين وضخامة آلات حصارهم أثبت عدم إمكان المقاومة . وعندما دمّر القصف برج الأسقف الواقع فى الركن الجنوبى الشرقى من الأسوار الأرضية، وبرج المستشفى الواقع بينه وبين البحر ، قرر البنادقة استحالة الدفاع أكثر من ذلك ، وحمّلوا سفنهم على عجل بكل ممتلكاتهم وأبحروا خارجين من المرفأ . وتسبب فرارهم فى شعور أبناء جنوا بالخطر ، وقد ارتاب قائدهم زاخاريا فى أن البنادقة يحاولون سرقة بعض قواربه ؛ فجمع هو الآخر رجاله وتركوا المدينة بعدما أخذوا معهم كل ما أمكنهم أخذه . وتسبب رحيلهم فى بث الفوضى بين المسيحيين ؛ وفى ذلك الصباح ، ٢٦ إبريل ١٢٨٩م ، أمر السلطان بهجوم عام ؛ واحتشد المماليك بحشود كثيفة على السور الجنوبى الشرقى المنهار داخلين المدينة.

وفى المرفأ، كافح المواطنون الذين أصابهم الذعر للوصول إلى القوارب ؛ وتمكنت الكونتيسة لوتشيا من الإبحار بأمان إلى قبرص ومعها أماريك القبرصي ومارشالا النظامين الدينيين العسكريين ، لكن قائد فرسان المعبد لقى حتفه فى القتال وكذلك بارثولوميو امبرياكو . وكان المسلمون يقتلون على الفور أي رجل يجدونه فى طريقهم، أما النساء والأطفال فكانوا يؤخذون رقيقا . وتمكن بعض اللاجئين من العبور فى قوارب تجديف إلى جزيرة سانت توماس الصغيرة الواقعة أمام اللسان الأرضى مباشرة ، لكن خيالة المماليك تقدموا فى المياه الضحلة وسبحوا اليها ، حيث تلت مذابح مماثلة ، وعندما حاول المؤرخ أبوالفدا الحموى زيارة الجزيرة بعد أيام قلائل صدته الرائحة النتنة المنبعثة من الجثث المتحللة[٣٣].

وعندما انتهت المذبحة والنهب ، دمر قلاوون المدينة وسواها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج استعادتها بما لهم من سيطرة على البحار . وأمر بتشييد مدينة جديدة فى

---

(٣٣) *Gestes des Chiprois*, pp. 235-7; Amadi, p. 218; *Annales Januenses, loc. cit.*; Auria, *Annales in M.G.H.* Scriptores, vol. xviii, p. 324; Maqrisi, *Sultans*, II, i, pp.101-3; Abul Feda, pp. 163-4 .

سفح حبل الحاج تبعد عن الشاطئ أميال قليلة[٣٤].

وذهب بعض جنود المماليك للإستيلاء على البطرون ونيفين . ولم تكن هناك أية محاولة للدفاع عنهما . وعرض بطرس امبرياكو ، لورد جبيل ، خضوعه للسلطان ، وسُمح له بالإحتفاظ بمدينته تحت الإشراف الصارم لعشر سنوات أخرى تقريبا[٣٥].

وقع سقوط طرابلس من أهالى عكا وقع الصدمة المريرة . وكانوا فى السنوات القليلة الأخيرة قد أقنعوا أنفسهم بأنه طالما أنهم ليسوا عدوانيين ، فلن يعترض السلطان حقيقة على استمرار بقاء المدن المسيحية على طول الساحل . وربما يهاجم قلاعهم التى يتمثل فيها خطر كامن عليه . وربما يتبرم من الأنظمة الدينية العسكرية التى كان عملها الحرب من أجل عقيدتها ، حتى وإن كان المسلمون والمسيحيون على السواء يتعاملون مع فرسان المعبد على أنهم أصحاب مصارف . غير أن تجار الموانى وأصحاب الحوانيت لم يطلبوا سوى السلام ، ومن الواضح الجلى أن نبلاء أوتريميه من عشاق الرفاهية لم تعد لديهم الرغبة فى حملة صليبية وما يصاحبها من حرج . لقد كانت عكا وأخواتها الموانى أماكن ملائمة لتجارة المسلمين وكذلك المسيحيين ؛ وقد أظهر مواطنوها حسن نواياهم برفضهم للتحالف المغولى . أما هذا الهجوم على طرابلس الذي لم يروا له ما يستفزه فقد أظهر لهم مدى زيف حساباتهم . والآن أجبروا على التيقن من أن هناك مصيرا مماثلا ينتظر عكا.

وبعد سقوط طرابلس بثلاثة أيام وصل الملك هنرى إلى عكا فوجد فيها مبعوثا من قلاوون ، يحمل شكوى السلطان من أن الملك هنرى والأنظمة الدينية العسكرية قد انتهكوا الهدنة المعقودة معه بذهابهم لمد يد العون إلى طرابلس . ورد هنرى بأن الهدنة تنطبق على مملكة القدس ؛ فإذا كانت طرابلس مشمولة بهذه الهدنة ، فلم يكن ينبغى للسلطان أن يعتدى عليها. وقبل المسلمون هذا العذر ، وتم تجديد الهدنة لتغطى مملكتى القدس وقبرص لفترة أخرى قدرها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وسارع ملك أرمينيا وسيدة صور يحذوان حذو الملك هنرى[٣٦]، على أن هنرى لم يعد الآن يثق فى كلمة السلطان ؛ وليس بمقدوره مناشدة المغول ، فيقينا سيعتبر السلطان ذلك خرقا

(٣٤) *Gestes des Chiprois*, pp. 237-8

(٣٥) Maqrisi, *Sultans*, II, i, pp. 103-4. Sanudo, p. 230. See Grousset, *op. cit.* p.745 n.3.

(٣٦) *Gestes des Chiprois*, p. 238; Amadi, *loc. cit.* See Stevenson, *Crusaders in the East*, p.351 n.3..

للهدنة . غير أنه قبل أن يعود إلى قبرص فى سبتمبر ، وقد ترك أخاه كوكيل للمملكة فى عكا ، أرسل جون (أوف جريللى) إلى أوروبا لكى يصور لعواهل أوروبا مدى ما وصله الوضع من يأس(٣٧).

١٢٩٠م :صليبيون من شمال إيطاليا

ولقد صُدم عواهل أوروبا كذلك بمصير طرابلس ؛ غير أن المسألة الصقلية كانت ما تزال تستحوذ على أذهان الجميع فيما عدا إدوارد ملك انجلترا الذى كانت مشكلته الإسكتلندية قد بلغت حد الأزمة . أما البابا نيوكولاس الرابع فقد استقبل جون (أوف جريللى) بمشاعر العطف المخلصة ، وكتب فى حرارة الأسى إلى ملوك الغرب يستعطفهم لإرسال المساعدة . غير أنه كان هو نفسه كان متورطا فى المسألة الصقلية ؛ ولم يكن بوسعه إلا كتابة الرسائل وحث رحال الدين على التبشير بحملة صليبية . وكان الأمراء والنوردات الذين ناشدهم البابا يفضلون الانتظار إلى أن يبادر الملك إدوارد بحركة ما، إذ أنه برغم كل شئ قد أخذ الصليب ولديه بعض الخبرة بالشرق(٣٨). ولكن إدوارد لم يتحرك . أما جمهورية جنوا ، التى مُنيت بخسارة فادحة لضياع طرابلس ، فقد انتقمت بالإستيلاء على سفينة تجارية مصرية ضخمة كانت مبحرة قبالة الشاطئ جنوب الأناضول، وبالإغارة على ميناء تينه فى الدلتا العارى من الحماية ؛ وعندما أغلق قلاوون الإسكندرية فى وجه أبناء جنوا سارعوا اليه يطلبون السلام . وعندما وصل مبعوثوهم إلى القاهرة ، وجدوا سفراء من الامبراطور اليونانى والامبراطور الألمانى منتظرين بباب السلطان(٣٩).

ولم تجد مناشدات البابا صدى إلا فى شمالى ايطاليا ؛ ولم تأت الإستجابة من البارونات ، وإنما جاءت من السوقة من الفلاحين والعاطلين من سكان المدن الصغيرة فى لومبارديا وتوسكانيا ، التواقين إلى مغامرة قد تعود عليهم ببعض الفضل والخلاص الروحى وما يحتمل من أسلاب. ولم يكن البابا سعيدا تماما بذلك ، لكنه قَبِل مساعدتهم ووضعهم تحت إمرة أسقف طرابلس الذى سبق أن جاء إلى روما لاجئا . وكان فى

---

(٣٧) Raynaldus, 1288, p. 43, 1289, p. 72 .

(٣٨) Röhricht, "derniers Jours", p. 529. For Edward's attitude, see Powicke, *op. cit.* pp.729 ff

(٣٩) Heyd, *op. cit.* i, pp. 416-18

مأمول البابا أنهم فلن يفعلوا شيئا يتصف بالحمق بعدما أصبحوا تحت يد كابحة لأسقف يعرف الشرق . أما البنادقة ، الذين لم يأسوا لرؤية جنوا وهى تفقد قاعدتها فى طرابلس، والذين شعروا بخلاف ذلك حيال عكا التى كانت لهم فيها الهيمنة التجارية ، فقد قدموا عشرين غليونا تحت قيادة إبن الدوج - نيكولاس تيبولو - ويساعده ، بناء على طلب البابا ، جون (أوف جريللى) وروكس (أوف سالى) . وكان البابا قد عهد إلى كل فرد من هؤلاء القادة الثلاثة بألف قطعة ذهبية من خزانة البابوية ، بيد أنهم كانوا يفتقدون المؤن . وعندما أبحر الأسطول قاصدا الشرق انضم إليه خمسة غلايين أرسلها الملك جيمس ملك أراجون الذى كان تواقا لتقديم المساعدة على الرغم من أنه كان فى حرب مع البابوية والبندقية[٤٠].

أعادت الهدنة بين الملك هنرى والسلطان بعض الثقة إلى أهل عكا ؛ فعادت التجارة سيرتها الأولى . وفى صيف ١٢٩٠م بدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم مرة أخرى إلى الساحل ؛ وكان الحصاد وفيرا فى الجليل فى ذلك العام ، واحتشد الفلاحون المسلمون بمحاصيلهم فى أسواق عكا . ولم يسبق للمدينة قط أن شهدت مثل تلك الحيوية والنشاط . وفى أغسطس ، وفى قمة هذا الإزدهار ، وصل الصليبيون الإيطاليون. ومن لحظة نزولهم إلى اليابسة أثبتوا أنهم مثار حرج كبير للسلطات ؛ إذ كانوا فوضويين ، سكارى ، فاسقين ، ولم يستطع قادتهم السيطرة عليهم لعجزهم عن دفع رواتبهم بانتظام . ولأنهم قد جاءوا لمحاربة الكفرة ، فقد بدأوا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين المسالمين . وفى أحد الأيام فى أواخر أغسطس اندلعت أعمال شغب؛ قال البعض إنها بدأت فى حانة شراب حيث يتواجد المسيحيون والمسلمون ؛ وقال البعض الآخر إن تاجرا مسلما أغوى سيدة مسيحية ، واستنجد زوجها بجيرانه للإنتقام . وفجأة اندفع غوغاء الصليبيين فى الشوارع وفى الضواحى يقتلون كل مسلم يقابلونه ، ولأنهم قرروا أن كل من له لحية فهو مسلم ، فقد هلك أيضا الكثير من المسيحيين المحليين ؛ وارتاع بارونات المدينة وفرسان الأنظمة الدينية العسكرية ؛ وكل ما استطاعوه هو انقاذ القليل من المسلمين وأخذهم إلى القلعة حيث الأمان ، والقبض على القليل ممن بدا أنهم زعماء الشغب[٤١].

---

(٤٠) *Gestes des Choprois*, p. 238; Dandolo, p. 402; Sanudo, p. 229; Amadi, pp. 218-19

(٤١) *Gestes des Chiprois, loc. cit.;* Amadi, p. 219; Florio Bustron, p. 118; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 109.

وسرعان ما وصلت أنباء المذبحة الىالسلطان الذى استشاط غضبا بحق ، وقرر أن الوقت قد حان ليقتلع الفرنج من التربة السورية . وسارعت حكومة عكا بارسال اعتذاراتها وتأسفها ، غير أن السلطان أرسل مبعوثيه إلى عكا وأصر على تسليمه المذنبين لمعاقبتهم . وعقد الكونستابل أماريك مجلسا نهض فيه السيد الأعظم لفرسان المعبد ونصح بتسليم جميع المجرمين المسيحيين الموجودين آنذاك في سجون عكا إلى ممثلى السلطان على أنهم مرتكبوا الجريمة . غير أن الرأى العام لم يكن يسمح بإرسال مسيحيين إلى حتفهم على أيدى الكفرة . ولم يتلق سفراء السلطان أية ترضية ، وبدلا من ذلك كانت هناك محاولة فاترة لإثبات أن بعض تجار المسلمين مذنبون بإشعال الشغب وبذا يتعين أن يُلقى باللائمة عليهم[٤٢].

١٢٩٠م : موت قلاوون

وكان رد قلاوون هو اللجوء إلى السلاح ؛ وحدثت مناقشة أجراها فقهاؤه، جعلته يشعر بالرضى لتوفر المبرر القانونى الذي يسمح له بخرق الهدنه ؛ وأبقى مخططاته طي الكتمان . وبينما كان يعبئ الجيش المصرى ، صدرت الأوامر للجيش السورى بقيادة ركن الدين طوقسو واليه على دمشق بالمسير إلى ساحل فلسطين بالقرب من قيصرية وإعداد آلات الحصار . وكان قد أذاع أن هدف الحملة هو أفريقيا[٤٣]. ولكن مرة أخرى حذّر الأمير الفخرى وليم (أوف بوجو) وفرسان المعبد من نوايا السلطان الحقيقية . ونقل وليم التحذير ، غير أنه كما حدث فى طرابلس لم يكن هناك من يصدقه . فأرسل من تلقاء نفسه مبعوثا إلى القاهرة . فعرض السلطان أن يبقى على المدينة لقاء مبلغ من السيكوينات[٤٤] يعادل عدد السكان . على أنه عندما وضع د العرض أمام المحكمة العليا رفضته باستهزاء ، واتّهم وليم بالخيانة وأهانه الجمع بينما كان يغادر القاعة[٤٥].

---

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 239-40; Amadi, *loc. cit.*

(٤٣) *Gestes des Chiprois*, p. 240; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 109; Muhi ad-Din, in Reynaud, *op.cit.* pp.567-8.

(٤٤) (المترجم) السكوين sequin عملة نقدية ذهبية قديمة كانت تستعمل فى ايطاليا وتركيا

(٤٥) *Gestes des Chiprois, loc. cit.;* Ludolf of Suchem (trans. Stewart)< P.P.T.S., vol. xii, p.56.

وازداد رضى أهالى عكا عن أنفسهم فى نهاية العام عندما وصلتهم الانباء من القاهرة بموت قلاوون . وكان قد كف تماما عن اخفاء نواياه فى الزحف على عكا ؛ ففى رسالته لملك أرمينا ذكر قسمه بألا يترك مسيحيا واحدا على قيد الحياة فى المدينة . وفى ٤ نوفمبر ١٢٩٠م ، انطلق من القاهرة على رأس جيشه . لكنه ما أن شرع فى المسير حتى أصابه المرض ، وبعد ستة أيام توفى فى مرحة التين على مجرد خمسة أميال من عاصمته . وبينما هو على فراش الموت أخذ من ابنه الأشرف خليل وعدا بمواصلة الحملة . ولقد كان سلطانا عظيما ، يضاهى بيبرس فى غلظته وقسوته ، وإنما يتميز عنه بإحساس رفيع بالإخلاص والشرف[٤٦].

وعلى غير شاكلة بيبرس ، ترك قلاوون إبنا جديرا بأن يخلفه . وأعقب موته مكيدة القصر المعتادة ؛ بيد أن الأشرف لم يكن ليؤخذ على غرة ، وتمكن من القبض على زعيم المكيدة الأمير طورونطاى ، واستطاع ترسيخ تربعه على العرش.والآن ، كان الوقت متأخرا جدا للزحف على عكا ، وتأجلت الحملة إلى الربيع[٤٧].

وانتهزت حكومة عكا هذه المهلة السلمية وأرسلت سفارة أخرى إلى القاهرة قادها أحد وجهاء عكا ، فيليب مينبوف ، الذى كان دارسا مثقفا للعلوم العربية ؛ ومعه فارس من فرسان المعبد يدعى بارثولوميو بيزان ، وفارس من فرسان المستشفى ، وكاتم أسرار يدعى جورج . ورفض السلطان مقابلتهم ، وألقى بهم فى غيابة السجن حيث لم يبقوا طويلا على قيد الحياة[٤٨].

شرع جيش المسلمين فى التحرك فى مارس ١٢٩١م ، وكان الأشرف قد اتخذ جوانب الحيطة فى ترتيباته واستكملها؛ إذ جمع آلات الحصار من سائر أنحاء السلطنة . وكان الجيش محمّلا بكثير الكثير من حماة حتى أنه استغرق شهرا للإرتحال من الكرك - حيث توقف لأخذ منجنيق ضخم يسمى المنصور - حتى عكا جنوبا فى جو ممطر ملئ بالطمى ؛ فضلا عن مائة آلة حصار أخرى صُنعت فى دمشق ومصر . وكان هناك منجنيق ضخم آخر يسمى الغاضب ، ومناجق أخرى أصغر ذات كفاءة خاصة ، تعرف باسم الثيران السوداء . وفى ٦ مارس غادر الأشرف القاهرة قاصدا دمشق حيث ترك

---

(٤٦) Maqrisi, *Sultans,* II, i, pp.110-12; Abu'l Feda, p. 163; *Gestes des Chiprois,* pp. 240-1; Amadi, p.219.

(٤٧) Abu'l Feda, *loc. cit.; Gestes des Chiprois,* p. 241

(٤٨) *Gestes des Chiprois,* pp. 241-3; Maqrisi, *Sultans,* II, i, p.120 .

الحريم . وفى ٥ إبريل وصل أمام عكا بكل قواته الضخمة . وتحدث البعض عن ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل . ومهما قد تبدو هذه الأعداد مبالغا فيها فقد جاوز جيشه بكثير ما كان باستطاعة المسيحيين حشده(٤٩).

١٢٩١م : المدافعون عن عكا

تسببت أنباء استعدادات السلطان فى أن أرغمت أهل عكا أخيرا على التحقق من ورطتهم . وأُرسلت أثناء الشتاء استنجادات عاجلة إلى أوروبا ، ولم يكن لها سوى نتائج طفيفة للغاية ؛ إذ كان قد وصل قليل من الفرسان المتفرقين خلال الخريف السابق، من بينهم أوتو (أوف جراندسون) السويسرى ومعه بعض الإنجليز الذين أرسلهم إدوارد الأول ؛ وجمع فرسان المعبد والمستشفى جميع رجالهم ؛ أما السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، بوركارد (أوف شواندن) ، فقد تسبب فى توليد انطباع سيئ باختياره التخلى عن منصبه فى تلك اللحظة بعينها ؛ غير أن خليفته ، كونراد (أوف فيوشتوانجن) ، استدعى عددا من رفاقه الفرسان من أوروبا . وأرسل هنرى ملك قبرص جنودا قبرصيين وأخاه أماليك لقيادة الدفاع ، ووعد بالمجئ بنفسه مع التعزيزات. وتم قيد كل مواطن قادر بدنيا من مواطني عكا ليلعب دوره(٥٠). على أنه حتى مع ذلك كانت الأعداد قليلة؛ إذ كان عدد سكان عكا المدنيين جميعا ثلاثين أو أربعين ألف نسمة ، بالإضافة إلى ما يقل عن ألف فارس أو مساعد فارس بجواد ، وحوالى أربعة عشر ألف جندى مشاة ، بما في ذلك الحجاج الإيطاليون . وكانت تحصينات المدينة فى حالة جيدة قد تمت تقويتها مؤخرا بأوامر من الملك هنرى . وقد أصبح هناك الآن خط أسوار مزدوج لحماية شبه الجزيرة التى تقع عليها المدينة وضاحيتها الشمالية مونتموسارت ، وسور واحد يفصل مونتموسارت عن عكا ، وتقع القلعة على ذلك السور الأخير بالقرب من نقطة اتصاله بالسور المزدوج . وكان هناك اثنا عشر برجا على مسافات غير منتظمة من الأسوار الخارجية والداخلية ، وقد شُيد الكثير منها على نفقة بعض الحجاج البارزين ، مثل البرج الإنجليزى الذى بناه إدوارد الأول ، وبرج كونتيسة بلوا التالى له . وفى الزاوية التى تنحرف فيها الأسوار من المضى شمالا من خليج عكا لكى تمضى غربا ناحية البحر ، قام برج ضخم على السور الخارجي بناه

---

(٤٩) Al-Jazari (ed. Sauvaget), pp. 4-5; Maqrisi, *loc. cit.*; Abu'l Feda, p. 163

(٥٠) hricht, *Geschichte*, pp. 1008 ff. *Gestes des Chiprois*, p. 241. See also R

حديثا الملك هنرى الثانى فى مواجهة البرج الملعون على السور الداخلى . وأمام برج الملك هنرى كان هناك مدخل ضخم بناه الملك هيو[٥١]. وكانت هذه الزاوية بكاملها أضعف جزء في الدفاع ؛ ولذلك عُهد بها إلى جنود الملك تحت إمرة أخيه أمالريك . وعلى ميمنته تمركز الفرسان الفرنسيون والإنجليز بقيادة جون (أوف جريللى) وأوتو (أوف جراندسون) ثم الجنود البنادقة وأبناء بيزا وجنود كميون عكا . وعلى ميسرة أمالريك كان هناك أولا فرسان المستشفى ثم فرسان المعبد ، كلّ بقيادة سيده الأعظم ، وذلك لتغطية أسوار مونتموسارت، أما فرسان التيوتون ، فكانوا بمثابة تعزيز للكتائب الملكية عند البرج الملعون . أما فى جانب المسلمين ، فقد تمركز جيش حماة - وكان معه المؤرخ أبو الفدا بنفسه - ناحية البحر فى مواجهة فرسان المعبد ؛ وتمركز جيش دمشق فى مواجهة فرسان المستشفى ؛ وكان الجيش المصرى فى موضع يمتد من نهاية سور مونتموسارت ويلتف إلى خليج عكا ، ونُصبت خيمة السلطان على مسافة غير بعيدة من الشاطئ ، فى مواجهة برج المندوب البابوى[٥٢].

١٢٩١م : إتّهامات بالجبن

وفيما بعد ، عندما ضاع كل شئ ، توهجت جذوة الغضب والحزن فأشعلت التتاهم وتبادل السباب . فراح المؤرخون المسيحيون ، بلا ضابط ، يقذفون الحامية باتهامات الجبن[٥٣] لكن حقيقة الأمر أن المدافعين عن أوتريميه أظهروا فى تلك اللحظة

(٥١) أنظر أعلاه ص ٥٩، والخريطة ص ٤٥١ . وانظر أيضا Rey, *Colonies Franques*, pp.451 ff. وكانت كونتيسة بلوا المسنة أليس (أوف بريتانى) قد زارت عكا سنة ١٢٨٧م وماتت هناك (*Annales de Terre Sainte*, pp.459-60; Sanudo,p. 229).

(٥٢) Abu'l Feda, p. 164; *Gestes des Chiprois*, p. 243

(٥٣) التواريخ الفرنجية الرئيسية التى تناولت سقوط عكا هى:

١- *Gestes des Chiprois* كتبه المدعو (فارس معبد صور) Templar of Tyre الذى كان كاتم أسرار السيد الأعظم للنظام ، وكان شاهد عيان . ورغم إعجابه بالسيد الأعظم ، لم يكن تابعا لنظام فرسان المعبد . وكان على وجه العموم منصفا (انظر أدناه ص ٥٥٠).

٢- Marino Sanudo, the elder، ولم يكن حاضرا وإنما بنى تاريخه على *Gestes*.

٣- *De Excidio Urbis Acconis* (in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol.v) وهو عمل لمجهول كتبه أحد المعاصرين ولكنه لم يكن شاهد عيان ، وأطلق لنفسه العنان فى اتهاماته بالجبن والخيانة.

٤- Thaddeus of Naples, *Hystoria de Desolacione Civitatis Acconensis* (ed. Riant)،

الحاسمة من لحظات مصيرهم شجاعة واخلاصا طوتهما طيا مؤسفا كتابات السنوات الحديثة. وربما حدث أثناء تحميل السفن بالنساء والمسنين والأطفال لإرسالهم إلى قبرص قبل بداية الحصار أن هرب معهم بعض الرجال من القادرين على الحرب. وربما أظهر بعض التجار الإيطاليين مشاعر الأنانية المرتاعة حول ممتلكاتهم . ولم تشترك جنوا فى الصراع فى الواقع ، إذ كان قد استبعدها البنادقة فعلا من عكا ، وعقدت معاهدتها مع السلطان . غير أن البنادقة وأبناء بيزا حاربوا ببسالة وكان أبناء بيزا مسؤولين عن تشييد منجنيق ضخم كان أكثر آلات المسيحيين كفاءة.

عكا سنة ١٢٩١م

بدأ الحصار فى السادس من ابريل . ويوما بعد يوم راحت مناحق السلطان كبيرها وصغيرها تقذف أحجارها أو حاوياتها الفخارية وبها مزيج قابل للإنفجار ، فتصطدم بأسوار المدينة ، أو تجاوزها إلى داخل المدينة ، وراح رماة سهام السلطان يصبون سُحب سهامهم على المدافعين فى أروقة الأبراج وشرفاتها ، بينما راح مهنسوه يعدون العدة لتلغيم الدفاعات الصعبة ، وقيل إنه كان لديه ألف مهندس أمام كل برج . وكان المسيحيون لا يزالون مسيطرين على البحر ، وكانت مؤن الطعام تصل بانتظام من قبرص ؛ غير أنهم كانوا يفتقرون إلى التسليح ، وبدأو يتحققون من عدم وجود ما يكفى من الرجال لوضعهم على الأسوار لمجابهة الأعداء بأعدادهم المهولة ؛ غير أنه لم يكن هناك حديث عن الإستسلام . وثبّتوا فى إحدى سُفنهم منجنيقا تسبب فى إحداث أضرار جسيمة فى معسكر السلطان . وفى ليلة ١٥ إبريل ، والقمر ساطع فى السماء ، خرج فرسان المعبد ، يساعدهم أوتو (أوف جراندسون) ، واندفعوا فى هجوم مباشر على معسكر رجال حماة ؛ وبوغت المسلمون ؛ غير أن الكثير من فرسان المعبد تعثروا فى حبال الخيام فى غُبْشة الليل وسقطوا وأسروا ، وأُجبر الآخرون على أعقابهم إلى داخل المدينة بخسائر فادحة . وبعد ليال قليلة قام فرسان المستشفى بخروج آخر فى ظلام تام ، كان مآله الفشل الزريع، إذ أشعل المسلمون على الفوز مشاعلهم ونيرانهم. وبعد

وهو عمل مسيء بنفس القدر .

وهناك تاريخ كتبه راهب يوناني يدعى Arseniud ، استشهد به Bartholomew of Neocastro ، نشره Paladino فى Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores,* new edition, XIII, iii, p.132، وهو يتهم الفرنج بالفسوق والخمول وليس بالجبن . وتقول كل المصادر تقريبا كلاما طيبا عن الملك هنرى

هذا الخروج الثانى تقرر أن ذلك باهظ التكلفة فى القوة البشرية . على أن التخلى عن المعارك الهجومية أضر بمعنويات المسيحيين ، وتفشى بينهم الإحساس بانقطاع الأمل . لقد كان الوقت فى جانب المسلمين.

وفى الرابع من مايو ، أى بعد حوالى شهر من بدء الحصار ، وصل الملك هنرى من قبرص ومعه ما استطاع جمعه من جنود بلغ عددهم مائة خيال وألفي راجل فى أربعين سفينة ؛ وكان برفقته رئيس أساقفة نيقوسيا ، جون توركو (أوف أنكونا)، وربما يعزى تأخره فى المجئ إلى المرض . واستُقبل بمشاعر البهجة ، وما أن هبط إلى البر حتى تسلم القيادة ونفث قوة فى الدفاع . غير أنه سرعان ما اتضح جليا أن تلك التعزيزات كانت غاية فى الضآلة ، فلم تحدث فرقا فى المحصّلة العامة.

١٢٩١م : آخر محاولة للتفاوض

وحاول الملك محاولة أخيرة للسلام ، فأرسل فارسين هما وليم (أوف كافران) ووليم (أوف فيلير) من فرسان المعبد إلى السلطان يسأله لماذا خرق الهدنة ، ويعده بالإنتصاف من أية مظالم . واستقبلهما الأشرف خارج خيمته ؛ وقبل أن يبدآ بتسليم الرسالة سألهما باقتضاب ما إذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة ؛ وعندما أجابا بالنفى قال إنه إنما يريد المكان ولا يعبأ بمصير السكان . وتقديرا لشجاعة الملك الذى جاء للحرب وهو صغيا ومريض، فإنه سوف يبقى علي السكان إذا استسلموا له ؛ ورد المبعوثان بأنهما سوف يُعتبران خائنين إذا وعدا بالإستسلام ، وبعد أن قالا ذلك مباشرة قذف منجنيق من الأسوار بحجر سقط بالقرب من المجموعة ؛ فاستشاط الأشرف غضبا واستل سيفه ليقتل السفيرين ، لكن الأمير الشجاعى قام إليه وهدأه قائلا إنه لا ينبغى أن يلوث سيفه بدماء الخنازير . وسُمح للفارسين بالعودة إلى مليكهم.

كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلا فى تلغيم الأبراج . وفى ٨ مايو قرر رجال الملك أن برج الملك هيو الضخم لم يعد الدفاع عنه مجديا ، فأشعلوا فيه النيران وتركوه لينهار . وخلال الأسبوع التالى لُغّم البرج الإنجليزى وبرج كونتيسة بلوا، وبدأ انهيار الأسوار المجاورة لبوابة القديس أنطوان وبرج القديس نقولا . وصمد برج هنرى الثانى الجديد حتى ١٥ مايو، عندما انهار جزء من جداره الخارجى ؛ وفى الصباح التالى شق المماليك طريقهم فى الأطلال ، وكان لا بد للدفاع أن يتقهقر إلى الأسوار الداخلية . وفى نفس ذلك اليوم كان هناك هجوم مركّز على بوابة القديس أنطوان و لم يمنع

الأعداء من الدخول إلى المدينة سوى بسالة فرسان المعبد وفرسان المستشفى . وتميّز مارشال فرسان المستشفى ، ماثيو (أوف كليرمونت) ، بشجاعته الفائقة.

وفى اليوم التالى عزز المسلمون قبضتهم على السور الخارجى ؛ وأمر السلطان بهجوم عام صباح الجمعة ١٨ مايو ؛ وشن الهجوم بطول الأسوار من بوابة القديس أنطوان حتى برج البطريق بجوار الخليج ، غير أن الهجوم الرئيسى للمسلمين كان على البرج الملعون عند زاوية الجزء الناتئ؛ وألقى السلطان بكل إمكانياته فى المعركة ، فلم تتوقف المناحق عن القصف، وانهمرت سهام رماته - التى كادت أن تأخذ شكل كتلة متحدة - على المدينة ؛ واندفعت الكتيبةُ تلو الكتيبة يقودها أمراؤها بعماماتهم البيضاء تهاجم الدفاعات ؛ وكانت الضوضاء تثير الرعب ، والمهاجمون يصرخون صرخات المعركة تستحثهم الأبواق والصنج المعدنية والطبول التى يقرعها ثلاثمائة طبّال على ظهور الجمال.

ولم يمض طويل وقت حتى شق المماليك طريقهم إلى داخل البرج الملعون مما اضطر حاميته - المؤلفة من الفرسان السيريان والتبارصة - إلى التقهقر غربا باتجاه بوابة القديس أنطوان حيث خف لمساعدتهم فرسان المعبد والمستشفى يحاربون جنبا إلى جنب ، وكأنه لم يكن هناك قط قرنان من التنافس بينهما . وحاول ماثيو (أوف كليرمونت) يائسا قيادة هجوم مضاد لإستعادة البرج ، بيد أنه على الرغم من أن السيدين الأعظمين تبعاه ، لم يجدِ ذلك فتيلا . وبطول الأسوار الشرقية للمدينة تمكن جون (أوف جريللى) وأوتو (أوف جراندسون) من الصمود لبضع ساعات ؛ بيد أنه بعد سقوط البرج الملعون استطاع الأعداء المرور من الأسوار المنهارة والاستيلاء على بوابة القديس نيقول ؛ وبذا ضاع السور بكامله ورسّخ المسلمون وضعهم داخل المدينة.

١٢٩١م : الهروب من عكا

واستعر القتال فى الشوارع ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله لإنقاذ عكا . وأصيب وليم (أوف بوجو) السيد الأعظم لفرسان المعبد إصابات مميتة فى هجومه المضاد العقيم على البرج الملعون ، وحمله أتباعه إلى مبنى نظام المعبد حيث مات ، وكان معه ماثيو (أوف كليرمونت) ، لكنه عاد إلى المعركة والى حتفه . وجرح السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جون (أوف فيلير) ، لكن رجاله أحضروه إلى المرفأ ووضعوه على متن سفينة وسط اعتراضاته . وكان الملك هنرى وأخوه أماليرك قد ركبا السفينة فعلا ؛

وفيما بعد اتّهم الملك هنرى بالجبن لتخليه عن المدينة ، غير أنه كان فاقد الحيلة ، وكان واجبه إزاء مملكته يحتم عليه تجنب الأسر . وفى القطاع الشرقى جرح جون (أوف جريللى) وتسلم القيادة أوتو (أوف جراندسون) الذى صادر كل ما كان يجده من السفن البندقية ووضع عليها جون (أوف جريللى) وجميع ما أمكن إنقاذه من الجنود وكان هو آخر من انضم اليهم على ظهرها . وعم اضطراب مفزع أرصفة الميناء ؛ واكتظت قوارب التجديف بالجنود والمدنيين، وفيهم النساء والأطفال ، فى سعى للوصول إلى الغلايين الراسية قبالة الشاطئ . وكان البطريق العجوز نيكولاس (أوف حنابى) ، قد جرح جرحا بسيطا وحمله خدمه المخلصون ووضعوه على زورق شراعى صغير ؛ ومن قبيل العطف سمح لكثير من اللاجئين أن يركبوا معه القارب إلى أن هبط الزورق بثقلهم وأغرقهم جميعا . وبعض الرجال أسعفتهم أذهانهم فاختطفوا قاربا وراحوا يجمعون رسوما باهظة من اليائسين على الأرصفة من التجار والسيدات ؛ وقام المغامر الكتالونى[٥٤] روجر فلور ، الذي حارب بشجاعة كفارس من فرسان المعبد أثناء الحصار ، بتولى قيادة غليون تابع لفرسان المعبد ، وكان بمثابة أساس لثروته الضخمة التى جمعها من ابتزازه لنبيلات عكا[٥٥].

وكانت السفن ضئيلة العدد للغاية بحيث لا تستطيع أن تنقذ الهاربين . وسرعان ما توغل جنود المسلمين فى المدينة مباشرة ، يقتلون من يقابلهم ، المسنون والنساء والأطفال على السواء ؛ وابتسم الحظ لقليل من المواطنين الذين مكثوا فى بيوتهم ، فقد أُخذوا أحياء ليباعوا رقيقا ، ولكن لم ينج الكثير . وليس بمقدور أحد أن يخبرنا بعدد الذين هلكوا ؛ وفيما بعد حاولت الأنظمة الدينية العسكرية وكذلك بيوتات التجار العظام وضع قوائم بالناجين من أفرادها، غير أن مصير أغلب أفرادها كان مجهولا . وتحدث من سافروا لاحقا إلى الشرق عن مشاهدتهم لبعض أعضاء فرسان المعبد المرتدين عن دينهم يعيشون عيشة حقيرة فى القاهرة ، وآخرين يعملون فى قطع

---

(٥٤) (المترجم) نسبة الى كتالونيا Catalonia ، وهو اقليم فى شمال شرق اسبانيا عاصمته برشلونة.

(٥٥) هذه الرواية مأخوذة من *Gestes des Chiprois*, pp. 43-54 ؛

-Sanudo, pp. 230-1; Amadi, pp. 220-5; *De Excidio,* cols. 760-82; Thaddeus, pp. 18-23; Ludolf of Suchem (P.P.T.S.pp. 54-6); al-Jazari, p. 5; Maqrisi, *Sultans,* II,i, pp. 125-6; Abu'l Feda, pp. 164-5; Abu'l Muhasi in Reinaud, *op. cit.* pp. 569-72. There is a picturesque account (unfortunately withou references) in Schlumberger, *Byzance et Croisades,* pp. 207-79. Muntaner, *Cronica* (ed. Coroleu), p. 378, tells of Roger of Flor's conduct.

الأخشاب ناحية البحر الميت . وأطلق سراح بعض الأسرى وأعيدوا إلى أوروبا بعد تسع أو عشر سنوات . وقيل إن الرقيق من الفرسان وذرياتهم كان أسيادهم يعاملونهم بشيء من الإحترام . واختفت نسوة كثيرات وأطفال إلى الأبد فى حريم أمراء المماليك . وزاد العرض فى سوق الرقيق بدمشق زيادة كبيرة ، فانخفض سعر الفتاة إلى دراخمة واحدة[٥٦]. على أن عدد المسيحيين الذين قُتلوا كان أكبر[٥٧].

وبحلول ليل ١٨ مايو باتت عكا كلها فى قبضة السلطان ، فيما عدا قلعة فرسان المعبد الضخمة ذات النتوء المطل على البحر فى النقطة الجنوبية الغربية من المدينة ، حيث لاذ بها فرسان المعبد الناجون من الموت ومعهم عدد من المواطنين من الجنسين . ولعدة أيام تحدت جدرانها الضخمة الأعداء ، والسفن التى أنزلت اللاجئين فى قبرص عادت لمساعدتهم . وبعد أسبوع تقريبا عرض الأشرف على مارشال النظام ، بطرس (أوف سيفرى) ، السماح له بركوب البحر مع كل من كان معه فى القلعة بمنقولاتهم إذا استسلموا له ؛ وقبل بطرس الشرط ، ودخل أحد الأمراء ومائة مملوك القلعة للإشراف على الترتيبات ، بينما رفرفت راية السلطان على البرج . لكن هؤلاء المماليك كانوا خارج سيطرة المشرفين عليهم ، فبدأوا فى إزعاج المسيحيات والأطفال وفى تملكهم ، الأمر الذى أثار حنق الفرسان فانقضوا على المسلمين وقتلوهم ، وأنزلوا راية الأعداء وتهيّأوا للمقاومة حتى الموت . وعندما هبط الظلام ، أرسل بطرس (أوف سيفرى) خزانة نظام فرسان المعبد مع قائد الفرسان ، تيبالد جودين ، مع قليل من غير المقاتلين ، فى قارب إلى القلعة فى صيدا . وفى اليوم التالى ، وعندما رأى الأشرف قوة القلعة وما كانت عليه حاميتها من شجاعة يائسة ، عرض نفس الشرط المشرّف كما سبق ؛ وخرج بطرس وقليل من رفاقه بمرور آمن لمناقشة الإستسلام . غير أنهم ما أن وصلوا خيمة السلطان حتى حوصروا وقيّدوا وضربت أعناقهم على الفور ؛ ولمّا رأى أفراد الحامية من فوق الأسوار ما حدث أغلقوا البوابة وواصلوا الحرب . غير أنهم لا يستطيعون منع المهندسين المسلمين من الزحف حتى الأسوار وحفر نفق ضخم تحتهم . وفى ٢٨ مايو بدأ جانب القلعة المطل على اليابسة فى الإنهيار ، ودفع الأشرف ، الذى خذله صبره ، بألفى مملوك إلى داخل الفتحة الآخذة فى الإتساع . ولم تتحملهم قواعد

---

(٥٦) (المترجم) الدراخمة : عملة يونانية فضية قديمة ؛ وهى الآن العملة الرسمية لليونان الحديثة

(٥٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 254-5; Maqrisi, *op. cit.* p. 126; letter of Sultan al-Ashraf to hricht, *Geschichte*, p. Hethoum of Armenia in Bartholomew Cotton, p. 221. See R 1021 n.3 .

المبنى التى تزايد ميلها ؛ وبينما كانوا يشقون طريقهم قتالا إلى الداخل انهار الصرح كله وقضى على المدافعين والمهاجمين على السواء بالكم الهائل من الأحجار المنهارة(٥٨).

١٢٩١م : تدمير عكا

ما أن أصبحت عكا فى يد السلطان حتى أخذ فى تدميرها بصورة منتظمة وقد عقد العزم على ألا تعود أبدا كرأس حربة للعدوان المسيحى فى سوريا ؛ فنهبت البيوت والأسواق ثم حرِّقت ؛ وهدمت مباني الأنظمة الدينية العسكرية ، وعُطِّلت تحصينات الأبراج والقلاع وتُركت أسوار المدينة للتفكك. وعندما مر بها الحاج الألمانى ليودولف (أوف سوشين) بعد ذلك بأربعين سنة ، لم يجد سوى بعض الفلاحين التعساء يعيشون بين أطلال ما كان مرة العاصمة الرائعة لمملكة الشرق الفرنجى؛ وما زال هناك كنيسة أو كنيستين لم تدمر كليّة ؛ غير أن المدخل الرائع لكنيسة القديس أندرو قد أُخذ لتزيين المسجد الذى بنى فى القاهرة لتشريف السلطان المنتصر ؛ وفى وسط الجدران المتهدمة فى كنيسة سانت دومينيك ، لا يزال قبر الراهب الدومينكى ، جوردان السكسونى ، باقيا لم يُمس ، إذ أن المسلمين قد حدّقوا فيه ووجدوا أن الجثة لم تفسد(٥٩).

١٢٩١م : موت مملكة الشرق الفرنجى

وسرعان ما لقيت المدن الفرنجية المتبقية نفس مصير عكا. فبعد أن أصبح أغلب عكا فى قبضة الأشرف ، أرسل يوم ١٩ مايو فرقة جنود كبيرة إلى صور التى كانت أقوى مدن الساحل ، منيعة أمام أي عدو يفتقد السيطرة على البحر ؛ وفيما مضى تسببت مرتين فى إحباط صلاح الدين . وقبل أشهر قليلة كانت الأميرة مرجريت ، التى تنتمي اليها المدينة ، قد سلّمتها لإبن أخيها ، أخى الملك ، أماريك . وكانت حاميتها صغيرة ، وما أن اقترب العدو حتى تملك الهلع وكيل أماريك ، آدم)أوف كارفان(، وأبحر هاربا إلى قبرص وتخلى عن المدينة دون قتال(٦٠). وفى صيدا قرر

(٥٨) *Gestes des Chiprois,* pp. 255-6; Bartholomew Cotton, p. 432; Ludolf of Suchem, *loc. cit.*; Sanudo, p.231. The Story is also told by Bar-Hebraeus, p. 493 (dated 1292)

(٥٩) Enlart, *Monuments des Vroisés,* ii, pp. 9-11; Etienne de Lusignan, *Histoire de Chypre,* fol. 90; Ludolf of Suchem (P.P.T.S. p. 61)

(٦٠) *Gestes des Chiprois,* p. 254; Sanudo, *loc. cit.*; al-Jazari, p. 6; Abu'l Feda, p. 164;

فرسان المعبد المقاومة . وكان تيبالد جودين حاضرا مع ثروة نظام فرسان المعبد ، وكان الفرسان الباقون على قيد الحياة قد انتخبوه سيدا أعظم ليخلف وليم أوف بوجو . ولقد تُركوا في هدوء لمدة شهر . ثم جاء جيش مملوكي عرمرم بقيادة الأمير الشجاعي . وكان الفرسان من القلة بحيث لا يستطيعون الإحتفاظ بالمدينة ، ولذا انسحبوا مع الكثير من وجهاء المواطنين إلى قلعة البحر التي بنيت على جزيرة صخرية على بعد مائة ياردة من الشاطئ ، تم ترميمها حديثا . وفي الحال أبحر تيبالد إلى قبرص لجمع الجنود لمساعدة القلعة ؛ لكنه بعدما أصبح هناك لم يفعل شيئا ، إمّا لجبنه أو ليأسه . وحارب فرسان المعبد الموجودون في القلعة ببسالة ، ولكن عندما بدأ مهندسو المماليك في بناء ممر مرتفع في البحر استيأسوا وأبحروا شمال الساحل إلى طرطوس. وفي ١٤ يولية دخل الشجاعي القلعة وأمر بتدميرها[٦١].

وبعد أسبوع ظهر الشجاعي أمام بيروت التي كان مواطنوها يعلقون الآمال على أن المعاهدة المعقودة بين السيدة إشيفا والسلطان سوف تحفظهم من الهجوم ؛ وعندما قام الأمير بتوجيه الأمر إلى قادة الحامية بالحضور للإعراب عن احترامهم له انصاعوا للأمر بقلق، لا لشئ سوى ليجدوا أنفسهم سجناء . ولا تستطيع الحامية أن تفكر في الدفاع في غيبة قوادها. فهرع أفرادها إلى سفنهم وولوا الأدبار حاملين معهم ما في الكتدرائية من آثار ، ودخل المماليك المدينة يوم ٣١ يولية . ولقد هدموا أسوارها وتحولت الكتدرائية إلى مسجد[٦٢].

وما أسرع ما احتل السلطان بعد ذلك حيفا دون مقاومة يوم ٣٠ يولية ، وحرق رجاله الأديرة على جبل الكرمل وقتلوا رهبانها . وما زال هناك قلعتا فرسان المعبد في طرطوس وفي عثليت ؛ ولم يكن في أي منهما الحامية ذات القوة الكفيلة بمواجهة الحصار ، فصار الجلاء عن طرطوس يوم ٣ أغسطس وعن عثليت يوم ١٤ من نفس الشهر . وكل ما بقي الآن لفرسان المعبد هو قلعة جزيرة إرواد على بعد حوالي ميلين

Maqrisi, *Sultans*, II, i, p.126.. وكانت مرجريت ما تزال سيدة صور في ١٢٨٩م *Gestes*, p.237، رغم أن *Gestes (ibid)* يتحدث عن أماريك باعتباره سيد صور في ١٢٨٨م . أنظر Hill, *op. cit.* p. 182 n. 5 .

(٦١) *Gestes des Chiprois*, pp. 256-7; *Annales des Terre Sainte*, p. 460; al-Jazari, p. 7; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 131; Abu'l Feda, *loc. cit*

(٦٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 257-8; al-Jazari, *loc. cit.*; Maqrisi, *loc. cit.*; Abu'l Feda, *loc. cit.*

من الساحل فى مواجهة طرطوس ؛ وظلوا ماكثين هناك طوال اثنتى عشرة سنة أخرى ، ولم يجلوا عن الجزيرة إلا فى سنة ١٣٠٢م عندما بدأت الشكوك تحوم حول مستقبل هذا النظام الدينى العسكرى(٦٣).

وراح جند السلطان لعدة أشهر يجوبون السواحل شمالا وجنوبا ، يدمّرون بعناية أى شئ قد يفيد الفرنج إذا ما حاولوا النزول على الشاطئ مرة أخرى ؛ فراحوا يقطعون أشجار بساتين الفاكهة ، ويفسدون أنظمة الري . والقلاع الوحيدة التى تركت قائمة هى تلك القلاع البعيدة عن الساحل ، مثل قلعة جبل الحاج فى طرابلس ، وقلعة المرقب على جبلها المرتفع . ولقد عمّ الخراب على طول البحر . وشاهد فلاجو المزارع - التى كانت ذات مرة غنية بالمزروعات - مزارعهم وقد دُمّرت ، فلاذوا بالجبال . وسارع من كان من أصل فرنجى إلى الإندماج فى العنصر الوطني . وعومل المسيحيون الوطنيون معاملة أفضل قليلا من العبيد ؛ لقد انقضى ما كان للإسلام من تسامح كريم؛ ذلك أن مرارة الحروب الدينية الطويلة كانت من المنتصرين ، فلم يعد لديهم مكان للرحمة إزاء الكفار(٦٤)

ولم تكن جماعة المسيحيين التى هربت إلى قبرص بأفضل حالا ؛ فقد عاش جيل حياة بئيسة ، حياة اللاجئين غير المرغوبين ، وبمضى السنين تقلص العطف عليهم واستحال إلى تعاطف هزيل ؛ وكانت فائدتهم الوحيدة أنهم كانوا يذكّرون القبارصة بالكارثة المروعة ، ولم يكن القبارصة بحاجة إلى مذكّر . وطوال القرن التالى كانت سيدات الجزيرة العظيمات، عندما يخرجن من دورهن ، يرتدين العباءات السوداء فتغطيهن من الرأس إلى القدم . لقد كانت علامة الحداد على موت الشرق الفرنجى(٦٥).

---

(٦٣) *Gestes des Chiprois, p. 250; Annales de Terre Sainte, loc. cit.;* al-Jazari, p. 8; Maqrisi, *Sultans,* II, i, p.126; Abu'l Feda, *loc. cit.*

(٦٤) أنظر أدناه ص ٥٣٧.

(٦٥) Sanudo, p. 232; Cobham, *Excerpta Cypria,* pp. 17, 22. .

الباب الخامس:

خـــــاتمـــة

الفصل الأول:

آخر الحملات الصليبية

آخر الحملات الصليبية

"والفاهمون من الشّعب يُعلّمون كثيرين . ويعثُرون بالسّيف
وباللهيب وبالسّبي وبالنهب أياما"
(دانيال ١١ : ٣٣)

سقطت عكا ، وطُرد الفرنج من سوريا ، فبدأت الحركة الصليبية تتناءى عن نطاق السياسة الواقعية . وقبل ذلك بقرن، وبعد فتوحات صلاح الدين ، كان الفرنج ما يزالاون يحتفظون بقلاع ضخمة فى الأراضى الرئيسية ، صور وطرابلس وأنطاكية ؛ وكانت هناك قواعد يستطيع أي جيش مخلّص أن ينطلق منها . أما الآن فقد ضاعت القواعد ، ولم تكن جزيرة إرواد الصغيرة الجرداء عديمة القيمة ، ولذا كان لا بد من تنظيم تموينها عبر البحر ، من قبرص . ولم تبق هناك أراض مسيحية سوى مملكة أرمينيا فى كيليكيا ؛ غير أن الرحلة من كيليكيا إلى سوريا كانت صعبة ، ولم يكن الأرمن فى مجملهم موضع ثقة . ومرة أخرى ، جاء ضياع القدس عام ١١٨٧م صدمة مرعبة للعالم المسيحي ، وبالمثل جاء انهيار المملكة مباغتا. على أن الجميع كانوا يعلمون فى ١٢٩١م أن مملكة الشرق الفرنجى كانت تتقوّض ؛ وأتى اختفاؤها بالحزن دون المفاجأة .

وتهيمن على أوروبا الغربية الآن مشاكل ومشاحنات داخلية ، ولذا لن تتأجّج جمرة الحميّا التى تدفع عواهل أوروبا إلى الشرق كما كان عليه الحال أيام الحملة الصليبية الثالثة ؛ ويستبعد كذلك أن تنطلق حملة شعبية ضخمة كالحملة الصليبية الأولى ؛ فشعوب الغرب تستمتع الآن بجوانب حديدة من الراحة والإزدهار ولن يستجيب لأى تبشير رؤيوي لأي فرد من أمثال بطرس الناسك استجابة لأسلافهم فى ورع ساذج جهول قبل ذلك بقرنين من الزمان ، فلم تعد تقنعهما وعود الغفران الكنسى بعدما صدمهما استغلال الحرب المقدسة لأغراض سياسية . ولم يعد فى الإمكان تنظيم حملة عسكرية ضخمة بعدما أحيلت الإمبراطورية البيزنطية إلى ظل باهت. لقد كانت نهاية الشرق الفرنجى نبأ محزنا ، لكنه لم يستفز رد فعل عنيف.

على أن البابا نيكولاس الرابع وحده أخذ يحيل أساه إلى عمل ؛ لكنه لم يجد من يلجأ إليه، وقد أصيبت هيبة البابوية بالشلل لإخفاق الحرب الصقلية ؛ فلم يعد الملوك يعبأون بتنفيذ الأوامر البابوية . وكان الامبراطور الغربى – الذى أفسد الباباوات سلطته الدنيوية – مشغولا للغاية فى ألمانيا ؛ وإذا ما تحرك فلم يكن ذلك إلا القيام بحملة فى إيطاليا . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا مقتدرا ونشطا ، غير أنه بعدما انتشل مملكته من الحرب الصقلية ، راح ينفق طاقته فى دعم السلطة الملكية . وكان إدوارد ملك انجلترا غارقا إلى أذنيه في اسكتلندا . وفضلا عن ذلك ، كان التنافس الشديد بين انجلترا وفرنسا يزداد حدة وسرعان ما تولدت عنه حرب المائة عام . وكان عاهل أقوى قوة بحرية فى البحر المتوسط ، ألا وهو جيمس الثانى ملك أراجون ، ومعه أخوه فريدريك المطالب بصقلية ، فى حرب مع عميل البابا تشارلز الثانى ملك نابولى الذى كان على استعداد كبير من الناحية النظرية للمساعدة فى أمر الحملة الصليبية، بيد أنه يتعين عليه أولا أن يطرد أبناء أراجون من صقلية . وفى الشرق ، كان الامبراطور البيزنطى فى شغل شاغل للتصدى للأتراك من ناحية، والتصدى لعاهلى البلقان الجديدين فى بلغاريا والصرب من ناحية أخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، كان الأنجفيون فى نابولى يأخذون على عاتقهم مطالب الأباطرة اللاتين الذين حرموا من أملاكهم . ولذلك ، لم يكن بوسع البابا ، راعيهم ، أن يأمل فى اكتساب تعاطف اليونانيين . وكانت المدن التجارية الإيطالية مشغولة للغاية فى تكييف سياساتها مع الظروف المتغيرة ولم يكن بوسعها أن تعد بأية وعود قد تسبب لها الحرج . أما ملكا قبرص وأرمينيا فكانا شديدى الاهتمام بالمشكلة وثيقة الصلة بهما؛ ذلك أن مملكتيهما كانتا فى خط المواجهة الآن ، وكان على واحدة منهما أو الأخرى أن تكون قاعدة لأية حملة صليبية حديدة . بيد أن الملكين

كانا حريصين بالغ الحرص على ألا يستفزا السلطان ؛ فكان على ملك أرمينيا أن يصارع الأتراك والمصريين ، وكان على ملك قبرص أن يجد حلا لمشكلة اللاجئين ؛ وزيادة على ذلك ، فإن البيتين الملكيين المترابطين الآن بروابط الزواج ، سرعان ما اضطربت أمورهما بالمشاجرات العائلية والحرب الأهلية . وبقى الخان فى فارس بمثابة حليف محتمل ؛ على أن الخان أرغون قد أصيب بخيبة أمل مريرة لفشله فى تحريك الغرب ليفعل شيئا قبل سقوط عكا ؛ ولن يقوم بشىء.وفى ١٢٩٥م ، وإثر موت أرغون، اتخذ الخان غزّان الإسلام دينا رسميا للخانية ، وتخلى عن ولائه للخان الأعظم فى الشرق ؛ وكان غزان صديقا ودودا للمسيحيين ، إذ أنه نشأ وتربى على يدي ديسبينا خاتون ، زوجة الخان أباغا الكريمة التى يحترمها الشرق كله ؛ ولم يقلل اعتناقه للإسلام بأى حال من كراهيته للمصريين والأتراك . ولم تعد هناك سفارات مغولية إلى روما ، وخبا الأمل فى أن تصبح فارس قوة مسيحية . وصحيح أن كان هناك مبعوث بابوي فى بكين ، وهو الأخ جون (أوف مونت كورفينو) ؛ وبرغم تمتع الأخ جون بصداقة الخان الأعظم قوبلاى ، إلا أن الخان فقد اهتمامه بشؤون الشرق الأدنى[١].

الافتقار إلى حلفاء

ولا يبقى سوى الأنظمة الدينية العسكرية التى تأسست كى تحارب من أجل العالم المسيحى فى الأراضى المقدسة، وما يزال ذلك هو واجبها الأول . وبعد سقوط عكا هجر النظام التيوتونى الشرق إلى ممتلكاته فى البلطيق[٢]؛ لكن نظام فرسان المعبد ونظام فرسان المستشفى أقاما مقريهما فى قبرص ؛ ولما كانا عاجزين هناك عن إنجاز مهامهما، فقد انصرفا إلى التوسط فى السياسات المحلية ؛ وربما كان باستطاعة البابا الإعتماد عليهما لتوفير المساعدة لأية حملة يرسلها؛ إذ أن ما لهما من هبات شاسعة فى سائر أنحاء

---

(١) Baluze, *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), iii, p. 150; Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 34-6; Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 193 ff.; Browne, *Literary History of Persia*, iii, p. 40. For John of Monte Corvino, see Atiya, op. cit. pp. 248-52 .

(٢) انتقل مقر قيادة التيوتون الى البندقية سنة ١٢٩١م ، ومنها الى مارينبرغ Marienburg فى بروسيا سنة ١٣٠٩م . وللإطلاع على التاريخ اللاحق للنظام أنظر الفصل الذى كتبه Boswell فى تاريخ كامبريدج الوسيط. *Cambridge Medieval History*, vol. vii, pp. 248 ff.

أوروبا أثار من الغيرة ما قد يترتب عليه نتائج خطيرة ما لم يكن هناك ما يبررها . غير أن نظامي المعبد والمستشفى لا يستطيعان القيام بحملة صليبية بدون مساعدة[٣].

ولقد فشل البابا نيكولاس فى إثارة الغرب بعد سقوط طرابلس ؛ وكان على نفس القدر من العجز بعد كارثة عكا التى تفوق كارثة طرابلس جسامة ، ولم يمنحه مستشاروه أية مساعدة ؛ وقد أيد تشارلز الثانى ملك نابولى اقتراحا طُرح منذ بضع سنين بدمج الأنظمة الدينية العسكرية لوضع حد للتنافس بينهم ، لكنه كان يعتقد أن القيام بعمل عسكرى فى الشرق من المحال فى هذه اللحظة ، وإنما أيد ضرب حصار اقتصادى على مصر وسوريا ، لسهولته ولآثاره المدمّرة على السلطان[٤]. وكان ذلك أيضا أمرا غير عملى فى الواقع ؛ إذ لن تتعاون فى الحصار قط المدن التجارية الإيطالية ولا البروفنسالية فى جنوب شرق فرنسا ولا الأراجونية ، إذ أن ازدهارها يتوقف على التجارة الشرقية التى يمر أغلبها فى أراضى السلطان . وفى واقع الأمر، لو توقفت هذه التجارة لعجزت تلك المدن عن تسيير أساطيلها ، ولأصبح المسلمون يسيطرون على البحر المتوسط. وكان من حسن الحظ أن الصادرات الرئيسية التى كان المسيحيون يدفعون بها أثمان البضائع الشرقية تتألف من الأسلحة ؛ فهل كان الأمر يستحق حرمان أوروبا من المنافع الناتجة من كل هذا النشاط التجارى؟ لا بد وأن تعترض الكنيسة على هذا التبادل الشنيع للبضائع ؛ لكن المصالح التجارية باتت الآن أقوى من الكنيسة . ومات نيكولاس الرابع سنة ١٢٩١م وقد خابت آماله فى مساعيه[٥].

ولم يحقق أيّ من خلفائه نتيجة أفضل . بيد أنه على الرغم من افتقاد الجنود لحملة صليبية إلا أن الشعور بخذلان العالم المسيحى ولّد موجة جديدة من الدعاية ؛ غير أن القائمين بالدعاية لم يعودوا هم المبشرون المرتحلون كما كان الأمر فى الماضى، وإنما تولى ذلك الآن الأدباء الذين كانوا يكتبون الكتب والنشرات لتبيان الحاجة إلى حملة مقدسة، وكان لكل كاتب ملكه فى خطته . وفى ١٢٩١م ، قام الأخ الفرنشيسكانى فيدينزو (أوف بادوا) وهو الذى اعتاد البابا فيما سبق على استخدامه فى البعثات الدبلوماسية ، والذى ارتحل كثيرا فى الشرق ، بنشر بحث يسمى كتاب استعادة الأرض المقدسة Liber de Recuperatione Terre Sancte، أهداه لسلفه نيكولاس الرابع . ويحتوى على

(٣) انظر أعلاه صفحة ٤٩٤ وما بعدها

(٤) Atiya, *op. cit.* pp. 35-6

(٥) *Ibid.* p.45

تاريخ متعمق للأراضى المقدسة ، مع مناقشة لنوع الجيش المطلوب لإستعادتها ، بدائل الطرق التى يتعين أن يسلكها هذا الجيش . وكان عملا إخباريا مقنعا ؛ غير أن فيدينزو افترض أن هناك جيشا متاحا وأن قائده سوف يختار الطريق اختيارا نهائيا(٦). وفى العام التالى ١٢٩٢م ، نشر المدعو Thaddeus of Naples مقالا عن سقوط عكا ؛ وهو عمل روائى ينبض بالحياة ، موشّى باتهامات وافرة بالجبن لكل شخص كان هناك فعلا. وكان الأسلوب العنيف الذى استخدمه ثاديوس مقصودا يستهدف إلحاق العار بالغرب استفزازا له كي يُطلق حملة صليبية ؛ وأنهى كتابه بمناشدة عظمى للبابا والأمراء والمتدينين المخلصين كي ينقذوا الأرض المقدسة التى هي تراث المسيحيين(٧).

ريمــوند لـُلْ

كان لكتاب ثاديوس أثره اليقينى على الداعية الذى جاء بعده ، وهو من أبناء جنوا ويدعى جالفانى (أوف ليفانتى) ، الذى كان طبيبا فى البلاط البابوى . وكان كتابه الذى نشره سنة ١٢٩٤م ، وأهداه لملك فرنسا فيليب الرابع ، عبارة عن مزيج من التشبيهات المأخوذة عن لعبة الشطرنج ومواعظ باطنية ، وكان خلوا من الآراء العملية(٨). أما الشخصية التى جاوزت الآخرين فى أهميتها فهى المبشر الأسبانى الكبير ريموند لُلْ ، الذى ولد فى مايوركا سنة ١٢٣٢م ، ورُجم حتى الموت فى بوجيه فى شمال إفريقيا سنة ١٣١٥م . وذاعت شهرته باعتباره صوفيًا ، وإن كان فى الوقت نفسه سياسيا عمليا. وكان يجيد اللغة العربية ودأب على الإرتحال فى البلاد الإسلامية . وفى سنة ١٢٩٥م تقريبا قدم للبابا مذكرة حول العمل المطلوب لمحاربة الإسلام ، وفى سنة ١٣٠٥م نشر كتابه (كتاب النهاية) Liber de Fine الذى فصّل فيه أفكاره وقدم برنامجا يُنتفع به ؛ فينبغى عنده للمبشرين المتعلمين تعليما جيدا أن يستميلوا المسلمين ، وبقدر الإمكان الكنائس المسيحية الهرطيقية والمنشقة، وإن كانت الحملة المسلحة ضرورية ، ويجب أن يكون قائدها ملكا Rex Bellator (الملك المحارب)، وينبغى لكافة الأنظمة الدينية العسكرية أن تتحد تحت قيادته فى نظام دينى عسكرى واحد جديد يكون بمثابة

---

(٦) *Ibid.* pp. 36-43.. وكتاب فيدينزو الذى نشره Golubovitch منشور فى *Biblioteca Bio-Bibliografica della Terra Sancta*, ii, pp. 9 ff

(٧) Atiya, *op. cit. pp. 31-4; The Hystoria de Desolacione* is edited by Riant

(٨) Atiya, *op. cit.* pp. 71-2 .

العمود الفقرى للجيش. ويقترح أن تطرد الحملة الصليبية المسلمين من اسبانيا ، ثم تعبر البحر إلى افريقيا وتتجه شرقا إلى تونس ومنها إلى مصر ؛ ثم ينادى بعد ذلك بحملة بحرية كذلك، مفترضا ضرورة الإستيلاء على جزيرتي مالطا وردوس لتكونا بمثابة قاعدتين لما لهما من موانى جيدة . ثم يفضل بعد ذلك فيما يبدو أن تنتزع الحملة البرية القسطنطينية من اليونانيين وترتحل عبر الأناضول . وهو ملئ بنصائح محددة حول تنظيم الجيش والأسطول ، وحول إمداد الطعام ومواد الحرب ، وكذلك حول تدريب المبشرين الذين يجب أن يصاحبوا الجيش. والكتاب مطول وأحيانا يناقض نفسه ، إلا أنه من وضع رجل ذى ذكاء ملحوظ وخبرة واسعة ، رغم أن موقفه إزاء المسيحيين الشرقيين يتسم بتعصب منفر[٩].

وفى الوقت الذى كتب فيه ريموند للْ ، بدا أن هناك حملة صليبية وشيكة بالفعل؛ إذ أعلن فيليب ملك فرنسا عن رغبته فى إطلاق حملة ، وجرى رسم الخطط ودراستها للتنفيذ فى كل من البلاط البابوى وباريس . و لم يكن واضحا بعد الدافع الحقيقى للملك فيليب قد تبين بعد ، ألا وهو انتزاع الأموال من الكنيسة بهذه التعلة الرائقة. وكان قد خرج لتوه ظافرا من نزاعه مع البابا بونيفاس الثامن الذى وجد أن الأسلوب الذى سبق أن دمر أسرة هوهينشتوفن لا يجدى مع عواهل الغرب الجدد . وكان البابا كليمنت الرابع قد انتخب سنة ١٣٠٥م وكان فرنسيا ، ورسخ بابويته فى أفينيون على حدود مملكة الملك الفرنسى ، ودأب على إظهار احترامه للملك . وسارع إلى جمع مذكرات يسترشد بها هو نفسه والملك كذلك[١٠].

مقترحات الحملة الصليبية

وخصصت أكثر هذه المذكرات إثارة للاهتمام لاطلاع الملك وحده . ذلك أن قانونيا فرنسيا، هو بطرس دوبوا ، قدم إليه رسالة اتفق على أن يطلع أمراء أوروبا على نصفها الذى يأمرهم بالإنضمام إلى الحركة تحت قيادة ملك فرنسا ، وبه بعض التوصيات حول الطريق الذى يُتّبع وطرق تمويل الحملة . وأوجبت الرسالة إلغاء نظام فرسان المعبد وضم ممتلكاته ، وإصدار تشريع بتحصيل ضريبة التركات من رجال

(٩) يورد Atiya, *op. cit.* pp. 74-94 مناقشة كاملة لحياة للْ وأعماله فيما يتصل بالحملة الصليبية

(١٠) *Ibid.* p. 48 .

الدين. وأضاف كاتب الرسالة بعض المقترحات العامة حول الاتجاه إلى السماح للقساوسة بالزواج وتحويل الأديرة إلى مدارس للبنات . وكان النصف الثانى نصيحة خاصة للملك توضح له كيفية ضمان السيطرة على الكنيسة بالتضييق على مجمع الكرادلة ، وتحثه على إنشاء امبراطورية شرقية يجلس أحد أولاده على قمتها[١١]. وبعد ذلك مباشرة ، في سنة ١٣١٠م ، قام كبير المستشارين الدبلوماسيين للملك فيليب بإرسال مدونة عن الحملة الصليبية إلى البابا ، تحوى مقترحاتها استراتيجية ضئيلة ؛ وتركز فى أساسها على كيفية التمويل . فكان على الكنيسة تقديم كل الأموال ، وكان إلغاء نظام فرسان المعبد هو أول بند من البنود[١٢]. وفي ذات الوقت كان البابا يطلب المشورة. وكان الأمير الأرمينى هيثوم أو هايتون كوريكوس ، الذى تقاعد فى فرنسا وأصبح رئيسا لدير رهبان برايمونستراتينسى بالقرب من بواتييه ، قد طلب منه أن يقدم آرائه . ونشر كتابه "زهرة تاريخ أراضى الشرق" .Flos Historiarum Terre Orientis. سنة ١٣٠٧م الذى حقق انتشارا واسعا فور صدوره؛ وكان يضم إيجازا مجملا عن تاريخ الشرق ، مع مناقشة تنم عن اطلاع جيد على حالة الإمبراطورية المملوكية. وأوصى هايتون بحملة مزدوجة تذهب بحرا وتتخذ قاعدة لها فى قبرص وفى أرمينيا . وأوصى بالتعاون مع أرمينيا وتحالف وثيق مع المغول[١٣]. وبعد ذلك بقليل ، أعرب الدبلوماسى البابوى وليم آدم عن آراء مماثلة ، وكان قد ارتحل إلى أماكن كثيرة فى الشرق ثم ذهب إلى الهند ؛ وأضاف اقتراحا بضرورة أن يحتفظ المسيحيون بأسطول فى المحيط الهندى ليقطع تجارة مصر الشرقية . كما كان يعتبر أنه ينبغى للاتين إعادة الإستيلاء على القسطنطينية[١٤]. وفي سنة ١٣١٢م قدم أسقف ميندى ، وليم دورانت، بحثا أوصى فيه بالطريق البحرى وركز على عناصر تكوين الحملة وخاصة فيما يتعلق بمعنوياتها[١٥]. كما أن الأدميرال العجوز الجنوي بنيتو زاخاريا ، الذى كان ذات مرة قاضى قضاة طرابلس ، كتب آراءه فيما يتصل بالقوات البحرية المطلوبة[١٦].

---

(١١) *Ibid.* pp. 48-52; Hill, *op. cit.* ii, p. 239 .

(١٢) Atiya, *op. cit.* pp. 53-5 .

(١٣) Hayton's *Flos* is published in *Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens,* vol. ii. See Atiya, op. cit. pp. 62-4 .

(١٤) Atiya, *op. cit.* pp. 64-7 . وآراء آدم منشورة كمرفق لكتاب هايتون فى. *Recueil*

(١٥) Atiya, *op. cit.* pp. 67-71 .

(١٦) *Ibid.* pp. 60-1. See Mas Latrie, *Documents,* ii, p. 129.

وكانت هناك مقترحات عملية أجدى، طرحها ثلاثة زعماء كان لهم أن يلعبوا دورا رائدا فى أية حملة صليبية . ذلك أنه فى سنة ١٣٠٧م كان السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى فى أفنيون ، وطلب منهما البابا كلمنت أن يعربا عن آرائهما؛ فأرسل الأول - جيمس (أوف مولاى) - من فوره تقريرا أوصى فيه بعملية مسح أولي للبحار بواسطة عشرة غلايين كبيرة ، يعقبها جيش لا يقل عن اثنى عشر إلى خمسة عشر ألف خيّال وأربعين إلى خمسين ألف جندى مشاة . ولن يجد ملوك الغرب صعوبة فى جمع هذه الأعداد ، ويتعين إقناع الجمهوريات الإيطالية بتوفير وسائل النقل. وأعرب عن عدم موافقته على الهبوط فى كيليكيا ؛ وإنما يتعين أن تتجمع الحملة فى قبرص وتهبط على الساحل السورى(١٧). وبعد ذلك بأربع سنوات ، وفى وقت انعقاد مجمع فيينا ، كتب السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، فولك أوف فيلاريت ، إلى الملك فيليب يخبره بالترتيبات التى اتخذها نظامه الدينى العسكرى وغيرها من التربيات التى يستطيع أن يقوم بها من أجل الحملة الصليبية(١٨). وفى نفس الوقت قدم هنرى الثانى ملك قبرص آراءه إلى المجمع . وكان يرغب فى ضرب حصار اقتصادى على الإمبراطورية المملوكية . وأعرب عن عدم ثقته فى الجمهوريات الإيطالية ، بأسباب مقنعة ، وحث على ألا تعتمد الحملة الصليبية عليها فى النقل البحرى . وكان مؤيدا لهجوم على مصر باعتبارها المنطقة الأيسر اختراقا من بين المناطق التابعة للسلطان(١٩).

وبعد كل تلك المذكرات وكل ذلك الحماس ، أخذت الجميع المفاجأة وخيبة الأمل - عدا الملك فيليب - لعدم القيام بحملة صليبية ؛ فقد حقق فيليب هدفه الرامى إلى وجود ذريعة لجمع المال من الكنيسة ؛ وسرعان ما كشف عن آرائه الحقيقة بهجوم على منظمة كبيرة تعتبر مساعدتها شيئا أساسيا للحملة الصليبية(٢٠).

١٣٠٨م : فرسان المستشفى يحتلون جزيرة رودس

إن ضياع الشرق الفرنجى ترك الأنظمة الدينية العسكرية فى حالة من عدم اليقين .

---

(١٧) Baluze, *op. cit.* ii, pp. 145 ff.

(١٨) Delville le Roulx, *France en Orient*, ii, pp. 3-6.

(١٩) Mas Latrie, *Documents*, ii, pp. 118-25; Atiya, *op. cit.* pp. 58-60.

(٢٠) Atiya, *op. cit.* pp. 53, 73.

وقد وجد فرسان التيوتون حلا لمشكلتهم بتركيز كل طاقتهم لغزو البلطيق[٢١]. غير أن نظامي فرسان المعبد والمستشفى وجدا نفسيهما فى قبرص مقيّدين بقيود معينة وبلا ترحيب . وبدأ نظام فرسان المستشفى ، الأكثر حصافة من المعبد ، فى البحث عن وطن جديد. وفى ١٣٠٦م جاء إلى قبرص قرصان جنوي ، فينيولو دى فينولى ، وكان قد استأجر جزيرتي كوس و ليروس من الأمبراطور البيزنطى أندرونيكوس ، واقترح على السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، فولك (أوف فيلاريه) ، أن يشتركا معا فى غزو جزر أرخبيل دوديكانيسيا كلها وتقسيمها بينهما ، على أن يحتفظ هو بثلثها. وبينما أبحر فولك إلى أوروبا للحصول على تأييد البابا على الخطة ، رسا على ساحل جزيرة رودس أسطول صغير لفرسان المستشفى ، تساعده بعض غلايين جنوا ، وبدأ فى إخضاع الجزيرة شيئا فشيئا . وحاربت الحامية اليونانية ببسالة ، ولم تسقط قلعة فيليرمو الضخمة في يد الغزاة سنة ١٣٠٦م إلا بالخيانة ، وصمدت مدينة رودس لسنتين أخريين. وأخيرا ، حدث فى صيف سنة ١٣٠٨م أن أرسلت القسطنطينية بغليونا يحمل التعزيزات للحامية ، لكن عاصفة دفعته إلى فاماجوستا فى قبرص حيث استولى عليه فارس قبرصي يدعى فيليب الأصفر الذى أخذه مع ركابه وسلّمه للمحاصرين . ولكى ينقذ قائد الحامية حياته ، وكان من أبناء رودس، وافق على التفاوض على استسلام المدينة التى فتحت أبوابها لنظام فرسان المستشفى يوم ١٥ أغسطس . وعلى الفور أقام نظام المستشفى مقره فى الجزيرة ، وجعل من المدينة وميناءها الرائع أقوى قلعة فى الشرق . وهلّل الغرب لذلك الغزو - الذى تحقق على حساب يونانيين مسيحيين باعتباره نصرا صليبيا مؤزرا ؛ وقد أعطى هذا النصر بالفعل قوة جديدة لنظام المستشفى الدينى العسكرى ، كما منحه الوسيلة لمواصلة مهمته الموكل بها إليه . بيد أنه كان على أهالى رودس البؤساء أن ينتظروا لأكثر من ستة قرون ليستعيدوا حريتهم[٢٢].

أما نظام فرسان المعبد فكان أقل إقداما وأقل حظا ؛ وكان دائما أكثر إثارة للعداوة من نظام المستشفى . وإن كان هو الأكثر غنى ، وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسى ومقرض الأموال فى الشرق ، يحقق النجاح فى مهنة لا تلهم المودّة ، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأنانية والإستهانة . وبرغم شجاعة فرسانه فى قتالهم وقت الحرب ، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيجة قربى بين فرسانه والمسلمين ؛ واتخذ الكثير

---

(٢١) أنظر أعلاه ص ٣٣٩.

(٢٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 319-23; Delaville le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte*, pp. 273-9; Amadi, pp. 254-9

من الفرسان أصدقاء مسلمين ، واهتموا بالديانة والعلم الإسلاميين. وذاعت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلاعه فلسفة خفية، وأنه كان ينخرط فى طقوس ملطّخة بالهرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تجديفيّة يعوزها الاحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة. ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها اختلاقات من الأعداء لا أساس لها. وبما كان في تلك الشائعات ما ينبى عما يكفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام[٢٣].

١٣٠٨م : محاكمة نظام المعبد الدينى العسكرى

وعندما ذهب جيمس (أوف مولاى) إلى فرنسا سنة ١٣٠٦م لمناقشة البابا كلمنت فى شأن الحملة الصليبية المتوقعة ، سمع عن اتهامات موجّهة إلى نظامه الدينى العسكرى، فطلب إجراء تحقيق عام ؛ وتردد البابا الذى تحقق من أن الملك فيليب قد عقد العزم على إلغاء النظام ، و لم يجرؤ على الإساءة إلى الملك . وفى أكتوبر ١٣٠٧م قام الملك فيليب فجأة باعتقال جميع أعضاء النظام الموجودين فى فرنسا وحاكمهم بتهمة الهرطقة التى ساقها فارسان من ذوى السمعة السيئة كانا قد طُردا منه . وأدلى المتهمون بالاعترافات تحت التعذيب ، ورغم أن القليل منهم أنكر التهم كلها ، أقبل أغلب المتهمين على الإقرار بما طلب منهم. وفى الربيع التالى ، وبناء على طلب الملك فيليب ، أمر البابا بأن يقوم كل حاكم يوجد فى الأراضى التابعة لسلطته أية ممتلكات لنظام المعبد الدينى العسكرى باعتقال أعضاء النظام والبدء فى محاكمة مماثلة ؛ وبعد شئ من التردد استجاب مختلف ملوك أوروبا فيما عدا دينيس البرتغالى الذى لم يكن ليدخل فى هذا الأمر المؤسف . وفى غير ذلك المكان صودرت ممتلكات نظام المعبد ، واقتيد الفرسان ليمثلوا أمام المحاكم . و لم يكن التعذيب يستخدم دائما ، ولكن كان هناك استجواب ثابت . وكان المتهمون يعرفون أنه يُنتظر منهم أن يعترفوا ، وقد اعترف

---

(٢٣) توجد مناقشة استدلالية حول السمعة الشائهة لنظام فرسان المعبد الدينى العسكرى أوردهاMartin فى مؤلفه (محاكمة فرسان المعبد *The Trial of the Templars*, pp. 18-24, 46-50) وتسببت فضيحة محاكمتهم الجائرة فى أن يميل المؤرخون إلى رفع اللوم عنهم كليّة ، غير أنه من الواضح أن الريب التى حامت حول عاداتهم لم تكن بلا أساس تماما . وقد نشر Lizerand المستندات والمصادر ذاتِ الصلة فى مؤلفه (إضبارة مسألة فرسان المعبد. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*) وتعتبر آخر مؤرخة لهم ، الآنسة ميلفين Mlle Melvin، متعاطفة معهم للغاية فى مؤلفها حياة فرسان المعبد (*La Vie des Templiers*, pp. 246 ff.)

الكثير منهم(٢٤).

وكان تعاون حكومة قبرص يمثل جانبا خاصا من اهتمامات البابا ؛ إذ كان مقر النظام يقع فى الجزيرة . بيد أن حاكم الجزيرة الآن هو شقيق الملك هنرى الثانى ، أماليك ، الذى تمكن بمساعدة نظام المعبد من تنحية الملك مؤقتا عن سلطاته ووصل رئيس الراهب هايتون من أفينيون فى مايو ١٣٠٨م يحمل خطابا من البابا يأمر فيه باعتقال كافة الفرسان على الفور إذ اتضح أنهم كافرون . وتلكأ أماليك فى تنفيذ الأمر مما أتاح للفرسان الوقت للإستعداد للدفاع عن أنفسهم بقيادة مارشالهم آيمى (أوف أوسيلير) ؛ على أنه بعد تناوش مسلح قصير استسلموا فى أول يونية. وكانوا قد أخفوا جزءا ضخما من ثروتهم بعناية شديدة بحيث لم يُسترجع أبدا ؛ ونُقل الجزء الباقى من ثروتهم من ليماسول إلى بيت أماليك فى نيقوسيا ، ووضع الفرسان تحت الحراسة فى كيروكيتيا ويورماسويا أول الأمر ثم فى ليفكارا ، حيث ظلوا ثلاث سنوات. وفى مايو ١٣١٠م ، وبعد عودة الملك هنرى الثانى إلى السلطة ، حوكم فرسان المعبد القبارصة نظرا لإصرار البابا على ذلك وبغاية السرعة . وقد سبق لكثير من إخوانهم أن حُرقوا فى فرنسا ، وفى سائر أنحاء أوروبا كان أعضاء النظام يسجنون أو يجردون من كل ما يملكون . ولم يكن الملك هنرى يشعر بالرضا حيال الفرسان الذين خذلوا قضيته قبل سنوات قليلة، بيد أنه أتاح لهم محاكمة عادلة . وتم توجيه الإتهام إلى ستة وسبعون فارسا منهم ، وأنكروا جميعا تلك التهم ؛ وأقسم شهود بارزون على براءتهم ، وأعلن واحد من شهود قليلين معادين لهم أنه لم تأخذه الريبة فيهم إلا بعد سماع رواية البابا عن جرائمهم . وبرئت ساحتهم كليّة . وعندما وصلت أنباء براءتهم إلى أفينيون ، كتب البابا مغاضبا إلى الملك هنرى لإجراء محاكمة ثانية ؛ وأرسل مندوبا بابويا شخصيا ، دومينيك باليسترينا ، للتأكد من إنفاذ العدالة التى أمر بها البابا . وأعيدت المحاكمة سنة ١٣١١م ، لكن نتيجتها غير مسجّلة .وكان البابا كلمنت قد أمر - إذا ما أحدق خطر تبرئة ثانية - بأن يتدبر دومينيك الحصول على مساعدة الرهبان الدومينيكان والفرنشيسكان فى اللجوء إلى التعذيب ؛ وقد أُرسل المندوب البابوى فى الشرق ، بطرس أسقف روديز ، إلى قبرص لمساعدة دومينيك فى مساعيه . ولذلك احتفظ الملك بحكمه على مايبدو وأبقى المتهمين فى السجن . وكانوا لا يزالون فى السجن فى سنة ١٣١٣م ، عندما وقف بطرس أسقف روديز أمام جميع أساقفة الجزيرة

---

(٢٤) Martin, *op. cit.* pp. 28-46; Melvin, *op. cit.* pp. 249-57.

وكبار رجال الدين فيها وقرأ عليهم مرسوم البابا المؤرخ فى ١٢ مارس ١٣١٢م ، بإلغاء النظام كله وتسليم كافة ثرواته وممتلكاته لنظام فرسان المستشفى ، بعد تعويض السلطات المدنية عما تكبدته من مصروفات فى شتى المحاكمات . ووجد الملوك فى سائر أنحاء أوروبا أن هذه المصروفات مرتفعة على نحو كبير ؛ ولم يتسلم نظام فرسان المستشفى سوى جزء ضئيل من الممتلكات الفعلية . ولم يُفرج عن قادة فرسان المعبد فى قبرص أبدا ؛ بيد أنهم كانوا أسعد حظا من سيدهم الأعظم الذى بعدما أمضى سنوات فى السجن والتعذيب وفى الإدلاء بكثير من الإعترافات والتراجع عنها، أحرق حتى الموت فى باريس فى مارس ١٣١٤م(٢٥) .

أزيل فرسان المعبد من قبرص وهاجر فرسان العبد إلى رودس ، فباتت المملكة القبرصية الحكومة المسيحية الوحيدة المهتمة فعليا بالأراضى المقدسة . وكان الملك ملكا للقدس من الناحية الإسمية ؛ وظل الملوك لأجيال كثيرة لاحقة يتوجون بالتاج القبرصى فى نيقوسيا ثم يُتوجون بتاج القدس فى فاماجوستا ، وهي المدينة الواقعة على أقرب مسافة من أراضيهم المفقودة . وفضلا عن ذلك ، كان الساحل السورى ذا أهمية استراتيجية لقبرص ؛ إذ أن وجود عدو شرس فى سوريا خليق بأن يجعل وجودها نفسه معرضا للخطر . ولحسن الحظ ، كان السلطان يخشى حملة صليبية جديدة ولذا بقيت الموانى السورية دون الإستفادة بها ، وفضّل أن يتركها هكذا مهجورة . ومع ذلك ، ظلت قبرص فى خطر دائم من مصر . ولمّا كان الملك هنرى يعتقد أن الهجوم خير وسائل الدفاع ، فقد أرسل في سنة ١٢٩٢م خمس عشرة غليونا يساعدهم عشرة غلايين من البابا ، للإغارة على الإسكندرية . بيد أنه كان جهدا عقيما ، ولم تكن له من نتائج سوى تصميم الأشرف على غزو قبرص ؛ وعندما أمر ببناء مائة غليون صاح قائلا "قبرص ، قبرص ، قبرص"، غير أنه كانت لديه مخططات أخرى أكبر . فينبغى أولا اقتلاع المغول والإستيلاء على بغداد . وشعر أمراؤه بالخطر من طموحاته فاغتالوه يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٢٩٣م ؛ وكان اغتياله بمثابة جائزة بائسة للأمير الشاب ذى العزم ، الذى أتم ما بدأه صلاح الدين ونظّف سوريا من بقايا الصليبيين الأخيرة(٢٦) .

---

(٢٥) Hill, *op. cit.* ii, pp. 232-6, 270-4

(٢٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 61-2; Thaddeus, p. 43; Sanudo, p. 283; Wiet, *L'Egypte Arabe*, p.461

١٢٩٩-١٣٠٨م : المغول يغزون سوريا ثانية

كان الأشرف مصيبا فى ألا يغفل عن المغول . ففى سنة ١٢٩٩م ، وفى عهد المملوك السلطان الناصر محمد، الذى لم ينعم بفترة سلام فى كثير من الأحوال، زحف غزان المغولى - الذى غير لقبه من الخان إلى السلطان - على سوريا غازيا واحتث شأفة قوات الدفاع المملوكى فى سلامية القريبة من حمص يوم ٢٣ ديسمبر . وفى يناير ١٣٠٠م استسلمت له دمشق واعترفت بسيادته ؛ ورجع إلى فارس فى الشهر التالى معلنا أنه سرعان ما سيعود لغزو مصر . وعلى الرغم من أن غزان كان مسلما إلا أنه فكان يرحب بالتحالف مع مسيحيين. وسارع ريموند لُلْ إلى سوريا فور سماعه بأنباء غزوه لسوريا ، لكنه وصل بعد مغادرة غزان لسوريا ، فعاد إلى قبرص والتمس من الملك مساعدته فى الذهاب فى بعثة تبشيرية إلى الحكام المسلمين . وتجاهل الملك هنرى طلبه هذا ، لأنه لم يوافق على أن أفضل وسيلة لكسب صداقة الكفرة هى كشف أخطائهم لهم ، والأحدى اتباع نهج دبلوماسي ، غير أنه لم يتم شئ ، وانتهت الفرصة عندما هُزم الجيش المغولى سنة ١٣٠٣م عند مرج السفر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، فى سنة ١٣٠٨م ، دخل غزان سوريا مرة أخرى ، وتوغل هذه المرة حتى القدس. وأشيع عنه أنه كان على استعداد لتسليم المدينة المقدسة للمسيحيين إذا عرضت عليه أية دولة مسيحية التحالف معه . وفى ذلك الوقت كان البابا وفيليب ملك فرنسا يرفعان عقيرتهما بالدعاية لحملتهما الصليبية المزمعة ، ورغم ذلك لم ترد للمغول أية عروض من الغرب ، بينما تسببت المشاحنات بين الملك هنرى وأخيه فى تحويل قبرص إلى دولة عاجزة . وعلى أية حال ، ربما وجد غزان - الذى حسَّن إسلامه بعد تحوله اليه - صعوبة تنفيذ مثل ذلك الوعد[٢٧]. وبوفاته سنة ١٣١٦م ، تبددت فرص وجود تحالف مغولى مع المسيحيين . أما ابن أخيه وخليفته أبو سعيد ، فقد غيّر اتجاهه نحو المصالحة مع مصر . وكان آخر الحكام المغول العظام الذين حكموا فارس ؛ وبعد وفاته سنة ١٣٣٥م بدأت الخانية الأولى تتفكك[٢٨].

وعلى الرغم مما كان يبدو من عزلة مملكة قبرص ، فلم يكن هناك من خطر عاجل

---

(٢٧) Gestes des Chiprois, pp. 296-306; Hill, *op. cit.* ii, pp. 212-15; Atiya, *op. cit.* pp. 90-1. أما المؤرخ Felix Fabri ، الذى كتب بعد ذلك بقرنين تقريبا ، فيذكر رواية أسطورية عن الإمبراطور التترى الطيب "كازانوس" Casanus الذى كان - بحسب قوله - مسيحيا عرض إعادة القدس الى المسيحيين. trans. Stewart, P.P.T.S. vol.x, pp. 372-8.

(٢٨) Brown, *op. cit.* iii, pp. 51-61.

يتهددها ؛ إذ لم يكن لدى السلطان ، حتى بعدما ذهب عنه ما يشغله عن المغول ، ما يكفى من القوة البحرية للمجازفة بالحملة على الجزيرة ؛ ولم يكن راغبا فى الإساءة إلى الجمهوريات الإيطالية ، إذ أنه كان يكتسب هو الآخر منافع كبيرة من تجارتهم . وقد انتزع إرواد من فرسان المعبد سنة ١٣٠٢م ، وكان حريا بأن يترك قبرص وشأنها لولا أنها باتت قاعدة لحملة صليبية جديدة ؛ وحاولت الحكومة القبرصية من جانبها ، بقدر ما تسمح به الطبائع الشخصية والأسر الحاكمة ، أن تكون على علاقة وثيقة بملوك أرمينيا فى كيليكيا ، ومع ملكي أراجون وصقلية ، الذين كانت أساطيلهما تفرض الاحترام(٢٩).

بعد أن خبت جذوة حديث الغزو الصليبي الذى أوحى به فيليب ملك فرنسا ، كانت هناك فترة هدوء. غير أن فيليب السادس أعاد الحياة إلى هذا الحديث سنة ١٣٣٠م . وكانت نواياه تتصف الإخلاص البالغ على خلاف نوايا عمه ، وشجّع نواياه تلك البابا جون الثانى والعشرون. ومرة أخرى قدمت المذكرات إلى البلاطين البابوي والملكى ؛ وكتب طبيب ملكة فرنسا ، جوى (أوف فيجيفانو) ، مقالا موجزا عن الأسلحة المطلوبة(٣٠). وكان هناك برنامج أطول وأكثر تفصيلا أرسله إلى الملك المدعو بوركارد ، وهو كاهن كان يعمل فى كيليكيا من أجل ضمان ضم الكنيسة الأرمينية إلى روما . وكانت مقترحات بوركارد كثيرة ، لكنها عقيمة ؛ إذ أنه أظهر عداوة للمسيحيين الإنشقاقيين والهراطقة تفوق عداوته للمسلمين ، واعتبر أن غزو الصرب وبيزنطة الأرثوذوكسيتين جزء أساسى فى أية حملة صليبية . ولم تناقش مخططاته لإختبارها . وقبل أن تنطلق أية حملة صليبية كان ملك فرنسا مشغولا باندلاع حرب المائة عام مع انجلترا(٣١).

وفى تلك الأثناء كان هناك برنامج أحدى ، لا يتطلب أية حملة عسكرية ضخمة ، نشره المؤرخ مارينو سانودو Marino Sanudo الذى كان احد أفراد بيت دوقية جزيرة ناكسوس(٣٢)، وكانت الدماء اليونانية تجرى فى عروقه، وكان مراقبا فطنا ورائدا فى

(٢٩) *Gestes des Chiprois,* p. 309, dating the capture of Ruad 1303; Sanudo, p.242, dating it 1302. See Hill, *op. cit.* ii, pp. 215-16

(٣٠) Atiya, *op. cit.* p. 96.

(٣١) *Ibid.* pp. 96-113.

(٣٢) (المترجم) جزيرة ناكسوس: Naxos أكبر الجزر فى مجموعة Cyclades اليونانية جنوب بحر إيجة

علم الإحصاء . وكان مؤلفه Secreta Fidelium Crucis ، الذى ظهر سنة ١٣٢١م تقريبا، يضم تاريخا للحملات الصليبية ، مصطبغا نوعا ما بمقاصد القائمين على الدعاية، لكنه يتصل فى أغلبه بمناقشة مفصّلة لوضع الشرق الإقتصادى . وكان يرى أن السبيل الأنجع لإضعاف مصر يكمن فى حصار اقتصادى ، غير أنه تحقق من استحالة منع التجارة الشرقية فجأة ؛ إذ يجب العثور على طرق ومصادر إمدادات بديلة . وكان تحليله متعمقا ، وتميزت اقتراحاته ببعد النظرة والشمول . ولسوء الحظ ، ليس هناك من سبيل لتنفيذها إلا إذا تعاونت كافة القوى الأوروبية ، وهو الأمر الذى يستحيل تحقيقه الآن[٣٣].

١٣٥٩م : استخلاف بطرس الأول القبرصى

وفى واقع الأمر ، كانت هناك محاولة وحيدة لإنقاذ الأراضى المقدسة من الكفرة . ففى سنة ١٣٥٩م اعتلى بطرس الأول عرش قبرص ؛ وكان أول عاهل بعد القديس لويس الفرنسى تتحرق رغبته العارمة ليقاتل فى حرب مقدسة. وكان قد أنشأ وهو شاب نظام فروسية جديد أطلق عليه اسم فرسان السيف بهدف واحد معروف ألا وهو استعادة القدس ، واحترأ على سخط والده الملك هيو الرابع ومحاولة السفر إلى الغرب للفوز بمجندين لحملته الصليبية . ودارت حروبه الأولى بعد اعتلائه العرش ضد أتراك الأناضول حيث اكتسب موطئ قدم بحصوله على غابة كوريكوس من الأرمن. وفى سنة ١٣٢٦م انطلق فى جولة عامة فى العالم المسيحي لتعزيز هدفه ؛ وبعد زيارته لجزيرة رودس حيث حصل على وعود بالمساعدة من فرسان المستشفى ، أبحر إلى البندقية ومكث فيها إلى ما بعد بداية العام الجديد ١٣٦٣م . وأبدى البنادقة تعاطفهم رسميا مع مخططاته . وبعد زيارته لميلانو ، ذهب إلى جنوا حيث انشغل بتسوية خلافات بين مملكته وجمهورية جنوا، وفاز بمؤازرة يعوزها الوضوح من أبناء جنوا .ووصل أفنيون يوم ٢٩ مارس ١٣٦٣م ، أي بعد أشهر قليلة من انتخاب البابا إيربان الخامس. وكانت مهمته الأولى هي حماية حقه فى عرشه من هيو لمير الجليل ابن أخيه الأكبر المتوفى. وحصل هيو على تعويض فى صورة راتب تقاعدى سنوى قدره خمسين ألف بيزانت . وبينما كان فى أفينيون ، زار المدينة جون الثانى ملك فرنسا ووعده بتعاونه

(٣٣) *Ibid.* pp. 114-27; Hill, *op. cit.* iii,p. 1144 . وترد نشرة Sanudo الوحيدة فى Bongars, *Gesta Dei per Francos,* vol. ii.

الوثيق ، وأخذ الملكان الصليب معا فى إبريل ومعهما الكثير من النبلاء الفرنسيين والقبارصة ؛ وفى ذات الوقت كان البابا يبشر بالحرب المقدسة وعيّن الكاردينال تاليراند مندوبا بابويا. ثم قام بطرس بجولة طاف فيها بفلاندرز وبرابانت والراينلاند(٣٤). وفى أغسطس ذهب إلى باريس لمقابلة الملك جون مرة أخرى.

١٣٥٦م : الملك بطرس يخطط حملته الصليبية

وقررا أن تنطلق الحملة في شهر مارس التالى . وغادر بطرس باريس قاصدا مدينتي روين وكاين في شمال غرب فرنسا وأبحر إلى انجلترا . وأمضى شهرا تقريبا فى لندن حيث أقيم احتفال ضخم ومسابقات الفروسية على شرفه في سميثفيلد . وأهداه الملك إدوارد الثالث سفينة جميلة تدعى كاثرين وأموال لتغطية ما تكبده مؤخرا من مصروفات ؛ ولسوء الحظ سُرقت منه الأموال وهو فى طريق عودته إلى الساحل . وعاد إلى باريس لتمضية أعياد الميلاد ثم اتجه جنوبا إلى اقليم أكيتان لمقابلة الأمير الأسود فى بوردو(٣٥). وأثناء وجوده هناك تلقى فى أسى نبأ موت الكاردينال تاليراند فى يناير ١٣٦٤م ، ثم موت الملك جون الفرنسى في شهر مايو . وذهب إلى سانت دنيس للمشاركة فى جنازة جون ، ثم إلى ريم لحضور تتويج خليفته تشارلز الخامس ، ثم ذهب إلى ألمانيا حيث عرض فرسان ومواطنو مدينتي إيسلنجن وإيرفورت الإنضمام إلى حملته الصليبية ، غير أن مارجريف دوق فرانكونيا ورودولف الثانى دوق ساكسونى ، وبرغم استقبالهما له بمراسم التشريف ، قالا إن قراريهما يتوقف على الامبراطور ؛ ولذا ذهب مع رودولف إلى براغ حيث يقيم الامبراطور تشارلز الذى أكد له حماسه ودعا بطرس لمصاحبته إلى كراكو حيث كان على وشك أن يعقد مؤتمرا مع ملكي هنجاريا وبولندا . وهناك اتفق على إرسال بيان إلى كافة أمراء الإمبراطورية يدعوهم إلى التعاون فى الحرب المقدسة . وبعد أن زار بطرس فيينا ، حيث وعده رودولف الرابع دوق النمسا بمزيد من المساعدة ، عاد إلى البندقية فى نوفمبر ١٣٦٤م. وكان جنوده قد ساعدوا البنادقة مؤخرا فى قمع تمرد فى جزيرة كريت ، ومن ثم استقبلته البندقية بأسمى آيات

(٣٤) (المترجم) فلاندرز :Flanders إقليم شمال غرب أوروبا على بحر الشمال يضم جزءا من شمال غرب فرنسا وأجزاء من بلجيكا . برابانت :Branbant دوقية سابقة فى غرب أوروبا نشأت فى أواخر القرن الثانى عشر ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠م قسّمت بين هولاندا وبلجيكا . راينلاند :Rhineland الجزء من ألمانيا الواقع غرب نهر الراين

(٣٥) (المترجم) الأمير الأسود : Black Prince إسم لأمير ويلز ، إبن إدوارد الثالث ١٣٣٠-١٣٧٦م.

التشريف، ومكث هناك حتى نهاية يونية ١٣٦٥م . وأثناء تواجده هناك وقّع على معاهدة مع جنوا بتسوية كافة الخلافات الهامة(٣٦).

وفى تلك الأثناء كان البابا إيربان يكتب بهمة لا تعرف الكلل إلى أمراء أوروبا يحثهم على الإنضمام إلى الحملة ؛ وتعززت جهوده بنشاط جديد أضفاه عليها المندوب البابوى الجديد إلى الشرق بطرس (أوف ساليجناك دى توماس) وهو البطريق الإسمى للقسطنطينية ، الذى يتميز بشدة حرصه على التماسك ، ومعارضته للإنشقاقيين وللهراطقة وللكفار ، ويتميز بولاء حاز احترام حتى من كان يضطهدهم . وكان يعمل معه تلميذه فيليب (أوف ميزيير) ، وهو صديق حميم للملك بطرس ، الذى عيّنه مستشارا لقبرص . ما اجتمعوا عليه ولم يسفر من نشاط عن أعداد المجندين التى كان يتوقعها الملك بطرس وتلقى بها الوعود ؛ فلم يتقدم أحد من الألمان ، ولا أحد من كبار نبلاء فرنسا أو انجلترا أو الأراضى المجاورة ، بخلاف إيمى كونت جنيف و وليم روجر فيكونت تورين وإيرل هيريفورد . على أنه كان هناك الكثير من الفرسان الأقل شأنا الآتين من أماكن قصيّة كاستكتلاندا ؛ وقبل أن يغادر الملك بطرس البندقية ، تجمع هناك جيش كبير مخيف. لقد كان الإسهام البندقى مفيدا على نحو خاص ، إلا أن جنوا بقيت متنائية(٣٧).

ولقد تقرر أن تتجمع الحملة الصليبية فى رودس فى أغسطس ١٣٦٥م ، وبقيت محطتها التالية سرا ؛ فلو أن بعض تجار البندقية أخبر المسلمين لكان هناك خطر جسيم. ووصل الملك بطرس إلى رودس فى وقت مبكر من الشهر ، وفى الخامس والعشرين أبحر الأسطول القبرصى كله ودخل المرفأ ، وكان قوامه مائة وثمانى سفن من كافة أنواعها ، غلايين وسفن نقل وسفن تجارية وزوارق خفيفة ؛ وبإضافة ما قدمته البندقية وفرسان المستشفى من غلايين ضخمة ، بلغ عدد سفن الأسطول كله مائة وخمس وستين سفينة، كانت تحمل جيشا كاملا من الجنود مع جياد وفيرة ومؤن وأسلحة ؛ ومنذ الحملة الصليبية الثالثة لم تخرج حملة تتناسب مع حجم هذا الجيش إلى الحرب المقدسة ؛ وعلى الرغم من خيبة الأمل لغيبة عواهل الغرب العظام ، كانت هناك ميزة فى المقابل ألا وهى أن الملك بطرس كان القائد بلا منازع . وفى أكتوبر كتب لمليكته إلينور الأراجونية بأن كل شئ على أهبة الإستعداد ، وفى الوقت نفسه أصدر أمرا إلى جميع رعاياه فى سوريا

---

(٣٦) للإطلاع على رحلة بطرس أنظر Atiya, *op. cit.* pp.330-7; Hill, *op. cit.* ii, pp. 324-7

(٣٧) Atiya, *op. cit.* pp. 337-41.

بالعودة إلى الوطن مانعا إياهم من المتاجرة هناك . كان يريد أن يُظن أن هدفه هو سوريا[٣٨].

١٣٦٥م : الحملة تهاجم الإسكندرية

بعدما اتّخذ القرار بمهاجمة السلطان ، كان اختيار الإسكندرية كهدف اختيارا ذكيًا . ذلك أنه من غير المجدى غزو سوريا أو فلسطين بدون قاعدة على الساحل ، وكان المصريون قد دمروا الموانى هناك عمدا باستثناء طرابلس ؛ وقد أظهرت الخبرة السابقة أنه عندما فقد حاكم مصر دمياط كان على استعداد للتخلى عن القدس لإستعادتها ؛ وكانت الإسكندرية بمثابة جائزة أثمن من دمياط ، وبإمكان غزاتها أن يصبحوا فى وضع تفاوضي أفضل ؛ كما أن الإسكندرية ستكون قاعدة رائعة لمزيد من التقدم ؛ ويقينا بها المؤن الوفيرة ، وقنواتها تجعل الدفاع عنها يسيرا من اليابسة ، فضلا عن أنها الميناء الذى من خلاله تمر كل تجارة السلطان تقريبا عبر البحار ، ولسوف يتسبب فقدها فى إخضاع أراضيه لنوع من الحصار الإقتصادى الشديد ، ومن غير المحتمل كذلك أن يتوقع السلطان هجوما على مدينة يتوفر فيها للتجار المسيحيين مثل هذه المصالح الضخمة ، كما اختيرت اللحظة اختيارا جيدا . وكان السلطان شعبان صبيا فى الحادية عشرة من عمره وكانت السلطة فى قبضة الأمير يلبغا الذى كان مكروها من رفاقه الأمراء ومن الشعب . وكان والى الإسكندرية خليل بن عرام متغيبا يؤدى فريضة الحج فى مكة ، وكان نائبه على الإسكندرية جنغرة ضابطا صغيرا بحامية لا تكفى ولا أمل فيها . ومن الناحية الأخرى ، كان المشهور عن أسوار الإسكندرية قوتها ؛ وحتى لو استولى الأعداء على مينائيها وعلى شبه جزيرة فاروس التى تتوسطهما، فما زالت هناك تحصينات ضخمة بطول جبهة الميناء.

ووصل الأسطول أمام الإسكندرية فى مساء التاسع من أكتوبر ، وظن المواطنون بادئ الأمر أنه أسطول تجاري ضخم وتهيّأوا للخروج للمساومة . و لم تتضح نوايا الأسطول إلا فى الصباح التالى عندما دخلت السفن الميناء الغربى و لم يدخل من الميناء الشرقى الذى كان يستقبل وحده السفن المسيحية . وسارع نائب الوالى جنغرة بتركيز رجاله على الشاطئ الأمامى ليحول دون الهبوط عليه ؛ وبرغم بسالة بعض الجنود

---

(٣٨) Atiya, *op. cit.* pp. 341-4; Hill, *op. cit.* ii, pp. 329-31

المغاربة ، شق الفرسان المسيحيون طريقهم على الشاطئ. وبينما تدفق التجار الوطنيون خارجين من المدينة عبر البوابات المؤدية إلى داخل البلاد، تقهقر حنغرة إلى ما وراء الأسوار وجمع حاميته الصغيرة للسيطرة على القطاع المواجه لمكان الإنزال . وكان الملك بطرس ينتوى التوقف عن الهجوم لرغبته في هبوط جميع رجاله وخيوله على مهل فى شبه جزيرة فاروس ، غير أنه عندما استشار قادته وجد أن الكثير منهم يعارض اختيار الإسكندرية كهدف قائلين إنهم من القِلّة بحيث لا سبيل لهم للإحتفاظ بمثل هذه القلعة الضخمة ، ولا التقدم منها إلى القاهرة ، وأعربوا عن رغبتهم فى الإبحار إلى مكان آخر، لكنهم سوف يبقون إذا تم الإستيلاء فورا على المدينة بقصفها قبل أن يتمكن السلطان من إرسال قوات تخلصها. واضطر بطرس إلى النزول على رغبتهم وبدأ فى التو الهجوم على السور الغربي كما توقع حنغرة ؛ وأثناء التصدى لهم هناك ، انتقل المهاجمون إلى القطاع المواجه للميناء الشرقى . وكان المكان الموصل بين القسمين بين الأسوار يمر عبر مبنى الجمارك الضخم؛ وكان أحد ضباط الجمارك غير الرسميين قد أقام المتاريس عبر الأبواب خشية السرقة. ولم يستطع حنغرة نقل رجاله فى الوقت المناسب لمواجهة الهجوم الجديد ، وظنوا أن المدينة قد فقدت فبدأوا فى التخلى عن مواقعهم والهرب فى الشوارع قاصدين البوابات الجنوبية حيث الأمان ، وبحلول ظهيرة يوم الجمعة العاشر من الشهر كان الصليبيون قد وطدوا مراكزهم داخل المدينة ، وتواصل القتال فى الشوارع. وفي ليل الجمعة شن المسلمون هجوما مضادا شرسا من خلال إحدى البوابات الجنوبية التى حرقها المسيحيون فى غمرة هياجهم ، وصُد الهجوم المضاد ؛ وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها فى قبضة الصليبيين.

١٣٦٥م : نهب الإسكندرية

واحتفل الغزاة بنصرهم فى وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلّم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهى المذابح سوى مذبحة القدس سنة ١٠٩٩م ومذبحة القسطنطينية سنة ١٢٠٤م . ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا فى أنطاكية ولا فى عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراء غير عادي ، وقد جُن جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذى عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين فى المدينة شاهدوا مصانعهم ومخازنهم تُنهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على

المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دمروه ؛ ولم تسلم الكنائس من نهبهم رغم أن سيدة قبطية كسيحة شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها ، ومَن توانى منهم فى تسليم كل ممتلكاته قُتل هو وأسرته ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف سجين من المسيحيين واليهود والمسلمين ليبيعهم رقيقا. وحُملت الأسلاب على ظهور الخيول والحمير والجمال التى سارت فى خط طويل لنقلها إلى السفن الراسية فى الميناء ، وبعدما انتهت الدواب من مهمتها قتلت فى أماكنها . وغرقت المدينة كلها فى رائحة حثث الآدميين والدواب.

وعبثا حاول الملك بطرس الحفاظ على النظام . وكان فى مأموله الإحتفاظ بالمدينة، ولكنه هدم الجسر الذى يعبر القناة والمؤدى إلى الطريق الذاهب إلى القاهرة بعد أن أحرق الصليبيون البوابات . على أنه لم يكن للصليبيين رغبة سوى العودة بأسلابهم إلى بلادهم بأسرع ما يمكن ؛ إذ كان هناك جيش آت من القاهرة وكانوا عازفين عن المخاطرة بدخول المعركة؛ بل إن شقيق الملك أخبره باستحالة الدفاع عن المدينة ، بينما أعلن فيكونت تورين صراحة ، ومعه أغلب الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، أنهم لن يبقوا فى المدينة بعد الآن ؛ وعبثا اعترض بطرس والمندوب البابوى ؛ وبحلول يوم الخميس السادس عشر لم يكن هناك بالمدينة سوى قليل من الجنود القبرصيون ، وعاد باقى أفراد الحملة إلى السفن على أهبة الإستعداد للرحيل . وبوصول المصريين إلى ضواحى المدينة ، اعتلى بطرس نفسه غليونه وأعطى الأمر بالجلاء . وناءت الأسلاب بالسفن بحيث كان لابد من أن يُطرح فى البحر كثير من قطع الأسلاب الكبيرة . ودأب الغواصون المصريون لشهور تلت على إنقاذ أشياء ثمينة من المياه الضحلة أمام أبى قير(٣٩).

وكان بطرس والمندوب البابوى يعلقان الآمال على أن يبدأ الصليبيون ، بعد تخزين أسلابهم بأمان فى قبرص ، فى الخروج مرة أخرى فى حملة جديدة ؛ غير أنهم ما أن وصلوا فاماحوستا حتى بدأوا جميعا فى إعداد العدة للرحيل إلى أوطانهم فى الغرب . وتهيأ المندوب البابوى للحاق بهم للعثور على مجندين مكانهم ، لكنه مرض مرضا مميتا قبل أن يغادر الجزيرة . وأدى الملك بطرس صلاة شكر بعد عودته إلى نيقوسيا ، غير أنه

---

(٣٩) يورد وليم أوف ماشوت William of Machaut وصفا مسهبا لحملة الإسكندرية فى شعر حماسي جيد منثور . ed. Mas Latrie, esp. pp. 61 ff. ويبدو أن ماشوت لم يذهب قط إلى الشرق ؛ غير أن ما يورده من معلومات - باستثناء ما يتصل بمولد بطرس وموته - يعتمد عليها . وللإطلاع على قصة الحملة كاملة أنظر . Atiya, *op. cit.* pp. 345-69, also Hill, *op. cit.* ii, pp. 331-4

كان موجع القلب . وذكر انتصاره فى تقريره للبابا انتصاره ، كما ذكر خيبة أمله المريرة(٤٠) .

استقبل الغرب أنباء نهب الإسكندرية استقبالا متباينا ؛ فقد هلّل له بادئ الأمر على أنه نصر عسكرى وإذلال للإسلام . ولقد ابتهج البابا ، لكنه رأى ضرورة إرسال تعزيزات على الفور إلى بطرس ليحلوا محل الذين تخلو عن الحملة، ووعد تشارلز ملك فرنسا بإرسال جيش ، وأخذ الصليب أبرز فرسانه برتراند دو جوسلين ؛ كما أن أماديوس ، كونت سافوى ، المعروف فى القصص بالفارس الأخضر ، والذى كان يتهيّأ للإرتحال إلى الشرق ، قرر الإبحار إلى قبرص . غير أن البنادقة أعلنوا آنذاك أن بطرس عقد معاهدة سلام مع السلطان ؛ فكفّ تشارلز ملك فرنسا عن إعداد جيشه ، وذهب دو جوسلين ليحارب فى أسبانيا ، وذهب أماديوس إلى القسطنطينية(٤١) . أما البنادقة ، فلم يجدوا للحملة نتائج تبعث على السرور ، على خلاف البابا ؛ إذ كانوا يأملون فى استخدامها لتعزيز قبضتهم التجارية على الشرق ، والذى حدث هو أن ممتلكاتهم الوفيرة فى الإسكندرية قد دمرت ، وتوقفت كل تجارتهم مع مصر . وكاد تخريب الإسكندرية أن يدمّرهم كقوة تجارية ، وهو الأمر الذى أدخل البهجة على أبناء جنوا الذين كوفئوا على تخلفهم. وسرعان ما وقعت على الغرب كله آثار الحملة الصليبية ؛ فقد ارتفعت للغاية أسعار التوابل والحرير وغيرهما من البضائع الشرقية التى كان الجمهور قد اعتاد عليها الآن(٤٢) .

وواقع الأمر أن بطرس شرع فى التفاوض مع مصر ، لكن المرارة الشديدة تملّكت الجانبين بحيث ذهبت برغبة كل منهما فى السلام . فبينما كانت كراهية الشعب تعوق الأمير يلبغا ، الذى كان يحاول كسب الوقت حتى يتمكن من بناء أسطول يغزو به قبرص ، كان بطرس يغالى فى مطالبه بالتنازل عن الأراضى المقدسة ، وأعقب ذلك بغارات على الساحل السورى . على أن أتباعه بدأوا يشعرون بالخطر لما أصابه من هوس الحملة الصليبية ، وكانوا يخشون نضوب موارد الجزيرة فى قضية يائسة ؛ وعندما دبر فارس – سبق أن تشاجر معه بطرس – أمر اغتياله سنة ١٣٦٩م لم يحرك حتى إخوته ساكنا لإنقاذه. وفى العام التالى لوفاته عُقدت معاهدة مع السلطان ، وتم تبادل

(٤٠) Atiya, *op. cit.* p. 369.

(٤١) Atiya, *op. cit.* p.370; Hill, *op. cit.* ii, p. 335-6.

(٤٢) Machaut, pp. 115-16; Heyd, *Histoire du Commerce du Levant,* ii, pp. 52-5.

الأسرى ؛ وانتهى الأمر بمصر وقبرص إلى سلام مقلقل[٤٣].

كان هولوكوست الإسكندرية بمثابة علامة على انتهاء الحملات الصليبية التي كان هدفها المباشر استعادة الأراضي المقدسة . وحتى لو كان جميع الصليبيين على نفس القدر من الحماس كما كان الملك بطرس ، فمن المشكوك فيه ما إذا كانت الحملة ستجلب النفع على العالم المسيحي بأى حال من الأحوال ؛ فعندما بدأ تنفيذها كانت مصر في سلام مع الفرنج لما يزيد على نصف قرن ، وقد بدأ المماليك يفقدون كانوا عليه من تعصب ، وكان رعاياهم المسيحيون يعاملون معاملة أكثر طيبة ؛ وكان يُسمح للحجاج بحرية الحج إلى الأماكن المقدسة ؛ وكانت التجارة تزدهر بين الشرق والغرب. والآن عادت الحياة إلى مرارة المسلمين ؛ فعانى المسيحيون الوطنيون من فترة اضطهاد حديدة برغم براءتهم من الذنب ؛ ودمّرت الكنائس ، وحتى كنيسة القبر المقدس أغلقت لثلاث سنوات ؛ وأحدث توقف التجارة أضرارا جسيمة من كل ناحية في عالم لم يبرأ بعد مما أحدثه الطاعون الأسود من خراب[٤٤]؛ وبعدما كان المماليك على استعداد لتحمل وجود مملكة قبرص ، باتت الآن عدوا يتعين إزالته . وانتظرت مصر مدة ستين سنة لتأخذ بثأرها ، وكان التخريب الشنيع الذي حدث للجزيرة سنة ١٤٢٦م بمثابة عقاب مباشر لتخريب الإسكندرية[٤٥].

١٣٧٥م : انهيار المملكة الأرمينية

ولقيت المملكة المسيحية الوحيدة الأخرى في الشرق حتفها قبل قبرص . ولم يشترك أرمن كيليكيا في حملة الملك بطرس الصليبية ؛ لكن بيتهم الملكي أمسى الآن فرنجيا ، وللكثير من النبلاء علاقات وثيقة مع قبرص ، واعترفت كنيستهم بسيطرة روما. وطوال القرن الرابع عشر كان المصريون يضغطون على الأرمن ، إذ كانوا يرتابون بحق في أنهم أصدقاء الفرنج والمغول وأنهم غيورون من الثروة التي كانت تمر عبر طريق التجارة في مصر الذى يصل إلى البحر عند أياس. ولقد أدى انهيار الخانية

---

(٤٣) Atiya, *op. cit.* pp. 371-6; Hill, *op. cit.* ii, pp. 345-67; Heyd, *op. cit.* pp. 55-7.

(٤٤) (المترجم) الطاعون الأسود: Black Death طاعون وبائي اكتسح أوروبا وآسيا فيما بين عامي ١٣٤٧ و ١٣٥١م ، وربما كان كلا من الوباء الدّمّلي والوباء الرئوي ، وقد أهلك عددا من البشر يزيد على أي وباء آخر معروف أو حرب.

(٤٥) Atiya, *op. cit.* pp. 377-8.

المغولية إلى حرمانهم من أهم مؤيديهم ؛ وضم الأتراك أغلب أراضيهم في سنة ٣٣٧١م. وفى سنة ١٣٧٥م ، وبينما كان القبارصة مستغرقون فى حرب مريرة مع جنوا ، أكمل المسلمون الغزاة من المماليك وحلفائهم الأتراك إخضاع البلد؛ وهرب آخر ملك أرميني، ليو السادس ، إلى الغرب حيث مات كلاجئ فى باريس ، وبهذا انتهى الاستقلال الأرمينى(٤٦).

وحقيقة الأمر ، أن حملة صليبية كتلك التي خطط لها الملك بطرس لم تكن فى أوانها ؛ فلم يكن بوسع العالم المسيحى أن يحتمل هذا التفريط ؛ إذ كان عليه أن يواجه تهديدا بالغ الخطورة فى الشمال . ذلك أن مخططى الحملة الصليبية الأولى قد أدركوا بوضوح أن انقاذ الأراضى المقدسة يتوقف علي الإحتفاظ بقوة مسيحية فى الأناضول . غير أنه منذ أن مات البابا إيربان الثانى ، لم يتوفر لأي سياسى غربى أي قدر من الحكمة يوقفه على أن الاحتفاظ بالأناضول يعتمد على بيزنطة . ولقد سببت الحركات الصليبية في القرن الثاني عشر حرجا للأباطرة البيزنطيين . وأضافت تلك الحركات الصليبية مشاكل جديدة كان على بيزنطة مواجهتها، ولم تتح للأباطرة قط الفرصة لإخضاع الغزاة الأتراك . وربما كانت المهمة مستحيلة تماما ، ذلك أن أسلوب الغزو التركى ، فى تدمير الزراعة والاتصالات ، جعل استعادة الأناضول عملا عسيرا، بينما أدت طموحات الأباطرة المتنوعة، مثل مانويل وأندرونيكوس ، إلى مزيد من تبديد الطاقة . وقد سمحت كارثة منزيكرت سنة ١٠٧١م بدخول الأتراك إلى الأناضول ؛ وأما كارثة ميريوسيفالوم سنة ١١٧٦م فضمنت لهم البقاء هناك . غير أن الحملة الصليبية الرابعة ، وما سببته من دمار للنظام الإمبراطورى البيزنطى لا يرجى له إصلاح، كانت هى الحملة التى أتاحت للأتراك فرصة المضى إلى أبعد من ذلك . وفى القرن الثالث عشر أتيح للعالم المسيحى الفرصة الأخيرة للتعامل مع الأتراك ؛ فكانت قوتهم فى الأناضول حتى ذلك الوقت تعتمد على سلطنة قونية السلجوقية ؛ وقد أدت الغزوات المغولية التى بدأت سنة ١٢٤٢م إلى تقويض الدولة السلجوقية وتدميرها فى نهاية الأمر ؛ وكان الأباطرة البيزنطيون المقيمون فى المنفى في نيقية مدركين أن فرصتهم سانحة ، غير أن ما عرقل جهودهم مشاغلهم الأوروبية وتلهفهم على استعادة عاصمتهم

(٤٦) أنظر Tournebize, *Histoire Politique et Religieusze de l'Arménie*, pp. 644 ff., esp. pp. 654-30. والتاريخ الغامض لنهاية المملكة الأرمينية يتوقف أساسا على تاريخ الفرنشيسكانى جون دارديل the Franciscan John Dardel (published in *R.H.C., Documents Arméniens*, vol.ii).

الإمبراطورية فى مجابهة عداوة الغرب اللاتينى الذى كانت تعوزه البصيرة والخبرة ليفهم الوضع. وما أن أعاد البيزنطيون ترسيخ أنفسهم فى القسطنطينية حتى ضاعت الفرصة . وكان على أباطرة آل باليولوجوس أن يواجهوا الممالك الصغيرة القوية فى البلقان ، وطلبات الجمهوريات الإيطالية وخطر إعادة الغزو اللاتينى ، الذى كان أمرا واقعا إلى أن أعاقت صلوات المساء الصقلية تشارلز أوف أنجو ؛ وفى نهاية القرن الثالث عشر كان الوقت متأخرا جدا ؛ فقد ذهب السلاجقة، ولكن مكانهم شغلته عدة إمارات نشطة وطموحة ، تقويها هجرة القبائل التركية التى كانت خاضعة للمغول . وكان اقتلاعهم يحتاج إلى جهود طويلة متناسقة . وكان من بين أهم الأمراء كرمان الكبير ، الذى امتدت أراضيه تمتد بطول البلاد من فيلادلفيا حتى جبال طوروس المقابلة . وكان هناك أمراء آخرون مستقرين فى أضاليا ، فى آيدين (ترال) وفى مانيسة (مغنسية) . وكان الساحل الشمالى ما يزال فى قبضة بيزنطة وأختها امبراطورية طرابزون ، وكان التركمان يحتلون البلاد الواقعة جنوب طرابزون ؛ وفى الشمال الغربي كانت هناك إمارة جديدة عفيّة تبرز تحت أمير مقدام يدعى عثمان(٤٧).

١٣٤٤م : الاستيلاء على أزمير

كان إدراك اللاتين بأهمية الأناضول يتزايد الآن ، رغم أنهم كانوا ينظرون إليها كقاعدة للعدوان عليهم بأقل مما كانوا ينظرون اليها على انها منطقة يحتاجون فيها إلى قواعد للسيطرة على البحر المتوسط . ولقد كان احتلال فرسان المستشفى لجزيرة رودس محض مصادفة ، غير أن ذلك كان ينطوى على توجه جديد. وكانت الجمهوريات الإيطالية مهتمة منذ زمن طويل بجزر بحر إيجة ، وكان من الطبيعى أن يمتد قلقها ، وقلق العالم اللاتينى كله ، إلى الأراضى الرئيسية المقابلة لتلك الجزر . وعندما قام الأمير عمر صاحب آيدين ، الذى كان فى حوزته ميناء أزمير الرائع ، ببناء أسطول للقرصنة فى مياه بحر ايجة ، لم يترك البنادقة والفرسان فى رودس الأمر يمر دون أن يفعلوا شيئا . وفى سنة ١٣٤٤م أبحر أسطول مغيرا على أزمير أسهم فيه البنادقة ومن فى ركابهم بحوالى عشرين سفينة ، والفرسان بست سفن ، والبابا وملك قبرص بأربع

(٤٧) أنظر ;Koprülü, *Les* Gibbons, *The Foundation of the Ottoman Empire*, pp. 15-34; *Origines de l'Empire Ottoman*, pp. 34-79; Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, pp. 33-51 .

قطع. وكان القائد هو بطريق القدس اللاتيني هنرى (أوف آستى) ، وهـزم أمير آيدين في معركة بحرية في يوم الصعود أمام مدخل الخليج . ورفض الحلفاء المسيحيون ، بناء على طلب البابا ، دعوة تقدم بها لورد حزيرة خيوس السابق واستولى الأسطول، في طريقه إلى أزمير، على حزيرة خيوس، فطلب صاحبها السابق إعادتها إليه، ولكن الحلفاء المسيحيين رفضوا ذلك بناء على طلب البابا واستروا في الاتجاه شمالا إلى أزمير التي قاومت مقاومة قصيرة ثم وقعت في أيدى المسيحيين يوم ٢٤ أكتوبر رغم صمود القلعة . ويعزى هذا النصر اليسير في أساسه إلى أن الأمير عمر لم يكن مستعدا وأنه يغار ويخشى رفاقه الأمراء ؛ فجاء بجيشه لإنقاذ المدينة بعد فوات الأوان. غير أنهم استدرجوا إلى محاولة غزو البلاد. فلحقت بهم هزيمة منكرة على بعد أميال قليلة من المدينة ، وقتل هنرى (أوف آستى) ومارتين زاخاريا . وبعد أن فشل الأتراك في استعادة ازمير تم توقيع معاهدة فى سنة ١٣٥٠م قضت بأن يعهد بالمدينة إلى فرسان المستشفى رغم بقاء القلعة فى أيدى الأتراك . واحتفظ فرسان المستشفى بأزمير حتى سنة ١٤٠٢م عندما قصفها تيمور(٤٨).

وبينما كان مصير أزمير ما يزال في الميزان ، أعلن نبيل فرنسي يدعى همبرت الثاني ، دوفين (أوف فيين)(٤٩)، عن رغبته في الذهاب في حملة صليبية إلى الشرق. وكان رجلا ضعيفا لا خير فيه ، وإن كان ذا ورع أصيل وبلا طموحات شخصية. وبعد شئ من التفاوض مع البابا ، تقرر أن يذهب لإستكمال الجهد المسيحي في أزمير؛ وفي مايو ١٣٤٥م انطلق من مرسيليا مع صحبة من الفرسان والقساوسة ، وانضم اليه في رحلته المتجهة شرقا جنود من شمال إيطاليا ؛ وبعد مغامرات شتى عديمة الفعالية ، وصل أزمير سنة ١٣٤٦م ، وهزم جيشه الأتراك في معركة خارج الأسوار . ولم يبق هناك طويلا ، وإنما عاد إلى فرنسا في صيف ١٣٤٧م . ولقد كانت الحملة كلها فريدة في عمقها، وتكمن أهميتها في أن الكنيسة باتت الآن مستعدة لأن تعتبر أية حملة ذاهبة إلى الأناضول بمثابة حملة صليبية(٥٠).

وفي سنة ١٣٦١م ، نال بطرس القبرصي مساعدة فرسان المستشفى في هجوم

(٤٨) Atiya, *op. cit.* pp. 290-300.

(٤٩) (المترجم) دوفين : Dauphin لقب الإبن الأكبر لملك فرنسا ، وهو لقب استخدم من ١٣٤٩ إلى ١٨٣٠م.

(٥٠) *Ibid.* pp. 300-18.

على ميناء أضاليا التركى، بعد أن حصل مؤخرا على كوريكوس من الأرمن ؛ وبعد قتال قصير سقط الميناء فى يديه فى الرابع والعشرين من أغسطس ؛ وسارع أمراء الجوار فى علايا ومونوفجات وتيكي إلى تقديم ولائهم له ، وهم يحسبون أن صداقته قد تكون نافعة ضد عدوهم الرئيسي كرمان الأكبر . وسرعان ما تخلوا عن خضوعهم وحاولوا غير مرة استعادة أضاليا التى بقيت ، مع ذلك ، فى القبضة القبرصية لستين عاما(٥١).

تنامي السلطنة العثمانية

وفى تلك الأثناء وجدت أوروبا نفسها مضطرة إلى تحويل انتباهها إلى الشمال . ذلك أن العقود الأولى من القرن الرابع عشر شهدت تناميا غير عادى فى قوة الإمارة التركية التى أسسها عثمان بن ارطغرل واتخذت لقبها "عثمانلية أو عثمانية" من اسمه؛ وكان عثمان فى سنة ١٣٠٠م زعيما ضئيل الشأن له أراض فى جنوب بيثينيا ، وعند وفاته سنة ١٣٢٦م كان سيد بروصا وأغلب الأراضى الواقعة بين أدراميتيوم ودوريليوم وبحر مرمرة . ويعزى توسعه جزئيا إلى دبلوماسيته الماهرة والمرنة إزاء رفاقه الأمراء ، والأهم من ذلك ، إلى ضعف بيزنطة . وفى سنة ١٣٠٢م ، استأجر الامبراطور أندرونيكوس الثانى فى حركة طائشة مجموعة من الكتالان يرأسها روجر فلور ، فارس المعبد السابق الذى جمع ثروته بسلوكه المشين أثناء نهب عكا . وحارب روجر الأتراك بنجاح ، وإن حارب بمزيد من النشاط سيده الإمبراطورى . وقتل سنة ١٣٠٦م ، لكن جماعة كتلان بقيت فى الأراضى الإمبراطورية فى تعاديها حتى ١٣١٥م . وأثناء حروبها أحضرت إلى أوروبا كتيبة تركية سبق أن استخدمها الامبراطور فى آسيا(٥٢). وإثر ذهاب مجموعة كتلان ،اندلعت الحرب الأهلية فى الإمبراطورية بين أندرونيكوس الثانى وحفيده أندرونيكوس الثالث ، ولم تنته إلا بوفاة الأول سنة ١٣٢٨م ؛ وقد استخدم كل من الجانبين الأتراك كمرتزقة . وفى تلك الأثناء ، واصل ابن عثمان - أورهان - ما بدأه والده ؛ فأكسب لنفسه هيمنة غامضة على أمراء الأراضى الواقعة جنوب أراضيه ، وواصل غزوه لبيثينيا . واستولى على نيقية سنة ١٣٢٩م وعلى

---

(٥١) *Ibid.* pp. 323-30; Hill, *op. cit.* ii, pp. 318-24.

(٥٢) See Vasiliev, *History of the Byzantine Empire,* pp. 605-8 . ويورد المؤرخ المعاصر Muntaner قصة مجموعة كتلان فى سرد ينبض بالحياة.

نيكوميديا سنة ١٣٣٧م[٥٣]. واندلعت الحرب الأهلية في الإمبراطورية مرة أخرى سنة ١٣٤١م بين جون الخامس وزوج أمه جون كانتاكوزينوس ، بينما كان تنامى قوة ستيفن دوشان فى الصرب يجتذب انتباه كافة شعوب البلقان[٥٤].

وفى سنة ١٣٥٤م أرسل أورهان ، الذى اتخذ لقب سلطان ، جنودا عبر الدردنيل للإستيلاء على مدينة جاليبولى ؛ وبعد ذلك بسنتين نقل عدة آلاف من بنى جلدته عبر المضيق وجعلهم يستقرون فى ثريس[٥٥]؛ وفى العام التالى استطاع أن يتقدم داخل البلاد ويستولى على قلعة أدريانوبل العظيمة التى أصبحت عاصمته الثانية . وعند وفاته سنة ١٣٥٩م كانت ثريس كلها تقريبا فى يديه ، وعُزلت القسطنطينية عن ممتلكاتها الأوروبية . وكان ابنه وخليفته مراد الأول ذا اقتدار كبير على أن يواصل ما بدأه أبوه وحده . وكانت أولى مهامه تأسيس هيئات جانيسارى (أو الجندى الجديد) من أطفال الرقيق المسيحيين الذين أجبروا على التحول إلى الإسلام والمرسلين اليه كإتاوة[٥٦].

ولم يمر توسع الأتراك العثمانيين دون أن يُلحظ فى الغرب . ويبدو أنه لم يكن هناك خطر على القارة الأوروبية حتى ذلك الوقت ؛ إذ بدت الإمبراطورية الصربية العظمى قادرة تماما على صد أي تقدم . بيد أنه من الواضح أن القسطنطينية ذاتها كانت مهددة ، ومعها مصالح الإيطاليين التجارية ؛ ومع ذلك كان اليونانيون منشقين؛ وكانت سياسة الكنيسة الغربية هى الإصرار على خضوعهم لروما قبل إمكان البحث فى مسألة إرسال المساعدة لهم . وحقيق أن يفشل هذا النوع من الإبتزاز المعنوي . وكان من المحال أن يوافق اليونانيون على هيمنة الكنسية اللاتينية ، حتى وإن كان حكامهم على استعداد للإلتزام بها ، ليس فقط بسبب عقيدتهم الدينية وإنما أيضا لما يشعرون به من اعتزاز وطنى وما لا يغيب عن ذاكرتهم من الفظائع السابقة[٥٧].

---

(٥٣) Vasiliev, *op. cit.* pp. 608-9; Gibbons, *op. cit.* pp.54-70.

(٥٤) Vasiliev, *op. cit.* pp. 609-13.

(٥٥) (المترجم) ثريس:Thrace الإقليم القديم الواقع شرقى شبه جزيرة البلقان ؛ أو الإقليم الحالى الواقع جنوب شرقى شبه جزيرة البلقان وهو مقسّم حاليا بين اليونان وتركيا.

(٥٦) Gibbons, *op. cit.* pp. 100-3, 110-21 .

(٥٧) Vasiliev, *op. cit.* 670-2.

١٣٦٦م :حملة كونت سافوى الصليبية

كان أماديوس السادس كونت سافوى قد أخذ الصليب سنة ١٣٦٥م . وكان البابا إيربان السادس منشغلا فى التبشير بالحملة الصليبية نيابة عن بطرس ملك قبرص. وكان ذهاب أماديوس إلى الأرض المقدسة قد ملك عليه لبه ؛ بيد أنه كان ابن عم الامبراطور البيزنطى حون الخامس وكان يرغب فى مساعدته ؛ وأذن له البابا بأن يبدأ حملته بمحاربة الأتراك شريطة أن يضمن إخضاع الكنيسة اليونانية . وبذل البنادقة ما فى وسعهم لوقف حملته الصليبية لخشيتهم من أن تتدخل فى سياستهم التجارية ؛ كما أنهم لا يريدونه بصورة خاصة أن ينضم إلى بطرس القبرصى ، وتنفسوا الصعداء عندما أحدثت شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع المصريين أثرها لديه وقرر التركيز على بيزنطة، وانتقى مجموعة متميزة من الفرسان ، وإن صادفته مصاعب التمويل منذ البداية . ووصلت الحملة مضيق الدردنيل فى أغسطس ١٣٦٦م ، وعلى الفور حاصر جاليبولى التى سقطت يوم ٢٣ أغسطس . على أن أماديوس بدلا من أن يهبط فى ثريس ويطهر المقاطعة من الأتراك ، أبحر إلى القسطنطينية حيث وجد أن الملك البلغاري شيشمان الثالث قد خان الامبراطور واعتقله ؛ ولذا كرس كل طاقته فى انقاذ ابن عمه ، ولم يتحقق ذلك إلا بهجوم على ميناء فارنا التابع لشيشمان . وعندما تم إنقاذ جون ، وجد أماديوس أنه قد أنفق كل أمواله ، وكذلك الأموال التى جباها محليا وما اقترضه من الإمبراطورة ، فاضطر إلى العودة إلى الوطن ؛ بيد أنه قبل أن يرحل أخذ من الامبراطور وعدا بأن يجعل كنيسته خاضعة لروما . وجاء إلى غليونه بطريق القسطنطينية فيلوثيوس ومعه فارس يوناني وأخبره بأن الشعب اليونانى سوف يخلع الامبراطور إذا وافق على ذلك ، فما كان من أماديوس إلا أن اختطفهما وأخذهما معه إلى إيطاليا ، وعاد إلى وطنه فى نهاية ١٣٦٧م . على أن حملته الصليبية كانت عديمة القيمة أو تكاد ؛ إذ أن الأتراك استعادوا جاليبولى بعد رحيله مباشرة(٥٨).

وفى ظل حكم مراد ، زاد الأتراك من قوتهم بسرعة . فقد أخضع مراد أمراء غربي الأناضول وتسيّد عليهم ، ثم تقدم فى أوروبا . وبعد انتصاره على الصرب فى ماريتسا سنة ١٣٧١م ، أصبحت بلغاريا دولة تابعة وسرعان ما ضمها كلها. وفى ١٣٨٩م ، نشبت معركة حاسمة بين الصرب والأتراك فى كوسوفو ؛ وقبل المعركة مباشرة اغتيل مراد بيد أحد الصربيين لكن جنوده الذين فاقت أعدادهم أعداءهم للغاية انتصروا

(٥٨) Atiya, *op. cit.* pp. 379-97

انتصارا كاسحا . وأصبح الأتراك الآن سادة البلقان[٥٩].

وعلى الرغم من أن جهد الغرب الصليبي قد تحول فى سنة ١٣٩٠م فى حملة فاجعة قادها لويس الثانى دوق بوربون إلى المهدية بالقرب من تونس[٦٠]، كان من الواضح أنه لابد من صد الأتراك العثمانيين حتى تبقى أوروبا المسيحية آمنة . وعندما ضم السلطان بايزيد مدينة فيدين على نهر الدانوب ، وكان أميرها قد اعترف بسيادة هنجاريا ، ناشد الملك الهنجاري سيجيسموند اللوكسمبرجى ، أخو الامبراطور وينزيل ، جميع رفاقه العواهل ليقدموا له المساعدة . وأصدر كل من البابا الرومانى بونيفاس التاسع ، والبابا الأفينيوني بنيديكت الثالث عشر مراسيم بابوية توصى بحملة صليبية ، بينما كتب فيليب (أوف ميزييه) ، وهو عجوز من القائمين على الدعاية ، خطابا علنيا إلى ريتشارد الثانى ملك انجلترا يدعوه إلى التعاون مع تشارلز السادس ملك فرنسا من أجل الحملة الصليبية القادمة . وما كان لسيجيسموند من علاقات مع الألمان مكّنه من أن يجد مؤازرة فى ألمانيا ؛ أما أميرا والاشيا وترانسيلفانيا[٦١]، فقد أخذ منهما الرعب كل مأخذ من التقدم التركى فانضما إليه برغم كراهيتهما الشديدة للهنجاريين . وفى الغرب أعلن دوق برجندى ودوق أورليانز ودوق لانكاستر جميعا رغبتهم فى المساعدة. وفى مارس ١٣٩٥م وصلت إلى البندقية سفارة هنجارية يرأسها رئيس أساقفة حران، نيكولاس (أوف كانيزاى) لضمان تنفيذ وعد دوج البندقية بتوفير وسيلة النقل ؛ ثم واصل السفراء ترحالهم إلى ليون حيث استقبلهم دوق برجاندى فيليب المقدام ، استقبالا مفرط الحفاوة ، ووعدهم بمساعدته فى حماس . وبعد أن قاموا بزيارة ديجون لتقديم احتراماتهم للدوقة مرجريت الفلاندرزية ، ذهبوا إلى بوردو لمقابلة عم ملك انجلترا جون (أوف لانكستر) الذى تعهد بتجهيز كتيبة انجليزية . وانطلقوا من بوردو إلى باريس . وكان الملك الفرنسى تشارلز السادس يعانى من نوبة جنون ، ولكن الأوصياء وعدوا بالقيام بتشجيع النبلاء الفرنسيين على الانضمام إلى الحملة الصليبية . وبدأ تجمع جيش دولى ضخم لإنقاذ العالم المسيحى . ومن أجل تمويله فرض دوق برجاندى ضرائب خاصة أدت إلى جمع مبلغ ضخم قدره سبعمائة ألف فرنك ذهبى ، وأضاف النبلاء الفرنسيون إسهاماتهم كل بدوره ؛ وقدم جوي السادس كونت لا

---

(٥٩) Vasiliev, *op. cit.* p.624; Gibbons, *op. cit.* pp.174-8.

(٦٠) يرد الوصف الكامل لحملة لويس فى. Atiya, *op. cit.* pp. 398-434

(٦١) (المترجم) والاشيا : Wallachia إقليم فى شرق أوروبا يقع جنوب الألب الترانسيلفانية ، اندمج مع مولدافيا سنة ١٨٦١م ليكوّنا رومانيا

تريمواي أربع وعشرين ألف فرنك . ووافق اللوردات الفرنسيون والبرجانديون على قبول قيادة الإبن البكر لدوق برجندى ، جون كونت نِفرس ، وهو شاب في الرابعة والعشرين تملأه الحيوية[٦٢].

١٣٩٦م : حملة نيكوبوليس الصليبية

بينما عاد السفراء الهنجاريون مسرعين إلى بودا لإطلاع الملك على ما حققوه من نجاح ، وليبذلوا له النصيحة بالمضى قدما فى ترتيباته ، أصدر دوق برجاندى مراسيم دقيقة لتنظيم تصرفات الجنود الفرانكو هنجاريين . وقد استدعوا للتجمع في ديجون فى العشرين من ابريل ١٣٩٦م ؛ وتقرر أن يقود الحملة جون النفرسي ، ونظرا لصغر سنه تشكّل مجلس استشاري مؤلف من فيليب ابن دوق بار ، وجوى (أوف لا تريمواي) ، وأخيه وليم ، والأدميرال جون (أوف فيّنا) ، وأودارد لورد شاسيرون . وفى نهاية الشهر انطلق جيش من عشرة آلاف رجل وارتحل خلال ألمانيا إلى بودا ؛ وفى طريقه انضم اليه ستة آلاف ألماني يرأسهم الكونت بالاتين روبرت إبن روبرت الثالث كونت ويتلسباخ ، وإيبرهارد كونت كاتزنيلينبوجين . وسار خلفهم على مقربة ألف مقاتل انجليزي بقيادة الأخ غير الشقيق للملك ريتشارد ، جون هولاند ، إيرل هنتينجدون[٦٣].

ووصلت الجيوش الغربية فى نهاية يولية تقريبا إلى بودا حيث وجدت الملك سيجيسموند فى انتظارها ومعه قوة تتألف من نحو ستين ألف رجل ؛ وانضم اليه تابعه ميرسيا حاكم والاشيا ومعه عشرة آلاف رجل آخرون وحوالى ثلاثة عشر ألف مغامر جاءوا من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا ؛ وكان هذا الجيش المتحد الذي اقترب من مائة ألف جندى أكبر تجمع على الإطلاق دخل مجال الحرب ضد الكفرة . وفى تلك الأثناء توغل أسطول فى البحر الأسود وألقى مراسيه عند مصب نهر الدانوب ، وكان رجاله من فرسان المستشفى تحت قيادة السيد الأعظم فيليبيرت (أوف نايلاك) ومن البنادقة واهل جنوا.

و لم يبق السلطان العثمانى بايزيد من جانبه فى الجانب الآخر مكتوف اليدين .

(٦٢) Atiya, *Crusade of Nicopolis*, pp.1-34, a fully referenced account.

(٦٣) *Ibid.* pp. 41-8, 67-8, 184 nn.

وعندما وصلته الأنباء بتجمع الحملة الصليبية ، كان يحاصر القسطنطينية ؛ وعلى الفور استدعى جميع رجاله وسار شمالا إلى الدانوب ، وكان تعداد جيشه يُقدّر بما يجاوز مائة ألف.

غير أن فرسان الغرب لم يلقنوا شيئا مما مروا به عبر ثلاثة قرون من الخبرة. وعندما نوقشت خطة الحملة فى بودا نصح الملك سيجيسموند باتخاذ استراتيجية الدفاع ، وكان يعرف قوة عدوه . ولقد ارتأى أنه من الأفضل أن يستدرج الأتراك إلى داخل هنجاريا ثم يهاجمهم من مواقع أعدها ؛ وكان سيجيسموند يعتقد ، كغيره من الأباطرة البيزنطيين إبان الحملات الصليبية المبكرة ، أن سلامة العالم المسيحى تتوقف على الحفاظ على مملكته ؛ على أن حلفاءه ، كشأن الحملات الصليبية المبكرة ، كانوا يفضلون هجوما كبيرا ؛ فمن شأن ذلك أن يحطم الأتراك وأن يجعل الجيوش المسيحية تتقدم منتصرة خلال الأناضول إلى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها ؛ وكان الحلفاء على قدر كبير من الحماس لرأيهم بحيث رضخ سيجيسموند . وفى وقت مبكر من شهر أغسطس انطلقت جيوش التحالف جنوب الضفة اليسرى لنهر الدانوب حتى أورسوفا عند البوابات الحديدية ، وهناك عبرت إلى داخل أراضى السلطان.

وقضى الجيش ثمانية أيام ليعبر النهر ، ثم سار بطول الضفة الجنوبية إلى مدينة فيدين التى كان حاكمها أميرا بلغاريا يدعى جون-سراشيمير ، بيد أنه كان تابعا للسطان الذى كان قد ترك حامية صغيرة هناك . وبوصول المسيحيين انضم اليهم جون-سراشيمير وفتح لهم البوابات ، وقُتل الأتراك . وكانت المدينة التالية الواقعة إلى الجنوب على النهر هي مدينة راهوفا ، وهي قلعة قوية يحيطها خندق مائي وسور مزدوج وفيها حامية تركية كبيرة . وعلى الفور اندفع للهجوم أكثر الفرسان الفرنسيين حماسا بقيادة فيليب (أوف أرتوا) كونت إيو ، وجون لو مانجر الذى كان يشتهر بلقب مارشال بوسيكوت ، وكادوا أن يهلكوا جميعا لولا أن سيجيسموند أدركهم بالهنجاريين . ولم تستطع الحامية الصمود طويلا أمام الجيش المسيحى كله . وقُصفت المدينة وقُتل جميع سكانها وأغلبهم من البلغاريين المسيحيين ، فيما عدا ألف من الأثرياء احتجزوا من أجل الفدية.

١٣٩٦م : معركة نيكوبوليس

وتحرك الجيش من راهوفا قاصدا نيكوبوليس التى كانت المعقل التركى الرئيسي

على الدانوب ، فى موقع يصل الطريق الآتى من وسط بلغاريا إلى النهر ، وقد بُنيت بجانب النهر على تل توجت قمم منحدراته الشديدة بخطين من الأسوار الهائلة . وقد جاء الصليبيون بدون آلات للحصار ؛ إذ لم يتحقق الغربيون من ضرورتها ، ولم يكن سيجيسموند قد أعد العدة إلا لأعمال الدفاع . وعندما فشلت السلالم التى سارع الفرنسيون بإقامتها ، وكذلك الأنفاق التى حفرها المهندسون الهنجاريون ، قبع الجيش على أمل تجويع المدينة كي تستسلم ، وقد ساعدهم على ذلك وصول أسطول فرسان المستشفى الذى أبحر باتجاه الشمال فى نهر الدانوب وألقى مراسيه أمام الأسوار يوم ١٠ سبتمبر ؛ على أن نيكوبوليس كانت مزودة جيدا بالمؤن ، ولم يكن حاكمها التركي دوجان بيك ينتوى الإستسلام وكان قد سمع بمصير أبناء جلدته فى فيدين وراهوفا.

كان التأخير مميتا لمعنويات الجيش المسيحي ؛ إذ راح الفرسان الغربيون يتسلون بالخمر والميسر وكافة أنواع الفسق . وتجرأ جنود قليلون وقالوا إن الأتراك عدو مخيف فأمر المارشال بوسيكوت بصلم آذانهم عقابا لهم على الروح الإنهزامية . ونشبت مشاجرات بين مختلف الفصائل ، بينما بدأ أتباع سيجيسموند الترانسلفانيون وحلفاؤهم الولاشيون يتحدثون عن التخلى عن الحصار.

وبعدما أمضت الحملة الصليبية أسبوعين أمام نيكوبوليس ، جاءت الأنباء باقتراب الأتراك . فقد انطلق جيش السلطان بسرعة من ثريس باتجاه الشمال ؛ وكان تسليحه خفيفا وخيّالته أسرع بكثير فى تحركها من الفرنج ، وكان رماته على مستوى رفيع من التدريب ، ويتفوقون بميزة النظام الأمثل والطاعة التامة لقيادة السلطان وحده الذى كان هو نفسه ذا اقتدار غير عادى . ولقد أرسل أمامه بعض الجنود الذين هزمتهم كتيبة فرنسية بقيادة اللورد كوسى فى أحد ممرات البلقان؛ لكن غيرة المارشال بوسيكوت ، الذى اتهم كوسى بمحاولة سرقة شرف النصر من جون النفرسى ، حالت دون بذل أية محاولة أخرى لوقف تقدم الأتراك ؛ وفى ذات الوقت قرر الفرسان قتل الأسرى المأسورين فى راهوفا.

وفى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٣٩٦م ، بدت للعيان طليعة الجيش التركى التى عسكرت فى التلال الواقعة على بعد ثلاثة أميال تقريبا من المسيحيين . وقبل شروق الشمس فى الصباح التالى زار سيجيسموند جميع رفاقه القادة ورجاهم أن يبقوا فى حالة الدفاع . ورغم أنه أخبرهم صراحة أنه لا يستطيع أن يضع ثقته فى أتباعه من الترانسلفانيين والولاشيين، لم يسانده سوى كوسى وجون (أوف فيين) ، أما القادة

الأخرون فكانوا عاقدى العزم على فرض معركة على الفور ؛ وخضع سيجيسموند في ضعفه ، وقسّم حيشه إلى ثلاث فرق حاعلا حنوده المنجاريين فى القلب والولاشيين فى الميسرة والترانسيلفانيين فى الميمنة ، وكانت الطليعة تتألف من الغربيين جميعهم بقيادة جون النفرسي.

وعندما انبلج الصبح كان كل ما يمكن رؤيته من الأتراك فرقة من الفرسان غير النظاميين خفاف الحركة ، فوق منحدر التل مباشرة ، وخلفها مشاة الأتراك مع فصيلة من الرماة ، تحميهم خطوط من الأوتاد ؛ أما الجزء الرئيسى من فرسان السباهى(٦٤) التى يقودها السلطان بنفسه فكانت مختبئة وراء قمة التل . وكان على ميسرته فرقة من فرسان الصرب بقيادة الأمير ستيفن لازاروفيتش ، وهو أحد الأتباع المخلصين للسلطان.

وأظهرت المعركة ، كعهدها فى الإستراتيجيات السابقة ، أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا طوال القرون . فلم يبق الفرسان الغربيون فى المقدمة ليطلعوا سيجيسموند على خططهم ، وفى حماس بالغ فائق الثقة هاجموا قمة التل وفرقوا فرسان الأتراك الخفاف أمامهم ؛ وبينما عاود فرسان الأتراك تجميع أنفسهم خلف مشاتهم ، وجد الفرسان أن الأوتاد تعترضهم، فترجلوا على الفور وواصلوا هجومهم راجلين وهم ينزعون الأوتاد أثناء تقدمهم ، يدفعهم فى ذلك أن مشاة الأتراك تبعثرت هى الأخرى ، وكان باستطاعة بعض الأتراك التقهقر خلف الفرسان التى كانت تتجمع ، غير أن كثيرين قتلوا أو طردوا أسفل السهل . غير أنه عندما كان الصليبيون المنتصرون المنهكون يسرعون فى هجومهم هذا إلى أن وصلوا إلى قمة التل ، وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام فرسان السباهى السلطانية وقوات الصرب ؛ وجاء هجوم هؤلاء الجنود الجدد مباغتا للصليبيين الراجلين المنهكين العطشى المثقلين بأسلحتهم ، فسرعان ما اندفعوا مبعثرين فى فوضى عارمة واستحال نصرهم هزيمة شنعاء . ونجا فرسان قليلون من القتل؛ وكان من بين الهالكين وليم (أوف لاتريموای) وابنه فيليب جون (أوف كادزود) أدميرال فلاندرز ، والمعلم الأكبر لفرسان التيوتون . وسقط جون (أوف فيين) أدميرال فرنسا الكبير متشبثا براية نوتردام الكبيرة التى عُهد بها إليه، ولم ينقذ جون النفرسى من القتل سوى صياح مصاحبيه بالتعريف بشخصه وحثه على الإستسلام ، واقتيد معه

---

(٦٤) (المترجم) فرسان السباهى :Sipahi Cavalry فرسان إقطاعيون فى الإمبراطورية العثمانية كانوا يؤلفون أغلب الجيش العثمانى حتى حوالى منتصف القرن السادس عشر.

كونت إيو وكونت لامارش وجوي (أوف لا تريموي) وإنجوراند (أوف كوسى) والمارشال بوسيكوت.

١٣٩٦م : انتصار السلطان

عندما ترحّل الفرسان اندفعت خيولهم عائدة إلى المعسكر ولا يعلو صهواتها أحد؛ وعلى الفور قرر الولاشيون والترانسفاليون أنهم خسروا العركة وسارعوا بالإنسحاب بعدما استولوا على كل ما يجدونه من القوارب كي يعبروا النهر، غير أن سيجيسموند أمر جنوده بالتقدم لإنقاذ الغربيين ؛ وقتلوا كثيرين من مشاة الأتراك المبعثرين أثناء تحركهم باتجاه أعلى التل . وعندما اقتربوا من ساحة القتال وجدوا أنهم وصلوا بعد فوات الأوان ، إذ هجم فرسان السلطان هابطين عليهم وردوهم بخسائر جسيمة حتى ضفاف النهر.

ولّما تبعثر جيش سيجيسموند ، أغوته نفسه بالكف عن القتال ، فلجأ إلى سفينة بندقية راسية فى النهر حملته إلى القسطنطينية ومنها إلى وطنه خلال بحر إيجة والبحر الأدرياتيكى ؛ وكان يخشى الإرتحال برا لتوحسه من خيانة الولاشيين . أما جنوده فقد انطلقوا مع قليلين من الصليبيين الغربيين الباقين على قيد الحياة واتخذوا طريقهم إلى بلادهم بأية طريقة يستطيعونها ، يضايقهم الوطنيون المعادون والوحوش ولسعات برد الشتاء المبكر ؛ فوصل الكونت بلاتين إلى قلعة أبيه فى أسماله الممزقة ومات بعد ذلك بأيام قليلة ، وكان قليل من رفاقه اللاجئين أكثر حظا منه(٦٥).

ولقد نال بيازيد نصرا عظيما وإن كانت خسائره جسيمة ؛ فأمر فى سورة غضبه، وفى ذاكرته كذلك ما ارتكبه الصليبيون من مذابح ، بقتل ثلاثة آلاف من سجنائه عمدا ، ولم يبق إلا على قليل من النبلاء يمكن الحصول منهم على فدية كبيرة ؛ وقد كُلّف فارس فرنسى يدعى جيمس (أوف هيلى)، وكان يتحدث التركية، بالتعرف عليهم ثم سُمح له بالرحيل إلى الغرب للترتيب لجمع مال الفدية الذى لم يجمع إلا فى يونية التالى ، ووصلت سفارة غربية إلى السلطان فى بروسا وسلّمته المبالغ الضخمة التى طلبها ؛ وقد أرسل كثير من المتعاطفين فى سائر أنحاء العالم المسيحى إسهاماتهم ، لكن الجزء الأكبر دفعه الملك سيجيسموند ودوق برجاندى الذى قدم ما يزيد على

(٦٥) Atiya, *Crusade of Nicopolis*, pp. 50-99.

مليون فرنك . ووصل الأسرى الذين أطلق سراحهم إلى بلادهم فى نهاية ١٣٩٧م تقريبا(٦٦).

كانت حملة نيكوبوليس الصليبية أضخم وآخر الحملات الصليبية الدولية الكبيرة . واتخذ نمط تاريخها المؤسف فى دقة تبعث على الحزن ، سيرة الحملات الصليبية المفجعة الكبيرة فى الماضى، مع فارق يتمثل فى أن ميدان قتالها كان فى أوروبا وليس فى آسيا . وجاءت الأخطاء والحماقات كما هى دون تغيير ؛ وتبدد نفس الحماس فى المشاحنات والغيرة ونفاد الصبر . إن كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الأخير أن الحرب المقدسة قد انتهت عمليا إلى غير رجعة.

و لم يعد هناك مجال للحملات الصليبية ؛ لكن الكفرة ظلوا يهددون قلب العالم المسيحى ؛ فقد وصلوا إلى الدانوب وشواطئ البحر الأدرياتيكى . وكانت القسطنطينية ما تزال مسيحية ، وإن كانت معزولة ، وقد ظلت مسيحية لا لشئ سوى أن السلطان لم تتوفر له بعد المدفعية القوية بما يكفى لقصف أسوارها الضخمة الكثيفة ، ولا ما يكفى من السفن لقطع وسائل اتصالاتها بحرا . ووجد فرسان المستشفى فى رودس ولوردات أرخبيل بحر إيجة الإيطاليون أنهم عند الحدود وأن قبرص موقع بعيد ؛ وراح ملك هنجاريا ، وحكام ولاشيا ومولدافيا ، وزعماء ألبانيا ، يبحثون عن العون للدفاع عن حدودهم ؛ ودأبت الجمهوريات الإيطالية على محاولة معرفة أي السياسات التى يتعين اتباعها للحفاظ على مصالحها التجارية ؛ وكان البابا عميق الإدراك للخطر الذي يتهدد العالم المسيحى ، لكن القوى الغربية لم تعد تهتم ، إذ كانت تجربتها الأخيرة بالغة المرارة ، وليس فى الإمكان بعث الحماس الذي عجّل بتلك التجربة بعد هذه الكارثة . ودأب حتى البابا نفسه على أن يحيك المكائد بلا توقف كي يحل لاديسلاس النابوليتانى محل سيجيسموند بغض النظر عمّا سوف تحدثه الحرب الأهلية من أضرار بدفاعات أوروبا الوسطى(٦٧). أما الملك الفرنسي ، الذى وجد نفسه من سنة ١٣٩٦ إلى ١٤٠٩م سيد جنوا ، فكان قلقا بما فيه الكفاية على مصير المستعمرة الجنوية فى بيرا المواجهة للقسطنطينية ، فأرسل المارشال بوسيكوت مع ألف ومائتي رجل إلى البوسفور سنة ١٣٩٩م ؛ فحال وجوده دون القيام بمحاولة غير متحمسة للهجوم على المدينة

---

(٦٦) *Ibid.* pp. 102-11.

(٦٧) Atiya, *Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 463-4; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vi, 2, pp. 1253-4

الإمبراطورية من جانب الأتراك ؛ لكنه سرعان ما انسحب عندما لم يجد من يموله هو أو رحاله[٦٨] ثم إن الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى ارتحل إلى الغرب تحدوه الآمال كى يطلب المساعدة ؛ وصُدم الإيطاليون لرؤيتهم مدى البؤس الذي وصل إليه وريث القياصرة . وأعطاه دوق ميلانو هدايا رائعة كي تتناسب حالته مع مكانته ؛ واستقبل استقبالا فخيما في باريس ولندن ، غير أنه لم تُعرض عليه مساعدة مادية ؛ ولم تعبأ به البابوية لأن مانويل كان بالغ الأمانة فلم يعد بإخضاع كنيسته لروما لإدراكه أن شعبه لن يصبر على ذلك . غير أنه فى سنة ١٤٠٢م أسرع عائدا إلى عاصمته وقد أثلجت صدره أنباء تنذر فيما يبدو بانهيار الإمبراطورية العثمانية[٦٩] .

تيمور الأعرج (تيمور لِنك)

ولد تيمور لنك سنة ١٣٣٦م بالقرب من سمرقند ، أميرا ضئيل الشأن من ذرية الأتراك المغول ، وفى سنة ١٣٦٩م كان سيد جميع الأراضى التى تنتمى لفرع ياغاتاى المغولى ؛ ومنذ ذلك الوقت قُدُما وسّع أراضيه بحروب قاسية لا رحمة فيها، بادئا بداية بطيئة أول الأمر ، ثم بقوة دفع متزايدة . ومن سنة ١٣٨١م إلى سنة ١٣٨٦م اكتسح أراضى الخانية المغولية فى فارس ، وفى ١٣٨٦ استولى على تبريز وتفليس ، وطوال السنوات الأربع التالية كان منشغلا على حدوده الشمالية ، وفى سنة ١٣٩٢م استولى على بغداد . وفى السنوات التالية أغار على روسيا ضد مغول القبيلة الذهبية متوغلا فى الأراضى الروسية حتى موسكو ، وفى ١٣٩٥م ظهر فى شرقى الأناضول حيث سقطت في قبضته اذربيجان وسيفاس ؛ وفى ١٣٩٨م استولى على شمال الهند فى حملة رائعة زاد من فعاليتها مذابح شنيعة . وفى سنة ١٤٠٠م استدار غربا مرة أخرى وزحف على سوريا وهزم الجيوش المملوكية المرسلة لمحاربته ، أولا فى حلب ثم فى دمشق ، ثم أحتل وخرب كل المدن الكبيرة فى الإقليم . وفى ١٤٠١م عاقب تمردا حدث فى بغداد بأن دمّر المدينة تدميرا كاملا وهى لم تكد تنهض من آثار غزو هولاكو قبل ذلك بقرن ونصف من الزمان . وفى ١٤٠٢م عاد إلى الأناضول وقد عقد العزم على أن يهزم السلطان العثمانى الذى كان العاهل الوحيد الباقى الذى لم يلحق به الإهانة فى العالم الإسلامى. ووقعت المعركة الحاسمة فى أنقرة يوم ٢٠ يولية ، هزم فيها بيازيد هزيمة

(٦٨) Atiya, *op. cit.* pp. 465-6; Vasiliev, *op. cit.* pp. 632-3.

(٦٩) Vasiliev, *op. cit.* pp. 631-4.

كاملة واقتيد أسيرا ومات فى الأسر بعد ذلك بأشهر قليلة ، وفى تلك الأثناء سقطت مدن الأناضول العثمانية فى قبضة الغازى الذى طرد فرسان المستشفى من أزمير فى ديسمبر ١٤٠٢م(٧٠).

وكان فى مأمول الامبراطور مانويل أن تكون الكارثة التى حلّت بالسلطان بيازيد بمثابة نهاية الخطر العثمانى ؛ غير أنه لم يكن من القوة بما يكفى لإتخاذ إجراء دون مساندة . وكانت الجمهوريات الإيطالية قد اتخذت جانب الحذر ؛ إذ سارع أبناء جنوا إلى عقد معاهدة مع تيمور للحفاظ على تجارتهم الآسيوية ، غير أنهم كانوا يخشون على تجارتهم فى البلقان والمستقبل أمامهم مشكوك فيه ، عاونوا فى الحفاظ على القوة العثمانية بأن ساعدوا بقايا جيش بيازيد فى العبور بحرا إلى أوروبا . أما البنادقة فقد تناءوا عن ذلك(٧١)، وكان لموقفهم الحذر ما يبرره ؛ ذلك أن غزو تيمور قد حال فى واقع الأمر دون قيام السلطان العثمانى بمهاجمة القسطنطينية ، وساعد ذلك على بقاء بيزنطة لنصف قرن آخر ؛ ولو أن أوروبا كلها تدخلت فى الحال لكان فى ذلك نهاية الإمبراطورية العثمانية ، بيد أن الأتراك كانوا مستقرين بأجناسهم فى الأناضول وسياستهم فى البلقان فلم يكن من اليسير اقتلاعهم ؛ كما لم يكن لتيمور ما كان لجنكيز خان من عبقرية سياسية . وعندما مات تيمور سنة ١٤٠٥م بدأت امبراطوريته تتفكك فى الحال . وسرعان ما استعاد المماليك سوريا ، وفى أذربيجان نهضت أسرة حاكمة من تركمان الأغنام السود وأقامت لها سلطانا يمتد من الأناضول إلى بغداد . وكانت هناك فى فارس إرهاصات وطنية سرعان ما أدت إلى ظهور الأسرة الحاكمة الصفوية . وفى ما وراء النهر(٧٢) استمرت ذرية تيمور لما يقرب من قرن ولم يؤسسوا امبراطورية دائمة إلا فى الهند باسم مغول دلهى العظام(٧٣).

وفى الأناضول ، كان الأثر الوحيد والأخير لغزو تيمور هو التدفق الجديد للأتراك

---

(٧٠) للإطلاع على سيرة تيمور أنظر Bouvat, *L'Empire Mongol, 2me phase, passim*, esp. pp. 58-63.

(٧١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 65-7.

(٧٢) (المترجم) ما وراء النهر Transoxiana or Transoxania: اقليم تاريخى فى وسط آسيا شرق نهر جيحون Amu Darya (Oxus River) ، وغرب نهر سيحون Syrdarya (Jaxartes River) وهى حاليا فى جمهورية أوزبكستان وأجزاء من جمهوريتى تركمانستان وكازاخستان . كان مركزا حضاريا عظيما فى القرن الخامس عشر ومركز الإمبراطورية التيمورية.

(٧٣) Bouvat, *op. cit.* pp. 84 ff.

والتركمان ومن ثمّ تعزيز حذور القوة العثمانية . وعندما مات تيمور تولى أولاد بيازيد ميراث أبيهم . وراحوا يحاربون بعضهم البعض لست سنوات ، وأتاحت الحروب الأهلية للقوى المسيحية فرصة أخرى لوقف مزيد من النمو فى القوة العثمانية ، إلا أن القوى المسيحية لم تهتبل هذه الفرصة . واستعاد الامبراطور البيزنطى بدبلوماسيته قليلا من المدن الساحلية ، وسُمح لفرسان رودس ببناء حصن على الأرض الرئيسية المواجهة لجزيرتهم ، فى بودرون ، وهي هاليكارناسوس القديمة . ولم يُكتسب شئ آخر . وعندما أصبح محمد الأول السلطان الوحيد سنة ١٤١٣م ، كانت الإمبراطورية العثمانية سليمة لم يمسسها أذى . وكان محمد حاكما مسالما يجتنب الحروب العدوانية ، وقد أعاد تنظيم سلطانه فى حزم؛ وعندما مات سنة ١٤٢١م كان العثمانيون أقوى من ذى قبل[٧٤].

١٤٤٤م : الحملة إلى فارنا

بدأ خليفة محمد الأول ، مراد الثانى ، عهده بمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، بيد أنه كان ما يزال يفتقر إلى المدفعية الثقيلة والسفن . وبعد أن دافع اليونانيون عن عاصمتهم فى شجاعة بدون مساعدة خارجية ، من يونية إلى أغسطس ١٤٢٢م، تخلى مراد عن الحصار وركز انتباهه على غزوات فى شبه الجزيرة اليونانية ، وفى آسيا ، وعبر الدانوب[٧٥]. وفى مجمع فلورانس الذى عقد فى ١٤٣٩م وافق الامبراطور حون الثامن - خليفة مانويل - فى حالة من اليأس على إخضاع كنيسته لروما ؛ وأنكر شعبه هذا الإتحاد ، وكانت مكافأته ضئيلة فى المقابل[٧٦]. وفى ١٤٤٠م نادى البابا إيوجينوس الرابع بحملة صليبية جديدة ؛ وبعد ذلك بأربع سنوات أعلن الزعيم الألبانى سكاندربرج الحرب على الأتراك وانضم اليه سيده ملك الصرب جورج ، ووعد البابا نفسه وملك أراجون بأن يرسل كل منهما عشرة غلايين إلى الشرق ؛ وقام إبن سيجيسموند من السفاح ، حون كورفينوس ، الملقّب هونيادى ، حاكم ترانسيلفانيا باسم الملك فلاديسلاف ، باعداد العدة لقيادة الجيش الهنجارى عبر الدانوب . بيد أنه بعد مناوشات قليلة شعر الحلفاء باليأس ووافقوا على هدنة لعشر سنوات تم التوقيع عليها فى

(٧٤) Hammer, *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. Helbert), ii, pp. 120 ff

(٧٥) *Ibid.* ii, pp. 159 ff.

(٧٦) Vasiliev, *op. cit.* pp. 672-4.

زيجيدين فى يونية ١٤٤٤م[٧٧] ثم أعد مراد العدة للإبتعاد بجيشه للتعامل مع أعداء فى الأناضول ؛ وعلى الأثر أقنع المندوب البابوى المصاحب للجيش - الكاردينال جوليان سيزارينى - قادة الجيش بأن القسم الذى يُقسم لكافر يُعد قسما باطلا، وحثهم على التقدم .ورفض ملك الصرب الأرثوذوكسى هذه الفتوى وأعلن أنه لن يسمح للزعيم الألبانى سكندربرج بالبقاء مع الجيش ، واعترض جون هونيادي على الفتوى ولكنه ظل فى موقع القيادة ؛ وقاد جيش التحالف المؤلف من عشرين ألف جندى تقريبا إلى فارنا حيث وصلوا فى وقت مبكر من نوفمبر ١٤٤٤م ؛ وعلى إثر التحذيرات التى جاءت مراد عن انتهاكهم للمعاهدة ، سارع إلى مقابلتهم على رأس جيش يفوق جيشهم ثلاثة أضعاف . ونشبت المعركة فى العاشر من نوفمبر . وقاوم المسيحيون بشجاعة ، وكان مراد قد علّق المعاهدة المنتهكة فى رايته وهو فى المعركة ، وفى اللحظة الحاسمة كان صوته يدوى قائلا : "أيا المسيح ، إن كنت ربا كما يدعى أتباعك ، فعاقبهم على نقضهم العهد" ، واستجيب دعاؤه وانتصر جنوده؛ وكاد الحلفاء المسيحيون أن يبادوا ، وقُتل الملك فلاديسلاف الذى كان مع جنوده ، كما قتل الكاردينال الخؤون . وهرب هونيادى مع حفنة من بقايا جيشه[٧٨].

وترتب على ما بذله سكاندربج من جهود شجاعة انقاذ استقلال ألبانيا لعشرين سنة أخرى ؛ وعلى الرغم من الهزيمة الفاجعة التى لحقت بجون هونيادى فى معركة الأيام الثلاثة فى ساحة كوسوفو المشؤومة سنة ١٤٤٨م ، فقد حال بين السلطان وعبور الدانوب طوال حياته[٧٩] على أنه عند وفاته سنة ١٤٥٦م ، كان الأتراك قد حققوا ما كان يتطلع إليه العالم الإسلام منذ أيام النبى ﷺ. ذلك أنه فى سنة ١٤٥١م كان مراد الثانى قد خلّفه ابنه محمد الثانى ، وهو شاب فى الحادية والعشرين من عمره ذو طاقة وإقدام واقتدار لا تحدهما حدود ، وقد حدد لنفسه هدفه الأول ، ألا وهو الإستيلاء على القسطنطينية . ولا مجال فى هذه الصفحات لسرد القصة الرائعة الفاجعة لآخر أيام بيزنطة . فأما اليونانيون ، الذين انقسموا على أنفسهم فى معاداتهم لحكامهم الذين باعوا كنيستهم لروما ، فقد انتظموا فى شجاعة فائقة لاحتمال الألم الأخير ؛ وأما الغرب فقد أرسل من عونا ضئيلا ما يبعث على اليأس على ما فيه من اقدام ؛ وأما

---

(٧٧) Hammer, *op. cit.* ii, pp. 288-302.

(٧٨) See Halecki, *The Crusade of Varna, passim*

(٧٩) Hammer, *op. cit.* ii, pp. 322-7.

السلطان ، فكان له من وفرة الموارد وحسن الاستعداد وغلبة الإدارة، ما جعل النصر مآله . وما كان انتصاره انتصارا لهيبته وحسب ، فقد كانت بيزنطة تحتضر منذ وقت طويل ، وضَمن موتها دوام بقاء الأتراك فى أوروبا . ومكنهم من السيادة على البحار الشرقية ، وكان يؤذن بانقضاء امبراطوريتي جنوا والبندقية ، ومملكة قبرص، وفرسان المستشفى فى رودس؛ وأتاح للسلطان حرية الاندفاع بجيوشه حتى بوابات فيينا[٨٠].

١٤٦٤م : البابا بيوس الثانى آخر الصليبيين

تحقق الجميع فى سائر أنحاء أوروبا من أن سقوط القسطنطينية كان علامة على انتهاء عصر . ولم يكن نبأ سقوطها غير متوقع ؛ وإن أدى إلى ندم مرير. ومع ذلك ، وبخلاف الأمراء الذين تتهدد الأخطار حدودهم مباشرة ، لم يعبأ أحد بأن يتخذ اجراء ؛ سوى الكاردينال نونسيو فى ألمانيا ، وهو عالم الإنسانيات الكبير إينياس سيلفيوس ، الذى حاول إيقاظ الغرب لأداء واجب تأخر عن موعده . بيد أن خطبه التى ألقاها فى المجالس الألمانية لم تسفر عن شئ ، وأنبأت خطاباته التى أرسلها إلى البابا عن خلاصه من الوهم . وفى ١٤٥٨م أصبح هو نفسه البابا تحت إسم بيوس الثانى ؛ ودأب طوال فترة بابويته على أن يخلق من جديد حملة صليبية على غرار ما كان يرسله أسلافه؛ وفى ١٤٦٣م بدا أن مشروعه على وشك بلوغ الغاية؛ فقد جاء اكتشاف مناجم الشّبّة فى الولايات البابوية فى الوقت المناسب لتزويده بعوائد غير متوقعة تهدد بكسر احتكار الإتراك للشّبّة . وكان دوج البندقية الجديد يؤيد الحرب على ما يبدو ؛ وكان ملك هنجاريا قد سالم الامبراطور أخيرا ، فبات تواقا إلى تحالف مسيحي ؛ وأظهر دوق برجندى ، جون الطيّب ، اهتماما مرحّبا . وقد كان القرار الكنسى الصادر فى أكتوبر بمثابة انعكاس للتفاؤل البابوي . على أنه بمرور الشهور خبت جذوة الحماس ؛ ولم يقدم للبابا مساندة مادية سوى الهنجاريين الذين كانوا يواجهون حربا تركية على نحو أو آخر. وتردد البنادقة ؛ ولم تكن أي من المدن الإيطالية على استعداد للمجازفة بما سوف يجلبه قطع العلاقات مع السلطان من ضياع للتجارة . وكتب دوق برجندى بأن مكائد ملك فرنسا تجعل من المستحيل عليه مغادرة أراضيه ؛ وقرر البابا بشجاعة أنه سوف يمول الحملة الصليبية ويقودها بنفسه ؛ وبناء على أوامره استجمع وكلاؤه أسطولا من

---

(٨٠) لا يزال أفضل تاريخ لسقوط القسطنطينية هو ما أورده Pears فى "دمار الإمبراطورية اليونانية *The Destruction of the Greek Empire*, pp. 237 ff. See also Vasiliev, *op. cit.* pp. 647-55

الغلايين فى أنكونا ؛ وفى ١٨ يولية ١٤٦٤م ، وبرغم ما كان يبدو عليه من الإنهاك وضعف الصحة ، أخذ الصليب فى وقار أثناء قداس فى كنيسة القديس بطرس.

وبعد أيام قلائل انطلق قاصدا ميناء الإبحار . ورأى فيه المحيطون به رجلا ميتا ، وأخفوا عنه حقيقة مؤداها أنه لم يحذُ حذوه أى من أمراء أوروبا ، وأنه ليست هناك جيوش تزحف وراءه إلى الميناء لتركب غلايينه المتجهة إلى الشرق؛ بل إنهم عندما اقترب من ميناء أنكونا أسدلوا ستائر محفّته حتى لا يرى الطرقات وقد اكتظت ببحارة أسطوله بعدما هجروا سفنهم وقد غذوا السير عائدين إلى أوطانهم . ووصل أنكونا يوم ١٤ أغسطس ، لا لشئ إلا ليموت فيها . وشملته الرحمة بأن خفيت عليه حقيقة انهيار حملته الصليبية انهيارها التام(٨١).

وقبل أربعة قرون تقريبا ، كان تبشير البابا إيربان الثانى بالحملات الصليبية يرسل الرجال بالألوف مخاطرين بحياتهم فى الحرب المقدسة ؛ أما الآن ، فكان كل ما فى وسع البابا ، الذى أخذ هو نفسه الصليب ، أن يجمع حفنة من المرتزقة الذين هجروا القضية من قبل أن تبدأ الحملة . لقد ماتت الروح الصليبية.

---

(٨١) For Pius II see Atiya, *op. cit.* pp. 227-30; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* vii, 2, pp. 1291-352.

الفصل الثانى:

إجمــال

إجمـــال

"والذى يَزيد عِلما يَزيد حُزنا"
(جامعة ١ : ٨١)

كانت الحملات الصليبية قد أطلقت لإنقاذ العالم المسيحى الشرقي مـن المسـلمين ؛ وعندما انتهت الحملات الصليبية بات العالم المسيحى الشرقي كله تحت حكم المسلمين. وعندما خطب البابا إيربان خطبته العظيمة فى كليرمونت بدا الأتراك وقد أوشكوا علـى تهديد البوسفور ، وعندما بشر البابا بيوس الثانى بآخر حملة صليبية كان الأتراك يعبرون نهر الدانوب . ومن بين آخر الثمار التى أثمرتها الحركـة أن سـقطت جزيرة رودس فـى أيدى الأتراك سنة ١٥٢٣م ؛ أما قبرص ، فقد دمّرتها حروبها مـع مصـر وجنـوا إلى أن ضمتها البندقية ، ثم آلت فى نهاية الأمر إلى الأتـراك كذلـك سـنة ١٥٧٠م ؛ و لم يتبـق لغزاة الغرب سوى حفنة من الجزر اليونانية ظلت البندقية تحتفـظ بهـا بصـورة مقلقلـة . و لم يتوقف التقدم التركي بأي جهد متناسق بذله العالم المسـيحي ؛ وإنمـا أوقفتـه أقـرب

الدول اهتماما بالقضية وهي البندقية وامبراطورية هابسبرج[1]، بينما دأبت فرنسا ، وهى الزعيم القديم للحرب المقدسة ، على مساندة الكفرة . ولقد بدأ انهيار الإمبراطورية العثمانية لفشلها فى إيجاد حكومة على كفاءة تعينها على إدارة ممتلكاتها الشاسعة ، إلى أن باتت غير قادرة على أن تتصدى لطموحات جيرانها ولا أن تخمد الروح الوطنية فى رعاياها المسيحيين ، وهى الروح التى يرجع الفضل فى بقائها للكنائس التى حاول الصليبيون جهدهم التدمير استقلالها.

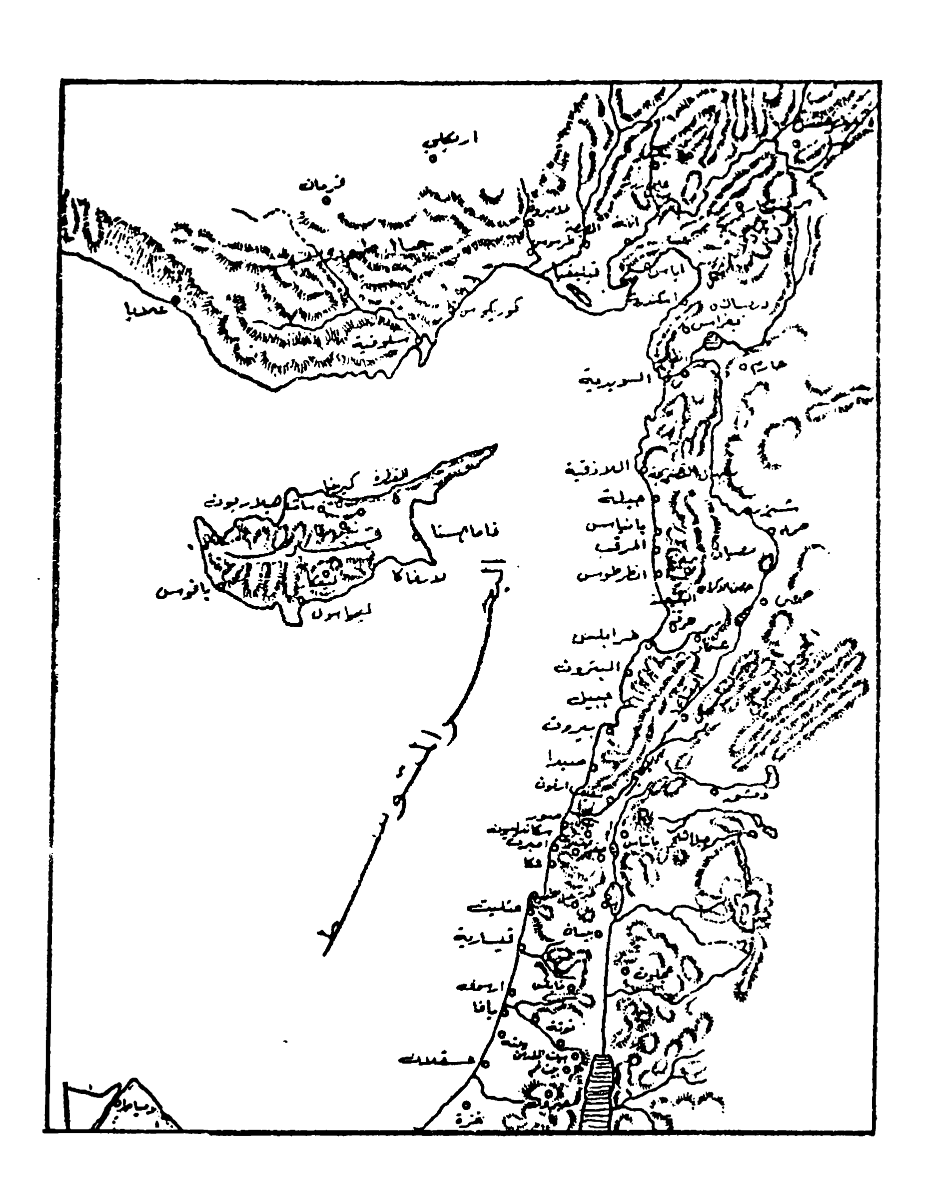
وليست الحركة الصليبية برمتها ، من المنظور التاريخى ، سوى إخفاق تام ؛ ذلك أن نجاح الحملة الصليبية الأولى ، وهو بمثابة معجزة ، أو يكاد ، قد أنشأ الدويلات الفرنجية في أوتريميه ؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان ، عندما بدا أن كل شيء قد ضاع ، جاءت الحملة الصليبية الثالثة بجهدها الشجاع لتحافظ على تلك الدويلات لمائة عام أخر. على أن مملكة القدس الضئيلة وأخواتها الإمارات كانت نتاجا واهيا لطاقة لها حماس كبير. فطوال ثلاثة قرون لم يكد هناك زعيم فى أوروبا إلا وأقسم بحماس فى وقت ما على الذهاب إلى الحرب المقدسة ؛ ولم يكن هناك بلد تقاعس عن إرسال الجنود للحرب من أجل العالم المسيحي فى الشرق؛ وكانت القدس فى ذهن كل رجل وكل امرأة ؛ ومع ذلك ، كانت الجهود المبذولة للإستيلاء على المدينة المقدسة أو لإستعادتها يحكمها الهوى والبلادة على نحو خاص . ولم يكن لتلك الجهود ما كان يُرتجى من الأوروبيين الغربيين من أثر على التاريخ العام . إن عصر الحملات الصليبية واحد من أهم العصور فى تاريخ الحضارة الغربية ؛ فعند بدايته ، كانت أوروبا الغربية تنهض لتوها من فترة طويلة من الغزوات البربرية التى نطلق عليها العصور المظلمة ، وعند نهايته ، كانت الزهرة العظيمة التى نطلق عليها "النهضة" قد بدأت تتفتح لتوها ؛ غير أننا لا نستطيع أن نعزو أي شق من هذا التطور إلى الصليبيين مباشرة، فلا شأن للصليبيين بما ساد الغرب من أمن جديد مكّن التجار والدارسين من الإرتحال كما يحلو لهم . لقد أتيحت بالفعل إمكانية الحصول على ما تناهى إليه العالم الإسلامى من علم عن طريق أسبانيا ؛ وكان الطلاب ، مثل جربرت (أوف أوريلاك)[2]، يرتادون مراكز

---

(١) (المترجم) هابسبرج : Hapsberg إسم أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا والمجر (١٢٧٨-١٩١٨) وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠) والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٣٨-١٨٠٦)

(٢) (المترجم) جربرت (أوف أوريلاك) : Gerbert of Aurillac هو البابا سيلفستر الثانى Sylverster II ، ولد فى ٩٤٥م تقريبا في أوريلاك بفرنسا ، ومات يوم ١٢ مايو ١٠٠٣م فى روما، اشتهر بإنجازاته الدراسية ومجالات التقدم التى أدخلها فى التعليم ، وأحكامه السياسية المتبصّرة.

خريطة رقم (٥) الشرق الفرنجي



التعليم الأسبانية . وطوال الحقبة الصليبية ذاتها ، كانت صقلية ، وليس أراضى أوتريميه، بمثابة مكان التقاء الثقافات العربية واليونانية والغربية ؛ ومن الناحية الفكرية لم تضف أوتريميه شيئا على وجه التقريب[٣] . وليس أدل على ذلك من أن رحالا له وزنه مثل القديس لويس يمضى سنوات عدة هناك دون أن تضيف شيئا إلى نظرته الثقافية. وإن كان الامبراطور فريدريك الثانى قد اهتم بالحضارة الشرقية ، فإنما يعزى ذلك إلى نشأته فى صقلية . ولم تسهم أوتريميه فى تقدم الفن الغربى ، خلا عالم العمارة العسكرية ، وربما فى تقديم القوس المدبب؛ وفى مجال فن الحرب - بخلاف بناء الحصون - أظهر الغرب المرة تلو الأخرى أنه لم يتعلم شيئا من الحملات الصليبية ؛ إذ تكررت نفس الأخطاء فى كل حملة من الحملة الصليبية الأولى إلى حملة نيكوبوليس الصليبية . لقد كانت ظروف الحرب في الشرق تختلف اختلافا شاسعا عنها فى أوروبا الغربية بحيث كان الفرسان المقيمون فى أوتريميه هم الذين اهتموا وحدهم باسترجاع التجارب السابقة . ومن الجائز أن يكون مستوى المعيشة العام فى الغرب قد ارتفع نتيجة لرغبة الجنود والحجاج العائدين فى تقليد أوجه الراحة التى لمسوها فى أوتريميه ؛ على أن التجارة بين الشرق والغرب لم تكن تعتمد عليهم فى وجودها ، برغم ازديادها نتيجة للحملات الصليبية.

الحملات الصليبية والبابوية

ولم تترك الحملات الصليبية بصماتها إلا على بعض جوانب التطورات السياسية لأوروبا الغربية . ذلك أن أحد الأهداف التى أعرب عنها البابا إيربان فى تبشيره بالحملات الصليبية هو أن يجد البارونات المشاغبون المحاربون شيئا مفيدا يفعلونه بدلا من إنفاق طاقاتهم فى الحروب الأهلية فى الوطن ؛ وليس هناك من شك فى أن إزاحة قطاعات كبيرة من ذلك العنصر الجامح وإرساله إلى الشرق قد ساعد على تنامى السلطة الملكية فى الغرب ، مما كان له أكبر الآثار الضارة بالبابوية . على أن البابوية ذاتها قد أصابت فائدة فى الوقت نفسه ؛ ذلك أن البابا قد أطلق الحملة الصليبية كحركة مسيحية دولية تحت قيادته ، وكان لنجاحها الأولى أن ازاد كثيرا من سلطته ومكانته . وكان الصليبيون جميعا ينتمون إلى رعيته ؛ فغزواتهم هي غزواته . ولأن البطرقيات القديمة فى أنطاكية والقدس والقسطنطينية اندرجت تحت سلطانه الواحدة تلو

---

(٣) للإطلاع على حياة أوتريميه الفكرية أنظر أدناه المرفق الثاني.

الأخرى ، فقد بدا أن مطالبته بأن يكون رئيس العالم المسيحي كان لها ما يبررها . وفى الشؤون الكنسيّة اتسع سلطانه اتساعا كبيرا ؛ فقد اعترفت المجامع التى تعقد فى أي مكان من العالم المسيحى بسيادته الروحية ؛ وكان المبشرون التابعون له يرتحلون إلى أقاصى الأرضى كأثيوبيا والصين . وكانت الحركة كلها بمثابة حافز لتنظيم المحكمة العليا البابوية على أساس دولي يجاوز للغاية عما كان عليه فيما سبق ، وقد لعبت دورا كبيرا فى تطوير القانون الكنسى[٤]. ولو أن الباباوات قنعوا بحصاد المنافع الكنسية وحسب، لتوفر لهم المبرر القوي للرضا عن أنفسهم ؛ بيد أن الآونة لم تكن مهيّأة بعد للفصل الواضح بين السياسة الدينية والدنيوية ؛ وفى السياسة الدنيوية اعترى البابوية خداع النفس ؛ فليست الحملة الصليبية جديرة بالاحترام إلا إذا كانت موجّهة ضد الكفرة ؛ والحملة الصليبية الرابعة تم توجيهها ، إن لم يكن تبشيرها ، ضد مسيحي الشرق ، تلتها حملة صليبية ضد هراطقة جنوب فرنسا ومَن أظهر التعاطف معهم من النبلاء ، وأعقب ذلك حملات صليبية تم التبشير بها ضد هوهنشتوفن ؛ إلى أن انتهى الأمر بالحملة الصليبية على أنها تعنى أية حرب ضد أعداء السياسة البابوية ، واستخدمت ما تملكه الكنيسة من روحانيات غفرانية وثواب أخروي لدعم طموحات الكرسى البابوي. وأفلح الباباوات فى تدمير أباطرة الشرق والغرب على السواء ، مما زج بهم فى أوضاع مشينة فى الحرب الصقلية والأسر الأفينيوني. لقد غُلّفت الحرب المقدسة لتصبح مسرحية هزلية مأساوية.

الحملات الصليبية والإسلام

وبغض النظر عن اتساع سلطة روما الروحانية ، فإن أهم فائدة حصل عليها العالم المسيحى الغربى من الحملات الصليبية كانت فائدة سلبية . ذلك أنه قبل ابتداء الحملات الصليبية كانت أهم مراكز الحضارة فى الشرق متمركزة فى القسطنطينية وفى القاهرة ، وقبل انقضائها نقلت الحضارة مراكزها إلي إيطاليا وبلدان الغرب الصغيرة. و لم تكن الحملات الصليبية السبب الوحيد لإضمحلال العالم الإسلامى ؛ فالغزوات التركية دمرت فعلا الخلافة العباسية فى بغداد ، وحتى بدون الحملات الصليبية كان لا بد للغزوات التركية أن تُسقط فى نهاية الأمر الخلافة الفاطمية فى مصر؛ ولولا استفزازات الحرب المتواترة ضد الفرنج لإكتمل اندماج الأتراك فى العالم

(٤) See Ullmann, *Medieval Papalism*, pp. 120-1, 128-9.

العربي ولقدموا له حيوية وقوة جديدتين دون تدمير وحدته الأساسية . وكانت الغزوات المغولية أشد تدميرا للحضارة العربية ، وليس فى الإمكان إلقاء اللوم على الحملات الصليبية لمجيء المغول . على أنه لولا الحملات الصليبية لكان العرب أقدر بكثير على التصدى للعدوان المغولى ، وكانت الدولة الفرنجية الدخيلة بمثابة قرح متقيّح لا سبيل للمسلمين إلى نسيانه ؛ وطالما شغلهم القرح فلا سبيل قط لأن يركزوا كل انتباههم على المشاكل الأخرى.

بيد أن الضرر الحقيقي الذى ألحقته الحملات الصليبية بالإسلام كان أكثر خبثا . كانت الدولة الإسلامية قائمة على الحكم الدينى ، ويتوقف صلاحها السياسي على الخلافة المتمثلة فى خط من الملوك الدينيين وهبتهم الأعراف استخلافا وراثيا . ولقد جاء الهجوم الصليبي عندما كانت الخلافة العباسية عاجزة سياسيا أو جغرافيا عن قيادة الإسلام للتصدى له ؛ و لم تستطع الخلافة الفاطمية - بالنظر اليها من منظور يخالف المنظور السنيّ - أن تسيطر على نطاق واسع يحظى بما يكفى من الولاء . وكانَ الرجال الذين نهضوا لإلحاق الهزيمة بالمسيحيين ، مثل نورالدين وصلاح الدين ، شخصيات بطولية محسورة نالت الإحترام والولاء ، ذلك أنه لم يكن ممكنا قط قبول الأيوبيين ، برغم ما كانوا عليه من اقتدار بالغ ، كأعلى قادة للإسلام لأنهم ليسوا بخلفاء ؛ و لم يكونوا من نسل النبوة و لم يكن لهم مكان ملائم فى الحكم الدينى الإسلامى. ولقد يسر تدمير المغول لبغداد مهمة المسلمين على نحو أو آخر ؛ فقد تمكن المماليك من إقامة دولة دائمة فى مصر لأنه لم يعد فى بغداد خلافة شرعية ، سوى خط مصطنع قابع فى الظل تحت الحجز التشريفى فى القاهرة . وفى نهاية الأمر حل سلاطين آل عثمان المشكلة بأن تولوا الخلافة هم أنفسهم ؛ وقبلهم المسلمون لشدة قوتهم ، ولكنه لم يكن قبولا بكل الإخلاص لأنهم كانوا كذلك مغتصبين ولا ينتسبون إلى بيت النبوة. ولقد سمحت المسيحية منذ البداية بالفصل بين ما لقيصر وما للرب، ومن ثم، لم تفقد المسيحية حيويتها عندما انهار مفهوم مدينة الرب السياسية غير المقسمة الذى كان سائدا فى العصر الوسيط، لم تتعطل حيويتها ؛ لكن الإسلام وحدة سياسية ودينية فى آن واحد؛ وقد تصدعت هذه الوحدة قبل الحملات الصليبية ، وقد تسببت أحداث تلك القرون فى توسيع الصدع بحيث لم يكن هناك سبيل إلى رتقه . وقد أنجز سلاطين عثمان العظام إصلاحا سطحيا ولكن إلى حين ؛ فقد دام الصدع حتى يومنا هذا.

غير أن الضرر الأكبر تمثل فيما تركته الحرب المقدسة من آثار على روح الإسلام . فأي دين يقوم على أساس تنزيل شامل لابد من أن يُظهر بعض الإزدراء لغير المؤمنين؛

ولكن الإسلام لم يكن متعصبا فى أيامه الأولى ؛ واعتبر النبى أن اليهود والمسيحيين تلقوا شيئا من التنزيل ولذلك لا يتعين اضطهادهم ؛ وفى ظل الخلفاء الأوائل لعب المسيحيون دورا مشرفا فى المجتمع الإسلامى ، وكان هناك عدد كبير لافت للنظر من المفكرين والكتاب العرب من المسيحيين الذين قدموا دافعا فكريا مفيدا ؛ ذلك أن المسلمين ، باعتمادهم على كلام الله ، انصرفوا بكل وقتهم وجهدهم إلى القرآن ، وركنوا إلى السكون و لم يذهبوا بتفكيرهم مذاهب شتى. كما أن التنافس بين الخلافة وبيزنطة المسيحية لم يكن يخلوا من الود ؛ فقد كان الدارسون والتقنيون فى حيئة وذهوب بين الإمبراطوريتين مما عاد بالفائدة المتبادلة . وكان فى الحرب المقدسة التى بدأها الفرنج دمار تلك العلاقات الحسنة ؛ وما أظهره الصليبيون من تعصب وحشى رد عليه المسلمون بتعصب آخذ فى التزايد ، أما ما كان يتحلى به صلاح الدين وأسرته من إنسانية واسعة الأفق ، فسرعان من صاق نطاقه وأصبح شيئا نادرا بين المؤمنين. وبحلول عصر المماليك بات المسلمون كالصليبيين على نفس القدر من ضيق الأفق ، وكان رعاياهم المسيحيون من بين أول الذين عانوا ؛ و لم يستعيدوا قط ما ساد بينهم وبين جيرانهم وأسيادهم المسلمين من أُلفة ؛ فخبت حياتهم الفكرية ، وانطفأ معها ما كان لها من تأثير واسع على الإسلام . وباستثناء فارس بما لها من تقاليد هرطيقية مزعجة ، توارى المسلمون خلف أستار عقيدتهم ؛ وليست العقيدة المتعصبة بقادرة على التقدم.

الحملات الصليبية والعالم المسيحي الشرقي

كان ما ألحقته الحملات الصليبية من ضرر بالإسلام ضئيلا بمقارنته بما ألحقته من أضرار بالعالم المسيحى الشرقى . وقد أمر البابا إيربان الثانى الصليبيين بالذهاب إلى الشرق عونا واستنقاذا لمسيحيي الشرق ؛ وكان استنقاذا غريبا؛ إذ عند انتهائة كان العالم المسيحى الشرقي يعيش فى ظل سيطرة الكفرة ، و لم يؤد ما بذله الصليبيون من جهد جهيد إلى تخليصه. وعندما استقر الصليبيون فى الشرق لم تكن معاملتهم لرعاياهم المسيحيين بأفضل مما كان يفعله الخليفة من قبلهم ، ولا شك فى أن الصليبيين كانوا في واقع الأمر أشد قسوة لأنهم تدخلوا فيما كانت تمارسه الكنائس المحلية من ممارسات دينية ؛ وحينما طُردوا تركوا المسيحيين المحليين بلا حماية يتحملون سخط الغزاة المسلمين . ومما لا خلاف عليه أن المسيحيين الوطنيين تلقوا الصاع صاعين من هذا السخط بسبب اعتقادهم اليائس بأن المغول سوف يعطونهم الحرية الدائمة التى لم

يحصلوا عليها من الأتراك ، وكان عقابهم قاسيا وكاملا ؛ إذ أثقلتهم القيود القاسية والمهانة، وانتهى بهم الأمر إلى اهمالهم. حتى أراضيهم لم تسلم من العقاب ؛ فقد خرب الخط السورى الساحلى الجميل واستحال قفرا . أما المدينة المقدسة ذاتها فقد غرقت مهمَلة في اضمحلال طويل لا اطمئنان فيه.

وواكبت مأساة المسيحيين السيريان فشل الحملات الصليبية ؛ لكن تدمير بيزنطة ترتب على سوء نية عمدى . إن الكارثة الحقيقية للحملات الصليبية تتمثل فى عجز العالم المسيحى الغربي عن فهم بيزنطة. وطوال العصور كان هناك دائما سياسيون آملون يعتقدون أن شعوب العالم سوف يتحابون ويتفاهمون لو أنهم تقاربوا . وذلك وهم مأساوي . ذلك أنه طالما كان هناك تفاعل بين بيزنطة والغرب ، وإن قل ، ظلت العلاقة بينهما علاقة ودودة ؛ وقد وجد الحجاج المرتزقة الغربيون الترحيب فى المدينة الإمبراطورية وعادوا إلى أوطانهم يقصون الكثير عن روائعها ، غير أنهم لم يكونوا كثرة يمكنها أن تحدث تلاقيا؛ وكان هناك بين الامبراطور البيزنطى والقوى الغربية ما يختلفون عليه أحيانا؛ فكان موضوع الخلاف ينتهى فى الوقت المناسب أو تبتكر بمهارة صيغة ما لتجزئته . وكانت هناك مسائل دينية مستديمة يفاقم من حدتها مطالب البابوية الهلدبراندية[٥]؛ وحتى مع ذلك ، كان بالإمكان الإتفاق على بعض ترتيبات العمل . على أنه في وجود إصرار من النورمانديين على التوسع في شرق البحر المتوسط ، بدأ عصر جديد باعث على القلق . وتناطحت المصالح البيزنطية فى صراع حاد مع مصالح الغرب، وقد تم صد النورمانديين ، وأطلقت الحملات الصليبية كحركة مصالحة. على أنه كان هناك سوء فهم منذ البداية ؛ إذ ظن الامبراطور البيزنطى أن واجبه المسيحي المحافظة على حدوده لتكون بمثابة الحصن ضد الأتراك الذين اعتبر أنهم هم الأعداء ؛ وكان الصليبيين يرغبون فى مواصلة التقدم حتى الأراضى المقدسة ؛ إذ جاءوا ليدخلوا فى حرب مقدسة ضد الكفرة من كافة الأجناس . وبينما فشل قادة الصليبيين فى تفهم سياسة الامبراطور ، وجد الألوف من الجنود والحجاج أنهم فى أرض بدا لهم فيها أن اللغة والعرف والدين أشياء غريبة تستعصى على فهمهم ومن ثم فهم فى المكان الخطأ؛ لقد توقعوا أن يجدوا الفلاحين والمواطنين فى الأراضى التى يمرون فيها لا يماثلونهم

---

(٥) (المترجم) الهلدبراية نسبة الى البابا Hildebrand وهو البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) ويشتهر بإصراره المفرط على سلطة الكنسية . أصلح الكنيسة وألغى السيمونية (بيع المناصب الكنسية) وغيرها، وطرد الإمبراطور هنرى الرابع من الكنيسة مرتين ، وأعفى أتباع الإمبراطور من الولاء له ...الخ.

وحسب، وإنما يرحبون بهم كذلك ؛ لقد أصابتهم خيبة أمل مزدوجة ؛ ولأنهم فانهم أن يدركوا أن ما أتوه من سرقة وما اعتادوه من تخريب، لم يكن ليكسبهم إعجاب ضحاياهم أو احترامهم ، فقد شعروا بالأذى والغضب والحقد ؛ ولو قد أتيح الإختيار للجندى الصليبي العادى ، لإختار مهاجمة القسطنطينية وتخريبها قبل ذلك بكثير. غير أن قادة الحملة الصليبية كانوا بادىء الأمر مدركين غاية الإدراك لواجبهم المسيحي وسيطروا على أتباعهم ، ورفض لويس السابع قبول ما نصح به بعض نبلائه وأساقفته من حمل السلاح ضد المدينة المسيحية ؛ ورغم أن هذه الفكرة داعبت فريدريك بارباروسا ، إلا أنه سيطر على تمالك نفسه وتجاوز المدينة . وتُرِكَ أمرُ مهاجمتها للأوغاد الجشعين الذين وجّهوا الحملة الصليبية الرابعة ، فانتهزوا فرصة ضعف بيزنطة المؤقت ليخططوا لتدميرها وينفذوه.

دمار بيزنطة

كانت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، وقد تصور الغربيون أنها آثمة ، طفلا سقيما للغرب الذى دفعه الحرص على رعايته إلى التضحية باحتياجات أبنائه فى الأراضى المقدسة . وكان الباباوات أنفسهم متلهفين على إبقاء اليونانيين الكارهين تحت سيطرتهم الكنسية أكثر من تلهفهم على إنقاذ القدس ؛ وعندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم ، دأب كبار الكهنة والسياسيون الغربيون سواء بسواء على العمل الجاد معا لاستعادت السيطرة الغربية . إن الحملات الصليبية لم تعد حركة لحماية العالم المسيحي، وإنما أصبحت حركة لإقامة سلطة الكنيسة الرومانية.

لقد كان إصرار الغربيين على غزو أراضى بيزنطة واستعمارها بمثابة كارثة على مصالح أوتريميه ؛ بل كانت كارثة أكبر على الحضارة الأوروبية ؛ وكانت القسطنطينية ما تزال مركز العالم المسيحى المتحضر . ونرى فى صفحات وليلهاردوين الأثر الذى طبعته على الفرسان الآتين من فرنسا وإيطاليا للإستيلاء عليها : لم يكن بمقدورهم أن يصدقوا أن مثل هذه المدينة الفخيمة موجودة على ظهر الأرض ؛ لقد كانت دون المدن

كلها الحاضرة المتسيدة[٦]؛ ولم يكن رحال الحملة الصليبية الرابعة - كشأن أغلب الغزاة البرابرة - يتنوون تدمير ما وحدوه ، وإنما كانوا يرغبون فى المشاركة فيه والسيطرة عليه، بيد أن ما كان يتسلط عليهم من حشع وحمق ساقهم إعمال معول التخريب فى المدينة حتى دمروها تدميرا . وكان البنادقة دون غيرهم ، بما هم عليه من قدر أعلى من الإستنارة ، هم الذين تعرفوا على أكثر الأشياء نفعا فأنقذوها ؛ ولقد حصدت إيطاليا فى الواقع بعض المنافع من اضمحلال بيزنطة وسقوطها ، وأما الفرنج الذين استوطنوا الأراضى البيزنطية ، وبرغم ما أوحدوه فى تلال اليونان وأوديتها من حيوية رومانتيكية مصطنعة ، فقد استعصى عليهم أن يفهموا تقاليد الثقافة اليونانية التى طال عليها الزمن ؛ وأما الإيطاليون ، الذين لم تنقطع قط علاقتهم باليونانيين طويلا ، فكانوا أقدر على تقدير قيمة ما أخذوه . وعندما آذن اضمحلال بيزنطة برحيل علمائها وتفرقهم ، فتحت لهم إيطاليا ذراعيها مرحّبة بهم . لقد كان انتشار الدراسات الإنسانية فى إيطاليا نتيجة غير مباشرة للحملة الصليبية الرابعة.

كانت النهضة الإيطالية فخارا للإنسانية . غير أنه من الأفضل لو أنها تحققت بغير تدمير العالم المسيحى الشرقى . وقد نجت الثقافة البيزنطية من صدمة الحملة الصليبية الرابعة . وفى القرن الرابع عشر وباكورة القرن الخامس عشر ازدهر الفن والفكر البيزنطيين على نحو رائع الوفرة ، لكن القواعد السياسية للإمبراطورية لم تكن آمنة ؛ وفى واقع الأمر ، لم تعد بيزنطة إمبراطورية منذ سنة ١٢٠٤م ، وإنما دولة بين دول كثيرة تضاهيها فى القوة أو أقوى ؛ ولمّا واجهتها عداوة الغرب ومنافسة جيرانها فى البلقان ، لم تعد قادرة على حراسة العالم المسيحى ضد الأتراك . إن الصليبيين أنفسهم هم الذين أقدموا عمدا على هدم دفاعات العالم المسيحى ، ومن ثم يسّروا للكفرة عبور المضايق والتوغل إلى قلب أوروبا . إن الشهداء الحقيقيين فى الحملات الصليبية ليسوا هم الذين سقطوا فى حطين أو أمام أبراج عكا ، وإنما هم الأبرياء من مسيحيى البلقان، وكذا مسيحيى سوريا والأناضول ، الذين كان مصيرهم القتل والإسترقاق.

أما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من أوجه الفشل البيّن لا تفسير له. لقد كانوا يحاربون لنصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت

---

(٦) "Or poez savoir que mult esgarderent Costantinople cil qui onques mais l'avoient veüe; que il ne pooient mie cuidier que si riche ville peüst estre en tot le monde.... Muls nel poist croire se il ne le veïst a l'oil le lonc et lé de la ville, qui de totes les autres ere soveraine" (Villehardouin, ed. Faral., i, p. 130)

قضية الرب تلك . وفى فورة النجاح الأولى وضعوا عنوانا لتواريخهم Gesta Dei per Francos، أى (الفرنج قاموا بعمل الرب) ، غير أن الحملة الصليبية الأولى أعقبتها سلسلة طويلة من الكوارث ، وحتى انتصارات الحملة الصليبية الثالثة لم يكتب لها تمام ولا يقين . لقد كانت هناك قوى شريرة أحبطت عمل الرب . وفى بادىء الأمر أمكن إلقاء اللائمة على بيزنطة ، وعلى الامبراطور المنشق بكنيسته ، وعلى الشعب الكنود الذى رفض الإعتراف برسالة الصليبين الإلهية . وبعد الحملة الصليبية الرابعة لم يعد ممكنا لهذه الذريعة أن تظل قائمة ، ومع ذلك أخذت الأحوال تسوء بصورة مطردة ؛ وربما زعم المبشرون الأخلاقيون أن الرب كان غاضبا على محاربيه لما ارتكبوه من آثام ؛ وانطوى ذلك الزعم على شئ من الصدق وأن شئنا تفسيرا كاملا فإن الحملة انهارت عندما قاد القديس لويس جيشه إلى واحدة من أعظم الكوارث التى مر بها الصليبيون فى تاريخهم ؛ ذلك أن القديس لويس كان رجلا يظن عالَم العصور الوسطى أنه طاهر الذيل بلا آثام . إن ما قضى على الحروب المقدسة فى واقع الأمر لم يكن الشر بقدر ما كان الغباء ؛ ولا ضير ، فتلك هى الطبيعة البشرية ، إذ يعترف المرء طواعية أنه آثم ولا يعترف بأنه أحمق ؛ وليس فى الصليبيين مَنْ يعترف بأن ما ارتكبوه فعلا من جرائم لم يكن سوى جهل ضائق أفقه وبصيرة عمياء مستهترة.

كانت العقيدة أهم الدوافع التى استحثت الجيوش المسيحية على الإتجاه شرقا . ولاقت من الصعاب ما لا يخطر على قلب بشر كي تفوز بالنصر فى الحملة الصليبية الأولى التى بدا نجاحها معجزة من المعجزات ، ولذا توقع الصليبيون أن تستمر المعجزات لتنقذهم فى أوقات الشدة ، ولأنهم كانوا على ثقة من تدخل المعجزات ، فقد أصبحوا متهورين . وظلوا حتى النهاية فى نيكوبوليس - كما كان حالهم فى أنطاكية - على يقين من أن السماء ستمد إليهم يد العون . ومرة أخرى ، جعلتهم عقيدتهم - بكل بساطتها - متعصبين . لقد كان ربّهم ربا غيورا ، ولم يكن بوسعهم يتفهموا أن ربهم يمكن أن يكون بنفس قوة اله المسلمين، وكان كل من يظهر تسامحا للكفار خائنا فى نظرهم، وحتى أولئك الذين يمارسون طقوسا تغاير طقوسهم فى عبادة كانوا مثار ارتياب وتأسى.

ودائما ما كانت هذه العقيدة الأصيلة مرتبطة بجشع لا حياء فيه . وقليل هم المسيحيون الذين يعتقدون دوما أنه من غير المناسب الربط بين عمل الرب واكتساب المزايا المادية ، وأن الصواب أن ينتزع جنود الرب الأراضى والثروة من الكفرة ، وأن سرقة الهراطقة والإنشقاقيين لها ما يبررها كذلك . لقد ساعدت الطموحات الدنيوية فى

إيجاد روح الأقدار التى كانت بمثابة الأساس للكثير من نجاح الحركة فى أول أمرها. غير أن الجشع وشهوة القوة سيدان فيهما خطر ؛ إذ أنهما يولّدان قلة الصبر ، ذلك أن حياة الإنسان قصيرة وهو يتعجّل النتائج ؛ ويولّدان الغيرة ، ذلك أن المناصب والممتلكات محدودة ، ومن المحال إرضاء كل طالب . ولقد استدامت العداوات بين الفرنج الذين استقروا فى الشرق وبين أولائك الذين جاءوا لمحاربة الكفرة والبحث عن الثروة ؛ ونظر هؤلاء وأولائك إلى الحرب من وجهة نظر مختلفة ، وفى خضم الحسد وانعدام الثقة والمكائد ، لم تتهيّأ فرصة النجاح الكبير إلا للقليل من الحملات ، وفاقم الجهل المشاجرات والإفتقار إلى القدرة . وشيئا فشيئا راح المستعمرون يكيّفون أنفسهم مع أسلوب الحياة والمناخ فى الشرق ؛ وبدأوا يتعلمون كيف يحارب أعداؤهم وكيف يصادقونهم . أما الصليبي الوافد حديثا ، فقد وجد نفسه فى عالم غريب عليه تماما ، وهو عادة على قدر من التكبّر يحول دون أن يسلم بنقائصه؛ فامتلأ نفورا من أبناء عمومته المستقرين فى أوتريميه وأعرض عن الإستماع إليهم ؛ وهكذا وقعت الحملة تلو الأخرى فى نفس الأخطاء وفى نفس النهاية المؤسفة. وربما كان بوسع مستعمرى أوتريميه أن يبلغوا نظرة أوسع ولكن جنود الغرب جاءوا ليحاربوا من أجل الرب المسيحى.

الافتقار إلى قائد

ولو كانت هناك قيادة قوية وذكية لكانت خليقة بأن تنقذ الحركة . غير أن الخلفية الإقطاعية التى جاء منها الصليبيون جعلت من الصعب قبول قائد من القواد . لقد كانت الحملات الصليبية من شأن البابا ، ونادرا ما كان المندوبون البابويون جنرالات أكفاء . وكان هناك الكثير من الرجال المقتدرين بين ملوك القدس ، لكن سلطتهم على رعاياهم كانت ضئيلة ، وانعدمت سلطتهم على حلفائهم الزائرين . أما الأنظمة الدينية العسكرية ، التى كانت توفر أروع الجنود وأكثرهم خبرة ، فكانت مستقلة وقد سادت الغيرة فيما بينها . وبدا فى وقت من الأوقات أن الجيوش الوطنية التى يقودها الملك بمثابة سلح أفضل؛ ولكن ، على الرغم من أن الملك ريتشارد الإنجليزى ، ذا العبقرية العسكرية ، كان واحدا من القادة الناجحين القلائل بين الصليبيين ، كانت الحملات الملكية الأخرى مشؤومة كلها بلا استثناء . وكان من العسير على أي عاهل أن يخرج فى حملة لمدة طويلة فى أماكن تبعد كثيرا عن أراضيه ؛ وكانت إقامة قلب الأسد وإقامة

القديس لويس فى الشرق على حساب رفاهية انجلترا وفرنسا . وكانت التكلفة المالية خاصة باهظة. وكان بمقدور المدن الإيطالية أن تجعل من الحملات الصليبية شيئا مربحا ؛ وربما كان النبلاء المستقلون الآملون فى العثور على الضياع أو التزوج من الوريثات فى أوتريميه يجدون عوضا عمّا تكبدوه من أموال ، أما إرسال الجيش الملكى إلى ما وراء البحار فكان مشروعا باهظ التكلفة بأقل القليل من الأمل فى التعويض المادى ، ومن ثم يتعين جمع ضرائب خاصة فى سائر أنحاء المملكة ؛ ولا غرابة فى أن يفضّل بعض الملوك من ذوى التفكير العملى ، مثل فيليب الرابع الفرنسى ، أن يجمع الضرائب ثم يظل ماكثا فى بلده ولم يكن ممكنا فى أى حال العثور على القائد المثالى الجندى والدبلوماسى العظيم الذى يتوفر له وقت ومال ينفقه فى الشرق ، وإدراك واسع بالأساليب الشرقية. ولم يكن لنا فى واقع الحال أن نلحظ تناهى الحركة الصليبية إلى الفشل بقدر ما نلاحظ أنه كان عليها أن تصيب نجاحا، وأن على أوتريميه أن تبقى لمائتى عام بعد أن تحرز سوى نصر واحد بعد تأسيسها المشهود.

إن انتصار الحملات الصليبية إنما هو انتصار للعقيدة . وما العقيدة بلا حكمة إلا خطر ماثل . وبمنطق قوانين التاريخ الصارمة، فإن العالم كله يكفّر عما يرتكبه كل مواطن فيه من جرائم وحماقات . وفى سياق تفاعل وتلاقى الشرق والغرب الطويل الذى نمت فيه حضارتنا ، كانت الحملات الصليبية حدثا فاجعا ومدمّرا . وإذ ينظر المؤرخ وراءه عبر القرون إلى قصتها الرائعة، لا بد وأن يجد أن اعجابه بها تغلله سحابة من الأسى لكونها شاهدا على قصور الطبيعة البشرية . لقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كان فيها كثير من الإخلاص وقليل من الفهم . لقد لوثت المثل العليا بالقسوة والجشع ، ولطخت الجسارة والجلَد بالورع الأعمى الضيق؛ ولم تعد الحرب المقدسة أن تكون تزمتا طويلا من التعصب باسم الرب ، وما ذاك إلا إثم فى حق الروح القدس.

المرفقات:

المرفـق الأول: المراجـع الرئيسـية لتـاريخ الحمـلات الصليبية المتأخرة

المرفق الثانى: الحياة الفكرية فى أوتريميه

المرفق الأول

المراجع الرئيسية
لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

(١) المراجع اليونانية

ليست المراجع اليونانية بذات أهمية إلا فى تاريخ الحملة الصليبية الرابعة . وأهم مؤرخ لهذه القصة هو[١] Choniates Nictas ويتناول المؤرخ[٢] George Acropolites الحملة الصليبية الرابعة والفترة حتى الإسترجاع البيزنطى للمدينة . أما الفترة التى تلت ، فإن أهم تاريخ هو تاريخ George Pachymer [٣].

ويتناول تاريخا المؤرخين القبرصيين اليونانيين[٤] Leontius Makhaeras وGeorge Bustron[٥] باقتضاب كبير الفترة السابقة على القرن الرابع عشر[٦].

---

(١) انظر أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢٧

(٢) Edited by Meisenberg in the Teubner series

(٣) Published in the Bonn Corpus

(٤) *Recital concerning the Sweet Land of Cyprus,* edited with a translation by Dawkins

(٥) edited in Sathas, vol. ii.

(٦) يورد Neophytus غزو ريتشارد الأول لقبرص فى *De Calamitatibus Cypri,* edited by Stubbs and published as preface to the *Itinerarium* (see above, vol. ii, bibliography)

(٢) المراجع اللاتينية والفرنسية القديمة

تعتبر أهم مجموعة تواريخ تتناول أوتريميه من الحملة الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا هى مجموعة استرسالات وليم الصورى William of Tyre الفرنسية القديمة . وحتى سنة ١١٩٨م يبدو أن تاريخ إرنول Ernoul وهو المصدر الرئيسى ، يبدو أنه مفقود ، ومنه التارخ الموحود 'Ernoul' or Bernard the Treasurer والمخطوطتان C و G لتاريخ هرقل Estoire d'Eracles تعتبر أقرب النسخ ، والمخطوطات A and B المتماثلتان ، وD التى تختلف عنهما اختلافا طفيفا ، تعتبر مسودات أخرى . ومن سنة ١١٩٨م إلى سنة ١٢٠٥م تعتبر كل النسخ متطابقة . ومن سنة ١٢٠٥م قُدُما ينطابق كل من'Ernoul' و Cو G و D من التاريخ Estoire حتى سنة ١٢٢٩م التى ينتهى فيها 'Ernoul'. ثم تتبع المخطوطتان C و - G باختلاف طفيف - المخطوطتين A و B من الـ Estoire الذى لا علاقة له منذ سنة ١٢٠٥م سوى القليل بتاريخ 'Ernoul'. وتنتهى المخطوطة A فى سنة ١٢٤٨م ، وتستمر المخطوطات B, C and D حتى السنوات ١٢٦٦م و ١٢٧٥م و١٢٧٧ م . وفى تلك الأثناء يوحد استرسال آخر ، يعرف باسم مخطوطة Rothelin، يغطى الفتى من ١٢٢٩م إلى ١٢٦١م ؛ ويقينا نُشر فى مكان ما فى فرنسا[٧]. وأما النسخة الموحودة من حوليات الأرض المقدسة Annals de Terre Sainte فيبدو أنها تجميع مختصر لإحدى مصادر استرسالات وليم . وأما مخطوطات الفترة من ١٢٤٨م قُدُما فتكاد أن تكون مطابقة لها[٨].

أما التجميع الذى تم فى بدايات القرن الرابع عشر ، والمعروف باسم Gestes des Chiprois، فيبدأ بتاريخ مقتضب للأرض المقدسة brief Chronique de Terre Sainte، من ١١٣١م إلى ١٢٢٢م ، وهو يقوم على أساس حوليات الأرض المقدسة Annales de Terre Sainte والقسم الثانى عبارة عن تاريخ الحروب التى دارت بين آل إبلين والإمبراطوريين ، وقد كتبها فيليب النوفارى Philip of Novara سنة ١٢٤٥م تقريبا ، بتعليقا من ترجمته الذاتية ، وهو إيطالي يعيش فى قبرص ويكتب بالفرنسية . وتبدو كتابات فيليب نابضة بالحياة ولها طلاوة خاصة ؛ وهو يدرج فى سرده قصائد شعرية طويلة من نظمه هو نفسه ، فيها غضاضة سارة وفطنة، برغم خلوها من البراعة الشعرية

---

(٧) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٥٢٨-٩٢٩ و. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 21-5

(٨) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٢٣١، الحاشية ١٢.

الكبيرة . وكان فيليب صاحب ولاء متحمس لآل إبلين ، لكنه صادق ودقيق بقدر ما يسمح له ولاؤه .والقسم الأخير من "المآثر Gestes" عبارة عن تاريخ أوتريمه من سنة ١٢٤٩م إلى سنة ١٣٠٩م ، كتبها رجل تعرفه التقاليد على أنه فارس المعبد الصورى Templar of Tyre ويقينا لم يكن من فرسان المعبد هو نفسه ، لكنه شغل فيما يبدو منصب أمين سر السيد الأعظم لنظام المعبد الدينى العسكرى ، وليم (أوف بوجو) . ومن الواضح أنه قد عرف المصدر الذى يقوم على أساسه استرسالات Continuations وليم الصورى . والأرجح أن رجلا معينا هو جيرار المونتريالى قد جمع "المآثر Gestes" فى سنة ١٣٢٥م تقريبا(٩).

ولكل واحدة من الحملات الصليبية الرئيسية مجموعة مؤرخيها . فكان يغطى الحملة الصليبية الثالثة مؤرخون مختلفون من الأنجلو-نورمان، وأهمهم(١٠) Benedict of Peterborough, Richard of Devizes, Ralph of Diceto and William of Newburgh. وتعتبر هذه التواريخ ، مع Libellus de Expugnatione على جانب خاص من الأهمية للفترة المبكرة من الحملة الصليبية قبل وصول ريتشارد قلب الأسد إلى الشرق . كما أنها تحتوى على نسخ من رسائل تتناول شؤون الشرق الأدنى . وفيما يتعلق بحملة الملك ريتشارد وحده ، فإن أهم المراجع هى: المرجع اللاتينى Itinerarium Regis Ricardi، كتبه على ما يبدو أحد مواطنى لندن ، ريتشارد الثالوث المقدس Richard of the Holy Trinity؛ والشعر الفرنسى القديم الذى نظمه(١١) Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte. والمرجعان مرتبطان ببعضهما البعض ارتباطا وثيقا ، وربما كان الإثنان قد اشتقا من مفكرة يومية فقدها جندى فى الجيش الإنجليزى ، وقد كرسها بحماس لمليكه ، وهى صادقة بحسب ايضاحاته المنحازة(١٢) . وترد وجهة النظر الفرنسية فى

---

(٩) نشر المآثر *Gestes* ، جاستون رينود فى نشرة معينة : أنظر Cahen, *op. cit.* pp.25-6 وانظر أيضا Hill, *History of Cyprus*, iii, p. 1144 .

(١٠) نشرت تواريخهم جميعا فى سلسلة Rolls . أنظر ثبت المراجع أدناه ص، ٤٩٧-٤٩٨ ، والمجلد الثانى ص، ٤٩٣ و ٤٩٥.

(١١) أنظر الجزء الثانى ، ثبت المراجع ، ص ٥٤٧.

(١٢) كتب Gaston Paris فى مقدمته لنشرة Ambroise عن اعتقاده أن الـ *Itinerarium* تعتمد على Ambroise. أما الآنسة Miss Norgate, The *Itinerarium Peregrinorum* and the Song of Ambroise" *English Historical Review*, vol. xxv، فتقترح أن Ambroise تعتمد على الـ *Itinerarium* . أما إدواردز Edwards فى مقاله المعنون The Itinerarium Regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte المنشور فى *Essays in Honour of James Tait* (pp. 59 - 77)، فيجادل جدلا مقنعا بأن الإثنين يقومان على أساس مصدر مشترك ضائع . ويسير على وجهة

المقالة المقتضبة التى كتبها Rigord, Gesta Philippi Augusti.[١٣] أما التواريخ الألمانية التى تصف الحملة الصليبية لفريدريك الأول ، مثل "Ansbert, Expeditio Friderici" فتنتهى بوفاة الامبراطور[١٤].

وأهم مصادر الحملة الصليبية الرابعة هو[١٥] Geoffrey of Villehardouni's Conquête de Constantinople وقد كتبه سنة ١٢٠٩م تقريبا فارس قام هو نفسه بدور بارز فى الحملة وكان عما لقاهر Moreaوربما أقام Villehardouin قصته على أساس ملاحظات أخذها آنذاك ؛ وبغض النظر عن تحيزه الشديد إلى الغرب ، يمكن اعتباره شاهدا يعتمد عليه . ويعتبر Conquête de Constantinople الذى كتبه Robert of Clari بمثابة شاهد عيان آخر ، غير أن كاتبه كان أكثر بساطة وجهلا[١٦].

وأهم مصادر الحملة الصليبية الخامسة بخلاف ما كُتب فى أوتريميه هو رسائل الكاردينال[١٧] James of Vitry وHistoria Damiatana التى كتبهاOliver of Paderborn الذى كان أمين سر الكاردينال بيلاجيوس . وبرغم ولاء أوليفر لسيده ، فإن ما كتبه نابض بالحياة وموضوعيا بشكل معقول[١٨].

ولم تلهم حملة فريدريك الثانى الصليبية أى كاتب متخصص ؛ غير أن لدينا لحملة القديس لويس الصليبية التاريخ النفيس Histoire de Saint Louis : الذى كتبه John, Sieur of Joinville الذى كان حاضرا فى الحملة ؛ ولم يمنعه إعجابه البالغ بالملك من أن يكتب سردا أمينا وحيًا وشخصيا جدا[١٩].

نظره كل من Hubert و La Monte فى مقدمة ترجمة كل منهما لـAmbroise.

(١٣) Edited by Delaborde.

(١٤) Edited by Chroust. See Cahen, *op. cit.* p.19 n. 3.

(١٥) النشرة التى نشرها(Faral بمقدمة فرنسية عصرية) هى الأكثر ملاءمة ، ولها مقدمة مفيدة.

(١٦) نشره .Lauer أما الترجمة الأحدث الى الفرنسية العصرية*Poèmes et Récits de la Vieille France*, vol. xvi التى ترجمتها Charlot ، فهى غير كافية وخاصة فيما يتصل بملاحظاتها.

(١٧) نشرها Röhricht فى Zeitschrift für Kirchengeschichte أنظر ثبت المراجع ادناه.

(١٨) Edited, with his letters, by Hooeweg. The volumes of the *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, edited by Röhricht, contain all the lesser authorities covering the fifth Crusade.

(١٩) أحسن نشرة هى نشرة de Wailly . وأهم مؤرخ آخر لحملة لويس التاسع الصليبية هو William of Nangis الذى كتب بعد الحملة ببضعة عقود.

أما سقوط عكا الأخير فقد أدى إلى حصيلة من المؤرخين ، ولكنهم جميعا كانوا غائبين عن عكا فيما عدا فارس معبد صور "Templar of Tyre" أما Thaddeus of Naples ، والكاتب المجهول الذى كتب de Exidio Urbis Acconis، فانهما يبالغان بصورة واضحة فى روايتيهما لأغراض الدعاية(٢٠).

وطوال الفترة كلها ، تعد المراسلات البابوية هى الأكثر أهمية ، إلى جانب الرسائل التى بقيت من أعضاء الأنظمة الدينية العسكرية ومن الملكو ومن وزرائهم(٢١).

وعن الشؤون الدستورية ، هناك مرجعان أساسيان هما Philip of Novara's Livre: de |Jean d'Ibelin، وهو عمل فقهى رائع كتبه كونت يافا Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois,* vol. i.Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois,* vol. i.Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois,* vol. i. أما The Assises de la Cour des Bourgeois التى جمعت بين عامى ١٢٤٠م و١٢٤٤م ، فتصف الإجراءات التجارية(٢٢) وليست Assises d'Antioch موجودة سوى بالترجمة الأرمينية التى ترجمها حوالى عام ١٢٦٠م Sempad، وهو أخو الملك هيثوم الأول ؛ وتغطى باقتضاب اجراءات وعادات كل من المحاكم البارونية والبورجوازية فى الإمارة(٢٣).

وهناك أعمال هامة مختلفة كتبها مسافرون معاصرون ، وهى نافعة بصورة خاصة فى وصف العلاقات الغربية بالمغول ؛ وأتم تلك الأعمال تقارير عن بعثاتها كتبها(٢٤)

---

(٢٠) See above, p. 414 n.2. The *De Excidio* is published in Martène and Durand, *Anokussuna Coccectio,* vol.v. See also Kingsford in *Transactions of Royal Historical Society,* 3rd series, vol. iii, p. 142 n.2.

(٢١) Innocent III's correspondence is published by Migne, P. L. vols. 214-16: Honorius IV's *Regesta* are edited by Pressutti, Gregory IX's *Registrs* by Auvray, Innocent IV's *Registres* by Bergen, Alexander IV's by Bourel de la Roncière, Urban IV's by Guirard, Clement IV's by Jordan, Gregory X's by Guiraud, Nicholas III's by Gay and Vitte, Honorius IV's by Pron and Nicholas IV's by Langlois, all published in the *Bibliothèque des Ecoles Francaises dà Athènes et de Rome.*

(٢٢) نشرت فى نفس الجزء

(٢٣) نشرها فى البندقية the Mekhitarist Fathers مع ترجمة فرنسية.

(٢٤) Both translated and edited by Rockhill in *Hakluyt Society Publications,* 2nd series, vol. 137

John Pian del Carpine and William of Rubruck وممـا يوفر معلومـات قيّمـة ، وصـف الأراضي المقدسة الذي كتبه James of Vitry والوصفين اللاحقين اللذين كتبهمـا Ludolf of Suchem and Felix Fabri.

(٣) المراجع العربية

سبق ذكر المؤرخين العرب الذين تناولوا حروب صلاح الدين والعقـود الأولى من القرن الثالث عشر ، وذلك فى المرفق الأول من المجلد الثانى من هـذا التـاريخ . وينتهـى التاريخ القيّم الذى كتبه بهاء الدين بوفاة صلاح الدين ، لكـن إبن الأثير ، وأبـا شـامة (الذى ينقـل عـن عمـاد الديـن)، وكمـال الديـن ، يأخذوننـا إلى داخـل القـرن الثـالث عشر[٢٥] وللفترة المتبقية من ذلك القرن ، هناك مؤرخون عديدون معـاصرون ؛ غير أن الكثير من أهم تلك التواريخ لم ينشر بعد وليس فى الإمكان قراءتها إلا فى مخطوطاتهـا. ذلك أن أعمال ابن واصل ، التى تضم حياة الصالح التى تعود حتى سنة ١٢٥٠م وتاريخ الأيوبيين حتى ١٢٦٣م، موجـودة فـى عـدة مخطوطـات ، وليـس منهـا مـا هـو منشور سوى عدد قليل من المقتبسات الضئيلة التى اقتبسها Reinaud فى Michaud's Bibliothèque des Croisades, vol. iv ومـع ذلـك ، استعان المؤرخـون اللاحقـون بـابن واصل كما يخلو لهم ، مثل ابن الفـراض والمقريـزى[٢٦] وقـد فقـدت تمامـا ، أو تكـاد ، حياة بيبرس التي كتبها ابن شداد الجغرافي ؛ كمـا أن حيـاة قلوون التـى كتبهـا بيـبرس المنصورى بجزأة وإن استخدمها ابن الفـارض[٢٧] ويـورد Reinaud فـى (المرجـع المشـار اليه)[٢٨] مقتطفات مما كتبه ابن عبد الظاهر عن حياة بيبرس وقلوون . ويرد فى تـاريخ ابن العميد القبطى معلومات أصلية عن الفترة حتـى ١٢٦٠م[٢٩]؛ أمـا التـاريخ المجهـول لبطارقة الإسكندرية الذى يتوقف عند نفس التاريخ تقريبـا ، فيعطـى معلومـات جديـدة

---

(٢٥) انظر اعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢٣.

(٢٦) انظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 68-70

(٢٧) انظر. *ibid.* pp. 75, 78-9

(٢٨) *Ibid. p. 74*

(٢٩) Edited by Cheikho in *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. iii.. وأما الترجمات التى قام بها Erpennius and Ecchelensius فى القرن السـادس عشـر ، فـلا تجـاوز سـنة ٥١٢ هجرية (١١١٨م).

مأخوذة من مصادر قبطية[٣٠]. أما ما ورد فى تاريخ أبو الفدا[٣١] فهو كله عبارة عن تجميع من مصادر أقدم إلى أن يصل بتاريخه إلى احداث عصره، من حوالى ١٠٩٢م قُدُما[٣٢]. وأما تاريخ يونيني Younini فلا يوجد إلا فى مخطوطة ، ويستمر حتى سنة ١٣١١م، وإن كان يضم نفس المعلومات الواردة فى التاريخ المعاصر للجزرى[٣٣] Al-Jazri.

ومن بين المؤرخين المتأخرين ، بخلاف ابن خلدون والموسوعى ابن خلكان[٣٤]، فإن ابن الفراض يعد الشخصية الأعظم ، وقد كتب تاريخه فى نهاية القرن الرابع عشر ، وهو بدرجة كبيرة تجميع من التواريخ السابقة التى فقد الكثير منها ، ولكنه موضوع بإحساس حقيقى بفن التأريخ[٣٥]، وأما معاصره المقريزى فيفتقر إلى تميّزه ككاتب . وبخلاف بعض معلومات محضة عن مصر ، فإن تواريخه الذى يتناول مصر الأيوبية والمملوكية مشتقة بكاملها من أعمال سابقة ؛ لكنها مكملة ويعتمد عليها وسهلة المنال[٣٦]. أما تاريخ العينى المكتوب قرب منتصف القرن الخامس عشر فهو بالمثل ليس سوى تجميع منقول فيما عدا الفصول الأخيرة[٣٧].

(٤) المصادر الأرمينية

المؤرخون الأرمينيون الذين أرخوا للمملكة الكيليكية مذكورون فى المرفق الأول للمجلد الثانى من هذا التاريخ . وأكثرهم فائدة هو المؤرخ Vartan وخاصة فى الشؤون

---

(٣٠) النص الكامل ليس منشورا. وترد مقتطفات تتناول باكورة القرن الثالث عشر على هيئة ترجمة فرنسية قام بها Blochet فى (*Revue de l'Orient Latin,* vol.xi).

(٣١) المقتطفات منشورة فى. Recueil, *Historiens Orientaux,* vol. iii

(٣٢) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٤.

(٣٣) نشر Sauvaget بعضا من تاريخ الجزرى بدءا من سنة ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠م) بترجمة فرنسية.

(٣٤) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٤

(٣٥) لم تُنشر الفصول التى تغطى القرن الثالث عشر . أنظر. Cahen, *op. cit.* pp.85-6

(٣٦) انظر الجزء الثانى ص ٥٣٤. ترد مقتبسات كاملة من "تاريخ مصر" للمقريزى Maqrisi's *History of Egypt* أوردها Blochet فى *Revue de l'Orient Latin,* Vols. viii, ix and x cited above as Maqrisi, viii, ix and x وكذلك "تاريخ سلاطين المماليك" الذى ترجمه Quatremère 2 vols. cited above as Maqrisi; Sultans i and ii.

(٣٧) ترد مقتبسات فى. *Recueil, Historiens Orientaux,* vol. ii, p. 2

المغولية التى تتوفر لديه بشأنها معلومات شخصية مألوفة[٣٨] ولا بد من أن يُذكر ضمن المصادر الأرمينية Flor des Estoires de la Terre d'Orient الذى كتبه بالفرنسية الأمير الأرمينى Hayton (Hethoum of Corycus) بعد تقاعده فى فرنسا فى وقت مبكر من القرن الرابع عشر ؛ ويعد تاريخا قيّما لعصره . كما كتب حوليات بالأرمينية تعتمد على مصادر أرمينية وعلى[٣٩] Annales de Terre Sainte.

وأهم مؤرخى القرن الثالث عشر هو (Bar-Hebraeus ابن العبرى) الذى كتب بالسيريانية ، وقد مات سنة ١٢٨٦م عن ستين سنة ، وعلى الرغم من وجود الكثير من الشائعات والأساطير فيما أورده عن الفترات المبكرة ، فإنه عندما يكتب عن الأحداث التى عاصرها فى حياته ، يقدم قدرا كبيرا من المعلومات القيّمة لا توجد فى أي مكان آخر[٤٠]. أما تاريخ راّبان ساوما عن حياة الكاثوليكوس النسطورى مار ياهبهاللاها the Nestorian Catholicus Mar Yahbhallah، وعن سيرة حياته هو نفسه ، التى كُتبت بالأويغورية Ouighur وترجمها مجهول إلى السيريانية بعد ذلك بسنوات قليلة ، فهى ذات لما ورد فيها عن الحياة النسطورية فى ظل المغول ، والأهم من ذلك لما تحويه من قصة سفارة راّبان ساوما إلى أوروبا الغربية[٤١].

(٥) المصادر الفارسية

يعتبر تاريخ سلاجقة الروم ، الذى كتبه ابن بيبى ، وبرغم إفراطه فى التفصيلات ، تاريخا قيّما للأناضول أثناء النصف الأول من القرن الثالث عشر[٤٢] كما أن "تاريخ العالم" الذى كتبه رشيد الدين ذو أهمية بالغة لما يحويه من تاريخ المغول . ولقد كتب

---

(٣٨) أنظر الجزء الثانى ، ص ٥٣٧-٥٣٨. والنص الأرمينى الكامل لهذا المؤرخ Vartan الذى نشره Emin سبق نشره فى موسكو سنة ١٨٦١م.

(٣٩) نشرت Flor فى *Recueil, Documents Arméniens* vol. ii . وقد نشر Aucher الحوليات الأرمينية فى البندقية سنة ١٨٤٢م . وترد مقتبسات منها فى *Recueil, Documents Arméniens*, vol. ،

(٤٠) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٨.

(٤١) ترجم Budge ما قام به ربّان ساوما Rabban Sauma وذلك فى *The Monks of Kublâi Khaân* ، وأما النص السيريانى فقد نشره Bedjian.

(٤٢) نشرت ترجمة تركية ومختصرات فارسية فى Houtsma, *Textes Relatifs à l'histoire des Seldjoukides*, vol. iii and iv .

مديحا لخانات فارس وعرض فيه وجهات نظرهم[٤٣].

(٦) المصادر الأخرى

ولا يزال التاريخ الجورجي Georgian Chronicle ذا أهمية في تناوله للشؤون القوقازية[٤٤]. وأما التواريخ الروسية القديمة ، وخاصة إصدارات[٤٥] Novgorod Chronicles، فتهتم بالشؤون البيزنطية ، وهي أساسية لدراسة المغول . كما توجد مصادر مغولية مختلفة مفيدة ، أهمها Yuan Ch'ao Pi Shih ، تاريخ المغول الرسمي ، أو السرى[٤٦].

---

(٤٣) نشر Berezin العمل كله بترجمة روسية . ونشر Quatremére الجزء الثانى من تاريخ الخانات مع ترجمة فرنسية.

(٤٤) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٨.

(٤٥) أفضل إصدارات *Novgorod Chronicle* هى التى نشرها. Nasonov (Moscow, 1950)

(٤٦) أنظر أعلاه ، ص ٢٨٧، حاشية ١.

المرفق الثانى

الحياة الفكرية فى أوتريميه[١]

كانت الحياة الفكرية فى أوتريميه مخيِّبة للآمال، بمقارنتها بالحياة الفكرية فى صقلية أو أسبانيا . وربما كان المتوقع - كشأن الحال فى باليرمو - أن يكون التلاقى بين الفرنج والشرقيين حافزا لإثارة النشاط الفكرى ؛ غير أن الحقيقة هى أن مجتمع أوتريميه، الذي يتألف فى مجمله تقريبا من الجنود والتجار ، لم يكن مناسبا لخلق حياة فكرية عالية المستوى أو المحافظة عليها . وكان هناك الكثير من المثقفين بين الأمراء والنبلاء ؛ وعلى سبيل المثال ، يقال لنا إن الملك بلدوين الثالث والملك أماليك الأول كرسا نفسيهما للآداب ، واشتهر رينالد أمير صيدا باهتمامه بالعلم الإسلامى ، بينما كان همفرى الرابع أمير طورون ذا معرفة فائقة باللغة العربية[٢]، وقد أنجبت أوتريميه واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسيطة فى شخص وليم الصورى[٣] William of Tyre غير أننا لا نعرف سوى النذر اليسير حول التعليم فى أوتريميه . ولا شك أنه كانت هناك - كما هى الحال فى الغرب - مدارس ملحقة بأهم الكتدرائيات ؛ وإن كان من الأمور ذات المغزى أن وليم الصورى قد ذهب فى صباه إلى فرنسا ليتلقى العلم ، وفضلا عن ذلك ،

---

(١) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، صفحتى ٤١٠ و٤٢١.

(٢) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحات ٤١٠ و٤١٢ و٤٢٢، والجزء الثالث ص ٩٧.

(٣) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٥٢٧-٥٢٨.

فإن جميع رجال الكنيسة الذين لعبوا دورا بارزا فى تاريخ أوتريميه ولدوا ونشأوا فى الغرب ؛ وكان الكثير من هؤلاء الأساقفة يهتمون بالآداب ، مثل بطريق أنطاكية إيمرى[٤]، أو بالحياة العلمية السائدة ، مثل أسقف عكا فى القرن الثالث عشر ، جيمس (أوف فيترى)[٥]؛ وكانت شتى مشاريع الحملات الصليبية المتأخرة تشجّع تنشيط الإهتمام بجغرافية الشرق[٦]. بيد أن الثقافة الفرنجية فى أوتريميه ظلت فى عمومها استيرادا من الغرب، مع القليل جدا من الإتصال بالثقافة الوطنية ، عدا الفنون . وترك الطب برمته فى أيدى الوطنيين ؛ وقد كان الأمراء يستخدمون الأطباء المسيحيين السوريين على ما يبدو ؛ وعندما رفض الملك أماريك الأول نصيحة أطبائه السوريين وأخذ بنصيحة طبيب فرنجى ، مات بسببه ؛ وما أورده المؤرخ أسامة من أمثلة على الطب الفرنجى يُظهر أنه كان بدائيا على نحو واضح[٧] ويبدو أن الفرنج لم يحاولوا التعلم من الطب الوطنى ، كما كانت عليه الحال فى جنوب إيطاليا ، رغم ما يبدو من أن شخصا يدعى ستيفن الأنطاكى قد ترجم بحثا طبيا من اللغة العربية سنة ١٢٢٧م[٨]. ولا توجد سجلات تدل على أن الفرنج بذلوا أي جهد لدراسة الفلسفة المحلية أو المعرفة العلمية ، بخلاف قلة من النبلاء.

ويندرج ما أنتجته أوتريميه الفرنجية من إنتاج أدبى تحت ثلاثة عناوين . أولا ، هناك وهذه - باستثناء التاريخ العظيم الذى كتبه وليم الصورى، وأعمال بعض من تابعوه من أمثال إرنول Ernoul - كتبها رجال ولدوا فى الغرب ، وتنتمى إلى التراث التاريخى لكتابة التواريخ[٩]. وثانيا، هناك حصيلة كبيرة من الأعمال القانونية ؛ إذ كان المستعمرون وذرياتهم عميقى الإهتمام بالأمور القانونية والدستورية ، وكانوا حريصين على كتابة آرائهم وما انتهوا إليه إلى حد لا يبارى فى الغرب؛ غير أن ما أعادوا صياغته

---

(٤) كان إيمرى (أوف ليموج Aimery of Limoges) أميًا أو يكاد ، لكنه دأب على مراسلة الأدباء الأوروبيين مثل هوجو أثيريانوس . وترد الرسائل فى Martène and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. i. .

(٥) يُظهر الوصف الذى أورده James of Vitry للأراضى المقدسة اهتماما بالنظريات المحلية المتصلة بالزلازل . (ed. P.P.T.S. pp. 91-2) غير أنه كان شديد الإستهجان للمسلمين وللمسحيين المحليين بحيث لم يكن له أى اتصال مباشر بهم.

(٦) أنظر Rey, *Les Colonies Franques*, pp. 177-8.

(٧) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٣٦٣ و٤٤٩.

(٨) Leclerc, *La Médecine Arabe*, ii, p. 38 .

(٩) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحات ٥٢٧-٥٢٩؛ والجزء الثالث ، الصفحتين ٥٥٠-٥٥١.

من قوانين كان غربيا صرفا ، وإن أدخلوا عليه بعض التعديلات الضرورية[١٠]. وأخيرا، كانت هناك أشعار شعبية ورومانسية؛ إذ كان المستعمرون فى أوتريميه يحبون القصائد الحماسية الرومانتيكية فى ذلك العصر . وقد رافق الحملات الصليبية أعداد من المنشدين المتجولين وشعراء الألمان الغنائيين ، مثل روديل أو ألبرت (أوف جوهانيدورف[١١]. وكان ريموند أمير أنطاكية إبن الشاعر الغنائى البارز وليم التاسع الأكيتانى . وكانت أحداث الحملات الصليبية المثيرة مناسبة كل التناسب لإثراء المواضيع التى يتغنى بها الشعراء ؛ فسرعان ما أصبح جودفرى اللورينى بطلا أسطوريا أدخلت مغامراته فى قصائد فارس البجعة (cycle of the Chevalier au Cygne) ؛ وكانت القصائد التى تتناول صباه ونسبه متداولة قبل أن يكتب وليم الصورى تاريخه[١٢]. على أن هذه القصائد نُظمت فى الغرب . وبالمثل ، نُظمت القصيدتين الشعريتين المتصلتين بالحملة الصليبية الأولى فى الغرب بصورة شبه يقينية وهما أنشودة أنطاكية وأنشودة القدسChanson d'Antioche and the Chanson de Jerusalem، من واقع المعلومات التى أدلى بها الصليبيون العائدون[١٣]. والملحمة الوحيدة التى نُظمت أصلا فى أوتريميه هى أنشودة البؤساء Chanson des Chétifs وهى قصة عجيبة عن صليبيين أسرهم كيربوجا (Corboran) تختلط فيها أحداث الحملة الصليبية الأولى والحملات الصليبية سنة ١١٠١م على نحو ويتيح الفصل بينها. وهذه الملحمة نظمها شاعر مجهول استجابة لرغبة ريموند أمير أنطاكية الصريحة ، وإن لم تتم قبل وفاة ريموند سنة ١١٤٩م[١٤]. ويوحى الأساس التاريخى المشوّش غير الدقيق لهذه القصة أن المؤلف كان قد وصل حديثا إلى

---

(١٠) تقوم على أساس القانون الغربي مختلف القواعد *Assises* والأعمال التى كتبها جون الإيلينى وفيليب النوفارى. أنظر. La Monte, *Feudal Monarchy, passim*

(١١) من المؤكد أن روديل Rudel زار الشرق على ما يبدو ، إذ أهداه المنشد المتجول ماركابرون Marcabrunقصيدة كرسها له بالكلمات "إلى جوفرى روديل عبر البحار" . غير أن قصة حبه مع الأميرة لوانتين ، ميليسند الطرابلسية Melisende of Tripoli ، *La Princesse Lointaine,* لا بد وأن تعتبر شبه تراثية على الأقل أنظر . Chaytor, *The Troubadours,* pp. 44-6 ويقال إن بطرس فيدال Peter Vidal رافق الحملة الصليبية الثالثة حتى قبرص حيث تزوج فتاة يونانية وقجمج أنها وريثة القسطنطينية .(*ibid.*pp. 98-9,102) ومن بين الشعراء الألمان الغنائيين ، رافق ألبرت)أوف جوهانسدورف Albert of Johansdorf(الحملة الصليبية الثالثة ، كما فعل فريدريك (أوف هوسين Frederick of Hausen) الذى مات على أية حال قبل وصول الجيش الألمانى الى قونية.

(١٢) أنظر . Hatem, *Les Poèmes Epiques des Croisades*, pp. 395-400

(١٣) أنظر . Cahen, *op. cit.* pp. 12-16

(١٤) *Ibid.* pp. 569-76; Hatem, *op. cit.* pp. 375 ff.

الشرق . وكان لمصير الأسرى المسيحيين لدى المسلمين سحر خيالى على الفرنج، ومن ثم نال موضوع البؤساء Chétifs شعبية كبيرة فى أوتريميه وكذلك فى أوروبا[(١٥)].

وكان لأوتريميه أعمال شعرية أخرى ، وإن لم يكن من نعرف من شعرائها قد ولد فى الشرق . وكان فيليب النوفارى (Philip of Novara) سياسيا ومؤرخا وفقيها قانونيا، وكان إيطالي المولد ، لكنه كان يكتب بالفرنسية، وقد أورد فى تاريخه شعرا ينبض بالحياة وإن لم يكن شعرا رائعا[(١٦)]. وكتب Philip of Nateuil ، عندما كان أسيرا فى القاهرة قصائد تفيض حنينا إلى وطنه الفرنسى[(١٧)]. وعلى الرغم من أنه يمكن إعتبار فيليب النوفارى واحدا ممن أوحدوا الثقافة الفرنجية الإقليمية فى قبرص ، فليس أدب أوتريميه ببساطة سوى فرع من الأدب الفرنسى ؛ إذ لم يكن هناك أدب محلى بين رعايا الفرنج فى سوريا لأبناء البلد الأصليين من رعايا للفرنج فى سوريا، على الرغم من أنه فى قبرص واليونان نفسها نشأ فى ظل السيادة الفرنجية أدب يونانى شبه شعبى متأثر تأثرا قويا بالمؤثرات الفرنجية.

وفى واقع الأمر ، لم تجاوز الحياة الفكرية فى أوتريميه حياة مستعمرة فرنجية . وكان لبلاط الملك أو بلاط الأمير سحرا شاملا خلابا، لكن عدد الدارسين المقيمين فى أوتريميه كان ضئيلا ، وقد حالت الحروب والصعاب المالية دون وجود مؤسسات كمراكز دراسة حقيقية يمكنها أن تستوعب المعارف الوطنية المجاورة. وكان غياب هذه المراكز سببا فى أن أمسى إسهام الحملات الصليبية فى أوروبا الغربية ضئيلا على نحو مخيّب للآمال

---

(١٥) قارن تراث اطلاق سراح بوهمند من الأسر)أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٦٥، حاشية ١١ والقصص التى مفادها أن إيدا (مارجرافين النمساوية) كانت أم زنكى (أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٣) وأن أخت برتراند التولوزى تزوجت نورالدين وكانت أم وريثه الصالح. (*ibid.* p. 288 n.1)

(١٦) أنظر أعلاه ، الصفحتين ٢٤٢ و٥٥٥ و Hill, *History of Cyprus*, iii, pp. 1112-15 وعلى ما يبدو، فإن وليم (أوف ماشوت) William of Machaut مؤلف الشعر الحماسى لحملة بطرس القبرصى على مصر ، لم يقم بزيارة الشرق مطلقا.(*ibid.* 1115)

(١٧) أنظر أعلاه ، ص ٢٦٦.

BIBLIOGRAPHY

(NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliographies in vol. I and vol. II of this *History*, and does not include works mentioned there, except when different editions have been used. The same abbreviations are employed; and a few additional abbreviations, used in the footnotes and bibliography of this volume, are given at the end of certain items.)

I. ORIGINAL SOURCES

1. Collections of Sources

Acta Imperii Selecta (ed. J. F. Bohmer). Innsbruck, 1870.

Annales Monastici (ed. H. R. Luard), Rolls Series, 5 vols. London, 1864–9.

BALUZIUS, S. *Collectio Veterum Monumentorum*, 6 vols. Paris, 1678–1715.

BALUZIUS, S. *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), 4 vols. Paris, 1914–27.

BARTHOLOMAEIS, V. DE. *Poesie Provenziale Storiche relative all' Italia.* 2 vols. Istituto Storico Italiano, Rome, 1931.

BONGARS, J. *Gesta Dei per Francos*, 2 vols. Hanover, 1611.

Chronicles: Stephen, Henry II and Richard I (ed. Howlett), Rolls Series, 4 vols. London, 1885–90.

CHROUST, A. *Quellen zur Geschichte des Kreuzzüges Kaiser Friedrichs I, M.G.H.Ss.*, new series. Berlin, 1928.

COBHAM, C. D. *Excerpta Cypria.* Cambridge, 1908.

COTELERIUS, J. B. *Ecclesiae Graecae Monumenta*, 4 vols. Paris, 1677–92.

DELAVILLE LE ROULX, G. *Cartulaire générale de l'Ordre des Hospitaliers de St Jean de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1894–1904.

DU CHESNE, A. *Historiae Francorum Scriptores*, 5 vols. Paris, 1636–49.

GOLUBOVICH, G. *Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francescano*, 5 vols. Florence, 1906–27.

HEISENBERG, A. *Neue Quellen zur Geschichte des lateinischen Kaisertums.* Munich, 1923.

Historia Diplomatica Friderici Secundi (ed. J. L. A. Huillard-Bréholles), 6 vols. Paris, 1852–61.

KOHLER, C. *Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin et des Croisades.* Paris, 1906.

MARTÈNE, E. and DURAND, U. *Thesaurus Novus Anecdotorum*, 5 vols. Paris, 1717.

MARTÈNE, E. and DURAND, U. *Veterum Scriptorum et Monumentorum Amplissima Collectio*, 9 vols. Paris, 1727–33.

MAS LATRIE, L. DE. *Documents*, see Bibliography II.
MAS LATRIE, L. DE. *Nouvelles Preuves de l'Histoire de Chypre*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, vols. XXXII, XXXIV and XXXV. Paris, 1871–4.
POTTHAST, A. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2 vols. Berlin, 1874–5.
RAYNALDUS, O. *Annales Ecclesiastici*, 15 vols. Lucca, 1747–56.
Regesta Honorii Papae III (ed. P. Pressutti), 2 vols. Rome, 1888–95.
Regestum Innocentii Papae super Negotio Romani Imperii (ed. F. Kempf), *Miscellanea Historiae Pontificiae*, vol. XII. Rome, 1947.
Registres des Papes, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris:
Alexander IV (ed. Bourel de la Roncière), 2 vols. 1902, 1917.
Gregory IX (ed. Auvray), 2 vols. 1896, 1907.
Gregory X (ed. Guiraud), 2 vols. 1892, 1906.
Innocent IV (ed. Berger), 4 vols. 1884–1921.
Nicholas III (ed. Gay and Vitte), 2 vols. 1898, 1938.
Nicholas IV (ed. Langlois), 2 vols. 1886, 1905.
Urban IV (ed. Guiraud), 4 vols. 1892–1929.
RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.
RÖHRICHT, R. *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, Société de l'Orient Latin. Série Historique, II. Geneva, 1879. (Röhricht, *S.M.Q.B.S.*).
RÖHRICHT, R. *Testimonia Minora de Quinto Bello Sacro*, *ibid.* III. Geneva, 1882.
RYMER, T. *Foedera, Conventiones, Literae et Acta publica inter Reges Angliae*, 4 vols. in 7. London, 1816–69.
SCHWANDTNER, J. G. *Scriptores Rerum Hungaricarum*, 3 vols. Vienna, 1746–8.
STREHLKE, E. *Tabulae Ordinis Teutonici*. Berlin, 1869.
TAFEL, G. L. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856–7.
THEINER, A. *Vetera Monumenta Historica Hungariam Sacram Illustrantia*, 2 vols. Rome, 1859–60.
WATTERICH, J. M. *Pontificum Romanorum qui fuerunt inde ab exeunte saeculo IX usque ad finem saeculi XII Vitae*, 2 vols. Leipsic, 1862.
WINKELMANN, E. *Acta Imperii Inedita Saeculi XIII*, 2 vols. Innsbruck, 1880–5.

2. Western Sources, Latin, Old French and German

Adam, William. *De Modo Saracenos Extirpandi* (ed. Kohler), *R.H.C. Arm.* vol. II.
Alberic of Trois Fontaines. *Chronicon*, in *R.H.F.* vol. XVIII.
Amadi, Francesco. *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*, ed. Mas Latrie. Paris, 1891.
Annales Claustroneoburgenses, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.
Annales de Dunstaplia, in *Annales Monastici*, vol. III.

Annales Januenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
Annales Marbacenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVII.
Annales Romani, in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae*.
Annales Stadenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.
Anonymus Halberstadensis. *De Peregrinatione in Greciam*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.
Ansbert. *Expeditio Friderici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.
Assises of Romania (ed. Recoura). Paris, 1930.
Auria, Jacobus. *Annales*, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
Bacon, Roger. *Opus Majus* (ed. Bridges), 3 vols. Oxford, 1900.
Baldwin I, Emperor of Constantinople, letter, in *R.H.F.* vol. XVIII.
Bartholomew of Neocastro. *Historia Sicula*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, vol. XIII, 3.
Bonomel, Ricaud. Poems, in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale*.
Bruno, Bishop of Olmütz, *Bericht* (ed. Höfler), *Abhandlungen der historische Klasse der Bayerische Akademie der Wissenschaft*, series 3, IV, Munich, 1846.
Burcard (Brochard). *Directorium ad Philippum Regem*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
Bustron, Florio, *Chronique de l'Ile de Chypre*, ed. Mas Latrie. Paris, 1886.
Chronica Regia Coloniensis (ed. Waitz), *M.G.H.Ss. in usum scholarum*, 1880.
Chronicle of Mailros (ed. Stevenson). London, 1856.
Collectio de Scandalis Ecclesiae (ed. Stroick), in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. XXIV, Rome, 1931.
Cotton, Bartholomew, *Historia Anglicana* (ed. Luard), Rolls Series. London, 1859.
Dardel, John. *Chronique d'Arménie*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
De Excidio Urbis Acconis, in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol. V.
De Itinere Frisonum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Devastatio Constantinopolitana, in *Annales Herpipolenses*, *M.G.H.Ss.*, vol. XVI.
Dubois, Peter. *De Recuperatione Terre Sancte* (ed. Langlois). Paris, 1891.
Durand, William. *Informatio brevis de Passagio futuro* (ed. Viollet), *Histoire Littéraire de la France*, vol. XXXV. Paris, 1921.
Edward I, King of England. Letter to Joseph of Chauncy, in *P.P.T.S.* vol. V.
Epistola de Morte Friderici Imperatoris, in Chroust, *Quellen*.
Epistolae Cantuarenses (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1865.
Fabri, Felix. *Book of the Wanderings*, trans. Stewart, 3 vols. *P.P.T.S.* vols. VII–IX.
Fidenzio of Padua. *Liber Recuperationis Terrae Sanctae*, in Golubovich, *Biblioteca Bio-bibliografica*, vol. II.
Figuera, Guillem. 'Dun Servientes Far', in Bartholomaeis, *Poesie Provenziale*.
Fragmentum de Captione Damiate, Provencialis textus, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Frederick II, Emperor. Letter to King Henry, in Bohmer, *Acta Imperii Selecta*.
Galvano. *Liber Sancti Passagii Christocolarum contra Saracenos*, extracts (ed. Kohler), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VI. Paris, 1898.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

Gesta Innocentii III, in *M.P.L.* vol. ccxiv.
Gesta Obsidionis Damiete, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Gestes des Chiprois (ed. Raynaud). Geneva, 1887.
Gregory IX, Pope. Letters, in *M.G.H. Epistolae Saeculi*, xiii, vol. i.
Gunther of Pairis. *Historia Constantinopolitana*, in Riant, *Exuviae*, vol. i.
Guyot of Provins, *Œuvres* (ed. Orr). Manchester, 1915.
Haymar Monachus. *De Expugnata Accone* (ed. Riant). Lyons, 1876.
Hayton (Hethoum). *Flos Historiarum Terre Orientis*, in *R.H.C. Arm.* vol. ii.
Hayton (Hethoum). *La Flor des Estoires de la Terre d'Orient*, *ibid.*
Henry II, King of Cyprus. *Informatio ex parte Nunciorum Regis Cypri*, in Mas Latrie, *Documents.*
Historia Peregrinorum, in Chroust, *Quellen.*
Humbert of Romans. *Opus Tripartitum*, in E. Brown, *Appendix ad fasciculum rerum expetendarum et fugiendarum.* London, 1690.
Innocent III, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vols. ccxiv–ccxvii.
John of Ypres. *Chronicon Sythiense Sancti Bertini*, in Martène and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. iii.
John of Tulbia. *De Domino Johanne Rege Jerusalem*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Joinville, John, Sieur of. *Histoire de Saint Louis* (ed. Wailly). Paris, 1874.
Joseph of Chauncy. Letter to Edward I, in *P.P.T.S.* vol. v.
La Broquière, Bertrandon of. *Voyage d'Outremer* (ed. Schefer). Paris, 1892.
Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou (ed. Delaborde), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii. Paris, 1894.
Liber Duellii Christiani in Obsidione Damiate exacti, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Louis IX, King of France. Letter in Baluzius, *Collectio*, vol. iv.
Ludolph of Suchem (Sudheim). *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. xii.
Lull, Ramon. *Liber de Fine*, in Gottron, *Ramons Lulls Kreuzzugsideen*, see Bibliography II.
Machaut, William. *La Prise d'Alexandrie* (ed. Mas Latrie). Geneva, 1877.
Manuscrit de Rothelin, in *R.H.C. Occ.* vol. ii.
Matthew Paris. *Chronica Majora* (ed. Luard), Rolls Society, 7 vols. London, 1872–84.
Matthew Paris. *Historia Minora* (ed. Madden), Rolls Society, 3 vols. London, 1866–9.
Matthew of Westminster. *Flores Historiarum* (ed. Luard), Rolls Society, 3 vols. London, 1890.
Memoria Terre Sancte, in Kohler, *Mélanges*, vol. ii.
Molay, James of. Report to Clement V, in Baluzius, *Vitae Paparum*, vol. iii.
Muntaner, Ramon. *Cronica* (ed. Caroleu). Barcelona, 1886.
Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam (ed. da Silva Lopez). Lisbon, 1844.

Oliver Scholasticus. *Opera*, I. *Historia Damiatana*; II. *Epistolae* (ed. Hooewg), *Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart*, vol. CCII. Tübingen, 1894.
Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss. in usum Scholarum*, 1912.
Philip of Novara. *Le Livre de Forme de Plait*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
Philip of Novara. *Mémoires*, in *Gestes des Chiprois* (English translation by La Monte and Hubert, *The Wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus*. New York, 1936).
Pian del Carpine, John. *Historia Mongolorum* (ed. Pulle). Florence, 1913.
Richard of Devizes. *De Rebus Gestis Ricardi Primi*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. III.
Richard of San Germano, *Chronicon* (ed. Pertz), *M.G.H.Ss.* vol. XIX.
Rigord. *Gesta Philippi Augusti* (ed. Delaborde). Paris, 1882.
Robert de Monte (appendix), in *R.H.F.* vol. XVIII.
Robert of Clary. *La Conquête de Constantinople* (ed. Lauer). Paris, 1924.
Roger of Wendover. *Chronica* (ed. Hewlett), Rolls Series, 3 vols. London, 1886–9.
Rutebeuf. *Onze Poèmes concernant la Croisade* (ed. Bastin and Faral). Paris, 1946.
Salimbene de Adam. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.Ss.* vol. XXXII.
Sanudo, Marino. *Chronique de Romanie*, in Mas Latrie, *Nouvelles Preuves*.
Sanudo, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis*, in Bongars, *Gesta Dei per Francos*, vol. II.
Sequentia Andegavensis, in Riant, *Exuviae*, vol. II.
Sicard of Cremona. *Cronica* (ed. Holder-Egger), *M.G.H.Ss.* vol. XXXI.
'Templar of Tyre.' *Chronique*, in *Gestes des Chiprois*.
Thaddeus of Naples. *Hystoria de Desolacione et Conculcacione Civitatis Acconensis et tocius terre sancte* (ed. Riant). Geneva, 1873.
Thomas of Spalato. *Historia Salonitana*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. III.
Thwrocz, Joannes de. *Illustrissima Hungariae Regum Chronica*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. I.
Via ad Terram Sanctam, in Kohler, *Mélanges*, vol. II.
Villaret, Fulk. *Mémoire* (ed. Petit), *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*. Paris, 1889.
Villehardouin, Geoffrey of. *La Conquête de Constantinople* (ed. Faral), 2 vols. Paris, 1938–9.
Vincent of Beauvais. *Speculum Historiale*. Douai, 1624.
Vitry, James of. *Epistolae* (ed. Röhricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, vols. XIV-XVI. Gotha, 1894–6.
Vitry, James of. *History of Jerusalem* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XI.
Wilbrand of Oldenburg. *Reise* (ed. Laurent). Hamburg, 1859.
William le Breton. *Gesta Philippi Regis* and *Philippis* (ed. Delaborde), 2 vols. Paris, 1882, 1885.

William of Newburgh. *Historia Rerum Anglicarum*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. II.

William of Rubruck (Rubruquis). *Itinerarium* (trans. Rockhill), Hakluyt Society, series II, vol. IV. London, 1900.

William of St Pathus. *Vie de Saint Louis* (ed. Delaborde). Paris, 1899.

William of Tripoli. *Tractatus de Statu Saracenorum*, in Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge* (see Bibliography II).

Zaccaria, Benito. *Mémoire*, in Mas Latrie, *Documents*.

3. Greek Sources

Acropolita, George. *Opera* (ed. Heisenberg). Leipsic, 1903.

Bustron, George. Χρονικὸν Κύπρου, in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol II.

Germanus, Patriarch of Constantinople. 'Επιστολαί, in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. II.

Letter of Greek clergy to Innocent III, in Cotelerius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, vol. III.

Makhaeras, Leontius. *Recital concerning the Sweet Land of Cyprus, entitled Chronicle* (ed. with translation Dawkins), 2 vols. Oxford, 1932.

Mesarites, Nicholas. *Opera*, in Heisenberg, *Neue Quellen*.

'Narrative of the thirteen holy fathers burnt by the Latins', in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. II.

Pachymer, George. *De Michaele et Andronico Palaeologis*, 2 vols. *C.S.H.B.* Bonn, 1835.

4. Arabic and Persian Sources

Al-Aini. *Perles d'Histoire*, extracts in *R.H.C.Or.* vol. II, 2.

Dimashki. *Geography* (ed. Mehren). St Petersburg, 1866.

Histoire des Patriarches d'Alexandrie, extracts (trans. Blochet), *Revue de l'Orient Latin*, vol. XI. Paris, 1908.

Ibn al-Amid. *Chronicle* (ed. Cheikho), *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. III, 1.

Ibn Batuta. *Voyages* (ed. with French translation Defremery and Sanguinetti), 4 vols. Paris, 1879.

Ibn Bibi. *History of the Seldjuks*, Turkish translation (ed. Houtsma), *Textes relatifs à l'histoire des Seldjouqides*, vols. III, IV. Paris, 1902.

Ibn al-Furad. *Chronicle* (part ed. Zouraiq). Beirut, 1935–7.

Ibn Khattikan, Ibn Shedad. *Geography*, extracts (ed. by Cahen), in *Revue des Etudes Islamiques*. Paris, 1936.

Ibn Wasil. *History of the Ayubites*, selections in Reinaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.

Idrisi. *Geography*, ed. Gildemeister, *Zeitschrift für Deutsche Palästina Verein*, vol. VIII. Leipsic, 1885.

Al-Jazari. *Chronique de Damas* (trans. Sauvaget). Paris, 1949.
Juwaini, Sa'd ad-Din Ibn Hamawiya, extracts (trans. Cahen), 'Une Source pour l'Histoire des Croisades', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 28e année, no. 7, 1950.
Maqrisi. *Histoire des Sultans Mamelouks* (trans. Quatremère), 2 vols. Paris, 1837–45.
Muhi ad-Din Ibn Abdazzahir. *Lives of Baibars and Qalawun*, selections in Reynaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.
Rashid ad-Din. *History of the Mongols* (Russian trans. by Berezin), 4 vols. St Petersburg, 1861–88: Part IV, *History of the Mongols of Persia* (ed. with French translation Quatremère). Paris, 1836.
Yakut. *Alphabetical Dictionary of Geography* (ed. Wustenfeld), 6 vols. Leipsic, 1866–73.

5. Armenian, Syriac, Slavonic and Mongol Sources

Ballad on the captivity of Leo, son of King Hethoum I, in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Hayton (Hethoum of Corycus). *Chronological Tables*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Hethoum II, King of Armenia, *Poem*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Kirakos of Gantzag. *History* (trans. Brosset). St Petersburg, 1870.
Orbelian, Stephen. *History of Siunia*, Armenian text. Moscow, 1861.
Vartan. *History of the World*, Armenian text. Moscow, 1861.
Rabban Sauma. *History of Rabban Sawma and Mar Yahbhallaha* (trans. Budge), in Budge, *The Monks of Khublai Khan*, see Bibliography II.
Novgorod Chronicle (*Novgorodskaya Pervaya Lietopis*, ed. Nasonov), Academy of Sciences of the U.S.S.R. Moscow/Leningrad, 1950.
Histoire Secrète des Mongols (*Yuan Ch'ao Pi Shih*), Mongol text transcribed in Latin letters, with partial French translation and ed. Pelliot. Paris, 1949.

II. MODERN WORKS

Alphandery, P. 'Les Croisades d'Enfants', in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. lxxiii. Paris, 1916.
Amari, M. *La Guerra del Vespro Siciliano*, 3 vols. Milan, 1886.
Atiya, A. S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.
Atiya, A. S. *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.
Baltrušaitis, J. *Le Problème de l'Ogive et l'Arménie*. Paris, 1936.
Barthold, W. Articles, 'Cingis Khan' and 'Khwaresm', in *Encyclopaedia of Islam*.
Boase, T. S. R. 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute*, vol. ii. London, 1938–9.
Bouvat, L. *L'Empire Mongol, 2me Phase*, vol. viii, 3, pt. ii of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1927.

BRATIANU, G. I. *Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au XIIIe Siècle*. Paris, 1929.

BRETSCHNEIDER, E. *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, 2 vols. London, 1888.

BUCHTHAL, H. 'The Painting of Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art', in *Syria*, vol. xx. Beyrouth, 1929.

BUDGE, E. A. W. *The Monks of Kûblâi Khân, Emperor of China*. London, 1928.

CAHEN, C. 'Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III, Orient Latin et Commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 9e année, no. 8, 1951.

CAHEN, C. 'Turcomans de Roum', in *Byzantion*, vol. xiv. Brussels, 1939.

CARTELLIERI, A. *Philipp II August und der Zusammenbruch des angevinischen Reiches*. Leipsic, 1913.

CHABOT, J. B. 'Relations du Roi Argoun avec l'Occident', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.

CHAYTOR, H. J. *The Troubadours*. Cambridge, 1912.

CLAPHAM, A. W. *Romanesque Architecture in Western Europe*. Oxford, 1936.

COGNASSO, F. *Un Imperatore Bizantino della Decadenza*, in *Bessarione*, vol. xxxi, Rome, 1915.

DALTON, O. M. *Byzantine Art and Archaeology*. Oxford, 1911.

DALTON, O. M. *East Christian Art*. Oxford, 1925.

DELAVILLE LA ROULX, J. *La France en Orient au XIVe Siècle*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris, 1886.

DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass., 1945.

DESCHAMPS, P. *La Défense du Royaume de Jérusalem*, 2 vols. Paris, 1939.

DESCHAMPS, P. *Le Crac des Chevaliers*, 2 vols. Paris, 1934.

DIEHL, C. *Une République Patricienne, Venise*. Paris, 1915.

D'OHSSON, M. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timur Béc*. 2 vols. Amsterdam, 1834–5.

DONOVAN, J. P. *Pelagius and the Fifth Crusade*. Philadelphia, 1950.

DUCKWORTH, H. T. F. *The Church of the Holy Sepulchre*. London, 1922.

EBERSOLT, J. *Monuments d'Architecture Byzantine*. Paris, 1934.

EDWARDS, J. G. 'The *Itinerarium Regis Ricardi* and the *Estoire de la Guerre Sainte*', in *Essays in honour of James Tait*. Manchester, 1933.

ENLART, C. *Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1925.

FEDDEN, R. *Crusader Castles*. London, 1950.

FLICHE, A. *La Chrétienté Romaine*, vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1950.

FOREVILLE, R. and ROUSSET DE PINA, J. *Du Premier Concile du Latran à l'Avènement d'Innocent III*, vol. IX, 2, of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1952.

Gibbons, H. A. *The Foundation of the Ottoman Empire.* Oxford, 1916.

Gottron, A. 'Ramon Lulls Kreuzzugsideen', in *Abhandlungen zur Mittleren und Neueren Geschichte*, vol. xxxix. Berlin/Leipsic, 1912.

Gregoire, H. 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', in *Byzantion*, vol. xv. Boston, 1941.

Grekov, B. and Iakoubovski, A. *La Horde d'Or* (trans. into French by Thuret). Paris, 1939.

Greven, J. 'Frankreich und der Fünfte Kreuzzug', in *Historisches Jahrbuch*, vol. xliii. Munich, 1923.

Grousset, R. *L'Empire des Steppes.* Paris, 1941.

Grousset, R. *L'Empire Mongol, Ière Phase*, vol. viii, 3, of Cavaignac, *Histoire du Monde.* Paris, 1941.

Haenisch, E. 'Die letzten Feldzüge Cingis Hans und sein Tod', in *Asia Major*, vol. ix. Leipsic, 1932.

Halecki, O. *The Crusade of Varna.* New York, 1943.

Hammer-Purgstall, J. von. *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. into French by Hellert), 18 vols. Paris, 1843.

Hill, G. *History of Cyprus*, vols. ii and iii. Cambridge, 1948.

Hopf, K. *Geschichte Griechenlands vom Beginne des Mittelalters bis auf die neuere Zeit.* Leipsic, 1867.

Howorth, H. H. *History of the Mongols*, 5 vols. London, 1876–88.

Iorga, N. *Philippe de Mézières et la Croisade au XIVe Siècle.* Paris, 1896.

Jordan, E. *Les Origines de la Domination Angevine en Italie.* Paris, 1909.

Kantorowicz, E. *Frederick the Second.* London, 1931.

Karamzin, N. M. *History of the Russian Empire* (in Russian), 3 vols. St Petersburg, 1851.

Kingsford, C. L. 'Otho de Grandison', in *Transactions of the Royal Historical Society*, 3rd series, vol. iii. London, 1909.

[illegible]rülü, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman.* Paris, 1935.

La Monte, J. L. 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol. xii. Brussels, 1937.

Langlois, C. V. *La Vie en France au Moyen Age*, 3 vols. Paris, 1927.

Leclerc, L. *La Médecine Arabe.* Paris, 1876.

Levis-Mirepoix, Duc de. *Philippe le Bel.* Paris, 1936.

Levy, R. *A Baghdad Chronicle.* Cambridge, 1929.

Lizerand, G. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers.* Paris, 1928.

Longnon, J. *L'Empire Latin de Constantinople.* Paris, 1949.

Longnon, J. *Les Français d'Outre-mer au Moyen Age.* Paris, 1929.

Luchaire, A. *Innocent III: La Question d'Orient.* Paris, 1911.

Makhouly, N. *Guide to Acre.* Jerusalem, 1941.

Martin, E. J. *The Trial of the Templars.* London, 1928.

Martin, H. D. *The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China.* Baltimore, 1950.

MAS LATRIE, L. *Histoire de l'Ile de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan*, vol. I, *Histoire*; vols. II and III, *Documents*. Paris, 1852–61.

MELVIN, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.

MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX. New York, 1914.

NORGATE, K. *Richard the Lion Heart*. London, 1924.

NORGATE, K. 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the *Song of Ambroise*', in *English Historical Review*, vol. XXV. London, 1910.

OMONT, H. 'Peintures d'un Evangéliaire Syriaque', in *Monuments et Mémoires publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XIX. Paris, 1911.

PELLIOT, P. 'Chrétiens d'Asie Centrale et de l'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. XI. Leiden, 1914.

PELLIOT, P. 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vols. XXIII, XXIV, XXVIII. Paris, 1922–32.

PIQUET, J. *Les Banquiers du Moyen Age: Les Templiers*. Paris, 1939.

POWICKE, F. M. *King Henry III and the Lord Edward*, 2 vols. Oxford, 1947.

PRAWER, J. 'Etude de Quelques Problèmes Agraires et Sociaux d'une Seigneurie Croisée au XIIIe Siècle', in *Byzantion*, vol. XXII. Brussels, 1952.

PRAWER, J. 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre', in *Revue Historique de Droit Français et Etranger*. Paris, 1951.

PRUTZ, H. G. *Kaiser Friedrich I*, 3 vols. Danzig, 1871–4.

PRUTZ, H. G. *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1883.

REY, E. G. *Les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre*. Paris, 1871.

RÖHRICHT, R. 'Der Kinderkreuzzug 1212', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXXVI. Munich, 1876.

RÖHRICHT, R. *Etudes sur les Derniers Temps du Royaume de Jérusalem*, *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.

RÖHRICHT, R. *Studien zur Geschichte des Fünften Kreuzzüges*. Innsbruck, 1891.

SACERDOTEANU, A. *Marea Invazie Tatara şi Sud-estul European*. Bucarest, 1933.

SCHLUMBERGER, G. *Byzance et Croisades: Pages Médiévales*. Paris, 1927.

SMAIL, R. C. 'Crusaders' Castles in the Twelfth Century', in *Cambridge Historical Journal*, vol. X, 2. Cambridge, 1951.

SOBERNHEIM, M. Article 'Baibars', in *Encyclopaedia of Islam*.

STERNFELD, R. *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis 1270*. Berlin, 1896.

STRAKOSCH-GROSSMANN, G. *Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*. Innsbruck, 1893.

THROOP, P. A. 'Criticism of Papal Crusade Policy in Old French and Provençal', in *Speculum*, vol. XIII. Cambridge, Mass., 1938.

THROOP, P. A. *Criticism of the Crusades*. Amsterdam, 1940.

VAN ORTROY, F. 'Saint François et son Voyage en Orient', in *Analecta Bollandiana*, vol. XXXI. Brussels, 1912.

VASILIEV, A. A. *History of the Byzantine Empire*, new edition. Madison, 1952.
VASILIEV, A. A. 'The Foundation of the Empire of Trebizond', in *Speculum*, vol. XI. Cambridge, Mass., 1936.
VERNADSKY, G. *Kievan Russia*, vol. II of Vernadsky and Karpovitch, *History of Russia*. Newhaven, 1948.
WINKELMANN, E. *Kaiser Friedrich II*, 2 vols. Leipsic, 1889–97.
WINKELMANN, E. *Philipp von Schwaben und Otto IV von Braunschweig*, 2 vols. Leipsic, 1873–8.
WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1838.
YULE, H. *Cathay and the Way Thither*, 2 vols. Hakluyt Society, no. 37. London, 1866–7.